المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الأول - المجلد الأول

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م.دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/ 878

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول - المجلد الأول)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٧٨ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، مج١)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول – المجلد الأول)

تأليـــــــــــف: تشارلـز م. دوتـــى

ترجمـــــــــــة: صبرى محمد حسن

مراجعـة وتقديم: جمال زكريا قاســـم

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١_مج١)، تأليف: تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسن؛ مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ – القاهرة، المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٢٦ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية – وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٣
الترقيم الدولى: 7 - 189 – 479 – 977 -978
طبع بمطابع صحوة

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

تقديم المراجع 7

مقدمة بقلم توماس . إدوارد . لورانس 61

تصدير الطبعة الأولى 79

تصدير الطبعة الثانية 81

تصدير الطبعة الثالثة 87

الجزء الأول 90

الفصل الأول : أرض الصوان : عمون وموآب 91

الفصل الثانى : جبل إيدوم : صوان الجزيرة العربية 137

الفصل الثالث : رحلة الحج فى الجزيرة العربية 169

الفصل الرابع : مدائن صالح 221

الفصل الخامس : مدائن صالح والعلا 261

الفصل السادس : العلا ، والخريبة ، والمدائن 303

ملحق للفصل السادس 344

الفصل السابع : عودة الحج 351

الفصل الثامن : حياة العرب الرحل فى الصحراء 387

الفصل التاسع : الحياة فى القرية الجائلة 429

الفصل العاشر : البدو الرحل فى الصحراء : زيارة إلى تيماء 475

تقديم المراجع

منذ بداية العصور الحديثة بدأ سيل من الرحالة الأوروبيين يجوسون فيافى الجزيرة العربية مستهدفين الكشف عن معالمها وآثارها وحياة سكانها ومعرفة المجهول من أخبارها وأحوالها مستهينين بالأخطار والصعوبات مهما بلغت عنفها وشدتها ، ضاربين بذلك أروع الأمثلة بصبرهم وجلدهم وتحملهم لنمط من حياة الشظف والقسوة قل أن يستطيع ابن الصحراء فى وقتنا الحاضر أن يجاريهم فى تحمله . ولعل " تشارلز دوتى" يقدم مثالا واضحا لما عناه من شدائد وصعوبات خلال رحلته التى قام بها فى صحراء الجزيرة العربية .

وعلى الرغم من أن الرحلات الأوروبية بما تبعها من استكشافات علمية بدأت منذ القرن السادس عشر الميلادى فإنها كانت ذات طابع فردى محدود ولم تأخذ طابعا تنظيميا إلا منذ القرن الثامن عشر حين ظهرت فى أوروبا الحركة العلمية التى استهدفت الكشف عن الحضارات القديمة فى مناطق مختلفة من العالم بصفة عامة وفى الجزيرة العربية بصفة خاصة، التى كانت تعد من قبيل المناطق المنسية أو بالأحرى المناطق المجهولة بالنسبة للمعرفة الأوروبية . ومن ثم بدأت الجزيرة العربية منذ ذلك القرن تشهد اهتماما مكثفا من الرواد والرحالة الأوروبيين الذين وجهوا عنايتهم للكشف عن آثارها وحضاراتها القديمة . ولعل ما ورد فى المؤلفات الكلاسيكية – الإغريقية والرومانية – وما سجله المؤرخون والجغرافيون المسلمون إضافة إلى ما ورد ذكره فى الكتب الدينية المقدسة عن الشعوب القديمة التى كانت تسكن الجزيرة العربية كقوم عاد وثمود والأنباط وغيرهم كانت حافزا لتلك الحركة العلمية التى استطاعت أن تلقى أضواء ساطعة على كل ما يتعلق بتاريخ الجزيرة العربية وثرواتها الطبيعية ومعالمها السكانية والجيولوجية والطبوغرافية وغيرها .

وعلى الرغم من أن تلك الرحلات كانت لصالح هيئات علمية إلا أنها فى الوقت نفسه كانت تمول من قبل دول وحكومات لها دوافعها المختلفة ، وذلك من أجل أن تتخذ من النتائج التى تسفر عنها تلك الرحلات الاستكشافية وسيلة للتخطيط لاستراتيجيات استعمارية واستغلالية بعيدة المدى . ولعل ما يؤكد صحة ذلك أن كثيرا من تلك الرحلات الاستكشافية كانت مقدمات للحركة الإمبريالية التى شهدتها العديد من المناطق التى تجول فيها أولئك الرحالة والمستكشفون الأوروبيون ، كما يتضح ذلك بصورة جلية فى القارة الإفريقية على وجه خاص .

غير أنه مهما كانت هناك العديد من الدوافع السياسية أو الاستغلالية أو غيرها لأولئك الرحالة والرواد الأوروبيين الذين جابوا الجزيرة العربية فى شتى بقاعها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، إلا أن تلك الدوافع لا ينبغى أن تكون حائلا بيننا وبين معرفة ما توصلوا إليه من نتائج ، خاصة وأنهم تمكنوا من جمع مادة علمية قيمة صورت مظاهر الحياة السياسية والحضارية والاجتماعية ، ومن ثم غدت النتائج التى توصلوا إليها من المصادر الهامة التى أسهمت فى إضافة الكثير من المعلومات عن آثار الجزيرة العربية وتاريخها وحضاراتها القديمة ، وما يوجد فى أرضها من خبايا .

ومع التسليم بأن كثيرا من الرحالة الأوروبيين الذين ارتادوا الجزيرة العربية كانت لهم دوافعهم السياسية أو الاستغلالية ، إلا أن تلك الدوافع لا تتضح لنا فى رحلة " تشارلز دوتى "التى بدا فيها أن أهدافه اقتصرت على النواحى الأثرية والجيولوجية إلى جانب التعرف على حياة البدو وتنظيماتهم القبلية . وعلى الرغم من ذلك فقد أسهمت تلك الرحلة فى تخطيط بريطانيا لا ستراتيجية بعيدة المدى كما سنشير إلى ذلك بعد قليل .

لقد شهدت الجزيرة العربية رتلا من الرحالة والمغامرين الأوروبيين الذين سجلوا رحلاتهم وما توصلوا إليه من نتائج فى العديد من المصادر الهامة التى لا غنى عنها لكل من يتصدى لدراسة أى جانب من جوانب الجزيرة العربية . وعلى الرغم من ثراء شبه الجزيرة العربية فى معالمها الأثرية والحضارية والجيولوجية والطبوغرافية مما كان موضع اهتمام الرحالة الأوروبيين والهيئات العلمية المنتمين إليها ، فإن الأوضاع

السكانية ومعيشة البدو فى صحرائها القاحلة كانت هى الأخرى موضع الاهتمام من قبل عدد كبير من أولئك الرحالة والمستكشفين .

ومع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، إلا أنهم لم يبلغوا ما بلغه "شارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين عامى ١٨٧٦و١٨٧٨ متنقلا بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت أثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها . وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ على رحلاته صبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أن نجده يخوض فى تفاصيل دقيقة، بل كثيرا ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية الهامة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى .

ومع أن رحلة "دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية ، إلا أنها تميزت بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد يكون حقيقةً أن كثيرا من الرحالة الأوروبيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، إلا أنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلته .

ولعل من أقدم الرحالة الذين تحدثوا عن البدو فى المناطق العربية بصفة عامة وفى الجزيرة العربية بصفة خاصة "لويس دارفيو" الذى أوفده لويس الرابع عشر ملك فرنسا فى عام ١٧١٧ إلى أمير البدو فى صحراء شبه جزيرة سيناء من أجل السماح بعودة الرهبان إلى ديرهم هناك ، وتمكن "دارفيو" بفضل أدبه وكياسته أن يدهش أمير البدو ويكتسب محبته حيث قضى فى ضيافته بضعة أسابيع ، وأنجز بعد عودته إلى فرنسا دراسة هامة بعنوان " أخلاق عرب البادية وعاداتهم " أقر فيها بأن أولئك القوم

الذين يقومون بالغزو هم على جانب كبير من الأخلاق السامية، يحفظون العهد ويكرمون الضيف ويتحلون بالإباء والشمم ، وأن ما يقومون به من عمليات هجومية هى ضرورة اقتضتها ظروف حياتهم القاسية .

ومن الذين تحدثوا أيضا عن حياة البدو تجدر الإشارة إلى الرحالة الهولندى "لويس بركهاردت" العالم المسلم الورع الذى اعتنق الإسلام ولقب نفسه بالشيخ إبراهيم ، والذى يعزى له الفضل فى اكتشاف مجتمع الصحراء وتصويره للحياة البدوية بجميع مظاهرها وذلك من خلال الرحلة التى قام بها فى عام ١٨٠٩ وزار فيها الصحراء العربية المتاخمة لبلاد الشام ، وتمكن من جمع المعلومات الكثيرة عن البدو التى سجلها فى دراسة هامة له بعنوان " ملاحظات عن البدو والوهابيين " ، إلى جانب كتاب آخر أوسع شمولا بعنوان " رحلة فى بلاد العرب " .

وعلى الرغم من أهمية تلك الكتابات التى وضعت عن الحياة فى مجتمعات البادية ، فإنها لم تستطع مع ذلك أن تصل إلى المستوى الذى وصلت إليه كتابات " تشارلز دوتى " فى وصفها لحياة البدو نتيجة معايشته الواقعية لهم ، ومن ثم يذكر "توماس إدوارد لورنس" المعروف " بلورنس العرب " أن الكتاب الذى وضعه "دوتى " عن ترحاله فى صحراء الجزيرة العربية يعد فى تقديره أوفى كتاب مرجعى وضع عن عرب الصحراء . وفضلا عن ذلك فإن الكتاب لم يقتصر على وصف حياة البادية ، إذ إنه احتوى على العديد من الموضوعات الأخرى التى احتاجت منه إلى أكثر من عشر سنوات لكى يستوعب فى خلالها كل ما يتعلق بجيولوجية وطبوغرافية وآثار الجزيرة العربية ومعيشة سكانها . ولعل ما يلفت النظر ما ذكره "لورنس " أن ما سجله " دوتى " فى كتاب رحلته بجزأيه كان ذا قيمة عسكرية ، ومن ثم لم يلبث أن تحول لكى يكون من الكتب العسكرية الهامة الذى صار يدرَّس فى العديد من الكليات والمعاهد العسكرية فى بريطانيا ، خاصة وأنه ساعد فيما احتوى عليه من معلومات ومظاهر طبوغرافية على نجاح الثورة المعروفة بالثورة العربية الكبرى التى قادها " لورنس " نفسه مع الأمير فيصل بن الحسين، والتى زحفت قواتها المشكلة أساسا من أعراب

الحجاز إلى دمشق خلال سنوات الحرب العالمية الأولى ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٩١٦ ، وتحقق لها الانتصار على حد ما ذكره "لورنس" فى المقدمة التى صدر بها رحلة " دوتى " فى عام ١٩٢٠ .

ولا مراء فى أن الكتاب الذى وضعه " تشارلز دوتى " عن رحلته يعد سفرا ضخما وفريدا من نوعه ، يدل على ذلك ما لقيه عند صدوره من إعجاب وتقريظ ليس فقط من العديد من الدوائر العلمية المعنية بل وأيضا من الرحالة والرواد الأوروبيين الذين جابوا الجزيرة العربية ، سواء من قبل "دوتى" أو بعده ، إلى درجة أن اعترف الكثيرون له باعتباره من أكبر الرواد الذين عرفتهم الجزيرة العربية فى تاريخها الحديث .

قضى "دوتى" سنتين من حياته فى الجزيرة العربية متجولا فى صحرائها الشمالية الغربية عكف بعدها على إعداد كتابه التى ظهرت طبعة أولى منه فى عام ١٨٨٨ ، تلتها طبعات أخرى نشرتها جامعة كامبريدج بين عامى ١٩٢٠- ١٩٢١ ، إضافة إلى طبعة مختصرة من الكتاب وضعها إدوارد جامتت ونشرتها دار مسيرز ، وإن كانت لا تغنى بطبيعة الحال عن تلك التفاصيل الممتعة والدقيقة التى سجلها " دوتى "، ولا عن الأحداث المثيرة والمواقف الدراماتيكية التى تعرض لها خلال وجوده بين ظهرانى البدو . وليس من شك فى أن قراءة الكتاب كاملا بجزأيه بكل ما احتوى عليه من تفاصيل تجعل القارئ يشعر كما لو كان يعيش مع " دوتى " أو مرافقا له فيما كان يتعرض له من مواقف وأحداث ، هذا فضلا عما يتميز به الكتاب من جمال الحكى وحيويته وأنه - على حد قول "دوتى" نفسه - لم يروى فى هاذين الجزأين من الكتاب سوى الأحداث التى رآها بعينيه وسمعها بأذنيه واعتملت فى داخليته ولم يزد على ذلك أو ينقص منه . والحق أن " دوتى" استطاع أن يمدنا بمادة غزيرة عن المواقف التى تعرض لها أو شاهد أحداثها بنفسه ووصفها وصفا دقيقا وممتعا بطريقة عفوية وتلقائية ، أما ما اضطر إلى نقله أو الاكتفاء فيه بالسماع، فقد جاء به قدر ليس بالقليل من المبالغة والخيال .

قضى "دوتى على نحو ما ذكرنا قرابة سنتين فى صحراء الجزيرة العربية متجولا

بين مدائن صالح وتيماء والعلا ثم شد الرحال إلى جبل شمر وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم ، ثم إلى خيبر والطائف إلى أن وصل أخيرا إلى جدة ومنها إلى الهند . وعلى الرغم من العقبات التى واجهها " دوتى " حين عقد عزمه على الترحال فى صحراء الجزيرة العربية فإن تلك العقبات والصعاب لم تفت فى عضده ولم تثنه عن المضى قدما فيما عزم عليه . لقد حاول فى بداية الأمر أن يحصل من الوالى العثمانى فى سوريا على وثيقة تضمن له السلامة فى اجتياز صحراء الجزيرة العربية غير أن الوالى تقاعس عن الاستجابة لطلبه لما كان يخشاه من أن يتعرض " دوتى " إلى فقدان حياته وما يترتب على ذلك من مسائلة إنجلترا للدولة العثمانية عن فقدان أحد رعاياها إعمالا لنظام الامتيازات الأجنبية التى كانت الدولة العثمانية والولايات التابعة لها تعانى من شدة وطأته . ومن ناحية أخرى لم يجد "دوتى " عونا أو تشجيعا من القنصل الإنجليزى فى دمشق الذى كان يخشى بدوره من المسئولية أمام دولته إذا ما سهل لأحد الرعايا من بنى جلدته القيام برحلة غير مأمونة العواقب . ولم يجد "دوتى" إزاء التقاعس الذى بدا واضحا له سواء من والى سوريا أو من القنصل الإنجليزى فى دمشق سوى الاستعانة بالأمير عبد القادر الجزائرى ، الذى كان يعيش آنذاك فى دمشق بعد أن سمح له الإمبراطور نابليون الثالث فى عام ١٨٥٢ بالانتقال إلى تلك المدينة بعد عدة سنوات قضاها منفيا فى باريس على أثر استسلامه للفرنسيين بعد أن تأكد لديه أنه لا قبل له بالاستمرار فى عمليات المقاومة ضدهم . وقد حظى الأمير عبد القادر باحترام كبير وبمكانة رفيعة فى دمشق ، ومن المؤكد أن السبب فى التجاء "دوتى " إليه لما نمى إلى علمه أن الحاميات والقلاع العسكرية التابعة للدولة العثمانية الموجودة فى الصحراء وعلى طريق الحج الشامى كان معظم أفرادها من المغاربة وخاصة من الجزائريين الذين ظلوا محتفظين بولائهم للأمير عبد القادر الجزائرى باعتباره بطلا من أبطال المقاومة الجزائرية ضد الفرنسيين .

وبالإضافة إلى ما حصل عليه " دوتى " من توصيات وجهها الأمير عبد القادر إلى الحاميات المغربية بحسن معاملته حين يفد إليهم فإن ما كان يشحذ همة "دوتى " فى الترحال إلى جانب ذلك معرفته باللغة العربية التى حرص على تعلمها -كما فعل غيره من الرحالة الذين سبقوه فى رحلاتهم -خلال إقامته لمدة عامين كاملين فى دمشق ،

إلى جانب دبلوماسيته فى التعامل مع البدو الذين خبرهم خلال تجواله فى شبه جزيرة سيناء وتمرسه على عاداتهم وتقاليدهم وذلك قبل أن يبدأ رحلته فى صحراء الجزيرة العربية ، ومن ثم استطاع أن يكتسب ود الأعراب بما أبداه لهم من حسن النية والمعاملة الطيبة ، كما كانت الأدوية والعقاقير الطبية التى كان يحملها معه واشتغاله بالطبابة _على الرغم من أنه لم يكن طبيبا – بمثابة جواز سفر تنقل بواسطتها فى العديد من القرى ومضارب البدو ومخيماتهم باعتباره " مداويا " فى مفهوم البدو . وحين وصل إلى حائل استطاع أن يحصل من حاكمها محمد بن الرشيد أقوى الأمراء نفوذا فى الجزيرة العربية آنذاك على وثيقة أمان ، تمكن بواسطتها فى اجتياز العديد من المناطق التى كانت تعترف لآل رشيد بالتبعية والولاء . وفضلا عن ذلك فقد كان " دوتى " يدرك جيدا أخلاق البدو فى احترامهم للغريب باعتباره ضيف الله فضلا ، عن أن معايشته لهم وتناول الغداء معهم كان مما يضمن له السلامة والأمن وذلك لقدسية " العيش والملح " التى يؤمن بها البدو إيمانا راسخا ، ولا يحيدون عنها مهما بلغ بهم الضيق أو الكراهية لمن يفد إليهم أو يحتمى بهم .

وإذا ما تجاوزنا عن ما واجهه " دوتى " من الصعاب التى تمثلت فى طبيعة الحياة القاسية فى صحراء الجزيرة العربية بما فيها من حرارة الطقس أو برودته وقلة المياه وجدب المعيشة بوجه عام وهى أمور تحملها بصبر وأناة ، فإن وضعه الدينى من حيث كونه مسيحيا جره إلى العديد من الأخطار فى مجتمع إسلامى غلب عليه آنذاك التعصب والتشدد إلى درجة أن وصل الأمر إلى تهديده بالقتل فى كثير من الأحيان . وربما نجد تفسيرا لتلك الأوضاع الدينية المتشددة فيما تميزت به تلك الفترة التى وصل فيها " دوتى " إلى الجزيرة العربية بالصراع أو على الأحرى الصدام بين الإسلام والمسيحية ، كما وضح ذلك جليا فى ثورات الشعوب المسيحية فى ولايات الدولة العثمانية فى البلقان فى عام ١٨٧٦ تحت شعار حركة الجامعة السلافية التى كانت ترعاها روسيا القيصرية ، وما تبع ذلك من الحرب التى أشعلتها روسيا الأرثوذكسية ضد الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ ، فضلا عن تنامى حركة الجامعة الإسلامية التى استخدمها السلطان عبد الحميد الثانى ١٨٧٦-١٩٠٩ كوسيلة للتغلب على الضغوط التى كانت تواجهها الدولة من قبل القوى المسيحية ، وذلك بدعوته للجهاد ضد أعداء

الدين الإسلامى . وعلى الرغم من حالة الاستنفار العام التى أعلنتها الدولة العثمانية ضد القوى المسيحية المتصارعة معها فإن صداقة الإنجليز وتحالفهم مع الدولة العثمانية ظلت باقية – وإن كان ذلك إلى حين – وليس من شك فى أن مذابح البلقان والحرب الروسية التركية ، وما قبلها من مذابح الستين فى سوريا ولبنان ، تركت تأثيرها فى مجتمعات الجزيرة العربية، وكان الأعراب يقدرون الصداقة التى وصلت إلى درجة التحالف بين الإنجليز والسلطان العثمانى ، كما تبين لهم ذلك فى خلال الحرب الروسية التركية التى وقفت فيها بريطانيا إلى جانب الدولة العثمانية . ولعل ذلك التحالف بين بريطانيا والدولة العثمانية أو على الأحرى الخوف من بطش الإنجليز ، هو ما دفعهم إلى الإبقاء على حياة "دوتى " باعتباره إنجليزيا .

ومن الملاحظ أيضا أنه على الرغم من أن الدولة العثمانية كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الضعف والتهالك ، فإن سيادتها الاسمية ونفوذها الروحى على بدو الصحراء ظل باقيا باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية ، وإن لم يكن لها مع ذلك وزن كبير من الناحية الواقعية ، كما أن الدولة السعودية الثانية التى تأسست عقب رحيل القوات المصرية قد وصلت بدورها إلى مرحلة بالغة من الانهيار ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت التعاليم السلفية هى السائدة فى كثير من أنحاء الجزيرة العربية ، ووضح أن ضعف الدولة السعودية أو حتى القضاء عليها سياسيا أو عسكريا لم يؤثر على الدعوة الدينية التى قامت على أساسها تلك الدولة . ولعل ذلك مما جعل "دوتى " يتحامل تحاملا شديدا على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ووصفه إياها بالحقد و التعصب، واتفاقه مع خصوم تلك الدعوة فى إطلاق مصطلح الوهابية عليها و مصطلح الوهابيين على أتباعها ، وإن كان هؤلاء الأخيرون يؤثرون أن يطلقوا على أنفسهم لفظ الموحدين أو السلفيين ، وذلك على اعتبار أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم تكن تدعو إلى مذهب أو دين جديد ، وإنما نادت بالعودة إلى التعاليم الإسلامية الصحيحة.

ومما يلفت الانتباه أنه على الرغم من أن كثيرا من الرحالة الأوروبيين الذين جابوا الجزيرة العربية قد حرصوا على اعتناق الإسلام ، أو على الأقل تظاهروا باعتناقه كما فعل "بركهاردت "الهولندى الذى لم يكتف بإعلان إسلامه وإنما حرص على التبحر فى

علوم الدين ، ومن ثم عرف بين معاصريه بالشيخ إبراهيم ، أو كما فعل الرحالة الإسباني "دومنجو باديا أى لبليخ" ، الذى لم يكتف بدوره باعتناق الإسلام بل اعتبر نفسه من سلالة العباسيين ومن ثم صار يعرف باسم على بك العباسى ، وهناك أيضا "جون فيلبى" الذى عرف بعد اعتناقه الإسلام بعبد الله فيلبى وغيرهم كثيرون ، فإن " دوتى " كان من الصدق و الأمانة بحيث لم يتظاهر باعتناقه الإسلام وإنما ظل متمسكا بعقيدته المسيحية على الرغم من التهديدات العديدة التى كان يواجهها والتى وصلت إلى حد القتل ، أو الاغراءات الكثيرة التى وعد بها فى حالة اعتناقه الإسلام وترديده للشهادتين من تمكينه من زيارة الحرمين الشريفين، وعلو مركزه فى مجتمع البادية أو تقلده مناصب فى إمارة آل الرشيد فى حائل ، أو تمتعه بقدر كبير من الثراء أو حتى زواجه من إحدى البدويات الجميلات .

ولعل مما كان موضع تساؤل البدو ما هى الدوافع التى كانت تدفع الشيخ خليل – وهو اللقب الذى أطلقه على نفسه خلال تجواله فى صحراء الجزيرة العربية – لكى يترك حياته الناعمة والمترفة فى بلاده ويجئ إلى أراضيهم القاحلة ، ومن ثم حامت حوله الشكوك والشبهات فى أنه قد يكون جاسوسا جاء للتجسس على بلادهم ، أو لعله جاء للبحث عن كنوز مخبأة فى الجبال أو فى جوف الصحراء .

سجل " دوتى " فى رحلته العديد من اللوحات الشيقة ومن بينها وصفه المتع لقافلة الحج الشامى التى صحبها فى بداية رحلته ، حقيقة أنه لم يستمر فى القافلة إلى منتهاها إذ لم يكن يستهدف الحج أو زيارة الحرمين الشريفين مدركا استحالة ذلك باعتباره مسيحيا ، وإنما اتخذ من قافلة الحج وسيلة يستطيع بواسطتها الوصول إلى مدائن صالح التى تقع فى ذلك الجزء من الجزيرة العربية المعروف بالعربية الصخرية أو العربية البتراء ، للتعرف على ما يوجد بها من آثار ونقوش نبطية بصفة خاصة ، ولذلك نجده يتخلف عن صحبة القافلة حين وصلت إلى مدائن صالح حيث يمضى فى تسجيل آثارها بما فيها من نقوش كتابية و معابد وتماثيل حفرت فى الصخور عنى بدراستها وتحليلها ومقارنتها بالكتب الدينية المقدسة التى كان يحملها معه ، ثم ينتقل من مدائن صالح إلى القرى والمدن المجاورة لها فى الحجر وتيماء والعلا وغيرها من الأماكن الأثرية والحضارية القديمة التى تقع فى شمال غرب الجزيرة العربية . وكان ما عثر

عليه واكتشفه ونقله من نقوش ومخربشات قديمة موضع دراسة وتحليل الآباء الدومينيكان فى القدس إلى جانب العديد من المراكز و الهيئات العلمية فى أوروبا التى اهتمت بما توصل إليه من اكتشافات أثرية وجيولوجية ، خاصة وأنه كان متخصصا فى علم الجيولوجيا .

ونحن إذا ما تركنا ذلك الجانب العلمى البحت من اكتشافاته وملاحظاته وانتقلنا إلى جانب آخر يرتبط بوصفه الشيق لقافلة الحج نجده يقدم لنا لوحة رائعة عنها . وقد يكون حقيقة أن "دوتى " لم يكن أول من تحدث عن قافلة الحج الشامى بصفة خاصة أو قوافل الحج بصفة عامة ، فقد سبقه فى ذلك الكثيرون سواء من الرحالين العرب أو الأوروبيين نشير من بينهم إلى ابن علوان فى بداية القرن السابع عشر الميلادى ، و"جوزيف ديكستيرا" فى نهاية ذلك القرن ، وأحمد البديرى الحلاق الدمشقى فى القرن الثامن عشر ، والرحالة الإسبانى "دمينحو باديا أى لبليخ" فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى (١٨٠٦) ، ومع إبداع أولئك الرحالين جميعا فى وصف قوافل الحج سواء قوافل الحج المصرية أو الشامية ، إلا أن "دوتى " كان بلا جدال أكثرهم متعة وإبداعا ، حيث أتى لنا بمعلومات وتفاصيل دقيقة لم نعهدها فى كل من كتب عن تلك القوافل سواء من العرب أو الأجانب .

ومن الواضح أن قافلة الحج الشامى قد استأثرت بجانب كبير من اهتمام "دوتى "، حيث يشير إلى تجمع الحجاج فى دمشق قبل موسم الحج وفى وقت معين من كل عام ، ولم يكن هؤلاء الحجاج من دمشق وحدها أو من سوريا وحدها ، وإنما نتيجة لموقع مدينة دمشق كأكبر مدينة على حافة الصحراء السورية الحجازية فقد غدت مركزا يتجمع فيه الحجاج من بلاد العجم وتركيا وتركستان وغيرها من الجهات والأقطار الشمالية استعدادا للرحلة المقدسة إلى الحرمين الشريفين . وكان يقع على عاتق مدينة دمشق استقبال وإيواء وتموين تلك الأعداد الضخمة من الحجاج الذين يفدون إليها ممن ينتمون إلى أعراق وعناصر وطوائف مختلفة . وكانت مواسم الحج على الرغم من طابعها الدينى ، فى الوقت نفسه مواسم للتجارة إذ اعتاد أكثر الحجاج الغرباء أن يحملوا معهم الكثير من منتجات بلادهم ليستعينوا بثمنها على الوفاء بما تتطلبه رحلة الحج من نفقات ، أو لكى يبادلوا منتجات بلادهم بمنتجات غيرها ومن ثم كانوا

يجمعون بين التجارة وأداء الفريضة المقدسة .

ويشير "دوتى " إلى بداية انطلاق قافلة الحج من تيه المزيريب الذى يقع فى سهل حوران وعلى مسافة تبعد حوالى مائة وخمسين كيلومترا إلى الجنوب من دمشق ، ويعنى بصفة خاصة بتنظيمات القافلة والتنفيذيين والمشرفين والمدبرين لشئونها بداية من باشا الحج وآمر الحج أو ربان القافلة والصيارفة الذين يتولون أمورها المالية ورؤساء وأفراد الحاميات العسكرية المصاحبين لها ، كما يعرض لنفقات القافلة بما فى ذلك شراء المشاعل وقرب المياه والحبال ومواد التموين وأجور الأدلاء والجمالين إلى جانب صرر العربان وصرة الحرمين الشريفين وغيرها . وبصدد تلك الأوضاع المالية يحدثنا " دوتى " عن ما كانت تلجأ إليه الدولة العثمانية من فرض الضرائب لمواجهة ما تتطلبه قافلة الحج من نفقات ولم تكن تستثنى من ذلك المسيحيين فى بلاد الشام الذين كانوا كثيرا ما يبدون احتجاجاتهم على إجبارهم على دفع ضرائب مخصصة للصرف على مقدسات إسلامية ، كما يقدم لنا "دوتى " صورة واقعية لما كانت تعانيه الدولة العثمانية من فساد حيث يبدى انتقاده اللاذع للموظفين العثمانيين وما كانوا عليه من جهل وجشع ونهب للأموال المخصصة لقافلة الحج التى غالبا ما يبتلعها أمراء الحج والصرافين وغيرهم من التنفيذيين على شئونها بينما كان من المفروض إنفاق تلك الأموال على تأمين الطرق التى تمر بها القافلة وصيانة آبار المياه والقلاع العسكرية ، فضلا عما كان يعمد إليه التنفيذيون على شئون القافلة من تقليص قيمة المرتبات التى تدفع لأفراد الحاميات المرابطين على طول الطريق والقائمين على أمر القواعد والقلاع العسكرية ، إلى جانب اختلاسهم الأموال والهدايا والإتاوات التى كانت تقدم لشيوخ البدو ، وما كان يترتب على ذلك فى كثير من الأحيان ما يلجأ إليه أولئك من توقيف مرور القافلة و مهاجمتهم لها ونهبهم لإبلها ومتاعها .

ونكاد نلحظ تعاطف " دوتى " مع البدو حيث يرى أنهم مجبرون على السلب والنهب واللصوصية نتيجة فقر بلادهم وجدبها وإلا ماتوا جوعا ، وكثيرا ما نجده يشير إلى البدو باعتبارهم إسماعيليين أى من سلالة إسماعيل الابن الأكبر لإبراهيم عليهما السلام ، ويكاد يلمح - كما أشار إلى ذلك من قبله الرحالة الفرنسى لويس دارفيو - بأن ما يقوم به البدو من غزوات وعمليات هجومية إنما يثأرون لإسماعيل حرمانه من

حق البكورة التى سلبها منه أخوه إسحق عليه السلام ، وبالتالى فإنهم بعملياتهم هذه إنما يستردون لأنفسهم ذلك الحق الذى حرم منه . لم يكن وصف " دوتى " لقافلة الحج وصفا تقليديا وإنما استطاع أن يقدم صورة نابضة عن موكب الحج الشامى ووصفا ممتعا لقوافل الحج بصفة عامة بجمالها ودوابها وخيولها وأدلائها والفرق العسكرية المصاحبة لها وما تحمله من كسوة الكعبة وأغطية الحجرة النبوية الشريفة ، و بما كانت تشتمل عليه من عناصر متدينة جاءت لتأدية الفريضة المقدسة ، أو أفراد هاربين من العدالة وخارجين على القانون ، إلى جانب طوائف مذهبية مختلفة كانت تؤدى فى بعض الأحيان إلى صدامات بين السنة والشيعة ، وما يعانيه بعض الأفراد حين يتخلفون بسبب ضعفهم عن القافلة ويجدوا أنفسهم مضطرين إلى قطع مسافات طويلة للحاق بها أو للعودة إلى بلادهم وكثير منهم يلقى حتفه فى الطريق . كذلك صور لنا "دوتى "ما يحدث فى القافلة فى بعض الأحيان من سرقات يقوم بها من أسماهم " بالحباليص " أو اللصوص والعقاب القاسى الذى كان ينزل بهم فى حالة ضبطهم . كما يعرض للطريق الذى تسلكه القافلة ويبدى اهتمامه على وجه خاص بالقلاع العسكرية وما فيها من حاميات مغربية إلى جانب وصفه للآبار وما فيها من مياه مالغة . وما يكابده الحجاج طيلة عدة أشهر من عناء نتيجة لما يلاقونه من أخطار الطريق ومن الظواهر الطبيعية والمناخية التى لا يستطيعون لها دفعا كالحر اللافح أو البرد القارس أو السيل الجارف ، فضلا عما يتعرضون له من أمراض وأوبئة أو من عدوان العشائر البدوية الذى كان شر ما يخشاه الحجاج ، وخاصة إذا ما قبض باشا الحج يده عن دفع الأموال السنوية التى كان من المعتاد أن تدفعها الدولة العثمانية للعشائر الضاربة على طريق الحج تأمينا لمرور القافلة ، ويعنى ذلك أن القوة أو القلاع العسكرية والحاميات المرابطة على طول الطريق لم تكن هى الوسائل الوحيدة لمواجهة تعديات البدو ، إذ اضطرت الدولة العثمانية حفاظا على هيبتها فى العالم الإسلامى ومسئوليتها عن تأمين طريق الحج أن تحذو حذو غيرها من الدول الإسلامية التى سبقتها ، إلى دفع إتاوات سنوية لشيوخ البدو المسيطرين على طريق الحج ، وكانت تلك الإتاوات تعرف عادة بصرة العربان ، إضافة إلى ما كانت تدفعه الدولة عن طريق باشا الحج للقبائل التى تخشى شرها مقابل عمل بعض أفرادها كأدلاء للقافلة من أجل تأمين سلامة

مرورها .

وفى تقديرنا أن وصف " دوتى " لقافلة الحج له قيمته التاريخية الهامة إذ لم تلبث التطورات التى حدثت فى وسائل النقل و المواصلات أن أدت تدريجيا إلى إبطال طرق القوافل سواء ما يتعلق بقوافل الحج المصرية أو الشامية ، بعد أن حلت السفن البخارية محل السفن الشراعية فى نقل الحجاج من السويس إلى جدة ، ثم جاء إنشاء الخط الحديدى بين الإسكندرية والقاهرة والسويس ، وما تبع ذلك من شق قناة السويس وافتتاحها إلى التأثير على قافلة الحج المصرية نتيجة ازدياد استخدام طريق البحر الأحمر ، فكان الحجاج الآتون من تركيا أو الأقطار الواقعة إلى شمالها يفضلون أن يأتوا بحرا إلى بيروت أو الإسكندرية حيث يسلكون طريق البحر الأحمر إلى جدة . ومن ناحية أخرى آثر الحجاج الفرس استخدام طريق الخليج العربى – الذى فرضت فيه بريطانيا الأمن وأحكمت سيطرتها عليه – ومنه إلى البحر الأحمر حتى جدة . غير أن أعظم انقلاب حدث فى أسلوب الحج ، وأدى إلى القضاء المبرم على قافلة الحج الشامى كان إنشاء خط حديد الحجاز الذى امتد من دمشق إلى المدينة المنورة والذى تم افتتاحه فى عام ١٩٠٨ ، وأصبح باشا الحج وأمير الحج والرجال التابعين لهما يقطعون رحلة الحج بالقطار ، وبذلك أسدل الستار على ذلك الموكب الجرار الذى أفاض "دوتى " فى الحديث عنه ، والذى كان يتكون سنويا من قافلة كبيرة من الجمال ، كما اختفت القلاع والأسبلة وأصبحت أطلالا وخرائب اللهم باستثناء ما بقى منها من أجل حراسة الخط الحديدى ، وحتى بعد أن قامت قوات الثورة العربية بنسف خط حديد الحجاز فى عام ١٩١٦ فإن ذلك لم يؤد إلى عودة قوافل الحج الشامية أو فى استردادها لمكانتها السابقة ، ويرجع ذلك إلى التقدم التكنولوجى الذى حدث فى وسائل النقل البرية والبحرية والجوية منذ السنوات الأولى من القرن العشرين . ولعل تلك التطورات توضح لنا القيمة التاريخية التى زودنا بها "دوتى " حين تحدث عن قافلة الحج الشامى ، والذى كان فيما نعتقد آخر من وصف تلك القافلة بذلك الوصف العميق الممتع والقيم فى الوقت نفسه . ما كادت قافلة الحج الشامى التى رافقها "دوتى " تصل إلى مدائن صالح ثم تبدأ فى استئناف مسيرتها حتى غادرها " دوتى" حين وجد أنه وصل إلى هدفه الرئيسى فى صحراء الجزيرة العربية، ومن ثم آثر البقاء فى مدائن صالح والمناطق المجاورة لها فى

الحجر وتيماء والعلا ، وفى ذلك الجزء المعروف بالعربية الصخرية أو العربية البتراء للتعرف واستكشاف ما بها من آثار ونقوش كتابية ومطابقتها على ما ورد ذكره فى أسفار التكوين وأشعيا وحزقيال فى التوراة ، وكذلك بما ورد ذكره فى الإنجيل وفى القرآن الكريم عن قبيلة ثمود ومدائن لوط وقبيلة عاد من أهل مدين إلى جانب ما ورد فى الأساطير و الموروثات الشعبية عن المدن التى كان يسكنها عبدة الأصنام والتى تحول ساكنوها نتيجة غضب الله عليهم إلى درنات صخرية .

وقد عنى "دوتى" بالتعرف على ما يوجد فى تلك المناطق التى زارها من آثار كشفت عن حضارات قديمة فضلا عن نقله للنقوش النبطية والآرامية والحميرية وغيرها من النقوش الأخرى بما فى ذلك مخططات بنى هلال الذين عبروا الجزء الشمالى الغربى من الجزيرة العربية فى طريقهم إلى مصر وبلاد المغرب ، وتمكن " دوتى " من التعرف على ما كشفت عنه تلك النقوش إضافة إلى ما تم العثور عليه من نقود حميرية وإغريقية ، وعلى ما وجد من تفاعل حضارى وتجارى بين مراكز الحضارات القديمة التى وجدت فى جنوب الجزيرة العربية وشمالها ، واستطاع التأكيد على ذلك من واقع النقوش والنقود الحميرية التى عثر عليها بصفة خاصة فى مدينة العلا ، فضلا عن وجود أطلال لبعض المدن القديمة التى أقامها تجار من جنوب الجزيرة العربية وأطلقوا عليها أسماء مدنهم التى جاءوا منها ، كما بدا له ذلك واضحا من وجود مدينة فى الشمال عرفت بمدينة سبأ على الرغم من أن مدينة سبأ مرتبطة بالجنوب ، مما يعنى أن التجار اليمنيين أقاموا لهم مدنا أخرى فى الشمال للحفاظ على مصالحهم التجارية هناك ، مما يدل دلالة قاطعة على وجود ذلك الترابط التجارى والحضارى الوثيق بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها . كما أمكن التأكيد على ما وجد فى الجزيرة العربية من حضارات مزدهرة فى تاريخها القديم ، فضلا عن أنها كانت معبرا لطرق التجارة العالمية .

وليس من شك فى أن النقوش النبطية والآرامية والحميرية التى عثر عليها "دوتى" على جدران المعابد والتماثيل وعلى شواهد القبور والكهوف فى مدائن صالح وتيماء والحجر والعلا وغيرها ، استطاعت أن تلقى الضوء على حياة شعوب الجزيرة العربية القديمة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية والدينية ، كما ساعدت على التعرف على

تطور الخط العربى بصفة خاصة وساعدت على سد ثغرة كبيرة فى تاريخ الجزيرة العربية القديم ، خاصة و أن النقوش الكتابية تعد من أهم المصادر التاريخية الموثوق بها ، إذ أن أكثر ما وصل إلينا من تاريخ الجزيرة العربية القديم لا يعدو أن يكون روايات غلب عليها الطابع الأسطورى أو الخرافى واختلطت فيها الحقيقة بالخيال إلى حد كبير ، ومن ثم غدت النقوش الكتابية وثائق أصلية اعتمد عليها المؤرخون والأثريون الأوروبيون وغيرهم فى الكشف عن كثير من الحقائق التاريخية باعتبارها معاصرة للأحداث التى دونت فيها ، فضلا عن كونها مصادر محايدة تضمنت وقائع تاريخية صحيحة قل فيها التزييف والتحريف ، على عكس المصادر الأخرى التى اكتنفها قدر ليس بالقليل من التحيز أو خالطتها بعض الأهواء الذاتية غير الموضوعية .

ومن الواضح أن " دوتى " أبدى اهتماما كبيرا بالنقوش الكتابية واستطاع أن يحصل على صور منها خاصة النقوش النبطية ، التى وجدت فى أماكن مختلفة من العالم إلا أن انتشارها كان أكثر وضوحا فى أرجاء المملكة التى شادها النبطيون وفى المناطق المتعددة التى كان يصل إليها تجارهم بدءا من دمشق والرقيم "البتراء " ، وصحراء النقب شمالا إلى صحراء شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية لمصر غربا ، وإلى العلا وقرية الفاو جنوبا حتى سهل الحوران فى الشمال الشرقى . ولم يقتصر "دوتى " على النقوش النبطية وحدها وإنما اهتم إلى جانب ذلك بالنقوش الحميرية حيث سجل ما وجده – وخاصة فى مدينة العلا– من تلك النقوش على أحجار البناء والجدران الداخلية لبعض البيوت والمساكن .

ولم يكن اهتمام "دوتى " قاصرا على تسجيل المواقع الأثرية وما اشتملت عليه من نقوش كتابية فحسب ، وإنما كان حريصا – استنادا إلى تكوينه العلمى كعالم فى الجيولوجيا – على التعرف على المظاهر الطبيعية والطبوغرافية والجيولوجية ، إذ كان يحمل معه العديد من الأجهزة الخاصة بقياس الارتفاعات والأعماق وغيرها . وهكذا نجد ذلك التنوع والثراء الذى حفلت به رحلة دوتى التى لم تقتصر على الجوانب الأثرية وحدها ، وإنما شملت العديد من الظواهر الجيولوجية والطبوغرافية والطبيعية التى عنى " دوتى " بتسجيلها باعتباره متخصصا فى علم الجيولوجيا، مما جعله يتحدث عن تلك الظواهر بإطناب ، ومن ثم قدم وصفا شاملا لصحراء الجزيرة العربية البتراء

والقفراء بصخورها الصوانية وتلالها وسهولها ووديانها وغدرانها وأفلاجها وهضابها وحراتها وحممها البركانية وأنهارها البازلتية وموارد مياهها الباطنية ، إلى جانب ما سجله من مسالكها ودروبها وأسماء مدنها وقراها وكفورها وهجراتها وسكانها من الحضر وقبائل البادية ، إضافة إلى أسماء نباتاتها وطيورها وخيولها وجمالها وهوامها .

وعلى الرغم من أهمية الرحلة فيما أتت به من معلومات علمية بحتة فإنه برزت أهميتها على وجه خاص فيما أتت به من وصف دقيق لكل ما يتعلق بحياة البدو ، ويبدو ذلك فى اهتمام "دوتى " بالتركيبات القبلية بما فى ذلك أنساب القبائل وتفريعاتها إلى بطون وأفخاذ ، وبين ما هو أصيل وغير أصيل منها، ولم يهمل وضع العناصر الزنجية والحبشية التى صادفها فى مدينة خيبر على وجه خاص ، والتى استقرت فى حماية القبائل أو الوجهاء، وليس من شك فى أن ما قرره عن أوضاعهم الحسنة يعد بمثابة شهادة تؤكد معاملة العرب السمحة للرقيق .

وقد يكون هناك العديد من الرحالين الذين عايشوا البدو وكتبوا عن حياتهم وعاداتهم ، غير أننا لا نجانب الصواب إذا ما ذكرنا أن ما سجله "دوتى " يعد بكل المقاييس أفضل وأشمل دراسة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم التى تميزت بالقسوة والقحط لقلة مواردهم ، وكثيرا ما عانى هو بنفسه من العطش والجوع وإن كان قد وجد تكريما من البدو الذين أحسنوا ضيافته على الرغم من فقرهم المدقع ، وإن كان قد لاحظ مع ذلك وجود من يعيشون فى مستوى أفضل من الشيوخ والوجهاء والتنفيذيين العثمانيين وغيرهم الذين تمتع بضيافتهم السخية فى كثير من الأحيان .

وقد حرص "دوتى " أن يقدم عرضا وافيا لتنظيمات البدو الاجتماعية بما فى ذلك مجالسهم القبلية وعاداتهم وتقاليدهم إلى جانب وصفه الدقيق لحياة السكان بصفة عامة من بدو وحضر أو شبه حضر وكيف كان هؤلاء يتكيفون فى مساكنهم وملابسهم وطعامهم وشرابهم وما يكتنف حياتهم من خرافات وأساطير . ويجد "دوتى " الفرصة مناسبة لكى يروى بعض الحكايات التى سمعها من البدو عن الجن وأشكالهم وقدراتهم الخارقة ، إلى جانب ما يرددونه عن غولة الصحراء وغير ذلك من الخرافات . وليس من شك فى أن "دوتى" بحكم معايشته للبدو استطاع إضافة الكثير إلى المعارف الأوروبية عن حياة البادية التى كان الإنجليز – على خلاف الفرنسيين –

مولعين بها .

والحقيقة أن " دوتى " لم يغفل شيئا عن المناطق التى زارها فى صحراء الجزيرة العربية إلا ذكره فقد تحدث بإفاضة عن مضارب البدو وخيامهم وبيوت الشَعر ومنازلهم المبنية من الأحجار اللبنة ، وإلى نوعية المواد المستخدمة فى البناء والطرق التقليدية المتبعة فى سحب المياه من الآبار ، ومن الواضح أن ممارسته للطبابة مكنته من دخول كثير من منازل البدو بمختلف شرائحهم ، ومن ثم تمكن من إعطائنا تفصيلات دقيقة عن تلك المنازل والمخيمات التى كانت تنقسم إلى المضيف ووجارات القهوة ومجالسها ، وأقسام الحريم وحظائر الحيوانات وغيرها ، كما نقل كثيرا من التعبيرات التى يستخدمها البدو فى مختلف المناسبات ، كما فاق "دوتى " غيره من الرحالة الذين سبقوه أو جاءوا من بعده فى إعطائنا معلومات عن نساء البدو ومكانة المرأة فى مجتمع البادية ، ونوعيات الأطعمة والأشربة وعادات الختان والزواج والدفن ، وأيضا عادات الثأر التى كانت تنتهى بالقصاص أو دفع الدية وحق الأفراد فى اللجوء من قبيلة إلى أخرى ، والتضامن الذى غالبا ما يحدث بين أبناء القبيلة الواحدة لدفع دية القتل تجنبا للقصاص ، كما تعرض للمنازعات التى كانت كثيرا ما تحدث بين القبائل وصراعهم حول المياه والسقيا والغزوات التى كانت تحدث بين القبائل ، إلى جانب وصفه للأوضاع الاقتصادية خاصة الصناعات اليدوية فى غزل الأصواف ، والأساليب المتبعة فى التجارة وما يلجأ إليه البدو من طرق المقايضة ، إلى جانب ممارسة بعض القبائل للحرف والمهن المختلفة ، فضلا عن تقلبات الأسعار والعملات المستخدمة واختلاف قيمتها من منطقة إلى أخرى ، والإتاوات التى كان يدفعها الحضر لشيوخ البدو من أجل حمايتهم من عدوان القبائل التابعة لهم فيما كان يعرف برسم الخوة ، والزكاة التى كانت تدفع للأمراء التنفيذيين خاصة من آل الرشيد ، كما لم يفت " دوتى " الحديث عن الحياة الصحية فأشار إلى العديد من الأوبئة ، والطرق البدائية التى كان يستخدمها البدو فى علاج بعض العلل والأمراض التى تصيبهم بما فى ذلك الحجامة والفصاد والكى والأحجبة والرقى والعزائم وغيرها من العادات الطبية التى تصل إلى حد الشعوذة التى يؤمن بها البدو ، وما قام به من جهود من أجل الحصول على مصداقية لما كان يقدمه لهم من أدوية ، مما أدى إلى ثقة البدو به وإقبالهم على التداوى بما كان

يحمله معه من أدوية وعقاقير طبية بعد أن ثبتت لهم فاعليتها .

ولم يختلف " دوتى " عن غيره من الرحالين فى تقلب مزاجه وحكمه على المواقف أو الأحداث والأشخاص ، ويتضح ذلك جليا فى اختلاف تقييمه للأمور طبقا لما كان يصادفه من معاملة حسنة أو سيئة ، ففى كثير من الأحيان نجده يحمل حملة شديدة على البدو ويصفهم بالسذاجة بل وقد يصل به الأمر إلى وسمهم بالوقاحة والبربرية ، وفى أحيان أخرى يرى أنهم من عرق نقى يبعد بهم عن الهمجية أو البربرية مما يعكس تجاربه الخاصة ، كما يبدو التناقض واضحا فى وصفه للبدو بالكرم وحسن الضيافة وفى حملته الشديدة على بعض القبائل التى احتك بها أو القرى والمدن التى مر بها أو زارها كحملته الشديدة على العلاونة " أهالى قرية العلا " أو التيامنة " أهالى تيماء " الذى وصفهم بالبخل وسوء الضيافة .

ولا يقتصر تقلب مزاج "دوتى " فى حكمه على البدو أو أهالى القرى والمدن بل يبدو تقلب مزاجه واضحا فى موقفه من الدين الإسلامى . ولعل التشدد الوهابى فضلا عن عقيدته المسيحية وما اتسمت به الفترة التى زار فيها المجتمعات الإسلامية سواء فى بلاد الشام أو فى الجزيرة العربية من صراع حاد بين الإسلام والمسيحية جعلته يحمل حملة شديدة على التعاليم التى أتت بها الدعوة (الوهابية) مبديا كراهيته لها ومتهما إياها بالحقد والتعصب . وقد يكون ذلك الموقف راجعا فى الوقت نفسه إلى أفول نجم الدولة السعودية وارتمائه الواضح فى أحضان آل الرشيد وهى الأسرة المنافسة للسعوديين. وامتدت به الكراهية إلى ما أظهره من تحامل شديد على الدين الإسلامى وعدم اعترافه بنزول القرآن أو بالنبى محمد (ﷺ) تمشيا مع ما كان سائدا فى القرن التاسع عشر وربما فى السنوات التى سبقته من جدل كبير حول الدين الإسلامى ، وما اتسمت به الكتابات عنه بالحقد والتعصب الشديد والإدعاء بأن القرآن الكريم من وضع النبى ، وأنه أراد إكسابه هيبة فادعى أنه منزل من السماء ، وإن كان من الملاحظ على الرغم من ذلك التحامل الشديد الذى حمله " دوتى " على الدين الإسلامى ، إلا أنه لا يجد مناصا من الاعتراف بما جاء به الإسلام من مبادئ إنسانية سامية .

وتبدو أهمية رحلة " دوتى " واضحة فى تقديمها لوحة تاريخية عن إمارة آل

رشيد التى نكاد نزعم بأنها لم تجد اهتماما كافيا من المؤرخين ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن تلك الإمارة على الرغم مما وصلت إليه من قوة وبأس خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى إلا أنها لم تلبث أن تعرضت بداية من السنوات الأولى من القرن العشرين لضربات متلاحقة من قبل السعوديين مما أدى إلى أفول نجمها تماما خلال العقد الثانى من ذلك القرن ، ومن ثم تركزت معظم الدراسات والمؤلفات التاريخية على الدولة السعودية فى أطوارها المختلفة ، وظهر إهمالها واضحا لإمارة آل رشيد ، ولذلك تعد رحلة "دوتى " فى تقديرنا من الأهمية الكبيرة إذ إنها ألقت أضواء ساطعة على تلك الإمارة ، خاصة وأن "دوتى " عاصر فترة ازدهارها خلال رحلته مما جعله يقدم دراسة شيقة عن نشأتها على يد عبد الله بن الرشيد الذى عين من قبل الإمام فيصل بن تركى السعودى أميرا على جبل شمر فى عام ١٨٣٥ .

وكان " دوتى" قد وصل فى عام ١٨٧٧ إلى حائل عاصمة تلك الإمارة بصحبة قافلة حج فارسية كانت قادمة من بلاد الرافدين ، وكتب عن التطورات التاريخية التى مرت بها تلك الإمارة منذ نشأتها حتى الفترة التى وصل فيها إليها والتى واكبت السنوات الأولى من عهد الأمير محمد بن الرشيد أقوى أمراء الجزيرة العربية نفوذا ، الذى اعتلى سدة الحكم فى عام ١٨٧٢، وما وصلت إليه الإمارة من نمو فى عهده والأحداث الدراماتيكية التى وقعت فى بيت الرشيد حين استهل حكمه بذبح جميع أبناء وعبيد أخيه طلال بن الرشيد ولم يستثن منهم كما قيل سوى طفلا واحدا . وعلى الرغم من المذابح المريعة التى قام بها إلا أنه استطاع إقرار الأمن والنظام وقمع الاضطرابات القبلية .

وكانت عناية "دوتى " بالحديث عن العديد من الجوانب المتعلقة بإمارة آل رشيد فذكر أن أمرائها كانوا فى بداية وصولهم إلى الحكم منفذين لتعليمات السعوديين ، ولكن حين بدأت الدولة السعودية الثانية تتعرض للتفكك تمكنوا من التغلب عليهم وتوثقت صلاتهم بالدولة العثمانية . وعلى الرغم من الضرائب الفادحة التى كان يفرضها أمراء آل رشيد على المناطق والقبائل الخاضعة لهم إلا أن السكان تحت حكم آل رشيد تمكنوا من التخلص من استبداد عملاء الدولة العثمانية فى جباية الضرائب المفروضة عليهم . كما قدم "دوتى " معلومات هامة عن علاقة آل رشيد بكل من الدولة

العثمانية ومصر والسعوديين ، وتعرض لاتساع نفوذ الإمارة حيث ذكر أنها كانت تمتد إلى الجوف والقصيم ودرب الحج القادم من بلاد الشام ، وأفاض فى الحديث عن أقسامها الإدارية وتجارتها وما بها من حرف وصناعات وموارد دخلها إلى جانب مصروفاتها التى كانت تنفق على الغزوات التى يقوم بها أمراؤها ، فضلا عن الرشاوى والهدايا التى كانوا يبعثون بها إلى السعوديين أو إلى الدولة العثمانية تمكينا لنفوذهم ، إضافة إلى ما يوجد فى الإمارة من حرف وصناعات وما تستخدمه من عملات متعددة ، كالريال الإسبانى والنمساوى "ماريا تريزا " والليرة الفرنسية والريال المجيدى والعملات الذهبية ، كما عنى على وجه خاص بالحديث عن تجارتها فى الخيول العربية الأصيلة التى كانت تنقل عن طريق الكويت إلى بومباى .

وتجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أنه على الرغم من الأهمية التاريخية التى قدمها "دوتى " فى حديثه عن إمارة الرشيد إلا أن هناك العديد من الرحالين الأوروبيين الذين سبقوه أو جاءوا من بعده قد تحدثوا بدورهم عن تلك الإمارة ، نذكر من بينهم الرحالة الفنلندى "جورج أوجست والين" الذى زار مدينة حائل على عهد عبد الله بن الرشيد ١٨٣٥-١٨٤٧ مؤسس إمارة آل الرشيد ، والرحالة الفرنسى شارل هوبير ، والرحالة الإيطالى كارلو جورمانى، كما تبع "دوتى " فى زيارته لحائل كل من اللورد واللادى بلنت ، والرحالة النمساوى "ألويس موسل" ، وجون فيلبى وغيرهم كثيرون ، وإن كان "دوتى " تميز عن أولئك جميعا فى وصفه لما وصل إليه أمراء آل رشيد خلال زيارته لهم إلى أقصى نفوذهم واستطاع بذلك أن يقطع بتفوقهم على السعوديين فى الوقت الذى كان فيه وضعهم غير واضح بالنسبة للكثيرين من الرحالة ومن بينهم "وليام بالجراف" الذى أوفد من قبل الإمبراطور نابليون الثالث إلى بلاد شمر فى عام ١٨٦٢-١٨٦٣ بهدف استطلاع مدى قوة آل رشيد وإمكانية انتصارهم على السعوديين ، ومن ثم استطاع "دوتى " أن يحسم الأمر بالتأكيد على النفوذ الذى وصلوا إليه والذى تمكنوا بواسطته من القضاء على الدولة السعودية الثانية ، وإن لم يلبث بعد ذلك أن تمكن السعوديون من استعادة نفوذهم والتخلص نهائيا من إمارة آل رشيد المنافسة لهم ، وتم لهم ذلك على عهد الأمير - الملك فيما بعد - عبد العزيز بن سعود .

عقب زيارة "دوتى " لحائل قام بزيارة أخرى إلى كل من بريدة وعنيزة من إقليم

القصيم ، وعلى الرغم مما وجده هناك من تعصب شديد نتيجة وضعه الدينى ، إلا أنه استطاع بحصوله على وثيقة أمان من الأمير محمد بن الرشيد أن يؤمن نفسه وإن لم يحل ذلك دون تعرضه لكثير من التعديات ، وإن كانت ممارسته للطبابة وخاصة فى مدينة عنيزة التى قضى فيها بعض الوقت مكنته من التغلب على تلك التهديدات التى صادفها وعلى وجه خاص من قبل المطاوعة "رجال الدين الوهابيين " إلى درجة طرده من المدينة باعتباره مسيحيا أو على الأحرى كافرا فى مفهومهم ، وإن كان لم يلبث أن استدعى إلى المدينة مرة أخرى ليمارس عمله فى الطبابة . وقد صادف وجوده فى إقليم القصيم النزاع بين بريدة وعنيزة الذى كان حريصا على تحليله وتقصى أسبابه .

وهناك لوحة أخرى رسمها "دوتى " عن مدينة خيبر التى وفد إليها وتحدث من خلال زيارته لتلك المدينة – كما فعل سلفه الرحالة الفرنسى "موريس تاميزيه" – عن القرية التى كانت تضم عناصر زنجية وفدوا للحج من غرب القارة الإفريقية ثم استقر بهم المقام فى خيبر بعد أن أصبح فى غير مقدورهم العودة إلى بلادهم على أثر ما تكبدوه فى رحلة الحج المضنية ، ومن ثم قرروا الإقامة فى خيبر وفى غيرها من مدن الحجاز حيث أخذوا يمارسون فيها بعض الأعمال التجارية أوغيرها من الصناعات التقليدية تأمينا لحياتهم المعيشية .

وعقب زيارة "دوتى " لخيبر عاد مرة أخرى إلى القصيم ومن هناك صحب قافلة حج كانت متجهة إلى مكة ، وإن كان لم يصل إليها بطبيعة الحال نظرا لمسيحيته ، ومن ثم رافق قافلة أخرى خارج حدود مكة كانت متجهة إلى الطائف .

وخلال زيارة " دوتى" لمدينة الطائف قدم لوحة أخيرة عن الأشراف ، ويبدو فى تلك اللوحة التناقض الواضح فى موقفه إزائهم ، فبينما نجده يبدى إعجابه وثنائه على ما لقيه من كرم الضيافة والتسامح من قبل الشريف حسين بن محمد الذى تولى إمارة مكة فى عام ١٨٧٧ –وقتل بعد عام واحد من توليه الحكم كما علم بذلك بعد عودته من الجزيرة العربية – حيث ذكر أنه أنزله منزلة خاصة وأجزل له العطاء وأحسن ضيافته ، إلا أن ذلك لم يحل بينه وبين شنه حملة شديدة على ما صادفه من بعض الأشراف من تعصب ومعاملة سيئة وصلت بأحدهم إلى حد تهديده بالقتل وسرقته .

وفيما يبدو أن " دوتى " لم يأخذ فى اعتباره أن دعوى الانتساب إلى الأشراف قد تكون دعاوى غير صحيحة إذ غالبا ما يحدث تزييف فى الأنساب بغرض الرغبة فى الانتساب إلى السلالة النبوية الشريفة ، وهى ظاهرة نكاد نلمسها واضحة فى كثير من الأقطار الإسلامية . ومما تجدر الإشارة إليه أن "دوتى " وصل إلى الطائف – المقر الصيفى لأشراف مكة – فى الوقت الذى كان فيه نفوذهم قد أخذ فى التداعى نتيجة لأن الدولة العثمانية كانت تحرص على تشديد قبضة يدها على الحرمين الشريفين تأكيدا للحفاظ على هيبتها فى العالم الإسلامى ومن ثم اهتمت بإرسال الحاميات العسكرية، كما قامت بتعيين ولاة على الحجاز مما ترتب على ذلك ازدواجية السلطة بين الأشراف من ناحية والولاة العثمانيين من ناحية ثانية ومن ثم حدوث التنافس بينهما، إلى أن نجح الشريف حسين بن على –الذى عينه الاتحاديون شريفا على مكة فى عام ١٩٠٨– من استرداد نفوذ الأشراف بل وصل به الأمر إلى إعلان الثورة ضد الدولة العثمانية فى عام ١٩١٦ .

إن الأهمية العلمية لرحلة "دوتى" تتضح فيما قدمه من معلومات ثرية تناولت العديد من الجوانب الأثرية والجيولوجية والحضارية ، كما تبرز أهميتها الاجتماعية فيما سجله عن حياة البدو ومعيشتهم فى الصحراء . كما تعد الرحلة إلى جانب ذلك من المصادر الهامة التى تحدثت عن الأوضاع السياسية والتاريخية فى المناطق التى زارها "دوتى " فى صحراء الجزيرة العربية خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر ، بما تضمنته من معلومات هامة عن تداعى النفوذ السعودى وبزوغ نجم آل رشيد إلى جانب ما سجلته عن الأوضاع السياسية فى إقليم القصيم ، ووضعية الأشراف فى الحجاز ، ومدى نفوذ الدولة العثمانية الذى وصل إلى مرحلة الضعف فى تلك المناطق التى زارها ، وإن ظلت على الرغم من ذلك محتفظة بنفوذها الروحى باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية .

لقد تعرض "دوتى " إلى العديد من المواقف الصعبة التى كاد يفقد فيها حياته مما جعله يصف بلاد الأعراب بأنها بلاد بلا قانون . ومن الواضح أن ترحاله فى صحراء الجزيرة العربية كانت فى فترة لم يكن قد استقر الأمن فى ربوعها ، ويبدو ذلك من حديثه عن الصراعات القبلية أو فيما عبر عنه بالغزوات والعمليات الهجومية التى

كانت تقوم بها قبيلة ضد أخرى بما كان ينتج عنها من سلب ونهب ، وبما تعرض له شخصيا فى أكثر من مرة من إهانات و تهديد بالقتل ، هذا فضلا عما كانت تعانيه المناطق التى زارها من جدب وقحط ، وإن كانت تلك الأمور جميعها قد زالت وانقضى عهدها بعد نجاح الملك عبد العزيز بن سعود فى توحيد المملكة العربية السعودية والسيطرة على معظم ربوع الجزيرة العربية التى أشاع فيها الأمن والنظام ، وذلك من خلال العمل على توطين البدو واستقرارهم . وليس من شك فى أن الثروات التى تمتعت بها الجزيرة العربية نتيجة تدفق الثروة النفطية كانت تعويضا لما عاناه سكانها وخاصة البدو منهم من شظف العيش ، وما وصلت إليه حياتهم المعيشية من بؤس وشقاء ومعاناة كما صورها " دوتى " فى رحلته أبلغ تصوير .

ومع اختلافنا مع بعض الآراء والانطباعات التى أتى بها " دوتى " ، إلا أن هذا لا يمنعنا من أن نقرر بأن هذا السفر الضخم الذى وضعه " دوتى " عن ترحاله فى صحراء الجزيرة العربية والمتمثل فى ذلك الكتاب الذى بين أيدينا والذى يصل فى جزأيه إلى ألف وثلاثمائة وسبعين صفحة ،اشتمل الجزء الأول منه على اثنين وعشرين فصلا والجزء الثانى على ثمانية عشرة فصلا ، إضافة إلى الملاحق والمصورات المتعددة التى ألحقت بكل من جزء من جزئى الكتاب ، هذا السفر الضخم جدير بأن يكون موضوعا للعديد من الدراسات والبحوث والرسائل الأكاديمية بالنظر لما احتواه من معلومات قيمة تمس النواحى الأثرية والحضارية والتاريخية والعلمية والاجتماعية والأنثربولوجية ، وذلك من أجل تحليل كل ما ورد به من معلومات ، خاصة وأنه ركز على مناطق طواها الفقر والنسيان لقرون عديدة .

وليس من شك فى أن ما أتى به الكتاب من معلومات فى تلك المجالات جميعها تحتاج إلى تضافر جهود العلماء من مختلف التخصصات العلمية، وبصفة خاصة من المهتمين بالدراسات السامية ، والمتخصصين فى علوم الجيولوجيا والطبوغرافيا ، وفى آثار القسم الشمالى الغربى من صحراء الجزيرة العربية ، إلى جانب العارفين بأصول القبائل العربية وأسمائها وأنسابها وتفريعاتها ، وما يطلق من أسماء محلية على

الظواهر الطبيعية التى شاهدها "دوتى " فى المناطق التى زارها من جبال وسهول ووديان وحيوانات وطيور وغيرها .

كما يعنينا بصفة خاصة مقارنة ما أتى به الكتاب بما ورد فى المصادر الأخرى التى واكبت ر حلة "دوتى " أو السابقة أو اللاحقة عليها ، فضلا عن التركيز على وجهة النظر العربية التى قد تتناقض مع ما توصل إليه "دوتى " من نتائج ، وخاصة بعد ما تبين لنا أثناء مراجعتنا للترجمة العربية على النص الإنجليزى للكتاب بجزأيه ما تتضمنه الكتاب من بعض الفقرات والكلمات التى تمس المقدسات الإسلامية والمسيحية على السواء ، إلى جانب بعض العبارات الخارجة التى قد تخدش الحياء العام التى رأينا استبعادها حفاظا على الوقار العلمى ، هذا فضلا عن كونها قليلة فى جملتها ولا تؤثر على السياق العام .

وقد عملنا كل ما فى وسعنا على وضع تعليقات وشروح على بعض ما ورد فى الكتاب من معلومات عن بعض الأحداث والشخصيات التاريخية وكانت فى حاجة إلى تعليق أو توضيح أو تصحيح ، وعلى سبيل المثال فقد نسب "دوتى " إلى العرب إحراق مكتبة الإسكندرية على الرغم مما كشفت عنه البحوث التاريخية من أن يوليوس قيصر هو الذى أحرقها فى عام ٤٨ ق.م. عند اشتباكه بأسطول بطلميوس شقيق كليوباترا وخصمها على عرش مصر .

كما حرصنا على تحقيق وضبط ما صادفناه من أسماء الأعلام سواء كانت مكانية أو زمانية أو إنسانية أو حيوانية أو نباتية أو طبيعية كأسماء القبائل وأسماء المدن والقرى وأسماء الجبال والسهول وغيرها من الظواهر الطبيعية معتمدين فى ذلك على العديد من المصادر الكلاسيكية والمراجع العربية والأجنبية والأطالس التاريخية والمعاجم والموسوعات ، ومع ذلك فلا ندعى أننا قد وصلنا إلى حد الكمال إذ لا تزال هناك أسماء لم نهتد إلى صحتها ومن ثم أبقيناها على حالتها كما ذكرها المؤلف بالحروف اللاتينية دون وضع مرادفات لها باللغة العربية خشية ألا تكون صائبة أو صحيحة .

ومع تقديرنا لأهمية رحلة "دوتى " وما توصل فيها من نتائج هامة فى العديد من

المجالات التى عرض لها والتى عادت على العلم بفوائد جمة فى شتى المجالات الأثرية والجيولوجية والتاريخية والاجتماعية فإن ذلك لا يجعلنا نقر بوجهة نظر المؤلف فيما أتى به من بعض الآراء أو الانطباعات، كما يبدو ذلك فى تحامله الشديد على بعض القبائل وإن كنا نلتمس له العذر فى ذلك نتيجة لما تعرض له من تجارب خاصة . كما ينبغى الحذر من مغالاته فى الوجود اليهودى فى العديد من المناطق التى زارها خاصة فى مدائن صالح وتيماء والعلا وخيبر ، أو فى ربطه الأعراف البدوية بما جاء فى الشرائع والأعراف اليهودية معتمدا فى ذلك على ما ورد فى أسفار التوراة التى كان يحملها معه وتركيزه على تعامل الأعراب مع بعض ما جاء فى تلك الشرائع .

بقى أن نؤكد ونحن بصدد إنهاء تقديمنا لذلك الكتاب بالجهد الخارق الذى بذله "شارلز دوتى " فى تسجيل رحلته فى صحراء الجزيرة العربية ويرتبط بذلك الجهد جهد المترجم –الدكتور صبرى محمد حسن – الذى بذل بدوره جهدا خارقا فى ترجمة هذا السفر الكبير ، واستطاع بترجمته المبتكرة أن يحتفظ بأسلوب المؤلف وطريقته فى العرض بحيث غدت الترجمة العربية لا تكاد تختلف عن النص الإنجليزى كما لمسنا ذلك بأنفسنا .

ولا يسعنا فى النهاية إلا أن ننوه بأهمية الترجمة العربية للكتاب بجزأيه التى نعتقد بأنها سوف تسد فراغا كبيرا فى المكتبة العربية التى لا تزال تفتقر إلى المصادر الكلاسيكية المترجمة التى نحن فى أشد ما نكون فى حاجة إليها ، وذلك من أجل إلقاء مزيدا من الضوء على سكان الجزيرة العربية ومعرفة المجهول من تاريخها وآثارها وحضارتها .

جمال زكريا قاسم

دوتى وكتاب

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

اسمه تشارلز مونتاجو دوتى Charles Montagu Doughty ، وهو جيولوجى وشاعر إنجليزى أمضى قرابة العامين فى شمال الجزيرة العربية .

وفى العام ١٨٨٨ الميلادى ، أى بعد ثلاثة وعشرين عامًا من صدور كتاب بالجريف عن وسط الجزيرة العربية وشرقها ، صدرت أول طبعة من كتاب 'ترحال فى صحراء الجزيرة العربية' فى جزئين ويروى «الأحداث العفوية التى وقعت لى : وأنا فى هذين الجزئين من الكتاب لم أدون سوى الأحداث التى رأيتها بعينى ، وسمعتها بأذنى ، وأعتملت فى داخلى ، ولم أزد على ذلك أو أنقص منه شيئًا » [١] ومن بعد دوتى Doughty جاء كل من ولفريد بلنت Wilfrid Blunt ثم السيدة جرترود بل Gertrude Bell اللذان أكدا منظر الصحراء الذى رسمه الإنجليز وعلى رأسهم دوتى . ومن بعد هذين الإثنين جاء فيلبى ليؤكد الحقيقة نفسها ويضيف إليها جديداً فى ظل ظروف جديدة . ترى ما سر هذا الزخم الإنجليزى فى الاهتمام بشبه الجزيرة العربية ؟

هل هذا راجع إلى رأى بعض الباحثين الذى مفاده أن شبه الجزيرة العربية الشاسع هو والقسم الأكبر من أراضيه القاحلة الخراب ، هو مهد حضارة ما قبل التاريخ ؟ أم لأن حشوداً كبيرة وعديدة من البشر ، نشأت وتربت فى شبه الجزيرة ، وبخاصة فى الجزء الخراب منها ، ثم انتشرت ، بعد أن تحولت فى عصور سابقة إلى شعوب سامية قوية واسعة الانتشار ؟ أصحاب هذا الرأى يرون أن تلك الشعوب تركت

(١) تصدير الطبعة الثالثة .

منذ بداية التاريخ بصمة أزلية على القارات الثلاثة التى كانت تشكل العالم القديم ؛ وهم يرون أيضاً أن تلك البصمة تركزت بصفة خاصة على الإحساس الدينى فى ذلك القسم الرئيسى من الجنس البشرى . (١)

هل هذا الزخم يرجع أيضًا إلى وجود بعض الأدلة على أن البشر عاشوا فى شبه الجزيرة العربية ، منذ بداية الكون ؟ وبخاصة أن تلك الأدلة تتمثل فى صوَّان العصر الحجرى القديم ، الذى وضعت له أيدى البشر حدًا حاميًا (وهذا من مكتشفات دوتى) ، وبخاصة فى الصوَّان الذى تم العثور عليه ضمن حصى أو زلط الصوَّان ، فى قرية معان بمنطقة إيدوم . Edom (*)

وفى ظل كل هذه المعطيات كتب دوتى كتابه 'النادر' الذى يعد من 'الروائع' إذ فيه "كل الجديد عن الجزيرة العربية . ترى كيف تحققت لذلك الكتاب هذه القدرة وتلك الروعة ؟ الإجابة عن هذا التساؤل تشدنا إلى الوقوف على الركائز الرئيسية لهذا العمل الفذ والتى تتمثل فى شخص دوتى نفسه الذى يمكننا التعرف عليه من خلال سيرته ، وفى إعداده لنفسه ، والاستعداد للقيام بالرحلة التي جمع خلالها مادة الكتاب ، ثم فى نص الكتاب نفسه الذى يعد فريداً بكل المقاييس . من هنا يتعين علينا تناول كل جانب من هذه الجوانب استجلاء لحقيقة هذا المؤلف 'الفريد' 'الرائع' .

دوتى : الصبًا والشباب (١٨٤٣ - ١٩٢٦)

ولد صاحب هذه السيرة فى اليوم التاسع عشر من شهر أغسطس من العام ١٨٤٣ الميلادى ، وهو الابن الثانى للأب الورع الموقر تشارلز مونتاجو دوتى Charles Montagu Doughty، أحد أثرياء ذيبرتون Theberton فى مقاطعة سفولك Suffolk . تزوج تشارلز من فريدريكا بومونت Beaumont إحدى نبيلات شرقى

(١) تصدير الطبعة الثالثة .

(*) إيدوم Edom ويصح فيه ايضًا Idumaea ، وهى منطقة فى جنوب فلسطين تقع فيما بين البحر الميت وخليج العقبة .

يوركشير Yorkshire، إذ كان والدها هو الأب المحترم والموقر فردريك هوثام Hotham كاهن كنيسة ديننجتون Dennington ، فى منطقة فارملنجهام Farmling ham، كما كان كاهنًا أيضًا لكتدارئية روشستر وولدا من أبناء البارون الثانى هوثام .

من هنا يكون دوتى قد انحدر عن الأشراف ملاّك الأراضى الواسعة ، سواء من ناحية والده أو أمه . والمعروف أن جورج دوتى ، سلفه المباشر ، أو إن شئت فقل جده المباشر ، الذى كان أول من هاجر من أفراد تلك السلالة النسبية إلى مقاطعة سفولك ، قدمه ابن عمه ، فى العام ١٦٩٩ الميلادى ، ولأول مرة ، ليكون كاهنا لأبرشية سفولك . ابن العم هذا ، واسمه جون جودوين مارتلشام هول Martelsham Goodain انحدر هو أيضًا عن أسرة عريقه من أسر لنكولن شاير Lincolinshire، التى حافظت على المعتقدات القديمة وتمسكت بها . ولا يزال اسم هذه الأسرة ذائعا بين كل طبقات المجتمع فى تلك المقاطعة . كان صمويل Samuel ولد جورج الجد ووارثه صاحب ممتلكات فى سبعة أبرشيات ، كما كان يعيش فى نيوبورن هول Newbourn ، بالقرب من منطقة كسجريف Kesgrave ؛ صمويل هذا كان له ولد يدعى جورج ، استطاع أن يحصل للأسرة ، عن طريق الكهانة ، على حق الحصول على نصيب من أوقاف الكنيسة ، وذلك عن طريق زواجه من واحدة من بنات جودوين Goodwin من ناحية ، ووفاة ورثته من الناحية الأخرى ، ثم اشترى بعد ذلك ضيعة ذيبرتون Theberton وبنى عليها منزلا منيفا وبهوًا كبيرًا . وأضاف من جاءوا بعد جورج المزيد من الأراضى إلى تلك الضيعة عن طريق الزواج من وارثة "إيزكيل ريفت" من مقاطعة آى Eye . وبذلك يكون الأب الموقر تشارلز ، بعد أن نقل إلى أبنائه هذه المواريث من الأطيان ، قد أضافها ، كما سبق أن رأينا ، إلى أطيان واحدة من الأسر العريقة المحترمة الأخرى ، وهى أسرة بيت هوثام Hotham التى أنجبت سلسلة من الأساقفة ، ورجال الحاشية الملكية ، والمحاربين والسفراء كما استطاعت خلال قرنين من الزمان إنجاب ست من أمراء البحار ، وثلاثة من ضباط الأركان ، وأسقفا واحدًا ، وقاضيًا وحاكما لواحدة من المستعمرات . قلة قليلة من الأطفال – من غير أطفال الأب الموقر تشارلز – هم الذين يولدون فى ظل مثل هذه الظروف الأرستقراطية والمحافظة ، أو ينشأون فى جو لا يعرف سوى الولاء المطلق والوطنية المطلقة اللذان يشكلان عندهم أمرا مسلما به ولا يقبل الجدل أو النقاش .

من هنا تصبح مسألة أن يكون واحداً من آل دوتى ثريا من أثرياء الريف ، أمرا طبيعيا إذ إن ذلك من تقاليد الأسرة ومن موروثاتها . كان من بين الخمسة الذين توارثوا ضيعة سفولك ، ثلاثة من كهان الكنائس . كان لأحدهم معاشان يحصل عليهما من أوقاف كنيسة هوكسون Hoxne ومارتلشام ، والمسافة بينهما طويلة جدا ؛ ومع ذلك ، لم يكن ذلك الكاهن يعيش فى أواخر أيامه ، فى أى من هاتين الكنيستين . الثانى من هؤلاء الثلاثة لم يحصل على نصيب من وقف الكنيسة . وإذا كان هذا الشخص الثانى قد احتاط لرأى الكنيسة وتعالى عليه فى القرن الثامن ، فيما يتعلق بالأبناء الصغار ، فذلك يعنى أن مفهوم أسرة دوتى عن المنصب الدينى فى ذلك الوقت كان منطقياً أكثر منه روحيا . وحوليات دوتى تكشف عن قلة اهتمام الأسلاف بالآداب أو العلوم . ويبدو أن جورج المارتلشامى كان شديد الولع بالقراءة ، أما جورج الثانى فكان مولعا بالآثار . وولد جورج الثانى ، ألا وهو الأب الوقور تشارلز ، الذى قام بالرحلة العظيمة فى ذلك الوقت ، قدم دليلا عمليا على اهتمام كبير بالفن ، إذ كلف بعض العمال الإيطاليين بتجهيز غرفة الرسم فى بيته فى ذيبرتون Theberton قبل مجيئ عروسه ، ثم أضاف بعد ذلك جناحا إيطاليا إلى ذلك المنزل المنيف .

إلى هذه التقاليد الدوتيه الخاصة بتدبير أمور بيوت أثرياء الريف ، والتى يتفاخر أصحابها بعرقهم وبطبقتهم ، والتى تقوم على المساواة بين الولاء والوطنية من ناحية مع قبول النظام القائم من الناحية الأخرى ، والتى تأخذ كلا من التدين والالتزام الأخلاقى أمرين مسلم بهما ، إلى كل هذه التقاليد أضافت فريدريكا هوثام تقاليد عائلتها التى تقوم على المغامرة ، وبخاصة المغامرة البحرية ؛ ولكن التأثير الكبير الذى كان له وقع كبير على طفولة ولديها ، كان يتمثل فى تحمس أفراد عائلة هوثام للعمل فى سلاح البحرية .

كان يبدو على ولد فردريكا الثانى ، أو إن شئت فقل : تشارلز مونتاجو دوتى صاحب كتاب ترحال فى صحراء الجزيرة العربية ، إنه لا يحتمل له الإقدام على أية مغامرة فى هذا العالم ، إذ قال ذلك الولد عن نفسه : كنت من الناحية الشكلية تماما

أبدو طفلا يحتضر' ، [1] 'الأمر الذى دفع والدى إلى تعميدى على وجه السرعة' . ومن خلال عملية التعميد ، حصل هذا الابن على اسم والده ، تشارلز Charles – ومونتاجو Montagu، لم يكن الاسم الثانى كما أصر دوتى فيما بعد ، لقبا للعائلة . وبالرغم من ذلك ، لم يعجل الموت باختطافه بعد ذلك بأشهر قليلة ، وإنما اختطف أمه . وبعد ست سنوات مات والده أيضا ، وهنا انتقلت العناية بالولدين إلى أحد أعمامهما وهو فردريك جودوين دوتى صاحب ضيعة مارتلشام Martlesham هول . Hall على كل حال ، كان تشارلز الصغير قد جرى تحصينه فعلا تحصينا تاما بالتقاليد والموروثات الهثامية ، والأرجح أن ذلك كان عن طريق خالته التى كانت قد تولت الإشراف على تعليمه المدرسى ، يضاف إلى ذلك أن عقله الطفولى كان متركزًا على البحرية . ومن باب إعداد الطفل لذلك المستقبل ، أدخل أصغر هذين الطفلين اليتيمين ، عندما بلغ سن السابعة ، إحدى المدارس فى مدينة ليلهام Laleham فى منطقة نهر التيمز ، ثم نقل بعد ذلك إلى مدرسة السترى Elstree . ونحن لا نعرف الكثير عن تلك الفترة من حياة ذلك الطفل ، بل إننا لا نعرف حتى تاريخ انتقاله من هذه المدرسة إلى تلك . يضاف إلى ذلك أن ذكرياته اللاحقة عن المدرسة لم تكن ذكريات سعيدة ، ونظرا لأن تشارلز كان خجولا ومفرطا فى نموه فلم يكن بينه وبين الأطفال أو إن شئت فقل : الصبية الآخرين أى شبه على الإطلاق ، اللهم باستثناء أنه كان مقاتلا شديد البأس عندما كانوا يستثيرونه عن قصد . وفى واحدة من هاتين المدرستين ، أصيب بضربة من ضربات كرة الكركيت أدت إلى شرخ فى عظام الفك خلف أثرا بقى على وجهه مدى الحياة . أخيرا ، وقبل حلول العام ١٨٥٦ الميلادى جرى إلحاقه بإحدى المدارس البحرية اسمها بيتش Beach هاوس House، 'ثوث سى' Southsea، ليكون على أهبة الاستعداد ، ولكنه عندما تقدم للامتحان فى ذلك العام ، رسب فى الاختبار الطبى ، بسبب إعاقة طفيفة فى الكلام اعتبروها عقبة كبيرة . وبقى طوال حياته بذلك الإحباط الذى لم يغب عن باله لحظة واحدة . هذا السلاح الذى التحق به شقيقه والذى سد باب الترقية فى وجهه فى مرحلة مبكرة من حياته ، هو الذى جعل تشارلز يتخيل أنه هو القادر على إشباع روح البطولة

(١) رسالة إلى إس . سى . كوكيرل ، ١٩ أغسطس ، ١٩٢٣ .

فى داخله . كتب شارلز، عندما كان هوثام ، ابن خاله ومعاصره على وشك الترقية إلى رتبة أعلى ، يقول : 'لقد نُشِّئْت على أمل الالتحاق بالبحرية ، طبقا لتقاليد وموروثات أسرة أمى (آل – هوثام) [١] ، وكان مفروضا أن تكون حياتى العملية فى البحرية ، لولا إخفاقى فى الاختبار الطبى ، برغم أنى لست من القوة بحيث أستطيع تحمل العمل فى ذلك السلاح [٢] . كان هدفى فى الحياة منذ ذلك اليوم ، بوصفى شخصا خاصا ، هو خدمة بلدى حسب قدراتى وإمكاناتى' . كما كتب تشارلز فى العام ١٩٢٢ عن رغبة كانت تراوده فى الحصول على لقب من ألقاب الحرب مثل لقب 'القائد المؤقت' ، الذى كان يستهويه ويمسك عليه فؤاده . [٣]

بقى تشارلز طوال العام الثانى فى مدرسة بيتش هاوس البحرية ، فى الوقت الذى أكد فيه ناظر المدرسة لخالته السيدة هوثام فى اليوم السابع والعشرين من شهر نوفمبر 'أنه كان أفضل صبى التقيناه إلى الآن' ؛ ولكن الواضح أن تشارلز جرى سحبه على الفور ، وإيكال أمره إلى مدرس خصوصى ، أمضى معه شيئًا من الوقت فى فرنسا . [٤] وبعد خيبة أمله الرئيسى بدأ يركز على أمل ثانوى أو إن شئت فقل : فرعى ، كان قد راوده أثناء تجواله وحيدا وهو يمضغ أفكاره فى الأيام الخوالى ، التى كان قد أمضاها مع عمه فى ضيعة مارتلشام هول أو فى مزرعة السيد نيوسن Newson فى منطقة ضيعة ذيبرتون : Theberton فقد كرس تشارلز كل اهتمامه لدراسة التركيب الطباشيرى فى مقاطعة سفولك ، الأمر الذى أسفر عن استعداده وجاهزيته برسالة لتقديمها إلى الجمعية البريطانية فى جامعة كمبردج فى العام ١٨٦٢ الميلادى ، وكان موضوع تلك الرسالة الأنواع الصوَّانية التى جرى الحصول عليها من هكسون Hoxone . [٥]

(١) رسالة إلى الدكتور سكوت كلتى بتاريخ ٢٢ مايو عام ١٩١٢ .

(٢) رسالة إلى إى . جارنيت بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٢٢ .

(٣) رسالة إلى دى . جى . هوجارث ، بتاريخ ١٢ ديسمبر ١٩١٩ .

(٤) معلومات جرى الحصول عليها من سى . أم . دوتى .

(٥) الجمعية البريطانية ، التقرير الثانى والثلاثين ، ص ٧٢ .

كتب تشارلز بعد ذلك لأحد المراسلين العلميين يقول : "لقد اشتغلت فترة طويلة باستعمال الميكروسكوب ، وكان كل ذلك العمل ينصب على بلاد طباشيريه ، أو إن شئت فقل : من العصر الطباشيرى . (١)

فى الوقت ذاته وافق راعى تشارلز على التحاقه بكلية كايوس Caius، التى درس فيها كل من جده ووالده ، وفى شهر أكتوبر من العام ١٨٦١ الميلادى استقر مقامه فى كمبردج . ومن بين الذين التحقوا بالكلية السيد هـ . ت . فرانسس Francis، الذى عين مساعداً لأمين المكتبة فيما بعد ، والذى استعاد ذكرياته عن دوتى عندما التحق بالجامعة فقال :

" كان دوتى خجولا ، يوم أن كان طالبا ، كما كان عصبيا ومؤدبا جداً . لم يكن دوتى يعرف المرح إطلاقا ، وأنا لا أنكر أنه كانت لديه حاسة أو ذوق أدبى أو أية ميول من أى نوع كان . درس معى الأعمال الكلاسيكية . لم يكن يعرف سوى القليل جداً من اللغة اليونانية القديمة . وعندما نضج كان قد كرس كل اهتمامه للعلوم الطبيعية بشكل عام . يضاف إلى ذلك أنه جمع مجموعة كبيرة من حفريات سفولك ، كما كان ميالا للعراك فى صف الدراسات العلمية الجديدة ولصالحها . لم يكن تشارلز يميل كثيرا لحضور المحاضرات . وأنا كنت على وفاق معه ، مما جعله يقنعنى بالانضمام إليه فى القيام ببعض من تلك الرحلات الجيولوجية ، التى كان منها على سبيل المثال الرحلة التى قمنا بها لدراسة وفحص صلصال كيمردج Kimmeridge فى مدينة إيلى Ely، كما قمنا أيضا بزيارة بعض حفر الزلط فى بارنويل Barnwell، التى أصبت فيها بنوبة برد حادة ." (٢)

(١) ر . كيركباترك Kirkpatic ، من موظفى المتحف البريطانى . وهذه الرسالة بدون تاريخ ويحتمل أن يكون تاريخها فى العام ١٩١٢ .

(٢) رسالة مملاه على إس . س كوكريل فى كلية كايوس ، بتاريخ الثالث من أغسطس ١٩٢٢ .

هذا هو الأستاذ الدكتور جى . برادبيرى Bradbury، الذى كان زميلا له يوم أن كان طالبا فى كلية كايوس Caius، ولكنه كان أحدث منه بعام فى الجامعة ، يذكر برادبيرى [1] أن دوتى ، فى شهر أكتوبر من العام ١٨٦٢ الميلادى ، كان يعيش فى ضيعة هول فى طابق يطل على ترينتى لين Lane Trinity . كان دوتى يحضر المحاضرات التى كان برادبيرى يحضرها ، ونظرا لأن أى منهما كان لا يعرف التجديف أو يمارس الرياضة ، فقد تعودا على المشى سويا ، إذ كان دوتى يتحدث عن الجولوجيا ويقود صاحبه إلى حفر الطباشير بالقرب من شيرى هنتون .

لم يكن دوتى راضيا أبداً عن كليته . يروى عنه هـ . ت . فرانسس ، أن شخصا يدعى ديكسون Dickson، اعتاد ، بعد أن نزح عن سيدنى سوزيكس Sussex Sidney، التردد على سكنى كى أعطيه درسا خصوصيا ، وبعد مدة أعلن فجأة أنه لن يحضر لأخذ الدرس الخصوصى . قلت : "حسن ، ولكن ما الذى ستفعله ؟" وبعد شىء من التردد رد على قائلا : "الواقع أن صديقى دوتى يقول لى أنك تشغل من يجيئ إليك بالقواعد والنحو والأشياء التى من هذا القبيل ، وأنه من السهولة بمكان حفظ كل هذه الأشياء عن ظهر قلب" . وجاء ردى عليه : "إذن فالأفضل أن نفترق ، لأنى لا أستطيع تدريس اللغة اللاتينية أو اللغة الإغريقية فى ظل مثل هذه الشروط" . وفى السنوات التى تلت ذلك وعندما كان دوتى فى كمبردج أثناء ترحاله ، تذكرت ذلك الحادث ذات يوم ، وقلت لدوتى : "أنت تعلم يا دوتى ، أنك بذلت قصارى جهدك للتقليل من شأن السمعة التى كانت لى عندما كنت طالبا" . ولم يدرك دوتى أن ذلك كان يقال على سبيل التفكه والمزاح ، وبالتالى رد عليه بعصبية شديدة قائلا : "لماذا ، وما الذى قلته أو فعلته أنا فى ذلك ؟""

أنهى دوتى المرحلة الأولى من دراسته الجامعية فى العام ١٨٦٣ الميلادى ، وبالتالى أصبح له الحرية فى أن يراعى ميوله ، ولكن هذه الحرية لم تكن تعنى أن دوتى من حقه التركيز على دراسة شىء بعينه وإهمال بقية الأشياء . ونظرا لأن حبه الأول

(١) مذكره مقدمة إلى إس . س كوكريل من الأستاذ الدكتور برادبيرى (المولود فى ١٨٤١) . أنا مدين دينا كبيراً للسيد كوكريل للجهد الكبير الذى بذله فى إنقاذ هذه الذكريات البعيدة من ذكريات جامعة كمبردج .

كان هو الجولوجيا ، فقد كانت تراوده رغبة قوية فى مواصلة دراسته لها ولكن بطريقته الخاصة وفى الوقت الذى يحدده هو . ولكن سلطات كلية كايوس أصرت على مواظبه حضور دوتى المحاضرات من ناحية والمداومة على التردد على كنيسة الكلية من الناحية الأخرى ، ونظراً لأن تأثير نفوذ سيميون الدينى كان ما يزال سائدا فى جامعة كمبردج ، فقد بذل كل ما فى وسعه من أجل الحيلولة بين طلبه الكلية وبين دراسة الجولوجيا . ونظرا لأن امتحان بكالوريوس الشرف فى العلوم الطبيعية كان تقليدا جديدا فى الجامعة [1] ، ونظراً أيضا لحساسيه دوتى للأجواء غير المواتية ، ونظرا أيضا لقلة الأمل المرتقب فى أن يعمل هو بالطريقة التى يريدها ، نظرا لكل ذلك ، قرر دوتى هو وثلاثة آخرون من رفاقه فى كلية كايوس ، السير على الخط نفسه الذى سار عليه برادبيرى ، عندما حصل فى أوائل العام ١٨٦٣ على منحة دراسية ، حتمت عليه النزوح فى شهر أكتوبر من العام ١٨٦٣ إلى إحدى الكليات التى لا تُجْبِر الطلبة على حضور المحاضرات أو التردد على كنيسة الكلية . وفى اليوم الثامن من شهر أكتوبر من العام ١٨٦٣ ، حصل دوتى على منحة من الجهة نفسها ، نظرا لأنه كان قد حضر اجتماع الجمعية البريطانية لتقدم العلوم فى نيوكاسل فى شهر سبتمبر من العام ١٨٦٣ . فى ذلك العام بالضبط حصل دوتى على عضوية الجمعية البريطانية مدى الحياة وكما سبق أن قلنا ، كان دوتى قد تقدم برسالة جيولوجية إلى الجمعية البريطانية لتقدم العلوم . ويبدو أنه حصل على إعفاء من إقامته داخل كليته الجديدة ، والسبب فى ذلك هو تأجيل امتحان بكالوريوس الشرف إلى شهر ديسمبر من العام ١٨٦٥ ، وبالتالى شغل نفسه قبل نهاية ذلك العام بدراسة الأنهار الجليديه والتَّجلُّد فى النرويج . [2] وفى النرويج أقام دوتى فى مزارع ومنازل القائمين على أمر التزلج على الجليد ، كما شارك مضيفيه فى رحلات الصيد الطويلة التى كانوا يقومون بها ، وكان ينام فى أكواخ طويلة على الجبال . هذه الحقول الاسكندنافيه تزاحمت على ذاكرة دوتى عندما كان فى الجزيرة العربية بالقرب من بلاد تقع فى الجزء الأخير من الطريق الذى يربط بين القصيم ومكه . وفى

(١) معلومات من الدكتور ف . هـ . هـ . جيلمارد Guillmard الذى تخرج فى كلية كايوس فى العام ١٨٧٠ الميلادى .

(٢) راجع الرسالة المرسلة إلى دى . جى هوجارث التى جرى الاقتباس عنها من قبل .

شهرى يوليو وأغسطس من العام التالى ، وبناء على ما تقدم به للجمعية البريطانية فى الاجتماع الذى عقدته فى باث Bath فى العام ١٨٦٤ [١] كان دوتى يقيس باستعمال التيودوليت الأنهار الجليدية الرئيسية الموجودة فى الواجهة الجنوبية من منطقة جو ستيدال براى Brae Jostedals . يزداد على ذلك أن دوتى تمكن أيضًا من عبور جبل نيجارد Niggard الجليدى لمسافة ثلاثه أميال ، مستعينًا فى ذلك بأحد المرشدين ، وعصا حديدية مدببة ، وباستخدام قطعة من الحبال وبعض الأسياخ الحديدية المدببة . وبعد عبور الجبل إلى المسافة المذكورة تحول دوتى ناحية الشمال بعد ذلك ليشاهد جبلين جليديين كبيرين قال عنهما أنهما "لم يشاهدهما الرحالة مطلقًا .... والمناخ قطبى فى هذه المنطقة التى شاهدنا فيها البحيرة يغطيها الثلج فى منتصف شهر أغسطس ، شاهدناها وكان الجليد ما يزال كثيفا على نحو يتحمل مرور حيوان الرِّنَّة من فوقه ، وبخاصة بعد أن أزعجناه . ونمنا أسفل حجر من الأحجار فى وقت كان الجو فيه متجمدا فى الخارج .

قبل ذلك ، لابد أن يكون دوتى قد أمضى شيئًا من الوقت فى كريستيانيا Christiania، التى يدين بالشكر لأثنين من أساتذتها على المساعدة التى قدماها له فى الرحلة التى قام بها إلى "جو ستيدال برى" فى النرويج . وهذا هو السير إيدوين راى لانكستر Ray ، الذى انتقل ، فى شهر أكتوبر من العام ١٨٦٤ الميلادى إلى مدينة دوانتج - Downing "هذا مكان منظم وفريد البناء ، وغرفة جيدة وواسعة" فوجد دوتى Doughty مقيما فى مجموعة غرف مقابلة للغرف التى يقيم هو فيها ، واكتشف السير إيدوين أن دوتى شخصية "خجولة وهادئه إلى حد ما ، ولكنه كان كريما جدًا ومستعدا لمساعدتى " . كان دوتى ، فى ذلك الوقت ، يقرأ هربرت سبنسر Spenser Herbert كما كان ينفق الوقت والمال فى التنقيب فى هوكسون Hoxone بحثا عن الأدوات المصنوعة من الصوَّان – فى نفس المنطقة التى سبق اكتشافها بواسطة فرير .... Frere لم يكن دوتى

(١) محضر الجمعية البريطانية فى العام ١٨٦٦ . التقرير الرابع والثلاثين . ص ١٤٣ ، والذى نشر على شكل كتيب كامل بواسطة إدوارد ستانفورد ١٨٦٦ ، تحت عنوان عن الأنهار الجليدية فى النرويج ، مع بعض الملاحظات العامة ، ولوحة ، بقلم جورج مونتاجو دوتى . درجة البكالوريوس .

يشارك فى الأنشطة التى من قبيل التجديف وإنما كان يقرأ بنهم فى الجولوجيا وفى الفلسفة . [١]

ومن الواضح أن دوتى كان يحيا حياة منكفئا فيها على نفسه ومعزولا عن الآخرين . وهذا يدل على إنه كان صاحب عقلية جادة وذهن حاد ، وسلوك جاد أيضا ، هذا يعنى أيضا أن دوتى عقد العزم على تكريس نفسه لبلده ولعرقه . وهناك رسالة أرسلها إليه الأب الموقر هنرى هاردنجى Hardinge، كاهن كنيسة ذبيرتون يشير فيها إلى "الأبحاث والطموح النبيل المتعلق بهذه الأرض" ، ويقر فيها تعالى دوتى "وتساميه على مباهج هذه الدنيا واحتلال مكانة بين العظماء الذين عاشوا من أجل زينة هذه الأرض ومن أجل العظمة الإلهية الحقيقية" .

وفى شهر ديسمبر من العام ١٨٦٥ الميلادى ، تقدم دوتى لامتحان بكالوريوس الشرف ، وحصل على المرتبة الثانية فى فصل ثان قصير . وكان من بين الممتحنين تى . جى . بونى Bonney ، الذى طال عمره إلى أن أصبح أستاذا للجولوجيا وهو فى العقد العاشر من عمره فى جامعة لندن ، بل إن هذا الرجل ، وهو فى ريعان شبابه ، كان مدرسا لمادة الجولوجيا فى جامعة كمبردج تحت رئاسة آدم سدجويك Sedg- Adam wick . ولربما كانت لبونى علاقات تدريسية وتعليمية أيضا مع دوتى . على كل حال ، قال الأستاذ الدكتور بونى ، بعد ذلك ، بحوالىَ نصف قرن [٢] ، "أذكر أن دوتى عندما كان طالبا ، فقد امتحنته للحصول على درجة بكالريوس الشرف ، وندمت جداً لأنى لم أعطه المرتبه الأولى ، نظرا لتشوشه الذهنى . وأنت إذا ما سألته عن ياقة الروب الجامعى الذى يرتديه ، تراه يضع الروب كاملا عند قدميك" .

هذا يعنى أن دوتى كان يصر على قول الحقيقة ولا شىء سواها ، أو إن شئت فقل : الحقيقة كاملة .

(١) رسالة إلى إس .س . كوكيرل ، بتاريخ ٢٥ مارس ، ١٩٢٦ الميلادى .

(٢) ورد هذا الكلام ، ضمن حوار دار مع اس . س . كوكيرل فى اليوم الثامن من شهر فبراير من العام ١٩٢١ الميلادى .

وفى العام التالى ، وبعد أن استعاد دوتى تسجيل اسمه فى سجلات كلية كايوس Caius، جرى تخرجه فى العام نفسه . ثم شطب اسمه ثانية من جامعة كمبردج ، على ما يبدو ، دون أسف أو ندم . لقد استشعر دوتى أن المكان كان غريبا عليه ؛ وربما راوده الإحساس نفسه فى أى جامعة أخرى ، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى تمسكه الشديد بولائه لعرقه ولأمته مما جعله يهمل كل ماعدا ذلك .

وفى خريف العام ١٨٦٦ الميلادى نشر دوتى البحث الذى قدمة للجمعية البريطانية لتقدم العلوم والذى كان موضوعه الأنهار الجليدية فى جو ستيدال براى . هذا البحث يكشف عن أسلوب وحس أدبى ليسا مطلوبين من إناس يتقدمون بأبحاث من هذا القبيل ، كما يكشف البحث أيضا عن قدرة عالية على الملاحظة مقترنة بتسوده للصور التعبيرية . فهو يقول ، على سبيل المثال أن نهر نيجارد الجليدى : "يبدو وكأنه ينساب نحو الأسفل على شكل انحناءات جميلة ؛ بالرغم من أن ذلك يرجع فى حقيقة الأمر إلى تأرجح سطح هذا النهر بفعل بعض الفواصل الجبلية المدفونة تحت السطح ، إضافة إلى أن النهر يمر خلال قناة شبه مستقيمة . زد على ذلك ، أن سطح هذا النهر اللامع لا تعكره الأحجار أو الطين ، ولكن كتل الثلج تنهال عليه من القمة الثلجية العامة التى تبدو وكأنها تشكل غطاء رأس للصخور ، والتى تزحف نازلة إلى كل المنخفضات ، لتجعل مياه النهر تتدفق على شكل خيوط جميلة أسفل الصخور" .

ودوتى عندما يعزو قصه دراسته أيام شبابه إلى ما كان يعتبره هو الجمعية الرائدة المعنية بذلك الأمر ، إنما كان يطلب من الجولوجيا إخلاء عرش روحه الوحيد . إذ إنه لم يستطع بفضلها وحدها القيام بعمل بطولى من أجل بلده . وعندما ظهر دوتى بعد ذلك بثلاث سنوات ، أى فى العام ١٨٦٩ الميلادى كان ظهوره فى مكتبة بودليان Bodelian من أجل الدراسة ، لا الجولوجيا أو أى من العلوم الطبيعية ، وإنما لدراسة سلسلة طويلة من الكتب ، فى مجال مطلع الأدب الإنجليزى وفجره الباكر . [1] كتب دوتى فى العام ١٩٢٣ الميلادى يقول : أمضيت حوالى ستين عاما فى قراءة تراث كلا

(١) راجع الملحق رقم ١ الخاص بالكتب التى طلبها فى العام ١٨٦٨ والذى تكرمت عليه بها مكتبة بودليان ، عن طريق الدكتور إيه . إى . كاولى .

من شوسر النبيل وهربرت سبنسر Spenser Herbert الحبيب ؛ [1] وفى الإقرار الذى قدمه دوتى فى العام ١٩٠٥ إلى كبار موظفى مطبعة جامعة كمبردج أشار بصفة خاصة إلى العام ١٨٦٥ ، الذى تولدت خلاله ، فى داخل دوتى رغبة فى تأليف كتاب بطولى (يجرى من خلاله معالجة الأصول الرومانية ، والكلتية والجرمانية) . كان الدافع وراء كتابة مثل هذا الكتاب على العكس تماما من دوافع كُتَّاب القرن الثامن عشر فيما يتعلق بحالة الطبيعة . فقد كان من رأى دوتى أنه عندما يبرز الشمائل البسيطة والنبيلة لبدايات أمته ، فسوف يعيد أذهان إخوانه المواطنين إلى وطنية العقلية الواحدة ، التى استشعر أنهم ابتعدوا عنها . وهو ، فى هذا الصدد ، يتعين عليه التحدث إليهم بالشعر ، وحديثه بالشعر يحتم عليه أن يكون ذلك الحديث باللغة الإنجليزية النقية التى كان الناس يتحدثون بها قبل بداية الانحطاط الوطنى – أو إن شئت فقل : تلك الإنجليزية التى استعملها سبنسر فى زمن بدأ بعده الانحطاط . ونحن عندما نبحث فى كل ما كتبه أو ألفه دوتى ، أو من خلال رسائله أو مؤلفاته المنشورة ، عن التنويه إلى شكسبير أو ميلتون أو الإشارة إليهما أو الاقتباس عنهما ، نجد أنفسنا نخرج من ذلك البحث ونحن صفر اليدين . لقد كان شكسبير وميلتون من العصر الفضى ؛ أما سبنسر فكان آخر سفراء العصر الذهبى .

كان دوتى يعلم علم اليقين أن تحقيق ذلك الحلم لابد أن تسبقه سنوات من الدراسة . وهذا لا يتطلب منه مجرد التعمق فى تاريخ العصور الجيولوجية القديمة ، وإنما يتعين عليه تسود مركبته المختارة ، ألا وهى اللغة الإنجليزية القديمة . يضاف إلى ذلك أن صحته لم تساعده ، فضلا عن ضآلة موارده ؛ والسبب فى ذلك أنه خلال الفترة ما بين تركه لجامعة كمبردج فى العام ١٨٦٥ الميلادى ورحيله عن إنجلترا فى العام ١٨٧٠ تكبدت أسرته الكثير من الخسائر بسبب الكساد الذى حدث فى الاستثمارات ؛ واعتبارا من ذلك التاريخ بدأ ولد الأكرمين ، يعانى من الحاجة والعوز . [2]

(١) رسالة إلى د . جى . هوجارث .

(٢) معلومات من حرم تشارلز مونتاجو دوتى .

فى تلك الأثناء يبدو أن دوتى لم تكن لديه خطة محددة اكثر من مجرد دراسة تاريخ اللغات إن تيسر له ذلك . من هنا بدأ عمله فى جامة لندن حينا وفى جامعة أكسفورد حينا آخرا ، إلى أن ظهر أخيرا فى العام ١٨٦٩ الميلادى وسمح له بالإنضمام إلى جمعيه بودليان . وخلال صيف وربيع العام ١٨٦٩ اختفى اسم دوتى من سجلات بودليان ، ولكن اعتبارا من شهر نوفمبر يبدأ اسمه فى الظهور فى تلك السجلات مرة أخرى إلى نهاية شهر يناير من العام ١٨٧٠ . [١] وأثناء دراسته فى بودليان بدأ حبه لكل من أراسموس Erasmus وجوزيف سكاليجر Scaliger Joseph، وتمنى أن يعمل فى المكان الذى عملا فيه [٢] ، وهنا قرر السفر إلى هولنده ، ولذلك غادر إنجلترا فى أواخر العام ١٨٧٠ الميلادى .

والذى لا شك فيه أن دوتى كان يتطلع إلى البقاء فى الخارج فترة طويلة من الزمن ، تقدر بعدة سنوات ، وبعد أن قام برحلة إلى هولندا اتجه جنوبًا صوب البحرالأبيض المتوسط . على أمل أن يتسنى له رؤية بلاد كانت شعوبها وحضاراتها عوامل مهمة فى صنع حضارة بلاده ، وربما تسنى له أيضا دراسة تاريخ تلك الشعوب ولغاتها فى ظل ظروف تناسب حالته الصحية من ناحية وإمكانياته المادية من الناحية الأخرى . تعلم دوتى فى هولندا اللغة الهولندية ، ومن بعدها انتقل إلى إيطاليا ومنها إلى إسبانيا ، ثم انتقل بعد ذلك إلى أثينا . وفى شتاء العام ١٨٧٠ الميلادى وصل دوتى إلى بلاد الكتاب المقدس (الإنجيل) ومن تلك الأراضى سافر فى فصل الشتاء على ظهر دابة إلى القاهرة ومنها إلى شبه جزيرة سيناء التى أمضى فيها ثلاثة أشهر ، ثم سافر مرة ثانية على ظهر دابة إلى قرية معان التى سمع فيها عن مدائن صالح .

ترى ، ما هى المدة التى يحتمل أن يكون دوتى قد أمضاها فى مصر ؟ هذا أمر لا يمكن تأكيده أو القطع به ، وأقصى ما يمكن قوله أنه ربما وصل إلى الإسكندرية ،

(١) لم أنجح فى اكتشاف أى شيئ أكثر من ذلك عن حياة دوتى فى أكسفورد . كانت حياته بلا أدنى شك حياة عزلة ووحدة .

(٢) راجع الصفحة التالية . العبارة الواردة أعلاه مبنية على الحديث الذى دار مع دوتى (فى الفترة ما بين ١٩١٠ و ١٩١٩) .

كانت أول زيارة لدوتى إلى مصر فى العام ١٨٧٤ الميلادية ، وهو يتحدث فى أوراقه عن خبرة مر بها على الطريق المتجه من السويس إلى الدير اليونانى فى العام ١٨٧٤ . لو كانت هذه الزيارة قد حدثت مع بداية تجواله فى شبه جزيرة سيناء ، فذلك يعنى أن مقامه فى مصر كان قصيراً جداً . وهو يقول إنه أمضى ثلاثة أشهر فى سيناء .

استعداد دوتى للقيام برحلته ضمن قافلة الحج

على طريق الاستعداد للقيام برحلته فى الجزيرة العربية ارتدى دوتى ثياب عربى مسيحى من دمشق ، وخالط دوتى ، طوال سته أشهر بدو الصحراء حتى يتمرس على تقاليدهم ولغتهم وعاداتهم ، ويعود نفسه على تلك الحياة . واستهدافا منه لتحسين لغته العربية استقر دوتى فى دمشق ، وارتدى ثياب العربى المسيحى فى تلك المدينة ، واستأجر شخصا مسيحيا يدعى عبدو كحيل Kahil A bdu لكى يدرس له اللغة العربية ، طمعا فى تحسينها ، وأسر دوتى إلى ذلك الكحيل بأنه ينوى الدخول إلى الجزيرة العربية والبقاء فيها مدة ثلاث سنوات ، كما أسر له أيضا أنه ينوى بعد ذلك مواصلة سفره إلى الهند ، أملا فى أن يقيم فى النهاية فى إيطاليا ، على أن يقوم بزيارة دمشق مرة أخرى بعد عشر سنوات .

على صعيد إقامة دوتى فى منطقة الاستعداد للرحلة استأجر دوتى لنفسه من شخص لبنانى ، اسمه ميخائيل زرزور غرفة فى الطابق العلوى من منزله ، الذى كان يقع بالقرب من الكاتدرائية الأرثوذكسية اليونانية . كان دوتى يهدف من وراء اختيار ذلك السكن إلى تحاشى الناطقين باللغات الأوروبية اللهم باستثناء القنصلية البريطانية هى والبنك العثمانى . وشغل دوتى نفسه بالعمل اليوم بطوله فيما عدا ساعتين فقط من بداية فترة العصر ، قال مدرسه إنه كان ينفقهما فى المشى نظرا لأن هذا النوع من الرياضة البدنية يكون أفيد بكثير عنه فى ساعات الفجر أو الغسق كما يعتقد أهل الشرق . كان دوتى يجلس مع مدرسه مدة ساعة واحدة فى وقت الظهيرة ، وكان يضع ساعته على الطاولة أمامه حرصا منه على عدم ضياع ولو دقيقة واحدة فيما لا يفيده أو يعود عليه بالمنفعه ، وكان كثير السؤال عن الاشتقاقات والمعانى الأصلية للكلمات .

وعلى امتداد ذلك النظام الذى استمر ثمانية أشهر ، استطاع دوتى ، كما يقول مدرسه ، تحصيل الكثير بل والكثير جداً من مفردات ومكونات المحادثة العربية ، وذلك على نحو أسرع من أى طالب من الطلاب الأوربيين الذين سبق لذلك المدرس التعامل معهم ، لإكسابهم مهارة المحادثة العربية . فى حين كان دوتى يقلل منه أهمية مسأله سرعة اكتساب وتسوده للمحادثة العربية ، وهو يقول فى هذا الصدد : "أنا لم أستطع تحدث لغتهم الصعبة بلا لحن أو أخطاء" . عزف دوتى خلال فترة تعلمه هذه عن استقبال زواره ، كما قلل أيضا عدد أصدقائه إلى أن تمكن تماما من تسود اللهجة المحلية . وكان من بين أصدقاء دوتى فى تلك الفترة شخص يدعى ديب Dib الحاج نيقولا ، وهو من باعة الكتب ، وزوج أخت صاحب المنزل الذى استأجر دوتى فيه غرفة فى الدور العلوى . وفى مرحلة لاحقة راح دوتى يخالط المسلمين أكثر وأكثر وتعرف على كثير من الشخصيات البارزة من أمثال الأمير عبد القادر الجزائرى . وكتاب دوتى 'ترحال فى صحراء الجزيرة العربية' فيه الكثير من الإشارات المهمة إلى الحياة فى دمشق ، والتى تجعل القارئ يتخيله وهو يسير فى ميدان 'الجامع الكبير' أو 'خلال الفُوطات' على امتداد نهر بردى ، أو وهو يسير مع هذا أو ذاك من معارفه . وبذلك تمكن دوتى من الالتقاء بشخص عرض عليه أن يأخذه لا إلى مدائن صالح وإنما إلى المدينة (المنورة) ومكة . (*)

ذاع صيت دوتى ، تحت اسم خليل ، الذى طلب إلى بائع الأختام أن يحفر له ذلك الاسم على ختم حتى يتسنى له استعماله فى الجزيرة العربية . وقد اختار دوتى ذلك الاسم لأنه معروف فى الأديان كلها التى يعد سيدنا إبراهيم أبا لها ، إضافة إلى أن ذلك الاسم لا يشيع إطلاقه على أطفال المسلمين . وعندما سئل لماذا لم يختار اسما مثل حسن ، أو أى اسم آخر من الأسماء الإسلامية المميزة الأخرى ، أجاب أنه لم يكن يود التظاهر أو الكذب بأنه من المؤمنين . Believer

مع دخول صيف العام ١٨٧٦ الميلادى ، توصل دوتى مع ديب بائع الكتب هو وبعض أقاربه ، إلى بعض الترتيبات الخاصة بإقامته طوال شهور الصيف الحار فى

(*) ترحال فى صحراء الجزيرة العربية ، الجزء الثانى ص ٩٣ .

منطقة البكرينة Bakrina بالقرب من الزبدانى Zebedani فى لبنان ، والتى وطن نفسه فيها على المصاعب التى يتوقع أن يلاقيها خلال تجواله فى الصحراء ، بأن راح يمتنع طوال ساعات متواصلة عن الطعام ، وبلا نوم ، معتمدا فى معيشته على مجرد الخبز الجاف ، والزبيب والتمور .

عندما عاد دوتى إلى دمشق كان الحجاج قد بدءوا يتجمعون بالفعل استعدادا للحج . وموسم الحج فى ذلك العام كان سيبدأ قبل اثنا عشر يوما من الموعد المحدد . وهنا عقد دوتى العزم على أن يحاول قدر المستطاع ، أن لا تتركه قافلة الحج وراءها مرة ثانية ، الأمر الذى جعله يستميت فى محاولته اللحاق بالقافلة . حاول دوتى التوسل إلى الوالى ، و لكن الوالى أحال الموضوع إلى القنصل البريطانى . الذى رد عليه بأن مثل هذا العمل لا يدخل فى نطاق اختصاصه . بل إن القنصل البريطانى أكد "إننى إذا ما قمت بعمل خطير من هذا القبيل فإنه لن يوليه أى شيئ من الاهتمام أو الانتباه !" ويتعجب دوتى من جاجو Jago ذلك القنصل البريطانى قائلا : إنه الرجل الذى عرض على فى الماضى أن يقدم لى يد العون فى ترحالى !' وهنا يبدو أن دوتى ركز اهتمامه على محمد سعيد باشا ، أحد معارفه السابقين ، الذى تقرر أن يتولى قيادة قافلة الحج فى ذلك العام ؛ هذا الباشا اقترح على دوتى ، أنه إذا كان يود الذهاب إلى مدائن صالح ، فإن بوسعه أن يذهب إليها برفقة الأورطة ، أو إن شئت فقل : مع القوة العسكرية أو بالأحرى الطابور العسكرى ، الذى يغادر دمشق بعد شهرين من انطلاق قافلة الحج ، ويسرع المسير على أمل مقابلة قافلة الحج فى مدائن صالح عند العودة ، حتى يتسنى إعادة تزويد القافلة بالمؤن والاحتياجات وتغيير الحراس . ولكن مشكلة المشاكل أن تلك الأورطة ، لا تبقى فى مدائن صالح سوى ثلاثة أيام ؛ ولكن دوتى كان يعلم أن تلك المدة لن تكون كافيه لإنجاز العمل المطلوب أو تعويض المتاعب والآلام التى تكبدها .

كان راعى قلعة مدائن صالح الذى سبق أن التقاه دوتى فى دمشق ، قد وعد باستقباله فى القلعة ، إذا ما شاءت له الأقدار أن يصل إلى هناك . ولكن راعى القلعة هذا ، واسمه محمد على المحجوب بلغ من صغر الشأن حداً عز عليه مساعدة النصرانى (دوتى) على الالتحاق بقافلة الحج .

حاول بعض أصدقاء دوتى إثنائه عن عزمه تماما ؛ بعض آخر نصحه بأستئجار دابة ، والالتحاق بقافلة الحج ، معتمداً فى ذلك على الخط ، وعادة العثمانيين فى تقبل الأمر الواقع والرضوخ له . وأزف موعد رحيل القافلة ، دون أن يحسم دوتى أمره ؛ بل وصل الأمر إلى حد أن باشا الحج استأنف المسير فى مقدمة القافلة . ولكن فى آخر لحظة ظهر لدوتى مقوِّم (*) فارسى مسكين عرض عليه إركابْ "الفرنجى" وتوصيله إلى مدائن صالح وذلك عن طريق التنكر بين الحجاج الفرس الذين سينضمون إلى قافلة الحج على شكل موكبين قويين ، غير ظاهرين فى مؤخرة القافلة . أصدقاء خليل المسلمون قالوا له : إذهب معهم ؛ وباشا الحج ، لا يمكن أن يخرج أى إنسان من القافلة ، بسبب ديانته ، قبيل الحرم بمسافة قصيرة ؛ والمقصود بكلمة الحرم هنا هو الأراضى المقدسة . وهنا جرى الاتفاق على وجه السرعة مع ذلك المقوم الفارسى على الأجر المطلوب الذى قدر بحوالى ١٠٠٠ قرش ، أى ما يعادل عشرة جنيهات انجليزية . وفى عصر يوم الخميس الموافق لليوم العاشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٧٦ الميلادى ، قام جمع صغير من الناس بوداع شخص كان "يرتدى ثياب رجل سورى بسيط الحال" ، وبصحبته بعضا من الخبزْ "والقراقيش" اللازمة للسفر بطريق القوافل ، ويركب بغلا ويخرج من البوابة الجنوبية فى دمشق . وبذلك يكون دوتى قد أحسن التصرف لأن ذلك كان هو الطريق الوحيد والأمثل إلى تحقيق مبتغاه . وكان من العبث من البداية إلى النهاية محاولة العثور على أحد يتحمل مسئولية فرد مسيحى بريطانى وحيد على قافلة الحج . ولو قدر لمجلس الجمعية الجغرافية البريطانية مناقشة قضية دوتى ، ولو قدر لها الاستعانه بوزارة الخارجية ، لكانت قد منيت بالرفض ، بل وربما وصلت إلى السيد جاجو القنصل البريطانى فى دمشق ، برقية عاجلة تطلب إليه فيها وزارة الخارجية إحباط ذلك المشروع وإفشاله ؛ وبالتالى كان يمكن أن يترتب على ذلك مراقبة دوتى ليلا ونهارا فى دمشق ولربما أيضا حيل بين دوتى وبين الخروج بمختلف صوره ، إلى أن تغيب القافلة عن الأنظار على طريق الحج وسط الصحراء . كان أولئك الاصدقاء الذين نصحوه بالمضى فى سبيله معتمدا على الخط وعدم التوسل إلى أى أحدهم الأعرف .

(*) المقوم : واحد من ملاك الإبل (المترجم) .

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

يقع الكتاب فى ١١٠٠ صفحة من القطع الكبير مقسمة إلى جزئين ، ويشتمل الجزء الأول على اثنين وعشرين فصلا بالإضافة إلى ملحق للفصول الرابع والخامس والسادس ، يشتمل على النقوش النبطية التى اكتشفها دوتى فى مدائن صالح ، مترجمة بواسطة م . ارنست رينان Renan Ernest . ومعها بعض الملاحظات بقلم م . فيلبى بيرجر Berger Philippe وملاحظات أخرى بقلم الأستاذ جى . دى . لايفنج ، ثم ملاحظة بقلم الأستاذ مكالستر ، وملاحظة بقلم السير هنرى . سى . راولنسون . وآخر ملاحظة بقلم باركلى هيد . Head ويختم دوتى الجزء الأول بملحق عن العمارة النبطية المنحوتة فى مدائن صالح .

تقع فصول الجزء الأول من الكتاب تحت اثنين وعشرين عنوانا : أرض الصوَّان : عمون وموءاب ، جبل إيدوم : صوَّان الجزيرة العربية ، رحلة الحج فى الجزيرة العربية ، مدائن صالح ، مدائن صالح والعلا ، العلا والخريبى والمدائن ، عودة الحج ، حياة العرب الرُّحل في الصحراء ، الحياة فى القرية الجائلة ، البدو الرُّحَّل فى الصحراء : زيارة إلى تيماء ، الفُكارة يتجولون هاربين فى ديرة أخرى ، السلام فى الصحراء ، زيارة المدائن مرة ثانية . ممر الحَّرة ، التجوال فوق الحرَّة مع الموءاهيب ، حياة البدو الرُّحَل فى الحرَّة ، الأعراب يتركون الحرَّة ، وينزلون إلى محطة الصيف فى وادى تربة ، مخيم الموءاهيب الصيفى فى وادى تربة . زيارة العلا ، الفُكارة يمضون الصيف فى الحجر ، تيماء ، حصاد التمر ، الجبل ، حائل .

يشتمل الكتاب فى جزئه الثانى على ثمانية عشر فصلاً وثلاثة ملاحق منها ملحق للفصل الحادى عشر وملحق للفصل الرابع عشر ثم ملحق للجزء الثانى ككل عن جيولوجيا الجزيرة العربية . فصول الجزء الثانى من الكتاب تقع تحت العناوين التالية :

مدينة ابن الرشيد ، الحياة فى حائل ، الرحيل عن حائل : الرحلة إلى خيبر . "بلاد الرسول" . ، الخيابره ، حياة المدينة فى خيبر ، أرض الجالاً : تراث المدينة الخاص ، الخلاص من خيبر ، الرحلة الصحراوية إلى حائل . نقل النصرانى منها ، صحارى كل من الشمرً وحرب فى نجد ، الرحلة إلى القصيم : بريدة ، عنيزة ، الحياة فى عنيزة .

طرد المسيحى الغريب من عنيزة ، وإعادته إليها ، حروب عنيزه . طرد القحطان من القصيم ، البدء من القصيم ، بصحبة قافلة الزُّبد المتجهة إلى مكة ، الطائف . الشريف ، أمير مكة ، وادى فاطمة ، ويختم دوتى الجزء الثانى بقائمة لمصطلحات الكتاب والكلمات العربية التى وردت فيه .

استطاع دوتى من خلال هذين الجزئين نقل الصحراء بكاملها إلى قارئ هذا الكتاب : الصحراء بتلالها ، وسهولها ، بحقولها البركانية التربة ، وقراها ، وخيامها ، ورجالها وحيواناتها . إنها الجزيرة العربية الحقيقية : أرض هذه البلاد بروائحها وبأقذارها وبنبلها وحريتها أيضا . يضاف إلى ذلك أن الكتاب خال من العواطف أو الوجدان ، كما أنه ليس مجرد شيء بديع يسر الخاطر مثل سائر كتب الأسفار الشرقية . والكمال الذى أصابه دوتى فى هذا الكتاب أمر مهلك ومدمر ، فقد وصل الأمر إلى حد استحالة حذف أى جزء مهما صغر ، من هذا الكتاب الثمين ، فضلا عن أننا يستحيل علينا إضافة أقل القليل إليه .

صحيح أن هناك كثير من الإنجليز الموهوبين الذين تجولوا فى الجزيرة العربية ، وصحيح أيضا أن السواد الأعظم من هؤلاء كتبوا كتبا عن تلك الجزيرة ، ولكن أحداً منهم لم يعطنا عطية ثرية مثل تلك التى أهدانا دوتى إياها ، كما أن مزايا تلك الهبة مقصورة على دوتى وحده ولا ينازعه أو يشاركه أحد فيها . هذا الدوتى واجهته عقبات ومصاعب كثيرة فصحراء الجزيرة العربية منذ ما يزيد على مائة وثلاثين عاما لم تكن كريمة مع الغرباء بالشكل التى هى عليه الآن . يضاف إلى ذلك أن تركيا كانت ما تزال قوية وذات بأس هناك ، إضافة إلى أن الحركة الوهابية كانت قدأبقت على حيوية التشدد بين القبائل . وبالرغم من كل ذلك كان دوتى رائدا أوروبيا من ناحية ومسيحيا من الناحية الأخرى فى كل الأماكن التى دخلها . يضاف إلى ذلك أنه كان ضعيف الحال ، إذ وصل إلى الجزيرة العربية وحيداً قادما إليها من دمشق بصحبة قافلة الحج ، التى خلفته وراءها فى مدائن صالح ، ولم يكن معه أى شيء من التوصيات أو التزكيات . وراح يضرب بين قفار الصحراء مرتديا زى إنسان فقير الحال ، مترحلا كما لو كان فقيرا معدما ، ومحاولا إعالة نفسه عن طريق ممارسة الطبابة العقلانية والمنطقية فى مجتمع غلب عليه التمسك بالتعاويذ والرقى والأسحار .

وبناء على ما تقدم ، يتصور الإنسان أن كتاباً مثل تجوال فى صحراء الجزيرة العربية ، الذى ألفه دوتى منذ مائة وثلاثين عامًا تقريبًا ، يمكن أن يكون غير دقيق ، فى أيامنا هذه ، فيما يتعلق بالأشياء الصغيرة التى من هذا القبيل ، ولو كان دوتى قد اعتمد فى ذلك الكتاب ، على الناحية العلميه فقط ، التى تركز بل وتعتمد على التعبير بدلاً من الاعتماد على روح الأشياء ، لو كان قد فعل ذلك ، لولىّ زمان ذلك الكتاب وأصابه التقادم . ومن حسن الحظ ، أن جمال الحكى ، وحيويته ، هو والشخصيات المنتخبة ، فضلاً عن المناظر الطبيعية الأرضية ، ستبقى إلى أبد الآبدين ، وستجعل ذلك الكتاب فريداً ولا مثيل له ، بل إنه سيصبح أساسًا لا غنى عنه فى مسأله فهم الصحراء فهمًا حقيقيًا . وعلى امتداد تلك السنوات المائة والثلاثين عجزت التغييرات المادية عجزًا تامًا عن جعل تلك السنوات جديرة بتسجيلها تسجيلاً مفصلاً بحق .

يضاف إلى ذلك أن النقوش التى جرى العثور عليها فى مدائن صالح بدأت دراستها اعتبارًا من زمن دوتى ، على أيدى الآباء الدومينكان فى القدس ، وبذلك أمكن إضافة القليل إلى الكنز الذى قدمه لنا . زد على ذلك ، أن حجر تيماء العظيم الذى بقى فى الحدَّاج (البئر) ، جرى البحث عنه بواسطة الرحالة الذين جاءوا بعد دوتى ، ثم جرى فى النهاية شراء ذلك الحجر ونقله إلى أوروبا . وجمع دوتى لتلك النقوش العربية البدائية عمل لم يسبقه إليه أحد ؛ ومع ذلك يظل دوتى هو صاحب الفضل فى اكتشاف تلك النقوش . يُزاد على ذلك أن خارطة دوتى هى وبعض من معلوماته الجغرافية جرت إضافتها بل وربطها بالمعلومات التى توفرت من بعده .

لغة الكتاب وأسلوبه

"ليس من السهل أو المريح أن يضطر المرء إلى الكتابة عن كتاب "ترحال فى صحراء الجزيرة العربية". والسبب فى ذلك أنى درست ذلك الكتاب على امتداد عشر سنوات ، وأصبحت على قناعة تامة بأن هذا الكتاب ليس من قبيل الكتب الأخرى ، وإنما هو كتاب من نوع خاص ، أو إن شئت فقل : هو كتاب مقدس من نوعه . ومسألة

أن أتحول الآن إلى ذكر محاسن هذا الكتاب ومساوئه سوف يصبح أمرًا سخيفًا لا يقبله العقل ، ومبلغ علمى أن كل من قاموا بالترحال فى الجزيرة العربية قبل دوتى ، أو حتى بعده ، جاء مدحهم أكثر من قدحهم لهذا الكتاب" (١) .

لم يكن لورانس وحده هو "صاحب ذلك التقييم ، إذ أن إدوارد جاميت Edward Gamett، صاحب النسخة المختصرة للكتاب الذى بلغ عدد صفحاته ١١٠٠ صفحة من القطع الكبير ، والتى كان يتطلع من ورائها إلى ذيوع صيت الكتاب أكثر وأكثر وانتشاره على نطاق واسع ، اضطر إلى موافقه كاتب سيرة دوتى ، على رأيه الذى مفاده ، أن كتاب 'ترحال فى صحراء الجزيرة العربية' له "أسلوب غريب حافظ على طابعه على امتداد ٦٠٠٠٠٠ كلمة على نحو يصعب الحذف منه أوحتى الإضافة إليه . وخير شاهد على ذلك يتمثل فى الاقتباس التالى المأخوذ من الفصل الأول المعنون : أرض الصوَّان : عمون وموءاب . هذا الاقتباس يطلع علينا بذلك النصرانى ، أو إن شئت فقل المسيحى ، وهو بصحبة ٦٠٠٠ من الحجاج المسلمين ، الذين يترحلون خلال هذه الأرض الجرداء القاحلة ، على ظهور قافلة من الإبل ، متجهين إلى مكة فى خريف العام ١٨٧٦ الميلادى .

"طلع الفجر علينا ونحن لم نغادر المكان بعد . وبعد طلوع النهار ، فككت الخيام ، وجلبت الإبل إلى مرافقيها وتوقفت إلى جانب أحمالها . ورحنا ننتظر انطلاق المدفع إيذانًا ببدء حج ذلك العام . كانت الساعة تقترب من العاشرة عندما سمعنا انطلاق صوت دانة المدفع ، وعندها ، وبدون أى فوضى أو اضطراب ، جرى رفع الصناديق وتحميلها وربطها فوق الجمال ، ووضعت الأجور والأتعاب فوق الإبل الباركة ، وهنا راح آلاف الركاب ، الذين كانوا من ضمن بلدان القافلة ، راحوا يركبون فى صمت وسكون . وبعد أن أصبح كل شىء فوق ظهور الدواب والإبل بقى الجمَّالة واقفين على أرجلهم ، أو جالسين على أعقابهم لنيل اللحظات الأخيرة من الراحة : هؤلاء الجمَّاله ، هم وخدم المخيمات والخيام الآخرون ، يتعين عليهم أن يقطعوا ثلاثمائة فرسخ سيرًا على نعالهم ،

(١) توماس إدوارد لورانس ، مقدمة الطبعة ، التى نشرت فى العام ١٩٠٨ .

بالرغم من إصابتهم بالإعياء ؛ ومكتوب عليهم أيضًا أن يقيسوا الأرض فى الاتجاه الأعلى ، مرة ثانية ، على أقدامهم المرهقة ، عند العودة من الأراضى المقدسة . وبعد انطلاق دانه المدفع الثانية ، التى جاءت بعد انطلاق الدانة الأولى بلحظات قصيرة ، شاهدنا هودج الباشا يتحرك فى المقدمة ، ومن بعده رئيس طابور القافلة : وبعد حوالى خمسة عشر أو عشرين دقيقة ، يتعين علينا ، نحن الذين يكون مكانهم فى المؤخره ، التوقف بعض الشيء ، إلى أن يخف الطابور الطويل من أمامنا ؛ وعندها نروح نضرب إبلنا ، وبذلك يكون الحج الكبير قد بدأ يتحرك . ويتقدم القافلة ثلاثة أو أربعة جمال ويندر أن يكونوا خمسة ؛ يصل طول هذا الجمع البطىء من الرحال والدواب والماشية قرابة الميلين ، ويصل عرض قافلة الحج إلى حوالى مائة ياردة فى الأرض المنبسطة المفتوحة . ونقلاً عنهم (وربما يكون فى ذلك تجاوز للحقيقة) فإن عدد الحجاج يقدر هذا العام بحوالى ٦٠٠٠ حاج ؛ أكثر من نصفهم رجال جاءوا للحج سيراً على الأقدام ؛ وتضم القافلة أيضًا ١٠٠٠٠ دابة من مختلف الأنواع ، التى تشكل الإبل القسم الأكبر منها ، يليها البغال ، وخيول الركوب ، ثم الحمير وأخيراً قليلاً من ذلول العرب العائدين إلى مناطقهم فى حماية القافلة الكبيرة . نحن نسير فى أرض خراب خالية ، سهل من الزلط والحصى ، لا يظهر فيه أى شيء ، ولم نر فيه طريقًا أمامنا . جبل حرمون ، أصبح الآن خلفنا ، ونشاهد أكتافه الضخمه المكونة من الجليد والصقيع وهى تطبق على الأفق الشمالى : وبدو الصحراء الرُحل فى الشرق يعتبرون ذلك علامة كبيرة من العلامات الدالة على سوريا ، وهم يطلقون على ذلك الجبل اسم 'طويل الثلج' ، أو إن شئت فقل : 'الثلج العالى أو المرتفع' (الذى لا يخبرونه كثيراً فى أرض الجزيرة العربية التى لا تسقط فيها الأمطار وتضربها حرارة الشمس بصورة دائمة) . كان اليوم يوافق يوم الأحد ، عندما بدأ ذلك الحج ، وكان الطقس جيداً ، إذ كان ضوء نهار الصيف السمنجونى لم يذو بعد فى السماء السورية ؛ كان ذلك اليوم يوافق اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٧٦ الميلادى ؛ وبعد أن قطعنا اثنى عشر ميلاً ، (ذلك القليل ، الذى بدا لنا كثيراً فى البداية) وصلنا إلى المحطة الصحراوية التالية ، حيث جرى نصب الخيام التى سبق أن خلفناها وراءنا فى المزيريب ، ها هى الخيام منصوبة على شكل صفوف بيضاء فى الأرض الجرداء الواسعة . معنى ذلك أن جماعة

الخيام الخفيفة كانوا يسبقون مسيرة القافلة كل يوم ، على أن تراعى كل جماعة المكان الذى يخصص لها من بداية الرحلة إلى نهايتها . وبعد أن وصلنا إلى تلك الخيام تفرقت الجماعات وراحت كل واحدة منها تتجه إلى محل الإقامة المخصص لها : وهم يطلقون على المخيم الذى يكون من هذا القبيل اسم الرامتا Ramta .

تحرص القافلة ، فى بداية أية رحلة من الرحلات الطويلة ، أن تكون مسافه الوقفة الأولى قصيرة ؛ إذ تبدأ الدواب فى استشعار حمولاتها ، ويبدأ المسافرون يستشعرون مشاق الركوب . وفى عيدان الحطب القليلة (التى يجرى جمعها فى عجالة أثناء السير) ، ومن الأدغال الصحراوية ، يسارع المسافرون إلى شب النار أمام الخيام ، كل الخيام ؛ ونظراً لعدم وجود أحجار فى المنطقة ، بحيث تكون فى متناول المسافرين ، كى يضعونها تحت الأوانى كما يفعل البدو ، يصبح وجار الحاج عبارة عن حفره فى الأرض حتى يتسنى وضع أوانيهم فوقها ، ووضع الجمار تحتها من الناحيتين ، وبقليل جداً من حطب الوقود يجهز الحجاج طعامهم البسيط . وفيما يتعلق بالخيام العسكرية الخاصة بالقوات المصاحبة للحج والخاصة أيضاً بالجمّالة المسلحين ، (غالبيتهم من نجد) التى يطلقون عليها اسم العجيل فيجرى نصبها بطريقة دائرية بحيث تحيط بمخيم القافلة الكبيرة على بعد ستين خطوة من الجانبين : وفى كل خيمة من تلك الخيام تتواصل الخفارة حتى مطلع الفجر وطلوع النهار . ويجرى أثناء الليل تعليق فانوس من الورق أمام كل خيمة من الخيام ليظل مشتعلاً طول الليل ، فى الوقت الذى يقف أحد الحراس ممسكًا ببندقيته ، ولا يسمح الحراس بمرور أى أحد دون اعتراض طريقه . وأهل الحضر يخافون البدو خوفًا شديدا ، كما لو كانوا هم شياطين تلك الأرض الخراب ، كل واحد منهم على استعداد لمهاجمة أولئك المسافرين لأداء فريضة الحج ؛ ولا يجرؤ أى واحد من هؤلاء البدو على الخروج على المنطق فى الظلام مع أولئك الرماة المتوحشين مخافه أن يردوا عليه بالرصاص والطلقات التى تتردد أصواتها بين الحين والآخر ، فى اتجاه الصحراء طوال الليل ؛ وفى كل لحظة يتصايح أولئك الحراس وهم يرددون الواحد بعد الآخر كلمه (حرس !) ، التى يقولون لها بلغة القوم Kerakô Ke-rakô والتى يردون عليها بكلمة (مستعدون) التى يقولون لها بلغة القوم . Haderûn ولم أرى أى ضابط من الضباط وهو يقوم بالمرور على الحرس . وأكثر الخفارات ، أو

إن شئت فقل الورديات ، هى الوردية الأولى نظراً لأن المخيم يكون ما زال صاحيًا . وصراصير الغيط هذه يبدأ فقدان أصواتها وصريرها عند منتصف الليل تقريبًا ، عندما أرى ، وبدون أى سبب ، أن الغالبية العظمى من أنوارهم قد أطفئت ؛ والمرجح هنا أن الذين لا ينالون أجراً على ذلك يوفرون على أنفسهم مشقة هذا العمل : إذ يقوم هؤلاء الجنود الفقراء ببيع ما لديهم من شموع فى سوق الحج .

ومع أول دخول للمساء يكون هناك شىء من المرح متمثلاً فى قرع الطبول وشىء من العزف الرقيق على الناى ، فضلاً عن أغانى الرعاة الحلوة التى يتغنى بها الفرس فى خيامهم من حولنا ؛ وفى بعض الخيام الأخرى نسمع أناسًا آخرين وهم يتغنون بواحدة من المقطوعات الدينية . وفى كل خيام الحجاج هناك فوانيس من الورق بداخل كل واحد منها شمعة مشتعلة ؛ ولكن المخيم مرهق بكامله ، وسرعان ما يخلد إلى الراحة . وينام الحجاج فى ملابسهم التى يرتدونها ، بضع ساعات قليلة إلى أن يسمعوا صوت انطلاق المدفع مؤذنًا ببداية الصباح ؛ وهنا ينهض الحجاج بعد ذلك مباشرة لاستئناف المسير ، وهم لا يعرفون مدى التبكير أو التأخير ، لأن هذا الأمر مثل بقية الأمور الأخرى يعتمد على انشراح الباشا من ناحية وعلى الطقس الجيد من ناحية أخرى .

وعند الساعة الخامسة والنصف انطلقت دانه المدفع مؤذنه ببداية المرحلة الثانيه من رحلة الحج . كانت سماء الليل مظلمة وتهطل منها زخات المطر عندما بدأنا التحرك ، ولذلك جرى رفع أوانى الزيت المعلقة فوق عمد من الحديد حتى يتسنى لحامليها إضاءة الطريق ، كان الرجال يحملون تلك الأوانى على أكتافهم . كشف الفجر الأرض الجرداء القاحلة التى تمتد أمامنا ، وفيها طبقة من الحصى والغرين فوق الحجر الجيرى .

درب الحج ، ليس طريقًا ممهداً ، وإنما عبارة عن مدقات عديدة تجوفت بفعل مشى أقدام الإبل عليها ، مرة كل عام ، وذلك على امتداد أجيال كثيرة من الحج متباينة الأعراف والأجناس كانت تقطع ذلك الطريق . المسارات الكثيرة المتساوية التى تتجمع مع بعضها البعض ، يشبهها أحد الشعراء العرب القدامى بشرائط العباءة (البشت) العربيه المقُلمّة . والمعتاد أن تطلق دانة عند منتصف النهار تقريبًا ، لتكون بمثابة

إشارة إلى التوقف ؛ وبعدها نتوقف لنيل قسط يسير من الراحة ، ولكن لا يجرى إنزال الأحمال من على الدواب فى تلك الوقفة ، بل إنها تظل واقفة وأحمالها من فوقها . وهنا يشب الرجال النار فى حين يقوم المتدينون منهم بأداء الصلاة مولين وجوههم شطر مكة . الوقفة التى من هذا القبيل تدوم عشرين دقيقة ؛ وفى بعض الأيام تكون أقل من ذلك أو قد تلغى مطلقًا ، وذلك حسب مرئيات باشا الحج ، أما فى حالات اليسر وتوفر الوقت فقد تطول الوقفه لتصل إلى أربعين دقيقة . وفى ذلك يقول (القائمون على أمر القافلة) : إن "الباشا هو سلطاننا" . وبعد أن سرنا عشرين ميلاً ظهر على يسارنا مفرق ، أو إن شئت فقل : البرج الثانى أو المحطة الثانيه من محطات المزيريب الكبيرة ، غير أنها مخربه ومهجورة مثل المفارق أو إن شئت فقل : الأبراج أو المحطات الأخرى . هذه القلاع عبارة عن محطات للمياه تقوم على أمرها حراسه ضعيفه ؛ وربما بنيت تلك القلاع قبل قرنين أوثلاثه قرون من الزمان ، كما أنها مبنية بطريقة جيدة . وبئر الماء يقع فى وسط القلعة ؛ ويجرى تشغيل عمود ذلك البئر عن طريق بغل ، يتحرك جيئة وذهابًا لملئ الخزان أو الصهريج ، أو شئت فقل البركة التى تقع خارج جدران البئر . الأدوات اللازمة لذلك ، هى والبغال يجرى جلبها من دمشق مع قافلة الحج وتستمر معها إلى أن تصل إلى مدائن صالح . وتجرى حراسة تلك الخزانات حراسة جيدة ، إذ تعتمد عليها حياه القافلة الكبيرة . ولا يسمح لأى عربى (من البدو المترحلين) بالاقتراب من ذلك الماء أو الانتفاع به ؛ والحرس الذى يحمى تلك المياه يستطيع فتح النار على أولئك البدو من داخل البرج ، الذى يتمترسون فيه خلف أبواب مجلدة بألواح من الحديد ، يحتمون بها على امتداد العام من سفاهة هؤلاء البدو الرحل ووقاحتهم . هذه القلاع تقف متفرقه ، كما لو كانت سفنًا فى وسط الصحراء الشاسعة ؛ كما أنها ليست مبنية أو مقامة على مسافات متساوية من المخيمات ، ولكن إنشاءها يعتمد على توفر المياه ؛ وفى أغلب الأحيان قد تصل المسافة بين القلعة والأخرى مسيرتين أو ثلاث مسيرات . وأصعب أجزاء طريق الحج فيما قبل المدينة (المنورة) يتمثل فى الجزء الذى يتمثل فى أربع أو خمس مسيرات خلال الأراضى المرتفعة التى يجىء ارتفاعها فى المرحلة الثانية بعد ارتفاع أرض مدائن صالح ؛ التى لا يوجد فيها أبيار أو ينابيع ، اللهم باستثناء قلعتين مدمرتين فيهما بركتان أو إن شئت فقل : صهريجين ، يجرى ملؤهما من مياه السيول ،

إلى حد أن هاتين البركتين ، تظلان جافتين ، طوال عدة سنوات ، فى هذا البلد الذى يندر فيه سقوط الأمطار . وفى كل عام يجرى ، من مدائن صالح ، إيفاد النَّجاب ، الذى هو جمّال من البدو الذين يركبون الإبل ، ليحمل إلى دمشق ، فى شهر رمضان ، أى فى فترة ما قبل الحج ، أنباء توافر الماء أو عدم توافره فى بركة أو إن شئت فقل : صهريج أو خزان دار الحمرة ، كما يحمل معه أيضًا أخبارًا عن حالة الماء فى القلاع التالية لقلعة دار الحمراء . فى هذا العام حمل النجَّاب أخبارًا طيبة (إذ امتلأت البركة بفعل الصقيع الذائب ومياه السيول) ثم عاد النَّجأب Najjab ومعه أمر مباشر من الباشا ، (نظرًا لعدم وجود المفوضين ضمن قوات الحراسة) بوضع حراسة على ذلك الماء . ولكن فى السنوات التى يشح فيها الماء فى تلك البركة ، تحمل إدارة الحج معها من دمشق حوالى ١٥٠٠ قربة من قراب الماء ، لتوفير احتياجات القافلة من الماء لمدة خمسة أيام : ويجرى ملئ تلك القراب المصنوعه من جلود الحيوانات بالماء ، على حساب الحكومة ، من المساقى البعيدة ، عن طريق السقائين من البدو المترجلين .

تجاوز أفراد القافلة تلك القلاع المخربة والمهجورة وهم يلعنوها فيما بينهم وبين أنفسهم ، تلك اللعنات التى يوجهونها ، بالرغم من أنى لا أستطيع القطع بذلك – إلى ضباط الحج وهم يرددون : "كل البرك تسربت ولم يعد هناك ماء للحجاج ؛ فى كل عام تدفع الخزانة أموالاً مفروض أنها تستخدم فى صيانة المبانى والمحافظة عليها ؛ هؤلاء الباشاوات المختلسون يبتلعون المال العام ؛ بوسعنا الآن جلب الماء من أى خزان من الخزانات الموجودة قبل مدينة معان ، ولكن بعد المسيرات الطويلة يتحتم قطع مسافات طويله لجلب الماء ، والماء الذى يتم الحصول عليه بهذه الطريقة يكون غير صالح للشرب" . معروف أن الاختلاس التركى مشهور بسوء سمعته فى موسم الحج ، وهو يهدف إلى تهدئة بعض المسيحيين اليونانيين وبعض السوريين الذى يعملون دومًا فى مجال الصرافة فى دمشق خلال موسم الحج الإسلامى ، : – وهذا قانون من قوانين الطريق ، مفاده أن الجميع يجب أن ينظروا من خلال أصابعهم أو إن شئت فقل : يغمضون عيونهم . أما وعورة الطريق فمردها إلى أن القسم الأكبر من مخصصات الخزانة ، جرى إنفاقه على الحج ولم يعد ما يكفى لصيانة الطريق . كما قامت الحكومة العثمانية الفقيرة بسحب المخيم الذى أقامته فى معان منذ فترة قصيرة ، كما خفضت

المخصصات المحددة لتلك القلعة تخفيضاً كبيراً ، ولكن يقال إن التكلفة السنوية لطريق الحج تقدر بحوالى ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، تجرى جبايتها على شكل ضرائب من المقاطعة السورية ، التى يتشاكى فيها المسيحيون ، متعللين إن إجبارهم على دفع تلك الضرائب من دخولهم الضعيفة لمجرد الوفاء بتلك المقدسات الإسلامية ، إنما هو شكل من أشكال الإرهاب والاستبداد . والصرة من بين الخسائر التى تعانى منها الإمبراطورية العثمانية ، وهى تدفع للبدو الرحل حتى يمكن المرور من أراضيهم بسلام : كانت تلك الصرة تدفع لنصف القسم الغربى من الجزيرة العربية ، ومع ذلك كان الأمر أكثر من ذلك ، نظراً لأن الحرس المرافق : كان يتعين عليه ، بالرغم من دفع الصرة ، المرور 'بحد السيف' أو إن شئت فقل : المرور بالقوة من تلك الأراضى التى يسكنها أولئك البدو الرُّحَّل المكروهين . يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء البدو المعدمين لا يتنازلون عن شىء من معاشهم السنوى ؛ ذلك المعاش الذى كان يدفع لآبائهم ، يرون أن من حقهم الحصول عليه من خزينة 'السلطان' ، وإذا ما قدم لهم مبلغ أقل من المستحق يقولون : "إن الباشاوات غير الأمناء قد بلعوه !" ، وبالتالى يتعين وقف مرور الحج ، ولا يستطيع أحد إقناعهم ؛ بالرغم من أن الدولة (إمبراطورية السلطان) كانت فى طور الاحتضار . كانت تتردد بين هؤلاء البدو أنباء مفادها أن سلطان الإسلام ليس سوى واحد من الأتراك ومن دم غريب : وهم ينظرون إلى ذلك السلطان كما لو كان نبيًا ، أو إن شئت فقل : ملك الكون بحكم إرادة السماء ، وأن الجميع يتعين عليهم الخضوع والولاء له . هؤلاء البدو الرحل كانوا ، عندما يتذمرون ، يهجمون على مسيرة الحج ، أو يسطون على ركن من أركان مخيم الحج أثناء الليل ، أملاً فى سرقة غنيمة من الإبل : والبدو فى عملياتهم العسكرية يقومون بمحاصرة المضايق التى يستطيعون منها بفضل مائة من بنادقهم البدائيه إيقاع خسائر جسيمة فى أرواح الكثيرين من المشاركين فى قافلة الحج ؛ وقد استطاع أولئك البدو ، بهذه الطريقة ، إنزال الهزيمة ، بجيش مصرى من جيوش إبراهيم باشا ، فى الجزء الجنوبى من البلاد ، وعلى أيدى بدو قبيلة حرب .

بقى أن أقول إن الكتاب لا يرتبط بتاريخ بعينه ويستحيل أن يطاله التقادم . وترجمه هذا الكتاب إلى العربية تعد إضافه ثرية للمكتبة العربية .

صبرى محمد حسن

مقدمة

ليس من السهل أو المريح أن يضطر المرء إلى الكتابة عن كتاب 'ترحال فى صحراء الجزيرة العربيه' والسبب فى ذلك أننى درست ذلك الكتاب على امتداد عشر سنوات ، وأصبحت على قناعة تامة بأن هذا الكتاب ليس من قبيل الكتب الأخرى ، وإنما هو كتاب من نوع خاص ، أو إن شئت فقل : هو كتاب مقدس من نوعه . ومسألة أن أتحول الآن إلى ذكر محاسن هذا الكتاب ومساوئه سوف يصبح أمرا سخيفا لا يقبله العقل . ومبلغ علمى أن كل من قاموا بالترحال فى الجزيرة العربية قبل دوتى أو حتى من بعده جاء مدحهم أكثر من قدحهم لهذا الكتاب . وكل الجديد الذى يمكننا الوصول إليه عن الجزيرة العربية سنجده فى هذا الكتاب . وكلما زاد ترحالنا فى الجزيرة العربية ازداد أيضًا احترامنا لبصيرة مؤلف هذا الكتاب من ناحية وتقديرنا لأحكامه وحِرْفيته من الناحية الأخرى . ونحن لا يسعنا إلا أن نسمى ذلك الكتاب بإسم "دوتى" البحت البسيط ، لأن الكتاب من الروائع ، إضافة إلى أن شخصية "دوتى" فى الكتاب لا يكتنفها الشك من ورائها أو حتى من خلفها . واقع الأمر ، أنه من المدهش حقا أن ندرك من خلال الكتاب شخصية دوتى الواقعية والحية . والكتاب لا يرتبط بتاريخ بعينه ويستحيل أن يطاله التقادم . وهذا هو أول كتاب عن عرب الصحراء ، ولا غنى لأى إنسان عنه ؛ أما مسألة عدم الإحالة إليه ، أو عدم التوفر على قراءة ، فذلك يرجع إلى ندرة الكتاب . وسبب هذه الندرة الشديدة هى رغبة الطلاب الدارسين للجزيرة العربية ، فى أن يقتنى كل واحد منهم نسخة من هذا الكتاب الثمين .

ونحن عند هذه المرحلة لسنا بحاجة إلى أن نوصى الطلاب والباحثين بالرجوع إلى دوتى وقراءة ذلك الكتاب . ومرد ذلك أن هؤلاء الطلاب والباحثين جميعا يعرفون من هو دوتى . ونحن على ثقة ، من أن الطبعة الحالية ستروق ، من ناحية ، لعامة الناس الذين يتطلعون لقراءة عمل نثرى كبير ، أو إن شئت فقل : سجل تجوال شاعر إنجليزى ، على

امتداد عامين بين البدو ، وربما ستجعل من الناحية الأخرى ، وزنا كبيرا لرأى الرحالة المحدثين فى الجزيرة العربية . لقد تحدثت عن هذا الكتاب مرات ومرات مع كثير من الرحالة ، واتفقنا جميعا على أننا نجد الصحراء بكاملها فى هذا الكتاب : الصحراء بتلالها ، وسهولها ، بحقولها البركانية التربة ، وقراها ، وخيامها ورجالها وحيواناتها . ودوتى يتكلم عنها كما لو كان يجعلها تنبض بالحياة ، مستخدما فى ذلك الكلمات والعبارات على نحو مناسب جداً ويصعب معه فصلها عن الذاكرة . إنها الجزيرة العربية الحقيقية ، أرض هذه البلاد بروائحها وبأقذارها ، وبنبلها وبحريتها أيضا . الكتاب خالٍ من العواطف أو الوجدان ، كما أنه ليس مجرد شيئ بديع يسر الخاطر ، مثل سائر كتب الأسفار الشرقية . الكمال الذى أصابه دوتى فى هذا الكتاب . أمر مهلك ومدمر ؛ فقد وصل الأمر إلى حد استحالة حذف أى جزء ، مهما صغر ، من هذا الكتاب الثمين ، فضلا عن أننا يستحيل علينا إضافة أقل القليل إليه . لقد جعل دوتى كل الجزيرة العربية دائرة من دوائر اختصاصه ، ولم يترك لمن جاءوا بعده سوى الجزء الصغير الذى يُعنى به المتخصصون . هذا يعنى أننا بوسعنا كتابة كتب مستقله عن أجزاء من الصحراء أو عن شىء من تاريخ تلك الصحراء ؛ ولكن يتعذر علينا ، بل ويستحيل علينا تماما رسم صورة كاملة أخرى ، غير هذه الصورة ، لتلك الصحراء ، فى زماننا هذا ، نظرا لأن الصورة الحالية فيها كل ما يمكن قوله ، وبلسان أستاذ كبير .

صحيح أن هناك كثيرا من الإنجليز الموهوبين الذين تجولوا فى الجزيرة العربية ، وصحيح أيضا أن السواد الأعظم من هؤلاء كتبوا كتبا عن تلك الجزيرة ، ولكن أحداً منهم لم يعطنا عطية ثرية مثل تلك التى أهدانا دوتى إياها ، كما أن مزايا تلك الهبة مقصورة على دوتى وحدة ولم يعاونة أحد فيها ، وقد واجهت ذلك الرجل عقبات كثيرة . فصحراء الجزيرة العربية منذ أربعين عاما لم تكن كريمة مع الغرباء بالشكل التى هى عليه الآن . يضاف إلى ذلك ، أن تركيا كانت ما تزال قوية وذات بأس هناك ، إضافة إلى أن الحركة الوهابية كانت قد أبقت على حيوية التشدد بين القبائل . ومع ذلك كان دوتى رائدا ، أوروبيا من ناحية ومسيحيا من الناحية الأخرى ، فى كل الأماكن التى دخلها . يضاف إلى ذلك أنه كان ضعيف الحال . فقد وصل دوتى الجزيرة العربية وحيداً قادما إليها من دمشق مع قافلة الحج ، التى خلفته وراءها فى مدائن صالح ولم

يكن معه أى شىء من التوصيات أو التزكيات . وراح يضرب بين قفار الصحراء مرتديا زى إنسان فقير الحال ، مترحلا كما لو كان فقيرا معدما ، ومحاولا إعالة نفسه عن طريق ممارسة الطبابة العقلانية والمنطقية ، فى مجتمع غلب عليه التمسك بالتعاويذ والرقى والأسحار .

ثم أعياه المرض بعد ذلك . كما ضعفت صحته واعتلت مع بداية رحلته ، يضاف إلى ذلك أن مناخ هضبة الجزيرة العربية مناخ مزعج ومتعب ، جراء شدة حرارته وشدة برودته أيضا ، فضلا عن سوء حال الغذاء والتغذية فى تلك الجزيرة . معروف أن دوتى تربى فى إنجلترا ذلك البلد المنتج الذى ينعم بالغذاء الكامل والوفير . حل دوتى ضيفا على الخيام العربية ، ليشاركهم كرمهم وضيافتهم الهزيلة ، وليقتات بالقليل الذى كان يكفيه ويسد رمقه . لقد أطعموه مما كانوا يأكلونه وسقوه من ذلك الذى كانوا يشربونه . كانت أجسادهم النحيلة تعيش معتمدة على موسم الربيع الذى تجود وتتوفر فيه ألبان النِّياق (إناث الجمال) ؛ كما كانوا يقتاتون أيضا بوجبات هزيلة من التمر أو اللحم خلال شهور القحط من العام ، ولكن هذه الحمية الغذائية كانت ، عند دوتى ، بمثابة جوع قد يفضى إلى الموت . تلك وجبات تكفى فقط لسد رمق رجل يجلس طول الوقت ولا يتحرك ؛ أما دوتى فقد كان دائم الحركة والتجوال ، بل إنه كان يركب راحلته ، فى معظم الأحيان ، من شروق الشمس إلى غروبها ، إن لم يكن إلى منتصف الليل ، فى مسيرات اضطرارية عبر بلاد صخرية ومرهقة ، فى وهج الشمس الحارق ، أو رياح شديدة ومضنية . ومعروف أن التجوال فى الجزيرة العربية ، فى أحسن الأحوال ، بصحبة مجموعة من الخدم ، وركوبات جيدة ، وخيام جيدة ، ومطبخ جيد أيضا ، هو بحد ذاته عملية شاقة ومضنية . وقد واجه دوتى تلك التجربة الشاقة متبعا فى ذلك أسلوب أهل تلك البلاد ، برغم سوء أحواله البدنية ، وعاد إلى وطنه بصيد أثمن مما جئنا به جميعا . لقد بذل ذلك الرجل جهداً خارقا وعجيبا بحق .

ودوتى فى بعض المواضع ، فى الكتاب ، يعتذر عن أخطائه وعيوبه ، عندما يقول عن كتابه ، إنه رؤية رجل جوعان ، أو إن شئت فقل : رجل شديد الإعياء ؛ وبالرغم من كل ذلك ، يبدو دوتى وكأنه سجل كل شىء . صحيح أننا جميعا أصابنا الإعياء الشديد عندما كنا فى الصحراء ، صحيح أيضا أن البعض منا جاعوا فى الصحراء أيضا ،

ولكن أحدا منا لم ينتصر على جسمه مثلما فعل دوتى . لقد استطاع ذلك الرجل تسخير مصاعبه لمصلحته ، بأن راح يعتصر تلك الصعوبات محولا إياها ، على صفحات كتابه ، إلى إحساس بالتوتر والانعزال ، سوف يظل يذكر كل من قاموا بالترحال فى الجزيرة العربية بلحظات التعاسة التى مر بها كل واحد منهم . وبالرغم من كل ذلك فإن دقة ملاحظة دوتى لم تهن أو تضعف خلال تلك المناسبات التى تهيأت له على امتداد هذين العامين الخطيرين . فنحن نرى دوتى وهو يواصل عرضه علينا لظروف حكايته هى وأشخاصها وأماكنها ، دون أن يضيع أو يفلت منه عنصر التشويق : وكونه استطاع الوصول إلى ذلك الحد ، فهذا يعنى شهادة حق كبيرة ، لا على حدة ذهنه فحسب ، وإنما على جاذبيه الجزيرة العربية الخيالية وكذلك جاذبية العرب الخيالية عليه وعلينا على حد سواء .

كتاب دوتى يقف شاهداً أمينا على قوة شخصية ذلك الرجل . فقد كشف الرجل لنا عن نفسه بطريقة غير مباشرة من خلال صفحات الكتاب (الذى يستحيل أن يكون سقيما أو متهافتا ، كما يستحيل أن يكون مستبطنا أو متعمقا فى فحص التصرفات) . دون رغبة منه فى ذلك ، والسبب فى ذلك أن طريقة السرد قائمة بذاتها ، ولا يجرى من خلالها استعراض الخير أو الشر ، هذا يعنى أن دوتى رفض أن يكون بطلا لقصته . ومع ذلك كان دوتى بحق بطلا لرحلته ، فضلا عن وقوف العرب على مدى عظمته . وأنا ، نفسى ، أمضيت تسعة أشهر فى غربى الجزيرة العربية ، وأنفقت القسم الأكبر من تلك المدة فى الأماكن التى سبق أن مر بها دوتى ، واكتشفت أن ذلك الرجل تحول إلى تاريخ فى الصحراء . كان ذلك منذ ما يزيد على أربعين عاما مضت ، وهذه الفترة الزمنية كفيلة ، فى بلادنا ، بنسيان الكثير . هذه الفترة تصبح أطول نسبيا فى الصحراء ، والسبب فى ذلك أن مصاعب الحياة العامة لا تهيئ للجسم الفرصة التى يستطيع من خلالها استعادة قواه ، بالتالى تقصر أعمار الرجال وتضعف ذكرياتهم عن الغرباء من ناحية ، وعن الأحداث الخارجة عن نطاق شجرة الأسرة من ناحيه أخرى . الزيارة التى قام بها دوتى كانت لآبائهم أو أجدادهم ، ومع ذلك فإنهم جميعا يعرفون أخبار تلك الزيارة . والعرب يحكون عن دوتى حكايات كثيرة ، بل إنهم يحولون تلك الشخصية الرائعة والعظيمة ، إلى أسطورة . تلك الشخصيه العاقله جداً ، واللطيفة جداً ،

التى حلت عليهم كما لو كانت بشيرا من العالم الخارجى . كما اصطبغ خيال العرب بعزوف دوتى عن المنغصات العامة لإنسانية هؤلاء الناس . كان دوتى من النوع الصبور جداً ، ومن النوع الكريم جداً ، كما كان عطوفا أيضا ، الأمر الذى جعله يحظى بثقتهم دون أدنى شك .

العرب يقولون عن دوتى إنه لم يكن يبدو لهم متفاخرا إلا بمسيحيته ، وإنه لم يحدث أن تدخل حتى ولو لمرة واحدة فى عقيدتهم . يقولون أيضا إنه كان عليما ، ولكنه كان بسيطا فى فنون العيش والحياه ، كما كان جاهلا بالإبل ، كما كان يعطى ثقته للجميع فضلا عن كونه صموت لا يحب كثير الكلام . ويقولون عنه أيضا : إنه كان أول رجل إنجليزى يلتقونه . ويقولون أيضا : أنه حثهم على إعطاء الفرصة لغيره من أبناء جلدته ، والسبب فى ذلك أن العرب وقفوا على طيبته وشرفه وأمانته . وبذلك يكون دوتى قد شق طريقا لدينه . ثم جاء من بعده السيد ولفريد بلنت **Blunt Wilfrid**، ثم السيدة جرترود بل **Bell Gertrude**، وهما شخصيتان أخريان قويتان . هذان الأثنان أكدا منظر الصحراء الذى رسمه الإنجليز ، كما أوجدا للإنجليز أيضا موقعا متميزا أصبح يشكل مسئولية خطيرة أمام كل من جاء بعدهما . وبفضل هؤلاء البشر أصبح الشخص الإنجليزى يجد الاحترام والترحيب فى الجزيرة العربية ، وأصبح بوسعه أيضا التنقل والترحال ، غير المريح بطبيعة الحال نظرا لوعورة سطح الأرض وقسوته ؛ كما أصبح بوسعه أيضا السير فى الطرق والدروب التى استهلها دوتى بذلك القدر من الآلام والأوجاع . ولم يحظ أى بلد فى الدنيا بمثل هذا العدد من السفراء . هذا يعنى أن الناس فى هذه البلاد ينظرون إلينا بمنظار الجدارة والتقدير اللهم إلا إذا أثبتنا نحن عكس ذلك عن طريق أخطائنا الخاصة . وأرجو ألا يكون ذلك نصبا تذكاريا خفيفا لتخليد ذكرى ذلك الرجل الذى ترك انطباع فضيلته الواضح على شعب بدوى مترحل ، ومن خلال تجواله العشوائى على امتداد عامين من الزمن .

نحن نُصَدِّرُ نوعين رئيسيين من الإنجليز ، يقسّمان نفسيهما ، فى البلاد الأجنبية إلى فئتين متعارضتين . والبعض منهم يستشعر بحق نفوذ المواطنين من أهل البلاد ، وبذلك يحاولون تكييف أنفسهم مع روح مثل هذا البلد وجوه العام . وهذه الفئة تكتب فى داخلها كل ما يمكن أن يتعارض أو يتضارب مع العادات والأطياف المحلية ، حتى

تتمكن من الانخراط المتواضع داخل الصورة . معنى ذلك أن أهل هذه الفئة يقلدون المواطن ويحاكونه قدر المستطاع ، وبذلك يستطيعون تجنب الاحتكاك فى الحياة اليومية . ومع ذلك ، لا يمكن لمثل هذه الفئة تجنب أو تحاشى الآثار المترتبة على التقليد والمحاكاة ، ذلك الشىء الأجوف الخاوى الذى لا معنى له . صحيح أنهم يشبهون الناس ، ولكنهم ليسوا منهم ، كما أن تباينهم غير الواضح يضفى عليهم نفوذا كاذبا ، أو إن شئت فقل : نفوذا مصطنعا يكون أكبر بكثير مما يستحقونه . وهم عندما يلجأون إلى المحاكاة والتقليد إنما يحثون المواطنين الذين يعيشون بينهم على السير فى مسارات غريبة وغير طبيعية إلى الحد الذى يجعل المواطنين أنفسهم يقلدونهم فيما بعد . الفئه الثانية من الإنجليز التى نصدرها إلى البلاد الأجنبية ، هى الفئه الأكبر . وهذه الفئه تحاول ، فى ظل ظروف المنفى تلك ، فرض شخصيتها عن طريق ذكريات الحياة التى تكون قد خلفتها وراءها . هذه الفئة تحاول أن تجد لنفسها ملجأ فى إنجلترا التى كانت لهم فى يوم من الأيام ، وذلك على سبيل رد فعلهم على الظروف الأجنبيه التى تحيط بهم . وأهل هذه الفئة يؤكدون على عزوفها ، وعلى مناعتها الأمر الذى يزيد من انعزالهم ووحدتهم وضعفهم . وهم يؤثرون فيمن يعيشون بينهم عن طريق رد الفعل ؛ أو إن شئت عن طريق رسم نمط أو عينة مبسطة للإنجليزى الفاضل ، أو إن شئت فقل : الأجنبى بمعنى الكلمة .

ودوتى يعد بحق عضوا بارزا من أعضاء الفئه الثانية ، أو إن شئت فقل : الفئة الأنظف . وهو يقول إنه لم يكن شرقيا فى وقت من الأوقات ، وبالرغم من أن الشمس جعلت منه عربيا ؛ يضاف إلى ذلك أن قسما كبيرا من قيمته يكمن فى تمايزه . فرؤيته إنجليزية قلبا وقالبا : ومع ذلك فإن تصرفاته الظاهرية ، وسلوكياته ، وكذلك لباسه بل وحتى كلامه ، كل ذلك كان عربيا ، بل وعربيا بدويا مترحلا من بدو الصحراء . ومعروف أن الصحراء تعوق وتمنع الأحكام الناتجة عن تدبر كل الظروف والملابسات ؛ والسبب فى ذلك أن قحولة الصحراء واتساعها يجعلان سكانها يتسمون بالصراحة والمكاشفة . والناس فى هذه الصحراء يصرحون بما فى دواخلهم فجأة وبلا تحفظ . يضاف إلى ذلك أن كلام الصحراء واضح ومحدد . وقد أصيب دوتى بتلك العدوى واستشعر تلك الصراحة استشعاراً شديدا (قلة قليلة من صحف الترحال هى التى تركز على

حساسية دوتى الفائقة فى استشعار كل من المناخ والجغرافيا وليس الصدق وعدم المواربة) . يضاف إلى ذلك أنه كان يدلى برأيه بين القبائل مثل واحد منهم . بل إنه حتى عندما كان فى القرى كان يحافظ على شكل من أشكال الصراحة المفاجئة التى لا تعرف المواربة ، عندما كان يحتج على كلام الحضر السياسى الخشن . ودوتى جاء أصلا من بلاد الإنجليز المستقرة ، ولذلك فإن تفضيله للبدو الرّحل قد يبدو أمرا غريبا ؛ ولكن هذا الإنجليزى ، وبخاصة عندما يكون سليل إحدى العائلات ، يكتشف أن القبائل تروق له أكثر من القرى ، ومن هنا نجد أن دوتى كان بدويا صريحا فى كل الأماكن التى نزل بها أو حل عليها .

يضاف إلى ذلك أن تغيير نغمة حديثه وأحكامه يتسم بالمفاجأة مثل التغييرات المناخية تماما . والصحراء عند دوتى مكان لتمرير الشعور والأحاسيس ، مكان للإدلاء بالآراء الصريحة المباشرة . والناس فى الصحراء لا يعلقون إعمال عقولهم على امتداد الأيام ، حتى يتمكنوا من الوصول إلى معدل متوسط من العدالة والتوازن فى الفكر . هم يصفون الطَّيب على الفور بأنه طيب ، ويقولون للخبيث ، على الفور أيضا ، إنه خبيث . وقد عكس لنا دوتى صورة ذلك فى نفسه هو . فهذه فقرة تحتوى على حكم قاسٍ ؛ ثم نجده فى الفقرة التالية يفيض عطفا وحنانا . هذا يعنى أن سجل الأسفار الذى جاء به دوتى عامر بتجربته هو ، وأننا عندما نقرأ الكتاب كله ، وليس مجرد جزء منه ، تتكون لدينا رؤية عَطُوف متعددة الجوانب ، من جميع أبعادها ، عن كل من رافقوه طوال هذين العامين العاصفين المليئين بالأحداث .

زد على ذلك أن الواقعية فى الكتاب أمر مكتمل . وها هو دوتى يحاول أن يقص على القارئ الحقيقة الكاملة والدقيقة لكل ما شاهده ورآه . وإذا ما كان هناك تحيز فى الكتاب فهو ضد العرب ، لأنه أحبهم حبا جما ؛ لقد بلغ دوتى من التأثر بجاذبية العرب ؛ وعزلتهم واستقلالهم مبلغا جعله يشعر بالسعادة عندما يعرض فضائلهم من خلال التعبير الدقيق عن نقائضهم وعيوبهم . وهاهو دوتى يقول : "لو قدر لإنسان تمضية شيئ من الوقت مع العرب فستظل مشاعره بعد ذلك متعلقة بالصحراء" . لقد خبر دوتى هذه الحياة بنفسه ، خبر معيار البداوة ، هذا النظام الذى يعد أقذع النظم الاجتماعية وأقساها ، والذى عمل دوتى جاهداً ، من جانبه ، على تقديم صورة لنا عن ذلك النظام

بألوانه وأطيافه الحقيقية ؛ مفادها أن ذلك النظام هو حياة بالغة الصعوبة ، وشديدة الفراغ ، وشديدة الإنكار للجميع اللهم باستثناء أقوى الرجال وأمضاهم عزما . وليس هناك شيء أقوى أو أكثر واقعية من ذلك السجل المكتوب الذى أورده دوتى عن أحداثه ومصاعبه اليومية وعن المشاعر التى راودته وهو يشق طريقه . والصورة التى أوردها عن الساميين ، وهم غارقين حتى عيونهم فى محفل الشر ، ولكن جباههم كادت تلامس السماء ، هذه الصوره تلخص فى إيجاز وتركيز قوة هؤلاء الساميين وضعفهم ، كما توجز أيضا التناقضات الغريبة فى فكرهم ، وهذا هو ما يستثير فينا الفضول على وجه السرعة عندما نلتقى بأولئك الساميين أول مرة .

ونحن عندما حاولنا حل لغز هؤلاء العرب ، ذهب الكثيرون منا مذاهب شتى ليغوصوا فى أعماق مجتمع أولئك العرب ، ليقفوا على صلابة عقيدتهم ، ذلك القيد الذى يشبه قيود الرياضيات ، التى تنفر وتشمئز منا من خلال شكلها الذى لا يتعاطف معنا . والساميون لا يعرف سجل رؤاهم تدرج الألوان من الأسود إلى الأبيض . والسبب فى ذلك أنهم أناس لا يعرفون سوى الألوان الأولية ، وبخاصة الأبيض والأسود ، ولذلك فهم يرون الدنيا على شكل خط واحد . هذا يعنى أن الساميين أناس يحتقرون الشك ، كما يحتقرون أيضا منغصاتنا الحديثة . هؤلاء الساميون لا يفهمون المصاعب التجريدية ، أو إن شئت فقل المصاعب العقلانية ، التى تواجهنا ، كما لا يفهمون أيضا جلدنا لأنفسنا .

هذا يعنى أن الساميين إما بيض أو سود لا من حيث الرؤى فقط وإنما من حيث دخائلهم أيضا ؛ إنهم بيض أو سود لا من حيث الوضوح وإنما أيضا من حيث المجاورة . هذا يعنى أيضا أن أفكارهم تعيش حرة فيما بين هذين الطرفين . هذا يعنى أيضا أن الساميين يختزنون المبالغات ويقيمون فيها باختيارهم هم أنفسهم . وهم فى بعض الأحيان قد تتملكهم تماما المتناقضات الكبيرة . هؤلاء الساميون يستبعدون الحل الوسط ، ويتبعون منطق أفكارهم إلى حد سخيف لا يقبله العقل ، ودونما نظر إلى النتائج المتعارضة التى يتوصلون إليها . هذا يعنى أيضا أن هؤلاء الساميين يتذبذبون بعقولهم الباردة وأحكامهم الهادئة فيما بين الخطين المتقاربين ، وعلى نحو غير نظيف يجعلهم يبدون وكأنهم غير واعين ذلك الهروب الأهوج .

معنى ذلك أن الساميين أناس محدودين وضيقى الأفق كما أن أفكارهم الجامدة تبدو ضحلة بشكل واضح تماما . هذا يعنى أن خيال هؤلاء الناس يمتاز بالقوة والحدة ولكنه يفتقر إلى الإبداع . وآسيا فى أيامنا هذه ليس فيها من الفن العربى شيئا وبالتالى يمكن القول : بأن أولئك الساميين ليس لهم فن ، بالرغم من أن قادتهم وحكامهم هم رعاة كرام للفن ، ويشجعون مواهب جيرانهم فى العمارة ، وفى الخزف ، والحرف اليدوية . هؤلاء الساميون لا يتوقون شوقا إلى الصناعة العظيمة ، وليست لديهم تنظيمات ذهنية أو بدنية فى أى مكان من الأماكن . هؤلاء الساميون لا يخترعون أو يبدعون أية منظومة من المنظومات الفلسفية أو اللاهوتية . هم فى أضعف الأحوال أناس خاملون يقبلون نغمة الحياة على علاتها ، باعتبار أنها مسلمة حقيقية لا تحتاج إلى برهان . هؤلاء الناس يأخذون نعمة الحياة على أنها شىء حتمى ومقسوم ، أو إن شئت فقل : شىء موقوف على الإنسان ، أو حق انتفاع ، خارج عن حدود سيطرتنا . من هنا فالانتحار عند هؤلاء الناس أمر مستحيل . كما أن الموت لا يشكل لهم أى نوع من الحزن أو الأسى .

الساميون هم شعب النوبات ، شعب الطوفانات ، شعب الأفكار ، إنهم عرق العبقرية الفردية . تحركات هؤلاء الناس تكون مفاجئة إذا ما قارناها بالهدوء الذى يكتنف حياتهم اليومية ، وعظماء هؤلاء القوم يزدادون عظمة عندما نقارنهم بإنسانية السواد الأعظم منهم . قناعات هؤلاء الناس أمور فطرية . ونشاطاتهم مستوحاة من الإلهام . وأفضل إنتاجهم فى مجال العقيدة والمذاهب . وهم يحتكرون مجال الأديان السماوية (المنزَّلة) ، ويرون أن هناك دوما عداءً بين الجسد والروح ، ومن ثم فهم يركزون على الروح ويؤكدون عليها . ورد فعل هؤلاء الناس العميق على المادة هو الذى يجعلهم يبشرون بالجدب ، والتنازل والفقر : وهذا الجو كفيل بخنق عقول الصحراء بلا رحمة أو هوادة . هؤلاء الساميون يتطلعون دوما إلى تلك الأشياء التى لم يكن للجنس البشرى فيها دور أو مصير .

معروف أن البدوى ولد فى الصحراء وتربى فيها ، ومعروف أيضا أن البدوى احتضن ذلك الجدب القاسى جداً على المتطوعين ، واحتفظ به داخل نفسه ، لأسباب أحسها ولا يمكنه التعبير عنها ، الأمر الذى يجعله يحس بالحرية دون أدنى

شك . البدوى يفتقد كل الروابط الطبيعية ، كما يفتقر أيضا إلى الزيادات أو المضاعفات اللازمة لتحقيق تلك الحرية الشخصية التى تحوِّم فى سماء الموت جوعا وفى سماء الموت أوالوفاة . والبدوى لا يرى أية فضيلة فى الفقر بحد ذاته ؛ وهو يتمتع بالرذائل الصغيرة ومظاهر الترف الصغيرة أيضا ، والتى من قبيل : القهوة ، والماء العذب ، والنساء – وكلها أمور بوسعه الحصول عليها أو تحقيقها . حياة هذا البدوى عامرة بالهواء والرياح ، والشمس والضوء ؛ يضاف إلى ذلك أن حياة هذا الرجل عامرة أيضا بالأماكن الواسعة والمفتوحة ، وعامرة أيضا بالفراغ . هذا يعنى أن الطبيعة التى تحيط بذلك البدوى خلو من الجهد البشرى ومن الخصوبة أيضا ؛ كل ما يراه ذلك البدوى هو السماء من فوقه وامتداد الأرض اللانهائى من تحته ؛ من هنا يصبح الله هو الملجأ والإيقاع الوحيد فى حياة هؤلاء البدو . هذا الإله الواحد ليس له شبيه أو مثيل عند العربى ، وهو أيضا ليس محسوساً أو معنويا أو خلافيا وأن هذا الإله الواحد ليس معنيا بالعالم أو حتى بذلك البدوى بشكل خاص . هو وحده (سبحانه) العظيم ، ومع ذلك فهو بسيط وهذا الأله العربى هو الذى يتحكم فى مأكلهم ، وفى قتالهم وفى شهوتهم ؛ وهو أيضا فكرهم الشائع . وهو أيضا الرفيق ، على نحو مستحيل بالنسبة لأولئك الذين يتقنع إلاَههم بقناع العبادة الشرعية متسما بالحشمة والوقار . والعرب لا يستشعرون أى نوع من الغرابة عندما يقحمون الله فى ضعفهم وفى ملذاتهم . والله هو الأكثر شيوعا فى كلام هؤلاء البدو .

المعروف أن عقيده الصحراء إنما هى ميراث فى واقع الأمر . والعربى لا يثمن تلك العقيدة غاليا . إذ لم يسبق مطلقا أن كان ذلك العربى واحداً من كتّاب الأناجيل الأربعة أو واحداً من أولئك الذين يعتنقون دينا جديدا أو يدخلون فيه . والعربى يصل إلى ذلك التركيز الشديد لنفسه فى ذات الله عن طريق عزل نفسه عن الدنيا من حوله ، وعزل نفسه أيضا عن الإمكانيات المركبة الكامنة فى داخله والتى لا تخرجها من داخله سوى الثروة أو الإغواء والإغراء . صحيح أن العربى يحقق ثقة أكيدة وثقة قوية ، ولكن مجال هذه الثقة الأكيدة والقوية ضيق للغاية ! وخبرة ذلك العربى العقيمة هى التى تسىء استعمال الحنان الإنسانى عند العربى وتوجهه صوب صورة الأرض الخراب التى يختبئ فيها . من هنا فإن العربى يؤذى نفسه ، ليس حبا فى الحرية وإنما لكى يرضى

نفسه . وهذا بدوره يستتبع لذة ذاتية فى الألم ، تلك القسوة التى تعنى عنده ما هو أكثر من بضاعته . والعربى الصحراوى لا يجد متعة أو لذة أكثر من تلك التى يصيبها جراء التراجع طواعية واختيارا ، والعربى يجد متعة فى حرمان نفسه ، وفى التخلى ، وأيضا فى السيطرة على نفسه . وهو يحيا حياته الخاصة فى إطار حماقة قاسية . وهو يجعل من صحرائه بيتا من الثلج ، يحتفظ فيه على مر العصور بفكرة وحدة الإله سليمة وبلا أى تحسين .

تجول دوتى بين هؤلاء الناس محايدا ، وألقى نظرة على حياتهم ثم دونها بعد ذلك كلمة بكلمة وحرف بحرف . كما استطاع دوتى بفضل عروبة سلوكه وتصرفاته وبفضل أوروبيه عقله وذهنه ، الحفاظ على عدالة الحكم واكتماله ، فى الوقت الذى أظهر خلاله تعاطفه الكامل معهم ، الأمر الذى جعلهم يكشفون له عن أخص أفكارهم . وبعد انتهاء محاولة دوتى التى دامت عامين عاد وهو يحمل معه فى كراسة الملاحظات (بقدر ما أسعفه فن الكتابة فى التعبير عن فن الحياة) روح الصحراء ، أو إن شئت فقل : الحياة الكاملة لمجتمع بارز ومكتف ذاتيا ، مجتمع منعزل عن تيارات الدنيا داخل تلك الصحراء المملة وغير المتغيرة ، ذلك المجتمع الذى يمضى أيامه فى بيئة غريبة علينا تماما . والسبب الاقتصادى الذى يقف من وراء حياة هؤلاء العرب هو الطلب على الإبل ، التى يمكن تربيتها ، على أفضل نحو ممكن ، على أشواك ونباتات تلك الأراضى المرتفعه . والصحراء تعجز عن كل التطورات الأخرى ، اللهم باستثناء صلاحيتها لتربية الإبل . تربية الإبل هى التى تجعل البدو رحّلاً . والإبل لا تعيش إلا على مراعى الصحراء ، ونظرا لندرة المراعى فى الصحراء فإن القطيع الكبير يستطيع الإجهاز على أى مرعى من المراعى مهما كان . وهنا يتعين على تلك الإبل أن تنتقل مع أصحابها إلى مرعى آخر ، ومن هنا فإن الإبل هى وأصحابها يقومون بدورة شهر بعد آخر ، على طريق الذى يحدده هو وجود الحياة النباتية التى تنشأ بفعل تساقط مياه المطر المتقطعة على بعض الأماكن المتفرقة .

التنظيم الاجتماعى فى الصحراء يتمثل فى القبائل والسبب فى ذلك يرجع ، من ناحية ، إلى الإحساس الأسرى الأصيل ، ومن ناحية أخرى إلى الفكرة التى مفادها أن غريزة المحافظة على النفس هى التى تجبر أعدادا كبيرة من الرجال على التماسك طلبا

للمعاونة والمساعدة المتبادلة . والرجل عندما ينتمى إلى قبيلة معروفة يستشعر أن لديه هيئة قوية من أقربائه الاسميين ، يهبون لمساعدته إذا ما تعرض لخطر من الأخطار ، أو عندما يصيبه أذى ؛ كما تهب هذه الهيئة أيضا لتحمل عنه أثقاله وتبرئه من أخطائه ، عندما يكون مذنبا أو مخطئا . والمعروف أن هذه المسئولية الجماعية تجعل الأفراد يحرصون على عدم الإساءة إلى الغير أو التعدى عليهم ؛ يضاف إلى ذلك أن تلك المسئولية الجماعية تجعل العقاب أمرا سهلا . والمخطئ يجرى عزله عن النظام ويصبح فى عرف المنفى إلى أن يستعيد الأمن والسلام مرة أخرى من خلال الرأى العام لأفراد قبيلته .

كل قبيلة من القبائل لها منطقتها الخاصة بها فى الصحراء . والذى يحدد مدى وطبيعة تلك المناطق القبلية هى القوانين الاقتصاديه لتربية الإبل . من هنا فإن كل قبيله تتهيأ لها فرصة جيدة للحصول على مرعى لها على امتداد العام المعتاد ، كما تستحوذ كل قبيلة من تلك القبائل أيضا على ما يكفيها من مياه الشرب لها ولبقية أفرادها كل عام ؛ ولكن فقر هذه البلاد يفرض تقسيم نفسه داخليا فيما بين أفراد القبيلة . والسبب فى ذلك أن مصادر المياه عادة ما تكون على هيئة آبار منفردة (وغالبا ما تكون تلك الآبار نادرة جداً أو شحيحة) ، إضافة إلى أن المراعى لا تعدو أن تكون بقعًا أو مناطق صغيره مبعثرة هنا وهناك داخل بعض الوديان المحميه أو فى الواحات فيما بين الصخور . هذا يعنى أن تلك المراعى أو المساقى لا يمكن أن تتسع فى وقت من الأوقات لكل أفراد القبيلة ، الأمر الذى يضطرها إلى الانقسام إلى عشائر ، لتعيش دوما على هذه الشاكلة ، بأن تروح كل عشيره تدور دورتها الخاصة بها ولكن فى إطار المدار المحدد للقبيلة بشكل عام .

هذا المجتمع يتسم بالأمية ، ومن هنا تحافظ كل عشيرة من العشائر على صغر حجمها حتى يتسنى لرجالها الالتقاء ببعضهم من حين لآخر ، ليناقشوا شفاهة فيما بينهم المسائل المشتركة التى تهمهم . والاتصال العام الذى يكون من هذا القبيل ، هو وحياة هؤلاء الناس المفتوحة التى يعيشون فيها فى خيام متجاورة ، هما اللذان يهيئان خصوصية الصحراء إلى حد بعيد . هنا نجد الإنسان يعيش حياة صريحة مع أخيه الإنسان . من هنا أيضا نجد أن ذلك المجتمع دائم الحركة ، وتتهيأ فيه فرصة التساوى

بين الذكور فيما يتعلق بالأصوات والفرص . ووجار قهوه شيخ العشيرة اليومى هو مصدر تعليم رجال العشيرة ، هذا الوجار يمثل الجامعة عند كل من يكبر من الذكور ويستطيع المشى والكلام .

ووجار قهوة شيخ العشيرة هو وكالة الأنباء عند أفراد تلك العشيرة ، وهو أيضا المحكمة ، فضلا عن أنه هو الذى يعبر عنهم من الناحية السياسية ، كما أنه حكومتهم أيضا . وأفراد العشيرة يحملون كل يوم أفكارهم ، وخبراتهم ، وآرائهم إلى مقهى شيخ العشيرة كيما ينقلوها إليه ويناقشونها على الملأ فيما بينهم ، وهم يشحنون همم بعضهم ، حتى يتسنى لمجتمع الصحراء أن يتسم دوما بالحيوية ، وحتى يتسنى أيضا تثقيف ذلك المجتمع والارتفاع بمستواه الأخلاقى ، ويكون وسيع الصدر مع الأفكار الجديدة . والشائعات العامة تزيد من ثبات أفراد ذلك المجتمع شأنهم شأن الصحراء التى يعيشون فيها ؛ ولكن أفراد هذا المجتمع يكشفون ، فى معظم الأحيان ، عن انفتاح أذهانهم ، وعن تقبلهم للمستحدثات الجديدة المفيدة . يضاف إلى ذلك أن مصالح هؤلاء الناس الأصلية والقليلة هى التى تسهل لهم تغيير أساليبهم ؛ ومع كل ذلك ، فنحن نندهش عندما نجد أولئك الناس يقبلون قلبا وقالبا على مستحدث من المستحدثات يجدونه مناسبا لحياتهم . وهاهو البن ، والبارود والأقمشه القطنية المصنوعة فى مانشستر كلها أشياء جديدة ، ومع ذلك تبدو محلية إلى الحد الذى لا يمكن تصور ما يمكن أن تكون عليه حياة الصحراء فى غياب مثل هذه الأشياء .

وبناء على ما تقدم ، قد يتصور الإنسان أن كتابا مثل صحراء الجزيرة العربية ، الذى ألفه دوتى منذ أربعين عاما ، يمكن أن يكون غير دقيق ، فى أيامنا هذه ، فيما يتعلق بتلك الأشياء الصغيرة التى من هذا القبيل ، ولو كان دوتى قد اعتمد فى ذلك الكتاب ، على الناحية العلمية فقط ، التى تركز على بل وتعتمد على التعبير بدلا من الاعتماد على روح الأشياء ، لو كان قد فعل ذلك ، لولىّ زمان ذلك الكتاب وأصابه التقادم . ومن حسن الحظ ، أن جمال الحكى ، وحيويته ، هو والشخصيات المنتخبة ، فضلاً عن المناظر الطبيعية الأرضية ، ستبقى إلى أبد الآبدين ، وستجعل ذلك الكتاب

فريدا ولا مثيل له ، بل إنه سيصبح أساسًا لا غنى عنه فى مسألة فهم الصحراء فهما حقيقيا . وعلى امتداد تلك السنوات الأربعين عجزت التغييرات المادية عجزًا تاما عن جعل تلك السنوات جديرة بتسجيلها تسجيلا مفصلا بحق .

يضاف إلى ذلك أن النقوش التى جرى العثور عليها من مدائن صالح بدأت دراستها اعتبارًا من زمن دوتى ، على أيدى الآباء الدومينكان فى القدس ، وبذلك أمكن إضافه القليل إلى الكنز الذى قدمه لنا . زد على ذلك ؛ أن حجر تيماء العظيم الذى بقى فى الحدَّاج (البئر) ، جرى البحث عنه بواسطة الرحالة الذين جاءوا بعد دوتى ، ثم جرى فى النهاية شراء ذلك الحجر ونقله إلى أوروبا . وجمع دوتى تلك النقوش العربية البدائية عمل لم يسبقه إليه أحد ؛ ومع ذلك يظل دوتى هو صاحب الفضل فى اكتشاف تلك النقوش . يُزاد على ذلك أن خارطة دوتى هى وبعض من معلوماته الجغرافية جرت إضافتها بل وربطها بالمعلومات التى توفرت من بعده . والمعروف أن أناسا كانوا يحملون معهم آلات للتصوير ، تجولوا هنا وهناك ، فى حرَّات العويرض التى أمضى دوتى فيها بضعة أسابيع ، والتى كتب عنها وصفا شديد الحيوية . صحيح أننا نتعرف من تلك الصور ، السطح الخارجى لتلك الحرَّات ، تعرفا دقيقا ؛ ولكننا عندما نقرأ وصف دوتى لتلك الحرَّات نقف على الأحاسيس والمشاعر التى تثيرها تلك الحرات فى الإنسان . صحيح أيضا أن السيارات من طرازى كروسلى Crossley ورولز رويس Rolls-Royce جابت بعض أرجاء ذلك الذى يطلقون عليه اسم وادى حمض Humth، الذى كان دوتى أول من أوضح أهميته لأوروبا . زد على ذلك ، أن الطائرات حلقت فوق التلال التى عانى دوتى آلاما كثيرة جراء السير فيها . ومن سوء الطالع أن أولئك الذين كانوا فى تلك السيارات ، وهؤلاء الذين حلقوا بالطائرات عجزوا عن تأليف كتب صادقة عن البلاد التى جابوها أو حلقوا فوقها .

أحدث خط حديد الحجاز تغييرًا آخرا فى الجزيرة العربية ؛ إذ افتتح ذلك الخط قادما من دمشق إلى المدينة (المنورة) فى العام ١٩٠٩ ، وبذلك أنهى هذا الخط ذلك الجيش الجرار الذى كان يتحرك على طريق الحج . أصبح أمير الحج هو ورجاله يقطعون هذه الرحلة فى القطار ، وبذلك يموت ذلك الموكب التاريخى البهى السنوى

أيضا ، والذى كان يتكون من قافلة كبيرة من الجمال . وبذلك يختفى طريق الحج الذى رسم لنا دوتى صورة للمئات من مدقاته ؛ اختفى ذلك الطريق لقلة الأقدام التى كانت تطرقه وتدوس عليه ؛ كما اختفت أيضا تلك القلاع وتلك الأسبلة التى شرب منها دوتى وهو فى طريقه إلى مدائن صالح ؛ اختفت كل تلك القلاع والأسبلة وأصبحت أطلالا وخرائب ، اللهم بإستثناء أنها لا تفى حاليا إلا بحاجات بعض نقاط الحراسة ، التى تتولى حراسة ذلك الخط الحديدى .

زد على ذلك ، أن أسرة الرشيد المالكة بدأت اعتبارا من زيارة دوتى تسلك مسارا دمويا مثلما كانت تفعل من قبل . وها هو سعود ، آخر الأمراء ، الذى جرى اغتياله فى العام ١٩٢٠ الميلادى ، ولم يتبق على قيد الحياة من تلك الأسرة المالكة سوى طفل صغير ، تتلاعب بقصور سنه مطامح واحد وآخر من كبار مشايخ قبيلة الشمر ، وعلى الجانب الآخر ، عاد الانتعاش والحياة فجأة ، خلال ذلك الجيل ، إلى الأسرة الوهابية المالكة فى الرياض ، بعد أن أفل نجمها ، عاد إليها ، بفضل شجاعة وطاقة الأمير الحالى ، عبد العزيز ، الذى استطاع إخضاع نجد بكاملها بقوة سلاحه ، كما أحيا أيضا المذهب الوهابى فى الإمارة الجديدة ، ويتطلع أيضا إلى إخضاع كل صحارى شبه الجزيرة العربيه الداخليه لعقيدته . وكان أصغر أبناء عبد العزيز من ضمن الوفد الذى أرسله إلى إنجلترا . برئاسة هارى سينت فيلبى ، الذى شغل منصب الممثل البريطانى المقيم فى الرياض مدة من الزمن ، أثناء الحرب العالمية الأولى ؛ وقد زار أفراد ذلك الوفد السيد دوتى أثناء وجودهم فى إنجلترا .

كانت أشرفية مكة التى استراح دوتى بإنسانيتها عندما كان فى الطائف بعد انتهاء مغامراته ، تتنافس على القيادة الفكرية للعرب فى العام ١٩١٦ الميلادى ، عندما أعلنت الثورة على الأتراك مستغلة فى ذلك مبدأ القومية . قام عرب الغرب (غرب الجزيرة العربية) ، الذين ذاعت بينهم أعمال دوتى وأساليبه منذ فترة طويلة . بدور بطولى فى الحرب العالمية الأولى من منطلق تحالفهم مع بريطانيا العظمى من ناحية وبعون ومساعدة منا من الناحية الأخرى . وهنا تولى أولاد الشريف حسين الأربعة قيادة حضر وقبليى الحجاز ، ومكنوا الضباط البريطانين الذين كانوا يساعدونهم ، من حرية الصحراء . هذا يعنى انضمام كل الأسماء القديمة إلى جانبنا . كانت هناك قبائل

حرب ، وجهينة ، والبلّى الذين أتى دوتى على ذكرهم . كما انضم إلينا أيضا مضيفوه موءاهيب أبو شامة ، وأبلوا أيضا بلاء حسنا . كما أحضر فرحان ، ولد مطلق ، والعَلايدة Allayyda، الذين قاموا مع فجر ، الابن الثانى من أبناء مطلق ، بالاستيلاء على كل من تيماء وخيبر من الحاميات التركية ، وقاموا بتسليمهما للملك حسين .

ثم انضم الشمر إلينا فى مرحلة لاحقة ، كما توافد المتطوعون علينا من القصيم ، ومن عنيزة ، ومن بريدة ، ومن الرسّ Russ ليساعدوا فى شن الحرب على الأتراك . واستولى البريطانيون على مدائن صالح وعلى العلا ، كما استولوا أيضا فى أقصى الشمال ، على كل من تبوك ، ومعان ، وبلاد بنى صخر ، كما استولوا أيضا على طريق الحج بكامله اعتبارا من تلك المنطقة وحتى دمشق ، الأمر الذى أدى إلى صعوبة رحلة العودة من ذلك الطريق الذى بدأ منه دوتى تجواله وترحاله . وقد تحول كتاب صحراء الجزيرة العربية ، الذى كان يثير المتعة فى نفس قارئه ، باعتباره سجلاً من سجلات المغامرة والترحال (بل ربما يكون أعظم الكتب التى كتبت بلغتنا فى هذا المجال) ، وباعتباره أيضا أعظم الكتب التى ترسم صورة لحياة البدو الرُّحل ، تحول هذا الكتاب إلى واحد من الكتب العسكرية المقررة ، إضافة إلى أن ذلك الكتاب عاون على هدينا إلى طريق الإنتصار فى الشرق . وبذلك يكون العرب الذين سمحوا لدوتى بالتجوال فى مناطقهم الممنوعة والمحرمة ، قد حققوا استثماراً طيبا لأبنائهم ولأحفادهم من بعدهم .

من خلال تجربة تلك الحرب العظمى تغيرت بؤرة الاهتمام فى الصحراء ، الأمر الذى أحدث ثورة فيما بين العرب . ففى أيام دوتى ، وهذا نقلا عن كتابه . كان هناك مسلمون ومسيحيون ، باعتبار أن هذين كانا هما التقسيمان الرئيسيان . ولكن ذلك التباين اختفى بالأمس ونوى ؛ ولم يتبقى من ذلك التباين سوى هؤلاء الذين انضموا إلى صف الحلفاء ، وأولئك الذين وقفوا إلى جانب دول المحور . كان عرب المنطقة الغربية ، قد تعلموا على امتداد تلك السنوات الأربعين ، الكثير من الأفكار الأوروبية مما جعلهم يقبلون مبدأ القومية ويتخذون منه أساساً لعملهم . بل إن قبولهم لمبدأ القومية وصل بهم إلى حد الدخول فى حرب على خليفتهم ، سلطان تركيا ، حتى ينالوا حق الحرية الوطنية . وهنا نجد أن الدين الذى كان بمثابة الدافع والطابع الرئيسى فى الصحراء ، قد استسلم للسياسة بل إن مكة ، التى كانت مدينة عبادة وحسب ، تحولت

إلى عاصمة مؤقته للدولة الجديدة . وهنا تحول العداء الذى كان ينصب على المسيحيين ، لينصب على الأجنبى الذى يتجرأ على التدخل فى شئون المناطق الناطقه باللغه العربية .

على كل حال ، لقد طالت منى هذه المقدمة . ومن هنا ربما أكون قد عطلت أولئك الذين يفضلون قراءة كتاب دوتى من بدايته ، وعليه ربما أكون قد أسأت عندما حاولت وضع اسمى بالقرب من اسم ذلك الشخص الذى أحسبه واحدا من أعظم كتاب النثر فى أدبنا . وكتاب صحراء الجزيرة العربية واحدا من الكتب التى تبدأ بداية قوية ، فضلا عن كتابته بأسلوب ليس له أب أو ابن ، مكتوب بدقة بالغة ، مكتوب بتركيز شديد ، دقيق جداً فى كلماته وفى عباراته ، إلى حد أنه بحاجة إلى قارئ رصين متمرس . الكتاب ، فى ظاهره ، يبدو وكأنه لم يكتب بسهوله ويسر ؛ ولكن قارئ الكتاب يستطيع ، من خلال صفحات قليلة منه أن يعرف عن العرب ما هو أكثر بكثير مما كتبه المؤلفون الآخرون عن هذا الموضوع ؛ يضاف إلى ذلك أن القارئ كلما مضى قدما فى قراءة ذلك الكتاب يزداد اكتشافه لالتصاق الأسلوب بالموضوع ، ويزداد أيضا تذوقه للكتاب واستساغة لأسلوبه .

وصف مسير القافلة على طريق الحج . والصورة التى رسمها دوتى لخيمة زيد ، ووصف دوتى لمحكمة بن الرشيد فى حائل ، ووصفه أيضا للقرية الزنجية فى خيبر ، وكذلك وصفه لحياة الحضر فى عنيزة ، والمسيرة الطويلة التى قطعها دوتى عبر الطريق الصحراوى إلى مكة ، كل وصف من هذه الأوصاف يجىء أفضل من الوصف السابق له إلى أن يصل دوتى إلى ذروة الكتاب بالقرب من مدينة الطائف ، ثم تعقب تلك الإثاره خاتمة الكتاب التى تجىء على شكل فصل تناول فيه دوتى الطريق المؤدى إلى جده ، حيث كرم بيت محمد نصيف ، والقنصلية البريطانية .

إنجاز رحلة من هذا القبيل يمكن أن تعد إنجازا عظيما لأى رجل من عامة الرجال . ولكن دوتى لم يقتنع إلا بعد أن جعل الكتاب مبررا للرحلة بقدر ما جعل الرحلة مبررا للكتاب نفسه ؛ ومن حيث القوه المزدوجة ، المتمثله فى الترحال وفى الكتابة ، لا نجد لدوتى مثيلا فى هذا المجال .

توماس . إدوارد . لورانس

أكسفورد ١٩٢١

تصدير الطبعة الأولى

لم نضع سوى اسم على السفينة ، التى بنتها أيدينا فى عقد من الزمان (كان كله عملا مستمرا بلا توقف) ؛ وحددنا فى ذلك الاسم اليوم الذى جرى فيه تدشين المركب لتنطلق إلى المياه العظيمة ؛ والأمر هنا لا يحتاج منا سوى بضع كلمات قليلة . وكتاب صحراء الجزيرة العربية ليس حليبا للأطفال : وإنما يمكن تشبيهه بمرآة ، تعكس بأمانة مطلقة حزمة من أشعة تربة الجزيرة العربية تفوح منها رائحة السمن والإبل . وأنا على ثقة ، فيما يتعلق بأشخاص الكتاب ، أنه إذا ما أعيد على مسامع هؤلاء الأشخاص الكلام (الذى جرى تدوينه من أفواههم طوال اليوم) باللغة العربية ، فالأرجح أن كل من ورد ذكرهم فى ذلك الكلام ، ربما يسمعون أصواتهم الحقيقية ؛ كما أن كثيرا من المتفرجين الوقحين ، الذين سيضربون أفخاذهم بشدة ، ينبغى أن يقروا ويشهدوا قائلين "إى والله ، بمعنى هذا لطيف بحق وحقيقة" !

عندما كنت أكتب وأنا بعيد عن الكتب وفى بلاد أجنبية لم أكن أعرف سوى القليل جداً ، عن أولئك المؤلفين العرب القلائل القدامى ، الذين تناولوا الجانب الآسيوى لكل من القبائل والمدن ووصف بعض الرحلات فى شبه الجزيرة العربية الشاسعة . أما أنا فقد بلغ الضيق منى مبلغا جعلنى لا ألقى بالا لأى شىء سوى ذلك الذى صادفته فى طريقى وأثناء مسيرى ، يضاف إلى ذلك أن أهل العلم شجعونى على أن أترك أمرهم للباحثين والدارسين . والشىء نفسه يمكن أن يقال عن كتابات الأوروبين الاثنين أو الثلاثة [والين ، وبالجريف ، وجوارمانى] الذين زاروا كلا من حائل وتيماء قبل زيارتى لهما ؛ واللتين لم تكونا معروفتين لى ، عندما تجولت فى الجزيرة العربية ، (واعتبارا من ذلك التاريخ) إلا من خلال البحث القيم الذى ألفه "إيه زهمى" A-Zehme .

والجزء الأول من عملى – والمتمثل فى النقوش التى أحضرتها من الجزيرة العربية – نشرته الأكاديمية الفرنسية فى باريس . ومن باريس جرى تزيين الجزء الأول من الكتاب بالترجمة التى قدمها السيد م . رينان للنقوش (الآرامية) التى كانت على شواهد القبور فى مدائن صالح أو الحجر . وفى نهاية الجزء الأول سيجد القارئ الملاحظة القيمة التى أبداها المركيز دى . فوج عن العمارة المنحوته لتلك الآثار . وقد ألحقت بالجزء الثانى من الكتاب بعض الملاحظات عن التركيب الجيولوجى للجزيرة العربية . كما أضفت شيئا ثالثا يتمثل فى الخارطة التى ألحقتها بهذين الجزئين ،

مع تمنياتى بنجاح حقيقى

شارلز م. دوتى

تصدير الطبعة الثانية

تعد قصة الأرض ، بكل تباينها الحيوانى الحى ، وأجيالها البشريه وصخورها القديمة ، هى أمر بالغ الأهمية عند تلك الأذهان الكثيرة التى تسعى إلى المعرفة والتثقيف الفلسفيين .

خلاصة القول : أنى شرعت فى رحلتى مع مثل هذه الأفكار ، التى هى ليست أفكارا دنيوية وباعتبارى تابعا من أتباع ربة الشعر والفن ومصدر الإلهام عند سبنسر Spenser وعند شوسر Chaucer المبجل المحترم ؛ وذلك بعد أن كنت قد أمضيت القسم الأكبر من عقد من الزمن فى مطلع عهد رجولتى ، فى التجوال المستمر فى السواد الأعظم من بلدان القارة الأوروبيه ، لأصل فى نهاية المطاف إلى سوريا ، وبعد أن تجولت خلال فلسطين بطولها وعرضها وصلت إلى مصر وسيناء ؛ اللتان واصلت التجوال منهما بصحبة بعض من البدو المترحلين الذين كانوا بمثابة مرشدين ، خلال الجزء الأكبر من تلك المتاهة الجبلية الموحشة المكونة من وديان لا تسقط عليها الأمطار ؛ تلك الوديان التى صقلت الرياح الرملية بعض صخورها وأحجارها ، التى تحمل فى معظمها شخبطة غريبة من شخبطات النقوش الصخرية النبطية (أسماء ، وأقوال مأثورة ، وأمثال حكيمة وتحيات من عابرى ذلك الطريق القدماء) . وانطلقت من تلك الوديان إلى إيدوم Edom، حيث زرت بيترا Petra، وفى مستوطنة معان ، ، التى تبعد بضعة أميال قليله إلى الخلف من بيترا ، سمعت أيضا عن بعض الآثار الصخرية المنحوتة الشبيهة بآثار بيترا ، والتى كان عليها كثير من النقوش ، وذلك فى مدائن صالح . (تلك كانت سقيا من مساقى قافلة الحج الدمشقية السنوية ، على امتداد طريق الحج الصحراوى الطويل المؤدى إلى المدينة (المنورة) ومكة ؛ اللتين تقعان على بعد مسير أيام قلائل فى اتجاه الجنوب ، من مدينه معان ، ويصعب الوصول إليهما فى غير هذا الموعد تخوفا من أخطار البدو الهمج غير المتحضرين .)

أما مدائن صالح ، أو إن شئت فقل المدائن التى ذاع صيتها باسم النبى صالح ، ذلك الاسم الذى أطلقه الحجاج عليها ، ورد فى كثير من قصص " Fables "(*) القرآن ؛ والأصح ، من منطق القدم ، أن الحجر (كما هى حاليا على ألسنة البدو الرحل فى هذه البلاد) لم تكن معروفة للأوربيين فى ذلك الوقت .

ترى ، ما الذى يمكن أن تكونه تلك النقوش ؟ أنا لم أستطع أن أعرف من رفاقى العرب أى شيئ عن تلك النقوش سوى أنها لم تكن نقوشا عربية . وبالرغم من اهتمامى بكل ما يتصل بالأبحاث الإنجيلية إلا أننى قررت قبول المخاطرة بزيارة تلك النقوش .

ولم تتحقق تلك الزيارة إلا فى فترة لاحقة ، بعد أكثر من عام من المحاولات غير المثمرة ؛ وعندما عجزت عن العثور على وسيلة أخرى ، غامرت بالذهاب إلى هناك ، ضمن القافلة الدمشقية الكبيرة .

وعندما وصلت إلى مدائن صالح ، بعد رحلة ركوب متعبة ومضنية دامت ثلاثة أسابيع ، أمضيتها بين هنا الجمع الهائل من الحجيج الصاخب والمختلط فى معظم الأحيان ، والمخلص لدينه ؛ اكتشفت أن مدائن صالح عبارة عن سهل رملى من الأنقاض القديمة ، فيه بعض القمم الصخرية الرملية ؛ ونصبنا مخيمنا فى ذلك السهل بالقرب من صهريج مياه كبير تحميه من غائلة اعتداء البدو عليه ، قلعة تركية بدائية البناء ، يطلق الأتراك عليها بلغتهم الاسم : Kella ومن ذلك الصهريج يقوم الحجيج المرهقون بجلب الماء الذى يشربون منه ويسقون منه إبلهم العديدة .

ومن بين الصخور التالية لصخور مدائن صالح تراءت لى صخرة من الصخور الأثرية المنحوتة ، تلك الصخرة التى قطعت إليها تلك المسافة بحثا عنها بصفة خاصة . كما تراءت لى عند الأفق الغربى (بالرغم من عدم أهمية ذلك عندى) رءوس أو إن شئت فقل : قمم ، أوحت لى أشكالها أنها كانت بعض البراكين الخامدة أو المنقرضة [1].

(١) عثرت فى الرحلة التى قمت بها إلى الصحراء العالية بعد ذلك ، على العديد من تلال فوهات البراكين الكامنة أو الخامدة ، بل وقمت أيضا بزيارة تلك التلال ؛ وعبرت أيضا حرات شاسعة ، أو إن شئت فقل : مناطق من الحمم البركانية ، التى كانت تتناثر هنا وهناك إلى أن تصل إلى البلاد أو المنطقة المشرفة على مكة ، وأصبحت تلك المنطقة ضمن معرفتى وملاحظتى أيضا : والتى اكتسبت مخلوقاتها البرية (إذ شاهدت بنفسى الثعلب والغزال) اللون الأسمر الداكن الذى اكتست به تلك المناظر الطبيعية الوعرة .

(*) Fables : وردت هذه المفردة على لسان دوتى فى وصف القصص القرآنى ؛ فهو يراه من قبيل القصص الخرافية أو الأسطورية (الناشر) .

وطوال هذين الشهرين اللذين تبقيا على عودة الحج ، كنت أقوم بزيارة تلك الآثار واعتنيت تماما بطبع أحرفها الرسمية المنقوشة ؛ التى ثبت أنها كانت من نقوش المقابر والأضرحة ، كما ثبت أيضا أنها نبطية ، وأنها كانت أقدم قليلا من بداية العصر الذى نعيش فيه : كما اكتشفت ودونت بعض النقوش القليلة الأخرى على بعض أحجار البناء القديمة ، فى مستوطنه العلا الصحراويه المجاورة ، واتضح أن تلك النقوش كانت نقوشا حميرية [1] .

يعود الحجيج ، ولكنى لم أعد معهم إلى سوريا ؛ وإنما ركبت مع شيخ صديق من بين بدو المنطقة ، لأعيش معهم فترة من الزمن فى الصحراء المرتفعة . كنت أمل ، من وراء ذلك التصرف ، أن أتمكن من زيارة أراضى الجزيرة العربية المرتفعه المجاورة لأراضى تلك المنطقة من ناحية وألقى نظرة على تلك المسيرات الشاسعة الخالية من الماء التى كان يقوم بها العرب الرُّحل ؛ سكان الخيام ، الذين يسكنون ، منذ البداية منطقة كانت تبدو وكأنها فيما وراء العالم .

وفيما يتعلق بتلك المحاولة الجديدة ، لم يكن معى من المؤن سوى القليل جداً ؛ ومع ذلك لم أخطئ خطأ كبيرا ، عندما ارتكنت على وجودى (الذى يمكن أن يتحمل ولفترة طويلة ، مثلما حدث فى سيناء ، ما هو أكثر من حرارة شمس السماء والهواء) بين أناس قبليين جهلة وغير مثقفين يشيع عنهم أنهم لا يعرفون القانون ولا يلتزمون به ، (الذين استطعت بالرغم من كل ذلك ، أن يكون بينى وبينهم شيئ من التعارف المفضل والمقبول ؛) ذلك التعارف الذى التزم طوال تلك الحياه ، التى اتسمت بالعوز والمصاعب التى لا حد لها ، بمراعاة القانون السامى العظيم ، غير المدوَّن ؛ ألا وهو على وجه التحديد إيمان أولئك البدو الرحل القديم بعدم محدوديه أراضيهم الخراب الخالية . وأنا عندما أفعل ذلك ، ربما اكتشف شيئا يمكن إضافته إلى الرصيد العام للمعرفة الغربية .

(٢) عندما لم أجد وسيله أستطيع من خلالها ، بعد عودتى إلى بريطانيا ، نشر النقوش التى لاقيت الأمرين فى جمعها من الجزيرة العربية ، رأيت أن أقدمها إلى الجمعية السامية ، والتى بلغنى فيما بعد أنها كان يجرى اعدادها للنشر فى فرنسا : حيث أقرتها أكاديميه النقوش والدراسات الأدبية ، وقد جرى نشر تلك النقوش عن طريق التصوير ؛ وجرى اعدادها بفونط مقاسه ٤ درجات ، مع ترجمة لها أعدها السيد م . إى . رينان .

يضاف إلى ذلك أن الاسم إنجليزى [1] قد يُهدينى ، فى بداية الأمر ، شيئا من النفع ، فى الأماكن البعيدة التى ربما عرف فيها ذلك الاسم عن طريق القيل والقال ، الذى يتردد فى بعض المستوطنات الصحراوية . ومن الناحية الأخرى ، ومثلما حذرتنى بعض الأصوات الصديقة ، لابد أن كذا وكذا هو الذى يجعل غريزة هؤلاء البدو الرحل البدائية تبقى فيما وراء خيامهم ؛ هذا بالإضافة إلى مرارة التشدد الدينى وخيبته فى كل مكان .

فى تلك المغامرة التى بدأت على هذا النحو ، مضى علىَّ ، ما يقرب من عامين طويلين مرهقين ، فى ذلك المكان ، وأنا بين سكان تلك الأرض الخراب المبعثرين ، الذين يتسمون بالعداء والشك بشكل عام ؛ ولكن تلك الفترة لم تخلو من المناسبات السعيدة ، فى اكتشافى المتكرر ، وأنا أمضى قدما فى تلك المغامرة ، للرفقة والزمالة الإنسانية بين سكان الجزيرة العربية ، واكتشافى المتكرر أيضا لبعض الصداقات الحقة جداً أو المفيدة جداً أيضا ؛ تلك الصداقات التى مازلت أذكرها ، برغم المسافة الزمنية السحيقة بينى وبينها ، وسوف أظل أذكرها ، وأنا على قيد الحياة ، وأحترمها بعقل يعترف بالفضل ولا ينكره . وأنا أروى فى هذين الجزئين الأحداث العفوية التى وقعت لى : وأنا فى هذين الجزئين من الكتاب لم أدون سوى الأحداث التى رأيتها بعينى ، وسمعتها بأذنى ، واعتملت فى داخلى ، ولم أزد على ذلك أو أنقص منه [2].

هذان الجزءان اللذان نشرتهما أيضا مطابع جامعة كمبردج نفدا من السوق منذ وقت طويل [3]. وقد تطلب الأمر إعادة طباعة هذين الجزئين من جديد ؛ ولذلك جرى نشرهما بالصورة التى هما عليها فى هذه الطبعة الثانية ، وذلك بناء على اقتراح من صديقى المبجل العقيد تى . إى . لورنس ، الذى تولى مع فيصل الأمير المكىّ ، قيادة

(١) كلمة ' إنجليزى ' معناها بلغتنا Englishman .

(٢) قيل لى ، إن الناس طرحوا السؤال التالى : كيف استطعت تدوين هذا القدر الوفير من الملاحظات فى الجزيرة العربية المتشددة دينيا ؟ وأنا لم أجد صعوبة فى فعل ذلك . إذ كنت بينهم فى مركز أو مكانة الحكيم : يضاف إلى ذلك أنى لم أتورع عن استعمال المحبرة وقلم البسط وقت الفراغ ، فى خيمة البدو الرُّحل ؛ ولكنى عندما كنت فى المستوطنات كنت أدون وأكتب كما أريد . وأنا لم أفعل أى شيئ خفى : ولذلك استطعت "كعابر طريق" ، المضى قدما فى ظل سمعة طيبة وحسن ظن من الكثيرين ، كما كنت أعثر دوما على أصدقاء متعاونين : الأمر الذى كلل رحلتى فى الجزيرة العربية بالنجاح فى نهاية الأمر .

(٣) نشرت دار نشر مسيرز طبعة مختصرة من هذين الجزئين .

البدو الرُّحل ؛ الذين اقتادهم هذان الاثنان – إذ لم يكن بوسع أحد غيرهم فعل ذلك – من جده ، ميناء مكة البحرى ، (وهم يمثلون أثناء مسيرتهم عداء دمويا قبليا مستحكما) ليستطيعا توحيد كل هذه القبائل ، على شكل موقف عسكرى منتصر فى وجه السيادة التركيه الفاسدة على تلك الأجزاء من البلاد : وبذلك يكون الأمير فيصل ، أمير مكة ، قد خدم قضية بلاده وحلفاءها ، من التوجه صوب محور الشرق ، وسط معارك الحرب العالميه الأولى ؛ التى كانت قد عبرت إقليم الجزيرة العربية الصحراوى الواسع .

[وأنا لا يسعنى هنا إنهاء هذا التصدير دون أن أشكر هؤلاء الناس الطيبين (الذين رحلوا عنا جميعا) ، وهم : هنرى برادشو ، الذى كان يشغل منصب أمين مكتبة جامعة كمبردج فى ذلك الوقت ، والأستاذ و . رايت Wright أستاذ اللغة العربية فى جامعة كمبردج . وبخاصة أن هذين الاثنين هما والأستاذ روبرتسون سميث ، أستاذ الدراسات السامية فى الجامعة ، استطاعوا إقناع هيئة مطبعة الجامعة إقناعا شديدا بالقيام بتحمل نفقات طباعة مخطوطة هذا الكتاب

شارلز م . دوتى

سبتمبر ١٩٢٠ .

تصدير الطبعة الثالثة

أنا لا أجد شيئا أضيفه عندما أكتب تصدير الطبعة الجديدة ، عقب نفاد الطبعة السابقة مباشرة .

معروف أن الحرب العالمية الأولى التى دارت رحاها فى زماننا ، أدخلت أراضى العرب ضمن أفق الدول الغربية .

وتجدر الإشارة هنا إلى رأى بعض الباحثين الذى مفاده أن شبه الجزيرة العربية الشاسع هو والقسم الأكبر من أراضيه القاحلة الخراب ، هو مهد حضارة ما قبل التاريخ ؛ فى شبه الجزيرة وفى الجزء الخراب منها نشأت وتربت حشود عدة من البشر ، ومن شبه الجزيرة ومن الجزء الخراب فيها ، انتشرت تلك الحشود الإنسانية ، التى تحولت ، فى عصور سابقة إلى شعوب سامية قوية واسعة الانتشار : هذه الشعوب تركت ، منذ بداية التاريخ بصمة أزلية لا تمحى على القارات الثلاثة التى كانت تشكل العالم القديم ؛ وقد تركزت تلك البصمة بصورة خاصة على الإحساس الدينى فى ذلك القسم الرئيسى من الجنس البشرى .

هضبة شمال الجزيرة العربية ، التى أتناولها فى هذين الجزئين ، والتى تسكنها قبائل بدوية مترحِّلة هم وسكان القرى الواحية ، تكاد تكون عديمة الأمطار ، كما يصل ارتفاعها إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ؛ فضلا عن كونها أرضا جافة منذ العصر الطباشيرى .

ولدينا أيضا بعض الأدلة على أن البشر عاشوا فى شبه الجزيرة العربية منذ بداية الكون ، وتتمثل تلك الأدلة فى صوَّان العصر الحجرى القديم ، الذى صنعت له أيدى البشر حداً حاميا ؛ ذلك الصوان الذى تم العثور عليه ضمن حصى أو زلط الصوَّان ، فى مدينة معان [1] ، بمنطقه إيدوم Edom .

(١) الجزء الأول ، ص ٦٧ ، ٧٧ (يمكن العثور على ذلك الصوَّان فى متحف جامعة أكسفورد .)

وفيما يتعلق بالعرب الرُّحل ، وقطعان الإبل والأغنام . وسكان الخيام السوداء وكذلك الستائر المصنوعة من قماش الشعر ، (التى يطلقون عليها إسم "بيوت الشَعر") فنحن نجد فى هذه الأشياء تلك الحياه الصحراوية ، التى عاشها أسلافهم ، فى خيام قيدار Kedar الإنجيلية .

هذا فى الوقت الذى تتردد فى آذاننا أصداء عباراتهم المتماثلة التى تشير إلى لغتهم شبه الواحدة ، فضلا عن أن عاداتهم المتشابهة أيضا ، تهل علينا قادمة من الماضى السحيق ، كى نراها مستمرة أمام أعيننا ؛ ونحن نكاد نحس فى دخائلنا وكأننا انتقلنا إلى الوراء ، إلى أيام البطاركة العبرانيين الرُّحل ؛ (التى ، بالرغم من أنها قد تبدو بعيدة عنا ، فى أيامنا هذه ، إلا أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد لحظة من لحظات الزمن الجيولوجى) . ومن هنا فنحن نكون فى وضع أفضل نتمكن معه من قراءة القسم الأكبر من العهد القديم قراءة متأنية ، فى ضوء هذا التبصر وذلك الفهم ، الذى تيسر لنا عن طريق التجربة والخبرة الحية .

شارلز . م . دوتى

سبتمبر ١٩٢١ .

الجـــزء الأول

الفصل الأول

أرض الصوّان (*) : عمون وموءاب

الحج فى دمشق . مخيم الحج فى تيه مزيريب . التقدم . حرمون . المحطة الأولى . طريق الحج ، أو درب الحج . جرازة . العجيل . باشان . أم جِمال . بُصرى . جابوك أو الزرقاء . شبيب بن طوبًاى . أبراج قديمة قوية فى الصحراء . معاقبة لص من لصوص القوافل . سطح سهول الصُّوان . البدو . بنى صُخر . بنى سُلَيْطة . ولاد على . الجليد . البلقاء . هل كان ذلك البلد الجديد يناسب المستعمرين أم لا يناسبهم ؟ عمون القديمة . حشبون . أم الرصاص . نصب مخيم الحج أثناء الليل . غدير آرنون . ليجون . سهول موءاب العالية . المواقع المحطمة . ذات

(*) الصورة الموجودة أعلى عنوان هذا الفصل فى الأصل الأجنبى تمثل غصنًا من أغصان العنب وزينة على شكل رمّان ، وهذا الرسم منحوت على كتلة من الجرانيت الأبيض ما تزال موجوده بين أطلال الأرض الخراب فى مدينه معان .

(*) أرض الصوان : تعرف ببلاد العرب الصخرية وتقع فى الشمال من جزيرة العرب جنوب غربى بادية الشام . وأطلق عليها الإغريق Arabia Petraea أو Arabia Petrix . (المراجع)

راس . موءاب القديمة . كير موءاب . "أكوام فى أخاديد الحقل" .
المردة القدامى . قبيلة أجابا . الأرض التى بددتها إسرائيل .
القدماء كانوا بناة أحجار . زيارة كيراك . قبيلة بنى حميدى .
أكوام من أحجار التأبين فى التيه (البرية) . وادى الحسى .
وديان الحجر الجيرى المنحدرة نحو البحر الميت . الشيخ حجيلاّن .

عندما عدت من شبه الجزيرة أول مرة ، نادانى صوت صديق قديم ، وأنا أسير من جديد فى ذلك الشارع الطويل من شوارع دمشق الذى يطلقون عليه اسم الشارع المستقيم Straight، وأمسك ذلك الصديق فجأة بيدى متعجبا وقال : "خبرنى ، طالما عدت إلى هنا ثانية فى حفظ الله ورعايته ، حدثنى ونحن نمشى ، كسالف عهدنا فى السنوات الخوالى ، متجهين إلى البساتين التى تتفتح زهورها من جديد ، والتى يفوح منها عبق الربيع كما لو كانت جنة الله ، خبّرنى ، ما الذى دفعك ، أو كيف استطعت القيام بترحال من هذا القبيل فى الجزيرة العربية المتعصبة والمتشددة عقديا ؟"

حدث ذلك بالفعل فى آخر لحظة . من ذلك اليوم ، الذى أعقب أياما كثيرة عمرت بالفشل والإحباط ، الذى افترضت على أثره أن القيام بتلك الرحله ضرب من المستحيل . فى بداية الأمر ، كنت قد طلبت من الوالى ، حاكم سوريا ، أن يتكرم بالموافقة علىّ أن أرافق قافلة الحج إلى مدائن صالح . وهنا لجأ الوالى إلى تبين صحة ذلك من القنصلية البريطانية ، ذلك المكتب الذى يحظى بتقدير واحترام كبير فى تلك البلاد . ورد القنصل على الوالى بأن موافقته لم تكن تكليفا فى أمر من هذا القبيل ؛ كما كان القنصل يكن لى احتراما وتقديرا كبيرا ، إن قدر لى القيام بالسير والتجوال فى تلك الطرق الخطيرة المهجورة . كان هذا الرجل ، فى ذلك الوقت ، قد عرض على أن يلعب دورا طيبا فى أسفارى وترحالى ، وهو يقول لى حاليا إنه لم يكن من مهامه أخذ أية رحلة من رحلات الجزيرة العربية بعين اعتباره ، مخافة أن يوجه إليه اللوم ، فى حالة ما إذا فشلت فى القيام بتلك الرحلة . وبناء على ذلك ، فهم الضباط الأتراك ، أن حياتى التى ضحت بها قنصليتى العزيزة ، لن تكون من مسئوليتهم خلال تلك المغامرة . وهناك قول طريف من أقوال السير هنرى وتون Wotton Henry(*)، الذى خسر بمقتضاه كفالة راعيه (الروحى)

(*) السير هنرى وتون : رحالة وشاعر ودبلوماسى إنجليزى ، عاش فى الفترة من ١٥٦٨ – ١٦٣٩ وأوفده الملك جيمس الرابع منذ عام ١٦٠٤ ليكون سفيرا فى العديد من الدول الأوروبية . (المراجع)

ومفاد هذا القول المأثور هو أن "السفير رجل توفده بلاده إلى الخارج ليكذب نيابة عنها" ويمكن أن نزيد على ذلك القول المأثور ما يلى : "القنصل ، رجل يوفد ليلعب دور التركى فى الخارج ، أمام أبناء بلده ."

تلك التركية Turkishness المفاجئة ، كانت عندى بمثابة المصدر الرئيسى لكل المصائب التى أصابتنى فى تجوالى خلال الجزيرة العربية . والعجيب فى الأمر ، أنى لم أخشى الاعتراف ، بأنى كنت قد شارفت مرارا على القتل بطريقة خسيسة ! هذا فى الوقت الذى كان يمكن فيه ، منذ البداية ، لكلمه خيِّرة غير رسمية ، صادرة عن قنصلية إفرنجية ، أن تجعلنى أحظى بتقدير واحترام كبار ضباط الحج من ناحية ، وبخطابات التزكية الصادرة لى منهم ، عند رحيلى عنهم ، متجها إلى أمراء الجزيرة العربية من ناحية أخرى . من هنا ، فإن رفض القنصلية البريطانية ، جعلنى أخشى أن أطرد كلية إذا ما تجرأت ، فى مثل هذه الظروف ، على زيارة بعض الشخصيات الكبيرة فى دمشق ، والتى من بينها الأمير النبيل عبد القادر الجزائرى(*) ؛ الذى من أجل خاطر الوفاء بما طلبه – الذى كنت على يقين منه – جرى الترحيب بى وإكرام وفادتى ، فى سائر المحطات التى كانت تشغلها الحاميات المغربية على امتداد طريق الحج ، إضافة أيضا إلى أن حياتى لم تشرف على الضياع بين هؤلاء المغاربة عندما وصلت ، بعد ذلك ، إلى مدائن صالح .

لم أزر سوى باشا الحج الكردى ، محمد سعيد ، الذى كان قد تعَّرف علىَّ ، قبل ذلك بعامين فى منطقة الأراضى الواقعة خلف الأردن ، وظن أننى واحد من أولئك الذين

(*) الأمير عبد القادر الجزائرى : من أبرز وجوه المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر ، اضطر الفرنسيون أن يعقدوا معه معاهدة التافنا فى عام ١٨٣٧ التى بموجبها حصل على مكاسب أرضية واسعة وأقام حكومة نظامية ، وبايعه العلماء والأعيان وزعماء القبائل باعتباره أميرا وزعيما للجهاد ، غير أن الفرنسيين لم يلبثوا أن ركزوا جهودهم ضده ، وتمكن بيجو الحاكم الفرنسى العام فى الجزائر من تفويض حكومته وانتهى به الأمر إلى الاستلام للفرنسيين الذين أخذوه إلى باريس وعاملوه معاملة شاذة حتى سمح له الامبراطور نابليون الثالث فى عام ١٨٥٢ بالانتقال إلى دمشق التى توفى بها فى عام ١٨٨٣ . وكانت له مكانة كبيرة هناك ، فضلا عن مكانته بين أفراد الحاميات المغربية التى كانت تشرف على محطات طريق الحج الشامى ومن ثم كان حرص دوتى على اللقاء به لتأمين رحلته . (المراجع)

لا يفعلون أى شيء فى الخفاء . كان ذلك الوقت يصادف انتشار وباء الكوليرا ، وهروب المسيحيين من المدينة ، عندما قمت ، فى فترة سابقة ، بزيارة الباشا محمد سعيد استجابة للطلب الذى مفاده أنه من الأرجح لى أن أسافر برفقة الحجيج إلى مدائن صالح . كان الباشا محمد سعيد قد أوصانى بإحضار فرمان من السلطان ينص على أن "الحجاج عبارة عن جمع مُخلَّط كبير ، وإذا ما حدث لى مكروه ، فإن الضرر سيقع على عاتقه هو ، ونظرا لأنى واحدٌ من رعايا حكومة أجنبية " : ولكنه يقول لى الآن : "حسن ! هل تريد الذهاب إلى هناك ؟ وإذا كانت الإجابة بالإثبات ، فليكن ذلك مع قطار المؤن السريع (*) " ، الذى كان يرسل ، من سوريا ، منذ زمن بعيد لغوث الحجاج فى مدائن صالح عند عودتهم ؛ ولكنى أيقنت أن بقائى مدة ثلاثة أيام فقط ، فى مدائن صالح لن تكون مدة كافية .

ظننت أن الحظ بلغ من السوء حداً يحتم علىَّ عدم الذهاب إلى الجزيرة العربية ؛ ولكن أصدقائى من المسلمين قالوا لى : "ليس بوسع الباشا نفسه منع أى إنسان من القيام بتلك الرحلة مع القافلة ؛ وبالرغم من أنى نصرانى ، فما هو المانع ! طالما أنى لن أذهب إلى الحرمين ، وإنما إلى مدائن صالح ؛ كيف ! أنا الشخص الأمين قد لا أذهب إلى هناك . فى الوقت الذى يذهب إلى هناك كل عام وبرفقة الحج أحط وأسوأ مفصلى الثياب فى المدينة ؛ كلا ؛ إن أخطر الفواحش المنافسة لدمشق كانت فى المزيريب Mu-zeyrib، إذ كانو يقتلون ويَسْبُون بنات القافلة اللاتى كن يقتربن من الأرض اليباب" . كما قال لى هؤلاء الأصدقاء : "لم تمض سوى سنوات قلائل على إيفاد البنائين المسيحيين (إذ لم يكن هناك مسلمون يعملون فى تلك المهنة فى دمشق) بصحبة الحج لإصلاح برج الماء ، أو إن شئت فقل : القلعة Kella، هى وصهريج الماء ، فى مدائن صالح نفسها ."

(*) يقولون لذلك القطار Jurdy بلغتهم الوطنية .

هذه المدينة الشرقية(*) اللطيفة تعتريها كل عام هزة شديده قبل الحج ؛ ويتردد على أسواقها غرباء كثيرون مختلفى اللغات ، ومختلفى اللباس ، يأتون إليها من بلاد بعيدة . والجزء الأكبر من هؤلاء الغرباء هم من آسيا الصغرى ، ويلبس الكثيرون منهم عمائم شاهقة الابيضاض ، ربما كان وزن الواحدة منها أثقل من وزن رأس لابسها ؛ والسواد الأعظم من هؤلاء الناس من الفقراء البسطاء ، الذين توحى وجوههم بالمهابة والهيبة ، وهم يجوبون شوارع المدينه بحثا عن طاولات بيع الخبز ، وسمعت بأذنى أن كثيرا من الدمشقيين كانوا يستطيعون الرد عليهم بلغتهم . والمدينة تنتابها حالة من التأهب عند رحيل الحجيج عنها لأداء الفريضة ، وعند العودة إليها من الحج ، وكل ذلك يتحول إلى مشهد عام ؛ وكل عائلة من العائلات المسلمة يكاد يكون لها واحد من أقربائها ضمن قافلة الحج . وفى أسواق هذه المدينة يسارع الحجاج إلى شراء الكثير من البضائع التى يحتاجونها وهم فى طريقهم لأداء الحج ، وهاهم صناع الخيام مشغولين فى الشوارع الخاصة بهم ، تراهم وهم يتفقدون ويجددون نسيج المئات من الخيام القديمة ، وكذلك النسيج الغليظ الذى يستخدم فى نقل المنقولات ، فضلا عن حواجز الزبالة والمهملات ؛ وهاهم طهاة الكارى فى السوق المخصصة لهم ، يسارعون إلى بيع قراب الماء المصنوعة من جلود الحيوانات ، ودلاء الماء المصنوعة من الجلد ، فضلا عن زمازم الماء ، التى يقولون لها **Matara** بلغة القوم ؛ وها هم النجارون يتعجلون فى أعمالهم الخاصة بالحج ، إذ يقوم القسم الأكبر منهم بإصلاح حواجز المناطق المخصصه للزبالة والمهملات . وفى ضاحية الصوَّان من المدينة ، أو إن شئت فقل : فى الميدان ، يجرى تسليم الحبوب وبيعها بأسعار رخيصة ، والحبوب هنا بالمناسبة ، تستعمل علفاً لماشية الحج . ويمر من هذه الشوارع يوميا سائقو قافلة الحج ، الذين يقولون لهم **Akkâms** بلغة القوم ، وقد حمَّلوا صناديق نقل البضاعة على ظهور جمال

(*) مدينة دمشق : إن الحجاج يتجمعون فى تلك المدينة بفضل موقعها كأكبر مدينة على حافة الصحراء السورية الحجازية . ولم يكن الحجاج من سوريا فقط وإنما كانوا من بلاد العجم وتركيا وتركستان وغيرها من الجهات الشمالية . وكان يقع على عاتق المدينة مسئولية استقبال وإيواء وتموين هذا العدد الكبير من الحجاج من مختلف الجنسيات الذين يأتون فى وقت معين من كل عام استعدادا للرحيل إلى الأراضى الإسلامية المقدسة . وأصبح لدمشق نتيجة لذلك لون من القدسية أو الشرف حتى كان يطلق عليها « شام شريف » . (المراجع)

الحج العالية . هؤلاء السائقون يشقون طريقهم ببذاءة من فوق ظهور الجمال ، خلال الأسواق الضيقة ؛ والشائع أن أولئك السائقين يكونون من الشباب الشرس المتوحش ، الذين تطفح أفواههم بأقذع اللعنات البذيئة ، وهم يرون أن من لا يكون على هذه الشاكلة لا يصلح للسفر على طريق الحج . أما المقومون ، أو إن شئت فقل : أصحاب الإبل فقد أحضروا ماشيتهم (وكلها من الذكور الأشداء) من البرية إلى أحواش الإبل فى دمشق ، وهاهم الجمَّاله مشغولين بوضع المخاد تحت سُرُج التحميل ، ويلفُّون ، فى البداية حول عمود الجمل الفقرى ، ملاءة (عَّراقة) سميكة من اللبَّاد الحلبى ، كى يتحاشى الجمل الآلام الناتجة عن الاحتكاك ؛ وهذه المهمات لا ترفع عن ظهور الإبل إلا عند عودتها بعد أربعة أشهر ، إن قدر لتلك الإبل أن تعود حية . من رحلة طويلة من هذا القبيل . والمقومون ، أو إن شئت فقل أصحاب الإبل ، رجال أشداء متمرسين على ذلك الطريق ، إلى الحد الذى يمكنهم من السيطرة على الأطقم التى تتمرد عليهم فى أغلب الأحيان ؛ ومكتوب على وجوه أولئك المقومين الشرسة أنهم قادرون على مواجهة الشر بالشر ، فضلا عن قدرتهم على التعامل ، على طريق الحج الطويل ، مع غدر وخيانة البدو المراوغين . وقد جرت العادة فى البلاد التى تمر بها القافلة ، أن يلتقى المسافرون ضمن القافلة فى مكان عام خارج المدينة . وفى كل الأحوال يكون تجمع فوج الحجاج عند بحيرة مزيريب(*) فى المنحدرات العالية خلف نهر الأردن على بعد مسير يومين من دمشق . فى هذه المنطقة يجرى نصب خيام الحجيج المشاركين فى تلك المعركة ، حيث يبقون أسبوعا أو عشرة أيام فى الصحراء قبل القيام بتلك الرحلة الطويلة . ويصل باشا الحج ، بعد تسوية شئونه مع الحكومة فى دمشق ، إلى ذلك المكان قبل رحيل القافلة بثلاثة أيام ، ليقوم فى البداية بدفع أجور البدو والاتفاق مع السقايين (جالبى الماء) (الذين هم من البدو أيضا) الذين يجلبون الماء للقوات العسكرية .

ها هى طرق ومسارات دمشق المفتوحة على هذا الجانب ، والتى كانت تعج مؤخرا بمرور المئات من صناديق البضاعة ، الأمر الذى كان غريبا على عينينا تماما، والتى

(*) كان الحجاج يتخذون من المزيريب التى تقع فى سهل حوران وتبعد عن دمشق بنحو مائة وخمسين كيلومترا من ناحية الجنوب قاعدة لانطلاق رحلتهم إلى الأراضى المقدسة . (المراجع)

كانت تعج بسلسة من الحجاج الشرقيين على اختلاف أنواعهم ومشاربهم ، هذه الطرق خلت من جديد وخيم عليها الصمت والسكون : لقد رحلت قافلة الحج من بيننا . فى هذه المناطق الناس هنا يعضون بالنواجز على ما لديهم من نقود قليلة ، كما لو كانت كنزا ثمينا نظرا للضيق والمشاكسة اللذان تسببت فيهما حكومة مجرمة : وسرعان ما جلب على حظى السعيد خمسة أو ستة أشخاص من الفقراء المساكين أقسموا كلهم أنهم على استعداد لوضع اختامهم على ورقة يتعهدون فيها بنقلى سليما إلى مدائن صالح ، سواء أكنت راكبا حصانا من خيول النقل ، أو على ظهر بغل ، أو راكبا حمارا ، أو جملا بسنام واحد ، أو جملا بسنامين أو حتى فى صندوق من صناديق نقل البضاعة . واتفقت مع رجل فارسى ، يعمل مقوِّما مع أهل بلده الذين يصلون كل عام إلى هذا المكان قادمين من الشرق عن طريق بغداد ، ثم حلب وأخيرا دمشق على أن ينضموا من هناك إلى قافله الحج العثمانية(*) ، واتفقت معه على مشاهدة "مدائن صالح" ؛ هذا المسكين الغبى رضى تماما عندما وضعت فى يده بضع جنيهات إنجليزية قليلة ساعدته على الاعتماد على تاجر الغلال الذى يتعامل معه ، فى توصيلى إلى مدائن صالح . كانت تلك هى اللحظه الأخيرة ، نظرا لأن باشا الحج كان قد حل قبل يومين ، وكان يتعين على ذلك الرجل (تاجر الغلال) أن يتبعه مع الرحلات الكبيرة . وسرعان ما ارتديت ملابس رجل سورى بسيط الحال ، ومعى مخزون من بسكويت القافلة ، وذهبت للركوب مع ذلك التاجر ؛ واختلطت مع الفرس فى رحلة الحج ، الأمر الذى حتم علىَّ أن لا أكون بارزا أو مكشوفا من الفرس أو العرب . كان خدم ذلك المقوِّم هم ومعداتهم قد وصلوا إلى مخيم المزيريب منذ حوالى ثمانية أيام .

كان الوقت عصرًا عندما ودعنى بعض الأصدقاء العرب متمنين لى سرعة الوصول ثم ركبت بغلا بعد أن وضعوا على ظهره خرج الجمل الخاص بى ، ورحت أسير خلال دمشق مع الفارس ، المدعو محمد أجا (**)، وبصحبتنا مجموعة صغيرة . وبعد أن

(*) كان الفرس يفضلون المجئ إلى دمشق للالتحاق بقافلة الحج الشامى ، وربما يرجع ذلك إلى أن الإنجليز كانوا يفرضون قيودا مشددة على الإبحار فى الخليج العربى . (المراجع)

(**) أجا : وصحتها أقا ، وهى من الألقاب الفارسية التى استخدمها الأتراك باسم أغا . (المراجع)

تجاوزنا شارع المدينة الطويل ، الذى كانوا يطلقون عليه فى زمن بولس Poul اسم الشارع المستقيم . Straight لنمر من خلال الميدان إلى بوّابة الله ، ركز بعض الواقفين أبصارهم علىّ وراحوا يتساءلون ، "ما هذا ؟ إخ !" ورد عليه آخر وهو يستظرف قائلا : "إنه واحد ممن ينتمون إلى الأعجمى" (الفارسى) . وبعد أن خرجنا من بوابة الله ، التى أطلقوا عليها ذلك الاسم نظرا لمرور الحج المقدس منها ، شاهدنا الصحراء المرتفعة أمامنا تمتد مئات الأميال إلى الحرمين ؛ فى البداية هذا هو سهل قفر من الزلط واللّهمْ من فوق الحجر الجيرى ، سرنا فيه عشرة أو اثنى عشر يوما ، كان ارتفاع السهل يتزايد خلالها دوما ، إلى أن وصلنا إلى مدينه مَعَاَن فى "جبل إيدوم"(*) بالقرب من البتراء(**) وعلى بعد مسير ستة وعشرين يوما من المزيريب تقع المدينة ، (مدينه النبى أو يثرب كما كانوا يسمونها فى الماضى) ؛ وعلى مسافه مسير أربعين يوما تقع مكه . لم يكن هناك ؛ فى ذلك الوقت ، أحد على ذلك الطريق ، الذى كان الحجيج قد مروا منه قبلنا بخمسة أيام . ومع غروب الشمس وصلنا إلى قرية قسمة Kesmīh الصغيرة التى تقع فى الضواحى : وفرَّجونى فى جانب الطريق على قبة بيضاء ، المحطه التى ينام فيها آمر الحج ، أو إن شئت فقل : أمير الحج ، فى مساء اليوم الذى تبدأ فيه الرحلة من دمشق . ومررنا من طريق ممهد فى الأرض الجرداء ، ويبدو أنه عُبِّد منذ زمن عند منطقة التقاء مجارى سيول الشتاء ، كى يساعد على مرور إبل الحج بسلام ، نظرا لتعذر سير الإبل فى الأرض الزلقة ؛ بعض آخر يرى ذلك على أنه أطلال لجسور ، نظرا لأن كل شيئ قد تحول حاليا إلى أطلال وخرائب فى الإمبراطورية العثمانية . وهذه كتل منجرفة مبعثرة فوق هذه الأرض القاحلة الجرداء ؛ وقد أدهشنا ، أننا نعرف أن لتلك الكتل المنجرفة نظير فى مناخات الدنيا كلها .

(*) إيدوم Edom، ويصح فيه أيضا ." Idumaea وهى منطقة فى جنوب فلسطين تقع فيما بين البحر الميت وخليج العقبة . (المترجم)

(**) البتراء : Petra مدينة قديمة فى حوض على الجانب الشرقى من وادى العرابة فى الجنوب الغربى من الأردن . وهذه المدينة كانت عاصمة الأنباط ومركزا مهما من مراكز تجارة القوافل . وقد انتعشت فى الفترة ما بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الثالث بعد الميلاد وجرى ضمها إلى الإمبراطورية الرومانية فى العام ١٠٦ بعد الميلاد . وقد اندحرت بيترا على أثر زيادة أهمية باميرا Palmyra، ونسيها العالم إلى أن اكتشف بركخاردت Burckhardt أطلالها فى العام ١٨١٢ الميلادى . وتشتمل تلك الأطلال على معابد ومنازل ، ومسرح كبير منحوت فى صخرة حمراء متعددة الأطياف . (المترجم)

أمضينا الليلة فى مكان مؤسف فى قرية قسمة Kesmîh، حيث نمنا فى العراء ، فى طقس سيئ ، ومكان قذر ، ولم تدم راحتنا طويلا . وبعد ثلاث ساعات من منتصف الليل استأنفنا ركوب دوابنا من جديد . صاحبنا فى هذه المرة بعض آخر من الرجال ، وكانوا جميعا من الجائلين الذين يمشون على أقدامهم ، كما كانوا أيضا من معارف الفارسى ومن أمته ، لقد قدموا أنفسهم طائعين سعداء لتلك الرحلة المقدسة ، وعندما بدأت الشمس فى البزوغ والابتسام للأرض وهى تنشر عليها دفئها ، مثل الطيور عندما تستيقظ ، بدأ هؤلاء الفرس يغردون بترانيم فارسية تشبه ترانيم الطيور العذبة . كان من بينهم درويش شاب أشقر الشعر يسير بهمة ونشاط ، ويعد أفضل غرِّيد بينهم ؛ كان يضحك فى هدوء ويبالغ فى إطرائى ويحيينى بأفضل ما عنده من اللغة العربية . كانوا يفرحون ، من باب التذكرة ، باستعمال التبغ ، وقالوا إنه ليس هناك فى الدنيا كلها ما هو أفضل من رقعة بلادهم الحلوة . ففيها ترتفع أمامنا ، وعن بعد ، سلسلة جبال حرمون ، التى تعلوها رءوس الصقيع الفضى كما لو كانت سحابة بيضاء معلقة فى الهواء ، ولكن الخريف فى السهل كان ما يزال طفيفا ودافئا . وعند مسافة عشرين ميلا مررنا من أمام سلامين Salamen، ذلك المكان الخرب ذى الأطلال المأهولة ، مثل تلك التى شاهدناها فى الحوران : Houran ذلك الموقع الذى يبعد مسافة خمسة أميال عن هذا المكان . كان البعض من رفاقى يتأملون الغريب ، نظرا لأنى كنت أسأل عن الأسماء . شببنا النار أول مرة فى فترة العصر بالقرب من صهريج ماء راكد ، يقولون له Keteby بلغة القوم ، ويحرسه حرس مكون من جنديين مشاكسين ، وعندما وصلت ذلك الخزان وأنا شديد العطش رفضت الشرب من ذلك الماء ، وصاح أحد هذين الجنديين بوجه عابس وهو يقول : "يا للدهشة ! مَنْ هناك ؟ أظن إنه نصرانى ؛ وأنا أكرر ، أهذا هو الأنسان الذى سوف يرافق الحج ؟" وبعد تسعة أميال من ذلك المكان مررنا من أمام قرية مسكين : Meskîn وبينما كنا نسير فى الطريق تخطينا بائع تفاح يقود حماره الذى كان يحمل صناديق مليئة بعنب خريفى أصابه شىء من العفن ، وكان ذلك الرجل يبتغى بيع تلك البضاعة الرخيصة للحجاج الفقراء مقابل النقود النادرة فى مزيريب ، وبينما كنت أشترى شيئا من عناقيد عنبه البارد ، كان ذلك الشخص المنقوع فى سخرية الطريق ، قد أبصرنى من بعيد ، وصاح قائلا : "وهل أنت أيضا ذاهب إلى

مكة ؟ عجبا ! أنه ليس من أولئك الذين يتعين عليهم الذهاب إلى الحج ؟ وأنتم يا من تصاحبونه ، ما هذا الذى تفعلونه من أجل واحد من الحجاج !" وصلنا بعد الثامنة ليلا ، ونحن نمشى الهوينا ، إلى مخيم المزيريب ؛ أمضينا فى تلك المسيرة الاضطرارية ستة عشر ساعة . كان علينا أن نصيح منادين خدم الأجا وعماله بأسمائهم ، كى يدلونا على خيامنا ، ولكن تلك المناداة لم تدم طويلا ، نظرا لأنه بعد مئات السنين من الحج أصبحت رحلته منتظمة ومنظمة على أحسن وجه . ذلك أن المقوِّمين يعرفون أماكنهم حق المعرفة ، ومن هنا سمع نداءنا بعض من خدم وعمال الأجا واقتادونا إلى المكان المخصص لهم . كانت فترة الصباح فترة تجهيز واستعداد ، إذ كان يتعين علينا الرحيل فى اليوم التالى . ونصحنى الأجا بعدم الخروج من السكن . سوف يطلق المدفع إيذانا برحيل الحج ، قبل يومين من الموعد المحدد لذلك ، هذا العام نظرا لأن موسم الحج قد تأخر هذا العام . كانت تنتظرنا عشرة مسيرات عبر المرتفعات الشمالية ، ويحتمل أن تسقط علينا باكورة الأمطار قبل النزول إلى الجزيرة العربية : وفى هذه التربة المخلوطة باللهّم (الغرين) لا تستطيع الإبل المحملة ، المرور بسلام فى فصل الأمطار تحاشيا لانزلاق أقدامها . كان السكون المطبق يخيم على المخيم ؛ إذ كانت تلك آخر ساعات الراحة ، ونظرا لأن الوقت كان ليلا ، فقد جاء إلينا الخدم ، وهم من شباب المخيم ، ومعهم المراسلين ؛ وراحوا يحيون كل جناح من الأجنحة ولكنهم جعلوا أجنحة الفرس آخر محطاتهم (كان المكان المخصص لأجنحة الفرس فى مؤخرة القافلة نظرا لأنهم غرباء من ناحية ، وتحاشيا للصراع والنزاع من الناحية الأخرى) وهم يرددون القرار التالى : "تصحبكم السلامة ، نتمنى لكم سفرا سريعا ، يا آسفاه ! يا لهذه الهدية ! هذه هى عادتنا ، أطال الله عمره "(*) وكانوا يواجهون الفارسى الذى لا يشارك فى هذا القرار بوجه عابس .

طلع الفجر علينا ونحن لم نغادر المكان بعد . وبعد طلوع النهار . فككت الخيام ، وجلبت الإبل إلى مرافقيها وتوقفت إلى جانب أحمالها . ورحنا ننتظر انطلاق المدفع

(*) وردت هذه العبارة باللغه الفارسية على النحو التالى :
Bes- salaamy bes- salaamy , Ullah Yet owwel ummr - hu,hy el-âdy,hy el-âdy, Mohammad Aga!

إيذانا ببدء حج ذلك العام . كانت الساعة تقترب من العاشرة عندما سمعنا انطلاق صوت دانة المدفع ، وعندها ، وبدون أى فوضى أو اضطراب ، جرى رفع الصناديق وتحميلها وربطها فوق دواب الحمل ، ووضعت الأجور والأتعاب فوق الإبل الباركة ، وهنا راح آلاف الركاب ، الذين كانوا من ضمن بلدان القافلة ، راحوا يركبون فى صمت وسكون . وبعد أن أصبح كل شىء فوق ظهور الدواب والإبل بقى الجمَّالة واقفين فى صمت على أرجلهم ، أو جالسين على أعقابهم لنيل اللحظات الأخيرة من الراحة : هؤلاء الجمَّالة ، هم خدم المخيمات والخيام الآخرين ، يتعين عليهم أن يقطعوا ثلاثمائة فرسخ سيرا على أقدامهم ، بالرغم من إصابتهم بالإعياء ؛ ومكتوب عليهم أيضا أن يقيسوا الأرض فى الاتجاه الأعلى ، مرة ثانية ، على أقدامهم المرهقة ، عند العودة من الأراضى المقدسة . وبعد انطلاق دانة المدفع الثانية ، التى جاءت بعد انطلاق الدانة الأولى بلحظات قصيرة ، شاهدت هودج الباشا يتحرك فى المقدمة ، ومن بعده رئيس طابور القافلة : وبعد حوالى خمسة عشر أو عشرين دقيقة ، يتعين علينا ، نحن الذين يكون مكانهم فى المؤخرة ، التوقف بعض الشىء ، إلى أن يخف الطابور الطويل من أمامنا ؛ وعندها نروح نضرب إبلنا ، وبذلك يكون الحج الكبير قد بدأ يتحرك . ويتقدم القافلة ثلاثة أو أربعة جمال ويندر أن يكونوا خمسة ؛ يصل طول هذا الجمع البطيئ من الرجال والدواب والماشية قرابة الميلين ، ويصل عرض قافلة الحج إلى حوالى مائة ياردة فى الأرض المنبسطه المفتوحة . ونقلا عنهم (وربما يكون فى ذلك تجاوزا للحقيقة) فإن عدد الحجاج يقدر هذا العام بحوالى ٦٠٠٠ حاج ؛ أكثر من نصفهم رجال جاءوا للحج سيرا على الأقدام ؛ وتضم القافلة أيضا ١٠٠٠٠ دابة من مختلف الأنواع ، التى تشكل الإبل القسم الأكبر منها ، يليها البغال ، وخيول الركوب ، ثم الحمير وأخيراً قليلا من ذلول العرب العائدين إلى مناطقهم فى حماية القافلة الكبيرة . نحن نسير فى أرض خراب خالية ، سهل من الزلط والحصى ، لا يظهر فيه أى شىء ، ولم نر فيه طريقا أمامنا . جبل حرمون ، أصبح الآن خلفنا ، ونشاهد أكتافه الضخمة المكونة من الجليد والصقيع وهى تطبق على الأفق الشمالى : وبدو الصحراء الرُّحل فى الشرق يعتبرون ذلك علامة كبيرة من العلامات الدالة على سوريا ، وهم يطلقون على ذلك الجبل اسم "طويل الثلج" ، أو إن شئت فقل : "الثلج العالى أو المرتفع" (الذى لا يخبرونه كثيرا فى

أرض الجزيرة العربية التى لا تسقط فيها الأمطار وتضربها حرارة الشمس بصورة دائمة) . كان اليوم يوافق يوم الأحد ، عندما بدأ ذلك الحج ، وكان الطقس جيداً ، إذ كان ضوء نهار الصيف السمنجونى لم يذوى فى السماء السورية ؛ كان ذلك اليوم يوافق اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر من العام ١٨٧٦ الميلادى ؛ وبعد أن قطعنا اثنى عشر ميلا ، (ذلك القليل ، الذى بدا لنا كثيرا فى البداية) ، وصلنا إلى المحطة الصحراوية التالية ، حيث جرى نصب الخيام التى سبق أن خلفناها وراءنا فى المزيريب ، هاهى الخيام منصوبة على شكل صفوف بيضاء فى الأرض الجرداء الواسعة . معنى ذلك أن جماعة الخيام الخفيفة كانوا يسبقون مسيرة القافلة كل يوم ، على أن تراعى كل جماعة المكان الذى يخصص لها من بداية الرحلة إلى نهايتها . وبعد أن وصلنا إلى تلك الخيام تفرقت الجماعات وراحت كل واحدة منا تتجه إلى محل الإقامة المخصص لها : وهم يطلقون على المخيم الذى يكون من هذا القبيل إسم الرامتا . Ramta

تحرص القافلة ، فى بدايه أية رحلة من الرحلات الطويلة ، أن تكون مسافة الوقفة الأولى قصيرة ، إذ تبدأ الدواب فى استشعار حمولاتها ، ويبدأ المسافرون يستشعرون مشاق الركوب . وفى عيدان الحطب القليلة (التى يجرى جمعها فى عجالة أثناء السير) ، ومن الأدغال الصحرواية ، يسارع المسافرون إلى شب النار أمام الخيام ، كل الخيام ؛ ونظرا لعدم وجود أحجار فى المنطقة ، بحيث تكون فى متناول المسافرين ، كى يضعونها تحت الأوانى كما يفعل البدو ، يصبح وجار الحج عبارة عن حفرة فى الأرض حتى يتسنى وضع أوانيهم فوقها ، ووضع الجمار تحتها من الناحيتين ، وبقليل جداً من حطب الوقود يجهز الحجاج طعامهم البسيط . وفيما يتعلق بالخيام العسكرية الخاصة بالقوات المصاحبة للحج والخاصة أيضا بالجمَّالة المسلحين ، (غالبيتهم من نجد) التى يطلقون عليها اسم العجيل فيجرى نصبها بطريقة دائرية بحيث تحيط بمخيم القافلة الكبيرة على بعد ستين خطوة من الجانبين : وفى كل خيمة من تلك الخيام تتواصل الخفارة حتى مطلع الفجر وطلوع النهار . ويجرى أثناء الليل تعليق فانوس من الورق أمام كل خيمة من الخيام ليظل مشتعلا طول الليل ، فى الوقت الذى يقف فيه أحد الحراس ممسكا ببندقيته ، ولا يسمح الحراس بمرور أى أحد دون اعتراض طريقه . وأهل الحضر يخافون البدو خوفا شديدا ، كما لو كانوا هم شياطين تلك الأرض

الخراب ، كل واحد منهم على استعداد لمهاجمه أولئك المسافرين لأداء فريضه الحج ؛ ولا يجرؤ أى واحد من هؤلاء البدو على الخروج على المنطق فى الظلام مع أولئك الرماة المتوحشين مخافة أن يردوا عليه بالرصاص والطلقات التى تتردد أصواتها بين الحين والآخر فى اتجاه الصحراء طول الليل ؛ وفى كل لحظه يتصايح أولئك الحراس وهم يرددون ، الواحد بعد الآخر كلمة (حرس !) ، التى يقولون لها بلغة القوم Kerakô Ke-rakô والتى يردون عليها بكلمة (مستعدون) التى يقولون لها بلغة القوم "حاضرون Haderûn " ولم أر أى ضابط من الضباط وهو يقوم بالمرور على الحرس . وأكثر الخفارات ، أو إن شئت فقل الورديات ، هى الوردية الأولى نظرا لأن المخيم يكون مازال صاحيا . وصراصير الغيط هذه يبدأ فقدان أصواتها وصريرها عند منتصف الليل تقريبا ، عندما أرى ، وبدون أى سبب أن الغالبية العظمى من أنوارهم قد أطفئت ؛ والمرجح هنا أن الذين لا ينالون أجرا على ذلك يوفرون على أنفسهم مشقة هذا العمل ، إذ يقوم هؤلاء الجنود الفقراء ببيع ما لديهم من شموع فى سوق الحج .

ومع أول دخول للمساء يكون هناك شىء من المرح متمثلا فى قرع الطبول وشىء من العزف الرقيق على الناى ، فضلا عن أغانى الرعاة الحلوة التى يتغنى بها الفرس فى خيامهم من حولنا ؛ وفى بعض الخيام الأخرى نسمع أناسا آخرين وهم يتغنون بواحدة من المقطوعات الدينية . وفى كل خيام الحجاج هناك فوانيس من الورق بداخل كل واحد منها شمعة مشتعلة ؛ ولكن المخيم مرهق بكامله ، وسرعان ما يخلد إلى الراحة . وينام الحجاج فى ملابسهم التى يرتدونها ، بضع ساعات قليلة إلى أن يسمعوا صوت انطلاق المدفع مؤذنا ببداية الصباح ؛ وهنا ينهض الحجاج بعد ذلك مباشرة لاستئناف المسير ، وهم لايعرفون مدى التبكير أو التأخير ، لأن هذا الأمر مثل بقية الأمور الأخرى يعتمد على انشراح الباشا من ناحية وعلى الطقس الجيد من ناحية أخرى .

وعند الساعة الخامسة والنصف انطلقت دانة المدفع مؤذنة ببداية المرحلة الثانية ، أو إن شئت فقل : الوقفة الثانية من رحلة الحج . كانت سماء الليل مظلمة وتهطل منها زخات المطر عندما بدأنا التحرك ، ولذلك جرى رفع أوانى الزيت المعلقة فوق عمد من

الحديد حتى يتسنى لحامليها إضاءة الطريق ، كان الرجال يحملون تلك الأوانى على أكتافهم . كشف الفجر الأرض الجرداء القاحلة التى تمتد أمامنا ، وفيها طبقة رقيقة من الحصى والغرين فوق الحجر الجيرى .

درب الحج ، ليس طريقا ممهداً ، وإنما هو عبارة عن مدقات عديدة تجوفت بفعل مشى أقدام الإبل عليها ، مرة كل عام ، وذلك على امتداد أجيال كثيرة من الحج متباينة الأعراف والأجناس كانت تقطع ذلك الطريق . المسارات الكثيرة المتساوية التى تتجمع مع بعضها البعض ، يشبهها أحد الشعراء العرب القدامى بشرائط العباءة (البشت) العربيه المقلّمة . والمعتاد أن تطلق دانة عند منتصف النهار تقريبا ، لتكون بمثابة إشارة إلى التوقف ؛ وبعدها نتوقف لنيل قسط يسير من الراحة ، ولكن لا يجرى إنزال الأحمال من على الدواب فى تلك الوقفة ، بل إنها تظل واقفة وأحمالها من فوقها . وهنا يشب الرجال النار فى حين يقوم المتدينون منهم بأداء الصلاة مولين وجوههم شطر مكة . الوقفة التى من هذا القبيل تدوم عشرين دقيقة ، وفى بعض الأيام تكون أقل من ذلك أو قد تلغى مطلقا ، وذلك حسب مرئيات باشا الحج ، أما فى حالات اليسر وتوفر الوقت فقد تطول تلك الوقفة لتصل إلى أربعين دقيقة . وفى ذلك يقول (القائمون على أمر القافلة) : إن "الباشا هو سلطاننا." وبعد أن سرنا عشرين ميلا ظهر على يسارنا مفرق ، أو إن شئت فقل : البرج الثانى أو المحطة الثانية من محطات طريق الحج ، وهذا المفرق يلى قلعة أو محطة المزيريب الكبيرة ، غير أنها مخربة ومهجورة مثل المفارق أو إن شئت فقل : الأبراج أو المحطات الأخرى . هذه القلاع عبارة عن محطات للمياه تقوم على أمرها حراسة ضعيفة ، وربما بنيت تلك القلاع قبل قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان ، كما أنها مبنية بطريقة جيدة . وبئر الماء يقع فى وسط القلعة ؛ ويجرى جلب الماء منه باستعمال آلة بسيطة تتمثل فى أسطوانة وبعض الدلاء ، ويجرى تشغيل عمود ذلك البئر عن طريق بغل ، يتحرك جيئة وذهابا لملئ الخزان أو الصهريج ، أو إن شئت فقل البركة التى تقع خارج جدران البئر . الأدوات اللازمة لذلك ، هى والبغال يجرى جلبها من دمشق مع قافلة الحج وتستمر معها إلى أن تصل إلى مدائن صالح . وتجرى حراسة تلك الخزانات حراسة جيدة ، إذ تعتمد عليها حياة القافلة الكبيرة . ولا يسمح لأى عربى (من البدو المترحلين) بالاقتراب من ذلك الماء أو الانتفاع به ؛ والحرس الذى

يحمى تلك المياه يستطيع فتح النار على أولئك البدو من داخل البرج ، الذى يتمترسون فيه خلف أبواب مجلدة بألواح من الحديد ، يحتمون بها على امتداد العام من سفاهة هؤلاء البدو الرحل ووقاحتهم . هذه القلاع تقف متفرقة ، كما لو كانت سفنا فى وسط الصحراء الشاسعة ؛ كما أنها ليست مبنية أو مقامة على مسافات متساوية من المخيمات ، ولكن إنشاءها يعتمد على توفر المياه ؛ وفى أغلب الأحيان قد تصل المسافة بين القلعة والأخرى مسيرتين أو ثلاثة مسيرات . وأصعب أجزاء طريق الحج فيما قبل المدينة (المنورة) يتمثل فى ذلك الجزء الذى يتمثل فى أربع أو خمس مسيرات خلال الأراضى المرتفعة التى يجئ إرتفاعها فى المرحلة الثانيه بعد إرتفاع أرض مدائن صالح ؛ التى لا يوجد فيها آبار أو ينابيع ، اللهم بإستثناء قلعتين مدمرتين فيهما بركتان ، أو إن شئت فقل : صهريجين ، يجرى ملؤهما من مياه السيول ، إلى حد أن هاتين البركتين ، تظلان جافتين ، طوال عدة سنوات ، فى هذا البلد الذى يندر فيه سقوط الأمطار . وفى كل عام يجرى ، من مدائن صالح ، إيفاد النجَّاب ، الذى هو جمَّال من البدو الذين يركبون الإبل ، ليحمل إلى دمشق ، فى شهر رمضان ، أى فى فتره ما قبل الحج ، أنباء توافر الماء أو عدم توافره فى بركه أو إن شئت فقل : صهريج أو خزان دار الحمرة ، كما يحمل معه أيضًا أخبارًا عن حالة الماء فى القلاع التالية لقلعة دار الحمراء . فى هذا العام حمل النجَّاب أخبار طيبة (إذ امتلأت البركه بفعل الصقيع الذائب ومياه السيول) ثم عاد النجَّاب Najjab ومعه أمر مباشر من الباشا ، (نظرا لعدم وجود المفوضين ضمن قوات الحراسة) بوضع حراسة على ذلك الماء ، ولكن فى السنوات التى يشح فيها الماء فى تلك البركة ، تحمل إدارة الحج معها من دمشق حوالى ١٥٠٠ قربة من قراب الماء ، لتوفير احتياجات القافلة من الماء لمدة خمسة أيام : ويجرى ملئ تلك القراب المصنوعة من جلود الحيوانات بالماء ، على حساب الحكومة ، ومن المساقى البعيدة ، عن طريق السقائين من البدو المترحلين .

تجاوز أفراد القافله تلك القلاع المخربة والمهجورة وهم يلعنونها فيما بينهم وبين أنفسهم تلك اللعنات التى يوجهونها – بالرغم من أنى لا أستطيع القطع بذلك – إلى ضابط الحج وهم يرددون : "كل البرك تسربت ولم يعد هناك ماء للحجاج . فى كل عام تدفع الخزانة أموالا مفروض أنها تستخدم فى صيانة المبانى والمحافظة عليها ؛ هؤلاء

الباشاوات المختلسون يبتلعون المال العام ؛ بوسعنا الآن جلب الماء من أى خزان من الخزانات الموجودة قبل مدينة معان(*) ، ولكن بعد المسيرات الطويلة يتحتم قطع مسافات طويلة لجلب الماء ، والماء الذى يتم الحصول عليه بهذه الطريقة يكون غير صالح للشرب" . معروف أن الاختلاس التركى مشهور بسوء سمعته فى موسم الحج ، وهو يهدف إلى تهدئة بعض المسيحيين اليونانيين وبعض السوريين الذى يعملون دوما فى مجال الصرافة فى دمشق خلال موسم الحج الإسلامى ، :- وهذا قانون من قوانين الطريق ، مفاده أن الجميع يجب أن ينظروا من خلال أصابعهم أو إن شئت فقل : يغمضون عيونهم . أما وعورة الطريق فمردها إلى أن القسم الأكبر من مخصصات الخزانة ، جرى انفاقه على الحج ولم يعد ما يكفى لصيانة الطريق . كما قامت الحكومة العثمانية الفقيرة بسحب المخيم الذى أقامته فى معان منذ فترة قصيرة ، كما خفضت المخصصات المحددة لتلك القلعة تخفيضا كبيرا ، ولكن يقال إن التكلفة السنوية لطريق الحج تقدر بحوالى ٥٠٠٠٠ جنيه إنجليزى ، تجرى جبايتها على شكل ضرائب من المقاطعة السورية ، التى يتشاكى فيها المسيحيون ، متعللين أن أجبارهم على دفع تلك الضرائب من دخولهم الضعيفة لمجرد الوفاء بتلك المقدسات الإسلامية ، إنما هو شكل من أشكال الإرهاب والإستبداد . والصُّرة من بين الخسائر التى تعانى منها الإمبراطورية العثمانية(**) ، وهى تدفع للبدو الرحل حتى يمكن المرور من أراضيهم

(*) معان : كانت المدينة قديما محطة فى طريق التجارة المعينية إلى الشمال ،وكانت تراعى مصالح التجار المعينيين إذ كانت تتبع دولة معين فى جنوب الجزيرة العربية . (المراجع)

(**) الصرة : ويطلق عليها « صرة العربان » ، إذا لم تكن الفرق العسكرية المصاحبة لقافلة الحج أو الحاميات العسكرية على طريق الحج هى الوسيلة الوحيدة لمواجهة تعديات البدو . حيث اضطرت الدولة العثمانية أن تحذو حذو غيرها من الدول التى سبقتها بدفع مبالغ سنوية من المال لشيوخ البدو المسيطرين على طريق الحج ، وكانت هذه المبالغ المالية تعرف عادة (بصرة العربان) ، إضافة إلى ما تصرفه من أموال إلى القبائل التى تخشى شرها مقابل العمل الذى يقوم به أفرادها كأدلاء للقافلة وتأمين سلامتها . والواقع أن تردد أمراء الحج فى دفع الصرة بأكملها للبدو كان يضطر هؤلاء إلى مهاجمة القافلة وكان أمير الحج يدفع الصرة على قسطين الأول فى الطريق إلى الحجاز والقسط الثانى عند العودة . وكثيرا ما حاول بعض أمراءالحج التهرب بطريقة أو بأخرى مما كان يؤدى إلى هجومهم على القافلة لأخذ كامل مستحقاتهم وقد يقومون بردم برك المياه أو ملئها بالمواد السامة لمنع استخدامها مما يضطر أمير الحج إلى تحويل طريق القافلة ، كما اضطرت الدولة العثمانية إلى تعزيز حامياتها العسكرية على طريق الحج لتأمين سلامة البرك المخصصة للشرب ، كما كانت تقوم ببناء القلاع لحفظ هيبتها لما فى ذلك من تأثير على العالم الإسلامى . وغالبا ما كانت تسند إمارة الحج لمن يستطيعون مواجهة البدو . (المراجع)

بسلام : كانت تلك الصرة تدفع لنصف القسم الغربى من الجزيرة العربية ، ومع ذلك كان الأمر أكثر من ذلك ، نظرا لأن الحرس المرافق كان يتعين عليه ، بالرغم من دفع الصرة ، المرور "بحد السيف" أو إن شئت فقل : المرور بالقوة من تلك الأراضى التى يسكنها أولئك البدو الرُّحل المكروهين . يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء البدو المعدمين لا يتنازلون عن شىء من معاشهم السنوى ؛ ذلك المعاش الذى كان يدفع لآبائهم ويرون أن من حقهم الحصول عليه من خزينة 'السلطان' ، وإذا ما قدم لهم مبلغ أقل من المستحق يقولون : "إن الباشاوات غير الأمناء قد بلعوه !" ، وبالتالى يتعين وقف مرور الحج ، ولا يستطيع أحد إقناعهم ؛ بالرغم من أن الدولة (إمبراطورية السلطان) كانت فى طور الاحتضار . كانت تتردد بين هؤلاء البدو أنباء مفادها أن سلطان الإسلام ليس سوى واحد من الأتراك ومن دم غريب : وهم ينظرون إلى ذلك السلطان كما لو كان نبيا ، أو إن شئت فقل : ملك الكون بحكم إرادة السماء ، وأن الجميع يتعين عليهم الخضوع والولاء له . هؤلاء البدو الرحل كانوا ، عندما يتذمرون ، يهجمون على مسيرة الحج ، أو يسطون على ركن من أركان مخيم الحج أثناء الليل ، أملا فى سرقة غنيمة من الإبل ، والبدو فى عملياتهم العسكرية يقومون بمحاصرة المضايق التى يستطيعون منها بفضل مائة من بنادقهم البدائية إيقاع خسائر جسيمة فى أرواح الكثيرين من المشاركين فى قافلة الحج ؛ وقد استطاع أولئك البدو ، بهذه الطريقه ، إنزال الهزيمة ، بجيش مصرى من جيوش إبراهيم باشا ، فى الجزء الجنوبى من البلاد ، وعلى أيدى بدو قبيلة حرب .

تقع جرازه **Geraza** التى يسمونها جرش **Jerash** حاليا ، على بعد ساعات قليلة فى اتجاه مسيرنا نحو الغرب ، وقد سبق لى مشاهدة آثار رومانية هائلة فى تلك المنطقة ؛ وفيها من آثار المسلمين قبر نبيهم هود ، الذى يتردد أنه مدفون فى أماكن كثيرة من الجزيرة العربية . وعند الساعة الخامسة بعد الظهر ، وبعد أن قطعنا ثلاثين ميلا ، بدأ يطالعنا ، من أمامنا من جديد ، منظر مخيمنا المنصوب أمامنا . وهنا يترجل الحج ، ويتجه صوب المكان قادمًا من ناحية الأفق ، وسط قرع الطبول ، قوات الشَّيال ، أو إن شئت فقل : قوات حرس المؤخرة ، ومن بعدها فرقة العجيل ، أو إن شئت فقل : الفرقه الخاصة بالخيام العسكرية الخاصة بالقوات المرافقة للحج ، ومعروف أن فرقة العجيل هذه تكون على بعد ميلين خلف قافلة الحج ، وتتحرك هذه الفرقة بسرعة مترجلة

لتحيط بأماكن إقامتنا فى الخيام العسكرية . والقوات تسير أيضا فى مقدمة القافلة ، مصاحبة للباشا ومعها قطعتين من قطع مدفعية الميدان محملتين على ظهور البغال ؛ وهناك مجموعة قليلة أخرى من الرجال الذين يشع الأسى من وجوههم يركبون دوابهم فى غير انتظام على جانبى الطابور المتقدم . وقوات العجيل ، أفرادها من عرب وسط الجزيرة العربية ، والقسم الأكبر منهم من رجال أو أهل القصيم ، وخاصة المدن والقرى التى تمر بها القافلة مثل : بريدة ، عنيزة ، العيون ، البُكَّيرية ، الخُبَّراء ، والرَّس . هؤلاء ، كما كل الغرباء ، وكذلك الجمَّالة الذين من بلادهم ، والذين ينتقلون بين بلاد الرافدين وسوريا ، يطلقون عليهم اسم العجيل ، أما البدو الرُّحَّل فيطلقون عليهم اسم العُجيْلات . هناك حوالى ١٥٠ جمَّالا من العجيل وهم مسلحون ببعض البنادق البدائية المخصصة لخدمة موسم الحج ؛ ولما كان أولئك الجماله قد نشأوا وتربوا فى أراضى البدو المترحلين ، فهم يتفاخرون بأنفسهم من منطلق أنهم أكفأ الرجال فى التعامل مع البدو الذين يركضون فى الصحراء . وهناك شيخ منتخب من بين العجيل السورى فى دمشق ، يجرى التعامل من خلاله مع الحكومة ؛ كان اسم ذلك الشيخ عندما كنت أقوم برحلتى سليمان أبو داود ، أحد الرجال المحترمين من إحدى الأسر العنيزية ، وكان قد حل مؤخرا محل شيخ آخر من بريدة سبق عزله من ذلك المنصب ، كلا هذين الشيخين كانا من سماسرة الإبل فى المدينة السورية . والجنود الجمَّالة يركبون جمالهم وهم يتغنون بأغان فاحشة يحتقرون بها البدو الرحل ، الذين يكرهونهم كراهية فطرية مثل كراهية سكان الواحات لأولئك البدو . والعرب الذين من هذه الفصيلة ، أجسامهم هزيلة ووجوههم توحى بالفقر والشقاء ، وذلك على العكس من وجوه المواطنين الدمشقيين المستديرة وأهل دمشق ينظرون إلى هؤلاء المواطنين من منطلق أنهم أفضل قليلا من البدو ، وأهل دمشق يقولون إن أهل نجد وبلاده هم أهل اللغة الفصيحة ، وهم البدو المترحلين بحق وحقيقة ؛ ومن هنا فأهل دمشق يقولون : إن الأمير الكبير ابن الرشيد هو والأمير الوهابى من "البدو" . هؤلاء العرب سكان الواحات لا يثق بهم أحد من سكان المدن ، بسبب ملامحهم الأجنبية : من هنا يقول سكان المدن : "ويل للحج الذى يقع بين أيدى العجيل ! أفٍّ . سيشرطون كيس نقوده ويسرقون ماله !" حاول أصدقائى إثنائى عن عزمى عندما ركبت معهم أول مرة ، وقالوا لى أنهم سوف يقتلونى بعد أن

يخرجوا من مزيريب ويبتعدون عنها . وأنا اعتبارا من تلك المرة ، تعرفت على عدد كبير من أفراد العجيل وكلهم أناس محترمين ؛ أنهم هم نفس الأعراب الذين زرتهم بعد ذلك فى نجد . مزاج العرب متقلب دائمًا ، ويندر ألا تتهم كل حالة من أحوال ذلك المزاج الحالة الأخرى .

فى موسم الربيع من العام الماضى ، كنت قد تجولت قبل عدة شهور خلال هذه البلاد فيما وراء الأردن والبحر الميت . وإلى الشرق من هذه المنطقة يوجد سهل الباشان Bashan، كما توجد هناك أيضا مدينه أثرية عظيمة كلها من أحجار البازلت ، وما تزال جدرانها وأسقفها باقية إلى يومنا هذا ، ولكنها لا يسكنها أحد منذ قرون عدة ، هذه المدينة التى تحمل اسم أم جمال Jemâl Umm (التى تسمى بيت جامول Gamul Beth عند ارميا ، النبى) هى المدينة الرئيسية من بين المدن البازلتية ، أو إن شئت فقل : المشيدة من حجر الصوَّان ، وهى تقف حاليا معزولة عن المنطقة السكنية . شاهدت فى كل هذه المدن البازلتية كنائس فيها الصليب وفيها أيضا نقوش إغريقية ، كما قرأت أيضا على عارضة أفقية داخل برج من أبراج تلك الكنائس ، فى تلك المدينة الخالية من السكان ، (وما تزال آثار الحروف مدهونة باللون الأحمر القرمزى) قرأت عبارة يونانيه قديمة (*) عن رؤية قسطنطين (**). وشوارع أم جمال الضيقة تغص بالأعشاب الضارة ، التى تنمو بشكل أكثف من نمو النباتات الصحراوية . فى هذه المدينة نشاهد غرفا وأبراجا ، وأعمدة وأقبية وسراديب ؛ وأبواب المنازل عبارة عن بلاطات من صخور البازلت المشغولة ، ومع ذلك فهى تتدحرج بحكم ثقلها داخل تجاويف من البازلت أيضا ، هذه الأبواب تدوى عندما يطرقها طارق كما لو كانت أجراسا طنانة . هذه الغرف مسقوفة بعوارض من البازلت لا تمتد من الجدار إلى الجدار ، معروف أن معدن

(*) هذه العبارة اليونانية القديمة : {ENT} 8 TW + NIKAS BOHOI

(**) رؤية قسطنطين : يروى أن الإمبراطور قسطنطين أثناء حروبه ضد خصومه السياسيين على العرش الرومانى فى إيطاليا ظهرت له فى السماء علامة الصليب مكتوبا حولها " بهذا تنتصر " . وقد انتصر قسطنطين بالفعل على خصومه ، وعليه فقد أصدر مرسوم ميلان ٣١٢م بالتسامح مع الديانة المسيحية جنبا إلى جنب مع الديانات الأخرى فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية . (المراجع)

البازلت طويل العمر كما أن الأحجار الكبيرة مبنيه بطريقه جيده ، وهى على "المدى القصير تعد أثرا خالداً" ، وهذا هو ما تدل عليه أوزان تلك الأحجار . هذه السهول التى هى أراضى برية من البازلت ، فوقها طبقة ليست سميكة تنمو فيها الأشجار الخشبية ؛ وأهل باشان يجدون أن تلك النواتج البركانية قريبة منهم ، مما يجعلهم يستعملونها فى عوارض السقوف وبلاط رصف الأرضيات ؛ وهذا بدوره يصبح أقل تكلفة من الأشجار التى كان يتعين على أهل باشان إحضارها على ظهور الإبل إلى منطقة جايليد Gilead . (*)

وسيعة مناطق الدفن التى فى تلك المدن الميتة ، وهذه هى شواهد القبور المصنوعة من البازلت تقف صامدة أمام عداء الزمن ؛ هذه "الأماكن القديمة المهجورة" ليست أكواما وأطلالا ، وإنما هى هياكل ربما كان يسكنها أناس كانوا يستظلون بحكم حكومة جيدة ، وربما كان بعد هذه المدن هو الذى أدى إلى التضحية بها ، فى فترة انحسار المد الإسلامى فى سوريا ، وذلك من باب التخوف من البدو . بعض هذه المدن أعيد احتلالها ، فى بعض أجزائها ، كما هو الحال فى مدينة بُصرى Bosra، التى تغص بالمبانى الرومية والمسيحية .

فى الصباح استأنفنا مسيرنا فى الوقت المحدد ، وبعد مسير دام عشرة أميال مررنا على عمود أو إن شئت فقل : علامة أرضية طويلة : كل ذلك عبارة عن إشارات إلى الطريق القديم . هناك على جانب الطريق شاهدنا قرية ميتة مبنية من الحجر ، شأنها شأن قرى الحوران . اتسمت تلك الوقفة بالقصر ؛ إذ طالعتنا بعد الظهر بوقت قليل خيام مدينتنا التى اكتست باللون الأبيض بفعل ضوء الشمس وتمكنت عن طريق نقطة عالية فى الوادى ، من الإطلال على مخيم الحج ، الذى جرى نصب خيامه فى

(*) جايليد : حاليا فى الأردن . منطقة جبلية فى فلسطين القديمة ، وتقع حاليا شمال غرب الأردن ، شرقى نهر الأردن ، ويصل ارتفاعها إلى حوالى ٣٦٥٢ قدمًا فى جبل جايليد أو جبل يوشع ، الذى يقع على مسافة ثلاثة أميال شمال مدينة السلط . (المترجم)

جزء من الأرض المنخفضه ، باعتبار أن تلك الأرض ميدانا عسكريا جيداً من وجهة نظر ماريشال المخيم . التنظيم الطيب لهذه الخيام تحقق على امتداد أجيال طويلة ، وهذه هى الخيام وكذلك الأجنحة مقامة فى نفس الأماكن المحددة لها : قدرت عدد تلك الخيام بحوالى مائتى خيمة . ويتراوح عدد الأفراد داخل الخيمة الواحدة بما فيهم الخدم حوالى عشرين فرداً ، وهناك عدد آخر يقيم فى الخيام الصغيرة . نحن هنا فى سقيا أو إن شئت فقل : محطة الزرقاء Zerka، أو مدينة جابوك Jabbok، التى ورد ذكرها فى الإنجيل ، والتى كانت تعد حداً من حدود أبناء عمون فى عهد سيدنا موسى عليه السلام . وخاضت القافلة خلال الغدير الصخرى ، وهى تمضى مسرعة فى اتجاه الأردن ؛ وفى اتجاه الغرب تزداد المياه الصحراوية بفضل الينابيع والآبار : وقد خضت فى شهر يونيو فى واحدة من تلك المخاضات المنخفضة ، التى وصل ماؤها الفاتر إلى أحزمتنا .

على بعد مرمى دانة مدفع ، يقع البرج العظيم ، قلعة الزرقاء . Zerka هذا المعقل الموجود فى هذه الأرض القفر ، موجود ، حسب الموروث الشعبى ، منذ زمن سابق لعصر (النبى) محمد (صلى الله عليه وسلم) ، ومبنى قلعة الزرقاء ، كبير وليس مخرباً ، وهذا المبنى ليس من ضمن القلاع الخاصة بطريق الحج ، ويندر حاليا أن يمضى الليل فيه المسافرون أو البدو الرُّحل ، كما أنه ليس مأوى أو مرتعا لقطعان البدو ، والموروث الشعبى هنا يقول : إن قلعة الزرقاء هذه كانت مقرا لبطل قديم هو ، شبيب Shebîb ابن تُبَّاى Tubbai؛ واعتبارا من هذه المنطقة ، ومن مسيرة إلى مسيرة ، هناك سلسلة كبيرة من هذا النوع من القلاع الأثرية القديمة وأبراج المراقبة فى الأرض الجرداء المؤدية إلى الشوبك Shôbek، التى تقع على مسافة حوالى مائة ميل جنوبى إيدوم وقد سبق لى فى تجوالى السابق ، أن رأيت بعضا من تلك القلاع . كان ابن تُبَّاى Tub-bai سلطانا على المنطقة الواقعة أسفل معان ، أو على جبل حرمون كما يقولون هنا . وعلى بعد مسير يومين من هذا المكان ، وفى اتجاه جنوب وغرب درب الحج ، سبق أن مررت على قلعة أثرية فى جانب الصحراء ، كانت هى بدورها قلعة كبيرة جداً . ورد على البدوى ، الذى كان من بنى صُخر Sôkhr، ونقلنى على ناقته ، قائلا : "قصر (قلعة) اليهود القدامى" ؛ أطلق البدوى على هذا المكان إسم جوّة Guwah أو قصر الشبيب ، كما يوجد بالقرب من تلك القلعة مقام لولى من أولياء الله هو الشيخ بصير

Besîr . وقد ألم بى الإعياء نتيجة عيشى طويلا على طعام البدو ؛ ولو امتنعت عن تناول ذلك لما اعتليت ظهر الجمل ، ولربما تخلى عنى ذلك الرفيق ، وأنا أدخل من الباب ، وهذا هو ما حدث بالفعل بعد ذلك فى اليوم التالى . وقد أبلغنى أحد الذين كانوا يعملون فى خدمة طريق الحج ، منذ أمد طويل ، فى مدينة معان ، أن الأفضل من تلك القلاع التى شاهدتها ، ذلك البرج الذى يبعد مسير يومين من قلعة البلقاء Belka فى اتجاه الجنوب الشرقى ، وأبلغنى أيضا أن جماعته البدوية كانت قد أبعدته عن ذلك البرج ، تجنبا للخطر ، عندما كان فى طريقه إلى معان . قال الرجل عن ذلك البرج : "إنه سراى ، قصر حقيقى ، وشكله (فى ظل هذا المناخ) يوحى وكأنه بنى بالأمس " كما أبلغنى الرجل أنه وصل ذلك المكان فى الليل ولذلك لا يستطيع القطع إن كانت هناك نقوش أم لا . ترى ، هل كان ذلك البرج (القصر) مقرا لواحد من أمراء الغساسنة؟ (*) أما البرجين الآخرين الأقل من هذا البرج ، واللذين مررت بهما أسفل قصر بصير بمسافة قصيرة ، فقد أطلق عليهما رفيقى اسم المغراز Mughraz والريشان Risshan كما شاهدت المزيد من تلك الأبراج ، التى أقيمت فوق سلسلة من الجبال المرتفعة فى اتجاه كيراك Kerak لتكون أبراجا للمراقبة . وقد ورد فى سفر الملك عزيا Uzziah العبرى(**) ، الذى كانت لديه ماشية كثيرة العدد ، أنه بنى أبراجا وحفر خزانات للماء فى الصحراء ؛ وقد عثرت على خزانات من هذا القبيل فى أرض جبل حبرون الجرداء ، وهى تنحدر ناحية البحر الميت ، كان البرج هو دائما الأمل الذى يراود هذا العالم السامى غير الآمن إلى حد أن يهوه (اسم الله عند اليهود) يُسبَّحُ به بوصفه "برجا من أبراج الخلاص ، برج منيع على العدو ، اسمه برج منيع" أما فيما يتعلق بذلك الاسم

(*) الغساسنة : كانوا فى الأصل قبائل يمنية هاجرت إلى منطقة حوران على أثر تصدع سد مأرب فى القرن الثالث الميلادى . وماليثوا أن دخلوا فى دائرة نفوذ الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) ، ووضعوا أنفسهم فى خدمة مصالحها والحفاظ على حدودها الشرقية . (المراجع)

(**) عزيا : أحد ملوك المملكة الجنوبية ، ويسمى أيضا عزريا (٧٦٩-٧٣٣ ق.م) ومعناه مجد الرب وفى عهده تحررت مملكته من هيمنة المملكة الشمالية فنظم الجيش وحصن القدس ، وغزا المدن الفلسطينية ، وترأس حلفا من ملوك الدويلات التى كانت تعارض أشور حتى أصبحت مملكته الجنوبية أكثر أهمية من المملكة الشمالية وقد صورت التوراة العلاقة العنيفة بين العرب والعبرانيين حينما ذكرت أن الملك عزيا ملك يهوذا حارب العرب الفلسطينين والعرب المقيمين بمنطقة " حور بعل " والمعونيين وهدم أسوار مدنهم وأخذ الجزية من العمونيين ، اصحاح ٢٦:٦- ٨ . (المراجع)

الأثرى ابن تُبَّاى Tubbai Ibn، فقد سمعت هنا عن قبيلة بدوية صغيرة من البدو الرحل ، تقيم فى الجزء الشرقى من بحيرة طبرية ، هى قبيلة الكلب EL-klîb أو كلب Kelb، وأن لقب عائلة شيخ هذه القبيله الصغيرة هو ابن التوبَّاى Ibn . et-Tubbai

وفوجئت ، وأنا أنال قسطًا من الراحة فى خيمة الترحال الصغيرة ، بصراخ وعويل ينبعث من الجناح الفارسى : وخيمة مقوّم من هذا القبيل يحتمل أن تتسع لحوالى مائة شخص . فى منتصف تلك الخيمة كان هناك مقعد خشبى مربع الشكل طويل ذو ذراعين وظهر عال ، مقسم إلى أجزاء ، حتى يمكن أن يجلس عليه ثلاثة أشخاص بحيث تتقاطع أرجلهم مع بعضها ؛ كما وضع داخل الخيمة أيضا كل معدات المقوّم إضافة إلى صندوقين من صناديق الجمال . وعندما دخلت إلى تلك الخيمة ، كنت شاهدا على شكل من أشكال الجلد المؤلم الذى يبعث الأسى فى النفوس . وسحبت أحد افراد هذا الجمع من كوع ذراعه علنى أعرف ذلك الذى كان يدور أمامى . وهمس لى الرجل قائلا : "حرامى" . كان المتهم يجرى عقابه – ولكن إذا ثبت أن هذا الشقى برئ فما هى التعويضات أو الترضيات التى يمكن أن يحصل عليها ، جزاء لتحطيمه صحيًا ؟ ! كان صوت الضرب هو وتأوهات المتهم تدوى بصورة مخيفة خلال الصمت الذى يخيم على المكان . سألت الرجل مرة ثانية : "لماذا يضربونه بهذا الشكل ؟" رد على قائلا : "إلى أن يعترف عن المكان الذى خبأ فيه الشيء المسروق ، آه من هذا الملعون !" وهم إذا ما واصلوا ضربهم له بهذه الطريقة فسوف يموت !" ورد على الرجل قائلا : "لن يبقوه على قيد الحياة إلا إذا اعترف ." وبينما كنت أتدافع داخلا بين الرجال ، سمعت أن أربع رجال غلاظ كانوا قد أرهقوا أذرعتهم فى ضرب ذلك المتهم ، أما الخامس فكان قد بدأ الضرب منذ وقت قصير . كان ذلك الرجل ، ذو الوجه الصارم ، يمسك فى يديه "نبوّتًا" غليظا راح يهوى به على الرجل بكل قوته . كان المتهم منبطحا على وجهه ، فى حين كان الرجال ممسكين بقدميه ، وبعض آخر من الرجال كانوا يجلسون فوق كتفيه ويكتفونه بلا رحمة أو شفقة . تلك الدودة التى تتلوى وتتضور لم تكن من الإنسان فى شيء ، وبعد الصيحات الأولى التى صدرت عن ذلك المتهم ، تحول ذلك الصراخ إلى أنين من الألم المبرح ؛ وخطر ببالى ، أن ذلك الرجل ، خلال برهة من الوقت ، سوف يتحول إلى أشلاء ، ويتحول إلى رجل محطم بقية حياته . كان من الخطر على أن أجذب

انظار هذا العدد الكبير من الغرباء ، ولكن بدافع من الإنسانية ، ناديتهم قائلا : "أيها السادة ، أنا حكيم ؛ هذا الرجل قد لا يتحمل الضرب أكثر من ذلك ، توقفوا وإلا سيموت الرجل بين أيديكم !" ولم يلقوا بالا لكلامى ، فضلا عن نظراتهم التى وجهوها إلى المتكلم . وبعد ذلك مباشرة شاهدت ذلك التعس الشقى وهم يرفعونه من على الأرض ، بعد أن اعترف بفعلته ؛ قام بعض آخر من الرجال برفع ذلك المتهم من تحت إبطيه ، فى الوقت الذى راح الجميع يكيلون له اللعان والسباب ، وسار التعيس على قدر طاقته واقتيد إلى خارج الخيمة . لقد قرأنا عن التقييد للضرب على مرأى ومسمع من القضاة ، عند (سيدنا موسى) . أما ذلك المتهم فكان مجرد واحد من العرب الذين يخدمون قافلة بغداد فضلا عن كبر سنه ، وشيب شعره ؛ قام ذلك المتهم بكسر قفل سيده الفارسى وسرق من صندوقه كيسا فيه ٤٠ جنيها إنجليزيا ، إنه أحمق غبى ، ثم قام بتخبئة المبلغ فى الأرض إلى جوار الخيمة التى ينزلون بها .

سلطة الجلد هذه مخولة لرؤساء جماعات الحج وهم المسئولين عن قمع أشد الأرواح خطورة فى القافلة : والكثيرون من خدم الحج هم من بين الهاربين من العدالة ومن التجنيد العسكرى . (قال لى الفارسى عندما وجدنى لوحدى) : "خليل أفندى . لماذا تدخلت فى عقاب الرجل ؟ ألست ذاهبا إلى مدائن صالح . أم لا ؟ قد يصل هذا الذى قلته إلى مسامع باشا الحج غداً ؛ وهنا سوف يعرفونك ، ويردونك ثانية . لا تحاول الظهور على الملأ مرة ثانية ." ولكنى بوصفى أوروبيا كنت يوميا أدوس ذلك الحرص الشرقى المسكين **Mesquin**، ففى المخيم كان ذلك الفارسى يود لى البقاء وحدى داخل الخيمة الصغيرة . معروف أن المبيت وحيداً فى الحج يعد أمرا خطيرا ، وهنا استأجرت واحدا من الجمَّالة ، لكى يطهى لى عشائى ويرتب الخيمة عندما نتركها ، وينام معى أثناء الليل .

جاء الصباح ملبداً بالغيوم وترتب على ذلك أن تعطلنا بسبب أمطار الخريف : وسمعنا قبل الظهيرة بحوالى ساعتين من الزمن صوت إشارة التحرك واستئناف المسير . وطلعت الشمس من جديد لتجفف لحُفنا وملابسنا المبتلة ؛ مررنا بأرض واسعة كلها من الحجر الجيرى ، يتخللها كثير من الأشجار الملتوية التى من قبيل أشجار البلوط أو السنديان ، ولكن أوراق تلك الأشجار كانت تشبه الرماد ؛ وهنا اندفع

الطباخون ، والخدم وكل المساكين يركضون ، ثم بدءوا يقطعون ويشدون الأغصان الجافة ويجعلوا منها غنيمة لهم ، مع مرور الحج عاما إثر عام ، لا عجب أن يجد هؤلاء ما يجمعونه كل مرة . ركبت دابتى ضمن القافلة فى حين كانت حقائبى محملة على ظهر جمل من الجمال ، وكنت أتأمل وأفكر مليا فى الطريقة التى يتعين على اتباعها لقياس الطريق – هل يمكن أن يحدث ذلك باستعمال خطوات الجمال ؟ ولكنى اكتشفت أن بعض الإبل تقطع خمسين خطوة فى الدقيقة والبعض الآخر يقطع ستين خطوة فى الدقيقة ، إضافه إلى أن خطوات ذلك البهيم لا تكون واحدة فى كل الأوقات . وقد قدرت ساعة القافلة بما لا يمكن أن يزيد على ميلين ونصف الميل . وأنا فى مرحلة لاحقة ، عندما كانت ساعتى تتوقف ، كنت أحسب المسافات فى الجزيرة العربية بعدد رحلات الإبل ؛ وهذه الطريقة ليست سيئة إلى الحد الذى يتعذر معه عدم معرفه مسافة أى مكان فى ذلك البلد الشاسع عن طريق التعرف التقريبى الجاد ، الذى يصل فيه الخطأ المسموح إلى حوالى ثلاثين ميلا .

البدو الذين يعيشون فى هذه الأراضى المنخفضة هم بنى صُخر ، تلك القبيلة القوية ، التى اشتد بأسها مؤخرا ، بعد أن أصبح لديها عدد كبير من الخيالة ؛ الأمر الذى يتعذر معه على أى إنسان المرور من تلك المنخفضات ، اللهم إلا إذا كان ذلك أثناء الليل ، أو ضمن سرايا وجماعات قوية . وقد انكسر صلف هؤلاء البدو الشديد وأوقف بفضل الحملة العسكرية بقيادة محمد سعيد الذى هو حاليا باشا الحج ، ومحمد سعيد قائد شجاع مظفرّ ، متمرس ، منذ صباه ، فى أساليب الحرب المدنية . كسر الباشا هؤلاء الأعراب وأحبط أعمالهم فى يسر وسهولة ، وبخاصة أن قوتهم تتمثل فى ألسنتهم ، ولم يعد من بينهم من يقودهم ، كما جردهم الباشا من خيولهم ودوابهم . وبعد اخضاع بنى صُخر للدولة (الإمبراطورية) ، ارتضوا لأنفسهم أن يزرعوا الأرض بوصفهم فلاحين . هؤلاء القبليون هم حاليا السقائين الرئيسين فى الحج وذلك بدءا من الشمال وحتى مكة ؛ وجيرانهم من البدو الرُحل يذمُّونهم . وأعراب الحدود يتفشى فيهم فساد مزدوج هو : فساد البدو المستقرين وفساد بدو الأراضى القاحلة ، أو إن شئت فقل : فساد بدو البرية . والبدو الآخرون يكرهون أعراب الحدود ، وهذه الكراهيه ينبغى عدم تصديقها نصًا وروحًا . "والله ، الصخور على استعداد لذبح الضيف فى الخيمة ."

والاعتداء على الضيف ، "ضيف الله" ، فى دين الصحراء ، هو الخطيئة أو الذنب الأكبر . وأتباع بنى صُخر وشركائهم فى المكان الذى يعيشون فيه هم بنو سليطة : Seleyta وهذه القبيلة البدوية المترحلة الضعيفة هم نوع ضعيف من البشر الذين أطلق عليهم اسم الخونة ؛ وهم ينصبون خيامهم منفردين ، (بعد أقاربهم ، مثلما يفعل البدو) فى المخيَّم الواحد . وقد بلغنى أن أولئك السلايطة لا يتزوجون من بعضهم البعض .

عندما تركنى الصُّخرى ، الذى جاء من قلعة شبيب ، وتخلَّى عنى عند خيمة الشيخ اكتشفت أن هؤلاء الناس طيبون : فقد استمعوا إلى شكواى ، ثم قفز الشيخ ، وفى يده حربته الطويلة ، على ظهر فرسه ، التى كانت واقفة مقيدة إلى جوار الخيمة ، وطلب من اثنين من الخيَّالة أن يتبعاه ، وافترقا وهم يركضون بخيولهم ؛ ولكن أولئك الخيالة البدويين ، عادوا إلى بعد ساعة من الزمن دون أن يعثروا على ذلك الخائن ، وبعد أن أراحوا خيولهم تماما قالوا لى : 'تلك إرادة الله !' وذبح الشيخ شاة ، وتحدد موعد العشاء بعد غروب الشمس واحتفل الرجل بى احتفالا عظيما فى جو من الرقه واللطف . وعندما طلع النهار ، وكان مقررا لهم التحرك ، أرسلنى الرجل فى المقدمة وأنا أركب ناقته الخاصة ، مع خادم أسود إلى شيخ بنى صُخر ؛ ولكنى عند الصُّخور لم أتغذى جيدًا . وعندما وصلنا إلى خيمة شيخ الصخور الكبيرة ، التى كانت قد نصبت حديثا وفى مكان منعزل بالقرب من خرائب قبور أم شتّه Shetta Umm أو إن شئت فقل مشتّا Meshetta، إذ يصح فيها هذا وذاك (وهذا ينطق أيضا على الاسم فندى Fendy الذى يصح فيه أيضا "ولاد" على 'Aly 'Welad الشماليين) ، عندما وصلنا إلى الخيمه لم نجد أحداً غير النساء ؛ وشاهدت حيتين مقتولتين فى الأرض الجديدة التى نصبت عليها الخيام ، وأحضروا لى لبنا وجلست أنتظر مغامرتى . وصل الشيخ إفندى الفايز el- Fâiz Effendy بعد الظهر فى بداية الأمر ؛ وسألهم إن كانوا قد قدموا لى طعاما أم لا . وبعد ذلك ، وبالرغم من اللبن الذى قدموه لى ، طلب الشيخ منى فدية ، وبدأ يهددنى ؛ ثم قال فى النهاية ؛ إننى إذا ما أعطيته هدية فسوف أمر بسلام . ورددت عليه قائلا : "لعله يعطينى هدية أخرى ، فرسه على سبيل المثال :" وطلب من أحد الحاضرين أن يقتاد الفرس ليحضرها بالقرب منا ، وكان على أتم الاستعداد لإعطائى إياها ، ولكنى لم تعجبنى تلك الكديش ، أو إن شئت فقل : الفرس العجوز

الهزيل ، وقلت له : "أنا لا يمكن أن أقبل فرسه العجوز على سبيل الهدية أو العطية ." وهنا ضحك رفاقه ، الذين جاءوا معه كما لو كانوا عفاريت أو شياطين صغيرة ، وبعد أن وقف على هذه السخرية والتهكم ، لم يكن أمامه من بد سوى أن يتركنى أمضى لحال سبيلى . تعامل ذلك الشيخ مع ضيف على هذه الشاكلة ، أمر يستنكره البدو جميعا ويدينوه . والغريب بحق أن ذلك الشيخ يقال عنه ، إنه ليس واحداً من العرب الذين يعيشون حول غزة (وهم من الحويطات) : أما فى القبائل العربية الأصيلة فإن شيخ القبيله لابد أن يكون كبير كبراء القبيلة وأن يكون من سلالة شيخ القبيلة أو عميدها . وشهدت فى بعض خيام بنى صُخر قدرا كبيرا من الكرم البدوى .

أما ولاد على ، من العنوز Annezy، فهم موجودين فى اتجاه الشرق ، كما أن ديرتهم تتاخم الحوران . وولاد على ، عبارة عن نصف قبيلة ، ازدادت قوتها فى الشمال ، أما القسم الباقى من تلك القبيلة فهم يقيمون فى ديارهم القديمة فيما بين المدينة (المنورة) ومدائن صالح . يضاف إلى ذلك أن الصُّخور كانوا من عرب الجنوب القدامى ، كما أن ديرتهم القديمة كانت قريبة أيضا من مدائن صالح ، وتتردد هناك خرافة عن عرب الصخور مفادها أنهم يمثلون النسل الذى أنجبته صخور الأحجار الرملية (صُخر) Sokhr . بدو الصخور هؤلاء ، أسلس دينيا من أفراد القبائل الوهابية(*) فى الجزيرة العربية ؛ وهم لا يعيرون مسألة حث الناس يوميا على الصلاة اهتماما كبيرا ، فضلا عن عدم معرفتهم للصلاة الصحيحة معرفه دقيقة . ونساء الصخور ليست منقبات ، وهن تعلمن وجوههن ببعض الخطوط الزرقاء ، والبقع الزرقاء أيضا ، أنا لم أرى تلك الخطوط أو البقع فى وسط الجزيرة العربية ، وهن يربطن خصل شعورهن المزدوجة بشريط فوق جباههن . هؤلاء الأعراب ليس لديهم متدينين من الكبار يقيمون معهم فى تلك المخيمات البائسة ، فضلا عن عدم معرفتهم للقراءة والكتابة : إذن

(*) الوهابية : اسم أطلقه خصوم حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية التى قامت حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادى على تلك الحركة تشويها لها . ولهذا فإن أتباع تلك الحركة ينفرون من هذه التسمية حتى بعد أن أصبحت علما ويؤثرون إطلاق « الحركة السلفية » عليها باعتبارها نادت بالعودة إلى مبادىء السلف الصالح ، ويطلقون على أتباعها لفظ "السلفيين " أو " الموحدين ". (المراجع)

من ذا الذى يمكن أن يعلم هؤلاء البدو دينهم ؟ ومع ذلك ، حاول الوهابى القديم(*) ، القيام بتلك المهمة ، فى الجزيرة العربية ، فى وقت من الأوقات . وأولاد على لديهم ثروة كبيرة من المواشى ؛ ومعروف أن أولاد على هم وشيخهم الكبير محمد الدُّوجى ed-Dûgy هم كبار متعهدى أو موردى إبل الحج العظيمة .

جايليد Gilead تقع فى اتجاه الأردن من الناحيه الغربية ، ووجه الأرض فى جايليد يتسم بالرفعة والشرف فى هذه البلاد الجرداء . وهذه هى تلال الحجر الجيرى بأرضها المُشْجِرة تسر الناظر إليها ، كما أنها ترضى كل الحواس والأذواق . وهى مليئة بأشجار الصنوبر التى تفوح منها رائحة البلسان الجميلة ، وتلك هى أشجار الغار تدوى بين أغصانها رفرفة أجنحة اليمام الحلوة والمحببة إلى النفس ! ونشاهد فى كل الأرجاء ينابيع الماء التى تسر الخاطر ؛ هذه أعالى الوديان تنساب منها أنقى أنواع المياه التى تسر أعين الناظرين إليها . توجد فى هذا البلد الذى تكثر فيه أشجار الغار أطلال بعض القرى ، كما توجد فيه أيضا بعض القرى المأهولة بالسكان إلى يومنا هذا . فى هذا البلد يقطع المستوطن الغابة ويحرقها كما لو كانت واحدة من الغابات البعيدة فى العالم الجديد : هذه القلة القليلة من الناس الموجودة فى هذا البلد غير متحضرة ومتوحشة ، ولا تخضع لأية حكومة من الحكومات . قطعنا فى مسيرة هذا اليوم مسافة اثنتى عشرة ميلا ونحن راكبين دوابنا ، إلى أن وصلنا إلى قلعة بلات Blât المدمرة ، التى شاهدنا فيها مجرى مائى مدمرّ ؛ وبعد أن تجاوزنا ذلك المجرى دخلنا على الفور إلى مخيمنا .

هذه المرتفعات الجيرية العالية هى والسهول الواسعة فى كل من عمون Am-mon(**) وموءاب Moab(***)، وفى ريوبن Reuben، وجاد Gad، وفى مناسيح Manas-

(*) الوهابى القديم : من المرجع أن المؤلف يقصد به الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب حركة الإصلاح الدينى . (المراجع)

(**) هى مدينة عمان الحالية فى الأردن . كانت فى القديم عاصمة للأمونيين Ammonites . أعاد بناءها بطليموس فيلادلفوس وأطلق عليها اسم فيلادلفيا فى القرن الثالث قبل الميلاد . اندحرت وأفل نجمها بعد الفتح العربى . (المترجم)

(***) بلاد قديمة تقع فى منطقة الهضبة شرقى البحر الميت ، وهى حاليا فى غربى الأردن . كان سكان بلاد الموءاب يشبهون العبرانيين ، بالرغم من أنهم كانوا فى حرب دائمة معهم . ، حجر الموءاب الذى يعود تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، والذى عثر عليه فى ديبون Dibon (حاليا ضيبان Dhiban فى العام ١٨٦٨ يسجل ثورة الملك مسحا Masha الموءابى الناجحة على إسرائيل . (المترجم)

seh، تشكل فى حقيقة الأمر بلقاء Belka البدو الرحل . كما تشكل أيضا ذلك الذى يمكن أن نقول له : الأرض البلقاء Piedland؛ هذه أرض مرتفعة جيدة المناخ ، يمكن أن تزرع فيها كل أنواع القمح وتعطى محصولا وفيرا بدون رى أو تسميد . ونقرأ فى الإنجيل العبرى أن الأراضى الأقل انخفاضا كانت مرتعا للرعى فى كل الأزمان ، "أرض صالحة للماشية ." هذه هى 'شم' Shem (أو إن شئت فقل : 'شام' Sham)، أو البلاد الشمالية الطيبة ، التى تسيل فيها المياه فوق الأرض : ومع ذلك فإن الذباب يضايق الإبل فى هذه المنطقة ، ويقول البدو إن البراغيث تضايق البشر فى هذه المنطقة أيضا ، فى قسم كبير من أشهر الصيف . والأطلال والخرائب الموجودة فى المنطقه تدل على أن تلك الأرض كانت فيها فى الماضى مدن ، وكفور ، وقرى ، جرى بناؤها على عجل على الطريقة التى كان الساميون يبنون بها مدنهم وكفورهم وقراهم . ولم أرى نقوشا من أى نوع كان فى تلك المدن ، أو الكفور أو القرى .

(يقول النبى العبرى) : "ستصبح أرض الصحراء أرضا زراعية" ، عَفِيَّةٌ جداً تلك التربة الجيدة التى "غربت شمسها فى رابعة النهار" ، ستعود وتمتلئ بالحياوات البشرية الكثيفة ؛ هذه الأرض لا ينقصها سوى الدفاع عنها من قبل حكومة قوية . سألنى أحد التجار الدمشقيين الذى كان ضمن قافلة الحج : "بعد أن رأينا أن الأتراك (الذين يبلعون ويلتهمون كل شىء ولا يصلحون شيئا) تركوا أو خلَّفوا ذلك البلد الطيب على شكل أطلال وخرائب ، ألا يستطيع بعض المبتكرين من بلاد الفرنجة إقامة خط حديدى فى تلك المنطقة ؟" بعض الناس فى أوروبا تخيلوا أن المستعمرات الإفرنجية يمكن أن تزدهر هنا فى هذه المنطقة ، إضافة إلى متسع من الأرض والتربة الجيدة التى يمكن احتلالها والاستفادة منها . ولكن قد لا يكون مثل هذا العمل سعيداً أو موفقا ، نظرا لأن الجيل الجاد الأول خارت قواه ، كما أن أبناء وأحفاد ذلك الجيل الواهن الضعيف ، فى هذه الأرض ، أصبح يختلف اختلافا قليلا عن العرب . من يبقى فى هذه المنطقة ، يستطيع الخوض فى قصة يوسف عن هذه البلاد دون خوف أو وجل ! ألم يكن إرسال المستعمرين ، الذين من هذا القبيل ، إلى سوريا ، مثل إعطاء الفقراء أَسِرَّة ينامون ويضطجعون عليها ، وألم يمت آخرون فى تلك الأرض بسبب وباء الطاعون ؟

على مقربة من هذا المكان توجد أطلال مدينة فيلادلفيا الإغريقية ، مدينه عمَّان Amman الحالية ، والتى كانت تسمى فى الماضى باسم ربَّاث Rabbath (أى عاصمة) عمّان ؛ ونظرا لأن هذه المدينة تقع فى وادى مفتوح صغير ، فقد اكتشفت أن موقع هذه المدينة أقل من موقع بعض البلدان الإنجليزية التى لا يعتد بها ، هناك جسر رومانى ، مكون من دعامة كبيرة واحدة ، تركب النهر ممتدة إلى ضفتيه ، وهذا النهر ينبع من ينبوع قوى ، يعلو مجرى النهر قليلا ، وماء هذا الينبوع دافئ . "(يقول إرميا (*)) لماذا تتباهى فى وديانك ، ولديك الذى يفيض ماءً ؟" مملكة عمون Ammon كانت فى يوم من الأيام مثل مقاطعة من مقاطعاتنا ؛ كانت مكونة من ستين مُدَينة وقُريَّة من المدن والقرى الصغيرة . وعلى بعد أميال قليله فى إتجاه الجنوب عثرت فى بعض حقول القمح ، التى يقوم على أمر زراعتها أهل مدينة السلط es-Salt القريبه منها ، على ضريح فاخر (القصر) مبنى من صخور الحجر الجيرى الأبيض الذى يشبه البلور ؛ وشاهدت داخل ذلك الضريح صفا من التوابيت المصنوعة من نفس نوعية الرخام الأبيض ، ولكنها أقل قليلا من السرير العظيم الذى على شكل حرف S ويوجد فى المدينة التالية لمدينه عمَّان ، أو إن شئت فقل : مملكة عمَّان . هذه الآثار القديمة ذات العظمه المدنية تستحوذ على إعجاب أنظارنا وتثير فينا الدهشة فى أرض قاحلة جرداء من هذا القبيل ويسكنها هؤلاء العرب ... (**) .

بدأنا تحركنا قبل طلوع النهار ، ورحنا نسير فى تلك الأرض الواسعة المكونة من الغرين (اللَّهمْ) من فوق طبقة من الحجر الجيرى ، أرض خراب ، إذا ما أفلحت فلربما أعطت محصولا وفيرا من القمح . وبالقرب من هنا تقع حِصبان Hesban التى لم أشاهد فيها سوى رصيف وسور ، كما لو كان ذلك المكان أثرا لقلعة بنيت على أرض مرتفعة ، والتى ينظر الناس إليها باعتبارها أطلالا لمدينة حشبون Heshbon التى ورد ذكرها فى الإنجيل ، أو إن شئت فقل : إنها أطلال مدينة سيحون Sihon . وبالقرب من مدينه سيحون يوجد مجرى سيل وحفر . ولم يعد هناك وجود لبرك السمك التى كانت

(*) هو " إرميا " ويصح فيه أيضا Jeremiah ، أحد أنبياء بنى إسرائيل . (المترجم)
(**) كلمة غير لائقة آثرنا حذفها . (المراجع)

تشبه عيون الحب ، كما لم يعد هناك وجود لأعشاش يمام حشبون ، الموجود فى هذا المكان حاليا برك الماشية ذات المياه الراكدة كريهة الرائحة . وعند مستوى منخفض عن مستوى حشبون توجد بلدة أم الرصاص Rosâs Umm، تلك البلدة المسورة بدائية البناء التى لم يعد يبقى منها سوى أطلالها : وقبل بلدة أم الرصاص بحوالى ميل هناك برج غريب مبنى بطريقة جيدة ، يبدو أنه مائل ، وقد زينه البناه المسيحيون بكثير من الصُّلبان . وسور البلدة ، هو والمزاغل الموجودة فى السور ، والذى يصل سمكه إلى حوالى ستة أقدام ، مبنى من كتل الحجر الجيرى الغشيم بدون استعمال المُلاط ، والمسافة فيما بين الجدارين مملوءة بالزبالة والمخلفات . شاهدت البلدة المهدمة على شكل أكوام ، وارتباك وفوضى شديدة ، رأيت فيما بينها عقوداً قوطية متهاوية ما تزال جدرانها الداخلية قائمة وموجودة ، وبنفس الطريقة المبنية بها منازل كيراك Kerak فى الوقت الحالى .- كانت السماء صافية ، والهواء عليل بينما كنا نواصل رحلتنا فى شمس الخريف ؛ وبعد الظهر بقليل كنا قد تجاوزنا خان Khan الزيت ez-Zeyt حيث شاهدنا فيها عقود لقناة مائية صغيرة . وبعد ذلك بحوالى ستة وعشرين ميلاً وصلنا إلى مخيمنا ، فى منطقة منخفضة ، بجوار قلعة البلقاء التى جرى ترميمها مؤخرا ، والتى توجد شرقى مدينة القدس ، فى المنطقة الواقعة خلف البحر الميت ؛ وارتفاع الأرض فى هذه المنطقة يصل إلى حوالى ٢٨٧٠ قدم .

تقرر لنا أن نرحل فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، وعندما سأل البعض عن الموعد ؛ رد عليهم أحد الدمشقيين العاملين فى خدمة الحج وهو يضحك ويقول : "عند انطلاق المدفع" . تلك الدانة معروفة فى ليل الصحراء ، فهى تعنى بدء مسير قافلة الحج العظيمة فى تلك اللحظة ، وتعنى أيضا ضجيج وصخب تحرك مفاجئ لآلاف الحجاج ؛ هذه الدانة التى يطلقها المدفع تعنى قصر المدة المحددة للاستعداد ، تعنى أيضا جلب المصابيح والفوانيس والجرى بها ، تعنى أيضا اختلاط الأصوات الصادرة عن الإبل وتحشرج تلك الأصوات أيضا ؛ انطلاق المدفع يعنى أيضا حمل الخيام فوق رؤسنا . وأى شىء يتركه الحجيج فى هذه العجالة يكون فى حكم المفقود ، وإن هى إلا لحظات قليلة حتى يكون جيش الحج قد ركب دوابه من جديد . أفزع صوت المدفع الذى انطلق بعد أربع ساعات من منتصف الليل ، أى عند الساعة الرابعة صباحا ، الكثير من

الأجساد التى أرهقها الطريق ؛ وغالبا ما يكون هنا العديد من تلك الأجساد ، وبخاصة أولئك الذين يجيئون للحج سيرا على الأقدام من مسافات بعيدة جداً ، الأمر الذى يجعلهم لا يستيقظون مع صوت المدفع ، وتتحرك القافلة وتتركهم نياماً فى الظلام . والشاى الحار ، الجاهز فى الأكواب ، يقدم ومعه كثير من السكر ، فى الأجنحة الفارسية ، والعبيد أيضا يشعلون نرجيلاتهم (شياشهم) ، ويروحون "يشربونها" ، وهم يمسكون بها فى أيديهم ، وهم راكبون فوق دوابهم وماضون قدما . وقد يتوانى قليلا الحجاج الذين يركبون خيولا ويلحقون بالحجاج السائرين على الأقدام ويتخطون قاطرة الإبل البطيئة . وفى قافلة الحج تجد هناك باعة القهوة ، الذين يكونون فى مكان متقدم من الطريق ، وتسمعهم يصيحون وينادون من جوار نيرانهم على المسافرين وهم يقولون : "يلاً ! يلاً ! يلاً ! يصلى على محمد ، الله كريم ." وعليه فالساميون يقدمون اسم الله فى كل الأمور سواء أكانت خيراً أم شراً . وهم يصبون القهوة الحارة زهيدة الثمن ، إذ يباع الكوب الواحد منها ببنس واحد ، لكل سائر على الأقدام ، يستطيع التوقف مدة لحظة واحدة يشرب القهوة خلالها ، ويريح قلبه فى جوف الليل قبيل طلوع الصبح ، وهذا بعض آخر من الناس يبيعون الخبز الدمشقى المفرود والزبيب المجفف على جانب الطريق : هؤلاء الباعة هم من السوريين الفقراء الذين اكتشفوا ذلك العمل البسيط الذى يكسبون منه القليل كل عام ، وهم يتبعون قافلة الحج ببضاعتهم الصغيرة وهم ركوب على ظهور الحمير أو الجمال ، حتى يصلوا إلى مسافة معلومة أو محددة ، أو إن شئت فقل : إلى أن تصل قافلة الحج إلى آخر المحطات السورية فى معان ، أو قد يدخلون مع الحج إلى الصحراء الرئيسية ، التى يتحولون فيها إلى بيع التمر فى كل من المدينة ومكة . وتبدو الإبل كما لو كانت تتنفس طاردة الدخان من أنوفها فى برودة الصباح الباكر فى هذه المرتفعات ، وهذه سحب من التراب والغبار تهب علينا من وراء ظهورنا بفعل ريح الشمال ، ونظرا لدخول الليل علينا فإن الساعات تمر طوالا ، فى ظل تلك البرودة الشديدة ، إلى أن يطلع النهار وتبعث فينا أشعة الشمس الدفء . والمؤسف أن النهار جاء ممطرا ، مما أدى إلى بلل فراش الحجاج الذى هو عبارة عن لحاف محشو بالقطن ، فى مسيرة من قبيل قافلة الحج ؛ ومع ذلك ، لا يمكن للمنغصات الحالية أن تستمر ، فضلا عن أننا مع كل لحظة كانت تمر علينا ، كنا نقترب أكثر

وأكثر من شمس الغد . قطعنا حوالى أربعين ميلا إلى أن وصلنا إلى المخيم ، الذى أقيم فى مكان بالقرب من قلعه قطران katrân ، حيث شربنا من هناك ماء عذبا جاء من ماء المطر . مررنا فى هذه المسيرة بوادى مجيب Mojeb الجاف ، الذى يقع أسفل نهير عرنون Arnon . وفى اتجاه الغرب من هذا المكان توجد أنقاض بلدة ليجون Leijun المسورة بسور مربع الشكل ، هذه البلدة مثل بلدة أم الرُّصاص ، سورها وأبراجها التى عند أركان السور عبارة عن نباتات من البلوك الجاف ، وفى منتصف كل جدار من جدران السور توجد بوابة . وفيما بين تلك الأنقاض شاهدت ورأيت كثيرا من العقود المستديرة المركبة بدون ملاط . والأنقاض ، كما هو الحال فى البلدة الأولى ، موجودة داخل الأسوار وخارجها . وعلى بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الجنوب شاهدت حلبة مبنية مربعة الشكل ، ومتدرجة من جميع الأجناب ، كما لو كانت مكانا محدداً . ترى ، هل بلدة ليجون ، يمكن أن تكون هى ليجيو Legio؟ أم نحن هنا فى ستاتيفا Stativa إحدى المحطات العسكريه الرومانية (*) ؟ وأنا عندما جئت إلى هنا ، قبل عدة أشهر ، على ظهر دابه أثناء الليل قادما من كيراك Kerak، كانت خيام البدو منصوبة فى الأرض الجرداء القاحلة خارج الأسوار . كانت الشمس تغرب وتجولت الإبل من تلقاء نفسها فى الصحراء ؛ كانت ربات البيوت فى الخيام يحلبن الماشية الصغيرة . استقبلونى بالقرب من أنقاض إحدى المدن المبنية من الحجر ، فى خيمة من أفقر خيام البدو الرَّحل ، بشيئ من الكرم .

واصلنا المسير ثانية عند الساعة الخامسة صباحاً . هذه هى سهول موءاب : Moab على بعد مسافة قصيرة عن يميننا ، يوجد جبل كيراك Kerak Jebel، هذا الجبل عبارة عن سهول قاحلة مرتفعة ، فيها الكثير من أنقاض الكفور والبلدان الصغيرة إلى الحد الذى لا يمكن أن يتصوره العرب أو يتخيلوه . فى العام الماضى ، كنت قد زرت إلى جوار العاصمة Rabbath الموءابية Moab، أربعين نقضاً آخر ، تقع على بعد مسير

(*) المحطات العسكرية الرومانية : لم يتمكن الرومان من التوغل إلى أبعد من السهول الساحلية ،وأقاموا خطا من الثغور Limes يحمى مناطق نفوذهم من عدوان القبائل الداخلية . ولا تزال توجد آثار بعض القلاع أو المحطات العسكرية الرومانية التى أشار إليها " دوتى " على حدود المناطق المتحضرة . (المراجع)

يومين على ظهر دابة من الدواب . ترى ، ما هو السبب وراء بقاء هذه البلدان مجهولة للناس وغير معروفة ! ألا يكفى فصل الصيف لتقصى هذه البلدان وفحصها ؟ وبالقرب من طريق الحج توجد أنقاض بلدتى نيكل Nikkel وأنشينش Ensheynish وعلى مقربة من كيراك زرت بلده ميهاى Mehai، وهى عبارة عن أرض مزدوجة مرتفعة تحيط بها أنقاض برية : سمعت أننى ربما أرى هناك تمثال لشخص ، وبعض الأعمدة ، وكذلك بعض النقوش ؛ ولكنى لم أعثر على أى شىء من ذلك ، ولما كنت أتضور جوعا فقد وجدتنى لا أقوى على مواصلة تسلق تلك الأحجار الجرداء التى سقطت على الأرض . كانت ميهاى Mehai أرضا واسعة تميل إلى الارتفاع خاليه من تحف المبانى ، ولكن كل مبانيها كانت من الحجر الجيرى غير المصقول (الغشيم) ومن كتل الصوّان التى كانوا يجلبونها من السهول . عدت من هناك إلى ميهاى خلال نصف ساعة ، إلى ميديبيا Me-deybîa تلك البلدة الصغيرة المهدمة ، ومبانيها وجدرانها وأسوارها من كتل غشيمة ناتجة عن الحمم البركانية ؛ والسبب فى ذلك أن البازلت الموجود هنا انصهر وانساب خلال الحجر الجيرى فى مدينة بلقاء Belka . منخفضات الحجر الجيرى التى من هذا القبيل يوجد بها الكثير من تلك الصدوع البركانية شأنها شأن مدينة إيدوم ، وهناك ما هو أكثر من ذلك بكثير فى كل من وادى الأردن ووادى البحر الميت ، وكذلك فى تلك الأرض الجوفاء الواسعة المؤدية إلى خليج العقبة . وبينما كنت أركب دابتى فى طريقى إلى كيراك ، أبصرت مجموعة كبيرة من الإبل وهى ترعى ؛ وأخبرنى رفيقى عندئذ ، أن تلك الإبل تابعة لقبيلة من قبائل بلاد ابن الرشيد(*) ، ويحتمل أن تكون من الفُكارة ، المهاجرة ، وقد أقمت معهم بعد ذلك عندما كنت فى مدائن صالح . وإلى الجنوب من كيراك ، وفوق وادى الحسى el-Hâsy، هناك بعض الأنقاض الرئيسية ، التى يطلق العرب عليها اسم ذات راس Ras Dat . وبين هذه الأنقاض عثرت على بنايتين أثريتين ، طريقة بناؤهما واحدة ومن نفس الحجر الجيرى البللورى ، أو إن شئت فقل : الرخام . كما هو الحال فى الضريح (اليونانى الطابع) بالقرب من العاصمة Rabbath عمون ،

(*) بلاد ابن الرشيد : المقصود بها أساسًا جبل شمر وعاصمته مدينة حائل ، وإن كان آل رشيد قد امتدوا بغزواتهم إلى مناطق عديدة فى وسط وشمال نجد وأحكموا بسيطرتهم على الكثير من القبائل . وقد تولت أسرة رشيد الحكم من قبل السعوديين فى عام ١٨٣٥ ، ثم أصبحت من أكبر المنافسين لهم بعد ذلك (المراجع) .

أو إن شئت فقل : عمّان الحالية ؛ فقد تحول طباشير بلقاء Belka بفعل الحرارة البركانية ، فى زمن ثورات البراكين البازلتية . أول مبنى أثرى من هذين المبنين يبدو كما لو كان معبداً صغيراً أو مبنى إمبراطوريا : وعلى جانب الباب فى الحجر الأمامى الرئيسى توجد فجوات كما لو كانت لتماثيل ، كما توجد أيضا بعض الأعمده المكسَّرة وفى داخل سمك الجدار يوجد سلَّم ، مصنوع من كتل كبيرة من الرخام ، وهذا السلم يؤدى إلى شرفة علوية ، موضوعة فوق عقود ضخمة مستديرة : كانت فى ذلك الوقت وكراً لحيوان متوحش . "البجعة والدُّلدل يسكنان فى الفتحات العلوية" . وفى الأسفل توجد بحيرة جافة عميقة ، ثم هناك بحيرة جافة أخرى ، مبطنة بحجر الدبش الملصوق بالملاط ، وفوق الأرض المرتفعة المجاورة لتلك البحيرة الجافة هناك جدران منخفضة ، مبنية أيضا من الرخام كما لو كانت قصراً أو مبنى إغريقى جميل . قالوا لى : إن المحجر يوجد على بعد مسافة قصيرة خلف الوادى . ولم أستطع البحث أكثر من ذلك بسبب إرهاقى ، ونظرا لأن تلك الأرض الجرداء بدأت تتسع أكثر وأكثر من حول تلك الأنقاض النبيلة . عثرنا بعد ذلك على خيمة بدوية على مقربة من المكان ، وغضب ساكن تلك الخيمة فقير الحال لأننا اعتذرنا عن عدم البقاء معه لتناول الثريد ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هذا الكرم الليلى أصبح أمرا مألوفا لنا فى هذه الصحراء الجرداء .

شاهدت أيضا أسوار عاصمة Rabbath موءاب Moab الأرضية التى تشبه الدوائر ، تلك الأسوار التى جرى بناؤها بدون استعمال الملاط ، كما رأيت أيضا شوارع مستقيمة مرصوفة باستعمال البازلت ، كما شاهدت أيضا بهوا من الأعمدة ومعبدا صغيرا من بقايا مبنى إغريقى . ونحن إذا ماصدقناهم ، فهم يقولون : إن تحت الكومة الكبيرة التالية من الأحجار ، يوجد الأسكندر الأكبر ، الذى يقولون له ذو القرنين Thû el-kurneyn، والذى اعتبروه إبان حياته إبنا من أبناء الإله آمون Ammon، برأسه الذى يشبه رأس الكبش . والأسكندر حاليا يعد فى مرتبه القديسين بين المسيحيين الإغريق ؛ وسبب ذلك أنهم مازالوا يقبِّلون بإخلاص صورته المنقوشة على بعض الدينارات القديمة ، ويحمل رأسه قرنين . وقد شاهدت ، على الجدار الخارجى لواحدة من كنائس المسيحيين الإغريق فى فلسطين ، حلية أثرية عبارة عن رءوس بشرية مقرَّنة (أى لها قرون) مركبة داخل الجدار . وربما كانت تلك الحلية من أيام الكنعانيين عبدة الشمس . ونحن نقرأ فى سفر التكوين (من التوراة) شيئا من هذا القبيل ، ربما يتصل بالقمر المقرَّن الذى يقولون له بلغة القوم Ashteroth Karnaim . وعلى الطريق

المجّوف الذى يمتد من هنا إلى البحر الميت ، يرددون علىّ وجود الكثير من البنايات الدائرية التى تستعمل فى بنائها الأحجار غير منتظمة الشكل . ومن مدينة موءاب الملكية ، التى لم أجد فيها سوى خيام الكراكين Kerakers، الذين يحضرون إلى هذه المنطقة فى فصل الصيف ، ومعهم قطعانهم الموجودة ، فى الوقت الحالى ، وسط مدينة موءاب ، من هذه المدينة أجد أن المسافة قصيرة بينها وبين كير موءاب Moab Kir التى هى مدينة كيراك Kerak الحالية ، التى هى عبارة عن صخرة صلدة جداً بحكم طبيعتها ؛ الأمر الذى أعجز اتحاد ملوك إسرائيل ، وجودة Judah وإيدوم عن الاستيلاء على كيراك ، وما تزال مأهولة إلى الآن ، بالرغم من استيلاء ذلك الاتحاد على موءاب وسحقها وتدميرها . وربما يكون ذلك هو المكان ، الذى اصطحب ملك موءاب إليه ولده ، الذى كان مفروضا أن يتولى الحكم من بعده ، ليقدمه ، أثناء الحصار والضيق ، قربانا محترقا على ذلك السور فداء للأرض .

كل الأنقاض والخرائب التى فى كيراك ، راسخة فى أذهان هؤلاء العرب غير الدقيقة ، وتبلغ تلك الأنقاض من الرسوخ والثبات حداً يستحيل معه التكهن بعددها ، الذى يحددونه بحوالى "ثلاثمائة وستين" موقعا ؛ وهذا مجرد رقم تقريبى من الأرقام المتداولة بين العرب ، وهذا الرقم يدل على عدد أيام العام ، بمعنى أن كل يوم يمثل موقعا من تلك المواقع الأثرية : ولكن ابنة موءاب الساكنة والصامتة حاليا ، كانت فى كل العصور مجرد فتاة صغيرة مسكينة من فتيات الأراضى المرتفعة ؛ نحن نقرأ فى سفر التكوين (من التوراة) أن الملك الموءابى "كان مالكا للأغنام" . ومناطق الخرائب ، أو إن شئت فقل المناطق الأثرية ، فى موءاب ، هى فى معظمها صغيرة مثل الكفور ؛ ومبانى هذه الكفور غير المتقنة مهدمة على شكل قلة قليلة من أكوام الحجارة المعتادة . وقد أتيحت لى فرصة تدوين بعض أسماء تلك الكفور مثل : كفرُ 'إنجاحساه' Enjaha-sah، وكفر 'محنوارا' Mehnuwara، وكفر 'الجاهلية' el- Jahlih، وكفر المحينيح Mehaineh، وكفر مدائن Medâin، وكفر نجايس Negâes، وكفر لبُّون Libbun وكفر جليول Jeliyul، وكفر نلنوخ Nelnokh، وكفر مهرود Mehrud، وكفر هويحيح Howihih، وكفر جميرين Gamereyn (ذو القمرين) وكذلك كفر جارفة Jarfa (الذى يوجد به ضريح إسلامى ، ومسجد ؛ كان ذلك المسجد كنيسة فى الزمن القديم) . وهناك طريق قديم ممهد يمر عبر هذه المنطقة من تحت بلدة ربّه Rabba، وقد أجتزنا

ذلك الطريق مرات كثيرة ونحن على ظهور مطايانا ؛ وطبقا لعقيدة عرب هذه المنطقة ، (فهم ليست لديهم أية موروثات عن هذه الأرض قبل العصر الإسلامى) فإن هذا الطريق هو طريق الحج القديم . والآبار وحفر المياه كثيرة فى كل أنحاء هذا السهل المرتفع الذى هو حاليا أرض جرداء قاحلة ؛ والعين هنا تقع على أكوام الحجارة فى كل مكان ، تلك الحجارة التى جلبها الفلاحون من مناطق بعيدة عن أراضيهم الزراعية – يقول هوسيا : Hosea (*) "أكوام فى أخاديد الحقول" . ستبقى بعدهم إلى أبد الآبدين . فى هذه المنطقة توجد حقول القمح شديدة الخصوبة ، والتى لا تغوص فيها محاريث أهل كيراك إلا إلى قبضة يد فقط . ويمكن شراء حقل كبير ببضع جنيهات قليلة ، والحبوب فى بلادهم مثل الرمل ، الأمر الذى يصعب معه نقلها إلى الخارج ، نظرا لأرتفاع تكاليف النقل بالإبل ، والذى يقدر بحوالى نصف الحمولة التى تنقل إلى القدس . وسفر إشعيا فى العهد القديم ، يتحدث عن حشد كبير وهائل من الموءابين ، ومن المؤكد أن تعداد القدماء كان كبيرا فى هذه المنطقة من الأراضى المرتفعة الخصبة . والساميون هنا لديهم الرغبة فى الحديث عن الأمم القديمة التى سبقتهم ، ويقولون عنهم : إنهم كانوا مَرَدة giants . من هنا فإن بدو نجد يتحدثون عن بنى هلال من عاد وثمود . هذا يعنى أن الموءابيين سبقهم ، أو جاءوا قبلهم بنو إميم Emim أبناء أناك Anak، الذين هزمهم 'شيدور لاومر' Chedorlaomer، الذى هزمه (سيدنا) إبراهيم بفضل رجاله الشباب الذين بلغ عددهم ثلاثمائة رجل ، كما هزم معه أيضا ملك الأمم ومعه ملك أو ملكين آخرين ، الذين تصادف وجودهم مع 'شيدور لاومر' فى تلك المنافسة . ولو كان (سيدنا) إبراهيم وحده يملك ثلاثمائة رجل ، فذلك يعنى أنه كان قبيلة بدوية مترحلة ، وأن تلك القبيلة كانت أكبر من أيه قبيلة من القبائل الفرعية الموجودة حاليا فى الجزيرة العربية البدوية المترحلة . ونقرأ فى سفر إشعيا أيضا أن أطفال آمون Ammon نجحوا فى أن يكونوا مردة Giants أو عمالقة ، أو Zamzummin كما يقولون لهم بلغة القوم .

(*) هوسيا Hosea : واحد من الأنبياء الإسرائيليين الاثنى عشر الصغار . عاش فى مملكة إسرائيل وتلقى النبوة – كما يعتقد العبرانيون – فى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد . (المراجع)

عندما ضعفت تلك التربة ، تخلى أهلها عنها على وجه السرعة ، لأنها مفتوحة وتطل على مسيرات البدو : ومن الطبيعى فى مثل هذه الظروف أن تتجمع القلة القليلة من الناس مكونة قرى أقوى وأكبر ، وطبيعى أيضا فى مثل هذه الظروف أن تترك الكفور البعيدة وتخلو من السكان . ولما كانت البلاد من خلفهم غير آمنة ، كان من الطبيعى ألا يعاد بناء الأماكن المهَّدمة . وفى ظل مثل هذا الإحباط تتولد فى الساميين النزعه إلى الهجرة والنزوح عن مواطنهم ، ويستقرون فى الأماكن التى يصلون إليها ويجعلون منها موطنا لهم ، كما يحدوهم شىء من الأمل فى العودة إلى المكان الذى نزحوا عنه ، وفى ظل موروثات هؤلاء الساميين ، أثناء حكم شبيب بن تُبَّاى ، لم تكن الأرض قد أقفرت أو صارت جدبا ؛ وهؤلاء الساميون يقولون : إن أعراب العجابة el-Agaba دمروا كل شىء فى العصور الإسلامية ، – وهاهم البدو الرحل الذين ينتسبون إلى بدايات قوية ، ليسوا سوى بقية باقية ويائسة من رعاة الماشية تحت قيادة شيخ البلدة ، وهم يسكنون المنطقة المحيطة ببلدة كيراك ، وهناك بعض آخر منهم بالقرب من البحر الأحمر . والساميون هنا ، يقولون : إن بنى هلال داهموا هذا البلد أثناء مرورهم متجهين إلى مصر(*) . وإلى هذا المكان جاء داود مع المقاتلين الإسرائيليين فى الزمن القديم ، وبعد أن هزم الموءابين شر هزيمة (هؤلاء الموءابين الذى سبق لمليكهم أن عامل داود معاملة طيبة ، وأنقذ أباه وأمه من الملك شاؤل Saul) نقرأ أن داود ، طرحهم أرضا وقسمهم إلى ثلاثة أجزاء عن طريق خط ، ثم قتل منهم قسمين ، وترك القسم الثالث على قيد الحياة ." وموسى ، وداود ، ومحمد (عليهم السلام) كلهم متساوون فى ذلك ؛ وهم بوصفهم زعماء لفرق سامية ، يصبحون أيضا عرقيين . وبسيف الملاك المدَمِّر شقوا طريق الرب أمامهم فى غابة عالم الرب (الإله) . وفى أسطورة ملوك إسرائيل ، إن 'جيهورام' Jehoram عندما اتحد هو و'جيهوشافات' Jehoshaphat وانضما إلى ملك إيدوم ليقفوا فى وجه الموءاب ، استمعوا إلى التهمة التى ألقاها إليشع Elisha، وكان ذلك على العكس مما قال به (سيدنا) موسى ، "حطموا كل مدينة من مدنهم ، وقطَّعوا

(*) بنو هلال : ترجع هجرة بنى هلال إلى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى ، وقد مروا على مصر فى طريقهم إلى الشمال الأفريقى . (المراجع)

كل شجرة طيبة من أشجارهم ، وأوقفوا كل آبار الماء ، ودنسوا كل قطعة من الأرض الطيبة بالأحجار" وقد فعلوا ذلك فى حقيقة الأمر . "إنهم يهدمون المدن ، وعلى كل قطعة من الأرض الطيبة يلقى كل واحد منهم حجرا ، وأوقفوا كل آبار الماء وقطعوا كل الأشجار الطيبة المثمرة ." وهذه سهول الموءاب يدوسها البدو الرحل ، فى آخر المطاف ، بأقدامهم ، طبقا لما جاء فى صرخة إرميا Jeremiah النبى ، "كثير من الرعاة دمروا كرومى ؛ وداسوا أجمل الأجزاء بأقدامهم وحولوها إلى أرض جرداء قاحلة ." وهاهو وجه هذه التربة الجرداء الزلطية تطؤه أقدام السائمة ، ويبس وجفّ كما لو كان قطعا من الصخر ، تحت وهج الشمس الحارقة . وموءاب يطلق عليها اسم وعاء الغسيل الربانى ، وربما أطلق عليها ذلك الاسم بسبب ينابيع الماء الموجودة فى ذلك الحجر الجيرى . ولكن ذلك الذى ظننته أمرًا مهما فى تلك البلدان التى كانت على شكل قرى ، يتمثل فى أن أهل هذه القرى القدامى كانوا من بناة الأحجار ، فى حين أن المسلمين الذين سكنوا تلك البلاد القروية من بعد أهلها ، كانوا فى ذلك الوقت من بناة الفخّار . هدد أنبياء الزمن القديم بسكب أحجارهم ، وأنها (الأحجار) سوف تصبح مثل الأكوام فى الحقول ، ومثل الشتلات فى أراضى الكروم .

كيراك حاليا ، عبارة عن بلدة صغيرة وأهلها ، طبقا لكلام البدو الرحل ، ربما يكونون من أصل موءابى وربما يكون جزءا منهم من المهاجرين . وازدحام بلدة كيراك بالسكان هو الذى يجعل البدو الرحل ، يطلقون عليها اسم المدينة . موقع هذه المدينة عبارة عن تل مرتفع من الحجر الجيرى ، وضاحية هذه البلدة عبارة عن وادى عميق ملتوى يسير محاذيا للتل . ومعروف أن إبراهيم باشا ، وهو فى طريقه إلى سوريا ، استولى على ذلك المكان عن طريق هجوم دموى شنه على تلك البلدة جنوده من المصريين والألبان : وقد وضع إبراهيم باشا شيخ هذه البلدة فى السجن وترك فيها حامية من جنوده ؛ ولكن رجال إبراهيم باشا غلبوا على أمرهم ، بعد أشهر قليلة ، من الفلاحين المتوحشين . هؤلاء الفلاحون دفعتهم غيرتهم على حرياتهم التى كانوا يتمتعون بها من أزمان غابرة ، ودفعهم تخوفهم من فرض ضرائب عليهم باعتبارهم مواطنين خاضعين لحكومة أجنبية ، كل ذلك دفعهم إلى الثورة والتمرد فى كل وقت وحين على الحكومة السورية البعيدة عنهم . أرض كيراك الصخرية هذه يمكن الاستيلاء عليها

بدون إهدار الدماء ، وذلك عن طريق قطع الماء عن هذه البلدة ، ذلك الماء الذى ينبثق من المنخفض الخارجى ؛ أو من الممكن احتلال كيراك بصورة مفاجئة فى فصل الربيع ، لأن ذلك هو الوقت الذى يخيم فيه كل القرويين ، على وجه التقريب ، خارج المدينة ، حيث يعيشون فى خيام شأنهم شأن البدو الرحل ، وذلك من باب جعل ماشيتهم تتمتع بموسم الصيف . شاهدت قرويى كيراك وهم يخيمون داخل خيام مصنوعة من صوف الأغنام ، وذلك على شكل مخيمين رئيسيين ، شأنهم شأن الأعراب تماما ، فى الصحراء التى تقع قبل البلدة مباشرة ؛ هناك مخيم ثالث أقل من المخيمين السابقين ، وهو خاص بالمسيحيين الإغريق الأقدمين ، الذين اضطروا إلى السكنى والأقامة هنا فى بلاد البدو ، عند بوابة الجزيرة العربية ؛ ولكن هؤلاء المسيحيين الإغريق ، ليست لهم قيمة كما أنهم أقل كرما من المسلمين ، والدين الرسمى لهؤلاء المسيحيين الإغريق يعتمد فى معظمة على الشعوذة والخرافات . وهم لديهم مبنى لكنيسة يطلقون عليها اسم القديس جورج ، وهيئة الأكليروس فى تلك الكنيسة مكونة من قس فلاح وشماس سورى . والغريب هنا أن نرى الدين المسيحى يمارس فى خيام كيدار ! وأنا لم أكتشف هنا أن أولئك المسيحيين لديهم أية فكرة عن طهارة تراث المسيح : وهنا يتعين على الانتقال على الفور إلى المسلمين ، الذين يمتازون بسعة العقل ، كما أن تحصنهم بالفضائل العربية أقوى بكثير من تحصن المسيحيين بالفضائل المسيحية . وبالرغم من ذلك ، فإن المسلمين يقدرون المسيحيين ، ويقدرون عقيدتهم فيما يتعلق بمسألة الوديعة ؛ وتلك هى رؤية المسلمين عن النصارى . فقد رأينا أن صيارفة الحج ومسيرى شئونه المالية من المسيحيين ، وقد اكتشفنا فى كل الأحيان أن الأجانب يحظون بتلك الثقة ، فى الحكومات الإسلامية . وقد جعل محمد (ﷺ) كل تابع من أتباعه – بسبب كثرة الزوجات المنفقات وسرعة اختفائهن – رجلا يسير على رمال سائبة وسريعة الحركة ؛ ولكن دين المسيح يحتوى رجلا واحداً فى كل الأحوال ، الأمر الذى يلزم مثل هذا الرجل بالزواج من واحدة فقط . معلوم أن شيخ البلدة المسلم يتعامل مع الرجال معاملة هينة لينة ؛ لأنهم يمثلون مجرد جزء من "كثير" ، ولكن المسيحيين يشكون من المضايقات ؛ هذا لأن المسيحيين كلهم مجرد رجال مع بعضهم البعض . حاول المسيحيون فى مرة من المرات وكانت لديهم فكرة الرحيل عن المكان ، وشراء حق إستعمال التربة – التى

تمثل سلامهم – من البدو مقابل مبالغ زهيدة ، حتى يتسنى لهم احتلال عمّان : ولكنهم يبقون فى كيراك التى ولدوا فيها وهم مواطنون فيها أيضا ، فضلا عن أنها ليس فيها ما يخيفهم . يضاف إلى ذلك أن هناك فرقا بين محمد شيخ المكان وابن عمه خليل الذى سيجيئ بعده ، وذلك فيما يتعلق بالطرفين المتساويين على وجة التقريب ، إضافة إلى أن طرفا يذكر الجار المسيحى بالخير ، نظرا للعون والمساعدة التى يقدمها المسيحيون ، إضافه إلى أن هؤلاء النصارى هم من المتسلقين الأشداء . أما المسلمين فهم يتساءلون عن طقوس المسيحيين غير المعروفة أو المفهومة ، كما لو كان أولئك المسيحيون ألغاز مدنسة . هؤلاء المسلمون يعرضون قبرا (لسيدنا) نوح ، الذى هو مدفون فى أماكن أخرى . يضاف إلى ذلك أن أغنام المسيحيين يجرى وسمها أسفل صُلْب الحيوان بصليب ثلاثى . بالقرب من البلدة دخلت ممرين طويلين فى صخور الحجر الجيرى : أحدهما فى الوادى القريب من خنزيرة Khanzîra وهو يتجه صوب منبع ينبوع من الينابيع .

الشيخ محمد مجلّى من مواليد هذا المكان ، أما والده أو إن شئت فقل جده الأكبر فقد كان فلاحا وافدا ثريا جاء من جبل الخليل ، أو إن شئت فقل ، جبل حبرون ؛ ولهذا السبب فإن أولئك الذين ليسوا أصدقاء له يحتقرونه بأن يصفونه بالشيخ الفلاح "الذى لايصلح لحكمهم !" . والشيخ محمد مجلّى صاحب قبضة قوية ، وطموح ، ومفترس أيضا ؛ وهم ، رعايا همج لا يمكن حكمهم بالمنطق أو العقل ، وإنما يُحكمُون بالقوة ، وتتمثل تلك القوة ، فى كثير من الأحيان فى العنف الصريح . وعلى عاتق الشيخ الذى يكون من هذا القبيل ، تقع مسئولية وعبء الضيافة اليومية العامة ، هذا الدوق الفلاح ، الذين يطلقون عليه اسم "السلطان" ، يفرض الضرائب على قرية خنزيرة المجاورة ويسيطر على أضعف نوع من أنواع البدو الرحل الموجودين حول هذه المنطقة وهم يدينون له بالطاعة والولاء . يضاف إلى ذلك أن بدو سهل غور Ghror، ذلك السهل العميق من سهول البحر الميت ، هم اتباع للشيخ محمد مجلى ، وهؤلاء البدو أناس ضيقى الأفق ويستهلكهم حماسهم ، وهم سود البشره بفعل الحرارة الشديدة والرطوبة .

من هنا ، فإن اسم الشيخ محمد مجلى يسمعه ، كل من يتردد على خيام الموءاب ، على ألسنة الناس ؛ لكل هذه الأسباب يعد الشيخ مجلى حبيس دائرتة الخاصة ، ولا يجاهر بظهوره ، وإذا ما اضطر إلى ذلك ، فهو يكون على سبيل المخاطرة ، ولا يظهر فى غير القدس أو دمشق . هذا الرجل عادل ، وصاحب كلمة قاطعة ، أو إن شئت فقل : هو حاكم سياسى ، شأنه شأن الشيوخ العرب ، مع أبناء شعبه ، وسكان كيراك من أشباه البدو ، إضافة إلى أن الشيخ محمد مجلى لم يتعلم القراءة والكتابة . وهو فى تسيير أموره يكون إلى جواره دوما شخص أجنبى يقوم بدور السكرتير . كان ذلك السكرتير مسيحيا عندما زرت الشيخ محمد مجلى ، وكان ذلك المسيحى قد هرب إلى كيراك على أثر حادث قتل ارتكبه فى بيت لحم ، (كيراك ، فيما وراء الجزء المحكوم منها ، تعد ملجأ آمنا ؛ هؤلاء الهاربون من القانون يعيشون على الضيافة العامة) . بلغنى أن الشيخ مجلى يكون من أنصار الحق ، عندما تعرض أمامه شكوى من الشكاوى أو قضية من القضايا ؛ بلغنى ما مفاده أن الشيخ مجلى لا يجعل نفسه طرفا فى أى نزاع يحدث بين مسلم ونصرانى ؛' ومع ذلك فقد همس فى أذنى ذلك النصرانى القاتل ، الذى استطاع أن يسلك هنا مسلك الرجل الفاضل : "إحترس منهم ، لأن هؤلاء لا يخشون الله أو يخافونه ." وهم يقولون : إن محمداً ، ديك هذا التل ، صاحب الجمال العربى المتعالى ، ترتعد فرائصه فى الميدان ؛ وأفضل شىء عنده هو تمشيط لحيته تمشيطا جميلا وهو ينظر فى المرآه ، وهو جالس مع زوجاته فى المنزل ، هذا عنده أفضل من تعريض بشرته للرصاص المتطاير ، وطعنات الرماح فى العمليات الحربية .

جيران كيراك من ناحيه الشمال هم بنى الحميدى : والذى يميز حدود بنى الحميدى سلسلة صخرية ، يطلقون عليها اسم حجر مسِّين Missen Hajar، الذى يقف على مرمى البصر من كيراك . وبنى الحميدى قبيلة ، مثل سائر القبائل الأخرى ، التى أخضعت بالسيف ، فى سابق العصر والأوان . وعميد عرب بلقاء Belka القدامى يدعى أب الغنيم Ab el-Ghrennnem . وحكومة الحج السورية تنظر إليهم على أنهم أرذال وخونة ، ومع ذلك يمتلك بنو الحميدى أحسن سلالات الخيول العربية ، يضاف إلى ذلك أن بلاد بنى الحميدى يوجد بها الكثير من المراعى البرية الوفيرة . كان بنو الحميدى على مودة مع أهل الحضر ، إلى أن وقع بينهم مؤخرا انقسام شديد . حدث ذلك

الشقاق بسبب فضة (نقود) الفرنجة Franks، الذين أبرموا صفقة مع شيخ كيراك ، بشأن ذلك الحجر المنقوش عليه كتابة ويوجد فى ضيبان Dibân، و(ضيبون) Dibon هذه تقع فى تلال الموءاب وفي أرض بنى الحميدى . شاهدت ذلك المكان ، وكانت فيه أحجار كثيرة متساقطة على شكل أنقاض قرية صغيرة وربما كان معبداً . قالوا لى : إن محمد مجلّى ، أرسل فى طلب ذلك الحجر (الموءابى) ؛ الذى حمّلوه على ظهر بغلين ونقلوه إلى القدس Jerusalem وهنا أحس محمد مجلّى ، والقلة القليلة من الجنيهات الفرنجية فى يده ، أنه كوفئ مكافأة كبيرة ، لأنه لم يفعل شيئا سوى تسليم صخرة من الصخور ، ولكن تلك الصخرة لم تكن ملكا له . وعندما سمع بنو الحميدى عن تلك المكاسب ، سارع شيوخهم راكبين دوابهم إلى كيراك ليطلبوا من محمد مجلى تقسيم الثمن تقسيماً عادلا ؛ ولكن المعروف أن العربى ، إذا ما أطبق يده على بنس واحد ، لا يمكن إخراجه منها ثانية ، مهما كان يبتسم أو معسول الكلام . وهنا أطبق بنو الحميدى أثناء الليل على خيام أهل كيراك من ناحية الشمال ؛ كان ذلك المكان هو مخيم المسيحيين ، وهو القسم الذى يوجد فيه ميراثهم : قتلوا خمسة أفراد واستولوا على عشرين بندقية من طراز Matchlock، كما سقط من البدو أيضا ثلاثة أفراد . أضاف المسيحيون إلى ما عندى ، أن الفرنجة أرسلوا أربعين جنيها أخرى فدية للأفراد الخمسة ، وأن تلك الجنيهات جاءت من القدس . وهنا انسحب أو تراجع بنو الحميدى عن ذلك الجانب من الأرض الجرداء القاحلة ، وهنا أصبح من المتعذر على الحضر المرور على جيرانهم الغاضبين ، اللهم إلا إذا كان ذلك فى الليل . واستطاع محمد سعيد باشا ، الذى كان حاكما لأرض الصوّان فى ذلك العام ، أن يوضح لى ، بهذا المثل ، عندما قمت بزيارته مدى الخطر الذى ينطوى عليه ذهابى إلى مدائن صالح ، قال لى محمد سعيد باشا : إننى إذا ما حركت حجرا من هناك ، فقد يترتب على ذلك هرج ومرج وفوضى قد تنتهى إلى سفك الدماء فى ذلك الجزء غير المتحضر من البلاد ! أبلغنى محمد سعيد باشا (وهو يُضخّم فى الأعداد) أن ستين رجلا ماتوا نظير الحجر الذى نقل من ضيبان . Dibân

قطعنا فى ذلك اليوم ، الذى كان يوافق اليوم السابع لمغادرتنا مزيريب ، مسير اثنتى عشرة ساعة ؛ وقبل حلول المساء ، نزلنا بعض الوديان الموجودة فى منخفضات

الحجر الجيرى ، حيث شاهدت أكواما كثيرة من الأحجار التى ربما كانت علامات تدل على الطريق ، أو علامات تدل على قبور ، أو لها دلالات أخرى ، أو مجرد "أكوام من شواهد القبور" ، وكل هذه التفسيرات جائزة فى البلاد السامية الصحراوية . ثم وصلنا بعد ذلك إلى طريق مرتفع عليه جسر صغير ، صنع لعبور الإبل فوق منطقة الغرين الزلقة ، حيث اتجهنا بعد ذلك إلى مخيمنا فى وادى الحسى el-Hâsy Wady، الذى يفصل أراضى الموءاب المرتفعة عن إيدوم : Edom ووادى الحسى عبارة عن مجرى من مجارى السيل ، يبرز من الأرض البرية الجرداء . تقع قلعة الحج فى ذلك القاع المنخفض ؛ هذا المنخفض ، فى الجزء الأكثر إنخفاضا منه عبارة عن وادى ضيق وعميق ، فيه غدير ماء (ربما كان غدير زارد Zared الذى تحدث عنه (سيدنا موسى) وهذا الغدير ، أو إن شئت فقل : النُّهير يمتد ناحية البحر الميت . كل هذه المنخفضات هى عبارة عن وديان الحجر الجيرى التى تهبط من المرتفعات الشرقية مثل الزرقاء Zer-ka، وموجيب Mojeb، ووادى كيراك ، وفيها كثير من الأعشاب البرية الجميلة المزهرة ، التى تمثل مرعى النحل الذى يربية المسيحيون ، (ولكن العسل بلا طعم) متجهة إلى الأردن وإلى وادى بحيرة الطمى . ولكن أين ذهب القسم الأكبر من الطمى الذى حملته مياه تلك الأخاديد المائية العميقة ؟ كم عدد الأميال من ذلك الطمى الذى يميل لونه إلى الابيضاض ، التى حملتها تلك النهيرات على امتداد آلاف السنوات الماضية ، هذه الأميال من الطمى ترقد حاليا دون أن يقوم أحد بنشرها ، ترقد فى قاعى وادى الأردن ووادى السلط ! Salt وأسفل قلعة الحج يوجد صهريج أو إن شئت فقل : خزان جديد يجرى ملؤه بالماء من جديد ، نظرا لأن البئر الموجود داخل القلعة الذى تفوح من مائه رائحة كريهة ، أصابه الدمار . وبعد هذه المسيرة الطويلة لم نجد ما نشربه فى البركة ، أو إن شئت فقل : البئر أو صهريج الماء ، ولكن وردية السقائين أرسلت ، خدمة لهؤلاء الرجال الذين ساروا اليوم كله على أقدامهم ، للبحث عن بركة تشرب منها الماشية تقع على بعد عدة أميال أسفل الوادى ، ومعروفة لى من قبل . هذه البركة التى تشرب منها المواشى عبارة عن حديقة برية من شجر الغار والسمار ، ولكن السقائين أحضروا من تلك البركة ماء متعفنا بفعل مخلفات إبل البدو الرحل ، الأمر الذى يجعل الناس تعض بالنواجز على نعمة الماء الغالية التى لا تقدر بثمن فى الصحراء . هذا الماء الذى لم

نشربه يمكن استعماله فى الطهى . هذا الوادى له أسماء أخرى مثل وادى عديرة Adîra Wady ووادى فلاح Fellah اكتشفت فى مجيئى السابق . خلال الأيام الأولى من شهر يونيو ، وجود مرعى برى كثيف فى المنطقة أسفل البحيرات ، وقد وصل ارتفاع الحشائش فى ذلك المرعى إلى قرابة ياردة واحدة ، كان بعض البدو قد وصلوا فى التو إلى ذلك المكان ومعهم ماشيتهم ؛ هؤلاء البدو يطلق عليهم اسم أعراب Aarabالحاجية el- Hajya، وهم قبيله ضعيفة من الشوبك . Shobek استقبلنى شيخهم حجيلان Hajel-lan، استقبالاً حاراً ، إذ ذبح شاة ليقدمها عشاء لضيوفه . كانت فى هذا المكان أعداد كبيرة من الخنازير البرية ، التى تلتهم حقول القمح ، عندما تظهر سنابله ، تلك الحقول التى كانت ملكًا لجنود القلعة : الغدير الموجود أسفل هذه المنطقة ينبع من مجرى الوادى . وفي مجارى كل هذه الوديان توجد أنواع كثيره من الأسماك ، لا تختلف عن سمك الشَّبُّوط ، الذى له لون الرصاص . ومسيحيو كيراك يتحمسون جداً عندما يعرضون على الغرباء عظمة صغيرة على شكل صليب فى تلك الأسماك بالقرب من رأس السمكة ، والذى يظنون أنه دليل إلهى على الدين المسيحى . Messîahi وجدت فى قلعة الحج حامية من خمسة رجال مع زوجاتهم الكيراكيات وعوائلهم (*) .

(*) حلية من
حليات القبور فى
أرض الصوَّان .

الفصل الثانى

جبل إيدوم : صوَّان الجزيرة العربية

جبل سعير ، أو جبل شرَّاة ، مرتفع وبارد . أرض الصوان ، أو صوَّان الجزيرة العربية . بنو جبل شَرَّاة الرُّحل . جاردانيا . الراكبون البدويون . جبل سعير أرض الأطلال . بصرى إيدوم . عبدة الأصنام وقد انسخطوا إلى أحجار . معان . أحزابهم . أنقى الهواء . رحلة فى اتجاه الغرب إلى إيدوم . منظر جبل حور Mons Regalis . الجبل الملكى . القرويون فى إيدوم يجهلون دينهم . سطح الأرض . القرويون فى وادى بترا . حكاياتهم عن فرعون وموسى . بترا ، الآثار ، السِّيك Sik، الجى Elgy، وجبل حور . مدائن لوط . جراف . "حكيم إيدوم" . أرض أوز . "جدل صهيون" . دويج وداود . إيدوم فى اتجاه جنوب خليج العقبة . الحِسْمة . الشيخ بن جاد . أرض الحجر الرملى الأحمر فى إيدوم . القُبّره السورية . عفريت . التحرك من معان . السهل الصحراوى . مناطق المخيمات الإسرائيلية فى الصحراء . أسماء الرحالة وأسماء رجال القوافل ، والأسماء البرية .

تصلبت هنا خيامنا فى ليلة ١٩-٢٠ نوفمبر بفعل صقيع الليل . هذا هو جبل سعير Seir أو إن شئت فقل : جبل شِراة Sherra من أمامنا (والكلمة 'Sherra هنا تترجم بمعنى "عال") ، وبذلك يمكن أن نطلق على هذا الجبل اسم "الجبل العالى" . والجبل مرتفع وبارد ، وملابس العرب الصيفية تشبه العُرْى الذى يكونون عليه فى فصل الشتاء . والأرض هنا مفتوحة وواسعة ، وليست صخرية ، وخالية من الشجر أو

الأدغال والشجيرات الأخرى التى تصد الرياح الثلجية ؛ والناس هنا يقولون ، من قبيل الذكريات القديمة ، إن الجماعات المترحلة ، هى وماشيتها ماتوا جوعا فى هذا المكان عندما كانوا يقطعون ذلك الطريق فى شهور الشتاء . ماتوا سويا أثناء الليل ، وعثر الناس على جثث الرجال ممدودة إلى جوار حفر نيران الحراسة . وعلى مقربة من ذلك الوادى ، وفى الأمام ، يبدأ ذلك الساحل الصوَّانى ، الذى يمتد ليشمل جزءًا كبيرا من جبل عيسو **Esau**؛ ذلك الجبل الصخرى الذى اسود لونه بفعل الطقس : هذا الجبل عبارة عن قمة من الزلط جردتها الرياح والأمطار الموسميه من التراب . سطح الأرض المكون هنا من الحصى يلمع مصدِّرا بخارًا فى ضوء الشمس ، هذا الحصى يلمع شأنه شأن الصخور وشأن جبال سيناء أيضا ، بفعل الأجاج **ajaj**، أو إن شئت فقل : بفعل الرياح المحملة بالتراب والرمال . هذا المجرى الزلطى الواسع الذى يصل عمقه إلى حوالى ثلاثة فراسخ يمثل أعلى أجزاء الأرض المستوية فى كل أنحاء هذه المنطقة ؛ وأحجار الصوان المتآكلة هنا هى من الصخر الطباشيرى الموجود تحت السطح ، والذى توجد به عروق سلكونية ضخمة (ومجدولة) ، فنحن نرى هذا الزلط والحصى مغروز فى مياه جارية ضحلة ، ولكن إذا كانت هذه المنطقة هى أعلى نقطة فى الأرض ، فمن أين جاء ذلك الاجتراف المائى ؟ ارتفاع الأرض هنا يصل إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ! والعرب هنا يطلقون على هذا الإقليم كله اسم أرض الصوَّان ؛ هذا الصوَّان هو من نفس نوعية الصوَّان التى ورد ذكرها فيما ألفه الجغرافيون القدامى بعنوان "الجزيرة العربية" "**Arabia** الصوَّانية" **Petraea** (*) . ولكن ، يا للعجب ! هذا الزلط والحصى ليس قديما ، قدم الإنسان ؛ لقد اكتشفت فى ذلك الزلط والحصى أدوات مصنوعة من الصوَّان ، مثل تلك الأدوات التى حصلنا عليها من زلط ولهم (غرين) بعض الأنهار والبحيرات فى أوروبا . وبعد مغادرتنا ذلك الوادى مررنا بست أو سبع من علامات الطريق ، كانت موضوعة على أحد جانبيه ، ولكن تلك العلامات لم يكن

(*) الجزيرة العربية الصوانية : قسم بطليموس الجغرافى شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام هى : العربية الصخرية أو الحجرية Arabia Petraea أو Arabia Petrix وتقع فى جنوب غرب بادية الشام حيث مملكة الأنباط . والعربية الصحراوية Arabia Erema أو Arabia Deserta وكانت تطلق على بادية الشام ثم شمل اسمها البادية الواسعة فى شبة الجزيرة العربية كلها . والعربية الميمونة Arabia Eudaemon أو بلاد العرب السعيدة Arabia Felix والمقصود بها بلاد اليمن أو الأرض الخضراء . (المراجع)

عليها أية نقوش . وبعد أن قطعنا اثنتى عشرة ميلا عبرنا بداية سيل عميق وجاف يطلقون عليه اسم "ضُرُف الدراويش" الذى معناه "خضاضات الدراويش الفقراء" ، والذى لا يتجه مجراه أو مساره غربا إلى البحر الميت ، وإنما يتجه شرقا إلى الصحراء : ولذلك فالناس هنا يقولون : "كل 'سيول' ، هذه الأرض (رفوف ، حتى تنساب منها زخات مياه المطر) تتجه صوب تشول Tchôl بغداد ." وعندما مررت على الضفاف المجوفة ، عثرت على مكان قضيت فيه فترة الليل . وبعد مواصلة المسير شاهدنا التربة من تحت أقدامنا وقد تخللتها أثار الحمم البركانية ، التى يظهر طرفها من بين الأرض الزلطية كما لو كان جرفا قادما من ناحية الغرب ، الذى نشاهد فيه ركام بركانى . فى هذه المنطقة ، وعلى امتداد خمسين ميلا أخرى قطعناها ، نجد أن أرض جبل عيسو Esua ليست سوى أرض شاسعة جرداء قاحلة ومكونة من الأحجار الزلطية . نحن هنا فى مستنقعات الحويطات ، الذين ليسوا أمة بدوية صغيرة ، نظرا لأن حدودهم تتمثل فى البحرين . هؤلاء الحويطات يشبهون البدو الفلاحين أكثر من البدو الخلَّص ؛ والكثيرون منهم يمارسون الفلاحة ، وكلهم من سكان الخيام . ولن أندهش إذا ما اكتشفنا أنهم من الأنباط(*) . وابن جيسى Jeysey هو شيخ حويطات الدراوشة ، الذين يعيشون فى جبل إيدوم ؛ وتقع بيترا Petra ضمن دائرة هذا الشيخ (**) . ومع بداية فترة العصر مررنا على برج مكسور ؛ هذه الاشارة الطفيفة إلى الأيدى البشرية تريح العين فى هذه الأرض الخراب الجرداء . من هنا ، وبعد مسير ثلاث ساعات على جانب الصحراء ، توجد أنقاض واحد من الأماكن المهمة ، الذى يطلقون عليه اسم بورما Borma أو برما . Burma

قبل غروب الشمس وصلنا إلى مكان المخيم الذى كان على مقربة من قلعة العنزى ، وتلك القلعة ليست سوى صهريج أو خزان لمياه المطر ، يقوم على أمره رجلان متينان ، من أبناء حراس الأبراج الدمشقيين كبار السن ، وأمهاتهما من نساء الشوبك ، ولكنهما يعيشان فى محل إقامتهما فى القرية . ولم يصدق رفاقى فى الحج أنى كنت قد شربت

(*) الأنباط : قبائل عربية الأصل غلبت عليها فى مراحل نشأتها حياة البداوة وحرفة الرعى ، وانتشرت بطونها بين جنوب بادية الشام وبين شمال غرب الجزيرة العربية . (المراجع)

(**) بترا : كانت بترا أو على الأصح مدينة البتراء عاصمة مملكة الأنباط ، وكان النبطيون يتحكمون من موقعها على خط القوافل التجارى المتجة من الجنوب إلى بلاد الشام فى الشمال . (المراجع)

من مياه المطر فى ذلك الخزان فى العام السابق ، ولكنهم لم يجدوا ماءًا فى ذلك الخزان . وعلى بعد أميال قليلة ، وإلى الغرب من هذه المنطقة ، توجد أنقاض مكان يطلق العرب عليه اسم جاردنيا Jardanîa، كنت قد ذهبت وحدى لزيارته فى المرور السابق ، أو إن شئت فقل العام السابق : ونظرا لوجود الظل ووجود المأوى فإن البدو يحوّمون حوله فى معظم الأحيان ، وقد ترتب على ذلك أن واحدا فقط من الجماعة المسلحة التى كانت ترافقنى هو الذى وافق على تتبعى والذهاب معى طلبا للمكافأة . رأيت فى ذلك المكان بلدة لها سور مربع الشكل يصل ارتفاعه إلى حوالى ثلاثين قدما وبعض البنايات الجافة التى كان يجرى إنشاؤها من الكتل الناتجة عن الحمم البركانية . شاهدت هناك أيضا أبراجا عند أركان السور ، كما رأيت أيضا برجين ناتئين عند منتصف جانب من أجناب السور ، ولكن مساحة المكان لم تكن كبيرة بشكل عام : شاهدت داخل السور ، ولكن على شكل أكوام متداعية من أحجار الحمم البركانية ، ركام أحد المنازل . كما شاهدت فى منتصف ذلك الركام عقداً مستديرا أو بركة صغيرة ، أو إن شئت فقل : خزان مياه صغير . ترى . ما معنى تلك الجدران المرتفعة ؛ ألا يكون هذا الموقع صغيرا على مدينة من المدائن ؟ يضاف إلى ذلك أن التربه المحيطة بذلك الموقع لا تصلح للفلاحة أو الزراعة ؛ الواضح أن هذا المكان قلعة وليس بلدة من البلدان ، ولربما كان استراحه مؤقتة على طريق التجارة . وبالقرب من تلك القلعة هناك جبل بركانى يعد من العلامات الأرضيه التى يمكن رؤيتها من مدينة معان . عندما مررت على تلك المنطقة ، فى العام السابق ، شاهدت الخيَّالة الأعراب الذين اقتربوا منا ؛ ولكن عددنا كان أكبر من عددهم ، جاءوا إلينا ليطلبوا منا بوقاحة إعطائهم حفنة من التبغ . هؤلاء الأعراب يكونون مضيفين طيبين فى مخيماتهم ؛ ولكن لو قدر لنا الوقوع فى أيديهم فى الصحراء لأكتشفنا أنهم أعداء وأوغاد ، ولكانوا جردونا من كل شىء معنا ولربما تملكتهم الوحشية وذبحوا البعض منا . كان عدد هؤلاء الأعراب ثلاثة أفراد من البدو ، وشعورهم طويله ، ثم ألقوا علينا السلام ؛ أما الشخص الرابع فكان أعورا يركب جملا ، تجاوزتة الأفراس التى كان يركبها رفاقه . كان ذلك الأعور يجرى فى أعقاب رفاقه راكبا جمله بلا سرج ، وبلا لجام ، كما لو كان مجرد راع يرعى الإبل مستخدما فى ذلك صوته ومشعابه . كان رفاقة يركبون على ظهور أفراسهم الجميلة ، التى لم يركبوا

لها حدوات فى أرجلها ؛ وكان كل واحد منهم يمسك لجام الفرس فى يد والحربة الطويلة المتوازنة ، وهى تهتز على كتفه ، فى اليد الأخرى . وهنا يتعين علينا القول إنهم لم يكونوا راكبين منظمين ؛ نظرا لأنهم حاولوا عن طريق التباهى أو التدرب على العمليات الحربية ، أن يثبتوا لجماعتنا المسلحة ، مدى قدرتهم على الكر والفر : وهنا راحوا يضربون أفراسهم بأعقاب أقدامهم وينحنون إلى الأمام ، مطبقين أوراكهم على أجناب أفراسهم ، وراحوا يعدون فرادى بأفراسهم ، ليقطعوا شوطا أو شوطين فوق أرض ذلك السهل ؛ وبعد أن انتهوا من ذلك اختفوا عن أعيننا فى الصحراء ، وكل واحد منهم شاهرا رمحة كما لو كان يصوبه إلى خصم أو عدو ؛ وبعد أن قاموا بذلك الاستعراض ، وبعد أن وصلنا نحن مسيرنا ، جاءو إلينا وهم يلهثون . كان أضعف هؤلاء الراكبين يركب فرسا شعرها كستنائى اللون وصغيرة السن – فرس جميله يندر وجودها بين هؤلاء الأعراب . لم يكلف صاحبها نفسه تمشيط شعرها ولو مرة واحدة ، ومع ذلك كان لها بريق ويبدو عليها الجمال ، كانت تلك الفرس بمثابة حياة جميلة فى تلك التربة المتوحشة التى ليست جديدة عليها : كان ذيل تلك الفرس يكاد يلامس الأرض ، أما عرف الفرس فكان من المنح التى أفاءت عليها بها أمها الطبيعة .

سكان الجزيرة العربية المستقرين ، يكرهون ، فى كل الأحوال ، هؤلاء البدو الرحل الذين يحيطون بهم ، فى جزرهم الواحيَّة مع مخاطر الصحراء . هذا البدوى المترحل الذى تجولت معه ، كان بمثابة رئيس طريق الحج فى منطقة معان ، وكان جنوده يقدرون بحوالى عشرين جنديا ، وكانت غالبيتهم من الفلاحين المسلحين من أهل المكان ، جاء إلينا وهو يقود قطيعا من الماعز الحكومى ، (يمثل ذلك القطيع المساهمة العشرية التى جاءت من بعض قرى إيدوم غير المواليه أو الخاضعة للحكومة) لبيعها فى مدينة نابلس Nablus (سيكم .Sichem) أطلق البعض منهم بعض الأعيرة النارية فى المؤخرة وذلك احتقارا منهم للبدو ، الذين كانت أفراسهم تنكمش وتقفز من تحتهم مع كل طلقة من الطلقات ، وكاد الرجال الذين كانوا يركبون الأفراس بلا سُرُج أن يلامسوا رءوس الخيول من شدة انكفائهم عليها . صاح البدو قائلين : "لا ، يا سادة ! لا ، يا سادة ، لماذا تفزعون أفراسنا ؟" وراح البدو ينظرون شزرا ، ولكن الجنود الفلاحين زادوا من إطلاق النار ، على أمل إفشال وإحباط ذلك الذى ينتووونه ؛ كان صاحب أجمل قلوة

(مُهْرَة) يجلس بالفعل على عنق الفرس ، أما بقية الجنود الفلاحين فكانوا قد سقطوا بالفعل . وهنا نادى الضابط عليهم قائلا : " توقفوا يا شباب ! توفقوا يا شباب !" ردوا قائلين : "انطلقت بنادقنا ، والله ، كما لو كانت قد انطلقت من تلقاء نفسها ." لم يهتموا قيد أنملة ، ولما كانوا يائسين ، لأنهم لم يتقاضوا أجرهم منذ ستة عشر شهرا ، فلم يأبهوا بإطاعة آمرهم الدنئ . وهنا سار أولئك الجنود وهم يتراقصون ويقرعون الطبول : إنهم يثبون ويرتفعون فى الهواء ، وهم يغنون بصوت مرتفع ويهزون أجسامهم ، ويقاتلون فى الهواء وسيوفهم مشهرة . وتساءل هؤلاء البدو عنى قائلين : "ومن يكون هذا ؟" وجاءهم الرد : "نصرانى" هذا الاسم ، الذى هو نذير شؤم ، أوحى لهؤلاء البدو بأن هناك مصيبة فى أرضهم : وردوا عليه ثانية وهم يقولون : "لا تحضر مرة أخرى من هو مثل هذا إلى هنا مرة ثانية !" وعندما سمعت كلامهم ، صحت قائلا : "أقبضوا عليهم !" وهنا أدركوا أن رحيلهم أصبح أمرا محتوما ، ولذلك ولوا الأدبار دونما استئذان ، وسرعان ما اختفوا عند الأفق .

استأنفت قافلة الحج مسيرها مبكرا فى صبيحة اليوم التالى ؛ ثم سمعنا صوت دانة المدفع تنطلق من المقدمة ، قبيل شروق الشمس ، وهنا توقفت القافلة ونزلنا عن دوابنا لأداء صلاة الصبح . وفى اتجاه الغرب تراءت لنا مرتفعات الشوبك ، وعن يسارنا شاهدنا سلسلة منخفضة من التلال فى الصحراء . هذه هى سعير (Seirالتى يترجمونها أرض الغابات الوعرة) ، تلك البلاد المرتفعة الجديدة ، التى أقام الناس واستقروا فيها منذ أزمان قديمة ، وبخاصة حدودها الغربية (أو بالأحرى ، فيما وراء الأرض الحجرية الجرداء) ؛ والأنقاض فى سعير Seir عبارة عن بلدان صغيرة أثريه وقرى أثرية صغيرة ، كما أن الكفور ليست أقل عددا من الكفور الموجودة فى جبل كيراك . بجوار معان ، محطة الطريق ، أرى أن الأرض جرداء فى الوقت الحالى ، اللهم باستثناء أربعة أو خمسة قرى هى التى بحال طيبة ؛ هذه القرى من القرى الأثرية القديمة فى الساحل الغربى الذى يتوفر فيه الماء للزراعة ، ويطل على كل من بلدة غور ووادى السلط . وقرية بُصْرى Basra(*)، (التى يقال لها أيضا بُصَيره Buseira)

(*) بُصرى : كانت بصرى سوقا تجارية هامة فى مملكة الأنباط ، وقد اتخذها الرومان عاصمة للكورة العربية التى أسسوها Provincia Arabia لحماية سوريا . وقد ورثت بُصرى مدينة البتراء اقتصاديا وسياسيا . (المراجع)

واحدة من تلك القرى الأثرية الأربع أو الخمس ، وعاموس Amos تهدد قصور تلك القرية ؛ والعرب ، فى بُصْرى ، يقولون : إن فيها آثارا (رومانية) عالية . بقينا فوق ذلك السهل الصوَّانى الذى تعلو سطحه طبقه من الحجر الجيرى ، والذى يصل ارتفاعه إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم ، إلى ما بعد الظهر بساعتين ، وهنا استطعنا رؤية مدينة معان ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى مجرى سيل من السيول شاهدنا فيه درنات ضخمة من الصخر (تشبع تلك الدرنات أيضا فى الصخر الجيرى الموجود تحت الأرض التى نقف عليها : تلك هى "جثث الكفار القدامى ." حسب الروايات الأسطورية الخرافية ، يقال إن هذا الموقع كانت فيه مدينة أثرية لعبدة الأصنام ، إلى أن جاءهم صوت من السماء ، سقط عليهم فتحولوا إلى هذه الدرنات الحجرية . شاهدت حجاجا كثيرين ينزلون من فوق مطاياهم ليلتقطوا الحصا ويقذفوا به أولئك الكفار الملعونين ؛ هذا فى الوقت الذى أصبحت خدمة الحج ، بعد أن اعتادت المرور سنوات طوال على ذلك الطريق ، تمر على تلك الأحجار بلا مبالاة ولا تعيرها اهتماما .

معان مركز (أو إن شئت فقل : محطة مركزية أو محطة رئيسية من محطات الحج) على طريق الحج ، ومدائن صالح ، التى تقع قبل المدينة (المنورة) مركزا آخرا ، أو استراحة أخرى من استراحات طريق الحج . ونصل إلى هناك ، وتطلق دانات المدفعية تحية لنا ، ونتسلق أرضا مرتفعة ، تقع على جانب طوابير قافلة الحج الطويلة ، التى تتجه صوب القسم الغربى من القرية حيث توجد المخيمات الخاصة بها ، وحيث ترفرف الأعلام فوق كل جناح من الأجنحة : وهذا هو علم بلاد فارس الذى يحمل صورة لأسد ضعيف معوق ، وهو يرفرف فوق خيمة الأجا Aga الكبيرة . فى معان ذاع صيتى ، والسبب فى ذلك أننى فى مرورى السابق على معان أثناء عودتى من مصر وسيناء مكثت فى معان عشرين يوما . خشيت أن يتذكرنى كبار مسئولى الحج ، فى وقت فراغهم وبالتالى يرسلون رجالهم فى كل أنحاء المخيم طلبا لإحضار ذلك "الفرنجى" وبالتالى يعيدونى من حيث جئت وأنا حاليا على حدود الجزيرة العربية : – وحدث ما توقعت ، فقد راح الرجال يبحثون عنى . معان ، هى القرية الوحيدة ، الموجودة على هذا الجانب القاحل من جبل شرَّاة ؛ والناس هنا يقولون : إن قرية معان بدأ استعمارها على امتداد القرون الثلاثة الماضية ؛ فى هذا المكان ، فى ذلك الوقت ، جرى

تأسيس ، أو إن شئت فقل : إنشاء محطة من محطات الحج الرئيسية ، حول القلعة ، والذى أنشأ تلك المحطة هو السلطان سليم(*) ، الذى هو أحد الخيرين والمعمرين لطريق الحج . وهكذا أصبحت قرية معان القديمة حامية عسكرية فى أيام الرومان وفى ظل الحكم العثمانى ؛ كانت هذه الحاميه تقع على الطريق الرئيسى المؤدى إلى سبأ Sab-ean، وأول طريق قادم من سوريا ومتجه نحو الطرق الصاعدة القادمة من الجزيرة العربيه . وعلى بعد دانة مدفعية من معان ، وفى اتجاه الشمال توجد بعض الأنقاض الأثريه التى يطلقون عليها أسم الحمَّام Hammam؛ فى هذا المكان يوجد صهريج أو خزان مياه ، تختلف مصنعيته عن باقى الخزانات فى هذا البلد ، فهو مصنوع من الحجر ، أو إن شئت فقل : جدرانه من الحجر ، ويصل طول الجدار حوالى ستين خطوة فى جانب من أجناب الخزان ؛ ويتغذى ذلك الخزان بالماء من أنبوب توصيل صغير ، أصبح فى عرف التالف حاليا ، ينقل الماء إلى ذلك الخزان من أحد ينابيع شمِّيا Shemmîa . لم يعد يتبقى من قرية معان القديمة سوى قله قليلة من الأحجار العالية ، وبعض الجدران المهدمة ماتزال باقية ، بعض هذه الأحجار والجدران مقام باستعمال الملاط ، بل ومليسة بالجبس من الداخل ، ولكن السواد الأعظم من المبانى مبنية من الحجر الجاف ؛ وجرى تكسير تلك المبانى الجيدة لاستعمال أحجارها فى بناء القلعة : شاهدت أيضا فى معان عمودين رخاميين قديمين ، كما شاهدت فوق هذين العمودين نحتا زينيا بربريا على شكل سلَّه أو شبكة . وقرية الحمَّام Hammam، إذا لم تكن عربية ، فهى تشبه اسما ورد فى الإنجيل هو حومام Homam، الذى نقرأ عنه فى عيسو(**) Esua؛ ونحن نقرأ أيضا عن شمَّاه Shammah باعتباره أيضا من سلالة عيسو Esua النسبية . وشمِّيا قرية شقيقة ، تبعد حوالى نصف ميل إلى الغرب من معان ؛ فى الحمام يتراوح عدد السكان ما بين ١٠٠ و١٢٠ نسمة ، وفى معان يصل عدد السكان إلى ٢٠٠ نسمة . وشمِّيا Shemmia أجمل من معان وأكثر منها ثمرا ،

(*) السلطان سليم : من السلاطين العظام فى الدولة العثمانية (١٤٦٧-١٥٢٠) ، كان أول من فتح الباب للتوسع العثمانى فى العالم العربى حيث سيطر على الشام ومصر والحجاز بين عامى ١٥١٦،١٥١٧ ونجح فى القضاء على دولة المماليك . (المراجع)

(**) عيسو : هو ابن سيدنا أسحق وأخو سيدنا يعقوب الذى حاز على البكورية على الرغم من أنه أصغر من عيسو . (المراجع)

وحقول القمح فيها تروى من ينبوع رفيع كما أن أهل هذه القرية من النوع المسالم ؛ والآبار فى شميا كثيرة ، وأغصان أشجار الفاكهة تتدلى من فوق أسوار البساتين المبنيه من الطين إلى ناحية الصحراء القاسية . وقرية شميا هى وقرية معان هما ، بلا شك ، مثل "المدينتين المسورتين" القديمتين . أسوار هاتين القريتين مبنية من الطين ، ولكن الجدران والأسوار وكذلك الأبراج مليئة بالخروق . كما هو الحال فى الأماكن العربيه كلها . وقد أنشأت حكومة الحج ، هنا فى السنوات الأخيرة ، محطة لقوات الخيَّالة ، هم وجَّمالة العجيل ، المكلفين بحماية طريق الحج ، وكبح جماح بذاءة البدو . ظلت معان لفترة من الوقت مليئة بالخيام ، فضلا عن بناء أحياء وضواحى فى شميا : ولكن تلك السياسة التركية لم تدم طويلا . وفى معان يترك المقوّمون والتجار جزءاً من بضاعتهم وأثاثهم ، نظرا لارتفاع أسعار النقل على ظهور الإبل ، وفى معان يوجد مخزن محكم تحت إمرة ضابط ، يقال له مدير المال ؛ ويجرى حفظ بضاعة التجار وأثاثهم هم والمقومين فى ذلك المخزن . وفى قافلة الحج يوجد أيضا شكل من أشكال النقل الحكومى ؛ وفى البداية كانت الإبل تُحمَّل بهبة السلطان السنوية للحج (والتى كانت تتكون فى معظمها من الزيت الجيد الذى يستعمل فى إضاءه المصابيح والقناديل) فى الحرمين المدنى والمكى ؛ وتجيئ بعد الزيت ، التعيينات السنوية الخاصة بكل القلاع الموجودة على طريق الحج . ويمكن الحصول على القمح من كل من كيراك والشوبك بنصف السعر الذى يباع به فى دمشق ؛ ولكن انعدام الأمن فى الضواحى والبلاد النائية يجعلها تلجأ إلى العرف والعادات القديمة ، التى تتمثل فى نقل القمح من الحوران إلى دمشق ثم نقله مرة ثانية إلى قافلة الحج ؛ الأمر الذى يجعل الكيس الواحد من القمح يكلف هؤلاء التجار ثلاثة أضعاف تكلفة الكيس نفسه فى معان . والدكاكين الموجودة فى معان لا تبيع سوى القليل للبدو ؛ وغالبية أصحاب تلك الدكاكين هم من التجار الذين يفدون على معان من حبرون .

هناك حي منخفض من أحياء هذه القرية المبنية من الطين ، في الوادى ، طالته يد التخريب في فترة متأخرة ؛ وقد حدث ذلك بفعل مرض العرب السياسى . هناك مقولة مفادها ، أن الغريب ، أى غريب ، إذا ما سأل أول شخص يلقاه من أهل معان ، حتى وإن كان ذلك الشخص طفلا ، "من هو شيخ هذه القرية ؟" فإن ذلك الشخص سيجيبه قائلا : "أنا ذلك الشيخ ." هذا يعنى أن هؤلاء الناس طائشون متمردون ، هذا يعنى أيضا أن أذهان هؤلاء الناس منقسمة بين التهور والاندفاع إلى أبعد الحدود وبين الجشع البغيض . وأنا عندما كنت أقيم هنا قبل هذه المرة كنت أشعر بالقلق وأنا أسمع شجارهم ، كما لو كانوا فئرانا فى سفينة قديمة بطيئة ، وصياحهم العالى حول أمور غاية فى التفاهة ، كما لو كانوا شياطين فى آخر الدنيا . والمثل السائر هنا ، أن الرجل على استعداد لقتل ابن أمه من أجل نعلة قديمة مصنوعة من الجلد . حدث الخلاف على النحو التالى ؛ اختلف بعض الأطفال حول تفاحة واحدة ، وهنا تزايد الصراع والنزاع بينهم ، نهض البعض واقفين من المقاعد المصنوعة من الطين ، بعض آخر من الرجال جاءوا قادمين من أعتاب منازلهم ، وراح الجميع يقتربون ويقفون فى الجانب الذى ينحازون إليه ، كل الغاضبين كانوا يتصايحون ، ويحتقرون ويتوعدون خصومهم . سلّح الرجال أنفسهم ، وكان وقار الكبار ضعيفا وغير كاف لفض ذلك النزاع . كانوا يردون على الصياح الهمجى البربرى بكلام جارح ؛ سارع كل واحد منهم ، من الجانبين ، إلى العودة إلى المكان ، أو الحى ، الذى يعيش فيه ، ودخل كل واحد منهم كوخه وحبس نفسه فيه وحصّن باب الكوخ ؛ ثم صعد بعد ذلك إلى سقف الكوخ المصنوع من الطين ليفتح النار على البيوت المعادية المجاورة له . ولم يجرؤ أحد منهم على الخروج من بيته طوال ذلك العام ، نظرا لأن الأعداء سوف يفتحون عليه النار من شرفات منازلهم . شاهد الجانبان المحصول وهو ينضج ويبقى طويلا على عيدانه ، دون أن يجنيه الحاصدون ، وبذلك ضاع خبز هؤلاء الناس وعيشهم ؛ وفى النهاية ؛ تعفنت فواكه الخريف الجميلة ، التى كانت تتدلى من أشجار البساتين بعد أن نضجت وطابت ؛ تعفنت أمام أعين هؤلاء وهؤلاء . وسقط خلال ثمانية أشهر من ذلك القتال ثمانية من الأبطال ، إضافة إلى بعض الذين ماتوا جوعًا . فى ذلك الوقت ، نزح عن قرية معان ، عدد كبير من أولئك الذين لم يتحزبوا إلى أى طرف من الطرفين ؛ هاجرت غالبية هؤلاء

إلى الحوران : أما صغار التجار فقد ذهبوا إلى شمِّيا . ضاع هذا العدد الكبير من أبناء حوَّاء فى حادث التفاحة فى قرية معان ، زد على ذلك ، أن الجنود الفلاحين شاركوا أيضا مع رفاقهم القرويين مثيرى الفتنة والشغب ، ولكن النهاية كانت قد قاربت . قام الباشا ، فى رحلة العودة من الحج ، بمحاصرة مكان مثيرى الفتنة والشغب ، باستعمال حرس قافلة الحج ، وأمسك بمثيرى الشغب الذين كادوا يموتون جوعا ، وألقى القبض على زعمائهم وعلى الشيوخ ، ونقل الجميع ، حوالى عشرين شخصا ، إلى السجن فى دمشق . ويحكى الغرباء عن سكان معان الذين من أصل يهودى ويقولون : "إن شقرة شباتهن تنوى وتقل بعد الحمل الأول ، ويشيع بين هؤلاء اليهود إسم "هارون" "Harûn والسبب فى ذلك الاسم هو أن الناس فى معان قريبين من جبل هور Hor (ويصح فيه أيضا 'حور') ،الذى يوجد فيه ضريح آرون .Aaron (ومن هنا نحتوا الاسم 'هارون') .

وشرقى قرية معان توجد أرض صحراوية يطلقون عليها اسم أرض الكلبى (وهذا أيضا اسم واحدة من القبائل القديمة جداً التى أقامت ذات يوم فى تلك الديار .) وهذه الأرض الصحراوية مليئة بالدرنات الصخرية ، التى يتخيلون كفورا وقرى بنيت منها فى يوم من الأيام . عقود الصخور الأقل من تلك الدرنات الصخرية ، تشبه الجبن الهولندى ، "وسوف تلقيها الملائكة بأيديهم على الذرية الكافرة غير المتدينة" ؛ فى هذه المنطقة يوجد ينبوع ، أو إن شئت فقل عين من قديم الزمان منحوتة فى الحجر الجيرى ، وعلى بعد ميل فى اتجاه الشمال توجد أنقاض قرية مورتراب Mortrâb فوق أرض مرتفعة ، وفيها بعض الجدران المبنية بدون ملاط ، ماتزال باقيه إلى يومنا هذا ؛ وغرف منازل هذه القرية صغيرة جداً ، كما هو الحال فى بقية الأماكن المهدّمة . وهواء معان غاية فى النقاء ، وليالى صيفها منعشة ، وكان الطقس فى نهاية أبريل ما يزال بارداً على هذا الارتفاع الكبير . وفى فصل الشتاء يكسو الجليد سطح الأرض فترة من الوقت . يضاف إلى ذلك ، أن السَّمن ، أو بالأحرى الزبد البدوى بعد تنقيته من الشوائب ، يتفوق على سائر أنواع السمن الأخرى ، التى فى كل أنحاء سوريا ، والسبب فى ذلك جفاف أرض معان المرتفعة . وفى أحيان كثيرة ، كنت أرى فى فترة ما قبل الظهيرة السراب من فوق أرض الصوَّان السهلة ؛ وبحكم تجربتى وخبرتى لا يمكن أن يخطئ

أحد ويحسب سراب الصحراء العربية ماءًا . والينابيع والعيون فى معان نادرة ومتقلبة ؛ والماء يأتى لمعان من مجموعة من الآبار القديمة ، التى تبدو وكأنها منجم من مناجم المياه ، (شأنها فى ذلك شأن كل من سيناء Seina وإيطاليا) ، والآبار التى من هذا القبيل ليست نادرة فى هذه البلاد الجافة القديمة التى تنفتح مسافات طويلة تحت الأرض ، على عرق من عروق الماء ، الذى تنبثق منه فتحات مندفعة إلى أعلا فى الهواء . ومياه الآبار فى كل من شمِّيا ومعان لا يقل عمقها عن ثلاث قامات أو إن شئت فقل : عن ثمانية عشر قدما ؛ ويتجه فائض تلك المياه إلى الصحراء . وعندما كنت أسير فى مجرى السيل فى معان وقفت عيناى (كما سبق أن قلت) على سبعة أحجار من الصوان صُنعت لكل واحد منها حافة أو حدٌ ، وتناولت تلك الأحجار ، وواصلت المسير وأنا مندهش لذلك : وهذا يجعلنا نسلم أن ذلك الحد أو تلك الحافة إنما هى من صنع الإنسان . ولكن ما هو ذلك الجنس البشرى الذى سكن هذه الأرض قبل العرق السامى بزمن طويل ؟ ألا تصل إلى قلوبنا كلمه إشعيا (النبى) ، وذلك ربما يكون من باب محاكاة شعب آرجوت Argot (*)، فيما يتعلق بأولئك السكان الذين جاءوا قبل العرق السامى ؟ – "ماذا كان الصخر الذى نُحتَّ منه ، وفجوة الحفرة التى حُفِرْت منها !" (أنظر الشكل الموجود ضمن ملاحق الكتاب تحت عنوان : أدوات مصنوعة من الصوَّان عثر عليها (فى العام ١٨٧٥) فى صوان الأرض المرتفعه فى جبل سعير ؛ مجرى سيل معان على ارتفاع ٤٢٠٠ قدم : نسبة التصغير ١:٣) .

فى ذلك الوقت تجولت فى المروج الخضراء إلى الشوبك فى نطاق أراضى قرية إيدوم . وبعد حوالى خمسة عشر ميلا من هذا المكان يوجد موقع رئيسى من مواقع الأنقاض يطلقون عليه أسم أوذيره Uthera؛ والمدينة القديمة التى تحمل هذا الاسم مبنية بالقرب من عين (ينبوع) قوى ، تفيض مياهه على شكل غدير عظيم من المياه . هناك جدران أرضية مبنية من أحجار مربعة ، ومن فوق هذه الجدران توجد عقود مستديرة مبنية بالطريقة المعتادة ، كما توجد أيضا بعض الغرف الصغيرة المبنية من

(*) هذه الكلمة مأخوذة من أصل فرنسى معناه " من أصل غير معروف " والكلمة لها دلاله سيئة فى الإنجليزية إذ تدل " على من ينتمى أصله إلى طبقه من اللصوص " (المترجم) .

الحجر بدون استعمال الملاط ، هذه الغرف الصغيرة ليست سوى بقايا أو أنقاض لبعض المنازل الخاصة . كما شاهدت أيضا ممرا يؤدى إلى تحت الأرض وبه غرفة جانبية مبنية بطريقة ممتازة ؛ كما رأيت أيضا مجموعات من الأعمدة ، وبقايا من الرخام الأبيض ، الذى جرى - حسبما يقولون هنا - نقل أجمل ما فيه إلى دمشق ، منذ زمن بعيد ، ليستخدمه الناس فى عمل الأرصفة الجميلة التى تحيط بأفنية المنازل : وهناك أيضا قناه لنقل الماء ، تنتهى عند الأبراج الصلّبة ، التى يطلقون عليها اسم طواحين الماء . فى هذه التربة المهملة توجد المساحات التى يزرع فيها القمح فى قرية معان ؛ وزراع القمح فى هذه الحقول يتعين عليهم اقتسام المحصول مناصفة مع البدو ، الذين هم ملاّك الصحراء . وها هو مخيم من مخيمات أولئك البدو . هاهم الشيوخ الباغون يتركون أفراسهم ترعى فى حقول قمح القرويين . هذا كله بالرغم من أنه فى مثل هذه القرية الطيبة ، رأيت من بين هؤلاء الشيوخ من بلغ بهم الفقر حداً عجزوا معه عن أن يكون لهم خيمة تحميهم من غائلة الطقس ؛ كل ما كانوا يملكونه عبارة عن شراع صغير من الشعر نصبوه على وتد من أمامهم ، لكى يحميهم من عواصف الليل . كان هؤلاء الحويطات يجلسون أمامنا على شكل مربع ناقص ضلع داخل خيمة الشيخ ، التى كانت أمرا شائعا عند الفلاحين ، أشباه البدو فى قرى إيدوم ؛ ونساء الحويطات لسن مقنعات . هذه الأرض المرتفعة ، تزداد خضرتها فى نهاية شهر مايو ، ومن فوقها السماء السورية ، وتلك الخضرة ليست سوى أعشاب برية .. وعلى بعد مسير ساعة من هذا المكان ، توجد أنقاض قرية متّهمة **Mottehma**، التى كانت مبنية باستعمال الحجر فقط وبدون ملاط . وبعد هذه القرية بحوالى ساعة أخرى توجد قرية أخرى اسمها هتيجى **Hetigy**؛ وعلى بعد مسير ساعة قبل الشوبك وعند أحد الغدران (النهيرات) المائية توجد أنقاض قرية نجّيل **Nejjel**؛ والأرض هنا عبارة عن منخفضات من الحجر الجيرى والوديان التى تسير محاذية للتلال . سرنا بعد ذلك مسافة قصيرة ، لنصل إلى حافة جبل عيسو **Esau**، ثم نظرنا إلى غور البحر الميت الذى يغطيه الضباب هو ووادى العرابة **Wady : el-Araba** وربما كانت الأرض على بعد خمسة آلاف ميل من تحتنا وتبدت لنا رأس سرج جبل الحجر الرملى الذى يميل لونه إلى الأزرق الغامق ، بدت لنا وكأنها أوسع قليلا فى اتجاه الجنوب من تحت أقدامنا ، وهذا هو ما يطلق عليه اسم

جبل حور Hor (جبل سيدنا هارون Harûn Saidna Jebel) الذى يقع خلف بيترا Petra . جئنا إلى هنا إلى المعسكر الصيفى لأهل الشوبك ، الذين يقضون ، مثل أهل كيراك ، نصف العام خارج بلادهم فى القفار والبرية ، داخل خيام ، شأنهم شأن البدو الرُّحل ؛ هؤلاء الشوبكيون وقحون ولكنهم رفاق طيبون وكرماء ، وهم ليسوا رعايا لأية حكومة من الحكومات الغريبة ، وهم شديدو الغيرة على حرياتهم . كانت الشوبك ثانى القرى التى دانت للصليبيين ، ولكن شيخ القرية قال : إنه يتعين ألا يذهب إليها (الشوبك) إلا مقابل مبلغ كبير من المال . ووعدنى الشيخ بعد ذلك بمشاهدة بئرهم العميقة القديمة التى يجلبون منها الماء ، كما وعدنى أيضا بمشاهدة نقش كوفى . هؤلاء الفلاحون الجهلة الأميون يكرهون اسم الفرنجة كراهية شديدة ، وسبب ذلك يرجع إلى موروث غامض من الموروثات الصليبية . هذا القروى الطويل لم يولد سيداً ، وإنما أصبح كذلك بفعل قوة جسمه من ناحية والمساندة المسلحة التى يلقاها من أنصاره ؛ وهذا هو الذى جعل من ذلك الفلاح الطويل شيخا فى الفترة الأخيرة . تعجَّبت رءوس متحجرة Strongbrawns قائلة : "ما الذى يجعل أى إنسان يعرف أننى لم أكن واحداً من أولئك الذين جاءوا للتجسس على مكانهم ، وأن الفرنجة سيدخلون بعد ذلك للاستيلاء على القرية ؟" هذا المضيف الأمين غذَّانا غذاء طيبا فى خيمته الكبيرة ، وكان الغذاء خروفا مسلوقا (نظرا لوفرة الأغنام هنا) فى لبن خض . ونظرا لأن إسرائيل صعد من سيناء فقد كانت تلك الأرض تفيض بالحليب فى واقع الأمر .

من الملاحظ أن القرويين الإيدوميين لا يعرفون الدين حق المعرفه . ويبدو أنهم ليس لديهم إلى جوار ضريح ومعبد آرون Aaron على جبل حور Hor، أى نوع من المساجد ، أو أى شىء آخر من الأمور الشرعية سوى مسألة ختان أطفالهم الذكور . فى معان سمعت عنهم حكاية ربما كانت من قبيل الخرافة . "منذ سنين مضت جاء أحد الكبار المتزمتين من برية حبرون إلى قرية بُصرى Bosra، التى شاهد ، أو رأى فيها بعض الرجال يستدفئون فى حقل من الحقول أمام نار كبيرة أشعلوها عن طريق خشب أشجار الزيتون ، وذهب ذلك الكبير وجلس إلى جوارهم . وبعد تناقل الأخبار بدأ الرجل المحترم يعظهم عن العقيدة المشتركة العامة ، ووبخهم وأنبهم على جهلهم ، وراح يبكى ويتضرع إلى الله ، على عدم معرفة هؤلاء الناس للصلاة ، وعدم صوم رمضان ، أو دفع

الخراج للحكومة القانونية أو الشرعية ، كان هؤلاء الناس يوشكون على خطر السقوط ، ثم يدخلون جهنم فى النهاية . ورد عليه الفلاحون فى النهاية الذين كانوا يستمعون إليه ، رداً يعبر عن الحقد والكراهية قائلين : 'سنضعك أنت فيها أولا ، أيها الرجل العجوز . أيها الرفاق ، لقد سمعنا ما يكفى من كلام هذا الرجل هيا ، إجلبوا المزيد من الخشب ! ثم أقذفوا بالرجل فى النار ، وألقوا فوقه المزيد من الخشب المشتعل ، واتركوه راقدا يحترق فى النار ، ولم يساورهم خوف أو قلق حول حتمية الثأر منهم لذلك الدم الغريب ."

ولم يعد فى بُصرى Bosra شىء من دسم النبيذ ، ولكن حقولها عامرة فى الوقت الحالى بالكروم . كان أنبياء العبرانيين ، فى كل الأوقات ، يحتوون ويطوقون بعداء شديد عدوان الجيران الأشرار على قرى أرض الصوَّان : ونستطيع أن نستخلص من كلمات هؤلاء الأنبياء أن تلك الأراضى كان المقصود بها حقول القمح وأراضى الكروم والأعناب . ويبدو أن النبى إشعيا كان يشير إلى امتلاء إيدوم بالمواشى الصغيرة ؛ هذا النوع من الماشية موجود حاليا وبأعداد وفيرة على هذا الجانب من الجبل : زد على ذلك أن قطعان الأغنام الكبيرة التى شاهدتها عند العرب كانت فى أراضى السهول الجبلية التى تمتد محاذية للتلال (هذه هى بلاد حِملان إشعيا) فى المنطقة ما بين الشوبك وبيترا ، التى أزورها حاليًا . الصخر فى هذه المنطقة زاخر بوديان ورفوف الصوان المصنَّفة والمعروفة ؛ وحقول زراعة القمح موجودة فى أفضل الأجزاء المحمية فى هذه الأرض ، وبخاصة فى القرى المجاورة ، وهى أراضى بعلية ، تتغذى فقط من مياه الأمطار . هناك بعض المناطق النائية التى يقوم على أمر زراعتها الفلاحون من البدو المترحلين ، الذين يسكنون هنا فى الخيام فى المناطق المحيطة بحقول القمح ، وهم لا يعدون أنفسهم من البدو . وواحد منهم هو البغَّال الذى يرافقنى فى هذه الرحلة ، وقد أمضيت ليلة فى مخيمهم ؛ ولكن اسم القبيلة غائب عن ذهنى حاليا . وهم يقيمون على تربة هذه المنطقة فى سلام ، والسبب فى ذلك أنهم يدفعون للبدو (فدية) الأخوة -bro rhership، كما أنهم يدفعون (هذه الفدية) أيضا للبدو القريبين من مدائن صالح ، أى على بعد حوالى مائتى ميل فى اتجاه الجنوب ؛ من هنا فهم يتزايد عددهم بصورة مستمرة نظرا لأن أحدا لا يعتدى عليهم . ومبلغ علمى أننى شاهدت قطعانا يصل تعداد الواحد منها إلى حوالى ٥٠٠ رأس من الغنم وهى تمضى الليل أمام بعض الخيام

المملوكة لأولئك الفلاحين . هذا المرج الواسع المكون من الحجر الجيرى ، ويقع على ارتفاع كبير ، يشبه المروج الأوروبية إلى حد بعيد ، كما توجد فى هذا المرج أراضى منخفضة عامرة بأشجار خشب السنديان دائمة الخضرة . وبعد مسير تسعة أميال فوق الأرض المرتفعة توجد بعض الأنقاض البدائية لمبان حجرية لم يستعمل فيها الملاط ؛ ويطلقون على تلك الأنقاض اسم خِداد Khidâd، كما توجد هنا أيضا بعض الكهوف الجيرية أيضا ؛ والمكان هنا يشبه قرية الكورمل Kurmel التى عاش فيها نبال Nabal، وتقع أسفل حبرون فى اتجاه الشرق . ونحن نميل إلى الاعتقاد الذى مفاده أن هذه الحدود العالية كان فيها من السكان عدد أقل من عدد السكان فى أفضل الأماكن المستقرة فى سوريا فى ذلك الوقت . والهواء هنا عليل ، وهذه هى شمس الربيع الساطعة وحراراتها الطفيفة فى وقت الظهيرة ؛ مررنا ببعض مواقع الأنقاض ، التى توجد فى كل الأحوال فى المناطق القريبة من ينابيع وعيون المياه .

بدأنا النزول من فوق صخرة خشنة ووعرة من صخور الحجر الجيرى ، وكانت تحيط بها أشجار العرعر الجبلية ، فى اتجاه وادى Wady موسى Musa، أو إن شئت فقل : بيترا Petra، التى تبدو من تحتنا وكأنها صدع عميق جداً فى الأسفل . شاهدنا مخيما من خيام مصنوعة من الصوف الخشن ولكنها لم تكن خياما للبدو . هؤلاء الذين كانوا فى تلك الخيام هم فلاحى وادى موسى وقد جاءوا إلى هذه المنطقة لقضاء الصيف . وقرية هؤلاء الفلاحين هى قرية الجى Eljy التى تقع على مستوى أعلى من مستوى بيترا . وهنا همس مرشدى فى أذنى قائلاً : "هؤلاء كانوا رفاقا خطرين لم يعيروا اهتماما لرئيس معان ، ولم يلقوا بالا لحكومة طريق الحج ؛ ولو قدر لهم أن يحتجزونى فقد يكون ذلك من قبيل عمل الشيطان ." خرج الشيوخ وجاءوا لاستقبالنا ، ولكننا عندما دخلنا الخيمة الرئيسية قالوا لنا : إننا ينبغى ألا نمر اليوم ، وسأل أحدهم بدافع من حقد العرب ، إذا لم أكن أمانع فى البقاء معهم مدة دورة قمرية (أى مدة شهر) . "صلحوا" لنا القهوة ، ولكنهم قرّعوا مرشدى ووبخوه قائلين : "مع إن العالم المجاور لنا قد يكون مفتوحا للمرور ، فإن وادى موسى ليس على هذه الشاكلة ، لا ، والله ! وأنهم رجال لا يأتمرون بأمر السلطان أو الباشا !" كانوا أجلافا قساة ، وفى ذات الوقت كانوا مسرورين لأنى يتعين على البقاء عندهم ضيفا أسيرا . يومهم الخالى من

العمل ثقيل وطويل جداً ، إنهم ينامون طول الوقت ويدخنون التبغ ؛ شاهدت البعض منهم وهم يقذفون الحصى فى قبضاتهم الجافة ، على أمل تمضية الوقت . أخيرا ، ومع غروب الشمس ، أحضروا طبقا خشبيا كبيرا مملوء بالعصيدة أو إن شئت فقل : الجريش ، وشارك كل الحاضرين فى تناول تلك الطبخة البسيطة الوفيرة . وتقدم بنا الليل ، وبقينا فى أماكننا على الأرض ، استعدادا للنوم ؛ ولكن فسقة الماعز ، وهم ينسلون فى هواء الليل ، كانوا يتخطون وجوهنا كل ساعة إلى أن طلع النهار علينا .

ومن محاسن الصدف أن بركخاردت(*) ، تلك الشخصية الجديرة بالاحترام ، غامر فى عهد أجدادنا ، بالسير فى ذلك الطريق ، عندما كان متجها إلى مصر ، واكتشف بمحض الصدفة أيضا أن فلاحى موقع بيترا **Petra** المنسى ، تغير سلوكهم عن ذى قبل . كان فلاحو بيترا ينظرون إلى بركخاردت باعتباره أحد الغرباء السوريين فضلا عن كونه مسلم أيضا ، ومع ذلك جعلوه يلاقى الأمرين فى المرور على تلك الآثار ، حتى يصعد ويضحى بشاة فوق جبل حور . **Hor** والمعروف أن الأوربيين الذين يزورون بيترا يتعرضون لعنف اللصوص من بين أولئك القرويين الذين يعيشون فى قرية الجى **Eljy**؛ ولكن الأمر نفسه كان أحسن حالا بالنسبة لى ، نظرا لأنى وصلت إليهم وأنا أضع على رأسى غطاء رأس أحمر أو إن شئت فقل : قبعة حمراء ، جئت إليهم من جزء من الدولة (الإمبراطورية) ، فضلا عن أنى أكلت معهم (عيشا وملحا) فى الخيام ، هؤلاء القرويون يجرحون صيامهم قبيل الظهر ؛ وبعد ذلك رحلت عنهم ، وأرسلوا معى منهم أربعة رجال ، وذلك حتى لا يصيبنى مكروه فى ذلك المكان البرى السحيق الذى هو الجزء القاحل من بيترا . ومنخفضات ووديان الحجر الجيرى ، التى نزلنا إليها ، تشبه المنخفضات والوديان المحيطة ببلاد ، أو إن شئت فقل : قرية باث . **Bath** شاهدنا فى

(*) بركخاردت Lewis Burckharat : رحالة سويسرى قام فى عام ١٨٠٩ برحلة إلى المناطق السورية المتاخمة للعربية البتراء وجمع معلومات عن البدو وسجلها فى كتاب نشر باللغة الألمانية وترجم بعد ذلك إلى اللغة الإنجليزية بعنوان : Notes on the Bedouins and Wahabees, London 1830 ومما يذكر أن بركخاردت لم يكتف فقط بإعلان إسلامه بل تبحر فى علوم القرآن والشريعة ، واشتهر بكونه عالما فى شئون الدين ، ولقب نفسه بالشيخ إبراهيم وأتاح له إسلامه تمكنه من الحج وزيارة المدينة فى عام ١٨١٤ خلال وجود الحملة المصرية فى الحجاز . (المراجع)

البداية وادى فرعون Faraâun Wady، وشاهدنا عن بعد فى ضوء الشمس قصر فرعون : وقصر فرعون هذا هو المبنى الوحيد فى وادى بيترا ، وهو يشبه المعبد إلى حد بعيد ، وهو مبنى بالطريقة المعتادة فى البناء ، فى هذه البلاد ، أو إن شئت فقل : الوادى ، يعزو الناس كل معجزة إلى فرعون الذى جعل من نفسه ، كما يقولون ، إلها يعبدونه ، ولذلك قاوم أو عصى فرعون كلا من موسى وهارون . Aaron

تركنا بعد ذلك ، هذا الحجر الجيرى وما به من كهوف بدائية مقامة فوقه ؛ كانت الصخور الجبلية من تحت ذلك الحجر الجيرى عبارة عن صخور رملية وردية اللون ، وترسم لها فى أغلب الأحيان صورة فيها عروق خضراء وعروق أرجوانية اللون أيضا وفى الأسفل من تلك الأحجار الرملية توجد القمم العالية للآثار المبعثرة . ونزلنا إلى منطقة عميقة ، وصلنا فيها إلى الأجزاء الرئيسية من تلك الآثار ، وهى عبارة عن واجهة إغريقية لمنزل مكون من طابقين ، أصابه البلى بفعل الطقس . ولا يوجد داخل هذه الواجهة ، أو خلفها أى شىء يمكن أن يتفق أو يتوافق مع الوجوه الملكية المرسومة على تلك الواجهة ، أو على البوابات أو المداخل الكبيرة المؤدية إلى صالات عديمة القيمة وصلبة وخالية من أى شكل من أشكال الزينة ؛ هذه الصالات تحولت فى الوقت الراهن إلى مراحات تقضى الليل فيها قطعان ماشية البدو الرَّحَّل ، فضلا عن اسوداد تلك الصالات بفعل نيران الرعاة . وقمم صخور الوادى على الجانبين هى والغرف الداخلية منحوتة الواجهات التى تكثر فيها الأعمدة ؛ والقسم الأكبر من تلك المنحوتات هو من النوع الرسمى ، الذى رأيته مؤخرا فى مدائن صالح ، وهناك أيضا بعض تلك الآثار المبعثرة ، التى نشاهدها فى وادى جيهوشافات Jehoshapat فى القدس . وقمم كبيرة من الآثار لها علاقة بالأضرحة والقبور ، ولا أعتقد أنها كانت منازل بأى حال من الأحوال ؛ وإذا ما أحصيناها جميعا ، فلن تكون مفاجأة لنا ، إذا ما وجدناها قليلة العدد والمؤكد أن المدينة كانت فى الوسط ، وإذا ما أخذنا ذلك القليل بعين اعتبارنا نجد أن هناك بقايا لتلك الأنقاض الحجرية ، وأنقاض أيضا لمبانى شيدت من الطين . والأمر على هذه الشاكلة فى مدائن صالح : فالناس فى المدينتين يشاهدون آثارهم من حولهم . واتخذنا من غرف محفورة فى ذلك الصخر أماكن أمضينا الليل فيها أسفل خزان ، أو

إن شئت فقل : صهريج صغير ، يطلقون عليه اسم عين موسى Mûsa Ayn، وهى الوحيدة ، من بين كل ما رأيته هنا ، التى يمكن أن أدعى أو أزعم أنها كانت منزلا للسكنى .

عاد الرجال فى الصباح ، وبينما واصلنا المسير وجدنا خلال هذا الوادى المنعزل ، كان بعض البدو قد شاهدونا من فوق قمم الصخور البعيدة ، وبالتالى نزلوا ليسببوا لنا بعض المتاعب . استوقف أربعة من الرجال صغار السن البغل الذى كنت أركبه ، مانعين بذلك تقدمنا على الطريق الذى كنا نسير فيه ؛ لم يكن مع هؤلاء الأربعة سوى بندقية واحدة ، كانوا سيوسعونى ضربا ، قال لى سائس البغل إنهم سيجلبون علينا أناسا كثيرين ، ولكنهم يمكن أن يذهبوا لحال سبيلهم إذا ما أعطيناهم مبلغا زهيدا من النقود ، وهنا أعطيتهم مبلغا صغيرا ؛ ومع ذلك لم نستطع التخلص منهم ، فقد رافقونا كما لو كانوا رفاقا لنا أو أصدقاء . لم يكن وقت الظهيرة حارا فى هذا المكان ، والسبب فى ذلك أن ارتفاع الأرض هنا يقدر بحوالى ألفى قدم . وبالقرب من أعالى الوادى عثرنا على بدوى هو وزوجته ومعهما قطيع من الأغنام ، وجلست إلى جوار ذلك الرجل المسكين ، الذى غاب عنا ليجلب لنا مقدارا كبيرا من لبن الماعز . فى هذه المنطقة يوجد وادى جانبى يصعد إلى جبل حور Hor . سألت الرجل ، بعد أن شربنا لبن الماعز ، إذا ما كان لا يمانع فى أن يكون رفيقا لى ، على أن يصحبنى فى حينه إلى أعلا الجبل . أجابنى الرجل : "أنه لا يستطيع ذلك ، حتى ولو كان لديه خمسين رجلا ببنادقهم يصاحبونا أيضا ، وقال أيضا إنه لا يستطيع فعل ذلك مقابل أية مكافأة مهما كان قدرها :" كان القرويون قد منعونى من ذلك فعلا ، وأفهمونى أننى سوف أقتل بطلقاتهم النارية إذا ما أقدمت على ذلك " بالرغم من أنى متعدد الأرواح . ومن هذه المنطقة وبعد مرورنا على الأشياء المتناثرة دخلنا إلى ما يسمونه السِّيك Sîk؛ وهذا السِّيك Sîkعبارة عن ممر بجوار صدع ، أو إن شئت فقل : شق عند أعلى الوادى ، وتنمو فى ذلك الشق أو الصدع أشجار كثيرة من أشجار التين البرى . وبالقرب من مصب الوادى يوجد واحد من أكثر الآثار اكتمالا وسلامة يطلقون عليه اسم خزنة فرعون Khasna Faraâoun ، التى تعد أعمدتها المنحوتة وكذلك كرانيشها ، بمثابة صفوف نقية من

الجمال البللورى الخالى من الشوائب ، والتى تطل عليها أشعة الشمس الذهبية من علٍ ، إضافة إلى أن الطبيعه لونت ذلك الصخر الرملى باللون الوردى بفعل صدأ الحديد . ومن خلال ذلك السِّيك يوجد رصيف قديم يمكن مشاهدته فى مجرى السيل . وفى الأجناب هناك بعض الألواح الحجرية الفريدة والمبهمة . سوف أتناول تلك الألواح فى مرحلة لاحقة وأنا فى مدائن صالح . وعند الطرف العلوى (الموجود حاليا فى الحجر الجيرى توجد بعض الآثار الأخرى هرمية الشكل وكذلك بعض الكهوف الجانبية التى تنتشر هنا وهناك . وفى الأعلى توجد قرية الجى Eljy التى فيها عين كبيرة تسمى عين هارون Harûn Ayn، التى تركناها جانبا وصعدنا من خلال طريق جبلى وعر ، قطعنا فيه عدة أميال لنصل إلى المخيم الصيفى الذى يقيم فيه الشيخ الثانى من شيخى وادى موسى ؛ هذا المخيم يقع على جانب مرتفع من أجناب أحد التلال حيث كانت الريح باردة ، والليالى باردة أيضا ، فى هذا المكان ، أو بالأحرى بالقرب منه ، وعلى مقربة أيضا من أحد العيون توجد أنقاض قرية مربراك Mêrbrak الأثرية . وعندما حللنا ضيوفا على تلك القرية ، استقبلونا ورحبوا بنا فى خيمة الشيخ ، وقدموا لنا وليمة من الزبد الطازج والجبن الطازج ومن اللبن الرايب . ومن باب التسرية عن الغرباء ، قام البعض منهم بالغناء على أنغام الكمان العربى القديم ؛ ولذلك فهم يصنعون لأنفسهم موسيقى مثل داود ، وذلك عن طريق إخراج الصوت من خلال الأنف ، إلى طول معلوم وممل الأمر الذى كان يجلب علينا التثاؤب أو الضحك . واكتشفت هنا أن الغالبية العظمى هناك مصابون بأمراض فى عيونهم ، كما هو الحال فى كل العرب ، واكتشفت أيضا أن تلك الأمراض تلازمهم منذ الطفولة .

عدت فى الصباح لإلقاء نظرة على بقية آثار بيترا وعلى قبر فى منطقة قمم الصخور الغربية لثلاثة أعمدة حائطها الأعلى الأمامى مكسور فيما بين هذه الأعمدة فى الأسفل ، كما شاهدت نقشا كبيرا جميلا وقديما مكونًا من عدة أسطر ؛ قد يكون

ذلك النقش نبطيا(*) . وبعد مسير ساعة من السِّيك Sîk يقال إن هناك نقشا آخرا (فوق "شُبَّاك" منحوت فى الصخر) ، فى مكان يطلقون عليه اسم صابرة . Sabra هذه البقعة من الأرض عبارة عن حفرة مربعة وغريبة ، وسط موات طبيعى غير إنسانى ، وكانت عاصمة للأنباط ؛ والعين ترتد عن ذلك التزاحم الجبلى لقمم الصخر الحديدى ، الذى تعد فيه الآثار الخربة لفن بربرى فاخر هى أول ما تطالعه العين . اقتادنى القروى ، الذى كان يرافقنى ، على طول الساحل إلى الواجهة الأمامية الواسعة لما يسمى الدير : ed-Deir ومن تلك المرتفعات العالية ، شاهدت منظرا رائعا لوادى العرابة شديد الانخفاض ، كما شاهدت أيضا جبل الحجر الرملى صاحب الذكريات الإنجيلية ، ألا وهو جبل حور ، وهو يقف أمامنا مرتفعا شامخا ؛ وشاهدنا من خلفنا الساحل الوعر المرتفع لجبل سعير . Seir ومع غروب الشمس أصبح تجوالنا أمرا مستحيلا ، وهنا سبقنى الفلاح : وعندما وصلت إليه وجدته غارقا فى الصلاة والدعاء رافعا يديه إلى السماء يدعو الله أن يحمينا من غائلة الخطر الذى يتصورون أنه يحدق دوما بمكان منعزل من هذا القبيل . أسرعنا الخطى خلال الصخور الوعرة ، وشجيرات الدِّفلى ، تلك الشجيرات التى لها زهور بيضاء أو حمراء أو وردية اللون : شاهدت الكثير من حبارى الصقور وهى تطير مذعورة تهفهف بأجنحتها ! شاهدناها تطير أمامنا وتضلل وقع أقدامنا . وجدنا البغلة فى المكان الذى سبق أن تركناها فيه ، ألا وهو خزانة فرعون . وبعد أن تجاوزنا السِّيك كان مفروضا لرفيقى أن يأخذنى للنوم فى منزله فى إلجى Eljy . ولكننا عندما اقتربنا من إلجى ، وبعد أن سمع القرويون الذين سبقت لهم معرفة أخبار جولتنا منذ الصباح ، صوت حوافر البغله وهى تصطدم بالصخور ، تناهى إلى مسامعنا صوت ضوضاء مخيفة صادرة عن حلوق غاضبة وتنبعث من كل المنازل "أخرجوا .. أبعدوا عن هنا" ، محاولين بذلك منع أى نصرانى من دخول ذلك المكان . يضاف إلى ذلك ، أنهم وسموا رفيقى الذى كان منهم بأنه "أبو نصرانى Abu

(*) النقوش النبطية : توجد هذه النقوش النبطية فى أماكن كثيرة من العالم القديم ، إلا أن انتشارها الواسع كان فى حدود مملكتهم والمناطق التى يصل إليها تجارهم داخل شبه الجزيرة العربية من دمشق والرقيم وصحراء النقب شمالا إلى صحراء سيناء والصحراء الشرقية لمصر غربا ، وإلى العلا وقرية الفاو جنوبا ، وإلى سهول حوران فى الشمال الشرقى . (المراجع)

Nasrâny (بمعنى محرض المسيحيين أو معينهم على الشر) ؛ وبعد أن اكتشفوا تلك الصيحة المُرة ، ترددت فيما بينهم بطريقة سافرة توحى بالغضب . وراح المسكين ، الذى كان يرافقنى ، يشد شعره ، ورفع كفيه وراح يصلى تضرعا وألمًا طالبًا النجاة من الله : وهنا راح يُسَرِّع من سير البغلة على جانب الجبل البارد ليقترب من هؤلاء الناس ؛ ثم رجعنا إلى الأعلى مرة ثانية لنعود بعد ذلك فى ساعة متأخرة ، أثناء الظلام ، إلى الخيام مرة ثانية . إلى هنا أكون قد تحدثت كثيرا عن آثار بيترا ، حتى يمكننا بعد ذلك ، مقارنة تلك الآثار مع آثار مدائن صالح . كان بعض الأشخاص الثقات قد تحدثوا معى عن آثار أخرى مماثلة ، ولكنها قليلة جداً ، والتى يمكن مشاهدتها فى منطقة البحر الميت فيما بين جبل شراة Sherra وجبل خليل Khalil؛ هذا المكان هو الذى يطلقون عليه اسم مدائن Medain لوط . Lût أبلغنى تاجر مثقف ، كان من بين معارفى ، أن تلك الآثار كانت عبارة عن واجهات بلا نقوش .

تقع معان على بعد مسير خمس ساعات فقط من بيترا ؛ وأثناء عودتى ، فى الطريق إلى هناك ، شاهدت الأنقاض المبنية بالطريقة الجافة (أى بدون ملاط) ، والتى يطلقون عليها اسم جراف Graaf، تلك الآثار التى تجىء فى الأهمية بعد آثار يوذيراح Utherah الواقعة فى أرض عيسو Esau المرتفعة ؛ وعدد الآثار هنا ، كما هو الحال فى موءاب يقدر بحوالى "ثلاثمائة وستين" ، هذا يعنى وجود الكثير من الآثار التى يقولون لها بلغة القوم خرابات . Khurbets أهل هذه المنطقة ، الذين لا يعرفون شيئا عن الآثار التراثية القديمة ، يكررون على مسامع من يلقونه مرات ومرات "أن المواطنين الأثريين وكذلك البناة الذين جاءوا قبلهم كانوا أصحاب قامات طويلة" . ومعروف أن الكتاب المقدس يعزو الحكمة والفهم لسكان إيدوم Edom، تلك الحكمة هى التى جعلت منازلهم بسيطة جداً ، وخالية من الأشياء غير الضرورية ، استشعارا منهم بأن حياواتهم ملك أيديهم ، شأنهم شأن الأجيال التى جاءت قبلهم ، وأن تلك الحياة قد لا تستمر أو تدوم سوى لحظة . كانت عمون Ammon ، وموءاب وكذلك إيدوم أراضى مجاورة للبدو الرَّحل ، الذين هم أناس من أقاربهم أو من جنسهم ؛ وكان من غير المحتمل أن يضطر أولئك السكان إلى أن يكون لديهم طموح أكبر من طموح البدو الرحل فيما يتعلق ببناء

منازلهم . ويشهد أحد المزامير على أن بعضا من سكان موءاب وإيدوم كانوا من سكان الخيام . وإيدوم فى سفر إشعيا هى أرض أوز . Uz

معروف أن إيدوم Edom وجيشورن Jeshurun بينهما تنافس شديد ، ومعروف أيضا مدى قسوة الأسلحة العبرانية فى تلك البلاد . وعندما كان داود ملكا على هذه البلاد ، أقبل جوءاب Joab ولد أخته على قتل اثنى عشر ألفا من أهل إيدوم فى قرية غور ، كما أقبل أبشاى Abishai شقيق جوءاب على قتل ثمانية عشر ألفا من هؤلاء السكان ، هذا إن كانت هذه الأرقام السامية صحيحة ؛ يجب ألا يغيب عن بالنا ، أن كلا من إيدوم وموءاب وكذلك عمون ، كانت دولا إذا ما قارناها ببلداننا الصغيرة . مضى سيف جوءاب فى كل أنحاء إيدوم طوال ستة أشهر ، إلى أن أنهى على حياة كل الذكور فى عيسو ، ومن المحتمل أيضا أن يكون قد تأكد من الإجهاز على دويج Doeg خصم الملك ، وضحك الأتقياء حتى استلقوا على قفاهم ، من تلك المصيبة التى نزلت بذلك الرجل ؛ ولكن الجميع كانوا يعارضون كلام موسى "لن نستطيع تخويف أو ترويع الإيدومى لأنه شقيقك ." أرسل داود حاميات إلى كل أنحاء إيدوم : وفى الأجيال التى جاءت بعده من أهله ، نجد أن أمزياح Amaziah قتل من الإيدوميين الآلاف العشرة الذين يخصونه ، وفى قرية الغور نفسها ؛ يضاف إلى ذلك أن الجبل الإيدومى بسواحله العالية ربما كان صعبا عليهم . أما الآلاف العشر الأخرى ، الذين أسرهم أمزياح فقد أحضرهم إلى قمة الصخرة (التى شاهدناها بالقرب من الشوبك ، ويا لعمق هذا المكان السحيق المخيف فوق قرية الغور) ، وجعل منهم بهلوانات للملك ، بأن ألقى بهم على الفور ليسقطهم فى تلك الهوة السحيقة على الصخور الحادة ، مما أسفر عن تقطيعهم إربا . وفى الكتاب العبرى المقدس نسمع صوت ابنة من إيدوم وهى تعبر عن كراهيتها للمدينة الدامية ، صائحة تقول : "أنزلوا كل ذلك ، أنزلوا كل ذلك ، أنزلوه إلى الأرض ." إنهم يهللون لتدمير يهوذا وإسرائيل ، ومن الطبيعى أنهم يرغبون حاليا أيضا فى الحصول على الأراضى الجرداء المجاورة ، لتكون إرثا لهم هم أنفسهم . وهذا هو "جدال صهيون" ، الذى يؤلم أنبياء العبرانيين إيلاما يشبه آلام المخاض عند المرأة . "على أرض عيسو Esau الرب غاضب إلى الأبد : كلمته التى تسبح فى السماء سوف

تضرب بقوة وعنف على الناس الذين أصابتهم لعنته ، وسوف تنزل أيضا على إيدوم(*) وسوف تغرق الأرض فى الدم . يوم ثأر الرب ، تعويضه عن جدل صهيون : سوف يمد على إيدوم خيط الإرباك والفوضى كما سيمد عليها أيضا خيط الخواء والفراغ ؛ وسوف تنمو فيها الأشواك ، وأشوال الجمال ، وأبخرة النبات Aettles، وسوف تكثر فيها الوحوش الكاسرة ، والتنين ، والبوم والمخلوقات الأسطورية التى نصفها العلوى إنسان ونصفها السفلى حيوان ، وكذلك غربان الليل ، كل ذلك سيعيش فى ذلك المكان . أنا ضدك ، سوف أجعل جبل سعير أكثر قحولة وأكثر خرابا ، والسبب فى ذلك أن كراهيتك مستمرة كما أنك سفكت دم إسرائيل ، فى زمن الكارثة . سوف أملأ جبالك بالقتلى ، وأجعلك خربًا وقفرا دائمًا لأنك قلت إن بلديهما سيكونا ملكى . ولأنك فرحت بإرث إسرائيل فى أن تكون خرابا يبابا : ولأن إيدوم اتبع أخيه بالسيف واستبعد كل الرحمة وأبقى على غضبه إلى الأبد . ملاشى Malachi يتحدث عن الأرض كما لو كانت خرابا بالفعل ، "أحببت يعقوب وكرهت عيسو . فى حين يقول إيدوم : سوف نعود لنبنى الأماكن الخراب الجرداء ، والرب يقول : إنها سوف تبنى ، ولكنى سوف ألقى (ذلك) أرضا ." ونقرأ عند اثنين من الأنبياء لازمة قوية عن اجتثاث عيسو بحيث لا يتبقى منها شيئ . "إذا جاءك اللصوص أثناء الليل ، هل يعنى ذلك أنهم لم يسرقوا ولكن إلا بعد أن يكون لديهم الكثير والكثير ؟ إذا جاءك قاطفو الأعناب ألن يتركوا شيئا من فضلاتها ؟" وهذا العم ، كان يشعر بالمرارة عندما قال : "عندما تفرح الدنيا كلها ، سأجعلك أنت خرابا يبابا ."

(*) إيدوم : ورد اسم إيدوم فى العهد القديم ، وعرفها الإغريق باسم إيدومة . وإيدوم كانت موطن سلالة عيسو – أخو يعقوب عليه السلام – حاصرها بومبى وتراجان دون طائل ، ثم غدت مدينة ميتة . وتحققت لعنة الأنبياء التى صبوها على إيدوم المتكبرة كما جاء ذلك فى العهد القديم :

هكذا تكلم الرب يهوه
حين ترتعش الأرض كلها
سزجعلك يبابا
ستكتسح يا جبل سعير
وكذلك إيدومى كلها
" أرمياس وعيدياس وحزقيال ١٥–٣٥ " . (المراجع)

قضى الحجاج اليوم التالى كله فى الراحة داخل مخيمهم . ويتعين علىَّ هنا ، عند هذا الحد أن أتكلم باختصار عن الطريق من هذه المنطقة فى إيدوم إلى عيلة Ayla، (بالقرب من إزيون Ezion جابر Gaber) : فى نفس هذه المنطقة ، طبقا لموروثات الحج وتقاليده ، يوجد الممر القديم ، الذى يمتد فى اتجاه جنوب طريق الحج الكبير ، الذى يدخل (عند رأس خليج العقبة) (*) ليلتقى بالمسار المصرى المؤدى إلى المدينتين المقدستين . هذا الخليج هو عبارة عن وادى غارق من منخفض عرابة الأرضى الكبير . ونظرا لأننا سوف نتجه من العقبة صاعدين إلى إيدوم ، فإن طريقنا سوف يمر على امتداد عدة أميال خلال وادى العرابة الوسيع المفتوح ؛ ثم يدخل عن طريق وادى جانبى إلى ساحل جبال الجرانيت ، التى تعلوها حفر بركانية يصل ارتفاعها إلى مئات الأقدام كما هو الحال فى سيناء . وهذا هو وادى لثم Lithm، تحيط به ضفاف قوية من تربة الفيضان القديمة . فى مصب ذلك الوادى هناك أنقاض سد قديم ، مبنى من الحجر الجيرى الغشيم المثبت بالملاط . وبعد مسير إثنى عشر ميل نرى من فوقنا أعلى تلك الجبال الجرانيتية ألا وهو جبل بكر Bakr Jebel الجرانيتى ، وعنده مررنا على حجر عليه نقش نبطى : والعرب كلمونى وحكوا لى عن تمثال لشخص كان فى هذه المنطقة ، وقالوا إن ذلك التمثال كان لرأس إنسان أو هيكل إنسان . وعلى بعد ثلاثين ميلا من العقبة وصلنا إلى أرض مرتفعة تسر الخاطر ، وجدنا فيها أرضا زراعية فى الصحراء ، تزينها خضرة نباتات القمح الذى كان يتغذى من ماء المطر فقط ؛ وقد دهشت عندما سمعت أن الزراعة كانت للحويطات الألُّوين . Allowîn رجال الصحراء هؤلاء تغلب عليهم الحياة المدنية ، فضلا عن كونهم أرباب أطيان مثل عيسو Esau . رأيت بعضا آخر من قبيلة الحويطات يعيشون فى خيام ، يسمعون حفيف رمال الصحراء بالقرب من غزة Gaza؛ ومحراث هذه الفئة من الحويطات عبارة عن وتد مدبب له سن من الحديد ، ويجره جمل واحد . والمزارع العربى يمكن أن يعلق شجرة المحراث على كتفه ، ويركب دابة العمل ، وهو يغنى ، ويجىء ويروح حسب اتجاه المحراث . حدث بعد ذلك شجار بين أقارب الحويطات على تلك المناطق الزراعية من الصحراء ؛ وهرب القسم

الضعيف من هؤلاء القبليين ، (فى المرة السابقة عندما كنت فى معان) إلى أقربائهم فى جبل شراة ، الذين وزعوا عليهم ، بحكم الإنسانية القديمة التى تسود الصحراء ، بعضا من مواشيهم . وكلام الحويطات ينم عن الزراعة والفلاحة ، وينسحب ذلك أيضًا على كلام الحويطات الذين يعيشون فى أقاصى الجزيرة العربية . كل هذه البلاد الوسيعة النبيلة مازالت جرداء وقاحلة ، ولا تزرع بالقمح . ومع طلوع نهار اليوم التالى مررنا على حوض ماء مدمر وقناة لنقل الماء ، وذلك عند سفح جبل Jebel شافى Shâfy، الذى تتكون قمته من نفس الأحجار الرملية المعرَّقة ببعض الخطوط فى منطقة بيترا .

هنا ، فى منطقة الحدود الجرانيتية ، توجد بداية بلاد (قرية) الحِسمة el- Hisma أو Hessma، التى تمتد إلى مسافة بعيدة داخل الجزيرة العربية . فى هذا المكان نجد أن بعضا من البدو الذين كانوا يزرعون الشعير بالأمس ، قد أقاموا لهم مخيما فى هذا المكان : وشيخ هؤلاء البدو هو ابن جاد Jad Ibn، الذى نحن فى حضرته حاليا ، وهو سيد هذا القسم من الريف . هذا الأسد العجوز الكريم (ولكنهم يقولون ، أنه عدو غير كريم) تقدم وهو يلبس بشته (عباءته) للقائنا ، وبتحية ودية اقتادنى من يدى إلى ظل إحدى الخيام البدوية . هذا الشيخ هو وأتباعه يعيشون فى حوالى ٣٠ خيمة منصوبة على شكل بيضاوى ، الذى يميز أسلوب هؤلاء البدو فى هذا الجزء من البلاد . وحكى لى ابن جاد Jad Ibn عن تقسيم المياه ، إلى كل من البحر الأحمر والبحر الميت ، وأن ذلك التقسيم يقع على بعد مسير "ساعة واحدة" من هذا المكان فى اتجاه الشمال . أحسسنا بحرارة ظهيرة فصل الربيع فى هذا المكان . ولم يبلغنى أن الشيخ العجوز كان قد ذبح شاة لضيوفه ؛ وجاء كل رجال المخيم وتجمعوا لتناول وجبة الضيافة بعد العصر ، معنا ؛ فى هذه المناسبة قام رجلان بإحضار عشاء طيب ، طبقا لأصول الكرم البدوى . كان الطبق الخشبى الكبير يحمل كومة لحم الشاة المسلوق مع كمية كبيرة من الخبز الحار الذى جاء لتوه من فرن ، أو إن شئت فقل : تنور ربة البيت . كل هؤلاء القبليين ينعمون بوفرة المخبوزات بحكم اشتغالهم بزراعة الحبوب ؛ فضلا عن أنهم لا يعرفون الجوع . وإذا ما نظرنا إلى ذلك الشال الذى يلفه بدو الحويطات حول رءوسهم ،

وإلى أجسامهم التى تشبه أجسام الفلاحين ، أجدنى لم أر قط نظيرا لتلك الأخوَّة التى بين هؤلاء الخصَّافين ، الذين تشبه أنوفهم أكواز الذرة ولهم وجوه متلبدة . وهنا بدأ ابن جاد تقطيع قطع من اللحم ، ووضع كل واحدة منها فى خُبْزَة ونادى اسم شخص محدد ثم أعطاه رغيفا من تلك الأرغفة المحشوة باللحم ؛ كان العدد كبيرا جداً ، مما حال دون جلوس الجميع حول ذلك الطبق الخشبى . والحسمه Hisma هنا عبارة عن أرض مرتفعة من الجبال على شكل مربع ، ويرتفع سطح الحسمة عن سطح السهل بحوالى مائتى قدم ، ويحتمل أن يصل ارتفاع قمم الجبال عن مستوى سطح البحر بحوالى ستة آلاف قدم . كان المساء قد حل عندما غادرنا مخيم ابن Ibn جاد Jad وبعد تمضية ساعتين فى الظلام ، اكتشفنا مخيما آخرا من مخيمات البدو أقيم تحت جبل من الحجر الرملى ، وقد أظهرت لنا (الأضواء الكثيرة الصادرة عن المخيم) خيالات لأناس يتحركون وماشية تتحرك أيضا . تلك كانت خيام السَّيدين Saidîn من الحويطات ، أو إن شئت فقل : أعراب الغور ، الذين يجيئون إلى هذه المنطقة لجودة المرعى فى فصل الربيع فى أراضى قريبهم ابن جاد المرتفعة . كان العرى كثيرا بين هؤلاء الأعراب ولكنهم لم يصيبوا سوى رفات قليل . وبعد أن ركبنا إبلنا واصلنا المسير فى تلك الليلة ؛ وعندما طلع النهار شاهدت ساحلا من أمامى ، هذا الساحل ، يمثل فى هذه المنطقة حافة جبل شراة . تربة الحجر الرملى التى تحت أقدامنا عامرة بصدأ الحديد ، ويمكن للبسطاء من الناس مقارنة حمرة هذه التربة بحمرة الدم ، الذى هو اسم لهذه الأرض . (إيدوم) Edom .

من هذا المكان نصعد من منطقة الحجر الرملى الأحمر ، إلى الجانب الوعر من جبل شراة ، هذا الجانب من الجبل مكون من الحجر الجيرى الطينى المعرَّق بعروق من الصوَّان المعروف والمَجدْول . وبعد مسير ساعة أو ساعتين فوق ذلك الجانب من الجبل توجد بعض الخرائب والأنقاض الواسعة والعريضة ، يطلقون عليها اسم البُّطيرة el-Bettera وتقع داخل وادى واسع ومفتوح تعرقل السير فى جدران مخربة مبنية بطريقة البناء الجاف ، أى بدون استعمال الملاط . الجدار الأول ومعه بعض الأعمدة كان يقع فوق أرض مرتفعة . وخلف تلك الجدران فى الصحراء ، شاهدنا أكواما من الحجارة ، جرى جمعها من هذه الأفدنة التى كانت مثمرة فى يوم من الأيام ، بأيدى

المزارعين القدامى . والسبب فى ذلك أن هذه الأراضى كانت مزارع للكروم وحقول لإنتاج القمح ، ولكن "الأرض تحتفظ حاليا بعطالتها ." – من هذه التربة الجرداء القاحلة طارت القبرة السورية وهى تهفهف بجناحيها وتغنى فى اتجاه الشمس ؛ وترتفع قليلا ثم تنزل ثانية ، ولكن صوتها ليس له عذوبة أو حلاوة أصوات الطيور المغردة ، كما أن قوة طيران هذه القبرة السورية ليست فى مثل قوة الطائر الشقيق فى أوروبا . كانت هناك نسمة خفيفة فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ؛ وكنا على بعد أميال قليلة من مَعَان . عندئذ رأيت منظرا طبيعيا يبعث على الحزن والأسف ، هذه هى بداية أرض الصوان على هذا الجانب ؛ والصوان فى هذه المنطقة مبعثر هنا وهناك (منذ الأزل) ، ومعرض لضوء الشمس والرياح ، ويمتد من الشمال إلى الجنوب مسافة حوالى خمسين ميلا ، ومن شرقى معان يستغرق السير فوق أرض الصوان حوالى يوم ونصف اليوم ، هذا يعنى أن مساحة هذه الأرض تقدر بحوالى ٢٥٠٠ ميل مربع ؛ نزلنا عن إبلنا عند أول تجويف أرضى كى ننال قسطا من الراحة إلى أن يرخى الليل سدوله علينا ؛ رفيقاى ، المصرى والبدوى لم يجرءا على اجتياز منظر طبيعى بمثل هذا الحجم ، فى ضوء الشمس أو إن شئت فقل : فى وضح النهار ، تجنبا لمخاطر احتكاك الخيالة البدو بنا . ورحلنا عن المكان عند الفجر . كان البرد شديدا أثناء الليل ونحن نسير عبر هذه الأراضى الخراب الجرداء المرتفعة : وعند منتصف الليل وصلنا قرية معان . خيم السكون على المكان كله أثناء الليل ، وواصلنا مسيرنا ونحن راكبين دوابنا على الطريق المدمر المفتوح ، لنصل إلى البوابة الداخلية ونتجاوزها نظراً لأنها كانت مفتوحة هى الأخرى ، لنصل بعد ذلك إلى السوق ، وشاهدنا فى السوق ماصات من الطين وفرشنا سجادنا من فوقها لنجلس فى الشارع . ومعروف أن العرب يشغلون أنفسهم باللصوص ويخشونهم فى الأماكن الغريبة عليهم ؛ ومن عادة العرب أن يربطوا حقائبهم قبل أن يناموا ، ويضعون الأشياء الصغيرة تحت رءوسهم . ونظرا لفرحنا وسعادتنا بالراحة التى حصلنا عليها فقد رحنا فى ثبات عميق ، نظرا لأننا لم نغمض جفوننا طلبا للنوم على امتداد ثلاثة أيام وليلتين ظللنا خلالها راكبين دوابنا . وهنا سمعنا صوتا متعاطفا معنا وهو يحيينا كما حيانا صوت آخر ونحن نخرج من المدخل المظلم ؛ وهنا ، نهض رفيقاى اللذين بلغا من الإعياء حداً حال بينهما وبين النوم ، وسألا وأجابا

قائلين : "أنت ولد ولاً بنت ؟" – لم يكن هناك أحد يرد على سؤالهما فقالا : "إنه عفريت ، بالله ." ولم يمض وقت طويل قبل أن أسمع ذلك الشيخ بالقرب من رأس السرير الذى أنام عليه ؛ وجلست معتدلا لأرى شكلا قذرا وهو يتسلل وتمتم بأشياء لا أعرف كنهها ؛ وعندما هددت ذلك الشيخ مرّ من خلال مدخل مجاور ، وبدا وكأنه يقفل الترباس ، ولم أستطع تبين ذلك الباب بعد طلوع الفجر . ظننت أن ذلك ربما كان صبيا مجنونا أو امرأة ساقطة لعوب كانت تتسكع أثناء الليل ؛ وهذا يُرى فى الأماكن العربية .

عندما كانت قافلة الحج فى معان ، كنت أعيش فى خوف وفزع ، فقد عرفت أن باشا الحج كان قد أرسل فى طلبى ، فقد جرى إحضار الأجا الفارسى للمثول أمام المجلس ، ولكنه لعب دور التاجر ولم يستطع المجلس الخروج منه بأى شىء . وغمرتنى السعادة عندما سمعت فى اليوم الثانى صوت دانة المدفع إيذانا باستئناف المسير ؛ كانت الساعة الثامنة صباحا عندما استأنفنا المسير ثانية . والمعروف ، كما يتردد هنا ، أن الفرس يسيرون فى مؤخرة القافلة ؛ أما نحن فكنا آخر من تحرك من المنطقة التى خيمنا فيها بعد أن نزلنا من على ظهور دوابنا . (كانت تلك هى الوقفة التاسعة منذ أن غادرنا مزيريب) وقد عرفت ذلك عندما كنت أقرأ البارومتر المعدنى خلسه ، ولم أستطع إدراك الطريقة التى أوصلتنا إلى هنا . ونحن راكبين على دوابنا ، إلى هذه المجموعة من الناس ، الذين وقفوا يراقبونا : هذه المجموعة كانت من معارفى القدامى وهم النقيب الكردى Kurdy، وهو من أهل المكان وله لحية حمراء ، وبجانبه محمود السكرتير . والأرجح أنهما ربما جاءا ومعهما أوامر ، للبحث عنى . وتأملت الأمر ، وراودنى إحساس ، بأنهما قد لاحظانى ، ولكنى تمالكت نفسى ولم أهتز ، بل إنى لم ألق لهما بالا ، بل واقتربت منهما بلا تخوف . ولم يستطيعا التعرف علىّ بسهولة فى هذه المرة ، اعتبرانى واحدا من بين أفراد هذا الحشد الكبير ، يركب دابة ضعيفة وعلى مرأى ومسمع من الجميع ، ظنُّونى واحدا يرتدى – أو متنكرا فى – ملابسهم ، ولم يكن معى أو حولى أى شىء آخر سوى بضائعهم وملابسهم .

سمعت عن مدائن صالح فى زيارتى السابقة ؛ هذه المدائن التى ذكر لى القرويون أشياء عجيبة عنها عندما كنت فى وادى موسى ، على افتراض أننى وصلت إلى هناك عن طريق الحج قادما من الجنوب . قالوا لى إن هذه "المدائن" خمسة ، وهى محفورة

فى الصخر . وسمعت من محمود السكرتير ، وهو شخص ليس بأمى ، والذى زار تلك المدائن فى كثير من الأحيان ، سمعت منه عن النقوش وصور الطيور الموجودة على الواجهات الأمامية ؛ وبهذه الكلمات أصبح محمود أبا لأسفارى وترحالى المؤلم فى الجزيرة العربية . وعندما عرفت أن مدائن صالح لا تبتعد عن هنا أكثر من عشر وقفات ، بدأت أبحث عن وسيله تنقلنى إلى هناك ؛ ولكن رئيس المحطة أحبطنى ، بزعم الخطر – وأنه قد يوجه إليه اللوم إذا ما أصاب مكروه أجنبيا – الذى يترتب على السير فى طريق طويل فى أراضى البدو . كما منع أيضا كل الخاضعين للدولة (الإمبراطورية) من محاولة نقلى أو توصيلى إلى مدائن صالح . سمعت الكثير أيضا عن هذه المدائن من جنود معان ، الذين عادوا مؤخرا من حملة جرى تجريدها على قرية الجوف Jauf(*)، سمعت منهم عن أمير عظيم أطلقوا عليه اسم ابن الرشيد ، سلطان ، أو سيد ، مستنقعات البدو ، وحوالى "ستين" قرية من قرى التمر تقع فى الداخل وفى اتجاه الشرق . فى معان ، وفى ظل المناخ السائد فى الجوف ، لا يوجد سوى قلة قليلة من جذوع النخيل التى لا فائدة لها سوى تزيين القرية الطينية . والنبات قد لا ينمو عند هذا المستوى من الارتفاع ؛ ومع ذلك نجد الأرض هى والماء هنا يتمتعان بالحلاوة والعذوبة – يضاف إلى ذلك أن الوقفات العشر من هنا إلى دمشق يمكن أن يقطعها الجمَّالة الذين ينقلون البريد ، (دون مِقْودْ) ، فى ثلاثة أيام ونصف اليوم .

بينما كنا نواصل مسيرنا كانت ظاهرة السراب تتجلى فوق حجر الصوَّان المضىء بالرغم من أن اسوداده يماثل اسوداد الفحم ، كانت هذه الظاهرة أمامنا على الأرض التى يكسوها حصى الصوَّان ، والتى كانت تفوح منها رائحة الدفء فى شمس الغابة الجنوبية . هذه التربة التى يشيع فيها عنصر الحديد ، ليس فيها أى أثر من آثار الأقدام . وهذه القلة القليلة من السيول ، كما هو الحال فى معان ، تصرف مياهها خلال وقت قصير فى السهل الصحراوى ، الذى يتجه ، حسب ملاحظتى ، على شكل

(*) قرية الجوف : تقع هذه القرية فى وسط دائرة من الجبال الصغيرة الكلسية ، ويفتخر سكانها بتسميتها " جوف الدنيا " لأنها تقع على بعد متساو من مختلف تخوم الجزء الشمالى من الجزيرة العربية وجنوبيها . وقد امتد نفوذ آل رشيد إليها . (المراجع)

رف فى اتجاه الشرق إلى خط طول معان . عالية هى أصوات باعة النار الفقراء الذين يقفون على جانبى الطريق ، وذلك بأن يضعوا فحمة مشتعلة فوق حجر شيشة رجل غنى ؛ الله موجود ، وحبيبك النبى ! وبعد ثمانى ساعات وصلنا إلى مخيمنا ، الذى كان جاهزا ينتظرنا فى السهل ، ذلك المكان الذى يطلقون عليه اسم غدير Ghar-adîr أم عياش Ayash - Umm وهذا اسم يطلقونه على كل موقع من مواقع الصحراء .

وهنا يتعين على أن أقول شيئا عن مناطق التخييم الموسوية ؛ أسماء هذه الأماكن قد لا نجدها بعد ذلك فى هذه البلاد – وما هو سبب ذلك ؟ السبب هو أن هذه الأسماء كانت أسماء لمسافرين ، وأن هؤلاء المسافرين فى غياب حق ملكيتهم للأرض لا يستطيعون البقاء فى الصحراء ، وهذه الأسماء موجودة فى غرفة أسماء الرعاة القدامى . هناك نوع آخر من الأسماء ، ليست أسماء لأجزاء من هذه البلاد ، كما أنها ليست معروفة للبدو ، وهى بدورها أسماء لبعض الناس الذين شاركوا فى القوافل . أفراد القافلة كانوا يمرون بسرعة ، تخوفا من البدو الرحل ، ولم يكونوا على معرفة بتلك الأرض اليباب الواسعة دون أن تكون هناك علامات أرضية ؛ يضاف إلى ذلك أن أفراد القوافل لم يكونوا يعرفون الأسماء الأرضية معرفة دقيقة . إذن ، فما هو العجب إذا لم نجد بعض أسماء أفراد القوافل فى البيانات التفصيلية لخطوط سير الرحلات ! (*)

الفصل الثالث

رحلة الحج فى الجزيرة العربية

إحتشاد الغزلان . جبين بلاد العرب . بطن الغول . درويش يصاب بالإعياء والإغماء . "شهداء" الحج . الغورال أو غول الصحراء . إيرام . بدو بنى عطية الرُّحل أو المعازى . "رزمة نقود العذراء" فن الترحال . صحراء بلاد العرب . قبطان الحج . الجمال تصاب بالإعياء . إشارات صاروخية فى الليل . سطح الصحراء . حروب المروج . حلّة عمار . ذلك الحج . "البقرة البرية" . بدو الشرارات الرحل (بدو المُكليب) . الحجاج الفُرس . الفارسيات فى الحج . يجوز للحجاج ركوب عربات الشحن . تعليم فضلات البغال بصليب يونانى . مقارنة الحج "بحج آلاف الإسرائيليين" . المحمل . الحجاج على اختلاف عناصرهم . خدمة المشاة . الاسْوَد . المُعتَرون . مذبحة المسيحيين فى دمشق . خطاب المبتدئين . إبل الحج . تخت الروم . نقل الفرس المحتضرين فى كروسات الجمال . حج المريضة . تناقضات الطريق . المؤذنون من فوق ظهور الجمال . الحجاج الفرس ، وحرقهم فى المدينة ، لتدنيسهم قبر الرسول . لص القافلة . السكرتير الإمبراطورى . الباشا . كلاب الحج من سوريا . ديك فى الحج . اقتفاء أثر أرانب الصحراء البرية . الثُّب . الكا . مسيرة الليل إلى تبوك . القرية القديمة . جبل الوعظ . القرويون . صُراف الرواتب لدى الباشا . قصة حياته . لعبة الطريق . الحُرة .

محطة الأخضر . السويفلى . زيارة القلعة . "حديقة القاضى" . وادى السانى . "الدُّب" . محطة مؤدَّم . ندرة الماء . شجرة الصمغ العربى . محطة الدار الحمرة . عام الكوليرا فى الحج . عودة رجل من القبر إلى دمشق . أبو طاقة . مبرك الناقة . الجمل المعجزة . صيحة بين الحجيج .

بعد منتصف الليل بثلاث ساعات ونصف الساعة غادرت قافلة الحج هذه المحطة :- ومن الآن فصاعداً تبدأ رحلات الحج العظيمة داخل الجزيرة العربية . وقبل طلوع النهار بفترة قصيرة إنطلقت من المقدمة دانة المدفع لتتوقف القافلة ، مدة نصف ساعة تناول خلالها عظماء رجال القافلة القهوة . وبعد مسير ساعتين ، يوجد فوق العقبة أمامنا موقع يطلقون عليه اسم خان الزبيب **ez-Zebîb Khân**؛ كان محمد سعيد باشا ، فى عودته الأخيرة من الحج ، يركب فرسة فى مقدمة القافلة ، (كان ذلك مع بداية فصل الربيع فى الجزيرة العربية) ، وباغت قطيعا كبيرا من الغزلان وقتل بطلقات مسدسه عدداً كبيراً من الغزلان ، الأمر الذى أدى إلى تقديم لحم الغزلان فى تلك الليلة على موائد كبار ضباط الحج فى الأماكن المخصصة لهم . وعند الظهيرة كنا قد وصلنا إلى منصة مرتفعة من الحجر الجيرى هى منصة جبل شراة **Sherra**، أو مشارف الشام **es-Shem Masharîf** الخاصة بأهل الكتاب الإسلاميين ، أو إن شئت فقل "جبهة سوريا أو الشمال" . وفى أسفل هذه المنصة توجد الجزيرة العربية ، أو إن شئت فقل : بلاد الأعراب **el-Aarab Béled** : - ولكن هذه المفارقات لا يعرفها السكان البدو .

يقع طريق الحج النازل فى أرض مجوفة ، كما لو كانت هذه الأرض وادى يمتد على جانب تل من تلال ، مكون من رفوف حادة من ألواح الصوَّان والحجر الجيرى . نحن هنا على وشك النزول إلى منطقة من الأحجار الرملية ،- التى تتكون منها الغالبية العظمى من رمال الجزيرة العربية . وأنا أرى عن يسارنا هنا انقاض قلعة وصهريج أو خزان مياه . وهاهو طابور القافلة يقترب من مدخل المضيق الضيق ، وها نحن قد تأخرنا مدة ثلاثين دقيقة فى المؤخرة . وأفراد القافلة يطلقون على هذا المكان إسم عقبة **Akaba** أى "مطلع" ؛ وهذا "المطلع" أو العقبة هو ما يطلقون عليه اسم الشامية **Shemiya**

السورية أو شامية الشمال . كنا فى هذه المنطقة على ارتفاع ٤١٣٥ قدم . وعلى صخرة حتمت أن يكون نزولنا على شكل خط مستقيم ، كان يجلس تحت مظلة بيضاء ، باشا الحج بنفسه ومعه كبار الضباط : وسبب ذلك أننا التقينا للمرة الثانية هنا فى اليوم الرابع والعشرين من شهر نوفمبر أشعه الشمس الممتعه إذ كان فصل الصيف لم ينته بعد . صفوف وطوابير القافلة مفككة جداً وطويلة بسبب نزولنا المنحدر ، الذى تحيط به الصخور ، إلى حد ما ، من فوقه . ونظرا لتعذر مرور الإبل هنا على شكل ثنائيات فى آن واحد ، فذلك يتيح للباشا فى وقت فراغه ، اصطفاف الحجاج وهم يمرون من أمامه ببطئ ، وهاهم الحجاج قد نزلوا من الصناديق المحملة على الإبل وراحوا كلهم يسيرون على أقدامهم . ومن سوء حظ ناقتى الجديدة ، التى كنت قد اشتريتها من البدو فى معان ، ولم تتعود بعد على هذه المسيرة ، أن قطعت "حكمتها" (لجامها) عندما كانت على مقربة تماما من قدمى الباشا ، الأمر الذى أحدث شيئا من الفوضى والاضطراب ، وحتم على أن أسارع إلى استعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل . ولكنى كنت على ثقة ، بالرغم من رؤية الباشا لى وأنا أرتدى الملابس العربية فى دمشق ، بأنه لن يستطيع التعرف علىَّ . والعقبة طويلة ، ولكنها أقل صعوبة من بعد المكان الذى يجلس عليه الباشا . والبدو يطلقون على ذلك "المنحدر" بطن الغول Batn el-Ghrôl أو قد يسمونه "المكان الخانق" Skangling - Place، وهو ما يقولون له بلغة القوم : "فِن يغْرُلُّون الزلامى Fen yughurullûnez-zillamy؛ هذا المنحدر عبارة عن منخفض قاحل بين هذه الأنقاض ذات اللون البنى الضارب إلى الحمرة فى جبال الحجر الرملى الجافة ، ويخيم عليه صمت أبدى ، ولا نرى فيه أى مؤشر من مؤشرات الحياة . والعقبة ليست شديدة الإنحدار ، هذا هو ما اكتشفته فى النهاية ، فى المنطقة التى عاد الحجاج عندها إلى ركوب دوابهم ، إذ بلغت المسافة التى قطعناها خلال العقبة إلى ما يقرب من ٢٥٠ قدم . كان طول القافلة فى هذه المنطقة يقرب من حوالى ساعة واحدة ، ولم تقع أية حوادث أثناء نزول ذلك المنحدر . والإبل ، فى مثل هذا المْنَزلْ ، وبسبب صعوبة استعمالها لأطرافها الأمامية ، تصبح بطيئة جداً ؛ هذه الحيوانات الغبية ، إذا لم تكن راغبة فى الحركة فهى تترك لنفسها العنان وتنزل بثقلها ، مما يضر بمفاصلها مع كل خطوة تخطوها على ذلك المنحدر . هذه الأحجار الرملية المربعة والطاردة تشبه جبال الحجر الرملى الجرداء القاحلة الموجودة حول شرم Sherm(الشيخ) فى سيناء .

فى الأسفل ، نحن نقف على قاع من الرمل ، وعن اليمين وعن الشمال سور من الحجر الرملى ، والممر الطويل المفتوح بين هذين السورين ينزل هابطا على شكل وادى من أمامنا . وعن الشمال ، هذه هى الصخور الوعرة فى الأعلى وقد اكتست بطبقة من الحجر الرسوبى الذى يميل لونه إلى الاسوداد ، والذى تساقط البعض منه ليستقر عند السفح ، حيث أكوام الحصى التى تلمع فى ضوء الشمس ، وصُقِلت بفعل رمال الصحراء المتحركة . هذه هى حافة حقل صغير من حقول الحمم البركانية ، أو إن شئت فقل حَرَّة(*) : وقد سبق لى أن رأيت أيضا بعض صخور البازلت التى انبعثت من البراكين فى مَنْزَلْ العقبة . وبعد ثلاثة أميال ينسلخ الطريق عن الجبال المستقيمة ، وهنا نجد أنفسنا نسير فى سهل رملى كبير يطلقون عليه اسم دبيبة Debibat الشام -es Shem أو إن شئت فقل : أرض الجدَّار Jiddar Ard؛ ورمل هذا السهل من النوع الثقيل الذى يصعب التعامل معه لأنه يفلت من خلال الأصابع ، وعلى بعد أميال قليلة من الطريق الذى عن يميننا ، هاهى سلسلة جبال حسمة Hisma القاحلة التى تتراءى لنا على شكل سلسلة من الجبال الجرداء التى تشبه السحاب .

شاهدت رجلا ساقطا فى الرمل نصفه جالس على الأرض والنصف الثانى يتكئ على يديه . هذا متسول متدين ، أو إن شئت فقل : درويش بائس يرتدى عباءة الشحاذ أو ملابس الشحاذة إن صح التعبير ، راح يتأوه بصوت عال ، وهو يمد يديه كما لو كانتا مخالب نسر من النسور ، على أمل أن يتصيد بها إحسان المحسنين . وباعتبارى آخر من يسير فى ذلك الطابور الطويل فقد مررت عليه بدورى . حقيبة سندات الشحاذة المملوءة بكسر الخبز ، سقطت أو انفلتت من عنقة وقد تناثر كل ما فيها أمام ذلك الدرويش . كان ذلك البائس يعبر عن حزنه وألمه أمام طوابير الحجاج المتجهة إلى مكة ، والذى لا شك فيه أن أعداداً كبيرة من هؤلاء الحجاج مرت بذلك الشحاذ ، ومن الطبيعى وهم يمرون عليه ، أن يتمنوا ألا يصيروا إلى ما صار إليه ذلك الدرويش . ويندفع بعض

(*) حرة : الحرة – وجمعها حرات أو حرار – هى أثر من آثار ماتخرجه البراكين من جوف الصحراء . وهى غالبا ما تكون مستديرة الشكل . والحرار كثيرة فى الجزيرة العربية حيث تبدأ من سهل حوران وتمتد متناثرة حتى المدينة المنورة . (المراجع)

المحسنين الذين يعملون فى خدمة الحجاج ، أو إن شئت فقل : بعض الدمشقيين ، نحو ذلك الشحاذ ويقفون إلى جانبه ليسمعوا ما يقول ؛ تنهد الدرويش منتحبا وهو يقول : أنا ميت . وهنا تقدم واحد من مجموعتنا ، والذى كان يقوم على خدمتى أيضا ، وأحد الخارجين الصناديد على القانون ، وسليط اللسان ولكنه يقوم ببعض الأعمال الإنسانية ، تقدم ذلك الرجل ومعه جمل غير مُحَمَّل ، ثم رفع ذلك الدرويش بين ذراعيه ووضعه فوق مؤخرة سرج الجمل . وهنا صرخ ذلك الدرويش صرخة ضعيفة تشبه صرخات الأطفال ، ثم نهض الجمل واقفا بعد ذلك حاملا ذلك المسكين ، بعد أن جمعوا الخبز المبعثر ووضعوه فى مخلته التى وضعوها معه على الجمل ، وكان الدرويش يتمتم تعبيراً عن شكره وامتنانه ، ويرتعد خوفا فى ذات الوقت . خدمات الإسعاف لا تتوفر فى جيش الحج غير المنظم ؛ يضاف إلى ذلك أن مسألة الإحسان والخير ، تصاب بالبرود فى تلك الأرض القاحلة الجرداء المريعة ، عند هذه الجموع التى يرهقها ذلك الطريق المتعب الطويل .

بعد ذلك ، كانت هناك بعض الوفيات اليومية فى قافلة الحج . كانوا يقومون بتحريز أشياء المتوفى ، ثم يقوم الحجاج بغسله وتكفينه فى وقفة الليل ، ثم يدفنون الجثمان فى حفرة ضحلة يحفرونها بأيديهم ، ثم يضعون فوق ذلك القبر بعضا من الأحجار التى يجمعونها من على جانبى الطريق ، لتكون بمثابة شاهد للقبر . وهم يطلقون على الحجاج الذين يموتون خلال هذه الرحلة الدينية ، اسم شهود Shahud، أى (شهداء) . ولكن الرجل الذى يكون وحيداً ومعدماً ، وبلا نجدة أو غوث ، إذا ما مات فى تلك الأرض الجرداء القاحلة والخالية يكون هو الآخر منبوذا ومهجورا فى واقع الأمر . وقافلة الحج عندما تفوت رجلا من هذا القبيل ، وإذا ما نسيه الجنس البشرى ، فإن البدو إذا ما وجدوه يحتضر ، فالأرجح أنهم يجردونه من كل ما معه ، بالرغم من أنهم يعلمون أنه لم يمت بعد . والجثث التى لا يجرى دفنها تأكلها الضباع التى تتبع رائحة القافلة . هؤلاء العجيل ليس فى قلوبهم رحمة ، وبخاصة أنهم يسيرون وراء القافلة . وليس هناك أحد على استعداد للقيام ، على طريق الحج بأى عمل من الأعمال الطيبة إلا "مقابل الفضه" أى (نظير أجر يتقاضاه)- ونحن إذا ما حيينا حياة طيبة ، فسوف نموت فى أمن وسلام ؛ وهذا هو ما نرجوه من الله ، فى حضور أصدقائنا !-

هناك بعض الذين يصابون بالإغماء وتخلفهم القافلة وراءها على امتداد سنوات الحج ؛ رجال من نسيج قديم ، وبشرة مريضة ، كان أملهم يتمثل فى الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم يعيشون على جانبى طريق الحج الطويل ، على صدقات المتصدقين ، ولكنهم لا يستطيعون القيام بهذه الرحلة الطويلة إلى مكة . ومن يسقط ميتا ، من هؤلاء الناس ، وبخاصة عندما يكون كبير السن ، فذلك يعنى أنه لم يشبع مطلقا أثناء الحج ، كما يعنى أيضا أن مثل هذا الرجل قطع حوالى مائتى ميل سيرا على قدميه اعتبارا من محطه مزيريب . (.....) (*) ومع ذلك ، فقد فهمت ، أن هناك أساسا دينيا ، راسخا منذ عهود السلاطين العثمانيين القدماء ، ويتمثل ذلك فى قيام هؤلاء السلاطين ، فى كل عام ، بإرسال أو بنقل عدد محدد من هؤلاء الدراويش المساكين ومعهم مؤنهم إلى الأماكن المقدسة . هذا يقضى بتخصيص جمل وقربه ماء لكل أثنين أو ثلاثه من الدراويش ، كما تخصص أيضا خيمة لكل مجموعة من هؤلاء المساكين . هؤلاء الدراويش قليلين جدًا ؛ أو إن شئت فقل : رجال "يرتدون الملابس الخشنة والرثة" ، هم أيضا من أصحاب الكلام الأجوف الذين يطلقون شعورهم ويربونها على شكل خصل طويلة ، أو قد يكونون من "المخبولين" الذين قد يهربون من كل الأصقاع سعيا وراء المحسن فى دمشق ؛ يفعلون ذلك من أجل أن يدرجوا تحت اسم أبناء النبى وبصحبة الشحاذين المساكين : هؤلاء المتدينون يجدون متعة فى الصرف على أنفسهم ولكن ليس من جيوبهم أو أموالهم الخاصة . وقالوا لى إن الحج فى الماضى لم يكن يمر عن طريق العقبة وإنما عن طريق مَنْزَل آخر فى الناحية الجنوبية الغربية ، التى تنساب إليها مياه السيول قادمة من جبل شراة . هذا جدَّار Jiddar؛ وقد قال لى أحدهم إن من السهل تمهيد طريق للعربات فى ذلك المَنْزل أو إن شئت فقل : الجدَّار.

الغرول ghrôl أو ghrûl (ويقصد به 'الغول') وحش من وحوش الصحراء الذى يؤمن بوجوده كل من الأطفال والنساء وكذلك الرجال . وليس هناك من أحد أتى على ذكر هذا المخلوق الذى يتحدث عنه العرب سوى فيلمون : Philemon والغولة عند البدوى لها عين واحدة مثل 'عين المارد الأعور' وهذه العين موضوعة فى وسط رأسها

(*) عبارات غير لائقة تمس الشعائر الاسلامية رأينا استبعادها . (المراجع)

الذى يشبه رأس الإنسان ، ولها منقار طويل ذو فكين ، ولها سن مدبب فى كل طرف من طرفى المنقار ، كما أن لها عنقا طويلا ؛ وجناحا الغولة يشبهان جناحى الصوص الصغير ، وأصابع يدى الغولة ليست مفصولة عن بعضها ؛ وجسم الغولة ضخم مثل جسم الجمل ، ولكنه من حيث الشكل يشبه جسم النعامة ؛ والغولة لا توجد إلا على شكل أنثى ، وأحد قدميها يشبه حافر جحش صغير ، والقدم الأخرى مثل قدم النعامة . والغولة تغوى المارة ، وتنادى عليهم بأسمائهم ، عبر الأرض الخراب ، حتى توهمهم بأن ذلك الصوت إنما هو صوت أمهاتهم أو أخواتهم . يقول البدوى ، إنه سبق أن شاهد ورأى ذلك الوحش ، الذى هو من نوع الجن ، وهو ميت فوق الأرض ، منذ زمن بعيد ، عندما كان يقوم بالغزو فى مضارب جهينة ؛ ولكن أحدا من جماعة الغزو لم يجرؤ على لمس ذلك الوحش الميت (الغولة) . وأقسم لى ذلك البدوى ، قسما مغلظا ، على أن روايته صحيحة أقسم لى باسم الله وبحياة ابنه أيضا . كان ذلك الرجل واحداً من مساكين الصحراء ، أو إن شئت فقل واحدا اسمه دولان Doolan، فى مدائن صالح ، اشتهر بأنه من المغرمين برواية الأساطير . لم يصدق أغا(*) القلعة ، أو إن شئت فقل : المحطة ، كلام ذلك الرجل ، ولكنه هو بنفسه رد قائلا : هذا صحيح ، بالرغم من أن هناك مخلوق وحشى ، شوهد مرات كثيرة فى هذه الأجزاء من الأرض ، وأن ذلك المخلوق يشبه الغولة ، ويطلقون عليه إسم السَّلَعوَّة . Salewwa هذه السَّلَعوَّة تشبه امرأة ، اللهم بإستثناء أن لها قدمان لهما حافران مثل حوافر الحمار الصغير" . وقد أقسم له كثير من الرجال بدينهم أنهم شاهدوا السَّلَعوَّة ، إضافة إلى أنه يعرف خمسة عشر رجلا من رجال القبائل الذين شاهدوا السَّلَعوَّة فى يوم من الأيام . وهذا هو "غزو كبير ، قوامه ثمانين رجلا من عرب أو بدو الشرارات ، شاهد الغولة عندما شبوا النار فى المساء ، ولكن عندما لم تجدى طلقائهم مع الغولة نفعا ؛ تناولوا جمار النار ليضربوا بها ذلك الشيطان المتمثل فى شكل إمرأة ، واستمروا فى ذلك الضرب طوال الليل ."

(*) أغا : من الألقاب التى استخدمها العثمانيون . وأصلها من الكلمة الفارسية " أقا " . وكان لقب الأغا يطلق على متولى الرئاسة فى الأوجاقات العثمانية كما استخدم للإشارة إلى أصحاب المناصب فى الدولة العثمانية . وفى القصور السلطانية للإشارة إلى كبير الخصيان أو على الخادم الخصى الذى يؤذن له بدخول غرف النساء . كما شاع إطلاق هذا اللقب على الرئيس أو القائد أو شيخ القبيلة . (المراجع)

وعلى بعد أميال قليلة غربى الطريق ، سمعت عن مكان فيه الكثير من الخرائب والأنقاض يطلقون عليه اسم عِينة Ayîna؛ ومن يذهب إلى ذلك المكان يشاهد الكثير من الأعمدة القديمة . وتوجد فى هذا المكان عيون ، كما ينمو فيه الكثير من الإثل الذى اسمه العلمى grottha . وعين واحدة من محطات مياه الصيف التى يلجأ إليها البدو ، يضاف إلى ذلك أن الصخور من حول هذه المحطة مليئة برسوم هؤلاء البدو . ونقلا عن أبحاث سبرنجر Sprenger، الذى كان كتابه المعنون "جغرافية الجزيرة العربية" خير معين لى فى ترحالى ، فإن مدينه إيرام IRAM يحتمل أن تكون فى هذا المكان ، "مدينة الأعمدة ، الجنة الأرضية" . وفى داخل الحسمة Hisma، وإلى الجنوب قليلا من منتصف الطريق بين معان والعقبه ، يوجد موقع أثرى قديم يطلقون عليه اسم خربة khurbet الروم er-Rumm، وهى عبارة عن عين كبيرة من عيون المياه ، تحيط بها تربة جرداء قاحلة ؛ كما توجد فى ذلك المكان أيضا بعض الأعمدة التى انهارت وسقطت إلى الأرض(*) .

وصلنا إلى مخيمنا عند غروب الشمس . وفى منطقة ذلك المخيم توجد مضارب بنى عطيه ، الذين يطلق عليهم فى الأجزاء التى فى اتجاه مصر اسم شيخهم المعازى el-Maazy : ومعازى Maaz هو شقيق عناز Anâz، الذى هو شيخ العنزى (والاسم يدل فى الحالين على معنى كلمة 'ماعز') . وهناك جزء من المعازى ينتشر بصورة غريبه فى المنطقة الواقعة خلف البحر الأحمر . وهم يسكنون حاليا تلك الصحراء من سيناء التى يطلق عليها العرب إسم "بلاد الهاربين من دفع ما عليهم" ، أو إن شئت فقل : بَر العجم el-Ajam Burr، أو بلاد الناس الذين يتكلمون لغة غير لغتهم . أو بمعنى أصح قارة افريقيا الكبيرة . حدث على مر العصور الكثيرة الكثير من الانتشار والتوزع لتلك القبائل الجائلة ، وهناك بعض الروايات عن قبائل هاجرت إلى أماكن بعيدة ، الأمر الذى جعلهم ينسون التربة التى نشأوا منها ، ولكنهم لم ينسوا عميدهم أو شيخهم ، ولم ينسوا وسمهم الذى بقى منهم وعرفهم به الناس !

(*) يذكر الرحالة الفرنسى ڤولنى Volney الذى قام برحلاته بين عامى ١٧٨٢-١٧٨٦ بأنه سمع من البدو عن وجود مدن خربة مقفرة كليا من السكان ، وفيها بعض الأبنية ذات أعمدة ، وأن البدو يأخذون إليها مواشيهم فى بعض الأحيان وإن كانوا كثيرا مايتجنبونها لكثرة العقارب الضخمة فيها . واستنتج ڤولنى أن تلك الخرائب لابد أن تكون أطلال مدن المنطقة التى ذكرت فى التوراة باسم ريدوم وعرفها الإغريق باسم إيدومة . وربما تكون هى نفسها التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى قوله تعالى " إرم ذات العماد " وإرم نسبة إلى سلالة سام بن نوح الذين كانوا يسكنون بيوتا ذات أعمدة . (المراجع)

يتلقى بنو عطية من إدارة الحج صُرَّة نظير كل القلاع والمحطات الواقعة على الطريق الصحراوى اعتبارا من هذه المنطقة إلى مدينة تبوك . والصُرْة (نفس المبلغ الذى يجرى توزيعة كل عام) تدفع للشيوخ حسب مكانتهم ، وطبقا لأسمائهم المسجلة فى كشف وزير الخزانة فى دمشق . والغريب بحق هو ارتباط روح أولئك الساميون بالغنيمة النقدية ، التى يحصلون عليها دون القيام بأى عمل من الأعمال ؛ من هنا يتعين على باشا الحج العام أن يكون رجلا حازما وله خبرة وحصافة آسيوية واسعة ، هذا يعنى أن ذلك الرجل يجب أن يكون له مكر الثعالب وشجاعة لها وزنها (وهذا هو حال النباتات ذات الألياف القوية ، التى تنبت من كومة من الزبالة والقاذورات فى بلاد الشرق) ، حتى يتسنى له قيادة قافلتة عبر كل المغامرات التى يقوم بها البدو المندفعين ، على طريق طويل وقاحل مثل هذا الطريق المؤدى إلى المدينتين المقدستين . وهناك روايات عن أن هؤلاء البدو ، إنقضوا قبل عشرين عاما ، غرة على الحج ، وهاجموه هجوما شديدا إلى حد ضرب الحراس والإستيلاء على الفور ، على المئات من إبل الحج وهى محملة بأحمالها . حدث ذلك نظير شىء بسيط يطلقون عليه إسم صُرْه Sarrat البنت el-bint أو إن شئت فقل "رزمة نقود الفتاة" . الذى حدث أن صُراف الباشا فى ذلك الحج وهو يوزع على الشيوخ المجتمعين ، فى محطتهم ، العطايا الفضيه ، والهدايا من الملبوسات والأوانى ، رفض أن يعطى هؤلاء الشيوخ تلك الصرة التى كانت مستحقة لاسم والد الفتاة ، وذلك عندما تأكد الصراف من وفاة والد تلك الفتاة قبل عام أو عامين ، ولكن البدو أخفوا خبر وفاة ذلك الرجل . كان الخير الذى يصيب ذلك الرجل فى تلك السنوات ، قد آل إلى ابنته اليتيمة ؛ وجرى عندئذ اكتشاف ذلك الخطأ ولكن أقارب الرجل طالبوا "بمستحقات البنت" ، كان والد تلك الفتاة هو الأخير من سلالة شيوخ بنى عطية ، وكان مبلغ صرته لا يتعدى ثلاثين شلنا ، أو إن شئت فقل ستة كراونات . وهنا انتهز أولئك الأعراب الأشرار الجشعين الفرصة وهاجموا القافلة ، وتصرفوا كما لو كان الحجاج الحضر أعداءً لهم ، وقتلوا بعض الأشخاص الأبرياء . هؤلاء هم قبيلة العجيلات الثانوية التى تعمل فى نقل الحجاج بين معان وتبوك .

هانحن قد نزلنا إلى أرض الجزيرة العربية ، وبذلك نكون قد تجاوزنا وتخطينا العلامات الأرضية المعروفة . هناك خطران رئيسيان فى الجزيرة العربية هما : القحط

أو المجاعة والقسوة الدينية المريعة ، أما الخطر الثالث فيتمثل فى سلاح اللصوص (...)(*) المتهورين(**) ، هذا يعنى ، أنه ينبغى أن يكون فى عيون هؤلاء الرجال ، رجل جدير بالعيش تحت السماء التى خلقها الله ، وإن قدر لمثل هذا الرجل أن يكون بلا دين : فلابد أن يكون قلبه نظيفا وأن يعانى طويلا تحت قميصه العارى ؛ وهذا يكفى ، وبالرغم من أن الطريق قد يكون مليئا بالأخطار والأضرار ، فمن حقه أن ينتقل فى كل أطراف الأرض . الأرض هنا ميتة ، وبالتالى إذا لم يمت ذلك الرجل ، فسوف لا يعود بشىء سوى الإرهاق المستمر الذى يصيب عظامه . الساميون يشبهون رجلا جالسا فى الوحل حتى عينيه ، ومع ذلك يلامس حاجباه السماء . ومن بين الآثار العظيمه للصحراء الساميه ، أن هناك لحظة فى كل مغامرة من المغامرات ، يستطيع الإنسان خلالها أن يسالم أولئك الساميين ، وبذلك يكون قد عرف العرب . أدى التشدد الوهابى إلى قسوة قلوب البدو فى أيامنا هذه ، ولكن كل خيمة من خيام البدو تعد مظهرا فى أرض إسماعيل (وبالتالى لا يمكن أن يوجد داخل هذه الخيمة أى جائل ملعون) . والشخص المطرود ، أو إن شئت فقل : الغريب أو الخارج على القانون ، إذا ما جاء وحده إلى خيمة غريبة من خيام البدو ، فلابد أن يقترب من تلك الخيمة بجرأة وشجاعة ، وبالتالى يهبون لاستقباله . ويكفى أن يسمعوا عنه تقريرا طيبا ؛ والمعروف أن العرب كلهم يعجبهم فى البداية الكلام الطيب . والقرى التى على شكل واحات أكثر خطورة . مستعمرات البدو فى البداية أفسدت تقاليد الصحراء العريقة . أرواح هؤلاء البدو عبارة عن بؤر للتشدد . وفيما يتعلق بى بوصفى كاتبا أو مؤلفا ، آمل ألا يبحث أحد فى هذا الكتاب عن شىء سوى رجل جوعان ، ومرهق أشد الإرهاق ؛ وفى غير ذلك ، فقد حولتنى الشمس إلى عربى ، ولكنها لم تلغينى أو تجعل منى شرقيا على وجه الإطلاق . والجزء العالى من بلاد العرب ليس كله رمال ؛ وإنما هو تربه جافة ، لا ترى قطرات

(*) كلمة غير لائقة رأينا استبعادها . (المراجع)

(**) لم تكن رحلة الحج نزهة ، إذ كان الحجاج يقضون عدة أشهر من العذاب . والكثير من المدونات العربية والأجنبية تفيض بما كان يلقاه الحجاج من أخطار الطريق ومن ظواهر طبيعية لايستطيعون لها دفعا كالحر اللافح أو البرد القارس أو السيل الجارف ، أو من عدوان العشائر البدوية فيموت منهم الألوف ويعود الباقون فى أشأم حال . وبالإضافة إلى مارواة " دوتى " أنظر على سبيل المثال : حوادث دمشق اليومية لأحمد البيرى ، تحقيق عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ . (المراجع)

المطر . وكل ما هو طرى ، مكون من الرمال ؛ يضاف إلى ذلك أن هناك بعض المروج الصخرية ، وكثيرا من الحصى والزلط ، يضاف إلى ذلك أن التربة الجرداء القاحلة تذروها الرياح . كما أن أحزمة الرمال العميقة وكذلك الحدود التى تحيط بالأحجار الرملية الجبلية ، والتى يطلقون عليها اسم النفود ربما كانت شبيهة بتلك الأحجار التى نطلق عليها فى بريطانيا اسم "الرمال الخضراء" . greensands وصحراء الجزيرة العربية ، بشكل عام ، عبارة عن أرض شاسعة جرداء وقاحلة ، ولا ينبت فيها العشب على نحو يكفى لإعاشة أى مخلوق من المخلوقات . ففى المساحة الصحراوية التى تساوى مساحة بيت بكامله ، لا تجد كثيرا من أنصال النبات أو أوراقة ، كما يندر أيضا العثور على أجمة أو دغل من الأدغال الصحراوية ، وإن وجدت تلك الأدغال فتلثى أجزائها لا تصلح غذاء للماشية وإنما هى لا شىء على الإطلاق .

فى المنطقة ما بعد معان لا يوجد أى أثر لطريق الحج فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ، الأرض هنا تشبه البحر ، ولا يمكن الاستدلال على الطريق إلا بالعلامات الأرضية : ولكن هناك طريقا طبيعيا فى الأرض المجوفة فيما بين العقبة ومكة . وأنا لم أر إلا نادرا بعض العلامات الأرضية التى على شكل أكوام من الحجر، التى تحدد مسار هذا الطريق القديم من طرق القوافل ، وتظهر تلك العلامات بالقرب من قرية معان ، كما تظهر أيضا عند تفريعة وادى Wady الأخضر . el-Akhdar وهناك واحدة من العلامات التى يطلقون عليها اسم ، دليل Dalil الحج ، التى يهتدى بها الحج ليلا ونهارا ، على امتداد تلك الرحلة الطويلة التى يصل طولها إلى ما يقرب من تسعمائة ميل بدءا من مزيريب حتى مكة . هذه العلامة الأرضيه يمثلها شخص دمشقى ، اعتاد القيام برحلة الحج كل عام منذ صباه وشبابه : وهذه الوظيفة الإرشادية يعينون فيها الحضر ، لأنهم لا يريدون أن يسلموا أمر الحجاج إلى البدو ، وأنا أرى فى أى مكان هياكل الإبل العظيمة المبعثرة هنا وهناك ، ولم أر أيضا جبال الرمال التى انهالت على أجساد تلك الإبل . ومرد ذلك إلى أن العرب يبلغون من الفقر حداً يعجزهم عن فقدان المواشى أو ضياعها ؛ ولكن هذه الحكايات هى وغيرها ذات توجهية أوروبية مشرقية أكثر منها شبها بالخبرة أو التجربة العامة . والحج من سوريا يعد أهم قوافل العالم الشرقى الصحراوية ، هناك بعض الإبل التى تصاب بالإعياء بسبب ضعف أخفافها (واحدة

خف الجمل) ، بفعل طول الرحلة وسرعة المسير . وإذا ما أصيب جمل فى خفه ، وأدى ذلك إلى النزيف ، فإن مثل هذا الجمل يباع للبدو مقابل شلنات قليلة ، وبعد راحة قد تستمر عدة أسابيع يعود مثل هذا الجمل إلى حاله السابق ، ولكن إذا لم يوجد المشترى الذى يمكن أن يشترى مثل هذا الجمل ، فإن المسئولين عن القافلة يبادرون إلى ذبح الجمل حتى يتسنى لهم أخذ جلده ، ثم يستأنفون المسير بعد ذلك . وعندما تعثر الضباع ، والذئاب والثعالب التى تتعقب القافله ، تأتى على اللحم وتترك العظام متناثرة هنا وهناك . وأنا لم أرى مطلقا أى هيكل عظمى فى الصحراء أو مدفونا بفعل الرياح المحملة بالرمال ، التى تهب هبوبا خفيفًا ، ويندر أن تهب على المناطق الداخلية من الجزيرة العربية .

وفى المنطقة ما بعد معان ، ليست هناك محطات لراحة الحج وإنما يستمر المسير ويتواصل ليلا ونهارا ، ولذلك بدأنا السير عند الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل . وعند طلوع النهار شاهدنا صاروخاً وقد انطلق إلى الأعلى ، يؤذن بالتوقف لأداء الصلاة وقضاء نصف ساعة فى الراحة : وبعد نزول الجميع من فوق الدواب ، استلقوا جميعا على الأرض ، هذه هى ظهورنا وقد انكسرت بفعل ركوبنا الإبل فترة طويلة . أما الجمال التى يتعذر إنزال حمولتها عنها ، فتقف الواحد بعد الآخر مع الجماعة التابعة لها ، ويجرى ربط كل هذه الإبل ، حتى يسهل سوقها وقيادتها ، وهذا شأن يخص المسئولين عن أسلوب تحريك القافلة ، وليس بأسلوب البدو . نحن الآن فى سهل رملى نراه مثل رف من أمامنا ، ولكننا لا نميزه تماما ؛ فى اتجاه الغرب ، وعلى بعد أميال قليله من الطريق ، أرى حدود جبال الحسمة Hisma المدمرة ، وتتجلى لى من خلال أشكالها على إنها من الحجر الرملى . وعلى الجانب الآخر أرى مرتفعات منخفضة لها الشكل نفسه ، ولكنها على مسافة أبعد بكثير من المسافة التى تبعدها عنى حدود جبال الحسمة ؛ هذه المرتفعات المنخفضة تمتد داخل أرض بدو الشرارات الرُّحل ، كما تتجه تلك المرتفعات المنخفضة نحو الطريق أيضا . هاهو الرمل الناعم من تحت أقدامنا ، وهاهم الشبان الدمشقيين الذين يخدمون الحجاج ، يجرون ويسقطون على الرمل الواحد فوق الآخر ، ابتهاجا بقطع هذه المسافة الطويلة على ذلك الطريق المقدس ؛ وفى بعض الأماكن الأخرى نرى تربة هذا المكان على شكل رصيف من الأحجار الرملية

وهى تتماوج فى تلك البحار الكوكبية القديمة . وقبل حلول موعد الظهر بساعة واحدة ، كنا قد صعدنا مسافه ثلاثة أميال خلال حزام منخفض من الأحجار الرملية الصخرية ، التى تمتد على شكل سلسلة إبتداء من قرية الحسمة Hisma، وتواصل امتدادها هابطة إلى حفرة فى السهل قبل قلعة أو إن شئت فقل : محطة المدوَّرة Medowwara، التى وصلنا فيها إلى الماء . المكان هنا قاحل ؛ والقلعة ، أو المحطة مبنية بجوار عين من عيون الماء ، وهى محمية حاليا بواسطه قبو من تعدى البدو عليها ؛ أحسسنا هنا بحرارة الظهيرة الشديدة كما أحسسنا أيضا بالشمس وهى تحملق فينا من بين الرمال ، ومن ثم كنا بين حرارتين .

عن يميننا يوجد جزء من الصحراء يطلق الحجاج عليه اسم حلة Hallat عمار Ammar، والتى يقولون عنها ، إنها كان محلها مدينة قديمة ..عمار هذا كان مقومًا من مقومى الحج ، ذهب إلى ذلك المكان بحثا عن الماء فى وقت قائظ شديد الحرارة ، ولم يجد فى ذلك المكان أى شىء سوى أرض يتصاعد منها البخار والدخان ، هناك من يقولون شيئا آخرا أفضل من ذلك : "حلة العمَّار تقع عند الممر الوعر الواقع بين المدوّره ودذات Dzat (ويصح فيه أيضا That-el) الحج Haj؛ حيث أدت حرارة الشمس المحرقة ، إلى جفاف قراب المياه ، التى كانت مع الحجاج ، الأمر الذى أدى إلى تبخر ماء القرب متحولا إلى دخان الأمر الذى أسفر عن احتضار القافلة" . أخبرنى البعض أنهم شاهدوا بعض النقوش . وعند الساعة السادسة صباحا ، وبينما كنا نصعد من ذلك الحزام من تلال الحجر الرملى المنخفضة ، بدأنا نسير من جديد فوق سهل من الرمال الزلقة الضحلة . ومع شروق الشمس شاهدت أول اخضرار للنباتات ، بعد أن غادرنا جبهة العقبة ، وها نحن الآن نجتاز منطقة من الزلط المكون من الحصى الناعم ؛ هذا الحصى الصخرى الرملى الذى يكثر فى الأراضى القاحلة الجرداء . كانت السماء العربية صافية من فوقنا ، وفجأة سكن الهواء وازدادت حرارة الشمس . سرنا نحو ساعة أو ساعتين ونحن نصعد تقاطعا آخرا من الصخور الرملية وصخور الحديد : وعند الساعة الرابعة عصرا وصلنا إلى خيامنا ، التى نصبوها بالقرب من دغل من أدغال النخيل البرى الذى لا يحمل ثمرا ؛ وفى ذلك القاع الرملى شاهدنا نموًا كثيفا من الشجيرات الصحراوية ، وكل هذه مؤشرات إلى أن المياه الأرضية فى منطقة

الحسمة ليست على بعد كبير . فى هذه المنطقة كانت ترتع قطعان الرعى من إبل أولئك البدو الرحل الذين يتتبعون قافلة الحج . فى هذا المكان الأخضر الذى يسر الناظرين الدمشقيين ، جرى تشييد قلعة ، او إن شئت فقل محطة من محطات الحج . ومن حولها نخل باسقات على شكل بستان يطلق البدو عليه اسم الحج el-haj ويصح فيه أيضا ذات الحج Thàt . Haj توجد فى منطقة البستان هذه صهاريج للمياه مغطاة بأقبية ، ولم يكن هناك ماء إلا فى واحد فقط من تلك الصهاريج المبنية ، وهذا يدل على أن عظمة وبهاء الحج تناقصت عما كانت عليه من قبل . والماء ينساب إلى تلك الصهاريج من عين لا تبعد مسافة كبيرة عن تلك الصهاريج ؛ وطعم هذا الماء تفوح منه رائحة الكبريت . والصُرَّة ، فى هذه المنطقة ، تدفع للربيلات Robillat، الذين هم من بنى عطية . وقالوا لى إن المياه التى يجىء من سيل جبل شراة ، تنزل إلى هذا المكان ؛- هل يصدق هذا؟ ! وبعد حرارة النهار كان القسم الأخير من الليل بارداً . وفى الصباح الباكر انتشر الخدم من حولنا وهم يرددون اللازمة القديمة "بالسلامة : bes-salamy هؤلاء الخدم يعرفون أن هذه المنطقة ، فى هذه المحطة تمثل ثلث طول طريق الحج الطويل إلى مكة .

استأنفنا المسير عند الساعة السادسة ، وكانت تنتظرنا رحلة طويلة ، فى تربة صحراوية أكثر تماسكا وأشد صلابة ، يتخللها فى الوقت الراهن بعض الحصى البركانى . وفى اتجاه الغرب ، مازلنا نرى ساحل الحسمة الجبلى هو هو لم يتغير ، وفى اتجاه الشرق مازلنا نرى تلال الشرارت المكونة من الحجر الرملى . فى هذه البلاد توجد "الأبقار البرية" وذلك المخلوق الذى لم يعرف فى أوروبا منذ ذلك الحين - هذه "البقرة الوحشية" أو إن شئت فقل البقرة البرية - هى نوع من الوعول . هذه الوعول تتجمع على شكل فردين أو ثلاثة أفراد ، وتجرى بأقصى ما يمكنها من سرعة عبر تلك الرمال الخالية من الماء ، حيث لا تشرب الماء مطلقا . قامت الحامية القائمة على أمر محطة الحج بتربية واحد من تلك الوعول ، والتى سبق للبدو الرُحل الإمساك به ، عندما كنت فى معان فى المرة السابقة ، وكان بوسعى شراء ذلك الوعل مقابل عشرة جنيهات إسترلينية . بلغنى بعد ذلك أن هذا المخلوق الجميل ، جرى نقله فى موسم الحج التالى ، بعد وضعه فى صندوق من الصناديق التى تحمل على البغال ، ثم جرى نقله إلى دمشق ، ومن دمشق جرى نقله إلى القسطنطينية ، على سبيل الهدية من ضابط الحج

الإمبراطورى إلى السلطان عبد العزيز ،- والشرارات هم بنى مُكْلب Müklib Beny من البدو الشعراء : والشرارات ليسوا من البدو الرُّحل ، وقد أبلغونى ذلك بأنفسهم ، ولا علاقة لتسميتهم بجبل شراة Sherra على الإطلاق .

ركبنا إبلنا طوال ذلك اليوم القائظ ، ونحن منحنون مع خطوات الإبل الواسعة ، على أعناق الإبل ، راكعين ما يقرب من خمسين مرة فى الدقيقة الواحدة ، سواء شئنا أو لم نشأ ، ونحن فى طريقنا إلى مكة . كان عدد الحجاج الفرس ، الذين يركبون جمالا من حولى ، يقدر بحوالى سبعمائة حاج ، القسم الأكبر منهم من الفلاحين ، نظرا لأن الأثرياء هم ومن يعيشون حياتهم بنعومة يكونون أقل حماسا للمقدسات عن تلك الأجسام الضعيفة التى لا راحة ولا عزاء لها فى هذه الدنيا . ولما كان أولئك الحجاج الفلاحون الفرس متمنطقين ، فقد كانوا يرتدون معاطف تنزل إلى ما بعد الركبة ، وكانوا يرتدون من تحت تلك المعاطف ملابس رخيصة وفضفاضة مصنوعة من القطن ؛ كما كانوا يضعون فوق رءوسهم أغطية رأس عالية مفرَّاة كما لو كانوا من الإسكلافونين . بلغنى أن "تكريم ذلك الفلاح الفارسى لرأسه" على هذا النحو يكلفه حوالى ثلاثة جنيهات إنجليزية . هؤلاء المسافرون يحملون معهم عباءة سوداء اللون ، نسيجها من شعر الماعز الناعم الجميل أو من الصوف . هؤلاء الحجاج الفرس ، ذوى اللحى الحمراء ، وأصحاب اللحى المصبوغة باللون الأحمر ، وأصحاب السلوكيات اللطيفة ، يشبهون إلى حد كبير ، فى الأديان الأخرى ، الحجاج المسكوفيين الشرقيين الذين يجيئون إلى القدس . هؤلاء يقتصدون فى إنفاقهم سنوات كثيرة ، حتى يؤقلموا أنفسهم على تلك الرحلة الدينية العظيمة . جزء آخر من هؤلاء الناس ، عبارة عن متطفلين ، يقطعون هذه المسافة كلها لزيارة المدن الغربية ، وأنا كنت على يقين أن من بين هؤلاء الناس أناس جاءوا من ديار تقع فى جبال فى الجزء الخلفى من بلاد فارس ، هذا يعنى أن صعود هؤلاء الناس للسواحل الحادة ونزولهم منها ، استمر حوالى ثلاثة أشهر عبر ذلك البلد وعر المسالك ؛ هذا يعنى أن سفر هؤلاء الناس قد يستمر قرابة الاثنى عشر شهرا بدءًا من الرحلة حتى الوصول إلى المدينه المقدسة (القدس) . وقد أبلغنى ، أحد زبائن الأغا ، الذى كان واحدا من مرضاى ، والذى كان يقود دابة الأغا فى الطريق إلى دمشق ، أبلغنى أنه كان يمضى كل عام أحد عشر شهرا من بين الاثنى عشر شهرا فى السير

على قدميه على طريق الحج العظيم . وعندما سألته عن كيفية تحمله لمثل هذه المشقه ، رد على رد المسلمين قائلا "الله!" بمعنى الله يكفينى أو الله هو معينى . كان ذلك الرجل واهنا وهزيلا قبل أن يصل إلى منتصف العمر ، ومن غير المحتمل له أن يعيش بقية حياته . ليت أمه كانت عاقرا ، بدلا من أن يحمل رحمها حياة شاقة مؤسفة من هذا القبيل ! والحجاج الفرس يلبسون أفضل النِّعال ، والنعلة التى من هذا القبيل عبارة عن نعلة سمكها فى حجم ارتفاع الإصبع ، وهى مصنوعة من طبقات القطن المضغوط ، ولذلك فهذه النعلة تكون خفيفة ولينة من تحت القدم ، عمرها أطول من عمر النعلة المصنوعة من الجلد الخالص . هؤلاء الفرس متحضرين ومتجانسين (ولكن ذلك لا ينطبق على العرق البدوى من الساميين) ؛ ولكن هؤلاء الفرس يتمتعون بدهاء نخر من الناحية الدينية ، فهم خطاءون فى حق هذا العالم وخطاءون فى حق أرواحهم . هذا يعنى أن خيالك إذا ما مر على الطبق الذى يأكلون منه فذلك يعنى أن ذلك اللحم أصبح نجسا وملوثا ، وبالتالى لا يأكلون من مثل هذا الطعام ، كما أنهم لا يأكلون مع أى من المسلمين السلفيين ، أو إن شئت فقل : من السنة . وسرج الدواب التى يركبونها تعلق فيها زمازم معدنية لحفظ الماء ، الذى ينعزلون فى كل مناسبة ليستخدمونه استخداما خرافيا ، فى الاغتسال بطريقة كريهة .

فى موكب الحج يركب رجل واحد فقط على الجمل ، ومعه خرجين مصنوعين من السجاد ، يضع فيهما إلى جوار مؤنه ، بعض السلع التجارية للسوق المقدسة فى مكة ، ومبلغ علمى أن هؤلاء الحجاج لا يستعملون الإبل فى بلادهم ، حيث يوجد كثير من الماء فى الطرق الصحراوية ، ولكنهم يفضلون أو إن شئت فقل يركبون البغال . وهذه قلة قليلة فى الوقفات الطويلة ، وكلهم من الكتبة ، يتناولون كتب الصلاة ، ومن هذه الكتب (كما هو الحال عند معظم أهل الشرق) يروحون يترنمون وينشدون كلاما يدل على الإخلاص والطاعة والولاء ، وهم يقطعون الأميال . راكبين فوق سُرَج الإبل غير المريحة ، قاصدين الأماكن المقدسة . وشاهدت من بين هؤلاء المنشدين امرأة ، زنجية ، تخدم بعض النساء الفارسيات ، واللاتى ترتدين ملابس وكأنهن ذاهبات لحضور مأتم أو جنازة من الجنازات ، كانت تلك النسوة يركبن فى صندوق من صناديق الإبل التى كانت تسير أمامنا ، كما شاهدت معهن طفلا أيضا . وبخلاف هؤلاء النسوة لا أذكر

أننى شاهدت أحداً غيرهن ومعهن ذلك الطفل الصغير فى القافلة كلها . ومن دمشق كانت هناك نسوة كثيرات متدينات قاصدات مكة لأداء الحج ، ولكنهن فى الوقت الراهن أصبحن يركبن البحر إلى جدة ومنها بعد ذلك إلى مكة بطريق البر ؛ والسبب فى ذلك أن الرحلة البرية قاسية تماما على النساء ، فضلا عن التكلفة الكبيرة التى تتحملها أسر هؤلاء النساء ؛ كما أن من يصطحب حريمه فى الحج يكون عرضة للسخرية والانتقاد . وبالرغم من ذلك فإن باشا الحج يكون بصحبته فى بعض الأحيان واحدة أو اثنتين من ربات البيوت المتدينات ، ومعاناة هاتين المرأتين تكون أقل من معاناة النسوة اللاتى يركبن فى صناديق مغطاة بالرغم من أن خطو الجمل الطويل المنحدر ليس بالسهل مطلقا . يضاف إلى ذلك أن الكثير من تلك الصناديق التى يركب فيها البشر تُحَمَّل أيضا على ظهور البغال ، وبذلك تكون ركوبة مريحة ، كما تُحَمَّلُ تلك الصناديق أيضا على ظهور الخيول .

وهنا يجب ألا يغيب عنا أن هؤلاء الناس لو كانوا يفكرون بطريقة صحيحة لحملوا معهم كل أشيائهم فى عربات مغطاة ، شأنهم شأن بعض شيوخ بنى إسرائيل الذين تجولوا فى تلك الأرض الجرداء القاحلة فى الأزمان القديمة . والطريق بكامله هنا عبارة عن سهل إضافة إلى أن العقبة نفسها لم تكن بمثل هذه الوعورة . وبخاصة فى المنطقة التى تستطيع الأورطة(*) عندها الهبوط ومعها مدفع ميدانى مصنوع من النحاس الأصفر وعياره خمس بوصات ومجرور على عجلات ؛ ولكن ذلك ليس هو الاستعمال أو الأمر الشائع ! إذ ما يزال الصندوق الدمشقى الذى يشبه مهد الطفل من حيث الشكل ، والذى لا يحمل سوى شخص واحد ، وبالتالى يركب شخص واحد فى كل جانب من جانبى هذين الصندوقين ، اللذين يوضعان فوق ظهر الدابة ، حتى يكون هناك شىء من التوازن ؛ يجرى أيضا ضم اثنين من هذه الصناديق على شكل هيكل سرير من فوقه تندة من القماش . وكان من عادتى أن أشاهد كل يوم ، هيكلا من تلك الهياكل ، وهو

(*) الأورطة ، كلمة تركيه الأصل Jurdeh ويصح فيها أيضا Jurdy ، ويقصد بها الطابور العسكرى الذى يغادر دمشق بعد بدء الحج بشهرين ويسرع الخطى على أمل لقاء الحجاج عند عودتهم فى مدائن صالح ليقوم بتغيير الحرس استعاضة المون . (المترجم)

يتأرجح من فوق ظهر بغل متين ، على بعد مسافة قريبة من أمامنا ، ومن فوق هذه التندة شاهدت صليبا يونانيا جميلا مطرزا باللون الأحمر ، ولا أدرى إن كان ذلك من قبيل التعاويذ أم من قبيل الزينة . وفى بعض الأحيان قد تخيط النساء المسلمات صليبا على ملابس أطفالهن المرضى أو المعتوهين ، وقد تلجأن إلى تعميد أطفالهن بواسطة قس إغريقى على سبيل الرقى أو التعاويذ ، أو قد يرشهن القس نفسه بالماء ، (طلبا لزيادة الخصوبة !) أو قد تشربن ما يسمى بالماء المقدس على سبيل الخرافة . وهناك بين الفرس فئة قليلة من الناس يدخلون فى عداد المنفقين الأسخياء يركبون دوابهم ومعهم شياشهم المشتعلة التى تفوح منها رائحة التبغ الفارسى الحلوة ، كل ذلك وهم راكبين داخل تلك المهاد أو التندات الدمشقية . الحجاج الأغنى من ذلك ، كانوا عبارة عن اثنين أو ثلاثه من سلالة كبار الشخصيات الفارسية الذين أقيم لهم جناح واسع فى كل محطة من المحطات : وباستثناء تلك القلة القليلة التى صادفتها ، فأنا أرى أن أعيان الفرس هم أصحاب القلوب السوداء والنوايا السيئة والمتجهمين أيضا من بين الأمم كلها . كان الأغا الذى نتبعه يجىء ترتيبه بعد هذه الفئة القليلة من حيث الفكر ، اللهم باستثناء أن هؤلاء الأعيان ، وهم يعيشون حياتهم فى دمشق كانوا يبتسمون ابتسامة تسر الخاطر مثل ابتسامة العرب تماما .

ربما يصل معدل سير طوابير الحج البطىء ، فى هذه السهول ، إلى حوالى مائة خطوة . ترى كم كان معدل سير قافلة سيدنا موسى عليه السلام ؟ ونحن إذا ما عرفنا أن عدد بنى إسرائيل يقدر بحوالى ٢٥٠٠٠٠٠ نسمة ، وأربعة من الإبل تسير كلها فى صف واحد ، فإن ذلك من واقع ملاحظتى ، أكبر بكثير من سعة المرور فى وديان سيناء المستقيمة التى تحيط بها من الجانبين كتل الصخور التى تساقطت من الجبال على جانبى الطريق . هذا يعنى أن قافلة إسرئيل يجب أن تكون أربعة أضعاف قافلة الحج أو إن شئت يزيد طولها على مائتى فرسخ (*) ؛ ومعروف أيضا أنه إبتداء من السحابة أو إن شئت فقل : النار إلى آخر رجل من مشاة يعقوب Jacob، فإن المسافة تكون أكبر بكثير مما تقطعه قافلة الحج فى أطول شهر من شهور السنة ! ولكن ماذا عن

(*) معروف أن الفرسخ يعادل ثلاثة أميال . (المترجم)

دواب بنى إسرائيل فى تلك المتاهة المريعة والمخيفة ؟ وبفرض أن عدد إبل بنى إسرائيل كان يقدر بما يتراوح بين ٣٠٠٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠٠٠ جمل ، وبفرض أيضا أن ماشيتهم الصغيرة كانت تقدر بحوالى ٧٠٠٠٠٠٠ رأس ؛ هذا بالإضافة إلى ما كان لديهم من الثيران والحمير ! فهل يمكن لنا أن نتصور أو نتخيل ، أن سيناء ، التى تعد أفقر المراعى الصحراوية قاطبة ، يمكن أن تتحمل عددا من هذا القبيل ، أو أن هذه الصحراء فيها ما يمكن أن يكفى لإطعام هذا العدد من الماشية والدواب مدة ثلاثة أيام ؟

كنت ، فى بعض الأحيان ، أرى شيئا ثقيلا يتدحرج فوق كل رءوس الناس والدواب . وسط القافلة التى تواصل مسيرها ، ذلك هو الإطار الخارجى للمحمل وأعمدة ذلك المحمل المقدس الذى يحمله جمل من الجمال ؛ والمحمل يشبه هيكل سرير من الأسرة ، وهو يشبه الهودج الذى تركب فيه النساء البدويات . والمحمل مكسو من أعلى بغطاء جميل من القطيفة خضراء اللون ، ذلك اللون الذى كان يفضله النبى (ﷺ) ، يضاف إلى ذلك أن الأعمدة الأربعة يعلو كل واحد منها غطاء من الفضة اللامعة . كما فهمت من كبار علماء الحج أن ذلك الصندوق ، هو النمط أو النموذج المتفق عليه فى الحج ، فيما يتعلق بالتنكر الأثرى فى الجزيرة العربية ، بل إن هذا النموذج هو النموذج الوحيد المتبقى بين البدو ؛ هذا الهودج يستعمل أيضا فى حالة نشوب القتال بين القبائل ، إذ تركب فيه امرأة جميلة من بنات شيخ القبيلة ، تلهب بحدائها ، قلوب شبان قبيلتها الصغار ، وهم يواجهون أعدائهم ، ليتزايد على إثر ذلك عدد القتلى فى الرقصات العسكرية التى تكون من هذا القبيل . يوضع داخل صندوق المحمل الذى يرافق الحج ، ذلك الذى يسمونه الكسوة ، أو إن شئت فقل : هدية سلطان الإسلام ، الجديدة المصنوعة من الحرير ، والتى تستعمل غطاء للكعبة فى مكة ، التى "أسسها (سيدنا) إبراهيم عليه السلام" . شاهدت ذلك المحمل ، أو إن شئت فقل : ذلك النموذج ، فى كل المحطات التى توقف الحج عندها ، وهم يضعونه أمام الجناح المخصص لباشا الحج : شاهدت أيضا مع القافلة صندوقين طويلين فيهما أغطية لقبر محمد (ﷺ) (*) . وإذا ما نظرنا إلى الحجاج الأتقياء ، نجد أنهم عبارة عن جيش غريب ، يضاف إلى ذلك أن

(*) الأصح أن يقال الحجرة النبوية الشريفة . (المراجع)

المكر والخداع فى قلوبهم الآسيوية أكثر من الدين ؛ كما أن صحبة القديسين فى الأرض جد قليلة (*) . وقد عجبت عندما رأيت خدم الحج ، والكثيرين منهم لهم نزعات مدنية ، لا يملكون لها حراكا فى مواطنهم . ويقطعون من أجل هذه النزعات مسير أربعين يوما إلى كل من مكة ومنى . طوال هذه الرحلة يندر الماء بشكل عام وتسوء نوعيته ؛ يضاف إلى ذلك أن هؤلاء السوريين الذين يسكنون بلاد الحجر الجيرى معتادون على شرب أنقى أنواع الماء . وهم يسيرون طوال النهار ولا يضعون الطعام فى أفواههم إلا فى وقفات المساء فقط ، حيث يقومون بطهى وجبة من طحين القمح على شكل خليط مع أشياء أخرى ؛ ويندر على هؤلاء السوريين أن يشتروا اللحم من مالهم الخاص . ولكن كما يقول المثل : الناس لا يعرفون ألم المعاناة إلا بعد المحاولة ، يضاف إلى ذلك ، أن البشر تزداد قدرتهم على التحمل عندما يكونون فى جماعات . قلة قليلة من الناس هم الذين يصيبهم الإعياء ؛ أضف إلى ذلك أن الطبيعة السامية بحكم ضعفها وعدم صلابة معدنها لها مزاج عجيب وتعانى الكثير حبا فى الله . وكل واحد منهم يضفى على نفسه هالة (وقد يكون مجرمًا بحكم قانون البشر) وهو يسعى "إلى بيت الله الحرام" : وعند العودة يستصوب ذلك التحمل للإنسان رؤيته لبيته وأهله وأصدقائه .

أجر سائق الجمل الذى يسير على قدميه إلى مكة يقدر بحوالى ٨ جنيهات إنجليزية ؛ ولما كان القسم الأكبر من الحج يعود بواسطة البحر ، فذلك يحتم على الكثيرين من أولئك الخدم الذين يجرى الاستغناء عنهم ، البحث عن وردية جديدة عند العودة . فى مجموعتنا التى وصل عددها إلى عشرين شخصا كان السواد الأعظم منهم من التلاميذ الدنيويين المبتدئين قليلى الخبرة : وكان المقومون يزهون بهؤلاء الصبية الذين كانوا يخدمونهم بلا أجر ، سوى نقل طعامهم ومائهم . والمعروف أن مقاولى العُمَّال يلتحقون كل عام بقافلة الحج ، لأنهم يكسبون القسم الأكبرمن عيشهم من هذه الرحلة : يضاف إلى ذلك أن هناك أناسا كثيرين يستمرئون ذلك التعب تماما الذى يلاقونه على ذلك الطريق المقدس ، إلى حد أنهم يعاودون الاشتراك فى تلك الرحلة مرة بعد الأخرى ، ولا يتنازلون عن ذلك مطلقا . وبالرغم من وسم سائقى قافلة الحج بالقسوة والوحشية والوقاحة ، إلا أنه لم يكن بين أفراد مجموعتنا سوى واحد أو اثنين

(*) هذا هو رأى المؤلف فى الحجاج وهو يعكس التعصب الغربى ضد المسلمين ، وقد رأيت من الأفضل الالتزام بترجمة النص كاملاً لمعرفة فكر الرجل وإعطاء الفرصة لتغير هذا الرأى وإبطاله (الناشر) .

من أولئك الصبية القساة ، أما البقية فكانت من شباب دمشق المساكين ، الذين يشيع عنهم أنهم يتسمون بالصدق والأمانة . كان الرَّيس يتلقى مبلغا مضاعفا ، أى ١٦ جنيها إنجليزيا : كان ذلك الريس واحداً من أولئك المتمرسين تماما على ذلك الطريق ، وكانوا يطلقون عليه اسم أبو رشيد Rashid Abu ومن صناع "القباقيب" وضعيف أيضا ضعف الفاجرين الداعرين ، كان ذلك الريس يمضى ثلثى العام فى سوق محل إقامته ، أسفل الجامع الكبير فى دمشق : ولكن عندما يدخل شهر الحج (الذى يسبقه شهر الصوم عندهم ، والذى يعكر صفو الجسم ، ويكون بمثابة استعداد سيئ لتلك الرحلة) فإن ذلك الرَّيس ، يهجر كل شيء ، ويتغيب طيلة أربعة أشهر ليعاود زيارة الحرمين الشريفين ويحضر معه من تلك الأعمال التطهيرية المرهقة ، قليلا من النقود التى يعول بها أسرته الأمينة ، ثانى العمال المهرة من بين أفراد جماعتنا هو ذلك السائق الذى كان يسوق جملى ويخدمنى ؛ هذا الرجل صاحب بنية قوية وقلب جرئ ، ميال بحكم طبيعته ، إلى الخير ، ولكنه قد تخونه طبيعته بحكم شائبة صغيرة من شوائب التهور الإجرامى ، تترسب داخل هؤلاء الناس ، الأمر الذى قد يجر مثل هؤلاء الناس إلى أساليب السوء والشر فى هذه الدنيا . ورفاق هذا الرجل يطلقون عليه اسم الأسود el-Eswed، لأن بشرته تميل إلى اللون البنى ، والتى يعزونها إلى شيء من التشوه . هذا الرجل كان فى يوم من الأيام واحداً من عصبة الخطر فى دمشق والتى يطلقون على أفرادها اسم "المعترين" ؛ هؤلاء المعترون تشيع بينهم البشرة الداكنة والقوة الساحقة ، وهم يعيشون حياتهم معتمدين على العنف . وقبل سنوات قليله من تجنيده ، نجح فى الهرب ، وراح يسافر هنا وهناك بعيدا عن طائلة القانون ، بل وصل به الأمر إلى حد السفر هنا وهناك عن طريق البحر ؛ هذا الرجل يعيش حاليا متخفيا ومستترا فى دمشق ، كما يعمل أيضا جامعاً للأعشاب . والأسود Eswad يتقاضى من المقوم ١٢ جنيها إنجليزيا إلى مكة : يضاف إلى ذلك أن الخارجين على القانون لا تجرى ملاحقتهم فى قافلة الحج .

كل أفراد الخدم الدمشقيين الذين كانوا يصاحبون الجماعة الفارسية كانوا يعلمون أنى نصرانيا ؛ وواصل هؤلاء الخدم ثرثرتهم حول ذلك الأمر ولكن بدرجة أقل من تلك الثرثرة التى عزلتنا الجماعة الفارسية بها عن بقية الجماعات التى تتكلم اللغة

العربية . وكالعادة تسلط عليَّ اثنان من معكرى الصفو اللذان لا يعرفان معنى الحياة ساعة بعد أخرى ، وراح الأسود Eswad يؤنبهما ويوبخهما توبيخًا شديدا قائلا : 'فين دينك' ؟ كان الأسود يركب جمله بطريقة أنيقة ورشيقة ، كما كان منتصب القامة كما لو كان مشعابا أو عصا تتحكم تحكما شديدا فى محفة مدرب الإبل بقوة لا بأس بها ، وفى المسيرات الكبيرة كنت أنزل من فوق دابتى وأسير على الأرض بضعة أميال عله يركب ويستريح بعض الشىء . والعرب ، بحكم انشغالهم التام بتوافههم ، يضيقون ذرعا بمعارضة الغرباء لهم ، وعندما كانت القناعة المتزمتة ، التى تمتلئ القلوب فيها بألم الطريق واضطراباته ، تجعله يتبرم من النصرانى ، كنت أقول له : "ما رأى أبو سعد فى ذلك !" كان ذلك الرجل مسكينا صائب الرأى تعرفت عليه مصادفة فى دمشق : وتصادف أن يكون ذلك الرجل سيدا لأسود Eswad نفسه ، ولذلك كان من عادته أن يناديه بلقب الأب ؛ هو واحد من هؤلاء الذين تصالحوا مع الدين واسترضوه ، عن طريق الصوم يومين كل أسبوع . ولكن أبا سعد بحكم الخميرة القديمة التى كانت فيه كان يتفاخر ويتباهى بأن "الناس المعترين Muatters كانوا يخشونه ويخافون منه : " وهذا هو أسود Eswad ينظر إلىَّ مليا عندما ذكرت اسم أبا سعد . تعرفت على أبى سعد بوصفه أحد معارف الأسر المسيحية فى دمشق . فى تلك المذبحة التى وقعت للمسيحين منذ سنوات بعيده ولَّت وانتهت(*) ، شاهد أبو سعد بينما كان يجرى فى الشارع واحدا من أفراد الأسرة ، يحاصره القتلة المسلمون فى ركن من الأركان ، ويصيحون فى نفس واحد : "هيا ، اهجموا على النصرانى واقتلوه ." ربما كان الموقف الذى كان يكابده ذلك الرجل النصرانى الذى كان يرتعد خوفا كفيل بإنهاء حياته ، ولكنه فكر برهة من الوقت ، ثم لمس بيده واحدة من تلك العمائم البيضاء ، وبعد أن تعرف صاحبها ، قال له : "أنا دخيلك"، أو إن شئت فقل : "أتوسل إليك." وعندما أحس

(*) من الواضح أن المؤلف يشير فى هذا المقام إلى حوادث الستين (١٨٦٠) فى الشام ، التى بدأت كحركة إقطاعية ثم اتخذت شكلا دينيا حينما ثار الدروز فى المناطق المختلطة على سادتهم من النصارى ، وكذلك فعل النصارى وامتدت الفتن من جبل لبنان إلى دمشق . ودارت بين الدول الأوروبية الكبرى محادثات انتهت بأن أرسلت فرنسا على عهد الإمبراطور نابليون الثالث باسم أوروبا حملة عسكرية إلى بيروت (١٨٦٤) . وفى تلك المذابح ظهر كثير من المسلمين الأتقياء الذين أبدوا تعاطفا مع المسيحيين . (المراجع)

أبو سعد ، باستثارة نخوته ، تناول مسدسه الذى كان معلقا فى حزامه ، نظرا لأن كل من كانوا فى الشارع كانوا يحملون أسلحتهم ، ثم وضع ذلك المسدس بين فكيه ممسكا به بأسنانه . ثم حمل ذلك النصرانى على ظهره ، وطلب إلى الحاضرين إفساح الطريق وإلا فسوف يفسحه هو بالقوه ؛ وراح الرجل يمشى مترنحا ومن فوقه ذلك الحمل المسيحى ، إلى أن وصل به إلى باب داره ، ثم وضعه على عتبة الباب ، هذه الأسرة ، أمكن إنقاذها وأطلق أبو سعد عليهم اسم 'إخوانه من النصارى' ؛ والرجل يزور هذه الأسرة التى تستضيفه كل عام عدة أشهر فى منازلهم ، إنه حامل الأحجار بعد اقتطاعها من الجبل ، وهم يعطونه دوما كل احتياجاته من ثرائهم ويصيبه شىء من رفاههم .

هناك أمثله كثيره من المسيحيين الذين جرت اغاثتهم ونجدتهم من تلك المذبحة بأيدى المسلمين الرحماء المساكين ، الذين قاموا بذلك العمل ، ودون أن ينتظروا عليه أجرًا ؛ فعل هؤلاء المسلمون ذلك فى ضوء تعاليم الرب (الله) وفى ضوء الرحمة الإنسانية ، وبخاصة فى المناطق القروية الواسعة والمفتوحة وفى مناطق الإتجار مع المناطق البدوية ، التى يطلقون عليها اسم الميدان el-Medân، الذى من بين مواطنيه واحد يعد منقذ الروح الموقره والمبجلة فى الصحراء السامية Semitie . فى تلك المذبحة تولى بعض المسلمين الطيبين أمور الأطفال المسيحيين ، فى الأماكن التى كانوا يصادفونهم فيها ، وربوهم وأخفوهم فى منازلهم . كانت غنائم الشوارع المحترقة المكونه من منازل المسيحيين ما تزال فى أيدى المسلمين الهمجيين . وبيع القسم الأكبر من تلك الغنائم ، بما فى ذلك المجوهرات والذهب ، لليهود ، نظير مبالغ نقدية زهيدة ، هؤلاء اليهود الذين يحبذون ذلك الجشع والدهاء حفاظا منهم على تكتم أسرار تلك العمليات الدموية . تناهى إلى مسامعى أيضا أن المسلمين يشتكون ويقولون وهم يقسمون : "بالله ، إن كل ما فعلناه ، قمنا به من أجل اليهود ، وقد استغفل اليهود المسلمين وجعلوا منهم أغبياء !" يقال أيضا ، إن بعضا من المسيحيين الذين أنقذوا أثروا على حساب بضائع النصارى المساكين الآخرين ، التى نقلوها إلى منازلهم للحفاظ عليها ، بعد أن قتل أصحابها ، الأمر الذى أدى إلى ضياع تلك البضاعة ، نظرا لأنه لم تكن هناك أية سجلات بالأماكن التى جرى التحفظ عليها فيها ؛ والسبب

فى ذلك أن هناك فجوة فى تلك البلاد التركية ، قادرة على ابتلاع الآخر ، بما فى ذلك أفراد النوع نفسه ، أو إن شئت فقل : قادرة على ابتلاع أبناء جلدتهم . من بين أفراد جماعتنا أيضا كان هناك واحد من بين أولئك الذين يسبحون فى الحمام القريب من القنصلية الفارسية ، وهو رجل من أولئك الذين يتحملون مسير مائتى فرسخ إلى مكة ؛ وكان من بين أفراد الجماعة أيضا صبى طحَّان من باب توما Tooma Bab فى الحى المسيحى من مدينة دمشق ؛ وكان هناك أيضا رجل من حِمْص (Hums (Emesa تلك البلدة الكبيرة التى تقع فى اتجاه حلب : كان ذلك الرجل لا يتوقف عن الضحك والسخرية والمسخرة طوال الطريق (*) . قال الرفاق عنه : "إنه أحمق ، إذ أن كل آل – حمص من المستهترين ." ومن بين هؤلاء التلاميذ الدينيين المبتدئين كان هناك رجل فارع الطول صافى الذهن ؛ هذا الرجل لم تستطع مصاعب الطريق أو الرحلة أن تحول بينه وبين سلوكه اللطيف الذى يقوم على الفضيلة . ذات يوم ، وفى أثناء فترة من فترات الراحة قال ولد الأغا Aga على مسمع كل الحاضرين : "ما رأيكم فى النصارى ؟ يقول الناس ، إن دينهم دين طيب ، وأنهم يقدسون عيسى مثلما نفعل مع محمد ﷺ ومثلما يفعل اليهود مع موسى ؛ من ذا الذى يمكن أن يقول : إن دينهم ليس على ما يرام ، أو إن ديننا أفضل من دينهم ؟ وهل بوسعكم أن تغيروا دينكم وتصبحوا غير المسلمين ؟ وإذا ما أعطانى شخص فى يدى الآن ألف جنيه إنجليزى ، فأنا أشك فى عدم موافقتى على اعتناق دينهم ." وهنا تكلم ذلك التلميذ الدينى المبتدئ ، كلاما طيبا ، "قال التلميذ ، أنا يستحيل أن غير دينى مقابل خير الدنيا ، لأن الدنيا فانية . قال الدمشقى الفارس الشاب : "يا خليل أفندى ، إذا دخلت فى ديننا ، فأصحبنا حاليا فى رحلتنا إلى مكة وسوف نجعلك تزور الأماكن المقدسة كلها ، وهذا أفضل لك من مغادرة القافلة والتخلى عنها عند مدائن صالح ، التى أستطيع أن أقسم ، بأن البدو فيها سوف يذبحوك بعد أن تغادر قافلة الحج ديارهم . تساءلت عن نوعية أولئك البدو الرحل الذين فى مدائن صالح : وجاءنى الرد أنهم "من الفكارة ، الذين يدل اسمهم على (فقير ،

(*) المعروف عن أهل حمص أنهم يتميزون بالذكاء الحاد والروح المرحة مما يسبب غيرة كثير من أهالى المدن السورية ، خاصة دمشق وحلب من أهل حمص . (المراجع)

أو درويش) ، وهم يشبهون الغجر أكثر من البدو ، إنهم على قدر عال من اللصوصية ونحن نخافهم ونخشاهم أكثر من أى إنسان آخر على الطريق ؛ أقسم بالله ، أن الفكارة هم أسوأ أنواع البدو . ولا يمكن لأحد أن يأمن على نفسه وهو بينهم : ولكن يتعين عليك الذهاب إلى القلعة ، أو إن شئت فقل : المحطة ، وأنزل فيها ، وهنا سوف يكلف الباشا جنود الحامية بالمحافظة على سلامتك لحين عودة الحج ."

إبل الحج العظيمة ، على العكس من ماشية البدو الرحل الصغيرة (التى تعيش على ما تجده فى الصحراء الجافة ،) لاترعى الكلأ مطلقا على الطريق ، ولكن يجرى تغذية تلك الإبل أثناء الوقفات ، كما هو الحال فى سوريا ، بحبوب القطّانى المسلوقة ، على شكل دُفعات تتكون الواحدة منها من خمسة أو ست حبات يجرى وضعها بين فكى الجمال المتعبة ، وبالتالى يمكن إشباع تلك المعدة الجائعة . يضاف إلى ذلك أن أصحاب الجمال يشترون من بعض المحطات ، عليق أو علف للدواب يقولون له ثُورم Thurrm، وهو نوع من الحشائش الطويلة ذات العقد ؛ وهم يشترون ذلك العلف من أناس معينين من البدو الرحل (وهم ليسوا أصلا من البدو) ، وتجتره إبلهم فى ساعات الراحة . ويجرى ربط الإبل على شكل صفوف ، ويجرى رعاة هذه الإبل على حبل يمتد على الأرض فيما بين الخوابير الحديدية . وجرى بعد ذلك اصطحاب التلاميذ الدينيين المبتدئين ، الذين كانوا يرافقونا إلى بعض الرجال غير الرئيسيين ، وذلك بقيادة كل من الرَّيس وأسود ، بعد أن أنزلوا من كوشة الجمل ، أو إن شئت فقل : 'تخت الروم' ، إلى مركبة ومَعيّةَ الأغا الفارسى ، التى يجرى حملها على نحو تمتد فيه كل مركبة ، عن طريق الأعمدة الأربعة فيما بين كاهلى جمل أمامى وكتفى جمل خلفى . وإلى جوار كل عمود يوجد صبى ، وفى الوسط صبى ، وعلى الجانبين ست لكل تخت أو إن شئت فقل : كوشة . وفى الأماكن الوعرة من الطريق ، يستعمل هؤلاء الصبية قوة أذرعهم فى التحكم فى هذه الحمولة المرتفعة غير المريحة . كل كوشة ، أو تخت من تلك التخوت ، مدهون ومزين ، والمكان داخل أى من تلك الكوش أو التخوت يسمح لمن يكون بداخلها بالاستلقاء ممدداً أو الجلوس . والباشا هو وقلة قليلة من الأثرياء هم الذين يركبون مركبات من هذا القبيل إلى مكة ، أو إن شئت فقل : إنهم يركبون مركبات عالية الكلفة : من هنا فقد تعجبت عندما رأيت مركبات الأعجمى خالية ، ولكن الأسود أبلغنى ، أنه

كان يحظى كل عام من حكومته بمعرض سنوى ، يضاف إلى ذلك ، أننى كان يتحتم علىَّ أن أرى على وجه السرعة بعض من يُحْمَلُون فى تلك المركبات : والسبب فى ذلك أن أى فقير من الفقراء عندما يصيبه مرض الموت وهو بصحبة جماعته ، فإنه يتعين عليه أن يدفع يوميا مائة قرش نظير إيجار المركبة التى يركبها طوال الساعات القليلة المتبقية من حياته . ومن تحت طقم الجمل الذى يحمل كوشة أو إن شئت فقل : تختا توجد دروع قرمزية اللون ، مرصعة بالمرايا ، ولها أعراف من ريش النعام ، ومحاطة بصفوف من الأجراس الصغيرة ، التى يصدر عنها صوت مميز مع كل حركة من حركات قدم الجمل ؛ صوت عجيب لغرابته ، ويحظى بقليل من الرضا فى مسمعى . والجمل الخلفى يمشى بطريقة غير أنيقة تماما ، من هنا فإن الجمل الخلفى قد لا يضع بوزه ، أو إن شئت فقل : أنفه وفكاه خلال اللوحة الزجاجية ، نظرا لأن رأسه وعنقه الطويل جداً يُسْحبُ نحو الأرض ومن فوقه حمله الثقيل ، الذى يكون تحت ارتفاع كتفيه ، وهو أمر يؤلم هذا الحيوان أشد الإيلام وبخاصة فى الرحلات ، أو إن شئت فقل : المسيرات الطويلة . صناديق هذه الجمال لها منظر جميل تماما ، ولها سلالم وكذلك شراريب مرحة ، تتمايل فى الطريق الصحراوى الخالى ؛ - ربما كانت تلك الشراريب من بقايا عبادة الأصنام البيزنطية . ويندر أن يختل نظام تلك الكوش أو التخوت أثناء مسير الإبل سواء أكان ذلك السير ليلا أم نهارا . كل هذا الجمع الكبير من الرجال والدواب ، وكذلك الإنفاق الحكومى الكبير ، يمكن الاقتصاد فيه تماما إذا ما سافر الحجاج بالبحر إلى مكة(*) ؛ ولكن السفر بهذه الطريقة قليل التقدير والثناء : إذ بدون هذا الإفناء غير المنطقى أو غير المعقول ، للجسد فى عبادة الله واهب الحياة لا يكون الحجاج حجاجا فى واقع الأمر . كان الأغا وولده يركبان فى سيارة أجرة ؛ ولكن أجرة النقل غالية جداً ، فيما يتعلق بالشعير والماء الذى يحتاجانه يوميا . كان هناك عبداً من الجالا Galla يمشى من ورائهما حاملا النار فى مغرفة من الحديد ، حتى يتسنى لهما الاستفادة من تلك النار فى الشيشنين اللتين يستعملانهما فى تدخين التبغ الفارسى ؛ وتحريك جمار النار يجعل الفحم يزداد اشتعالا .

(*) الأصح إلى جدة ، ويعنى ذلك أن يستخدم الحجاج طريق الحج المصرى الذى يصل إلى البحر الأحمر ، خاصة بعد افتتاح قناة السويس للملاحة وانتشار السفن البخارية (المراجع) .

مع مواصلة السير ، شاهدت التخوت أو إن شئت فقل : كوشات الإبل وبداخلها أحد الأفراد ، وإن ذلك الذى كان يدور فى تلك التخوت إنما كان بدايات لجنازة واحد من أفراد قافلة الحج . إذ وضع ذلك الفرد ملفوفا فى عباءته المصنوعة من الشعر داخل واحدة من تلك التخوت ، لكى يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وهكذا ظل ذلك الصندوق الفخم مثوى لذلك الفرد قبل دخول فترة المساء . لم أرى أيا من تلك الوجوه السمراء التى جاءت إلى التخت وتركته والرجل فيه حى . وهم يعجلون برحيل هذه الحياة مستخدمين فى ذلك أسلوب الطريقة العنيفة ، الخالى من رحمة وعزاء الحنان الإنسانى ، يفعلون ذلك وسط استنزال اللعنات القاذعة ، التى تعج بها أفواه سائقى الإبل الدمشقيين ؛ وعندما يموت إنسان ، فإن كل واحد من هؤلاء السائقين يقول لزميله ، بعد أن يلقى نظرة على الشخص المسجى ، 'مات'! وبعد الوصول إلى محطة من المحطات يخرجون جثة الميت من التخت ورأسه وعقبيه على الأرض ، ثم ينقلونه إلى الساحة . وأثناء المسير شاهدت بعضا من شهود القبور التى هى مجرد قطع من الحجر الرملى وضعت فوق قبور من الرمل . والمغامرة الغريبة فى ذلك الحج تتمثل فى وفاة سيدة من النساء الفارسيات ، فقد ماتت تلك السيدة فى بلدة معان ، وكانت قد أوصت بدفنها فى أرض مكة المقدسة على بعد مسير ثلاثين وقفة ، وقد أراد خادم تلك السيدة الأمين تنفيذ وصيتها . قام ذلك الخادم بشراء جمل (من صاحب جمالنا الفارسى) ، ثم ذبح الجمل ، ثم وضع جثمان سيدته داخل الجلد وخاطه ثم وضع من فوقه بعض جلود الغنم غير المدبوغة ؛ ثم وضع أعمدة ربط من حول كل ذلك ، ثم أعاد كل هذه اللفة إلى الصندوق الذى كانت تركب فيه تلك السيدة على ظهر الجمل ، وسار ضمن قافلة الحج . وبعد وقفات ، وصل الخبر إلى مسامع باشا الحج ؛ فقد شاهد أناس بعينهم ذلك الخادم وهو يجلس تحت شجرة شوكية ، جعل منها مهجعا له أثناء الليل ، حتى يظل مستيقظا بجوار ذلك النعش ، أو إن شئت فقل : المتاع المفزع . وعقد الباشا مجلسه ، وصدر قراره بأنه يجوز أن تكون تلك الجنازة فى رفقة الحج ولكن على بعد مسافة قصيرة من مؤخرته ؛ كما منع الباشا أيضا ذلك الخادم من الدخول بالمتوفاة داخل المحطات التى تتوقف فيها القافلة ، أو إن شئت فقل : منعه الباشا من إدخال الجثه إلى المخيم .– وكما هو الحال عندما يعم الطوفان أرضا بكاملها ، فإن المصائب والأحزان

تفعل الشيء نفسه في الدنيا كلها ! وتصادف ، أن أكابد أنا نفسي كل ذلك ، وتعين على منذ أن ركبت مع القافلة من قريه معان ، أن أكون واحداً من أولئك المكلومين المحزونين ؛ حدث ذلك ، لأن الجمل الذى ذبح كان هو الجمل الذى أركبه .

منذ مغادرتنا مزيريب ، وأنا أسمع صاحب الجمل يتمتم يوميا بما مفاده أن حملى الزائد عن الحد سوف يقصم ظهر الجمل ؛ كان يقول أيضا ، إنه بسبب ذلك الحمل الثقيل أو سبب آخر كان الجمل يعانى وأصابه المرض . وفى معان أبلغونى جميعا ، وهم يحلفون أيمانا مغلظة ، أن الجمل الذى كنت أركبه قد نفق . وقالوا لى أيضا ، إن صاحب الجمل أشترى فى معان من الأعراب ، ناقة صغيرة سوداء برية وغير مدربة لتكون ركوبة لى على الطريق : هذا التغيير فى الركوبة لم يكن موفقا وتحول إلى مصدر للإزعاج والقلق . ولما كانت تلك الناقة غير متعودة على السير وهى مربوطة ، فى رحلات طويلة من هذا القبيل ، وهى تحمل حملا ثقيلا ، فقد كانت تتعثر وتسقط على ركبتيها ، فيما بين صفوف الجمال الماشية ، وتروح تشد حكمة قيادتها ، وتثير المتاعب لكل من هم بعدها من الإبل ، التى تداهمها بعد سقوطها . وقد تسبب ذلك فى كثير من الانتقادات التى انهالت علىَّ من كثير من الأشخاص الذين كانوا يضيقون ذرعا بمثل هذا السقوط ، والخطر كل الخطر كان يتمثل فى السير أثناء الليل فى الظلام . ولم أتمكن من التغلب على ذلك العيب ، وبالرغم من أن ذلك كان على النقيض مما قاله ووعد به المقاول الدمشقى ، إلا أن الجميع كانوا يتصايحون علىَّ ويؤنبونى ، بأنى أنا الذى قتلت جمل ذلك الرجل . ومن باب الابتزاز إلى حد ما ، كان صاحب الجمل يرفض إرسال الجمل إلىَّ مع بداية كل تحرك من التحركات ؛ وعندما كان الآخرون يستعدون للرحيل ، وبعد سماع إشارة بدء التحرك ، كانوا يتركوننى وحدى فى الصحراء ، واقفا فى الظلام ، إلى جوار أغراضى وحقائبى . وعندما كان الأمر يصل إلى هذا الحد كنت أمسك بالأسود el-Eswad، ولا أسمح له بأن يتركنى ، والسبب فى ذلك أنهم بعد أن كانوا يحضرون الناقة إلىَّ ، كنت أجد نفسى عاجزا عن تحميل أغراضى عليها وحدى أو إن شئت قل بمفردى ؛ وفى بعض الأحيان كان صاحب الجمل يقسم بأن 'يترك جسدى تحت الرمل الذى أقف عليه'. كان أولئك الغجر سليطى الألسنة يمثلون مهزلة سيئة ؛ وعندما وجدت الخطر محدقا ، سحبت أمامهم جميعا مسدسى : وبعد ذلك بأيام

توقفوا عن مضايقتي وإثارة المتاعب أمامي . والمعروف أن متاعب الطريق وهمومه تغير أرواح الناس جميعا ، وهذا التصرف يدينه كل المسلمين فى سوريا إذا ما قام به أحد فى رحلة الحج ؛ ويقولون إنه يتعارض مع فريضة الحج ،" والشائع أن التشدد فى الدين يتزايد كلما اقترب جداً من خيوط الحجاج القدامى : هذا يعنى أن هؤلاء الحجاج القدامى يصلون إلى حد التيه والخيلاء بأنفسهم فى مسألة الدين ؛ ومع ذلك فالحج ليس فيه جدال ! يضاف إلى ذلك أن مخاوف أهل الحضر من بلاد البدو ، هى التى تجعلهم يتكاتفون ويتراصون بشكل يجعلهم يظنون أنه لا خلاص من القافلة .

وكلما زاد اقتراب الحجاج من الأماكن المقدسة (الحرمين الشريفين) يزداد أيضا تذكرهم لصلواتهم وأورادهم ، فى تلك المسيرات الجبرية ، كان بعض الرجال المتدينين ، فى أوقات بعينها ، يقومون بدور المؤذنين ، ويروحون يؤذنون للصلاة وهم راكبين فوق ظهور دوابهم . وعلى الفور تبدأ آلاف الحناجر الرجالية فى ترديد ذلك النداء ، وهنا كما هو الحال ، فى كل عام ، تتردد أصداء ذلك النداء مدوية فى الصحراء ، بفعل هذه الآلاف المؤلفة من أصوات الرجال . وهاهم الفرس يرددون ذلك النداء فى المؤخرة ، إلا أنهم يضعون اعترافهم ممثلا فى اسم على ﷺ قبل اسم محمد ﷺ . وهذا سبب رئيسى من أسباب نزاع الشيعة أو جدالهم مع عامة المسلمين الذين يطلقون عليهم اسم 'الشيعة' ، ومع أهل السنه عندما يثور بينهم جدل أو نزاع عام . وجدالهم ليس بالقليل فى الخليج الفارسى ، على مرأى ومسمع من المسافرين البريطانيين على السفن البريطانية ، ويصل الأمر إلى حد تدخل الضباط البريطانيين فيما بينهم لفض ذلك النزاع أو إنهاء ذلك الجدال . كان من ضمن أفراد جماعتنا ، رجل يرافق الإسود ، وهو تاجر شاب من أهل دمشق ؛ هذان الصديقان ظلا يلهوان طول الطريق ، وراحا (كما هو الحال بين أهل الجنوب) ، يتضافران معًا ، ويصيحان وهما يسخران من عبارة "إلهنا على" Our lord Aly، كما لو كان صوتيهما يعادلا عشرة أصوات من أصوات الرجال . وفى بعض الأحيان كانت تصيب بعض الفرس الغاضبين المتهورين أضرار كبيرة فى المدينة (المنورة) .

شاهدت من خلال الضوء الصادر عن المصابيح المعلقة ، رجلا عجوزا ، يمكن أن يحسبه الناظر إليه شيخا محترما من شيوخ قريته ، كان يجلس جلسة "واحد من

الحكام" ، فوق حمار بغدادى أبيض اللون ، وكنت كلما نظرت إليه يحيينى ببشر وبشاشة وهو يقول : "كيف حالك ، يا خليل أفندى ؟" وكانت عيناه المستنتان تتلألأن من تحت حاجبيه كما لو كانتا نجمين فى ليلة من ليالى الصقيع والجليد . كان ذلك الرجل يركب وهو منحن قليلا إلى الأمام فوق دابته ، وكان يبدو أن شكله لم يكن غريبا تماما علىَّ ، لأن ذلك الشخص هو الذى سبق أن ضُرب ضربا مبرحا من قبل ، فى وادى الزرقاء . Zerka هذا يعنى أن ضمير لص الصناديق قد استيقظ وعاد إلى رشده بعد العقاب الذى نزل به ، ومع ذلك لم تكسر عظمة أنفه بعد ؛ وبالرغم من أن فعلته كانت معروفة للجميع ، إلا أنه لم يشعر بالكسوف أو الخجل .

السير أمين ، الذى يلقبونه بأمير الحج ، ضابط ، كان فى الأيام الخوالى واحدا من أبناء السلاطين ؛ ولكن فى أيامنا كان واحدا من أفراد البلاط المقربين إلى إستانبول Stambûl من ناحية ، وقادر من الناحية الأخرى على مواصلة ركوب الإبل . رأيت أمير الحج محمولا فى كوشة ، أو إن شئت فقل : تخت مزركش محمولا بين بغلين متينين ، على كل واحد منهما جَلٌ أحمر اللون ومزركش ؛ وشاهدت من خلفه مجموعة من العمال لأداء الخدمات بالتناوب ، وعندما كان يروق له الحال ، كان يركب حصانا جميلا جنبا إلى جنب مع باشا الحج ، الذى يتولى مسئولية قيادة قافلة الحج . أمير الحج هذا لم يكن ممن تعودوا الاستيقاظ المبكر ، أو التحرك قبل طلوع الفجر ، وكان من الطبيعى أن يلحق بالقافلة ، الصندوق الذى يركب فيه مع طلوع النهار . أما فيما يتعلق بباشا الحج ، فبالرغم من تقدمه فى السن ، لم يكن من بين القافلة كلها أحد مثله فى البكور أو فى التأخير . ولما كان باشا الحج ، هو 'محافظ' الحج ، أو إن شئت فقل : المسئول عن الحج ، فقد كان يشغل أيضا منصب صرَّاف الرواتب أو الأجور العسكرية ، أثناء الطريق ، وللبدو أيضا . هذا الرجل الخادم ، قوى البنية ، شديد البأس تعلم منذ صباه تحمل المتاعب والمصاعب ، وهو لا ينام من الليل سوى ساعتين (وهذا نقلا عن المقربين إليه ، وعن معارفه أيضا) طوال رحلة الحج . وهو ينال قسطا من الراحة ، أثناء السير فى جوف الليل ، فى تخت الروم ، أو إن شئت فقل : فى الكوشة ، التى تحملها إبله ، وهذه الكوشة أو ذلك التخت يكون ترتيبه الأول بين تخوت القافلة : ويسير إلى جانب كوشة باشا الحج دليل القافلة أو إن شئت فقل : ربَّانها . مرور الباشا أثناء النهار لم

يكن مثيرا للضيق مثل السير البطىء الذى كنا عليه ؛ ترتيب الباشا فى الركوب يكون فى المقدمة ، وهو يركب على ظهر الفرس المخصصة له ؛ وبصحبته ضباطه وعدد قليل من الجنود ، ويكون على بعد يتراوح بين فرسخين وثلاثة فراسخ فى مقدمة القافلة ؛ وعند توقف القافلة ، ينزل ركب الباشا عن دوابهم . وتُشَبُّ النار ويجلسون لتناول القهوة وتدخين النرجيلة ، إلى أن يقترب الحج منهم ؛ ويمضى النهار على هذه الشاكلة والوتيرة المتكررة . وعند دخول وقت الظهر تنصب خيمة لباشا الحج وخيمة أخرى للسير أمين ، أو إن شئت فقل : لأمير الحج ، ليتناول كل منهما إفطاره ؛ ومعروف أن هذه البلاد الرملية تحرق مثل احتراق جمرات الفحم فى شمس الشتاء .

الشىء الغريب علىَّ ، هو ذلك المشهد اليومى الذى كنت أرى فيه حوالى عشرة من الكلاب السورية التى كانت تتتبعً قافلة الحج : ففى كل عام تذهب بعض الكلاب السورية إلى مكة برفقه قافلة الحج ، بصحبة مدينة الخيام وتعود من مكة ثانية . رجال الشرق المتدينين ، ينظرون إلى تلك المخلوقات المسكينة التى ترافق الحج ، ولها من الذكاء مثلما لدوابهم ، باعتبارها من بين شهود الله سبحانة وتعالى على الدين الصحيح . كان الأسود ، كلما رأى كلبا يلهث ، يغريه فى الوقفه التالية ، ويصب قليلا من الماء الثمين لذلك الحيوان غير الطاهر ، مستخدما لذلك خفه الذى كان يلبسه فى قدميه . وكانت الكلاب الغريبة تقطع إربا إربا بين الحجاج ، إذا ما دخلت تلك الكلاب منطقة أخرى من مناطق مدينة الحج ؛ وعندما تصل قافلة الحج إلى مكة ، كانت تلك الكلاب تبقى خارج المدينة بصحبة المخيم الخاص بمتاع ومتعلقات الحجاج . أطرف الأشياء فى مجموعة الحجاج الفارسيين كان يتمثل فى ذلك الديك الأبيض ؛ خطر ببالى ، أن ذلك الطائر الشجاع ربما أصبح بيرقا للفارسيين بعد الأسد ، هذا الطائر كان يركب وحيداً مربوطا إلى سلسلة بشريطين من الحرير الأحمر القانى . كان ذلك الديك يقف بصعوبة وهو يوازن نفسه بإستعمال جناحيه ، فوق أعلى نقطة فى تخت الروم ، أو إن شئت فقل : الكوشة ، التى كان يحملها أحد الجمال ، وأثناء الليل ، كان الديك ينام وحده فى تلك الكوشة ، أو قد ينام وهو مربوط بالسلسلة ، مثلما يربط الدب إلى العمود ، داخل المكان الواسع المخصص للحجاج الفارسيين . كان الديك يصيح : كوكو ، كوكو وهو يرفرف بجناحيه ، إلى أن فقد مرحه الذى كان يستقبلنا به فى صباح الصحراء ؛

طائر الباشا هذا ، أحنى عُرْفه ، نظرا لأن مسئولى القافلة لم يجلبوا له بعض حريمه معه ! - وأنا لم أستطع الوصول إلى تفسير للغز الديك هذا ؛ الشخص الوحيد الذى أجاب على تساؤلاتى ، كان هو الأسود ، عندما قال لى : "هذا الطائر لى أنا ، إنه ملكى." وإرهاق هذه الرحلة يقطع صوت الإنسان عندما يصل إلى شفتيه ، ويقلل فهمه ؛ وأنا لم أستطع أن أعرف أكثر مما قلته هنا ، ولربما كان ذلك الديك سرًا من أسرار الدين . من الذى سينفق حيويته فى تلك المسيرة الطويلة ؟ لا يقولون شيئا غير اللعنات والسباب ، ومع ذلك يجلس الفرس أثناء الإستراحات الليلية يروون حكايات تحت النجوم عن نيران عَشَائهم .

انقضت ساعات طوال ، ونحن نواصل السير فيما بين صف مزدوج من الجبال ؛ وهاهم الحجاج وقد غالبهم النوم وهم فوق ظهور جمالهم . نظرا لأنهم كانوا منحنين ومائلين إلى الأمام تحت حرارة الشمس الشديدة . وعلى امتداد الطريق الطويل ، نسمع فى بعض الأحيان ، على جانبى الطريق ، صياحا مفاجئا ، على جانبى القافلة الماضية قدما على الطريق ؛ هؤلاء هم أناس يجرون ، وذلك هو وابل من العصى والأحجار . والمستهدف بكل ذلك ، هو هذا الأرنب البرى الذى أفزعوه فى مخبئه ، وهم يطلقون على ذلك الأرنب البرى إسم الضَّب Thôb؛ كانت تلك الأرنبة البرية تهرب من الموت إلى أن أصابتها فى النهاية ، ضربه عنيفه قضت على حياتها ؛ أو بالأحرى شاهدتها وهى تدوسها أقدام الرجال وهى تجرى هنا وهناك بحثا عن ملاذ بين أقدام الإبل ، ونجحت فى الهرب بمعجزه . هذا الضَّب Thôb، من السحالى الزاحفة التى يأكل الناس لحومها ؛ ويصل طول حيوان الضَّب مكتمل النمو إلى حوالى ياردة تقريبا بما فى ذلك الذيل أيضا ، والعرب يقولون إن لحمه لذيذ وحلو جداً . وقطعة لحم من هذا القبيل يعدها أفراد القوافل لذيذة الطعم : والأيسر حالا من بين أفراد القبائل يحملون معهم شيئا من اللحم المدخَّنَ وكذلك اللحم المقدد الذى يمكن الحصول عليه جيداً تماما ورخيصا من مدينة دمشق . ولحوم الضأن التى يذبحها البدو تعرض للبيع فى المحطات التى تتوقف فيها قافلة الحج ، وبخاصة المحطات الرئيسة . وأشهى الطعام ، هو الذى يقدم فى جماعة باشا الحج ، الذى يذبح مطبخه الحكومى طليا صغيرا كل يوم ؛ هذه الطليان يجرى تسمينها فى بعض المحطات التى شاهدنا فيها تلك الأغنام وهى تساق لتسير فى ركب القافلة .

فيما بعد الظهر مباشرة ، كان هناك سراب من أمامنا : لقد شاهدت ظاهرة السراب هذه أكثر من مرة فى المنطقة البدوية من الجزيرة العربية ، التى لا ترى الندى مطلقا ، وليس فيها أى شىء من الرطوبة الأرضية ؛ هناك سراب أيضا ينتج عن اهتزاز الهواء الساخن وقليل الكثافة وتحوله إلى ما يشبه الدخان فوق التربة التى تضربها أشعة الشمس . وعلى بعد عشرة أميال ، عن يميننا فى اتجاه الغرب ، هناك موقع أثرى قديم يطلقون عليه اسم الجيرية Gereyih، يحكى عنه البدو الذين يسكنون ذلك المكان الكثير من الخرفات العجيبة ، ولكنى أسمع من الأشخاص الموثوق بهم أن ذلك الموقع لا قيمة له . وصلنا بعد ذلك مباشرة إلى أسقف الخيام المصنوعة من قماش قلاع المراكب ، تلك الأسقف التى كانت معلقة بدون أجناب ، فى سهل واسع كبير يطلقون عليه اسم 'إلقا' . el-Kà كانت تلك المحطة مخصصة لأخذ قسط قصير من الراحة ، والتزود بالطعام ، نظرا لأننا كان يتعين علينا أن نصل مسير الليلة القادمة بما تبقى من ضوء النهار . وأرسلت شخصا إلى سوق المخيم لابتياع شىء من اللحم ، ولكنه عاد بخفى حنين ، نظرا لأنه لم يجد فى السوق لحما معروضا للبيع ، إضافة إلى أن أحداً من التجار لم يفتح بالات بضاعته من أجل البيع . والناس هنا ، فى القافله يطلقون اسم 'السوق' على ذلك السوق الذى يصاحب المدينة المتنقلة المصاحبة للقافلة ، والتى تصنع خيامها من قماش قلاع المراكب ؛ هذا السوق عبارة عن شارع قصير مكون من خيام تجار القافلة ، وهو مقام على طريق النزول فى اتجاه الجنوب . هناك بعض البضائع المعروضة للبدو ، (الذين جاءوا من أماكن بعيدة على جانبى 'درب الحج' ،) أو إن شئت فقل : طريق الحج ، وهذه البضاعة تشتمل على الأقمشة والسجاد ، وكثير من السلع الصغيرة المتنوعة : وفى ذلك السوق أيضا ، يوجد بائعون أيضا يبيعون للحجاج البسكويت وكذلك المعجنات المصنوعة من القمح وما إلى ذلك من الأشياء الأخرى ؛ فى هذا السوق يجرى أيضا البيع والشراء عن طريق السمسار والدلال . وباعة الأقمشة لا يصلون إلى مكة ؛ ولكن البعض من أولئك الباعة ، يعودون كل عام مع قافلة الحج ، ثم ينفصلون عنها ذاهبين إلى مناطقهم البدوية المترحلة الكثيرة ، ويبقون فى تلك المناطق لحين عودة الحجاج بعد أداء مناسك الحج . والغالبية العظمى من أولئك الباعة ، هم من الميدان Medan؛ والبعض منهم من أمهات بدويات . وهؤلاء الباعة ،

يقولون : إن إجمالى الربح الذى يحصلون عليه لا يزيد على خمسة وعشرين بالمئة ؛ ولكن العرب عندما يدفعون لهم الثمن زبدا ، فذلك يشكل ميزة أخرى لأولئك التجار أو الباعة عندما يكونون فى دمشق .

انتهى نهار الصحراء من فوقنا بوهج واسع من السحب المنخفضة التى لها حمرة النار : أخذت الشمس فى الغروب ، اللهم باستثناء قلة قليلة من الابتسامات المتلألئة ، من خلف جبال الحسمة . وفى أثناء تلك اللحظات الذهبية ، وبعد راحة دامت ساعتين على إثر تناولنا العشاء ، سمعنا انطلاق دانة مدفع جديدة تنذر القافلة باستئناف المسير . مضينا قدما فى تلك الظُّلمة الخفيفة التى لا تستمر سوى دقائق قليلة فى الجزيرة العربية ، وبعدها يصبح الظلام دامسا : ويتعين علينا السير طيلة إحدى عشرة ساعة أخرى حتى نتمكن من الوصول إلى محطة الاستراحة فى تبوك . كان القمر يضىء مسيرتنا فى تلك الليلة التى كانت توافق يوم الأحد الثالث من الشهر ؛ ذلك اليوم الذى يقدره الناس فى أرض المسيحيين ، والذى يمثل الراحة والصمت من معظم أخطار ، وإرهاق ، وإزعاج هذه الدنيا . كان على مقربة منى فى الخلف سائق من سائقى القافلة الفرس ، سمعته يغنى طول الليل ، حتى يعلم زميله الوقح ، الذى يقترب من الأراضى المقدسة ، الابتهالات الشرعية ، وكانت للغة حلاوة وعنوبة على لسانه الفارسى وهو يقول : الحمد لله رب العالمين ؛ أى كلمات سورة الفاتحة من القرآن : ظلوا يرددون هذه الترنيمة فيما بينهم إلى أن طلع عليهم النهار . وعقب منتصف الليل مباشرة جاء انطلاق صاروخين بمثابة مؤشر إلى التوقف لنيل قسط من الراحة ؛ نمنا على الرمل مدة ساعة : وبعد دانة إنذار ثانية تعين علينا الاستيقاظ واستئناف المسير قدما . وعندما غاب القمر عند الساعة الثالثة صباحًا ، كنا نسير على هدى أضواء المصابيح الورقية . ثم صدرت إشارة ثانية قبيل الفجر توقفنا بعدها مدة أربعين دقيقة : وشروق الشمس فى الجزيرة العربية يكون شديد الحرارة لأنه لا يسبح فى ضوء مشوب بالندى . وتمضى القافلة قدما من جديد ، وسط خليط من التعب والإرهاق ، وبين النعاس والصحيان ، أشرفنا عند الساعة الثامنة على مشارف مدينه تبوك . كنا قد قطعنا من الساعات الست والعشرين ، أو إن شئت فقل : ما يزيد على دورة من دورات الكوكب ، حوالى أربع وعشرين ساعة ، وقطعنا ما يقرب من خمسين ميلا على أقل تقدير : ومن العجيب حقا أن نرى كثيرين من أفراد القافلة ما زالوا يمشون على أقدامهم .

قرية تبوك القديمة ، التى بنيت من الطين الذى له لون المُغْرة(*) ، تقف شامخة من أمام واحدة من بيارات النخيل ، وسط عالم من الصحراء التى تجلب التعب وتنهك القوى ، والتى تتناثر فيها قطع الأحجار الرملية . اكتشفت أننا هنا على ارتفاع ٢٩٠٠ قدم ؛ وهذه بقع من أراضى القمح الخضراء تتقدم ذلك المكان ، فى منطقة الرمال التى يطالها الرى(**) . وفى أقصى اليسار ، وفوق ذلك الجانب البرى من الجبال ، تقع قمة الجبل الحادة التى يطلق عليها أفراد القبائل السوريين اسم 'منبر الرسول' ، نظرا لأن هذه القمة تشبه من حيث الشكل ، الماصة (المنضدة) المائلة ، أو لأنها تشبه المنبر الذى يقف عليه الواعظ فى المساجد الكبيرة . والناس هنا يقولون : إن محمدا ﷺ عندما مر على تبوك وقف فوق ذلك المكان المرتفع من هذا الجبل الذى يبدو أسود اللون ، وأنه خطب فى أهل الجزيرة العربية : والبدو يطلقون على ذلك المرتفع إسم شرورة Sherôra، وهذا المرتفع يمثل علامة أرضية ، فى مضارب الشرارات (وفى حدود فهمى فإن القمة من الحجر الجيرى أما بقية المرتفع فمن الحجر الرملى) . وكان من العبث سؤال أفراد القوافل عن أسماء هذه الأماكن : هاهى الحسمة Hisma قد بدأت تتلاشى من خلفنا وتختفى عن أنظارنا . والمنطقة على امتداد طريق الحج اعتبارا من هذه المنطقة فصاعداً كلها قرى من قرى الزمن القديم ؛ الأمر الذى يتمكن معه عابر السبيل من تناول الإفطار فى إحدى القرى وتناول العشاء فى قرية أخرى : هذا يعنى أن عابرى الطريق ، فى تلك المنطقة لم يكونوا بحاجة إلى أن يحملوا معهم طعامهم وشرابهم .

وجدنا فى تبوك مرطبات من الليمون الحلو ، ومن عصير الطماطم ، وعصير الرمان ، وكان ذلك أول لقاء لنا بتمر الجزيرة العربية ، ولكن التمر فى هذه المنطقة من النوع الطرى ، وأفضل أنواع التمور تأتى من قرية تيماء Teyma . والناس هنا يطلقون على القرويين اسم الحميدات el-Humeydat ولكنهم يطلقون على انفسهم اسم 'عرب الكابنى

(*) المغُرة : بضم الميم وتسكين الغين هى : تراب صلصالى يستعمل فى صناعة الألوان السمراء والصفراء والحمراء (المترجم) .

(**) انظر ملحق صور الكتاب : الصورة هذه بقع أراضى القمح الخضراء تتقدم ذلك المكان فى منطقة الرمال التى يطالها الرى . (المترجم)

el-Kaabeny Arab، وهم قلة قليلة من البشر الفقراء ، والمعروف أن القلعة أو المحطة هى التى تدافع عن تلك المجموعة من العرب التى لا يزيد عدد أفرادها على أربعين شخصاً ، كما أنها هى التى تحميهم من عسف واستبداد البدو بهم ؛ والماء فى هذه المنطقة يوجد على عمق صغير جداً ، ودافئ إلى حدما ، وليس نقيا تماما من الناحية الصحية ؛ ومن الطبيعى أن يكون ذلك المنخفض الصحراوى مكانا مرتفعا من أماكن المياه الجوفية . وعين تبوك عباره عن نبع قديم ومجرى قديم أيضا ، ولكن هذا المجرى انسد بفعل الأنقاض التى نجمت عن الأحجار الضخمة التى سقطت فى ذلك المجرى . والذى يتلقى الصُّرة ، فى هذا البرج هو شيخ بنى عطية . تبوك اسم قديم ؛ وبالرغم من ذلك ، فالبدو هنا يقولون : إن هذا المكان كان يطلق عليه فى الماضى اسم اليرموك Yarmûk . وهنا يتعين علينا أن نرتاح هنا يوما كاملا . وبينما كنا نسير فى الليلة الماضية ، جاء بعض الجنود يسألونى عن هويتى وصناعتى ؟ وهنا التزمت البقاء فى الخيام وبينها ، مخافة أن يصل خبر وجودى بين أفراد القافلة ، إلى مسامع باشا الحج ، الأمر الذى قد يجعله يتركنى هنا فى تبوك . هاهم الفرس جالسون فى وقت فراغهم يتمتعون بالشاى الحلو ، الذى يصنعونه ، أو إن شئت فقل : يُصَلحِّونه فى ماكينات من النحاس الأصفر مثل أهل موسكو تماما ، كما يدخنون معه الشيش والنرجيلات المعطرة . والشخص الوحيد الذى يكون مشغولا طول اليوم فى القلعة هو باشا الحج نفسه ، باعتباره صراف الرواتب العسكرية فى القافلة ، فضلا عن إنشغاله أيضا مع شيوخ البدو ، الذين يتوافدون على ذلك المكان للحصول على المبالغ المخصصة لهم .

وظيفة صراف الرواتب العسكرية فى القافلة هى التى تملأ حافظة نقود ذلك العجوز : من هنا فهو الذى يتولى عملية الإنفاق المالى حتى يتسنى له بقاء بعض من قشور الحية فى حوزته . زد على ذلك ، أن مسألة التلاعب التركى الذى يمكن المرء من أن يكون لصا عاما ومواطنا رسميا أمينا فى الوقت نفسه ، جدير بأخذها بعين الاعتبار ! وعلى سبيل المثال ، المجيدى التركى ، أو إن شئت فقل قطعة النقود العثمانية التى تعادل كراون واحد ، تساوى عشرين قرشا بالسعر الحكومى ، فى حين تساوى اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين قرشا فى معاملات التجار فى أسواق دمشق . والمبلغ

المخصص لنفقات الحج يسلم لصراف الرواتب العسكرية التابع للباشا ، منذ بدء الرحلة ، وذلك بواقع الكراون ، أو إن شئت فقل المجيدى الواحد ، يساوى عشرين قرشا : وصراف الرواتب العسكرية : يمضى فى دفع المبالغ المخصصة للبدو الخلص على طول الطريق بواقع اثنين وعشرين قرشا ونصف القرش للكراون ، أو إن شئت فقل ، المجيدى الواحد ، ويحلف بالله أمام شيوخ البدو الرحل ، الذين لا يجيدون فن القياس ، ويستشهد بكل الرجال أن الكراون يساوى عدداً كبيرا من القروش ! هذه الأرواح التركية تبدو لنفسها وكأنها لا تعيش فى عالم من الفساد ، ولكنهم يواصلون الأكل من ذلك العالم الفاسد إلى حد ما : هذه الوسيلة تحول مثل هذا الصرَّاف إلى رجل عظيم وتوصى بانضمامه إلى عضوية حكومتهم الإجرامية . هذا يعنى أن الصندوق لا يطرأ عليه أى نوع من أنواع التسرب ، هذا لا يعنى أيضا إنقاص إيرادات السلطان ، وإنما يعنى بالدرجة الأولى عض أصابع البدو الملعونين . صحيح أن ذلك الصَّراف يتعامل بنفس الطريقة مع أجور الحاميات العسكرية ، ولكنه يسحب البطانة من داخل حقابئهم الخاوية ؛ ومع ذلك يتحمل الجنود ذلك القانون الذى يفرض عليهم أثناء المسير ، وهم يبتسمون على مضض ، والسبب فى ذلك أن ذلك الصراف يعطى لحراس البرج مبالغ توزع على عدد أكبر بكثير من العدد الذى ينبغى أن يقوم بمثل هذا العمل . يضاف إلى ذلك أن الضابط المتين العجوز يحب متاعب رئيسه العظيمة حبًا جمًا ، تلك المتاعب التى تعطيه هبة سخية كل عام ؛ وراتب هذا الضابط المتين العجوز فى حدود ألفى جنيه تركى ، هذا بالإضافة إلى بعض البدلات الخاصة بالترفيه اليومى عن كثير من الأشخاص والدواب .

كان محمد سعيد أمكر الرءوس فى سوريا كلها ولم يكن طاهر اليد أيضا . ومحمد سعيد ، شأنه شأن الشخصيات الكبيرة فى البلاد العربية ، يعد واحدا من الرجال الذين يسهل الحديث معهم وإليهم : وهو شخصية مرحة مرحا إنسانيا كما أن اعتداده الدينى يوحى بالاعتدال وعدم التطرف . كما اكتشفت أيضا أن ملاحظات ذلك الرجل تصيب كبد الحقيقة ؛ وبالرغم من كل ذلك فإن الشخصيات التى تكون من هذا القبيل تولد فى ظل ظروف تجعلها تتطلع إلى بريق المال وبهرجه . فى ظل حكومة مثل هذه الحكومة ، لا يتوقع ظهور أى بطل من الأبطال : وما هى الأمثلة التى يمكن أن

يراها مثل هؤلاء الناس ، فى أيام شبابهم ، والتى تعبر عن المقاصد النبيلة والأعمال الجليلة فى حياة الرجال ! وإذا ما قدر لروح طيبة أن تنشأ وتتربى بين أناس من هذا القبيل ، فإنها لا تملك إلا أن ترضع شيئا من الارتياح الناتج عن الدراسات والاطلاع ، فى ظل المهمة الفارغة للرسائل العربية ؛ مثل هذه الروح ، إن قدر لها ذلك سوف تنمو نحو الأسفل وليس نحو الأعلى . الباشا الكردى فى هذه الأيام لديه ممتلكات ممولة تمويلا جيداً ؛ وكلها موجودة فى دمشق ، (التى بنى لنفسه فيها قصراً منيفا) ويزيد إيجارها السنوى على أكثر من ١٠٠٠٠ جنيه ، إن قدر لنا تصديق كل ذلك : والمعروف أن والد محمد سعيد لم يكن سوى أغا فقير الحال من قبله . ومحمد سعيد شأنه شأن الكبار العظام الذين تربى بينهم ، كان رجلا محبا لعنف القتال والمعارك وسفك الدماء منذ صباه وشبابه . وعندما عين محمد سعيد مع مرور الزمن حاكما على عكا Acre، عندما رفض القائد المغربى Moghreby التنازل أو التخلى عن منصبه ، انتهزوا الفرصة ودخلوا معه فى معركة دارت فى عكا : جرى ذلك الصراع فى زمن ، أو إن شئت فقل : فى أيام خلت من سلطة القانون ، بين الأكراد والمرتزقة المغاربة ، كما جرى ذلك الصراع أيضا بين هاتين الفئتين وبين الألبانيين الذين لا يقلون عنهم صخبا واضطرابا ؛ أسفرت هذه الانقسامات عن حدوث تورمات فى ذلك الجزء من الإمبراطورية التركية . وهنا راح القسم الخاص ، أو الجزء الخاص بمحمد سعيد ، يطارد الباقين إلى بحيرة طبرية ، وواصل قتالهم وإنزال الإصابات بهم إلى أن عبروا جسر يعقوب على نهر الأردن ، ومات شقيق محمد سعيد فى ذلك المكان ، وقد أبلغنى أحد الأصدقاء المقربين من باشا الحج أن الحكومة التركية تتباطأ فى التدخل فى مشاجرات تلك القوميات العنيدة ، بل إنها تتركهم فى غيِّهم يزهقون أرواحهم بأنفسهم ويهدرون دماءهم بأيديهم : كما أبلغنى أيضا أن الأتراك يحكمون أيضا عن طريق استغلال التعارض بين الأديان : وهم بهذه الطريقة يضعون حلقة فى أنف سوريا .

ونظرا لأن الكردى العجوز كان أكثر تعلقا بمنصبه ، فقد أصبح هو نفسه واحداً من ملاَّك الإبل فى القافلة ، إذ كان له خمسين جملا كانت تحمل البضائع والأغراض المرسلة إلى الأراضى المقدسة ، التى من قبيل المؤن السنوية من الزيت الذى كان يتم إرساله للحرمين الشريفين ؛ ويجب ألا يغيب عنا هنا أن الحِمْل من المواد المقدسة يزن

ستين رطلا فقط ، فى حين أن الحمل المعتاد يزن مائة رطل . هذا يعنى أن ذلك الكردى العجوز كان يلحس الدسم من كل اللحى وهو يسير على طريق الحج ، فضلا عن رضاه عن تلقى هبات السلام من رعاة القلاع المساكين ، والتى كانت تتمثل فى هدايا من البيض الطازج ، والدجاج ، وهدايا من الليمون الحلو وما إلى ذلك ! أطفال ذلك الكردى العجوز كانوا ابنة واحدة فقط ، بلغ حبه لها أكثر من حبه لنفسه . وأنا عندما عدت ثانية من رحلة الجزيرة العربية إلى دمشق ، ذهبت للسلام عليه فى قصره الذى صنعوا له سلما من الرخام ؛ – ذلك الأب التعيس ! الذى كانت ابنته العزيزة قد ماتت منذ أيام قلائل . وا أسفاه لهذا الرجل المكلوم ، الذى دُفن جزء منه ، فما هو ذلك الذى يمكن أن يعيش من أجله بعد ذلك ؟ ولمن ستئول تلك الثروات الضخمة ، فى القريب العاجل ، عندما يتعين حمله لإخراجه من منزله ، بعد الوفاة ، ورجلاه متجهتان نحو الأمام ! كان لذلك الكردى العجوز أخوة بطبيعة الحال ؛ فقد التقيت بأخيه الصغير ، الذى كان ضابط صف ، التقيته قبل وقت قليل من القيام برحلتى ، والذى صاح ، عندما علم بخبر التحاقى بقافله الحج ، وهو يعبر عن ضيقه الشديد قائلا : "الله يُحرِّم ذلك : هل يسمح لأى نصرانى بدخول الحجاز !" – هاهو قائمقام معان يتقاضى ٢٠ جنيها إنجليزيا فى الشهر ، وهو يعيش من تموين الشعير الذى يصرف علفا لحصانه . وهو بالإضافة إلى صرف القمح والأجور المطلوبة لحامية قوامها ستين رجلا ، لا يحتفظ من ذلك العدد سوى بعشرين رجل فقط ، منهم عشرة رجال فقط من الجنود الدمشقيين.، أما بقية الحامية فهم من الفلاحين الذين يجلبهم من القرى المجاورة ويتقاضون أجورا متدنية ، هذا يعنى أن ذلك القائمقام يوفر لنفسه هو أجور أربعين من الرجال الذين يمكن أن يعيشوا عيشة كريمة ؛ هذا الوفر يجرى تقسيمه بطبيعه الحال فيما بينه وبين كبار ضباطه ! هذه هى لعبة درب الحج ، أو إن شئت فقل : طريق الحج ، التى يساند كل واحد منه الآخر ويعينه على تحقيق المكاسب ، وكلهم متضامنون مع بعضم البعض ؛ وبذلك يصبح اسم حكومة السلطان علامة على مجموعة ، أو إن شئت فقل : عصابة من اللصوص .

صدرت فى الصباح طلقة الإشارة واستأنفت القافلة سيرها من جديد ؛ قبل ساعتين من طلوع النهار ، كنا نسير فى مكان ملئ بالأشواك وأشجار الإثل ، هذا

مؤشر على وجود الماء ؛ جمعنا كمية كبيرة من الحطب . والتربة الرملية المفككة هنا تتخللها أحجار أو حصوات بركانية سوداء ، جاءت من الحرَّة Harra بكل تأكيد . هذه هى التلال وقد بدأت تتلاشى فى اتجاه الشرق ، وهذا هو الريف بدأت ملامحه تتضح من أمامنا . وفى اتجاه الغرب ، نشاهد الآن ، خلف الحدود المنخفضة سلسلة من قمم الأحجار الرملية ، التى تتوالى صفا بعد صف ، وبعض هذه القمم سوداء اللون وعلى شكل منصة جبلية ، وتلك هى الحرَّة . هذه الرءوس عبارة عن براكين خمدت وانتهت . ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع الحرَّة ، وهى تقع على بعد حوالى عشرين ميلا فى الخلف ! (*) وبعد مسير دام عشر ساعات عبرنا حزاما من التلال ، كان يعترض طريقنا على امتداد ساعة كاملة . وخيمنا بعد ذلك على بعد حوالى أربعين ميلا من مدينة تبوك ، إذ نصبوا الخيام على أرض خالية يطلقون عليها اسم دار المر el-Mûghr Dâr أو دار الكلندرى el- Kalandary Dâr؛ والحرة الواقعة خلف منطقة المخيم هى حرة بدو سدنين الرُّحل Sidenyîn ، وهم فرع من بنى عطيه ، الذين تعقص كل واحدة من نسائهم خصلة شعرها الأمامية على شكل قرن من قرون الحيوان ، وتضع خرزة على جبهتها .

عند الساعة الثالثة من ظلمة الصباح نزلنا عن دوابنا لنترجل مرة ثانية . وبدأنا نسمع من جديد ضجيج الفوضى الناتج عن عملية الترجل ، والذى أصاب قلوبنا بالقلق وعدم الارتياح ! تخيل تلك الجلبة المفاجئة ، فى جوف الليل ، وجؤار الآلاف من الإبل . واصلنا مسيرنا خلال حزام من الجبال ، فى أرض مجوفة ، واصلنا صعودنا فيها ، إلى أن وصلنا عند الساعة التاسعة ، إلى أعلى نقطة فى الطريق . وها نحن الآن سوف ننزل حالا عن طريق تلك الرأس التى هى فى حقيقتها عبارة عن وادٍ ضيق طويل يطلقون عليه اسم بوغاز الأخضر el-Akhdar Boghrâz ، والذى يصل عمقه إلى حوالى مائة قدم داخل صخر رملى شديد الكثافة : ولما كانت تلك مضايق خطيرة فإن البدو يطوقونها ويحاصرونها من كل مكان ، يضاف إلى ذلك أن تلك المضايق لا تسمح بمرور أكثر من جملين اثنين يسيران جنبا إلى جنب . ورأيت على وجه حجر من الأحجار ،

(*) انظر ملحق صور الكتاب ، والصور المحشَّاة : هذه الرءوس عبارة عن براكين خمدت وانتهت ويصل ارتفاعها إلى ارتفاع الحرَّة ، وهى تقع على بعد حوالى عشرين ميلا من الخلف . (المترجم)

على جانب الطريق ، نقشا نبطيا من سطرين ، وهذا هو أول نقش أصادفه فى هذه البلاد : عندئذ قفزت من فوق الجمل الذى كنت أركبه ، وكان يتحتم على أن أدون وعلى وجه السرعة تلك الحروف الغريبة ، ولكن إن هى إلا لحظة واحدة ، وجدتنى بعدها وقد تخطانى مد كبير من أفراد القافلة الذين كانوا يسيرون خلفى ، بل إن البعض منهم راحوا يسبون ويلعنون ذلك الحاج الذى اعترض طريقهم ، بعض آخر كانوا يمرون على ويتعجبون منى ، هذا المضيق يفضى ، بعد مسير ساعة من الزمن ، إلى قاع واد رملى يصل انخفاضه إلى حوالى مائة وخمسين قدما عن المضيق السابق ، وشاهدت فى ذلك الوادى بعض الأدغال والنباتات الصحراوية : وبذلك نكون قد وصلنا إلى قلعة ، أو إن شئت فقل : محطة أو استراحة الأخضر ، قبل ساعة واحدة من دخول وقت الظهيرة ، لننال قسطاً من الراحة ونتزود بالماء . والأعراب فى هذه المنطقة يطلقون على كل من الوادى والبرج ، أو إن شئت فقل : القلعة اسم الخُضْر el-Khuthr، وشيخ البدو الذى يجاورهم (المساعيد ، هو وأتباعه من بنى عطية) يلقب بالخضيرى . el- khûthery وسيدنا خضر Khithr هو ذلك البدوى الغريب الذى ورد ذكره فى الإنجيل ، إيليا Elijah النبى ، ونحن نرى داخل القلعة ، معبدا من الخرق الباليه للابتهالات إليه أو التوسل به . والنبى إيليا Elijah يخلط السوريون بينه وبين القديس Saint جورج George . والنبى إيليا هذا نبى قوى وعظيم عند كل من السوريين ، والمسلمين وكذلك المسيحيين اليونانيين : وهم جميعا يتكهنون ، إعتبارا من يوم مولده كل عام ، أى فى فصل الخريف ، بالتحول الذى سيطرأ على الطقس ، الذى يكونون متأكدين منه تماما ، ولم يحدث أن خذلهم أو خيب ظنهم فى مرة من المرات . وقد ظهر ذلك التشبايت(*) Tishbite النارى الذى يرفع بسرعة إلى السماء ، لبعض الناس فى ذلك الوادى المهجور ؛ والمسلمون الذين لا يعرفون تقاليدنا أو تراثنا الإنجيلى يقولون عنه : "هو ذلك النبى ، الذى هو فى الأرض وفى السماء أيضا ."

فوق مدخل تلك القلعة يوجد نقش عربى ، محفور داخل إطار ، ومشكل على شكل لائحة تحمل شعارا رومانيا . والخزان الكبير ثلاثى الأجزاء ؛ ولا يستخدم من هذا

(*) كلمة التشبايت : كلمة غير عربية ، عبرية الأصل بمعنى " الوهج " (المترجم)

الخزان هنا سوى الثلث فقط ؛ ويجرى جلب الماء من بئر ضحلة موجودة داخل القلعة . عملية سقيا هذا العدد الهائل من البشر ومن الماشية عملية شاقة تماما ، والعجيب بحق أن هؤلاء الرجال أصحاب الأجسام المهدودة والذين يتغذون بطريقة سيئة للغاية لديهم قدرة غريبة على التحمل . شاهدت خلف مخيم الحجاج بعض الكبائن البائسة ، وعلى مستوى منخفض من القلعة ، التى يعيش فيها بعض البدو الرحُّل الذين يتوارثون مهنة بيع الأعلاف الجافة لقافلة الحج : والبدو ليسوا على استعداد لتسخير أنفسهم لأى عمل من الأعمال التى يعدونها أعمالا دنيئة أو خسيسة . ومعروف أن البدو الذين احتقروا العائلات الصحراوية ، التى يطلقون عليها اسم السويفلى **Sweyfly**، هم بدو الشرارات . ورأس هذا الوادى تقع فى المنطقة التى يطلق عليها اسم الرَّاحة **er-Raha** فى الحرَّة ، أسفل تلال الشيبان **Sheyban** والوتر **Witr** البركانية العالية . ومن صخرة فى أعلى قمة الوادى ، ينساب نحو الأسفل نهير صغير من الماء الدافئ ، الذى تحيط به فى المناطق المنخفضة الزائدة ، نباتات القصب من كل جانب ، وتعيش فى هذه المياه الصحراوية بعض الأسماك الصغيرة . من هذه البرك يسقى الأعراب إبلهم ، أما هم فلا يشربون من هذه المياه ، لأنها سيئة المذاق ؛ أما الماء العذب فيوجد على بعد مسافة قصيرة من هذا المكان ، ويجرى الحفر للحصول عليه من جديد . فى هذه المنطقة يتجة الوادى شمالا ، ثم يمتد بعد ذلك ، خارجا ليصل إلى محيط تبوك حسبما بلغنى من البدو الرحل فى هذه المنطقة . والبدو الذين لهم حق فى أرض ذلك البرج ، أو إن شئت فقل : القلعة ، والذين لهم أيضا الحق فى تلقى الصُّرَّة كل عام ، فضلا عن حقهم فى نقل الحجاج هم بدو الموهاهيب **Moahîb**، الذين أصبحوا من أصدقائى فيما بعد (وهم أعراب الحره المنخفضة التالية) ومعهم أيضا أعراب الفجير **Fejîr** والفقارة **Fukara**؛ وهم جميعا من القبائل العنزية **Annezy** التى تعيش حول مدائن صالح .

شاهدت على جانبى ذلك الوادى رُجُمًا أو إن شئت فقل : إشارات من الحجارة ؛ سائقو إبل الحج يطلقون على واحد هذه الرُّجم اسم منطار **Mantar** . شاهدت هنا أيضا الكثير من مقابر الحجاج الذين دفنوا على عجل ؛ "شواهد القبور هنا كثيرة فى هذه الحطة ؛ دوَّن الأصدقاء على رءوس تلك الشواهد الكلمات التى كانت أسماء لهؤلاء المتوفين . لقد مضت أيام وليال كثيرة لم يغير خلالها هؤلاء المساكين ملابسهم ،

الأمر الذى يجعل كل هؤلاء الذين يسكنون ويعيشون بالقرب من أنهار دمشق ، إلى دراويش مساكين . ولكن الإنسان إذا لم يستطع ، فى زمن محدد ، تخليص نفسه من المتاعب التى من هذا القبيل ، دافعا بذلك ضريبة للطبيعة لقاء هذه المصاعب ، لا يحق له أن يطلق على نفسه اسم إنسان : ومن يخاف إذا ما طلعت عليه الأسود ، لا يحق له أن يطلق على نفسه اسم "ابن السبيل" فى هذه البلاد المخيفة .

بعد أن أرخى الليل سدوله تسللت مع الأسود إلى داخل المخيم ، حتى يتسنى لى زيارة بعض النقوش الموجودة داخل القلعة . اقتربنا متحفظين من الجناح المخصص لباشا الحج ، هذا الجناح عبارة عن خيمة مزدوجة يميل لونها إلى الاخضرار ، وهى كما يقول إنجليزية الصنع ومصنوعة من الحرير ، هذا يعنى أن مصنعية تلك الخيمة من أفضل المصنعيات الإفرنجية ؛ ومع كل خطوة نخطوها كنا نتعثر فى الحبال الممتدة والأوتاد المغروسة فى الأرض ، تلك كانت حبال خيام الحجاج ، التى تبدو مثل خيوط العنكبوت بعد نصبها ، وهى تعج بالإزعاج من الداخل ، ويصحوا النائمون فيها على أصوات مزعجة وطنين وقع فى آذانهم . ويصيح صوت : "من هناك!" ، ويتوجب علينا الرد برقة قائلين : "عفوا ، نحن أصدقاء" ، ويتواصل تعثرنا بعد ذلك . كانت القلعة مفتوحة ، وفى مدخلها أضأنا فوانيسنا ، وبعدها أطلعنى الأسود على النقوش ، التى كانت عبارة عن قلة قليلة على أحجار الجدران . وتصادف أن جاء بعض أفراد الحامية الذين كانوا يتجولون ، وهم أصلا من المغاربة ، واندهشوا عندما رأونى أكتب وأدون ، وعندما تكلموا وصلوا على النبى ، لم أرد بنت شفة ، لأنى فى داخلى لم أستطع ذلك أو أتمكن منه . ألقينا نظرة على غرفة خرق إلياس Elias، ثم رحلنا عن المكان على وجه السرعة ؛ كانت القافلة على وشك استئناف التحرك من جديد ، وأن يستمر التحرك طوال الليل نظرا لأن الحج جهاد .

بدأت القافلة تتحرك عند الساعة العاشرة مساءً فى ليل عَمُرتْ سماؤه بالنجوم ، ومضينا نازلين إلى أرض منخفضة تتناثر فيها قمم صخرية عالية ، وواصلنا المسير إلى الساعة الثانية صباحا ، وعندها بدأت الضفة الشرقية تذوى متحولة إلى سهل واسع من أمامنا . كانت ليلة ليلاء هبت فيها ريح باردة ؛ جعلت المشاة يوقدون النار فى حطب

الأدغال الجافة ويتوقفون لحظات ابتغاء شيء من الدفء . أمضينا حوالى ساعة أو ساعتين ونحن نسير فى مكان عامر بأشجار السنط ، ويطلق عليه أفراد القافله اسم "جنينات Jeneynat القاضى" el-Kâdy ؛ والمعروف أن كل الأدغال الخضراء هى والأشجار الخضراء يطلق عليها . فى الصحراء ، اسم "جُنينة" . وبعد أن قطعنا مسافة عشرين ميلا دخلنا وادٍ منخفض وسيع ؛ وقبيل طلوع الشمس توقفت القافلة مدة أربعين دقيقة . واعتبارا من هذه النقطة بدأنا ندخل وادٍ ضيق طويل هو وادى Wady سانى Sâny الذى تعد صخوره فراشا صخريا كثيفا من حجر الحديد الرملى وتنتشر فى هذا القاع الرملى بعض البقايا البركانية ، التى يميل لونها الرمادى إلى الزرقة ، فضلا عن ثقلها وصلابتها ، وتآكلها لتصبح على شكل أحجار حادة ، أو أحجار اسفنجية خفَّافة ، أو حمم بركانية سوداء اللون . وتتوقف هذه الأكوام . عدة أميال ، لتبدأ فى الظهور من جديد ؛ شاهدت تلك الصخور المنجرفة وقد تساقطت فوق رفوف الضفة الغربية للوادى ، وهذه الصخور تنتمى وبلا أدنى شك إلى الحرَّه Harra، التى تمتد محاذية للطريق اعتبارا من مدينة تبوك ، بالرغم من عدم ظهور ذلك لنا بصورة واضحة . كانت أرض هذه المنطقة تناسب بل وتصلح للسير فيها على الأقدام ، ولذلك نزل الكثيرون من فوق دوابهم كى يسيروا على أقدامهم لمدة قصيرة . سارع بعض الفرس ، من جيرانى ليعرضوا علىَّ (أنا الذى حسبونى حكيما) قطعا صغيرة من البللور النقى ليتحققوا من عدم اكتشافهم للماس ؛ والسبب فى ذلك أن البسطاء من أمثال هؤلاء الناس يحسبون عندما يكونون بعيدين عن ديارهم أنهم قد اقتربوا كثيرا من ثروات هذا العالم ومن عجائبه أيضا . فى هذه المنطقة وعدنى الأسود بمشاهدة الكثير من النقوش ، ولكنى لم أجد سوى أشياء بسيطة لا قيمة لها ، وجدت هذه النقوش البسيطة على قطع صلبة من الأحجار الرملية المبعثرة على أرض الوادى . وفى الوقت الذى استغرقته فى تدوين تلك النقوش البسيطة كانت القافلة قد تركتنا وراءها منذ حوالى نصف ساعة ، ومر علينا البدو الحمَّالون ، وهم أناس توحى نظراتهم بالشك ، وهم مختلفين تمام الأختلاف عن الحَّمالين الدمشقيين الذين توحى وجوههم بالسماحة . كان هؤلاء البدو الحمالون يرتدون ملابس رثة ، ويركبون فوق حمولات المتاع والأثاث الجائرة التى وضعوها فوق ظهور إبلهم الصحراوية صغيرة الحجم ؛ هؤلاء البدو ، هم الذين

استضافونى فيما بعد فى تلك الأرض القاحلة . والحجاج يعجبون فى أعلى الجانب الشرقى من الوادى بتمثال يشبه الدُّب ، سواء أكان ذلك من عمل الفن البدائى أم بفعل سخرية الطبيعة من نفسها . هذا التمثال ، من وجهة نظرى ، يشبه الخرتيت الذى يقف على أقدامه من فوق قاعدة (*) . وقد يخطر ببال من ينظر إلى هذا التمثال أنه صنم من الأصنام ؛ وسمعت من بعض الذين تسلقوا ذلك التمثال ، أن صورة هذا التمثال طبيعية . وأنا أرجح ذلك الرأى نظرا لأن الأحجار الرملية فى بعض مناطق الحديد ، بل وفى بعض الأماكن الأخرى قد تكون لها أشكال غريبة كثيرة .

عند الساعة الرابعة مساءً ، وصلنا بعد صعود مستمر فى جزء شديد الارتفاع من هذه الأرض ، إلى مخيمنا ، بعد مسير دام تسعة عشر ساعة . وهم هنا يطلقون على هذا المكان بركة المعضَّم **Moaddam Birket**، التى توجد بها قلعة مهجورة ، هى أجمل وأكبر القلاع الموجودة على طريق الحج ، وفيها أيضا صهريج مياه ضخم ؛ وهى من أعمال الإحسان التى قام بها السلطان سليم ، والحدود فى هذه المنطقة تنحصر بين الفجير **Fejir** والخضيرة **Khuthéra**، وهم من البدو الرحَّل ؛ ويصل ارتفاع الأرض إلى حوالى ٣٧٠٠ قدم ؛ هذه واحدة من المحطات الجميلة وبخاصة عندما تشتد درجة حرارة الصيف . والبركة هنا خربة وليس فيها ماء ؛ وهذا يضطرنا إلى القيام بمسيرات طويلة بحثا عن المياه ، والأمل الوحيد فى العثور على الماء اعتبارا من محطة الأخضر **el-Akhdar** قبل مدائن صالح ، يقع على بعد حوالى خمسين فرسخا ، ويتمثل فى المحطة التالية التى يطلقون عليها اسم الدار الحمراء **el-Hamra Dâr** والتى لا يوجد الماء فيها بشكل عام أو دائم . وكل ما فى الأمر أن تلك المنطقة فيها خزان كبير للمياه فى مجرى سيل من السيول يمتلئ بالماء بفعل ماء المطر غير المضمون ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الماء عندما يجرى أو يتوفر فى ذلك المجرى أو فى الخزان ، فإنه يتبخر خلال فترة وجيزة ولا يتبقى منه سوى الحثالة التى تطفح بالديدان . ورحلة الحج ، تعمل ليلا ونهارا ، على الوصول إلى مكان السقاية قبل نفوق الداوب والمواشى ، التى تحمل بضاعتهم

(*) هذال التمثال يشبه الخرتيت الذى يقف على أقدامه فوق قاعدة .

وأغراضهم بل وحياواتهم أيضا . هذا السير الطويل ، الذى يصل طوله إلى حوالى ١٥٠ ميلا ، يؤدى إلى وفاة الكثيرين من الرجال الذين يرهقهم الطريق ويأتى على قواهم . وأنا نفسى ، رأيت بعض رجال القافلة الأشداء ، الذين كنت أعدهم من الشجعان الجسورين ، وهم يرتعدون عندما يروون ذكرياتهم القديمة المؤلمة عن أهوال هذه الرحلة . والمرعب بحق ، أن يأتى موعد الحج ، فى ضوء الدورة القمرية التى تستمر ثلاثين عاما ، فى ذروة فصل الصيف ؛ فى مثل هذا الوقت تكون سماء الجزيرة العربية من فوق رءوس هؤلاء الحجاج ، وكأنها نحاس يحترق ، وتكون الرمال مثل الفحم المشتعل من تحت أقدامهم . ولكن فى هذا العام وصلت إلى دمشق أخبارا طيبه ، عن سقوط الوابل والأمطار ، وأن هناك سيلا أدى إلى امتلاء الخزان بالماء . بالقرب من هذه المحطة توجد صخرة يطلق عليها البدو اسم قبة التماثيل **Khubbat et-Timathîl**، وفيها أيضا بعض النقوش . واعتبارا من هذه المنطقة يتولى القسم الجنوبى من ولاد على **Welad Aly** مهمة نقل أمتعه وبضائع وأغراض الحج ، ومناطق تجوال ولاد على تجاور مضارب أقاربهم من الفقارة **Fukara**، بل تمتد إلى ما بعدها ، حتى تصل إلى سَوْرة **Sawre**، المحطة الرابعة قبل المدينة (المنورة) . ويصل عدد خيام ولاد على إلى حوالى أربعمائة خيمة . وأولاد على ليسوا محاربين ، وهم خونة ، ومتقلبون ، ولكن كرمهم لا يحوم حوله شك أو شبهات . أولاد على هؤلاء توقفوا فى الفترة الأخيرة عن دفع الزكاة لأبن الرشيد ، أمير شمّر العظيم ، كما باعوا أيضا منطقة خيبر للحكام الأتراك فى المدينة (المنورة) ، كل ذلك أوغر صدر ابن الرشيد وجعله يهجم على أولاد على فى فصل الصيف ، فى معركة ، دارت فى مدائن صالح ، استولى فيها على إبلهم وعلى خيامهم بكل مشتملاتها .

استأنفت القافلة مسيرها عند الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ؛ وبعد بضعة أميال قليلة مررنا خلال أحزمة من الأشواك الصحراوية ، التى تعد أشجار السنط أشهر نباتاتها التى يحصل الناس منها على الصمغ العربى . واصلت القافلة مسيرها فى السهل الرملى الواسع ، الذى تحف به التلال من الجانبين ، وعند طلوع النهار وجدت أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤٠٠٠ قدم . الأرض فى هذه المنطقة مكشوفة للطقس بصورة دائمة ولا تسقط عليها الأمطار . لم أرى فى هذه الأرض الجرداء أى

مجرى من مجارى السيول ، وذلك اعتبارا من وصولنا إلى هنا قادمين من العقبة ، وربما استطاع البدو تبين مثل هذه المجارى أما نحن فلا نستطيع ذلك : والمعروف أن أصقاعا واسعة من صحراء الجزيرة العربية تخلو من مجارى السيول . داخل الدائرة التالية ، أو إن شئت فقل : مدائن صالح ، لم يسقط المطر طوال السنوات الثلاثة الماضية سوى مرة أو مرتين . وأرض الوادى من أمامنا تنتشر فيها الصخور البركانية المنجرفة على امتداد أميال عدة ؛ وبالرغم من اختفاء حدود الحَّرة ، إلا أنها ليست بعيدة عن الطريق الذى نسير عليه . يضاف إلى ذلك أن الرمل تنتشر فيه حبيبات بلورية صغيرة ، يشبهها الحجاج بحبات الأرز . وإلى ناحية الشرق من الطريق ، أرى مجموعة من قمم الحجر الرملى شديدة الأسوداد ، والتى تشبه أبراج مدينة من المدن المدمرة .

وصلنا قبل غروب الشمس إلى خيامنا البيضاء التى نصبت بجوار القلعة المدمرة ، التى لم يكن لها باب وكانت شبه مهجورة تماما ، ويطلق الناس عليها اسم 'الدار الحمراء' . هذه القلعة مبنية من صخر وردى اللون ، مثل لون الأرض تماما . كانت القلعة تبدو مرتفعة ومرعبة فى ضوء السَّحرْ وسط هذا الجزء القاحل من العالم . نحن هنا فى هذه المنطقة على ارتفاع حوالى ٤٢٠٠ قدم . وبعد أن قطعنا ما يزيد على مائة ميل خلال ثلاث وأربعين ساعة وصلنا إلى حيث يوجد الماء – هذا الماء هو حثالة الماء وتشغى فيه الديدان . ليالى الصيف فى هذا المكان منعشة فى هذه المنطقة فيما بعد غروب الشمس ، ليالى الصيف تكون هنا باردة فى الربيع وفى الخريف ، وهذا يعد خطرا على صحة من يقومون برحلة الحج ، وبخاصة عند عودتهم منهكين من مناخ مكة المدارى . حكى لى الأسود حكاية غريبة عن عام من أعوام الكوليرا ، الذى مضى عليه الآن ثلاثة أو أربعة أعوام ، أثناء الصعود للحج : من رأى الأسود ، أن عدد الذين كانوا يموتون أثناء السير وفى المحطات الليلية ، كان (كثيراً جداً) يقدر بحوالى مائة حاج أو شخص فى اليوم الواحد . وكان يجرى ربط المتوفين ومن هم فى النزع الأخير من حياتهم إلى ظهور الإبل إلى أن نصل إلى هذا المكان ، طبقا لما قاله الأسود ؛ وكان الكل خائفين ، ولم يغب عن بال أى أحد من أفراد القافلة أنه ربما كان عليه الدور فى الوفاة بعد ذلك ، وقد لا يعود إلى داره وأهله مرة ثانية ؛ كان ذلك اليوم مطيرا ،

واستمر سقوط المطر طول الليل . ثم انطلق مدفع الإشارة فى ساعة مبكره قبل الفجر ، وبدأت قافلة الحج تتحرك مسرعة ، مخلفة وراءها على أرض الصحراء السوداء المبتلة ، ما يقرب 'على حد قوله ، من مائة وخمسين جثة من جثث الموتى ومن هم فى النزع الأخير من الحياة . وفى النهاية ، يصل أولئك الذين بقوا على قيد الحياة ، إلى مرتفعات الصوَّان الصحية ، ليجرى احتجازهم ليجرى تطهيرهم فى الحجر الصحى فى مدينة الزرقه ez-Zerka مدة ثمانية أيام' . ومن رأى الأسود ، أن حوالى نصف القافلة هم الذين بقوا على قيد الحياة ليعودوا ثانية إلى بوَّابة الله ، ويمروا من خلالها داخلين إلى شوارع دمشق الجميلة . كثيرة حكايا هؤلاء الناس عن الحج وبخاصة الحكايا التى تتعلق أو تتصل بسنوات مرض الكوليرا ، ومن بينها هذه الحكاية . 'حدث أن كان هناك رجل يحتضر على الطريق ، وراح أصدقاؤه يحضرون قبرا له بأيديهم ، ثم وضعوا جثمانه بداخله ؛ وعجلوا بتكويم التراب فوق جثة ذلك الميت ، ثم استأنفوا مسيرهم مع القافلة . وبالتدريج . بدأ الميت خلال ذلك الدفء الجاف ، يفيق ويصحو من جديد ، وينهض الميت من ذلك القبر الضحل ، ويتمالك نفسه ليدرك أنه كان فى عالم خال من حوله وأن الحج قد فاته وتركه . وراح ذلك المريض يمشى مترنحا فى إثر القافلة فى تلك الصحراء الجرداء القاحلة ، وراح يتنقل من محطة إلى محطة ، أو إن شئت فقل : من قلعة إلى قلعة ، ومن بدو رُحَّل إلى بدو آخرين ، إلى أن وصل سيرا على الأقدام عبر تلك القفار إلى دمشق ومنها إلى داره ؛ التى استقبله فيها أقرب أقاربه ، الذين تجادلوا من باب الإحسان فى حقيقة ذلك الرجل ، نظرا لأن البعض من هؤلاء الأقارب هم الذين سبق لهم أن دفنوا جثته بعد وفاته ، فى قبر فى الجزيرة العربية . لقد أمضوا بشأنه فترة الحداد ؛ وهاهو يعود إليهم بغير مناسبة ، بعد أن تقاسموا ثروته وماله فيما بينهم' .

أخذنا قسطا من النوم ، ونحن نحس بالنَّصب والبرد ، ثم استأنفت القافلة مسيرها قبل ساعة من طلوع نهار اليوم التالى ؛ الأرض فى هذه المنطقة عالية وعلى شكل مطلع من الأحجار الرملية الوعرة ، التى تتخللها وتنتشر فيها حبات بلَّورية تشبه حبات الأرز . وأفراد القافلة يطلقون على هذا المكان اسم شوك العجوز el-Ajuz Shuk، والناس هنا يقولون : إن سيدة من القدماء ، سقطت ذات يوم فى ذلك الطريق الوعر ، وأنها هى التى قدمت المال اللازم لتمهيد الطريق . أما عن الارتفاع فقد اكتشفت أننا

كنا على ارتفاع حوالى ٤٥٠٠ قدم : وأنا أرى حاليا من هذا المكان الواجهة السوداء لهضبة جبل الحرّة الضخم الذى يمتد ناحية الأسفل قادما من اتجاه الشمال . نزلنا بعد ذلك إلى سهل رملى يسير على شكل رف ، يطلق عليه البدو الرحل اسم مَنْزَل الحج Menzil . el-Haj وعلى بعد حوالى عشرين ميلا من الدار الحمراء ، يسير جزء من الطريق ، بين الصخور الرملية الوعرة ومنطقة من الرمال العميقة يطلق الناس عليها اسم الزلاقات ez-Zelakât، توقفنا فيها مدة ساعة من الزمن ، وكان النهار خانق الحرارة وساكن الريح . بلغنى أنهم شاهدوا نقوشا فى هذا المكان . وأفراد القافلة يطلقون على الجبل الموجود عن يسارنا اسم أبو طاقه Tâka Abu، وهم يروون القافية التالية عن ذلك الجبل : 'جبل أبو طاقة فيه أربع وعشرين زلاقة'؛ وهنا أيضا على بعض الصخور ، توجد بعض النقوش السورية ، التى تزدرى وتستهجن حماقة أى حج من الحجاج الذين يصحبون معهم الحريم الثرثار فى تلك الرحلة : "ابن الكرَّة الذى بيحاجز المره "(*) . كان سائقو إبل قافلة الحج من حولى ينادون علىَّ ، وهم سائرين على اقدامهم المرهقة : "يا خليل أفندى ، ألم ترى بعد الخيام من فوق ظهر جملك ؟" واستمر الحال على ذلك المنوال إلى أن حان موعد الرد على تساؤلهم وقلت لهم : "أنا شايف" ، بمعنى "أنا أرى الخيام عن بعد " . وصلنا إلى مخيمنا الأبيض الذى نصبت خيامه فى منخفض رملى تحيط به التلال ، ويطلق عليه أفراد القافلة اسم "مفارش الرُّز Mufarish "er-Ruz، والسبب فى تلك التسمية هو أن حبيبات الصخر البللورى تنتشر فى أنحاء هذا المكان . عند هذا الحد أكون قد شارفت على الوصول إلى نهاية رحلتى مع الحج ؛ والمحطة التالية ستكون مدائن صالح الأسطورية ، التى جئت من بلاد بعيدة ، باحثا عنها فى الجزيرة العربية ، أو إن شئت فقل : فى بلاد العرب . والمسافة من هنا إلى مدائن صالح قصيرة نسبيًا ، ومن المقرر أن نصلها فى الصباح الباكر ، وفيها تصل القافلة إلى الماء وإلى السقيا .

(*) هذه عبارة عامية سورية معناها : أن من يصحب معه الحريم فى رحلة الحج مغفل وأحمق . (المترجم)

استأنفت القافلة مسيرها بعد ساعة من منتصف الليل : كان هواء الليل جميلا من حولنا ، هواء بلاد العرب الدافئة . أخيرا وفى ظلمة سحر الصباح . وبينما كنا نواصل المسير ، دخلنا منطقة رملية ومنزل على شكل مضيق يقع بين قمم صخور من الحجر الرملى . وسمعت صياحا قادما من المقدمة ، وهنا طلب منى الأسود أن أنظر إلى الأعلى ، كان ذلك هو مكان "مَبرْك الناقة الشهير" ويصح فيه أيضا "مبرك الناجة" . ومعنى "مبرك الناقة" باللغة الإنجليزية ، مفاده "المكان الذى بركت الناقة فيه لتموت"؛ وهذه الناقة الأسطورية التى ولدت من صخرة من الصخور بناء على شفاعة سيدنا صالح الذى سميت المدائن باسمه(*) ، والتى أراها أمامى الأن . وقد رأيت فى هذا الضوء الخافت أكواما من الأحجار فوق الكتل الصخرية التى سقطت على الأرض ، وهذا مؤشر على أن ذلك مكان لعين أو ملعون أو إن شئت فقل : حلت عليه اللعنه . هذه الناقة المقدسة اخْتُرقت إلى حد النفوق فى ذلك الممر ، وذلك بفعل رمى نبال بعض أبناء بليال **Belial**، ومن ثم فإن الحجاج يطلقون أو يفتحون نيران مسدساتهم ، ويحدثون هرجا ومرجا ، مخافة أن ينزل الخوف بدوابهم بفعل أنين ناقة النبى صالح الذى يتردد بين الصخور كما لو كان صادرا عن أشباح . وبدو هذه المنطقة ، (...) (**) ، يعرفون ذلك المكان باسم "المِزْحَمْ" **el-Mézham** بمعنى "مكان الزحام" . وهذا المزحم قصير عند المنحدر الأول ، ثم يفتح بعد ذلك على سهل الحجر الذى هو مدائن صالح ؛ وعندما أشرقت الشمس كشفت لنا عن منظر الأرض الطبيعى الفريد لذلك الوادى الذى يشبه السهل ، والذى تحيط به جروف هائلة من الصخر الرملى (الذى يشبه سلسلة من حوائط المدن وجدرانها ، وأبراج خيالية ، وبنايات تشبه القلاع ،) ومن فوق كل ذلك يوجد كتف من الرمل المنجرف . والقاع من الرمل ، وبه بعض المنجرفات البركانية . وفى اتجاه الغرب يرى الناظر اسوداداً جبليا هائلا ، كما يرى أيضا الانخفاض المريع للحرَّة .

(*) ناقة النبى صالح : يؤخذ من القصص الدينى أن عبدة الأصنام من قوم ثمود طالبوا النبى صالح بمعجزة تثبت أنه رسول الله . وشاءت إرادة الله أن تستجيب لطلبهم حيث إن صخرة فى الجبل انشقت وخرجت منها ناقة . وأمر النبى صالح قومه بعدم المساس بها ولكنهم قتلوا الناقة فانشقت السماء عن صيحة واحدة صعقتهم جميعا . (المراجع)

(**) عبارة تمس المعتقدات الدينية رأينا حذفها . (المراجع)

سألتهم : "وأين تكون مدائن صالح ؟" وأجابونى : "مدائن صالح ليست فى أى جرف من الجروف المحيطة بنا ، ولكنها توجد فى ذلك الجبل البعيد ،" (إثلب [*] Ethlib (الذى بدت جروفه وقمم جباله المخروطية التى تشبه الأهرامات ، تظهر من فوق خضرة أشجار السنط الصحراوية القليلة المتناثرة هنا وهناك ، تلك الأشجار التى تكثر فى هذه المنطقة كما لو كانت غابة من غابات الأخشاب . أضاف البعض ممن كانوا يرافقونى قائلين : "وأنت ، يا خليل ، سوف ترى اليوم عجائب على شكل منازل مبعثرة فى الصخر . سوف ترى ، بالله ، بيوتا مبعثرة مقلوبة رأسا على عقب ، بفعل المعجزة !" وأردف رجال آخرون أكثر سذاجة قائلين : "نحن لم نر ذلك ، ولكن يجب أن تعرف يا خليل ، أن طريقك انتهى عند هذا الحد ، وهانحن قد أوصلناك إلى المدائن ، التى ننصحك بعدم تعريض نفسك فيها لخطر البدو ، ولكن اتجه إلى القلعة (المحطة) التى تقع هنالك وفيها بعض النخيل ؛ وهى مكان طيب " .

بدأت رحلة الحج يوم الأحد ، وصباح هذا اليوم يوافق رابع أيام الآحاد ، طوال سيرنا على طريق الحج ، ومن ثم شعرت بسلام الدنيا من حولى ، ومع ذلك رحت أتأمل ذلك الذى يمكن أن يحدث لحياتى فى مدائن صالح التى لا تبعد سوى أميال قلائل عن هذا المكان . وبينما كنا نتحدث سويا ، سمعت من أمامى ذلك الصوت الفظيع الذى يقول : "اكتشفنا الآن فقط ، أن هناك نصرانيا آخر فى القافلة ، لعنة الله على والده ، وسوف نتعامل معه على وجه السرعة " . وهنا وجدتنى أسأل الأسود قائلاً : "ماذا حدث ؟" ولكنه لم يرد على تساؤلى للمرة الثانية . واستطعت عن طريق الحدس أن أخمن أنهم اكتشفوا سائقا مسيحيا كان من بين سائقى الإبل فى القافلة ، وببالى فعل شىء ما ، فأنا أيضا أوروبى والقافلة فيها الكثير من العقلاء ؛ ولكنى لم ألاحظ أى شىء على ذلك السائق المسيحى ، ولم أسمع عنه أكثر مما بلغنى . خطرت ببالى أيضا حادثة ذلك

(*) جبل إثلب : يعتقد أنه من الجبال المقدسة نظرا لما احتوى عليه من آثار دينية ، ومن بينها النصب التى تسمح للمتعبدين بالدوران حولها إلى جانب المحاريب الأخرى التى توجد فى جنوبه وأشهرها معبد الديوان . (المراجع)

(**) الدين الإسلامى لا يبيح قتل النصارى كما ذهب المؤلف . (المراجع)

المكارى ، أو إن شئت فقل البغَّال السورى المسيحى ، الذى تعرفت على أصدقائه فى دمشق ؛ هذا البغَّال الذى اشترك فى قافلة الحج بوصفه سائقًا ، مرات عدة إلى الحرمين . كان شريك ذلك البغَّال ، على الطرق السورية ، واحداً من المسلمين ، الذين كانوا يشاركون كل عام فى قافلة الحج بوصفهم سائقين للإبل ؛ وكان ذلك الشريك المسلم يصطحب معه زميله كل عام ، بالرغم من أن الرحلة كانت تحتم عليه الذهاب إلى مكة . كان المسيحى يرغب فى ذلك . ولذلك علمه شريكه الصلاة والركوع والسجود على النحو الذى يتفق مع أحوال هؤلاء الشباب الصغار البسيطة وهكذا كان المختن وغير المختن يذهبان كل عام ، ويعودان ويتندران بما يفعلان معًا .

الفصل الرابع

مدائن صالح(*)

التخييم فى مدائن صالح . السكنى فى القلعة . Kella قلة قليلة من الحجاج تشاهد الآثار . رحيل الحج إلى المدينة (المنورة) . البدو فى القلعة . القلاع التى استولى عليها البدو . الحامية المغربية . الحاج نجم . محمد على . البدو يستاءون من حكومة الحج . عنف محمد على . الشيخ مطلق . القلعة . هجرة الجغرافيين القدامى . فهجات . مركز طريق تجارة الذهب والبخور . قصة آل . ثمود القرآنية . العثور على أشجار البخور . وصول حاج تائه من الدراويش . موسيقى البدو . بؤس الحج . درويش وحيد يقطع مسافة ستمائة ميل قادما من مكة إلى مُعان . متروكات الحج . العثور على الدرويش ميتا فى الصحراء . ريح السُموم . دين محمد . جلب التزمت من مكة . الشيخ زيد . البياض والسواد . قلاع بناها بناؤن مسيحيون . زيارة الآثار . "عريش العذراء" . القصر Kasr، والقلعة Kalla، والبرج Borj . النقش الأول . العمارة المنحوتة . الغرفة المنحوتة . آثار البرج . الآثار كلها أضرحة . ثمود "ذوى القامات الفارعة" . "منزل" الحداد . قصة حب الحداد والعذراء التى أنتهت نهايه مأساوية . قصور بثينى . مدائن صالح . كنوز مختبئة . بلاد العرب أرض

(*) مدائن صالح : تقع إلى الشمال من واحة العلا ، وتتميز بغلبة الآثار والنقوش النبطية عليها . (المراجع)

تحللت فى أيامنا . الواحة القديمة أو مدينة القوافل . الطيور . بيت الخريمات . "مجلس الشيوخ" . الأحرف النبطية المنسية فى عهد محمد (ﷺ) . الأعمال الخشبية فى الآثار . عدم العثور على الرخام .

وصلنا بعد مسير ساعتين عبر واد رملى طينى ، وفى جو دافئ يحيط بهوائه ضباب رقيق ، إلى مدائن صالح ، التى تمثل المحطة أو المركز الثانى على الطريق ، كما أنها تقع فى منتصف تلك الرحلة الطويلة ؛ كان الناس يحيون القافلة فى الأماكن التى تصل إليها ، وبخاصة من الحقول ، ثم نزلنا بعد ذلك من على ظهور دوابنا فى المنطقة التى نصبت فيها خيامنا بيضاء اللون ، أو بالأحرى فى مكان يبعد مسافه قليلة عن القلعة .

كان الأعجمى يود منى أن اكتب له على الفور ورقة تفيد عدم مسئوليته عنى وقيامه بالواجب . وهنا خطر ببالى ، أن من الأفضل لى ، إذا ما استطعت ذلك ، أن أقيم فى القلعة ؛ وكان راعى هذه القلعة والقلعة التى تليها ، قد وعدنى ذات مرة ، عندما كنت فى دمشق ، أنه سوف يستقبلنى فى هذه القلعة لو قدر لى المجئ إليها فى يوم من الأيام . وبلغنى أيضا أن البدو وصلوا إلى القلعة منذ ثلاثة أيام ، وأنهم سوف يغادرونها فى صباح اليوم التالى عائدين إلى مضاربهم . وطلبت إلى الفارسى نقل عفشى وأمتعتى ، ولكنه امتنع عن القيام بذلك نظرا للوفاء بالوعد الذى قطعه على نفسه ، وذلك بالرغم من أنه كان مدينا لى طوال مسيرنا على الطريق بكثير من الأدوية التى أخذها منى مجانا وبدون مقابل ، وبالقدر الذى كان يريده . هؤلاء الشرقيون الطيبون ، تنعدم طيبتهم فى النهاية ، ومن ثم فهم لا ينجحون مطلقا ! فى ذات الوقت ، كان الناس الذين أضناهم الطريق قد ابتاعوا لأنفسهم لحما من اللحامين (الجزارين) البدو ، فى سوق اللحم ، وترتب على ذلك تعليق أوصال من اللحم الطرى أمام خيام الحجاج جمعيا . وهنا إنهمك السكان الدمشقيون الذين جاءوا من مدينة تقع على نهر من الأنهار ، انهمكوا فى غسل ملابسهم . وقام أولئك الذين يقومون بدور الطهاة والطباخين بجمع الحطب وشب النار فى حفر صغيرة ؛ وبدأ المخيم كله يدب بالحركة ، والعمل .

الحجاج هنا يأخذون حذرهم ، لأنهم يظنون ، أن هذه أشد المحطات لصوصية على الطريق المؤدية إلى المدينة المنورة ، وأن "اللصوص" هنا هم من البدو الفقراء . وهناك حكاية يرويها الناس هنا ويرددونها كل عام عن ذكاء الطهاة والطباخين وكيف أن واحداً منهم ، بالله استدار ليحضر شيئا من الحطب ، ولكنه عندما اعتدل ثانيه

اكتشف ضياع قدر الطعام من أمامه . وهنا راح ذلك الطباخ يجرى على قدميه ، خلال الصفوف ، ثم أمسك بأول بدوى لقيه حافى القدمين ؛ وأتضح أن ذلك البدوى هو ذلك الشخص اللعين الذى سرق قدر الطعام الحار ، وكان يغطيه بملابسه الرثة . كما طلب منى أحبائى أن أكون حريصا ومنتبها ، مخافة أن يضيع منى أى شيء فى لحظة ويصعب على بعد ذلك علاج الأمر . وانتشر بيننا فى المخيم بعض البدو الرُحل ؛ وكان الحجاج الحضر يصيحون فيهم قائلين : "إنكشحوا !" بعض آخر من الحجاج كانوا يطعنون هؤلاء البدو بدرجات السلم الخشبى ، بعض ثالث كانوا يدفعونهم من اكتافهم كما يدفعون الحيوانات البرية ؛ وكان من بين الفرس أناس سلحوا أنفسهم بالحجارة تحسبا للسطو عليهم . - أخيرا عرفت أن كل هؤلاء الناس كانوا من الجيران الأصدقاء المساكين ، الذين لم يرتكبوا ذنبا أو جريرة . كما جاءت إلينا أيضا نساء هؤلاء البدو ، تعرضن علينا مجموعات من ريش النعام الذى اصطاده رجالهم فى الصحراء . وهنا قام سائقوا القافلة بإعطائهن شيئا من بقايا البسكويت ؛ ومع ذلك ، فإن تلك الرياش القصيرة كانت تساوى ضعف وزنها فضه فى دمشق . إستاء أسود ، لكونه رفيقا لطيفا ، من تلك المكاسرة ، وانعكس ذلك الاستياء على حركات ذلك الرجل ؛ تعجبت امرأه شابة مسكينة قائلة : "تبًا لك ، عار عليك أيها الصبى !" :- معروف أن البدو الرُحل يحتقرون التصرفات الوقحة التى يأتيها الحضر . مشيت خلال المخيم إلى أن وصلت إلى القلعة حيث يوجد باعة المُسكرًات ، ومعهم أثقال موازنة من الحجارة ، ويبيعون التمر الذى نشروه فوق بشوتهم أو إن شئت فقل : عباءاتهم ؛ التى جرى العرف فى الصحراء على تحميلها على ظهور الحمير . وتكلمت مع واحد من هؤلاء الباعة كى يقرضنى حماره لقاء مبلغ من النقود حتى يتسنى لى نقل عفشى وامتعتى . (رد على ذلك العجوز ، الذى ظن أنى واحدًا من أفراد الحامية المغربيه) "يا ولدى ، أنا بحاجة إلى الحمار ، ولا يمكن لى أن أعيرك إياه ." عدت إلى الأعجمى ؛ وكان على استعداد لأن يعيرنى بغلا ، وعندما كتبت له المخالصة تغير جوُ ذلك الوغد تغييرا تاما : رأيت فى وجهه عندئذ فيضا من الابتسامات ، والكلام الحلو ، كما لو كان يتغذى مثل النحل على رحيق الزهور ، كما طُلب إلى الأسود توصيل أمتعتى ، فأنجز ذلك العمل بكياسة الشرق وأدبه المصطنع . وبينما كنت أغادر المكان (قال أفضل سائقى القافله ..)

"سامحنا يا خليل أغا !" كانوا يودون بذلك أن أنسى سلوكهم الوقح وتصرفاتهم البذيئه ، التى كانت تحدث فى بعض الأحيان ، ونحن نسير فى الطريق . وجدنا راعى القلعه واقفا أمام قلعته ، (وشاهدت نقشا عربيا فوق بوابة القلعة) ؛ كان راعى القلعة مشغولا باستلام طعام الحامية ومخزونات القافلة . ورحب الرجل بى وطلب منى الدخول ، إلى أن يفرغ من عمله . كاد أفراد الحامية أن يمنعونى من الدخول ، قائلين إن الغرباء غير مسموح لهم بدخول القلعة .

لكن ، يا لهذه اللامبالاه من جانب هؤلاء الحجاج المرهقين ! إذ لم أرى أحداً منهم يبادر بالذهاب لرؤية تلك الآثار ، بالرغم من اشتهار تلك الآثار فى دينهم كما هو الحال بالنسبة لمدينة سدوم Sodom ومدينة عمورة Gomorrah(*)، اللتان ورد ذكر أشياء أسطورية(**) عنهما فى القرآن . يا للأسف ، لم يشاهد محمد ﷺ بلدة البتراء(***) Petra ! ربما يكون قد وصل إلى وادى موسى : وأهل باليرا(****) ، الذين يخافون من العرب ويخشونهم ، لا يستطيعون المغامرة بالمضى قدما منفردين ، وإنما بأعداد كبيرة تصل إلى العشرين فرداً . ونظرا لأن الحجاج يرحلون عن هذه المنطقة أثناء الليل ، فهم لا يرون مدائن صالح ، ولكن الحجاج الصاعدين يتمكنون من رؤية هذه المدائن . جاء الأسود إلى القلعة فى الليل وتمنى لى وصولا سريعا وطلب إلى أن أكون حريصا ؛ والسبب فى ذلك أن حاميات البرج ، او إن شئت فقل : القلعه ، يشيع عنهم أنهم عنيفون ، مثل بقيه العاملين فى خدمة الحج . وبعد ذلك وصل راعى القلعة ، الذى

(*) سدوم وعمورة : كانت قافلة الحج الشامى تصل إلى هاتين المدينتين اللتين كان يقيم فيهما عدد كبير من اليهود الذين يعتقدون – كما يقول أحد الرحالة " عبد الكريم الكشميرى" – أن ما من شئ يسر الله أكثر من ذبح حاج يؤم مكة . وعلى الرغم من جميع هاتين المدينتين إلا أن ذلك لم يحل دون اختطاف بعض الحجاج وقتلهم . (المراجع)

(**) قصصية وليست أسطورية كما ذهب المؤلف . (المراجع)

(***) البتراء : عاصمة الأقباط ، واسمها فى حد ذاته ترجمة حرفية لكلمة بترا Petra اللاتينية التى تعنى الصخرة أو الحجرة . كما عرفت باسم " سيلع " أى الصخرة فى نصوص التوراة ، وفى المصادر العربية باسم الرقيم حيث يزعم الإخباريون أنها هى التى أقام بها أهل الكهف الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم . (المراجع)

(****) باليرا : تقع بالقرب من مدينة حمص وعلى مسافة تبعد نحو مائة وخمسين كيلومترا إلى الشمال الشرقى من دمشق . ويرى بعض الباحثين أن كلمة باليرا مشتقة من كلمة Palma اللاتينية التى تعنى النخيل ، وأن باليرا هى نفسها مدينة تدمر التى عرفت عند الأغريق باسم باليرا . (المراجع)

خصص لى غرفه تشبه الزنزانة . وهنا وصل أحد الأفراد واستدعى راعى القلعة لمقابلة باشا الحج ؛ وعلمت فيما بعد أن ذلك الاستدعاء كان بسببى . وقبيل منتصف الليل دوت دانة المدفع فى كل أنحاء المخيم لتنذر الجميع باستئناف المسير ، ثم تلت ذلك دانة أخرى إيذانا بالتحرك ؛ وسمعت للمرة الأخيرة عبارات الاستعداد التى تصدر عن الحج وإن هى إلا لحظات قليلة حتى بدأت تتناهى إلى مسامعى الأصوات التى كانت تصدر فى جوف الليل ، عن "تخوت الحج" . أو إن شئت فقل : كوش أو هوادج الحج المحمولة على ظهور الجمال ، ضمن قافلة الحج . وبعد أميال قليلة بدأت القافلة تجتاز 'بوغراز' أو إن شئت فقل : مضيقًا بين الجبال . والمحطة التى تلى ذلك المضيق هى محطة الزمرَّد Zumurrûd، وهى قلعة مهجورة ؛ وبعد مسيرة أخرى يصلون إلى قلعة السوره Sowra، ثم قلعة حيديه Hedîeh، ثم قلعة سُجْوة Sujwa، وبعدها قلعة برَّاجة Barraga، وأخيرا قلعه عوينات Oweynatالبدن el - Beden؛ وفى منطقة هذه القلعة الأخيره يجرى نصب مخيم الحج على بعد مسافة قصيرة من المدينة (المنورة) . ومع كل خطوة يخطوها الحجاج المتجهين إلى مكة ، تشعر قلوبهم بالإرتياح ، وتزداد ثقتهم فى أنهم سيرون ويشاهدون الأماكن المقدسة ؛ عند هذا الحد يكون الحجاج قد قطعوا أكثر من منتصف تلك المسافه الطويلة . وفى ضوء السَّحَر ، سمعت شائعة أخرى تتردد ، عن قيام بعض البدو الرحل البائسين الأشقياء ، بتفتيش أرض ذلك المخيم المهجور ، كما لو كانوا طيور جارحة تبحث عن الرمم والجيف .

مع طلوع النهار بدأ أولئك البدو يتوافدون على البرج ، أو إن شئت فقل : القلعة ، وداهمونا على أمتداد يوم كامل . قال محمد على راعى القلعه : "والله ، نحن لا نستطيع التأكد بين ساعة وساعة ؛ ولكن إذا ما تغير مزاجهم فقد يحاولون التعدى على القلعه !" وقد سبق أن استولى بدو الفجير Fejir بهذه الطريقة نفسها على القلعه قبل سنوات قلائل ، وذلك عندما قامت الحكومة بتطبيق نظام اقتصادى جديد على طريق الحج ، وربما تكون قد انقصت مبلغ الصرة الذى كانت تعطى للبدو الرحل . وبعد رحيل القافلة ، قام الأعراب الذين كانوا فى القلعة ، هم وشيخهم مطلق Motlog، بالهجوم فجأة على الحرس الضعيف ، ولم يصيبوا أفراد الحرس بأى أذى وأرسلوهم فى أمن وسلام

إلى العلى .el - Ally وقاموا بعد ذلك بفتح الغرف المغلقه بالشمع ، ونهبوا كل ما وصلت إليه أيديهم ، والمتمثل فى مخزونات الحج ومخزونات الأورطة(*) العسكريه ، مضاف إليها المخزونات التى وصلت مؤخرا والمتمثلة فى الأطعمة المطلوبة لهذه القلعة وبقية القلاع التابعة لمدائن صالح . كانت القبائل فى ذلك العام سببا من أسباب عدم مرور قافله الحج مرورا آمنا وسليما ، يضاف إلى ذلك أن هذه القبائل داهمت بعض القلاع الأخرى بنفس الأسلوب وسيطرت عليها ؛ هذا يعنى أن القلعة التى كانت تقع أسفل مدائن صالح ، وكذلك قلعة سُجْوة Sujwa جرى السطو عليهما وسرقتهما من قبل ولاد على .. وكان البدو يقولون : إنهم لم يبحثوا إلا على ممتلكاتهم وحقوقهم ؛ واعتبارا من ذلك اليوم جرى الالتزام بتقليد الصرة ، أو إن شئت فقل : المبلغ الذى كان يدفع نظير حق المرور من الطريق ، ولا يستطيع أحد الخروج عليه او إلغائه فى الوقت الراهن . وفى موسم الحج التالى جرى إرسال كتيبه من كتائب الخيالة ، لحمايه هاتين القلعتين ، وجرى وضع تلك الكتيبة فى بلدة العلا el-Ally، ولكن البدو (ومعظمهم من ولاد على) قاموا ، بعد أن غادرت قافلة الحج المكان ، بمحاصرة واحة العلا ، واستمر حصارهم لتلك المحطة حتى العام التالى . وأنا كنت قد قلت للبدو : "لو قام حراس القلعة بغلق أبوابهم المعدنية عليهم ، فماذا كانت ستفعل تهديداتكم لهم ؟" لم يكن لدى العرب أية فكرة عن كيفية فتح الأبواب المعدنية المغلقة عن طريق استعمال شعاع من اللهب ، أو عن طريق تكويم حطب الوقود وإشعال النار فيه وبالتالى يؤدى إلى احتراق البطانة الخشبية الداخلية للباب المغلق ، ولم تكن لديهم أية فكرة عن الشجاعة الشعبيه والمغامرة بحياواتهم تحت الجدران المحصنة . أجابونى على سؤالى قائلين : "لا يمكن لمن يكون داخل القلعه أن يغلقها دوننا بصورة مستمرة ، إذ إن لدى البدو الكثير من البدائل الماكرة ؛ وإذا لم نتمكن من الدخول بهذه الوسائل الماكرة الأخرى ، تكون أمامنا طريقة الذبيحة (خروف أو حيوان آخر يذبح) ، هذا يعنى أننا لن نعدم وسيلة الدخول إلى القلعه ."

(*) الأورطة : من التركية بمعنى الوسط والمتوسط وهى اصطلاح عسكرى إنكشارى كان يستعمل بمعنى كلمة (طابور) (المراجع) .

كان الحاج نجم ، ذلك المغربى الفزّانى(*) ، محافظا للقلعه ؛ أما محافظوا أو قيِّمو القلاع الأخرى فكانوا : الحاج حسن ، مغربى من مَّراكش ، سبقت له الخدمة فى هذه القلعه ، وعندما جاء إليها بصحبة الحج قادما من دمشق ، جرى استبقاؤه مرة ثانيه ، بناء على رجاء من الحاج نجم . هنا أيضا المحافظ عبد القادر ، وهو شاب سمى على إسم الأمير الجزائرى النبيل ، كما أنه أحد أبناء رئيس خدم ذلك الأمير : تربى الحاج حسن مع المعترين فى دمشق ، وكان "عمه" (الذى كان يتمتع بسلطة مطلقه فى كل ما يتعلق بالهجرة المغربية) قد أبعد هذا الرجل ضخم الجسم ، بصورة مؤقتة ، لمدة عام فى الصحارى الرئيسية فى مسئولية محمد على . المحافظ الرابع واسمه محمد ، صبى من البدو المخلطين ، وابن من أبناء أحد محافظى القلاع الدمشقيين السابقين ، أنجبه أبوه من زوجة من البدو الرحل ؛ كما كان هناك أيضا عبد واحد ورجل مسكين آخر جرى إيفادهما للمحافظة على الماء فى بنى معضَّم **Moaddam** .

كانت تلك القلة القليلة المغربية تتجول وهى مسلحة وسط البدو الخونة ؛ هذا هو الحاج نجم ، يجلس بين ضيوفه من البدو الرُّحل ؛ فى غرفة القهوة وغدَّارته ، أو إن شئت فقل : بندقيتة القصيرة ، من فوق ركبتيه ومتعامدة عليهما . كان الحاج نجم ضعيفا وكبيرا فى السن ، فى حين كان حسن هو الرجل الوحيد القوى بينهم جميعا . هذا الرجل الصنديد ، أو إن شئت فقل : شديد البأس كان يغنى طول اليوم أثناء تأدية عمله ، كما كان يبتسم مع نفسه بسرور لا يعرف الحدود . كان الحاج حسن محبا لنفسه وذكيا على نحو يتمكن معه من وجود مخرج لكل حيلة من الحيل ، وهو ما كان يسهل عليه الأمور إلى حد بعيد ، وفى غياب أفقه الصغير يصبح فهمه وتفاهمه بربريا وغير متحضر ؛ الأمر الذى كان يجعل محمد على يشتكى من تشدده وعناده ، "والله أنت بربرى ، يا حسن !" (البرابره ، غالبا ما تكون عيونهم زرقاء اللون ، وشعورهم شقراء صفراء ، وهم من بقايا شعوب البربر السابقة) مضى على حسن فى الشرق اثنا عشر عاما ، وما زال يبدو عليه وكأنه فى منتصف العمر ، ولكنه يقول إن عمره

(*) الفزانى : من أهالى فزان ، إحدى الولايات الليبية . ومن الواضح أن " دوتى ؛ كان يعنى بالمغاربة جميع أهالى الشمال الإفريقى . (المراجع)

خمسين عاما أو أكثر من ذلك ، (ويردف قائلا وهو يضحك من جديد) : "ولعلك تلاحظ أن قلبى ما يزال أخضرا ." معروف أن المغاربة يولدون فى أبراج النجوم الدوارة . والكثيرون منهم يلبسون البرنس الأبيض ، وهم يحجون كل عام إلى مكة ؛ ومن مكة يتفرقون إلى سوريا ، وإلى بلاد الرافدين ، وإلى كل أنحاء المشرق العربى بحثا عن الثراء وعن العمل . والمغاربة يمارسون حرفهم القديمة فى بلاد جديدة ، أما هؤلاء الذين ليس لهم حرف يمارسونها ، (وهم جميعا يجيدون حمل السلاح) فيتخذون من الجنديه حرفة لهم . والمغاربة فى مجال العمل فى الجندية ، مفضلون على غيرهم ، ويرجع ذلك إلى طباعهم الحادة ونزوعهم إلى الشك ، وهم يجرى استئجارهم فى دمشق لحراسة البساتين وكثير من الأعمال الخاصة يعهد بها إلى هؤلاء المغاربة الشجعان . هؤلاء الرجال المغاربة يتميزون بكلامهم الذى يصدر من البطن ، أو إن شئت فقل : الكلام بدون تحريك الشفتين ، كما يتميزون أيضا بأصواتهم الأجنبية .

بعد أن أمضى الحاج نجم فترة طويلة على هذه الضفة من ضفتى البحر أصبح واهنا أكثر من تقدمه فى السن ؛ لم يكن الحاج نجم يتوقع رؤية فزان مرة ثانية ، تلك التربة التى كان يتحدث عنها طول الوقت وعلى وجهه ابتسامة بسيطه سبق للحاج نجم التجوال فى ولايات البربر ، فضلا عن معرفته أيضا للصحراء الجزائرية ؛ لقد عمل فى تونس بعضا من الوقت ، كما عمل فى مصر أيضا فى منطقة بعيدة من مناطق النيل ؛ ثم عمل جنديا بعد ذلك فى سوريا ، ثم جنديا على طريق الحج ، فى أحد المعسكرات فى مدينة معان : صحيح أنه مسلم متحمس ، ولكنه واحد من أولئك الذين جابوا الدنيا وعانوا الكثير فيها ؛ كان رجلا سمحا ، واستقبلنى استقبالا طيبا . قال الحاج نجم : "الإنجليز فى جبل تار Tar Jebel (أى جبل طارق) كانوا جيرانا لشعبه عبر المضيق ." كان يحب الإنجليز أكثر من الإسطمبوليين ، أو إن شئت فقل : الأتراك الذين كانوا فسقة ولم يكونوا مسلمين بحق . وهذا هو الباشا أمين ، قد ترك عندهم فى العام الماضى فقط ، داخل القلعة برميلا صغيرا من الخمر سعته عشرة جالونات لحين عودته من الحج : (قال) "ملعون من يشرب من ذلك الشىء المحرم على المسلمين !" كان

الحاج نجم أبا لطفلين ، ولكنهما كانا بنتين ، ويبدو أنه لم يكن يرعاهما ؛ لأن البنات تشكلن شيئا قليلا من الفرح فى الأسرة المسلمة الفقيره ؛ لأن والد الفتاه يتلقى مهرا زهيدا ، عندما تنفصل بناته عن منزله .

شاءت الطبيعة أن تكون حياة الصبى محمد تعيسة ؛ ولما كان ذلك الصبى مغرورا وخوّافا ، فقد كان يتطلع أيضا أن يكون هو نفسه شيئا ما ، ولكن عن طريق المحاولات الرذيلة . ولما كان ذلك الرجل متراخيا فى عمله ، ومجرد حيوان رخو لا قيمة له فى الصباح ، فقد سمعت محمد على عندما كان ينهره ويعنفه ويؤنبه على النحو التالى ؛ "من الصواب يا ولدى ، أن تستيقظ (عند طلوع الفجر) ، أى فى وقت صلاة الصبح . ففى ذلك الوقت تذهب ملائكة الليل ، وتجيئ ملائكة النهار ، ولكن أولئك الذين يواصلون النوم ، يتملكهم الشيطان .

كان عبد القادر "جاهلا" أكثر من الجهل نفسه ، وضخم الجثة ، إلى حد أن حسنا قال عنه وهو ينظر إليه ذات مرة : "رأس عبد القادر كبير مثل رأس بغلنا الأبيض وليس فيه أى شيء" . ولذلك فهم يستهزئون بذلك الغندور فى القلعة إلى أن يفيق مما هو فيه ؛ وبالتدريج جرى طرد ذلك الآدمى ليجرب الحياة مع شخص آخر من بنى مُعَضَّم .

محمد على (وكنيته) المحجوب ، الذى كان راعيا للقلاع فيما بين تبوك والمدينة (المنورة) كان عربيدا مشاكسا ومحبوبا ، كسير الرأس إلى حد ما ، تلونت طبيعته العنيفة (شأنه شأن الكثيرين من أمثاله) بلون مدرسة الحكم التركى ؛ لم تكن تصله أية رسائل . كانت أسرته تسكن منطقة جبلية (على حد قوله ، "سلوكياتها وأخلاقها القديمة لم يصبها أو يتطرق إليها الفساد") فى الجزائر : وأثناء الغزو(*) ، وبدلا من أن يصبحوا رعايا للنصارى ، فقد أبحروا بمحض اختيارهم فى سفن الحكومة الفرنسية لينزلوا بعد ذلك فى سوريا . ومن بين التقاليد التى سرت بين أسلافهم وأجدادهم ،

(*) المقصود بالغزو الاحتلال الفرنسى للجزائر فى عام ١٨٣٠ . (المراجع)

ما مفاده "أنهم احتلوا فى الزمن القديم كل المنطقة المحيطة بمدينة معان ، وهى المنطقة التى أطعم فيها (سيدنا) موسى قطعان النبى جيثرو Jethro(*) ؛ وأن بنى إسرائيل جردوهم من ممتلكاتهم ." وبعد التحاق محمد على بالخدمة العسكرية ، حارب وقاسى مع القوات السورية فى الجهاد المرير ضد المسكوفيين ، فى جبال القوقاز ، التى جرح فيها مرتين . ويبدو أن الطلقة التى أصابته ، بعد أن أرانى أثرها ، كانت قد دخلت من الخلف ، إلى حد أن أثرها ما يزال يؤلمه عندما يسوء الطقس . وفى فترة لاحقة ، خدم محمد على ، على رأس قوة صغيرة من الخيالة ، فى فلسطين وفى الأراضى الواقعة خلف الأردن ، رابطا مصيره بمصير محمد سعيد ، الذى حصل منه على منصبه الحالى . هذا الرجل بحكم شراسته ، كان بوسعه الإفصاح بوضوح عما يدور بخلده ؛ ونظرا لأن كل مد يكون مصحوبا بجزر فقد كان يبدو على ذلك الرجل العطف والحنان : هذا من منطلق أن المسلمين على اختلاف مشاربهم يستطيعون مخاطبة الغير بأسلوب دينى تماما . كانت شجاعة المغاربة متأصلة فى ذلك الرجل على نحو لا مثيل له ، وبالتالى كانت معارضته أو مجادلته تعد أمرا خطيرا ؛ كان ذلك يشبه النمر إذا ما تعكر صفو مزاجه ، وعرفه الناس من قبل على طريق الحج ، بهذه الغلظة والقسوة . وفى الوقت الذى كان فيه قيِّمًا على معان أعدم (على حد قوله) ثلاثه رجال شنقا . وعندما أوكل إلى محمد على مسألة بناء قبة فوق عين الماء فى منطقة قلعة المدوَّره ، وعندما طلب إليه الاحتراز من هؤلاء الأعراب الأعداء ، قام بأسر البعض من هؤلاء الأعراب ، وبالذات الشيوخ الذين كانوا يتهمون بالسطو على قافلة الحج ، وقام بتقييدهم ، ولم يكن يطعمهم طوال اليوم ، داخل القلعة ، سوى بواقع قطعتان من البسكويت لكل واحد منهم ، وكان يحتم عليهم كل يوم طحن وجبة من الحبوب فى طاحونة بدوية (ثقيله الوزن تماما) كانوا يديرونها بصدورهم ؛ إلى أن استسلموا جميعا لكل هذه المصاعب والمبالغات ، التى تحملوها بقوة الرجال ، ولكن هؤلاء الرجال كانوا يرسلون لمحمد على فدية ، حتى لا يقوموا بذلك العمل ؛ وكان الرجل يستولى على

(*) جيثرو : عرف فى التوراة باسم رعوئيل وأغدق العبرانيون عليه لقب يثرون بمعنى الكاهن . وعرف لدى المسلمين بشعيب الذى صاهره سيدنا موسى حين لجأ إلى أرض مدين هربا من مصر بعد أن قتل فيها أحد خصومه . (المراجع)

تلك الفدية ويأخذها لنفسه . كان جسم محمد على واهنا وعليلا ، ومليئًا بالقرح ، وتجاوز منتصف العمر ، إلى حد أنه كان يبدو وكأن بقية حياته لا تعدو أن تكون أياما معدودات ، كان وجهه يشبه وجه الطاغية ، ومعتما بفعل روحه الخبيثة ؛ كان يصيح بصوت عال ومفاجئ أثناء الكلام ، إلى حد أن صوته كان يشبه صوت الغول : كان ذلك الصوت يصدر من قلب مظلم يحكمه رأس ضعيف ، كان الإزعاج يحيط بنا فى كل حين ونحن فى هذه القلعة المنعزلة . كانت لديه القدرة على التعبير عن قصده (بسياقات معروفه ومحددة) سواء أكان ذلك عن طريق الإطاله أو الاختصار . هؤلاء الشرقيون لا يدرسون ولا يقرءون طوال جلوسهم بلا عمل لتناول القهوه فى مجتمعات الذكور : كل ما يتعلموه فى مدرسة القهوة هذه ، التى تقوم فى الأساس على ملاحظة البشر ، هو كيفية مخاطبة قلوب بعضهم البعض . حكايات ذلك الرجل التى كان يزينها بالأقوال المأثورة ، أو إن شئت فقل : بحكمة غير المتعلمين ، دامت أكثر من شهرين ، كانت تلك الحكايات تبدو وكأنها لن تنتهى . كان الرجل يروى تلك الحكايات بحيوية دافقة تشد الناظرين ، ويضيف إليها من خبراته وتجاربه الغريبة . وفى ضوء هذا اللسان العسكرى المحترف ، وفى إطار هذه البقية الباقية من الفهم الجيد ، وفى ضوء الغرائز الوحشية المجنونة وما يترتب عليها من وخز وتأنيب الضمير ، فى ضوء كل ذلك ، ربما تهيأت لذلك الكديش الهزيل الظروف المناسبة (إذا ما تهيأت له فرصة أكبر) لأن يصبح شخصيه تيبيرية(*) Tiberiusجديدة . بالرغم من كل ذلك ، كان محمد على مخلصا بقدر المستطاع ، كما كان مدققا فى تفاصيل دينه ؛ فقد أنبه ضميره كثيرا ، وهو ينادى النصرانى بإسم 'خليل' ، بل إنه غيّر إسم خليل خمس مرات كان يناديني فيها بإسم 'إبراهيم' . كان يدخل إلى صلاته وهو ملتزم التزاما عجيبا ، لأنه كان يرى فيها طعما حلواً يوحى بنعيم الجنه والفردوس ؛ كانت الصلاه هى العزاء الوحيد هنا لهذا الرجل فى صحراء ذهنه الفاسد . ولما كان محمد على نفسه ، واحداً من الديدان الزاحفة ، فقد كان بوسعه انتقاد الإدارة العثمانية المجرمة ، ويستطيع تصيد وإبراز تصرفات العثمانيين السيئه

(*) نسبة إلى الإمبراطور تيريوس ، وهو الإمبراطور الثانى فى الإمبراطورية الرومانية وكانت له حروبه وتوسعاته المتعددة فى أوروبا . " ٤٢ ق.م – ٣٧م " . (المراجع)

كلها . فى دمشق كان اسم محمد على مدونا فى سجل الرعايا الجزائريين الفرنسيين ؛ ولكنه ترك ذلك الثقب ليزحف إذا ما اضطرته الظروف إلى ذلك - على الجانب الموالى للإمبراطورية العثمانية ؛ وفى وقت الضيق والمتاعب ، فإن كل من كانوا يطلبون الحماية لأنفسهم فى البلاد التركية ، كانوا يسارعون بالذهاب إلى القناصل الأجانب .

البدو الرحل لديهم فكرة سيئة عن حكومة الحج التركية ، إذ يرون من خلال هذه الفكرة السلوك الاستبدادى والوحشى لهؤلاء الحكام الأدعياء ، من خلال صرافى الرواتب والنفقات العسكرية . وأهل الحضر يسبون هؤلاء الحكام ويلعنوهم مرارا باعتبار أنهم يشكلون أبغض عصابة من عصابات اللصوص . والبدوى المترحل إذا ما ارتكب خطأ من الأخطاء ، سمعت صوت ملاك التدمير يصيح قائلاً : "أبعدو هذا البدوى ، وقيدوه فى عجلة من عجلات المدفع ." كان محمد على غاضبا دائما سواء أكان فى زهوه المغربى أم فى يأسه الشديد ؛ ومحمد على لم يجرؤ على مجادلة باشا الحج إلا فى العام الماضى فقط ، وفى هذه الصحراء . ومخزونات الحكومة موضوعة فى غرفة فى الدور الأرضى ومختومة بالشمع الأحمر ، فضلا أيضا عن الأمانات الخاصة بالمقومين وكذلك أمتعتهم : أما بقية الأمتعة والأشياء فكانت ترسل إلى داخل القلعة بواسطة الباشا صراف نفقات الحج العسكرية ، ومعها كيس من الريالات من المال العام . وعندما كان المقومون يعودون من الحج كان الباشا يوفد خادمه لتلقى ، أو إن شئت فقل : استلام الفضة (النقود) . وبعد أن أمسك الرجل فى يده ذلك الكيس المملوء بالنقود الفضية ، وبعد أن خيل له أن ذلك الكيس سوف يتسرب على وجه السرعة ، بعد كل ذلك راح يكيل الاتهامات إلى محمد على ، نظرا لأن الأعراب دائما ما تراودهم الشكوك ؛ ولكن المغربى يشهر سيفه الأحدب ذو الحد الواحد ، ويقطع رأس ذلك العبد الأعزل ، ويشده إلى الخارج من عقبيه ، وهو فى قمة غضبه ويغلق دونه الباب الحديدى . وهنا أرسل الباشا مرة ثانية فى طلب محمد على ليشرح له سبب ذلك الغضب ؛ ولكن المغربى السورى كان يغلى من داخله ، أقسم بأنه لن يذهب إلا بعد أن يشفى غليله - "إذهبوا وقولوا هذا الكلام الصادر من محمد على إلى الباشا ، قولوا له : إذا كان محمد سعيد لديه مدافع فأنا لدى المدفعية فوق أرض هذه القلعة ، - ونحن نقسم بالله أننا سوف نصمد حتى النهاية ؛ ولعله يذّكر أننا مغاربة !" كان ذلك ، من

قبيل استنفاد الصداقة وجلب المتاعب ، ولكن محمد على كان على يقين من أن خدمته القديمة ستشفع له عند الباشا ؛ وهو فى أسوأ الأحوال سوف يلتمس لنفسه عذرا ، فى الجراح التى أصابته فى سبيل دينهم ؛ كما أن بوسعه أيضا أن يشتكى قائلا : "والله ، إن رأسه لم تكن دوما على ما يرام ، وأنه مغربى أولا وقبل كل شىء ،" وقد يقول : إن ذلك شكل من أشكال طبيعته أو طبعه الحاد المتهور : وإذا ما تفاقم الأمر ، وبلغ السيل الزبى ، ويثبت لهم أنه غريب المولد وأحد الرعايا الفرنسيين . مدفعيته (التى كانت مظهرا من مظاهر تفاخر العرب) كانت عبارة عن قطعتين صغيرتين جداً علاهما الصدأ ، وصناعتهما توحى بأنهما من عمل حداد من البدو الرحل : وأن هذين المدفعين جرى إحضارهما منذ سنوات مضت من البرج Borj، ذلك المكان الأثرى الذى يقع على بعد حوالى نصف ميل فى اتجاه الآثار ؛ ويقال إن هذين المدفعين استخدما فى صراع بدوى قديم دار بين قبيلى العنزى وحرب .

قبل أن ينصرف الأعراب لحال سبيلهم ، جاء إلىَّ شيخهم مطلق Motlog وهو يتساءل ؛ "وين هو ، وين هو" بمعنى "أين هو ذلك الموظف الحكومى ؟" دق ذلك الرجل بابى ، ورأيت أمامى رجلا أسمر اللون أو داكن البشرة ، من البدو ، وقف يحملق فى وجهى ويطيل النظر إلىَّ كما لو كنت عدوا له . سبق أن قال محمد على لهم إننى السِّير Sir أمين ، وإننى سكرتير معين ، موفد فى مهمة حكومية . كان ذلك فيه شىء قليل من الخداع والتضليل ، والسبب فى ذلك أن المسلمين يُصَلُّون على الملأ ، ولكنهم لم يشاهدوا خليلا Khalil يصلى ، وهذا جعلهم يتقولون أن خليلا من خارج الدين ، أو إن شئت فقل : ليس مسلمًا . كان محمد على كارهًا لكل من هو ليس على عقيدته أو إن شئت فقل : دينه ؛ يضاف إلى ذلك أنه كان يشعر بالغيرة والحسد على الاستبداد المتنامى فى عالم النصارى الخطرين ؛ ومع ذلك ، كان محمد على ينظر إلىَّ نظره أفضل وأيسر ، إذ كان يعدنى فليسوفا ، فى داخله رأى طبيعى ينطوى على الكثير من التسامح فى كل ما يتعلق بموضوع الدين . – كان هؤلاء هم سكان القلعة ، ذلك البرج الذى يقع على بعد حوالى سبعين قدما ، على جانب الطريق ، ومبنى على شكل مربع . هذه المحطات المائية ، ملونة من الداخل بألوان صارخة ، وجميع الأماكن التى دخلتها

من هذا النوع كلها من طراز واحد . ففى وسط البرج يوجد بئر الماء ، ومن حوله الإسطبل ، والعلف والغرف الخاصة بالتخزين . السلالم الداخليه توصل إلى رواق موصل إلى الأعلى ، حيث توجد فى الجانبين الشمالى والجنوبى صفوف من الحجر الصغيرة المبنية من الأحجار . ومن هذا الرواق ، أو إن شئت فقل : الممر يوصِّل السلم الثابت إلى سطح الشرفة ، الذى قد تلجأ إليه الحامية فجأة ، إذا دعت الضرورة ، إلى الدفاع عن القلعة .

هذا البرج مبنى حول بئر قديمة ، يطلقون عليه اسم بير الناقه en-Nâga' Bîr الذى شربت منه الناقة المعجزة(*) ؛ هذا هو الماء الوحيد الذى يمكن أن يشربه رجل متدين ، من منظور علمائهم ، فى ذلك البلد "المخرَّب" : ولكنى أخشى أن يكون ذلك البئر فرصة مهيأة لنقل الأمراض الخطيره ، بسبب تسرب مياه البالوعة ، أو إن شئت فقل : مياه المجارى ، إليه . هذا البئر شأنه شأن الآبار القديمة الأخرى الموجودة فى السهل ، مبطن بمبانى لم يستعمل فيها الملاط ، ويصل عمقه إلى ستة وعشرين قدما عند مستوى المياه الجوفية ، التى تنبثق من البئر حارة ولها رائحة كريهة وبخاصة فى صباحات أيام الشتاء ، وتصل درجة حرارة الماء إلى ٦٦° فهرنهيتية ؛ - وأنا لم أعثر فى الجزيرة العربية على بئر لم يكن ماؤها حاراً . يقول العلماء إن صلوات الرجال لا ترفع إلى السماء من أرض مدائن صالح ، يضاف إلى ذلك أن الحرفيين من هؤلاء العلماء يحملون معهم ماءهم من المحطات السابقة ، ويرفضون الشرب من ماء بئر الناقة(**) . وحوض ماء القلعة الموجود فى الخارج فى الناحية الجنوبية يصل عرضه إلى ثمانية عشر خطوة وطوله حوالى إثنين وعشرين خطوة ؛ ويصل عمق ذلك الحوض ، أو إن شئت فقل : الصهاريج إلى حوالى ثلاث قامات (***) . ويتناوب على تشغيل ماكينة مياه البئر ، بغلان من بغال دمشق ، ويعمل كل من هذين البغلين أربع ساعات يوميا ؛ هذه الماكينة كانت مصممة أو مصنوعة بطريقة سيئه جداً ، إلى حد أن ما يقدر بحوالى ثلث

(*) ناقة النبى صالح عليه السلام . (المراجع)

(**) يقال إن النبى (ﷺ) قد حرم شرب هذه المياه ربما لتأكيد كراهية الكافرين ، أو لأنه توجس أن تكون آبارها وعيونها قد سممت لإيقاع بالمسلمين . (المراجع)

(***) القامة : مقياس من مقاييس العمق ، ويقدر طول القامة بستة أقدام . (المترجم)

الماء الذى كان يجرى جلبه بواسطة الدلاء ، من البئر كان يضيع هباء قبل الوصول إلى السطح ؛ يضاف إلى ذلك أن قسما كبيرا من الماء الذى يصل إلى البركة أو إن شئت فقل : الصهريج ، يضيع عن طريق التسرب من خلال أرضية الصهريج ، أو لأن ذلك الصهريج يستغرق ملؤه بالماء عشرة أو اثنى عشر يوما . ومسألة تجديد معدات هذا البئر أو آبار القلاع التالية تتطلب جلب الأدوات والمخزونات اللازمة لذلك من دمشق أثناء موسم الحج .

من المهم هنا القول : إن كل قلاع طريق الحج إلى ما قبل المدينه المنورة ، قام ببنائها النصارى ؛ زد على ذلك ، أن البنائين المسيحيين ، منذ سنوات قلائل ، هم الذين قاموا بترميم قلعة مدائن صالح ؛ هذا يعنى أننى لم أكن المسيحى الوحيد الذى شوهد داخل أسوار هذه القلعه البعيدة ؛ ويذكر الناس لهؤلاء البنائين هدوئهم وكرمهم . معروف أيضا أن أساسات هذه القلعة مبنية من الحجر وبدون وضع ملاط على القاع الطينى ؛ والجدران المقامة من فوق هذه الأحجار ليست سوى أحجار غشيمة مقامة داخل الطين ؛ والملاط لا يستخدم إلا لمجرد إصلاح الجدران من الخارج . يضاف إلى ذلك أن الأحجار الجيرية يتعين إحضارها محملة على ظهور الإبل البدوية من جبل عيص(*) Iss، هذا الجبل عبارة عن جبل من الحجر الرملى المحمل بالحجر الجيرى فى وادى يحمل الاسم نفسه ، ويبعد مسافة وقفتين ، أسفل الحُرَيِّرة(**) ، الموجوده أسفل العلا(***) . هذا الوادى ليس هو وادى Wady العيص el- Iss الأثرى ، الذى نشاهد فيه عيونا مائية كثيرة حولها الكثير من نخيل الدوم ، كما نشاهد فى ذلك الوادى أيضا أنقاض قرى كثيرة ، التى تتدحرج فى النزول اعتبارا من بلاد جهينة ، لتبدأ رحلة طويلة

(*) عيص : يقع إلى الشمال الغربى من المدينة المنورة وإلى الشمال من ينبع . وورد ذكر عيص فى التوراة باسم عوص سكانها " بنى قدم " وهو وصف يعنى سكن الشرق أى السكان الذين يقطنون إلى شرقى العبرانيين . (المراجع)

(**) الحريرة : تصغير كلمة الحرة . (المراجع)

(***) العلا : واحة من واحات وادى القرى ، كانت حاضرة لدولة ددان أو لحيان التى اعتمدت اقتصادياتها على الزراعة لوفرة المياه فى واحة العلا وخصوبة أرضها ، كما اعتمدت أيضا على التجارة نظرا لموقع العلا على طريق القوافل الرئيسى الممتد فى غرب شبه الجزيرة العربية من أطراف منطقة الجوف جنوبا إلى أطراف الهلال الخصيب شمالا . (المراجع)

فوق ينبع ، ولتمتد بعد ذلك إلى وادى الحمض el- Humth الذى يقولون له أيضا : وادى جزّل Jizzl Wady .

سمعت عندما كنت فى دمشق شيئا عن الموقع الجميل لهذه القلعة ومن حولها بستان من النخيل . كانت تنمو فى هذه القلعة ثلاث نخلات ، ومعها نخلة ذكر حتى يصبح النخيل الإناث مثمرا . كان الحاج نجم ، يقضى ساعات إجازته فى هذا البستان الذى كان يحيط به سور من الطين ، فى إطار تلك البرية شديدة الاصطباغ بالطابع البدوى ، كما كان يزرع فى ذلك البستان نباتات السلطة والأعشاب ، وكذلك نباتات الأصص التى تضفى على طعامه العربى نكهة خاصة . تقع القلعه على بعد حوالى نصف ميل قبل جبل إثلب Ethlib، وتكاد تكون فى منتصف سهل وادى المدائن . هذا الحجر الذى ورد ذكره فى القرآن(*) ، هو حجر البدو . هذا المكان اسمه 'إيابا' Eypa فى جغرافية بطليموس ؛ فى ذلك الوقت ، كان ذلك المكان سوقا تجارية كبيرة على طريق القوافل بين اليمن وسوريا الذى أطلق عليه منذ ذلك الحين اسم درب الحج . ومن فوق سطح القلعة يمكن وصف اثنين من أكبر الآثار ، كما يرى الناظر أن السهل من فوق سطح القلعة تطوقه القمم الصخرية من كل جانب . والسهل لا يبدو مفتوحًا إلا بعد جبل إثلب من الناحية اليمنى ، كما توجد رفوف رملية ترتفع إلى ما فوق الأفق فى الاتجاه الجنوبى الشرقى : إذ من هذا المكان يمر طريق الحج . وفيما بيننا وبين الصحراء ، يوجد عرب البوّابة ، وهم أسر بعينها من البدو الرّحل ، الذين كانت خيامهم تنصب دائمًا أمام باب القلعة الحديدى . هؤلاء العرب عبارة عن أسر 'فجيره' (Fejir فقيره Fekir) ، (الذين لا يستطيعون تتبع مخيمات قبائلهم المتجولة بسبب افتقارهم إلى الإبل ،) ، إضافه إلى ست خيام مهلهلة من عرب الفهيجات Fehijat، الذين هم فرع صغير وفقير جداً من عرب الحطيم Heteym، ويحتقرهم الغير باعتبارهم منبوذين ؛ وعرب الفهجات هؤلاء ، عملاء لبدو الفكارة ، إضافة إلى أنهم يقومون على أمر خدمة القلعة منذ زمن بعيد ، إضافة إلى أنهم يبيعون أيضا علف الإبل ، شأنهم شأن أعراب

(*) ورد فى سورة الحجر قوله تعالى « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين » وأصحاب الحجر هم قوم صالح عليه السلام . (المراجع)

السويفلى فى قلعة الأخضر ، وهم يبيعون حمولات إبلهم من العلف إلى قافلة الحج ، نظير سعر تحدده الحكومة ، ويقدر بريال واحد للحمل الواحد . وهناك نكتة على شكل قافية بذيئه تتردد فى موسم الحج عن عرب الفهجات ، وعرب السويفلى ، وكذلك عرب الحميدات فى تبوك . مفاد هذه القافية البذيئه : 'رافقنا بناتهم مقابل كراون (*) واحد '. وعرب البدونة Bedôwna من بين باعة العلف فى موسم الحج فى تلك المنطقه أيضا ، وهم أيضا من بدو الحُطيم ؛ وهؤلاء البدونة يسكنون جبل Jeble دُخان Dokhan أسفل العلا : هؤلاء البدونة لا يزيد عددهم على خمسين أسرة ، يعملون هنا باعة للعلف ، كما يبيعون العلف نفسه فى بلدة السَّورة Sawra؛ وهذا العشب الذى يبيعونه ينمو فى الأماكن الرملية المنخفضة عند سفح جبال الصحراء ؛ هذا العلف لا تستسيغه الإبل البدوية الصغيرة . والعرب يلومون هذه البلاد (المنطقة) ويكنونها 'بلاد الجوع Béled 'eJ.jûe ؛ والأسر فى هذه المنطقة يندر أن تطبخ أى شىء ، والشىء الأكثر شيوعا بينهم هو قبضة من التمر المُتَخَثِّر : والعرب أيضا يطلقون على هذه المنطقه أيضا اسم 'بلاد Béled الحرامية 'el-haramîeh بمعنى 'أرض اللصوص' . هذا السهل يعد ممرًا لكثير من 'الغزوات' (أى الغزو) للقبائل المعادية ، إلى حد أنه لا يكاد يخلو يوما واحدا من الضجيج والإزعاج .

مدائن صالح ، كما وردت فى القرآن ، هى بيوت محفورة فى صخور قبيله ثمود التى كانت تعبد الأصنام ، من بين سكان الجزيرة العربية(**) ، وهذه القبيلة جرى تدميرها ، طبقا لما ورد فى القرآن ، فى زمن جثرو Jethro، رسول الله إلى أهل مدين . وجثرو ، طبقا لما ورد فى القرآن ، يعظ أهل قبيلته المتشككين بالأحكام التى حاقت بشعوب أخرى احتقرت الأنبياء فى زمن من الأزمان . 'والهجرة' أو 'الحجرة' Hejra عند كل من بطليموس Ptolemy وبلاينى Pliny، هى عباره عن بلدة واحية مستقرة من

(*) كراون : وحدة نقدية تساوى خمس شلنات . (المترجم)

(**) يبدو ذلك فى قوله تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهة » . وهذه الجبال تسمى الأثالب ويتوقف عندها الحجاج وهم فى طريقهم إلى مكة المكرمة . (المراجع)

بلدات 'طريق قافلة الذهب والبخور' القادمة من بلاد العرب السعيدة (*) . وخلال الأجيال التالية ، لابد لهذه البلده أن تكون قد تحللت واندثرت ، نظرا لأن هذا الطريق الشمالى تزايد الاستغناء عنه وعدم استعماله أكثر فأكثر إلى أن جرى التخلى عنه تماما فى النهاية لصالح النقل البحرى . وفى زمن محمد ﷺ ، أى بعد ذلك بحوالى خمسمائة عام ، كانت تلك المدينة المهجورة الجرداء ، قد اندثرت إلى حد أن الاسم نفسه أصبح ضربًا من الخرافة العظيمة . ومحمد ﷺ ، عندما مر على هذه المدينه ، أو البلدة ، ضمن قوافل مكة ، لابد وأن يكون قد تأثر عندما شاهد من الطريق العمارة القديمة المحفورة لتلك "الأماكن الجرداء" : (لا يمكن لأحد أن ينظر بلا انفعال إلى تلك القسمات أو الملامح الصارمة والمزهوة لتلك السلاسل من القوافل المهيبة !) وقد رأى محمد ﷺ فى تلك الأماكن أيضا أنها دليل أيضا من دلائل التراث الشعبى . وخيال العرب الأمين المُتكلف إلى حد بعيد فى حِكَمه ومواعظه ، وهو أيضا الخيال الذى لا يثق بقلب الإنسان ، ملئ بسذاجة الأطفال التى تصدق بسرعة وسهولة كل ما يتعلق بالدين ؛ يضاف إلى ذلك أن المتدين الشاب كان يدور فى داخله إحساس بمهمة سماوية ، أو إن شئت فقل : مقدسة ، فى أعماق روحه الهادئة . فى حياة نبوة محمد ﷺ كان تدمير ثمود ، مرتبطا بحالات الادعاء فى عاد ، أهل مدين ، ومرتبطا أيضا بمدائن لوط ، التى "كذبت رسل الله" ، هذا الارتباط مثار جدل كبير فى القرآن ؛ كلمات الاقتناع الحالى الخاصة بالخوف لا يمكن الرد عليها بسهولة ، نظرا لأن زور ، وزيف هذه الكلمات يمكن التأكد منه عن طريق الأحداث . 'الحجر' التى هى عنوان سورة من سور القرآن ، كما أن سور القرآن يصل عددها إلى مائة وأربعة وعشرين سورة(**) ، هذه الأسطوره(***) ورد ذكرها فى أكثر من عشرين موضعًا فى سور القرآن .

قصة مدين الأسطورية الموحشة تسير على النحو التالى : هزمت عاد ثمود (كلاهما من شعوب اليمن أو إن شئت فقل : اليمن السعيد) . نزحت ثمود وهاجرت

(*) المؤلف هنا استعمل المصطلح Arabia the Happy ويقصد به Arabia Felix ومعناها " اليمن السعيد " . (المترجم)

(**) من سور القرآن ١١٤ وليس كما أورد المؤلف ١٢٤ . (الناشر)

(***) القصة الدينية وليست الأسطورة كما ذهب المؤلف خطئا . (المراجع)

شمالا حيث نزلت فى وادى الحجر(*) ، فى ظل جبل إثلب . وفى أجيال لاحقة جاء أمر الله إلى هؤلاء الخطائين ، الذين قاموا من باب الثقة الزائدة عن الحد والمغرورة بحفر منازل لأنفسهم فى الصخور ، بالقرب من فتحة صالح ، الذى كان أميرا على أمتهم . طلب آل ثمود عبدة الأصنام من صالح أن يقدم لهم آية أو علامة : "قالوا : أجعل الجبل يأتى لنا بناقة ضاعت منذ عشرة أشهر وهى عشار ، وسوف يصدقوه" . وهنا انتحب الجبل ، كما لو كان يكابد آلام الولادة ، ثم طلعت بعد ذلك من ذلك الرحم الصخرى تلك الناقة التى طلبوها من نبى الله . وبعد ذلك بشهرين ، وعندما وضعت قعودها الصغير (نظرًا لأن حمل الناقة يصل إلى اثنى عشر شهرًا ،) وأصبح حليبها يكفى كل هؤلاء الذين يعيشون فى ذلك السهل . ولكن تلك الناقه المعجزة كانت تخيف ماشيتهم عندما كانت ترعى فى البرية ، يضاف إلى ذلك أن تلك الناقة عندما كانت تشرب كل ثلاثة أيام ، كانت تأتى على كل مياه آبار آل – ثمود الحاقدين . وبعد أن ضجوا منها ، قام البعض منهم ، الأشرار ، بالتآمر للإضرار بالناقة الأمر الذى جعلهم يقتلوها بسهامهم ، (كما سبق أن أوضحنا) فى الممر الذى يعرف باسم مَبْرك الناقة – حزن آل – ثمود لنفوق الناقة المقدسه ؛ وهنا طلب النبى صالح منهم أحضار وليدها ، حتى يمكن أن يغفر الله لهم خطأهم . ولكن وليد الناقة جأر خوفا . "قال صالح ، الجئير ثلاثة أيام ؛ أبقوا فى مساكنكم ، وبعدها ستحل عليكم المصيبة والكارثة" . فى ذلك الوقت ، تقدم بعض الأشرار ليتربصوا بالنبى صالح ، ولكن الملائكه أحبطوا أعمالهم . وبعد انقضاء الأيام الثلاثة ، هبت عليهم ريح صرصر عاتية ، اهتزت الارض على إثرها ، وسمع صوت قادم من السماء ، ومع طلوع الصبح عُثِر على عبدة الاصنام منكفئين على وجوههم (بنفس الطريقه التى ينام بها البدو الرُحل) جثثا ميتة ، وخلت الأرض منهم ، كما لو كانت لم يسكنها أحد من قبل . والمسلمون السوريون يعرضون صخرة ضخمة (صخرة الحوراء) فى هذا السهل ، التى فتحت صدرها واستقبلت وليد الناقة اليتيم مرة ثانية .

(*) ثمود : كانت ثمود تتألف من قبائل وعشائر متعددة ، ولم يكونوا دولة مستقرة واضحة المعالم وعلى أثر هجرتهم من اليمن انتشروا فى شمال الحجاز وسيطروا على بعض أجزائه وخاصة فى وادى القرى ، وكانت مدينة الحجر من أهم الحواضر التى عاشوا فيها . (المراجع)

مضى علينا حتى الآن أسبوع ونحن محبوسين فى هذه القلعة ، وكنا ما نزال مرهقين بفعل الوقفات التى وقفناها اعتباراً من خروجنا من سوريا . ومحمد على يرفض أن أخرج من القلعة للتجوال وحدى ؛ ولكنه كان قد اتفق مع زيد Zeyd، وهو شيخ بدوى كبير ، الذى سوف يعود بعد عدة أيام ليصبحنى إلى منطقة الآثار . قال الحاج نجم عن المدائن "إنها معجزة ، إن إنت القيت نظرة على أسواقهم Sûks، وعلى الحفر المسمارية التى كانوا يعلقون عليها بضاعتهم أمام أبواب الدكاكين ، وعلى كثير من الرفوف فى كثير من الدكاكين ، وعلى الأقبية الصغيرة التى كانوا يعرضون تحتها بضاعتهم ؛ ووالله ، قد ترى كل عظام قوم ثمود ؛ لقد كانوا كفارا ، لم يؤمنوا بالله إلى أن أماتهم الله ، بريح صرصر عاتيه" . ؛ كان ذلك المغربى المحترم يتكلم بطريقة تجمع بين البساطة المرتبكة وبين فكر شبه أمين إلى الحد الذى جعلنى أرى أن جدله كان ينطوى على شىء من النقص : "(قال للأغا) ألا تدرى أن هناك شيئا جديدا جرى اكتشافه مؤخرا ؛ بعض النسوة اللاتى كن يبحثن عن ملح البارود فى تلك 'المنازل' ، عثرن على مادة تشبه المخدر ، إذا ما طرحت على الفحم المشتعل أنتجت رائحة طيبة مثل رائحة البخور . والله ، لقد بعن تلك المادة بمبلغ كبير فى العلا ". el-Ally وغاب الرجل عنا ليحضر قبضة صغيرة . على شكل قطع صغيرة ، كان لونها بنيا مشوبا بالابيضاض ؛ "واصل كلامه ، إنتبه يا أنت ، وهو ثلاثه أنواع ، بخور ، عود (*) ، ومبارك ." وألقى بتلك القبضة الصغيرة فوق نار الوجار (**) لتنبعث منها رائحة أرضية ضعيفة ، بها رائحة طحلبية تميل قليلا إلى رائحة البخور . معروف أن البخور لم يعد ينتج بعد فى اليمن السعيد ، ومع ذلك فإن لذلك العطر وزن كبير عند أهل بلاد العرب . ويجرى إحضار القسم الأكبر من ذلك البخور من جزر الملايو إلى مكة فى موسم الحج ؛ ثم ينتشر بعد ذلك فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية ، بل ويصل أيضا إلى كل أسرة من أسرها . هذا الطيب جميل الرائحة يريح النفس المتدينة وينبه المخ : ومسألة اعتقادنا فى دينية رائحة البخور يحتمل إنها ترجع إلى التراث الأممى (غير اليهودى)

(*) نوع من أنواع الطيب (البخور) عند أهل الجزيرة العربية وبخاصة المنطقة الوسطى . (المترجم)
(**) الوجار : عند أهل الجزيرة العربية ، هو موقد القهوة . (المترجم)

لطريق الذهب والبخور . وأهل الجزيرة العربية يضعون قطعة من البخور فوق مبخرة يجرى تناقلها من يد إلى يد أثناء شرب القهوة ، وبخاصة فى قرى الواحات فى أيام الأعياد : ويقوم كل من يتسلم تلك المبخرة بوضعها لحظة تحت 'بشته' (عباءته) ، حتى يعطر ملابسه ؛ ثم يشم الرائحة الطيبه مرة أو مرتين ، ثم ينقل المبخرة بعد ذلك لمن يجلس بجواره .

رَحَلَ البدو . وفى إحدى الأمسيات جلسنا مجتمعين فى غرفة القهوة الصغيرة (التى تقع فوق الممر العلوى) ، من حول نار الشتاء المشتعلة بفعل خشب أشجار السنط الجاف ، وهنا ظننا ونحن نستمع إلى ضربات هاون البن أننا سمعنا شخصا ينادى من تحت منفذ من المنافذ ! أصخى الجميع السمع ؛ – سمعنا صوتا رخيما وهو ينادينا مُتْعَبًا . ونادى عليه محمد على باللغة التركية ، التى تعلمها عندما عمل بالجندية ، حيَّاه : ورد عليه المنادى بنفس اللغه التركية . "آه" ، قالها الأغا وهو يسحب رأسه ، "إنه حاج مسكين ؛ إنهض يا حسن وأنت يا محمد إنزل على وجه السرعة وافتح الباب :" وهنا سارع الإثنان بدافع من الدين إلى فتح الباب والسماح لذلك الحاج المسكين بالدخول . اقتادوا إلينا فقيرا مسكينا ، طيب المحيا ، ومتقدم فى السن ؛ كان المسكين شبه عارٍ ويرتعد بفعل برد الليل . كان ذلك الرجل درويشا تركيا قطع المسافة إلى هذا المكان سيرا على الأقدام ، قادما من مقر إقامته فى آسيا الصغرى ، وقد تصل هذه المسافة إلى ما يقرب من ستمائة ميل ؛ ولكن بالرغم من بنيته المتينة إلا ان معاناته الإنسانيه كانت قليلة فى ضوء طول الطريق . توعكت صحة ذلك الدرويش بعض الشىء بعد أن غادر بلدة معان ، وبعد أن غادرت قافلة الحج بلده المدوَّرة ، خلفت وراءها ذلك الدرويش نائما فى البرية ؛ وترتب على ذلك أن قطع تلك المسافة التى تقدر بحوالى مائتى ميل ، عبر الصحراء ، مقتفيا بذلك أثر القافلة ، ولم يكن يرتاح إلا فى القلاع ! لم يستطع عابر السبيل هذا اللحاق بالحجاج ، الذين كانوا يسبقونه دوما بفعل المسيرات المحددة لهم والمفروضة عليهم . أحضر محمد على له ثوبًا من اللباد الحلبى ، لف به نفسه احتماء من البرد ، نظرا لأن الأعراب كانوا قد جردوه من ملابسه قبل مدائن صالح بثلاث ساعات .

استقبل الجميع ذلك الدرويش استقبالا حانيا ، وبينما كانوا يُحضِّرُون له العشاء ، طلبوا منه أن يرتاح قائلين له : فى العام القادم ، إن شاء الله ، ستؤدى فريضة الحج ؛ أما الآن فيفضل له البقاء معهم ، وأنهم سوف يستضيفونه ، خلال هذين الشهرين ونصف الشهر إلى أن يعود الحج من جديد . ولكنه رفض ذلك العرض ! لقد ترك محل إقامته فى بلده لكى يشقى فى بلاد غريبة ؛ وإذا لم يرى المدينتين المقدستين المباركتين فلن يستطيع العودة ثانية . كان ذلك الدرويش يجلس معنا حول وجار القهوة ووجهه يعبر عن شكره وإمتنانه من ناحية وتواضعه وبساطته من الناحية الأخرى . وبعد أن أحس بأخوة الجنس البشرى ، إتضح أنه مسكين يدل سلوكه على طيبته وبراءته الشديدة . وعندما استعدنا مرحنا مرة ثانية ، استأنف واحد من بدو البوابة ، موسيقى الصحراء ، وفتح فاه ليضحكنا ، وراح يعوى بأغنية بدويه على أوتار الرَّبابة . كان ذلك هو وادى بدو الفجير ، شخصية كوميدية ؛ بين الصحبه المتحلقه حول نار الوجار ، وجهه أسود . هذا الرجل سبق له أن أمضى عاما فى مدينة دمشق ، تحول على أثرها إلى وغد فى ضوء مظهره الطبيعى الخارجى ، ولما كان ذلك الرجل ينحدر من أحد الشيوخ ، ويحمل وجهه البسيط سمة النبالة ، فقد كان يبدو كما لو كان طفلا حظيظا ، ولكنه لم يكن لديه أى شىء من الإبل ؛ كانت خيمته منصوبة دوما أمام القلعه : كان تردده على غرفة القهوة فى البرج أكثر من تردد الذباب ؛ كان ذلك الرجل وهو يدور بعينيه البيضاويتين الكبيرتين ، يتردد ساعة بعد ساعة على محمد على ، وهو يفتح فمه لتظهر منه أسنانه البيضاء ، ويقول : 'الله أكبر !' مطريا كل الأقوال المأثورة التى تقولها هذه الشخصيه العظيمة فى القلعة .

تأخر ذلك الدرويش المسكين ، بعد أن لف نفسه فى ثيابه ، يوما آخرا ، بسبب تلك الراحة الحلوة التى لقيها بعد متاعبه الكثيرة . وبعد انتهاء اليوم الثالث ، آخر أيام الضيافة المعتادة ، بدءوا يتبرمون منه ؛ وهنا يضع محمد على فى يد ذلك الدرويش وجبة من الطعام ، ووضع على كتفه قربة ماء صغيرة ، ثم اقتاده إلى قارعة الطريق ، وأراه الاتجاه الذى ينبغى عليه السير فيه ، وطلب منه أن يتتبع آثار أقدام القافلة ، وتمنى له السلامة . متاعب الحج لا نهاية لها وهى كثيرة ؛ والدين وعد بأشياء

طيبة قادمة ، لأمثال هذا المسكين ، والكثير من هؤلاء المساكين معوزين وخاوين الوفاض . (.....) (*)

جاء درويش عربى شاب أثناء زيارتى الأولى لبلدة معان ؛ وكان ذلك الدرويش ممن يسكنون ، أو إن شئت فقل : يعيشون فى منطقة بلدان الحدود العربية الفارسية المشتركة ، الواقعة فيما وراء مدينة بغداد . كان 'ابن السبيل ، هذا يلبس لباساً قطنيا فضفاضا ، ووصل وحده قادما إلى معان من مكة ، (التى تبعد عن معان أكثر من ستمائة ميل ،) وصل إلى معان ، سيرا على الأقدام ، بعد ستة أشهر تقريبا من عودة قافلة الحج . كان غوثه على الطريق يتمثل فى اللجوء إلى القلاع ، أو إن شئت فقل : محطات الحج ، وفى بعض الأحيان الأخرى كان يقيم مع الأعراب الذين كان يلقاهم فى الطريق ، ويقضى معهم شيئا من الوقت فى مخيماتهم . سألته عن الطريقة التى استطاع بها تعرف طريقه دون أن يجرده البدو مما كان معه ؟ أجابنى قائلا : "أيها الرجل ، أنا لا أملك شيئا سوى ذلك القميص الذى تراه على كتفى ، وهذا الصحن الخشبى الذى تراه فى يدى ." ولما كان ذلك الرجل يبدو عفيا ، لم يظهر عليه التعب بعد . كان بين هذا الرجل وبين دمشق مسافة تقدر بحوالى مائتين وخمسين ميلا ؛ وبعد وصوله إلى دمشق يتعين عليه أيضا أن يرافق إحدى القوافل طوال شهرين من الزمن إلى أن يصل إلى بلاد الرافدين ، ثم يترك بلاد الرافدين سيرا على الأقدام مسافة طويلة أخرى حتى يصل إلى موطنه . وبالرغم من أن الرحلة إلى المدينة وإلى مكة لا تكون رائعة دوما ، إلا أن الحجاج يقومون بها سيرا على الأقدام وبخفه ومهاره ! هذا الرجل ، خلفته قافله الحج مريضا وراءها فى مكه ، فى إحدى المستشفيات ، الخيرية الخاصة باستقبال الغرباء – ومن يموت فقيرا فى المدينة المقدسة ، يدفن من المبالغ التى يجرى الحصول عليها من صندوق الصدقات الموجود فى المسجد الحرام : كما يجرى أيضا كسوة البؤساء العراه بواقع قميص لكل واحد منهم .

(*) عبارات فيها مساس بالدين رأينا استبعادها . (المراجع)

كان من بين أولئك الذين خلَّفهم الحج رجل آخر يعيش فى القلعة ، وهو فقير الحال من بلده حمص Emesa (فى أعالى سوريا) ، وكان يعمل من قبل ضمن قوات الشرطة . وضع ذلك الرجل نفسه على طريق الحج ، دون أن يكون معه فلسا واحداً ، وأجَّر نفسه نظير الطعام ، لواحد من تجار ومقاولى الإبل ، ليقوم برعى الإبل . وهذا العمل شاق جداً إذ يتعين على ذلك الرجل أن يصحو أثناء الليل بعد مسيره الطويل أثناء النهار . هذا الرجل تورمت قدماه بعد أن قطع مسافه خمسمائة ميل ، كما تورمت ساقاه أيضا . هذا الرجل تأخر مسيرة أو مسيرتين ، أو إن شئت فقل : وقفه أو وقفتين ، ثم سمح لنفسه بالتأخير عدة أميال قلائل عن مدائن صالح ، وبالتالى فاتته قافله الحج . عثر باشا الحج نفسه على ذلك الرجل التعيس عندما كان يركب فى مؤخرة القافلة ؛ قال الباشا : "من أنت ؟" . "هل يرضيك أن ساقاى لا يقويان بعد على حملى ؛ الرحمه ، يا جناب الباشا ، لقد كنت أعمل من قبل بالجندية ، وأنا أخشى أن أموت هنا ." – "إنهض ! (صاح الرئيس العسكرى) إنهض وواصل المسير !" ثم هوى التركى على ذلك الرجل بكرباجه المصنوع من الجلد . "وأسفاه أنا لا أقوى على السير خطوة واحدة ، ومع ذلك اجلدنى حتى أموت هنا ." وهنا أصدر باشا الحج أوامره إلى واحد من العجيل ، بأن يحمل ذلك الرجل على ناقته ويوصله إلى القلعة : حيث يمكنه الانتظار فيها إلى حين عودة الحج ، وطلب إلى راعى القلعة أن يقدم له الماء والغذاء . كان اسم ذلك الرجل نصار Nasar، وكان بليد الحس ومكروها من أهل القلعة نظرا لأنهم كانوا مضطرين إلى التخفيف عنه ؛ وبعد أيام الضيافة الثلاثه ، طردوه من غرفة القهوة ، وأعطوه سكنا مثل الحيوانات فى مخزن العلف الموجود فى الدور السفلى من القلعة . داويت ذلك المسكين ، الذى عبر لى عن عظيم امتنانه ؛ نظرا لأن حيوية دم ذلك الرجل ، كانت تعتمد على الأرز والماء فقط ، الأمر الذى جعله لم يتحسن قبل عودة الحج .

هنا دخل بعض البدو الذين سبق لهم رؤية ذلك الدرويش وهو يسير ببطئ على طريق الحج المنخفض : كانت السماء صحو ، وكانت شمس الشتاء تشيع الدفئ فى ظهيرة النهار ، غير أن الفصل كان باردا على نحو يصعب معه على ذلك الرجل المرهق النوم فى الخارج أثناء الليل . وبعد ذلك بأسابيع ، وصل أيضا بعض البدو قادمين من المدينة (المنورة) وسألناهم إن كانوا شاهدوا أو رأوا ذلك الدرويش ؟ وعندما حكينا

لهم عن لباس ذلك الدرويش ، ردوا علينا قائلين : "حقا ، بالله ، لقد رأيناه وهو يكاد يحتضر ؛ وكان اللبَّاد من تحته ؛ كان يرقد على جانب الطريق ، بالقرب من قرية سورة Sawra (أى ليس على مسافة بعيدة من هنا) ، وعلى مقربة من القلعه ." وحزن من أحسنوا إليه ، لأن ذلك الذى طردوه حيا منذ أيام قلائل أصبح الأن مجرد جثه فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ؛ وقد يحدث لهم الشىء نفسه فى يوم من الأيام فى هذه الصحراء الكبيرة . وصاحت الأصوات كلها دفعة واحدة ، "مات الرجل من العطش !" وقد ظنوا أنه ربما تخلص من قربة الماء الثقيلة التى كان يحملها على عنقه فى أوقات الظهيرة . لم يكن ذلك المنظر جديداً على البدو ، منظر أولئك المسافرين التعساء الذين كانوا يتساقطون ميتين على طريق الحج بلا رفيق ؛ إنهم (يقول ذلك البدو على مرأى ومسمع منى) يرون ، فى كثير من الأحيان ، الضباع وهى تتوثب استعداد الالتهام تلك الجثث ، عقب خروج آخر نفس من تلك الأجساد الدافئه . يمر البدو على تلك الأجساد :- والبدو لا يعرفون الإحسان المجانى لدفن الغرباء . - وقد أبلغنى محمد أنه فى كل موسم من مواسم الحج يسقط بعض الحجاج ويتركون ليموتون . وتشتد معاناة الحجاج فيما بين الحرمين ، "حيث ، تقف الجبال ، يا خليل ! كما لو كانت جدرانا تطاول عنان السماء على الجانبين !" وفى هذا الهواء الساكن لا يوجد أى ساتر أو غطاء سوى الشمس المجردة : ونظرا لهبوب رياح السموم الخانقه عليهم فهم يسقطون مغشيا عليهم ويختنقون . صحيح أن هناك ماء على جانب الطريق ، حتى عندما تصل الحرارة إلى أقصى مدى لها ، ولكن البدو الملعونين ، لا يهمهم سقيا أو عدم سقيا عابر السبيل ، اللهم إلا إذا حصلوا على المزيد والمزيد من الهدايا والعطايا من باشا الحج : ليس هناك علاج ، أو حل لوادى الموت هذا ، الذى هو بمثابه نهاية لكل الأخطار المميتة . يضاف إلى ذلك ، إن أرض المخيمات فى مكة تبعد كثيرا عن الحرم ، ولذلك يتعين على هؤلاء الغرباء المساكين أن يستأجروا لأنفسهم غرفا للسكنى فى المدينه المقدسة : من هنا فإن عددا كبيرا من هؤلاء الناس يتكدسون داخل غرفة ضيقة واحدة . والمعروف أن السواد الأعظم من هؤلاء الحجاج يصلون من تلك الوقفات وهم فى منتهى الضعف والوهن ، الأمر الذى يزيد من اعتلال أجسادهم ، وتفشى الاضطرابات المخيفة بينهم : - ومن موسم الحج إلى مكة يتفشى الكثير من الأوبئة العامة التى تصل إلى أبعد المناطق التى يعيش فيها الجنس البشرى .

إنقضت أيام أُخر ، ومحمد على يقول لى كل مساء : 'إنه سوف يصبحنى فى الصباح إلى الآثار' . كانت وعود ذلك الرجل من النوع التركى ، هذا يعنى أننى كان على أن أتعامل مع شخص هو فى داخله قد افترس النصرانى : عندما كان محمد على فى سوريا كان يبدو إعجابه بالشراهة العجيبة التى وجد عليها بعض المسافرين الإفرنج عندما كانوا يشترون الأشياء الأثرية القديمة ' . "قال محمد على ، ما الذى ستعطينى إياه ، حتى يمكن لك أن ترى الآثار ؟ ويجب ألا يغيب عنك أننى حاميك الوحيد هنا فى هذه الأرض الجرداء الخراب . إن فى القلعة من يريدون قتلك ، ولكنى أنا الذى أمنع ذلك : والله العظيم ، انا أقول لك الحق ." قلت له : "حدد السعر الذى تريده لخدماتك وسوف أعطيه صكا أدفعه له عند العودة إلى دمشق :" – ولكن الوعود بعيدة الأمد لا يقبلها العرب ، لأن عالمهم خالى من الثقة ، فضلا عن إنهم هم أنفسهم لا يعترفون حتى بالاتفاقات شديدة الدقة .

عند هذا الحد ، وصل زيد **Zeyd**، أحد شيوخ بدو الفجير(*) ، والذى كان يركب جملا قادما من الصحراء ، ومن خلفه حامل بندقيته ، كما كان معه أيضا ولده الصغير يركب على ظهر فرسه . زيد هذا ، سبق له أن زار دمشق وتعلم كل حيل السلوكيات العثمانية ، التى تمكنهم من الدخول إلى حظوة المسئولين عن طريق استعمال الرشوة . قبل عامين ، وعندما ولدت الفرس مهراً وليس فرسا أو إن شئت فقل : فلوة ، (نظرا لأن البدو لا يعتدون بذكور الخيل ويعتبرونها لا تستحق شرب لبن النياق) ، قام ذلك البدوى المكار بإهداء ذلك المهر العقيم إلى محمد على ذلك الذئب المغربى ؛ وعاد راعى القلعة راكبا ذلك المهر الصغير قادما من سوريا . ولم يرى زيد بعد ذلك سوى وعود ليس إلا : ها هو الآن قد جاء دوره مع النصرانى ، وكان من رأيهما هما الاثنان إننى يتعين على أن أظل غاديا رائحًا بينهما . "أعط زيد عشرة جنيهات ، يا خليل ، وسوف يحملك على ظهر فرسه ، ويتجول بك بين وحول الآثار كلها ." وأبعد أثر من تلك الآثار لم يكن يبعد عن المكان الذى كنا فيه أكثر من ميلين ، كما أن الغالبية العظمى من تلك الآثار لم تكن تبعد أكثر من ميل واحد عن البرج ، أو إن شئت فقل : القلعه . وادعى زيد أن هناك شيئا آخرا يمكن أن أراه بجانب الآثار 'فى بئر الغرنّم **el- Ghran- Bir**

(*) بدو الفجير هم أيضاً بدو الفقارة ، أو بدو الفقراء . (المترجم)

'nem، الذى يتعين علينا عنده اصطحاب رفيق من أعراب Aarab البلِّى(*) Billi '. وهم يحسبون كل ذلك ضمن بلاد الحجر التى أصبح عاليها سالفها ، وتقع فيما بين مُبْرك الناقة وبير (بئر) الغرنَّم ، التى تبعد عن القلعة مسافة ثلاثين ميلا تقريبا ؛ وعلى جانب طريق التجارة القديم توجد أنقاض بعض القرى التى تمتد إلى المدينة المنورة . ولكن البدو الرحل يقولون فى صوت واحد ، لا يوجد فى أى مكان من هذه الأنحاء بيوت byût أو بيبان bebán، هذا يعنى أنه ليس هناك غرف منحوته فى الصخر مثل بيوت الحجر أو إن شئت فقل : مدائن صالح .

كان زيد مشغولا بالمرور على خيام أفراد قبيلته ، وقد سبق له ربط كل هؤلاء الأفراد بالصيغة "جيراك" Jirak التى معناها "أنا جارك" . وأنا إذا ما رفضت زيدا قد لا أتمكن من استئجار أى أحد منهم . وهكذا قدِّر لنا أن نترافق طوال فترة طويله قادمة . كان زيد شيخا من شيوخ الصحراء وكان داكن البشرة إلى حد السواد ، متوسط القامة وفى منتصف العمر أيضا وتبدو فى وجهه عضة الجوع . اللون الداكن الذى من هذا القبيل لم يتعود العرب على رؤيته ، نظرا لأن عرب هذه المنطقة يميل لون بشرتهم إلى اللون البنى الغامق . هؤلاء العرب يظنون أن ذلك اللون يشبه لون الدم الدنيئ الذى تنحدر منه أعراق العبيد ؛ ومن ثم يصبح الشعر المجعَّد والأكرت عيبا من وجهة نظرهم . ولعلنا نذكر أن ترانيم الكتاب المقدس ، تظهر لنا الحبيبة وهى تعتذر عن ملامحها الجميلة داكنة اللون ، "أنا سوداء ولكنى جذابة ، وأنتم يا بنات أورشليم (القدس) ، بشرتكم تشبه خيام البدو ، كما تشبه أيضا لون قماش خيام (سيدنا) سليمان ؛" هذه هى العشيقة أو الحبيبة تعظم ابيضاض حبيبها المتورد . الظُلمه ، الحرمان من الضوء ، هو لون الموت ، (الموت الأسود el-aswad mawt)، وبالمثل أيضا المصيبة والشر ؛ ولذلك يوصف قلب الرجل الشرير بالسواد (القلب kalb الأسود el-aswad) وطبقا لهذه الرؤيا ، فإن قاضى الأرض كلها فى ساعة الحساب الأخيرة سيكون له أسلوب سريع فى مراجعة الحسابات ، ولن ينتظر المفاوضات مع كل روح فى بحر الأجيال ، والسبب فى ذلك أن برص الصحراء الشريرة وجزامها سوف يظهر على وجوههم ، وسوف يظهر ذلك البرص والجزام على وجوه الأشرار على شكل اسوداد

(*) البلى : قبيلة تقع مضاربها على مقربة من مدينة تيماء . (المراجع)

مخيف ومرعب . وبلغة الإنجيل سوف يجرى فصل الأغنام عن الماعز ، – وفى ذلك مقارنة للون – وسوف يسطع العدل مثل ضوء الشمس . والعرب يقولون عن الحياة الإنسانية النقية ، 'قلبة أبيض kalb-hu : 'abiâth ونحن بدورنا نقول 'صريح' . candid كان زيد يُحمِّل صوته أعمق النغمات التى يمكن أن تصدر من حنجرة بشرية ؛ هذه هى الصورة التى يمكن لرسام أن يرسمها لمسلم من مسلمى الصحراء . كان زيد غائر الخدين ، عيناه توحيان بالصرامة ، قادم من أرض الجوع الخالية من القانون ، التى يتغذى فيها على شرب القهوة بدءا من الصباح ، وتدخين التبغ ؛ ولما كانت فضيلة البدو الكبرى هى الصبر ، فإن الشجاع هو من يتحمل الجوع ويصبر عليه . "حقا بالله (قال زيد) ، الأعراب el-Aarab فاسدين fasidîn هم والدولة (الإمبراطوريه)" : كان البلاء فى قلب ذلك الرجل ؛ كان ذلك الفليسوف البدوى ينظر إلى الأمور البشرية كلها نظرة شك وارتياب تقوم على التسامح . ولما كان زيد شيخا من أفراد قبيلته الذين هم من أصول راسخة ، فإن تقديره وتقييم الغير له لم يكن تقديرا كريما أو مشرفا ؛ يضاف إلى ذلك ، أن كرمه من النوع البائس ، وهذا بحد ذاته يعد سُبَّه للبدو فى تلك الصحراء الخالية . فهم زيد كان فهما ليبراليا (حرًا) وراقيًا ، جعله واحدًا من رجال المجالس ، الذين تربوا فى هذه المدرسة البرلمانية القبلية الكاملة منذ نعومة أظفارهم ؛ لم يكن زيد همجيا أو بربريا فى تصرفاته ؛ مشيته كانت تنم عن رشاقة حركة المخلوقات البرية . لم أر فى شخصية زيد أية مسحة تنم عن النزوع إلى التشدد . كان يتحدث معى وهو يبتسم عن قوته مع أهل البلد ؛ ومن رأى زيد ، أنه يتصور أن الله قادر على حكم الدنيا كلها دون وساطة من البشر . لم يكن زيد من المغامرين ، ولم يكن يعرِّض أى شىء للخطر . كانت سياسته فى بيته هى سياسة المساكين ، التى تقوم على البخل الشديد ؛ كان زيد بدويا شديد الحذر من الغير ، كما كان حذره أكثر من بعد نظره . كانت صداقة زيد صادقة فى أساسها ، ولم يكن أحد يخشى أو يخاف من عدائه . تراه كريما فى المواقف التى لا تكلفه شيئا ، ومن حيث حرصه بوصفه شيخا للقبيلة ، لم يكن يتعجل فى الوساطة فى الأمور التى لا تحقق له منفعة .

كان زيد (بحكم دهائه ومكره الصحراوى) قد أحضر معه إلى القلعة خمسة أفواه : وبالتالى يشكل هذا الكرم نوعا من أنواع العبئ على مضيفيه ، يضاف إلى ذلك أن محمد على ، الذى ظن أن الطرفة انقلبت عليه هو ، حضر إلى غرفتى فى الصباح وهو متجهم الوجه . سألنى محمد على 'إن كنت لا أدرى أن كل تلك الحنطة والقمح

يتعين نقله على ظهور الإبل من دمشق ؟' أجبته ، وأنا لا أعرف تماما أساليبهم الماكرة ، بأننى لم أستدع أو أوجه الدعوى إلى أحد منهم ؛ – ردَّ علىَّ محمد على بصوت عالٍ : 'اتفقا مع بعضهما البعض ، أولا يتعين عليك احتجازه أو تعطيله ، يا خليل ، إنه شيخ من شيوخ الأعراب ؛ ألا تعلم أن قلب كل واحد من البدو يكون متعلقا بأسرته ، وأن غيابه يشعره بالقلق على تلك الأسرة ، وذلك من باب الخوف أيضا على الماشية التى تركها وراءه فى البرية الواسعة ؟' سألته ، ألم يكن من الأفضل ، قبل أى كلام آخر ، أن أزور الآثار وأراها ؟ رد على قائلا : 'هذا كلام معقول' . وأردف قائلا : 'إن زيدا يتعين أن يصحبنى إلى الأبواب beban القريبه' .– "إسمع يا خليل ! إن مسألة رؤية أى مسيحى فى هذه البلاد أمر لم يخطر على بال أحد من الناس هنا" ، (حتى وإن كان ذلك على مجرد أبواب هذه الأماكن المقدسة) . أجبته وأنا أضع يدى على أحجار القلعة الغشيمة ، "ولكن هذه المسارات تشهد لى ، إنها مبنية بأيدى رجال مسيحيين" .– "هذا كلام جيد ، ونحن جميعا هنا أصبحنا لك أصدقاءًا : مسلم أو نصرانى ، لقد أصبح خليل واحدًا منا ؛ والله ، لن نتألم لهذا الأمر مرة ثانية . ولكن هيا ، إذهب مع زيد الأن ، وسوف نتفق معه فيما بعد ، هذا إذا لم أرسلك أنا بنفسى ، بصحبة بعض رجال القلعة لزيارة الآثار ."

وصلنا بعد مسير نصف ميل إلى تلك الآبار ، التى هى فى الوقت الحالى سقيا لبدو هذا الجزء من البلاد . وهذه الآبار عميقة شأنها شأن البئر الموجوده داخل القلعة ، ويصل اتساع الواحد منها عند فتحته من أعلى حوالى عشرة أو أثنى عشر قدما ؛ وحواف تلك الأبيار مربعة الشكل عند الأجناب كما لو كانت قواعد لعمل أعمال الرى القديمة التى كانت تعتمد على استعمال العجلة . وبطانة البئر من الحجر الغشيم ، ولا يستخدم فيها الملاط ، وهذه البطانة (من ذا الذى يمكن أن ينظر إلى هذه الأشياء دونما انفعال ؟) تظهر عليها خدوش عميقة حدثت بفعل تأثير الحبال الناعمة الكثيرة التى تعاقبت على هذه البطانة ، عبر أجيال كثيرة . وأنا أرى حاليا (أنظر ص ١٤٦ الصورة رقم ٧) على مقربه منى ، منظر أول أثر من تلك الآثار (أنظر الصورة رقم ٦) ، وأرى أيضا أثرًا آخرا محفورا من فوقه ، كما لو كان رأسا لواجهة ضخمة ، التى لا يوجد فيها سوى باب واحد غائر قليلا داخل الصخر وبدون غرفة من خلفه . هذا النحت

الطموح ، الذى يصل عرضه إلى سبعين قدمًا يطلق الناس عليه هنا اسم 'قصر kasr البنت . 'el-Bint (*) هذا المكان ليس محظور الدخول إليه كما يقولون ؛ والسبب فى ذلك ، أن رفاقى بعد أن ارتقوا سلما قديما ، ملحقا بالطرف البعيد من تلك الصخرة ، تمكنوا من الوصول إلى مقدمة أو إن شئت فقل : الواجهة الأمامية لذلك الأثر . شاهدت ، فى الأسفل ، تلك الواجهة الطويلة ذات الشكل الغريب ، كانت تلك الواجهة فيها شيء من التناسق البللورى ، وتوحى بالوقار ، كما كان فيها زخارف عجيبة من الزخارف التى فى آثار بيترا Petra؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الصخرة هى من الحجر الرملى الذى يجمع لونه بين اللونين الأصفر والرمادى ناعم الحبيبات ، والذى تتخلله أيضا عروق من الحصى وحصوات من حجر الصوان الشفاف المتبلور – كلمة 'قصر' جمعها 'قصور' تعنى بشكل عام فى الجزيرة العربية 'المنزل الإسطبل' سواء أكان مصنوعا من الطين أو الحجر ، وهو عكس 'بيت beyt شَعر 'Shear، أو إن شئت فقل : البيت المتنقل ، الذى ينتمى إلى البدو الرُّحل . يضاف إلى ذلك أن الأكواخ الصغيرة المصنوعة من الطين ، التى نشاهدها حول الأراضى المزروعة بالحبوب فى البرية ، والتى لا يسكنها أصحابها بصورة مستمرة ، يطلقون عليها أيضا اسم 'قصور' . وفى حائل وكذلك فى الرياض يطلق على منزل الأمير أسم 'القصر' el-kasr، كما لو كان "القلعة" . كلمة 'قصر' فى بعض القرى الصحراوية ، تعنى مجموعة من المنازل ، التى يحيط بها سور واحد ؛ من هنا فالناس هنا يقولون عن قرية سميراء " Semîra إنها ثلاثة قصور" . والناس هنا يطلقون على أى مبنى حصين من حيث الدفاع والأمن ، (وتلك أمور شائعة فى الجزيرة العربية) اسم الجلَّه أو الكلا التى تعنى 'القلعة' . والواضح أن كلمة 'برج' التى معناها 'برج دفاعى' كلمة أجنبية ، ولم أسمعها فى منطقة نجد من الجزيرة العربية .

وبعد أن عدنا من صخرة البرج ، وصلنا إلى منطقة أسفل واحد من الآثار الرئيسية (انظر الصورة رقم ٦) ؛ على واجهه ذلك الأثر شاهدت طاوله ونقش من

(*) يطلق سكان مدائن صالح على الآثار النبطية اسم القصور . فهناك قصر البنت ، وقصر أبى البنت ، وقصر الصانع ... إلخ . غير أن المنصوص النبطية المنقوشة على واجهات تلك الآثار لا تترك مجالا للشك فى كونها مقابر ، ولكنها مقابر تدل على ما بلغه أهلها من تنعم وثراء ، وما بلغته المملكة النبطية فى عصرها من تحضر ورخاء . (المراجع)

النقوش ، وكذلك طائر أيضا ! وهذه كلها أمور مألوفة فى واجهات الحجر ؛ ويصل عرض العمارة المنحوتة هى والكرانيش والأعمدة إلى حوالى اثنين وعشرين قدما – وهنا رحت أتأمل ذلك اللغز الذى يكمن وراء تلك الحروف الزاحفة الغريبة التى قطعت لها تلك المسافة الكبيرة طمعا فى رؤيتها والبحث عنها ! كل الحروف محفورة فى الصخر ؛ هذا هو خليج جرى حفره فى الصخرة الطرية ، وفى وسط ذلك الخليج جرى نحت ذلك الأثر الذى يشبه المعبد . والواجهة إغريقية(*) الطراز وهى عبارة عن ذروة مدرجة (انظر الصورة رقم ٩) هذه حلية آسيوية ولكنها غريبة جداً على العيون الأوروبيه – لقد رأيت تلك الحليه مستعمله فى البيوت المبنية من الطين فى حائل (انظر الصورة رقم ٨) . الأعمدة المسطحه هى بمثابة الركائز فى هذا النوع من العمارة ؛ يضاف إلى ذلك أن تيجان الأعمدة لها تصميم فريد ، فهى مجوَّفة ومربعة الشكل ، مثل الأعمدة والتيجان الأخرى التى سبق أن رأيتها فى بيترا . Petra فى منتصف هذه الواجهة المزوَّرة من واجهات المعابد ، أرى نحتا لمدخل مسقوف لأحد المبانى الفخمة ، وعليه الحليات المعمارية نفسها . وعندما دخلت ذلك الأثر لم أجد سوى حجرة محفورة ، وهذه الحجرة ليست عالية ، ولكنها لا تتفق مع جلال ووقار الواجهة ؛ (نحن الأن داخل قبر من القبور) . شاهدت فى هذه الغرفة المعتمة بعض الفتحات الحائطية أو إن شئت فقل : فتحات للتثبيت ؛ والأرضية كلها مملوءة بالرمل المضغوط . وهنا خطر ببالى أننى قد أستطيع بمساعدة التلسكوب ، نقل أو تدوين الكتابة الموجودة على شاهد القبر ، التى كانت تبدو خافتة فى ضوء الشمس ؛ ولكن جيوش الذباب كانت تملأ عينيا فى كل لحظة ، يقول العرب هنا ، إن السبب الرئيسى وراء هذه السحب الكثيفه من الذباب ترجع إلى عدم سقوط المطر هنا خلال السنوات القليله الماضية .

كانت ظهيرة ذلك اليوم الشتوى ساكنة الريح ؛ وهذه الحشرات التى تعافها النفس ، والتى كانت تحملق من خلال الرمل ، من خلال الهواء الساكن ، وهى تقف تحت تلك الآثار التى تضربها الشمس ، هذه الحشرات كانت تلقى علينا بعبق القبور القديمة .

(*) استخدم المؤلف كلمة Corinth والأصل الإغريقى القديم لهذه الكلمة هو Korinthos ، وهو يدل على بلاد اليونان القديمة . (المترجم)

وهنا قال زيد : إن الشمس شديدة الحرارة وإنه لن يستطيع التقدم أكثر من ذلك ، فضلا عن إنه كان متعبا بالفعل . عدنا عن طريق صخور البرج ؛ ورأيت فى ذلك الطريق قلة قليلة من الآثار (انظر الصورة رقم ١٠) ، التى يذيع صيتها أيضا بين واجهات آثار الحجر : ونظرا لأن تلك القلة القليلة من الآثار هى الأقرب إلى مخيم قافلة الحج ، ونظرا أيضا لأنها هى الأقرب للقلعة ، فهى بمثابة أول الآثار التى يقوم الحجاج بزيارتها . وتحت المدخل المسقوف لواحد من تلك الآثار ، ومن فوق ذلك المدخل مباشرة ، رأيت حيوانا منحوتا له أربعة أقدام كما لو كان يشكل دعامات لذلك المدخل ؛ ولم أرى مثيلا لذلك الحيوان فى الآثار الأخرى . رأيت أيضا أن الزينات أو الحليات الجانبية التى تشبه الهاون والتى كانت موجودة على الآثار الأخرى ، كانت هى الأخرى تشبه طائر العنقاء ، ذلك الطائر الخرافى الذى له رأس وجناحى نسر وجسم أسد ؛ هذه الحليات فريدة هى الأخرى بحد ذاتها . اللوح فى هذا الأثر ، كما هو فى الآثار الأخرى ، مزين بإطار على شكل زهرة (ربما تكون زهرة الرُّمان) بها ست بتلات . وعلى مدخل ثالث شاهدت تمثالا لطائر منحوت نحتا دقيقا على اللوح ، وبنحت غائر ، لم يتبقى منه سوى الرأس . فى حين أن كل طائر آخر منحوت على هذه الآثار ، شاهدناه منحوتا بمعالم طبيعية ، وواقفا على هاون ، منحوتة على جدار الواجهة ، الذى ينبثق من سلسلة من الحليات فى أعلى واجهة البناء : ولكن الشىء المشترك بين كل هذه الحليات هو عدم وجود الرأس ؛ وذلك بغض النظر عن ضياع تلك الرءوس بفعل تآكل الأحجار نتيجة دوسها من قبل الرعاة على امتداد أجيال كثيرة ، أو بفعل عوامل الطقس نفسها . بعد أن دخلت الكثير من كل هذه الآثار ، لاحظت أن جميع غرف هذه الآثار لها طابع القبور (انظر الصورة رقم ١٢) . لاحظت أيضا أن الفتحات الحائطية فى الجدران المنخفضة المحفورة فى جدران هذه الغرف كانت ضحلة كما لو كانت رفوفا ، كما لاحظت أيضا أن تلك الفتحات كانت ، من حيث الطول ، تناسب طول الجسم البشرى ، بدءا من الطفل إلى الرجل الكبير ؛ ومع ذلك ، فإن ضحالة تلك الفتحات بلغت حداً ، يستحيل معه ، من وجهة نظرى استقبال أجسام الموتى . أشاهد فى الأرضيات الصخرية حفرا غائرة على شكل قبور تقف جنبا إلى جنب ، وفيها الكثير

بل ومملوءة بعظام البشر ، فضلا عن تناثر العظام على الأرضيات المغطاة بالرمل . الرائحة التى أشمها هنا ، هى رائحة المومياوات ، التى فى بعض الآثار ، وهذه الرائحة ثقيلة الوقع على الأنف ؛ وخطر ببالنا أن العباءات (البشوت) التى كنا نلبسها ، أمسكت بها تلك الرائحة فى الوقت الذى لم نبقى فيه داخل هذا المكان سوى دقائق معدودات . وفى أثر آخر من تلك الآثار ، والذى يطلقون عليه اسم 'بيت Beyt الشيخ es-sheykh'، شاهدت أرض ذلك الأثر وقد امتلأت بالخرق المتعفنة ، التى كانت تتقاذفها الرياح ، وعندما تناولت تلك الخرق ، اكتشفت أنها الأكفان التى كانت تستر عظام الموتى !

ناداني محمد على قائلا : "يا خليل ، أرى أن تعطى زيدا ثلاثمائه قرش ." وافقت على ما قاله محمد على ، ولكن الشيخ لم يكن راضيا إلا بألف قرش لا تقل فلسًا واحدًا . ولو كنت قد استسلمت لجشعهم الخيالى ، لذاعت تلك الشائعة فى كل أنحاء المنطقه وأصبحت رحلاتى المستقبلية محفوفة بالمخاطر البالغة . ولكنى وضعت فى يدى زيد ، عند رحيله ، شيئا من الذهب ، حتى لا يعود إلى محل إقامته كسير الخاطر ؛ ووعد الرجل بالحضور إلى خصيصا عند عودة الحج ، لكى ينقلنى ويحملنى للعيش معه وسط البدو : وتمنى زيد أيضا أن يفيد من مهارتى فى التحصين والتطعيم . أما الأغا ، فقد كان له رأى آخر ، إذ كان يطمع فى بندقيتى ، التى كانت واحدة من بنادق الخيالة البريطانيين : والمعروف أن أهل هذه المنطقة يعلقون قيمه كبيرة على الأسلحة الجيدة . "وإذا ما أعطيتنى تلك يا خليل ، فسوف أوفدك كل يوم بصحبة بعض الناس من القلعة ، إلى أن تتمكن من رؤية كل الآثار التى تود رؤيتها أو مشاهدتها ؛ بل إننى سوف أوفدك لمشاهدة المزيد من هذه الآثار ، فى بلدة العلا : el-Ally أكثر من ذلك ، سوف أوفدك لابن الرشيد ، وسوف أحصل على الموافقة اللازمة لذهابك إلى هناك ."

خرجت بعد ذلك ، بصحبة بعض ممن كانوا فى القلعة لمشاهدة قصر البنت بيبان (انظر الصورة رقم ١١) . البيبان ، عبارة عن سلاسل من الواجهات على الجانبين من حول محيط هذه الصخرة الشامخة ؛ وأنا أرى صورة الطائر هو وشاهد القبر على

الكثير من تلك الواجهات . هذه هى بعض الكهوف المعمارية المهيبة فى بلدة الحجر(*) ، وأرضيات تلك الكهوف مليئة بعظام الرجال والبشر ؛ ولكن ذلك لا ينسحب على أرضيات هذه الكهوف جميعا . تفرجت بعد ذلك على أثر مرتفع "هذا الأثر (قال لى رفاقى) هو بيت والد البنت ، وانظر ، يا خليل ! هذا هو أثر آخر ، هذا هو بيت شيخ رقيق الأرض ، والذى ماتوا فيه جميعا ." فى منزل شيخ رقيق الأرض هذا شاهدت أكثر العظام تناثرا : وطلب منى رفاقى أن أبدى إعجابى بقامة آل – ثمود الفارعة . ولكنى وجدت تلك القامة أمرا عاديا تماما ؛ ولكنهم فى إطار الدين تكون لهم رؤية مختلفة عن رؤية أصحاب العيون اليقظة الذين لا يحلمون . بعض الغرف لا يُرى فيها سوى أرضيات ليس إلا ؛ هذا يعنى أن مثل هذه الغرف ليست فيها فتحات حائطية . وبالقرب من السلم القديم المحفور ، عند نهاية الصخرة ، أرى غرفة مزدوجة غير منتظمة ، وهذه الغرفة وحدها هى التى يبدو أنها ليست من غرف المقابر ؛ ومع ذلك يوجد على الجدار المشترك نقش بدائى من نقوش القبور (انظر الملحق رقم ١٧) .

عبرنا المكان حتى يتسنى لنا زيارة الصخور الوسطى (وأنا أميزها هنا طلبا لمزيد من الوضوح) ، حيث يوجد المزيد والمزيد من الواجهات والتجاويف أو الكهوف الخاصة بها ، غير أن هذه الواجهات أقل مهابة من الواجهات السابقة (إذ إن هذه الواجهات لا يوجد عليها رسوم لنسور القبور) ، وهذه الواجهات محفورة فى واجهة الصخرة التى تحيط بها . وجدت فى هذه الواجهات شاهد قبر على شكل لوح معلق فوق الباب ، ومرفوع إلى الأعلى بفعل الرمل المنقول ، وذلك حتى يصبح فى متناول الإنسان الوصول بيديه إلى ذلك اللوح الذى كتب عليه نقش شاهد من شواهد القبور . وبين هذه الواجهات شاهدت أثرا غير مهم مهجور عند بدايته ، ولا يوجد فيه سوى رأس الفتحة هى والأجزاء العليا مسحوبة إلى الخارج (انظر الصورة رقم ١٣) . ومن ذلك المكان وصلنا إلى تلك الواجهة التى يستطيع الناظر إليها من القلعة أن يراها ، وهذه الواجهة

(*) بلدة الحجر : كانت هذه البلدة مزدهرة فى نهاية القرن الأول ق.م وفى القرن الأول الميلادى . وكان يسكنها اللحيانيون وبعض الأقباط مما تدل عليه النقوش النبطية فى العديد من آثارها . (المراجع)

يطلق الناس عليها هنا اسم بيت السانى ' Beyt es-Sâny ' التى معناها "بيت الحدّاد" . كما أروني أيضا 'دم الحدّاد' ، الذى لا يعدو أن يكون مجرد بقعة من الصدأ ، أقصد صدأ الحديد ، موجودة فوق الأسوار الدفاعية . 'يقول البدو : هذا 'السانى' أو إن شئت فقل : هذا الحداد ، هتك عرض بنت أو إن شئت فقل : كريمة شيخ 'المدائن' . وعندما وجد أنها أصبحت حاملا ، تحرك الشيخ ، والدها للثأر لنفسه ؛ وهنا خرج الحدّاد الشجاع ومعه رمحه للقائهم ، وفى أرض شيخ رقيق الأرض (التى وجدناها ممتلئة بالعظام البشرية) ، سقطوا جميعا قتلى' . والمدخل بسيط ، ويبدو وكأنه ، أصابته ثقوب تشبه الثقوب التى تنتج عن دق المسامير ، وتلك هى الثقوب التى سبق أن نوه لى عنها من قبل الحاج نجم ؛ وهذه الثقوب لها مثيل أيضا شاهدناه حول مداخل بعض الآثار القليله الأخرى (انظر الصورة رقم ١٤) . (ذكر لى السيد جيمس فيرجسون Fergus-son إن تلك الثقوب ربما تكون قد صنعت لاستعمالها فى تثبيت المسامير المستخدمة فى تثبيت الأطر الخشبية التى كانت تركب على بعض من تلك الواجهات ، التى لا يصلح لها استعمال الأحجار .)

زرنا بعد ذلك الصخور الغربية التى يطلقون عليها اسم 'قُصُور' k'ssûr أو 'قصُور' البثينى B'theyny kassûr (انظر الصورة رقم ١٤) – وهذا الاسم ينطبق أيضا على آثار الحجر كلها ، فيما عدا الأثر الذى يطلقون عليه اسم بيت 'السانى' أو إن شئت فقل : 'بيت الحدّاد' . يضاف إلى ذلك ، أن هناك الكثير من الواجهات فى الجانب غير المنتظم من هذه الصخرة وفى تجاويفها ، وبخاصة أن هذه الصخره لها نفس طابع العمارة الغائرة ، وقسم كبير جداً من آثار هذه الصخرة يحمل رسم النسر ، كما أن بعض هذه الآثار ليس لها شواهد قبور ؛ وقد شاهدت بعض الآثار التى لها شواهد قبور على شكل ألواح ولكنها خالية من أية نقوش أو كتابات . بعض من هذه الواجهات أيضا تكاد تكون شبه بالية ، وطمس الطقس معالمها (انظر الصورة رقم ١٦) .

الصخور المليئة بكل هذه الآثار هى التى يطلق الناس هنا عليها اسم "مدائن صالح" . كنا حتى تلك اللحظة قد مضى علينا خمس ساعات خارج القلعة : وكان

رفاقي مسلحين ببنادق غير متقدمة ، ولم يكونوا يسمحوا لى بإطالة الوقوف فى أى مكان ولو للحظة التقط فيها أنفاسى ، إذ كانوا يقولون : "المنطقة هنا أخطر مما تتصور ؛ ويحتمل أن يهجم علينا من هذه الصخور أو من هذه الغرف بعض البدو المعادين لنا ." حياة أهل الجزيرة العربية مليئة بالشك ؛ كانوا يلفون رءوسهم بين الحين والآخر تعبيرا منهم عن خوفهم المستمر ، ويحملقون بدقة فى كل الأماكن المحيطة بهم ؛ يضاف إلى ذلك أن الحاج نجم سبق له أن أهدر فى يوم من الأيام دم 'ولاد على Aly' Welad، ولذلك فهو يخشى أن يؤخذ على غرة عندما يكون خارج القلعة . فى هذا القاع الذى يشبه سهلا من السهول المستوية ، والذى مررنا فيه ، بين الصخور والآثار ، شاهدت أحواضا من الخزف المكسر وكذلك قطعا من الزجاج المكسر . (انظر الصورة رقم ١٥) . التقطنا أيضا قطعا صغيرة من النحاس الأحمر يطلق البدو عليها اسم 'حمّاريت' him-marit (وربما يقولون لها أيضا 'حميا ريدت Himyaridt' (وهى قطعه من النقود المعدنية التى علاها الصدأ . وقطع النقود الفضية والذهبية يندر أن يعثر عليها الأعراب فى الأرض التى يحتمل أن تكون الإبل قد داستها بأقدامها . وقد سبق أن عثر أحد القرويين ، قبل ثلاثين عاما ، على إناء من الحجر ، وهو عبارة عن مكيال للعملات الفضية القديمة . يضاف إلى ذلك أن اثنين آخرين من أفراد قبيلة 'ولاد' على ، وأنا أعرف واحدا منهما ، سبق لهم العثور على كنز من هذا القبيل فى سنوات لاحقة . من بين هذه العملات الحميرية(*) Himmarit، ظهر أن بعضا منها لم يكن قد تآكل تماما ، إنما مطبوع عليها صورة بومة أثينية Athenian، وتكاد تكون تقليداً ومحاكاة تامة للنقود اليونانية ؛ هذه النقود حميرية . والمعروف أن قطع الخزف هى والزجاج ، من المواد التى يصعب تدميرها ، وقد جرى العثور عليها فى كل المواقع القديمة فى الجزيرة العربية : ولا أحد فى أيامنا هذه يستعمل أى من هاتين المادتين الهشتين ، وإنما نحن نستعمل أوعيه من الخشب ومن النحاس الأحمر . هذا يعنى أن الجزيرة العربيه كانت

(*) العملات الحميرية التى عثر عليها فى منطقة الحجر تدل دلالة قاطعة على وجود الصلات التجارية القديمة بين اليمن وبلاد الشام . (المراجع)

أكثر تحضرا مع طرق العالم القديم التجارية ! ولكن الجزيرة العربية فى الزمن الذى زرتها فيه كانت تبدو عليها سمة التحلل . كل شعوب الدنيا كانت تتاجر طلبا للذهب من ناحية والبخور المقدس من الناحية الأخرى ، لجلبه إلى اليمن السعيد : والعالم كله حاليا لم يعد بحاجة إلى ابنة الجزيرة العربيه ؛ هذا يعنى أن ابنة الجزيرة العربيه تخلى الناس عنها وأصبحت أرضا خاوية جرداء .

لم يعد يتبقى من أجيال الحجر القديمة المتحضرة سوى القليل جداً ، فمثلاً فى مدينة القافلة ، شوارعها الممهدة باستعمال الطين ليست سوى مجرد التراب الذى حملته الريح إلى هذه الأرض الجرداء . قصة هؤلاء القوم مدونة لنا على شكل شخابيط على كثير من الصخور البدائية الموجودة فى المنطقة المحيطه بنا ، كما نجدها مدونة أيضا فى العناوين المحفورة على آثارهم الجنائزية التى تحولت فى يومنا هذا إلى صخور منفصلة ، يعجب بها المسافر الذى يملؤه الخوف فى تلك الجبال الجرداء الخاوية . يضاف إلى ذلك أن الأماكن التى توجد فيها البقايا الخزفية والزجاجية ، قد تدل على أنها كانت مناطق مأهولة بالسكان ، وربما كانت مجموعة من القرى فى يوم من الأيام . المكان هنا يوحى بأن تلك المستوطنات كانت من المستوطنات السامية المعتادة فى البلاد الواحية Oasis، التى تجعل الناس ينشئون تلك المستوطنات على عروق المياه الجوفية ، ربما كانت هذه المنطقة سوقا Sûk، وربما كانت هذه الضواحى سوقا تجارية كبيرة ، تحيط بها بيارات النخيل ويطوقها من الخارج سور دائرى .

وعلى جانب طريق العودة إلى القلعة ، هناك صخرة منخفضة مليئة بالكهوف والتجاويف غير الواضحة ، وخالية من أى نوع من الأعمال الزينية . شاهدت فى ذلك الطريق جميع الطيور تقريبًا المألوفة التى شاهدناها على واجهات مدائن صالح . والعرب يقولون عن هذه الطيور إنها من الحيوانات البحرية . والحجاج السوريون يشبهون تلك الطيور بالصقور ؛ وهذه الطيور محفورة فى كتل من الصخر ، كما هو الحال فى الصخر الرملى الذى لا يمكن نحت أى شىء فيه نحتا دقيقا وواضحًا . والحليات مثلثة الشكل تحمل شبها كبيرا بالزينات أو الحليات الجانبية المعروفة فى سائر أنحاء الكون ، وهى من النوع الصلب ، ويجرى نحتها فى الصخر .

فى بعض الأيام الأخرى ، كنت أزور الآثار فى وقت فراغى ، واستطعت الوصول إلى آخر تلك الآثار وأبرزها . والناس هنا فى الأغلب الأعم يطلقون على ذلك الأثر الأخير البارز ، اسم بيت Beyt أخريمات . Akhreymát فيما بين الأفاريز الحائطية . أو إن شئت فقل : الكرانيش الحائطية شاهدت أربعة أعمدة حائطية داعمة . وهذه الأعمدة خالية من رسوم الطيور المنحوتة ولا يوجد عليها سوى الهاون ؛ وبدلا من القوارير أو الجرار الجميلة هناك بعض الصور الجانبية لبعض الوحوش ، وربما كانت صور لكلاب أو بعض الحيوانات الأسطورية . يضاف إلى ذلك أن الفرجة فيما بين أعمدة الأثر (الذى توجد فيه بعض التجاويف الحائطية الضحلة ، مثل تلك التجاويف الموجودة فى غرف القبور) ليست محفورة تماما بحيث يصل الحفر إلى الأرض ؛ والسبب فى ذلك هو تمكين الجزء السفلى من تلك الأعمدة الجانبية الداعمة ، من الوصول إلى سفح الصخرة ، الأمر الذى يزيد من صلابة ذلك الحجر الرملى المنحوت والضعيف . ومن ينظر إلى هذا الأثر يرى الفن المقلد بطريقة مزورة وهو يتآلف تآلفا غريبا مع خلود الطبيعة السرمدى الفوضوى . ومن حول مدخل الباب توجد بعض الحليات التى جرى إضافتها إلى العمارة بطريقة همجية أو إن شئت فقل : غير منظمة . رأيت فى هذا العمل الجميل أنه لا يمت إلى التوازن المعمارى بأى شكل من الأشكال ؛ لاحظت أيضا أن بعض الواجهات جرى تنعيمها تنعيما تاما باستخدام الآلات اللازمة لذلك . ونحن نرجح هنا أن هؤلاء الحرفيين القدامى (يحتمل أن يكون جرى استئجارهم من البتراء Petra) جاءوا من أناس عملوا فى بناء الطين ؛ العمل الذى أنجزه أولئك البناؤن فى مجال محاكاة أو تقليد قبور المعابد : (شاهدنا شيئا من هذا القبيل فى نقود التجارة فى جنوبى الجزيرة العربية) (انظر الصورة رقم ١٧) . هؤلاء العمال ، أو إن شئت فقل البناؤن كانوا ساميين ، تطلعهم للفتح أكثر من فضولهم ، ومن الطبيعى أن يكون هؤلاء العمال ناقصى خبرة ومهارة .- ويجب ألا يغيب عنا هنا أن قراءة النقوش وتفسيرها أكد كل هذا الحدس أو التخمين .

وصلنا فى النهاية إلى ما يطلقون عليه اسم محل المجلس el-Mejlis Mahal، أو إن شئت فقل مجلس الشيوخ (انظر الصورة رقم ٢٠) وفية نجد واجهة صخرة واحدة

محفورة على شكل أثر يزيد عرضه على أربعين قدم ، ويتميز بقدر كبير من البساطة . ولاحظت هنا أن الأعمدة الجانبية على شكل أزواج ، وهذا هو ما لم ألاحظه فى أى أثر آخر ؛ وبالرغم من كل هذه الروعة ، فإن القسم الأكبر من الواجهة لم يكتمل . ترى من كان مؤلف هذه البداية الذى يكاد يعيش وحده فى هذا التيه المقابرى الضخم ؟ وبالرغم من كل ذلك فإن كل الغرف لا تعدو أن تكون مجرد زنزانة صغيرة فيها قبر واحد أو قبرين . والذى لاشك فيه أن اسم صاحب هذا الأثر كان محفوراً فوق لوحة الإعلان الضخمة ، على شكل سطر واحد (انظر الصورة رقم ١٩) فيه من العظمة ما ليس فى أى اسم آخر منقوش على أى أثر آخر ، وحروفه ملتوية (وقد استطاع المترجمون المتعلمون فك رموز ذلك السطر على أنه 'لحايل بن دونا وأحفاده' : (انظر الملحق رقم ٢٢) هذه الألقاب لم يتمكن أحد من فك رموزها فى عصر محمد أو إن شئت فقل : إن النبى(.....)(*) ، لم يعبر عن احتقاره لهذه التجاويف ، أو أنه لم يستطع الفكاك من ذلك الازدراء . المدخل غير المكتمل المحفور عليه صورة نسر ، وبه بعض الزينات الجانبية ، ترك على ما هو عليه كما لو كان مقطوعا داخل كتلة واحدة . يضاف إلى ذلك أن الأعمدة الجانبية ليست مقطوعة من الحجر بحيث يصل القطع إلى الأرض ؛ زد على ذلك أن الشراع يبرز أمام الأثر . ومركب داخل كتل تكاد تكون جاهزة للنقل ، – ويرى الناظر إلى ذلك الشراع طريقة قطع تلك الأحجار وتحويلها إلى أدوات لقطع الأحجار . وبعد أن أطلعنى رفاقى على تلك الكتل قالوا : "هذه الكتل كانت المقاعد الذى يجلس عليها مستشارو البلده ."

كانت أغطية القبور وأبواب هذه "المنازل الموحشه" كلها مصنوعة من الخشب فى هذه المنطقة ، أو إن شئت فقل : هذا الجزء من البلاد (والذى يخلو أيضا من الأحجار التى على شكل أعلام أو بيارق) ويحتمل أن يكون ذلك الخشب من أشجار السنط أو من أخشاب أشجار الإثل ، التى كانت تستخدم ، وبلا أدنى شك ، حطبا للوقود من قبل البدو الرحل ؛ يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو الرحل لم يكن

(*) وصف خاطئ من المؤلف للنبى (ﷺ) . (المراجع)

الدين حائلا بينهم وبين تالية أو عبادة الموتى ، وبالرغم من روعة محاكاة هؤلاء التجار (الرومانيين) للسبئيين(*) ، لا يوجد بين آثارهم كلها لوح رخامى ، بين الأشياء المتناثرة فى سهل الحجر . ويكفى هؤلاء التجار أنهم "كتبوا باستعمال مسمار من الحديد وإلى الأبد" على الصخر الرملى الناعم فى هذه الجبال من جبال الجزيرة العربية . وقد شاهدنا نقراً فى كل قائمين من قوائم أبواب المداخل ، كما لو كان ذلك النقر مجهزا لاستقبال قفل ، أو إن شئت فقل ترباس من الخشب (انظر الصورة رقم ١١ والصورة رقم ١٢) . يضاف إلى ذلك أن الواجهات منقوش عليها وسوم(**) . وتأملت كثيرا لأكتشف مدى تشابه كل تلك الوسوم مع الحروف الحميرية التى تشبه شخبطة الأطفال .

(*) السبئيون : على الرغم من أن السبائيين يقصد بهم أهالى مدينة سبأ فى جنوب الجزيرة العربية ، إلا أنه من المعروف – بحكم التبادل التجارى بين اليمن وبلاد الشام – كانت هناك مدينة أخرى أطلق عليها أيضا اسم سبأ فى الشمال الغربى من الجزيرة العربية . وقد ورد ذكرها فى سجلات بعض الملوك الأشوريين على أنها إحدى المدن القريبة من المنطقة السورية . وهناك من الباحثين من يرى أن السبئيين عاشوا أصلا فى شمال شبة الجزيرة العربية قرب منطقة الجوف الشمالى واستمروا فيها على البداوة زمنا طويلا ثم دفعتهم دوافع معينة إلى الاتجاه نحو الجنوب ولكن جالية منهم اتجهت خلال القرن الثامن ق.م أو قبله بقليل إلى الشمال وأقامت قرب واحة تيماء لترعى المصالح التجارية لقومها فى شمال الجزيرة العربية وعلى طرق القوافل المتجهة إلى بلاد الشام والهلال الخصيب . (المراجع)

(*) واحده " وسم " وهو الإشارة أو الرمز المخصص لكل قبيلة من القبائل ويجرى التعرف به عليها . (المترجم)

الفصل الخامس

مدائن صالح والعلا

الديوان . محطة الحج . زيارة البدو للقلعة . كلفة إعاشة وإدارة القلعة . والأكراد السوريون وحراس الأبراج المغاربة . القبائل الصحراوية حول الحجر . وسام البدو الرحل . يوم فى القلعة . ثلاثه أنماط للنطق فى الكلام العربى . كلام العرب الأسطورى . "يهود خيبر" . بنى كلب . صيد الماعز البرى فى الجبال . نقوش عمودية أثرية قديمة . تسوية الخبز تحت رماد النار . الليل فى الجبل : سماع صوت الغول . حيوان الشيهم المبذول ، أوالدُلدل : يقطين الحنظل الصحراوى . النعامة . الصخور الممسوخه . المنطقة البركانية المجاورة . نقوش صخرية سانجة . المحاجر العتيقة أو الأثرية . هجره مبنية من الطين . علامة الصليب . القرى القديمة فيما بين الحجر والمدينة (المنورة) . المستعمرون فى الحجر . عيد الميلاد فى المدائن . سوانى تيماء . الطريق إلى العلا . أطلال الخريبى . العلا . الشيخ ضاهر . إيماءات دينية مقدسة وسرية . البلدة التى أنشأها دروايش البربر . صوت المؤذن – ضاهر يستجوب الغريب . الناس وبلدهم . القفل الخشبى العربى . البدو يكرهون حياة المدينة (الحضر) . الملكة البريطانية هى الحاكم الرئيسى فى الإسلام . العلا بلد مدنى فى الحجاز . هجوم بن مسعود على العلا . القاضى . المناخ السقيم . حمل السلاح فى الشوارع . مظاهرات الحجاز . والمعارك التى شنت مع أركان الحى ، تاريخ المكان . سقوط المطر . التمر . النساء . أساطير المسيحيين واليهود .

بعد مشاهدة كل تلك الغرف المعمارية الموجودة فى تلك السلسلة الصغيرة من صخور ذلك السهل ؛ اقتادنى رفاقى لإلقاء نظرة على الديوان Diwan، الذى ينفرد عن بقيه آثار الحجر كلها بوجوده فى جبل إثلب ، فى ممر يقع خلف واحد من الكثبان الرملية البيضاء عند واجهة القلعة(*) . هذا 'الليوان' Liwan الذى يصح فيه أيضا 'الديوان' يدل عند هؤلاء الناس ، على 'صالة أو غرفة المجلس' ، هو الوحيد من بين كل آثار الحجر المحفورة ، أو إن شئت فقل المنحوتة ، (إضافة إلى قلة قليلة من التجاويف الضحلة) الذى لا يظهر ولا يغلب عليه طابع القبور . زد على ذلك أن الديوان وحده واسع وكبير ، ومحفور حفرًا جيدًا داخل الصخر ، وله كورنيش أو إن شئت فقل إطار خارجى ، وأعمدة جانبية ، ويميل شكله إلى المربع وحوائطه مستقيمة وإن كانت مائلة بعض الشىء . والديوان وحده هو الغرفة الوحيدة المفتوحة . ومقدمة الديوان بسيطة للغاية ، إذ يوجد بها عمودان جانبيان يصل إرتفاع الواحد منهما إلى عرض الغرفة المحفورة ، والمفتوحة مثل خيمة البدو . والعتبة المرتكزة على رأس العمود متصلة بالجزء الأمامى من السقف المستوى . أما الصالة فيصل عرضها إلى عشر خطوات وعمقها إلى إحدى عشر خطوة ، كما يصل إرتفاعها إلى نصف عمقها ؛ هذه الصالة تطل على الجهة الشمالية . هذا الممر يصل طوله إلى حوالى خمسين خطوة لا تشرق الشمس عليه مطلقا ، بل أن الريح تهب عليه بصورة مستمرة ، بما فى ذلك فصل الصيف : هذا يوضح أن هذا المكان البارد جرى إختياره فى هذا الجزء راكد الهواء من البلاد . وهناك كمية كبيرة من الرمال التى جرفتها الريح فوق أرض ذلك الديوان : والأعراب فى هذه المنطقة يحفرون تحت الجدران بحثا عن "ملح البارود" ، (هذا الكهف أو التجويف يستخدم ملاذا وملجئا لقطعان البدو الرحل فى وقت الظهيرة ،) ، والمنطقة خالية من العظام ، ولا يوجد أى أثر فيها يدل على الدفن أو ما يتعلق به . والمكان هنا يشبه موقع السّيك Sîk وفى وادى Wady موسى Mûsa، الذى توجد فيه خزنة(**) Khazna فرعون Pharôun، وقد رأيت فى هذين المكانين ، وبدرجه أكبر فى موقع

(*) استغل الأنباط مغارة طبيعية فى جوف صخرة ذات قمة تشبه القبة فى جبل إثلب وشكلوها على هيئة بهو كبير يطلق الأهالى عليه اسم الديوان ولعل قدسية جبل إثلب نبعت من وجود هذا المعبد به أو قد يكون المعبد قد نحت فى الجبل لقدسيته عند الأنباط . (المراجع)

(**) خزنة فرعون : تعرضت هذه الخزنة لرصاص البنادق مما أحدث بها العديد من الكسور حيث كان الناس يعتقدون أن بداخلها كنزا من الذهب . (المراجع)

الديوان هذا (أنظر الصورة ٢٢ ، ٢٣) الأشكال الغريبة نفسها والتى هى عبارة عن قواعد صغيرة من القواعد التى ترتكز عليها الأعمدة ، كما شاهدت أيضا عددا كبيرا من الألواح . هذه القواعد الصغيرة منها الفردى ومنها الزوجى ومنها الثلاثى ، وكلها تقع إلى جوار بعضها ولكنها غير متساوية الارتفاع ، أو قد يرى الناظر إلى تلك القواعد واحدة منها وهى متشعبه فى الأعلى إلى رأسين (رقم ٤ من الصورة ٢٢) ؛ وقلة قليلة من تلك القواعد هى التى عليها بعض الشعارات التى يجرى نحتها على الآثار الجنائزيه الكبيرة : ونحن لا يمكن أن ننكر هنا القيمة الدينية أو المغزى الدينى لمثل هذه الشعارات . هناك أسطورة نبطية متصلة بصخرة من الصخور الموجودة فوق واحدة من تلك القواعد (رقم ٥ من الصورة ٢٢) . [هذه الأسطورة النبطية ترجمت حاليا على أنها 'هذا هو المسجد (بيت Beth أو حجر السجود) ، وضع أو أقيم للإله العظيم أعرا 'Aera وهذا يوضح أن تلك الأحجار كانت أصناما .] – النقش رقم ١ .)

شاهدنا على الجدران الداخلية ، بعضا قليلا من أسماء المسافرين المسلمين القدامى ، كما شاهدنا أيضا سطرا أو سطرين من النقوش النبطية ، كما شاهدنا أيضا بداية كلمة أو اسم من أسماء الفأل الحسن ، أو إن شئت فقل العرافة الحسنة ؛ هذه الكلمة أو الاسم هو الكلمة Eyty؛ هذه الحروف اليونانية فقط هى التى عثرت عليها فى مدائن صالح . كما شاهدت أيضا بعض المخططات غير الدقيقة مكتوبة أو مدونة بالطباشير ، وبطريقة الرعاه الذين يرعون الأغنام ؛ وهذه المخططات يسمونها الغِررَّه ghrerra، (وهى مثل تلك الغررَّة التى يستعملونها فى تمييز قطعان الأغنام فى سوريا) وهى تعزى إلى بنى Beni هلال . Helál كما شاهدت أيضا على صخرتى الممر كثيرا من النقوش النبطية . Nabateans ويرتفع من بين رفوف الجبل هذا المضيق نحو الأعلى أكثر فأكثر ، والجبل هنا ملئ بالفلوق Clefts التى من هذا القبيل لأن تلك هى طبيعة الحجر الرملى . ومن هذا الممر تتفرع تحويلة أخرى صغيرة تؤدى إلى الجانب الصخرى (وبالتالى إلى السِّيك Sik)، كما لو كانت عملت خصيصا من أجل تجميع مياه المطر ، وهذه التحويلة الصغيرة تنتهى إلى غرفة صغيرة على شكل خزان يقع فوق الديوان ؛ وربما يكون ذلك لتوفير الماء لتلك الصالة العامة أو إن شئت فقل ذلك المعبد . ومن حول هذا الخزان يوجد حوالى أربعة أو خمسة تجاويف ضحلة محفورة فى

الصخر الطرى . كان المرافقان من عرب الفهجات Fehjât مسلحان ، وكنا معهما شخصان أيضا من القلعة ، اسم أولهما محمد والثانى عبد القادر ؛ وبينما كانا مشغولين بما نحن فيه ، غاب عنا الاثنان اللذان كانا من رجال القلعة ، بعد أن رأيا بعض الغرباء الراكبين فى السهل ، بغية المحافظة على سلامتهما . ولم يبق معى سوى الرجلين اللذين كانا من عرب الفهجات ؛ وعندما سألتهما ، هل ستهربان أنتما أيضا ؟ رد على أكبرهما سنا بقلب جرئ قائلا : "أنا عنترى وهو أيضا عنترى (أى أبناء عنتر) ، ولن نخذلك أو نضحى بك أو نتخلى عنك ! "(معروف أن البطل عنتر بن الشداد كان من هذه المنطقة ، وأنه عاش قبل محمد (بفترة قصيرة .) ولم يكن محتملا أن يقوم أحد من البدو بالتعدى على عرب الفهجات الفقراء المحتقرين .

وبعد أربعة عشر يوما من مرور الحج جاء النجّاب ، أو إن شئت فقل جمّال الحج قادما من المدينة (المنورة) ؛ كان ذلك النجاب يحمل معه حقيبة صغيرة فيها كل رسائل الحجاج لتوصيلها إلى دمشق . كان وكيل البريد فى تلك البرارى هو شيخ 'ولاد'على ، وهو من معارفى : وقد أستأجر ذلك الرجل الشرارى (*) ليكون ساعى البريد بينه وبين سوريا . هذا الرجل كان يمر بحوالى عشر أو اثنتى عشرة محطة ليلية طوال رحلته إلى سوريا ؛ هذه المحطات ليست سوى محطات للتزود بالماء والسقيا إضافه إلى كونها مجرد مواقع جرداء فى الصحراء هى على وجه التحديد الجنّى ومحطة غريدة ، ومحطة غرُّوب ، ومحطة العجيلى ، ومحطه 'ولاد' الحوجَه ، ومحطة مغريدة ، ومحطة الحوسة ، وأخيرا محطة باير . Bayir وعندما يصل بريد الحج إلى دمشق يجرى إعلام الناس بذلك عن طريق إطلاق دانة واحدة من أحد المدافع . وفى اليوم التالى يجرى إغلاق زكيبة البريد المتجهة إلى الحرمين بالشمع الأحمر . حمل ذلك الساعى البريدى رسائلى معه إلى دمشق نظير قطعة من النقود .

كانت الأيام التى أمضيتها داخل القلعة كثيرة جداً : إذ كان يصل إليها البدو كل ثلاثة أيام ، وكان أفراد حامية القلعة يقومون على استقبال أولئك البدو وهم يحملون

(*) نسبة إلى قبيلة الشرارات . (المترجم)

سلاحهم فى أيديهم ؛ فى بعض الأيام الأخرى ، كنا نسمع إنذارات تحذر من الغزو، أو كنا نرى أثر أقدام غريبة فى السهل ، ولكن الباب الحديدى كان مغلقا . لم يكن يسمح لكثير من البدو بالدخول مرة أو دفعة واحدة إلى القلعة ، وبالتالى كان الباب يغلق فى وجه البقية الباقية خارجة . جاء إلى القلعة بدو من الفجير ، ومن الموءاهيب ، الذين هم من بدو الحرَّة المجاورة ، كما وصل إلى القلعة أيضا بدو من البلِّى : Billī كان هدف كل هؤلاء هو شرب القهوة ، أو تمضية الليل وتناول العشاء فى القلعة . وبلاد بدو البلِّى هى المنطقة الوعرة من تهامة ، فى المنطقة الواقعة خلف الحرَّة . وبلاد البلِّى ينطقون الجيم بالطريقة المصرية . وهؤلاء هم ثلاثة رجال من بدو البلِّى وصلوا متأخرين فى المساء وشربوا منهم شربة واحدة من جرادل غرفة القهوة التى كانت مملوءة بالماء البارد بفعل برودة الليل ، ثم "صاحوا" حمداً لله ! ، بعد أن شبعوا ، والله نحن نسير فوق هذه الحرة طوال يومين لم نذق الماء على امتدادهما !" كان الرجال الثلاثة يقودون مجموعة قليله من الأغنام وفاء للأخوة ، أو إن شئت فقل : وفاء لدين الأخوَّة لبدو الفكارة ، نظير السماح لهم بالمرور سالمين ، لمزاولة التجارة فى سوق الحج . قال محمد على : "إنتبه جيداً إلى حياة البدو وإلى عوزهم ! هل ستضع حياتك تحت رحمة هؤلاء الأشقياء الأجلاف يوما آخرا ؟ هل تبينت الطريقة التى يودون العيش عليها ،- إنهم يودون العيش على ابتلاع بعضهم البعض ! ليس من الصعب على هؤلاء البدو السير بدون شرب الماء ، وهم يأكلون ، إذا ما وجدوا شيئا يأكلوه . والبدو شياطين كيف ستكون حياتك بينهم ، هذه الحياة ، التى أقسم بالله أننا لا نطيقها ، ونحن أنفسنا من أهل المدينة أو إن شئت فقل : من الحضر .

كيف يمكن المحافظة على استمرارية كرم القلعة ؟ أقسم الأغا قائلا : "هذا كله على حسابنا وليس على حساب الحكومة ." والأعراب يظنون ، بل ويعتقدون أن مبلغا محددا من صندوق الحج يخصص لهذا الغرض ؛ ولكن الواقع أن ذلك يأتى من الوفر فى الأجور بناء على اتفاق بين كل من الأغا وصراف القلعة ؛ والأغا هو والصراف يتفقان سويا على استئجار نصف العدد المطلوب لحامية القلعة . يضاف إلى ذلك أن تزويد طريق الحج بالأطعمة والغذاء كان يحدد له من قبل ثمانية عشر جملا (تحمل حوالى ثلاثة أطنان من القمح السورى على وجه التقريب) ، وحوالى ٣٠ عبوة من

عبوات بسكويت القافلة الذى يسمونه بالتركية (أوزمات Ozmat)، وأيضا ثلاثين وزنة من البرغل الذى هو عبارة عن قمح مجروش ، يجرى سلقه وتجفيفه فى ضوء الشمس (وهو غذاء السوريين الرئيسى) إضافة إلى ٤٠ رطلا من السمن . ولكن تلك المخصصات القديمة جرى تخفيضها فى الوقت الراهن ، من قبل الإدارة الجديدة ، الأمر الذى أصبح معه التموين السنوى لقافلة الحج يقتصر على التعينيات (من القمح فقط) ولعشرة رجال (أنفار) ، على أن يصرف لكل واحد منهم راتبا مقداره ١٠٠٠ قرش ، أو ما يعادل ثمانية جنيهات إنجليزية ، ولكن الصراف كان يتسلم راتبا لنفرين فقط : من هنا كانت القلعة تكلف الحكومة السوريه مبلغ ٢٢٠ جنيها إنجليزيا فى العام الواحد . لم يكن هناك صراف واحد من بين صيارفة القلاع الموجودة على طريق الحج ، لم يتعلم الفنون التركية أو يتقنها ؛ هذا يعنى أن هؤلاء الصيارفة مع قلة الأجر استطاعوا أن يبتكروا من الحيل ما يجعلهم يزدهرون بفضل عقولهم الشكورة . هذا القيِّم على أمر القلعة ، هو الذى يقوم فيها بدور الصراف ، وبالتالى فهو يستأجر فقط خمسة أفراد لحامية القلعة بدلا من عشرة أفراد إضافة إلى أنه لا يستأجر هؤلاء الخمسة بالأجر المحدد لكل واحد منهم . وبالتالى فإن باشا الحج لن يطالب ذلك القيم باصطفاف هؤلاء العشرة كى يقوم الباشا بالمناداة عليهم والتأكد من عددهم ؛ والمعروف إنهم جميعا يساعدون بعضهم بعضا ، ويبتلعون المال العام ويقسمونه فيما بينهم : وكل شيء على ما يرام طالما كانت القلعة موجودة ، وطالما استطاعت قافلة الحج الحصول على الماء من تلك القلاع .– ترى كيف يمكن الحفاظ على قلعة من القلاع ، وهى ليست مؤهلة للدفاع عن نفسها ، فى أرض إسماعيل عليه السلام ؟ لا يمكن فى ظل مثل هذه الظروف ، تحقيق ذلك إلا عن طريق اتخاذ البدو حلفاء ، وذلك من باب تقديس العيش والملح : من هنا إذا كان أجر أى رجل من الرجال ، ينفق طوال اثنى عشر شهرا ، على القهوة والقمح والسمن ، فذلك يعنى أن القيِّم على أمر القلعة لابد أن يجزل له العطاء تماما ؛– هذا يعنى اختلاس كمية الشعير التى كانت تصرف لاثنين من البغال . ولكنى سمعت نجم العجوز وهو يشتكى من أن محمد على كان يلحس كل الدسم من فوق لحيته (*) .

(*) المقصود هنا أن محمد على كان يأخذ لنفسه نصيب الأسد ويترك لنجم النفايات . (المترجم)

فيما بين وادى Wady زرقاء Zerka فى الشمال وحدية Hedieh فى منتصف الطريق بين مدائن صالح والمدينة (المنورة) ، توجد حوالى أحدى عشرة أو اثنى عشرة قلعة ، (تقول السجلات) إن فيها من الرجال مائة وعشرين نفرا ، وهذا نقلا عن كلام محمد على ، أى بواقع عشرة أنفار أو أفراد لكل قلعة ، ولكنه سمُحَ فيما بعد بسبعين رجلا فقط . معنى ذلك أن الحامية الواحدة تكون مكونة من ستة أفراد ، كما أن بعض القلاع كان فيها أقل من ذلك العدد ؛ هذا يعنى أن المبلغ الذى يدفع للبقية التى تقدر بخمسين رجلا فى كشف المرتبات (والذى يقدر بحوالى ١٣٠٠ جنيه إنجليزى ،) كان يبتلعه الرسميون . كان عدد أفراد تلك الحاميات الاثنى عشرة يقدر بحوالى خمسمائة فرد ، أى بواقع أربعين فرداً لكل قلعة واحدة ؛ وبعد ذلك انخفض العدد إلى خمسة وعشرين فردا لكل قلعة ، كلهم دمشقيون من الميدان . Medan ولكن السوريين بحكم نشأتهم فى بلاد أسعد كانت أرواحهم طيبة ، إذ كانوا يغلقون أبوابهم الحديدية عقب تجاوز قافلة الحج لقلاعهم ، وتمضى عليهم عشرة أشهر قبل أن يروا أو يشاهدوا عودة الحج الجديد : هؤلاء السوريون مع هذه الأجور البسيطة ، والإمداد الجيد بالمؤن والطعام ، كانوا راضين بالمعاناة التى كانوا يلقونها كل عام بسبب هذه الحياة فى الصحراء . أما القلاع التى كانت تقع أسفل بلدة معان ، فقد كان الأكراد يقومون على أمرها ، وهؤلاء الأكراد رجال أشداء من الشمال ، كلامهم غريب عن كلام أهل هذه المنطقة ، إضافة إلى أن خفة ظلهم فيها شىء من السماجة : ولكن المعروف أن أية أمة تكون غريبة على الجزيرة العربية لا يطول مقامها فيها . وهذا هو الأمير عبد القادر بعد أن وطّن نفسه فى دمشق والتفاف المهاجرين المغاربة حوله ، بدءوا يسجلون أنفسهم للعمل على طريق الحج . واعتبارا من ذلك التاريخ أصبح عدد المغاربة يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين مغربيا فى كل قلعة من القلاع ، وبذلك ظلت الأبواب الحديدية مفتوحة طوال النهار . والمعروف أن العرب المغاربة الشجعان يحظون بقبول أهل الجزيرة العربية لهم ؛ وأهل الجزيرة العربية يقولون عن المغاربة إنهم "سكان الحجاز القديم ، وأبناء إخوة بنى هلال ." هؤلاء المغاربة المغامرون فى الحاميات ، كانوا يقومون بغزو البدو الأعداء ، وكانوا يعودون إلى القلاع ومعهم غنائم صغيرة من الماشية والإبل .

فيما يلى أسماء القبائل البدويه المجاورة لهذا المكان : البلّى (وواحده البلوّى Belûwy) ومنطقتهم أو إن شئت فقل : مضاربهم فوق الحرّه ؛ وإلى الشمال منهم يوجد الحويطات (واحده حويطى) : وإلى الجنوب من الحويطات توجد جهينة ، وهى قبيلة قديمة (هى بلغة غير اليهود جيهين Jehin)، ولما كان الجهاينة من البدو ومن القرويين ، فإن بلادهم تمتد من ينبع إلى درب الحج . هناك بعض أفخاذ أخرى من الجهاينة مثل الكليبات el-Kleybat (على الطريق فيما بين سوره Sawra وشُجوة Suj-wa) ، وهناك العروة Aroa، والجاعضة Gadah، والمروين Merowîn والزبيان Zubbi-an، وكذلك الجرون ، ومن حول ينبع يوجد كل من بنى Beny إبراهيم ، وسيِّدة Sieyda والسراسرَّة . Seràserra وفوق المدينة على درب الحج هناك السَّعادين Saadîn (واحده سعدانى Saadanny) وهم من قبيلة حرب ، وفى الغرب توجد بشر Bishr وبعض أفخاذ من الحطيم Heteym فى اتجاه خيبر (أنظر الصورة رقم ٢٤) . يقول الناس هنا إن القبائل التى توالت على الحجر بعد بنى هلال ، أو إن شئت فقل : أعراب نجد الذين تحدثت الأساطير عن بطولاتهم ، هم بدو الشرارات (الذين هم أصلا من بنى هلال) – هؤلاء الشرارات كانوا فى ذلك الوقت يحتلون الحرة ، حيث كان يرمز لماشيتهم بالدبُّوس ، أو إن شئت فقل : العُكَّاز ، الذى مازال مسجلا على صخور البراكين – ومن بعد الشرارات جاء بنو سعيد Saîd، ومن بعدهم الضُّفير Duffîr، ثم الشيخ بن سويد Sweyd) هم حاليا على حدود بلاد الرافدين) ، الذين طردهم بنو صخر ؛ وقامت الفكارة هم والموءاهيب (وهم حاليا قبيلة صغيرة جدًا) بطرد بنى صخر من جاو Jau . والموءاهيب وصلت أجيالهم فى هذه المنطقة إلى ثلاثة عشر جيلا ؛ وقد حدثنى أحد شيوخهم وهو يعد على أصابعه أسلافه حتى الجد الثانى عشر ؛ هذا يصل إلى حوالى أربعة قرون على وجه التقريب . والأماكن التى كانت تنزلها أية قبيلة من القبائل ، كانت تحفل صخورها بوسوم تلك القبائل ؛ وهذه الوسوم هى بمثابة سجلات البدو الوحيدة وتبقى مئات السنين .

أمضينا يوما فى القلعة على هذه الشاكلة ؛ ومع انبلاج نور الفجر راح كل واحد فى غرفته الضيقة يستعد لأداء صلاة الفجر بتؤدة ووقار . وجرى تعليق بغل من البغلين فى دولاب أو إن شئت فقل ماكينة بئر الماء وراح فرد من الأفراد يقود ذلك البغل عن

طريق المناداة عليه من أعلى الممر . وهاهى بقايا نار الأمس يجرى شبها من جديد فى وجار القهوة ، الذى يحتل ، من حوله ، كل من قيِّم القلعة بغليونه الكبير ، والأغا بوجهه المعتاد وعليه سعوطة (نشوقة) فى مكانيهما المعتاد . هذا هو البن يجرى تحميصه أمامنا ، وجرشه ثم غليه لتحضير قهوة الصباح المرَّة ، كما هى عادة كل العرب فى هذه الأيام ؛ وربما كانت هذه القلعة أقدم من تاريخ شرب القهوة أول مرة ، فى آسيا كلها ! وعند الساعة العاشرة تقريبا ، يختلى كل واحد بنفسه ، لتناول طعام الإفطار . ورفع الماء من البئر هو الشغل الشاغل لكل أفراد القلعة : إذ يجرى تعليق البغل مدة أربع ساعات ، فى عجلة ماء البئر ويتم فكه بعدها ؛ على أن يتم تعليق البغل الثانى مدة أربع ساعات أخرى فى فترة العصر . وقبيل دخول وقت المغرب يجرى تخزين هذا الماء الثمين فى جرادل أو إن شئت فقل دلاء داخل غرف السكن العديدة الشبيهة بزنازين السجون . وهنا تأتى زوجات العرب المقيمين بالقرب من بوابة القلعة لملئ قراب مياههن ، وبعد أداء الصلاة يجلس أهل القلعة من جديد لتصليح القهوة . وعند غروب الشمس ، يكون الجميع قد تناولوا العشاء ، والتزم كل واحد منهم بغرفته الخاصة به ، وذلك بعد الانتهاء من صلاة العشاء ، بطبيعة الحال : وبعد أن يفرغ الجميع من تناول الطعام البسيط المكون من الحبوب أو الأرز ، يتوجهون لشرب القهوة المسائية معًا . وهنا يلتزم كل واحد بمكانه المعتاد حول وجار القهوة ؛ ويمضى الجميع فترة المساء العربية الطويلة فى شرب القهوة وتدخين التبغ .

وليس من طبيعة محمد على الصمت لفترة طويلة ، وعندما يفتح فمه ويبدأ الحديث ، كنا نستمع إلى حكاياه على إمتداد ساعات طوال ، وكلها حكايات جيدة المحتوى وتمتاز بالفصاحة والطلاقة ، (وكما يقول غير المتعلمين) ، والتى هى من صميم الخبرة الإنسانيه ؛ وبذلك استطعنا اكتشاف ما يدور فى ذهن ذلك الرجل ، من منطلق أن كل ما يقوله ليس كله من قبيل الحكمة . كان بقية المغاربة الشجعان يردون على محمد على بمرح شديد ، وهم يعبرون عن إعجابهم الشديد بالأغا وحكمته العالمية ، ولم يكن ذلك من قبيل الحب لذلك الرجل : كان عرب البوابة يجلسون صامتين ويبتسمون . ولقد تعجبت كثيرا من الطريقة التى استطاع بها كلام مغاربة الشرق ملامسه أوروبا ! يقول هؤلاء المغاربة : إن الإنجليز كانوا أصدقاء للمسلمين . وفرنسا تتخذ منهم مطايا فيما

يتعلق بالبربر : والعرب يعجبون عندما يسمعون أن تلك الدولة القوية ، التى استطاعت السيطرة على مغاربة الجزائر خلال أربعة عشر عاما ، قد هزمت خلال عدة أيام قلائل من أمة تحمل اسما جديدا هو بروسيا : Borusia (*) ويقسم محمد على بصوت عالٍ إن الفديه(**) المطلوبة من فرنسا إذا ما كوِّمت فإنها قد تملأ ما بين جدران القلعة الأربعة ! والمعروف أن هؤلاء الفرنجة يقومون بدور التجار (على نحو أكبر بكثير مما هو معروف) ؛ وهذه هى مانشستر هى التى تكسوهم إلى حد ما ؛ فضلا عن أن فناجيل القهوة ، ودلال القهوة ، وكذلك الطرابيش المغربية الحمراء يجرى صنعها فى أوربا لحساب تلك الأسواق . كان الحاج نجم ينظر إلىّ فى بعض الأحيان ، بابتسامة الرجل العجوز الساذجة ، ليردد على مسامعى معرفته لبعض كلمات الساحل الإفرنجى المجاور ، والتى يشيع استعمالها بين البربر مثل Sordi, Muchacho, nino, agua؛ "(أردف الرجل يقول) تلك هى كلماتهم " . لقد سبق لمحمد على رؤية دولنا البحرية فى موانئ بلاده ؛ سبق له رؤية الفلامينيين Flamingies (أى الهولنديين) ، والأمريكان وكذلك الطليان . – "كان الطليان عبيدا (كان محمد على يعتقد أنهم كذلك بسبب وجوه بحارتهم التى كان لونها يميل إلى اللون البنى !) للإنجليز ."

هذا الأغا غير المتعلم ، ضليع فى لغته الأم ، ميز لنا ثلاثة أنواع من السياقات العربية أولها السياق العالى ، وهو اللغه التى يستعملها الإنسان عندما يتعين عليه مخاطبة الشخصيات الكبيرة ؛ والسياق الوسط ، وهو كلام الناس الوضيع المعتاد ، أو هو على وجه التحديد كلام الناس فى تعاملات الحياة اليومية ؛ ثم السياق الدُّون ، أو المتدنى ، وهو ذلك الكلام المكسر ، ولا يربط بينه رابط – "وبالله ، هو مثل ذلك الكلام الذى يتحدث به خليل ". ومع ذلك ، فإن ذلك الكلام السهل ، الذى يجرى على ألسنة

(*) تمكنت مملكة بروسيا خلال تزعمها لحركة الوحدة الألمانية من هزيمة فرنسا هزيمة فادحة فى حرب خاطفة عرفت بالحرب الفرنسية البروسية فى عام ١٨٧٠ . وكان من نتيجة تلك الهزيمة سقوط الإمبراطورية الفرنسية الثانية وتنازل فرنسا عن إقليمى الالزاس واللورين وإعلان قيام الإمبراطورية الألمانية أو فيما عرفت بالرايخ الثانى . (المراجع)

(**) المقصود بالفدية تعويضات الحرب التى فرضتها بروسيا على فرنسا وكانت تعويضات مبالغ فيها . (المراجع)

البدو ، هو فوق اللغة المدرسية التى يجرى تعلمها فى مدارس الحضر . كانت بقية المجموعة من العرب الصامتين ، وكان الأغا ينظر من حوله شذرا ، عندما ينتهى كلامه ، ليقف على من يتعين عليه الكلام بعده . كان ذكاء الحاج حسن يكمن فى يديه القويتين ، إذا لم يكن لديه ما يقوله ؛ أما نجم ذلك الرجل العجوز ، فقد كان فيه شىء من التواضع الساذج ، ولم يكن يقوى على الكلام إلا بعد أن يفرد راحتى يديه الضعيفتين ويعرضهما لدفئ النار ، وكان دائما يطرق بناظريه إلى الأرض إذا ما حملق فيه أحد الحاضرين . هؤلاء الرجال كانوا يجلسون فى وقار ، وكل واحد منهم معه غليونه ، "ويشربون" الدخان (التبغ) . "كان محمد على يصيح فى مرح ينم عن سعادته قائلا : والله إننى صديق ." كان الجميع يخشون صوته الأجش عندما يتكلم . "ماذا حدث ! أليس عند أحدكم شيئا يقوله ؟ إذن يجب أن يروى خليل لنا حكاية من حكاياته . قل أى شىء يا خليل ، حدثنا عن بلادك ، وما ستقوله سيكون جديدا علينا ومبهجا لنا جميعا . أنصتوا ، يا عرب ! ها هو خليل سيبدأ الحديث . هذه ستكون حكاية يتعين عليكم تخيلها عن بلاد خليل وعن الإنجليز الذين هم شعب عظيم أى والله ، ولا يقلون كثيرا عن إمبراطورية السلطان ." ولكنى رددت عليه قائلا : "ليس عندى ما أقوله . وليست لدى حكاية جاهزه على لسانى ، وغير معروفة من الحكايات التى سادت هذا العام ، لقد قلتم ذلك بأنفسكم ." وخطر ببالى أن الصمت أمر جميل ، وسط هذه الرءوس المغربية الجامدة ، إلى أن يحين موعد عودة الحج إلى هذه المنطقة بعد اكتمال مناسكه . وهنا كنت أسمع محمد على يقول : "لماذا تجلسون أيها الأعراب مثل الخرس والبكم ؟ هيا ، دعونا نستمع إلى حكايه طريفة يرويها علينا واحد منكم ؛ خبرونا فقط عن حسن الصحبة ."كانت حكاية حياة محمد على يوم أن كان فى الجندية قد جابت كل مضارب البدو الرحل فى سوريا ؛ كان محمد على يعرف كلام (لغة) البدو معرفة جيدة ، وكان يحاول تقليد تلك اللغة وهو جالس بيننا ، ومع ذلك قال لى محمد على ، إنه لم يستطع متابعة هؤلاء البدو عندما يشتد وطيس كلامهم وينخرطون فى قوافيهم . هناك أشياء كثيرة ومصطلحات كثيرة أيضا فى كلام هؤلاء الشعراء الرعاة فى الصحراء ، تنغلق ويصعب فهمها على السوريين من أهل الحضر . وهنا رد البدو المبتسمون مقاطعين محمد على مرة ثانية ، بأنهم ليس لديهم حكايات ، إلا عن ماشيتهم وإبلهم الصغيرة ،

أو التحدث عن الغزو . هذا يعنى أن حياة هؤلاء البدو إنما تكون فى القفار : هذا يعنى أيضا أن العالم المتمدين الرائع إنما يعد خارج نطاق معرفتهم أو إن شئت فقل : لم يسمعوا عنه . ووقت الفراغ الذى يزجونه يعدون خلاله على أصابعهم عدد الرحلات التى قامت بها قوافل الحج ، وبالتالى يعرفون الموعد الذى يصل الحجاج فيه إلى كل محطة من محطات الحج . والمسافة من هنا ، من مدائن صالح ، إلى المدينة المنورة تقدر بحوالى مائة وثلاثين ميلا ، وهم هنا يحسبون هذه المسافة بواقع ثلاث من الرحلات التى يقوم بها ركاب الإبل أو النياق .

كانت حكايات محمد على مصطبغة دوما بصبغة الأساطير والخرافات ، وبخاصة عندما كان يتطرق إلى بعض الأشياء الخارجه على نطاق معرفته . كان محمد على يخدم على ظهر واحدة من السفن ، أثناء الاضطرابات العقدية فى سوريا(*) ، (كانت أساطيل أوروبا فى ميناء بيروت فى ذلك الوقت ؛) وهو الآن يحكى لنا أن مدافع تلك الأساطيل كانت ثلاثمائة ، وكان طول المدفع الواحد تسع ياردات ، إضافة إلى أن مواسير تلك المدافع بلغت من الكبر حداً يصعب معه على ثلاثة رجال أن يحيطوا الماسورة الواحدة بأذرعهم ؛ وقال أيضا إن أحد طوابق تلك السفن عبارة عن سوق ، شاهد فيه كل أنواع الطعام الذى يباع للراكبين والمسافرين ؛ وقال أيضا إن عدد أفراد ذلك الأسطول يقدر بحوالى ٢٥٠٠٠ رجل . كان محمد على يؤكد بالقسم وجود تلك الأشياء وهذه الأمور – وهذا ليس بغريب على حكايات العرب . كنت قد جلست مندهشا لأسمع حكاية عن بلد أو إن شئت فقل : منطقة غريبة فى الجزيرة العربية ، تقع جنوبى مكة ، وأن هذه المنطقة فيها مدن متحضرة وقرى متحضرة : تحولت فى العصر الأخير فقط إلى الإسلام ، وأن هذه المنطقة كانوا يطلقون عليها اسم بلاد Béled جوّة Jawwa وعندما سألت محمد على عن تاريخ ذلك الذى يحكى عنه ، رد الرجل على ، بعد أن سيطرت روح الغموض عليه ، قائلا : نعم ، يا خليل ، لقد رأيت هؤلاء الناس فى موسم

(*) الإشارة فى هذا السياق إلى الاضطرابات الدينية بين الموارنه والدروز فيما عرفت باسم حوادث الستين والتى على أثرها أرسلت فرنسا فى عام ١٨٦٤ – ممثلة عن الدول الأوروبية – حملة عسكرية إلى ميناء بيروت لقمع تلك الاضطرابات . (المراجع)

الحج فى مكة ، وهم يسكنون بلدا فى اليمن ، وهؤلاء الناس ليست لهم لحى .'وفهمت بعد ذلك ، أن ما كان يتحدث عنه محمد على ، كان المقصود به هم الجاويون أو إن شئت فقل : سكان جزيرة جاوة ، الذين يحسبونهم من سكان شبه الجزيرة العربية . وأنا أكرر هنا أن الحجاج السوريين يخافون أفراد قبيلة حرب ويخشونهم ؛ والسبب فى ذلك أن اللصوص وقطّاع طريق القوافل بين الحرمين ينتمون إلى هذه القبيلة البدوية المترحلة . "قال محمد على : قبيلة حرب قبيلة مريعة ، وهذا هو ما تدل عليه تقاليدهم وأعرافهم أكثر من أى شىء آخر ، من تلك التقاليد ، أن الذكور لا يختتون عندما يكونو أطفالا ، ولكن عملية الطهاره هذه تجرى للذكور عندما يبلغون ويصبحون قادرين على الزواج ؛ عند هذه المرحلة يطلب أصدقاء ذلك الشاب منه إجراء هذه الجراحة التى يتم فيها الطهارة وسلخ جلد العانة على مرأى من العروس نفسها ، وإذا ما اقشعر جسد حبيبها ، أو إن شئت فقل : زوجها المرتقب ، أو تأوه فإنها سوف تستنكر أن يكون بعلاً لها ." وقد توجهت عندما وصلت بعد ذلك إلى حرب بسؤال يقول : "أصحيح أن الختان عندهم بتلك الطريقة ؟" "ردوا قائلين : يا الله ! متعجبين من ذيوع مثل هذه الأشياء الغريبة عنهم ، هؤلاء المساكين ! ولكن ، اسمع ، يا خليل ، هذه الأشياء تقال عن الختان" . وهذا ينطبق على أمة بعيدة ، أمة أخرى بعيدة عنا تماما .

أساطير الحج السورية فيها الكثير من الجدل المشترك حول يهود خيبر ، ويهود خيبر هذا اسم قديم بحق وينزل الكثير الخوف فى آذان الحجاج السوريين الأكثر سذاجة . وخيبر ، التى هى حاليا قرية متواضعة(*) ، (التى زرتها فيما بعد متكبدا فى سبيل ذلك كثيرا من الآلام والمتاعب) هى عبارة عن مكان اشتهر فى الحوليات والسجلات الإسلاميه ، بأنه جرت هزيمته أو فتحه مع بداية عهد محمد (ﷺ) . وخيبر يجرى تخيلها كواحدة من المدن القوية ، (التى لم تكن أكثر من مجرد قريه وبعض ضواحيها) . فى الطرف البعيد من الصحراء ؛ وأن أهلها كانوا قوما أشداء ومرعبين

(*) خيبر : تقع قرية خيبر قبل المدينة المنورة بقليل . ولفظة خيبر فى العبرية تعنى قصرا ، إذ كانت شبيهة بقصر عظيم غنى بالفاكهة وأشجار النخيل . وتشتمل القرية على سبعة وديان تقع جميعها فى جبل حرة الذى تكثر فيه ينابيع المياه العذبة . وكان سكانها ينتمون إلى سلالة العبيد الأحباش من قبيلتى عليدان وأولاد سليمان . (المراجع)

بحق ، وأنهم كانوا مسلمين ظاهريا ، ولكنهم فى باطنهم كانوا يهوداً قساه ، لا يسمحون لأى غريب بالعيش بينهم ونقلا عنهم ، كانت هناك قلعة عجيبة فى وسط البلدة ، وأن تلك القلعة بلغت من الارتفاع حداً كان يحول بين أشعة الشمس ووصولها إلى الأرض . وقيل أيضا إن تجارة وحرفة هؤلاء القوم كانت تتمثل فى الإغارة على الأراضى وقطع طريق الحج . وقيل أيضا إنهم أثناء غزوهم للأراضى وهروبهم قد يفوقون أى حصان فى عملية الجرى : والسبب فى ذلك أن عظمة الدوران فى الركبة يجرى كسرها فى طفولتهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هؤلاء القوم ليس لسيقانهم بطون ، كما تروى ألاعيب كثيرة عن أهل خيبر منها على سبيل المثال : "أن ثلاثة من يهود خيبر جرى الإمساك بهم متلبسين فى قافلة الحج ، الأمر الذى جعل باشا الحج يأمر بدفنهم فى الرمل إلى آذانهم ؛ ونُفِّذ هذا الأمر ، وجرى حرمانهم وتفويت الحج عليهم . وقيل إن فهدا مر اثناء الليل ، وتشمم رائحة اثنين منهم ، وعندما اكتشف أنهما كانا ميتين تركهما ، ولكنه وجد الثالث منهم مازال يتنفس ، وحاول الفهد استخدام مخالبه فى الحفر إلى أن أخرجه من الرمل ؛ وعندما أفاق ذلك الرجل ووجد ذلك الوحش الكاسر يقف متحفزا له راح يجهش بصوت مرتفع من الخوف ، الأمر الذى جعل الفهد يفر خائفا . ونهض ذلك اليهودى وراح يجرى وراء قافلة الحج ، التى كانت سبقته بمسيرة كاملة ؛ ولكنه استطاع الوصول إلى مخيم قافلة الحج فى الليلة التالية ، وتسلق الرجل الحواجز ودخل من فوقها جناح باشا الحج . كان الضابط الكبير نائما واضعا رأسه فوق الخزينة ؛ بالرغم من كل هذه الاحتياطات أفلح اللص فى سرقة النقود الحكومية وأخذ منها كل ما يستطيع حمله . وفى محطة الليلة التالية عاد اللص ليحاول السرقة للمرة الثانية ، ولكن الحرس أمسك به ، وقيدوه لحين طلوع النهار . وأثناء اقتياد ذلك اليهودى لإعدامه ، أمر باشا الحج جنوده بالتحلق حول ذلك الرجل . ورد اليهودى قائلا : "سيدى ألست أنا ذلك الشخص الذى سبق أن أمرت بدفنه ؟ ومن الذى سرق الخزينة غيرى فى الليلة الماضية ؟ أنا لم أعد أخاف منك أو أخشاك بعد ." – "وكيف لك ايها الرجل اللعين ، ألا تخافنى ، أنا من بيدى سلطة الأمر بقتلك ؟" – "ليس هناك من يمكن أن يخيفنى من البشر ؟" – وبقفزة واحدة من رجليه ، تمكن اللص من القفز فوق أكتاف الرجال المتحلقين حوله ، وفر منهم هاربا أسرع من أى عدّاء آخر.

الغرائب تروى أيضا عن بنى Beny كلب Kelb فى الجزيرة العربية ؛ وبنى كلب عبارة عن قبيلة من الكلاب البشرية . وكلمه 'كلب' التى تعد من باب الإهانه فى الوقت الراهن ، كانت من قبل كلمة طيبة الدلالة بين القبائل السامية . هؤلاء الساميون يقولون : "زوجات الكلب وبناته يشبهن النساء الشقراوات ، أما الكلاب الذكور ، التى ترتفع قامتها شبرا ، فيقولون لها ؛ كلاب بيضاء . وهم يشاهدون أى ضيف من الضيوف يكون وافدا عليهم ، يهرول الكلاب – الرجال للقائه واستقباله ، بحيث يضع كل واحد منهم طرف بشته (عباءته) فى فمه بين أسنانه ويقتادونه بلطف إلى خيامهم البدوية ." بعض آخر من الناس يقولون : "إن بنى كلب لا يسكنون فى الجزيرة العربية ، وإنما مضاربهم ، أو أماكن إقامتهم تقع فى بلاد خلف أراضى الفيضان ؛ ويقولون عنهم أيضا : إنهم يلتهمون كبار السن عندما يدب الشيب فى لحاهم ." وبينما سمعنا هذه الرواية فى يوم من الأيام أثناء تناول القهوة فى مدائن صالح ، صاح دولان Doolan، فجأة ـ ليقول لنا إنه التقى ببنى كلب فى جولة أخرى ، أو إن شئت فقل : حملة أخرى من حملاته البعيدة – "نعم بالله ! وقد جاءوا راكبين نياقا ." وذكر دولان أيضا بأن بنى كلب يعيشون أيضا فيما وراء البحار ، وأن رجالهم بينهم وبين الكلاب شبه كبير ، وتعجب قائلا : "وقد يكون ذلك صحيحاً ، والله أعلم ؛ والله ! أظن أنى رأيت بنى كلب ، ولكن ، بحياة هذه القهوة ! قد أكون مخطئا ." وحكى لى دولان فى يوم آخر أن أهل خيبر كان عددهم حوالى ستمائة ألف رجل ؛ – وأنهم جميعا كانوا أصحاب نخوة وشهامة إلى الحد الذى جعل دولان يكثر من أعدادهم فى الأساطير التى كان يرويها عنهم . هناك واحد آخر من عقلاء بدو الفجيرى قال لى الحقيقة فى حدود معرفته عندما أبلغنى : "مضارب بنى كلب تقع على بعد مسير حوالى خمسة أو ستة أيام شرقى مكه ، ولكنهم ليسوا مسلمين بحق وحقيقة ، وقال لى أيضا إن حملة البنادق البدائية (الفتيلية) بينهم يقدرون بحوالى عشرة آلاف رجل ." هذا يعنى أن قبيله بنى كلب كان يقدر تعدادها بحوالى خمسين ألف رجل ، أو إن شئت فقل : خمسين ألف نسمة ! – وهذه أمة قبلية لا مثيل لها فى الجزيرة العربيه كلها . وقبيله العنزى ، التى تشغل المساحة من المدينة (المنورة) إلى شمالى سوريا ، وهى مساحة من الأرض تقدر بما يزيد على خمسة عشر ألف ميل مربع ، أنا لا يمكن أن أقدر عدد أفرادها حتى ولو بنصف هذا

الرقم الذى عليه قبيلة بنى كلب ، ولكن يبدو أن عقول هؤلاء الحكائين لا تتخوف من الأرقام الكبيرة : وقد توصلت فى النهاية . وبشكل عام ، أن آلاف أولئك الحكائين تعنى المئات ليس إلا ، وفى ظل ذلك يكون معشار حكايتهم هو الذى يتفق مع فكرى وتقديراتى .

الحاج حسن الذى طالت يداه أكثر من بقية أفراد الحامية ، سيقوم خلال يوم واحد برحلة صيد إلى الجبل بصحبة بعض من عرب البوابة ، ويتعين علىَّ أن أكون بصحبته . وقد بلغنى أن هناك بعض النقوش على الطريق الواقع خلف صخور السهل فى الاتجاه الشرقى . وبعد مسير دام حوالى ساعتين ونصف الساعة ، وصلنا قبل الظهر إلى ركب Rikb الحجر el-Héjr؛ كان بعض العرب فى أرض الجوع هذه يشكون بالفعل من الشمس ، كما كانت سيقانهم الضعيفة كئيبة المنظر من خلال الرمال . هذا هو وادى Wady أحد هؤلاء العرب ، يرتدى أثمالا ، لأن هذه هى تقاليد جزيرة العرب المسلمة Ishmaelite، فيما يخص أى إنسان يتعين عليه القيام بمغامرة فى منطقة تبعد قليلا عن موطنه ، وهو يفعل ذلك مخافة أن يجرده الغزاه الآخرين من كل ما يرتديه أو يضعه على جسمه . تجاوزنا الصخرة الحاجزة عن طريق فلق عميق له ضفتين من الرمال . كان الجزء الخلفى من الجبل عبارة عن أرض جرداء من الحجر الرملى ، كانت تشبه الموت ، نظرا لأنها كانت تبدو كما لو كانت سكون الطبيعة الأبدى . ثم بدأ جبل الحجر الرملى يتفرع إلى خطوط متقاطعة ، شكلت متاهة فى هذه المنطقة ، متاهة من الكتل المتعرجة ، وفيها كثير من الشوارع المسدودة ، كما لو كانت هناك مدينة بين تلك الشوارع . من بين هذه الصخور المربعة ، كانت هناك بعض الصخور الطرية التى انصهرت وذابت بين الصخور الأخرى ، الأمر الذى أحدث بعض الفراغات بين الصخور الصلبة الأخرى . وهذه هى قمم بعض الصخور التى تآكلت بفعل عوامل التعرية متحولة إلى أشكال غريبة من الرءوس ورؤس الأعمدة . وهذه هى خطوط الحجر الرملى الرسوبية المقابلة يراها الناظر على ارتفاع واحد عند كل الجروف الهادية . واصلنا مسيرنا فى حرارة جو الشتاء ؛ وهذا هو ترمومتر وضعته فوق قطعة من القماش الأبيض ، فوق الرمل وعلى ارتفاع ٣٧٠٠ قدم يسجل درجة حرارة مقدارها ٨٦° فهرنهيتية : عند أعلى نقطة فى الجبل وعلى بعد حوالى ستة عشر ميلا من القلعة ،

وجدت أن الارتفاع حوالى ٤٠٠٠ قدم . من هذا المكان استطعنا عبر منظر أرضى قاحل وواسع فى إتجاه الشمال ، رؤية سقيا(*) تابعة لبدو الفجير الرُّحَّل . أحسسنا بصعوبة بالغة ، ونحن نسير بين ضفتين رمليتين فيما بينهما رمال عميقة ، رحنا نطلع وننزل خلالها ، ونجول خلال الممرات الصخرية المحيرة . وأثناء سيرنا عثرت على أسطوره حميرية من أساطير الصحراء ، مدونه فوق صخرة من الصخور ، بطريقة عمودية ، وفيها صور للنعام ، وللحصان وراكبه ، وصور للإبل . [أنظر وثيقة الكتابة المنقوشة اللوحة رقم ٢٠] . وصلنا بعد ذلك إلى كهف فى مكان رملى عميق كانت تنمو فيه أشجار السنط . كانت الشمس قد أوشكت على الغروب وبالتالى يتعين لهذا المكان أن يكون ملجأنا وملاذنا أثناء الليل .

كنا قد أحضرنا معنا عجينا ملفوفًا فى قطعة من القماش وذلك من باب الاقتصاد فى الماء ، من جانبنا ؛ كان ذلك العجين قد جرى تجهيزه فى الحجر ، من ذلك العجين ، كان المرء يصنع كعكات كبيرة مسطحة يقولون لها بلغتهم (عبود Abud)، ويجرى وضع ذلك الكعك تحت الرمل الساخن الذى تصل سخونته إلى درجة الاحمرار ، وذلك بمساعدة أيضا من بعض من الحطب الذى يجرى حرقه بعد بضع دقائق . ويجرى بعد ذلك رفع الخبز من الرمل قبل أن ينضج تماما ليدهك بعد ذلك مع التمر داخل تجويف جلد حيوانى ، ومع شىء من الماء ، حتى نقلل من احتياجنا لشرب الماء ولا نأتى بسرعة على وجبتنا الصغيرة ، نحن الخمسة . والبدو الرحل فى هذا الجزء من البلاد يحكون أيديهم بالرمل ؛ بعض آخر من تلك الغربان الفظة ، فى خصل شعرهم الذى يشبه شعر الجن . كانت تلك الليلة ذات السماء الصافية باردة من حولنا ، ونظرا لأننا كنا نحس بشىء من الخدر ، لم يطرق النوم جفوننا ؛ وقبل طلوع النهار وجدت أن درجة الحرارة على مقياس الحرارة كانت حوالى ٣٨° فهرنيتية . وفجأه سمعنا ضوضاء غريبة داخل تجويف كهفنا الموجود فى الأعلى . وهنا تفاخر دولان الذى كان يرافقنا بأن قال : "لقد سمعنا كلنا ، بالله ، الغول ، نعم ، بل وسمعه أيضا ولد عمه خليل الذى يتشكك فى كل شىء :" ولكنى فسرت تلك الضوضاء على أنها مجرد حركة فى جسد كلب الصيد ،

(*) السقيا : مكان للتزود بالماء ، ويسقى البدو منه إبلهم ومواشيهم (المترجم)

الذى كان وادى قد جلبه معه ، والذى كاد يموت جوعا وعطشا لأننا لم يكن لدينا ماءً أو كسرة خبز حتى نلقيها له ، ومع ذلك كان يرقد فى الأعلى فى حالة من الإغماء الشديد . نهضنا من أسرتنا الصخرية بعد انتصاف الليل وعظامنا تؤلمنا ، لكى نشب نار الحراسة . وتناولنا الإفطار مما تبقى معنا من الخبز السابق إعداده ، كما شرب كل واحد منا جرعة ماء . ثم تناول كل واحد منهم بندقيته الطويلة وراحو يبحثون عن 'البدون' أو إن شئت فقل 'الماعز البرى' الضخم الذى يعيش فى الجبال . أما أنا فقد بقيت بالقرب من قربة الماء على الطريق الذى يتعين علينا العودة منه ، هذا فى الوقت الذى راحوا هم فيه يتسلقون المسافات فيما بين الصخور الجرداء . ومع دخول وقت الظهر ، لم يكن أحد منهم قد اصطاد شيئا اللهم باستثناء وادى الذى فتح نيران بندقيته على تيس برى كان يجرى ، ومع ذلك أخطأه ولم يصيبه ، وهذا هو ما يفعله البدو بواقع مرة واحدة من بين كل عشر مرات . وبينما كنا نسير عائدين إلى القلعة داهمتنا جماعة مكونة من عشرة بدون (ماعز جبلى) قفزوا أمامنا فوق الرفوف الصخرية : وهنا قام حملة البنادق التابعين لنا بملاحقة تلك المجموعة مدة ساعة ، ولكن تمكنت الطريدة من الفرار .

ذات يوم عاد إلينا صيادونا ومعهم دُلدلا ، أو إن شئت فقل : حيوان الشيهم المبذول ، الذى يقولون له بلغتهم 'نيس' nîs فقد عثروا على جحره الذى يشبه حجر الأرنب ، ثم ضربوه بعصا على رأسه . وجرى تقسيم لحم ذلك الدلدل بالتساوى (وهذه فضيلة من فضائل دين العرب) على كل من كانوا فى القلعة ، والمعروف أن حيوان الدلدل لا يسلخ ، إذا بالإمكان أكل جلده اللزج مع لحمه ، الذى تفوح منه رائحه تشبه رائحه السمك . سلقوا لحم الدلدل ، وراح كل واحد منهم بعد العشاء يشكو من الحموضة ، أما أنا فلم أحس بتلك الحموضة . ومن بين خرافات العرب أيضا أن حيوان الدلدل يمكن أن يستعمل شوكه فى الدفاع عن نفسه ضد أعدائه . والمعروف أيضا أن الماعز البرى ، وكذلك الحمر الوحشية ، وكذلك الدلادل تتغذى بطريقة شرهة على نبات الحنظل ، الذى يعد شديد المرارة بالنسبة للإنسان ، إلى حد أن مجرد ورقة واحدة من أوراق الحنظل يمكن أن يكون مطهرا فعالا تماما ، والعرب يقولون أن ورقه واحدة من أوراق الحنظل كفيلة بأن تجعل الإنسان يفقد وعيه ، وأن مثل هذا الإنسان يمكن أن

يسترد وعيه وقوته إذا ما أكل لحما . وهذا هو بالتأكيد ما يسميه دراويش عليشة "الموت فى الإناء" . أحضر لنا واحد من البدو بيضة كبيرة من بيوض النعام ، وقام بتسويتها مع السمن والطحين فى طاسة ، على شكل بيض مخفوق طيب المذاق . والنعام ينزل إلى سهل مدائن صالح ؛ وقد شاهدت واحدة من النعام فى جبل إثلب . ودولان Doolan شأنه شأن أمة الحطيم يعمل بصيد النعام ؛ وهو فى موسم النعام يركب ناقته ويجرى مغامرا فى القفار ، وعندما يشاء الله ، يعثر دولان على نعامة من النعام ، وهنا يقوم بتخبئة نفسه ، وينتظر طول اليوم ، وبندقيته على أهبة الاستعداد ، إلى أن تمر عليه النعامة : ولكن صبر هذا الرجل كان يضيع هباء فى مرات كثيرة اللهم إلا إذا عثر على عش النعام . فى واحدة من المرات عاد إلى منزله ومعه فرخين من فراخ النعام ، جرت تربيتهما فى القلعة ، ولكن فى يوم من الأيام تغذى هذان الفرخان على الفول ، وعندما حاولا ابتلاعه سد زوريهما وخنقهما . هذا الدولان كان فقيراً جداً ، ولم يكن يجد ما يأكله كل يوم ، ومع ذلك كانت أدوات صيده من النوع الممتاز ؛ كانت بندقيته أثمن من أى شىء آخر فى ذلك الجانب من الصحراء ، كانت تلك البندقية لا تساوى سوى أربعين ريالا . كان دولان ، فى معظم السنوات يجهز جلدين من جلود النعام لكل موسم من مواسم الحج ، الذى كان يذهب خلاله إلى واحد من تجار ريش النعام فى دمشق ، ليشترى منه ومن البدو الآخرين جلود النعام على طريق الحج ، ويدفع نظير الجلد الواحد ما يتراوح بين أربعين وخمسة وأربعين ريالا . والنعام يتغذى عن طريق المراعى متنقلا من دغل إلى آخر ، "شأنه شأن الإبل" . والصيادون يأكلون صدر النعام ، الذى هو من اللحم غير الطرى ؛ ودهن النعام ثمين أيضا ، وملئ فنجال قهوة من ذلك الدهن يباع بنصف مجيدى ؛ والبدو يظنون أن دهن النعام علاج ناجح لارتفاع درجة الحرارة والبرد ، كما يعالجون به أمراضا كثيرة أخرى . ساكنو الخلاء فى موسم الشتاء هم الأبقار ، والخطاطيف (الأسود والرمادى منها) ، وحمام الصخر الأزرق . وطوال الليالى التى أمضيناها فى القلعة كانت تغزونا جموع هائلة من الخنافس الصفراء الصغيرة ، التى كانت تخترق الخضاضات الجلدية وتتغذى على الطعام : وأنا لم أشاهد هذه الخنافس فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية .

بعد أن تعود العرب على النصرانى وألفوه ، بدأت أتجول وحدى ، فى كل منطقة أو إن شئت فقل : مواقع مدائن صالح . والأغا هو الوحيد الذى سمح لى بالصعود ومعى نظارتى فوق صخور البرج ، كما سمح لى أيضا بالمغامرة إذا لم أجد أحداً يتحرك فى السهل . وعن طريق ذلك الاستكشاف اليومى ، استطعت التمعن أكثر وأكثر فى العديد من الواجهات والغرف . وارتفاع صخور البرج ، يعد متواضعا كما هو الحال فى المقابر السطحيه الضحلة ؛ وأهل هذا البلد الذى لا تسقط فيه الأمطار يتخذون من تلك المقابر الضحلة خزانات لهم يخزنون فيها مياه الأمطار إذا ما سقطت على بلادهم . هذه التجاويف الضحلة تنتشر هنا وهناك ، البعض منها فى الشمال والبعض منها فى الجنوب ، وبعض ثالث فى الشرق وبعض رابع أيضا فى الغرب ، ولكن عمق الواحدة منها لا يزيد على شبر واحد ؛ ولا يرى خلف البرج سوى حفرتين فقط من حفر القبور تلك . كما يرى الرائى خلف البرج أيضا بعض الرفوف الصخرية المنتشرة خلال السهل ، وبصحبتها أيضا أماكن الدفن الضحله أيضًا ؛ وكما هو الحال فى الصخور الموجوده تحت قصر البنت ، تقع تلك الحفر الضحلة أمام عتبة واحدة من أجمل الواجهات (انظر الصورة رقم ٢٥) . والبرج هنا عبارة عن مبنى شبه مربع قليل الارتفاع ، مبنى من الأحجار الغشيمة ، وبدون ملاط ، وأبعاده ست خطوات طول وخمس خطوات عرض ، ولا يعرف عمر هذا البرج على وجه التحديد : ويصل سمك الجدار إلى حوالى ياردة واحده ، ويقل ذلك السمك مع الارتفاع ؛ والبيارق فى الداخل يجرى استعمالها للاسترشاد بها فى ارتقاء الدرج (السُّلَّم) .

شاهدت فى كل أنحاء السهل حصوات منجرفة من الحجر الخفُّاف ونواتج الحمم البركانية ، وهذا بطبيعة الحال جاء من الحرّة السوداء الموجودة فى الخلف ، التى اكتشفت فى نهاية المطاف أنها عبارة عن جبل من الحجر الرملى الناتج عن انسياب أنهار شديدة الكثافة من الحمم البركانية البازلتية ؛ يضاف إلى ذلك أن التلال السوداء التى أراها فوق الجبل ، هى بمثابة فوهات براكين جامدة اعتبارا من هذه المنطقة . ومع ذلك ليس هناك أى دليل أو علامة على سقاط البراكين أو ترابها الذى يمكن أن يكون قد تساقط على ذلك السهل فى الزمن القديم ؛ - هذا هو بالتأكيد أصل ما حدث فى الحجر . عثرت أيضا فى الصخور البرية على كثير من النقوش القديمة المدونة فوق تلك

الصخور . شاهدت أيضا على الجروف ، التى كنت أعجب لرؤيتها ، والتى كانت ترتفع إلى مسافة حوالى خمسة وعشرين قدما أو أكثر عن الأرض ، صورا قديمة وأثرية للحيوانات ، وهذه الصور لا يمكن الوصول إليها فى الوقت الراهن إلا عن طريق سلم نقَّال : بل إن أطول الرجال يعجز أن يطال تلك الصور حتى عندما يقف فوق ظهر جمله ! – "من الواضح (حسب قول العرب) أن رجال الأزمان السالفة كانوا أصحاب قامات فارعة !" وهنا كان الأغا يرد عليهم قائلا : "ربما تكون التربة هى التى مارت وانخفضت ، وذلك بفعل الطقس والرياح ، على مر الأزمان ؛" ولكنى أرى أن هذين السببين لا علاقة لهما بالأمر ، وبخاصة عندما نأخذ بعين اعتبارانا أفاريز الأبواب فى الآثار الجنائزية ، نظرا لأن تلك الأفاريز تحازى سطح الأرض فى الوقت الحالى . عثرت أيضا على أحجار نارية غريبة الشكل ، فى ثنايا الركام البركانى الأسود ؛ وقد سبق لى مشاهدة مثيل لتلك الأحجار النارية متناثرة فى وادى بيترا . شاهدت أيضا بعض الأوانى الحجرية (مثل الجرن jurn أو النجَّار nejjar) التى تشبه أحجار أحواض المَعْمُوديَّة ، والتى يصل عرض الواحد منها إلى حوالى ياردة واحدة ؛ ومن بين هذه الأوانى (أنظر الصورة رقم ٢٦) توجد آنية واحدة مخصصة للشرب داخل القلعة . وفى السهل الموجود تحت جبل إثلب ، عثرت على حجريات قديمة ، محفور على جدارها ، كما لو كان ذلك بفعل إزميل عامل من العمال ، الأسطورة الحميرية التالية ، التى تكاد تكون فريدة بين النقوش النبطية الموجودة فى مدائن صالح (الصورة رقم ٢٧) ؛ عثرت أيضا على حجرية ثانية قديمة من المنطقة الخلفية فى الصخور الغربيه . – ولكن حجريتان صغيرتان لا تكفيان للدلالة على أحجار أو الأعمال الحجرية فى بلدة من البلدان ؛ وبالرغم من أن هاتين الحجريتين كان عليهما بعض المخلفات الحجرية الناتجة عن الآثار الجنائزية المجوَّفة : إلا أن البلده التى عثرت فيها على هاتين الحجريتين كانت مبنية من الطين ، يضاف إلى ذلك أن جدران المنزل الطينية كانت مقامة على قطعة أو اثنتين من الأحجار الغشيمة وغير المهدة . ولم أرى سوى قله قليله من المنازل الأثرية المتبقية ، فى ذلك الموقع القديم . وأنا أرى أن الرمل الذى انجرف إلى هذه المنطقة لم يغطى أو يطمس الكثير من تلك المنازل الأثرية ، ومن رأيى أيضا أن الأحجار ، الموجودة فى هذا المكان ، جرى إحضارها منذ زمن بعيد لبناء القلعة . كانت تلك المنازل

القديمة قليلة العدد ، ويجب أن لا ننظر إليها باعتبارها أكواخا ؛ زد على ذلك ، أن المنازل القديمة المبنية من الحجر الغشيم ، ليست أكبر من المنازل الأثرية المبنية من الطين ؛ أضف إلى ذلك أننى شاهدت المنازل الحجرية تلك التى ما تزال باقية حول بلدة خيبر ، منذ عصر محمد ﷺ إلى يومنا هذا .

كنت أجلس تحت صخور البرج فى كثير من الأحيان ، وأروح أتدبر صورة الصليب الموجود داخل إطار محدد ، والمرسوم بالمغرة حمراء اللون . ترى ، ماذا يمكن أن يكون ذلك الصليب ؟ – هل هو وسم من وسوم الحيوان ؟– أم إنه الإشاره إلى موت المسيح وتذكار لملكته الأبدية؟ التى خلفّها مسافر ناصرى Nasrean (*) لتظل شاهداً على مبدع خلاصه ، على صخور أصنام الحجر ! يضاف إلى ذلك أن علامة الصليب حرف من حروف النقوش الحميرية ، ينظر إليه العرب الأميون على إنه دليل مؤكد ، على أن بلادهم كلها كانت ملكا للنصارى فى الزمن القديم . – وأنا لم أعثر على ما يدل على أساسيات الدين المسيحى فى هذه البلاد ، اللهم إلا إذا كان ذلك فى اسم مكتوب بالحروف اليونانية ، التى رأيتها فيما بعد مسجلة على صخور مَبْرك الناقة ، (Kyp a koc) .

فى القرن العاشر الميلادى كانت الحجر ما تزال قرية صغيرة(**) ؛ إذ كانت ما تزال هناك قرى كثيرة صغيرة فى الأرض المجوفة اعتبارا من هذا وفى اتجاه المدينة المنورة ، بل إن هذه القرى كانت مليئة بالسكان فى زمن الحروب الصليبية : هذه القرى أصبحت الآن مجرد مواقع أثريه يخيم عليها السكون ، بل إن أهل هذه البلاد لا يذكرون أو لا يجىء على بالهم أسماء هذه القرى . وإلى جوار صخور البرج توجد بعض أسوار مهدمة لبستان من بساتين النخيل ، وهذا البستان فيه بقايا لمنازل من الطين ؛ وهذه المنازل لا يزيد عمرها على قرن من الزمان . يضاف إلى ذلك ، أن جد

(*) نسبة إلى مدينة الناصرة . (المترجم)

(**) كانت الحجر من المناطق التى عاشت فيها قبائل ثمود حيث عثر فيها على نقوش ثمودية . وقد حددها بعض الباحثين المحدثين بقرية الخريبة التى تبعد بنحو عشرة أميال عن مدائن صالح . (المراجع)

زيد Zeyd ، الذى كان شيخا للقبيلة ، استقدم من قرية تيماء(*) بعض المتخصصين فى الزراعة حتى يقوموا برى وزراعة ذلك اللهم (الغرين) الخصب ، ويقيمون فى ظل حمايته لهم . هؤلاء المتخصصون انتجوا محاصيل كبيرة ، وكانوا يبيعونها مباشرة للبدو . هؤلاء المستعمرون التيماويون ، بدأت أحوالهم تزدهر وتروج شيئا فشيئا ، بالرغم من أنهم كانوا يدفعون لملاك الأرض ، الذين كانوا من البدو الرحل ، قسما من تلك المحاصيل وذلك الحصاد . واستطاع هؤلاء المتخصصون أن يثروا على نحو مكنهم من شراء آبارهم الخاصة بهم ، كما أشتروا أيضا بعض الأراضى ، عندما عادوا إلى قرية تيماء . سألتهم عن الأسباب التى جعلت هؤلاء المتخصصين يهجرون ذلك المكان الذى ازدهر فيه عمالهم . ورد على زيد قائلا : "إن هذه المنطقة خالية" ، وقد كان يعنى بكلمة 'خالية' أن الأرض كانت منعزلة وخالية وخراب إلى الحد الذى جعلهم لا يستشعرون مطلقا أن حياتهم فى أمن وسلام . وعلى بعد ميل واحد من القلعه فى اتجاه الغرب ، عثرت على جدران كبيرة مبنية من الطين من فوق أساس من الحجر الغشيم وبدون استعمال الملاط ؛ هذه البنايات المهجورة ، كانت جزءا من بيوت ريفية كبيرة نائية ، وهى من قبيل تلك المنازل التى شاهدناها فى منطقة نجد . هذه الجدران المبنية من الطين ليس إلا ، تستطيع الصمود أمام هذا المناخ القاسى أزمانا كثيرة . زد على ذلك ، أن خصوبة لهم (غرين) الحجر معروفة فى كل أنحاء البلاد ؛ قام الكثيرون بالبذر والحصاد فى هذه المنطقة ، وبعد فترة أبلغنى العرب أن هؤلاء الزراع كانوا يجنون عائداً طيبا ، غير أنهم فى موسم الحصاد ، أو إن شئت فقل : فى موسم جمع المحصول ، كان واحد منهم يموت فى كل مرة . من هنا كانوا يظنون أن مكروها سيئا يكمن فى هذه التربة ، التى سبق أن خربتها إرادة الماء ، على نحو يحول ، إلى الأبد ، بينها وبين فلاحتها أو السكنى فيها مرة ثانية . الناس فى الجزيرة العربية يعزون مرض التربة الخبيث فى هذه المنطقة ، إلى شياطين الأرض ، التى يطلقون عليها اسم 'الجان' أو 'أهل الأرض' . من هنا فإن المتخصصين الزراعيين ، فى هذه المنطقة ، درجوا على

(*) تقع قرية تيماء إلى الشمال المغربى من مدائن صالح . وكانت تسكنها إحدى القبائل الثمودية وقد يكون هناك ارتباطا بين اسم تيماء وقبائل بنى تميم . وكانت منطقة نفوذ سكان وقبائل تيماء تمتد من حدود إيدوم غربا إلى الفرات شرقا . (المراجع)

رش دم ذبيحة على كل أرض جديدة يقومون بزراعتها فى هذه المنطقة : وهذا التقليد نفسه يتبع عندما ، يبنون منزلا جديدا ، إذ يقومون برش الدم على أحجاره ، مخافة أن تتعرض حياة العمال للسوء أو الخطر . وقبل مدة لم تتجاوز العشرين عاما قام أحد بدو الفهيج (هؤلاء البدو الذين تقوم قلة قليلة من عائلاتهم ، بزراعة النخيل ، خارج أسوار قرية تيماء) بإنشاء سور حول قطعة من الأرض فى قرية الحجر ، وعلى بعد مسافة قصيرة من القلعة . قام ذلك الرجل بحفر بئر وزرع نخلا وبذر فى الأرض قمحًا . وأعطته الأرض محصولا وفيرا ، وكان يقطينه(*) وبطيخه لا مثيل له بين اليقطين أو البطيخ الذى كان يزرع فى القاع الرملى فى قرية العلا ؛ ولكن مصيره المحتوم عاجله فى منتصف هذه البداية الطيبة ، ومات ذلك الشاب ، وبذلك تخلى عن هذا المشروع الممتاز .

صادفت مناسبة عيد الميلاد مناسبة دينية إسلامية هى الضّحيّة ، التى تقوم خلالها كل أسرة قادرة ، بذبح شاه ، يوزعون جزءا من لحمها على الجيران الفقراء . ومع طلوع الصبح راح الجميع يفتحون نيران بنادقهم فى القلعة وجلسوا جميعا لتناول طعام الإفطار سويا وعلى مائدة واحدة . والبدو الرحل يراعون هذه المناسبة بكل دقة : وهناك رجال فقراء كثيرون ينحرون جملا لآبائهم ، الذين ماتوا مؤخرا .

وصل من تيماء قبل دخول وقت الظهر بعض الصُّنَّاع (أى من سكان الجزيرة العربيه الذين يمتهنون الحدادة) ؛ هؤلاء الحدادون بدءوا يمارسون مهنتهم بالرغم من أن اليوم كان عيداً ؛ هؤلاء الحدادون يصنعون لأنفسهم كيرا فى تجويف داخل الرمل . وواحد من هؤلاء الصناع يقوم بعملية الحدادة ، فى حين يقوم الآخر بدور نافخ الكير ، المصنوع من جلد الحيوان ؛ كان المطلوب من هؤلاء الحدادين ، طلاء الأوعية المصنوعة من النحاس الأحمر بالقصدير (**) استعداد للعام الجديد ، وكان مطلوبا منهم أيضا

(*) اليقطين : ويعرف أيضا بـ (الدباء) ، وهو نوع من الخضار الغنى بالقيمة الغذائية ، ويتبع نبات العائلة القرعية ، وهو منتشر فى كثير من مناطق الجزيرة العربية وماؤه يقطع العطش . واليقطين يطلق عادة على قرع العسل . (المراجع) .

(**) اللفظة العامية المستعملة فى معنى طلاء الأوانى المصنوعة من النحاس الأحمر بالقصدير هى " تبيض النحاس " و " مبيض النحاس " شخصية فولكلورية مازالت موجودة إلى يومنا هذا فى بعض قرى مصر . (المترجم)

إصلاح البنادق المعطلة ، وكذلك إصلاح سيوف الحج نجم ، وذلك من داخل سلاح القلعة : والمعروف أن هذا العجوز الطاعن فى السن ، أو إن شئت فقل : هذا المغربى الشجاع ، كان قد استخدم القسم الأكبر من تلك البنادق والسيوف فى مطاردة الغزو المعادى . هؤلاء الحدادون ، بالرغم من السِّناج الذى يغطى وجوههم هنا ، هم من أعيان تيماء ويسكنون فى منازل جيدة شاهدتها أنا بنفسى فيما بعد . هؤلاء الحدادون الأذكياء والموهوبين يحققون مكاسب مستمرة ، وهم غالبا من أصحاب العقول الراجحة ؛ ونظرا أيضا لأن هؤلاء الحدادون ، يختلطون دوما بالرأى العام ، فهم أكثر تسامحا من الآخرين . وهم يصلون إلى هذا المكان من هذا البلد ، مرة واحدة كل عام ، ويتجولون فى أنحاء قرية العلا يزاولون مهنه الحدادة طوال شهرين من الزمان ؛ وسوف يرحل هؤلاء الحدادون هذه الليلة مع بعض أفراد الحامية إلى القرية ليقايضوا الحكومة دقيقا بأرز ، ويحضرون علفا للبغال . وخطر ببالى أنا الآخر ، زيارة الواحة بصحبتهم .

بدأنا نتحرك عند دخول وقت العصر ، كان حسن والصبى محمد من أفراد القلعة . هذه التوقيتات من النوع الخطر ؛ نظرا لأن الجهاد كان معلنا فى الوقت الراهن ضد قسم من العالم المسيحى(*) . ففى دمشق ، على سبيل المثال ، كنا نخشى منذ زمن طويل قيام إنتفاضة ساحقة ونصب مذبحة عامة للنصارى ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ساعى البريد يحتمل أن يجىء إلينا بأخبار مزعجة ، ومن حسن الحظ أننى كنت قد رحلت عن الأغا ونحن أصدقاء ، ذلك الأغا الذى تابعنى بالكلمات التالية : "خليل ، بالله ، رجل من الذين تربوا بيننا ." وذكرّت الحاج نجم ، وأيدينا تتشابك ، أننا كنا جيرانا فى الغرب . "ورد الرجل ، نعم ، والله جيران ." وانضم إلينا الصُّنَّاع وجماعة من نساء الفهجات اللاتى كن ذاهبات إلى المدينة ليبعن تلك الأشياء التافهة التى عثرن عليها على أرض مخيم الحج ، أو كما يقول حسن (لأن العرب جميعا سليطو الألسنه) ، لتجعلن من أنفسهن تجارة غير شريفة . من بين هؤلاء النسوة كانت هناك كثافة Kathâfa، كريمة دولان ، التى تقدمت جماعة النساء ، وهى تحمل بندقية والدها على كتفها ؛

(*) كانت الدولة العثمانية قد أعلنت الجهاد فى عام ١٨٧٧ ضد روسيا التى أعلنت عليها الحرب فيما عرف بالحرب الروسية التركية . (المراجع)

والسبب فى ذلك أن الطريق بطوله إلى قرية العلا ، مليئ من ناحية بالصخور الوعره ، وبالمضايق ، فيما قبل القرية بمسافة قصيرة ، ويحاصر الحباليص ، أى عصابات اللصوص القادمة من تهامة ، من الناحية الأخرى تلك الصخور والمضايق ؛ وغالبية هؤلاء اللصوص من بدو الحويطات . وحكى لنا الحاج نجم كيف فتحوا النار عليه عندما كان فى المضيق ، وكيف أن الطلقة دوت مارقة من جوار طربوشه الأحمر ، وكيف مرت طلقة أخرى من جوار خده ثم اصطدمت بالصخره القريبة التى كانت تقع إلى الخلف منه . وفى العام الماضى حدث هجوم على محمد على بينما كان ذاهبا بصحبة بعض أفراد الحامية إلى قرية العلا . فقد هجم عليهم البدو الأعداء ، الذين كانوا يختفون فى دغل من أشجار الإثل ، وهم يصوبون إليهم رماحهم ، ويقفزون ويصيحون ويصرخون . قال حسن القوى ، إننا إذا ما هوجمنا فسوف نحتمى بجانب الجبل ؛ – والعرب يظنون ، عندما يستفيدون من الأرض أنهم أصبحوا ، إلى حد ما ، فى مأمن من الخطر ، وأن ذلك يمكنهم من فتح نيرانهم على أعدائهم .

لما كان حسن ومحمد يسيران وهما راكبان البغلين ، بأقصى سرعة ممكنة ، طلبت منهما أن يبطئا السرعة قليلا ؛ يضاف إلى ذلك أن الأغا كان قد أصدر أوامره أن يكون ركوب الدواب بالتناوب ، ولما لم تكن صحتى على ما يرام تماما ، فقد وجدت من الصعب علىّ مواصلة الطريق كله معهم سيرا على الأقدام . قال حسن ، نحن لن نجرؤ على تجاوز المضايق بعد غروب الشمس ؛ كان الوقت متأخرا بالفعل ، وأنا إذا لم أستطع مواصلة السير معه فسوف يخلفنى وراءه ، مثلما قد يتخلى– بحق الإله الحى – عن والده الذى أنجبه ؛ وإذا ما حدث لى مكروه فسوف يقول إن اللصوص هاجمونى ، وأننى سقطت قتيلا فى ذلك الاشتباك . ثم صاح قائلا : هل أنا الرجل الذى يتعين عليه أن يطيع أوامر الأغا ! وهنا أمسكت بسرج البغل وواصلت السير معهم ، إلى أن تجاوزنا منتصف الطريق ، وعندما وجد حسن أننى لا أقوى على السير أكثر من ذلك ، طلب من العسكرى أن ينزل من فوق الدابة قائلا لى : "ذلك البدوى" ، ثم أركبونى بعد ذلك فوق سرج البغل ، وسألت الصُنَّاع قائلا :" أين تسكنون فى قرية العلا ، هل تسكنون فى منزل الشيخ ؟" وأجابونى قائلين : "المكان الذى نحن ذاهبين إليه ليس فيه من الكرم شىء ، أهل قرية العلا كلاب ."– هؤلاء الناس لا يراعون ، فى الأراضى

الحجازية المنخفضة ، تقاليد وأعراف الكرم الأصيل الذى يشيع فى نجد أو إن شئت فقل : فى الجزء المرتفع من الجزيرة العربية .

كانت بقية الطريق تسير بحذاء الركن الجنوبى الشرقى من الحرَّة ، وخلال متاهة من صخور الحجر الرملى ، يطلقون عليها اسم 'الأخمه' ، التى هى صخور نحتية من الجبل نفسه . كان طريق الحج السابق يمر من هذه المنطقة ، وكان يمر أيضا بقرية العلا ؛ وحدث منذ سنوات قليلة أن قام أحد باشوات الحج بقيادة قافله الحج ، من هذا الطريق ، إلى بير الغنيم el-Ghrannem Bîr : – ثم جرى التخلى بعد ذلك عن هذا الطريق لخطورته نظراً لأنه كانت تحيط به الصخور والممرات الضيقة . وقاع هذا الطريق هو فى معظمه من الرمل الكثيف ؛ وفى الأماكن المنخفضة تحت الصخور تنمو أشجار الإثل ، التى لها مذاق مالح ، وفيها أيضا الكثير من العشب والحشائش الخشنة . وعلى بعد أربعة أو خمسة أميال من العلا ، وصلنا إلى (وهذا يحدث دوما عند القدوم من الحجر) بعض الآبار الصغيرة القديمة التى يصل عمقها إلى ثلاثة قامات ، ويطلقون عليها اسم 'الأثيب' el-Atheyb، ومياهها لا تصلح للشرب . ولما كنا نشعر بالعطش بفعل شمس الشتاء ، توقفنا ، ونزل الصبى محمد ، كما هى العادة فى الشرق ، ليجلب لنا شيئا من الماء . وعلى مقربة من هنا يبدأ مضيق العلا ، فيما بين القمم الصخرية المرتفعة المكونة من الحجر الرملى ، والتى يطلقون عليها اسم معلق Moallak الحميدى el-Hameydy، من بين أجزاء الحرّة ، والجروف العالية من ذلك الحاجز البرى المكون من الجبال المنخفضة التى تغلق سهل مدائن صالح من ناحية الجنوب ؛ والناس هنا يطلقون على تلك الجروف العالية اسم الحذيبة el-Hûtheba، وجبل Jebel روم Rumm والمعتدل . Moâtidal يوجد أسفل هذا الجانب الأيسر من المضيق حائط عريض من أكوام الحجارة المختلطة بالغرين ، والواضح أن هذه أرض أثرية لمدينة كانت بيوتها مبنية من الأحجار ، التى تهاوت وسقطت مختلطة بالطين الذى كان يمسكها إلى بعضها . هذا هو الموقع الذى يطلقون عليه اسم الخريبة el-Khreby، الذى رأيت فى وسطه الخزان الصخرى الشهير (الصورة رقم ٢٩) ، الذى يقولون له : نِّجار أو جُرن ، وشكله يشبه شكل تلك الخزانات الأصغر منه التى سبق لنا أن رأيناها فى سهل الحجر ، والتى يطلقون عليها اسم "إناء حلب ناقة النبى صالح ." وعندما غربت الشمس ، راح

رفاقى يعجلون بالمرور من المضيق . شاهدت الأبواب كما لو كانت محفورة فى تلك الصخور ، بدت لى كما لو كانت شكلاً من أشكال غرف الدفن . وقد أرانى رفاقى فوق القمة الصخرية ، أى فى القلعة ، ذروة مربعة الشكل ، يعتقدون أن بداخلها كنز عظيم . قال الحاج حسن : "يا خليل ! أليس لديك طريقة يمكن الحصول بها على تلك الثروة ، وبذلك تأخذ نصفها لك ونصف لنا ؟ قسمها بهذا الشكل ، فنحن أصدقاء لك ."

عند هذا الحد شاهدنا النخيل الموجود على أطراف القرية أمامنا ؛ وهذه هى سلسلة من الحفر ، وفتحات الهواء ، لواحد من المجارى المائية ، يمتد تحت الأرض متجها إلى الواحة ،- وهذا مجرد عمل ، من قبيل الأعمال التى من هذا القبيل ، التى قام بها سكان الجزيرة العربية القدامى . ثم عبرنا حوض ذلك المجرى الذى ينحدر نازلا من مدائن صالح ، والذى لم يحدث مطلقا أن امتلأ بمياه المطر ، وهنا يتجه مجرى السيل ، من تحتنا إلى وادى الحجاز الكبير الذى يقولون له وادى Wady الحمث el-Humth؛ هذا الوادى يسمى فى هذه المنطقه باسم وادى Wadyالجزّل . el-Jizzl وهنا سمعنا على الفور إعلانهم غير المتحضر عن عيدهم ، وهذا الإعلان عبارة عن إطلاق لطلقات البنادق ودق وضجيج للطبول . ولما كانت القرية لم تظهر بعد أمامنا ، فقد تحول رفاقى نحوى ليسألونى عن مدى جرأتى على الدخول إلى تلك القرية ، وهنا أجبتهم بطريقتهم ، وقلت : "أوكلت أمرى لله ." يقول الأعراب Aarab، إن العلاونة (*) تعتمل فى داخلهم روح الاستبداد وهم بين نخيلهم الخاص بهم ، ولكن قلوبهم ضعيفة عندما يكونون فى أرض الميدان . واقع الأمر أن أعراب الحضر ، الذين لا يتساهلون فى الدين ، يكونون مصدرا للخطر عندما يغتاظون ، وعندما تستثار حميتهم ويكون السلاح فى أيديهم . وهنا صدر صوت من بين أفراد جماعتنا ، صوت امرأة حمقاء كانت تصيح قائله : "أجهزوا على هذا الكافر !" وهنا كان يمكن إنهاء حياتى بطلقة طائشة . أسرَّ حسن لى بذلك ؛ كان حسن فى ذلك اليوم مستاءًا أو على غير وفاق مع الأغا ، ولم يحدث أن وقف ذلك الحسن فى صفى ، فى أى نزاع يخصنى أو يتعلق بى ، ولكنه أكتشف بنفسه أن ذلك كان أمرا أعوجًا . وعندما وصلنا أمام بوابة القرية ، فى ميدان

(*) المقصود " بالعلاونة " هنا هم " أهل قرية " العلا " (المترجم)

واسع ، يقع على جانب الحرَّة ، حيث يوجد جمع كبير من القرويين لقضاء العطلة ، تقدم أحد أفراد الجماعة ، ليربط بغله الأبيض ، وفاء لدين قديم للحاج نجم . وهنا هاج المغربى وماج ، ولم يستطع التحكم فى نفسه ؛ وهنا تكاثر عليه العلاونة . وهنا شحب لون وجه حسن فى ضوء الغسق ، وهنا انصرف المتماحكان مع واحد من الأوباش ، ومعهم البغل ، لأداء اليمين أمام قاضى القرية .

رحت أتجول مع الصبى محمد ، فى شوارع القرية الكئيبة ، إلى أن وصلنا إلى منزل شيخ قرية العلا واسمه ضاهر Dâhir؛ وعندما خرج الشيخ للقائى ، دهشت فى ذلك الضوء الخافت ، عندما وجدت أن فيه شيء من الزنوجة ، فضلا عن اندهاشى أيضا عندما سمعت صوته الإفريقى . اقتادنى ضاهر إلى الجزء العلوى من منزله ، والذى هو بمثابة المسكن الذى يعيشون فيه ، نظرا لرطوبة الأرض فى واحات الحجاز . وهنا تلى الصبى محمد على ضاهر الرسالة التى حمَّلها له الأغا ، ثم تناول الصبى محمد حبله المتين ولفه حول عنق ضاهر قائلا : "هذا هو أمر محمد على ، وأنه ينبغى أن يكون مسئولا عنى . حياة الساميين مليئة بالإشارات وعلامات من هذا القبيل ، ولها أيضا دلالاتها القيمة . والمسيحى سرعان ما يبتعد عن الطبيعة الخاطئة القديمة لينخرط فى درب حياة جديدة ؛ فهو يتناول الخبز والملح مع يسوع على مائدة الرب ؛ والإشارات التى من هذا القبيل يقال إنها ضرورية للخلاص . ضاهر هذا ، الذى له شفتان إثيوبيتان (حبشيتان) ، وشعر حبشى أيضا ، وكذلك عينان حبشيتان ، ولكن عوده مثل العود العربى ، يتفاخر بأنه شيخ تمتد سلالته النسبية إلى قبيلة حرب ، وهو يقول : إنه تولى الشياخة بعد والده ، طبقا لتقاليد الشياخة البدوية ، أى عن طريق الوراثة . ومبلغ علمى أن عددًا قليلا جدًا من أهل قرية العلا ، هم الذين لا يجرى فى عروقهم خليط من الدم الإفريقى ؛ ومع ذلك ، يذكر أصحاب الدم المخلط هذه الحقيقة ، ويعزون سلالتهم النسبية إلى المستعمرين المغاربة ، وإلى قبيلة جهينة ، وقبيله حرب ، وإلى بنى صخر أيضا : ولكن المغاربة ربما يكونون هم أيضا زنوج مغاربة ، نظرا لأن اسم القبيلة العربية أو الأمة يعنى كلا من الحرية والقيد . والبدو الرحل يرون أن تلك الوجوه القذرة والملونة إنما هى نتاج للمناخ الذى يسود الوادى الذى يعيشون فيه . صحيح أن هناك مستوطنين خُلَّص من قبيلة حرب ، يعيشون فى الواحات الكثيرة الحارة ، التى

تقع فى المنطقة ما بين الحرمين ، ولون بشرتهم فى هذه المناطق يميل إلى الاسوداد ، شأنهم شأن الأفارقه تماما ، ولكن أصولهم عربية بحق .

مسألة إعادة استيطان الأرض وتأسيس قرية العلا يرجع إلى مجموعة تقدر بأربعين فردا من الدراويش البربر . كان هؤلاء الدراويش يتجولون على طريق الحج السورى ، بصحبة إمامهم الدينى ، قادمين من مكة والمدينة (المنورة) ، فأعجبهم هذا المكان المنعزل ، الذى عثروا فيه على بعض الأطلال الأثرية . وطلب الإمام من أتباعه انتظاره فى ذلك المكان ، إلى أن يعود بعد أداء الصلاة فى القدس ." ردوا عليه قائلين : كيف لنا فى هذا المكان الصحروای ، بتحمل الحياة ، وليس فى هذا المكان ماءًا نشربه ؟ ". وهنا ضرب القديس الرمل بعصاه ، فخرج منه ينبوع من الماء ؛ هذا هو الغدير ذو الماء الدافئ الذى يروى قريتهم ويسقيها : كما ضربت عصا يعقوب جذورها متحولة أيضا إلى نخلة .

أقام ضاهر لى وليمة فاخره بشيء قليل من الأرز المسلوق ؛ وهذا بحد ذاته طعام متواضع من وجهه نظر البدو الرحل ليقدم فى وجبة العشاء لغريب من الغرباء : كما قدم لنا ضاهر أيضا قهوة من بن ضاعت نكهته كلها ، وبوجه كالح ، رجانى أن أقول له : إن كان ذلك البن صالح للشرب أم لا . ونحن نلاحظ فى حياة العرب أن المعوزين هم الأكثر كرما . والجوع يلازم الناس فى الصحراء ، من هنا فمن شهامة الرجال ونبلهم وضع الطعام وتقديمه لعابرى السبيل ، كان شيخ قرية العلى يجلس مرتديا عباءة (بشتا) قرمزى اللون ؛ والسبب فى ذلك ، أن من تقاليد الإمبراطورية العثمانية ، أن تعطى كل شيخ من الشيوخ بشتا أو إن شئت فقل عباءة من هذا القبيل ، باعتبار أن ذلك رمزا من رموز الحكومة . كان شيخ قرية العلا رجلا فطنا وذكيا ، ومسالمًا جداً فى كلامه وفى أحاديثه ؛ استطاع ضاهر أن يستشف من كلامى نوعية البلد الذى جئت منه . وهنا إنطلق فجأة صوت المؤذن قادما من مسجد القرية ، المجاور لنا ، وهنا بدأ شيخ العلا ، بقلب سليم ، يناسب عقيدة الإسلام ، يردد وراء المؤذن الكلمات نفسها التى كان يقولها نبى العرب ﷺ "الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ." وهنا تحول ضاهر ناحيتى ليراقبنى ، ليرى إن كنت مسلما أم لا ، وأننى إذا كنت مسلما فإن قلبى يتعين عليه أن يرقص على نغمات الزمارً : وعندما وقف

على برودى إزاء هذا الموضوع ، أكد له ذلك ما سبق أن توصل إليه ؛ والسبب فى ذلك أن ، أى مسلم سواء أكان صالحا أم طالحا ، لابد أن يتعلق قلبه بدين الرسول ، ولابد أيضا أن يصلى بإخلاص . وهنا قال الشيخ ضاهر : "إذا لم تكن مسلما ، فقل لى ماذا تكون ، يا خليل ، وأنا مثيل والدك ، أليست هذه قرية من قرى المسلمين ؟" كان يقول إن برية البدو ليست موجودة فى هذه القرية ، ولكن الحياة فيها حياة مسالمة متحضرة تقوم على الخوف من الله ، فى ظل الدين الحقيقى .

خرج الشيخ ضاهر لأداء الصلاة فى المسجد ؛ وبعد أن غاب برهة قصيرة ، عاد هذا الرجل الكبير ليجد زوجته الشابة ، وأم ابنيه الصغيرين ، جالسة فى مكانه أمام وجار القهوة ، وكلها شغف فى التحدث إلى رجل غريب ، وراح الرجل يوبخها كما لو كانت قد نسيت أدبها وتواضعها قائلا : "يا امرأة ، أنت تسببين لى مشكله كل يوم ، وأنا سوف أُسرِّحك !" ثم طلب منها أن تغرب عن المكان ، وتنتقل إلى ركن مظلم من أركان الغرفة ؛ وبهذه الطريقة يجرى حرمان زوجاتهم المسكينات من الدفئ ومن الضوء الذى يكون فى المقهى (غرفة القهوة) ، بأن يجلس الزوج وحده مع أصدقائه ، فى منازلهم ، هذا إن لم يكن أفراد تلك الصحبة من أقاربهم المقربين . فى نجد ، كما هو الحال فى خيمة البدو الرُّحل ، يكون هناك مكان للنساء . ومبلغ علمى أن الناس هنا لا يتزوج أحد منهم بأكثر من زوجة ، إلا فئة قليلة جداً منهم ، يضاف إلى ذلك أن كل هؤلاء الذين تعرفت عليهم هنا كانوا عبارة عن زوج وزوجة رقيقا الحال ، وعندما سألنى ضاهر بعد ذلك ، أجبته : "آمل ألا يسبب ذلك مشكلة لى عندما تعرف أنى واحد من الإنجليز ، الذين هم حلفاء للسلطان ، كما تعلم ، وأن هؤلاء الإنجليز هم نصارى ، وأنا بدورى نصرانى ، فهل هذا يغضبك أو يسىء إليك ؟ هناك نصارى كثيرون فى بلاد السلطان إلى حد أن اسطنبول تكاد تكون مليئة بالمسيحيين ". قال ضاهر : "يا خليل ! أرح نفسك هنا بلاعناء هذه الليلة ، وسوف نتبين ما يجب أن نفعله فى الغد ."

طلع النهار ، وأنا أتمشى فى شرفة المنزل ، وسمعت الأطفال وهم يصيحون من المنزل المجاور : "ها هو ، ذلك الذى لا يصلى ولا يصوم ،- إنه هو ." وهنا عرفت أن بعض الألسنة السليطة من الزمرة التى رافقتنا من الحجر ، قد أفشت سرى لهؤلاء الناس . وعندما سمعت ذلك الصياح ، كان من الأفضل لى الخروج من القرية ، نظرا

لأن الناس كرروا علىَّ مرارًا حول وجار القهوة فى القلعة أن هؤلاء القرويين يتعصبون جداً لدينهم وأنهم على استعداد لقتلى . كان الشيخ ضاهر ، خارج المنزل فى ذلك الوقت ؛ ونظرا لأن حسن كان قد عاد إلى المنزل ، بعد أن أمضى الليل فى بيت القاضى ، فقد رافقته وخرجت معه من المنزل ، وواصلنا مسيرنا خلال الطرق الضيقة قاصدين مقهى القاضى ، وفى ذلك المقهى أفسح شاربو القهوة ، عن طيب خاطر ، المكان أمام الغريب ، وهنا تقدم من يصب القهوة ، وأعطانى فنجال الكرم ، جلسوا جميعا وقد علت وجوههم نظرات العلاونة الخالصة ، كما لو كانو يعانون من أعراض الحمى فى ظل مناخ بشع وفظيع ؛ وهذه هى روح أهل الحجاز ، وذلك على العكس من روح الشهامة والخفة التى يتمتع بها البدو الرُّحل ، أو إن شئت فقل : منطقة نجد من الجزيرة العربية . كان الشباب الصغار فى الخارج متعطرين ، ويتجولون هنا وهناك فى الشوارع بمناسبة يوم العيد ، ويستمر ذلك الاحتفال ثلاثة أيام ؛ وهاهى أظافرهم وكفوف أيديهم وقد خضبوها بالحناء الصفراء . وهذه من وجهه نظرهم شىء يميز الشبان الصغار ؛ والبعض من هؤلاء الشبان كانوا يصففون شعورهم ، التى تشبه شعور الغنم ، على شكل ضفائر أو جدائل صغيرة كثيرة ، ليست مثل جدائل البدو الرحل ، وإنما على الطريقة الحبشية .

شوارع البلده ضيقة جداً ولكنها فى منتهى النظافة ، غير أنها تكاد تكون مظلمة بسبب ارتفاع المبانى ، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك متسع فى الأنوار الأرضية ، لهوائها الساكن ، ولذلك يلجأ السكان إلى الغرف العلوية طلبا لتجدد الهواء . وعند كل باب من أبواب المنازل توجد مصطبة من الطين مبنية بالطريقة العربية ، حيث يجلس عليها أصحاب المنازل هم والمسافرون ، جلسة ودية يشربون خلالها الدخان (التبغ) . والناس هنا لا يرمون النفايات فى الشوارع ، يضاف إلى ذلك أن الكلاب غير مسموح لها بدخول المكان ، الذى أحسن بناؤه فضلا عن كونه أيضا أكثر انسجاما من أية قرية سورية أخرى . وقرية العلا ليس فيها أسواق مفتوحة ، ولكن البضائع الصغيرة اللازمة للاستعمال اليومى يجرى بيعها بعد شروق الشمس على نواصى الشوارع ؛ يضاف إلى ذلك أن القصابين يبيعون لحم الضأن ولحم الماعز فى فترة العصر خارج أسوار القرية : وكل فرد من أفراد قرية العلى يعد تاجراً فيما يتعلق بالفواكه والثمار التى تنتجها

أرضه ، أى فى وطنه وداخل منزله . وهذا هو حسن ، عندما عدنا للسير من جديد فى الشارع ، بدأ يصادف بعضا من خصومه القدامى ، وراح يتحداهم ويتصايح معهم ؛ هذا يعنى أن قلبه الكبير بدأ يتورم داخل صدره المغربى إلى حد أن أحداً من العلاونة (أى أهل قرية العلا) لم يقو على حتى مجرد وضع يده على البغل الأبيض "إستهدافا لتعطيل خدمة السلطان ." جلست وسط الجالسين على المصطبة ؛ كان الناس مسالمين ويتكلمون معى بطريقة ودية ، ولم يوبخنى أو يؤنبنى أى أحد منهم . وهنا حضر ولد ضاهر ليدعونى لتناول طعام الإفطار ، وبينما كنت فى طريقى لتناول الإفطار شاهدت نقشا حميريا منحوتًا نحتا جيداً ، على شكل حروف بارزة ، على شباك واحدة من الغرف العلوية ، وبينما وقفت لنسخ ، أو لنقل ذلك النقش ، لم يؤنبنى أحد أو يعترض على . وهنا اصطحبنى ضاهر بعد ذلك إلى مقهاه (قهوته) ، نظرا لأن كل شيخ من شيوخ القرى له قهوة من هذا القبيل ، يجرى خلالها تقديم القهوة فى أوقات معينة من النهار . المقاهى هنا عبارة عن غرف فى الدور الأرضى ، وغالبا ما تكون تحت الدرج (السلم) الذى يكون سكن المضيف فوقه .

البيوت كلها هنا مبنية من الحجر الغشيم ، الذى جرى جلبه من الخربة ، ويجرى وضعه فى الغرين حتى يقوم بدور الملاط . وقرية العلا ، واحدة من القرى المسلمة المبنية من الحجر ، وبطريقة القدماء ، وبالرغم من أن العرب المسلمين يكادوا يكونون من بناة الطين ؛- وليس مرد ذلك إلى أن الغرين لن يمسك بالصخور . والعرب يصنعون العوارض الخشبية من شجر الإثل (واحده إثله) ، أو إن شئت فقل تلك الأشجار العالية التى يقال لها أشجار الطرفاء ، كما يصنعون تلك العوارض أيضا من فلوق النخيل ، وهم يصنعون الأبواب أيضا من ألواح النخيل بعد تسويتها بالبلطة تسوية بدائية . وفى وسط كل باب من أبواب المنازل توجد علامة (لم يستطع أى أحد منهم أن يشرح لى معناها) تكون مدهونة دوما باللون الأحمر ، أو قد تكون مسوَّدة بلون الفحم النباتى ؛ ويحتمل أن تكون تلك العلامة عبارة عن وسم من وسوم أجداد العرب الرحل فى هذه القريه . وفوق تلك العلامة يكتبون دوما آيه من آيات القرآن . أما مزلاج الباب ، وكما هو الحال فى الأماكن العربية كلها ، فهو عبارة عن قفل من الخشب . وترباس الباب يجرى حجزه عن طريق أسنان صغيره تسقط من أعلى لتدخل فى ثقوب فى

الأسفل ، ومفتاح هذا القفل يصنع من الخشب ، والبعض قد يصنعون ذلك المفتاح من المعدن ، بحيث تكون له أسنان تناسب ثقوب القفل : والمفتاح يوضع فى القفل من الأسفل ، ثم يجرى إدخال الأسنان فى الفتحات ثم يجرى بعد ذلك سحب اللسان فينفتح القفل . دخلت علينا جماعة من الناس ، أثناء رنين هون طحن البن ؛ كانت تلك الجماعة من أولئك الذين يجلسون على المصاطب فى الشارع لا شغل أو مشغلة . لم يغير أى واحد منهم سلوكه أو تصرفاته عندما شاهدوا المسيحى بينهم ، كانوا يتسامرون وتمر عليهم فناجيل القهوة ؛ ولكنهم بعد تناول القهوة قالو : "يا خليل ، ها أنت هنا آمن فى بلدة من بلاد الإسلام . الصحبة فى قريه العلا طيبة ، كما ترى ، وكل ما يحتاجه المرء يجده فى متناوله ؛ أليس من المبهج أن تعيش هنا ، بدلا من السكن مع هؤلاء العسكر فى الحجر ؟" كانوا يتكلمون بهذه الطريقة نظرا لأنه لا يوجد أحد ليست لديه فكره سيئة عن هذه القرية . هؤلاء البدو الرحل يشتكون ، كما هو الحال فى أماكن الاستقرار ، من الوخم ، أو إن شئت فقل : القذارة أو الدنس ، أو النفايات (بالرغم من التخلص منها خارج أسوار القرية) ، ومن الهواء الساكن ، كما كانوا يشتكون أيضا من رائحة العفن (الذى له رائحة الكبريت) التى كانت تفوح من ماء الغدير ، الذى لو شربوا من مائه حتى الارتواء ، فإنهم قد يخاطرون بالإصابة بحمى الواحة .

كان من المفترض أن أعود بصحبه حسن إلى مدائن صالح ، التى كنت أتطلع إلى العثور على طريقة من الطرق التى تعيننى على تقشير الواجهات العالية ؛ يضاف إلى ذلك أن الأغا سبق أن وعدنى بإعطائى عمود البئر القديم فى القلعة ، والذى يحتمل أن استعمله سلما لذلك الغرض . كان مفترضا أيضا أن استشعر الراحة الكبيرة والمتعة الكبيرة أيضا من مسألة بقائى لأيام قليلة مقبلة ، وتمضية تلك الأيام فى حوار ممتع فى بيارات الليمون بقرية العلا .- ولكن شاءت الأقدار أن يحزم حسن أغراضه ويرحل عن القرية . وعندما حمل رفاق القهوة متاعى إلى البوابة ، شاهدنا حسنا بالفعل وهو على بعد مسافة كبيرة منا : ثم حضر الصبى محمد ، ومعه عذره ، من بعدى . حمَّل القرويون حقائبى على البغل الذى كان محمد يقوده ، ولكنه ألقى بالحقائب على الأرض مرة ثانية ، وعندما أصدرت على تحميل الحقائب على البغل وجه هذا الصبى الجبان ، بندقيته إلى صدرى . وهنا طلب منى ضاهر ، عدم التعويل على ذلك الصبى التافه ،

وأنه سيقوم بنفسه بتوصيلى إلى القلعة ؛ ولما كان أفراد الحامية يحتقرون العلاونة ولا يقيمون لهم وزنا ، فإن العلاونة لا يضمرون الخير "لأنفار" الحامية . اتجهنا بعد ذلك إلى المنزل ، وهنا قال لى الشيخ ضاهر : "لقد نشأت بيننا الآن أخوّة ، وأصبحت ، يا خليل ، فى منزلة ولدى ."

وبينما كنا نجلس على المصاطب راحوا يسألونى بطريقه ودية ، وطبقا لنظرتهم إلى العالم عن أمور مثل : "ما مقدار الضريبة ، التى يتعين عليكم ، أنتم أيها النصارى ، أن تدفعوها للسلطان ،" وأجبتهم على ذلك السؤال قائلا : "سيدتنا جلالة الملكة ، إمبراطورة الهند هى أعظم سلاطين الإسلام (*) . وهنا سألونى : أليست الهند أرضا من أراضى المسلمين ؟- وا أسفاه ! راح الإسلام ! إذن ، ما هى ضريبة الرأس التى يدفعها المسلمون للحكام النصارى ، يا خليل ؟" وعندما أجبتهم بأن رعايا السلطانة جميعهم يتمتعون بحقوق مدنية متساوية ، بغض النظر عن جنسهم ، أو دينهم ، وجدوا أن ذلك أمرا طيبا ، نظرا لأن الأمر بهذه الطريقة سيكون لصالح المسلمين : لكن ، أستحلفك بالله ! أن تقول لنا ما الذى جاء بك إلى هنا ؟" - "لم إجيئ إلى هنا إلا لزيارة الحجر ." وأخذنى العجب أن أرى شعبا يقرأ القرآن ، وقد نشأ فى هذا الوادى المنعزل من الجبال الجرداء وسط هذه الصحراء الشاسعة ، يتصرف على هذا النحو ، وله مثل هذا الفهم فيما يتعلق بالمسائل المدنية ، ولكنهم ليسوا جميعا على هذه الشاكلة ؛ والأطفال هنا لا يتعلمون إلا من آبائهم : كل ما هنالك عبارة عن مدرستين أو ثلاث مدارس تتخذ من المساجد مقرا لها ، فى شهر رمضان . فى هذا البلد البدائى ، الساذج ، البسيط ، بعض أهل قرية العلا (التى يطلقون عليها فى معظم الأحيان اسم المدينة) من العلماء الكبار فى مجال القرآن . والنطق فى هذه المدينة مُسَطَّح مثل طبيعة هؤلاء البشر ، وهم ينطقون كلمة 'الماء' el-mà على إنها كلمة 'مىّ' me، مثل الكلمة الدالة على ثغاء الغنم . قال لى البعض منهم : "لغتنا هنا ساذجة وبسيطة ،

(*) الملكة فيكتوريا وصلت إلى عرش بريطانيا وأيرلندا فى عام ١٨٣٧ وفى عام ١٨٧٦ أضافت إلى لقبها لقب إمبراطورة الهند بعد أن نجحت بريطانيا فى السيطرة على معظم الأقاليم الهندية وتوفيت فى عام ١٩٠١ بعد حكم دام ٦٤ عاما . (المراجع)

نحن نتكلم لغة البدو ." ومبلغ علمي أن عربية الحجاز ، هي التي سمعتها فيما بعد على لسان بدو قبيلة حرب في المدينة المنورة . وهم يرون أن قرية العلا هي "بداية الحجاز" .

وأهل العلا مخلصون للدين ، ومعتدلون ، ومتأملون ، وسياسيون أكثر منهم متشددين ، وكان محمد ﷺ على هذه الشاكلة ؛ ولكن أهل نجد ، من أصحاب الدم البدوي ، حادي الطبع ومتسرعين في تشددهم ، هؤلاء الحضر (سواء أكانوا منحدرين عنهم أم لا) يتبعون المذهب المغربي ، أي أنهم من المالكيَّة . وقد رأيت الكثيرين ، ومن بينهم الشيخ ضاهر ، يدققون ويمتنعون عن شرب الدخان ، أكثر من كونهم رجال جديرين بالمنازلة أو إن شئت فقل : أنداداً .

قرية العلا لم يحدث أن أُخضعت على الإطلاق ؛ ومع ذلك فإن هؤلاء القرويين يفرضون على أنفسهم ، وعلى تمورهم ، وعلى حنطتهم وقمحهم ضريبة ، كل عام ، ويقدمونها عن طيب خاطر "للنبي" أي لمسجد الرسول في المدينة ، وأهل العلا راضون ومقتنعون بما يقال عن إنهم أصدقاء للإمبراطورية العثمانية . وذات مرة ، في أيام الحكم الوهابي القوي ، أي منذ حوالي خمسين عاما مضت ، جاء بن سعود ومعه جماعته وقطعة واحدة من المدفعية واحتل قرية العلا . وبقوا فترة من الوقت أمام تلك القرية ، ولم يستطيعوا مطلقا التعجيل باحتلال القرية ، نظرا لأنهم لم يفلحوا في إطلاق النار من ذلك المدفع : هذا هو ما قاله الوهابيون ، "هذه إرادة الله ؛ إنتبهوا ! هيا بنا نغرب ونرحل عن هذا المكان ، لأن بقاءنا أمام قرية العلا لا جدوى منه ، ولا طائل من ورائه !" – ثم أداروا ظهورهم للقرية ، يقول البدو : "العلاونة واثقون من أنفسهم داخل مزارعهم ، ولكنهم خارج تلك المزارع يكونون أقل من النساء ." معروف أن واحة وادي قرّة Kurra Wady تبعد عن العلا حوالي ثلث ميل (أنظر الصورة رقم ١٣) . وادي قرَّة (قورة Kora) هو عبارة عن تلك الأرض المجوفة التي تبدأ من العلا إلى المدينة المنورة ، ويطلق الناس عليها هنا اسم وادي Wady الديدبان Deydibbàn؛ بالرغم من أن ذلك ليس واديا بمعنى الكلمة . إنه عباره عن مجاري مائية جافة لواديين ينحدران ، ويلتقيان عند المنتصف ؛ وهما على وجه التحديد وادي Wadyجزّل Jizzl، الذي ينحدر قادما من

تلك المناطق الشمالية ووادى الحمض Humth الذى ينحدر نازلا إلى المدينة قادما من الحنكية Henakîeh، ليمر من بين جبل أحد أو إن شئت فقل : جبل حمزة ومدينة الرسول .

يعيش العلاونة ، فى هدوء ، فى ظل حكم شيوخهم . وهذا هو الشيخ ضاهر ، حصل على المشيخه عن طريق الوراثة ؛ وهذا هو أيضا القاضى موسى الذى لا تقل سلطته أو قدره عن سلطة وقدر الشيخ ضاهر ؛ ومنصب القاضى ، هنا أيضا ، يكون عن طريق الوراثة ، ويتمثل عمله فى الحكم فى الخلافات التى تنشب بين العرب ، القاضى موسى ، الذى يستطيع القراءة ، كان محاميا شرعيا ؛ وقضاة القرية (وهذا أمر عجيب) لا يتعاملون مع موضوعات الرشاوى أو إساءه استعمال العدالة ، وإنما يتقاضون أتعابا صغيره نظير العمل الذى يقومون به . كانت روح صريحة وعادلة على نحو لا يشيع بين العرب ؛ كان بدو القبائل المترحلة ، يلجأون إلى موسى للبت فى خلافاتهم طبقا "لسيف الله"(*) ؛ هذا بالرغم من أن هؤلاء البدو لهم قضاتهم ومحكميهم وشيوخهم الخاصين بهم فى مضاربهم ، طبقا لتقاليد الصحراء وأعرافها . والقاضى فى مثل هذا المنصب هو الذى يحدد الحق فى الجرائم الصغرى ، وكذلك جرائم الدم (القتل) ، أو إن شئت فقل : الدِّيَّة . القضاة يعيشون هنا فى هدوء ، ويحيط بهم البدو الأعداء من كل جانب ؛ والجريمة الإنسانية يصعب أن تنشأ أو تتكاثر فى مثل هذه التربة التى تنعم بالولاء والطاعة . والشباب فى ظل هذا المناخ القاسى يثوب إلى رشده ، ويندر أن تجد من بين هؤلاء الشباب من يفقد هدوءه بسرعة واندفاع . وعندما تحدث جريمة قتل أو أيه جريمه أخرى ، فإن القاتل وأقرب أقاربه يتعين عليهم الهرب من المكان . وبعد سبع سنوات يعود القاتل هو وأقاربه ويتفقون على الدِّية التى ينبغى دفعها .

كنت أتجول فى الشوارع ، فى قرية العلا ، دون أن يلقى لى أى أحد بالا ، وكنت أدون النقوش (وكلها هنا نقوش حميرية)، التى كنت أصادفها مرارا على أحجار البناء ، أو تلك النقوش التى كان يدلنى عليها الأشخاص الذين يحسون تجاهى بالود . قالوا لى

(*) الإشارة هنا إلى القرآن الكريم ، الذى يصفه المسلمون ، والبدو خاصة بـ " سيف الله " .

أيضا ، إن هناك نقوشاً أخرى على الجدران الداخلية فى بعض المنازل . ومع ذلك ، كانت روح عدم التسامح والتساهل تمنع هؤلاء الأشخاص من القيام من على المصاطب التى يجلسون عليها ، عندما كنا نمر عليهم . وهنا كنت أتجول وحدى خلال الأسواق ، أو إن شئت فقل : أجزاء القرية المختلفه ؛ التى وصل عددها إلى أربع وعشرين سوقا أو منطقة ، والتى سمعت فيها كلها أصوات ضربات أيدى الهاونات التى تستعمل فى طحن البن ، (إشاره إلى مقهى شيخ المنطقة) ، وقد دخلت كل هذه المقاهى . وكل مقهى من تلك المقاهى خاص بأخوة وحزب شيخ بعينة ، كما يجرى أيضا الترحيب فى تلك المقاهى بالغرباء ، الذين عادة ما يكونون من البدو الذين جاءوا للتسوق : يضاف إلى ذلك أن الجيران يجلسون يتسامرون "ويشربون الدخان" ؛ ولكن مقاهى الجيران وكذلك قهوتهم تكون أقل ، والسبب فى ذلك أن الجميع فى قرية العلى يميلون إلى الاقتصاد فى نفقات معيشتهم . والملاحظ على الجميع هنا ، أن العلاونة يمشون فى شوارعهم وهم مسلحون ؛ – وربما يرجع ذلك إلى زمن كان الحضر يشكلون فيه قلة قليلة من الأعراب . وهم يمضون مسلحين لأداء الصلاة فى المساجد ؛ وكبار السن يحملون سيوفهم أو رماحا قصيرة فى أيديهم ، أما فقراء الحال فيسيرون وهم يحملون عصى من خشب السنديان أو إن شئت فقل : من خشب البلوُّط ، وهم يطلقون على تلك العصى اسم "النَّبُّوت"(*) أو "الشون "Shūn"(**)وهذا هو السلاح الشعبى فى الحجاز ، كما أن هناك بعض الأحياء أو المناطق المتمردة فى مكة ما تزال تسير وتراعى تلك التقاليد القديمة (بالرغم من قداسة الأرض والحاميات التركية القوية) الخاصة بتكسير الجباه والعظام على مدار العام ،– وهنا يتعين على الجنود التدخل لفض تلك المظاهرات والاشتباكات . معروف أن مضرب القتال هو سلاح سامى قديم : وقد ورد ذكر عصى (عكاكيز) اليد فى الكتاب المقدس فى إصحاح صمويل وحزقيال . وورد فى الكتاب المقدس أيضا أن عصابة من فسقة ، جهنم التابعة لكبير القساوسة جاءت هى وعصابة المواكب ، مسلحين إلى الحديقة ، ليأخذوا يسوع بالسيوف والعكاكيز (***) . والناس

(*) النبوت : كلمة عربية فصيحة تطلق على " العصا الطويلة المستوية " . (المترجم)
(**) الشون : صحيح هذه الكلمة هو " الشوم " وهو نوع من الخشب الصلد . (المترجم)
(***) العكاكيز : كلمة عربية فصيحة ، واحدها " عكاز " وهو " العصا التى يتوكأ عليها " . (المترجم)

هنا فى قريه العلا ، عندما يدخلون المساجد يتركون نبابيتهم مسنودة إلى جدار المدخل الذى يخلعون فيه نعلاتهم : ورؤية تلك النبابيت هى والنعلات عند باب أى منزل من المنازل ، إنما تكون مؤشرا للغرباء على أن ذلك المكان مقهى من مقاهى قرية العلى . والناس يفرشون هنا أرضية تلك المقاهى بنوع من الحصير المصنوع من سعف النخيل ، الذى تجدله أو إن شئت فقل : تُضفِّره النساء فى مستوطنات النخيل كلها ، كما شاهدت أيضا انتشار تعليق الدرع أو الترس الذى يطلقون عليه اسم 'الدَّراجة' Darra-ga عند أول سلم المنزل ، الذى دخلته ؛ وهذا الاستعمال قاصر على الحجاز وحده ، ولكنى لم أشاهد ذلك الترس أو الدرع فى أعالى الجزيرة العربية . ملامح هؤلاء الذين يشربون القهوة توحى بأنهم من أكلة التمر ، وأنهم لا يرتدون ثيابا جيدة . وهذا هو منديل (غترة) البدو سائبة فوق رؤسهم ، أو إن شئت فقل ، ليست محكومة بالعقال ، – الذى يعد علامة الوقار فى الزى العربى . وهذه هى السترات المصنوعة من الخام الأبيض وقد تجلدت وتصلبت فوق ظهورهم بفعل الغبار والعرق ؛ وسبب ذلك أن الصابون (الذى يأتى من سوريا) يعد أمرا نادرا وعزيزا وشحيحا أيضا عند العلاونة . ولاحظت أيضا أن طنين الذباب فى قرية التمر ، فى فصل الشتاء ، أقل منه فى صخور القبور فى قرية الحجر .

الجد ، أو إن شئت فقل جد آل – على ، (وهو طبقا للأعراف السامية ذلك الشخص الذى يكون له جلاله ومهابته عند كل شعب من الشعوب ،– من هنا وجه أهل الجزيرة العربية لى السؤال التالى : "من هو جد الإنجليز ؟) الذى يطلقون عليه اسم العلوِّى Allowîy، الذى قام شعبه بطرد بنى صخر . كانت تلك القرية يطلق عليها فى ذلك الزمن اسم بيت Baith نعام Naam، وبعض آخر يقول لها شعب Shaab النعام en-Naam . وفى مرحلة لاحقه اكتشفوا أن تلك القرية مدونة فى جلود الرق القديمه على إنها بندر Bundur عولانشى Aul?nshy (علوشى) Alûshy أو بندر Bundur علوط Alût . ويقال إنه ماتزال هناك إلى يومنا هذا بعض العائلات البدوية من بنى صخر ، الذين يحصلون على نصيبهم السنوى من قرية العلا . ومعروف أن نزوح القبائل البدوية عن مكان ما إنما يكون بسبب الجفاف أو الحرب ؛ هذا يعنى حدوث تغييرات كبيرة وجوهرية ، خلال قرون قليلة ، فى مسألة احتلال البدو لمناطق الجزيرة العربية .

بعد يومين من مجيئى طلع الصباح علينا برعده وأمطاره ؛ التى استمرت حتى صباح اليوم التالى : لم يشهد الناس أمطارا كتلك الأمطار على امتداد ثلاث سنوات . كانت الغرفة التى أقيم فيها هى الغرفة العليا من منزل الشيخ ضاهر ، شيخ قرية العلا ؛ ومعروف أن كل واحد من أكابر قرية العلا له بيتان أو ثلاثة : - بيت يسكن فيه بنفسه هو وزوجته ، وكذلك ربما يكون له منزل آخر لأطفاله من زوجة أخرى ، أو قد يكون منزلا لولد متزوج ، ثم منزلا ثالثا يستعمله كمستودع . كانت جدران غرفة الشيخ ضاهر العليا مزينة ببعض المشغولات الدقيقة المصنوعة من ليف النخيل ، ومزينة بأربطة حمراء اللون وأصداف البحر الصغيرة ، (وهذا طابع أفريقى بكل تأكيد لأنه لا يتفق مع الفضول أو التطلع العربى !) ؛ كما كان فى الغرفة حصير مصنوع أيضا من سعف النخيل ، يطلقون عليه اسم 'السَّفرة ، ويضعه القرويون العرب ، عند تناول الطعام ، أسفل صوانى الطعام ، وأنا أرى أن روح الدعابة التى يتمتع بها أهل الحجاز إنما هى روح إفريقية . هنا ، فى العلا ، تقوم صناعة ، تمارسها عائلات القرية ، وتقوم على نسج عباءات (بشوت) صيفية خشنة بيضاء اللون من صوف البدو ، ويطلقون على تلك العباءات اسم "بردان" . berdan

سكان الجزيرة العربية يقيمون فى أرض جرداء عامرة بالجوع ، ليس فيها من طعام سوى من التمر ، الذى يتعين عليهم أن يأكلونه فى الوديان القليلة التى تعتمد على عملية الرى . هذا التمر يعطى طاقة زائدة ، وهو مزعج ويثير الاضطرابات البدنية فى ظل هذا المناخ الخانق ساكن الريح ؛ يضاف إلى ذلك ، إن شدة حلاوة ذلك التمر تصيب بالتخمة ولا تفيد منه العضلات أو العظام ؛ ومن هنا فإن من يعيشون على ذلك التمر توحى وجوههم بالضعف ، وبخاصة أهل القرى النجدية ، فى الوقت الذى نجد فيه أن وجوه أولئك الذين يتغذون ، من بين أهل الواحات ، تغذية سليمة ، توحى وجوههم بالبشر والسرور : ومن يلقى نظرة سريعة على هؤلاء السكان يستطيع أن يميز من بينهم أولئك البدو الذين يشربون الحليب . وفى المناطق التى يعيش الناس فيها على التمر فقط ، وهذا من وجهه نظرهم ، تجد الطبيعة البشرية متحللة ، أى أن الناس يكونون ضعافا ، وهم فى تلك المناطق يشربون مياها جوفية دافئة ، يندر أن تكون صحية فى تلك المناطق من العالم . وأنا لم يسبق لى أن شاهدت فى أى مكان من

الجزيرة العربية مثيلا لتلك التعبيرات التى تظهر على وجوه الناس هنا (والمختلطة بالدم الزنجى) فى قرية العلا ، مع أن تمر العلا يعد واحداً من أنواع التمور الممتازة فى البلاد كلها ، عجبا لتشوه العظام ! فالجزء العلوى من الوجه غائر ومستوى ، كما أن الفك يشبه فك الحيوان ولا ذقن له . ومع ذلك هناك بعض الأسر نقية الدم ، وهم أصحاب بشرة تميل إلى الابيضاض ومتوردة ، والقاضى موسى واحد من هؤلاء ، وقد انحدر هو وخلفه من بنى صخر . ووجوه هؤلاء الناس فريدة إلى حد أنى أستطيع تمييز أى واحد من العلاونة ، حتى عندما لا يكون مرتديا عباءته (بشته) البيضاء ، من بين جموع الناس فى سوق دمشق المكتظ بالبشر .

نساء قريه العلا منقبات ، وهن يعشن فى ظل استبداد أزواجهن (المغاربه أو الحجازيين) ؛ وثيابهن الطويلة الواسعة محملة بأصداف لامعة يأتين بها من قرية الوجه . كانت نساء معارفى ، اللاتى شاهدتهن وهن شبه منقبات فى بيوتهن ، تبدو الوضاعة على وجوههن ، كما كن تبدين غير ناضجات ، ولا يبدو على وجوههن بشر الأنوثة . وخزام أنف المرأة السامى هنا ، وهو من قبيل الخزام الذى أحضره كبير خدم (سيدنا) إبراهيم إلى ربقة Rebekah(*) الجميلة ، (وقد حرك ذلك غضب النبى إشعيا على رؤية تلك الأخزمة فى الوجوه الجميلة لأهل مدينته ،) هذا الخزام هنا ، فى قريه العلا ، واسع مثل فوهة فنجال القهوة ، والمرأة تعلقه فى فتحة أنفها اليمنى وتعلق فيه قطعا صغيرة من العملة الفضية ؛ وجباه هؤلاء النساء مزينة أيضا بمجموعات من النقود الفضية ، التى يضعنها فى خصل شعورهن . هذه القطع النقودية ، تجعل تلك النسوة ، كما هو حال بنات القدس ؛ تجلجلن أثناء سيرهن ، وهن يعطرن ثيابهن ؛ ورائحة العطر نفاذة تظل فى الشوارع التى يتصادف مرور النساء فيها . والنساء تحذرن الكلام الكثير مخافة تعنيف الرجال لهن : والبنات الصغيرات تلبسن عقوداً مستديرة من الأصداف تتدلى فوق صدورهن ، يضاف إلى ذلك أن رءوس هؤلاء البنات الصغيرات تجمل بخيوط وعناقيد من النقود الفضية الصغيرة .

(*) Rebekah : ربقة أو رفقة وهى زوجة سيدنا إسحق عليه السلام . (المراجع)

وبينما كنت أسير فى الشوارع ، كان الرجال يوبخون الصغار ، عندما يصيحون وهم ينادون قائلين : "ها هو النصرانى !" . وكنت كلما جلست فى مقهى من المقاهى ، كنت أسمع الناس يرددون فيما بينهم عبارة مريحة تقول :"كل واحد على دينه" . كانت الشخصيات الكبيرة ، تتحاشى توجيه الأسئلة إلى الغريب ، مخافة أن يكشفوا عن جهلهم ؛ ولكنهم كانوا يتظاهرون بعدم الانتباه عندما كان العامة يسألونى عن أشياء كثيرة ، منها على سبيل المثال : "بالله ! ألا توجد فى البحار المسيحية ، أرض يربون فيها السود ليأكلوهم ؟" روى شخص سبق له أن زار دمشق ، أن المسيحيين فى مناسبة عيدهم الذى يجيئ فى منتصف الشتاء (عيد الميلاد) كانوا يقدمون مسلما قربانا ؛ ولكن آخرين الذين سبق لهم زيارة الشمال ، عارضوا هذا القول ، قائلين له إن الأمر لم يكن كذلك . قال بعضهم : "النصارى ليس لديهم غلا من هذا القبيل نحو المسلمين ، وإنما اليهود الذين لديهم مثل هذا الغل ؛ اليهود من عبدة الأوثان ودينهم دين سرى ." قال آخر : "لا ، ولكنهم يعبدون الثور (أى عجل قارون .)" قلت لهم : "اليهود لديهم شريعة إلهية جاءت على يدى (سيدنا) موسى ، وهى التى تسمونها التوراة ، وهم يعبدون الله وحده ." وردوا على : "إذا كان الأمر كذلك ، فهم على حق ، ولكن اليهود جنس ملعون ، وهم يقتلون المسلمين فى السر ."

الفصل السادس

العلا . والخريبة . والمدائن

وصول أحد اليهود إلى العلا . نفى باشا تركى إلى هناك . غدير الواحة الحار . البساتين . السكان . وفرة الأرز الذى يأتى من الوجه . حديث ضاهر . أبو رشيد . شعار عربى أجوف مبتذل . ممارسة الطبابة . التشدد فى الحضر . تجوال العرب فى أنحاء أفريقيا منذ زمن بعيد . مسيحى (هارب) تحول هنا إلى مسلم . الخريبة واحدة من قرى الهجرة . المقابر والنقوش الحميرية . المبيعات . كورّة . عنترة ، الشاعر البطل . رقة ضاهر ودماسته . العودة إلى المدائن . عنف محمد على . أعذاره . عارضة السلم فى قياس الآثار . مرثيات شواهد القبور . المطر فى بلاد العرب . الطيور المنحوتة . الأقنعة البشرية المنحوتة . الشرق السامى أرض الأضرحة . الدفن الإسلامى البسيط . "جانبا الحفرة" عند إشعياء وحزقيال . طريقة الدفن عند الأنباط . كنز مغلق فوق صخرة حوراء ؛ إزالة الصخرة يعنى مجيىء نهاية العالم . ساحر مغربى لرفع الكنز المخبأ . معجزات الشرق . مسيح سورى فى دمشق . زيارة بيت الحمقى . صوت الجمل التجديفى . قبر النبى يونس . ضعف القرار الأوروبى بسبب التجوال فى الشرق . الأنهار والمياه . وصول النجّاب . الحياة الأسرية الأوروبية والإسلامية . كل مشكلات الدنيا سببها الحريم . يثقون بالنصارى أكثر من ثقتهم بأنفسهم . اللصوص البدو فى الحج . إنذار ليلى . الحباليص أو اللصوص المشاة . الإنذارات تحيط بنا دوما . تقويم الحريم باستعمال العصا .

سمعت هنا ، من كثير من الأشخاص الثقات ، أن يهوديا جاءهم ذات يوم منذ سنوات عدة ، وهم يظنون أنه جاءهم من ناحية الساحل ؛ بعض آخر يقول إن ذلك اليهودى جاء من القدس . وقالوا إنهم استحسنوا خطاب ذلك الشخص الغريب ؛ نظرا لأن ذلك اليهودى كان يتكلم العربية ، وأنه كان ضليعا وطليق اللسان فى تلك اللغة العربية : سمعوا من ذلك الرجل أيضا كثيرا من الأشياء العجيبة عن الكتاب اليهودى المقدس ، "وأن تلك الأشياء لم تكن بعيدة عن أفكارهم ، وتتفق مع كثير من مواضع 'كلمة الله' ." يضاف إلى ذلك أن بعض الشخصيات الرئيسية قامت بدعوة ذلك اليهودى إلى تناول الطعام معهم ، ويقال أيضا : إن اليهودى ذهب فى يوم من الأيام لزيارة مدائن صالح ، وعاد ليقول إن تلك الآثار القديمة هى من آثار النصارى ، (فاليهود والمسلمون ليس لديهم فضول أو تطلع طبيعى إلى العمارة) . ولم يستطع أولئك الذين رءوا كل ذلك أن يخبرونى بما حدث لذلك اليهودى ؛ ظن البعض أنه غادرهم إلى خيبر . ثم تحدث إلىّ بعد ذلك شيخ قرية تيماء ، عن شخص غريب مر بتلك القرية منذ سنوات قلائل ، وأن ذلك الشخص أقام معه فى بيته يوما أو يومين ، "وأن ذلك الشخص لم يكن يسافر فى يوم السبت ." وعندما وصلت بعد ذلك إلى قرية خيبر ، حدثنى أهل هذه القرية عن يهودى ، جاء إلى خيبر قادما من قرية العلا على حد زعمهم ، نظرا لأن العرب ، الذين يهملون فى الحاضر ، يشيع عنهم أنهم يتقاعسون تماما عن الزمن الماضى . 'أقام الرجل فى قريتهم (وديارهم) بحثا عن كنز من الكنوز ؛ وقيل إنه اكتشف أمره مع إحدى نساء القرية ؛ ثم مرض ومات' ، ولم أعرف منهم كيف مات ذلك اليهودى ؛- ربما لم يقولوا لى الحقيقة . وعندما طلب منى شاربو القهوة أن أروى لهم شيئا طيبا عن دينى ، قلت لهم : "أكرموا أباكم وأكرموا أمكم ،" وانشرحت صدورهم تماما بذلك الكلام . وبالرغم من أن هؤلاء الناس كانوا يقظين ومتدينين ، إلا أنى شاهدت لعب الورق يسود وينتشر بينهم ؛ وقد انتشر لعب الورق هذا إلى الحجاز وقراه قادما إليها من مقاهى الحضر من ناحية ومن ثكنات الجنود الماجنين فى المدينة (المنورة) . وفى المدينة المنورة . يجرى تعاطى الرَّاك ، ذلك النوع من القِنَّب الفظ عن طريق التدخين ، والإفراط فى الحياة البذئية .

اهتم ضاهر بى اهتماما كبيرا بعد أن علم أن مسئولى الحج جعلوا رعاة القلعة مسئولين عن أمنى وسلامتى . كما تذكر ضاهر ، واحدا من الباشوات ، انفضح أمره فى اسطنبول :- عندما طلب السلطان فى جزء قصى من ممتلكاته طرد أو إبعاد ذلك

الباشا من الدنيا إلى الأبد ؛ردوا عليه قائلين : "إن هناك خلف سوريا واحة صغيرة من واحات النخيل تقع بالقرب من طريق الحج ، فى أرض البدو ". Beduw أبعدوا ذلك الباشا المسكين إلى قرية العلا بصورة مؤقتة ، وأقام مدة عامين فى منزل شيخ قرية العلا ، أى والد ضاهر الشيخ الحالى . وبعد هذين العامين تذكر السلطان عطفه القديم ، وأرسل فى طلب ذلك الباشا المنفى وأعاد له اعتباره ، وأمر السلطان بضرورة إعطاء شىء من المال لشيخ قرية العلا ، كما أصدر فرمانا إمبراطوريا يقضى بإعطاء ذلك الشيخ لقب "فاعل خير للإمبراطوريه"

بيارات النخيل ، هى وغيطان القمح ، فى كل أنحاء وادى القرى(*) تُسقى من غدير ماؤه دافئ ، ومن بعض العيون الأخرى التى تتفجر فى وسط الواحة ، ومياهها كلها مالغة الطعم وعسرة ، ولها رائحه نفاذه ، مثل رائحة الكبريت التى تفوح من عين الماء فى باليرا . وجدت فى كل تلك العيون ، أصدافا من نوع واحد ، كما عثرت فى جانب ذلك الغدير على نمو كبير من نوع من أنواع إسفنج الماء العذب . وجدت أيضا أن درجة حرارة قناة المياه الجارية ، التى يصل عمقها إلى حوالى قدمين ونصف القدم ، كانت بصفة مستمرة ٩٢° فهرنهيتية ؛ كان ذلك فى القرية على بعد مسافة تتراوح بين ثلاثمائة وأربعمائة خطوة عن مصب ذلك المجرى المائى ، وحوالى ثلاثة أضعاف هذه المسافة عن المنبع . هذا المجرى تفوح منه رائحة نتنة طوال فترة برودة الصباح : وأهل القرية يغتسلون من ذلك المجرى ، عندما يذهبون إلى المساجد لأداء الصلاة ، كما أقام أهل القرية هنا أماكن مغلقة للاستحمام ، خاصة بالنساء . وجدت أن ارتفاع الواحة مساويا لارتفاع الأرض فى دمشق ! ولم يكن بوسعى الوقوف على ذلك لولا وجود آله القياس ، ولكن العرب كانوا يخمنون ذلك الارتفاع ، كان من رأى الحاج نجم دوما أن سهل مدائن صالح لا بد وأن يكون أعلى بقليل من مستوى تربة دمشق . ولكن النخيل البعيد الذى يكون فوق مستوى العيون ، يجرى ريه من حفر يحفرها الناس ويصل عمقها إلى

(*) وادى القرى : يقع هذا الوادى بين العلا والمدينة المنورة ، ويتصل به وادى جزل فى الشمال ووادى حمض فى الجنوب . ويشتمل الوادى على عدد من القرى . (المراجع)

حوالى سبعة وعشرين قدما فى الرمل فى حين يصل اتساعها أو عرضها إلى حوالى عشرين قدما . ويجرى جلب المياه الجوفية ، التى هى أبرد من المياه السطحية ، ومالغة المذاق ، عن طريق الأبقار الصغيرة ذوات الأسنام .

يجرى هنا الاستفادة من بساتين النخيل والليمون الحلو . ويجرى هنا حفر الأراضى المرتفعة الواقعة على جانبى الوادى إلى أعماق سحيقة حتى تصل إلى مستوى مياه عيون الرى ، ترتب على ذلك ارتفاع مستوى الممرات العامة كما لو كانت جدرانا عريضة تفصل بين تلك المزارع ، ورءوس النخيل الجميلة التى تنتشر هنا وهناك ، والتى لا تبدو طويلة أو مرتفعة فى هذا المكان ، وإنما تبدو كما لو كانت ترتفع من مجرد سطح الأرض ليس إلا . وهناك الكثير من جذوع النخيل التى تنبت من ساق واحدة ؛ وهذا النوع من النخيل عبارة عن فروخ قديمة نمت بعد سقوط النخله الأم . والناس هنا فى الحجاز يبيعون ليمونهم الحلو المنعش للحجاج : والمساومة على أسعار الثمار والفواكه (لأنها ليست من الطعام أو التمور) أمر غير مقبول فى المنطقة الغربية من نجد . والبرتقال غير معروف هنا ، على حد علمى ، فى الجزيرة العربية . أما الأعناب فهى ليست كثيرة هنا ، غير أن كل عائلة لديها شجرة أو شجرتين من أشجار العنب ، التى لا يشذبونها مطلقا ، والتى تتسلق الأشجار ، أو فى تعريشات ، حتى ينعم الناس بظلها فى منتصف الصيف . والناس هنا ، ليس لديهم من فواكه النوى سوى البرقوق ، بالرغم من أن بعض شباب قرية العلا يقصدون دمشق كل عام ويزوروها ، حتى يستأجرهم أهل دمشق للعمل فى الزراعة . وهم يزرعون فوق الأرض هنا ، كما هو الحال فى قرى الجزيرة العربية ، نوعا من اليقطين ، يطلقون عليه اسم الدباء dibba، وهم يخلطون ذلك القرع العسلى (اليقطين) ، كما لو كان لحما سمينا ، مع العصيدة الضعيفة ، وهم بذلك يعتقدون أن العشاء الذى يكون من هذا القبيل يصلح تقديمه للضيوف . ومن الجميل حقا أن يشاهد المرء كل هذا الحمل الأخضر على التربة التى هى عبارة عن قاع من الغرين (الطمى) ليس إلا ، ومن الرمال الصحراوية المنقولة . وهم يستعملون قلة قليلة من الحمر الضعيفة فى عملية النقل والحمل إلى جانب استعمال الأبقار ذات السنام فى أعمال الزراعة ، وكل أسرة يتحتم أن يكون لها عنزة أو اثنتان للحليب فضلا عن الدواجن . والقرية بكاملها لم يكن فيها سوى حصانين فقط ؛

فما فائدة حيوانات الحرب عند أناس غير محاربين ؟ والعلاونة لا يدفعون "خوة" للبدو فداء لقريتهم ، التى لا يبرحونها أو يغادرونها مطلقا ، إلا إذا كانوا ، منضمين فى مرة من المرات إلى قافلة الحج ، قاصدين الأماكن المقدسة ، أو ملتحقين بالقافلة نفسها عند عودتها إلى سوريا .

الواحة المنزرعه كلها لا تزيد مساحتها على ما يقرب من ميلين ، والقرية ضيقة ، وتقع على جانب الطريق ، أسفل الحرَّة . ومن فوق تلك القمم الصخرية ، أرى وأشاهد منازل القرية كلها والتى أقدرها بحوالى أربعمائة منزل . وقد قدرت عدد سكان هذه القرية بحوالى ١٣٠٠ نسمة ، ومع ذلك فإن أهل القرية أنفسهم يقدرون عددهم بما يتراوح ٥٠٠٠ و ٦٠٠٠ نسمه ! والبدو يقولون إنهم حوالى ١٥٠٠ بندقية ، وهذا حسب ما استقيته من اعترافاتهم يعد رواية صحيحة تؤكد أن عدد سكان القرية هو ١٥٠٠ نسمة ، هؤلاء السكان يزرعون من النخيل ومن أراضى القمح ما يزيد على احتياجاتهم ؛ وهم يبيعون ذلك الذى يزيد عن حاجتهم إلى البدو نظير النقود ، ويقال أيضا إن هناك الكثير من الريالات المكنوزة داخل القرية . والناس هنا يتناولون مع التمر كمية كبيرة من الأرز الهندى الذى يجرى إحضاره إلى هنا فى جوالات من قرية الوجه el-Wejh (الذى يقولون لها أيضا 'الوش' el-Wésh)، تلك القرية التى تقع على شاطئ البحر الأحمر ، والتى تعد سوقًا للأرز فى الركن الشمالى الغربى كله من الجزيرة العربية ؛ هذا الأرز الذى يصل إلى العلا يباع مرة ثانية للبدو الرحل . والسماسرة فى هذه العملية هم من بدو البِلِّى : وناقل الأرز البدوى Beduwy يأخذ حمله من الأرز من تجار قرية الوجه ، بواقع جوالين لكل جمل من الجمال ، نظير عشرة ريالات لكل جوال . وفى قرية العلا ، وبعد ستة محطات أو إن شئت فقل : رحلات ، يقطعها ناقل الأرز خلال ديرته الآمنة ، يستطيع ذلك الرجل بيع الجوال الواحد من الأرز نظير ما يتراوح بين ستة عشر وعشرين ريالا ، أو قد يعود ذلك الناقل ، من تلك السوق الرخيصة ، بحمل من التمور الموضوعة فى بالات مصنوعة من سعف النخيل ، ومع ذلك فإن البدو الفقراء لا تجذبهم تلك المكاسب التى تعود عليهم من هذه الصناعة الأمينة ، كما أنهم لا يعيرون الطريق اهتماما طالما أن لديهم ما يأكلونه مع أسرهم فى المنازل . ونحن نرى فى العلا أبسط شكل من أشكال الاتجار وتبادل السلع . وسعر الأرز فى المناطق الداخليه يرتفع بسبب

تكاليف النقل بالإبل ، والذى يصعب الحصول عليه حتى فى قرية تيماء . والبدو فيما وراء قرية العلا يستعملون الأطعمة المصنوعة من القمح أو دقيقه ، أو قد يجلبون أرز الأنهار الذى يطلقون عليه اسم التِّمن Temmnمن بلاد الرافدين . وتمر الحلو ، من بين تمور قرية العلا ، هو الذى يطلقون عليه إسم الحلو ، وهو من النوع الطرى ، وتصل حلاوته إلى حلاوة عسل النحل ، ويجرى وضعه فى زنابيل قديمة يطلقون عليها اسم 'شِنَّا' Shenna أو 'مجلَّد' Mujellad؛ وعندما يبدأ تمر الحلو فى الجفاف يتبلور . ويجرى كل عام نقل الكثير من زنابيل ذلك النوع من التمر بصحبة الحج السورى ، يضاف إلى ذلك أن تمر قرية العلى العسلى يقدم تحية للضيوف فى بيوت المسلمين ، فى دمشق . وتمر البرنى ، وهو نوع من التمر الطويل الشاحب أو الباهت اللون ، هو بمثابة الطعام المحلى رخيص الثمن ، وهو متوفر فى شكل أنواع عدة ، وقرية العلا محاطة بسور أسفل الحرّة التى تحجب عنهم رياح البحر الصحية أو إن شئت فقل : رياح البحر الغربية ؛ والقرية مفتوحة من ناحية البساتين . والقرية لها بوابتان رئيسيتان ، إضافة إلى بعض الأبواب من ناحية الصحراء ، وقد رأيت أن الأعمال الخشبية كانت مدمره فى الوقت الذى زرت فيه قريه العلا ؛ فقد وجدت أن تلك الأبواب لم تكن تغلق على الإطلاق .

كانت الأمسيات تطول حول وجار قهوة ضاهر ، التى لم يكن يتردد عليها ضيوف زائرون . كان ضاهر كيِّسًا ومقنعا فى أن يسألنى عن الموقع الذى أشغله فى بلدى ؛ وعندما وقف على اهتمام الإمبراطوريه العثمانية بى ، لم يتمكن من معرفه نوعية ذلك الرجل الذى تحت عباءتى العربية . وأمام إصراره أجبته قائلا : "أنا لا مهنة لى غير الفلسفة(*) ، ومن الأفضل الانسحاب من القرية إلى الصحراء الهادئة التى يخيم عليها السكون ." "وهل هذه الفلسفه هى التى أحضرتك إلى هنا وحدك إلى قرية الحجر ، فى الوقت الذى من الأفضل لك أن تكون فيه فى بلدك ،- بدلا من أرض الأعراب الخطرة ، لتعانى من المرض ؟"- "لماذا نخشى الموت أو الحياة ، وهما مكتوبان لنا على الطريق القويم ؟ والقلب عندما يطمئن تهون الأمور كلها ." - "إنه كلام ، يا ولدى ؛ ومهمتك

(*) وردت الكلمة الدالة على " الفلسفة " باللغة اليونانية فى ثنايا النص الإنجليزى . (المترجم)

واحدة من المهام العبثية التى لا طائل من ورائها ، والسبب فى ذلك أنك بعيد عن الطريق ، ولست داخلا فى زمرة الدين المنقذ ." لم يستطع الشيخ ضاهر التغلب علىّ عندما قلت له : "إن سليمان والد داود"، أو عندما امتدحت الفلسفة ، وهى كلمه أخرى تحظى عندهم بالتقدير ، أو عندما زعمت له أن العلم الواسع فوق كل مباهج الدنيا . "سألنى ضاهر ، وما هو الداعى إلى كل هذا العلم ؟ إن كل ما يلزم هو شىء واحد ، أن الإنسان يتعين عليه أن يعرف أن الله إله واحد ، وأن محمداً رسوله ؛ وكل ما عدا ذلك لا فائدة منه أو جدوى له . ألم يكن من الأفضل لك ترك كل هذه المباهج ، وتعتنق عقيدة الإسلام ؟ وتبدأ من الآن فصاعداً تعيش حياة الاستقامة وتسير فى طريق الدين القويم ، الذى سيكون فى صالح سلامتك الروحية فى النهاية ." وهنا ابتسم ضاهر ابتسامة يعزى بها نفسه ، ثم تنهد ونظر إلىّ نظرة تنم عن تشبثه بموقفه ؛ وراح يختصر فى حديثه الدينى كما لو كان واحداً من المناوئين .

كان فى قرية العلا تاجران دمشقيان جاءا من حى الميدان ، ومعهما بعض الأقمشة التى كانا يبيعانها للبدو فى موسم الحج . وذهبت إلى هذين التاجرين ، بناء على طلبهما ، لتمضيه فترة المساء معهما . كان التاجران أبناء لأناس قدامى كانوا قيمين على القلعة فى وقت من الأوقات ، فى مدائن صالح . أحدهما ، الذى يدعى أبو رشيد كان قد سافر إلى مصر ، وكان بوسعه أن يحكى أعاجيب عن مدن كبيرة كانت تضاء بالغاز ، ويحكى أعاجيب أيضا عن شبكات للمياه وسكك حديدية ، وكلها ، حسب توكيده ، من صنع الإنجليز الذين امتدحهم على إنهم أكثر الأمم عبقرية واستقامة بين الأمم الإفرنجية . وهو سوف يلحق ولده ، حسبما قال لنا ، بالمدارس الإنجليزية فى سوريا هذا العام : – وشهية هؤلاء العرب المسلمين فى الوقت الراهن تنصب على التدريب الفنى الجديد (الذى يظنون أنه الشىء الوحيد الذى ينقصهم عن أوروبا) . تناول أبو رشيد كتابا مجلداً بجلد أحمر اللون ، كان يتعلم منه الدين والفلسفة ، راح يقرأ من الكتاب فى الجزء الخاص بالمذهب الأفلاطونى . هاهم المؤلفون العرب غير المتحضرين ، الذين لا يعرفون شيئا عن اللغات أو الأزمان ، يتكلمون ، بغباء يثير الاحتقار ، عن أنبل الأرواح البشريه التى عاشت قبل بداية عصرهم بألف عام تقريبا ،

ولم يعرفوا شيئا عن محمد (نبى العرب) . عندما لاحظ أبو رشيد كلامى غير الكامل وغير المتأنى قال : "هؤلاء الفرنجة يتعاملون بالسياق العربى ، نظرا لأن لغتهم ليست مرنة : ولكن اللسان (اللغة) العربى سلس ومرن ويدور مثل العجلة ، يضاف إلى ذلك أن العرب فى مختلف الأرجاء لغتهم واحدة لأن الفم والبلعوم هما أعضاء الكلام ، أما كلامكم أنتم فهو يولد مشوها وعندما يخرج من أفواهكم يكون قد أشرف على الموت . - ما رأيك فى كلام هذا الجزء من البلاد ؟ ألم تضحك من كلام البدو ؟ ما هذا 'الجوطار'(*) ها - ها - ها !- والبدو يقولون أيضا لأى فترة من فترات النهار 'جوّاك(**)' gowwak، والبدو يقولون أيضا 'كيف Keyf أمورك ' Mûrak ويقصدون بها 'كيف أحوالك ؟' من الذى سمع مثل هذه اللغة ! "قال أبو رشيد الكلام نفسه عن الكلام المصرى قال : إن كتيبة من جنود إبراهيم باشا جرى حصارها وتجريدها من سلاحها بواسطة الدروز الشجعان ، فى منطقة الليجا Leja (التى هى حقل بركانى فى منطقه الحوران) . وعندما هم الدروز بتقطيع الأسرى ، أو إن شئت فقل : المحاصرين ، إربا إربا ، تقدم جندى دمشقى من بين الحاضرين وصاح قائلا : مهلا ! أيها الجيران ، 'دخيلاكم' (بمعنى 'أطلب حمايتكم') ، للشوام (السوريين) على أقل تقدير ، الذين هم 'أولاد' ' Owlad الوطن' el-Watn، بمعنى أطفال أو أبناء الأرض نفسها معكم ! " وردوا عليه قائلين : 'سوف يحموهم إذا ما استطاعوا معرفتهم أو تمييزهم .' قال الدمشقى : اتركوا هذا الأمر كله لى ;- وأنهم إذا ما تركوا الجنود يمرون الواحد بعد الآخر ، فإنه سوف يتمكن من تمييزهم .' وأعطوه ما أراد ، وتحداهم ذلك الدمشقى على النحو التالى قائلا : "راجل Ragel (الكلمه المصرية لكلمة Rajil)، إسمع أيها الرجل ، قل 'چمل' "! Gamelكل سورى كان يقول 'چمل' Jamel؛ واستطاع الجندى السورى بهذه الطريقه إنقاذ إخوانه المواطنين وكذلك الدمشقيين .

خطر ببالى أن أبدأ هنا فى قرية العلا عملية التحصين أو التطعيم ضد المرض وممارسة مهنة الطب . ولكن أولياء الأمور لم يرسلوا لى أطفالهم ، ولم يزرنى سوى عدد

(*) " الجوطار " كلمة يستعملها البدو فى معنى " القطار " . (المترجم)
(**) " جوّاك " كلمة يستعملها البدو فى معنى " قوّاك الله . (المترجم)

قليل من المرضى ، الذين كانوا حالات ميئوس منها ، جاءوا طلبا للدواء ؛ حتى هؤلاء المرضى عادوا إلى منازلهم عندما علموا أنهم يتعين عليهم دفع ثمن الدواء ، بالرغم من أن ذلك الثمن كان يتراوح بين اثنين وثلاثة مكاييل من القمح المجروش . كنت عندما أسألهم : أليس الدواء عطية من الله ؟ كانوا يجيبونى قائلين : "نحن نثق بالله ." – ولكن ، فى يوم آخر عندما يكون المرض بينكم وأطفالكم يموتون أمام أعينكم ؟" – لا يحدث شيء إلا بمشيئة الله" . هذه هى طبيعة العرب المتبلدة ، أو إن شئت فقل : إهمالهم لأنفسهم ، وانتظارهم للسماء أن تفعل لهم كل شيء ، وهو ما يسلم به العرب عن طيب خاطر فى عقيدتهم : هذا المزاج الهادئ الذى دخل دينهم ، نحن نطلق عليه قدرية المسلمين . فى قريه الحجر طلب منى عرب البوابه أن أضع لهم أحجبة hijabs أو إن شئت فقل : تعاويذ أو تمائم ؛ أى تلك الأوراق التى يكتب فيها اسم الله ، ثم يذيبونها فى الماء ، ويظنون أنهم يحسون بالسعادة بعد أن يشربوا ذلك الماء .

عندما يدخل البهلوانات قرية من القرى يحس أهلها بأن ذلك شيئا جديداً عليهم ولكنهم بعد أن يعتادوا على أولئك البهلوانات سرعان ما يَملُّونهم ؛ من هنا فقد مضت وولت تلك الأيام القليلة ، من هنا وجدت تعبيرات وجوه الناس لم تعد توحى بالصداقة والود ؛ وهنا بدأت بعض القلوب المتشدده تتورم لرؤية إنسان يمشى بينهم وهو رافض لدين رسول الله المنقذ والمغيث . وإذا كان الأطفال يصيحون خلف ذلك الرجل الكافر ، فإن الكبار ، أو إن شئت فقل : الآباء ، لم يعودوا على استعداد لنهرهم ومنعهم من ذلك الصياح . يضاف إلى ذلك ، أن قلة قليلة من أصحاب الدماء غير النقية كانوا يهمهمون ويبرطمون كلما مررت من أمام مصاطب منازلهم قائلين : "قل محمد رسول الله !" ، ولكن الآخرين كانوا يلومونهم على ذلك . ذات مساء كنت قد تجولت إلى أن وصلت إلى جانب الواحة ؛ وسرعان ما تجمع فى ذلك المكان قطيع من أطفال القرية الذين كانوا يحملون السيوف والمضارب ، راحوا كلهم يتعقبونى ويصيحون قائلين : "النصرانى ! النصرانى !" ويتحلقون من حول الكافر ، يرسمون الصليب على الرمل من أمامى (.....) ، (*) هؤلاء الأولاد الأوغاد يتتبعونى بذلك الصياح كما لو كانوا يطاردون

(*) عبارات وقواف غير لائقة تمس الدين المسيحى رأينا استبعادها . (المراجع)

وحشا كريها أمامهم ، واستمروا فى ذلك إلى أن وصلت الجانب الآخر من الواحة ، وهناك بدءوا يقذفونى بالحجارة . وكان من بين هؤلاء الأطفال الوقحين طفل واحد ، كان هو الذى يقاوم البقية بعنف ، وراح يلعن ، بكل ما أوتى من قوة ، آباءهم الذين أنجبوهم . راح ذلك الطفل والدموع فى عينيه يسير ناحية الخلف معترضا سير أولئك الأطفال ، كما لو كان يحاول افتدائى وحمايتى بواسطة جسمه الصغير ؛ "أيها الأطفال ، هذا ابن (ولد) حلال ، فكروا فى أن تكونوا مثله ، أنتم جميعا ، بدلا من احتقار الغريب ، والغريب ضيف الله ." سلوك الأطفال هذا ، كان دليلا على ما يعنيه الكبار ، الذين سمعوا منهم ، وبلا أدنى شك ، تلك القافية البذيئه :- هذه كانت القافيه نفسها التى كان يتغنى بها أطفال المسلمين فى دمشق ، طوال أيام قلائل قبل مذبحة النصارى . والمعروف أن الأديان السامية لا تطيق أن يلتقط أى أحد أنفاسه غيرها ، ولا تتصل بأى أحد يكون خارج أطرها :- تلك كانت الأعمال غير الإنسانية التى سبق لمحمد (ﷺ) أن لاحظها خلال أوقاته العصيبه مع اليهود الأشرار .

والشاب المسكين من العلاونة ، على استعداد للسفر إلى دمشق ، أى مسافه ٥٥٠ ميلا ، على ظهر بعير مع عجيل قافلة الحج ، نظير دولار واحد أو دولارين : هؤلاء العلاونة يتتلمذون ، فى أغلب الأحيان ، فى المدينة السورية على تعلم بناء الأحجار على أيدى النصارى . عثرت هنا ، على رجل طويل ، كان يعمل بالجندية منذ سنوات فى الجهاد فى القرم Crimea(*) قال لى ذلك الرجل : إن ذلك الجهاد كان فى بلاد بعيدة فيما وراء البحار(**) ؛ وهذا هو آخر ما يمكن أن يقوله أناس من هذا القبيل عن المناطق البعيدة والنائية التى زاروها ، والسبب فى ذلك أن خريطة العالم غير معروفة لهؤلاء الناس . هناك بعض العرب الذين يتجولون فى أصقاع بعيدة مثل القارات ويعودون من ذلك التجوال (شأنهم شأن المتخلفين غير المتعلمين) وهم عاجزين عن أن

(*) واحدة من بلدان اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية السابق . (المترجم)

(**) يقصد بهذا الجهاد حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٦) التى دارت بين روسيا القيصرية والدولة العثمانية . وقد ساندت معظم الدول الأوروبية الدولة العثمانية خوفا من أن تتمكن روسيا من الوصول إلى البحر المتوسط عبر منافذ الدردنيل والبوسفور . وقد انتهت هذه الحرب بتوقيع معاهدة باريس فى عام ١٨٥٦ . (المراجع)

يفصحوا لنا عما يدور فى عقولهم : العرب سبق لهم منذ أزمان بعيدة أن جابوا إفريقيا كلها ، ولكنهم لم يدونوا أى شيء عن ذلك التجوال(*) . شاهدت هنا شابا سوريا يعيش هنا فى قرية العلا متواريا أو مستترا ؛ مجنداً ، وقد هرب من اليمن ، ومدينة ذلك الشاب هى الناصرة ، ولذلك أحس بالاضطراب إلى حد ما عندما التقيته .

فى يوم آخر تجولت حتى وصلت إلى نهاية حدود الواحة ، حيث يقوم الصبية الرعاة على أمر ذلك العدد القليل من ماعز القرية .- وفجأة طلع علينا من بين أشجار الإثل بدوى شبيه بالشيطان ، تسبب فى صراخ الرعاة لأنهم لم يكونوا يعرفونه وقالوا : "هو واحد من الحويطات ،" وهنا رفع هؤلاء الرعاة عكاكيزهم وعصيهم ، على ذلك الحويطانى ، وطلبوا إليه أن يغرب عن المكان . وهنا ثبت ذلك الشقى علىَّ عينى اللص ، وسأل الرعاة قائلا : "أى رجل هذا ! وهل هو منكم ؟" قلت له : "ملعون أبيك ! أغرب عن هنا ! "- "هيا ، هيا ! إنكشح ،" ويختفى ذلك الحويطانى وهو يصيح صياحا غريبا ، كما لو كان يستدعى رفاقا له من بين الأدغال . قال الرعاة : "سيهجم علينا الأعداء ،" ثم سارعوا بعد ذلك إلى دفع الماعز إلى داخل الجدران ، وعند المساء أنبنى الشيخ ضاهر تأنيبًا شديداً ، قائلا إننى صاحب علم ، ولكنى لم أكن عاقلا أو حكيما ، وأننى كنت يوميا لا أطيع مشورته أو أعمل بها . "فتَّح عينك ، يا خليل ، قبل أن تحدث لك كارثة أو مكروه كبير ؛ ولكنى سبق أن حذرتك ." وهنا أردف ضاهر قائلا بابتسامة صفراء تليق بإيمانه غير الإنسانى ، 'إنه لا يمكن أن يُلام ،' (- سيقل عدد الكافرين فرداً واحدا فى دنيا الله .) وفى مرة أخرى ، كنت أجلس خارج بوابة القرية ، أسفل الحرّه ، مع رجل من قرية العلا ، وانهالت علينا الأحجار كالمطر ، تراجعنا إلى الوراء وشاهدنا شقيا يتسلق الصخرة التى فوقنا . قام رفيقى ، فى ضوء الاستياء العربى البطيء ، بتجهيز بندقيته الفتيلية ، وصاح فى ذلك الشقى طالبا منه أن يعود من حيث أتى - كان مفروضا أن أكون قد عدت إلى الحجر قبل وقوع ذلك الحادث ؛ ولكن ضاهر

(*) هذه الأقوال خاطئة إذ إن عددا كبيرا من الرحالة والجغرافيين العرب كتبوا عن إفريقيا . واعتمدت حركة الكشف الجغرافى الأوروبى على تلك المدونات العربية ، وإن كان كثير منها قد اندرست أو فقدت بفعل الزمان . (المراجع)

طلب منى الاصطبار عدة أيام قلائل إلى أن تتم مشاهدة آثار أقدام الحويطات فى البوغاز ، أو إن شئت فقل : فى الممر بين الجبلين . سألتهم عن الطريقة التى تمكنهم من معرفة القبيلة على هذا النحو ؟- "عن طريق طول أقدامهم ، التى هى أطول من اقدام كل البدو المحيطين بهم :" ومع ذلك يقال إن "أقدام أفراد هذه القبيلة صغيرة مثل اقدام النساء ." يضاف إلى ذلك أن غالبية البدو الرحل فى هذه الأماكن ، الذين يمشون بلا نعال طول الوقت ، لهم أقدام ثقيلة مستوية .

أحسن شيخ القرية إلىَّ عندما أرسلنى إلى صخور وآثار الخريبة ، مع واحد من أهل البلده الذى قدم تلك الخدمة على ما يرام وعن طيب خاطر . هذا الواحد ، كان اسمه صالح **Salih** المسلمانى **el-Moslemany**، واحد من كبار التجار فى سوق البدو الرحل فى البلدة ، فضلا عن كونه أيضا واحدا من عملاء الشيخ ضاهر . كان الرجل متعاطفا معى لأن أقارب والده كانوا مسيحيين . جاء والد صالح إلى هنا قادما من مصر (وربما كان هاربا) : وحتى يتسنى له العيش فى قرية العلا ، كان يتعين عليه الدخول فى الإسلام ، ولذلك أعطوه اسمه الجديد 'المسلمانى' . أما ولده ، الذى أصبح مسلما بحق ، والذى قام بزيارة مدينة النبى أكثر من مرة ، فقد كان يتعاطف مع اسم النصارى حبا لوالده . وقد تحدى البعض صالحا **Salih** بتعاطفه ومحاباته للنصارى ؛ ومن رأى صالح أنه أكره على اعتناق العقيدة ، بأن نطق على مسمع منهم بشهادة "لا إله إلا الله" والتأكيد على "محمد (رسول الله ." والتمس صالح لنفسه العذر هذا الصباح قائلا : "لقد تأخرنا ، لأن هؤلاء الذين ذهبوا لجمع الحطب من ذلك المكان قد أوشكوا على العودة ؛" ولكن ضاهر قال : إن بوسعنا الذهاب إلى الخريبة (انظر الصورة رقم ٣٢) وأوفد معنا ولد أخيه .

جاء الرجلان وهما يرتديان ثيابهما القديمة وكل واحد منهما يحمل بندقيته الفتيلية . تجاوزنا منطقة النخيل الموجود خارج القرية ثم عبرنا مجرى السيل إلى أن وصلنا إلى منطقة رأس العين **el-Ayn Ras**، التى هى منبع غدير الماء عندهم ؛ ورأس العين هذه عبارة عن حفرة مظلمة يصل عمقها إلى خمسة وعشرين قدما تقريبا تندفع بعدها المياه الجوفية . بعد رأس العين هذه توجد منطقة الخريبة التى توجد فيها الآثار ؛ وصلنا إلى "إناء حلب الناقه" أو إن شئت فقل : 'مَحْلب ناقة النبى صالح'، أو إن شئت فقل أيضا :

'حلويات helwîat النبى' (انظر الصورة رقم ٢٩) . هذا المحلب عبارة عن صخرة تحولت إلى خزان . اكتشفت أن عرضها كان اثنى عشر قدما . وعندما قستها من الخارج وجدت ارتفاعها فى أعلى أجزائها حوالى سبعة أقدام ونصف القدم : وأظن أن عمقها كان حوالى ثلاث عشر بوصة . يضاف إلى ذلك أن الخزان الكلى منقوش عليه من الخارج ومن الداخل علامات أخرى تدل على الماشية وليس على قبائل البدو الرحل الذين يسكنون ذلك الجزء من البلاد فى الوقت الراهن . وتتناثر فى هذه الأرض التى تتكوم فيها الآثار ، شقاف بعض الأوانى الفخارية ، التى استطعنا تجاوزها بصعوبة مشيا فوق ضفتين مكونتين من أحجار البناء المفككة والسائبة . كانت البيوت الأثرية مبنية من الحجر الرملى ، والقسم الأكبر منها من الأحجار الغشيمة الموضوعة فى الطين ؛ لاحظت تحت هذه الأكوام شيئا من الملاط المصنوع من الطين ؛ وقد جرى مؤخرا نقل بعض الأحجار من تلك الأكوام : وقد بنيت قرية العلا بهذه الطريقة ، ولكن تبقت بعد ذلك صخور تكفى لبناء قرية مثل قرية العلا ، مرة ثانية . البيوت القديمة كانت أصغر من البيوت الجديدة ، وربما كانت هنا بلدة من البلدان ، يقدر عدد سكانها بحوالى أربعه آلاف نسمة . والمتعلمون فى قرية العلا يقولون : إن تلك أيضا هى قرية Keriat الحجر ، وهنا تلوا علىّ كلمات لعنة الله التى حلت بقرى السهل "على ألا تقوم لهم قائمة مرة أخرى ."

وصلنا بعد ذلك إلى الصخرة التى يجرى تقطيع الصخور منها ، وكان محفورا عليها نقوش حميرية بارزة مكونة من عدة أسطر . وعندما بدأت أدون أو أنقل أول نقش من تلك النقوش فاجأنا صوت ، وهنا ينبغى القول : إن أى منظر أو مشهد جديد أو صوت جديد يثير الخوف فى ظل فوضى الصحراء هذه . وهنا تعجب صالح قائلا : "والله Wellah صه hess زلأمى ez-Zillamy(*)؛" وهنا أنتج الرجلان شررا وأشعلا ، على وجه السرعه فتيلى بندقيتيهما الطويلتين ، وهنا إنبرى صالح ، بالرغم من جسمه العليل ، واقفا بعد أن إستعد بأدواته وأصبح جاهزا للقتال مثل الرجال . وهنا سمعنا ، على حد زعمهم ، "حويطانيا قادما نحونا وهو يغنى "؛ وربما كان رفاقه اللصوص

(*) تستخدم هذه الكلمة فى بلاد الشام بمعنى رجل " زلة " . (المراجع)

يسيرون خلفه ، وكانوا قد أخفوا أنفسهم وهذا أمر سهل فى ذلك المكان الوعر . سبب هذا القلق كله ، لم يكن أحد سوى ذلك الزنجى التعيس الذى يعمل خادما مع الشيخ ضاهر ، وهذا الزنجي واحدا من الذين هربوا من خيبر ؛ كان ذلك التعيس قد خيب أملنا ولم يتمكن من اللحاق بنا فى ذلك اليوم ، بل لقد كان دوما معى أنا على هذا الحال ، وهذا هو حال كل الخيابره ، وهذا أمر يؤسف له . اكتشفت أن الصخرة مليئة بالنقوش وأن كل النقوش كانت حميرية ؛ أما النقوش التى كانت فى مدائن صالح فهى نقوش نبطية . كان رفيقاى يذكرانى طول الوقت ، بل وفى كل لحظة تمر علينا ، بأن الشمس بدأت تغرب ، كما كانا يذاكرنى بالخطر الذى قد نتعرض له فى ذلك المكان . نقلت الأساطير الحميرية القديمة كلها ، فيما عدا تلك النقوش التى واجهتنا فجأة ، كما قمت أيضا بزيارة الغرف كلها ، هذه الغرف ليست كثيرة ؛ وفتحات تلك الغرف ، على حد زعمهم ، تظهر على شكل نوافذ مظلمة فى الصخر : بعض آخر من تلك الفتحات كانت تبدو مثل الكهوف البدائية ؛ وقد وجدت فى بعض تلك الغرف غرفة صغيرة وبعض المقابر السطحية البسيطة . وكل قبر من هذه القبور لا يعدو أن يكون مجرد مكان مربع محفور بدءا من المدخل حتى طول الجسم البشرى ، وربما كان ذلك الخط منحرفا فى بعض القبور ؛ وربما كان عبدة النجوم هؤلاء يدعون السماء بطريقة ما فى مقابرهم التى تتجه ناحية الغرب ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى الزنازين (انظر الصورة رقم ٣٣) التى هى أغرب الغرائب ؛ والتى لا تبعد عن البلدة أكثر من ميل واحد ، ومع ذلك فإن أفراداً من العلاونة ، يعدون على أصابع اليد الواحدة ، هم الذين رأوا هذه الزنازين فى حياتهم . فوق تلك الصخورالموجودة فى الأركان البعيده ، وفى منتصف واحدة منها ، توجد بعض الألواح المحفورة ، المنحوت عليها بعض الصور ، التى تشبه صناديق المومياوات فى مصر ، والبدو الرحل يطلقون على هذه الصور اسم 'بنات' benat، أليست هذه المنحوتات (بشكلها البدائى الحالى) لها سيقان عارية ، وأجسام مغطّاة ، ورءوس مغطاة ببشانيق ، وعلى شكل نساء حضريات ؟

فيما بين البنات هناك لوح مربع الشكل معلق فوق سطح الصخرة الناعم ، كما لو كان شاهدا من شواهد القبور ، ولكنه خال من النقوش ؛ وهناك لقب مقطوع بإزميل على الصخرة التى أسفل ذلك اللوح مباشرة ، غير أن الأحرف الحميرية كانت أصغر من أن

أقف عليها بالعين المجردة . وعلى مسافة أبعد قليلا فى تجويف الصخرة يوجد موقعين آخرين لهما طابع القبور ، ومعلق فوقهما لوح يحمل صورة لاثنين من البنات ؛ رأس هاتين البنتين منحوتتين : وعلى حد علمى ، "لا يوجد أى شىء آخر" غير هاتين البنتين . عثرنا أيضا على شكل إنسانى أثرى منحوت أيضا على تلك الصخور ؛ - والعرب فى هذه الأيام لايدرسون حياة البحيرات . كان ساكن الجزيرة العربية القديم يلبس رداء ضيقا يصل إلى ركبتيه ، ويضع فوق رأسه غطاء يستره من أعلى ومن الخلف ومن الجانبين . (ما يشبه الغترة الحالية) . يضاف إلى ذلك أن شخصا احضر لى ، عندما كنت فى قرية العلا ، صورة قديمة لرأس رجل ، وكانت تلك الصورة منحوتة فى الحجر الرملى ، ومن فوق قمة رأس ، أو إن شئت فقل : نافوخ تلك الصورة ، كانت هناك قبعة منخفضة مدببة . وعندما طلب منى ذلك الشخص مبلغا أكبر مما كان فى ذهنى ، وجدت أن من الأفضل رفض دفع ذلك المبلغ . عثرت أيضا ، فى أنقاض الخريبة ، على لوح أثرى لا يزيد عرضه على أربع عشرة بوصة ، فيه بعض الأوعية المجوّفة ، وربما كان ذلك اللوح ماصه لواحد من الصيارفه (الصورة رقم ٣٤) وربما كان أيضا ماصة من ماصات تقديم القرابين أو الذبائح : وقد شاهدت أيضا ثلاثه أو أربع ألواح من هذا القبيل مركبه فى جدران منازل البلده .

هذا يعنى أن طريقة البناء فى الخريبة ، وكذلك طريقة الدفن ، وأيضا طريقة الكتابة تختلف عن مثيلاتها فى قريه الحجر التى لا تبعد عنها سوى عشرة أميال فقط !

عثرنا فى الرمل الذى كانت ضبعة من الضِّباع قد مرت عليه مؤخرا على حفرة : سألنى صالح إن كنت أعرفها أم لا . ولقد سبق ، فى كثير من الأحيان ، رؤية مثل هذه الآثار الحيوانية فى هذه المناطق ، وفى سيناء ، ولكنى لم أر مثل هذه الآثار فى الأراضى المرتفعة من الجزيرة العربية (نجد) : وحيوان واحد من هذه الحيوانات التى تجوب الأرض يمكن أن يخلف وراءه ، فى ليلة واحدة ، آثاراً لأقدامه فى سائر أنحاء منطقة كبيرة . هذا النوع من الحيوانات لابد أن يكون قليل العدد لأنها تعيش فى بلاد الحياة فيها شبه معدومة . يتحدث العلاونة حديثا طيبا عن الأساطير الحميرية ويقولون إن "النقوش الحميرية تشبه الحبشى "The Habash (أى الكتابه الحبشية) . وقد استوقفنى أحد المتشددين ذات مرة فى الشارع ليقول لى : إن لديه فى منزله كتابين

مكتوبين بهذه الحروف ! ولم أستطع إقناعه بإطلاعى عليهما ، نظرا لأنه لا يمكن أن يتسبب فى إسعاد كافر من الكفار .

حدثنى القرويون والبدو الرحل عن موقع أثرى فى تلك المناطق ، وهم يطلقون عليه اسم 'المُبيَّط' . el-mubbiat هذه الكلمة فى صيغة الجمع ، وربما تدل على مواقع العديد من الكفور والهجر الأثرية فى واحة من الواحات ، وهم يقولون أيضا إن هناك كنوزا مدفونة فى هذه المنطقة ، وأن تلك المنطقه كانت تشكل فى الماضى واحدة من البلدان الرئيسية . هذه الأرض التى تبعد مسافة ستة أميال عن قرية العلا ، عبارة عن سهل عامر بأشجار السنط ، ويفصله عن وادى القرى شريط جبلى ضيق : والأرض فى هذه المنطقة عباره عن غرين وقاع طينى تعلوه قشرة من الملح . "البخور" موجود فى هذه المنطقة ، كما يوجد فيها أيضا عظاما بشرية ، كما هو الحال فى مدائن صالح ، كما يوجد فيها قطعا مكسرة من الخزف ومن الزجاج أيضا الذى على شكل خواتم ، "كما لو كان ذلك الزجاج والخزف المكسر بقايا من أساور النساء ." شاهدت أيضا بعض المنازل الطينية الأثرية ، وقلة قليلة من المنازل المصنوعة من الطين والحجر ؛ ولكن حسبما صارحنى صالح ، ليست هناك غرف محفورة فى الصخور أو نقوش منحوتة عليها . أبلغنى ضاهر ، شيخ القرية ، أنه سوف يرسلنى إلى تلك المنطقة ، ولكنى وجدت أن ذلك خارج نطاق الهدف المحدد . كان البعض من بدو أولاد على قد عثروا على قطع من النقود فى المُبَّيط ، وبلغنى أن الكتابة التى كانت عليها كوفية "لا إله إلا الله" : وأنا أرى أن الجزيرة العربية خالية من التقاليد الطويلة ، وأنا لم أعثر على أى شىء فى هذا البلد له علاقة ببلدة قورة Korh، التى أتى على ذكرها بعض الرحالة المسلمين . وسألت بين كل البدو الرُّحل عن هذه البلدة ، ولكنى لم يصلنى أو أسمع شيئا عنها ، يضاف إلى ذلك أن من يقرءون ويكتبون فى قرية العلا ليست لديهم أيه فكرة عن ذلك الاسم . كنت أتطلع بصحبة محمد على إلى مشاهدة تلك الأرض الجرداء التى تمتد جنوبا إلى الزُّمَرُّد ؛ وبخاصة أن محمد على كان ينتظر وصول أوامر له بزيارة تلك القلعة الأثرية . وفى الوديان الجبلية التالية وفى اتجاه المدينة (المنورة) توجد مواقع أثرية ليست بالقليلة ، وهى عبارة عن آثار لقرى جيدة ؛ وربما تكون هناك نقوش كثيرة منحوتة فوق أحجار هذا البلد الرملية .

تستقبل الحدية Hedieh، أحدى قلاع الحج فى وادى حمض Humth مياه السيول التى تجىء من خيبر . وفى أقصى الجنوب الشرقى هناك وادى جانبى ينزل هابطا إلى وادى قرّة أو إن شئت فقل مجرى الحمث ، الذى توجد فيه آثار بارزة وملحوظة يطلقون عليها كورة Korh وهذا المكان ، فى رأى البدو ، أعظم من قرية العلا ، والأرض هنا وعرة فيما بين التلال ، كما أن الوادى هنا أوسع قليلا عما هو عليه فى قرية العلا . من يذهب إلى هذا المكان يشاهد مواقع كثيرة من المبانى القديمة ، التى من بينها قلعة مدمرة . وبنى وهاب Wahab لا تشيع بينهم تقاليد قورة(*) ، بالرغم من أن هذه المنطقه ، هى منطقتهم من قديم الأزل . لو كان هذا المكان هو قورة (Korh (Ghorh لنطق أهل هذا المكان هذا الاسم حورة (أى بتحويل القاف إلى جيم) ، أو لفظوه على أنه حورة Jorh (أى بجيم سورية بدلا من الجيم المصرية) ؛ أما أهل هذه المنطقة فهم ينطقون ذلك الاسم على أنه 'قورة' . Korh وفى هذا المكان يقع مسقط رأس الشاعر البطل عنترة العبسى : ذلك الرجل الذى لم يتفوق عليه أحد من البدو الرحل القدامى سواء فى شجاعة الحرب أو أغانى الصحراء ؛ وعنترة هو أحد مؤلفى القصائد الذهبية السبع . وبالقرب من القلعة التالية ، ألا وهى قلعة سجوة Sujwa، هناك جبل يطلق الناس عليه اسم إسطبل Istabal عنتر . Antar على قمه ذلك الجبل ، ترى أعين الناس الخرافية هنا ، 'متجرا'(**) أو إن شئت فقل : مربطا كبيرا ، وكذلك الحلقات الصخرية ، "التى كانت تربط فيها خيول ذلك البطل" ؛ والناس هنا يرون أن قامة عنتره كانت تصل إلى ما يتردد بين خمس وست قامات . أبلغنى الحاج نجم المغربى أنه شاهد فى ذلك المكان ، "خطا حديديا" ؛ هؤلاء الناس السُّذج يصدقون عن طيب خاطر أن التلغراف والخطوط الحديدية انحدرت إلينا منذ بداية الخليقة . والصخر هنا من الحجر الرملى ، الذى تتخلله عروق من حجر الحديد .

(*) قورة : مدينة تجارية ذكرت فى كتابات المؤلفين المسلمين فى العصور الوسطى وكانت تقع فى وادى القرى أعلى المدينة المنورة . وموقعها غير معروف فى وقتنا الحاضر . (المراجع)

(**) المتجر : بفتح الميم وتسكين التاء . مكان يتخذ للتجارة . (المترجم)

تعين علىّ هنا التعجيل بالعودة إلى مدائن صالح ، حتى يتسنى لى تدوين أو نقل النقوش المدونة على شواهد القبور ، وأنتهى تماما من هذه العملية . وقد وافق الشيخ ضاهر ، شيخ القرية ، أكثر من مرة ، على توصيلى إلى مدائن صالح مع البدو الرحل الذين يجيئون للتسوق ، ولكن أولئك البدو كانوا يخيبون ظننا عند الرحيل . وهنا راح ضاهر يؤنب ويلوم بمنطقه الحضرى أولئك البدو ، الذين لم يرى فى أعينهم أى أثر لمفعول سلطته على القرية ، قائلا لهم : "اسمكم البدو" . يضاف إلى ذلك ، أن الحضر ، فى بلدة العلا ، يعاملون أولئك البدو المهلهلين الذين يأتون إلى هذه البلدة ، معاملة جافة وخشنة . كان ضاهر متدينا أكثر منه رجلا طيب القلب ؛ كان محيا ذلك الرجل الأسود الذى كان يتغير خلال لحظات ، هو وضعف سلطته مصدر قلق لى ؛ لم أكن أعلق مطلقا أى أمل على الشيخ ضاهر . سألت ضاهر ، إن كان قد سافر إلى بعض البلدان ، وبخاصة دمشق ؟ "رد على ، وما الذى يدعونى أو يضطرنى إلى زيارة الشام ، ألسنا هنا على مايرام ؟"- صحيح أن ضاهر لا يمكن أن يكون إلا حضريا ، إضافة إلى أنه لم تكن هناك حياة تصطبغ بالطابع المدنى أكثر من الحياه فى دمشق . هنا أبلغت من كانوا معى أننى سوف أعود إلى الحجر سيرا على الأقدام . "قال ضاهر : سوف أوصلك إليها أنا بنفسى ، فالبدو 'أقاريط' !" - و'أقاريط' هذه كلمة خسيسة من كلمات المدينة (المنورة) إذا ما جاءت على لسان الأمناء الأوفياء من الناس ! وعندما سمع صالح خبر رحيلى ، سألنى ، فيما بيننا نحن الاثنين ، إن كنت قد توصلت عن طريق الحدس ، إلى أن الفرصة كانت مهيأة للقيام بالرحلة فى ذلك اليوم ؟ وعندما سألته عن فنه هذا الخاص بالرجم بالغيب "رد علىّ قائلا : ماذا تقول ! ألا تعرف ذلك الفن ؟ تسألنى كيف ، عن طريق رسم خطوط معينة فى الرمل ! والناس هنا يكثرون من استعمال هذا الفن هنا فى قرية العلى ." طلب منى الشيخ ضاهر العودة إذا ما استقبلنى عسكر القلعة إستقبالا فاترا ، لكى أمضى معه بضعة أسابيع قليله كانت متبقية للحج ؛ ومع ذلك تمنى لنا كلنا السلامة متهكما وبكلام لاذع ؛ ومعروف أن ذلك التهكم هو والكلام اللاذع كانا سببين من أسباب متاعب الشيخ ضاهر ؛ "رحم الله والد محمد على ، ورحم الله الإمبراطورية العثمانية ، ورحم الله أيضا أبا بلد خليل !" كانت لدى الشيخ ضاهر ستة بنادق جاهزة ، ولذلك أوفد معى ولده ليرافقنى إلى منطقة الآبار ؛

كما جاء خادمه الزنجى التعيس الخيبرى ، راكبا جحشا صغيرا ، حمّل متاعى على ظهره . فى الخربة إنتحيت جانبا حتى يتسنى لى تدوين ، أو إن شئت فقل : نقل النقوش المنحوتة ، التى سبق أن أدهشتنا من قبل (الوثائق الخاصة بشهود القبور اللوحة رقم ١٥) التربة هنا من النوع الغرينى الجيد ، ووجدنا الأحجار هنا مرصوصة بطريقة كل حجرين معا بالطريقة القديمة . وهنا تعجب رفاقى قائلين : "عجبا ! تلك كانت علاماتهم الأرضية القديمة ، ونحن لم نلق لها بالا من قبل !" وبعد أن عادوا ، واصلت أنا مسيرى مع الخيبرى . وبعد مسير استمر ثلاث ساعات فى أرض جرداء قاحلة ووعرة ، وصلنا إلى مقدمة ساحل الحجر ، حيث بدا جبل إثلب من أمامنا ، هذا الجبل عبارة عن قمم جبلية مدببة ؛ وسرعان ما استطعنا تمييز الصخور (التى يطلق العلاونة عليها اسم جبل شاخوناب **Shakhûnab**، بالرغم من أن هذا الاسم يطلق ، فيما بين البدو الرحل ، على الجبل الذى يقع شمال المزحام **The Mezham**) بعمارتها المنحوتة المدهشة ، كما شاهدنا أيضا البرج وقلعة طريق الحج .

طلبت ، فى الصباح ، من محمد على استبعادى طوال تلك الليلة ، إذ كان الوقت أقل من المطلوب لتنفيذ مشروع مدائن صالح . وأنا ، فى حديثى معه ، لم أتكلم صراحة عن هذه الرغبة . ولكن مبلغ علمى أنه فهم ما أقول . "أظن أنك لم تنس أنك أعطيتنى وعوداً محددة !"- "سوف أعطيك البندقيه مرة ثانية ." حدث ذلك فى غرفتى : نهض محمد على واقفا ومحتداً وغاضبا ، الأمر الذى أدهشنى كثيرا ، ثم اتجه إلى غرفته ليعود إلى غرفتى مرة ثانية ومعه البندقية ، ثم أدار ظهره لى وتركنى وحدى . وهنا أعدت البندقية ثانية ، فى شىء من الود ، ووضعتها عند باب غرفته ، - "أخرج من هنا ! " قالها ذلك الشقى غير المتحضر وهو يصيح ، ثم قفز بعد ذلك وأمسك بتلابيب عباءتى (بشتى) : وبينما كنا فى الطرقة فاجأنى ذلك الوغد المغربى بأن صفعنى على وجهى وبكل قوته ، الأمر الذى جعلنى أشرف على السقوط فى الفناء الذى كان أسفل منى ، ثم صاح محمد على بصوت ينم عن الوحشية قائلا : "ألم تعرفنى بعد إلى الآن ؟" ثم اتجه بعد ذلك إلى القهوة (المقهى) ، وتبعته أنا إليها ، ولاحظت بعض البدو الرحل ، موجودين داخل القهوة ،- ومعروف أن البدو الرحل ، الذين يتابعون مسألة الدين فى الصحراء يكرهون الغضب والتصايح المحلى . قلت لهؤلاء البدو : "يارُبَّاه (أيها الرفاق)

أنتم شهود على ما يفعله ذلك الرجل ." نظر البدو إلى وهم مذهولين ، إذ إن مسألة ممارسة العنف على الضيف أمر فظيع عند هؤلاء البدو ، لأن الضيف هو ضيف الله . وهنا اشتد غضب محمد على وأصابه مس من الجنون وراح يرتعش ويهب واقفا فى مكانه ، ليضربنى من جديد عند مدخل الغرفة ، بكل قوته الجبروتية التى تشبه قوه النمر ؛ وبينما كان يكيل إلى الضربات أمسكت برسغيه وأحكمت يداى عليهما بشده . "قلت له : ها أنا أمسك بك ، أو يجب أن تعرف أنى رجل قوى ." ناضل محمد على محاولا تخليص نفسه منى ، وسقط الطربوش التركى ، أحمر اللون من فوق رأسه ، وهنا اشتد غضبه ثانية بسبب هذه الإهانة الجديدة ، واستطاع تخليص نفسه منى . هذا القائد العسكرى القيم الذى يقود جنوداً مشاكسين كانت له قوه قصاب من القصابين خلال فترة زمنية قصيرة ، ومبلغ علمى أن ثلاثة من الرجال المسالمين لم يكونوا كافين للإمساك بذلك الرجل والسيطرة عليه خلال ثورة غضبه تلك ، وفيما يتعلق بحرس القلعه الذين لم يكونوا يحبون محمد على حبا جما ، فقد وقفوا بعيدا عنا إلى جانب الحاج نجم وكأنهم كانوا يتشككون فى كل ما يجرى ، وهم يعلمون علم اليقين أن الأمر بإهدار دمى إنما يكون على أيديهم وبأمر من باشا الحج . حاول البدو الرحل ترضية محمد على عن طريق الكلام الطيب فقط ، ولم يجرؤ أى أحد منهم على التدخل فى الأمر ، فيما بين الأغا والنصرانى .– تبا ! والله ! صاح ذلك وهو يقول : سوف أقتلك حالاً ." ولو قدر له أن يكون فى حزامه آلة حادة أو مسدس لفعل ذلك على الفور ؛ لكن هذا الوغد المشاكس جذبنى من لحيتى ، وراح يلفنى هنا وهناك ، فى شكل اعتداء سافر . عند هذا الحد هدأت موجة الغضب فى جسم هذا الرجل المريض ، كما شعر بالارتباك إلى حد ما عندما لاحظ نظرات الناس من حوله ، وبعد أن رأى دم النصرانى يسيل ، ذلك النصرانى الذى أوكل باشا الحج أمره إلى محمد على ، وهنا عجل بالدخول إلى القهوة (المقهى) مرة أخرى فى حين تركت أنا المكان . تأثر كل من كانوا فى القلعة بما حدث لى ؛ يضاف إلى ذلك أن الحاج حسن الذى كان يتباهى بنفسه تأثر تأثرا شديدا بما لحق بى أو إن شئت فقل : بما أنزله بى محمد على : ولكنهم جميعا كانوا من أصحاب السوابق فى قتل الغير، يضاف إلى ذلك أن ذلك الأغا (محمد على) كان هو المسئول عن صرف الرواتب العسكرية ، وبالرغم أيضا من أنه كان يقتطع

لنفسه جزءا من رواتبهم ، إضافه إلى كونه أيضا من الأمة المغربية مثلهم ومن دينهم أيضا . لو قدر لمحمد على أن يصب علىَّ جام غضبه مرة ثانية ، وإذا ما تهدد الخطر حياتى مرة ثانية ، فلابد من اللجوء إلى مسدسى مرة ثانية دفاعا عن نفسى ، ذلك المسدس الذى كان ينطوى ، وهذا لم يكن معروفا لهم ، على أرواح ستة من أولئك القتلة العرب ، الذين انهالوا مثل الكلاب على غريب فى بلادهم : هذا يعنى أن حياة هؤلاء أصبحت مقابلا لحياتى أنا وحدى . ومثلما يصحو الإنسان ، فى بعض الأحيان ، على أثر حلم من الأحلام الفظيعة ، كان لابد لى من اختراق ذلك الضرر ، أو تجاوز ذلك الضرر البالغ وأنا فى طريقى إلى الصحراء ؛ ولكن حياتى دُفع فيها ثمنا باهظا ، عندما تحتم علىَّ المضى قدما فى تجوالى ، فضلا عن أن ارتكاب القتل الخطأ ، لايمكن أن يساعدنى أو يعيننى فى هذه الأرض الجرداء المعادية . وبدأ يتضح لى أن كل المتاعب التى لقيتها فى الرحله بدءاً من سوريا بدأت تضيع وتنتهى ، نظرا لأنى لن أعانى ، مرة ثانية ، من ذلك العنف الذى أصابنى ، جاء البغل محمد على واقترب منى عندما كنت جالسا فى هدوء أقرأ أمام باب غرفتى ، وطلب منى بلغة فظة ترك ذلك المكان ، وآخذ أغراضى معى وانتقل إلى الليوان(*) ، أو إن شئت فقل 'الإيوان' ، والليوان هذا عبارة عن غرفة بها عقود فى اتجاه الشمال على الطريقة الدمشقية ، وفى هذا الليوان يجرى وضع وجار القهوة فى فصل الصيف ، ولكنه حاليا فى منتهى البرودة أثناء الليل ، وبخاصة فى فصل الشتاء ، وفى هذه المنطقة المرتفع . ترتب على ذلك ، أن أعطى محمد على ، غرفتى لشخص آخر، وبذلك تعين على الانتقال إلى زنزانة ذلك الرجل الباردة ، التى كانت قريبة من البالوعة ، ومعرضة للروائح التى تنبعث من تلك البالوعة (المجارى) عندما تهب الريح على القلعة . بعد ذلك ، أوفد محمد على الشاب محمد الصغير ليطلب منى مرة ثانية ، على سبيل الرهن ، تلك البندقيه التى سبق تركها فى مدخل بابى ، وهنا حملت النبدقيه واتجهت إلى محمد على : كان يجلس فى ذلك الوقت فى غرفته مطرقا ويحملق فى الأرض .

(*) الليوان : كهف صناعى مفتوح من الخارج برواق كان يستخدم كمكان للصلاة أو الاجتماعات . (المراجع)

ذهبت فى العصر إلى القهوة ؛ حيث كان الحاج نجم هو ومحمد على يجلسان فيها . وهنا يتعين على تأكيد ما وصل إليه الأمر ، وتبين ما إذا كان بوسعى العيش معهم فتره أطول فى القلعه ، أم أن الأفضل لى هو الانسحاب والعودة إلى قريه العلا . وهنا وضعت أمامهما 'بيورلدى' biuruldi (*)، أو إن شئت فقل : جواز سفرى مستدير الشكل ، الذى حصلت عليه من أحد حكام سوريا السابقين .- "عجيب ! عندى من هذا ثلاثين فرمانا إحتفظ بها فى منزلى ."- 'ألست واحدا ممن يخضعون لإمبراطورية السلطان ؟'- "أنا لا أهتم بشيئ . ولا أخشى أى مخلوق . نحن هنا اليوم مغاربه ، وغداً سنكون مغاربه أيضا فى مكان آخر ، وسواء أكانت الدوله هى إسطنبول أم Mambûl فهى لا تعنى لنا شيئ ؟"- "وهل تستطيع أن تضربنى فى دمشق ؟"- "والله العظيم ، الناس يضربون ويقتلون كل يوم فى الشام - عجبا إنجليزى ، أو عجبا ! فرنسى ، أو عجبا ! عثمانى ، هل تود لى أن أتذكر هذه الأسماء فى أرض الأعراب ؟"- "أنت ، فى أضعف الأحوال تحترم السيد es-Seyid (عبد القادر(**)) وتوقره - وإذا ما قدر لى أن أقول له ذلك فى يوم آخر !"- "السَّيد لسعة غضبه أقوى من لسعة غضبى : ترى من الذى عنده لسعة غضب أقوى من لسعة السيد ؟ هل هو الحاج نجم ؟ الله ، فى الشام لا يوجد غير السيد ومحمد على (نفسه) . (قال متفاخرا) لدى هناك ، فى الشام سبعمائه بندقيه !" - "لقد ضربتنى ، فهل لك أن تقول لى لماذا فعلت ذلك ، ومبلغ علمى أنى لم أسئ إليك بأى حال من الأحوال ." - "والله ، كنت سأقذف بك فى الطرقه ، ولكنى خشيت الله : ولو فعلت ذلك ، ما سأل أى أحد عن أسباب موتك . وقد استنكر قنصلك صراحه أمام والينا (حاكم سوريا) كل الاتهام الخاص بموضوعك ، وقال وهو يتناول قبعته فى يده ، إنك لا تعنى له أى شيئ أكثر من تلك القبعه القديمه ." -"القنصل الذى من هذا القبيل قد يستدعى فى يوم من الأيام ليبرر لماذا فعل تلك الفعله ."- نعم ، هذا صحيح ، وأنا أفهم ذلك جيداً يا حاج نجم ، أفهم أنه كان ينظر إليه من باشاواتنا فى الشام على أنه خنزير (حيوان لا يأكله الأتراك) ، وبالتالى فأنا لا أقيم له وزنا : -

(*) بيورلدى ك كلمة تركية تطلق على الأمر المكتوب بالرسم الهمايونى الصادر من الصدر الأعظم أو من أحد الولاة العثمانيين . (المراجع)

(**) عبد القادر الجزائرى . (المراجع)

يضاف إلى ذلك أن النجاّب Najjab (ساعى البريد) كان قد قام بتوصيل رسائل خليل إلى دمشق .- معروف فى دمشق حاليا ، أنك موجود هنا فى هذه المنطقة ، وبالتالى سنكون مسئولين عن حياتك وسلامتك ." قال الحاج نجم : "نعم ، وهذا واحد من أولئك الذين تُدَمَّرُ من أجل حياة الواحد منهم مدينة من مدن المسلمين ." (ومعروف أن قصف جدة وسوريا بالقنابل كان على سبيل التأديب إبان حياة كل من محمد على والحاج نجم .) "قلت ، انتبه يا حاج نجم ، إن ذلك الرجل ليس على ما يرام فى فهم الأمور ." وهنا بدأ محمد على ، يبدى اعتذاراته بطريقة أقل عنفا قائلا : 'إنه كان خادما للإمبراطورية العثمانية طوال ثلاثين عاما ، وأن الجراح التى فى جسده تشهد على ذلك ؛ إضافة إلى أن محمد على كان رجلا طيبا عندما تعرَّف كل الرجال .'- "كفى ، كفى ذلك بينكما !" قالها الحاج نجم بأعلى صوته وهو يحاول مصالحتنا على بعضنا ؛ وهنا ، بدأ يتظاهر محمد على بالتدين ، وراح ذلك الوغد البشرى يطلق علىَّ لفظ 'حبيب' ! Habib وشربنا دورا من القهوة وانصرفنا أصدقاء .- وعرفت بعد ذلك السبب الأول لكل ذلك الذى حدث ، والذى تمثل فى ذلك الجنَّى التعيس الذى جاء من الخريبة قاصدا ضاهر ، والذى اقتدته بطريقه وقحه وغير إنسانية ليرتاح مدة ساعة واحدة من الزمن ، داخل القلعة ، ويشرب شيئا من القهوة : وعندما ابتعد عنى ذلك الجنى ، بالرغم من أنى دفعت له أجره فى قرية العلا ، طلب منى الأغا إعطاؤه قميصا من القماش . وقد أدى ذلك إلى إغضاب المخ التركى الذى يفكر به محمد على ، الذى ظن أن ذلك الجنى لم يأخذ حقه أو أجره كاملا منى :- والأكثر من هذا ، وهو ما جعله يصل إلى هذا الحد فى معاملتى ، أننى طلبت من البدو الرحل أن يكونوا شهوداً على ما فعله معى محمد على . وعندما سأله ، فيما بعد ، بعض هؤلاء البدو الرحل ، عن الأسباب التى دفعته إلى ذلك قال كاذبا : 'هذا الخليل ، قد أطاح بقبعته (طربوشه) الأحمر ;- وبالله لقد أتعب النصرانى رسغى محمد على عندما أمسك بهما ، إلى حد أنه عجز عن رفعهما إلى السماء أثناء الصلاة على امتداد عدة أيام بعد ذلك ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ذلك الوغد تفاخر وتباهى أمام هؤلاء الذين لم يكونوا يودون سماعه ، إنه 'جذب خليلا من لحيته .'

مرت تلك العاصفة ، بلا أحداث سيئة ، وهنا بدأ كل من كانوا فى القلعة يضعونى فى عين اعتبارهم ؛ وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، وبعد أن تركوا وراءهم

فرداً واحداً يقوم بتشغيل ماكينة المياه ، قام الجميع مع كل من الحاج نجم ، ومحمد على راكبا حصانه ، بمرافقة النصرانى فى التجوال بين الآثار ، ولم يفطر الجميع إلا عندما أوشكت الشمس على الغروب ، وفى الأيام التى تلت ذلك ، كان يرافقنى البعض منهم صبيحة كل يوم . اشتريت من الحاج نجم عارضة من خشب الإثل كانت تستخدم فى أحد الآبار ، وجرى إحضارها من قرية العلا : وأحدث الرجل العجوز (الحاج نجم) حزوزا(*) حتى يمكن الاستفاده منها فى التسلق والصعود والنزول ، ثم جرى نقل هذا السلم النقالى على كتفى اثنين من الرجال إلى منطقة البيبان ، وكان يجرى نقل ذلك السلم من أثر إلى آخر كلما تطلب الأمر ذلك . صعدت فوق السلم وبصحبتى فروخ كبيرة من ورق الشفاف ، والماء ، وفرشة دهّان ، إضافة إلى قطعة من الإسفنج ، حتى يتسنى لى شَفُّ النقش . أعطانى ورق الشفاف المبلل بالماء طابعا رقيقا وأمينا (كانت ترى فيه كل حبة من حبات الرمل) لكل من اللوح الحجرى وكذلك الحروف . كان الحاج نجم نفسه يرافقنا كى يسند لنا عارضة الخشب (السلم) ، (حتى لا أسقط من فوقها ،) وبخاصة أنه قال إنه وقعت له أحداث كثيرة من هذا القبيل . استطعت خلال أيام قلائل شف كل النقوش التى لم تكن على ارتفاعات عالية فى واجهات الآثار ، (انظر الصورة رقم ٣٨,) ومضينا قدما فى شف بعض النقوش الأخرى فى الوقت الذى كان يجرى فيه تجفيف الفروخ الورقية السابقة . أثناء العودة من تلك الأرض الجرداء ، كان المنظر جديدا علينا جميعا ، أن نرى أن الآثار المحفورة أو الغائرة على شكل تحفة أثرية تحت منحدر جبلى شاهق ، وقد تعلق الورق الأبيض من فوقها فى ضوء الشمس كما لو كان فراشا أبيضا ؛- ولكنى عرفت أنهم أضافوا إليها ، فى أضعف الأحوال ، لغزهم الغريب القديم ! شواهد القبور هنا غير متحللة تماما ، بعض آخر منها تأثر بفعل الطقس وبمرور الزمن . وأسعدنا الحظ بإنهاء أو إنجاز العمل المطلوب ، ومع ذلك تبقى أكثر من نصف الألواح التى كانت تحمل نقوشا ولكنها كانت أعلى بكثير عما يمكننى الوصول إليه .

(*) واحدة حز ، وهو نوع من التثليم فى طرف قطعة من الخشب . (المترجم)

توقف خروجنا فى الأيام التى تلت ذلك بسبب حادث سعيد فى الجزيرة العربية يتمثل فى سقوط الأمطار . كان هناك سديم يميل لونه إلى الزرقة ، يغطى كل حدود الحرّة ، وهنا أرعدت السماء المضطربة ؛ وعندما داهمتنا قطرات المطر ، راح العرب يحمون بنادقهم الفتيلية تحت بشوتهم (عباءاتهم) الكبيرة ، وأخذوا يجرون فى اتجاه القلعة . بدأت الريح تهب أسفل السحب ، وراح الوابل يتساقط ، واستمر سقوط المطر إلى ما بعد دخول الليل . وهنا قال العرب : "الحمد لله ، سيزيد السمن هذا العام ." وفى الصباح أمطرت السماء أيضا ، ومن برج القلعة شاهدنا الصحراء الجافة وهى تنبعث منها أصوات طرطشة الماء ؛ وبالرغم من كل ذلك لم يفض سيل الحجر ؛ إذ لم أجد سوى قلة قليلة من برك مياه المطر العذبة ." – قالوا عندئذ ، ياليت يحمينا الله من الجراد !" الذى قال عنه المسنون منهم إنه قد يعود فى ذلك العام : هؤلاء المسنين لديهم إعتقاد مفاده أن بيوض الجراد من السنوات السابقة تفقس فى الأرض بعد سقوط الأمطار . أما السمن ، الذى هو ثروة الصحراء ، كان يباع بعد فترة طويلة من الجفاف بواقع ريال واحد لكل ثمن جالون ، وذلك فى قرية العلا .

ولكن ماذا عن ذلك الطائر المنحوت على واجهات الأقبية والسراديب التى تحفظ فيها رفاة الموتى ؟ [انظر الصورة رقم ٣٥]كان من بين أفكار العرب عبدة الأوثان ، أن الروح كانت تخرج من مخ الإنسان على شكل طير جائل ، وهى تشكو ، وسط ذلك العطش ، من الأخطاء التى لم يجر التكفير عنها ، ومن هنا كان الأصدقاء يسكبون على قبور أصدقائهم النبيذ إكراما لأرواح أصدقائهم . وهم يقولون لذلك الطائر "الطير الأخضر" ، وبعض آخر من العرب يقولون إن ذلك الطير عبارة عن بومة أو نسر . ومعروف أن عمر النسر يقدر بحوالى ألف عام ، وذلك نقلا عن تراث الساميين وأعرافهم . وفى سوريا عثرت على بعض المسيحيين الإغريق (اليونانيين) الذين أقروا تحت ذلك الطير على هذه الشاكلة ، "سيجدد شبابه مثل نسر من النسور ." هذا الطير الأثرى يجرى نحته دوما . كما لو كان يستعد للطيران ، بأن يظهر جناحاه مفرودان أو شبه مفرودان .

منحوت فى جدول قلة قليلة من الآثار ذات حليات مثلثة الشكل موجودة فى أعلى البناء ، وبخاصة فى صخور قصر البنت ، ومنحوت أيضا شكل عام (شبه مستهلك)

لتمثال عبارة عن وجه بشرى (انظر الصورة رقم ٣٦) . وبعد أن وقفت على السلم العارضة ، أسعدنى الحظ بأن أصبحت قريبا جداً من أحد تلك الأشكال العامة هو الوحيد الذى بقى سليما ولم يلحق به الضرر ؛ ونظرا لأن الكرانيش المنخفضة المنحوته كانت تشكل عائقا ، فلم أستطع تمييز ذلك الشكل العام من الأرض . اكتشفت أن رأس ذلك التمثال كانت تشبه القناع الكوميدى ، وكان لها أنف أفطس وذقن غير كثة من حول وجه يشبه الشمس . هذه الصورة القبورية (*) كانت تكشر عن أنيابها وتبرز لسانها . وكان شعر ذلك الرأس يتدلى فوق الأذنين مثل "قرن" طويل ، أو إن شئت فقل على شكل خصلة شعر البدو . والإنسان إذا ما نظر إلى هذه البرقة ، قد تخطر على باله من جديد كلمات (النبى) إشعياء ، أحد كبار أنبياء اليهود عندما يقول : "ضد من فغَرْتَ فاهك ، وأخرجت لسانك ؟" استدعيت رفاقى الذين صعدوا السلم الدعامة من بعدى ، وبعد أن ألقوا نظرة على الساخر الحجرى العجوز ، واستهزءوا به مرة ثانية ، نزلوا من السلم وهم يضحكون بصوت مرتفع ويتعجبون .

الشرق السامى هو أرض المقابر ، وسوريا ذلك البلد المكون من الحجر الجيرى ، ملىء بالمقابر ، المحفورة تحت كل جانب من جوانب التلال . هذه المقابر تحولت فى الوقت الراهن إلى مراحات وإسطبلات للرعاة ، ومنها ما تحول أيضا إلى أوكار للمخلوقات البرية ، "ملوك ومستشارو الأرض بنوا تلك المقابر لتكون أماكن قاحلة ومهجورة" ؛ ولكن (النبى) إشعياء سخر فى زمنه من "مساكن الموتى" هذه .– هذه هى أراضى عقيدة البعث ، هذه الأراضى هى باميرا ، وبيترا Petra، والحجر Hejra، التى تقع على طرق البلدان الصحراوية ، كانت كلها عبارة عن واحات للزراع أكثر منها محطات للقوافل . فى كل هذه البلدان يشاهد المرء الكثير من المقابر الفاخره ، كانوا يستعملون المبانى الطينية ليمضوا فيها حياواتهم القصيرة ، كما كانوا يستعملون الأحجار والأعمدة المربعة للإشارة إلى حياة الدولة . ومعروف أن الاهتمام بالقبر ، وكذلك الوقوف على فناء الإنسان ، من أجل الوصول إلى الخلود كلها كانت أمور لا يرقى إليها الشك فى الأديان القديمة ، أو إن شئت فقل الأديان الخالية من الضعة

(*) نسبة إلى القبر . (المترجم)

والهوان وإجمالى الغرف الجنائزية فى مدائن صالح ، لا يزيد من وجهة نظرى عن مائة غرفة . هذا يعنى أن حوالى مائة أثر لحوالى مائة أسرة من أجيال عدة لا يمكن اعتبارها إشارة إلى مدينة عظيمة . ومن هذه المعطيات يمكن لنا تقدير عدد السكان العرب بما يقدر بحوالى ثمانية آلاف نسمة ؛ أى بما يقدر بعدد سكان بلدة عنيزة فى هذه الأيام ، والتى تعد عاصمة لنجد .

طبقا للدين الجديد يجرى لف الميت فى قميص من القماش البفتة الأبيض (وهذا ينطبق على الجميع بدءا من الأمراء إلى أفقر الفقراء ، وبدءاً أيضا من القرويين إلى البدو المترحلين ،) ثم يوضع جثمان الميت فى حفرة ضحلة من الأرض الجافة ، ويضع أصدقاءه فوق قبره رأسا (شاهدا) من كتل أحجار الصحراء . حزقيال يتحدث عن دفن الأمم القوية العاتية فى جهنم حيث يقول : جهنم ، حفرة القبر ، هى بعمق الأرض ، مملكة الموتى ، القبور متوزعة (كما رأينا فى مدائن صالح) فى أركان الحفرة من حول حوض جنائزى (الذى هو هنا الأرضية الموجودة فى الوسط) . ونحن نقرأ عند إشعياء أشياء من هذا القبيل : "سوف تؤخذ بابل إلى جهنم ، إلى جوانب تلك الحفرة ." مسألة الدفن فى جوانب الحفرة ما هى إلا استعمال خرافى جاء به سكان الجزيرة العربية القدامى وربما كان ذلك خوفا من الضبع . كيف كان الموتى يوضعون فى المقابر فى الحجر ؟ لقد عثرنا على البخور أو مادة تشبه التوابل ، وعثرنا أيضا على قماش التكفين ، وبعض اللفائف الأخرى ، كما عثرنا أيضا على أكفان من الجلد ، فى بعض الآثار : لم نجد سوى انجرافات رملية عميقة فى السواد الأعظم من الأماكن ، بل إننا لم نشاهد عظاما على الإطلاق ؛ يضاف إلى ذلك أن أرضية الغرفة فى كثير من تلك المقابر لم تكن سوى مجرد صخر ليس إلا ، ومن المحتمل أن يكون أهل الحجر قد دفنوا الموتى مثلما كان يفعل اليهود فى ذلك الوقت (راجع يوحنا السورة ١٩ الآية ٤٠) ولوقا السورة ١٦ الآيه رقم ١) ، حيث كانوا يعطرون الجثث ، كما كانوا يلفون الجثه بعدة لفائف من أنواع مختلفة من الكتان (عثرت على ثلاثة من تلك اللفائف ، بنية اللون وتفوح منها رائحة العقاقير التى يستخدمها المُحنطوُن) ومخيطة فى قطعة من الجلد الداخلى المدهون باللون الأحمر ، كما عثرت أيضا على جلد خارجى ، ربما كان جلد ماعز أو جلد جمل ، وكانت مخيطة بخيوط من الجلد ، ومضمخة بالأسفلت (الزفت) .

ولكنى لم أر لحم أية مومياء من المومياوات ، ولم أر أى نوع من الشعر أيضا . وفى البلدان المسالمة يمكن بحث واستكشاف الآثار بتأن خلال متسع من الوقت . وأنا لم أذهب قط إلى ذلك المكان على انفراد ، ولكنى مع ذلك غامرت بحياتى .

كنت فى تعاملى مع العرب أحتقر حرصهم البالغ المشوب بالخوف . وأنا عندما قلت لمحمد على أن غرف تلك القصور كانت مقابرا ، ابتسم ، كما لوكان سهما قد اخترق كتابه المقدس(...) (*) ، وسامحنى فيما قلت ، من منطلق أنه يرانى على أننى فيلسوف طبيعى فى مسألة الدين . قال محمد على "عجيب!" وهو يطيل النظر إلىَّ مسرورا ؛ وقد سبق له رؤية الصخور وهى مليئة بالقبور فى أجزاء كثيرة من سوريا : ويبدو أن الكلمة التى قلتها أقنعت فيما بعد كلاً من أفراد الأورطة السورية وضباط الحاج نجم ، بالرغم من أن قلوبهم الإسلامية كانت تحتقر كفر ذلك المسيحى .

فوق صخرة الحوراء el-Howwâra، التى فى سهل مدائن صالح يكمن كنز كبير (من وجهة نظر المغاربة الموجودين فى القلعة) مخبأ فى غرفة صخرية تشبه البرج الصغير ؛ وهذا الكنز يرعاه ويحرسه عفريت . وهم يطلقون كلمة عفريت على أرواح الميتين الأشرار ، التى تحوم – مثلما يحوم الذباب حول مقلب القمامة – حول أماكن الدفن (المقابر) . والعرب يقولون : إن أخذ ذلك الكنز عملية مميتة ، إذ "سيقاتل الملوك بعضهم بعضا ، وستدمر القبائل العربية بعضها بعضا . وفى ذلك اليوم لن يغيث الصديق صديقه ، ولا الشقيق شقيقه :" حسبما قاله الحاج نجم . كنت قد سبق لى إلقاء نظرة على صخرة الحوراء من فوق الحرّة ، ومن هنا فأنا أقطع وأؤكد أن سطح تلك الصخرة مستوٍ ، وليس سوى حلبة سوداء من الحمم البركانية المتجمدة ؛ منها إلى حوالى مائة قامة (أى ما يعادل ستمائة قدم) (انظر الصفحة رقم ١٢٣) . أكثر من ذلك ، أن الحاج نجم روى لنا عن مجيء أحد المغاربة إلى تلك المنطقة قادما من المدينة المنورة ، منذ سنوات قلائل ، بعد موسم الحج بفترة قصيرة ؛ كان ذلك المغربى فى طريقه إلى سوريا ، وبقى فترة قصيرة فى القلعة . ونظر ذلك الرجل الحكيم فى كتب

(*) وصف غير لائق للقرآن ، يدل على تعصب مذموم من قبل المؤلف للمقدسات الإسلامية رأينا استبعاده . (المراجع)

السحر ، واتضح له أن الثروة موجودة فعلا فوق صخرة الحوراء ؛ ولكنه قال : إنه لن يجرؤ على رفع هذا الكنز . "أنا لا أريد شيئا لنفسى ، وقد وجدت أنه مكتوب أيضا أنه إذا ما أخذ ذلك الكنز ، فسوف تحدث كوارث هائلة ومصائب كبيرة ." هذا المغربى نفسه ، وهذا نقلا عنهم ، بكل معرفته وتراثه الأدبى الأسود ، كان روحا طيبة ، وتصادف أن وصل بعد ذلك إلى بلدة معان ، استقبله الأغا الكردى فى المنطقة استقبالا وديا ؛ وكان ذلك الأغا الكردى قد تزوج من الابنه الوحيدة لمحمد سعيد باشا : وقيل أيضا إن ذلك الضيف الحكيم ، قام من باب احترامه وتقديره لمضيفه ، باكتشاف شىء ما ، قبل رحيله ، فى تلك الآثار القديمة (الحمَّام) ، التى تقع خارج القرية . فقد تسلل الضيف والمضيف فى جوف الليل إلى ذلك المكان ، وملأ ذلك الأغا الكردى الحظيظ عينى خرجه بالنقود التى كانت كلها من الذهب الأحمر ؛ ومع ذلك لم يأخذ ذلك الفيلسوف شيئا لنفسه . "صاح محمد على قائلا : أستطيع تأكيد كل ذلك ، نظرا لأنى فى ذلك الوقت كنت أخدم فى بلدة معان ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، وأقسم أنى رأيت ذلك الذهب ، فضلا عن ثقتى بما قاله الأغا ."

خرافات الشرق رائعة ؛ ومع أن الحقائق قد تكون على ألسنة الكثير من الشهود ، إلا أنه من الصعب تصديقها ، ومع ذلك تظل الدنيا عندهم مليئة بالمعجزات والخوارق . فى الوقت الذى قمت خلاله بزيارتى كان فى سوريا مسيحيان ؛ كان أحدهما شخص غريب ينتمى إلى الديانة الفارسية(*) ، جرى وضعه ، بواسطة الحكومة العثمانية ، بصعوبة بالغة فى منطقة غزة . أما المسيح الثانى ، فقد كان كتلة من الجهل والنفاق الصوفى ، وحالم دينى على المستوى الأكبر . ولما كان ذلك الشخص قد ولد فى ظل الديانة المسيحية ، فقد راح يتقلب بين اليهودية والإسلام ؛ "أخبرنى بصوت مرعب ومخيف ، أن اسم الله منحوت بين حاجبيه ." ويجب ألا يغيب عنا أن تلك الكتابة السماوية كانت باللغة العربية ؛ هذا يعنى أن هذا الرجل كان بين حاجبيه علامات تشبه إلى حد ما النقش الذى يدل على كلمة 'الله' . بهذا النص ، هو يوصِّل إلينا نحن المسيحيين وبطريقة غامضة ، أن اسمه الصوفى كان سماويا ! وأنه هو نفسه كان

(*) من المرجح أن المؤلف يعنى بالديانة الفارسية المذهب الشيعى . (المراجع)

مسيح Messias الظهور الثانى . كان ذلك الشخص من مواليد اللاذقية ، ومن خلال هذا المولد أيضا ، هو والجهل الهمجى الوحشى بالحروف الإغريقية ، وجد فى نفسه شاهداً من شواهد الكتاب المقدس . هذا الرجل تنبأ لهم بثقة شديدة ، أن الوقت قد أصبح وشيكا ، والذى سيتعين عليه فيه أن يتحرك راكبا من سوق الخيول فى دمشق فى طريقة إلى العظمة السرمدية ، وقال أيضا إن كل الأشياء تحققت فيه ، وأن أبناء آدم يتعين عليهم العودة إلى ربهم ، وأن كل ذلك ينبغى أن يظهر بوضوح فى العالم كله . كان ذلك الشخص مسلما عندما يكون بين المسلمين . وقد استمعت إلى نكات المسلمين البذيئة التى تحتقر وتزدرى ذلك الشخص ، سمعت تلك النكات ذات مرة بينما كنت أمشى معه فى الجامع الرئيسى ، وهو يقول (وبخاصة عندما يقابل البسيطات والساذجات من الحريم والنساء ، بالقرب من البوابة) بصوت عال مهمهمًا : "يا لعظمة محمد ! نعم ، أيها الناس ! إنه رسول الله !" كانوا يسخرون منه قائلين : "مرحبا ، يا بنى !" لم يثق المسيحيون بذلك الشخص . بل أننى نفسى سمعت بعض النساء الساذجات ، وهن تخفن وتخشين رجلا على هذا القدر من التصرفات التى يُهْدَف من ورائها إلى التضليل والخداع ، وتطلبن منه أن يتنبأ لهن بالأحداث الخطيرة فى تلك الأيام ،– أو بالأحرى : "هل سيذبح النصارى أم لا ؟" كان ذلك الشخص يتنبأ لهؤلاء النسوه بأشياء مريحة ؛ قال إنهن لن يصيبهن أى أذى ، وأن تلك المتاعب ينبغى أن تنتهى أو تزول فى وقت قريب ، وتسود بعدها مملكة المسيح . يضاف إلى ذلك أن ذلك الشخص ، كان يكشف لبعض المؤمنين الذين كانوا يلجئون إليه فى لحظات معينة ، عن أدلة لبعض المعجزات ، من ذلك مثلا ، أن ذلك الشخص السماوى هو وزوجته كانا يقومان بحركة مهيبة يصليان بعدها على قليل من الماء ، ثم يتلو على ذلك الماء بعض الحكم الصوفية ، ثم يفرد يديه ، ثم يتحول الماء بعد ذلك إلى نبيذ . وقد رأى هذا العمل رجلا مسيحيا ساذجا من الرجال الذين أعرفهم . وذات مرة صادفت ذلك الشخص فى الشارع وطلبت منه أن نيمم السير ، من باب إحسانه هو ، إلى دار المعتوهين ، أو إن شئت فقل : نيمم السير إلى المورستان : ظنا منى أننا قد نستطيع بفضل قوته المستمدة من الله ، شفاء جسم سقيم ، ووافق الرجل على ذلك .– وعندما دخلنا المورستان بعد أن تجاوزنا القضبان والبوابات ، تسلم ذلك الرجل من البوَّاب كأسا من

الماء حمله فى يده ، ثم اقتادنى بثقه إلى هؤلاء المساكين . كان ذلك الرجل قد وعدنى أنه إذا ما عثر على معتوه غاضب وثائر فسوف يعيده إلى الهدوء مرة ثانية بذكر اسم الله فقط : ولكن نظرا لأن كل المعتوهين كانوا هادئين وغير غاضبين أو ثائرين ، فقد اقترب ذلك الشخص من رجل مسكين كان يجلس فى قفص من الأقفاص ، وسأله عن اسمه وعن بلده وعن حاله أيضا . وأجاب هذا السجين الحزين عن كل الأسئلة إجابة جيدة ومتحضرة ومؤدبة أيضا . قام ذلك الرجل الكذاب ، بعد أن صاح قائلا 'الله!' وبعد أن نفخ فى الماء ، ناوله للمعتوه من خلال قضبان القفص ، طالبا منه أن يشرب منه أكبر كمية ممكنة ، وأنه سوف تعود إليه صحته ، بمشيئة الله : وتلقى المعتوه ذلك الماء شاكرا . (قال صانع المعجزات) : ألم ترى ما فعلت ! هيا بنا نعود من حيث جئنا ." وبعد أسبوع أرسل لى ذلك الشخص كلمته السماوية التى مفادها أن حال ذلك المعتوه قد تغير وتعدل وأنه كان على وشك العودة إلى منزله وهو بكامل قواه العقليه ؛ – وألازلت لا أصدقه ؟ ' صانع الأعاجيب هذا ، بعد أن تجول خلال كل النِّحل المسيحية ، وخلال اليهودية ، ثم اعتنق الإسلام بعد ذلك ، على أمل ، كما قال جيرانه المسيحيون ، الدخول مره ثانية فى نحلته الأساسية : كان ذلك بعد أن وضع كل ميراثه الضئيل فى ربًا -usu ary آثم ، عند المسلمين المعسرين غير القادرين على السداد :– وهم بعد أن ابتلعوا خير النصرانى ، احتقروه ؛ والمسيحى لا يعلق أمالا كبيرة على مقاعد العدالة الإسلامية . وبذلك يكون ذلك البائس قد سقط بين مقعدى دينه الطبيعى ودينه المنتحل ، فضلا عن أن معاشه الضئيل انتقل من بين يديه هو إلى أيدى أخرى شرسة الطباع ، وكان ذلك هو مصدر كل أحزانه : هذا يعنى أن ذلك المرتد لم يجد إحسانا لا فى دينه الطبيعى أو دينه المنتحل . زد على ذلك ، أن همس الشعب المسيحى ألصق به ذنبا بشعا . فى أيام الرخاء كان هناك صبى يخدم ذلك المرتد ، وذاع عنه أنه كان يضرب ذلك الصبى ضربا مبرحا . وبعد ذلك بفترة من الزمن ، عندما لم يعثر الناس على الصبى ، تهامس الجيران ، "بأنه قتل ذلك الصبى ودفنه !" فى آخر مرة شاهدت فيها ذلك المتقلب الدينى ، كان قد تحول إلى رجل صامت أكثر حزنا وغما ؛ هذا السكير الكبير أصبح يضع على باب كوخه صليبا كبيرا ، فى الحى المسيحى . قال عندئذ بصوت رخيم : "إنه لم يكن سوى مخطئ وأنكر على وهو يهز رداءه الأسود وقد علا الرعب محياه ، بأن ما رأيته

عليه كان هو مظهره السابق . "لا وألف لا !" وحاول ذلك الرجل صاحب الكلام المعسول أن يقنعني أن "الأمر كله لا يعدو أن يكون مجرد كلام يتشدق به الناس" وجدت ذلك المتقلب الديني منكبا ويكاد يبكي على كتاب ، أخبرني "أنه حكمة عجيبة وصحة للروح ، كما أخبرني أيضا أن نسخ هذا الكتاب كلفه الكثير من المال ." والجدل في ذلك الكتاب يدور حول مخلوقات الله ، وحول الوحوش ، وكيف أن كل وحش وحيوان من الحيوانات (بعد تلك الوحوش والحيوانات التي ورد ذكرها في المزمور ، المعنون "يشكر الله من الأرض ، كل الوحوش والحيوانات ، والأشياء الزاحفة ، والطيور ذات الريش ") يسلم حياة العبادة لله . قرأ عليَّ ذلك الشخص درسه الأخير "عن أصوات المخلوقات الحية " ، وعندما وصل إلى الجمل قلت : "انظر هناك ! كل صوت من أصوات الجمال يشبه اللعنه ، إنه حيوان لعين " وقال ذلك المتقلب : "أنت مخطئ ، هذا الصوت الذي يحدثه الجمل في حلقه إنما هو أنين الجمل وشكواه إلى الله .- انظر إنه مدوّن هنا ! - صلاته من أجل الصبر تحت وطأة الضغوط ، بقدر ما يكون شريكا في متاعب الإنسان ." كما أبلغني جيران ذلك الرجل ، أن القسم الأكبر من إعاشة ذلك الرجل المؤسف المذري ، تتجاوز حدود كيسه ، إلى الأعشاب ، ذلك الغذاء المرطب الذي لديه المتسع من الوقت ليقوم هو بجمعه من الحقول البريه .

وبينما كنت أتجول في فلسطين وصلت إلى مكان أراني فيه المسلمون قبرا للنبي يونس . وقد منعني الراعي الأعمى المبجل الذي كان يقوم على أمر ذلك الكنيس ، من الدخول إلى ما بعد الغرفة الأثرية ، وروى لرفاقي كيف أن شابين متهورين من شباب القرية تجرئا منذ سنوات قلائل ، على الدخول إلى قبر النبي ، "ولكن ، آه ! والله يا سادة ، لقد خرجا من القبر عميانا !" وهنا هز ذلك الشايب الريفي رأسه أسفا مرة ثانية . هنا كان بوسع هؤلاء الأشخاص السذج من الناس ، بعد التركيز على المعجزة ، أن يصطحبوا نصف سكان القرية ليشهدوا على ذلك . ومن الواضح أن الإنسان كلما طال مقامه في زمن الأساطير أو في بلد من بلاد الأساطير والخرافات ، ضعف حكمه وتمييزه . صحيح ومؤكد أنني سمعت أساطير لها قيمتها عن العرب من أفواه كثير من الأوروبين الذين أمضوا فترات طويلة في الشرق . East لقد شعرت مرارا بالعزله والخراب في مسكني ، وأنا أحاول ، في ذلك العالم المعادي ، محاولة جادة : العثور على

دليل أو برهان واحد على أقاويل الناس (شبه العقلانية) التى تتعارض مع منطقى أنا وحدى ؛ وبالتالى ألا يتعين أن أبدو لهم ، وبخاصة عندما أختلف معهم فى الرأى – شخصا منحرفا ومصراً على المضى قدما فى انحرافه ، وغير عقلانى ؟ يضاف إلى ذلك ، أن الكثير من الأشياء العجيبة تتهاوى كل يوم طبقا لعقيدتهم اللهم إلا إذا لم نصدق هذه الأشياء كلها ؛ إضافة إلى أن عالم هؤلاء العرب يبدو لروحك كما لو كان كوكبا آخرا من كواكب الطبيعة . من ذلك مثلا أن سحرتهم الدينين يتكلمون مع الجان ، وهناك الكثيرون من الشهود المؤمنين الذين يؤكدون يوميا الاكتشاف القبلانى(*) للأشياء المخبأة . ولأن العرب مغرمين إلى حد ما بالترقب والتوقع والانتظار ، حتى معى أنا الغريب عنهم ، فقد أشاعوا عنى فيما بعد ، فى قرية تيماء ، أننى أثبت بعض المعجزات . هناك البعض منهم الذين أكدوا بالقسم أن "خليلا شوهد أثناء الليل وهو يرفع الأحجار ، من الوزن المخيف ، ليخرجها من حفرة البئر الأثرية ، وأنه كان يفعل ذلك . بمجرد لمسة واحدة من أصابعه ؛" فى الوقت الذى كنت أنا فيه غارقا فى النوم ، داخل مخيم الأعراب ، على بعد مسافة نصف ميل تقريبا .

وأنا عندما كنت أسأل أى واحد من أولئك البدو الرحل الذين يعيشون فى تلك الحرّة الكبيرة ، عن الفراع أو الوديان الرئيسية ، كان يبدأ فى أغلب الأحيان إجابته بضرب الرمل مستخدما فى ذلك مشعابه ، أو باستخدام أحد أصابعه فى المسحوق الناعم الذى يغطى أرضية القلعة ، كى يوضح لى اتجاه الوديان . وقد أخبرونى أن تلك الأجزاء لم تكن سوى سيل فى وادى جزل Jizzl؛ وقال بعض منهم إنها جزء "من وادى الحمض" el-Humth ؛ ثم قالوا لى بعد ذلك "إن الجزّل والحمض إنما هما وادٍ واحد ." ووادى الحمض ينحدر من خلف المدينة (المنورة) عن طريق الحنكية . ووادى جزل يستقبل الأمطار القادمة من جانبى الحَّرة ، ثم يمتد متجها صوب المنطقة السفلى من قرية العلا فى وادى الحمض ، الذى يتجه غربا من خلال تهامة(**) ، ثم يتجه بعد ذلك

(*) القبالة : هى التعليم النقلى التصوفى عند اليهود (المترجم) .

(**) سميت تهامة بذلك الاسم نسبة إلى " التهم ؛ وهو شدة الحرارة وركود الريح . كما سميت أيضا " بالغور " لانخفاض أرضها . وتمتد منطقة تهامة من السواحل الضيقة الموازية لامتداد البحر الأحمر من اليمن جنوبا إلى العقبة شمالا ، ويحجزها عن داخل شبه الجزيرة العربية سلسلة جبال الشرات التى تعد أعظم جبال العرب . (المراجع)

نحو البحر الأحمر فى المنطقة ما بين الوجه وينبع . ووادى الحمض واحد من الوديان العظيمة – وقد مثلوه بوادى الرماح . (انظر الخريطة التى فى نهاية الجزء الأول) ثم سمعت بعد ذلك فى خيبر أن وادى الحمض يبدأ من نجد فى بلاد أكثر ارتفاعا من منطقة مكة . هذان الواديان الكبيران يصل طول الواحد منهما إلى ما يقرب من عشر درجات ، وهما مثل سائر كل وديان الجزيرة العربية يخلوان من الماء بصورة مستمرة . وقد سمى وادى الحمض بذلك الاسم نظرا لكثرة نمو أشجار وأدغال الحمض الصحراوية ، والتى تعد طعاما جيداً للإبل ، وبخاصة فى منطقة تهامة .

وصل النَّجاب (ساعى البريد) : وأفاد بأن الهدوء يسود دمشق . وقال إنه فوجئ بطقس بارد وضباب كثيف فى أرض Ard الصوّان es-Suwwan، وأقسم لنا ذلك الشرارى Sherary بأغلظ الإيمان أنه لم يكن يرى يديه طوال يومين ، وأنه كاد أن يموت . كان صبى من ولاد Welád على Aly ينتظر مجيء النجاب كى يواصل المسير بحقائب البريد المتجهة إلى المدينة (المنورة) .– وصلت رسائل من دمشق إلى محمد على ، وأوفد الصبى محمد ليستمع إلى تلك الرسائل وهى تقرأ عليه فى قرية العلا ثم يعود لإبلاغ ذلك الذى قرئ عليه . كانوا يظنون أن بمقدورى قراءة البطاقة البريدية ؛ وبينما كنت أتفحص تلك البطاقة فى ضوء وجار القهوه قال نجم " : Nejm قد يكون ذلك سلام وتحية من الحريم ." – "(رد محمد على ، متجها بوجهه صوب نجم قائلا :) منذ متي يرسل الحريم (وهم يحسبون أن مهمتهن فقط هى أعمال المنزل) تحياتهن ؟ ومن هو ذلك الرجل الذى يهتم بإرسال تحية إلى الحريم !"

فيما يتعلق بالحياة العائلية هناك فجوة فيما بيننا وبين العرب ؛ فالعرب يعتبرون حب الزوجة أمر لا يمت إلى الرجولة بصلة . وفى إحدى المرات لمس محمد على هذه المسألة أو إن شئت فقل : ذلك الفارق على مسمع ومرأى منى عندما قال : "أثناء خدمتى فى بلدة معان جاء أحد الفرنجة ومعه زوجته إلى وادى موسى Mûsa، ومعهما مجموعة من الجمال التى كانت محملة بالمتاع والخدم ؛ الأمر الذى جعلهم يبدون لنا وكأنهم من نسل الأمراء . وقام حادى إبلهم بعد أن دخل وادى موسى بتقديم الهدايا لشيوخ الحويطات كما قدم هدية أيضا لشيخ قرية العلجى . ولكن عندما ترك ذلك الفرنجى زوجته لتنال قسطا من الراحة فى الخيمة ، وذهب لمشاهدة الآثار القريبة من

المكان ، سارع بعض آخر من بدو هذا المكان الرحل المهلهلين ، بالنزول من الجبل ، ودخلوا مخيم الفرنجي وهم يصيحون ويحملون العكاكيز في أيديهم ؛ وعندما وجدوا المرأة لوحدها ولم يجدوا من يعترض طريقهم أو يوقفهم عند حدهم ، وضعوا أيديهم السوداء عليها ، وهم يصيحون قائلين : 'فلوس ، فلوس !'– ورجع الزوج على أثر سماع ذلك الصياح والضجيج الصادر عن البدو ، وكانوا قد رأوه أثناء قدومه ، وهنا استل كل واحد منهم سيفه القصير ، واستعدوا كما لو كانوا سيغمدون سيوفهم في عنق زوجته ؛ ولو توقف ولو للحظة ، كي يتبادل معهم التواصل عن طريق الإشارات ، فلربما وصلت سيوفهم إلى حلق زوجته . وهنا استدعى مترجمه وهو شبه يائس وطلب منه أن يعطيهم أي شيء ، بل وكل ما يريدونه . وهكذا يعود ذلك الفرنجي مبهوتا ، ليرى زوجته يائسة ومهجورة بين أولئك الشياطين ، الذين لم يكن يعنيهم سوى أخذ شيء من مال هؤلاء الفرنجة . " وأردف محمد علي يقول : "كم هذا الرجل الفرنجي مفرط في حب زوجته !" كان هذا في رأي محمد علي ، هو سفر الفرنجة أو ترحالهم في البلاد السورية ، – وهذا هو الحب الزيجي المقيت (حسبما قال محمد علي) "في الحياة الإفرنجيه المقيتة أيضا ."

اقترب موعد عوده قافلة الحج ، وبالتالي زادت نسبة الخطر في البلاد . وها هي زوجات بدو الفهجي Fehjy غادرن المكان ذات صباح ومعهن الجمال كي يحضرن حزم الأعشاب والحشائش التي كن يكومنها في الثنيات التي بين جبال الصحراء . لم تعدن تلك الزوجات مع حلول المساء ، ومعروف أن مثل هذه المسافة تسمح لهن بالمجيء والذهاب مرتين على أقل تقدير خلال هذه الفترة الزمنية ؛ وهنا خطر ببالنا أن تلك الزوجات ربما تكن قد ضللن طريقهن وربما يكون الغزاة قد استولوا منهن على الجمال . كانت الشمس قد غربت عندما شاهدناهن قادمات . هذا يعني أن هؤلاء النساء قد تسكعن طلبا للتريض على الطريق ؛ ولكن واحداً من أزواجهن الذي مرت الساعات عليه ثقالا صاح قائلا : "والله ، كل الهموم التي تصيب حياة الرجال هي من فعل الحريم الملاعين !" – ويتعين على الضعفاء تحمل الأحمال كلها ، ويتعين أن يقع اللوم كله على الحريم ، في حياة البدو المترحلين . كان ذلك بائسا مرفها ؛ وهم يطلقون على مثل هذا الرجل اسم فردوس Fardûs، وهو شخص زائف ، مثل العرق الذي ينتمي إليه ؛

شخص من عالم قديم ، كان يتحفنا إلى حد ما بمزاحه البطيئ الذى يشبه مزاح الغجر . ونظرا لأن هذا البائس كان يفهم أن النصارى أكثر صدقا من المسلمين ، فقد جاء إلىَّ ذلك الرجل ليستودعنى فى غرفتى ، وعلى مرأى من الأغا ، ومعه جوالا بداخله معدات الشحاذة ، وبعض النقود . قلت له إنى لن أقبل هذه الوديعة ، إلا إذا أطلعنى على تلك النقود وأرانى فى أى ركن من الجوال يحفظها : وأرانا بالفعل المكان الذى خبأ فيه النقود ، التى كانت عبارة عن ثمانية ريالات كسبها من قافلة الحج ، وكان قد وضع تلك النقود داخل رقعة ركنية عند فتحة الجوال ؛ والبدو يستخدمون ذلك النوع من الجوالات فى نقل الحصى . "قال محمد على : انتبه إلى ألاعيبهم ! الأعراب مكارين !" يضاف إلى ذلك ، أن أرملة مسكينة من عرب البوابة مرت على ذات مرة عندما كانت تقصد الذهاب إلى الصحراء ، وأودعت عندى قدر طبخها الكبير ، إضافة إلى مهرها الضئيل ؛ وفى يوم وصول قافلة الحج جاء حسن إلىَّ ليضع عشر بنادق فتيلية جاهزة للاستعمال ، فى غرفتى ، وذلك من باب الدفاع عن هذا الركن من أركان القلعة ، كما وضعوا عندى أيضا حمولات بعض الإبل ، والتى كانت عبارة عن مخزونات من مخزونات الحج ؛ كانوا جميعا واثقين من أمانة النصرانى . هذا الرأى الذى تكوَّن لديهم عن أمانتى ، من بعد النظرات الشرسة التى تدل على التعصب وعدم التسامح عند الساميين ، كان لصالحى ولمصلحتى فى مناسبات كثيرة فيما بعد ، الأمر الذى أدى إلى قبول كلامى بلا قسم أو حلف فى الجزيرة العربية .

كانت بركة المياه تقف عند مستوى معين ، وذلك من باب تعويض الماء الذى يتسرب من خلال أرضية البركة ، الأمر الذى كان يستوجب تشغيل آلة جلب الماء مدة نصف يوم بصورة مستمرة . حدث ذات يوم عندما كنت وحدى خارج القلعة ، وأثناء عودتى فى ساعة مبكرة إليها ، أن شاهدت كثيرا من البدو أمام القلعة فى حين كانت البوابة الحديديه مغلقة ، وبعد أن تلكؤا فى السماح لى بالدخول ، قال لى حسن : "جوم ، يا خليل ! هؤلاء أعداء ، وما الذى دفعك إلى البقاء خارج القلعة فى مثل هذه الأوقات الخطرة ؟" كان الواقفون أمام القلعة من ولاد على ، وقد أحضروا معهم حملا من الأقمشة أُخِذ من بضائع الحج ، التى جرى إسقاطها من على ظهر الجمل الذى كان يحملها بواسطة البدو الذين سرقوها ليلة أن كانت قافلة الحج قد تجاوزت قرية الأخضر

بمسافة صغيرة فى مضارب بنى عطية . لم يكن بالإمكان التعرف على اللصوص بسبب الظلام ؛ ولكن كان من المفهوم ضمناً أنهم من أفراد قبيلة ولاد على : وقد حتم ذلك على شيوخ هذه القبيلة رد الحق إلى صاحبه الشرعى ، وإلا فإن ثمن هذه البضاعة سوف يخصم من قيمة الصرّه التى سيحصلون عليها فى العام القادم . قام أصغر أولاد الشيخ مطلق ، شيخ ولاد على الكبير ، بإحضار تلك البالات المفقودة ؛ كان ذلك الولد يلبس عباءة (بشت) الحكم حمراء اللون ويتمنطق بحزام عسكرى ، كان يتدلى منه مسدسان قديمان من طراز الحصان . وراح البدو يعدون الأشياء التى كانوا يسلمونها فى القلعة ، وهى عبارة عن سترات للبدل العسكرية ، من النوع الذى يشد بالحزام ، وملابس نسائية زرقاء اللون ، وقليلا من العباءات ، حوالى اثنين وثمانين عباءة ؛ ولكن الأشياء الفخمة كلها لم تكن موجودة . هذه السرقات تحدث كل عام ، ويااليت الأمر لا يمتد إلى اقتطاع بعض الإبل من القافلة أثناء مسيرها فى جوف الليل . فى العام السابق ، قام بنو عطية ، ذات صباح ، بالسطو على قافلة الحج ، التى كان يقودها هذا الباشا نفسه ، واقتادوا ما يقرب من مائتى جمل من جمال القافلة . وهنا قام محمد سعيد باشا ، الذى أمضى حياته منتصرا فى هذا النوع من العمليات الحربية ، بتجميع جنوده وأصدر أمرا بتوقف قافلة الحج : وجرى على وجه السرعة إحضار قطع مدفعية الميدان ونصبها ، ثم قام بإطلاق عدة دانات من تلك المدافع فوق رءوس اللصوص ، ثم أرسل جنوده بعد ذلك لمطاردتهم . وهنا ترك البدو غنيمتهم وتراجعوا ؛ وجرى بعد ذلك إحضار الجمال واستأنفت قافلة الحج مسيرها من جديد ،- واسم محمد سعيد باشا له وزنه فى كل أنحاء الصحراء هنا . وفى العام الذى غادرت فيه الجزيرة العربية ، سطا البدو على قافلة الحج المسافرة فى المنطقة ما بين الحرمين وقتلت (حسبما ورد فى التقارير) عشرين من رجال القافلة ، واستولت على الكثير من الغنائم ؛ كان الأعراب يصيحون أن ذلك السطو كان مفروضا عليهم ، نظرا لأنهم لم يتسلموا مبلغ الصرة كاملا . والمؤكد أنه حدث شىء من التلاعب فى توزيع النقود الحكومية ، وأن بعض الكبار تصرفوا فى المال الذى كانوا مؤتمنين عليه لمصلحتهم الشخصية الأمر الذى أودى بحياة كثير من الحجاج المساكين الفقراء العزّل . وقد أخاف ذلك الضابط التركى العظيم ، إلى حد أنه رفض الحج بطريق البر ، تحاشيا منه لرؤية هؤلاء البدو الهمجيين

الذين اسودت وجوههم بفعل الشمس ، وفضل على ذلك الحج عن طريق البحر على ظهر واحدة من السفن .

أدى الصراخ الذى سمعناه فى جوف الليل ، قادما من خارج القلعة ، إلى إيقاظنا من منامنا فوق الأحجار الباردة ؛ وراحت كلاب البدو الرحل تنبح بأعلى أصواتها ، وهنا راح عرب البوابة يصيحون منادين على من هم داخل القلعة ، وهم يقولون إن غزوا سطا عليهم !' عند هذا الحد جرى حراس القلعة ، فى ضوء القمر الضعيف ، وهم يحملون بنادقهم الفتيلية ، فوق أرض شرفه القلعة . وهنا جاء بعدهم مشجعا لهم ، محمد الصغير ، ذلك الجبان ، الذى كان قد وضع فى موقد القهوة (الوجار) حفنة من الفحم كى يتمكن الحرس من إشعال فتائل بنادقهم . وهذا هو محمد على وقد ارتدى عباءته العسكرية ، ووقف فى باب غرفته ، وراح يصرخ مصدرا أوامره بصوت يشبه صوت الوحش الكاسر ، ويقول : "تعقبوهم أيها الشباب ، إفتحوا النار عليهم ، إفتحوا النار !" ثم سارع محمد على إلى الشرفة العليا ، الأمر الذى جعله يتعثر فى بندقيتى القصيرة وهو فى طريقه إلى رأس البرج . وهنا سمع الجميع أن الأمر قد انتهى وليس هناك ما يخيف ،- أى أن ذلك كان إنذارا كاذبا ؛ وهنا سارع حسن بالنزول ثانية لاستئناف النوم ، وهو يضحك بطريقته المغربية العجيبة . ونزل الحاج نجم وهو يزمجر ، نظرا لأنه لم يكن يرضى عن القيام بمثل هذا التدريب فى جوف الليل ، أو إن شئت فقل : فى مثل هذه الساعة من الليل ؛ ونادى رئيس الحرس نداء مرعبا حمد الجميع الله على أثره بطريقتهم الفجة الخالية من الإحساس .

عاد إلينا فى هذه الأثناء غلام ولاد على الذى سبق أن سافر راكبا دابة إلى المدينة (المنورة) لتوصيل البريد ، وحضر أخوه لمقابلته والإلتقاء به ، هذان الإخوان الحبوبان سوف يقومان بسرقه المواشى . هذان الأخوان لم يكن معهما سوى بندقية فتيلية واحدة ، وعصا لها سن مثلم من الحديد ، راحا يتجولان فى أنحاء المنطقة ، باعتبارهما لصوصا سيارين ، أو إن شئت فقل : حباليص (لصوص ماشية) ، وقد أراد هذان المخلوقان الخرافيان منى أن أنضم إليهما . وعندما رفضت طلبهما هذا وأنا أسخر منهما - ازدادا إلحاحا على إقناعى . قالا لى : "مما تخاف ، بعد أن وجدا أننى جئت إلى هذا المكان بلا خوف ؛ ولما لم يكن معى دابة أركبها ، فلربما كان من الأفضل لى ، وأنا

معهما أن أركب ناقة من النياق . وقد ازدادت دهشتهما عندما أبلغهما الأغا ، وهو يضحك من قلبه ، "النصرانى لم يكن لصا ، وإنه ليس أيضا من أولئك الذين يقبلون ، على سبيل الهدية ، أية دابة مسروقة . قال الأغا ، أنتم ترون أن النصارى أفضل منكم أيها البدو ، نظرا لأنهم يستطيعون التمييز بين الشرعى وغير الشرعى ؛ - أجاب الشابان "نحن لا نستطيع معرفة مدى عدم شرعية سرقة أولئك الذين يسرقونا ؛ وهذا ، فى أضعف الإيمان ، هو العرف السائد بين البدو ." لم يأخذا معهما سوى لفة صغيرة من التمر ، وقربة من الماء حملاها على أكتافهما ؛ ثم رحلا بعد ذلك . خطر ببالى أنهما ربما كانا ينويان التعامل معى من منطلق أنى كافر ؛ وأن إزهاق حياتى ، أثناء نومى ، ربما يكون عملا طيبا فى نظر البدو ؛ هم ينظرون إلى ذلك باعتباره تخليصا للبلاد من خطر أجنبى ؛ كما سيحصلان على غنيمة صغيرة من الملابس ، وهذه الغنيمة لها قيمة كبيرة عند أولئك السكان البؤساء الذين يعيشون فى الخلاء . تجريدهم للقتيل من ملابسه يشبه إلى حد بعيد بالتجريد (الكريم) للعدو من درعه فى العالم القديم : ولما كان هذان الشابان من أصحاب الأعمال الفذة فلربما فكرا فى اغتيالى . حضر إلى ولد من الأولاد ، وأقسم لى بالله أنه سوف يُفَرجنى على هذه المنطقة كلها : وراح بطريقة خرافية يكرر على أسماء قرى كثيرة ، وكيف أن الناس فى تلك القرى يلبسون الحرير ، وأورد اسم وادى خيت بيت Kheyt- beyt أو إن شئت فقل : 'وادى البُقلان' . وأنا لم أسمع شيئا من هذا القبيل من كل البدو المحيطين بى ؛ والبدو الرحل ، لا يرغبون فى تنفيذ هذه الحجة ، حتى لا يدرجون ضمن طائفة الحباليص (لصوص الماشية) . ولما كنت قد دونت ذلك الكلام الذى اخترعه لسانه ، فقد دخلت غرفة القهوة ورحت أعيد قراءة الكلام مرة ثانية ، وهنا راح البدو الرحل ، كبار السن الموجودين فى الغرفة يتهكمون من تخاريف ذلك الصبى قائلين :"ألا تخاف الله !" كانت تلك هى روح ولاد على ، تلك القبيلة المراوغة جداً ، التى تأخذ الدنيا كلها عن طريق السماع ليس إلا .

كان الوقت مناسبا للقيام بالعمل المطلوب منى ، وكنت قد أوشكت تماما على إنجاز المطلوب . هذه هى قافلة الحج بدأت رحلة العودة فعلا قادمة من الحرمين ، وهذه هى الأورطة (الفرقه العسكرية) بدأت فى النزول قادمة من دمشق ، وسوف تصل هذه الفرقة إلى المركز ، هنا فى مدائن صالح . وهاهم البدو الرحل الأصدقاء بدءوا يتوافدون

على هذا المكان قادمين من ديارهم ليقوموا بالبيع والشراء فى سوق الحج . أما البدو الأعداء فقد راحوا يحومون حول الحدود لكى يتربصوا بالبدو الأصدقاء ، وما أكثر إنذاراتنا فى ذلك الوقت ، إذ لم يكن يفوت يوم واحد دون إنذار بغزو وشيك . وعلى إثر الغزو الذى قام به ستة عشر من الحباليص (اللصوص) ، على منطقة من السهل لا تبعد أكثر من ميل واحد عن القلعة ، جرى وعلى وجه السرعة إيفاد مراسل إلى دولان راعى القلعة هو وابنته اللذان كانا يرعيان فى الجبال بعض الأغنام والماعز التابعة لحامية القلعة . عاد الراعى فى مساء اليوم التالى ، ووصل إلى غرفتى ، وهو يحمل معه هديه من الحُميِّض الزراعى الذى نما فى أعقاب الأمطار التى سقطت مؤخرا ؛ وهذا العشب يعجب هؤلاء البدو الذين يأكلون التمور بسبب حموضته التى تعجبهم وتلذ لهم . كان مسكن ذلك الراعى هو وابنته فى الجبل يتمثل فى ذلك الكهف البارد الذى أمضينا الليل فيه يوم أن قمنا بالصيد . كانا ، فى ذلك المنزل ، يحلبان لبن ماعزهما على الحميِّض ، ويعيشان عليه هو والحليب الرائب ، وكذلك بعض الأعشاب البرية ؛ ولكنى تعلمت من التجربة أن ذلك الطعام يعد كافيا فى الصحراء . وعندما أبصر بعض الخدوش فى وجهى ، سألنى على الفور عن سبب تلك الإصابة . وعندما أجبته قائلاً : "ذلك الغول !" وأنا أشير بإصبعى إلى باب غرفة محمد على ؛ قال ولد عنتر وهو يكشر عن أنيابه : "إخص ! ربنا سيفعل له الشىء نفسه ، هذا المستبد ، الذى هناك ؛ بتره الله ! " كان دولان نفسه هو وعرب البوابة الآخرين يعيشون فى ظل استبداد المغاربة الوحشى ، وفى خوف يومى على حياواتهم : يضاف إلى ذلك أنهم أنفسهم كانوا يحيون فى ظل قدر قليل جداً من الهدوء ، حياة البؤساء الذين لا يجدون فى معظم الأيام ما يأكلونه ، وأن الرجال ، من وجهة نظرهم ، يعيشون على ابتلاع بعضهم البعض . وفى أحد الأيام سمعت صوت صراع أو قتال دار بين النساء ؛ وعندما غضبن ، هجن ومُجن وملأن الجو صياحا ، وراحت كل واحدة منهن تسب جارتها وتلعنها . وهنا قام أزواجهن بتهدئتهن وصاحوا قائلين : "سكوت !" ثم جاءت أصوات (عبر جدران القلعة) تقول : "اسكتن أيها الحريم ، عليكن لعنة الله !" وهنا انبرى الشاب محمد الصغير وهو يحمل فى يده عصا وراح يجرى فى اتجاههن ، وراح يضرب الواحدة منهن بعد الأخرى ؛

كان رجال الخيام يتفرجون على ما يدور ، وبذلك أخرست ألسنة هؤلاء النسوة دون أن يبدى أى رجل من الرجال أى شيء من الامتعاض جراء ضرب زوجته .

عندما عدت مرة أخرى لزيارة الحجر ، بعد منتصف الصيف وبصحبتى عرب الفكارة ، طلب منى الذُّرية eth-Therryeh، أو إن شئت فقل : الابن الأكبر لشيخ القبيلة ، الذى كان يكن لى دوما الكثير من الود ، بعد أن علم بموجة غضب محمد على ، طلب منى وأنا فى خيمة والده أن أقول ما هو رأيى فى ذلك الشخص . وأجبته على الفور فى خيام ذلك الحر ، : "إنه ملعون أو بالأحرى مجنون !" وهنا وافق ، الذُّرية (الابن الأكبر لشيخ القبيلة) على ما قلته ، كما أومأ الشيخ الحصيف برأسه علامة الموافقة أيضا على ما قلته . وفى إحدى المرات الأخرى قال زيد . "كُبَّاك" بمعنى (لفظك وتخلص منك) مثل قشر الليمونة بعد مصِّها كما خدعك أيضا ؛ أربكه الله !" وسواء أكان محمد على يكفر عن عدوانه السابق ، الذى سوف أجره عليه فى دمشق ، أم حسن النية تجاهى ، فقد راح يعاملنى بحماس شديد ، ويطرينى أمام كل البدو الرحل ، الذين وصلوا إلى القلعة ، كما زكانى أيضا عند خدم ابن الرشيد الذين وصلوا من كل من حائل وتيماء ، كما زكّانى أيضا عند الباشا العائد من الحج . من هنا ، فإن قيام محمد على بكل ذلك من أجل إرضائى جعلنى أركز على ترحالى فى الجزيرة العربية .

ملحق الفصل السادس

النقوش النبطية الموجودة على الآثار التى اكتشفها السيد دوتى فى مدائن صالح :
قام السيد إيرنست ERNEST ديفان (عضو المعهد) بترجمة النقوش .

(مأخوذة عن المجلد الذى نشرته أكاديمية النقوش والأدبيات ، "مجموعة الوثائق المكتوبة التى عثر عليها السيد شارلز دوتى فى شمالى الجزيرة العربية .")

أربعة أو خمسة أعمال مرتبطة بعضها ببعض ، والتى توجد مجتمعة ومشروحة . أعلم أن المخطوطات السامية سوف تعطى إيضاحات كبيرة . النقوش النبطية الاثنا والعشرون ، تتدرج فى الواقع بتواريخ دقيقة ، فى مساحة من الوقت حوالى ٨٠ عاما . نستطيع إذن تتبع سير الخط الآرامى خلال قرن تقريبا ، وأن نراه يأخذ من سنة إلى أخرى طابعا أسرع تدريجيا . إن المخطوطات الموجودة على آثارنا تعتبر كنقطة ارتكاز منها نستطيع أن نكتشف جيداً تشابه الخط الآرامى والخط اليهودى المربع ، والبلميرى ، والسينائيتى والاسترانغولى والكوفى والنسخى .

إن تاريخ الخط فى الجزيرة العربية القديمة يوجد بصورة واضحة فى معظم أجزائها . وهذا تقدم كبير ، إذا فكرنا أنه منذ ٧٥ سنة كان سيلفستر دى ساسى قد خصص واحدة من أبلغ مذكراته لإثبات أنه لم توجد كتابة فى الجزيرة العربية قبل محمد (ﷺ) .

إرنست رينان

إن حروف مخطوطات مدائن صالح تشهد بالحالة الاجتماعية حيث كانت الكتابة كثيرة وحيث كان الكتاب يميلون كثيرا للخط وهكذا حدث بعد ذلك للخط الكوفى .

مدائن صالح – كتبها 'فيليب يرجيه' ، نائب أمين مكتبة المعهد . (الجزيرة العربية قبل محمد (ﷺ) حسب ما جاء فى النقوش : عقد مؤتمر فى السربون فى مارس ١٨٨٥) هذا هو وادى ملئ بمدافن العائلات : لأن كل من هذه الأبنية ليس بناء خاصا ؛ فهى مدافن عائلية حقيقية ، تخص كل من لديه الحق ، وهى محاطة بجميع الاجراءات والضمانات التى نعطيها لأعمالنا الرسمية .

ولكن إذن أين كانت المنازل ؟ هذه المشكلة – التى تقلقنا – كانت قد هزمت العرب فى عهد محمد (ﷺ) . من المعقول أنه فى وجود هذه الأبنية التى كانوا لا يفهمون معناها ، فقد قيل : إن هذه بيوت سكان البلد القدامى ، من الكافرين والعمالقة : الشيئان يتقابلان ؛ وأنه بالدخول إلى الداخل وعند رؤية الجثث فقدا اعتبروها رفات غير المخلصين ، عاقبتهم السماء فى منازلهم . وقد تأكد لهم هذا الرأى من رؤية هذه الأبنية . إن الشرفات التى تعلوها والتى هى نماذج مألوفه للعمارة الآشورية تبدو وكأنها حصون .

وعمل آخر يظهر من هذه الأساطير ، أنه فى عصر محمد(ص) لم تفهم هذه الكتابة التى ابتعدنا عنها تقريبا ٥٠٠ عام ، وهذا يشير لنا كيف كانت آفاق العرب محدودة من ناحية المصادر .

من يعلم إذا لم يكن عندهم بعد إحساس مبهم بالتقليد . هذه الكتابة التى تمثل اختلاط الآرامية والعربية تبدأ بكلمه ليست آرامية ، ولكنها عربية "دينا كافرة" "هذا هو المدفن" . غير أن نفس الكلمة تعنى بالعربية 'مقبرة' و 'كافر' . من يعلم ، فى عصر بعيد عن أسرة النبطيين ، عندما نذكر أن اللغة الآرامية بدأت تختفى ، إن الإبهام لم يحدث بين الكلمتين ، وإذا ترددت هذه العبارة آليا (بدون تفكير) فإن العرب لم يتداولونها . هؤلاء الكفار سحقتهم السماء فى بيوتهم .

هذه نقطة لم يخطئوا فيها : إن سكان هذا البلد القدامى كانوا كفارا وثنيين . فى أحد مداخل وادى مدائن صالح يوجد عنق مقطوع عموديا ، مشابه لكل الأعناق الموجودة فى هذه المنطقة . نرى من جانب بقايا قاعة محفورة فى الصخرة ، بدلا من أن تكون مغلقة من الأمام ، فهى مفتوحة على عرض الواجهة . ليس بها مشاكٍ : بعض الأشكال رسمت بطريقة بدائية على الجدران ؛ لا أكثر ، وهو البناء الوحيد الذى ليس له طابع جنائزى ، ويسمى ديوان ، وعلى الجدار المقابل للعنق ، وفى نفس المستوى ، ويسيطر على الحفرة (الهوّة) نكتشف سلسلة من المشاك بها حجارة مرصوصة أحيانا متفرقة وأحيانا مجتمعة فى مجموعات مكونة من اثنين أو ثلاثه .

رؤية هذه الأبنية التى رسمها بعناية السيد دوتى ، هى بمثابة وحى حقيقى لنا ، ولقد قابلنا من قبل أبنية مشابهة فى الجانب الآخر من العالم السامى . ومنذ ثلاثة أعوام لم نكن نعرف سوى نموذج واحد : رسم بارز وجد فى صقلية ويمثل رجل يتعبد أمام ثلاثة أحجار صغيرة . هذا البناء المنفصل ليس له تفسير ؛ ولكنه كان قد استرعى انتباه السيد رينان عندما حدث بعد ذلك (اكتشاف رجل يمشى وحده) ، وكان السيد القسيس "تريهيديه" قد جلب عديدا من هذه الأبنية من النوع نفسه ، وجرى إحضارها من "دادرومات" فى تونس ، هذه الحجارة المتزاوجة ثلاثيا كانت تمثل آلهة ، من أحجار ثلاثة ، وكان لا يوجد شك فى امتلاكها . وإذا كان مازال يتبقى منها شيئا ، فقد رفع عن طريق الاكتشاف الذى قام به السيد دوتى . هذه الألهة كان يعبدها سكان مدائن صالح . والنقوش الموجودة على واحد من تلك المشاك تؤكد ذلك صراحة إذ تقول : "هذا هو المسجدة" الذى شيده "سروه" ، ابن طوقه فى "عودا" أو (عائدا) ليستر الإله الأعظم . فى شهر نيسان من عام واحد للملك مالشو ."

مشكاة أخرى تحمل كتابه مشابهة . المسجده يعنى 'المسجد' ليست القاعة التى تقع فى الجانب الآخر من الحفرة (الهوة) ولكن المشكاة مع الحجر الذى بالداخل .. هذا هو "البتل" الذى كان النبطيون يسجدون أمامه . هذا الحجر لم يكن غير الإله "عوداً" .

نحن نسأل ، ونتساءل ، وسط كل ذلك ، أين قرشيى الجزيرة العربية وأين محمد ؟ ويبدو لنا كلهجة محددة ، مثل لغة قبيلة صغيرة والتى بعد سلسلة من الأطوار المحليه ، توصلت إلى درجة الكمال المدهش . وتدين للإسلام بتراثها .

لقد فرضت الديانة الإسلامية لغتها مع ديانتها على الجزيرة العربية كلها ومن هنا انتشر الإسلام إلى الأقرب فالأقرب ، فى أفريقيا وآسيا ، فى كل مكان حيث توجد قدرة تتوغل فى كل شىء ، ولكن تغلق الباب أمام كل ما هو ليس قدرة .

لم تتحقق الوحدة المطلقة فى أى مكان . ومن هنا تأتى العقبات التى تنشأ دائمًا والتى نجدها تغوص فى هذه البقع المتعصبة والخالية ، نجد عقبات كبيرة لدرجة أننا نتردد فى الحكم أن آخرين يحاولون تخطيها : الثمن غالى جدًا ؛ مع ذلك سوف يستطيعون تخطى تلك العقبات لأن هناك قدرة أخرى لا يستطيع أى شىء إيقافها ، وهى القوة الداخلية التى تدفع الإنسان إلى البحث عن الحقيقة .

بخور أو عقاقير المحنطين فى مدائن صالح . ملحوظة : بقلم البروفيسور جى . دى . لايفنج - Living عينة من اللبان الراتنجى قدمها لى السيد دوتى كى أقوم بتحليلها وقد أخضعنا تلك العينة مرات عديدة لتفاعل البنزين والأيثير ، والكحول ، والماء وجاءت النتيجه على النحو التالى :

٢,٣٥ ٪ من تلك الماده يقبل الذوبان فى البنزين

٥,٤٥ ٪ من تلك المادة يقبل الذوبان فى الإيثير

١٢,٢٥ ٪ من تلك المادة يقبل الذوبان فى الكحول

٢٧,٣٦ ٪ من تلك المادة يقبل الذوبان فى الماء

كانت تتخلف كمية كبيرة من الراسب بعد استخلاص المادة عن طريق هذه السوائل . كانت الرواسب عبارة عن قسم كبير من الرمل وبعض ألياف الخشب ومواد أخرى مماثلة . وعندما حرقنا تلك الرواسب نتج عنها كمية مساوية تعادل حوالى ٣٨,١٦٪ من إجمالى العينة .

التوقيع

جى .دى . إل

خرق الكفن ، الخيوط الجلدية . ملحوظة : بقلم البروفيسور إيه ماكلستر Macalis-ter قطع القماش التى جرى الحصول عليها من مقابر الأنباط فى مدائن صالح يصعب تمييزها عن الكتان الذى كان يستعمل فى مصر فى لف المومياوات . وهذا الجلد السميك يحتمل أن يكون من جلود الإبل . والمادة الراتنجية (البخور) هى من طبيعة المادة نفسها التى جرى العثور عليها فى كثير من الأحيان مع المومياوات المصرية .

ثمود : THAMUD الهجرة Hejra عند بطليموس هى مدينة أو بلدة ثمود ، ومع ذلك نحن نعرف من شواهد القبور أن مدائن صالح كانت للأنباط ! مدائن صالح هى 'الحجر' Hijr (ويصح فيها أيضا Hejr) : - ولكن ما هو 'الحجر' ؟ الحجر فى موروث البلدان البدوية وعند العلاونة هو عبارة عن كل ذلك الوادى الذى على شكل سهل ، وكذلك أرض الوادى التى تمتد فيما بين المزحام وقرية العلى ويصح فيه أيضا (العلا el-?la)، ويصل ذلك الأمتداد إلى بئر الغرنمً . والمعروف إن الخريبة تدخل حاليا ضمن الحجر :- والخريبة التى شاهدناها حميرية ، أو إن شئت فقل : إن شعبها أو أهلها من الجنوب ، ولكن مدائن صالح تنتمى إلى عالم الشمال المتحضر . من هنا قد نستطيع القول ، إن الخريبة هى هجرة (حجر) ثمود ، وأن مدائن صالح ، التى تقع على بعد عشرة أميال فى اتجاه الشمال هى هجرة (حجر) الأنباط .

نحن نعثر على الاسم ثمود اعتبارا من القرن الخامس ، عندما جرى ضم بعض الخيالة الثموديين إلى الجيش الرومانى ، وأقدم إشارة تاريخية وردت عن قبيلة ثمود شوهدت على الأثار الآشورية "ضمن قائمة القبائل التى أخضعها فى واحدة من الحملات التى قام بها على الجزيرة العربية فى العام ٧١٥ قبل الميلاد . والقبائل الأخرى التى ورد ذكرها فى تلك المقطوعة هى : العباديد ، والمارسيمان ، والهيابة ، إذ كان يطلق على هذه البلاد اسم the Remote Bari (ولعل كلمه بارى مأخوذه من الكلمة العربية bariyeh التى تعنى 'الصحراء') ." (رسالة من السير هنرى س .راولنسون)

النقود فى الجزيرة العربية قديما . ملحوظة : بقلم : "السيد باركلى . فى . هيد" من المتحف البريطانى . - عملات الجزيرة العربية قبل عصر محمد (ﷺ) يمكن

تقسيمها إلى ثلاثة مستويات رئيسية : (١) نقود اليمن ، أو إن شئت فقل : النقود الحميرية ؛ (٢) نقود ملوك الانباط ؛ (٣) نقود مختلف المدن العربية فى ظل الحكم الرومانى .

(١) نقود السبئيين والحميريين : هذه النقود تبدأ من القرن الرابع أوالقرن الثالث قبل الميلاد وهى فى الأساس عبارة عن تقليد ومحاكاة للدراخمة والتراخمة الآثينية الشهيرة . وكل هذه الاشياء المقلدة تأتينا من الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ، ولكن مضاف إليها حروف أو نقوش حميرية ، زيادة على النقش الآثينى (الذى يتمثل فى رأس بالوس Pallus والبومة) فى القرن الثانى قبل الميلاد كانت تراخمات الأسكندر الأكبر تقلد فى جنوب الجزيرة العربية . وفى النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد ، كانت التراخمه الآثينية الجديدة ، التى عليها صورة البومة واقفة فوق المركب الإغريقية القديمة ذى الرأسين ، تستخدم فى التعامل من قبل الملوك السبئيين . وهذه التراخمة منها نوع مسكوك من الذهب ونوع آخر مسكوك من الفضة ، والنوع الفضى هو الاكثر انتشارا و قد اكتشف فى مدينة صنعاء Sana . هذه التراخمات يوجد على أحد وجهيها رأس الملك المحلى التى غُيرت بعد ذلك إلى رأس أغسطس (Augustus)، وعلى الوجه الآخر صورة البومة الآثينية وهى واقفة فوق مركب يونانى ذى رأسين ، إضافه إلى نقوش بحروف لم نتمكن من قراءتها بعد ، ومع هذه النقوش حروف خاصة من الحروف الحميرية العادية . العملات المصنوعة من النحاس الأحمر كانت معاصرة أيضا للعملات الفضية التى سبق أن أشرنا إليها وتناولناها بالوصف . هذة العملات النحاسية سيئة الصنع جداً بالرغم من أنها تعتبر محاكاة فجة للعملات الآثينية الفضية ، والمرجح أنها كانت العملات المستخدمة فى المناطق الشمالية والمناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ، والواضح أن هذه العملات جاءت بصورة أساسية من المناطق الشمالية . ففى القرن الأول الميلادى كانت العملة الوحيدة المستعملة فى اليمن تصنع من الفضة وعليها نقوش حميرية .

(٢) كانت نقود ملوك الأنباط ، فى شمالى الجزيرة العربية تبدأ من مالخوس Mal-chus الأول فى العام ١٤٥ قبل الميلادى وتنتهى بمالخوس الثالث فى القرن السابع الميلادى .

(٣) وفى عصر هادريان ، حلت محل العملة النبطية عمله محلية خاصة بأباطرة الرومان وكانت تلك العملة تسك فى بُصرى Bosra، وفى بيترا ، وفى أدرا adraa , وفى مدن أخرى . زالت تلك العملة وبطل استعمالها مع بداية حكم جالينوس Gallenus فى العام ٢٦٨ على وجه التقريب .

الفصل السابع

عودة الحج

النقش الأخير . ريثما يذهب محمد على هو ورجال الحامية إلى العلا ، تهجم اللصوص على جماعتنا . "الحظ" أو "القسمة" أو "النصيب" فى أفواه المسلمين . عشاء اللصوص . شجاعة الحاج نجم . نجم والأمير العربى ابن الرشيد . فصاحة الأمير . إهدار الأمير لدم أقرب الأقارب . الأشقياء الورعون . التخلص حول نار القهوة . معرفة قبيلة اللصوص من خلال كلامهم . محمد على يهتز : الإنذارات . ضيوف جدد على القلعة . الفرس الهدية من ابن الرشيد . وصول الأورطة . كلمات رئيسهم . بائعو الفاكهة فى العلا . البدو قد يسرقون اشياء تافهة من المخيم . محسن الكريم . الجنود يفتحون النار على البدو . محمد "أبو الأسنان" . القبض على بدوى من جهينة . مبعوثو بن الرشيد . عبد العزيز . البهجه العربية . أقوال محمد على المأثورة للتيامنة . النجديون ، رجال الصلاة . إطلاق قذيفة مدفع أثناء الحراسة الليلية . ساعات برد الليل القارس لمن لا يرتدون الملابس المناسبة ويسكنون خارج القلعة . الجدرى فى ذروة الحج . جمع الجراد لاستعماله بدلا من اللحم . تسامح الجموع : النصرانى بينهم . مزيد عن مغامرات النصرانى فى بلاد العرب . عجيلى من شرقى نجد . قوافل الحجاج تنساب مثل السيول المدمرة عبر أرض بلاد العرب . وصول الحج . المخيم والسوق . اتهام الفرس فى المدينة (المنورة) . السُّقيا . بدوى من مُرَّة . الباشا والسير أمين

يتهمان محمد على بالنصرانية . الباشا والضباط يثنون زيد عن عزمه . الدراويش الجزائريون . الأفراس النجدية . الرحيل مع الحج عند مدائن صالح . التباهى البدوى . جلب قليل من عبيد القارة الإفريقية فى موسم الحج . البدو يسدون مناخيرهم . درويش لطيف . أخبار الحرب . أقوال ضابط تركى . مُنَزل الحج . مُجبِّر العظام العسكرى . درويش الميدان العملاق . نيزك عجيليون . الإزاله . الاجتماع إلى محمد سعيد باشا . مغادرة قافلة الحج والدخول إلى صحراء البدو . كلام زيد إلى الغريب .

***

شاهدنا فى السهل أيضاً آثار أقدام غزو آخر مكون من سبعة أفراد . فى تلك الأيام بدأ محمد على يمنعنى من القيام بأية مغامرة بعيدا عن منطقة القلعة : كما منع عرب البوابة من مرافقتى أو أصطحابى إلى أى مكان ، مهددا إياهم وهو يقسم لهم بالله إن حياتهم جميعا ستكون مقابل حياتى أنا وحدى : حياتى التى سوف يطالبه بها محمد سعيد باشا ، خلال أيام قلائل .

لم يكن يتبقى لى سوى واجهة صخرية واحدة ، وهى واحدة من أواخر الآثار البعيده ، التى سبق أن تركتها فى ذلك المكان (نظراً لأن بوسعى الوصول إلى النقش بدون استعمال الدعامة التى صنعت منها سلما نقالا) . واستطعت بصعوبة بالغة الحصول على إذن أخير ، بالقيام بالرحلة الأخيره إلى مكان تلك الصخرة ، وذلك بصحبة شيخ مسكين من بدو الفجير Fejîr ، يدعى Mohammed الديبيس ed-Deybis، الذى هو واحد من أقرب أقارب زيد . كانت عينا رفيقى تراقب بدقة بالغة كل ما يحيط بنا أثناء سيرنا ، والسبب فى ذلك أنه قال لى : "أنا يتحتم على أن أكون مسئولا عنك ، وأنا خائف من هؤلاء الغزاة !"

نظرا لأن ورق الشفاف استغرق جفافه وقتا طويلا ، بحكم أن ذلك القبر يواجه الناحية الشماليه ، فقد أتاح ذلك لى فرصة زيارة المَعْظَمة(*) الموجودة داخل ذلك القبر ؛ –

(*) المعظمة : بفتح الميم وتسكين الظاء ، هى قبو أو سرداب تحفظ فيه رفات الموتى . (المترجم)

يضاف إلى ذلك أن ذلك الأثر وحده كان يعد مثالا واضحا وكافيا على كل ما يمكن رؤيته أو مشاهدته فى مدائن صالح !

يوجد خارج هذا القبر لوح نعش وحيد ، جرى حفره بالفعل فى وقت كانت فيه عمارة الحجر الأدنى على وشك البداية . كانت غرفه الدفن مجهزة تجهيزاً كما لو كانت مكانا طويلا مخصصا للدفن : موجود هنا مواقع ، على شكل زنازين Cells أو إن شئت فقل : وحدات قبورية ، وعلى شكل قبور محفورة (غائرة) أيضا ، فضلا عن غرفة قبورية داخلية أيضا ؛ ولكن الواجهة لم تكتمل فى زمانهم وبقيت على ماهى عليه . ترى هل كان ذلك هو المسكن الأبدى لبعض العائلات الكبيرة ، التى لم يكن منها أعداد كبيرة فى العالم ؟ ؛ الذى نجد فيه شيئا من الاعتدال وخال تقريبا من التهديدات السماوية الخرافية والرسمية) .

سيقوم محمد على بزيارة قرية العلا ، قبل وصول قافلة الحج ، لشراء شىء من تمر الحلو لكل من باشا الحج وكبار ضباط الحج أيضا . والسبب فى ذلك أن محمد على ، جرى الهجوم عليه ، فى العام الماضى ، فى البوغاز (الوادى بين الجبلين) ، ولكنه فى هذه المرة سيسافر مسلحا ومعه كل العسكر ؛ ولم يبق معى فى القلعة سوى الحاج نجم . وعندما انصرف محمد على هو والعسكر ، خاطرت مرة أخرى بالذهاب إلى الآثار ، ولكنى عندما رجعت مبكراً إلى القلعة اندهشت لأصوات الأعراب التى كانت تنبعث من بين الصخور . هذان هما بدويان جاءا يتبخترات فوق ناقة (ذلول) قادمين من أسفل جبل إثلب Ethlib، وها هما الآن يرحبان بى قائلين : "يا وليد !" ونظرا لأنى لم أكن أعرف إن كانا عدوين أو صديقين ، فقد عجلت ، محتميا بصخور البنت وصخور البرج ، بالوصول إلى القلعة ، وعندما أدركانى ، كنت فى الخلاء وعلى مرأى من القلعة . وجاء تبادل التحية بيننا على النحو التالى : "أنت من ؟" – "وما عملك ؟ وما هو بلدك ؟" كانت البوابة مغلقة ، نظرا لأن الحج نجم كان وحده ، وبالتالى لم يتعجل بالنزول لفتح البوابة لنا . بعد أن جلسنا لشرب القهوة ، قال لنا الشابان ، اللذان كانا من ولاد على ، إنهما مرًّا ، منذ فترة وجيزة جداً ، بآثار أقدام رجال كثيرين ومعهم غنم . "فى الخارج ! قالها الحاج نجم متعجبا ، سترك يارب ! – هذا يعنى أن

قطيعنا قد سرق !" – كان الراعى دولان هو وولده ، وشاب من شباب الفهجى Fehjy، قد قادوا القطيع أسفل جبل إثلب فى ذلك الصباح .

بعد شرب القهوة ركب البدو دوابهم ومضوا إلى حال سبيلهم . لم نأسف على رحيلهم ؛ والعرب المسلمون عندما يصبهم أسف من هذا القبيل ، يجلس الواحد منهم برهة قصيرة مندهشا ، وهنا تراهم يتحدثون بأنغام تحتية دون تبرم أو شكوى : وهم يرون ، أن كل شىء يسير حسب إرادة الله التى تسيطر عليهم جميعا : هذا يعنى أن الخسارة التى يعانونها اليوم إنما هى من صنع أنفسهم ، يضاف إلى ذلك أنهم يلقون بِشرٍّ مماثل على الآخر . رحنا نراقب الأعراب من شرفة القلعة وهم يسيرون فى طريقهم ، وانقضت فترة العصر ، وبعدها لم نر شيئا ، وأثناء غروب الشمس ، شاهدت العيون الممتازه من بعد ، شيئا ما ؛ قالوا : "إنه الأغنام والماعز التى يرعاها الرعاة ،" والتى كانت عائدة من الجزء المقابل ، الذى يقع على مسافة بعيدة أسفل الحرَّة . وهنا استهل حريم البوابة عملية الزغاريد ! كما بدأ الأطفال يصيحون معهن فرحا ، وهنا جرى بعض الرجال وربات البيوت متقدمين نحو الأمام على أمل أن يكونوا أول من يحصل على الأخبار : ولكن مع تقدم الماشية والرعاه ، قال أولئك الذين كنا نعتبرهم أعينا لنا ، إنهم لا يرون أمامهم سوى نصف المواشى فقط ، وأن عدد تلك المواشى كان أقل بكثير من عدد أولئك الذين خرجوا لاستقبالها . عند هذا الحد وصلت الماشية ، ثم تقدم دولان ، الراعى ، وهو يصيح محتجا وهو فى طريقه إلى غرفة تناول القهوة ، وبتنهيدة (تنم عن الحزن البالغ) ؛ فى تلك الأثناء كان الحاج نجم قد أشعل بالفعل نار المساء ، وأسلم أمره – نظرا لعدم وجود علاج لتلك المشكلة – كله إلى إرادة الله . قال الحاج نجم : "شوف البخت ، إن هذا الحادث لم يقع إلا فى هذا اليوم ، دونا عن سائر أيام العام كله ، الذى أخذنا فيه على غرة ." وهنا ابتدأ دولان جدلا حاميا وراح يدافع به عن نفسه بصوت عال ، ."كان الغزو مكونا من تسعة أفراد من المشاة ، كلهم مسلحين ببنادق ! وأقسم بالله ، أنه استطاع أن يعرفهم من كلامهم بأنهم من بنى عطية ؛ هؤلاء الغزاة كانوا يكمنون فى جبل إثلب طوال الليلة الماضية ، إضافه إلى أنهم كانوا يراقبون رحيل الأغا ومعه العسكر ، وهنا انبروا خارجين من مكمنهم ليسرقوا قطيع القلعة ." كان المكان مليئا بالصخور الوعره ، وكميات كبيرة من الرمال المنجرفه : من

هنا فقد استطاع هؤلاء الغزاه الهجوم على الرعاة فجأة وعلى غرة ودون أن يراهم أحد . كان أولئك اللصوص يتجولون ويسيرون على غير هدى فى ذلك الوادى منذ عدة أيام ، (والغريب أننا شاهدنا أثار أقدامهم) إلى أن بدءوا يحسون بالجوع فاتجهوا نازلين إلى قرية العلا لشراء شيء من التمر ؛ وفى قرية العلا ، حكى لهم بعض الأعداء كل ظروف قلعة الحجر . وقال لى دولان ، موجها كلامه إلىَّ : "وأنت كنت على وشك السقوط فى أيديهم ، والسبب فى ذلك أن أولئك اللصوص بعد أن اقتادونا مع الشِّسَّاب ches-sab (الغنيمة) ، مررنا بآثار أقدام خليل ."

فى البداية كان الغزاه يفكرون فى قتل دولان "لأنه كان من بدو الفجير !" فضلا عن وجود صراع دموى مستمر بين هؤلاء الجيران ، أى بين بنى عطية وبدو الفجير .- "لا تقتلونى ، أنا أتوسل إليكم ، لأنى أنا دولان الفهجى ولست دولان الفجيرى" . - "إذا كنت دولان ، فافتح فمك ، أيها الرجل ، حتى نتأكد من عدم وجود الأسنان الأمامية ؛ ثم أخرج لسانك بعد ذلك" : وهنا أخبرنا هذا الفهجى المسكين وهو يجمع بين الابتسام والبكاء ، "جعلونى أخرج لهم لسانى على هيئة قوس !" - "نعم ! إن له لسانا مشقوقا ؛ أيها الرفاق ، إنه هو ." - هذا الرجل المسكين كان لسانه قد تشوه بفعل رمح من رماح الرولة أصابه فى فمه ، عندما كان يقوم بالتجوال فى الشمال . وهنا قام العجيد agid أو إن شئت فقل : رئيس عصابة اللصوص الغزاة ، بوضع حد سيفه على عنق ولد دولان الصغير ، وطلب من دولان ، أن يحلف بالله ، ويقول لهم لمن تكون كل نعجة وكل ماعز من هذا القطيع . وعندما قال لهم إن تلك الغنم والماعز هى غنم وماعز القلعة قالوا له : "نحن أصدقاء الإمبراطورية العثمانية ." تركوا لبدو الفهجات الموجودين عند البوابة جزءا من نصيبهم ، ثم أخذوا بقية القطيع ، الذى كان ينتمى إلى أفراد قبيلة الفُكَارة . كانت خسارة دولان من الماشية عبارة عن ثلاثه رءوس ، أما خسارة الفهجات الآخرين فكانت حوالى ستة رءوس ؛ وخسر الحاج نجم ثلاثة رءوس ؛ كما خسر وادى Wady رأسين من الماشية . "إذن سيحصل شيخ المنصر على أربعه أو خمسة رءوس (قال الحاج نجم) ؛ وسوف يتعشون الليلة بطلى ، وسيكون نصيب كل فرد من أفراد عصابة الغزو هذه إما نعجة أو عنزة (أى ما يساوى ثلاثة أو أربعة ريالات) ." وفيما بعد أمكن العثور على العظام المتبقية من عشاء أولئك الصقور، إلى جوار الرماد المتخلف عن نار

المساء ، وقد أوضحت العلامات التى عثرنا عليها ، أنهم ابتلعوا فيما بينهم حوالى خمسة رءوس ، يالهم من بائسين جوعانين : ولابد أن تلك الوجبة ، سوف تنعشهم وتقويهم ، بعد تعب استمر إسبوعين ، كانوا يتجولون خلالهما ، لصوصا ، فى مضارب معادية لهم ، هذا يعنى أنهم كانوا يخاطرون بحياتهم . ولكنهم يتكبدون هذه المتاعب بسرور وترحاب وهم يطاردون غنيمة غافلة ، ولكى يثبتوا لأنفسهم أيضا أنهم شباب يستطيعون القيام بالمهام الصعبة ، وأنهم عندما يعودون إلى مضاربهم بأى شىء مهما صغرت قيمته ، يعتبرون أنفسهم قد نالوا الجائزة . ومع ذلك ، من الصعب أن تجد بدويا بائسا ، على استعداد لأن يصحى من نومه ، فى خيمته المهلهلة ، للقيام بمحاولة صغيرة فى سبيل مكافأة من هذا القبيل . اللصوص الذين من هذا القبيل عندما يعودون إلى مضاربهم ، غالبا ما يصابون بالأمراض جراء معاناتهم السابقة ، ويعانون من إرهاق مميت على امتداد أيام طويلة بعد ذلك .

قال الحاج نجم (ولم يكن راضيا عن محمد على أو مقتنعا به) : "آه ! لو أن محمد على لم يأخذ معه العسكر جميعهم ! لكنا قد فزعنا وطاردناهم ." وهنا راح ذلك الرجل العجوز يحملق فى الهواء ويهدئ نفسه باعتصار أصابعه ؛ وما تزال الشجاعة المغربية تفيض فى داخله وما زال يغلى قلقا وتعجلا . – "والله ، لو كان العسكر هنا لكنا قد استعدنا ماشيتنا وأخذنا من اللصوص ماشيتهم أيضا ، تماما مثلما فعلنا فى المرة السابقة – هل تتذكر ذلك يا وادى Wady وهل تتذكره أنت أيضا يا دولان !– هل تذكر أن ذلك الذى حدث للغزاه الذين جاءوا من الشمر ؛ ولكن هنا (أخذ الحاج نجم يعد اللصوص على أصابعه) لا يوجد سوى وادى ، ودولان ، والصبى الفهجى ، ومحمد الدبيس ، هم الذين يمكن أن يحملوا البنادق وأنا معهم ، وأنا خامسهم ؛ وما الذى يمكن أن نفعله ونحن هنا قلة قليلة !" كان الحاج نجم يحكى عن معركة صغيرة دارت فى العام السابق مع بعض الغزاة الذين حاولوا سرقة قطيع القلعة ، كما قاموا أيضا بتجريد بعض النساء الفهجات المسكينات من جلابيبهن المتواضعة بينما كن يجمعن الحطب من جبل إثلب :– وهذا عمل محرم بين البدو ؛ ولكن هؤلاء الغزاة أثبتوا فى مرات كثيرة أنهم لم يكونوا ملتزمين التزاما تاما بعقيدة الصحراء . فى تلك المعركة استطاع الحاج نجم هو واثنان آخران ، مطاردة اللصوص طول الليل إلى أن تمكنوا

من الإطباق على هؤلاء اللصوص البدويين ، الذين عجلوا بعد أن رأوا وشاهدوا شعار الإمبراطورية العثمانية ، وقبل أن يفتح الجنود النار عليهم ، وتركوا خلفهم قطيع الماشية ، وبادروا إلى تخليص أنفسهم ، وراحوا يسرعون المسير مبتعدين عن الخطر . هذا المغربى الشرس العجوز راح يصرخ مثل عفريت فى جوف الليل ، واستولى على ناقتين من نياق اللصوص ، باعهما فيما بعد للعلاونه Alowna (أى أهل قرية العلا) ؛ قال الحاج نجم ، بكثير من الارتياح ، إنه "استباح لنفسه ثمن هاتين الناقتين ، وأنهما أصبحتا الآن فى بدنه ." أهدانى الحاج نجم فيما بعد عدة مطرزة من عدتى هاتين الناقتين ، وكنت استثير حسد رفاقى من البدو الرحل كلما كنت أركب ناقة وأضع على ظهرها تلك العِدَّة .

عندما كان محمد بن الرشيد(*) هنا فى الصيف الماضى ، بصحبة جمّالته المسلحين ، وبعد استيلائه على مخيم ولاد على ، أمضى أياما عدة بجوار آبار صخور البرج ، وهنا التمس من راعى القلعة قائلا : 'إذا كان خائفا من الخروج من القلعة ، فسوف يرسل له واحداً يحضره .' ورد الحاج نجم على محمد بن الرشيد بأنه لا يخاف ولا يخشى أى شىء ؛ ثم ذهب إلى خيمة الأمير ، التى كان (العرب القائمون بالحراسة) يحيطون بها وهم مستلقين على الأرض ، وهنا سأل أمير بلاد البدو العظيم الحاج نجم عن أحواله . "الحال عال العال ، قال الحاج نجم ، الحال طيب تماما أيها الأمير ، اللهم باستثناء ما يقوم به بدوك (الشمر) فى بعض الأحيان : ولو كنت أمسكت بهم لكنت قد قطّعت أعناقهم ، والله ، حتى ولو كنت (وهنا أفلتت الكلمة من فم ذلك الرجل العجوز) أنت نفسك !" لم يسبق لذلك المستبد الشمرى ، الذى يخشاه الأعراب ويخافونه خوف الموت ، أن سمع توبيخا أو لوما من هذا القبيل من أى شخص كان . وهناك قال الأمير

(*) الزمير محمد بن الرشيد : أمير جبل شمر ، تولى الحكم فى عام ١٨٧٢ – ١٨٩٧ وفى عهده قام دوتى برحلته إلى حائل عصمة آل رشيد . ويعد الأمير محمد بن رشيد من أبرز الحكام فى أسرة آل رشيد التي تولت الحكم فى جبل شمر فى عام ١٨٣٤ من قبل السعوديين . غير أنه على أثر ضعف الدولة السعودية الثانية بوفاة الإمام فيصل بن تركى فى عام ١٨٦٥ أخذ نجم آل رشيد فى التصاعد إلى أن تمكن الأمير محمد بن رشيد من الاستيلاء على الرياض فى عام ١٨٩١ وظل يحكم حكما مطلقا حتى وفاته فى عام ١٨٩٧ . (المراجع)

وهو يستدير صوب الحاج نجم ، ويطيل النظر إلى محيا ذلك المغربى العجوز ، الذى كان يقف أمام الأمير متصلبا وممثلا للإمبراطورية العثمانية . وهنا قام محمد بن الرشيد ، الذى كان يخبر شئون الدنيا ، ويحتفظ فى داخله بقلب طيب ، حتى وإن كانت يداه ملطختين بدم أقاربه ، هنا قام محمد ، بإعطاء الحاج نجم ممثل الإمبراطورية عباءه (بشت) جديدة وغترة ومعهما قميص من القماش (ما زال يلبسه إلى الآن) ، كما أعطاه أيضا عشرين مجيدى ، كما أعطى كل رجل من رجال القلعة خمسة مجيديات ، وغيارا من الملابس .

كان موقع مخيمهم من حول الآبار واضح المعالم تماما بحكم انتشار مخلفات حوالى ألف من الإبل فى ذلك المكان . كان الحاج نجم قد أرانى عندما كنا خارج القلعة المكان الذى كان يجرى فيه إشعال وجار قهوة الأمير ، كما أرانى أيضا المكان الذى كان يقام فيه مطبخ الأمير أيضا ، وكان كل ذلك فى فلج واحدة من الصخور الرملية الوعرة ؛ وكان المكان الذى يصلى الأمير فيه معزولا ،- عبارة عن قطعة من الأرض ، مفصولة عن العامة ، بفاصل ضيق من الأحجار على شكل حدوة حصان ، وكان محرابه يتجه صوب مكة . أماكن الصلاة التى من هذا القبيل ، رأيتها مرارا فى عرض الصحراء التى فى بلاد بن الرشيد . حكى لى الحاج نجم قصه تولى ذلك الرجل لهذه الإمارة ، بأن قتل حوالى عشرين فرداً تقريبا من أقاربه . سألته : "وماذا فعل هذا الرجل ، أو بالأحرى ، ذلك الشيطان بالدين بعد ذلك ؟ وما هى أسباب صلاة ذلك الرجل ؟ هذا الرجل الذى جعل أخاه عقيما ، ومن الذى قتل إخوانه ! هل يقبل الله القتله ؟" رد على محمد على قائلا : "لا ، والله ، وما تقوله هو الحق ؛ سفاك الدماء لا دور له فى الدين ." هذه الأضاحيك لا يرحب بها العرب ، لأنهم يشبهون الشرر الذى يجرى إيقاده فى قلوبهم الفطرية ، وذلك فى إطار الإظلام الدينى الذى يغشى ضميرهم السامى . Semitic وعندما سمعت أنه جرى تحرى وتقصى مسألة السماح لى بموقع ومكانة فى نطاق قرية العلا ، - كانوا يحسبون أن النصرانى لا يمكن أن يصلح لأى شىء فى ذلك المكان ، وأن كل ما كان يفعله هو "كتابة" صخورهم ، أو إن شئت فقل : شف الكتابة الموجودة على صخورهم - سمعت أيضا أن بعض عرب بوابة القلعة ، كانوا قد طلبوا من الأغا سراً ، إبعادى عن المكان ، قائلين لمحمد على ، "وليكن ذلك

الإبعاد إلى دمشق ، إذا كان لن يؤذيه ." – وسمعت أيضا أن ذلك الإبعاد كان قد تقرر ، غير أنهم كانوا يخشون العقاب الذى قد يترتب على ذلك من قبل الإمبراطورية العثمانية :– رددت على من حذرونى قائلا : كيف ! إن مسألة إهدار دم إنسان سهلة إلى هذا الحد ، وأن هذا الإنسان يردد كلمات صلواتهم اليوميه ، حسبما أسمعها تماما ، وبجديه كافيه ؟ خبرونى هل هؤلاء مسلمين بحق ؟ الإجابة : "عجبا ! هم يصلون ، وصلاتهم لا شىء ، لن يقبل الله منهم صلاتهم ، إنهم أناس شريرون : ولكن ماذا عنك يا خليل ، ماذا يقولون عنك جميعا فى هذا البلد ، 'قتل النصرانى مسألة مباحة ، وأن هذا القتل مسألة يرضى الله عنها : النصرانى عدو الله .'" الصلاة ، فى فهمهم ، هى تلاوة الخطبة الشرعية فى المواعيد المحددة لذلك دون المسح بالزيت ، وكذلك غسل الأيدى والركوع والسجود . وفى مرات أخرى اكتشفت بعض الأناجيل (مثل الإنجيل الخاص بالنظافة الحقيقية والصوم الحقيقى) . التى تضعف تباهيهم الحاقد ؛ كما اكتشفت أيضا أنهم بحكم طبيعة ذهنيتهم السامية ، كانوا مسرورين بتلك الأقوال المأثورة : من هنا قال أفضل من فيهم : "انتبهوا ! سوف يفتح (قاصدين بذلك فاتحة الكتاب) خليل الآن ."

ولكن دولان ، الراعى ، بالرغم من كل إيماناته المغلَّظه لم يستطع حماية نفسه من تأنيب وتوبيخ بقية أعضاء القلعة الذين كان يرعى لهم أغنامهم . هذا هو وادى Wady، ذلك الرجل السيئ بحق ، لم يتوقف من خلال نظراته الموجعة عن الإساءة إلى دولان فى كل لحظة ، وهو يصيح قائلا : "عجبا لك أيها الفهجى !" هذا الراعى المسكين لا يلام إلا قليلا على ما حدث ، لأنه هو والصبى الذى كان معه ، غُلِبا على أمرهما من تسع من قطاع الطرق الأشقياء . أغلقوا الباب بعد سرقة الغنم ، وبالتالى أمضينا ثلاثة أيام داخل القلعة . ولتمضية الأمسيات مع صحبتنا الضعيفة التى تلتزم الصمت ، اقترح بل وقدم لنا الحاج نجم ، ذلك الرجل العجوز ، بعض الألغاز والأحاجى ونحن جلوس حول وجار القهوة . كان العرب مستعدين لذلك ، وقالو بالفعل ما لديهم من تلك الألغاز والأحاجى ، ورحنا نحن بدورنا نحزر المطلوب ؛ وعندما جاء علىَّ الدور ، قدمت لهم رمز أبى الهول قائلا : إن ذلك هو أشهر لغز فى الدنيا كلها . وعندما جاء الدور على الحاج نجم تكلم عن وحوش البرية ، وتعجب كثيرا من معنى ذلك الشىء الغريب ؛ وبخاصة عندما قلت أنا إننى سبق لى أن شاهدت مؤخرا آثار أقدام الحاج نجم فى السهل ،

وعلى بعد مسافه قريبة من القلعة . وعندما لم يستطيعوا فك لغز الكلمات المرتبطة بلغز أبى الهول ، انشرحت صدورهم عندما فسرت وشرحت لهم المقصود بتلك الكلمات . لقد اصطحبونى مرتين إلى مجالس الأحاجى فى الجزيرة العربية ، وكنت أقدم ذلك اللغز ، الذى لم أكن أعرف أى شىء غيره : ولد بدوى ، "ابن أوديب" جاهل كان جالسا بين السامعين يضايقهم بقشور علمه استطاع أن يفك لغزى فى تلك اللحظة ؛ والمعروف أن هذا النوع من الحكمة التى تقوم على الأمثال ، يكون وثيق الصلة بالإضحاك عند الساميين ، كما إنه يسر العرب ويشرح صدورهم .

فى اليوم الرابع ، عاد محمد على مرة ثانية من قرية العلا ، ومعه كل الأفراد ، وكانوا جميعا مبتلين بفعل الأمطار التى تساقطت عليهم . وبعد أن نفض عن نفسه ذلك الإبتلال غير المرغوب فيه ، وراح يدق الأرض بقدميه ، وأقسم يمينا مغلَّظا 'لن يضيع رأس واحد من الغنم ، مستحيل ! ولن يضيع رأس واحد من الماعز أيضا . إذ لابد أن يعود الحق إلى أهله وعلى وجه السرعة ، وأنا أقسم على ذلك : وأنا أقسم بالله ! لو ثبت أن هؤلاء اللصوص من بنى عطية ، فإنه عندما تصل قافلة الحج إلى تبوك فسوف يربط شيوخ بنى عطية فى فوهة مدفع من المدافع ! وكان من رأيه أيضا أن يسلبهم بعضا من إبلهم تعويضا لنفسه عن الضرر والإهانة التى لحقت به .' وأمكن التعرف من مجرد كلمات أولئك اللصوص ، على القبيلة التى ينتمون إليها والمضارب التى جاءوا منها ، وتأكد أيضا أن أولئك اللصوص كانوا من الخُذَاره Khuthéra، الذين يعيشون فى الطرف الشمالى المظلم من الحرَّة (أرض الصوَّان) التى يراها الناس عن بعد من قرية الحجر ، تلك الحره التى يجرى منها جلب أفضل أنواع البازلت التى تستعمل فى الطحن . ومعروف أن البدو العاطلون هم من أقدر الناس على تمييز أى شكل من أشكال الخطاب ؛ قال هؤلاء البدو العاطلون كلمة 'كرًا' Kirra، التى معناها 'يستأجر' هذه الكلمة يرددها البدو المستقرون على إنها 'ركروَهْ' ، بينما ينطقها أهل قرية العلا على أنها 'كِرْوَا' . Kerwa

ولاد على ، كانوا هم مسببى السواد الأعظم من القلاقل والاضطرابات فى مدائن صالح ، وذلك بسبب تذبذبهم المستمر وانتقالهم من ذلك الجانب إلى الجانب الآخر ؛ وهم عندما اكتشفوا قلة حيلة الإمبراطورية العثمانية فى حمايتهم فى الصحراء ،

أصبحوا على قناعة بأنهم يتعين عليهم التضحية بالإمبراطورية العثمانية فى سبيل المصالحة مع ابن الرشيد . بلغنى أن أحد الأشراف (أحد كبراء سلالة محمد) جرت العادة لإحضاره من المدينة (المنورة) أثناء موسم الحج ، إلى مدائن صالح ليكون وسيطا عند ولاد على . وفى تلك الأيام كانت جماعة كبيرة من ولاد على تأتى لملاقاة قافله الحج ، بغرض الإتجار ، وكانت تضرب خيامها ، أو إن شئت فقل ، تقيم بجوار قصر Kasr الصانع es-Sâny، قيل إن تلك الجماعة سرت بينها شائعة ، بسبب سوء ضمائرهم ، ترتب عليها أن تركوا بضاعتهم على الأرض وانفضوا خوفا وفزعا على الإبل غير المحملة المتجهة إلى قرية العلا . وبعد تلك المباغتة ، اكتشفوا أن الأمر لم يكن سوى مجرد شائعه ، وترتب على ذلك عدم التخييم فى تلك المنطقة بعد ذلك ، ولكنهم بعد أن حملّوا أغراضهم دخلوا إلى الحدود والمناطق الوعرة فى تلك الحرّه القريبة . فى نفس ذلك اليوم ، جرى تجريد واحد من بدو الفهجى من قميصه كما سرقوا منه ناقته ، عندما كان فى أرض السهل . وفى الصباح جرى غزو بعض من ولاد على بالقرب من الحِجْر ، بواسطه عشرة من اللصوص أو إن شئت فقل الغزاة . وفى الفترة الأخيرة ، خرج الحباليص (اللصوص) الإخوة الصغار ، مبتعدين عنا ، ولما لم يعودوا ظننا أنهم ضاعوا أو ضلوا طريقهم . وبعد انقضاء أسبوعين عاد أولئك الحباليص ، وهم يبتسمون بكل أسنانهم البيضاء ، وهم يقتادون ثلاثة من الحُمُر ليبيعوها فى سوق الحجر ، كان الحباليص قد سرقوا تلك الحمير أثناء الليل عندما كان أصحابها نائمين ، سرقوها من مخيم من مخيمات الحطيم Heteym يقع خلف قرية خيبر ، وربما كان ذلك على بعد حوالى مائة ميل . كان الحباليص مرهقين تماما ، نظرا لطول المسافة التى مشوها ، فى ظل الخطر الذى كان يتهدد حياواتهم ، فى منطقة الحمم البركانية الوعرة ، داخل بلاد أعداء ، فضلا عن أنهم لم يكن معهم ما يأكلونه أو يقتاتون به .

نزل بعض التجار ، الذين هم من آباء دمشقيين ، على القلعة ضيوفا قادمين إليها من قرية تيماء : كانوا يودون شراء احتياجاتهم السنوية من الملابس ومن البن ، من سوق قافلة الحج وسوق الأورطة العسكرية . ووصل فى الليلة ذاتها خدم ابن الرشيد ، ومعهم المهرة النجدية التى يقدمونها هديه كل عام لباشا الحج . وفى الصباح . شاهدنا تلك الهدية المقدمة من الأمير ، واقفة وعليها عرّاقة مصنوعة من القماش الذى يصنع

العرب منه عباءاتهم (بشوتهم) ؛ ووجدنا تلك المهرة هزيلة ، وغير مُفْرْجنةٍ ، ولم تكن تساوى فى نظرنا ، مجرد حمار ، بل أن المغاربة كانوا يسخرون منها قائلين . وهم يقسمون بالله ، إنها لا تعدو أن تكون كديشا(*) . كانت الأورطة (القوة العسكرية) على وشك الوصول : وكان كاتب الأورطة ، الذى يسميه الأعراب باشا الأورطة ، يتقدمها راكبا دابته ، وطرق باب القلعة الحديدى مع الساعات الأولى بعد انتصاف الليل . كاتب الأورطة هذا ، كان تركيا سوريا اسمه محمد طاهر أفندى ، وكان بصحبته قائد الحرس العسكرى ، وهو تركى أصيل ؛ وهو الذى جرى تعيينه من قبل على رأس قوة عسكرية لقمع ولاد على فى قرية العلا . حيانى كاتب الأورطة هو وقائده العسكرى تحيه فيها شىء من الانشراح ، عندما وجدانى بخير ودخلنا كلنا لشرب القهوة . ولما كان محمد طاهر متعبا من الرحلة ، فقد قال وهو يجلس : والله أنا شبعان من عمرى .- ورد عليه محمد على قائلا : "ما هذا الذى تقوله يا هذا !" من ذا الذى سمع هذه الكلمة على لسان رجل حظيظ ؟ - "أنا شبعان ، يضاف إلى ذلك ، أن مامر من حياتى يكفينى ، وأنا أقسم على ذلك ." كان محمد أفندى طاهر رجلا طيبا ، لايلقى بالا أو يهتم بالاحتفالات الخرافية ، كما كان أيضا صاحب نكتة فريدة ، كان محمد أفندى يتكلم من قلبه ، فى كل مناحى الحياة الإنسانية المضطربة ، كما كانت لديه القدرة أيضا على تطويع كلامه لسياق حديثه ؛ ومحمد أفندى ، شأنه شأن الأتراك ، كان مفتول العضلات ، فضلا عن بعض الصفات الطبيعية العظيمة . ومع انبلاج نور الصباح وصلت الأورطة العسكرية إلى القلعة ؛ وإن هى إلا نصف ساعة ، حتى نصب شارع كامل من الخيام التى تستعمل استعمال المحلات ، فضلا عن القرية البيضاء التى كانت مكونة من خيام الجنود ؛ كل ذلك أقيم أمام القلعة . والمعروف أن الأورطة (القوة العسكرية) تتجاوز مضارب البدو بطريقة عسكرية ، وتقدم لهم صُرَّة مثلما تفعل قافلة الحج قبلهم . الأورطة (*) تصل بعد قافلة الحج بوقت قصير ، وتكون محملة بمواد الإغاثه القادمة من سوريا ، لتلتقى بقافله الحج القادمة من مكه فى منتصف

(*) الكديش : الفرس العجوز الهزيل . (المترجم)

(**) المؤلف يستعمل كلمة Jurdy التركية للدلالة على الأورطة ، وواحد هذه الكلمة هو جريد Jerid ومعناه الرمح الخفيف . (المترجم)

الطريق . هذه القافلة التى كانت فى يوم من الأيام قافلة عظيمة ، لم تعد سوى مجموعة مرهقة مكونة من قلة قليلة من التجار ؛ الذين يقومون بتلك الرحلة فى حراسة أربعين من راكبى الخيول ، ويجرون معهم مدفع ميدانى كبير مصنوع من النحاس الأصفر ، كانوا يطلقونه مرات عدة حسب الحاجة أثناء وصولهم إلى المركز ، هنا فى مدائن صالح : كان يوم وصول الأورطة يوافق اليوم الثالث من شهر فبراير . فى نفس ذلك اليوم وصل باعة الفاكهة إلى القلعة ، فى فترة العصر ، وهم من العلاونة الذين جاءوا على إبل استأجروها من ولاد على ، ثم راحوا يعرضون بضاعتهم أمام القلعة فى العراء ؛ وصنعوا لأنفسهم مخيما من الأدغال كى يحتموا به من ريح الليل . أحضر القرويون التمور وسلالا مليئة بالليمون الحلو ، لقافلة الحج التى تعانى من العطش ؛ وأنا بنفسى اشتريت مائة ليمونه نظير نصف كراون (*)

فى أواخر ذلك اليوم ، وبينما كنت جالسا فى خيمة ضابط الأورطة (القوة العسكرية) ، سمعت ، فجأة انطلاق بعض الأعيرة النارية فى المخيم : وعلى الفور وقفنا وخرجنا للوقوف على ما يحدث . وجدنا الجنود السوريين ، فى مرح وطيش يتعقبون ، عن طريق إطلاق النار ، جماعة من البدو الهاربين ، الذين كانوا يحاولون سرقة سوق الأورطة والسطو عليه ، وأن كل هؤلاء البدو الهاربين كانوا من ولاد على . وجدت أيضا أن أسوار القلعة كان الرجال متأهبين خلفها ، كما شاهدت أيضا حامية القلعة الضعيفة وهم يفتحون نيران بنادقهم الفتيلية على اللصوص الهاربين ، كما شاهدت بوابة القلعة الحديدية وقد أوصدت . وهنا صاح جندى مناديا بصوت أجش يطلب من الجميع التخلى عن البنادق والبدء فى تعقب اللصوص :- الرعاة والذئاب ، وكذلك الجنود والبدو لا يمكن أن يتفقوا ؛ على الفور جرى إطلاق دانة مدفعية فوق رءوس اللصوص ، دوّى على أثرها الصوت على مسافة بعيدة فى تلك الأرض الرملية القاحلة . ومع ذلك ، كانت شخصيه كبيرة من ولاد على تجلس فى خيمة باشا الأورطة ؛ هذه الشخصية كان اسمها محسن Mehsan الضرير ، الذى كان يجىء من حيث المكانه بعد ولد عمه ، الذى كان يشغل منصب شيخ القبيلة ؛ كان محسن الضرير ثرياً

(*) قطعة نقود معدنية تساوى خمس شلنات (المترجم)

من بين شيوخ الصحراء ، يضاف إلى ذلك أن مآثر كرم ذلك الرجل كان الناس يتغنون بها فى كل أرجاء البرية ، كان محسن ضيفًا على المخيم فى ذلك اليوم ، إذ كان ينتظر وصول قافله الحج حتى يرحل معها ، أملاً فى معالجه نفسة من المياه البيضاء فى مدينه دمشق . وعندما سمع محسن تلك الجلبة هب واقفا ، وهو يحرك حدقتى عينيه المسكينتين ، وبدا عليه أنه يرثى لتلك الفعلة التى أتاها رجال قبيلته الأغبياء غير المتحضرين . كان محسن رجلا مفتول العضلات ، وهو الآن فى مرحلة الشيخوخة ، فضلا عن أن لحيته كانت تنم عن أنه بحق من أهل الجزيرة العربية ، هذه اللحية ، تدل فيما بين البدو ، على أن صاحبها لم يكابد الجوع طوال حياته . كان طعام الشيخ محسن الضرير يتمثل فى حليب الخض butter milk الذى كان يحصل عليه من قطيع أغنامه ، كما كان عشاءه يتمثل فى سلطانية من لبن النياق فى المساء : يضاف إلى ذلك أن ذلك الشيخ من شيوخ الصحراء كان له قلب كبير بحكم سعة صدره .

كان محسن يجلس شامخا فى ملابسه الجديده ، التى كان يتلقاها كل عام من إدارة الحج بصحبة الصرة السنوية أيضا : ولم يغب عن بال ذلك الرجل ، بحكم خفه ظله ، أنه كان ينزل ، فى كثير من الأحيان ، ضيفا على الحضر . وكان يعرف أيضا أن الحياة المستقرة فى كل من دمشق والمدينة المنورة هى بمثابة تغيير وتجديد لذلك البدو ، اللهم باستثناء عندما يحن ثانية إلى الهواء النقى . وقد ابتلى محسن فى قسم من طبيعتة الإنسانية التى تشكل تعاسة كبيرة لحبه للسامية : Semitic هذا يعنى أن محسناً كان بلا ولد Childless، أو إن شئت فقل : 'عجَّر' Ajjr بلغة القوم ، والبدو يعتقدون أن الرجل يصبح "عجَّراً" على أثر إصابته بمرض حاد مزمن . هذا يعنى أيضا أن ورثة محسن هم الفقراء من القبيله وكذلك الغرباء عنه ، وكل هؤلاء يترددون يومياً على سماط ذلك الرجل الكريم . لم يكن للشيخ محسن الضرير سوى زوجة واحدة غير جميله تقوم على أمر كرمه وضيافته . (بلغنى) أن الشيخ محسن الضرير ، قام علي إثر الغزو الذى قام به ابن الرشيد على قبيلته ، بتوزيع مبلغ خمسمائة ريال على المحتاجين والمعوزين ؛ وذلك على الرغم من استيلاء ابن الرشيد أثناء الغزو ، على خيمة الشيخ محسن ، وعلى محتويات تلك الخيمة أيضا :- واقع الأمر أن ذلك المبلغ كان كبيرا ويصعب أن يتوفر لدى أى بدوى ، من البدو الرحل ، على شكل نقد سائل ، أو إن

شئت فقل : على شكل (صرَّة) : هذا بحد ذاته يوحى بقدر كبير من الفضيلة العامة فى شخصية ذلك الرجل الذى أنجبته الصحراء ، والذى كان يحيا حياة الصعاليك فى مجتمع العرب البدو والمساكين !

قام كل جندى من الجنود بتفريغ بندقيته القصيرة التى تتسع خزينتها لست عشرة طلقة ، ولكن لم أتبين إن كان أحد من الأعراب قد أصيب ؛ ومع ذلك ، قيل إن واحداً من الأعراب قد أصيب فى كتفه . الرماية التى من هذا القبيل هى التى تجعل البدو يستخفون بالأسلحة النارية العسكرية ، من منطلق أنها ليست دقيقه وبعيدة المدى ؛ والبدو يعتقدون أن بنادقهم الفتيلية أفضل بكثير من تلك القربينات **Carbines**، أو إن شئت فقل البنادق القصيرة .

هنا يجىء الدور على بدو البِشْر والغرباء من القبائل الأخرى المجاورة ، مثل البلِّى **Billi** وجهينه ؛ وبدو البشر هم والغرباء من أمثال البلى وجهينة يمكنهم التسوق فى سوق قافلة الحج : وهم يدفعون عن ذلك التسوق ، مبلغ ريال واحد عن كل فرد ، وهو ما يسمى بريال الخوة ؛ ويدفعون لشيخ بعينه من شيوخ البدو الرحل فى تلك المسيرات . وملاك الأرض هنا هم ، ولاد على ، والفجير ، وكذلك الموءاهيب ، وكلهم ينتمون إلى سلالة عنيزة . ومن بين الموءاهيب مغربى مرَّاكشى ، كان من قبل فى حامية قلعة الأخضر ، والذى ترك خدمة الإمبراطورية العثمانية التى كانت تعود عليه بأجر هزيل ، وتحول إلى ناقل للأرز من بلدة الوجه ، وهو يعيش حاليا بين الأعراب متزوجا من واحدة من نسائهن . كان اسم ذلك المغربى محمد ، ولكنهم أطلقوا عليه اسم أبو **Abu** سنون **Sinûn**، أو إن شئت فقل : والد الأسنان ، نظرا للتشوه الكبير الذى طرأ على أنيابه ، وقد اضطرته الأزمة التنفسية التى حلت به إلى اللجوء إلى الحياة البدوية المترحلة طلبا للهواء العليل . وعبر لى وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الرضا ، عن سروره ، بالتقائه فى هذه الوحدة ، فى ذلك المكان البعيد من العالم ، رجلا إنجليزياً ؛ كان الإنجليز جيرانا لناسه ! وكنت كلما زرته فى مخيم الموءاهيب ، فى أى وقت من الأوقات ، يفرِّجنى على الحرّة الموجودة خلف المضارب التى يعيش فيها ، وينقلنى لزيارة المواقع الأثرية الموجودة فى نطاق أراضيهم البدوية .

شاهدت بدويا مقبوضًا عليه فى القلعة بسبب تذمره . كان ذلك البدوى من عرب جهينة : كان خطأ ذلك البدوى يتمثل فى دين قديم ، وكان الحاج حسن واقفا يهدد بمالا يقل عن قطع رأس ذلك البدوى . كان بعض البدو الرحل يتوسلون طلبا للصفح عن ذلك البدوى ، ولكن مُعذِّبيه كانوا قد قيدوه ، وألقوا به فى غرفة علف الماشيه ، وأغلقوا الباب عليه . عند هذا الحد ، نظر نحوى باشا الأورطة (القوة العسكرية) الذى كان يجلس عندئذ بالقرب من بئر القلعة ، ويهز كتفيه إشمئزازا من ذلك المنظر ، ليرى مدى تأثير ذلك على الشخص الأوروبى ! كان هناك عدد كبير من الضيوف فى القلعة فى ذلك الوقت ؛ وبخاصة أولئك الضيوف الذين جاءوا من حائل ومن قرية تيماء ، إضافه إلى الضيوف عابرى السبيل من أمثال الأعراب والعلاونة Alowna ، الأمر الذى أسفر عن امتلاء غرفه القهوة عن آخرها .

كان ضيوف الأمير ابن الرشيد ثلاثه يرتدون ملابس جديدة وهم من النجديين . كان عبد العزيز هو الشخصية الرئيسة بين هؤلاء الثلاثه ؛ وعبد العزيز هذا شخص حصيف ومحترم يحظى بثقة الأمير ؛ وبالرغم من أنه كان أبيضا مثل العرب ، إلا أننى فهمت أو عرفت أنه لم يكن من دم نقى خالص ، إذ كان والداه من العروض el-Aruth فى شرقى نجد . هناك كثير من الأجانب الذين استطاعوا تبوأ بعض المناصب ، وهم حاليا يترأسون خدمة ذلك الطاغية فى حائل . هؤلاء البيض الماجنون المنغمسون فى الملذات فى الجزيرة العربية ربما ينحدرون من سلالة الجالا Galla(*) وابيضاض هؤلاء البشر يشوبه شىء من الصفره ، الأمر الذى يجعلهم من سلالة غير السلالة الخالصة التى ينحدر منها أهل الجزيرة العربية . كان فى عبد العزيز شىء من اللطافة النبيلة ، بمعنى أنه كان عبارة عن خليط من السلوكيات النجدية والشجاعة النجدية أيضا ، وفى مثل هذا الخليط تمتزج حلاوة إنسانيتهم الأنثوية بخشونة الرجولة . يضاف إلى ذلك ، أن عبد العزيز ، كان يمثل هنا فى القلعة كرامة سيده ويحافظ عليها : إلى حد أنه عندما كان يدخل إلى غرفه القهوة ويرى بعض القرويين العلاونة ، الذين لا يمكن أن يخطئ ملامحهم المؤسفة ، كان يطلب إليهم الانسحاب على الفور من الغرفة . قال عبد

(*) الجالا : الأحباش (المترجم)

العزيز ، أنا لا يمكن أن أكون مثله ، وأجلس بصحبة أى أحد من العلاونة . قد يكون ذلك من قبيل حقد وهابى قديم ، الذى لم ينحنى فيه أولئك القرويون الحجازيون أمام الاستبداد النجدى . ولكن هذا العبد العزيز نفسه كان يجلس مع بدو ولاد على ويتودد إليهم ، وهم حاليا أعداء للأمير . كانوا يرتشفون فناجيل القهوة سويا فى ود وصداقة ، ومع ذلك ، فإن خيانات تلك القبية هى التى تسببت فى الدمار الكبير الذى وقع مؤخرا ، كما تسببت أيضا فى المذبحة التى نصبها الأمير للأعراب فى ممتلكاته . كان ابن الرشيد يتطلع إلى خضوع تلك القبيلة خلال وقت قصير ، طالما أنهم غير قادرين على مواجهته . هنا ضحك محمد على قائلا وهو يدخل غرفة القهوة : "آه ، لقد ظهر المستور ، هاهو الغريب وسط هؤلاء البدو ! إنهم سيذبحون بعضهم البعض فى الميدان ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، وها أنتم ترونهم يشربون القهوة مع بعضهم البعض فى ود وحنان ." اتجهت بعد ذلك للجلوس معهم ؛- قال عبد العزيز وهو يتجه صوب أذن الشيخ الضرير : "يا محسن ، نصيحتى لك أن تستولى على الجبال وتلجأ إليها ، وتستكن فى الأماكن الوعرة ، التى يعز على ابن الرشيد الوصول إليها ، وبالتالى الوصول إليك ." ورد عليه محسن رداً معتدلا قائلا : "صدقت يا عبد العزيز ، وسوف نفعل ذلك ."

كان كرم القلعة الصباحى والمسائى عبارة عن طبق معدنى كبير تماما مكوم فوقه طعام عشرين أو ثلاثين رجلا ، كان يحمله رجلان ويضعاه على أرض الشرفة العليا ويدعيا إليه كل ضيوف القلعة ، كان طعام الحاج نجم العربى عبارة عن أرز بالزبد إضافة إلى خبز غير مكتمل النضج على شكل حلقات . واستطاع محمد على نفسه أن يبدو لطيفا مع كل الضيوف والغرباء الموجودين فى القلعة : فقد طلب إلى الرجال القادمين من بلدة تيماء أن يحدثوه عن الموقف فى بلدهم ؛ 'هل هو سهل أم وادى ؟ وأنه سوف يذهب لزيارتهم على ظهر راحلته (إذا ما استطاع موظف الحكومة إلى ذلك سبيلا) فى عام من الأعوام .' كان التيامنة فى الصحراء يعرفون جيدا كيف يردون على كلماته التركيه الملوية المرة بعد الأخرى ؛ كان التيامنة يعرفون جيداً أن حكام المدينة (المنورة) قد أعدوا أمرهم على الاستيلاء على واحة تيماء ، التى كانوا يعيشون فيها ، عن طيب خاطر ، فى ظل حكم محمد بن الرشيد .

كان عبد العزيز يزورنى فى غرفتى كل يوم ؛ وكان يتحدث بحرية مع الغريب ، كما كان القادمون من تيماء يفعلون الشيء نفسه ؛ فقد استمعوا فى القلعة إلى تقرير طيب عن النصرانى ، وفهموا أنى أميل تماما إلى جانب المسلمين . ولما كان عبد العزيز رجل يعرف القراءة والكتابة ، فقد راح هو الآخر يتفحص كتبى ، ولما كان لم ير الحروف المطبوعة فى حياته فقد ظن كتبى مخطوطات وهو يقول : "– مكتوبة بدقة بالغة بلغة النصارى !" كتبهم وسيرهم وأغانيهم ، وكذلك القرآن ، كل ذلك مكتوب عندهم بخط اليد . يضاف إلى ذلك أن كلا من الحاج نجم ومحمد على كانا قد تباها أمام التيامنة بأن النصرانى لم يكذب مطلقا ، حتى وإن كان ذلك الكذب لمصلحته ؛ وعليه فقد كان يجيبنى بصدق وإخلاص ، عن كل ما سألته عنه . قال لى : إن بداية وادى الرماح **er-Rummah** العظيم كانت فى حرة خيبر ، كما قال لى أيضا : إن المخرج عند الزبير بالقرب من بُصرى . كما أبلغنى أيضا أننى يتعين علىَّ رؤية بعض النقوش الخاصة بحائل ، إذا ما سمحت ظروفى بالذهاب إلى هناك . ولما كان قد سمع بينهم عن صدقى وصراحتى ، فقد عاد إلىَّ وسألنى مرة ثانية ، عما إذا كنت "أشرب" الدخان ، – لأن ذلك أمر غير دينى بين النجديين . كما حكى لى أيضا أنه هو واثنين من الرفاق كانوا قد ركبوا النياق وداروا حول تيماء ، طوال عشر رحلات ، جرى خلالها اقتياد الفَرَس للمحافظة عليها ؛ وهذا هو المدى الذى وصل إليه أمن تلك المناطق البدوية فى ظل حكم ابن رشيد واسمه القوى . كان أهل نجد هم وأهل تيماء مثابرين ومحافظين تماما على ولائهم لدينهم ، إذ كانت الدلاء يجرى وضعها لهم فى شرفه القلعة ، حتى يتوضؤا منها قبل أداء الصلاة : وكان عبد العزيز ، مبعوث الأمير ، يؤمهم بعد ذلك ، فى أداء الصلاة.

تأخرت عودة قافلة الحج ، وهذا هو الجمهور البدوى ، الذين جاءوا للتسوق خارج نطاق خيامهم ، هاهم يحتمون بالأدغال من الليالى قارسة البرودة ؛ وهاهى دلائل نيران حراستهم التى تبعث الأمل فى النفوس ، تظهر على شكل ومضات هنا وهناك فى ظلام الليل ، بالقرب من المخيم ، فى الأرض الجرداء . وأثناء الوردية السابقة لوردية منتصف الليل ، قامت الأورطة (القوة العسكرية) بإطلاق بعض دانات المدفعية فى اتجاه الشرق ، وفى اتجاه الغرب أيضا فوق رءوس هؤلاء البدو الخونة ، فى المنطقة الجرداء الخاليه من البشر . كانت ليالى الشتاء طويلة وباردة عند هذا الارتفاع ؛ ولم يستطع

عرب البوابة النوم طوال هذين الشهرين وبخاصة فى الفترة ما بعد منتصف الليل ، إذ كانوا يرتعشون بفعل البرد القارس ، وهم ملتحفون بعباءاتهم البسيطة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع ، فوق الرمال الباردة وهم يتأوهون انتظارا لطلوع الصبح . ونساء هؤلاء البدو ، بصفة خاصة هن اللاتى تعانين معاناة شديدة داخل الخيام المهترئه : البعض منهن ، ليس على أجسادهن من شيء سوى ثياب واسعة فضفاضة تستر بها أجسادهن ؛ إذ من أين لهن بالفضة (النقود الفضية) التى تمكنهن من شراء العباءات التى تغطيهن ؟ والجليد هنا لا يسقط على السهل مطلقا ، وإنما يُبَيِّضُ سطح الحرَّة ، فى بعض الأعوام ، على ارتفاع يصل إلى حوالى ٣٠٠٠ قدم . هذا هو الجمَّال الذى أوفد لاستطلاع أخبار عودة قافلة الحج ، جاءنا بنبئ يفيد تأخر وصول القافلة ، فى مخيماتها ، بفعل الأمطار (المدارية) ، وبخاصة فى المنطقة فيما بين الحرمين . هذه هى قافله الحج قد بدأت تهل علينا ، وسرت شائعة مفادها أن الحجاج العائدين جلبوا معهم مرض الجدرى . هؤلاء البدو من معارفى ، الذين سبق لهم رفض تلقى الطُّعم على سبيل الهدية ، هم يتوسلون إلى الآن ، أن أبيع لهم ذلك الطُّعْم ؛ وهنا فى عز هذه الأزمة راحوا يؤنبونى وأنا أستعد للرحيل ، ولكنى لم ألق بالا لما قالوه .

شاهدنا فى نفس تلك الليلة أسرابا من الجراد ، وهذا فأل سيئ على بداية فصل الربيع ؛ هذا يعنى أن تلك الأسراب سوف تلتهم الربيع . صاح الناس قائلين : "هذه الأسراب تأتينا من قرية العلا ." هذه الحشرات التى تشبه الطير ، التى تطير مستخدمة فى ذلك أجنحتها الضعيفة الشبيهة بالزجاج أثناء هبوب الرياح الجنوبية ، بدأت تحط فى كل أرجاء المخيم ؛ وعلى الفور شوى الناس كل ذلك الجراد فى نيران الخفارة وأكلوه . وفى الصباح كانت النساء قد جمعن كميات هائلة من ذلك الجراد على شكل أكوام كبيرة ، وكن منشغلات بتخزين تلك الأكوام داخل حفر صغيرة ويشوينها بنيران ضعيفة أشعلنها فى الأعشاب الجافة ، هذا الجراد المشوى تفوح منه رائحة مقززه مثل رائحة الزيت الذى ينتج عن شوى السمك . وبعد أن تتم معالجة الجراد ، أو إن شئت فقل ، تقديد الجراد بهذه الطريقة ، وبعد وضع شيء من الملح عليه ، تجرى تعبئته فى جوالات من الجلد ، وبذلك يجرى حفظه مدة طويلة مع هؤلاء البدو : وهم يخلطون ذلك الجراد المقدد ، مع طعامهم السائل الوحيد المتمثل فى لبن الخض **butter**

. milk وعند هؤلاء البدو ، لا يعد مسحوق الجراد طعاما يصح تقديمه للضيوف ؛ ولقد شاهدت فى أحيان كثيرة بعض البدو الرُّحَّل المساكين (معظمهم من النساء) يخجلون ، حفاظا على ماء وجوههم ، من الاعتراف بأنهم كانوا يأكلون هذا الفتات البائس حتى يسدوا به رمقهم . وأفضل أنواع الجراد ، تلك التى تأتى فى فصل الربيع ، "وتقضى على كل ما هو أخضر" ، والأعراب ينظرون إلى أكل الجراد باعتبار أن له فائدة طبية . أما السلالات التى تأتى بعد ذلك ، والتى يطلقون عليها إسم الدُّبَّة dubba، وهى التى تنتج عن إناث الجراد غير الكاملات ، والتى لا توجد إلا فى منطقة الأعشاب المحروقه ، فهى من السلالات الجافة وغير الصحية . هذا النوع من الجراد المبكر ، الذى يجرى شوية يعده أهل الحضر وأهل الصحراء قطعة من المسكِّرات .

خلال الفترة التى كنا ننتظر فيها عوده قافلة الحج كان الدمشقيون المنهكون الذين جاءوا مع الأورطة (القوة العسكرية) غير مبالين ، إلى حد أن جماعتين فقط من هؤلاء الدمشقيين ، وبناء على رواية مفادها أننى قمت بذلك من قبل ، ابتعدا مسافة ميل تقريبا عن القلعة مستهدفين من ذلك زيارة الآثار الموجودة فى مدائن صالح . زد على ذلك ، أن باشا الأورطة ، ومعه الملازم التركى هو وجنوده ، ذهبوا جميعا عدوا بقيادة محمد على على ظهور دوابهم ، للوقوف على ذلك الذى قطع ذلك الإنجليزى من أجله تلك المسافة الطويلة قادما من سوريا . وقد عشت ، مسيحيا وحيدا ، بين جمع كبير من السوريين المسلمين الذين تجمعوا فى الحجر ويثيرون القلاقل والمتاعب ، وفى ظل متاعب الغيرة والحسد اللذان كانا يعتصران قلوب ذلك النوع الأفضل والمتسامح من أهل الجزيرة العربية زد على ذلك ، أن محمد على زكّانى أيضا عند كل أولئك الذين يمكن أن يعينونى على المضى قدما فى تجوالى ومغامراتى فى الجزيرة العربية ، تلك المغامرة التى حاول الأشخاص المخلصين محاولة مستميتة ومخلصة لمنعى من المضى قدما فيها : من منطلق أن عقولهم الدينية تحثهم على عدم تجربة أى شىء لم تسبق لهم تجربته من قبل . "قالوا لى : سوف أذهب إلى أماكن أخسر فيها نفسى ، فى أرض لا تعرف القانون ، وسوف أكون فيها خارجا على القانون ، لمجرد أن اسمى النصرانى ، وبعيدا جداً عن كل مظاهر نجدة الملهوف ؛ سوف أغامر فى مكان لا يستطيعون هم أنفسهم المغامرة فيه ، وهم أصلا من أتباع دين هذا المكان ولغته ؟ يا خليل ، فكر جيداً فى نفسك ، وعد

معنا ، والطريق مفتوح وآمن ، عد معنا وابتعد عن تلك الأرض الخراب التى عضها الجوع ، والتى أهلكتها الشمس ؛ إنك لم تولد ، ولم يكلفك الله ، بتلك المعاناة فى أرض لا يمكن أن يسكنها أحد سوى العفاريت ، البدو عفاريت ، ولكنك نصرانى ،- فى هذه الأرض سوف يقتلك كل من يراك ! ولو قدر أن الله سبحانه وتعالى حفظ عليك حياتك إلى النهاية ، فما هو ذلك الذى سوف تجنيه لقاء تلك المتاعب الكبيرة ؟ بعض آخر من الرجال يعرضون حياتهم للخطر بغية تحقيق المكاسب ، ولكنك سوف تخاطر بكل شىء ، بلا داع" . هكذا كان البعض الطيب منهم ينظرون إلىّ بعين العطف علىّ من ناحية والاندهاش من الناحية الأخرى ، وبخاصة أننى ولدت ونشأت فى ظل الحياة الإفرنجيه المليئة بالفضل والزيادة ، فكيف لى بتحمل حياة الأعراب البائسة ومعاناتهم . وقالوا أيضا : "سنعود خلال يوم أو يومين إلى سوريا ، تخلَّ عن تلك المغامرة ، وهيا رافقنا فى عودتنا : ثم أليست دمشق مكانا جميلا يمكن أن تعيش فيه ؟" قال محسن الضرير شيئا شبيها بذلك ، محاولا بذلك إثنائى عن عزمى ، من منطلق أنى واحد من الحضر ، ومن منطلق أنى نصرانى أيضا : قال الرجل : "إسمعنى ، فهذه نصيحة صادقة ؛ عد الآن ، يا خليل مع قافلة الحج إلى الشام : الأرض هنا ، هى أرض البدو ، ولا تخضع لأى شكل من أشكال الحكم ، وأنت معروف فى هذه الأرض بأنك نصرانى ؛ ولا تخاطر بحياتك : ومع ذلك إذا كنت بحاجة إلى المغامرة ، فالأعراب أناس طيبون ، وما عليك إلا أن توسّع صدرك وأنت بينهم ." وهنا رد عليه محمد على قائلا : "خليل يحب المغامرة حبا جما ، وليس هناك ما يمكن أن يثنيه عن عزمه ." قال أحد الشيوخ : "إذا ما ذهب رجل إلى الأعراب تعين عليه أن يحمل كفنه بين يديه ؟" قال آخرون : "يا خليل ، إحترس ولا تسلم نفسك لأى منهم مهما كان ؛ البدو شياطين ." ولامنى ضباط الأورطة قائلين : "ولماذا تضيّع حياتك ؟ وأنت لا تعرف البدو ، ولكن نحن نعرفهم ؛ البدو شياطين ." وقال الملازم العسكرى : "ونحن الذين نعمل بالجندية ، لا يمكن لنا المرور إلا بعد أن نعطيهم صرة من النقود . البدو متمردون (وأضاف بوصفه تركيا) ، ولا يستحقون سوى خسران رءوسهم . كم هم يجرؤن على معارضة حكم السلطان !" سألونى : "ما رأيك فى هذه الصحراء ؟" (رد محمد على الجزائرى قائلا : "أؤكد لك أن فرنسا إذا ما استولت على هذه الأرض فسوف تكون هناك بلدان وقرى ." وقلت لهم إن هذه البلاد لا

تستحق كل هذه المتاعب والآلام .

كان سكرتير الأورطة العسكرية عجيلى أسمر اللون من أهل الجزيرة العربية ، وكان شخصا مثقفا من البلاد الوهابية ، ويختلف تماما عن كل الوجوة السورية المحيطة به . ومع ذلك كانت عينا محياه الأسود تنظران إلىّ نظرة ود وصداقة ، خالية من الحقد والحسد المتزمت ، كان ينظر إلى باعتبار أنى مجرد نصرانى جائل فى أرض العرب : قال لى إنه سوف يحكى لى عن شىء غريب فى بلده الذى ربما زرته فى يوم من الأيام . "دوّن ! ... سدوس ، فى وادى حنيفة (*) Halifa، فى ديرة مسيلمة (**) Umseylmy، الكذّاب ، حيث يوجد هناك ميل (مسلة أو دعامة) عليها كتابة غير معروفة من آثار كتابة النصارى أو الكفار ، الذين سكنوا تلك الأرض فى الأزمان القديمة ."

عند هذه المرحلة تأكد أن الحجيج عادوا وقد انتشر مرض الجدرى بينهم . ومعروف أن مرض الجدرى هو والكوليرا هما بمثابة الدمار الذى يحيق بالقسم البدوى المترحّل من الجزيرة العربية . وأجسام هؤلاء البدو الرحل الضعيفة لا تقوى تماما على مقاومة أى مرض من تلك الأمراض المعدية المخيفه . ومعروف أن قوافل الحج ، (التى يأتى الكثير منها من مختلف مناطق الجزيرة العربية ذاتها) هى بمثابة سيول المدن التى تنساب كل عام خلال شبه الجزيرة العربية الجرداء .

وفى صباح اليوم الثامن من ذلك الانتظار الطويل ، بدأت طلائع الحج ، التى واصلت المسيرة طوال الليل ، تلوح وتهل علينا فى السهل . وهنا ركبت الأورطة دوابها ، وراحت تعدو مع ضباطها لتقديم التحية لباشا الحج . وصل فى مقدمة قافلة الحج عمال نصب الخيام : وإن هى إلا دقائق قليلة حتى قاموا بنصب خيام مدينة الحجاج كاملة ، وذلك بالقرب من مخيم الأورطة العسكرية ، وهنا دوت فى أذاننا من جديد أصوات الأجراس ، التى كانت مضبوطة على خطوات مسير الجمال التى كانت تحمل أشياء

(*) أورد المؤلف هذه الكلمة بالرسم الإنجليزى Halifa والصحيح هو " حنيفة " Hanifa (المترجم)
(**) أورد المؤلف هذه الكلمة بالرسم Umseylmy والصحيح هو Museylema (مسيلمة) (المترجم)

ضخمة ، تشبه الموكب ، والتى هى أصلا تخوت Takhts الروّم er-Rûm (التى يعود منها عدد قليل) . ومن بعد هذه الجمال ، بدأت تلوح لنا جموع الحجيج . واستغرق مرور طوابير الحج حوالى نصف الساعة ، عندما وصل آخر تلك الطوابير إلى الخيام المخصصة له . هذه المدينة الخيامية تنصب مرتين كل عام وتستمر يوما واحداً فى سهل ثمود ، وهى تغص حاليا بالحركة والنشاط ! وهؤلاء هم الخرّازين يجلسون فى أركان السوق حتى يتسنى لهم ممارسة مهنتهم ؛ بجانب هؤلاء الخرّازين ، توجد بعض النعال الطبيعية المصنوعة من جلود الإبل التى تساقطت على الطريق أثناء الرحلة ؛ وهم يصنعون من تلك النعال أحذية لأولئك الذين قطعوا تلك المسافة الطويلة سيراً على الأقدام . وسرعان ما جرى توسيع مساحة سوق شارع الأورطة الذى يحتوى على خيام يستعملها الناس محلات للبيع والشراء ، عن طريق إضافة خيام التجار الجدد إليه . وأسعار السلع فى هذا السوق ، عند هذه المحطة التى تقع فى منتصف الطريق ، تتراوح بين خمسة وثمانية أضعاف مثيلاتها فى أسواق دمشق . هاهى الأورطة وقد جلبت معها زيتونا سوريا ، وكرّاثا بشوشة ، كما أحضرت معها أيضا جبنا وبسكويتا أو إن شئت فقل خبزا من خبز القافلة . وهذا هو خباز الأورطة ، مشغول فى تنوره ، وأوانيه حتى يتمكن من إنتاج خبز أبيض مفرود ، نظير البنسات القليلة المتبقية مع الحجاج المساكين . وهذا هو الليمون الحلو والليمون الحامض ، وكذلك تمر الحلو ، هذه الأشياء جاءت كلها من قرية العلا ، وقد شاهدت هذه الأشياء وهى تباع عن آخرها على وجه السرعة . وهاهم التجار الذين جاءوا من دمشق على ظهور جمالهم ، وقد فتحوا بالاتهم فى الخيام ، وراحوا يعرضون فناجيل القهوة ، والأدوات الحديدية ، والسجاد الفاخر (الذى يشبه الحدائق بهيجة الألوان ، والذى له ملمس ناعم يشبه مروج الربيع ،) – وملابس كبار الشيوخ ! كما يعرضون للبيع أيضا أقمشة تصنع منها ملابس البدو ، والتجار العائدون من الحج يجلبون معهم بعض السلع عند عودتهم من مكة ؛ كما شاهدت فى خيام هؤلاء التجار السوريين أكواما من البن اليمنى (اليمن السعيد) .

وجدت فى الخيام الموجودة على أطراف السوق توابل معروضة للبيع جاء بها باعتها من جزر الملايو ، ومن الهند ، كما وجدت أيضا طيب مكة وعطورها ، وبضاعة

أخرى مصنوعة من الخزف والصينى جاء بها باعتها من بحار الصين ؛ كل هذه الأشياء أحضرها الحجاج المسلمون ، الذين تجمعوا فى السوق المقدسة ، من أمم بعيدة وغريبة . كان راعيا من رعاة هذه البضاعة يصيح ، بصوت عال ، مناديا على البدو وهو يقول : "هيا تعالوا واشتروا يا أعراب !" كانت النساء اللاتى كن يمشين بالقرب من هؤلاء التجار ، وهن يبحثن عن بعض التوابل والعقاقير ، يرددن على ذلك النداء ردًا رزينا وهن يقلن : "ماذا لديك أيها الشاب ؟" وعندما كن يغمغمن اعتراضًا على السعر وهن يقلن : "كيف ذلك ؟" (كان البائع يتعجب منهن) هل تعتبرننى واحدا من أولئك الذين يمكن أن يغشوكن ، أنا رجل ممن يراعون الله ويخافونه !"- وعندما أبصرنى ذلك الرجل الذى كان ينادى على بضاعته ، توقف عن الكلام لكى يحيينى ! هذا الرجل قدم لى كل أعذار الدنيا الزائفة التى كان يغطيها بابتسامة باسم ذلك الفارسى الذى يدعى محمد أغا ، عن أنه لن يمر بذلك الطريق مرة ثانية (نظرا لأنه سبق أن قدم لى وعدًا مصطنعا ، بنقلى إلى الشام) ، لأنه انتقل بطريق البحر إلى بغداد . كان ذلك الفارسى يخشى فى داخله ، من أننى ربما اتهمته فى دمشق ، فى يوم من الأيام . رأيت ذلك الرجل مرة ثانية فى دمشق فى فترة لاحقه ؛ بعد أن عدت بسلام من الجزيرة العربية ، ولكن عوالم كثيره كانت قد مرت على ذهنى ، إلى حد أنه عندما تحدث إلىّ ونحن فى السوق لم أتذكره ، إذ لم يكن يتبقى لدى من ذلك المحيا الغض سوى ذكرى شاحبة وضئيلة تماما ومضطربة أيضا ؛ وربما كان ذلك الأغا على يقين من أنى لم أكن أضمر له سوءًا . "(قال ذلك الأغا لرفيقى ونحن فى دمشق) آه ! لقد عانيت الكثير من أجل نقل صديقك إلى مدائن صالح ، وفى معان ، وعلى طول الطريق بكامله ! وأنت لا تدرى عن ذلك الذى حدث لى بعد ذلك فى المدينة (المنورة) ! وأنا أقسم بالله ! أنى لن أفعل مثل هذا العمل مرة ثانيه - مستحيل ، حتى ولو كان ذلك بخمسة أضعاف المبلغ الذى أعطانى إياه . فى المدينة المنورة جرى استجوابى أمام مجلسهم ، يوما بيوم ، ولم يلقوا بالا للإيمان التى أقسمتها ، ولكنهم أجبرونى على الاعتراف بالمكان الذى خبأت فيه النصرانى . وأنا لم أقع من قبل فى ورطة من هذا القبيل على امتداد حياتى كلها ."

كان البدو المساكين يطوفون هنا وهناك فى كل أنحاء الشارع المكون من الخيام – الدَّكانية ، بغيه أن يبيع الواحد منهم ما لديه من مقادير صغيرة جداً من السمن نظير شيء من النقود الفضية ، أملا فى أن يشترى لنفسه بتلك النقود عباءة (بشت) جديدة هذا العام ومعه قميص شامى (رداء دمشقى) مصنوع من القماش . أما الحجاج الذين كانوا قد واصلوا مسيرهم أثناء الليل ، فهاهم نائمين فى الخيام ينالون قسطا من الراحة ، وتلك هى النراجيل الجميلة ، هى وفناجيل القهوة يجرى تجهيزها حول المئات من وجارات(*) إعداد القهوة : ولكن الوجوه البيضاء الكبيرة لأولئك الدمشقيين الذين يتمنطقون بالأحزمة ، ويلفون على جباههم عمامات ثقيله وقورة ، وكذلك لباسهم الوطنى ، ومعهم أوعيتهم الضحلة التى يخصصونها لجمع تفل (حثالة) البن ، كل هذه الأشياء تكاد تكون غريبة على العين غير المعتادة عليها فى هذه الأرض الجرداء القاحلة . كان هناك أيضا حول بركة الماء رهط كبير من السَّقائين حول البركة يملأون قراب الماء ، ويجلبون الماء لتشرب منه مئات الدواب . كان خزان ماء القلعة قد أخضر لون مائه وبدأ يتعفن بالفعل ، حتى أن البدو الرُّحل (الذين لم يعتادوا على العثور على الماء الجيد) ، يرفضون الشرب من ذلك الماء ؛ هذا الماء تحول ، بالنسبه لنا ، إلى شيء كريه بفعل عمليات الوضوء الرديئة التى يمارسها العلاونة (سكان العلا) استعدادا للصلاة ، وبخاصه أن هؤلاء العلاونة لا يراعون ضمائرهم وينزلون إلى خزان الماء بغية أن يستحموا ويغسلون أجسادهم فى ذلك الماء العام .

فى هذا الجمع الهائل من البشر التقيت ببدوى أسمر البشرة من أعراب قبيلة بنى مَرَّة **Murra**، تلك القبيلة الجنوبية ، بالقرب من وادى الدواسر . كان ذلك الرجل يرافق قافلة الحج متجها إلى سوريا ! وعندما سألت ذلك الرجل عن دياره ، أجابنى بذلك الكلام البدوى المؤسف قائلا : 'مالا بها خير' ، (بمعنى إنها ليس فيها أى شيء من الخير .) قال لى : "إنها تربة ، مجرد تربة ، أو إن شئت فقل : أرض شاسعة خالية من القرى ، أرض قحولة وجوع ." من عادة هؤلاء البدو أن يطلقوا العباره : 'بلاد بها خير' بمعنى "أرض طيبة " على تلك الديار التى يأكل فيها السكان ويشبعون .

(*) وجارات : واحدة ؛ وجار " وهو موقد إعداد القهوة (المترجم)

امتدحنى ضباط الأورطة وزكونى هم ومحمد على عند باشا الحج ؛ ولكنى كنت أرى أن الوقت كان ما يزال غير مناسب كى أقوم بزيارته للسلام عليه ، وبخاصة أن هذا الباشا الذى سبق له أن ا ختزن فى ذهنه استياءا شديدا جراء مجيئى إلى مدائن صالح . وقد وقفت على ذلك كله من لحظات صفو محمد على ومن لحظات غضبه أيضا . ففى ليلة من شهر ديسمبر التى ترحل فيها قافلة الحج عن مدائن صالح . كان السير أمين ذلك الرجل التركى ، هو ومحمد سعيد باشا ، قد أرسلا ، قبل تحرك القافلة ، فى طلب محمد على . "قالا له : بالله عليك ، ألم تخبئ النصرانى ، لترسله سراً إلى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ؟" "أنا أقول : لا لسيادتكما والله شاهدى على ما أقول ، ولكن المؤكد أن هذا الرجل غامر هنا ، فى هذه الديار ، وذهب فقط لزيارة مدائن صالح : ثقا بما أقول : إنه لم يتعد هذه الديار ولو بخطوة واحدة ، وفى كل الأحوال أنا أعرف الطريقة التى أمنعه بها من ذلك ؛ ولكنى سوف أذهب لإحضاره هنا أمامكما : وسوف ترياه يرد عن نفسه أمامكما ." قال الباشا : "لاتفعل ذلك ، فأنا لا أود أن أرى وجهه ، ويجب علىَّ الحفاظ على كرامتى ." (من المحتمل أننى عندما زرته فى دمشق أن أكون قد نسيت مخاطبة هذا المختلس العجوز للمال العام قائلا : "يا صاحب السعادة !") هنا رد السير أمين (الاسطمبولى) ، قائلا : "انتبه يا راعى القلعة ؛ لو قدر لذلك الإنجليزى أن يتبعنا ولو بخطوة واحدة نحو المدينة (المنورة) ، فذلك يعنى أنك ستمكننى من رأس الكلب ." الإنجليز ، الذين يعلمون هؤلاء البرابرة ذلك الذى لا يعرفونه فى إسطنبول ، قد يقتلونك فى السِّر ، ويدعون الأمور تجرى فى أعنتها ، فى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) ! [وهنا قال الباشا لمحمد على : "احتفظ به معك هنا فى القلعة ، ويجب عليك أن توفده لزيارة الآثار ، حتى لا يأتى إلينا هنا المزيد من الفرنجة فيما بعد . انتبه ، واجتهد فى ألا يصيب ذلك الرجل أى مكروه : والسبب فى ذلك ، وأنا أقسم لك بالله ، هو أننا قد نطلب حياة ذلك الرجل على يديك أنت ." وقال السير أمين : "انتبه ، أقسم لك بالله العظيم ، إننا إن عدنا ولم نجد هذا الرجل حيا ، فسوف أعدمك شنقا على باب قلعتك ." لقد بدأ يعتريهم مؤخرا خوف شديد من

مساءلتهم عن حياة المواطنين الأوربيين . – حرص محمد على على أخذ كلامهما بعين اعتباره ، وأجابهما مقسما بلحيتيهما ، إنه 'سوف يطيع أوامره ، ولكن قسما بالله العلى ، هو من المغاربة ، ولن يخيفه أى مخلوق مهمًا كان .' وهنا ينبغى أن أطلب من الباشا عطية ، وهى بالتحديد أن يزكينى عند البدو المتوحشين على الطريق . وعندما رحلت قافلة الحج فى الصباح ، تعين على الذهاب للتجوال والتسكع مع الأعراب فى تلك الأرض الخراب الشاسعة . كان ضباط الأورطة قد أثنوا زيدًا Zeyd عن قصده ، كما فعل الباشا الشىء نفسه ؛ ولكن زيدا كان يتطلع إلى الحصول على النقود الفضية ، فضلا عن إنهم لم يكن لهم أى نوع من أنواع السلطة على أى واحد من البدو الأحرار .

نزل بعض الدراويش الجزائريين ضيوفا على القلعة فى ذلك المساء . وقد سمحوا لى عن طيب خاطر – ولربما ظنونى مسلما غريبا ،– من منطلق أنهم فى ظل حكامهم المسيحيين لهم مطلق الحرية فيما يتعلق بالدين والعدالة . كما نزل على القلعة ضيوف فى الأمسية نفسها بعض من العسكر المغاربة جاءوا من القلاع الجنوبية ؛ وسبب مجيئهم هو أنهم يتقاضون رواتبهم أو معاشاتهم التى يتقاضونها عن العام كله مقدما على طريق الحج ، بالرغم من أن كل رواتب وأجور الإمبراطورية العثمانية كانت إلى حد كبير تدفع مؤخرا : – ومن منهم من يود أن يظل معزولا ، وسط تلك الصحراء الشاسعة ، وهو ينتظر راتبه أو معاشه ؟ وهنا يصبح الأمر بالنسبة لهم كما لو كانوا لن يتسلموا رواتبهم مطلقا . هؤلاء الناس الذين يعيشون فى مضارب مستقرة يبدو عليهم المرح والفرح ، كما أنهم معتادون على الخيول المتينه ، وهم يلقون نظرة على الفرس الهزيلة التى أرسلها أمير نجد على سبيل الهدية . قال بعض البدو ، من بين الحاضرين 'إرسال مثل هذه الجيفة ، هو احتقار ما بعده احتقار ، وهى لا تساوى ثلاثين كراونا ؛ يضاف إلى ذلك أن الباشا لن يقبلها !' قال بعض آخر من البدو وهم يتفاخرون إن ثمن تلك الفرس يعادل ثمن ثلاثين جملا . وقال أحد السوريين : "إن هذه الفرس إذا ما مر عليها شهر واحد فى الشام ستكون أحسن مما هى عليه الآن . فى عام من الأعوام كانت هناك فرس أخرى هزيلة ، أرسلها ذلك الأمير البدوى ، ابن الرشيد ، أوسَمَه ما شئت ، كبرت ونمت فى إصطبل الباشا ، فى ظل توفر العلف الجاف والعلف الأخضر –

نعم كبرت لتشغل غرفة مثل غرفة القهوة هذه !" الأفراس الأصيلة ذات الدماء النقية ، لها قيمة كبيرة عند قبائل الأعراب ، والسبب فى ذلك هو ندرة هذه السلالات ، ثمن الفرس الواحده يقدر بحوالى خمسة وعشرين جملا ، أى حوالى ١٣٠ جنيهاً إنجليزيا على أقل تقدير ، أو ١٥٠ جنيها إسترلينيا فى أحسن الأحوال ؛ وأسوأ تلك الأفراس تقدر قيمة الواحدة منها بحوالى ثمن خمسة جمال ، وهو ما يعادل ثمن أفضل النياق . كانت الهدية السنوية التى يقدمها الأمير النجدى على شكل فرس لمحمد سعيد باشا ، كان ينظر إليها الباشا السورى العظيم على إنها نوع من أنواع الاسترضاء . كان باشا الحج عند عودته فى الموسم التالى يرسل مراسله من هنا ، من مدائن صالح ، إلى حائل ، حاملا معه إلى ذلك الأمير من أمراء الجزيرة العربية هدايا مقابلة لتلك الهدية . كانت تلك الهدايا عبارة عن مسدس ، وبنادق ، وتلسكوبات ، وما إلى ذلك من الملبوسات الغربية القادمة من إسطنبول .

بحلول الصباح ، وعند الساعة الثامنة صباحا ، وبعد إطلاق مدفع الإشاره ، استأنفت قافلة الحج مسيرها ، وتبعتها راكبا على جمل صغير كان زيد قد أشتراه لى بمبلغ ثلاثين ريالاً . وعند الرحيل كان زيد قد طلب إلى محمد على أن يتذكره فى دمشق (بالمُهْر الهدية) ، وأن يأتى إليه ، فى موسم الحج القادم ، على أقصى تقدير ، ومعه عباءة (بشت) شتويه مفرّاه (لبس المدينة : أى لباس سورى من ألبسة الأعراب المصنوعة من جلود الأغنام التى تشيع الدفئ فى الجسم ؛ وبدو سيناء يلبسون رداء يصنع من جلد الغزال أو من أنواع أخرى من الجلود التى تتدلى من حول العنق ، ويلفونها حول أجسادهم أثناء هبوب الريح) . لم يرد محمد على بشىء على هذا الطلب ؛ إذ إن كلاهما كان خادعا وغشاشا ، ولم نره بعد ذلك . تجولنا خلال سهل الحجر ، المليء بالكثبان الرملية التى تحيط بأدغال أشجار الرمض . Rimth سبَّنى واحد من أفراد قبيلة ولاد على أثناء المسير ، (وولاد على يجاورون المدينه (المنورة) ، وأنا أعرف أنهم لم يتأثروا بنكهة أو مذاق تلك المدينة ، نظرا لحقدهم البدوى الشديد ،) سبَّنى فقال : "هل ستجلب علينا المسكوف (*) ؟ يالك من عدو ! (ثم وجه بندقيته

(*) نسبة إلى مدينة موسكو فى روسيا ، والمقصود بذلك هنا هو " الروس " . (المترجم)

الفتيليه نحوى ؛) ولكن اعلم أننا سوف نتصرف معهم مثلما فعلت معك الآن ، ونحن لدينا الكثير من هذه البنادق ، كما أن البدوى فى القتال يساوى ، قسما بالله ، عشرة من المسكوف(*) ." قلت له : "بدينى ، الواحد منهم فى اعتقادى يساوى الكثيرين منكم أيها الأولاد المتفاخرين العاطلين ؛ أنا لست عدوا أيها الساذج الغبى العبيط : ليس هناك فى الدنيا كلها أمة تحسدكم على صحاريكم الرملية . إعلم أنى من القسم الموالى للسلطان ، وضد المسكوف ، إذا ما جاءوا إلى هنا ." توقفنا لحظة حتى نسمح للقافلة بالمرور نحو الأعلى فى إتجاه مَبْرك الناقة ، كان مبعثا لفرحنا وسرورنا أن نسمع صياح الحجيج ، ونسمع أيضا الأصوات الصادرة عن فتح نيران مسدساتهم . والبدو الذين لا يعرفون القرآن حق المعرفة (كما يقال) ، ينظرون إلى هذا المكان باعتباره "مجرد مكان للتجمع والحشد" : ربما كان ذلك صحيحا فى أزمان سابقة عندما كان الحج جمعا غفيرا . وأثناء سيرنا ونحن راكبين دوابنا رأيت أن الصخره الشرقية كانت مليئة بالنقوش الأثرية المدونة : ولكنى لم أتمكن فى ذلك الحين من النزول عن دابتى لنقل تلك النقوش وشفِّها . وعندما رحت أنظر من فوق جملى ، فى اتجاه سير القافله ، وجدت أن حجمها قد تضاءل تضاؤلا كبيراً ؛ والواضح أن أقل من ثلثى القافلة هم الذين عادوا من تلك القافلة الكبيرة التى توجهت لأداء الحج فى مكة : لم يكن بين العائدين ضمن القافله أى من الفرس الذين يلبسون فوق رءوسهم أغطية مصنوعة من الفراء . وعادة الفرس أنهم بعد أداء الحج ، هى أن يعود الكثيرون منهم إلى بلادهم عن طريق البحر ؛ كما أن قلة قليلة منهم وافتها المنية على طريق الحج . وقافلة الحج العائدة من مكة ، تجلب معها العبيد الأفارقة ، إلى الشمال الغربى من العالم الإسلامى ، ولكنى بالرغم من تدقيقى وإطالة النظر هنا وهناك ، لم أحص من هؤلاء العبيد سوى خمسة فقط من بين هذا الجمع الكبير من الحجاج العائدين .

عندما وجدت بعضا من البدو المرافقين لنا قد سدوا فتحات أنوفهم ، سألت عن سبب ذلك ، أبلغنى هؤلاء الرجال أنهم لم يسبق لهم مطلقا التطعيم ضد الجدرى ،

(*) كانت الحروب مستمرة بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية منذ القرن السابع عشر الميلادى بسبب تطلع روسيا للسيطرة على الدردنيلى والبوسفور من أجل الوصول إلى المياه الدافئة فى البحر الأبيض المتوسط . (المراجع)

وأنهم كانوا يتشككون ويخافون تشمم رائحة الحج . والمعروف أن البدو الرُّحَّل الذين يحيون دوما في جو نظيف وغير ملوث يكونون أكثر الناس تشمما للروائح الغريبة . هؤلاء البدو الرُّحل ، عند دخولهم المدن والبلدان التى يستشعرون فيها أجواء كريهة وغير مواتية ونفاذة وغريبة أيضا ، تراهم يتنفسون فيها بنوع من الاستياء والتأفف وهم يضعون غترهم (أغطية رءوسهم) فوق أنوفهم . كان عصر ذلك اليوم مالحا ، إضافة إلى إحساسنا بالعطش . وعندما سمعنى درويش مسكين وبسيط الحال ، كان يسير إلى جوارنا على قدميه ، وأنا أنادى قائلا : "ماء" ، قام بوضع يده ، وهو يبتسم ابتسامة طيبة ، على سرج جملى ، رافعا قربته الصغيرة نحوى وهو يقول : "اشرب من هذه ، أيها الحاج ، وانعش نفسك ." وعندما لم أجد فى تلك القربة سوى ماء آسن متغير اللون ، ناولته إياها مرة ثانية ؛ ولكنه لم يأخذ أعذارى بعين اعتباره . وبدا لى من نظراته أنه ظن أن راكب الجمل لم يقابل سماحته الدينية بالمثل ، بالرغم من برودة الإحسان طوال النضال على طريق الحج . حملق الرجل فىَّ لحظة ، أطال خلالها النظر إلىّ وهو غاضب ، وفقد مروءته ، ومضى فى طريقه مرهقا وهو يظن أو يحسب أن الرجل الذى رفض شرب الماء مع الحجاج الآخرين قد لا يكون مسلما بحق .

وصلت قافلة الحج إلى منطقة التخييم قبل غروب الشمس . وهنا نزلت من فوق دابتى وقصدت لأستودع لفافة النقوش الكبيرة ، التى شففتها من مدائن صالح ، عند محمد طاهر Tâhir؛ الذى قام بوضع وديعتى فى صناديق جَمَله ، ووعد بروح طيبة أنه سوف يقوم بتسليم تلك النقوش للقنصلية البريطانية فى دمشق :- وللحق أقول : إنه وفّى بذلك بشرف وأمانة . سألت إن كانت هناك أخبار سياسية جديدة فى المدينه (المنورة) . وأجابنى الرجل على النحو التالى : "أعربت الدول عن مطالب معينة من الباب العالى ، مهددة أنه إذا لم تجاب تلك المطالب فإنها قد تقوم بتحرك عام ضد السلطان(*) ." - "وماذا عن إنجلترا ؟" - "نعم ، وإنجلترا أيضا ! عجبا والآن أيضا !

(*) فى عام ١٨٧٦ ثارت الشعوب المسيحية فى البلقان ضد الدولة العثمانية التى بادرت بقمع تلك الثورات مما أثار سخط الدول الأوروبية التى بادرت بإرسال مذكرة إلى السلطان العثمانى احتوت على عدة مطالب بالإصلاح وحسن معاملة الرعايا المسيحين . غير أن الدولة العثمانية لم تعبأ بتلك المطالب وردت عليها ردا جافا ومن ثم وجدت روسيا الفرصة سانحة أمامها لكى تعلن الحرب على الدولة الغانية فى عام ١٨٧٧ وما ترتب على تلك الحرب من نتائج كان من أبرزها بداية تقسيم الدولة الثانية بين الدول الأوروبية . (المراجع)

هل هناك من يمكن أن يتنبأ بما سيحدث للعالم ؟" كان يقف بالقرب منا ضابط تركى شاب من عسكر الحج ، قال لى : "نحن نعلم أن الفرنجة يتحدثون منذ سنوات عن تقسيم إمبراطورية السلطان : ولكن ماذا يقول السلطان ؟ حسن ، ولابد أن يحدث ذلك ، دعهم يجيئون فرادى أو جماعات ؛ وإن الله سينصر من يشاء !" قال الضابط الشاب هذه العبارة وهو حزين حزن الشباب ، كما لو كانت إرادة السماء على وشك النفاذ ، وأنهم أصبح يتعين عليهم التعويل تماما على تلك المغامرة الأخيرة . – هذا هو أكثر الأقاليم الإسلاميه تشددا وشراسة يقف أمامهم ، والذى يعد اسم النصرانى فيه سبة وإساءة ؛ وكيف لى بالمرور وسط سكان دمويين ومتهيجين ، ولا يحسبوننى جاسوسا ، أو بمعنى آخر ، واحدا من اعدائهم الأزليين المتخيَّلين ؟ ولما كان كلام أولئك السكان السياسى مليئا بالهفوات ، خطر ببالى أن الحقيقة ربما تكون أقل من ذلك ، كما فكرت أيضا فى عدم العودة من هذا المشروع فى الوقت الراهن . ترى هل كان ذلك العام هو عام الجهاد ؟ وبالتالى يصبح من الصعب علىّ مرة ثانية الترحال فى الجزيرة العربية . وهنا نظر إلىّ الضابطان عن غير قصد وفهما من نظراتى والطريقة التى تلقيت بها وتمثلت بها أيضا نبأ أفول دينهم سواء أكان ذلك بالفرح سرًّا أو علانية ؟ وعندما استشرفت أن الانتصار المسيحى بات وشيكا فى العالم : ولكن عندما لاحظ الضابطان أنى لم أكن سعيدا بأسفهما ، وإنما مستغرقا فى أفكارى ، رفعنى ذلك إلى قمة حسن نيتهما .

انتظرت زيداً Zeyd؛ وكان هذا البدوى المراوغ ، قد قال بعد أن نزلنا من على ظهور دوابنا ، أنه سوف يقتاد جملينا إلى المرعى ؛ ثم نذهب بعد ذلك لمقابلة الباشا . راح ذلك البدوى يراوغنى إلى أن أرخى الليل سدوله ، ولما كنت أشعر بالتعب والإرهاق ولم أتناول طعاما منذ الأمس ، فقد عدت من خلال الحرَّاس إلى النار التى أشعلها رفاقى من البدو : وجدت بينهم زيداً ، يشرب القهوة . أفسح الرجل لى مكانا ، وراح يفند الأمر وهو يبتسم . بعد ذلك ، وعندما دخلت منزل الحج للمرة الثانية ، ذهبت وحدى لزيارة الباشا ؛ ولكنى عندما تعثرت فى حبال سرادقه (خيمته) الكبير ، نظرا لانطفاء الأنوار ، فقد فهمت من الخفير أن ذلك الباشا العظيم كان ينال بالفعل قسطا من الراحة . كما شاهدت أيضا ، خارج المنزل هيكل جمل المحمل فارغا ؛ كما شاهدت

أيضا بجوار الخيمة الكبيرة فناء ملحقا بها مكون من عمود صغير وستاره ، "ليكون بمثابة مكان مخصص للحريم ." وصلت بعد ذلك إلى الجرّاح العسكرى ، الذى يطلقون عليه اسم الجبَّار ، أو إن شئت فقل مجبِّر العظام ؛ كان ذلك الجبار قد وعدنى بأن يتلو علىَّ درسا من دروس فن الطب . اكتشفت أن ذلك الرجل كان أهلا للمعرفة ، كما أفدت فيما بعد من تعليماته القليلة التى استغرق ساعة كاملة فى إلقائها علىَّ ؛ ويرجع ذلك إلى ضياع كتاب الصيدلة الذى كنت أحمله معى . كنت أستعيد أسماء أدويتى وأكررها المرة بعد الأخرى ، وكنت أدون أيضا استعمال كل دواء من تلك الأدوية ، حسبما يقوله ذلك الجبَّار . وبناء على طلب ذلك الجبار ، أحضرت له ، من أجل واحد من مرضاه ، قليلا من مسحوق اللودانوم(*)؛ كان ذلك الجبار مرهقا ومتعبا إلى الحد الذى عجز معه عن فتح صناديقه الميدانية . وتساءلت 'عما يمكن أن يحدث لإنسان أُعْطى عددا كبيرا من تلك الجرعات ليحتفظ بها معه ، ولكنه أخذها كلها عن جهل دفعة واحدة ، ثم يسكت القلب ؛' . كان المفروض أن أقول "وتوقف قلبه عن النبض ،" ولكنى بسبب التعب والإرهاق نطقت 'القاف' فى كلمه 'قلب' 'كافا' ، وبذلك يصبح المعنى "ثم يسكت الكلب ." وهنا دخلت كلمتى غير الصحيحه إلى ذهن الحكيم الطيب البشوش : وبعد أن ابتسم ذلك الحكيم فى البداية وراح يمسك لحيته دعابة ، وراح أيضا يتمالك نفسه من الضحك ، الذى احتفظ به (فى الوقت الذى تملكنى الخوف فيه) إلى صبيحه اليوم التالى التى سوف يتعين عليه خلالها التقاء الباشا على تناول طعام الإفطار . ويدخل فى خيمة الحكيم درويش شاب من قرية الميدان Medân، فارع الطول . سبق له أن رآنى مرات كثيرة ، بصفتى فرنجيا ، يتجول فى ذلك الحى الواسع من أحياء دمشق . دخل ذلك الدرويش يطلب صدقة من الرجال ، أو إن شئت فقل : شيئا من القراقيش ، أو البسكويت كى يقتات بها فى العشاء ؛ ولما كانت عينا ذلك الرجل ترتفع فوق عقبيه مسافة سبعة أقدام ، فقد وقف يحملق ويطيل النظر إلى واحد مثلى يجلس فى هذا المكان ضمن قافلة الحج ، وضمن هذه المجموعة الفخمة من الرجال . رد عليه الجرَّاح المُحسِن قائلا : "بسكويت (قراقيش) القافلة شحيح ، ولكن ذلك البسكويت سيكون غداً

(*) اللودانوم : هو مستحضر أو صبغة الأفيون (لتسكين الآلام) . (المترجم)

وبعد الغد متهاوداً فى السعر ، وهنا سأقوم بالشراء ، وعندها تعالى إلىَّ هنا ." والسلع المحمولة على ظهور الإبل ، هى وكل المؤن التى تكون فى سوق القافلة ، تتأثر أسعارها صعوداً أو هبوطا حسب الوقفات ، وبخاصة عندما تكون القافلة قريبة من منتصف الرحلة أو من نهايتها . كانت أسعار بيع بسكويت القافلة ، أو إن شئت فقل : قراقيش القافلة ، تباع ، فى مدائن صالح ، بسبعة أمثال أسعارها فى دمشق .

بعد أن عارضنى الحرَّاس بطريقة مهذبة ، انتقلت من المخيم إلى النار التى شبها العرب ، ثم عدت ثانية إلى دغلتنا البدوية ؛ التى أمضينا الليلة فيها على الرمل محتمين من الريح بسروج الجمال التى صنعنا منها مصداً للرياح . كان من بين هذه المجموعة واحد من بدو الفجيرى ، الذى كان قد سافر إلى الحرمين من قبل ، وهاهو يعود ثانية مع قافلة الحج ؛ كان ذلك الفجيرى مشغولا بعجن كعكة من الشعير ، عندما ومض فجأة شهاب فى السماء لحظة اختفى بعدها مخلِّفا وراءه شريطا مضيئا ، يلوح منه وميض أزرق عريض ، هوى وفرمل من أمام أعيننا . "(تنهد ذلك الرجل الذى ملىء عينيه برؤيه مكة (المكرمة) آهٍ ! هذه الأشياء التى لا نفهمها يا ربى هى من أعمالك العجيبة !" وبعد أن وضع ذلك الفجيرى الكعكة تحت الرماد ، وكانت أصابعه ما يزال يعلق بها شىء من العجين ، نهض فجأة عندما شاهد ناقة تبول ، وراح يجمع البول فى راحتى يديه ويغسلهما به :- والبدو الرحل يرون مخرجات المواشى ودوابهم طاهرة ، وهنا فهمت سبب شح الماء بصورة مستمرة فى منطقة الصحراء الخلفية ، التى سوف يتعين علينا المرور بها فى صبيحة اليوم التالى . قابلت وأنا بصحبة بعض البدو ، بعضا من رجال القصيم ؛ الذين سيعودون إلى ديارهم من هذا الطريق ، بعد أن تركوا العمل فى خدمة قافلة الحج السوريه ؛ وديارهم تبعد عن هنا مسافة تزيد على ثلاثمائة ميل ، سوف يقطعونها سيرا على الأقدام ، عن طريق قرية تيماء وجبل شمَّر . سألنى هؤلاء القصيميين إن كان قد سبق لى زيارة ديارهم ، وقالوا لى : إن حال أدويتى سيروج هناك . "وقالوا ، لماذا تطلق على نفسك نصرانيا ؟ بوسعك أن تفعل ذلك فى دمشق ، وليس فى نجد ، التى لا يعرف الناس فيها شيئا عن الدنيا (العالم) المحيطه بهم ، وهذا يمكن أن ينزل بك الكثير من الخطر ." وبعد أن انتهينا من شرب القهوة ،

رجونى أن أطلق على نفسى كلمة "مسلم" وأن أظل فى داخلى على ما أنا عليه ، (وهذا مسموح به فى القرآن لكل مسلم يشعر بالاضطهاد) – وهذا كلام لا يبعد كثيرا عن الحكمة ؛ ولقد سبق لى استشعار ذلك الحظ العاثر مرارا خلال تجوالى على هذا النحو ، وكرجل مارق (ومن ثم يحق قتلى من وجهة نظرهم) لمجرد أنى أحمل اسما غير مسلم فى الجزيرة العربية ...(*)

مع إطلاق الدانة الأخيرة ، قبل طلوع الفجر ، حرك البدو إبلهم وبدءوا الرحيل . وفى ضوء النجوم تبينت أن الطريق الذى كنا نسير فيه كان متجها صوب الشرق . ونظرا لأن الأعراب يملأهم دوما المكر والخداع الذى ربما يفيدهم ، فقد كان يراودنى شك فى الجماعه التى ترافقنى ، إلى أن طلع النهار ورأيت بنى صخر حمّالى الحج ، وهم يفدون علينا مهرولين وهم يتغنون أيضا بأناشيدهم الدينية البدوية ؛ فى تلك الأثناء ، كان القسم الرئيسى من القافلة ، ما يزال بعيدًا جدًا فى المؤخرة ، وغير واضح الرؤية ، شاهدت أيضا آثار عجلات مدافع الأورطة ، واستنتجت من ذلك أننا كنا فعلا على الطريق الصحيح . ولكنى من باب التأكيد ، نزلت عن دابتى ورحت أمشى على قدمى ؛ وحصلت من زيد على قسم ، وهو الذى لم يتصل بى فى الأمس ، على أن يركب معى أمام باشا الحج . وبالتدريج بدأت تهل علينا طلعة باشا الحج ، وهو يركب راحلته فى مقدمة القافلة ، ومعه ضباطه وقلة قليلة من الجنود ؛ كان ذلك بالقرب من شوك Shuk العجوز . el-Ajuz ركبت عندئذ مع زيد على ناقته ، (إذ كان جملى مريضا ،) واتجهنا صوب الباشا وضباطه ونحن نسرع الخطى . وهنا قام زيد بأداء التحية على الطريقة البدوية الساذجة البسيطة ، مستخدمًا لذلك نغمات صوته الحاد ، وبصفته من ملاك الأرض فى دياره قائلا : "السلام عليكم". وعندما سمع محمد سعيد ، الصوت البدوى خلفه قال متعجبًا : "هيه!" ثانى ، دون أن يستدير إلينا ، ولكنه عندما نظر جانبا ورأى جديدا ، نظر إلىّ وعرفنى ؛ وهنا قال ، على الفور وبروح طيبة ، لرفيقى البدوى ، – "لقد عهدت به إليك ، و (وضع يده اليمنى على قلبه ،) فهل اعتنيت به كما لو كنت تعتنى

(*) عبارات ضد الدين الإسلامى وردت على لسان المؤلف رأينا استبعادها . (المراجع)

وتهتم بعينى أنا ." ثم خاطبنى سعيد باشا قائلا : "هل أنهيت كل شيء فى مدائن صالح ؟ وماذا عن شواهد القبور ؟ هل تعتقد أن فى بلادك من يستطيع قراءتها ؟ وماذا عن المنازل . ألم تقل إنها لم تكن منازل ، وإنما هى مقابر ؟- ولكن ، ألم تعثر على أى كنز من الكنوز ؟- إلى اللقاء ." وهنا لم أتوانى ، ورحت أتكلم مع الباشا عن الجمل المريض الذى كان زيد قد أشتراه لى : وهنا قال الباشا لزيد : "انتبه ! يجب عليك إعادة الجمل لصاحبه ، وتطلب منه أن يعيد إليك النقود ثانية ؛ - ثم (قال لى) إذا لم يفعل ذلك البدوى ذلك وينفذه فسوف أطلب منه تنفيذ ذلك فى دمشق .- (قال لزيد) أين أعرابك من هنا ؟" - "على بعد حوالى مسير يوم من هنا فى اتجاه الشرق ، وهم ميممون المسير إلى قرية تيماء ." ووجه الباشا لى سؤالا آخرا : "وإلى أين أنت ذاهب ؟" - "إلى تيماء ، وإلى حائل ، وآمل أيضا الذهاب إلى خيبر ." وهنا التقط الباشا أنفاسه ؛ لم يكن الباشا راضيا عن زيارتى لخيبر ، التى تقع فى نطاق دائرة المدينة (المنورة) : ورد على قائلا : "هذا أمر صعب جداً ." وهنا قال محمد طاهر ، الذى كان يركب دابته بصحبة الباشا ، قال بنغمة ودية : "إنه يحمل معه طعما ، وسوف يكون ذلك أمانا له بين الأعراب ؛ لقد رأيت ذلك الطعم بنفسى ." وأردف محمد طاهر قائلا : "هل كل نقوشك موجودة فى اللفافة التى استودعتنى إياها ؟" وهنا أجبته على الفور :"كلها فى تلك اللفافة ، وأنا أثق بالله فى أنى سوف أطلعك عليها فى يوم ما فى دمشق ." وهنا رد علىَّ الباشا قائلا : 'إن شاء الله' ، والمؤكد أنه كان يظن أنى قد لا أعود من تلك المغامرة العربية . - بعد ذلك ، وعندما راح زيد ، يتحدث فى خيام البدو الرحل عن خطاب الباشا ، استحلفنى بالكثير من قسم البدو ، ولم ينطق بكلمة واحدة ، إلى حد أنى كنت أستمع إليه كما لو كنت فى حلم .

بعد ابتعادنا عن القافلة ، تركنا طريق الحج جانباً وذهبنا لملئ قربة الماء من بركه من برك ماء المطر العذب . ثم بدأنا نتوغل شرقا داخل الأرض البرية المرتفعة المكونة من الحجر الرملى ، والتى يطلقون عليها اسم برج سلمان **Bori Selman**، لنجد أمامنا ثَوْل (سرب) من الجراد ، يطير دفعة واحدة ويحط أسفل الأدغال الصحراوية ، نظراً لأن هذا هو موعد تكاثر الجراد ؛ وبعد انتهاء تلك المهمة الطبيعية ، يبدو أن الجراد يبدأ بعدها فى الموت بصورة متدرجة . ونظرا لأننا كنا لم نتناول طعام الإفطار ، فقد عثر

زيد على بعض من نباتات الكراث البرى وبعض الدرنات البرية التى يقولون لها 'السبيدى' بلغة القوم ، التى لا تختلف عن درنة البطاطس بعد شويها . كما قطف زيد أيضا بعض أوراق لذيذة الطعم جاء بها من شجيرة من شجيرات السلّطه ، يقولون لها بلغة القوم 'ذالوك' Thalûk، كما قطف أيضا بعض أوراق الحُمِّيض الزراعى ، وأعطانى إياها لآكلها ؛ ثم تناول من خرج السرج كسرة من خبز الشعير ، كسرها ليقسمها بيننا . "قال : هذا بطبيعة الحال من صُرَّتنا (*) الخاصة ؛ فهل تستطيع أن تأكل خبز البدو ، يا خليل ؟" هذه الأرض المرتفعة التى تجاوزناها ، والتى يطلقون عليها اسم برج سلمان (وهذا اسم قديم من زمن بطولة بنى هلال) ، عبارة عن أرض جرداء واسعة من الزلط والرمل ، ومليئة بصخور الحجر الرملى الوعرة . قال زيد وهو يقلب التربة بيده القوية : هذه هى أرض البدو . وراح زيد يرافقنى وأنا أتحدث عن ديرة كانت ذات يوم فى الأرض الجرداء التى أمامنا . قال زيد : "استمع إلىَّ يا خليل ؛ سوف تعيش معنا هنا ، وسوف يرسل إليك معاشك كل عام إلى هنا مع مجىء قافلة الحج ، ونحن سوف نعطيك فتاة لتصبح لك زوجة : وإذا ما ولد لك طفل ، فإنك عندما سترحل عنا ، أو تترك هذا المكان ، سيكون أطفالك بمثابة أطفالى ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، وسوف يبقون معى ." – وقال أيضا إنه سوف يعطينى من ماشيته جملا .

(*) المقصود هنا : إن هذا من جيبنا الخاص ، أو من مالنا الخاص . (المترجم)

الفصل الثامن

حياة العرب الرُّحَّل فى الصحراء

بدو الفجير حليب النياق . الذهاب إلى خيمة زيد . زوجته حرفة . الرَّحْلة . النساء فقط هن اللائى يقمن بأعمال المنزل . الماء الثمين . الربيع . الصخور "المكتوبة" . الإبل تصوم عن الماء ، وتنتعش فى الموسم الجديد . العام البدوى الترحالى . إقامة المخيم حيث يوجد المرعى . المزيد عن الرَّحْلة . شب النار فى المخيم الجديد . مخيَّم الفُكَاره . أعراب زيد . "إقامة" خيمة زيد . قهوة زيد . قهوة الشيخ . مصطلح "الأعراب" يعنى "الناس أو الشعب" أيضا . الخيمة العربية البدوية . الأدوات المنزلية . ضيوف الرحمن . حكايه زيد . قبيلة زيد . الأتراك والإنجليز من المنظور القبلى . زيجات زيد . حرفة . هروب حرفة . سماسرة الجمال من الحويطات . أمتهم البدويه . الكيف . البدو الرحل المستعمرون . هل الحويطات من الأنباط ؟ الرفيق . إعادة حرفة إلى المنزل من جديد . قسمة أو نصيب المرأه عندهم . زوجة عجوز من زوجات زيد . الأمومة عند البدو الرحل . خرافة المرأة الآسيوية . الاعراب ذوى الملامح الأنثوية . صلاة النساء . رأى الساميين فى جنس النساء . النساء : محجبات أم كاشفات . المرأة والأم فى الشريعة العبرية . حمل الأطفال فى الحياه الصحراوية . العادة العربية القديمة التى تقضى بدفن الأطفال

الإناث أحياءًا . الابن والابنة فى الأسرة الريفية المترحلة . البدو الرُحل لا يسهل عليهم تصور الحياة المستقبلية . تقديم الأضاحى من أجل الموتى . ذكرى الرجال لآبائهم الأموات . فى مناطق الحدود تذهب النساء إلى المقابر للبكاء . أطفال البدو الرحل لا يضربون . "الكذب شينة" .

***

واصلنا ترحالنا بالتناوب بين المشى والركوب ، كما كنا نتبادل العباءات حسب رغبة زيد ، واستمر الحال على هذا المنوال إلى أواخر فترة العصر ؛ وراودت زيد الشكوك فى مسألة إدراكنا لمضارب الأعراب فى ضوء النهار . ونظرا لتحرك الأعراب المستمر لم يكن سهلاً على زيد تحديد منزل أولئك الأعراب فى نطاق عشرة أو عشرين ميلا على وجه التحديد . كان بصحبتنا واحد من العجيليين الذين كانوا معنا فى القلعة فى الليلة السابقة ؛ كان ذلك العجيلى مسلحا بمطرقة ، وكان يركب جملى المريض . وبينما كنا نبحث عن الأعراب وقعت أبصارنا فجأة على مجموعات كبيرة من الإبل تسير متباطئة ، كان حداتها يسوقونها فى اتجاه مخيم البدو . أو إن شئت فقل : فى اتجاه منزل البدو ، وهذا بدوره يبعد عنا مسافة ميل آخر . وعندما وصلنا إلى الرعاة ، نزلنا عن الماشية وجلسنا على الأرض ، وهنا تقدم واحد من هؤلاء الرعاه وتسلم منا سلطانياتنا ، وراح يجرى عدوا تحت نياقة ليجلب لنا حليب النياق . هذا خير الله ، ولا يمكن حجبه عن أى من عابرى السبيل ، حتى وإن أدى ذلك إلى بقاء ملاك تلك النياق بلا عشاء . وبعد ذلك ببرهة صغيرة سألنى رفاقى عما إذا كنت أشعر بتوعك أم لا ؛ "وهم يقولون : إن سبب السؤال هو أن الأعراب عادة ما يشعرون بتوعك ، بعد شرب لبن النياق لأول مرة ." هذا النوع من الحليب القوى إلى حد ما سرعان ما يتجبن أو يتخثر فى المعدة .

تراجعت إلى الوراء عندما اقتربنا من خيام البدو ، وكان معى العجيلى ، وراعينا فى ذلك أدب الصحراء ، بينما سبقنا مضيفنا زيد . اكتشفنا أن خيمته عبارة عن خيمة صيفية صغيرة ، أو إن شئت فقل : "خيمة هفهافة" من النوع الذى يطلق عليه البدو اسم هجرة "مبنية" (حسبما يقول البدو) فوق رمال الصحراء . كانت الخيمة منخفضة

ومسكينة الحال ، بما لا يليق بشيخ كبير ، ولم يكن بداخل الخيمة سجادة مرحة مفروشة على أرضها : كانت الخيمة خلوا من الأشياء التى سبق لى الوقوف عليها فى أماكن أخرى ، يعيش فيها بدو الشمال . اقتادنى زيد إلى داخل الخيمة وعلى شفتية ابتسامة حادة ؛ والذى أدهشنى بعض الشىء ، أننى كان يتعين علىَّ السير خلفة إلى المكان المخصص للنساء . هؤلاء البدو النازحون فى بعض الأحيان ، لا يشكون فى النصارى ، الذين عرفوهم فى الشمال ، وسمعوا أنهم أصحاب سمعة طيبة ، أحسن من سمعة المسلمين . وفى مكان الحريم قدمنى زيد لزوجتة الشابة "قال : هذه عمتك (مُضيفتك) الجديدة ، وأنت يا حرفه Hirfa، هذا هو خليل ؛ وديرى بالك عليه ." قبل طلوع الصبح ، كان القبليون الغائبون قد عادوا قادمين من سوق الحج ؛ هذا يعنى أن البدو لم يقيموا سوى يوم واحد فى برج Borj سلمان : Selman ورحنا نحن فى صباح اليوم الثالث . كان ارتفاع هذا الجزء من البلاد يصل إلى حوالى ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

تنقل مخيم الأعراب ، ومعهم ماشيتهم من مرعى إلى مرعى آخر هو ما يطلق عليه أولئك الأعراب اسم 'رحْلَة' ، râhla .وقد سبق لأولئك البدو ، فى مجلس الأمس ، أن قرروا وحددوا مكان الرحيل وأسلوبه وطريقته وموعده أيضاً ؛ أو قد يكونوا قد أوكلوا الأمر كله إلى شيخهم ، وهذا يحتم على من يقيمون فى الخيام المجاورة ، عندما يطلع النهار ، مراقبة إذا ما كان حريم الشيخ سيقمن بتقويض الخيام ، وعندما يتأكدون من ذلك ، فهذا يعنى بداية 'الرَّحْلة' râhla . وعندئذ تسارع الزوجات البدويات إلى اقتلاع أوتاد الخيام ، ثم تسقط الخيام على إثر ذلك ؛ وهنا يجرى طى قماش الخيام ، وربط وتجميع أعمدة الخيام على شكل حزمة كبيرة شبيهة بحزم الحطب : ثم تقمن بعد ذلك بوضع مقتنيات المنازل (داخل جوالات هن اللاتى ينسجونها ،) حتى يتسنى بعد ذلك تحميل تلك الجوالات على ظهور إبل الحمل . وعندما يشاهد الجيران أولئك النسوة ، وعندما يشاهد جيران الجيران ذلك الذى يدور ، ترى الخيام كلها وقد سقطت على الأرض فى أماكن متناثرة من المنْزَل الذى يقيم فيه أولئك الأعراب . وهنا يتقدم الرعاة إلى الأمام ؛ ثم يركب الحريم بصحبة أمتعتهن ؛ ويركب الرجال وأسلحتهم ، أو سيوفهم ،

أو بنادقهم الفتيلية ، معلقة فى عِدَّة (سرج) الجمل من خلفهم ، ويمسكون الرماح الطويلة فى أيديهم ، وهم راكبين على نياقهم ، ويكونون بصحبة الشيخ :- وتلك هى مسيرة القرية الراحلة ، أو إن شئت فقل : القرية البدوية المترحّلة . أما إذا بقيت خيمة الشيخ منصوبة ، ومضى عليها ساعة بعد طلوع النهار ، وهو الوقت الذى يتعين فيه دفع الماشية إلى المرعى ، فإن الرجال يرددون العبارة التالية : "فلتذهب الماشية الآن للرعى ، فلن تكون هناك اليوم 'رحْلَة' ". râhla

هذا الفجر ، الذى يصادف اليوم السادس عشر من شهر فبراير ، كان بارداً بل وقارسا فى هذا الجزء المرتفع من البلاد . قال زيد : شَيْل ؛ وهنا قامت حرفة التى كانت ترتعد من البرد وتتنهد ، بتقويض وتعبئة محتويات المنزل . والأزواج الشيوخ لا يساعدون ربات البيوت الضعيفات فى جمع وحزم الأمتعة ؛ لأن فى ذلك تقليل من قيمة الرجل حتى فى نظر النساء . وهنا يجلس الرجال يدفئون أنفسهم على نيران الحطب الذى يجمعونه ، إلى آخر لحظة ، وقد جرت العادة أن يقوم زيد فى مثل هذه الظروف بعمل القهوة . وهنا يجرى جلب إبل الحمل وتبريكها بين الأحمال ؛ وكل ما يفعله الراعى ، هو مساعدة حرفة على وضع تلك الأمتعة فوق سروج الجمال المحمَّلة ، التى يطلقون عليها اسم 'الحداج' hadaj؛ هذا 'الحداج' عبارة عن إطار ، أو إن شئت فقل : هيكل يصنع من خشب أشجار السنط فى الصحراء ، والذين يصنعون هذا الحداج هم من البدو الصناع Sany أو من الصلوبة(*) . Solubby كما يجرى ملئ القماش الداخلى القديم فى الخيمة ، والذى يطلقون عليه اسم الوتر witter، ببعض من العشب الجاف ، ويجرى تخريم كل ذلك أسفل بطن الجمل بحبل صغير . نادانى زيد لأساعد معهم فى رفع الأحمال ، نظراً لأنها كانت أثقل من اللازم ، فعل ذلك وهو يتمتم غاضبا ويقول : 'هل الشيخ حمَّالا ، لرفع الأحمال ؟' كما ساعدتهم أيضا فى رفع الأحمال الخفيفة التى يجرى تحميلها على أجناب عِدّة (سرج) الجمل إلى أن جرى تحميل هذه الأحمال بطريقة متوازنة . كان زيد من سلالة مشايخ القبائل فى واحدة من القبائل المحترمة .

(*) الصلوبة : من قبائل الغجر . (المراجع)

والشيخ الذى يكون من هذا القبيل يتحتم عليه ، فى وجود الرجال ، ألا يضع يده فى أعمال من هذا القبيل ؛ وهو يترك الأعمال التى من هذا القبيل لمن يجيئون بعده من حيث المنزلة . والشيخ الكبير ، قد يقوم على أمر رعاية فرسه والاهتمام بها ، فى مَنْزَل القبيلة ، فى حين يقوم كل من هم أقل منه منزلة برعى الماشية فى الحقل ؛ ومع ذلك ، إذا ما اقتاد الشيخ فرسه إلى بئر الماء ، ورأى أى أحد من عامة أفراد القبيلة ، فإنه ينادى مثل هذا الشخص ويطلب منه جلب الماء للفرس . ومع ذلك ، فإن أبناء مشايخ القبائل أثناء طفولتهم ، ثم بعد ذلك فى مرحلة شبابهم عندما يتسلحون ، يكونون فى معظم الأوقات بصحبة الماشية ، ويرافقون الرعاه . وقد شاهدت بنفسى زيدا وهو يخرج ومعه منجل حش العشب ، لجلب شىء من العلف لفرسه ، ثم عاد إلينا وهو يحمل عباءته (بشته) بعد أن ملأها بالعلف ، ويحملها على ظهره ، ويغمغم بكلام غير مفهوم ، فى الوقت الذى كانت علامات الألم والتبرم تبدو على وجهه ، نظرا لأن تلك كانت مهمة ولده سليم : ونظرا لعصيان سليم فى كثير من الأحيان ، فقد كان والده يوبخه ويقول عنه إنه شيطان ، ولم يحدث أن هدده ولو مرة واحدة فى حياته ، نظرا لأن هذا التهديد هو أبعد ما يكون عن ذهن الوالد البدوى .

قطعنا مسافة عشرة أميال ، ثم نصبنا خيامنا مدة أربع ساعات فى المنطقة الواقعة شرقى الدار الحمراء . كانت النساء مشغولات "بنصب" خيامهن ؛ ولكن الرجال بعد أن نزلوا من فوق ظهور الماشية ، جلسوا بلا عمل ، وهذا هو حالهم عندما لا يقومون برعى الماشية ، أو الغزو ، إذ يجلسون اليوم بطوله فى البيت لا يقومون بشىء سوى التكاسل والأمر والنهى . "وهم يقولون : الجوَّار (ربّات البيوت البدويات) هن مخصصات للأعمال المنزلية وأن يطعن النظام والقواعد ." قام زيد ، بينما كنا نحتمى من الريح الشديدة خلف جسر من الرمل ، انتظارا لنصب البيوت (الخيام) ، بعمل وجار (موقد) فى الرمل ؛ ثم انحنى بعد ذلك ، وعلى وجهه بشر البدو ، ليوقد لنا نار الفجر . قام سليم بجمع الحطب ، وجلسنا حول النار نتدفأ ونشوى الجراد .

أمضينا يومين فى ذلك المكان ، ثم انتقلنا بعد ذلك شرقا على بعد مسافة أربع ساعات مسير خلال تلك الأرض الرملية العامرة بالمروج الخضراء ، والطقس المعتدل ، ثم نصبنا خيامنا بعد ذلك فى أرض التخييم التى يطلقون عليها اسم العنتريَّة . والهواء

فى تلك الصحراء المرتفعة عليل وخفيف ونقى أيضا ، ولكن الماء هنا نادر وملوث ببول الإبل . كانت حرفة ، تعطينى كل صباح ، وبناء على أوامر من زيد ، حوالى أوقية أو أوقيتين من الماء الثمين ، حتى اغتسل بهما "مثل الحضر" . كانت تظن أن ذلك نوعا من التبذير والإسراف فى الماء ، فى الوقت الذى ليس لدى أفراد القبيلة ما يكفيهم من ماء الشرب . وفى كثير من المرات ، وبخاصة فيما بين السقيا ، لا يكون هناك إناء واحد من أوانى الماء فى خيام الشيوخ الكبار ؛ وعندما يلتمس الشيخ من ربة بيته أن تملأ له طبق الماء ليصنع قهوة الضيوف ، فإنها هنا تجيب عليه قائلة : "ليس لدينا ماء ." وفرس شيخ القبيله تستهلك قسما كبيرا من مؤنه ؛ والمعروف أن الحصان ، دونا عن سائر كل أنواع الماشية فى الصحراء ، هو الذى لا يمكن أن يصبر كثيرا على العطش . وفى أحيان كثيره كان زيد يلجأ إلى ذلك العذر المقبول ، (هذا يعنى أنه وصل أيضا إلى حال البؤس فى تقديم القهوة ،) وراح يقول : "لا يوجد ماء" . حضر ، مطلق ، الشيخ الكبير ، إلىّ ذات يوم لزيارتى فى الصباح وسألنى : "هل شربت القهوة ؟" – "ليس اليوم ، فهم يقولون ، لا يوجد ماء ." – "ماذا تقول ! ثم سألنى ، ألم يقدم لك زيد قهوة فى هذا الصباح ؟" والسبب فى ذلك أن الشيوخ فقراء الحال ، لا يعجزون عن تقديم قهوة الغد ، كل لرفاقه وصحبته . كان مطلق يعرف ابن عمه زيدا ، ولذلك ابتسم قائلا : "ما هذا ، زيد ليس عنده ماء ! ولكن تعالى إلينا فى خيمتنا يا خليل ، وسوف أُصلِّح لك القهوة ." اقتادنى مطلق إلى خيمته ، التى لم تكن تبعد كثيرا عن خيمة زيد ، حيث جلس أمام وجار القهوة ، ونظرا لأنه كان شيخ القبيلة فقد قام بتحميص البن ، وتحضيره وغليه ، وصلحّ ذلك الفنجال الذى يدل على الكرم ، وقدمه للغريب النصرانى . تصادف أن ضاع من زيد جملا فى هذا المكان ، نظرا لهجوم الذئاب عليه . وفى الصباح ركب زيد فرسه ، مع طلوع النهار ، وهو يحمل رمحه على كتفه وراح يتعقب آثار تلك الذئاب . وفى اليوم التالى عاد إلينا زيد ، وهو يقتاد أمامه جمله الضائع : لقد عثر على الجمل بالقرب من بركة Birket مؤدم Moaddam .

بعد ثلاثه أيام تحرك الأعراب فى اتجاه الجنوب الشرقى مسافة اثنى عشر ميلا أخرى ، ونصبوا خيامهم فى منطقة التخييم التى يطلقون عليها اسم 'خص هركيش' Khussherkîsh . كان ذلك يصادف اليوم الثانى والعشرين من شهر فبراير ، وفى تلك

المنطقة شاهدنا الربيع ، أو بالأحرى الربيع الجديد ذى العشب اليانع الجميل ؛ كان معظم ذلك العشب من نوع السُّلجم البرى الذى يأكله الضأن ، ومن نوع اللُّبَّيْن ذى الزهور القرمزية ، وكذلك من الحميض البرى الذى يطلقون عليه اسم حمصيص humsîs . والربيع فى هذه المناطق هو بمثابة التغيير السنوى ، ولم لا ، إنه الحياة ، بالنسبة لماشية البدو الرُّحل . ومنظر الربيع يسر الخاطر ويروق للعيون وبخاصة فى الأراضى الصحراوية ، من خلال هذه الحديقة المتواضعة من الزهور المتفتحة . وعندما رآنى البدو وأنا أتأمل ما أراه مليا ، وأتدبر معجبا بتلك الهندسة والعمارة الإلهية لتلك المجوهرات الحية ، حسبوا ذلك مجرد إعجاب من قبيل إعجاب الأطفال يتبدى فى شخص غريب عليهم . ولو قدر لى أن أسأل هؤلاء البدو عن اسم كل عشب من تلك الأعشاب ، لردوا علىَّ قائلين : "اسمها كلها العشب el-usshb ، بمعنى 'علف الربيع' ، الذى يصلح تماما لماشيتنا وإبلنا ." وهكذا تتحول تلك البلاد شديدة الجفاف إلى سهل يستغرق عبوره عدة أيام ؛ وهذا السهل ، فى معظمه ، مكون من تربة رملية ومن زلط الحجر الرملى ، وخال من السيول والوديان ؛ إنه مجرد أرض مرتفعة ، لا تفيض عليها بأى حال من الأحوال مياه مطر الجزيرة العربية الخفيف .

كان زيد على علم بأنى شففت بعض نقوش الحجر . إذ إن هناك الكثير من تلك النقوش محفور على صخور الصحراء ، ثم قال زيد : "غدا ، سوف نذهب سيرا على الأقدام إلى المُكَتَّبة M'kuttaba ،" وقال إنه سوف يفرِّجُنى هناك على مجموعة هائلة من النقوش . المُكَتَّبة M'kuttaba هذه ، عبارة عن حوض طبيعى فى الصخور الرملية ، وهى مسمَّاه (كما هو الحال فى "الوادى valley المكتوب "written فى سيناء) نظرا لأن هذه الصخور منقوش عليها ألف أسطورة منحوتة بالحروف الحميرية البدائية : وكل نقش من تلك النقوش عبارة عن سطر واحد أو سطرين ، مجرد أسماء فقط ربما كانت لمياه قديمه ، وفيها صور قديمة للإبل . كان تأثير عوامل التعرية ظاهرا فى ذلك الصخر الطرى ، الأمر الذى أثر تأثيرا كبيرا على وضوح النقوش ؛ ومن الشائع العثور على تلك النقوش بالقرب من المساقى الصحراوية ، التى كانت فى مختلف الأزمان أماكن للتجوال والتسكع . العرب الرُّحَّل القدامى ، – إذ من المحتمل أن تكون تلك النقوش الفظة من صنعهم ، هل كان لديهم فى ذلك الوقت (وهو ما ليس لدى البدو المسلمين

حاليا) معرفة بالحروف ؟ أم أن كل هذه النقوش كانت من صنع أيادى المسافرين والرحالة القدامى ؟ هذه الصور الأثرية المحددة كلها مستديرة وتنبض بالحيوية ، بالرغم من أنها مرسومة منذ زمن طويل . والبدو فى هذه الأيام يصورون تلك التماثيل الحقيرة (التى خلفها الرعاة العاطلون على صخور الصحراء) ، على شكل أطفال يحبون . كان زيد يطلق على تلك الصور اسم تماثيل Temathîl الهلالات(*) ، el-Helalat، أو إن شئت فقل : "مصورات Imagery بنى هلال" .

الإبل التى تتغذى على أعشاب الربيع فى الوقت الراهن ، صائمة أو 'جزِّين' ، كما يقولون لها بلغتهم ، هذا يعنى أن تلك الإبل لا تشرب الماء حاليا . هذا يعنى أيضا أن تلك الإبل تصوم فى سنوات الربيع الوفيرة ، فى تلك الديار ، قرابة الشهرين ونصف الشهر ، معنى ذلك أن حداة الإبل ورعاتها لا يسوقونها إلى المساقى طوال تلك الفترة . ثم تضيع قوة الحياة من ذلك العشب الذى كان يانعا على الأرض منذ أيام ، ويبدأ فى الذوبان تحت وطأة حرارة الشمس ، ثم يجف بعد ذلك . ولو قدر لتلك الإبل الصائمة العشور ، بعد زخة من زخات المطر ، على ماء المطر فى أى تجويف من تجاويف الصخور ، فقد رأيتها وهى تبطئ الخطى وتروح تمد أعناقها الطويلة الثقيلة نحو ذلك الماء ؛ وتروح تلك الإبل تتشمم ذلك الماء ، ولا تضع فيه سوى أطراف شفاهها ، ثم تدفع شفاهها إلى الخارج وتهز رءوسها كما لو كانت تعرب عن استيائها وتقززها . إبل البدو الرحل ، تكون قوية ومرحه ، طوال فترة مرعى الربيع الدسم . وفى هذه الفترة تزداد لحوم الإبل ، وتخزن الشحوم فى أسنامها ، حتى تفيد منه خلال صيف الصحراء ، وطوال العام . هذه الإبل ، عندما يقودها حداتها ، بعد أن تملأ بطونها ، إلى مراحاتها عند غروب الشمس ، تمشى وهى تكاد تقفز مرحا أمام هؤلاء الرعاة : وهنا يخرج ملاك تلك الإبل من خيامهم ، ويحاولون توجيهها وهى تجرى بالقرب منهم ، وهم يقولون لها : 'وُلُو – وُلُو – وُلُو' ، محاولين توقيفها وهم يقولون لها : 'وُوه – هُو ، وُوه – هُو ، وُوه – هو !' ؛ وهنا يحاول أصحاب الإبل منعها من الاصطدام بحبال الخيام وهم يقولون : 'هتش hutch !' وهنا تبدأ الإبل فى التجمع على شكل قطعان من حولهم ، والقطيع

(*) الهلالات : نسبة إلى بنى هلال الذين عبروا تلك المناطق فى طريقهم إلى مصر والشمال الأفريقى . (المراجع)

الاكبر من بين تلك القطعان تراه يقف أمام الخيمة التى يعيش فيها صاحبه ؛ وأمام الخيام تبرك تلك الإبل طول الليل وهى تجتر ما سبق أن أكلته إلى أن يطلع نهار الصباح . والأعراب يقولون : إن إبلهم لا تنام مطلقا ؛ وأن كل ما يفعله ذلك الحيوان عندما يكون متعبا ، هو أن يفرد عنقه الطويل على الأرض ثم يغلق عينيه اللامعتين برهة من الزمن ؛ ولكنه بعد شيء من الوقت يرفع جثته من جديد ويبدأ الاجترار مرة ثانية . والإبل فى فصل الربيع الوفير تنهض واقفة لترعى من جديد فى ضوء القمر ، وتتجول مبتعدة عن خيام الأعراب النائمين ؛ ونظرا لأن الإبل خوّافة بطبيعتها ، فهى لا تذهب إلى مسافات بعيدة فى تجوالها . وفى بعض الأحيان ، كنا نصحوا عند منتصف الليل أو بعده ، وأرى أن إبلنا قد ابتعدت عنا ، فأذهب وأعيدها إلى حيث كانت من قبل ؛ ولكن البدو كانوا يقولون لى : "واصل نومك ، يا خليل ، فلا داعى لذلك ؛ إترك الإبل تتغذى كما تشاء ." هذا يعنى أن البدو كانوا يودون لتلك الإبل أن ترعى وتتغذى إلى أبعد حد ؛ ولكن لصوص الليل يحرمون هؤلاء البدو من إبلهم فى كثير من الأحيان . والإبل تشكل كل شيء عند البدو الرُّحَّل ، وهى أيضا الشيء الوحيد الذى يدور من حوله النزاع . والبدو يقولون : "نشيل ، على الإبل ، ونشرب حليبها ." حمل الناقة يستمر عاما كاملا ؛ وأن أوان ولادتها ، يصادف بداية الربيع . وعام البدو الرحل مقسم على النحو التالى : الربيع ، ومدته ثلاثة أشهر ، الغيث (منتصف الصيف) ومدته ثلاثة أشهر ، ثم السِّفرى (الخريف) ومدته أيضا ثلاثة أشهر ؛ وأخيرا الشتاء (وهم ينطقونه الشعتا es-sh'ta) التمرس على هذا النوع من الثقافة ، مسألة يتسودها البدو ، فضلا عن معرفتهم الجديدة بالنجوم . ومن عادة البدو أن يخيموا عندما يعثرون على مرعى جيد ، وبالتالى بقينا فى ذلك المكان مدة ثلاثة أو أربعة أيام ، ورحلنا عنه فى صباح اليوم الأخير . والأعراب الذين يقيمون يوما بطوله ، فى أى مكان يقولون عن أنفسهم "الأعراب أُمجمين" umjemmin) ومن عادة العرب فى الكلمات التى من قبيل umjemmin هذه أن يستعملوا حرف ' j' بدلا من حرف 'القاف' وبذلك يصبح معنى العبارة 'العرب مقيمين') ، أو إن شئت فقل : المخيم قائم أو مستمر أو منصوب . والرعاة هم الذين يبحثون عن المراعى فى الأماكن المجاورة لهم ويعودون بأخبارها ، والناس لا يتحركون إلا طبقا لما يحدده الشيوخ فى مجالسهم ، وعاده ما تتراوح

المسافة بين اثنى عشر وثلاثة عشر ميلا ؛ وبالتالى فقد كانوا ميممين السير فى اتجاه تيماء .

وعندما يكون المرعى على بعد مسافة قريبة نجد البدو يمشون الهوينا ، ويتركون دوابهم ترعى وهم ركوب على ظهورها . فى حين يتجمع الشيوخ فى مقدمة الركب ، ومن ورائهم تأتى النساء حسب تسلسلهن على ظهور إبل حمل الأمتعة ؛ وإذا ما حدث ما يعكر صفوهن ترى حداة الإبل أو رعاتها بالقرب منهن لتقديم يد العون لهن : والجيران ينزلون من فوق دوابهم لمساعدة جيرانهم بل وحتى الغرباء . والبدو يسوقون الماشية الكبيرة والصغيرة . مع مقتنيات المنازل . فالمرء بوسعه أن يرى ربات البيوت وهن ينزلن من فوق دوابهن ، ليرغين ويدردشن وهن سائرات حافيات (الجميع هنا حفاة فى هذه الدِّيرة ،) إضافة إلى أنهن يغزلن وهن يمشين إلى جوار إبلهن بطيئة الخطى . ولكن الأزواج البدو يقولون : "نحن نجعل الحريم يركبن دوما ، ولا يتعبن أنفسهن ، نظرا لكثرة أعمالهن فى المنازل ؛" ونساء الفكارة نزلن من فوق إبلهن ، قبل ساعة من دخول وقت الظهيرة ، أثناء المسير ، ليحلبن تلك القلة القلية من النعاج والماعز . وترى كل عائله ، بكل أفرادها وهى تسير بنفسها إلى جوار مواشيها . وبالتالى يتمكنون من الإنتشار فى مساحات واسعة ؛ فى تلك الأرض الشاسعة غير المستوية (القسم الأكبر منها عبارة عن سهل ولكنه ملىء بالصخور والأحجار الوعرة) ، وذلك على الرغم من بقاء المئات من البدو بالقرب من بعضهم البعض ، مما يجعلنا لا نفطن إلا إلى أولئك الذين ينسلخون عن الموكب ويتجهون صوب المناطق التى تحيط بنا . وما أن يصل البدو إلى المكان المحدد لنصب المخيم ، ترى زيدا يعود إلينا ؛ وفى المكان الذى يجده مناسبا يقوم بغرس رمحه االطويل ، أو إن شئت فقل : شلفاته الطويله من ناحية مؤخرتها فى الأرض) ، واضعا إياه داخل دغل من أدغال الصحراء الرملية : وبذلك يصبح ذلك الرمح الطويل بمثابة البيرق (العلم) الدال على أتباع زيد ، _ أولئك الذين يخيمون معه ويسمون أنفسهم أهله وأتباعه . وهنا تقوم حرفة ، زوجة زيد ، بتبريك جملها ؛ وتقوم بنصب الخيمة فى ذلك المكان : وهنا يتبعها بقية أتباع زيد وناسه ، وينزلون من فوق مواشيهم ، وتبتعد كل أسرة عن الأخرى مسافه قليله ، ويبدءون فى نصب خيامهم من حول خيمة الشيخ . هذا هو "مَنْزَل" (بفتح الميم وتسكين

النون وفتح الزاى) "زيد" ، والناس من حوله هم أعراب زيد . وهم يبرِّكون إبل الحمل على الأرض وهم يقولون لها : "إخ – إخ – إخ !" ومن فوقها أحمالها . والجمل الحرون يجرى ضرب عنقه المتصلب بلطف باستعمال المشعاب وجذبه نحو الأرض ، أو بوضع اليد على جسمه القوى المتين ؛ أما الجمال التى تستعصى على ذلك فيجرى جذبها من لحاها ؛ وهنا يضطر الجمل إلى النزول إلى الأرض باركا وهو يئن ويتوجع . وبعد إنزال الأحمال من فوق تلك الدواب ، وبعد رفع عددها (سروجها) من فوقها ، يقوم أصحاب أو حداة تلك الإبل برفسها رفسا خفيفا بأقدامهم لتنهض متثاقلة ليجرى بعد ذلك توجيهها نحو المرعى . وهنا يقمن ربات البيوت بفرد قماش الخيام على الأرض ، ويفردن أيضا أركان الخيام ومعها الحبال الجانبية ؛ وتحضر كل واحدة منهن قطعة من الحجر البرى لتكون معها بمثابه المطرقة أو الشاكوش ، وتروح كل واحدة منهن تدق أوتار الخيمة فى الأرض ومن تحت أعمده الخيمة تقوم ربة البيت بفرد قماشها : وبذلك تكون الخيمة قد نصبت . تدخل الزوجة بعد ذلك إلى الخيمة ، وبعد إحضار أغراضها إلى داخل الخيمة تقوم بتجهيز إفطار الرجل ؛ وهو عبارة عن سلطانية من اللبن الرايب ، الذى تجلبة من القربة التى تحفظ فيها اللبن الحامض أو إن شئت فقل : اللبن المخثَّر ، أو قد يكون ذلك الإفطار عبارة عن بضع تمرات ومعها سلطانية من ماء الصحراء : أما الضيوف فيقدم لهم التمر مع اللبن الرايب ، أو إن شئت فقل : لبن الخض مع قطعة من الزبد . وتجلس ربة البيت بعد ذلك داخل الخيمة ، وتروح تهدهد على ركبتيها 'السمِّيلة' أو إن شئت فقل : قربة خض اللبن ، لاستخلاص الزبد من الحليب .

وكما هو الحال مع زيد ، فإن كل شخصية رئيسة من الشخصيات البدوية ، تكون رئيسة لمنْزِلٍ صغير خاص بها : هذا يعنى أن المخيم العام لا يكون موزعا على شكل دائرة رسمية ذات شكل معين (كما هو العرف السائد بين أعراب الشمال) . معنى ذلك أن البدو الرُّحل ، فى المسيرات التى من هذا القبيل ، ينصبون خيامهم فى كل أنحاء المنطقة التى ينزلون فيها من على ظهور دوابهم ، أو إن شئت فقل : حسبما يروق لهم . وبدو الفجير أو إن شئت فقل : بدو الفكارة لم يحدث لهم أن تجولوا فى 'الفرجان' ferjan (ويجب أن لا يغيب عنا هنا أن البدو فى كلمه 'فرجان' يستخدمون حرف (چ) بدلا من حرف 'القاف' أى أن اللفظ الصحيح لهذه الكلمة هو 'الفرقان') أو إن شئت

فقل : الهِجَر البدوية ، التى تتوزع هنا وهناك مثل أهليهم وأقاربهم ، طبقا لأسلوب البدو المترحلين ، وذلك بغية الانتفاع بالمرعى ؛ هؤلاء البدو ، أو إن شئت فقل : بدو الفجير أو الفكارة يتحركون ويخيمون مع بعضهم البعض كوحدة واحدة . هذا الأسلوب فى الترحال أفقد أولئك البدو كثيرا من أصدقائهم وجعلهم يعملون ألف حساب وحساب لمن هم على حدودهم ويناصبونهم العداء ؛ ويترتب على ذلك أن تظل مضارب هؤلاء البدو مفتوحة . كان أعراب زيد عبارة عن ستة خيام فقط : خيمة لزوجة مطلقة ، هى أم ولده الصغير الوحيد ، وكانت تلك الخيمة منصوبة إلى جوار خيمتة ؛ والخيمة الثانية لربة بيت مهجورة لقاصر تحت وصايته يدعى سطَّام Settam ، والتى أنجب هو منها بنتا ؛ وإلى جانب هاتين الخيمتين (إذ لم يكن لدى زيد أقارب مقربين) ، قطيع من الإبل ومعه إبل من أيام والده ، هذا بالإضافة إلى راعى لتلك الإبل . يضاف إلى ذلك أن الأشخاص الذين يتخلى عنهم أهليهم أو قبائلهم يسعون لإلحاق أنفسهم بمنْزَلٍ من منازل أحد الشيوخ ، كما كانت بصحبتنا أيضا أرملة بائسة ، كانت تقوم بدور الأم عند أطفال ابنتها الأيتام ، وهم ولد بلغ من التشوه حداً جعله يزحف مثل الوحوش على الرمل (قالت تلك السيدة البائسة المسكينة : "يا لطيف !" ، قالت هذه العبارة وهى تتنهد متهكمة) – وفتاة شعرها يشبه شعر العفريت وعجيبة الشكل تماما . هذه الجدة ، هى وذلك الطفل وتلك الفتاة يعيشون فى العراء تحت سماء الله ، كان الطفل عاريا عندما دخل عالم الصحراء . وكان الجمل الذى يركبونه قد أعطى لهم على سبيل الإحسان ؛ أما عن طعامهم اليومى ، فالله وحده هو الذى يعلم ذلك الذى كانت تقتات به تلك المخلوقات ، وأنا على يقين إنه ليس من بين البدو من بلغت شناعته حداً يجعله يوبخ أو يؤنب ناسه ، أو يسخر من أولئك الذين ابتلاهم الله ببلاء شديد ؛ كما أنه ليس هناك من بين البدو من يعترض على أولئك الذين قُدِّر لهم أن يعيشوا وينزلوا فى تلك التربه القاحلة الجرداء . فى بعض الأحيان ، كنا نشاهد بين خيامنا خيمة غريبة ، يقيم فيها بدو مسافرين ، أو عائلة جرى نفيها أو التخلى عنها من قبيلة مجاورة : البشر الذين يكونون من هذا القبيل يجيئون وينصبون خيامهم بالقرب من خيام شيخ لهم به سابق معرفة .

كانت حرفة تطلب دوما من زوجها أن يحدد لها الاتجاه الذى تنصب فيه خيمتها . "وكان زيد يرد عليها قائلا : اجعلى وجه الخيمة فى ذلك الاتجاه ." مشيرا لها بيده نحو اتجاه الجنوب ، والسبب فى ذلك أنه إذا ما كان وجه الخيمة طول اليوم فى مواجهة الشمس ، فلن تجىء إليه سوى قلة قليلة من أولئك المتطفلين الذين يفدون عليه لشرب القهوة . ولما كان الشيوخ وحدهم هم الذين يتلقون الصرر الخاصة بقبائلهم ، فهذا يحتم عليهم أن يكونوا مضيفى قهوة حتى النخاع . ولقد شاهدت زيدا وهو يتحاشى شاربى القهوة عندما كانوا يقتربون منه ، أو أنه قد ينهض واقفا بطريقة غير بشوشة عندما يقدم مثل هؤلاء الناس أنفسهم إليه ، (ترى نصف الخيمة ، وبخاصة الجانب الخاص بالرجال ، مفتوحا طول الوقت ، ويستطيع أى إنسان الدخول إليه ، من تلك الصحراء الواسعة ،) وعندما يتذمرون ، يقول لهم ، مقسما بالله ، إن لديه بعض الأعمال والأمور التى تحتم عليه الانصراف ، وأنه يجب عليه التوجه فورا إلى المجلس ، وأنهم بوسعهم الذهاب لشرب القهوة فى مكان آخر ولكن لو كان بصحبة هؤلاء الرجال شيخ من الشيوخ يتحتم على زيد أن يجلس طائعا مختارا ليصلِّح القهوة ويقدمها لهم ؛ ولو تحتم عليه ألا يكون موجوداً ، فإن أى رجل من الرجال الذين لهم سمات الشيوخ ، يفد على خيمة شيخ من الشيوخ يتعين تصليح القهوة وتقديمها له ، اللهم إلا إذا ما اعتذر هو عن ذلك بطريقة لطيفة ، 'مقسما بأنه لن يشرب القهوة ' . ولما كانت حرفة ابنة شيخ من الشيوخ ، وواحدة من أقارب زيد المقربين ، فقد كانت رفيقة مخلصة وشريكة أمينة لزيد فى سياسته التى تقوم على التوفير والادخار .

ها هو مُنزَلنا منصوب الآن ، والناس يفدون إلى وجار قهوة زيد ، إذ لم يكن الشيخ قد ذهب هو بدوره إلى المجلس حتى يتسنى له شرب قهوة منتصف النهار هناك . هذه هى قلة قليلة من أعواد الحطب ملقاة على الأرض بجواره وجوار القهوة : ويقوم أحد الحاضرين ، باستعمال الزِّناد ، بتوليد شرر يستقبله فى الصُّوفان ، ثم يروح بعد ذلك ينفخ فى ذلك الشرر خلال بعض من روث الإبل الجاف محولا إياه إلى شعلة كبيرة ، يضعها تحت بعض عيدان القش الجافة ، ويروح يضع فوقها شيئا من مسحوق روث الإبل . وعندما تشتعل النار ، يبدأ الشيخ إحضار الدلال (أوعية صنع القهوة) التى تحفظ فى سلة خاصة يقولون لها "فاتية" Fatya ؛ هؤلاء الناس الذين يحيون حياة البدو

الرُّحل يضعون كل شيء من أشيائهم فى مكانه المناسب وإلا ضاع منهم أو فقدوه أثناء تحركاتهم اليومية . وينهض أحد الجالسين ليملأ الدَّله بالماء من قربة الماء المصنوعة من الجلد ، أو قد تقوم المرأة بإحضار سلطانية من الماء تناولها للرجال من وراء الستار ، فى الجانب المخصص للنساء ؛ وعندما تكون الدَّلة على النار ، تمد حرفة راحة يدها وقد ملأتها بحبوب البن الخضراء . نحن نجلس على شكل نصف دائرة حول وجار القهوة ؛ وربما ينضم إلينا بعض المعارف أو بعض رجال القبائل الذين يكونون يتجولون أو يمشون فيما بين المنازل المجاورة . كان زيد يصلح القهوة بصورة مستمرة ؛ ولكنه بعدما رآنى تعاف نفسى ماء القهوة ، كان يذهب لشرب قهوته فى الخارج ، أى بعيدا عن بيته . وما لم يذهب إلى المجلس ، فهو يخبئ نفسه مدة ساعتين أو ثلاث ساعات مثل البُوم ، أو مثل كلب من الكلاب كما يقولون ، داخل خيمتى الصغيرة المغلقة ، بالرغم من حرارتها الشديده بفعل شمس الظهيرة ورقة القماش التى صُنعت منه . كنت أفرح عندما أرى زيدا مستلقيا وقد أرهقه الحر الشديد ، كما يطلب منا أن نقول للوافدين على خيمته أنه 'ليس موجوداً' : وإذا ما أفلح أفراد قبيلته العفاريت فى اكتشاف أمره ، "(فإن البدو المستقرين) يقولون : يا لمكر البدو !" .

يتجمع الشيوخ هم والشخصيات الرئيسية فى خيمة الشيخ الكبير أو فى خيمه شيخ آخر من الشيوخ ، وذلك عندما يحل أولئك الشيوخ على منطقة جديدة من مناطق التخييم ؛ وهم يشربون القهوة عند ذلك الشيخ ، والسواد الأعظم منهم يمسك مشعابه فى يده كما لو كان صولجانا ؛ والبدو يقولون لذلك 'المشعاب' أيضا 'مهجان'أو 'باخورة' Bakhorra . وأول الموضوعات التى يطرقونها تتعلق فى الأغلب الأعم بالتوزيع الجديد لمنازلهم العديدة : وتكون على النحو التالى ، "رحيل ! (وهو شقيق الشيخ) ، فين أهلك ؟ بمعنى ، أين (نصب) ناسك خيمتهم ؟ - الذُّريه (ولد الشيخ) ، فين أهلك ؟ - محسن (ذلك الرجل البسيط الذى تزوج شقيقة زيد الوحيدة ،) - خلف هو وبقية الحاضرين ، أين منازلكم ؟- زيد ليس موجوداً هنا ! من منكم رأى زيدا ؟ - وأين مجول Mijwel، أين أعرابه ؟" هؤلاء البدو الرُّحَّل تضطرهم المسيرات الجديدة إلى تغيير أماكنهم ، وبالرغم من قصر الأفق فى الصحراء إلا أن المرء لا يستطيع أن يرى سوى قلة قليلة

جداً من الخيام هنا أو هناك . هؤلاء البدو يلتزمون الصمت عند تصليح القهوة ، نظرا لأنهم يكونون قد استنفدوا كلامهم المعتاد وأعادوه مائة مرة ، وكان البعض منهم وقد جلس يزجي وقته وهو يلعب بمشعابه فى الرمل على غير هدى . هؤلاء البدو يسيرون فى أثناء النهار وفى أيديهم تلك العصى المرحة : أما إن كانت منازلهم نائيه وبعيدة ، مسافة مسيرة ليلة ، تراهم يحملون السيف فى أيديهم : ترى السيف يتدلى من كتف البدوى ، وهو معلق فى حبل . وأحسن أنواع السيوف عند هؤلاء البدو ، هو الأعجمى ، وهو سيف مقوَّس بعض الشيء ، وله مقبض على شكل صليب (وهو جميل الشكل) ، وهذا المقبض ملفوف عليه سلك معدنى ؛ ويجيء السيف الهندى فى المرتبة الثانية بعد السيف الفارسى ، وهم يطلقون على السيف المصنوع فى الهند اسم 'الهندى' .

كلمة أعراب ، وقعها فى آذان البدو الرُّحل يعنى "الناس" . والبدو المترحلون عندما يلتقون بعضهم بعضاً فى الصحراء أو عندما يلتقون الرعاة يتسائلون : فين الأعراب ؟ بمعنى "أين يوجد الناس ؟" والبدو عندما يتحدثون عن صيغة الجموع من القبائل المترحلة شرقا وغربا ، يستعملون لفظ الجمع 'العربان' . هذه الكلمة 'بدوى' **Beduin**، التى دخلت إلى كل لغاتنا ، هى تعنى فى كلام الجزيرة العربية 'البدوى' **Bedùwy**؟ أو إن شئت فقل ساكن الأرض الجرداء (البادية) ، هذه الكلمة هى فى صيغة الجمع "بُدوى" **Bedaùwy**، ولكن الشائع عند جمع هذه الكلمة هو 'البدو' . **el-Béduw** وبينما كنا جالسين ، دارت علينا مرتين الفناجيل الصغيرة ، التى فيها بضع قطرات من القهوة السوداء . وبعد أن ينتهى ابتلاع تلك الرشفات من القهوة وهى تغلى ، وبعد أن يتبادل الرجال فيما بينهم شيئا من الأخبار ، ينهضون الواحد بعد الآخر عائدين إلى منازلهم ، أو إن شئت فقل خيامهم ، وهم يسيرون على الرمل الحار : وكلهم حفاة ، إذ يندر أن تجد من بينهم من يلبس حِذْوةً ، أو إن شئت فقلها : نَعْلَةً . يعود كل واحد منهم إلى منْزِله ، أو إن شئت فقل : إلى خيمته ، ويصلون الظهر ؛ وبعد أن ينتهوا من تناول طعام الإفطار ، فإنهم فى أغلب الأحيان يقضون ساعات القيلولة نائمين فى القسم الخاص بزوجاتهن . سألت واحدة من الزوجات الأمينات الصادقات . كيف يمضى هؤلاء الكسالى هذه الأيام الطويلة حتى المساء ؟ أجابت بابتسامة توحى بالاحتشام والخجل : "تسألنى كيف ، يا سيدى ، فى الترويح مع الحريم !" .

الهجرة ، أو إن شئت فقل : الخيمة الصغيره المنعزلة ، التى تفردها ربة البيت على الأرض بحيث تصل حبالها إلى الأوتاد المدقوقة فى الأرض ، قبل وضع العمدان أو الدعامات من تحتها ، يكون شكلها على النحو التالى : (انظر الصورة رقم ٤١) . هذا يعنى أن كل حبلين ، لهما وتدين ؛ وهذا يعنى أيضا أن هناك ثلاثة أوتاد لكل زوج من الحبال فى الحافة العليا للخيمة . الخيام الأكبر من هذا الحجم يجرى نصبها باستعمال المزيد من أزواج الحبال التى تتدلى من الحافة العليا للخيمة ، كما ترتكز على أضلاع أعلى وأطول من أضلاع الخيام الصغيرة . خيمة الأعراب ، التى يطلقون عليها اسم 'بيت' (الجمع 'بيوت') الشَعر' ، أى التى تصنع من صوف الغنم الخشن أسود اللون بعد نسجه ، يكون شكلها هى وسقفها المحبوس شبيها بشكل الكوخ . قماش بيت الشَعر القوى المتين ، تتم حمايته عن طريق شريط مخيط من تحت رءوس عمدان الخيمة ، وبذلك يمكن أن يعيش ، على حد قولهم ، طيلة جيل كامل ، ولا يحدث له أى شىء سوى أن يقل سمكه عن طريق البلى . ولكن قماش الخيمة عندما تكون خيوطه مكشوفة ، يتحول إلى ملجأ ضعيف ، تخترقه أشعة شمس الجزيرة العربية ، ويترتب على ذلك وجود ظل رمادى داخل الخيمة . وخيام الجزيرة العربية تكون مشدودة شدا محكما إلى كل ركائزها ، كما يجرى نصبها على أرض جيدة وثابتة ، وبذلك يتسنى لتلك الخيام مقاومة العواصف الشديدة والعاتية التى تحدث خلال العام ، وبخاصة فى بعض الوديان الجبلية العميقة . يضاف إلى ذلك ، أن الخيام التى قد تنصب أيضا فى الرمال الضعيفة يندر أن تطيح بها العواصف . والحبال ، التى يطلق عليها البدو اسم 'طُنُب البيت' ، والتى تجدلها النساء من الصوف الذى يغزلنه ، تنقطع فى معظم الأحيان : ومن تكون لديه القدرة المالية (مثل كبار الشيوخ) يستطيع شراء حبال من المدينة مصنوعة من الجوت أو القنب . والمعروف أن كل قبائل طريق الحج تتلقى كل عام ، حبالا ومعها أقمشة وأوانى ، وذلك بالإضافة إلى الصُرَّة التى تتلقاها كل قبيلة من القبائل بمناسبة الحج . وقماش الخيمة يجرى تمتينه بإضافة قطع على شكل شرائط ليست عريضه ، من القماش الصوفى الخشن الذى يغزلنه النساء وينسجنه أيضا ؛ والخيط الذى تستعمله النسوة فى صناعة ذلك القماش هو عبارة عن خليط من صوف الغنم ووبر الإبل وشعر الماعز . وهذا هو الذى يجعل لون ذلك القماش مائلا إلى

الاسوداد : ونحن نقرأ فى الكتاب العبرى المقدس : "أسود سواد خيام قيدار(*) ." والنسَّاجات الجيدات من الزوجات ينسجن لذلك القماش إطاراً أبيضا يصنعنه من صوف الغنم ، أو من خيوط القطن المنسوجة (وصوف القطن هذا يجرى شراؤه من المدينة (المنورة) أو من ساحل البحر) .

عندما يجرى فرد قماش الخيمة على الأعمدة ذات الأطراف المدببة ، يقوم البدو بتعليق ستارة الخيمة فى ذلك السقف ، والستارة ، فى أغلب الأحيان ، عبارة عن تنوره واحدة طويلة تقوم مقام الجدران فى خيمة البدو المترحلين : يجرى بعد ذلك ربط الأطراف الجانبيه إلى بعضها باستعمال سفافيد صغيرة مصنوعة من الخشب . وعادة ما تترك مقدمة الخيمة مفتوحة ، إلى المنتصف تقريبا حسب ما شاهدناه ، ليكون ذلك بمثابة النصف أو القسم المخصص للرجال ، والذى يطلقون عليه اسم 'المقْعَدْ' **mukaad** ، نظرا لأنه يكون مخصصا لجلوس الرجال : أما القسم الآخر ، الذى يخصص للنساء هن ومقتنيات المنزل ، فهو يكون مغلقا فى بعض الأحيان (وبخاصة عندما تود النسوة ألا يراهن أحد وهن نائمات أو عندما يطبخن ،) وهذا القسم النسائى له باب من القماش ؛ والقسم المخصص للنساء يكون دوما مفصولا عن قسم الرجال دائما بستاره معلقه لا يزيد ارتفاعها على مستوى الصدر أو العنق ، وذلك فى المنطقة القريبه من أعمدة الوسط فى الخيمة . والمُقْعَدْ لا يجرى مطلقا إحاطته من ناحية وجهته بسور من قماش الخيمة ، إلا أثناء المطر حيث يقوم البدو بإمالة العمدان وإنزال السقف نحو الأسفل بعض الشيء . وهنا تصبح خيام البدو الرحل مساكن سيئة جداً ، وهنا يعانى أولئك البدو ، الذين لا تزيد ملابسهم على أكفان الموتى ، من البرد ومن العواصف عند هبوبها . والبدو يقومون ، فى فصل الشتاء ، بوضع أحجار ثقيلة على أطراف قماش الخيمة المرتكز على الأرض ، ويقومون بوضع سور من الحطب الجاف أمام باب القسم المخصص للرجال . وقماش الخيام ، فى الأجناب ، يمكن رفعه حسب الحاجة ، طبقا لحالة الرياح والشمس : هذا يعنى أن الجزء الخلفى من خيمة البدو يمكن أن يتحول

(*) أسود سواد خيام قيدار : تعبر هذه العبارة عن سواد الخيام البدوية التى كانوا يصنعونها من صوف الغنم الأسود اللون . وقيدار من القبائل التوراتية القديمة . (المراجع)

خلال لحظات إلى مدخل جديد . وهذا بحد ذاته يجعل ربة البيت العاقلة تفكر على الفور فى فك ستارة الخيمة وتغيير موضعها ، حتى يتسنى لضيوف زوجها أن ينعموا بالظل وبالهواء ، أو لتكون الخيمة ملجأ وملاذا طيبا .- والصورة رقم ٤٢ تبين خيمة شيخ القبيلة وخيمة من خيام أرامل بدو البلّى فى تهامه .

البدو يخزّنون كل مؤنهم فى القسم المخصص من الخيمة للحريم . وبالقرب من الستارة الخاصة بالقسم المخصص للحريم ، تضع ربة المنزل الجوالات القليلة المصنوعة من القماش ، والتى يضعون فيها أشياءهم البسيطة ، وهم يطلقون على تلك الجوالات اسم 'الجوش' **èl-gush** ؛ والبدو يخزّنون فى تلك الجوالات القمح والأرز إذا ما توفرا لديهم : كما يحتفظون فيها أيضا بشىء من الملح الصخرى ، نظرا لأن البدو لا يأكلون الطعام المسيخ ؛ كما يوضع فى تلك الجوالات أيضا الصوف الذى تقوم ربة البيت بغزله ، وكذلك الخيوط التى قامت هى أيضا بنسجها ، - لأن مسألة قيام الزوجة بغزل ونسج الصوف ، تعد أمرا مشرفًا لها بين نساء الأعراب ؛ كما تحتفظ ربات البيوت أيضا فى ذلك القسم النسائى بقطعة من البفتة الجديدة يصل طولها إلى حوالى بضعة أقدام . وقد يوجد إلى جانب كل هذه الأشياء نوع من الجذور يقولون له 'إيرن' **er'n** ، وهو نوع من الخشب ، الذى يقوم البدو بوضع شرائحه القرمزية اللون فى الماء ، وبعد يومين أو ثلاثه أيام ، فيما بين ترحال البدو ، يستعملونه فى دبغ جلود الماعز ليصنعوا منها قراب الماء ، إضافة إلى دبغ الجلد اللازم لصنع دلاء اللبن ، وغدران الماء ، وبعضا آخرا من أشياء البدو . والزوجة لا يكون عندها سوى بعض الصناديق (التى غالبا ما تشتريها من الحضر ،) التى تضع فيها أدويتها المنزلية ، ومشطها ومرآتها ، التى يطلقون عليها اسم 'المرقوبة' **mèrguba** ، إضافة إلى أشياءها الزينية الموروثة مثل الحلق ، وحلقة الأنف التى تكون من الفضة أو من الذهب فى بعض الأحيان (المتبقية لها من الأجيال السابقة) ؛ كما تحفظ مع هذه الأشياء أيضا الأشياء الصغيرة التى تخص زوجها ، (إذ لا يصنعون جيوبا لثيابهم ،) والتى تقوم هى على أمر المحافظة عليها . أما إذا كان زوجها ميسور الحال ، أى واحدًا من الشيوخ الذين يتسلمون صرة أثناء موسم الحج ، فإن الزوجة يكون لديها صندوق بقفل تشتريه من المدينة (المنورة) ويكون مدهونا باللون الأحمر الزاهى ، تحفظ فيه حزم الريالات الخاصة بزوجها إضافة إلى

أشيائها الثمينة القليلة ، ويجرى وضع ذلك الصندوق فى مقدمة الأشياء التى يجرى تحميلها على الجمل الذى تركبه الزوجة (ليكون دليلا على أن زوجها واحد من الشيوخ) . – ولقد تأملت الأمر على هذه الشاكلة ، ووجدت أنه ربما كان شبيها بصندوق الأشياء المقدسة فى الدِّين العام ، الذى كان سائدا فى الحياة البدوية المترحلة التى كان يحياها بنو إسرائيل .

والشائع هنا أن يظهر مفتاح صندوق ربة البيت التى تكون من هذا القبيل ، لامعا متدليا على الجزء الخلفى من خمارها ؛ وهى تعلق ذلك المفتاح مع الكشتبان أو إن شئت فقل : قمع الخيط وكذلك الإبر (التى يستخدمونها لإخراج الأشواك من أقدامهم الحافية ،) وتكون كل هذه الأشياء مربوطة بحبل من الدانتيل الأحمر الجميل الفاقع ، يتدلى من عُصابة الرأس الدائرية الشكل . والبدو ، إذا ما كان لديهم شىء من التمر المتخثُر ، يدسونه فى أكياس بالية ثقيلة يصنعونها من جلود الإبل ، ويراها المشاهد أثناء ترحال البدو ، وهى تهفهف مربوطة بسيور ، أو شرائط من الجلد ، فوق ظهور ماشية الحمل . زد على ذلك ، أن هذا اللباس ذو الفرنشات والشراريب هو من مستلزمات المزاج السامى Semitic، كما نقرأ عن أشياء من هذا القبيل عند (سيدنا) موسى (؛ ونراها أيضا فى المنحوتات الأثريه اليهودية القديمة . كما نقرأ أيضا عن خِرَجَة (جمع خُرْج) الإبل التى كانوا يصنعونها من الجلد ، وأن تلك الخُرج كانت مبللة بفعل العسل الناتج عن التمور ، كما كانوا يصنعون أفضل نعالهم من تلك الجلود . كما نقرأ أيضا عن وضع قراب الماء التى يصنعونها من جلود الماعز ، وقد ملئت بالماء ، لا على الأرض ، وإنما فوق نباتات يانعة حديثه النمو أو فوق أرض خضراء معشوشبة فى الصحراء ؛ ووسط كل قراب الماء هذه ، يوضع ذلك الإناء المصقول ، الذى يقولون له 'جدَّة' Jidda، والذى يصقله من الداخل مبيض النحاس البدوى ، أو الحرفى الذى يقوم بذلك العمل لصالح البدو فى سوق القرية . والبدو يغلون زبدهم فى تلك 'الجدّة' ، أو إن شئت فقل : فى ذلك الإناء ، (عندما يتوفر الزبد لديهم ، لكى يستخلصوا منه السمن ،) ، كما يسلقون فى ذلك الإناء أيضا أكلاتهم المنزلية القليلة ؛ والبدو يسلقون وجبه الضيف فى ذلك الوعاء عندما يقومون بالضيافة .

بيوت الشَعر التى يسكنها الأعراب هى خيام مصنوعة من القماش المصنوع من الشعر . وبيوت الشَعر هذه تناسب منظر هذه الأرض المؤسف المحزن ! والمعروف أن الخيمة هى البيت السامى : Semitic هذا يعنى أن بيوت البدو التى يصنعونها من الطين إنما تكون على الشاكلة نفسها ؛ معنى ذلك أن ذلك البيت يتكون من صالة عامة للرجال والضيوف ، وشقة داخلية للنساء ومحتويات المنزل . كان بيت (سيدنا) موسى المزين ، والخاص برب البدو الرحل ، مبنيا بهذه الطريقه نفسها فى الأرض القاحلة الجرداء . يضاف إلى ذلك ، أن القبة ، عند النبى العبرى ، عبارة عن مسكن يهودى قديم للأسرة الواحدة التى هى من خلق الله سبحانه وتعالى . هذه البيوت المتنقلة فى الأرض الجرداء ، والتى يسكنها اللصوص ، إنما هى ملاذات أيضا "لضيوف الله" ، ولأبناء السبيل ، ولكل من يتصادف نزوله عن راحلته ، مع وجوده أمام تلك البيوت . شذَّاب الآفاق الخطرين ، أو إن شئت فقل : رعاة الصحراء ، إنما هم ملوك فى بيوتهم ، وهم أيضا آباء الكرم لكل من يطلب منهم تمضية الليل فى تلك الديار . "يتساءل البدو الرُحَّل المساكين ، ألسنا كلنا ضيوف الله ؟" طالما أن الله أعطاهم ، فضيف الله يجب أن يشاركهم ويأخذ مما أعطاهم الله إياه : وما لم يعطوا مما أعطاهم الله سبحانه وتعالى فلن ينصلح حالهم . دخل الضيف ، وجلس بينهم ، ويلاحظون صمتا كريما ، لا يُسألون أسئلة غير مناسبة ، (لأن هذه هى مدرسة وتربية الصحراء ،) إلا بعد أن يكون الضيف قد أكل وشرب فى أضعف الأحوال ، وعن طريق "العيش والملح" يتأسس السلام بينهم ، مدة محددة (تقدر بحوالى ليلتين بينهما نهار ، فى الوقت الذى يكون طعامهم مازال فى جوفه . هذا هو العالم الذهبى ، وهذه هى "أحكام الله" فى وسط الصحراء الجرداء : والبدو المترحلين يصابون بالدهشة عندما يصادفون بخل الحضر الشديد ؛ – ولكن يستحيل على عرف البدو المترحلين ، أن يسود فى الحضر .

حكى زيد لنا عن تجربة قديمة حدثت له فى دمشق (عندما كانت قبيلته فى الشمال) ؛ حكى لنا عن خلاف بمعنى الكلمة حدث مؤخرا مع أحد موظفى ، أو إن شئت فقل : أحد رجال الإمبراطورية العثمانية ، الذى يقولون له بلغة القوم (دولانى) ؛ هذا الرجل كان ضابطا من ضباط الحج : دار النقاش أو الخلاف حول من هو الأقرب

إلى الله ، هل هم أهل الحضر أم الأعراب .- الضابط : "البعض منكم أيها البدو لا يصلون أو يصومون ، كما أن البدو يواصلون دوما عملية الغزو ؛ أنتم تقتلون البشر من أجل غنيمة صغيرة ، كما تغتصبون أشياء الآخرين . الله يعلم ، أنكم بالرغم من أن ألسنتكم تصلى على النبى ، إلا أنكم لستم أحسن حالا من الكفار (المارقين ، - اليهود والمسيحيين) . أنتم لا تميزون بين الحلال والحرام ؛ ولكننا ، نحن الذين نميز الخبيث من الطيب ، أفضل المسلمين ." زيد : "أنا أُسلِّم بكل ذلك ؛ ولكن انتبه وأصغ إلىَّ جيدًا ! الغريب الذى ينزل إلى خيمة البدو ، يرحبون به ، ويشغلون أنفسهم بالاهتمام به ، ونعد له وليمة أو عشاء الضيف ؛ وبعد أن يتناول عشاءه ، ينام فى المكان نفسه الذى تعشى فيه ، فى حفظ الله ورعايته ، ومع طلوع النهار ينهض من نومه منتعشا ليواصل رحلته . ولكن يا للعجب ! عندما جئت ، أنا ، إلى الشام ، راكبا ناقتى ، كان المساء قد دخل (أقصد كان الوقت هو وقت تناول العشاء) ، وبينما كنت أمر متعبا وجائعا بالقرب من السوق ، نزلت من فوق ناقتى أمام باب من الأبواب ، ظننت أن بوسعى قضاء الليل فيه . وعندما طرقت الباب ، سمعت صوتا ينادى من الداخل قائلا : 'مين' ؟ من الطارق ؟ من الطارق ؟ رددت قائلا : '(ضيف !) وأنت يا من فى الداخل عجِّل بفتح الباب !' ولكن الصوت رد على قائلا : 'أنت ، يا من تقف طارقًا الباب ، واصل مسيرك إلى السوق ، حيث توجد منازل كثيرة ، كما أن هذا المنزل ليس فيه أى شىء ؛ اذهب بسلام ، أيها الرجل الطيب .' هذا هو حال أهل الحضر جميعا ، وهم لا يستحون ، وأنا أقسم بالله على ذلك ! وهنا ، ونظرا لأنى لم أذق الطعام فى ذلك اليوم (نظرا لأن عابر السبيل لا يتناول الزاد إلا بعد النزول عن راحلته) ، فقد رقدت على التراب فى شارعكم ، وقد قتلنى الجوع ورحت أستلهم النعاس . هذا هو أسلوب تعامل أهل الحضر مع الغرباء الذين يدخلون مدنكم ! - وأنا أقسم بالله أن 'الدولانى' يقر بأن حياتنا أقرب إلى الله بسبب كرمنا وسخائنا ." البدو يتمسكون دائما بهذه الفضيلة البشرية المقدسة ، وذلك مثلما يقف الإنسان أمام "الله المُنْعِمْ ،" ومثلما يقف لاعب مسكين أمام العناية الإلهية . وبالرغم من كل ذلك ، فإن مدينة دمشق الطيبة لا ينقصها الكرم العربى ؛ ولكن الكرم فى مدينة دمشق ليس بمستوى الكرم الذى رأيته وشاهدته فيما بعد فى مدن الجزيرة

العربية ، وبخاصة فى المناطق المرتفعه منها . هناك شيوخ كرماء بمعنى الكلمة فى قرية الميدان Medan التى تعادل مساحتها ربع مساحة الشام ، هؤلاء الشيوخ أصحاب بساطة عريقة تماما ، التى تلتزم بالكرم الحاتمى الذى تقدمه القرى النائية .

اسم ذلك الشيخ كاملا هو : زيد Zeyd الشيشان es-Sheychan الفجيرى el-Fejiry؛ هذا الاسم يدل على إنه ولد من أبناء الشيشان (الشيكان) (*) ، وهو من معيلى (اتباع) الفجيرى أو من أقاربه ؛ وهذه القرابة من ناحية الشيوخ ؛ وطبقا لهذا العرف الشائع ، فإن اسم قريب شيخ القبيلة إنما يعزى إلى القبيلة نفسها (والمعروف أن البدو فى لفظ كلمة 'الفجيرى' إنما يقلبون 'القاف' 'جيما' ، ولكنهم يستعملون كلمة 'الفقارة' فى صيغة الجمع) وترتيب بدو الفجير يجىء الأخير من ناحيه الشمال من أهل Ahl جبلى Gibly ، أو إن شئت فقل : أعراب الجنوب . وأتباع أو معيلى الفجير هم صالح Solih، أو إن شئت فقل : الفجير (وكلهم شيوخ) ، والمراسيب el-Moghrassib والزوارا Zuara ، والحمدان Hamdan، والهجُور Hejûr، والعينات Ainàt والصقورة Sgoora؛ وكذلك الأتباع الفرعيين أو الثانويين ، نظرا لزيادة حجمهم إلى ما يقرب من نصف العشيرة ، أو إن شئت فقل قبيلة الخمالة el-Khamala . والاسم القديم لتلك القبيله هو المنابهه Menàbaha ، التى تنحدر عنهم أيضا الحسينى el-Hosseny ، الذين يشكلون حاليا عرب الشمال بالقرب من مدينة حلب ، والذين تنحدر عنهم الأسرة الملكية الشهيره فى شرقى نجد ، أسرة بن سعود ، الوهابى . هذا هو ما يقوله ويرويه الفقارة : وهناك من يقول أيضا ، فى نجد ، إن ابن سعود ، هو من بنى حنيفة ، العرب القدامى ، ومن يقول أيضا إنه ينحدر عن العنزى ، فى وادٍ يحمل هذا الاسم نفسه ، وذلك اعتبارا من عهد محمد ﷺ . والإسماعيلين ، تمتد سلالتهم إلى العنزى إلى حد ما ، – وهذا ينسحب أيضا على جيرانهم وأعدائهم الرئيسيين من المعازى Maazy أو إن شئت فقل : بنى عطية - Atieh ونسبه من ناحية الإناث ينحدر من القحطان ، السلالة النبيلة فى

(*) يصح فى هذا الاسم أن يلفظ بالطريقتين : " الشيشان " أو " الشيكان " واللفظ الثانى هو الأرجح ، إذ إن هناك قبيلة فى اليمن لقبها " الشيكانى " . (المترجم)

جنوبى الجزيرة العربية (أو إن شئت فقل : يوقطان yoktan (سيدنا) موسى حسبما يقول العلماء) . والمعروف أن وعيل Wâil (الجد الأكبر) هو ولد من أولاد نشود Nushud الجمال el-Jemal من زوجة قحطانية ؛ وأبناء وعيل هم عناز Anâz ومعاز Maaz، اللذان هما أبوى كلا من الأمة العنزية الإسماعيلية النبيلة أعرق العشائر العربية الموجودة حاليا ، وأمة المعازى Maazy . من المعروف أيضا أن مسلم Muss-lim ، أحد أبناء عناز Anâz ، هو جد بنى Beny وهاب Wahab ، الذين هم من المنابهة Menálaha، وآل الحسينى الموجودين حاليًا ، والفجير ، وولاد على : وكذلك أيضًا البشر The Bishr، وطلاس Tellas والرولة ؛ والمعروف أيضًا أن كل العنوز ، يدخلون فى بعض الأحيان ، ضمن بنى وهاب : – وبذلك يكون زيد منهم أيضًا . وأتباع ، أو إن شئت فقل : أتباع ولاد على الفرعيين من جهة الجنوب هم : الطُّعاله et- Toâla (وهم كثيرى العدد) ، ثم الثويبة Thueyba، والطائفات Taif?t، والأُمشطة Umshitta، وأمْريخان Mraikhan، والجبَّارة Jebbâra، والإربيلات Erbeylat، وخالد Khâlid؛ والشيوخ جميعهم من العلايدة Allàyda(*)

تبدأ ديار الفقارة الجرداء اعتبارا من المنطقة المحيطة بالدار الحمراء وتصل إلى بير الغنيم : ولا يقل اتساع تلك الديار من ناحية طريق الحج من ناحيه الشرق إلى جبل برَّد Birrd ، على حدود نجد . وهذه الديار مؤكدة فيما يتعلق بمقاطعاتنا الإنجليزية ؛ ويقدر عدد هؤلاء الفقاره بحوالى ثمانمائه نسمة . ويصل عدد خيامهم إلى مائتى خيمه ؛ وقد تمكنت من مسح تلك الخيام على الفور ، عندما كنا نمضى فصل الصيف حول آبار الحجر . وأفق هؤلاء البدو الرُّحَّل صغير وضيق ؛ وقلة قليلة منهم هم الذين يعرفون ديارا غير ديارهم ، أو طرقا غير الطرق التى يعتادونها ، ألا وهى الطرق المؤدية إلى حائل ديرتهم الرئيسة ، أو إلى المدينه (المنورة) مدينتهم الدينيه الرئيسه أيضا . والفقاره ، فى الغزو الذى يقطعون له مسافة طويلة ، يستأجرون لهم دليلا ، أو مرشدا

(*) العلايدة : أولاد على . (المراجع)

أرضيا يأخذونه معهم ؛ وهذا الدليل عادة ما يكون واحداً من المنفيين أو المطرودين السابقين ، أو قد يكون ضيفا فى تلك الديار التى سيخون كرمها . ويصعب على الفقاره (كما هو الحال فى حالات النزوح العام) تعرُّف الديار الغريبة . وهم يتصورون ، أو يتخيلون أن الدنيا كلها ليس فيها غير أرض الجزيرة العربية الجرداء التى تضربها الشمس ، وبها قليل من الماء وقلة قليلة من قرى النخيل ، فضلا عن مدينة واحدة كثيفه السكان ، مثل مدينة مكة . أطفال هؤلاء البدو الرُّحَّل رجونى أن أقول لهم : 'كم عدد الإبل التى تملكها الإمبراطورية العثمانية ؟' وهم يعتقدون أن الإمبراطورية العثمانية واحدة من القبائل ، وأنهم يرون ويشاهدون موكب الحج الذى تقوم به هذه القبيلة ويمر عليهم كل عام . وهذا هو أكبر أبناء شيخ ولاد على ، والذى يمكن أن يخلف والده فى رئاسة القبيلة بعد وفاته ، متحجر الرأس ، سألنى عن ذلك المكان من العالم الذى تقع فيه ديرة الإنجليز ، ويود أيضا أن يعرف اسم القرية التى تقوم بدور السوق فى بلادنا ؛ كما طلب منى بشغف : "خبِّرنى ، يا خليل ، عن أسماء القبائل المعادية لكم :" وقال لى : إنه لو سمع اسمها فلربما استطاع التعرف عليها . كما استطاع أيضا أن يتفهم أننا كفَّار ، ولكنه لم يتصور أننا يمكن أن نكون شيئا آخرا غير قبائل الأعراب .

هيا بنا نتحدث عن أسرة زيد . وهو له زوجة أخرى ، ولكنها جرى تهريبها منه – وهذا أمر شائع ، نظرا لاستبداد الذكور الذى يسمح لهم بكثير من الزيجات – وهذه الزوجة تعيش حاليا مع قبيلة أمها ، البشر The Bishr؛ هذه القبيله كانت إبلها ترعى بالقرب منا فى الصحراء . وقد ركب زيد راحلته قاصداً جيرانه ، وعن طريق الوعود الحلوة المعسولة التى يجيدها استطاع أن ينجح فى إعادة زوجته إلى بيتها مرة ثانية . قال لى أحد الشيوخ : إن تلك الزوجة كانت جميلة ، إذ لها "عينان واسعتان" ؛ ولكنى بعد أن رأيتها ، وجدت أن وجهها كان شديد الشحوب والإمتقاع . هذه الزوجة المستعادة ، لن تعيش معنا فى الخيمة نفسها نظرا لوجود الزوجة حرفة الغيورة ، ولذلك فقد "نصبت" خيمتها مع بعض الأقارب فى مْنزَلٍ آخر ، غير المنزل الذى نحن فيه . كان زيد وحرفه أبناء عمومة ؛ وكانت حرفة يتيمة من أيتام واحد من شيوخ القبائل ، أخذها على ما يبدو نظير ذلك الميراث القليل جداً من الإبل . كانت حرفه صبية بدوية قصيرة

متينة القوام ، وربما كان عمرها فى حدود العشرين عاما ؛ وكان يبدو على وجهها أن شبابها الذهبى نوى وتحول إلى خريف ، ومع ذلك كان شكلها يسر الخاطر ؛ كان فمها عامراً دوما بابتسامة لطيفة ، كانت تنتهى بتنهيدة تصدر فى أغلب الأحيان عن قلب لم يشبع . 'المرأة تتنهد (كما يقول المثل) عندما يكون زوجها سيئا' . ولكن حرفة كانت تتنهد جرَّاء الأمومة : هذا يعنى أن حرفة أمضت ، إلى الآن ، عامين مع زوجها وما تزال 'بنتا' كما يقول البدو ؛ 'هذا يعنى أيضا أنها ما تزال بنتا' ؛ وكانت تبكى فى داخلها وهى حزينة حزن امرأة من الساميات Semitic . كان زيد وحرفة مثلما كان إسحاق وربقة Rebecca ؛ وببساطه البدو ، كانا يجلسان يوميا يداعبان بعضهما أمامنا ، لأننا كلنا كنا أسرة واحدة ، وأصدقاء ، ولكن فى أحيان كثيرة كانت تُبَوِّز وتمط شفتيها إشارة إلى عدم الرضا ؛ وهنا كان زيد يتخلى عنها فى برود ، ومن ثم تفترق روحاهما من جديد . كانت حرفة بحكم روحها المرهقة ، ترغب فى رجل نشيط مليء بالحيوية ، بدلا من ذلك الزيد الهزيل ، الذى كانت لا تثق فى قدرته على أن ينجب منها أطفالا . وكانا قد طلبا مرات ومرات من ذلك الغريب المسيحى أن يحكم بينهما فى موضوع زواجهما العقيم هذا ، وهل هى شرعية أم لا ، كما هو الحال بين أطفال الأشقاء . كانت حرفة ، ذلك الجسم النَّكِد الصغير ، بحكم مولدها فى خيام الشيوخ ونشأتها فيها ، بمثابة 'الشيخة' بين الحريم ، كما كان الرجال ينظرون إليها النظرة نفسها ؛ يضاف إلى ذلك أن الشيوخ الكبار كلهم كانوا من أقرب أقاربها . والمعروف أن دم القرابة يختلط بصورة مستمرة فى قبائل الجزيرة العربية الصغيرة وفى قراها الصغيرة أيضا : من ذا الذى يظن ، فى أيامنا هذه ، وبعد مرور أجيال كثيرة ، أن ذلك العرق السامى قد تلوث أو تشوة على هذا النحو ؟ – ولكن واقع الأمر ، أننا لا نرى بين هؤلاء الناس مشوهين أو متخلفين عقليا .

لما كانت حرفة صبية وأنثى جريئة الملامح ومهتمة بنفسها فقد استباحت لنفسها أن تميل عيناها إلى راعيها ، ذلك الشاب الصغير ، الذى كانت تغريه وتغازله أثناء غياب زوجها وبطريقة صريحة ومباشرة رغما عن أنف زيد ؛ ولكن ذلك الشاب ، كان حصيفا ومخلصا فى خدمته لشيخه ، هنا فى هذه المنطقة ، وبالرغم من وقوعها على

حدود كل من الحجاز الحاسد الغيور ، وعلى حدود نجد الوهابية المتشددة ، نجد أن النساء من بدويات الفقارة يخرجن سافرات ، و (فى الأماكن التى تربط فيها القرابة بينهم) لم ألحظ بينهم أى شكل من أشكال الغيرة بين الأزواج . فى هذه القبيلة التى تعيش على التمر ، لم يكن بينهم شخص مكتمل النمو غير الشيخ مطلق هو وأبناؤه ، ولم أر أيضا بينهم امرأة جذابة . كان زيد يروض زوجته الصغيرة العنيدة ، وذات ليله أدبها باستعمال العصا أثناء الليل .

كانت ملهاة حرفة وزيد بمثابة مادة الحديث اليومى فى مجلس شرب القهوة الخاص بالشيوخ أبناء عمومتهما ؛ ذلك المجلس ، الذى كنت أصل إليه وحدى وأسمعهم يقولون : إيه ! هاهو خليل قادم : مرحبا يا خليل ؛ إفسحوا مكانا لخليل ؛ تجاوز الجالسين ، يا خليل وتعال ، وأجلس إلى جانبى هنا ." – "أأنت على مايرام ، يا خليل ! ولكن أين عمك زيد اليوم ؟" – "زيد زهلان(*) ؛ وهو يرقد فى المنزل نائما طول النهار بسبب هذه الحالة النفسية ." – والناس فى أرض الشمس ينامون عن قصد تحاشيا لآلامهم . "لكن خبرنا ، هل عرفت أنه ضرب حرفة ؟ وما هى الأخبار اليوم ؟ هل تحب عمك يا خليل ؟" قال واحد ممن لا يحبون زيدا (هو خلف Khalaf علايده Allàyda ، وهو شيخ منفى من شيوخ ولاد على) ، "زيد ليس رجلا ، من الذى يضرب زوجته ، من يضرب المره (المرأة) هو مره (امرأة) مثلها ؛ هل يفعل ناسك هذه الفعلة يا خليل ؟" أجبته ، "لا ، بالتأكيد ؛ اللهم إلا إذا كانت تعيسة وليست حلوة المعشر ." قال الرجل : "وأنا أقسم بالله ، أن ذلك عيب بيننا نحن البدو ." إن آثار مشعاب زيد تتملك دوما روحها الصغيرة العنيدة ؛ وأثناء الوقفة التالية من الرِّحله ، وبعد أن ينصب الخيمة ، وبعد أن اتجه زيد إلى المجلس ، مخلفا وراءه كل شىء ، فرت حرفة عائدة هائمة خلال الصحراء الجرداء وهى غضبانة أشد الغضب . وهنا تبعها مسرعا واحد من بدونا المخلصين ، مثل البرق وأمسك بيديها الصغيرتين برهة قصيرة ، وهو يرجوها أن تعود

(*) يلاحظ هنا أن خليل قلب حرف " العين " فى هذه الكلمة إلى " حاء " وأصل الكلمة " زعلان " بمعنى " غضبان " (المترجم)

إلى صوابها ؛ ولكنها بحكم أنها ابنه أحد الشيوخ ، رفضت أن يمسك بها أحد ، وخلصت نفسها من ذلك البدوى ومضت لحال سبيلها .

هذا هو العلاج الشائع لمشكلة الزوجة البدوية العاصية المتمردة ، التى تكشف عن ذلك العصيان والتمرد عن طريق الاغتراب عن زوجها ، واستعدادها لهدم الأسرة ورباط الزواج ، وبذلك تجلب مثل هذه المرأة على زوجها احتقار الجميع له لأنه لم يستطع طردها . وفور علم زيد بالخبر وذيوعة ، انطلق فى إثر حرفة وعلى الفور ، أقرب أقاربها من ناحية والدتها ، وهو شخص يشبه حرفه كما لو كان شقيقا لها : كانت حرفة تجرى فى الصحراء الجرداء كما لو كانت نعامة وحيده . ومضت ساعه أعاد بعدها حرفة إلينا ، والمؤسف أنه تركها مرة ثانية بصورة مؤسفة أمام خيمة زيد . قال ذلك الشخص : "ها ، يا خليل ، ما الذى ستعطينى إياه الآن ، بعد أن أعدت إليك عمتك مرة ثانية ، من الذى سيصب لك اللبن والماء ؟ ثم (راح يفرجنى على سيفه القصير) ، أقسم بالله ، أنى أعدتها بالسيف ، أقصد بقوة السيف ." ونظرا لاستياء زيد ، فى ذلك الوقت ، فقد راح ينام عدة ليالى فى خيمه زوجتة التى من قبيلة البشر ؛ وهاهى حرفه الغيوره ، التى تتحمل تلك المعاناة الجديدة ، تهرب مرة ثانية مكلومة الفؤاد ، وفى حضور الغرباء ، ضيوف زوجها ، من تلك الخيمة التى تنصب حديثا ، بعد أن ينزل الرجال من على دوابهم فى مَنْزَل من المنازل ؛ بقى زيد فى مكانه ، بوصفه رجلا مستاءًا ، ولم يفعل أى شىء سوى أن يتعقبها بنظراته ، دون أن يمنعها مما كانت تفعله (فالإنسان حر فى حياته من وجهة نظرهم) . هذه الزوجة البدوية الهاربة كان لديها أسبابها الوجيهة التى تجعلها تهرب إلى أى مكان تشاء ؛ فهى حرة فى الصحراء ، وليس هناك من يستوقفها أو يعطلها أو يثنيها عما تود القيام به . عجلت حرفة بالذهاب مسرعة إلى ديار أقارب أمها ، وهى تنتحب حزنا ، فى خيمة عمتها ؛ والبيت الذى تلجأ إليه الزوجة الهاربة ، أيا كان ، وغير بيت زوجها ، قد يشارك فى رد مثل هذه الزوجه عن غوايتها .

رحل الغرباء ، وجلس زيد وحيدا فى خيمته الخالية وهو يكابد الكثير من الآلام الذهنية الثقيلة التى تلازم أصحابها فترة طويله ، ولكن مسألة أن يكشف الرجل عن استيائه ، من امرأة من النساء والصبر على الحياة الزوجية ، فذلك أمر ليس من الرجولة ويكشف عن سوء التربية والتنشئة . وفرد زيد جسمه فوق الرمل طلبا للنوم عله

يتغلب على أحزانه ، وراح زيد فى النوم ورأسه فى الشمس الحارقة . والبدو الرحل ينظرون إلى الاعتدال فى الحياة الزوجية وتحمل متاعبها على أنه من الدين ! "فسلام الله" يتمثل فى ذلك القدر الكبير من الجدب المريع ، الذى تظله كل خيمة من خيام أولئك الرعاة المساكين . وهنا رحت أهزه بلطف وتدرج وقلت له : "ليس من الصحيح أن تنام هكذا ورأسك فى وهج الشمس ." ذهبت أنا وهو بعد ذلك طلبا لشرب القهوة فى المجلس ، الذى شاهدت فيه بعض الحاقدين الذين كانوا يسخرون من حزن زيد ويستخفون به ، هو ونظراته التى توحى بالتعب والاضطراب ، وهنا راح زيد يشتكى بصوته العالى الأجش بأنه 'لم يعد لديه زوجة بعد' – اللهم إلا إذا قدر لخليل (ضيفهم) أن يعيد حرفة إلى البيت مرة ثانية .' والمعروف أن الأخبار على اختلاف أنواعها سرعان ما تذيع وتنتشر بين الخيام المفتوحة فى أى مَنْزَل من منازل البدو الرُّحَّل ، ويندر ألا تلوك الألسنة أية حكاية من الحكايات التافهة ، التى يحكيها البدو تزجية لساعات الفراغ .

أدان العموم الهروب الثانى الذى قامت به حرفة الزوجة : "قالوا : كيف تهجر المرأة خيمة زيد فى وجود الضيوف ، وبخاصة أن أولئك الضيوف كانوا من الغرباء !" – وهنا ردت أم مُسنَّة من مَنْزَلنا على كلام زوجها العجوز قائلة : "ها ! ألم تسمع ، يا صالح ؟ الحريم ليست صالحات فى أيامنا هذه ، – إى ، والله ! أنا أقول إنهن جميعا فاسدات ، وأنا منهن أيضا !" المؤكد أن أولئك الغرباء كانوا (طربين Terabin) بدو الحويطات ، وكانوا تجارا أيضا ، جاءوا من صحراء ساحل البحر فى سوريا ، أسفل غزة ؛ ومن عادة هؤلاء الغرباء العودة إلى هنا فى فصل الربيع ؛ وهم أصلا من تجار الإبل ، بين الأعراب . ولما كان أولئك الغرباء يمرون علينا فى نهاية الرَّحْلة ، فقد ناداهم زيد من مَنْزَله وطلب إليهم النزول عن دوابهم لينالوا قسطا من الراحة ، جلس هؤلاء الغرباء على الرمل فى الوقت الذى كان يجرى فيه نصب الخيام ، وقدم زيد لهم الأشياء المعتادة التى تقدم عند الظهيرة فى ديارهم البائسة ، وهى عبارة عن طبق من التمر النتن المتعفن وسلطانية أخرى من ماء الصحراء العسر . هؤلاء الغرباء ، عندما رأوا ذلك الذى قامت به تلك الزوجة ، وبدافع من الأدب ، رحلوا مخلفين وراءهم ذلك الفطور البسيط ، وشكروا زيدا ؛ ومع ذلك ، كان الأمر ينطوى على شىء من الضعة والإذلال غير السليم ، وهو الأمر الذى لا يقره البدو الرُّحَّل أو يعترفون به : والبدو يدعون

للمضيف ويشكرون الله ؛ ولكن هؤلاء الغرباء كانوا من منطقة الحدود ، بل إن ملامحهم كانت توحى بأنهم من الحضر ، وسط هذه البرية وذلك الخراب . هؤلاء الغرباء لا يشترون سوى أفضل الدواب والماشية : وبالرغم من أنهم يقدمون أو يعرضون أسعاراً مرتفعة إلا أن الأعراب لا يرغبون فى البيع لهم مطلقا وعن طيب خاطر . وهم يعتقدون أن الجمل من الممتلكات المفيدة والمربحة ، فالجمل سوف ينجب جملا آخراً ، أما النقود فعقيمة وتضيع بالاستعمال ، وقد جرى العرف ، أن يبيع البدو الرُّحل دوابهم عندما يكونون بحاجة ماسة إلى الريالات : وهم هنا لا يبيعون سوى ذكور الماشية ؛ بالرغم من أن تلك الذكور هى الأفضل فى عملية النقل والحمل .

هؤلاء السماسرة ، كانوا يدفعون فى الجمل القوى المتين ثمنا يصل إلى حوالى خمسين ريالا ؛ كان نصفها يدفع نقداً ، والباقى على شكل قماش من البفتة البيضاء ، التى قد يبيعها البدو الرحل ، بدورهم ، لكى يصنع الناس منها قمصاناً لهم فى الصحراء . هؤلاء التجار يحضرون قماش البفتة هذا معهم من سوريا ؛ ويبيعونه هنا بسعر قرية تيماء ، ولا يزيد ما يكسبونه نظير تعبهم ومشقتهم عن الربع . هؤلاء السماسرة يبيعون الجمال التى يشترونها من هنا ، فى كل من مصر وسوريا . السماسرة الذين يكونون من هذا القبيل ، يتنقلون طول العام فى كل أنحاء الأجزاء المرتفعه من الجزيرة العربية ، كى يشتروا الإبل لحساب الدول المجاروة ، الأمر الذى أدى إلى مضاعفة سعر الإبل خلال سنوات قلائل ؛ وسعر الإبل يكاد يكون واحداً ، فى الوقت الراهن ، فى كل أنحاء القسم الشمالى من الجزيرة العربية : وإذا ما نشأ طلب على الإبل فى البلاد المجاورة ، كأن يكون ذلك بسبب إعلان الحرب على الحبشة على سبيل المثال ، ترى هؤلاء المبعوثين (السماسرة) يجوبون كل أنحاء الجزيرة العربية خلال أسابيع قليلة ، وفى حالة دفع مقَدَّمات مالية ، يصبح بوسع أولئك السماسرة إحضار عدة آلاف من الإبل . ولكن عملية النقل تكلف الكثير فى رحلة من هذا القبيل . نظرا لأن وزن ظهور كل ستة جمال يعادل طنا واحداً .

سألنى الحويطات عما كنت أفعل فى عالم البدو ؟ وأجبتهم بأنى زرت بلادهم ، وأقمت فى قراهم الدائرية الشكل المكونة من الخيام ، وشاهدت أيضا طريقة حرثهم

للرمل البرى باستعمال الإبل . "(قالوا لى ، فى ود وصداقة) : سنركب دوابنا فجر الغد عائدين إلى ديارنا . أليس من الأفضل لك أن تعود معنا ؟"

أمة الحويطات تسكن كل البرية الجرداء التى تعلو شبه جزيرة سيناء فيما بين البحرين وعمق الأراضى الداخلية : والحويطات يصلون إلى حدود تهامة ، عن طريق البحر الأحمر إلى قرية الوجة . ومدينة الحويطات الواقعة على البحر الأبيض المتوسط ، من الناحية الشمالية هى مدينة غزة ، التى تعد مخزنا رخيصا للحبوب عند قبائل سيناء ، ولعرب الجزيرة العربيه الرُّحل القريبين من تلك المدينة . وقد شاهدناهم حول غزة (التياها Tiáha والسيدين Seydeîn)، وهم من الفلاحين والزراع الذين يقيمون فى الخيام ؛ وأمة الحويطات فى تهامة عبارة عن أناس من الرعاة الرُّحَّل : ولكن البعض من رجال قبائل الحويطات الذين يعيشون فى الوديان ، والقيعان المنخفضة ، هم أيضا من العمال الزراعيين الذين يزرعون النخيل والحبوب ، فى كفور صغيرة تنصب فيها الخيام . وشاهدنا بعضا من الحويطات ، فى الحسمة Hisma ، وكانوا يعملون فى زراعة الحبوب فقط ؛ وفى صحراء النفود(*) وتربة 'الأماليكايت' Amalekite فيما بين غزه ومصر ، وجدت أن عشائر الحويطات الطرابين Terabîn والسواقى Suâki (كانت من البدو الرُّحَّل ليس إلا ، قروييى الخيام من بين الحويطات فى فلسطين يشبهون السوريين الآخرين إلى حد بعيد ، وهناك الكثيرون منهم الذين يمارسون التجارة ، وبخاصة التجارة مع البدو ؛ ومن بين أفراد هذه القبائل أناس لديهم مخازن يبنونها من الطين . هناك أيضا قبائل بدوية تعيش فى بيوت من الطين ، حتى فى الجزيرة العربية نفسها ؛ وهذا هو حال شيوخ الفقارة وولاد على الذين لهم فى خيبر بيوت من الطين يعيشون فيها فى فصل الصيف ؛ وهم فى هذه المناطق يعيشون ملاكا للأرض وليسوا فلاحين فيها أو زرَّاع لها . والبدو يقصدون تلك البيوت الطينية فى خيبر ، فى فصل الصيف على سبيل الاستجمام ، 'والكيف' كما يتصورون ؛ وهم لا يميلون إلى الحياة المستقره

(*) صحراء النفود : تقع فى شمال الجزيرة العربية وتمتاز بكثبانها الرملية الناعمة اللينة التى يصعب على المرء السير فيها . ويبلغ ارتفاع بعض هذه الكثبان نحو ١٥٠ مترا . وتمتد صحراء النفود على مساحة كبيرة من الأرض حيث يبلغ طولها من واحة تيماء إلى الشرق نحو ٤٥٠ كيلو مترا وعرضها من واحة الجوف إلى جبل شمر نحو ٢٥٠ كيلومترا . (المراجع)

ولا يصرون عليها ، والذى لا شك فيه أن كل القرى والبلاد فى كل أنحاء القسم البدوى من الجزيرة العربية ، كانت فى بداية الأمر مستعمرات بدويه ، التى مازال سكانها يذكرون ويتذكرون قبائلهم البدوية المترحلة ؛ ونحن نشاهد فى المناطق المرتفعة والمناطق المنخفضة من ديار البدو الرَّحُّل الواسعة أن البدوى يمكن أن يتحول إلى عامل زراعى فى الأماكن التى يمكن أن يحصل فيها على معاش سهل . من هنا ، فإن أفضل الوديان على جانبى الحرَّة ، المجاورة للحجر ، يقوم على أمر زراعتها بالحبوب كل عام بعض أعراب المواهيب . وبعد حصاد المحصول ، يقوضون قراهم الخيامية ويروحون يتجولون مع مواشيهم تجوال البدو الرُّحَّل .

الحويطات ، بصورة عامة ، أصحاب أجساد نحيفة ، وهيكلهم العظمى يشبه هيكل أولئك الذين يعيشون على القمح ، وسماتهم الفظة ، تشبه إلى حد كبير ، سمات أولئك الفلاحين السوريين الذين يعيشون فى القرى النائية ، (بل إنهم حتى يشبهون أولئك الفلاحين التهاميين فى الجزيرة العربية ،) والحويطات أسرع من أهل نجد رشيقى الحركة ، أصحاب العقول الداهية ، والألسن الواعية اليقظة ، وقد وقفت على كل ذلك ، من خلال السؤال عن أصول الحويطات ، الذين تقول عنهم مصادر مختلفة إنهم ينحدرون من أخين شقيقين ، كما هو حال بعض الناس ، من قبيلة حرب ، وأن هذين الأخين الشقيقين جاءا فى غابر الأزمان ، من اليمن إلى تلك الديار العالية من ديار البحر الأحمر . ولكن هناك أيضا قول شائع بأن أولئك الحويطات ينحدرون من أصل نصرانى . وأن ذلك القول يمكن تفسيره من منطلق أنهم مازالوا باقين فى الديار نفسها التى كانوا يحتلونها فى أزمنة سابقة للإسلام (يعرفها العرب على إنها ما قبل التاريخ) وفى ظل دين مختلف . وتلك هى الدائرة القديمة لأنباط الغرب . هل كون الحويطات – تجارا أو عمالا زراعيين فى الوقت الراهن – يعنى انحدارهم عن الأنباط ؟ تساءلت عن أولئك التجار ، وكيف كانوا يمرون بسلام ومعهم بضاعتهم إلى بلاد الحويطات ، التى تبدأ من جبل شراة على بعد مسافة حوالى مائتين وخمسين ميلا من هذه المنطقة . قالوا لى : "نحن نصطحب لنا رفيقا من كل قبيلة على طول الطريق إلى هناك ." والرفيق فى الجزيرة العربية ، غالبا ما يكون من الأعداء ، وهو ابن سبيل يجرى استئجاره ، نظير مبلغ زهيد ، حتى يتحمل مسئولية إبعاد القافلة عن التساؤلات

المعادية ويكفيها مؤنة الإلتقاء بأفراد قبيلته أو مصادفتهم . وبذلك يمكن لعابرى السبيل فى الجزيرة العربية المرور بقليل من الخوف خلال الديار المعادية ، بل يصبح بوسعهم أيضا الحصول على كرم أولئك الأعداء .

عندما فهمت فى مَنْزَلنا ، أن تلك هى مهمة الضيف الأمين ، اتجهت عصر اليوم التالى لإحضار حرفة إلى مَنْزِل زيد ، من حيث ارتبكت هى نفسها فى مسألة العودة ، ومن حيث ذهبوا هم يبحثون عنها . وجدت حرفة وفى محياها شىء من العار والخجل ، وجدتها وسط أولئك المتيمات بالنميمه والقيل والقال ؛ النساء العجائز والمسنات اللاتى كن صديقات لأمها الراحلة ؛ جئن كلهن إلى خيمة العمة كى يواسونها ، كما شاهدت هناك أيضا الشبان أبناء عمها . كانت تلك الزوجة الشابة ، التى لا ولد لها ، تجلس وقد علت وجهها مسحة من الحزن ، وهى تلاعب بحب أحد أطفال الجيران ، 'قالت حرفة : املأ (عمّر) لى غليون التبغ الكبير ، يا خليل ، وإلا فلن تستمع إلى كلامى .' صاحت الزوجات العجائز قائلات : "يتعين عليك ، يا خليل ، أن تُعَمّرَ لنا غلاييننا كلها (فهن جميعهن من المتيمات 'بشرب' الدخان) ، وإلا ، فلن نسمح بذهابها أو بعودتها معك ." وقال الشباب إنهم سوف يحتفظون بحرفة ، ويزوجونها هم بأنفسهم ، ولن يعيدوها ثانية "إلى زيد الشرير ."

بعد أن وزعت التبغ عليهن ، أمسكت حرفة من يدها البدوية الصغيرة (لم يخطر ببالى أنهن جميعا كانت أيديهن صغيرة على هذا النحو) ، وطلبت منها الوقوف ، وأجابتنى تلك الزوجة الصغيرة الشرسة إلى طلبى ، 'ولكنها لن يمسك أحد يدها ، ولابد أن يترك خليل ، يدها .' وهنا قلت : "سأعيدك إلى بيتك ، أيتها المضُيفة ، عودى معى ؛ إذا لم تعودى معى فسوف أرحل وأنصب خيمتى إلى جوار خيمتك ، وذلك بدءا من الرَّحْة القادمة ." حرفة : "إفعل ذلك ، يا خليل ، ومرحبا بك : سوف نرحل أنا وأنت ، – آهٍ ! إلى حيث سنأكل جملا أنا وأنت (وهى هنا تقصد وليمة كبيرة) ، ما عليك إملأ غليونى بالتبغ مره أخرى ." العَمَّة : "واملأ لى غليونى أنا أيضا ، يا خليل ، وإلا ستبقى حرفة عندنا ، طبعا ، ولن نسمح لها بالرحيل معك ." وبعد أن ملأت لهن جميعا غلاييهن ، سألتهن إن كانت حرفة ستعود معى أم لا . هنا ، قال شاب من أبناء عمها : "أنا أبوها ، وحرفة ابنتى ، يا خليل ؛ لا ! نحن لن نعيدها بعد اليوم إلى زيد ." وقالت

عمتها : "حسن ، عد من حيث جئت ، يا خليل ؛ وسوف تتبعك حرفة ونحن جميعا (سرب النساء) سوف نصاحبها أثناء عودتها ." (لنعيدها إلى بيتها معززة مكرَّمة) . وبعد أن وصلن وأصبحن أمام خيمتى نادوا علىّ كى أوزع عليهن دورًا آخرا من التبغ : – وهنا جلست حرفه فى بيتها ، أو إن شئت فقل : فى خيمتها من جديد .

مصير المرأة هنا يعنى أنها مجرد محظيَّة ، كما يعنى أيضا العبودية المرهقة فى هذا المجتمع الفقير ، ميراثها من والدتها ، ومن معلميها ، أعطى بثمن بخس ، (احتقارا لجنسها الضعيف ،) لزوج يطردها فى اليوم الذى يصبح فيه غير راغب فيها . قد يكون ذلك (بالرغم من عدم فرض الإرادة بين البدو الرُّحَّل) لا يتعدى تلك القلة القليلة من سنوات شبابها الزاهر ، وبعد أن تسلم بكارتها لرجل لا يناسبها من حيث السن . فضلا عن أن قلبه ليس ملكا لها هى وحدها ؛ ولكنها ، إذا لم تكن قد انفصلت بالفعل ، فإنها سوف يتعين عليها فصم ذلك الزواج فى الوقت المناسب ، فى القريب العاجل ، على أن تتقاسم ذلك الزواج مع شخص آخر . والمؤكد أن ذبول حرفة ، وهو قادم لا محالة خلال فترة وجيزة ، ونظرا أيضا لعدم حصولها على فرصة مواتية لإنجاب الذكور ، فسوف يتخلص منها ذلك الزوج كما لو كانت شيئا بلا قيمة ؛ وهى طوال كل ذلك الوقت ، يتعين عليها القيام بكل أعمال المنزل التى ستضيع هى الأخرى مع ضياع حب ذلك الزوج . ترى ، ما هو توحد القلوب الذى يمكن أن يحدث ، بين هذين الطرفين اللذين لا رابط بين مصيريهما على الإطلاق ؟ الحب الطبيعى الحلو قد يزهر مدة لحظة واحدة ، ولكنه لا يمكن أن يدوم بين هاتين الكفتين غير المتساويتين . الحب ثقة تشبه الحمامة ، ولا يوقع عليه قلب المرأة التى تساء مُعَامَلَتها .

قلة قليلة من الزوجات البدويات المترحلات هن اللاتى تدوم سعادتهن فترة طويلة أثناء زواجهن ! بل يندر أو بالأحرى تنعدم تلك الزوجات اللاتى تبقين فى عصمة أزواجهن الأول . وهذا الحال ينطبق على أمهات كثير من الأطفال ، أو أولئك اللاتى يتزوجن فى أسر فقيرة ومحتاجة ، نظرا لعجز أولياء الأمور وعدم قدرتهم على الاحتفاظ بربة بيت أخرى ، أو إن شئت فقل بزوجة ثانية . ولكن الأشخاص القادرين ، وكذلك شيوخ القبائل لديهم المقدرة على القيام بذلك قبل فوات الأوان ، مع تلك الزوجات القديمات ، وينتقلون منهن إلى فراش العرائس الجديدة ، وإلا فلن يكونوا مسلمين ؛ ولما

كان أولئك القادرون هم والشيوخ أثرياء وقادرين فهم ينفقون بسخاء على الزواج الجديد مثلما ينفقون على تغيير ملابسهم فى المواسم والفصول المختلفة . والزوجة التى يتخلى عنها واحد من أولئك الأثرياء قد تتزوج من شخص ثرى آخر نتيجة استلطاف قديم ، أو قد تتزوج من شخص فقير الحال . وفرح المرأة وعزائها يتمثل فى كونها أم ولها أبناء ، الأمر الذى يمكنها ، فى أضعف الأحوال ، من أن تظل كمدبرة لشئون خيمة ولدها ، بعد أن يلفظها والده أو يستغنى عنها . كان ذلك هو حال غوبنى Ghrobny أم سليم والدة زيد الصغير . وبعد أن رثى زيد لدموعها ، عثر لها على زوج آخر من عرب الخمالة Khamâla الفقراء ، الذى أنجبت منه حالياً طفلاً : ولكن ذلك الرجل كان يعاملها معاملة غير كريمه وقاسية ؛ الأمر الذى جعلها تعود إلى ولدها الصغير ، حيث نُصبت لها خيمة من جديد ، لتعيش عيشة أرملة غير مرغوب فيها بجوار منزل زيد . وفى فجر أحد الأيام ، غابت خيمة غوبنى من الوجود ! ووقف العرب يضحكون ويتعجبون ، نظرا لأن غوبنى كانت مخلوقا ضعيفا ومسكينا ، فضلا عن إنها كانت مقبوله الشكل أيام شبابها ؛ وهنا علم الناس من ولدها سليم أنها جرى تحميلها ، أثناء الليل ، على جملها ، وجرى السطو عليها ونقلها إلى زوجها الخمالى Khamaly فى مَنْزِلٍ من المنازل البعيدة . كان ذلك الخمالى الشقى ، قد جاء إلى خيمة غوبنى فى اليوم السابق ، وقبَّلها وأقسم لها قسم العاشق المتيم أنه سيردها ثانية . ولكن بعد ذلك بيومين ، عادت إلينا تلك المرأة المسكينة المتيمة ، التى ذبل جمالها وذوى ، عادت إلينا وعيناها حمراوين ، لتحتضن طفلها ، الذى بقى مرتبكا مع والده ؛ واعتبارا من الرُّحْلة التالية بدأت تلك الزوجه الملفوظه تخيم ، مثلما سبق لها ، بالقرب من خيمة زيد .

يقول هؤلاء الأعراب : "عدد الحريم ضعف عدد الرجال ." وإذا كان الأمر كذلك ، فهذا سبب طبيعى لأن تكون للرجل الواحد أكثر من زوجة ؛ وأنا أحسب أيضا أن عدد النساء يفوق عدد الرجال . والسواد الأعظم من النساء البدويات تمضين الفترة التى تبدأ بشهور الربيع إلى الربيع التالى ، أى حوالى تسعة أشهر كل عام ، وهن تتضورن جوعا : ولذلك فإنجابهن للأطفال قليل جداً ؛ وأنا أعرف اثنين من هؤلاء البدويات ، ولم أسمع أنهما أنجبتا أطفالا . ومع ذلك فالبدويات المترحلات أمهات جيدات ، فهن يرضعن أطفالهن فترة طويلة من صدورهن الهزيلة ، مالم تحملن أثناء الرضاعة . وفى

مخيم زيد شاهدت بنتا صغيرة عمرها أربع سنوات ، كانت لم تفطم بعد ؛ وقالت أمها : "ليس لدينا ماعز ، ليس لدينا أى شيء فى هذه الأرض الخراب الجرداء القاحله ، وما الذى تتوقع أن أفعله ، فى ظل كل هذا القحط ، مع بنتى الصغيرة ؟" والبدويات تغسلن أطفالهن ببول الإبل ، وهن عندما يفعلن ذلك ، يحسبن أنهن يساعدن على إبعاد الحشرات عن أطفالهن : هذا البول يكون حريفا ، وبخاصة عندما تكون الماشيه قد تغذت على أوراق بعض الأدغال القلوية ، التى من قبيل نبات الرِّمض . rimth يضاف إلى ذلك أن كل هؤلاء البدويات يمشطن شعورهن الطويلة بذلك البول ، يستوى فى ذلك الرجال والنساء ، بل إنهم يستعملون ذلك البول فى بعض الأحيان لتبيض خصلات شعورهن ، الأمر الذى مكننى من رؤية ضفائر بعض الشبان الصغار وقد تحول لونها إلى اللون الرمادى . وهناك عادة غريبه (ليست مقصورة على نساء البدو الرُّحَّل ، ولكنها موجودة وشائعة أيضا بين المسيحيين فى البلاد العربية ، الأمر الذى يجعلنا نقول إنها تخلفت عن عبادة الأصنام بين هؤلاء البشر ،) خاصة بالأمهات ، والقيل والقال بينهن ، بل وحتى الآنسات الشابات ، اللاتى تزرن النساء المتزوجات لتقبلن بشيء من الإخلاص والولاء 'حمَّام' الأطفال الذكور .

والرجال والنساء ، والحضر والبدو ، فى كل أنحاء الجزيرة العربية ، إذا ما تصادف أن مروا بذلك 'الحمَّام' ، فإنهم يكحلون بياض عيونهم باللون الأزرق ، مستخدمين فى ذلك مادة الأنتيمون ؛ من هنا فإن محمد بن رشيد الذى تشبه عيناه عينى الطائر ، يكحلهما هو الآخر . تكحيل العيون هذا لا يعنى جمالها من منظور النساء ، اللاتى قمن بتكحيل تلك العيون ، وتبييض خصلات شعورهن الطويلة على أجناب وجوههم ؛ وإنما لأن هؤلاء النساء البدويات يعتقدن أن ذلك إنما يزيد من حدة بصر الرجال ويحافظ عليه . منظر هذا الشعر المفروق من المنتصف والذى يتدلى على جانبى الرأس على شكل خصلات رمادية اللون ، وعينان مزيفتان مكحلتان باللون الأزرق ، يجعل رأس رجل الجزيرة العربية ، من تحت 'الغتره' بهيجة الألوان تبدو ، فى نظرنا ، وكأنها شبيهة برءوس الإناث إلى حد بعيد ، وبذلك تكون أوجه الشبه بينهم وبين النساء كبيرة جداً .

يجرى تعليم الصلاة للحضريات اللاتى ينحدرن من أسر طيبة فى سائر أنحاء الحكومة الوهابية القديمة ؛ بل إن هناك أيضا بعضا من هؤلاء الحضريات تعلمن القراءة أيضا . ويندر أن يرى الناس المرأة تصلى فى القبائل البدوية المترحلة ، اللهم باستثناء شهر رمضان ، شهر العبادة والإمتناع البدنى : كما أن من يعرفن الصلاة من تلك البدويات قليلات جداً ؛ وهذا ينطبق أيضا على الرجال ؛ وأنا أقطع أن ما يزيد على نصف الرجال لا يعرفون كيف يصلون ، أو إن شئت فقل : لم يتعلموا الصلاة . والبدوى فى الجزيرة العربية يلعب دوره مثل الكاتب أو الموظف الكتابى الذى يحفظ بنود عمله عن ظهر قلب : زد على ذلك أن البدو الرُّحَّل الذين يكثرون من الصلاة فيما بينهم ، هم أسوأ الناس طبعًا . والنساء لا يصلين كما يصلى الرجال ، بأن يسجدن ؛ وإنما هن يتلون القرآن وأذرعهن مطويات ، كما يركعن أيضا . "أهل الجزيرة العربية يقولون : "الأنثى (التى تعمل وتجلب ثروات الرعى) هى الأفضل من بين سائر الحيوانات ، باستثناء الجنس البشرى ." ومع ذلك ، فهذا ليس هو رأى العرب جميعا ، نظرا لأن الهرَّ ، أى الجمل الذكر ، يفضله الناس ، وبخاصة المغاربة ، أو إن شئت فقل ، عرب الغرب ، لقوته . والساميون يلقون باللوم كله على الأنثى من البشر . والساميون يظنون أن طبيعة الأنثى طبيعة أثيمة أو شريرة ، والأعراب يشتكون من الأنثى "بأن لها سبعه أرواح" . والأعراب معادون للجنس اللطيف (المرأة) ، التى يقولون إن عليها لعنة الله ؛ " (يقول البدو) بعض النساء سجانات للأزواج ، كما أن منهن زانيات كثيرات ." ولما كان الظلم الشديد يملأ قلوب البدو ، فهم يوبخون ويؤنبون ربات البيوت الصالحات الأمينات ، دونما سبب : ولكن ما الذى يمكن أن تتكلم النساء فيه طول اليوم غير خيانة الأزواج لهن وعدم إخلاصهم لهن ؟ وهم يودون للمرأة (الحرمة) الخضوع بصورة مستمرة ودوما : (وهم يقولون) إن المرأة إذا ما حصلت على المساواة فسرعان ما تتبدى طبيعتها الشريرة . وهم (البدو) يشكمون المرأة طول اليوم فى البيت ، ولا يجعلونها تتحرر مطلقا من السخرة . وإذا كان الملك الحكيم فى القدس (أورشليم) لم يعثر مطلقا على امرأة صالحة ؛ فإن الكثيرين من الرجال الفضلاء عثروا على نساء صالحات أفضل منهم هم أنفسهم . والخمار هو وشبكة الغيره هما من مظاهر صرامة الإسلام الشديدة فى المدن والبلدان : والنساء (ربات البيوت) متحررات فيما بين

سكان الخيام فى المناطق الجرداء الواسعة ، كما أنهن متحررات أيضا فى الأماكن التى تربط القرابة فيها بينهن ؛ ومع ذلك ، فإن حريم الأعراب ، فى السواد الأعظم من القبائل العربية ، تبدين شبه محجبات . وعندما سألنى البعض ونحن نشرب القهوة فى مقهى زيد ، عما إذا كان حريمنا يرتدين الحجاب ، أجبتهم قائلا : "لا ! إنهن سافرات ، إذ ليس هناك داع لاستعمال الخمر أو البراقع بين إناس يتسمون بالأمانة ، كما أظن أن بينكم ، أنتم الأعراب ، أن أولئك الذين ترتدى نسائهم الخُمُر ، هم من أكثر القبائل مجونا واستهتارا ." والبدو يسعدون عندما يسمعون اللوم يوجه إلى أفراد القبائل الأخرى . وردا على كلامى قائلين : "نعم ، بالله ، إنهن فاسدات فاسقات ." سألت زيداً : "أهذا هو رأيك أنت أيضا ؟" "يا خليل – قالها من قلبه ، 'أنت تفكر مثل الكفار'– وجه المرأة يجب أن لا يراه أحد غير زوجها ."

البدو الرُّحل القدامى هم وشريعة السماء عند (سيدنا) موسى يحتقرون الجنس اللطيف ؛ ففى ولادة الأنثى يتضاعف عدد الأيام اللازمة لتطهيرها ، كما أن تقييم طفلها يجب أن ينخفض إلى النصف . وإذا ما أعطت المرأة وعداً ، يصبح ذلك الوعد لاغيا إذا ما رفض زوجها . ولكن الأم السامية التى تلد ذكرا تكرّم وتعزز . ونحن نقرأ ما يلى : "فليطع الإنسان أمه وأبيه" ، هذا هو الكاتب السامى يورد الأم قبل الأب . ونحن نرى بين العرب الخشنين أن الابن الأكبر ينظر إلى أمه نظرة رقيقة ، على إنها أمه التى ولدته ، وأن تلك النظرة تكون مقدمة على حبه الدافق لزوجته الجديدة الشابه ، من هنا يمكن القول إن حب الأم بين القبائل يتحلى برقة الأنوثه ؛ ولذلك نجد أن الأم عندما تأتى على ذكر أسماء أبنائها ، تضيف بعض الأقوال والمقولات الخرافيه مثل «...»(*) . وحريم البدو الرُّحَّل يلدن مثل الأمهات الأخريات ، إذ تأتى لهن أوجاع الوضع المفاجئة ، بعد عمل قد يستمر بضع ساعات . وهناك رأى راسخ مفادة أن بنات الصحراء يشبهن المخلوقات البرية ، وأنهن لا يعانين من عملية الحمل . ولما كانت عائلة وأهل بنات الصحراء دائمى الهجرة والترحال ؛ فذلك يعنى أن مثل هذه البنت أو الفتاة

(*) رأينا حذف الأمثلة التى ضربها المؤلف لأنها تهين العقيدة الإسلامية (الناشر) .

لا يكون أمامها أمل حقيقى فى الراحة والاستجمام . فهذا هو العشب ، من حولهم ، يجرى استهلاكة كل يوم ، هذه هى الماشية العطشى تتقدم دوما صوب المرعى والماء ، وهؤلاء هم ناسها يتحركون دوما وبلا توقف : وأهل مثل هذه الفتاة لا يمكن أن يعتمدوا ، على الغد ، أو يركنوا إليه فى المناطق التى يخيمون فيها فى هذه الأيام . فراش هؤلاء القوم عبارة عن عباءة (بشت) أو قطعة من قماش الخيام يفرشونها على الأرض ، واقع الأمر ، أن هؤلاء الناس يعيشون حياة الضنك التى تحياها المخلوقات البرية . من هنا فإن المرأة البدوية بحكم العادة والعوز ! تتمتع بشجاعة من نوع آخر . ترى ، ماذا يمكن أن يحدث لتلك المرأة البدوية المترحلة ، إذا ما فاجاتها آلام الولادة أثناء مواصلة الأعراب مسيرهم ؟ هنا تتوقف أسرة المرأة ، وينزلون من فوق ظهور دوابهم ، وينصبون لها خيمتها . وماذا يحدث لمثل هذه المرأة عندما تكون القبيلة قد نصبت خيامها ؟ كل ما فى الأمر ، هو أن مثل هذه المرأة ، تنسل مع بعض صديقاتها اللاتى يكبرنها سنا ، وتنتبذ لنفسها مكانا تلد فيه ، على انفراد فى الصحراء . أما إذا كان البدو على وشك الترحال والتحرك ، وإذا ما كانوا أيضا يخشون من ترك مثل هذه المرأة وراءهم ، فإنها يجرى حملها برفق ، مثل أى شخص مريض ، داخل عش صغير يصنعونه لها من سجادتها أو قماش خيمتها ، بلفه حول مؤخرة عدة (سرج) الجمل ، حتى تكون معهم أثناء الرِّحْلة : ونظرا لأن البدو يعيشون حياتهم على هذه الشاكلة فهم لا يحسون بالتعب ، وإنما يستشعرون الراحة عند الركوب .

فى زمن من الجاهليات Jahalîat (المقصود هنا هو الجاهلية) كانت فى الصحراء عادة مريعة ، استمرت حتى جيل (سيدنا) محمد ﷺ ، وكانت تقضى بدفن البنات أحياء (وهو ما يوحى بأن مواليد النساء بينهم كانت كبيرة العدد) . المرأة عندهم لم تولد لحمل السيف واستعماله ، ولكن يدها لا تستعمل فى شىء سوى عملية الغزل السخيفة ، والمرأة لا تقوِّى العشيرة ، كما أنها لا تضيف شيئا إلى بناء أو تأسيس أسرة والدها ، وكل ما فى الأمر أنها مجرد فم زائد لا طائل من ورائه يضاف إلى أفواه الجائعين الذين يعتمدون على الكفاف " يضاف إلى ذلك أن والدها ينشغل باله على امتداد سنوات طوال للمحافظة على هذه الفتاة ؛ وينتهى كل ذلك إلى مهر غير مؤكد

(يشترى به لها هو بدوره بعض الأشياء اللازمه لمنزلها ، وهذا هو ما يسمونه الصداق أو المهر) ، هذا فى الوقت الذى تغادر فيه بيت والدها كواحدة غريبة على بيت آخر . ووالد الفتاة ، يخفى نفسه عند مولدها ، عن كل أصدقائه ومعارفه .

عندما سألت البدو إن كانوا قد عرفوا ذلك عن طريق العادات والتقاليد ؟ أجابونى متعجبين وهم يقولون . "إنهم لا يتصورون أن تكون هناك عادة لعينة من هذا القبيل فى هذه البلاد ." والبنات عندما يتجاوزن مرحلة الطفولة التى يشيع فيها الأنس والود ، لا يجلس معهن أحد فى الأسر العربية . والولد الذكر يحبه والده ، حتى بعد أن يكبر ، ويكون حبه له أكبر من حبه لأمه التى ولدته ، بل إنه يفضله على نفسه ، ويجىء فى المرتبة بعد والد الأب نفسه : يضاف إلى ذلك أن الطفل الصغير فى الأسرة يحبه أيضا إخوانه الكبار الذين يكبرونه سنا . لقد أعطاه الله ولداً ذكرا ، وبالتالى فإن الأب لا يمكن أن يعارضه فى أى شىء ، عندما يكون طفلا . هذا من منظور أن ذلك الابن قد يرعى والده عندما يكبر سنه ويشيخ ، وقد يقوم بدفنه فى النهاية بطريقة كريمة ومشرفة ؛ ومع مضى الأعوام ، وطوال ترحال أولئك البدو الرحل ، يقوم ذلك الولد بنحر الذبائح تكفيرا عن ذنوب والده ، كما يصلى طالبا له الرحمة والغفران : وبذلك يظل اسمه ماثلا فى ذاكرة الأحياء . والرجل أسهل عنده ، أن يصفع إمراته ، مرة أو حتى عشرين مرة ، على أن يمد يده حتى ولو على ظهر ولده العنيد ولو بربتة خفيفة . والأب فى ذروه ضيقه واستيائه من ولده العنيد يكتفى بتعنيف ولده ببعض الكلمات العنيفة ، ولكن غضبه لا يمكن أن يتطاول ويخل بسلام المنزل ؛ إذ بعد سنوات سيكون ذلك الطفل أفضل من والده ، ومن ثم يصبح ذلك الطفل واحداً من أولئك الذين لا يجرؤ الوالد على الإساءة إليهم . يقول البدو الرَّحل ، إن من بين الآباء من يستعمل العصا فى التربية . وأنا لا يمكن أن أصدق ما يقولون . والأب عندما ، يموت ولد من أبنائه ، تتلبد سماء حياته بغيوم الحزن ، ويتملكه الصمت والحزن والأسى فترة من الزمن ؛ أما إذا توفت للأب ابنة من بناته فإن ذكراها لا تدوم طويلا ، اللهم إلا إذا كانت لتلك الفتاة قيمة خاصة ، أو سمة واعدة اختطفت قبل أوانها . والرجال من المسلمين لا يحزنون على الموتى ، ويكتفون بالقول : "مات الرجل ، عليه رحمة الله !"

اكتشفت أيضا بين هؤلاء البدو ، أن من الصعب عليهم تخيل أى شكل من أشكال الحياة المستقبلية ؛ فهم يصلون ويصومون من منطلق أن تلك واجبات فى إطار الدين ، وهم لا يتطلعون ، (شأنهم شأن الآباء الساميين من قبلهم) إلا إلى بركة الحياة الحاضرة . هناك أضحية تقدم نيابه عن الموتى ، وقد شاهدت مسألة هذه الأضحية مستمرة إلى الجيل الثالث . فقد رأيت بعينى شيخا جاء على سبيل الذكرى ، ليذبح أضحيته ويصلى عند تلك الكومة التى دفن فيها والده ووالد والده : وقد رأيت الناس وهم يقبلون يده ، عندما يمرون عليه ، فى أى وقت ، فى المكان الذى ينام فيه ، رأيتهم وهم يتفوهون بكلمات فيها الكثير من رقة النساء ، كلمات تتعلق بالبركة والصلاة ؛ – وهذا بطبيعة الحال من قبيل العزاء فى الوفاة ، وأن ذكرى ذلك المتوفى ستبقى فى ذهن أطفاله إلى أمد بعيد . والحريم فى البلدان السامية المستقرة ، وهذا هو حال المسيحيات أيضا ، يذهبن إلى القبور فى أيام محددة لتبكين عندها . لقد رأيت بعينى أرملة تقتاد أطفالها الذين فقدوا والدهم إلى المقابر ، حيث ركعوا وراحوا جميعا يبكون هناك : رأيت الأم وهى تعلمهم البكاء ، رأيتها وهى تبكى فقيدها بصوت متهدج وهى تنتحب وتقول : 'يا حبيبى' Yahabîby . أطفال الأعراب يتحكم فيهم الترجى والاستعطاف ؛ وبنات البدو الرحل غالبا ما يكن عابرات سبيل فى بيوتهن ، والأولاد الذكور يحتقرون أصوات أمهم فى كثير من الأحيان . وقد رأيت بعينى طفلا عاقا وهو يضع عصا على ظهر أمه الطيبة ؛ وعندما سألتها لماذا تقبل المعاناة من مثل هذا العمل ، أجابتنى وهى تتنهد قائله : "طفلى كافر" بمعنى أن ذلك الولد كانت له طبيعة مثل طبيعه الكفار : هذا الصبى لم يكن من دم بدوى نقى ، إذ إن والده كان أبو Abu سنون المغربى . سألنى البعض عما إذا كان أطفالنا شرسين ، بعد أن سمعوا منى عن شريعة (سيدنا) موسى الصارمة القاسية ، سألونى وهم يتعجبون قائلين : "كثيرين بيننا أولئك الأبناء الذين من طينة ذلك الصبى ، الذى سوف يبادر إلى ضرب والده عندما يكبر ويشتد عوده ." ومعروف أن العرب يغمغمون ويثرثرون ، ومن الصعوبة تصديقهم فيما يقولونه هنا أيضا . معروف أيضا أن غير المتحضرين يعودون أبناءهم على تحمل المشاق والمصاعب ؛ ولكن أبناء البدو يكبرون دون أن يتعلموا من الآباء . هؤلاء الأبناء لا يتعلمون إلا مما يسمعونه من أقوال الناس المأثورة ، فى خيامهم المصنوعة من الصوف

الخشن ، حيث لا يوجد أى رقيب عليهم سوى الرأى العام . هناك الكثير من البدو الورعين ، فى تلك الحياة الصحراوية ، هؤلاء البدو الورعون يمكن أن يوبخوا ويؤنبوا الأبناء الذين يكونون من هذا القبيل ، ولكن الأعراب لا يمنعون الطفل من الكذب مطلقا ، بالرغم من أن أهل الجزيرة العربية يعلمون أن "الكذب شين" كذب هؤلاء الأطفال عبارة عن خدعة ، وهو الوسيلة الوحيدة التى يلجأ إليها الطفل عند الدفاع عن نفسه ليضلل بها العدو . وهكذا نجد أن الطبيعة نفسها مليئة بالخداع ، كما أن هذا الفم الذى يلوك الكذب يتشدق بدين الجزيرة العربية .

الفصل التاسع

الحياة فى القرية الجائلة

بحيرات الرمال . أشكال رائعة لتبديد الصخور الرملية . طبوغرافيا البدو الرحل . البدو لا يكلون أو يملون . البدو مجبرون على اللصوصية . الحياه فى القرية المصنوعة من القماش الصوفى . البدو يصحون مع طلوع الشمس . فنجال القهوة . صحبة القهوة . المقعد العالى أو الداخلى بالقرب من وجار القهوة هو الأكثر تفضيلا وتكريما . مترفو الصحراء . جاليونس . البدو يدمنون القهوة والتبغ . أقدم أشجار البن فى العالم . رأى الوهابيين فى التبغ . المجلس . العدالة فى الصحراء . نوّام النهار . صلاة البدو . مطلق ، الشيخ العظيم . الشيوخ نبلاء . العجيد . خوفهم من التعثر فى الثعابين أثناء الليل . النصرانى بين رجال القبائل . التحصين . أبو فارس . رده عليهم فى حائل . أبو فارس الثانى . شهامة الصحراء . حظه الطيب بينهم . التلقين . فتح صندوق الطبابة . يستعملون الأشياء غير النظيفة فى الطب . الحكيم فى بلاد العرب . أمراضهم . الحكيم هو الله . عقل البدوى فى عينيه . خبثهم أو لؤمهم . الأطباء يتعين حصولهم على الأجر بعد التغيير الذى يطرأ على المريض . الحجاب . تميمة متعب . تعويذة ضد الانقياد . الجان الأرضى . إخراج الأرواح الشريرة بالأدعية . العسر واليسر . نار المساء . فرس الشيخ . وضع الانحناء عند هؤلاء الآسيويين . جلوس الأرض وجلوس الكراسى . الفرس متاع مثير للاتهام . الجمل الابن غير الشقيق

للفرس . المريسى . عشاء الحليب عند البدو الرحل . الشرقية ليست من العرب . القصّادون . خيال البدو الرحل واسع ودينى . بعض دورانهم ولطف كلامهم الدينى . كلام البدو . لغة القبيلة . حقد البدو . الساميون لا يمكن أن يجدفوا على الأشياء المقدسة . خطأ الرعاة الجسيم فى الطبيعة السامية . المَسَبّة أو إنزال اللعنات . إيمانهم . شهامتهم لا تصل إلى حد الموت . زيد يعرض تبرئة ساحته بحلف اليمين . أشكال دجل الحماية والعفو . "لحيته" تقال تكريما للرجل . القسم 'بحياة ...' استئذان العرب فى الانصراف أمر غير لطيف أو مقبول .

***

نظرا لأن الإبل كانت 'جزين' (صائمة) فى تلك الأثناء فقد رحنا نتجول دون أدنى اهتمام بالأماكن التى تسقى منها تلك الإبل ؛ كما كان الناس يشربون من تلك المياه القليلة التى تتوفر فى الصُّفَّة(*) أو إن شئت فقل : فى الصخور الأرضية . توجد فى تربة ذلك الجبل الصحراوى بكامله أماكن صخرية شبيهة بالحفر ، غطتها الرمال التى انجاحت عليها فى قديم الأزمان بفعل الريح . فى الحفر التى من هذا القبيل ، أو إن شئت فقل : فى تلك البرك الرملية ، التى تتخزن فيها مياه الأمطار لمدة طويلة ، يكون الماء فى ذلك الرمل الرطب ، غليظ القوام وغير طيب الرائحة ، كما تنتشر فيه ألياف النباتات المتعفنة ، وطعم النشادر الناتج عن بول ماشية البدو الرُّحَّل ، التى سبق لها السقيا من تلك الأماكن فى بداية الأمر . والأعراب (الذين يفضلون ذلك الماء الصحراوى الكثيف على الماء النقى) يصلحون قهوتهم كل يوم ، من ذلك الماء ، الذى يتغير مذاقه السيئ بعد الغلى . وأسوأ ما فى الأمر ، هو أن ذلك الماء يميل لونه إلى الاسوداد الذى يجرى جلبه من تلك الحفر التى هجرها الناس فترة طويلة ، إلى أن عثروا عليها مرة أخرى ؛ وعقب شربى من ذلك الماء أحسست بالعطش على الفور ، وفى

(*) الصفَّة : بتشديد " الصاد " وضمها ، وتشديد " الفاء " وفتحها ، هى المكان المظلل الذى يأوى إليه الناس (المترجم)

أحيان كثيرة كنت أمضى الليل بطوله أرقا وبلا نوم . هذه الصحراء الجرداء المكونة من الصخر الرملى فيها الكثير من القمم والذُّرا (واحدة 'ذروة') ، والمسلات الإبرية ، وجبال المعارك ، غريبة الشكل ، وكلها عبارة عن علامات أرضية جيدة . سألت زيداً : 'عما إذا كان يعرف كل هذه الأشياء ؟' وأجابنى قائلا : "منذ طفولتى ، وأنا أعرف معرفة جيده كل حجر من الأحجار التى تكون على طرق مسيراتنا وترحالنا ،" وهذا ، لعلمك ، على امتداد ثلاثة أو أربعة ألاف ميل مربع (انظر الصورة رقم ٤٣) . (وكلمة 'جبل' عند البدو فى ديار استقرارهم) تعنى بشكل عام 'الظُّلَّة'(*) **Thulla** (وتصغير هذه الكلمة هو 'ظُلَّيه **Thulleya**') عند البدو الرُّحَّل ؛ – ونحن بدورنا نقول لتلك الظلة 'ساحل' **Coast** (والبدو الرُّحل يطلقون على القمم المرتفعة ، أو التلال المرتفعه ، أو التلال أو الجبال الصغيرة الناتجة عن فورات البراكين ، التى يستعملونها علامات أرضية ، اسم 'الطويل' **Towîl**؛ كما يطلقون كلمه 'خشم' (أى 'الأنف') على أى حد من حدود الأراضى المحروثة . (وكلمة 'خشم' فى الجزيرة العربية تدل على 'أنف الإنسان' .) كما يطلقون اسم 'هُضب'(**) **huthb** على بعض السواحل الجبلية التى تشبه التلال . وكلمة 'بطين'(***) **bottîn** على لسان بدو المواهيب تدل على المرتفعات العشوائية التى تشبه التلال . كما يطلق البدو الرُّحل كلمه 'خلاء'(****) على الصحراء الجرداء . وهم يطلقون عليها أيضا كلمة 'بلد' **Béled** (*****)وهذا هو حال صحراء الجزيرة العربية .

ولكن هيا بنا نتناول الآن أولئك السكان البدو الرحل ، هم والحياة التى يحيونها . (وهم يقولون) : البدو ما يتعبون ، أى أنهم لا يظهر عليهم التعب البدنى ؛ ولكن روحهم المعنوية تضعف نتيجة خوفهم المستمر من أعدائهم ، كما تضعف أجسادهم

(*) ظلة : بضم الظاء وتشديد اللام وفتحها ، هى " ما أظل من شجر أو غيره " (المترجم)
(**) هضب ويصح فيه أيضا " هضاب " وواحدة هضبة الجبل المنبسط الممتد على الأرض (المترجم)
(***) بطين : بضم الباء وكسر الطاء ، هو منزل (بفتح الميم وتسكين النون وفتح الزاى) والعرب (البدو) يقولون منزل ، للمكان الذى ينتقلون إليه من مكان آخر (المترجم)
(****) خلاء فى المعجم الصغير معناها فارغ مما فيه (المترجم)
(*****) يصح فيه أيضا " البلدة " وهو المكان المحدود الذى يستوطنه جماعات ، ويسمى المكان الواسع من الأرض بلدا (المترجم)

أيضا بفعل العطش المستمر والجوع المستمر أيضا . وحياوات الفقر والعوز عند الأعراب يندر أن تصل حتى إلى المستوى دون المتوسط ؛ وهم مرغمون على أن يكونوا لصوصا . وسكان الواحات فى الجزيرة العربية يقولون من باب ضرب الأمثال : "حياة الصحراء أفضل من أية حياة أخرى ، لولا وجود البدو فيها" ، وسكان الواحات يظنون أن أولئك البدو المساكين مليئون بالجور والإثم ؛ وهم يقولون أيضا إن البدوى 'ملعون Melaun الوالدين 'el-Weyladeyn ، بمعنى أن البدو ملعونون من الجانبين : من جانب الأب ومن جانب الأم أيضا . التجوال ضمن قرية جائلة أمر يشرح الصدر ويسر الخاطر ، وبخاصة خلال هذه الأرض النقية والهواء النظيف ، وبرفقة البشر ، الذين يجتمعون كل يوم حول وجار القهوة البهيج فى وقت الفراغ ، ووسط الآلاف من الآمال المرتقبة والتحركات الجديدة . هانحن ، فى المكان الذى نزلنا فيه حاليا . من فوق ظهور دوابنا ، وسوف ننال فيه قسطا من الراحة ، وفى الغد سيكون مقامنا فى مكان غير هذا المكان . ويوم الصحراء العائد من الشرق يحذر البدوى ويوقظه ، فهو يصحو للصلاة ؛ وإذا ما حدث غير ذلك ، فهو يكون عن غير قصد ؛ والبدوى يتمتم رافعا وجهه إلى السماء مخضعاً طبيعته البشرية المخيفة لله سبحانه وتعالى وهو يقول : "ياالله ! أسعدنا فى يومنا هذا ؛ ولا تُرِنا شراً فيه !" والبدو ليس لديهم ما يكفيهم من الطعام اليومى الذى يحتاجونه ، ولو قدر لرأس من الماشية أن تغيب أو تضيع ! – فكيف لأسرته أن تعيش بعد ذلك ؟ ويبدأ الراعى استعداده ، وتبدأ حيواناته تبتعد عن مرمى بصره .

المكان هنا خلو من شقشقة الطيور الحلوة التى ترحب بقدوم ضوء النهار وليس هناك من صوت سوى صوت الإنسان فى هذه الأرض الجرداء القاحلة . والبدو ، الذين ينامون ملفوفين فى عباءاتهم (بشوتهم) فوق الأرض الرملية الأم ، يستيقظون من نومهم قبل منتصف الليل ، وهاهم ، قد استيقظوا وبدءوا يمشون هنا وهناك . ترى فى كل خيمة من خيام الشيوخ نارا شبها الشيخ من جديد فى وجار القهوة ، وتراه يجلس ومن أمامه أوانى القهوة ؛ وتراه وهو يختطف بين أصابعه إحدى الجمار ، ليضعها فى غليون التبغ . وهاهى حبات البن التى تلقاها من ربة البيت ، وقد حمصها وطحنها ؛ وبينما تغلى حبات البن المجروش ، يقوم الشيخ بتجهيز الفناجيل Fenjeyl (واحدها

فنجال Fenjeyn)، التى سبق أن قلنا إنها تصنع فى الغرب خصيصا للعرب البسطاء السَّذَّج . والبدوى عندما يفك ، بطريقة رشيقة ، القوطية gutia، أو إن شئت فقل : صندوق الفناجيل ، ترى أن ذلك البدوى ليس لديه سوى ثلاثة أو أربعة فناجيل ، ملفوفة فى ممسحة مواعين متسخة ، ويروح ينظف الفناجيل مستخدما لذلك هذه الممسحة نفسها ، كما لو كان ما يفعله سيزيد من نظافة تلك الفناجيل . والعرب يطحنون حبات البن وهم يحدثون ضجيجا هائلا – ونظرا (لأن ذلك الطحن يكون له إيقاع معين – إذ يجرى الطحن فى أهوان مصنوعة من النحاس الأصفر أو من الخشب ، المزينة بالمسامير ، والتى يقوم بصناعتها حداد بدوى أو نجار بدوى أيضا . وعندما يغلى الماء فى دلَّة القهوة الصغيرة ، يلقى الشيخ (البدوى) فيها البن المطحون ، ثم يسحب الدلة إلى الوراء قليلا لتهدأ مدة لحظة . ومن صرة فى غترته (غطاء رأسه) يأخذ عودًا من أعواد القرنفل وشيئا من الحبَّهان (الهيل) أو بعض التوابل الأخرى ، التى يقول لها 'بهار' bahar، ثم يطحن هذا مع ذاك ويلقى ذلك المسحوق فى دلة القهوة . وعقب ذلك مباشرة ، يقوم البدوى بصب بضع قطرات ساخنة ليتذوق طعم القهوة ؛ وإذا ما أعجبه الطعم أو المذاق ، فإنه يحمل كل الفناجيل فى يده كما لو كانت عشا ، وهى تحدث صوتا عند وضعها فوق بعضها ، وهنا يصبح البدوى مستعدًا لصب القهوة للحاضرين ، وهو يبدأ توزيع القهوة من جهة اليمين ؛ وهو يبدأ ، بالشيوخ أو الشخصيات الرئيسة إن وجدت . وفنجال القهوة لا يحتوى إلا على أربع رشفات : ومسألة ملئ الفنجان عن آخره ، كما هو الحال فى مدن الشمال ، يعد إهانة وسُبَّة بين البدو ، ويحمل معنى لاذعا "إشرب هذا وأرحل عنا". ونحن نرى فى معظم الأحيان مبالغة فى التأدب ، وبخاصة فى التجمعات الكبيرة ، وبخاصة فيما يتعلق بمن ينبغى أن يتناول فنجان القهوة فى بداية الأمر . هناك بعض الرجال الذين يتلقون الفنجان فى الدور المخصص لهم ، ولكنهم لا يبدءون الشرب ، – وإنما يقدم الفنجان لشخص يجلس إلى جواره أو إلى من هو أدنى منه ، على سبيل التكريم : ولكن ذلك الشخص يمتنع عن تناول الفنجال قائلا : 'أبدًا' ebbeden، بمعنى "لا ، لن يحدث ذلك مطلقا ، وأنا أقسم بالله على ذلك ! ولابد أن تشرب أنت !" وبعد ذلك التصريح ، يشرب ذلك الرجل المتواضع فنجاله فى ثلاث رشفات يسلم بعدها فنجاله الفارغ . أما إذا تناول المزيد من القهوة نتيجة الإصرار

على ذلك ، فذلك يعنى أن مثل هذا الشخص على استعداد لفتح باب المصالحة مع شخص ليس صديقه . هذا الجار ، عندما يرى أن من يشربون القهوة يراقبونه وينظرون إليه ، يقبل فنجان القهوة شاكرا وممتناً ، ويظهر للجميع عدم رضاه عن ذلك : ولكن الشخص الصلب شديد المراس يفند ويدحض فى بعض الأحيان ذلك العرض اللطيف الذى يتقدم به الآخرون .

قد يكون بعض الجالسين قد اتخذ لنفسه مكانا أدنى من المكان اللائق به ، وهذا أمر يشعر البدو إزاءه بالغيرة والحسد ؛ أمثال هؤلاء الناس ، قد يدخلون المقهى متأخرين ، فيفضلون الجلوس فى المكان غير المحدد لهم مفضلين ذلك على إزعاج الجماعة . والشيخ عندما يدخل متأخرا أثناء استمرار أمر أو عمل من الأعمال ، يجلس فى أغلب الأحيان ، على طرف الاجتماع ، وبذلك يكشف عن شخصيته الشعبية عن طريق ذلك العمل المتواضع . وأبعد الأماكن داخل خيام البدو هو أفضلها وأعلاها شأنا ، ومثل هذه الأماكن يخصصها الشيوخ للغرباء . أما مسألة الجلوس خارج الخيمة وأمامها فذلك من قبيل الجلوس الخاص بعامة الناس . والقَبَلى الذى يصل إلى دار من ديار البدو ، يقدم نفسه عند هذه المنطقة أو قبلها بمسافة قصيرة ، وهذا هو المكان المسموح فيه بظهور مثل هذا القبلى ، ومراعاة البدوى أو الشخص القبلى لمثل هذه الأمور هو الذى يرفع من شأنه بين أفراد القبيلة . وهذا على وجه التقريب هو ما يدل على سريرة البدوى ويخدمها ، وبخاصة تلك السريرة التى يكونها الرجال عنه . والشخص ضعيف الحال الذى يأتى من مؤخرة الخيمة ، أو بالأحرى من خلفها ، يقف ملفوفا فى عباءته المهلهلة ، وقفة تنم عن الحفاوة ، إلى أن ينتبه الجالسون أمامه إلى وجوده : وعندها يقفون ، على غير رغبة منهم ، ويبدءون فى فسح المجلس حتى يتسنى لذلك القادم الجديد الجلوس ضمن الدائرة . أما فى حالة وصول شيخ من الشيوخ ، أو إن شئت فقل : مضيف ممن يقدمون القهوة ، أو واحداً ممن يملكون قلة قليلة من الماشية ، فإن كل الحاضرين يهبون واقفين يحيونه ويرحبون به ويتملقونه ويداهنونه قائلين "تقعد Taad هنِىً Hennéyi" بمعنى "تعال وأجلس هنا فى هذا المكان ."

يتفوق شيوخ الفقارة ، على الجميع فيما يتعلق بآداب شرب القهوة ، بل إن زيداً نفسه كان أكبر من أى كبير فيما يتعلق بهذا الأمر : إذ كان الرجل يتيه إعجابا بذاته ،

وتوددا إلى الأشخاص المتواضعين . هذا الزيد تراه بمنتهى الرقة ينهض واقفا من مكانه ليفسح لرجل آخر مكانا يجلسه فيه ! وبهذه الطريقة استطاع زيد أن يثبت أمام الجميع أنه رجل كريم بحق وعظيم أيضا ، فى حين أنه كان أبخل البخلاء فى واقع الأمر . تدور فناجيل القهوة على الشاربين دورتين ، ويشرب الناس من تلك الفناجيل إثر بعضهم البعض دون تأفف ؛ ويجوز ملئ الفنجال أكثر من مرة لأى شيخ من شيوخ القهوة الكبار ويصل عدد المرات إلى عشر مرات تقريبا إذا اقتضى الأمر . وبعد الانتهاء من تقديم القهوة وشربها ، يجرى صب البقايا من الدلة الصغيرة إلى الدلة الكبيرة المخصصة التى يجرى الاحتفاظ فيها بالماء الساخن ؛ ومن هذه الغُسَالة يصنع البدو مشروبهم التالى ، ظنا منهم أنهم يوفرون ويدخرون من البن بهذه الطريقة .

هذا فيما يتعلق بتجمعات شرب القهوة على المستوى الأكبر ، ولكننا عندما نتناول شرب القهوة على المستوى الأصغر ، فى نطاق الصحبة اليومية ، فى مَنْزِل من منازل أحد الشيوخ ، الذى ينجذب إليه الناس على إثر سماع صوت الصِّربوت **Surbut**، أو إن شئت فقل : على إثر سماع صوت ضربات طحن البن فى الهاون نقول : إن محيا ذلك البدوى المكسال يتهلل فرحا ، تجمع عدد كبير من الناس على هذا النحو ، يعنى وجود الكثير من غلايين التبغ الفارغة ، التى ليس لدى أصحابها ما يمكن أن يضعونه فى تلك الغلايين . وإذا ما اتضح أن أحد الحاضرين لديه القليل من تلك الورقة المرغوبة ، ويكون قد ربطه على شكل صرة ، فى طرف غترته (غطاء رأسه) ، وجب عليه اقتسام ذلك القليل مع كل الحاضرين ، – وإذا ما حجب مثل هذا الشخص ، ذلك القليل من التبغ ، عن الحاضرين ، من باب الدعابة والمرح ، قام الآخرون بأخذه منه ، حتى وإن أدى الأمر إلى استعمال القوة . وإذا لم يوجد مثل هذا الشخص بين الحاضرين تراهم وقد راحو يجرِّفون الحثالة القديمة المتبقية فى غلاييهم ، ويروحون أيضا يضعون الجمار من فوق تلك الحثالة ، التى يقومون بخلطها بالقليل من روث الإبل المجفف المطحون ، أو ببعض الأعشاب الغريبة : وبذلك يتمكنون ، فى أضعف الأحوال ، من تذوق نكهة التبغ ، (التى لها حلاوة ومذاق خاص عندهم) ، وبخاصة عندما يحرمون منها فترة من الوقت ، فقد رأيتهم بعينى وهم يقصرون سيقان غلاييهم بغية الحصول

على رطوبة التبغ المتبقية فى تلك الأجزاء ؛ ثم يضعون جمرة على ذلك الجزء المشبع برطوبة التبغ ، ويروحون "يشربون"(*) تلك الرائحة بسعادة بالغة وارتياح شديد .

أفضل رءوس الغلايين هى تلك التى ينحتها البدو بأيديهم من الصخور ، وأفضل أنواع الصخور لعمل تلك الرءوس توجد على بعد مسير يومين من قرية الحجر ، وكذلك الأحجار التى يجرى جلبها من قرية تيماء . يضاف إلى ذلك ، أن البدو يستعملون أيضا ذلك الذى يطلقون عليه اسم السِّبيل Sebîl، وهو عبارة عن إناء من الفخار له أنبوب منحن ، ويباع فى سوق الحج فى سوريا . والبدو يصنعون سيقان الغلايين من أغصان بعض أشجار التين البرى ، التى تنمو على مياه الصحراء ، أو قد يصنعونها من أغصان أشجار الرُّمَّان فى الواحات ؛ وهم يجوِّفون تلك السيقان باستعمال ساق ساخنة من الحديد يحمونها طوال الليل فى نار الخفارة . وإذا ما تركنا جانبا مهدئات المخ والروح هى وتحمل الجوع الشديد ، نجد أن البدو الرُّحل يقصرون حياتهم على استعمال القهوة والتبغ ، والبدو فيما يتعلق بالقهوة والتبغ يراعون الأعراف الخاصة بهذين الشيئين ويلتزمون بها ، تلك الأعراف والعادات التى تنتقل بينهم من جيل إلى جيل منذ قديم الأزل . والبدو يتمسكون بتلك الملذات البدوية إلى حد أنهم يصعب عليهم أن يتذكروا مجىء الصبح إلا بعد شرب القهوة ، وفوقها غليون من التبغ . وتقاليد البدو وموروثهم خلو من عادة شرب النبيذ التى درج عليها أسلافهم السابقون عبدة الأوثان ؛ يضاف إلى ذلك ، أننى اكتشفت أن مدفعيتهم السابقة التى كانت تتمثل فى الأقواس والسهام ، منذ حوالى المائتى عام ، أصبح لا وجود لها عندهم أو حتى فى أذهانهم . وهكذا فنحن نجد العرق العربى المتمثل فى سكان الجزيرة العربية هو نفس العرق السابق وبلا تغيير ، وكل ما فى الأمر أن ذلك العرق أقل عمرا من تلك الصحراء السرمدية الخالدة ؛ ولكن هناك بعض المخترعات (البنادق ، التبغ ، القهوة) تفشت فى العالم ، وراحت تروق للمزاج الوطنى ، أخذت تتفشى بسرعة فيما بينهم مثل دينهم .

(*) المقصود بالشرب هنا هو الاستنشاق ، والمؤلف يصر على كلمة " شرب " هنا بحكم المصطلح الدارج الشائع بين البدو " شرب " الدخان (المترجم)

كما بدأنا نشاهد أيضا أن تلك الجزيرة النائية الشاسعة بدأت تطرأ عليها وتؤثر فيها التغييرات العالمية الكبيرة ! والتاريخ يكشف لنا عن طيش غريب بين القبائل المائة التى تسكن تلك الجزيرة ؛ إذ إن بعض تلك القبائل تخاف على نفسها ، والبعض الآخر يتطلع إلى الغزو والغنائم ، الأمر الذى يجعلها ترتد (إلى الجانب الأقوى ، دوما) وخلال جيل واحد فقط ، عن أصنامها القديمة لتدخل فى دين محمد ﷺ الجديد .

نحن نعلم أن البن دخل إلى اليمن أول مرة قادما إليها من "الحبشة" Abyssinia (وهى ما يطلق عليها فى التاريخ اسم أرض الجالا Galla أو الحبش Hábash) رجال الجالا هؤلاء الذين جرى بيعهم عبيدا فى الجزيرة العربية حكوا لى أن فى بلادهم "سيقان لأشجار البن البرى ، يصل حجم الساق الواحد منها إلى حجم ساق شجرة البلُّوط ؛" والمرجح هنا أن تلك السيقان الدنيوية كانت موجوده على قيد الحياة قبل شرب القهوة فى آسيا ، والتى لابد أن تكون قد انتشرت من مكة (مع كل رحلة عائدة من الحج) إلى بقيه العالم الإسلامى كله . وفى بلاد الجالا ، يجرى جمع قرون البن وتجميعها تحت الأشجار البرية ثم يجرى بعد ذلك تحميرها أو إن شئت قل : شويها فى الزُّبد : والقهوة لا يشربها من بين الجالا إلا كبارهم وأكابرهم ؛ كما قالوا لى ، إن الشبان الصغار "يخجلون ، بحكم صغر سنهم ، من تعاطى أو استعمال ذلك المشروب الدافئ أسود اللون الذى يخلط بالتوابل . أما التبغ (الدخان) الذى دخل القسطنطينية فى زمن جيمس الأول(*) ، فى سفن تجار الأقمشة من الإنجليز ، فهو يزرع حاليا فى كل أنحاء الواحات فى الجزيرة العربية (فيما عدا منطقة نجد التى جرى إصلاحها(**)) . والبدو يعشقون "شرب" دخان ورقة قوية من أوراق التبغ إلى أن يبدءوا فى الإحساس بأن الدنيا تدور بهم ، ومع ذلك فهم مازالوا يقولون ، طبقا للمذهب الوهابى(***) ، إن

(*) جيمس الأول : أعلن ملكا على إنجلترا (١٦٠٣-١٦٢٥) . (المراجع)

(**) يقصد المؤلف بذلك حركة الإصلاح الدينى التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى نجد حول منتصف القرن الثامن عشر الميلادى وكان تحريم تدخين التبغ من بين تعاليمها . (المراجع)

(***) من الخطأ قول المؤلف المذهب الوهابى ، إذا إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكن مؤسسا لمذهب ديني خاص به إذ كان هو نفسه من أتباع مذهب ابن حنبل والأصح القول التعاليم الدينية السلفية التى نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب . (المراجع)

"التبغ هو بول إبليس" . ومع ذلك يتسامح فى ذلك الاستعمال ، أو التعاطى الشرير إلى حد أن أى إنسان يقوم بحرق تلك الورقة "النفاذة الرائحة" داخل بيتة) فى كل أنحاء نجد ، اللهم باستثناء تلك الولاية الوهابية(*) (الصغيرة حاليا) وباستثناء أيضا واحدة من القبائل المتشددة هى قبيله القحطان(**) . ولقد عرفت الكثيرين من رفاق الغليون (المدخنين) ، الذين تركوا فى غيهم مع معشوقهم التبغ ، رأيتهم وهم يبعدون أنفسهم عن ذلك التعاطى غير الدينى وغير المرغوب ، وذلك بناء على قرار صريح منهم بالتوقف عن التدخين والابتعاد عنه ، وبالفعل لم يعودوا إليه مرة ثانية . هؤلاء الذين أقلعوا عن شرب الدخان كانوا من المتشددين . وأنا مازلت أذكر ذلك القروى الذى توقف عن شرب الدخان لأن ساق الغليون شوه منظر شفتيه من ناحية ، وأنه سوف يتسبب له فى الشيخوخه المبكرة ، فضلا عن تغيير رائحه فمه . كانت لذلك القروى زوجة جميلة أو زوجتان فى منزله ، فضلاً عن كونه أيضا عاشقا على نطاق واسع ، وباحثا بلا قلب ، عن الزيجات الجديدة ، حتى فى تلك الصحراء الجرداء . هناك أيضا بعض البدو الذين ينفرون من التبغ ويكرهونه باعتباره من المخدرات ، وهناك بعض آخر من هؤلاء البدو لا يبالى بكل هذه الأعذار ؛ شاهدت أيضا بعضاً من البدو "ضربهم" آباؤهم وأبعدوهم عن الدخان ، – هؤلاء الآباء المساكين ، الذين لا يودون لأبنائهم ، الذين يتحتم عليهم العمل فى الشمس لأنهم من الرعاة ، أن يكبروا ويشبوا ، مثل الذباب الضال ، فى المخيم ، ويتسكعون حول خيام القهوة ، – ومازالوا مستمرين فى عدم تعاطى أو شرب الدخان . هناك أيضا كثير من البدو الذين لا يجدون للقهوة طعماً أو مذاقا ، أو حتى يشعرون بالزهد فيها ، وبالتالى فهم لا يتعاطون أى شىء ، من هنا فهم لا يشربون القهوة مخافة أن تؤثر على شجاعة الرجولة فيهم ، يضاف إلى ذلك أن السواد الأعظم من رجال المجالس يسيئون استعمال تلك المخدرات والعقاقير ، التى تسىء إلى أحوال أجسامهم الضعيفة ؛ من هنا فإن الكثيرين من البدو يرابطون فى خيامهم ، ويستسلمون للنوم بصورة مستمرة .

(*) الولاية الوهابية : الأصح أن يقال الدولة السعودية . (المراجع)
(**) قحطان : من القبائل القديمة فى شبه الجزيرة العربية وتنتمى إلى عرب الجنوب . (المراجع)

شروق الشمس ، هو الموعد الذى يتجه البدو عنده إلى خيمة القهوة فى المَنْزل ، أو إن شئت فقل المجلس ، الذى هو بمثابة البرلمان عند رجال القبيلة . هناك أيضا مقهى عام لشرب القهوة فى خيمة الشيخ مطلق ، أو فى بيت الشَعر الخاص بواحد آخر من كبار الشيوخ ؛ وقد تجمع فى ذلك المقهى فى هذا الصباح كبير الشيوخ ومعه رفاق القهوة : وسبب ذلك أنه حيثما يوجد مليكهم ، يتجمع أفراد القبيلة ، وترى هؤلاء الساعين إلى المجلس ، وهم يتجولون خلال المخيم الواسع ، وهم يسألون كل من يصادفونه ، "المجلس ، أين ؟ وأنت يا وِلِيد(*) ! ألا تعرف مكان مجلس الشيوخ ؟" والحاضرون فى ذلك المجلس يناقشون فيما بينهم الأمور العامة ؛ وهم يناقشون سياستهم فيا يتعلق بابن الرشيد ، وفيما يتعلق بالإمبراطورية العثمانية (الدولة) ، وكذلك القبائل المحيطة بهم . وفى هذا المجلس ، أو إن شئت فقل : فى هذا البرلمان يجرى الإبلاغ عن كل ما يتناهى إلى الأسماع عن تحركات العدو ، كما يجرى الإبلاغ أيضا عن مؤشرات الغزو : كما يجرى من حين لآخر نقل الأخبار المتعلقة بمياههم أو مياه الأجانب عنهم ؛ كما يقوم أرباب الأسر بالإبلاغ عن المراعى التى عثر عليها رعاتهم بالأمس فى مختلف الأماكن . فى هذا المجلس يتكلم الجميع ، بل إنهم يستمعون إلى ما يقوله أقل الناس شأنا بينهم ؛ فهو واحد من أفراد القبيلة أولا وأخيرا . والمجلس هو الذى يحدد الرحلات التالية للقبيلة ، والتى يجرى التشاور بشأنها فيما بينهم ، وهذا هو ما يطلقون عليه اسم "الشور" es-shor؛ وما يتوصلون إليه فى ذلك "الشُّور" يجرى إبلاغه للحلفاء ، وهو أمر مهم أيضا لكل واحد منهم ، وبخاصة أولئك الذين يكونون على وشك الترحال .

كان ذلك هو مجلس الكبار والمحكمة الشعبية ؛ التى يحمل أفراد القبيلة إليها قضاياهم دائما وأبداً ، ويجرى البت فى تلك القضايا عن طريق ممثلى الطرفين بعد كثير من الجدل والنقاش والأخذ والعطاء ؛ ويحق لكل واحد أن يدلى برأيه ويقول كلمته . وفى ذلك المجلس يقوم الشيخ الأكبر بالتشاور مع بقية الشيوخ الآخرين ، وبعض

(*) هذه الكلمة تصغير " ولد " (المترجم)

الأعيان وكثير من الشخصيات المرموقة ؛ ويجرى إصدار الحكم علانية وبدون تحيز ويكون ذلك بلا رشوة أو تدليس . وهذا الحكم يكون نهائيا . وتجرى معاقبة الطرف الخاسر فى القضية بدفع عدد من رءوس الماشية الصغيرة أو الإبل ، التى يتعين عليه الوفاء بها وإلا حكم عليه بالنفى من القبيلة ، وذلك قبل أن يوفد الشيخ الكبير المنفذين لأخذ تلك الرءوس فى حدود قيمة الحكم الصادر ضده . والبدو الفقراء يماطلون تماما فى دفع الحق ، ويرون دائما أنهم عاجزون عن الوفاء بمثل هذا الدين فى الوقت الراهن : من هنا فنحن نرى ، فى كل قبيلة من القبائل ، بعض الأسر التى من قبائل أخرى .

تبلغ أحكام البدو من العدالة مبلغا يجعل البلدان ذات الحكومات ، التى تجاورهم ، تقر بأن عرب البادية هم أعدل أنواع البشر . ويندر أن يخطئ القاضى أو هؤلاء الكبار ، فى تلك المجالس الصغيرة أو المجتمعات الصغيرة التى تربط القرابة بين أفرادها ، والتى تكون حياة كل فرد من أفراد القبيلة معروفة منذ طفولته ، كما يعرف الجميع كل تفاصيل حياته . يضاف إلى ذلك ، أن كل قضايا البدو تكون عاجلة ، شأنها شأن أعمال العرب الأخرى كلها . ويندر ألا يناقش أى أمر أو يبت فيه فى ذلك المجلس . وعندما يكون الاتهام من النوع الخطير ، ويثبت للمجلس غياب بعض الأشخاص الذين يتعين عليهم الإدلاء بشهاداتهم ، يؤجل المجلس نظر القضية إلى جلسة تالية . هذا العدل البدوى بيِّن وواضح ، فى حين نجد أن القانون العبرى ما يزال فجا فى تلك البلدان شبه المستقرة . الصحراء لا تعرف التضحية بالبشر ، ولا تقر قتل الآخر ، حتى إذا لم يسحب أقرب أقارب المجنى عليه موافقتهم ، التى قد لا يؤخذ بها ، وهنا يتعين على الجانى دفع التعويض (الذى يقدر برءوس من الماشية) . والمعروف أن القانون العبرى يزيل آلام المجتمع ، ويضمن أن يكون الانتقام ثقيلا على نفوس المذنبين وعلى عقولهم أيضا . والبدوى لا يكون أمامه ما يخافه أو يخشاه أكثر من مجرد فرض غرامة عليه ، وقد يستطيع البدوى الهرب من كل ذلك إذا ما ارتضى ضميره ذلك ، بأن ينسلخ عن أهله وعشيرته ليدخل فى منفى قد يلازمه طوال حياته .

يبدأ أعضاء المجلس فى الرحيل والتفرق ، قبل دخول وقت الظهيرة ، وذلك فى الأيام التى يكون المخيم فيها ما يزال منصوبا . فى ذلك التوقيت يبدأ البدوى الحافى رحلة العودة وحيدا ماشيا فوق الرمال الساخنة ، لينام بعد ذلك فى خيمته إلى أن يحين

وقت صلاة العصر . والمعروف أن البدو من المتيمين بالنوم أثناء النهار ؛ بعض هؤلاء البدو قد يتقلبون على جنوبهم ليواصلوا نومهم ، ظنا منهم أن الليل قد حل عليهم ، علما بأن الساعة تكون العاشرة صباحا . ولكن الرجل إذا ما غالبه النوم ، أثناء جلوسه فى المجلس ، فهذا شيء غير لائق وغير مقبول أيضا ؛ وهنا يتعين على مثل هذا الإنسان أن ينسل جانبا ويتمدد فى أى جانب من جوانب الخيمة . وإذا ما حدث أمر مفاجئ بين الجالسين فى دائرة المجلس ، قام الأعضاء الآخرون بهز ذلك النائم وهم يقولون : "أصح ، أيها الرجل ! هل جئت هنا لتنام ؟" ومع ذلك ، فقد كنت فى كثير من الأحيان ، أثناء خطابهم غير المفهوم ، يغالبنى النوم فجأة أثناء الجلوس لشرب القهوة معهم ، نظرا لوهنى من ناحية والصيام المفروض على نتيجة عدم توافر الطعام ؛ كانوا جميعا يلمسون هذه الطبيعة الضعيفة فى غريب يتمتع بورع مدهش وإنسانية مدهشة أيضا ! والعرب كلهم يقدرون نوم الإنسان ويوقرونه ؛ وهم ينظرون إلى النائم وكأنه فى غيبوبة مع الله سبحانه وتعالى، بل إنه يكون فى هدنة من عناء اليقظة واهتماماتها : والبدو ينسحبون إلى بيوتهم فى هدوء ، ولا يمكن لأى إنسان أن يوقظ أحد منهم ، إلا عندما يستيقظ هو من تلقاء نفسه . والفترة الوحيدة التى لا ينام خلالها البدو ، هى ما بين العصر وغروب الشمس ، ظنا منهم أن هذه الفترة لا تصلح للنوم من الناحية الصحية . هذا النوم الطويل ، يجعل البدو يستيقظون طوال ساعات الليل البهيم ، الذى يعج بالإزعاج والاضطراب فى تلك الصحراء الجرداء ، والكلاب تنبح ، فى معظم الأحيان ، مطاردة للذئاب حتى يطلع ضوء النهار ، وتتوقف حركة الحباليص (لصوص الماشية) . بعض البدو قد يمضون ساعات الظهيرة وهم مستلقون فى ظل الصخرة القريبة ، ويتحدثون إلى بعضهم البعض ، أو قد يجلس البعض منهم فى الظل الهزيل الناتج عن شجرة من أشجار السنط ، وبعض ثالث قد يقضى تلك الفترة فى خيمة الشيخ الكبير . ومع دخول وقت صلاه العصر يوقظ البدوى نفسه ؛ ويمضى قدما وهو يغمغم ببعض الكلام الدينى ، استعدادا لأداء صلاة العصر : وهو يجثو على ركبتيه ، ويضرب الرمل بكفيه ، ويفركهما ببعضهما ، ثم يسحب يديه من على جبهته ، ليمسح جانبى وجهه ، نظرا لعدم وجود الماء . وينهض الرجل بعد ذلك واقفا ، لينظر من حوله مستطلعا أى

أثر من آثار الدخان ، الذى يكون إشارة على تصليح القهوة وتجمع صحبة من البدو . والشيخ الذى يود التنقل فى أنحاء المخيم الواسع ، يركب فرسه تحقيقا لهذه المهمة . وأكثر الناس فضولا وتطفلا على مضيفى قهوة العصر هو برجس Burjess، الذى هو شيخ ثرى شاب من بين شيوخ ولاد على المتذمرين ، ويعيش حاليا مع بدو الفقارة ؛ كانت خيمة برجس هى أوسع خيام المخيم كلها . وعندما كان المجلس يجتمع لمناقشة أى أمر من الأمور العامة ، أو بعد رحلةٍ من الرِّحْلات ، كان يلتئم فيه عدد كبير من الناس ، نظرا لحضور عدد كبير من الرعاة ، إذ يكونون قد عادوا من أعمالهم فى ذلك الوقت .

فيما يتعلق بالشيخ مطلق ، شيخ القبيلة ، كان شخصية قوية ، وقوى البنية أيضا ، ومتوسط القامة ، وفى منتصف العمر وصاحب محيًّا يهودى جذاب ؛ كما كانت له لحية كثيفة سوداء تضفى عليه شرف الجزيرة العربية ، كما كان يظهر فى عينيه تصميم الرجال ، وله جبين يوحى بأنه واحد من الشيوخ المعتدلين ,وهو رجل حلو الكلام ، مثل سائر البدو ، عندما يتفننون فى القول إذا ما تعلق الأمر بمصالحهم . كانت سلوكيات الشيخ مطلق من النوع البسيط غير المتكلف ، فقد كان الرجل يتحرك منفردًا ولا يحمل فى يده مشعابا ولم يسبق له مطلقا أن حمل معه سيفا ؛ واستطاع الرجل عن طريق هذه السياسة المتحضرة أن يطغى على صلافة النبلاء وكبريائهم . وعندما كان المجلس يجتمع فى خيمته بأعداد كبيرة ، ترى هذا الشيخ الكبير ، والمضيف الكبير أيضا جالسا فى تواضع جم مع عامة الناس ، مثبتا نظراته على الأرض ؛ ولكن تلك النظرات كانت مفعمة بالحملقات الجانبية غير المستقرة والمضطربة ، نظرا ليقظة ذهنه ودقة ملاحظته . تظل سلطة ذلك الشيخ نائمة ، إلى أن تتهيأ الفرصة لاستعمالها ، فيظهر أنه قادر على حكم أولئك البدو ، الذين لا يعرفون النظام ، بكلمة واحدة منه . عند مجىء أول مرة للمجلس جلس إلى جوارى ابن وقح من أبناء الصحراء ، كان يعمل راعيا فى مَنْزِل زيد . سألت ذلك الولد وأنا أهمس فى أذنه : "أى هؤلاء الرجال يكون مطلقا ؟" أجابنى : "مطلق هو ذاك الذى يجلس هناك !" ثم أردف قائلا وهو يتحدث بصوت عال إلى الغريب : "الرجل الجالس هناك هو الباشا بالنسبة لنا ؛ والشيخ مطلق من حقه أن

يحكم الأعراب مثل باشا الحج تماما . وهو عندما ينادى قائلا : 'الرَّحْلة !' فإننا جميعا نركب دوابنا ونمشى قدما ؛ وفى المكان الذى ينزل فيه عن راحلته ، ننزل نحن أيضا ونقوم بنصب خيامنا .- يا مطلق ! ألا أتكلم جيداً مع هذا النصرانى ؟ - وأنا أزيدك من الشَعر بيتا ، يا خليل ، وهو إذا ما أراد أن يقطع أعناقنا جميعا ، فهو قادر على ذلك والله وبالله ." وهنا رفع مطلق عينيه نحونا مدة لحظة واحدة وعلى وجهه شبه ابتسامه ، ثم عاد إلى نفسه مرة ثانية . والمعروف أن شيخ القبيلة البدوية المترحلة لا يكون طاغية أو مستبداً ؛ وشيخ القبيلة العظيم يخدش شرفه وكبرياؤه إذا ما اعتدى بالضرب على واحد من أفراد قبيلته : والمعروف أن ضرب الرجال أمام الناس ، إنما هو من قبيل الأعمال الوحشية التى لا يرضاها أحد من الناس .

الشيوخ من أصل واحد ، أى أنهم ينحدرون عن جد مشترك ، وهو ما عليه اسم جد القبيلة أو أبيها ، وكرامة شيخ القبيلة الكبير هى نوع من الإرث . ومعروف أن الشيخ مطلق الحميدى el-Hameydy الحالى ، خلف والده الحميدى ، الذى سقط فى أثناء غزوة من الغزوات ، وكان شيخا لبدو الفجير Fejir، شأنه فى ذلك شأن كل آبائه وأجداده الذين سبقوه ، إلى أن يصل الأمر إلى عميد القبيلة نفسه ؛ هذه السلطة ، التى يرونها على إنها تنفيذ لأوامر العناية الإلهية ، لا يمكن أن يعترض عليها أى أحد من أفراد القبيلة . ولا يمكن لأى أحد من عامة أفراد القبيلة ، أو من أصل غريب ، حتى وإن كان يفوق كل أفراد القبيلة من حيث الثراء والمقدرة ، أن يصبح رئيسا لواحدة من العشائر البدوية المترحلة ، أو يندرج ضمن أقارب الشيوخ ، الذين يكونون ، حسبما يقول الناس ، سلالة نسبيه أصيلة وكريمة فى القبيلة . هؤلاء الشيوخ سرعان ما يتزوجون من بنات شيخ القبيلة ، ومن بين القبائل كلها ، هناك بين أفراد قبيلة الفجير ، على حد قول الناس ، تشابه أنثوى كبير فى الصوت وفى السلوكيات والتصرفات أيضا : عدد الشيوخ هنا كان يقدر بحوالى خمس عدد أفراد العشيرة . وشيخ القبيلة ، هو شيخ منصرها ، بشكل تلقائى ، إذ إنه هو الذى يقود عمليات الغزو العام ؛ وشيخ القبيلة يحصل على الربع من كل غنيمة من الغنائم . وشيخ القبيلة إذا لم يقم هو نفسه بقيادة عمليات الغزو العام ، فإنه يرسل بدلا منه ، ولداً من أبنائه ، أو قد يرسل شيخا

آخرا ، نائبه على سبيل المثال ، وقد يكون ذلك هو زيد نفسه ، ليتولى عملية القيادة هذه . سألت زيدا : "لكن ماذا ، لو ثبت أن ذلك الشخص الوريث لم يكن بالمستوى المطلوب ، أو الكفاءة اللازمة ؟" واتضح أن زيدا لم يسمع مطلقا فى حياته كلها ، عن شىء من هذا القبيل . وأجابنى الرجل قائلا : "سوف يُنحَّى جانبا ، على أن يتولى المشيخة الشخص الذى يليه فى الترتيب ."

عند غروب الشمس ، يبدأ المتسكعون شاربو القهوة فى العودة ثانية إلى خيامهم لأداء الصلاة ثم تناول العشاء . فى البداية عندما كان الأعراب يرونى وأنا أتجول أثناء نسيم المساء البارد ، كنت أسمعهم يقولون : "خليل ذاهب لأداء الصلاه طبقا لأصول دينه ؛" ولكنى بالتدريج ، ونظرا لأنى لم أخدع أو أضلل مضيفىً بأى شكل من الأشكال فقد بدءوا ينظرون إلىَّ على أنى رجل لا يصلى وأنى من الكفار ، وأننى أعيش فى هذه الدنيا بلا ضمير يراقب الله . وبعد انقضاء ساعة أو ساعتين يندفع الشيوخ ، متجهين من جديد صوب المجلس لشرب القهوة ، وحضور جلسة المساء ، التى قد تستمر إلى منتصف الليل . وخوفا من الدوس فوق حية أو ثعبان فى الظلام ، يلبس الشيخ حذاءً قديما غريب الشكل ، ربما يكون قد اشتراه من المدينة (المنورة) منذ زمن بعيد . ويبدو الجزيرة العربية لا يلبسون الأحذية الحمراء ذات الرقاب الطويلة ، التى تعد من رموز المشيخة فى سوريا .

الفقارة من القبائل المتشدده ؛ ولكن يبدو أن ذلك هو حال الفقاره فى سائر أنحاء الجزيرة العربية . فقد غضب كل من مطلق ، شيخ القبيلة ، ومعه الشيوخ وأفراد القبيلة من زيد (الذى ذاع أمر غرامياته بينهم ،) لأنه جلب إليهم كافرا ، وأن ذلك الكافر ، ليس كمثل النصارى المحليين ، الذين سبق أن شاهدوهم فى سوريا ، ولكنه كان ينتمى إلى أمة أجنبية وحكومة أجنبية قوية ، (وقد وقف الشيخ على هذه المعلومة من ضباط الأورطة ومن ضباط الحج أيضا ،) جاء به ليتجول فيما بيننا ويجوس فى الديار . ومع ذلك ، فإن سلطة الشيخ الكبير لا يمكن أن تتجاوز كرم أفقر فقراء أفراد القبيلة . ولكن بعد أن عرفونى حق المعرفة ، بدءوا يرحبون بالنصرانى ، بعبارات تنم عن الود

والصداقة وهم يدعونه لتناول القهوة ، كما أصبحت أجلس يوميا مع زيد فى المجلس . كان زيد هو الوحيد فقط ، الذى كان يذكِّرنى ، فى معظم الأحيان ، بأنه هو الذى يحمينى من وحشية البدو القاتلة . وقد وصل به الأمر إلى حد أنه كان يمنعنى من المغامرة بالخروج ، حتى بصحبته ، بعد دخول الليل ، وكان يفضل أن يتركنى جالسا إلى جانب وجار القهوة مع حرفة (زوجته) فى الخيمة ، ومعنا رجال منْزَلنا : "قال زيد ، ماذا لو قام شقى من الأشقياء بطعنى فى الظلام ، ولم يتمكنوا من معرفة الجانى ." أيد أولئك الذين من شيعة مخيمنا ، الذين أكلت معهم عيشا وملحا ، الكلام الذى قاله زيد ، بأيمانات مُغلَّظة ، ورجونى أن لا أثق بأى مخلوق غيرهم . العرب أصحاب كلام عظيم ؛ وأنا لم أزعج نفسى بكلامهم المتشدد . قال زيد : "أقسم بالله ! لم يحدث مطلقا من قبل أن جلس نصرانيا فى مجلس البدو ، أو شاهده الناس وحده راكبا جملا ويسير ضمن رحلّة البدو ."

لم أكن قد بدأت بعد ممارسة الطبابة ، وقد خذلنى طعمى فى أتعس اللحظات ! كنت قد اشتريت ذلك اللمف (الطعم) Lymph الطبى من دمشق من شخص مسيحى يعمل فى مجال الأمصال . وقد وصلنى المزيد من المصل بصحبة الأورطة (القوة العسكرية) ؛ ولكن نظرا لأن ذلك المصل كان فى أوعيه مفتوحة ، فقد فقد ذلك المصل صلاحيته حتى قبل أن يصلنى فى مدائن صالح . كنت قد استعملت ذلك الفن الذى جرى تعلمه مؤخرا وحققت من ورائه نجاحا كبيرا فى القرى السورية . كان البدو على استعداد لأن يغفروا لى فساد عقيدتى مقابل الاستفادة من مزايا التطعيم ، وربما هيأ ذلك لى فرصة العيش فى بلاد ، من الخطورة بمكان فيها ، أن يحسب أهلها أنك تحمل القليل من النقود الفضية . لم يكن يتبقى لى عندئذ سوى جمل مريض ، وقليل من النقود الذهبية التى كنت احتفظ بها فى حافظة نقودى ، وهنا بدأت تخطر ببالى فكرة ترك ذلك المكان المتعب والمرهق ، الذى سوف أبدو فيه ، ومهما كانت الأعذار ، كما لو كنت جاسوسا يعيش بين أهل هذا المكان ؛ زد على ذلك – أنه نظرا لاستحالة اعتناقى لدينهم (...)(*) أو التزامى به – الذى يجعل من عنقى هدفا لسكين كل شقى متشدد وكل

(*) استبعدنا من هذا السياق كلمة غير لائقة . (المراجع)

خارج على القانون ؛ فإن كل إنسان سوف يلعننى ويسبنى فى أية منطقة من المناطق التى يتعين على الذهاب إليها ، وتكون عامرة بمثل هذه المضاعفات والتعقيدات .

لم أكن أنا أول من مارس عملية التطعيم ضد المرض من بين المسيحيين فى أرض أعراب الجنوب . إذا أخبرونى جميعا عن شخص يدعى أبو فارس ، جاء إليهم بهذه المهنة منذ سنوات : أبو فارس هذا وفد عليهم من إحدى القرى فى المرتفعات السورية ، أى ذلك الجزء من الأرض الذى يسكنه النصارى . مازال أولئك الأعراب يتذكرون أبو فارس ، ومن أجل عيون أبى فارس هذا ، استقر فى روعى ، أنهم كانوا أقل تشدداً معى . – وأنا على ثقة بأن الله ! سيهيئ لمن يأتى بعدى اكتشاف أن الاسم المسيحى (الملعون من قبل) كان يحظى بالاحترام فى أجزاء كبيرة من شبه الجزيرة العربية المتشددة . أمضى أبو فارس هذا عاما من حياته مع هؤلاء البدو الرُّحل ،– لم يذهب خلاله إلى المدن الكبرى نظرا لتشككه فى تسامحهم الإنسانى . زار أبو فارس كلا من قرية تيماء ومدينه حائل ، بل أنه وصل حتى إلى القصيم ، كما سبق له أيضا أن قام بتطعيم الناس فى عنيزه . وجاء من بعده أبو فارس آخر ، أبو فارس الثانى هذا جاء إلى القبائل بعد أبى فارس الأول بعشر سنوات ، وكان نصرانيا أيضا ؛ كان اسم ذلك الرجل سليمان Sleyman، ولكنه أطلق عليه البدو اسم أبى فارس لأنه كان يمارس المهنه التى امتهنها أبو فارس الأول من قبله .

الأعراب يفهمون أن التطعيم يأتيهم من الشمال : من هنا فإن اللمف (الطعم) إذا ما جاء من الجنوب ومن الحرمين (وهذا أمر نادر الحدوث) تقل قيمته ويتدنى قدره : ولا يوجد أحد من المسلمين يمارس مهنة التطعيم فى الشمال ، لأن الأمر يقتصر على النصارى وحدهم . يضاف إلى ذلك أن البدو الموجودين على الحدود السورية يجرى تقديم هذه الخدمة لهم من دمشق ، التى يوجد فيها ثلاثة أو أربعه أساتذه من أساتذة ذلك الفن . وقد اكتشفت أن أولئك الأساتذه الثلاثة أو الأربعة كانوا يعملون بتجارة الأقمشة فى السوق ؛ فقد تعلموا أيضا كيف يحققون المكاسب من وراء ممارسة مهنة الطبابة . ومع قدوم فصل الربيع يقوم هؤلاء الأساتذة بجوله خلال قرى الريف : وفى

أحيان نادرة تماما ، وبناء على الرجاء والتوسل ، يغامر واحد من أولئك العلماء بالقيام برحلة مدتها يومين أو ثلاثة أيام إلى المنطقة الشرقية حيث يوجد البدو الرحل السوريين . لم يكن أبو فارس هيابا أو خوّافا مثل المسيحيين الدمشقين ، وإنما كان واحداً من متسلقي الجبال الأشداء ، ولذلك كان أول من نزل بصحبة البدو الرحل إلى أرض الجزيرة العربية . استقبله الناس استقبالا حسنا في "بيوت الشَعر" ؛ هذا الرجل استطاع أن يكبح تماما جماح المرض . بل إنه (حسب قولهم لى) استطاع أن يضع يده على أسباب بعض هذه الأمراض : من هنا فإن هؤلاء البدو ، هم أيضا من جانبهم ، كانوا مقتنعين بالوقوف على تلك الرجولة الشديدة فى ذلك الرجل المسيحى . أبو فارس هذا ، اقتاده فيما بعد فى حائل ، رئيس خدم مجلس الأمير ، ليمر به خلال فناء القلعة ، لتناول الغداء ؛ وأثناء سيره فى فناء القلعة استوقفه بعض صغار الأسره وطلبوا منه (النصرانى) التوقف لحظة ليقرأ لهم ، إذا ما استطاع ذلك ، شيئا من الكتابه التى كانت مدونة باللون الأحمر على جدران الممر المؤدى إلى البرج الداخلى فى القلعة . "نعم ، قال النصرانى ، أنا أستطيع القراءة ، أيها السادة ." – "إذن قل لنا ما هذه الكتابة ." ، (كانوا يتظاهرون بأنهم لا يعرفون الحروف.) " أنا أرى مكتوبا 'لا إله إلا الله .'" – "وماذا بعدها – ؟" – "حسن ، هناك ذلك الذى تقولون عنه ، 'محمد رسول الله' ." وعلى هذا النحو ، وبعد ذلك بسنوات كثيرة ، بل وفى المكان نفسه ، استدعونى لقراءة هذا الكلام نفسه ؛ وعندما قرأته كله مرة واحدة ، "خليل ، صاح أولئك الصغار الحاقدين ، لم يرفض قراءة المكتوب كله ، ولكن – ها – ها – ها !– وأنت تتذكر هنا الكلمة التى قالها أبو فارس . 'تلك الكلمة التى تقول أنت فيها ، محمد رسول الله !'"

أبو فارس اللاحق هذا لم يجد متعه كبيرة بين البدو ، وعندما وصل إلى المجلس خبر مذبحة النصارى فى سوريا ، شاهد البدو أبا فارس ، وقد تملكه الحزن والخوف ، وراح ينتحب ويتنهد أمامهم . وعندما قال البدو الطيبون : "ياله من مسكين ! لماذا وصل حزنه وأساه إلى هذا الحد ؟ تمالك نفسك من جديد ، يا أبا فارس ، ألا تؤمن ، من واقع دينك أيضا ، أن كل شىء من عند الله ؟" هنا أجابهم أبو فارس قائلا : "وا أسفاه ! أنا أفكر حاليا فى والدىَّ ، رحماك يا الله ! وهل هما يرقدان فى القبر ميتين الآن ؟

ويحى ، لقد أغتيل الجميع اغتيالا قاسيا !" وأردف أبو فارس يقول وهو يتحدث بطريقة شبه مخنثة : "أيها الرفاق الأصدقاء ، آه! هل ستقتلونى أنتم أيضا ؟ لا ، لا ، دخيلكم ، أتوسل إليكم أن لا تفعلوا ذلك ! وأنا أستجيركم ، أرجوكم أن لا تفعلوا ذلك !" وراح يتذلل بعد ذلك على نحو جعل سكان الأرض القاحلة يضحكون وهو يقول : "أدخل Udk-hul حريمكم Hareemakom، بمعنى ، سوف أدخل لحريمكم كى يحمينني ." "رد الأعراب قائلين : والله ، هذا الرجل مجنوم(*) Mejnûm، إنه لا يتمالك نفسه . انتبه أيها الرجل وانظر إلينا يا أبا فارس ! كيف ، وأنت اسمك سليمان !" وهنا تعالت أصوات صحراوية كثيرة وهى تقول وتتساءل : "ألم تأكل معنا العيش والملح ؟ هذا يكفى ! خلاص ! لقد ذابت كل الشكوك التى بيننا وبينك ؛ أما فيما يتعلق بذلك الذى حدث فى الشام ، فنحن لم نحدد بعد ما إذا كان صوابا أم خطأ ، أو خيرا أم شراً ؛ نحن هنا البدو ، ولا نعير الشوَّام (الدمشقيين) بالا . لا تخف أو تخشى شيئا وأنت بيننا ، نحن أصدقاؤك ؛ نحن هنا البدو ، والضيف the - thaif عزيز ."

خلف Khalaf العلايده Allàyda هو الذى جلب ذلك السليمان ، المطُعِّم ، وتبناه ، وكانت الأعراب تطلق على ذلك السليمان اسم المجُدِّر(**) . أحضر خلف هذا السليمان معه على ظهر ذلوله (ناقته) مع قافله الحج قادما من سوريا ، وكانت حصة البدو ، أو إن شئت فقل نصيبهم ، يعادل الثلث من قيمه تلك المغامرة المربحة . سمعت هذه الرواية من فم خلف نفسه ؛ واعتبارا من تلك الفترة خطرت ببال خلف فكره إحضار مُجدِّر آخر ؛ ولكن شجاعة ذلك الرجل المسكين خانته عندما رأى ناقة ذلك البدوى تقف أمام باب داره ، وليس أمامه من شيء سوى تلك الصحراء الجرداء القاحلة . – كان الأعراب أوفياء مع أبى فارس ، ولم يحسدوه على المال الذى جمعه ؛ إذ كان كل واحد منهم يدفع فدية إنقاذ حياته من ذلك المرض المريع ، كان البدوى يدفع ربع مجيدى فقط أى ما

(*) المقصود هنا هو كلمة مجنون وهذا القلب المكانى أمر مألوف فى بعض لهجات البدو . (المترجم)
(**) المجدر : بضم الميم وتشديد الدال وكسرها ، هو الشخص الذى يقوم بتطعيم الناس ضد مرض الجدرى . (المترجم)

يعادل شلنا واحداً . وبعد انتهاء العام المحدد له ، أعاده الأعراب إلى موطنه آمنا غانما ، ومعه من المال الكثير ، المال الذى جمعه منهم : قاد البدو ماشية ذلك الرجل أمامه ، وحداها الرعاة البدو ، إلى أن وصلوا بها إلى سوريا .

الأعراب ، الذين مازالوا يستعملون التطعيم ، بعد أن جرى تطعيمهم فى يوم من الأيام ، أصبحوا لا يخشون من ذلك المرض بقية حياتهم . وأنا عندما قلت : "إن ذلك ليس أمراً مؤكداً ،" كانوا يردون علىّ قائلين : "ولكن ذلك ثبت نجاحه بين المئات من البشر ، يضاف إلى ذلك أن كل من طُعِّم بطعم أبى فارس ، لم يصب بالجدرى مرة ثانية ، عندما عاد الجدرى إلى الظهور مرة ثانية ." الحريم هم الذين يعالجون الأعراب من أمراضهم ، وهن يستعملن فى ذلك الغرض القليل من العقاقير التى يحتفظون بها ، كما يستخدمون التوابل أيضا هى والطيب وهم يجلبون هذه العقاقير والتوابل والطيب من المدينة (المنورة) ، كما يستخدمون فى ذلك الخبرات الساذجة التى ورثنها عن جدّاتهن وأمهاتهن ، تلك الخبرة التى تكاد تكون نادرة فى ديارهن الصحراوية . لم يعلق البدو الرُّحَّل أملا كبيرا على الحصول على علاجات أفضل على يدى خليل ، التى كانت من قبيل "الأدوية الحكومية" النادرة والغالية أيضا ، فضلا عن غرابة تلك الأدوية على هؤلاء البدو . طلب منى هؤلاء البدو أن أعرض عقاقيرى على الحريم ، اللاتى ، يسلم البدو ، بأنهن ينبغى أن يعرفن تلك العقاقير حق المعرفة . (وفى رأى بعض الأزواج) أن ما تفعله النساء فى مجال الطبابة لا يكون كله فى صالح صحة الرجال ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الرجال ، فى كثير من الأحيان ، يعزون أمراضهم التى تدوم وقتا طويلا وكذلك الأمراض غير الواضحة إلى 'السحر الذى تمارسه النساء .' "قال واحد من المرضى : يا خليل ، أنت ترى مدى ضعف جسمى وخوار قوتى : وأنا تراودنى الشكوك حول زوجة غيور من زوجاتى ، أعطتنى ، أو إن شئت فقل : سقتنى مشروبا باردًا ." يضاف إلى ذلك أن دس السم أمر يألفه خيال العرب الإجرامى . والعرب يطلقون على المواد الطبية التى تستخدم فى العلاج ، اسم 'دواء' dawwa، شأنهم فى ذلك شأن البلدان المستقرة ؛ كما يطلق البدو ذلك الاسم أيضا على عدد قليل من الأعشاب ، وعلى

بعض الأعشاب التى يضيفونها أيضا إلى طعامهم لتضفى عليه نكهة طيبة ولونا طيبا أيضا .

ذاع صيت حرفة ، بوصفها واحدة من بنات شيخ كبير من شيوخ القبائل ، فى مجال صناعة استعمال الأعشاب فى العلاج . ففى أحد الأيام ، استدعت حرفه بعض زميلاتها لتزجية الوقت ، وجلسن كلهن أمامى ليشاهدن ما بداخل صندوقى الطبى عندما كنت أفتحه أمامهن . وهنا قام ذلك الحريم المبهور بتناول عقاقيرى الأجنبية فى أيديهن ، واحد بعد الآخر ؛ ورحن يتشممن تلك العقاقير ، ورحن تهززن رءوسهن بجاذبيه الإناث . واعترفن بأن كل تلك العقاقير كانت غير معروفه لهم ، ولكن المؤكد أنهن شممن فى كل تلك العقاقير رائحة الحلطيطة' أو إن شئت فقل : رائحه اللُّبَان ، وهو ذلك العقار الذى يعقد العرب عليه قيمة كبيرة . ولكن يالعجبهن عندما رأيننى أضع مشروبا يفور ! كانت حرفة ترجونى فى أحيان كثيرة ، أن أفرّج زميلاتها على ذلك الشىء العجيب الذى هو عبارة "عن ماء يغلى بلا نار ." والغريب فى الأمر ، أن العرب فيما يتعلق بالعلاج لا يعولون كثيرا على ما يتعلق بالحلال والحرام ، هذا يعنى أنهم يمكن أن يتناولوا النجس وكذلك الكريه وهم يقولون : "دواء Dawwa ! إنه دواء ." هؤلاء البدو ينصحون المرضى بأكل 'الرَّخام' Râkham، أو إن شئت فقل : جيفة النسر الأبيض الصغير . وفى أحد الأيام عثرت على إمراة مسكينة الحال من نساء مَنْزَلنا وهى تغلى شيئا من "فِشل" الحمير فى إناء ؛ وسوف تقدم ماء "الفشل" المغلى مع الحليب علاجا لأخيها المريض : والعرب يظنون أن الحمار نجس ، ولكن فشل الحمار نجس بصورة خاصة .

وأنا ، إذا ما قدر لى هنا ، الكلام بصورة واضحة عن ممارستى للطبابة ، فإننى أعتقد أن مسألة شفاء العرب أمر ميئوس منه ، كما أعتقد أيضا أن وجود حكيم (طبيب) بمعنى الكلمة ، فيما بينهم سيكون أمر محمودًا من الجميع . ويخسر هذه الجولة كل من تقل مقدرته العلمية ، ولا يكسبها سوى شخص واعد من بين قلة قليلة من الناس ؛ والسبب فى ذلك ، أن هؤلاء البدو الرحل سوف ينظرون بعين الاحتقار إلى

شكوك واحتمالات أولئك الأشخاص . يضاف إلى ذلك ، أن من يود أن ينجح لابد أن يكون شبيها بهم ، هذا يعنى أن مثل هذا الشخص لابد أن يكون آسيويا ، وقادرا على تطويع لسانه على وضاعة تلك الأذهان السامية Semitic . نظراتهم القلقة غير المتحضرة تتطلع إلى رؤية معجزات : والطبيب الحق ، الذى يقوم بعملية فحص النبض ليس إلا ، يظنون أنه قادر على استلهام حالة أى مريض من المرضى ، وقادر أيضا على معرفة كل ما أصابه فى الماضى ؛ كما يعتقدون أيضا أن مثل هذا الطبيب لابد وأن يكون لديه شىء محدد لكل مرض من الأمراض ، وسبب ذلك ، فى نظرهم ، هو 'وجود مرهم' ، فى الطبيعة ، لكل ورم من الأورام" ؛ ومع ذلك فهم يبلغون من النذالة حداً يجعلهم يقولون له إنهم سيدفعون له أجره فى يوم ما ، ولكن ذلك اليوم لا يأتى مطلقا . وأهل الجزيرة العربية يعانون من سوء التغذية ، وهم يظنون أنهم مرضى بصورة دائمة . والبدو الرحل يحيون حياة المخلوقات البرية ، دون الالتزام بغذاء معين أو محدد ، كما يشربون أيضا ماء ملوثا . وقلة قليلة منهم هى التى لا تعانى من أمراض الكبد ؛ كما أن الرياح التى تهب على أجسادهم شبه العارية ، تصيبهم بكل أنواع الروماتيزم ، وهم يطلقون الاسم 'الريح' er-rihh على جميع الأمراض التى لا يعرفون لها ، من وجهة نظرهم ، سببا . وهم يطلقون على كل مرض من الأمراض اسم 'وجع' Wajjâ، كما يطلقون الاسم 'وجعان' Wajjan على المريض نفسه .

والبدوى بحكم تعوده منذ صغره على المتاعب البدنية يفضل أن يتحمل المعاناة المضنية فترة طويلة ، بل ويفضل أيضا أن يسوء حاله أكثر فأكثر ، على إنفاق ماله على المُداوى Mydawwy أو المُطبِّب نظير أدوية ليست مضمونة الفائدة . السبب فى ذلك أن هؤلاء الساميين ، بحكم شراستهم ، لا يثقون بالإنسان ، وإنما يثقون بالله وحده فقط : هذا يعنى أن هؤلاء الساميين يفضلون تجربة العلاج بالطفيليات على أشخاص آخرين غيرهم . من هنا يصبح من الصعوبة بمكان على أى واحد من هؤلاء الأعراب الذهاب إلى المُطَبِّب (الحكيم) إلا عندما يكون ذلك المطبب على وشك مغادرة مَنْزلهم ، أو إن شئت فقل : ديرتهم ، هذا فى الوقت الذى لا يذهب فيه إلى ذلك المطبب سوى تلك الحالات المرضية الميئوس منها ولا أمل فيها . وبالرغم من كل ذلك ، فهؤلاء الأعراب

متيمون جميعا بالحديث عن آلامهم ، التى يُسرُّون بها إلى الحكيم فى أذنيه . وطوال تجوالى فى قرى الجزيرة العربية ، كان البعض يمسكون بأطراف عباءتى (بشتى) وهم يتعجبون : "أخ ، أنت بائع العقاقير ! هل تستطيع إعادة البصر إلى العميان ؟" من هنا ، كان الناس ، فى كل مكان ، يظنون أنى قادر على تقديم العون والمساعدة لأولئك الذين فقدوا أعينهم ، أو ضاع بصرهم . هؤلاء الأعراب يعتقدون أن الذهاب إلى الطبيب أمر يتفق مع الشرع ، والاستفادة من الطبيب بدلا من المعاناة من المرض الذى يصيبهم (بأمر الله) ، وهم يقولون : "الحكيم هو الله ، والله هو الشافى ؛" – ومع ذلك ، فإن البعض منهم ، الذين يتملكهم الحزن والأسى يقولون : "مالى غير الله ؟" وهم يعزون الشكر لله سبحانه وتعالى على كل الخدمات التى يقوم بها الإنسان ، ولا يدفعون لبائع العقاقير أجره أو مستحقاته : وهم يقولون فى هذا الخصوص : "لن أدفع ثمنا للدواء ، وإنما سوف أدفع للشفاء ؛ أرجو أن تثق بى أيها المداوى (الحكيم) ، سوف أوفيك حقك فى الوقت الذى يتطلع فيه قلبك إلى ذلك ."

يقول أهل الحضر : "عقل البدوى فى عينيه ." وأن البدو متواكلون وعجولون ، ويحكمون من منطلق قناعتهم التامة ، باللحظة التى يعيشونها ، معتمدين فى ذلك على الكسل والتواكل الموجود فى داخلهم . والبدوى لا يمكن أن تقنعه بأن قليلا من مسحوق الكنين يمكن أن يباع نظير مبلغ من النقود ، هذا فى الوقت الذى تذهب فيه نساء البدو إلى المدينة (المنورة) وتشترين عقاقير هزيلة عديمة القيمه وتدفع فيها مبالغ كبيرة . بعض آخر من البدو يتخيلون أن المداوى **Mudowwy** هو الذى صنع الأدوية كلها من أشياء أرضية وأشياء بسيطه أيضا . والحالات التى يثبت لهم فيها فاعلية الدواء العجيبة ، كما هو الحال فى المورفين (إذ إن الألم الشديد يزول بمجرد تناول نقطة واحدة من ذلك الدواء) . لا يمكن أن تحركهم أو تقنعهم : لأن كل ذلك لا يعد شيئا إذا ما قورن بالمعجزات الإلهية . يضاف إلى ذلك ، أنهم لا يطلبون مثل هذا الدواء مرة ثانية من المداوى ؛ وسبب عدم الطلب هذا ، هو أنهم سوف يتحتم عليهم دفع الثمن ، حتى ولو كان ذلك على شكل قليل من الأرز على سبيل الهدية ، أو قد يكون الثمن عبارة عن وعد بإرسال طبق من اللبن المخثر ، أو إن شئت فقل : لبن الخض . بعض ثالث من

هؤلاء البدو ، كانوا يرفضون دفع الثمن بعد الحصول على الأدوية ، نظرا لأن كل ما يمكن للبدوى الحصول عليه من خير الآخرين ، يكون مستباحًا وغنيمة له . بلغ هؤلاء البدو من الجحود حدًا جعلهم يسرقون ، الأكواب التى كنت أخلط لهم فيها الأدوية وأركبها لهم من قبيل الإحسان إليهم ، صحيح أن تلك كانت خسائر بسيطة جدًا ، ولكنها كانت أشياء يصعب تعويضها فى الصحراء . من هنا قال بعضهم ونحن نلتف حول وجار القهوة فى المساء : "الناس يفدون على خيمة خليل طلبا للأدوية ؛ وخليل بدوره ومن باب الثقة بهم يعطيهم كلهم الدواء بلا تمييز : والناس 'يقاطرون' Yegôtarun، أو إن شئت فقل : يذهبون لحال سبيلهم ، ولا يراهم خليل مطلقا بعد ذلك ، والله ! يا خليل ، أنت ليس فى رأسك أى شىء من العقل والفطنة فيما يتعلق بالشراء والبيع ."

لو قدر لى العودة ثانية إلى هذه الأماكن ، فلن أحمل معى سوى قلة قليلة من الأدوية والعقاقير ، التى يطلق عليها اسم أدويه النجدة السريعه ، سهلة الاستعمال ، وبعضا آخرا من الأدوية الخاصة بأمراض محددة أو علاجات بعينها . هؤلاء الذين لم يمروا بهذه الخبرة ، لا يمكن لهم أن يتصوروا مدى المشقة التى تترتب على تحضير الأدوية وتجهيزها فى الصحراء الجرداء القاحلة ؛ لك أن تتخيل كيف يمكن فى وجود تلك الشمس الحارقة ، وفى ظل ندرة الأشياء والافتقار إليها ، وفى ظل الفوضى والارتباك الذى يسود الخيمة البدوية ، كيف يمكن فى ظل كل ذلك وزن ذرات قليلة باستعمال الميزان ، والرمال تهب من كل جانب ، والماء النقى منعدم وغير موجود . وعندما تصبح المحاليل جاهزه ، يصعب بل يكاد يستحيل على المريض البدوى ، العثور على قارورة ، من أى نوع كان ، ليأخذ فيها شيئا من المحلول . بعد عودتى قال لى أحد الأصدقاء : "بدوك لديهم عادة طيبة ، – ليتها تكون عندنا هنا ! ليت الأطباء يحصلون على أجورهم بعد شفاء المريض ! وقد يحمل عليك رجل جريئ لممارستك علما لم تتعلمه !" – "لقد شفيت الكثيرين منهم ، والقسم الأكبر منهم بالمجَّان ؛ أنا لم أؤذى منهم أحدًا ؛ وأنا لم أغش منهم أحدًا ."

الأعراب كلهم يفضلون الأحجبة على الأدوية ، وبخاصة أنهم يجدون أن تلك الأدوية لا جدوى من ورائها على أيدى نسائهم . زد على ذلك أن المغاربة ، أو إن شئت فقل : عرب المغرب العربى لهم شأن كبير فى الجزيرة العربية ، إذ يعتبرون أفضل من يكتبون

تلك الأحجبة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الناس هنا يسلمون بأن المغاربة أصحاب دهاء كبير فى مسألة العثور على الكنوز المخبأة . والأحجبة أنواع كثيرة : منها ما يستعمل فى شفاء الأمراض العديدة ، ومنها أيضا ما يستعمل للشفاء من الجان ومن الشياطين فى الأرض ، كما أن هناك أيضا أحجبة للمحافظة على الحياة من الأخطار ، والتى منها تلك الأحجبه التى تحفظ من الرصاص . وهذا هو متعب Metaab بن الرشيد ، الذى تولى الإمارة على الشمّر بعد أخيه طلال Tellal(*)، كان يلبس واحداً من تلك الأحجبة ؛ وهاهم أبناء أخيه القتلة ، الذين رأوا أنهم قد لا يتولون الإمارة طبقا للأسلوب المتبع ، يبادرون إلى قتل متعب واغتياله عن طريق مقذوف (طلقة) مصنوع من الفضه . روى قائد الجنود التركى فى خيبر ، على مرأى ومسمع منى ، عن شخص جرى القبض عليه أثناء تمرد حدث فى المدينة (المنورة) ، وحكم على ذلك الشخص بالإعدام رميا بالرصاص ، من محكمة عسكرية ، وعندما أحضروا ذلك الشخص لتنفيذ الحكم فيه ، تساقطت الطلقات التى فتحوها على ذلك الرجل لإعدامه ، كما لو كانت ترتد من حائط أو جدار ، وبقى ذلك الشخص بلا إصابات أو جروح : وهنا قام أحد المنفذين للحكم بإطلاق طلقات من مسدسه على صدر ذلك الرجل ، ولكن الرصاص تساقط إلى جانب الرجل ، وهنا صاح ذلك المحكوم التعيس وهو يقول : "يا سادة ! أنا ليس لدى دفاع ضد الحديد !" وهنا قاموا بربط ذلك الرجل إلى فوهة أحد المدافع ، وبالتالى ، مات ذلك الرجل عندما جرى إطلاق المدفع . أقسم ذلك التركى أمامنا إيمانا مغلّظة بأنه حضر تلك الواقعة ، وأنه رآها رأى العين ؛ وقال آخرون إنهم سبق لهم معرفه حالات مماثلة قائلين : "نعم ، نقسم بالله أن ذلك صحيح !" – هذا هو حال المعجزات اليومية ، التى يسمعها الناس ويؤيدونها ويؤمنون بها فيما بينهم .

هذه النوعية من البشر هى نفسها التى تجرى وراء الرُّقى والتعاويذ والأسحار ، وبالتالى فهى لا تدفع للطبابة أو الأدوية أجرا : كل واحد من هؤلاء يفضل شراء حجاب

(*) تولى طلال بن عبد الله الرشيد الحكم فى جبل شمر بين عامى ١٨٤٧–١٨٦٧ ، وخلفه متعب بن عبد الله الرشيد ١٨٦٧–١٨٧١ . (المراجع)

يدفع فيه الريالات ، حتى وإن كانت تلك الريالات هى آخر ما فى حافظته من نقود . زد على ذلك أن الأحجبة التى يعدها مشاهير من يمارسون السحر تكلف من يقتفونها الكثير والكثير ؛ هذه الرءوس الكبيره تزيد الأمر غرابة ، بأن تعلن بأنها غير راغبة فى ذلك . هذه الأحجبه مكونة (مثلما يضفون طابع الدين على كل الأشياء المحيطة بهم) من "كلام الله" ، أى من نصوص مختارة من القرآن ، يجرى تدوينها بطريقة القَّبالة(*) . والرجل الذى يكون لديه طلسمان من ذلك النوع يتدلى من جسده ، يكون أكثر من واثق بنفسه ، حتى فى ساعات الخطر الداهم . بعض هذه الأحجبه (ومن أغربها تلك الأحجبة التى كتبها اليهود) كانت تستعمل فى أوروبا فى العصور الوسيطة ؛ ومن هنا يشيع استعمال تلك الأحجبة بين المسيحيين الشرقيين . داخل حدود الأراضى العربية قل أن تجد إنسانا ، أو حتى حيوانا ، لا يجرى تحصينه من عيون الحاسدين ، باستعمال تعويذة من التعاويذ . – يا للعجب ! ألسنا نشاهد مثيلا لهذه الأشياء فى أوروبا حتى يومنا هذا ؟ فى كل بلاد القساوسة ، بل وفى الرقيق والاستعباد .– كان كلامهم فى معظم الأحيان على النحو التالى : "سوف لا ندفع ثمنا لأى دواء ، والسبب فى ذلك أن العرب أناس فقراء ؛ ولكن هذه هى ريالاتى الثلاثة – والله ، لو عندى خمسة لجئت بها ، ووضعتها هنا ، حتى تكتب لى الحجاب الذى أريده وأرغب فيه :" وأمام الآخر يفضلون تناول الشراب السحرى الذى يحرض على الحب (المعاشرة) غير الشريفة . يضاف إلى ذلك ، أنهم كانوا يتخيلون تماما أن ذلك الرجل النصرانى ، الذى ليس من أراضيهم ، باستطاعته أن يكتب لهم تعويذة على نحو أسرع من أى إنسان آخر : كانوا يرون ذلك منى أمرا عجابا ، ذلك أنى بالرغم من فقر حالى فى نظرهم ، كنت أرفض رفضا باتا وبصورة مستمرة القيام بمثل هذا العمل ، فى الوقت الذى كان بوسعى فيه أن أغتنى وأثرى بمجرد استعمال قلم من البوص . ومع ذلك كنت عندما أسألهم : "هل ينبغى للإنسان أن يتدخل فى الأمور الموكلة للعناية الإلهية ؟" كنت أجد أفضلهم ، بصفتهم مسلمين ، يوافقونى تماما على ما أقول .

(*) القبالة : بتشديد الباء وفتح اللام ، تعليم نقلى تصوفى عند اليهود (المترجم)

فى بعض الأحيان كان البدو يمدون إلى أيديهم ، من منطلق مهارتى فى قراءة الكف ، وكانوا يرجونى أن أقرأ لهم طالعهم وهل سيكون ذلك الطالع صالحا أم طالحا . ' بعض آخر من الشباب المغرور ، كانوا يطلبون منى أن أتكهن لهم من خلال النظر إلى وجوههم لكى أقول لهم 'أننى رأيت شيئا من الشبه بينهم وبين الأشخاص الحَظِيظين ؟' ومن وجهة نظر العرب ، فإن الجنس البشرى قد يتلبس الجان أجساد بعض أفراده وعقولهم أيضا ؛ وهم يقولون عن الجان أن "نصفهم شرير ونصفهم الآخر طيبين ، نعم ، ومسلمين أيضا ." ويقولون أيضا إن الجان يسكن أو يعيش فى سبع مراحل (شأنها شأن السماوات السبع) يتكون منها بناء العالم السفلى ، ويقول العرب أيضا إن الأمراض الغريبة هى والأمراض العقلية الخاصة بالجنون تعزى إلى تأثير الجان ؛ وهم يقولون عن الأشخاص المحتقرين وعن الأشخاص المرتبكين إنهم "مجنونين" be-jinned أو "مجانين" Mejnûn أو إن شئت فقل : أصابهم مس من الجن . كل مرض له دواء ، وفى الجزيرة العربية مُعزِّمٌ لكل نوع من الجان أو الشياطين ، وهؤلاء المُعزِّمون يعملون فى مجال إخراج الجن من أجساد البشر المجانين - : Mejnûns ألا يوجد بعض من هؤلاء ، فى أيامنا هذه ، فى أوربا الأجراس والشموع ! – هؤلاء عندما "يقرعون" تعزيمات قوية من "إنجيل الرب" على أولئك الأشخاص المرضى يدخلون فى روعنا "تخويف الجن وطرده" من الشخص الذى يتلبسه . جاء إلىَّ الكثيرون وطلبوا منى الاستفادة من تلك المقدرة ، فى شفاء بعض من أقرب اقاربهم ؛ كان ردى على هؤلاء الأشخاص رفضا قاطعا تجلى فى نظرى إليهم شذرا ، وقلت لهم وأنا أعرب عن احتجاجى : "إن ذلك ينطوى على معنى سيئ تجاههم إذا لم أقم بإظهار تعاطفى مع المسلمين ."

ذهن البدوى المترحل يتركز دوما على الغزو ، وبالتالى فإن الوغد والشرير هو الذى يمكن أن يفوز ويكسب ، وإذا ما خسر ذلك الوغد أو النصَّاب فهو لا يخسر شيئا ، ولا يخسر أو يخاطر أيضا بدناءته : والرجال فى ظل هذه الحياة بالغة الصعوبة وفى ظل هذا الجهل المطبق ، يتحولون إلى وحوش أو إن شئت فقل : وحوش فى صورة بشر . ولكن الأعراب ليسوا جميعا من هذه الشاكلة ، ولكن مع هذه الإمكانيات الضيقة ،

تسود بين هؤلاء الأعراب روح إنسانية عالية وفاضلة أيضا ؛ وبخاصة بين الشيوخ وأولئك الذين يشعرون بالراحة فى حياتهم ، أو إن شئت فقل : بين أولئك الرجال الذين لا يعانون المتاعب اليومية لكسب العيش ، والذين تربوا ونشئوا فى رحاب المجالس ، والذين يُكْرِمون وفاد الضيوف من العامة . الحياة الإنسانية ، التى يصعب على الفقراء المساكين التحرك فيها إلا من خلال الطرق الوعرة وغير المعبدة ، والمليئة بالشراك والفخاخ القاسية ، تتوزع بالتساوى على كل أولئك الفقراء المساكين ، هناك أيضا نبلاء الصحراء ، أولئك الرجال المشهود لهم بالاعتدال ، الذين يصنعون السلام بفضل أحكامهم الدقيقة الواعية .

نار المساء الجذابة العائلية ، لها نفس بهجة النار التى يجرى شَبُّها فى الصحراء أثناء النهار . والشمس عندما تغرب خلف منحدر مرتفع من منحدرات الجزيرة العربية ، التى يزيد متوسط ارتفاعها على ثلاثة آلاف قدم ، يسارع الهواء الجاف قليل الكثافة إلى الحركة والانتعاش ، وهنا يبدأ الرمل فى البرودة وتنخفض درجة حرارته ؛ وعلى عمق ثلاثة أصابع يبقى دفء ضوء الشمس المتخلف عن اليوم السابق ، لحين شروق الشمس فى اليوم التالى . وبعد مضى نصف ساعة يبدأ الليل الأزرق فى الظهور ، تلك السماء الصافية التى تضيئها النجوم ، والتى يظهر فيها حزام درب اللبَّانة ، أو إن شئت فقل : طريق المجرَّه ، ظهورا واضحا . مع غروب الشمس ، تقوم ربة البيت البدوية بإحضار حزمة من عيدان الحطب والعشب الجاف ، الذى سبق أن اقتلعته أو جزته باستعمال المنجل (تلك الآلة التى يندر تواجدها مع البدو) من الصحراء ، تقوم ربة البيت بإلقاء تلك الحزمة إلى جوار الوجار ، استعدادا لشب نار المساء طيبة الرائحة . أما فيما يخص حرفة ، الزوجة الشابة بنت شيخ القبيلة ، فقد وفر لها زيد زوجها ، فتاة بدوية لمساعدتها . ربه البيت لها أيضا فى القسم الخاص بالنساء وجار خاص بها ، يستعمل فى عملية الطبخ . وقد جرت العادة أن تقوم حرفة ، الزوجة ، بخبز كعكة من الخبز للغريب تحت رماد وجارها : ولكن زيد زوجها البائس ، أو الذى لا يأكل إلا عند منتصف الليل تقريبا ، بعد عودته من المجلس ، يفضل الذهاب للنوم على الأكل .

فى هذه الساعة الأولى من ساعات المساء ، يكون البدو جميعا مع أهلهم ، أو إن شئت فقل : أسرهم ، لتناول العشاء مما يتوفر لديهم من فتات ولقيمات ؛ فى هذه

الساعة يقل التجوال فى أرجاء المخيم الواسع ، كما يقل أيضا وصول الأشخاص من أهل المخيم ، وليس الغرباء ، وهذان أمران يوحيان "بجهل" غير لائق . هذه هى الإبل المهجنة وقد بركّها أصحابها أمام بيوت الشَعر التى يعيشون فيها : والبدو يتركون نياق الإبل مدة ساعة ، لا يحركونها خلالها ، وذلك قبل القيام بحلب تلك النياق . هذه الحيوانات الضخمة الضعيفة كانت تتجول طوال النهار فوق سطح الصحراء الجاف القاحل ؛ مما يُصَعِّب الأمر على البدو ويحول بينهم وبين الحصول على ما يبتغونه ، خلال ساعات طويلة ، من مراعى هزيلة على هذا النحو ، هذه هى الفرس تقف مُلجَّمة أمام بيت الشَعر من ناحية جناح النساء ، حيث تقل الحركة إلى حد بعيد . وإلى جوار تلك الفرس يلقى البدو العلف العشبى الجاف الذى يتيسر لهم فى تلك الأرض الجرداء . بعد أن يتناول العرب طعامهم الهزيل ويشربون لبن القطيع ، يبدأ رجال منزلنا القليليين فى التجمع حول وجار قهوة الشيخ ، انتظارا لشىء من القهوة . أصغر أعضاء الجماعة سنا ، أو إن شئت فقل أقلها مقاما ، يمد يديه بين الحين والآخر لتناول المزيد من عشب الرمض الجاف ، ليلقيه على النار ، ومعه بعض الأغصان طيبة الرائحة ، إلى أن يعلو لهب النار من جديد وسط ذلك الظلام الدامس الشاسع . والبدو الرحل لا يحرقون أدغال المراعى الجيدة التى يطلقون عليها اسم "القُصَّة" ، حتى وإن كانت فى ديار أعدائهم . والسبب فى ذلك أن تلك "القُصَّة" هى عندهم بمثابة الخبز الذى يقدمونه للماشية . وأنا فى أحيان كثيرة كنت أخلط عن غير قصد بين نباتات القُصَّة والنباتات الأخرى ، بأن كنت أقتلع تلك النباتات التى كانت تنمو فى الأرض القريبة منى ؛ وعندها كان الأطفال والنساء وكذلك الرجال ، الذين لم يفهموا حقيقة الأمر ، يلومونى وهم يقولون : "كان ذلك من أعمال الكفار" .

مع طلوع ضوء النهار الخاوى يجلس أرباب الأسر السعداء من جديد وهم يتسامرون أو صامتون بلا حراك ، بصحبة حيواناتهم التى لها جاذبية خاصة عندهم . كبار السن منهم يحسون دوما بالتعب والإرهاق ، فى حين يستلقى الرعاة الذين أمضوا اليوم كله فى ضوء الشمس متحلقين حول الوجار ، وقد اتكأ كل واحد منهم على كوعه الأيمن (وهذا هو الوضع الصحيح عند العرب الذى علمنى زيد إياه وطلب منى الإفادة

منه بصورة دائمة) . ولكن الاسترخاء فى المنزل (الخيمة) يكون بالرقود على الأرض ، حول الوجار ، والكعبين متجهين إلى الخلف ، بحيث يكون البطن مفرودا على الأرض (ظنا منهم أن ذلك الوضع يقلل من آلام الجوع المستعر داخلهم) ؛ ثم يرفع الواحد منهم رأسه قليلا ، ويروحون يتسامرون وهم رقود على صدورهم ومتكئين على أكواعهم : وعلى هذا الوضع يروح أفراد هذه الأمة الضعيفة فى النوم وهم على هذه الشاكلة ، ولا يفردون تحتهم أى شىء آخر غير عباءاتهم ، فوق الأرض غير الممهدة التى يطلقون عليها اسم (البلاد) **béled**، وهم أنفسهم يدينون ذلك الوضع ولا يرضون عنه . وكلمة (البلاد) **béled** هذه على لسان البدو الرحل ، تدل على التربة المأهولة بالسكان من أرض الصحراء الواسعة ومن أراضى الواحات أيضا ؛ والبدو يقولون أيضا عن الميت : "إنه تحت البلاد "**béled** . وكلمة ديرة **Dira**، التى معناها 'دائرة البدو' ، تتردد أيضا فى بعض الواحات على أنها تعنى 'المستوطنة الحضرية' .– سألت زيدا : "هل تقول إذن أن البلاد **béled** هى أُمنا ؟" – "هذا صحيح ، ومؤكد يا خليل ، لأن الله خلق الإنسان من الأرض (الطين) كما أننا جميعا سنعود إلى الأرض ." سألونى عن عرفنا فيما يتعلق بهذا الموضوع فقلت لهم :أنتم ممن يجلسون على الأرض ، ولكننا نجلس على كراسى عالية مثل الأتراك ." – وهم يظنون أن تدلى أرجل من يجلسون على الكراسى ، طول اليوم ، أمر مرهق ومتعب تماما . رد زيد قائلا : "خليل محق فيما يقول" ؛ وزيد هذا شيخ من شيوخ الأعراب ، قد سبق له التواجد مع الباشوات ورجال الحكومة فى دمشق ؛ وحكى لنا كيف أنه رأى هؤلاء الباشوات هم ورجال الحكومة وهم يجلسون على كراسى ذات أذرع (وأنهم جميعا من الشرقيين الذين يجلسون متربعين) واضعين رجلا فوق الأخرى أو ساقا على ساق أو قدم على قدم : ومسألة وضع القدمين على بعضها أمر بسيط ومن الأشياء المألوفة : ولكن مسألة ملامسة الركبتين لذقن الرجل (كما أوضحها لنا زيد) فهى مقصورة على كبار شخصياتهم فقط .' كما سألنى الأعراب فى أحيان كثيرة أيضا عما إذا كنا نتجمع فى جلسات ودية من هذا القبيل حول نار المساء ؟ وسألونى أيضا عما إذا كان الجيران يقصدون بيوت الجيران ، سعيا إلى الصداقة وشرب القهوة ؟

أثناء الجلوس على هذا النحو ، إذا ما وقف أحد الجالسين ، فإن الفرس تَنْخر قليلا ، ويبدو عليها كما لو كانت تنتظر أن يقوم ذلك الذى وقف بإحضار شىء من حليب النياق الدافئ اللذيذ ، وتروح الفرس تطيل النظر من خلفه ، وتصهل فرحا وسرورا . وهناك ناقة تخصص لكل فرس من أفراس البدو الرحل ، والسبب فى ذلك أن أفراس البدو لا تستسيغ طعم القمح أو الشعير ، إضافة إلى أن أعشاب الصحراء الخشنه الجافة لا يمكن أن تحفظ على تلك الأفراس حياتها : ونظرا لأن الحصان ليس من الحيونات المجترة ، ونظرا أيضا لأنه يفقد الكثير من الرطوبة عن طريق الجلد ، فإنه يعد من الحيوانات العجولة فيما يتعلق بالجوع والعطش . من هنا فإن فرس أى شيخ من شيوخ الصحراء تكلفه الكثير ، إذ يتعين عليه فى أحيان كثيرة تحمل أعباء حمل آخر بحمل الماء اللازم لتلك الفرس . والفرس تشرب مرتين فى اليوم ، وفى أشد أوقات الصيف حرارة قد تشرب ثلاث مرات فى اليوم ؛ وحمولة الجمل من قراب الماء لا تكفى لسقيا تلك الفرس أكثر من يومين اثنين . ومن لديه زوجة أو فرس ، كما يقول المثل القديم ، قد يندم ، لأنه لن يرتاح باله ، لأن تلك الممتلكات الهشة الرقيقة قد يصيبها ، دوما ، التعب والآلام ، ومع ذلك ، وفى ظل هذا المناخ الغريب ، الذى يعتمد فى الأساس على الخيمة العالمية ، لا يكون أمام البدو ما يهتمون به سوى أفراسهم ؛ ومسألة حك أجسام الخيول غير معروفة فى صحراء الجزيرة العربية . والبدو عندما يحلبون نياقهم ، يعملون حساب الفرس أولا وقبل كل شىء ، ثم بعد ذلك (وغالبا ما يكون فى الإناء نفسه) الحليب المطلوب للأسرة البدوية المترحلة . والفرس تقف متحفزة ، وهى تنظر فى الاتجاه الذى ينبعث فيه الصوت الناتج عن عملية الحلب : ويجرى بعد ذلك حمل الإناء بعد أن يجرى ملؤه من ضرع الناقة ، وهو يطفو من فوقه زبد الحليب ، بين يدى الراعى إلى حيث تقف الفرس ، لتتناول عشاءها ، من خلال أسنانها ، من ذلك الحليب الدافئ اللذيذ ، دفعه واحده . وحلب النياق يكون بمعدل مرة واحدة فى اليوم ، ويكون ذلك فى المساء ، اللهم إلا إذا كانت هناك ضرورة لحلب شىء من اللبن لشخص مريض فى الصباح أو غريب وفد على الديار ، أو لعابر سبيل أثناء النهار . والماشية الصغيرة ، التى يطلقون عليها اسم 'الغَرنَّن' (*) ghrannen أو 'الدُّبوش' dubbush(**)، يجرى حلبها

(*) المقصود هنا هو " الأغنام " (المترجم)

(**) هذا هو اسم أخر يطلقه البدو على الأغنام . (المترجم)

عند الغروب ؛ وربات البيوت لا تحلبن تلك الماشية الصغيرة مرة ثانية فى الصباح إلا فى المناطق التى يجود فيها الربيع ويربو . وربات البيوت هن اللاتى تحلبن "الدُّبوش" ولكن الرجال هم الذين يحلبون النياق . والربيع عند البدو الرحل هو موسم الحليب ، الذى يتغذى خلاله الناس والحيوان (إذا لم يخيب المطر الآمال) تغذية جيده فى تلك الأرض القاحلة ، وحلب الماشية الصغيرة لا يدوم سوى أسابيع قليلة من بداية الربيع إلى الخريف التالى ، عندما يجف العشب ؛ ولكن حلب النياق يصل إلى ما يقرب من أحد عشر شهرا .

خيول الصحراء بحاجة ماسة إلى ذلك الحليب ، إلى حد أن الخيول يتحتم عليها ، خلال جفاف الصيف الجاف أو أثناء فترات القحط ، أن تصاحب الإبل ، فى فترات القحط ، من منطقة تواجدها فى المنزل ، إلى ما يطلق عليه البدو الرحل اسم 'العذاب' Azab والذى يعنى التغيب أياما عدة ، بحثا عن المرعى ، حتى يتسنى لها شرب لبن الرضاعة . أما عندما يكون الشيخ بحاجة إلى فرسه فى مَنْزله ، فإنه يغذيها ، قدر المستطاع دون الاعتماد على حليب الرضاعة ، وذلك بخلط سلطانية من لبن 'المريسى' Mereesy، أو إن شئت فقل : اللبن المجفف ، بشىء من الماء . و'المريسى' هو لبن 'الخض' أو إن شئت فقل : اللبن المخثر ، الناتج عن لبن القطيع ، وهذا اللبن يجرى تجفيفه عن طريق الغلى إلى أن يتحول إلى شرائح تشبه الطباشير . وهو مشروب يشكر البدو ربهم بعد تناوله فى أيام القحط ، وعندما تشتد حرارة الجو ، فى تلك الأرض الجرداء القاحلة ؛ كما أن البدو يستعملون المريسى طوال أشهر الموات الطويلة التى تخلو من الحليب ، بل يمكن القول إن المريسى هو الغذاء الذى يتغذى عليه البدو فى أيام الشدة والقحط التى تمر بهم . ونظرا لأن المريسى هو أفضل ما يمكن أن يصاحب البدو فى رحلاتهم ، فهو المشروب المفضل عند الفجر ، كما أنه شىء ضرورى عند سكان المناطق الحدودية ؛ والمريسى فى واحات الجزيرة العربية له قيمة كبيرة إذ يستعمله سكان الواحات مع طعامهم غير الصحى المكون من التمر ، الذى يعطى وحده قدرا كبيرا من الطاقة والحرارة . والمريسى (وذلك الذى يمكن فركه بين راحتى اليدين ، يمكن خلطه بالماء ،') أو إن شئت فقل اللبن المجفف ، له أسماء أخرى كثيرة فى سائر

مناطق الجزيرة العربية ، ففى غربى نجد يطلقون عليه اسم 'البجيلة' bûggila، ويقولون له أيضا 'البجّل' baggl؛ وفى الجنوب وبالقرب من مكه يطلقون عليه اسم 'المُضير' Mu-thir . والزبد يمثل بضاعة أو سلعة السوق عند البدو الرحل الفقراء : والبدو يستطيعون مقايضة الزبد فى الحضر ببعض الأشياء الضرورية لحياتهم . وبعد أن تأكدت من تواجد المريسى فى الخُرْج ، وبعد أن تأكدت من الحصول على الماء من الطريق كل ثلاثه أيام ، لم تعد تراودنى الشكوك حول القيام برحلات طويلة فى الخلاء ، أو إن شئت فقل : فى الصحراء الشاسعة . يبقى المريسى على حاله دون أى تغيير ، إلى مجىء الموسم التالى ؛ ويكون المريسى بحالة جيدة فى الموسم الجديد اللهم باستثناء أنه يزيد صلابة على صلابته . وأفضل ما يمكن عمله عند هذا الحد ، هو طحن المريسى على شكل دقيق ، وهذا هو ما يفعله أهل القصيم ؛ ثم يقلبونه بعد ذلك مع شىء من السكر ، فى سلطانية ، مع شىء من ماء الصحراء ، ليصبح بذلك شرابا منعشا بعد عناء وحرارة رحله طويلة فى الصحراء .

جميل حقا أن ينصت الإنسان لكلام البدو المفعم بالتأمل ، والذى يعد درسا فى مدرسة الرحالة ذات الإنسانية الفريدة ،- كما أنه ليس هناك أرض أخطر من أراضى البدو ، التى قد لا يمر خلالها أو يتجاوزها إنسان عن طريق الإنسانية ، والسبب فى ذلك أن عقل الإنسان واحد فى كل مكان من هذه الأرض ، وهذا حقيقى ، ويتجلى فى هذا الجنس بكامله ، كما ينطبق ذلك على حيوانات هذه الأرض نفسها - الفراغ من الهموم التى يمكن أن تحيط بنا هنا ، هو الذى يجعل الناس تعيش فى سلام فى ذلك الخواء الخلقى فى هذا الجزء من العالم . وكم هى جميلة تلك الأصوات التى تصدر عن ذلك اللبن الذى يجرى حلبه من الضرع ، فى أوعية العرب وأوانيهم ! هذا الحليب طعام للإنسان وللصحة ، فى وقت القحط والجفاف ، فى ذلك البلد القاحل . هذا هو الوعاء يجرى إحضاره وقد غطاه زبد الحليب ، وهاهم الأطفال يتجمعون حول الإناء ، كما يجرى أيضا عزيمة الضيف على تناول العشاء مع الأطفال ، مستخدما فى ذلك أصابعه ، فى لعق دعوة الحليب الحلوة التى يطلقون عليها اسم 'الرَّغرة' Orghra أو 'الرغروة' roghrwa أو قد يقولون لها : 'الرتوغ' irtugh ؛ وإذا لم يأكل الأطفال الحليب كله ،

يجرى وضعه فى الخضّاضة ، التى يصنعونها من جلد الحيوان ، لمدة لحظة ، ثم تعيد ربة البيت تقديمه للأطفال فى وجبات العشاء ، بعد أن يكتسب طعم الحليب شيئا من الحموضة مما يجعلهم يظنون أنه يصبح أكثر إنعاشا لهم عندما يشربونه .

تتركز أنظار البدو الرحل على التطابق والتوافق ما أمكن مع الطبيعة ؛ كما أن التكاسل بين هؤلاء البدو يعد أمرا من الأمور الصارمة أو القاسية . هؤلاء البدو يتحدثون عن أشياء موجودة داخل أفقهم . فتلك "الحكايات العربية" Arabian المبالغ فيها ، والتى تروى عن المدن الحدوديه العظيمه ليست سوى سذاجة دنيوية بالقياس على أحكامهم الطبيعية الصارمة . ومع ذلك ، فإن الكثير من الدم السامى Semitic الشرقى يجرى فى عروق هؤلاء البدو ، الأمر الذى يجعل الكثيرين منهم يحلمون طوال حياتهم بالكنوز المخبأة ؛ أو إن شئت فقل بالثروة التى يمكن أن تهبط عليهم من السماء فى يوم من الأيام . والأعراب لديهم بدلا من حكايات المدينة ، تعبيراتهم الجياشة المليئة بالعواطف ، التى قد تتردد فى كل هجره من الهجر البدوية ، كما هو الحال عند بنى هلال . والعرب سرعان ما يصدقون ذلك الذى يروى لهم ويكون خارج نطاق معرفتهم ، ومن ذلك مثلا ما يقال عن الدول الأجنبية . وكلام البدو كله كلام منمق وجذاب ؛ وهم يحكون عن غزواتهم السابقة وعن المغامرات التى قاموا بها فى الصحراء إبان حياتهم . ونحن قد نستمع إليهم وهم يقتبسون فى حكاياهم أوزانا شعرية فيما بين الحكمة والمرح فى القصائد ، وأفضل قصائد الحكمة والمرح هى تلك التى تشيع بين القبائل . ففى كل قبيلة هناك صنّاع (قُصّاد) ؛ وقصّاد (شعراء) بشر ، هم أفضل ما فى هذا البلد من شعراء . والقصّاد يتغنى بشعره ، الذى يتملق به جمهور الحاضرين كى يلتقطوا كلماته الأخيرة من كل كوبليه . وأنا فى وجه هذه الطلاقه الشعرية ، قد لا أتمكن ، بل ويصعب على أن أتمكن ، من ذلك الذى يقال فى مثل هذه المناسبات ، إنها لغة عربية بحق . وكلمة 'شاعر' ، أى 'من يَشعُر' لا يستعملها هؤلاء القصادون ؛ وقد أجابنى زيد عندما سألته عن تلك الكلمة ، بأن قال لى : إن البدو لا يعرفون هذه الكلمة ، وإنما يعرفون كلمة أخرى "هى نادم" . والمغنى البدوى ينتج أصواتا حاده ومقززة من ربابته المكونة من وتر واحد ويروح يلقى ما يدور فى ذهنه بمصاحبة تلك النغمات ، كما يخرج

الكثير من الأصوات عن طريق الأنف ، والذى لا شك فيه أن تلك أشعار من النوع القديم والعتيق تماما ، فى هذه البلاد ، ولكنها غريبة تماما على آذاننا . هذه الوعول ، التى ترافق الماشية طوال اليوم فى البادية ، هى التى تغنى ، أثناء عودتها فى المساء ، للبشر الموجودين فى البيوت . سألت فى كثير من الأحيان عن قصيدة عبيد بن الرشيد(*) واكتشفت أن كل المغنين فى هذه الديار كانوا على استعداد للتغنى ببعض تلك القصائد . كان شباب الرعاة . من مُنَزل زيد على استعداد للتغنى أمام الغريب بأقوى قصائد الحدو ، أو إن شئت فقل : أغانى الرعى التى يتغنون بها فى فترة المساء (كما أن كلمة 'رباب' أو 'ربابة' Rabeby ربما كانت هى الكلمة الإسبانية Rabel، التى كانت تدل فى إنجلترا قديما على Revel أو Rebibel والتى معناها 'التَّلذذ') والبدو يصنعون الربابة من إطار أى صندوق من الصناديق التى قد يحصلون عليها من مدن الحضر : وهم يمررون عصا خلال إطار ذلك الصندوق ، ويحدثون فى تلك العصى ثقبا لوتد من الخشب يطلق عليه اسم ملوِّى الآلة الموسيقية ؛ ثم يشدون على فوهة الصندوق قطعة من جلد الماعز ؛ وهم يجلبون الأوتار من الشَعر الذى ينمو فى أذيال الخيل ؛ وهنا تصبح الآلة الموسيقية جاهزة للاستعمال .

خيال البدو الرحل عال تماما ، وهم يغلفون ذلك الخيال بالدين . والبدو لا يرون من حولهم سوى ضنك التربة وفقرها ، فضلا عن امتلائها بالأخطار وعجز تلك التربة عن أن تحفظ على هؤلاء البدو حياواتهم ، ويرون من فوقهم السماء ، موطن الخلاص والإنقاذ الربانى . هؤلاء المسلمون لديهم ضمير طبيعى قادر على تأمل الخير والشر أكثر من أى أناس آخرين ؛ والكل يمكن أن يلاحظ هذين الأمرين فى كل تعاملات هؤلاء البدو مع الجنس البشرى ، ونحن نستطيع الوقوف على فهم مواطنى الصحراء الراقى من خلال الخطاب الذى يدور بينهم (الذى يتردد بين الاعتدال والكلام الرجولى الصارم)

(*) عبيد بن الرشيد : هو الساعد الأيمن لأخيه عبد الله بن الرشيد ١٨٣٥-١٨٤٧ الذى أعتمد عليه فى تثبيت دعائم حكمه فى إمارة شمر وقد سجل عبيد بن الرشيد – وكان شاعرا موهوبا – الانتصارات التى حققها فى واحدة من أشهر قصائده . (المراجع)

وفى تصرفاتهم الحرة غير المقيدة . وأنا ، عند هذا الحد ، تقفز إلى ذهنى ، بعض المحسنات القليلة التى توشى كلام البدو : كما هو الحال فى التناقض اللطيف التالى ، 'لا ! الله يسلِّمك La ! Ullah yesellimk . والبدو فى مقام التصحيح يقولون : 'لا ! la الله Ullah هاديك 'Hadîk، وإذا ما أرادوا الجمع بين التناقض والتصحيح يقولون : 'الله Ullah يرحم yerham والديك 'weyladeyk ؛ أو 'يهادى yuhàdy والديك wayladeyk الجنّه ' ' il'ej-jinna . والبدو عند التعجب والدهشة يقولون ، وهو أمر يشيع فى حياتهم السامية كلها : 'الله ! 'Ullah أى أنهم يستخدمون لفظ الجلاله ، ويقولون أيضا : 'أنا Ana أُشْهُد ! 'ushhud (المقصود هنا 'أنا أشهد') ، ويقولون أيضا : 'يقدر yukdur الله ! 'Ullah؛ كما يستعملون أيضا التعبير الذى يقول : 'رحمة Rahmat الله ! Ullah 'وفى أحيان كثيره قد يقول العامة منهم (مستخدمين فى ذلك تعبيرا بدويا يضحك منه أهل الحضر ،) : 'أنا ana قفل efl نعم والله ! - ' ayowwella وأنا أترك معنى هذا التعبير للعرب أنفسهم . والبدو عندما يكونون مهمومين يتنهدون وهم يقولون "يا ya ربّى ! "Rubby عشاق الهدوء فى المنازل ، يتسم كلامهم بالسلام والوداعة ، كما يتسم جدالهم بالأدب فتراهم يقولون : "وا wa لو "low، التى يعنون بها "حتى وإن وصل الأمر إلى هذا الحد " ؛ ويقولون أيضا : "سلَّمت "Sellimt بمعنى "أعطيك إياه" . والبدو عندما يعترفون بخطأ وقع عن طريق الجهل يقولون : "أدخل udkhul على الله "al' ullah بمعنى "إن كنت قلت شيئا غير لائق ، فحسبى الله" . والبدو عندما يتمنون الخير لعابرى السبيل أو الغريب يقولون : "الله Ullah يوصّلك بالخير "Yuwasselak b'il - kheyer، ويقولون أيضا : "إن شاء الله 'Insh' ullah ما تشوف الشّر " ma teshuf es-shurr؛ كما يقولون أيضا "الله Ullah يذكرك yethkirak بالخير . " b'il-kheyer والتعبيرات البدوية التى يستعملونها فى مقام الشكر والامتنان هى : "عافية àfy عليك " aleyk أو "العافية " el-afy، وهم يعنون بهذا التعبير "أتمنى لك الصحه والعافية " ، أو قد يقولون : "جزاك Jizak الله Ullah خير "kheyer بمعنى "هيأ الله لك الخير !" . والبدو عند الفراغ وراحة البال ليس لديهم من شىء فصيح غير هذه التعبيرات . والسياق البدوى يمتاز بالإيجاز والتوكيد . كما أن هناك اتساق واضح فى كلامهم ، بالإضافه إلى

الدلالة أو المعنى السريع اللماح . وأهل الحضر من سكان الجزيرة العربية يحتقرون كلام أبناء الصحراء ويزدرونه ؛ وأهل الحضر ، هم أنفسهم طائفيين متشددين فيما يتعلق بقراءة القرآن منذ القدم . ولما كان الأعراب من الآسيويين ، فهم دائما من المتحدثين المبتسمين . وكلام البدو كله هو شكل واحد من أشكال اللغة العربية ، ومع ذلك فكل قبيلة تستعمل هذا الشكل استعمالا خاصا ، هم يطلقون على ذلك الاستعمال الخاص اسم "لغره" loghro(*)، والمعروف أن الجيران يسخرون دوما من لغات بعضهم البعض . "فتراهم يقولون : كلامهم 'أعوج' إلى حد ما ." من ذلك مثلا أن الصوامت التى تجىء فى نهاية السياق تعتريها لثغة على ألسنة بدو الفقارة . فى حين أن كلام الموءاهيب كان واضحا ورجوليا . والصوت البشرى ، الذى يطلق عليه البدو اسم "حس" hess، فى إطار الهواء الجاف ، وفى ظل السياقات المتقنة التى بها الكثير من مخارج الألفاظ الصعبة فى لغة البدو ، يصبح الصوت البشرى فى ظل كل ذلك ، واضحا ومدويا ؛ اللهم باستثناء أن يكون ذلك الصوت صادرا عن حلق أجش مبحوح ناتج عن بؤس صادر عن قلب مكلوم .

هناك أيضا ذلك الذى يمكن أن يغضب ويسيئ من كلام هؤلاء البدو . والمعروف أن الفراغ هو والحقد يعكران صفو الذهن ؛ الأمر الذى يجعل من الصعب على هؤلاء البدو ، أثناء الكلام ، تذكر اسم الشخص القبلى الذى يجلس إلى جوارهم ؛ يضاف إلى ذلك أن فضولهم عجيب فى التدخل فيما لا يعنيهم ، وشك الواحد منهم فى الآخر ، والتعلق بالتفاهات ، والمداعبات الصارخة ، (إذا ما أرادوا الحصول على شىء ، والتى تقوم دوما على الخداع والمخاتلة ،) والوعود الوقحة هى والإلحاح أو اللجاجة السيئة . زد على ذلك أن كلام البدو الظالم الجائر ، الذى يمكن أن يضاف إلى ما سبق ، غالبا ما يفضى إلى جلبة كبيرة تعكر صفو "السلام الإلهى" فى الخيمة البدوية ؛ هذا الكلام تستنكره بقية الجالسين الصامتين على مضض ، الذين يتصدى الأفاضل منهم للقيام

(*) المقصود هنا هو " لغة " ولعل الخلط ناتج هنا من صعوبة نطق صوت " الهاء " بعد صوت " الغين " على المؤلف ، وهو إنجليزى بطبيعة الحال . (المترجم)

بدور صنّاع السلام . يضاف إلى ذلك أن كلام الرعاة يكون مليئا بالهزار والاستهتار ، ويعج أيضا بالكلام الفاحش الذى يقولونه على مرأى ومسمع من الجنس الآخر : اعتقادا منهم أن ذلك من قبيل المرح البرئ ، نظرا لأن الله قد خلق طبيعتنا على هذه الشاكله . والساميون ، من المستحيل عندهم مطلقا التجديف ، بالطريقة التى يتبعها أفراد جنسنا نحن ، على عناية السماء الإلهية . والمعروف أن الدين السامى Semitic هو بمثابة النمو الطبيعى للتربه داخل أرواح الساميين ؛ كما أن أى تهاون فى ذلك الدين يكون بمثابة وداع لحظة من لحظات الحياة ، ووداع أيضا لتقديراته الدنيويه : هذا يعنى أن قلوب هؤلاء البدو القاسية الظالمة قادرة على إحداث الضرر والسوء بكل صوره ، على ألا يتطرق ذلك القنوط إلى ذات الله العلية . ومن منطلق تلك القناعة الدينية عند أولئك البدو ، والتى مفادها أن حياة الإنسان يتعين ضربها حتى الممات ، بالنسبه لكل من يتمرد على الله وكل من يحتقر الإيمان والعقيده ، من منطلق أن ذلك ينبع من الحظر الشديد الذى يحيط بترحالنا بين هؤلاء البدو ؛ حيث يوجد فى كل خيمة من الخيام ، من يرعى مسألة الدين بطريقة وحشية فظيعة قد تصل إلى حد قتلنا ، (الأمرالذى يمكن أن يقوم به الرجال كلهم من باب الدين وإعمالا لعدالة السماء) . ولكن فيما عدا ذلك لا يرعون اسم الله طوال اليوم (مثلما كان الحال فى إسرائيل القديمة) . مؤكدين كل كلمة خفيفة وكل ضحكة خفيفة أيضا بالحلف والقسم . خطأ الرعاة الجسيم لا يخلو مطلقا من الطبيعة السامية Semitic، معنى ذلك أن روح هؤلاء البدو تكون جشعة فيما يتعلق بعيشهم وأرزاقهم ، كما تكون جشعة أيضا فيما يتعلق بزيادتهم ، وبالرغم من تشتت بنى إسرائيل بين أكثر الأمم تأدبا ، فمن ذا الذى لم يلاحظ ذلك الطبع فى بنى إسرائيل ؟ ويوسف الصغير ليس سوى مجرد راوٍ لوالدهم عن ذلك الحديث الفاسق الداعر الذى جرى بين أخواته فى الحقل ؛ هذا هو حال البدو الرحل من الساميين . فلسطين ، هى والبلاد فيما وراء الأردن وإيدوم (*) أعطيت لأبناء

(*) أيدوم Edom ويصح فيه أيضا Idumaea ، وهى منطقة فى جنوب فلسطين فيما بين البحر الميت وخليج العقبة . (المترجم)

إبراهيم هم وأبناء اخوته فلفظوا الأمم التى كانت تسكن تلك الديار قبلهم ، كما دنَّسوا الأرض : وقد حُذِّر بنو إسرائيل ، من أن تلفظهم الأرض هم أيضا . ونحن نقرأ عند (سيدنا) موسى عن ذنب البدو الرحل وبقائهم مع الماشية ؛ وقد أُمِر الناس بالقضاء على الذنب عن طريق رجم بنى إسرائيل بالحجارة : وهذا فى الجزيرة العربية ليس سوى سخريه مرة يقرها الكبار بالأنين والتأوه والسب واللعن . ولما كان العرق الرعوى على هذه الشاكله ، كان لابد لإسرائيل أن تنزلق منسلخة عن دين موسى ، إلى عباده الأوثان السهلة الحسية التى كان يمارسها الكنعانيون القدماء .

وإذا كان لنا أن نوجز القول عن العرب ، فى أسوأ أحوالهم سنجد أنفسنا نقول : إن فم العرب ملىء باللعن وبالكذب وبالصلوات أيضا ؛ وقلب العرب عبارة عن متاهة خادعة . وقد سبق لنا الحديث عن تحضرهم ، أو إن شئت فقل : الحضر منهم ؛ ومزاجهم إذا ما اعتل يطفح مرارة وسموما ؛ والمَسبَّة عند هؤلاء البدو صارخه وقاسية وجوهرها الازدراء والاحتقار . والبدو يقولون : "الله Ullah يلعن Curse أباك thy father (استعمال الضمير thy هنا أفضل من Thou) ، وأبا أمثالك ! يُحرق أباك burn thy father ! هذا وقود بشرى لنار جهنم ! لا بارك الله فيك ! أى حرمك الله من المشاركة فى خيره ! ينهدم عليك بيتك !" حدث أن سمعت ذات مرة ، شخصا محترما يوبخ ولده الصغير الطائش ويؤنبه قائلا : "الله يشج بطنك ! يلعن أبا (جسدك) تلك الرأس والبطن ! عذَّب ذلك الوجه الكريه !" كما سمعت شخصا آخرا يوبخ ويلعن شخصا آخرا وهو يقول : "لعنتك الملائكة أجمعين ، ولعنك المسلمون أجمعين ، وليلعنك الكفار أجمعين !" معروف أن سلاطة اللسان أمر طبيعى عند العرق السامى شبه المخنث . النبى يدعو على من أزعجوه : "أسفك دماءهم بالسيف ، وأمت أطفالهم جوعاً ، وعقِّم نساءهم ، ورمِّل زوجاتهم : سوف يصرخون من داخل بيوتهم عندما ينزل الغزو عليهم فجأة . يارب ، لا تغفر لهم تجاوزهم ، أقلق أرواحهم ، ودمرهم من تحت السماء ، وأحلّ عليهم لعناتك ." وهذا هو رجل طيب يلعن أطفاله العصاة لعنا وبيلا . والأعراب يؤكدون كل ما يقولون بالأيمان وبالقسم ، تلك الأيمان التى تعد أمرا هينا جداً ، بالرغم من أن الأعراب يقولون " وحياة Wahayát الله " Ullah، أو قد يقسم الإنسان بنفسه

ويقول "علىَّ Aly لحيتى ". lahyaty أو "وحِياة Wahyât ذقنى ". dúkny هذا يعنى أن الأعرابى يقسم بتلك الأيمان طالما أنها لن تكلفه شيئا ، هذا إن لم يكن زعلانا أو حزينا ، أو عندما تزداد كراهيته . وإذا ما أقسم الأعرابى بدينه ، فإن ذلك القسم يكون قليلا جداً فى أغلب الأحيان وبكثير جداً من التحفظ الذهنى . وهم يمدون الأيدى إشاره أو توكيدا لوعد من الوعود ؛ هذا يعنى أن ذلك وعد حقيقى ومنظور . ونقرأ عند حزقيال Ezekiel (*) أن شيوخ الأسْر يقدمون الوعود ولا يبرون بأيديهم التى قدموها . والبدوى يقسم على أمر حقيقى قائلا : والله Wellâhi، أو قد يقسم قسما مزدوجا ، وهنا تقل درجة اليقين فى القسم عندما يقول : والله "بالله" . Wellâhi - Billâhi والبدوى عندما يقسم بهذه الطريقة يصبح القسم مجرد كلمة ، قد يراعيها إذا ما أراد ذلك ، إذ ليس هناك ما يمكن أن يحول بينهم وبين مصلحتهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن البدو فى لحظة من لحظات التطرف قد يحنثون فى كل شيء . هناك شكل آخر من أشكال القسم : "وُلله - Wullah بُلاَّه "Bullah وهم يقسمون به من باب السخرية من اليقين ومن باب النفاق . وهناك ما يسميه البدو "حلف halif اليمين . "yemîn فى حلف اليمين هذا يتناول الشخص ساقا من الحشيش (العشب) فى قبضة يده ويقول الكلمات التالية : "وحياة Wahayât هذا hâtha العود " el-aûd والرَّب Wa'r-rubb المعبود el-mabûd ". وعندما كنت أطلب من رفاق طريقى الجدد ، عند البدايه ، أداء ذلك القسم ، على أن يضيفوا إليه "إنى ما أدشرك adeshurak (*) كانوا يردون علىّ قائلين : "مصيرنا وقدرنا واحد طالما كنا سائرين فى الطريق سواء عشنا أم متنا ؛ ولكنى أقول أكثر من ذلك : سأوصلك إلى هناك ، ولكنى أموت ، وبحق الله ، لن أتخلى عنك ." كنت أمسك بأيديهم وأجبرهم على ذلك ، ولكنهم كانوا يقسمون (لكافر) على غير رغبة منهم ؛ ولكن البعض منهم خانونى بعد ذلك اليمين : وعندما كنت ألومهم وأزجرهم على ذلك زجرا شديدا ، كانوا يقولون لى : "الأيمان التى تقسم لواحد من الكفار ليست مُلْزِمة !" صبر

(*) إصحاح حزقيال فى العهد القديم . (المراجع)
(**) أدشرك : كلمة بدوية بمعنى " أتخلى عنك " (المترجم)

الإنسان وجلده ، إلى حد احتقار الموت ، عندما يتعلق الأمر بشرف البدوى ، هو فى رأى البدو جسارة رجل مجنون : وعندما يصبح الموت أمرا محتوما هناك رب رحيم ، والبدو يعتقدون أن الجسم البشرى ينسحب من أى نزاع عندما لا يكون متكافئاً .

والبدوى إذا ما أراد أن يبعد عن نفسه الشك الظالم تراه يقول للآخر : "ليس بينى وبينك إلا الله ." هذه الكلمات نفسها نسمعها على لسان جوناثان Jonathan، فى العهد والميثاق الذى بينه وبين الصديق داود المتسلق . هناك أيضا بعض الأيمان ، التى يجعلها العرف ملزمة للقبائل ، ولا يمكن لأى إنسان شريف أو نبيل أن يحنث فيها أو ينتهكها ، وسوف أورد هنا ذلك القليل الذى تأكدت منه ضمن هذه الفئة من الأيمان ، – البدوى ، الذى يعهد إليه بماشية بدوى آخر ، غالبا ما يكون قرويا ، يقدم روايته السنوية عن الزيادة بين هذه الماشية ، بدون تدليس ، وذلك طبقا لوعد أو يمين أو قسم بأنه لن يلجأ إلى الغش أو الخداع ، إضافة إلى أن صاحب تلك الماشية يكون قد سبق له أن رسم دائرة بسيفه حول ذلك البدوى أثناء أداء القسم . وعندما يضيع أى شىء من منزل من منازل البدو ، فإن صاحب ذلك الشىء المفقود أو الضال ، أن يطلب ممن يشاء بأنه لم يأخذ ذلك الشىء ، مثلما أخذ أهاب Ahab قسما من جيرانه ، الذين يطلق عليهم اسم "كل أمة ومملكة" ، إن مواطنه وعدوه إلياس Elias لا يوجد بينهم . رأيت بعض المتهمين يذهبون مع المتهم إلى موقد النار للرد على الاتهام ؛ وهم يستدعون ذلك كى يقسم على سيوفهم . وهذا القسم يسير على خطوط محددة ، هم يرسمونها بسلاحهم على الرماد المتخلف عن النار . هذه الخطوط عبارة عن علامة الصليب داخل دائرة ⊕ ؛ وبعد ذلك مباشرة يتناول مؤدى اليمين حفنة من رماد الحفرة ، هذا القسم من النوع الذى يتوجب على المدعى بعده أن يشعر بالقناعة والارتياح . هذا هو زيد الذى اتهم بأخذ مال جاره – وكان ذلك الاتهام أمرا متكررا – على استعداد للقيام ، وهو فى منتهى السعادة ومحيًا جامد تماما ، بفرد عباءته وتسويتها فوق الأرض ، ويضع من فوقها قبضة يده مفرودة ، ويصيح قائلا : "ها !" عارضا على الجميع استعداده للحلف أو إن شئت فقل : القسم على أن الأمر لم يكن كذلك ، وأن شيئا من ملكية المدعى لم يكن فى حوزته ، ثم يقسم بلفظ الجلالة قائلا : "الله !" . هناك بعض

الأيمان الصحراوية التى تكون ملزمة حتى بين الأعداء . أعرف رجلا من بنى عطية كان فى زيارة الموهاهيب ، يوم أن كانوا يخيمون فى ود وصداقة مع بدو الفجير fejir، سمحوا له بالسمر والحديث والتجوال بين أعدائه الطبيعيين ، وذلك بعد أن أدى اليمين أمام حفرة النار ، أمام مطلق (شيخ القبيلة) ، بأنه لن يتآمر على أعدائه . هذا هو النمط السائد لحلف اليمين بين البدو الرحل الذين تمكنت من تقصى ذلك الأمر عندهم ، بما فى ذلك الأيْمان المهيبة ، ومكان القسم ، وحماية النخوة أو الشهامة . وبالرغم من سؤال البدو لى ، فى كثير من الأحيان ، عن الكلام المرادف عندنا لمثل هذه الحالات ، إلا أننى – وقد شاء الله ذلك إلى النهاية – كنت أتجاهل سؤالهم عن هذا الأمر مرة ثانية . وفى اللحظات التى كانوا يعيروننى انتباههم خلالها ، كنت أفضل أن أؤكد للجميع أننى أهتم بطبواغرافيه بلادهم فى المقام الأول ، ولا ألقى بالا للأمور الأخرى ، لأننى لم يخطر ببالى مطلقا التوسل إلى أى إنسان طلبا للنجاة .

أضف إلى ذلك ، أن هناك بعض الإشارات أو الإيماءات السائدة بين البدو والتى لها مغزى ودلالة كبيرة . فأنا عندما أداعب لحيتى تجاه شخص من الأشخاص فذلك يكون من قبيل التوبيخ والزجر والتأنيب ، على تصرفه الخاطئ معى من ناحيه ، وتحذيره ، من الناحية الأخرى ، بأن يتدبر عواقب تعامله السيئ معى . أما إذا قمت أنا بلمس لحيته ، فذلك يعنى أننى أذكره بالإنسانية التى تجمع بيننا وأذكره أيضا بشهادة الله الموجود من فوقنا . واللحية فى الجزيرة العربية تعنى الشرف ، وشد الذقن هو أشد درجات الإهانة وعدم الاحترام ؛ والبدو يقولون عن الشخص الأمين : "لحيته lahyat-hu taîba" . ويقولون عن صاحب القلب الدنىء الرذيل : "ما mâ lihu له lahya" لحية والمتوسل الذى يربط ، أو إن شئت فقل : يعقد عقدة معينة – حسبما قالوا لى – فى غترة (*) شخص آخر ، يعنى بذلك أنه قد أنقذ نفسه : وإذا كان ذلك الثأر نتيجة قتل فلابد من الصفح إرضاء لله ! تقبيل جبهة الغاضب ينهى غضبه وثورته ؛ ولابد أن يكون

(*) غترة : غطاء رأس البدو (المترجم)

ذلك التقبيل بطريق المفاجأة والمباغتة ، وإلا قامت يدا الغاضب بالمقاومة والامتناع عن ذلك التقبيل . ومن المؤكد أن هناك مثال قديم جداً على تلك الإشارات الطقوسية السامية ' Semitic مُسَجَّل' عن (سيدنا) إبراهيم ، الذى يطلب من كبير خدمه أن يضع يده تحت فخذه ، كى يكون يمينه (قسمه) صحيحا . وثمة إشارة بسيطة تدل على طلب التسامح . والحماية هى أن تقول : "أنا Ana نزيلك "Nuzîlak، أننى نزلت فى خيمتك " ؛ أما إذا كنت تخشى الخيانة فيمكن أن تقول : "أنا Ana نُصَّك Nusîk(*) أو "أنا Ana بوجهك Biwejhak يا شيخ "Yasheykh . وإذا أردت المزيد من التأثير وإستدرار العطف قل : "ترانى Terâny بالله Billah يا شيخ "Yasheykh ، أو قل "وبك Wabak أنا دخيلك " Dakhilâk ؛ وكل هذه الإشارات تعنى : "والله أنت ترانى ، وأنا أدخل بالقطع ، ياسيدى ، فى حمايتك ." وطوال تجوالى الطويل والمحفوف بالمخاطر فى شبه الجزيرة العربية لم أستعمل كلمة "دخيلك" سوى ثلاث مرات ؛ منها مرتين عندما تخلوا عنى فى الصحراء ، عندما وصلت إلى خيام الحطيم Heteym (وهم أقل شرفا من البدو ، بل إنهم رفضونى) ؛ والمرة الثالثة قلتها لرئيس الحرس فى حائل عندما أساء عبيد الأمير معاملتى فى السوق . وقام رئيس الحرس بإبعاد أولئك العبيد عنى على الفور ؛ أدى استعمالى لتلك الإشارة مع الحطيم إلى استقبالى بشىء من التسامح .

سبق أن قلنا ، البدو على استعداد لتأكيد كل كلمة بيمين ، وهذا يتجلى فى القول الشائع بينهم "وحياة" Wahyat ، ولكن هذا النوع من القسم غير موجود فى البلاد الوهابية(*) ، التى يعد القسم فيها باسم أى مخلوق نوعا من الكفر "والوثنية" . والبدو يقسمون على الجمار أيضا باستعمال القسم "وحياة" كأن يقولون : 'وحياة هذه النار ، أو وحياة هذه القهوة ؛ وهناك قسم آخر هو "حياتك" Hyatak أى 'وحياتك' ؛ والبدو يستعملون قسما آخر يقول "وحياة Wahyât رقبتى Rukbaty ". وكل أنواع القسم هذه ترد على لسان البدو لتوكيد كلامهم . أما القسم "وحياة ابنى" Wahyat Ibny فهو قسم

(*) " نصك " بمعنى " نصفك " . (المترجم)
(**) البلاد الوهابية : الأصح البلاد السعودية . (المراجع)

لا يتردد كثيرا على ألسنة الرجال ولا يستخفون به . ونساء البدو من قبيلة البلّى لديهن قسم يقول : "وحياة Wahyât وليدش[*] " Weyladich ، وهن يرددن ذلك القسم كثيراً خلال حديثهن مع بعضهن البعض ، والبدوية الثرثارة تقول : "وحياة Wahyat ولادى Weylady" بمعنى "وحياة أولادى" . وقد سمعت امرأة بدوية وهى تقسم متوعدة طفلها فتقول : "وحياة أبوك ، اللى خلّفك منّى !" ومن بين كتبة الإنجيل نجد يوسف يحتج على اخواته قائلا :"وحياة فرعون" ، ويشيع بينهم بعد ذلك قسم يقول : "وحياة ربّنا" ، ونجد يهوه (الله) يقول : "يقول الرب ، لأنى موجود" . ولكل قبيلة طريقتها الخاصة ، حتى فى هذا الجزء من الكلام . من ذلك مثلا أن المواهيب الذين هم مثل جيرانهم من البلّى من حيث حلاوة المعشر ومعسول الكلام ، من عادتهم أن يقسموا ، دون استخفاف بضوء النهار المقدس ، كما يقسمون أيضا بساعة الصلاة عندما يقولون : "وحياة Wah-yat المسيّه el-Missieh هذه " halha بمعنى "وحياة سويعة الغروب هذه ." والبدو يوقفون اللجاجة والإلحاف بالمزيد من حدة الطبع عندما يقولون : "فركه" ". Furrka أو قد يقولون : فُرّك Furr'k عين Ayn أبوى ". Abûy والأطفال العصاة المتمردون يقولون لهم : "سُبَّك ! " Subbak، فيرد الأطفال على ذلك : "يسُبَّك Yussbak أنت ". Ent (...) [**] كان مُضيفى فى المدينه (المنورة) فى منطقة خيبر ، رجلا محترما ، وكان من عادته أن يوبخ ولده الوحيد توبيخًا شديداً ، بذكر اسم والدته المتوفاه ، التى كان يحبها حبا جما . وهذا هو شاؤل[***] Saul فى الكتاب المقدس ، وهو فى موجه غضبه ، يعنف ولده ويوبخه بإتيانه على ذكر عُرْى أمه ، تلك المرأة العنيدة المتمردة ، وهذا هو ولدها جوناثان Jonathan يهب واقفا تاركا طعام أبيه ، ومبتعدا عنه فى نوبة من الغضب الشديد .

طريقة الأعراب فى الإستئذان لا تتفق أبدا مع العرف أو دلالة الاستئذان عند الأوربيين . والعربى ، الذى هو لطيف ودمس الأخلاق حتى هذه اللحظة ، على استعداد

(*) وليدش : تعنى وليدك إذ من المعروف أن البدو عموما يعمدون إلى كشكشة الكاف فى مخاطبة النساء . (المراجع)

(**) عبارات وشتائم تخرج عن حدود الأدب رأينا حذفها لخدشها الحياء . (المراجع)

(***) شاءول : هو أول ملك نصب على العبرانيين فى القرن التاسع قبل الميلاد . (المراجع)

أن يعطيك ظهره بوجه عابس ومتحجر تحجراً غريبا ليتركك ويقاطعك إلى الأبد . يضاف إلى ذلك أن العرب يقولون كلامهم الأخير كما لو كانوا قد أعطوك ظهورهم ؛ ويمضون إلى حال سبيلهم ولا يعيرون الأمر اهتماما بعد ذلك . وهذا أمر طبيعي عندهم ، ولا يدخل في عداد الانعدام الشديد للإنسانية ، وعلى العكس من ذلك ، يتعين عليك أنت أن تتكلم عندما يغادر أحد صحبته ويفترق عنها ، فتقول : "إرحل في سلام الله وأمنه " . ألم تأكلا سويا ، ولم يحدث بينكما ما يدعو صاحبك للاستئذان والانصراف ، كل الناس ، في نظر البدو ، وفي تقديرهم ، ليسوا سوى مجرد حبيبات بسيطة تحت عرش الله سبحانه وتعالى ، وهم جميعا من بذرة الإنسانية المشتركة . ولكن الضيف يقول وهو ماض إلى حال سبيله ، وبعد أن أدار ظهره في بساطة غاية في الصراحة : "نِسلِّم Ne-sellem عليك ". Aleyk زد على ذلك أن العرب يقل شكرهم وامتنانهم لكل ما لا يدخل ضمن طعامهم ، وهم يستقبلون مثل هذه الأشياء استقبالا فاترا ؛ "وهم يقولون ، قليل جداً ، زد ، زد عليه ،" ولكن النفوس الطيبة سرعان ما تقول : "بس ! "Bess بمعنى "كفى" وتقول أيضا : "واجد ! Wajed(*) بمعنى "هذا كثير" وتقول أيضا : "كفى "! Keffy بمعنى "هذا يكفيني ."

(*) كلمة " واجد " Wajed يترجمها المؤلف بـ there is found (يوجد) والصحيح " هذا كثير " . (المترجم)

الفصل العاشر

البدو الرحل فى الصحراء : زيارة إلى تيماء

عام عصيب للفكارة . قبيلة الشمال . لغز النصرانى . السايح أو الجوّال العالمى . دمشق "جنة الدنيا" . النصرانى ، سواء أكان باحثا عن كنز أم جاسوسا ؟ 'أهدى الله النصر للسلطان' . خيول النصارى هى خيول لحمل الأمتعة على ظهورها . الفجير بصفتها قبيلة من الخيّالة . هم يخشون ، سماع ما يقال عن جموعنا المسلحة . الحرب فى القرم . 'لحم النصارى أفضل من لحمهم' . كيف يمكن للنصارى العيش ، بدون نخيل date فى أرضهم ؟ النصارى يسكنون أرضا تقع فيما وراء الفيضانات السبع . 'الغريب للذئب' . النصرانى فى أرض البدو . تعجبوا من أننا لا نحمل سلاحا فى بلادنا ,بدو اللاّب الرُّحل والديرة القطبية . أرض النصارى مكتظة بالسكان . الشهب والنيازك تسقط على رءوس الكفار . الفن الهندى . جمل النصرانى جرحه مستعصيا . شياطين الصحراء . ودائع البدو الرحل فى الصحارى . الصلوبة . نواهى بطريرك الصلوبه . حرفهم الأرضية والصيد الذى يتفوقون فيه على الأعراب . هم لا يريدون ذلك . رحلة لإحضار المؤن من تيماء . بنى كلب . الواحة الخضراء فى مرمى البصر . أبراج البساتين . تيماء ، إحدى مستوطنات الشُّمّر ، شديدة الازدهار . آبارهم هى آبار القدماء . تيماء اليهودية (تيما المذكوره فى الكتاب المقدس) . أهل الحضر . نار القهوة النجديه . صالة القهوة . الكمان ممنوع فى ممتلكات بن الرشيد . الرُّحيل ، زواج

شيخ بدوى من امرأة حضرية . خسوف القمر . ممثل بن الرشيد المقيم . المركبه الأبهة لأمراء الشُّمَّر . تجارة الرقيق . أحد مبانى تيماء القديمة . النقش . الحدَّاج . السُّوانى . سليمان والحريم من أهل بيته . قبر فى غير موعده . اقتصاد تيماء . إهداء ثمار تيماء للغرباء وعدم بيعها لهم . تمر تيماء . التمر عُمْله . أبناء الدمشقيين فى تيماء . قصر زيلُّوم . نقش له عينان . الواحة قاع من اللَّهَمْ . الطريق إلى الجوف . صحبة المساء . يلومون دين النصارى . دين المسيح . متزوج فى عصمته خمس عشرة زوجة . الوصايا الموسوية . النصوص المقدسة القديمة التى يقولون أننا زيَّفناها . "أهل النصوص المقدسة ." تيماء الإنجيلية . القبليون يرحلون عن تيماء فى الليل . الفكارة يخشون ابن الرشيد خوفا على ديرتهم .

***

كان ذلك عاما صعبا على بدو الفكارة : إذ كانت فرائصهم ترتعد من ابن الرشيد ويخشونه ؛ كانوا يخشون أيضا من أن توصد خيبر فى وجوههم ،– "خيبر هى ميراث العنزى ،" الذى تأكل منه (التمر) ، تلك القبائل الموجودة فى الجنوب طيلة ثمانية أشهر من بين الاثنى عشر شهرا كل عام . يضاف إلى ذلك أن العام كان من الأعوام التى توسم بأنها من أعوام الجراد ، أى الأعوام التى تأتى خلالها أسراب الجراد على الأخضر واليابس . ناقش رجال القبائل فى مجلسهم مسألة "حتمية عودتهم من جديد إلى الحوران ، أو إن شئت فقل : إلى "أرض الخبز" تلك الأرض التى يقولون عنها ، (تماما مثل بدو بنى إسرائيل المترحلين القادمين من الصحراوات المنخفضه) : "أرض الشمال الطيبة ، التى يتوفر فيها الحليب ؛" ويقولون عنها أيضا إنها "الشام أو سوريا العليا . وأنهم سوف يبقون مثلما حدث من قبل فى النَّجيِّرة Niggera ، التى تقع فى مضارب أقربائهم الذين يمثلون النصف الشمالى من قبيلة ولاد على ؛ وهم يقدرون المسافة إليها بحوالى خمسة عشر رَحْلة ، يقطعونها ومعهم كل ماشيتهم وعائلاتهم ، فى المنطقة الواقعة خلف قرية تيماء . لقد سبق لهؤلاء البدو التخلى من قبل عن أرضهم فى مناسبة من المناسبات : إذ قام بدو الفجير Fejir ، بسبب نقاش دار بينهم وبين قبيلة

شقيقة هى القسم الجنوبى من ولاد على ، قاموا بغزوهم فى الدار الحمرة وأخذوا منهم إبلهم . قتل الكثيرون فى ذلك الغزو ، وقام الأقارب المغلوبون على أمرهم بالاستجارة بابن الرشيد ، الذى أصدر حكما يقضى بتعويض هؤلاء البدو عن خسائرهم . وطبيعه الأعراب تمنعهم من إعادة الغنيمة التى حصلوا عليها ، وبخاصة عندما يكونون يضمرون سوء النية والطوية لبعضهم البعض ؛ من هنا وتحاشيا لخوفهم من الأمير ، انسحبوا إلى منطقة نائيه من البلاد السورية ؛ وفى هذه المنطقه النائيه ، ومع الملابس البسيطه التى كانوا يرتدونها ، وفى ظل ذلك الشتاء الطويل القاسى الذى لم يكونوا متعودين عليه ، وفى ظل تلك الحمى المعدية التى انتشرت بينهم فى اليوم التالى ، فى ظل كل ذلك مات منهم عدد كبير ، كانت الغالبية – بحكم أن الضعيف هو الذى يتشبث بالجدار – من بدو الفجهات **Fehjât** المساكين ، هؤلاء الأشقياء التعساء الذين لازمهم الحظ العاثر بل وظل يطاردهم إلى نهاية الكوارث الطبيعيه كلها . – دفن بدو الفجهات ، فى الشمال ، نصف رجالهم الكبار ، الذين قدر عددهم بحوالى عشرين رجلا . يعيش دوما مع القسم الشمالى من ولاد على ، فخذ من الفكارة ، هو الكليب **el-Kleyb** والشيخ فندى **Sheykh Fendy**؛ هذا الفخذ قد لايسمح له ، بالبقاء فى تلك المنطقة أو ميراثها نظرا لخلاف مع قبيلة بشر حول مقتل أحد الأفراد .

كان وجود النصرانى فى أرض الأعراب لغزا بالنسبة لهم ؛ رددوا علىَّ سؤالا كرروه ألف مرة ومرة ، وكانت بقية الأعراب تحاول عرقلة ذلك السؤال ، ومع ذلك ظلوا يطرحون علىَّ السؤال التالى : "(سألونى) ما المسافة ، وفى أى جزء تقع بلادك ؟" قلت لهم : "راكب الناقه يمكن أن يصل إلى جيرانى ويكون بينهم ، قبيل انتهاء العام ." – لم يكن يخطر ببال هؤلاء البدو أن الدنيا كبيرة على هذا النحو ! من هنا قالوا لى : "بلد خليل يقع على بعد مسافة كبيرة جداً ، وهل يتصور أنه قطع هذه المسافة الكبيرة ، لمجرد رؤية الأعراب وزيارتهم ! ترى ، ما مغزى ذلك ؟ خبرنا ، بالله عليك ، يا خليل ، ألم تأت للتجسس على هذه البلاد ؟ إذ ليس من المعقول أن يتحمل إنسان مثل هذه المتاعب الهائلة نظير لا شىء . خليل ، قل لنا على الفور ، ما هو هدفك من كل هذا ؟ ألست واحداً من الرجال المنفيين ؟ هل جئت بمحض إرادتك ، أم أن آخرين هم الذين أرسلوك إلى هنا ؟ – خليل يحب المسلمين حبا جمًّا ، إذن ماذا عن كتبه ؟ أيضا ، ألا 'يكتب' عن هذه البلاد مثلما 'كتب' عن الحجر والعلا ؟" قلت لهم : "كنت أعيش فى دمشق

وقلت لهم أيضا إننى سائح Sáieh أليس السائح رجلا يتجول فى أنحاء الدنيا ؟ - "حسن ، خليل سوّاح Sûwahh ؛ تجول حيثما شئت ، يا خليل ، ولكن أقصر تجوالك على الديار المستقرة ، إذ ليس فيها ما يعوقك أو يمنعك ؛ ولكن لا تأتى إلى صحراء البدو ، لأنهم سوف يجردونك من كل ما معك ويذبحوك ، وقسما بالله ، لا يخشى فى الصحراء كلها رجل قَتْلَ غريب من الغرباء ، يا للعجب إذا ما عرفوا أنك نصرانى ! - تقول : سواح ! عجيب ! أعلم أن الأعراب بلغوا من الجهل حدًا يصعب عليهم معه تقديم يد العون لك ؛ قد يجىء يوم ، يا خليل ، ينهى كل هذا التهور ، ويقوم واحد فيه بقتلك شر قتله !" - سائح فى بلاد المسلمين هو الساعى إلى الله ، الذى لا يلقى بالا للمنافع الدنيوية ، الذى يهب حياته للتأمل والتفكر . وبالتالى لا ينظرون إلىَّ على أنى درويش من الدراويش . "قالوا لى : لا ، الدراويش ليس لهم أى اعتبار ، ومع ذلك ، كان خليل فى رعاية الإمبراطورية العثمانية (الدولة) ." كانت لديهم أيضا فكرة مفادها أنى واحد من أثرياء دمشق . كانوا يتعجبون من هجرى دمشق ، جنة الدنيا ، وأذهب لأعيش وأسكن أرض الأعراب الجرداء القاحلة ! ومن عادة سكان الأراضى المرتفعة فى الجزيرة العربية ، الذين رأوا أو سمعوا شيئا عن مناطق الحدود التى تنعم بالوفرة والرخاء ، أن يتشاكوا ويتباكوا على بلادهم البعيدة ، وذلك من قبيل الفنتازيا أو إن شئت فقل : الخيال الجامح الحزين . عرب الجنوب يعيشون حياوات خلال مرض طويل من الجوع والعرى : هؤلاء الأعراب إذا ما عاشوا أياما طيبة فى أرض الشمال ، التى تسقى من مياه الأمطار الموسمية ، والتى تبللها حبات الندى السماوى ، فإنهم يعتبرون ذلك حلاوة مدهشة . "حديقة" كل الحدائق هى دمشق ، أو إن شئت فقل : "جنة" العرب ؛ والسبب فى ذلك ، أن دمشق فيها الكثير من الأشياء الرخيصه التى تسهل الحياة على الفقير ، وبخاصة فيما يتعلق بالغذاء والكساء ,وهذا هو مقصد البدو ، شأنهم شأن الساميين ، من دمشق عندما يقولون عنها : "الفردوس أو الجنة" .

مررت بزعم أنى باحث مع شخص ما عن كنز من الكنوز ، وكان ذلك الشخص قد رآنى جالسا تحت شجرة كبيرة من أشجار السنط ، التى يظنون أنها مسكونة من الجن ، فى منطقة الحجر ؛ وهنا قالوا لى متسألين : "ألم تأخذ شيئا ، يا خليل ، خبرنا بحق ؟" وهنا همس أحد الجيران فى أذنى : "خبرنى بما عندك أنا وحدى ، يا خليل يا طيب ، وسوف أحافظ جيدا على ما تقوله لى ." - رددت عليه قائلا : "ليس هناك تراث

أدبى موقوف على شخص بعينه ، للبحث عن الكنوز ، أنا لا أعرف المكتشفين عندكم ، وبالهم من سكيِّرين جهلة ، ومثلهم أيضا كل من يصدق غشهم القائم على انتحال شخصية الغير ." – "الله يعلم إن كان الأمر كذلك ؛ خليل رجل يقول الحق ؛ – ولكن فى التجوال هنا وهناك ، ألم تهتد إلى شيء ؟ انتبه ! نحن نسلم بأنك زاهد ومستاء – اصبر ! خبرنا فقط ، هل إذا عثرت على شيء سوف تعطى عمك زيدًا شيئا منه ؟" – " أعدك ، بأن أعطيه كل ما سوف أعثر عليه ." – "والله ، إن فى كلام خليل لصدق ، ولكن الشيء المحيِّر ، أنه يسأل دوما عن الأعراب مائة سؤال من الأسئلة التى لا جدوى منها أو طائل من ورائها ؟ – بالرغم من أنك ، يا خليل ـ ينبغى أن تعرف أسماء كل المناطق التى نخيِّم فيها ، وأسماء الجبال أيضا ، فما قيمة كل ذلك عندما تعود إلى وطنك ، فى تلك البلاد البعيدة ؟ وأنت إذا لم تكن جاسوسا ، فكيف يحسبك الأعراب رجلا جيد الفهم ؟" فى مناسبات أخرى وفى أماكن أخرى التى كنت ما أزال غريبا فيها ولا يعرفون عنى سوى القليل ، لم يكن البدو يتكلمون دوما بطريقة معتدلة ومباشرة ، كان الكثيرون منهم يتمتمون ويغمغمون ، وكان العديد منهم يهددون قائلين : 'لو ذاع بين الناس ، أنى جئت من أجل التجسس على أهل هذه الأرض ، فوالله ، سوف يلقونى فى النار ، أنا وكتبى ويحرقونى معها .' هذا يعنى أنهم ، فى مثل هذه الحالة ، سوف يكسرون أعراف الكرم والضيافة ويخرجون عليها : وهنا يقتادون العدو الخائن ، ويسحبونه إلى ما وراء الخيمة حيث يذبحونه . فى مناسبات كثيرة ، تنبأ أصدقائى من البدو الطيبين ، بانتهاء حياتى على تلك الشاكلة ، نتيجة تهورى ، عندما أغادر قبائلهم الصديقة إلى ديار غريبة : ولكن مع طول بقائى فى البلاد ، أصبح الناس لا يعارضوننى ، فى المناطق التى لم يسبقنى إليها تقرير سيئ . "قلت لهم : أيها الأصدقاء ، لقد جئتكم مكشوفا وبلا تنكر ؛ أنا لم أخف عنكم شيئا ؛ وأنا أعترف أمامكم دوما بنصرانيتى ، ذلك الاسم الذى لا يحظى بالذيوع بينكم ." وكانوا يقولون : "حسن ، ولكن الحرب دائرة بين أفراد جنسك وبين السلطان(*) ! – ألا يقتل السلطان النصارى ، مثل قطعان الأغنام ؟ ولذلك أعطاه الله النصر ! – ردد التالى ، يا خليل ، 'الله ينصر السلطان " .

(*) الإشارة فى هذا السياق إلى الحرب . الروسية التركية ١٨٧٧ . (المراجع)

طوال استماعنا إلى الحكايات الغريبة ، كانوا يسألونى دوما عن بلاد النصارى البعيدة ؛ وهل نحن أهل طين بمعنى "أننا نسكن فى بيوت من الطين" ، أم أننا أهل بيوت الشَعر بمعنى أننا أعراب جائلين نسكن خياما مصنوعة من وبر الجمال وصوف الغنم ؟" أجبتهم ، "ليس لدينا بدو رُحَّل ، وإنما لدينا قلة قليلة من الغجر ؛" – "(قالوا) : من الواضح أن عرب خليل من الحضير ،" أى من العرب المستقرين على الأرض : وسألونى أيضا عن أنواع ماشيتنا . وكان من باب العجب العجاب عندهم ، أن بلادنا كلها لا يوجد فيها جمل واحد .– "يا الله ! على أى شىء يحملون أثقالهم ؟" – "بلادنا بلاد الخيول ، التى يوجد الكثير منها كما هو الحال عندكم فى الإبل ؛ ونحن نستعمل بعض الخيول فى حرث الأرض : يضاف إلى ذلك أن لدينا أسرع الخيول التى تبارى إبلكم ." ليس هناك عربى واحد ، لا يؤمن بعد إيمانه بعقيدته ، أن سلالة الخيول هى سلالة عربية فقط ، وبخاصه السلالات الخمس التى ربيت فى الجزيرة "(وهم يودون أن يعرفوا) إلى أى من تلك السلالات تنتمى خيولنا ؟" لقد ضايقهم وأغضبهم أن تكون بلادنا عامرة بالخيول : – "عجيب ، الله أعطى الخيول أيضا للنصارى !" – "أنصت ! (قالها زيد ، المتيم باستعراض سرعة بديهته ، – لم يمت الرجل الكبير غرور الطفل الصغير ،) وأنا بوسعى أن أعلن عليكم ما يقوله خليل ، إنها نفس السلالة التى رأيناها فى الشام : خيول خليل كلها كُدُش Kudsh، أو إن شئت فقل : خيول ينقل الواحد منها الأمتعة فى عدلين على ظهره ." وعندما رددت عليه قائلا إنه : "كان مخطئا ؛" صاح الجميع وأسكتونى ؛ "يا خليل ، نحن نسلم أنك يمكن أن تعرف أكثر منا فى أشياء أخرى ، ولكنك ليست لك معرفه بالخيول ، لأن الخيول أصلها من عند الأعراب ." معروف أن الفجير Fejir قبيلة من الخيالة ، ومع ذلك ، لم يتعد عدد أفراسهم العشرين : وقد اكتشفت أن بدو القبائل التى فيها أعداد قليلة من الخيول ، كانوا لا يثقون بأحكامهم الفظة ؛ كانوا يحسبون أنى ربما حكيت لهم عن مهارات غريبة فى أراضى بعيدة .

سألونى عن الغزو عندنا ، وسألونى أيضا عن عدد المحاربين الذين يمكن إرسالهم إلى ميدان القتال . وعندما سمعوا من فمى أن أعداد قافلة الحج عدة مرات ليست

سوى مجرد جزء صغير من حامياتنا العظيمة ، فغروا أفواههم دهشة وخوفا ، ظنا منهم أن الإسلام قد ضاع ؛ "سألونى على الفور ، لماذا لم تقم تلك الحشود والجموع بالهجوم عليهم (مثلما قاموا هم بالهجوم علينا) : - آه ، يالله ! (صاحوا) أعن المسلمين وساندهم !" "أجبتهم قائلا : استريحوا ، واهدأوا ، فنحن لا نشن حروبا غير عادلة بالرغم من أننا نحن الأقوياء : ديننا هو دين السلام ؛ والضعيف من حقه أن يعيش فى أمن وسلام ، من أجلنا نحن ." - "جميل حقا أن الله أعطاكم هذه العقلية ، من أجل رفاه الإسلام ، ومع ذلك (أسرُّوا إلىَّ) أن المسلم الواحد قادر على أن يطرد ويتعقب مائة من النصارى ." قلت لهم إننا نحن الذين نشن حرب القرم Krim (the Crimea) نيابة عن السلطان ومن أجل مصلحتنا ؛ وسقط خيرة وزهرة شبابنا فى تلك الحرب ، وأن النساء مازلن يبكين هؤلاء الشباب فى بلادنا ." سألونى فى برود كامل : "هل كان موتاكم مائتى قتيل أم ثلاثمائة أم ماذا ؟" وعندما قلت لهم : إن عدد القتلى قد يصل إلى ٦٠٠٠٠ قتيل ، (ولما كانوا يصدقون أنى لا أكذب ،) صاح الرجال مرتبكين وهم يقولون : "يا الله ، يا عظيم ! ألا يصل عدد هؤلاء القتلى إلى إجمالى أعداد كل البشر الموجودين هنا من هذه الأجزاء ؟" وقد لا يكون هناك عدد مماثل من الشباب بين القبائل التى تعيش فى الأماكن المرتفعة من الجزيرة العربية !)" "وهل لدى شعبكم مدن وبلدان كبيرة ، يا خليل !" - "المدن والبلدان كبيرة جداً ، إلى حد أن البدو كلهم إذا ما جمعوا من كل صحاريكم فلن يملأوا سوى مدينة أو بلدة واحدة فقط من تلك البلدان ." - "(تعجبوا قائلين) : يا الله ، يا على يا قدير ! ولكننا لم نسمع عن شعب خليل ، أليسوا هم الذين يقال عنهم "الإنجريز el-Engreyz أخوال Akhual السلطان 'es-sultan أى (الإنجليز أخوال السلطان من ناحية الأم) ؛ السلاطين يفعلون خيرا عندما يتحالفون مع الدم المسيحى الصديق" ، - الدم الذى يقيموه دوما بأعلى من دمهم . الناس يقولون فى الجزيرة العربية . "النصارى لا يمرضون مطلقا فى حياواتهم ، ولا يعانون آلاما فى أجسادهم ؛ ولكنهم يعانون من سكرات الموت ؛ وهم عندما تؤلمهم رءوسهم ، فتلك إشاره لهم أن نهايتهم قد اقتربت ؛ لحم النصارى أفضل من لحمنا ." كان البدو يراقبونى بفضول كبير وأنا فى مخيماتهم ،

وهم ينتظرون صدق رأيهم عندما يتحقق ، ويتصادف أن يرونى جالسا متعبا وقد وضعت رأسى بين راحتى يداى ؛ وعندما يسألنى أحدهم : "إيه ! ما الذى يؤلمك ؟ هل يؤلمك رأسك ؟ – من المحتمل أن يموت ، مسكين يا خليل !"

بلادنا ، "تلك الأرض التى ليس فيها نخيل ،" كانت أسطورة بالنسبة لهم . – "ليس فيها تمر ! إذن ، كيف يعيش أهلك وناسك ، وما هو الحلا Sweetness الذى يستطعمونه ؟ ومع ذلك كان خليل يتحدث إليهم بلطف وهدوء : أيها الرفاق ، ألم نجد شيئا شبيها بذلك فى الشمال ؟ من منا رأى نخيلا في دمشق ؟ ناس خليل ، ربما يكون لديهم العسل والسكر ؛ – الحلا والدهون تحسن صحة المرضى الذين يتناولون غذاء تلك المناخات . ونحن بدورنا شاهدنا ديرة (بلاد) الشمال ؛ فالشمال فيه كل ما ينبت من الأرض ، كما يوجد أيضا ذلك الزيت الذى يؤخذ من شجرة من الأشجار وهو أفضل من السمن ." هؤلاء البدو الجوعانين الموجودين فى الحوران ، حيث يوجد القمح الوفير ، عندما يشتد شوقهم وحنينهم فى فصل الخريف إلى سباطات التمر ، يجدون أنفسهم مشدودين إلى مواطنهم فى الصحراء ، لا لشيء سوى أن "ياكلوا من نخيلهم فى خيبر ." والبدو الرحل لديهم اعتقاد مفاده أنهم لن تتحسن صحتهم ، إلا إذا أكلوا من تلك الفاكهة الموسميه المسكرّة ، بالرغم من إقرارهم بأن التمر ليس غذاء صحيا .

سألنى البدو فى كثير من الأحيان : "كم عدد الأنهار التى تقع بعدها أرض النصارى ؟" تناهى إلى مسامع البدو أننا نعيش فى منطقة تقع خلف بحار سبع ؛ قال آخر : "إنها ثلاثة بحور ، وإذا كنت لا تصدق ذلك ، اسأل خليل ." "أعادك الله إلى وطنك ، يا خليل ! وعندما تعود إلى وطنك ، فى سلام ، بمشيئة الله ، سيكون لديك الكثير الذى تحكيه عن أرض الأعراب ؟ ألن تحصل على مكافأة كبيرة ؟ إذ بدون ذلك ، فنحن نرى أنك كان يستحيل عليك أن تخاطر بالمرور والتجوال فى هذه الصحراء الجرداء ، التى نرى ، نحن البدو ، أن كل أرواحنا ، معرضة للمخاطر التى قد تأتينا من اللصوص : أنت وحيد ، وإن قدر لك أن تضل طريقك ، ويقتلك أحد من الناس ، فلن يكون هناك من يثأر لك . يا خليل ، ليس من بيننا نحن الجالسين هنا . شخص يمكن

أن يلقاك فى الخلاء (الصحراء) دون أن يقتلك . يقولون : إن الخرج الموجود على جملك ، ملىء بالنقود ، ولكن ، قسما بالله ، إن الحائل هو الحيوان الذى يحملك ، ومن سيحصل على هذه النقود وذلك الحيوان سيكون حظيظا . 'الغريب للذئاب !' ألم تسمع عن هذا المثل فى بلادك ؟" – (يصيح واحد منهم قائلا) بالله ، ليتنى قتلت خليل !" – قال آخر : "وأنا أيضا" . "(قال ثالث) والله ، لقد تربصت له ؛ أحسب أنى أرى خليلا قادما راكبا على جمله ، وأنا ومعى بندقيتى الفتيلية قابع خلف صخرة وعره أو فى دغل من الأدغال ؛ لم يسبق له أن رأى تلك البندقية : – وينطلق صوت البندقية ويسقط خليل إثر إصابة جسده بطلقة البندقية ، وهنا يصبح الجمل وما عليه ملك لى : آه ، لو لم يكن ذلك العمل غير قانونى ؟ لكنت قتلته باعتباره عدوا من أعداء الله ؟ وبالتالى تكون تلك هى خاتمة خليل ونهايته ." قلت لهم : "الله أنزل بك عقابا ، وربما كنت أنا سببا فى منعه ." – "(رد باقى الحاضرين) قسما بالله ، نحن لم نمنع عنه أى شىء من العقاب ، ولكن إحذر يا خليل ، فالبدو كلهم لصوص . انتبه يا خليل ! القوى يأكل الضعيف فى هذه الأرض البائسة ، التى يعيش الناس فيها على ابتلاع بعضهم البعض . ولكن نحن أعراب زيد ، ونحن حريصون عليك من أجل عيون زيد من ناحية ، وللعيش والملح من الناحية الأخرى : من هنا يحق لك أن تثق بنا ، ولكننا نحذرك ونستحلفك بالله ، ألا تثق بأى إنسان . لن تصلك تعليمات إلا من شخص تلبَّسه الجن ؛ ونحن نخاف عليك كل يوم من أن يقتلك أحد الناس ؛ وهنا سيقول الناس : 'خليل قتل اليوم' ، – ولكن كلنا سوف ننفض إيدينا من ذلك ، وأنا أقسم بالله على ذلك ! الأعراب أعداء لك ، إنك نصرانى ، وهم يقولون : 'إنه يتجسس على بلادنا :' ونحن وحدنا أصدقاءك الذين يعرفونك حق المعرفة . قد يثق خليل بالدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، ولكن الأرض التى نحن هنا فيها لا تخضع لأى حكم ، سوى حكم الله سبحانه وتعالى من فوقنا . نحن لسنا سوى نفس فانية ورفاق فانين أيضا ؛ وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أعمى عينى ذلك الرجل ، "فاتركوه لحال سبيله ؛ قد يموت إذا ما أراد ، فمن ذا الذى يستطيع إقناع طائش أو متهور ؟ " وعندما قلت لهم إننى بغض النظر عن التطلع لأى شكل من أشكال المكافأة ، فإننى أحسب ، أنى لو قدر لى العودة إلى وطنى ، فأنا على استعداد ،

إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك ، أن أدفع ثمن كل هذه المغامرة الغريبة والعجيبة ، نظير يوم واحد أعيشه سعيدا وهنيئا فى وطنى ، وهنا ردوا على متسائلين : 'هل كان النصارى بخلاء ؟'

معروف أن العربى يترحل بصحبة رفيق ، لكن البدو كانوا مندهشين من مجيئى إليهم بلا رفيق ؛ "يا خليل ، أين رفيقك ، حتى يساعد كل منكما الآخر ؟" ازداد عجبهم ودهشتهم عندما سمعوا منى أن أرضنا (بلادنا) تنعم بالأمن والسلام ، وإننا لا نحمل السلاح ، فى بلادنا . "يا خليل ، ألا يوجد بدو مطلقا فى أرض (بلاد) النصارى ؟" حكيت لهم عن بدو اللابلند(*) Lapland المترحلين الذين يسكنون المناطق الشمالية الباردة ، وحكيت لهم عن خيامهم المستديرة التى تشبه الحلقة التى يصنعونها من جلود الحيوانات ، وحكيت لهم أيضا عن ملبوساتهم التى يصنعونها أيضا من جلود الحيوانات : طلب بعض البدو منى ذكر أسماء هؤلاء البدو ، وقالوا لى إنهم 'سمعوا اسما من هذا القبيل' . سألونى أيضا : "ما هى ماشية هؤلاء البدو الذين يعيشون فى تلك البلاد الباردة ؟ التى يدوم فيها جليد الشتاء طوال القسم الأكبر من العام ، وأن ذلك لا يكون مناسبا أو صالحا لأولئك البدو ، ولا للإبل !" – "لن تصدقونى : ماشيتهم عباره عن نوع من الغزال ، الذى يصل حجم الواحد منه إلى حجم جحش صغير ، ويحمل فوق رأسه قرون عريضة متشعبة ، يستعملها ذلك الغزال فى التنقيب فى الجليد بحثا عن العشب . الذى يعد طعامهم اليومى . ليل الشتاء عند هؤلاء البدو فيما بين غروب الشمس وشروقها يقدر بحوالى ثلاثة أشهر ؛ ومنتصف الصيف عند هؤلاء البدو يصل طول نهاره إلى فترة مساويه لليل الشتاء . شاهدت فى مناطق بدو الشمال هؤلاء عين الشمس وهى ترتفع مقدار رمح واحد عن وجه الأرض عند منتصف الليل ." ظن البعض أن ما قلته هو من قبيل الحكايات الخرافية التى حكيتها لهم استخفافا بعقولهم . قال شخص آخر منهم : "نحن نصدق ما يقول إلى حد ما ." لم يكن فى تلك الحكاية

(*) اللابلند : منطقة تقع فى أقصى الشمال من القارة الأوروبية وتشتمل على كل من شمال النرويج والسويد وفنلندا وشبه جزيرة كولا فى شمال غرب الاتحاد السوفيتى (السابق) . (المراجع)

شيء غريب غرابة تلك الماشية التى لها قرون متفرعة ، رسمتها لهم على الرمل مستخدما فى ذلك مشعابى الذى أسوق به ناقتى ، لأن طبيعة القرون ، بحكم رؤيتهم لها ، تعد أمرا سهلا وبسيطا . سألونى : "ألا يمكن أن تكون تلك المواشى من نوع الجاموس ؟" ولكن فيما يتعلق بشروق الشمس وغروبها ، على النحو الذى أوضحته لهم ، تزايد صخب الرعاة ومرحهم وراحوا يسألونى وهم يضحكون : "كيف يؤدى هؤلاء البدو صلاتهم ؟ وهل يكفى لهم أن يصلوا مرة واحده فى ذلك المكان ، كل ثلاثة أشهر ، هى طول ليل الشتاء !"

"هل بلدانكم المستقرة مزدحمة بالسكان ؟ خبِّرنا ، بالله عليك ، يا خليل ، هل لديكم قرى كثيرة ؟ حوالى مائة قرية مثلا ؟" – "مئات القرى أيها الأصدقاء ، بل وآلاف أيضا : انظروا إلى الأعلى ! لدينا من القرى عدد كبير مثل هذه النجوم المضيئة من فوقنا :" استنفرت هذه الكلمة فى أولئك البدو آهات وتنهيدات كثيرة ! كانت تلك الآهات توحى بالخوف ، الذى انعقد على ألسنة أولئك البدو ، ليبدو على شكل إعجاب . الناس يرون الأعاصير والشهب والنيازك وهى تومض كل لحظة فى سماء الجزيرة العربية المضيئة . سألتهم : "ما الذى يقوله الأعراب عن تلك النجوم الطائرة ؟" أجابونى : "إنها تطير لتسقط على رءوس الكفار ، يا خليل ! ألم يسقط منها شيء على النصارى ؟ إن الله سيربك حال الكفار عما قريب !" قال زيد والسرور يعلو وجهه : "حضر بلادكم يعرفون أفضل منا . ولكن أنت أيضا يتعين ألا تمكر فى كثير من الأشياء ، التى يعرفها العرب معرفه جيدة .– أستطيع القول : إن خليلا لا يعرف أسماء النجوم الموجودة خلفنا ،" وراح زيد يشير هنا وهناك ، ثم بدأ يردد أسماء بعض النجوم الشهيرة الكبيرة وبعض المجرات الكبيرة أيضا ، مثلما وردت فى كتاب أيوب فى العهد القديم وبطريقة البدو "الدب ، الجبَّار ، الثُّريا ." سألت زيدا : "ما هو اسم ذلك الحزام العجيب من السماوات ؟" – "المجير" ؛ وراحوا يضحكون من ذلك الاسم الجميل الذى نطلقه نحن على ذلك الحزام العجيب "درب المجرَّة" أو "طريق اللبَّانة" . قلت لهم : "هذا الذى تتحدثون عنه نحن نراه فى مرايانا على شكل سحابة من النجوم ؛ تراثنا الأدبى لا يسمح لنا بتسمية مجموعة صغيرة جداً من النجوم كل واحد منها باسمه . علماؤنا

الذين يدرسون النجوم رقموا النجوم ، وأعطوا لكل نجم منها اسما محددا ؛ هؤلاء العلماء يستطيعون عن طريق "فن من فنون الهند" ، ومنذ مئات السنين قبل مولدنا ، ومئات السنين بعد وفاتنا ، معرفة مسارات النجوم فى السماء . – ولكن تلك النجوم الجوالة الطائرة والمضيئة ، إنما تشبه الأرض ، وقد ترى فى هذه النجوم بحورا وأراض ." وهنا تساءل بعض صغار السن : "هل كان هناك أعراب فى تلك النجوم ؟– وماذا عن القمر ، يا خليل ؟"

هناك مثل يقول : "المصائب لا تأتى فرادى ؛" فقد فشلت عملية التطعيم التى كنت أمارسها كما خيب ظنى أيضا 'عابان' **Aban**، ذلك الجمل الذى كنت أركبه ، (كل دابة من دواب البدو لها أكثر من اسم ، كما تطلق على الجمال أيضا أسماء عدة منها : الرميش **Areymish** والغرلّب **ghrallab** والرحيفة **er-Rahîfa** والدوينبيل **ed-Donnebil**، والدّانّة **D?nna**، والماس **el-Màs** عيضة **Aitha** وعطشة **Atsha**) كان ذلك الجمل صغير السن وقيمته آخذه فى التزايد ؛ ولكن زيدا كان يحاول أن يدخل فى روعى عكس ذلك ، أملا فى اغتصاب الجمل ليكون له فى النهاية . وفى صباح أحد الأيام أعيد ذلك الجمل إلى المنزل ورأينا أن فكه السفلى كان ينزف نزفا شديدا ، نظرا لأن الفك كان مكسورًا . حدث أن كانت هناك جماعة جالسة فى خيمة زيد لتناول القهوة ، وكان ذلك منذ شروق الشمس ، وهنا وقف كل أفراد تلك الجماعة لمشاهدة ذلك الحادث . وهنا قاموا بتبريك الجمل الذى كان يتأوه ألما ؛ قام البعض منهم بربط أطراف الجمل ، أو إن شئت فقل : ربطوا ساقيه ، وبقوة أذرعهم استطاعوا طرح كتلة ذلك الجمل على جانبه ، وراح الخبير منهم فى شئون الإبل يفحص موضع الإصابة . ووضع زيد حدائده وسط الجمار استعدادًا لعملية الكىّ ، التى يندر أن تخلو منها أية جراحة من الجراحات التى يقومون بها . راح الجميع ينصتون لرأى ذلك الحداد البدوى الذى تربطه قرابة بهؤلاء الناس من ناحية وعلاقة أخرى بكل بياطرة الصحراء ، الذين يقومون على أمر علاج الماشية وتركيب نعالها ؛ كان ذلك البيطار ماهرا فى استعمال الأدوات ؛ إضافة إلى أن أولئك البياطرة هم فى أغلب الأحيان جرّاحى البدو . قام ذلك البيطار بتجبير الفك المكسور باستعمال الشرائح التى لفها ببعض الخرق الملطخة برماد قش الأرز المخلوط بالتربة

الحمراء ، أو إن شئت فقل : بالطين الأحمر . قال البيطار ، إن تغذية الجمل تغذية يدوية ، قد يشفى كسره خلال أربعين يوما . كنت قد سمعت وأنا بينهم عن حادث مماثل ، وقع لجمل واحد من أفراد القبيلة فى يوم من الأيام . وجرى علاج الجمل بنفس هذه الطريقة ؛ ولكنى فى داخلى كنت أحسب أن ذلك لن يتحقق ، كان السبب وراء ظنى هذا هو أن الجرح امتلأ بالذباب ، إضافة إلى أن الضمادة ، التى لم تقفل مطلقا ، تكاثر فيها الدود بفعل الحرارة الشديدة ؛ وزد على ذلك أن العظمة الميته اسود لونها ، وسقطت من تلقاء نفسها خلال أيام قلائل . كانت ساعتى قد خذلتنى هى الأخرى . لأنى كنت أستعملها فى حساب المسافات : واعتبارا من ذلك الوقت فصاعدا بدأت الاعتماد فى حساب المسافات على المسافات التى تقطعها الإبل فى الرحلات .

كان شهر مارس قد بدأ بالفعل ؛ ودخل معه الصيف بحرارته الخانقة . وفى مواجهتى لكل هذه التناقضات فكرت فى الرحيل عن ذلك الجزء الصحراوى . كنت أود العودة إلى قرية العلا ، وانتظر فيها مَقْدَمْ قافلة الأرز وهى فى طريق عودتها إلى الوجه ، التى أستطيع منها الإبحار على ظهر واحدة من السفن الشراعية العربية الصغيرة ، التى يستعملونها فى نقل الإبل ، الإبحار إلى مصر . ولكن كلا من زيد هو والشيخ مطلق طلبا منى المزيد من الصبر ، إلى ما بعد انقضاء موسم الربيع ؛ وهو الوقت الذى تقترب فيه القبيلة أثناء ترحالها مرة ثانية من منطقة الحجر ، التى كانت تفصلنا عنها مسافة كبيرة . كانت الصحراء التى خلفناها وراءنا عامرة بالحباليص (اللصوص) ، ولم يكن هناك أحد على استعداد لمرافقتى ، كما أنهم لم يكونوا على استعداد لجعل أى واحد منهم يعانى جراء مرافقتى أو اصطحابى . زد على ذلك أن أفراد القبائل من البدو الرحل يخشون الحباليص (لصوص الصحراء) ويخافونهم ، والسبب فى ذلك هو وجود البدو بين السكان المستقرين من ناحية وسكان الواحات من الناحية الأخرى . وبشكل عام ، فإن الحباليص هم طائفة من الأوغاد الصغار ، الذين لا يملكون فى ديارهم مجرد رأس واحدة فقط من الماشية ، ولذلك فهم يعرضون أنفسهم لكثير من الأخطار البالغة : ومع ذلك هناك بعض آخر من هؤلاء الحباليص ذوى قوة وبأس شديد ، وتدفعهم حياتهم المضطربة إلى التحويم فى الصحراء مثل الذئاب بدلا من التكاسل

والتراخى فى ظلال الخيام التى يعيشون فيها . هؤلاء المجرمون ، أو إن شئت فقل : الخارجون على القانون ، تسيطر عليهم فى أغلب الأحيان قسوة لا تعرف الرحمة ، ويبدو أنهم لا يُبْقُون أحداً على قيد الحياة . ولما كان أولئك الحباليص من المشاة دوما ، فهم تصعب ملاحظتهم أو اكتشافهم ، إذ يتوارون خلف صخرة أو دغل من الأدغال .

سطح الأرض القاحلة فى جبال هذا (السهل الرملى) يندر أن تجد فيه أماكن لرعى الماشية . والأدغال الصحراوية فى هذه المنطقة تتكوَّم الرمال حول جذورها ، فتنمو وتبدو وكأنها تنبت من تلال صغيرة . وبعد أن تموت الجذور ، تظل أكوام الرمال من تحتها إلى مالا نهاية ؛ وهذه الرمال لا نهاية لها فى كل أنحاء هذه الصحراء القاحلة : فى بعض الأماكن يصل حجم تلك الرمال إلى ما يقرب من حمولة عربة أو اثنتين أو أكثر من ذلك . والعرب يدفنون فى هذه الرمال كل التمور التى تتجمع لديهم كل عام ، وبخاصة عندما تعود إبلهم محملة بالتمور من خيبر فى صيف كل عام : والبدو يلاحظون العلامات الأرضية ملاحظة دقيقة حتى يتسنى لهم العثور على تمورهم مرة أخرى ، من هنا فإن بعض الشيوخ يتركون بيوت الشتاء لرحمة رياح الصحراء : وفى شهور الحر ، ومع ندرة المراعى ، وفى الوقت الذى لا تصبر الماشية فيه طويلا على العطش ، يقلل البدو من حمولة تلك الدواب إن أرادوا لها ألا تضعف وتخور قواها . هذه الودائع البدوية التى توضع شهورا فى الأرض الجافة لا يصيبها التلف ؛ إضافة إلى أنه لا يجرؤ أحد من أفراد القبائل على العبث بتلك الودائع : معنى ذلك أن رب الأسرة يتعين عليه العثور على خبيئته فى المكان الذى دفنها فيه ، القبائل البدوية المترحلة كلها ، لها مخابئ صيفية من هذا القبيل ؛ بعض هذه القبائل تنزل الأشياء التى تعوقها مع مضيفيهم فى القرى ، وهذه الودائع تكون فى الحفظ والصون (عند كل الناس تقريبا) . المواهيب لديهم كهف سرى لا يعرفه أحد سواهم ، وهو موجود داخل الحرة الجرداء التى يعيشون على أرضها ؛ وهم يخزنون فى ذلك الكهف ، كما لو كان مُطهراً ، كل ما يريدون حفظه ، إضافة إلى أن الفقير منهم يستطيع أن يحفظ فيه أيضا رطل السمن الوحيد الذى يكون بحوزته . – عندما كنت أمر خلال وادٍ بعيد عن الملجأ العام المتمثل فى الأماكن المهجورة ، فى صحراء سيناء ، رأيت عباءة (بشت)

بدوى جديد مفرود فوق شجرة شوكية . ذهب الجمَّال البدوى المرافق لى ، لرفع تلك العباءة (البشت) ، وراح يقلب العباءة بين يديه وهو يقول : "نعم ، والله ، إنها لعباءة جديدة وطيبة !" ثم علّق الجمَّال العباءة مرة ثانية على الشجرة الشوكية : هؤلاء الأخيار من بين رجال القبائل ، على ما يبدو ، هم الذين يراعون الله ويخافونه . وعليه وصلنا إلى بعض أكواخ سيناء المبنيه من الحجر ، التى يطلقون عليها اسم 'منازل النَّصَارين 'Nasarene (والأرجح أن يقولوا إنها بيوت الشعب القديم فى هذه الأرض ، الذين سكنوها قبل المسلمين) ، التى تعودوا على أن يتركوا فيها أدواتهم الثقيلة المصنوعة من الحجر ؛ كما أن هناك بعض الصوامع المغلقة التابعة لقلة قليلة من تجار الحبوب الذين يجلبون القمح من غزة ، ليبيعونه للبدو ، دخلنا واحداً من تلك المنازل ، وبينما كنت ألقى نظرة على بعض أشيائهم ، طلب منى رفيقى ، وهو يطيل النظر إلى ، إعادة تلك الأشياء إلى مكانها ؛ وتبدى لى أن حتى مجرد تحريك تلك الأشياء من مكانها أمر محظور . يضاف إلى ذلك ، أن الشيوخ الذين يحصلون على صرة من طريق الحج لهم هم أيضا مخازنهم التى يخزنون فيها أشياءهم الثقيلة هى وأوانيهم فى القلاع (المحطات) كما هو حال المخازن التى يستعملها بدو الفجير ، أو شيوخ بدو الفجير فى مدائن صالح ، وقد أبلغنى أن هؤلاء الشيوخ يدفعون للحاج نجم أتعابا نظير ذلك ، أى بواقع ريال واحد عن حمولة الجمل الواحد . والرمال الموجودة فوق كل هذه الأرض الداخلية المرتفعه ليست موضوعة على شكل تموجات (كما هو الحال فى الرمال الموجودة على حدود البحر الأحمر ، والتى توجد على شكل تموجات ، عند دائرة العرض هذه ، من ناحية الشمال) ؛ يضاف إلى ذلك أن المنطقة هنا خالية من الرياح القوية أو السائدة .

بينما كنا نسير فى طريقنا إلى المجلس . "(قال زيد) سوف أريك خلف هذه المنطقة قسما من شعب عتيق ." كان ذلك القسم عبارة عن أسرة وصلت إلى هذه المنطقة ، قادمة من بين الصُّلُوبة Salubba (*) الجائلين . أعجبتنى وجوه الأطفال الذين

(*) هناك فى الجزيرة العربية قبيلة تحمل هذا اللقب ، وما زالت آثار هذا اللقب فى بعض الأسماء التى يحملها الأفراد ، إذ يقال على سبيل المثال " فلان الصليبى " (المترجم)

أنجبهم الصلوبة ، كما أعجبنى أيضا جمال بشرتهم ، ولاحظت الشيء نفسه فى أطفال بدو الحطيم المترحلين . هؤلاء الصلوبة الغرباء والأقارب غير المباشرين وجوههم شقراء ، وهى أجمل من وجوه أولئك البدو الذين عضهم الجوع ،زد على ذلك ، أن بدو الحطيم ، الذين لديهم ثروة كبيرة من الماشية الصغيرة ، أو إن شئت فقل : من الأغنام والماعز ، لديهم ما يكفيهم من الطعام فى الصحراء ، كما أن الصلوبة لديهم ما يكفيهم من الطعام الذى يحصلون عليه من الصيد ومن ممارسة الأعمال التى يقوم بها الغجر : إذ يقوم هؤلاء الصلوبة بأعمال السمكرة الخاصة بصناعة الغلايات ، كما يقومون أيضا بإصلاح الأسلحة ، فى مَنازِلْ البدو . والصلوبة هم الذين يصنعون 'الجدوم' Jedum، أو إن شئت فقل : الخطاطيف (التى يستعملها الرعاة فى خفض أغصان السنط الحلوة كى تتغذى عليها قطعانهم ،) وهم أيضا الذين يصنعون مناجل العشب التى يستخدمها البدو فى قطع العلف ، والصلوبة هم أيضا الذين يصنعون الأدوات (الزند) من الصلب لاستعمالها فى طرق حجر الصوان لتوليد شرارة لإشعال النار ، إلى آخر كل هذه الأشياء . يضاف إلى ذلك ، أن الصلوبة هم نجارى الخشب وبالذات خشب أشجار السنط فى الصحراء ، الذى يستعملونه فى صنع السروج والعدد البدائية اللازمه لجمال الحمل والنقل ، كما أنهم الذين يصنعون أيضا هياكل السروج والعدد اللازمة لإبل الركوب ، وهم أيضا الذين يصنعون البكرات اللازمة لماكينات جلب الماء من الأبيار ، والناس هنا يطلقون على تلك البكرات اسم (المحال) Mâhál، التى تستخدم فى الآبار العميقة بصفة خاصة فى الصحراء ؛ أضف إلى ذلك ، أن الصلوبة يصنعون أيضا أوانى الحليب البدائية ، إضافة إلى بعض الأشياء الأخرى اللازمة للزراعة : يزاد على ذلك أن الصلوبة ، يعملون فى مجال جراحة الماشية ، وهم فى كل هذه الحرف (التى تفتقر إلى المهارة) لا يعدوا أن يكونوا أشباه حدادين ، أو إن شئت فقل : هم صناع Sunna فى هذا الصدد . والصلوبه يعملون على تنفيذ الأمر الذى أصدره إليهم جدهم وينهاهم فيه عن أن يكونوا مربين للماشية ، وطلب منهم أن يعيشوا مما يصطادونه من الصحراء ، وأن يضربوا خيامهم أمام خيام البدو الرحل ، حتى يمكن أن يحلوا ضيوفا عليهم ، كما طلب إليهم أيضا أن يعملوا حدادين فى القبائل ويكسبوا عيشهم من هذا

العمل . ولما كان الصلوبة لا يملكون ماشية تدر عليهم الحليب فإنهم عندما يطلبونه من الخيمة البدوية ، ستقوم ربة البيت بسكب الحليب لهم من 'سميلتها' Semila (قربتها) ، ولكن فى إناء من صنع الصلوبة ، ليأخذه الصليبى المسكين : والسبب فى ذلك ، أن البدو ، غير الجيدين ، لا يشربون عن طيب خاطر بعد الصلوبة ، الذين يحتمل أن يكونوا قد أكلوا من شيء فطيس ، أو إن شئت فقل : شيء نفق من تلقاء نفسه . يقول البدو أيضا عن الصلوبة "إنهم يأكلون الحشرات الدنيئة هى والديدان :" ومسألة الديدان هذه ، هى أسطورة من الأساطير ، إذ إنهم لا يأكلون الديدان إطلاقا . يضاف إلى ذلك ، أن لسان البدو المتهور يضعهم فى مرتبة 'الكفَّار' ، والسبب فى ذلك أن قلة قليلة من الصلوبة هم الذين يستطيعون أداء الصلاة بصورة صحيحة ؛ والبدو أنفسهم ليست لهم قيمه كبيرة بين أهل الحضر . والصلوبة يتحمسون تحمسا متواضعا ومعتدلا لدين البلاد التى ولدوا فيها ، ولا علاقة لهم بأى دين آخر ؛ والصلوبة متسامحون ، وإنسانيون برغم شقائهم وبؤسهم ، والسبب فى ذلك أنهم محتقرون ومغلوبون على أمرهم .

فى فصل الصيف ، عندما لا يتوفر الحليب عند البدو ، وبعد تحميل خيامهم الخفيفة مع كل ما حصلوا عليه وممتلكاتهم الأسرية ، على ظهور الحمير التى تعد الماشية الوحيدة المتوفرة للصلوبة ، يتخلون عن مخيم الأعراب ، ويواصلون ترحالهم فى الصحراء الواسعة . والأسرة الصلوبة ، تستوطن منطقة نائية ، عند بئر جيدة عامرة بالماء ، فى جزء غير مطروق من الصحراء ، يصلح للقيام بعملية الصيد . والصلوبة (دونا عن سائر الرجال) هم الوحيدين الذين فى حل من صحراء الجزيرة العربية ، إذ من المسموح لهم به أن يذهبوا حيثما شاءوا فى تلك الصحراء ، ولما كان الصلوبه يدفعون للجميع فدية صغيرة فلا أحد يعارضهم أو يقف فى طريقهم ، وبالرغم من مولد الصلوبة فى الجزيرة العربية ، إلا إنهم ليست لهم مواطنة فى شبه الجزيرة . والصلوبة يقولون : البدوى لا يسرق من الصلوبى أى شيء ، بالرغم من أنه يلقاه وحيدا وعلى انفراد ، فى أعماق الصحراء ، وفى يده جلد واحدة من النعام ، وبالرغم أيضا من أن ثمن مثل هذا الجلد يساوى ثمن ناقة واحدة . ولكن البدوى عابر السبيل ، يكفيه تماما

رؤية خيمة الصلوبى ، وهى منصوبة بالقرب من بئر من الآبار المنعزلة ، ويكفيه أيضا التطلع إلى تناول الطعام من وعاء ذلك الصياد ؛ هذا الصلوبى المسكين يقدم لذلك البدوى وجبة مشبعة من لحم النعام . والصلوبة يصطادون وهم راكبين على ظهور الحمير . والصلوبة يترحلون ومعهم أسرهم خلال المناطق الكبيرة الخالية من الماء التى لا يستطيع البدوى الوصول إليها بسهولة على ظهر جملة السريع ، الذى يتحمل العطش مدة ثلاثة أيام وذلك على العكس من حمار الصليبى الضعيف ، الذى يتعين على راكبه أن يسقيه يوما بعد يوم (والذى يعد أقل من الجمل من حيث كونه واحداً من حيوانات أو دواب الصحراء) . هذا النوع من بشر الصحراء الذين يتوزعون فى أرجائها يتفوقون على البدو فيما يتعلق بسائر الحرف الأرضية كلها ، كما يتفوقون أيضا على القرويين سكان الواحات . والصلوبة (فيما يتعلق بالأشياء المتدنيه الأخرى) يتوارثون أبا عن جد تراثا بريا عن أضعف الأماكن التى يمكن أن تحتوى على الماء فى الصحراء . هؤلاء الصلوبه يتجولون هائمين على وجه صحراء الجزيرة العربية الشاسعة ، بدءا من المرتفعات السورية إلى اليمن ، فيما وراء الطائف et-Tâif، وأنا لست على علم بنهاية مطافهم !- وقد أخبرنى سكان الجزيرة العربية أن الصلوبة هم أفضل من يمكن سؤالهم عن الأشياء الداخلة ضمن فهمهم ومعرفتهم التى تشبه معرفة الفئران .

هؤلاء الذين يستطيعون كفالة أنفسهم من حيث الغذاء فى أرض ميتة لابد وأن يكونوا سادة فى فن الصيد والقنص ، وبخاصة فى الوقت الذى يعجز الآخرون فيه عن قص أثر واحدة من النعام . فى تلك الصحراء ينعم هؤلاء الصلوبة المساكين بلحم الغزال الحلو ولحم البدون (الأبقار البرية أو الوعول) ، كما ينعمون أيضا بلحم الوعل فى بعض المناطق المحددة ؛ والصلوبة فى كل مكان ، قادرين على معرفه مسارات طرائدهم والأماكن التى تلوذ بها تلك الطرائد . والبدو ، هم الذين يروون هذه العجائب عن الصلوبة ؛ والبدو يقولون : "الصلوبة يشبهون البدو فيما يتعلق بالصيد البرى ، لأنهم إذا ما شاهدوا قطيعا من حيوانات الصيد ، يستطيعون تفريق أفراد ذلك القطيع ويختارون من بين تلك الأفراد ذلك الذى يريدون صيده ، ويقولون أيضًا : 'هذه الحيوانات ، أو إن شئت فقل : الرءوس سنكتفى بها اليوم ، أما فيما يتعلق بالحيوانات ،

أو الرءوس الأخرى فسوف نصطادها فى الغد وبعد الغد " – التهويل والبحث عن العجائب المدهشة من طبيعة البشر ، وهذا الكلام الكبير من باب الشهامة والنخوة عند الأعراب ؛ ولكن الذى لا شك فيه ، هو أن الصلوبة هم بحق من أبناء السبيل ورجال أشداء ، ومتحفزين لأنهم يعيشون مما تصنعه أيديهم ، وأفضل ما رأيتهم منهم كانوا صيادين ممتازين . واسم الصلوبة ، أو الصليب Slèyb، اسم العلم هذا له بعض الكنيات الأخرى . والصلوبة فى غربى مدينة حائل يدعون الخليوا el-Khlûa أو الخليوى Khelûy، بمعنى "الخلائى" The Desolate(*)، لأنهم يسكنون بمعزل عن القبائل ، وليس لديهم ماشيه أو رفاق ؛ وكلمه "خليوى" يطلقها البدو على أنفسهم ، عندما لا يعثرون أثناء رحلتهم على منازل الأعراب ، ويتعين عليهم الرقود استعدادًا للنوم "فرادى" ، أو إن شئت فقل : وحدهم فى ذلك الخلاء الواسع . الصلوبة أيضا يُسَمَّون أيضا على بعض الألسنه البذيئة فى هذا البلد باسم 'كلاب ' 'Kilab الخلا 'el-Khala بمعنى 'كلاب الصحراء' 'والغنيمى' 'El-Ghrunemy اسم لنوعية أخرى من الصلوبة فى شرقى نجد ؛ ويقال إن هذه النوعيه الأخيرة لا تتزوج من النوعية الأولى . والمعروف لدى سكان الجزيرة العربية أن الصلوبه بكل أنواعهم ، ، إنما انحدروا عن نوعية كافرة قديمة أو إن شئت فقل : من النصارى .

والشرارات هم والحطيم (وهم جميعا من سلالة واحدة) غير معروفين من القبائل البدوية . يضاف إلى ذلك أن الأقوام المختلفة من الصناع Sunna تشكل أيضا نوعا من الأجانب aliens الذين ولدوا فى الجزيرة العربية ويعيشون بين الأعراب ، هذه الأقوام لا يتزوجون من بعضهم البعض . والبدو يقولون عن أولئك إنهم 'مالهم Ma-li-hum أصل 'asl، بمعنى "أنهم لا يشكلون سلالة نسبية" ، وهذا معناه أن هؤلاء 'ليسوا منحدرين من سلالة قحطان ، أو سلالة إسماعيل ، أى أنهم ليسوا من العرب .' ونحن عندما نسأل أحدًا من أهل الجزيرة العربية ، من هم هؤلاء Sunna؟ نراهم يجيبون على تساؤلنا قائلين : "والله ، ليس لدينا ما نقوله أو نقطع به فى هذا الصدد ، ولكن كل ما

(*) الخلاء فى هذا الكتاب تشير إلى الصحراء (المترجم)

نعرفه أنهم منحدرين عن سلالة شريرة ، وقد تكون تلك السلالة يهوديه أو نصرانية" (هذا عن القدماء الذين عاشوا فى هذه الأرض قبل محمد ﷺ ، وليس لديهم أية فكرة ، ولو قليلة ، عنه) . وفى كل المرات التى التقيت فيها بالصلوبه كنت أسالهم عن سلالتهم النسبية ، ولكنهم كانوا يردون علىّ متعجبين ومتسألين وهم يقولون : "ماهذا الذى يسأل عنه بالنسبه لنا نحن المساكين Mesquins الذين نعيش فى هذه الصحراء ؟ ليس لدينا كتب أو ذكريات عن الأشياء الماضية ؛ ولكن ذهب أنت وأقرأ ، وإذا ما وجدت شيئا من هذا القبيل مدونا ، خبِّرنا به ." قال البعض منهم إن اسم جدهم هو المعيبى M'aibî؛ والبدو أيضا يرددون ذلك الذى ورد عن أولئك الصلوبة عند المؤلفين العرب ، وكيف أنهم كانوا أعراب Aarab جسّاس Jassas، الذين كانوا بدوًا فى يوم من الأيام : وكيف جرى تدمير أعراب جساس هؤلاء فى الصراع الذى دار بينهم وبين أعراب Aarab كليب k'leyb ، وكيف جرى الاستيلاء على ماشيتهم كلها ، الأمر الذى حتم عليهم أن يمتهنوا مهنة المطرقة ليكسبوا منها عيشهم ، وبذلك أصبح يطلق عليهم اسم الصلوبة . وفى أواخر فصل الصيف وجدت بعض أسر الصلوبة وقد نصبت خيامها أسفل القلعة (المحطة) الموجوده فى قرية الحجر ، وكانوا قد جاءوا من مدينه الوجه عبر الحرّه وقريه تهامه ، ومعروف أن الوجه هى المحطة الرئيسة لهؤلاء الصلوبة . كان الصلوبة فى ذلك الموسم ينصبون خيامهم على شكل دائرة ؛ وفى العام السابق وصلوا ، فى تجوالهم ، إلى مسافة بعيدة فى اتجاه الجنوب ، ورأيت نساءهم وهن يقمن بطحن حبوب دقيقه تشبه حبوب القمح كن قد جلبنها معهن من أحد الوديان بالقرب من مكة ! والصلوبة (باعتبارهم من سكان الساحل والحجاز) كانوا أكثر تحضرا وفهما من الصلوبة الذين يعيشون فى الأراضى المرتفعة . وقد أجاب أفاضلهم على تساؤلاتى قائلين : "نحن أعراب كعفة K'fâ، وكنا فى الماضى من أصحاب الإبل والقطعان ، مثل البدو تماما : تلك كانت قرانا ، التى هى الآن عبارة عن أنقاض وخرائب ، فى المرتفعات الواقعة إلى الجنوب من قرية العلا وأقرب مثل على ذلك ، هم الصُّقيرات Skeirât فى وادى Wady سُدْر Sôdr؛ ولكن أهلنا بلغوا ، فى نهاية الأمر ، من الضعف مبلغا لم يتمكنوا معه من المحافظة على أنفسهم فى بلد واسع من هذا القبيل ، ومن أجل

حصولهم على المزيد من الهدوء امتهنوا حرفة الصلوبة ." قال واحد منهم : "نحن جميعا من بنى Beny مُرَّة Murra، ونحن من شيعة سالم Salîm ابن Ibn الزير ez-Zir، فى تلة تملا Temla، التى تبعد مسافة مسير يوم واحد إلى الشرق من المدينة (المنورة) ؛ والناس يطلقون علينا اسم المطلّج Motullij واسم الدُّرُوبى ". Derruby وهنا ضحك الحاج نجم Nejm، عندما دخلت مرة ثانية ، قائلا : "هذا الخيال الجامح الغريب الذى يتملك خليل ، ويجعله يتساءل دوما عن أشياء ، عند هؤلاء الناس المساكين . يا خليل ! هؤلاء هم بنى Beny مُر Morr، إنهم كلاب ، وما هو ذلك الذى تود قوله عنهم غير ذلك ؟"

عندما سألنى البدو عما إذا كان بوسعى أن أخبرهم بما أعرفه عن الصلوبة من واقع الكتب والقراءات استاءوا عندما أجبتهم قائلا : "فى رأيى ، أنهم بقية من بعض الأعراب القدامى ؛" لم يوافقنى البدو على أن الصلوبة ربما يكونون من السلالة الأصيلة التى نشأت فى الجزيرة العربية . والمعروف أن كل من يولدون بلسان عربى لديهم استعداد فطرى فى البحث فى أصول الكلمات ؛ وهنا صاح متعجبا أحد الزنوج الذى كان يستمع إلى الخطاب الدائر بيننا : "حسن ، هذا الذى يقوله خليل أمر محتمل ؛ أليست كلمه الصلوبة تقول : صلب Sulb العرب el-Arab، بمعنى سلالة العرب ؟" هذا المسكين (الذى تكلم بشىء من الحقد والغيظ ، بسبب بشرته السوداء ، التى جرت عليه الاحتقار من العرب البيض) صاح فيه المشتقون (فى أصول الكلمات) الآخرون وأسكتوه ، وكان هؤلاء المشتقون يمثلون بقيه الجماعة ، وكان سبب إسكاته واضحا نظرا لأن هؤلاء المشتقين لم يكونوا راغبين فى ذلك . "(يقول العرب) : الصلوبة أثرياء لأنهم يأخذون نقودنا ، ولا يعود علينا منها سوى القليل إن لم يكن شيئا على الإطلاق : إنهم لا يحتاجون إلى الإنفاق على الطعام . ولديهم ما يكفيهم من القمح والتمر ، إضافة إلى السمن والمريسى ، اللذان يحصلان عليهما نظير أعمال الحدادة التى يؤدوها لنا ." الصليبى يحتاج إلى قليل من النقود نظير حرفته المعدنية ، حتى يشترى بها السبائك والحديد ؛ أما الباقى فيزيد ليصل إلى حزمة من النقود ، يقوم الصليبى ، حسبما يقول الأعراب ، بدفنها على وجه السرعة فى الصحراء بدلا من حملها معه ، ويعود ربما بعد مرور سنوات ، لأخذ تلك الرزمة ، وربما يستخدم تلك النقود فى شراء حمار لنفسه .

ومع ذلك ، يتردد أن بعض الصلوبة يربون القليل من الماشية ، وذلك فى اتجاه بلاد الرافدين (العراق) ؛ والصلوبة يعيشون فى ظل حكم شيوخهم الخاصين بهم ، كما يركب هؤلاء الصلوبة الإبل أيضا . وقد سمحت الظروف لى برؤية رجل محترم من الشمال ، كان يلبس زيا محترما ، فى بلدة حائل ، وكان من الصلوبة ، هذا الرجل وجه لى الدعوة (ومبلغ علمى أن ذلك كان بناء على طلب من الأمير) أن أركب معه ونقصد الجبال المجاورة بحثا عن المعادن . وسألته : "ترى ، ما هى الدابة التى سوف أركبها ؟" وقال لى إنى ينبغى علىَّ أن أركب حمارا ، "ونحن ليس لدينا دواب غير الحمير ." كنت أفضل وأنا فى غاية السعادة مسألة الخروج من حائل إلى الهواء النقى الطلق ؛ ولكن خطر ببالى أن حياة الإنسان يجب ألا يعهد بها إلى إنسان دنىء أو حقير ، أو بمعنى أصح ، أناس ليست لديهم تقاليد البدو وأعرافهم فيما يتعلق بالرفقة . والصلوبة أنفسهم يعيشون فى دوائر ، ويسكنون بالقرب من قبائلهم وواحاتهم . هناك بعض الأسر الصلبية التى لها موطن أساسى ، يختارونه فى مستوطنة من المستوطنات ، كما هو الحال فى قرية تيماء ؛ ولكن الغالبية العظمى من الصلوبة تبقى فى الصحراء . – وصلوبة الصناع يستوطنون بعض القرى ، والبعض منهم عبارة عن رجال يتجولون مع قبائلهم ويعيشون حياتهم كما لو كانوا بدوا رحَّلاً ، وملاَّكًا للماشية . والصلوبة الذين يلفظهم جنسهم البشرى ، والذين يغضب العالم عليهم ، ترى أعينهم وهى تفيض وضاعة وذلاً . نساء هؤلاء الملفوظين ، اللاتى يرتدين خرقا بالية ، تراهن ، فى كل مخيم ينزلن فيه ، وهن يشحذن ، بأصوات تستدر العطف وتبعث على الحزن ، من بيت إلى بيت ، من بيوت هؤلاء البدو المتسامحين المساكين ؛ ومع ذلك ، هناك رجال من بين رجال الصلوبة (وبخاصة رجال صلوبة مدينة الوجه) تراهم مرتدين ملابس طيبة ، ويبدو عليهم الاحترام ، الأمر الذى يجعل من الصعب على حريمهن الخروج للشحاذة والاستجداء . شاهدت أيضا كثيرا من الشباب الذين كانوا من الصلوبة ، شاهدتهم فى الصحراء السورية ، وهم يرتدون معاطف مصنوعة من جلود الغزال . والخيمة الصلوبية الصغيرة تكون فى الأغلب الأعم ، عامرة بالمؤن ، والصلوبة لديهم اللحم الذى لا ينقطع عنهم فى يوم من الأيام ، فى حين لا يتوفر ذلك للغالبية العظمى من البدو .

تمكنا من الوصول إلى قرية تيماء عن طريق التجوال والتخييم ، والآن ، وبعد هذه

الرحلة الطويلة الشاقة ، كان من الطيبعى أن يقوم البعض منا ، ومن بينهم زيد بالذهاب إلى السوق لشراء بعض المؤن : وأنا بدورى يتعين على الانضمام إلى تلك المجموعة وأكون بصحبة زيد ؛ بدأنا الرحلة فى الصباح وكانت المجموعة غير متجانسة إذ كان السواد الأعظم من أفرادها من بدو الفهجات Fehjât، وتضم ثلاثين رجلا هم وجمالهم . وسرعان ما تجاوزنا المرتفعات الرملية لندخل فى أرض شديدة القحولة عبارة عن أراضى مرتفعة ومنخفضات ، وقاع التربة فى هذه المنطقة صخرى ، وهو عبارة عن حصى من أحجار الحديد . هذه المنطقة هى أشد المناطق قحوله وجدبا من الصحراء التى تحيط بقرية تيماء ، وهذه الصحراء خالية من أى نوع من الخضرة أو الأدغال . تجاوزنا بعد ذلك أرضا منخفضة ، يطلقون عليها اسم المحاى M'hai، مررنا ونحن ركوب على أنقاض غير واضحة لواحدة من المستوطنات القديمة ، يطلقون عليها اسم الجريدة Jerèyda، التى فيها مجموعة قليلة من قواعد سوارى الأعلام ، التى كانت منصوبة على الحافة ، ويصل طول السارية الواحدة منها إلى ما يتردد بين ثمانية وتسع ياردات ، يبدو أنها كانت مستعملة كسور يحيط بخيام الشتاء الخاصة بالأعراب القدامى ، الذين اتخذوا من ذلك المنخفض ملجأ لهم . المعلقات ، أو إن شئت فقل القصائد المختارة من الجزيرة العربية قديما ، تأتى على ذكر الخيام المستديرة ، ولكن خيام البدو الرَّحَّل من العرب هى خيام مربعة الشكل فقط . رحبت بى الجماعة قائلة : "انظر هناك ! يا خليل هذه واحدة من قرى الأولين Auellin القدامى ." – "وأى قدامى كانو هؤلاء ؟" – "البعض يقولون : هم الشرارات ، وبعض آخر يقول : هم بنى Beny كلاب Kelàb أو إن شئت فقل : بنى شلب Chelb(*)، وديرتهم ، قسما بالله ، كانت هى برج سلمان والأرض هى ما يسمى (أم شريفهة Umsheyrifa) وأردف زيد قائلا : "كانوا هؤلاء أهل ثيماء theyma (وليس تيماء Teyma)، وكان شيخهم هو على Aly السويسى es-Sweysy اليهودى the Yahûdy وبعد أن وصلنا إلى الأرض المرتفعة

(*) حرف " الكاف " فى بعض الجزيرة العربية ، منطقة نجد على وجه الخصوص ، قد ينطق كافا محققة أو قد يقلبونه إلى حرف " شين " فكلمة كلب قد تنطق عندهم كما هى أو شلب (المترجم)

الموجودة وراءنا ، أرانى زيد العلامات الأرضية الجبلية فى غربى منطار Muntar بنى Beny عطية Atieh، بجوار طويل Twoyelصيةه Saîda وحليمة Helaima على بعد منا ، أمام الغنيم el- Ghrenéym التى تقع خلف الواحة ، غمغم البعض قائلين : "لماذا يطلعه زيد على علاماتنا الأرضية ؟" – "قال زيد : أتمنى لو أن خليلا أصبح بدويا ."

كانت خضرة قرية تيماء ، ملاذ الصحراء ، تسر الخاطر وتشرح الصدر ؛ اقتربنا من جزيرة النخيل الطويلة ، التى تحيط بها جدران ، أو سوز ، البستان المبنية من الطين ؛ تلك الجدران المحصنة بعدد من الأبراج العالية . وقرية تيماء عبارة قاع فيضانى قديم وضحل من الغرين شديد الخصوبة ، يقع خلال هذه السهول الواسعة العاليه ، التى تبعد عن غربى نجد ، هذه الأبراج التى تشبه المنارات مبنية جيداً من الطوب اللَّبن ، وهذه الأبراج موجودة منذ أزمان الخوف وانعدام الأمن فيما قبل حكومة بن الرشيد ، أى فى الوقت الذى كانت فيه تيماء ، شأنها شأن معظم الأماكن الأخرى فى الجزيرة العربية ، تعانى من قلاقل واضطرابات الشيوخ على اختلاف مشاربهم ، الأمر الذى أدى إلى تقسيم أحياء البلدة بسبب العداء المتوارث بين هؤلاء الشيوخ ، إذ كان كل شخص من الأشخاص القادرين يقوم ، بعد تحصين نخيلة بسور مرتفع من اللَّبن ، ببناء برج له فوق ذلك السور ؛ يضاف إلى ذلك أن كل سوق من أسواق البلدة كان فيه برج من أبراج الدفاع يستخدم ملجأ لأهل الشارع . وفى أوقات الخطر المحدق ينسحب رب الأسرة ومعه أسرته إلى مزرعته المسوَّره : وفى ذلك المسور تعيش تلك الأسرة تعمل وتأكل الثمار ، بالرغم من حصار أعدائه القدامى له مدة عام أو عامين . وعن طريق برج المراقبة هذا يمكن رؤية العدو أثناء قدومه فى ضوء النهار . قد يظن البعض أن الجدران التى من هذا القبيل هى نوع من أنواع الدفاع الضعيف ؛ ولكن بالرغم من دهاء العقول السامية Semitic الذى يشبه دهاء الثعالب ، فإن تلك الأسوار لا تعد اختراعا جديدا . والمعروف أن انفجارات البارود ، هى وصدمات الدعامات المصنوعة من خشب النخيل ، حطمت مقاومة هذه الأسوار ، ولكن الطفل قادر على تجريب أى شىء جديد ، وكذلك المجانين من الرجال قد يلجأون إلى تجربة أو استعمال أشياء لم يجر استعمالها من قبل . وفى أقوال الإنجيل ، يوجد ما يشير إلى أن كل من

كان يزرع بستانا كان يقوم ببناء برج فيه للمحافظة عليه . وبرج المراقبة داخل البستان موجود فى مناطق الحدود الصحراوية . بدأنا السير بين جدران البساتين رمادية اللون ، تلك الجدران التى كانت تتكئ عليها أغصان أشجار الرمان المحملة بالثمار ؛ لقد أدخل ذلك المنظر السرور على ناظرينا ! كانت الواحة على ارتفاع ٣٤٠٠ قدم . نزلنا من فوق إبلنا عند بداية أول سوق من الأسواق ، أمام دار ، أو حوش رجل شاب من معارفنا ، اسمه سليمان Sleyman، الذى كان فى موسم الحج ضيفا من ضيوف القلعة فى مدائن صالح ، كان سليمان يعيش فى هذه الدار مع شقيقه ، الذى كان تاجر التمر الذى يشترى منه زيد إحتياجاته ؛ واستقبلنا الرجل استقبالا طيبا واحتفى بنا حفاوة بالغة . وأخذ الحريم حرفة ، زوجة زيد ، التى كانت ترافقنا ، إلى المكان المخصص للحريم .

تيماء إحدى مستوطنات نجد التابعة للشمر ، الذين جاء آباؤهم للعيش فى هذه المنطقة ، وهذا نقلا عن كلامهم ، وأن أولئك الآباء جاءوا إلى هذه المنطقة منذ مالا يزيد على مائتى عام : وقد تخلف عن ذلك الزمن تلك القلة القليلة من النخيل العالى الذى يصل ارتفاع الواحدة منه إلى ما يقرب من خمس عشرة قامة(*) بالقرب من البئر الكبيرة ، أو إن شئت فقل : الحدّاج Haddâj؛ كما توجد أيضا قلة قليلة من الزنوج الذين يتجارعون على تسلق ذلك النخيل لحصاد التمر . كل أنواع نخيل تيماء جرى جلبها من جبل الشمر ، فيما عدا نخيل الحلو ، الذى جرى جلبه من قرية العلا . لهجه الشمر تسود أيضا فى ديرة من الديار الأخرى . ابتداء من تيماء تبدأ فى مناظرة الأشكال النجدية النحيفة ، المبتهجة ، الجريئة التى تسارع إلى الكشف عن الجود والكرم ، ولكنهم فيما يتعلق بالغرباء الذين يأتون إلى تيماء قادمين من الحجاز ، يكونون مثل البدو سواء بسواء . هذه الأشكال النجدية حافية الأقدام ، ويرتدون الملابس التى يشترونها من حائل ، والتى تجلب هذه الملابس من العراق ، كما يسكنون بيوتا واسعة مبنية من الطين ، القسم الأكبر منها مكون من طابقين ؛ ونوافذ تلك المنازل عبارة عن

(*) القامة : مقياس يساوى ستة أقدام (المترجم)

فتحات لمرور الضوء والهواء ، وهم يفترشون الأرض بعد تسويتها ، وأبواب تلك البيوت تصنع من ألواح سيقان النخيل كما هو الحال فى الواحات كلها . هذه البلدة المفتوحة من بلاد الشمر لم تنتشر فيها الأوبئة مطلقا ، والسبب فى ذلك أن البُرّ burr، أو إن شئت فقل : الصحارى المرتفعة ذات الهواء النقى تحيط بهم من كل جانب من خلف الأسوار التى تحيط بالبلدة : وبدو الصحراء الجافة هم وحدهم هنا الذين يشتكون هنا من الليل (البخر الناتج عن التربة المروية) ، الذى يصيبهم بالبرد فى رءوسهم ، وهو ما يسمونه بالزُّكْمة Zikma(*) وتيماء خالية من أنقاض المنازل ، ومن الجدران المهدّمة ، والأراضى الزراعية المهجورة ، التى نشاهدها فى معظم أماكن الجزيرة العربية . هذه المستوطنه البعيدة عن نجد تنعم بالخير والازدهار ، على نحو لم يسبق لى أن رأيته فى كل ترحالى عبر الجزيرة العربية . وأى إنسان يكتشف بئرا قديمة خارج أسوار هذه البلده ، يكون ملكا له ؛ وهنا يقوم مثل هذا الشخص بتسوير أكبر قطعه ممكنه من الأرض التى يمكن أن يرويها من ماء ذلك البئر ، ويقوم ذلك الشخص بحرث أرضه الجديدة لتصبح جاهزة لزراعة الحبوب وزراعة النخيل أيضا ، وبعد ذلك بخمسة عشر عاما يصبح ثمن كل ساق من تلك السيقان مساوٍ لثمن جمل من الجمال . وتيماء حتى ذلك الوقت ، تعد بلداً حرًا ، استسلم بلا مقاومة لحكومة بن الرشيد . وأهل تيماء من الزراع المهرة الذين يستفيدون مما فى أيديهم دون براعة أو إبداع من أى نوع كان : فآبارهم هى نفس آبار القدماء ، التى عثروا عليها ليحفروها من جديد ويستفيدون بها هم أنفسهم : وأهل تيماء لا يكلفون أنفسهم مشقة حفر أى بئر من الآبار فى ذلك الصخر الرملى الطرى ، الذى يترسب فى قاع الآبار التى يصل عمق الواحد منها إلى سبع قامات . يقول أهل تيماء ، المسلمون لا يستطيعون حفر أبيار من هذا القبيل ، ولكن النصارى هم واليهود الذين يناسبون العمل فى حفر تلك الآبار . ومن يحفرون الآبار من أهل الجزيرة العربية ، فى الحجر لا يوجد أحد منهم فى هذه المنطقة ، وأقرب هؤلاء الناس إلى تيماء هم أهل القصيم ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء العرب الكسالى

(*) الزكمة : من الزكام . (المترجم)

ليسوا على استعداد لجلب عمال أجانب إلى بلدتهم . وهم يعتمدون على الله فيما يتعلق بكسب العيش ؛ وكسب العيش من منظور تلك القلوب التى تعى معنى النقود ، أفضل من إضاعة المال والنقود فى المغامرات .

لم نصادف فى تيماء أحدا من أولئك الذين يستجدون الصدقات من الناس فى الشوارع ؛ واقع الأمر أن مسألة مصادفة أى من الشحاذين فى غربى نجد ليست أمرا شائعا . لم أعرف فى تيماء من هؤلاء الناس سوى شخص مسكين واحد فقط لم يكن كبير السن . كان ذلك الشخص يدخل أى بيت من البيوت فى وقت تقديم العشاء ، ويجلس ويتناول العشاء مع بقية الجالسين الذين يرحبون به ، ولكنهم كانوا يرفضون أن يحمل أى شىء من الطعام عند انصرافه . كان يوجد أيضا فى قرية تيماء بدوى أو بدويان معدمان ، كانا يدخلان المنازل لتناول العشاء وشرب القهوة ، مع أية أسرة من الأسر ، ولم يكن هناك من يمنعهم من ذلك . وعند حلول موعد النوم كانا ينامان على الأرض ، بحيث يلتف كل واحد منهما بعباءته ، فى المقهى الذى يكونان فيه ؛ أو كانا يخرجان للنوم فى الخلاء حيث الهواء الطلق ، فوق مصطبة من مصاطب الشارع المبنية من الطين .

مدينة تيماء القديمة التى كان اليهود يسكنونها ، وهذا نقلا عن موروث اليهود ، دُمِّرت (مرتان) بفعل الفيضان ، ولم يتبق من تلك الأزمان القديمة سوى بعض البنايات الحجرية البدائية ؛ مصنعية تلك البنايات تشتمل على كتل من الصخر وعوارض أفقيه مصنوعة من حجر الحديد . وإلى جانب هذه الكتل وتلك العوارض الأفقية توجد دائره كبيرة (أزعم أن طولها يصل إلى حوالى ثلاثه أميال) عباره عن سور كبير من الحجر ، يحيط بمدينة تيماء القديمة . هذا السور يقع فوق مستوى الواحة إلى حد ما . وأمير مدينه تيماء الموسوية القديمة ، اسمه ، كما ورد فى أثر اليهود ، هو بدر béder بن Ibn جوهر . Joher كان بدو بنى صخر هم أول سادة لبلدة تيماء الجديدة . وهم يحصلون من سكان تيماء على عائد خوة Khûwa سنوى ؛ وبدون ذلك العائد السنوى لا ينجو أهل تيماء من الغزو الذى يقوم به بنو

صخر على تلك البلدة . وتيماء لا تعرف مرض الحمى . وماء تيماء ، وهذا هو حال الماء الجوفى الذى عثرت عليه فى الجزيرة العربية ، ضحل ، ودافئ وغير صحى . وهم يعزون عدم وجود الأجسام الضخمة بينهم إلى ذلك الماء ؛ ولكن واقع الأمر أن ذلك الشكل هو ذلك الشكل الضعيف فارع الطول الموجود فى نجد ، والذى يتمتع بعيون مدهشة ، ووجوه بيضاوية طويلة وضحلة ، وفكين متدليين : الناظر إلى هؤلاء الناس يحسبهم من البدو . ونساء تيماء ، شكلهن أحسن من أشكال الرجال ، وأجسامهن مترهلة ، ووجوههن كبيرة وقروية ، ولكن وجوههن ليست متوردة ، وأصواتهن نشاز ، وهن فى ذلك مثل نساء بنى Beny وهاب Wahabجيرانهن ، تتحركن بلا حجاب . لم أر فى تيماء رجالا مسنين . ومن بين المائتى منزل الموجودة فى تيماء ، توجد ثلاثة أسواق (*) لثلاثة شيوخ ، أو إن شئت فقل : ثلاثة أبرشيات لثلاثه كهان ، كما يوجد فى قرية تيماء حوالى خمسة عشرة حارة ، أو منطقة صغيرة ؛ وفى كل حارة يوجد مسجد صغير ، جدرانه من اللَّبن وخال من أى شكل من أشكال الزينة ، وأرض المسجد من الزلط والحصى . ومناطق أو أماكن الراحة كلها من هذا القبيل ، والتى يمكن أن يأوى الغريب إليها لينام فيها تحت ظل ثابت ، عند بوابة السماء . ولكن المسجد الكبير ، الذى يقصده كل الذكور لأداء صلاة الجمعة ، وسماع الخطبة وقراءة القرآن ، يبعد عن الشوارع مسافة صغيرة فى اتجاه الشرق . وربما كان المسجد الكبير مقاما على موقع معبد قديم ، وذلك من منظور أننى وجدت بعض الأعمدة البدائية ملقاه ومنتشرة فى ذلك المكان . وفى قرية العلا (إحدى واحات الحجاز ، والتى لم يدخلها الوهابيون ،) وجدت أن المساجد تكاد تكون مثل المساجد الموجودة فى القرى السورية .

أخذنا الناس لشرب القهوة فى صالات (قاعات) بعض الأسر الأخرى ، التى كان زيد يتعامل معها فيما يتعلق بجانب الحبوب من طعامه وبعض التمور أيضا . ونظرا لقلة وجود حطب الوقود فى المنطقة المحيطة بتيماء ، ونظرا أيضا لقلة ذلك

(*) السوق : هنا بمعنى شارع (المترجم)

الحطب فى المنطقة المحيطة بمزارعهم ، اللهم باستثناء الحطب اللازم للطبخ اليومى ، فإن خشب النخيل بالإضافة إلى كونه "خلاً للأسنان ودخانا للأعين" عندما يحرقونه - يستخدم الناس هنا إلى جانبه الطريقة النجدية السهلة والنظيفة التى تعتمد على الفحم النباتى الذى يستخدم فى تصليح القهوة ، والذى يجرى منفاخ فى وجار يصنع من الطين بواسطة منفاخ من قبيل المنفاخ الذى يستعمله الحداد فى عمله : هذا الفحم النباتى يجلبه هؤلاء الرجال الذين يخرجون لصناعته والعودة به من الصحراء البعيدة . مُضيف واحة تيماء الذى تعلو الابتسامة وجهه ، لا يدخر وسعا ، طوال جلوسه أمام ذلك الفحم ، فى القيام بالنفخ والتصبب عرقا ، مثل الصلوبى ، فى سبيل الضيوف الذين يزورونه ، وأنت إذا كنت من معارفه ونزلت ضيفا على شخص تيماوى آخر ، تراه يتساءل فى شىء من التوبيخ الهين اللين قائلا : "لماذا ، لم تنزل عن دابتك أمام دارى ؟" من هنا فإن القهوة تصلح هنا ، بكل هذا الجهد وبكل هذا الاهتمام بواقع مرتين أو ثلاث مرات كل ساعة : والقهوة هنا يجرى تصليحها باستعمال بعض من حبوب البن لعدد كبير من الناس ، ومشروب القهوة فى تيماء قليل جداً . والمقهى الذى يبنى على الطريقة النجدية ، يعد أفضل ركن من أركان البيت . يضاف إلى ذلك أن جمال وتناسق جدران المنازل المبنية من الطين يوحى بشىء من البساطة المتفردة ؛ والناس فى تيماء يسقفون منازلهم باستعمال أعواد الإثل أو أعواد الطرفاء الطويلة التى تزرع فى كل أنحاء الواحات حتى يستعملها الناس بدلا من الخشب . هذا هو الحصير المصنوع من سعف النخيل ، والموضوع فوق العوارض الأفقية ، ينظر الناس إليه فرحين وهو ملطخ بآثار الدخان ، ويتلألأ بفعل دخان كرم العرب اليومى وهو يتصاعد من وجار عمقه شبر واحد محفور فى الأرض . والضوء يصل غرفة القهوة (المقهى) عن طريق المدخل ، كما يصل أيضا كثير من الصالات عن طريق كوًات مفتوحة ، وبعض الثقوب التى يحدثها الناس فى أعلى الجدران . مكان الجلوس (المقعد Mûkaad) على أرض الغرفة وحول الوجار المحفور فى الأرض ، مفروش فوقه حصير مصنوع من سعف النخيل أو قطعة من القماش الذى تصنع منه الخيام . وعلى جدران منازل بعض الشيوخ توجد بعض أوتاد الخيام ، التى يعلق عليها ضيوف الشيخ رماحهم أو حرابهم

الطويلة . فى هذه الدُّور Dârs لا يسمع المرء أشعارا شعبيه قديمه ، إذ تعتبر الآذان الوهابية أصوات الرباب أشياءًا غير دينيه ، يضاف إلى ذلك أن التيامنه (أهل تيماء) تلقوا أمرا صارما من إبن الرشيد ، يحرم عليهم استعمال الرباب أو العزف عليه ! وقد قام خلف ، أمير تيماء ، الشخصيه الليبرالية التفكير ، بإبلاغ ذلك الأمر لبعض البدو على مسمع ومرأى منى ، ولكن ذلك لم يخلو من التلميح إلى رفضه هو شخصيا لمثل هذا الأمر .

التقينا ولد الشيخ مطلق أثناء تجوالنا فى شوارع تيماء ؛ إذ كان قد سبقنا إلى تيماء . ولاحظت كيف أن ذلك البدوى كان يمضى فى طريقه وهو ينظر إلى الأرض ، هيئ لى أن ذلك البدوى كان فى سنةٍ من النوم فى هواء الواحات الآسن ويتملكه الحزن إلى حد ما : والرَّحيل يمكن أن نطلق عليه أنه هو سيد القبيلة الكامل ؛ هذا البدوى تنتظره مهمة طيبة وشجية وحزينة . حضر الشيخ إلى تيماء للزواج من واحدة من الحضر : والسبب فى ذلك أنه نظرا لاتجار بعض القرويين مع البدو ، فإن القروى تكون له دوما زوجة بدوية فى الصحراء ، من هنا فإن خيال البدو المريض يهيئ لهم الزواج من حضريات تعشن فى مستوطنة السوق ، حتى يتسنى له التردد على تلك الزوجه عندما يقصد السوق ، بالرغم من أنه لن يلقاها بعد ذلك مرة ثانية إلا بعد مرور عام كامل . فى المساء سمعنا تصفيقا حاداً بالأيدى ، إذ كانت النساء يحتفلن بعرس فى منزل من المنازل المجاورة . هذا تقليد سامى Semitic عام قديم ، يقوم على إحداث أصوات عاليه تصاحب تحركات أذهان هؤلاء الساميين ؛ يقول الكتاب العبرى المقدس : "فياضانات وأشجار الحقل تصفق بأيديها" . هؤلاء هم أصدقاء العريس يفتحون نيران بنادقهم الفتيلية . كان ذلك التزاوج يجرى تحت سحابة ، إذ حدث فى ذلك الوقت حادث غريب ؛ ومن سوء حظى أنى جئت إلى تيماء دون أن يكون معى تقويم ، أو إن شئت فقل : نتيجة أو رزنامة . وربات البيوت عندما وجدن ضوء القمر يتضاءل ، رحن يقرعن الأوانى ليساعدن القمر المحتضر ، الذى اختفى تماما نوره الساطع . وبدأت أستفيض فى شرح الخسوف والكسوف ، الذى يمكن الوقوف على مواعيد حدوثه فى الزمنين الماضى والآتى أيضا . وهنا رد على الجالسون لشرب القهوة قائلين : "قد يكون ذلك

صحيحا ، ولكن العرب جهلة وسذّج ! نحن لا يمكن أن نصل إلى ذلك الحد من التعليم الراقى المكتمل ."

فى فترة الصباح وبينما كنا جالسين فى المقهى ، يدخل علينا شخص ، يمشى الهوينا وتبدو عليه العظمة متكئا على عكاز طويل ، ومرتديا ملابس بهيجه اللون عليها شيء من الكشكشة : ذلك هو الممثل الدائم لابن الرشيد فى بلدة تيماء ، ممثل الأمير هذا ، الذى يبدو عليه أنه قد ابتلع وتدا ، تقدم فى مشيته ، دون أن ينظر إلى أى أحد من الحاضرين ، إلى أن جلس بهيبته ووقاره هذا ؛ ثم يتنازل الرجل ويرد التحية على شاربى القهوة الذين تمنوا له صباحا سعيدا . هذا الرجل هو ناقل حائل الكبير ، الذى يقلد أو يحاول محاكاة ابن الرشيد أحد أمراء الجزيرة العربية ، الذى يحمل هذا الغندور المتباهى بنفسه كما لو كان نسرا يدخل به الخوف والفزع فى قلوب البدو الذين لا ينصاعون للنظام . كان اسم ذلك الرجل سعيد Saïd، وهو شخصية من أصل إفريقى ، ويعد واحدا من المنغمسين فى المجون فى بلاط الأمير . جلس سعيد هذا أمامنا وقد تجهم وجهه وتصلب عنقه ، وهذا ، فى تقديره ، هو ما يعظِّم من مكانته : كان الرجل ممثلا لعظمة الأمير فى ذلك الجزء من البلاد . كان كل من يتحدث إليه يناديه فى استعطاف وود قائلا : يا سعيد ويتصنع سعيد حتى لا ينظر إلى من يناديه ، ويبدو عليه كما لو كان يحملق فى الهواء ، ويركز عينيه على رأس المنادى ، دون أن يعيره أذنا صاغية ، كما لو كان يستيقظ تدريجيا ، وهو مستاء ، من غفوته الطويلة : هذا السعيد نفسه عندما يسأل أحداً سؤالا ، يكون ذلك من وراء ظهره ، ويشيح برأسه كما لو كان يتظاهر بعدم الاستماع إلى الرد على ذلك السؤال . لم يكن سعيد هذا سوى مجرد ظل للحاكم فى المنصب الذى يتقلده فى هذه البلدة النائية : كانت مهمة سعيد تتمثل فى متابعة ورعاية وتنفيذ أوامر سيده ؛ ومع ذلك كانت تقاليد الحكم فى بيت الأمراء الشمَّرَّ ، تقضى بوضع حكم الحضر بين أيدى الشيوخ الطبيعيين فى المدن . كان سعيد يسكن فى منزل عظيم قريب من الحداج (البئر) : والمؤسف أنه كان يعيش وحيدا وبلا زوجة ؛ كان سعيد يغلق بابه فى المساء ، ونظرا لأنه لم يكن يتردد على رعايا سيده ، فقد ترتب على ذلك عدم ذهاب الناس إلى بيته لشرب القهوة . عبد الأمير

هذا ، كان يحصل على مبلغ كبير كل شهر ، علاوة على الفدية ، أو إن شئت فقل : الجزية ، التى كانت تدفعها قرية تيماء : ونظرا لأن سعيد هذا كان أميا ، فقد كان هناك ابن يقوم له بدور الكاتب . كان سعيد يرى من المناسب فى ذلك الوقت مقابلة ذلك النصرانى الذى جاء إلى تيماء ، والذى بلغه أنه كان يقيم ، اعتبارا من بداية موسم الحج ، بين بدو إبن الرشيد . وهنا سأل سعيد الحاضرين ، متعاليًا : "أين الرجل؟" كما لو كانت عيناه لم تقعا علىَّ بالفعل . وبعد أن سأل السؤال الذى يقول : "متى جاء إلى هنا ؟" – أهو معك يا زيد ؟" التزم الصمت المخيف برهة من الوقت ، وتمتم بعد ذلك ببضع كلمات فى الجانب الذى كنت أقف فيه ، ثم نظر إلى الأرض . تساءل الرجل : "هل لدى الإنجليز عبيد فى بلادهم ؟" أجبته قائلا : "نحن نطهر الدنيا من هذه التجارة اللعينة ، وسفننا تقوم بالهجوم على مراكب العبيد فى البحار كلها ؛ ونحن نحرر كل العبيد الذين نجدهم فى تلك المراكب ، ونعيدهم إلى بلادهم ، أو قد نعطيهم أرضا ونخيلا فى بلد من البلدان التابعه لنا . أما فيما يتعلق بتجار العبيد فنحن نتركهم على الأرض القريبة من مكان الحادث ، حتى يتعلموا درسا قاسيا أثناء العودة إلى أوطانهم : نحن نغرق مراكبهم أو نحرقها . زد على ذلك ، أن هناك معاهدة بيننا وبين السلطان : الله لم يخلق الإنسان كى يباع مثل الماشية(*) . هذا شىء طيب ، فما رأيك ؟" انفرجت على إثر ذلك أسارير وجه سعيد الزنجية ، التى كان فيها شيئ من السلالة العربية ، متحوله إلى ابتسام وديع ثم رد علىَّ رداً هيِّنًا ليِّنًا : "ماتقوله ، كلام طيب جداً ." وهنا فتح سعيد فمه ، وبدأ لسانه يتحرك : وقال لنا إنه سافر ذات مره (وكان ذلك بصحبة بعض الخيول النجدية) إلى مصر ، التى شاهد فيها هؤلاء الفرنجيين . وينهض سعيد بعد ذلك بكل تعاليه ، وتظهر على وجهه صرامة منصبه ، ويطلب من زيد أن يصحبنى على الفور إلى دار سعيد لشرب القهوة هناك .

(*) يشير المؤلف فى هذا السياق إلى حركة مناهضة الاسترقاق التى تزعمتها بريطانيا منذ أوائل القرن التاسع عشر الميلادى British Anti - Slavesy Movement وعقدت فى خلالها العديد من المعاهدات مع الدول الأوروبية والشرقية لإلغاء تجارة الرقيق ومن المدهش أن بريطانيا كانت من أكثر الدول اشتغالا بتلك التجارة . والمعاهدة التى يشير إليها دوتى بين بريطانيا والسلطان العثمانى عقدت فى عام ١٨٤٧ . (المراجع)

عندما وصلنا إلى دار سعيد ، وجدناه قد تخلى عن أبهته ، وجلس فى ملابس قديمة داخل بيته . وأوصلنى سعيد إلى أعلى مكان ؛ ونظرا لأن المكان كان يفتقر إلى المخاد التى يتكئ عليها الجالسون ، فقد سحب تحت كوعى شدادة Shîdada، أو ان شئت فقل : سرج أو عدة ناقتة ، كما هى العادة فى خيام البدو . هذه السلوكيات البدوية موجودة فى كل صَالات شرب القهوة فى الواحات ، (وهذا ليس من اختراع الساميين) إذ ليس لديهم أية منقولات غير هذه السروج .- والإنسان عندما يشاهد هؤلاء الساميين فى صالاتهم المبنية من الطين فى المدن وفى القرى أيضا قد يقول : "العربى بن سبيل على استعداد دوما للتجوال ." أحضر سعيد ورقا وحبرا ، كما أحضر أيضا مجلداً أو مجلدين هما كل ما عنده من كتب ، كان يود أن يرانى وأنا أكتب . وعليه كتبت اسمه وكنيته سعيد Saîd زلمة (*) Zélamat بن Ibn رشيد Rashîd؛ وهنا ابتسم الرجل العظيم ، عندما عرف الحروف التى هى إشارات إلى اسمه . وعليه ، اقتادنى سعيد ، بعد أن شربنا القهوة ، إلى خارج حوش داره ، حيث يوجد منزل كبير مبنى من الحجر ، وهو من منازل قرية تيماء القديمة ، على أمل أن أتمكن من أن أترجم له نقش قديم فى ذلك المبنى ، وكان قد أرانى ذلك النقش على إحدى عارضتى الباب الرئيسيتين فى مدخل الباب ؛ كان ذلك النقش (وكذلك الدعامات المشابهة لتلك الدعامات التى شاهدناها فى الحوران البازلتيه) مصنوع من عوارض ضخمة من الحجر الرملى . هذه الأشكال الغريبة ليس لها مثيل بين الأشياء التى شاهدتها من قبل ، وكانت ممسوحة من منتصفها بعلامه تشبه الصليب . كان فكر سعيد يتركز على أن ذلك ربما كان إشارة إلى كنز مخبأ ؛ وأخبرنا أن "كنزا من هذا القبيل جرى رفعه من قرية فيض - "Fayd وفيض هذه عبارة عن قريه تقع فى المسافة ما بين الشَّمرً والقصيم .- أليست هذه فكرة مجنونة ؟ أن يخبئ القدماء كنزا ،

(*) زلمة ابن الرشيد : الزلمة كلمة متداولة فى بلاد الشام وتعنى الرجل ، والمقصود بزلمة ابن الرشيد رجل ابن الرشيد أو نائبه . (المراجع)

ويضعون من فوقه حجراً مرشدا ومكتوبا عليه أيضا ! وعند العودة ، اكتشفت على حائط فى الشارع بالقرب من باب بيته نقشا حجريا مكونا من أربعة أسطر محفورة بإستخدام نفس حروف الكتابة القديمة الغريبه فى تيماء.

انصرف زيد لشراء مؤنه واحتياجاته ، ونظرا لعدم وجود من يضايقنى أو يعاكسنى فقد رحت أتجول فى المكان وأتفحصه ، ورحت أتأمل حفرة ذلك البئر الكبير التى يطلقون عليها اسم الحدَّاج El-Haddaj، هذا البئر من أعمال القدماء ويقع فى منتصف قرية تيماء الجديدة . والبئر له أربعة أضلاع غير متساوية ، وتصل فتحته من أعلى إلى حوالى خمسين قدما ، ويصل عمقه إلى حوالى سبع قامات . هذا الحدَّاج هو بمثابة القلب من قرية تيماء ، نظرا لأن ماء هذا البئر الغزير يجرى سحبه إلى كل من الأجناب فى قنيَّات صغيرة ، تبعث الخضرة فى كل أنحاء الواحة ؛ هناك آبار أخرى فى بعض الهجرات (القرى الصغيرة) النائية . 'عدد' سحب الماء ، التى يطلقون عليها اسم السوانى Suany، تقدر بحوالى ستين عدة ، كلها موضوعة أو منصوبة حول البئر ، وهى مركبة بواقع عدتين أو ثلاث عدد فى المكان الواحد ؛ ويندر أن تعمل كل هذه السوانى فى آن واحد . وهذه هى جمال جلب الماء تمشى نازلة نحو الأسفل على أجناب البئر الأربعة . ويسحب كل جمل من الجمال ، بحكم وزنه الثقيل ، جردل على شكل قرن يصنعونه من جلود الجمال ويطلقون عليه اسم الدَّلو : dullû والعنق السفلى لذلك الدلو مفتوح ؛ وهذه الفتحه يتحكم فيها خيط ، أثناء رفع الدلو من البئر ، إلى أن يصل الجردل إلى حافة البئر ، ليمر بعد ذلك من فوق بكرة ، وهنا يرتخى الخيط ، فتسقط تلك الفتحة إلى الأمام ، لينسكب ماء الجردل محدثا صوت شلال الماء . وقد شاهدت ، فيما بعد ، شيئا من هذا القبيل فى الهند . صراخ السوانى هذا هو والضوضاء الناتجة عن سقوط الماء ، هما على ما يبدو ، ذلك الصوت الحزين الذى تصدره الأرض هنا فى قرى نجد كلها التى لا يسقط عليها المطر . عمل الماء هذا لا ينقطع ليلا أونهارا ، بل إنه لا يتوقف مطلقا . والمعروف أن قوة الثيران لا تستطيع رفع الماء أكثر من ثلاث او أربع قامات ؛ والناس هنا يقولون : إن الله ، لو لم يخلق الجمل لما كان هناك بشر أو سكان فى كل أنحاء نجد . وقد أبلغونى أنهم يطلقون اسم الحدَّاج على بئر الماء نظرا "لوفرة

الماء وغزارته" ، ذلك الماء الذى يميل لونه إلى الزرقة ويتفجر بشدة من الصخر الرملى ؛ والناس هنا يتخيلون أن النبع يأتى من الحرة .

عندما عدت إلى المقهى لم أجد فيه سوى سليمان ؛ جلسنا سويا فى المقهى ؛ ودخلت علينا فى أدب زوجاته وشقيقاته . حريم تيماء الكاشفات مباشرات ومبتسمات فى وجه الغرباء ، هذا شيء لم أره فى أى مكان آخر فى الجزيرة العربية : ومع ذلك فهؤلاء الحريم يكن سليطات اللسان فى بعض الأحيان ، فيما يتعلق بالسلوكيات غير الدقيقة ، دون لطف أو كياسه . والثوب البسيط الأزرق الفضفاض المصبوغ المصنوع من القماش ، هو الرداء الذى تلبسه النساء كلهن فى كل البلاد العربية ، هو الرداء نفسه الذى تلبسه نساء تيماء ، ولكن بفارق بسيط هو أن يكون أكثر انسابية واتساعا ورشاقة ، وأكمام ذلك الثوب مشغولة ومطرزة بصوف أحمر اللون ، كما أنها مزينة بأشكال من القطن الأحمر شبيهة بالمعين ، تخيطها النساء على تلك الأكمام . وغالبيه الحريم هنا يلبسن أساور ، من الحديد ، لها رءوس جميلة من حبات أو خرز الكهرمان ، وهن يقلن إن تلك الأساور الحديديه جرى جلبها من حائل فى الزمن الماضى . الجميلات من هؤلاء النساء ، لهن ملامح حلوة ومع ذلك فهن كئيبات نظرا لعدم خفة أرواحهن وظلهن ؛ يضاف إلى ذلك بشرتهن سرعان ما تنوى وتذبل شأنهن فى ذلك شأن كل البدويات ؛ والفترة ما بين الربيع والصيف قصيرة جداً فى حياة الفتاه الرشيقه والمرأه الجذابه التى فى منتصف العمر . كان ثوب تامار Tamarذى البقع اللونية الزاهية مثيلا لذلك الثوب الذى تصنعه النسوة العرب هنا . وقد صنع الوالد العجوز ليوسف الصغير معطفا متنوع الألوان ؛ والأكثر ترجيحا هنا أن ذلك الجد ربما يكون قد خاط ذلك المعطف بنفسه هو . والرجال من بين البدو ليسوا على استعداد مثل الحريم فيما يتعلق بتفصيل وإخاطة ثيابهم . قال سليمان : "انتبه يا خليل ، هذه هى أختى الصغيرة ، وهى امرأة جميلة ، وسوف تكون لك ، إن أنت أردت أن تكون رجلا متزوجا ، وعليه فإنك سوف تعد لى فى يدى مهر العروسة ؛ ولكنى أحذرك أن المهر لن يكون صغيرا ." وهنا سألتنى جماعة الحريم الواقفات تحملقن فى الغريب : "من أين جئت إلى قرية تيماء ؟" – "يكفينى رؤيتكن يا اخوتى ." ولكن عندما انفك عقال ألسنتهن ، وبدأن

يتكلمن كما لو كن كلابا ، صاح سليمان وهو يشعر بالضيق قائلا : "يا خليل ، هل حريمكم مثل هذه المواشى الكريهة ؟ لماذا شغلت نفسك بالرد عليهن ؟ انكشحن من هنا ، لقد أطلتن وقوفكن هنا ، هيا أغربن عن هنا !" وهنا أطعن كلهن كلام ذلك الشاب غير الملتحى ، وهنَّ خاضعات خضوع النساء ؛ والسبب فى ذلك أن كل ابن وكل أخ يعد حاكما على كل النساء فى إطار هذه الأسر الأبوية ، هذا الشاب النضر متورد الوجه ، أكثر من أى شاب آخر فى القرية ، ولكنه لم يكن جيد التفكير ، لم أجده فى القرية عندما زرتها فى المرة الثانية : إذ كان قد مات ميتة مفاجئة قبل بضعه أشهر ! "(سألتهم) أين سليمان ؟" – "(أجابونى فى منزله) راح ! لقد مات ، رحمة الله عليه ." – "آه ، كيف مات ؟" – "آه يا خليل ، لقد مات من الوجع (*) ." ولم أعرف منهم أى شىء أكثر من ذلك . واستدعانى أخوه لآكل من الخروف الذى ذبحوه كفارة له ، والتى ذكّرتنا بسليمان ، "يا خليل ، نادتنى زوجة شقيق سليمان الأكبر (أجمل امرأة بين النساء التيامنة (**)) هل تتذكر سليمان ؟ آه ، لقد مات بعد رحيلك بفترة قصيرة ، مسكين ! عليه رحمه الله !" وعندما رددت قائلا : "ارحمه ، يا الله !" نظروا إلى وهم يتعجبون ، لسماع ذلك التدين الصادر من فم واحد من الكفار : ونظرا لأنهم يكرهوننا بوصفنا كفارا . فهم يسلمون بأننا يتعين علينا أن نطلب من الله أن يلعنهم هم أيضا فى وفاتهم .

مسارات الواحة تقع بين جدران البساتين ؛ ولكنى فى كل الأماكن التى دخلتها كنت أجد أراضى أو مزارع النخيل تحظى بعناية كبيرة ، ففى وسط كل مزرعة من مزارع النخيل توجد بركة تتغذى بالماء الذى يأتى من الحدّاج عن طريق القنيات الصغيرة ، والهدف من هذه البركة هو الحفاظ على الرطوبة كى تحيط بجذور سيقان النخيل طول الوقت (مما يجعلنا نقول : إن النخل مع مثل هذا الوضع يصبح من النباتات المائية) . وأهل تيماء لا يحرثون غيطان القمح إلا فى فصل الخريف ، وهم

(*) الوجع : كلمة يستخدمها أهل تيماء هم والبدو للتعبير عن المرض . (المترجم)
(**) نسبة إلى قرية تيماء . (المترجم)

يستخدمون إبل رفع الماء فى عملية الحرث ، ويسمدونها من مرابط الجمال ، كما يغطون التربة بطبقه من اللَّهم (الغرين) الذى يحضرونه من حفر على جانب الحقل . والقرى السورية لا تقوم على فلاحة طيبة من هذا القبيل . ومن الطبيعى أن تكون هذه التربة عفيَّة ، وتعطى محصولاً من القمح كل عام ، ولكنهم ينوعون زراعة الحبوب فى هذه التربة ؛ ومع ذلك فهم لا يزرعون سوى محصول واحد كل عام ، والسبب فى ذلك أن الرى عندهم لم يعد كافيا لرى كل المزارع . والناس هنا يحصدون القمح والشعير فى الأسبوع الأول من شهر أبريل ؛ وهم يزرعون هنا أيضا ، كما هو الحال فى مناطق الجزيرة العربية كلها ، ذلك السرغوم الذى يشبه نباته سارية العم ، وهم يطلقون على ذلك النبات هنا اسم "الذرة" **Thûra**، كما يزرعون هنا أيضا نوعا من الحبوب النجديه الصغيرة يطلقون عليها اسم "الدُّكسة" **Duksa** وإلى جانب نباتات الخبز ، يزرع أهل تيماء بعضا من أوراق التبغ "غير المشروع" . والعجيب أن أمير الشمَّر لم يمنع الناس من زراعة التبغ(*) ! من هنا نجد أن تيماء الشبيهة بنجد ليست نجدية بحق وحقيقة . والناس هنا لايزرعون أشجار الفاكهه على جوانب القنيات حتى لا يغتصبوا الأرض المخصصه للنخيل الذى يعد المصدر الرئيسى للغذاء ؛ وهم يزرعون الرمان ، والكمثرى ، والتين ، والأترج ، والليمون الحلو ، والليمون البنزهير ، وتنتشر زراعة الكروم حول الآبار ، والكروم نباتات تعريشية تمتد فوق المشى الذى تسير فيه جمال الجر ، محدثا ظلا ظليلا وارفا . والتيامنة يقدمون ، عن طيب خاطر ، من تلك الفواكه الطيبة ، فى تلك الأرض التى تعانى من العطش ، للغرباء وأبناء السبيل ، ويرفضون بيعها لهم ، ومع ذلك فإن العنب يباع فى سوق قرية القصيم . أهل تيماء يزرعون هنا كل أنواع الأشجار التى تزرع فى جنة دمشق ؛ ولكن ما فائدة ذلك ؟ – أيزرعونها لاستعمالهم واستهلاكهم الخاص ؟ الفقراء لا ينبغى عليهم استرضاء الله سبحانه وتعالى بالأكل الطيب : فما لديهم يمكن أن يكفيهم ، أما ما يزيد على ذلك فهم ليسوا بحاجة إليه ،

(*) على الرغم من أن تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت تحرم تعاطى التبغ أو زراعته إلا أنه من الواضح أن إمارة شمر رغم اعتناقها لتلك التعاليم إلا أنها كانت أقل تشددا عما كان عليه الحال فى نجد أو القصيم . (المراجع)

ويمكن أن يجر عليهم الاحتقار الدينى ، أنواع التمور الكثيرة الموجودة فى قرية تيماء كلها من الأنواع الممتازة ولها مذاق ونكهة ممتازة أيضا . وسيقان النخيل هنا طويلة جداً ، وسميكة وتحمل ثمارا كثيرة . ولكن كل تمور تيماء من النوع الحار Harr؛ هذا يعنى أن تلك التمور ينبغى تناولها مع المريسى أو مع لبن الخض الحامض الذى يصنعه البدو الرحل ؛ والمعروف أن كلا من المريسى ولبن الخض الحامض مشروبين مبردين ، والتيامنة ينظرون إلى التمور بكل أنواعها (بالرغم من أنها تشكل القسم الأكبر من طعامهم) بشىء من الكراهية والاشمئزاز . وفى هذا العام بيع التمر بواقع عشرين صاعا تيمانيا صغيرا لكل ريال واحد ، وهذه الكمية فى رأى البدو الرحل تكفى رجلا واحداً مع شىء من الحليب مدة شهر كامل . قمح التيامنة صغير الحبوب الطيب ، كان يباع بواقع ستة أصواع نظير ريال واحد . هؤلاء القرويون يزرعون من القمح كميات تكفيهم ويبيعون منها لجيرانهم من البدو الرحل . والحيوانات التى لدى التيامنة غير الجمل هى نوع من الأبقار الهزيلة التى جلبوها من قرية العلا ؛ ولدى التيامنة أعدادا كبيرة من الدواجن ؛ وتيماء لا يوجد بها أى نوع من الكلاب ، ولم أر للقطاط أى أثر ووجود فى نجد .

النقود المتداولة هنا قليلة ، والغالبية العظمى من عمليات البيع والشراء تجرى بما يطلقون عليه اسم الصاع ، وصفقات كبيرة من التمور تصل إلى عدة أحمال من أحمال الجمال . والمقايضه هى الأساس فى القسم الأكبر من التجارة فى الجزيرة العربية . والنقود الفضيه تأتيهم من الصحراء ، عن طريق البدو الرُّحَل ، الذين يحصلون عليها عن طريق بيع بعض من إبلهم إلى بعض السماسرة والوسطاء ؛ ولكن النقود الفضية تتركز بصورة أساسية فى بلاد طريق الحج التى تحصل على صرَّة كل عام ، تُدْفع إلى شيوخ تلك البلدان عن شكل مجيديات تركية (*). هذا المبلغ الذى يتلقاه هؤلاء الشيوخ سنويا ، يجرى استرداده كله تقريبا من تجار القرى عن طريق الحكومة ، على شكل ضريبة ،

(*) عملة تركية تحمل اسم السلطان عبد المجيد . (المترجم)

تقدر بحوالى أربعة آلاف ريال كل عام من قرية تيماء ، وتجرى جبايتها كل عام بعد جنى محصول التمر ؛ بعض الشيوخ قد يركبون دوابهم مصاحبين لتلك الضريبة كى يوصلونها إلى مدينة حائل ، لتوضع ، على شكل فدية ، فى خزانة الأمير . تيماء فيها أيضا بعض الغرباء الذين جاءوا إليها من جبل الشَّمَّر كى يعملوا بالتجارة : وهؤلاء التجار يبيعون الملابس البغدادية ، والقماش الخليجى الأبيض الخفيف الذى يطلقون عليه اسم "السُّليطة" Sleyta، وهم يستأجرون غرفا ومنازل لذلك الغرض ، أى لممارسة بيع الملابس والقماش الخليجى الأبيض الخفيف . هؤلاء المواطنون الذين جاءوا من حائل يتجولون فى تيماء شامخى الأنوف شأنهم فى ذلك شأن أهل العاصمة نجد . كما يوجد فى تيماء أيضا واحد أو اثنان من الغرباء يبيعان الملبوسات السورية ، وهما من أصل سورى دمشقى من ناحية والديهما . كان من بين هذين الاثنين واحد يدعى محمود ، الذى جاء إلى تيماء مع والده المدنى(*) فى العام الذى وقعت فيه مذبحة النصارى . هذا الشاب الصغير تتمثل فيه حاليا سحنة النجديين . أما الشخص الثانى فقد كان ابنا لواحد من رعاة القلعة كبار السن . والشوارع فى تيماء ليس فيها دكاكين ، وملاّك الأرض هم الذين يبيعون قمحهم وتمورهم فى بيوتهم .

كان ذلك الهواء الراكد يبدو لنا خانقا ، وهو يأتينا من الصحراء المرتفعة ، ولم يطرق النوم جفوننا فى بيوت هؤلاء الناس المبنية من الطين . كان عطشى شديدا ؛ وعندما عثرت هنا على نوع من الماء النقى النظيف ، بعد عدة أسابيع من الجفاف ، واصلت الشرب من ذلك الماء حتى قال أحدهم : "لقد جاء خليل إلى تيماء لمجرد شرب الماء ؛ ترى ، هل يشرب ماء الحدَّاج كله ؟ " ونظرا لأن زيداً لم يكن قد عاد بعد ، خرجت لزيارة بعض الآثار القديمة العريقة ، ألا وهو قصر Kasr زيللُّوم Zellum، الذى سمِّى باسم واحد من ملاك الأرض السابقين . كان زنجى خلاسى هو الذى يرافقنى فى تلك الجولة ، ولكن ملامحه الشرسة ، وبلادة ذهنه ورذالة سلوكه جعلتنى أفكر من الأمر

(*) نسبة إلى المدينة (المنورة) . (المترجم)

مليا وآخذ حذرى منه : إذ كان عفيا وقويا مثل جمل من الجمال ، كما كان يحمل معه أيضًا سيفا ، فى حين كنت أنا ضعيفا واهنا وجئت مجردًا من السلاح (بسبب الحر) . تجاوزنا الأسوار الخارجية ، وعندما اكتشفت أن المكان يقع على بعد مسافة كبيره داخل الصحراء ، وعندما اكتشفت أيضا من نظرات ذلك الشرس الحائرة ، أنه ربما يقتلنى فى هذا الطريق المنعزل ، آثرت التلكؤ إلى حد ما ؛ وهنا رأيت رجلا مسكينا فى حقله ، وهنا قلت : سوف أذهب إلى ذلك الرجل لأشرب قليلا من الماء . كان ذلك الرجل بدويا ، يبنى سورا من الطين لبستان من البساتين ولحساب واحد من القرويين ، وقد حصل على أجره على شكل صاعات التمر ، فى ذلك الحقل جاء إلينا من القرية شاب صغير من أسرة شيخ من الشيوخ الرئيسيين ، اسمه الرُّمَان er-Romàn ومعه شخص آخر . هذان الشخصان أرسلهما زيد فى أعقابى على وجه السرعة ، بعد أن وصلته أخبار عن الجماعة التى قصدتها : - وفى نزاع بعد ذلك قال لى زيد : "لقد أنقذت حياتك ، يا خليل ! ألا تذكر ذلك اليوم عندما كنا فى تيماء ، عندما خرج العبد الأسود ليقتلك ؟" أنا أعرف أولئك الصغار الذين يبيعون الابتسامات ، ولذلك فأنا لا أثق بهم تماما ، ومع ذلك سرنا سويا . وجدت من الضرورى الإقدام على تلك المغامرة ، أو إن شئت فقل : المخاطرة ، فى ذلك اليوم ، إذ ربما لا أعود ثانية إلى قرية تيماء ، ولكن كل ما كان معى من سلاح ، كان عبارة عن مدية ، كنت قد فتحتها وجهزتها وأخفيتها تحت عباءتى (بشتى) حتى لا أموت مثل ذبيحة من الذبائح ، إذا ما هجم علىّ أولئك الخونة .

وجدت قصر زيللُّوم Zellûm هذا عبارة عن بناية كبيرة لها أربعة أضلاع وشبيهة بالقلعة ؛ وقد يصل طول الضلع الواحد إلى ما يتردد بين خمسين وستين خطوة . وجدران هذه البناية يصل سمك الواحد منها إلى خمسة أقدام تقريبا ، وارتفاعه حوالى خمسة عشر قدما ، وهو مبنى من الطين الجاف . هناك جزء من تلك البناية مقسم إلى غرف ، أما بقية البناية فهى عبارة عن حوش أو فناء ، والناس هنا يظنون أن بئرا كبيره مدفونة فى ذلك المكان . موقع هذا القصر ينخفض قليلا عن أسوار بلدة تيماء القديمة ، التى يراها الناس على شكل ضفاف من الرمال ، ترتفع فوق مستوى السهل ؛ ولا يظهر من ذلك المبنى سوى الجزء العلوى منه فقط . وفى منتصف سور القصر عثرت

على حجر آخر عليه نقش من النقوش ، وموضوع بالعرض ، بهذه الطريقة التيمية الغريبة ؛ ووجدت من فوق الكتابة ، صور لعينين بشريتين . – وقد قرأنا أن عرَّافى الغرب القدماء فسَّروا سطرين على إنهما عيون ، أما الحكماء فقد فسروا هذين السطرين أو إن شئت فقل ترجموهما على إنهما "أطفال children الرؤية ". of vision وبعد استسلام تيماء لعبيد Abeyd بن الرشيد ، أصدر لهم الأمر التالى : "ممنوع عليكم البناء فوق أسوار ذلك القصر !"

هذه الواحة كلها – هذا الجوف الضحل ، أو إن شئت فقل : القاع الفيضى فى الصحراء العالية ، والذى ليس له مخرج – كانت فى زمن آخر من أزمان العالم (وهذا مجرد احتمال) مفيضا شتويا . إذ إن هناك حوالى سبع قنوات من قنوات السيول (ليست كلها فى متناول رؤية الجميع) تنساب كلها نحو ذلك المفيض . وأنا أدون هنا أسماء تلك القنوات لتكون محطا للملاحظة : الحُسنية el- Hosenîeh، خويليد Kh?weylid، حدًّا جور Heddajor، صيفية Seyfieh، الطليحات el-Toleyhat، الرُّثام er-Rotham وأخيرا زيللُّوم . Zellum ويمكن ملاحظه بقايا خطوط من الصلصال الذى يميل لونه إلى الزرقة ، وكذلك الغرين البنى الذى يميل لونه إلى الاصفرار ، فى حفر المارل(*) Marl التى فى تلك القنوات . وفى الأراضى الواقعة أسفل التربة المزروعة ، توجد أحواض من الملح ، التى تشتهر باسم "مملاحات" (ملاَّحات) Memlahàt تيماء . والبدو الذين يعانون من شدة الفاقة يقصدون تلك الأحواض ليحصلوا منها على ذلك الملح بالمجان : وهم يقولون إن هذا الملح له مذاق أحلى من ملح ماء البحر فى بلدة الوجه . ومعروف أن ملح تيماء الصخرى هو بمثابة الصلصة اليومية فى آلاف الغلايات التى يستعملها البدو الرحل فى كل أنحاء الجزيرة العربية . وبدو الفقارة ينقلون ذلك الملح الصخرى معهم إلى قرية العلا ، ويبيعونه هناك بواقع أربعة ريالات لحمولة الجمل الواحد . زد على ذلك ، أن الأراضى الأشد انخفاضا فى صحراء تيماء تغلب عليها

(*) مارل بمعنى سجيل : والسجيل هو تراب تكثر به نسبة المواد الجبسية من كربونات الكالسيوم مع بعض الصلصال والرمل والمواد العضوية . (المترجم)

الملوحة نظرا لمياه غسيل الأراضى الأعلى منها التى تنصرف إليها ؛ بعد الشتاء قد تتكون فوق المياه الراكدة قشرة من الملح ،- وقد رأيت قشرة من هذا القبيل ، سمكها حوالى إصبع ، جرى كشطها من منطقة قريبة من جبل مسمة Misma، لتزويد أهل حائل بالملح . وفى الجريش Gerish، التى هى عبارة عن جاو Jau، أو إن شئت فقل : ذلك الجبل والمسقى الأرضى المنخفض ، الذى يبعد مسير نصف يوم فى الجانب الشمالى من تيماء ، ويستخرج الناس منه نوعا من الشبَّة Alum، التى غالبا ما يتم الحصول عليها من الصخور السوداء ، والناس يطلقون عليها اسم 'شب' Shubb 'الجمال' ej-Jemal التى يستعملونها علاجا لإبلهم المريضة . والبدو الرحل يقطعون المسافة من تيماء إلى بلدة الجوف فى حولى ست ليالى ؛ وهذا الطريق ليس مطروقا ؛ والنفود الواقعه بين تيماء والجوف لا تستغرق سوى رَحْلةٌ واحدة . والمراحل أو المحطات المختلفه على ذلك الطريق هى : العبيت Ubbeyt، وهى محطة صيفية رئيسية من محطات عرب الشرارات (وفيها بعض المواقع الأثرية) ، والماء فى هذه المنطقة ينبثق من الحفر التى يحفرها الناس بأيديهم ؛ ومحطه ثلة Thullaحلوان Helwan، (وهى غير الجبل الذى يطلق عليه اسم 'جبل حلوان' ، وهى تبعد حوالى مسير يوم واحد عن تيماء فى اتجاه الشرق) ؛ ثم محطة العريج Areyi فى النفود ، ثم الطويل Towil، ثم عصفان sfan، أو إن شئت فقل : الجين el-Jeyn، وأخيرا الدُّاحة . ed-Daha ومن القليل النادر أن يركب أحد من هنا قاصدا بلدة معان ، نظرا لأن رحلات البدو الرحل هى على النحو التالى : ١- ثله Thullaضافية Thafya، ٢- دُبّل Dubbel، ٣- العجيل el- Agel، ٤- العقب el-Agab (من العقبة) : والبدو الرحل يعتبرون جبل طبيق To-bey(k)ch، على بعد مسافة مسير نصف يوم أو ما يزيد على ذلك فى الجانب الأيمن ، وهم يقولون : إن ذلك الجبل يمتد شرقا وغربا وهو أكبر من جبل إرنان . Irana والجليد يكسو جبل طبيق فى الشتاء ، وهو يبعد مسير ليلتين عن معان .

فى إحدى الأمسيات ، تجمعت مجموعة كبيرة من رفاق القهوة ، حول وجار مضيفنا ، وأخذ البعض من هذه المجموعة يتكلمون عن الدين المسيحى ، وعبروا عن استيائهم من أن 'النصارى يعبدون الأصنام ، ليس هذا فحسب وإنما هم يخرفون فى

حق الرسول أيضا" . وقالوا أيضا : "النصارى إناس لا يعرفون أى نوع من الزوجية الشرعية ، وإنما هم مثل الحيوانات ، يتبعون ميولهم وغرائزهم الطبيعية ، وإذا ما انطفأت الأنوار عنهم أثناء تجمعاتهم الدينية ، يحدث عبث ملعون بينهم بطريقة غريبة ومرعبة ، فالابن ، وقد يكون ذلك كذبا ، قد يغشى أمه بطريقة وحشية ، بطريقة ، هى والله ، مثل طريقة الكلاب : – وبهذه الطريقة جاء جيل النصارى اللعين ، إلى حد أن الله (نفسه) لعنهم ! (وتجاراً المتحدث وأضاف) وأنا أستطيع القول إن هذا النصرانى لا يستطيع معرفة من يكون والده يضاف إلى ذلك أنهم لديهم بعض العادات الوثنية ، فالمرأه المسيحية عندما تموت يدفنون معها زوجها الحى ." هناك أيضا إهانات وازدراءات أخرى افترتها النحل المسيحية الحاقدة ، مثلما يفعل الدروز جيرانهم فى القرى الجبلية السورية ."رددت عليهم قائلا : أيها الأصدقاء هذه خرافات عن أرض بعيدة جداً ، وعن حقد وغيرة الزوجات القديمات من أشياء غير معروفة ، ولكن أرجو أن تنصتوا إلى وسوف أقول لكم فصل الخطاب ." وهنا قال أحد بدو الفجيرى متعجبا : "وحياة هذه النار ! خليل لا يكذب ، والله ، ومع أنه نصرانى ، فهو يقول الصدق والحق فى كل شىء بين الأعراب ؛ وليس هناك مسلم فى صِدْق خليل وصراحته . استمعوا وانصتوا له ! – واصل كلامك يا خليل ." – "هذا هو تشريع الزواج الذى أنزله الله فى دين المسيح Messîah المقدس ، 'ابن مريم من روح الله ،' – وهذا منصوص عليه فى كتابكم المقدس (القرآن .)" – "(ردوا جميعا قائلين) : صلى Sully الله Ullah عليه Aley-Hu ." مرددين هذه الصلاة المعتادة عندما يذكر اسم نبى من الأنبياء الكبار . – "وكما أعطى الله لآدم حواء ، امرأة واحدة ، فإن الرجل المسيحى يتزوج من واحدة فقط . إنه رباط دينى يستمر إلى وفاة أى منهما ؛ إنها صحبة مخلصة فى المرض ، وفى الصحة ، وفى المسرة والمضرة فى هذه الدنيا ، وسواء أنجبت أم لم تنجب له أولاداً ، أو حتى عندما يكون هو عقيماً : وهذا الرباط لا يمكن فكه ، إلا فى حاله الزنا ." – "قالوا : ولكن المرأة تشيخ قبل زوجها ؛ وإذا لم يكن من حق الرجل أن يتزوج من أخرى بعد أن تكبر زوجته ، فذلك يعنى أن شريعتكم ليست عادلة ." قال أحدهم ، وهو يضحك : "يا خليل ، نحن ديننا أفضل ، شريعتكم صارمة جداً بالنسبه لنا (فى هذا الأمر) ؛ وأنا

بنفسي تزوجت من زوجة عمرها خمسة عشر عاما مع الزوجات الأخريات . ما رأيكم أيها الرفاق ؟ من بين الحريم هناك حالات كثيرة معْوجَّة ؟ فأنا آخذ بعضهن ، وأستغنى عن بعضهن نعم بالله ! إلى أن توصلت إلى ذلك البعض الذى يمكننى العيش معهن ."

قال البعض منهم بعد ذلك ، "صحيح ذلك المثل الذى يقول : 'ليس هناك أخس من المسلمين' والله لا يبارك فيهم بسبب خطاياهم ؛ أليس الكفار أنفسهم أفضل منا ؟ ومع ذلك قل لنا رأيك يا خليل ، - ألا يوجد فى كل موضع من ديانتكم موضعا لمسَبَّة تصبونها كل يوم على محمد رسول الله ؟" - "(قلت لهم) : البعض منكم ليسوا طيبين ، لقد أعيتنى أساطيركم وحكاياكم العامرة بالحقد . نحن لا نجدف فى حق محمد (، الذى تقولون : إنه نبيكم : ولكننا ندعولكم يوميا فى كل كنائسنا ، بأن يرحمكم الله برحمته . خبرونى متى عاش محمد ؟ بعد المسيح بستة عصور ، كان الوقت أو الزمن عند ذلك مواتيا لتعليم آبائكم الوثنيين الكبار ؟- وهل أنتم أفضل من آبائكم ؟" - "الله يعلم أننا أفضل : آباؤنا كانوا فى الجاهيلة ." - "ولكننا لا نعرف ذلك ؛ أنتم جدد علينا ، ونحن فى مكان إخوانكم الأكبر سنا :- وأنا فيماً يتعلق بى شخصيا أرى أن الأديان كلها صحيحة ، وبخاصة أنها تصلح حال الإنسان . من هنا يصبح بوسعى احترام دينكم ." قال أحدهم عن التعدد فى الزواج : "ها ! النصارى أناس طيبين ، وإذا ما قطعوا على أنفسهم عهدا التزموا به ، إضافة إلى أنهم أمناء فى كل ما تعهد به إليهم ، أما نحن فلا ، ولقد تعلمت بعض الأشياء عن دينهم من أبى فارس - Fâris ومن لا يذكر أبا فارس ؟ سمعنا من أبى فارس ، أن النصارى لديهم ، قبل كل شىء ، بعض الأحكام الربانية المحددة التى من قبيل : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تشتهى مال الغير ، لا تزنى ، لا تكذب ، ونحن نرى مدى التزامهم بهذه الأحكام والمفاهيم !" سألونى بعد ذلك عن التوراة (كتاب (سيدنا) موسى) ، وسألونى أيضا عن الإنجيل ، الذى يسلمون بأنه كلام الله منذ أزل بعيد ؛ ولكنه جرى تحريفه من قبل النصارى واليهود سيئى السمعة والقصد ، لا لشىء سوى احتقار الإسلام والحقد عليه ؛ والآن ألغى الإنجيل بنزول القرآن كاملا من السماء (من عند الله) على (سيدنا) محمد ﷺ ، "خاتم الأنبياء وحبيب الله ." العالم الإسلامى ، هنا ، يصبح جاهلا بكتبنا المقدسة . وهذا هو السبب

الذى يجعل علماؤهم الشيطانيين يخربون ويفنون التواريخ القديمة والأدبيات الخاصة بمعالجة حياة القديسيين (*) ومع ذلك ، ونظرا لأن الكتب السابقة من كلام الله نُزِّلت على اليهود والنصارى ، فقد سمينا باسم هذه الكتب "أهل الكتاب المقدس" ، وفى الخطاب العام يسموننا "المدرسون" الذين تستقى عنهم هيئة التعليم الدينى والتعليم الإنسانى كله . (ولقب مُعَلِّمَ Muallem لم أسمعه مطلقا فى كل أنحاء الجزيرة العربية المسلمة .) وهم يتهمونا بأننا "نتخذ له شركاء" ، بمعنى تقسيم الإله الواحد ، وارتكاب الخطيئه بعبادة الأصنام . معروف أن أصل الدين أو جذوره تتمثل فى الميل الطبيعى أو الغريزه ، والأمر كله يعتمد على الرأى .(**) من هنا فإن الجدل المنطقى معهم يصبح مضيعة للوقت ، لأن منطقهم يقوم على الإراده . وأشفق كثير من المسلمين الطيبين فى كثير من الأحيان على غشاوتى الدينية وهم يقولون : "يا اسفاه ! هناك غشاوة على عيناى ولكن هذه هى إرادة الله ."

انصتوا إلى ما أقول : "لقد ورد ذكر تيماء فى التوراة ." سألونى ، تحت أى اسم ؟ – "تيمة "Tema"؛ كما أن تيمة Tema أيضا اسم واحد من أبناء إسماعيل عليه السلام ، فقد سمى باسم قريته . وتيماء عند إشعيا ، هى المكان الذى تبعثر منه أفراد قوافل ديدان(***) Dedan، أمام أقواس البدو وسيوفهم ، وجرت إغاثتهم بالخبز والماء . ورد علىّ أولئك الذين كانوا يستمعون إلىَّ قائلين : "ولكن الاسم القديم كان توما ". Toma

بدو نجد أكثر تشددا فيما يتعلق بجهل عقولهم البرية المطبق ، ولكنهم بالرغم من ذلك كله أقل خطورة من سكان القرى الذين تعلموا القرآن تعليما وقورا مستقرا . كان يجلس إلى جوار كوعى رفيق متجهم ظل يتمتم ويغمغم طوال فترة المساء ؛ وبعد أن هدأت سمعت ذلك الرفيق يقول : "أنا كنت مثل إبليس فى الأرض ، إخص ! هذا يهودى !

(*) عبارات غير لائقة تمس القرآن الكريم رأينا استبعادها . (المراجع)
(**) عبارات تمس الدين الإسلامى رأينا استبعادها . (المراجع)
(***) قوافل ديدان : تشير التوراة إلى مملكة ديدان التى كان يسكنها قوم ينتسبون إلى سيدنا إبراهيم ويشتهرون بتجارتهم وقوافلهم . وقامت مملكة ديدان فى منطقة العلا الحالية وقد أعقبتها مملكة لحيان . (المراجع)

وعندما أشحت بوجهى عنه ، طلب الناس منى ألا أهتم بذلك اللسان السليط ، قائلين : "يا خليل ، إنه مجرد بدوى ." هذا المسكين الذى كان من قبيلة بشر ، استنكر مسألة نعته بالبدواة فيما بين الناس فى البلدة ، هذا المسكين حوَّل نظره نحو الأسفل وجلس صامتا . همس أحدهم لزيد قائلا : إذا ما حدث له شيء ، فهل سوف تسأل عن ذلك من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية) ؟ قد يموت بينكم بسبب مرض من الأمراض ." ولكن زيداً رد عليهم وفى صوته نبرات الشهامة : "حناً Henna ما ma نا na صادقين Sadikîn بالله billah، بمعنى نحن لسنا صادقين !" – انفض ذلك الجمع قبل منتصف الليل بقليل ، وتركونا ننام فى عباءاتنا (بشوتنا) فى المكان الذى كنا جالسين فيه ، على أرض المقهى . وهنا تكلم سليمان كلاما ما يدل على الكدر متسائلا : "كيف لى أنا ، الرجل المتحضر ، أن أتجول مع بدو متخلفين ملاعين الوالدين ؟"

وبعد فترة قصيرة سمعنا شخصا يتحسس الجدار . وصاح زيد قائلا : "من هناك ؟" واعتدل زيد متكئا على كوعه فى ضوء القمر الضعيف . "انهض ، يا زيد ، (قال صوت ضعيف صادر عن امرأة عجوز ،) أنا موفدة من حرفة (زوجتك) ، الأعراب على وشك الرحيل ." رد عليها زيد ، مرهقا وهو يتمدد على الأرض ، "عاقبهم الله :" – هل من الضرورى السير طوال هذه الليلة بكاملها . وما أن نهضنا من مكاننا حتى أصبحنا على أهبَّة الاستعداد ؛ ومعروف أن مسألة المغادرة تلك أمر جد مهم بين البدو الرُّحل ، وهنا خرجنا من بوابة مضيفنا سليمان المظلمة إلى الشارع ، ولم نلقاه بعد ذلك مطلقا ، ووصلنا إلى البدو عند نهاية الطريق ، أو المسارات ، المسوَّرة ، ووجدناهم بالفعل يقومون بتحميل أمتعتهم فى الظلام . وهنا راح زيد ، يؤنبهم على تغير مزاجهم ، وسألهم عن سبب ذلك التجوال ، أو إن شئت فقل : الرحيل المفاجئ ؛ "أجابوه قائلين : لن نبقى بعد ضيوفا على التيامنة ونأكل خبزهم ."ولما كانوا جميعهم من الفقراء المساكين فقد استشعروا برودة كرم التيامنة .

اتجهنا جنوبا ، وسرعان ما مررنا بالقرب من بعض الأنقاض الأثرية "من بقايا تيماء القديمة ، (قالو لى) وآبار قديمة هناك" . توقف البدو قبيل طلوع الفجر ؛ وبعد

أن سرَّحنا مواشينا ، شببنا النيران ، وجلسنا لنغفو برهة من الوقت . وبعد أن استأنفنا ركوب دوابنا ، وبعد أن قطعنا بضعة أميال قليلة . مررنا ببعض الأنقاض الظاهرة ، التى يطلقون عليها اسم 'بورجسبا' Burjesba ، وكان عن يميننا جبل ، يسمونه جبل جربوع , Jerbûa وعند العصر التقينا بمسيرة أفراد قبيلتنا ، فقد تحركوا مرتين أثناء غيابنا : وتوقف الأعراب للتخييم بعد ذلك بأميال قليلة . كانت تلك البلدة ، كما سبق أن قلت ، تعج بالاضطرابات والقلاقل ، فقد هرب الفقارة إليها . ونظرا لأن بنى وهاب Wahab بصفتهم جيرانا ، ولم يستفيدوا من حكومة ابن الرشيد ، لذا لم يكونوا يرحبون بدفع الزكاة عن طيب خاطر . يضاف إلى ذلك أن بدو الفجير Fejir كانوا قد امتنعوا عن دفع ضريبة الضوء Light، طوال خمس سنوات ، إلى أن رجع الأمير ، فى الصيف الماضى ، عائدا بغنائمه من قرية ولاد على ، وهنا قام الأمير بزيارة بدو الفجير فى الصحراء وحصَّل منهم المتأخرات ، ولم يترك لهم إلا أنفسهم ، لأنهم كانوا قد أخضعوا أنفسهم له ؟ لم يكن الفكارة على عداء سافر مع ولاد على ، كما سبق أن حدد لهم الأمير ، كل ما فى الأمر ، أنهم كانت بينهم مجرد "هفوة صغيرة" ؛ ولكن بدو الفجير كانوا يتشككون دوما فى الأمير المرعب المخيف . فقد كان يخيل لهم أنهم كانوا يرون رجاله وقد أطبقوا عليهم ، وأخذوا منهم المْنزَل . من هنا كان الفجير يتركون المنطقة التى يتجولون فيها ، ويغربون عن وجه الأمير بأن ينتقلوا إلى ديرة بشر المجاورة لهم .

المؤلف فى سطور:

تشارلز مونتاجو دوتى (١٨٤٣ – ١٩٢٦)

- شاعر ورحالة ومستكشف وكاتب ومستشرق إنجليزي، يعد من أهم المستكشفين الأوروبيين الذين اطلعوا على الثقافة، والحياة البدائية العربية في القرن التاسع عشر. بعد أن تجول في أوروبا ومصر.
- زار شبه الجزيرة العربية سنة 1876 رغم تحذيرات أصحابه وغيرهم من خطورة دخول هذه المنطقة ومقابلة سكانها، ودرس آثار النبط الموجودة هناك، وعمل أبحاثا جغرافية وجيولوجية وأنثروبولوجية مهمة، واتنشرت أبحاثه عن طريق المستشرق رينان .
- في سنة 1888 نشر كتابه المشهور "أسفار في صحراء الجزيرة العربية" الذى أعاد نشره ت.ا. لورانس (لورانس العرب) سنة 1920 وبقى مرجعا مهما للباحثين.

المترجم فى سطور:

صبرى محمد حسن

أستاذ اللغويات غير المتفرغ، له أكثر من عشرين بحثًا ومقالاً نشرت فى المجلات والصحف العربية المحلية والدولية منها:

مقالات وأبحاث نشرت بمجلات الفيصل – الرياض – المملكة العربية السعودية، ومجلة كلية الملك عبدالعزيز الحربية – الرياض – المملكة العربية السعودية، والمجلة العربية – الرياض – المملكة العربية السعودية، ومجلة الهلال – القاهرة – جمهورية مصر العربية.

وله كتب مترجمة إلى العربية منها:

(أ) كتب نشرتها دور نشر عربية.

١- التفكيكية: النظرية والممارسة، تأليف: كريستوفر نوريس، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٢- الشاعر والشكل، تأليف: جدسون جيروم – دار المريخ.

٣- الاستراتيجية العربية والإسرائيلية وجها لوجه – دار المريخ.

٤- الأطفال والمخدرات، دار المريخ.

(ب) كتب نشرتها دار آفاق الإبداع العالمية للنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١- المعطف المشاكس ٢- عمل الفريق الفعال

(ج) كتب نشرت ضمن كتاب الهلال، القاهرة، جمهورية مصر العربية.

١- هارون الرشيد، تأليف: فيلبى.

٢- الكوكايين والمراهقين.

٣- بنات مدمنى ومدمنات المسكرات.

(د) روايات مترجمة نشرت ضمن روايات الهلال.

١- حلم ليلة أفريقية

(هـ) كتب مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية.

١- سبعة أنماط من الغموض، تأليف: وليم أمبسون.

٢- وسط الجزيرة العربية وشرقها، تأليف: بالجريف (جزءان).

٣- حركات التحرر الإفريقى, تأليف: ريتشارد جبسون.
٤- إرادة الإنسان فى علاج الإدمان.
٥- قلب الجزيرة العربية (جزءان).
٦- سيرتى الذاتية، تأليف: أحمد بللو.

(و) روايات مترجمة نشرها المجلس الأعلى للثقافة، جمهورية مصر العربية.
١- سكين واحد لكل رجل.
٢- نجوم حظر التجوال الجدد.
٣- المهمة الاستوائية.

المراجع فى سطور:

جمال زكريا قاسم

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر غير المتفرغ بكلية الآداب جامعة عين شمس وعميدها الأسبق.
- شارك فى كثير من الندوات والمؤتمرات العلمية التى عقدت فى الجامعات ومراكز البحوث العلمية فى مصر والدول العربية والسنغال وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.
- عضو فى العديد من اللجان العلمية والجمعيات التاريخية فى مصر وخارجها.
- أستاذ زائر فى كلية رويال هولواى بجامعة لندن وفى جامعة مينسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية.
- أشرف على عشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه، كما أشرف وشارك فى العديد من المشروعات البحثية فى معهد البحوث والدرراسات العربية وأكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا.
- رئيس تحرير مجلة مصر الحديثة التى تصدر عن الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية.
- من أهم مؤلفاته موسوعة تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر فى خمسة مجلدات وتاريخ العرب فى أمريكا والعلاقات العربية الأفريقية ودولة البوسعيد فى عمان وشرق إفريقيا.
- حصل على جائزة الكويت للتقدم العلمى عن أفضل كتاب مؤلف عن الكويت وعلى جائزة جامعة عين شمس التقديرية فى العلوم الاجتماعية.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل

مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوربيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلته.

Bibliotheca Alexandrina
0750132

الغلاف: محمود مراد

المركز القومى للترجمة

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الأول - المجلد الثانى

المشروع القومى للترجمة

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م.دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/879

مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوربيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معايشته لهم خلال رحلاته.

الغلاف: محمود مراد

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول - المجلد الثانى)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٨٧٩ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج١، مج٢)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الأول – المجلد الثانى)

تأليـــــــــف: تشارلـز م. دوتـــى

ترجمـــــــــة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديـم: جمال زكريا قاســـم

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية(ج١_مـج٢)، تـأليف: تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسـن؛ مراجعـة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ – القاهرة، المركز القـومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٨١ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية – وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٤
الترقيم الدولى: 2 - 189 – 479 – 977 -978
طبع بمطابع صحوة

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصـحابها فـى ثقافـاتهم ولا تعبـر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتـــويات

- **الفصل الحادى عشر** : الفكارة يتجولون هاربين فى أديرة أخرى 7
- **الفصل الثانى عشر** : السلام فى الصحراء 53
- **الفصل الثالث عشر** : زيارة المدائن مرة ثانية 93
- **الفصل الرابع عشر** : التجوال فوق الحرة مع الموهاهيب 133
- **الفصل الخامس عشر** : حياة البدو الرحل فى الحرة 173
- **الفصل السادس عشر** : الأعراب يتركون الحرة وينزلون إلى محطة الصيف فى وادى تحـــربة 211
- **الفصل السابع عشر** : مخيم الموهاهيب الصيفى فى وادى تحربة 249
- **الفصل الثامن عشر** : الفكار يمضون الصيف فى الحجر 283
- **الفصل التاسع عشر** : تيماء 327
- **الفصل العشرون** : حصاد التمر 361
- **الفصل الحادى والعشرون** : الجبل 401
- **الفصل الثانى والعشرون** : حائل 441

الجزء الأول (المجلد الثانى)

الفصل الحادى عشر

الفكارة يتجولون هاربين فى أديرة أخرى

البدو يخيمون فى الليل بلا خيام . أطفال عراة فى البرد . مسيرة إجبارية . لا يسأمون ركوب الجمال . جبل بيرد . عظمة غروب الشمس وجلاله فى الصحراء . جفاف ضروع ماشية الألبان بعد الرحلات الطويلة . التخييم داخل حدود البِشْر . ضياع صبى من الرعاة . نبات كف مرحاب . التنقل والتخييم . بعض بقايا الاحتلال القديم . الركائز الحجرية فى الصحراء الخالية . دروب الماشية العامة . زياره تمثال أبى زيد . مخلوقات الصحراء . البومة كانت زوجة بدوية مترحلة تبحث عن طفلها الضائع . فطور من الطُرخشقُون . رعاة كرماء . أبو زيد وزوجته عَلِيَّة . اكتشاف ماء الصخرة . نبات الثُمّام أو عنب الثعلب . صبيان الرعى . أفراس الشيوخ . قُبَيْل المطر . خيم البدو فى النفود . رمال سبر الغور . "قهوة النصارى" . لو يصبح الشاى نبيذًا . دعوه حرفة لشرب الشاى . الفرس التى تُرضع غير مُهْرها . الخيول العربيه لطيفة مثل العائلة البدوية المترحلة . حدوات الخيول . قتل الفرس رميا بالرصاص . زيد يقوم بدور الصلوبى . ينظرون إلى الكتابة بإعجاب فريد . التجار البدو يأتون من الجوف . البدو يسأمون حياة الحاجة والعوز فى الصحراء . حزن البدو وغمهم . الرجال والنساء مغرمون بالتبغ . بائع دُخَّان (تبغ) . ابتزازه الدفين يثير غضب زيد . الرجل يجب ألا يدخن التبغ لثلاثه أشياء (كلمات أحد البدو الذى يؤدى خدمات عامة) . القبيله مقسمة إلى معسكرين . نبات السمح . الخبز البّرى فى البرية . النصرانى يتعرض لخطر حيَّة . قرَّاء العزائم (السحرية) . رباط الأوعية الدموية غير معروف . يبحث عن الطب ذلك الذى يشفط الجرح السام الناتج عن عض الحية . أحجار الدم ، أحجار الثعابين ،

الأحجار الكريمة . عيال عم . "أنا الرب ربك" . النزاعات فيما بينهم . حكومة شيوخ البدو الرحل الحكيمة (الرشيدة) . إصابة قبلى بجرح فى نزاع . هل الفهجات هم يهود خيبر ؟ تمرأة شقراء . منفيو شيوخ العلايدة . قلقبليون غير الأشقاء أو المولدين . مرح المساء حول نار الخيمة . البعض يتعلمون كلمات انجليزيه . زيد على استعداد أن يعطى واحدة من زوجاته لأخيه النصرانى عن طريق الزواج . الزواج فى الصحراء . البنات الراعيات فى الصحراء . يوم الصحراء حتى المساء . أرض الصحراء ذات السهول العالية والممرات الجبلية . متعة الربيع القصيرة فى العام الصحراوى . موسم الحِمْلان . ولادة الإبل . نياق الحليب . حمية الحليب . أنواع الحليب . حامد شيخ الوحوش البرية والسحالى . الجربوع . الوبَّار . الذئب الذى أكله الأعراب ، والضبع . الماعز البرية . الغزال . الوعل . هل الوضيحى هو وحيد القرن ؟ العقارب . الفهد . القط البرى . الصقور الحوَّامة ، وصقور الشاهين ، والنسور .

* * *

قام الناس هنا بتقويض خيامهم وحزم أمتعتهم قبل أن يناموا نظرا لأنهم فى هذا المَنْزل يتحتم عليهم أن يبدءوا مسيرتهم قبل طلوع فجر الغد . هذه هى الأسر البدوية تفترش الأرض العراء تحت السماء والنجوم . نائمين إلى جوار أشيائهم المنزلية هى وقراب الماء المليئة التى تُصنَعُ من جلود الماعز . كان الليل باردا عند هذا الارتفاع الذى يصل إلى ما يقرب من ٣٦٠٠ قدم . شاهدت البدو الرُّحَّل وهم متمددين على الرمل ، ملفوفين على عباءاتهم (بشوتهم) : وقلة قليلة منهم هى التى لديها سجاد ينامون عليه ؛ هذا السجاد يطلقون عليه اسم إكيم(*) Ekim، وهم يصنعونه من قماش صوفى خشن أسود اللون يشبه القماش الذى تصنع منه خيامهم ، وله إطار مرسوم عليه مربعات من الصوف الأبيض الملون ؛ والإكيم Ekim له شراريب وحواف مصبوغة بألوان بهيجة .

فى ذلك الموسم كان الطقس شديد البرودة ، وبخاصة عندما يبدأ الترحال ، أو إن شئت فقل : المسير قبل طلوع الشمس فى الصحراء . أبناء الفقراء ، ليس لديهم عباءات

(*) إكيم Ekim : من المرجح أن يكون المقصود به ما يعرف عادة باسم الكليم . (المراجع)

يرتدونها ، وهم يسترون أجسامهم الضعيفة النحيلة بمعطف مصنوع من قماش القطن ؛ بل إن هناك بعض الأطفال شبه عارين تماما . كانت درجة الحرارة عند ذلك الوقت حوالى ٤٨° فهرنهيتية . ثم أصبحت ٨٦° فهرنهيتية عندما طلعت الشمس . كان ترحال البدو أمرًا حتميًا ؛ هذه هى قطعان الماشية ، وقطعان الأغنام ، التى يطلقون عليها اسم الطورش et- Tursh تسير على جنب إلى جوارنا من الأمام . وفى وقت الحاجة ، يضحى البدو بالماشية التى تمثل كل ما لديهم من ثروة ، ولكنهم يعتقدون عندما يفعلون ذلك ، أنهم ينقذون أنفسهم وثرواتهم ، حتى وإن اضطروا إلى الإضرار بتلك القطعان ، هذه هى أبقارهم الضخمة التى تشبه الجمال تلد عجولا كل يوم ومعها صغارها . وتلك هى الطليان (الخراف) الصغيرة وكذلك صغار الحيوانات الأخرى التى جرى فطامها مؤخرا ، وتلك هى الجمال الصغيرة التى لم يمض على ولادتها خمسة أيام ، وتلك أيضا هى صغار الحيوانات من كلاب الصيد فى المخيم التى سيربونها ، والتى قامت ربات البيوت بوضعها مع أطفالهن فوق إبل الحمل . ونحن نرى كل أم من الأمهات راكبة فوق جمل من الجمال وسط لفافة من قماش الخيام أو السجاد ، ومن حولها أيضا صغار الحيوانات ؛ هاهى الأمهات تمسك كل واحدة منهن بأطفالها الصغار الجالسين أمامها . والأطفال الصغار ، هم وكبار السن وكذلك المرضى هم ومن يتعين عليهم ملازمة الفراش ، لا تبدو عليهم علامات التعب والإرهاق بالرغم من ركوبهم الإبل ساعات طوال . وأصحاب الأمراض الشديدة بين البدو يركبون الإبل وهم جلوس فى هودج يصنعه البدو من قماش الخيام ؛ أما الآخرون ، من أمثال الرعاة ، فهم يركعون أو يركبون مرتاحين على ظهر الجمل العارى دون أن يخشوا السقوط أو الوقوع على الأرض . ومن أعراف الصحراء أن يترحل البدو وهم صائمون : وأيا كان طول الرِّحلة ، أو إن شئت فقل ، المسيرة ، فإن العرب لا يأكلون إلا عندما ينزلون من فوق دوابهم فى المَنْزل المحدد لهم ؛ ومع ذلك فإن الأمهات يسقين أطفالهن ، أو قد يضعن فى أفواههن كسرة من الطعام ، أثناء سيرهن على الطريق الطويل .

وبينما كنا نسير فى تلك الحرارة الخانقة ، شاهدنا أول ما شاهدنا ، فى أفق ما بعد الظهيرة ، أو إن شئت فقل : العصر، جبل بيرد Birrd العالى الوحيد ، المكون من

الحجر الرملى . وهنا صاح المجاورون لى بلغة تفاهمهم وهم يضحكون قائلين : "شيخ ديرتنا هناك خلف هذه التُّلة ". Thullaجبل بيرد هذا يصل ارتفاعه إلى حوالى ٥٠٠٠ قدم . وعن يميننا نرى هنا صفاً من أشجار السنط فى السهل الصحراوى ، الذى يعد علامة من علامات مجرى جاف من مجارى السيول ، هذا المجرى يسمونه جو Go، وهم يقولون : إنه ينحدر مسافة مسير يوم واحد فى اتجاه غربى خيبر Kheybar، وينتهى هنا فى هذه المنطقة من الصحراء . فى هذا الجزء المرتفع من البلاد ، فيما بين بلدة تيماء وتبوك ومدائن صالح لا يوجد أى وادٍ من الوديان . وهذه هى آثار ذلك المطر القليل الذى قد يسقط خلال العام ، تظهر على شكل رذاذ جرى رشه فوق سطح الرمل ، ويستمر مسيرنا ، خلال شمس شهر مارس التى طلعت على رحلتنا وسطعت فوقنا ، إلى أن غربت خلفنا فى غرفة هائله من المباهج الشرقية الجميلة ، التى لا تعد أمرا فريدا فى المسيرات القاحلة عبر الجزيرة العربية التى لا تسترها السحب مطلقا . شاهدنا أمامنا ، من جديد ، ضوء النجوم البارد ، قبل أن تنزل الأسر المرهقة عن دوابها ، عند سفح جبل بيرد مع انبلاج الصبح ، الذى سيتعين عليهم الرحيل عنده من جديد ؛ أثناء هذه الوقفة نصبت الحريم دروة ، يتقين بها ريح الليل ، من قماش الخيام بأن فردنه على حاملين . كان من العبث محاولة الحصول على حليب من ضروع الحيوانات المرهقة بسبب السير الطويل . فى ذلك اليوم انتقلت القرية البدوية المترحلة مسافه تزيد على أربعين ميلا ، هؤلاء الرعاة الجائلون ، يلزمون منازلهم ، فى أغلب الأحيان ، ثم يتركون ماشيتهم ترعى ، قبل دخول وقت الظهيرة . – وعلى وجه السرعة ، ومع طلوع نهار اليوم الجديد ، نزلنا من فوق دوابنا ، ونصبنا خيامنا على بعد أميال قليله خلف ديرة قبيلة بشر Bishr؛ وهذه المنطقة تبعد مسير ثلاث رحلات عن بلدة حائل(*) ، وتبعد مسير ثلاثه أيام أيضا عن الدار الحمراء ، ومسير يوم ونصف اليوم عن بلدة تيماء .

(*) بلدة حائل : إحدى المدن المهمة فى جبل شمر وقد أتخذها آل الرشيد عاصمة لإمارتهم . (المراجع)

جاءتني ، في خيمتي امرأة مسكينة تبكي ، وتتوسل إليَّ أن أبحث لها في كتبي وأتنبأ لها بما حدث لطفلها ؛ كان ذلك الطفل حافي القدمين بصحبة الأغنام ، وضاع من أمه بعد مسيرة الأمس الطويلة . وكان من الصعوبة بمكان إقناع هذه الأم ، وهي في نوبة الحزن والغضب هذه ، بأن الكتب التي معي ليست من كتب القبالة (*) ، التي يشيع استعمالها عند اليهود . ولم أستطع إقناع هؤلاء العرب غير الميالين ، الذين يقيمون في المُنَزل ، التي تقيم فيه هذه المرأة ، بإرسال البعض منهم ، ومعهم والد الطفل للبحث عن ذلك الطفل الضائع ؛ ومن تحركات هؤلاء الناس ، يبدو أنهم لا يعرفون شيئا عن الإحسان ، وإذا ما ضل جمل من أرملة مسكينه لا تجد أحداً لديه أية ذرة من الحنان الإنساني ، اللهم إلا بعد أن تدفع له مثل هذه الأرملة ريالا . وأخيرا عثروا على ذلك الصبي الراعي الصغير عند نهاية المخيم ، في المنطقة الذي نزل فيها أول مرة عند خيمة واحد من أفراد القبيلة .

انتقلنا من تلك المنطقة مسافة صغيرة داخل حدود النفود البيضاء ، وسرنا خلال ذلك الانتقال عبر منطقة رملية وجدناها عامرة بنباتات العام الماضي التي من قبيل 'ورد أريحا ". Jericho والبدو يطلقون على هذا النوع من الورد اسم 'كف (k) ef ch مرحاب . 'Marhab ومعروف أن كلمة 'كف' Kef عند البدو تعني 'راحة اليد بعد إغلاق الأصابع فوقها .' ومعروف أن كلمه 'مرحاب' Marhab تعني عند البدو 'شيخ من شيوخ خيبر اليهود القدامى(*) . كما عثرنا أيضا على العشب الصغير ، ذي الورقتين الخضراوين اللتين تشبهان القطيفة ، وله مذاق صحي مثل طعم الجرجير ، ويصلح غذاء لماشية البدو . نزل الأعراب بعد ذلك في أرض غررمل Ghrormùl المُسُبّة el- Mosubba التي ينصبون فيها خيامهم ؛ هذه الأرض تعرف من مسافة بعيدة ، بواسطة علامة أرضية على شكل مسلة فريدة من الحجر الرملي تشبه برج المراقبة ، يصل ارتفاعها إلى ستين قدما ، ويطلقون عليها اسم 'الطويلان' Towîlan . وفي اليوم الثالث

(*) كتب القبالة : وهي الكتب الخاصة بالتصوف عند اليهود وتشتمل على علوم الفلك والتنجيم والأمور الغيبية إلى جانب الشعوذة وغيرها . (المراجع)

غادرنا غررمل Ghrormùl المُسبّة el- Mosubba، أثناء هبوب ريح باردة عاصفة لنصل بعد ذلك الى جبل شيباد : Chebad ومن جبل شيباد انتقلنا إلى تلك المنطقة الوعرة التي يسمونها الجبال . el-Jebal وبعد رحْلة أخرى ، نصبنا خيامنا أمام الجزء الرئيسى من جبل إرنان Irnan، فى نجد ، ذلك الجبل الضخم الذى يتكون من الحجر الرملى . ومن خلف هذا الجبل ، تحركنا فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى أن وصلنا إلى ساحل يوبا Ybbaمغرير Moghrair؛ واستمر البدو فى التنقل كل يومين أو ثلاثه ، إلى أن قطعوا مسافة سبعة أو ثمانية أميال نزلوا بعدها عن ماشيتهم ونصبوا خيامهم . شاهدت فى أنحاء منطقة الجبال el-Jebal دوائر أخرى من ساريات الأعلام موضوعة عند الحافة كما هو الحال فى ساريات الأعلام التى سبق أن رأيتها فى الجريدة . Jerèyda كما شاهدت أيضا مسوَّرتين ركنيتين ، مداميكهما سائبة ؛ كانت هاتان المسورتان مقامتان فوق أرض قليلة الارتفاع ، وخطر ببالى أنهما ربما كانتا نوعا من أنواع المتاريس ؛ لم يستطع البدو أن يقولوا لى أى شىء عن هاتين المسورتين ، غير أنهما شيئين من زمن غير زمانهم وتراث غير تراثهم . وفى شرقى يوبا Ybbaمغرير Moghrair، مررنا بسفح برج بدائى قديم فى أرض الصحراء . أطلعت بعض من كانوا يركبون دوابهم بجوارى على هاتين المسورتين . "(ردوا علىّ قائلين) : تلك أعمال متخلفة عن خلْق العالم ؛ ما جدوى سؤالك عنهما ؟" "(قال زيد) : ولكن كل ذلك يعد لا شىء إذا ما قورن بذلك الذى سيرينى إياه فى الغد ، وَالذى كان معجزة : تمثال أبى Abu زيد Zeyd، تلك الشخصية الخرافية الأسطورية البطلة ، والسيدة علّية Alîa زوجته ، مرسومين على صخرة موجودة فى الجزء الخلفى من جبل يوبا Ybbaمغرير ". Moghrair

الجائل فى كل أنحاء الجزيرة العربية القاحلة . يرى فى معظم الأحيان أحجارًا لكل منها ثلاثة قوائم موضوعة على شكل مجموعات ثلاثية : هذه الأحجار ثلاثية القوائم

(*) مرحاب : آخر شيخ من يهود خيبر قتله على بن أبى طالب (ر) يوم فتح خيبر . (المراجع)

هى من قبيل أوعية النيران التي كانت تستخدم فى الزمن القديم ؛ يضاف إلى ذلك أن تلك الأوعية تعد إشارة ، أو علامة إنسانية مريحة ، إلى أن بعض الناس تعلموا كيف يمتعون أنفسهم ، فى أزمان قبلنا ، فى أرض تبدو حياة الإنسان فيها مهددة ، ولكن أحداً لا يعرف لذلك تاريخا محدداً ؛ والسبب فى ذلك ، أن الأحجار عندما تبنى فى ذلك الجفاف الشديد ، قد تستمر عصورا طويلة . يضاف إلى ذلك أن الصحراء صلبة التربة وكذلك الصحراء التى تتكون من الزلط ، يرى الناظر إليها آثار الطرق والمسارات التى كانت الإبل تسلكها فى قديم الزمن ؛ هذه المسارات ، هى أيضا من عمل أجيال قديمة ، يُزاد على ذلك أن تلك الصحراء الشاسعة ليس فيها مكان واحد لم يذهب إليه أو يتجول فيه الأعراب ، وطوال تجوالنا ، لا يوجد من حولنا أى نوع من الحياة فى دائرة محيطها حوالى مائة ميل . كما يتوفر حطب الوقود فى كل جزء من أجزاء هذه التربة ، والذى يتمثل فى روث الإبل القديم ، الذى يقولون له "جِلَّة" jella؛ هذه الجلَّة التى جفت بفعل حرارة الشمس يمكن أن تعيش طوال ثلاث سنوات . وإذا ما غطتها قشرة من الرمال المتطايرة فقد تعيش مدة أطول من ذلك . هناك أيضا علامة أخرى من علامات وجود الإنسان فى تلك الصحراء الجرداء ، وهذه العلامة هى التى تتطلع إليها الأمهات ؛ فنحن نرى هنا فى كل رَحْلة من الرَّحْلات الجديدة ، أحجاراً صغيرة بيضاوية الشكل ، هى إشارة إلى لحود الأطفال الذين يموتون موتا مفاجئا من بين البدو الرُّحَّل : ولكن الكبار الذين يموتون فى ديارهم ، يحملون (إذا لم يكن ذلك أمر صعبا) إلى أقرب المدافن المخصصة لذلك .

وفى ساعة مبكرة من الصباح ، أخذ زيد فرسه وحربته ، وسرنا فى الطريق إلى حيث توجد صورة أبى زيد ، الذى يعد عجيبة من عجائب الصحراء ، عبرنا السهل الرملى ، إلى أن حل علينا وقت الظهر ؛ وعندما وصلنا إلى الجبل ، درنا حوله فترة من الوقت ولكن دون جدوى : إذ لم يستطع زيد العثور على المكان . شاهدت بقعا بيضاء ، تشبه العلامات البحرية ، على بعض من تلك الصخور المهجورة الجرداء ، إنها مواقع تكاثر الطيور الجارحة التى من قبيل الصقور ، والصقور الحوَّامة ، وكذلك البوم : أعشاش هذه الطيور الجارحة يمكن مشاهدتها فى أحيان كثيرة فى الصخور الشامخة

الوعرة التى توجد فى هذه الأماكن المكونة من الحجر الرملى . فى هذه التربة الخالية من الماء تعيش كثير من الحيوانات الصغيرة التى لا تشرب الماء ، مثل الفئران ، والسحالى والأرانب البرية . كنا نسمع أيضا أصوات البوم أحيانا فى جوف الليل ؛ وهنا كانت الزوجات البدويات هن وأطفالهن يردون على صوت البوم قائلين وهم يسخرون : 'يمجباس ! Ymgebasيمجباس ! . 'Ymgebas هذه الكلمه التى ترددها الزوجات والأطفال معناها : "أن هذا صوت امرأة تولول وتنتحب ، تبحث عن طفلها الضائع فى الصحراء ، وأن هذه المرأة مسخت وتحولت إلى ذلك الطائر البائس المهجور ." وبدو الفهجى Fehjies يأكلون لحم البوم ؛ وهو الأمر الذى يجعل البدو يسخرون منهم ، علما بأن هؤلاء البدو أنفسهم يأكلون نوعاً من الهوام ، أو إن شئت فقل : الحيوانات الطفيلية .

درنا حول أجناب ذلك الجبل إلى أن بدأنا نحس بالتعب والإرهاق . ولما كان زيد ولد واحد من الشيوخ ، ولما كان أيضا رفيقا من رفقاء شرب القهوة منذ صباه ، ونظرا أيضا لوجوده هنا فى ديرة جديدة غير ديرته ، لم يستطع تذكر العلامات الأرضية . كان الوقت فى عز الظُّهر ؛ ورحنا نتجول بشكل عشوائى ، وبسبب الجوع والعطش . رحنا نقطف نبات الهندباء البرى ، الذى يقولون له هنا : سن الأسد ، والذى نبت فى تلك الصخور على أثر زخات المطر الذى سقط على هذه الصخور ، حتى نجرح به صيامنا . أخيرا ، وعندما كنا ننظر إلى الأسفل فى مكان عميق ، شاهدنا إبلا كانت ترعى عند سفح الجبل : ومع تلك الإبل شاهدنا بعض رعاة الفهجات . قال لنا هؤلاء الرعاة ، إن الصور لا تبعد عنا كثيرا ، وأنهم سوف يدلونا على الطريق المؤدى إليها ، ولكنهم طلبوا منا قبل كل شىء ، الجلوس لاستعادة نشاطنا . وهنا جرى هؤلاء الرعاة المساكين تحت ضروع نياقهم وعادوا إلينا بقربة الحليب وقد امتلأت بذلك الطعام الدافئ – السماء تذكر بالخير هؤلاء البدو المترحلين المحسنين ! وبعد أن انتهينا من شرب الحليب ، رافقونا وهم يقودون ماشيتهم : دخلنا مضيقا صغيرا ومشينا فيه ، كان ذلك المضيق عبارة عن مدخل صغير فى صدر الجبل ، يعج بالخضرة التى ليس لها مثيل من نوعها ، من وجهة نظرنا . وعند مقدمة هذه الحديقة العشبية توجد بركة مياه ؛ ومن فوق هذه

البركة شاهدت الصخور وقد امتلأت بالنقوش المحفورة ، كما شاهدت أيضا صورة أبى زيد التى يصل ارتفاعها حوالى ياردة واحدة ، وهو يمسك فى يده المشعاب المعقوف ، الذى يطلقون عليه اسم الباخورة ، أو على حد قول الأعراب ، من لا يستطيع أن يجعل من رسم الصورة سيفا : وإلى جوار صورة أبى زيد كانت هناك صورة أخرى ، ربما كانت صورة امرأة ، أقصر قليلاً من أبى زيد ، ويطلقون عليها اسم 'عليَّة Alia زوجته .' ومن المحتمل أن يكون هذين الشكلين ؛ قد نحتا باستعمال الحجر ، على الحجر الرملى نفسه ؛ هاتان الصورتان ليستا مثل صور البدو القذرة أو الحقيرة ، ولكنهما كانتا ملونتين فى المنطقة المحيطة بهما بألوان طبيعية قديمة وبمهارة فائقة . النقوش التى هنا ، هى فى معظمها نقوش أساطير حميرية مدونة (مثلما هو شائع فى هذه الصحراء) من الأعلى إلى الأسفل ؛ 'الأسماء ، الأقوال المأثوره ، التحيات والسلامات ، لكثير من المسافرين والجمَّالة من العصور القديمه . كلمة ' يابا' Ybba تقال للتعبير عن "الأب" Aby فى هذا الجزء من الجزيرة العربية وفى المدينة (المنورة) أيضا ؛ وكلمة 'مغرير' Moghrair ربما تعنى كلمه 'كهف' أو 'مغارة' . رجوت زيداً أن يسمح لى بناقة تحلب ثم يتركنى هنا مع أبى زيد . وهنا رد على زيد (بخرافة) ، مفادها أنه دفع بالفعل لبدو البشر Bishr جملا ، نظير تصريحهم لنا بمشاهدة أبى زيد . ورد على ذلك الرجل الفهجى قائلا : "أى رجل لا يستطيع البقاء هنا وحده ، وبخاصة أثناء الليل ، لأن الشياطين سوف تتشاجر معه ."

أثناء عودتنا ، نزل زيد فوق حوض رملى طبيعى بين الصخور ، أسفل الجبل ، ثم مد بعد ذلك يديه إلى الكوع ، لتصلا إلى رطوبة لها رائحة نفاذه بعض الشىء ، وهنا ابتسم زيد بصلف وزهو وهو يقول : 'ها ! لقد اكتشفنا ماء جديدا . أقسم بالله ، أن فى هذا المكان ماء على عمق قليل أسفل هذا الوحل ، ستأتى المؤخرة إلى هنا غدا لتملأ قراب الماء من هنا .' وبالقرب من ذلك المكان ، كان ينمو عشب يعرف باسم نبات الثلثان ، أو إن شئت فقل : عنب الثعلب ، الذى كان محملا بالثمر ؛ لم يكن زيد قد رأى ذلك النبات من قبل ، وطلب منى أن أخذ ذلك معنا إلى المنْزل ، حتى تتعرف عليه الحريم : – اللاتى لم تعرف أية واحدة منهن ذلك العشب بالرغم من حكمتهن المزعومة . "(قلن) :

نبات غريب فى هذه الديرة ." والمكر فيما يتعلق بالعقاقير والأشياء البسيطة المتعلقة بالطبابة سمة من سمات ربات البيوت هنا . وعلى مستوى أكثر انخفاضا وصلنا إلى بركة ماء صغيرة وسط الصخر ؛ تبدى الماء لنا بنى اللون ومشوبا بالحمرة وتفوح منه رائحة النشادر ، وكان المُنَزل المؤدى إلى تلك البركة ملطخًا بروث إبل قديم . "(قال :) سنأخذ من هذا الماء شيئا لتصليح القهوة ، إذا لم يتوفر لنا ماءًا آخراً غيره ." شاهدت على الحجر أساطير حميرية أخرى . كانت تجلس فى تلك المنطقة صبيتان من الصبايا الرعاة ، وعندما ، شاهدانى أقترب منهما ، ابتعدتا عنا مقتربتين من قطيعيهما الصغير اللذان كانا يتجولان بالقرب منهما . وهنا ، قام زيد ، باعتباره شيخا كبيرا ، بتحية هاتين الصبيتين بتحية الصحراء المعهودة ، وردت عليه الصبيتان التحية بمرح وسرور : هذه الصبايا لا يخشين أحدا من أفراد قبيلتهما ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الصبايا الرعاة يمكن أن يذهبن بقطعانهن إلى مسافة بعيدة جدا عن أعين المنْزَل الذى فيه الأسرة نظرنا هنا وهناك ولكننا لم نعثر على فرس زيد ، التى كان زيد قد نزل عنها ، عندما دخل الجبل ، وتركها وراءه مقيدة ، بأن ربط لجامها برجل من رجليها الخلفيتين على طريقه البدو ، وبهذه الطريقة تستطيع تلك المهرة (الفرس) البدوية أن ترعى على راحتها ؛ ولكنها لا تبتعد كثيرا عن المكان الذى يتركها فيه صاحبها . أخيرا ، استطعنا رؤية تلك الفرس من مكان عالٍ ، وهى تعود إلى المخيم البعيد . "(قال زيد :) إنها عطشانة ، إتركها وشأنها وسوف تصل إلى المُنَزل وحدها :" – وبالرغم من أن الخيام السوداء كانت خلف الأفق . وهكذا تستطيع الخيول البدوية العودة وحدها ، وتهتدى إلى الأسر إلى تتبعها ، عندما تشعر تلك الخيول بالعطش ، ويجرى يوميا ، بعد طلوع الشمس ربط الفرس البدوية بقيد من الحديد ، لايفتح إلا باستعمال مفتاح خاص ، على أن تترك الفرس بعد ذلك لتتغذى من خيمة صاحبها . والخيول من طبيعتها أن تسعى باحثة عن بعضها البعض ، هذا إذا لم تكن المنازل متباعدة عن بعضها ومبعثرة على نطاق واسع ، لتقوم بعد ذلك بالرعى والعبث سويا ، والشيوخ أصحاب تلك الأفراس لا يلقون لها بالا كثيرا شأنها شأن كلاب الصيد فى المخيم ، إلى أن يحين وقت الظهر ، وهنا تبدأ تلك الأفراس فى العودة وحدها إلى المنْزَل ، وعندها يجرى اقتيادها إلى الماء

. وبعد أن تشرب الأفراس تعود ثانيه إلى المرعى ، أو قد تقف لتستظل بخيمه صاحبها في ذلك الوقت من أوقات الظهيره (هذا إن كانت خيمه صاحب الفرس تسمح بذلك) . وتستمر تلك الأفراس في الرعى على مسافة ليست بالبعيدة تماما ، إلى أن يحين غروب الشمس ، وعندها تعود تلك الأفراس وحدها ثانيه إلى منازلها أو قد يقوم أحد بإحضارها وربطها طوال الليل .

كان يقفز أمامنا ، وتحت أقدامنا ، سلالة صغيرة من الجراد ، الذى يشبه لونه لون الرصاص ، وله أجنحة تشبه أوراق الربيع ؛ هذا الجراد نتج عن تكاثر أسراب الجراد التي سبق أن اجتاحت الصحراء ، قبل ذلك بعدة أسابيع . هذا الجراد الصغير سوف يطير بعد أربعين يوما على شكل جحفل ، أكثر جوعا من الجحفل السابق ، وسيمتلئ به الجو . شاهدنا أيضا سماءاً سوداء فوق خيام البدو الرحل ، وأوضحت لزيد أن زخة من زخات المطر كانت تتساقط أثناء غروب الشمس .- "رد علىَّ ، لعل الله يجعلها تصلنا !" حياة مواشى هؤلاء البدو فى تلك التربة الجدباء التى تعانى من قلة الماء ، تعد حياة جد صعبة . وسماء الجزيرة العربية ، التى يندر أن تصفو ، تبكى بكاء المنافقين .

انتقلنا من ذلك المكان ، ونصبنا الخيام السوداء على ذلك الرمل الأبيض ، الذى يشكل النفود Nefûd، فى هذه المنطقة ، النفود التى تمتد حوافها بطول ، أو على امتداد الصحراء المكونة من الحجر الرملى بنى اللون : يفصل النفود عن تلك الصحراء مجرى من مجارى السيول . سوف ينتقل الأعراب فى المرة القادمة إلى واحد من الآبار الجيدة ، يطلقون عليه اسم 'الحيزة' el-H?za، وهو فى أرض النفود ، والأعراب يعشرون ، فى سنوات الوفرة ، على مرعى جيد ، فى فصل الربيع فى ذلك المكان : ونظرا لعدم وجود أشياء كثيرة فى ذلك الاتجاه ، فقد اتجهنا فى يوم آخر صوب جبل حلوان Helwàn؛ وفى تلك المسيرة (الرَّحلة) شاهدت (حوالى ثمانى أو تسع) دوائر من دوائر سواريات الأعلام المصنوعة من الحجر الرملى . كانت تلك الرِّحلة من رحلات الجزيرة العربية جرداء وموحشة وقاحلة أيضا ؛ فقد تساقطت من سماء شهر مارس

عاصفة من المطر البارد ، وبعد أن نزلت النساء عن ماشيتهن على وجه السرعة ، عجزن عن نصب الخيام أثناء سقوط الوابل :- هذا يعنى إقامة هجرة صغيرة خلال ثلاث دقائق . جلسنا داخل الخيام ، طوال العاصفة التى استمرت ساعات عدة ؛ جلسنا فوق الرمل المبتل ونحن ملفوفين فى عباءاتنا المبتلة ؛ وكانت قطرات مياه العاصفه تتساقط علينا من خلال النسيج الغليظ المهترئ من فوقنا . توجد فى النفود ، فى اتجاه الحيزه El-Hyza بعض التلال الرملية مثل : الروسة Rowsa، والضفافيات Deffafiat، والسُّبيع Subbîa و- إرزوم Irzum، وهذه التلال الرملية المنجرفة شبيهة بتلال جبل ناقوس Nagûs القريب من قرية طور Torالبحرية فى شبه جزيرة سيناء : والطبقة العليا من الرمل تسقط تحت أقدام المترحل ، وينطلق بعد ذلك من ذرات الرمل صوت متعالى يسبب الدُّوار ، وهذا الصوت يشبه ذلك الصوت الذى ينتج عن إدارة إصبع مبتل حول فوهة كأس من الماء ، كما يشبه أيضا الطنين الذى يتخلف عن قرع جرس كبير ، أو كأس من المعدن .- وكلمة 'ناقوس' Nagus هى الاسم الذى يطلق على اللوح المدوى فى برج ناقوس الدير اليونانى ، ويترتب على ذلك أن تصدر عن الخشب نغمة موسيقية تسر الخاطر ، تدعو رجال الدين الرسميين Colieros إلى أداء الصلاه : وهناك رمل مغنٍّ آخر ، يطلقون عليه اسم رمل الحويرية el-Howayrîa، وهو موجود فى الصخور (الواقعة شرقى مزحام Mezham،) فى منطقة مدائن صالح .

كانت السماء صافية عصر ذلك اليوم : إذ جففت الشمس ملابسنا المبتلة ، كما اجتمعت صحبة كبيرة لشرب القهوة فى خيمة زيد . كان زيد قد وعد خليل بأنه سوف يُصلِّح له شايًا ، "الذى هو قهوة النصارى ، حسبما قال لهم . - وأنت ، يا خليل يا طيب ، طالما أن الشيوخ سوف يتذوقون الشاى معك ، فانتبه وأحرص على وضع مقدار كبير من السكر ." فى ذلك اليوم ، كان لدى ماء نقيا حصلنا عليه من ماء المطر الذى سقط على الصحراء ، فضلا عن أن الشاى كان من نوع ممتاز . هنا صاح زيد مناديا : "هل أعجبكم مذاق قهوة النصارى ؟" أجابوه قائلين : "السكر جيد ، أما فيما يتعلق بذلك الذى يسميه خليل شايا ، فطعمه أفضل قليلا من الماء الحار ." واستطردوا قائلين : "إنه مشروب خفيف وليس طعمه كما يرام" مثل طعم الماء المتخلف عن القهوة المُصلَّحَة

من ماء غير نقى . شرب رحيل el ١٨Rah كأسه الأولى من الشاى ، وأعادها إلىّ مقلوبه الفم نحو الأسفل (إشارة عندهم إلى أنه لا يود المزيد) قائلا : "يا خليل ، أليس هذا هو الخمر ؟ بمعنى المتخمر أو نبيذ النصارى ." ولولا الضمير لما شرب منه ؛ ولكن بقية الجماعة شربت ذلك المشروب السكرى إلى أن وصلت للحثالة ، وطلبوا من الغريب أن يصب لهم المزيد . وأعدت على مسامع رحيل Rahyel أن الفرس يشربون الشاى فى قافلة الحج . هؤلاء البدو الذين استطعموا مذاق الشاى للمرة الثانيه ، والذين أدركوا وفهموا مدى إعزازى وتقديرى لذلك المشروب ، وبعد أن أحسوا بالانتعاش بعد أن شربوه ، بدءوا يحبونه حبا جما ويتخيلون أن ذلك المشروب الذى يضاف إليه السكر يمكن أن يزيل المتاعب الإنسانيه كلها . ولكن لم أستطع مطلقا ، بناء على طلبى ، الحصول على كأس من الحليب الطازج ؛ وهم لا يضعون أى شىء من الحليب على القهوة ، كما أن مسألة وضع مقدار كبير من الحليب ، على قهوة النصارى ، بدا لهم أمراً غريبا تماما وفيه تبذير لنعمة الله . عندما كنت أصلّح الشاى ، فى المنزل كنت أدعو حرفة لتناول الكأس الأولى ، قائلا للبدو : إن ذلك هو تقليد فى بلادنا ، التى تنظر إلى الجنس الضعيف نظرة احترام وتقدير . ردت على حرفة قائله : "آه ، ليتنا هناك بينكم ! يا خليل ، هؤلاء البدو الموجودين هنا ليس فيهم أى نفع ، وأنا أقسم بالله على ذلك ، إنهم مثل الحيوانات البرية ؛ فهم اليوم يضربون الحريم ، وغداً يهجرونهن ويتخلون عنهن : المرأة مولودة هنا للعمل والمعاناة ، ومما يحزن قلبها ، أنها عندما تتكلم فإن كلامها لا قيمة له أو وزن ." ضحك الجالسون حول الوجار عندما انطلقت حرفة فى الحديث . ولكنها صاحت غاضبة من جديد : "نعم ، اضحكوا ملئ أشداقكم أيتها الحيوانات البرية !- يا خليل ، البدو كفار !" ثم ابتسمت تلك الزوجة الغاضبة للحاضرين ، وعادت إلى أحزانها الداخلية من جديد .

تراكمت سحب المساء ؛ كما كانت عباءات الشيوخ مبتلة أثناء عودتهم إلى منازلهم . كانت الفرس قد عادت لوحدها فى ذلك الطقس السيئ ، واتخذت لنفسها موقفا إلى جوار وجار القهوة ؛ ومثلما يفعل البشر ، وقفت الفرس تجفف جسدها المبتل بالماء وتدفئ نفسها ، مثل واحد من الجالسين تماما . قد يُقال عن خيول البدو الرُّحل

الضعيفة إنها لا تعرف الحقد أو الغل . وقد لاحظت بنفسى فرسا ، وقد وقفت من تلقاء نفسها عند الظهر موقفا فى ظل خيمة صاحبها ، إلى حد كانت تقترب معه تماما من الجالسين حول وجار القهوة ، وراحت تقرب أنفها الناعم من الشخص القريب منها ، وهنا أدار القريبون من الفرس رءوسهم استعدادًا لتقبيلها ، إلى أن نهض الشيخ من مكانه لينهر الفرس ويبعدها عن الحاضرين . هذه الخيول ، يعتريها الضعف ، نتيجة ضعف علف الصحراء وخشونته ، كما تعبر تلك الخيول عن امتنانها لتلك اليد الإنسانية ، التى تمتد إليها فى تلك الصحراء ، مثلما تمتد يد الأم إلى ولدها . الناس هنا تشاهد الإبل البرية الشقية كل يوم ، ولكنهم يندر أن يشاهدوا الخيول المتهورة ، ويستحيل أن يشاهدوا الخيل الحرون : واللون الغالب على الخيول هنا هو لون الكُميْت . وأمل الشيخ الذى يعلقه على فرسه يتمثل فى تمكنه من الانتصار على خصمه أو عدوه من ناحية . وانقاذه على وجه السرعة فى الميدان ، من الناحية الأخرى ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الشيخ قد يحمل الغنيمة على ظهر فرسه ، ويعدو بها فى مقدمة أولئك الذين يركبون الإبل . الفرس (شأنها شأن أى إنسان أو حيوان ، بما فى ذلك كلاب الصيد) شىء لا يمكن أن يسيئ البدو استعماله . صحيح أن الفرس لا تحظى بتقدير أسرة صاحبها ، إلا أن المسكن الطبيعى لتلك الفرس يكون فى الخيمة البدوية . هذا يعنى أن تلك الفرس مرتبطة برفقة الإنسان الخيرة ؛ يضاف إلى ذلك أن شكل الإنسان يسر خاطر الفرس فى تلك الصحراء القاحلة والبخيلة .. اعتدال البيت العربى يتمثل فيما نشره نبيهم عن الأسرة المقدسه ؛ الله Ullah القرآن ، رب أسرة سامى Semitic طيب القلب ذو سيادة ، يالغفرانه مع شعبه (خلقه) ! هذا الإله نفسه ، على النقيض قاسى وصعب على الشعب الغريب .

الحصان البدوى مُشقَّفٌ هنا ، كما هو الحال فى الحصان السورى بشقفة مفتوحة من منتصفها ، وهذه فى الأصل هى طريقة تشقيف الخيول فى تركيا ؛ وشيوخ البدو هنا ، يشترون احتياجاتهم السنوية من تلك الشقف من سوق الحج . ولقد رأيت الناس وهم يشقفون الخيول حتى فى الأجزاء الرملية من الجزيرة العربية : ومع ذلك ، هناك بعض الخيول التى يتركها أصحابها بلا تشقيف على بعض أجزاء الحدود السورية ،

كما أن هناك بعض الخيول التى يجرى تشقيفها فقط فى القدمين الخلفيين . كان البيطار الذى يتابع قبيلتنا – الذى ذاع صيته بأنه أفضل الحدادين ، فيما يتعلق بكل أعمال الحدادة ، فى هذا الجزء من البلاد ولم يكن له مثيل حتى فى بلدة تيماء – هو الرجل المسئول عن كل ما يتعلق بأعمال البيطرة بين هؤلاء البدو . وفى أحد الأيام صحبت زيدا كى أرى ما يفعله ذلك البيطار . وجدنا ذلك الحداد يكوى مهرة رُحيِّل Rahyel التى كانت واحدة من قدميها الخلفيتين مصابة ، ونظرا لقلة العدة المتيسرة لذلك البيطار فقد كان يقوم بعملية الكى هذه باستعمال ساق من سيقان شحن المدافع ، مصنوعة من الحديد ؛ كان ذلك البيطار قد سخن طرف تلك الساق ، فى النار ، إلى درجة الاحمرار ، وراح يكوى ويوسم بها عضلات رجل الحصان الضعيفة . وجدت الحصان المسكين ، وهو يعانى تلك الآلام ، واقفا على ثلاث أرجل ، دون أن يحدث أى صوت ، فى حين كانت القدم الرابعة مقيدة بحبل تمسك به أيادى غليظة . والبدو الذين تعودوا على كى الإبل بالنار من الأعلى ومن الأسفل ، لا يعولون كثيرا على مسألة سلامة أو صحة جلد الحصان ، وكل ما يهم هؤلاء البدو هو أن تكون الفرس من أصل جيد ، ومن سلالة جيدة أيضا ، وقادرة على خدمة صاحبها فى المعارك الحربية . غادر رَحيِّل محل البيطار ؛ كان زيد الذى حضر لأمر يتعلق بالبيطرة ، قد جاء ويداه مملوءتان بشقف الخيول ، أو إن شئت فقل : حدوات الخيول ، وطلب من البيطار تحويل تلك الشقف إلى مسامير ، مقابل أن يقوم البيطار بتشقيف فرسه . ذهب زيد لاقتلاع بعض عيدان الحطب ، التى أشعل منها نارا ، وبعد أن اشتعلت تلك النار برهة من الوقت ، أخمدها بإلقاء شيء من الرمل عليها ؛ ثم حمل زيد ذلك الفحم النباتى الضعيف فى عباءته ليلقيه على نار الحداد (التى هى عبارة عن حفرة فى الرمل) . ثم جلس ذلك الشيخ الكبير إلى منفاخ مصنوع من جلد الماعز ، وراح ينفخ هواءً على النار ليزيدها استعارا . كان الموقف يدعو إلى الضحك ، ونحن نتأمل حرص زيد على توفير مليماته عن طريق القيام بدور الصُّلُوبى(*) ، وهكذا راح زيد يتصبب عرقا بين نارين : نار

(*) هناك فى الجزيرة العربية قبيلة تحمل هذا اللقب ، وما زالت آثار هذا اللقب فى بعض الأسماء التى يحملها الأفراد ، إذ يقال على سبيل المثال " فلان الصليبى " (المترجم)

الفحم النباتى المشتعل ، من ناحية وحرارة الشمس الحارقة من الناحية الأخرى فى عز الظهر ، إلى أن تلوث الرجلان اللذان عضهما الجوع بسناج الحدّاد ، وبدا الإرهاق على وجهيهما . أخيرا ، نهض زيد وهو يتنهد قائلا : "يا خليل ، ألم تتعب بعد من الجلوس فى العراء فى حرارة الشمس ؟ هاهى خيمة رحيل بالقرب منا ، هيا نحتمى بها من حرارة الشمس ؛ ورحيل رجل طيب وسوف يصلح لنا شيئا من القهوة ." وهاهم البدو أيضا لا يصبرون على حرارة الشمس التى تلسع أعالى رءوسهم ، اللهم إلا عندما يكونون قائمين بالترحال ، فى فترة من الفترات التى تتحرك الريح خلالها .- "السلام عليك يا رحيل ، هذا هو خليل أحضرته معى ، هيا اجلس إلى جوارى يا خليل ، ودعنا نشاهدك وأنت تكتب اسم رُحيِّل ؛ اكتب 'رُحيِّل الفجيرى ، الشيخ ، الذى تزوج من بنت فى تيماء' :" ركع الرجلان من حولى وهما يتيهان عجبا بأميتهما ، عندما يريان كلامهما قد تحول إلى كتابة .

وصل بعض التجار البدو بعد ذلك ، إلى مخيمنا ، قادمين من الجوف عبر صحراء النفود : كان أولئك التجار من قبيلة بشر . ومن بين هذه القبائل ، هناك بعض الأشخاص الحصيفين المتدبرين ، الذين يستطيعون تحسين معاشهم عن طريق المكاسب الشرعية السلمية الناتجة عن البيع والشراء ، وذلك بدلا من المشاركه فى عمليات الغزو غير الشرعة وغير المؤكدة أيضا . أحضر أولئك التجار معهم سمنا وتبغا ، وعرضاهما للبيع بثلثى الثمن المحدد لبيعهما فى هذه المناطق القاحلة الجدباء ، ومع ذلك ، فإن الأعراب ، غير العادلين فيما يتعلق بصفقات البيع والشراء ، لا يشترون من هؤلاء التجار بذلك السعر الصادق والمقبول ؛ ويروحون يكاسرون بغيه تخفيض السعر ، وفى النهاية لا يشترون شيئا على الإطلاق ؛- وما أن يكسب أولئك الغرباء شيئا ، فإنهم يتعين عليهم دفع ضعف هذا المبلغ بعد ذلك فى قرية العلا ! ويمكن أن يبقوا ، مثل الموتى ، على ذلك الوضع ، والوقت يمر عليهم . المزيد من تلك الهيئة الحاكمة ، والرجال الذين من قبيل هؤلاء التجار ، قد يتخلون عن حياة التجوال غير الآمنة (التى يكن الأعراب لها البغض والكراهية بسبب إرهاقهم المستمر من ناحية وخواء قلوبهم من

الناحية الأخرى ،) ويتحولون إلى بدو مستقرين . والبدو يشتكون على امتداد ساعات طويلة من بؤسهم وشقاء حياواتهم ؛ وهنا يبدو عليهم التأمل بشكل غريب ، باعتبارهم أناسا مطرودين من هذه الدنيا . الحقد البشرى الناتج عن الفاقة والعوز هو الذى يضيف كل ذلك إلى متاعب الطبيعة وآلامها التى تصيب هؤلاء البدو ، الأمر الذى يجعل المرور أو التجوال فى الجزيرة العربية أمرا صعبا وغير مضمون العواقب : وعندما يحدث قحط فى أية ديرة من الديار ، نظرا لعدم سقوط أمطار الخريف عليها ، أو نظرا لهجوم أسراب الجراد ، فإن التجارة البرية ، قد لا تصل إلى مثل هذه الديار .

هؤلاء البدو الذين يعتصرهم الفقر والعوز ، تراهم داخل خيامهم وهم غارقين فى أحزانهم ؛ وإذا ما لامهم إنسان ردوا عليه قائلين : "آها ! صحيح أن الأعراب بهائم ba-haim؛ صحيح أيضا أن الأعراب مساكين ، وصحيح أيضا أنهم 'قطاط' Kutaat غرانّم' ghranem بمعنى 'رعاة غنم' وصحيح أيضا أن البدو 'دبوش' dubbush بمعنى 'قطيع مختلط من الماشية الصغيرة' ؛ وصحيح أيضًا أن البدو 'جهّال' juhal؛ وهم أيضا مجانين mejanin وهم أيضا عفنين affinin؛ وهم أيضا حرامية haramîyeh؛ وهم أيضا كفّار kuffar؛ والأعراب أيضا 'مثل mîthil السيِّد 'es-seyd بمعنى إنهم 'مثل الحيوانات الغشيمة ، الهائمة فى الصحراء ، وليس لديهم أى نوع من الفهم البشرى ." وبعد أن ينتهى الأعراب من ذكر كل ذلك ، يزيدون عليه من باب المزيد من الاحتقار لأنفسهم قائلين : "والله ، الأعراب كلاب ." ولكن البعض من هؤلاء الأعراب يحاولون التفاخر بأنفسهم عندما يقولون : "الأعراب جنيون jinnies وشيطانيون "sheyatin والبدو عندما يقولون 'الأعراب جنيون' يعنون بذلك أنهم أذكياء يقومون بعمل الأشياء وتحمل الصعاب وأسوأ العواقب ، دون أن يخافوا الله . والبدو فيما بين ذلك الفراغ الذى يعيشونه فى منازلهم والتعب الذى يصيبهم نتيجة تجوالهم ، يركزون سواء أكانوا رجالا أم نساء على شرب الدخان الذى يطلقون عليه اسم التتون . tittun (*) تلك الورقة

(*) التتون : كلمة تركية ومعناها الدخان ، وتطلق على ورق التبغ وينطقها العرب بـ التتن وتعاطى التبغ من الأمور التى تحرمها تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب . (المراجع)

الجافة (التى يجلبونها من قرية العلا ومن تيماء) تكون خضراء ، سواء أكان ، ذلك مثلما يقولون ، بسبب عدم تكون الندى فى هذه البلاد ، أم لأن قرى الجزيرة العربيهة لم تتعلم طريقة تجهيز ذلك التتون ، أو إن شئت فقل : التبغ أو الدخان . وهم يدخنون الورقة الخضراء الجافة ، بعد أن يفركونها فى راحة يدهم من سيقانها الجافة ، ويضعون فوقها قطعة من الفحم النباتى المشتعل . شاهدت ذلك النوع من التدخين على امتداد جزء كبير من الحدود السورية ، حيث يمكن الحصول على أفضل أنواع التبغ من كل من الشوبك Shobek وجبل كيراك Kerak؛ وتبغ هذين المكانين من النوع الذى له مذاق لاذع ؛ وأحلى أنواع التبغ الذى يزرع فى هذه المنطقة ، هو ذلك النوع الذى يزرعه بدو الموهاهيب فى وادى Wadyعُروش Aurush على ساحل البحر فى عويرض Aueyrid الحرّة Harra فى المنطقة العالية المواجهة للحجر .

كانت قريتنا الجائلة تضم بين أهلها واحداً من أولئك الذين يبيعون التبغ ، أحد القرويين من قرية العلا ، الذى كان يعيش عيش البدو فى تلك الصحراء ، كما كان متزوجا أيضا من امرأة قبلية من بينهم . استطاع ذلك البائع أن يجمع لنفسه مجموعة صغيرة من الحيوانات ، وكان حاله ينتعش ويزدهر بهذه الصفة من ناحيه وبصفته مبتزا من الناحية الأخرى . حَرَّضْتَ تلك الأرواح البدوية الضعيفة على التمعن فى ذلك الطفيلى الذى ينمو على الشحم الذى كان يلحسه بشراهة من أذقانهم ولحاهم . كان البدو يحسون بالحزن كلما رأوا ذلك المبتز مرحا وفرحا ومنشرح الصدر ؛ كان ذلك الرجل يمرح ويفرح لذلك الشىء الذى كان ثقيلا على ضمائر أولئك البدو . خلب ذلك الخطأ لب هؤلاء البدو ؛ يضاف إلى ذلك أنهم ليس من حقهم أن يمنعوا أحد جيرانهم من حرية التجوال فى الصحراء . وبذلك يكون خبز الفقراء ، الذين لم يكن لديهم ما يكفيهم من قبل قد تحول إلى رماد . هذا البائع يبيع لهؤلاء البدو هنا ذلك الذى يساوى بنسين فقط فى قرية العلا ، باثنى عشر بنسا ؛ هذا هو ذلك البدوى المسكين الذى أحضر تيسا اليوم ليدفع ثمن التبغ ؛ هذا التيس الذى له قيمته بيع اليوم بما قيمته عشرة شلنات من التبغ ؛ هذا البدوى سرّى عن نفسه باستعمال الغليون مدة سبعة أيام فقط نظير ضياع ذلك التيس ؛ هذا البدوى حصل على مقدار صغير "يشربه" drink من

تبغ ذلك البائع ، أو بالأحرى حصل على ما قيمته نصف الكمية المستحقة ، نظرا لأن ذلك العلاوى(*) Alowwy الجشع كان يبلل أوراق التبغ ، الأمر الذى كان يزيد من حجمها ووزنها أيضا . بعد الرجال الذين كانوا يترددون على خيمة ذلك الرجل ، شاهدت أيضا الحريم مدمنات التبغ ، وهن يأتين بضجيجهن إلى خيمة ذلك الرجل ، ويمسكن فى أيديهن الضعيفة قطعا من الصوف المنسوج محليا ، أو أوانى السمن الذى ربما كن قد ادخرنه لشراء قطعة بسيطة من الملبوسات ، ولكنهن فى الوقت الراهن لا يطقن الصبر على عدم "شرب" الدخان : وإذا لم يكن لديهن ما يشترين به فإنهن كن يقترضن من ذلك البائع بفائدة ربوية كبيرة . وإذا لم يكن ذلك المبتز لا يثق بواحدة منهن ، فقد كانت ترجوه وتتوسل إليه ، بأن يملأ لها غليونها البارد ، هذه المرة فقط ، وألا يرفض طلبها وفاء للحنان والعطف القديم . زيد هذا ، بالرغم من كونه واحداً من الشيوخ الكبار ، إلا أنه لا يشترى التبغ لنفسه وإنما يشحذه ويستجديه من الناس طول اليوم ، حتى وإن وصل الأمر إلى أفقر الناس من بين من يجيئون لشرب القهوة : وهنا كان زيد ينظر حوله مبتهجا وهو يقول : "مين min يُعَمِّر لى y'àmir-ly؟" بمعنى "من هو ذلك الصديق الذى سوف يملأ لى هذا الغليون بالتبغ ؟" وبحكم ضعف الفكر والذهن فى هذه التربة المميته ، فالناس هنا كلهم متطفلين ويعيش الواحد منهم على حساب الآخر : زد على ذلك أن البدو لا يجدون غضاضة فى استجداء التبغ من البدويات المسكينات . دخل زيد ، ذات يوم إلى المجلس وهو يشتكى من سعر التتون ، أو إن شئت فقل : التبغ أو الدخان ، هذا بالرغم من أن ذلك التبغ لم يكن يكلفه سوى القليل جداً ، أو لا شىء على الإطلاق ؛ وبعد أن جلس راح يلعن ويسب ، بصوته الأجش العالى ، كل من هم من سلالة العلاونة " . Alowna (**) لعن الله ! سليمان بائع الدخان ! أعتقد أنه من الصواب أن يرحل ذلك الرجل عن أهل هذا المكان خلال فترة وجيزة ، ولا يسمح له حتى بالبقاء مع الإبل !" الدخان هو مصدر سعادة الكثيرين فى هذه الصحراء الواسعة ، كما أن

(*) العلاوى : من قرية العلا . (المراجع)
(**) العلاونة : أهالى قرية العلا . (المراجع)

الدخان هو المادة التى ينظم الشعراء أشعارهم ضدها فى القبائل على اختلاف أنسابها : "هناك ثلاثه أسباب تمنع الإنسان من شرب الدخان : أليس الإنسان سكيرا وبالتالى يحرق أصابعه (عندما يتناول قطعة من الفحم النباتى المشتعل ليضعها على رأس الغليون) ؛ السبب الثانى : أن الإنسان ينبغى أن ، لا ينفق ثمن الخبز على أشياء غير الخبز ؛ السبب الثالث : أن التدخين أمر غير شرعى ."

تجول بدو الفجير خلال ديار بشز القريبة عليهم وهم تراودهم بعض المخاوف والمخاطر ، – وراح الشيوخ بعد ذلك يستحثون الماشية وهم ركوب على أفراسهم ، وفى معظم الأيام كان الشيوخ يقطعون حوالى ساعتين من الزمن كل صباح فى تجميع الماشية التى ترعى ، أو إن شئت فقل : الإبل . el-'bil كانت موجة الجراد الأولى قد أتت قبلنا ؛ ترتب على ذلك حدوث شىء من القحط حتم على البدو أن يقسموا أنفسهم إلى مخيمين . انتقل الشيخ مطلق بعد ذلك بالمخيم الأول ، الذى كان يضم القسم الأكبر من الشيوخ ، وابتعد عنا مسافة نصف رَحْلة فى اتجاه الغرب . وبقى الشيخ زيد ، مع رفيقه رحيل Rahyel الذى كان يتولى منصب الشيخ الكبير فى المخيم الثانى . واصلنا السير بعد ذلك ، وكنا نخيم منفصلين ؛ واستمر ذلك أياما عدة ، بطريقة غير محددة وغير متساوية أيضا .

كنت أرى نبات السمح Samhh فى كثير من الأحيان ، ولكنه لم يكن وفيرا ؛ هذا النبات هو فى الوقت الراهن عبارة عن بادرة خضراء بلا أوراق ، يصل ارتفاعها إلى قبضة يد ، وتحمل سيقانا سميكة وافرعا مليئه بالماء المالح . وفى نهاية كل غصن من أغصان نبات السمح توجد عين تنضج فيها حبة واحدة عندما يبدأ النبات فى الجفاف فى مطلع فصل الصيف . وفى بلاد بدو الشرارات ، التى ينمو نبات السمح فيها بكثرة ، تقوم ربات البيوت هن والأطفال بجمع ذلك المحصول البرى . وتقوم ربات البيوت بغمس سيقان السمح فى الماء ويرحن يضربن تلك السيقان بالعصى ليفصلن الحب عن القش ؛ ومن تلك الحبوب الصغيرة ، تقوم ربات البيوت ، بعد طحن هذه الحبوب ، باستعمال الدقيق الناتج عن ذلك فى صناعة نوع معين من الخبز . لقد تذوقت طعم ذلك

الخبز البرى فى قرية معان ؛ كان ذلك الخبز أسودًا ومُرَّ الطعم ، ولكنى بعد ذلك كنت أحسبه قطعة من المُسَكِّرات فى المناطق البعيدة من الجزيرة العربية الصحراوية . تريد السمح لذيذ الطعم وطيب أيضاً ، ومذاقه يشبه مذاق "حليب الإبل" : ولكن أشهى أكلات ذلك السمح هى التى تصنع بعد عجن السمح مع قليل من التمر وشىء من السمن لكى يؤكل نيئًا : - مكونا بذلك واحداً من الأطعمة الطيبة والصحية للمترحلين ، الذين لا يجرؤن على شب النار فى كثير من الممرات المفتوحة غير المستورة .

فى هذه المرحلة بدأت أتحرر من مخيم البدو ، وكان الجميع يرحبون بى حول وجارات القهوة ؛ لم يكن يعادينى ، عند هذه المرحلة ، سوى قلة قليلة من البدو ، الذين هم من بين الرجال الأكثر تشدداً . وفى معظم الأحيان ، كان أرباب الأسر ، ينادونى من خيامهم ، أثناء مرورى ، ليستقبلونى بعد أن أدخل خيامهم بابتسامات تنم عن كياسة المُضيف ، وكانوا يحضرون لى التمر والحليب : وهذا هو "العيش والملح" ، الذى يمكن أن يقدمه الرجل الطيب مرة واحدة ، ليدلل به على صداقته ورفقته لذلك الغريب . هؤلاء الأعراب ، بالرغم من أنهم كانوا متسامحين معى لشخصى ، إلا أنهم كانوا يلومونى على دينى . حدث فى يوم آخر ، شىء بدا لهم ، بحكم أنهم يربطون كل شىء بيد الله وإرادته ، على أنه إشارة من قبل العناية الإلهية ، برعايتها لى ومحافظتها علىَّ . حدث أن نزلت عن راحلتى متعبا بعد أن توقفنا عن السير ، خلال جو صاخب ، وقمت بطرح عباءتى على دغلة قريبة ، ثم جلست فوقها . ثم نصبت خيمتى فى المكان نفسه وبقيت فيه إلى حلول المساء ، وعندها جاءنى طفل معوق من أطفال منْزَلنا ، وهو يسير على أربع ، لكى يحصل على صدقه تافهة ، فى شكل حفنة من التمر ، ولكن ذلك الطفل صرخ عندما وصل إلى باب خيمتى ، وتراجع على وجه السرعة . فقد شاهد حية سامة ملفوفة تحت الدغله التى فردت عليها عباءتى ، - وهذه هى الطريقة التى تحمى الحيات بها أنفسها أثناء العواصف . وعقب صرخة ذلك الطفل ، حمل راعى زيد عصا من أقرب بيت إليه ، وجرى مسرعا إلى الطفل ، وبضربه قوية قطع تلك الحية السامة إربا إربا . كانت تلك الحية من النوع المقَّرن ، ويصل طولها إلى أكثر من قدمين ، كما كان

جسمها منتفخا عند المقدمة ، وعليها قشور تشبه النحاس الأصفر ، أما بطنها فكان عريضا وأبيض اللون ، وينتهى بذيل يشبه السوط أو الكرباج . سبق فى العام الماضى أن عضت حية من هذا النوع ، رجلا أثناء الرَّحلة ؛ وأركبوه جملا ولكنه توفى ، بفعل التورم ، قبل أن يصل به الرجال إلى المنْزل . والجمل إذا ما عضته حية من هذا القبيل "يموت خلال ساعة واحدة "، ومع مثل هذا الحادث قد يتعكر المزاج تماما فى أرض من هذا القبيل ، إلا أن هذه الحوادث تعد أمرا نادرا فى الحياة البدوية . سبق أن دست مرات كثيرة على ثعبان ، كان البدوى يجمله بعد ذلك على عصا ليصنع منه "دهانا مفيدا جداً للإبل " . وقد سبق لنا قتل ثعبان من هذا القبيل فى مدائن صالح . كان الحاج نجم بصحبتنا فى تلك المرة ؛ والناس هنا يطلقون على تلك الحية اسم أم Umm جنيب jeneyb، بمعنى "التى تتحرك على جانبها" . قام الصبى محمد بفصل الرأس عن الجسم بضربة واحدة من سيفه القصير ، عندما كانت تلك الحية نائمة فى الرمل لتحمى نفسها من الشمس ، على شكل لفات تشبه حرف الـ S الإنجليزى : كان المغربى العجوز يود الحصول على قرنى تلك الحية . "انتبه يا أنت ، القرن الأيسر هو الذى يحتوى على السم ، أما الترياق فهو موجود فى القرن الأيمن ، إذا ما جرى شربه مع الحليب :- وقلت أنا كلاما فى غير موضعه ، دعنى أكتشف ذلك بنفسى - : أيها الصبية دعوها وشأنها فأنا لست على يقين مما قلت ." هناك حيات مقرنات فى صحراء باربارى (*) Barbary . وعلى الفور رويت تلك الحكاية فى مخيم البدو : "النصرانى هرب من ثعبان سام" ، وسألنى البعض ونحن فى المجلس عن "رؤيتى" لتلك المغامرة ؟ ورد عليهم زيد قائلا : "لقد كانت تلك رحمة من الله فعلا ." كان يجلس بالقرب من وجار قهوتنا راع وقح ، غريب من بدو الرولة Ruwàlla، صبى من صبية القبائل صغار السن ، كان يبحث عن عمل خارج قبيلته ، أى مع بدو آخرين غير بدو قبيلته : والسبب فى ذلك أن أمثال هذا الصبى ، يظنون أن الحياة قد تكون أفضل فى كل ديرة من الديار الأخرى ، وبالتالى يتمكنون من مشاهدة الدنيا ، وأحوالها . "أوه ! قال الصبى متعجبا ، لو كانت

(*) صحراء باربارى : المقصود بها صحراء البربر فى شمال إفريقيا . (المراجع)

تلك الحيه المقرنة قد لدغتك يا خليل ، لما رأيت أمك مرة ثانية ." المذنب تأخذه السماء في يوم من الأيام ." هذه هي الخرافة التي تسيطر على الذهن البشري وتستحوذ عليه ؛ وبالتالي يمكن للبدو أن يقولوا في مثل هذا الحال : "الحقيقة أنه عدو الله ، وقد أثبتت الأحداث ذلك ."

المؤكد أن هؤلاء الناس الرعاة هم أقل أفراد الجنس البشري عبقرية وفهما ؛ هؤلاء الناس ، إذا ما لُدغ إنسان أو حيوان ، فهم لا يعرفون أي شيء أفضل من "قراءة" (ما يسمونه القريئة El-kirreya) عليه . والقريئة هذه عبارة عن مجموعة من العزائم والرقى تعلموا استظهارها وحفظها عن ظهر قلب ، وتتمثل في بعض الكلمات المنتقاة من القرآن (الكريم) ، قوة "كلام الله" ، في ظنهم هي التي يجب أن تتغلب على قوة السُّم . وفي كل قرية من تلك القرى الجائلة يوجد شخص أو إن شئت فقل : "قارئ" يُضْجِرُ السامعين بقشور علمه ؛ أمثال هذا الرجل يكونون ضعيفي الفهم ، وليس فيهم أي شرط من الشروط الحسنى ، وهم يخدعون أنفسهم بالخرافات وبالتالي فهم مستعدين لخداع الآخرين . يقوم أصدقاء الملدوغ بإحضار ذلك الشخص ، وهم يبكون طالبين منه مساعدتهم ؛ وفيما بين التقاط أنفاسه يقوم ذلك "القارئ" بالتفل على الجرح ، ويرش عليه قليلاً من الملح . والبدو أناس طيبون في حق بعضهم البعض ، بل هناك من بينهم ، في بعض الأحيان ، من يكون على استعداد لمص جرح صديقه أو قريبه . ولكنهم يعتقدون أن كل ذلك لا طائل من ورائه إلى جانب "كلام الله" ، إذا ما أحسنت "قراءته" ؛ قرّاء الصحراء هؤلاء – من جانبهم – وهم من الأميين ، يقرون بأنهم غير متعلمين . هناك أيضا كثير من الأفراد الجريئين بين الأعراب ، وهم من الرجال والنساء ، وهم على استعداد إذا ما لحق بهم أذى من هذا القبيل ، أن يتناول الواحد منهم أو منهن ، جمرة من الوجار ، ويروح يحرق بها لحمه المجروح ، إلى أن تنطفئ الجمرة في العضو المجروح : وهذا النوع من الرجال والنساء على استعداد لتحمل الألم بجلد بالغ (بحكم أن ذلك من الضرورة ، وأن حياتهم ستصبح عذابا دائما) .

هؤلاء البدو لا يعرفون شيئا عن أربطة الأوردة الدموية ، ولكني شاهدت صلوبي يستعمل ذلك النوع من الأربطة في يوم من الأيام : عندما لدغت حية زوجته في ساق

أحد رجليها ، سارع الصلوبى إلى ربط الساق من فوق الركبة ربطا محكما ، وراح يمص السم . وبقيت زوجته طوال ليلة ويوم وهى شبه ميتة – كما اسودت بشرتها أيضا ، وبعد ذلك بدأت تتحسن شيئا فشيئا ، إلى أن عادت إليها صحتها وعافيتها مرة أخرى : شفيت تلك المرأة ولكن بشرتها بقيت على لونها المتغير فترة طويلة .. ومن باب البر والخير ، أن يعرف من يقدم على مص لدغة الحية أنه لن يصيبه أذى فى شفتيه أو فمه ، لأن الأمر لو كان غير ذلك ، فإنه سيؤدى إلى إصابة نفسه بالسم . حدث أن جاءنى رجل يطلب دواء ، وكانت شفته السفلى حتى ذقنه عبارة عن قرحة مفتوحة : وقال بصعوبة بالغة (نظرا لأن الفيروس المريع كان قد أفسد صوته ،) إن هذا المرض الذى أصابه إنما كان من جراء مص لدغة حية من الحيَّات ، منذ عام مضى . أخبرته أننى أمل أن أتمكن من مساعدته فى الدواء ، وبالمجان ، جزاء له على شجاعته . ولكن ذلك البائس الملول احتقر ذلك الحكيم الذى لم يستطع شفاءه على وجه السرعة . قابلت ذلك البائس بعد ستة أشهر فى قرية تيماء ، حيث قال لى : "انتبه يا أنت ! لقد شفيت مما كنت فيه !" وكان اللحم قد كسى منطقة الجرح من جديد ، وأصبح شكله الخارجى يوحى بالشفاء .

والبدو ، مثلنا ، أو بالأحرى مثل ممرضاتنا عندهم ما يسمى أحجار الدماء التى تجعل الجرح يواصل النزف . وهناك خرافة أخرى بين هؤلاء البدو يعرفونها باسم أحجار الثعابين ، التى يعتقدون فيها اعتقاداً شديدا (والسبب فى ذلك أن هذه الأحجار نادرة جداً فى العالم وثمينة جداً أيضا ،) بأنها لابد أن يكون لها فضيلة خاصة فى مقاومة السموم . والفكرة الشرقية وراء عملية الأحجار الثمينة هذه ، تتمركز حول أن هذه الأحجار تحرك الذهن والعقل فى اتجاه العجائب الغريبة المدهشة ، وهذا المفهوم ما يزال إلى يومنا هذا يشكل قسما من التقييم العجيب للمجوهرات الخاملة فيما بيننا . هذه الأجسام المنتقاة التى تستعصى على الكسر والتحطيم ، شأنها شأن النجوم التى تسطع علينا من بين كتلة معتمة من المادة ، تبعث الراحة فى نفوسنا وأجسادنا المتقلبة : من هذا المنطلق تصبح كل المجوهرات قريبة من القلوب مما يجعل له تأثيرا دينيا .

يزاد على ذلك أن الأحجار القديمة ، التى خصصت بواقع حجر واحد لكل قبيل ، أيام كهنوت القس الأكبر لبنى إسرائيل Israel، يمكن القول من باب الافتراض أنها كان لها المغزى نفسه إلى حد ما . بعض أحجار الثعابين التى شاهدتها كانت ذات لون أحمر مشوب بالبياض ، أو من العقيق اليمانى ؛ كانت الفقاقيع الموجوده فى تلك الأحجار قد جرى حكها إلى أن أصبح السطح ناعما . ونظرا لأن كل هذه الأحجار لم تكن من نوع واحد ، فقد كان تقييمها يختلف من حجر إلى آخر ، ولكن ذلك التقييم كان يعتمد على فضيلة الشفاء التى يعزوها هؤلاء البدو لمثل هذه الأحجار ؛ وبناء عليه ، ذاع فى تلك البلاد صيت أحجار بعينها من أحجار الثعابين وبخاصة تلك الأحجار "التى أحدثت الكثير من حالات الشفاء ." فى تلك البلاد ، حضر إلى النصرانى بعض هؤلاء الرجال الذين لديهم ذلك الذى يطلقون عليه أحجار الثعابين ، وأروني تلك التذكارات بعيدا عن أعين العامة . كانوا يلفون تلك الأحجار لفا عجيبا فى خرقة من خرق مسح المواعين ، كانوا يخرجونها من كيس يعلقونه على صدورهم . ووجهت تلك الأحجار ، وأنا أمسك بها فى يدى ، ناحية الضوء وسألتهم : "ما الذى فى هذه الأحجار أزيد مما فى الأحجار الصحراوية الأخرى ؟ وأنتم إذا كان ذكاؤكم أكبر من ذكاء الأطفال الصغار ، فيجب عليكم التخلص عن مثل هذه اللعب ، واللجوء إلى أربطة الأوعية الدموية التى تستخدم عند إجراء العمليات الجراحية" . ولكن أصحاب هذه الأحجار ، سرعان ما أخفوا أشياءهم على وجه السرعة ، نادمين لأنهم كشفوا عن روائع تلك الأحجار أمام دنيوى غير حاذق . البدو بينهم أيضا الكثيرين من أصحاب العقول المتفتحة ، الذين لا يؤمنون بأى شيء ، غير الظرف المتصل بدينهم ، ولذلك جاء ردهم علىّ على النحو التالى : "إذا كان الكثيرون قد عالجوا الكثيرين باستعمال هذه الأحجار ، فنحن أنفسنا لم نراهم يفعلون شيئا من هذا القبيل ! " ولكنى عندما سألت أصحاب هذه الأحجار : "هل أنتم إذن أدعياء أو دجالين ؟" أجابونى قائلين : "أبدًا ، وبصدق ؛ بوسعنا تقديم كثير من الشهود أن الأشخاص الذين لدغتهم الحيَّات جرى انقاذهم باستعمال هذه الأحجار ، التى تعترض عليها أنت ؛ ولكنك لم تولد فى هذا البلد ، وبالتالى فأنت تكون مخطئا

فى الأمور التى من هذا القبيل ." قالوا لى أيضا ، إن بعضًا من ملاك هذه الأحجار لديهم أحجارا استطاعوا بها "مرارًا شفاء لدغات الثعابين من 'الديدان' الخطيرة ؛ كما أخبرونى أيضا أنهم حصلوا على جمل على سبيل الأتعاب نظير شفائه من لدغه الثعبان ."

معروف أن كل أبناء القبيلة هنا يُدْعَون 'عيال' eyyal عم' amm بمعنى 'أبناء عمومة' ، ويشيع عنهم أنهم أبناء لسلف أو إن شئت فقل : جد واحد . كما تجمع بينهم القرابة أيضا عن طريق سلالة نسبية أخرى ، سمح لأفرادها بالانضمام إلى القبيلة ليصبحوا 'عيال' 'عم' أيضا مع بقية أفراد القبيلة ؛ وأقرب مثال على ذلك هم الموهايب ، الذين هم من سلالة العنوز(*) Annezy، وجرى تطعيم قبيلة البلّى بهم ، وأصبحوا يحملون نسب البلّى ، وبذلك يكونون قد أصبحوا 'أبناء عمومة' من الجانبين . وإنه لمن باب التملق والمداهنة فى القبائل ، أن ينادى النظراء فى السّن الواحدة بعضهم البعض باسم 'ولد' weled عمىّ' ammy . والعم عند البدو هو شقيق الأب ؛ يضاف إلى ذلك أن كلمة 'عم' تطلق أيضا على رب الأسرة مثل الرجل الذى أحل عليه أنا ضيفا الآن ؛ وكلمه 'عم' تطلق هنا أيضا على 'زوج الأم' عندما يناديه طفلها من زوجها السابق . يضاف إلى ذلك ، إن كلمة 'عم' على لسان الخدم أو العبيد ، تدل على رب نعمة ذلك الخادم أو العبد ، (من هنا فإن الإسبان يستعملون كلمة 'عمُّو' Ammo، من بعد وجود المغاربة فى أوروبا) . والشخص الذى يكون أكبر من شخص آخر ، ويحل ضيفا على قبيلته ، يقول عن المضيف 'ابن' ibn 'أخى' akhy . وكلمه 'أبوى' abûy (بمعنى والدى) هى لقب يدل على الوفاء والاحترام من شخص أقل فى المرتبة إلى آخر أعلى منه مرتبة وتقديرا واحتراما ، كما هو الحال فى رب الأسرة ، (وعليه كان داود David، عندئذ رئيسا للمطاريد. والرئيس الشرعى لشعبه ، الملك شاؤل Saul) تعبيرات وعبارات الإقناع الهّين اللين ، التى تجرى على ألسنة هؤلاء البدو تفيض إنسانية وهى تصدر من قلوبهم عندما يقولون : لصالحك ، 'أنا' ana 'أبوك' abûk بمعنى "كلامى صادق ، وأنا

(*) العنوز : من قبيلة عنزة . (المراجع)

والدك" ، أو "أنا ' ana أخوك' akhūk بمعنى "أنا شقيقك " أو عندما يقولون : "أنا' ana 'أختك' akhtak، أو أنا ' ana أمك' . ummak وهناك تعبير شبيه بهذه التعبيرات الهينة اللينة يتمثل فى فيما ورد عند (سيدنا) موسى عليه السلام . والذى يجىء وفقا للوصايا السماوية ويقول : "أنا خليفة Lord ربك . "thy God

بالرغم من أن البدو يعيشون فى وئام وانسجام مع بعضهم البعض ، إلا انهم فئويون أو إن شئت فقل : طائفيين ؛ وأصحاب العقول غير الحصيفة من بين هذا النوع السائد من البدو سريعى الاستثاره والدخول فى الصراعات ، إضافة إلى أنهم يشيع عنهم أيضا سلاطة ألسنة نسائهم . هذه القرية الجائلة تنشب فيها يوميا بعض الخلافات ، وعندما يجىء الصباح تحال هذه الخلافات كلها إلى المجلس . سكان الواحات ، الذين يشبهون الطيور المحبوسة داخل أقفاصها ، أكثر فهما وأكثر تفهما أيضا . وفى أحيان كثيرة تنشب نزاعات مزعجة ، حول تأكيد ملكيه شىء من الأشياء التافهة : ففى الصراعات أو النزاعات التى تكون من هذا القبيل يظن كل طرف فيها أنه هو الوحيد الذى فى كفة الميزان ؛ والبدو عندما يتنازعون على سبيل المثال حول شىء من قبيل : "تيس من هذا ؟ (وقيمته لا تساوى أكثر من اثنى عشر بنسا) – "أقسم بالله ، إنه تيسى أنا ." – "مستحيل ، انظروا ، يا كل الواقفين ، واشهدوا ؛ بالله عليكم ، أليست هذه هى العلامة التى أحدثتها أنا فى أذن هذا التيس ؟" الغضب مسألة سريعة ، بين هذه القلوب التى تحيا حياة جوع وخوف ، وتسهل استثارتها : صدور هؤلاء البدو الضيقة تنطوى على قدر كبير من الشهامة ، هذا يعنى أن الضعيف ، وصاحب الحظ غير الوفير بين هؤلاء البدو ، قد يثور ويفور ويشتط غضبا إذا ما أساء إليه أحد من الناس . يضاف إلى ذلك ، أن فى داخل هؤلاء البدو ، منذ الطفولة ، نوع من الخلاف القديم الذى يتعين تفريغه والخلاص منه .– هذه التركيبه النفسيه تتجلى بصورة أوضح فى الرعاه وأمثالهم عنها بين سلالة الشيوخ ومن فى حكمهم ؛ والسبب فى ذلك أن هؤلاء الشيوخ هم ومن فى حكمهم تزول خلافاتهم فى المجلس الذى ينعقد يوميا وفى صحبة القهوة التى تتسم بالألفة والمودة . وإذا ما أفلتت كلمة حارقة من بين شفاه سائبة لرجل مشاكس نكد ، يمكن أن تشعل ناراً حامية فى قلوب هؤلاء البدو ، وقد

يصل الأمر إلى حد أن يسحب البعض منهم السلاح على البعض الآخر فى ميدان القتال . وهنا يندفع كل الحاضرين بمحض إرادتهم لفض ذلك النزاع : "(يصيح أولئك المحجِّزون) بالله عليكم ! لا داعى لكل هذا ؛ واطرحوا الأمر أمام الشيوخ ليبتوا فيه ؛ والمطلوب منكما الآن أن يذهب كل واحد منكما إلى بيته ، وسوف نصحبكما إلى بيتيكما ؛ ولذلك يمكن تأجيل نزاع من هذا القبيل إلى طلوع النهار ، حيث سيجرى الفصل بالعدل بينكما ." وشيوخ البدو يحكمون فى هذه الأمور حكما عادلا ومنصفا ومستمدا من الشرع ؛ والشيوخ هم صنّاع السلام فى المُنزَل ، وهم أيضا المحكِّمون بين رجال القبائل .

ذات مساء ، أحضروا لى رجلا ينزف من ذراعه ، وكان الرجل قد أصيب منذ فترة وجيزة بضربة سيف من واحد من بدو الفهجى ، وأحدثت تلك الضربة قطعا فى ذراعه : كان ذلك الرجل قد تنازع مع الفهجى فى ملكية عنزة صغيرة . وعندما ظن ذلك الفهجى المسكين ، إنه غلب على أمره دون وجه حق ، بادر إلى نزع سيفه القصير من غمده ، وضرب به ذلك المعتدى ، – وسارع الجيران إلى مكان النزاع وأمسكوا بالاثنين . غمغم زيد ونحن جلوس حول وجار القهوه قائلا ، "– عجيب أن يكون فهجى هو المعتدى ! (والسبب فى ذلك أن بدو الفهجات من نجم وضيع ، وبالتالى فهم يشكلون سبيكة من نوع خسيس ، وبالتالى فهم سلالة وضيعة ومحتقرة بين الأعراب .) ولم يحدث مطلقا من قبل أن رفع بدوى من بدو الفهجات سلاحه على واحد من بدو الفجيرى ." هذه السلالة الصغيرة من بدو الحطيم هم بمثابة الزبائن التقليديين ، أو إن شئت فقل : (العملاء التقليديين الذين يسكنون ديار الفجيرى . من هنا فإن شيوخ الفكارة ، وزيد واحد من كبارهم ، يتعين عليهم أن يحكموا فى الصباح بين هذين الرجلين بلا تمييز أو محاباة : وقد بلغنى أن الشيوخ أدانوا الفجيرى ، وحكموا عليه بأن يدفع عددا صغيرا من رءوس الماشية ؛ ولهذا السبب ، وجدت ذلك الفجيرى ، فى فترة لاحقة ومعه أقرب أقاربه يعيشون عيش المنفيين ضمن قبيلة أخرى . دفع هذه الغرامة يمكن الوفاء به (وقبول نفس العدد المحكوم به من الماشية) فى أى عام من الأعوام المقبلة ، ومن خلال الزيادة الطبيعية التى تطرأ على مواشيهم ، وبذلك يستطيع أولئك المنفيون رد اعتبارهم :

والسبب فى ذلك أن مسألة الربا ممقوتة وغريبة على التعامل الأخوى الذى يحكم العلاقات بين القبليين الرُّحَّل .

يقول الرحالة الذين وصلوا إلى هذه البلاد عن بدو الفهجات ، وذلك من قبيل ضرب الأمثال : "الفهجات مرحون دوما ." وما هى الهموم التى يمكن أن تشغل بال أولئك الذين يحيون حياة ملوثات الهواء ، الذين لا يتطلعون إلى الحصول على أى شىء أو خسارة أى شىء فى هذه الدنيا : والفهجات بشكل عام يحضرهم دوما المرح الخفيف الطريف ، ولديهم شىء من اللطافة التى يتحلى بها الشحاذون . وهم يقولون إن والدهم هو مرحاب Marhab، ذلك الشيخ الذى تولى أمرهم بعد أن فتح المسلمون خيبر القديمه .- ترى ، هل هؤلاء الفهجات هم يهود خيبر ؟ لقد رأيت دولان Doolan، أشجع وأفقر هؤلاء العناترة (جمع عنتر) ، وقد طرح أرضا طيلة ليلة ويوم بعد أن تيبست شفتاه لنا بذلك الاعتراف الشهم ؛ وهو فى ذلك يشبه سيده الأكبر عنترة ، الذى اعترف متفاخرا بسلالته غير الحرهةمن ناحية أمه ، الأمر الذى أحزنه بعد ذلك . اعتقاد الفهجات فى ذلك ، أو تصديقهم لذلك ، هو الذى كان يجعلهم ينظرون إلى النصرانى (دوتى) باعتباره واحداً من أقربائهم القدامى ؛ ونظرا لأنى كانت توجه إلىَّ الاتهامات بسبب دينى ، فقد كان ذلك يكسبنى حسن ظن هؤلاء الفهجات ، الذين كانوا هم أنفسهم عبيدا لحظ عاثر عنيد . فى بعض الأحيان ، كان هؤلاء الفهجات يقترحون علىَّ أن أتخذ لنفسى زوجة من أجمل بناتهم ؛ ومبلغ علمى أن نساء الفهجات (الحطيم) هما الشكلين المفضلين من أشكال النساء فى هذا المخيم الكبير . وبينما كنت راكبا دابتى أثناء واحدة من الرَّحْلات ، رحب بى زوج إحداهن ترحيبا شديدا - أنا لم أر هؤلاء الناس من قبل - "أنت ، يا من تسير هناك ، خليل !" - "ويش weysh ودَّك widdak يازلامى Yazillamy؟" بمعنى "أيها الرجل ، ماذا انتويت ؟" - "أقول ، ألا تود الزواج ؟ أليست هذه (زوجته) امرأه جميلة ؟" وفيما بين مرحهما الاستجدائى ، والتطلع إلى تحقيق الفائدة ، يصيح ذلك الفهجى مبتهجا قائلا : "والله ، لو أحبتك هذه المرأة ، فسوف أسرحها (ناطقا بكلمة الطلاق) ؛ كل مافى الأمر يا خليل ، هو أنك سوف تسوق إلى (بمعنى تدفع لى) خمسة من الإبل ." - التى أقسم أنه دفعها مهراً لها .

كانت تلك المرأة فارعة الطول وترتدى ملابس جميلة كما لو كانت عشيقة أو محبوبة ؛ وكانت تلف حول خصرها النحيل حزام صغير مزين بالدانتيلا جميلة الألوان : كانت تمشى حافية فوق الرمال الجرداء ، وهى واثقة تماما من تمرد عجيزتها ، فى تلك الصحراء التى يعيشون فيها . "(تساءلت) وما رأيك أنت ، يا أختاه ؟" ردت على قائلة : "إذا كنت ستقبلنى ، على هذا الوضع ، يا خليل ، فأنا مستعدة لذلك ." – هكذا نرى أن الزواج عندهم خفيف وسهل على هذا النحو ، وكلهم تقريبا تعساء ولا يستشعرون السعادة ! وتجاوزتهما فى صمت بحكم سرعة خطوات الناقة التى كنت أركبها . وفى يوم آخر ، شاهدت تلك المرأة وقد جاءت لحضور احتفال ختان ، وحييتها مناديا باسمها ، ولكن بسبب كلمه ساخرة خرجت منى ، أفهمتنى بنظرة جريحة ، أنى أصبحت محطا لاستيائها وعدم رضاها .

أثناء تجوالى مع الفجير رأينا شيخا ساخطا ومتذمرا من العلايدة Allayda شيوخ ولاد على . كانت هناك بعض أسر من الفقاره يعيشون منفيين مع ولاد على . نزاع هذا الفرع من العلايدة كان مع فرع آخر منهم يتزعمه الشيخ مطلق العلايدة ، وكان ذلك النزاع يتعلق بمسألة توزيع صرة الحج . كان مطلق يرى أن نصيبه أقل من المطلوب ، وأن الطرف الآخر من النزاع حصل على مبلغ أكثر مما يستحق . وبناء على ذلك ، وبحكم سلطته التى يستمدها من الرأى العام ، قرر الاستيلاء على إبل الطرف الآخر . علايدة الشيخ مطلق لم يكونوا رجالا طيبين وذلك من منطلق الرأى العام فيهم : فقد حدث أن قلت ذات مرة ، وأنا فى خيام أولئك الشيوخ بمناسبة الكارثة التى حلت بهم (ولاد على) نتيجة الغزو الذى قام به أعداؤهم ، أننى أشعر بالأسف لما سمعته عن الكارثة التى حلت بهم ؛ رد على أولئك الشيوخ رداً يتسم بالبرود "لم نكن المتسببين فى تلك الكارثة ، وإنما إله البشر Bishr هو الذى أنزل بهم ذلك المكروه الكبير ." كان منزل الفكارة يحتوى أيضا على أسرتين أو ثلاث أسر من الأسر التى ليست قبلية تماما ، كانت هاتان الأسرتان أو الثلاث تتمثل فى أبناء بعض رعاة القلعة من الدمشقيين السابقين ؛ وبعد أفول نجم آبائهم تحولوا إلى بدو تجار بسطاء مع أقارب أمهاتهم . وبعض آخر من أشقاء أرباب هذه الأسر تحولوا إلى الحياة المدنية (الحضر) وعاشوا

حياتهم فى المدينة الأم ؛ وقد سبق لنا أن قلنا إن هؤلاء الأشقاء كانوا يحضرون كل عام من سوريا للإتجار مع هذه المنطقة فى موسم الحج . أما ذلك القسم الذى بقى منهم فى الصحراء فقد تحولوا إلى بدو رُحَّل ؛ ولكنهم كانوا أصحاب بشرة بيضاء وملامح أجنبيه غير ملامح البدو ، ولم يكن لهم تأثير مثل تأثير البدو . أشباه البدو هؤلاء كانوا يعودون كل عام ، فى شهور الصيف ، (بعد أن يدب الملل فى نفوسهم من كثرة ترحالهم ،) لينصبوا خيامهم أمام القلعة القديمة (التى سبق أن ولدوا فيها) فى قرية الحجر . ومع ذلك كان من بين هؤلاء البدو شخص واحد ، هو أجرأ نخَّاس فى القبيلة كلها . كان ذلك الرجل يداوم على الإغارة والغزو بصورة مستمرة طالما وجد لنفسه مثيلا يشاركه العمل نفسه ، ولما كان هو شيخ المنصر ، فلابد أن يأخذ نصيب الزعيم من كل غنيمة من الغنائم . ثم يقوم بعد ذلك بالتجوال فى الصحراء الجرداء الجافه التى تحرقها أشعة الشمس . هؤلاء البؤساء الذين كانوا يقومون بعمليات الغزو تلك ، كانوا يسطون على بيوت الأعراب المعادين لهم ، ويواصلون الركوب والنزول لحين حلول الليل ، ثم يتسللون بعد ذلك إلى البيوت التى ينوون السطو عليها - بعد أن يقيدوا إبلهم ويتركونها فى منطقة آمنة بعيدا عن تلك البيوت - أملا فى سرقة بعض الإبل ؛ ولكن هؤلاء الغزاة (اللصوص) كانوا يعودون إلى ديارهم من تلك الأعمال الخطيرة ، وهم يلهثون من شدة التعب ، ودون أن يجنوا أو يحصلوا على أى شىء من الغنائم . كان شيخ المنصر هذا شجيع شجاعة الفرس الكديش الهزيل الضعيف . ففى كل تجوالهم وجوثهم فى الصحراء ، كان يتحتم عليه أن يجعل من رفيقه عينين له ؛ فقد اكتشفت أن عينيه كانتا شبه مغلقتين بفعل رمد قديم .

بعد انقسام القبيلة طالت أيامنا الخانقة الخالية من الريح من ناحية ومن المجلس من الناحية الأخرى ؛ ومع ذلك ازدادت روابط الصداقة بين هؤلاء الجيران القلائل . كان زيد فى بيته بصورة مستمرة ؛ كما كان رفاقه الشيوخ يفدون إلى ذلك البيت ، وكان هو بدوره يصلِّح لهم القهوة ويقدمها لهم . كانوا كلهم أبناء عمومة ، ولم يكن فى قلب المضيف غلا أو حسدا لأحد منهم ، إضافة إلى أن البدو يميلون إلى المرح ؛ كان ذلك المرح ينصب على آخر ما وقع بين حرفة وزيد ؛ كانوا يسخرون دوما من سلوك تلك

الزوجة الشابة الشاذ غير المقبول . "يا حرفة ! يا حرفة ، أجلسى صامتة خلف الستار ، وحاولى أن لا يكون لك لسانا حريميا ؟ قفى فى مكانك ، واسمحى لوجهك الصغير أن يُرَى من فوق القماش ، وبرئى نفسك أمام جميع الحاضرين . يا حرفة ! ما هذا الذى نسمعه منك ، أمازلت تعاندين زيداً ؟ ألم تنس زيدا بعد ؟ أمازلت تتركين زيداً بلا عائله (ربة بيت) ؟ وهل يتعين أن يقوم خليل بإحضارك إلى البيت مرة أخرى ؟ ماذا عندك لتقولينه دفاعا عن نفسك ؟" وهنا يتكلم الشيخ خلف علايدة فيقول : "قل لى رأيك يا خليل فى فرسى . إنها تساوى خمسة وثلاثين جملا ، كما أن أمها تساوى خمسة وعشرين جملا ؛ ولكن فرس زيد لا تساوى خمسة جمال : – ثم ، ألم تر جارا (jara ربه بيتى) ؟ قل لنا يا خليل من منهما صاحبة الوجه الأجمل أهى حرفة أم جارا ." وهنا ظهر وجه حرفة وعليه مسحة من الغضب ، وقالت إنها لا تطيق ولا تقبل هذه المقارنة : "يا خليل ! لا ترد على ذلك ." كان ذلك هو لهو الأعراب فى حياتهم داخل الخيام ، كانت أفواههم تطفح بالسخرية والاستهزاء ، ويطلبون من الغريب ، أن يلعب دور القاضى فى تلك السخرية وهذا الاستهزاء . كانوا يسألون الغريب : "أليس هذا جومانى (عدو) ؟ يا خليل ، إنه حبلوص (لص) ؛ ما الذى ينبغى أن نفعله فيه ؟ هل أقطع رأسه ؟ – ويقولون ، هذا الرفيق العجوز ، لا يفعل شيئا مع زوجته ؛ من باب الشفقة ، ألا يمكن لك أن تساعده ؟ أليس له من دواء ؟" – ويقول الرجل العجوز ، : "لا تستمع إلى كلام هؤلاء المخبولين ." وهنا كانوا يقولون : "هذا الزيد لا طائل منه ، فلماذا تعيشين معه ؟ وهل حرفة طيبة معك ؟ إنها تصب لك اللبن ؛ وهى جميلة ، إنها مزعونة mez'ûna لولم يكن هنا غرباء ، لدخلت علينا حرفة فى مثل هذه الأوقات ، وجلست معنا لتمرح هى الأخرى معنا : لقد كانت حرفة شيخة ، وكان زيد رجلا كديشا ، وكان يرى بين البدو فى معظم الأحيان . وفى بعض الأحيان ، ومن باب تزجية الوقت ، كانوا يسألون عن بعض كلمات من لغة النصرانى ، وبعد أن كانوا يحفظونها عن ظهر قلب كانوا ينادون حرفة بصوت عالٍ ، وبلغة إنجليزية واضحة قائلين ومنادين عليها : Girl, bring milk ! بمعنى "أحضرى الحليب ، يا امرأة" – وحياتك يا حرفة ، لقد تعلمنا إنغريز Enghreys هذا المساء ." وتتكلم حرفة فتقول : "وكلمة 'دخان' ما معناها فى لغه خليل ؟" – إنها

Tobacco بمعنى "التبغ" . – "إذن ، أعطينى شيئا من هذه الكلمة الطيبة فى غليونى ، إملأ لى رأس غليونى ، يا خليل !" – فى يوم آخر ، وصل رجل قبلى وجلس بالقرب من حرفة فى القسم الخاص بها من البيت ؛ وعندما رأى الغريب سألنى : "خبرنى ، أليست حرفة مزعونة (جميلة) ؟ آه ، ليتها كانت زوجتى !" وراح هذا الوغد يكشف عما يدور فى ذهنه بإشارات فيها كثير من الخسة . وعندما وجدت حرفة نفسها فى موقع الغزل والتودد ، بالرغم من أن ذلك الرجل لم يكن من الشيوخ) جلست بلا حراك وابتسمت ؛ بينما راح زيد ، الذى يستطيع أن يلعب دور الإنسان الوقح سليط اللسان فى زواج الآخرين ، يتمالك نفسه ويبتسم ابتسامة الرجال .

ربما يكون زيد قد أخذ بعين اعتباره مسألة تخلصه من حرفة فى يوم من الأيام ، نظرا لأن ما يزعج قلب الرجل هو المرأة المزعجة التى تثير القلق !– بينما كنا نجلس ذات مساء ، على شكل صحبة قليلة العدد ، حول وجار قهوة زيد قال الرجل : "والله ، يا خليل ، أنا وأنت أخوان . وكدليل على ما أقول ، فأنا أسألك ، ألا تفكر فى الزواج وأنت بيننا ؟ انتبه ، أنا لدى زوجتان ، وأنا أقسم بالله ، أنى أعطيك الحرية فى أن تختار واحدة منهما ؛ خبرنى من منهما تريد ، وسوف أتركها لك وتصبح زوجة لك . ها هى مضيفتك حرفة ؛ والأخرى اسمها بشْرية Bishrîa، وأنا أعتقد أنك رأيتها هناك ." – ربما كان يفكر فى إعطائى حَرفة ، على أن يستعيدها مرة ثانية (معدَّلة) بعد رحيلى وبالتالى لا تضيع منه إبلها ؛ إذ يبدو لى أنه تزوج من إبل تلك اليتيمة . ورددت على ذلك العرض اللطيف قائلا : "إذا كانوا يودون زواجى ، فينبغى ألا يكون ذلك من زوجة من زوجات الرجال الآخرين ، لأن ذلك يتعارض مع عقيدتنا ، ويجب أن يعطونى رَخيَّه Rakh?eh :" رخية، تلك كانت طفله من أطفال أخت زيد ، كانت قد تعودت المجىء يوميا إلى خيمتنا كى تلعب مع أخوانها من الأطفال . "رد زيد قائلا : أتسمعين ما يقول يا حرفة ؟ سوف أعطيك حالا إلى خليل ، ولكنه فضل عليك طفلة ." قالت حرفة وهى مستاءة إلى حد ما : "حسن ، نفذ ما يقول ، وأنا لا تهمنى آراء خليل ." – حدث أن التقتنى زوجة زيد البشرية وسيعة العينين ، بعد ذلك ، فى يوم من الأيام ، فى المخيم ، وعرضت على ، فيما بين الجد والهزل ، ودون أن أطلب منها ذلك ، أن تأخذنى إلى

زوجها ، وعلى أن يقوم زوجها بتطليقها : ولكنى يتعين على شراء بعض من الماشية الصغيرة ، وبيت من بيوت الشعر ، وبعض من الإبل ؛ وعندها (فى ظنها هى) يمكن أن نحيا صحبة سعيدة ، نظرا لأن النصارى لا يتخلون عن زوجاتهم . فى بعض الأحيان كان بعض الآباء يعرضون بناتهن الأطفال ، ويثنون على جمالهن ، ويشهدون كل الحاضرين على ذلك ؛ كان الشباب يعرضون على شقيقاتهم : وكان سبب ذلك أن زيداً أشاع أن خليلا ، الذى جاء للعيش معه ، سوف يشارك فى عمليات الغزو ويصبح واحداً من المتأهلين .- وبالرغم من الحسد والغيرة اللذان يدوران فيما بينهم ، لم يكن من بينهم أى أحد غير راض عن أبوة النصرانى ، نظرا لأن سلالة النصارى مفضلة فى عقيدتهم ؛ كما أن البشرة البيضاء ، هى من وجهة نظرهم ، إشارة إلى سلالة نسبية متجانسة ، أكثر من سلالتهم . ولما كان هؤلاء البدو عبارة عن بشر على قدر عال من الخيال الجامح ، فهم يتصورون أنفسهم ملونين ومليئين بالعيوب والأوجاع ؛ وهذا هو سر حزنهم . عرفت بعض البدويات اللاتى كن يحتقرن الزواج من بدوى ؛ كما عرفت أيضا نساء من الواحات كن يحتقرن الزواج من بين القرويين فى القرية نفسها . وكانت تلك البدويات يعتبرن مسألة زواجهن مصادفة من واحد من سكان المضارب المستقرة ، نوعا من التقدم والرقى . يضاف إلى ذلك ، أن بنات البدو يسهل تزويجهن من رعاة القلاع والعاملين فيها .

لا يبقى فى خيمة رب الأسرة سوى الأيلات الصغيرة ، هى والصبية الصغار الذين يكونون دون الحلم ، وهم أيضا الذين يسمح ببقائهم بغير زواج . والرجل الأعزب ، بين قبائل الصحراء يعد بائسا فى واقع الأمر ، وبلا خيمة ، نظرا لأن الخدمات المنزلية كلها من اختصاص الحريم : وفى وجود عدد كبير من النساء المهجورات ، والأرامل ،.لا يعجز أى رجل من الرجال البائسين عن إيجاد صنيعة make تشاركه 'البناء' ، والتحميل ، والطحن ، وجلب الماء والحطب : ومثل هذا الرجل لا يكلفه الأمر شيئا سوى ذبح شاه (أو عنزة إن كانت موارده محدودة لوليمة العشاء . والحريم لا يصدقن ، أن رجلا يمكن أن يسكن وحده ، فى ضوء مزايا الزواج التى تُرجِّح صفَّه أو تقف إلى جانبه . والبدويات اللطيفات يسألن الغريب ، على استحياء ، عن الزوجية : "أليس لديكم حريم

يبكين عليكم فى بلادكم ؟" – والحريم عندما تغيب عنهن مساعدة الرجل وعونه فى بيت الزوجية ، يصبحن أرامل فى واقع الأمر . ومن باب كلام المداعبة مع الضيوف المترحلين ، وكذلك الغرباء الذين يحلون على خيامهم ، "تجوِّزك nejowwozek بنت " bint، بمعنى "سنعطيك فتاة عذراء لتكون لك زوجة ." كنت أرد على ذلك قائلا : "ما الذى يتعين عليها فعله فى بلادى ؟ هل يمكن لها أن تنسى لغتها وأهلها وشعبها الذى يعيش هذا النوع من الحياة فى الصحراء القاحلة ؟" وكانوا يردون على : "ليس هنا سوى الجوع والعطش والعرى ، وبلادكم بلاد طيبة ؛ وهذا يعنى أن الزوجة سوف تطيعك وتخدمك ، وهذا أفضل لك : والرجل الأعزب يحس كثيرا من الأسف ، كما أنها سوف تتعلم لغتك ، كما تعلمت أيضا اللغة العربية ." ولكن البعض منهم كانوا يغمغمون بكلام غير مفهوم : هذا من قبيل الحقد من النصارى ، ولن يتزوج خليل ، مخافة أن ينمو الدين الإسلامى وينتشر فى بلادهم ." بعض ثالث كان يقول : 'من العدل اعطائى زوجة ، لتحقيق ذلك الهدف ، أى على أمل قيام العابدين المخلصين بين النصارى ، أو بالأحرى بين أولئك الذين لا يعرفون الله .' وسمعت أيضا يتردد بين هؤلاء البدو : "تزوج يا رجل ، وخلف لنا بنتا بيضاء ، التى يمكن أن تكون فى يوم من الأيام زوجة لواحد من كبار الشيوخ ." ربات البيوت البدويات يتمتعن بحرية كبيرة . القلة القليلة من النساء الجيدات ، المتزوجات من رجال لهم وزنهم ، والذين أنجبن منهم أطفالا يندر وجودهن ويتندر الناس بجمالهن وحسنهن . والحريم ذوات القيمة الأصغر ، اللاتى يتنقلن من زيجه إلى أخرى ، ومن سُرِّيةٍ إلى أخرى ، واللاتى يشعرن دوما بالتدنى ، يكن دوما محطا لكلام البدو ، الذى يكون مصحوبا بالكلمات المخزية الخالية من الحياء والتلميحات والإشارات إلى النساء المهجورات . والضال من الجنسين يطلق البدو عليه اسم 'عفون' بمعنى 'الشخص المتعفن' . و 'الخدارى' فى خيام البدو هن العذراوات ، اللاتى هن تحت وصاية آبائهن واخوانهن ، ويحظين بتقدير كبير من الرأى العام . وعندما تقوم بنات من بعض الخيام المنعزلة ، برعى الماشية ، شأنهن شأن بنات يثرو Jethro المدينيات(*) Miadianite،

(*) بنات يثرو المدينيات : بنات شعيب (عليه السلام) من أهالى مدين اللاتى تزوج سيدنا موسى عليه السلام واحدة منهن . (المراجع)

نراهن ترعين قطعانهن فى الصحراء ولا تخفن من أى شر أو مكروه ؛ إذ ليس هناك شاب من شباب القبائل على استعداد لممارسة أى ضغط أو قمع على مثيل هؤلاء العذراوات (بالرغم من خِسة الكثيرين من هؤلاء الشباب) من منطلق إنهم شباب متدين . والجميع هنا ينظرون إلى خرق عقيدة الصحراء والخروج عليها ، وكذلك على تعاليم الدين الإسلامى ، على أن كل ذلك حرام فى حرام ؛ من هنا يصبح من يذنب غير جدير بالعيش بين هؤلاء البدو ، أو إن شئت فقل : فى خيام الأعراب .

مضت إلى الآن ، فترة طويلة على خيامنا السوداء التى نصبوها فوق تلك الأرض الرمليه ، الواقعة أمام ذلك البروز الأبيض من صحراء النفود : أو إن شئت فقل : ساحل إرنان Irnan الموجود أمامنا ، الذى تعد تشققاته الوعرة ، التى ينمو فى كل شق منها نوع من الأعشاب الصغيرة التى تتغذى من ذلك الجو القاحل ، وتعد مأوى للماعز البرية التى لا تشرب الماء مطلقا . هاهى ليلة الصيف قد أوشكت على الانتهاء ، وهاهى الشمس تشرق مثل تاج من اللهب المعادى منبعث من قمم جبال الحجر الرملى الطاردة ؛ ونهار الصحراء لا يجىء متدرجا ، ولكن النهار يتحول إلى ظهيرة خلال ساعة واحدة . وهنا تدخل الشمس مثل طاغية على سطح الأرض الجرداء ، وتندفع نحونا مثل لهيب من الأشعة النيرانية ، لا يمكن أن تتبدل إلا بعد فترة طويلة من حلول المساء .- الطيور هنا لا تعرف الصياح ، حبارى الصقور هنا ، التى لها أصوات مفعمة بالسعادة عندما تكون فى تلك الأرض الشاسعة والقاحلة ، لا وجود لها هنا فى هذا المكان ؛ هذه الحرارة الشديدة لها خطورتها على الرأس ؛ الأذان هنا تطن بفعل ذبذبات ذلك الصوت الحاد ، وهذا الطنين يبدو كما لو كان نوعا من الزحف أو التسلل الغامض ، فى إطار هذه الطبيعة التى تضربها الشمس : لمعان الرمل الساخن يرتد إلى العينين ، والمرطبات جد قليلة فى خيمة المأوى ؛ هذه الخيام الصوفية يتسرب من خلالها المطر النارى الناتج عن ضوء الشمس ، وهذه هى الجبال ، تبدو كما لو كانت عظاما جافة من خلال الهواء الراكد ، ونراها على بعد من حولنا : هذا هو الجنب المتوحش من مغارة Moghrair الأب ybba، وهذا هو الطرف العلوى المدبب ومصاطب الجبال el-Jebal المدمرة ، التى يطلقون عليها اسم شيباد Chebàd، أو إن شئت فقل : ساحل حلوان ! Helwàn

قطعان الإبل البدوية الضعيفة تتلوى منتشرة هنا ، بحثا عن المرعى وسط هذا البلد الخانق ، الذى أتت فيه أسراب الجراد مؤخرا على الأخضر واليابس . هذا الهواء الساكن الحارق من حولنا ، يتعين علينا تحمله ونحن نكاد نختنق إلى فترة العصر : عندما يفيق الأعراب الغافون بعد ساعات الكسل والوخم . هاهو النهار الطويل ينسحب فى اتجاه غروب الشمس ؛ وها هم الرعاة ، بعد أن أعيتهم الشمس ، يعودون الآن ومعهم ماشيتهم ، ليتذوقوا فى منازلهم بشائر حلاوة المرح والراحه .- يأفل النهار ، وهنا يبرز انتعاش الليل من بين ثنايا هذا الهواء الصحراوى النقى : وهنا ينصرف الجميع إلى الأغنية الجميلة المبهجة وفنجال القهوة من حول ذلك الوجار العام . ويطلع القمر مشوبا بالاحمرار من خلف الجبل كما لو كان مصباحا قويا من مصابيح الإشارة :- ويوم باكر سيكون مثل يوم الأمس ، كلها أيام غارقة فى شمس صيف هذه الأرض القاحلة الجرداء .

كان ذلك الجزء الشرقى الوعر من البلاد ، الذى وصلنا إليه فى رَحْلة من الرِّحْلات ، غير معروف للبدو الذين كنت أرافقهم ؛ لابد أن جيلا أكبر من الجيل الحالى هو الذى وصل فى تجواله إلى ذلك المكان : ومع ذلك ربما لم يعثر ذلك الجيل على الماء المطلوب . تجولنا خلال هذا الجزء الشرقى فى السهول المرتفعة ، (كان الارتفاع فى هذه المنطقة يصل إلى ما يقرب من ٤٠٠٠ قدم ،) وفى الممرات الممتدة بين قمم صخور الحجر الرملى ، المزدحمة بعدد لا يحصى من الصخور المتساقطة ، التى نصبنا فيها خيامنا أثناء النهار كى نستفيد بالظلال الناتجة عنها . ومن بين هذه المناطق الصخرية ، كانت هناك منطقة ، ربما لم تتساقط صخورها خلال جيل واحد ؛ ولكن هذه الصخور تشير إلى سنوات طويلة من الشمس شأنها فى ذلك شأن الرمل ، الذى يشكل جانبا صغيرا فى أى كوكب من الكواكب .

فصل الربيع القصير هو المتنفس الوحيد فى العام الصحراوى . فالحيوانات والبشر يسبحون خلال ذلك المد الزاهر ؛ كما تحصل الماشية على ما يشبعها من المرعى الحلو ، كما يتوافر لبن الخَض butter-milk فى بيوت الأعراب المصنوعة من الشعر ؛

ولكن خيمة زيد كانت خلوا من ذلك النوع من اللبن . هذه هى التيوس والحملان تقف كلها مربوطة أو إن شئت فقل : مقيدة ، كل رأس صغير مربوط إلى عقدة فى حبل أرضى مفرود على أرض الخيمة البدوية . وعند طلوع النهار يجرى إطلاق هؤلاء الصغار تحت النعاج ، لتستقبل كل ذات حَمَلٍ حَمَلَها (وهى تميز ولدها عن طريق الرائحة) – وهى ترفض أى حَملٍ غير ولدها . وعندما يطلق القطيع إلى المرعى تبقى تلك الحملان هى والتيوس الصغيرة فى البيت ؛ والسبب فى ذلك أن ترك الحملان والتيوس تتبع الأمهات يجعل هذه الحملان والتيوس تأتى على كل الحليب الذى فى ضروع الأمهات الأمر الذى يترتب عليه جفاف تلك الضروع وحرمان العرب من غذائهم . بيت الشَّعر يظل طول النهار مليئا بتلك الصغار التى تثغو بسبب الجوع ، إلى أن تعود الغنم إلى المنزل فى المساء ، حيث يجرى إطلاق الصغار على الأمهات من جديد ، ليشربوا اللبن من الأمهات ، حيث يتدافعون تحت ضروع الأمهات ، وهم يهزون أذيالهم ؛ وطوال فصل الربيع الذى لا يستمر إلا بضعة أسابيع فقط ، نجد أن تلك الصغار لا ينقطع لها ثغاء أو صياحاً ، ويكون ذلك طوال الليل داخل بيوت الشعر البدوية : وهنا يقمن ربات البيوت بأخذ ما يتبقى من الحليب الحلو هذا ، فى ضروع الأمهات ، بعد أن ينتهى الصغار من الشرب . وقبائل بنى Beni وَهَاب Wahab التى تسكن هذه الأراضى المرتفعة الواسعة هم أصلا من بدو الإبل ؛ ولذلك يندر وجود الحيوانات أو الماشية الصغيرة بين هؤلاء القوم : وهم يحصلون على نوع جديد من الحليب فى فصل الربيع بعد أن تلد النياق . والناقة التى يجيئها المخاض ، ترقد على جانبها ويجرى توليدها دون أن تحدث صوتا ، والوليد الصغير يكون فى حجم الرجل الكبير : ويقوم الراعى بتمديد أرجل ذلك الوليد ، مستخدما فى ذلك كل قوته ؛ ثم يسحب الوليد بعد ذلك كما لو كان ميتا ، أمام الناقة الأم ، التى تتشمم وليدها وتنهض ثم تهب واقفة على قدميها كى تبدأ فى لحس ذلك الوليد . وهنا يقوم البدوى المولِّد بالربت براحة يده ربتة قوية على ما يسميه البدو الزُّورة Zorâ، (التى تشبه العمود ، والتى خلقها الله أسفل صدر الجمل ، كى تحمل ذلك العنق الضخم ،) ليفيق بعدها الوليد الصغير : وبعد مرور ثلاث ساعات ، وبالرغم من ضعف ذلك الوليد وترنحه ، وبعد أن يسقط عدة مرات على

الأرض ، يتمكن فى النهاية من الوقوف رافعا عنقه الطويل إلى أعلى ويروح يبحث عن ضرع الأم . وفى صباح اليوم التالى يرافق ذلك الوليد الصغير أمه الناقة إلى المرعى . وهنا يمكن حلب الناقة على الفور ، ولكن ذلك الحليب الذى يجرى الحصول عليه منها فى اليومين الأولين ، يطلق عليه البدو اسم حليب المسمار ، أى الحليب المعقم والمُطَهِّر ويسبب الإسهال لمن يشربه . وأول صوت يصدره البعير الصغير يشبه ثغاء الغنم ، وهو عبارة عن شكوى بصوت عال لها نغمة طيبة يقول فيها : باه Bāh باه . Bâh وفروة البعير الصغير تكون ناعمة مثل الحرير ، ورأسه يكون مستديرا أو عاليًا ؛ وجسمه قصير ، إذ يولد على شكل قوس ، كما أن خطاه طويلة بحكم أرجله الطويلة ، كل ذلك يجعل ذلك البعير الصغير ، عندما يغلق عينيه بعض الشيء ، يبدو للرائى كما لو كانت هاتان العينان هما عينا طائر من الطيور كبيرة الحجم . والأباعر الصغيرة تعيش على لبن الناقة الأم طوال اثنى عشر شهرا ؛ ومع ذلك ، فإن تلك الأباعر عندما يصبح عمر الواحد منها بضعة أسابيع ، يصبح قادرا على أن يلتقط هو بنفسه أعراف الأدغال الصحراوية : ونظرا لقصر أعناق الأباعر خلال تلك الفترة ، فهى تضع أعناقها بين أقدامها الأمامية حتى تتمكن من التقاط غذائها من الأرض . وذات مساء ، عندما تحسست شعر الأباعر الوليدة الناعم سمعت صوتا ينادى : "يا خليل ! (وجاءنى المنادى وعلى وجهه مسحة من الغضب) ، إياك وأن تفعل ذلك مرة ثانية ، – لأن ذلك سوف يحد من جلودها ويجعلها تتوقف عن النمو ؛ ألا تعرف ذلك !" ظن المنادى أن الغريب حقود أو سيئ القصد ؛ ولكن زيدا الذى كان بعيدا كل البعد عن الخرافات لاطفنى بابتسامة حلوة ، كما أن تلك الأباعر كانت ملكا له .

البعير الصغير يساوى عند مولده ريالا واحدًا ، وكل شهر يمر عليه يزيد من ثمنه وقيمته . فى بعض الأسر "الضعيفة" يجرى ذبح ذلك البعير الوليد ، حيث يتحتم عليهم هم أنفسهم شرب حليب نياقهم . والناقة التى تثكل ولدها بهذه الطريقه ، تروح تتجول ، وتجأر جأرا لطيفا ، وهى تتشمم بحثا عن وليدها ؛ وطوال حزن هذه الناقة ، وكما يقول العرب ، تكون عينا تلك الأم الثكلى ، مليئتان بالدموع . وبعد مرور عشرة أيام ، ينقضى حزن تلك الناقة ويذهب إلى عالم النسيان ؛ وتبدأ الناقة من جديد تتغذى من

المرعى ، وتعطى حليبها للأعراب . يستطيع البدو فى تلك الفترة الحصول على ما مقداره حوالى ثلاث بنتات (*) فى الصباح وأكثر من ذلك فى المساء حيث يستعملونه فى العشاء . وضروع هذه الحيوانات الضخمة ليست أكبر من ضروع الماعز التى شاهدتها فى مالطة . ولكن الناقة التى يتركون لها وليدها (بعيرها) لا يحلبونها إلا فى المساء فقط . وضرع الناقة به أربع حلمات ، يقسمها بدو الجنوب الرحل على النحو التالى : حلمتين يربطانهما برباط من القماش الصوفى وقطعة من الخشب ، ويحجزانها لإستعمالهم الشخصى ، ويتركون الحلمتين الأخريين لرضاعة الصغير ، أما أعراب الشمال ، فهم يؤمنون ضروع النياق باستعمال كيس من الصوف . وأثناء الرُّحْلات ، أو عندما تحس الناقه بالعطش ، يقل مقدار حليبها إلى النصف . ولبن النياق ليس واحداً . وعندما يجىء موعد حليب الربيع ، فإن البدو الرحل لا يتغذون على أى شىء سواه . والبدو لا يشربون حليبا كامل الدسم غير حليب نياقهم ؛ ومن ألبان حيوانات البدو الصغيرة لا يشربون سوى لبن الخض فقط ، أو إن شئت فقل : اللبن الحامض . والحريم يصنعن الزبد من اللبن عن طريق وضعه فى قربة الخض التى تهدهدها البدوية على ركبتيها . وفى صحراء الشمال التى تنعم بالوفرة والرخاء يستعمل البدو قربة خض (التى يقولون لها السميلى Smiley) أكبر من تلك التى يستعملها بدو الجنوب ؛ والبدو فى الشمال يعلقون خضاضة اللبن على حامل ثلاثى الأرجل داخل الخيمة . أما فيما يتعلق باستعمال الحليب غذاء ، فقد اكتشفت من واقع الدليل المتمثل فى حياة البدو ، أنه هو الأفضل من بين الأغذية التى يتناولها الإنسان . ولكن فى كل منزل من منازل البدو ، هناك بعض المعد التى لا تتحمل ذلك الحليب ؛ والرجال الأقوياء الذين يستعملون ذلك الحليب يحسون دائما بمرض الجوع فى أجسامهم ؛ بالرغم من أنهم لا يحسون مطلقا بأى نوع من الضرر أو المتاعب . والبدو يتكلمون عن أنواع الحليب المختلفة فيقولون : "لبن الماعز حلو المذاق ، وهو يؤدى إلى السمنة أكثر من تقوية الجسم ؛ ولبن النعاج شديد بكامل دسمه :" وعلى حد قولهم : "حليب النعاج يقتل البشر ،" بمعنى أنه

(*) البنت Pint : مكيال للسوائل يعادل حوالى ٥٦٨ , ٠ من التر (المترجم)

يسبب لهم مغصا شديدا . وبالرغم من أقوال البدو المأثورة تلك ، فقد شربت حليب النعاج مرارا وهو دافئ ، وكنت أشعر بارتياح شديد كما كان يخلصنى من الإرهاق . وحليب النعاج غنى بأفضل أنواع السمن : ولبن الخض الجديد "يجب تركه كى يحمض فى السميلى أو إن شئت فقل : خضاضة اللبن ، بعد إضافته إلى الألبان الأخرى ، حتى تتمازج مع بعضها ، وبعدها يصبح صالحا للشرب ." وفى رأى البدو أن لبن النياق هو أفضل الألبان ، وأن أفضل الألبان هو لبن الناقة البُخْرة bukhra، أى الناقة صغيرة السن التى لم تلد سوى مرة واحدة ، ويضيف البعض من البدو على ذلك قائلين فى سذاجة بدوية تامة "من يشرب وعنده جارا لن يمكث ولو ساعة واحدة ." معنى ذلك أن لبن الماعز ولبن النياق هو خلاصة النباتات التى ترعاها الماشية ؛ وفى بعض المناطق وجدت أن لذلك الحليب طعم بعض الأعشاب . نادانى شيخ من شيوخ العلايدة أثناء الرَّحلة وسألنى : "أليس لديك شيئا من الكعك الدمشقى (البسكويت) كى تعطينى إياه لآكله ؟ والله ، لقد مضى على ستة أسابيع الآن على آخر شىء مضغته بأسنانى ؛ فكل طعامنا هنا عبارة عن ذلك الفيضان من الحليب . أظنك وقفت الآن على الحياة التى يحياها البدو ؛ إنهم يشبهون طرائد الصيد مبعثرين فى كل أنحاء هذه الصحراء القاحلة الجرداء ." شيخ آخر طلب منى إعطاءه حفنة من التمر ؛ "لأن هذا الحليب وحده يجعله يحس بالجوع فى داخله ." والبدو يحتفظون بذكرى طيبة لكل من يتقاسم معهم الطعام ، أو إن شئت فقل : يشاركهم الطعام ؛ وإذا ما توفر الطعام لديهم تراهم يدعونك إليه عن طيب خاطر .

هؤلاء الأعراب الذين يقتاتون بحمية من الحليب يسعدون عندما ينالوا أية قضمة من لحم طريدة صغيرة . هذا بالإضافة إلى لحوم الأرانب البرية الصحراوية ، التى تصاب ، فى أغلب الأحيان ، بالذعر أثناء الرحلات التى يقوم بها البدو ، ومع ذلك يجىء الضَّبُّ قبل الأرنب البرى الصحراوى ؛ والناس هنا يطلقون على الضب اسما لطيفًا هو ، "السيد حامد أو إن شئت فقل : شيخ الحيوانات البرية" ، ويقولون أيضًا أن ذلك الضب آدمى أو زلأمى Zillamy (*) على حد تعبيرهم ،- هذا الضب هو عند البدو بمثابة الجنى

(*) زلامى : نسبة إلى زلة التى معناها رجل عند بدو الشمال (المترجم)

أو الشيطان الصغير الذى يبتسم ويلعب – وكدليل على آدمية هذا الضب ، فهم يمسكون يديه الصغيرة التى يوجد فى كل واحدة منها خمسه أصابع . والبدو لا يأكلون راحات أيدى الضب ، كما لا يأكلون أيضا الفقرات السبع الشوكية الأخيرة من ذيل الشيخ حامد الطويل ، والتى يقولون عنها إنها 'من لحم البشر' . والمرعى المفضل عند الضب هو شجيرة العرفج التى تفوح منها رائحة طيبة . وجسم الضب عريض ومبطط ، ينتهى بذيل طويل مكون من ثلاث وعشرين حلقة . ولون الضب يميل إلى الاسوداد ، والبطن الشاحب كئيب ويميل لونه إلى الإصفرار وتتخلله بقع خضراء : والبدو يصنعون من جلد الضب قوارير صغيرة للحليب يستعملها الرعاة . هذا الحيوان الشبيه بالآدميين ، على حد تعبير البدو ، يستعمل يديه القوية فى حفر جحر له فى التربة الزلطية الصلبة ، يقضى فيه فصل الشتاء بكامله وهو غارق فى الأحلام . وصائد الضب ، عندما يعثر على جحره ، ويعد أن يدخل فيه بوصته الطويلة التى تنتهى بخطاف معدنى ، يسحب به الشيخ حامد إلى خارج الجحر . ويقوم بذبحه ، ويلقون بجسمه كله على النار ؛ وبعد أن يشووه بهذه الطريقة يعتبرونه من المحمرات الشهية . والعدو الرئيسى للضب من بين الحيوانات كلها – على حد قول البدو ، 'والذى يذل ذلك الضب ويلتهمه ، وهو الظُّربان "thurbân"، وأنا لا أعرف إن كان ذلك الظربان حيوانا حيا أم حيوانا خرافيا . والجربوع ، أو إن شئت فقل : فأر الربيع ، عبارة عن مخلوق صغير أبيض اللون فى تلك الصحراء الواسعة الجرداء الخالية من الماء ؛ وهذا المخلوق يستثير الشفقة والعطف بجماله . هذه المخلوقات الصحراوية الصغيرة تختفى تحت الأرض أثناء النهار ، وهى لا تشرب الماء مطلقا . والقنفذ ، أو أبو abu شوك Shauk، كما يسميه البدو ، يأكل لحمه أفراد قبيلة الفجير ، أما جيران الفجير فلا يأكلون لحم القنفذ ويحتقرون من يقبل على أكله ، بالرغم من أن هؤلاء الجيران يدخلون مع الفجيرى فى سلالة واحدة ، عن طريق العنوز . أحضر سليم معه قنفذا كان قد ضربه على رأسه ، وشوى شوكه فى النار ثم قطعه إلى قطع أعطى كل واحد منها قطعة . وقد أخذت نصيبى ورحت أخفيه تدريجيا بإعطائه لكلاب الصيد الجوعانه ؛ ولكن الكلب عندما شم رائحة اللحم عافته نفسه ورفض أن يأكله . وعندما رويت هذه الحكاية فى يوم من الأيام للقبائل المجاورة ، ضحكوا غيظا ، لأن الفكارة يأكلون ذلك الذى ترفض الكلاب أكله . والبدو الرحل كلهم

يأكلون لحم الدَّلدل Porcupine، كما يأكلون أيضا لحم حيوان يطلقون عليه اسم "الوبَّار" . Wabbar ولقد شاهدت ذلك الحيوان سميك الجسم ، وهو يشبه أرنبا بريا ثقيلا ، كما أنه شبيه أيضا بفأر جبال الألب الكبير ؛ وهذا الحيوان ينتقل أزواجا ، أو رباعا ، أو سداسا ، أو على شكل ثمانية أفراد ، أو عشرة أفراد . والوبّار يمكن العثور عليه تحت حواف الجبال المكونة من الحجر الرملى ، حيث توجد الأعشاب الطرية التى يتغذى عليها ، كما يتغذى أيضا على أوراق أشجار السنط ، وهو يتسلق هذا النوع من الأشجار بخفة ومهارة ، وهو يستخدم قدميه فى تسلق تلك الأشجار ولا يستخدم مخلبيه ؛ وأطراف هذا الحيوان الأربعة فى كل منها أربعة أصابع ، وفى القدمين الخلفيتين ثلاثة أصابع فى كل قدم منهما : ولحم هذا الحيوان سمين وحلو المذاق : ولم أر تلك الحيوانات وهى جالسة على أقدامها الخلفية ؛ وجلد هذا الحيوان لونه رمادى ، ويشبه جلد الدب .

يندر أن يقتل حملة البنادق من البدو الرُّحل ذئبا ، ولكن إذا ما جاء الذئب من نصيبهم بأى شكل من الأشكال فإنهم يأكلونه ، (كان الناس فى أوروبا يأكلون لحم الذئب فى العصور الوسيطة) . والأعراب يعتقدون أن لحم الذئب فيه فائدة طيبة أو دوائية ، فهم يقولون إن : "لحم الذئب مفيد جداً فى آلام الساقين" ، التى تشيع بين أولئك الذين يعرون أرجلهم ويمشون حفاة فى كل فصول السنه . وقد أكل زيد لحم الذئب ، ولكنه يعترف بأنه من فصيلة الكلاب ، "نعم ، بالله (أجابنى زيد) ، إن أم الذئب ، هى عمة كلبة الصيد ." والثعلب ، الذى يطلقون عليه اسم الحصينى hosseny، يلقون لحمه لكلاب الصيد فى أغلب الأحيان ، ولكن بدو الفجيرى يأكلون لحم الثعالب ؛ ولحم الثعلب "حلو ، ويجىء بعد لحم الأرنب البرى من حيث الترتيب ." والبدو يأكلون أيضا لحم الضبع ، إذا ما أمسكوا به ويقولون : "إن لحم الضبع لحم طيب ." والبدنة من بين حيوانات الصيد فى الصحراء ، ولكن يندر أن يصطادها أولئك الرعاة ، هم وسكان الخيام ، باستعمال طلقات بنادقهم . وهذه البدنة bedan الجبلية هى (الماعز البرية(*) كما ورد فى الكتاب المقدس (الإنجيل) ، وجمع 'بدنة' هو 'بدون' bedûn؛

(*) البدنة : تطلق عادة على الناقة أو البقرة وسميت بذلك الاسم لأن أصحابها كانوا يسمنونها قبل ذبحها . (المراجع)

والقحطان يطلقون عليها اسم 'وعول' waul، كما هو الحال فى سوريا) . وقرون البدون الضخمة تنمو ويصل سمكها إلى سمك ساق النخلة ، وقد رأيت تلك القرون التى يصل طول الواحد منها إلى قدمين ونصف القدم ؛ وهذه القرون تنمو متجهه نحو الخلف فى اتجاه الكفل . هذا الحيوان ، كما يروى عنه كل الصيادين ، يطرح نفسه ، إذا ما اضطر إلى ذلك ، فوق هذين القرنين ، مغيِّرًا اتجاهه نحو الخلف : وهو فى هذا الصدد يكون قريب الشبه بالظبى الحجرى الذى يعيش فى جبال الألب الأوربية .

الغزال ، الذى يقول له البدو 'غرازل' ghrazel للمفرد و 'غرازلان' ghrazlân للجمع ، يعيش فى السهول ؛ وأهل الجزيرة العربية يسمونه فى معظم الأحيان باسم 'الظبى' thobby (واسمه العلمى N.T.Tabitha) . والغزال هنا لونه أبيض فى السهول الرملية الكبيرة ، فى حين يميل لونه إلى اللون الرمادى الفاتح قليلا فى أراضى الحرَّة السوداء ؛ وهذا الغزال الموجود فى الحرة هو اليحمور(*) الذى ورد ذكره فى الكتاب المقدس . هناك أيضا حيوان نبيل آخر من حيوانات صحراء الجزيرة العربيه ، الذى لم يكن معروفا آنئذ بيننا ، هو الوضيحى Wothyhi، أو إن شئت فقل : "البقرة البرية" التى سبقت الإشارة إليه . وقد رأيت فى فترة لاحقة ذكرا وأنثى من إناث الوضيحى يعيشان فى بلدة حائل : والوضيحى نوع من أنواع الوعول ، واسمه العلمى Beatrix، وهو شبيه بالحيوانات الإفريقية الجميلة المثيلة . ويبدو أن الوضيحى ليس هو "الثور البرى" الذى ورد ذكره على لسان (سيدنا) موسى : ولكن أليس ذلك الوضيحى هو الذى يطلق عليه (باللغه العبرية) اسم 'الريم' reem، أو "وحيد القرن" unicorn الذى ورد ذكره عند مترجمى النص الإغريقى(**) من العهد القديم ؟ – وقرون 'الوضيحى' ، أو إن شئت فقل : 'الريم' أو 'وحيد القرن' تشبه العصى مستدقة الأطراف ، مثل ذلك الذى شاهدناه فى الصور عندما كنا أطفالا متمثلا فيما يسمى "قرون وحداء القرن ."

(*) اليحمور : حيوان لبون من فصيلة الأيليات ، وقد يقال له أيضا : أنثى الظبى الأحمر . (المترجم)
(**) النص الإغريقى من العهد القديم بما فى ذلك كتب العهد القديم التى لم تكتب أصلاً باللغة العبرية والتى لا يعول عليها اليهود . (المترجم)

ونحن نقرأ فى أمثال ، أو أقوال بلعام(*) Balaam إن "إل El أحضرهما من مصر ؛ وله قوة كما لو كان ريما ": reem وعندما بارك (سيدنا) موسى القبائل ، قال "قرون يوسف هما اثنان من قرون الريم" . وعند أيوب بصفة خاصة ، نرى الظروف القاسية لحيوان الفيلوكس Velox البرى . "هل سترغب الريم فى خدمتك – ألا تستطيع ربط أو تعليق الريم فى محراثك ؟" الوضيحى الجريح خطر عليك إذا ما اقتربت منه ؛ هذه الوعله ، تستطيع بمجرد انحراف بسيط لقرونها الحادة ، أن تخترق جسم الإنسان ؛ من هنا فإن الصيادين ينتظرون حتى اللحظة الأخيرة ثم يسارعون إلى الدخول لذبح الطريدة . كان الظلام الدامس قد خيم على المعرفة الطبيعية عندما عزا الناس قرنا واحداً لجبهه مزدوجه ! – ونحن نخطئ أكثر ، عندما نتزيد ، ونضع أجنحة للصور الوثنية للأرباب والملائكه ؛ وبذلك يتعين أن يكون لهم زوجين من الأطراف الأماميه ! والوضيحى لا يقع إلا فى أيدى الصيادين المهرة : وحيوانات الوضيحى تسير فى الصحراء القاحلة الخالية من الماء على شكل قطعان مكونة من ثلاثة أفراد أو خمسة أفراد .

فيما يتعلق بالهوام ، توجد أنواع كثيرة من الثعابين والحيَّات ؛ وهذه القبائل لا تأكل أى من هذه الهوام . والبدو عندهم ما يسمونه الجلامى Jelamy وهو عبارة عن سحلية صغيرة بنية اللون ، وهى من السحالى الصحراوية ، وهى تجفل من كل شيء . والعقارب تكمن تحت الأحجار والصخور الباردة ؛ وقد عثرت على تلك العقارب فى خيمتى فوق ملابسى ، ولكن لم يصبنى أى أذى منها . ولقد شاهدت كثيرا من الكبار والصغار الذين لدغتهم العقارب ، ولكن لدغة العقرب ليست خطيرة ؛ وهم يستدعون فى مثل هذه الحال ، واحدا من الحكماء "ليقرأ" على لدغة العقرب . والعضو المصاب يسرى فيه الخدر ويستمر يؤلم صاحبه إلى اليوم الثالث ، حيث يبدأ الورم فى الانحسار . كثيرة هى تلك المدن المدفونة تحت هذه الرمال الصحراوية ؛ هذه المدن خاصة بالنمل

(*) بلعام : واحد من حكماء اليهود الذين استهروا بالحكمة والأمثال فى القرن العاشر قبل الميلاد . (المراجع)

الذى يقوم بجمع الحبوب ؛ ولقد قمت بقياس شارع واحد من شوارع تلك المدن ، ووصل طوله إلى حوالى خمس وثمانين خطوة : ورحلة الصيف لهذه الأجسام الصغيرة الغارقه فى العمل تتمثل فى قطع هذه المسافة مره واحدة ، ثم العودة إلى المدينة مرة أخرى وهى مُحَمَّلة مثل الإبل .

وإلى جانب الحيوانات البرية ، توجد الضباع ، التى يطلق البدو الرُّحَّل عليها اسم الذُّبه thubba، بأعداد كبيرة ؛ ومن بعد الضباع يجىء النمر nimmr، وهو ما نسميه نحن الفهد leopard، وجسمه مرقط ببقع سوداء وبقع بنية اللون : والفهد ليس شائعا فى هذه البلاد ، وهو عبارة عن قط برى لا يزيد حجمه عن حجم الثعلب ؛ والفهد يجمع بين اللونين الأحمر والبنى ، وجلده مرقش . وذاكرة هؤلاء البدو تقول إن فهدا صغيرا أمكن تزبيته بين البشر Bishr (أى أهل قبيلة بشر) (من منطلق أن أفراد قبيلة بشر مشهورين بسرعة المشى) وأن صاحب ذلك الفهد كان يستعمله فى صيد الغزلان . والبلاد العربية كلها ، فى كل واحدة منها خرافة من نوع معين عن الآباء ، (وهذا أمر شائع أيضا وتماما بين النحل المسيحية الموجودة فى سوريا ،) ومفاد هذه الشائعة هو أنه عندما يمرض أحد الأطفال ، ببلادة الذهن ، أو عندما يكون اخوانه قد ماتوا قبله ، فإن أهل مثل هذا الطفل يطلقون عليه اسم حيوان برى متوحش (وبخاصة الذئب ، والفهد ، . الخ) – ظنا منهم أن هشاشتهم البشريه يمكن أن تكتسب طابع تلك الحيوانات . الصقور على اختلاف أنواعها يمكن رؤيتها فى كثير من الأحيان وهى تحوم فى سماء الصحراء ، وكذلك العقاب ، الذى هو عبارة عن نسر أسود صغير ، وكذلك الرَّخام er-rakham وهو نسر أبيض صغير ، يأكل الجيف ، من يرى هذين النوعين من النسور وهما يطيران فى الهواء يحسبهما نوعين من أنواع طائر النورس البحرى : لم أر النسور الكاسرة فى الجزيرة العربية ، ولم أر أيضا أى نوع آخر من النسور الكبيرة فى صحراء هذه البلاد (فيما عدا شبه جزيرة سيناء) . كانت تلك هى معظم الكائنات الحية ، وهناك أيضا قلة قليلة أخرى من هذه الحيوانات فى صحراء الجزيرة العربيةس الجرداء القاحلة .

الفصل الثانى عشر

السلام فى الصحراء

وصول مطلق – بشر العنزهى – الرولة والجلاس . شيخ تيماء . سقوط الحداج . الغزو إلى "العين" . أعظم غرازى البشر. الهجوم المضاد العظيم الذى قام به أولاد على. اجتماعهم فى الخلا . القادة الشباب يميلون إلى بعضهم البعض . انكسار ولاد على المؤلم . ورع الصحراء الذهبى . النفس بالنفس . ركائز "الجراد" . أكل الجراد . قد يرون جميعا كتاب الصور . كلاب البدو الرحل . الكلب السلوقى . إطلاق اسم "الكلاب" على اللصوص من البشر . صخب الأطفال المسائى . البدو العرب الرحل لا يستعملون الألعاب الرجالية . مناسبة الختان . الإغماء فى برية قفر جافة تتسلط عليها أشعة الشمس . قطاع الطريق . سرقوا جمالنا . كيف يمكن تعرف قطاع الطرق ؟ مصير إحدى القبائل البدوية . المطاردة . التعويض عن الماشية المسروقة من المساهمات والمشاركات العامة . قانون الصحراء ، فيما يتعلق بالماشية التى يغتصبها عدو . الغزو هو دمار الأعراب . الموتان (وباء المواشى) . مصير زيد . عودة الملاحقة . افتقار القبليين إلى الروح العامة . عودة مطلق من حائل . عطايا بن الرشيد . ضرائبه (زكاواته) . عودة الفكارة مرة ثانية إلى ديرتهم . الإردة . الإبل الهاربة تعود من مسافة ٣٥٠ ميل إلى وطنها مرة ثانية . غارة من المواهيب تشتت بعض إبلنا وتنقذها من اللصوص (الذين كانوا من بنى بشر) . رد بنى صخر . النزاع مع زيد . أم بدوية . مصالحة زيد . طريقة مهاجمة البدو للحج . "ساعة" البدو . زيد لا يوافق على تعلم ولده أحرف الغرباء . كثير من أسماء الكتب العربية والكلمات الدالة على البلاد والمدن غير معروفة للبدو الرحل . شراء جمل آخر . عمر الجمل .

ذات صباح ، عندما كان هناك جمع كبير يشرب القهوة فى خيمة زيد ، صاح أحد الحاضرين وهو يرفع فنجاله قائلا : "باهير ، !" بمعنى "انظروا هناك – من هو ذلك القادم علينا راكبا ؟" وهنا راح الجميع يشيرون بأيديهم ، ويركزون أنظارهم وعيونهم على ذلك القادم ، وسرعان ما جاء الرد : "أليسوا تجارا من تيماء ، أولئك الذين يجيئون إلى هنا لبيع القماش ؛ أم إنهم بعض من أولئك الذين يأتون إلى هنا لشراء الإبل ، أم إنه الشيخ الذى يركب دابته قاصدا حائل ؟" لم يكن لدى هؤلاء البدو دليل يؤكد لهم أننى أستطيع تمييز الأشياء عن بعد . صحيح أن العرب ، عندما يجلسون اليوم بطوله هى تلك الخيام المفتوحة إنما يسترعى انتباههم المشتت تحريك أى شىء فى سطح الصحراء المعروف لهم والمألوف لديهم أو حدوث أى أمر يكون غريبا عليهم . ولكن المعروف أن العرب "يعانون من أمراض العيون أكثر من أى شعب أو أمة أخرى . وإن هى إلا لحظات ، حتى تمكنت عيون الأعراب بعدها من اكتشاف أن القادمين كانوا بدواً ، وذلك من واقع طريقتهم فى ركوب الدواب ؛ ولكن قبل أن يشرف القادمون على النزول من فوق دوابهم ، تعرف الحاضرون عليهم ، وأنهم كانوا عبارة عن فردين اثنين هما : الشيخ مطلق ، شيخهم ومعه ولده ، وكان معهما قبلى واحدا آخر . من الواضح أن الشيخ مطلق كان قد بدأ تحركه من المخيم الآخر فى ساعة مبكرة من الصباح ؛ وكانت صحبتنا المكونة مما يقرب من خمسين شخصا قد هبت واقفة للترحيب بشيخ الشيوخ ؛ وبعدها انضم إلينا الشيخ مطلق بكل ود وترحاب وتواضع جم ؛ وتقدم كل واحد من الحاضرين إلى المكان الذى جلس فيه شيخ الشيوخ ليحيية تحية القريب لقريبه القادم بعد غياب طويل قائلا : "جوّاك gowwak يا Ya مطلق Motlog ،" بمعنى "قوّاك الله يا مطلق "وهنا جاء الرد : "الله Ullah جوّيك gowwîk" "بمعنى الله يقويك أنت أيضا :" وبعد أن يصل كل منهما إلى عنق الآخر ، يتباوسان من هذا الخد ومن ذاك . ويجرى بعد ذلك إفساح مكان لهما فى أعلى مواضع المجلس ، ليجلسا وهما يبتسمان ابتسامة سهلة ويسيرة ؛ وهنا يتضح أن شيخ الفكارة ، نبيل الأصل والمولد ، الذى تظهر على محياه بعض السمات الأنثوية يتفوق ، على حد تعبيرهم ، من حيث سلوكيات المجلس المقنعة ظاهريا وتدخل إلى قلوب الناس : ومع ذلك فإن قلوب هؤلاء الناس الآسيويين هى فى داخلها مليئة بالفساد ، والظلم . وهنا يبدأ تحميص البن من

جديد ، وطحنه وغليه لتصليح القهوة من جديد للحاضرين ، وهنا يقوم زيد ، بصفته المضيف ، بإحضار سلطانية مليئة بالتمر كى يتناولوا الفطور (الإفطار) ، (وهو هنا يقدم أفضل تمور تيماء ،) ، كما يحضر سلطانية أخرى فيها لبن خض (حامض) ، ولكن على شكل مقدار صغير :- ولعل سوء كرم حرفة هى وزيد ، كان هو السبب الرئيسى وراء عدم نزول أى أحد ضيفا على بيت زيد على مدار العام . ومن بين العادات الطيبة فى تلك الصحراء الجرداء ، تقديم شىء على وجه السرعة ، (مهما كان الوقت مبكرا أو متأخرا) للضيف الذى يصل إلى نهاية رحلته ، وينزل من فوق دابته . وافق الشيوخ على الانضمام إلى مخيماتنا إعتبارا من الرِّحلة التالية ، كما وافقوا أيضا على أننا يتعين علينا الدخول إلى مسافة أبعد فى أراضى قبيلة بشر Bishr .

معروف أن البشر يكونون قسما رئيسا من الأمة العنزية ، إضافة إلى أن بعض أفرعهم الكبيرة ، مثل ولاد Welad سليمان Sleyman فى نجد ، يمكن أن تطاول القبائل الكبيرة . وشيخ شيوخ البشر فى نجد ، هو ذلك الرجل المولع بالقتال الذى تعرفت عليه مؤخرا ، واسمه مسهل Misshel (تيمُّنا بحمايته لنفسه) العواجى el- Auájy ؛ وهو يحمل أيضا لقب شيخ القبائل السبع . وقد أوضح زيد لى نسب تلك القبائل على النحو التالى :

ولاد سليمان	W-Slaymán	الخُمشة	Khumsha
السويلمات	Sweylmat	السلّيمات	Sillimat
الجيافرة	Jiáfera	الحصينى	Hósenny
آل على	el-Aly	السباع	Sbá
الجضورة	Gathowra	الفدّان	Feddán
لصقور	S'goor	العمّارات	Ammarát
الشملان	Shemlan		

ظهر أن زيدا كان يربط رولة العنوز بالبشر Bishr . والرولة يسكنون بالقرب من النفود، أسفل الجوف ، وفى اتجاه الغرب ناحية سوريا ، وهم من البدو الخلص وسلوكياتهم غاية فى البساطة . ونسبهم يمتد إلى أعراب ابن مزيد Muzzeyed وأعراب الحصينى el-Hosenny ، وأعراب المُسَلِّخ el- Musellikh . وأعراب العنوز القدامى الذين يعرفون باسم الجلاَّس el-Jellas مندمجون منذ القدم مع الرولة ، وهناك واد من وديان خيبر يحمل اسم الجلاس ، من منطلق أن خيبر كانت من قبل ملكا لأعراب الجلاس ، ولكنهم هجروها وتخلوا عنها منذ زمن بعيد . وسلالة الجلاَّس النسبية هى على النحو التالى :

النُّصير ؛ النواصره	el-Nussîr;Noásera	درعان	Daraan
شعلان.	Shalân	أُنصير	Unseir
ربشان	Ribshan	البليس	Belais
السُّوَالمة	Sualma	بعدَوَر	B'dûr

الفروجُّة	Ferrujja	أعراب بن محجل ، شيخ الشاجير(*)
القواتشيبة	Koatcheba	أعراب بن جندال ، شيخ السُّوَالمة(**)
جعجع	Gaaja	أعراب بن أمجيد ، شيخ عبد الله Abdillah(***)
الدغمان	Dogmàn	الكليفات Kleyfàt

عندما توحد القسمان من جديد ونصبا خيامهما فى مكان واحد ، وصل إلى ذلك المكان شيخ من كبار شيوخ قرية تيماء هو عبد العزيز الرومان er-Romàn ، الذى كان يتجول راكبا دابته للبحث عند الأعراب عن إبل لاستعمالها فى آبار الماء . وكان الثمن

(*) Aarab Ibn Mahjil Sheykh el-Esshàjir

(**) Aarab Ibn Jindal Sheykh es- Suálma

(***) Aarab Ibn Umjeyd Sheykh Abdillah

المحدد لذلك هو ثلاثة أحمال إبلية من التمر أو حمل واحد من القمح ، أو إن شئت فقل: العيش Aysh ، للناقة الجيدة. ونزل الشيخ عبد العزيز الرومان عند خيمة الشيخ مطلق، وذهبت لحضور اجتماع القهوة ، كي أستمع إلى أخبار البلاد . رحب بى الشيخ مطلق ترحيبا طيبا ، ونادى الرجل : "أحضروا شِدَاد لخليل ." كان شيخ تيماء رجلا مهندما ، حلو المعشر ، ومقداما ، وكان من أنصار ابن الرشيد ، كما كان يقوم بجباية متحصلات الأمير من واحته ؛ وكان ذلك الشيخ أيضا قليل الحياء ، وحاقدا إلى أبعد الحدود ، فضلا عن كونه أيضا ، "مثل سائر التيامنة" ، وذلك من منظور البدو الرُحل ، جاهلا ، ويتمتع بنوع من الغباوة الشديدة والسذاجة الفطرية . فى تلك القرية التى تشبه القرية البدوية المترحلة، لم يتعلم الشيخ عبد العزيز الرومان القراءة والكتابة : كان الشيخ مطلق ، من بين كل البدو ، صديقا للشيخ عبد العزيز منذ أيام الصبا . وأثناء جلوسنا تحول الشيخ عبد العزيز ناحيتى فجأة وطلب منى أن أخبره "عما أفعله فى هذه الصحراء القاحلة ، ولماذا نفيت نفسى من كل مباهج الدنيا" ، (أو بالأحرى من الظل فى النهار ، ومن الخبز والتمر المضمونين ، ومن الماء الكافى ، ومن المسكن المستقر) . أجبته : "أنا أتمتع بالهواء ." – "إذ كان ذلك هو كل ما فى الأمر، فبوسعك أيضا شم ذلك الهواء أيضا فوق قمة جبل إرنان الموجود فى الخلف ." وهنا همس أحد رفاق الشيخ عبد العزيز الرومان فى أذنه ، على نحو سمعت معه ذلك الذى كان يقوله : "أليس هذا الرجل يهوديا ؟" – "يهودى ، هذا لاشك فيه (أجابه عبد العزيز) ، أو قد يكون ذلك النصرانى الذى حدثونى عنه ، والفارق بين الاثنين يتمثل فى الاسم فقط ." وهنا بدا على ذلك الرفيق كما لو كان قد شاهد أو رأى شيطانا ، وبدت على وجهه الدهشة وهو يقول :"رُحماك يا الله ! وهذا – إخس ! (بمعنى "قبَّحه الله") – يهودى ؟ الله يلعن الكفار كلهم ." كان عبد العزيز عندما عدت إلى تيماء مرة ثانية ، قد اكتسى تأدبا جديدا ، لإنه كان قد بلغه أن ذلك الغريب قال عنه ، على الملأ ، إنه "حمار جاهل ، وأنه شيخ لكل يهود تيماء :" والسبب فى ذلك هو أن العرب الذين يطمعون فى المديح والثناء ، يكونون رقيقين رقة النساء المغرورات بآراء الرجال . جاءوا إلينا بأخبار كارثة حدثت لهم فى تيماء ، مفادها هو انهيار الحدَّاج (بئر الماء) ! إلا أن عبد العزيز

الرومان كان فرحا بما حدث نظرا لأن سوانيه(*) الاثنان أو الثلاثة ، وكذلك الجانب المخصص للسوق Sûk الخاص به لم ينهار ، بل ظل على ما كان عليه ؛ هذا يعنى أن الخسارة لم تكن من نصيب حزبه .

استمع البدو الأوغاد إلى ذلك الحادث الذى وقع للتيامنة ولم يتحرك فيهم ساكن ، هؤلاء التجار الذين يتجرون فى التمور والقمح، والذين يخادعون ويضللون ، ينظر أولئك البدو إليهم ، على إنهم أصحاب مكر ودهاء. فقد علمنا ، من بعض الناس الذين وصلوا مؤخرا قادمين من تيماء ، أن أهل هذه القرية ومتشدديها وضعوا مسئولية كل ذلك الذى حدث ، على النصرانى . وذلك أن "الحداج (بئر الماء) لم ينهار بعد أيام قلائل فقط من وجودى فى تيماء ، وبالتالى أكون أنا الذى أطحت بذلك البئر بفعل عينى الحاسدة!" ولكن المغالين فى تشددهم من بين أهل القرية قالوا : "إن البئر لم ينهار إلا بإذن الله (سبحانه وتعالى)" وهنا طرحت السؤال التالى على واحد من أهل هذا البلد الطيبين : "كيف لى أن أطيح ببئركم ؟" ورد على الرجل : "يا خليل ، انا أظن أن هذا ليس من صنعك ؛ (ثم أردف قائلا ،) أظن أن الذى فعل ذلك هو ابن الرشيد !" كان الأمير ، هو وأتباعه (الذين يقدرون بحوالى ثلاثمائة رجل تقريبا) ، عند عودتهم من الغزو الذى قاموا به على ولاد على ، قد نصبوا خيامهم خارج أسوار تيماء ، مدة يوم أو يومين ، ثم أردف الرجل قائلا: "كان جميع هؤلاء الأتباع مثل الرمل ، أُفٍّ !" – "ترى ، هل كانت تحركات السقائين حول البئر هى التى أدت إلى انهياره ؟" – "ليس ذلك ، وإنما هى العين !" ومعروف أن عين الحسود إنما هى تشكل قسما من الخرافات عند الساميين . معروف أن العين هى حبيبة الجسم وعزيزته ، والعين هى نافذة الروح ، والساميون يتخيلون أن تأثيرها السيئ ينبعث بناء على ذلك . واعتبارا من ذلك اليوم ، راح البدو المتشددون ينظرون إلىَّ باعتبارى مصدراً للخطر ، أو إن شئت فقل : "عدو الله" .

فى إحدى الأمسيات ، دخل إلى مخيمنا غزو رئيسى قوامه ثمانين رجلا من قبيلة البشر ، كانوا قد ركبوا إبلهم وجاءوا ليشنوا ، أو يطبقوا على ولاد على أعدائهم ؛ أمضت قوة ذلك الغزو الليل ضيوفا على الفكارة داخل ديرتهم . رحب الفكارة بالغزاة

(*) السوانى : آلات سحب المياه من البئر . (المراجع)

ترحيبا حارا ، واستمعوا من الفكارة ، بعد تناول العشاء ، آخر النصائح المتعلقة بأولاد على الذين كانوا يخيمون حول آبار المجيرة Mogeyra، أى على بعد حوالى ثمانين ميلا من المخيم الذى نحن فيه ، وعلى طريق الحج ، وعلى بعد مسافة رحلةٍ واحدةٍ أسفل قرية الحجر ، سألت زيدًا : "ألن يرسلوا فى تلك الليلة إنذارا إلى أبناء عمومتهم فى القبيلة الشقيقة ؟ أجابنى : "ها ، لا بالطبع ! ولكن لعلهم كلهم يموتون ، فهذا سيكون لصالحنا ." وبعد ذلك ببضعة أشهر ، وعندما كنت مع بعض الرجال من ولاد على ، سمعتهم وهم ينتقدون ذلك الحقد الشديد من جانب الفكارة ، ومع ذلك كانوا هم أنفسهم مليئين بذلك الحقد أيضا ، هذا الحقد الخائن هو فى حقيقة الأمر ، شىء طبيعى بين البدو ، هذه الأمة العنزية ، التى تنتمى إليها كل هذه القبائل ، والتى تعد أهم عشيرة بين عشائر شبه الجزيرة العربية ، تتحدث عنها الأمثال : "زاد الله أعداد العنوز ، ولكنة كتب عليهم الانقسام والتفكك فيما بينهم ؛" ولم يحدث فى أى وقت من الأوقات أن بعض العنوز لم يتحولوا إلى "جوم" Gôm(*) ، أو إن شئت فقل "لصوص أعداء" ، أو أى شكل آخر من أشكال الالنقسام والتفتت . والعنوز يقارنهم بعض الناس ببنى إسرائيل ، وهم فى ذلك بينهم وبين بنى إسرائيل شبه كبير . كان المقر الرئيسى لهذه الأمة ، أو إن شئت فقل : الشعب (العنوز) ، خلال العصور الإسلامية الأولى ، وهذا نقلا عن موروثهم ، فى الديرة التى تقع فى نطاق شمالى المدينة (المنورة) ، التى هى حاليا ديرة ولاد على . ثم قام العنوز بعد ذلك بغزو خيبر وهزيمتها ، وبذلك أصبحت وديان النخيل اليافع ، فى ذلك المكان ، ملكا لهم منذ ذلك التاريخ .

ومن باب المصادفة الغريبة أن البشر Bishr عندما جهزوا للقيام بغزو رئيسى على ولاد على ، كان ولاد على أنفسهم قد أرسلوا بالفعل غزوا رئيسيا ليطبق على البشر Bishr . هاتان القوتان العدوتان تقابلتا، فى مغامرة جديدة ، فى تلك الصحراء القاحلة، وهنا أصبح على أرض المعركة حوالى مائة جمَّال . كان منظرا مشهودًا ، وهم يرددون أغنية ، وهم ينحنون فوق (سروج) إبلهم فى اتجاه أعناق دوابهم التى كانت تسرع الخطى ، ويحملون معهم أسلحة لامعة . وعندما تبدى لهم العدو وأصبح فى مرمى

(*) "جوم" بمعنى "قوم" أى "أعداء" (المترجم)

البصر ، ينزل الشيوخ ومعهم الحراب الطويلة ليركبوا خيولهم ؛ وهنا يقوم الرديف (*) بركوب الجمل بدلا من الشيخ ؛ ومعروف أن هذا الرديف هو حامل بندقية الشيخ . هؤلاء الجمَّالة ، وهم ركوب على تلك الإبل التى تماثل الأغنام فى بطئها ، إذا ما قارناهم بالعدد القليل من الخيالة ، يمكن تشبيههم بجماعة ثقيلة من المشاة الذين يتسلحون بالبنادق الفتيلية . الخيال البدوى الذى يركب حصانه فوق عرَّاقة وبلا ركاب ، لا يستطيع حمل أسلحة نارية ثقيلة وطويلة فى ذات الوقت ، نظرا لأنه سيعجز عن إعادة تعمير (ملئ) مثل هذا السلاح . وقلة قليلة من بين هؤلاء الشيوخ الجنوبيين هم الذين لديهم مسدسات خيالة ، التى تخلى الناس عنها منذ زمن بعيد ، وتمكنوا من شرائها من أوروبا . وكل آمال هؤلاء تتعلق بالرمح الذى يطلقونه عليه اسم "الشلَّفة" Shelfa ، التى تعنى "حربة البدوى" : ونصل الرمح يصنعه هؤلاء البدو من البوص الذى يجلبونه من أنهار بلاد الرافدين ، ويصل طول ساق أو نصل ذلك الرمح إلى ضعف طول الحصان الذى يركبه الخيال البدوى ؛ وهم يطعنون بتلك الحراب وهم يضعونها فوق رءوسهم . والعقيد Agid أو إن شئت فقل : شيخ منصر أو قائد ولاد على ، كان بلا لحية ، وشابا غرًّا صغيرا اسمه فهد ، وهو ولد شيخهم الكبير ، وكان عسكر قائداً للقسم الآخر ، وهو ولد مشهل Misshel ، ذلك الشيخ الكبير سالف الذكر : هذان القائدان العنزيان المتخاصمان ، كانا ابنين لأختين . هجم فهد هجوما سافرا على ولد خالته عسكر وأصابه بحربته، ولكن عندما حملة رجاله فوق أيديهم القوية ، كان ما يزال حيا . وعلى أثر ذلك، أصيب ولاد على الظافرين الواثقين داخل خيامهم، برعب شديد فى ميدان القتال، وذلك فى وجود العواجى ، المحب للحروب والقتال ، ومعروف أن العواجى هو أكبر عظمة وأشد الناس عناداً بين بدو هذه البلاد ؛ من هنا كان ولاد على يتطلعون إلى أن يكون كل من هذين الرجلين منتقما لذلك الدم الذى أهدر أو إن شئت فقل: أريق أمام خيبر. صاح الجميع بعد ذلك أنهم إخوان! وعلى ذلك فإن ولاد على الذين بلغ عددهم مائة وعشرين مقاتلا راكبا يحملون أسلحة فى أيديهم استسلموا لثمانين مقاتل من أسود قبيلة بشر ؛ وراح كل واحد من المهزومين ينادى غازيه متوسلا له وهو يقول :

(*) الرديف : من يركب خلف الراكب الأساسى للدابة (المترجم)

"أخى ، يا أخى" ، خـذ جملى ، وهذا هو سـلاحى أيضا ، بل وهذه عباءتى (بشتى) ؛ خذ كل شىء وأحفظ علىّ حياتى." ولم يهرب من ولاد على فى ذلك اليوم سوى قلة قليلة من شيوخهم ، الذين كانوا من بين الخيالة واستطاعوا الهرب على ظهور أفراسهم . ولم يهرب من الجمّالة سوى ثلاثة رجال أشداء ، وهم من متسلقى الجبال أيضا ؛ هؤلاء الثلاثة كانوا : من الموهاهيب Moahîb ، الذين انضموا إليهم على أمل إقتسام الغنائم معهم . – وقبل انتهاء العام ، جرى على أيدى هؤلاء البشر أنفسهم ، تجريد الموهاهيب تماما ، وخلال يوم واحد ، من كل ماشيتهم . كان كل الشيوخ الذين كانوا أطرافا فى هذه المعركة من بين معارفى فى يوم من الأيام ؛ وبالتالى تيسر الوقوف على هذه الحكاية وأنا بينهم .

آوى البشْرُ دخلاءهم Dakhils فى ديارهم ، ومع ذلك ، فإن تذكر البشر للثأر والانتقام ، لم يدفعهم إلى نصب مجزرة لأهلهم وأقاربهم ؛ إضافة إلى أن أعراب الجنوب لم يكن من عادتهم أخذ حياوات البشر على سبيل الفدية ، ولهذا تركوا أعداءهم يعودون إلى ديارهم وزوجاتهم عراة ، سائرين على أقدامهم . يضاف إلى ذلك ، أن الضمير العربى لا يسمح أو يرضى بمحو قبيلة من القبائل . بعض القبائل المجاورة ، مثل الفجير وبنى عطية هم من قديم الأزل ، غلاظ قساة ، ولم يحدث مطلقا فى يوم من الأيام أن نشبت أية معركة عامة بين هذه القبائل ، وراحوا يفرغون فيها تلك العداوات القديمة بأن قامت بتدمير واحدة من تلك القبائل أو القضاء عليها . زد على ذلك أن ضغائن البدو وأحقادهم القديمة ، تكون أقل ، فى الأغلب الأعم ، من ذلك التدين الذهبى الذى تتميز به هذه الصحراء الجرداء . والخطر عندما يزول ، يجعل هؤلاء البدو يشفقون على أعدائهم المهزومين ؛ وتعتمل فى داخلهم فى مثل هذه الظروف شفقة السلالة النسبية العامة التى تجمع بينهم . والرجال عندما يسقطون جرحى فى معركة من المعارك ، فإن الأعداء الذين تكون لهم اليد العليا فى معظم الأحيان ، ينقلون أولئك الجرحى إلى منطقة المؤخرة ، ويحملونهم إلى مُنزَلهم : بل إنهم يتولون تغذية هؤلاء الجرحى إلى أن يتعافوا من جديد؛ وعندها يعطون ذلك الجريح الذى تعافى ، قربة ماء ، ويقولون له "روح" بمعنى "إذهب لحال سبيلك" ، دون أن يطلبوا منه أن يقطع على نفسه وعدًا من الوعود ، واثقين أن الله سيهئ لهم المعاملة نفسها إذا ما ألمت بهم شدّة

أو ملمة . ولكن البشر اقتادوا فهداً Fahd معهم ، نظرا لأنهم لابد أن يحققوا معه فى وفاة عسكر Askar : وإذا ما ثبت أنه مات بفعل يدى فهد ، فسوف يموت فهد مقابل ذلك ، اللهم إلا إذا أعرب أقرب أقارب عسكر عن رغبته فى قبول الدِّيَّة ؛ ومع ذلك سوف يجرى الترحيب به والتسرية عنه فى خيام أعدائه . ويبدأ عسكر فى التعافى ببطئ ، خلال الشهور التى تلت ذلك . تساءلت متعجبا : "يا لهؤلاء الجزَّارين من ولاد على ، عندما عادوا إلى ديارهم ، وقد نزع عنهم صوفهم ، مثل الأغنام ! ويا لتلك الرقصات والزغاريد التى استقبلهم بها الحريم !" وردوا علىّ قائلين: "صدقت والله ، لقد استحقوا احتقار النساء !" وتساءلت : "ولكن كيف يستسلم مائة وعشرين رجلا لعدد أقل منهم؟" أجابونى : "أليسوا من ولاد على ؟ وتلك هى طريقتهم ." إنهم ليسوا محاربين بمعنى الكلمة ، ولكن الفجير، القبيلة الشقيقة ، لم يحدث قط أن ازدراهم أو احتقرهم أعداءهم، الذين يتمثلون فى تلك القبائل القوية التى تعيش فى المنطقة الواقعة خلفهم ، أو إن شئت فقل : بنى عطية ، والحويطات ، والبلِّى (البلوى) والجهاينة .

هبت علينا سحب الجيل الثانى من جحافل الجراد التى يطلق الأعراب عليها اسم "عمدان" Am'dàn بمعنى "عُمُدٌ" Pillars [وتلك هى الكلمة التى نقرأها فى سفر الخروج – "عمود" Ammud من السحاب والنار] وهى تطن وتهفهف فى أشعة الشمس ، طوال أيام عدة ؛ وكانت تلك الجحافل كثيفة مثل المطر ، ويطير البعض منها بالقرب من الأرض أو على ارتفاعات كبيرة فى الجو . والجراد يهبط على الأرض مثل الطيور ، بأن يجعل سيقانه الطويلة تلامس الأرض ، غزت أسراب الجراد الخيام ، وبسبب جوعها الشديد كانت تعض أذقاننا ونحن نشرب القهوة ، هذا الجراد يولد وهو قادر على الحركة البطيئة مثلما ورد فى المزامير : "أنا أترنح نحو الأعلى ونحو الأسفل مثل الجرادة ." كان البعض من ذلك الجراد يتساقط ، فى كل لحظة ، فوق الأرض ، ويصطدم بالأحجار . وبعد ذلك شاهدنا تلك الجحافل وهى تتجة صوب الجنوب : ونظرا لأن الأعراب كانوا يعرفون أن تلك الجحافل لابد أن تلتهم خيبر ، الأمر الذى سيؤدى إلى ضياع محصول التمر ، فقد تقدموا وراحوا يلاحقون أسراب الجراد غير مبالين بها ؛ وجلسوا وهم يتأوهون ! تاركين أمرهم لله (سبحانه وتعالى) ، الذى يقولون عنه إنه "مُنْعم" . والأعراب فى معظم الأحيان ، يضحكون من الأحداث التى كون من هذا

القبيل ، وهم هنا يضحكون من آمالهم التى حطمت ، ولكن نوعا من الحزن الربانى يسيطر على قلوبهم فى مثل هذه الظروف . والأطفال يقومون بإحضار الجراد الذى يجمعونه معلق على غصن من الأغصان ، ويشويه البدو على نار الفحم ؛ ثم يفصلون عن الجراد أطرافه بعد الشوى ، ثم يقطفون الرأس ، وتصبح الحشرة بعد ذلك طعاما جيداً لهم ؛ ولكن أكل الجراد لا يكون من بين أسراب الجراد التى تولد فى ظل أو فى زمن جفاف العشب . قام شاب من الحاضرين حول النار ، بفتح بطن أول جرادة مشوية لتسقط منها دودة ، قذفها بعيدا عنه ونفسه تعافها ؛ وصاح الشاب قائلا : "إخص ! Akhs . وأنا أقسم ، أن تلك الدودة حرمت عليه أكل الجراد بعد ذلك ." ومع ذلك خرجت النساء لجمع الجراد ، تلك النسوة كن من أسر فقيرة . وهنا طلب منى المشاركون فى شرب القهوة :"تأكلون الجراد فى بلادكم ، يا خليل ، خبرنا ، هل الجراد سليم صحيا ؟" (نحن نقرأ عن لفيتوكس Leviticus (*) إن أطفال يعقوب قد يأكلون أنواع الجراد .) وسكان الجزيرة العربية ، يرون أن جحافل الجراد تهب عليهم مرة كل سبع سنوات .– وقد راح الأعراب يذكرون ذلك العام بأسراب الجراد وحرارة الصيف الشديدة . هذه الحشرة الذكر صفراء اللون ، فيها بقع بنية اللون أيضا ، وأنثى الجراد تكون أكبر من الذكر ويميل لونها إلى اللون الرصاصى . وأجنحة الجراد منقطة ، أو إن شئت فقل : مُرَقَّشة ، وزوج الأجنحة الداخلى عريض ومطوى إلى الأسفل ، ويصل طول الجرادة إلى نهاية الجناح المغلق إلى ما يقرب من ثلاث بوصات . والبدو يقولون : "إن العين ليست هى التى تظهر فى الرأس ، ولكن العين هى تلك البقعة الصافية الموجودة تحت الرجلين القصيرتين الأوليين ." تناولت القلم ورسمت كروكيا للجرادة ، ثم رسمت على الصفحة التالية صورة تخطيطية لأبى زيد : وجاء العرب كلهم ليروا هاتين الصورتين . قال البسطاء الذين كانوا يحملقون فى الصورتين : "هذا حسن جداً ، يا خليل . انظروا ، عجبا ! هذه صورته بالضبط ، لا فرق بين الأصل والصورة !" بل وراح واحد منهم يتحسس بأصبعه خطوط الجرادة ، ليرى إن كانت تقف بالفعل على تلك الورقة الناعمة ، وأردف الرجل قائلا : "ويطير أيضا" بمعنى "أن هذه الجرادة

(*) لفيتوكس : هو المعروف فى العهد القديم بسفر اللاويين . (المراجع)

سوف تنط وتطير !" وابتداء من تلك اللحظة كان شاربو القهوة يأتون إلى منزل زيد ، ويسألون عن خليل . "ويجعلونه يطلعهم على صورة أبى زيد وعلى كراسة صوره :" كانت تلك مجرد إشارات قليلة فى كتابى الطبى . كما تعجبوا أيضا عندما نظروا من خلال : تلسكوبى ، الذى رأوا من خلاله الجمل الذى يرعى على بعد مسافة ميل ، وكأنه أمام أعينهم . وبالرغم من ذلك ، ونظرا لأن ذلك التلسكوب كان فوق مستوى عقولهم ، فلم يثر لديهم شيئا من الفضول ، يضاف إلى ذلك أن أقوياء البصر بين هؤلاء الأعراب" الذين كانت حدة بصرهم تصل إلى حدة بصر الصقور ، لم يعيروا كل صنوف غسول الوجه أى شىء من اهتمامهم ؛ والسبب فى ذلك أن هذه الصحراء الواسعة الشاسعة هى التى تفيدهم فى زيادة حدة بصرهم .

فى تلك الأيام ، كانت كلاب الصيد المهزولة وحدها هى التى تلتهم الجراد فى سائر أرجاء المنازل المختلفة ، هذه الكلاب كانت مفعمة بالسعادة والمرح ، وراحت تتجول فى سائر أنحاء المخيم ، ولم تعد تلق بالا للأعراب ، إذ راحت فى نوم عميق بعد أن امتلأت بطونها . والبدو الرحل يقولون : إن كلابهم "تعض الذئاب :" وأن هذه الكلاب تظل صاحية طول الليل بينما يكون البدو نائمين . والكلاب "آكلة لحوم الذئاب" بين بدو الفجير ليست بالكثيرة ، وهؤلاء الفجير أهل "ديرة تربى الإبل" ؛ وهذه الكلاب التى تأكل الذئاب ، تشبه إلى حد كبير ، الكلاب الضالة فى سوريا . وأفضل الكلاب التى شاهدتها ، كانت تلك الكلاب الضخمة التى شاهدتها مع بدو البلّى ، فى منطقة تهامة . والكلاب الشائعة بين البدو، يميل لونها إلى الاصفرار، وتشبه الثعلب من حيث الشكل ؛ وهذه الكلاب شبيهة بالغالبية العظمى من نوعية الكلاب الموجودة فى معظم مناطق البرارى الموجودة فى كل أنحاء العالم . بعض البدو ، وهم قلة قليلة ، هم الذين لديهم كلاب سلوقية(*) ، تستعر جوعا ، وشديدة السرعة أثناء مطاردتها للأرانب البرية ؛ بل إنهم يطاردون حيوان الغزال باستعمال هذه الكلاب . والكلاب العادية ، التى فى كل

(*) الكلاب السلوقية : تنسب هذه الكلاب إلى قرية سلوق فى اليمن ، وهى من سلالة أصيلة وتتميز بسرعة المطاردة ، ولا يجد البدو غضاضة فى الاحتفاظ بها فى خيامهم وذلك على عكس الكلاب العادية التى يعاملونها معاملة سيئة . (المراجع)

قرية من قرى البدو (إذ إن هذه الكلاب لا تصاحب قطعان الماشية أثناء الرعى) ، تميل إلى أكل الجيف والرمم ، فى القبائل التى لا يكون لدى ربات البيوت ما يقدمنه لتلك الكلاب ، التى لا تحصل فى أوقات الجوع الشديد سوى على شىء قليل من الماء : وبذلك يصعب القول أو الحديث من مدى القذارة التى تعيش فيها تلك الكلاب ، هذه الكلاب لا تستحم سوى مرة واحدة على امتداد العام بكامله : وأيام استحمام تلك الكلاب تكون أثناء موسم حصاد محصول التمر فى بلدة خيبر ، حيث تزيد كميات التمر عن احتياجات هؤلاء البدو ، وبالتالى فهم يقدمون تلك الزيادة للإبل وللحمير ، كما يلقون كمية كبيرة من التمر أيضا للكلاب .

هذه الكلاب لا تلقى مطلقا من الأعراب كلمة طيبة أو معاملة طيبة . بل إن حياة هذه الكلاب هى الحياة الوحيدة التعيسة فى ديار الأعراب ، الذين يركلون تلك الكلاب ويضربونها ليطردونها من بيوتهم باعتبارها حيوانات أو مخلوقات نجسة ، والأعراب لا يلمسون تلك الكلاب بأيديهم (فيما عدا الجروان (صغار الكلاب) الصغيرة التى لم يجرى فطامها بعد) . ولو قدر لكلب من تلك الكلاب أن يكون لصا منزليا ، بمعنى أنه يسطو على طعام البشر ، فإن البدو يطاردونه بالعصى والصياح ، ويضربونه ضربا مبرحًا ؛ والرجال فى مثل هذه الظروف يقسمون قسما مغلظا بأنهم سوف "يقتلون ذلك الحيوان ، لأنه يستحق القتل" . هذا التصرف يجعل ذلك المخلوق المتطفل غير واثق بنفسه فى تلك الديار ، كما لا يثق كثيرا بسادته : والبدو لا يسمحون إلا للكلب السلوقى فقط بالبقاء داخل الخيمة ، باعتبار أنه من سلالة أصيلة . والكلاب عند البدو تحرس اليوم بطوله كل أفراد المنازل التى تعيش فيها تلك الكلاب ، هذا يعنى أن تلك الكلاب إنما تحرس أهلها Ahlahu على حد تعبير البدو أنفسهم . والكلاب تسير فى ركاب الرِّحلة ، وتكون بصحبة الماشية التى تحمل المتاع ومن فوقها السيدَّات ؛ هذه الكلاب تسير بخطوات شبه معقولة فى الظل الناتج عن الجمال المتحركة : وهى تسير وهى تتألم من الحرارة ومن الرمل شديد الحرارة من تحت مخالبها ، وهى تحاول العثور على ملجأ لها تحت دغل من الأدغال أو صخرة من الصخور ، كى تلجأ إليها تلك الكلاب حيث تلهث فى ظلها فترة قصيرة ، ثم تستأنف مسيرها . وعندما ينزل البدو عن مواشيهم فى المكان المخصص لذلك ، ترى تلك الكلاب (عندما يصيبها

النصب فى القبائل التى تربى الأغنام) تبادر عقب رفع قماش الخيام إلى الدلوف إلى الظل ، وتروح تكسح الرمل الحار ، وتحفر بعد ذلك بمخالبها أسفل الرمل الساخن بغية الوصول إلى التربة الباردة الموجودة أسفل ذلك الرمل الساخن . والبدو ينادون على الكلب الذى يتوه أو يضل طريقه داخل المَنْزل ، ويروح يجرى وسط الخيام القريبة ، ينادية أصحابه بقولهم "أهلك Ahl-lak، أهلك ! Aha-lak" بمعنى "سر" ، إلى المكان الذى يوجد فيه أصحابك !" يضاف إلى ذلك ، أن كلاب البدو عالية النباح ، التى تتعقب القادمين الجدد (الغرباء) هى بمثابة الشرطة داخل مخيم البدو الرحل . وقلة قليلة من هذه الكلاب هى التى تخاطر باختطاف الأشياء مستعملة فى ذلك أسنانها ، والرجل من البدو ، قد يأتى وهو يحمل مشعابه خلف ظهره ، ويقوم أهل الدار بإبعاد الكلاب عنه . أما إذا كان الحريم هن وحدهن فى البيت ، وبخاصة عند الزيارة بدون موعد سابق ، فإن الغريب يتعين عليه إبعاد تلك الكلاب باستعمال الأحجار التى يلقيها عليها . وهنا قد تصيح واحدة من الحريم قائلة : "أوه ! أوه ! لماذا ترمى كلبنا بالحجارة ؟" ويرد عليها القادم الغريب قائلا : "لولا ذلك ، لأكلنى ذلك اللعين ." – "ولكن ، يا أنت ، لا ترمه بالحجارة مرة ثانية ." – "إذن إستدعى الكلب إلى داخل الخيمة أيتها المرأة الحمقاء ، وأفعلى ذلك بسرعة ، وإلا سوف أقتله بهذه الكتلة من الحجر ." – "آخ منى ! لا تفعل ذلك ، هذا الكلب يأكل الذئب ، إنه يراقب الأعداء ، وهو حامى بيتنا وحامى غنمنا ؛ أرجوك لا تلقى عليه أو ترميه بحجر ثان ." – "أيتها المرأة المجنونة ، قبل أن يعضنى ، سوف أكسر كل عظامه داخل لحمه ، ولعن الله لسانك ! فأنت بوسعك أن تبعديه عنى !" فى مثل هذا الحال كنت أوفر الحجارة ولا أحتاج إليها ، ولكن الزوجة السخيفة كانت تحس أنها أصابها شىء من الأذى ، ولكن الرجال كانوا يردون على ذلك الغريب قائلين : "هذا طيب تماما ." والحريم ، اللاتى لا يعول عليهن كثيرا ، تكون أسبابهن واهية ، كما إنهن يشبهن الأطفال فى إحساسسهن بالشرف ؛ لذا هناك بعض الخيام ، التى يتعين على الضيف الذى يمر عليها أن لا يثق كثيرا بالنساء الموجودات فى تلك الخيام ، أو حتى أطفال هذه الخيام .

كلاب البدو الشرسة تسطو على كل ما يمكن أن تعثر عليه خارج الخيمة ، حتى وإن كان ذلك من قبيل الأمتعة (وبخاصة عندما تترك هذه الأشياء خارج الخيمة)

الخاصة بالضيوف الغرباء : إذ تقوم تلك الكلاب بتقطيع كل شيء مستخدمة فى ذلك أسنانها وأنيابها الحادة وكذلك مخالبها الحادة أيضا ؛ من هنا تصبح مسألة جمل متاع الضيوف إلى داخل الخيمة عملا محموداً من أعمال الخير . والرجال الذين يسرقون مؤن الآخرين وطعامهم ، ينعتهم البدو بأنهم "كلاب" . نادتنى حرفة فى صباح يوم من الأيام ، وهى تقف أمام خيمتى قائلة : "أين أنت ، يا خليل ؟ أنا سوف أغادر منزلى ، فهل لك أن تحرسه لحين عودتى ؟" – "إلى أين ستذهب مضيفتى اليوم ؟" – "أنا ذاهبة لشراء بعض الخيوط : يا خليل ، افتح عينيك وكن يقظا ، وأحرص على أن لا يدخل كلب بيتى ." وعندما عادت حرفة بعد ذلك بساعات عدة ، حضرت إلىّ لتعنفنى وتؤنبنى ، قائلة : "ها ! يا خليل يا مهمل ، لقد دخلت الكلاب بيتى ! فلماذا لم تحافظ على البيت ؟ ألم أطلب منك ذلك ؟" – "لقد حرست البيت من أجل عيونك ، يا حرفة ، طوال الوقت ، وأنا أحلف بحياتك على ذلك ! لقد كنت أجلس أمام الخيمة فى الشمس ، ولم تدخل حتى ولو شعرة من شعر الكلب إلى داخل الخيمة ." – "وا ، أسفاه ! خليل لا يفهم أن "الكلاب" رجال ؛ خبرنى يا خليل ، من الذى جاء إلى هنا أثناء غيابى ؟" – "جاء إلى هنا رجلان ، وعندما رأيتهما يأويان إلى خيمتك ، ظننت أنهما من أقاربك أو من معارفك ؛ هل يعقل أن يقوم قبلى بسرقة بيت قبلى آخر ؟" – "ولكن هذان الرجلان ، سرقا زمبيلا من التمر ، وهذا هو خطؤك أنت ." بعض العامة من البدو ينعدم ضميرهم ويسرقون الطعام (فقط) ؛ من منظور أن الطعام مشاع للجميع ، أو هو من خير الله .

ليالى الصيف البهيجة تبدأ اعتبارا من غروب الشمس وتمتاز بأنها تكون براداً فى تلك الأراضى الجافة المرتفعة . والرجال بعد تناول العشاء ، يتجولون طلباً للحديث مع جيرانهم ، إذ يبحث شاربو القهوة عن فنجان المساء : وتستمر دردشة الأعراب ، فى مجلس تناول القهوة ، إلى منتصف الليل . وفى أغلب الأحيان ، يكون الراعى هو الشخص الوحيد الذى يبقى فى منزلنا ، الذى يظل مستيقظا مع أغنيتة الجافة التى يغنيها على وتر الرباب النشاز .

فى بعض الليالى المقمرة كان الأطفال يسارعون إلينا : إذ يتجمع البنون والبنات قادمين من بيوت الأمهات ، ويروحون يقفزون فوق الرمل ليمارسوا ألعابهم بالقرب من

الخيول ، إلى ان يهتدوا إلى الطريق الذى يمكنهم من تسلق تلة من التلال أو صخرة من الصخور . وهذه جوقة من البنات الكبيرات يتجمعن هنا ، ويرحن يغنين وهن يصفقن بأيديهن مرددات القرار نفسه الذى يرددنه دوما فى كل وقت وحين ، والذى يتمثل فى مقطوعة شعرية واحدة . والصبية الصغار يتجردون من ملابسهم ، ويلقون غترهم (أغطية الرأس) أرضا ، أو ربما يكونون قد تركوها فى منازل أمهاتهم ، ويروحون يجرون وهم عراة فى الخلاء ، ولا يتبقى على هؤلاء الصبية من الملابس سوى "الهجو" Haggu (السروال) الذى يلفة كل واحد منهم حول خصره النحيل ، وهذا الهجو عبارة عن شريط مُضَفَّر من الجلد ، الذى يرتدية ، ولا يتركه مطلقا أهل الجزيرة العربية الحقيقيين سواء أكانوا رجالا أو نساء . كل ولد حصان يختار لنفسة فرسًا Faras ، أو إن شئت فقل : مُهْرةً ؛ ثم يروحون يتجولون وهم متشابكى الأيدى ، ويصلون إلى مسافات بعيدة وهم يقفزون زوجا بعد الآخر ، كما لو كانوا يلاحقون بعضهم بعضا فى الخلاء فى ضوء القمر ، هذا الصبى الحصان يرفس تلك الخيول ، التى تلاحقة بسرعة ، ويهرب منها وهو يصهل . هذه اللعبة التى يزجى بها أبناء الأعراب وقت فراغهم ، التى تخصهم هم أنفسهم دون غيرهم ، لا يتولد عنها أى شكل من أشكال الصراع ، كما أنها لا تنطوى على أى شىء من الحقد أو الغل ، ولا يسمع أحد فيها أصوات التذمر أو الغضب ، كما أنها لا تسمح بأى شكل من أشكال الضرب أو اللكم . والبدو الرحل ليست الوحشية من طباعهم . زد على ذلك أن تلك اللعبة يمكن أن تستمر ساعة أو ساعتين : هذا يعنى أيضا أن الصبية الصغار – قد يقتربون من اللعبة التى تمارسها البنات الصغيرات : إذ يرحن يلهين مثل الإبل الكبيرة بين الأغنام الصغيرة ؛ ولكنهن لا يكن عاريات ؛ وإذا ما بدر من أى صبى من الصبيان الصغار أيه بادرة من بوادر إساءة الأدب، فإنه لا يحظى بتقدير أو احترام هؤلاء البنات الصغيرات. وبعد انقضاء مرحلة الطفولة، لايكون لدى هؤلاء الأعراب أية لعبة من لُعَب تزجية الوقت. وأهل قِبْلِى Gibly ، أو إن شئت فقل : بدو الجنوب الرُّحل ، لم أرى منهم خيَّالة يقومون بتدريب أنفسهم على أفراسهم بصورة مستمرة . والأطفال يمارسون هذه اللعبة لإرهاق أنفسهم وليس طلبا للمزيد من الإتقان والإجادة . وليس لدى الشباب أية رياضة أخرى غير إطلاق نيران بنادقهم الفتيلية فى المناسبات الأسرية . والرعاة ، يحيون حياة تأمل

بصورة مستمرة ، كما أنهم لا يتغذون كما يرام ؛ كما أنهم لا تجرى فى عروقهم روح التفاؤل ، التى يمكن أن تدفعهم إلى ممارسة ألعاب الرجولة ؛ ويندر أن تجد بدويا مفتول العضلات . وفى المنطقة الواقعة جنوبى حائل ، لم أر شابة متوردة الخدين ، بل إنهن يبدين كما لو كن من مخلفات جفاف الصيف ، وذابلات وهن فى ريعان شبابهن.

فصل الصيف المعتدل هو موسم المزينين Muzaynins، أو إن شئت فقل : موسم احتفالات ختان أطفال البدو ، ففى تلك المناسبة يجرى تجهيز خيمة الأم وتزيينها بشراريب من الخيط الأحمر القانى ، وبعض خصل يجرى صنعها من ريش النعام ، كما يجرى تزيين الخيمة ببعض الأشياء الملونة ، أو أية أشياء أخرى يمكنهم العثور عليها . فى تلك الخيمة تجتمع جوقة (مجموعة) من بنات الجيران النحيفات ، ويرحن يغنين فى تلك المناسبة وهن يرتدين أبهى ثيابهن . وتضع كل واحدة من البنات ، على جبهتها منديلا جديدا مثبت به ريشة من ريش النعام ؛ كما تلبس كل واحدة منهن حلقا كبيرا فى أذنها ؛ ويصل حجم ذلك الحلق إلى حجم السوار ، كما تلبس الفتاة فى ذلك اليوم حلقة أنفها التى يطلقون عليها اسم "الزميم" Zmèyem : والحلق ، هو و "الزميم" أو إن شئت فقل : "حلقة الأنف" عبارة عن مجوهرات مصنوعة من الفضة ، وقلة قليلة من تلك المجوهرات ، على حد قولهم ، هى التى تصنع من الذهب الخالص ، منذ زمن بعيد . والأقراط ، وحلقات الأنف هى من أشياء الزينة عند النساء البدويات ، ومن الصعب أن نجدها فى أزمان أخرى (والبدوية تضع كل يوم فى الثقب الذى يحدثونة لها فى أنفها فصًا من القرنفل) ، كما تلبس البدوية فى يديها أساور من الخرز ، كما تلبس فى أصابعها أيضا خواتم مصنوعة من المعدن ، فى ذلك اليوم تفك البنات جدائل شعرهن الأسود غير الطويل ، ويتركنه ينسدل على اكتافهن ، ويتلألأ فى ضؤ الشمس ، بعد أن يكن قد غسلنه ببول الإبل ومشطنه تمشيطا جيدًا . والصبايا يقترضن عباءات جديدة فى ذلك اليوم ، ولا فرق بين عباءات الرجال والنساء . وتجلس الصبايا على شكل حلقة ويبدأن فى التصفيق بأيديهن الصغيرة ، وهن يتغنين ويرددن قرارًا غنائيا لا يعدو أن يكون بضع كلمات قليلة ، على شكل مقطوعة شعرية واحدة فقط . هذه الوجوه الصغيرة التى يرتسم عليها الجوع ، يحسبها الناظر إليها ، وجوه بنات الغجر ؛ هؤلاء البنات الأطفال اللاتى يضعن فى كثير من الأحيان بين أمتعة أمهاتهن ، هن

اليوم يلعبن أمام أعين الرجال ، بملامحهن التى تدل على انكسار الخاطر ، وأدب العذرية التى يبدو عليهن . ولكن هزار الأعراب واستهزائهم لا يمكن أن ينقطع ويتحول إلى صمت طويل ، نظرا لأن الشبان الصغار ، يتجمعون ، من حول البنات ، فى ضوء النهار ، ويروحون ينكتون ويهزرون ، بل ويصل الأمر إلى حد أن البعض منهم يروحون يشدون الريش الذى تعلقه الصبايا على جباههن ، وهن أبناء عمومتهن الأقربين ، ولا تجرؤ واحدة من الصبايا على الاعتراض على ما يفعله الشبان ، ولكنهن يكتفين بتوجيه نظرات اللوم والتأنيب إلى هؤلاء الشباب : أو قد يضحك الصبيان بصوت عالٍ بعد أن يكونوا قد قسموا هؤلاء الصبايا فيما بينهم لتكن زوجات لهم ؛ وإذا ما وجد غريب بينهم ، فهم يطلبون منه أن يختار لنفسه واحدة من بين هؤلاء البنات . "يا أنت ، ما رأيك فى بناتنا ، وفى هذه البنت ، وفى تلك ، أليست وجوههن جميلة ؟" "ولكن العذراوات لا تبتسمن ، وإذا ما نظرت إحداهن إلى الأعلى ، فإن أعينهن الجريئة يبدو فيها النفور والشجن والحزن . البنات فى هذا الموقف يشبهن الأطفال الذين يجرى تخويفهم بالعصا ، هذا يعنى أن هؤلاء البنات يتعين عليهن الحفاظ على شكل معين من السلوك والتصرفات؛ وبالرغم من كل ذلك ، فهن لسن فتيات جميلات. استبداد الذكور ، فى الدين الإسلامى فيما يتعلق بهذا الموضوع ، يمكن رده إلى سلوك معين للبنات تلتزمنه منذ زمن بعيد ، وهنا ترقص الصبايا الصغيرات كما لو كن مرشحات لزواج سعيد ، الأمر الذى يدخل السرور على قلوب الأمهات فرحا ببناتهن . ليتهن يأتيهن الغد الذى يتمنينه ! الغد الذى يمكن أن يكون مثل هذا اليوم الذى هن فيه حاليا ، والذى يتغنين بسعادته وسروره ، ذلك اليوم الذى ينضم فيه الطفل الذكر إلى دين الإسلام ، هذا اليوم أفضل من يوم مولده . والطفل عندما يختن فذلك يعنى إنه قد أصبح عمره ثلاث سنوات بالتمام والكمال ؛ وهذا يعتمد أيضا على الموسم من ناحية ، وعلى مدى قدرة الأم على توفير القمح أو الأرز الذى يكفى وجبة العشاء التى ستقدم للضيوف ، وفى بعض الأحيان قد تؤجل عملية الختان إلى الغد ، إذا ما تبدل حال الطقس ؛ أو إذا ما تعين على الأسرة الانتقال من مكان إلى آخر ضمن رحلة القبيلة .

يصل أصدقاء الوالد ليحلوا ضيوفا عليه : البعض من هؤلاء الأصدقاء يتزينون بحزام الطلقات وحزام السيف أيضا الذى يسمع له حفيف ينبعث من السلاسل المعدنية

الكثيرة ومن عبوات البارود المصنوعة من النحاس الأصفر ؛ كما يحمل كل واحد منهم على كتفه بندقيته الفتيلية الطويلة . هؤلاء الضيوف يثبتون قدرتهم على الرماية باستعمال تلك البنادق التى يصوبون طلقاتها إلى رأس الذبيحة التى ذبحها والد الطفل ، الذى يقولون له "بابو" Babbu ، إكراما وتكريما لضيوفه . وكل واحد هنا ينحر ذبيحته بنفسه ، مثلما كان الحال فى العالم القديم ، كما يقوم بسلخها وتقطيع اللحم بسرعة العرب المعهودة . والبدو الرحل كلهم وبلا استثناء خبراء فى الذبح والسلخ وتقطيع اللحم ؛ وهاهى أرباع الذبيحة معلقة على دغل من الأدغال أو فى غصن من الأغصان ، التى ربما يعثرون عليها أثناء تجوالهم فى الصحراء ، عند أطراف الجبال أو حوافها . وعندما تميل الشمس إلى الغروب يجرى وضع اللحم فى قدر كبير ، يقولون له "الجدَّة" Jidda . ويترك البدو كرش الذبيحة وأمعاءها معلقة على الغصن أو الدغل . وبعد ذلك يجرى طبخ اللحم مع الثريد المتوافر لديهم ، وبعد أن يكتمل غروب الشمس ، يرحن الصبايا يرقصن منفردات على شكل حلقة أو دائرة : وهنا يتفرق الرجال وينتشرون لأداء الصلاة ، وخلال تلك الفترة يجرى إدخال ماشية كل أسرة من الأسر إلى المراح المخصص لها ، وبعد أن ينتهى الرجال من أداء الصلاة ، يقدم العشاء فى الخيمة : والطبق الخشبى الذى يوضع أمام الرجال يكون فيه من اللحم مقدار يكفى لعشاء ثلاثين رجلا . وبعد ذلك بفترة وجيزة يحضر بعض الرعاة محدثين شيئا من الجلبة وهم عائدين من الحقل ؛ ويقترب أولئك الرعاة من تلك الضوضاء المرحة التى تصدر عن احتفال المُزَيِّن ، وهنا يستشعر أولئك الرعاة رغبة الرقص فى داخلهم . ويكون هؤلاء الأولاد صفا ، بأن يضع الواحد منهم ذراعه على كتف من يقف إلى جواره ، ويروحون يضحكون ويسمرون ؛ ويروحون يصيحون وهم يتقدمون إلى الأمام ، ثم يرجعون إلى الخلف ، ويتمايلون ويتقدمون ، ويتلوون ، كل ذلك وهم ممسكين ببعضهم البعض ؛ ويتغنون كلهم بأغنية هى عبارة عن مقطع واحد فقط من الشعر . أثناء ذلك ، تصفق ربات البيوت داخل الخيام ، ثم تنهض واحدة منهن تحمل فى يدها عصا ، وعندما يقبل عليها الرجال الذين يرقصون تقوم بالرقص استقبالا لهم ؛ هذا فى الوقت الذى يواصل الرجال فيه رقصهم على شكل صف واحد ، وهم يرددون المقطع الشعرى نفسه ، وعندما يتقدم الرجال نحو هذه المرأة تبدأ هى فى الرقص فى اتجاه داخل الخيمة ،

وتتظاهر بالدفاع عن نفسها باستعمال العصا ؛ وتوجه المرأة وجهها نحو الرجال ، الذين يواصلون أغنيتهم بصوت الرجال الجهورى ، كما لو كانوا يلاحقون تلك المرأة .- والبدو الرحل يتخيلون ضرورة الختان : ولما كان البدو رعاة فهم يزعمون أن ذلك يحدث فى كل أنواع الماشية ، وأن ولد آدم هو الوحيد الذى يحدث مثل هذا الشكل من أشكال الإعاقة . وعندما سألونى فى هذا الأمر قلت لهم : "بوسعكم تعديل عمل الله (سبحانه وتعالى) هذا ! " - "وردوا على قائلين : نحن لا نتكلم عن ذلك ، وإنما نتحدث عن السرعة فقط ." سألتهم : وما هى واجبات المسلم ؟ وأجابونى : "أن يصوم الرجل الشهر ، وأن يؤدى الصلاة ؛" - ولم يتطرقوا إلى ذكر الختان ، الذى يسمونه "تطهراً" .

فى اليوم الخامس عشر من شهر أبريل ، بعد ريح هبت علينا فى الصباح ، وموجة من البرد جاءتنا من اتجاه الشمال الشرقى ، اكتشفت فى فترة مبكرة من مساء ذلك اليوم أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤٠٠٠ قدم ، كما وجدت أيضا أن درجة الحرارة كانت ٩٥° فهرنهيتية داخل الخيمة ، وأن الهواء كان ما يزال ساكنا والشمس ساطعة . هاهى الأعشاب الخضراء قد نوت ، وبدأ جفاف الصيف يطالعنا ، كما بدأت الصحراء تغير لونها ؛ هذا يعنى انتهاء فصل الربيع . تحرك البدو ليقيموا فى مخيماتهم المنعزلة الجرداء : وذات صباح ، وبعد أن سيقت الإبل إلى المرعى بحوالى ساعة من الزمن ، جاءنا إنذار من المقدمة يقول بوجود ، جوم Gom (غزو) . كان أحد الرعاة قد أفلح وعاد إلينا هاربا ، راكبا ذلوله (ناقته) ليبلغ المجلس أن "الإبل" el-'bil ، أى "قطعان الجمال" قد جرى الاستيلاء عليها ." وهنا وقف الشيوخ من حول وجار القهوة وتركوا فناجيلهم وبدت على وجوههم نظرات الدهشة والعجب : وانصرفوا جميعا كل يبحث عن فرسه ، على وجه السرعة . لقد سبق لهؤلاء الشيوخ أن شاهدوا بالأمس بعضا من الحرامية Haramiyeh ، يحومون حول المكان ، وبالتالى سارع كل واحد من هؤلاء الشيوخ إلى إحضار سلاحه . كان الناس يجرون من الخيام كما لو كانوا زنابير هائجة : بعض هؤلاء الرجال كانوا من حملة البنادق الفتيلية ، وبعض آخر كان مسلحا بالرماح ، وكان الجميع مشاة ، اللهم باستثناء الشيوخ الذين كانوا يركبون الخيول ، وسارع الجميع قدما بحثا عن أعدائهم ، الذين لم يتمكنوا من رؤيتهم عند ذلك الأفق الصحراوى القصير : ولم يبق فى المخيم سوى ربات البيوت ، والأطفال وقليل من

المرضى وكبار السن . وطلب البعض منى أن أركب وأذهب لمهاجمة الأعداء اللصوص : كان زيد قد سبق له القول : إن خليلا سوف يقاتل معهم . "(صاحت ربات البيوت قائلة) يا خليل ، قل لنا طالعنا فى كتبك الحكيمة ؛ ألا تستطيع التنبؤ بإستعمال هذه الكتب (شوف Shúf فى الغُرِيْب(*) F'il ghraib) إقرأ فى تلك الكتب وخبرنا عما تراه فيها عن هؤلاء الجومانيين (اللصوص) .- لقد حق عليهم العقاب ! والمؤكد هو أن هؤلاء اللصوص شاهدوا نيران الحراسة فى الليلة الماضية ، وبالتالى استتروا وتواروا خلف الجبل إلى أن يحين موعد إطلاق الإبل إلى المرعى ." - مضى علينا صباح طويل ، ونحن غير واثقين مما يمكن أن يسفر عنه ذلك الحادث السيئ .

كان مطلق قد ركب دابته قبل أيام عدة ، قاصدا مدينة حائل للقاء الأمير ، وخلّف وراءه رحيل Rahŷel فى حكم القبيلة ؛ ورحيل هذا رجل مضطرب الذهن ، إذا ما تأزمت الأمور ووصلت إلى مثلما هى عليه الآن . بعد أن عاد أفراد القبيلة المسلحين بعد الظهر ، ذهب الجميع إلى الجلوس داخل المجلس ومناقشة الحادث المفزع ، ولم أسمع من واحد من الحاضرين أية كلمة عن مطاردة اللصوص أو تعقبهم ؛ وعندما سألت الجالس إلى جوارى : "قال ، سوف يركبون إبلهم ، على الفور ، لأن الإبل المسروقة لأبد أن تعود إلى ديارنا فى المساء ؛" والسبب فى أن القسم الأكبر من الماشية جرى الاستيلاء عليه ، فيما عدا ذلك القسم من الماشية الذى كان يرعى فى الجانب الشمالى من المَنْزل . معروف أن السرعة والتعجيل فى العمليات الحربية أمر جد مهم ، ولكن هؤلاء البدو ظلوا بلا خراك طوال اليوم وتركوا اللصوص يفلتون ، وهم يتعجبون من أمر هؤلاء اللصوص ومن يكونون ؛ قال جميع الحاضرين : "هم بعض أعراب الشمال ،" نظرا لأنهم كانوا مسلحين بمسدسات . وراح الحاضرون يقلبون الأمر ويعملون عقولهم كى يحددوا إن كان هؤلاء اللصوص من بدو الشرارات أو من حويطات بن حاسى (أى بدو من المنطقة المحيطة بقرية معان) ؛ أو أنهم من بدو الرولة . "قال زيد : اسمعونى وسوف أوضح لكم الأمر ، وأحدد لكم من هم هؤلاء اللصوص

(*) المقصود "بالغُرِيْب" بضم الغين وتسكين الباء ، هو "الغيب" وهذا أمر مألوف عند البدو فهم عندما يقولون : "الغرنُم" بفتح الغين وتشديد النون وفتحها يعنون (الغنم) (المترجم)

(كان زيد هو الذى يتمتع بذلك الغرور والخيلاء بينهم) . أقول لكم إن هؤلاء اللصوص من الصخور es-Sokhûr ، وسوف تتأكدون من صدق كلامى ". وجرى بعد ذلك تدبر تلك الكلمات القليلة التى خرجت من شفاة العدو . لقد تحدى اللصوص رعاة الإبل متسائلين : "من أى أعراب يا أنت ! هل أنت من الفجير ؟" ولكن ذلك لا يعد كافيا فى مسألة تحديد لغة Loghrat قبيلة من القبائل . كان الجوم (اللصوص) أو إن شئت فقل : الغزاة ، ثلاثة عشر خيالاً ، كما كان معهم أيضا عشرين لصا آخرين يركبون جمالا . وأثناء اقتياد اللصوص للغنيمة ، شردت منهم فرس من الأفراس ، جرى اقتيادها إلى المخيم ، ولكن أحداً لا يعرف شيئا عن تلك الفرس ، والسبب فى ذلك أن الشيوخ البدو ليس من عادتهم وشم خيولهم بالعلامات التى يميزون بها ماشية القبيلة . وقد نفقت تلك الفرس فى اليوم الثالث، بسبب الظمأ الشديدّ ! وكان السبب فى ذلك، أن أحداً لم يجرؤ على سقى تلك الفرس من الماء القليل جداً الذى فى حوزته . ومعروف إنه إذا ما ضلت عنزة من الماعز وراحت تتجول بين البدو ، ولم يتمكنوا من معرفة صاحبها ، فإن أحداً لا يقدم الماء مطلقا لمثل هذه العنزة . ويوم أن كنت مع هؤلاء البدو ، أنقذت حياة حيوان أو اثنين من الحيوانات الضالة ، بأن أقنعت بعض المرضى الذين كانوا يترددون علىّ ، تقديم الماء لهذين الحيوانين الضالين .

حصر الجالسون فى المجلس عدد الإبل التى استولى اللصوص عليها ، بأن راحوا ينادون على أسماء أولئك الذين سرقت ماشيتهم : كان زيد هو الذى يقوم على أمر ذلك الحصر ، إذ كان يرسم خطا على الرمل يشير به إلى كل عشرة من الجمال ؛ وعليه أبلغ زيد الحاضرين أن عدد الماشية الصغيرة المسروقة بلغ مائة وعشرين رأسا ، إضافة إلى سبعة من الإبل – وقدر قيمة ذلك بحوالى ٦٠٠ جنيه إنجليزى أو ما يزيد على ذلك . يضاف إلى ذلك أن إجمالى عدد إبل القبيلة لم يكن يصل إلى ٢٠٠٠ رأس ، ولا أعتقد أيضا إنه كان يمكن أن يكمل ١٥٠٠ رأس ؛ زد على ذلك ، أن كل ثروة الفكارة ، التى هى عبارة عن مقتنيات حوالى عشرين أسرة ، هى وماشيتهم الكبيرة والصغيرة ، إضافة إلى خيامهم وأوانيهم ، كل ذلك لا يزيد ثمنه ، من وجهة نظرى ، على ١٧٠٠٠ جنيه إسترلينى . يضاف إلى هذا المبلغ حوالى ٧٠٠٠ جنيه إسترلينى أخرى ، هى قيمة الميراث الذى خلّفه لهم آباؤهم فى خيبر . وأنا أرى أن متاع أو مقتنيات أية أسرة من

أسر هؤلاء البدو الجنوبيين لا تزيد قيمته بأى حال من الأحوال على ما قيمته ١٢٠ جنيه إسترلينى ؛ وهذا ينطبق أيضا ، وبدرجة كبيرة ، على البدو الذين يحيطون بالفكارة ويجاورونهم . هذه القبيلة الصغيرة ، فيها النبلاء ، وفيها من هم أيضا من عامة الناس ، وفيها أيضا وفرة العيش ، وفيها أيضا الفقر والعوز ، والبؤس . هذا الشيخ مطلق الكبير ، الذى تفوق ملكيته ملكية الآخرين فى قبيلته ، لا يزيد ما يملكه من الإبل على خمسة وعشرين جملا . هناك أيضا فارق بين قبيلة وأخرى : هذا يعنى أن قبائل الشمال الكبيرة ، كما هو الحال فى قبيلة العنزى السورية ، وقبيلة الشمر الشمالية التى تعيش فى أراضى بلاد الرافدين ؛ هاتان القبيلتان تتجولان فى بلاد غنية وثرية ، ومن هنا فهما غنيتان أيضا بالماشية والخيول : وهذا الكلام ينسحب أيضا على قبيلتى قحطان والعتيبى وهما من قبائل الجنوب ، (سوف نرى أن ديار هاتين القبيلتين إنما تروى كل عام بفعل الرياح الموسمية ؛) ولكن قبائل الوسط البدوية ، التى تعيش فى أراضى لا تسقط عليها الأمطار، "أضعف" من قبائل الشمال والجنوب. أما القبائل التى توجد على طول طريق الحج ، والتى تحصل على صرة Surra (إعانة) كل عام ، فهى أكثر القبائل استرخاء وشربا للقهوة، كما أنها كثيرة الكلام دونا عن سائر بقية القبائل. وشيوخ الفجير يتقاسمون فيما بينهم كل عام ما يقرب من حوالى ٦٠٠ جنيه إنجليزى من تلك المدفوعات! . وهذا المبلغ يذهب منه حوالى ١٠٠ جنيه إنجليزى إلى الشيخ زيد ، الذى يتسلمها باعتبارها إرثا آل إليه من والده ، فى حين يحصل الشيخ مطلق على مبلغ ١٦٠جنيه إنجليزى ؛ كما يحصل مطلق أيضا على بعض الملابس والحبوب ، علاوة على بعض المخصصات التى يحصل عليها أيضا لخيامه ولشراء الأوانى ؛ وبالرغم من ذلك فهم جميعا من الفقراء ، ولن ينصلح حالهم أكثر ذلك . وحلال مطلق ، أو إن شئت فقل : "ثروته من الماشيه" ، هى وفرسه وكذلك خيمته ومعها كل مقتنيات بيته ، كل ذلك لا يساوى ، من وجهة نظرى ، ما يزيد على مبلغ ٣٠٠ جنيه إنجليزى : وإذا ما أضفنا إلى هذا المبلغ ميراثه فى قرية خيبر ، نجد أنفسنا أمام حقيقة مفادها أن كل ما لدى زيد لا تزيد قيمته بحال من الأحوال على ٥٠٠ جنيه إنجليزى .

أضاع الأعراب من الوقت الكثير جداً الذى لا يمكن استرجاعه بأى حال من الأحوال ؛ فى حين قامت ربات البيوت بتجهيز بعض المؤن السريعة لأولئك الذين

سيركبون إبلهم هذا المساء ويذهبون لاسترداد الماشية المسروقة . مسألة الركوب هذه ، تترك لاختيار البدوى نفسه ، بمعنى أنها ليس فيها أى شىء من الإجبار ، ومع ذلك فإن كل من يكون لديه جمل يركبه ، لايمكن أن يتحاشى القيام بعمل فيه خدمة للجماعة كلها من ناحية ، والمحافظة على اسمه وسمعته بين أهله وعشيرته من الناحية الأخرى . تولى رحيل Rahyèl قيادة تلك المطاردة . كان البعض من هؤلاء البدو يتفاخرون وهم جلوس ويقولون : "هذه الليلة ، أو مع طلوع الصبح ، وعندما يظن الحرامية أنهم وصلوا إلى ديرتهم فى سلام ، ومع نيلهم أول قسط من الراحة ، سنهجم عليهم فجأة ، ونسترد ماشيتنا ، بمشيئة الله ، كما سنأخذ ماشيتهم من بين أيديهم ." والإبل عندما يقتادها الغزاة اللصوص ، يطاردونها طوال ذلك اليوم ويجعلونها تجرى أمامهم طول الوقت ، أملا فى الإفلات من المطاردة والملاحقة ؛ وبذلك يكون هؤلاء اللصوص قد قطعوا بتلك الماشية حوالى ٥٠ ميلا عندما تبدأ الشمس فى الغروب . كانت آخر الكلمات التى سمعتها قبل أن ينهض البدو واقفين للقيام بتلك المطاردة : "إن شاء الله ، سوف يعود كل جمل جرى خطفه بواسطة هؤلاء اللصوص ، ستعود كل هذه الماشية غدًا إلى هذا المكان ، فى مثل هذا الوقت ، وستقف كل دابة أمام خيمة صاحبها :" وتفرق البدو على إثر ذلك الفأل الحسن ، وذهب كل واحد منهم لتناول العشاء ، على أمل أن يستقل الركّاب إبلهم بعد ذلك ، والمعروف أن الشيوخ (فى المطاردات الطويلة) لا يصحبون معهم أفراسهم . أما زيد فقد جلس ساكنا بلا حراك فى منزله ؛ قال : إنه لدية جملان "ولكنهما مريضان" . وهذا هو خلف Khalaf يجلس هو الآخر فى خيمته ؛ وخلف هذا ، رجل يتباهى بأن ثمن فرسه يساوى عددا كبيرا من الجمال ، وبإنه واحد من أكابر شيوخ ولاد على ، ومع ذلك ليس لديه ما يركبه . وهذا سبب واهٍ من منظور ميزان الرأى العام ؛ وبقى زيد جالسا طوال نهار اليوم التالى ، حزينا يحتسى الكثير من القهوة ، ويحتج بشدة معربًا عن أسفه ، ويقسم بالله ، إنه جد آسف لإنه لم يذهب مع الرجال .

كانت إبل زيد قد أنقذت ونجت من السرقة فى تلك المرة نظرا لأنها كانت ترعى فى الجانب الآخر من الصحراء ؛ ومع ذلك فإن المصيبة التى تكون من هذا القبيل تعم الجميع ، ويتعين على القبيلة كلها تحملها . هذا يعنى أن أحدًا ممن سرقت ماشيتهم

سوف يترك معوزا أو محتاجا ؛ ولكن الشيخ الذى يحكم القبيلة سوف يفرض ضريبة على كل أفراد القبيلة ، على أن يجرى تسليم قيمة تلك الغرامة ، من باب المساهمة العامة ، لهؤلاء الناس ، خلال يوم أو يومين . وفى مثل هذه الظروف يوفد شيخ القبيلة الحاكم بعض الأفراد كمُقَيِّمين إلى منازل المنكوبين ، لإحصاء الماشية المفقودة من كل أسرة من الأسر . وجرى فى اليوم التالى تحصيل ضريبة من زيد ، على عدد من الماشية أقل من العشرين رأسا التى يملكها ، وعلى جمل وعدد صغير من الماشية الصغيرة . والبدو الرحل الذين شاهدناهم ، هم من النوع الذى يتشارك أفراده فى الثروة العامة ، ويحكمهم شيوخهم حكما عادلا ومنصفا . هذا يعنى أن هؤلاء البدو يتقاسمون خسائرهم ، وقد يمتد ذلك الأمر إلى القبائل الكبيرة . معنى ذلك أن المصائب قد تحل بتلك القبائل ، إذ قد تصادف قبيلة من تلك القبائل يوما أغبرا ، لم يسبق لها أن صادفتة على امتداد سنوات طويلة ، ويجرى فى ذلك اليوم ، بضربة واحدة ، تجريد قبيلة من كل ماشيتها ، مثلما حدث بعد ذلك ، على حد علمى ، للموهايب .- ولكن ماذا يحدث بعد ذلك ؟ قام أفراد قبيلة البلّى المجاورين لهم بإعطائهم الكثير من ماشيتهم .

وإذا ما سرقت ماشية غريب من الذين يسكنون مع قبيلة من القبائل ، فذلك لا يرتب أى التزام على أفراد القبيلة ، نظرا لأن هؤلاء الغرباء لا يتقاسمون الخسائر مع أفراد القبيلة الذين يستضيفونهم : ومع ذلك هناك بعض القبائل الضخمة ، (وقد سمعت ذلك ما يقال عن قبيلة الشمر) التى قد تقدم ، من باب التطوع ، لهؤلاء الغرباء ، شيئا من المعونة ، طالما أنهم كانوا يعيشون بينهم منذ فترة طويلة ، وذلك من باب مشاطرة أولئك الغرباء أحزانهم ومصائبهم . والقروى عندما يعهد بماشيته إلى واحد من البدو ، كى ترعى مع ماشيته ، ويحدث أن تسرق تلك الماشية مع ماشية القبيلة ، يطالب البدوى برد ماشيتة إليه ، ويتصرف معه تصرفات دنيئة، من منطلق إنه دائن له، كلما التقاه فى قريتة : ولكن البدوى الذى لا تقيده قوانينه وأعرافه بالتعويضات التى من هذا القبيل يأخذ حذره ولا يخاطر بالاقتراب من تلك القرية . هذه المشاحنات موجودة منذ زمن بعيد ، بل إن البدو يتوارثون الأحقاد القديمة إلى الجيل الثالث .- وقانون إسرائيل يساند القروى فى مثل هذا الحال ، ويلزم الراعى (البدوى) بتعويض أو إعادة الماشية إلى صاحبها . توجد بين البدو أيضا خسارة أخرى لا يجرى

التعويض عنها ، وذلك عندما تسرق ماشية واحد من البدو ، ويكتشف شيوخ المجلس ، أن تلك الخسارة كانت بسبب البدوى نفسه ، وأن تلك الخسارة لم تكن من أجل صالح القبيلة بشكل عام . وهنا يقوم ذلك القبلى المنكوب بوصف الشيوخ بأنهم ليسوا عادلين أو منصفين ، وبالتالى يظل مثل هذا البدوى عاريا ولا يعوضونه عن خسائره من مواشى القبيلة : ولقد صادفت الكثيرين من أمثال هؤلاء البشر . كما شاهدت أيضا بعض البدو الأثرياء الذين حل عليهم الفقر فجأة ، عندما نفقت إبلهم كلها دفعة واحدة بفعل مرض أو وباء من الأوبئة . أمثال هؤلاء الناس يتصادقون فى أيام النكبة ، شأنهم شأن أمثالهم فى بقية أنحاء الدنيا كلها . وفى مثل هذه الظروف ، وحسب احتياجات ذلك المنكوب ، يقوم كل واحد من أفراد القبيلة باقتياد رأس من الماشية وتسليمها لذلك المنكوب ؛ وبذلك يتمكن مثل هذا الشخص من استعادة شىء من قوتة السابقة .

مقابلة الغزو بالغزو فيه دمار للأعراب . فالسطو والسطو المضاد لا يؤديا مطلقا إلى الرواج ؛ والأمر لا يعدو أن يكون فى نهاية المطاف مجرد تبادل للماشية على نحو سيئ للغاية . من هنا ومن منظور البدو ، فإن قوات إبل الفكارة عبارة عن "خليط" ، بمعنى أنها ليست كلها من نوع واحد ، مما يدل على إنهم سرقوها من ديار عدة . أبلغنى ولد مطلق ، أنه سوف يتولى المشيخة بعد والده ، "نعم ، والله ، كل إبلنا حرام (بمعنى أنها جرى الحصول عليها عن طريق الغزو ،) . وليست ملكا شرعيا لنا ." يضاف إلى ذلك ، أن بدو الفجير ، أصابهم الفقر فى السنوات الأخيرة ، جراء غزو جيرانهم لهم : فقد غزتهم قبيلة بشر ، ومن بعدها ولاد على ؛ وأخذوا منهم قطعان الماشية ؛ ولكنهم فقدوا القسم الأكبر من تلك القطعان بسبب وباء من أوبئة الماشية ، التى تصيب القطعان فى تلك المضارب الرملية ؛ وهذا الوباء يجىء للحيوان على شكل مغص ، أدى إلى نفوق البقية الباقية من حيوانات الفجير الصغيرة . وقبل ذلك بعام واحد ، كان لدى زيد قطيع مشترك ، أو إن شئت فقل : مختلط ، من الماعز والغنم ، الأمر الذى مكن حرفة ، زوجة زيد ، فى فصل الربيع المنصرم ، من صناعة حمولة جمل ونصف جمل من السمن (أى ما قيمته حوالى ١٨ جنيه إنجليزى). وها أنا اليوم لا أرى أمامى سوى نعجة واحدة وعنزتين من ماعز اللبن ، هى كل ما تبقى لهما من الماشية الصغيرة ، وهاتان العنزتان لا تعطيان من الحليب سوى سلطانية صغيرة كل يوم ،

وبالتالى فإن زيد لا يود شراء المزيد من الحيوانات الصغيرة نظرا لخيبة الأمل الذى منى بها . كان زيد قد ورث عن والده الذى كان شقيقا لشيخ القبيلة الكبير السابق ، عددا كبيرا من أشجار النخيل فى قرية خيبر : ونظرا لأن نصف الثمار يأخذها المزارعون الزنوج ، فإن ما يحصل عليه على شكل إيجار يصل إلى حوالى ٢٠٠ ريال . من هنا يتضح أن زيدا بُحكم حصوله على صرة كل عام ، يكون لديه نقوداً يصرف منها كل يوم ، طوال سنوات الرواج ، أى بواقع ريالين فى اليوم الواحد ، وهذان الريالان هما ثمن لماعز واحدة ، وهذا يعد مبلغا كبيرا فى تلك الصحراء الجرداء : ومع كل ذلك كان الرجل بائسا ، ويتفنن فى تأخير سداد المستحقات إضافة إلى إنه كان وراء عملية الربا . كان شيوخ بنى وهاب يدخرون "نقودهم" thàhab، (من الصرة التى كانوا يحصلون عليها من الدولة كل عام ،) فى قرية العلا ؛ ومن هذه النقود يستطيع الشخص الوضيع أن يزيد "حلاله" (ماله) فى صمت ، وقد يتجرأ ويشترى لنفسه فرسا جديدة .

تغيبت جماعة الملاحقة والمطاردة التى كان رحيل يتزعمها ثلاث ليال عن المخيم . هذا يعنى أن ما تبقى من الرجال فى المخيم كان عدداً قليلا جداً ، وكان ذلك العدد القليل من الرجال يتجمعون سويا لشرب القهوة . أما ربات البيوت المحبات فكن يجلسن خارج الخيام طوال اليوم ينتظرن عودة الرجال : وقبيل ظهيرة اليوم الرابع ، سمعنا صوت زغاريد النساء !- ولكن نغمة الفرح هذه لم تدم طويلا ، بل وماتت فى حلوقهن ، عندما أطلن النظر ، ورأين أن القادمين عليهن عند الأفق لم يكونوا يقودون معهم أى شىء وهم عائدون إلى مخيمهم . ونهض الرجال بدورهم وراحوا يطيلون النظر فى الاتجاه نفسه . "قال الرجال : ما معنى صياح الحريم إذن ؟ انظروا ، هاهم الرجال يعودون خاوين الوفاض ، كما أن كل واحد منهم يركب منفرداً عن بقية الجماعة حتى ينزل من فوق راحلته أمام خيمته !" وبناء على ذلك ، عاد أولئك الرجال إلى كسلهم المميت ، ودخلوا الخيمة من جديد دخول الخاسرين ، ليستأنفوا جلوسهم من جديد . "قال الرجال : البعض منهم سوف يأتوننا بالأخبار" . نزل رحيل ، بعد ذلك بفترة قصيرة ، من على جمله أمام خيمته ، التى تقع خلف خيمتنا وعلى مسافة قريبة .- وهنا تخرج ربة البيت فى اتجاه زوجها وهو يقوم بتبريك جمله ؛ وتستقبله فى صمت ،

وتنزل سرج (عدة) الجمل من فوق ظهره ، وتنقل مهمات ومعدات زوجها إلى داخل الخيمة . ليس من عادة الرجل (رحيل) أن يحيى زوجته بصورة علنية ، كما إنه ليس من عادته أيضا تحية المجلس بشكل علنى أو صريح أيضا ، كما إنه لن يتحدث إلى زوجته أيضا؛ وبناء على كل ذلك ، تقدم رحيل نحونا على الفور، قبل أن يدخل خيمته .- "السلام عليكم !" قالها رحيل من حلق جاف ، وجلس وهو يتنهد تنهيدة رجل متعب مكلوم ، يغلب عليه الحزن ، وأردف قائلا لنا : "فى اليوم الثانى ، وهم يتتبعون العدو عبر النفود" وصلوا إلى منطقة هبت عليهم فيها ريح طمست آثار أقدام اللصوص ،" ثم أضاف يقول : "هذه هى إرادة الله !" وعند هذا الحد أداروا رءوس دوابهم عائدين إلى المخيم ،- لم يكن لديهم ما يهتدون به فى أنحاء الأرض المحيطة بهم ، حتى يتمكنوا من اقتفاء أثر اللصوص من جديد . قال الأعراب الكسالى . "حسن ، هذا هو ما قدره الله لنا !" شاءت لهم الأقدار أن يتركوا عدوا ضعيفا يفلت من بين أصابعهم ، بسبب ريح بسيطة ، بالرغم من أن أولئك اللصوص كانوا يقتادون معهم معشار ما معهم من إبل . ولكن رحيل ، من باب إعطاء حكايته نهاية طيبة تعجب قائلا : "والله ، لقد عثروا على ماء فى آبار الحيزة فى النفود ؛ وأنهم عندما مروا بتيماء مرة ثانية ، سمع رحيل الناس يقولون إن بعض اللصوص عرجوا على ذلك المكان ، وأن هؤلاء اللصوص كانوا من الشرارات ." - كان رحيل هو وجماعته قد قطعوا حوالى مائتى ميل . "(قال البدو) سوف نعرف بالتدريج من هم أولئك القبليين الذين سرقوا إبلنا ؛ وبعدها سوف نغزوهم نحن بدورنا ، وسوف نأخذ منهم بمشيئة الله ، عددا مساويا لعدد تلك الإبل التى سرقوها منا ." ولكن المعروف أن الغزو يعود صفر اليدين فى معظم الأحيان : وهذه على سبيل المثال جماعة من جماعات غزو الفقارة قوامها "عشرون رجلا راكبين" أو إن شئت فقل : عشرون رجلا يركب كل واحد منهم جملا ، أغاروا مؤخرا على بنى عطية ، ولكنهم عادوا من تلك الغارة بخفى حنين .

كل إمرئ يعتمد على نفسه فى تلك الصحراء الواسعة ، وليس هناك من هو على استعداد لتحمل الخدمة العامة بلا مقابل . وشيخ القبيلة ، أو أى شيخ من شيوخها ، قد يستطيع إقناع ، ولا أقول إرغام ، أى فرد من أفرادها على القيام بذلك ؛ يضاف إلى ذلك ، أن المُضَار إذا ما ذهب بمفرده ، فلن يستطيع الشيخ منعه من ذلك .

والمعروف أن الهيئة العامة ضعيفة ، ومكونة من أعضاء لا تربط بينهم رابطة قوية ، من هنا فإنهم تحدث لهم كثير من الأحداث السيئة ، التى يمكن تجنب وقوعها إذا ما كانت هناك سياسة عامة يلتزم بها الجميع .- "(قلت موجها كلامى لزيد) لماذا لا ترسلون رجالا يستطلعون، ومن ثم يستكشفون الصحراء أمام مواشى الرعى؟ أو ألا تستطيعون إرسال البعض منكم للقيام بعملية المراقبة من فوق قمم الصخور ، وبذلك تستطيعون مراقبة ظهور العدو ! ولماذا ، يا من تعيشون وسط الصحراء الواسعة ووسط الخطر ، تلزمون أنفسكم بمخاطر غير محسوبة ؟" وعندما كرر زيد كلامى على مسامع أفراد المجلس ، رد ولد الشيخ على الفور قائلا: "نعم ، وهذا شىء طيب فعلا ، إذا ما وضعناه موضع التنفيذ ؛ ولكن ، لعلمك يا خليل ، ليس هناك من بين البدو من هم على استعداد للمغامرة على شكل أزواج ، أو ثلاثيات ، وذلك تخوفا من الحباليص (اللصوص) ؛ إذ إننا ليس فى وسعنا معرفة المكان الذى يكمنون أو يختبئون فيه ، إلى أن تفاجأ بمن يأتينا من خلف صخرة أو من خلف دغل من الأدغال وهو يفاجئنا قائلا : "ده ، deh ! وبعدها تضيبك طلقة بندقيته" .

عاد مطلق فى أواخر الأسبوع قادما من بلدة حائل : لم يسبق لمطلق أو لأحد من رفاقه السفر إلى حائل قبل هذه المرة ؛ ولكنهم قطعوا مسافة مائة ميل عبر الصحراء الجرداء ، وكان مرشدهم الوحيد فى كل هذه الرحلة ، هى العلامات الجبلية ، التى تعرفوها وتساءلوا عنها قبل بداية الرحلة . كنا قد غيرنا مكاننا عدة مرات أثناء تغيب الشيخ مطلق؛ وكنت استغرب بحق كيف استطاعوا الوصول إلى المُنزَل الذى نحن فيه ، دون أدنى خطأ. ونظرا لأن أفراد القبائل يحددون رحلاتهم قبل بدايتها ، فذلك يمكنهم ، فى غضون مسير يوم واحد ، من تعُرف أثار أقدامنا ، وهم ركوب على دوابهم ، وبذلك يتمكنون من اقتفاء أثرنا فى الرحلة الجديدة ؛ يضاف إلى ذلك ، أنهم عندما يتسلقون القمم أثناء عودتهم ، فإنهم يبحثون عن الخيام السوداء التى يسكنها الأعراب من أهليهم . وبذلك يستطيع أولئك الملاحون البريون الوصول ، بصورة متدرجة ، إلى الميناء القروى المضطرب الذى يقع عند نهاية رحلتهم . جاء أفراد القبيلة ، الذين لم يكونوا مصاحبين لرعى الماشية ، لحضور البرلمان ، أو إن شئت فقل : المجلس ، الذى أبلغهم بعودة الشيخ مطلق ، ووجوده فى خيمة شقيقه رحيل ، ليستمعوا إلى الشيخ وهو يروى

لهم عن مهمته التى قام بها إلى الأمير ، تلك الرحلة ، أو المهمة ، التى عادت بالكثير على السياسة التى تنتهجها هذه الأمة الصحراوية الصغيرة .- كان كل واحد من الحاضرين قد سلّح يده بغليون التبغ ، وراح كل من يحضر يقول : "قوّاك ، يا مطلق !" وكان يسلم غليونه بعد ذلك للشيخ الكبير . جلس مطلق أمامهم مشرئب الرأس ، مرتديا ملابسه الجديدة ، وهى الهدية المعتادة التى يقدمها الأمير لزائريه ، وراح يملأ رءوس الغلايين لكل الحاضرين ، من التبغ طيب الرائحة الذى يطلقون عليه اسم "الحميدى" ويزرع فى بلاد الرافدين ؛ والذى جلب منه استهلاك أسبوع كامل ، اشتراه من عاصمة القرية . قدمت القهوة ببطئ إلى جميع الحاضرين ، الذين كانوا يشكلون جمعا كبيرا من الناس . كان ذلك اليوم شديد الحرارة ، وهاهى شمس الظهيرة فى سمت السماء ، ومع ذلك لم يكن من بين الحاضرين من تراودة نفسه عن الذهاب لنيل قسط من النوم ، أو حتى لتناول طعام الغداء ؛ هكذا كان الناس يتشوقون لسماع ذلك الذى يدور فى عقل ذلك الأمير المرعب. جلسوا جميعا فى ذلك اليوم بلا حراك ، ولم يتزحزح أحد منهم من مكانه ، بل إنهم كانوا صائمين عن كل أنواع الزاد فيما عدا القهوة والدخان ، واستمر ذلك الحال إلى حلول المساء .- وقد صرح الأمير لهم بالعودة دون خوف ، إلى ديرتهم.

يحصل زوار بن الرشيد ، بعد الاجتماع ، على غيار من الملابس ؛ إضافه ، إلى هبة مقدارها ستين ريالا فضيا أعطاها الأمير للشيخ مطلق ، كما أعطى كل واحد من مصاحبيه ورفاقة عشرة ريالات فضية أيضا . تلك هى فنون حكام الجزيرة العربية ، التى تقوم على احتواء إرادات البدو الأجلاف المتذبذبة ، عن طريق التظاهر بالكرم والسخاء ؛ هذا يعنى أن الأمير يحسن بذر بنساته أملا فى أن يحصد عشرة أمثال ما بذره فى العام التالى . كان مطلق شيخا من شيوخ قبيلة من القبائل الفرعية غير الرئيسة ، وبعيدة عن متناول وصول يد بن الرشيد إليها . ومعروف أن الضريبة التى تفرض على البدو تكون خفيفة، وإلا عجز الزبانية عن تحصيلها؛ ومعروف أن الكراون(*) الواحد يدفع عن خمسة من الإبل ، أى بواقع شلن واحد عن كل جمل ؛ أو كراون واحد

(*) قطعة نقدية تساوى خمس شلنات . (المترجم)

عن كل ثلاثين رأس من الحيوانات الصغيرة . وإجمالى ما تم تحصيله من الفكارة من هذه الضريبة لم يتجاوز أربعمائة ريال ، وهو ما يعادل حوالى ثمانية أو تسع شلنات ، جرى تحصيلها من كل أسرة من الأسر : ومع ذلك فإن هؤلاء البدو الطلقاء ، المنسيون تنوء كواهلهم ويغضبون من تلك الأحمال الصغيرة ؛ وحال الأمير غير ثابت ، والبدو يعتقدون ، أن الأمير صورة طبق الأصل من الشخص القوى المتجبر : ولكنهم عندما يدفعون تلك الضريبة ، يصبحون من ضمن فيدرالية الأمير(*) ، كما أنه عندئذ هو الذى يحميهم من عداء الأعراب المجاورين لهم . كان الشيخ مطلق رجلا حصيفا وودوداً وذا بصيرة ؛ ولكن الريالات الستين كانت تحجب بصره وبصيرته. كانت تلك سياسة سلسة من الأمير ، استطاع أن يمس بها أوتار قلوب الحكماء ؛ يضاف إلى ذلك أن الشيخ البدوى ، عاد وهو يحمل ضمن طيب ملابسه الجديدة ، رأيا محموداً ولو لفترة قصيرة ، عن كل من الأمير المتملق وحكومة حائل ؛ يضاف إلى ذلك أن مطلق كان يظن نفسه مولًى من موالى الأمير ، فى الوقت الراهن ، وإنه لقى من الأمير ترحابا عظيما . ولكن محمد بن الرشيد المتعالى المتعجرف ، الذى دفع المعونة ، كان له رأى آخر فى مطلق ؛ وقد أبلغنى الأمير فيما بعد ، وبلسانه هو شخصيا ، إنه كان يكره الشيخ مطلق.

كان الفكارة سعداء بعودتهم إلى ديارهم ، التى كانت عندهم أفضل بكثير من هذه البلاد الجرداء العالية السطح ، التى هى (فى رأيهم) "غور" ghror ، بمعنى أنها "أرض لا خير فيها للإنسان أو الحيوان" . وهم يعتقدون أيضا أن ديرتهم أفضل لأن درب الحج يمر بها ؛ والبدو يقولون : "لدينا قلعة "kella، بمعنى المكان الذى يتردد عليه الناس ، وبه غرف تستعمل مخازنا ، كما يعقد فيها سوق القافلة ، فضلا عن أن شيوخ البدو يتسلمون صرة كل عام . رحنا مع طلوع الصبح ؛ واعتبارا من ذلك اليوم واصل البدو رحيلهم اليومى على شكل رحلات قصيرة ؛ كان البدو فى تلك الرحلات يوجهون وجوههم شطر وطنهم . وخلفنا وراءنا جبل مسمة Misma ، ومن بعده بعض الجبال

(*) فيدرالية الأمير : المقصود بفيدرالية الأمير ابن الرشيد هى تلك المقاطعات التى استولى عليها وأصبحت تابعة له مع تمتعها فى الوقت نفسه بالحكم الذاتى بشرط اعترافها بآل الرشيد ودفع الضرائب لهم . (المراجع)

الأخرى التى سمعتهم يقولون لها "الروف" Roaf : وفى اليوم الثالث وصلنا إلى مياه الشرب فى الأرض المرتفعة ، كان ذلك الماء راكدا ، داخل حوض من الزلط والحصى ، يتحول فى فصل الشتاء إلى بحيرة يسمع القريب منها صوت مياه الأمطار وهى تتساقط عليها ، قادمة إليها من "الذرّاى" therrai التى معناها "مياه المطر المحبوسة على شكل بحيرات" .

واصلنا مسيرنا فى بلاد أرضها من الحجر الرملى ، حيث الصخور السميكة ، التى تشبه أرغفة الخبز فى فرن الفرّان ، الأمر الذى لم نتمكن معه من أولئك الذين كانوا يركبون دوابهم من حولنا . وبعد الرّحلة الخامسة ، نزلنا مرة ثانية تحت جبل برِّد Birrd ، كى نشرب ونسقى دوابنا من منخفضات جبل الحجر الرملى المنحدر العميقة : وهنا راح الرعاة يحفرون حفرا ضحلة مستخدمين أيديهم فى ذلك ، حيث كانوا يرفعون الرمل المبلل والمشبع بالماء فى دلاء ، بينما كانوا يتغنون بالأغنية التى يتغنون بها فى مثل هذه المناسبة؛ وجاء الماء مشبعا بالرمل وغير جيد . واصلنا المسير بعد ذلك يوميا ، وكنا نحمل أمتعتنا قبل الفجر ، وننزل عن ماشيتنا عند الظهر . وبعد مسيرة أخرى ، وصلنا أثناء حرارة الشمس الحارقة ، وبعد السير عبر السهل الواسع المرتفع ، إلى أرض جرداء من الزلط ، حيث يوجد مسقى كبير ومنتجعا صيفيا للقبيلة يطلقون عليه اسم "الأردّة" (*) el-Erudda . هذه هى الأراضى المرتفعة ، هى فى معظمها خالية من أشجار السنط الصحراوية : والويل عندئذ لربة البيت ، التى يضيع منها وتد من أوتاد الخيمة أثناء الترحال . ومع ذلك ، طالعنا فجأة صف طويل من أشجار السنط ، كما تبدت لنا أيضا دبرة بيضاء منتفخة ، وهذه هى العلامات الأرضية التى تميز الأردّة el-Erudda . هنا فى هذه المنطقة ، وفى منتصف دبرة هؤلاء البدو ، توجد مقبرة mákbara القبيلة ، وبها بعض النباتات الجرداء ، التى من قبيل النخيل البرى . والمسافة من هنا إلى قرية الحجر تقل عن المسافة التى تقطعها القبيلة فى الرّحْلة الواحدة : سيكون البدو مقيمين هنا أياماً عدة .

(*) المرجح هنا أن دوتى يقصد : "الروضة" ، والروضة عند البدو هى "الأرض التى يوجد بها بعض أشجار السنط ومصدر من مصادر المياه" (المترجم)

ضلت الإبل طريقها ، فى الليلة التالية ، إلى منزَل زيد ؛ وراح أصحاب الإبل يستطلعون كل الأنحاء، على أمل أن يكون الناس قد شاهدوا تلك الإبل فى تلك الأنحاء، ونظرا لأن التربة كانت تحمل آثار أقدام لا تحصى ولا تعد ، ناتجة عن أقدام ماشية القبيلة ، فقد أدى ذلك إلى انعدام قدرة الباحثين والمستطلعين على قص آثار الإبل التى ضلت طريقها . لم يخش أولئك البدو ، على حيواناتهم التى ضلت طريقها ، أن تموت خلال أيام قلائل من شدة العطش : إذ من المعروف أن الحيوانات الضخمة الشبيهة بالأغنام لديها معرفة تامة بكل أماكن السقيا داخل الديرة التى تعيش فيها ؛ ومع ذلك ، وبالرغم من طول أعناق هذه الحيوانات ، إلا أن قلة قليلة منها هى التى يمكنها الوصول إلى مياه الشرب . وقبل ذلك بثلاثة أعوام وعندما كان الفكارة فى سوريا ، ضلت منهم بعض الإبل ، وضاعت منهم بالقرب من الحوران ، ولكن أفراد القبيلة استطاعوا استعادة تلك الإبل ، أثناء عودتهم فى أواخر العام قادمين من المدينة (المنورة) ، عندما شاهدوا ، وهم يعبرون ديرتهم ، تلك الحيوانات وهى ترعى حول مسقى من المساقى ، داخل حدود الحجاز . تعرف الرجال على تلك الحيوانات ، عن طريق الوسم الموجود عليها وتأكدوا أنها من ماشية القبيلة ، وبذلك استطاعوا إحضار تلك الإبل الهاربة مرة ثانية ، بعد أن هربت إلى مواطن ولادتها ، عبر سبع درجات جغرافية .

صرفنا انتباهنا عن الحرامية haramîyeh . – ثم وصلتنا عن طريق أسرة صلوبية جاءت من الحرّة harra أخبارا غير مؤكدة مفادها أن ماشيتهم قد أخذها المواهيب مرة ثانية : هذا يعنى أن غزوة مواهيبية صغيرة ، جاءت راكبة من ناحية الشمال ، قد عبرت أرض اللصوص ؛ (من عادة الغزاة الأعداء ، عندما يلتقون بعضهم البعض فى الصحراء القاحلة أن يحيى بعضهم بعضا قائلين : "يا قوم !" بمعنى "هيه ! أيها الأعداء ،") ولكنها لم تستطع أخذ الجزء الرئيسى من الماشية ، أى إنهم لم يستطيعوا سوى عزل خمسة عشر جملا فقط . وهناك تقليد فيما بين القبائل الصديقة مفاده أن يدفع صاحب الماشية المسروقة ريالا واحدا عن كل رأس حتى تعاد إلية المسروقات .

عرفنا فى النهاية أن اللصوص كانوا طائفة من بنى صخر مثلما سبق أن أخبرنا زيد بذلك ؛ وقد قطعت هذه الطائفة ما لا يقل عن أربعمائة ميل اعتبارا من المكان الذى تقيم فيه خيامها فى سوريا إلى المكان الذى التقيناهم فيه ؛ وكانت بصحبة تلك الطائفة

أيضا قلة قليلة من بدو الشرارات ، الذين تربطهم بالفجير صداقة شكلية فقط . أما فيما يتعلق بالصخور Sokhur ، فهم عند بدونا لا بالأصدقاء أو الأعداء ؛ بل إن بعض أسر قبيلة الفكارة ، وبخاصة أولئك الذين جاءوا من الشمال ، كانت تتجول مع قبيلة الصخور إلى يومنا هذا . وهناك أيضا جماعة من بنى صخر ، يعملون حمّالين فى موسم الحج ، يتحتم عليهم المرور بصحبة قافلة الحج كل عام ، عبر ديرة الفكارة .- وعقب ذلك مباشرة ، جرى إرسال شيخ شاب ، هو الشيخ مجول Mijwel ، نيابة عن الفجير ، إلى الشمال ، سعيا إلى استعادة إبل القبيلة . وجاء رد بنى صخر أثناء انعقاد المجلس على النحو التالى : "إن أولئك الذين سرقوا ماشية الفكارة كانوا جماعة من الشباب الجهّال ؛ ولكنهم لا يلامون على جهلهم هذا نظرا لأنهم وجدوا الفجير يتجولون خارج نطاق ديرتهم ." ووعد الشيوخ بعودة القسم الأكبر من تلك المواشى مرة ثانية مع قافلة الحج ؛ أما البقية فمفروض أن يعطونها لأولئك الجهّال ، "الذين ينبغى مهادنتهم ، بإعطائهم شيئا نظير متاعبهم ، على أن يكون ذلك نهاية لذلك الصراع أو الخلاف ." ولم يحصل مجول Mijwel على أكثر من ذلك : وهذا نوع من العدل الذى قد يشيع فى سائر أنحاء الدنيا .

بعد أن وصلت إلى الأردّة el-Erudda ، خطر ببالى التخلى عن حياة البدو ، وأن أمر من خلال قرية العلا ، قاصداً ساحل البحر عند مدينة أو بلدة الوجه el-Wejh . وطلب منى أصدقائى أن أفاتح الشيخ مطلق فى موضوع جملى . ترى ، لماذا لم يطع زيد الأمر الذى أصدره الباشا ؟ – وبالتالى كان يمكن تحاشى حدوث مثل هذا الحادث . ولم يكن معى نقوداً تمكننى من شراء جمل آخر ،– سوف يصبح تجوالى فى أرض الجزيرة العربية أمرا صعبا من الآن فصاعداً . والعادة أو العرف السائد فى الصحراء هو عرف (سيدنا) موسى : "إذا ما آذى حيوان شخص حيوان شخص آخر ، فإن الخسارة الناتجة عن ذلك يتقاسمها الاثنان ." هذه الحيوانات ، التى تفرح بخضرة الربيع وأعشابه ، تنهض واقفة فى جوف الليل وهى تجتر طعامها ، لتلعب مع بعضها البعض لعبة الحيتان ؛ زعم البدو ، أن جملا من الجمال سقط على عنق جملى الصغير: وسواء حدث ذلك أثناء الليل ، أو أثناء اقتياد الإبل إلى المرعى فى الصباح ، فإن جملى كان بصحبة قطيع إبل زيد . تحتم علىّ هنا ، إحضار بعض الشهود : ولكن من ذا

الذى يمكن أن يشهد على شيخ قبيلته ، لصالح نصرانى ؟ عند المسلمين ، وبالرغم من أنهم يكونون من بدو الصحراء ، فإن المساواة تكون فيما بينهم هم أنفسهم فقط . ذهبت إلى مطلق فى خيمته ، ووجدته يستعمل خيطا من الصوف ، كان يخيط به سرج فرسه . "يا للأسف ، قال الشيخ ، هناك مشادة بين خليل وزيد ، اللذان كانا أخين ، وكان لابد من إطاعة أمر الباشا ." خابت آمال زيد فىّ فيما يتعلق بأطماعه ؛ لقد سبب الحظ لنا شيئا من القهر عندما تبخر الأمل الذى كنت أعقده على التطعيم ، ولم يتبق لى سوى "الخُرج" وكانت عينا زيد تكاد تلتهم ذلك الخرج كل يوم . كان الخرج كبيرا ومنتفخا ، وهذا بحد ذاته ، نوع من الخطأ ، فى أرض يتعين على الرحالة التجوال خلالها بلا أمتعة أو معدات. تأكد زيد من ثقل الخرج، وراح يفتش ذلك الخرج كل يوم ، وهذا أمر يتعارض مع المعاملة الأمينة التى يجب أن يتحلى بها المُضيف ؛ - هذا بالإضافة إلى مخاوفى من احتمال أن يسطو زيد على مسدسى وعلى أدواتى ، التى كنت أخبئها فى قاع الخرج ، داخل مَنْزلنا .

أدت تلك المنغصات التى لاقيتها فى الرِّحلة الأخيرة، إلى التغافل عن زيد وإهماله ، مما جعلنى أقطع المسافة كلها سيرا على الأقدام عبر الأرض الزلطية الجرداء ، وتحت الشمس الحارقة إلى أن توقفت الأعراب ونصبوا خيامهم فى النهاية . واستشعر زيد فى داخله أنه أساء إلىّ بالفعل ، يضاف إلى ذلك أنى لم أخدعه أو أغشه ، فضلا عن أنه كان يحترم شخصى تماما : جدير بالذكر أيضا أننى تحاشيت استثارة الأعماق المجهولة لاستيائهم الإسلامى . دخلت خيمة الشيخ مطلق ، ووجدت ذلك الشيخ الموقر يلاعب أطفاله ، فقد كان أبا حنونا بحق . وسرعان ما دخل زيد خيمة الشيخ مطلق وجلس لشرب القهوة ؛ ثم رفع صوته الأجش وقال : "أقسم بالله ، إذا لم أكن قد انتويت ابتلاع هذا النصرانى ، لما كنت قد استقبلته ؛ ولما كنت جعلتة يعانى من صحبة الأعراب ، ولم يكن ذلك فى رحلةٍ واحدة فقط . لقد أعطى النصرانى ستين ريالا (وهو خرافة) لمحمد على ، وأنا أطلب منه أن يدفع لى مبلغا مماثلا فى هذه الساعة ." "لا (قالها مطلق من خلف ستارة الحريم، حيث كان وراءها لإحضار غرض من الأغراض،) هذا ليس بيدك ، يا زيد ." وهنا اشتكى زيد من أن وجودى فى مَنْزلِه كانت له تكاليفه ، وهنا أثبت أن زيدا كان قد تسلم منى مبلغا من الريالات ، كما أثبت أيضا أنى لم آخذ

منه أى شىء سوى القليل من الحليب : ولكن مغزى شكوى زيد كان يتمثل فى أنى جلبت عليه الكثير من الضيوف الذين جاءوا لشرب القهوة ورؤية الغريب . وقال زيد إنه اشترى من القهوة ما قيمتة ريالين من سوق الحج . "(قلت له) هاهما الريالين ، ولعل ثقة زيد تزداد فى صداقتى . إن زيدا يشتكى منى لسبب تافه وبسيط ؛ وأنا إذا ما اشتكيت لابد أن تكون شكواى مبنية وقائمة على المنطق والإقناع ؛ وهل يتعين على المرء ، أن يتعامل مع أمتعة ضيفه كما لو كانت غنيمة حصل عليها ؛ من طريق الغزو ؟ إنه يفتش أيضا كيس نقودى بحثا عن النقود ، كما فتش حزامى أيضا ، كما قلبَّ خُرجى بحثا عن أشياء بعينها ." - صاح أحد الشيوخ قائلا : "ها ! كيف حدث ذلك يا زيد ؟" وهنا أجبته فى عجالة :"لقد فعل ذلك ، مثل حبلوص من الحباليص ." وأقشعر مطلق عندما سمع هذا الكلام ، الذى يبدو أنى لم أحسن قوله ؛ وهنا بدا على البدو وكأنهم لا يستمعون إلى خليل بحق :"أبشع ما فى هذا الأمر ، أن زيدا على امتداد حياتة كلها ، لم يستمع إلى هذه الكلمة المهينة ، التى قلتها أنا فى المجلس ، وأن هذه الكلمة سوف تخلد وتلتصق بذاكرة أعدائه . وبعد أن شرب زيد فنجال القهوة نهض وترك المجلس . وطوال فترة مرح المساء كان الجالسون يردد كل منهم على الآخر كلمة حبلوص ! حبلوص ! وكنت كلما سمعتهم يرددون هذه الكلمة ، أتيقن أكثر وأكثر من أنها كانت فى غير محلها : ومع ذلك كان زيد يتفاخر بنفسه بإنه شريف من الأشراف . وبعد أن غادر زيد المكان قال بعض الحاضرين : إذا كان زيد قد فعل هذا وذاك ، فهو رجل سيئ ؛ (ومن السهل جداً أن يلوم البدو بعضهم بعضا) . قال مطلق : "إننى يتعين على إحضار شهود فى مسألة الجمل ، ولكنه وعد بالدفاع عنى فى وجه مطالب زيد غير الصحيحة ."

وبينما كنا جالسين دخل علينا رجل كان غائبا عنا منذ مدة ، وقد جرت العادة أن يقوم ذلك القادم الجديد بإبلاغنا بالأخبار التى لديه ونحن فى المجلس ، ثم يعود بعد ذلك إلى أسرته . جلس ذلك القادم على ركبتيه ، ولكنه كان فقير الحال ، إلى حد أن أحداً من صحبة الشيوخ لم يهب واقفا لتقبيله : وبمظهر وقور ، اتكأ ذلك الرجل على مشعابه برهة قصيرة ثم راح يشير بذلك المشعاب لكل واحد من الحاضرين ، الواحد بعد الآخر ، وراح يحيى كل واحد من الحاضرين بصوت رخيم ذاكراً اسمه وهو يقول :

"قوَّاك ! الله !" كانت زوجة بدوية مسنَّة مسكينة ، قد راحت تلاحق ذلك العائد الجديد ، عندما بلغها أن ولدها قد عاد من جديد ، وبالتالى لاحقته إلى أن دخل الخيمة التى يجلس فيها الشيخ مطلق ؛ وقفت تلك الزوجة البدوية العجوز خارج الخيمة تنتظر ولدها نظرا لأن النساء غير مسموح لهن بدخول المجلس الذى يجلس فيه الرجال . وبعد أن انتهى ذلك الرجل من سرد الأخبار التى لديه ، دلف إلى خارج الخيمة ليحيى والدته ، التى جرت إليه وطوقت عنقه بذراعيها الضعيفين ، وهى ترتعد بحكم شيخوختها وضعفها ، عندما رأت أنه ما زال حيا وبصحة جيدة ؛ وراحت تقبله وهى عاجزة عن الكلام ، ولكنها كانت تنطلق منها صرخات صغيرة . ضحك بعض شاربى القهوة ضحكا فى غير محله ، بل إنهم سخروا منها لضعفها ووهنها ، ولكن الشيخ مطلق قال لهم : "ما الذى يجعلكم تضحكون ؟ أليس هذا هو حب الأم ؟"

وعلى الفور جاءنى سليم Selim بدعوة من والده ؛ "قال مطلق : حسن ، اذهب مع سليم ، وتصالح مع زيد ، وتأكد من أن أيكما لا يريد من الآخر أى شىء كان ." دعانى زيد إلى الشقة الخاصة بزوجته ، حيث جلسنا فيها ، أنا وهو سويا ، وكانت معنا أيضا زوجته حرفة ، لنأكل كلنا مع بعضنا عيشا وملحًا . وسرعان ما تراجع زيد عن تلك المضايقات ، إلى الروح البدوية المرحة ، وذلك عندما لم يجد أن أخيه كان مخطئا ، بل إنه جثى على كوعيه ومدهما ، باعتبار ذلك عهدًا على صداقتنا ، وسبيلا إلى السلام ، وأننى يتعين على أن "أشرب" معه الدخان :- وهذا هو حال البدو . لم يتطرق حديثنا إلى المشادة الأخيرة التى دارت بيننا ، ولكن رسخ فى ذهن زيد فيما بعد أن خليلا وسمه بأنه حبلوص (لص) . وفى خريف ذلك العام ، وعندما كان الفكارة يخيمون فى قرية الحجر ، وعندما كنت بصحبتهم من جديد ، وبينما كنت أمر على مُنْزل زيد ، نادانى من داخل بيته (خيمته) قائلا : "يا خليل تعال Taall " بمعنى "احضر إلى هنا يا خليل !" ذهبت إليه وحييته ، كما حيت زوجته التى كانت تجلس خلف الستار قائلا : "جويك gowwich حرفة Hirfa " بمعنى "قوَّاك الله يا حرفة" . - رد زيد قائلا : "هذا صوت خليل ، والكلام كلام بدوى ؛" ثم نهض زيد ليحضر لى طبقا من الأرز أكله معه ، وكان الطبق جاهزا بالفعل . بعد أن أكلنا ، "قال : إنه سعيد لرؤيتى مرة ثانية فى بيته ، والبيت كان ما يزال على حاله القديم ؛" ثم نظر الرجل إلى الأرض بعض الشىء وأردف

قائلا : "ولكنى بعد صداقتنا يا خليل ، أصابنى جرح ، عندما نعتنى حبلوصًا ، وكان ذلك أمام الشيوخ ." – "سبب ذلك أنك هددتنى وأغضبتنى ، ولكن ، ما عليك من كل هذا يا زيد ." كيف لى بمعرفة كل كلامكم أيها البدو ؟ ألا ترى هذه الخيام الصوفية السوداء ؟ أليست كلها خيام حباليص ؟" مشينا سويا إلى المجلس ، حيث راح زيد يحكى وهو يبتسم أننى كنت أعنى بعبارتى "ذلك البدوى" .

عندما تساءلت مع زيد : "لماذا لم تفعل ما أمر به الباشا ؟" صاح زيد قائلا : "من الذى يصدر لى أوامر ! "حنًا" Hanna بمعنى "نحن هنا" "البدو" : ما هو الباشا ، ومن هى الدولة Dowla (الإمبراطورية العثمانية) رحنًا ؟ كل هذا هنا لا شىء اللهم باستثناء أنهم يدفعون لنا صرتنا ، وإلا أخذناها منهم عنوة وبالقوة ." – "وما هى قوتكم ؟ هل تظن أن مائة منكم ، مسلحين بالعصى والعكاكيز، والحراب ، والبنادق الفتيلية العتيقة ، يساوون عشرة أفراد فقط من جنود الحج ؟" – "سوف نفتح النار عليهم فى البوغازات boghrazat (الممرات الضيقة بين الجبال .)" – "وما هو المدى الذى يمكن أن تصل إلية طلقات حدائدكم الصدئة؟" وهنا أجابنى زيد وهو حائر بين الهزل والجد." أربعة Arbaa ساعات Saa " بمعنى "إلى مسافة أربع ساعات ." معروف أن "الساعات" Saat عند الأعراب تعنى "الفترة الزمنية الثانية أو الثالثة فيما بين أوقات الصلاة . كان البدو يسألونى فى معظم الأحيان : "كم ساعة فى اليوم ؟ ونحن لا نعرف جيدا ما هى الساعة Saa . "والبدو يقسمون النهار على النحو التالى : الفجر ، أى ما قبل طلوع الشمس ؛ ثم القايلة أو إن شئت فقل : القيألة ، وهى فترة سطوع الشمس قبيل الظهيرة ؛ والظهر eth-Thóhr، أى عندما تكون الشمس فى سمت السماء عند منتصف النهار ؛ العصر el-Assar ، أى هبوط الشمس إلى ما بعد منتصف النهار ؛ ثم غيبة الشمس Ghraibat Es-Shems ، بمعنى "غروب الشمس"– كلمة "مغرب" Maghrib كلمة حضرية غريبة على آذان البدو .

أصبحت محطة البدو الصيفية فى الأردَّة(*) el-Erudda قرية منفرة غير مرغوب فيها والسبب فى ذلك أن البدو قد أتوا خلال تجوالهم اعتبارا من بداية موسم الحج ،

(*) المرجح هنا هو كلمة "الروضة" بدلا من "الأردَّة" والروضة عند البدو هى المكان العامر بالخضرة والمياه . (المترجم)

على ما لديهم من مخزون البن ، و "حيث لا توجد القهوة ، ينعدم المرح والصحبة" ، على حد قول الأعراب . هاهى وجارات قهوة البدو باردة ، وكل واحد منهم جالس مطأطأ الرأس وحزين ، فى Fi أهله Ahlahu " بمعنى "بين أفراد أسرته" . قال زيد : "كان ذلك هو حال البدو الرُّحل القدامى فى أيام ما قبل القهوة ." سوف يرسل الشيوخ على وجه السرعة من يحضر المزيد من البن من مخزونهم الموجود فى مدائن صالح Medáin؛ وسوف يتعين على زيد الذهاب إلى مدائن صالح أيضا لإحضار جوال من الأرز ، كان قد سبق له أن وضعه فى القلعة على سبيل الأمانة . إذن سوف أرافقه إلى هناك ، على أمل المرور على قرية العلا ، وصولا إلى ساحل البحر الأحمر . هذه هى الصحراء الجرداء القاحلة وقد أصابها الإغماء بسبب الجفاف الناتج عن حرارة الشمس ، انقضى موسم الحصاد ، وكنت أرغب فى الرحيل . هاهم الأعراب يرقدون متكاسلين فى الخيام ؛ كنا نبدو كما لو كنا نتنفس لهبا . كنت ألهث طوال النهار ، وأكاد أعجز عن الإبقاء على رمق الحياة فى داخلى ، نظراً لاضطراد أنفاسى وعدم رغبتى أو قدرتى على تناول الطعام . كانت تراودنى فى بعض الأحيان ، فكرة استغلال الأيام الطويلة فى تعليم سليم Selim القراءة والكتابة : ولكن ولد زيد عندما تعلم الحروف الأبجدية ، أوقفه والده من تعلم المزيد ، مخافة أن يلتقط ذلك الولد منى بعض الألفاظ والتعبيرات الخاطئة ، قال زيد أن لسانى لم يكن "طلقا" . وبعد أن أصبح لدى قدرا من المفردات ، كنت أقرأ على الجماعة صفحة أو صفحتين بين الحين والآخر . المؤكد أنى لم أخطئ كثيرا ، فى نطق الكثير من الكلمات التى سبق لى التعرف عليها تماما ؛ ولكن قدرا كبيرا من تلك المصطلحات الحضرية والكتبية كانت معروفة تماما لكل من كانوا يستمعون إلىّ من البدو الرُّحل ! يبدو أن البدو لم يكونوا يعرفون جذور بعض هذه الكلمات ، كما كانوا يستعملون أشكالا ، أو تصريفات أخرى لبعض الكلمات الأخرى . هؤلاء البدو كانوا هم أنفسهم يتعجبون (بالرغم من أن لديهم احساسا كبيرا بلغتهم ولديهم أيضا متسعا من الوقت لاكتساب طلاقة اللسان) وهم يتدبرون معانى الكلمات ، واحدة بعد الأخرى ، باهتمام كبير من هنا فإن أفراد القبائل السذج البسطاء عندما يتعين عليهم فى فترة من حياتهم الدخول إلى واحدة من المدائن الحضرية الجيدة عند مناطق الحدود ، يبدو الكلام الحضرى غريبا عليهم تماما وعلى أسماعهم ، "إنهم

يتعرفون الأمور بصعوبة ، وهم يشتكون ، مما يعنيه أولئك الحضر بكلامهم ." ومعروف أن الكلام الفصيح مبنى على لغة القرآن القديمة ، التى كانت لغة الأراضى المنخفضة ، ولم تكن فى أى وقت من الأوقات لغة أعراب الأراضى المرتفعة . [وإذا كان هناك شك فى هذه المقولة ، فقد أكدها أولئك المترجمون العليمون الذين ترجموا النقوش الصحراوية القديمة] .

ذبح محسن خروفا فى الليلة السابقة لرحيلنا ، وذلك من باب تمام سنة على وفاة والده ، وأحضر لنا شيئا من ذلك اللحم بعد طهيه ، كان محسن هذا نسيبا لزيد ، وكنا نشكل مع بعضنا مجموعة طيبة . صلّحت لهم شايا حلوا ؛ وزعت عليهم هدايا من الأشياء التى كانت بحوزتى . وبينما كنا جالسين سألت هذين البدويين عما إذا كان قَعودى (جملى الصغير) قادرا على حملى ، وفمه مكسور مسافة مائة وخمسين ميلا إلى بلدة الوجة el-Wejh؟ وعرض على واحد من الحاضرين ، أن أعطيه عشرة ريالات ، وبالتالى يعطينى ناقته بدلا من جملى الصغير . وعندما وافق زيد ومحسن على ذلك دفعت الريالات العشرة ؛ ولكن معروف أن وساطات العرب تنطوى دائما على الخيانة . يضاف إلى ذلك أن زوجة هذا الرجل المسكين هى وأطفالها لعبوا دور البكائين ، وأعطيتهم علاوة على النقود كل ما استطعت توفيرة من الملابس ، التى هم بحاجة ماسة إليها فى الصحراء ؛ ولكنى بعد أيام قلائل ، وجدت أشيائى هذه معروضة للبيع فى تيماء . وبناء على ثقتى بهذين البدويين ، اشتريت جملا عجوزا ، لا يقوى على العمل ، بل وفقد أسنانه الأمامية، ولم تكن له قيمه تذكر، عند البدو، قياسا على جملى المصاب . كنت جديدا على خبراتهم فى ذلك المجال . والسبب فى ذلك أن الإبل تُقوَّمُ على أساس أسنانها، وأسنامها أيضًا. والإبل تسمى حسب أسنانها، إلى أن تظهر أنيابها: والجمل الذى عمره عاما يقولون له: حوَّار Howwar؛ والجمل الذى عمره عامين يقولون له "لبنى" Libny، أما الجمل الذى عمره ثلاث سنوات فيقولون له "حج" Hej؛ والجمل الذى عمره خمس سنوات يطلقون عليه اسم "جيزة" Jitha، والجمل ذى السنوات الخمس يقولون له: "ذنِّى" Thénny؛ والجمل الذى عمره ست سنوات يطلقون عليه اسم "روبَّة" Rôbba ، والجمل الذى عمره سبع سنوات يسمونة "سيدَّس" Siddes، وذى السنوات الثمانى يطلقون عليه اسم "شاج" Shágg النَّابَة en-naba، أو وفيات Wafiat، أو "مفطر" Mùfter.

الفصل الثالث عشر

زيارة المدائن مرة ثانية

ممر الحرة منظر الحُرة . فطر الصُبغ . رياح السموم . الوصول بصحبة زيد إلى القلعة . مدائن صالح . شكوى زيد . رحيل زيد هو والبدو . الحرارة الخانقة . محمد الدُبيس . الأخ . نقوش مزهام . الصقور . نزاع البدو الرحل فى القلعة . "ملح البنادق" Gunsalt. زيارة موقع الهجرة مرة ثانية . الشجرة المملوكة . دولان بوصفه عنترًا . القمر الجديد . نجم هاو . غزو الجراد . صحبة قهوة شيوخ ولاد على فى القلعة . مطلق العلايدى . ولده فهد . إنذار الليل فى القلعة ؛ نجم يهدد بقتل الصبى محمد . إنذار جديد . زواج الصبى محمد . الرحيل عن القلعة . تعال ثانية إلى البدو فى الإردة . الحُموُ . أخيرًا تغرب الشمس . ممر الحَرَّة . أشجار سنط الصمغ العربى . خشب دباغة الجلود . ارتفاع الحُرة البركانية . المواهيب . عربات اليد . صبر جمال الحَمْل . ديار البدو الرُحَّل . لقاء مع الأعراب . تعال إلى السُهامة المخيمين فى تهامة . الشيخ مهنا . هواء السُموم فى تهامه .

رحلنا عند طلوع الفجر : وسرعان ما تبدّت أمامنا ومن تحت أقدامنا تلك الحلبة الضخمة التى يطلقون عليها اسم الحرَّة ؛ بدت لنا وكأنها تجويف كبير من تحت أقدامنا ؛ ويخترق طريق الحج ذلك التجويف الكبير . وبعد أنْ قطعنا بضعة أميال شاهدنا رجلين أو ثلاثة رجال كانوا يجوثون بين الصخور البعيدة ، التى وجدناها ، عندما وصلناها ، تشكل جزءً وعرًا من هذه البلاد ؛ قالت جماعتنا المكونة من خمسة أو ستة أعضاء إن هؤلاء الذين شاهدناهم كانوا من الحباليص (اللصوص) . وشاهدنا من أمامنا أيضا عشبا جديدًا ، ومرعى أفضل بكثير من المراعى التى

شاهدناها مؤخرا ، ولكن هذه المنطقة لا يزورها البدو إلا نادراً ، "اللهم ، على حد تعبير زيد ، إلا إذا كنا نتنقل ، فى بعض الأحيان ، ونخيم سويا مع أولاد على" . هنا ، وبالقرب من ممر رئيسى من الممرات القريبة من الشمال ، كان ولاد على ، رغم وجودهم فى ديرتهم ، يعانون الكثير من مخاطر اللصوص . فى تجويف تلك الأرض المرتفعة ، كانت تنمو بعض النباتات السامة الطويلة بيضاء اللون ؛ قام بعض رفاقنا بجمع هذه النباتات ؛ وهذه النباتات بعد غليها مع الشَّبَّة فى بول الجمال التى تتغذى على أدغال نبات الحمض ، تعطى ، على حد قول البدو ، ذلك الصبغ الأحمر القانى المرح الذى تستعمله البدويات فى صبغ الخيوط الصوفية التى يغزلنها .

وفى مستهل فترة العصر مررنا من أمام حائط صخرى ، لاحظت فيه نقشا قديما واضح المعالم ، ويكاد يكون شبيها بالنقوش النبطية التى شاهدتها فى مدائن صالح فى المرة الأولى ؛ هذا النقش ، دونا عن سائر الشروخ الصحراوية كلها ، موضوع داخل إطار . (الصورة رقم ٥٠) وعندما قفزت فجأة نازلا عن الجمل ، هرب الجمل منى ، ولكنه سرعان ما سبقه زيد وعاد به إلىَّ وهو راكب فوق ناقته ، ويسحبه خلفه . ومن باب التحذير كنت أرى أن ذلك النقش إنما هو واحد من نقوش الطريق . وبعد مسافة قصيرة ، دخلنا إلى طريق قديم ؛ كان ذلك الطريق مُعَلَّمًا خلال هذه المنطقة الجبلية بأكوام من الحجارة ، إلى أن يصل إلى سهل قرية الحجر . وقد أبلغنى رفاقى أن الهدف من تلك الأكوام هو تحديد اتجاه الطريق . هذا يعنى أن ذلك كان هو الطريق القديم بين الحجر وقرية تيماء . وعلى حد قول البدو ، فإن طريق الحج القديم كان يمر بقرية تيماء ، ونحن بدورنا نعرف أن فرعا من طريق التجارة القديم كان ينزل من ذلك الطريق متجها إلى سوريا . [راجع كتاب سبرنجر Sprenger المعنون : "جغرافية الجزيرة العربية"] . هبت علينا طوال نهار ذلك اليوم ريح جنوبية جافة ، تسبب جفاف الحلق ، إذا لم يشرب الإنسان شيئا من السوائل ، وراح الأعراب أثناء مسيرهم يستخدمون أطراف غتر رءوسهم فى تغطية وجوههم فيما عدا عيونهم . هذه الريح عبارة عن لفحة حارة من الهواء قليل الكثافة ، يسمونه "الطاعون أو الوباء" أو إن شئت فقل : "السموم" Simum حسبما يقول البدو . كانت الشمس قد غربت عندما بدأنا ننزل منحدرا رمليا ، بالقرب من تلك العلامة الأرضية الغريبة (انظر الشكل المبين على

صفحة ٢٨٥ من النص الإنجليزى) التى هى عبارة عن صخرة من الحجر الرملى تشبه العسكرى فى لعبة الشطرنج، إلى أن وصلنا إلى قاع سهل مدائن صالح؛ هذا السهل ، فى هذه المنطقة ، محاط بأدغال صحراوية وافرة النمو . بين هذه التلال الرملية ، وبين هذه الأعشاب ، التقينا ، أثناء الظلام ، جماعة أخرى من البدو ، واعترضناهم ؛ وعندما تعرفوا أصواتنا ، رحبوا بنا مرة ثانية ، واتضح أنهم من المتسوقين فى قبيلتنا ، وكانوا عائدين من قرية العلى el-Ally .

كانت الساعة الثالثة صباحا عندما بدأنا طرق باب القلعة الذى كان عبارة عن لوح من الحديد . وعقب سماع طرق الباب ، جرى الحاج حسن ، عقب سماع الضوضاء ، وبصحبته الصبى محمد ، جريا إلى أعلى البرج ، ونظرا من خلال المزاغل ، وراحا يناديان بصوت غليظ ليعرفا من نكون نحن ، الذين كنا أمام الباب ، والذين أقلقنا راحتهم فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . وبعد أن سمعا أصواتنا ، نزلا يجريان على سلم القلعة وهما يضحكان بصورة غير معتادة ، ثم وصلا ليفتحا مزلاج الباب ، كيما ينفتح على مصراعيه ؛ دخلنا القلعة ، ورحبوا بنا بحكم أننا كنا أصدقاء قدامى ، ثم صعدنا بعد ذلك إلى غرفة القهوة . وجاء الحاج نجم وهو يطرقع بحذائه ، وتعلو وجهه ابتسامة المضيف . وشبوا النار من جديد فى الوجار ، وجلس الحاج نجم ليصلّح القهوة لضيوفه ؛ وبينما كنا نشرب القهوة ، وطوال الحديث الطويل الذى دار بيننا ، أحضر لنا الحاج نجم طبقا كبيرا من الخبز غير المخمور ، الذى قامت زوجته بإعداده فى هذه اللحظة ، وخبزته ودهنته بشىء من الزبد ليكون عشاءً للضيوف . "(قال العجوز المُضيف) هذا طعام على قدر الحال نضعه أمامكم ، ولكنكم وصلتم متأخرين ، وليس هناك غير ذلك فى القلعة !" – "(قال زيد) وهل تود معاملتنا معاملة الغرباء ؟ ألسنا هنا فى القلعة ، يا حاج نجم ، نشعر وكأننا فى بيوتنا ؟" رد الحاج نجم على ذلك السؤال ردًا وديا ، بالرغم من همز ولمز راعى هذه القلعة العجوز ، فى أعقاب ذلك ، بما يفيد أو يعيد إلى ذاكرته تلك الفترة التى استولى خلالها شيوخ الفجير Fejir على القلعة . – "وأنت يا خليل ، ها أنت تعود إلينا مرة ثانية ، مرحبا بك ، لقد سمنت على مراعى الربيع ؟ (صاح الصبى محمد الشبيه بالبدو) . آها ، تقول الربيع ! الربيع الجميل ! إنه موسم الحليب فى الصحراء الجرداء ، وصحبة الأعراب تكون جميلة فى

ذلك الموسم ." وهنا قام زيد ، بعد تقديم كلماته المفعمة بالمديح والثناء والدعابة ، وذلك من باب الاستعداد للطعن ، كما هو حال الأعراب فى مثل هذه الظروف ؛ قام زيد بتقديم شكوى مطولة عن الفائدة البسيطة التى حصل عليها من خليل ، الذى جازى زيداً عن حنانه وشفقته ، بأن نعته بأنه حبلوص (لص) ! انفجر المغاربة فى الضحك بصوت عالٍ ؛ ولم يستطع زيد البدوى ، وسليط اللسان أن يحظى بشىء من الحظوة أو المحاباة ، فقد كان يتحدث إلى آذان أصابها الصمم فيما يتعلق به هو شخصيا منذ زمن بعيد . يضاف إلى ذلك أن الصبى محمد ، عندما خرج من باب القلعة ، شاهد أيضا ناقتى الطرماء التى فقدت أسنانها ؛ وبهذا المرح الجديد ، الذى قطع على زيد حديثه الممل ، انصرف كل من الحاج حسن والصبى محمد وهما يضحكان ، ليذهب كل منهما إلى غرفته لنيل قسط من الراحة . بعد ذلك ، تحول زيد إلى الحاج نجم ، وكشف له بوقاحة المتاهة السوداء التى تدور فى ذهن هذا الزيد ، وهنا قال المغربى الأمين ما يلى : "يا خليل ، البدو كلهم شياطين !" ؛ ثم توقف الحاج نجم عن مواصلة الجلسة مع زيد ؛ وعقب ذلك فرد الحاج نجم عباءته أمامه ، ثم جلس على ركبتيه ، ودخل فى صلاة العشاء حسب الدين الإسلامى : – وراح زيد ، يتكلم دون أن ينصت إليه أحد . ثم وقف الحاج نجم من صلاته ، وأحضر قطعة من قماش الخيام ، كى أفرشها على الحجر الصلد من تحتى ، وتركنى وتمنى لى راحة طيبة .

فى ساعة مبكرة من طلوع النهار ، كانت أيلة زيد قد حملت بضاعته من المخزن الموجود فى القلعة ، كما كان البدو الواقفون إلى جوار ماشيتهم خارج القلعة على استعداد للرحيل ؛ وعليه عزم عليهم الحاج نجم ورجاهم الدخول إلى القلعة لتناول طعام الإفطار ، وتركونى وحدى : فى حين بقى زيد صامتا وسط اندهاشه ، هذا يعنى أنه لن يغفر لى ما حدث ، – لا ، لو كان المغاربة قد كشفوا لى أو عبروا لى عن غضبهم ، لكان زيد ، وبلا أدنى شك ، قد أعادنى مرة ثانية إلى الحرية الودية فى خيمته البدوية فى الصحراء. ولكن عقل وذهن ذلك الجار الطيب القديم كان يختلف اختلافا كبيرا عن ذلك؛ وبعد ذلك بلحظة ، عاد إلى الحاج نجم ليدعونى لتناول طعام الإفطار على انفراد فى المكان الذى اختاره هو لذلك ، وتلك إشارة أخرى إلى نواياه الطيبة تجاهى ، وكان الإفطار ، مزوّداً بمقدار كبير من السمن . وبعد ذلك ببرهة قصيرة نهض البدو واقفين

لكى يرحلوا إلى ديارهم ، وهم يقولون لمضيفهم : "السلام عليكم ،" ثم ركبوا دوابهم عائدين إلى الأرُدَّة (الروضة) el-Erudda . استقبلنى الحاج نجم استقبالا طيبا ، فهو رجل غريبى ؛ ولكن مسألة الانقلاب على أى واحد من المسلمين كانت فى أغلب الأحيان ، تحول تسامحهم إلى برهان ودليل خطير : هذا يعنى أن الشخص الذى ينتمى إلى دين غير دينهم ، قد يكتشف فى شىء من الحيرة والارتباك ، أن أولئك الذين كانوا أصدقاء له فى وقت من الأوقات ، أصبحوا لا يربطهم به أى شكل من أشكال الإحسان ، بسبب انعدام الإنسانية المجنون الذى يتولد عن التشدد والتعصب الدينى ! سوف أذهب مباشرة إلى قرية العلا ؛ ولكن الحاج نجم أقنعنى بالبقاء فترة قصيرة فى القلعة ، على أن يقوم هو خلال هذه الفترة بتحرى وترتيب مسألة سفرى مع القافلة المتجهة إلى بلدة الوجه . أو إلى أن يوفر هو لى رفيقا أمينا فى هذه الرحلة عبر الحرَّة إلى ديار المواهيب ، التى سنوف ألتقى فيها أبا سنون ، الذى من عادته السفر بين الحين والآخر إلى بلد الوجه .

كان الوقت يصادف الأسبوع الأول من شهر مايو ، وكانت حمى الواحة قد بدأت فعلا فى قرية العلا ، وفيما يتعلق بالذباب ، لم يكن بوسع أو باستطاعة أى جمل من الجمال البقاء فى تلك القرية أكثر من يومين فقط ؛ يضاف إلى ذلك أن سهل الحجر لم يكن فيه سوى نبات الرمض سيئ الطعم فضلا عن خلُّوه أيضا من الفوائد الصحية أيضا ، وهنا أرسلت ناقتى ترعى مرة ثانية مع نياق البدو . ويبدو أن درجة الحرارة الخانقة التى خبرناها فى الأرض العالية ، فى خيام البدو الرحل ، قد أخذت فى الانخفاض إلى حد ما ، فيما بين الجدران المبنية من الحجر ، وقد سجلت درجة الحرارة ٨٨ْ فهرنهيتية فى فترة العصر . وبانتهاء النهار فى الجزيرة العربية ، دخل المساء ومعه الحيوية والنشاط وأخذ جهاز قياس درجة الحرارة (الترمومتر) يسجل درجات أقل إلى ما قبل طلوع النهار بوقت قصير جداً ؛ وقد سجل الترمومتر ٦٨ْ فهرنهيتية . وبدأت تهب علينا من ناحية الجنوب طلائع الريح الساخنة ، مع انخفاض درجات الحرارة فى فترات العصر الخانقة، وكانت طلائع تلك الريح تحمل سحب الغبار إلى القلعة . هذه الريح عبارة عن لفحات تأتى من الوديان ، خلال موسم ، لا تسود فيه صحراء الجزيرة العربية المرتفعة سوى حبَّات الهواء الطافى الخفيف قليل الكثافة .

كانت شمس حرارة الظهيرة شبه عمودية ، إلى حد أنها لم تكن تشرق على مدخل خيمتى الذى كان متجها صوب الجنوب . وجدت بركة المياه جافة ، كما وجدت أيضا أن الأرض الرملية تحولت إلى بستان ، أو إن شئت فقل : حديقة ، مقسمة إلى أحواض للرى ، ومزروع فيها تشكيلة كبيرة من نبات البطيخ ، الذى قام الحاج نجم بزراعته عقب انتهاء موسم الحج . كما وجدت أيضا أن غتر رءوس من كانوا فى القلعة قد رفعت إلى الأعلى وتحولت إلى عمائم ، كما كانوا ، أو بدءوا يشبون نار القهوة فى الظل خارج جدران القلعة : – كان ذلك هو عالم الصيف الجديد عند هؤلاء البشر .

سوف أقوم فى الوقت الراهن بزيارة مبرك الناقة ، الذى عثرت فيه على كثير من النقوش القديمة . كان الحاج نجم يخاف علىَّ ، أما حسن فقد كان يلومنى بمعارضته المعهودة قائلا : "إنها لحماقة تامة وغباء تام من خليل أن يسلم أمره لبدوى !" وهنا ذكَّرت حسنًا ، أن محمد الدبيس Ed-Deybis الذى كان على استعداد لمرافقتى هو حماه (والد زوجته) . "نعم ، يا خليل ، وهو بدوى أيضا ! – ولو لم ينوِ شرا ، فهل كنت تظن أنه سوف يتركك أو يتخلى عنك ؟" وأخيرا قال الحاج نجم : "يجب أن لا يموت خليل فى القلعة ، واشكر ربك على أنه لم يصبك مكروه ." وعندما شرعنا فى القيام بزيارة مبرك الناقة فى فترة العصر ، أوصانى الحاج نجم بتمضية تلك الليلة فى مكان بعيد عن الطريق ، على أن أذهب إلى المكان المقصود مع بدء نهار الغد ، وأن لا أبقى هناك ساعة من الزمن ، وأعجل بالرحيل عن المكان قدر المستطاع . ومعروف أن عرب الديار المستقرة لهم رأى غير صحيح دوما فى عقيدة البدو الرُّحَّل . وقد أصيب رفيقى بالدهشة عندما أبلغوه أنهم سوف يحتفظون بولده فى القلعة إلى حين عودتنا من الزيارة سالمين . وتحول هذا الرفيق إلى أخٍ Akhu لى ، أو إن شئت فقل : أخٍ لى عن طريق الأجر ، عن طريق عَطية مقدارها كراون واحد ، لشراء قماش قميص جديد ، الأمر الذى جعل منه بدويا رزينا يمتاز بالرجولة ؛ وهذا هو ما بدا على ذلك الرجل أكثر مما كان عليه فى حقيقة الأمر . ولقد سبق لى مئات المرات ، أن عهدت بحياتى ، فى الأوقات التى لم أستطع خلالها المضى قدما ، إلى رفيقى البدوى ، الذى لا أعرفه ، وعلى امتداد مسافات طويلة . ألم يكن بوسع سيف ذلك الرجل الخائن ، أن يضع حدًا لأيامى فى هذه الدنيا ، أثناء نومى ؟ ولكن ذلك كان يعد قتلا للأخ حسب قانون

الصحراء العربية : هذا يعنى أن أحداً من هؤلاء الناس لم يمارس ضدى أى شكل من أشكال العنف ، ولكنهم عندما كان يشق الطريق عليهم كانوا يتخلون عنى . هذا يعنى أيضا أن من يقتل أخيه الإنسان سيعيش ذليلا ومطمورا طوال حياته ، هذا يعنى أيضا أن أحداً من البدو لن يطيق بقاء رجل من هذا القبيل فى أى بيت من بيوت منازل البدو. ومع ذلك ، هناك بعض الناس المتغطرسين ، فى كل شعوب الدنيا ، الذين لا يراعون الأعراف أو التقاليد : هذا يعنى أيضا أن معظم المسلمين ، عندما يفشلون فى إيجاد أو التماس الأعذار لأنفسهم ، يؤكدون بطريقة دينية إن "شريعتهم ليست ملزمة ، إلا فى حدود الدين الإسلامى ."

كان القسم الأكبر من معيشة محمد يجىء من أُخوتّه : فقد كان الصبى محمد يرتبط بعلاقة الأخوة مع قبلى آخر من قرية تيماء ؛ هذا يعنى أن محمداً هو وأخيه التيمانى ، كان يقومان بالدفاع عن أى تيمانى يصيبه أى مكروه من بدو الفجير ، كما كانا يدافعان عنه أيضا بالكلام ، ويعملان على أخذ حقه وتغطيته أثناء انعقاد المجلس . كان الصبى محمد يحصل من التيامنة على ست صاعات من التمر عن كل خير يتسبب هو لهم فيه طوال العام ؛ وهذه الصاعات الست كانت تساوى أربعة عشر بنسا . ولما كان هؤلاء الشمّر القرويون ، ليسوا على مقربة من التيامنة مثل العلاونة Alwona ، فقد كان ذلك يحتم عليهم أن يكون لهم تحالف من هذا القبيل مع كل القبائل البدوية المحيطة بهم . يضاف إلى ذلك ، أن الصبى محمد كان أخا لبدو الفجهات المساكين : معنى ذلك ، أن الفهجى الذى يصيبه أذى ، يقوم محمد بالدفاع عنه فى المجلس . استغرق الطريق مسير ثلاث ساعات ، وصلنا بعدها إلى منطقة قريبة من الممر مع حلول المساء ، وهناك انتحينا جانبا واتخذنا لأنفسنا ملجأ فى فلق عميق ملتوٍ من فلوق جبال الحجر . هذا يعنى أن بوسعنا شب النار لتجهيز العشاء دون أن يرانا أحد ، وهنا أيضا قام محمد بتقييد رجلى الناقة الأماميتين ، وتركها ترعى فى المرعى . ثم تسلق محمد الجبل قبل غروب الشمس ، بحثا عن قطيع من الماعز البرى ، الذى شاهدنا آثار أقدامها عند سفح الجبل ؛ ولكن البدون (البقر البرى) ، التى عثر عليها محمد نائمة على بعد مسافة قصيرة فى الأعلى ، كانت أسرع من ذلك الصياد الذى لم يكن مستعداً لها . ومع طلوع النهار ، راح محمد يتعقب الطرائد من جديد ،

ولكنه عاد بخفى حنين . دهاء ومثابرة هؤلاء الرعاة الذين يحملون البنادق الفتيلية ، قليل وضئيل للغاية: فهم عندما يرون رأس الطريدة، تراهم يبادرون إلى إشعال الفتيل ، ثم تنطلق البندقية ، وهنا تختفى الأيلة عن أعين الصياد : ومع ذلك فإن الصلوبة ، باستعمال هذه الأدوات نفسها ، يصطادون الكثير من طرائد الصحراء .

ركبت ناقتى ، ووصلت بعد فترة قصيرة إلى المزحام (مبرك الناقه) . مبرك الناقة هذا ، هو بالتأكيد ، ممر من ممرات طريق الذهب والبخور القديم الممتد من بلاد العرب السعيدة (اليمن حاليا) : وليس هناك أى طريق آخر غير ذلك يمتد من سهل الحجر ، إلى الأراضى المرتفعة ، يمكن أن تسير فيه الإبل المحَّملة . يقع الطريق العام أسفل الجزء الشرقى من الصخور ، التى وجدت أنها مليئة بالنقوش القديمة . كان كل شرح من تلك الشروح الموجودة أسفل هذه النقوش الموجودة على الصخر الرملى الناعم مضعضع أو إن شئت فقل : مدقوق ؛ ومن المحتمل جداً أن تكون تلك الضعضعة أو التهدم ناتج عن استعمال حجر سائب آخر : هذا يعنى أن بعض هذه المدونات كانت ما تزال بيضاء اللون وواضحة ، مثل أية مدونات أخرى جرى إحداثها فى السنوات الأخيرة ، بعض آخر من تلك المدونات ربما يكون قد بلى وتهدم مع الحجر نفسه [انظر وثيقة النقش الموجود على اللوحتين أرقام ١٨ و ١٩] . القسم الأكبر من هذين النقشين عبارة عن صفوف منفردة من الحروف الحميرية ؛ وقلة قليلة من هذه النقوش هى عبارة عن نقوش نبطية : ومن بين بقية النقوش كان هناك سطران أو ثلاثة سطور ركزت ذهنى عليها وأصابنى شىء من الارتباك فيما يتعلق بتلك السطور، – مبعث هذا الارتباك يرجع إلى أنى استطعت قراءة هذه الأسطر (على أنها من اللغة العبرية ! أم أنها كانت مجرد أسماء مسيحية ؟) على أنها من اللغة الإغريقية القديمة ! وبكل تعب ومشقة استطعت تدوين قسم كبير من هذه الأسطر الثلاثة ، تدوينا أمينا ، نظرا لوضوح حروفها دونا عن سائر تلك المجموعة الكبيرة من النقوش . فى هذه المنطقة ربما ينظر الرحالة ، الذين يصعدون إلى هذا المكان ، نظرة أخيرة إلى هذا السهل النبطى Naba-tean ؛ كما أن الرحَّالة الذين يصلون إلى هذا المكان قادمين من الشمال يلقون ، من هذا المكان، النظرة الأولى على مدينة الحجرة Hejra : ومن المحتمل أن يكون الصاعدين والهابطين ، قد نزلوا فى هذا المكان ، ولربما أيضا قام شخص أو آخر

بتناول أو أخذ حجر من هذه الأحجار (حيث وجد أن الكثيرين من قبله ربما يكونوا قد دونوا شروحهم) ، ليطرق به على الحجر ذكراه الخاصة به .- فى تلك الأيام، كان النظر إلى مدينة الحجر ، على طول ذلك الخط الأخضر من أشجار السنط الجميلة، التى نمت على شكل غابة بالقرب من مجرى السيل ، يجعل العينين تتركزان ، عجبا ، على هذه المستوطنة التجارية العتيقة !- وأثناء عودتنا ، وعندما كنت أتحدث عن صُرَّة الحج ، رد على الصبى محمد ردًا قاطعا وهو يقول : "بالرغم من أن عسكرهم هم الأفضل تسليحًا ، إلا أن البدو هم الأكثر شجاعة :" ومع ذلك اعترف محمد أن البدو المساكين عجزوا عن التصدى لأولئك العسكر أو الوقوف أمامهم فى ميدان القتال . وعندما اقتربنا من القلعة ، جرى أولاده نحوه قادمين من خيمته ، كى يتلقونه ؛ وبحب البدو ، رفع ولده الصغير ووضعه أمامه على السرج ، كى يركب معنا إلى الخيمة أو إن شئت فقل : بيت الشَّعْر .

كان عرب البوابة قد سرقوا ، فى الفترة الأخيرة ، أكثر من عشرة من الصقور الصغيرة من أعشاش الطيور الكاسرة فى منطقة صخور إثلب Ethlib . شاهدت ، فى ذلك الوقت ، اثنين أو ثلاثة من هذه الصقور فى كل خيمة من الخيام ، شاهدتها وكل واحد منها مربوط من قدم واحدة إلى مجثمه ، الذى أقامه الأعراب له فى مكان رملى مرتفع ، وسمعت تلك الصقور وهى تئن وتشتكى طوال النهار . كان طعام تلك الصقور عبارة عن حيوانات طفيلية ، وسحالى ، وفئران وحشرات ، حسبما يتيسر لها العثور عليه ؛ وإذا لم يجد الأعراب ما يطعمونه لتلك الصقور ، فقد كانوا يكتفون بإعطائها قليلا من العجين : وفى الحياة البدوية يقوم البدو بنزع حشرة القراد كبيرة الحجم التى تتعلق بصدور الإبل ، ثم يقدمون تلك الحشرة طعاما لتلك الصقور . هذه الصقور تحظى بتقدير كبير من البدو فى اصطيادها للأرانب البرية ؛ وصيد الأرانب البرية ، نوع من تزجية الوقت ، عند أولئك العاطلين الذين ليس لديهم ما يفعلونه ؛ والصقَّار الجيد يستطيع ، كل يوم تقريبا ، تعديل أو تحسين ذلك الطعام البدوى الذى تتناوله أسرته . وأقل هذه الصقور يصل ثمنه إلى ريال واحد، ويندر أن يبيع الأعراب النوع الممتاز من الصقور نظير ثمن ناقة من النياق. كل هذه الصقور كانت من النوع اللطيف ؛ فى نفس هذه القمم الصخرية كانت هناك أنواع أخرى من الصقور مثل الصقر

الجرَّاح أو إن شئت فقل: الصقر الحوَّام Buzzard، وكذلك نوع آخر من الصقور اسمه السَّماوة gledes ، إضافة إلى أنواع أخرى من الصقور المهجَّنة ، أى غير الأصيلة . والعرب ، مثلما رأيتهم فى كل مكان ، لديهم القدرة على المخاطرة بالوصول إلى ارتفاعات كبيرة : من ذلك مثلا أن المتسلقين الحفاة الذين كانوا يرافقونا، استطاعوا تسلق بعض الجروف الهاوية ، التى كنت أشعر بالدوار عندما انظر إليها . ولكنى بعد أن عدت إليهم اقترضوا منى حبلا ، استعملوه فى تقليل تعرضهم للخطر . وكل واحد من هؤلاء الصقارين كان يغار على طيوره ويتحمس لها ، نظرا لأنه خاطر بحياته من أجل الحصول عليها ؛ يضاف إلى ذلك أن الضجيج الذى كان يحدثه أولئك الصقارة ، خوفا على طيورهم ، كان يتسبب فى كثير من المتاعب والاضطراب داخل القلعة . وفى أحد الأيام ، رفع وادى Wady صوته ، أثناء جلوسنا حول وجار القهوة ، وراح يوبخ دولان Doolan ويؤنبه ، راح الاثنان يتصايحان حول رأس أرنب من الأرانب البرية ، إذ راح كل منهما يؤكد أن تلك الرأس إنما هى غذاء أو طعام لصقره هو . والعرب فى أحزانهم ، يتصايحون مثل الأجسام المحمومة ، كما لو كان الإقناع يتمثل فى كثرة صياحهم وبصوت مرتفع . أدى صياح البدو وضجيجهم داخل جدران برج القلعة إلى أن يسترق المغاربة السمع على ما يدور بين هؤلاء البدو . وهنا سحب الحاج نجم مقعده إلى الداخل ؛ وبعد ذلك وقف الرجل على قدميه المرتعشتين ؛ ثم رفع الرجل يديه الهزيلتين إلى السماء ، وأقسم ذلك العجوز على أن لا يدخل الأعراب القلعة مطلقا بعد ذلك . وهنا صاح وادى على وجه السرعة ، وراح دولان يترجى ويتوسل ، وكان كل منهما يلتمس لنفسه أعذارا ، وهنا ازداد الصراع حدة؛ إلى أن صاح حسن بصوته الجهورى قائلا: "عجبا ، أوصل الأمر إلى هذا الحد ، وأخلتما بهدوء المكان وأمنه على هذا النحو ! وخرجتما عن شعوريكما !" وهنا لملم البدويان وهما يشعران بالعار والخزى ، عباءتيهما المهلهلتين حول جسديهما ، ونزلا فى صمت ، من الدرج ، ومن بعده إلى خارج أبواب القلعة ، وهما يشعران بالسعادة نظرا لنجاتهما دون أن يسيل أحد دماءهما ؛ ولم يعودا إلى القلعة ، إلا بعد أن تصالحا مع الحاج نجم ، الذى لم تدم خصومته معهما سوى بضع ساعات . وكان حسن بعد أن اقتادهما وطردهما وأغلق الباب الحديد دونهما، عاد لتناول القهوة بضحكه الذى يصدر من بطنه ، ومعه غليونه

الكبير ، ثم قال : "هيه - هيه - هيه ! أحسنت ، يا حاج نجم ، خبرنى ، يا عمى ، ألا تشعر بشىء من الغضب الآن ؟" تساءل الحاج نجم : "هل من الواجب عند هذين الرجلين أن يجلبا شجارهما ، يا حسن ، إلى وجار قهوتنا ؟" كان الغضب الشديد يملأ صدر الحاج نجم ؛ وفى إحدى المرات ، وأثناء نوبة غضب من هذا القبيل ، سحب الحاج نجم مسدسه ، وقتل به اثنين من شيوخ ولاد على ، فى المكان الذى كانا يقفان فيه ، لأنه عندما صاح قائلا : "من هناك ! تجرأ الاثنان ومدا أيديهما ليأخذا قليلا من القمح من الجوالات الحكومية التى كانت موضوعة فى الفناء السفلى . قام حسن فى ذلك الاغتيال المتطرف ، ومن باب إنقاذ القلعة ، باستعمال سكينة فى طعن شخص آخر بين ضلوعه ، فأرداه قتيلا ورماه أمام الباب وأوصده دونه .

من بين مهام أعراب البوابة الذهاب إلى الصحراء بحثا عن ملح البارود **Gunsalt**. وهم عندما يتصدون لمثل هذا العمل يقومون بجمع التربة الرطبة ، بعد أن يتذوقوا طعمها بألسنتهم ، وهذا النوع من التربة يكون فى الظل الناتج عن بعض الصخور ، التى كانت منذ أزل بعيد أماكن يأوى الناس إليها عند الظهيرة ، هم وقطعانهم البدوية . والبدو يقومون بغلى ذلك الملح فى غلايات فى منازلهم ، ثم يتركون ذلك المحلول يبرد طوال الليل وهو ساكن بلا أى تحريك ، بعد أن يضعوا فيه قليلا من القش أو التبن :- وفى الصباح يجد البدو فوق سطح هذا المحلول قشرة من النترات صفراء اللون ، يقومون بخلطها مع نسبة من الكبريت ، الذى يشترونه من سوق الحج ، أو من المدينة (المنورة) . والبدو ، يجهزون ، هم بأنفسهم ، الفحم النباتى من نوع من الأخشاب الخفيفة ، ثم يعجنون الفحم النباتى مع مخلوط النترات والكبريت مع إضافة شىء من الماء ، ليصنعوا من ذلك قرصا من البارود ، وعندما يجف ذلك القرص ، يقوم البدو بتقطيعه إلى حبيبات بواسطة سكين ؛ والبارود الذى يصنع بهذه الطريقة يكون سيئا وضعيفا ، وبالتالى فهم يستخدمون منه شحنات كبيرة عند الاستعمال . ومعروف أن العرب لا يشترون شيئا طالما هم قادرين على صنعه بأنفسهم ، ومن هذا المنطلق يعد البدو جميعهم ممن يصنعون ذلك النوع من البارود .

زرت آثار الحجر كلها مرة ثانية، وتأكدت من أنى لم أترك شيئا دون التعرف عليه؛ ولكنى عندما كنت أفتش فى الفلوق ، أو إن شئت فقل : الشقوق التى فى صخور إثلب

، عثرت على مجموعة أخرى من النقوش : كانت كل تلك النقوش على جانب من جوانب البلدة العتيقة ؛ ولم أعثر على أحد فى الجزء الخلفى من الجبل : كان دولان رفيقا لى فى تلك الجولة . واستطعنا أن نجمع ، من بعض المواقع التى فيها كثير من الخزف المكسّر ، العديد من قطع العملة الممسوحة ، والمصنوعة من النحاس الأحمر : وراح دولان يحفر بيديه فى كومة من اللّهم (الغرين) ، التى ربما تخلفت عن انهيار منزل من المنازل الطينية ؛ كانت تلك الكومة بجوار صخرة يطلقون عليها اسم مربوط Marbût الحصان el- Hosàn، كما أرانى دولان أيضا فحما نباتيا متخلفا عن نيران قديمة ، والذى عرفت من الرماد المتخلف عنه ، إنه من خشب النخيل المحروق .

ذهبت أثناء عودتى ، فى يوم من الأيام ، لقطع بعض أوتاد لخيمتى من شجرة السنط الوحيدة الضخمة التى تقع بالقرب من القلعة ؛ تحت هذه الشجرة كانت ماعز وأغنام حامية القلعة ترقد فى الظهيرة بعد أن تشرب شيئا من الماء . كانت تسيل فوق أغصان تلك الشجرة قطرات من الصمغ العربى الصافى ؛ ولكن الصمغ الذى يسيل من الأفرع القديمة كان أسود اللون مثل الزفت ، وكان مذاقه مرًّا ، والبدو يقولون إن لهذا الصمغ أثر طبى ويستعملونه دواء : والعرب يستعملون ذلك الصمغ فى حشو ما بين ألواح القوارب التى يصنعونها فى بلدة الوجه . عند هذه الشجرة وجدت دولان حيث كان يقود قطيعه إلى ذلك المكان ، وانتظرت حتى أسأله عن فاتورة أتعابه ، أم أنه سيقوم بقطع الأوتاد المطلوبة بلا مقابل . رد على دولان قائلا : "والله ، يا ولد عمى ، أطلب منى أى شىء آخر ، لأن فى قطع هذه الأوتاد ضرر لى ولك أيضا . لا ! أرجوك يا خليل ، لا تقطع أو تكسر سوى غصن واحد من بين كل هذه الأغصان ، لأنك لست من أهل هذه الديرة ، أنت لا تعرف معنى ذلك : انظر إلى الأعلى ! ألا ترى الملابس القطنية ، وقرون الماعز المعلقة فى هذه الأغصان ، إنها خاصة بالبدو ، ولكن الكثير منها سقط بفعل الريح التى هبت على هذه المنطقة مؤخرا . وألا ترى هذه المسامير ! بعض الحجاج يدقون هذه المسامير فى ساق الشجرة أثناء أداء الصلاة !" وعندما أمسكت بواحد من الأغصان الجيدة وتناولت سكينى كى أقطعه ، أحتضننى وهو يقول : "لا ! يا خليل ، إن من يقطع هذه الشجرة لابد أن يموت." – "ما هذا الغباء ! هل تخاف من الأشجار ؟" – "آه لى ، هذه الشجرة يسكنها جن ، فلا تكن غبيا إلى هذا الحد .

أقسم بالله ، أنى أقول الحق ، فقد قام بدوى بقطع غصن من أغصان هذه الشجرة ومات بعد ذلك بفترة وجيزة ، كما ماتت أيضا مواشيه كلها . يا خليل ، فى الليلة الماضية ، جاءت فتاة صغيرة من خيمة نصبها أصحابها حديثا فى هذه المنطقة ، وقامت بجمع بعض من هذه العصى المتساقطة من الشجرة ، لكى تشب بها أمها نارا ، وبينما كانت الأم تشب النار ، تصلب ذراع الفتاة وعجز عن الحركة : وعلى الفور حملها أهلها إلى داخل القلعة ، حيث قام الحاج نجم بوضع بعض الرقى والتعاويذ حولها ، وبرحمة من الله عادت الحركة إلى ذراع تلك الفتاة" .

خسر دولان حظوته فى القلعة ، وذلك اعتباراً من اليوم الذى سرقت فيه الماعز والأغنام من بين يديه ، وبذلك هيئ له أن الدنيا كلها أصبحت ضده ، وذات يوم وهو يعتصره ذلك الحزن ، نظرا لإدراكه أن الكثير من الأخطاء البشرية لا يمكن علاجها أو إصلاحها ، وبينما كان يجلس مكلوم القلب على أعتاب خيمتى ، قلت له : "يا دولان ، لا تبكى ، فأنت عنترى !(*)" وعندما سمع ذلك الرجل ، أو إن شئت فقل : ذلك الفهجى المحتقر ، كنيته بأنه ولد من أولاد عنترة ، امتلأ قلبه بطولة وحماسة : وأفلح فى ستر دمعة كبيرة كانت على وشك السقوط من عينيه ، ولكنها سقطت فى النهاية على صدره ، وهنا لم يتمالك نفسه من الضحك ، وابتعد عنى حتى لا أراه وهو يبكى . ولن يدخل بعد اليوم لشرب قهوة المغربى ، ولكن بحلول المساء كان دولان قد تغلب على حزنه داخل خيمته ، عن طريق أغنية قوية كان ينشدها ويتغنى بها على طنين وتر ربابته : وبذلك استطاع أن ينسى كل الهموم وكل الجوع ، – والمؤكد أن هذا الراعى الفهجى المسكين مازال يعيش وفى داخله نفس قوى من النخوة والشهامة القديمة التى كانت سمة مميزه لأهل الجزيرة العربية . كان دولان جوعانا طوال أيام حياته ؛ ومن الصعوبة بمكان على أى إنسان فهم الطريقة التى يمكن الحفاظ بها على هذا الطابع ، فى تلك الأجساد البشرية الهزيلة . ومن عادة هذا الدولان أن يوضح فى كثير من الأحيان بأنه ليس لديه ما يأكله أو يقتات به ، مستخدما فى ذلك إشارة البدو ، بأن يعض ظفر إصبعه الإبهام ، بأسنانه العليا الأمامية . وهم يعنون بذلك مع النبى الراعى الذى كان

(*) نسبة إلى عنترة بن شداد العبسى . (المترجم)

يرعى الغنم أن "الله أعطاهم نظافة الأسنان ." وعندما علم دولان أن جنود السلطان كانوا يحصلون على تعيينات يومية ، عبارة عن كمية كافية من الأرز واللحم المسلوق ، ظن أنهم يحيون حياة طيبة فى هذا العالم ؛ ثم قال : "آوه ! إنه لعجب عجاب أن يأكل الرجل هنا كل يوم حتى الشبع ، مثل هؤلاء العسكر !" ومن عادة سكان المناطق الحدودية أن يقولوا عن حياة الجوع التى يحياها البدو الرحل : "إن حياتهم تشبه الموت" Mithil el-Mawt .

ذات ليلة ، وعندما كان العرب واقفين ينظرون إلى القمر الجديد ، قبيل غروب الشمس بوقت قصير ، سمعنا صوتا مندفعا عن بعد فى السماء . (قال العرب ،) إنه كان نجما ، أو إن شئت فقل : حجرا نجما ، سقط حسب ظنهم على جبال ركب Rikb الحجر el-Héjr . أبلغنى هؤلاء العرب أن بعض النجوم هوت ، فى زمانهم ، وعلى مرأى منهم ، فى ديرتهم ، وقالوا أيضا : إنهم عندما وصلوا إلى ذلك المكان وجدوا الصخور مفتتة ، أما "النجم" Star فلم يتفتت وزعموا أيضا أنه غاص فى الأرض إلى مسافة كبيرة . رحب الناس بطلوع القمر الجديد بأدعية دينية ، كما رحبت به البدويات بأغاريد كن ينشدنها فى الساعات الأولى من الليل . هذا القمر هو كوكب الطريق عند الجنس السامى العابر للسبيل . والذى لا شك فيه ، إن القمر فى الصحراء البدوية هو شكل من أشكال أضواء الحراسة الليلية ؛ والعرب يفرحون بضوء القمر عندما ينساب فوق الأراضى المرتفعة ، لأن ذلك يعنى أنهم يمكن أن يناموا ويكونوا فى مأمن من أعدائهم . رددت الحريم قافيتهن الوحيدة التى هى عبارة عن مقطوعة واحدة ، ورقصن مدة ساعة أو ساعتين . وقد عين (سيدنا) موسى أحباره "لكى يبوقوا مبشرين الناس بطلوع القمر" :- والبوق الذى يستعمله العرب لهذا الغرض يصنعونه من قرون الأغنام؛ وقد رأيت بنفسى هذه الأبواق ، التى يستعملها العرب فى تلك المناسبات ، وبخاصة فى احتفالات اليهود الدينية فى سوريا .

لم يكن موسم الجراد قد انتهى بعد ، فقد حدث ذات مرة أن هبط الجراد على هذه المنطقة فى إثر ريح مسائية ، سقط الجراد على الأدغال الخضراء كلها وعلى ذلك العدد القليل من النخيل التابع للقلعة . وهنا سارع الحاج نجم مهرولا إلى شرفته ،

وهو يمد ذراعيه الضعيفتين ، وهو يمسك بجريدة من جريد النخل فى كل ذراع منهما ، ليبعد الجراد عن نخيله ، وكان الرجل يصيح بصوت عالٍ : "يحرق الله آباءهم !" كما أمر الرجل بعض الفهجيين الذين يعيشون عند بوابة القلعة ، والذين كانوا شركاء معه فى تمر النخيل ، أمرهم بتسلق النخيل والوصول إلى قممه : واستمرت تلك المعركة مع الجراد إلى حلول الليل . فى الواحات ، حيث لا يوجد من البشر عددا يكفى للدفاع عن النخيل ويتكبد الناس خسائر جسيمة . فقد خسر الناس فى تيماء فى ذلك العام أكثر من نصف محصول التمر . وقد وصل الأمر إلى حد تدمير كل المزارع الشاسعة فى خيبر فى صيف ذلك العام ، ولم يكن أمام القرويين فى تلك الواحة ، من شىء سوى إشعال النار فى الأغصان الخضراء تحت القسم الأكبر من سيقان النخيل .

وفى صباح الغد ركب بعض خيالة البدو خيولهم متجهين نحو البوابة ، لينزلوا عندها عن خيولهم ، ويقيدون أفراسهم ، ويركنون حرابهم على الجدران ، ويروحون يطرقون لوح الباب الحديدى بشدة ، ذلك الباب الذى أوصده أهل القلعة عندما أبصروا هؤلاء الخيالة قادمين . كان هؤلاء الخيالة ، هم شيوخ ولاد على ، الذين كانوا يسبقون الرَّحْلة على ظهور خيولهم . هؤلاء القبليون قطعوا تجوالهم (خوفا من ابن الرشيد) فى الحرَّة مع بدو الموءاهيب ؛ وهم الآن يعجلون ، حرصا منهم على سلامتهم ، بالنزول إلى خيبر قبل شهرين من الموعد المحدد لذلك . كان ركَّاب ولاد على قد خسروا بالفعل ، فى الغزو الذى شنه البشر عليهم ، حوالى ثمانين جملا ، تصل قيمتها إلى حوالى ١٥٠٠ إسترلينى ، جرى تسليمها بهدوء هى وأسلحتها ، الأمر الذى أسفر عن بقاء القبيلة بلا دفاع ، وهم سوف يعرجون فى الصباح الباكر على قرية العلا ، ليشتروا نقدا أو بالأجل كل البنادق الفتيلية والسيوف التى يمكن أن يعثروا عليها فى تلك القرية؛ وقد نصبوا خيامهم ظهر هذا اليوم فى منتصف الطريق حول آبار الحجر . ولم يسمح بدخول القلعة ، إلا لجزء يسير من هؤلاء الشيوخ . ولاد على هؤلاء كانوا منذ سنوات قليلة مجرد جوم Gom (لصوص) ليس إلا . يضاف إلى ذلك أنهم كان بينهم وبين الحاج نجم دم ، أو إن شئت فقل : نوع من الثأر ، الذى لم يغب مطلقا عن ذهن ذلك المضيف العجوز الحريص ، الذى وصل إليهم وهو يرتدى أبهى ملابسه ويبتسم ابتسامة كئيبة أثناء استقباله لهم : وهذا هو جراب المسدسين اللذين استعملهما فى قتل البعض

من ولاد على ، معلق على صدره ، وتلك هى غدّارة(*) يعلقها فى ذراعه ، وعلى ذلك ، فإن من يكون فى حوزته ما يمكن أن يفقده أو يخسره ، يتعين عليه الحديث مع اللصوص الذين هم بدو من الديرة نفسها ؛ كما يتعين عليه الحرص أيضا والاحتياط لعقيدة هؤلاء اللصوص المتذبذبة ، مخافة أن ينقلبوا أعداء لك هؤلاء الذين بدوا لك أصدقاءً ومعسولى الكلام فى يوم من الأيام ، وأكلت معهم عيشا وملحا فى يوم من الأيام أيضا ,هؤلاء اللصوص هم أنفسهم يحرصون فى تعاملهم معنا ، كما أنهم يحترمون ذلك الذى يحتاط لغدرهم وخيانتهم . وأعين هؤلاء اللصوص ، تقول الكثير ، عندما يستقبل الواحد منهم رجلا يحل عليه ضيفا ، بالرغم من أن مثل هذا الاستقبال قد يكون فيه شىء من النفاق : كان الحاج نجم يقف ومن خلفه سجادتين تركيتين مطويتين ، وهاتان السجادتان كانتا تعدان أشياء فاخرة فى دنيا هذه الصحراء الجرداء ؛ وقام الحاج نجم بفرش هاتين السجادتين على أرض الممر داخل القلعة .

انضم وادى إلى هذه الطائفة من ولاد على ، وهنا أصبح كل بدو البوابة الرحل فى أبهى عطلة يقضونها فى القلعة وإلى جوراها . وهنا راح وادى يطبع قبلة يهوذا(**) على خدى كل واحد من هؤلاء الشيوخ أقاربه ، وكان وادى أثناء تقبيله لهؤلاء الشيوخ يحنى رأسه إلى الأسفل على أكتاف أولئك الشيوخ المتعفنة . بعض آخر نهض واقفا وقفة الرجولة وهو يحيى شيوخ ولاد على ، الذين كانوا يهبون واقفين لهم من مسافة بعيدة ؛ – كل شىء ليس "على ما يرام تماماً" والسبب فى ذلك هو خيبر من ناحية وابن الرشيد من الناحية الأخرى، وهذا هو ما يعكر الصفو بين هاتين القبيلتين الضعيفتين الخائنتين. وهذا هو أيضا السبب وراء جلوس هؤلاء الناس وهم واجمين، فى انتظار شرب القهوة. كان حسن يقوم بدور مصلّح القهوة بالقرب من الوجار ؛ هذا الحسن كان قد قتل واحداً من هؤلاء، وحمله وألقاه خارج الباب الحديدى مستخدما فى ذلك قوته هو وحده. هذا الحسن هو أيضا متسلح الآن ولكن بطريقة سرّية ؛ وقد أرانى حسن بعد انصراف هؤلاء الشيوخ اللصوص ، وهو يضحك ضحكته المميزة ، أرانى كلا من الشّفرة

(*) الغدّارة : بتشديد الدال وفتحها ، هى البندقية القصيرة القديمة (المترجم)

(**) قبلة يهوذا : تعنى تظاهراً بالود وإضماراً للغدر . (المترجم)

والمسدس اللذان كانا يخفيهما فى ملابسه الفضفاضة ، تحسبا لإقدام أولئك الشيوخ على مغامرة غير محسوبة ويائسة . وهنا يتعين على هؤلاء أن يأكلوا خبز ذلك الرجل من رجال القلعة وهم خائفين ومضطرين فى ديار المسلمين . كان نجم يحس بتأنيب ضميره له على ذلك الدم الذى تسرَّع هو فى سفكه ، ولذلك كان الحاج نجم يردد دوما العبارة التى تقول : "الدم ثقيل" قاصدا بذلك أن "ذنب وعبئ سفك الدم مسألة ثقيلة جداً على النفس " : هذا يعنى أنه لو حدث أى شكل من أشكال التمرد الفظ حول وجار القهوة ، فإن الحاج نجم سيكون له بالمرصاد ، ومحبذا اللجوء إلى أساليب أفضل من ذلك ، وهو يقول : "جميل أن يتسامح المرء مع أخطاء الآخرين ويصفح عنهم ، وبذلك ينزع الحقد من قلوبهم ." كنت أسمع الحاج نجم وهو يتمتم مع نفسه وهو يقول : "إنه كان مضيافا وصاحب قلب أبيض ." ويوم أن كان ، ضمن رجال القلعة فى قرية سورة Sawra، ديرته وموطنه ، فقد حصَّن نفسه، قبل المجيء إلى هنا، بالزواج من ولاد على ؛ ومع ذلك كانت زوجة الحاج نجم من ناحية والدها ، ترتبط بقرابة ، مع بنات كبار رعاة القلعة . كانت زوجة الحاج نجم أنثى بمعنى الكلمة ، ومضيافة أيضا ، ولكنها فى بعض الأحيان كانت تضيق ذرعا بنظام الحاج نجم المدنى الصارم ، الذى كان يفرضه على أية جارة من الجارات المخلصات فى الصحراء .

كان مطلق العلايدة ، ذلك الشيخ الكبير ، رجلا أشيب الشعر ، استطاع عن طريق سلوكه وتصرفاته التى تمتاز بالود والألفة ، أن يضفى على نفسه شخصية الوالد ؛ وعندما أوشك الشيخ مطلق العلايدة على الرحيل جاءنى ، يبحث عنى ليسلم إلىَّ غرفتى . تربية الشيخ مطلق فى مجتمع متحضر ، هى على الأرجح التى أكسبته ، دونا عن سائر عالمه ، شخصية الرجل الطيب ؛ ومع ذلك فإن مظاهر حياة العوز والفاقه فى الصحراء لابد وأن تكون قد أدخلته فى كثير من المنغصات ، التى يخرجون أنفسهم منها باللجوء إلى التغيير والتَّحوُّل ، بدلا من الاحتكام إلى القتال فى الميدان . بالرغم من أن بعض ذرائعهم الماكرة لا تنطوى إلا على الخيانة الحقيرة . ومع ذلك ، فالصحراء لا تعرف ذلك الذى يتعارف الناس عليه بأنه إهانه عامة ؛ وكل ما يفعل فى نطاق الصالح العام لأفراد القبيلة يقره أفرادها على أنه من قبيل السياسة البشرية ، كما يعتبرون ذلك مناقضا ومنافيا للعالم الخارج عن نطاق قبيلتهم . من هنا ،

فإن كل واحد من البدو له وجهان ، وجه الحنان الإنسانى اللطيف فى منزله ، ووجه البغض الشديد والتكشير عن أسنانه فى مواجهة العالم الخارجى ، والبدو يقدرون الأشياء كلها مثل تقديرنا نحن لها ؛ وهم ينظرون إلى أنفسهم ، أثناء تقييمهم لأنفسهم فيما بينهم ، على إنهم يتسمون بالصدق والأمانة ، فى حين ننظر نحن إليهم على إنهم أشقياء خطيرين ولصوصا كذابين . هذا وقد انحسرت الخيانات المزدوجة لهذه القبيلة غير المحاربة مرتين ، على امتداد الاثنى عشر شهرا الماضية ، الأمر الذى أدخل الرعب والفزع فى قلوبهم الغادرة .

رحل الكبار بصورة متدرجة عائدين إلى منْزلهم ، ولكن الصغار بقوا فى القلعة ، وذلك من باب تغيير العطالة التى يعانون منها ؛ بقى هؤلاء الصغار فى القلعة ، والنوم يداعب جفونهم فى الساعات الوسيطة ، كما لو كانوا مرهقين ومكدودين من خواء عقولهم : وبعد استيقاظهم من نومهم فى آخر النهار ، اكتشفوا من الظل ، موعد دخول الصلاة ، فنهضوا لأداء الصلاة : وبعد الصلاة أشعلوا غلاييهم مرة ثانية ، وهنا بدأت دقات يد الهاون أثناء طحن البن ، تبعث الحيوية والنشاط فيهم من جديد . وبقوا على هذا الحال ، الذى لا يمكن أن يطيقه سوى البدو ، صائمين وبلا طعام ، وصابرين فى تكاسل على ما هم فيه ، إلى أن حل عليهم المساء . كان ديك هذه الجماعة من الشبان الصغار ، هو فهد ولد شيخ القبيلة ؛ وفهد هذا رجل سليط الرأى ، كان يترأس ذلك الغزو الذى تهور فيه وأصاب خلاله ولد شيخ قبيلة البشر ببعض الجراح . أوفد فهد من جاء يطلب منى الذهاب إليه . ثم أعاد ذلك المرسال إلى مرة ثانية . "(قال المرسال :) انهض ، فقد أوفدنى الشيخ إليك كى تذهب إليه وتعرض عليه صورك ." وقلت للمرسال أن يبلغه بأنى استسمحه فى الحضور إلى غرفتى إذا كان يريد منى شيئا . دخل على فهد متشامخا ، مما جعلنى أحتقر هذا التشامخ بعد أن تيقنت منه ، وهو ما جعل فهد يرجونى ويتوسل إلىّ أن أريه صورى (التى ذاع صيتها فى كل أنحاء الديرة) . بعد أن سمع فهد اسم أمتى (شعبى) يتردد على مسامعه ، كان هو الوحيد الذى على استعداد لفهم معنى سوق قريتنا ؛ وهنا قلت له : "أيها الشاب الصغير ، قرانا حوالى ألف قرية ، بل ربما تكون آلاف القرى ؛" كان الحاج نجم ، قد تفاخر قبل ذلك بوقت قصير أمام الجميع ، بأن النصرانى لم يقل فى حياته سوى الصدق ، وبالتالى لم يكن

هناك مبرر أمام ذلك البليد لتكذيبى بأى شكل من الأشكال . مر المغربى العجوز علينا فى الطرقة (الممر) وعند استمع إلى حوارنا : "(قال نجم لهم) إن كل ما يقوله خليل ليس أمرًا غريبًا، ففى بلاد المغاربة ، بلدان كبيرة ، وعدد كبير أيضا من القرى الكبيرة، إنه بلد كبير فيه جمع كبير من البشر، وهم لا يسكنون مثلما تفعلون أنتم أيها الأعراب. هم لا يعرفون هذا الجدب الصحراوى ، ولا يعرفون هذه الشمس الحارقة ، ولا هذه الأرض القاحلة ، التى ليس فيها سوى بعض القرى الصغيرة المخلخلة السكان ! – تلك الأرض التى لا يمكن أن يسكنها سوى البدو ، والعفاريت ، أما نحن ، فأهل الغرب : – أليس هذا صحيحا يا حسن ؟ نعم ! لقد شاهدنا الدنيا ." رحل ضيوف القهوة ، بعد غروب الشمس – ملتزمين فى ذلك سلوكيات الصحراء – عائدين إلى منازلهم المصنوعة من الشعر لتناول طعام الإفطار .

كان الحاج نجم ، ذلك المغربى العجوز ، قد بدأ يضمر الكثير من البغض والكراهية لذلك الصبى العسكرى الذى لم يكن بدويا خالصا ، والذى كان أخا لزوجته ، ولما كان الجميع يخشون التقلب المزاجى المفاجئ لذلك الرجل ، فقد راح الجميع يحيون حياة كلها حرص وانتباه داخل القلعة . وقد تعهد الحاج نجم تربية ذلك الصبى منذ طفولته إلى أن أصبح واحدًا من حامية القلعة . وقد سبق لنا استعادة ذلك المعقل عندما استولى الأعداء عليه بطريقة مفاجئة ، أو إن شئت فقل : عندما احتله البدو : ونظرا لقلة العاملين تحت رئاسة الحاج نجم ، فقد تحتم عليه أن يحتاط لكل الأخطار المحدقة به فى الصحراء . كان الرجل يحرس البوابة بعناية فائقة ليلاً ونهارًا . كان محمد ، ذلك الصبى الجبان شديد الإهمال ، قد تخفف كثيرا من طلب "عمه" الملح ؛ كان محمد ، بحكم استبداده ووجله ، يرى أن عمله ضائع فى مسألة فتح البوابة وغلقها ، كما كان يرى أيضا أن القلعة أوكلت إليه من قبل الإمبراطورية العثمانية ، وأن عنقه ومعاشه كانا معلقين بالقلعة ، كما كان يرى أيضا أن القلعة نفسها تتهددها الأخطار ؛ ويوما بعد يوم كانت كراهيته تزداد لذلك الصبى العجل ، وذات ليلة غادرنا منطقة وجار القهوة وقصد كل واحد منا المكان الذى ينام فيه ، وفجأة تحول الأمن والسكينة إلى قلق واضطراب نتيجة حدوث أمر ما . فقد تسلل ذلك الشاب الصغير الذى يدعى محمداً ، خارجا من القلعة مخلفا وراءه الباب مفتوحا فى تلك الساعة من الليل ، وقاصدا خيام

بدو الفهجى ، لا شيء سوى الشجار مع الصبى دولان ؛ إضافة إلى أنه كان يوبخ النساء الفهجيات عن خلاف تافه بينهن حول شيء من حبوب القمح . والمرجح أن وقاحته وبذاءته على هذا النحو يمكن أن تكلفه الكثير جداً – وربما كلفته هذه البذاءة والوقاحة حياته التى لا فائدة منها . والسبب فى ذلك أن الحاج نجم عندما سمع هذه الشائعة ، وعندما سمع الجدال الذى كان يدور فى الخارج ، هب واقفا على قدميه ، وعندما تيقن تماما من الصوت، تقدم صوب الشرفة وهو غاضب تماما ، وصاح صيحة عالية يطلب فيها قفل الباب ، كما لو كانت القلعة قد جرى الهجوم عليها . دخل الصبى محمد إلى القلعة مرة ثانية ، ثم قفل المزلاج بهدوء ، وراح يتسلل خلسة إلى غرفته صاعدا السلم ، ولكن الرجل العجوز (الحاج نجم) الذى كان يفرد ذراعيه فى ضوء القمر ، أقسم بدينه ، كما أقسم بالغرب Ghrarb ، أى بالجزء الغربى من البلاد ، أن ذلك الصبى محمد كان يهوديا (إذ لم تسعفه الذاكرة باسم آخر أبشع من هذا الاسم). عاد الحاج نجم مرة ثانية إلى المكان المخصص له فى القلعة ، ثم عاد ثانية وهو يحمل بندقية الفرسان القصيرة التى كانت تتلألأ فى ضوء القمر . ثم صاح الحاج نجم قائلا: "اصح ، يا حسن ، أقول لك : اصح يا حسن !" قال الحاج نجم هذه العبارة بصوت شبه مخنوق وخال من المسحة الإنسانية :– استدع حسنا ليكون شاهدا على موت ذلك اليهودى ، أو ربما كان يريد من حسن ، أثناء هذه الموجة من الغضب ، أن يقوم بدور حمامة السلام بينهما ، ويتدخل بينهما ، ويحول بين الحاج نجم وبين الوصول إلى الصبى محمد . سوف يبث الحاج نجم الرعب والخوف مرة أخرى فى قلوب الجميع ، بأن يقوم بقتل ذلك الرجل أثناء الليل : ومن الجانب المقابل راح الصبى المسكين يتوسل إلى الحاج نجم وهو يبكى ويقول : "يا عماه !– إنك أنت الذى ربيتنى ." ولكن الرجل العجوز كان يرفض ذلك التوسل ، وهو يصيح صياحا مرعبا للمرة الثانية وهو يقول : "أنا لست عماً من أعمامك ، لابد أن تموت ! يا يهودى ! لابد من الموت !" وبينما كان يصوب الحاج نجم بندقيته إلى الصبى محمد ، جرى الأخير شارداً فى ضوء القمر (والعرب لا يفتحون النارعلى شخص يهرب) ، متجها إلى الجانب الآخر من القلعة : وهنا قام نجم العجوز بتعمير غدارته مرة ثانية ، ونزل بسرعة هابطا بصعوبة من درجات السلم ، ومخلفا وراءه سقف الشرفة ، وقاصداً مطاردة ذلك الصبى .

كان الحاج حسن بدوره قد هب واقفا على قدميه عند سماع تلك الضوضاء وبدأ ينظر من غرفته التى تشبه الزنزانة ؛ وبصوت يشبه صوت النفير ، صاح الحاج حسن صياحا فاق صياح الجميع : "بس Bess ، كفى ، يا عمى ، ما هذا ! وما هى كل هذه الجلبة ، وهل ستسفك دما بهذه السرعة ! وأنت يا محمد ، ادخل أيها الولد الغبى إلى غرفتك ، يالك من ولد غبى ! ألم أحذرك مئات المرات ، بصفتى والداً ، وهل أنت دوما السبب وراء الاضطراب والقلق فى القلعة ؟ وأنت يا حاج نجم ادخل غرفتك واستكمل نومك ؛ وغدا سيكون لدينا متسع من الوقت لمناقشة أخطاء هذا الصبى. كفى يا محمد! لا ترد على عمك ، وأحمد ربك على أنك رأيت ما آلت إليه هذه الليلة ، ولم يحدث لك فيها مكروه ." وبذلك أمكن تهدئة غضب ذلك الرجل العجوز ؛ ثم خيم الهدوء من جديد على القلعة كلها ، حيث عاد الجميع إلى الراحة انتظارا لطلوع النهار ، ولم يكن هناك من أحد يتمتم أو يغمغم سوى ذلك الصبى العسكرى ، عندما كان يقترب من "بيته" الخالى من الحركة . "سيقوم بإبلاغ ما حدث للباشا ، وسوف يبلغه أيضا لمحمد على ، عندما يعود الحج فى العام القادم" : هذا يعنى أنه كان من حسن الطالع أن المغربى العجوز الغاضب لم يسمع ذلك الذى قاله محمد .

عند طلوع الشمس ذهبت إلى الوجار لتصليح شىء من الشاى الذى وضعت فيه مقدارا كبيراً من السكر ؛ وذلك سعيا منى إلى إعادة الود والصداقة بينهما : وتأجل الصراع والنزاع إلى وقت الظهيرة . وذلك عندما اقتاد دولان أغنامهما القليلة لتشرب من غدران الماء . ناداه الحاج حسن من علٍ وهو يحذره ؛ – نصف كلمة يمكن أن يكون كافيا عند العقلاء ، ولكن المخبول لا يكفيه عشرون كلمة – وهنا أفلتت من صدر ذلك الفهجى المسكين ، نظرا لعدم قدرته على التحمل ، شكوى مريرة وبصوت عال تشبه صياح الرعاة الوقحين عندما يكونون فى الصحراء . وجاء الصبى محمد الأحمق يجرى على تلك الصيحة ، وصاح هو بدوره رداً على تلك الصيحة : أسفر كل ذلك عن نزول كل من كانوا فى القلعة إلى الدور الأرضى ، هذا يعنى أن كل أفراد القلعة تركوا أماكنهم . وعندما نظرنا نحو الأعلى شاهدنا الحاج نجم وهو يحمل غدَّارته ؛ ونزل وهو يصرخ ويقول : "يهودى ! يهودى !" ونزل مهرولا بسرعة من فوق الدَّرج متجها نحو الواقفين فى الممر ، ثم بدأ يخفف من جريه . وراح أعراب البوابة الذين كانوا قد دخلوا القلعة

لشرب القهوة ، راحوا يتبعون الحاج نجم ، وهم لا يعرفون سبب غضب ذلك المغربى ، وراحوا يرجونه ويتوسلون إليه. ثم جاء وادى Wady من الخلف وأمسك بالحاج نجم من وسطه ، واحتجز "عمنّا" ، كما لو كان ساحراً ، ومحاولا الإمساك بذراعيه ومقاوما له ، وهنا راح الحاج نجم يلهث ، واضطردت أنفاسه ، وواصل تهديده لذلك الصبى .- واستطاع تخليص نفسه من الحاضرين وانطلق يجرى مبتعدا عنهم ، وراح يصوب بندقيته من جديد ، ولكنهم استطاعوا الإطباق عليه مرة ثانية ؛ وراح هو يجرهم ، وهم يمسكون بذراعيه ، محاولين إثناءه عن عزمه ؛ وهكذا راح الجميع يطاردون بعضهم بعضا هنا وهناك . وبعد أن خارت قوة نجم كلها ، راح ينظر حوله وهو مضطرد الأنفاس ، وكاد يغمى عليه وهو بين أذرع الحاضرين . كانت زوجة الحاج نجم واقفة فى الأعلى تبكى ، وبالتالى لم يكن بوسعها أن تساهم فيما يجرى ضد أخيها الوقح ، الذى كانت تخاف عليه من القتل ، على يدى زوجها العجوز ، وأمام عينيها فى هذا المكان ، ولكن الحاج حسن عند هذه المرحلة راح يحتج على الحاج نجم قائلا : "بالله عليك ! كفى ما صنعته يا حاج نجم ! يالك من عجوز أحمق ، ألا يشبه ما تفعله ذلك الذى يصدر عن جسم أو شخص محموم بالغضب؟ هو! هو ! عسكرى يقتل عسكرى !" (رجل يعلن الحرب على عائلته) . يضاف إلى ذلك أن البدو الذين كانوا يحجزونه ويمنعونه مما يود القيام به ، كانوا يتوسلون إليه ويرجونه مستخدمين فى ذلك لطف الصحراء : "ما عليك ، يا حاج نجم ! ما عليك ! خلّى عنك كل هذا ، يا حاج نجم ! لا ، الولد ولدك ؛ لا ! أطال الله عمرك ." - وهنا صاح الحاج حسن قائلا : "ضعوا حداً لكل هذه الجلبة !" وهنا قام الرجال بإجبار "عمنا" على الدخول إلى غرفته .

كان ذهنى مشغولا بالكيفية التى أوقعتنى أسيرا لذلك التعصب والتشدد التركى ؛ وكنت أتطلع رافعا رأسى إلى السماء راجيا ، أن تهيئ لى اليوم الذى أستطيع فيه الخروج من هذا القفص إلى حيث أكون بين الأعراب الأحرار ، كى أباعد بين أذنى وبين هذا الضجيج وذلك الصراخ الذى أسمعه من أولئك المغاربة حادى الطباع : وقد وعدت نفسى ، أننى عندما أطير مبتعداً عن جدران تلك القلعة فلن أعود مطلقا للإقامة فيها مرة أخرى . فى وسط ظلام الخرافات هذا الذى يسيطر على حياواتنا ، أعطانى الله القبول عند من يرانى ، كما جعل الآخرين يأخذونى بعين اعتبارهم . هذا الحاج نجم

نفسه كان مفرطا فى اعتداله معى ، ومدبرا لأمورى ، وعاملا لصالحى ، كما كان يحذرنى عن طريق النصائح المخلصة فى الأمور التى كان يرى أنى لست حصيفا فيها، والتى تعد من قبيل الأمور النادرة فى دينهم ، والتى يمكن أن تثير الغضب: معنى ذلك، أن هذا الرجل كان ينظر إلىَّ نظرة حب ودى مثل حب الجار لجاره . ولكن لو حدث فى مرة من المرات ، ووقع بيننا ما يعكر الصفو ، ونسى الرجل واجبه تجاه الإمبراطورية العثمانية (الدولة) (وإذا ما تذكر فى ذلك اليوم عجزى الدينى) ، فذلك سوف يعنى ، بكل تأكيد ، عدم بقائى على قيد الحياة .

أساء كل من الخوف والجدل والنزاع البربرى فى بلد لا يعرف القانون (يتعين على المرء فيه أن يصيح بصوت عال بغية السيادة والتسود ، نظرا لعدم وجود بصيص أمل فى تحريك عقول البشر عن طريق المنطق) وكذلك المرض ، أساء كل ذلك إلى طبيعة الحاج نجم الخيرة التى تقوم على الفضيلة : والمؤكد أن هذا الرجل فى ظل الظروف العادلة والمنصفة ، وفى ظل النظام الدينى السليم ، ربما يكون صاحب فضيله ممتازه ، يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل كان فيه قدر كبير من الاستقامة المشوبة بشىء من البساطة المتواضعة ؛ ونحن إذا كنا نرى فى ابتسامة العربى ، التى تمتاز بالحلاوة بشكل عام ، شيئا من المزاج البدائى فى روح ذلك العربى ، فإن الحاج نجم يعد قديسا من هذه الناحية أيضا . والمرء عندما يفقد ضيق الصدر الصارخ فى هؤلاء المغاربة المغامرين ، فإنهم يردون على ذلك قائلين : "يتعين عليك أن تعرف أننا أناس غربيون ، إننا فى الشرق مغاربة ." ومعروف أن دماء رجال الجزيرة العربية قد أصابها الاعتدال وبردت نسبيا فى العالم الغربى . وفيما يتعلق بطول القامة ، وحدة الذهن ، ترى أن المغاربة يتفوقون فى هذين الأمرين على سكان شبه الجزيرة القديمة ، الذين كانوا قصار القامة . ونحن حتى عندما نقارن هؤلاء المغاربة مع أهل القصيم الذى يتسمون بالجد والمثابرة ، نجد أنهم أفضل ، من منطلق أنهم غربيون ، من سكان الشرق الذين هم أقل جداً ومثابرة . هؤلاء المغاربة أصحاب القرارات المدروسة ، والذين لديهم شىء من العبقرية المدنية ، والاجتهاد الصادق ، والذين يتجمعون مع بعضهم البعض بطريقة متحضرة ، قادرين على تمرير وتحقيق المشروعات الجديدة . ولما كان هؤلاء المغاربة من أهل الغرب فإن لهم عقولاً نافذة ولاذعة فى نفس الوقت وعيبهم الوحيد أنهم ليسوا

كرماء . والمغاربة شأنهم شأن العرب جميعهم ، مولودين تحت نجوم جوّالة : هذا يعنى أنه هؤلاء المغاربة أوفر جهداً ونشاطا من أهل الجزيرة العربية نفسها . وفلاح الجزيرة العربية ، أقل صبرا على العمل من المغاربة ، كما يسهل إحباطه والتقليل من عزيمته ؛ أما فيما يتعلق بالبدوى خاوى الجسم ، فنفسه قصير جداً ، إضافة إلى أن هذا البدوى يعود إلى حالة من التأمل الذهنى بعد ما يبذل شيئا من الجهد ؛ بل إن مثل هذا الجهد يجعل مثل هذا الرجل يبتعد عن كل هموم الدنيا من حوله . ويبدو أن تغييرا مماثلا ، يحدث فى سلالات خيول الجزيرة العربية ، التى يمكن تربيتها فى الغرب على نحو يجعلها أشجع وأثمن مما هى عليه .

مرت الأيام التى تلت ذلك بأمن وسلام ؛ فقد ذهب محمد إلى أمه البدوية ، لاستنشاق الهواء المنعش مع ولاد على فترة من الوقت . كان محمد ، فى الأيام الأخيرة قد دفع الصَّداَق ، واتخذ فتاة من جهينة زوجة له ، ولكن حتى هذه الزوجة لم تستطع البقاء أو العيش مع عريسها المنحوس ، نظرا لأن ذلك الجبان قام بضربها : كانت تلك الزوجه قد هربت وشردت فى الصحراء ذات صباح وقطعت مسافة عشرة أميال عائدة إلى قرية ولاد على ، أو إن شئت فقل قرية العلا . هذه البنت البدوية ، التى كانت محبوسة داخل القلعة بين الغرباء القساة ، والتى كانت تشعر بالحنين إلى موطنها جاءتنى ذات مرة لتسألنى ببساطة البنات وسذاجتهن ، "ما إذا كنت يمكن أن أتزوجها إذا ما طلقها زوجها وأخلى سبيلها ." كان قد مضى علىَّ فى ذلك الوقت ثلاثة أسابيع كنت أقيم خلالها ، فى هذه المرة الثانية ، فى برج من الأبراج الواقعة على طريق الحج ، ولم يبلغنا أن أحداً من العاملين فى قافلة جلب الأرز قد عاد إلى قرية العلا : كنت فى ذلك الوقت قد عقدت العزم على الصعود إلى بلاد (ديرة) الموهايب ، الذين يعيشون فى قسم مستوٍ يقع على مرمى البصر ، فى جبل الحرَّة Harra ؛ ولكن نظرا لخطورة الدروب الصحراوية كلها على من يسافرون أو ينتقلون فرادى ، فلم أجد أحداً على استعداد لمرافقتى فى تلك السَّفْرة ، أو إن شئت فقل : إلى ديرة الموهايب . ثم وصلتنا أخبار عن (كُفل)(*) Kûfl أى قافلة محمية من بدو الفجير كانت على وشك الذهاب إلى

(*) كُفل Kûfl : المقصود بها القافلة الصغيرة . (المراجع)

قرية الوجه Wejh لجلب الأرز ، وكان قد تقرر لتلك القافلة الفجيرية أن تبدأ رحلتها من الرُّوضة El-Erudda فى صباح اليوم التالى ؛ وكان واحد من أصدقائى قد أرسل إلىَّ ناقتى ، عن طريق بعض القبليين الذين يذهبون إلى قرية العلا للتسوق ، على أمل أن أعود بصحبة أولئك الذين أحضروا لى الناقة . وزعت بعض الهدايا الصغيرة ، وعثرت بين أشيائى على ثوب دمشقى جديد أعطيته للحاج نجم : هذا الرجل العجوز كان قد طلب منى أن أضع على ناقتى تلك الحَكَمَة Headstall هى واللجام المرح ، اللذان تناولتهما يداه من يدى رجل من قبيلة الشُّمَّر ؛ وعندما جاء الرجال فى المساء ، قمت ورحلت معهم .

كانت حرارة الشمس الحارقة قد تغاضت عن الدنيا ، وواصلنا نزولنا خلال ظلال الليل الهادئ ، خلال أطراف الجبال المكونة من الحجر الرملى ، فى المنطقة الواقعة خلف سهل الوادى فى قرية الحجر . وواصلنا مسيرنا على امتداد ساعات الليل الطويلة بينما كان الآخرون نياما فى بيوتهم وخيامهم ؛ كان الهواء أكثر برودة وهو يهب علينا قادما من الأراضى المرتفعة ، كلما توغلنا فى جوف الليل . وعندما بدأ شروق الشمس نزلنا عن دوابنا وشببنا نارا لتدفئة أنفسنا . وبعد مسير ساعتين أخريين ، بدأت تطالعنا بشائر ماشية البدو الرحل التى كانت فى المراعى ؛ هذا هو راع جلف ، يصيح عندما يرانى قائلا : "كيف حالكم الآن ، أيها الرفاق ! ومن أين جئتمَ بهذا الدولانى؟"(*) ردوا علىَّ ذلك الراعى قائلين : "إنه منكم ، وهذا هو خليل ." كان بدو الفجير يقيمون حول الرُّوضة El-Erudda . فى تلك الروضة ، حفر الناس كثيرا من حفر الماء ، التى يصل عمق الواحدة منها إلى قامة الرجل ، فى الأرض الرملية ، وقاموا بتبطين تلك الحفر ببعض من الأحجار البرية القديمة . والماء فى تلك الحفر ، الذى يناسب الذوق ، لا ينقص مطلقا فى تلك الحفر .

واصلنا مسيرنا إلى مَنزِل زيد ، الذى لم نجد فيه سوى محسن وحده ، الذى جاء ليساعدنى على النزول من فوق ناقتى . تفرق عنى أولئك الذين كانوا يرافقونى فى الطريق ، أما أنا فيتعين علىَّ مواصلة المسير إلى خيمة الشيخ مطلق ، التى كانت تبعد

(*) المقصود "بالدولانى" Dowlâny هنا "واحد من أتباع أو رعايا الإمبراطورية العثمانية" (المترجم)

عنى مسير ساعة أخرى . وقد أرشدتنى على الطريق المؤدى إلى خيمة الشيخ مطلق امرأة زنجية محرَّرة ، كانت ترافقنا فى رحلة العودة ، كما كانت أيضا من منْزَل رحيل Rahŷel؛ هذه المرأة تقدمتنى وهى تسير على الرمل الذى سرعان ما بدأ يسخن ، وكانت تمسك لجام الناقة بيدها ، وهى تعبر عن ضيقها بالتأخير الذى أتسبب لها أنا فيه ، – أنا لا أستطيع القيادة لأنى مرهق – وفى كل خطوة كانت تلك المرأة تجذب حكمة ناقتى مستحثة إياها على إسراع الخطى . بعض العباءات التى تلبسها هؤلاء النساء تكون مفتوحة من الجانبين كما لو كانت قميصا صنع من القماش ، يدخل من يلبسه رأسه فى وسط فتحة موجودة فى المنتصف ؛ هذا الرداء الذى لا يتعلق إلا من عند العنق فقط ، تَلمُّ البدوية أطرافه تحت ذراعيها ، وبالتالى لا يظهر أى شىء من أجسادهن بالرغم من تحركهن بسرعة . ولكن أثناء ارتباك تلك الزنجية فى حديثها وانشغالها به ، وأثناء أنين الناقة التى كانت تقاوم استحثاث تلك الزنجية لها ، فى غضون ذلك كله ، ضاع تركيزها ، وهبت نسمة ريح شديدة وكشفت ذلك الرداء الصيفى من فوق عنق تلك المرأة الزنجية ؛ هؤلاء النساء الزنجيات لا يضعن أى شىء آخر على أجسادهن غير وشاح يشبه الدانتيل مصنوع من الجلد المضفَّر . هذه الأطراف الزنجية كانت رشيقة ، وتلمع فى ضوء حرارة الشمس ، وبالرغم أيضا من سبيكة دم هذه المرأة الإفريقية ، إلا أنها كانت متناسقه القوام ، الأمر الذى جعلها تبدو كما لو كانت تمثالا من البرونز . وعلى الفور ، أعادت الثوب إلى مكانه فوق جسمها ، واستدارت إلى بنظرات كانت تنم عن فهم ما إذا كنت قد سخرت منها أم لا ؛ ولكنها عندما عرفت وتأكدت أن الكافر لم يبالى أثناء ركوبه على دابته ، بأى أمر من تلك الأمور ، خفت حدة وسلاطة لسانها : بل إنها أصبحت تعول كثيرا على نيتى الحسنة ، إلى حد أن الأمر كان يبعث على المرح والضحك فى خيام الأعراب ؛ واعتبارا من ذلك الوقت كانت تلك الزنجية تتحرك دوما بين أسواق القرى ، الأمر الذى تصادف أن يجمعنا ببعضنا مرات عدة أخرى .

عندما اقتربنا من خيمة الشيخ مطلق ، كانت القافلة كلها قد بدأت تتحرك بالفعل ، تلك القافلة التى سبق أن علمنا أنها سوف تتحرك فى صبيحة الغد : كنت أنا بدورى أتطلع إلى قضاء نهار اليوم كله فى نيل قسط من الراحة فى هذا المكان ، وكنت على

قناعة بأنى كان لا يمكن لى التحرك راكبا ناقتى حتى ولو لساعة واحدة بعد ذلك ،- ومع ذلك كانت رحلتى ما تزال فى بدايتها . وهنا لم أعد أرى من الكفل Küfl (القافلة) سوى القسم الأخير من دوابها . "قال العرب : عجّل وسرِّع خطواك ، إن كنت تريد اللحاق بهم ." – قال مطلق : "لقد تأخرت ، ولكن يمكن لك أن تلحق بهم ." وهنا خرج الرجال يجرون من الخيام المجاورة ، وهم يمدون أيديهم للقادم الجديد علهم يحصلون منه على شيء من التبغ ؛ ولكن بالرغم من احتياجى الشديد ، لم أتمكن من إقناع أى واحد منهم بإعطانى قليلا من اللبن كى أشربه . والعرب فى مثل هذا الظرف يتسمون بالبخل ، بل إنهم يميلون إلى أن يزيد ذلك عبئا على أعبائك . وهنا وجهت كلامى للشيخ مطلق ، الذى لاحظ معنوياتى المتدنية ، سائلا إياه : "كم من الوقت ستستغرق هذه الرحلة منا اليوم ؟" – "سوف ينزلون عن دوابهم عند الظهيرة ، أو قبيل دخول العصر ؛ هيا ، امض قدما !" – ولكن هذه هى وعود البدو الخادعة التى يجمّلونها . قفز مطلق فوق ظهر فرسه العارى ، وراح يستحثها وهو يمسك بالحكمة Headstall واللجام ، ولكن الشكيمة غير معروفة فى هذه الصحراء. "(قالت لى الأصوات الصديقة التى كانت تتحلق حولى) انتبه فالشيخ يسير أمامك، استحث ناقتك ، وإلا سوف يخلّفونك وراءهم ؛ لقد سبقك الشيخ كى يوصيهم بك خيرا ، وسوف يلزم ولد شيخ البلّى Billy (الذى يتولى قيادة القافلة) بأمنك وسلامتك ." وعندما نهضت ولحقت بالقافلة أعطانى الشيخ مطلق تسليما Teslím ، بمعنى سلّمَنَى على سبيل الأمانة ، لقائد القافلة البلّى الشاب . عند هذا الحد ،أصبح يتعين علىّ قطع مسافة مائة وخمسين ميلا ، بلا توقف لنيل قسط من الراحة ، فى جو حار وخانق ؛ إضافة إلى أن حياتى الضعيفة كانت على شفتى . كنت أحاول ، ، من حين لآخر ، المحافظة على اتزانى فوق السرج : ومن باب العلم بالشيء ، فأنا عندما غادرت مدائن صالح لم يكن معى أى شيء من الماء ، فضلا عن أنى لم يكن معى حتى ولو أوقية واحدة من الطعام . هذا هو يوم خانق الحرارة ساكن الريح يهل علينا من جديد . وبعد مسير ساعتين ، وقفت القافلة عند سقيا هى عبارة عن بعض حفر ضحلة يحصل الناس منها على الماء ، كانت تلك الحفر الضحلة مبطنة بأحجار برية كما هو الحال فى آبار ، أو إن شئت فقل : حفر الروُضة El-Erudda . لم أتعرف سوى على وجهين أو ثلاثة وجوه من بين كل هؤلاء الذين كانوا يسافرون مع

تلك القافلة ، وقد وجدت أصحاب هذه الوجوه مصطفين إلى جوار بعضهم البعض : هؤلاء الثلاثة ، هم فى الأغلب الأعم من الخمالة Khamāla ، الذين بالرغم من كونهم جماعة مطرودة من بدو الفجير ، يشكلون نوعا وقحا من عامة الناس ، الذين يعيشون منعزلين عن الشيوخ ، ولا يحضرون مجالس الشيوخ فى معظم الأحيان .- كم كان هذا الهواء خانقا! وهنا نزلت عن دابتى عندما كانوا مستعدين لاستئناف المسير من جديد ، ورحت أضع رأسى وأغمره بالماء المتبقى فى الوعاء الذى تشرب منه الدواب ؛ ولكن السقاء النذل كان يمنعنى من ذلك وهو يقول : "لا ! إنه يخاف الله ويخشاه ؛ " ورفع ذلك النذل الوعاء ، وسكب الماء على الأرض ، وهو يصيح ، وقد ظهرت فى عينيه بوادر تعصبه وتشدده ، "أيتعيَّن عليه أن يجلب الماء لنصرانى ، واحد من أولئك الذين لعنهم الله ؟ وهل كانت الشمس حارة فى ذلك اليوم ، وبالتالى أغُمى علىَّ ؟ إنه يتمنى ويدعو الله أن أموت أيضا ."

كنا قد قطعنا مسافه قصيرة فى تلك الأرض الجرداء ، وعلى أثرها سمعنا لسانين شرسين لامرأتين بدويتين شابتين سليطتين كانتا معنا فى القافلة ؛ كانت هاتان البدويتان تصرخان فزعا فى الرجال وهما تقولان : "أنظروا ، أيها الصبية ، أليس هذا هو الكافر يركب معنا ؟ ألن تقطعوا عنقه أثناء الطريق ؟" وعلى الفور ، لعنتهما لعنة بدوية ، غير أن الأمر لم يكن يستدعى ذلك ؛ وهنا رد على أولئك الذين كانوا يسيرون بجوارى قائلين : "إنه ولد أخينا ." والسبب فى ذلك أنى كنت قد نزلت ضيفا على بعض رجال القبيلة. ثم بدأ يطالعنا مرة أخرى جدار جبلى أسود اللون ليس من صنع البشر، وإنما هو جزء من أرض الحرة، يقف ويتحمل السماء الحارقة منذ أزمان كثيرة قبلنا؛ - وقررت القافلة (الكُفْل) ألا تتوقف ، إلا بعد الوصول إلى ذلك الجدار ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا . وهنا هبطت القافلة التى كانت تسير فى طابور واحد لتعبر السهل الأجوف ، الموجود عند سطح تلك الصخور الحدودية الوعرة ، التى يطلق عليها أفراد القافلة اسم شوك Shuk العجوز el-Ajûz ، فى حين يطلق البدو عليها اسم الأجُرَّة el-Agorra . كنا نسير خلال هواء خانق جاف يقولون له "الحمو" el-Hummu، التى هى عاصفة من أشعة الشمس التى تحرق الجلد ، وتجفف مقلة العين ، بفعل الوميض الذى يجىء منعكسا من الرمال . يا لبطئ الشمس الصيفية المستعرة وهى تصنع قوسا

كبيرا عند الغروب ، وعندها تبدأ ظلال صخور الحرة فى سترنا من فوق رءوسنا ! بعد أن تقشر جلد رءوسنا ، ورقابنا ، ووجوهنا ، وأذقاننا وأقدامنا ! ركبت دابتى وأنا فى شبه غيبوبة ، وشبه محروق . كنت فى بعض الأحيان أسمع الأصوات الغريبة التى كانت تحدثها القراب التى كانوا يحملون فيها ماءهم ، وطلبت من بعضهم أن يصبوا لى قليلا من الماء ، ولكنهم أنكروا علىّ ذلك ، ولم يعطونى شيئا منه . كان هناك شخص آخر ، سمعنى وأنا أطلب الماء ، فرق لحالى وأعطانى الماء وهو كاره : ورفعت كوز الماء الذى أعطانى إياه إلى شفتى ، ولكنى لم أستطع أن أبتلع منه ولو جرعة واحدة بفعل جفاف حلقى نتيجه للحرارة الشديدة . وعندما رأى ذلك الشخص أننى رشفت رشفه واحدة ، وهو يتناول منى الكوز ، قام بإلقاء الماء المتبقى على الرمل ، لأنه قال : "من ذا الذى يمكن أن يشرب بعد نصرانى!" كانت قراب الماء الكبيرة مملوءة عن آخرها بالماء ، إضافة إلى أنهم سيصلون إلى سقيا جديدة على الطريق ، فى مثل هذه الساعة من يوم الغد . صحيح أن كرمهم فى بيوتهم يستثير الود ؛ ولكن عندما يكون الإنسان سائرا معهم فى طريق واحد ، قد يجدهم يتصرفون تصرف الأعداء : ومع ذلك ، هناك من بينهم بعض الرجال الأشراف الطيبين ، الذين تبدو عليهم طيبتهم فى كل وقت وحين ، وتحت مختلف الظروف والأحوال . وصلنا الحرة فى ساعة متأخرة : وفى الحرة دخلنا فى فلق من الحجر الرملى فى الجبل ، هو الذى راح يحمينا من عين الشمس الحارقة . كان قاع ذلك الفلق تتناثر فوقه مجموعات كبيرة من الحجر الخفّاف ، المختلط بأعداد كبيرة من الأحجار البركانية المكسرة ، وبعض الكتل البازلتية . صعدنا بعد ذلك مكانا منحدرا من الانجرافات الرملية ، التى كانت فى الصخور التحتية للجبل (المكون دائما من الحجر الرملى) : وهنا نزل البدو عن دوابهم حتى تتمكن من صعود ذلك المنحدر . ونزلت عن ناقتى ، وركبت فوق جمل مستأجر . وهنا طلب إلىّ أصحاب الجمل النزول عنه؛ ولكنهم عندما وقفوا على ضعف حالى وعدم قدرتى على الصعود لم يصروا على ذلك ؛ والعرب نراهم لطفاء وإنسانيين ، عندما تستعمل أى شىء من أشيائهم . " (سألت واحداً منهم) لماذا تمشى هكذا أثناء حرارة النهار ولا تفعل الشىء نفسه فى ظلال الليل ، موفرا على نفسك قوتك ، من ناحية ، وإبلك من الناحية الأخرى ؟" – "صادق ، صادق ، ولكن ما فعلته كان هو الأفضل ؛ ولكن اسمع يا خليل ، آه ، من

البدو ! إنهم جميعا عفنين (بمعنى فاسدين إلى حد العفن)، وأن كل ما يفعلونه ، لن يكون له أى نفع أو فائدة ."

عندما اتسعت الظلال أفقت قليلا من ذلك الإرهاق الموجع الذى لقيته على الطريق، الذى يمثل موات طويل بلا وفاة ، فقد خرجت لى مصيبة أو بلوى جديدة من شيء صغير . وصلت إلينا ونحن راكبين بنت ، أمها هى التى كنت استأجرت منها جملا ؛ وبالرغم من أن وجه هذه الفتاه كان أجمل الوجوه فى الجماعة التى تنتمى إليها ، لم يكن أى شيء فيها يدل على عذريتها سوى القناع التى كانت ترتديه : هذه البنت الشقية راحت تطاردنى ، طوال الرحلة ، كما لو كانت شخصا من الأشخاص الذين يخالفون إشارات المرور بعبارات من قبيل "هو ! يا كافر ، آها ! يا نصرانى ! هذا رجل يهودى ." كان البدو الذين يسيرون بدوابهم إلى جوارى أكثر حقدا وخبثا ، ولم يتعاطف معى أحد منهم ، بل إن أحداً منهم لم يكلف نفسه زجر تلك البنت أو إيقافها عند حدودها . بدأ ضوء النهار يخبو ، وأخيرا غربت الشمس علينا فى تلك الأرض القاحلة الجرداء . وهنا أوقف العرب دوابهم فى مكان مستور ؛ وهنا بركت الجمال من تحتهم ، بل ونزلنا نحن جميعا من دوابنا لتمضية الليل . كنت قد ركبت ناقتى فى مساء أمس فى هذا الموعد تقريبا ، واستمر ذلك الركوب طوال ليلة من ليالى الصيف ونهار طويل من نهاراته ، ولم يدخل ، خلال هذه الفترة ، طعام فى جوفى ولم أنل أى قسط من الراحة إلى الآن. ومعروف أن الليل هو أحلى الراحات من ضوء الشمس ومن حرارتها: كان هواء الجبل يهب علينا ، ونزلت من فوق ناقتى ، وأنا غير متمالك لنفسى فى واقع الأمر ، ولكنى كنت أبدو كما لو كنت مستيقظا من نوم غير عميق . ومعروف أن ظهر الناقة أو الجمل لا يكون مريحا : ولكن ماذا يفعل الإنسان لنشوز الطبيعة ، وفى حقد البشر ، وعدم عدالة الأديان ، لقد كنت أتمنى ألا تمر بى تلك الأيام مرة أخرى فى أى جزء من أجزاء العالم ، – إذ لوحدث ذلك سيكون معاناة جهنمية .

استدعيت ، فى ضوء النجوم ، تلك البنت الشرسة ، التى كانت قد نزلت عن دابتها هى وأخيها فى مكان قريب من المكان الذى نزلت أنا فيه ، ثم وضعت فى يدها هدية من التُّتُّون (الدخان) لتعطيها لأمها (الشلق الشقية) . قلت لهذه البنت : "أنت ذئبة صغيرة وجميلة ؛ ولكن قربى منى يا حبيبتى ، لقد سامحتك فيما قلتيه ؛ ستكونين فى الغد

عروساً لى ؟" – "هذا كلام حسن (قالت هذه الصبية البدوية المسكينة) وكانت مستعدة "لتأخذنى" ؛ وهى على استعداد لخدمتى طوال الرحلة ، وتتبعنى إلى بلادى البعيدة ، وأن لا تسبب لى أى شيء من الضيق أو القلق بكلامها الموجع ، وكان طلبها الوحيد ، أن أقطع على نفسى وعداً بعدم التخلى عنها ." وعن طريق هذه الطرفة البدوية الخفيفة استطعت تجنيب نفسى لسان هذه الفتاة السليط طوال اليوم التالى . وهنا حل الليل علينا ، وتجمع العرب المسافرون حول نيران الخفارة ، فى حين جلست أنا إلى جوار خُرجى كى أنال قسطا من الراحة. مر بنا بعد ذلك، رجلان كانا عائدين إلى مكانيهما ، وسمعتهما جيداً عندما كان أحدهما يقول للآخر : "ها هو الكافر جالس !" وردَّ عليه زميله قائلاً : "انتبه ، إنه لن يحتاج سوى ضربة واحدة بالسيف ، ثم يحصل من يفعل ذلك ، على كل هذا الخير (أمتعتى بطبيعة الحال) ." – تعرفت صوت المتكلم الأخير ؛ إنه ولد شيخ البلّى المحترم ، الذى كان يصاحبنا فى القافلة رفيقا لى ، إلى والده . ومع طلوع نهار اليوم الجديد ، قَيضَّ العرب خيامهمْ على وجه السرعة . وكنت خلال الليل قد اتفقت على إيجار الجمل ؛ ولكن هاهم أصحاب ذلك الجمل ينكرون علىّ ذلك الإيجار ، متمثلين فى ذلك بمثل (ربما كان واحداً من أمثال أهل الجزيرة العربية ، يبيح لهم التماس العذر فى مثل هذه المناسبة ، طالما أنهم لا يشربون النبيذ ،) . يقول المثل : "الوعود التى تقطع أثناء الليل ، ليست ملزمة عند طلوع النهار ."(*)

يتعين علىّ حزم أمتعتى وتحميلها على ناقتى الكديش استعداداً لعبور الحُرة . ذلك أن القسم الرئيسى من القافلة ، كان قد رحل بالفعل : يضاف إلى ذلك أن تلك البقيه الباقية حولىّ من البشر راحت تهدد بالتخلى عنى ؛ ولكن البعض منهم نزلوا من فوق دوابهم لمساعدة الغريب عندما وجدوا أننى لا أستطيع وحدى تحميل أمتعتى كلها . وبعد مسير ساعة تخلوا لى بمحض إرادتهم عن الجمل وأعطونى إياه مرة ثانية ! وهنا بدأنا نسير فى ممرات وعرة منحدرة داخل الجبل . : وواصلنا المسير بين الطلوع والنزول كل نصف ساعة إلى أن دخل علينا وقت الظهيرة ، كل ذلك ونحن نسير بين صخور البازلت وثنيات مشققة من جبل الحرّة ، ومع كل ذلك كنا نواصل الصعود بين

(*) هذا هو المثل العام المصرى الذى يقول : "كلام الليل مدهون بزبدة ، يطلع عليه النهار يسيح". (المترجم)

هذه الصخور . كل ما يحيط بنا عبارة عن خلاء (صحراء) لونها يشبه لون الحديد ؛ الأرض هنا تشبه (بلاجا) لامعا من الأحجار البركانية الساخنة. هذه قلة قليلة من سيقان نبات الشيح الرومى خضراء اللون ، يراها الناظر إليها وقد نبتت على الرفوف البركانية الحارة، وتفوح منها رائحه طيبة فى ضوء الشمس: هذا الشيح تجمعه الحريم ويجففنه، ليعطى نكهة حريفة ؛ وهم يخلطون قليلا من ذلك الشيح مع اللبن والمريسى . والقيعان البركانية العميقة عامرة بأشجار الطرفاء ، كما شاهدت على جوانب مجرى السيل الحجرية بعض البيارات الخضراء العامرة بأشجار السنط الصحراوية . ومن بين الأشجار الخشبية الأخرى ، هناك قلة قليلة من تلك الأشجار تنمو فى هذه الحرّة ؛ وقد شاهدت عكاكيز البدو الذين اقتطعوها من تلك الأشجار . كان البعض من بدو الفهجات الفقراء يفتشون عن أدغال أشواك السنط كلما مررنا بها ، بحثنا عن قطرات الصمغ العربى الصافية ، هى وزهور أشجار الصمغ التى يميل لونها إلى الابيضاض ؛ وهم يقولون ، إن الناس فى بلدة الوجه يدفعون ست بنسات عن كل زجاجة من الصمغ .

والجمال طويلة الأعناق ، تلقف ، ونحن فوق ظهورها ، تلك الأغصان الشوكية التى تشبه أوراقها أوراق نبات الست المستحية ، أو إن شئت فقل : ذلك النبات المزهر من فصيلة السنطيات . والعجيب فى الأمر أن تلك الأشواك الحادة لا تؤذى ذلك البلعوم الطويل الطرى! – هذه الأشواك قادرة على الانغراس فورا فى نعالهم الجلدية السميكة، مسببة جرحا قاسيا فى أقدام البدو الحافية ؛ ولقد رأيت بعينى بعض البدو الذين لزموا فراش المرض فترة طويلة بفعل أحداث من هذا القبيل . وعندما سألت بعض البدو ، عن هذا الأمر : "أجابونى ، أن الدنيا مليئة بالمعجزات الإلهية ! وأن الله قد يسر المخلوقات كل لما خُلق له . ومع ذلك ، إذا ما فحص إمرؤ أى جمل من الداخل بعد ذبحه ، سيجد مادة جلدية ، لينه ولكنها عميقة بقدر طول إصبع واحد ، علاوة على إنها سميكة على نحو يستحيل معه على أية شوكة أن تخترقها بسهولة ." ورعاة الماعز من البدو يحمل كل واحد منهم منقارا ، يستعمله فى الأماكن التى توجد فيها أشجار السنط ، ليسحب الأغصان التحتية ليقربها من القطيع الذى يرعاه ، ولصغار الماعز بصفة خاصة . ومن يسير فى الصحراء يشاهد أشجار الطلح ، التى تتدلى مشوهة ؛ يضاف إلى ذلك أن تراب الصحراء يكون مدهوسا حول أدغال شجيرات نبات الست المستحية الشوكى ،

بأقدام الحيوانات البرية الجميلة مثل الغزال . وشجرة نبات الست المستحية، التى يقول البدو عنها ، إنها سريعة النمو ، يندر أن تتحول إلى أخشاب . وعرف شجرة الطلح المنتشر لا يشكل غطاء جيداً أو واقيا ، لأنه عبارة عن شبكة من الأخشاب والأشواك الضعيفة يميل لونها إلى الاخضرار ، كما أن أوراق هذه الشبكة غير كثيفة وصغيرة الحجم؛ هذه الشجرة هى وأشواكها القديمة تلقى شكلا من أشكال العتمة غير الكثيفة ، ليبدو كما لو كان ظلا، على الأرض الجرداء المتوهجة. أشجار السنط فى هذه الصحراء تنشر فى الهواء رائحة طيبة صحية يحسها الناس بشيء من الصعوبة ؛ وزهور هذه الأشجار التى يميل لونها إلى الاصفرار، يشاهدها الناس فى منتصف شهور الصيف، كما يشاهدون أيضا الأغصان المعقوفة قبل حلول فصل الصيف . وفى وادى Wady تربة Thirba اكتشفت أو عثرت على واحدة من هذه الأشجار وقد امتلأت بطنين النحل الصحراوى (الذى يقول له البدو "الذُّبَّة athubba")، كما لو كان ينبعث من الشجرة عطر ضعيف ، مثل ذلك العبق الجميل الذى ينبعث من البساتين المزهرة . مضغ أوراق السنط ، التى لها طعم مستساغ وجيلاتينى إلى حد ما ، ينعش الفم الجاف ؛ والعرب يقولون : إن الصمغ جيد جداً ومرطب إذا ما أكله الإنسان . هؤلاء هم بعض من بدو الفهجات ، الذين كانوا يرافقون الكُفل (القافلة) سوف يبقون فى المُنزَل القادم من منازل البلِّى بحثا عن جذور الإرن er'n فى جانب الجبل المواجه لتهامة . والإرن er'n الذى هو عبارة عن كعب مغضَّن من كتل الخشب يشبه جذر شجرة الخلبخ . وأنا لم أعثر على هذا النبات ، ولم أر أى نوع شبيه به فى الجزيرة العربية . وشرائح هذا النبات ينقعها البدو فى الماء ليستعملوها فى دباغة الجلود ، ولونها يشبه لون شجرة الأرز . والبدو يضعون الجلد الخام فى ماء الإرن مدة يومين أو ثلاثة ؛ ومع ذلك لا يدبغ الجلد تماما ، ويترتب على ذلك ، إذا ما استعمل مثل هذا الجلد ليكون قربة من قراب الماء ، أن يتعفن بعد فترة من الوقت ؛ وعند تقطيع مثل هذا الجلد يجب دبغه من جديد : ومعروف أن قراب الماء فاسدة إلى الحد الذى يجعلها تتلف الماء الموجود بداخلها . وكل عقدة من عقد خشب الإرن ، الذى يدخل فى مهام كل بدوى وكل ربة بيت بدوية أيضا ، تباع بما قيمته ريال واحد فى قرية تيماء .

طوال تجوال ذلك اليوم بطوله خلال الحرّة لم نر ذلك الصخر الرملى أبيضا فى أى مكان ، ولكن كان يغطيه وعاء هائل من الصخور البركانية البازلتية . تجاوزنا فى البداية وبعد الظهر بقليل تلك المنصة البركانية المرتفعة من الجبل ، بعد أن لاقينا الكثير من المتاعب بسبب سرعة الإبل أثناء عملية التسلق أو الصعود . وهذا هو على مرمى البصر سهل من الزلط البركانى الأسود ، وترتفع خلال ذلك السهل مخروطات فردية سوداء اللون ، لكل واحد منها عرفان على شكل توأم ؛ [هذه الأعراف كانت عبارة عن فوهات براكين ، أو إن شئت فقل : تلالا بركانية ؛ وفى تلك المخروطات تكسرت تلك الفوهات البركانية ونزلت إلى جانب الجبل ، وذلك بفعل الحمم البركانية المتدفقة من ناحية والحرارة الشديدة الناتجة عن الانفجار من الناحية الأخرى] . ومبلغ علمى أننى رأيت فى كل ذلك الأشكال القديمة للتلال البركانية . كانت حرارة نهار الصيف معتدلة فى سائر أنحاء الحرة على اختلاف ارتفاعاتها ، إذ كان المكان الذى نحن فيه على ارتفاع حوالى ٥٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر : كانت ندرة الهواء ملجأ لنا من حرارة الشمس الشديدة ، التى بدأت تسطع فوق رءوسنا على نحو فيه شىء من الرحمة والود . وبدأنا نستشعر نسمة خفيفة فى الأجزاء المرتفعة ؛ وهذا الجزء المرتفع من الجبل يهب عليه تيار فاتر من الهواء . وفى بعض المواضع من التربة البركانية ، نشاهد تربة غرينية يميل لونها إلى الاصفرار ؛ هذه التربة موجودة تحت الأحجار السائبة ، التى ربما كانت أحجارا طباشيرية محروقة ، التى تقع على شكل طبقات أو مستويات قليلة من فوق الحجر الرملى القديم فى هذه الحرَّة ؛ وقد اكتشفت أن تلك الطبقات القليلة أو المستويات قد تحولت إلى مُغرة بفعل الحمم البركانية القديمة . الحرَّة التى من هذا القبيل تكون فى معظم الأحيان ، عبارة عن حوض وضفاف شاسعة من الكتل البازلتية التى يميل لونها إلى الزرقة ، كما يغلب الصدأ على تلك الكتل أيضا . هذه الكتل المكونة من مادة عنيدة ، مثل الحديد ، تكون مثل المعادن : وهى عندما تتعرض منذ أزل بعيد للرياح الصحراوية المحملة بالرمال ، يراها الناظر إليها مصقولة وتلمع فى ضوء الشمس . هذه الحرَّة يصعب اجتيازها من خارج الممرات ، على الإبل التى لا تكون مولودة أو مربَّاه فى مكان غير الحرة ؛ وصعوبة الاجتياز ترجع إلى تلك الأحجار التى تشكل عقبة كبيرة من ناحية ، وإلى الصخور البركانية الحادة من الناحية

الأخرى . هذه الأحجار الثقيلة التى تنزلق وتسقط إلى طريق السير ، تؤدى فى أغلب الأحيان إلى تورم أقدام الرعاة وإصابتها بالجروح والكسور ؛ ونظرا لأن هذه الأحجار تكون مثل الفحم المشتعل أثناء شمس الصيف ، فإن البدو يجلسون طوال النهار على أكفال إبلهم التى ترعى العشب .

هذه القحولة التيتانية ، التى تبدو لأعيننا غير قادرة على تحمل الحياة ، هى أرض وديرة جيدة ، بل إنها تعد تراثا وميراثا لأبى Abu شامة Shamah الموهايبى الجرىء . هذا الهواء المعتدل الموجود فى هذه المنطقة العالية هو هواء صحى ، والموهايب لديهم ما يكفيهم من الماشية ، يضاف إلى ذلك أن متسلقى الجبال هؤلاء هم بدو ذوى أجسام قوية ، كما أن فهمهم وتفهمهم فيه من الوقاحة أكثر مما فى فهم أولئك البدو الذين رأيتهم فى السهول المحيطة بأولئك الموهايب . وماشية هؤلاء الموهايب الصغيرة يندر أن يسرقها أحد من هذه الديرة البركانية الوعرة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن حليب القطعان أندر من الندرة بين هؤلاء القوم ، ومعروف أن الحليب هو بمثابة الصحة والثروة عند البدو الرحل الفقراء . وعندما جاء شيخ الموهايب المتين لزيارة بدو الفجير ، فى أواخر هذا الصيف فى قرية الحجر ، قام زيد ، على إثر الترحيب البدوى المعروف ، بطلب الكلمة من المجلس ووجه حديثه للزائر قائلا : "يا طُلُّق Tollog، أنت رايات الحرَّة" بمعنى "مرحبا يا طُلُّق ، يا سيد الحرّة !" وفى المكان الذى عثرنا فيه على القطيع أثناء مسيرنا ، توقعنا لقاءنا بعد فترة قصيرة مع أولئك الأعراب الطيبين ، وقضاء الليل معهم فى مُنْزلهم .

واصلنا مسيرنا راكبين دوابنا فى الطريق الجبلى مارين بأنقاض بعض الجدران المبنية من الصخور ؛ هذه الجدران عبارة عن نباتات بسيطة ، ومسورات صغيرة ، مثل تلك المسورات الصغيرة التى يبنيها الرعاة حاليا ليضعوا فيها حملانهم الصغيرة ، (حماية لهم من ذئاب الليل) فى الجبال السورية : وبجوار هذه المسورات الصغيرة توجد الزنازين الصغيره التى يمكن اعتبارها نوع من القبور التى تنشأ فوق سطح الأرض. هناك أيضا زنازين ضيقة أخرى يجمعها أخدود واحد ولها باب واحد أيضا: – وقد شاهدت بعضا من هذه الزنازين التى أقامها الصيادون فى صحراء سيناء ؛ وقد قالوا لى إن تلك الزنازين ليست سوى فخاخا لاصطياد النمور leopard ،

كما يستخدمونها أيضا فى صيد الحيوانات البرية التى من أكلات اللحوم . – هناك نوع آخر من الزنازين الصغيرة ، التى هى عبارة عن أكوام مبنية دائرية الشكل ، وربما كانت جحورا ، على حد قول الناس عن تلك الزنازين : "هذه الزنازين عبارة عن إشارات ، وهى تحدد موقع الينابيع فى الأيام الخوالى ، ولكن يبدو أن المعرفة القديمة قد ضاعت ." وأنا عندما أسأل أى واحد من البدو المسافرين عن هذه الأشياء ، يجيبنى بكلام مطلق غير مؤكد ، بل إنه يؤثر ألا يفتح فمه ولو بكلمة واحدة ، فى ذلك الجو الحار الخانق ، – أجابنى البعض قائلين : "هذه أشياء من العالم السابق ، ومن زمن قبل زمن المسلمين . قل لنا أنت يا خليل ! ألم يبن أجدادك الكفار القدامى هذه الأشياء ؟" وقالت أصوات أخرى : "إنها من بقايا الهلالات Helalát (*). "

وعندما عجزنا عن العثور على المواهيب ، بدأنا النزول من فوق الحرّة مستخدمين فى ذلك المسالك الجبلية البازلتية ؛ ثم وصلنا إلى بعض حُفَر الماء ، التى نزل الأعراب عن دوابهم عندها من أجل الارتواء والتزود بالماء ومن أجل جمالهم الصائمة أيضا : وبدون ذلك ، فإن تلك الإبل يمكن أن ترعى الكلأ والعشب ، بعد وقفة المساء ، بعد أن يطلق سراحها فى المرعى لمدة ساعة ، والمعروف أن إبل الكُفل (القافلة) تصوم طوال الرحلة كلها : ولكن تعرق تلك الإبل هو الذى يمنعها من الشرب . فى بعض الأحيان الأخرى نرى هذا الحيوان الضخم ، الذى يبدو وكأنه يحمل حملا آخرا فوق حمله الكبير ، وهو يبكى ويتأوه ، إذا ما وقعت عليه بمحض الصدفة الخالصة نواة من نويات البلح ، على رأسه بطريق الخطأ من يد راكبه ؛ ولكن الجمل عندما يكون مقهورا أو مضطرا إلى تحمل مكروه كبير ، فهو يمشى إلى نهاية الرحلة فى جلد شديد . ومعروف أن الأعراب الذين يسافرون ضمن القوافل لا يحملون معهم غدرانًا لسقيا الدواب أو الإبل ، ولذلك فهم يستعملون مشاعيبهم وكذلك أيديهم فى إحداث تجاويف فى تلك الأرض الساخنة ؛ ويفرشون تلك التجاويف بالجلود ويروحون يصبون الماء فوق هذه الجلود ، للدواب كى تشرب منه ، وهم يجلبون ذلك الماء (الراكد منذ فترة طويلة) باستخدام دلائهم ، من تلك الآبار الراكدة غير المتجددة . وهنا يقوم كل واحد باقتياد

(*) الهلالات : نسبة إلى بنى هلال . (المراجع)

دوابه وهو يقول : "ويهو ! ويهو ! ويهو ! تشجيعا لتلك الدواب على الذهاب للشرب من ذلك الماء ؛ وعندما تبدأ الإبل فى التدافع بأعناقها الطويلة ، يطلب منها الوقوف قائلا : وه – هو ! Wôh-ho! وه – هو ! wôh-ho! " .

فى بعض الأحيان كنا نمر على مكان يطلقون عليه اسم "دار الأعراب" ، أو إن شئت فقل: منطقة التخييم القديمة: منطقة التخييم هذه عادة ما تكون قاعا من القيعان، ويكون مستورا ومحميا من الطقس وبعيدا عن أعين الأعداء ؛ والبدو الرحل يقيمون فى تلك المنطقة مدة يومين أو ثلاثة أيام كل عام ، أو بمعنى أصح فى الموسم المحدد لذلك . هذه الديار هى التى يجرى فيها نقل الأحجار البرية إلى الأجناب ، حيث يمكن إفساح مكان يستطيع البدوى أن ينصب فيه خيمته الصوفية ، كما يفسح مكانا آخرا لترقد فيه الماشية : وهذه الأماكن باقية منذ أجيال طويلة مضت . وعندما بدأت الشمس فى الاتجاه نحو الغرب ، كنا قد وصلنا إلى جانب الحرة ، حيث توجد بعض خيام البدو الرُّحل؛ هؤلاء الأعراب كانوا من الهروف H'roof، الذين هم سلالة من البلىِّ. وطلع علينا بعض الرجال عندما كنا نتجاوز هؤلاء الأعراب ، وراحوا ينادوننا بصوت كرم مصطنع وهم يقولون : "أنزلوا يا قوم ! لدينا المريسى فى بيوتنا ، ولدينا أيضا اللبن والسمن ." وذهبت مع أحد المعارف إلى خيمة كانت منصوبة على ضفة صخرية عند جانب مجوف من جانبى مجرى السيل ، ونزلت عند أهل هذه الخيمة وقدمت لهم هدية من التتون (الدخان) . عثرت على ربة البيت الطيبة فى المنزل ، وكانت خصلة شعرها الأمامى تبدو كما لو كانت قرنا ، رصعته بحبات من الخرز – وهذه الطريقة الزينية مستعملة فى بعض مناطق الشمال الغربى . كانت ربة البيت جالسة ، وهى تخضخض القربة المملوءة بالحليب فوق ركبتيها ، وطلبت منى أن أصبر عليها بعض الشىء ، إلى أن تنتهى من تخليص الزبد من اللبن ، وبعدها يمكن أن تصب لى شيئا أشربه من اللبن المتبقى بعد عملية الخض . كان كلبها البلّى الضخم الذى يستعمل لحراسة الأغنام يتبعها دون نباح (ومعروف أن هذه الكلاب تنبح فى أغلب الأحيان إذا ما رأت شخصا غريبا) ؛ واقترب الكلب ليجلس بالقرب منا . عرفت بعد ذلك ، أن تلك المرأة الكريمة ، التى كانت أرملة وحيدة، وكان معها ولدها الذى لا يقل عنها أمانة وصدقا؛ هذه المرأة ، هى وولدها جاءا لقضاء الصيف مع أعرابنا ونصبا خيمتهما بيننا فى وادى تربة Thirba.

ومن حافة الحرّة ، كنا نشاهد أمامنا حدود تهامة الوعرة بأرضها المنخفضة عن الحرّة تمتد أمامنا . ومع أول نزول لنا ، بدأت الصخور الرملية تطالعنا من جديد ؛ واسترعى انتباهى منطقة كانت تقف فيها وسادة من الصخر البركانى ، كانت تلك الوسادة متصلبة كما لو كانت موجة مجوفة ، فوق جدار الوادى المكون من الحجر الرملى. وعلى القمة الصخرية التالية شاهدت شرحا حميريا منقوشًا بطريقة غير متقنة. ومع حلول الشفق ، وصلنا إلى مخيم من مخيمات البدو الرحل ، فى السهل السفلى ؛ هؤلاء البدو كانوا فرعا من البلّى أو من فرع السَّحامة Sehamma على وجه الدقة ، وشيخا هؤلاء البدو هم الشيخ مهنا Mahanna هو وعمه فضيل Fodil : وكان قد تقرر أن يقوم مهنا فى الغد بتولى قيادة قافلة الفجير إلى قرية الوجه . وتفرق أعرابنا وانتشروا ، بعضهم ينشد الراحة فى بيوت معارفهم ، وبعض آخر ذهب لينام على الرمل ، نظرا لأن هؤلاء الفقراء المساكين كانوا يخجلون من اصطحاب الضيوف معهم إلى بيوتهم . أما أنا فقد نزلت مع شخص آخر فى خيمة مهنا ، واضطجعت هناك وأنا أعانى الكثير . ولما شخصوا معاناتى على إنها نوع من الاضطراب أحضروا إلى شيئا من اللبن كى أشربه ، ونمت بعد ذلك كما لو كنت ميتا . كان الشيخ البلوى قد استدعانى فى بداية الليل ، إلى خيمته لأجلس معه وأتناول الطعام ؛ رأيت جثة عنزة تتصاعد منها روائح الشواء أمامنا ، فى حفرة واسعة ، وهذه إشارة إلى أن مهنا قد ذبح الذبيحة وجهزها إشارة إلى كرمه . وطلب منى فى ود أن أقترب من الطعام "وأمد يدى" وآخذ من اللحم ، وهو يقول "إنه عمل مخلصا بوصية الشيخ مطلق ؛ كان مهنا سعيدا برؤيتى ." كان مهنا رجلا فى منتصف العمر ، يتسم ببساطة تنم عن نبله ؛ والدراسة العالمية المتعجلة وغير الدقيقة قد تفسر هذه البساطة على إنها نوع من أنواع انعدام اللياقة الذهنية : كان مهنا فى منزله يتجلى فى تصرفاته المرح المشوب بالحزن ، ولكنه كان قائدا شرسا فى الميدان . تزايد ودنا وحبنا إلى أن دخلت علينا أشهر الخريف ، وهو الوقت الذى غادرت فيه ديار هؤلاء القوم . والسَّحامة the Sehamma هم جيران حلفاء للموهاهيب ؛ وهناك أفرع أخرى من البلّى ، غير الهروف H'roof هى الجوين el-Güeyin والزُّبَّالة Zubbala ، العراضات Aradat ، والوبيسة Wábissa ،

والصرابطة Sarabata ، والجرايا Graya ، والحريرى Hareyry ، والجروطى Grauty ، والسويملى Sweymly ، والفويحى Fueyhy ، والجمدان Jemdân . هؤلاء البدو يرون حسب علم الأنساب أن البلّى Billi هو اسم الجد الأكبر للقبيلة ، وأن أولاده من بعده هم مخاليد M'khâlid وخازام Kh'zâm والأرض التى يتجول فيها البلى تمتد من هذه المنطقة إلى البحر ، أى على امتداد مسير أربع رحلات . وفرع السَّحامة عبارة عن أربعين أسرة : وقد أحصيت فى هذه المنطقة عشرين خيمة قاموا بنصبها .

مع طلوع نهار الغد شجعنى مهنا على ركوب الجمل ، نظرا لأن كفلنا كان على وشك التحرك ؛ ولكنى رددت عليه بأنه يتحتم عليه أن يتركنى لحالى فأنا لا أقوى على التحرك أكثر من ذلك . وأنا طوال هذه الأسابيع الأخيرة من الحرارة والجفاف لم أذق شيئا سوى الماء ؛ كانت مسألة تنفسى رياح السموم فى تهامة تشكل لى عبئا ثقيلا : وأنا يتعين على أن أتجاوز ، بشىء من القلق ، البقية الباقية من تلك الديرة ذات الأرض الوعرة المنخفضة ، فى ضوء الشمس الحارق ، فوق ظهور جمل بطىء الخطى ، أكاد أسقط من فوق سرجه ، أو ألفظ نفسى الأخير قبل أن يصل الكُفل إلى نهاية الرحلة ويدخل قرية الوجه. كنت أحسب أنى سوف ألتقى بأبى Abu سنون Sinûn فوق الحرّة ، نظرا لأن مُنزَل المواهيب لم يكن بعيدا كثيرا عن هذا المكان ؛ ولربما قدر لى أن أتنفس من جديد فوق الجبل ، وأجد عند أبى سنون قليلا من الحليب ، وهنا يمكننى أن أسترد صحتى . "(سألت الرجل الطيب وأنا حائر) كيف ! ينبغى عليه أن يتركنى طوال أيام كثيرة وحدى مع النساء (الحريم) ؟" وهنا رد عنى صوت ودى من أصوات الفجير قائلا : "خليل ، يعرف ، بالله ، كل الأعراف والتقاليد (الدين din) الخاصة بالأعراب ، إنه واحد منا ." وبينما كان مهنا يجلب ذلوله كى يركب وينهض بالكُفل المتحرك ، وضعت فى راحة يده بضعة قروش ، وأنا أقول له إن هذا المبلغ لشراء قليل من التتون (التبغ) ، يتعين عليه أن يحضره إلىّ عند قدومه ، وذلك من باب الخدمة التى يمكن أن يقدمها بدوى لصديقه ، عند عودته من السوق . "(قال الرجل البسيط) ولكن قل لى ما مقدار هذه القطع الفضية ، أم يجب علىّ استدعاء واحد من أولئك الذين يعرفون كيف

يعدون النقود ويحسبونها ؟" البدو لا يعرفون إلا الحساب بالريال ، أما العملات المعدنية الأقل من الريال فهي غير معروفة عندهم أو لهم . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو بعيدون عن الطريق وأيديهم غير ملوثة بصرة الحج. ركب مهنا ذلوله وهو يحمل حربته ، ومضى رجال القافلة من الفكارة قدما غير مسلحين ؛ يضاف إلى ذلك أن المنطقة الواقعة خلف أرض السحامة ، كانت بكل من فيها من البلّى معادية لأولئك العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة) ؛ ولكن الجميع كانوا يثقون بسلوك مهنا . كان مهنا يحصل على أتعاب مقدارها ريال واحد عن كل جمل .

الفصل الرابع عشر

التجوال فوق الحرّة مع المواهيب

منظر البراكين . "بيوت الناصرة" . قدامى تلك البلاد . الحكايا الخرافية . بنى هلال . سيل العرم . جبل الأبطال القدامى . قبورهم . والدة مهنّا . الشيزم . يهود خيبر . عشائر البلّى . الأمراض . المزينون . مجيء كُفُلُنا من الوجه مرة ثانية . فرس الشيخ تموت عطشا . خطاب أهل مُنَزل آخر مع النصرانى . زوجة المهنا . البحث عن المواهيب فى الحرّة . البلد البركانى العجيب . القبور الأثرية هناك ليست من قبور البدو الرُّحل المسلمين . تركب مغامرين بحثا عن الأعراب . مشوات . نزاع على الكرم . المواهيب وقبليو السبُّاع من العنزة . تحالفات القبائل . فطور مُضيف بدوى . الشكر بعد الطعام. طُلوج شيخ المواهيب . أسرة أبى سنون المغربى. بنجاحه فى حياة البدو . مخيم المواهيب فى الحَرة . تلال الفوهات البركانية . مجئ شيخ من الحويطات طلبا للديَّة . كلامهم إعجابا بالنصارى . تل بركانى . وجه الحَرة ؛ – البرد القارس فى الشتاء . ندرة الماء . أبو سنون يعود ثانية من رحلته ، قادمًا من بلاد الغرب . طُلُوج يلتمس إلى النصرانى الرحيل . ربات البيوت تتحدثن مع الغريب . فايز الراعى .

نصب السُّحَامة خيامهم بالقرب من الجزء العلوى من جبل تهامة ؛ هذا الجزء العلوى من جبل تهامة يطلق عليه اسم جبل صليح Sléih ؛ وكانت تلك الخيام بالقرب أيضا من أم شاش Ummshash ، المصدر الرئيسى للماء فى منطقة السُّحامة هذه . – كان المنظر الذى نطل عليه من خيامنا ، يحتوى على ثلاثة جبال فوق الحرَّة ، ولكل جبل من هذه الجبال الثلاثة رأسان ؛ وبعد أن (تمعنت فى تلك الجبال تمعنًا تاما من خلال النظَّارة ، لم يراودنى أى شك فى أن تلك كانت تلالاً من صخور نارية من صخور

البراكين . أخبرنى البدو أن تلك كانت أحجاراً محروقة ورمل أسود . وفى الجزء الرملى من ذلك المَنزل رأيت مسارات أرضية قديمة لها علاقة بالمبانى ، كما رأيت أيضا على التربة العالية المجاورة أكواما مبنية من الحجارة وبينها عقود ؛ والبدو يطلقون على هذه الأكوام اسم "رجوم" Rijjum ، ويصل ارتفاع كل واحد من تلك الرجوم إلى ما يتردد بين عشرة واثنى عشر قدما ؛ والغالبية العظمى من تلك الرجوم مكسرة من الداخل ، والناظر إليها يرى فى داخلها زنزانة صغيرة ضيقة ؛ وقد شاهدت ، بعد ذلك العديد من هذه الرجوم فى العويريض Aueyrid ؛ شاهدت تلك الرجوم فوق كل جزء مرتفع من الأرض . والبدو يقولون عن هذه الرجوم إنها "بيوت النصارى" ، أو الكفار القدامى الذين سكنوا هذه البلاد قبل آبائهم المسلمين . شاهدت أيضا فى سيناء رجوما شبيهة بتلك الرجوم أو تختلف عنها اختلافا طفيفا ؛ هذه الرجوم السيناوية يطلق على الرجم الواحد منها اسم "ناموس" Namûs وجمعه "نواميس" Nawamis ، وهو ما يفسره بدو الطور Tówara تفسيرا خرافيا على إنه "منازل النمل" ، قائلين إنه كانت توجد فى هذه المتاهة من الوديان الجافة المهجورة "قنوات جارية نحو الأسفل فى غابر الزمان ، كما كان فيها أيضا برك على شكل مستنقعات تحت مستوى سطح البحر ، كان يتوالد فيها البرغش أو إن شئت فقل ، الهاموش إلى حد أن القدماء (الذين يسميهم البدو أيضا النصارى) بنو أيضا تلك الأكواخ الحجرية التى كانوا يأوون إليها بعد حلول الليل ، ويشبون النيران التى كانت رائحتها النتنة تحميهم من الأمراض التى تنتج عن حشرة الهاموش" . الناس فى سوريا أيضا يتحدثون عن ذلك "الناموس" Namus ، وكذلك فى البلدان العربية بطريقة مفسدة إذ يقولون "ناجوس" Nagûs بدلا من "ناموس" Namûs ، وهم يخصصون كلمة "ناجوس" ويطلقونها على أى مكان من تلك الأماكن الأسرية الخاصة بغير المسلمين ، كما هو الحال بالنسبة للأماكن التى فى المدافن والجبانات المسيحية ، وكلمة "ناموس" أو "ناجوس" هذه ربما كانت كلمة إكليريكية تكونت فى أللغة الإغريقية Greek القديمة ، – أو إن شئت فقل : إنها كانت لسان حال الدين المسيحى . لقد عثرت على "ناموس" Namûs فى سيناء ، وذلك على الطريق القادم من السويس ، وذلك على بعد مسافة حوالى نصف رَحْلة من الدير اليونانى ، وقد اعتاد البدو ، وحتى يومنا هذا ، على دفن موتاهم فى ذلك الناموس . وأنا عندما وصلت إلى هناك فى

العام ١٨٧٤ ، وعندما رأيت مدخلا مقاما من الأحجار وحزم الحطب ، خطر ببالى تحريك بعض العصى لأنظر فى الداخل ، ولكن الجمّال العجوز أشار إلىّ بيده (إذ لم أكن قد تعلمت الكثير من اللغة العربية) بما يفيد أن الرجال يرقدون فى الداخل ، مستلقين على ظهورهم ومغمضين عيونهم ، مع الكلمة الأخيرة راح يتشمم الجو من حوله . لقد أحصيت فى واحد من وديان سيناء (هو وادى زليلى Zileyly) حوالى ثلاثين ناموسا من النواميس الدائرية والبيضاوية ، وكلها كانت قريبة من بعضها البعض : وغالبية تلك النواميس كانت مدمرة ، وجافة البناء ، مثل مثيلاتها فى الجزيرة العربية. ورجوم العويرض Aueyrid بدائية ولكنها مبنية أيضا بواسطة البشر .– ألا تكون هذه الرجوم أكواما من التراب فوق القبور، أو مقابر لشخصيات رئيسية من القرية القديمة، ومن البدو الرحل ؟

البدو هنا يسلمون أن النصارى جميعهم كلهم من سلالة واحدة ، وأنهم استولوا على هذه البلدان الصحراوية ، إلى أن "طردهم منها آباؤهم ." "قالوا ، والله ، ألم تكن هذه هى قراكم المهدّمة ، يا خليل ، التى تراها فى أماكن كثيرة ، بل وحتى فى هذا الجبل ؟ وأنت ، ألست واحدا مُرْسل من قبلهم للتجسس على هذه الأرض ؟ – وهل من المحتمل أن يكون الوثنيون يتطلعون إلى وراثة هذه الأرض ." قال آخرون : "إن بنى هلال هم الذين سيستولون على هذا البلد مرة ثانية !" وأضاف بعض آخر : "لقد وصلنا هذا الخبر فعلا ، ولكن هل تحسب أو تظن أنهم سوف يفاجئوننا بالهجوم علينا ؟ أين تكون الينابيع القديمة ، التى لا نستطيع العثور عليها ؟ أليس بوسعك أن تفتينا فى ذلك ، من خلال كتبك ، عن الأماكن التى يمكن أن نعثر فيها على الينابيع والكنوز المخبأة ؟ وحياة ربنا ! سوف نكافؤك إذا ما أريتنا الماء ." – "(قال واحد منهم) انتبه ، سأقول لك شيء ، – أليست هذه الأرض الخربة معروفة لنا جميعا ؟ وأنا أقول : عندما كنت فى سوريا ذات مرة، جاءنى نصرانى ، بعد أن فهم أنى من هذا البلد ، – هذا النصرانى ، كان يمسك فى يده ، كتابا أيضا !– وقال : "خبرنى أيها البدوى ، ألا يوجد الموقع الفلانى– حدد اسم موقع بعينه !– فى ديرتكم ؟" "أجبته ، نعم بالله ! هناك جدران لبعض القرى المدمرة" – "لابد أن يكون هناك كنز كبير فى هذه المنطقة؛ حسن أجبنى ، [إنها تركيبة سمعت عنها حكايا مماثلة ،] أعرابكم يشربون فى أوانى من

النحاس الأحمر أو من الفضة ؟" – "بالله ، بعض أوانينا مصنوعة من النحاس ، أو فى أطباق مزينة بالفضة ولكن القسم الأكبر منها مصنوع من الخشب ." – "إذن فهذا الكنز موجود هناك ، وبناء على ذلك ، قال النصرانى ، "هل تستطيع توصيلى إلى هناك ، وإذا ما وجدنا الثروات فسوف نتقاسمها سويا؟ وَعَدْت الرجل بذلك من منظورى الدينى، وعندما جاء اليوم الذى ركب رجالنا فيه دوابهم عائدين إلى مَنْزلهم ، ذهبت أنا بنفسى لإحضار النصرانى . "قال : سوف أذهب معك ، وبالتالى سوف نغنى أنفسنا ، ولكن الخلاء (الصحراء) مخيف ، وكيف لى بالعودة ثانية إلى هنا ، عبر الصحراء الجرداء القاحلة ، حيث يوجد بيتى ؟"" – مثل هذا الكلام كان يتردد على مسامعى فى الجزيرة العربية ! ونظرا لبقائى فترة طويلة فى قرية الحجر ، فإن الأعراب من حولى كانوا ينظرون إلىَّ على أنى نصرانى ، من أولئك الذين يستطيعون "رؤية الغيب" ، من ناحية ، وباحثا عن الكنوز من الناحية الأخرى .

سألنى بعضهم : "هل سبق لك زيارة تونس فى رحلاتك ، وهل بنى هلال فعلا شعب عظيم فى تلك الديار ؟" وبنى هلال ، الذين يحكون عنهم ، هم جمع كبير من القبائل النجدية ، تجمع فى يوم من الأيام ، عندما عانت الأرض من سبع سنوات من الجفاف . وعندما ماتت مواشيهم ، هجر الأعراب الأماكن كلها وتجمعوا مع بعضهم البعض ، على شكل غفير كبير ، وراحوا يبحثون عن أرض باركها الله بالمطر والربيع . قام هؤلاء الأعراب فى البداية بالإتيان على ديار قرية بلقاء Belka : ثم نزلوا بعد ذلك إلى مصر ، حيث استقرت فيها بعض القبائل ، ولكن غالبية تلك القبائل تقدمت صوب الغرب ، ثم استولت على بعض المراعى فى بلاد البربر(*) Barbary : ويقول الموروث (التراث) إنهم استقروا بصفة أساسية فى مستنقعات تونس . وفى كل قبيلة ، فى كل واحة من الواحات التى ذهبت إليها فى الجزيرة العربية، كان الناس البسطاء يسألونى، باعتبارى عابر سبيل من أقصى الغرب ، "هل التقيت بنى هلال ؟" وإذا قلت : "لابد أن يكونوا جيرانا لنا ،" فقد كانوا يصدقون ذلك تماماً ؛ ولو كنت قد قلت لهم :"أنا

(*) بلاد البربر : المقصود بها بلدان الشمال الإفريقى وهى فى حقيقة الأمر بلدان عربية إذ لا يشكل البربر سوى نسبة قليلة من سكانها . (المراجع)

واحد من بنى هلال" ، لنظروا إلى نظرة تقدير وإكبار . بعض المغاربة ، الذين يغامرون بالسفر إلى الجزيرة العربية ، وبخاصة الرجال الطوال منهم ، قد يتباهون بأنفسهم بأنهم "أبناء بنى هلال ." وسيرة بنى هلال يجرى التغنى بها فى كل كفر من الكفور والخيام المصنوعة من الصوف الأسود ، فى تلك الصحراء الواسعة الشاسعة ،- هذه السيرة عبارة عن نص غير مكتوب (يحرك الشباب صغار السن) عن التفاخر بالكرم ، وبالشجاعة فى ميدان الوغى ، ولكن هذا النص أعجمى ، لأنه لا يخضع للمقاييس أو المعايير الدقيقة ، إضافة إلى أن هذا النص يخرج عن نطاق القدرة البشرية . هناك عدد كبير من بين كل عشرة من البدو ، لا يستطيعون ترديد هذه السيرة، ولكن من بين كل مائة يندر أن تجد طفلا لا تجرى على لسانه قافية من سيرة بنى هلال .

هذه السيرة التى تسرى مسرى الحياة فى كل أرجاء نجد التى فيها القبائل المترحلة ، ربما تكون قد انحدرت عن القبائل منذ زمن بعيد . - ولكن ماذا عن "سيل العرم" ؟ هو تل جبلى سجل من قبل المؤلفين المسلمين الأسطوريين . والبدو ليس لديهم موروث عن "انهيار سد" مأرب وعن - حادث صغير من هذا القبيل - ألا وهو الانتشار القديم للقبائل من مكان واحد فى الجزيرة العربية . ونجد من حيث المظهر ، ومن حيث الترجيح أيضا ، كانت أرضا للبدو منذ البداية . هذه كانت قصة غريبة على أذهان وآذان أولئك البدو ، شأنها شأن قصة برج بابل . وأنا عندما كنت فى حائل ، جرى جلب حكاية مماثلة من الرياض er-Riáth ؛ وفى إحدى المقاهى الكبيرة ، سمعنا خبرا عن فأر آخر كان قد أكل مؤخرا وفتح الماء على جانب من جانبى وادى حنيفة .

هذا الجيل البطل القديم ذاع صيته على أنه هو صاحب الآبار الصحراوية ، وكذلك الحفر الصحراوية المبطنة بمبانى من الحجر ، كما أن هذا الجيل هو أيضا مبدع الأعمال الكبيرة الأخرى ، وكذلك البنايات الحجرية ، التى يمكن مشاهدتها هنا وهناك فى الديار الجرداء فى الشمال ، ونشاهدها أيضا فى الجنوب فى منطقة تهامة التى تقع بالقرب من مكة . هذه الأعمال كلها ، هى فى نظر الأعراب ، من أعمال العمالقة ، وأن هؤلاء العمالقة هم بنو هلال .

هناك مقابر ، أقيمت فى أماكن كثيرة ، من صحراء الجزيرة العربية الجرداء

القاحلة ، ويصل طول القبر إلى ما يزيد على عشرين قدم ؛ ويقال إن هذه المقابر هى من مقابر بنى هلال . وبنفس الحال أو الشاكلة يستطيع الرائى أن يشاهد مقابر بعض الآباء المسيحيين ومقابر بعض أنبياء فلسطين، التى هى الآن فى حوزة المسلمين وتحت سيطرتهم ؛ وهذه المقابر أيضا مبنية حسب طول معين ، حسب السن والمكانة ، إذ منها ما يصل طوله إلى ستين قدما ، والبعض الآخر يصل طوله إلى حوالى مائة قدم . وهذا هو قبر حواء (أليست هى التى تسمى بأم البشر ؟) الذى يصل طوله إلى خطوات كثيرة فى مدينة جدة ؛ والضريح المبنى فوق سرة بطن أم البشر ، يصل ارتفاعه إلى أكثر من ارتفاع شجرة الأرز ؛- هذا يعنى أن أطفالها عند المولد ، لابد وأن يكونوا أكبر من الفيلة . إذا كان ذلك هو حال المرأة الأولى ، فكيف كان حال آدم نفسه ؟ والبشر ينبغى أن لا يحملوا أكثر من قامة(*) واحدة من اللحم البشرى ، مخافة أن لا يستطيعوا حملها .

رددت على هؤلاء البدو ، "لن يغزوكم النصارى ، فهذه الأرض لم تكن فى وقت من الأوقات أرضا من أراضينا : وإلى جانب أراضيهم الخاصة بهم ، فهم لديهم أراضى أكبر فيما وراء البحار ، لم تكتشف بعد ، ومليئة بنعم الله ؛ أراضى فيها الماء ، وخضراء مثل حديقة دمشق . الهواء فى تلك الأراضى براد (عليل) ، والحرارة فيها ليست شديدة ، كما أنها ليست باردة أيضا ، وفى تلك الأراضى متسع لكم جميعا يا أصدقائى ، والنصارى سيستقبلوكم ويرحبون بكم فى تلك الأراضى . من الذى أرسلنى للتجسس على رملكم وأحجاركم ؟ وأنا طبقا لعقيدتى ، لن أوافق على زيارة هذا البلد بناء على طلب من أى إنسان . أنا سوّاح Suwahh ، وأنا بصدق ، لو كنت متعلقا بأمور الدنيا ، لما تخليت عن حياة المدينة إلى حياة الجوع ، ولما جئت إلى حرارة الصحراء ." - "صدق ، الله ! (قالتها والدة مهنا التى كانت واقفة تغزل إلى جوارنا) ، أرضهم أفضل من أرضنا ، وما هو ذلك الذى يبحثون عنه أو ينشدونه هنا حيث - يا إلهى - لا يوجد شىء سوى الظمأ eth- thùmma والجوع Wa-ej-jùa " كانت أم ذلك الشيخ من شيوخ البدو جميلة فى سنها وعمرها ، وشعرها الأشيب ، والذى لا شك فيه

(*) القامة : مقياس يعادل ستة أقدام . (المترجم)

أن هذه الأم كانت شديدة الشقرة مثل الكثيرات من نساء البلىِّ. هؤلاء النساء كاشفات، مثل جيرانهن العنزيات Annezy : والكثيرات منهن يميل لون شعرهن إلى اللون البنى ؛ (يقال أيضا إن النساء ذوات الشعر البنى ، موجودات أيضا بين بنى عطية) ولكن تحرقهن هنا شمس الجوع والعطش فى هذه البلاد ، هذا يعنى أن تلك النساء هن دوما هزيلات وتعانين من شحوب اللون .

وفى ديرة السُّحامة ، التى فى الجزء الجبلى المرتفع من تهامة ، والذى يقع فى المنطقة المنخفضة المجاورة للعويرض مباشرة ، يوجد الكثير من مواقع الكفور (الهجر) والقرى المهدَّمة . والناس يحكون هنا أيضا عن واحدة من المعجزات الطبيعية ، أو إن شئت فقل : عن كهف أو حمَّام من ماء نهر الظلمات(*) Stygian ، أو إن شئت فقل : حمام Hammam الشزم es-Shizm الموجود عند رأس الجبل ، والذى يذهب إليه البدو الرحل ليغتسلوا فيه هم وإبلهم للفضائل الشفائية التى لماء هذا الحمام ، ولكن البدو الرحل يقولون : إن من يشرب من هذا الماء قد يموت . هذا الماء يميل لونه إلى الاخضرار وهو مر الطعم (وربما كان ذلك ناتج عن صدأ النحاس) ؛ – والناس هنا يقولون من باب الخرافات ، "إن الشزم Shizm لا ينساب فى هذا الماء فى شهر الحج ، إذ يتحول الماء إلى مكة فى تلك الفترة ."

كانت فى ذلك المُنَزل من منازل البلَّى Billi أسرتان أو ثلاث من أسر ولاد على ؛ هذه الأسر تخلفت، نظرا لأن قافلة نقل الأرز من بلدة الوجه، كانت تعج بالبشر سليطى الألسنة الذين يسيطر عليهم سوء القصد من ناحية، والمزاج الحاد من الناحية الأخرى، مما جعل البلَّى يتهامسون ، من وراء ظهورهم ، ويقولون عنهم أنهم من يهود Yahûd خيبر Kheybar ! وهم يقولون الشىء نفسه (من باب إساءة القصد بالجيران) عن الفكارة ، باعتبارها من القبائل التى ورثت خيبر اليهودية ؛ معروف أن العنوز Annezy الجنوبيين ،– فيما عدا القحطان – هم أشد العرب البدو إتساما بالطابع اليهودى . كان هناك شاب طيب من العلايدة مع تلك الأسر ، وكان اسمه "ضيف الله" Thaifullah؛

(*) حسبما ورد فى الأساطير . (المترجم)

هذا الشاب راح يسألنى ، من منطلق روح العرب غير المتحضرة ، التى تطمع فى الامتداح، حتى مع قلة المنفعة ، راح يسألنى ببساطه وسذاجة : "كيف رأيت الأعراب ؟" وأجبت على سؤاله مشبِّها الأعراب بالطلح ، تلك الشجرة الجميلة الموجودة فى الخلاء (الصحراء) بأغصانها التى تحمل قلة قليلة من الأوراق دائمة الخضرة ، ولها أشواك حادة ولها زهور حلوة فى موسم التزهير ، وخشبها يأتى فى المرحلة الثانية بعد الأخشاب غير المفيدة . "(صاح الشاب) والله ، يا خليل ، لقد أصبت ." ومعروف أن الكلمات التى من هذا القبيل تمسك عليهم أذانهم العاطلة .

بدو البلّى هؤلاء ، هم ألطف أنواع البدو فى الجزيرة العربية كلها . ونظر لأن هؤلاء البلّى كانوا أحرارا وأصحاب قلوب مستطيرة ، فإن السواد الأعظم منهم كانوا رجالا لهم كلام واسع الحيلة ، ولكنهم سرعان ما تكون شفقتهم أكثر من كرمهم . كان هؤلاء الناس أيضا يربون إبلهم بأعداد كبيرة ، وقد شاهدت عند غروب الشمس قطيعا صغيرا من تلك الإبل يقف أمام كل خيمة (بيت) من الخيام : وتلك إشارة أو علامة مريحة أو مناسبة من العلامات التّى توحى برغد العيش فى الصحراء . هؤلاء البدو ، كما قيل مؤخرا ، لا يعتمدون على الصُّرَّة ، التى ليس فيها بركة ، ولكنهم من البدو البواسل ، الذين لا يعلقون آمالهم على أحد سوى أنفسهم . ومع ذلك فإن عشائر البلّى القريبة من شاطئ البحر تتقاضى رسوما على طريق الحج المصرى ؛ إضافة إلى أن شيخ البلّى الكبير ، حسبما قالوا لى ، له وضعه العام (باعتباره مستفيداً من الحكومة) فى القاهرة ، والجهاينة ، جيران البلّى ، هم مثلهم ، قبليون يتسمون بسلوكيات الشهامة . ومعروف أن جهينة قبيلة كبيرة مشهود لها بالنبل منذ زمن بعيد ، والجهاينة يمتدحهم العربان بأنهم من أصحاب الكرم القديم ، والحويطات موجودون على مضارب البلّى الشمالية ، – هؤلاء الحويطات هم أعداء ألدّاء ولصوص ماشية : والبلّى ، بسبب الخوف من الحويطات ، يعيشون فى قلق واضطراب ، إضافة إلى أن الصحراء الشاسعة تصبح فى فوضى وارتباك فى حالة انعدام أو غياب سيطرة بن الرشيد وهيمنته . ففى كل يوم ، كان ولد مهنا يركب ذلوله (ناقته) ويحمل رمحه فى يده ، ويتجه لاستطلاع الأرض أمام الماشية التى تذهب إليها للرعى : وبذلك كان يبقى فى ذلك المكان ، للقيام بالمراقبة المتقدمة إلى دخول المساء .– وإذا ما أعطاهم الشيخ

الصغير إشارة ، يقوم الرعاة بتجميع ماشيتهم ، ويقتادونها إلى المُنزل وهى تجرى من أمامهم . سألته : "وماذا تفعل إذا ما التقيت لصا من لصوص الماشية ؟" وأجابنى بنظرة توحى بالغطرسة والكبرياء : "سوف أخترقه بهذا الرمح ، ها !"

عرفت من خلال ممارستى الطبابة أن بدو تهامة لا يعانون فقط من أنواع كثيرة من رشح الأنف ورشح العين والرمد ولكنهم مصابون أيضا بأمراض أخرى معدية . وقد انتقل المرض إلى دماء هؤلاء البدو من شاطئ البحر فى السنوات الأخيرة . وأنا أرجو أن يصدقنى القارئ أن قلة قليلة من هؤلاء البدو هم الذين هربوا من الإصابة بتلك الأمراض المعدية morbus gallicus . ولهذا السبب فإن حلفاءهم ، من أعراب الداخل ، يخشون من الزواج من أفراد من قبائل تهامة من منطلق زعمهم أن "لحم بدو تهامة هو لحم غير صحى فى واقع الأمر ." أنسباء العرب يقولون الشىء نفسه عن أمراض أخرى . وجهت إلى حدّاد بدوى السؤال التالى : "ألم يتزوج قريب له من صنّاع تيماء ؟" فأجابنى : "حسن ! لقد أخذنا فعلا من بناتهم ، وقد نتزوج منهم مرة ثانية ، ولكننا تحاشينا ذلك الزواج بسبب البرص الذى اكتشف فى دمهم ." هذا الوباء الفظيع أصاب الموءاهيب الذين بدءوا الآن تحاشى الدخول فى علاقات زواجية مع صنّاع تيماء. لم أعرف من بين الموءاهيب سوى واحد فقط منهم كان مبتليا بذلك المرض ، هذا الشخص كان امرأة عجوز مسكينة كانت مصابة بالسعال ، وكانت تقيم فى منزلنا ؛ كانت امرأة محبوسة الصوت ، كريهة الطلعة ، ومع ذلك كانوا يقولون عنها إنها أجمل الحريم قاطبة ! كانت الزوجة السحيمية التى زارت الحكيم سليمة شكلا ، ولكن طفلها الصغير كان يعانى ، أو إن شئت فقل : مصابا بالبرص ، تزوج رجل من العلايدة منذ ست سنوات من امرأة قبلية من تلكم الحسناوات ، ولكن المرض المعدى الكامن فى دمها داخل شرايينها ، انتقل إلى كل قواه الحيوية ؛ وقد أرانى ذلك المسكين على يديه قرح مريعة مفتوحة . هؤلاء البدو يطلقون على مرض البرص ، أو إن شئت فقل : الجذام ، اسم "حب hub الفرنجى" er-Fernjy كما يسمونه "البلوش" el- bellush أو "داء الملوك" el-Melûk tha ، أو قد يطلقون عليه من باب التهكم اسم "المبارك" el- Mubârak . كل آمال هؤلاء البدو كانت تتمحور حول استعمال الرصاص الأحمر بشكل أو آخر من الأشكال العنيفة ؛ هذا الرصاص الأحمر كان البدو يجلبونه من الوجه. أعراض البرص

تظهر فى دم أهل الجزيرة العربية الذين لا يأكلون أو يتغذون بطريقة صحيحة . من هنا فإن العرب الذين يوصون بالزواج من عذراوات ، يشفعون كلامهم ، فى معظم الأحوال بالعبارة التالية: "ولحمها Wa - Lahm - ha زين Zain"، بمعنى أن "لحمها جيد وسليم."

رأيت بعينى كثيرا من المزينين فى معسكر السَّحامة ؛ كان ذلك ، فى ساعة مبكرة من صباح ذلك اليوم الذى سيجرى فيه تطهير (طهارة) الأطفال . عندما وصلت الخيمة الأولى كان الطفل قد جرى تحويله منذ لحظة إلى مسلم ؛ ولكن الجراحة كانت بدائية تماما إلى الحد الذى يجعلهم يستدعون هذا الجزار مرة ثانية . كان الطفل يولول حزينا على نفسه . وهو يقول :"ويلى !" Weyley ، بمعنى "الويل لى" . وإلى جوار الطفل كانت ترقد نعجة ، هى ذبيحة الوليمة ، بعد أن ذبحها صاحبها وراح الدم ينساب من حلقها ؛ ويقوم والد الطفل بعد ذلك بفصل رأس تلك النعجة عن جسدها . وصلت إلى خيمة مزيِّن آخر ، فى هذه الخيمة كان الجراح واحدًا من الصنَّاع . رأيت ذلك الجراح وهو يسن شفرته ، فى حين كان هناك شخص يمسك بخروف استعدادا لذبحه . كان الأب يشجع ولده الصغير ، وحمله ليطوف به راكبا على ظهر الخروف الأضحية ؛ ثم أعاد الأب الطفل ثانية إلى المكان نفسه ، ثم يستل الوالد بعد ذلك سيفه القصير ، وبضربة خلفية يقطع الخروف ، كما يقوم الأب أيضا بذبح عنزة وتيس . ثم قاموا بعد ذلك ، بوضع الطفل جالسا على صينية معدنية كبيرة مقلوبة ، التى تستخدم فى أوقات أخرى للتعبير عن الكرم البدوى ، "إنها مائدة الرحمن فى الخلاء (الصحراء)" ، ويقوم البدو بفرش بعض من فشل الخيل من تحت تلك الصينية . هذا الحداد وقف بلا حراك وهو يسن موس ثليم ليضع له حدًا قاطعا ، مستخدما فى ذلك عضلات ذراعه . ويسحب المزين القُلفَة خلال شقفة مثقوبة من الفخار، ثم يربطها بخيط فى تلك الشقفة . قالت الأم : "انتبه يا أنت ، لا تجور فى عملية القطع ." كانت الأم تمسك طفلها بيد ، وتغمض عينيه باليد الأخرى ، وتشجعه بصوت الأم ووعودها له بالحليب الحلو والأشياء السمينة . وهنا يقوم الصانع بضربة خفيفة ، بقطع الجلد من منطقة العقدة : ثم يقوم بعد ذلك بتعفيرالجرح بشىء من الفحم النباتى ، ثم يناول الطفل الذى لم يشعر بشىء إلى والدته ؛ وتروح الأم تواسى طفلها وهو على صدرها ، وتطلب منه أن يكون سعيدا بذلك لأنه دخل بذلك دين الإسلام . كان يجرى توزيع الأرز المسلوق ولحم الضأن قبل

الظهر ، كما يجرى أيضا نقل جزء من ذلك الطعام إلى سائر أنحاء المخيم ، لتوزيعه على الأصدقاء الذين لم يكونوا حاضرين . شاهدت العذراوات والنساء المتزوجات حديثا ، وهن يغنين طوال الساعات السابقة لوصول المزينين .

فى الصباح مر أبو سنون على خيامنا ، عائدا من قرية الوجه مع الجمال المحملة بالأرز ، اتجه أبو سنون إلى ناسه وأهله فى الحرَّة ؛ ولكنه وعدنى بأنه سوف يعود أو يرسل إلى رسولا خلال ثلاثة أيام . فى اليوم الثامن شاهدنا مهنا ، قادما إلينا على ظهر ناقته ، قبل عودة القُفْل (القافلة) ؛ وأفاد البدو أن الحرارة فى ذلك الوقت ، كانت لا تطاق فى قرية الوجه ، إذ كان الليل خاليا حتى من هواء التنفس ، كما أن أهل القرية لم يتمكنوا من النوم مطلقا . وصلت القافلة فى فترة العصر ، واستطاعوا إنهاء أمورهم كلها فى البلدة قبل دخول الليل ، ثم رحلوا بقلق البدو الرحل المعهود . قام رجال القافلة بإحضار الإبل التى اقتادوها معهم للبيع ، للسماسرة والوسطاء العامين ، الذين راحوا ينادون على تلك الإبل فى كل أنحاء السوق ، مما أسفر عن بيع كل ما كان معهم خلال ساعة واحدة إلى أعلى الأسعار ،- المقدمة من باعة الأرز الهندى ، ومن تجار الجمال الموجودين فى المكان . معروف أن تجار الجملة لا يدفعون الثمن نقدا للبدو ، فيما عدا الكسور المالية الصغيرة . وهم يدفعون الثمن بجوالات من البضاعة التى يتجرون بها : هؤلاء التجار يشحنون الإبل على القوارب hoys العربية إلى مدينة السويس . وعلى سبيل المثال فإن جمل مطلق الممتاز ، لم يعد عليه إلا بما قيمته خمسة عشر ريالا من الأرز ، الذى يكفى احتياجاته طوال فصل الصيف ؛ والمؤكد أن مطلق لو كان فى منزله لما فرط فى ذلك الجمل بخمسة وعشرين ريالا من النقود البيضاء . وهذا جمل آخر من جمال الحمل عند زيد ؛ هذا الجمل تقدم فى العمر بعض الشىء ، ثمَّنُوه فى الصحراء بعشرين ريالاً ، ولكنه هنا لا يقدر بأكثر مما قيمته عشرة ريالات من الأرز ، ويتعين على زيد أن يدفع حوالى النصف، من هذا المبلغ ، نظير عملية النقل. وغضب زيد غضبا شديدا لذلك الذى حدث له ، وأقسم يمينا مغلظا فى المجلس ، قال ، إنه لن يفعل ذلك مرة أخرى ، إلا إذا كان ذلك نابعا منه هو نفسه !؛ كما تشاور زيد أيضا مع الشيوخ لكى لا يرسلوا إبلا عن طريق أطراف ثالثة . والسبب فى ذلك ، أن الرجال الذين يعملون فى الكُفْل ، هم قبليون يستأجرهم الناس للعمل فى النقل ،

وغالبا ما يكون ذلك النقل لحساب الشيوخ ولمصلحتهم ؛ ولم يكن هناك شيخ يوافق على مرافقة هؤلاء المستأجرين فى أعمال مضنية من هذا القبيل . هؤلاء الجمالة كانوا يتقاضون ريالا ونصف الريال عن كل جوال يحمله أى جمل من الجمال : والجمل كان يحمل ثلاثة جوالات من الأرز الهندى ؛ أما الإبل العفية القوية فقد كان الواحد منها يحمل أربع جوالات. والرحلة فيما بين الروضة و"البحر المالح"، تقدر بحوالى اثنى عشر رحلة صيفية ، فى الحرارة الخانقة ؛ ونصف هذه الرحلات يكون خلال جبال منحدرة ، أو خلال أرض شديدة الوعورة ؛ والماشية تضطر إلى قطع هذه الرحلات دون أن تذوق طعم الأعشاب . وصاحب الجمل الذى يأتى وحده وليس معه جمله ، لا يحصل على أجر ، هذا فى البلاد العربية ، يضاف إلى ذلك ريال آخر عن السلوك السليم : ومعروف أن الجمل الذى يعود من رحلة من هذا القبيل يفقد سمنة الربيع ، كما ينخفض ثمن بيعه حوالى خمسة ريالات . والرجال يعودون بالجمال شبه محطمة ؛ وإذا ما ناقشت الأمر معهم ، تراهم يقولون أنهم هم الخاسرون ؛ هؤلاء الحمّالون المساكين ، يستطيعون الحصول على شىء قليل من النقود بهذه الطريقة ، ودون أن تنقص أعداد قطيعهم .

نفقت فى هذا المَنْزل فرس مهنا العجوز ؛ كانت تلك الفرس قد ولدت مؤخرا . ومعروف أن الفرس هى أغلى حيوان من بين مواشى الشيخ إلى نفسه. وعندما وُلد مهر من هذا الصندوق العظمى ، ربط الناس ضرع الفرس (مثلما يفعلون مع إبل الحليب) ؛ ثم جرى بعد ذلك تقييد المهر فى خيمة الشيخ ، لكى يربونه على لبن الخض أو إن شئت فقل : اللبن الحامض ، ومعه الماء . وبينما كنت أستلقى مستيقظا ، كنت أرى الفرس وهى تجىء أثناء الليل وتتشمم قراب الماء فى الخيمة ، وكانت تقضم القش من سروج الجمال بسبب جوعها . سألت العرب ، "لماذا لا ينهون آلامها المبرحة التى لا تنتهى بطلقة واحدة من سلاح نارى ؟" كنت أحسبهم قساة ، ولكنهم كانوا يرون القسوة فى كلامى ، كما كانوا يعتبرونه كلاما شاذًا ! - والكلب وحده (هو دونا عن سائر الحيوانات الأخرى ، هو الذى يأكل الخبز الذى يأكله البشر) ليست له أية مواطنة فى الحياة البدوية . والإنسان يكره فى هذا الوحش المتطفل ، الذى له شبه إنسانى ، سخرية طابعه الشرير : والبدوى يصب على هذا المخلوق الذى يقاسمه لقيماته ، كل جام غضبه ، وسوء سلوكه كما لو كان عدوا له ؛ ومع ذلك ، ففى بلدان الحدود ،

نجد المواطنين المتدينين ، يقسمون ، أنهم يلقون فى بعض الأحيان ، كسرا من الخبز لكلاب الجيف فى أسواقهم (حاراتهم وشوارعهم) . – أما الكلاب التى كانت معنا ، فقد كانت تقضى ساعات فى الصحراء ، وهى تنتظر الوقت الذى ترى فيه الفرس ترقد لتفارق الحياة، وعند ظهر اليوم الثالث سقطت الفرس على الأرض ولم تستطع الوقوف. ومع طلوع النهار جاءت النسور والعقاب لتلتهم الجسد المتعفن ؛ هذه الطيور الجارحة تحوم أيضا فوق المنازل البدوية فى الصحراء الواسعة ، التى تقع على بعد مسافات قليله من الداخل : ولكن هذه الطيور الجارحة ترحل عن هذه المنازل قبل دخول فصل الشتاء . وهذه الطيور عندما ترافق الأعراب ، تظل طائرة محومة طول الوقت ، فى النهار ، وعلى ارتفاع منخفض فوق المَنْزل . والنسر Rakham له ريش خشن صلب ، وأجنحته البيضاء أطرافها سوداء ، ومنقاره يميل لونه إلى الاصفرار : ونظرا لأن هذه الطيور من "نوات المناقير المعقوفة" ، فإن لحومها محرمة حسب الشريعة الإسلامية ، ومع ذلك فالأعراب يطعمون أطفالهم هذه اللحوم "لطرد الديدان" ، كما يظن البدو أن عظام تلك الطيور المجوفة تجعلهم يصنعون منها أفضل السيقان القصيرة التى تستعمل فى غلايين التدخين . أما الطيور الداجنة القافزة ، بعد أن تنتهى من وليمتها ، كانت تجلس على رفوف الصخور بالقرب من البدو ، دون أن تلقى بالا لأى تهديد صوتى يأتيها من البشر. وإن هى إلا ساعات قلائل ، حتى نشم بأنوفنا رائحة المعركة ، التى حجبها ظلام الليل عنا . معروف أن الروائح غير الطيبة مكروهة جداً من العرب ، وعندما طلع النهار ، تمتم مهنا بعبارات تفيد نفوق الفرس ؛ وطلب مهنا من زوجته فتح الخيمة ، وسارع الناس إلى رفع الفرس النافقة .

تجولنا مسافة ثلاثة فراسخ فى اتجاه الشمال ، ثم نزلنا عن دوابنا ، لنرى عن يميننا ومن فوقنا ، جبل الحرَّة الضخم . هذه الصحراء رملية ومليئة بالصخور والجروف العالية المكونة من الحجر الرملى ؛ وفى تلك الصحراء سمعت من جديد الصوت الجميل الذى يصدر عن حبارى الصحراء ، كما رأيت أيضا صغار هذه الحبارى تجرى مرحا أسفل قطع الأحجار . كما شاهدت وأنا راكبا دابتى بعض صخور البازلت ، التى كانت تبرز من العروق النارية فى الأسفل ، والتى انفجرت ، فى الماضى ، خلال هذه الأرضية الهشة المكونة من الحجر الرملى . كما شاهدت فى هذا

المسار نفسه ، وفوق قطعة من الأرض المرتفعة ، التى يقولون لها ذنيبة Zenaiba ، بلغة القوم ، أكواما صغيرة من الحجر ، وبجانبها على الأرض غرفًا للدفن فى ذلك السهل .

وفى المساء وصلت جماعة أخرى من بدو البلّى قادمة من مْنَزل آخر ؛ وتعجبوا كثيرا من التقائهم نصرانيا بين خيام أهليهم . وتركزت علىَّ عيونهم بنظراتها المعادية التى تنم عن الحسد والغيرة. وتغنى أحدهم ببعض الأبيات (أو ربما تكون أغنية قديمة)، عن الرّوم Rum (الرومان ، البيزنطيين) أجداد أعدائهم الحدوديين . "هؤلاء الروم أو إن شئت فقل الرومان ، جنس ملئ بالسذاجة والعداوات ، ولا يثق به أحد ." هذه الجماعة حسبتنى واحدًا من تلك الأمة الوثنية التى تضمر العداء للجميع ، والتى تآمرت بصورة مستمرة لهزيمة الإسلام ذلك الدين المنقذ . وبعد العشاء ، وبعد أن تقاسمنا اللحم مع بعضنا البعض ، وبعد أن سمعوا خبرا عنى ، أصبحوا لى مستشارين . كان البعض منهم يرغب فى أن أدخل فى معرفة الله ، إضافة إلى أنى عندما أصبح مسلما ، يصبح من المحتمل أن أسكن وأعيش معهم إلى الأبد – "بعد ذلك ، سيقوم كل واحد منهم بإحضار عنزة أو نعجة ، ليجمعوا لى قطيعا صغيرا أستطيع العيش منه، وقالوا أيضا، إن دخولى فى الإسلام يحتم عليهم أن يعطونى جملا على الفور ، كما سيعطونى أيضا عذراء لتكون لى زوجة ." كانوا ينظرون إلى الأمر وكأنه متناقض ، من منطلق وجود رجل منعزل عن الآخرين ، بينهم ، من ناحية ، وجرأتى على اتباع دين غير الدين الذى يتبعونه : وهذا يعنى أن أعراب الخلا هؤلاء ، لا يخضعون إلا لإراداتهم الخاصة المتهورة . قالوا أيضا : "ولكن ألم نسمع نحن من أناس آخرين أن النصارى أناس مستقيمين ، وأن وثنيتهم تقوم على عقيدة جيدة ، والمؤسف أن لا يكونوا مستنيرين ؟ كما قالوا أيضا : إن هذا الرجل إذا ما ارتد عن دينه سيكون واحدًا من المسلمين الجيدين ؛ يضاف إلى ذلك أن الدم المسيحى أيضا كان أفضل من دمهم ، الأمر الذى سيجعل كل من يدخل منا فى الإسلام شريفا من الأشراف ."

كان مهنا رجلا طيبا ، كما أن زوجته التى من سلالة الشيوخ ، كانت امرأة طيبة هى الأخرى ، ولكن لقياهم لم تكن طيبة أو على ما يرام . هذه المرأة بدأ الشك يعصف بعقلها ويضايقها وهى حامل ، على إثر مشادة خفيفة جرت بينهما مؤخرا وتطرق لسان زوجها خلالها إلى النطق بيمين الطلاق ؛ ومع ذلك ، قالت هذه المرأة ، إن ذلك لا يعنى

أن تحمل هى على كتفها قربة ماء ، وتسير وحيدة حافية القدمين فوق الرمال الحارة ، قاصدة أهلها ، الذين هم شيوخ فى منْزَل آخر . كانت تلك المرأة "طيبة مع الضيوف" ؛ كانت تطحن لى حبوبى بكل سرور وعن طيب خاطر ، كما كانت تعطينى شيئًا من اللبن القليل الذى كانت تحصل عليه من جيرانها ؛ نظرا لأن المهر الوليد كان يأتى على كل اللبن الموجود فى بيتها . ذات يوم وبعد أن خبزت فطيرة من قمحى على نارها ، تناولت قليلا من اللبن ، وابتسمت ابتسامة ربة بيت تحس بالأسف والندم ، ثم طلبت منى النهوض لتناول الطعام ؛ ثم قالت بعد ذلك ، "اذهب وخذ قسطا من النوم ، وسوف يفيدك النوم كثيرا ، وأرح نفسك حتى لا تموت هنا فى أرض الجوع هذه ." كانت تلك المرأه تعانى من ألم فى أمعائها ، وهذا مرض شائع بين أهل الجزيرة العربية . أعطيتها شيئًا من مسحوق اللودانوم(*) Laudanum، راحت على إثره فى نوم عميق فى فترة الظهيرة ؛ وعندما استيقظت أخبرتنى أنها رأت أحلاما كثيرة ، وأنها أصبحت أحسن حالا عن ذى قبل ، ولكنها لن تستعمله بعد ذلك ، حفاظا على جنينها الذى لم يولد بعد . درست الأمر ، ثم قلت لمهنا ، سوف تلد لك زوجتك خلال أسابيع قليلة ولدًا ليكون سلوى وراحة للأسرة .

انقضت أيام ، ولما لم تصلنى أخبارا عن أبى سنون ، اتفقت مع رجل عجوز كان قد أعطانى تيسا نظير شفاء عينى حفيده ، على أن يقوم بإرشادى فى الحرَّة أثناء محاولتى الوصول إلى المواهيب . صعدنا فى اتجاه الشمال الشرقى فوق سلسلة قديمة من الصخور البركانية ، الشبيهة بالفيضانات البركانية الشاسعة التى سبق أن رأيتها تنبعث من بركان فيزوف قبل سنوات قليلة . أدى الصخر المنصهر إلى طمس ذلك الوادى من وديان الجزيرة العربية المكونة من الصخر الرملى ، ليصل الوادى إلى ما نشاهده اليوم فى العويرض . وعندما أصبحنا فوق منطقة الصخور البركانية الرئيسية التى كانت تعلونا ، بدت لنا كما لو كانت فيلا هائل الحجم : وهنا راحت جماعة من الغزلان المنزعجة تجرى أمامنا ؛ والغزال هنا قوى البنية ، ويشبه لونه لون البازلت ؛- والغزال يكون أبيض اللون فى السهول الرملية . صعدنا بعد طبقات

(*) اللودانوم : مسحوق الأفيون ويستعمل مسكنا للأمراض . (المترجم)

الصخور البركانية ، فوق رمل أسود اللون ، ثم وصلنا بعد ذلك إلى تل كان فوهة بركان من البراكين ؛ وخلف ذلك التل شاهدت عالما بديعا جديدا من فوهات البراكين القديمة التلال التى يعلوها الصدأ البركانى ، - مسحوق أسود ، شظايا بركانية حادة ، أحجارًا نارية ، كل هذه كانت مكونات التربة التى كانت جمالنا تسير فوقها . كانت المخلفات البركانية تنتشر من حولنا إلى حد أننى أحصيت منها حوالى ثلاثين مخلفا من تلك المخلفات . وبعد ذلك شاهدت مرة أخرى على الأرض البازلتية المسطحة مجموعة من الجحور ، وبالقرب منها شاهدت مجموعة من أعلام المقابر . ثم انتقلنا إلى مكان آخر شاهدنا فيه مقبرة أخرى ، سألنى عُبيد الله ، ذلك الرجل العجوز ، ولحيته متجهة صوب المقابر ، "ما هذا الذى رأيته ، وما رأيى فيه ؟"- "هل هذه مقبرة من مقابر أعرابكم ؟" - "لا ، إنها ليست مقابر من مقابر البدو ، التى نراها هنا ومن فوقها أحجار كبيرة . استعمال المقابر بهذا الشكل ليس من زماننا ؛ إنها من العالم السابق ؛ ألا تعرف شيئا عن هذه القبور ! بالله ، يا خليل ! ألا يمكن أن تكون تلك القبور من زمن الناس الوثنيين القدامى ؟" - الطحالب لا تنمو فى هذه الأرض التى يصيبها الجفاف بفعل حرارة الشمس ، إضافة إلى أن التربة المحروقة تكون جرداء وبلا غطاء : وبمرور الزمن ، وفى ضوء الملاحظة البشرية ، لا يكون هناك خلاء عنصرى معقول ، - قد يصعب من أول وهلة تمييز ذلك ، وبخاصة عندما يكون عمر هذه القبور عشر سنوات أو ألف عام .- "هذه القبور من عالم قبل الوثنيين ؛ أهل تلك الأزمان كانوا كفارا ، واليهود والنصارى كفار ؛ خليل نصرانى ؛ ولذلك هؤلاء الذين يرقدون هنا فى هذه القبور هم أسلاف خليل الذين ماتوا منذ قديم الأزل ." هذه هى الطريقة التى يمنطق البدو بها كلامهم ، وهذه الطريقة تمثل أرضية قوية فى دين هؤلاء الناس ، وهم يقيمون تشددهم على هذه الأرضية المنطقية .

فى كثير من التجاويف المكسرة الموجودة فى الأرض البركانية الجرداء غير المستوية تنمو فيها أشجار قليلة من أشجار السنط وشجيرات نبات الوزّال . هذه التجاويف الغائرة كانت مليئة بالجراد ، الذى شاهدناه متراكما مثل قطرات المطر فوق الأغصان الشوكية كلها ، التى هبت طائرة على شكل جحفل يضرب بأجنحته ، وقد حرك ذلك المنظر قلوب البدو المكلومة . "قال : ها ! أليست عندك ، يا خليل ، تعويذة

لطرد ذلك الجراد ؟ ابحث فى أوراقك أيها الرجل ، لأنى أرى أن الوقت الحالى هو وقت الكتابة ، وليس وقت الأشياء التى تسألنا عنها كل يوم ؛ أليس بوسعك ، أن تفعل شيئًا لطرد هذا الجراد بعيدا عن ديرتنا ؟" أجبته ، "ولكن ما هو فى رأيك الذى فى كلام الله يمكن أن يبعد الجراد ؟ إن هذا الجراد هو "جيش الله" وأجابنى الرجل بتنهيدة توحى بتدينه ، نظرا لأن كل واحد من البدو يتلقى كل قول باعتباره نوع من الحصن الدينى ، "هيه ! صحيح أن الجراد هو فى واقع الأمر يمكن النظر إليه باعتباره من جيوش الله ." فى أحد الأماكن شاهدت الصخر الرملى وهو يبرز من خلال سطح الحرة المستوى ، على شكل موجة عارمة متسلقة من البازلت الذى يتخذ الشكل العمودى الذى يشبه الدعامات الخشبية الموجودة فى جانب من جانبى السفينة ؛- هذه الأعمدة البازلتية المبرَّدة عند القاعدة ومتحجرة نحو الأعلى ، فى حين كان ارتفاعها نحو الخارج ، وبذلك يصبح ذلك المعدن الكوكبى معلقا مثل لولب فى عقد من العقود المغربية .

فى ضوء هذا بدأنا نفكر فى الأماكن التى يمكن أن نعثر فيها على المواهيب : قال عُبيد الله : "إذا لم نعثر عليهم خلف هذه الصخور ، فقد لا نراهم طوال النهار هذا اليوم ،" وهذا يحتم علينا البحث عنهم فى مكان آخر . وهذا هو كل ما يمكن توقعه أو انتظاره فى مثل هذا الحال ، والسبب فى ذلك أن البدو يتنقلون من يوم إلى يوم ، كما يحلون وينزلون فى منازل جديدة. كان الوقت يصادف قيألة el-J(g)alia ذلك اليوم ؛ والقيألة هى حرارة ما قبل الظهيرة ؛ وكنا لم نأخذ معنا أى شىء من الماء ، كما لم يكن معنا ما يمكن أن نأكله : كان الهواء المشبع بحرارة الشمس ، يهفهف على ذلك الشاطئ المكون من الصخور البركانية . لم يكن نظر عبيد الله على ما يرام ، ولذلك أخبرنى بأنه يعتمد على نظرى أنا ويثق به ؛ وعندما أجبته بأن بصرى لم يكن طويل المدى ، بدت عليه الدهشة بعض الشىء ، إذ إنه لم يكن يتوقع حال من هذا القبيل . "يا خليل ، ها هم لصوص الحويطات ، قادمون علينا راكبين دوابهم ، فماذا يمكن أن يحدث إذا لم نراهم نحن ولم يراهم أصدقاؤنا أيضا ؟ وأسفاه ! لو كنت قلت لى ونحن فى مُنزل أنك لست بعيد النظر ، لما جئنا إلى هنا . انا أكاد لا أبصر ، ولكن ماذا تفعل الآن ؟" - "لدى هذه النظارة التى ترى إلى مسافة بعيدة ، خبرنى ما هو الجزء الذى يجب أن أوجه إليه نظارتى ، وسوف أحاول إمعان النظر قدر المستطاع ." واصلنا

مسيرنا راكبين ، وقال لى رفيقى : "يا خليل ! إنى أرى هناك شيئًا صغيرا أبيضا يتلألأ ، انظر نحو الأمام ." – "حسن ! أنى أرى جملا أبيضا ياكل ." – "هؤلاء هم الأعراب ، هيا بنا نتجه ناحيتهم ." وبذلك استطعنا الوصول إلى الرعاة المواهيب ، ومعهم الماشية العظيمة؛ أصعدونا على أرض مرتفعة، استطعنا منها رؤية مَنْزل أهليهم .

جاءنا من تل فوهة البركان المجاورة رجل يجرى نحونا كما لو كان ماردًا أو عملاقا ؛ كان ذلك الرجل يحمل جانته ganna (أى نبوته البدوى القصير) فى يده : صاح ذلك الرجل ، وهو يقترب منا ، وقد أحمر وجهه ، وغلظ صوته ، وكادت أنفاسه تنقطع ، قائلا : "يا عبيد الله !" "لماذا أحضرت لنا هذا الكافر ؟– ها ! السلام عليك ، ومرحبا بك . وبينما كنت أعجب للطريقة التى تعرفنى الناس بها فى هذه المنطقة ، واصل ذلك الرجل كلامه ، وراح يتصرف تصرفات هوجاء غير مسئولة ، ثم وضع يده على لجام ناقتى ، وهو يهز ذلك العكاز المميت وهو فى قبضة يده ، إلى حد أنى كنت أحسب أنه سيقوم بين لحظة وأخرى ، بضربى على أم رأسى بذلك النبوت . سألت عبيد الله هامسا ، ما الذى يتعين على عمله فى هذا الموقف ؟ وقال لى : "والله ، أنا لا أعرف ماذا تفعل ، يا خليل ." – "أقسم بالله ، أنى حِسبتكما لصين (يصيح الماهوبى) عندما نظرت نحوكما من التل الخلفى ، وفاجأتكما على غرة ." – "عليكم السلام ! (قال عبيد الله ، وهو يضحك) بالله عليك ، يامشوات Mishwat ، هل حسبتنا حباليص ! أين أعرابك ؟" – لقد رحل الناس اليوم ، هيا ، تعال ، ياعبيد الله ، فمنْزَلنا يقع فى القاع ، هناك خلف هذه الأرض المرتفعة ."

راح الرجل يمشى أمامنا ؛ – وبينما كان يمر على بعض الخيام البعيدة ، تقدم رجل إلى الأمام ، وقال شيئًا لعبيد الله ، الذى كان يركب فى المقدمة ، ثم أمسك بلجام دابته : وهنا استدار مشوات إلى الخلف ، ووضع يده فوق يد ذلك الرجل ، وسحب عليه سلاحه . وعندما حاولت قراءة نظراتهما العاجلة، ولم أسمع ذلك الذى كانا يعنيانه بتلك النظرات ، خطر ببالى أن واحدًا منهم عارض رفيقى وطالبه بدين قديم ، وأنه سوف يربط ناقته ، التى وجدتها يقتادونها بعيدا ، مع ناقة عبيد الله ؛ وعند جانب الخيمة جذب الناقة وبركها على ركبتيها .– كانت تلك مباراة فى كرم البدو الفقراء ! قال مشوات : إنه عثر علينا ، ورافقنا ، ومن ثم فنحن ضيوفه ؛ ولكن الرجل الآخر رد عليه

قائلا : "ينبغى أن لا نتعدى بيته !" قال عبيد الله : "نوخ ، ياخليل ، أى إنزل عن دابتك إذن ! وسوف نتناول الإفطار هنا ." هذا الرجل العجوز اللطيف ، الذى كان واحداً من الجيران كان أيضا صديقا لهذين الرجلين . دخل مشوات معنا أيضا : ومشوات هو ابن عم شيخ الموهاهيب ، وهو يجيء فى المرتبة الثانية بعد الشيخ فى مجالس القبيلة . كان الحكم معقوداً عليه، باعتباره أكبر أهل البيت سنا ، وذلك أثناء غياب شيخ القبيلة ، وأمام أبناء الشيخ ؛ ومع ذلك ، عندما يموت الشيخ البدوى يخلفه ولده . كان مشوات رجلا صاحب قلب كبير ولكنه كان متشدداً ، ومتشككا ، وساذجا ، ولكن مزاجه كان يشبه مزاج الثيران ؛ كانت قوة مشوات تكمن فى عضلاته العنيدة وصدره العريض ، ولكن قوته العقلية كانت قليلة ، إذ لم تكن قواه العقلية مستقرة تماما . كان مضيفنا الذى مارس علينا هذه القوة اللطيفة ، رجلا فقير الحال ، يتمتع بعقلية كريمة للغاية ؛ وبدو الجبال الذين من هذا النوع فيهم شيء أصيل ، وذلك على حد قول جيرانهم البدو الرحل ، من الكرم القديم . كانت خيام ذلك المضيف عبارة عن ثلاث خيام ، التى نصبها دونا عن سائر خيام المُنزَل منتحيا بها بعض الشيء اتجاه الغرب ، عند نهاية المخيم ، الأمر الذى يحتم على كل من يجيء إلى المخيم ، من ذلك الاتجاه ، المرور على تلك الخيام الثلاث . رحل الرجل عنا بعد ذلك مباشرة ، ومعه مقدار صغير من تمر الحصاد ، فى خيبر ؛ هذا يعنى أنهم سوف يخيمون مع ولاد على ، ويتلقطون الفضلات ويشترون تمرا من تلك الوديان المحمومة . ذهبت معهم زوجة من زوجات شيخ الموهاهيب . – هذه المجموعة الصغيرة من عنوز Annezy الجنوب ليس لها ميراث فى خيبر . وبينما كنا جالسين دخلت والدته : وتحية النساء قصيرة جداً إذ يقلن : "قوّاك الله ! سلام ." جاءت ربة البيت المضيافة بقربة اللبن الحامض ، أو إن شئت فقل : لبن الخض ، ورجت تلك القربة وراحت تصب لنا منها لبنا ، إلى أن أتت على كل ما فى تلك القربة من لبن ؛ ثم رفعت بعد ذلك السلطانية المليئة بالمغذيات المنعشة ووضعتها بين أيدينا ، وهى تنطق بالكلمات اللطيفة الحانية قائلة : أشرُب Ishrub وأوريك Waerwîk بمعنى "أشرب وأروى ظمأك !" ومرت السلطانية على الحاضرين ، نظرا لأن وجبة الضيف لم تكن قد جهزت بعد .

هذه الجماعة الصغيرة النائية من الموهاهيب ، والمتبقية على الحدود فيما بين

العنوز Annezy والبلِّى ، معروفة من الطرفين ؛ والموهايب من البلِّى من حيث التبنى ، ولكنهم من حيث السلالة النسبية فخذ من أفخاذ تلك القبيلة العنزية الفرعية الموجودة فى الشمال ، والتى يطلق عليها اسم السِّباع es-Sbáa ، أو إن شئت فقل : بدو منطقة الشمبل Shimbel الرحل (وقد سميت بذلك الاسم ، الذى هو معيار أو مقياس من معايير القمح يساوى اثنى عشر مدزًا Midds) ؛ وهذه القبيلة الفرعية تعيش فى الجانب الشرقى من دمشق . والسِّباع منذ القدم هم أعراب ولاد الرُّمَاح ، الذين كانوا يعيشون فى منطقة تحمل ذلك الاسم ، وتقع إلى الشمال من حرَّة خيبر ، وأسفل القصيم ؛ وهذه هى المنطقة التى يتجول أو يترحل بدو الحطيم فيها فى الوقت الراهن . وهناك مستعمرة أو إن شئت فقل : مستوطنة أخرى من مستوطنات الموهايب القدامى ، المزراعون الذين "يربون الأبقار ،" فى منطقة الأحساء (التى تقع على بعد مسافة طويلة جداً من هنا ، فى شرقى نجد) . هؤلاء الموهايب ، القليلون فى الوقت الحالى ، مضى عليهم الآن أكثر من ثلاثة عشر جيلاً فى العويرض ، ازداد عددهم ، بعد أن غزوا بنى صخر وأغاروا عليهم وجردوهم من ممتلكاتهم . والعويرض كلها ، ملكا طبيعيا لهؤلاء المواهيب ، نظرا لأنهم كانوا أصحابها فى يوم من الأيام ؛ وبالرغم من تناقص أعداد تلك الجماعة الموهايبية ، فهم يحتلون ذلك الجزء الجنوبى فقط . هناك أيضا بعض أسر الموهايب التى تعيش مع أقربائهم السِّباع فى سوريا ، كما أن هناك بعضا منهم يعيشون فى خيام مع بنى صخر فى منطقه بلقاء Belka . وديرة الموهايب فى اتجاه الشرق ، فى المنطقة أسفل الحرَّة ، تسير محاذية لطريق الحج ، كما تمتد أيضا من الأخضر el-Akhdar إلى المدائن . Medain والموهايب فى اتجاه الغرب ينزلون إلى كل من جاو Jau ، وأم شاش Ummshash ، وإلى النشيفة Ensheyfa ، فى بلاد السَّحامة ، لكى يرعوا أبقارهم ويسقونها من تلك الأماكن . والسَّحامة الأصدقاء ، يصعدون بنفس الطريقة إلى منطقة الموهايب الصيفية فى الحرَّة ، أو قد يسكنون أو يقيمون بالقرب منهم فى الوديان الغربية . من هنا ، إن أخفقت إحدى ديارهم حلت محلها ديرة أخرى تخدم كلا من السَّحامة والموهايب . وهذا عرف من أعراف الجوار فى الصحراء ، والذى تلجأ إليه القبائل فى السنوات العجاف ، وفى أزمان الأخطار ؛ وهذا العرف هو الذى يسهل استقبال القبائل (كما شاهدنا مؤخرا بين بدو الفجير) بعضها البعض ،

اقتساما لخير الله . كرم الجزيرة العربية يقوم على قدر كبير من التسامح ، والتراحم الدينى ، ومع ذلك فإن الصداقة هى التى تحافظ على ذلك التوازن ، الذى هو ، من منظور دين الصحراء ، مثل المرآة ، التى يمكن مد طولها ثم تقصيرها بعد ذلك ، ويصعب بعد ذلك وصل الأجزاء التى يجرى فصلها : هذا يعنى أن الصداقة والحب الطويلين ، قد يتباينان فى مرحلة لاحقة طبقا للمصالح ، التى تُقَدَّم على كل شىء ، وطبقا للمرعى وللماء أيضا . وعندما يحدث عراك ومشاجرات طوال اليوم بين رجال القبائل ، حول حفر الماء ، وحول أيام السقيا ، فإن ذلك يحتم أن تكون السياسة التى يتبعها الشيوخ قوية عندما يجلسون للبت فى خلافات الرعاة والسُّقاة . حدث فى العام الماضى نزاع كبير وخطير فى ديرة السَّحامة ، وقد دار ذلك النزاع بين المضيفين الأعراب الأصدقاء والسراحين(*) Serahin ، أو إن شئت فقل : بنى سرحان ، الذين هم جماعة صغيرة من الموهاهيب ، الذين وقفت بقيتهم إلى جانب السحامة فى وجه أهليهم المعتدين . واحتكم الطرفان إلى السلاح ؛ ومعروف أن الموهاهيب أولى بأس فى القتال وفى الشجار ، وقتل سحامى ، فى ذلك الشجار ، بيدى سرحانى .

وعندما يعلم الناس بوصول أغراب إلى الديرة ، يشيع خبر وصولهم فى كل أنحاء المنْزَل على وجه السرعة ، ويتوافد معارف عبيد الله واحداً بعد الآخر على بيته ، لتحية أولئك الأغراب ، وسماع الأخبار . وعندما يهم الناس بالوقوف ، ترى مضيفنا يطلب منهم ، فى ود ، البقاء معنا ، بمعنى . "ابقوا معنا وتناولوا الطعام معنا ." مضت فترة طويلة ، إلى أن ظهرت حمَّالة الحطب ، التى لا تقل أهمية عن بضائع وأوانى العائلات البدوية الأمينة المترحلة : هذا يعنى أن حمالة الحطب تلك ، التى تشير إلى الكرم يراها الرائى مثل ترس يجرى تكتيفه مع الترس فوق الجمل الذى يحمل الأمتعة أثناء الرَّحْلات . وضع أمامنا ذلك الطبق الضخم وعليه كومة كبيرة من الأرز المطبوخ ، وفى منتصف تلك الكومة كان هناك إناء ملىء بالسمن المنصهر اللذيذ ؛ كانوا يغمسون كل لقمة قبل أن يأكلوها فى ذلك السمن ، (كانت اللقمة عبارة عن نصف ملئ اليد يكومها الآكل

(*) السراحين : السكان الذين يسكنون وادى السرحان وهو منخفض يقع فى الجزء الشمالى الغربى من الحجاز . (المراجع)

على شكل كرة ،) ويرفعها إلى فمه بخفة ودقة يترتب عليها ألا يسقط منها ولو حبة واحدة . ويقوم المضيف بتحية ضيوفه بطريقة لطيفة ومناسبة ، طالبا منهم الاقتراب من الطبق والتحوط حوله ، وهو يقول لهم "بالرغم من أن الطعام على قدر الحال ، إلا أنكم يجب أن تقدروا نعمة الله حق قدرها " . والأغلب الأعم أن لا يجلس المضيف إلى تناول الطعام مع الضيوف ، إذ أنه يسعد وهو يرى ضيوفه يأكلون ، وأنه واقف إلى جوارهم للقيام على أمر خدمتهم ؛ ولكنهم هنا يجلسون جميعا كما لو كانوا اخوانا . والعرب يقولون دائما قبل تناول الطعام أو عندما يشربون السوائل "بسم الله" . ويجرى تقديم الأرز وجلبه من قدر الطهى ؛ وبالرغم من أن العرب ، فى فصل الصيف ، يتركون الطعام فترة قبل تناوله ، (فى الواحات يضع العرب الطعام فى الشباك ،) إلا أنه كان ما يزال حارا إلى حد أننا بعد أن انتهينا من تناول الجزء العلوى من الطعام قد التهبت أصابعنا : بعد ذلك ، يتوقف الأعراب عن الأكل ويسحبون أيديهم مدة لحظة ، يقوم خلالها واحد منهم بالتهوية على الطعام مستخدما فى ذلك حجر عباءته . كان مشوات يجلس إلى جوارى ، وهو رجل كريم ومضياف فى داخله ، بالرغم من أن حاجبيه كانا يوحيان بخطورته ، ركز علىّ مشوات هذا عينيه اللتان كانتا تشعان ودًا أثناء تناول العيش والملح : كان يدفعنى بكوعه وهو يقول موافقا : "كل ، سيفيدك الطعام ، كل بنفس الطريقة التى أكل أنا بها ؛ والطبق عندما يوضع أمام أحد من الرجال ، يتعين عليه أن يأكل منه بنهم ، كل ووسّع صدرك ، هنا بين البدو ." بدأ مشوات يدفع ساعده إلى الأمام ويصنع من الأرز كرات ، أو إن شئت فقل : لقيمات ، كان يضعها بالقرب منى ، كان مشوات بمثابة مضيفنا فى ذلك اليوم ، بل إنه كان صديقا لطيفا أثناء هذه الوجبة . هذا المشوات كان يذكرنى بالخير بالرغم من أنه كان خارج نطاق ذاكرتى ؛ كان مشوات قد سبق له أن مر على قلعتنا فى المدائن فى فصل الشتاء ، وكان قد طلب منى أن أملأ له غليونه بالدخان ، وكنت قد ملأت له يده بالتتون (التبغ) وكان يأمل فى وجود مخزون كبير لدى فى خرج الجمل ، من ذلك المخدر الذى يؤثر على المخ ،- هذا الدخان كان أحب شىء إلى نفس مشوات ، بعد حبه لولده الذى كان له عزاء تحت سماء هؤلاء البدو الرحل . كان محمد أبو سنون زوجًا لشقيقة مشوات .

عندما ينتهى أحد الآكلين من تناول الطعام يظل جالسا إلى جوار الطبق ، مادًا

يديه نحوه إلى أن ينتهى الآخرون من تناول الطعام ، ثم يردد الحاضرون عبارة "خلف الله عليك يا معزب" وهنا يرد عليهم المضيف قائلا : "هانى Hani " أو "صحة Sahah وعافية Auâf" . أو قد يقول الضيوف : "كثرٌ Káthir الله Ullah فضلكم Fathilakom" . ثم بلغنى بعد ذلك أن مضيفنا أنفق على الوجبة التى قدمها للضيوف كل ما تبقى له من طعام فى ذلك الموسم الجدب . ولم يتبق لأهل البيت بعد ذلك سوى الحليب والمريسى وهذان لا يكفيان . ومن طبيعة الأعراب أنهم يستطيعون البقاء فترة طويلة يعيشون على الكفاف ، إلى حد أننا أيقنا أنهم بوسعهم أن يصبروا على الجوع وعدم تناول الطعام . وعظمة البدو تتجلى بصورة مدهشة فى تضحيتهم من أجل الكرم وهذا نابع من دينهم؛ هؤلاء الناس فى تعاملاتهم الأخرى أرذال ونصابون ولا يحبون إلا أنفسهم كما يكرهون الغير ، أو إن شئت فقل البشر ، بطريقة توحى بالحقد والحسد . وأبلغ شرف يصيبه أى واحد من هؤلاء الأعراب هو امتداح الأخرين لكرمه . والبدوى كلما زادت حساسيته وتعقله تحرك صوب الكرم فى استقبال الضيوف ؛ والبدوى ، بحكم زهوه يتعلق بنوع من التقدير فى هذه الدنيا : هذا يعنى أن دين البدو الطبيعى يساعده أيضا فى هذا الصدد ، وبخاصة أن أيام مثل هذا البدوى لا تعدو أن تكون تجوالاً بين السماء والأرض ، فى ظل أخطار تتفاقم وتتزايد من حوله . هذا البدوى يستقبل ضيوف الله استقبالا طيبا ، لأن الله هو (سبحانه وتعالى) مُضيف الجميع ، كما أنه (سبحانه وتعالى) هو صاحب وواهب ومعطى الخير كله ؛ والبدوى عندما يفعل ذلك ، يكون متطلعًا إلى البركة والعناية الإلهية . سمعت صورا كثيرة من صور الشكر والثناء ؛ وقد أخبرونى أن ترديد مثل هذه الصور أمر مطلوب ومحبوب فى بعض الأحيان ؛ من هذه الصور : "كثر Kathir الله Ullah لبانكم Lebanakom " بمعنى "كثر الله ألبانكم" ، أو "كثر الله إبلكم" بمعنى "كثّر الله ماشيتكم" ؛ أو "كثر الله غنمكم Ghrannamakom" بمعنى "كثر الله قطعانكم" ، أو قد يقولون : "كثر الله عيالكم" بمعنى "أعطاكم الله الذرية الكثيرة" ؛ ومن بين هذه العبارات أيضا "كثر الله كلابكم "Kilabakom بمعنى "كثر الله الكلاب التى تحرس منازلكم" (إشارة إلى الدعاء للمضيف بأن يقلل الله من خسائره ومن الأخطار التى يمكن أن تحدق به)

عند هذه المرحلة فقط حضر أبو سنون لتحيتى ؛ وذهبت بصحبته لأضع حقائبى

وديعة فى بيته ، ثم تحركنا سويا لزيارة شيخ الموءاهيب طلّج Tollog، الذى سلمنى له عبيد الله ، تسليما ، وذلك بناء على طلبى ، على أنه وديعة من عند مُهنا . هذا الشيخ متسلق الجبال ، كان يبدو شبابا بالرغم من كبر سنه ، نظرا لأنه كان يكبر الجميع بعدد كبير من السنوات ، ولكنه لم يكن يبدو عليه كبر السن ، وربما يكون ذلك الشيخ قد تزوج فى زمانهم من جدّات زوجاته الحاليات . كان الشيخ عندما وصلنا إليه ، عائدًا من صلاة العصر ، واستقبلنى استقبالا وديا ، وبعد أن انتهينا من شرب القهوة فى الخيمة ، قُدمت لنا وجبة أخرى من وجبات الأرز . وقد اكتشفت واحدًا من فجيرى منزل الشيخ زيد ، ضمن الجماعة التى كانت فى بيت الشيخ طلّج Tollog، هذا الفجيرى جاء يرجو الشيخ أن يسمح له هو وأقاربه وأهله بالتجوال مع الموءاهيب ، (هذا الفجيرى كان قد سبق له إصابة بدوى بجرح وحكم عليه بالنفى) . ظللنا صامتين طوال حرارة النهار ، إلى أن بدأت تغرب الشمس ، ثم عدنا بعد ذلك إلى منزل المغربى .

منزل المغربى هذا ، كان عبارة عن خيمة شتوية طويلة ، وكانت عظيمة بشكل لم يسبق لى أن رأيته فى الجزيرة العربية ، وهو من نوعية بيوتنا ؛ كان يسكن فى ذلك البيت إضافه إلى أهل البيت ، أسرتان أخريان من أسر الأشقاء : كان الرجال الموجودون فى ذلك المنزل ، واحد منهم راعى لماشية ذلك المغربى ، والآخران من الأتباع الذين كانوا يرافقون ذلك المغربى فى رحلاته التجارية فيما بين بلدة تبوك Tabûk والساحل . ولما كان ذلك المغربى ، غريبا ، ومن السبيكة الغربية الجافة ، فقد كان يبدو عليه التفتح وسعة الأفق والفهم ، وكذلك الحرص المدنى بين هؤلاء الأعراب من أهل الجزيرة العربية الذين لا يكترثون بالأمور ولا يعملون عقولهم كثيرًا . هناك طرق كثيرة يستطيع هؤلاء البدو ، من خلالها ، أن يحققوا مكاسب عن طريق المحاولة الأمينة ، ولكنهم لا يودون تحمل التعب أو العناء . هذا هو محمد الحمّال الذى استطاع أن يحسن من حاله تماما خلال فترة قصيرة :- ألا يمكن لمثل هذه الشخصيات القليلة ، التى تتناثر بين القبائل الجائلة ، أن تصبح بمثابة نظار المدارس فى الجزيرة العربية ؟ هؤلاء البدو الرحل يمضون كل يوم من أيام حياواتهم وهم يتضورون جوعا ، انتظارا لرحمة الله: هذا هو البؤس والشقاء البين لبعض العقول البشرية التى يكاد يغمى عليها بسبب الجوع الذى يمتد معها إلى عدة أجيال ، وبسبب تيبسها وجفافها فى الصحراء .

هذا هو أبو سنون أصبح شيئا من لاشيء ، وهو أفضل واحد بينهم فى الوقت الراهن : ولكن هذا الرواج السريع الذى تحقق بفضل جد أبى سنون يعتبره الأعراب إرهاقا وإفراطا ؛ كانت حياة أبى سنون بين هؤلاء الأعراب هى حياة الغريب الأجنبى عنهم ويعيش فى منزلهم ، وكانوا يسخرون منه . جاء أبو سنون بلا لحية إلى هذه الديار ليكون مجرد نفر (فرد) فى حامية الأخضر el-Akhdar ؛ وبعد ذلك بعشر سنوات أو نحو ذلك ، كان يعانى من داء الربو ، وهاهو الآن قد تجاوز منتصف العمر . سألت محمداً ، كيف حصل على الثقة التى جعلته يعيش حياة البدو الرحل ، وسألته أيضا عن المكان الذى تعلم فيه حرفة تربية القطعان والإبل ؟- ولكنه ، لم يرد على سؤالى على مسمع ومرأى من البدو .

يتعين على محمد أن يتجه صباح الغد إلى بلدة الأخضر ومعه شحنة الأرز التى كان قد جلبها مؤخرا من بلدة الوجه Wajh ، ثم ينقلها بعد ذلك من الأخضر إلى بلدة تبوك . هذا المغربى ، لم يستطع بسبب قصر نفسه ، نيل قسط من الراحة فى الخيمة البدوية المفتوحة ، ولذلك استلقى أيضا بين قطعانه فى الخارج ، لينال قسطا من النوم. وعندما حزم أشياءه عند الفجر ، رحل مع رفاقه ، وطلب من زوجته أن تتولى شئونى وتعتنى بى لحين عودته مرة ثانية . هذا المخيم المؤهيى ، المكون من ثلاثين بيتا ، أقامه أصحابه على قسم من الأرض البركانية : لم يكن فى هذا المكان سوى بعض الأدغال المكونة من نبات الهزّال التافه الحقير ، الذى لا يصلح أن يكون مرعى للماشية ، ولكنه نما بين الأحجار البركانية الضخمة . وهذه أوتاد خيام ربات البيوت ، التى لم تتمكن ربات البيوت من تثبيتها فى الأرض الصخرية ، جرى تثبيتها فوق سطح الأرض عن طريق كتل من البازلت ثقيلة الوزن ، وفوق هذه الصخور كانت ربات البيوت يشددن حبال خيامهن شداً محكما . وفى فلوق الصخور البركانية ، وفى زلط الحرّة الحادة المحيطة بنا من كل جانب ، كانت تظهر سيقان بعض الأعشاب ، وبعض الشجيرات الصحراوية النادرة أو إن شئت فقل : القليلة جداً : هذا يعنى أن جحافل الجراد أتت على كل أعشاب الربيع ، الأمر الذى حتم جلب العشب المطلوب لمهرة الشيخ من مكان بعيد ، يبعد مسير يوم كامل ، ويقع السهل الرملى الموجود أسفل هذه الصخور

البركانية ؛ هذه القبيلة الصغيرة التى كانت تقيم فى الحرَّة لم يكن لديها فلوة غير الفلوة التى لدى شيخ هذه القبيلة .

رحلنا وخيمنا بعد ذلك وسط عدد كبير من الصخور البركانية التى يقولون لها بلغة القوم "حليان" hilliân، وكانت أكبر صخرة من هذه الصخور المحيطة بنا يصل ارتفاعها إلى ما يقرب من ٥٠٠ قدم ، فوق مستوى سهل الجبل ؛ كان هناك عدد آخر من هذه الصخور ، فى كل ميل مربع تقريبا . من هذا المكان ، ولمسافة مسير ثلاث ساعات فى اتجاه الجنوب ، عبر أرض بركانية مفتوحة ، شاهدنا ذلك المخروط البركانى العظيم الذى يطلقون عليه اسم "عناز" Anâz ؛ وهذا المخروط به سلسلة طويلة من القمم البركانية . مخروط "عناز" هذا الذى يعد أعظم المخاريط كلها يطلق عليه الأعراب اسم "شيخ Sheykh العويرض el-Aueyrid" : والمخروط الثانى بعد عناز ، فى الحرة ، هو جبل عشُّوب Usshub، (وهو يطلّ على قرية الحجر ،) ، ومن ثم يطلق عليه الأعراب اسم "ابن" Ibn " عمه" Amm - hu . وقد أخبرونى، عن وجود موقع أثرى بالقرب من منزلنا الجبلى المرتفع .

وبينما كنا نقيم فى ذلك المَنْزل وصل إلينا (برفقة رفيق ماهوبى) ثلاثة رجال من الحويطات ، أعداء المواهيب الذين يقيمون فى تهامة . هذه الجماعة كانت عبارة عن شيخ يقال له "أبو" Abu "بطن" Bâtn ، ومعه بعض أتباعه . كان أبو بطن هذا يسعى لتسوية "المدَّة" midda ، "والمدَّة" هذه هى دفع الدية المقررة لشخص قتيل : - فقد كان واحد من الحويطات قد قُتل بطلق نارى أثناء شجار دار مع المواهيب . وحياة العدو تقدر عند هؤلاء الأعراب بما قيمته خمسة رءوس من الإبل . هذه المدة لا يجرى التنازل عنها بين القبائل المتعادية التى لا تعدو أن يكون أفرادها لصوصا يسرقون إبل بعضهم البعض : والنزاع الوحيد الذى لا يمكن أن يشتمل على الصفح هو الصراع المبنى على سفك الدم ، كما هو الحال فى الصراع أو النزاع القائم حاليا بين الفجير وبنى عطية ؛ هذه النار المشتعلة فى داخلهم حنينا إلى قتل الغير مثلما كان الحال فى الماضى ، يمكن أن تستمر معهم أجيالا طويلة ، وبالتالى فمن يقدر له أن يسقط فى يدى العدو يتعرض لخطر القتل دون رحمة أو هوادة . هؤلاء الأعراب ، فى ظل حياة المعاناة التى يحيونها (وبخاصة بعد أن فرغ كأس حياتهم ، ولم يعد يتبقى فيه سوى الحثالة)

والتى تزيد وتؤجج سفك الدم ، والتى تضعف القلب ، هؤلاء الأعراب يستشعرون غيرة جنونية تجاه أعدائهم ؛ – والتطرف والتشدد الساميين هما أيضا من هذا القبيل ، هؤلاء الأعراب ، فى أية عملية من العمليات الحربية ، يشبهون زنابير الجنس البشرى ، الذين يميلون فى دواخلهم إلى لسع العدو أو الخصم ، بالرغم من أنهم قد يخلفون شيئًا من أمعائهم فى هؤلاء الذين يلسعونهم : وعليه فمن المناسب لهم ، وهم يقومون بالغزو أن تدور بخلدهم ، فيما يتعلق بالمدَّة (الدية) فكرة دفع قيمة هذه الدية من ملكهم الخاص ، حتى عندما يتعين عليهم قتل عدو من أعدائهم . سألته : "وماذا يحدث إذا لم يتم الوفاء ؟" أجابنى : "نحن لا يمكن أن نفعل ذلك ، نظرا لأنه يترتب عليه تهديد حياة الجميع طول الوقت وعلى مدى الأيام ؛ وهنا يتحتم على العدو أن يقتل وعلى الفور أى واحد منا عندما يلتقيه ."

هؤلاء الغرباء ، كانوا على وشك النزول عند خيمة أبى سنون عندما أبصروها مفرودة وواسعة ، وربما لم تكن لديهم الثقة التى تجعلهم يسألون عن الشيخ فى مَنْزِل أعدائهم . قامت حمدى (*) ، زوجة محمد ، بطبخ الأرز المطلوب للعزيمة ، ولكن طُلِّبَ Tollog دعاهم بعد ذلك إلى الذهاب إلى خيمته ؛ إذ يتعين أن يكونوا ضيوفا على الشيخ . هؤلاء الضيوف هم والشيخ كلهم كانوا رجالا أجلاء ، يتمتعون بتواضع الشيوخ واعتدالهم ، وكانوا يتكلمون بود وشفقه بقدر المستطاع ؛ كان هؤلاء لا يطلبون أى شىء سوى المنطق والعقل ، ولكن أولئك كانوا لا يريدون تضليلهم أو تأخيرهم . كان أبو بطن ، ذلك الرجل المتقدم فى السن ، وصاحب المظهر الضعيف (أبشع من رأيت فى بلدة كيراك Kerak البدوية فى موءاب) ، كان من المطالبين بالدم والثأر : – فقد سبق له التعامل مع رجال القبائل الذين قتلوا ولده .والمعروف أن الغزو لا يلتقى إلا بقلة قليلة من الرعاة ، الذين لا يقوون على معارضته والتصدى له ؛ ولكن بعضا من الموءاهيب ، عندما اكتشفوا بعضا من الحويطات فى ديارهم ، حملوا عليهم وراحوا يهاجمونهم وذلك من باب الدفاع عن مواشيهم ، ووصل بهم الأمر إلى حد فتح النار على جسد واحد منهم . وهنا تنهد والد ذلك الابن الشجاع ، لأن ذلك اليوم كان ينتظره

(*) حمدى : من المرجح أن يكون الاسم حمدية أو حمادى . (المراجع)

فى ذلك المدفن الضحل: "آه – ها ! ويل لى !" وينهى الرجل حديثه بتنهيدة عميقة قائلا : "نحن لا نسرق سوى المواشى ، ولكنكم تقتلون الرجال :"؛ وتنهد طلُّج Tollog من بعد الرجل ، لأنه كان أبا ، ثم لاذ الاثنان بالصمت .

عندما تحدثت مع هؤلاء متسائلا عن ديرتهم ، أجابوا على أسئلتى إجابات خالية من دلائل أو إشارات الحقد البدوى البغيض على دين معادٍ . الأعراب بوسعهم الجلوس فترة طويلة فى جلال مهيب ، ثم تراهم بعد ذلك يسرُّون عن أنفسهم بشىء من السخرية الخرافية : وهنا قال شويش Shwoysh ، شقيق الزوجة المغربية ، قال وهو يجمع بين المرح والمرارة ، وعلى مسمع ومرأى من أولئك القبليين الأقرباء ، قال وهو يبتسم : نحن قوم ، يا خليل ، مع الحويطات ،– وقد يكون من بينهم أناس طيبين من أمثال هؤلاء الناس ، ولكن الباقين كلهم أشرار وأقذار ! – أعراب منهم ، نصبوا مخيمهم الصيفى على نبع من ينابيع مياهنا فى تهامة ،– وقد أرسل الله عليهم الفوضى والارتباك! أقول ، أليس لديك من بين أدويتك شىء سام أو مهلك نضعه لهم فى الآبار ، حتى نسممهم ، وسوف نكافؤك على ذلك ".– "دينى يحثنى على التعامل مع الرجال جميعا كما لو كانوا أشقاء ؛ إن فضتكم سواء أكانت فوق الأرض أو تحتها لا يمكن أن تحركنى فى هذا الاتجاه أو تغرينى ." وهنا ابستم الحويطانيون ابتسامة تنم عن الدهشة وقالوا : "أنعم بما قلت !" ورددت عليهم ؛ بأنى أتطلع إلى زيارتهم فى وقت من الأوقات . "(قال أبو بطن) إذًا أنا وصلت إلى ديرتهم ، فذلك يحتم عليهم الترحيب بى ." – بقى مُنْزلنا منصوبا إلى ما بعد رحيل الحويطانيين ، "مخافة أن يروا فى الرحلة المزيد من أراضى الحرَّة ." والبدوى المترحل عندما يمشى فى أرض غريبة عليه ، يتمعن تماما فى العلامات الأرضية ، حتى يتسنى له تذكرها عندما يمر بها مرة أخرى : زد على ذلك أن ركاب الدواب المتمرسين لديهم معرفه قليلة بهذا الجزء من البلاد ، أو إن شئت فقل : الديرة بركانية التربة .

تمنيت لو صعدت عناز ذلك التل البركانى العظيم ، وألقى منه نظرة على ذلك الجزء البركانى من البلاد : ولكن كلما وافق أحد على اصطحابى إلى هناك منعه الشيخ من ذلك ؛ احتفظ الشيخ طلُّج Tollog بذلك الامتياز لنفسه وأبنائه فقط. كان يدور بذهنه أنى ربما أنفعه فى اكتشاف عيون الماء أو الكنوز : وهو بصفته بدوى ، لم يخطر بباله

أى شيء آخر غير أن مجيئى إلى هنا إنما هو للإثراء ليس إلا، وأنه سوف يثرى معى. شيوخ الفجير ، أصحاب العقول المدنية الأكثر تحضرا ، فهموا ضباط الحج حق الفهم؛ أما هؤلاء الناس فهم أصحاب آراء متحجرة ، ومتسلقى جبال أشداء . بعد أن بحث طُلُّج Tollog فى قلبه عن كل غريب سمعه من النصارى ، طلب منى أثناء جلوسنا حول وجار القهوه : "يا خليل ، بالله عليك ، أليس هناك وعاء للهواء – خبرنى عن مثل هذا الإناء ، وأعط بقية الجماعة فرصة للاستماع إلى ما تقول – يستطيع النصارى الطيران فيه ؟" – "هذا صحيح تماما ، يا طُلُّج ؛ فقاعة كبيرة داخل جوال من الحرير ، أكبر من هذه الخيمة ، وبوسعه أن يطفو فى الهواء ." طُلُّج Tollog : "قل لنا المزيد عن ذلك ! أليست هناك سفينة تصنع كى تسير تحت سطح الماء ، وبداخلها كل أعرابها ، والتى تستطيع الارتفاع فوق سطح الماء مرة ثانية ؟" – "(سألته) من أين جاء بما قال ؟"– "من ولد من أبناء عمه (هو واحد من السبيعات Sbaite) فى سوريا ، الذى تزوج من امرأة غربية ، ثرية جداً ، من بلاد فيما وراء البحار ، أو أنه لا يعرف من أين جاءت ."

انتقلنا إلى مكان آخر مرة ثانية ، وبعد أن نصبنا خيامنا ، نظرت حولى من فوق الأرض المرتفعة ، وأحصيت حوالى أربعين قمة من قمم تلال البراكين داخل أفق المنطقة التى كنا فيها ؛ وخرجت بعد ذلك لزيارة أقرب تلك القمم إلينا . ومسألة السير لمدة ميل واحد ، أمر صعب ومرهق ، وبخاصة فوق الصخور البركانية الحادة ومنايم أو إن شئت فقل : أحواض الصخور والأحجار البركانية شديدة الوعورة . وهنا سارعت إلى القيام بتلك الزيارة قبل أن ينادى على أى أحد من الأصدقاء الوبودين ويمنعونى من ذلك ؛ وعليه وصلت إلى مخروط وقمة تل بركانى هما الأصغر من نوعهما فى هذه المنطقة ، إذ يصل ارتفاعهما إلى حوالى ٣٠٠ قدم ، وهما من المواد البركانية التى تقذفها البراكين ، وصخورهما من الصخور النارية الصدئة الخفيفة ، ولها كثير من الحواف الحادة . جانب هذا التل أثرت عليه الأمطار منذ عصور وآجال طويلة . تسلقت قمة هذا التل ثم دخلت الفتحة البركانية الموجودة أعلاه . داخل هذه الفتحة شاهدت جدران حادة من الحمم البركانية المتجمدة ، كما وجدت القسم البعيد من تلك الفتحة مهشما – وقد حدث ذلك التكسير قبل اندلاع الحمم البركانية – كما وجدت أيضا أن ذلك القسم كانت تغطيه قشره من الصخور النارية الناتجة عن ثورة البركان والطفح

الذى نزل على الجانبين نتيجة لذلك ، كما عثرت أيضا على صخرة جرانيتية حمراء اللون ، هوت من رأس واحد من تلك التلال البركانية ، إلى عمق الجبل . هؤلاء البدو الرحل يطلقون على الحجر الجرانيتى الأحمر ، اسم "حجر" hajr "الكرا" el-kra، وهذا الحجر ، يوجد فى بعض الصخور ، على عمق ليس بكبير ، وهم يقولون إنهم يشاهدون هذا الجرانيت الأحمر بالقرب من عناز Anâz ؛ كما يقولون أيضا : إن الجرانيت الأحمر موجود أيضا تحت جبال العويرض . توجد أيضا بعض البقايا الأثرية فى قرية جاو Jau ، وهذه البقايا الأثريه بنيت من كتل كبيرة من المادة نفسها ، أو إن شئت فقل من الحجر نفسه : وفهمت من البدو أن ذلك الصخر ، أى الجرانيت الأحمر ، إنه يشكل الصخر المكونة منه الطبقة السفلى من ديرة الشفا Shéfa ، كما أن الجرانيت الأحمر يتمثل أيضا فى العلامات الأرضية البارزة القوية التى تظهر عند الأفق الشمالى الغربى، أى فى جبال تهامة ، أو بالتحديد فى كل من الوتيد Wuttid وجولة Jowla . والبدو يصنعون من أحجار الجرانيت فى قرية الحجر أفضل أنواع أحجار الرحى التى يستعملونها فى طحن الحب : هؤلاء البدو ليست لديهم العدد اللازمة لذلك، ولكنهم عندما يكونون بحاجة إلى كتلة من الجرانيت فإنهم يطرقون عليها، بلا انقطاع ، مستعملين فى ذلك صخرة صلبة أخرى ، إلى أن يطوعوها إلى الشكل الذى يريدونه ؛ وهم يحدثون ثقبا فى الصخرة التى من هذا القبيل ، عن طريق الطرق على رأس مسمار . وقد عثرت على حفرة طبيعية تحت قمة التل البركانى ويميل لونها إلى الاصفرار ، وقد نتجت تلك الحفرة عن خليج بركانى حدث فى الزمن البعيد جدًا ، كما عثرت فى الأحجار المحيطة بتلك الحفرة ، على كثير من البللورات الشائعة التى يميل لونها إلى الاخضرار.

نحن نطل من أى مكان هنا على الحرَّة ، على أرض جرداء تغلب عليها مكونات الحديد ؛ هذه مادة بركانية شديدة السواد وخالية من الحياة !- هذه عبارة عن وجه كالح متجمد من وجوه الطبيعة التى لا تعرف الابتسامة إلى أبد الآبدين ، أرض جرداء قاحلة مكونة من مادة تثير فى نفس من يراها لواعج الاحتراق والرعب . ما هى حياة العزلة التى لا يمكن أن تستشعر التحفظ وهى تتجاوز هذا المكان أو تتعداه ! السماء أيضا جرداء ، التربة عبارة عن مقاساة شديدة ! أين يبحث عن الراحة والسلوى ،

ذلك الذى تحدثه نفسه بالمجيء إلى هذا المكان ؟ - الإنسان فى مثل هذا المكان يصاب وعيه بالاندهاش عندما يدرك وجوده المسكين فى هذا المكان، كما يحس أيضا باندهاش دنيوى ، فى وجود قامة مقدسة أو سماوية من ذلك العالم المكون من العناصر ! هذه القوى الكوزمولوجية(*) الرابضة مثل الأسود عند نومها ، تبتلع داخلها برغشة الروح ، - تلك الحركة القصيرة والاغتصاب المتطفل الذى يشكل الحادث الضعيف فى المادة . شاهدت عناز ، كما لو كان راكبا عاصفة صخرية ، على بعد اثنى عشر ميلا ؛ - وقد أصابنى اليأس من مسألة الذهاب إلى هناك ، قاطعا المسافة كلها وسط الكثير من المنخفضات البركانية والشعاب الصخرية ، وكثير من الصخور البازلتية المتحدرة .

ومع تنقلنا مرة ثانية خلال الحرَّة ، خطر ببالى أننى لا أصدق أننى أتجول فى ديرة فظيعة من هذا القبيل ؛ المنظر من هنا يبدو (كما لو أن آلاف الثنيات) التى ترهق العين التى تنظر من أسفل بركان فيزوف فى اتجاه الجنوب الشرقى ؛ ذلك الاتجاه الذى يصعب على الأوروبى السير فيه بقلب مكلوم يترتب عليه إرباك قدميه ؛ - ولكن تجوال البدو ، فى الجزيرة العربية ، جلب عليهم اللبن والسمن لينتفعوا بهما فى حياتهم فقيرة الحال . والأعراب عندما ينزلون فى مكان وعر ، مثل قاع برى على سبيل المثال ، فإنهم يقيمون فى ذلك المكان مدة ليلتين أو ثلاث ليال من ليالى الصحراء ، بنهارين أو ثلاثة نهارات أيضا ، وهنا تصبح شقوق البازلت الضخمة ، هى والقلة القليلة من الأشجار الشوكية ، وكذلك أدغال نبات الوزَّال الهزيلة ، كل ذلك يتلاشى أمام عيون معارفنا الذين درجوا على رؤية هذه الأشياء ، ولكنها بالنسبة لنا تحظى بكثير من الحب الإنسانى ، إلى الحد الذى يصعب معه علينا تركها أو عدم العزوف عنها ؛ - وبالتالى فإن الماهوبى الذى يولد فى هذه البيئة يكون بينه وبين الحرة شكل من أشكال علاقة الحُب والإعزاز . هؤلاء الموهاهيب ، بمنطقهم البسيط يفترضون أن جزءًا كبيرا من العالم على هذه الشاكلة ، أى أنه عبارة عن صخور بركانية : وأطفال الموهاهيب هم ونسائهم طرحوا علىَّ السؤال التالى : "هل ديرتك ، يا خليل ، حرَّة أم سهول رملية ؟"

(*) الكوزمولوجيا : فرع من فروع الميتافيزيقيا يعتبر العالم كله منتظما . (المترجم)

لا يوجد أى شكل من أشكال الحياة فى هذا المكان غير الأعراب هم وماشيتهم . فى هذا المكان نقى الهواء والمرتفع لا يعيش الذباب ، الذى يوجد على شكل أسراب فى ديار الأعراب الجرداء القاحلة . لا يوجد فى هذا المكان سوى طائر وحيد أسود صغير ، ضامر الشكل ، هذا الطائر الصغير حجمه أصغر من طائر الدُّج ، وفيه بعض الريش الأبيض ؛ والبدو هنا يطلقون على ذلك الطائر اسم السويدية Sweydia ، التى تعيش بالقرب من الجنس البشرى شأنها فى ذلك شأن الطائر الذى يقولون له "صاحب الصدر الأحمر" . وفى كثير من الأحيان يسمع المترحل بين هذه الصخور ، صوت السويدية وهو ينبعث فجأة وعلى دفعات قصيرة مدويا فوق المروج الجرداء ، فى الطرق والمسارات الصحراوية ، بين خرائب الجبال التيتانية Titanic والخوف ، ولهذا الصوت عذوبة كما لو كان قادما إلى روح من يسمعه ، من روح حانية عطوفة . ولا يوجد من الوحوش البرية فى هذا المكان سوى الذئاب التى تعوى بين منازلنا الجبلية : هذه الذئاب توجد بأعداد كبيرة فوق الحرَّة ، وهى فى هذا المكان أجرأ وأشرس من ذئاب الديار السهلية . والليل هادئ وسماؤه صافية ، فى الجزيرة العربية ، ومع ذلك كان الجو منعشا عند مثل هذا الارتفاع وبخاصة فى الأسابيع الأولى من شهر يونيو ؛ زد على ذلك أن نهارات الصيف هنا تكون عامرة بالهواء أيضا . وذات يوم فى الصباح وجدت أن درجة الحرارة كانت ٧٩° فهرنهيتية عند شروق الشمس ، كما سجلت درجة الحرارة فى جيلة Jaila 90° فهرنهيتية ، وعند منتصف النهار كانت درجة الحرارة ٩٥° فهرنهيتية فى ظل الخيمة. هذه الأرض المرتفعة تكون قارسة البرودة فى فصل الشتاء ؛ هذا يعنى أن البدو الرُّحَّل لا يقوون على مقاومة لفحات البرد القارس : الأهم من ذلك أن الحيوانات البرية نفسها تهجر الحرَّة فى ذلك الموسم . زد على ذلك ، أن المواهيب يعودون إلى تهامة فى ذلك الوقت من العام ، ويحتمون بقاع وادى جزُّل Jizzl؛ الذى يعثرون فيه على الكثير من حطب الطرفاء (*) الجاف ، الذى يظل مشتعلا طول الليل داخل خيامهم المغلقه والمصنوعة من صوف الغنم : فى الوقت الذى لا يضع البدو فيه على أجسادهم سوى قميص فضفاض من القطن ، ومن فوقه عباءة (بشت) واسعة ،

(*) يطلق البدو عليه اسم "الطرفة" . (المترجم)

كما أن الغالبية العظمى من هؤلاء البدو تنام بدون لحُف أو بطانيات ، ومع ذلك فهم يقولون : "نحن لا نعانى سوى القليل من البرد ، هذا إن لم نعانى منه على الإطلاق ." والبدو أثناء نهار الشتاء يسلون أنفسهم برشف القهوة أو الحليب بعد تسخينه ؛ وشمس الظهيرة فى الشتاء تكون دافئة دوما فى هذه الحرَّة .

الماء الذى كتب لنا أن نشربه فى ديرة الصخور البركانية ، كان من إحدى البرك وكان لونه أسود ، وغليظ القوام وكريه الرائحة أيضا . هذه البركة تصل إلى الحثالة بعد أن تشرب الإبل منها مرتين أو ثلاث مرات ، وسرعان ما يتحول لون هذا الماء إلى اللون الأبيض الذى يغلب على لون الكتان ؛ ومع ذلك فإن البدو يملئون قرابهم من ذلك الماء ويشكرون الله :- إذ لا يوجد ماء آخر غير هذا الماء . ولكن الأسوأ من هذا ! أن البعض منهم ينزلون إلى ذلك الماء ليغتسلوا فيه ، إذا لم يجدوا إلى جوارهم واحداً من الشيوخ الذين يمنعونهم من ذلك ، والأدهى من ذلك أنهم يخلعون ثيابهم ويغسلونها فى ذلك الماء: - والبدو دائما ، إذا ما توفر لهم الماء ، فإنهم يستحمون منه وذلك بحكم تعاليم الدين عندهم ؛ وفى المنازل يحمل البدوى سطلا من الماء ويخرج من الخيمة ، ليطهر نفسه فى مكان مستور فى الصحراء . ويحتمل أن البدو الرحل يقومون بتنظيف البرك (التى يتعين عليهم أن يتركوا فيها نصف ماءها ،) من الرواسب التى تسببت فيها الأجيال السابقة ؛ صحيح أن البدو لديهم سرعة البديهة ، ولكنهم يفتقرون إلى فضيلة العمل الجماعى ؛ زد على ذلك ، أن سلطةالشيخ ، لا يمكن أن تعمل على تقييد حرية أفراد القبيلة . قد يوجد بين الحين والآخر ، بين البدو ، بعض الأرواح (الأفراد) المحرضة ، على التمييز بين حرية الإرادة والمصلحة الخاصة ، وبالتالى يقوم البدو بتنظيف بعض الآبار التى يكونون قد توقفوا عن تنظيفها وتطهيرها .

عندئذ عاد أبو سنون مرة ثانية قادما من الخضر el-Khuthr وتبوك Tebuk وكان بصحبته بعض من رجال تبوك ، وهم أيضا جمَّالة من بنى عطية . استراح معنا أبو سنون يوما واحداً ، وفى الصباح يمموا مسيرهم نازلين فى اتجاه قرية الوجه . وهنا "(قال أبو سنون) يا خليل ، إنها لمصادفة غريبة أن تلقانى هنا ، وأن ألقاك أنا فى هذه الأرض الجرداء الخراب . أنا مغربى ، وأنت إنجليزى ! - آه ! أين منى جبال مرَّاكش البرَّاد ، وأين منى تلك المياه الجارية فى الوديان ، وكل ذلك نعمة من الله ؟ -

أين حقول القمح فى البلاد ، وأين البساتين يانعة الثمار ، والليمون والبرتقال ، والأترج ، والكروم ، والرمان التى نعصرها لنحولها إلى مشروبات للصيف ، وأين ذلك القرع العسلى كبير الحجم الذى تمتد عيدانه على الأرض ، وأين منى ذلك البطيخ المنعش ؟ – هذه الأشياء الطيبة ، ألست رجلا غبيا ، عندما أهجرها ، لأجيء هنا لأعيش حياة البدو التعيسة الشقية ، وسط هذه الصخور الحارقة وبلا أى ظل يحمى من أشعة الشمس ؟" – "ولكنك ، يا محمد ، وجدت نعمة الله هنا أيضا ؛ ما الذى يريده الإنسان غير ثروة سهلة ؟" – "حسن . تقول الإنسان الذى يستطيع التغيير من مكان إلى مكان ، يستطيع أن يجد هذه النعمة فى أية ديرة من الديار ؛" ثم أردف أبو سنون قائلا وهو يتنهد : "لن تطول حياته" ؛ كان يرى أن وفاته فى هذه الصحراء ليست سوى شكل من أشكال التعاسة ، تاركا وراءه ولده من بعده ليكون بدويا هو الآخر . سألنى وهو يكاد يبكى ويضحك فى آن واحد : "أليس لك ، عندما تعود إلى الغرب أن تحمل معك ذلك الطفل (ذلك الصبى غير البار) إلى هناك ؟" كانت إبل محمد فى ذلك اليوم تزيد على عشرين جملا وجميعها صالحة ، وأن عنزاته وغنمه لا يقل عددها عن مائة عنزة ونعجة ؛ وهو فى الوقت الراهن لا يرى أى إنسان آخر أثرى أو أغنى منه بين هؤلاء البدو الرحل "الضعاف" .

حدثنى أبو سنون عن سفره من الغرب بصحبة بعض الناس المراكشيين الآخرين: أبحروا من هناك قاصدين الحج ، بصفتهم من المغاربة المغامرين ، الذين كانوا يبحثون عن الثراء . وفى أعالى البحار فاجأتهم العواصف ، وحملت الريح أثناء ثورتها ، قاربهم أياما عدة ، ولما كانوا عاجزين عن رؤية الشمس ورؤية النجوم أيضا ، فقد دفعتهم العاصفة فى اتجاه الشرق ، إلى أن وصلوا إلى ساحل الأناضول Anatoly ، واستطاعوا إنقاذ أنفسهم فى مرفأ أزمير Smyrna . ولما كانوا يعانون من الدوخة والدوار على إثر وجودهم على ظهر القارب ، وعلى إثر نجاتهم أخيرا من خطر الموت ، استطاعوا فى النهاية أن يسمعوا أنفسهم وهم يتحدثون إلى بعض الناس فى أرض غريبة وبلغتهم الخاصة ، كما استقبلهم ضابط الصحة فى المرفأ استقبالا طيبا ؛ كان ذلك الضابط طليانى الجنسية (نظرا لأن غالبية الضباط فى الحجر الصحى فى الليفانت Levant هم من الطليان) . سألنى محمد ، وعلى وجهه ابتسامة نتجت عن

تذكر شيء طيب ، سألنى عما إذا كان الطليان والإنجليز أمة واحدة ؟ ولم ينشرح صدر محمد كثيرا ، عندما أجبته ، من باب إعلاء الحقيقة ، قائلا : "إنهما ليسا أمة واحدة ."

رحلات محمد فيما بين تبوك والوجه لم تكن خالية من الأخطار . كان محمد يقطع هذه الرحلة ثلاث مرات طوال فصل الصيف الحار ، بل وربما أربع مرات فى بعض السنوات ، وكل رحلة من هذه الرحلات ذهابا وإيابا ، يصل طولها إلى ما يقرب من خمسمائة ميل صحراوى . ولو قدر لغزو من الغزوات أن يقطعوا عليه طريقه وسرقوا منه إبله، فإن خسارته ربما وصلت إلى حد لا يستطيع معه تعويضها حتى بعد القيام بكثير من تلك الرحلات المؤلمة . جرى الهجوم على أبى سنون فى العام الماضى وأخذوا منه ناقته التى كان يركبها ، ولم يكن قد تجاوز سوى سهل الحجر ، وقع ذلك السطو فى المنطقة ما بين وادى تربة Thirba والقلعة . أثناء العودة من الشمال شاهدوا جماعة صغيرة مكونة من ستة راكبين ، ولكن هؤلاء الراكبين لم يلاحظوا أفراد الغزو . وهنا استدار أبو سنون وأوصل ذلك الخبر إلى مهنّا Mahanna ؛ لقد انتقل السحامه Shemma بالفعل. وبعد ان استمع محمد أبو سنون إلى آخر الأخبار الخاصة بترحالنا، تمكن من الصعود مباشرة من ذلك المكان إلى مَنْزلنا ، على بعد حوالى ثلاثين ميلا من المكان الذى تركنا فيه . خط سير البدو الرحل يصعب اقتفاء أثره فى هذه الأراضى البركانية ؛ والسبب فى ذلك هو قلة وجود الرمل بين هذه الصخور ، مما يجعل عملية قص الأثر صعبة بل ومستحيلة . هؤلاء الأعراب يقولون لى إنهم عندما يقيمون مخيما من المخيمات ، فإن أسرة الأعرابى الذى يكون متغيبا عنها ، تقوم برسم خط من حول هذه الدار المهجورة ، بحيث يوضح هذا الخط موقع المنزل الجديد ، أو قد يستعملون إشارة أخرى هى عبارة عن غصن أخضر من أغصان السنط ، هؤلاء الذين ولدوا فى الصحراء تنمو لديهم مهارة عظيمة عن الطرق والمسارات ، ومع ذلك فإن الغرباء الذين يتدربون على الحياة البدوية قد يصبحوا بدوا . ومن الممكن للبدو أن يذهبوا للبحث بثقة كاملة ، عن منازل مجهولة فى الصحراء الشاسعة ، التى يعرفون أماكن الماء فيها ، ومن ثم لا تكون طاردة بالنسبة لهم . وعندما يجد الأعراب أن المكان الذى عثروا عليه لم يكن معروفا ، أو إن شئت فقل : مجهولا لهم ، فهذا يحتم عليهم أن تدور فى أذهانهم مشكلة من نوع ما، – "فى هذا الموسم يتعين علينا البحث عنهم فى المكان كيت وكيت ؛

وسوف نركب إلى هنا المسقى أو ذاك ، وهنا سنرى آثار أقدامهم" إن قدر لهم أن يكونوا فى هذه الديرة أو المنطقة ، – وإذا لم نتمكن من ذلك ، دعونا نبحث عنهم فى مكان آخر ، يحتمل أن يكون أولئك الأعراب قد لجأوا إليه ." هؤلاء الأعراب عندما يجدون قطعة من الصحراء جرداء ، وليس فى تربتها أى شىء من النبات ، يعرفون أن المطر لم يسقط على هذه المنطقة !– وبالتالى يستنتجون أن الأعراب الذين يبحثون عنهم لم يجيئوا إلى هذا المكان ، ويتجهون للبحث عنهم فى مكان آخر : هذا يعنى أنهم (البدو) فى المناطق البدوية الواسعة الشاسعة ، قد يعثرون فيها على أصدقائهم . والبدو الذين يعودون بعد طول غياب ، ومن بلاد بعيدة ، مثل سوريا ، ومكة ، والعراق ، يسألون عن الأعراب الأصدقاء ؛ وهم يذهبون لتصيد الأخبار من قرى الأسواق مثل قرية تيمة (تيماء) أو قرية العلا .

قال محمد : "قد أكون بصحبته غدا ؛" ولكنى أجبته قائلا : "لا" ، والسبب فى ذلك أنى بلغت من الضعف حداً لم اتمكن معه من التضحية بهواء الجبال ، وأقوم فى هذه الشمس الحارقة بعبور سهول تهامة شديدة الحرارة . بقيت فى خيمتى ، وتنقلت على ظهر ناقتى ، ولم أتلقى أى شىء من العرب الجائلين سوى الماء . وعندما كنت أشرب شيئًا من الحليب كنت أحرص على رد قيمة ذلك الذى أخذته ؛ هذا وقد أغدقت على أبى سنون العطاء نظير فناجيل الأرز الثلاثة التى أعطانى إياها على امتداد أيام الضيافه الثلاثة ، فقد أعطيته ريالات كثيرة . كان المتسوقون البلى Billi يذهبون إلى الوجه كل بضعة أسابيع قليلة ؛ قد انتظر بعض الوقت ، ولكن نظرا لأن كل حبة من حبات الهواء كانت تنعش روحى ونفسى ، فقد رحت أتأمل من جديد مسألة التجوال خلال الجزيرة العربية . بدأ يتبدى لى أن وجود الغريب مع الأعراب أصبح أمرا غير مرغوب فيه من جانب الشيخ العجوز الحقود ، فقد وجه الشيخ طُلُج Tollog اللوم إلى المغربى بسببى ، وقال محمد : "أنا لا يمكن أن أعصى أوامر الشيخ ، بالرغم من أنى أود لك أن تسكن وتعيش معى هنا ؛ هم يقولون : إنك واحد من الفرنجة أتيت قبلهم وأنهم سوف يحتلون ديرتنا . يجب أن لا يغيب عنك أن طُلج غضبان ، ولا يمكن لأحد أن يعارضه أو يفعل غير ما يريده هو ، ويجب أن لا يغيب عن بالك أن هؤلاء بدو ، ولا يعرفون شيئا عن الدنيا من حولهم ." سألت طُلج Tollog ونحن فى المجلس ،

حول هذا الأمر ، "قال : اذهب مع محمد باكر ، وسوف يوصلك إلى قرية الوجه ؛ واعلم يا خليل ، أنك لن يصبح بوسعك بعد اليوم مرافقة الأعراب ." – "وإلى أين أنت ذاهب يا طُلُّج ؟" – "أنا ذاهب غداً إلى الجبيلى ، سوف أشترك فى الغزو (هذه أسباب ملفقة ساقها بدافع من أدبه البدوى) ؛ زد على ذلك ، أن الأعراب على وشك الرحيل إلى مكان بعيد ، فى ديار تعانى من العطش الشديد ، ورحيلك يحميك من تلك المعاناة ." – "يا طُلُج Tollog ، أنتم أيها البدو ، لستم سوى أفراد ظمآنين ، ولكنى أنا أشرب القليل جداً من الماء وبوسعى تحمل الكثير مع الأعراب ، سواء أكان ذلك ظمأ أم جوعاً ؛ كل ما فى الأمر أنى أمل ألا تطردنى بطريقة غير ودية ، فى هذا الجو شديد الحرارة ، كى أموت فى تهامة . أبداً ، يا طُلُّج ، سوف أبقى معك ومع الأعراب ." – "بالله ، هذا لن يكون يا خليل ؛ إذ من الأفضل لك أن تعود إلى شعبك ، ولا تموت : ارحل غدا مع إبى سنون ، ولكن اشرب الآن قهوتك ، ولا نتكلم معنا حول هذا الموضوع بعد ذلك ."

طوال ذلك اليوم (وبناء على طلب طُلُّج) لم يعطينى رب الأسرة التى كنت أسكن معها أى شىء من الماء كى أشربه ؛ من منطلق أن شعورى بالظمأ يمكن أن يعجل برحيلى عن الأعراب . كان المضيف يتحمل ذلك على مضض ؛ ولكنى فى فترة ما قبل الظهيرة ، وعلى العكس من كل طقوسهم ، التى تتنافى مع المنطق الإنسانى ، ذهبت وطلبت جرعة ماء ، وهذا أمر لا يمكن إنكاره فى الخيام المجاورة . وهنا خطر ببالى أن اتفق مع راعى من الرعاة البدو ، والذى وجدت أن لديه استعداداً للقيام بذلك ، على أن يقوم بإرشادى كى أصل إلى عناز Anaz ، وبذلك يتسنى لى عندما أنزل من الحرّة ، زيارة كلا من بدا Béda ومدين Middan ، اللتان يُقال عنهما إنهما يمثلان قرية أثرية مخربة فى تهامة ، ثم انتقل بعد ذلك من تهامة إلى الوجه . قالت لى زوجته ، إنه ذهب للسقيا ، وسوف يعود خلال فترة وجيزة . دعتنى إلى الجلوس فى الخيمة ، ثم صبت لى شيئا من الماء واللبن ؛ – سألتنى ، بطريقة نفاق النساء ، هل تسارع وتذبح لى تيسا ؟ استدعت نديماتها وراحت تجعلهن ينظرن إلى النصرانى فى بيتها . وهنا جاء الرجال من البيوت ، وجاءت النساء البدويات : أمهات وبنات ، جئن جميعا ليجلسن ويطلقن لألسنتهن العنان ، ويشبعن فضولهن عن طريق الكلام مع الغريب . وبعد بداية الكلام ، أصبح كل هؤلاء الحريم يقفون إلى جانبى ، ورُحْنَ يُدِنَّ سوء نية الأعراب وجهلهم ، لأنهم أساءوا فهم دينى ، "الذى لم يكن شريرا ، على حد قول الرجال :– كيف نصلى

نحن ؟ – خليل ، هل لك أن تقول لنا شيئا من صلواتكم ؟ هل تصلى بلغتك ؟ وهى ليست لغه عربية ." تلوت عليهن شيئا من صلاة الرب . "يا الله ! صحن قائلات : نحن ظالمون ، انظروا إنه يصلى بحق ، هؤلاء أناس طيبين ،" ثم أضفن بعد ذلك المثل الذى يقول : "..."(*) هذا هو ما قالته ربات البيوت ، – بنات الطبيعة ، وبتواضع : "سوف نسأل عنك ، ونعرف إذا كان كما نسمع ، أن النصارى لا يختنون ، وكيف يستطيع الرجل معاشرة زوجته على هذا الوضع ؟ سألتنى ربات البيوت إن كان لدى دواء لواحد من أزواجهن الشباب ، التى لم تحمل منه زوجته بعد عامين أو ثلاثة أعوام من الزواج . وامتدحت النديمات "صبر" تلك الزوجة ، على زوجها وعدم تركها له ، لأن من حقها أن تفعل ذلك ."

كان فايز Faîz ، زوج هذه المرأة ، الذى وصل فى تلك اللحظة ، غير راغب فى مرافقتى ، نظرا لأن الشيخ كان قد منع ذلك منعا باتا . كان فايز هذا واحداً من الذين أعطونى فكرة عن الديار التى لا تحوم من حولها الشكوك . وفى عصر يوم من الأيام ، كان فايز هذا قد رسم لى على الرمل بمشعابه ، شكل الحرّة ، وكان يستعمل الأحجار فى تحديد الجبال ، وفى تحديد مجارى السيول أيضا ، وكذلك الوديان ، بما فى ذلك وادى الحريرى Hareyry ، ووادى الحمض el- Humth . وعندما نظرنا إلى الأعلى كانت الشمس توشك على الغروب ، ونهض الرجال من مجلسهم ، وذهب كل منهم لأداء الصلاة . وهنا يعجب فايز ، فلم يرانى عندما أوشكت على أن أجثو على ركبتى وأقول : "أين ربُّك ؟ هذا هو الوقت الذى تطلب وتلتمس فيه العفو من الله !" مات فايز فى نهاية صيف ذلك العام فى سهل الحجر قبل وادى تربة eth-Thirba ، فى الغزو الذى قام به البِشْر Bishr ، والذى أسفر فى ذلك اليوم الأغبر عن سرقة واغتصاب كل الماشية العظيمة التى لدى هؤلاء القبليين . ولما كان فايز من معدن أصيل وعنيد أيضا فقد اندفع بين مائة من الرجال المسلحين الأعداء ؛ لم يرض عن تسليم كل ما لديه فى هذه الدنيا ، فضلا عن ثقته أيضا بالإبل المملوكة للشيخ طُلُّج :– وهنا وضعت طلقة طائشة ، انطلقت من يد آثمة ، نهاية لمقاومة ذلك الرجل العنيد .

(*) رأينا حذف المثل لأنه يمس بالدين الإسلامى . (الناشر)

ملحق الفصل الرابع عشر

كلمه "ناموس" ؛ فى القاموس ، أو إن شئت فقل : فى القاموس المحيط ، تجد كلمة "ناقوس" أو "ناجوس" بمعنى "الجرس" والنواميس تكون هى الأخرى على شكل أجراس : ونجد أيضا مادة "ناموس" بمعنى "عرين" أو "مريض" – ، وبخاصة كفن الصياد ؛ وحيث توجد النواميس توجد بعض الزنازين المصنوعة من الحجر ولها أبواب ويحكى لنا البدو عنها على إنها فخاخ لصيد الفهود والضباع . والنواميس السيناوية شبيهة بالرجوم الموجودة فى حرّة العويرض ، وفى خيبر ، وسوف نوضح أن تلك عبارة عن مجرد جحور ليس إلا .– ومن رأى السير هنرى رولنسون أن كلمة "ناموس" السيناوية قد تعنى أيضا "مقابر" ؛ وهو يقول : إن حرف الميم وكذلك حرف الـ V يتداخلان ، وأن الشكل الصحيح لهذه الكلمة هو "ناڤوس" وهذه الكلمه كانت معروفة فى كل الأماكن التى تواجد فيها العرب . وكلمة "ناقوس" فارسية الأصل ، ولكنها دخلت العربية وأصبحت تطلق على الجبانة القديمة وهذه الكلمة تداخلت مع الكلمة الإغريقية vaós، كما كانت هناك مئات النواقيس حول بلاد الرافدين، وورد ذكرها عند المؤلفين القدماء .

الفصل الخامس عشر

حياة البدو الرُّحل فى الحرَّة

طلُّوج يأمر والنصرانى يقاوم . طاسة مهيبة من اللبن . يخشون من تصليح النصرانى للشاى . زيارة طلوج أثناء الليل . بلاد الشفا . صورة لسطح الأرض . حرّة العويرض . الآثار الكوكبية فى الحرّة. فورة بركانية عظيمة . بركان فيزوفس. هل الحمم البركانية Lava هى ما يقول له العرب "لابا" Laba ؟ الطلب من البدو فن . الشيوخ ليست لديهم معرفة كبيرة بالأرض . قبيلة جهينة القديمة . ارتفاع الحرّة . طلّوج يزور الغريب فى خيمته . طلُّوج يصاب بالمرض . جمل الشيخ . أغنام البدو الرُّحّل . الذئب أثناء الليل . كلاب الحراسة عند البدو الرُّحّل . حياة راعى الغنم . ربا الراعى . راشيل هى روخال عند الأعراب . مريان فى الأرض . زوجات الصوف . ماعز البدو الرحل تهتاج . البدو الرحل يربون صغار الغزال . موسم الحليب . المواهيب ينزلون إلى صحارى السهول . الفايش . مشاهدة قطيع . النزول إلى وادى غريب . كومة قبر والدة أبى زيد . تسليات الأطفال . محسن الكريم يسطو عليه الغرازو أثناء القيام برحلته من الشمال . أبو سليم مُسلّك العيون المغربى .

سمعت قبل اكتمال طلوع الشمس ، صوت طلّج Tollog العالى الأجش – حيث كان قد ذهب بنفسه إلى بيت المغربى – يطلب من محمد : "اصرف هذا الفرنجى عنا اليوم وخذه معك !" كما أكد أيضا على من سيرافق المغربى أن لا يتركنى ويسهو عن أخذى معهم . كانت آخر كلمة سمعت ذلك الشيخ يقولها : "والله ، بعد أن أرحل ، سأعود لاحتلال الديار والبلاد ." – ذكّرت محمداً بوعوده القديمة ، التى شدتنى إلى هنا . ورد الرجل علىّ ، بأنه مرتبط بالشيخ ، ومع ذلك ، أبلغنى إننى إذا ما بقيت فلن

يكون هناك من يجبرنى على ما لا أريده . يضاف إلى ذلك أن الأعراب هم أيضا كانوا رحيل rahil ، بمعنى أنهم على وشك الانتقال إلى مكان آخر ؛ كان محمد قد سبقنا فى ركوب دابته ومضى فى المسير قدما : وعندما وجد أن رجاله يضيقون الخناق علىَّ ، وجدت أن من الحكمة مقاومتهم ؛ وإلا إذا ما سمعت القبائل الأخرى بأخبار طردى من هذه القبيلة ، ألن تحاول عمل الشيء نفسه ، عندما أدخل منازلهم وديارهم ؟ يضاف إلى ذلك ، أننى ازداد تصميمى على الذهاب إلى خيبر . أركبونى على دابتى ، واستأنف البدو مسيرهم ، وراح أولئك الذين كانوا سيصاحبون محمداً فى رحلته ، راحوا يستحثون ناقتى العجوز .- وأقسموا بحياتى أن أسير معهم على هذه الشاكلة ! وراحت الدابة المسكينة تخبخب تحت وطأة ضرباتهم من ناحية ، وتحكمى فيها باللجام من الناحية الأخرى ، الأمر الذى أدى إلى تعثر الناقة من تحتى مرات عدة . "اترش ، أى امض قدما! قد لا أبقى هنا ، صاح أولئك القساة الغلاظ؛ والله ، إذا ما بقيت هنا ، فإن الأعراب قد يجردونى من كل شيء ويقتلونى ." - "أيها الأصدقاء ، ليس هناك من يقوى أو يستطيع إيذائى ، إذا لم يكن الأمر يتعلق بالخوف من الدولة (الإمبراطورية العثمانية .)" ولكنهم ردوا على كلامى باحتقار شديد - "ملعون أم الدولة !" وعندما قلت لهم : فى رحلة الحج القادمة ، ألن يسألهم عنى محمد سعيد (باشا الحج) ؟" ردوا على وهم يصيحون قائلين : "ملعونة أم زوجة محمد سعيد ! يا خليل ، هيا وحياة الله ، سوف ترحل عن هنا !" - "قلت : بُيني ، مناديا إياه باسمه ، ألسنا معارف منذ مدة ؛ توقف يا ولد !" - "يا خليل اعلم أن طُلُّج جبار ، وهو يحكمنا حسب هواه ، وأنا أخشى أن يأخذ منى ناقتى." "تأكد ، أنه إذا ما أخذ ناقتك بسببى، فسوف أعيدها لك ، لأنى رجل مخلص وأمين ." وضع واحد منهم يده على حكمة الناقة ، وكشر عن أنيابه واتجه ناحيتى موجها عكازه نحوى : هذا يعنى أن هؤلاء كانوا من الخدم وليس من بينهم أحد من الشيوخ . "صاح بُيني Beneyyi قائلا: ممنوع العنف !" لم ينس الأعراب فى ذلك الوقت أن الغريب كان ضيفا من ضيوف الله ! وعندما أيقنوا أن التهديدات أو التوسلات لن تجدى معى ، وأن جماعة السوق قد سبقتهم بحوالى ميل تقريبا ، تخلوا عن النصرانى وتركوه ، وراحوا يجرون ويسرعون الخطى كيما يلحقوا بجماعة السوق .

اختفى عن بصرى هؤلاء البدو أثناء رحيلهم فى تلك الأرض الشاسعة الوعرة ؛ وهذه هى ناقتى راحت تحاول الانفلات للحاق بأولئك الذين كان يبدو أنهم متجهون إلى قرية الوجه . بَركت ناقتى ، إلى أن اختفى أولئك المسافرون وراء الأفق : لم استطع التحكم فى الناقة عن طريق اللجام . وبالرغم من أنى لم أصيح فيها كثيرا ، إلا أنها لم تتعبنى فى امتطاء صهوتها ، أو إن شئت فقل : الركوب فوقها ؛ قفزت على ظهر الناقة ، وسقطت منى بعض أشيائى ، ولكنى لم أعبأ باسترداد تلك الأشياء ؛ نهضت الناقة واقفة وأنا من فوق ظهرها ، وبدأت تعدو ، فى حين رحت أنا أوجه رأسها صوب البدو الراحلين .- كان ذلك كرب وبلاء عظيم لى ، أن أكون حائرا أو مشوش الذهن بين هذه الصخور البركانية الضخمة والمريعة ، التى كانت تشبه أرضية الفرن فى أشعة الشمس الحارقة ، والأدهى من ذلك ، أنى كنت بلا ماء ! مضيت راكبا ناقتى وفؤادى مكلوم ، مخافة أن لا ألحق بهؤلاء الناس مرة ثانية ؛ زد على ذلك ، أن بصرى لم يكن على ما يرام . لم يمض وقت طويل ، فقد شاءت السماء لى أن ، تقع عيناى على أثر هؤلاء الناس أثناء تجوالهم ، الذى كان قد حجبته عنى القيعان الوعرة برهة قصيرة من الوقت .

ركبت دابتى وحدى منفصلا عنهم ، ولم أكن واثقا من أن أحدًا منهم لن يشتمنى أو يسبنى . لم يكن هناك سرج فوق ناقتى ؛ وكان متاعى الذى ربطته بحبل يتدلى على جانبى الناقة . وتوقف رجل طيب ، تصادف أن مر بى ، ونزل من فوق ناقته ليقدم لى يد العون والمساعدة . وبعد فترة قصيرة أدركت واحدًا من رفاق محمد ، واحدًا من أولئك الذين صادقتهم عن طريق الدواء ، ونظرا لأنى كنت أشعر بالظمأ الشديد صباح هذا اليوم ، فقد ناديته باسمه قائلا : "يا عايد Aŷd ! هل لك أن تصب لى شيئا من الماء لأشرب ؟" وبعد شيء من التأخير ، والامتعاض ، أحضر لى شيئا من اللبن فى فنجال . لاحظت سلوكه الغريب ، كما لاحظت أيضا شخصا آخرا من أولئك القريبين منى ، يقول : "تموت" ، وهنا ظننت أن الأمر ليس على ما يرام . إذ قام عايد ، بإعطائى الفنجال دون أن يشرب منه قبلى : قال آخر : "ليس فيه أى أذى ." - "لقد شربت ، رددت عليه دون أن أشرب من الفنجال شيئا ، وأكرمك الله ." عاد عايد مرة ثانية إلى الجمل الذى يحمل زوجته ، وتظاهر بأنه يعيد اللبن إلى القربة ؛ ولكنه تسلل جانبا بعد

ذلك ، واستدعى الكلاب التى كانت ترافق القُفل ، وصب لها شيئا من اللبن فى تجويف صخرة من تلك الصخور البركانية : وعندما أدرك إنى كنت أراقبه ، عاد إلى وهو يبدو عليه عجزه عما يمكن أن يفعله بعد ذلك . "قلت له : أليس الله فوقنا ؟ ما الذى فى اللبن يا أيها الرجل ؟"- "ليس فى اللبن أى شىء يا أخى (الراعى السقيم) سوف يشربه ،" ثم اتجه بعد ذلك بالفنجال نحو الراعى : بعد أن شرب المريض اللبن كله ، أمسكت عايد من يده ، وسلمت بأن لبنه كان ممتازا . وحدقنى الرجل بنظرة جانبية . القتل غير المباشر باستخدام السم فكره تدور فى أعماق أهل الجزيرة العربية ، من هنا فهم يتذوقون الشىء قبل أن يأكل منه أو يشرب منه الآخرون ؛ ومع ذلك ، فأنا أؤمن أن هذه الجريمة لا يجرى ارتكابها فى الصحراء . واصلنا مسيرنا وسط الحر الشديد طوال فترة الظهيرة ، فى الوقت الذى خيم العرب فيه طلبا للراحة : وعندما نزلت وحدى ، عن ناقتى لنيل قسط من الراحة ، نادانى أولئك الذين كانوا ضمن الجماعة قائلين : "لماذا لم أنصب خيمتى بين خيامهم ؟" هؤلاء البدو يخيمون ، حسب القرابة ، والرفقة ، وبمعدل خمسة أو ست جماعات فى كل مَنْزَل : ومع ذلك فهم يفضلون نصب الخيام على شكل خط طويل ، على نفس طريقة بدو البلى ؛ ولكن السَّحَامة يخيمون على شكل شارع من الخيام .

جلست ، فى المساء ، بعد أن نقيت قليلا من الماء باستخدام الفحم النباتى ، أصلِّح شيئا من الشاى ، فى حين راح القبليون ، الذين كانوا يتحوطون حول الوجار ، ينظرون إلى بحقد ينطوى على شىء من الشك . وعندما رفعت الغطاء ، وطلع البخار وهو يحمل رائحة مثل رائحة الورد ، تراجع البدو إلى الخلف ، وصاح واحد منهم : "إنه مؤذٍ ، ارفعه وأبعده عن هنا ! أبعده عنا ." - "قلت لهم ، ليس هناك شىء أصح ولا أحسن منه ، هذه نكهة طيبة ، وهى من نكهة أشجار الجنة ." صاح آخر : "إخص ، ينبغى أن يبعد ذلك عنا ! لأن رأسى بدأ يدور " . سوف أذهب الآن لمهادنة طُلِّج : قال لى أحدهم : "بيته قريب من هنا ،" وهمس له شخص آخر قائلا : "قل إنه بعيد عن هنا ؛" ورد عليه : "لا ، إنه بعيد جداً عن هنا ." - "وكيف يكون البيت ، أيها الرفيق قريبا وبعيدا فى آن واحد ؟ عايد : "نحن نعرف ، يا خليل ، أنك تعرف الأشياء كلها ، [وأنك بواسطة كتابك تستطيع أن ترى ما لم يرى ،]" ولكن لا تذهب إلى بيت طُلِّج

فالحباليص يتجولون فوق الحرّة ." – "إذن ، فليقرضنى أحدكم سلاحا ، وأنا سوف أستعير سيفك لفترة وجيزة" . – "لا ، يمكن لك أن تفعل ذلك عن طريق دفع الأجر" .– "وأنا على أقل تقدير يمكننى أخذ عكاز هذا الصديق ." كان ذلك الصديق ، هو الراعى المريض ، الذى كان يعيش على صدقاتى اليومية من الدواء الذى كنت أعطيه إياه ، ولكن هذا الرجل الناكر للجميل حرمنى وأنكر علىّ ذلك ، وهنا ألقيت العكاز على الأحجار . وهنا غمغمت الجماعة التى استاءت من ذلك التصرف ، وهنا قال أخوه عايد صاحب العين الحاسدة الشريرة : "نحن البدو ، ولسنا من أهل الحضر !"

كانت خيام الشيخ طُلُّج Tollog، بحكم ضيق هذه الدار ، منصوبة فى أرض خالية أخرى تبعد عن هنا قرابة ميل . مضيت سائرا فى طريقى ، عبر هذه الأرض البركانية ، ماشيا فى الظلام فوق الصخور والأحجار الغليظة السائبة والمفككة ، إلى أن بدأت تطالعنى نيران حراسة الشيخ طُلُّج . "يا الله ! (قالها طلج ، بينما أدخل أنا عليهم قادما من وسط الظلام ، ثم جلست بينهم بعد ذلك) ، أجئت على هذا النحو فى هذه الظلمة ؟ لا يا خليل ، ودون أن يكون فى يدك سلاح !" استقبلنى هذا الشيخ العجوز استقبالا حانيا . قلت له : "لا يمكن أن أنام إلا بعد أن ألقاك ، وسبب تأخير قدومى إلى الآن ، مرده إلى تعبى والإرهاق الذى أصابنى بسبب حرارة النهار . وأنت يا طُلُّج ، لن تمنعنى من تنفس الهواء العام ؛ وهذا هو الذى دفعنى إلى المجىء إلى الجبل الذى نصبت عليه خيامك ." طُلُّج : "ولكننا ، نحن البدو ، مساكين ، نحيا حياتنا فى ظروف بالغة القسوة . نحن نخشى أن يحدث لك مكروه ، وبالتالى يوجه اللوم إلى المواهيب ؛ قد يخاطر رفيق طائش باغتيالك ، باعتبارك نصرانى ، وبالتالى يجر علينا مسألة دمك !– ألا تخاف الذئاب يا خليل، ألا تخاف قطاع الطرق ! بالله عليك يا خليل، ألن تخبرنا ذلك الذى جئت به فى ذهنك ، لتفعله هنا ؟ هل لديك مهارة اكتشاف الأشياء الخبيئة ، ورؤية الغيب ؟" – "ليس لدى أى شىء من هذا القبيل فى واقع الأمر : هذا يعنى أنكم لديكم بعض الظنون الآثمة فى كتبى ، التى لا تعدو أن تكون مجرد نظم لآراء الناس بعضها إلى بعض . لديك قصائد تتغنى بأمجادكم الممتازة ؛ ونحن لدينا أيضا مثل هذه القصائد ، وكلمات تلك القصائد التى لا ينبغى لها أن تموت معنا ، مدونة فى كتب من الورق ؛ ولكن الأعراب غير متعلمين ." – قال طلج ردًا على كلامى :

"نعم ، والله ، غير متعلمين !" – "يضاف إلى ذلك ، إذا مرض أحد منهم فأنا هنا لخدمته ، ولن أرفض أى واحد ؛ وهم أيضا قد يعطونى قليلا من اللبن ، باعتبارى ضيف من ضيوف الله أقيم بينهم . تقولون : ما الذى جاء بى إلى هنا ؟ وما الذى دفعنى إلى السؤال عن الخرائب والآثار ؟ وأنا أرد عليكم قائلا : إنى أبحث هنا عن نقوش قديمة ، فى قرى{ الحجر كما سبق أن رأيتم بأعينكم ؛ وهذا لا ينطوى على أى مكسب مادى ، وإنما هو لإمتاع بعض المتعلمين ، المسلمين والنصارى ، الذين يدرسون اللغة القديمة ، مثل لغتكم التى دونت بها تلك النقوش ." طُلُّج : "ولكن ماذا عن تلك الأحجار التى عليها كتابات ونقلتها من قريه العلا؟ – "أنت بعد أن زرت تلك الأحجار ، سمعنا أو بلغنا فى صباح اليوم التالى أنها اختفت من مكانها ." – "لا تصدقوا ذلك الإفتراء والحماقة ، نظرا لأنى بوسعى شراء أى حجر مكتوب ، من صاحبه ؛ ويجب أن لا يغيب عن بالكم أن إسطنبول فيها قصر كبير لهذا الغرض ، والذى تتجمع فيه الأشياء الغريبة والنادرة التى من هذا القبيل ، وتجىء إليه من سائر أنحاء الدنيا كلها . لقد شملنى الباشا بعطفه ،– والسبب فى ذلك ، أن الباشا يعرف أهل Ahl السوَّاح Sûwahh – أضف إلى ذلك أنى من الإنجليز ، حلفاء السلطان ، ومن ثم فهم من أصدقائكم. ما الذى فعله أبو سنون فى رحلته الأخيرة إلى قريه الوجه ؟" – "ومع ذلك ، فأنا أرى أنهم ليسوا مع الإسلام قلبا وقالبا : ألم يظهروا لنا شيئا من التحول الشرير فى السنوات الأخيرة ؟ هل أنتم تتزوجون من بنات الإسلام ؟" – "نحن بعيدين جداً ، نحن نجىء إلى إسطمبول مبحرين فى سفننا ، وبوسعك أن ترى سفننا ، معظم الأيام ، أمام الساحل الذى يقع خلف ، أو فيما وراء هذه الصخور البركانية ." – قال الرجل العجوز فى النهاية "ألن آكل منك ليرتين ، على أقل تقدير يا خليل ." – "أنتم أيها الأعراب لستم كرماء ، عندما ترون الغريب ، يمر مهموما ومكروبا فى دياركم ، بل أنكم قد تلبسوا ما معه وتجردونه من كل شىء ." – "ولكننا سوف نفرجك على الأماكن الأثرية وعلى الخرائب أيضا ، وأنت يا خليل ، ستكون حراً فى تجوالك فى أى مكان تراه أو تود الذهاب إليه ." "لن أرى أى شىء من هذه الأشياء ، لأنى ليس لدى سوى مبلغ ضئيل من الريالات ؛ كل ما أوده هو أن أتنفس هواء الجبل هذا فترة من الوقت ، يالك من طُلُّج !– أم أنك سوف تطردنى من هذه الديرة أيضا ؟" – "انصرف الآن مع

هذا الشاب ، الذى سيرافقك إلى المنزل ، وسوف تكون ناقتك فى صباح الغد ، على طريق الحج؛ انهض ، فهم يقولون إن ناقتك ضلت طريقها ." – "ولكن ، ماذا عن باكر ؟ هل ستطردنى من هذا المكان ؟" – "عُد الآن ، وسوف تكون مع جماعتك ." – "وحياة هذه اللحية ، يا طُلَّج ! هذا شىء لم يكن مفروضا أن نتحدث أو نتكلم عنه أمام البدو المحترمين الأشراف ." – "أنت معنا ، وكل ما فى الأمر أنك يجب ألا تخرج وحدك أو بدون سلاح أثناء الليل !" – ثم أرسل معى واحداً يحمل رمحا ليعيدنى ثانية إلى المَنْزل الذى كنت فيه من قبل .

وفى مضرب آخر ، ينحدر قليلا على جانب الحرَّة ، وجدنا أن حرارة الحمو كانت أكبر بكثير فى هذه المنطقة عنها فى أى مكان آخر. ونظرنا من ذلك المنزل، نحو الأسفل من خلال الحرارة الخانقة إلى جبل جاو Jau ؛ ومن فوقه إلى ساحل يمتد على شكل شرفة بارزة وفيه صخور بازلتية سوداء ، وتحيط به مجموعة من تلال فوهات البراكين يطلق الناس عليها هنا اسم حرَّة الخضيرى Khúthery . فى اتجاه البحر ، كانت تمتد من أمامنا الجبال المحيطة بديرة تهامة ، وهى مثل الجبال التى تراها بصورة غير واضحة من حرف جبل إيدوم ؛ أو تلك الجبال التى نراها عندما ننظر إلى الأسفل من الحجاز فوق مكة حيث نجد مجموعة من الجبال المنخفضه غارقه فى تهامة من ناحية مدينة جدة . وبلاد الشفا Shéfa هى كل ما نراه الآن من تحتنا ، على شكل سياج من الجبال ؛ والبدو يقولون إن هذه الجبال تبعد مسير يوم واحد عن هذا المكان ؛ وبعدها يستقيم حال التنقل والترحال . والبدو هناك يطلقون على البحر الأحمر اسم "البحر المالح" أو قد يقولون له "البحر" – " ردَّ على زَيْدٌ ذات مرة ، عندما سألته عن اسم البحر فقال : "بحر Bahr الظُّلام" eth-Thellam بمعنى "بحر الظلمة أو الدكنة (الغرب) ." – وبنفس هذه الطريقة نجد أن الفريد Alfred(*)، مليكنا الساكسونى ، يقول فى كتابه الجغرافى : "أيرلندة تكون باهتة وغير واضحة ، فى الناحية التى تستقر

(*) ألفرد Alfred : عرف بألفرد الكبير Alfred the Greet تولى الحكم فى غرب سكسونيا فى عام ٨٧١ وكان فى صراع دائم مع الدانماركيين . وتمكن من السيطرة على إنجلترا كلها وحكمها حتى عام ٨٩٩ . واشتهر عنه كونه عالما ومشرعا فهو الذى أدخل نظام المحلفين وأسس جامعة أكسفورد . (المراجع)

الشمس فيها ، أى تغرب ." كل هذه الأرض المنخفضة الوعرة تقف عليها علامتان أرضيتان جبليتان وضخمتان أيضا (انظر الصورة رقم ٥٩ أيضا)؛ وهاتان العلامتان الأرضيتان يطلق البدو عليهما اسم الجولة Jowla والوتيد Wuttid(بمعنى وتد الخيمة) . بين هاتين العلامتين لا يوجد سوى ممر ؛ وهما ترتفعان على شكل ساحل جرانيتى متدرج ، يمتد من الشمال للجنوب ، يمكن قطعه سيرا على الأقدام خلال نصف يوم ؛ وأنا لا أذكر جيدا اسم ذلك الممر ، هل هو الحداد el-Hadàd أم إنزان Enzan أم نجابة Negaba . والمسافة بين الحداد والعويرض تزيد على مسير يوم أو ما يزيد على ذلك . وكل ما هو موجود داخل الحداد يطلقون عليه اسم ألشفا Es-Shefa ، وكل ما هو خارج الحداد يطلقون عليه اسم التهامة et-Tehàma ، بل إن العويرض ، فى أسلوبهم المهيب ، لها مفهومان فى الشفا . وكل ما عدا ذلك ، فى رأى الموهاهيب هو "التهامة" ؛ (نظرا لأن البدو يندر أن يتفقوا فى وضع حدود للصحراء المفتوحة) وهذه المنطقة تمتد من حافه الحرّة حتى البحر .

والفراع el-Farâ يقع فى منطقة تهامة الشفا ، والفراع هذا عبارة عن قاع سهل من السهول ، تنمو فيه عيدان الخيزران . ومياه السيول تصل إلى ذلك القاع قادمة من كل من جولة والوتيد من ناحية ، والسيول القادمة من الوديان وكثير من الفلوج فى العويرض من الناحية الأخرى . هذه هى الرءوس الموجودة على هذا الجانب من الحرّة ، أو إن شئت فقل : المجارى المائية الحجازية الكبرى فى وادى الحمض el-Humth . هذا القاع العلوى ، الذى ينخفض عن الفراع يطلق الناس عليه هنا اسم وادى نجل Nejl ، الذى يستقبل مياه السيل القادم من جاو Jau، ومن بعده وادى نجيد Nejid . ووادى نجد ينحدر من جبل من الحجر الرملى وله رأسين ، ويطلقون عليه اسم شرافات النجيد Nejid . وهذا النجيد ليس هو نجد ، ذلك الاسم الذى يطلقونه على ذلك الجزء الضخم المرتفع من البلاد ، الذى يعد أفضل الأقسام التى أطلق عليه الجغرافيون القدماء اسم القسم "الرعوى أو البدوى من الجزيرة العربية ." وهناك تباينات كثيرة بين هاتين الكلمتين عندما تجريان على ألسنة البدو ؛ والبدو يتعجبون ويضحكون عندما لا يستطيع لسان أجنبى محاكاتهم محاكاة تامة . ووادى-نجيد هذا يقع على طريق

القوافل ، بين قريتى العلا والوجه : والمسافة بين هذا الوادى والمناطق الداخلية تقدر بيومين ، ولكنهم يقطعون الوادى وحده فى يوم واحد . والفِراع أيضا ليس هو الفرَّاع Ferrá ، ذلك الاسم الذى يطلق على واحة من واحات قبيلة حرب فى الجبال الواقعة بين الحرمين ، هناك وادى آخر ينزل من ناحية الغرب فى الشُّرافات ـ متجها صوب البحر ، ويطلقون عليه أيضا اسم وادى نجيد ؛ وهذا الوادى يتجاوز البداع Béda ويصعد إلى قرية الوجه . والبداع هذه عبارة عن موقع أثرى ينمو فيه شجر الدُّوم أو نخيل الجوز البرى ذى الأغصان . وفى الفراع توجد هجرة ، أو إن شئت فقل : مجموعة دائمة من خيام البلّى ، الذين يقومون على أمر قلة قليلة من النخيل . والمكان يبعد عن قرية البحر مسير يوم واحد ، حسبما يقول محمد المغربى ، وبعد وادى النجيد ، نجد أن ذلك الوادى تنساب إليه السيول التى تأتى منحدرة من الفراع (الذى يطلقون عليه حاليا اسم وادى جزِّل Jizzl) ، ومن الوديان العميقة على جانب الحرَّة ، والتى يطلقون عليها أسماء: العروش Aurush، والدوخان Dokhân ، وظاع Thá ، وجيله Gaila وهى الوديان التى توجد فيها الجرْية(*) gerÿa، أو إن شئت فقل : هجرة (**) من خيام الزراع الموهاهيب . هذا الوادى يستقبل من ناحية أخرى ، مياه السيل القادمة من وديان الحريرى Hareyry : التى من بينها بعض الوديان، مثل وادى جيدة Jaida ، وهى عبارة عن وديان نخيل ، يرعاها بدو البلى ويقومون على أمرها .

جبل العويرض البركانى المنبسط ، له ثلاثة أعضاء تقع فى الشمال والجنوب ، وتمتد إلى مسافة مائة ميل تقريبا . والناس يعرفون أن الرحلة فى أى مكان من أماكن هذا الجبل تستغرق زمن الصيف بكامله : هذا بالرغم من أن المسافة فيما بين وادى تربة Thirba ووادى عروش لا تستغرق سوى نصف يوم فقط . ومعروف أيضا أن الأسماء الأرضية تتكرر فى معظم الأحيان فى الجزيرة العربية ؛ وهذا جزء من جبل أجأ Ajja (فى جبال الشمر ،) يطلق الناس عليه اسم العويرض كما أن هناك جزءا

(*) الجرْيَة : بكسر الجيم وفتح الراء وتشديد الياء ، تعنى القُريَة أى تصغير قرية ، والبدو يقلبون القاف جيمًا فى كلامهم . (المترجم) .

(**) الهجرة : مجموعة صغيرة من خيام البدو ويقال لها أيضا قُرَيَّة . (المترجم)

آخرا فى شرقى نجد يعرف باسم العروض el-Aruth . وكل هذه الأماكن تشترك فى مغزى واحد هو "الاتساع" . والجزء العلوى من العويرض ، أى الجزء الذى يلى تبوك مباشرة ، يسميه (البدو الرحل الذين يقيمون فى المنطقة) ، باسم "حرَّة السِّدنين" es-Sŷdenyîn ، الذين هم جماعة معروفه لبنى عطية ؛ ونساء هذه الجماعة يضفرن خصلة الشعر الأمامية على شكل قرن يتدلى فوق الجبهة ، وتزينه ببعض حبات الخرز : ويتردد هنا أن هذه "الجماعة كانت واحدة من الجماعات التى تمت إلى البلّى بصلة قرابة ، وأن هذه الجماعه كانت من جبل سيد Seyd فى تهامة ، كما أن جبل سيد هذا لا يبعد كثيرا عن قرية الوجه ." – والناس هنا ينسبون بدايات أية سلالة نسبية ، أو قبلية أو أمة إلى جبل من الجبال ، بالرغم من أن مثل هذا الجبل قد يكون بعيدا جداً عنهم؛ – وعليه فإن القحطان، الذين يعدون من أنقى الدماء فى جنوب الجزيرة العربية ، يقال إنهم جاءوا من جبل من جبال عسير والقبيلة التى تقوم بغزو ديرة قبيلة أخرى ، تقوم بالاستيلاء على جبل من الجبال ؛ من هنا فإن اسم معقلهم الجبلى القديم ، لا يغفل موروثهم عن ذكره ، بالرغم من أنهم قد يكونوا أبعدوا عنه منذ زمن طويل . – وأرض حرة السدنيين الجبلية المنبسطة عبارة عن "سهل ، ووديان ، وفيها أيضا بعض التلال البركانية ."

الحرة الثالثة ، وهى توجد فى الوسط ، يسميها البدو ، الخُذيرة el- Khuthéra ، وهى أيضا فرع من بنى عطية . ووادى الرموذة Rumûtha الذى ينزل قادما من القسم الشمالى الغربى ، فيما بين تلال الشيبان Sheybàn والوترWitr ، يتجه صوب الشمال الشرقى ، وهو يفيض فى الداخل فى اتجاه تبوك ، حيث يقطع طريق الحج فى هذه المنطقة وبذلك يعتبر حداً من حدود ديار المواهيب ، ومشكلا بذلك أبعد أجزاء الحدود العنزية من ناحية الجنوب . ولعلنا نذكر ، وادى الخدار ، ذلك الوادى الرئيسى الذى ينزل هابطا من شرقى الجبل ، ثم يعبر طريق الحج من ناحية القلعة ؛ ومعروف أن طول المسافة من هذا الوادى ، والتى تمتد خلال رمال الصحراء ، تقدر بحوالى أربع رحْلاَت. والسَّبوت S'but ، الذين هم أيضًا فرع من بنى عطية ، يتجولون فى القسم الغربى فى الحرَّات الشمالية ؛ هؤلاء السبوت ، نكتشف عندهم استعمالا قديما ، ورد ذكره عند

والين Wallin (*)، الذى عندما كانوا يعبرون هذه الأجزاء ذات يوم ، قادمين إليها من المويليح Mueylih متجهين إلى حائل Háyil بماشيتهم ، ليعيدوها على صوت جرس عند المساء . قد يبدو مثل هذا العمل أمرا شاذًا فى الجزيرة العربية ، ولكن الشيء نفسه نجده أيضا عند فروع أخرى من المعازى Maazy والحويطات . والجاو Jau يقسمون الخذيرى Khúthery من ناحية حرة المواهيب الثالثة والأخيرة . والبدو يطلقون كلمة الجاو Jau (وجمعها جيان Jian) على الأرض التى توجد فيها مياه منخفضة ، ومعها أيضا آبار فى الصحراء ؛ وبناء على ذلك ، يجوز لنا القول بصورة عامة إن مصطلح الجيان إنما يطلق على آبار الأرض المنخفضة ، عند قبيلة من القبائل ، كما هو الحال فى جيان Jian البشر Bishr . أما الجاو العظيم فهو عبارة عن سهل أجوف ، يقع فيما بين الصخور الرمليه عند الصخور السفلى من الحرّة ، والتى تبرز أيضا على شكل رف من ناحية الشرق ، ومصب ذلك الجاو تقفله ، إلى حد ما ، بعض كتل الصخور الرملية. وطريق فرق الغزو ، يمتد خلال هذا السهل ؛ وبذلك يستطيع أولئك الغزاة تحاشى المرور الصعب خلال الحرةً للإبل التى لا تكون متجهة إلى منْزلها ، كما يقللون أيضا من تعَرُّفهم وكشف مستورهم . والطريق فى هذه المنطقة يقع بين الوجه وقرية تبوك ؛ وهذا الطريق يقدر طوله بحوالى سبع رحْلات، من رحْلات الإبل المحمّلة. والناس هنا متعارفون على أن ذلك الجاو يمثل ، بطبيعة الحال ، الحدود بين أهل قبلى Gibly وأهل الشّمال Es-Shemal ؛ أو إن شئت فقل: إن هذا الجاو يمثل الحدود الطبيعيه بين أعراب الشمال وأعراب الجنوب. أما الحرة الثالثة الجنوبية التى يتعين علينا تناولها هنا ، فهى عبارة عن غطاء هائل من المادة البركانية القديمة ، تتخلله أعداد كبيرة من قمم التلال البركانية، فوق جبل منبسط من الحجر الرملى. هذا ويزيد متوسط ارتفاع الفيضانات البركانية فى الأجزاء الشمالية التى قمت بزيارتها، عن ٥٠٠ قدم ، أما رأس عناز Anâz، التى تعد أكبر تلة من بين التلال، فيصل متوسط ارتفاعها إلى حوالى ٧٦٠٠ قدم .

(*) والين Wallin : جورج أغسطس والين ، رحالة فنلندى قام فى عام ١٨٤٨ برحلة إلى شمال الجزيرة العربية ، وف تلك الرحلة زار مدينة حائل على عهد عبد الله بن الرشيد الذى تولى الحكم فى عام ١٨٣٥ على جبل شمر من قبل الإمام فيصل بن تركى ، انظر Notes taken during a Jownly thraugh Part of Northern Aorabia, Royal Geograpli Cal Sociriy, XX, 1851. (المراجع)

ورأس وادى الحمض el-Humth ، على الجانب الغربى من الحرَّة ، تمثل السيل القادم من وادى Wady قريب Garib ؛ هذا الوادى يمتد من هنا ، من خلال كل من ثورّيد Thorreyd ، وسهل الحجر ، إلى قرية العلا ؛ ثم يمتد من العلا متجاوزا إياها ، إلى بئر الغرنم (الغنيم) el-Gharannem ، الذى يستقبل مياه السيل القادمة من وادى الصُّدْر es-Sodr : وهذا المجرى المائى الجاف يتصل به هنا الفرع الغربى من وادى جزّل الذى ينزل هابطا إلى تلك المنطقة قادما من الشفا Shéfa . والحرَّة التالية من سلسله حرَّات العويرض ، هى تلك الحرَّة الصغيرة التى ورد ذكرها مؤخرا تحت اسم الحريرى El-Hareyry ، التى هى أيضا عبارة عن أرض منبسطة من الحمم البركانية القديمة فوق جبل من الحجر الرملى ؛ وهناك بعض التلال البركانية فوق هذه الحرّة . وحرة الحريرى أعلى من الحرة الرئيسية ، وشكلها مستدير ؛ وهى تابعة لقبائل البلِّى .

ونحن نرى فى سلسلة الحرَّات هذه منظر الغنف البركانى القديم الذى عصف بذلك الجانب الحدودى من شبه الجزيرة العربية . ولقد تتبعت تلك الحرات حتى مدينة مكة ؛ وذلك خلال ما يقرب من سبع درجات من دوائر العرض . ووسط العويرض قد يصل إلى ما يقرب من مائة وعشرين ميلا بدءا من جانب البحر الأحمر القاحل الجدب؛ الذى شاهدت فيه شعابا مرجانية مرتفعة ، التى تعد وثائق لمستويات أرضية ومائية مختلفة كان لها وجود فى أزمان العالم القديم .

ونحن عندما نلقى نظرة على العويرض ، لم يكن سهلا علينا تمثل قصة تلك القسمات أو الملامح الطبيعية ! هذا هو جبل منبسط من الحجر الرملى ، تصل مساحته إلى حوالى ألفى ميل مربع عند الحافة ، وفيه الكثير من التدفقات البركانية العامة : كما نرى بعد ذلك ، حولنا حدودا خرابا من الصخور التحتية والإبر المكونة من صخر الحجر الرملى ، وقد هوت إلى السهول المنخفضة .- من هنا يبدو لنا أن الفيضانات البركانية ساعدت على المحافظة على الصخور الرملية الهشة الموجودة تحتها ، فى الوقت الذى تآكلت فيه منطقة الحجر الرملى القديمة وتحولت إلى يباب بفعل معظم التحللات البطيئة ، وعلى نحو يجعل هذه الكتلة من العويرض التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ستمائة قامة ، كما لو كانت جبلاً كبيرًا ، كانت أرضيته فى الزمن القديم هى عبارة عن سهول الحجر الرملى المنخفضة فى الوقت الراهن !

عندما استعرضنا كثافة تلك الفيضانات البركانية ، أمكن لنا تصور البداية الأولى لتلك الحرة ، – هذه الأنهار البازلتية المتراكمة فوق بعضها ، والتى تتجلى فى جدران بعض انكسارات هذا الوادى من وديان العويرض الجرداء القاحلة . وعندما وجدنا أن التلال البركانية هنا ليست أعظم من مثيلاتها فى أماكن أخرى ، توصلنا إلى افتراض مفاده أن الكثير من تلك التلال (كما هو الحال فى تلة مونت Monte نوفو Nuovo) إنما هى عبارة عن أنواع من الخبث والمسحوق الذى ينبعث مع فورة بركانية شديدة . يضاف إلى ذلك أن الحمم البركانية الفوقية هى أقدم بكثير من الشكل الذى عليه الأرض فى الوقت الحالى :– وأنا أندهش تماما في هذا البلد عديم الأمطار ، عندما ألقى نظرة على بازلت الحمم البركانية فى هذه الحرّة ؛ هذا البازلت مشقوق ، ومفتوح إلى عمق يصل إلى حوالى مائة قامة ليصل بذلك إلى بعض الوديان الأرضية ، كما هو الحال فى جبل تربة Thirba . كتل هذا البازلت متآكله على شكل أخاديد فى الأجزاء الضعيفة منها ، بفعل أى شىء يتحرك فوقها ؛ ولكن يا لهذا التآكل العظيم الذى حدث فى "أحجار الحديد" ، تلك الأحجار التى هى مادة يصعب تحطيمها أو قهرها ! ونحن نفهم من نقوش الصخور فى مدائن صالح ، أن سمك المسمار لا يمكن أن يضيع من وجه الحجر الرملى الناعم ، فى ظل مناخ مثل مناخ الجزيرة العربية ، وعلى امتداد ما يقرب من ألفى عام !

هذه هى الكتل العجينية كل واحدة منها مشروخة من البيئة المحيطة بها ؛ وهذا النوع من الشقوق أو الشروخ ، يفترض أن يكون مفتوحا فى إطار ذلك الحجر الرملى ، المحمَّل على رأس غازية من الحمم البركانية الكواكبية ، يضاف إلى ذلك ، أن هذه الشروخ عندما تنتفخ بفعل العنف الهائل ، فإن ذلك يحتم على الحمم البركانية التصرف على شكل شروخ طبيعية كثيرة ، كما يترتب على ذلك ارتفاع بعض هذه الشروخ والفلوق إلى أن تصل التربة عند سطح الأرض ، لتنساب خلالها على شكل اندفاعات من بخار الماء فائق الحرارة ، يكون محبوسا ومتمثلا فى شكل بحيرة أو بركة من الحجر المنصهر ، مكونا بذلك مع انبعاثات الحمم البركانية ذلك الاستعار البركانى الهائل . وفى العام ١٨٧٢ الميلادى كنت شاهداً على ثورة بركان فيزوف . Vesuvius وبينما كنت واقفا وحدى منذ طلوع الصبح على قمة جبل من الجبال ، فى ذلك اليوم

على وجه التحديد الذى ثار فيه البركان ، كانت قدماى تخوضان حتى ساقيهما فى مسحوق الكبريت ، المتراكم فوق تجويف مشتعل من الحمم البركانية : وفى وسط ذلك التجويف كانت توجد مدخنة على شكل ضرع ، تكونت منذ فترة قصيرة ، وكانت تفوح منها أنفاس حافرة أو قارضة؛ والتى ظهرت أثناء الليل ، لأولئك الذين كانوا فى السهل، كما لو كانت إشارة نارية تتساقط منها حمم بركانية . ومن أسفل هذه المدخنة كان هناك مركز جديد ضعيف من مراكز الفوران اليومية ، وكان ذلك المركز عبارة عن بركة من الحمم البركانية المنصهرة ، والتى كان يصدر عنها كل تلك الضوضاء والجلبة الشديدة من داخل الجبل ، وكانت تنبعث من تلك البركة ، بين الحين والآخر ، طائرة فى الهواء حشود من المقذوفات شبه المنصهرة . اقتربت من ذلك التخمر المخيف ، ورحت أراقب تلك البركة النارية التى كانت تصعد إلى الأعلى عند أجنابها وتفور من وسطها كما لو كانت عينا أو نبعا من المعدن ، – ولاحظت فى تلك البركة وجود غشاوة فى الهواء ، مثل تلك الغشاوة التى تطفو على سطح الحليب الساخن ، نوع من الزُّبد الطرى ، الذى لم يدم سوى لحظة واحدة ، ـ وفى الفورة الثانية ، وبانفجار مخيف ومرعب ، يشبه انفجار المدفع البخارى ، بسبب التكسير المخيف فى الريح الناتجة عن الأبخرة المكتومة ، المتصاعدة من النار الجهنمية الموجودة تحت السطح ؛ هذا الانفصال اندفع طائرا نحو الأعلى فى الهواء كما لو كان لوحا من الألواح ، محدثا دويا وهو يرتفع ، ثم انفصل ذلك اللوح متفتتا ؛ شاهدت ذلك اللوح وهو يصعد مندفعا إلى الخارج ومنقسما إلى عدد كبير من الشقفات الصغيرة والكبيرة . وتساقطت تلك الشقفات ، وهى تحدث حفيفا وصفيرا فى الهواء ، وتتساقط طرية بالرغم من ارتفاعها مسافة نصف ميل نحو الأعلى ؛ ويهوى القسم الأكبر من تلك الشقفات على شكل صخور كبيرة ، كان البعض منها عبارة عن قشور ضخمة تشبه أحجار الأعلام . كان جانب البركة يسيل منه ميزاب من الحمم البركانية .

فى فترة العصر ، ارتفع وزن المعدن المنصهر داخل بطن تل البركان (الذى هو عبارة عن جدار من المسحوق البركانى وعروق من حمم بركانية قديمة ، ويشبه حفرة مليس الجبس ولكن داخل وعاء من الرمل ،) ؛ هذا المعدن المنصهر بدأ يأكل ذلك الجدار ، ويتسرب عند منتصف ارتفاع ذلك التل ، خلال جوانب التل المتآكلة ، التى كان

ينبثق منها شلال من الحمم البركانية . وتساقطت فوق بعض الأشخاص التعساء الذين كانوا يقتربون مصادفة فى تلك اللحظة المخيفة من المكان ، زخة نارية من المسحوق البركانى ، أحرقت ملابسهم ، وكذلك أجسادهم إلى حد الوفاة ، إذ لم يبقوا على قيد الحياة بعد ذلك سوى ساعة واحدة . وهذا شاب خابت كل مساعيه وابتلعته وهو يتألم الحمم البركانية التى كانت تطارده ، تلك الحمم الذى كان تيارها كبيرا كبر تيارات نهر التيمز فى منطقه كوبرى Bridge لندن . ـ وهنا بدأت الحمم البركانية السفلى ترتفع بدورها خارجة من بطن البركان العميق ، والتى تحتبس فى داخلها عنفا توسعيا أشد وأقوى من عنف الحمم البركانية العليا ، وبذلك يكون الطريق إلى قمة الجبل قد أصبح مشتعلا الآن ، كما بدأ بالفعل دمار كبير فى أعلى الجبل .

قبل طلوع نهار الغد ، كان نفق الجبل هو وكأسه قد تحول إلى غلاية كبيرة من الحمم البركانية ، غلاية كبيرة بحجم مدينة كبيرة ، راح لهيبها المخيف يثير الرعب والاضطراب فى التربة على امتداد مسافة مسير نصف يوم من جميع النواحى والأجناب . وهذه هى المادة المعدنية السائلة العليا ، تختلط بالهواء ، وتتفرق على شكل حبيبات دقيقة تختلط بالبخار المندفع ، وهاهى تبرد فجأة متحولة إلى مسحوق يتساقط على الأرض ؛ وهذه هى سماء من البخار الذى يشبه المطر ، وسماء أيضا من الدخان الذى ينتشر على مساحة كبيرة فى الأعلى ، ويطوق هذه العاصفة البركانية العاتية ، هذه السماء مشحونة بشحنة كهربية أكبر بكثير من طاقتها ؛ والرعد الذى يصدر عن ذلك الذى يدور هنا ، يصعب تمييزه فى وجود هذا الطنين الهائل الصادر عن البركان . وهذا هو الهواء ، وعلى امتداد عدة أميال من حولنا ، وطوال أيام كثيرة ، ظل مليئا بالإشارات الخادعة ، والطنين المخيف الصادر عن هذا الجبل . وتهب مع الريح أمطار غبار الأعاصير على مساحة واسعة من البلاد ؛ وتتساقط بقايا الجمار المحترقة فى كل الدائرة المحيطة بالجبل ، كما يتساقط خبث الأشياء المحترقة بفعل أوزانها على جانبى البركان ومن حول فوهته ؛ ويكون بين هذا الخبث بعض من قطع الصخور الغريبة ، التى جاءت أصلا من الإطار التحتى للأرض (أى من عمق ٥٠٠٠ قدم) ، – هذه الصخور فى بركان فيزوف هى من الحجر الجيرى . والمنظر الذى يراه من ينظر إلى ذلك الفوران من سرج الجبل ، أثناء الليل ، عبارة عن لافحة متقدة على شكل حزمة

أرجوانية وحمراء اللون تنبعث إلى الأعلى بشكل مخيف ، محدثة دخانا أسودًا يخرج من الفجوة البركانية ، التى وصل اتساعها حاليا ، إلى نصف ميل تقريبا . وهذا هو الضوء المخيف لذلك الوهج الكوكبى يخفت قليلا بفعل ذلك القناع الكثيف من الغبار البركانى الذى يتساقط على المكان ؛ وهذا هو ظلام ، وغبار أسود بلغا من الكثافة حدًا لا نستطيع معه رؤية أيدينا ، أو الأرض من تحت أقدامنا ، وها نحن نتكئ على جدران تهتز، وهذا هو الجبل يخفق وبلا توقف من تحت أقدامنا: وعلى بعد مسافة ميل تقريبا ، ووسط استعار ذلك الصراع العناصرى ، لا يستطيع الإنسان سماع صوته أو حتى صوت جاره . – وتمر الأيام ، وتحتضر معها بصورة متدرجة تلك الانفعالات والفورات المنبعثة من جوف الأرض ، مؤذنة بانتهاء تلك الثورة البركانية .

بعد أن يتخلص الرحم البركانى من أحماله السطحية ، يتساقط عمود الحمم البركانية ، خلال التأرجحات الأخيرة ، فوق جنور التل المجوفة ، تظل تلك القوة النارية عند هذه الجذور تحت قشرة سميكة وتروح تبرد شيئا فشيئا . وهناك قد تتكون خلال جيل أو جيلين كتل كبيرة فى بعض القنوات أو المجارى التى لا يزيد عمقها على بضع قامات ؛ ونحن نقول بذلك ، من واقع الخبرة التى لدينا فى هذا الموضوع . وعندما تنقضى عصور كثيرة من الراحة ، يبدأ ذلك النفق البركانى فى الاندمال اندمالا محكما بالقرب من سطح الأرض . وفيما يتعلق بأى جيب من الجيوب المعدنية الأرضية المنصهرة، التى تكون على مستويات منخفضة، وعلى شكل بركة أو بحيرة فى الأسفل ، يجب ألا نفترض أن مثل هذا الجيب ينتج عن عملية التبريد لفترة زمنية طويلة تقاس بالسنين الفلكية ؛ كما يجب علينا أيضا أن لا نسلم أن التداخل بين المواد يتوقف عند القسم المنصهر فى جوف الأرض . والبركان عندما ينشط من جديد ، يجعلنا نتوقع تورم أو انتفاخ ذلك الرحم المعدنى المنصهر ، ليحدث شيئًا مثل ذلك الذى حدث فى الفورة الأولى ؛ – ولكن هذه الفورة الثانية ، قد تخمد بفعل بعض مياه البحر . وهنا يتعين على الصخر البازلتى أن يلين مرة أخرى عندما تزداد الحرارة البركانية ؛ وإذا لم تحدث تلك الليونة ، قد ينتفخ طريق مفاجئ عن طريق تمزيق قوة العناصر التى يصعب كبح جماحها فى المنطقة العليا . – ترى هل كلمة "Lava" الإنجليزية هى كلمة "لابا" Laba العربية ، ثم دخلت إلى لغاتنا الأوروبية عن الإيطالية المغربية

فى جزيرة صقلية(*) ؟ وصقلية هى ذلك المكان الذى عثر فيه المحتلون العرب على كثير من الأشياء التى يمكن أن يطلقوا عليها ذلك الاسم "لابا" Laba . واللابا عند أهل الجزيرة العربية (وهى تتمثل فى ذلك الجزء الذى أتناوله من الحرَّات الكبيرة – التى أعرفها حق المعرفة ، وهما حرة العويرض وحرة خيبر) لا تقتصر فقط على كل ما يمكن أن ندرجه تحت هذا الاسم ، ولكن ذلك الاسم يطلق أيضا على الكتل البازلتية ، كما يطلق أيضا على البازلت المسحوب ، وعلى البازلت الحاد ، فضلا عن إطلاق ذلك الاسم أيضا على سائر أنواع البازلت الزجاجى : هذا لا يعنى أن كل أنواع الخبث ، أو نفايات المعادن ، أو بقايا الفحم الحجرى ، أو الأحجار النارية يمكن أن تندرج تحت هذا الاسم .– هذا هو كل ما عندى عن هذه الديرة البركانية .

التقاء أفرع وادى جِزِّل Jizzl ، خلف جبل الحريرى ، ووادى الحمض es-Humth القادم من الجنوب ، وكذلك وادى العيص el-Iss مُوَقَّعَ على الخريطة ، بعد تلك الخريطة التى استلمتها أو أخذتها من الأعراب . ففى وادى العيص توجد ستين عينا (قد تكون ست أو أكثر) وحوالى مائة وثمانين (ثمانية عشر أو أكثر) بئر ، كما يوجد فى ذلك الوادى أيضا أنقاض قرى قديمة ونخيل الدَّوم . ونخيل الدَّوم ينمو هنا حول كثير من المناطق السكنية المهجورة فى ذلك القسم من الجزيرة العربية الذى لا يعرف الندى ، والذى تكون المياه الجوفية فيه قريبة من السطح ؛ كما هو الحال بالنسبة للورد البرى الجميل ، وكذلك نبات القرَّاص Nettle الربيعى فى الديار الشمالية . وفى وادى القرى Kora الذى تقع بدايته فى الحريرى ، توجد بعض أنقاض القرى ، التى هى أنقاض صلصالية يقولون عنها إنها لا قيمة لها . ووسط أنقاض هذا الموقع الصلصالى ، توجد قلعة ، أو إن شئت فقل معقل ، غير متقن البناء . والاسم وادى "القرى" يعنى ، على حد قول الأعراب ، "الوادى الوعر" أو إن شئت فقل : "الوادى غير المستو" ، الذى هو أمر شائع فى كل أنحاء البلاد . وهناك وادى قرى آخر فى اتجاه الجنوب ، توجد بدايته

(*) من المعروف أن العرب حكموا جزيرة صقلية واستوطنوا فيها ما يقرب من قرنين ونصف قرن ٨٢٧–١٠٩١ وكان لذلك أثر كبير فى إحداث تغييرات حضارية لم تقتصر على صقلية وحدها وإنما امتدت إلى الأقاليم المجاورة لها فى أوروبا كما انتقلت الكثير من المفردات العربية إلى العديد من اللغات الأوروبية . (المراجع)

فى حرة خيبر ، (وفيه أيضا مواقع أثرية ، وماء يخرج من الأرض ، ونخيل من نخيل الدوم) ، وهذا الوادى يلتقى بوادى الحمض العظيم بالقرب من منطقه سُجوة Sujwa . ووواديا تهامة : وادى العمودان Amudân ووادى الذرى Therry ينزلان من منطقة الجبل الرملى المجاور للحريرى، ويمران خلال جزء رملى عميق ، متجهين إلى وادى الحمض ؛ وهذان الواديان من ديار البركات Barakat (الذين هم فرع من البلّى) ومن ديار أعراب جهينة أيضا .

– مسألة دراسة البدو فى هذه الديار تعد فنا من الفنون ؛ ولقد تحملت الكثير من الآلام عن طيب خاطر ، على أمل أن تضيف حياتى التى ستنتهى ، شيئا قيما إلى الجغرافيا الأوروبية . ومعرفتنا بشبه الجزيرة العربية ، التى تصل مساحتها إلى مساحة الهند على وجه التقريب ، ما تزال معرفة قاصرة بشكل كبير ، عن معرفتنا بأى بلد آخر من بلاد الدنيا التى تستحق الزيارة . ومعروف أن التساؤلات التى من هذا القبيل تكتنفها مصاعب كثيرة ؛ وفضلا عن بلادة الأذهان بشكل عام ؛ فإن تلك القلة القليلة من الشيوخ ، الذين لديهم عقول أفضل ، ويمضون كل حياواتهم التى تقوم على الحاجة والعوز فى ظلال خيامهم ، هم الذين لديهم أقل القليل من هذه المعرفة الجيدة . والغالبية العظمى من هؤلاء الشيوخ يستخفون بالأسئلة التى تطرح عليهم ، وهم يظنون أن أسئلتك لا طائل منها ، ويحسبون أيضا أنك معجب ومتيم بما يقولون . صحيح أننا يمكن أن نحصل على إجاباتهم وردودهم الملتوية التى تقوم على اللف والدوران ، ولكن تلك الإجابات والردود تكون بشىء من التردد والقلق من هؤلاء الأشقياء المولودين فى الخلاء ، ويغارون على مياههم وديارهم التى يتجولون خلالها . عقلاؤهم الذين يمكن أن يقولوا ما يعنون بصدق ، يملكون عقولا لا أمل فى إصلاحها . ولم يصبها أى شىء من التنقية والتطهر على إثر المعرفة التى أصابتها ؛ هذا يعنى أن تلك العقول يصعب عليها الاحتفاظ حتى ولو بمقياس واحد عن الطول والعرض . والعقول التى من هذا القبيل تقول لك : اهدأ ووسّع صدرك – نظر لأنهم لن يزوّروا العلامات الأرضية – داخل ديارهم ؛ ولكن الأراضى التى تكون خارج نطاق ديارهم لا تدخل فى نطاق معرفتهم ، أو إن شئت فقل : تظل خارج نطاق معرفتهم . كنت أعجب فى بعض الأحيان عندما أرى كيف تختلف آراء أصحاب الربط والحل حول الديار المجاورة لهم ، بل إن من

بينهم الكثيرين الذين لا يعرفون شيئا ولكن إمعانا منهم فى إرضائك ، تراهم يروون لك أسطورة فى آخر الأمر ، وأنا قبل أن أدخل الجزيرة العربية ، كنت قد أمضيت بضعة أشهر مع بدو سيناء ، والبدو الذين يعيشون فى المنطقة الواقعة خلف الأردن ، ووجدت ذكر هذه الأماكن على ألسنة أهل الصحراء : وفى سنوات أخر كنت أنزل مع بعض الأسر السامية المختلطة من السوريين ، وعندما بدأت رحلتى من دمشق كنت قد تعلمت الكثير عن هؤلاء البدو . وعندما كنت مع الأعراب كنت أنصت جيداً للرجال المخلصين الذين كانوا من بين رفاقى ومعارفى . وفى كثير من الأحيان ، كنت أستخلص ، من خلال كلامى مع مختلف الأشخاص ، كثيرا من الإجابات والردود الصحيحة ، فضلا عن أنى كنت أستخلص ، من مجرد كلمة يقولونها لى بطريق المصادفة ، كثيرا من المعلومات عن العلامات والحدود الأرضية . كنت أركز انتباهى على ردود الغرباء ، وكنت أستعيد تلك الردود مرة ثانية عن طريق الأصدقاء ؛ كنت أكرر السؤال نفسه على الشخص نفسه أكثر من مرة ، وأتدبر الردود لأخرج منها بما هو دقيق وصائب ، وبالتالى أتحاشى الردود الأخرى كلها ، هذا يعنى أنى تحاشيت البناء على أشياء لا طائل من ورائها .

لم يكن الشيخ مطلق ، شيخ بدو الفجير ، الذى يراعى الحذر فى تسيير أمور قبيلته، لم يكن على استعداد لإعطائى شيئا عن الأرض فى هذه البلاد : ففى ذات يوم ، بينما كنت أسأل قبليا ، فى خيمة مطلق ، عن وادى العيص العظيم ، وبخاصة أن ذلك القبلى كان قد شارك فى الغزو الذى دار فى تلك الأجزاء من البلاد ؛ هنا وجدت مطلق يسأل هو نفسه قائلا : "خبرنى ، كم يبعد وادى عيص Iss عن قرية الحجر؟" وربما كان ذلك مثالا على جهل الشيوخ هم والبدو الرحل بالمناطق الداخلية ، وذلك فى الأمور التى لا تخصهم ولا تعنيهم . هذا الوادى العظيم ، أو إن شئت فقل : وادى العيص el- iss العظيم هذا ، الذى لم يكن بعيدا عنا ، كان فى أرض معادية تنتمى إلى الجهاينة ، الذين تفصلهم الجبال عن بدو الفجير . وأنا على يقين أنه ليس بين البدو أو القبليين أحد يمكن أن يقول لى أكثر من ذلك الذى استطعت تجميعه وتوقيعه على تلك الخارطة

المنشورة مع هذا الكتاب ؛ عن الأرض الصحراوية الواقعه فيما بين تبوك Tebûk وخيبر Kheybar . قبيلة الجهاينة القديمة، التى يمتدحها الناس ويقولون لها "اختيارين" Ikh-tiarîn ، نظرا لكرمهم الزائد ، يقول عنهم جيرانهم إنهم أيضا من المصلين ومن الصائمين كذلك إتباعًا لدينهم . وقبيلة جهينة تسكن ديرة وعرة جدًا ، وكما يقول العرب ، فإن قسمًا كبيرا من تلك الديرة جرانيتى الصخور . وأنا ، بنفسى أيضا ، شاهدت بعض الأصداف المتحجرة التى يسميها الناس هنا "ظفر Zófr مريام Miriam أم Umm السناكيت Sinnakit ؛ هذه الأصداف هى من الحجر الجيرى الذى فى هذه البلاد . يضاف إلى ذلك أن ابن الرشيد يرى أن مشروع غزو أولئك الجهاينة إنما يعد أمرًا صعبًا عليه .- والبدو الذين تعتمد حياواتهم الضعيفة على زخات المطر ، يتمتعون بفضول غريب فيما يتعلق بمراقبة الأرض ؛ هؤلاء الجهاينة لا يوجد بينهم بائس معدم ، يمكن أن يردك فى ديارهم سواء نزل أم لم ينزل الغيث من عند الله .

فى اليوم الخامس عشر من شهر يونيو وصلنا إلى أعلى نقطة مستوية من الحرَّة ، والتى تقع على بعد مسافة خمسة أميال شمالى عناز ، حيث سجل البارومتر ارتفاعا مقداره ٦٨٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر ، ولكن الظهيرة فى هذا المكان كانت شديدة الحرارة ، وكانت تنهال على الخيام المصنوعة من الصوف . وعند منتصف الليل هبت ريح عاتية إقتلعت خيمة حمدى الطويلة . هذه الليلة الصيفية القصيرة أمضيناها فى قلق واضطراب شديد ؛ فقد ضلت الإبل فيها طريقها ، كما هُصينا لنا أننا كنا نسمع أصواتا غريبه فى الحرَّة : كما أن ربا Rubba ، الراعى المريض ، استيقظ قبيل الصباح ، على إثر ألم ووجع مبرح ، وراح يتأوه بصوت عال وطويل ويجأر إلى حد أن أخيه ظن أنه كان يعانى سكرات الموت . سمعت ذلك الراعى المريض وهو يحول أنينه إلى ما يشبه الإنشاد إذ كان يقول : "يا ربى ! أنا أيست من حالى ، وأنت تكوبنى Tekúbbny" بمعنى "يا رب ! لقد يئست من حياتى ، فخذنى !" ثم راح ينتحب انتحابا شديدا ، كما لو كان يقيم شعائر جنازته الخاصة . ناديت ذلك الراعى المسكين وطلبت إليه أن يتمالك نفسه ، قدر المستطاع ، حتى يهئ لنا شيئا من الراحة ، نظرا لأن نباح الكلاب أيقظنا الليل بطوله. وعقب ذلك مباشرة راح شقيق ذلك الراعى يغنى غناءًا فجًا. وعندما لمته فى الصباح ، على ما فعل ، أخبرنى أن درجه حرارة ربا ، شقيقه ، كانت

قد بدأت تنخفض مما يعنى أنه أوشك على مفارقة الحياة .- سألته : "ولماذا كنت تغنى بتلك الطريقة الفجة ؟" - "حسن ، قال الرجل ، لقد فهمت ، أنت لا تعرف عاداتنا وتقاليدنا ، فنحن هنا نغنى للناس وهم يحتضرون ."

رحل الأعراب عن المكان مع شروق الشمس ، وبينما كنا نسير بالقرب من عناز شاهدت القمة وكأنها مشط من الحمم البركانية الوعرة . أنا الآن أرى الجبل من ثلاثة جوانب من حولى ، وهو عبارة عن مخروط كامل فى كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة. كانت كومة الغبار البركانى تبدو لى أكبر بكثير من مثيلتها فى بركان فيزوف فوق المرصد . ومن فوق أعلى نقطة منبسطة فوق الحرّة شاهدت منظرا عجيبا من فوق أرض بركانية منخفضة ، حيث نزلنا حاليا عن طريق أجناب تل فوهة البركان من ناحية والحمم البركانية الحارة من ناحية أخرى ، والحرّة عند أسفلها عبارة عن شرفة بركانية منخفضة : وهاهى الصخور الرملية حمراء اللون تطالعنا من جديد ، بارزة من تحت أنهار الحمم البركانية المتجمدة ، كما تنتشر فى هذه الصخور الرملية الحمراء قشور من الحمم البركانية المفككة . خيمنا فى تلك الديرة المريعة التى تقع على بعد ١٥٠٠ قدم أسفل المنزل الذى كنا نخيم فيه من قبل : كان الأعراب يبحثون عن بركة ماء ، يسمونها أبو Abu ثين Thain؛ وإذا ما وجدوا فيها ماءً فسوف يرتاحون أياما قلائل . وبعد أن يأتوا على ماء البركة كله ، فسوف يتخلون عن ارتفاع الحرة وينزلون طلبا للسقيا من تهامة ؛ أو قد يذهبون طلبًا للسقيا أيضا من مدائن صالح ، وقد تهيأت لى هنا فرصة العثور على أحجار الصوَّان ، هنا فيما بين الصخور البركانية والمشارف ، أو إن شئت فقل : الأراضى العالية التى تطل على الأراضى الأخرى ، كما عثرت على ذلك الحجر الصوان أيضا فى البُطَّين (التل المرتفع) ، الذى هو عبارة عن رف طباشيرى به بعض أصداف المحار ، ومحروق إلى أن أصبح أحمر اللون ، بفعل الحمم البركانية غير الكثيفة التى انسابت من فوقه ، الأمر الذى أدى إلى ذوبانه وتوزعه بين الصخور على شكل كتل كبيرة منزلقة قليلة العدد .

هنا ، فى هذه المنطقة ، طلب منى طُلُجٌ ، أن أُريه أشياء النصارى الغريبة : وفى عصر يوم من الأيام ، وبالرغم من كبر سن طُلُجٌ ، جاء وحده لزيارتى . وعندما نظر مليا من خلال تلسكوبى المزدوج قال متعجبا : "يا إلهى ! أهذه هجرة سليمة Sàlema ،

هناك عند نهاية المنْزَل ، هذه هى الهجرة تترائى أمامى وكأنها منضمة إلى البيت التالى لها !" – وعندما نظر خلال التلسكوب المزدوج وهو مقلوب ، ووجد أن الأشياء اختفت ، فى مسافة لا نهائية ، راح الرجل يتأمل ويقول : " شوف Shûf ، انظر ، يا طُلُجُّ !" وعندما كان طُلُجٌّ يعبث بكتاب الطب الذى كان معى ، وراح يقلب صفحاته ناظرا إلى الصور ، ومستخدما فى ذلك أصابعه الوقحة التى لا تعرف واحدًا من أحرف الكتابة قلت له: "هل أكتب لك اسمك ؟ – انظر هنا ، هذا هو اسمك "طُلُجُّ Tollog.– " يا خليل ، قالها طُلُج وهو يتراجع خوفا بصورة مفاجئة ، أرجوك أن لا تكتب اسمى !" وعندما شاهدت التغير الذى طرأ على وجهه قطعت الورقة إلى قطع صغيرة ، ودفنت تلك القطع الصغيرة تحت أحجار الحرَّة ، مما جعله يشعرْ بالارتياح من جديد .

بعد ذلك مرض الشيخ المسن مرضا شديدا ؛ ولم تحضر أية واحدة من زوجاته المحبات له لاستدعاء الحكيم ،– وهذا أمر يندر وجوده عندما يكون الرجل متزوجا من أكثر من واحدة ، وعندما تكون تلك الزوجات وقتيات ، – ولكن أخته المسنة كانت تبكى . كان طُلُج Tollog يرقد مستلقيا تحت مظلة ، نصبتها زوجاته له بين أدغال أشجار الوزَّال العالية التى تنمو فى مجرى السيل ، أو إن شئت فقل "الشِّعب" es-Shaeb : شرب طُلُج بالأمس طاسة من المريسى ، الدافئ ، وازداد حاله سوءًا . أعطيته بعض نقط من زيت الكروتون Croton ، كما أعطيته جرعة أخرى من الزيت نفسه فى المساء ؛ وفى اليوم التالى تحسن حال الرجل ، وراح يتكلم وهو فى المجلس ، متفاخرا بالعلاج الفعال الذى أعطاه خليل إياه. وبناء على ذلك ، تردد علىَّ كل أهل.هذا الرجل ، من أجل "تطهيرهم مثلما حدث مع طُلُجٌّ ؛" كان الجميع يظنون أننى سوف أقدم لهم العون والمساعدة بلا مقابل كبير فيما يتعلق بغالبية أمراضهم؛ يضاف إلى ذلك، أن الدواء كان يروق لهم تماما ، لأنهم كانوا يتسلمون ذلك الدواء (مشوبا بالحلاوة والدسامة) على قطعه من السكر ، وفى مقابل ذلك كانت ربات البيوت يحضرن إلى حفنًا من الأرز ومن المريسى أيضا . وفيما يتعلق بطُلُجٌّ ، فقد كان رجلا أبويا بحق ، كما أنه كان يحسن معاملتى فى كل الظروف؛ وعندما كان يقدم عشاءًا لضيف من الضيوف فى خيمته، كان يرسل فى طلب الغريب ليشارك ضيف الله الطعام؛ وكان أرباب البيوت، أو إن شئت فقل غالبيتهم يفعلون الشىء نفسه، عندما يقوم أحدهم بذبح ذبيحة إكراما لضيف من الضيوف.

هذه القلة القليلة من الناس الذين يعيشون فى التلال، لم يتخلوا عن الكرم القديم ، تمتدحهم القبائل كما رأينا : ومع ذلك ، كانت هناك حكاية غريبة تتردد فى خيام هؤلاء الناس . "حدث أن بلوًيا Belùwy أو إن شئت فقل : رجلا من رجال قبيلة البلّى Billi ، كان يعبر الحرَّة ؛ وعند غروب الشمس ، وفى المنطقة ، أو المكان ، الذى توقف فيه لقضاء الليل، ظهر له جمل غريب الشكل، ومدَّ الجمل عنقه فوق الرجل وراح ينطق بكلام مثل كلام البشر : "هذا الموتان(*) والجفاف الشديد الذى أصبح يداهمنا مرات كثيرة ، هو والجراد ، وبشكل لم يسبق له مثيل ، ويفاجئنا كل عام ، ومع ذلك فأنت لا تعرف سببا لذلك :- لماذا ارتد البدو عن عادات وتقاليد أجدادهم وآبائهم ؟ أنتم تجعلون عابر السبيل يعانى عندما يمر ببيوتكم؛ كما أن الجائع يمر عليكم دون أن تسدوا رمقه !" راح العرب يتكلمون عن الشيخ زرافات وجماعات فى خيامهم وفى المجالس ، وهكذا أصبحت هذه الحكاية أمرا شائعا فى سائر أنحاء الديرة . سألنى بعضهم ،- باعتبارى من أهل الكتاب ،- "عن رأيى فى هذا الأمر ؟" كل الناس يعرفون ذلك الرجل الذى رأى ذلك الشيخ على أنه "رجل فاهم وواسع المدارك ."

والموهاهيب ، بحكم معيشتهم فى ديرة أمنه يصعب النفاذ إليها ، يربون الأغنام والإبل ، ومع ذلك فإن أكبر قطيع من قطعان هؤلاء البشر لا يزيد على مائة رأس من الغنم والإبل . وأغنام البدو الرحل ليست كلها من نوع واحد فى الجزيرة العربية ؛ فهناك أغنام الأراضى المرتفعة فى نجد ، كما أن هناك نوع صغير آخر (يشبه أغنام ويلز فى بلادنا) ، يعيش فى الديرة المتاخمة لحدود مكة . والأغنام العظيمة لها هيكل عظمى هزيل ، ووجه هذه الأغنام معقوف ، وفراؤها خشنة ومشعرة ؛ لحم هذا النوع من الأغنام طرى وخشبى المظهر والتكوين ، - ومع ذلك ، فذلك اللحم دافئ وتدب فيه الحياة، عندما يلقونه فى وعائهم البدوى . زد على ذلك ، أن الحرَّة مرتعا سخيا للذئاب ، التى طالما أزعجتنا أصواتها التى كانت تصدرها فى الليالى غير القمرية . وهذه هى كلاب البلّى طويلة الأذيال ، تقف فى مكانها ، بعد غروب الشمس وعقب اختفاء ضوء النهار ، لتذهب بعيدا إلى مكان فيما وراء موقد النار ، أو إن شئت فقل : مكان خلف

(*) مَوْتَان : بفتح الميم ، وتسكين الواو ، هو "وباء المواشى" . (المترجم)

نار الوجار . كلاب الحراسة تجوب المكان هنا وهناك فيما بين الذئب اللص والقطيع ، وتروح تنبح بين الحين والآخر نباحا مخيفا ، وإذا ما اقترب الذئب من القطيع ، تتراجع أغنام القطيع متدافعة إلى جوار بعضها البعض ؛- وهنا يزداد خوف وهلع الراعى ، وينهض واقفا على قدميه ، ويحسب أن صياحه يمكن أن يعيد الحال إلى ما كان عليه . وهنا يروح البدو الملتفون حول وجار القهوة يحملقون خلال الظلام الكثيف ؛ ويتناول الراعى عكازه ، ويتقدم نحو الأمام وهو يلقى بعض الأحجار ، مناديا على كلابه ومحمسا إياها ، فتعود إليه ثانية وهى غاضبة ، وهنا ينتشر نباح الكلاب فى كل أنحاء المخيم . وهذه الجمال والإبل المسالمة باركة تجتر طعامها طوال الليل الطويل ، هذه الإبل لا تلقى بالا إلى كل ما يدور من حولها ، وإذا ما حدث أن وقف أحد الجمال بفعل الخوف ، رآه الجالسون فى الضوء الصادر عن النار ، وهو يقف على ثلاثة أرجل نظرًا لأن الرجل الرابعة تكون مربوطة عند الركبة وتجعله يسقط إلى الأرض مرة ثانية . ولكن عندما نرى الأرجل الرمادية تجرى ، فهناك احتمال كبير أن يكون الذئب قد أمسك بحمل صغير (بالرغم من أن رءوس تلك الحملان تكون مربوطة بعقدة فى حبل على الأرض) ، وهنا يتناهى إلينا قادما من الظلام ، صوت احتضار الحمل أو التيس المسكين ، وهو بين فكى الذئب المفترس . وعلى هذه الوتيرة كانت القطعان الكبيرة ،- التى تكون أكثر تعرضا هى الأخرى - تخسر بعضا من صغارها ، فى كل ليلة من الليالى غير القمرية ، فى كل المنازل التى كنا نقيم فيها فى سائر أرجاء الحرّة . والأعراب يتحملون كل هذه الخسائر بصبر دينى . حمدية ، ربة بيتنا ، فقدت ستة حملان فى ست ليالى مظلمة ، وفى كل مرة كانت تقول : "الذيب eth-thib (الذئب) خطفها ، آه من ذلك اللعين !"

كلاب المواهيب وبخاصة الرعاة ، تظل تنبح حتى منتصف الليل ، إلى أن يأوى البدو إلى فراشهم طلبا للراحة ، ويستمر ذلك النباح إلى أن يطلع نور الصباح ، وعنده تكون حلوق تلك الكلاب قد تعبت وكلت ، وهنا قد تتوقف عن النباح . كلاب البدو هذه يضعف بصرها أثناء النهار ، وتكون مكدودة ومرهقة بسبب الحراسة الطويلة المضنية ، بل إن صوتها يكاد يكون ضائعا خلال فترة النهار . والبدو يندر أن يطلقوا أسماء على كلابهم أو ينادونها بتلك الأسماء ؛ ومع ذلك ، تعرف هذه الكلاب أسماءها ، وهى غالبا

ما تكون أسماء طريفة ، وهى من قبيل الأسماء التى يطلقها البدو على البشر الفانين . من هذه الأسماء ، على سبيل المثال ، "أم ذيل" Ummthail و "أبو سنَّان" Abusinnan . أسماء الكلاب تظهر أيضا فى أسماء بعض القبائل وفى سلالات الأعراب المختلفة ، كما هو الحال فى العدوان Aduàn ، الذين هم فخذ من المعازى Maazy فى الحسمة Hisma فوق عقبة المسرى el-Missry ، وفى الشعلان Shalán ، ذلك الفرع من القبيلة (الذى سمى على اسم عائلة شيخ الفرع) ، وهم من العنوز الشماليين ، ومن هذه الأسماء أيضا "ابن سمرى" IbnSimry الذين هم فرع من الحطيم Heteym (وقد أطلق هذا الاسم تيمنا باسم عائلة الشيخ أيضا) بالقرب من خيبر . من بين الأسماء الأخرى التى تطلق على الكلاب : "السَّوَّان" Sowwan (وأم "سُوَّة" Sowwa)، والنظَّان Nuzzan (وأم نُظَّة Nuzza)، والموشى Mushy ، ورشدان Rushdan ، ودُجمان Dogman ، وأميرة Ammera ، وأويش Oweyish ، والطُّرَّاف Tun'fa ، والحفيرة El-háfera ، والنمران Nimrân ، والحجيلان Hajjilan عديلَّة Adilla ، والهوديبان Huddeban ، وعجيلان Ajilan ، والتوجه Tôga ، والزوجمان Zuggiman ، والدوبلان Dubbilân ، والسحران Seheran ، والهوامة Hówama ، والسمران Simrân ، والبوجان Buggan ، وعايدة ، Aida ، والواجة Waga ، والودّة Wadda ، والفجوان Fejjuan ، وعودة Auda ، والخوزاين Khuzayn .

بعد طلوع الشمس بنصف ساعة ، يحمل الراعى عباءته على كتفه ، وينادى على القطيع ، ويمضى قدما ؛ وهنا ينهض أفراد القطيع متكئين على ركبهم ، ويسيروا خلف الراعى إلى منطقه المرعى : – والكلاب لا تتبع الغنم . والماعز هى والأغنام ترعى مع راعيها الذى يتجول بها هنا وهناك إلى أن تحين فترة القيَّالة ؛ وعندها يستدعى الراعى القطيع المبعثر ؛ وإذا لم يكن اليوم موافقا ليوم السقيا ، فإن الراعى يقتاد القطيع إلى ظلال الصخور ، أو إلى بعض الأشواك الصحراوية ؛ وعندها يحلب الراعى عنزة ليفطر على لبنها . والغنم تضم رءوسها بعضها إلى بعض ، فى فترة اشتداد الحر ، أما الماعز فهى تحرس نفسها بنفسها ، أما الراعى فيفرد طوله الفارع على الأرض لينام نومة القيلولة ، إلى ما قبل العصر ، وعندها ينهض الراعى من نومه ، ليقود القطيع إلى المرعى من جديد ، لحين غروب الشمس ، وعندها ينادى الراعى مرة ثانية على قطيعه

لتجميعه ، وهنا يتبع القطيع راعيه إلى خيام الأعراب . وفى تلك الخيام تقع الماعز والنعاج التى امتلأت ضروعها بالحليب ، فى أيدى ربة المنزل المسئولة ، لتقوم بحلبها على وجه السرعة ؛ وكثير من تلك الماعز والنعاج تعجل بالدخول إلى الخيمة البدوية وترقد على أرضها . أما فيما يتعلق بالراعى الذى ليس لديه ما يأكله فليس أمامه من شىء سوى الضروع ، وهو راض عن هذا الروتين الحياتى اليومى : من هنا ، وبالرغم من أن هذا الراعى قد يمشى حافيا طول اليوم . تحت الشمس المحرقة ، إلا أنه هو أكثر الناس سماحة فى حياة الصحراء . والجسم البشرى الذى يتغذى بالحليب ، فى ضوء وحرارة الشمس الجافة ، يكون نحيفا ، ومليئا بالنخاع ، وله قدره كبيرة على التحمل ، ولكن فيما بين التفاخر بالفقر وصلافة البدو ليس هناك من يرضى أن يكون راعيا ، وإن فعل ذلك فهو من باب الضرورة القصوى . والرعاة ينامون أثناء النهار ، وبخاصة فى ساعات الحر الشديد ، وبطونهم خاوية ، فى ظلال الخيام ، ويظلوا يعانون آلام الجوع إلى أن تعود الماشية إلى المنازل فى المساء . ولكن الراعى قد يغنى فى الصحراء ، لأن مغامرته خفيفة ومحدودة ، وإذا ما سرق منه القطيع فهو ليس له فيه سوى قلة قليلة من الماعز والنعاج . ورعايته تنصب على حيوانات أناس آخرين ، الذين يثيرون الملل طوال النهار فى البيوت التى تخلو من البشر والسرور ، وعندما يجىء الليل قد لا يحصل على قسط من الراحة مطلقا : ومع ذلك فهو سعيد بجولاته اليومية من خلال عمله الذى يقوم به على أحسن وجه ، فى هواء الصحراء النقى الجميل .

غنم البدو الرحل تشرب يوما بعد يوم ، ومع ذلك فإن الرعاة من البدو ، قد لا يصلون بحكم اتساع ديارهم ، فى كل الأحيان ، إلى مكان السقيا على وجه السرعة . وهنا يرسل الراعى ، على وجه السرعة ، فى طلب إحضار الماء على ظهور الحمير . والحمار لا يتعرق ، ولا يرقى إلى مرتبة الجمل فى كونه حيوان من حيوانات الخلاء ، أو إن شئت فقل الصحراء . ومع ذلك ، هناك الحمار الوحشى الذى يعيش فى الشمال الشرقى ، أى فى المنطقة القريبة من أنهار الصحراء السورية . والبدو يطلقون اسما محددا على كل رأس من رءوس الماشية ، وفى كل قطيع مختلط ، إذا ما نادى الراعى ، الذى تعرف الحيونات صوته ، "على اسم من تلك الأسماء تراه يرفع رأسه إلى أعلى ." جلسنا ذات مساء بجوار وجار حمدى Hamdy وربا Rubba، ذلك الراعى

المريض ، وراحا يحدثانى عن أسماء الغنم والماعز ، التى كانت تقف بالقرب منا ، أو راقدة تجتر طعامها من حولنا . والقطعان عندما تذهب للشرب ، تراها تنفصل عن بعضها ؛ "والراعى عندما يقتاد تلك القطعان بعد الشرب ينادى كل قطيع باسمه ." كان الراعى ربا Rubba رجلا طيبا بسيطا بالرغم من أنه لم يشكر حكيمه فى مرة من المرات . وقبل ذلك بثمانية عشر شهرًا ، وعندما كان يقوم بغزو ضد بدو الشرارات ، أصيب "بستوة" Stowh، أو إن شئت فقل : بجرح نتج عن ضربة سيف ، فى عجيزته : والتأم جرح ذلك التعيس التئامًا سيئا، وراح يؤلمه من الداخل ؛ ورقد طول النهار يتأوه ، وجعلته يتمتع براحة الليل عن طريق المسكنات ؛ ونظرا لأن ربا كان رجلا محطما ، فلربما يموت بسبب معاناته . لقد هجرته زوجته منذ مدة طويلة ، ولذلك تحول إلى مسكين داخل خيمة محمد العظيمة : هذا يعنى أن كل رفاقه كانوا بصحبة الماشية الصغيرة . كان ربا ، يعرف كل تفاصيل حياة كل واحد من أفراد ذلك القطيع ، بدءا من الفطام : كان ربا يقول : إن أفراد القطيع ، بالنسبة له تعد قطعا من جسده ؛ وأنه كان يحزن عندما يذبح فرد من أفراد قطيعه ؛ وأنه كان يأكل من لحم الذبيحة "بحكم الضرورة وليس عن طيب خاطر ."

نعاج هذا الجزء المرتفع من البلاد تصوم مرة واحدة كل عام، ولا تلد توائم مطلقا، والماعز قد تبرز فى بعض الأحيا، وهذا البروز يكون لكل ماشية الأعراب ، وغالبا ما يكون فى فصل الربيع ومراعيه . والعرب يطلقون على الحمل الذكر اسم "خروف" Kharûf، الذى يسميه أهل نجد "طلى" Tully وجمعه "طليان" Tullian؛ ويطلقون على الأنثى اسم "روخال" Rókhal (وهو راشيل Rachel فى الإنجيل) وجمعه "رُخلٌ" Rokhàl؛ وهذا الاسم يمكن أن يطلق أيضا على صغار إناث الماعز والنياق . سبق أن عرفنا أن وباء الماشية ، أو إن شئت فقل : الموتان ، قضى على قطعان الفجير : وهم يقولون لى : إن الغنم لا تربو أو تزدهر أو تزيد فى ديارهم ، والسبب فى ذلك هو الرمل الحاد الذى تأكله تلك القطعان مع الأعشاب الهزيلة التى تقتات بها ، ولقد شاهدت بنفسى ذلك الذى يقول عنه البدو نعجة "مصابة بالرمل" ، والتى وقفت بلا حراك طوال اليوم شأنها شأن الدواجن عندما يصيبها التوعك والكآبة ، وهنا سرعان ما تعمل الطبيعة عملها وتموت تلك المخلوقات . فى ذلك الوقت كان الموهاميب فى جاو Jau ، التى مات

فيها هى الأخرى عدد كبير من مواشيهم ، نتيجه للآلام والأورام ، يظن البدو الرحل أنه كان هناك مرض خبيث فى العشب فى ذلك العام ، وأنه لم يؤدى فقط إلى نفوق دبوشهم (*) وإنما شاهدوا الجراد أيضا ميتا على شكل أكوام كبيره تحت الأدغال ، كما شاهدوا أيضا جثث اثنين أو ثلاث من النعام نافقه فى الصحراء ، فضلا عن نفوق الكثير من الأرانب البرية . وهم يقولون أيضا : إن الإبل تأثرت بذلك المرض الخبيث ولكن أمكن تطهيرها وشفاؤها باستعمال جرعه من الزُّبد ، كما قالوا أيضا إنهم لم يخسروا من الإبل سوى اثنين فقط . وقالول : إنهم كانوا يعالجون الماشية الصغيره باستعمال الحليب ، ولكن لم يتبقى من تلك الماشية الصغيرة سوى فرد واحد من بين كل عشرة أفراد مرضى . كانت بطون المواشى تنتفخ عند النفوق . – ولقد شاهدت وعرفت بنفسى أن أعداد كبيرة من الأرانب البرية نفقت بداء من هذا القبيل فى وادى (نيوميدال) أحد الوديان الأسكندنافية ، فى عام من الأعوام .

ربات البيوت البدويات يبعن أصوافهن فى بلاد الحدود ؛ ولكن هذه الأصواف قليلة القيمة ، وبخاصة ذلك الصوف الذى يشحن من سوريا إلى أوروبا ولا يستخدم إلا فى صناعة البسط والسجاجيد ، والأغطية الصوفية الخشنة . هذه النساء البدويات أبدين اعجابهن بلباس صوفى كنت أرتديه : "إنه حرير (ردَّدْن هذه العبارة فيما بينهن ، وهن يتحسسن ذلك اللباس الصوفى) ، إنه ليس صوف " وعرب الجنوب الفقراء ليس لديهم سوى القليل جداً من هذا الصوف الخشن ، الأمر الذى يحرمهم من بيع أى شىء منه ، نظرا لعدم وصول أى من تجار ديار الحدود لشراء الصوف ؛ والنساء يحتفظن بما لديهن من صوف لتقمن بغزله، واستعمال خيوطه فى نسج قماش الخيام الصوفية ، ولكنهن يبتعن تلك الخيوط فيما بينهن ، فى بعض الأحيان . والأعراب عندما يجزّون أصواف أغنامهم ، لا يراعون فى ذلك موعداً محدداً ، وهذا ينسحب أيضا على شعر الماعز : هذا يعنى أن ربة البيت عندما تجد أن نعجة أو خروفا قد طال صوفه ، فإنها تطلب من الراعى الإمساك به ، فى حين تقوم هى باستخدام شفرة ثلمة ، وتقوم بقطع كل ما تصل يديها إليه من الصوف بطريقة همجية غير منظمة ؛ وبعد أن يضيع منها

(*) الدبوش : الحيوانات والماشية كبيرة السن . (المترجم)

ثلث صوف الخروف ، تطلقه ليعود إلى حيث كان بين القطيع . والبدو يتركون الصوف الناعم متعلق حول أعناق الإبل وحول أردافها إلى أن يتساقط من تلقاء نفسه ، وعند هذه المرحلة فقط تستطيع ربة البيت أخذ ذلك القليل ، الذى يمكن لها أن تندفه مستخدمة فى ذلك إصبع الإبهام والسبابة . وتقوم ربات البيوت بخلط شعر الماعز وأصواف الأغنام ووبر الجمال ، تمهيدا لقيامهن بغزله ، وكل ما تفعله ربة البيت هو فرز الألوان ليس إلا ، واللونان السائدان هما اللون البنى لوبر الجمال ، واللون الأبيض من صوف الغنم ، والنساجات البدويات ينسجن أحزمة بيضاء على أرضيات الخيام المصنوعة من الصوف الأسود كما يستعملن الصوف الأبيض فى تزيين حواف الصوف الأسود .

الماعز هنا تشكل أغلبية قطعان البدو المختلطة ، وهذا هو حال الغنم فى نجد : والبدو هنا يعيشون على حليب الماعز ، ورائحة الماعز هنا ليست زنخة . ويحدث فى بعض الأحيان، أن الماعز التى تشتتها الذئاب، أو التى يتخلى الغزاة عنها أثناء الهروب، تذهب وتتجول فى الصحراء لتكبر فى الصحراء وتتحول إلى ماعز برية ، وهنا يتحتم على الأعراب الاقتراب من تلك الحيوانات كما لو كانت ماعز برية . سألت البدو عن سبب عدم استئناسهم البدون الصغار (البقر البرى) ؟ وطالما أن البقر البرى المتوحش أشد قوة وأطيب لحما ، يمكنهم تهجين ذلك الماعز البرى مع ماعزهم وإنتاج سلالة محسنة . أجابونى : "سيكون ذلك مضيعة للجهد ، نظرا لأن البدون (البقر البرى) لا يمكن استئناسه ، نظرا لأن برية ذلك البقر تظل متأصلة فيه ." شاهدت فى كثير من الأحيان حيوانات الغزال بصحبة قطعان البدو ؛ وبشكل عام يجرى ربط ذلك الحيوان الغريب من رجله إلى ساق عنزة من ماعز الحليب ؛ شاهدت الغزال موضوعًا أيضا فى خيمة حليب الإبل : كان البدوى يرفع الحيوان الصغير بين يديه ، ليجعله يرضع فى بز واحد من ضرع الناقة. والأعراب ينادون على حيواناتهم بنداءات مختلفة، إذا ما أرادوا لها الغدو أو الرواح أو الوقوف . ويحق لنا القول هنا إن هناك كلام مشترك واحد بين البدو هنا ، فيما يتعلق بالماشية ، ومع ذلك ليس هناك ما يختلف اختلافا كبيرا ، فى هذا الصدد ، بين القبائل البدوية .

انتهى الآن موسم الحليب الجميل ، بما فى ذلك المناطق المرتفعة البَرَاد من الحرّة. فى شهور موسم الحليب الجميلة ، يصب اللبن الحامض من السميلى (القربة) لكل من يدخل بيتا من بيوت الأصدقاء :- واللبن الحامض "نعمة من الله" . وأعظم شىء بين الأعراب هو أن يصف الناس حياة أى إنسان منهم بأنها حياة إنسان "كريم" ؛ وبالتالى فإن أخس الأسماء عندهم هو "بخيل" . وأوعية الحليب عبارة عن طاسات من الخشب ؛ والبعض الجيد ، من تلك الطاسات ، يأتى به البدو من سوق الحج ؛ بعض آخر من تلك الطاسات يكون مربع الشكل ، ويقوم حدادو الصحراء بنحت تلك الطاسات بطريقة فجة. قلة قليلة جداً من الشيوخ هى التى لديها طاسات مصنوعة من النحاس الأحمر المطلى بالقصدير . هذه الأوعية لها أسماء كثيرة عند العرب مثل ، الجديهة Jiddÿha والمهاليب Mahallib والحلوية Helwia ، الزُّلفة Zilfa والحنابة Hanába . الجزيرة العربية مخلخلة من حيث الماشية . وربما كان هناك سبب يدعو إلى الاندهاش عندما نعلم أن الماشية البدوية لا تتزايد أعدادها فى الخلاء ، أو إن شئت فقل الصحراء ! - ولكن أصحاب هذه الماشية والماشية نفسها يزدهر حالهم فترة طويلة من الزمن . التربة هنا ليست حاضنة بسبب ضرب أشعة الشمس لها والجفاف الذى ينتج عن ذلك ، وهذا الجفاف بحد ذاته ينهى الحياة بكل صورها : زد على ذلك أن الطواعين المهلكة تداهم مكة كل جيل من الزمن ؛ والبدو يمضون حياتهم راكبين وقائمين بالغزو ، ومن المؤكد أن الكثيرين منهم يموتون بسبب ذلك الغزو ؛ والسنوات التى تقل فيها الأمطار ، تخلو من الربيع ؛ هذا يعنى أيضا أن ماشية هؤلاء البدو تضيع على امتداد السنين ، بفعل الغزو ؛ إنها "أرض تأكل السكان الذين يعيشون فوقها ."

فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يونيو غادر الأعراب ذلك الجزء المنبسط المنخفض من الحرَّة : هذا يعنى أن آخر البرك جرى الإتيان على كل مائها، وهنا يتعين على البدو النزول من الحرة إلى السهول طلبا للماء . سرنا أثناء نزولنا خلال خلاء (صحراء) من القمم والتلال البركانية ، فوق أرض من الحمم البركانية ، عبر وديان ضحلة من ديار منخفضة محروقة . وفى منتصف الرِّحلة ظهرت لنا مجموعة من الرجال الذين كانوا يقفون فوق سلسلة الجبال البركانية . تساءلت : "من يكون هؤلاء ؟" الإجابة "جيش Jaysh ! أى أعداء ، وماذا نحن فاعلين الآن ؟" - هم هنا لإعطاء إنذار زائف :

رأيت الأعراب وهم يمرون بهدوء ، ومسلحين تسليحا سريا جيداً ، سمعتهم دون أن أبالى ، – ألا يمكن أن يحدث لنا جميعا شيء واحد ؟ "قالوا : اسمع وانتبه يا أنت ، انظروا كيف يستمد ثقته من كتبه !" ما رأيك يا أنت أليس "الجيش" هو ما تسموه أنتم Army ؟" – "لا – يا خليل ، هذا هو كلام مدينتك . البدو يطلقون كلمة "جيش" على النياق وراكبيها الذين يشتركون فى العمليات الحربية ." هؤلاء الذين رأيناهم كانوا بعض رجال قبيلتنا ، لقد سبقونا قبل يومين ، وراحوا يصيدون البدون .

قبل دخول الظهر كنا قد وصلنا إلى حافة رأس الوادى التى يسمونها قريب Garib؛ ومنطقة القريب هذه هى التى تمثل حافة الحرّة . وادى القريب هذا عبارة عن تصدع شديد فى حدود ذلك الجبل المكون من الحجر الرملى ، وهو ينفتح من أمامنا مثل منخفض من المنخفضات ، رحت أتعجب كيف سنستطيع الهبوط إليه ونحن على ظهور الإبل . وعند الحافة ، التى نزل الجميع عندها من فوق دوابهم ، شاهدت رجمين ، أو إن شئت فقل : تلين من الحجارة ، وربما كان لهذين الرجمين علاقة بالوفاة أو الموت (نظراً لأن القدماء كانوا يضعون مثل هذه الرجوم فى المواقع المهمة) ، أو ربما كانا موضوعين هنا ليكونا علامتين إرشاديتين .

نزل الرجال والماشية بحذر وانتباه هبوطا من فوق تلك الأماكن الوعرة المنحدرة ؛ وهذه هى إبل الحرة المتمرسة تحافظ على نفسها أثناء النزول بصعوبة بالغة ، أثناء سيرها بين تلك الأحجار المتدخرجة ، هذا المنزل ، يقول البدو عنه ، إنه لم يكن بهذه الوعورة من قبل ، ولكن "نجما هوى منذ أربع سنوات " وأسفر عن هذا الطريق الوعر بعد أن طمس معالم الطريق القديم" ، وهذه هى مقدمة جسم الجبل المكون من الحجر الرملى تظهر من أمامنا . ومن فوق هذه الجبهة، أو المقدمة أرى الحافة المنحدرة للحرة ، ومن حولها كورنيش طويل من الحمم البركانية السوداء التى تشبه فى لونها لون الفحم، والتى تساقط البعض منها فى الصخر الرسوبى الرخو وبين الصخور البازلتية . ونحن قد نقرأ هنا فى لحظة من اللحظات الطبيعية أن هذا الوادى المتصدع ، هو أحدث من تلك الحمم البركانية الضحلة البعيدة . وهناك أيضا فى المنتصف صخرة شامخة مرتبة على شكل جداول ، وهذه الصخرة من الحجر الرملى (الصورة رقم ٦٠) والتى انهالت

عليها كمية كبيرة من الحمم البركانية . وفى المنخفض الموجود فى الأسفل شاهدت صخرة بازلتية ترتفع من بين الحجر الرملى المنخفض .

رأس الوادى الذى هبطنا إليه ، كانت مليئة بكتل الحمم البركانية الضخمة ، وهذا الانجراف لا يقل حده عن حدة لسان الجبل الجليدى ، عندما ينحدر فوق رمال ذلك السهل الذى ينخفض عن مستوى ذلك الجبل . ومنطقة الحدود السوداء الموجودة فى المنطقة التى تصطبغ باللونين الأصفر والرمادى ، هى التى تحدد منطقة الرعى فى وادى على ، وتفصلها عن الأرض المنخفضة الخارجة عن الزمام . وعقب الظهر مباشرة نزل البدو من فوق دوابهم وراحت النساء ينصبن بيوتهن فوق تلك الرمال الساخنة ، وكنا ما نزال على ارتفاع حوالى ٤٧٠٠ قدم . وادى الحجر الرملى من تحتنا كان يمتد لمسافة ميل تقريبا ، فيما بين صخور وعرة ، كما بدأت درجة الحرارة تزداد بعد أن نزلنا من الحرّة ؛ وهنا بدأ حليب القطعان والنياق فى الزيادة والظهور ؛ ولكن ذلك الحليب تناقص فى الأيام التالية إلى النصف تقريبا . وعندما عثر الأعراب على الماء فى خزان طبيعى ، قرروا أن ينالوا قسطا من الراحة ، فى هذا المكان ، على امتداد أيام قلائل . وظهر فوق الوادى كفر (هجرة) صغير مكون من خيام البدو الرحل : أصحاب هذه الخيام هم من السَّراحين Serahin ، – ذلك الفرع أو الفخذ من الموهاهيب الذين تصالحوا مؤخرا مع بقية أفراد القبيلة .

أسفل الصخره المقابلة من صخور الوادى ، وصلت إلى مكان فيه كثير من التماثيل ، أو إن شئت فقل النقوش الصخرية المحفورة ، ومن حولها صور للماشية والحيوانات . كانت هذه الرسوم التى رسمتها أيدى القدماء وجعلتها تنبض بالحياة ، كما شاهدت أيضا كومة كبيرة من الأحجار يقولون عنها "إنها كومة قبر والدة أبى زيد الهلالى" . فى ذلك المكان هلَّ علىَّ كل أطفال المُنَزل ، جاءوا مسلحين كما لو كان حيوانا متوحشا ظهر فجأة فى ديرتهم ، وكل واحد منهم يمسك فى يده مقلاعًا ، أو "مرداحة" Merdaha كما يقول له البدو . وهنا بدأ ذلك القطيع من الأوغاد يطلقون مقاليعهم من مسافة بعيدة . وعندما أوضحت لأولئك الأطفال أن بوسعى جعل الحجارة تغنى مدوية من فوق أذانهم ، فروا هاربين . وعندما بلغ طُلَجٌ سوء ما فعله أولئك الأطفال استاء منهم ، أمام الجالسين فى مجلسه ؛ "ويل لهم ! – وغمغم ذلك الشيخ قائلا : أوَصل

الأمر إلى حد ، أن عيال البدو لم يعودوا يحترمون الغريب بعد ، الغريب ضيف الله ! ولا يهم أن يكون ذلك الضيف مسلما أم نصرانيا . خليل شاب أمين ، ووالله ، إن من يأذونه كلاب ، وملعونين ، ويهود أيضا ؛ أنت ، يا خليل ، لا تكترث بهم : وأنا أقول لك : إذا تجرأ أحدهم على فعل ذلك مرة ثانية ، فوالله ، سوف أقطع رءوسهم ، وألقى بها فى البئر ." – هذه الكلمات المهدئة التى صدرت عن الشيخ ، لمنع الأطفال من تكرار ذلك الذى فعلوه ، هذه الكلمات حجمت الآباء أيضا وأوقفتهم عند حدودهم : هذا يعنى أن أولئك الأوغاد كانوا ، بلا شك مُحرِّضين من قبل الكبار المتشددين .

مظاهر الترويح عن الأطفال قليلة فى المخيم البدوى ، ذلك أن الطفل أو الولد الصغير غالبا ما يدفعه والده إلى الرعى ، بمعنى أن يقوم ذلك الصبى الصغير برعاية الحملان وصغار الماعز فى منطقة لا تكون بعيدة عن البيوت : هؤلاء العيال راحوا يصنعون لأنفسهم شقافا صغيرة مثلثة الشكل ويطلقون عليها أسماء "مرتاحاتهم وإبلهم" ، وهم ينظمون تلك الشقافة فى الرمل ، وهم ينادون على رفاق اللعب قائلين "تعال Taal شوف Shûf ،" بمعنى "هيا ، احضر إلى هنا لترى بعينيك !" – بعض آخر من أولئك العيال ، لديهم لعبة يطلقون عليها اسم الفرنينى Ferneyny ، وهى عبارة عن شقفة من الفخار فيها ثقبين ، ومخيطة بخيط من خيوط الحياكة ، التى تغزلها لهم أمهاتهم من أفضل أنواع وبر الجمال ، هذا الحجر ، او إن شئت فقل : تلك الشظية من شظايا الخشب ، تعلق فى المنتصف ، وعندما تقذف فى الهواء يلف الأطفال الخيطين ليكونا خيطا واحدا ، مما يجعل تلك الشظية تدور محدثة طنينا عالى الصوت . شاهدت ورأيت عيال البدو وهم ينصبون فخا بالقرب من آبار المياه ، ليمسكوا أو يصطادوا به طيور الحبارى ؛ كان ذلك الفخ عبارة عن بيرق من الحجر ، يعلق تعليقا خفيفا فوق عصى ؛ وكان طُعمْ ذلك الفخ عبارة عن حفرة صغيرة فى الأسفل ، يضع فيها أولئك العيال ، الطعم المطلوب مع شىء من الماء . – والكلمة الإنجليزية Masque التى تعنى "تمثيلية ترفيهية تتخللها الموسيقى والغناء (*) مأخوذه من كلمة "مسخرة" Maskhara :

(*) شاع استعمال هذه الكلمة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . (المترجم)

لقد شاهدت أطفال البدو يجرون ويجمجمون (*) ؛ ونحن هنا نعجب لماذا لم يتطور ذلك المزاح الفكاهى الذى هو فى الدم السامى ، ليصبح له شكلا مسرحيا أو شكل شعبى فى الديار المستقرة التى يسكنها الساميون . سرعان ما نشبت بينى وبين هؤلاء الأطفال صداقة ، بل إن البعض منهم زارونى فى خيمتى ذات مساء ، وهم مسودين وجوههم مستعملين فى ذلك الفحم النباتى ، بعد أن صنعت لهم أمهاتهم لحى من صوف الغنم . كانوا يهيحون قائلين إنهم "سودان"(**) Sudan بمعنى "رجال سود" ، وأنهم جاءوا من بلاد بعيدة ، وأن صاحب أفضل لحية بينهم هو شيخهم . وبعد أداء التحية البدوية الطويلة ، التى هى فى معظمها تكرار ممل قد يستمر عشر مرات لعبارة واحدة هى "شيف Cheyf إنت ent "التى معناها "كيف حالك ؟ كيف حالك يارجل ؟" لم يعد لدى هؤلاء الأطفال ما يقولونه لى ، وانصرفوا عنى ليلعبوا فى منطقة الخيول البرية . – تحولت إنسانية الترحيب والاستقبال السامى Semitic إلى نوع من النفاق فى المدن ، وهذا التحول منصوص عليه فى العهد الجديد .

كان محسن قد مر على هذه المنطقة قبل مجيئنا إليها بوقت قصير ؛ هذا الشيخ الكريم من شيوخ ولاد على كان عائدا من دمشق وأحضر معه مرهما من هناك لعينيه . وعند تبوك ، مر على ذلك الشيخ هو ومن معه ، غزو من الشرارات ، وبالتالى سقطوا فى أيدى الأعداء . عثر اللصوص على صناديق الدواء فى خرج الحكيم ، واكتشفوا أن ذلك الحكيم كان غريبا عليهم. "قالوا للشخص الآخر: من أنت بالله ؟" ورد عليهم الشيخ قائلا : "أنتم يا من تنتمون إلى الشرارات ، تعلمون أنى محسن العلايدة ." – "وأنت محسن العلايدة – هيه ، أيها الرفاق ! هذا هو ذلك الرجل الكريم – فى خرجك ، يا محسن ، لابد أن يكون هناك سُكَّرٌ ." (تقدم القهوة فى خيمة محسن محلاة بالسكر فى شهر رمضان .) قال محسن (وهو يقدم قراطيس السكر بنفسه) ، "هذا هو السكر ، خذ ما تشاء ! وأعط منه شيئا لكلاب الشرارات !" "قال شيخ المنصر ،

(*) الجمجمة : الكلام بصوت غير مفهوم . (المترجم)

(**) الكلمة "سودان" هنا مستخدمة بمعنى عكس "البيضان" . (المترجم)

أتسمعـون ما يقـول أيها الرفـاق ! لقـد أخذنا النياق هى وما عليها ؛ ولن نجـردهم مما معهم لأن هذا هو محسن الكريم ، والله ، لن نسىء إليه مطلقا ." وهنا سأل الحكيم عن نفسه "هل سيعيدون إليه أدويته ؟" – لا ، سوف نصطحب تلك الأدويه معنا ، لأننا نعتقد أن الحريم سوف يتعرفن عليها : ولكننا سنعيد إلى الغريب كتبه مرة ثانية ، ونتركهم لحال سبيلهم . – ونحن جد آسفين لأنك ستمشى على قدميك يا محسن ؛ والمسافة ليست بعيدة ، كما أنك تعرف الطريق إلى القرية ." – كان محسن فى ذلك اليوم قد تسلم من رئيسه الكبير مبلغا صغيرا من باب الإشفاق الإنسانى !– هذه الشهرة الأمينة كانت قد سبقت ذلك الرجل إلى أعدائه . وجاءوا ، إلى تبوك ، فى تلك الليلة ماشين على أقدامهم ، واستأجروا من تبوك لأنفسهم نياقا ، ركبوها ودخلوا عن طريق درب Darb البُخرة el-bukhra من داخل طريق الحج ، بحثا عن الأمن والسلامة ، ليصلوا بعد ذلك إلى بعض من الأعراب الأصدقاء.– هذه هى حياة الهروب التى يحياها أولئك الذين يعيشون فى الجزيرة العربية ، الذين هم أبأس أنواع الجنس البشرى !

حكيم العيون هذا ، كان مغربيا من مرّاكش واسمه أبو Abu سليم Selim : بلغنى أن ذلك الحكيم قال للأعراب إنه سبق له أن عرفنى فى دمشق ، "أنى كنت من بلدياته ، وأنى رجل أمين ، وأنه هـو نفسـه كان إنجليزيا :" كان ذلك يعنى ، أن ذلك الحكيم ، إذا ما دعت الضرورة ، يستطيع إبعاد نفسه عن مطاردة الضباط الأشراف من الأتراك ليكون فى كنف القنصلية الإنجليزية الصديقة: لم يكن شخص ذلك الحكيم معروفا لى ، بل أننى تأكدت منذ ذلك الحين ، أن ذلك الشخص لم يكن معروفا فى القنصلية . وربما يكون ذلك الشخص ، قد سمع من ضباط الحج ، أثناء العودة ، عن المغامرة التى كنت قائما بها فى الجزيرة العربية ؛ يضاف إلى ذلك إنهم ربما طلبوا منه السؤال والتحرى عنى . كان أبو سليم ماهرا فى عمله . فقد ورث مهارة أبيه ، الذى كان حكيما للعيون فى البـلاد الغربيـة تحت اسـم أبو سليم ، هذا الذى راج أول مـا راج فى المسـتـعـمـرة المغربية ، أصبح اليوم على كل لسان من ألسنة المسلمين الموجودين فى دمشق ؛ ومع ذلك لم يكن بوسعه ممارسة عمله علانية فى المدن الحكومية نظرا لأنه لم يكن يحمل مؤهلا . وسرعان ما ذاع صيت أبى سليم فى كل الأرجاء البعيدة من سوريا : إذ كان

يذهب إلى تلك الأرجاء فى معظم الأحيان ، ولم يكن فيها من يمكن أن يسائله أو حتى يسأل عن مؤهله أو تعليمه، يضاف إلى ذلك أن كثيرا من مرضى العيون كانوا يترددون على أبى سليم فى دمشق . كنت قد نصحت الشيخ محسن بزيارة أو التردد على أطباء البعثة المتعلمين فى بيروت : ولكن مسلمى دمشق كانوا يفضلون المغربى على أولئك المتعلمين فى مدارس الطب الإفرنجية . وبلغنى أيضا أن المغاربة كانوا يعظمون أبا سليم باعتباره شيئا فريدا : هذا الرجل ، أبو سليم ، كان عندما يدخل مقهى من المقاهى ، يطلب من المحاسب أن لا يأخذ مليما واحداً من أى واحد عندما يغادر القهوة خارجا منها ،- هذا يعنى أن جميع الحاضرين قد أصبحوا ضيوفا عليه ، فيما يتعلق بالشيشة وفنجال المشروب ، طالما بقى أبو سليم جالسا معهم .

كان أبو سليم قد سمع عن مريضه ، عندما قام محسن بزيارته . "(قال أبو سليم) ماذا ستعطينى نظير شفاء عينيك ؟" محسن : "تقول هذا بنفسك . ماذا يعنى لو أنفقت الذهب سواء أكان أبيضا أم أحمرا ، حتى أستعيد بصرى مرة ثانية ؟" - "مائة ليرة" (جنيه ، أو بالعملة التركية) . - "حسن ، اتفقنا على مائة ليرة ." - "انتبه يا محسن ، سوف أعالجك مجانا ، وسوف أرافقك بعد ذلك "إلى ديرتك فى الحجاز ، لأمارس مهنة طب العيون بين القبائل ، فترة من الزمن ." هذا هو محسن استعاد بصره بصورة جزئية وأصبح يرى رؤية ضعيفة .

نزل أبو سليم بعد حادث شفاء محسن ، إلى المدينة (المنورة) لشراء بعض الأدوية : - بقى أبو سليم طوال فصل الصيف مع محسن فى خيبر ، ولقد بلغنى منذ سفره أنه بحكم أنه كان مبشرا بالإنجيل : "لم يستطع هناك ممارسة العلاج على كثير من الأفراد ، نظرا لعدم إيمان الناس فى خيبر بما كان يقول به أبو سليم ." وهنا وجد من المناسب له أن يبقى بلا عمل فى خيبر ، على أن يعمل من أجل أناس من البدو يمثلون جيلا بلا عقيدة. ومع ذلك ، وبحكم أن أبا سليم كان واحداً من المغاربة النجباء ، فقد ألقى بعض الأحاديث فى خيبر ، إلى حد أنه وعدهم بعرق من المياه ، يبلغ من القوة حداً يستطيع معها ، عند فتحه ، إدارة طاحونة من طواحين الماء ، شريطة أن يعطوه مائة ليرة . يضاف إلى ذلك ، أن أبا سليم أبلغ هؤلاء الخيابرة أنه اكتشف "موقعا

قديما لكنيس" Kinisy يهودى قديم (معبد يهودى) ؛ ولذلك فإنهم سوف يقومون بالتنقيب عن ذلك الكنيس ، ووعد بأنه سوف يأخذ الرقاق التى سيجرى العثور عليها ، والتى يمكن أن يعرف منها ومن الكتابات التى عليها ، الأماكن التى خبأ فيها أولئك الخيابرة (الموسويين) كنوزهم الدنيوية ؛ وابتلع الناس كلام أبى سليم : ولكن متى يجتمع العرب للقيام بشىء جديد ؟ ليس هناك من بين هؤلاء العرب من هو على استعداد لإنفاق بنس واحد نظير الحصول على عشرة جنيهات : ولذلك تركوا ذلك الحكيم لحال سبيله ، ومع ذلك ظل الخيابرة يتحدثون عن الأستاذ أبا سليم وكلامه الغريب ، حتى عندما وصلت أنا إلى هذا المكان .

الفصل السادس عشر

الأعراب يتركون الحرّة وينزلون إلى محطة الصيف فى وادى تربة

مولود جديد لطلّوج العجوز . نبات السنّا . هودج الإبل الخاص بالنساء . رحلاتهن فى قيظ الصيف. جراحة فى الصحراء. ممر ثروبيد . أشجار الورد السورية . وادى تربة الصحراوى . عدد كبير من عربات اليد العظيمة جيدة الصنع. القرى الميتة . الآبار المتدفقة فى تربة . المحطة الصيفية . جوع الناس . حياة ينقصها كل شىء . يوم الجوع الحار . يظنون أن النصرانى منفى . العرب ناقلوا حكايات . تنشرح صدورهم لخطاب الغريب . أسئلة وإجابات فى الدين . عربات اليد . المنهل . طيور فى الماء . مكان الدفن وأماكن الصلاة . الملُوك . دفن الموتى . قربان طلّوج . نشر الدم . القربان . القبائل لن تنزل إلى خيبر هذا العام . النصرانى يود زيادة مياههم . المواهيب يتشككون فى مسألة خضوعهم أو عدم خضوعهم لابن الرشيد . يحضرون أسلحتهم للنصرانى . النعاج تعود إلى الديار طلبا للسقيا . السقيا . الفيل ، والبجعة ، والأسد ، ليست سوى أسماء من أسمائهم . الداريش .

بعد أن تركنا وادى قريب Garib خيمنا لمدة خمس ساعات فى اتجاه الجنوب الغربى ، فى منطقة يسمونها آجرّة Agorra ؛ كانت حرارة منتصف الصيف شديدة تماما حتى فى هذا الجزء المرتفع من الأرض ! فى هذه المنطقة حملت امرأة شابة جميلة ، والتى يجىء ترتيبها الخامسة عشرة بين زوجات طلّج ، وليدها الأول منه وراحة تواسى ذلك القلب العجوز فى شيخوخته . وفى اليوم الأخير من شهر يونيو هبطنا متجهين جنوبا مستخدمين فى ذلك طريق الحج ؛ وفى ذلك الاتجاه شاهدت من جديد الآثار التى خلفتها عجلات عربة مدفع الأورطة . ومن بين التلال البركانية التى

عن يسارنا ، ها هو جبل من الحجر الرملي شكله يشبه شكل خلية النحل ؛ الناس هنا يسمون ذلك الجبل باسم جبل مرزوم Merzum الذى هيئ لى أن قمته من البازلت ، بالرغم من وقوعه على بعد عدة أميال عن جانب الحرَّة . رأيت فى ذلك الممر القاحل كثيرا من نباتات السنَّا ، أو إن شئت فقل : السنىَّ ، المزهرة ؛ وزهور هذا النبات صفراء اللون ، وتشبه زهور البازلاء البرية تقريبا . وراحت ناقتى تقطف وتقضم أعراف ذلك العشب ، الذى تعافه الإبل فى أغلب الأحيان ، إضافة إلى أن البدو يُسرِّعون خطى إبلهم عندما يرون هذا النبات ؛ ولكن أولئك الذين كانوا راكبين دوابهم ويسيرون إلى جوارى نظروا إلىَّ نظرة بدوية حاقدة ، وكظموا غيظهم ؛ ثم قالوا لى بعد ذلك : "ما السبب الذى جعلك ، يا خليل ، تترك ناقتك تأكل ذلك النبات السام !"

رحلة المواهيب وسيرهم فى الصحراء أكثر شجاعة ، إلى حد ما ، من رحلة الفجير ؛ والسبب فى ذلك أن ربات البيوت المتزوجات من الشيوخ يركبن دوابهن فوق سروج مبهرجة يطلقون عليها اسم "موكسير" máksir، ومفرود عليها سجاد زاهى الألوان . هذه الموكسيرات التى تصدر أصواتا هى على شكل سلال من الأغصان الرفيعة ، مجدولة ومخيطة بدقة إلى بعضها البعض باستخدام أعصاب عنق الجمل ، (التى يبيض لونها وتزداد متانتها بعد أن تجف ،) وشرائط من الجلد الخام . غالبية تلك الموكسيرات ، تكون مربعة الشكل ، تسمح للزوجة بالجلوس فيها القرفصاء ، ومعها أطفالها ؛ ومن فوق ذلك الموكسير يوجد عود أو عودين مطويين لتعلق الزوجة عليهما عباءتها ، لتكون بمثابة غطاء، يحميها هى وأولادها الصغار من أشعة الشمس المحرقة. لديهم أيضا ، فى تلك الديرة نوع آخر من السلال ، التى ربما كانت من الموروث العربى القديم ، لأننى سبق لى أن شاهدت مثل هذه السلة فى رحلة من رحلات البدو فى الصحراء Sàhara الجزائرية الصغيرة . وهذه السلة عبارة عن إطار طويل من الأغصان ، يشبه إلى حد بعيد جداً شراع طاحونة الهواء محملة على صُلب الجمل : هذا يعنى أن الزوجة تزحف فى ذلك القفص المستقيم ، الذى تجعل أذرعه البارزة التى تصطدم بالصخر وبالأشجار ، شيئا غير مريح أثناء التنقل . وساءلت نفسى ، كيف خطر ببالهم ، أن يستعملوا شيئا غير مناسب مثل هذه السلة . "هذا من أجل الزينة ، يا خليل ! كما أن النساء الشابات يركبن فى تلك السلال وهن متشجعات ." والحريم

يقمن بوضع شراشيب حمراء اللون من حول أركان تلك السلال ، كما يضعن على السرج أيضا كسوة لها شراريب متدلية من الجلد . من هنا فإن ركوب ربات البيوت يشكل موكبا مبهرجا وجميلا ، فى أذهان الأعراب ، أثناء مسير مواكبهم المتجولة . أما الرجال فهم يتقدمون ، مثل هذا الموكب ، راكبين نياقهم . والرجال يلتزمون الصمت ، فى أغلب الأحيان ، أثناء ترحالهم ، إذا ما اشتدت حرارة الشمس وارتفعت درجة الحرارة ، والسبب فى ذلك أن حديث الأعراب ، فى ظل مثل هذه الظروف ، يجعلهم يفتحون أفواههم فى ذلك الجو الجاف ، مما يؤدى إلى إحساسهم بالعطش : وهم يركبون نياقهم ويتنفسون الهواء من خلال غترهم (أغطيه رءوسهم) ، التى يطلقون عليها اسم الثُّريب horrib والتى يضعون من فوقها شيئًا يسمونه المحسوب meyhsub ، أو المعصوب masaub أو العقال agal) ، بحيث لا يظهر من ذلك الغطاء أى شىء سوى هاتين العينين السوداوين اللتين تشبهان عيون اللصوص .

هذه الرِّحْلات التى يقوم بها البدو ، خلال حرارة الصيف يقولون عنها : إنها شديدة الفظاعة : فهذه هى الصحراء تزغلل العيون ، وتتسلط عليها أشعة الشمس ، وهذا هو المخ البشرى يكاد يغمى عليه من شدة هذه الحرارة ؛ من هنا فإن الأعراب كلهم ، وبلا أى استثناء ، ينسحبون ، خلال فصل الصيف ، إلى محطات سقياهم الصيفية العظيمة ، مما يجعلهم يقيمون فى مخيمات ثابتة أو دائمة إن صح التعبير . هؤلاء هم الرعاة والأطفال يرحلون معنا وهم حفاة ويمشون فوق الرمال المتوهجة والأحجار المشتعلة ؛ والصبية يكونون حاسرى الرءوس فى كثير من الأحيان ، بل ويكونون عراة أيضا . وفى بعض الأيام يقطعون مسافة قد تتردد بين عشرين وثلاثين ميلا ، وهم صائمون ولا يحمل الواحد منهم معه سوى قربة صغيرة من الماء . هذا يعنى أن مثل هؤلاء الصبية يتعرضون منذ فترة مبكرة وبحكم الضرورة ، لتحمل أعباء الحياة فى الصحراء ، فضلا عن أنهم يتعلمون كيف يهتدون بالعلامات الأرضية : ولكن حرارة الشمس الحارقة التى تشوى أجسامهم العارية ، وكذلك تعرضهم لويلات الريح ، يتسبب فى إصابة سيقانهم الضعيفة بكثير من الأمراض ، التى تنمو وتتفاقم معهم ثم تظهر عليهم أعراضها عندما يكبرون فى السن . وعند الظهيرة خرجنا من الطريق الذى كنا نسير فيه ، لنصبح فوق مستوى مُنزَل الحج بصورة طفيفة ، ثم دخلنا

بعد ذلك شقا طوليا متصدعا بين حدود العويرض المكونة من الحجر الرملى ؛ هذه هى المنطقة التى يسمونها الذَّوريد eth-Thorréyid ، ووادى السيل اعتبارا من وادى قريب Garib إلى وادى السهل فى منطقة الحجر . هذا الجزء من البلاد الذى انشق حجره الرملى على شكل صليب ، يتحول إلى متاهة طبيعية فيها كثير من الممرات المسدودة والمعقوفة والملتوية ، التى تمتد خلال الجبل . وسرعان ما نزل البدو عن دوابهم فى هذه المتاهة ، وراحوا ينزلون أشياءهم ، كل فى مَنْزِله ، فى الظل الناتج عن الصخور ، وتركوا إبل الحمل حرة طليقة ؛ فعلوا ذلك لكى يُقَيِّلُون yugaialun ؛ هذا يعنى أنهم سوف يمضون ، فى هذا المكان ، ساعات الزوال ، طلبا للراحة على أن يبدءوا من جديد قبيل العصر .

هؤلاء هم إخوان الراعى المريض يحملونه بين أيديهم ، وهو يتأوه ألما بسبب الركوب غير المريح – وهذا هو الرجل الوقح يشعر بالارتياح وهو يستمع إلى أنين ذلك المريض. وهذا هو بنَّى Benneyi ، شقيق الراعى المريض، فى ظل هذا الظرف الطارئ، رأيته وهو يمسك إبرة ، وراح يحاول بها فتح خرَّاج ، أو إن شئت فقل : دُمَّلاً عند مفصل الورك . وأفلح بنَّى فى وخز الدّمل إلى أن فتحه ، لينساب منه على الرمل صديد عجيب . وأمسك الحاضرون أنوفهم ، وابتعدوا قليلا عن المكان ؛ وعلى الفور سحب شقيق المصاب ، وعلى وجه السرعة ، واحدة من الغتر (أغطية الرأس) . ووقف الأعراب عند مسافة ظنوا إنها أدنى ما يمكن عمله لتجنب العدوى ، وتحاشيا لتلك الرائحة العفنة الصادرة عن ذلك الصديد . ونحن نجد فى مدن الساميين بعض الأفكار الطيبة التى من هذا القبيل ، كما هو الحال بالنسبة للأقوال المأثورة عند الدمشقيين عندما يقولون : "من يتأخر فى التطعيم يتعين عليه أن لا يشم لحم البشر !" والبدو يقدرون الروائح الطيبة باعتبارها مفيدة للصحة ، وهذا هو ما أقره أطباؤنا القدامى (ذلك الذى ترتاح إليه أنوفنا يرجع إلى الورود الجميلة الحلوة) . من هنا فإن الأعراب يصنعون بعض أدوية الأنف على شكل مساحيق من بعض الأعشاب ، والروائح الطيبة ، بحيث تعلق تلك المساحيق والروائح مدة يوم أو يومين فى أنوفهم ، وفى أنوف إبلهم . ذات مساء ، عندما كنت فى مدائن صالح ، استعرض عقرب نفسه على أحجار وجار القهوة؛

وتراجع الحاضرون كلهم ، وقام أحدهم بضرب العقرب بعصاه ، ثم وضعه فوق جمر النار ! "صاح الحاج نجم ، أخرجوا ! لقد أحرقت العقرب !" وهنا نهض الجميع وتركوا المكان ؛ ولما كان شيء من عصارة العقرب قد تناثر على جبهة حسن ، فقد مسح ذلك بظهر يده وهو يضحك ، وكان كل همه يتمثل فى عدم تشمم رائحة ذلك العقرب وهو يحترق . الأعراب ، تسرهم العطور الطيبة ؛ وربات البيوت البدويات تصنعن كنوزا من تلك العطور التى تكون بحوزتهن ، إذ يستعملنها فى الدواء : كانت ربات البيوت البدويات تسألنى فى أحيان كثيرة "أليس معك عطور تبيعها ؟" وأهل الجزيرة العربية عندما يزكون مكانا من الأماكن ، ولنقل مكانا كئيبا مثل قرية العلا أو خيبر ، يقولون : "إنه غارق فى هواء فاسد ، وأنت تشرب منه ماء غير صالح ."

توقف بعض الرعاة الذين كانوا بصحبة القطعان ، كيما يسألون عن الطريق ، نظرا لأن هذه المتاهة الجبلية هنا غير واضحة المعالم ، حتى بالنسبة للأعراب أنفسهم . (قالوا لى) إن طريق الحج السورى كان يمر بهذه المتاهة فى يوم من الأيام ! – ولكنى لم أستطع ، عن طريق أى نقش من النقوش التى على حواف الحجر الرملى الهاوية ، معرفة ما إذا كان هناك أى قسم من أقسام طريق القوافل التجارى القديم . هذا المكان الزاخر باللصوص ، والعامر بالكهوف التى تتخذ شكل الصخور ، والملىء بالمعاقل (النقاط الحصينة) سواء على الأرض أو فى أماكن السكنى الطبيعية ، والتى تشبه السراديب ، وتقع على جانبى السائر فى هذا المكان ، لا يمكن لمثل هذا المكان أن يصلح لمرور القوافل أو حتى من يمارسون العمل ضمن هذه القوافل . فى هذه المضايق التى تمتد لمسافة أميال ، هناك الكثير من أشجار السنط الشوكية ، كما يوجد بها أيضا شجر برى من أشجار التين التى تشبه أوراقها أوراق الريحان ويطلقون عليها اسم "العثوب" el-uthub ؛ كما يوجد فى الأماكن المنخفضة شيء من العشب الأخضر ، الذى يوحى بأن ماء السيل يقع على بعد مسافة قصيرة أسفل ذلك العشب الأخضر . – ولكنى لم أر فى أى مكان أى أثر لأشجار الغار التى تحمل زهورا من قبيل الورد البلدى ، التى تسر زهورها الناظرين فى كل المواقع الجديدة فى الصحراء الجيرية من الناحية السورية . كما أن هذه الزهور جميلة فى مدينة بيترا Petra ، وكم هى جميلة أيضا فى مجارى سيول الأردن ! – ويا لجمال تلك الحدائق البرية فائقة الجمال التى

كانت فيها مدينة القيصر Caesarea فيلبّى (*) Philppi فى يوم من الأيام !- ولكن أنعم بالزهَور المائية التى فى البيارات اللذيذة التى تنساب مياهها بفعل مياه بحيرة الجليلى Galilee ! ومن كان مسيحيا ، ينبغى (إن أمكن له ذلك) أن لا يتذكر ذلك المكان عندما يموت ويرحل عن الدنيا !

غربت الشمس عقب وصولنا مباشرة إلى سهل الحجر ، ومع ذلك واصلنا مسيرنا فى ضوء الشفق الذى كان لونه يميل إلى اللون البنى ، ملتزمين فى ذلك الأطراف السفلية لصخور الحرّة . دخل الليل علينا ، وعجلنا بالنزول على وجه السرعة ، وكنا سعداء عندما توقفنا ، بالرغم من أننا كنا ما نزال صائمين وبلا عشاء ، كما سعدنا أيضا بإراحة رءوسنا على مخاد ، هى فى حقيقة أمرها قطعا من الصخر ، وسط هذا الانجراف البركانى الكبير . لم يكن فى ضروع الماشية التى كانت معنا أية قطرة من الحليب ؛ إضافة إلىَ أن أى أحد منا لم يقو على الوقوف فوق الأرض التى كان ينام عليها ، حتى يتسنى له جمع شيء من الحطب لإشعال نار المساء ، إذ كان الجميع ، فى هذه المنطقة ، خائفين ، من الدوس فوق الدبيان debyan أو إن شئت فقل : الثعابين . والبدو الرحل يخشون تلك الحيوانات أو الزواحف السامة ، وقد شوهد ثعبان فى بيت من البيوت وهو يزحف بين بعض الجوالات التى لم يأخذها البدو معهم ، (وقد تأكدت أن تلك الأسرة هجرت بيتها وتخلت عنه ، وبقيت بعيدة عنه عدة أيام إلى أن تأكدوا من زوال الخطر .)

أمضينا هذه الليلة القصيرة من ليالى الصيف على ذلك النحو إلى أن شقشق النهار ، وعندها حمّل الأعراب أشياءهم ومضينا قدما من جديد ، لنضرب خيام المخيم الدائم فى وادى تربة Thirba فى ذلك اليوم . كنا نقيم فوق عالم من الحمم البركانية ، تساقطت صخوره من كهوف العويرض ، إلى أن التحم ذلك الركام البركانى بالجيلة Jaila ، التى وصلنا فيها إلى بداية ذلك الوادى ، الذى يطل على المزحام Mezham فى

(*) مدينة القيصر فيلبى : واحدة من المدن السورية حاليًا . كانت مدينة فلسطينية قديمًا . وهى حاليًا قرية بنياس التى تقع فى أقصى جنوب غربى سوريا ، بالقرب من الحدود الإسرائيلية . والموقع هو أصلاً لمدينة بنياس Paneas الإغريقية الذى غيره الرومان إلى القيصر فيلبى . (المترجم)

الصخور المطبقة على سهل مدائن صالح . قاع هذا الوادى القاحل عبارة عن حوض جدب من الحصباء والحمم البركانية وكذلك الأحجار البركانية التى هى عبارة عن شرائح ورفوف ، وضفاف وشرفات ، وأكوام مريعة بلا عدد فى منطقة كبيرة من مناطق السيل . كل ذلك العمل ، وكل ذلك التشقق يتكرر ويحدث نتيجة مجرى مائى متذبذب : ولكن من أين تجىء وفرة المياه فى هذا المكان فى ظل مناخ منعدم الأمطار تقريبا ؟ هذه هى زخات الخريف الضعيفة ، تنزل بعد الأمطار التى تسقط على الجبال العالية ، أو المياه التى تنتج فى فصل الشتاء عن نوبان الجليد ، كل هذه المياه يتعين أن تغوص وتمتصها تلك النقايات الشاسعة من الرمال والصخور .

بعد أن سرنا فى الجبل مدة ساعتين ، مررنا على كثير من الأكوام المبنية ، التى يطلقون عليها اسم "الرُّجوم" rijûm ، وسط هذه الصحراء القاحلة التى هى عبارة عن ضفاف وأحجار . رأيت بعضا من تلك الرجوم مبنية فى جزء من أجزاء قناة السيل ؛ – ترى هل توقفت قنوات السيل عن أن تكون مجارى مائية فى عهد أولئك البناة القدماء ؟ أم أن هذه الرجوم هى مقابر عائلات وأسر الشيوخ؟ – ولكن ما مدى قدم تلك الرجوم ؟ معروف أن الحياة السامية Semitic فى المناطق المرتفعة، ليست أصيلة بل يمكن القول: إنها تكون دوما بدائية ، من هنا يمكن القول : إن تلك الرجوم من زمن مقابر المعابد الخاصة بتجار قرية الحجر Hejr – والتى نستطيع التخمين ، بأنها وذلك من منظورنا إلى شكلها ، ربما تكون من بداية العالم الإنسانى ! معروف أن آثار الأيدى البشرية ، بما فى ذلك المقابر الأثرية ، إنما تشكل منظرا مريحا ويسر الخاطر فى سطح أو تضاريس هذه الأرض التيتانية Titanic (الشاسعة) .

جدران الوادى ، عند بدايته ، عبارة عن صخر رملى من فوقه الحمم البركانية التى فاضت عليه من الحرَّة ؛ وترتب على ذلك هبوط الحجر الرملى أسفل أرضية الوادى الآخذة فى الارتفاع . وبعد مسير ساعة فوق هذه الأرض تتحول جدران الوادى إلى مجارى مائية زرقاء اللون من فوق مجارى من البازلت ، ويصل ارتفاع كل هذه الأجزاء إلى مائة قامة . وفى الأعلى ، حيث يوجد وادى جانبى ، على الناحية اليمنى ، مررنا ببعض الآثار القديمة . وقد أطلعنى العرب فى تلك المنطقة على قناة مهدمة ، وبقع أو إن شئت فقل : أماكن من المبانى القديمة : شاهدت فى تلك الأماكن بعض المبانى

الجافة من الكتل البركانية ، والجدران الطويلة ، فى اتجاه منتصف الوادى ، فى منطقة الصخور الجرداء ، والشُّرُفات ، والأراضى المستوية ، وفى مسورات البيوت القديمة :- ولكن تلك المستوطنة الميتة فقدت اسمها، وهم هنا يطلقون عليها اسم "الجرية" el-Geria بمعنى "القرية" . شاهدت بعد ذلك كثيرا من الرجوم التى تقف إلى جوار بعضها فى الوادى ، وهذه الرجوم بناها الإنسان بالطريقة الجافة ، كما شاهدت أيضا كثيرا من الجحور تظهر على شكل مجموعة على جانب الوادى الذى يتخذ شكل الرف . والبدو ليس عندهم أى علم أو معرفة بتراث أولئك الذين عاشوا فى الزمن القديم فى عالمهم أو إن شئت فقل : بلادهم : "يقولون ، إن بناة تلك القرى الميتة هم يهود أو نصارى ."

ومع ذلك ما تزال هناك بعض عيون الماء فى تلك الأجزاء العالية من البلاد ، الأمر الذى يجعل المواهيب لا يتخلون عن وادى تربة وبخاصة أولئك الذين يعملون بالزراعة من بين أولئك المواهيب ؛ هؤلاء المواهيب الذين يعملون بالزراعة هم من وادى العروش el-Aurush المقابل لوادى تربة ، ولكن السبب الرئيسى وراء تخلى المواهيب عن وادى تربة ، فى هذا العام ، هو خوفهم من الغزو الذى يقوم به البشر Bishr (أفراد قبيلة بشر) بتحريض أمير الشمَّر Shammar . مررنا على عدد قليل من المساحات الزراعية الخالية من الزروع ، والتى تقع وسط أحجار الحرَّة القاحلة الجرداء ، فى الأرض القريبة من الأبيار ؛ فى تلك المناطق نزل الأعراب عن دوابهم ، وبالتالى تسنى لكل أسرة النزول فى المنطقة التى تود النزول فيها . وعلى امتداد سنوات متتالية ، وفى تلك الأجزاء البارزة من تلك التربة البركانية، وبدون أى غطاء ، راح أولئك المواهيب يزرعون الشعير والقمح، والقرع العسلى، والشمام والبطيخ ، بالإضافة إلى قليل من التبغ ؛ وكل هذه الأنواع من الحاصلات أفضل من مثيلاتها التى يمكن زراعتها فى التربة الرملية الصفراء فى قرية ولاد على . قنوات الرى يجرى مدها من العيون ، التى توجد منابعها أسفل البيارات الخضراء اللذيذة من أشجار التين البرى المثمرة التى يطلقون عليها اسم الحماتة hamáta . وبعد انتهاء ذلك الحصاد الهزيل ، يعود أولئك المستوطنون من البدو ، من أراضى الحبوب هذه ، إلى قرية الخيام التى يطلقون عليها اسم "الجرية" Geria (بمعنى "القرية". – وادى عروش هو الآخر من الوديان الحجرية، ولكن فيه الكثير من النخيل المزروع الذى يروى من عين فى الجزء الأعلى من جانب الوادى .

كنا نرى أمامنا بعض خيام البدو الرحل المتناثرة فى الوادى المهجور ، والمملوكة للطوالة، Towwála من أبناء ولاد على . كان البدو الرحل جميعا ، يتركون بيوتهم المبنية وحريمهم ويلوذون بتلك البيَّارة الجديدة ، حتى يتمكنوا من رؤية تلك الآبار، رائقة الماء ، التى هى عبارة عن حفر محفورة فى الجزء الخلفى من التربة السوداء التى يتكون منها حائط ، أو إن شئت فقل : جدار الجانب المرتفع من الوادى ، والمبطنة بمبان جافة : الماء فى هذه الحفر يجىء من بين الصخور الأرضية البازلتية .- يا لها من تسرية تسر النفس والخاطر عندما ينظر الناظر إلى ذلك الغطاء الفردوسى الذى هو عبارة عن بيارة خضراء كثيفة وماء جارٍ ! فى هذا المكان ، يتعين علينا نيل قسط من الراحة ، مع الماء المندفع ، حتى يتسنى لنا إنعاش عروقنا وأوردتنا التى أصابها الجفاف . وأنا منذ يوم أو يومين ، طوال ترحالنا ، لم أذق طعم الطعام ، وأنا اليوم تغذيت ، أو إن شئت فقل : أكلت من تلك الثمار البرية ، التى هى عبارة عن تين برى لا يزيد حجم الواحدة منه على حبة البندق ، ولا يختلف طعمه عن طعم توت الخشب ؛ ولكن السطح الخارجى لذلك التين البرى جاف وخشن ، فضلا عن أن ذلك التين حار ، ويحس من يأكله بحرارته فى لسانه وفى حلقه. من هنا فإن البدو لا يقبلون على قطف حبات التين هذه ، لأنهم يظنون أن ذلك يقلل من شأن رجولتهم؛ ولكن هاهم البدو يأكلون عن طيب خاطر ، من تلك الحبات التى جمعتها أنا بنفسى . حرارة منتصف النهار (الظهيرة) هنا فى ظل الخيمة ، وعلى ارتفاع حوالى ٤٥٠٠ قدم ، يصل متوسطها إلى حوالى درجة واحدة أو درجتين بعد المائة الفهرنهيتية ؛ ومع ذلك ، كنا ننتظر ارتفاع درجة الحرارة ، وسوف تصل هذه الحرارة إلى "درجة رديئة" كما يقول الأعراب .

هنا ، فى هذا المكان ، يقع المُنزَل الصيفى لأولئك البدو الرحل ، وهم يرتاحون فيه فى الوقت الراهن ، ولديهم معظم ذلك الذى يحتاجونه لأنفسهم ولماشيتهم ، إضافة إلى توفر الماء فى المكان أيضا . هذه هى مؤن هؤلاء البدو الرحل ، بدأت تتناقص بدءا من بداية العام ، عندما كان لديهم شيىء من النقود التى كانوا يصيبونها من صُرَّة الحج ، ومع ذلك لم يكونوا يشغلون أنفسهم بما هو قادم ؛ وبالرغم من عدم وجود الكثير الذى يمكن أن يقتات به أولئك البدو الرحل ، سوى قليل من المريسى الذى تبقى معهم فى جوالاتهم . هؤلاء البدو يحتفظون إلى جوارهم بسلطانية من ذلك المريسى

المخلوط بالماء ، ويتناولونه فى معظم الأحيان أثناء النهار الطويل "الطويل (على حد قول الكتاب المقدس) والخالى من الخبز" .

بالرغم من قصر المسافة ، فإن أحداً لم يفكر فى النزول إلى قرية ولاد على لابتياع الطعام ، وهم يذهبون إلى قرية ولاد على عندما تضطرهم الضرورة إلى ذلك ، أو عندما يحل عليهم فصل الخريف . وحريم العائلات الفقيرة تلاقين الأمرين ، نظرا لأن الرجال يمكن أن يقوموا بجولة على الحرة يرعون خلالها الإبل ، ويشربون من ألبانها ما يشبعهم ، وهم يقولون فى هذا الصدد : "إنهم يضاعفون اللبن ." ناديت امرأة مسكينة الحال كانت تمشى بالقرب من خيمتى ، وكانت تغطى فمها وأنفها بغترة (غطاء الرأس عند الرجال) وسألتها "هل تشعرين بأى ألم ؟" "ردت علىَّ قائلة : "أنا مثلك "خرمان" Khorman ، أى جوعانة ، لعل الله يرسل علينا شيئا من الغوث !" من هنا فنحن نسمع العبارة التالية تتردد على ألسنة هؤلاء البدو : "نحن اليوم لم نجرح صيامنا ، وهذه هى الشمس تغرب الآن !" قطعان الماشية الصغيرة والكبيرة موجودة فى الجبال ؛ والبدو يقتادون الدبوش يوما بعد يوم للسقيا ، وبالتالى كانت ربات بيوت البدو ، تذهبن إلى تلك الآبار لجلب ألبان هذه الماشية ، ولكن تلك الألبان كانت تتناقص يوما بعد يوم إلى أن خفت الضروع فى النهاية ؛ ولكن ها هى الماشية الصغيرة بدأت ألبانها تزيد من جديد . والبدو يطلقون على زيادة ألبان الماشية الصغيرة اسم "تغريز tghrurriz الغنم el-ghrannem". كان البدو الرحل يقتادون قطعان الإبل للسقيا كل ثلاثة أيام . كان البدو يخلطون لبن النياق بالمريسى ، ثم يشربونه ، ويحسون على إثر ذلك بشىء من الانتعاش . ونظرا لعدم قدرتى على الاتصال بالمدينة ، فلم يكن يتبقى معى شيئا سوى تلك الحفنات القليلة من الأرز التى كانت ربات البيوت الكريمات قد جلبنها للمداوى نظير الدواء الذى أعطاهن إياه . وهنا قمت بسلق حفنة كبيرة من الأرز فى قليل من الماء وخلطته بشىء من المريسى ، ثم شربته وعشت عليه طوال اليوم ؛ كان الأمر يبدو لى كما لو كانت مناسبة ، عندما كنت أشرب شيئا من الحليب عندما أكون مع الماشية فى مكان السقيا . كنت أصلح الشاى فى بعض الأيام ، الذى كانت تفوح منه رائحة تسرى فى الأرواح الهزيلة فتبعث فيها الحياة من جديد . كان أولئك الأعراب يتأملون كلما وقفوا على حالى الذى كان يتدهور؛ والغريب بين البدو ضيف على الجميع،

وعندما كانت النساء الجارات تريننى وأنا أسير على الأحجار الساخنة ، لجمع شىء من الحطب للنار ، كانت واحدة أو أخرى منهن تعرض علىَّ فى شىء من الشفقة وتقول: "يا خليل ، أذان athan لك lak أويش Oweyish" بمعنى "سوف أجهز لك شيئا قليلا من الطعام؟" وهنا كانت تعلق امرأة أخرى على ذلك بقولها: "اترك الأمر لها يا خليل، "و wa سواتها swat-ha أطيب tayib " ، بمعنى إنها تستطيع أن تفعل ذلك بطريقة جيدة .

يا لهذا العسر الذى لاقاه البدو فى فصل الصيف ! ومع ذلك ، كانت هناك بعض الأسر ، بخلاف أسر الشيوخ ، التى كانت تأكل على نحو أفضل من الشائع . أفضل ما يمكن أن تعثر عليه هذه الأسر هو عبارة عن وجبة غير مشبعة من الأرز المسلوق فى الماء ، تلك الوجبة التى كان حريمهم يعدانها فى السر وليس علانية ، وذلك عن طريق إغلاق الخيمة أو أن يكون الطهى أثناء الليل ، مخافة أن تفوح رائحة الطهى وتعم المكان ، إذ إن فواح رائحة الطهى يحتم على الطاهى دعوة من يجىء إليه إلى تناول الطعام . الفقراء من هؤلاء الناس ، عندما يبصرون أحداً قادما عليهم ، أثناء تناول الطعام يسارعون إلى القول "غطا" ghratta بمعنى "غطى هذا الطعام واستره عن الناظر إليه ." ومع ذلك ، إذا ما فاجأ أحد هذه الأسر ، فهم يبادرون على الفور بدعوته إلى الجلوس ومشاركتهم الطعام . والإنسان صاحب النفس العفيفة يرفض الجلوس ، أما إذا كان صديقا من أصدقائهم ، فهو يجلس ويتناول لقمة واحدة ثم ينهض على الفور قائلا "والله Wellah غديت ghradeyt" بمعنى "لقد أكلت وما أكلته يكفى" . هؤلاء البدو المساكين يعيشون هذه الحياة المعسرة خلال ذلك الجزء من العام ، أى عندما يجف الحليب من ضروع المواشى ، إلى أن يهل على أولئك البدو موسم التمر مرة ثانية . وعندما تشرق الشمس علينا كل صباح بحرارتها الخانقة ، فهى تحيى الذكريات فى صدورنا بمدى العسر والعوز ، من خلال فكرة مفادها : "كيف ستكون حياتنا فى هذا اليوم ؟" – وهكذا بالنسبة لى أمضيت الصيف صائما أفعل مثلما يفعلون ، ومتكئا على كوعىَّ . ومع ذلك ، لم يكن يمر علىَّ أسبوع حتى تتهيأ الفرصة ويقوم رب من أرباب الأسر بذبح ذبيحة ، سواء أكان ذلك من باب ذكرى تمام السنة لأسلافه ، أو من أجل مولد طفل أو ابن من أبنائه، أو لشفائه من المرض ، أو من أجل الحفاظ على صحة إبله . وفى كل هذه المناسبات كان أصدقاء صاحب الذبيحة يجتمعون للمشاركة فى تلك

الوليمة من اللحم المسلوق : وهم فى هذه المناسبات يبحثون أيضا عن ضيف الله، وكنت أنا الآخر، أذهب للمشاركة فى تلك المناسبات مخافة أن ينسانى أحد منهم ؛ ولكن إذا حدث وكان صاحب الوليمة ، أو المناسبة ، واحداً من الجيران الذين أعرفهم ، أو من مرضاى ، أو شيخ من الشيوخ ، فإنهم كانوا يرسلون لى شيئا من طعام تلك الوليمة .

كانت أيام حياتنا ، باستثناء تلك الأمور التى لا داعى أو لزوم لها ، تمضى سهلة على شكل سكون طويل ! هـذه هى حياة البدو الرحل ، إنها عطـلة طـويلة ، مرتبطـة أو متـحـالفة مع نوع من أنواع البساطة المقدسة ، ولكن تلك البساطة تكون مرتبطة بتسامح طويل فى مسألة الجوع فى الصحراء والخلاء . والشمس سرعان ما تبكر فى الشروق بعد متعة ليالى الصيف القصيرة ، مما يؤدى إلى إيقاظ الأعراب فى ساعة مبكرة ، والذين لا يطرق النوم جفونهم بعد ما يرون ضوء النهار ، إذ يتحتم على المسلمين بحق أن يؤدوا صلاة الضبح . والناس يجتمعون ، فى خيمة القهوة ، ليشربوا سويا فنجال قهوة الصباح . ويبادر الأطفال إلى اقتياد القطعان المفطومة الصغيرة إلى الأدغال القريبة وإلى جوانب الوادى . أما النساء فيستأنفن غزلهن : وهن أثناء الغزل لا تؤدين أى عمل آخر من الأعمال المنزلية ؛ حيث لا يكن فى استعداد للرحيل ، ولا يكن مشغولات بصناعة الزبد من الحليب ، كما لا يكن مشغولات أيضا بحلب القطعان . ولا يسمع أحد صوت الرحى فى سائر أرجاء المنزل كله ؛ كما لا يكن مشغولات بمسألة جلب الماء .

كانت الشمس محمولة فوق الأفق ، وكانت الحرارة التى تشبه حرارة الفرن ومتسلطة علينا ؛ وفى ظرف ساعة واحدة بلغت أعمدة الخيمة من السخونة حداً يصعب معه لمسها . هؤلاء البدو يستلقون طوال النهار داخل الخيام وهم يلهثون (فى جو بالغ الجفاف) دون تَعرُّق : النهار هنا فى هذا المكان ، يتمثل فى تلك الساعات القليلة التى تكون عين الشمس خلالها على جبهاتنا مباشرة ، من يحاول الرقود ، يحس بالضيق . هذه هى الشمس تغرب فى النهاية إلى جبهة الوادى فى الحرّة ، وهذه هى الظلال المريحة تتقدم لتغطى خيامنا ، وها نحن بدأنا ننسى حرارة النهار المحرقة . وهؤلاء ربات البيوت تخرجن من الخيام ليتنفسن الهواء ، ويجلسن أمام بيوتهن وهن تغزلن . أما الرجال ، الذين يطلق البدو عليهم اسم "الزِّلم" ezzilim فيتجهون إلى مجلس الشيخ

وإلى خيمة القهوة ؛ ففى تلك الخيمة يكون "نادى" القبيلة ، وجرت العادة أن أذهب إلى تلك الخيمة لأحتل مكانى بين الحاضرين إلى أن يدخل علينا المساء . هذه هى جوانب الوادى تصطبغ باللون الأحمر ، وهذه هى الحرَّة تبرز من بين التلال البركانية الموحشة . وهذه هى الشمس تتضاءل من فوق طرف الشرعان المدبب ، الذى يظهر واضحا من هذه المنطقة ممتدا خلال وادى تربة Thirba ؛ طرف الشرعان هذا عبارة عن جبل من الحجر الرملى يقع خلف ركب Rikb الحجر el-Hejr ، ويعد علامة مميزة فى منتصف ديرة بدو الفجير Fejir . وبعد انحسار الضوء عن الأرض ، تبدأ حرارة النهار فى الانعكاس على جو الجبل قليل الكثافة : وهنا يهب على المكان نسيم بارد من الحرّة ، ويرخى ليل الجزيرة العربية الهادى سدوله من حولنا ومن فوقنا ، ويكون خاليا من الندى ومن البرد أيضا . وبعد أن استمعت إلى ما يقال بقيت فى منزلنا لتجاذب أطراف الحديث مع الحاضرين ؛ أو كنت أذهب سعيا إلى التعارف على أهل خيمة من الخيام . هؤلاء هم البدو يرقدون ملفوفين من حول وجار النار المسائية ، ويكونون بعيدين عن مجال الرؤية إذا ما رأوا بينهم غريبا غير مقرب إليهم وهم عندما أظهر عليهم فجأه أسمعهم يقولون: "إيش eysh بيهُ b'hu" بمعنى "ماذا حدث له !" ثم يقولون: "خليل حزين وصامت ! ربما يكون قد رأى شيئا سيئا اليوم (فى كتبى ، بعد الإطلاع عليها) ، ربما يكون قد مات له أحد ، من أقاربه ورفاقه ." كان البدو يسألونى كل يوم حول ما إذا كنت أُحس بالحنين إلى الوطن أم لا ؟ كانوا يتهامسون فى أحيان كثيرة بأنى رجل مطرودٌ أو منفى "إلى متى ستظل ، يا خليل ، تفتقد مكانك وصحبتك ؟" – ثم يقولون : "قد يطول ذلك إلى عشر سنوات ." "زمن النَّفى عند أعراب خليل يقدر بعشر سنوات ، التى إذا ما انتهت ، يصبح من حق خليل العودة إلى منزله . أليس عليك دم لأحد ؛ أليس ذلك هو الذى أوصلك إلى هنا ؟ خبِّرنَا ، هل أنت واحد من المجرمين أو الخارجين على القانون ؟ وإلا ، فنحن خائرين فيمن تكون أنت !

يرى البدو أن جريمة الدَّم، إنما هى من قبيل النحس الذى يصيب حياة أى إنسان من البشر ، وليست وصمة فى جبين الصداقة أو الرفقة الإنسانية . ذلك أن القاتل الذى يهرب إلى قبيلة أخرى أو إلى قرية أخرى ، إنما يحظى بالكرم العام ؛ بل إنهم يخصصون له مسكنا إذا ما كان بلا مسكن إلى أن يتمكن من استئجار منزل : هذا

يعنى أيضا أن المحسنين يدعونه لتناول الطعام ، إضافة إلى أن الرفاق لا يكون لديهم أى مانع من أن يضعوا أيديهم معه فى الطبق الذى يأكل منه . وهو من أمامهم عبارة عن هارب تعيس ، وليس شخصا آثما : معنى ذلك أنهم ينظرون إلى الجريمة التى ارتكبها على إنها خطأ إنسانى وليست خطئا مقدسًا (الذى هو الخطأ الوحيد الذى لا يغتفر) ، هذا يعنى أيضا أن ذلك المجرم لا يجدف فى حق الله عندما يرتكب مثل هذا الجرم .- والعرب عندما يرونى أجلس واضعا رأسى بين يدى يقولون : "لماذا تفعل هكذا ، يا خليل ؟ هذا الذى تصنعه ليس طيبا !" وعندما كنت أحملق فى جمال القمر الصافى مطيلا النظر إليه، كانوا يقولون لى: "لا تطل النظر إلى القمر على هذا النحو ، فهذا ليس فى صالح صحتك ." وأنا أرى ، أنه لا خطر من النوم فى العراء ، والوجه متجه إلى القمر الطالع ؛ وهذا هو ما يفعله البدو الرحل طوال شهور الصيف على امتداد حياواتهم : والبدو الرحل ، فى سوريا ، لديهم فكرة مفادها ، أن ضوء القمر ، أكثر من أى قدر من ضوء الشمس ، هو الذى سيصبغ وجوههم بالسواد . وكنت إذا ما رحت أنال قسطا من النوم، بعد صلاة العصر ، كانوا يوقظونى بلطف وهم يقولون لى : "لا تنم فى هذه الساعة ، يا خليل ، فهذا ليس فى مصلحة صحتك ."

بالرغم من أن الكلام عن العرب قد يكون بمثابة انفعال من الضمير الحر (الليبرالى) إلا أن الإنسان ينبغى أن لا يلتزم الحذر أو الحيطة تماما فى الكلام عنهم . استماع العرب غير المكترث ، للأشياء البسيطة التى كنت أقولها ، جعلهم يسيئون التصرف بمثل هذه الأقوال ، إلى حد كان يدهشنى كلما سمعت تلك الأقوال ، تتردد كما قلتها أنا ، على لسان العرب أنفسهم : هذا يعنى أن هؤلاء الأعراب كانوا يقوِّلونى أشياء لم أقلها أو أفعلها ؛ ومع ذلك كان الشيوخ مقتنعين دوما برفضى الصريح والمباشر لكل ذلك . حدث أن أحضرت لى أم طفلها المريض ؛ ونظرا لأنى أمسكت ذلك الطفل مسكة حانية من يده ، فقد قال الأعراب أنى ماهر فى قراءة الكف . قالوا عنى أيضا أنى أحضرت كنزا من الرجوم ، وعلى (حد قول أحدهم) "طالما أن لديك نقود ، فهل لك أن تشترى منى ذلك الذلول الذى هو ملك لى؟" دخل بعض الشباب علىَّ الخيمة، حيث كنت جالسا أقرأ فى كتاب، وعندما تركت الكتاب يسقط من يدى قالوا: "انتبهوا ، لقد وقف فى هذا الكتاب ، على مصيبة ستحل بواحد من أعزائه أو أحبابه !"

وأنا عندما كنت أتحدث مع البدو كلاما من باب الوعى الإنسانى العام ، أو إن شئت فقل : ذلك الكلام الذى يصلح لكل زمان ومكان ، كان الأعراب يستمعون إلى ذلك الكلام بإعجاب مشوب بالمتعة والسرور ؛ ويجىء رد فعلهم على ذلك الكلام رزينا ووقورا عندما يقولون "عَلَينَاك aleynak صادق Sadik بمعنى "كلامك مخفف للآلام وملطف أيضا" . زد على ذلك ، أن الأعراب العاطلين يجدون متعة أيضا فى الكلام المطاط الذى يحتمل الكثير من المعانى ؛ هذا يعنى أن الأعراب يقدرون ذلك الذى يستطيع تحريك عقولهم عن طريق الكلام ، ويرضون عن ذلك الذى يبعث المرح والسرور فيما بينهم . رجال الأعراب يقولون كثيرا عن الابتسامة ، إنها هى التى تريح الناس أكثر من أى شىء آخر ، وهم يرون أيضا أن الضحك يتسم بالجانب الإنسانى أكثر من أى شىء آخر ؛ ومن الصعوبة بمكان أن يختلف أولئك الأعراب أو يتنازعون مع شخص تمتعوا معه بلحظة من تلك اللحظات التى نسوا فيها أنفسهم .

وجه الأعراب إلىَّ ، ونحن جلوس حول نار المساء ، مئة سؤال وسؤال ؛ وكانت كل هذه الأسئلة ، تدور مثل العجلة الدوَّارة ، فى فلك ذلك الذى يتملك أرواحهم السامية semitic . ألا وهى عاطفة الدين . أما النساء فكن يسألننى بفضول غريب عن تلك الشيخة Sheykha الكبيرة (*) ، أو إن شئت فقل : تلك المرأه الملكية فى شعبى ، أو إن شئت فقل : أمتى ، "المرأة التى أكد خليل أن سلطتها أقوى من سلطة أى رجل فى هذه الدنيا كلها !" رد أحد الأطفال على ذلك الكلام بقوله : "والله ..كم هذه السيدة عظيمة ؟ خبرنَا هل هذه المرأة أكبر حجما من خيمتك التى تعيش فيها ؟" سألونى أيضا عما إذا كنت شيخا أم لا ، وهل لدى فرس فى بلادى ؟ كانوا يستمعون إلى ردودى على أسئلتهم بشوق مشوب بالرضا والانشراح ؛ كان من بينهم واحد أو اثنان يتدخلان عندما يريان أنى بدأت أحس بالملل ويقولان : "أنت يا من تسأله ، أين أدبك ودماسة خلقك ، لماذا تزعج الغريب ؟" . ومع ذلك كان الأعراب يعجبون بشكل عام كلما سمعونى أتحدث عن سلوكيات المسيحيين الطيبة . "(يقولون) طلبنا من خليل أن يحدثنا عن

(*) الشيخة الكبيرة : المقصود بها الملكة ڤيكتوريا التى وصلت إلى الحكم فى بريطانيا فى عام ١٨٣٧ ونصبت إمبراطورة على الهند فى عام ١٨٧٦ وحكمت أربعة وستين عاماً حتى وفاتها فى عام ١٩٠١ . (المراجع)

النصارى ؛ ووالله ، هؤلاء الذين نرى أنهم كفار ، يخشون الله أكثر منا نحن الذين نسمى شعب الله : يضاف إلى ذلك أن خليلا ليس عدوا ، ومن الذى يجرؤ على أن يقول غير ذلك ، وفكره وذهنه مثل فكر الأعراب" . كان الأعراب يتعجبون فى بعض الأحيان وهم يقولون : "حكى el-hîchy خليل Khalîl حلو helw" بمعنى "كلامى كان حلواً" فى آذانهم . كانوا ، مثل سائر كل الأعراب ، يتوقون شوقا ليسمعوا منى شيئا عن "جيزات jizzat النصارى en-Nasara" أو إن شئت فقل "الزواج عند النصارى" ، وكانوا يعجبون وأنا أحكى لهم مستفيضا عن الرباط المقدس الذى لا يباع ولا يشترى ، فى الزواج المسيحى !

أنا أعجب أيضا لذلك الظلام المطبق الذى يخيم على أولئك البدو الرحل فيما يتعلق بمسألة الدين عند الساميين Semitic ! قال لى هؤلاء البدو : "نحن مساكين وجهّال ! ونحن عندما تراودنا بعض الشكوك الدينية نستفتى فيها العلاونة (أى ولاد على) لأن أولاد على يكتبون كما يقرءون أيضا الكتاب المقدس ." ومن بين هذه المسائل الدينية – أن هؤلاء البدو المترحلين كانوا يصلون أكثر من جيرانهم فى الغرب أو الشمال – بعض هؤلاء البدو لم يسمعوا عن حياة ما بعد الموت ! كل ما يعرفه هؤلاء البدو الرحل هو أن من يغضب الله "سيلقى فى جهنم" . سألنى أحدهم ونحن جلوس حول نار المساء : "يا خليل ، هل هناك شىء بعد وفاة الإنسان ، خبّرنا عن ذلك ، (فكرة أن الشعب المعوز أو المحتاج ، عندما يضحى بالكرم ، يتحتم عليه فى أحيان كثيرة أن يغش أمعائه هو) وهل إذا قدم الإنسان الصدقات طمعا فى رضاء الله ، سيجد تلك الصدقات فيما بعد؟" الصدقة هى منة من عند الله ، وهى شفقة إلهية من جانب الرجل المستقيم ، يخرجها المتصدق بالضرورة لغوث شخص آخر ؛ ورددت على السائل من واقع الكتاب المقدس (الإنجيل) : "من يعطى الصدقات إنما يقرضها لله ؛ وسوف تحصد فيما بعد ، ذلك الذى تزرعه." – "لقد سمعنا أنه ستكون هناك نارا، وماذا بعد هذه النار ، يا خليل ؟" – "النصارى والمسلمون يؤمنون بأن الموتى سيبعثون ، ليقفوا أمام الله يوم الحساب ، فى وادى يقع أمام جدران (المدينة) المقدسة ، أو إن شئت فقل : القدس " - "el-Kûds أو ! أين المدينة المقدسة ، وأين تقع مدينة الخليل (مدينة "الصديق" ، "مقام إبراهيم ، أو إن

شئت فقل: حبرون(*) Hebron)؟ سمعنا أن الناس سيجمعون فى حفرة تحت "الصخرة المعلقة هناك" : فما هذا ، فى رأيك ، يا خليل ؟ ومتى ستسقط تلك الصخرة ، وهل هى صحيح معلقة فى الهواء ؛ وهل تبدو الصخرة كما لو كانت توشك على السقوط ؟" – الكهف وغطاؤه ، "الصخرة المعلقة" عبارة عن حفرة ، وردت فى دين محمد (ﷺ) عن إبراهيم والبطاركة ،) أو بالأحرى هى عبارة عن غرفة مسقوفة ، محفورة بكاملها فى صخره من الحجر الجيرى ، فى المنطقة المحيطة بمعبد جبل Mount موراية Moriah ، ومبنى فوق تلك الصخرة مسجد عمر : هذه الصخرة تشبه مسقى مائى صغير ، وهناك كثير من الخزانات الشبيهة بها والتى كانت تستخدم فى الزراعة قديما ، فى المنطقة المحيطة بأورشليم (القدس) .– "والحكم النافذ ، ماذا سيكون مصيرنا ؟" – "ستكون وجوه العادلين منوَّرة مثل ضوء الشمس ، سيقودهم الملائكة إلى جنان الرب ، حيث ، حسبما ورد فى الكتاب ، لا يتذكرون متاعب الدنيا التى لاقوها ؛ ولكن الأشرار سيهوون فى النار ، حيث لا ينتهى عذابهم ." – "هل سنعرف آباءنا ونراهم هم ومعارفنا ؟ حدثنا أيضا عن دينك . متى جاء عيسى ؟"– "دين عيسى بن مريم ، من روح الله ، أى أنها أعلى من السماء ! هذا الدين يحرم ويمنع كل المعانى والتعامل الشرير ، ويطلب من الناس أن يخشوا الله ويحبوه لأنه هو خالقهم ، وأن نعبر لجيراننا عن حبنا الإلهى لهم ؛ وأن نحيا حياتنا بلا أضرار وفى هدوء ، ولا نكره أحدًا أو نجعل منه عدوًا لنا ، وأن نتمتع بالصفح والعفو ." كان البدو يرددون ذلك الكلام بعدى وقد ظهر الإعجاب الدينى فى وجوههم : ولكن الأمر كان يبدو غريبا عليهم ، فيما يتعلق بحب الإنسان لعدوه أو خصمه ، فى هذا العالم العامر بالحقد والحسد ، وغير العادل بطبيعة الحال . "يا خليل، هل صحيح أن التبغ هو بول إبليس؛ وهل سيهوى "شاربو" drinkers الدخان محترقين فى جهنم ؟" – "يا لحماقة الأطفال هذه ! – ما هو إبليس أو الشيطان Sheytan ؟" لم يستطيعوا الرد على هذا السؤال ، وكانوا يتعجبون أن هذين الاسمين مسميان لشىء واحد :– بدا قولى لهم أيضا طريفا لغرابته !

(*) حبرون : موقع هذه المدينة فى الضفة الغربية لنهر الأردن على مقربة من مدينة القدس . (المراجع)

قمت فى عصر أحد الأيام بزيارة إلى تلك الرجوم التى تشبه خلية النحل (الصورة رقم ٦١) والتى كانت فى مكان قريب من المكان الذى كنا نخيم فيه ؛ كانت تلك الرجوم عبارة عن أكوام من التراب فوق التربة الجرداء القاحلة ، ولها أوزان معقولة وصلابة معقولة أيضا . أحصيت من بين هذه الرجوم ما يقرب أو بالأحرى ما يزيد على مائة وخمسين رجما . كان بعض تلك الرجوم متصدعا ، أما البقية فمن الواضح أنها سبق اختراقها والتجوال خلالها . هذه النباتات التى على شكل أكوام مستديرة ، أو على شكل شبه بيضاوى يصل عرضها إلى حوالى خمسة وعشرين قدما ، كما يصل ارتفاعها إلى حوالى عشرة أقدام . داخل هذه الأكوام عبارة عن زنازين عميقة ضيقة ، بواقع زنزانة واحدة ، أو اثنتين بل وأحيانا ثلاث زنازين فى الرجم الواحد، وهى مزودة بفتحات تشبه الفخاخ . عن طريق هذه الحفر التى من عمل الإنسان ، نزلت إلى بعض من تلك الرجوم ، حيث كنت أجد دوما بداخلها هواء يشبه هواء القبور ؛ ولكنى لم أعثر على عظام داخل هذه الحفر أو الزنازين . لاحظت أن الزنازين كانت مبنية بطريقة إنكماشية نحو الأعلى ، ومغلقة من أعلاها بقرميد من الحجر ؛ ومن فوق هذا الغطاء توجد بعض الأحجار السائبة صغيرة الحجم أو إن شئت فقل: الحصى ؛ زد على ذلك ، أن فتحات تلك الخنادق تبدو كما لو كانت آبارًا عند رءوس تلك الرجوم . وعند كل فتحة من هذه الفتحات ، كانت هناك حافة بارزة ، أو إن شئت فقل : قدم متقدمة حول المسارات الأرضية لبعض هذه الرجوم . هذه الرجوم كلها مبنية بالطريقة الجافة ، ومرصوصة رصا جيدا ، وهى مبنية من البازلت المأخوذ من الوادى نفسه . هناك فى وادى عروش أكوام أخرى من هذا القبيل ، كما أن هناك بعضا آخر من تلك الرجوم التى شاهدتها فيما بعد فى وادى الشلاَّل Shellal، ولكنها كانت أقل حظا من حيث مصنعية البناء . وبعض الرجوم التى تظهر لى من هنا ، على حافة الوادى ، هى أكبر من كل الرجوم الأخرى التى سبق أن رأيتها ؛ وفى منطقة هذه الرجوم التى عند حافة الوادى أشاهد مدقا من مدقات الأغنام المؤدية إلى أعلا الحرَّة ؛ ولكنى عندئذ كنت أبلغ من الضعف مبلغا عجزت معه عن الصعود إلى الحرة سيرا على قدماى . أخبرنى الشيوخ أن ذلك الذى رأيته لا يعدو أن يكون دوائر من الجدران ليس إلا . سألت الأعراب ، "أليست هذه الرجوم هى مقابر القدماء ؟" الإجابة : "خطر ذلك ببالنا ، ولكن

البحث والتفتيش الذى قمنا به فى العام الماضى ، أسفر عن عدم وجود عظام أو بقايا عظام فى تلك الرجوم .

اتخذت من دغل التين البرى الرطب ملجأ لى طوال بضعة أيام ، إذ كنت ألجأ إليه عندما تشتد حرارة الجو – والذى لم يكن ظله يدوم طويلا . كانت القطعان تتوافد على ذلك الدغل لترتوى من مائه الدافئ ، كما كانت تفد على ذلك الدغل أيضا ربات البيوت البدويات لتملأن قرابهن بالماء ، كما كان الرجال ينعشون أنفسهم بالاستحمام فى ذلك الماء . يوجد فى هذا الدغل بئران ، أولهما يقع خارج البيَّارة (وهو الأفضل) ؛ درجة حرارة الماء فى هذا الدغل تصل إلى ٨٣° فهرنهيتية . والبئر الموجودة داخل الدغل أو إن شئت فقل : البيارة (وماؤها فيه شىء من مذاق الكبريت) ينساب ماؤها فى بركة صغيرة من الصلصال ، مملوكة لبعض البدو الغائبين الذين يمتهنون الزراعة ، وهم يستخدمون ماء هذه البئر فى عملية الرى . هذا التين البرى (الحماة hamât) له أوراق صغيرة جداً ، تشبه أوراق أشجار توت الحدائق ؛ ونسغ أشجار التين البرية هذه ، يبلغ من الحموضة حداً يترتب عليه حدوث التهاب للجلد إذا مالامسه ، ويظل يحرق من يصيبه طوال يوم أو يومين . قلة قليلة من أشجار ذلك التين البرى ، هى التى يمكن العثور عليها فى هذه الصحراء ، وهى تنبت (بفعل زراعة الطيور البرية لها) حول مصادر المياه . وأنا لم يسبق لى أن رأيت بيارة من هذا القبيل فى الجزيرة العربية : بالقرب من هذه البيارة ، توجد مقبرة ، يعتقدون أنها منهل menhel، أو إن شئت فقل : مكان منخفض فيه ملائكة أو حوريات .

فى هذه الظلال الوارفة ، شاهدت ثعابين طويلة تشبه الكرباج ، كما شاهدت أيضا عناكب تبلغ من الكبر حداً تشبه معه راحة يد الإنسان ومعها أصابعه : كما شاهدت أيضا ذبابا كبيرا مختلف الألوان ، يلمع ويتلألأ فى هذا الفيض من الضوء المنكسر . كما شاهدت طول اليوم ، فوق تلك البركة الصلصالية سحابة من طيور الصحراء الرمادية التى تسبح فوق المياه ، وتجىء إلى هذا المكان قادمة من الصحراء ، لكى ترتوى وتطفئ ظمأها ؛ كما شاهدت أيضا بعض طيور خطاطيف الكثبان والمنخفضات ، فضلا عن بعض من يمام الصقور أزرق اللون ، وتلك كلها من الطيور التى تحوم حول مصادر المياه فى الجزيرة العربية . أسفل هذه البركة مباشرة ، فى

الوادى الواسع ، توجد بعض الأشواك الصحراوية ، التى نمت إلى أن أصبحت تشكل نوعا من الأخشاب ، ورجال المخيم يلوذون بتلك الظلال الهزيلة : وفى هذه الظلال يفرد الناس أجسادهم طلبا للنوم ، مفضلين تلك الظلال على الخيام ، وفيها يمضون ساعات الحر القائظ . منحدر الوادى خلف منطقة البيارة وبركة الماء يعد موطنا وملاذًا للحبارى الصحراوية التى لها أرجل حمراء اللون : فقد استمعت إلى تلك الحبارى وهى تغرد بلحن مرح لطيف ، طوال نهار الصيف بكامله . فى هذه المنطقة وحدها شاهدت الفراش يرفرف بأجنحته كما لو كان زهورا تتداعى فى هواء الصحراء . والأعراب يطلقون على ذلك الفراش اسم "الشَّرَّارة" Sherrâra ، – أما أهل الحضر فيطلقون على الفراش اسم "عيسون" aisûn وبخاصة فى المدينة (المنورة) .

مقبرة شيوخ المواهيب ، توجد بالقرب من البيارة فى ذلك الجزء الحجرى الوعر من الوادى . شاهدت فى منطقة المقبرة بعض الجدران الأرضية المهدمة المتخلفة عن مبانى جافة ؛ وبين أكوام الحجارة الكبيرة ، توجد مجموعة صغيرة من قبور مختلفة الشكل ، كما يوجد عدد قليل أيضا من المُصلَّيَات (أماكن الصلاة) ، من قبيل المصليات التى رأيناها عند ابن الرشيد فى الحجر ؛ هذه المصليات فيها متسع من الأرض يسمح للإنسان بالانحناء عند الدخول إليها ، وهى مفصولة عن المصلى العام بأحجار مرصوصة على شكل حدوة الفرس ، وقبلتها متجهة نحو مكة . فى تلك المصليات شاهدت ورأيت أفراد القبائل وهم يحضرون للصلاة على قبور أسلافهم . والبدو يحرصون على اجتياز ذلك الطريق أثناء الليل ، وهم يقولون إن الأشباح تجوس فى ذلك المكان ، الذى سكنه الكفار فى سابق العصر والأوان .

من هنا يصبح معنى "منهل menhel الملوك el-melúk"، "مكان إضاءة قوة الهواء." ولكنهم عندما وجدونى أحتقر خرافتهم هذه ولا ألقى لها بالاً "قال شاربو القهوة : يا خليل ، هذا صحيح بحق ، وبالرغم من أننا لم نر هؤلاء الكفار ، فقد رآهم آباؤنا ! هناك بعض القبليين الآن ، الذين مازالوا على قيد الحياة وهم على استعداد أن يقسموا أنهم سمعوا وداسو بأقدامهم ، فى رقصاتهم ، وسمعوا أصوتهم ، وأغنياتهم ، أثناء الليل ، وأنهم فهموا كلامهم ؛ وأن ذلك حدث فى زمن كانوا يجيئون فيه للصيد فى هذا المكان ، وكانوا يقيمون فيه وحدهم هنا فى هذا الجزء من وادى تربة :– وأنهم كانوا

متأكدين تماما من عدم وجود أى أحد من الأعراب مخيما فى ذلك المكان فى سائر أنحاء الوادى ." يردف هؤلاء البدو قائلين : "لو حاول أحد نزع غصن من الأغصان ، فسوف يُمْسَك به فى الهواء ، ولن يراه أى أحد بعد ذلك ؛ أو قد ينسى عقله ، ويهيم دوما فى أنحاء الخلاء (الصحراء) بلا طعام أو شراب ." حكوا لى أيضا عن حادث وقع منذ فترة طويلة ، لواحد من أثرياء الطُّوَالة Tuâly – كان ذلك الطوالى معروفا لكل الأعراب ، – هذا الرجل (بالرغم من الخرافة السائدة بينهم) أضرم النار فى واحدة من تلك الأشجار المسكونة التى تنمو فى الجاو Jau : "ولكن ذلك الرجل بعد أن قاسى الكثير من المرض الخطير ، برزث أمعاؤه من شرجه وانتهت حياته نهاية مأساوية : ومات أطفاله أيضا بنفس الطريقة، كما نفقت كل ماشيته أيضا بالطريقة نفسها!" كان ذلك الرجل يملك حوالى أربعين جملا . تلك كانت إشارة أو علامة من علامات السماء الصامتة فى زمنهم ، والتى سجلت فى الكتب (هل كان لدى هؤلاء البدو معرفه سطحية بالقراءة والكتابة)، وربما انتقلت تلك الخرافة إلى الأجيال التى جاءت بعد ذلك ! كان البدو يقولون لى دوما أن أحداً من الأحياء لم ير تلك الرؤى الملائكية ، – وهم يقولون إن هذه العلاقة جاءتهم عن طريق القدماء . "سألونى ، إذا لم تكن تلك التوضيحات من قبل الملوك ، فماذا تكون ؟" الملائكة يُرَون فى الهواء على هيئة فرسان ، يتقدمون إلى الأمام ويرجعون إلى الخلف ؛ هؤلاء الملائكة "يختفون ، بالله ، من منظوركم ."

هناك أيضا بعض "المناهيل" menahil فى أجزاء من الجزيرة العربية ، بل وفى كل ديرة من ديار البدو الرحل . هذه المناهيل تتمثل بصورة عامة فى بعض الأشجار وبعض الأعشاب أيضا التى توجد فى الخلاء ، أو إن شئت فقل : الصحراء . فى تلك المناهيل ، يقوم القبليون المرضى أثناء ترحالهم ، وعندما يصلون إلى تلك المناهيل ، بذبح شاة ، قربانا لتحسن صحتهم ، أو عنزة ، ويروحون ينثرون دماء هذه الذبائح هنا وهناك . ويقوم ذلك المريض بطبخ لحم الذبيحة فى المكان وتوزيع لحمها المطهى على أصدقائه ، ويترك بعضا من ذلك اللحم معلقا على أغصان ذلك المنهل : ثم يستلقى بعد ذلك لينام على الأرض بدافع من إيمانه العميق بخرافته أن الملائكة سيجيئونه فى الرؤية، ويتكلمون عن بعض الدروس المهمة فى صحته. "يستيقظ المريض سليما ومعافًا؛ لكن إذا ما كانت صحة أى إنسان تسمح له بالنوم فى المنهل ، فإنه يصحو فى الصباح

محطما ومعتل الصحة ." والجاو Jau فيها منهلان ، أحدهما دغل من أدغال نبات "السرحاح" Sarhâh ، أما المنهل الثانى فهو عبارة عن واحدة من أشجار الأرو Oak دائمة الخضرة التى يطلقون عليها اسم "البوتم" butm أو الثَّروْة" Thirwa ؛ هذه الأشجار المسكونة (من الجن) يعلق عليها هؤلاء البدو الرحل أنواعا كثيرة من الخرز ، وكذلك شرائح من القماش ، وتمائم من مواد مُلَوَّنة ، فضلا عن كثير من الأشياء الأخرى . ومن بين المناهيل أيضا ذلك النبات الشوكى الصحراوى الضخم الموجود أمام القلعة قبل قرية ، أو إن شئت فقل : وادى الحجر . – ترى هل مسألة خرافة أشجار المنهل هذه ، بقية من بقايا عبادة الأشجار ، التى نعرف أنها سادت الجزيرة العربية وانتشرت فيها .

هذا الشيء نفسه ، نجده مستمرا أيضا ، فى الريف والحضر ، فى البلاد العربية المتاخمة للحدود . فى كل هذه الأراضى المفتوحه نجد أشجارا ، وأماكن ، يصلى الناس لها ، وذلك فى المنطقة بدءا من سوريا إلى مرَّاكش (المغرب) : فى هذه الأماكن ، يعلق كل من يفد إليها من أجل الصلاة خرقة من القماش على تلك الأشجار إشارة إلى الصلاة التى أجيبت فى ذلك المكان . ما أكثر تلك الأدغال التى لا تعطى ظلا ، فى وقت الحر ، لعابر السبيل هذا الظمآن الذى لفحته حرارة الشمس ، الذى يروح يركع ويسجد أمام تلك الأدغال ، فى وادى بردى Barada ، بالقرب من دمشق ، حيث ما تزال هناك بعض الأعراف والاحتفالات الوثنية بين المسلمين ، قمت بزيارة اثنتين من بيارات أشجار السنديان دائمة الخضرة ؛ هاتان البيارتان تعدان من أماكن التمنى والأمنيات عند الفلاحين . هؤلاء الفلاحون إذا ما تحقق لهم شيئًا يكونون قد تمنوه ، يبادرون بالذهاب إلى إحدى هاتين البيارتين فى يوم محدد من أيام العام ليقوموا هناك بتكسير قطعة من الفخار ؛ أو قد يضعون تميمة جديدة فى كهف صغير موجود تحت صخرة فى البيارة الثانية . هذا الكهف ، شاهدته ممتلئا تمامًا بأوانى القرابين : هذا يعنى أن الإنسان يرى تلك البيارة الثانية كومة من قطع الفخار المكسور . [هاتان البيارتان موجودتان فى ساحل الوادى ناحية الغرب فوق قرية الزبدانى Zibdany .] – تلك هى معتقدات عامة وشائعة من معتقدات الوعى الإنسانى الخرافى غير المنطقى فى سائر أنحاء الدنيا كلها . الأمثلة على ذلك كثيرة جدًا على نحو يصعب معه حصرها ،

وبخاصه فيما يتعلق بأشباح الملائكة ، التى وردت فى كتاب موسى ، وفى التواريخ المقدسة لأزمان أو عصور إسرائيل الأولى . لدينا مثالا مدهشا [بالرغم من عدم وجوده فى النص الأصلى] فى العهد الجديد : فى مواسمه تنزل قوة الهواء لتربك خزانا فى أورشليم (القدس) ، ومن ينزل فى البداية إلى الماء ، كان يشفى من وهنه .

سألت هؤلاء البدو الرحل عن عادات الدفن عندهم وعن طقوس الموت أيضا . الميت عندهم يدفن فى نفس يوم الوفاة ، وإذا ما مات فى المساء دفنوه فى الصباح . وهم يغسلون الجثة ، ويكفنوها فى قماش أبيض جديد : وهم يحفرون بشدة ، باستخدام أيديهم أو عصا من العصى ، فى التربة الحارة ، قبرا ضحلا . وهم يوجهون قدمى الميت ناحية مكة (القبلة) ثم يقومون بوضع كومة من الأحجار الجديدة حفاظا على الجثة ؛ ومع ذلك فقد وجدت قبورهم فى الصحراء وقد نبشتها الضباع الضارية ، كما شاهدت أيضا الأكفان مجرورة إلى سطح الأرض . وقد أبلغنى ماهوبى Muhûby أنهم "يحلقون رأس الميت ، ويذرون شعره فى الريح؛" وإذا ما ثبتت صحة كلام ذلك الماهوبى، فهذه العادة لا وجود لها فى أى مكان آخر من الجزيرة العربية. قال لى الماهوبى أيضا: "هم لا يحلقون شعر المرأة ، وهم يدفنون معها مشط شعرها . وهم يدقون وتداً من أوتاد الخيمة عند رأس قبر ربة المنزل" . وهم ينثرون العطر على نعش المرأة عندما يحملونه . والمرء عندما يموت يقوم أقاربه بذبح نعجة عند قبره ، ولكن دون أن ينثروا دمها ؛ وهم يسلقون لحم النعجة ويوزعونه على المشاركين فى الجنازة . وفى الذكرى التالية للوفاة يجتمع أو إن شئت فقل : يتجمع أصدقاؤه عند أقرب أقاربه.

الذى يذبح ذبيحة بقدر ما تسمح به ظروفه وحسب مقدرته – والبدو الرحل أصحاب ورع شديد فيما يتعلق بهذا الأمر – إذ إن الذبيحة ينبغى أن تكون بقرة أو جملا ؛ ولكن نظرا لعوز تلك الأسر وفقرها ، ونظرا أيضا لعدم توفر القطعان ، فإنهم يبيعون ثلاثة أو أربعة من الأغنام أو الماعز ، ويشترون بثمنها "فطيراً Fatir ، أو إن شئت فقل : ناقة فقدت أسنانها الأمامية ، ولم تعد تحمل (تنجب) : ويقومون بإعفاء تلك الناقة من كل الأحمال ويتركونها تسمن عدة أشهر .– وهم لا يقدمون أضحية . أو إن شئت فقل : ذبيحة ، للمرأة الميتة .

بينما كنت جالسا ذات يوم فى الظهيرة بالقرب من الحماة hamat (شجرة التين) جاءت مبليس Miblis زوجة طُلُّج الشقراء الشابة ، ومعها خمسة أو ستة من قراب الماء: سألتها عن سبب كثرة القراب فى ذلك اليوم ؟ أجابتنى : "سيقيم طُلُّج الليلة وليمة ، وسوف يذبح بعيرا صغيرا ؛ ولا تنسى يا خليل ، أن تحضر تلك المناسبة ." – وعندما كنت أجلس ضمن مجلس العصر سمعت أن الشيخ سوف يحتفل بتمام السنة اليوم ، وسوف ينحر ذبيحة تأبينا لوالده من ناحية ومولاه من ناحية ثانية . خرج طُلُّج عندما أوشكت الشمس على الغروب ، ونادى طالبا إحضار سكين ، ثم شمر كُمّيه ، – نظرا لأن رب الأسرة هو الذى يتعين عليه أن ينحر ذبيحته : وكانت ناقة وبعيرها تقف خارج الخيمة . صاح أحد الحاضرين قائلا : "انتظر ! لماذا تفعل هكذا يا طُلُّج ؟ والرضيع أنثى . اذبح شاه ، يا أنت ، أو عنزة بدلا منها ." ورد عليهم حامد ولد الشيخ" – على من ستحل لعنة هذا القربان فى يوم من الأيام ، "ولكن هذه الناقة الرضيعة ترفض الرضاعة ، ولذلك قررنا ذبحها ." كان ثمن تلك الأنثى الصغيرة يتراوح بين ثلاثه وأربعة ريالات ، إضافة إلى أن ذلك الثمن كان يزداد بمعدل ريال واحد كل شهر . لم تفت تلك الكلمات فى عضد الشيخ . فعل الواقفون ، ذلك الذى أمرهم به الشيخ ، ووضعوا أيديهم الخشنة على البعير الصغير وطرحوه أرضا وهو يناضل ويزمجر . وعندما شاهدت الناقة الكبيرة ذلك التعامل الخشن مع وليدها ، اتجهت نحوه ، وأنزلت عنقها الطويل ، وزمجرت زمجرة عاطفية من خلال حلقها الكبير ، كانت تلك الزمجرة مليئة بالمتاعب . أحدث طُلُّج جرحا عميقا في رقبة تلك الضحية البائسة ، وكان ذلك الجرح بالقرب من صدر البعير الصغير ؛ كانت الأم البائسة تقطع المكان جيئة وذهابا وتدور من حول نفسها ، وتتشمم الدم وسرعان ما وضع لحم البعير فى الأوانى ، التى راحت تغلى فوق نار البدو الضعيفة المكونة من قليل من الحطب وشيء من روث الإبل . وعند منتصف الليل أصبحت وجبة الوليمة التى أقامها طلج ، جاهزة ومعها أيضا الأرز المطبوخ . كنت قد غادرت المكان لكى أنام ، ولكن ذلك الرجل العجوز الطيب لم ينس الغريب ؛ فقد أيقظنى مراسله ، بعد أن وضع طبقا شهيا خلف باب خيمتى ؛ "هذا الطبق من عند طُلُّج ، هيا انهض وتناول عشاءك ." لحم البعير الصغير هذا طرى وحلو المذاق مثل لحم العجول الصغيرة . والبدو نادرا ما يأكلون لحوما غير اللحوم التى

يذبحونها هم بأيديهم ؛ ولكن يتعين أن تكون الذبيحة من النوع الذى يذبح بأيديهم ؛- والبدو يندر أن يأكلوا لحوم الصيد أو الطرائد .

ونحن عندما نتكلم بصورة موجزة عن الأضحيات التى يقدمها هؤلاء البدو الرُّحل فى الصحراء نقول : إن الطفل الذكر ، عندما يولد يذبح له والده نعجة ، ولكن الطفلة الأنثى لا يذبح لها والدها شيئا . وسبق أن تحدثت عن نثر الدم على الأرض ، كما أنهم يسكبون الدم أيضا فى أساس المنزل الجديد عند بنائه ؛ وهم يلجأون إلى مثل هذا العمل عند افتتاح مصدر جديد للمياه ، أو توسيع بئر من الآبار . وعندما يعود الغزاة بغنيمة من غزوهم ، يقال لهم "فيض" feyd أو "شسَّاب" Chessab . فى هذا "الفيض" أو "الشسَّاب" تخرج النساء ترقصن وتغنين لاستقبال أولئك العائدين من الغزو : ويجرى فى نفس الليلة تلطيخ ذلك الشسَّاب بدم الذبيحة أو الضحية . هذا هو متعاد Metaad ، واحد من جيرانى ، أرسل لى هدية من لحم عنزة سمينة كان قد ذبحها فدية لجمل مريض ؛ و "هنا ، قال الأعراب ، سوف تبدأ صحة الجمل فى التحسن ." وهذا هو ربا Rubba، الراعى المسكين ، أقام وليمة عشاء لأصدقائه ، مقسما بينهم لحم عنزة ، كان قد نذرها عندما كان مريضا ويحس بالألم . وهذا هو سويش Swoysh ، يقدم أضحية لمولاه ويقوم بتوزيع أجزاء الذبيحة فى خيمته ، ولم نتناول عنده طعاما . هؤلاء البدو على قناعة من أن تأخير تقديم الذبيحة لن يكون فى صالحهم وقد يضرهم . وهم يطلقون على الأضحيات الدينية كلها اسم "قربان" Kurbân . ولقد شاهدت بعض حضر المدينة (المنورة) يطلقون قليلا من البخور قبل نحر الأضحية أو إن شئت فقل : القربان ، نظرا لأن رائحة الطيب "مقبولة عند الله" ، كما أنها توجه عقولنا نحو الدين . - وفى الأماكن التى يكون الناس فيها هم الجزارين ، فلربما (مثل العرب) يكونون أكثر ميلا لإهدار دم البشر . والبدو عندما يقدمون أضحية (قربان) للجان ، فهم يقدمون أيضا قربانا للشياطين . والواحد منهم عندما يقدم قربانا من أجل الصحة ، فإنهم يعتقدون أن ذبح الخروف أو العنزة إنما يكون فداء عن حياة الجمل أو حياة البدوى هو نفسه ، بمعنى أن تلك حياة من أجل حياة . [وعليه فإن ذبح شاة أنقذ حياة ولد (سيدنا) إبراهيم.] هذه الأضحيات التى يتناولها الناس فى الصحراء بصورة جماعية تخفف قليلا من جوع أولئك البدو المستمر ؛ - هذه الأضحيات أو القرابين التى

هى نداء من عند الله العاطى ، عبارة عن تناول لعشاء ربانى من الخبز والملح مع الله (سبحانه وتعالى) !

انتظرت على أمل مواصلة الرحلة إلى خيبر . مرت على أيام عجاف ، كنت لا أرى خيبر تقترب منى خلالها ، كما تناقصت خلالها قدرتى على الترحال والانتقال . كان محصول التمر قد بدأ ينضج فى تلك الوديان الحارة . والمؤكد أن المواهيب كانوا قد ذهبوا إلى تلك الوديان مع بدو الفجير ؛ ولكن كان قد سبق لنا معرفة أن بدو الفكارة لم يذهبوا إلى خيبر فى ذلك العام ، إضافة إلى أن بدو الفكارة ، بحكم قلة عددهم لا يجرؤن على عبور منطقة موبوءة (فى هذا الموسم) بعصابات الغزو ، كان رسل شيوخ الفجير قد عادوا من خيبر ، ويحملون معهم أنباء مفادها أن "قسما كبيرا من تمر النخيل قد أكلته أسراب الجراد ، وأن جنود المدينة (المنورة) كانوا فى خيبر ليأخذوا مستخقاتهم من ذلك التمر" ؛ وبلغنا ، عندئذ أن الشيوخ والقبليين قرروا التنازل عن محصولهم فى ذلك العام . ومعروف أن ضريبة الدولة (الإمبراطورية العثمانية) كانت تقدر بواقع ريال مجيدى واحد عن كل ستة من الإبل ، أو ريال مجيدى واحد عن كل أربعين رأس من الماشية الصغيرة ، – والناس هنا يقولون ، إن هذا أخف وأعدل من الضريبة التى يفرضها جباةٌ ابن الرشيد ، والتى يعدونها أيضا معتدلة وغير مبالغ فيها ؛ ولكن ذلك يحز فى نفوس أولئك البدو الذين ليست لديهم أيه خبرة فى المسئوليات أو الأعباء العامة .

كيف لشيوخ الفكارة أن يواصلوا حياتهم فى غيبة تمور خيبر عنهم ؟ – "عن طريق بيع بعض مواشيهم الكبيرة ، نظير الطعام ، فى القرى ؛" ولكن ماذا تفعل الأسر القبلية الفقيرة ؟ – "بوسعهم تأجير أفضل إبلهم ، لجلب الماء من الآبار فى الواحات ، مقابل عدة مكاييل من التمر كل شهر ." يضاف إلى ذلك أن الإبل القوية بدنيا قد لا تتحمل العمل فترات طويلة ؛ يتحتم بعدها إطلاقها إلى الصحراء ؛ والبدو يقولون ، إن المجموعة القوية والجيدة من الإبل لا تتحمل العمل لمدة تزيد على مائة يوم . هناك بعض من أصحاب الآبار ، الذين يشغّلون تلك الإبل بصورة مستمرة ، الأمر الذى يجعلها تهن وتضعف فى النهاية . يضاف إلى ذلك أن الأشخاص المتذمرين ، فى وقت الشدة والعوز ، يفرضون أنفسهم على الموسرين من رجال القبائل ليحصلوا منهم

على شربة صغيرة من اللبن ، من باب مرضاة الله ، كما يطلبون منهم أيضا شيئا يقتاتون به فى الغد . ولقد شاهدت ربات البيوت الغاضبات الحانقات وهن يقدمن تلك الصدقة التافهة بتراجع شديد ؛ ومع ذلك ، فإن هذه الصدقة القليلة ، تعطى وتقدم لهؤلاء الناس ، مخافة من الله وتحاشيًا لألسنة الناس وكلامهم . ولما كان الفكارة قد عقدوا العزم على عدم الذهاب إلى سوريا ، فقد قرروا ألا يقيموا هذا الصيف مخيمات دائمة ، وأن يواصلوا السير هم وإبلهم ، هذا يعنى أن كل أسرة من الأسر سوف يتعين عليها شرب الحليب فى المساء . لم يكن فى مُنْزلنا أحد يمكن أن يغامر بإرشادى إلى خيبر وتوصيلى إليها . ومع ذلك ، كنت أود مشاهدة خيبر ، ونظرا لضعفى وقلة حيلتى ، قررت أن أنهى رحلتى فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية ؛ ترى ، ما هو ذلك السبب الذى يجعلنى أرهق حياتى بصورة مستمرة، عن طريق تعريضها للخطر بصورة دائمة؟ أو ما هو ذلك السبب الذى يجعلنى أعانى هذا الكرب والبلاء ، وأنا أواجه ذلك التعصب والتطرف فى سائر أنحاء هذه البلاد المسلمة Ishmaelite ؟

رجانى الموهاهيب أن أكتشف لهم المياه القديمة . ورغبة الموهاهيب فى تلك الميزة الدائمة تفوق بكثير جشعهم العبرى وطمعهم فى الذهب . هؤلاء الموهاهيب على استعداد للتضحيه بكل المزايا المؤقتة ، فى سبيل منجم الماء الذى يدر عليهم زبدا وحليبا بصفة مستمرة . وبينما كنت جالسا فى المجلس ، سألنى بعض الشيوخ : "هل أستطيع أن أفتح لهم بعض المياه الميتة فى وادى تربة ؟" سألتهم :"ألم يحاولوا هم أنفسهم القيام بذلك ؟ طلّج : "إذن خليل سيكشف لنا الماء . ونحن موافقين على أن يأخذ الكنز الذى سيعثر عليه ، ويكون حكرا عليه وحده !" كانت بئرا قد تفجرت مؤخرا تحت الجانب البعيد من الوادى ، ولكن جرى توقيف ذلك النبع عن طريق سيل من الأحجار ، ولم يستطع البدو توحيد جهودهم من جديد لإعادة فتح تلك البئر من جديد . "سوف أشرع فى ذلك العمل ، وعليكم أن توجدوا لى كل صباح رجلين أو ثلاثة ليكونوا بمثابة عمال معى ." – رد علىّ طلّج متسائلا : "ولكن من ذا الذى سيخرج معك ؟ إن مثل هذا الرجل سوف يطالب بدفع أجره مقدما ، ونحن ليس من سلطاتنا إجبار أى أحد على فعل أى شىء من أى نوع كان ." – "وأنت إذا كنت جبانا إلى هذا الحد ، فمن ذا الذى يمكن أن يساعدك ؟" – "يجوز لك أن تقول ، – البدو ! البدو ! يا خليل . ولكن يستطيع

خليل فى أضعف الأحوال أن يدلنا على منبع الماء ، الذى شاهدتم مجراه المكسَّر يوم أن كنا فى الوادى ." قلت لهم : إذا أركبونى فقد نستطيع الذهاب إلى هناك ونبحث عن ذلك المنبع ؛ ولكنهم حتى : مع مثل هذا الموقف كانوا عاجزين عن اتخاذ القرار .

كنت قد شاهدت من قبل دلائل وإشارات الماء الجوفى فى الثُّريِّد Thorreyyid ، وتمنيت لو تركت لدى هؤلاء البدو الرحل مزية دائمة طيبة عن رحلة النصرانى وضيافته فى ديرتهم ، والأعراب يطلقون على حفر المياه الضحلة التى يستطيعون من خلالها الوصول إلى المياه الجوفية ، اسم "ذميلة" Themila وجمعه "ذمايل" Themeyil . قلت : "لعلهم يوفدونى مع مجموعة صغيرة من الرجال فى تلك المهمة ، ولم أطلب مقابلا لذلك سوى حليب الناقة ." وفى ظل الحرارة الشديدة فى هذا الجزء من العام، لن يشعر أحد بالمتاعب أو الآلام؛ كان الكثيرون منهم تراودهم الشكوك حول ما إذا كان الغريب – من أجل شىء قليل من الحليب – سيضللهم ، وبخاصة عندما وجدوا أنى لم أطلب منهم مكافأة من نوع بعينه ؛ – والسبب فى ذلك أنه يستحيل على هؤلاء البدو أن يسلموا بأن أى إنسان آخر لا يمكن أن ينتوى سوى الخير لجيرانه . وهنا قلت لهم : "لا تكثروا من هذا الحديث ؛ وأنا أعرف ، يا طُلَّج ، أنه إذا ما فتحت عين من عيون الماء فإنها سوف تثير نزاعا كبيرا بينكم (الأعراب يهوشون Yuhowwishun) حول حقوق استعمال الماء." اكتشاف عين من عيون الماء يمكن أن يسبب القلق والنزاع حتى بين الأقرباء ؛ وهذا النزاع يمكن أن ينكأ جراح الماضى ؛ وقد يعجز شيخ القبيلة عن احتواء مثل هذا القلق أو النزاع بين الأعراب : وقد بلغنى أن هؤلاء الأعراب كانت بينهم مشاحنات حول مياه البيارة . ورد على طُلَّج قائلا: "يا الله ! هذا أمر طيب ولطيف ؛ (وأردف طُلَّج متعجبا) ، ولكن من أين لخليل بكل هذه المعرفة عن الأعراب!"

حاول بعض البدو إقناعى "طالما قطعت هذه المسافة الطويلة وربما تصعب علىّ العودة إلى بلادى ، فالأفضل لى هو البقاء فى وادى تربة ، وزراعة ذلك الوادى ." – "وماذا عندما ينتقل أو يرحل الناس عن الوادى– ؟" الإجابة: "سيبنون لى قلعة، ويتركون معى بعضا من الرجال ؛ وأنى يتعين علىّ افتتاح أو إن شئت فقل : اكتشاف المزيد من المياه المخبأة، وأن الوادى سوف يخضر لونه بفعل جدى واجتهادى ." سألتهم : "لماذا لم يحضروا هم بعض الرجال من قرية العلا على أن يقتسم المحصول فيما بينهم ؟" –

وأجابونى قائلين : "العلاونة ليست لديهم الشجاعة كى يتجولوا فى هذا المكان ." – وكنت قد سألت العلاونة أيضا لماذا لم يرسلوا بعض المستوطنين إلى الوادى القريب منهم الذى يوجد الماء فيه على عمق قليل ، وأرضه خصبة ؟ الإجابة : "إن من سيذهب إلى هناك سيعيش فى خوف دائم ، وما هو ذلك الذى يمكن أن يوفر لهم الأمن فى ذلك الجزء البرى من البلاد ، وما الذى يمكن أن يحمى عقيدة البدو الصغيرة."

جرى تناول أمرا هاما فى المجلس ، "مسألة خضوع القبيلة أو عدم خضوعها لابن الرشيد ؟" – كان ذلك هو الجدل أو النزاع السائد بين شيوخ السراحين . فى السابق كان أولئك الموهاهيب ، أو إن شئت فقل: أبو Abu شامة Shamah ، يقدم الزكاة ، أو إن شئت فقل : العشور إلى الجبل Jebel (*)؛– إلى عبد الله الأمير الأول ، واستمر ذلك إلى بداية حكم طلال . كانت تلك الزكاة عبارة عن ضريبة خفيفة عن كل خمسة من الإبل ، تصل قيمتها إلى ١٨٠ أو ٢٠٠ ريال ، وكانت تفرض الضريبة نفسها على كل ثلاثين رأس من المواشى الصغيرة بواقع ١٠٠ ريال . واعتماداً على جبل الحرّة ، راح أولئك البدو يمتنعون عن دفع الفدية الصغيرة ؛ وعندما كان عبيد بن الرشيد عائدا ذات مرة من حملة كان يقوم بها على تهامة ، عرّج ليغزو منْزل الموهاهيب على أحد جانبى العويرض ، ولكن هؤلاء الجباليون تفرقوا هاربين فى جوانب التلال ، وتحاشوا الاشتباك مع ذلك السرِّب المعادى . وعندما أيقن عبيد أنه لن يستطيع إخراجهم من بين الصخور الوعرة ، تراجع حاملا معه غنائم بيت واحد من بيوت الموهاهيب ؛ ولكن كان "من بين تلك الغنائم ، أولئك الذين أصيبوا بجراح بفعل نيران الموهاهيب ، على امتداد الطريق المؤدى إلى تيماء ."

ذات يوم ، وعندما كانوا يتدارسون فى المجلس السياسة التى يجب أن يتبعونها مع ابن الرشيد شاهدوا ، قبيل غروب الشمس ، القمر الجديد ، أو إن شئت فقل : الهلال ، عن بعد . وهنا وقف طُلّج ومعه بقية الحاضرين ، وخرجوا من خيمة المجلس وراحوا يطيلون النظر ويحملقون فى ذلك النجم الحبيب ، ثم وجهوا وجوههم نحو

(*) الجبل : جبل شمر مركز حكم أمراء آل رشيد . (المراجع)

السماء وراحوا يدعون الله متوسلين ، "أن يحسن الله أحوالهم فى زمن هذا القمر ، وأن يخلصهم الله من أعدائهم ." ثم قال لى طلّج بعد ذلك متسائلا : "ما رأيك ؟ هؤلاء أصحاب الجبل Jebel (أى حكومة بن الرشيد) يقولون عنا إننا مشركين Mushkrakîn ، أى نعبد الأوثان ، لأننا امتنعنا عن إعطائهم الزكاة ، يا خليل ، هل عثرت خلال ترحالك على أعرابى يصلى أكثر منا ؟ هؤلاء البدو ، الذين التقيتهم أنت فى الأجزاء الشمالية ، أو بالأحرى أهل Ahl الشمال es-Shemàl ، هل يصلون ؟ – ما رأيك ؟ – لا ، إنهم لا يصلون إلا قليلا، إنهم أقرب إلى أهلك ، النصارى ." بدأت أجيب على تلك التساؤلات مؤكداً أن أهل الشمال هم الأفضل والأحسن ولكن الشيخ المتين لم يفهم ما قلت: "قال: أنت صادق الرأى ، لقد وقفت بنفسك أننا أفضل من أهل الشمال ؛ إنهم لا يصلون أكثر من الكفار ، أما نحن فمسلمين . أليس من صالحنا ألا ندفع الزكاة لابن الرشيد؟" – "طالما أن الزكاة خفيفة أليس من الأفضل لكم أن تؤمنوا أنفسكم من المواجهة ، بدلا من الهجوم عليكم من الأجناب الأمر الذى يترتب عليه ضياع عدد كبير من إبلكم ؟" – "صادق ، بالله ! ونحن ليس لدينا ما نخشاه أو نخافه من الخلف ، حيث كل الموجودين هناك ، إلى جانب الحويطات ، هم كلهم أصدقاء لنا ."

بعد أن أعرب هؤلاء القبليون عن رأيهم الذى مفاده أن الفنون كلها من عند النصارى ، كانوا يلجأون إلىّ ساعات طوال ومعهم سيوفهم الطويلة وسيوفهم القصيرة أيضًا ويسألونى عن إمكانية التعرف على طباعهم أو أمزجتهم ؛ وهذا الطبع أو المزاج هم يتعرفونه من خلال تشمم الصُّلب ، أو قد يطلقون أنفاسهم على نصل السيوف ، ويروحون يراقبون بخار الماء وهو يختفى من فوق أنصال تلك السيوف . بعض آخر منهم كان يضع بنادقهم الطويلة بين يدى ، وعندما كانوا يرون نقوشا على تلك البنادق أو الأسلحة ، كانوا يطلبون منى قراءة تلك النقوش . – وسوف أقول شيئا قليلا عن الأسلحة الشائعة بين هؤلاء البدو : بنادق الجزيرة العربية الطويلة ، هى دائما من نوع البنادق الفتيلية . وأفضل أنواع هذه البنادق هى تلك التى جلبها هؤلاء البدو من أوروبا فى قديم الأزل ؛ (وباستثناء بعض هذه البنادق التى صنعت مؤخرا فى أسبانيا وفى مصر) ، فإن كل هذه البنادق الفتيلية تنتمى إلى قرون ماضية . لقد مضى على تلك البنادق ستة أو عشرة أجيال اعتبارا من امتلاك أسلافنا لها ؛ لقد بيعت تلك البنادق فى

أماكن بعيدة من أسواق الشرق. والناس هنا يطلقون على أفضل أنواع البنادق الفتيلية اسم "الأزّارى" el-Azzary – وقد قرأت على تلك البنادق العلامة التجارية التى كانت مكتوبه بأحرف لاتينية "لازاريون Lazzarion كومينازى Cominazzi " ؛ وتجىء بندقية "المجار" el-Majar الفتيلية فى المرتبة الثانية ، وهى أيضا بنادق قديمة – لا يستطيع البدو معرفة أى شىء عن تاريخها – وهى من صناعة المجر Hungary، وربما كان الأتراك هم الذين جلبوا تلك البنادق إلى مدن الحدود . وتجىء فى المرتبة الثالثة البندقية الفتيلية الإنجليزية el-Engleysy ؛ وهذا أيضا اسم من الأسماء الواردة ضمن أنواع هذه البنادق ولا يعرف هؤلاء البدو أى شىء عن تاريخه . والبنادق الإنجليزية لا توجد عليها نقوش . وفى كل نوع من أنواع تلك البنادق يعلق البدو أهمية كبيرة على المعدن المصنوع منه البندقية . ومعروف أن الحدادين فى الجزيرة العربية لديهم خبرة كبيرة فى ذلك . هؤلاء البدو يعتقدون أن نوعية تلك البنادق تنحصر فى أمرين ، مثلما كان أسلافنا يقولون عن أقواسهم ، هما : الرماية السريعة والرماية البطيئة . "يقولون : إن المعدن الجيد يظل دوما نظيفا وأنيقا ، ويلمع فى القم مثل فنجال القهوة ." أما المعدن الردئ فيتلف بسرعة ؛ ولكن كل أنواع المعادن لابد أن تتسخ بسرعة بفعل شحنات البارود الضعيف ذات الحبيبات الخشنة . ولقد شاهدت بعض البنادق القديمة الطويلة ، تقذف الطلقة سيئة الصنع إلى مسافة حوالى مائتى ياردة .

والعرب يثمنون الأسلحة غاليا كلما زادت قدما وبقيت صالحة للاستعمال . والعرب يعتقدون أن الدنيا كانت أقوى فى الزمن الماضى عما هى عليه الآن ، ولكن بعضًا من أسلحة العرب النارية بلغت من القدم والتآكل حدًا يمكن أن تنفجر معه إذا ما وضعت فيها شحنات أكبر مما هو مطلوب لمثل هذه الأسلحة ؛ وإذا ما حدث ذلك ، فإن صاحب مثل هذا السلاح ، يشكر الله ، عندما ينجو من مثل هذا الانفجار ، وهنا يبادر بأخذ بندقيته إلى أقرب صانع ، لكى يصلح العطب الذى حل بها ، وبعد أن يثق بالله بأنه لن يصيبه منها أى مكروه . والعرب يثمنون أفضل قطع السلاح عندهم تثمينا غاليا ، إلى حد أن البندقية التى تعد من النوع الممتاز يصعب بيعها بأى ثمن مهما كان . وأعراب الجنوب ، الذين هم فى مرحلة متدنية من رفاهية العالم يندر أن تجد بينهم ثلاث بنادق أو أربعة سيوف بين كل خمسة من الرجال . والذى ليس عنده بندقية من أعراب

الجنوب يزودونه بعصًا خشبية لها عند رأسها سن من الحديد ، ليست أفضل حالا من عصى تماثلها فى الطول وفى الوزن ، أما إذا كان ذلك واحدا من المشاة فهو يحمل حربة الخيَّال القوية التى يطلقون عليها اسم "الشلَّفة" Shelfa والبدوى المترحل الفقير ، الذى يود أن يكون بواردیا (حامل بندقية) ، يمكن أن يبتاع لنفسه بندقية ، من الأنواع المقلدة ، مقابل ثلاثة أو خمسة ريالات ؛ والبنادق التى تكون من هذا النوع هى فى أغلب الأحيان من طراز "لازاريون" أو الطراز "البربرى" Barbary أو الطراز المصرى – بعد أن تلصق عليها أختاما مزيفة . والبدوى المترحل ليس صيادًا ، إذ من النادر تماما أن يضطر إلى إطلاق بندقيته ، وهو أيضا لا يطلق بندقيته أثناء الغزو ، فى مرحلة أخذ الماشية من الرعاة ، ولا يطلق نيران بندقيته إلا عندما يسارع طلبا للهرب من المطاردة. والبنادق التى يحملها ميسورو الحال هم والشيوخ تكون متوسطة القيمة بشكل عام ؛ لأن هذا النوع من البدو لا يدفع ثمنا للبندقية سوى ستة عشر أو سبعة عشر ريالا . هناك بعض أنواع أخرى من السلاح فى أيدى بدو الجنوب وتتمثل فى قلة قليلة من المسدسات ؛ وقد اكتشفت أن تلك المسدسات من أصل أوروبى ومن النوع الذى كان أجدادنا يستعملونه ، وأفضل أنواع تلك المسدسات هو ذلك النوع الذى يطلقون عليه اسم "الإنجليزى" el-Enqleysy .

والسيف الأحدب الفارسى ذو الحد الواحد هو والسيف الهندى من أسلحة الجنب عند البدو ، وهذان السيفان شديدا الصلابة ومعقوفان مثل السيوف التى يحملها ضباطنا من الخيالة ؛ وهذا الشكل من أشكال السيوف هو المفضل فى الشرق . وهم يقولون بحق : "إن السيف الماضى هو ذلك الذى تكون ضربته منشارية ." والبدو يقولون إن ضربة البلطة غير ماكرة ، أو إن شئت فقل : ليست ضربة قاضية ؛ معنى ذلك إن تلك الضربة لا تؤذى ولا تشج تماما . والبدو يقولون أيضا ، إن ضربة اليد المجردة ضعيفة ، ولكن ضربة الظهر هى الضربة التى يستجمع الإنسان فيها كل قوته ، وباستخدام الحد الماضى بواسطة يد خبيرة ، ومثل هذا السيف قادر على فصل رأس ابن المرأة عن جسده بضربة واحدة . شاهدت أيضا بعضا آخرا من السيوف مع قلة قليلة من المواهيب ، وقد جلبوها من بلاد الغرب ، من بين هذه السيوف سيفان من نوعية سيوف البحارة القصيرة حصلوا عليهما منذ زمن بعيد من سفينة تعطلت

أو رست عند الساحل ." كان الشعار المكتوب على أحد هذين السيفين مدون باللغة اللاتينية أما الشعار الذى كان مكتوبا على السيف الثانى فكان مدونًا باللغة الألمانية . كان السيف الثانى سيفا أحدبا مصنوعا من الحديد ، بل ربما كان مصنوعا خصيصا لأسواق الشرق . هذا هو مشوات Mishwat يحضر لى سيفه مع سيوف الآخرين . وعندما رحت أقلب السيف فى يدى ، رأيته يثبت علىّ ناظريه تثبيتًا غريبا ، ولكنى عندما تحسست حد السيف بواحد من أصابعى "(صاح مشوات) يا خليل ! ما تفعله ليس جيدا ! لماذا تعبث بفم Fumm السيف es-seyf ؟" كان مشوات يخشى من أن مرورى بإصبعى على حد سيفه يمكن أن يضعف ذلك الصلب الذى ينبغى أن يواجه به عدوه فى يوم من الأيام فى ميدان القتال . وفيما يتعلق بالأسلحة الأخرى مثل السكاكين التى يطلقون عليها اسم "الخوسة" Khusa ، يصعب العثور عليها فى ثلاث من خيام هؤلاء البدو الرحل الفقراء ؛ وعندهم أيضا سكين شبيه بالسكين الذى استعمله ؛ وهم يطلقون عليه اسم "الريش" Rîsh ولديهم أيضا نوع آخر من السكاكين يطلقون عليه اسم "الخنجر" Khanjar ، ولكنه يندر وجوده بينهم ، والبدو يطلقون على ذلك الخنجر اسم "القدّامية" Kiddamîyyah أو قد يقولون له "الشِّبرية" Shibrîyyah : نظرا لأن هذا النوع من السلاح يشيع فى مناطق الحدود ، فى حين أن الأرض هنا منخفضة وجرداء ويفوح منها البؤس والشقاء.

إبل هؤلاء البدو تتردد على مكان السقيا كل ثلاثة أيام فى فترة العصر . ونحن نرى فى طلعة تلك الإبل علينا من بعيد (ذلك المنظر الذى يشيع الراحة فى النفس فى تلك الأرض الميتة) تلك الأعناق الطويلة التى تشبه أعناق النعام ، كما نشاهد أيضا الكتل الشهباء الداكنة المتحركة عند بداية وادى الحرّة ، ثم نستمع إلى تلك الإبل وهى تزمجر أثناء قدومها : هذه هى النياق وقد امتلأت ضروعها بالحليب الذى ستفيد منه الأسر الفقيرة ، إضافة إلى أننا سوف نشرب حليبا منعشا فى عصر هذا اليوم . وجسم الإنسان عندما ينال قسطا من الراحة ، لا يحتاج إلا إلى قليل من الطعام فى هذا الهواء الجميل شديد النقاء ؛ والجوع المستعر يجرى إخماده بتكرار تناول القهوة وشرب الدخان ؛ يضاف إلى ذلك أن جسم الإنسان ، وبخاصة لحمه ، يضمر شيئا فشيئا فى مثل هذا الجو بسبب كثرة العمل . والنوم هنا أثناء النهار ، هو وبَرْد ليل

الأراضى المرتفعة فى الجزيرة العربية هما اللذان يُسرِّيان عنا ويجعلانا ننسى متاعبنا، معروف أن الرعاة يسبقون الماشية ، عند الدخول إلى المخيم ، حتى يتسنى لهم معرفة زاد أسرهم ، وتمر الماشية من تلقاء نفسها متجهة صوب مكان السقيا الذى يطلقون عليه اسم "المويريد" Maweyrid ، والذى يتجمع عنده كل الرجال الذين من سلالة المواهيب : هذا يعنى أن الشيوخ جميعهم ، فيما عدا الشيخ طُلِّج هو وولده الأكبر ، يتعين عليهم النزول للمشاركة فى عملية السقيا .

هذا هو الغدير ، الذى يطلقون عليه اسم "الحوض Hawd جاهز ومستعد بواقع ، حوض واحد لكل مجموعة من الإبل : هذه الأحواض عبارة عن أوعية ضحلة ، يصل عرض الواحد منها حوالى ياردة واحدة ، وهى مصنوعة من جلود الإبل ومعلقة فوق بعض الأغصان الصغيرة . وهذه هى الدلاء التى وضع داخلها صليب من الخشب كى يبقى عليها مفتوحة ، وكل واحد من السقاة الذين يقف كل واحد منهم فى بئر من الأبيار ، يرفع الدلو وهو يغنى ليسلمه إلى يد زميل له ، على أن يقوم هذا الزميل نفسه بترديد اللازمة نفسها ، ويسارع إلى سكب محتويات ذلك الدلو فى الحوض . هؤلاء السقائون يشمرون أكمام ملابسهم التى تشبه الأجنحة (والتى شوهدت ذات يوم فى أوروبا القديمة ، ولكنها الآن رداء فى الجزيرة العربية) ، كما يشمرون أذيال ثيابهم عن طريق ربطها إلى أعناقهم ، كل ذلك من أجل الإسراع والتعجيل بعملية السقيا . وهنا يمكن للرائى أن يوقن بأن البدو رشيقو الحركة ، وأذرعهم جافة وقوية وصغيرة العضلات : وهذه هى صدور الرجال ، بما فيهم الشبان الصغار ، شعثاء (منكوشى الشعر) . وفى أحيان كثيرة يلبس الأولاد الذكور أساور ، يطلقون عليها اسم "المذود" Mathûd ، من حول الجزء العلوى من الذراع : وقد ورد ذكر هذه الأساور فى العهد القديم، ضمن قصة وفاة شاؤل Saul. إسورتهم ليست سوى طوق من النحاس الأحمر؛ وسوف يهدى ذلك السوار إلى "إبنة الخال" ، التى سيكون بذلك قد اشتراها لنفسه ، فى يوم زواجهم . السقائون من الأعراب يؤدون عملهم بسرعة وحماس – وهذا العمل الطويل والسقائون ضعاف – مستخدمين فى ذلك تلك الأغنية المبهجة . هؤلاء السقائون يقولون : إن أصعب جزء فى عملهم هو "الوريد" Weyrid (عملية سقاية الماشية) : ولكن معروف أن الأعمال الشاقة يكون وقعها ثقيل على الرجال الذين يعانون من الجوع .

والبدو يتمتعون بقدر كبير من الشجاعة وبخاصة فيما يتعلق بالأعمال التى تقتضيها الضرورة . فى مثل هذه الظروف تراهم يقفون منتصبى القامات ؛ ومن هنا جاء ذلك القول المأثور الذى يتردد فى الواحات : "البدو كلهم شجاعة ." ولكن الجوع الذى يخيم عليهم ، على شكل نوبة قصيرة ، يجعل عقل الإنسان غير مستقر ، فيما يتعلق بمعدته الخاوية ، وهنا يسلم البدوى أمره لله ويتحتم عليه الجلوس على الأرض من جديد .

تلك الأغنية التى يتغنى البدو بها أثناء العمل لا تعدو أن تكون مكونة من مَدْرج مكون من ثلاث أو أربع كلمات ذات إيقاع ، ومعها مدرج آخر على شكل قافية ، وهذه الكلمات من بين الكلمات التى تخطر على أذهانهم بطريقة عفوية ، وغالبا ما يكون فيها شىء من المعنى ، وبعد أن يتغنوا بكوبليه ، أو إن شئت فقل : زوج من الأبيات ، فترة من الوقت ، ينتقلون إلى الكوبليه الذى يليه .- وتلك هى قافية من قوافى الرعاة التى نظمها صاحبها عنى عندما كنا فى الخيمة ويقول فيها : "يا خليل ! زى الفيل" التى معناها "يا خليل أنت مثل الفيل ." - هذا الحيوان الذى من قارة أخرى ، معروف لهؤلاء البدو من الناحية الاسمية فقط ، والشىء نفسه يمكن أن يقال عن الأسد وعن الخنزير أيضا ، وهذه هى مجرد أسماء فقط (وهى لا تعدو أن يكون معناها هو المعنى نفسه الذى نستعمله) بالنسبة لهؤلاء العرب الذين يعيشون فى وسط الجزيرة العربية . والأسد لا وجود له فى الجزيرة العربية ، اللهم إلا إذا كان ذلك ، حسب ما يرويه أهل الجنوب ، فى إقليم اليمن. ومعروف أن الخنزير البرى يشيع فى كل الأراضى السورية العالية فى منطقة الحدود : كان الأعراب قد سألونى مرارا عن ذلك الحيوان ، عند النصارى الذين لا يصلون ، والذى يحرم الرسول أكل لحمه ؛ كان من بين هؤلاء البدو من أجابوا على ذلك التساؤل ، وبخاصة أولئك الذين سبقت لهم زيارة الشمال ، والذين تبدو الحكمة فى كلامهم إذ قالوا : "لقد رأينا وشاهدنا أثر ذلك الحيوان ، ووالله إن له لأرجل مثل أرجل الغزال، وله منخار إذا ما دققت فيه حسبته كلبا ." - سألنى السقائون ، وهم فى ذروة عملهم ، لماذا أقف إلى جوارهم وأطيل النظر إليهم ، ولم أنزل معهم لتقديم يد العون والمساعدة لهم ؟ - "أيها الرفاق ، هل ترون هذه الأذرع المرهقة ؟ أنا ضعيف جداً بسبب الجوع ، وأنا لا أقوى على سحب الدلو ؛ ولكن أرجو أن تسمحوا لى بأن تشرب ناقتى قليلا من الماء الذى يتبقى فى الغدير ، وسيجزيكم الله خيرا ." وعندما سمعوا

كلامى ردوا على قائلين : "والله ، إنه يقول الحق ؛ ساعدك الله وأعانك يا خليل : ولا تشغل بالك بهذا الأمر ، وأجلس واسترح ، وسوف نسقى لك ناقتك ."

هذه الإبل العظيمة القادمة من مرعى الصيف ، الذى مكثت فيه وعرقت فى ضوء الشمس طوال ثلاثة أيام (ومن ثم فإن أفضل الإبل، من وجهة نظر البدو ، هى تلك التى لا تتعرق كثيراً) سوف تشرب من المسقى كمية كبيرة من الماء ، إذ سيشرب كل واحد من هذه الإبل – وهذا من وجهة نظر السقائين – ثلاثة أو أربعة قراب من الماء – وهذه الكمية تقل ، بواقع الثلث ، عن الكمية التي يشربها حصان البدوى، خلال فترة الصيف هذه ؛ وبعد أن تتورم تلك الإبل ، وتروح تتأوه من ذلك الحمل الذى ابتلعته ، يقتادها أصحابها إلى المنْزَل ، لتنضم إلى قطعان البدو مرة ثانية أمام خيامهم . وتروح تلك الإبل المبتلة تتبوَّل طوال الليل ، ومعروف أن الإبل ، فى كل الأوقات ، بل وأثناء الترحال والجفاف ، تفرط فى إفراز الماء ، ولكنها بالرغم من كل ذلك ، تكون أقل من الحيوانات الأخرى فى مسألة الإفراط فى إخراج الماء . وفى الصباح يكتشف أصحاب هذه الإبل أنها قد هضمت كل تلك المياه وعادت أجسادها إلى حجمها الطبيعى مرة ثانية . وعند شروق الشمس يجرى دفع تلك الإبل من جديد إلى المسقى علها تشرب المزيد من الماء ؛ بعد ذلك ، تتحرك تلك الإبل من تلقاء نفسها نحو الأعلى (*) ، سالكة طريق الجبال إلى مرعاها الهزيل ، الذى لا يوجد فيه طوال هذه الأشهر الطويلة الحارة سوى بعض النباتات دائمة الخضرة ، التى تكون مُرَّة أو ملحية الطعم ، إضافة إلى قليل جداً من العلف الجاف . سألت الأعراب فى كثير من الأحيان : "أليس لهذه الحيوانات أمعاء أو جزء فى أمعائها لحفظ ذلك الماء؟" وكانوا يجيبوننى قائلين: "لا ، يا خليل ، وإلا (وكل جمل من تلك الإبل يجرى ذبحه فى نهاية الأمر) كيف لنا بعدم اكتشاف ذلك إلى يومنا هذا؟" عذاب Azab ، أو إن شئت فقل: رعى هذه الإبل منفصلة، يبدأ منذ الأيام الأولى من فصل الخريف ، على ألا تعود للسقيا من جديد قبل صباح اليوم الخامس :– إذن ، من أين للجمل بكل ذلك اللُّعاب ؟ الذى يساعدها على ابتلاع العلف الجاف .

(*) البدو يستخدمون مصطلح يقول : "الجمال يصدُرون" Yusuddirun بمعنى أن تتجه الإبل نحو الأعلى قاصدة المرعى" . (المترجم)

تراقب الأسر البدوية إبلها أثناء الرحيل إلى المرعى ؛ وتصبر عليها إلى اليوم الثالث ، حتى يتسنى لهذه الأسر الحصول على الحليب من النياق مرة ثانية . ونظرا لقلة الماء وعدم كفايته لسقاية القطعان كلها فى وقت واحد ، فإن المنازل كلها لا تسقى إبلها أو قطعانها فى آن واحد . هذا يعنى أننى كنت أستطيع الحصول فى كل مساء على شيء قليل من الحليب . فى عصر أحد الأيام عرفتنى حمدى Hamdy (التى كانت مضيفة طيبة فيما يتعلق بصحتى) الطريق الذى أسلكه كيما أعبر الوادى قاصداً بدو السَّراحين Serahin . " قالت : يتعين عليك أن تقصد داريش Daryesh وهذا الرجل لديه أربعة نياق مخصصة للحليب" . داريش هذا ، كان هو شيخ السراحين ، وهو رجل ضيق الصدر . وعندما دخلت عليه عند الشفق ، صاح وعلى وجهه مسحة من الجرأة والشجاعة متسائلا : "ما الذى أتى بك إلى هنا ؟" أشرت فى صمت إلى الإبل الكثيره التى كانت أمام خيمته . وابتسم الرجل ابتسامة تنم عن الحماقة المفرطة ، "قال : وما الذى جعلك تترك أعرابك وتجيء إلى هنا ؟" – "حسن مرحبا بك يا خليل ، (قالت الصحبة) ، اجلس وانتظر قليلا إلى موعد حليب النياق ، وسوف يحضرون لك الحليب ." هذا الرجل الذى يشبه وجهه وجه الكلاب والذى سبق أن رأيته مرارا فى خيمة شرب القهوة عند الشيخ طلّج ، كنت دائما أرى على وجهه مسحة العداء لى والتشدد معى ؛ كان ذلك الرجل يطلق علىَّ سهام عينيه ونحن جلوس فى المجلس ، ولكنه لم يسبق له الكلام مع أى أحد من الكفار ! "فتح الرجل فاه وصاح قائلا : ها ! إذا ما رأيتك فى الصحراء مرة ثانية، وكانت معى بندقيتى، فسوف أرديك قتيلا !" – " خذ بندقيتك غدا ، اللهم إذا لم تكن جبانا ، وأرم رميتك ، وسوف أرمى أنا رمية أخرى ؛ وأنا أقسم بالله أنى لن أرحمك ." – "اسمع يا أنت ، كيف أن النصارى "أهل Ahl كليمى Kellimy " ، بمعنى كيف أن النصارى "أصحاب كلمة" ؛ أى أنهم يعنون ما يقولون : – نحن البدو ، يا خليل ، وأنا عندما أقول شيئا ، لا يكون هو ذلك الذى أعنيه بالفعل ، وأنا لا أتمنى لك أى أذى ." عند هذا الحد جاءت الزوجة ومعها سلاطين الحليب الطازج ، وهنا قام الشيخ داريش بوضع سلطانية طيبة أمامى وهو يقول : "إشرب ، يا خليل ، وأنعش نفسك ." عدت إلى منزلى ، بعد أن دلّنى إلى الطريق ؛ ولكنى ضللت طريقى بسبب خفوت الضوء ، الأمر الذى سقطت على إثره من منطقة الحصى التى ينصبون فيها خيامهم ، إلى صخور مجرى السيل فى الأسفل .

الفصل السابع عشر

مخيم المواهيب الصيفى فى وادى تربة

زيارة العلا شائعة خاطفة للأبصار فى الجبل . النساء يغطين الحناجر . الحنظل . تعاويذ للحب . النساء الشقراوات . مبليس . قصيدة حامد . دعوة النصرانى لتسمية واحدة من بناتهم . البدو يسأمون أغانى الصحراء . أسماء النساء البدويات . امرأة ولود . النزاع بين القبليين الشبان . دفاع طُوج عن زيجاته الكثيرة . بدوى يقتل نفسه . ظُرف البدو الذى يضيِّق الصدر ، وعقليتهم الدينية . حمدى . طواعين مكة . مجاعة الصيف . النُّسَّاك القدامى . أخبار الحرب الزائفة . هل القديس سيرجيوس ، أصبح مسلما بعد وفاته ؟ الوجه . بعض النصارى يسكنون هناك. مهنا يصل للمطالبة بالدِّية . قروى من خيبر يصل إلى العلا . مقهى موسى . الجمأع أو الحزب السامى . القاضى المضياف . هل يجوز للرجل المتدين أن 'يشرب الدخان' ؟ العودة مع حوريش . يسلم النصرانى ذلوله . أشباح فى تربة . زر البدو مرة ثانية . النصرانى الذى يتهمه حوريش ، يبرئ الشيوخ ساحته .

ذات ليلة ، وقبيل طلوع الفجر بقليل ، أفزع صوت فظيع البدو موقظا إياهم من أحلامهم ونظرا لأن ذلك الصوت كان صادرا عن عاصفة رعدية ، فقد بدا الأمر وكأن الدنيا أوشكت أن تكون حطاما . كنت مستيقظا فى ذلك الوقت ، وسمعت ذلك الصوت من بدايته إلى نهايته ؛ فقد كان صوتا مزدوجا ، أى كان هناك فى البداية صوت ضجيج مستمر ومروع عند رأس الحرّة ، تلاه صوت آخر أقصر منه ، ربما كان صدى فظيعًا للصوت الأول ، وتردد فى سائر أنحاء الوادى . بعد ذلك بلحظة ، خشيت أن أشاهد النيران البركانية القديمة ، التى تنام منذ زمن طويل فى جوف هذه التربة ، ومن

ثم تلك الفيضانات من الحمم البركانية التى يمكن أن تنهال علينا : ثم خطر ببالى بعد ذلك سقوط صخرة ضخمة فى الطرف البعيد من الحرّة ؛ ترى ، هل كانت تلك الضوضاء صادرة عن انهيار سلسلة من الأحجار ، انهيارا مفاجئا فى أعالى الوادى ؟ كان ذلك الصوت المرتفع شبيها بذلك الصوت الذى يصدر عن انهيار الجليد فى الجبال الجليدية أثناء العواصف الثلجية . تجمع البدو فى خيمة القهوة قبل طلوع النهار على أثر وصول ذلك الصوت الفظيع إلى مسامعهم . توقف بعض البدو ، وهم فى طريقهم إلى خيمة القهوة ، ليسألوا النصرانى ، "ما الذى حدث ؟" – أنتم لا تعرفون ديرتكم حق المعرفة !" –"ولكن أحضر كتبك وأعرف منها ذلك الذى حدث، ألن تقول لنا، ماذا حدث ، يا خليل ؟" – "ترى ، هل كان ذلك صخرة متهاوية ؟" – "كان الأمر أكبر من ذلك بكثير، نظرا لوجود الكثير من التكهنات فى تلك الديرة ." كانت أغلبية الجالسين فى المجلس ترى أن ما حدث كان "نجما" هاويا ؛ كان ولد الشيخ فى تلك اللحظة يفك فلوته ، وبالتالى شاهد ذلك الشهاب الذى ظهر فى السماء ثم حدث الصوت فى إثره تماما . كانت هناك زوجة عجوز مستيقظة ، عندما سمعت ذلك الرعد ، وأحست بالأرض تهتز من تحتها . خطر ببال كل الناس ذلك النيزك المضىء الذى مر ، قبل خمس سنوات "من فوق رءوسهم ، محدثا دويا هائلا ، فى وقت الظهيرة ، متجها صوب الشمال ، ومحدثا خلفه ، فى السماء ، سلسلة طويلة من الدخان : شاهد الناس ذلك النيزك وفى وقت واحد ، فى كل أنحاء البلاد (كان طوله يقارب الألف ميل) فى المنطقة ما بين مكة ودمشق ، مما جعل الناس فى سائر أنحاء هذه الديرة يظنون أن ذلك النيزك سقط داخل نطاق حدودهم ." وخطر ببال الجالسين فى المجلس أيضا ، نيزك آخر ، حدث فى السنوات العشر الماضية ، واندفع فى السماء أثناء الليل ، مما أضاء الصحراء المظلمة لتبدو كما لو كانت فى رابعة النهار . كان الصوت الذى صدر عن ذلك : كر – كر – كر – كر !" – ولكن هذا هو ما يقوله الأعراب فى كل أحاديثهم عن الضوضاء المتحركة .

عندما كُنَّ يجلسن معى عند باب خيمتى للتحدث إلىَّ ، كانت تلك البدويات الكاشفات صغيرات السن – لقد جئن إلىَّ ليطلبن منى أدوية – كانت الواحدة منهن تسحب غترتها فوق زورها والفك الأسفل من فمها . سألتهن لماذا تفعلن ذلك ؟" (قالوا) يفعلن ذلك لأن ذلك التقليد أصبح جزءًا منهن ، وأنهن يفعلن ذلك فى وجود الشخصيات

المهمة ." [فى اليونان ، عندما كانت تحت الحكم التركى ، كانت الأعراف تقضى أن تقوم النساء كبيرات السن ، عندما يخرجن من بيوتهن بتغطية أزوارهن والجزء الأسفل من وجوههن بمنديل ، – هذا الشىء نفسه شاهدته فى الدول الأوروبية ، متمثلا فى تلك الصور القديمة الخاصة بمريم البتول .] عندما كنت أتغيب عن المكان ، كنت أترك خيمتى دوما مفتوحة ، بدون أية حراسة من أى نوع كان ، بالرغم من أن البدو كانوا يحذرونى "لا تكن طائشا إلى هذا الحد ." ومع ذلك لم يحدث مطلقا أن ضاع أى شىء من خيمتى طوال إقامتى فى منازل الأعراب .

أصبح العلاج الذى كان يقوم على نقطتين من زيت الكروتون Croton ، جرعة معتادة بين أولئك البدو : وعندما كنت أعطى الواحد منهم أربع نقاط ، كان يحس قليلا من التوعك ؛ وعندما أعطيت الواحد منهم ست نقاط ، وجدت أنها لم تؤثر على أو تحرك بنية هؤلاء البدو الحديدية ، بل إن البعض منهم لم يشعر بأى شىء حتى وإن صببت زيتى كله على الحرّة . وبينما كنت أدهش وأتعجب مما يحدث ، كانوا هم يعدون على أصابعهم ويكتشفون أن اليوم كان مصادفا ليوم الجمعة ، ذلك اليوم ، الذى ليس من المناسب تناول الدواء فيه ، وبالتالى لن يفعل الدواء مفعوله ." فى النهاية ، كنت أعطى ، لبعض أفراد هذه السلالة الصحراوية ، ثمانى نقاط ، لم يكونوا يشعرون معها بأى شىء سوى أثر طفيف من الإسهال . كنت أشتكى منهم وأقول لهم : "أنتم تحطمونى عندما تحملونى أثمان ذلك الدواء ؛ الجرعات التى أعطيكم إياها كفيلة بأن تميت أشخاص أخرين ." – "قالوا ، نعم ، صدقت يا خليل ، أعطنا أعط يا خليل ! البدو رجال أقوياء !" – فى المدن العربية التى يتغذى أهلها تغذية جيدة ، اكتشفت أن الجرعة العالية المعتادة من زيت الكروتون كانت كافية تماما . هؤلاء الأعراب كانوا يطهرون بطونهم باستعمال نبات الحنظل أو العلقم ، ولكنهم لا يلجأون إلى ذلك إلا فى الضرورة القصوى ، ولمرات قليلة جداً طوال حياتهم : كان معجون ذلك العلقم شديد المرارة . يقال إن التحاميل التى تصنع من ذلك المعجون تفيد كثيراً المرضى الواهنين . والبدو يعرفون بالفعل نبات السُّنا أو السنى ، ولكنهم لا يفيدون منه .

هؤلاء الساميون البدائيون لا يعلقون آمالا كبارا على أيه مهارة من المهارات البشرية ؛ إنهم يركزون اهتمامهم على السماء ، ويطلبون التمائم والأحجبة من رجال

يمارسون السحر والشعوذة ؛ والواحد منهم عندما يكون بحوزته حجاب ، أو إن شئت فقل ، تميمة جيدة فإنها تصبح بمثابة المعلق والمعطل المريح لفهم ذلك الرجل ، يثق حامل مثل هذا الحجاب ثقة جنونية فى أن الله سوف يفعل فيه ذلك الذى يراه هو فى أحلامه . يجيئون إلىّ وهم يقولون لى "فتش Fattish بالكتاب b'il Kitâb يا خليل Ya Khalil ! فشر Fecher (أو فسِّر Fassir) ! " كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا يرونى دائما وأنا أقرأ فى كتبى وأطلع عليها . "ألا تستطيع عن طريق كتبك معرفة ذلك الذى يدور فى عقول الرجال ومعرفة نواياهم أيضا ؟" – "من ذا الذى يكذب عليكم إلى هذا الحد ؟" – "العلاونة يدَّعون مثل هذه الأمور ." – "ألم يكن ذلك من أجل الاستيلاء على أموالكم وسلبها منكم ؟" – "والله ، إن خليل يعرف كل شىء ! ولكن ألا تستطيع عن طريق كتبك معرفة مكان الأعداء ، وهل الغائب يكون حيا أم ميتا ؟ ألا تستطيع ، عن طريق كتبك ، رؤية أسرتك ، يا خليل ، التى تعيش فى مكان بعيد عنك ، وهل تستطيع معرفة أحوال معيشتهم الغذائية ؟" وهكذا كان الكثيرون يأتون إلىَّ لأغراض من هذا القبيل ، دون أن يكون لمجيئهم أية جدوى أو منفعة . "وا أسفاه ! (قالتها زوجة مسكينة هجرها زوجها) اطلع على كتبك وابحث فيها ، وخبرنى هل سأستعيد حب رجلى الطيب لى مرة ثانية – آه ! أليست لديك تميمة للحب ؟ أعطنى شيئا من الكتابة التى تجعلنى حلوة ومليحة فى عينيه مرة ثانية ." قال لى شاب ذات مرة : "حسن ، يا خليل ، خذ بوصتك ، وورقتك ، ومزِّر هذا فوق ذلك للحظة واحدة ! وإن كنت لن تأخذ نقودًا مقابل ذلك ، فاعطنى تلك الكتابة ، التى تجعلنى محبوبا فى المكان الذى أحُب فيه ، – هيه ! اجعلها تبكى من أجلى فى أضعف الأحوال !" كان الأزواج يأتون إلى ويرجوننى أن أعطيهم أحجبة يمكن أن تعيد إليهم زوجاتهم القاسيات ، الهاربات الشاردات ، ولكنهم يحبونهن . "كيف يمكن للورق والحبر أن ينقذكم ؟" – "الكتابة عندما تحدث يا خليل ، تكون مصحوبة باسم الله ، وجدنا أنها يكون لها نفع عظيم ."

جاءتنى أيضا مبليس Mibils ، زوجة الشيخ الشابة الشقراء، وأجمل جميلات بنات أولئك البدو الرُّحل . من بين هؤلاء المواهيب ، والسَّحامة ، وكذلك البلِّى ، نساء شعرهن كستنائى ، ونساء شقراوات الشعر ، وهن يقال لهن "مزيونات" Mezunas أو إن شئت فقل "جميلات" ؛ ولكن هذه النساء ، عندما تحرقهن حرارة الشمس ، وعندما يستبد

بهن العطش والجوع بصورة مستمرة فى بلد جدب ، تهزل أجسامهن وتضيع منهن نضارة وجوههن . كانت للشيخ طُلج أخت صغيرة صاحبة جمال نسائى أخَّاذ ، وكانت زوجة لشويش Shwoysh ومليحة القسمات ،– كانت ملامح تلك المرأة التى تسبى تسبب الكثير من المتاعب لذلك الشاب الصغير . أذكر ذات يوم أننى التقيت بالقرب من قرية العلا زوجة بدوية كانت تسير وحدها ، ومعها فتاة شابة ، ابنتها ، التى كانت دون علم منها بذلك ، بالنسبة لى ، صاحبة جمال أخَّاذ فى تلك الصحراء المخيفة وجدتهما جالستين خائفتين ، مثل اثنين من الحبارى الخائفة ، وسط دغل من الأدغال تنتظران رجلا طيبا ، كان قد ذهب إلى البلدة . "قالتا : نحن من فخذ البلّى من الموهاهيب !" ولكنهما لم تكونا من أعراب طُلَّج . ومن بين أشياء الزينة هنا بين الشابات ، ذلك العقد الذى يصنع من أنواع من الخرز ، الذى يجلبونه من مكة .

سألتنى مبليس Miblis ، والضوء يترقرق فى عينيها الواثقتين : "هل بوسعى أن أعيد لها حب زوجها ؟" :– كل ذلك ، فى الوقت الذى كان جمالها يتبدى لى سواء فى كلامها أو فى حركتها . وعليه عندما كان الرجال يسألونى ، وما أكثر ما كانوا يسألونى عن الحريم فى بلادى ، كنت أشير بالبنان إلى مبليس صاحبة الصوت الحلو ، وصاحبة الشعر الكستنائى وأقول لمن يسألنى : "هذه التى تجلس هناك تشبه حريم بلادى !" وجهها ذو العينين الوسيعتين ، اللتين كانتا تبدوان مثل الكمين ؛ هذا الوجه كان يميل إلى الشكل البيضاوى ، بل والأرجح تشبيه ذلك الوجه بثمرة من الثمار اليانعة ، بين خصلات شعرها الجانبية كهرمانية اللون ، هذا الوجه لم يكن يظهر عليه أى ضوء من أضواء الروح .

كان الشيخ طلجً مستاءًا دومًا من زوجته الشابة ، التى اختارتها عيناه لجمالها وجمال جسدها من بين أفراد منزل رقيق الحال ، هذه المرأة الشابة الحلوة كانت تحب سيدها العجوز ، الذى رفعها إلى هذه المنزله من التكريم من بين زوجاته ، أو إن شئت فقل : حريمه . لقد أنجبت مبليس للشيخ طُلَّج ، منذ عذريتها إلى الآن طفلين ، هما أجمل أطفال القبيلة ؛ ومع ذلك ، فقد كانت مبليس ، فى بعض الأحيان ، تضرب ولديها ضربا مبرحا ، وهنا كانت تبدو وكأنها قد خلا قلبها من الرحمة والحب . والجمال الزائد عن الحد كنز لا يجلب الفرح على صاحبه ، إضافة إلى أن طُلَّج نفسه ، وبصفته

رجلا حاد الطبع أيضا ، لم يكن على استعداد لتحمل صلابة أحوال تلك المرأة الشابة ، أو عنادها . كانت لدى طُلّج زوجة شابة أخرى ، أنجب منها ولدًا فى الآجُرَّة Agorra ؛ قصد الشيخ العجوز خيمة تلك الزوجة الشابة وسمح لمبليس أن تخرج من مَنْزِله . ولذلك جاءت مبليس لتبنى بيتها معنا ؛ وعن طريق الابتسامات الجميلة الساحرة طلبت من الغريب أن يكتب لها حجابًا ، لأنها كانت تخشى أن يرمى أو يوقع زوجها عليها يمين الطلاق . وأشرت أنا عليها باللجوء إلى حجاب التواضع الزوجى ، وبخاصة من جانب الزوجة ، وأن تنأى بنفسها عن التعالى والشموخ . وعدت أن تتحلى بذلك التواضع ، وسرعان ما راح طُلّج يتحدث معها بطريقة حانية ، فى رحلة من الرحلات ، مما جعله يطلب إليها أن تنصب خيمتها إلى جوار خيمته من جديد .

عاش طُلج عهود رجال ثلاثة ، وصل فى هذا العهد الأخير إلى حكم القبيلة . كان طُلّج دائم الزواج ، وكان يشعر دوما بشباب القلب ، إذ كان يبدو للجميع كما لو كان أبا للقبيلة ، وواقع الأمر أنه كان بالفعل أعظم الرجال وأجدرهم فى القبيلة كلها : – وشيوخ الجزيرة العربية كلهم تقريبا من هذا القبيل لم يكن عمر أى فرد من أفراد القبيلة يسمح لصاحبه بتذكر مرحلة شباب الشيخ طُلّج ؛ وأكبر أفراد القبيلة سنا عاصروا الشيخ طُلج عندما كان فى منتصف العمر . كان طُلج فى ذلك الوقت أبا لثلاثة أبناء كبار مازالوا على قيد الحياة ، وكانت له أبنة أيضا ، بخلاف الأطفال ، وكلهم ذكور ، أنجبتهم له زوجتان طيبتان فى هذه السن المتقدمة . الولدان الكبيران ، اللذان أنجبهما من زوجة واحدة، كانا شابين صغيرين وأبوين أيضا. كان مشوات Mishwat، ولد عم الشيخ طُلج قد تزوج أم هذين الولدين بعد أن طلقها الشيخ ؛ وهى الآن الزوجة الأكبر سنا حاليا من بين زوجتيه . ورث ولدا هذه الزوجة من طُلج ، عن أمهما رجاحة الرأى والفطنة ؛ كان حامد ، الولد الأول ، شابا محترما ، ومتواضعًا تواضع أبناء الشيوخ العظام ، فى عهود ابائهم ، وكان له رأى صائب فى المجلس ، وقائدًا شجاعًا لجماعات الغزو. إلا أنه كان فى داخله شىء من الوحشية التى لم أعهدها بين الأعراب. فقد رأيت ذلك الرجل وهو يضرب دابته العنيدة ضربًا مبرحًا مستخدمًا فى ذلك وتدًا من الأوتاد ؛ هذه الوحشية كانت متأصلة فى عائلته ، بل كانت فى دم هؤلاء البدو متسلقى الجبال .

فى بداية الأمر اكتشفت أن حامدا كان على العكس من ذلك ، إذ كان يغار من النصرانى وحاقداً عليه ؛ كان حامد من النوع الجعل سريع الانفعال ، وله آراء الشباب المتطرفة ، وبخاصة فيما يتعلق برؤيته لى فى مَنْزَل Menzil الأعراب el-Aarab ، فى ذلك الوقت ، كانت القهوة ، التى هى خيمة الضيافة وخيمة المجلس أيضا ، هى بمثابة بيت حامد إذ كان الشيخ الكبير يتطلع بوصفه أبا إلى راحته الخاصة ، أو ربما كان ذلك تنفيذا لإرادة زوجته الشابة التى كانت تريد الأمر على هذا النحو . رددت على حامد فى يوم من الأيام ، بعد أن أساء إلى وقلت له : يا ya جومانى Gomany ! بمعنى "يا عدوى ! لماذا أنت عدو لى ؟" عض حامد شفته ، ومعروف أن ولد الشيخ يكون دوما خجولا فى حضرة والده وطوال بقائه على قيد الحياة . وبعد ذلك بأسبوع ماتت كراهيته لى ، وأصبح واحداً من أصدقائى المخلصين الدائمين . راح حامد فى ذات الوقت ، يسلى نفسه بقافية ، أو إن شئت فقل : قصيدة ساخرة ، نظمها عن خليل وهو راكب على "الخويرة" el-Khuéyra ؛ والمقصود "بالخويرة" هنا هو جملى الضعيف المسكين . أعمل حامد ذهنه فى تلك القصيدة طوال نهار كامل وليلة كاملة من ليالى الصيف ؛ وفى عصر اليوم التالى وحول وجار القهوة راح حامد يسمع قصيدته الجديدة للحاضرين : وهنا راح الشيخ طُلج العجوز يتناول أفضل أبيات تلك القصيدة بروح الفكاهة والاستخفاف ، وراح يكرر أبيات ولده بروح الدعابة ، وامتدحها . كان يجلس بيننا واحد من القصادين Kassad ، أو إن شئت فقل قصَّاد من بنى عطية ؛ كان حامد قد تتلمذ على ذلك القصَّاد فى كتابة الشعر .

كان عبد الله ، شقيق حامد ، الابن الوحيد لأمه سليطة اللسان ، قد نصب خيمته داخل منطقة منْزَلها ، بجوار خيمة "عمه"(*) مشوات . وفى هذه المنطقة كبر ذلك الصبى متشابها مع الاثنين إلى حد بعيد . ومع مجيئى أول مرة ، وفى ظل المداعبة والدلع السامى Semitic ، الذى نقف عليه فى البلدان الأقوى من هذه البلاد ، ويدخل ضمن فنون الخداع التى تمارسها النساء ، أفلح عبد الله فى التظاهر بالصداقة مع النصرانى؛ ونظرا لأن حمدى كانت تنصب خيمتها فى كل رحلة إلى جوار خيمة أخيها،

(*) المقصود بكلمة "عمه" هنا هو "زوج أمه" . (المترجم)

فقد كان عبد الله جارا لنا بصورة مستمرة . وعندما شاهدت صبيا صغيرا أسمر اللون معه سألته . "طفل من هذا أهو طفلك ، يا عبد الله ؟" – أجاب البدوى سليط اللسان قائلا : "أمه تقول ذلك ." ومرت الأيام وحملت الزوجة الشابة ، وأنجبت طفلة ، أو إن شئت فقل : ابنة ، وهنا قال عبد الله : "صاحبى Sahiby ، أى صديقى الكلى ، خليل يتعين عليه أن يختار اسما لهذه الابنة ." اسم من الأسماء الجميلة التى تطلق أو تعطى للإناث ، والذى يعتقد أنه لابد أن يكون من كلام بلده البعيدة ، وأن ذلك الاسم ينبغى أن يكون كلمة حلوة لها جرس أجنبى ، – "لقد سئم أسماء الأعراب ، وأن تلك الأسماء أصبحت معافة Muàffin وتملها الآذان ." "حسن فليكن ذلك الاسم مريام Miriam " – "لا مريام لا يصلح ، لأنه اسم يطلق على العبد أو العبدة فى هذه الأماكن." رددت كثيراً من الأسماء على مسامعهم ، إلى أن وصلت فى النهاية إلى ذلك الذى لا يلقى قبولا فى آذانهم . "سارة ليس اسما سيئا ." إنه اسم ذائع بين هؤلاء البدو ، ولكن الأسماء الإنجليزية التى كان خليل يأتى بها كانت ثقيلة الوقع وثقيلة الجرس أيضا قياسا على الأسماء العربية التى تتردد على ألسنة هؤلاء البدو : علمت بعد ذلك أنهم سوف يسمونها بَناً Banna . والعرب بحكم أن لهم رأيا مسبق عن أنفسهم ، وهذا الرأى مشوب بالخيال المكسال المخلوط بالحزن والألم ، تراهم دوما يقللون من شأن أشيائهم الخاصة بهم . والعرب يعتقدون أن لغتهم فوق كل اللغات الأخرى ، وهم أيضا يعتقدون أنهم أول الأمم . فيما يتعلق بالشجاعة فى الحرب وفى القتال . ولكن البدو فى حياتهم يضحون بأشياء كثيرة فى بيوتهم ، التى لا يجدون فيها سوى الكلام والحديث فى الأوقات التى لا يكونون نائمين فيها ؛ من هنا فإن رءوسهم تؤلمهم بسبب خيوط العنكبوت التى ينسجونها طوال فترات ذلك الخواء. هؤلاء البدو مشبعين بأغنية جديدة ، لها علاقة بالطقاطيق المتكلفة التى ينظمها شعراء البادية ، وتستحث ذهن الإنسان ، الأمر الذى يرفع فيه ضغط دمه ، ويجعله يعبأ بحياته ويهتم بها . ولما كان البدو من الصعب إرضاؤهم ، فهم لا يعرفون سوى شكل واحد من أشكال الخداع ؛ لقد سمعت البدو وهم يسخرون ، من هذه العملية الشاقة والثقيلة على النفس ، لأنها لم تتغير مطلقًا ، إضافة إلى مدرج التثاؤب ، وربة الإبداع فى طبيعتهم الصحراوية ، التى تحتم أن يكون كل البدو راكبين كما هو الحال فى العبارة "يا أنت yaent راكبين Râkabin" والتى معناها "آه ! منك يا من تجلس راكبا" (على ذلول) . – هذا يعنى أن الذهن

البدوى ليس سوى قابلية للنحت والتآكل ، وبالتالى يمكن أن يصيبه النصب والإرهاق بصورة متدرجة من خلال هذه الدائرة الصغيرة ؛ شأنه شأن الحيوان المربوط الذى أكل علفه ، وارتاح قليلا ، وأوشك على المضى قدما .

فيما يلى أورد بعض أسماء حريم البدو : سالمة Sallema وسلْمه Selma (من السلام) ، حمدى Hamdy (من الحمد) ، خُضْرة Khothra (تلك التى ولدت فى مكان أخضر) ، أُمطيرة Umteyra (المولودة فى المطر) ذريَّة Therrŷa (المولودة فى واحة من الذرة العويجة أو الذُّرة) ، بُخَيْتة Bokhŷta (من الحظ أو البخت) ، الفُصيحة el-Fosîha (الفصيحة فى الكلام) ، عويضة Auwéytha ، الرُّملة er-Romla ، دليل Daléyel ، (من الدليل ، الذى يدل على الطريق) ، بُسِّيَّة Bussîyeh ، فرجة Furja (سرور) ، جورمة Gorma (الوفيرة ، التى يحورونها أثناء اللهو إلى نبس Nibs ، أو قد يحولونها إلى ورمة Worma عند الغضب) ، صبيرة Sobere (من الصبر) عذبية Atheba (من الحلاوة أو العذوبة) ، أم الصوف Umm es-Sûf (أم الصوف أو زوجة الصوف) ، هوشة Howsha (وبَّخ) تعفيلة Taffila ، الحدّيفة el- Háddefa ، الفيحة el-Feha ، الفشيلة el-Fushîla ، جرذه Girtha ، جزيرة Githera ، صبَّة Sebba ، عتيجة Ateja ، اللجمية el-Lejima ، ناها Naha ، دغريمة Deghrèyma ، رقيَّة Rakyŷeh ، وجِّيد Wajjid .

شاهدت زوجة عبد الله وهى عائدة من الصحراء بعد ساعة واحدة من عملية الولادة ؛ كانت تمشى عائدة إلى منزلها وهى فى منتهى الإعياء ، وجاراتها يسندانها ، بعد أن قمن لها بدور القابلة : وبينما كانت تمر على الخيام كانت ربات البيوت القريبات منها يخرجن للقائها ، ويقمن فى صمت بدور ربات البيوت السابقات ، وتضعن أيديهن من تحت ذراعيها ، وبالتالى يتسنى لهن جميعًا المشاركة فى مضيها قدما نحو منزلها ، وآخر واحدة من ربات البيوت هى التى تصحبها إلى بيتها ، هذا هو حنان النساء على النساء . وبعد ذلك بحوالى يومين وجدت زوجة عبد الله واقفة إلى جوار خيمتها ؛ وكانت قد انتهت بالفعل من أعمال المنزل . وابتسمت هذه المرأة الشابة ، التى يوحى شحوبها بضعفها ، عندما سألتها عن أحوال طفلها ، – ولكن أخاها الشقيق لم يسأل عن الطفل الوليد ، نظرًا لأنها كانت أنثى . سألت زوجة شابة فى منزلنا ، هل كن يلدن بسهولة ؟ ولكن بدا عليها شىء من الخجل والكسوف لأن رجلا سألها مثل هذا السؤال ، ثم قالت

بعد ذلك بابتسامة عذبة وصيحة لطيفة : "أنا لم ألد سوى مرة واحدة إه Ih ! إه ! Ih ، لقد كانت مرة طيبة بطبيعة الحال" .

البدو بشكل عام كثيرى الثرثرة ومغرمون بالحكايات ، وهم حتى فى هذا الإطار ليسوا أجواداً تماما ؛ وأنا لم أسأل كثيراً عن الأشخاص ، نظرا لأن الكلام ، فى مثل هذا الحال ، سيرتد إليهم مرة ثانية . ومصداق ذلك ، أن خبر سؤالى عن عدد زيجات الشيخ طُلُجٌ سرعان ما ذاع وانتشر بين أفراد المجلس ، وفى اليوم التالى ، عندما وصلت إلى نادى القهوة ، التقانى الشيخ طُلج بمزاج رائق تماما ، وعينان توحيان بأن لديه فعلا ما يقوله على الفور "نعم ، يا خليل ، لقد تزوجت الكثير من النساء ، ومع ذلك أرجو ألا تظن أنى آخذ الحريم أو إن شئت فقل : أتزوجهن ، بطريقة "هى Hy يللاه ! Yellah " أى من أول لقاء واعتماداً على الله . إننى أختارهن بعد تعقل وتمحيص ؛ (وعند هذا الحد انخفض صوت الشيخ طُلجٌ إلى ما يشبه النحيب أو البكاء الكوميدى أو الفكاهى) ولكن الأمر لا يسير حاليا على تلك الشاكلة ، وهذا أمر يدعو للأسف ، زد على ذلك أن هذه اللحية شاب شعرها :" وهنا قال الرجل ، دونما خجل أمام ولديه الكبيرين ، وببساطة البدو ، التى لا يستطيعون معها تخبئة أى شىء : "أنا لست على ما يرام فى نظر جوارى Jowwari، وهذا هو سبب كل خلافنا ، أليس لديك دواء يساعد الرجل ؟ ليتنى أعيش فى راحة بال مع أسرتى !" كان ذلك العجوز يبتسم من كل قلبه وهو يتكلم ، فى حين كان أبناؤه يأخذون الأمر مأخذا مرحاً ، بل وضحك الحاضرون أيضا . لقد استطاع طُلج أن يحكم الأعراب ، ولكنه عجز عن احتواء كبرياء وحزن جواريه Jaras . كان طُلج يدخن غليونه طول اليوم وهو جالس فى الخيمة " وعندما كان الدخان ، عزاءه الوحيد ، يخذله (وحسبما قال لى بصراحه تامة مازجا المرح بالرحمة) كان يتملكه الغضب " ويروح يضرب حريمه البرئ ".

كان مشوات قوى البنية ، ولكنه عجز عن تسود زوجاته : فهذه أم عبد الله كانت تخيفه وترهبه بلسانها . أما الزوجة الثانية ، هى امرأه شابة ، فقد هربت منه مؤخراً وكان مشوات يتنهد كثيراً عندما كان يتحدث عنها ؛ صحيح أنها غادرت الأسرة وتركتها ولكنها لم تغادر قلبه أو تخرج منه مطلقا . "قال لى : إنها جميلة ، إن لها جدائل شعر تصل إلى خصرها ." والبدويات يندر أن يكون لهن شعر طويل ، كما أن

شعرهن يندر أيضا أن يكون كثيفًا . والرجال يتركون سوالف الشعر الجانبية على حالها الطبيعى التى هى عليه : من هنا فإن البدو عندما يمتدحون جمال شاب من الشبان يقولون : "إن له سوالف كبيرة وطويلة" . هذا هو محمد بن الرشيد ، أمير الشَّمَّر، الذى يناهز منتصف العمر ، ولا ترقى ملامحه إلى ملامح الأمراء ، يقولون عنه: "إنه شاب جميل ، إذ له سوالف طويلة " . الرجال الكبار ، يرفضون تلك الزينة التى يتمسك بها ذلك الشباب المأسوف عليه ، وهناك بعض آخر من الناس لا يطيقون تلك السوالف مطلقا . وأنا عندما كنت أُعيرُ مشوات من باب المداعبة ، وقلت له إنه ليس من الشرف أن لا يدفع ثمن الدواء الذى أعطيته إياه ، رد على قائلا : "حسن ، أنا مدين لك حق ، ولكن أنتظر وأصبر إلى أن أتمالك نفسى من جديد وأهرِّس " éherris ، أى أتسود الحريم وأسيطر عليهن ."

تلك كانت عائلة الشيخ طُلج ً: كان لذلك الشيخ أخ فى السابق ، وقد أصابتنى الدهشة عندما علمت أنه قتل نفسه رميا بالرصاص ! ولم أستطع الوقوف على تلك المرارة التى أودت به إلى ذلك ؛ وعندما تحريت ذلك الأمر سرًّا قيل لى أن ذلك حدث منذ زمن بعيد ، لم يستطيعوا تحديد المدة .' وكما هو واضح فى ولد عم مشوات ، وفى مزاج طُلج الحاد الذى يتغير بسرعة ، وفى عجلة أولاد طُلج وتسرعهم ، لابد أن تكون هناك أخطاء طبيعية فى عقول أفراد أسرة ذلك الشيخ ، وبخاصة أن تلك العقول تكاد تكون ملتهبة ومشوشة أيضا . روح هؤلاء الساميين Semites تتعلق بالتراب أو إن شئت فقل : بالأرض ، ولكن ثقتهم الدينية ترتفع إلى سماء قريبة منهم ، فى حين تحيط بهم دائرة الحنان الإنسانى من كل جانب . يندر بين هؤلاء البدو ارتكاب الخطيئة الكبرى التى تقبل عليها الأرواح اليائسة المنعزلة . إذ كيف لروح ذلك البدوى أن تيأس أو تُهون من أمر العناية الإلهية ، التى لا تعتريها أية شائبة دينية ؟ ويد اللّه تحنو على أولئك البدو فى كل أوقات الضيق والشدة ، ولما كان البدو مولودين فى ذلك الخلاء والجدب غير المفيد ، فذلك يعنى أنهم ، بطبيعة الحال ، يقاسون الكثير من المعاناة الطويلة . هذه الروح السامية Semitic عديمة الإيمان والمنحطة أيضا ، تعتمد على الله فى شكل سكون تام . وهم يرون يد الله تعمل عملها فى كل ما يحيط بهم ، كما أن اسم الله يدخل أيضا فى أسمائهم ، إنهم ينادون الله فى كل ما يخرج من أفواههم .

– هذا هو طلال(*) أمير الشمر الشهم يفتح النار على نفسه فى نوبة من نوبات الحزن الجنونى الذى أصابه ! – هذه الوفاة البائسة التى لقيها الأمير خالية تماما من أى نوع من أنواع الشك . طرحت على العالمين ببواطن الأمور من مدن الجزيرة العربية السؤال التالى : "ما الذى يمكن أن تناله ، فى النهاية ، روح تعيسة من وراء القيام بعمل من هذا القبيل ؟" أجابوا على سؤالى : "إنه يحترق !" – وسط تعفن مجتمعاتنا المدنية ، التى تبدو أن الملائكة الحارسين يرحلون عنها ويهجرونها ، نشاهد ، فى كل وقت وحين ، الكثيرين الذين ينزلقون نحو حافة الهاوية . يا لهذه الكروب التى تعتمل فى أعماق الروح ، ويا لهذا الجحود الذى يؤلم القلب ويوجعه عندما يكون من الأصدقاء ، ويا لهذه المحاولات التى تبوء بالفشل ! ويا لهذه البحار التى تبتلع كل شىء ، ويا لهذه العواصف والآلام الموجعة المميتة ، التى يلاقيها الإنسان فيما بين ميلاد العقل ووفاته ! وعندما تصل النار المستعرة إلى القلب ، وعندما يغضب الإنسان ، فإن تلك الأيدى التى لا تستطيع ضبط نفسها تنزل الضرر برأسه هو نفسه ، لتحجب عنه وهم العالم المكروه وذكراه الموحشة عن نفسه ، وعندما تجرى نجدته فى الساعة المنسية ، بعد أن تكون شجاعته قد اهتزت – بفعل عطر الحنان الإنسانى ، فلربما ظل على قيد الحياة إلى يومنا هذا . كثير من الناس كانوا يبحثون عن السلوى والعزاء فى بلاهة أرواحهم ، وبخاصة عندما يلاقون بجمود الوجه والاعتراض ، هؤلاء ماتوا قبل الأوان بسبب القصور الذى أصاب إنسانيتنا .

منغصات الروح البشرية لا حصر لها ، الإنسان ظاهرة غريبة من ظواهر البؤس . فى ظل بعض المناخات الأخرى هناك الكثيرين غير هؤلاء البدو يتمسكون بالدين ، ويبحثون فى غلظة الجسد ، عن الإرادة الكاملة للروح :– ولكن ذلك لا ينطبق على سذاجة العرب المتناهية ، – العرب طبيعيون فى مسألة الدين . هذا يعنى أن هؤلاء العرب ليس لديهم وعى كامل برائحة الخطيئة فى داخلهم ، إنهم لا يرون البرص الذى

(*) طلال أمير الشعراء : حكم إمارة الرشيد ١٨٤٧–١٨٦٧ وتوسعت الإمارة فى عهده ، وكانت علاقاته ودية مع كل من الدولة العثمانية والسعودية . وعلى أثر فقدانه لقواه العقلية أطلق على نفسه الرصاص ومات فى عام ١٨٦٧ . (المراجع)

أصاب أرواحهم ، هناك دم شغوف ، أو إن شئت فقل : ضعف مؤذٍ يتمثل فى خليط من الخيوط الإنسانية ، الذى لو قدر له أن يكون مع آدم فى السماء لما أفاده ؛ وكما يتهافت الذباب على الجراح ، فإن صروف الدهر أيضا تتهافت علي الأشخاص الذين يكونون من هذا القبيل . وفى الصحراء أيضا تجد الوخزات المتأصلة فى الدنيا منثورة تحت أقدام أولئك الأشخاص : وفى دواخل هؤلاء الأشخاص تكمن الاهتزازت غير المحددة التى تصيب الروح الإنسانية ، وبالتالى لا يكون هناك منقذ فى حياوات الرجال . والأعراب ليسوا سوى رءوس منتشية ، ومستَخفَّة ، ولكنها مليئة أيضا بالحزن الذى يقوم على التفكير العميق والتأمل ؛ ومثلما يوجد جمل أجرب فى كل قطيع ، ونعجة عليلة أيضا فى كل قطيع ، هناك أيضا فى بعض منازل البدو بعض الأشخاص المحتقرين ومشوشى الفكر .

الأعراب يعيشون فى خوف دائم من الذئاب ومن العدو ، يفكرون دوما فى دينهم . وبينما كنت أتجول فى الوادى سمعت صوتًا حادًا ينادينى من إحدى الخيام ويقول : "ليه Ley تحوِّم Tahowwam " بمعنى "لماذا جئت تتجول هنا ؟ ألا تخاف الحيوان البرى القاسى ؟ ألا تعلم أن الغريب يأكله الضبع ، (حج Hág الضبع eth-thûba)؟" العاملون فى قوافل القصيم يقولون الشيء نفسه عن الأسد . حيثما دخلت أو ذهبت كان هذا النوع من البشر يرهقونى بدينهم غير المألوف عندما يقولون : "خليل ، فين Fen ربك Rubbuk ؟ بمعنى "أين ربك ؟" أو ، ألا تستطيع أن تقول مثلما نقول نحن ؟ يا Ya ربى Rubby ! أو تقول "الله Ullahu أكبر Akhbar . " وهنا كان البعض يصيحون "ألا تسمعون أن بوسعه أن يقول هذه الأشياء مثلما يقولها المسلمون؟ ولماذا يقولون إذن إنه رجل وثنى ؟ كلمة أخرى ، يا خليل ، ردد بعدى : "الله Uallh الرحمن er-Rahman الرحيم er- Rahim" : – اصغوا أيها الرفاق ! إنه يقولها ويرددها ؛ إذن كيف يقولون إن اليهود والنصارى لا يستطيعون النطق بلفظ الجلالة ؟"

البدو يفضلون رأى الغريب فى المسائل غير الدينية ، متصورين أن ذلك ربما يكون ميلادًا سعيد للفهم ، ومتصورين أيضا أن حظوظ الرجال قد تكون أفضل فى أبراج غير أبراجهم الفلكية . والعرب أثناء نوبات ضيق صدورهم الخيالية يتحدثون حديثًا مرا عن أمتهم ؛ مضيفتى حمدى Hamdy ، ابنة عم الشيخ ، هى امرأة قوية البنية ، أو إن

شئت فقل : "شيخة الحريم"، وهى تفيض أنوثة ، عندما كان يلح عليها الكثيرون طلبا لشيء من التتون (التبغ) الذى سبق أن جلبه زوجها من الساحل ، وعندما كانت تجدهم ما زالوا مشغولين بأمرى ؛ "قالت متسائلة : إلى متى ستظلون تضايقون الغريب ؟ اطردهم ، يا خليل ، إخص ! البدو كلهم 'حطب النار" بمعنى "البدو كلهم وقود نار جهنم " " هذه المرأة البدوية قالت بعد زوجها الأول ، وقبل أن يتزوجها المغربى ، قالت كلمتها إنها 'لن تتزوج من بدوى' . هذه المرأة أنجبت حاليا طفلين من أبى Abu سنون Sinūn ، ولكن هذين بحكم اختلاف الصفات الوراثية ، كانا يبدوان سلالة غريبة بين الأعراب . ولكنها بدأت تشعر حاليا بضغوط وتوترات الزوجة فى الجزيرة العربية ، عندما تدخل مرحلة منتصف العمر ، وعندما تبلغ المرأة هذه السن يفكر ، أو إن شئت فقل : يأتى الرجل الطيب بعروس جديدة تنضم إلى أسرته .

كانت حمدى ، امرأة مجدّة ، وحرة ، فى عصمة زوجها المغربى ، كما كانت أيضا واحدة من النساء العاملات الجيدات ؛ كانت هى التى تصنع بيديها حَكَمَةَ ناقته التى كان يركبها ، كما أنها هى التى كانت تصنع له الخرج الأبيض المنسوج ، ذى الشراريب الطويلة المصبوغة بالألوان المرحة . وأنا لم أر عيباً فى هذه المرأة سوى شيء قليل من التهور والاندفاع ، الذى كان أصيلاً فى أسرتها . والذى رأيتها تمارسه مع ولدها الأكبر من زوجها السابق . هذا الصبى أشقر الوجه ، الذى يبلغ من العمر اثنى عشر عاما ، كان يافعًا ، ويمتاز بروح ممتازة وطيبة ؛ كان ذلك الصبى يرعى صغار الماعز والحملان فى أسرة "عمه" (زوج أمه) ، كان ذلك الصبى عريانا ، منذ مولده ، كما كان ذلك الطفل اليتيم يتجول بين الأعراب على هذه الشاكلة ، تحت الشمس ، وتحت نجوم الليل البارد . كان المهر الذى دفعه المغربى ، لمشوات أخيها غير الشقيق ، عبارة عن ناقة ؛ كانت هذه الناقة تشكل حوالى ٢٠/١ من الثروة الحيوانية التى عند هذا الرجل الثرى . وقام مشوات بتقديم الناقة لأخته حمدى . بعد ذلك ، ويوم أن حدثت الكارثة التى ألمت بهؤلاء القبليين ، وجرى خلالها تجريدهم ، فى الحال ، من إبلهم ، ولم ينجو من تلك السرقة سوى إبل أبى سنون وحده هو وطاهر ، عندما كانا يخيمان فوق الحرَّة ، فى تلك الأثناء كشف المغربى عن كرم جوده : فقد قام الرجل فى ذلك الوقت باعطاء مشوات Mishwat ناقتين طيبتين ، كما أعطى طُلج أيضا ثلاث نياق ،

كل ذلك من قطيعه الذى كان يقدر بعشرين رأسا . لم تكن حمدى الشيخة البدوية هى وحدها التى تتكلم باحتقار عن البدو ، أو إن شئت فقل : الأعراب ، نظرا لأن مثل هذا العمل يعد أمرا شائعا بين البدو ؛ هذا هو شاب صغير جاء يسألنى شيئا من الدواء ، ولكن شخصا آخرا صاح فيه قائلا : "لا تعطيه شيئا ، إنه ولد نتن ." ونظر إليه الشاب ورد عليه قائلا : " يقطع Yakta عمرك Umrak " ورمقه بنظرة حادة . ورد عليه الشاب السابق قائلا : "إنه يشبه ذلك الذى أنكته من أنفى ، وهو والله ، وقود لنار جهنم !"

كل الأسر التى كانت ضمن هذه العشيرة البدوية كانت ترتبط مع بعضها البعض بصلة قرابة ، والسبب فى ذلك، أن القبلى يندر أن يتخذ لنفسه زوجة ، أو إن شئت فقل: ربة بيت ، من خارج القبيلة . والموءاهيب أصحاب أجسام قوية ، ويبلون بلاء حسنا فى العمليات الحربية . قبل عشرين عاما كان هؤلاء الموءاهيب يقومون بالغزو على شكل جماعات مكونة من ثمانين راكبا – أما الآن فقد انخفض ذلك العدد إلى النصف – يضاف إلى ذلك أنهم كانوا أكثر ثراء من الآن فيما يتعلق بقطعان البقر والأغنام وكذلك الإبل . كان مُعَمَّر Muámer شقيق طُلج ، شيخا فى ذلك الوقت ، ومات أبناء مُعمَّر : ماتوا بسبب مرض الجدرى وأبو Aub توفيش (Tawfish الكنية التى يطلقونها على مرض الكوليرا) – طواعين مكة – دمرت الأعراب . والموتى بعد أن يدفنوا ويواروا التراب لا يأسف أحد عليهم ، ولا يحيون ذكراهم : هل يمكن للمسلمين أن يعترضوا على قضاء الله ؟ وبالرغم من صلة النسب والقرابة وتوفرها فى كل حالات الزواج الخاصة بالبدو ، لم يكن من بينهم أحد مُشَوَّهٌ أو مصاب بمس من الجنون . وعندما استمع العرب إلى رأينا عن عيوب الزواج الطبيعية التى تظهر بين أولئك الذين يتزوجون وتكون القرابة بينهم من الدرجة الأولى ، بدءوا يقتنعوا بها إلى حد ما . "وردوا قائلين : هذا الكلام ليس مضطرداً بصورة دائمة على أقل تقدير ؛ وهذا الذى تقوله نحن نراه فى الماشية ، ومع ذلك تكون صغارها بحالة جيدة ."

عانيت وقاسيت مع البدو من مجاعة الصيف ، هؤلاء الذين يذلهم الجوع فى جو من هذا القبيل ، وخالٍ من بذور التخمر والتعفن ، لا يصابون بالأمراض المهلكة . جسم البدو يشبه جسم السفينة المصنوع من الخشب الخفيف ، الذى يظل مجدولا إلى أن يجىء فصل الربيع ، حيث يقوم البدو باستعواض طبيعته المتلاشية ، ومن ثم يتجدد دمه

بعد تناول الطعام الآثم أو إن شئت فقل : الثريد ، طوال عدة أيام . والبدو على استعداد دائم لأن يرووا حكايات مدهشة عن شخص يعرفونه ، استطاع أن يأكل طليا كاملا فى مرة من المرات . وهم يعتقدون ، أنهم يتعين عليهم أن يشربوا من لبن النياق القليل المتوفر لديهم ، ويعتقدون أيضا أن حليب النياق هو الذى جعل أجسامهم رشيقة وخفيفة ، فضلا عن زيادة قدرة تلك الأجسام على تحمل الجوع والإرهاق وكذلك الصبر لفترات طويلة . وإذا لم يتوفر لبن النياق فهم يستعيضون عنه بقليل من المريسى ، غير أن المريسى يكون غير كاف إلى الحد الذى يجعلهم يتكاسلون . ويندر فى حياة هؤلاء البدو أن يتحولوا إلى طعام آخر مثل الجراد ، الذى يقولون عنه : إنه يحفظ عليهم حياتهم إلى أن تحل عليهم أزمان مواتية . معروف أن سوء التغذية بين البدو يبعث الضعف فى أحشائهم ويجعلها تتآكل ؛ وليس هناك شعوب أخرى مصابة بهذا المرض أكثر من هؤلاء البدو : يضاف إلى ذلك أن سكنى هؤلاء البدو وإقامتهم فى أراضى لا تصيبها الأمطار يجعلهم لا يذوقون أو يطعمون الثمار عندما تظهر فى مواسمها المختلفة ، هذا يعنى أن شبح الجوع ، وأمراض الصحراء كانت أمرا واردا فى كل خيام هؤلاء البدو . والعبارة البدوية الشهيرة "معانا Máana لون Lon" التى معناها "لم يتبق لنا شىء فى هذه الحياة ." تلوكها كل ألسنة البدو ، ويرددها كل واحد منهم على مسامع الآخرين . وتمر الأيام ، ومن بعدها أيام أخرى فى ظل هذا الضعف الناتج عن الجوع ، وفى ظل النسيان الذى يخيم على هذا العالم البعيد ، وفى ظل الحياة التى تستنفد الجسم البشرى وتهد قواه . والملجأ الوحيد ، بل والعزاء الوحيد لنا هنا يتمثل فى نسيم ليل الصيف الجميل فى الجبال ، والذى يهب علينا كل يوم ؛ وأنا عندما كنت أستلقى طليا للراحة وسط أحجار البازلت البرية ، وتحت نجوم السماء الصافية ، وفى أرض الأعداء ، كنت أجد متعة أكثر فى ذلك ، عن النوم أو الاستلقاء فوق الأسرّة والمخاد فى غرف نومنا المغلقة . – فى هذا المكان ، لا تجد طريقا واصلا أو قادما إليه من مدينة العالم ، والألف عام تنقضى كما لو كانت نهار يوم واحد ، نحن فى الدنيا (العالم) ولسنا فيها أيضا فى آن واحد ، حيث أنجبت الطبيعة إنسانا ، ذلك اللغز الذى يحير نفسه ، وبذرت فيه الروح الشريرة بذور الاستهتار . ونحن عندما ننظر إلى ذلك المنظر الذى لا نهاية له ، نجد أن حياة الجسم الفانى تتضاءل ، ونجد الروح تفرد

جناحيها على ذلك الغموض المقدس .- خطر ببالى أننى كنت أحصى ما يزيد على عشرين نيزك فى كل ساعة من الساعات التى كانت تمر على .

طوال تلك الليالى والأيام كنت أتأمل نُساك العقيدة المسيحية القدامى فى بلدان الصحراء العالية ، فى ذلك الجزء من العالم - فى هذا المكان كانت تظهر فى كل عصر من العصور موجة بدائية تجدد الأرض وتحاكمها ؛ وكيف فرت إلى هذه الأماكن موجات متعبة وعنيدة وشديدة المراس ، محاولة بذلك استعادة حياة آدم عليه السلام داخل أرواحها ، ومتطلعة إلى إقامة وعيش خال من الخطايا مع العناصر ، فى مكان يعملون فيه على إنقاذ أنفسهم من المصائب الشائعة ، مما يجعلهم يستنفدون ما تبقى لهم من صبر ، ويرحلون بعد ذلك إلى حياة أفضل . هناك نوع من الفلسفة الطبيعية الذى يقوم عليه الحكم العادل والعلاج العادل أيضا للأمور . الزهد الدينى هنا هو الجراحة الماضية التى تستأصل ميول الإنسان الانحرافية من جذورها ؛ وبذلك يتفق ذلك التفاخر الخيالى والحزن العميق الذى يكمن فى الروح الإنسانية ، تلك الروح التى سئمت نفسها فى هذه الدنيا ، وعلقت بها بعض الأدناس خلال فترة قصيرة ، أو إن شئت فقل : فى المدى القصير . هذه الروح التى تتطلع إلى تخليص نفسها من هذه الأساليب المحيرة ، تراودها أثناء غضبها رغبة فى إفناء ذلك الجسد المعادى والتخلص منه ، نظرا لأن هذا الجسد هو المصدر الوحيد لأمراضها . محمد صلى الله عليه وسلم طلب أو أراد إنقاذ ذلك الجيل من أبناء السبيل ، هؤلاء المصلين الذين ضُربت من حولهم الظلمة فى الصحراء ، إذ كانت بينهم أنواع من النماريد Nimrods الروحية ، تتجول من حولهم فى أرض الأحلام الدينية ، لتبنى من نفسها درجًا صاعدًا إلى السماء . وكان السبب وراء ذلك ، أن البعض من هؤلاء النماريد كانت "لديهم روح النبوّة " وكان أولئك النماريد قد حُيوا فى رجال القوافل صغار السن العلامات السرية لرسالته Apostleship (بعثته) المستقبلية . ولكن محمد صلى الله عليه وسلم ، فى القرآن الكريم ومع كياسة الفهم العربى ، يلاحظ القناع القاسى الذى يرتديه العصاة Undoers، لله ، ولأنفسهم وإخوانهم فى الإنسانية : "الله أرسل الإنجيل على رسوله عيسى بن مريم ، ومن ثم إلى الأمة المسيحية ؛ ولكن طريق النُساك هو من صنعهم هم أنفسهم "

جاءنى أبو سنون مرة ثانية ، كان الرجل قد تغيب منذ مدة طويلة ، الأمر الذى شغل ذهن زوجته وأذهان أصدقائه عليه ، والمؤسف أنه لم يجيء إلى بيته لنيل قسط من الراحة ، ولكنه كان يتعين عليه أن يعود ، فى صباح اليوم التالى ، من حيث جاء ، أى لإحضار المزيد من الأرز من قرية الوجه ، كان المغربى ينقل طوال رحلات الصيف إلى جانب الأرز شيئا من المريسى؛ كان الرجل يسير أثناء الليل فى أراضى تهامة المنخفضة شديدة الحرارة. جاء لنا محمد بأخبار من قرية الوجه . "لقد نصب المسلمون مذبحة تشبه مذابح الغنم ، إذ قتلوا وأسروا حوالى ٣٢٠,٠٠٠ من النصارى ؛ ولم يقع من جانب الإسلام سوى ٣٠,٠٠٠ " شهيد " فقط : – هل سمعت هذا ، يا خليل ! الشكر لله! – لقد انضم الإنجليز أيضا إلى جانب السلطان ! سينصر الله السلطان نصراً عظيما ! لقد اجتاحت جيوش الدين بلاد الأعداء ، وهم يتقدمون الآن صوب مدينة موسكو العظيمة ، وعندما يستولون عليها ، سيبعدون عنها ملك الصُّفر Yellow العظيم مربوطا بالسلاسل ، وسوف يستعيدوا كل الأراضى التى جرى الاستيلاء عليها من قبل وأخذت عنوة من المسلمين. لقد هزموهم لا فى البر فقط وإنما فى البحر أيضا: لقد غاصت متحطمة سفن كثيرة من سفن موسكو(*)!" كان محمد هو الذى حمل هذه الأخبار إلى البدو ، (تلك الأخبار التى لم تحظ بقبول كبير عند الرعاة ، فيما يتعلق بكلامه عن الأجانب) ، وأوصلها إياهم عن طريق سياق مبتسم صادر عن رجل صاحب معرفة كبيرة ، ويتواضع لتعليم الجهّال .– ترى ، كيف لى بتفسير الأنباء التى أوردها المغربى عن الحرب ؟ وأنا عندما غادرت سوريا كان الأتراك يحاربون كلا من صربيا Servia هذا يعنى أن الأخبار التى حجبت عنا فى دمشق كانت نذير شؤم . "القديس جورج – على حد قولهم – أصبح مسلما منذ وفاته، وأنه ظهر فى مونتنجيرو Montenego وهو يطارد الكلاب المسيحية مستخدما فى ذلك رمحه ؛ وأن الجبال ابتعدت عند ظهوره مسافة مسير ساعتين" . – لم يكن القديس جورج وحده ، ولكنهم يعتقدون ويؤكدون أن

(*) تشير هذه الأخبار إلى ما عرف بمذابح البلغار وهى تلك المذابح التى قامت بها الدولة العثمانية لقمع الثورات التى حدثت فى البلقان فى عام ١٨٧٦ والتى كانت بتحريض روسيا المتزعمة لحركة الجامعة السلافية وكان قيام الدولة العثمانية بقمع تلك الثورات مبرراً لكى تعلن روسيا الحرب على الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ . (المراجع)

سيدنا عيسى (أيضا ، هو وأمه مريم أصبحا مسلمين ؛ وأن الخلق لم يخلق إلا لسيدنا محمد الذى له الأولوية على كل مخلوق آخر" . وأن شخصا يدعى سيرجيوس Sergius كان قديسا مسيحيا فى دمشق ، "ولكنه أصبح الآن فى زمرة الإسلام ؛" وبوسع من يريد أن يشاهد ضريح سيرجيوس هذا فى السوق (الشارع) بالقرب من إحدى النافورات ، وقضبان نوافذ ذلك الضريح كلها مغطاة بخزف على شكل قرابين . وذات صباح ، ومع بداية الثورة والتمرد ، وجدوا مصابيح سيرجيوس مضاءة عن آخرها ، كما أن نافورته كانت تفيض دما ، كانت الخوارق الطبيعية التى فسرها المتعلمون أصحاب العمائم الكبيرة تقول إن هناك دمارا عظيما ينتظر الدم المسيحى !

يقول البدو عن سكان ميناء الأرز فى قرية الوجه : "إنهم بخلاء مع الغريب ، أناس لهم لهجة تختلف عن لهجتنا (كلامهم خليط من اللهجة المصرية ولهجات أخرى)" . يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو، الذين تعودوا على الإقامة فى المناطق المرتفعة الجافة ، لا يطيقون حرارة الصيف فى تلك المنطقة القريبة من شاطئ البحر . وفى تلك القرية ، هناك بعض من رجال القبائل، الذى يرددون فى تلك القرية حكاية ذلك "النصرانى الذى يتجول مع الأعراب، وراح يدون بلادهم ويسجلها ، – وهل استطاع أولئك الذين يعيشون فى تلك القرية القريبة من البحر ، أن يقولوا للناس شيئا عن أهل بلدى ، أو أين يوجد ذلك البلد ؟" وردوا على ذلك السؤال قائلين : "إذا جاء النصرانى إلى هنا فإنهم سوف يستقبلونه ." وفى الوجه ، أخبرنى البدو متسائلين : هل بعض النصارى ، "رجلان أو ثلاثة رجال ، لهم ذقون حمراء ، هم أشخاص أمناء بالرغم من أنهم كفار ، وهم يعيشون وحدهم فى القلعة ، ويلبسون فوق رءوسهم قبعات عريضة ؛ – لكن خبرنا هل من المقبول أن لا يطيق الكافر النظر إلى السَّما (السماء) Sema ؟ – انظر إلى أعلى ، يا خليل ، إن كنت تستطيع ذلك." طلبت منهم أن يتذكروا أنهم ، فى كل عام ، يشاهدون الحجاج السوريين (الدمشقيين) هم والحجاج الفرس Persians ، وهم يلفُّون وصلات من الجلد على جباههم ، لكى يحموا عيونهم من الشمس .– ولكن هذا الرأى واجهته فى كل أسفارى التى قمت بها فى الجزيرة العربية ؛ فى كل الأماكن التى وصلت إليها كان هناك بعض الأطفال وبعض النساء اللاتى كن يقلن لى : "ارفع عينيك يا أنت إلى

السَّما (السماء) ! " قال أحد القحطانيين(*) الخلصَّ ، الذى سبق أن تعرفت عليه فى القصيم Kasim، قال عن أهل نجران ، الذى سبق أن زارها مرات عدة : "إنهم ليسوا مسلمين حقيقيين(**) ،- إنهم لا يؤذنون للصلاة (بنفس) الكلام الذى نقوله نحن - وإنما مثل الفرس ، كما يلبسون عمائمهم مدفوعة إلى الأمام كى تغطى عيونهم ، (وأردف قائلا :) مخافة أن ينظروا إلى سيدهم ." هؤلاء الرجال الثلاثة الموجودين فى برج من الأبراج ، خطر ببالى أن يكونوا (يونانيين أو إفرنج) هم الذين يقطنون أو يعيشون فى منازل خفيفة .

وصل إلينا مهنا Mahanna ، الذى قطع المسافة عبر الحرَّة قادما إلينا مطالبا بالمدَّة Mida لأفراد قبيلته الذين سقطوا فى شجار العام الماضى . كان شيخ السُّحامة يقيم فى خيمة القهوة ، التى كان يجرى دعوته منها هو وأعضاء المجلس ، لتناول وجبة الضيافة ، التى سبق أن أعدها له أحد المواهيب الكرماء ، وبالتالى كانوا يجلسون إلى وجبة من الأرز المطبوخ فى الماء ، والمضاف إليه شيء من ملح وفلفل قرية تيماء ، والملون بلون الزعفران . كانت تلك العزائم خاصة بأسر الشيوخ ، كان المضيفون ,فى تلك الأزمان غير الرائجة ، يقدمون أعذار الشهامة والمروءة عن البدو الرحل ؛ وأظن أيضا ، أنه كان هناك بعض الناس ، الذين كانوا ينفقون كل حياتهم فى ذلك المكان . كانت سلوكيات الإنسان معتدلة ، كما كانت مهمة الإنسان لطيفة أيضا وهو يتحسس جرحا التأم حديثا ، وهو بين إخوانه المتصالحين ؛ يضاف إلى ذلك أن شيوخ البدو كانت لهم سياسة طبيعية عظيمة . هؤلاء الشيوخ يتمسكون بشدة بذلك الذى يمكن أن يحصلوا عليه ، ويتنازلون بطريقة لطيفة عن ذلك الشيء الذى يستحيل عليهم الحصول عليه . ابتسم مهنا ابتسامة فيها كثير من الود عندما وجدنى هنا ، وغمرته السعادة عندما سمع طُلُج يمتدحنى من قلبه بحق ؛ وقام ذلك الرجل الطيب بتقديم غليونه الطويل إلىّ طالبا منى أن أملأه له بالتتون (الدخان) .

(*) من قبيلة قحطان ، وهى إحدى القبائل القديمة فى الجزيرة العربية . (المراجع)

(**) أهل نجران : على خلاف ما ذكر أعلاه فإن أهل نجران مسلمون حقيقيون ويعتنقون المذهب الزيدى ، وهو نحلة من نحل الشيعة . (المراجع)

فى صبيحة اليوم التالى أوفد مهنا رجلا إلى قبيلته يحمل إليها بعض الأنباء ، مفادها أن عدد النياق لم يجر بعد تحديده بين الطرفين : والخطر هنا كان يتمثل فى الاختلاف حول مسألة التحديد هذه ، الأمر الذى كان يمس أهم انفعالات أولئك البدو . كان مهنا يطالب بأربعين ناقة ، قيمة الدية بين أفراد القبائل . قال السَّراحون إن تلك الدية ينبغى أن تكون خمسة نياق فقط، كما هو معمول به بين القبائل فى حالة العداء؛- نظرا لأن الرجل قتل من منطلق العداوة ، وأنهم دفعوا الدية فى ذلك الوقت بواقع خمسة نياق : ولكنهم يرون مهنا يعود إليهم اليوم ليطلب منهم خمسة وثلاثين ناقة أخرى ! ولكنهم يتعين عليهم أن ينفذوا كلام داريش Daryesh الشيخ السِّرحانى ضيق الصدر .

ولما كان التبغ الذى مع مهنا قد انتهى ، فقد حتم عليه ذلك الذهاب إلى قرية العلا لابتياع شىء من التبغ ، من هنا فقد رافقه ، فى هذه الرحلة ، كل من حامد وشويش Shwoysh . والبدو يطلقون على الرحلة التى يقوم بها عدد قليل من الرجال ينتقلون خلالها بسلام فى الصحراء ، اسم "طُرقية" turkieh . قبل أن يركب هؤلاء الرجال دوابهم ، جاءوا إلىّ يسألونى عن طريقة اتقاء أو تجنب ذلك الذى يسمى بحمى الواحة ، - الذى يطلقون عليه أيضا اسم "حمى الحجاز" فى نجد ، التى تتملك أجساد هؤلاء البدو ، على نحو يصعب معه عودة الجسد إلىّ سابق حالته الصحية مرة ثانية . حمى العلا El-Ally حمى طويلة الأمد أكثر منها حمى مهلكة أو مميتة . والبدو لديهم حساسية شديدة جداً ضد الرطوبة والتخمر ؛ كما أن لديهم حساسية شديدة أيضا ضد برودة الليل غير الطبيعية التى تنتج عن المناطق المروية ؛ هؤلاء البدو يعودون إلى ديارهم فى كثير من الأحيان وهم يحملون كثيرا من الأمراض غير المرئية ، والموت غير المرئى أيضا ، من أسواق القرى التى يترددون عليها .

عندما عادوا قادمين من العلا ، أبلغنى مهنا أنه يجرى بينه وبين رجل من خيبر حديث ، وأن ذلك الرجل أبلغ مهنا أنه سوف يتجه إلى خيبر عائدا إليها ، فى صباح اليوم التالى ، أو إن شئت فقل : بكِّير bächir ، وأنه (مهنا) يود أن يرسلنى مع ذلك الرجل . وبالرغم من أن خيبر والعلا لا تبعدان عن بعضهما سوى مسافة رحلة طويلة من رحلات الإبل ، إن أن قرويى هاتين القريتين يمضون حياواتهم دون أن يزوروا

بعضهم البعض الآخر ، كما أن المدينة (المنورة) تعد سوقا لهاتين القريتين . قام البدو بسرقة عجل مخصى من قرية خيبر ؛ وعندما بلغهم نبأ وجود ذلك العجل فى قرية العلا ، قام القروى (صاحب العجل) يرافقه أحد البدو بالذهاب إلى العلا ليطالب باستعادة ذلك العجل المخصى . "قال مهنا ، إننى سوف أصل فى الوقت المناسب إذا ما بدأت رحلتى فى الصباح ." ولم يكن من السهل علىَّ العثور على رفيق يذهب معى إلى "المدينة" المنورة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن الشخص الذى اتفقت معه أثناء الليل خيب ظنى مع طلوع النهار .

مع طلوع النهار ، جرى اقتياد سبعة عشر جملا ، إلى خيمة القهوة ، وذلك من باب سداد المدة (الدّية) أو الوفاء بها ؛ بالأمس تسلم مهنا فى وادى عروش كثيرا من سيقان النخيل بدلا من الإبل ، – والمعروف أن الساق الجيدة من سيقان النخيل تقيم على إنها جمل . ولكنى أسمع الآن أن مهنا يرفض كل العروض التى تقدموا بها ، ويصيح قائلا : "الأعراب سوف يعودون إلى عدائهم المستحكم ، وأنه لم يعد يتبقى بينهم سوى الموت الأسود؛ – ووالله ، فإنه لن يرضى بأقل من أربعين ناقة ." ركب مهنا ناقته، وأدار ظهره دون أن يستأذن من الحاضرين ، وراح يتجه صوب رأس الوادى ، عائدا إلى ديرته عن طريق الحُرة . هذه الحدة ، فى الاستعراض ، إنما هى شكل من أشكال سياسة ذلك الرجل فى الحصول على المزيد من الإبل ؛ يضاف إلى ذلك ، أنه لم يكن من مصلحة ذلك الرجل تسوية أمر خطير ، مثل هذا الأمر ، دون أن تكون هناك بعض المصاعب . راح المواهيب الذين كانوا ينتظرون ذلك الحادث ويتطلعون إليه ، يراقبون مهنا أثناء انصرافه ، ثم ذهب كل واحد منهم إلى مورد تزود الماشية بالماء ، أو إن شئت فقل : مسقى الدواب .

عثرت على الشيخ طُلُّج ، جالسا عند عين الماء ، مع أولئك الذين كانوا ينتظرون دورهم فى السقاية . وهنا وجدت الشيخ سيدان Seydan ، الذى كانت له طبيعة معينة ، وكان يفضل الغريب فى كل الأحوال ، يقول : "إذا لم يكن هناك أحد غير ولدى فسوف يذهب هو معك ، نظير أجر ." كان ذلك الابن يدعى حوريش Horeysh ، ونظرا لأنه كان موجوداً فى بيته فقد ذهب لإحضار ناقته ، ولكنه سرعان ما عاد إلى خيمتى وهو يكشر عن أنيابه ويقول لى أننى ينبغى أن أزيد له فى الأجر ، وقد لبيت له ذلك الطلب .

والبدوى يحتم الحصول على أجره قبل بدء الرحلة ، على أن يحاول بعد ذلك بذل كل ما فى وسعه . كان لابد من فك النقود فى قرية العلا ، وهنا قال حوريش بطريقة همجية غير مهذبة ، لامه أخوه على إثرها ، إنه لا يثق بما قلته له ، وقال : "إننى كنت نصرانيا". وهنا أعطيته النقود فى يده ليقوم هو بفكها من قرية العلا ، ثم استأنفنا مسيرنا بعد ذلك .

أثناء سيرنا انضممنا إلى جماعة صغيرة أخرى كانت مسافرة، كانت تلك الجماعة عبارة عن رجل سرحانى يقوم بتوصيل أخته وولدها الصغير إلى الواحة . كان زوج هذه المرأة البدوية ، وهو رجل قروى من قرية العلا ، قد أرسل فى طلب ولده حتى ينشأ ويتربى فى كنف تلك الحياة المستقرة . وكان يسافر أيضا مع هذه الجماعة الصغيرة رجل آخر كان يسوق معه رأسين أو ثلاثة من الحيوانات الصغيرة ، وقد تعرفت على ذلك الرجل ، واكتشفت أنه حضرى من قسمات وجهه قاتم اللون . كان ذلك الرجل قصابًا ، جاء ومعه قليلا من التبغ لكى يبيعه للبدو ، وها هو الآن يعود ومعه لحوم حية (حيوانات) . كانوا يلقون السلام على بعض الرعاة الذين كانوا عند منبع الوادى ! ولما كنا نسير بحذاء ساحل الوادى المنخفض فقد وصلنا إلى وادٍ آخر ، يقع منبعه فى الحدود الجبلية المكونة من الحجر الرملى والأجزاء البازلتية العالية من الحرَّة ، – وهى منطقة خالية من الماء لا يزورها أو يتردد عليها الرعاة البدو ، ويخيم على تلك المنطقة أيضًا شكل من أشكال الصمت العنصرى . هذه العدَّة الخشبية التى على ظهر الجمل ، أيقظت فىَّ شعورا دفينا وغير مريح أحسست معه بالجوع ، ولا أذكر أننى فى حياتى كلها ، فيما قبل تلك الشهور التى أمضيتها فى الجزيرة العربية ، لم أتناول الإفطار حتى ولو لمرة واحدة . وهنا نحن نصل إلى تلك الغابة الضخمة من الصخور التحتية المكونة من الحجر الرملى؛ والناس هنا يطلقون على تلك الغابة اسم الأخمة el-Akhma، وهى تمثل الحد الخارجى للعويرض . ومع دخول وقت الظهر ، نزل المسافرون عن دوابهم ، كما هو متبع فى السفر أثناء فصل الصيف ، وجلسوا فى ظل صخرة عالية ، لقضاء أشد ساعات النهار حرارة . وعثرت فى تلك المنطقة على نقش حميرى ؛ ولكنى خشيت الوصول متأخرا إلى قرية العلا بسبب مثل هذا التأخير الذى لا داعى أو لزوم له .

عندما استأنفنا مسيرنا من جديد ، كنا قد أقبلنا على الجزء الثالث والأخير من نهار اليوم . وهنا سارعت لأحمل عن القصاب قربة مائه التى كان يحملها على ظهره ، مستهدفا بذلك أن يعجل من مسيره معنا ، وحتى لا ينفصل عنا فى ذلك المكان غير الآمن ؛ القصاب قال : "لا ! لن يفترق عن القربة التى هى فى مقام أمه". وهنا رد عليه البدو ، وهم يتعجبون : "صدقت يا رجل ، إنها أمك بحق !"- هذا هو الفكر الذى يدور فى أذهان أهل الجزيرة العربية عندما يفترقون عن الماء مدة ساعة أو ساعتين ! وفى النهاية ، بدأ يطالعنا منظر نخيل القرية ، فى ضوء الشفق . وعندما نزلنا عن دوابنا عند بوابة القرية كان الليل قد أرخى سدوله علينا ، وأحدثنا شيئا من الجلبة ونحن نسوق دوابنا عبر البوابة ؛ هذه الدواب عندما تشممت الشوارع الضيقة خافت من الدخول إلى الظلمة الموجودة أسفل الغرف المبنية . وهنا ضربت ناقتى العجوز رأسها فى الجدران ضربة شديدة ظننت بعدها أنها ربما تكون قد أصابها مكروه . وهنا جاء قروى أو اثنان كانا عائدين متأخرين إلى القرية وردًّا علينا السلام والتحية وراحا يعاملانا بود نحن البدو . كانت المسارات الضيقة فى هذه المدينة الحجازية الأصيلة تفوح منها رائحة ماء الورد بشكل فظيع . وتوقفنا فى مكان واسع ذهب فيه حوريش للبحث عن واحد من معارفه اسمه فرحان Farhan ؛ وبعد أن تركنا جمالنا الباركة بعد ربط ركبها ، قام الشابان اللذان أخذانا إلى الأمام ، بحمل أكياسى الكبيرة على اكتافهم ، ومشيا أمامنا فى اتجاه الباب . جلسنا فوق الضفاف (المصاطب) الطينية ، التى جرى صنعها لتكون بجوار المداخل كلها، ثم أحضروا لنا بعد ذلك طبقا من التمر، وسلطانية أخرى من مائهم غير الصحى ؛ - كنا لم نتذوق أى شىء من الطعام طوال ذلك النهار الذى انقضى علينا . تلك الغرفة كانت مخزنا ، وضعوا فيه أشيائى ، وأغلقوا عليها الباب طوال الليل . وبعد ذلك اقتادنا هذان الرجلان إلى شرفة نظيفة فى منزل خالٍ ، يمكن لنا أن ننام فيه .

وصلنا مبطئين mabty ، أى متأخرين ، كما توقعت ؛ فقد بدأ ذلك الخبيرى رحلته قبل ظهر هذا اليوم ، - والبدو هنا يطلقون على فترة ما قبل الظهر ، بعد انتصاف النهار ، اسم "البيريح" el-beyrih ، بمعنى "أمس" .- هذه الساعات القليلة التى ضاعت منا كانت بسبب التباطؤ الغادر من جانب حوريش ، الأمر الذى هيأ لى فرصة لقضاء

عام آخر من المتاعب والأخطار فى الجزيرة العربية ، نظرا لأن هدفى الرئيسى كان يتمثل ، بالدرجة الأولى ، فى زيارة خيبر . هنا ، فى خيبر ، نجد أن حرارة الليل البهيم لا تتناقص بشكل محسوس عن ذلك الذى كانت عليه أثناء نهار الظهيرة ؛ استلقينا على الأرض شبه لاهثين ، إلى حين طلوع الشمس ، وبعدها لم نستطع النوم حتى ولو للحظة واحدة . هذه الديرة لا تعرف الأسرَّة ؛ وعابرو السبيل يستلقون على الأرض لنيل قسط من الراحة ، ويستخدم الواحد منهم ساعده ليكون مخدة يضع عليها رأسه ، مفترشا الأرض من تحته :- والمرء يرى هنا ، فى كثير من الأحيان ، البدو المساكين ، الذين جاءوا للتسوق، وهم ينامون عند الظهر فى المدينة أو القرية ، مثل الصبى يعقوب، ويضع الواحد منهم حجرا من تحت رأسه ! بل إن قرويى قرية العلا أنفسهم يندر أن يداعب النوم جفونهم طوال فصل الصيف الطويل الحار والقسم الأكبر من قرويى العلا يقضون ليالى الصيف فى البساتين ، التى يحتفظون فيها بتعاريش يصنعونها من جريد النخيل وسقيانه ، ويفرشونها بحصير يصنعونه من زعف النخيل . وهم يقيمون وينامون فى تلك التعاريش ، كيما يتسنى لهم حراسة محصول التمر والفاكهة أثناء فترة النضوج ، ويهب عليهم وهم فى تلك التعاريش هواء مشبع بالرطوبة ، وشىء من البراد قبيل طلوع الصبح . وعقب طلوع النهار ، نركب إبلنا ونواصل المسير فى الشوارع . ويستمر حال المعاناة هذا مع تلك الماشية خاوية البطون ، طوال ثلاثة أو أربعة أيام ، لتعود محملة بالتمر مع رب الأسرة ،- هذه الحمولة تكون أكبر بكثير جداً عن أية حمولة تحملها هذه الماشية وهى بكامل صحتها وعافيتها ؛ والمرء يمكن أن يصادف تلك الحيوانات المسكينة وهى تمشى متثاقلة عائدة إلى المنزل ، قادمة من تلك المستوطنات الطاردة .

وجهنا مواشينا صوب مقهى القاضى موسى ، ذلك الرجل الحجازى الذى له عقلية إسلامية بدائية بحق وحقيقة ؛ ولما كان ذلك الرجل عائدا من مقر راحته الليلية فى البساتين busatin ، فقد استقبلنى بابتسامات إحسانه الذى يوحى بالكرم . وهنا جرى إشعال أو إن شئت فقل : شب نار قهوة الصباح ، وقام مقدم القهوة ، أو إن شئت فقل: "القهوجى" Káhwajy بتحميص البن على نار الوجار ثم طحنه طحنا إيقاعيا فى هون البن . ويتوافد الأشخاص المعروفون ، على ذلك المقهى ، قادمين من البساتين لتناول

فنجال قهوة الصباح ، هؤلاء الأشخاص المعروفون هم من سوق (حارة) القاضى موسى ، وهم يخلعون نعالهم قبل الدخول إلى المقهى ، وعندما رأونى أنا ورفيقى ونحن جالسين بالقرب من الوجار ، حيونى تحية طيبة ، "أهو أنت ، يا خليل ، – من أين جئت؟" وتقدموا لمصافحتى . هنا لا تجد تحضر شيوخ الصحراء وقرى نجد الذى يجعل المرء يفقد صوابه ، والذى تصدق عليه الكلمات التى قالها إشعيا ذات مرة فى وجه بنات يهوذا الخائن ، "هم متعالون ، ويمشون بأعناق ممدودة ، وعيون فيها فضول ، ينفثون السناج وهم يمشون ." ولكن أهل العلا متزنون وطيعون وعاقلون .

– هذه هى صالة ونادى قهوة "جماعة" موسى ، المقصود "بالجماعة" Jummaa هنا هو الاتحاد الأسرى الطبيعى ، الذى يولد وبينه صلة قرابة أو نسب ، من خلال كبير ، يكون هو رأس المنزل ، ويكون وارثا لسلطة الأب الأكبر . هذه الروابط والانقسامات عن طريق القرابة تمثل الحياة المشتركة الواحدة والأمن المشترك الواحد فى بلد تعمه الفوضى التى تكون من هذا القبيل . والغرباء الذين يفدون على هذا التحالف يجرى تعرفهم عليه من خلال أصدقائهم . والرجال الذين يجرى تحريرهم من عبوديتهم يتحولون إلى عملاء فى منزل رب الأسرة ، وأطفال هؤلاء الرجال ، مع أطفال الغرباء الذين يتكاملون مع ذلك التحالف ، يمنحون نفس الأبوة التى يحصل عليها أطفال الأسلاف : هذا يعنى أنهم يصبحون "أبناء عمومة" فى الجماعة نفسها .

الأجزاب السياسية المختلطة أمر نادر الحدوث فى الجزيرة العربية ؛ والسبب فى ذلك أن أى إنسان ، مهما كانت قوته ، حتى وإن كان فى المدينة ، لا يمكن له ممارسة سلطة من السلطات العامة إلا إذا كان منحدرا من سلالة شيخ من الشيوخ . ففى كل المدن الواحية توجد قرابات كثيرة ، وغالبا ما تكون متشابكة من خلال أكثر من سلالة نسبية واحدة ؛ وهنا يكون مثل هذا الشخص مناسبا للحكم – وأصدق مثال على ذلك هو أمير عنيزة – الذى يعد الرأس الطبيعية لذلك البيت القديم المنحدر عن الشيوخ القدامى ، وبخاصة الشيوخ الذين يكون آباؤهم من البدو ، الذين أسسوا مستوطنة

(*) عنيزة : من البلدان الهامة فى منطقة القصيم . كان يحكمها أثناء رحلة "دونى" الأمير زامل بن عبد الله ١٨٦٧–١٨٩١ . وينتمى أمراء عنيزة إلى قبيلة السليمى وهى بطن من بطون قبيلة السبيع . (المراجع)

النخيل فى الصحراء . فى بعض المدن ، قد يتصادف قيام حزب فرعى ، من خلال تهيؤ الفرصة المناسبة ، بالوصول إلى المقدمة ويتسود كل شيء ، مثلما حدث لبيت ابن الرشيد فى حائل ، الذى باركه الوهابيون فيما بعد ، الأمر الذى أدى إلى نمو ذلك الفرع الجانبى ليصبح أعظم الأسماء قاطبة فى الجزء العالى من الجزيرة العربية . – تجمع أتباع دين محمد ﷺ كان عبارة عن جماعة مختلطة ، وهذا التجمع يشكل فى الوقت الحالى نوعية ، أو إن شئت فقل : تحزُّب خاص من الأمم – يكشف عن قسمات القرابة فى الوجه لهذا الحزب أو ذاك من أحزاب الجزيرة العربية .

الجماعات فى الواحات عبارة عن "إخوانيات" تسكن أحياء عديدة . وأهل الحضر الذين يتشاجرون ولا يكونوا من نفس "الإخوانية" ، يحاول كبار السن بينهم إعادة الوفاق إليهم ؛ ولكن فى الواحات الكبيرة ذات الحكم الذاتي ، كما هو الحال فى عنيزة ، فإن المواطنين الحضر ينقلون خلافاتهم ليحكم فيها الأمير الجالس فى المجلس ، وذلك أسوة بما يفعله البدو عندما يحملون مشاكلهم إلى شيوخهم . وإلى أن بدأت مزايا ومنافع الحكم الوهابى تتبدى للجميع ، كان القرويون منقسمين ويقفون فى وجه بعضهم البعض ، وجماعة فى وجه جماعة ، سوق (شارع) فى وجه سوق (شارع) آخر فى السواد الأعظم من مستوطنات الجزء المرتفع من الجزيرة العربية . – سمعت أثناء الخطر الذى كان يتهددنى فى خيبر إنه "إذا ما تعرضت حياة الغريب للخطر فى سوق (شارع) من الأسواق ، واستطاع الهرب إلى شارع آخر ، فإن ذلك الشارع يحميه ويدافع عنه ."

أحضر موسى قطعة من البطيخ ليرفه بها عنا ، وبعد ذلك مباشرة اصطحبنا لتناول الإفطار ؛ والإفطار فى قرية العلا عبارة عن خبز مخمور معجون بالزبد ، ومعه سلطانية من ماء العلا الذى تفوح منه رائحة الكبريت . ونظرا للإحباط الذى أصابنى بسبب خيبر ، فقد انتابنى شيء من الحيرة . إذ من الخطورة بمكان على من لا ينتمى إلى الدين الإسلامى، أن يحاول العودة إلى تسامح المسلمين الذى لا يدوم فترة طويلة ، الأمر الذى جعلنى على استعداد دوما فى كل مكان إلى التراجع عن التشبه بالمسلمين تماما . ترى ، هل ينبغى أن أسكن المدينة ؟ حيث يتصبب العرق على شكل قطرات من فوق جباهنا ، وحيث الهواء الساكن الذى لا يتحرك ، والليالى التى تسير على وتيرة

واحدة . الطعام متوفر فى الواحات ؛ ولكنى آثرت العودة إلى الخلاء (الصحراء) التى يهب عليها الهواء . كان الشيخ طُلج العجوز الطيب قد قال عند رحيلى ، ومتوقعا افتقادنا لرفيقنا الخيبرى ، "أنت رجل من الذين يقيمون مع البدو ، عد إلينا ثانية يا خليل ، وابق معنا إلى مجيء موسم الحج الجديد ." وهنا قال القاضى موسى : "يا خليل ، إذا أردت السكنى والإقامة فى المدينة ، فابق هنا معى ، ومرحبا بك ." – كنت قد اخترت القاضى موسى ليكون مضيفا لى ، وهو بدوره وجّه طيبته الطبيعية نحو الضيف النصرانى : وفى هدوء راح القاضى موسى يسألنى عن كثير من الأشياء . وكان يستقبل ردودى استقبالا طيبا ، على مرأى ومسمع من الجميع . وعندما كانت يد صديقه تمتد نحوى بالغليون ، كانت هناك يد أخرى ، تجعل صاحبها يثير القضية القديمة "هل يتعين على الشخص المستقيم أن يشرب الدخان ؟" قام البعض بالرد على هذا السؤال قائلين : "إن الإنسان ينبغى ألا يضيع الكثير فى ذلك الدخان ؛" وبعض الجيران الآخرين ، الذين كانوا أكثر تمسكا بالخرافات ، غمغموا قائلين إن الإنسان ملوم فى ذلك ؛ وهذا هو شخص ينظر إلى الدخان نظرة كره واستياء ، تكلم على إثر نغزة بالكوع وجهها إليه من كان يجلس إلى جواره ، تكلم فقال : "ألست أنت بنفسك تزرع الدخان ، وتتعهده فى الحقل ، الذى يجاور حقلى ؟" – وبناء على هذا الكلام غير صاحب الموقف الرسمى موقفه كيما يلتمس لنفسه الأعذار ثم قال: "حسن ، إنه لم يفعل أى شيء سوى بيع شيء من هذا الدخان للبدو ؛ (ثم سألنا) ألم يكن البدو كفارا بالفعل ، وأنهم وقود نار جهنم ؟" وعندما وجد موسى أن ملاحظتنا ومراعاتنا للدين كانت هشة وغير متماسكة سألنى : "ماذا يقول النصارى عن هذا الموضوع ؟ – هل شرب الدخان ، خطأ فيما بينكم ؟ أهو حرام !" وهنا أجبته على الفور قائلاً: "الله ، هو الذى خلق الحرام !" ؛ وعندما خرجت هذه العبارة من فم النصرانى ، رحب بها ذلك القروى الحجازى الذى ينتمى إلى الشيوخ ؛ يضاف إلى ذلك أن ذلك القروى كان من أصدقاء الغليون ، وراح يردد فى سره العبارة التى تقول: "الله لم يخلق شيئا محرما."

عندما سألت حوريش عن مصير العملة التى أعطيته إياها لفكها من قرية العلا ، رد علىّ وهو يكشر عن أنيابه قائلا : "إنه دفعها ثمنا للشعير فى المدينة ." ورددت عليه ، أنه طالما أنفق نقودى ، فإنه يتعين عليه أن يحمل أكياسى الثقيلة على ذلوله (ناقته)

فى رحلة العودة ، إضافة إلى أنى سوف أركب أيضا فوق هذه الناقة . وعلق القاضى على كلامى بأنه عادل ، وأيد القرويون الحاضرون ما قاله القاضى ؛ هؤلاء القرويون تطوعوا من تلقاء أنفسهم ، مثلما كان الناس فى عهد أيوب الصِّدِّيق ، لتعنيف هؤلاء البدو الخونة ، – يضاف إلى ذلك أن كل أولئك القرويين كانوا يكرهون ذلك الحوريش المتوحش . زد على ذلك أن الشاب السِّرْحانى ، الذى رافقنا فى الرحلة، عندما مرَّ بنا ، اعترض هو الآخر على تصرفات ابن قبيلته . وعليه عندما وجد حوريش أن الكل يعارضه ، رضخ (كما هو حال البدو دائما) لرأى الجماعة وانصاع له .

وبينما كنا نرحل فى فترة بُرَاد مطلع النهار ، وافقت على أن يركب حوريش ناقته فترة من الوقت ، تلك الناقة التى كانت تحمل أمتعتى ، ومضينا قدما خارجين من الهواء الساكن الراكد ومبتعدين أيضا عن طاعون الذباب الذى يعشش فى الواحات . كانت ظلال الجبال المرتفعة تنعكس على المسار الذى نسلكه : ثم وصلنا إلى مقدمة صخور المقابر فى الخريبة ، وواصلنا مسيرنا نحو أسفل الحرّة ، تاركين الطريق المؤدى إلى الحجر يصعد فى اتجاه جانبنا الأيمن . كنا نرى من أمامنا أرضا لامعة من الصلصال تنمو فيها كتل من العشب الطويل ؛ وفى هذه المنطقة كان يتعين علينا تجاوز دغل من أشجار الطرفاء ، التى كان بدو الحويطات يتخذون منها مكمنا لهم فى معظم الأحيان : من هنا كان البدو عندما يقتربون من ذلك الدغل يستحثون دوابهم كيما يتجاوزوه عدْوًا . ولم تتمكن ناقتى العجوز من الجرى إلا مثل جمل من الجمال . ركبت الناقة ، محاولا تمالك نفسى من فوقها ، فى الوقت الذى جرى خلاله حوريش بناقته مبتعدا عنى . وعندما وصلنا إلى مسافة بعيدة فى الأخمر Akhmar، شاهدت رفيقى مرة ثانية ، وناديته قائلا : "طالما أنه سينقذ نفسه لوحده على الناقة ، فهل له أن يعطينى سيفه القصير ؟" – كان مسدسى مربوطًا داخل خرج الجمل الذى كان موضوعا على ظهر ناقته . ورد علىّ حوريشن قائلا : "إنه سوف يهرب فى ظل أى خطر من الأخطار التى يمكن أن تتهدده ، دون أن يلقى بالا أو اهتماما ؛ وما هو السبب الذى يجعله يعطينى السيف ؟ وأننى إذا لم أكن قادرا على العدو بناقتى ، فسوف يتخلى عنى ويتركنى" . ولم ينتظر ذلك الرفيق بعد ذلك ولو للحظة واحدة . هذه السرعة أوصلتنا إلى منطقة الحوارء Howwâre ؛ – هذه الرأس السوداء المستوية لها علاقة

بالبازلت ، الذى انساب عليها من العويرض بطريقة متساوية ، ولكن ذلك البازلت مفصول هنا عن الجبل ، إذ بينه وبين الجبل مسافة تقدر بمئات الياردات !

عندما بدأت الشمس فى الغروب طلبت من رفيقى أن ينتظرنى ، ونزلت من فوق ناقتى ورقدت على الأرض وأنا أشعر بالإعياء التام . وهنا وافق رفيقى على أن أركب أنا ناقته ، شريطة أن أضع أكياسى الثقيلة على ظهر ناقتى . – "ناقتى المحَّملة لا يمكن أن تحمل راكبا ، ولكن يمكن لك أن تركب خلفى" . – المسافة ليست بعيدة ، وأنا سوف أمشى سيراً على أقدامى ." ساعدنى رفيقى على ركوب الناقة ، وعندما أصبحت فوق الناقة ، جرى مسرعا وتناول لجام ناقته مرة ثانية . واستخدمت عقبى فى استحثاث الناقة على الجرى بسرعة ، ونظرا لأنى كنت أحس بارتاح ، ونظرا أيضا لأن الحظ كان فى يدى فقد مكننى ذلك من تحقيق شىء من التميز على حوريش ، بليد الحس ، والقوى جداً ، والمسلح أيضا بسيف : هذا يعنى ، أننى إذا ما دعا الداعى ، يمكن أن أشق طريقى إلى الأعراب فى وادى تربة ، أو عبر السهل إلى قلعة مدائن صالح . وعندما نظرت حولى ، وجدت ذلك البدوى الثقيل قد ركب فى صمت على ظهر ناقتى المسكينة . وطلبت منه النزول من على الناقة وأن يسير معى على قدميه ، ولكنه استحث الناقة العجوز وتجاوزنى ، بطريقته الفجة فى الركوب . ناديت عليه ، وطلبت منه النزول من فوق الناقة ؛ وعندما سمع خطو ناقته السريع التى كانت تحملنى ، انطلق نازلاً إلى الأرض من فوق الناقة ، ثم وقف على قدميه ونظر إلى نظرة كان يخشى معها (حسبما أكد هو بعد ذلك للأعراب – إذا لم يكن يعرف أنى مُسَلَّحٌ ،) أن تخترق الطلقه التى سيطلقها النصرانى جانبيه .– واعتبارا من ذلك الوقت ، بدأ حوريش السير على قدميه ، وكان يجرى من حين لآخر للإمساك بلجام ناقته ، ولكنى كنت أفلت منه بسرعة . "على Aly هونك houn-ak ، على Aly هونك houn-ak يا خليل Ya khalil !" بمعنى "تمهل ! انتبه إلى الناقة ." هذا هو ما قاله ذلك الأهطل ، الذى يتصرف على هذا النحو ، بالرغم من أنى هيأت له ركوبا مريحا . خطر ببال ذلك البدوى ، وهذا هو حال البدو ، إن النصرانى جرده من ناقته وأنه سوف يفر هاربا بها . "وأنا حتى لو كنت لصا من اللصوص فأنا لا أعرف طرق هذه البلاد أو دروبها ، أو كيف لى أن أضحى بناقتى هى والأغراض التى عليها ؟" – "والله – إنها لتهدئة ، يا خليل ." – "ألسنا

رفاقا؟ " – "أنا لم أكن أبغى شيئا سوى شرب القليل من الماء ." – "هيا ، تعال وأشرب أنت أيضا ، ثم اركب خلفى ." واقتربت بعد أن شربت وركبت خلفه ورحنا سويا نقود الناقة التى كانت تحمل الأمتعة .

عند بداية الوادى غير حوريش خط سيره ليكون وسط أحواض وضفاف خالية من المسارات وعامرة بالأحجار المتدحرجة وقنوات السيل المتآكلة ، بدلا من السير أسفل الصخور القريبة . ولم يستطع الوقوف على السبب الذى دفعه إلى مثل هذا التغيير ، إلى أن سألنى حوريش فى صوت صغير خافت "هل الأشباح التى فى هذا الوادى أشباح نصارى أم أشباح يهود ؟" وهنا بدأ ذلك البائس يتخوف تخوفا شديدا من النصرانى ، الذى سبق أن أساء إليه منذ فترة وجيزة جداً ، كان يخشى ويخاف أن تطبق عليه فى هذا المكان أشباح بعض من أسلافى . – "زاد على ذلك قائلا : آه الملائكة !" وعند اقتراب منتصف الليل كنا قد اقتربنا من المُنزل القاحل ، الذى كانت الخيام السوداء الأولى فيه ، هى خيام حمدى : كانت كلاب الحراسة ما تزال صباحية ، وراحت تقفز وتعترضنا وهى تفتح أفواهها ، رددت (أسماء الكلاب) رشدان Rushdan وعديلّة ! Adilla وعندها جاء هذا الكلبان يسعيان نحوى ويقتربان منى .

بعد أن نزلت من فوق دابتى صاح حوريش حقداً ، وهو يمضى قدما : "أيها الناس ! ها أنذا أعيد إليكم ذلك وأنا لا أعرف إن كان – يهوديا أم نصرانيا ." هؤلاء البدو الرحل الذين ينامون النهار ، يكون نومهم خفيفا جداً فى الليل ، هذه هى سالمة Salema العجوز سيئة الخلق والسلوك ، تخرج من بيتها فى الحال بصحبة بعض جاراتها ، ورحن يساعدننى على إنزال اشيائى ؛ – وهذا دور طيب تقوم به الحريم لمساعدة الرجل القادم من سفر طويل . وبالتالى فهن يطلبن منك شيئا من التبغ . صاحت سالمة : "أيتها الرُّغَّايات !" – كان مزاجها لا يشبع من الكلام البدوى الفاضح الفاحش ، "آه . هى – هى – هى ! هذه هى صنيعتك المدورة تعود مرة ثانية !" هنا يحضر على الفور من الخيام المجاورة رجل أو رجلان ويجلسان إلى جوارى ليسألانى عن أخبار الواحة ، ويحصلا من العائد على شىء من التبغ . جاء هذان الرجلان وهما يرتعدان بعد أن استيقظا من نومهما ، وكانا يلفان عباءتيهما المهلهلتان من حولهما ، وهناك فرق كبير بين درجة حرارة النهار ودرجة حرارة الليل ، إذ يصل الفرق بينهما

إلى ثلاثين درجة : قدم لى أحدهما سلطانية من المريسى ، وقامت النساء بنصب خيمتى ، ولكن خطر ببالى أن استلقى على الفور على الأرض فى ضوء النجوم ، – سوف يطلع الفجر الحار علينا خلال فترة وجيزة .

تبدأ حركة البدو مع طلوع النهار ، وبعد أن فتحت عينيى بقليل ، وجدت مشوات Mishwat واقفا على رأسى ، وجاء من بعده وعيل Wáyil ذلك الشيخ السرحانى العادل الودود : – ذهبا سويا (عيل ومشوات) ليجلسا فى خيمة حمدى ؛ وعندما انضممت إليهما راحا يسألانى عن ذلك الذى حدث بينى وبين حوريش Horeysh . – وهنا أدركت أن رقودى فى العراء أحلم خارج الخيمة كانت له أخطاره . كان حوريش قد أتهمنى أمام أخيه الذى ينتمى إلى عائلة الشيوخ ، "أن النصرانى كان سيأخذ منه سيفه ، ويهرب بناقته ، وأننى لعنت (وهذا لم يحدث) والدهما ." وهنا أقسم سيدان Seydan ، مع أول نوبة من نوبات ضيق صدره ونفاد صبره ، أن يقوم بعمل قاس تماما مقابل ذلك الخطأ الذى وقع على أخيه ، ونهض الرجل من مكانه "ليقطع رأس ذلك النصرانى ، على حد قوله ." ولكن الشيوخ عارضوه قائلين إنه لابد من سماع أقوال خليل . كان مشوات صديقا لى من الناحية الفكرية ، إذ كان يكره "عدو الله" ؛ صحيح أن تلك الكراهية أفادته نفسيا إذا أراحت قلبه، ولكنه كان يشعر بالأسف عندما يرى أن ضيف أخته متهم فى أمر مميت أو مهلك : ولما كان وعيل رجلا ، بمعنى الكلمة ، رجلا كان يقف بجانبى فى المجلس ، هذا الرجل جاءنى بصمته الذى يوحى بالشفقة ، ليسألنى عن حقيقة ما جرى ، ومحاولا وضع حد للعنف المنتظر. وافق وعيل على ما قلته ، بل أن مشوات أيضا ، ظهرت فى عينيه ، أنه موافق وراض عن دفاعى عن نفسى . عندئذ جاء سيدان ؛ وعندما وجدنى ودودا وهادئا بالفعل جلس إلى جوارنا . حييته بإلقاء السلام عليه، ولكنه أشاح عنى بوجهه . ورجاه وعيل أن يعمل عقله فى الأمر ويتأمله جيداً ولكن سيدان رد قائلا: "الرجل نصرانى، وأنا أقول أقطعوا رأسه ، ولن يكون هناك من يطالب بديته نظرا لمقتله بأيدينا ." وهنا بدأ قلب سيدان يرق ويحن ، وسط هذا الكلام الكبير . وهنا انضم إلينا رجال جاءوا من البيت المجاور ، ليروا ما سيؤل إليه ذلك النزاع ، نظراً لأنهم يعرفون أن سيدان ، عندما يغضب ، يتحول إلى رجل خطير . وهنا تمكنت من الوقوف على ما يدور فى أذهانهم لأن منهم من أيدنى ومن عارضنى ووقف ضدى؛

وكان ولد الشيخ طُلج من بين أولئك الذين وقفوا إلى جانب عبد الله ؛ هذا الولد أعطى صوته من واقع حقده الدفين "أننى كنت أنتوى الإضرار بحوريش Horeysh . ، ألم يقل الحكماء "بعدم مصادقه الأحمق" ؛ ولكن ما الذى يمكن أن يفعله ذلك الذى يعجز عن الاختيار ؟ وقد يكون من الأفضل ، فى بعض الأحيان ، الاسترشاد بأحمق بدلا من الامتناع عن القيام بأى شىء على الإطلاق . لقد تسببت رفقتى مع حوريش فى ضياع زيارة خيبر منى . كان يمكن أن أنزل ، فى خيبر ، ضيفا على الشيخ مطلق ، شيخ ولاد على ، الذى سبق أن زكانى البعض عنده تزكية طيبة ، وكان بوسعى أيضا أن أتجه من منْزل الشيخ مطلق مباشرة إلى بلدة حائل وأنا فى أمن وسلام . – وأنا عندما وصلت إلى خيبر بعد ذلك ، كنت قد لاقيت كثيراً من الآلام وواجهت كثيراً من الأخطار ، ولاقيت فى تلك البلدة أسْرًا لا قبل لى به . هؤلاء الأعراب ، الذين يفضلون إنهاء الأمور على وجه السرعة ، حتى يعودوا إلى حالتهم الطبيعية ، نهضوا وذهب كل واحد منهم لحال سبيله بعد أن اقتنعوا بوجاهة دفاعى ومصداقيته :

وهنا وضعت مسدسى Pistol تحت قبضتى واقتدت ناقتى إلى المسقى : ولكنى عندما عدت أخفيت السلاح فى خيمتى ، ثم اتجهت بعد ذلك إلى خيمة القهوة . حيث كان الشيوخ جالسين هناك. وجدت فى الخيمة كل من طلج، وحامد، ومشوات ، ووعيل ، وداريش ، ولم يغب عن المجلس سوى سيدان ، جلست معهم وطلبوا منى ، بعد ذلك أن "أحكى للشيخ عن مغامراتى"، ثم بدأ مزاجهم يتحسن شيئا فشيئا إلى أن وصلوا إلى حد الابتسام . وهنا قال الشيخ طلج : "ما رأيك فى حوريش ؟" – "لن أعجب لو لم يكن رأسه "متين Matîn بالحيل hail -bil " بمعنى أنه "مخه متحجر" واستطلقت تلك الكلمات الضحك من أفواه الحاضرين . طُلجٌ : "والله إن حوريشا لفاسد Fasid (بمعنى "منحل أخلاقيا") . وهنا نادى حامد خليلاً قائلاً : "مُد إلى يدك يا خليل" ، وهنا قال كل من مشوات وداريش : "مد لنا يدك ، يا خليل ." :– كل هؤلاء كانوا من شيوخ الموهايب بالإضافة إلى سيدان ، لم يستطع أحد منهم الامتناع عن ذلك الفرح والسرور البدوى ووسط ذلك المرح وصفاء النوايا ، وبعد أن راح كل واحد منهم يمسك بيدى اليمنى ، كان يتمنى لى دوام الصحة ، ويشكرنى قائلا : "عافيه Afia عليك" . وهنا قال وعيل : "والله ، إنه يقول كلاما لطيفا ، إن خليل لا يكذب ." – "(رد عليه طُلج) صدقت والله !

وها نحن الآن قد تصالحنا معك من جديد ، يا خليل ، وأصبحنا كلنا رجل واحد ، وأنت أصبحت مثل واحد من أبنائي : – وأردف الرجل قائلا : أنت لست وحدك الغريب هنا في هذه الديرة ، ولكننا جميعا وافدين عليها ، وخليل "أختيار" Ikhtiyar (بمعنى أن قلبي لم يكن منفصلا عنهم في مسألة المرح والود والحب) ، إنه من الأعراب الطيبين ، بمعنى ، الإنجليز أعراب طيبين ." وعيل Wáyil : " قل لنا شيئا عن نظرك الثاني ، يا خليل ، إقرأ لي ذلك المكتوب في كف يدي ." (مد يده لي) . طُلجٌ : "نعم ، انتبه يا خليل البعض يقولون إن كلمة "سليمان" مكتوبة هنا ." – "أنا لا أرى شيئا ، ولكنكم لن تصدقوني ." قالوا : "والله ، خليل لا يخدع العرب ." – طُلج : "ما رأيك يا خليل ، في المهرة المربوطة هناك ؟ لقد اشتريتها من العنوز ، وهي ترضع ، ودفعت ثلاثة من الإبل ثمنا لها ."

الفصل الثامن عشر

الفُكارة يمضون الصيف فى الحجر

طُلُّج ينتقل مع معظم آل بيته . ظاهر . السموم . إنذار فى الليل . الغزو . الجراد من جديد . ولد حوريش يعتدى على النصرانى . ظاهر يسبك الطلقات . كلامه عن الملوك . مهر العروس . الدّية ، طريقة تحديدها . الفصادة . الاستعداد للذهاب إلى طُلُّوج فى وادى الشلاّل . سلامى . الناقة الخويرة تكتشف الطريق . الأعراب فى الوادى . المصالحة مع حوريش . حكاية عبد الله الحاقدة . كيف يتجرأ النصارى على شن الحرب على الإسلام ؟ مبدع الأغانى والأناشيد . أسطورة الكنز المسحور . ابنة ظاهر زوجة طُلُّوج . عبوس الرعاة البدو (المستمر) . أضحية مشوات . نزاع القبليين فى العويرض. المرور وحيداً إلى مدائن صالح . الشيخ الفُجيرى يمكن معرفته من بعد . تعال لزيارة الفُكَارة مرة ثانية . زيارة الحاج نجم فى القلعة . شيخ متزمت من ولاد على . كلام مطلق وكلام طُلُّوج إلى النصرانى . إبراهيم عمود الحج . آثار الحجر . غزوة من غزوات المهنا . السلالة النسبية للشرارات والتى يجهلونها . شيوخ المواهيب يركبون مطاياهم قاصدين ابن الرشيد للتعبير له عن خضوعهم له . دفء الهواء أثناء الليل. الزواج من من زوجة العم المطلقة . زيارة العلا مرة ثانية فى أوائل موسم التمر . هويشيم . شهر رمضان . حرارة الصيف فى الحجر . ذُرَّيح Therrÿeh أكبر أبناء مطلق . حاج سورى يعيش مع أعرابنا . نخيل القلعة . أمسية مع الحج نجم . رحلة جديدة إلى العلا . إنذار أثناء العودة فى الليل . داريش ودولان يعثران على آثار أقدام حوريش .

أسفرت مغامرة حوريش الفاشلة عن تعزيز موقفى عند الشيوخ ، نظرا لأن حورش كان رجلا ملفوظا بين هؤلاء الشيوخ ؛ ولكن ذلك أثار نوعا من العداء العام المتشدد الذى جعلهم يظنون أنهم أصبح لديهم من الأسباب ما يبيح لهم الثأر من النصرانى . وعقب ذلك مباشرة ، انتقل الشيخ طُلج ومعه القسم الأكبر من الأسر ، إلى وادى Wady شلاّل Shellal على بعد مسافة مسير ثلاث ساعات تقريبًا ؛ ولكن أهل مُنَزْل حمدى ، وأهل مُنَزْل ظاهر Thâhir ، ولد عمها بقوا فى وادى تربة . وفى اليوم التالى ، وتحسبا للصوص الليل ، ضممنا منزلنا إلى منزل ظاهر ، الذى كان مقابلا لنبع الماء العالى . هذا يعنى أن ربات البيوت ، فى منزلنا ، سوف ينصبن خيامهن بالقرب من الماء، حيث ينتشر روث الماشية على الأرض كلها فيما عدا مكان واحد فقط، اكتشفته عندما كنت أستطلع الأرض بغية النزول فى مكان بعيد عن ذلك الروث ، وهنا تناولت حمدى فى يدها قبضة من الروث وقالت لى : "ما العيب فى هذا !" فأنا أشم رائحة هذا الروث ، كما أننا يمكن أن نضعه أيضا فى أفواهنا ؛ إنها رائحة معيشتنا ، وهى رائحة حلوة عند البدو" . اتجهت بعد ذلك لنصب خيمتى إلى جوار خيمة ظاهر . ظاهر هذا ، كان رجلا محترما ، يتمتع بشىء من الوعى الطبيعى الحر ، وهو حاليا فى سن متقدمة ، وروحه قوية وبدنه قوى أيضا شأنه شأن كل أولئك الذين عثرت عليهم بين البدو ؛ وقد قمت بعلاج زوجته من التهاب فى عينها .

لم يكن التكاسل الشديد فى الخيمة من مسئولية ظاهر ، نظرا لأنه كان مشغولا بل وعلى استعداد أن يأخذ على عاتقه كل مسئولية من المسئوليات العامة . كان ظاهر يلبس ثوبا عربيا طويلا ، الذى يلبسه الرعاة ، ويصل طول ذلك الثوب إلى ما فوق ركبتى ظاهر ، ولم يكن الثوب يغطى أطراف ذلك الرجل أيضا . كان ظاهر وحده ، أو بصحبة رفيق آخر يختاره هو ، يركب ناقته ، فى معظم الأحيان ، ويتقدم القبليين من البدو الرحل ، حتى يستطلع لهم الصحراء من أمامهم ؛ فى بعض الأحيان كان ظاهر يقع فى كمين من الكمائن التى كانت تنصب له لأخذ الناقة منه ، أو للقضاء على الحياة الإنسانية الغريبة التى كانت تقع داخل نطاق المدى الذى تصل إليه طلقات بندقيته : وقد أخبرنى أبناء ظاهر أنه لم يكن يدخر وسعا فى القيام بأى شىء ،- وهكذا نجد أن الضرورة هى التى تشحذ همم هؤلاء البدو إلى حد انعدام الضمير ،

فى العنف الذى قد يأتونه خارج أراضيهم . كان يمكن لظاهر هذا ، الذى أصبح حاليا فى منزلة "عمى" بل وصديقا مخلصا ، أن يكون هو قاتلى ، لو أنه التقانى قبل ذلك فى الصحراء ! هـذا الرجل الصحـراوى كان صيادا ولا كل الصيادين من أهل قبيلته ، ولا أبالغ إن قلت : إنه واحد من بين الصيـادين القلائل بين البـدو . تلك كانت ابنتـه الجميلة الطيبة ، التى كانت أجمل جميلات البدويات الشابات ، والتى أنجبت للشيخ طُلج طفلا فى الآجرَّة Agorra ؛ – كان ذلك العجوز قد قال عندما طلب يدها إنه يتمنى أن تنجب له طفلا شبيها بأبيها . كنت أمضى القسم الأكبر من وقتى ضمـن جماعـة ، أو إن شئت فقل : صحبة ظاهر : كان ظاهر صاحب فهم ووعى أكثر نضجًا عن أولئك الذين يحيطون به ، كما كان كلامه سمحًا وترحابه ملحوظا ؛ وقد أمضى ذلك الرجل سنين حياته بدويا وفى هذا النوع من الحياة التأملية أكثر من مجرد الحصول على المعرفة الطبيعية . كان ظاهر حاد البصر وكانت قدرته البدنية على التحمل عالية جداً ، كما كان أيضا واحداً من بين البدو القلائل الذين تربوا على الغزو : لقد غنم الكثير من الإبل ، إلى حد أنه تحول من رجل "ضعيف" فى بداية الأمر ، إلى أن أصبح الآن من بين أوائل الرجال الذين يشتهرون بكبر أعداد مواشيهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن ظاهراً بحكم شخصيته القوية ، وبحكم حصافة عقله أيضا ، كان بمثابة زعيم القسم الفقير من بين أفراد القبيلة . "(قال لى ذلك اللص القوى وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الرجولة) يا خليل ، لماذا تبحث عن الحليب بعيدا عن هنا ؟ فى الوقت الذى أملك أنا فيه نياقا كثيرة ." ومع ذلك ، لجأ ظاهر ، فى يوم عودة الإبل إلى المنزل ، إلى المماطلة فى التنفيذ . هذا الظاهر ، بعد أن خلط الحليب بالماء ، وبالرغم من أنه كان مدينا لى بأجر علاج عين زوجته ، لم يرسل لى سوى جرعة صغيرة من ذلك الحليب المخفف ؛ ولكنه أعطانى تلك الجرعة بوجه بشوش تماما .

عندما كان الجوع يعض ظاهر بنابه ، كان يسارع إلى حمل بندقيته الطويلة ، ويأخذ معه حفنة من المريسى ، وينطلق سعيا إلى إسكات ذلك الجوع ، ثم يغيب بعد ذلك عن الأنظار ؛ وقد اشتهر عن ذلك الرجل أنه يغيب نهارا من نهارات الصيف وليلة من لياليه ، يعود بعـدها مرهقا ومتعبًا فى الصبـاح ، قادما مـن مسافة بعيـدة ، تمكن فيها من التقاء واحدة من الماعز البرية أو ظبيا من الظبيان ؛ – يضاف إلى ذلك ،

أنه يكون قد وقف على دلائل وعلامات ذلك الذى حدث مؤخرا فى الصحراء . لم يكن غبار المغامرة الأخيرة مع حوريش قد اختفى وضاع ، وكان من المفيد لى البقاء داخل إطار صداقة هذا الرجل ، الذى دافع عن قضيتى ولم يخش أحداً عندما وجه لومه إلى الطرف الآخر . – هبت علينا فى ليلة من تلك الليالى ريح قوية من رياح السموم ، – ريح السموم هذه ، هى تلك الريح التهامية الساخنة التى تهب على الحرَّة : هذه الريح الخفيفة المقلقة لا يمكن أن توسع الصدر أو تنشط الدم ، ومن ثم تكون تلك الريح متبوعة بشىء من التوعك وألام الرأس ، أو إن شئت فقل : الصداع . هذه الرياح الساخنة التى يقول الأعراب عنها إنها "موبوءة" تشيع وتستمر إلى منتصف فصل الصيف كل عام ؛ ولكن أحداً من أولئك البدو الذين تحدثت معهم حول موضوع ريح السموم ، لم يقل ، أو يذكر لى ، أن أحداً مات بسبب هذه الريح .– لقد اكتشفت أن ريح السموم تهب طوال الجزء الأكبر من العام على الصحراء العالية فيما بين القصيم وديرة مكة المدارية ، التى أمضيت فيها أحر فترات فصل الصيف ، حيث يكون الجو مشتعلا أثناء طلوع الشمس : لقد أصابنى الإعياء التام مرة أو مرتين عندما كنت فوق تلك الصحراء العالية . يقال ، إن الإبل ، قد تموت فوق تلك الصحراء العالية بسبب قلة التنفس ، أثناء هبوب تلك الريح الحارة أو الساخنة : التى تجلب الدمار لتلك الماشية الضعيفة ؛ يضاف إلى ذلك ، أن تلك الريح الحارة تقضى أيضا على السواد الأعظم من الأعلاف البرية الضعيفة . وبعد اجتيازى وادى فاطمة بوقت قصير جداً ، سمعت فى جدة أنباء عن نفوق الكثير من إبل القرويين بسبب ريح السموم .

استيقظت أثناء الليل ، مذعورا من نومى ، على إثر شائعة راجت وانتشرت فى خيمة ظاهر Thâhir ، – كان الناس يجيئون ويروحون هنا وهناك ، فى ضوء النجوم : لم أتمكن من معرفة كنه ذلك الذى كان يدور فى المكان ، ولكن ما علىّ مما يدور ، نظرا لأن مصيرى أصبح مرتبطا بمصير ظاهر ؛ يضاف إلى ذلك ، أن عودتى إلى النوم مرة ثانية ، لن تفسد على متعة حياتى الوحيدة . تناهت إلى مسمعى قبل طُلوع الصبح قافية غريبة عذبة كان يتغنى بها صوت واحدة من النساء (كانت تلك القافية شبيهة بالتغريد السعيد الذى يصدر عن طيهوج الخشب فى شمالى أوروبا) وما تزال إلى يومنا هذا عالقة بذاكرتى ولا تغيب عن بالى . ومع تضاؤل أضواء النجوم ، نظرت إلى

الأعلى ، فرأيت شخصا يقف عند رأسى ، واحد من البدو له شكل كشر ؛ كان ذلك الشخص يحمل بين ذراعيه كتلة كبيرة من البازلت ، ثم تظاهر بحركة من حركات التضليل ، عندما وجد عيناى مفتوحتان ، بعدم إلقاء تلك الكتلة وتركها تهوى على صدره . "صاح الرجل ، آه ! يا ملعون ، أنت أيها النصرانى الذى تنام هنا ! لو أنى هويت بذلك الحجر عليك ، فسوف يقتلك وبذلك أكون قد قتلت عدوا من أعداء الله ." كنت أعرف أن ذلك الشخص الحاقد ، واحدًا من الرجال الذين يتسمون بالخجل والتصرفات السلوكية الوحشية ، كما كنت أعلم أيضا أنه مكروه ولا يرحب به أحد فى خيام تناول القهوة . هذا الشخص كان يود أن يصب علىَّ جام غضبه على إثر الاتهام الدينى الباطل الذى وجهه حوريش إلىَّ مؤخرا . وعندما أدرك أنى لا أوليه بالا. أو اهتماما ، ونظرا أيضا لأن حمله كان ثقيلا ، فقد قام بالتخلص من ذلك الحمل بطريقة متدرجة وذهب إلى حال سبيله وقد تكونت لديه عن النصارى فكرة أقل حقدًا وتعصبًا ؛ ولم يعد ذلك الشخص يضايقنى بعد تلك المرة .

كانت قد وصلت من الحرة أثناء الليل أخبار من الشيخ طلج فى وادى شلاَّل :- تمكن كل من داريش ومعه حليمة Haleyma ، تلك المرأة الفجيرية التى تعيش معنا ، تمكنا عندما كانا راكبين فى اتجاه بدو الفجير ، من مشاهدة غزو قوامه أكثر من مائة رجل ، يركبون نياقا ويقتادون معهم بعض الخيول ، وكانوا يمشون فى سهل الحجر ! ولم يستطيعا تبين القبيلة التى ينتمى إليها ذلك الغزو ، - وربما كانوا من قبيلة بشر التى يخافها البدو ويخشونها . سألت ظاهراً ، "ألم يمر ذلك الغزو وينتهى ، فما الذى يخيفك الآن ؟" - "أخشى أن يتجه ذلك الغزو إلى وادى تربة طلبا للسقيا والماء ." "قالت زوجته "نُهج" Nuhej بمعنى "سوف نهرب بلا مقدمات أو إنذار" فى فترة العصر ، شأننا فى ذلك شأن إبل الحمل والنقل - وكانا قد أرسلا فى طلب إبل النقل تلك أثناء الليل - عندما تصل إلينا ." - "ماذا لو وجدوك متأخرا ؟"- ظاهر : "سوف نتسلق جانبى الوادى ونفتح النار عليهم ؛ المواهيب لا يبكون على أى شىء ، وهذا شىء مشهور عنهم ، عندما يكونون وجها لوجه مع أعدائهم." تأكد كل من داريش وحليمة ، بعد ذلك ، أن ذلك الغزو الكبير قد تجاوزهما وانتهى أمره ، ولذلك أعادوا إبل النقل الى المرعى فى الحرّة مرة ثانية .

هذا هو اليوم الأخير من شهر يوليو ، ونحن نحس خلاله بالبراد والانتعاش ، مع ذلك كانت درجة الحرارة فى الظل حوالى ٩٧° فهرنهيتية . وهنا بدأ البدو يقولون إن حمى هواء منتصف الصيف قد بدأت تنحسر ، ولكن ظاهراً ، بحكم كونه أعلم الجميع فى مدرسة البدو قال : إن بعض النجوم الحارة سوف تظهر عند الأفق بالرغم من كل ذلك ؛ وقال أيضا : إن أشد فترات العام حرارة ستحل بعد شهر من الآن . سرى الذعر والاضطراب بين الناس فى الصباح عندما سرت بينهم أخبار الغزو ، الأمر الذى منعهم وحال بينهم وبين مغادرة المنْزَل إلى منْزَلٍ آخر ؛ لو كانت مواشى هؤلاء البدو فى الحرة فى ذلك الوقت ، لكانوا قد فقدوا . فى أسوأ الأحوال ، كل متاعهم ومقتنياتهم وثرواتهم أيضا . ويرجع الفضل فى ذلك إلى أن الخيام ، السوداء المنصوبة بطريقة غير منتظمة فى الأرض البركانية غير المستوية ، لا يستطيع أحد تمييزها أو التعرف عليها من بداية الوادى التى يبعد مسافة خمسة أميال عن هذا المكان . سألت ظاهر إن كانت تلك الجماعة المسلحة من بدو الفكارة ؟ ولكننا عرفنا فيما بعد أن تلك الجماعة المسلحة كانت من بدو الفجير، الذين لم يسبق لهم القيام بالغزو منذ زمن بعيد ؛ وها هم يقومون بالغزو ومعهم بعض أفراد قبيلة البشر ، وكانوا يشنون ذلك الغزو على بنى عطية . بلغنا بعد ذلك أن أولئك الغزاة استولوا على ثلاثين جملا . تساءلت : "ألم يأخذوا أكثر من ذلك ؟" وأجابنى الشيوخ، "ولكن هذا عدد كبير من الإبل." كنت فى فصل الخريف قد سمعت مطلق زعيمهم، يتفاخر بأن ذلك الغزو كان غزوا بمعنى الكلمة عندما قال: "إى ، والله إنه غزو بحق ." – لقد سطوا على هجرة (قرية صغيرة) من هجر أعدائهم فى المساء ؛ وهنا هرب كل من كانوا فى البيوت (الخيام) عندما شاهدوا الأعداء ، وهنا تقدم البشر وحدهم وراحوا يجوبون خلال الجاو Jau ، ليسرقوا الماشية من تهامة ؛ وفى فترة متأخرة من النهار ، وعندما وجدوا أطفال البلِّى يرعون قطعان الغنم ، أجبروا هؤلاء الرعاة الصغار على أن يقولوا لهم أسماء ملاك الإبل والأغنام ، وهنا بدءوا يذبحون حيوانات من يشاءون من تلك الأسماء ، وذبحوا من تلك الأغنام "خمسين رأسا لتكون عشاء لهم"،– ولكن نظرا لأنهم كانوا هنا على مسافة بعيدة (تزيد على مائة ميل) من ديرتهم ، فإنهم لم يأخذوا معهم أى شىء من الماشية الصغيرة بطيئة الخطى .

شاهدنا بعد ذلك "جحافل" من الجراد ، كان ارتفاع هذه الأرض القاحلة يبدو كما لو كان فوق مستوى التربة ، أثناء هبوب ريح المساء ، وكان ذلك الارتفاع يبدأ من ناحيهة الغرب متجها صوب كل من قرية العلا el-Ally وخيبر : فى هذه المنطقة شاهدنا سحبا كثيفة من الجراد تهفهف بأجنحتها وهى تمر علينا دون أن تحدث أثرا كبيرا على ضوء الشمس الذى كان آخذا فى التضاؤل .

عندما وصلنا المسقى التالى اتجه نحوى صبى (واحد من أولئك الذين يرافقون الماشية عند عودتها من الجبل) كان يحمل رمحه معه ؛ ولكن الواقفين منعوه من الوصول إلىّ . كان ذلك الصبى واحداً من أبناء حويش ، ولو تمكن لَثأر لوالده من التهمة التى افتراها والده على النصرانى ؛ – وهم هنا لا يعدون قتل الشخص الأعزل نوعا من الخيانة . جلس ذلك الصبى بعد ذلك فى خيمة ظاهر ، فقد كانوا أبناء عمه ، ولكنه كان أفضل من والده ؛ وبينما كنت أتحدث مع ذلك الصبى هدأت ثورته . وفى يوم آخر ، وعندما كنت أستحم خرج علىَّ من بين الأدغال شاب وقف يهددنى بحجر كبير كان يمسك به فى إحدى يديه ، بينما كان يمسك عكازه البدوى فى اليد الأخرى . وعندما عنفته بأنه وغد وقح ، تراجع ثانية ؛ وعندما عثرت عليه فى المساء عند المسقى سحبته أمام الناس جميعا ، – كان بوسع ذلك الشاب أن يضربنى عندئذ بسيفه القصير، ولكن الواقفين منعوه أو حالوا بينه وبين ذلك . كان ذلك واحد من أولاد الساقطة سالمة Salema ؛ كان هؤلاء الأولاد من الرعاة الغائبين ، ولم يسبق لى رؤية وجوههم من قبل .

جلس ظاهر يصلح طلقات لبندقيته . وهو يشترى الرصاص المطلوب لصناعة تلك الطلقات من سوق الحج ، أو من سوق المدينة المنورة . كانت الصُّبَّة المعدنية تتم فيما بين لوحين من الحجر ، ، قام هو بنفسه بتشكيلهما ؛ (وكما يقال) فإن أعمال الطرق هذه هى من أعمال العرب المترحلين ، يضاف إلى ذلك أن شكل تلك الأعمال كان بدائيا ، كما هو الحال بالنسبة لتلك الأعمال البدوية التى تقوم بها غالبية أفراد هذا الجنس السامى غير الأنيق . كان ظاهر يضع كل رشة من رشات الرصاص داخل حصبة ، وفوق كل حصبة كان يصب عليها غشاءاً سميكًا من الرصاص . قلت له : "طلقاتك خفيفة جداً ، وليست متمركزة تمركزا جيداً كما إنها ليست مستديرة ، فكيف يمكن لمثل

هذه الطلقات أن تطير بحق ؟" – "ولكن الرصاص عزيز فى هذا البلد ." كان ظاهر يرى أنه بوسعه عن طريق هذه الكرات البدائية الرمى على هدف طوله ذراع واحد ، ومن مسافة مائتى خطوة؛ ولكنه اعترف بأن ذلك لم يكن يوفر عليه نقوده، إذا لم يكن الغزال أو العنزة البرية التى يصطادها تساوى ريالين أو ثلاثة ريالات . هذا الظاهر الذى كان يتمتع بذهن حر وصريح ، وهو ما يميز الرجل القوى صاحب الفهم الجيد ، لم يتشكك فىّ عندما كان يجيب إجابة أمينة على تساؤلاتى التى كنت أطرحها عليه حول بلاده (على قدر معرفتى بتلك البلاد فى ذلك الوقت) . كنت فى هذه الأحاديث وفى الأحاديث الأخرى ، أمضى ساعات طوال من ساعات أيام الصيف شديدة القيظ ، ومع ذلك كان كلام ظاهر يتجه دوما صوب الدين ، وإلى الانفعال الطائفى عند أولئك الساميين ؛ كانت رؤية روح ذلك الرجل شديدة الوضوح ؛ وعندما كنت أتجرأ وأسأله ، "أليست عبادة الناس للمنهل تجديفًا فى حق الرب ، بل وأثر من آثار الخرافات الوثنية فى ديار بدوكم الرحل ؟" وبعد أن تأمل ظاهر رأى الملائكة هذا ، لمدة لحظة واحدة ، ذلك الرأى الذى تربى هو نفسه عليه ، رد على سؤالى وهو يحس بالحرج والضيق قائلا : "لا ، والله ، هذه العبادة ليست عبادة طيبة ، إنها شكل من أشكال الخرافات ." كان ظاهر ، عندما يقوم الآخرون لأداء الصلاة ، تعتريه حاله من الحالات النفسية غير الصريحة أو المباشرة ؛ وعندما كان بعض الأشقياء ، يكابرون ويتحدون ذلك الرجل المحترم كان يقول لهم كلمة سريعة ، "اذهبوا للصلاة ! (ويتثاءب بعد ذلك) " والله Wellah أنا ana عجزت ajizt " بمعنى "لقد سئمت ما أنا فيه ، أنا ، يا من أدعو إلى هذه الصلاة" ، – آدم طالت أيام انتظاره اعتمادًا على عناية إلهية حانية من فوقه ، وما يزال فارغا !

بعض البدو كانوا يُسَلُّون أنفسهم بأن يسألونى رأيى فى هذا وذاك من الأشخاص:– وكما هو الحال فى كل الصداقات الصغيرة المألوفة ، تشيع بين هؤلاء البدو بعض شرارات الحقد التى تنبعث من القلوب. وأنا كنت، فى بعض الأحيان أحاول الرد على تساؤلاتهم بطريقة تضمن لى الأمن والسلامة ؛ فقد سألنى سليم Selim ولد ظاهر الكبير : "ما رأيك فى مشوات Mishwat ؟" – "أليس هو مكسور الرأس إلى حد ما؟"– وما إلى ذلك من الكلمات ، التى تحظى فى نفوسهم بالقبول ، ويستقبلونها بالضحك من القلب وتثير لديهم الدهشة والعجب .

هذا هو سليم قد عاد إلينا ثانية قادمًا من وادى العروش ، الذى ذهب إليه طلبا للغزل والتودد ، تمهيدا للزواج . كانت أم سليم قد أبلغتنى أنهم لن يدفعوا مهرا ، نظرا لأن الكنّة ، أو إن شئت فقل : زوجة الابن تعد واحدة من أقاربهم : هذا يعنى أن والد العريس سوف يقدم فى زواج ولده ناقتين وعددا من رءوس الماشية الصغيرة . معروف أن غالبية البدو لا تسمح دخولهم الهزيلة بدفع أية مبالغ لزوجاتهم ، هذا يعنى أن البدو نادرا ما يدفعون مهرًا أو صداقا للإناث . يسود بين هؤلاء البدو نوع من أنواع الخرافات ، مفاده أن من يستطيع الدفع بالإبل ، سوف يعفى نفسه فى كثير من الأحيان ، من كثير من الريالات . والشخص عندما يُبرئ ساحته من ديّة من الديات – التى تقدر بأربعين ناقة عن القتيل – فى الوقت الذى لا تزيد فيه ثروته الحيوانية كلها عن أربع أو خمسة من الإبل ، يشعر بالسعادة لأنه سيكون له أصدقاء كثيرين سيقومون بالتوسط له . من ذلك مثلا أن بندقيته التى قد لا تساوى ثلاثة أو أربعة ريالات ، سوف يدفعون فيها ثلاثين ريالا ، بدلا من الجمل ، كما يشترون وعاء طبخه بخمسة عشر ريالا ، كما يشترون أيضا سيفه الذى لا يصل ثمنه إلى ثلاثة دولارات ، بما يساوى عشرة دولارات . كل صديق من أصدقاء هذا الرجل سيقف إلى جانب المطلوب منه دفع الدِّية كيما يسدد له شيئا نظير الصداقة ، ومن أجل عيون المعرفة الطيبة "أيها المرتاد! أنت يا عبد الله ، تنازل له عن ناقة، أقول تنازل له عن هذه الناقة ، حبا منك لى ." ولكن "صاحب الدية" قد يزيد الأمر غرابة ، ويقف منهم موقف التاجر ، لأن مثل هذا الموقف يكون لمصلحته ولفائدته .– وهنا تسقط هذه الجريمة ، ويقوم كثير من الأشخاص غير المبالين بإعطاء أصواتهم لصالح القبلى المخطئ ، حتى يمكن استعادة السلام والأمن عن طريق المنطق والعقل : وإذا ما تبقى من الدية شىء ، يتعهد أصدقاء المخطئ بدفعه على شكل دفعات محددة .

أحس ظاهر بشىء من الصداع النصفى ، وطلب من ولده سليم Selim أن يستنزف من عنقه قليلا من الدم . وهنا تقدم ذلك الشاب ، الذى ورث عن والده مهارة يدى الصياد ، ومعه قرن من قرون البقر ، مثقوف من طرفه ، وبعد أن أحدث بسكينه جرحا فى عنق والده ، راح يمص الجلد ، ثم أغلق فتحة الجرح بقطعة من الجلد كان يضعها فوق لسانه بالفعل . عندئذ قام ظاهر الذى أحدث له ولده حجامة فى كل من

الرأس والعنق ، والظهر ، وبعد ان استشعر شيئًا من التخفف ، بتغطية الدم المستنزف بشيء من التراب ، وهنا دخل علينا رجل يسأل : "ما هذه الكومة ؟" وأجابه ظاهر : "إنه دم قمت أنا بدفنه ." معروف أن كل منازل البدو الكبيرة فيها الكثير من أمثال هؤلاء الأشخاص الذين يعالجون بالفصد ، وبالكى ، ويخلعون الأسنان ، فضلا عن الحلاقين . وفى أحيان كثيرة تنتج قرح جلدية عن عمليات الكى ؛ وقد أطلعنى بعض مرضى الدم على قرح كثيرة من هذا القبيل بعد أن مضت عليها سنوات طوال . ونرى بين هؤلاء البدو أيضا بدويات شابات لم يتورعن عن وسم وجوههن تخفيفا للصداع وعلاجا له .

عاد أبو سنون إلينا بسلامة الله ، مرة ثانية :- وبذلك يكون قد قطع ثلاث رحلات صيفية فيما بين تبوك وقرية الوجه . بقى أبو سنون صامتا طوال سبعة أيام ؛ وبعد تلك الأيام السبعة ، وبعد أن أحس بكثافة هواء الخيمة وثقله علينا ، كان على استعداد للمشاركة فى الغزو ، الذى سوف يتولى حامد قيادته ، خلال أيام قلائل . "لكن لماذا تفنى حياتك بهذه الطريقة ؟ هل محمد بدوى حتى يذهب لسرقة الماشية ؟" ثم رفع رأسه بعد ذلك إلى أعلا وقال "طمع Toma يا خليل ، قالها وهو مهموم ، إنه الطمع Toma! ، إنها الرغبة فى الاستحواذ ، والاستحواذ على المزيد ، وهذا هو حال هذه الدنيا ؛ وأنا أعيش مع البدو، وأفعل مثلما يفعل البدو، يضاف إلى ذلك أنى قد أكسب جملا أيضا."- عقدت العزم على الانضمام إلى أول جماعة مسافرة ، قاصدا الأعراب فى وادى شلال Shellal ، قبل أن أموت جوعا هنا فى هذا المكان ، نظرا لأن تلك المؤن التى جلبتها من ولاد على كنت قد أعطيتها لحمدى Hamdy . وأنا إذا ما وصلت إلى ذلك الوادى المنخفض ، سأكون على بعد مسافة قريبة جدًا من الواحة . وبناء على ذلك ، يمكن لمحمد الذى سوف يتجه إلى البلدة فى غضون يوم أو يومين أن يتركنى عند بداية ذلك الوادى .

وفى الصباح ، وعندما كانت الماشية عائدة من المسقى ، أخذنا إبلنا وركبناها . وودعنى ظاهر وداعًا حانيًا متمنيًا لى "السلامة" ؛ ومضينا فى طريقنا قدمًا ، وسرعان ما ضاع من ناظرى منظر البيارة الخضراء فى ذلك الوادى القحل . رافق سلامى Salamy أبو سنون ؛ وسلامى هذا شقيق لظاهر ، ولكنه مختلف عنه تمام الاختلاف ، كما رافقهما أيضا شخص يدعى هادى الطُّوالى، الذى كان متزوجا من شقيقة سيدان.

كان ذلك اليوم يوافق الأول من شهر شعبان . كان ينتظرنا على الطريق صبى ، طلب من واحد من جماعتنا أن يركبه معه ، إذ كان هو الآخر مسافرا إلى وادى الشلاّل ؛ كان ذلك الصبى واحداً من أبناء حمدى من زوجها البدوى السابق . مثل هذا الطلب لا يرفضه القبليون ، فقد طلب ذلك الصبى من سلامى أن يُركبه معه ، فرد عليه قائلا: "لا !" ولكنه سرعان ما ناداه على الفور قائلا : "هيا ، تعال واركب معى ." وبالقرب من بداية الوادى ، تركنا طريقًا من طرق الأغنام ، يقع على حافة العويرض ، فى منطقة يصعب على الإبل السير فيها . كانت إبلهم كلها متخففة من أحمالها : وبينما كنا نسير على أقدامنا كنت أتطلع كل لحظة إلى ناقتى العجوز المحمّلة ، وأتخيل أنها سوف تنزلق وتهوى ساقطة من ذلك الجرف .- ربما كان فى ذلك شىء من الحقد من جانب سلامى Salamy ؛ ذلك الرفيق المزوّر ، الذى اقتادنا ، وعلى غير رغبة الجميع ، إلى النزول إلى ذلك الطريق الوعر الخطير .

نزلنا بعد ذلك بنصف ساعة ، إلى أرض الوادى المنخفضة ؛ التى عثرت فيها على عشب طويل يشبه عشب الريحان ، ولكنى لم أر ذلك العشب من قبل . ثم تجاوزنا بعد ذلك المزيد من السلاسل الجبلية ، ومن بعدها الوادى العظيم التالى لها ، لنصل ونصبح على مقربة من وادى الشلاّل. كنت راكبا ناقتى فى المقدمة مع سلامى .- "قال سلامى ، أعرنى وعاءك حتى أشرب قليلا من الماء ، وضع لى فى الوعاء شيئا من الدخان (التبغ)."- "الوعاء والدخان فى قاع الخرج ، وأنا مرهق تماما ؛ ولكنى سوف أقوم بتبريك ناقتى ، وبعدها تعال أنت وخذهما بنفسك ." استقبل ذلك الرجل ردى هذا بابتسامة تنم عن عدم الرضا ، وبكلام خبيث ، فى الوقت الذى كنا فيه على بعد خطوات قليلة عن المكان الذى سوف نفترق عنده إلى الأبد .

وصلنا بعد ذلك إلى شق فى الجبل ، كان مفتوحا على بداية وادى الشلال ، ونزل الصبى من خلف سلامى ، الذى أصدر تعليماته للصبى بألا يدل النصرانى على الطريق الموصّل للأعراب ، وطلب منه إسراع الخطى ليسبق ناقتى بطيئة الخطى حاولت ناقتى اللحاق ببقية الإبل ، ولكنى عندما بركّتها ربطت ركبتيها عندما كانت بقية الإبل على مرمى بصرى . كان الممر الذى دخل منه الصبى يوصل إلى وادى بركانى شبيه بالسهل ، لم ألاحظ على صخوره الصلدة سوداء اللون أى أثر من آثار مواشى البدو ؛

ونظرا لأن أرض ذلك الوادى غير المستوية ، حجبت عنى رؤية ذلك الصبى ، فقد اختفى عنى تماما . ومضيت قدما فى اتجاه ارتفاع الوادى ، وهنا رأيت تحت قدماى دغلا تتخلله النباتات الشوكية . وعندما ركبت ناقتى ثانية أبصرت الصبى أمامى ، كما شاهدت الوادى الكبير منقسما من الأمام . أعطيت الخويرة (الناقة العجوز) رأسها ، بمعنى "أعطيتها حرية الحركة ؛ وبعد أن نظرت الناقة حولها ظلت واقفة ، ثم بدأت بعد ذلك تتحرك وتمشى بطريقة آمنة ومطمئنة ، هيئ لى معها أن الناقة تعرف طريقها . هذه الناقة لابد أن تكون قد جرى سرقتها فى غزو من الغزوات التى وقعت لقبيلة حرب منذ سنين بعيدة . التقيت بشخص ، أو إن شئت فقل : بصاحب تلك الناقة ، وهو من قبيلة بشر ، فى بلدة حائل ، الذى أبلغنى أن تلك الناقة كانت تعرف الديرة كلها ، إلى حد أنها فى بعض الغزوات كانت "هى التى تقوم بعمل الدليل" : كما أخبرنى أيضا أن تلك الناقة كانت تعرف أيضا المكان الذى كنا نتجول فيه فى الحرَّة ، وتعرف أيضا اتساع ذلك المكان من ناحيه نجد ؛ معرفة الأرض هذه كانت متيسرة لتلك الناقة فى كل مكان . وعندما رحت أعدو بالناقة تمكنت من تجاوز ذلك الصبى التعيس ، الذى كان اسمه كريبش Kreybîsh، الذى كان يتدارى خوفا منى ويغطى وجهه خوفا منى أيضا. ولما كنت أتوجه بناقتى صوب الذراع الرئيسية من الوادى المنقسم ، الذى بدأت تظهر فيه الكثير من أشجار الطلح ، بدأت الخويرة (الناقة العجوز) تبطئ الخطى ؛ شاهدت بعد ذلك بعضا من الرجوم ، كما شاهدت أيضا بعض الجدران المهدّمة فى مستوطنة قديمة ميتة . تجاوزت بعض الصخور لأرى بعدها أول خيمة من خيام البدو . ولوح لى الجالسون داخل هذه الخيمة بأنى قد أجد الراحة عندهم ، كما أن هذه الخيمة كان مشوات Mishwat يقيم فيها معهم ، ومشوات هذا هو شقيق المرأة حمدى ؛ وهنا عقدت العزم على نصب خيمتى فى المنزل الذى فيه مشوات .

غيرت الأشجار والأحجار النظام القديم الذى كانت عليه هجرة hamlet البدو الرحل . عثرت على بيت مشوات أو إن شئت فقل : منزله ، من قطعة من القماش الذى نسجته زوجته ، وكانت قطعة القماش تلك ، مفرودة ، مثلما كان الحال فى وادى تربة ، على الأرض أمام الخيمة ، التى كانت مغلقة بسبب حرارة الأرض الشديدة . قال صوت حلو انبعث من داخل الخيمة : "مرحبا بك" ؛ كان ذلك صوت زوجة مشوات ، التى كانت

تنظر من تحت حافة الخيمة ، وطلبت منى النزول عن راحلتى والدخول إلى الخيمة اتقاء للشمس . وهنا نهضت زوجة مشوات ، وخرجت من الخيمة لتحضر لى سطلا من الماء ، "لأنى ، على حد قولها ، لابد أن أكون مشرفا على الموت بسبب العطش :" كانت حرارة الأرض الحارقة قد شوت قدماى وأنا أنزل أشيائى القليلة من فوق ناقتى . وإذا كان الأعراب ، بسبب تشددهم وتطرفهم ، لم يستقبلونى استقبالا طيبا ، فقد رحبت كلابهم بمقدمى مرة ثانية : ها هنا من بين هذه الكلاب ذلك الكلب من كلاب حمدى الذى ضل طريقه وتبع الأعراب قادما معهم من وادى تربة ؛ هذا الكلب اسمه رشدان ، وقد جرى نحوى فرحًا ، متعرفا علىَّ إلى أبعد حد ممكن . عقل الطبيعة فى ذلك الحيوان المسكين يميز كثيرا عن أصحابه الأقل منه عقلا ، إلى حد أن هذا الحيوان لا يعرف أى فرق من الفروق بين النصرانى والمسلم .

ها هما مشوات وعبد الله قادمان من خيمة القهوة بعد أن شاهدانى وأنا أصل إلى منزلهما . وبعد أن تحسس مشوات ثقل صندوق الأدوية الذي كان برفقتى ، "قال ، ها هى حزم خليل من الريالات !" وفتحت الصندوق أمامهما ، وكان بداخله بعض العقاقير الثقيلة التى من قبيل سكر الرصاص ، وقلت لهما ، إنه لو عثر على نقود فى الصندوق ، فمن حقه الاحتفاظ بها لنفسه . وهنا تراجع مشوات إلى الوراء ، تحاشيا لتلطيخ سمعة المضيف وشرفه .– "لكن لماذا جئت إلى هنا يا خليل؟" اقتادنى مشوات إلى ظل الخيمة، حيث قامت زوجته بخلط سطل من المريسى للضيف الذى حل عليهم ؛ ثم انصرفت بعد ذلك لتطبخ لى وجبة من الأرز فى الماء . كنت لم أذق الطعام منذ أيام كثيرة ؛ إضافة إلى أن ذلك الوقت كان من أيام الجوع عند البدو .

بعد أن انتهيت من زيارة المجلس ، الذى استقبلنى الشيوخ فيه استقبالا وديا من جديد ، قصدت بعد ذلك إلى سيدان . "قلت : ناد حوريش ، وأنه ذلك الشجار ، لأنى أنا لست المخطئ يا صديقى ." جاء حوريش ، الذى كانت خيمته قريبة من خيمة أخيه ، على إثر سماع صوت أخيه ، وعندما وجدنى فى الخيمة انتحى لنفسه جانبا . "تعال ، يا حوريش ، ورد على ، "بالله عليك Bullah أنا ana خالفت khalaft عليك aleyk" : بمعنى "هل أسأت إليك ، ونحن على الطريق قادمين من قرية العلا ؟"" وتخوفا من أن يرد البدوى ردًا مخالفا ، بعد أن استحلفته بالله ، أقسم أن يمتنع عن الكلام . ثم تعثر

لسان حوريش وتتعتع قليلا بعد ذلك ثم قال : "انا لا أستطيع القول إنك أسأت إلى . سيدان : "بس ! Bess أى ، كفى ." – "مد لى يدك إذن ، بالرغم من أنك خدعتنى ." سيدان: "إى، يا حوريش، مد يدك لخليل، وينتهى الأمر ! ويصبح كل من خليل وحوريش أصدقاء من جديد ؛ أنت ، يا خليل ، مخلص للرفيق ، ولكن نحن أيضا مخلصين ." – "المعروف أن البدو هم أفضل الناس فى رفقة الطريق ." – "لا ، ليسوا كلهم كذلك ، كما أن هناك قلة قليلة أخرى ، يمكن للغريب أن يثق بها ويركن إليها ؛ وليس هناك قبيلة واحدة من بين القبائل المحيطة بنا ، لم تتلطخ سمعتها أو اسمها بارتكاب الجرائم التى من هذا القبيل ؛ ولكن ذلك لم ينسحب مطلقا على المواهيب ، أى لم يثبت أن أحداً من المواهيب خان رفيقه أو خدعه ." – "ومع ذلك ، فقد لاقيت اليوم شيئًا من هذا القبيل من جماعة مواهيبيه ." (لم يعرف الشيوخ أننى جئت إليهم لوحدى .) – "آه ، أقول لكم إن سلامى غشاش دومًا ." قال آخر ،– ذلك السرحانى الشاب الذى كان عضوا فى جماعتى السابقة أثناء سفرنا إلى قرية العلا ، والذى يطلقون عليه ، بسبب سوالفه الطويلة ، اسم "أبا القرون" – "حسن ، كان المفروض أن لا تعود إلى ديرتك بصحبة أخى مع أبى Abu قرون Krûn ، لأن أبا قرون هذا نجس néjis بمعنى أن "روحه ليست من الأرواح العامرة بالدين" ، والله يعلم أن أبا قرون هذا كان قد خطط لقتلك." هذا السلامى نفسه، عندما كان يزور وادى الشلال مؤخرا، كنت قد حملّته حزمة من التتون (التبغ) على سبيل الهدية منى إلى الشيخ طلّج ، ولكن الشيخ لم يستلم تلك الحزمة مطلقا . "قال العجوز ، يا لغرابة هذا الأمر ، والغريب أيضا أن ذلك الكلب كان هنا ! لقد "شرب" drunk تلك الحزمة لوحده ، ولكن متى كان الخير فى ذلك السلامى؟"

حكى لى عبد الله، بطريقة توحى بالحقد أنه كان طوال تلك الأيام، فى زيارة لوادى جيدة Jaida ، أحد وديان الحريرى ، الذى عثر فيه على غزو كبير قامت به قبيلة البلّى ؛ وأن ذلك الغزو كان قوامه حوالى ثلاثمائة وثمانين خيالاً – معروف أن الأعراب فى مثل هذه الأمور يضاعفون الرقم عشر مرات – وأن ذلك الغزو عندما كان عائدا من طريق داخلى ، عرّج على السّعادين Saadîn ، الذين هم بعض من قبيلة حرب على طريق الحج بعد المدينة (المنورة) مباشرة . عبدالله : "وبينما كنت أتكلم معهم عن النصرانى

الجائل ، الذى كان يُدوِّن البلاد ، قالوا : " لو جاء الينا ، فوالله ، سوف نكرمه !" - "ورددت عليه قائلا : إننى لم التقى أحداً من البدو أكرم أو أصدق من البلِّى .

كانت الماشية ترعى فوق الحرة حيث كانت توجد بعض الأدغال الصالحة للرعى ، واقتدت ناقتى إلى مسافة ميل أو ميلين فى اتجاه أعالى الوادى . وبعد أن ربطت رجلى الناقة الأماميتين بحبل ، أطلقتها لحال سبيلها مثلما يفعل البدو ، وبعد أن رحت استظل بضفة السيل المجوَّفة ، وجدتنى أروح فى ثبات عميق . وعندما صحوت من النوم كان وقت العصر قد أوشك على الدخول ، ووجدت شيئًا من المشقة فى العثور على ناقتى من جديد ، التى كان لونها يطابق لون أرض هذا الوادى البرى ؛ وركبت ناقتى وعدت بها إلى المَنْزل . ولكن الشيوخ ضحكوا عندما كانوا جالسين فى المجلس ، وشاهدوا الغريب يفد عليهم راكبا ناقته بطريقة الرعاة : "سمعتهم يقولون : انظروا ! والله ، لقد تحول خليل الى بدوى بمعنى الكلمة ."

البدو يخيمون فى هذه المنطقة حول حفرة من حفر الماء ، تشبه البركة ، والتى يأتى البدو على كل ماءه فى الصباح عندما يسقون منها ماشيتهم ، ولكن منسوب الماء يرتفع فى هذه الحفرة مرة ثانية ، قبيل دخول وقت العصر ؛ يقول البدو ، إن هذا الماء "من الشتاء" ، أى من الأمطار التى تسقط فى فصل (الخريف) ثم تغوص فى أرض السيل ، نظرا لعدم وجود نبع مائى تحت هذه الأرض . والبدو عندما يغيبون عن تلك الحفرة تتحول إلى مسبقى تشرب منه الطيور والمخلوقات البرية التى تفد إليها قادمة من جبال الصحراء ، كما شاهدت بالقرب من تلك الحفرة مكامن للصيادين ، بناها أصحابها من أحجار غشيمة جرى رصها بطريقة غير منظمة ، كما جرى عرشها أيضا بأفرع من أخشاب أشجار السنط. وذات صباح وبعد أن ذهب الشيوخ لقضاء أمر ما ، لم يتبق معى فى القهوة سوى حامد Hamed ، هو وشخص آخر سرحانى ، وكانت كل أفكارهما الغبية تنصب على عمليات السلطان الحربية ، وهنا سألنى ولد الشيخ طُلُّج ، "ما هى تلك الحروب التى تدور حاليا فى العالم ، وكيف ضعفت قوة الإسلام ؟ إلى حد أن النصارى تجرءوا فى هذه الأيام على شن الحرب على سلطان المسلمين !" أوضحت لهما وأنا ألف صندوق فناجيل القهوة ، أن "الطريق أو المسار فى هذه الدنيا (العالم) يشبه دوران العجلة . الجزء العلوى الحالى منها كان قبل ذلك هو الجزء السفلى ، وأن

ذلك الذى علا مؤخرا ، بدأ يهبط الآن ." الكلام الذى يكون من هذا القبيل ، وبهذه الصياغة تستقبله آذان العرب وعيونهم دوما بقبول فيه الكثير من براءة الأطفال وسذاجتهم .

دخل علينا بعد ذلك شخص غريب ، هو شاعر بنى عطية ، ذلك الرجل الذى بلغ من الفقر والمسكنة حداً جعله لا يضع على جسده سوى القميص فقط ؛ هذا الشاعر كان مريضا بالحمى فى الآونة الأخيرة ، وكان ضيفا فى فصل الصيف على المواهيب. هذا المسكين الذى وفد علينا لا يحتقره البدو أو يزدرونه : إذ مازالوا يفسحون له مكانا حول وجار القهوة ، ويجلسونه بجوار الشيوخ . وأفضلهم لا يرتدى أفضل مما يرتديه ذلك الشاعر ، يضاف إلى ذلك أن ذلك الشاعر يمكن أن يكون خدوما لأولئك الشيوخ فى تلك الأمور الصغيرة التى يستطيع القيام بها . كان على Aly ، من مؤلفى الأشعار الفاحشة أو المكشوفة ؛ التى يتذوقها الأعراب ويستحسنونها ، – ومن ذا الذى لا يقبل المرح قبولا حسنا فى هذه الدنيا ؟ الجميع يسعدون عندما ينسون أنفسهم ومعها الساعات الطوال . كان على Aly مؤلفا جيدا ويبلى بلاء حسنا ؛ ولقد سمعت الشيخ طُلّج العجوز يردد أبيات ذلك الشاعر وهو يضحك ويبتسم ملئ شدقيه ، بل إن الصحبة كلها كانت سعيدة بذلك الشعر ؛ كما كانت ربات بيوت الشيوخ يستجبن ويتجاوبن مع تلك الأشعار وهن يضحكن ، ويتهامسن بكلمات مرحة من داخل خيامهن ، أو إن شئت فقل : بيوتهن .

هذا المسكين ، شاعر المرح والسرور ، الذى عضه الجوع بنابه ، جلس مهموما ، فى الآونة الأخيرة ، ولم يكن أمامه شيء يأكله سوى صراصير الليل ؛ قال لنا ، إنه لم ينزل جوفه طوال هذا الأسبوع ، سوى دخان قليل من التبغ وشيء قليل من الماء . وعندما رأى الشيوخ قادمين ، "وا ، أسفاه ! أهكذا يتعامل المواهيب مع ضيوفهم ؟ – أنا أموت ، وسوف تدفنونى هنا فى وادى الشلاّل Shellal ؛ وأنا أقسم بالله ، أننى ليس فىَّ من القوة ما يجعلنى أرحل عن هذا المكان ، إلا فى صباح الغد ، – وقد سبق لى أن رحلت من قبل ، ولكنى كنت أخشى وأخاف أن ألاقى أحداً من الفكارة ." جلس الأعراب صامتين بعد أن استمعوا إلى شكوى ذلك الرجل الموجعة والمؤلمة : ثم تكلم الشيخ طُلّج بعد ذلك بنغمة من الود والحنان ، "يا على ، نحن نأسف لما حدث لك ، ولكن

ألا ترى أنت بنفسك ذلك الضيق الذى نحن فيه ." – لم تخرج من فم ذلك الشيخ كلمة خبيثة ، لأن ذلك يتعارض مع إكرام وتوقير ضيوف الله .– البدو يترافعون عن بعضهم البعض عن طيب خاطر ، من هنا فإن الواحد منهم قد يتباهى بالآخر ، من باب المجاملة ، عندما يقول (تلك الجملة الإنجيلية) "إنه أفضل منى ،" من هنا فقد امتدح حامد شاعره أمامى بهذه الطريقة ، حتى أرق عليه وأعطيه دواء للحمى . "قال حامد ، هذا هو على ، صحيح أنه فقير ، ولكنه رجل له رفقة مهمة مع الشيخ ، فضلا عن أن له علاقة لها وزنها أيضا مع باشا الحج ." – "يا على ، أنا أعرف أن الباشا يتمنى أن يرى كل أفراد قبيلتك وقد أعدموا جميعا ." ابتسم على وأخذ الأمر على محمل حسن ، سوف يحسب الناس البدو أبناء للشجعان ، بالرغم من أن ذلك يمكن أن يكون على حساب شيء من أمانتهم . "سمعت فى موسم الحج أيضا أن بعضكم متوحشين وغير متحضرين : خبرنى ، ما نوع بدو بنى عطية ، الذين يمشون عراة ، ولا يعرفون الخبز ، ويقولون ، إنه ليس هناك عالم آخر غير ذلك الذى يعيشون فيه ! – ويعتقدون أن المخلوقات الخرافية الأسطورية تتملك ليل الشتاء !" وهنا رد علىّ على الرجل ردًا لطيفا: "إى ، بالله ، إنهم معروفون لنا ، ولكننا يصعب علينا تعرفهم : وهم مع انتهاء النهار يحفرون لأنفسهم فى الرمل حفرا تصل إلى مستوى أعناقهم ، وينامون فيها وهم يشعرون بالدفئ تماما ."

حكى لى ذلك الشاعر الفكاهى أسطورة "الجرية" Geryeh (القرية) التى هى عبارة عن رحلة إلى الشمال من تبوك : فى هذه المنطقة لا يوجد سوى أطلال قرية مسوَّرة ، تقع وسط أكوام مثل أكوام الخربة . هناك خرافة شائعة تقول إن كنوزا ثمينة مدفونة فى تلك المنطقة ، وأن النقود تتدحرج ، فى كل يوم جمعة ، خارجة من الأرض ، وتروح تجرى من تلقاء نفسها فى السهل الصحراوى لحين غروب الشمس . كان البدو يطلبون منى بفضول كبير ، "هل يمكن إسكات ذلك أو تهدئته ؟" معروف أن البدو تتضح أمامهم الأمور فى حدود آفاقهم الطبيعية القصيرة ، كما أنهم يميلون إلى عدم المصداقية أو الخرافة فيما يتعلق بالأشياء الدنيوية . أضاف رجل آخر من بنى عطية "توجد بجوار بنى عطية صخرة من صخور الحجر الرملى (لم يسبق له زيارة تلك الصخرة) ، وفى تلك الصخرة توجد بوابة ، وخلف تلك البوابة ممر محفور فى الصخرة ، التى توجد

غرف فى جدرانها ، ووالله ، هذه الغرف تشبه الدكاكين التى فى السوق ، كما يوجد كنز عظيم خلف باب لا ينفتح ، (حيث يوجد السحر) ويحرسه رجل أسود شاهرا سيفه .- قال البدوى ، تعال يا أنت ، واستخرج تلك الكنوز ، وستكون ملكا لك ، وبالتالى ستكون قد كشفت لنا المياه المخبأة !"

نهض طُلُّج واقفا فى مكانه وأشار إلى بالخروج معه : اقتادنى ذلك الشيخ العجوز إلى خيمته ، ثم اصطحبنى إلى القسم المغلق الخاص بربة بيته الشابة الجميلة ، شقيقة ظاهر ، التى يعترف الجميع بجمالها بين النساء . كانت تلك الزوجة جالسة ترضع طفلها ، وكانت منحنية على كوعيها ، على سجادة تركية بهيجة الألوان . نظرت الزوجة الشابة بعينها إلى الأعلى : ومع هذه الحركة الرشيقة أحضرت سطلا مملوءا بالتمر ، وبصوت المرأة الحانى راحت تقنعنى بلطف أن آكل. خرج طُلج إلى غدران سقاية الإبل، وجلب للضيف ماء يشربه ؛ وبناء على ذلك ، تركنى ذلك الشيخ العجوز مع شقيقة ظاهر لتناول الغداء ، وذهب هو إلى المجلس . هذا الكرم الواضح من جانب شيخ كريم كان بمثابة إشارة أو علامة لى على مدى تدنى الأسر الكبيرة . كان من النادر أن تعانى خيمة طُلج من الفقر أو الحاجة أو العوز ؛ وطُلج بوصفه شيخا من شيوخ الأعراب ، كان يحصل أيضا على ما يسمى بالخوة (*) Khuwa ، بواقع حمولة جملين من التمر ، من بلدة تبوك ، كما كان يحصل على حمولة جملين آخرين من قرية تيماء . - كان بعض هؤلاء القبليين يمتلكون بعضا من النخيل فى تيماء ، ولكن عندما نشب العداء بينهم وبين ابن الرشيد ، لم يستطيعوا الذهاب إلى تيماء ؛ وبالرغم من ذلك ، بقيت حقوق هؤلاء البدو قائمة دون مساس بها . قالت مضيفتى فى لطف ، "إنها بلغها أننى نصبت خيمتى بالقرب من خيمة والديها ؛ وعن معاملتهما لى ، هل كانت على ما يرام ؟ - ولكن ، يا خليل ! كل ، من أجلى ! لماذا لا تأكل ؟ ألا تستطيع الأكل ؟"

كان حوريش قد أخذ على عاتقه القيام بدور القهوجى. "كيف حالك يا حوريش؟" - "على ما يرام ؛ وكيف العيون Ayun بلا bila سنون Sinûn ؟" قال حوريش هذه العبارة

(*) الخوة : تعنى فى هذا السياق الإتاوة التى كان يدفعها الحضر لشيوخ البادية تحاشيًا للاعتداء عليهم من القبائل . (المراجع)

حقدا على ناقتى العجوز : ولكن هذا الاستلطاف لم يرسم أية ابتسامة على وجه أى من الحاضرين . – لماذا لم تخبره زوجته أن فكيه كانا على نحو يجعله يبدو كما لو كان جملا ؟ والبدو فى كثير من الأحيان تكون لهم أسنان تشبه أسنان الخيول ، وبيضاء كما لو كانت مطلية باللبن الحامض ، أو إن شئت فقل : لبن الخض : هناك أيضا كثير من الشبان الذين يرعون الماشية يكشفون بصورة مستمرة عن أسنانهم وهى مسنونة مثل أسنان الكلاب عندما تكشر عن أنيابها . ولما كان هؤلاء الشبان يمارسون مهنة الرعى منذ طفولتهم ، ويتحولون إلى رفاق للصخور والأدغال والماشية فى الصحراء ، فهم يكبرون وهم لا يعرفون أى شىء عن التفاهم الإنسانى . وفى ضوء استمرار ضرب الشمس لجباه هؤلاء الشبان طول اليوم ، فإن ذلك يؤدى إلى بروز جباههم إلى الأمام ، وترتفع شفاههم إلى الأعلى ، وتبقى على ذلك الوضع بسبب تيبس العضلات ؛ والقلب الرقيق والذكاء الفطرى ، منعدمان عند هؤلاء الشبان لافتقارهم إلى الصحبة الإنسانية فى ذلك النوع من التخلف العقلى .– وأنا هنا أذكر أن شابا نصرانيا سوريا قال لى إنه عثر فى الكتاب المقدس على قول مأثور مخيف ليس فى صالح البدو ؛ ثم تناول إنجيله (التبشيرى)، وقلب منه صفحة واحدة وقرأ "جراد تقدم أو جاء من حفرة سحيقة، عليه شعر يشبه شعر خصل النساء، وله أسنان مثل أسنان الأسود!" هذا وقد سبق لى أن سمعت الناس وهم يشبهون البدو المساكين وهم يتسوقون فى بلدة القصيم ، بأسراب الجراد أو "مثل mithil الجراد jerad _el " على حد تعبيرهم .

كانت فى وادى شلال ريح جبلية ، كانت تلك الريح تهب نحو الأسفل نظرا لأن السهول أسفل الجبل كانت تسخن بصورة مستمرة ؛ وكانت تلك الريح أيضا تزيد من سوء أشعة الشمس ، وبخاصة فى أيام موسم الصيف ؛ هذه الريح كانت تتزايد إلى ما قبل العصر بقليل ، ويزداد هبوبها من رأس وادى الشلال فى الحرّة إلى حد أنها كانت تطيح بخيمتى الصغيرة .

بلغتنا أخبار مفادها أن بدو الفكارة Fukara كانوا على وشك التخييم فى منطقة الحجر ، إذ كان من عادة هؤلاء البدو أن يقيموا مدة شهر واحد من شهور الخريف ، فى كل عام ، بالقرب من موارد المياه فى وادى الشلال . وهنا خطر ببالى أن أعود إلى أولئك الفكارة ، حيث سيرحلون بعد ذلك مباشرة إلى قرية تيماء ، التى يمكننى منها

الوصول إلى بلدة حائل Hayil . عندما عثر عليَّ مشوات Mishwat وأنا جالس إلى جوار جدار مهدم ، أثناء هبوب الريح سالفة الذكر ، أقرأ في كتاب "صاح الرجل ، يا خليل ! لا تحاول الإنكار ، هل جئت إلى هنا لاستخراج كنز من الكنوز ." وفي المساء ، نحر مشوات شاة قربانا لصحة إبله ، – ياله من مسكين ! لم يكن مشوات مدركا للإرادة العليا ، كما كانت الأحداث كلها في غير صالحه ! فقد أصبحت تلك الإبل بعد شهر من الزمان في قبضة العدو وتحت تصرفه . طرح مشوات تلك الشاة صامتة على الأرض ، وهي تحاول التخلص والتملص من قبضته (ومعروف أن رأس الأضحية لابد أن تكون في اتجاه القبلة أثناء النبح) ؛ برك مشوات ، فوق الشاه ، وسمى باسم الله ، ثم نحرها مستخدماً سيفه في ذلك. وأخذ مشوات شيئا من الدم المندفع ووضعه في سطل، ثم راح بعد ذلك يحمل ذلك السطل ويتجول بين قطيعه ؛ ويغمر إصبعه في سطل الدم ثم يلطخ عنق وخاصرة كل حيوان من الحيوانات الباركة على الأرض . كانت الأغنام تقترب من الوعاء . والبدو عندما يذبحون أي حيوان من حيواناتهم ، وبعد أن يسلخونه تقوم النساء بالتخلص من أمعاء ذلك الحيوان على بعد مسافة صغيرة ؛ ويقوم البدو بعد ذلك ، وعلى وجه السرعة بشوي حلويات ذلك الحيوان على نار الوجار ، ويوزعونها كما لو كانت قطعا من الحلوى على أبنائهم وأطفالهم . وكلاب البدو تتشمم دم الذبيحة الذي ينساب على الأرض ، ولكنها تعافه ولا تأكله . وقد شاهدت ، عندما كنت مع بدو الفجير ، أنهم يلقون بقطع من كبد الذبيحة ، في نار الوجار ، ليأكلها بعد الشواء صغار أفراد الأسر ، قبل عشاء الضيوف . وهم أيضا يلقون رأس الذبيحة في النار ليشووها ، ومخ الحيوان لا يأكله أحد سوى النساء ، ولدى الرجال خرافة مفادها أن أكلهم المخ يضر بأبصارهم ونور عيونهم .

كان الغد مصادفًا للورود ، أي يوم سقيا الحيوان ، مما أدى إلى النزاع والجدل فيما بينهم . لم يتفق الأعراب فيما بينهم على السعر المحدد للناقة عندما يجرى سداده أو دفعه برءوس حيوانات صغيرة ، حتى يتمكن ذلك الرجل السراحيني من دفع نصيبه في المدَّة (الدية) التي يتعين دفعها إلى مهنا . والعرب لا يكونون عادلين في المساومة أو المكاسرة ، وهذا هو صوت داريش العالي بدأ يتناهى إلى مسامع كل السُّقَاة ؛ وقد شاهدت ، وأنا في خيمتي ، الشيخ السراحيني وهو يرفع ذراعاه الخشبيتان ،

كما شاهدت أيضا أن ذلك المخصى هو وغريمه قد استل كل واحد منهما سيفه . وهنا خرج الشيخ طُلج العجوز من خيمته لفض ذلك الاشتباك ؛ ولكنه عاد ثانية إلى خيمة القهوة عندما لمس عدم جدوى صوته فى ذلك الصراع . معروف أن المواهيب عنيدون وأولو بأس ، ولذلك فقد ثارت ثائرة داريش إلى حد أنه كاد أن يتشاجر مع الجميع . بعد نوبة التصايح الأولى ، بدأت تسود كلمات التهدئة والسلام ، وبدأ العرب ينصرفون كل إلى حال سبيله ، عائدا إلى خيمته ليكون إلى جوار ماشيته . راح وعيل ، وهو متجه إلى بيته يصيح فى زوجته ، طالبا منها فك البيت لأنه سوف يترك هذا المكان فى التو واللحظة ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة اقتنع وعاد لهدوئه ورضخ للصالح العام .

سوف يزور الشيوخ ، فى الصباح ، الفكارة الذين نصبوا خيامهم فى منطقة الحجر ، لمناقشة مواضيع الصالح العام المشتركة ، والقضاء على ذلك الفتور الذى نشب بينهما منذ موسم الحج ؛ كان الشيوخ يودون أن يكون الشيخ مطلق على وفاق معهم ، وينضمون إلى أعرابه ليكوّنوا معهم مخيمًا واحدًا . ركب الشيخ طُلج وبصحبته كل من حامد ، ووعيل ، وداريش : أما مشوات فقد رفض الذهاب معهم ، وذلك على العكس مما كان عليه رأيه مساء أمس ، من هنا فقد "أرسلت" ناقتى إلى الحرة مع ماشيته ، وهنا عرضت جوتذه Gottha ، الراعية الشابة ، ابنة الأرملة ثنوة Thanwa ، الذهاب على الفور لإحضار الناقة من المرعى :-. هؤلاء البدو المساكين ، على استعداد فى كثير من الأحيان ، لأداء هذا النوع من الخدمات للشيخ أو للغريب . مرت ساعة كاملة قبل مجيء الناقة ؛ وبالرغم من أن الشيوخ كانوا قد رحلوا منذ مدة طويلة ، إلا إننى خطر ببالى أن أخاطر بالركوب وحدى وأفعل مثلما فعلت عندما جئت إلى هذا المكان . وقدم لى مشوات آخر توجيهاته ونصائحه ومحددًا لى العلامات الأرضية التى "يمكن أن تعيننى" وتلك التى يجب أن لا أهتم بها ، وهذه التى عن يمينى وتلك التى عن شمالى :" وأعطيت زوجته ، حسب طلبها ، شيئا من "دواء الحمى" ، وتمنيا لى رحلة طيبة وسرعة الوصول .

كان ذلك الوادى القفر وسيعا ، ولم تكن آثار الأقدام ظاهرة فوق أرضية ذلك الوادى المكونة من الصخور البركانية الصلدة ، وبخاصة آثار أقدام أولئك الذين سبقونى بالمرور فى هذا المكان . وهنا وجدتنى أطيل النظر إلى الأرض المنخفضة ، -

حتى يتسنى لى العثور على مخرج طبيعى لماء السيل ؛ وبهذه الطريقة استطعت أن أنجح فى الوصول إلى حوراء Howwara . فى كل أنحاء هذه المنطقة شاهدت بعض الكرات الصغيرة فوق الرمل ، هذه الكرات عبارة عن مادة معدنية تساقطت من الصخرة الرملية المتآكلة ، ومعظم تلك الكرات تشبه بقايا حيوانات متحللة ؛ القبليون المساكين يأخذون تلك الكرات ، وبخاصه تلك التى يمكن أن تتدحرج فى بنادقهم ، ويستعملونها بدلا من الطلقات الحقيقية .

ونظرا لأنى لم أكن راكبا راحلة جيدة ، فقد كان كل واحد ممن يسيرون على أقدامهم ، قادرا على اللحاق بى :- تمنيت أن لا ألتقى الحباليص ، والمعرف أن أبا سنون سطا عليه الصوص فى هذا الممر القصير المؤدى إلى القلعة . وعلاوة على الصراع الشرس من أجل الحياة ، سينشرون أيضا أن النصرانى كان يحمل مسدسا من نوع خطير ؛ ولو قدر لذلك المسدس أن يضيع منى ، فسوف أكون مكشوفًا ومهددا فى ترحالى كله ، وسط أعداء مسلحين . كان الطريق مليئا بالصخور المجوفة التى تصلح أن تكون ملاجئ ومخابئ لأولئك الأشقياء ؛ - ومن ذا الذى يجدنى هنا ، وهو يفعل فعلته دون أن يراه أحد ، ويبقى على حياة النصرانى ! هذه هى القمم العالية ، والقمم المستدقة لجبل إثلب بدأت تتبدى لى؛ كما بدأت أرى أيضا قطعان إبل الأعراب ، التى كان الرعاة يحدونها ببطئ عبر السهل . بعد أن قطعت تلك الأميال القليلة ، وصلت إلى خيام بعض الصُلوبة ، المنصوبة فى منطقة منخفضة عن القلعة ، وعرفت أن خيام الشيخ منصوبة بالقرب من آبار الماء أسفل صخور البرج Borj .

واصلت المسير بناقتى ، وتجاوزت قبليا من عائلة الشيوخ : عندما رأيت ذلك القبلى من الخلف، استنتجت على الفور من تربيعة كتفيه ، ومن عباءته الخشنة المقلمة ، ومشية قدميه الحافيتين ، أنه واحد من أولئك الذين يُصلِّحون القهوة فى أسرة زيد :- كانت رأس ذلك الرجل ترتفع فوق صدر بارز إلى الأمام ، وذراعاه قريبتان من أردافه ، وكان يمشى مشية النساء . هذه هى مشية الشيوخ فى الصحراء ، كما أن هذه أيضًا هى مشية الشخصيات الرئيسية . هذا يعنى أن تلك الشخصيات إنما ولدت وربيت فى ظل الرقة الشديدة لحياة الصحراء ، وتجلس تلك الشخصيات تشرب القهوة فى المجالس طوال حياتها . وزوجات هذه الشخصيات هن اللاتى يقمن بكل ما يلزم هؤلاء

الشيوخ داخل الخيام ، وبالتالى فإن هؤلاء الرجال الذين يسكنون الخيام ويقيمون فيها بصورة دائمة ، لا يكون لديهم ما يفعلونه خارج هذه الخيام ، يضاف إلى ذلك أن هذه الشخصيات يندر أن تشارك فى الغزو الذى يقوم به البدو . أسفل غترة (غطاء رأس) ذلك الشيخ يمكن أن تقف على حكمة الرجل السياسى ، مع شىء من الرقة الأنثوية ، كما ترى أيضا عينان وسيعتان توحيان بالطموح ، ومترقبتان ومن فوقهما حاجبين جميلين . وشيوخ الفجير كلهم ، حسبما يقال ، يجمع بينهم نوع من التشابه فى الصوت وفى القرابة أيضا .

نزلت عن ناقتى أمام الخيمة التى وجدت نياق شيوخ المواهيب باركة أمامها ، هؤلاء الشيوخ كانوا قد سبقونى فى الوصول إلى تلك الخيمة . كان هناك جمع كبير داخل الخيمة ، وتلك كانت خيمة الشيخ مطلق . نظر الفكارة إلىَّ فى هذه المرة نظرة كالحة متشددة . خفة الظل والمرح الذى كان يعم المكان ، كان من أجل زيد ورفاقه (زيد الحبلوص) ؛ يضاف إلى ذلك ، وحسبما قيل ، لا يمكن لكافر أن يعود إلى المسلمين ويرحبون به للمرة الثانية : ولم يرحب بى أحد ، سوى رجل شاب جاء بعدى ، ورحب بى ترحيبًا وديا ، وسلم علىَّ سلاما وديًا أيضا ، كان ذلك الشاب واحد من الشباب الماهويين ، وكان فى المنفى ، وهو من أعراب الشيخ طُلَجٌ . وجه إلىَّ شيوخ المواهيب نظراتهم الصامتة التى توحى بشىء من الود والصداقة ، وراحوا يومئون برءوسهم إشارة منهم إلى ذكرى حلوة سابقة . قال الشيخ طلج: "ها ، يا خليل ! لو كنا قد علمنا بمجيئك ، لكنت انتظرتك،" ثم تحول طلج إلى الأعراب وقال : "كان خليل يعيش معنا طوال هذه المدة ، ووالله ، كلامه لطيف ومنطقى ومعقول ؛ وبالرغم من أنه نصرانى إلا أنه وُلِيد يراعى تماما مشاعر المسلمين ." – معروف أن المواهيب لا يحبون الفكارة ، الذى ينعتونهم "بالفجارة" el-Fuggera (*) ويسمونهم أيضا يهود خيبر . وهنا بدأ الشيخ طلج الحديث عن الأمور التى جاءوا من أجلها : "والله ، يا شيخ مطلق ، وأنتم أيها الفكارة ، أنا أعلم ما يقال من أن "الفكارة والمواهيب لا يمكن أن يكونوا على وئام مع بعضهم البعض ." – كانت تهامة فى تلك الأيام عامرة بالأعراب ، وكان مرعى

(*) من "الفجور" (المترجم) .

الصيف نادرا وعزيزا ، مما جعل طلج يتطلع إلى التجوال فترة من الوقت مع الفكارة ، وقد استمع مطلق على مضض ذلك الكلام ، نظرا لبعض مظاهر الاحترام والتقدير (الواجبة لابن الرشيد) . جاء طلج أيضا لاستطلاع رأى الفكارة فى مسألة خضوع قبيلته لابن الرشيد : وهنا يمكن لوعيل هو والسراحين Serahīn أن يعملوا من أجل السلام والوفاق . فكر الفكارة هم والموءاهيب فى عدم الخوف بعد اليوم من البشر ، الذين كان ابن الرشيد يحرضهم على الفكارة والموءاهيب . وبحلول وقت الظهر دخلت علينا كومة إفطار كبيرة من الأرز ، كانت تبرد منذ فترة ، فى القسم المخصص للنساء فى الخيمة . كانت حرارة سهل الحِجْر ما تزال خانقة .

نهض الشيوخ من حول طبق العشاء وذهبوا لشرب القهوة فى القلعة وزيارة الحاج نجم . اندهش الرجل العجوز وابتسم عندما رآنى للمرة الثانية : وجدت عند الحاج نجم كلا من زيد ومحسن وأصدقاء آخرين . وسرعان ما جلس الضيوف على شكل صف طويل ، فوق سجاد الحاج نجم ، بجوار الجدار الغربى من الطرقة أو الممر : ولكن البدو لم يطيقوا مناقشة بعض خلافاتهم الصغيرة ، ورأيت وعيلاً وهو يستدعى من المجلس مرتين ليقسم على سيفه حول أمر متنازع عليه ؛ هذا الحلف على السيف نوع من الخرافة الرسمية التى تحظى بالرواج بين هؤلاء البدو . وهنا صاح محمد ، ذلك الجندى البدوى صيحة شجاعة ، فى وجود الموءاهيب ، "والله ، وفيما عدا أنه قيَّد واحداً منهم ، والأول (بعد ذلك) الذى ربما يكون قد أخذه واستولى عليه !" وهنا رد الشيخ طُلج ردًا أبويا : "يا ولدى ، نحن لا نعترض على كل ما هو ملك لك ." نهض البدو من مجلسهم مرة ثانية عندما أوشكت الشمس على الغروب ، كى يعودوا إلى مُنزَلهم . قام الشيخ مطلق بذبح شاة لوجبة العزيمة ، ولكن مضى ثلث الليل ، قبل أن يصبح اللحم (ومعه القطع الممتازة هى والكبد فوق كومة الأرز) جاهزا للأكل . وهنا تحلق الضيوف حول الطعام وراحوا يمدون أيديهم اليمنى ، وهم يذكرون اسم الله على الطعام – كانت لقيماتهم الأولى عبارة عن قطع من "ليّة" الخروف ومعروف أن الليّة فى هذا النوع من الغنم تغطى تقريبًا الجزء الخلفى من الخروف وتزن عدة أرطال ؛ – هؤلاء البدو يظنون أن هذه الليّة حلوة وصحية أيضا . هؤلاء الأعراب الذين سبق أن قلت لهم مرارًا إن الغنم عندنا ليس لها مثل هذه الليّة ، وإنما لها ذيل صغير ، فردوا على قائلين : "إذن

لابد أن تكون أغنام النصارى من النوع السيئ." بعد أن ينتهى البدو من تناول الطعام، ينهض الضيف وهو يدعو لمضيفه (الذى لا يسعده أى شىء سوى امتداح الحاضرين لكرمه والثناء عليه) ، والبدو فى هذه الحياة الصحراوية ، التى يعز فيها تدفق الماء يمسحون أيديهم من الدهون فى ذلك الجزء من الخيمة الذى يكون مجاورا لهم ، أو قد يفركون أيديهم فى أعمدة الخيام أو أى سرج من سُرُج الجمال التى تكون قريبة منهم . والبدو الرحل لا يشربون الماء على الطعام أو إن شئت فقل : أثناء تناول الطعام ، ولكن سلاطين الماء أو اللبن توضع على جنب ليشرب الناس منها بعد أن يفرغوا من تناول الطعام . ولم يحدث إلا مؤخرا ، أن بدأ البدو يحضرون إناء كبيراً ، ويملأونه بخليط من لبن الضأن ولبن النياق؛ ثم يروح الضيوف يصبون لأنفسهم ما يشاءون من ذلك الحليب.

تعجبت وأنا أستشعر فى داخلى شكلا من أشكال الرعب ، من حقد هؤلاء البدو المتشددين الذى يشبه الحقد الشيطانى ؛ وبخاصة أن أى شكل من أشكال الاتصال بهؤلاء البدو ، أو أى شكل من أشكال الحياة الشريفة الكريمة الحقيقية ، أو أى شكل من أشكال الأداء الجيد لا يمكن أن يحظى بأى شكل من أشكال الرضا أو القبول من الخرق الممل ، غير الإنسانى ، والمتأصل ، فيما يتعلق بخطايانا ، فى دين هؤلاء البدو المتهم بإهدار الدماء . ولكنى سبق لى أن أكلت من طعامهم ، ويحتمل أن أنام أيضا بين الذئاب . هذا يعنى أن الغد مظلم تماما مثل الموت ، هذا يعنى أيضا أن كل الطرق كانت موصدة أمامى . دخل المجلس ، بعد ذلك ، شيخ من شيوخ ولاد على ، وكان واحداً من شيوخ تلك القبيلة فى ذلك المكان بالذات ، كان ذلك الرجل مشهوراً بين البدو بأنه محامى عرفى ، وذلك فيما يتعلق بعادات وتقاليد الصحراء : جلس ذلك المحامى العرفى بالقرب منى وركز علىَّ ناظريه ، وسأل شيوخ الموهاهيب بصوت خفيض "لماذا أحضروا النصرانى معهم ؟" قالوا : "جاء خليل من تلقاء نفسه ." استدار ذلك المحامى إلى حامد وهمس له بكلمة أعتقد أننى استرقت السمع عليها تماما ، "ولماذا أنت لم تتركه وراءك – وهكذا ؟" ثم أشار إليه بعلامة الموتى وهم يلهثون فى"أواخر لحظات أعمارهم . أجاب حامد على سؤال ذلك الشقى وهو يتنهد قائلا ، "استغفر الله Istugfir Ullah " ! كان تعريبة Tàriba (المحامى العرفى) رجلا متقلب المزاج ، وقد حدث بعد ذلك ، أن قام ذلك المحامى فى مرحلة لاحقة ، بالدفاع عنى فى تيماء ، ضد التطرف

ضيق الأفق من قبل شخصية قروية مهمة ، هددتنى ذات يوم "أننى ما لم أتحول إلى دين الله ، ورسوله ، وبخاصه أننى أمشى بلا اكتراث ليلاً ونهاراً فى حارات ومسارات الواحة ، فإن طلقة واحدة من بندقية رجل من الرجال الذين يخشون الله ويخافونه قد تنهى حياتى فى أى وقت من الأوقات" . وهنا رد تعريبة على ذلك القروى رداً يعبر عن عدم الرضا والاستياء ، "والله ، إن البدو أفضل منك !" كان اعتراض تعريبة على طريقتى فى السلام (إذ كنت أقول مثلما يقولون) ، سلام Salaam عليك Aleyk . هذه هى "تحية الإسلام ، ولا يمكن أن تتلفظ بها أفواه عبدة الأوثان ، الذين لا يمكن مسالمتهم أو مهادنتهم أو مصاحبتهم ، لا فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة أيضا :" كما قال أيضا إنه سوف يُعرِّف الناس أننى "خواجة" Khawája . وكلمة "خواجه" هذه هى اللقب الذى يطلق على اليهود وعلى المسيحيين فى المدن السامية Semitic المختلطة التى خضعت للفتح العربى .

قال الشيخ مطلق فى الصباح ، "حنا Henna رحيل Rahil بمعنى "نحن على وشك الرحيل" : أنت ، يا خليل ، لا يمكن لك البقاء هنا مع الأعراب ، وأنا شخصيا لا يمكن أن أسمح لك بذلك ، إضافة إلى أن أحداً منهم لن يكون على استعداد لاستقبالك ." – "أقول لك إنهم جميعا سوف يستقبلونى ؛ هل تعتبرنى عدواً ؟" – "حسن ، أنا لا أعتبرك عدواً ، ولكن حياة البدو شاقة ، وفى ظل حرارة الصيف الشديدة يكون من الأفضل لك البقاء فى القلعة Kella (*)" وهنا رد عنى شيوخ الموهايب رداً طيباً ، "خليل ليس غراً ، إنه مثل واحد من البدو ، ولقد سمعنا ذلك من أبى سنون ، وسمعنا أيضا أن أعراب خليل (**) من الأعراب المتحالفين مع السلطان ." – قال الشيخ مطلق "هذا هو زيد عم خليل، دعوه يرافق زيداً ." ولكن زيداً رد قائلاً : "خليل يعد حاليا خارج نطاق سلطتى ، ولن أكون مسئولا عنه بأى حال من الأحوال ، يضاف إلى ذلك ، أنه عندما كان معى ، وكنا أصدقاء إلى حد بعيد ، وسمنى خليل بأنى حبلوص (لص) !" وهنا افترق

(*) نطق الشيخ مطلق هذه الكلمة الإنجليزية بحرف G بدلا من الـ K . (المترجم)

(**) أعراب خليل : المقصود بأعراب خليل الشعب الذى ينتمى إليه الرحالة دوتى ، أى الإنجليز المتحالفين مع السلطان العثمانى ، ومن المعروف أن إنجلترا رغم إدراكها بأن الدولة العثمانية أصبحت رجل أوروبا المريض إلا أنها كانت تقف إلى جانبها خوفاً من روسيا القيصرية . (المراجع)

الأعراب وانتشروا بعد تناول قهوة الصباح ، ثم نهض الشيخ طُلج واقفا وأخذنى على جنب . "قال الشيخ الطيب العجوز ، يا خليل ، إذا كنت لا تستلطف هؤلاء الناس ، فنحن راحلين الآن ، وبوسعك أن تعود بصحبتنا ؛ أو إن شئت ، فعندما تجد من المناسب لك بعد ذلك ، عد إلينا وسوف نرحب بك ، وابق معنا إلى عودة الحج ."

فك شيوخ الموهاهيب عُقُل نياقهم وجعلوها تنهض واقفة ، بعدما كانت باركة أمام خيمة الشيخ مطلق ، وصائمة منذ الأمس . ركب الشيوخ فوق عدد (سُرُج) النياق ، بينما كانت واقفة ؛ والشيخ طُلج ، بحكم كبر سنه ، كان هو الوحيد الذى ركب ناقته وهى باركة : ومضى الشيوخ فى طريقهم . ولم يتبقى من أولئك الشيوخ سوى الصيحة الأخيرة التى صاحوها دون أن يلتفتوا إلى الخلف، أو حتى يستأذنوا . ومن عادة أولئك البدو أن يرحلوا فى ساعة مبكرة من الصباح :- هذا يعنى أن الضيف الذى يحظى بالضيافة الكاملة طوال الليل يتعين أن يطرد من المكان مع طلوع الصبح. بقيت قلقا فى خيمة الشيخ مطلق ، نظرا لأن زوجته من ولاد على كانت سليطة اللسان ، إلى حد أن أبناء زوجها كانوا يكنونها "بالمرأة الغجريه" إذ كانوا يقولون لها "صُلوبية" Solubbia ؛ ولما كانت آخر حفنة من مؤنى قد انتهت ، فقد توجهت إلى الخيام المجاورة القريبة من آبار الماء التالية للآبار التى نحن بجوارها حاليا ، أو إن شئت فقل : توجهت إلى الخيام التى يسكنها شيخ ولاد على إبراهيم Ibrahim السنَّاد es-Sennad ، الذى كان يمثل بريد الحج : هذا الرجل صاحب المزاج المتشدد إلى حد ما ، كان ودودا معى ، ومن بين معارفى أيضا .

عثرت على الشيخ إبراهيم السنَّاد ، شيخ ولاد على ، فى خيمته الصيفية ، نظرا لأن قيَّالة الظهيرة كانت قد أوشكت على الدخول علينا . اندهش الرجل من دخولى عليه ، وهنا طلب الرجل من ربة بيته (زوجته) أن تخرج الصقر من الخيمة ، وتجهز لى عدة (سرج) الناقة كى أجعل منه مسندا أتكئ عليه . هذا الرجل الذى استقبلنى فى بداية الأمر بنظرة شبه متحفظة هاهو يقول لى فى ود ، "مرحبا بك ؛ وأنت ، يا أيتها الزوجة عجلى وجهزى على وجه السرعة ، حتى يتمكن خليل من تناول طعام الإفطار ، وليكن ذلك بأسرع ما يمكن ." سألت الرجل ، أثناء حديثنا عن ضيافة البدو . "أجابنى فى ود ، أن الضيف ، أيا كان ، وكذلك الغريب ، هو ضيف الله ، وله معزة الأحباء ." قال

الرجل عن زوجة مطلق ، "إنها ليست من أصل طيب ، ابنة شيخ قليل القدر بين الشيوخ" : ثم أردف بعد ذلك ، "اسمع ، يا خليل ، إذا كنت أنفقت كل ما معك ، وبالرغم من تدنى حالى فى قرية العلا فى الوقت الحالى ، حيث رهنت سيفى نظير الحصول على قليل من الشعير ، إلا أنى على استعداد لتعزيز موقفك عند الحاج نجم ، كى يعطيك بضعة ريالات إلى حين مجئ الحج ." ومع ذلك كان الحديث الذى دار بيننا مشوبا بتشدد ذلك الرجل الذاتى ، "الأسير المسلم الذى يجرى تبادله ، فى الجهاد ، يكون مقابل عشرة أسرى من النصارى بالتمام والكمال ." وأبلغنى أيضا أنه سوف يسافر هو وخلف ومحمد الشرارى ، قبل رمضان ، لقضاء بعض أمورهم فى دمشق ، على أن يعود مع الحج ، وطلب منى أن أرافقهم فى تلك الرحلة .

ولما كنت أقيم ، وهذه هى المرة الثالثة ، أمام تلك السلاسل الجبلية الكالحة من آثار الحجر – والتى تشبه جحور الفئران ، من على بعد ، فى المنطقه الواقعة أسفل الضفاف الجبلية المكونة من الحجر الرملى الصلد – لم أعثر فى تلك الجحور على أى شىء لم يسبق لى أن شاهدته من قبل .

كان محمد الديبس ed-Deybis على استعداد لمرافقتى إلى خيبر، نظير أجر كبير؛ لأنه سوف يحضر من خيبر لأسرته حملا من التمر ويعود مع الأعراب : ولكنه فى الصباح اعتذر عما قاله فى المساء ، " يا خليل ، السبب فى ذلك (وراح يضرب بيده على عظمة عنقه) ! وأنا والد لأطفال ." عثرت على رجل آخر اسمه جازى Jazy ، ولكنه تراجع بعد الاتفاق وقال: "هذه سفرة متهورة." وعثرت على شاب من الخمالة Khamala ، كان يملك ناقة طيبة ، وقال إنه سوف يجعلنى أركب ناقة أخرى نظير عشرة ريالات عن تلك السفرة ، وأنه على استعداد لقبول ناقتى ثمنا لتلك السفرة . ولكنه هو الآخر ، انسحب عندما جد الجد؛ وكانت يد زيد هى التى وراء كل ذلك التعطيل، إذ كان ما يزال يزعم أنه حريص على أمنى وسلامتى إضافة إلى مسئوليته عنى أمام الدولة (الإمبراطورية العثمانية) .

بلغنا أن مهنا Maanna الذى قام بغزو بالقرب من خيبر هو وثمانية من رفاقه ، قد سرق خمسين من إبل الحطيم Heteym ، وأن نصيبه من تلك الإبل قدر بحوالى

سبعة جمال : – ومع ذلك سمعنا فيما بعد ، أن تلك الإبل أعيدت ، أو إن شئت فقل : استردها أصحابها ، نظرا لأخذها من أعراب ليسوا أعداءً لهم . هذا يعنى أن البدو يمكن أن يكونوا فى كثير من الأحيان أصحاب سياسة عادلة وأصحاب شهامة ومروءة، تحت أى ظرف من الظروف . ولكن العجيب بحق ، كيف يمكن لهؤلاء البدو المرهقين ، فى ظل القيظ والحرارة طوال العام ، وليس معهم من شىء سوى حفنات من المريسى ، كيف يمكن لهم أن يتجولوا مع بعضهم البعض طوال أيام سعيا إلى الغزو ، فى ظل تعب مرهق ومميت ، وفى ظل أيضا عدم تأكدهم من العودة إلى ديرتهم بأى شىء ، فضلاً أيضا عن عدم تأكدهم من العودة أحياء إلى منازلهم المصنوعة من قماش صوفى محكم النسج . كان من بين ضيوف الشيخ مطلق شاب شرارى(*) ، جاء لعلاج بعض الإبل المصابة . وعندما سألت ذلك الشرارى عن جد أو إن شئت فقل : والد قبيلته ؟ رد علىَّ قائلا : "الأعراب لا يتذكرون الماضى القديم ، ولكن بإمكانك معرفة ذلك من كتبك ؛ راجع كتبك لترى إن كان ذلك فيها أم لا ." كان هناك أيضا ضيف من نصف قبيلة "ولاد على" الذين يقيمون فى الشمال ، هذا الضيف سبق له أن جاء راكبا ناقته مع حج العام الماضى ، لزيارة أقاربه فى الجنوب . أمضى ذلك الضيف كل هذه الشهور مع هؤلاء البدو بصفته هاربا ، وهو يتنقل حاليا من خيمة إلى خيمة مع الفكارة ، إلى أن يحين الموعد التالى لصعود موكب الحج .

عاد إلينا شيوخ المواهيب فى اليوم الرابع ، يقتادون معهم جملا ، وسوف يركب الشابان الصغيران حامد ووعيل ، مع قربان السلام هذا لتوصيله لابن الرشيد . هاهو مطلق يقيم وليمة عشاء من جديد ؛ وعندما طلع النهار ، ركب الصديقان ، على حد قول الناس ، راحلتيهما ومضيا فى طريقهما إلى ابن الرشيد ومعهما الجمل ذى السنامين . كل الأعراب الداخلين فى نطاق سلطة الأمير ، والذين كانوا يعادونه إلى ما قبل استئجاره لهم ، كانوا يستأجرون فى سفرهم رفيقا من بدو الفجير ، وبالرغم من أن ذلك الفجيرى كان من بين معارف الشيخ طُلَّج القدامى ، إلا أنه أساء إلى تلك المعرفة عندما بدأ يساوم ويكاسر فى أجر تلك الرحلة : ومع ذلك ، كان ذلك الرفيق واثقا من

(*) شاب شرارى : من قبيلة الشرارات . (المراجع)

حصوله على غيار من الملابس من حائل . إبتداء من هذا المكان أمضى هذان الشابان سبعة أيام راكبين (ركوب البدو) وقاصدين "الجبل"(*) THE JEBEL . وعلى ذلك ، عاد طُلَيح ، وحده ، إلى وادى شلال Shellal ، ومعه حمَّالة صبِّى خَلْفِيَّة . – كانت ليالى تلك النهارات الحارة تبدو برادًا فى سهل الحجر القريب ، ومع ذلك فقد اكتشفت أن درجة الحرارة (عند الفجر) كانت ٧٣° فهرنهيتية، وفى أحيان كثيرة كانت تصل إلى ٧٦° درجة. قراب الماء التى كانوا يعلقونها فى الهواء اعتبارا من غروب الشمس، كانت تتعرق دوما، وفى غضون ساعة أو ساعتين كانت تعطى من يشرب من مائها مذاق الماء المثلَّج ، – وعندما قست درجة حرارة تلك القراب وجدتها ٥٢° فهرنهيتية . والماء الموجود فى الأبيار الموجودة تحت البرج أبرد وأحسن من الماء الذى يجرى جلبه من بئر الناقة داخل القلعة. – كل الماء الذى ذقت طعمه فى الجزيرة العربية كان فاترا ، ومختلفا تماما عن المياه الجوفية التى فى مناخنا ، والسبب فى ذلك أن رياح السموم تختلف عن أية رياح صحية أخرى ! – هذه الآبار بعد أن يجرى نضح مائها ، بواسطة مسقى من المساقى التى تستخدم فيها الإبل ، يرتفع الماء من جديد فى تلك الآبار خلال ساعات قلائل . مذاق هذا الماء ليس واحدًا فى الأبيار كلها ؛ ذلك أن ماء البئر الذى يبعد مائتى خطوة جنوب غربى القلعة هو الأفضل مذاقا . والسقاة عندما يسقط منهم شىء من أشيائهم فى الآبار ينزلون فيها طفلا لجلب ذلك الشىء – اليوم كان طفل الشيخ مطلق هو الذى أنزل إلى البئر – الأعراب يربطون ذلك الطفل من تحت ذراعيه: وعلى حد قول الأعراب، فإن لديهم رءوسا ممتازة على استعداد للمغامرة بحياتها على هذا النحو ، ويقولون أيضا : إن الطفل ينزل بكل سرور وانشراح إلى هذا العمق الكبير والظلام الدامس .

نزل بعض المتسوقين قاصدين قرية العلا وكنت أنا بصحبتهم . كانت غالبية أولئك المتسوقين من الفهجات ، جماعة من الشحاذين يحملون على جمالهم أحمالا من العشب البرى ، الذى سوف يقايضونه بشىء من التمر . كان من ضمن هذه الجماعة بعض من النساء القبليات اللاتى كن يسرن على أقدامهن : كانت واحدة منهن ، وهى

(*) الجبل : جبل شمر مركز حكم آل رشيد ويشتمل على جبلى أجأ وسلمى ، ويشتمل على قرى ومدن كثيرة من أبرزها حائل عاصمة آل رشيد ، وقفار وبقعاء وسميراء . (المراجع)

مخلوق ضعيف جداً ، زوجة من قبل ، لرحيِّل Rahyel شقيق الشيخ مطلق ؛ وعندما طلقها تزوجها ابن أخيه الأكبر ذُريح Therryeh ، وقد ظهر ذلك ، على أنه شكل من أشكال التملق والمداهنة . كانت تلك الجارة المسكينة قد أنجبت لولد الشيخ مطلق بنتا ، ونظرا لكبر سنها عن سنه، فقد طلقها وتركها لحال سبيلها. هذه المرأة الوحيدة حاليا ، تحمل معها سطلا مطلى بالقصدير ثمنه يتراوح بين شلنين وثلاثة شلنات ، جاءت لتبيعه، وتشترى بثمنه جلدين من جلود الأغنام كى تستعملهما قرابا فى خيمة العزوبية. سألت ذُريح Therryeh مرة ثانية عن زواجه غير الموفق هذا ، "هل حياتك الزوجية على ما يرام ؟" وأجابنى ، "نعم إنها كذلك ؛" ولكن والد مطلق الذى كنا نجلس فى خيمته رد علىّ مؤكدا ، "أبدا ، والله ! ليست حياته الزوجية على ما يرام ." وبينما كنا نركب نياقنا ونسير فى الأدغال بين الصخور الوعرة والقمم والصخور المرتفعة ، سمعنا صرخة مفاجئة من خلفنا تنذر بالغزو ، ولكن سرعان ما تعرفنا راكبى الإبل ، على أنهم من أفراد القبيلة ، ومن المتسوقين الذين جاءوا إلى القرية .

فى قرية العلا ذهبت لشراء بعض المؤن من صالح Salih المسلمانى Moslemany ، ولكنى اكتشفت أن ذلك الرجل لم يكن صادقا أو أمينًا فى تجارته ، مثل سائر التجار الآخرين ، وقد جاءت زوجته تجرى خلفى فى الشارع كى ترد الحق إلى صاحبه الشرعى . والعلاونة بخلاء فى تعاملاتهم . وأنت إذا ما اشتريت منهم شيئا وأعطيتهم قطعة من النقود قيمتها أكبر من الثمن المطلوب ، فمن المحتمل أن يرفضوا إعادة الباقى إليك ، أو إعادة بضاعتهم إليهم ، قائلين لك ، "يمكن أن تأخذ بالباقى بضاعة ؛" يضاف إلى ذلك أنهم يكذبون فى ردودهم وكلامهم ، بأنهم ليس لديهم شىء بعينه ، ولكنهم سرعان ما يظهرون ذلك الشىء على الفور إذا ما توفرت لهم ظروف أحسن وسعر أفضل . زد على ذلك أن الغريب العطشان يمكن أن يمر على أبواب هؤلاء العلاونة طالبا إليهم اعطائه قليلا من الماء ، ولكنهم يردون عليه ، "ليس لدينا ماء هنا ،" بالرغم من مشاهدة ذلك الغريب لقربة الماء المعلقة فى مدخل المنزل . وقد اكتشفنا أن القرويين فى قرية العلا رفعوا أسعارهم بنسبة ثلاثين بالمائة عندما علموا أن بدو الفكارة كانوا مخيمين فى سهل الحجر .

الموكب الأخضر فى قرية العلا شيء جميل ، كسى أرض الصحراء بعد أن كانت جرداء . شاهدت ألف عرف من أعراف النخيل المحملة حاليا بثمار أرجوانية اللون وثمار صفراء وثمار حمراء ، كل هذه أنواع من التمر ، تلك الثمرة التى يجعل الناس منها هنا غذاء لهم ؛ أول هذه التمور الذى يجرى حصاده هو من النوع الرخيص ومع ذلك فهو طيب أيضا ، ويباع بواقع عشرين صاعا للريال الواحد ، هذه البساتين الكثيفة فى قرية العلا لا يفسد سكونها سوى ذلك الصراخ المرح الذى يصدر ، بين الحين والآخر ، عن طائر من الطيور آكلة التمور ، وقد اكتشفت أن درجة الحرارة عند الظهيرة تصل إلى ٩٣° فهرنهيتية فى تلك البساتين الكثيفة. والشمس هنا تطلع متأخرة، ولكنها تبكر فى الغروب ، عندما تختفى خلف سواحل الوادى العميق ؛ ولكن الليالى على اختلاف أنواعها تكون شديدة الحرارة ولا يتخللها أى شيء من الانعاش . شاهدت فى السواد الأعظم من أرض الخضراوات نوعا من القرع العسلى كبير الحجم ، كما شاهدت أيضا أنواعا من الشمام طيب الرائحة .

دخلت البلدة للمرة الثانية قبيل دخول وقت العصر ، عندما يتجمع القرويون لشرب القهوة فى مقاهى شيوخهم . ومع أول قهوة التقيتها دخلت من عتبتها ؛ أفسح الحاضرون مكانا للغريب ، وجلست بين الجالسين .– وسرعان ما سمعت صوتا من أصوات أولئك القرويين ؛ كان ذلك الصوت يحمل نغمة التأنيب ، وكان صادراً عن مرح شبه محموم ، "هنا يجلس واحد من أبناء عمك ، وأنت لم تعرفه بعد !" نظرت فوجدت شابا خفيف الحركة ، يجمع محياه بين السماجة والمرح الخفيف ، وكانت بشرته بيضاء وتميل إلى الاحمرار ، وذلك بالمقارنة مع بشرة العلاونة التى تشبه كُنَاسة المداخن . كان ذلك الشاب يجلس وعلى رأسه طربوش تركى أحمر ، له "زر" متأرجح من الحرير الأزرق ، – من المعروف أن أكثر أولئك القرويين الذين يكونون على طريق الحج ، يتشبهون بالدمشقيين . والد هذا الشاب ، كان نصرانيا ، وجاء هنا بغرض التجارة ، أو بسبب الهرب، من بعض أجزاء مصر ، إلى هذه المنطقة ، ونجح الناس فى قرية العلا فى إدخال ذلك الرجل فى الإسلام. هذا الشاب الصغير ، واسمه هويشيم Howeychim هو ولد هذا الرجل ، الذى حيانى قائلا : "كيف حالك ؟ وأنا ، مثلك ، إنجليزى (كان من الأفضل أن يقول ، من النصارى الأحرار) . والدى كان من تلك البلاد: وعندما جاء إلى

هنا ، تكاثروا علينا ، وأمسكوا به وضربوه ، إلى أن نطق بعبارة "محمد Mohammed رسولٌ الله rasûl Ullah " . يا خليل ، الكلاب هى صاحبة اليد العليا ؛ وأنا هنا ، بفضل الله ، أصبحت مسلما : – وتقول "لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله" وتسكن معنا وسوف يعطونك نخلا . " رد شاربو القهوة بدورهم ، " نحن نعد بذلك ، ولكن انتبه يا خليل ، – ماذا كانت الكلمتان الصغيرتان ؟ انطق بهاتين الكلمتين معنا ولن يصيبك أى أذى . يا خليل ، آمن بالدين المنقذ ، وعندها لن تهمك أمور الحياة ، وسيكون كل شىء معك على ما يرام فى النهاية . – الجيران ، خليل رجل أمين ، ولكنه أعمى ، وقد يرضى الله عنه ويعطية النور ، وإذا لم يعطه الله (سبحانه وتعالى) النور فتلك إرادته (سبحانه وتعالى)، والبلد هنا من بلاد المسلمين ، وهو حر يتجول فيها كيفما شاء دون مساءلة من أحد ."

عزمنى هويشيم Howeychim على بستانه ، قائلا إنه سوف يعطينى بعضا من الشمام ، ولكننا عندما وصلنا إلى ذلك البستان جعلنى أدفع ثمنا لذلك الشمام أكثر مما هو محدد له بسعر السوق ؛ وعندما عدنا فى أيدينا ذلك الشمام ، تولى هو الرد على الرغى والقيل والقال الذى أصابنا من كل أولئك الذين التقيناهم؛ إذ كان يقول لهم: "والله ، إن هذا بقشيش Bakshish أعطيته للنصرانى !" كان ذلك الرجل الوقح يجرى مهرولا من أمامى ! وعندما كان يرانى مقبلا عليه أجرجر قدماى كان "يصيح قائلا : ما هذا ! إنك شاب ، أما انا فأحمل خمسين عاما على ظهرى :" كان ذلك الرجل ، يرى أن مسألة الضعف هذه أمر محتمل ، بالرغم من أنه كان يبدو أصغر منى بعشرين عاما : "ولكنك صبى تماما ، وبوسعك أن تعدو وتقفز أكثر من عنزة برية ." – "آه ، أنت تقول ذلك لأنى بلا لحية ؟ كل ما فى الأمر أن الفئران جائتنى وأكلت لحيتى أثناء الليل ." هذا الهويشيم، كان له ذهن يعينه على عمل أى شىء . قبل سنوات قلائل ، تخيل الهويشيم، تلك التربة الخالية ، المكونة من الغرين القيم ، والتى تقع على مسافة نصف ميل فوق الواحة ، وأسفل الخريبة ، بنى هويشيم لنفسه فى ذلك المكان حصناً Redout ، يزيد حجمه على حجم منزل أو منزلين ، وما زال ذلك الحصن باقيا إلى يومنا هذا ، ويحمل اسم ذلك الرجل . الحصن ، أو إن شئت فقل ، القلعة التى من هذا القبيل تكون عبارة عن "مسور مغلق مكون من أربعة جدران عالية ، ضماناً للأمن ، يحتمى بها الفلاحون

على وجه السرعة من تحرش البدو الرُّحل بهم . ولكن هويشيم لم يجد بغيته أو ما كان يتطلع إليه فى قرية العلا ، نظرا لأن أولئك الحضر القساة لم يكونوا على استعداد للسير على الخط الذى رسمه ذلك الرجل ، ومن هنا تبخرت آماله كلها . كان هويشيم دونا عن سائر أهل هذا البلد ، صاحب مطمح كبير كان يهدف من ورائه إلى أن يتمكن فى يوم من الأيام من تسلق رءوس كل هؤلاء الناس ، كى يصل إلى رئاسة البلدة . ذهب هويشيم فى العام السابق لزيارة خيبر، وعثر هناك على رجل [أصبح صديقا لى بمعنى الكلمة فيما بعد] ، اسمه محمد النجومى el-Nejumy ، من المدينة (المنورة) ، - الذى حصلت منه أثناء مرحه الصاخب على الحكاية التالية - لما كان محمد النجومى رجلا قويا ، فقد حدثه هويشيم عما يدور بخلده ، وقال له تحديدا ، إنهما الاثنان ينبغى أن يعودا إلى قرية العلا ، ويجعلان من نفسيهما سادة هناك بقوة السيف . قال :"أهل القرية من العلاونة جبناء بحق وحقيقة ، وأن أولئك العلاونة سيكونون ، والله ، لعبا فى أيديهما لو أنهما أطاحا بقلة قليلة من الرءوس ، الأمر الذى سيمكنهم من تسود البقية والسيطرة عليها فى النهاية" . - عندما اكتشفت أن تلك الجماعة البدوية لن تتحرك قبل الغد ، عدت إلى قهوة موسى ، التى سبق لى النزول فيها ، وقام ذلك الرجل الطيب بتقديم شىء من علف البستان لناقتى : أمضيت الليل وأنا خائف من هواء النخيل الرطب ، أمضيت الليل نائمًا على سطح منزله الذى كان يشبه الشرفة .

وصل المزيد من البدو فى الصباح ، وكان زيد من بينهم . قالوا لنا : إن الأعراب تحركوا بالأمس (عقب رحيلى عنهم) ، وهم الآن عند آبار العذيب el-Atheyb - بالقرب من البلدة . كنت قد تركت زكائبى أمام بيت الشيخ مطلق ؛ ولكن أصدقائى طلبوا منى الهدوء ، لأن المضيفين "لابد أن يكونوا قد حملوا تلك الزكائب معهم من باب التكريم ." عدت إلى أولئك الأعراب بصحبة زيد ، الذى اشترى تمرا وأرزا بالأجل لحين مجىء موسم الحج .

- البدو الرحل هنا يعيشون متفرقين ، على مساحة طويلة منحدرة من الرمال ، تقع بين صخور الأخمر Akhmar العالية وجبل الحرّة ؛ هؤلاء البدو كانت منازلهم تحتل مسافة تزيد على ثلاثة أميال ، عندما مررنا بها . وفى مساء الليلة التالية وصل مهنا ، الذى كان يقود كفلاً آخرًا متجهًا إلى مدينة الوجه . صحيح أن مهنا نزل أمام خيمة

الشيخ مطلق ، ولكن رحيل هو الذى قدم طعام العشاء ، إذ قام بذبح خروف طيب عند غروب الشمس ؛ وفى ساعة متأخرة من المساء ، استدعانا جميعا ، ونهضنا واقفين من خيمة الشيخ مطلق ، كى ننتقل إلى خيمة رُحيل . نظر إلىَّ مهنا نظرة ودية ونحن نتحلق حول طبق الطعام ؛ - "قال مخاطبا زيداً ، الذى جلس وتناول عشاءه بجوارى ، أهذا هو حال خليل لا يأكل دوما ؟ كيف لرجل ، تربى هذه التربية أو نشأ هذه النشأة ، يتحمل حياة البدو !"

كان رمضان ، شهر الصوم ، على وشك الدخول ، وهذا الشهر يشغل أرواح المسلمين ، بما فى ذلك الأعراب الذين يعيشون فى البادية ، ويضفى على تلك الأرواح المزيد من الورع والتدين ؛ هؤلاء البدو ، يحاكون ما يحدث فى الحضر ، ذلك الذى شاهدوه فى المدينة (المنورة) ، وهم يخرجون من بيوتهم فى مواقيت الصلاة ، ويقفون على شكل صفوف ، ويستمعون إلى الإمام ، ويحنون جباههم الخالية ثم يسجدون . والشيخ مطلق عندما يكون هناك لا يصلى بالناس إماما ، ولكنه يقف مثل واحد منهم . والمسلمون جميعًا يتساوون فى الدين والعبادة . وأى درويش فاجر بوسعه أن يؤنب أميره ويوجه إليه اللوم فيما يتعلق بمسألة الدين ، ويتعين على ذلك الأمير قبول ذلك التأنيب واللوم بصبر لا ينفد . هذا هو الشيخ مطلق ، صاحب الصدر الضيق ، يؤنبه شخص ويقول له "حان موعد الصلاة" ؛ "جوم goom يا Yá صلِّ S?l !" بمعنى "هيا ! إلى الصلاة، انهض يا مطلق ، انهض وصلى !" - وصل أولئك المتحمسون فى تشددهم إلى حد جعل مطلق يقول عنهم مثلما قال أيوب الصديق ، "لا يمكن أن أدرجهم ضمن كلاب قطيعى !" ومع ذلك ، يقف الشيخ مطلق مطيعا ويذهب لأداء هذه الفريضة الدينية . وأعظم الشيوخ لا يمكن أن يفعل غير ذلك ، لأن هذا الذى يفعله فيه سلامه وأمنه بين إخوانه أتباع محمد ﷺ . قلة قليلة من حريم البدو هن اللائى يصلين أمام بيوتهن فى شهر رمضان ؛ ويندر فى غير شهر رمضان أن ترى امرأة تصلى .

على امتداد تلك الليلة ، كان القمر بدرا ، وبدت السماء وقد اكتست بزرقة ضوء النهار الجميل ، كما خلت أيضا من النجوم وغاب القمر كلية مع اقتراب الصباح ، وقال لى الأعراب، أنهم رأوا السماء حمراء مثل الدم ، وهذا "مؤشر من مؤشرات درجة الحرارة المرتفعة" . كانت درجة الحرارة ٨٣° فهرنهيتية عند شروق الشمس ؛ وطلع علينا

النهار بلا حبة هواء واحدة ، وقبيل العصر كانت درجة الحرارة حوالى ٤٠,٥ْ مئوية ، كانت السماء ملبدة بالغيوم ، وكان الأعراب واهنين ، ويرقدون على الأرض فى الظلال الناتجة عن الجبل الضخم . وفى اليوم التالى ارتفعت درجة الحرارة لتصل إلى ٤١,٥ْ مئوية (١١٠ْ فهرنهيتية) ؛ فى عصر ذلك اليوم تحرك البدو عائدين إلى سهل الحجر . وأثناء سيرنا ، نزلت امرأة مسكينة كانت تسير بالقرب منى ، نزلت عن راحلتها بمحض إرادتها ، وهى حافية القدمين ، والأرض من تحتهما عامرة بالأشواك ، وهبت لمساعدة الغريب عندما وجدت أن أمتعتى التى لم تكن محكمة الربط أخذت تنزلق وتسقط على الأرض :- وهذه هى فضيلة طبيعية وفطرية من فضائل الأعراب .

عندما نزلنا فى مدائن صالح للمرة الثانية ، قامت الأسر البدوية بنصب خيامها فى أماكنها السابقة ، وشبت نيران المساء فى نفس الأماكن السابقة التى كانوا يشبون فيها نيرانهم من قبل . ومع طلوع شمس اليوم التالى ، وهى أبرد ساعات النهار ، وجدت أن درجة الحرارة كانت ٨٦ْ فهرنهيتية ، وجدت أن درجة حرارة فترة العصر كانت ٤١,٥ْ مئوية . حال ذباب الحجر المقلق ، الذى كان فى كل مكان مثل الطاعون ، كما كان أيضا فى الظل الناتج من الصخور المرتفعة ، وفى ظل الخيام أيضا ، حال بينى وبين الحصول على الراحة بأى حال من الأحوال . أويت إلى الديوان Diwan ، ذلك الممر الصخرى الذى لا تشرق الشمس عليه مطلقا ؛ ولكنى حتى فى هذا المكان وجدت جحافل كبيرة من الحشرات . فى كل مكان جلست فيه ، كنت ألاحظ طائرا من الطيور آكلة الذباب ، وهذه الطيور صغيرة الحجم ولونها يشبه لون الإردواز ، وهى تشبه إلى حد كبير طائر أبى فصادة ، وهى تنقض بخفة ورشاقة على الذباب ، وتختطف فريستها التى لا يمكن أن تفلت منها مطلقا : طرحت على ذلك الطائر غترتى (غطاء رأسى) ، وأمسكت به ودللته دون أن أصيبه بأذى ، ثم تركته يطير من بين يدى : وبالرغم من كل ذلك لم يبتعد ذلك الطائر عنى سوى مسافة قصيرة جداً ، ولم يطر مبتعداً عنى .

كانت خيمة الشيخ مطلق الوسيعة مكانا ينام فيه القبليون الجائلون فى فترة العصر : فى تلك الخيمة كانت ألسنة المتحمسين لرمضان البذيئة تصب جام غضبها على النصرانى ، إلى حد أننى قلت لزرِّيح Therryeh ، فى أحد الأيام : "آه ، من

جحافل الذباب ، هى والحرارة وكذلك الكلام الجارح الذى يصدر عن هؤلاء الدبوش ؛ إنهم يعرفون مصلحة الإنسان أكثر من الرب الذى خلقه ." - "أنت تقول صدقا ، إنهم دُبوش بحق ." - "ولكن ماذا يعبدون ؟ العقاقير المثيره للشهوة والغليون ! - تلك هى مقدساتكم أيها الأعراب ." - "آها - ها - ها ! والله ، يا خليل ، هم لا يمكن أن ينكروا ذلك ، وكل أفكارهم تتركز حول هذه الأمور ؛ البدو يقدسون هذا وذاك ." صحيح أن زريحا كان الأخ الأكبر للشيخ ، ولكن صالحًا أخيه الأصغر ، ذلك الشاب قوى البنية صاحب المزاج المتغير ، كان هو الأكثر قربا إلى قلب أبيه ، إضافة إلى أنه كان من نسل أم تنتمى إلى أسرة من أسر الشيوخ ؛ وقد ورث صالح عن جده ، من أمه ، صُرَّة لها قيمتها . كان مطلق يفضل صالحا ، الذى بدأ شأنه يتزايد فى القبيلة ، وعندما وجد زريح نفسه شبه مخلوع فى المَنْزِلْ ، رضى بأن يكون واحدًا من أفراد البلاط . كان زريح يشغل نفسه يوميا بزيارة والده ، (الذى كان يحس تجاهه بقليل من الدفء ،) وكان ذلك يبدو من باب التملق والمداهنة : كان زريح قد بنى لنفسه بيتا كبيرًا مثل بيت مطلق، إضافة إلى أن منزله كان منزلا مستقلا مع الأعراب؛ كان لدى زريح إبل كثيرة ، إضافة إلى أنه كان قائدًا شجاعا من قادة الغزو . سمعت هذا الرجل وهو يقول بين زملائه وفى صوته مسحة من الحزن، "- ولكنى لست شيخًا !" ورد عليه زملاؤه متهللين، "أنت شيخ Sheykh الشيوخ es-Sheukh ." أما صالح فقد كان مقيما فى منزل والده ، حيث كانت خيمته التى كانت أحسن الخيام ، لا تعدو أن تكون مجرد هجرة hejra متواضعة .- ويتناول زريح بيده الكتاب الذى كنت أقرأ فيه ، وراح يُسرِّى عن نفسه بأن أخذ قلمى الرصاص ليحدث رسما على صفحة من صفحات الكتاب - هذا الرسم من وجهة نظرهم - عبارة عن صور للرجال والحيوانات .

كان من بين أولئك النائمين فى خيمة الشيخ اتقاء لحرارة الشمس رجل لاحظت أنه ليس من أهل الجزيرة العربية ؛ "درويش تائه أو ضائع (حسب ظنى) تخلَّف عن قافلة الحج : " ومع ذلك كان وجهه أكثر اسمرارًا عن بقية أوجه البدو . قال لى إنه بستانى من بيروت ، وأنه بقى هنا مع الأعراب متخلفًا عن الحج الثالث : وقال لى أيضا إنه اشترى بالنقود التى كانت معه زوجا من الإبل ، كما زوجه بدو الخمالة Khamala امرأة منهم ، أنجبت له طفلين . قال ، إنه اعتزم العودة إلى وطنه على الفور ، وأنه

سوف يصحب معه عائلته البدوية . كان الرجل يحس بالقلق والإرهاق فى الصحراء ، ومن رأيه أن حرارة فصل الصيف الحالى لم تكن أكبر من مثيلتها فى بلده الفينيقى . هذا الشخص كان مصابا فى إحدى عينيه ،- إن كثيراً من المجرمين يرافقون الحج ويهربون من العدالة : والمؤكد أن الفلاح متدنى الروح المعنوية إلى هذا الحد ، لا يمكن أن يضحى بما لديه من أشياء جيدة ، بلا سبب ، طمعاً فى حياة هؤلاء البدو القاتلة !

دخل الحاج نجم فى تلك الأمسية الأخيرة فى جدله القديم حول البلدان الغربية . قال مطنبا للجمهور المتشوق ، "يجب أن لا يكون تقديركم لخليل ومن هم على شاكلته بأنهم كفار ، لأنهم يؤمنون بمعظم الأشياء التى نؤمن بها نحن . سيدنا عيسى Isa ، ولد السيدة مريم ، ربهم ، هو فى واقع الأمر نبى من أنبياء الله . وكذلك عندهم موسى عليه السلام ، وداود وقدامى الأنبياء ، وهم يقولون مثل المسلمين إن الله إله واحد ، وأنه لا شريك له وليس هناك غيره . انتبهوا ، يتبقى شىء واحد بيننا وبينهم ، إنهم لا يقولون عن سيدنا محمد ،- عليه الصلاة والسلام - أنه رسول الله . ويجب أن تعلموا أن أهل (شعب) خليل ، أى الإنجليز ، أصدقاء للإسلام ، كما أنهم جيران لنا ، ولا يفصلنا عنهم سوى البحر الضيق من فاس ومراكش ، وبلادهم قريبة جداً منا إلى حد أن شاطئ بلادنا وبلادهم يظهران للسكان على الجانبين من خلف الماء : وكلام الإنجليز "وعر" Waar " - [ولكن البلاد السورية تقول عن هذا الكلام أنه "حلو" Helw ، كما يقولون عنه أيضا إنه "لغة Loghrat الطير et-Teyr" بمعنى إنه يشبه تغريد الطيور"] . ثم عاد الحاج نجم يتمتم ويغمغم ، بحبه وهيامه لبلده الغربى ، "المليء بالينابيع ويظله مناخ صحى ، والذى تمتد أعمار سكانه إلى آجال بعيدة !" وراح الرجل يعد على أصابع يديه "كيف أن الإنسان يمكن أن يتجول على امتداد أيام كثيرة فى أى جزء من أجزاء بلاده ، دون أن يرى نهاية للنخيل فى ذلك الجزء ! وأخيرا فإن الصحراء الجرداء تمتد ناحية الجنوب امتداداً يقدر بمسير شهرين جنوبا فى اتجاه السودان (أرض الناس السود) ؛ الذى تذهب إليه كل عام قوافل كبيرة من التجار المغاربة ، الذين يترددون على مدينة تمبكتو Timbuctu (*)، كما يذهب المغامرون إلى البلاد

(*) تمبكتو : عاصمة سلطنة مالى وكانت تعد من أهم الحواضر الإسلامية فى السودان الغربى . (المراجع)

العميقة الواقعة خلف السودان ، سعيا إلى تجارة الرقيق ، وتجارة الذهب والعاج وأيضا ريش النعام ." تحدث الحاج نجم أيضا عن المدن الكثيرة التى على شاطئ البحر : كما تطرق أيضا إلى العواصم الكبيرة . وفى فاس ، كان عدد المساجد يقدر بثلاثمائة مسجد ، إلى حد أن الإنسان عندما يدخل وقت الصلاة يمكن أن يسمع أصوات المؤذنين تنبعث من كل مكان فى أرجاء المدينة ؛ كما أن عدد الحمامات يقترب أيضا من عدد المساجد : وهناك نهر ينساب خلال المدينة ، يجلب السكان منه المياه النقية . والجميل أيضا أن ينظر المرء إلى الشوارع العالية المستقيمة ، وإلى المنازل المبنية حفاظًا على خصوصية العائلات [فى ضوء الغيرة على الأسرة الإسلامية ،] فى كل مرحلة من المراحل ، زد على ذلك أن الأسواق تغص أيضا بكل ما يلزم الحياة اليومية ، كما أن كل حرفة من الحرف لها مكان مخصص لها ، إلى حد أن الإنسان يستطيع خلال رحلة قصيرة ، الحصول على كل ما يحتاجه دون أن يضيع وقته فى البحث هنا وهناك ." رد الأعراب ، وهم يأخذون بعين اعتبارهم كل كلمة من كلمات الحاج نجم ؛ وبعد أن انتهى من كلامه قالوا : "اسمع ! يا حاج نجم ، أنت لديك أشياء رائعة يمكن أن ترويها للناس ، وتلك الأشياء هى من معارفك الخاصة : أى ، والله ! من يسافر يرى الكثير ، ومن منا ، بخلاف من استمعوا لهذا الحكى ، يمكن أن يخطر بباله كل ذلك ؟ الدنيا كبيرة ، بلا شك ، وفيها الكثير من العجائب ، عجائب أكثر بكثير مما نعرف :- صدقت ! يا حاج نجم ، ماذا نكون نحن البدو ، سوى دبوش ، أو إن شئت فقل قطيع من الحيوانات الصغيرة !" - أثناء عودتنا إلى خيامنا قال لى محسن : "أنا معجب بالحاج نجم ، وهو يتكلم بطريقة شيقة ، وإذا ما تتبعه أحد ، فإنه قد يعانى من مصطلحاته المغربية ، وأنا شخصيًا لا أفهم أكثر من نصف كلامه ." وأنا لم أحتاج معه إلى مترجم : وقد لاحظت أن الأسماء الغربية للبلاد الأجنبية ، وكذلك الأشياء الأجنبية أيضا كانت تربك البدوى الذى تربى فى الصحراء وتحيره .

كانت درجة الحرارة أقل مما كانت عليه من قبل ؛ كانت تلك الأيام تشبه الأيام الأولى من فصل الخريف ، ومع ذلك كانت درجة الحرارة فى فترة العصر تتراوح بين ٤٠,٥م و ٤١ مئوية . كان الحاج نجم العجوز ، قد طرد محمد ، ذلك الصبى البدوى من القلعة ؛ ولذلك جاء ذلك الصبى لتمضية الليل معنا فى خيمة محسن ، الذى وافق

نظير الحصول على صقر ذلك الصبى ، أن ينقله فى الغد إلى قرية العلا ، الذى يمكنه السفر منها إلى أهل أمه البدوية . وفى الصباح ركب محسن راحلته ، ومن خلفه الصبى كما ركبت أنا أيضا ناقتى وذهبت لزيارة البلدة معهم . ترك الصبى البدوى زوجته تقطع المسافة سيرا على الأقدام، إلى أن تصادف أن مر بنا قبلى جاء للتسوق ، فأركبها خلفه ، على غير رغبة منها . مررنا على قبر بدوى منعزل ، موضوع حوله بيارق برية من الحجر الرملى ، – قالوا ، هذا شيخ كبير من شيوخ ولاد على ، مدفون فى هذا المكان . وبالقرب من نهاية الأخمة Akhma ، أروني صخرة مجوفة ، يطلقون عليها اسم "مخزن Makhzan الجندى el-Jindy ." – وأن طريق الحج القديم كان يمر بذلك المكان متجها إلى قرية العلا . "توفت زوجة أحد الجنود أثناء السير ، وعجل زوجها بدفنها فى ذلك المكان ؛ ونظرا لعدم وجود امرأة ضمن الجماعة المسافرة ، تقوم بإرضاع طفل المتوفاه ، فقد تغاضى ذلك الجندى ، عن ذلك الطفل بأن تركه فى ظل الصخرة . وعندما عاد الأب مرة ثانية مع عودة الحج إلى المكان نفسه (بعد ذلك بسبعين يوما) وجد طفله ما يزال على قيد الحياة ، بعد أن تولت إناث الغزال الصحراوى إرضاعه ."– نزلنا عن راحلاتنا فى قرية العلا ، عند دخول وقت الظهر ، أمام قهوة موسى : كان القاضى فى ذلك الوقت مريضا بالحمى . زرت هذا الرجل الطيب فى منزله وتركت له شيئا من الكنين(*) .

عندما عثرت على هويشيم ذهبت معه إلى منزله كى أبتاع بعض المؤن ، وأدخلنى الرجل إلى مخزن بضاعته ، حيث شاهدت فيه أكواما كبيرة منظمة كل حسب نوعه ، وكل هذه الأكوام كانت من التمور الجديدة . وطلب منى الجلوس أمام أفضل أنواع هذه التمور ورجانى أن أجرح صيامى ، وأحضر الرجل لى شيئًا من السمن فى الطبق الذى يستعمله قاعدة لمصباحه . وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث سمعنا شيئًا من الضوضاء فى الشارع ، كما سمعنا أيضا حركة أقدام عند باب المخزن ، وهنا أمسك هويشيم بصفيحة التمر ، ليخفيها عن أعين أى من البدو الجوعانين الذين يمكن أن يدخلوا علينا فجأة . وسرعان ما دخلت علينا عنزة ، وهنا دخل علينا ، بعد خطوتين من

(*) الكنين : عقار قديم كان يستخدم فى علاج بعض أمراض القلب . (المراجع)

دخول العنزة ، ذلك القبلى المسكين ، الذى كان يقتاد تلك العنزة بدلا من النقود . ولكن هويشيم عنف ذلك القبلى ووبخه وهو يصيح قائلا : "أخرج ، أيها البدوى الكلب ، أخرج من منزلى ، أنت وعنزتك ! – عليك اللعنة – لعن الله الأب الذى أنجبك !" واعتذر الرجل القبلى عما بدر منه : "هو لم يطلب شيئا سوى عنزته !" ولم يجرؤ ذلك القبلى على مجادلة أى إنسان فى الواحة ، نظرا لأن الجميع سوف يطاردون مثل هذا البدوى بالأذى والصياح والاحتقار . قال هويشيم عن الفكارة "مافى MaFi أرذل Arzal منهم Minhum " بمعنى "ليس هناك من هو أرذل من البدو المترحلين ."

بعد دخول الليل ، خرجت أبحث عن جماعتنا البدوية بين النخيل ، إذ كان من المقرر لتلك الجماعة أن ترحل قبيل منتصف الليل ، أى عند طلوع القمر ، عثرت على محسن ومعه عدد قليل من البشر ، نائمين على حصر مفرودة فى مزرعة التاجر ، وكان البعض منهم يشربون القهوة .– قمنا برحلتنا متجهين نحو الجزء العالى من الأرض ، وكنا نسير أثناء الليل ، وبعد مسيرة طويلة ، وصلنا إلى الأرض الفضاء التى أمام سهل الحجر ، وهذا هو القمر العجوز يعكس القليل من الضوء ، وشاهدنا النار التى يشبها الناس باستعمال حجر الصوان أمامنا ، كما لو أن شخصا كان يريد التربص بنا ، ورأينا فى ذلك أيضا الكبريت الذى يجرى إشعاله فى بنادقهم الطويلة ! – الحياة العربية مليئة بالمخاوف التى من هذا القبيل . وهنا لاذ البدو بالفرار على ظهور نياقهم ؛ أما الحريم فقد رحن يجرين هنا وهناك على أقدامهن ؛ وهذان هما رجلان جاءا معنا وكانا يقودان عددا قليلا من المواشى الصغيرة (الغنم) ، راحا يضربان تلك الأغنام ويستحثونها عن طريق الضرب المبرح حتى يمكن إخفاؤها فى ظلال الصخور المعتمة . ورحت أنظر حولى فى ذلك الضوء الخافت بحثًا عن محسن ، رفيقى ، ووجدته يتجول فوق السهل : سارعت أجرى فى أثره ، ونظرًا لأن قبيلتنا كانت هى التى تسيطر على تلك الديرة وتمتلكها فقد كنا جميعا ننزل إلى الأسفل ونحن مجردين أو إن شئت فقل : عزّلا من السلاح. وهذه هى ناقتى العجوز ، قد بدأت تجرى وسقطت من تحتى مرتين ، وكنت كلما أوقفتها ، كانت تتماسك على مضض وعلى نحو كنت أخشى معه أن تجهض وتخسر وليدها الذى يقال إن عمره بصل إلى عدة أشهر حاليا فى بطنها ، وهذا هو جوال التمر الذى كنت أحمله فوق ناقتى ، مساعدة منى لامرأة مسكينة ، هذا هو

الجوال يسقط من فوق عدة (سرج) الناقة . تساءلت: "ما كل هذه الفوضى يا محسن ؟" - أجابنى "إنهم الحباليص" ، ولكننا عرفنا بعد ذلك ، وبصورة متدرجة ، أن تلك الفوضى لم تكن سوى إنذار كاذب . ولكن ناقة محسن العفية ، عندما استشعرت هواء الليل العليل ، شردت لوحدها ، وراحت تجرى ومحسن من فوقها ، قاصدة مدائن صالح . وعندما وصلنا إلى مدائن صالح قبل طلوع الفجر بلحظات ، وجدت محسنًا جالسا فى تفكير عميق داخل منزله (بيته) ، الذى وصل إليه قبل وصولى بنصف ساعة . وعندما ووجه محسن بتلك الحماقة - فقد تخلى عن رفيقه - راح يبارك ، بصورة تهكمية ، معرفة الآباء لتلك التوافه التى واجهتنا ، وراح يسم الجميع بأنهم "بدو" وأنهم أيضا "أجسام مصابة بمس من الجنون ." وقال إن السبب وراء تلك المتاعب التى وقعت أثناء الليل ، هو زنجى شاب ، أو إن شئت فقل العبد الذى حرره الشيخ مطلق ، الذى كان يمر متأخرًا ، ولم يكن أمامه من بد سوى إشعال غليونه ، عندما سمعنا مقبلين عليه ، ظنا منه أنه سوف يعود بصحبة جماعة صديقة .

زار منزلنا كل من مشوات Mishwat ، شويش Shwoysh ، وسيدان Seydan وكلهم من الوهاهيب : هذا هو شويش ، الذى لديه زوجة جميلة جدًا فى بيته ، جاء لإقناع زوجة هاربة ، موجودة حاليا بين بدو الفكارة ، بالعودة معه إلى البيت . وهذا هو داريش Daryesh ، الذى انتقل مع أسرته من طُلَيّ ، جاء إلى هنا لينصب خيمته أسفل القلعة . كان داريش قد قام مؤخرا مع دولان Doolan وشخص آخر برحلة طويلة إلى ديرة الرولة Ruwàlla على بعد حوالى ٢٥٠ ميلا ؛ وهاهم عائدون خاويين الوفاض ومرهقين ومتعبين من منطقه تقع إلى الخلف من منطقة الجوف . وعندما كانوا قريبين من وادى تربة عثروا على ناقتى ، كما تعرفوا أيضا على أثر أقدامها ، كما تعرفوا أيضا على آثار أقدام حوريش الحافية . حكى داريش لهم الحكاية ، ونزلوا من فوق راحلاتهم كيما يتثبتوا مما شاهدوه: وهنا راح دولان يبتسم لى "ها - ها - ها! خليل ، نعم ، هى - هى - هى ! لقد عثرنا على كل شىء فى الرمل ، وبالتالى قلنا نتوقف طلبا لشىء من الفرح والمرح . "عفوا" Afuah (Elafu) والله ، "عشت" Aysht يا خليل بمعنى "أعطاك الله الصحة والعافية على ما فعلت" : ويضع هذا المسكين يديه على كتفى ويجثو على ركبتيه من الضحك . وقد استراحت قلوب الواقفين عندما رأوا النصرانى

قد هز حوريش الفتوة (القبضاي) (بل وأخذ جمله ذو السنامين ، من وجهة نظرهم) . "والله ، يا خليل ، أنت ولد عمي ، - وما رأيك في داريش ؟" - لم يطق الذهاب إلى داريش ليبلغه بردي على سؤاله الذي قلت فيه إن داريش "غندور ، مزدهٍ بنفسه ، وشخص متعال متكبر" وأن الشيخ السراحيني ، عندما التقاني للمرة الثانية ، كان يبدو أنه أعلى مني قامة ، كما اكتشفت أن إحاطة الغريب علما بشهامته وكرمه كان أمرا مناسبا تماما . هذا هو دولان يعرج بعد أن رفسه الجمل ، والمعروف أن ضربة قدم الجمل ثقيله جداً ، وتدهور حاله في هذه الدنيا ، الأمر الذي أدى إلى إيكال مهنة الراعي إلى شخص آخر . قال ذلك الفهجي المسكين " معناش " (*) Manásh بمعنى "لم يتبقى لنا أي شيء " ، وراح ذلك المسكين يعض ظفر إبهامه بأسنانه . عاد المواهيب مرة ثانية إلى وادي تربة . وهذه هي البئر تمتلئ ببطئ ، وأن ذلك حدث ، على حد تعبير البعض منهم ، منذ استحمام النصراني في تلك البئر ، "وكتابته" على الماء ؛ يا لهذا الكلام ، ألم أعمل هناك طيلة فترة الصباح في تطهير القنوات والمجاري المائية ؟ وترتب على ذلك أن أصبح تيار الماء أقوى من ذي قبل ، الأمر الذي جعل البدو يقولون : "لقد أحسن الغريب ، وقسما بالله أنه أفادنا ، ويتعين على كل من يسقي من هذا الماء أن يحلب عنزة لذلك الغريب ."

في ذروة هذا المناخ ، كنت أراقب تقلبات الجو يوميا باستعمال البارومتر . كان ارتفاع مدائن صالح [...] يصل إلى ما يقرب من ٢٩٠٠ قدم .

(*) هذه الكلمة إضفام للعبارة البدوية "ما معنا mamána شيء "Shy" أي لم يعد يتبقى لنا شيء مما كان لدينا من قبل" . (المترجم)

الفصل التاسع عشر

تيماء

الرحيل مع الأعراب بصفة نهائية عن مدائن صالح . إنذار مع مطلع الشمس . كارثة المواهيب. الرحلة إلى تيماء . مشاهدة القمر الجديد. بداية شهر الصوم الكبير . منظر تيماء من بعد . المزارعون . امرأة فقيرة مشتتة الذهن . بيت ريفى فى الضاحية . رمضان . جنى التمر الجديد . حديث الحضر حول تنور القهوة . صباح شاق . عابر سبيل يتناول طعام الإفطار . حسن . عجيل . زيارة المرضى . عادة التَّفْل على العيون المتورمة . خلف ، شيخ تيماء . إفطار الصيام الكبير بعد غروب الشمس . عشاء الصيام الكبير عند منتصف الليل . "حكايا" البدوى "عن الرحالة" . بدوى من الشمال يتكلم منصفا النصارى . أحد المنفيين من العلا . توبيخ واحد من المتشددين . أعمدة أثرية . أسرة حدَّاد . تيماء ثلاث واحات . فرس بثلاث أرجل . صيد الطيور البرية فى تيماء . هجرة الطيور . النصرانى لا يراعى صيامهم . محسن ينصب خيمته فى حوطة أو بستان من بساتين تيماء . لعبة الدَّاما . صيام النساء . قلق محْسن على أهل بيته . فصل الربيع . "البدو هم الذين سينقذون الإسلام". رأيهم فى صيام المسيحيين .

أخيرًا ، وبعد انقضاء عدة أيام أخر من الحر الشديد ، والتى كانت بمثابة الأيام الأخيرة من ذلك الصيف ، وعلى وجه التحديد فى الثامن والعشرين من شهر أغسطس غادر الأعراب سهل الحجر . وهاهم "يُيمِّمُون وجوههم مرة أخرى شطر" بلاد تيماء ، وركبت أنا معهم وأنا أحس بسعادة بالغة مثل السعادة التى يستشعرها التلميذ عندما يترك مدرسته الداخلية عائدا إلى منزله ؛ – وتخلصت أخيرا من احتقان العينين واحتقان الأنف اللذان يصيبا من يعيش فى منطقة هذه القمم الصخرية ، كما تخلصت

أيضا من القلعة ومن المغاربة الخطرين الذين فى مدائن صالح . الآن وبعد أن تركنا منطقة طريق الحج التركى ، أصبحت أجد أمامى ، أو إن شئت فقل الجزء المرتفع الحرُ من الجزيرة العربية !

تجاوزنا السهل المغلق الموجود فى الناحية الجنوبية الشرقية . شاهدت الكثير من الصقور التى كان يحملها راكبو النياق فى تلك الرِّحْلة ؛ لقد أشتروا هذه الصقور من عرب البوابة ؛ وهناك بعض آخر من سادة البدو ، كانوا يحملون معهم فى تلك المسيرة كلاب الصيد الخاصة بهم ، فوق ظهور الإبل ، مخافة أن يؤثر الرمل الحار على أرجل هذه الكلاب . استمر ترحالنا على شكل مسيرات قصيرة فى اتجاه الشرق طوال أربعة أيام ، وكان البدو كلما توقفوا فى فترة ما قبل الظهيرة ، يطلقون ماشيتهم فى المرعى . وبذلك تكون حرارة الصيف قد انتهت بالنسبة لنا فى هذه المنطقة المرتفعة متحركة الهواء. وعند شروق شمس الغد وبينما كنا جالسين لمدة لحظة ، قبل استئناف الرحلة ، وأمامنا نار شببناها على وجه السرعة ، وجدت أن مقياس درجة الحرارة قد سجل ٣٧° فهرنهيتية ؛ واتضح لنا أن الريح التى كانت تهب علينا كانت ريحا باردة .

وأنا هنا سوف أترك تلك القرية الجائلة ، وأذهب مع محسن وجماعة من القبليين المساكين الذى سيذهبون لتمضية شهر رمضان فى بلدة تيماء ، حيث بدأت بشائر نضج محصول التمر الجديد . وسوف تجىء القبيلة إلى تيماء بعد شهر من الآن ، أو بالأحرى فى الأيام الكبيرة من الصوم الكبير (*) عند المسيحيين ، وذلك لتمضيه أجازة العيد فى القرية من ناحية ، ولشراء التمور أثناء موسم الحصاد .

عندما طلعت شمس اليوم الأول من شهر سبتمبر ، وبينما كنا نغادر منازلنا ، سمعنا صرخات فى جانب من جوانب المخيم ، تصيح قائلة : "القوم" ! El-Gom . وعلى إثر هذه الصرخات اندفع القبليون من بيوتهم ، وقد لف كل واحد منهم حزام الطلقات حول جسمه ، ويمسك فى يده بندقيته الفتيلية الطويلة ، أو مسلح برمح أو حربة . واتجه

(*) الصوم الكبير : صوم أربعين يوما قبل عيد الفصح عند المسيحيين . (المترجم)

الشيوخ لإحضار خيولهم ، فى حين تقدم المشاة إلى الأمام ، وراح الكل يصيحون . ولم يتبق مع الحريم سوى عدد قليل جداً من الرجال المسنين ؛ وشيئا فشيئا "ظنوا أنهم يسمعون أصوات الطلقات تصدر من الخلف" . وهذا هو زيد مر علينا ، وهو بطىء بعض الشيء ، ويعدو ولكن ببطئ . كانت قسمات وجهه توحى بالصرامة ، وكان يستحث فرسه سعيا إلى المناورة والمحاورة التى كان يحاول القيام بها ، وكان الرمح الطويل يهتز على كتفه ، فضلا عن أن سوالف شعره الإسلامية كانت تتهفهف مع الريح راجعة إلى الوراء ، هذا هو أحد أبناء السبيشان Sbeychan يبدو كما لو كان شخصية عسكرية محاربة . وهؤلاء هم الصبية المتحمسون يقفزون فوق نياقهم ، ويسوقونها نحو الميدان ليقفوا على تطور المعركة : هذا الإقدام من جانب هؤلاء الصبية يقدره الكبار حق قدره . وهذا هو محسن ألقى حمله على الأرض ، وجرى فى إثرهم ، بلا سلاح فوق ناقته المجنونة . ولم يمض وقت طويل حتى شاهدنا رئيس كتيبتنا قادم علينا : – (وكما قيل) فإن ركوب مائة رجل على إبل بسنامين يعد منظرا مهيبا ، عادوا راكبين فوق سُرُوجهم المرتفعة أو إن شئت فقل : العالية ملتزمين بالخطوات العميقة لماشيتهم ، وسط لمعان الحديد، ويتغنون بأغنية الحرب، على شكل نسق طويل يشبه نسق القطعان.

علمنا بعد ذلك بنبأ الكارثة التى وقعت لأصدقائنا ! فقد عثر الرعاة الأول على بعض الإبل الغريبة فى الصحراء ؛ وقد تعرفوا على تلك الإبل من العلامة ⊃ التى تدل على أن تلك الإبل مملوكة للموهاهيب ومن هنا راحوا يصيحون ، وبعد تكرار ذلك الصياح نفسه بعد الرعاة، وصلت أصداؤه إلى المنازل .– وعندما تولى ذريح Therryeh قيادة الجماعة المسلحة ، جاء رعاة تلك الماشية للقاء هذه الجماعة المسلحة وتحية تلك الجماعة بالعبارة التى تقول : "قوّاك Gowwak يا ya ذريح Therreyh ، نحن من بدو العواجى "وأخذنا" الموهاهيب بالأمس فقط ؛ والله ، أخذنا كل إبلهم فى كل من سهل الحجر ، والمنطقة المجاورة لوادى تربة ." – ونظرا لأن بدو الفكارة على الجانبين كانوا أصدقاء لبدو العواجى ، فلم يستطيعوا التدخل بين الطرفين ؛ ولكن لو أن الموهاهيب كانوا يتحركون ويخيمون مع بدو الفكارة فى ديرتهم ، لما تحداهم البشر وتعدوا عليهم . تجمعت من جديد ، فى صمت وتأمل الجماعة المتجهة إلى تيماء ، كان قوام تلك الجماعة

حوالى أربعين راكبا ، وراح كثير من أفراد هذه الجماعة كل يفكر ويتدبر تهديد أمنه وسلامته بصورة مستمرة ، وهو يواجه ذلك الحظ العاثر . وخلال ساعة واحدة كان أصدقاؤنا المقربين قد خسروا أرزاقهم أو إن شئت فقل : معاشهم ؛ واتضح حجم الهزيمة الكبيرة نظرا لأننا شاهدنا شيوخ هؤلاء الأصدقاء – لا من باب تجنب هذا الخطر وإنما لوصولهم متأخرين إلى أرض المعركة – وقد توجهوا للتعبير عن خضوعهم المذل للأمير . وهنا تنهد الأعراب أسى وحسرة وبلا اعتراض على ما يجرى ، ثم توقفوا بعد ذلك عن الشكوى قائلين : "لقد حدث ذلك بقدر من الله (سبحانه وتعالى) !"

بعد مسير ساعتين ونحن ركوب على ظهور نياقنا وصلنا إلى المسقى طلبا للشرب وملئ قراب الماء من بئر منعزلة من آبار القدماء ، وهذه البئر مبطنة بالحجر المبنى ؛ وبالقرب من تلك البئر كانت هناك شجرة من أشجار التين البرى . وأثناء سيرنا فى ذلك اليوم مررنا بثلاثة آبار صغيرة ، التى تكثر (فى المناطق التى لا تكون المياه الجوفية فيها على عمق كبير) فى كل أنحاء خلاء صحراء الجزيرة العربية القاحلة : هذه الآبار تكفى لسقيا مواشى السكان الصغيرة .

كانت الرحلة ساكنة وخانقة الريح ، ونزلنا عن دوابنا قبل العصر ، فى منطقة وجدنا فيها ظلا ناشئا عن صخور ضخمة ، كما وجدنا فيها أيضا بعض أشجار الطلح ، فضلا عن مرعى للإبل . خلد الرجال إلى الراحة وراحوا يشربون القهوة ؛ وشبت ربات البيوت النيران ورحن يخبزن خبزا سريعا ، تحت رماد النيران ، هذا الخبز كان مصنوعا من آخر وجبة لديهم من وجبات الشعير . وبعد ساعة أو ساعتين ، وعندما أفاق الرجال والحيوانات من الحرارة الخانقة ، ركبنا راحلاتنا من جديد واستأنفنا مسيرنا فى الصحراء ، أو إن شئت فقل : فى السهل الصحراوى ، إلى أن أوشكت الشمس على الغروب ، وعندها توقفت الجماعة فى منطقة سبق لهذه الجماعة أن خيمت فيها فى فصل الربيع .تعجبت قائلا : أيها الرفاق ، هذه هى أم سبع ! "Umsubba" ولكن هؤلاء الأعراب أحسوا بخيبة الأمل والإحباط، وذلك من باب التخوف من الأعداء ، عندما سمعوا غريبا ينطق باسم المكان ، بالرغم من أن ذلك المكان تميزه تلك المسلة الطويلة الفريدة المكونة من الحجر الرملى .

ومن حول نيران الحراسة راح الناس يتساءلون فيما بينهم ، حول إذا ما كانوا قد جرحوا صيامهم فى ذلك اليوم ، الذى حدده بعض شيوخ هؤلاء البدو على أنه اليوم الأول من شهر الصوم : ولكن محسن المتحرر ، قال : إنه لا ذنب على من أكل "إلى أن يرى الهلال الجديد (وغالبا ما تكون تلك الرؤية فى مساء اليوم الثالث من الشهر) ، وبعدها يصوم الناس الشهر اعتبارا من ثبوت تلك الرؤية" . بعض آخر ردوا عليه : "الناس فى المدن يعتمدون على الهندى (المقصود علم الحساب الهندى) ، وهم يقولون إن ذلك الحساب دقيق ولا يخطئ مطلقا ، ولكن ما الذى نعرفه نحن البدو !" استطعنا فى دجنة الليل ، مشاهدة القمر الجديد عند الغروب ، وعمره ثلاثة أيام : وراح البدو يحيون تلك العلامة السماوية بشىء من الأدعية الدينية ، وبخاصة أن تلك العلامة جلبت لهم شهر التدين والتقوى. سكان الصحراء يصومون كل شهور حياواتهم، وهم يلتزمون بذلك الصيام اليومى ويراعونه بدقة بالغة فى ذلك الشهر الفضيل . ولكن رمضان عند البدو عبارة عن إرهاق غير عادى يشيع فيه تأوهات هؤلاء البدو وشكاواهم ؛ إذ يصبح من الصعب على هؤلاء البدو الامتناع عن الشرب وعن تدخين التبغ لحين غروب شمس الصيف : بل إن المتزوجين يفترقون عن زوجاتهم طوال أسابيع الصوم . والبدو الرحل هم والقرويون يقولون إن شهر الصوم الكبير الذى يتعين الحفاظ عليه نظيفا وطاهرا ، يتحول إلى موسم للشر والخبث ، إذ تنساب فيه رذائل الطبيعة البشرية . والذين يراعون الصيام والصلاة خلال هذا الشهر ، من بين البدو لا يزيد عددهم على النصف بأى حال من الأحوال ؛ – أما بقية البدو فمن "الجُهال" ،– بمعنى أنهم لا يعرفون كيف يؤدون الصلاة ، ومع ذلك فهم يحتفظون فى داخلهم بقليل من التطرف والتشدد ، وهذا نوع من الحقد الوطنى أو إن شئت فقل: شكل من أشكال الوطنية السامية Semitic . – وبالنسبة للرعاة الذين تشويهم طول النهار حرارة الصحراء ، يصعب بل ويستحيل عليهم أن لا يشربوا الماء إلا بعد أن ينطفئ فرن الشمس عند غروبها . المسافرون عليهم القضاء ؛ القرآن يرخص لهم أن يقضوا الأيام التى عليهم عندما يعودون إلى ديارهم .

بدأنا مسيرنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد ، وكان ينتظرنا طريق طويل خانق ساكن الهواء ، يتعين على البدو قطعه أو إن شئت فقل تجاوزه اليوم وهم عطشانين ؛ وعندما بدأت حرارة الصباح تزداد من فوقنا ، كنا قد قطعنا مسافة كبيرة فى اتجاه

قرية تيماء – هذه هى العلامة الأرضية المتمثلة فى جبل غنيم(*) Ghreneym بدأت تظهر لنا – وها نحن نصل إلى تلك التربة العارية الجرداء التى تقع قبل بلدة تيماء ؛ هذه التربة عبارة عن أرضية من الصخر الرملى أرجوانى اللون ، المشوب بأحجار الحديد وبالحصى أيضاً ، الذى لا تنمو فيه الحشائش بل ويندر أن نرى فيه أى دغل من أدغال الصحراء . مع بدايات فترة العصر بدأنا نشاهد أعراف نخيل الواحة ، ثم اقتربنا بعد ذلك من مسوَّر البلدة الدائرى . هذه هى البساتين الخارجية بدأت تطالعنا ونحن نقترب منها ، – هذه البساتين تشبه فى نظرنا جنة عدن بعد منظر الصحراء الذى تعودت عليه عيوننا ؛ وها نحن نرى النخيل المحمَّل بالثمار ، من تحت الأعراف الجميلة ؛ هذه تمور ذهبية اللون ، وتلك تمور أرجوانية اللون . لقد مرت جحافل الجراد هذا العام على القرى كلها ، ولم ينجو من أشجار تلك القرى سوى ما يزيد قليلا على النصف وبخاصة فى قرية تيماء . تفرقت الجماعة وراح كل عضو من أعضائها ينصب خيمته فوق أرض صديقة . أما أنا فقد رافقت محسن ، حيث بركَنا إبلنا فوق بعض بقايا الجدران الطينية المهدمة فى أرض واسعة : وراح الرجال ينادون فى عجالة على ربات البيوت ويطلبون منهن نصب الخيام ؛ نظرا لأن البدو العطشانين يودون اتقاء حرارة تلك الشمس الحارقة .

خرج علينا من البوابات التالية بعض العمال الذين كانوا يحملون فؤوسا فى أيديهم ؛ طلبت من أولئك العمال عُلوجًا من التمر الجديد (من باب إحسانهم السامى Semitic إلى الأغراب) ، وكوبا من الماء . "(قال القرويون وهم يتعجبون) أخ ! ما لهذا الرجل الذى معكم ، أيها الفكارة ، الذى يأكل ويشرب فى رمضان ، ومازالت الشمس طالعة ! – يا للعار ! ألا تعرف الله ، يا أنت ؟" ثم انهالت علىَّ بعد ذلك التعليقات والتوبيخ من كل جانب . قال أحدهم : "أليس هذا هو خليل الكافر ، ذلك الرجل الذى كان هنا من قبل ؟ نعم ، إنه هو ." – "خسئت يا أنت ، يا من تمنع عنى

(*) جبل غنيم : من الجبال المقدسة عند التيامنة الذين كانوا خاضعين للمملكة النبطية . وقد وجدت فى قمة ذلك الجبل العديد من المخربشات المكرسة إلى الإله الأكبر «صلم» تدعوه إلى أن يحقق النصر على الأعداء. (المراجع)

الطعام وأنا عابر سبيل ، مسافر musafir" – (قال صوت امرأة ، تصادف أن كانت تمر بالقرب منا وسمعت ما يدور بيننا) " ها ! هذا الغريب يقول الحق ، إنكم أنتم ، يا رجال تيماء ، الذين لا تخشون الله ،" ثم مضت مسرعة فى طريقها بعد ذلك . وفى وقت آخر ، وبينما كنت أسير معهم ، جاءتنى تلك التى كانت تبدو امرأة مسكينة من البدالة Bedlam ، وهى تجرى ، وراحت تشدنى من عباءتى دون أن تقول كلمة واحدة ، وفتحت حجابها ؛ وبنظرة تدمى القلوب مدت إلىّ هذه المرأة يديها الضعيفتين ، وهما مملوءتان بالتمر والرمان ، وراحت تومئ لى برأسها إشارة منها لى بقبول هذا التمر والرمان ؛ كانت تلك المرأة تعيش فى المكان الذى قصدناه للسقيا وطلب الماء .– هذه المرأة المسكينة جاءتنى فى المساء ، كما لو كانت شبه مشدوهة وتكاد تتراجع مما تراه. "قالت : أيها الغريب ، تبًا لى ! لماذا لم تأكل كل الثمار التى قدمتها لك ؟ لقد جريت وجلبت لك تلك الثمار عندما سمعتك تتحدث عن الطعام . اعلم أنى امرأة مسكينة مصابة فى عقلى .– يا الله ! من أعطى هو الذى أخذ ؛ لقد خسرت أطفالى ، الواحد بعد الآخر ، أربعة أبناء ، وقد رجوت الله أن يترك لى الطفل الأخير ، ولكن توفاه الله أيضا – واعذاباه ! – كان ذلك الطفل الأخير قد دخل فى طور الرجولة . وأنا فى بعض الأحيان يعتصرنى الحزن ويضنينى ويسيطر علىّ ، الأمر الذى يجعلنى أهيم مثل المجنونة ؛ ولكن قل لى ، أيها الغريب ، أليست عندك نصيحة لى فى هذا الأمر ؟ وفيما يتعلق بى فأنا أفعل ذلك الذى تراه ، – أحاول تلبية احتياجات الآخرين – متطلعة إلى رحمة ربى لى فى النهاية ."

– هؤلاء هم رجال تيماء ضغطوا على جماعة الآبار ، ضغطا بارعا وجعلوهم يجلبون الماء للضيوف . كان المكان المخصص لضيفنا عبارة عن بيت ريفى كبير ، يقع على بعد مسافه قصيرة من جدران البستان الرئيسى فى قرية تيماء . ووسط ذلك البستان ، كان هناك مبنى عل شكل منزل ، أو إن شئت فقل : قصر kasr ، – كانت هناك مجموعة من الغرف المبنية من الصلصال داكن اللون ، تحيط بأرض فضاء طويلة على شكل مربع ، وكانت تلك الغرف مظللة لحمايتها من أشعة الشمس ، بواسطة سقف سائب محمل على أعمدة من جريد النخيل . كان بستان المضيف واحدا من بساتين النخيل ذات الأسوار الجيدة ؛ لم يكن ذلك البستان مقصورا على النخيل فقط وإنما

كان صاحبه يزرع فيه القمح أيضا ، كما كان ذلك البستان يسقى ليلا ونهارا من بئر مركب عليها جهازين لجلب الماء : ومع كل ذلك لم تكن هذه الممتلكات تكفى تماماً أو تفى تماماً ؛ بالاحتياجات المعيشية البسيطة لأسرة عربية من عام إلى عام . كان ذلك المضيف يبيع ما يزيد عليه من ثمار أشجاره غير المضمونة ، للبدو نظير ثمن معقول ؛ فقد كان محتما على ذلك المضيف دفع أجور العمالة الموسمية التى كان يستخدمها ، ودفع أجور الإبل التى كان يستخدمها فى جلب الماء من البئر ، ودفع ثمن الأدوات ، علاوة على دفع ثمن حبل البئر المصنوع من الجلد ؛ وفى ضوء ما يقوله هؤلاء الملاك الصغار ، عن مصروفاتهم وعن مديونياتهم ، يستطيع المرء أن يعرف أن أولئك الملاك يرفعون رءوسهم بصعوبة بالغة فى هذه الدنيا .

هؤلاء العرب الذين يعانون معاناة شديدة من العطش فى الأيام الأولى من شهر رمضان ، يستلقون على صدورهم يتنهدون ألما طوال ساعات النهار التى تمر بطيئة عليهم ، ويروحون يركزون أبصارهم وأفكارهم على ضوء النهار إلى أن تغرب "عين الشمس" مبتعدة عنهم . وبعد انقضاء خمسة أو ستة أيام من أيام شهر رمضان ، يكون هؤلاء العرب قد اعتادوا على الابتعاد عن حرارة وضوء النهار، ويحاولون استغلال الليل إلى أبعد الحدود . وإذا ما صادف شهر الصوم موسم حصاد القمح ، أو حصاد محصول التمر ، فإن العاملين فى جمع هذه المحاصيل يتعين عليهم تحمل العطش البالغ من أجل الدين : والمعروف أن القرويين ، فى شهر رمضان ، يتنازلون عن كل العمل الجاد ، باستثناء مسألة إدارة بئر الماء التى يجب أن لا تتوقف مطلقا . كان القسم الأكبر من أنواع التمور التى ينتجها أولئك القرويون قد نضجت وطابت مع انتصاف شهر الصوم؛ ومع ذلك ترك أولئك القرويون تلك التمور معلقة على أشجارها .- صاحب المزرعة ، الذى كررت له رجائى بمباشرة عملية الحصاد، تأخر عن القيام بذلك، كما لو كان ذلك التأخير غير نابع منه ."(همس لى أحدهم) هذا فيه ألم للرجال ، الذين يهدهم العطش والجوع ، عندما يرون شخصا آخرا يأكل الحلوى ويشرب الماء :" - صاحب المزرعة تلكأ أيضا كى يسخر بعض الشيء (وهذه رغبة يحبها العرب) من ذلك الغريب من منظور أعرافهم الدينية العالية . ثم خرج صاحب المزرعة بعد ذلك ، وأحضر لى عسلوجين من عساليج التمر الممتاز ، من ساق واحدة من النخيل ، كانت تلتف حوله

عيدان شجرة التوت ، التى كانت بدروها تحمل ثمارا أرجوانية اللون لم تنضج بعد ؛ هذا التمر المليء بالعصارة حلوة المذاق يطلق البدو عليه اسم "البلح" blah طوال فترة النضج ؛ والعرب يعدون البلح صحيحا ومنعشا تماما . يضاف إلى ذلك أن الأنواع الشائعة من التمور تكون من الناحية الغذائية ، أفضل عندما تكون بلحا ، – البلح عندما يلين عندما يكتمل نضجه على أشجاره ، وينتفخ حجمه بفعل أشعة الشمس وينساب منه نوع من عسل التمر .

عدنا إلى أصدقائنا فى الكوخ عند حلول المساء ، وهى الفترة التى يُسرِّى العرب فيها عن أنفسهم ويشغلون خلالها غلايينهم التى يتمتعون بها ، وذلك من باب العزاء لأنفسهم . هذه هى النار قد شبت من جديد فى الوجار الذى كان باردًا من قبل ، وهذه هى فناجيل القهوة قد جهزت من جديد، ومشروب القهوة لا يراه الناس أو يعرفونه هنا، فى معظم الأحيان ، فى هذا المكان الفقير . تلى ذلك وصول بعض الأشخاص قادمين من البلدة ، وكان كلام هؤلاء الناس معنا ، نحن القادمون الجدد عن الحدَّاج (بئر الماء) المهدَّم ، "قالوا لنا ، إن التيامنة مقتنعون أن البئر انهارت بعدما "كتبت عنها" ، وأنهم إذا ما رأونى مرة ثانية فى بلدهم ، فوالله ، سوف يقتلنى أهل البلد الذين أصابهم الغضب ." ولأنهم سبق أن شربوا معى شربة الصحبة والصداقة ، فقد نصحونى بعدم المغامرة والدخول إلى تيماء مرة ثانية :– سوف أترك الأمر لأصدقائى البدو ، لأنهم هم الذين يتعين عليهم المحافظة على حياتى . رد محسن (وقد كان رجلا حاسما) على ذلك بقوله ، "مع طلوع نهار الغد، يتعين على خليل ، أن يركب ناقته ويعود ثانية إلى زيد." – "قلت لهم : انتبهوا ! ، إذا كنت أنا مذنبا فى مسألة انهيار الحداج (بئر الماء) ، فأنا لم أجيء إلى هذا المكان بمحض إرادتى . وهل يمكن لأجسامنا أن يطول تحملها إلى أبد الآبدين ؟ المبانى القديمة تسقط ، وكذلك أيضا فإن هذه البئر القديمة لابد أن تتحلل فى وقت من الأوقات ." – "ولكننا سمعنا ، أنك رفضت إعادة بناء البئر بعد سقوطها!" – تركناهم على هذا الوضع فى تلك الليلة .

كانت اللحظات الأولى من شروق شمس الغد ، من تلك اللحظات البشعة الثقيلة التى كانت تمر علىَّ ، فى معظم الأحيان ، فى الجزيرة العربية ، وذلك عندما علمت من أصدقاء العيش والملح ، أن حياتى أصبحت مهددة ، وراحوا يحثونى ويقنعونى بالهرب

ومغادرة المكان على وجه السرعة . جاء إلى بعض الحريم عندما استيقظت ، – كان محسن قد غادر المكان فى فترة البَرَاد ، أى قبل طلوع الفجر ، قاصدا تيماء ليبيع فيها رداء جديدا لونه مثل لون الزعفران ؛ وكانت بقية الرجال قد ذهبوا معه – هذه هى شقيقة زيد ، مضيفتى ، هى والنساء الأخريات رحن يحثونى على الرحيل ومغادرة المكان على وجه السرعة ، "مخافة أن يقتلنى أحد أمام عيونهن" . – هذه الزوجات البدويات كن قد ذهبن أثناء الليل لزيارة صديقاتهن فى المستوطنة ، وأثناء حديثهن ذكرن أن النصرانى قد وصل بصحبة الجماعة . "صاحت ربات البيوت التيمانيات ، النصرانى ! ، – أليس هذا ، على حد قولهم ، واحد من أبناء الشيطان ؟ عجبا ، جاء ليقيم بيننا ! وأنتن ، إن كنتن تخشين على حياة خليل ، فلا تسمحن له أو تتركنه يدخل تيماء ، – لأنه بمشيئة الله ، إن دخلها اليوم ، فسوف يقتل فى الغد : لقد أقسم بعض رجالنا على قتل خليل ." – "ولماذا تظنون السوء بذلك الرجل ؟ وهو يعيش بين البدو منذ مدة طويلة ، وفيما عدا أن اسمه النصرانى ، فليس هناك أى غبار عليه ."– "مع ذلك ، يجب أن تعلمن أنه شخص شرير ، كما أنه من أعداء الله ؛ وهم يزيدون على ذلك ، أنه ساحر ودجَّال . ألم تسمعن عن انهيار الحداج (بئر الماء) ؟ والرجال يقولون : إنها عينه الحسودة .– ألم تكتشفن أنه آثم ؟ ولكن أحدا لا يستطيع أن يقطع بماهية ذلك الخليل ، ولا حتى بالمكان الذى قدم منه إلى أرض الأعراب . من الذى سبق له أن علم بمجىء أى نصرانى إلى هذا المكان ؟ وأهلنا هنا يرون أنه لا ينبغى أن يبقى على قيد الحياة ؛ وقتله سيصبح ميزة ومنفعة ."

"قالت زوجة محسن ، يا خليل التيامنة مصممون على قتلك بسبب ما حدث فى الحدَّاج (بئر الماء) ، وهم إذا ما جاءوا فنحن قلة ولا يمكن لنا أن نقاومهم . التيامنة ليسوا هم البدو ، الذين لديهم فكرة طيبة عنك ، فضلا عن احترامهم وتقديرهم للدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، ولكن أهل تيماء أصحاب الرءوس اليابسة ، وأصحاب أذرع طويلة أيضا ، إلى حد أننا ونحن نقيم هنا ، نشعر بالخوف منهم: التيامنة خونة ، ملعونين malaunîn ! " – قال محسن الذى وصل فى التو واللحظة : "إخص ! سيأتى البعض منهم إلى هنا، أثناء بقاء خليل فى هذا المكان؛ أربك الله التيامنة! أركب ناقتك ، يا خليل ، وحل بينهم وبين ما يريدون !" – أردفت النساء قائلات : "إذا ما فعلت ذلك

على وجه السرعة ، فلن يستطيعوا قتلك ." صاح الأطفال قائلين : "أركب ناقتك وعجل بالابتعاد عنهم يا عم خليل ." هذا هو صالح صاحب الشعر الأشيب ، وحامل بندقية والد زيد ، وحارس زيد الخاص ، كان يستحثني على الركوب والهروب إلى البدو ، "(قال) أعرابنا مازالوا فى المكان الذى تركناهم فيه ، كما أن ولدى ومعه شخص آخر على وشك أن يعودا بناقتيهما مع الإبل ؛ هيا ، أركب ناقتك وأنقذ نفسك مع هذين الشابين ؛ وأبق مع زيد ، وبين أصدقائك ، إلى أن يحين موعد مجيء قافلة الحج ." – "وإذا كان كل ما نقوله غير كاف لتحريكك وحثك على التصرف بسرعة ، قالها الرجل العجوز هو ومحسن ، فذلك يعنى أنك فقدت فهمك وتقديرك للأمور ! – وأنتم أيها الرفاق ، هذا الرجل الذى كنا نعده حصيفا وعاقلا (من خلال كتبه الحكيمة) ، يتشابه تماما مع أى رجل من الرجال الذين يتلبسهم الجن : انهض حالاً ! حتى لا يهدرون دمك أمام أعيننا . وهم إذا ما جاءوا إلى هنا ، لن يكون أمامنا سوى استعطافهم ، ولكننا لن نستطيع منعهم من ذلك الذى يريدون فعله ،– والله ، إن أهل هذا البلد ملاعين . – نحن لا نعلم شيئا عن ذلك الذى ربما يكون قد ارتآه (فى كتبه) ؛ ومع ذلك ، لا تبقى هنا يا خليل ، انهض فورا ، واهرب من هؤلاء الناس مع الشابين ! آه ، من هذا التأخير ! إنه لا يلقى بالا لكلامنا جميعا ، وإذا ما بقى هنا ، فقد لا يكون أمامه من الحياة سوى لحيظات قصيرة :– وها هو خليل ، ما يزال لم يتحرك أو يفعل شيئًا !" صوت آخر ، "قد يكون الله قد كتب عليه الموت هنا ؛ حسن ، اتركوه وشأنه ." ورحت ألوم أولئك الرجال الذين وثقوا بكلام الحريم السخيف .– "وماذا سيحدث إذا ما جاء التيامنة ، ألا أستطيع أن أجعلهم يتراجعون عن طريق العقل والمنطق ؟" – "هؤلاء الذين سيأتون حالا إلى هنا سيكونون غاضبين ولن يستمعوا إلى كلام أى أحد ." – هناك حكة جلدية بين الألم واللذة ، وهذه الحكة تتمثل فى تلك القسوة البالغة التى يستشعرها الأطفال ، عندما يرون شخصا آدميا مثلهم يعانى او يقاسى من كرب مميت ، دون أن يؤثر ذلك على شغاف قلوبهم ؛ وها أنا عندما أتطلع فى هؤلاء الأطفال من حولى ، أراهم وهم يطيلون النظر إلى عينيى ، والبعض منهم يفغرون شفاههم عجبا وحسرة ، كما أرى أيضا احمرارًا غير إنسانى بدأ يظهر على وجوه هؤلاء النساء ذوات الوجوه الذابلة الشاحبة . "آخ ! ماذا يحدث لو قدر الله لهذا الرجل أن يقتل !– ها نحن

نرى أنه لا يفهم ما نقول ولا يستمع إليه ، ولا أظن أنه يتغابى عن فهم ما نقول ! ها نحن نكرر ما قلناه مرة ثانية ؛ أركب ناقتك ، يا خليل ! فليس أمامك فسحة كبيرة من الوقت . والله ، نحن لا نود لك أن يهدروا دمك بجوار بيوتنا ، وعلى أيدى أهالى تيماء المتهورين ، ونحن لا يمكن لنا أن نسلمك لهم ." – "أيها الأصدقاء ، عندما كنت فى تيماء فى المرة الأولى وجدت أهلها طيبين وعلى ما يرام" . – "عندئذ ، أنت كنت بصحبة شيخ كبير ، هو زيد ، أما هنا فليس معك من يحميك ويأويك ! – ولكن طالما حاولنا ولم نفلح فى إقناعك ، نتمنى أن لا يصل الأمر إلى ما نخافه ونخشاه ! – لقد فات الأوان ، وربنا يستر ."

عندئذ وصل شابان من أهل تيماء ، وتكلما معنا كلاما حلواً . كان أولهما يدعى حسن بن سلامى Salamy ، حسبما قال لى البدو ، وهو من الشمال ؛ ويمارس حاليًا مهنة الجزارة فى تيماء، – وحسن هذا هو الذى جلب هذه المهنة الجديدة إلى تلك البلدة التى تشبه بلاد البدو . كان ذلك الشمرى(*) يتباهى بأنه شاب متمرس فى الأسفار ، فقد سبق له أن زار الشام وزار العراق وهو حاليا يبحث عن مزايا العقل الحر. ولما كان حسن هذا واحداً من أشد العقول تحركا، فقد كان أول من خرج على أثر سماع شائعة وصول شخص غريب إلى تيماء ، واقتاد معه ذلك الشيخ ، الذى يسكن معه فى نفس السوق (الشارع) ليكون بصحبته . سيقوم حسن بنفسه بتحديد ما إذا كان ذلك النصرانى ينتسب إلى شعب من الشعوب أو قبيلة من القبائل التى سبق أن زارها ، أو ربما يكون قد مر ببلاد هذا الشعب أو تلك القبيلة أثناء اشتراكه فى رحلات القوافل. يضاف إلى ذلك، أنه دار بخلده، أن ذلك النصرانى ربما يكون فى يده شطارة Shatara أو تفوق ، فيما يتعلق ببناء الحدّاج (بئر الماء) ، وبالتالى يمكن أن يحصل ، نظير ذلك ، على الشكر والثناء من شيوخ القرية . هؤلاء التيامنة كانوا قد بنوا جدار البئر ثلاث مرات منذ حلول فصل الربيع ، بنوا جدار البئر ثلاث مرات ، وها هو ينهار من جديد . وهذا هو أفضل المهندسين القرويين ، الذى بنى منازل تيماء الوسيعة العالية من الصلصال والصخور ، كان هو المشرف على بناء جدار البئر فى المحاولتين الثانية

(*) الشمرى : من قبيلة شمر . (المراجع)

والثالثة ، بل إنه تقاضى مكافأة كبيرة على ذلك ، – تقاضى خمسين ريالا . وكالعادة ارتفع الجدار ، وقام ملاك الأراضى بتركيب عدد الرى ، وبدأت فرق الرى عملها على التربة التى لم تجف ، حتى لا يستغرق الرى زمنا طويلا ؛ وهنا هوت وانفصلت التربة الضعيفة ، وانهار كل ما بنوه مرة ثانية . لم يعرف التيامنة ذلك الذى يمكن أن يفعلوه بعد ذلك ، وعندما دخل عليهم رمضان ، تركوا الأمر على ما هو عليه : يضاف إلى ذلك أن العمال (حفاظا منهم على وقتهم) طالبوا بأجور أكبر ، – إضافة إلى أن هؤلاء العمال لا يعملون فى شهر الصوم إلا مدة نصف اليوم فقط .

كان آخر انهيار للبئر قد مضى عليه أسبوعان . "قال البدوى ، إننى إذا كنت صاحب شطارة Shatara فى البناء ، فإن الشيوخ سوف يغدقون على ، ويعطونى ذلك الذى سوف أطلبه ."أكد حسن من جانبه هذا الكلام ، نظرا لأنه واحد من الراعيات" ràlyat ، أو إن شئت فقل : أحد الملاك الرئيسيين للبئر ، أو بالأحرى فى الجزء المخصص له من البئر ، ألا وهو الجزء الذى انهار بالفعل . قلت ، "سوف أذهب لمعاينة البئر ، إذا كانا يريان أن البلدة آمنة ."– "(قال حسن) لا تخشى شيئا ، وأنا ضامن thámin لك أمام هؤلاء الموجودين هنا ؛ وأنت إذا لم تكن صائما فتعال إلى بيتى ، وسوف أعد لك إفطارا ؛ ثم نذهب بعد أن نتناول الإفطار لمعاينة البئر ؛ ولكن فيما يتعلق بسقوط الجدار ، فهذا من الله ، وليس بيد الإنسان ."كان مغشيا على من الجوع ، وكان سلاحى مربوطا فى ردائى، وعندما سمعت أنهم سوف يأخذوننى لتناول الإفطار ، نهضت لمرافقتهم . قال البدو : "يجب أن تثق فيما نقول ؛" ومع ذلك جذبتنى زوجة محسن من كم جلبابى لتهمس لى قائلة ، "يا خليل ، نحن نعرفه – إنه شيخ كبير ، ومع ذلك قد يكون هنا من أجل اقتيادك إلى الدمار : احترس منهما ، "إفتح iftah "عيونك ayûn-ak " بمعنى "افتح عينيك" لأن التيامنة كلهم خونة ."

بينما كنا نقترب من نهاية قرية تيماء ناديته قائلا : "يا حسن ! هل أنت قادر على الدفاع عنى إذا ما قدر لنا أن نلتقى أحدا من الأشخاص الأشرار ؟" وهنا رد على حسن بابتسامة ماكرة ، ومن باب الخروج من مغامرة للدخول فى مغامرة أخرى ، وباستخدام العبارة السامية Semitic التى تميز كلامهم ، رد قائلا : "ليس هناك ما يمكن أن تخشاه أو تخافه ، وأنا أضع كل هؤلاء الناس فى بطنى ." وعن طريق

حارات البلدة وصلنا إلى عتبة دار حسن الكبيرة . جلسنا فوق سجادة تركية زاهية الألوان ، فى الفناء الذى يقع أمام قهوته ، وتحت تكعيبة كبيرة من تكعيبات العنب ، التى كانت أذرعها الممتدة تشبه غابة أمام اخضرار أشعة الشمس : ودخل علينا جار واحد أواثنان . وصبوا على يدى ماء من الإبريق ábrik ، ووضع المضيف أمامى صينية من التمر الذى يطلقون عليه اسم "الحلو" – هذا النوع من التمر يسيل منه سائل حلو يشبه العسل – أحضروه لى وهو ساخن بفعل أشعة الشمس ومعه بعض من الرمان .– تعجبوا عندما رأونى آكل دونما اعتبار للصيام العام ، ولكنى استرضيتهم عندما قلت : "أما Imma أنا ana مسافر musafir " بمعنى "أنا على سفر ." أبتسموا عندما أخبرتهم بأن البدو لا يثقون بهم ، فيما يتعلق بى ، وقلت لهم أيضا : "الحال هنا يشبه البدو ! ولكن ، يا خليل ، ليس لديك هنا ما يمكن أن يخيفك ، بالرغم من وجود بعض العقول بيننا مثلما هم بين البدو ؛ ولكن أصحاب مثل هذه العقول يخشون الشيوخ ، وهم عندما يرونى معك ، "خلاص" ! khalas بمعنى "انتهاء الخطر وزواله ."

اتجهنا صوب البئر الكبيرة ، حيث سمعت عندها أصوات كثير من الشبان والبدو العاطلين – "انظروا ، ها هو قادم ، انظروا إنه الكافر ! هل سيقتله الشيوخ ؟ أليس هذا الكافر هو الذى تسبب فى انهيار الحدّاج (البئر) ؟ أم أنهم سوف يكلفونه ببنائه من جديد ، ويكافئونه على ذلك ، وهم يقولون ، إن البئر عندئذ سيكون أفضل مما كان عليه من قبل ." رجانى حسن ألا أعير كلام هؤلاء الأوغاد أى قدر من الاهتمام ؛ وعندما مررنا حول البئر ، تركنى حسن هناك ، وقال لى إن أحداً لن يجرؤ على إصابتى بأى أذى . هذا الرجل الذى يشبه الفراشة الشجاعة ، والذى يضع على رأسه غترة زاهية الألوان قيمتها ريال واحد ، لن يُرى بعد ذلك بصحبة الكافر .– لم يكن ذلك من قبيل الأمانة : ذلك أن الأمر عندما يتعلق بالدين ، فإن الشجاعة الفردية تختفى من تلك الشهامة المظهرية ، إذ يصعب على فرد واحد الوقوف فى وجه الجماعة . من هنا اقتربت من بعض كبار السن الذين كانوا جالسين يتفاهمون تحت إطار واحدة من السوانى (السواقى) : وعندما ألقيت عليهم السلام ، حيونى هم بدورهم بتحية معقولة ؛ وسألتهم إن كان هناك خطر فى تنقلى خلال البلدة؟ "لا تشك فى أى شىء ؛ وقالوا لى ، ادخل واخرج ، حسبما يحلو لك فى كل دروب وطرق تيماء ، ولا تلقى بالا لكلام أولئك

الشبان الأغبياء ." – لقد ذهب الشمرى ، يحمل رسالة "للأمير" ؛ ولذلك استدعى كبير الشيوخ فى تيماء (فى عهد بن الرشيد) وهو الشيخ خلف khalaf العمَّر el-Ammr. – هذا الشيخ أمير (عند العرب) ، وهو بيده الأمر amr : من هنا يصبح معنى "أمير emir القافلة el-káfila " "حاكم قافلة مدينة عربية" ؛ والعرب يقولون شيئا مماثلا فى السلاح أيضا : "أمير emir العشرة" ويقولون أيضا "أمير emir مائة" . وقف البدوى على استعدادى للقيام بالمطلوب ، ولذلك قدم لهم الحجة التالية ، "بئرهم القديمة كانت من عمل الكفار القدامى ، وخليل كافر ، ومن ثم يصبح خليل هو الأفضل فى عملية إعادة بناء الحدّاج (البئر) ."

سألت من يدلنى على الطريق المؤدى إلى دار عقيل Aj(k)eyl ، الذى كان واحداً من أولئك التجار التيامنة الذين كانوا يحلون ضيوفا على القلعة (قبل موسم الحج) فى مدائن صالح . كان ذلك الرجل قد عرض على بشىء من الود ، أن أقيم فى منزله إذا ما تصادف أن ذهبت إلى تيماء . وهكذا شدنى كلام ذلك الرجل الطيب ، كما أقنعتنى تلقائيته بصدق ما يقول . ومع ذلك رجانى البدو أن لا أثق بعجيل ، "إنه آدمى أسود القلب يمكن أن يقتلنى فى منزله من أجل ذلك الذهب " أو معدن النقود ، الذى يتصور أهل الجزيرة العربية أنه بحوزة كل غريب من الغرباء . كان زيد قد قال لى من قبل : "قتل عجيل أخيه ، فى نزاع على قطعة من النقود !" وأردف ذُريح Therryeh قائلا : "احترس من هذا الرجل ، لأن عجيل جلف بحق ." – هنا قال زيد كلاما طيبا : "أنت إنسان ساذج تماما ، يا خليل ، إذا لم تستطع بالفعل تمييز كل ذلك والوقوف عليه ، حب النقود هذا يستحوذ على الأعراب قبل كل الأشياء الأخرى : وأنت إذا ما أخذت ذلك بعين اعتبارك ، فلن يخدعك أحد أبداً ؛ صدقنى ، إن أى إنسان عندما يربط نفسه بنصرانى ، فذلك يكون على أمل الحصول على شىء من المنفعة . زد على ذلك ، أن من الصعب عليك قطع المسافة من هنا إلى جبل غنيم Ghreneym ؛ ومع ذلك لابد لك من فعل ذلك ، – وأنا أقولها لك ، يا خليل ، إن بوسعك أن تنتقل فى ديرة الأعراب عن طريق الطُّعْمة Toma فقط !" – أى عن طريق إلقاء بعض اللقيمات التى تقلل من جشع الأعراب الفظيع .

ذهبت عندئذ لأتبين بنفسى ، بعد الوعود التى سبق أن أعطاها عجيل ، إن كان بوسعى أن أسكن أو أقيم فى غرفة من غرف منزل عجيل : "أجابنى عجيل ، كل الأماكن مشغولة ، ولكنه سوف يتحدث مع والده فى هذا الموضوع ."- اقتادنى شاب من أهل البلد لزيارة أمه المريضة . وفى دار أخرى ، من الدور الكبيرة ، وجدت هذه المرأة مستلقية على الأرض وتعانى منذ مدة من مرض من أمراض الحويصلات ، الذى لا شفاء منه سوى بالموت . وعدنى ظاهر رب هذا البيت بمبلغ كبير إذا ما شفيت هذه الزوجة العجوز ، وسوف يسمح للحكيم بالإقامة فى منزله ؛ ولكن وجه ذلك الرجل كان يوحى بالكآبة والغلظة ، كما أن عينيه كانتا توحيان بالعنف ، مما جعلنى أفكر مليا فى مقصده المتشدد (كما لو كان يريد أن يدخلنى فى الإسلام عنوة وبالقوة) ، إلى حد أننى استطعت ، عن طريق الاعتذار اللطيف المهذب ، أن أخرج من المنزل مرة ثانية وأغادر المنطقة المجاورة له عن آخرها .- اقتادنى شخص آخر للكشف على امرأة أخرى كانت تعانى من مرض الاستسقاء فى منزل قريب من الحدّاج (البئر) ؛ كانت المرأة ترقد (متورمة على نحو جعل أولئك الذين كانوا بصحبتى عندما دخلت إليها ، يسخرون من ذلك التورم) تحت نخلة ، صنعت منها صديقاتها مظله لتلك المرأة . ووعدت هذه المرأة بدفع أجر الحكيم إذا ما جاء شفاؤها على يديه . وأنا عندما كنت أزور المرضى كنت أهدف من وراء ذلك إلى تخفيف ذلك الطبع الوثنى عن طريق الإحسان المسيحى ؛ ولكنى توصلت إلى أن كل ما يمكن أن أفعله ، سيكون بلا طائل ، وأنه قد يكون خطر على أن أبدد جزءا من كمية الأدوية الصغيرة التى فى حوزتى ؛ - علما بأن هذه الأدوية هى بمثابة جواز سفرى أو إن شئت فقل : مرورى الوحيد فى حالة فشلى فى هذا البلد المعادى .

هذه أم شابة، ما تزال فتاة رشيقة ، أحضرت إلى طفلها وطلبت منى أن أتفل على عينى ذلك الطفل الملتهبتين ؛ هذه العادة ، أو إن شئت فقل : الرأى السامى Semitic الذى هو من صميم العادات والتقاليد ، وقفت عليه بعد ذلك فى الأماكن كلها التى زرتها فى الجزيرة العربية.- هؤلاء هم بدو المطير فى القصيم، أحضروا لي بعضا من خبزهم، وشيئا من ملحهم ، كيما أتفل عليه من أجل أن يعالجوا به أصدقائهم المرضى . - وسرعان ما حذت نديمات هذه المرأة الشابة ، حذوها ورحن يطلبن منى الشىء نفسه ،

وعندما أنبتهن على تلك الخرافات أجبن بأن "هذا هو العرف السائد هنا منذ أزمان سحيقة ." – يضاف إلى ذلك أيضا أن أهل الجزيرة العربية يتفلون على كالون الباب الذى لا ينفتح بسهولة .

استأذن عجيل منى قائلا : "إن امرأة بدوية من معارفهم قد حلت عليهم ضيفة منذ الأمس ، وأن تلك البدوية شغلت الغرفة الوحيدة الشاغرة عندهم ، وأن مسألة طرد الضيف يمكن أن تصيبه بالأذى : ومع ذلك ، فإنه سوف يساعدنى ويقدم لى يد العون ، حتى لا يخدعنى أحد فى البلد ، إذا ما ذهبت لشراء أى شىء من الأشياء ." ومع ذلك ، وعندما كنت أشترى منه قمحا فى يوم من الأيام ، فإن عدد الصاعات التى أعطانى عجيل إياها لم تكن مملوءة تماما .

خطر ببالى أن أقيم فى منزل خلف Khalaf، وأن ذلك سيكون من الأفضل والأحسن . وكان خلف قد تكلم عن موضوع قيامى بإعادة بناء الحداج (البئر) ؛ وكان يوسعى حل هذه المشكلة البسيطة ، إذا ما أحسست بالانتعاش إلى حد ما ، – عملية تسوير بئر الماء تسويرا متينا ، أكثر من ذى قبل ، وأترك لهم هذا العمل ليكون تذكارا لهم بمرور رجل مسيحى على بلادهم ؛ يضاف إلى ذلك ، أن التقرير الطيب الذى سيصدر من أهل تيماء ، عن هذا العمل ، سوف يفتح البلاد أمامى . كان خلف ومعه بعض رجال أسرته وبعض الضيوف جالسين مربعين على المصطبة أمام بيته فى الشارع ، وكانت فوق تلك المصطبة مظلة مصنوعة من جريد النخيل ، وكان الجميع ينتظرون غروب الشمس ، حتى يمكن أن يدخل بعد ذلك لتناول طعام الإفطار . وجدت فى خلف رجلاً نحيفا طويلا معتدل المزاج ، تجاوز مرحلة منتصف العمر ؛ كما وجدت فيه أيضا طيبة التسامح وانفتاح فكرى يليق بشيخ من الشيوخ : كان خلف رب أسرة حصيفا ، كما أنه كان زائد الكرم . كان كل عالم هذا الخلف يتمثل فى هذه القرية الصغيرة من قرى النخيل ، فى تلك الصحراء الشاسعة ، ويتمثل أيضا فى بلدة حائل التى كانت عاصمة لهذه القرية ، كما كان سكان مدينته أقل عددا من طاقم سفينة من السفن الكبيرة ، ومع ذلك كان يبدو عليه الفهم والتفتح، ولا تبدو عليه الوقاحة الفطرية ، هذا يعنى أنه كان يبدو نبيل السلوك (من ناحية مجتمع الذكور) ؛ وملمح نبل السلوك هذا يمكن الوقوف عليه فقط بين الأفاضل من السلالة العربية . والعرب لم يكونوا همجا

فى يوم من الأيام ، وإنما هم من عرق نقى يبعدهم عن الهمجية والبربرية ؛ والعرب عندما يخرجون من بساطتهم العربية ويدخلوا خلية حياتنا المدنية (كما هو الحال فى بومباى) ، فإن أقدامهم لا تكون أقل ثقة من أقدام الآخرين ، وبالتالى يبدعون فى الرواج هنا شيئا فشيئا .

جلست فى صحبة خلف ، ولم نتحدث فى شىء ، بعد تبادل التحية ، إلا بطريقة طفيفة تماما ؛ والسبب فى ذلك أن الجميع كانوا متعبين من الصيام . وعندما هممت بالانصراف أشار لى إشارة ودية وطلب منى البقاء معه : وأثناء غروب الشمس ، وعندما نهض خلف واقفا ومعه الآخرين ، اقتادنى معه إلى داخل منزله ، لشرب القهوة ، وقال لى ، لقد دخل علينا المساء ؛ كان المنزل من الداخل عبارة عن فناء جميل ، وكان البيت مُلَيّسًا من الداخل بالجبس Jiss ؛ جلسنا أرضا فوق بسط طويلة أمام وجار القهوة ، المطلى باللون الأبيض أيضا ، على الطريقة النجدية ، والذى وقف عنده بالفعل عبده الذى كان يعمل على شب النار ، وتصليح القهوة ؛ – سيكون ذلك أول انتعاش لخلف وأهل منزله ، بعد غروب الشمس . وفى قرى نجد ، يرى الناظر إلى وجار القهوة مجموعة كبيرة من دلال القهوة منها الكبير ، ومنها الصغير ، وهم يستعملون تلك الدلال لحفظ المتبقى من القهوة السابقة ، ويتناقلون ذلك المخزون من دلة إلى أخرى . وهم جالسون حاليا ، وأمعائهم خالية ، وكلهم يراقبون ضوء الشمس الذى يختفى رويدا رويدا خلف أعراف النخيل ، إلى أن سمعنا صوت المؤذن ، وهو يرفع الآذان لأداء الصلاة . عند هذه المرحلة فقط يصبح بوسع الشخص المتدين أن يضع فى فمه لقمه من الطعام ويقوى نفسه ؛ وعلى الفور بدأ تقديم القهوة ، وبعد أن تناول كل واحد منهم فنجالا واحدا ، بدأ يفرد عباءته أمامه فى اتجاه القبلة ، وراح يؤدى الصلاة . بعد أداء الصلاة ، يجرى تقديم الوجبة الأولى التى يطلقون عليها اسم الفطور Futur ، أو إن شئت فقل : الإفطار ؛ كان الإفطار فى منزل خلف عبارة عن عساليج من التمر الطازج الذى جرى إحضاره من النخلة . تناولوا الطعام ، بالرغم من أنهم كانوا يعانون من العطش طول النهار ، ولم يشربوا ماءًا طوال تناول الطعام ؛ وبعد التمر وضعوا أمامنا شرائح من بطيخة كبيرة ولكنها عديمة الطعم ، وهذا النوع من البطيخ يشيع فى تيماء فى فصل الخريف .

كان معنا شابان من تبوك حلاً ضيفان على تيماء ، وكانا يرتديان ملابس العطلة ؛ هذان الشابان جاءا إلى تيماء لابتياع شيء من التمور في موسم الحصاد . أخبراني أنه "لا توجد في هجرتهما (قريتهما) بئر تحمل اسم سيدنا موسى ." – هذان القرويان المسكينان ينسبان نفسيهما إلى بني Beny صخر Sókhr ، الذين كانوا سادة لهذا البلد الشاسع في يوم من الأيام . وهما لا يعرفان السبب الذي جعل الناس يطلقون على عشيرتهما اسم الكعباني kaab'ny، "اللهم إلا إذا كان ذلك الاسم نسبة إلى الكعبة في مدينة مكة ." وهم يقولون : إن المسافة من تبوك إلى الوجه ، أو إلى تيماء أو حتى مدينة معان Maan ،– هذه المسافة تقدر بحوالي خمسة رحلات والإبل مُحمَّلة . هؤلاء القرويون يحصلون على ما يحتاجونه من الأرز من بلدة الوجه ؛ ولكنهم يقولون إن القمح والملابس (السورية) أفضل في بلدة معان . وقالا لي أيضا أن الأرض فيما بين تيماء والقرية التي جاءا منها عبارة عن خلا (صحراء) ليس فيها أي مجرى من مجاري السيل .– جلس معنا أيضا ذلك الشمَّرِّي Shammary ، وراح يتحف الجماعة بالحكايات التي كان يرويها عن ترحاله وأسفاره ؛ وهو يتفاخر بأنه استطاع الوصول إلى شعب كان يعبد الشيطان Sheytan ويعبد الشر the Evil أيضا ، وأنه سمعهم يتلفظون بالكلمات التالية : "اتركني وشأني ، حتى أنكأ الله بهذا الرمح وأخرجه من عرشه في السماء !" وراح هذا البدوي يضحك ساخرا من ذلك التجديف ؛ وهنا رد عليه جمهور القرويين وهم مكشرين عن أنيابهم ، غيظا وحقدا على ذلك الكلام ، "إخص akhs ! إخص ! akhs ! " ثم وصلت بعد ذلك ، في ساعة متأخرة من المساء جماعة من بدو الفكارة مكونة من ثلاثة أفراد ، وريد Weyrid وجلوِّي Jellowwy ، وفريع Feraya ؛ هذه الجماعة وصلت بعدنا ، ولما كانت تجمعنا بهم معرفة سابقة فقد جلسنا نشرب القهوة حتى ساعة متأخرة من الليل . ولم يكن من المناسب لي الخروج من المنزل في الظلام ، لغياب القمر ، بحثا عن رفيقي البدوي الذي لم أعرف إلى أين ذهب ، وهنا أثرت الرقود على الأرض ، متخذا من ذراعي مخدة ، أملا في قسط من النوم بجوار وجار القهوة . كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل عندما صحت الجماعة لتناول وجبة السحور ، كانت تلك الوجبة عبارة عن تمر ليس إلا ، – هذه تغذية بالغة السوء ؛ وبعد تناول السحور عاد العرب مرة أخرى إلى النوم على الأرض في بَرَاد النجوم ، إلى

أن طلع نهار صوم اليوم التالى ، وعندها نهض الأعراب لأداء الصلاة . تحدثت مع خلف فى الصباح ، وقال لى : إنه "سيعطينى غرفة فى منزله ، فى غضون يوم أو يومين :"- وأردف قائلا ، إن الغرفة فى الوقت الحالى "عبارة عن مخزن ، ملىء بالقمح ، الذى قالت زوجته إنه لا يمكن إخلاؤه من الغرفة فى الوقت الراهن ." - وربما يكون من رأى حريمه الذى يؤمن بالخرافات أن مسألة إيواء نصرانى فى المنزل ليست من حسن الطالع .

المكان الوسيع حول الحدّاج (البئر) يستعمله الناس ميدانا عاما . ويفد إلى ذلك الميدان العام المواطنون الذين يأتون من الصحراء ، وهم يرتدون ثيابهم الجديدة ، ويحملون سيوفهم فى أيديهم ، وذلك عندما تنحسر حرارة الشمس فى فترة العصر ، يأتون إلى هذا المكان ليجلسوا ساعات طويلة على ضفاف الحداج (البئر) المبنية من الصلصال ؛ يضاف إلى ذلك أن هذا المكان يتسكع فيه البدو الغرباء العاطلون فى الواحة . وقد صادفت ، فى أحيان كثيرة ، فى ذلك المكان كثيرا من الرجال الذين كانوا من الصنّاع : سألنى واحد من هؤلاء الصنّاع : "قال ، ألم أراك فى سوريا ؟ كان ذلك من حوالى عام فى كرياتين Keriateyn ." (أى آخر بقعة مأهولة بالسكان قبل بالميرا Palmyra) . ذات يوم عندما تجمع حولنا عدد من الناس راح ذلك الصانع يتكلم عن دين النصرانى ؛ قال للحاضرين ، إن أفراد قبيلته بينهم وبين النصارى على الحدود السورية ، معاملات يومية : "وأنتم من حقكم أن تثقوا بهم قبل الناس جميعا ، ونحن عندما نكون معهم وبينهم ، تراهم يقولون إذا لم يقم أحد من الرجال للصلاة عند قيامها : "جوم Gom صلِّ Sully على ala دينك dînak يا مسلم Ya Musslim : جوم Goom يا ! Yâ صلِّ ! Sull " بمعنى "انهض ، يا مسلم ، وصلِّى للرب حسب دينك ؛ هيا إلى الصلاة ، أيها الرجل ، اذهب ، صلِّ !" وهم لا يثقون بنا فى غير ذلك ." عرَّج ذلك البدوى ، بشىء من التفاهم ، على الطابع غير الاجتماعى فى توأم العقيدة الدينية . قال البدوى : "الذى يفصل بيننا هو شىء صغير ؛ فهم يؤمنون بالله وبالأنبياء ، ولكنهم لا يعتبرون محمداً نبيا من عند الله: وسبب ذلك عندهم ، على حد قولهم، أن كل الأنبياء القدماء كانوا من سلالة بنى إسرائيل ، ولكن محمداً من خارج هذه السلالة ، وليس أيضا من سلالة الأنبياء ." وكرر ثانية إنهم إناس طيبون ، وراح يردد تلك الكلمة

الإسلامية الشهيرة الشائعة ، "تعشى مع اليهود (إذا ما وصلت إلى بلاد الكفار) ولكن نم تحت سقف النصارى ." هذا الرجل ، جاء إلى هذا المكان منذ عامين ضمن جماعة من أفراد قبيلة العنزى المساكين ، الذين يطلقون على أنفسهم اسم السُباع es-Sbáa ، والذين تمتد أراضيهم التى يتجولون فيها من شمالى سوريا حتى مدينة حلب . كانت قبيلة ذلك الرجل من العنوز القدامى الذين عاشوا فى منطقة خيبر ، يضاف إلى ذلك – أن حقوق البدو فى تملك الأرض ، لم تسقط حتى الآن بالرغم من تخلى هؤلاء البدو عن تلك الأرض منذ مدة طويلة – لقد جاء أولئك السباع للتجوال فى الجنوب مع البشر Bishr، وبذلك يتسنى لهم أن يأكلوا من نخيلهم فى خيبر : وها هم السباع عائدون حاليا إلى سوريا ، ولذلك دعانى ذلك الرجل إلى مرافقتهم فى رحلتهم إلى سوريا .

عثرت على غريب آخر جاء من قرية العلا للعيش فى تيماء ، هذا الغريب اسمه سليم Selim ، وهو من المنفيين بسبب قتل واحد من الناس ، ومع ذلك كان الرجل يستلم كل عام حصة من التمور . ذات يوم ، وبينما كنا نتحدث فى فناء عجيل ، أصر جريض Greyth ، ولد العجيل ، وهو من النوع المتشدد ، أصر على أن النصارى "هم أبناء عمومة (قبليون) اليهود ."– "لماذا سوء القصد هذا ، يا أبا عجيل ، أهذا فقط لأن اسمى من دين آخر غير دينكم ! تدبر أيها الرجل ، ألم أولد على ذلك الدين بناء على رغبة من السماء (الله) ؟ وأنت إذا ما استطعت أن تثبت لى أن دينك يمكن أن يفيد الإنسان أكثر من دينى ، فسوف أدخل فى الإسلام وأصبح مسلمًا . نحن لسنا يهود ، ولكن صدقنى ، يا أنت ، يا من يجهل هذه الأمور ، نحن سلالة من والد واحد ، ولسان واحد" – مع من ؟ أقول مع اليهود ." تراجع جريض Greyth! وهنا تحولت إلى سليم Selim الشبيه بالزنوج ، ويعرف القراءة والكتابة ، وقدم هو الدليل نيابة عنى من كتابهم المقدس ، وكان ذلك الدليل يبين السلالات التى انحدرت عن آباء العالم الجديد سام ، وحام ، ويافت .

كان هناك حداد شاب اسمه سيدان Seydan استطاع الوصول إلىَّ ؛ وكثير من أهل الجزيرة العربية وبخاصة الصُنَّاع منهم ، يحسبون أن بوسعهم تعلم حرفة من النصرانى ، والسبب فى ذلك أن الصُنَّاع من أهل الجزيرة العربية يسلمون بأن الفنون والمعرفة تنبع منا . هذا الحداد الشاب ، جاء إلى هنا بصحبة أسرته ، قاطعا المسافة

سيرا على الأقدام، وقادما من بلدة حائل مسقط رأسه، ليستقر فى تيماء ويعيش فيها . كان ذلك الحداد من بين أولئك الذين توقفوا فى القلعة فى العام الماضى فى مدائن صالح عندما كانوا فى طريقهم إلى قرية العلا . دخلت ورشة أولئك الصناع كى أُصلِّح قطعة من الصلب حتى يمكن استعمالها فى توليد شرارة مع قطعة من الصوان ، – هذه القطعة ثمنها مرتفع فى ظل الحياة الصحراوية الضعيفة والفقيرة ، وبخاصة فى شب نار الغجر فى الحطب الذى تنبعث منه رائحة طيبة عند الاحتراق : – هناك مثل من أمثال الشتاء يردده الفقراء فى أوروبا ، يقول المثل : "النار نصف الخبز !" الصلب هنا عبارة عن حلقة مقدارها أربع بوصات ، يجرى تقصيرها إلى بوصتين ، ويجرى طوى طرفى القطعة إلى الخلف بعد أن انتهى ذلك الحداد من طرق قطعة الصلب ، كانت الشمس قد أوشكت على الغروب . "قال الحداد الشاب ، نحن لا نعمل طول اليوم فى شهر رمضان !" وينهض الحداد من مكانه ، وقد ابتلت ملابسه من العرق ، ويروح يجفف حبات العرق من على وجهه ، وبينما كان يغلق أبواب ورشته دعانى إلى شرب القهوة معه فى داره. وتجول الرجل معى ليرينى نقشا كان فى منزل واحد من جيرانه . فى ذلك المنزل عثرت على مجموعة قليلة من الأحرف الأثرية القديمة ، كانت على عتبة من الحجر الجيرى ولونها أزرق داكن ، هذه العتبة من النوع نفسه الذى سبق لى العثور عليه من قبل فى تيماء كان منزل الحداد هو آخر منازل البلدة عند الخروج منها ويقع خلف منزل خلف Khalaf مباشرة ، وهو منزل صغير ، ولكنه مبنى بناية جيدة من الطوب اللبن . كان الحداد هو وشقيقه قد قاما فى العام الماضى ببناء ذلك البيت على قطعة أرض كبيرة تجاور الصحراء مباشرة ، وقد بنيا ذلك المنزل بطريقة منازل حائل ؛ لم يعولا كثيراً على العمارة التيماوية .

فى مرة أخرى ، أخذنى ذلك الحداد الشاب إلى مسافة قصيرة خارج بلدة تيماء (ولكن داخل أسوار القرية) فى اتجاه الشرق ليرينى بعض الأعمدة الأثرية العظيمة . وصلنا إلى حقل مساحته حوالى نصف فدان ، بنى عليه من اللبن المسجد الكبير . شاهدت فى ذلك المكان بعض رءوس الأعمدة الكبيرة ملقاة هناك ، كما شاهدت أيضا بعض الأعمدة الملساء ، التى يصل سمك الواحد منها إلى سبع وعشرين بوصة ، وهى مصنوعة من الحجر الجيرى الذى يميل لونه إلى الزرقة ، ولا يوجد (فى رأيى) عمود

مماثل له فى الدائرة المحيطة به . ونحت هذا العمود ليس على ما يرام ؛ ولم أر عليه أى نوع من النقوش . هذه القطع الحجرية الضخمة لا يمكن أن يكون قد تم نقلها على ظهور الإبل . وخطر ببالى أن ذلك ربما كان موقع معبد تيماء القديم ؛ وكم تبهر هذه الآثار كل من ينظر إليها ، وهى تعانى من هجران البشر لها ، ومن الموات الذى يصيب الطبيعة فى الجزيرة العربية ! والغريب الذى يتصادف وجوده فى هذه البلاد يجب عليه ألا يطيل النظر أو يتمعن تلك الأنقاض والآثار ، ومن هنا عدنا إلى المنزل على وجه السرعة .

كان سيدان يحكى لى أشياء عظيمة عن بلدة حائل : كان من رأى سيدان أن هذه المدينة أو البلدة من بلدان الجزيرة العربية (التى يبلغ عدد سكانها حوالى ثلاثة آلاف نسمة) ، بأسواقها المنظمة تنظيما جيداً ، ودورها الكبيرة التى يمتلكها كثير من الأثرياء ، وحياتها المدنية السهلة الميسرة ، وكثرة عدد الأشخاص الذين يتجولون فى المناطق العامة وهم ملفوفين بالشيلان ، ومسجدها العظيم الذى يتسع لهذا العدد الكبير من السكان ، ينبغى أن تكون مثل الشام [أى دمشق التى تضم ١٣٠ ألف نسمة] ! ورحنا نتجول أكثر خلال البلدة ، وخلال المقبرة ونحن نبحث (بلا جدوى) على شواهد القبور عن نقوش أثرية قديمة . كان هناك نقش واحد ما يزال موجوداً على عارضة فى حظيرة إبل عجيل ، ولكن المؤسف أن تلك العارضة سقطت على الأرض وتكسرت ، وأبلغونى أنهم لا يمكنهم العثور على تلك القطع المكسورة ؛ كان هناك أيضا نقش طويل على حجر من أحجار جدران الحدّاج (البئر) التى انهارت بالفعل . [وأنا اعتبارا من كتابه هذا الكلام فى العام ١٨٧٩ الميلادى ، أؤكد ان نقش البئر شاهده كل من هوبر(*) Huber ويوتنج(**) Euting من بعدى بعدة سنوات . ويوتنج

(*) هوبر Huber : رحالة فرنسى قام برحلة فى الجزيرة العربية ، ونشر دراسته عن النقوش التى عثر عليها فى مجلة الجمعية الجغرافية فى باريس تحت عنوان : Inslri ptions recuillirs dans L'Arabie Centrale, Societe Geoqraphie, Paris, 1884. (المراجع) .

(**) يوتنج Uting : عالم ألمانى فى النقوش التذكارية ، سجل رحلته فى داخل الجزيرة العربية فى كتاب نشر فى ليدن فى عام ١٨٩٦ بعنوان : Tagbuch Einer Reise in inner Arabien, Leiden, 1896.

يسلم بأن ذلك النقش ، الذى هو من النقوش الإهدائية ، ومكتوب بالحروف الآرامية شأنه فى ذلك شأن النقوش الأخرى التى اكتشفتها أنا فى تيماء ، قد يرجع تاريخه إلى أربعة أو خمسة قرون قبل المسيح.]

كنا فى بعض الأحيان نقطع مسافة ميل ، خلال أنصاف الأيام الرمضانية ، عبر الصحراء لنصل بعد ذلك إلى واحد من أعمام سيدان ، الذى استطاع بفضل عمله فى مهنة الحدادة، شراء حوطة hauta (بستان) طيبة فى واحة الغرب Ghrerb، أو إن شئت فقل : فى مكان على طرف الواحة من ناحية الغرب . وعندما وصلنا إلى تلك الحوطة ، أو إن شئت فقل : البستان ، أحضر لنا ذلك الصانع ، الذى كان يريد منى شفاء عينى ولده ، ليمونا ورمانا ، وتركنى جالسا فى ظلال شجرة الفاكهة ، ودخل هو ومن معه لممارسة أعمال الحدادة ، فى الورشة التى أقامها هذا الصانع هنا فى منزله الذى يقيم فيه . ذات يوم ، تحدث إلىَّ ذلك الحداد الشاب عن مسألة الكرم فقال : "يا خليل ! هل إذا جئت إلى بلدك ستذبح لى خروفا ، وتعطينى شيئا من النقود ، وفتاة لتكون لى زوجة ؟" قلت : "لن أذبح لك أى شيء ، نظرا لأننا نشترى اللحم الذى نحتاجه من السوق ؛ وسوف أعطيه شيئا من النقود إذا ما كان بحاجة إليها ؛ وإنه يمكن أن يحصل على زوجة إذا ما التزم بقانوننا ؛ وإنه سوف يلقى ذلك الترحيب فى دارى التى أصبحت له دارا وأصبحت لى شرفا وتكريما ". جلسنا فى منزل خلف ؛ ورد علينا الحداد الشاب قائلا : "عجبا لمدى صدق واعتدال كلام النصارى ! قد يكون خليل قد قطع على نفسه وعدًا الآن – شأنه شأن أى واحد منا – بكثير من الأشياء الحلوة والجميلة ، ولكنه قد لا يبر بذلك الوعد ." وأنا من باب مكافأتى لسيدان Seydan سوف أريه عروق حجر الحديد فى الصحراء المحيطة بنا ؛ وقد تعجب عندما سمع أن معدن الحديد يوجد فى تلك الأماكن الضحلة ؛ – ولكن ، كيف يمكن صهر ذلك الحديد ! حديدهم ، الذى يتعين نقله عبر الصحراء مسافة خمسمائة أو ستمائة ميل ، على ظهور الإبل ، من مدن الساحل ، له قيمة غالية فى الجزيرة العربية .

واحة تيماء عبارة عن ثلاث واحات : الواحة الرئيسية ، تقع فى الوسط ، ويطلق الناس عليها اسم الحدًّاج (البئر) ؛ أما واحة (هجرة) الشرق es-Sherg هى وواحة

(هجرة) الغرب el-Ghreb ، فهاتان الواحتان ترويان من أبار القدماء التى يجرى اكتشافها بين الحين والآخر . فى كل هذه الواحات الثلاث ، وباعتبارى "واحداً من رجال الدواء" ، كان لى أصدقاء ومعارف ، وبخاصة فى واحة (هجرة) الشرق Sherg؛ وحينما كنت أدخل كان الناس يفرشون سجادة الضيافة تحت ظلال أشجار النخيل الخضراء أو تحت ظلال أشجار التين : يلى ذلك ، قيام رب المنزل بإحضار الغريب ويقدم له خيارة يرطب بها فمه أو بعض عساليج التمر ، ويطلبون منه أن يأخذ قسطا من الراحة ، بينما ينصرفون هم للقيام بأعمالهم البستانية . – كسب العيش العربى الخالص عملية تسر الخاطر عندما تكون مشاعا أو على مرأى ومسمع من الجميع ، وكسب العيش هذا فيه شيء من الاكتفاء الذاتى فى بعض الأشياء القليلة جداً التى يجرى اختطافها بطريقة عادية جداً عند القيام برحلة من الرحلات ! هذا يعنى أن حياة هؤلاء الناس حياة بسيطة ومليئة بالهموم السطحية . يضاف إلى ذلك أن جهل هؤلاء الناس ليس من النوع المتوحش أو القاتل ، كما أن فقر هؤلاء الناس لا يعد من قبيل الوضاعة والاحتقار . ولكن منازل هؤلاء الناس وقحة وغير منظمة ؛ وبالرغم من مشاعر الحب الطيبة لدى هؤلاء الناس ، إلا أنهم لم يتعلموا بعد الاعتداد بالزهور طمعا فى حلاوتها وجمالها ، كما أنهم لا يلقون بالا لتغريد الطير .

كان من بين هؤلاء الناس شخص يدعى شافى Shafy ، أخذنى ذات صباح قبل طلوع الشمس (حتى نعود قبل ارتفاع درجة الحرارة) ، لزيارة نقش أثرى قديم فى الصحراء . وبعد مسير حوالى ميل ، سألنى شافى إن كنت ربَّاعا جيدا ، – "(قال) بالرغم من أنى تخطيت سن الشباب ، إلا أنى بوسعى أن أسابق الناقة وأتغلب عليها ؛ وها أنت سترى بعينيك كم أنا خفيف الحركة ،" وأخذ شافى يجرى مبتعدا عنى . وبينما كان شافى بعيدا عنى ، اقترب ناحيتى رجل كان يحمل فى يده عكازًا عربيا ؛ كما أبصرت أيضا خيالاً جاء من تيماء للقائى . وهنا تمنيت لو أنى لم أصل إلى هذه المسافة وأنا أعزل بلا سلاح . كان هذان الرجلان من أهل الواحة الشرقية ، بالرغم من أنهما كانت تبدو عليهما البداوة ، وكان هذان الرجلان قد جاءا إلينا لمعرفة ما إذا كنا

قد عثرنا على كنوز أم لا. جاء الخيال يعدو بحصانه وفى يده حربة طويلة؛ وهنا تبين لى أن الفرس التى كان يركبها ذلك الخيال كانت تمشى على ثلاثة أرجل فقط ! أما رجلها الرابعة فكانت مربوطة فى جزء منها . ضحك الحاضرون ، ولكنهم قالوا الفارس "عطا الله Atullah" "فرسه من أحسن السلالات، والله، وأنه جاء فى هذه الساعة المبكرة لاستنشاق الهواء ؛ كانت تلك الفرس تلد لذلك الرجل مهراً أو فرسا ." كان النقش الذى جئنا من أجله عبارة عن نحت بدائى باللغة العربية . ولما كان عطا الله رجلاً ثرياً ، ورب أسرة من الذين ينعمون برغد العيش ، فقد كان يود منا العودة معه . كانت بساتين ذلك الرجل من أفضل بساتين تيماء : وإلى جانب هذه الثروة ، عثر ذلك الرجل فى الفترة الأخيرة على فوهة بئر قديمة بالقرب من المكان الذى يعيش فيه فى الصحراء . أحضر لى هذا الرجل الثرى سلة كبيرة ملأها بأفضل أنواع الفاكهة ، وطلب منى أن أتردد عليه مرارا .

حيثما كنت أتجول فى الواحة كنت أشاهد بعض المبانى البدائية ، المبنية من نوعين أو ثلاثة أنواع من الحجارة ، ومسقوفة بالعصى والطين . هذه المبانى عبارة عن مواقع لحملة البنادق ، وكل مبنى من هذه المبانى لا يتسع إلا لرجل واحد يرقد مستلقيا على صدره . وعند طرف هذا المبنى ، أو إن شئت فقل : الموقع ، هناك مسند يضع الرامى عليه بندقيته ، كما يوجد أيضا وعاء من الصلصال خارج الموقع ، تقوم الحريم قبل طلوع الشمس بملئه بثلاث قراب من الماء . وهذه هى الطيور البرية ، التى تحوم عاليا فى الهواء ، تقع أبصارها على الماء المتلألئ ، تنقض عليه لتشرب منه بعد المسافة الطويلة التى جاءت منها أو قطعتها ؛ والناس هنا "يعمرون" البنادق بقطع صغيرة من الحجر . واقع الأمر ، أن القرويين الذين ليسوا من بين العمال يصطادون من هذه الطيور ، حوالى خمسة طيور ، حتى الفترة إلى ما قبل دخول وقت العصر ، ثم يعودون إلى بيوتهم لشرب القهوة ويحسبون أنهم مضّوا يوم عطالتهم : وقد وجدت أن كل الطيور الميتة كانت عبارة عن صقور حوّامة وصقور عادية ومن طيور الرَّخام ، خلاصة القول : أن هذه الطيور كانت من الطيور الجارحة والمفترسة ، – ومع ذلك يندر على

الإنسان أن يرى تلك الطيور وحيدة فى الصحراء. سألت بعض الحاضرين: "هل تأكلون لحم هذه الطيور ؟" – "إى بالله ، نحن نأكل لحومها ، وإلا لماذا نصطادها؟ وإذا لم تكن لحومها جيدة ، فهى أفضل ما يتيسر لنا ؛ وما لا نأكله نحن نعطيه للحريم ، إذ إن الحريم يرضى بأى شىء ويكفيه أى شىء ."– والتيامنة ملامون لأكلهم الطيور الخسيسة ؛ ذلك أن غالبية البدو تعاف نفوسهم أكل هذه الطيور . ولذلك سهلت على الإجابة عندما لامنى أهل الجزيرة العربية على أكل النصارى للحم الخنازير . "إذا كان الله يأمركم بشىء ، فيجب عليكم الحفاظ على ذلك الأمر والإلتزام به ؛ وها أنا أراكم تأكلون الغربان والحدأن ، كما تأكلون لحم النسر الذى يأكل الجيف والرمم . البعض منكم يأكلون البوم ، وبعض آخر منكم يأكلون لحوم الثعابين ، وأنتم جميعا تأكلون السحالى ، وتأكلون الجراد ، فضلا عن أكل الفئران أيضا ؛ والكثيرون منكم يأكلون لحوم القنفذ ، وفى بعض قرى (الحجاز) يأكل الناس الجرزان ، وأنتم لا يمكن أن تنكروا ذلك ! أنتم تأكلون أيضا لحوم الذئاب ، ولحوم الثعالب وكذلك لحوم الضباع ، وخلاصة القول ، ليس هناك من شىء دنيئ إلا وتأكلون لحمه ." هؤلاء الشبان القرويون يزجون وقتهم فى استعمال البنادق فى الصيد . تراهم يحملون بنادقهم الطويلة طوال ساعات طلوع الشمس ، ويتجولون بين طرق البساتين ، مهددين بذلك أرواح العصافير التى تقف على أفنان النباتات . وها هى أصوات طلقات هؤلاء الشبان تتردد أصداؤها من حولك ، بل إنك تسمع أيضا أزيز تلك الطلقات وهى تمر من فوق رأسك . هنا فى تيماء ، يصطاد هؤلاء الشبان ، فى مواسم محددة ، بعضا من الطيور المهاجرة التى تجئ إلى هذا المكان . ولقد شاهدت هنا بعض الطيور المائية البيضاء التى لها أعراف فوق رءوسها ، كما شاهدت أيضا طيور الغرنوق ، أو إن شئت فقل : طيور الكركى ، التى يطلقون عليها هنا اسم "السعدى" Saady ، والتى يصطادها أولئك الشبان من مزارعهم ، فى هذا الموسم ؛ هذه الطيور المرهقة حطت عند برك مياه الرى . والعرب هنا يحسبون أن هذه الطيور المائية العابرة تأتيهم من أراضى بلاد الرافدين المروية (التى تبعد عنهم مسافة أربعمائة ميل .) هذه الطيور تعود إلى أوطانها فى فصل الربيع. وعندما كنت فى قرية الطور Tor تلك القرية التى تقع على ساحل جزيرة سيناء،

فى شهر مارس من العام ١٨٧٥ الميلادى ، شاهدت سربا من تلك الطيور ، قادما من ناحية البحر ، كان ذلك السرب مكونا من عدد لا يحصى من الطيور بيضاء اللون ، – وأنا لم أستطع تميز تلك الطيور إن كانت من طيور اللقلق أو طيور الرَّاخام ؛ كان ذلك السرب يمر من فوق رأسى متجها شمالا .

فى الوقت الذى كان البعض فيه مستاءا من النصرانى لأنى لم أراعى حرمة صيامهم، كان هناك بعض آخر يدافع عنى، "ولكن لماذا يتعين علينا أن نقسوا عليه، فى الوقت الذى ، بالله عليكم، لا يصوم فيه نصف البدو ، الذين تقول عنهم إنهم مسلمون ؛ خليل مولود فى إطار دين غير ديننا ، وهم يصومون فى أوقات أخر . أليست النصارى هم أهل الإنجيل ، الذى هو أيضا كلام الله ، بالرغم من إبطاله بعد مجىء القرآن أو إن شئت فقل : الفرقان el-Furkan . " – وأنا فى المدينة (المنورة) سمعت كتابهم إلى جانب "الفرقان" Furkan ("القراءة التى تفصل عباد الله عن الجهل الدنيوى") ، التى يشيع بين الناس هنا تسميتها "الختم" el-Khtam، وقد مد الناس هذه الكلمة لسهولتها، لتشمل أى كتاب ؛ إذ إنهم هنا لا يعرفون غير الكتب الدينية . وبينما كنت أتجول فى البلدة ، كان بعض الناس يطلون علىَّ من أبواب منازلهم ويدعونى إلى الدخول ؛ وبينما كنت أجلس وأروح أتحدث معهم ، كانوا يقدمون إلىَّ التمر ؛ – وفى البداية ، وارضاء منهم لضمائرهم كانوا يسئلونى "هل أنت مسافر ؟" .

كانت خيام كل من محسن وصالح ، وكذلك خيام الأسرة البدوية ، منصوبة فى بستان من بساتين ذلك البدوى الفجيرى ، الذى استضافنى فى فصل الربيع ، عندما ذهبت مع زيد لزيارة تيماء . ونظرا لوجود الإبل فى الصحراء ، فقد انتقل هؤلاء الناس على ظهور الحمير التى استعاروها من معارفهم ؛ وقد جرى العرف ، أنه إذا ما طلب إنسان حمارا من قرى الجزيرة العربية (بالرغم من أنهم لا يسمحون بتأجير الحمير) أن لا يرفض مثل هذا الطلب . أما أنا فقد قمت بنصب خيمتى الصغيرة إلى جانب خيامهم ، بالقرب من أسوار الواحة فى تلك الحوطة (البستان) . كان فى تلك الحوطة حقول القمح ، وقلة قليلة من أشجار النخيل المحملة بالثمار ؛ ومع ذلك لم يكن البدو ولا

أطفالهم يمدون أيديهم على التمور التى لم تسقط بعد من النخيل . وبعد أن نفد آخر ريال مع محسن ، لم يكن على بيِّنة من المدة التى يمكن أن يبقى خلالها فى تيماء ؛ – وهذه هى المفاجآت التى تواجه كل البدو الفقراء ! إذ يتعين على هؤلاء البدو أن يطرقوا أبواب الناس فى قرية السوق ، ليتبينوا "أولئك الذين يمكن أن يقدموا لهم خيرا" ويقرضونهم نقوداً بزيادة ثلاثين فى المئة عن سعر السوق ، إلى أن يجىء المدد ، والذى يتمثل هنا فى الصرة Surra " التى يحصل عليها هؤلاء الناس فى موسم الحج . اشترى محسن بالأجل ثمار نخلة طيبة فى الحقل الذى نخيم فيه ، كى يسد رمق أطفاله بتلك الثمار طوال هذا الشهر ؛ وكان هؤلاء الأطفال ، كلما أحسوا بالجوع يتسلقون النخلة ليأكلوا من ثمرها .

كان محسن رجلا مريضا ، وكان الصيام متعب له تماما ، إذ كان الصيام يحول بين البدو وبين غلاييهم طوال نهار اليوم ، كما كان يمنعهم أيضا عن قراب الماء طوال النهار أيضا ؛ وكان من عادة هؤلاء البدو ، فى شهر الصوم ، أن يناموا اعتبارا من طلوع الشمس ، ولا يغيرون أماكن نومهم إلا بحثا عن الظل ، ويستمر ذلك النوم إلى ما قبل العصر بفترة وجيزة . لم تكن حرارة الصيف قد خفت بعد ، إذ كانت درجة الحرارة تصل إلى ٩٧° فهرنهيتية عند الظهر ، وذلك تحت جريد النخل الذى كانوا يعرشون به المقاهى فى بيوت تيماء . كان البدو يصحون من نومهم عند دخول وقت الظهر لأداء الصلاة ، حيث يستشعرون شيئا من الارتياح على إثر وضع الماء على أيديهم وعلى أذرعهم وأرجلهم أثناء عملية الوضوء – والبدو ليسوا بحاجة إلى ادخار الماء وتوفيره والاقتصاد فيه فى الواحات – وكانوا أيضا يستعملون الماء فى ترطيب ألسنتهم ؛ نظرا لأنهم يتمضمضون بالماء ويخرجونه من أفواههم مرة ثانية . وبعد أن ينتهوا من أداء الصلاة ، يتجمعون أسفل الجدار الغربى العالى ، الذى بدأت تنكسر عليه ظلال المساء ، ويجلسون فى ذلك المكان ليمارسوا لعبه "البيطة" beatta التى يمكن القول عنها إنها لعبة من ألعاب الدأما ؛ والرقعة التى يمارسون عليها تلك اللعبة عبارة عن صفين فى كل صف سبعة حفر أو إن شئت فقل : "بيوت" beyts ؛ وهذه الرقعة

يصنعها البدو المستقرون من قطعة من الخشب ، ويطلقون عليها اسم "المنقولة" múngola ؛ ولكن عند بدو تيماء وأهل قرى الحجاز تكون تلك الرقعة عبارة عن حفر صغيرة يحفرونها فى الأرض . وأنا لم أر هذه اللعبة فى نجد ، التى جرى فيها التخلص من كل ألعاب تزجية الوقت ، فى زمن الإصلاح الوهابى ، من منطلق أن تلك اللعب تبعد روح البشر عن التأمل فى الله الحى الذى لا يموت . وفى كل حفرة يوجد سبعة أحجار ؛ هذه المنقولة كانت بمثابة أطول لعب الصيف عند الحاج نجم فى القلعة التى كانت فى مدائن صالح ، وكان أولئك البدو بمثابة رفاق اللعب المرضى . "(قال العجوز صالح) إى ، والله ، الحاج نجم من عشيرتى ashíraty بمعنى "كواحد من قبيلتى" ." كان البدو يتخذون من روث الإبل ، أو إن شئت فقل : "الجلّة" jella ، طلقات بدلا من الحصى الشفاف الذى كانوا يجلبونه من سهل الحجر (والذى كانوا ينقلونه أيضا إلى دمشق) – وكانوا يطلقون على الطلقات التى يصنعونها من روث الإبل ، اسم "جود" gaud، وما إلى ذلك من تلك الأسماء. وأنا لم أر مطلقا أهل الجزيرة العربية الحقيقيين يلعبون من أجل المكسب أو الخسارة ؛ – إنهم يعتبرون الإنسان خارجا عن إطار دينه إذا ما عرّض ذلك الخير الذى أعطاه الله إياه ، لمغامرة غير محسوبة . وقد شاهدت لاعبى الورق فى قرية العلا وسوف نشاهدهم أيضا فى خيبر ، ولكن هذه قرى من قرى الحجاز التى أصابتها العدوى من المدن المقدسة .– العبيد الأحباش أبلغونى أن لعبة المنقولة يلعبها الناس فى ديارهم ، وأن هذه اللعبة تنتشر فى كل أنحاء الدنيا .

ترى ، من الذى يقاسى أشد الآلام فى ذلك الصيام ؟ زوجة محسن بكل تأكيد هى التى تكابد مثل هذا الألم ، لأن لها طفلا ترضعه من ثديها ؛ وبقوة العزيمة والمثابرة ، حافظت شقيقة زيد على شهر الصوم ، ولم تكن تشرب أو تأكل إلا بعد غروب الشمس . من أجل هذا سمعت نساء البلدة وهن يمتدحنها ويثنين عليها ، – "كانت مثلا للبدوية البسيطة تحظى بإعجاب الجميع !" النساء المتدينات الحوامل تصمن أيضا وفاء بتعاليم دينهن ، وهن يجبرن أطفالهن الصغار على الصيام أيضا . كانت زوجة محسن ، امرأة طيبة ، وأمًا جيدة أيضا ، وربة بيت جادة ومثابرة ، وكانت كلها حب وخدومة ،

ومشاركة لزوجها المسكين فى متاعبه ؛ زوجها كان مثل زيد تماما ، عبارة عن خليط من الجد والمرح فى إطار إنسانية الصحراء . كانت زوجة محسن امرأة ولود ؛ مما أدى إلى – بالرغم من أنهم يعزون مسألة الإنجاب هذه إلى الله (سبحانه وتعالى) – ضعف حال زوجها ماديا ، إذ لم يكن لديه سوى خمس من الإبل ، وحوالى عشرة دبوش ، إضافة إلى بيتهم المصنوع من الصوف الخشن ، والمواعين اللازمة لذلك البيت :– كل ذلك لا يتجاوز ثمنه ٦٠ جنيها إنجليزيا . من هنا كان اعتماد محسن بصفة أساسية على الصُّرة التى كان يتسلمها من الحج كل عام. ونظرا لأن محسن كان ضعيفا فيما يتعلق بتقلبات الحظ هذه ، فقد كان يؤنب أهل بيته فى كل الأحيان ، كان يؤنب الجميع : زوجة وأطفالا ، ولكن الزوجة كانت تصبر على ذلك وتتحمله . لم تكن تلك الزوجة أو الأطفال يشتكون من الكلمات النابية الفظيعة (التى لم تصل إلى حد الشتائم المهينة مثل "أنت كلب") ؛ الكلمات أو الشتائم التى من هذا القبيل فقدت بين الأقارب وبين أفراد القبائل سوء القصد الذى تنطوى عليه فى آذان هؤلاء البشر . ولنأخذ الطفل على سبيل المثال ، – نجد الأب يصيح ويشتمه قائلا : "سُبَّك ! Subbak أى شج الله بطنك ، اللعنة على هذا الوجه !" أو قد يشتم الزوج زوجته ، إذا لم تلبى طلبه بسرعة ، فيقول لها "صلُّوبية Solubîa "، امرأة غجرية ، أو قد يشتمها قائلا : "بغريلة" baghrila أى "بغلة" (والبدو يشاهدون ذلك الحيوان فى القلعة) ؛ أو قد يصيح الزوج شاتما : "انهدم Inhaddem بيتك beytich " بمعنى "أعدمك الله" أو قد يقول : "الله Ullah يفكنى yafukkiny منك minnch " بمعنى "الله يخلصنى منك !" أو يشتم قائلا : "والله ، أنت لا يعرفك إلا عبد !" ولكن جرت العادة أن يرجو الأب البدوى ولده عندما يريد منه أن يفعل شيئا ، وهو فى مثل هذه الحالة يرجو ولده وكأنه أفضل منه ، وبعيدا عن التصحيح والتقويم . والأب بعد أن يؤنب ويوبخ الأسرة كلها بهذه الطريقة ، نرى محسن يتحول إلينا بعينيه الباسمتين وبعطفه البدوى باعتبارنا أصدقاء له .

هبت ريح خفيفة خلال الأشجار ، – انسابت تلك الريح فى البداية ، بعد حرارة الصيف التى استمرت شهوراً طويلة ، مما أثر على أجسادنا التى كانت متعطشة لمثل

هذه النسمة ! وهكذا بدأنا نحس بالانتعاش فى فترات العصر ، فضلا عن أن الشمس لم تعد تشرق على ارتفاع كبير جداً ؛ كان ذلك الوقت من العام يصادف فصل الخريف . وعند غروب الشمس ، كنا نتجول خلال تيماء ، إذا ما دعانا أحد إلى منزله ؛ أو كنا نقصد ذلك المنزل بعد تناول العشاء لشرب القهوة ، وتمضية فترة المساء فى الحديث مع الآخرين . والبدو الذين يسكنون الخيام أرق طبعا من أولئك القرويين الذين اعتادوا على فلاحة التربة ، بجد واجتهاد مع طلوع النهار :- والبدو الرحل يتفوقون على هؤلاء القرويين من حيث القدرة على تحمل الجوع ، والترحال والانتقال إلى مسافات بعيدة . ونحن عندما نكون جالسين تجد الواحد من هؤلاء البدو يمد غليونه لمن يجلس بجانبه ، وهو يقول: "اشرب Issherub وكيف wakeyyif راسك ras-ak ." " إشرب! واجعل رأسك يحلم بالسرور." وهذا الكلام من باب مواساة الروح ومواساة حاسة "الكيف" keyyif،- الهدوء بعد التعب ، الراحة بعد العناء ، مهرة جميلة أو ناقة جميلة ، أو الطلعة البهية لأمرأة جميلة .

فى بعض الليالى ، عندما كان أولاد البدو يزوروننا ، كان البستان ، مثل الصحراء يدوى ، بأغانى هؤلاء الأولاد الفجة ، على أنغام الرباب المصنوع من النحاس الأصفر . سألتهم ، "ما رأيكم فى خطاب الأمير ؟" [تعليماته إلى التيامنة بالتخلى عن تلك الآلة الموسيقية.] أجابوا: "ابن الرشيد يمكن أن يصدر أوامره للقرويين، ولكننا نحن البدو!"- ونظرا لأن الوقت كان زمن حرب كبيره ، فإن أفكار هؤلاء البدو كانت تنصب فى بعض الأحيان على الجهاد(*) الذى كان معلنا فى ذلك الوقت بين النصارى والإسلام . جاءنا رجل من البدو قادما من الجوف ويحمل معه أخبارا كاذبة ، - "إن سلطان المسلمين قد خرج من اسطنبول ، لينزل إلى أرض القتال ، وأن السلطان مراد الذى جرى عزله مؤخرا كان بصحبته، يحمل معه بيرق النبى !"- "(تنهد محسن) إعلموا جيداً أنه عندما تسوء الأمور بالنسبة للإسلام ، فإن الأعداء الغزاة "سوف Shall يهزمون repulsed

(*) الجهاد : الإشارة فى هذا السياق إلى حركة الجامعة الإسلامية التى أعلنها السلطان عبد الحميد الثانى ١٨٧٦-١٩٠٩، وكان يهدف بها إلى مقاومة التعديات الاستعمارية على الولايات التابعة للدولة العثمانية. (المراجع)

أمام بيوت الشَّعر ! houses of hair " بمعنى [أن البدو هم الذين سوف ينقذون دين الرسول ﷺ]. والله ، هكذا وكيد ! wakid بمعنى "هذا مؤكد ومكتوب فى الكتاب !"- يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل المسكين استشعر الراحة عندما علم أن انتهاء تلك الآلام سيكون لصالح الأعراب . قلت : "بالرغم من كل زهوك وفخرك ، فأنت لا تدفع شيئا ، ولا تدفع حتى ولو رجل واحد لخدمة السلطان !" - "ردوا علىّ ، ما حاجة السلطان إلى ذلك الذى يمكن أن نقدمه نحن المساكين ؟"

سألنى البدو ، فى بعض الأحيان ، عن صيامنا ؛ وقلت لهم إن النصارى من عادتهم أن يصوموا يومًا واحدًا فى الأسبوع ، وهم يداومون على صيام شهر الصوم الكبير ، بعض النصارى يصومون شهرين أو أكثر من شهرين . - "وكيف يكون صيامهم ؟ - إلى حين غروب الشمس ؟" - "لا ، ليس الأمر كذلك ، ولكنهم يمتنعون عن أكل اللحوم ، والبعض منهم يصوم عن كل ما يخرج من اللحم ، مثل الحليب والبيض ، ولا يأكلون سوى الثمار التى تخرج من الأرض ، مثل الخبز والسلطة ، وزيت الزيتون ، وما إلى ذلك؛ - وطوال فترة الامتناع هذه يكون بوسعهم أن يأكلوا عندما يريدون ذلك." "آه - ها - ها ! وهل تسمى أنت ذلك صياما ؟ لا ، والله ، يا خليل ! أنت تضحك وتنكت !" ولكنهم يحسبون ذلك حمية صيامية ، "مثل الموت" فى تلك البلدان الغنية ،- أن يأكل الإنسان مثل هذه الأشياء الضعيفة ومثل هذا الطعام الضعيف ." - "الله قادر ! حسن، ذلك كان صياما جيدا ! - وصاحوا جميعا بين الضحك والدهشة - يا ليت الله ، يكتب علينا مثل هذا الصيام كل يوم !"

الفصل العشرون

حصاد التمر

زواج العذراوات . نساء شقراوات . أهل تيماء أميون . البدو يلاحظون طيشهم ومرحهم . إبل الآبار . عمال يعملون فى حدّاج مُخَرَّب . مشروع لإعادة بناء الحدّاج . الممثل المقيم لابن الرشيد . ابن الرشيد ، حكيم الأعراب . حكومة المدينة (المنورة) تضع عينيها على تيماء . مرضى غير معقولين . وباء الروماتيزم فى الواحة ، عين الحسود . شعوذة إخراج الأرواح الشريرة . المتشددون فى رمضان . أنقاض تيماء الموسوية . مقابر تيماء الأثرية الكبيرة ذات النقوش التى ورد ذكرها فى التقارير . الضواحى السبع القديمة لتلك المنطقة . أرض جديدة للآبار . دم العبيد الأفارقة فى شبه الجزيرة . الرابطة العربية معتدلة . نهاية رمضان. احتفال العيد. مُطلق الصفّارة . موسيقى دمشق . وصول الفُكّارة . بدو البشر ينسابون على البلدة . حصاد التمر . راقصة من قبيلة حرب . كلام مِشْهِل . أخبار طيبة عن المواهيب . زيارة حامد ووحيل لابن الرشيد . القصابون من البدو الرُّحّل . التماس من محْسن . "الثور البرى" أو الوضيحى . النّبالة القديمة . أصدقاء الأعراب يتباطئون فى المساعدة فى رحلة النصرانى . البِشْر فى تيماء . شيخ من شيوخ الحطيمى . خلاف مع رعاة زيد . الأمسية الأخيرة فى تيماء . زيد .

كنت أستقبل المرضى فى الحقل الذى كنا نقيم فيه . وفى هذا المكان اكتشفت أغرب المغامرات . فقد سمعت شابة غير متزوجة من تيماء ، أن الغريب الذى وصل إلى القرية كان دولانيا (أى من موظفى الإمبراطورية العثمانية) ، أو إن شئت فقل : أحد رجال الحكومة ، ولذلك دار بخلدها فكرة الارتباط به عن طريق الزواج ، وتمهيدا لذلك أهدت زوجة محسن شيئا من التبغ ، ووعدتها بالمزيد إذا ما تم ذلك الزواج ؛ وبناء عليه

امتدحتها مضيفتى أمامى على إنها "شابة جميلة وناضجة ، وأقسمت بالله أن عينيها وسيعتان وكبيرتان ، وأن رائحتها مثل رائحة العنبر ." هذه الآنسة الطيبة كانت ابنة لواحد من الدمشقيين (وربما كان راعيا لقلعة من القلاع) ، الذى كان يعيش فى هذه المنطقة فى فترة سابقة ، وكانت تلك الآنسة تحتقر أن يكون أى واحد من أولئك القرويين القساة زوجا لها ، كما احتقرت أن يكون زوجها واحدًا من البدو الرحّل . وقد وقفت على الحقيقة التى مفادها أن كل سكان بلدان الجزيرة العربية ، يحتقرهم سكان المدن الحدودية على أنهم "بدو" ، ويظهر ذلك الاحتقار بصورة واضحة فى كلام سكان مدن الحدود ، – وهم يقولون أيضا متسائلين ، أليس كل سكان نجد (إضافة إلى الحدادين) من سلالة بدوية خالصة ؟ لجأت ابنة ذلك الرجل الشامى (الدمشقى) إلى خيمة محسن، حيث جلست فى القسم المخصص للحريم، وبمعزل عن الآخرين على أمل أن تتمكن من رؤية ذلك الرجل صاحب البشرة البيضاء الذى جاء من بلاد والدها ؛ – وأنا بدورى شاهدت وجهها الشاحب وعينيها اللتان ليستا جميلتين تماما ، واستطعت أن أحزر من صوتها الحريص ومن محياها – والعرب لم يحدث مطلقا أن كانت لديهم أفكارا طيبة عن الأشياء الحديثة – إستطعت أن أحزر أن تلك الفتاة كانت تكره العيش فى هذا المكان ، وأنها على استعداد للهرب مع زوج ، يكون جيدًا شكلا وموضوعا ؛ وتلك هى الأشياء التى تزعم هذه الفتاة أنها متوفرة فى النصارى . وعندما أبلغوها أنى لا ألقى بالا لذلك الذى تهتم هى به توقفت عن المجىء إلى خيمة محسن ؛ وتركتنى حائرًا فى معرفة ذلك الشىء الذى حرك فيها قلبها الصغير الذى يحس بالوحدة: "قالت، أن كل ما يدور بخلدها هو أن تصبح زوجة لدولانى (أى واحد من موظفى الحكومة)".

طلب منى بعض التيامنة البقاء معهم والإقامة بينهم ، "طالما أننى قطعت تلك المسافة الطويلة من بلادى إلى هنا" – وقد خطر ببالهم أن عودتى تكاد تكون أمرًا مستحيلاً ، – وقل "لا إله La ilah إلا الله Illahh ، و Wa محمد Mohammad رسول الله Rasul Ullah ." وعندئذ سيسبغون علىَّ بعض الممتلكات ، التى يمكن أن تكفينى وتكفى زوجتى إذا ما تزوجت . ولكن عندما اكتشفوا عدم اهتمامى أو مبالاتى بهذا الأمر ، "قالوا ، ها ! إن لديه أسبابه الخاصة به ، أليس لحمهم أفضل من لحمنا ؟ والنصارى ليست فيهم أمراض ،– كما أن حريم النصارى ، أجمل فى عينى خليل ، من

بنات الإسلام : يضاف إلى ذلك ، أن النصرانى لا يتزوج إلا بعد أن يقتل مسلما ، إذ يجب عليه أن يستحم بذلك الدم ، ثم يقولون عنه بعد ذلك إنه تطهر ." ورد آخرون ، "نحن لا نصدق ذلك ؛ خليل ينكر هذا : " أضاف شخص آخر ، "ألم تسمع من بعض الناس الذين كانوا فى الشمال ، أنهم لا يعرفون أى شكل من أشكال الزواج بينهم ؟" رددت عليهم قائلا : "أنتم يا من يتلبسكم الجن ! هذا الذى تقولونه ينطبق على الدروز ؛ شفاهكم تقطر دعرًا وفحشا طول اليوم ، أما هم فلا يتشدقون بكلمة نابية أو مؤذية فيما بينهم ." – "هل يقول الدروز ؟ الله ! أليس هذا الاسم هو الذى يطلق على ألد أعداء الإسلام ؟ – حسن ، يا خليل ، نحن نسلم بكل ما تقول ، والأكثر من ذلك نحن نتمنى لك أن تكون بخير وسعيد ؛ تزوج واحدة من النساء اللاتى يعرضوهن عليك ، وسوف تصبح أحوالك أكثر سهولة ويسرا ، نظرًا لأنك سيكون معك من يشاركك أفراحك وأتراحك : وإذا ما أردت وضع حد لذلك الزواج تستطيع فعل ذلك فى أى وقت تشاء ." – "ولكن ليس حسب الدين المسيحى ." – "ومع ذلك هناك مثل جيد ، من الحكمة أن يتوامم الإنسان مع المنوال أو الأسلوب حيثما يكون ."

عندما قالوا لى : "إننا أحرار فى الزواج والطلاق ، وهذا أفضل مما لديكم : " كان الرد عندى جاهزا، "لقد أعطى الله آدم زوجة واحدة؛" وهنا صمت الجميع مندهشين فى دواخلهم أن الكتاب المقدس يعارضهم .– كانت هناك شابة أخرى ، أنجبها دولانى (موظف حكومى) فى البلدة، وبينما كنت جالسا ذات يوم فى ورشة الحداد دخلت الفتاة لتتحدث معنا : وبعد أول كلمة تصدر من فمها سألتنى بتركيز شديد عما إذا كانت بوسعى أن أتزوجها أم لا. سيدان Seydàn: "إنه عرض طيب، وأنت ترى أن المرأة طيبة الملامح وجميلة ! إنها أرملة ، يا خليل ، ولديها ولدين :" – وكأن سيدان أراد أن يقول : "الولدان سيكونا مكسبًا لك ، والأمر هنا يشبه من يشترى فرسا ومعها وليدها ." – "هل مطلوب منى أن أتزوجك وحدك ، يا سيدتى ، أم أتزوجك ومعك أطفالك ؟ تعالى وسوف أرشح لك صديقا من أصدقائى ، وأنا أرشح لك هذا الشاب الصغير ، أم أنك ترغبين ، ذلك الشاب ، شقيقه ، وهو يصلح للزواج منك . ولكن الأرملة الشابة قالت وفى كلامها شىء من الاحتقار والازدراء : "هل تعتقد أنى سوف أجعل أى صانع من الصنّاع زوجا لى !"

كانت أجمل النساء في البلدة كلها فجير Fejir زوجة مضيفنا – جميلة ولكن لا يعرف الناس قدرها : "نظرا لبخلها وعدم كرمها" – وكانت هناك جميلة أيضا من الجميلات ، ابنة رجل مصرى يدعى إبراهيم ، الذى نفى نفسه فى قرية تيماء ، هربا من خطر قوانين بلاده ، أو ربما كان النفى لسبب غير ذلك . ذات يوم كنت جالسا على المصطبة عندما هلت علينا تلك العذراء الجميلة مقبلة علينا ، كانت تمشى غير مكترثه بجمالها وحسنها ؛ ولاحظت ملامحها وقسماتها اللطيفة الحلوة ، متغاضيا عن بقية جمالها : صمت الجالسون على المصطبة أثناء مرورها من جنبنا ، وراخت نظراتهم تتعقبها وتتركز عليها . قال واحد منهم وهو يسترد أنفاسه من جديد، "رأيتها يا خليل ! هذه هى التى ينظم الشباب عنها الأغانى كيما يتغنون بها أسفل نافذتها أثناء الليل ؛ أين رأيت مثيلاً لها حتى هذه اللحظة ؟ خبرنا كم تساوى هذه العذراء ، هذه الفتاة ، كم يدفع لها من يريدها ، مهراً أو صداقا ؟" إبراهيم المصرى عاش سنوات عدة فى تيماء ، وكان يعمل فى تجارة التمر مع البدو ، لقد جاء إلى تيماء من دلتا مصر ، والذى لا شك فيه أن إبراهيم هذا لابد أن يكون قد عرف الأوربيين ؛ هذا الرجل ، عندما كنت أراه جالساً أمام باب قهوته ، كان ينهض واقفًا ويحيينى . وذات يوم عندما رأنى أقلب صفحات كتاب من كتب الجغرافيا فى منزل خلف ، قلبت الصفحة ورحت أقرأ عن ذلك البلد النهرى ؛ وراح ذلك الرجل ، يستمع بسرور بالغ ، بعد سنوات كثيرة، أسماء بلده وقراه ، وكان يستوقفنى ليصحح لى نطقى لأسماء تلك البلدان والقرى . وهنا تكلم شخص دخل علينا ، "هل خليل كتيب ! Kottîb (أى كاتب) بمعنى ، هل خليل رجل ممن يعرفون الحروف؟" ورد عليه خلف قائلا: "إنه يستطيع القراءة مثل واحد منا؛" كان الشيخ نفسه يقرأ أمامنا متتعتعا وبطيئا ومتهجيا الحروف أيضا :– وما الذى يمكن أن يستفيدوه من حروفهم ؟ شيخ الدين يقرأ على الملأ لكل الناس فى المسجد فى أيام الجمع ، يقرأ عليهم من القرآن الكريم ؛ وهذا الشيخ هو المحامى وهو المبرم لعقودهم الصغيرة والبسيطة ، – وبعد هذه الأشْياء ، لا توجد أمور أخرى فى الواحة : هذا يعنى أن أهل هذه الواحة لا يمكن لهم أن يتحدثوا عن أى شىء فى الأزمان السابقة لأزمان أجدادهم .

عبد العزيز الرومان ، أحد شيوخ الأسواق الثلاثة ، كان أميا ؛ لم تكن هناك مدارس فى تيماء ، وكان على الأبناء تلقى التعليم من آبائهم . قال لى بعض شبان أسر الشيوخ أنهم لا يعرفون من التعليم سوى الحروف الأبجدية ،– وكانوا يجعلونى أستمع إليهم وهم يقولون : "أليف Alef ، با ba ، تا Ta ، ثا Tha ، جيم Jim – ولكن عندما يصل الأمر إلى حد التعمق فى التعليم ، فإنهم "يَكُبُّوه" hu- Yakub، بمعنى يتخلون عنه: هذا يعنى أن هؤلاء الناس لم يكونوا ممن يشغلون أنفسهم بالتعليم ، أو أولئك الذين يسعون إليه . وفى كل صباح ، كانت حرارة الشمس تناديهم ليخرجوا من بيوتهم لممارسة الأعمال السهلة البسيطة التى يفرحون بها فى حياواتهم البسيطة . والتعليم عند العرب ليس سوى نوع من أنواع الفضول الذى يؤلمهم ويؤذيهم ، وهم يرون التعليم لا فائدة لهم منه ، – التعليم عندهم مجرد زينة ينعم بها الأثرياء فى حياتهم الرغدة . هؤلاء القرويون الشمريون ، أصحاب عقول ضحلة وخاوية ، وليسوا لماحين أو متأملين ؛ وهم عندما يفعلون أو يمارسون عملا بسيطا فى الوقت الراهن ، تراهم يعودون فجأة بعقولهم وأفكارهم إلى الوراء . ولذلك يقول الناس عنهم : "التيامنة جهّال ، وغير متعلمين ، ولا يفهمون الزمن أو يعرفون قدره ." والعنوز Annezy يطلقون عليهم المقولة التى تقول : "الشَّمَّر Es- Shammar عيونهم Ayunuhum حمر Humr "، – بمعنى أن هؤلاء التيامنة من أصحاب العيون الحمراء ؛ هذا يعنى أن هؤلاء الشمر قد يكشفون عن كرمهم للغريب ، غير أنه لا يمكن أن يأمن على نفسه وهو بينهم ؛" ولكن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد فيض من فيض الأقوال والأمثال التى من هذا القبيل ، وترددها كل القبائل المحيطة بهم .

قوة هؤلاء الحضر وسلاطة ألسنتهم يلاحظها البدو ويعرفونها جيداً . وتيماء لا تذكر فى الجزيرة العربية ببئرها (الحدّاج) وإنما يذيع صيتها بتلك الكلمة غير المتحضرة التى يرددونها بمناسبة وبغير مناسبة. وهم يقولون "الشيطان فيها ، إبليس ! Iblís ! إبليس !"– وكلامهم يسير على النحو التالى : "الطفل لا يستمع إلى ما أقول ، إبليس Iblis ! هل تعصانى ؟ إبليس ! ما هذا الذى كسر ، ضاع ، تلف ، أو الذى فعل بطريق الخطأ ؟ إنه الشيطان ، إبليس ! إبليس !" وعليه فإن التيامنة عندما يقع شىء يثير المتاعب أو القلق ، تراهم يصيحون "واحسرتاه ! ثم يقولون : "إبليس" !" هذه

الكلمة شائعة تماما على ألسنة الشباب والنساء والأطفال ؛ ولكن العقلاء من الكبار يحاولون الامتناع عن ترديد هذه العبارات أو الكلمات . وعندما سألتهم عن دواعى استعمال هذه العبارات والكلمات أجابونى قائلين : "وأنت يا من لم يمض عليك فى تيماء سوى عامين ، لم تجد مفرا من أن تردد هذه العبارات والكلمات أيضًا !" اكتشفت أن النساء البدويات ، أثناء إقامتهن فى تيماء ، قد أصبن أيضا بتلك اللازمة ، وكن يقلن من ضمن كلامهن "الملعون إبليس" ، أما الرجال فيقولون باحتقار ، "هذا الإبليس ، الذى هو الآن على ألسنة حريمنا وفى أفواههم ، سوف لن نسمعه بعد الرِّحلة الأولى ؛ وهذا يعنى أن إبليسهم هذا لا يمكن أن يُحْمل على ظهور الإبل ، وهم يقولون : "حنا Henna البدو el-Beduw" . وهنا يجب أن نقر أن الآثار الضارة للعدوى الكلامية يمكن أن تؤذى تماماً فى المناطق التى لا نكون فيها غرباء ! – فى تلك المناطق لا يتبقى لنا من فورات الغقل سوى بقايا لغوية متقاعسة غير معروفه لأية أمة من الأمم . – التيامنة سليطو الألسنة ، لأنهم أصحاب عقول شريرة ؛ ... وإذا ما قارنا سكان قرية العلا بسكان تيماء نجدهم "يقولون ، بين العلاونة ، لا يوجد أناس طيبين ، وكل التيامنة أصحاب قلوب فاسقة وفاسدة ." – مبانى الناس فى تيماء عالية ووسيعة وصحرائهم مفتوحة ، فى حين أن كل شىء فى قرية العلا ضيق ومستقيم .

جرى التغاضى مرحليا عن إعادة بناء الحداج (البئر) من جديد : هذا يعنى أنه كان هناك حوالى أربع وأربعين سانية (ساقية) فى انتظار إعادة بناء البئر ، وأن تلك السواقى أو إن شئت فقل : السوانى كانت تابعة لأحياء الشيخين الآخرين . كان خلف هو وأهل سوقه (حيِّه أو شارعه) ، الذين انهار البئر من الناحية التى كانوا يستغلونه منها، كانوا يعتمدون على سوانى الأحياء الأخرى ليفيدوا منها بعد أن يسحب أصحاب تلك السوانى أطقمهم الخاصة بجلب الماء . وبواب جلب الماء كلها نياق – ولكن الجمال الذكور ، بالرغم من أنها أقوى من النياق ، إلا أن الناس يعتقدون أن الجمال الذكور لا تكون سلسة فى العمل مثل النياق ، فضلا عن إنها تستغرق وقتا طويلا لتدريبها على عملية جلب الماء – يجرى تعليقها فى حبال رفع الماء من البئر ، عند الساعة الثالثه بعد منتصف الليل ، وهنا يتسبب صراخ السوانى أثناء عملها فى الواحات ، فى إيقاظ

(البدو) الذين جاءوا من أجل التسوق ، من منامهم بعد تناول السحور . وربات البيوت التيماويات يجلبن من البساتين سلالا من العلف ، لإطعام إبلهم التى تستعمل فى جلب الماء ، ويكون ذلك مع طلوع الشمس ، هذا التبن ، الذى يبللونه بالماء ، والذى يجرى تنعيمه أثناء الدرس لفصل الحب عن التبن ، يجرى خلطه مع أوراق القرع وأوراق الشمام وأية أعشاب خضراء تعثر عليها ربات البيوت . وبالرغم من أن أهل القصيم يعتقدون أن ذلك النوع من العلف ضعيف جداً ويفقد الإبل قليلا من لحومها ، ومن سنامها ، الذى يمثل صحة هذه الإبل ، إلا أن أهل القصيم يحافظون على ذلك النوع من العلف ويبقون عليه ؛ وفى بعض الأحيان يجرى تقديم وجبة لتلك الإبل من البلح غير الناضج ، فى ذلك الفصل من العام . والإبل الجيدة يجرى استئجارها بالشهر ، من البدو ، بواقع مائة صاع من التمر لكل جمل من الجمال ، أى بما يعادل حوالى خمسة ريالات . – هذا العلف طيب الرائحة يوضع أمام تلك الحيوانات العاملة الضعيفة فى مدود من الطين ، يجرى تجهيزه عند نهاية كل مسار من مسارات السوانى . وبذلك يتسنى للناقة عند النزول أن تملأ فمها من ذلك العلف قبل أن تبدأ فى الصعود من جديد . ويجرى فك تلك النياق من السوانى قبل الساعة التاسعة ، إذ عندها تبدأ الشمس فى الارتفاع فى السماء ، وتترك النياق لتشرب من "السُّريان" Suryán (القنوات) ، – والإبل لا تشرب كثيراً فى مثل هذه الظروف إذ أنها بحكم عملها فى الواحة تشرب كل يوم : ويجرى بعد ذلك اقتياد تلك الإبل إلى حظائرها ، وفك عِدَدها من فوق ظهورها كيما تنال قسطا من الراحة ، وتجتر طعامها ، وبالتالى يذهب أفراد أطقم الماء لنيل قسط من النوم . وحبال جر الماء يصنعها البدو من ليف النخيل ، والذى يجدل هذه الحبال هم الرعاة الذين يعملون فى جلب الماء من الآبار ، فى كل الواحات على اختلاف أنواعها ؛ – ومن فى الجزيرة العربية لا يبادر إلى جدْل حبل يشده من حول نخيله ؟ والعمال الذين يعملون فى جلب الماء من الآبار يكسون حبال الليف بقطع من القماش حتى يحولوا بينها وبين الاحتكاك بجسم الناقة . وعند الساعة الثانية بعد الظهر يجرى إعادة النياق إلى العمل فى جلب الماء من جديد ، وتستمر النياق فى عملها لحين غروب الشمس ، عندما يدخل وقت الصلاة ، ويعود الناس إلى بيوتهم لتناول طعام العشاء . والبدو يعترفون أن العمل فى جلب الماء من الآبار عمل شاق

إذ إنه يفسد عليهم راحة الليل ، – عندما تهددنا الطبيعة – زوجة الأب – من جديد فى رحمها المغذى ، وعندما يتغذى العقل البائس على كثير من المواكب بهية الطلعة لمناظر أشد الناس بؤسا وشقاء من بين أفراد الجنس البشرى ، – وساعات الليل إذا ما قورنت بساعات النهار تكون شديدة البرودة . وعمال جلب الماء من الآبار هم أفقر شباب القرية ، وهم لا يرثون شيئا ، ودائما ما تكون أحوالهم من أحوال السخرة ، التى تقوم على التعامل مع حبال الآبار ، وهم يؤجرون أنفسهم لتلك الحرفة المؤلة .

شاهدت ، فى مرحلة لاحقة عمال جلب الماء من الآبار وهم يُركِّبُون اثنين من السوانى عند حافة من حواف البئر المدمرة ، أو إن شئت فقل : المهدومة ، وعمل أولئك العمال طوال أنصاف الأيام وهم يستخدمون الإبل لرفع سلال من الأحجار والتراب الذى انهار وسقط فى البئر . وعندما وجدت أولئك العمال يعملون ببطئ فى رفع تلك الأحجار ، قلت لصديق من أصدقائى : "هذا عمل بطئ ." ورد على قائلا : "عملهم فاسد Fâsid ، وليست له قيمة ." – "لماذا تستأجرون هؤلاء البدو المساكين ، طالما أن هناك كثيرين الذين يعرضون أنفسهم عليكم ؟" – "هذا ليس عمل البدو ، إنهم ليسوا رزينين ، ولا يتحملون القيام بعمل من هذا القبيل ."

أرسل كل من خلف ، وحسن ، وسلامى ، شيوخ السوق (الشارع) فى طلب نياقهم (التى غالبا ما تكون دوما فى المرعى مع البدو فى الصحراء) : لأنهم سوف يركبون مع الرديف إلى حائل ، ليتحدثوا مع الأمير فى شأن إلغاء بعض الضرائب إلى حين الانتهاء من إصلاح العطب الذى حل ببئر الماء . والمعروف أن القرويين عندما يسافرون فى فصل الصيف "يقيلون" Yugaillun ، بمعنى "ينزلون عن دوابهم لتمضية فترة الظهيرة ، فى الأماكن التى يعثرون فيها على الظلال . لم يكن الشيوخ صائمين لأنهم كانوا مسافرين ، بالرغم من أنهم كانوا فى عز رمضان : والقرويون يمضون سبعة أيام فى الوصول إلى جبل شمر راكبين على ظهور نياقهم ، – هذا يعنى أن هذه المسافة تساوى خمس رحلات من رحلات البدو .

انهيار جانب البئر ، سهّل على من يريد النزول إليه ، وهذا هو ما فعله الكثيرون (القسم الأكبر منهم من البدو) حتى يتسنى لهم الاستحمام فى ماء البئر وإنعاش

أنفسهم فى تلك الأيام . والمعروف أن ماء هذا البئر هو الماء الوحيد الذى يستعمله القرويون فى الشرب ، ولكن العرب يتصرفون تصرفات أقل من المأمول منهم فى مثل هذا الأمر : لقد أحسست أن الماء تغير طعمه مع أننا كنا فى فصل الصيف بحرارته المعهودة . لم يتبق فى البئر بعد انهياره، سوى القليل جداً من مبانى الجدران القديمة ، التى كانت تتساقط وتهوى بين الحين والآخر ، وكان يجرى تجديدها بجدران جديدة ، كانت تبنى بطريقة سيئة تماما. صحيح أن الأحجار المستعملة من النوع الممتاز، ولكنها ليست مثبتة تثبيتًا جيداً بالأسمنت . فى الجانب الغربى من جدران البئر أطلعونى على شكل من أشكال المبانى المزدوجة ؛ وفى المناطق التى ينقص فيها حجر من الأحجار ، يتصورون أن ذلك هو منظر الباب ، "الذى كان الحريم تنزل منه إلى البئر لجلب الماء يوم أن كانت تيماء يهودية"(*) . وبينما كنت فى البئر ، قام بعض الأطفال الأوغاد بإلقاء الأحجار على النصرانى . ولقد شاهدت البدو مرارا وهم يستحمون فى تلك البئر ، واندهشت كثيراً لافتتان أهل الصحراء الجافة بذلك الماء ؛ كانوا يردون على قائلين : "أيها الغريب ، لقد تعلمنا السباحة فى خيبر ، حيث توجد هناك بعض البحيرات الصغيرة على حدود الحرَّة، وبخاصة فى الطريق المؤدى إلى وادى "الحمض" El-Humth أى بالقرب من "الطبيق" Tubj : هؤلاء البدو كانوا من قبيلة بشر .

تخيلت أن أولئك الشيوخ ، يمكن أن يثقوا بى ، فى مسألة الطريقة التى يمكن بها إعادة بناء الجزء المنهار من البئر : ولكن نظرا لأن هؤلاء الشيوخ كانوا قد سافروا إلى حائل ، فقد رأيت أن من الأفضل إرجاء القيام بهذا العمل لحين عودتهم إلى تيماء . كان القرويون عندما يبنون البئر يكوِّمون التراب خلف الجدار ؛ ولكنى سوف استبدل ذلك التراب بتربة جافة ومدكوكة ومكبوسة كبسا جيداً ؛ وإذا ما كان ذلك سيؤدى إلى زيادة التكلفة ، فإن التربة المتعفنة بعد خلطها بالحصى والزلط قد تكون أقل تكلفة ، وتكون أخف أيضا عندوضعها فوق التربة المدكوكة . يضاف إلى ذلك أن القسم الأكبر

(*) كان من نتيجة الثورات التى قام بها اليهود فى أورشليم أن قام الرومان بطردهم من فلسطين فى عام ٧٠م واتجهت جموع كثيرة من اليهود إلى جزيرة العرب حيث استوطنوا أخصب بقاعها فى يثرب وخيبر وخدك ووادى القرى وتيماء . (المراجع)

من الأحجار التى استعملوها فى بناء الجدران كانت غير مشذبة أو خام ؛ وأما أنا سوف أحضر بعض الأحجار مربعة الشكل من أنقاض البلدة القديمة ، وسوف أنقل تلك الأحجار على ظهور الإبل . وأبنى الجدران الجديدة ، فوق منحنيات سهلة ، وأمنعها من السقوط عن طريق حوائط ربط تبنى من الخلف ، لتكون بمثابة جذور للجدران الجديدة ، على أن تكون هناك أجزاء بارزة مثل الرُكُب ، فى اتجاه الماء . وكنت على ثقة أن الجدران إذا ما بنيت بهذه الطريقة فسوف تكون متينة ، حتى وإن أدى الأمر إلى عدم استخدام الملاط . وقلت لهم (وكان ذلك وعدٌ منى) أن البئر يمكن أن تظل على هذا الحال ، طيله مائة عام من بعدى ، وكذلك رأيت أن يكون هناك تحويطة حول كل جدران البئر ، تكون على شكل إطار من جذوع أو دعامات النخيل . ولكنى اكتشفت أنهم . كعرب لم يكونوا متحمسين لهذه الفكرة ، بل شككوا فيها أيضا ، بل إن البعض منهم طلب منى تأكيدا بأن الأحجار لن تسقط أو تهوى بعد رصّها ؛ سألونى ، "إن كنت بناءًا أو لدى أية خبرة سابقة فى عملية البناء ؟" ونظرًا لأنى لم تكن لدى أية جوائز أو مكافآت ، ونظرا أيضا لأنى كنت أكتفى بناقة وعليها سرج ، فقد اعتبروا هذين الأمرين مؤشرين على عدم كفايتى وقلة خبرتى ، وبالتالى فلن يفيدوا من ذلك شيئا .

كان المُتَسلِّم Mutasallim ، أو إن شئت فقل : مندوب بن الرشيد ، يجلس فى معظم الأوقات على المصطبة الطينية ، فى فترات العصر ، وكنت كلما مررت به أحييه تحية من القلب ولكنه لم يكن يرد التحية مطلقا . ذات يوم ، وبينما كنت جالسا بالقرب من ذلك المتسلم ، – كان يجلس وحيدا نظرا لأن أحدًا من الناس لم يكن يتشوق إلى صحبته أو يسعى إليها ، – "قلت : ما الذى يشغلك ؟ هل أنت أصم ، أم أنك تعتبرنى عدوًا ؟" اعتدل سعيد ، الذى كانت روحه المعنوية متدنية ، ورفع قامته قليلا حتى لا يهرب منى منظر جبهته الخطيرة ، ثم راح بعد ذلك يلتمس لنفسه الأعذار : "حسن ، لقد كان فى زيارة لمصر ، ورأى أمثالا لى هناك ، – لا ، هو لا يمكن أن يَعُدَّنى عدوا له ؛ الإنجليز "يهاشمون" Yuhashimun (يناصرون) سلطان الإسلام" . ثم سألنى هذا الرجل المهم سؤالاً واضحًا ومباشرًا : "خبرنى ، هل كان القدماء فى هذه البلدة يهودًا أم نصارى ؟" – "أستطيع القول إنهم كانوا مثل هؤلاء الناس ! – وهنا أريته أولئك الأعراب الكثيرين الذين يضعون غترا على رءوسهم ويرتدون عباءات ، وكانوا يتسكعون

حول بئر – يهود بالله ." ابتسم سعيد المتسلم ابتسامة خبيثة ، لأنه اكتشف أن الغريب لم يخطئ فيما قاله عن التيامنة .– وخلاصة كل ما تعلمته (من خلال طرح الأسئلة على العرب) عن نظام حكومة ابن الرشيد هو ما يلى : "يحاول التأكيد لهم أنهم يمكن كسبهم عن طريق الهدايا والعطايا ، ويشهر سيفه فى وجه أعدائه ، ويدوس على من يخافه أو يخشاه ؛" والبدو يقولون عن ابن الرشيد ، "إنه لم يكن فى يوم من الأيام حاكما Hakim بحق ، وأنه لم يطح برأس إنسان ." وبالرغم من أن بعض البدو يمكن أن يقولوا أشياء معيبة فى حق الحاكم ، وأن تلك الأشياء فيها كثير من الخلل والزلل ، إلا أنها لا تتردد كثيراً فى القرى على شكل أسى أو أحزان . والقرويون يعتقدون أن حالهم على ما يرام تماما ، لأنهم يلقون معاملة عادلة .

بعد احتلال خيبر ، كانت الحكومة التركية فى المدينة (المنورة) تفكر فى الاستيلاء أيضا على تيماء .– وفى العام السابق لاحتلال خيبر ، كانت تلك الكتيبة من العجيل ومعهم المشاة وقطعة مدفعية ميدان واحدة ، قد أرسلت من المدينة (المنورة) فى حملة سرية، أو إن شئت فقل: مهمة سرية فى اتجاه الشمال؛ وتهامس الناس بأن تلك الكتيبة كانت متجهة لاحتلال تيماء : ولكن الجنود بعد أن قطعوا مرحلتين من المسافة صدر إليهم أمر جديد يطلب منهم العودة مرة أخرى ، وبالتالى عادوا ثانية إلى خيبر . كان الناس يعتقدون أن كبار رجال المدينة (المنورة) جرى شراؤهم ، فى الوقت المناسب ، برشوة كبيرة دفعتها حائل. معروف أن الأتراك يحبون الفضة (النقود) ، ويحبون أيضا التفخيم والتعالى ؛ ومعروف أن "سلطان الأعراب" الشمر ، كان يريد العمل مع الأتراك من هذين المنطلقين ؛ معنى ذلك أن سلطان الشمر كان يصطاد مع الأتراك فى مدينة الرسول ، مستخدماً الطعم التركى نفسه . كان التيامنة يعيشون طبقا لرغباتهم تحت حكم الحكومة النجدية الصريحة ؛ هذا يعنى أن أهل تيماء لم يريدوا للإمبراطورية العثمانية استغلال أية ذرة من المدينة (المنورة) لصالحها .– وقد أكد لى الأفراد الثقات، أن واحدا من الغرباء الذين زاروا تيماء قبل سنوات قلائل ، جرى تضليله فى الصحراء ثم قتله بعد ذلك، بأمر من خلف ، نظر لأنهم شكوا فى أن يكون جاسوسا للإمبراطورية العثمانية ! قتلوا ذلك الغريب المسكين مخافة أن يجر عليهم ويلات الإمبراطورية العثمانية الكئيبة ؛ سمعت من بدو الفكارة أن ذلك الغريب كان "عبداً" Abd .

لم يزدهر حالى فى مسألة علاج المرضى فى تيماء ، فهؤلاء الذين قدموا الدليل على الأدوية فى أيامنا هذه يصعب عليهم التمسك بتلك الأدوية فى الغد نظرا لعدم المبالاة أو الاهتمام بتلك الأدوية ؛ وأفضل هؤلاء الذين قدموا الأدوية لم تكن لهم سوابق فى هذا المجال . ولذلك فهم يشعرون بالقلق عندما يبتلعون تلك الأدوية لوحدهم . هذا هو داريم Dareyem ، أحد الشيوخ ، كان مريضا بالاستسقاء ؛ وكان أصدقاؤه يهتمون معى بشأن هذا الرجل . جاء ذلك الشيخ ذات يوم عائدا من صلاة الجمعة ، قبل حلول شهر رمضان ، وأحس بالحر فشرب شربة ماء باردة من القربة ، واعتبارا من ذلك اليوم بدأ جسم هذا الرجل يتورم . خلطت لذلك الشيخ شيئا من قشدة الطرطير(*) ، مع شىء من الماء ، ثم شرب هذا المحلول ، وتحسن حاله ، ولكنه سرعان ما بدأ يهمل تناول الدواء ، "لأنى لم أشفه فى سبع ليالى" وبالتالى رفض تناول الدواء بعد ذلك . قلت للأصدقاء ، "أعتقد أنه لن يعيش أكثر من عام أو عامين !" – ولكنهم استمعوا إلى ما قلت دون اهتمام أو مبالاة ، الأمر الذى جعلنى أستشعر القلق والفتور فى داخلى . "ردوا على ، أن الموت والحياة بيد الله !" جاء إلىَّ أشخاص آخرين يطلبون منى علاج عيونهم ؛ ولكنهم كانوا يخشون دفع ست بنسات أو صاعين من التمر على سبيل الأتعاب للطبيب ، بل إن البعض من هؤلاء عادوا إلى بيوتهم وهم يسبون ويلعنون لأنى لم أعطهم الدواء على سبيل الهدية . البدو ، فى القرى ، كانوا يلجأون إلى الحكيم بطريقة أكثر صراحة ووضوح ، وبنوايا طيبة أيضا ، لعلاجهم من السعال الذى كانوا يحسون بآثاره فى عظامهم ، ولعلاجهم أيضا من أمراض الامعاء ، – أو إن شئت فقل من أمراض الصحراء ؛ ولكن أفراد قبيلة العنزى كانوا يلجأون إلى الحكيم لعلاجهم من حمى الملاريا التى كانت تصيبهم فى خيبر .

يشيع فى شهر الصيام بين هؤلاء الناس ، نوع من أمراض الروماتيزم ؛ ويرجع سبب هذا المرض (الذى يندر أن يوجد فى البلدان متوازنة الغذاء) إلى شرب الماء البارد قبل النوم ، بعد أن يجرى تبريده فى قراب الماء ؛ وقد يكون سبب ذلك المرض راجع إلى أن هؤلاء الناس ينامون فى العراء بلا غطاء ، وبالتالى يضر برد الصباح

(*) هو ثانى طرطرات البوتاسيوم الخام . (المترجم)

صحة هؤلاء الناس ، عندما يستيقظون من منامهم ويجدوا الصقيع حول عيونهم المتورمة . هذا المرض يستمر مدة عشرة أيام يحس المريض خلالها بألم يشبه ألم التراب عندما يكون فى العين ، كما يحس أيضا باحتقان واحمرار شديد فى العينين ، الأمر الذى ينذر بخطورة تسرب أية مادة إلى القرنية ؛ هذا المرض يشيع فى معظم المستوطنات النجدية ، إلى حد أنه من بين كل ثلاثة أشخاص يكون واحد منهم مصاب بهذا المرض . هذا النوع من الرمد أصيل فى السلالة العربية ، كما أنه يصيب الغرباء الذين يعيشون فى هذه المناطق : وهاهم الأحباش هم وأطفالهم يعانون هنا من هذا المرض ، ولكن هذا المرض لا يصيب سوى قلة قليلة من الزنوج ؛ وقد وجدت أسوأ حالات هذا المرض فى خيبر ، بالرغم من أن الناس هناك يعيشون الحياة الريفية نفسها . هذا هو محسن ومعه شخص آخر فى المنطقة التى ننزل فيها ، أو إن شئت فقل : فى المخيم المقام على أرض الواحة ، أصيب فى عينيه ويحس فيهما بوخز شديد ؛ ولكن هذا المرض مر مرور الكرام ، نظرًا لأن هذا المرض مقصور على الواحات ، وليس من أمراض الصحراء الجافة . وأنا نفسى ، كنت أشرب كل مساء ، شربة ماء كبيرة من قراب الماء المعلقة ، وأنا أنظر متأملا فى ذلك العدد الذى لا ينتهى من النجوم ! – ذلك المنظر السماوى الذى لا يمكن أن تحرمنى من رؤياه أيام الحياة المتعبة التى تمر علىَّ : ثم شربت مرة ثانية من ذلك الماء عندما كان فى ذروة برودته ، قبيل طلوع الفجر . وذات صباح ، وكان ذلك فى منتصف شهر رمضان ، أحسست بتورم فى عيناى ؛ وهنا ، وعلى العكس مما يفعله العرب ، واعتمادًا على العلم الذى استقيته من كتبى ، رحت أغسل عيناى بصورة مستمرة . والعرب يقولون : "لا تجعل الماء يلامس العين إذا ما أصابك ذلك المرض ." ولكن غسيل العين بصورة مستمرة هو الذى خفف الألم ومكننى من فتح عيناى .– ولكن أهل الجزيرة يواصلون التمسك بخرافتهم عن موضوع استعمال الماء مع مثل هذا المرض ، بل إنهم يحولون دون استعمال الماء مع أى شكل من أشكال الالتهاب .

مضت عشرة أيام على إصابتى بذلك المرض، وكان يدور بخلدى، "ماذا لو خذلتنى عيناى ! – وأنا فى هذه الأرض المعادية وبعيدا عن كل ما يلزمنى ويصلح لى ." كان بعض أهل القرية ، وأنا أمر عليهم أتحسس طريقى بألم بالغ ، وأكاد لا أرى الأرض ،

كانوا يسألونى ، "أين أدويتك !" وكانوا يرددون المقولة القديمة "أبو قراط يعالج نفسه" . وبعد أسبوعين، من ترك الماء ، بدأ الالتهاب يخف ، وشفيت عيناى ، وأنا أحمد الله على ذلك ! إذ لم تحدث لى أية مضاعفات. بقى نظرى ضعيفا إلى حد ما بعد شفاء عيناى ، ولم تكن رؤيتى جيدة مثلما كانت عليه من قبل ، يوم كنت فى الجزيرة العربية ! وكنت دائمًا أحس وخزا فى عيناى ، بل كان ذلك النوع من الرمد يعاودنى عندما كنت أرشف الماء البارد أثناء الليل ، - اللهم باستثناء تلك الليالى التى كنت أتناول فيها عشاء من اللحم . ولقد تعلمت من الخبرة ومن التجربة أيضا ، أن الإنسان ينبغى ألا يشرب الماء أثناء حرارة اليوم الجاف ، ويفضل عدم شرب الماء إلا بعد غروب الشمس ؛ والمثل الشعبى ، فى البلاد العربية التى تشرب الماء يقول "شرب الماء قبل النوم يعد واحدًا من المبالغات التى تؤذى جسم الإنسان ." قال لى أحد التيامنة ، وهو يشعر بالأسف لما أصابنى: "هذا لأنك أصابتك العين (الحسد) - ماذا! ألا تفهم المقصود بإصابة العين ؟ المؤكد أنهم نظروا إلى عينيك ، يا خليل ! لدينا بصَّاصين (قاتلهم الله !) يعيشون بيننا ، يستطيعون من خلال نظرات عيونهم (الحاسدة) أن يسقطوا طائرا من السماء ؛ وسوف ترى ذلك الطائر وهو يهوى من السماء صارخًا كاك Kak - كا Ka - كا Ka - كا KA . وأنا أقسم بالله ، إن نظراتهم (حسدهم) يمكن أن تنسف نخلة على نحو تراها تذوى وتذبل . - هذه أشياء يؤكدها كثير من الشهود المخلصين ."

عندما كنت أمر فى السوق (الشارع) ، كان كثير من الناس (كلهم من البدو) يمدون إلى أيديهم وهم جلوس على المصاطب ، من باب أنى لدى مهارة قراءة الكف : كان الكثيرون منهم يتطلعون إلى قوة الشعوذة فى النصرانى ، وكانوا يرجونى نيابة عن أصدقائهم المرضى (لأنهم يرون فى تسود مهارة الطبابة ، القدرة على تقييد الجان) . لم يكن لدى هؤلاء الناس ما يقولونه ، عندما عبرت عن احتقارى لاستيائهم ، عن طريقة التعبير عن احتقارى وازدرائى العلنى للشعوذة والدجل ، لأنى لو وافقت على ذلك وجاريتهم فيه ، لكنت قد جعلتهم ينظرون إلى وكأنى أقذف دينهم بالأحجار : ومع ذلك ، فقد اكتشفت بعد ذلك فى مدينة حائل أن الدجل والشعوذة كانت تحيا هنا تحت ستار التسامح ، - هذا النوع من الخرافات التى لا تمت للدين بصلة ، هى والتصرفات

والتعاملات التى يدعى أصحاب العقول المريضة أنهم يأتونها مع العالم السفلى ، لا تتوافق مع المذهب الوهابى(*) .

الشىء الخيالى العجيب الذى وجدته فى تيماء (والذى يشبه إلى حد بعيد الحكايات التى يحكيها البدو الرحل عن المناهل ،) يتمثل فى أن لديهم واحة من واحات الأشباح يطلقون عليها اسم "عوينات Aueynat مسلاّت Mas?llat الأمان el- Aman ." "هذه الواحة تبعد مسير ثلاث ساعات بالإبل ، عن تيماء فى اتجاه الشمال الغربى ، وهى مسكونة فى معظمها بالبدو . والعبيد والخيول تنبثق من مظهر النخيل المسحور ؛ ولكن كل ذلك يختفى إذا ما اقترب الإنسان من هذه الأشياء ."

فى إحدى القرى ، لم أتمكن مطلقا من الهرب (من طاعون تلك العقول المعدى) من التشدد الإسلامى . والتيامنة بحكم كونهم تجارا متلاعبين ، ويسبحون فى مظاهر الحياة الجنسية والحسية ، هم من المسلمين الذين لا يتمسكون تماماً بالعقيدة ولا يعضون عليها بنواجزهم ، وهذا ينسحب أيضا على الصوم وعلى الصلاة . الناس هنا ، كما فى نجد ، يبدون كما لو كانوا مؤمنين جددا فى إطار دين فتى جديد ، أو كما لو أن محمداً (ﷺ) نفسه قد مات من بينهم منذ فترة وجيزة : هذا يعنى أن الجميع كانوا مشغولين بالدين طمعا فى الحصول على نعم الله ؛ – الدين هنا هو الشغل الشاغل والطريقة الوحيدة التى يزجى بها هؤلاء الناس أوقات حياتهم الفارغة . نظف الوهابيون هذه التربة وطهروها من الحشائش الضارة ، التى تخلفت عن الأعشاب القديمة الزائفة والغريبة ، وبالتالى فإن هذا التجديد لا يمكن أن يغيب عن الوعى العام فى عشية أو ضحاها . التّعبير ، والاستهزاء والمقاطعة والخصام كلها أمور صارخة وغير مستحبة فى المزاج العربى : والتشدد فى هذه البلاد ، يكمن أو يتأصل فى الأفراد الذين يعانون من الحرمان . والدين عندما يتملك العقول الطيبة يصبح أمرا مستحبا ، ويصبح بحاجة إلى التخلى عن شىء من حب الذات المؤلم ومن التطرف أيضا ؛ حب الذات هو والتعصب والتزمت فى العقيدة يسرى بين الناس هنا باعتباره

(*) ليس هناك مذهبًا وهابيًا كما يذكر المؤلف وإنما الأصح التعاليم الإسلامية الصحيحة التى دعا الشيخ محمد بن عبد الوهاب المسلمين لاتباعها . (المراجع)

ثمرة طيبة من ثمار الروح الناجمة عن وطنية الناس الدينية هنا . – الوطنية والدين ! يبدو لنا أن كل الفضائل تكمن فى هذين الأمرين ؛ ولكن الإفراط فى أى منهما تنتج عنه مصائب كثيرة ! – كان المتشددون يصيحون فىّ قائلين : "جوم ! Goom أطلب Utlub ربك Rubbuk ." بمعنى "أنهض ، يا أنت ، وأدعو ربك وأطلب منه ." الشباب الذى نتج عن هؤلاء المتشددين ، كان شبابا ضعيفا ، لا يحظى بالحب ويشعر بالتعاسة ! كانت تنهال علىّ كلمات كثيرة من هذا القبيل من ألسنة بعض النساء : وكان يدور بخلدى أن هؤلاء الناس ، كانوا يشبهون سماسرة السماء ، وأن كل إنسان يتعين عليه أن يتحاشاهم ويتجنبهم ! ومع ذلك لم يجرؤ أحد من هؤلاء على سب النصرانى فى القرية لأنى كنت بصحبة البدو ، وتحت رعاية شيوخهم .

تعرفت على رجل صغير فى منتصف العمر ، يدعى إبراهيم ، وقد انحدر من أسرة رومانية وذلك على العكس من بقية سلالته ، وإبراهيم هذا رجل عاقل ومتزن فى كلامه ، ويعرف القراءة والكتابة ، ويبدو أن هذا الرجل يتمتع باعتدال عقلى فريد بحكم اتصاله بكل أجواء العالم من حوله . إبراهيم هذا عاش منفيا فترة طويلة فى ينبع Yánba النخل en-Núkhl ، وها هو يعود ثانية (بعد دفع الفدية) إلى محل إقامته الأصلى . اكتشفت أن إبراهيم هذا ، كان فقيراً جداً ، ولم يحدث مطلقا أن دعانى ذلك الرجل إلى ما بعد عتبة كوخه ، الذى لم يكن فيه وجار للقهوة ؛ ولكن ذلك الرجل كان يرد دائما رداً كريما عندما كنت أطلب أو أسأل عن شىء على مرأى ومسمع منه . دعانى إبراهيم فى يوم من الأيام لمرافقته للتمتع بنسيم العصر ، حيث سيرينى صُور وأطلال تيماء (الفسيفسائية) القديمة . هذا هو سور المدينة القديم ، الذى أصابه شىء من الدمار ، يرتفع كما لو كان خندقا ، أو قناه طويلة تشكل الكثبان الرملية الصحراوية ضفتيها؛ هذا السور يمتد لمسافة ميل فى اتجاه الجنوب من فوق مستوى الواحة. كانت بداية ذلك السور، التى وصلنا إليها مبنية من كتل كبيرة من الحجر الرملى جرى رصها بطريقة بدائية وغير فنية . كما أرونى أيضا تلة يصل ارتفاعها إلى ارتفاع السور ، ومن فوقها كومة من أحجار البناء ؛ وهم يطلقون على تلك التلة اسم "قصر kasr بدر Bedr بن Ibn جوهر Johr" ، وبدر هذا هو أمير تيماء القديمة فى زمن اليهود ." – وفى تراث كل من خيبر وتيماء لا توجد أية إشارة إلى "الأمير صمويل Samuel "

الحاكم اليهودى لكل من خيبر وتيماء" (هذا الحاكم ذاعت شهرته فى الماضى) : والمعروف أن السكان الذين لا يعرفون القراءة والكتابة جديدون على تيماء ، إضافة إلى أن أهل الجزيرة العربية ليست لديهم سجلات لمثل هذه الأمور . قالوا لى : "إن هناك وجَّاجًا Wajjaj مدفونا تحت الرمل ، وأن هذا الوجاج عبارة عن بئر ضخمة أخرى مثل الحدَّاج ." رافقنا فى تلك الجولة اثنان من عبيد أسرة ذلك الشيخ ، بعد أن حصلا على حريتهما ؛ جاء إلينا هذان الرجلان وكانا يرتديان ، فى شجاعة وجسارة ، ملابس أولئك الذين ينحدرون من سلالة الزنوج ، وكان كل واحد منهم يحمل سيفه . قفز هذان الرجلان وهما يضحكان بين الأنقاض ، وراحا يجريان مثل التلاميذ عندما يخرجون من المدرسة ليسألانى : "ألا يرضينى أن أقيم فى تيماء"وأنقب لهم عن ذلك الوجَّاج ؟ (موقع هذا الوجاج غير معروف) وبالتالى تتحول كل تربة ذلك السور الجرداء إلى حدائق مثمرة ."

اكتشفت عن طريق ملاحظة البارومتر ، أن المدينة القديمة تقع على ارتفاع خمسين قدما فوق مستوى القرية ،– هذا يعنى أن حفر البئر عند هذا الارتفاع ينبغى أن يصل إلى عمق مضاعف ؛ ولكن ذلك العمق لم يكن أكبر من الأعماق المماثلة فى كثير من قرى نجد . شاهدت أيضا فوق التربة آثارًا لقنوات رى قديمة . هذه القنوات التى كانت تستخدم فى توصيل الماء ، كانت أمام أعين هؤلاء الناس بصورة مستمرة ، ومع ذلك لم يكلف أحد منهم نفسه بتتبع تلك القنوات، حتى يتسنى له معرفة بدايتها . – لو قدر لأى إنسان متفتح أن يولد بين هؤلاء الناس ، ألا ينبغى له أن يروح فى ثبات ذلك الإهمال والفتور ؟ يدا الإنسان وحده لا يمكن أن تحققا مشروعا كبيرا ؛ وإذا لم يكن هناك من أحد يرافقه ويقف إلى جانبه ، فإنه سوف تفتر همته وتضيع شجاعته ! هذه القنوات الصغيرة بدائية الصنعة وغير متقنة ؛ وهذه البدائية هى وعدم الإتقان أمران شائعان فى مناطق الأطلال القديمة فى الجزيرة العربية . والناس هنا يظنون أن عيون الماء يمكن العثور عليها تحت سطح التربة ؛ وقد عثر الناس وهم يحفرون فى الأرض على بعض المجارى المائية القديمة . وقد سمعت هؤلاء الناس يتكلمون عن استئجار بعض الأشخاص المهرة من قرية العلا ، كى يقوموا بالبحث عن تلك العيون

المائية : ولابد أن يكون ذلك الكلام قد دار على ألسنة هؤلاء الناس على امتداد سنوات كثيرة !

وفى مرحلة لاحقة ، وبعد أن جاء بدو الفكارة واحتلوا الديرة من هذا الجانب ، غامرت بالدخول إلى الصحراء كى ألقى نظرة على كل تلك الخرائب والأنقاض . وأثناء تجوالى خلال هذه الأنقاض والخرائب ، وجدتنى أعبر أو أتجاوز مسوَّر المدينة القديمة ؛ وكانت المنطقة الواقعة داخل هذا المسور عبارة عن رمل وزلط صحراوى ، وخارج ذلك المسوَّر شاهدت مساحات من الشوارع القديمة ، أو إن شئت فقل أحجار أساس المنازل . كانت مصنعية بناء ذلك السُّور الكبير مصنعية بدائية وغير متقنة ؛ فقد كان المسور عبارة عن كتل كبيرة من الحجر الرملى مرصوصة باستعمال ملاط من الطين : كانت المسافات فيما بين وجوه الأحجار محشَّاة بالملاط الطينى نفسه ، الذى لا يؤثر فيه مناخ هذه البلاد ، وبالتالى يزداد صلابة وتماسكا مع مرور الوقت . من هنا فإن العمل القديم يبدو كما لو كان جدارا من الصلصال صنع البنَّاء له وجها ؛ ويصل سمك الجدار إلى ما يقرب من القامة ، و (فى المنطقة التى يبرز السور فيها الرمال المتحركة) يصل ارتفاع السور إلى ما يزيد على ثلاث قامات . شاهدت فى مكان من الأماكن برجا منخفضا (هل كان ذلك البرج قبرا ؟) وقد امتلأ تماما بالصلصال ؛ كما شاهدت فى مكان آخر بابًا سريًا كانت عارضتاه الجانبيتان مصنوعتان من قطع كبيرة من الأحجار . كما شاهدت أيضا شظايا صغيرة حمراء اللون وشظايا أخرى من حجر شفاف حليبى اللون ، كل هذه الشظايا كانت مبعثرة فى سائر أنحاء البلدة القديمة ؛ وكل هذه الشظايا غريبة على هذا البلد . [شاهدت شيئا من هذا القبيل فى مواقع قديمة على ساحل الخليج الفارسى.] – ولكنى عندما رحت أبحث حول تلك الجدران عن نقوش أثرية من نقوش تيماء ، لم أعثر على أى شىء منها : كانت عيناى ، لا تبصران جيدا ، بفعل الرمد الذى أصابهما ، إضافة إلى أنى كنت أتحرك بخطى الشخص الهارب، وحدى وحافى القدمين، وكنت أخوض وأغوص فى الرمال المنجرفة الساخنة .– شاهدت فى الرَّبحة Érbha أنقاضا لبعض القرى ، وبعض الأبيار ، وكذلك بعض القنوات المهدمة ، كما شاهدت عند الأفق قممًا من الحجر الرملى فى اتجاه الجنوب الشرقى على بعد أميال قليلة من تيماء . كما شاهدت أيضا فوق الأرض المرتفعة

الواقعة خلف ملاحات الواحة فى اتجاه الشرق ، مبنى قديما دائريا ، ربما كان معقلا أو قلعة من القلاع القديمة ، أو ربما كان هيكلا heykal حسبما يتصورون ، والمقصود "بالهيكل" هنا هو "معبد وثنى" كان يطل على تيماء كلها : الناس هنا يدعون أن ذلك الهيكل ، أو إن شئت فقل : المعبد كان كبيرا مثل قصر زلُّوم Zellum ؛ وأنا لم أتمكن من زيارة ذلك المعبد .

يضاف إلى ذلك أن إبراهيم أبلغنى، – وأنا لا يمكن أن أثق تماما بما قاله ، نظرا لأن البدو لم يؤكدوا ذلك الذى قاله ، – "أن هناك أرضًا ، اسمها "الخُبو el-khubbu (الخبَّة khúbbah) بالوادى b'il wady المهجع Mohajja "، تحت جبل غنيم Ghreneym ، وفيها كثير من الأحجار العالية الواقفة على أطرافها ، ومن فوقها نحت لعينين بشريتين وأنف وقرون من الشعر ، ومن الأسفل يوجد نقش naksh ." وقد ذكرتنى كلمات إبراهيم بذلك الحجر الذى سبق لى العثور عليه فى قصر زلُّوم Zellum ! ترى ، هل كان إبراهيم يقول الحقيقة ، أم أنه كان يكذب على الغريب فى مثل هذه الأمور ؟ ربما كان يتكلم عن مدفن تيماء القديمة ، فى زمن الإنجيل ! ولذلك راودتنى رغبة قوية فى زيارة المكان . وعندما سألت محسن عن ذلك قال لى : "إنه كان يرعى الماعز عندما كان طفلا فى ذلك الجانب كله من الغنيم" – ولكن ماذا عن تلك الخبة khubbu ! فوالله ، حسب علمه لم يكن هناك شىء من هذا القبيل ، كما أنه لم يصدق ذلك الكلام ." والمؤسف أنى كنت فى البلدة فى ذلك الوقت ، وكان البدو الغرباء يتوافدون على البلدة قادمين من كل جانب ، إلى حد أنى لم أستطع التأكد من هذا الأمر أو التحقق منه . ولم أسمع أن أحدًا عثر على قطعة من النقود القديمة فى تيماء ، سواء أكانت تلك القطعة من الفضة أو الذهب أو حتى من النحاس الأحمر . معروف فى البلاد العربية أن نقود الكنوز تجلب الحظ وأنها تصلح للعزائم والرقى ؛ ومن يعثرون على نقود الكنوز يذهبون بها إلى الحداد ليصنع لهم منها خواتم أو أشياء تتزين بها نساؤهم وأطفالهم . أرانى شافى Shafy، إناء إغريقيا عثر عليه (فارغا) عندما كان يحفر فى أرضه ؛ هذا الإناء يشبه دوارق الزيت المستعملة فى جنوب أوروبا ؛ – فى ذلك الوقت لم يكن هناك أوعية طينية فى تلك الأجزاء من الجزيرة العربية ! كما عثرت على بقايا أوانى القدماء ، وكثير من الزجاج المكسور فيما بين جدران الواحة وملاحات تيماء . والناس هنا يقولون إن تيماء

الأثرية كانت عبارة عن بلدة قديمة داخل هذا السور ، وأن تلك البلدة كانت لها ثلاث ضواحى: الغرب ، والشرق ، والحدّاج (البئر) ، وهى موجودة حاليا : وهذا الذى يقوله الناس هنا نقلا عن التراث يحتاج إلى إعمال الذاكرة فيه جيداً ، "كانت المدن القديمة لهذا البلد سبع مدن : تيماء ، والحجر ، والمبيَّة Mubbia(t)، وأمّ جسور Umgassur ، وخيبر ، والخريبة ، والمجيرة Mogera " .

ذهبت فى أحد الأيام إلى مكان جرى فيه مؤخرا اكتشاف بئر قديمة أعيد افتتاحها . كان ولد صاحب البئر ، أو إن شئت فقل : مكتشفها ، يقود جملا عند البئر لجلب الماء ، إلى الحوض الجديد الذى جرى إنشاؤه على قطعة من الصحراء ، جرى تسويرها بالفعل وحرثها وتقسيمها إلى قطع صغيرة لزراعة الحبوب ؛ هذا الماء كان أبرد من المياه الأخرى ، ولكن طعمه لم يكن سائغا ، مثل مذاق الماء الذى يجرى جلبه من الحذّاج . تسلق الرجل ذلك السور الطينى (إذ كانت هناك ثقوب فى أسوار البساتين ، الأمر الذى كان يمكن النساء أيضا من تسلق ذلك السور) ، ثم عاد إلى بهدية من الرمان : والعرف فى البلاد العربية ، يقضى بأن من يدخل حقل الغير أو بستانه يصبح ضيفا على ذلك البستان ، ويقوم صاحب البستان بملئ يدى ذلك الضيف بالفاكهة إذا ما تيسرت وكان ذلك أوانها . وعليه ، ومع استمرار الصبى فى اقتياد الناقة ، من خلال صوته ، جلس معى لنتحدث سويا . هذا البئر الذى يصل عمقه إلى سبع قامات أمكن تطهيره بواسطة ثلاثة رجال من رجال الرحلات ، بواقع ستة بنسات أو ثمانية بنسات فى اليوم الواحد ، وعلى امتداد خمسة وعشرين يوما ، أى أن التكاليف الإجمالية وصلت إلى ما يقرب من عشرة أو اثنى عشر ريالا ؛ كما أن هذه الأرض الجديدة التى تصل مساحتها إلى ثلاثة أو أربعة أفدنة ، التى جرى إعدادها كانت تساوى ما يتراوح بين مائتى وثلاثمائة ريال أى بواقع ما يقرب من ١٨ جنيها إنجليزيا للفدان الواحد . كان الأمر مازال يتطلب شيئا من الإنفاق على زراعة بعض من فسائل النخيل ؛ يضاف إلى ذلك تكاليف استئجار الإبل كل عام ، إضافة إلى الأجور التى تدفع لمن يقومون على أمر اقتياد تلك الإبل ، وهى تعمل فى جلب الماء من البئر . هذا يعنى أن فسائل النخل الصغيرة سوف تثمر خلال خمس أو ست سنوات ، وتصبح نخيلا كبيرا خلال خمسة عشر عاما ، وتثمر بعد ذلك بكل طاقتها ، – ثمار هذا

النخيل كل عام لا تتعدى قيمتها المائة ريال : هذا يعنى أن إنتاج ذلك الحقل الحظيظ ، لا يمكن أن يغطى فى النهاية تلك التكاليف الكبيرة التى أنفقت عليه . وأية حوطة من حوطات تيماء عندما يبيعها مالكها ، يدفع المشترى جزءا من ثمنها بالعملة الفضية ، أما بقية الثمن فيجرى سداده على شكل تمور ، ومستلزمات البيوت ، وعلى شكل أوانى؛ – وهذه الأشياء ، هى وسجاجيد الجلوس ، هى كل المنقولات التى يمكن أن يراها أى إنسان فى منازل الجزيرة العربية . وقد يبيع البائع التمر نظير مبلغ من النقود ، إلى البدو الذى يفدون إلى تيماء طلبا للتسوق والتبضع .

أخذ مسوّر تلك الحوطة الجديدة يمتد إلى أن تعدى محيط الواحة فى اتجاه الصحراء : هذا يعنى أن تيماء ليس لها سور عام من حولها ، ولكن أقسام هذه الواحة كل واحد منها مسوّر بواسطة الجدران الخاصة بالأفراد أنفسهم . فى هذه المستوطنة هناك حوالى أربعة أو خمسة طرق ، أو إن شئت فقل : مسارات ، عند نهاية الطرق العامة ، – والجزء البعيد من تلك المستوطنة تتحكم فيه البوابات ؛ ومع ذلك يستطيع المشاة التجوال فى المستوطنة طوال الوقت من خلال فتحة موجودة فى الجدار الجانبى (وهذه الفتحة ضيقه جداً) ، – هذا الشىء له مثيل أيضا فى القرى السورية الواقعة فى الصحراء مثل قرية كرياتين التى تقع قبل بالمرا Palmyra . – وقعت عيناى ، ذات يوم فى الصباح الباكر ، على جماعة كبيرة من بدو الشرارات ، الذين كانوا ينتظرون السماح لهم بالدخول ، عند البوابة الشمالية ؛ وكان هناك أيضا بعض من أهل البلدة ، حتى يكونوا أول من يتعامل تجاريا مع تلك الجماعة فقيرة الحال ، التى جلبت معها شيئا من السمن لتبيعه فى سوق البلدة: هذه الجماعة من بدو الشرارات ، كان الهزال والضعف يبديان على أفرادها ، إضافة إلى أنهم كانوا يرتدون ملابس مهلهلة نظرا لحياة الفاقة والمعاناة التى يحيونها فى الصحراء ، هؤلاء الشرارات جاءوا إلى تيماء لابتياع الطعام من القرية فى موسم حصاد التمر ،.يضاف إلى ذلك أن سلوك هؤلاء البدو كان ممقوتا ومكروها . انفتحت البوابة لهؤلاء الشرارات فى مرحلة لاحقة ، ودخلوا البلدة ليقيموا فى حوطة من الحوطات الخالية، تقع على ذلك الجانب من الواحة.

ونحن نورد هنا شيئا عن الدم الأفريقى فى هذه البلدان؛ كل مدينة ، وكل قبيلة من قبائل هذه البلدان فيها عدد من العبيد والإماء بل وعدد من أسر الزنوج المحررين ،

والكثيرون من هؤلاء العبيد والإماء ، مولودون فى بلاد غير هذه البلاد ، ولكن جرى تحريرهم هنا ، والناس هنا يطلقون عليهم اسم المولَّدين muwalladin . وقلة قليلة من أشباه الزنوج ، تعيش فى تيماء ؛ أشباه الزنوج هؤلاء ينحدرون عن آباء أحرار ، اغتنوا وتحسنت أحوالهم المعيشية فاتخذوا لأنفسهم زوجات بيضاوات فقيرات من بين نساء الصنَّاع ، أو إن شئت فقل : الحدادين ، الذين ينظرون إليهم هنا على أنهم ليسوا أحرارا . – كانت هناك امرأة بهية الطلعة ، حلوة الملامح من بدو الحطيم فى قلعة مدائن صالح ، تزوجت من عسكرى زنجى ، هو العبد الذى حرره ، أو إن شئت فقل : أعتقه الحاج نجم ، وأوفده لحراسة خزان الماء فى المعضَّم Moaddam . كانت السعادة تبدو على وجه تلك الزوجة (بالرغم من حساسيتها بعض الشىء للون بشرة العبيد) التى كانت تحب أطفالها حبًا جمًا ، والذين كانوا زنوجا وملامحهم أفضل من ملامح الأطفال غير المولَّدين . وانا لم أرى أحدًا من الأحباش فى تيماء ، أو حتى بين البدو الرُّحَّل . والسبب فى ذلك أن كلفة مثل هؤلاء العبيد المبدئية تكون مرتفعة ؛ إضافة إلى ضعف قدرتهم فى الأعمال الوضيعة . هناك عدد كبير من العبيد الأحباش فى المدينتين المقدستين ؛ كما أن هناك أيضا أعدادًا كبيرة من أولئك العبيد فى الإقطاعيات التى فى الجزء العلوى من الجزيرة العربية ، مثل حائل وبريدة(*) Boreyda ، وهم يعملون أعوانا وخدما للأمراء : هؤلاء العبيد طوال القامة مثل العرب وأقوياء البنية ، كما أنهم أشداء ولطفاء ؛ هؤلاء العبيد مطيعون للأمير ، ولديهم الروح إلى الدخول فى العمليات الحربية التى يأمر بها الأمير . والصبى الزنجى المتين يمكن شراؤه ، فى تلك المناطق ، أثناء العودة من الحج، بحوالى ستين ريالا (أى ثمن جملين أو ناقه واحدة إن صح التعبير) . من بين هؤلاء العبيد ، هناك صنف منهم تغلب عليه ملامح أو قسمات السمرة :– ولكن العبيد السود عددهم أكبر بكثير من أنواع الرجال أصحاب البشرة البيضاء . ولقد سألت كثيرًا من الزنوج ، الذين كانوا عبيدا فى الجزيرة العربية منذ طفولتهم ، – وعرفت أنهم جميعا ينحدرون من بلدان فى أعالى النيل ، وأنهم جرى سرقتهم عن طريق الغزوات التى كان العرب يقومون بها .

(*) بريدة : عاصمة إقليم القصيم . (المراجع)

جاءتني امرأة مسكينة (معتقة حاليا) كانت تخدم في منزل الثويني Thueyny ، الذي يطلقون عليه لقب الرومان er-Roman ، وكان ذلك المنزل مقام في منطقة مُنْزَل البستاني الذي كان مجاورا للمنزل الذي كنا نقيم فيه ، وأنا بدوري كنت أمضي معظم فترات الظهيرة في ذلك البستان ، جاءتني تلك المرأة وقالت : أنها تستشعر الشوق والحنين إلى وطنها ، وأهلها ، وبيت أبيها . وتنهدت ثم قالت : "آه ! لو أن الله يهيئ لها فرصة رؤية هذه الأشياء مرة ثانية !" أرضها بالمقارنة مع هذا البؤس الخالص ، وفقر التربة الشديد الذي ينعكس على العبودية ، مليئة بخيرات الطبيعة وإحسانها ، تلك الأرض التي اختطفت منها يوم أن كانت في مرحلة إكتمال النضج والنمو . حدث ذلك الاختطاف ذات يوم عندما كانت ترعى ماعز والدها على جوانب التلال بالقرب من النهر، بصحبة فتاة أخرى . شاهدت نديمتها ، وقد علت الدهشة وجهها ، وهي على بعد مسافة قصيرة منها ، عندما اختطفها الفرسان العرب ؛ وعندئذ حاولت تلك الفتاة الاختباء بين أغصان شجرة من الأشجار ، ولكن أولئك الفرسان عرفوا مكانها وأمسكوا بها وسرقوها هي الأخرى .– وها هي اليوم أصبحت امرأة حرة من جديد ، ولكنها تعيش في أرض تعاني فيها الجوع والغربة ، فضلا عن إنها بعيدة جداً عن بلدها ، الذي لا تستطيع تحديد كنهه أو مكانه في الوقت الراهن ، وذكرت لي هذه المرأة اسم دنقلة Dungola . ومعروف أن العرب الذين يسكنون مناطق الحدود ، يغيرون مثل الزنابير على البلدان الأكثر رغداً وأمنا . قالت : إن شعبها أناس يحسون السعادة : وهم لا يستعملون النقود فيما بينهم ؛ والإنسان ، إذا ما أحس بالجوع في بلادها أو إن شئت في قرى بلادها ، من حقه أن يدخل إلى الحدائق ليأكل منها ما يشاء إلى أن يشبع . وقالت إن ملابس الناس في تلك القرى هي من القطن الخالص وأنهم هم الذين يصنعون نسيج تلك الملابس : وقالت إنهم ليسوا ولم يكونوا بحاجة إلى إحضار أو جلب أي شيء أجنبي فيما بينهم .– سألتها : " ما الذي يرتديه أهل بلدها ؟" وعندها ردت على قائلة : "هم لا يرتدون سوى إزارا لستر العورة" ، كانت هناك فتاة زنجية تقف بالقرب منا وتنصت إلى كلام هذه العمّة، وكانت هي الأخرى قد خطفت من تلك البلاد ، ولكنها لا تذكر الموعد بالضبط ، راحت تعبر عن احتقارها وازدرائها لشعبها الأفريقي وهي تقول : " إبليس ! Iblis إبليس ! Iblis – هي hi – هي hi هي hi ، إنهم بذلك

لا يختلفون عن الرجال المتوحشين غير المتحضرين !" ظروف العبيد هى دوما أمور مقبولة فى الجزيرة العربية ، وغالبا ما تكون ظروفا سعيدة : والعبيد هنا ينشأون باعتبارهم إخوان مساكين وفقراء لأبناء الأسرة ، وهم نوع من مكافأة الرب لرب الأسرة المسلم المتدين ، وهو "العم" ammy لهؤلاء العبيد أثناء عبوديتهم" وهو أيضا "الأب" abūy بالنسبة لهم . امتلاك العبيد هنا ، عملية صعبة وقاسية ، وبخاصة فى المدن المقدسة المختلطة (حيث تسود الطاعة العسكرية الفظيعة ، والعنف التركى أيضا ، والتى يتجر فيها المواطنون الفقراء بالأعمال التى يؤديها أولئك العبيد) . "ورب البيت هنا ، إذا كان من النوع الذى يخشى الله ويخافه" يعتق عبيده خلال بضع سنوات قلائل ؛ وهو لا يعتقهم ويرسلهم لحال سبيلهم خاوىً الوفاض ؛ ولكن فى الجزء المرتفع من الجزيرة العربية (حيث لا يتملك العبيد فيه سوى الأغنياء) ، يقوم ذلك الرجل الطيب بتزويج العبد المعتوق سواء أكان ذكرًا أم أنثى ، ويعطيه شيئًا من ثروته ومقتنياته ، سواء أكان ذلك فى شكل إبل أو بعض النخيل(*) .

هؤلاء الزنوج الذين يجرى عتقهم تظهر عليهم القوة البدنية والازدهار ؛ إذ هم أبناء ، بالتبنى ، لبعض الأثرياء ، فى حين أن العرب الفقراء الذين لا يملكون شيئا يؤجرون أنفسهم للغير ، للقيام ببعض الأعمال أثناء النهار . ولكن من بين الظروف الطبيعية لأجسام أولئك الزنوج ، أنها تستفيد جدًا من الطعام البسيط ، وينشأون أقوياء فى التربة الضعيفة ، التى نرى العرب فيها ينمون نموا ضعيفا . وسبق أن قيل : إن الطبيعة وضعت علامة مؤسفة لأهل القرى فى نجد الذين يعيشون على أكل التمور،- وأن تلك العلامة تتمثل فى تلك الملامح والقسمات الحزينة التى تعلو وجوه هؤلاء البشر ، التى ما أن يراها أحد حتى تترسخ فى ذاكرته . وطعام التيامنة هو التمر أثناء النهار ، وطعام المساء أيضا تمر فى معظم الأحيان ، ولكن الخبز يقدم مع التمر فى البيوت الأحسن حالاً ، أو قد تقدم العصيدة مع شىء من القرع العسلى . هؤلاء الأفارقة لا يحسون بأى قلق أو ضيق لأنهم كانوا عبيدا فى يوم من الأيام - إنهم فى أغلب

(*) هذه شهادة جيدة لمعاملة العرب للرقيق إذا ما قورنت بالمعاملة القاسية التى كان يلقاها الرقيق الذى كانت كثير من الدول الأوروبية تصدرهم للعمل فى مزارع العالم الجديد . (المراجع)

الأحيان يكونون أسرى من الحروب – بالرغم من أن تجار العبيد كانوا يختطفونهم من والديهم . كان الرعاة الذين يتبنون أولئك العبيد ويشترونهم يضمونهم إلى عائلاتهم ، ويقومون بتختين الذكور منهم – وكان ذلك يقوى من روح هؤلاء العبيد المعنوية ، حتى فيما يتعلق بعاطفة الحنين إلى الوطن القوية – لقد نظر الله اليهم فى محنتهم ؛ وبوسعهم أن يقولوا: "هذا فضل الله" ؛ لأنهم استطاعوا عن طريق ذلك الذى حدث لهم، أن يدخلوا فى الدين المنقذ . ومن هنا فهم يعتقدون أن هذا البلد ، الجزيرة العربية ، هو الأفضل، حيث اعتقوا فيه ، وأن الحياة المدنية فى هذا البلد أفضل من بلدهم ، وأن هذه هى بلاد الحرمين الشريفين، أرض محمد (ﷺ):– ولذلك شكر هؤلاء العبيد الله، على بيع أجسادهم فى أسواق العبودية !

أخيرا غربت شمس آخر أيام شهر الصوم ، معلنة انتهاء رمضان . ومع طلوع اليوم التالى مشيت مع محسن إلى تيماء لتناول طعام الإفطار هناك ."هيا ، يا خليل ، اليوم عيد، وسوف تفرح وتمرح؛ الحمد لله، قال محسن، إن شهر الصوم قد انتهى !" – "أنت تشبه شخص أطلق سراحه من السجن ." – "صدقت ، والله ، فأنا أبدو مثل رجل خارج من السجن ! وأنا من حقى الآن أن أشعل غليونى . أنا ذاهب لتناول طعام الإفطار مع بعض معارفى – ألا تعرف تقاليدنا وعاداتنا التى تبيح لنا أن نأكل شيئا من كل دار صديقة ؟ سيأكل الناس اليوم حتى الشبع ! وأمامنا اليوم سبيلين ، إما التجوال وتناول الإفطار مع من تعرفهم ، وهنا يتحتم عليك أن تقول : "عيدك Aydak مبارك Mubarak " فى أى مكان تدخله :– أو هيا بنا ! أنا وأنت نتحرك سويا لتناول الإفطار معًا ."

كان الانتعاش يبدو على وجوه القرويين فى هذا اليوم من أيام العطلات وبخاصة أثناء شروق الشمس ؛ لقد اكتسبوا جميعا فوائد الصيام ومزاياه ؛ وهاهم اليوم يرتدون ثيابهم الجديدة . الكثيرون منهم يعطرون غتر رءوسهم ، ولحاهم ، وعباءاتهم ، وذلك بوضعها فوق الدخان المتصاعد من المبخرة ، البعض منهم يتعطر أيضا بماء الورد . هؤلاء هم المعيّدون يخرجون من كل الأبواب ، ويدخلون من كل الأعتاب ، وهم يتزاورون ويحيون بعضهم بعضا من بيت إلى بيت . وحيثما يدخل الرجال ، يقدم لهم طبق العيد الذى يحتوى على الخبز المحلىّ ؛ وهذه جحافل من الذباب البشرى تنهال جالسة على

ركبها من حول ذلك الطبق ، فى التو واللحظة ، والكل يرفع اليد اليمنى مملوءة بالخبز ، فى اتجاه الفم – ويتكرر ذلك ، مرة ، واثنتان وثلاث مرات – إلى أن يظهر قاع الطبق المعدنى . وعندها ينهض الجالسون ، لينتقلوا إلى تناول الإفطار فى البيت التالى ، ثم البيت الذى يليه ، إلى أن يمروا على كل منازل المنطقة : وبعد ذلك ، وبعد أن تمتلئ بطونهم ، يتجمعون ويدخلوا بيتا من البيوت الصديقة لتناول القهوة . وحيثما يدخل هؤلاء الناس يقولون : "عيدك مبارك" ، والناس هنا يردون على هذه التحية بقولهم : "عدى Aaddi علينا aley-na ؛ و Wa حنا Henna عايدين A?idin " بمعنى "ونحن أيضا نحتفل بالعيد." ويمضى الناس النهار بطوله يتجولون هنا وهناك فى ملابسهم الجديدة ، والمزينة بخيوط حريرية بغدادية ذهبية اللون ومعها خيوط قطنية وردية اللون ، وهذا المنظر يكون له بريقه فى هذا البلد الذى لا لون له . وقد رأيت اليوم رجلاً يرتدى ثوبا قام هو بتلوينه ، وكان يقف وسط الشارع الطينى ويلبس عباءة قرمزية اللون .

مر الممثل المقيم لابن الرشيد من السوق (الشارع) قبيل الظهر ، مرتديا ثياب سيده الجديدة التى هى غاية فى الأبهة ، وهو فى طريقه لزيارة خلف . ولما كان خلف صاحب عقل حر ورزين، فقد عاد لتوه قادما من بلدة حائل ، وطوال الأيام الأربعة عشر من شهر رمضان التى أمضوها فى الطريق ، والتى كانوا يأكلون خلالها ، لم يصم منها خلف يوما واحداً ، بالرغم من وجود المتشددين ، الذين كانوا مشغولين بطبيعة الحال ، بمراقبة مراعاة الناس للدين فى البلدة . ولقد شاهدت خلفًا مرارا وتكرارا وهو يتحمل لجاجة هؤلاء المتشددين ، نظرا لأنه لم يكن بوسعه تحاشيهم أو تجنبهم : كان خلف يتسم باعتدال الشيوخ ، ولكنه فى داخله كان له رأيه الخاص . ومعروف أن شيوخ تيماء لم يفوتوا عزيمة فى حائل ، حيث كان الأمير يعطى كل واحد منهم جملا ومبلغ ستين ريالا مجيديا ، (وهو ما يطلقون عليه فى معظم الأحيان إسم "العَزازيات" ghrazziat)، وذلك تعويضا لهم عن التكاليف التى تكبدوها فى حفر البئر ، هذا بالإضافة إلى غيار جديد من الملابس كان يحصل عليه كل شيخ من الشيوخ ، وبذلك يصل إجمالى ما يحصل عليه كل شيخ من هؤلاء الشيوخ ، إلى حوالى خمسين جنيها إنجليزيا . كانت عينا خلف قد التهبتا ، وقمت أنا بتجهيز قارورة دواء لعلاج عينيه ؛ وربما يكون خلف قد قلل من قيمة تلك القارورة التى حصل عليها من النصرانى ، إلى

حد أنه أخذ القارورة دون أن يشكرنى ، بل إنه راح يطيل النظر إلى وجهى . كانت زوجات البدو الرحل ، هن وأطفالهن ، لا تلبسن ملابس جديدة ، ولكنهن رحن يرقصن طوال اليوم فى الحوطة . وعندما أصر الأصدقاء البدو على أن أُريهم الرقصة التى نرقصها فى يوم العطلة ، فضلت ألا أقطع عليهم مرحهم ، ولكنى عندما توقعت حكمهم الطبيعى ، كنت أشعر بالكسوف والخجل من أن أُريهم الطريقة الصحيحة للرقص . – واستطاعوا بطبيعتهم إدراك مدى خفة وسهولة أسلوبنا فى الرقص إلى حد أنهم قالوا : "أوه ! ما هو ذلك الهز الغريب للسيقان ، وما هو ذلك التقدم إلى الأمام والرجوع إلى الخلف !" – بدا الأمر لهم وكأن تلك الرقصة كانت واحدة من الرقصات الشعبية الإنجليزية القديمة ! ولكنهم عندما استمعوا إلى المزيد عن رقصنا ، والذى يلف الرجل يده فيه حول خصر المرأة ، وأن كل رجل يرقص وصدره يلامس صدر إمرأة جميلة ، أصبحوا ينظرون إلينا باحتقار وعلى أننا من أصحاب الرذيلة والسفالة .

حضر كثير من الأعراب إلى تيماء ، وبينما كنت أتجول فى البلدة سمعت شخصا يُصَفّر – وهذا صوت غريب على البلاد العربية ! التى تنظر إلى ذلك الصوت وكأن أحداً يتهامس مع الجن . اكتشفت أن ذلك الذى كان يصفر ، كان واحدا من معارفى من بدو الفجير ، وسألته عن المكان الذى تعلم منه هذه البذاءة ؟ "تعلمت عندما كنا فى الشام ." – من المحتمل أن يكون قد تعلم ذلك الصوت من نصرانى غندور من أولئك الذين يتباهون بأنفسهم ، أو من واحد من أولئك الفرنجة الذين يتجولون فى بلادهم . – عند هذا الحد جاءنا رجل صلوبى ، كان يركب حماراً ، ويغنى ؛ وكان يغنى بصوت رخيم ، ويرفعه بصورة مدهشة فى بعض الأحيان ! ناديت ذلك الفجيرى وسألته : "هل تظن أن غناء الناس فى سوريا أفضل من هنا ؟" – وهنا أجاب الصلوبى قائلا : "أبدا ، والله ! أنا أيضا كنت فى الشمال !" وضحك من أعماقه وهو يحتقر ويزدرى تلك البلابل ، – غناؤهم لا تطيقه آذاننا نظرا لإهمالهم الشديد – أفضل الموسيقيين فى دمشق (هم يهود) . وأنا لم أسمع قط امرأة تغنى فى تلك البلاد (اللهم باستثناء مهرجان غناء البنات) . – ترى ، أين ذهبت الألحان الجميلة ، التى كانت تتغنى بها النساء الحسناوات ، فى تلك الصحراوات العربية فى "العصر الجاهلى" ؟

فى عصر ذلك اليوم من أيام العيد ، وصل بدو الفكارة ، نظرا لأن القبيلة ارتحلت وأصبحت على بعد مسير ساعتين من بلدة تيماء ؛ سقت القبيلة مواشيها من مجارى أصدقائهم المائية فى قرية تيماء . ووصل إلينا زيد راكبا على مهرته ، ومن خلال فتحة فى الجدار ، فى اتجاه الصحراء ، جرى اقتياد الإبل إلى مكان السقيا . كان أهلنا فى الحوطة يفتقرون إلى حطب الوقود ؛ وجاء زيد بعباءته وقد امتلأت بالجلّة (روث الإبل الجاف) ، التى يقال ، إنها ممتازة فى إشعال النار . تناول القبليون عشاءهم ، وقالوا لنا ، إنهم اصطادوا عددا كبيرا من الثعالب فى شهر رمضان . – ولكنى لم أشاهد ناقتى ضمن إبل أعراب زيد ، عندما كانت واقفة تشرب من السوريان (القنوات) Suryan ! أجابنى الراعى الصغير قائلا : "لقد ضلت الناقة طريقها !"

احتفالات العيد تستمر ثلاثة أيام ، ولكنى شاهدت القرويين فى اليوم الثانى وهم يخلعون ملابسهم الجديدة ، ويذهبون لاستئناف عملهم فى الحصاد . هذا هو التمر ، تجاوز موعد نضجه ، وراح يتساقط من النخيل ؛ هؤلاء هم البدو الرحل بدءوا يتوافدون على البلدة ، ليقوموا بدور المشترين فى عملية حصاد التمور ، وهؤلاء هم البدو يتعجلون الانتهاء من عملية التسوق ، ويتعجلون العودة أيضا إلى منازلهم الجائله التى خلفوا فيها زوجاتهم وأطفالهم ، وراءهم فى الخيام بلا حراسة أو دفاع ، كما تركوا أغنامهم وماشيتهم فى الخلاء . هذه هى جماعات من قبيلة البشر تفد على البلدة كل ساعة قادمة من ناحية الشرق : وراح الفكارة يتعجبون من ذلك العدد الكبير من الوجوه ، التى قال لى زيد عنها ، إنه لم يسبق له أن رآها من قبل . هؤلاء القبليون من البشر ، بعد أن انعزلوا عن الأرض التى كانوا يرثونها فى خيبر ، جاءوا هذا العام للتزود بالطعام من تيماء ، حيث تكثر فيها التمور وتجود أيضا ، إضافة إلى أن أسعار التمور فى تيماء أرخص منها فى قرى وكفور الجبل : عدد كبير من هؤلاء البشر لم يسبق لهم أن جاءوا أو زاروا هذا المكان من قبل . من بين تلك الجماعات التى توافدت على تيماء ، بعض الناس الذين حيونى قائلين : "يا رجل ! إلى أين يُوَصل هذا الطريق ؟ أين الحدّاج (البئر) ؟" – فى ظل هذا الضجيج وتلك الحركة اليومية ، لم تعد تيماء تلك الواحة البسيطة سابقا ، بل إن الطرق النظيفة إمتلأت بالروث . ونظرا لأن القرويين كانوا فى بساتينهم ، فقد كانت كل أبواب المنازل مغلقة ؛ كان الرجال والحريم يعملون

فى حصاد التمر فى حوطاتهم أو إن شئت فقل : (يَجدُّون Yajidūn النُّخل en- nūkhl)، حيث يقوم أولئك الذين يتسلقون النخيل بقطع سبائط التمر وتدليتها إلى الأرض بواسطة حبل . وهاهم أفراد الأسرة حفاة الأقدام يتقاطرون عائدين إلى منازلهم وهم يحملون وينقلون سلالا كبيرة من التمر إلى الغرف المخصصة لذلك فى أكواخهم . استمرت عملية الحصاد طوال نهار ذلك اليوم ، واستمرت إلى نهارى اليومين الثانى والثالث ، بل انها استمرت لحين غروب شمس اليوم الثالث ؛ وعندما بدأ الناس يتناولون إفطارهم، كالعادة، عند الظهيرة ، بدءوا يستشعرون القوة والحيوية من جديد ، بعد رمضان . – هؤلاء هم البدو يتنقلون من حوطة إلى أخرى ، ويدخلون الأماكن التى يتطلعون فيها إلى الأكل من ذلك الكرم الحلو . عجل التيامنة فى عملية الحصاد نظرا لأن موسم الحصاد تأخر كثيرا عن موعده ؛ وفى اليوم الثانى من عملية الحصاد اضطربت السماء . وعندما أمطرت السماء كانوا قد نقلوا بالفعل ما تبقى من الثمار إلى الغرف المخصصة لذلك فى أكواخهم ؛ والتمر إذا ما أصابه البلل يتعفن . سقط الوابل ، وكان الجميع فى بساتينهم ، كما أن سوانى الحدَّاج كلها توقفت وصمتت الأصوات التى تصدر عنها : قالوا لى إن النخيل لن يصاب بأذى طوال سقوط الأمطار عليه ، خلال الأيام القلائل التى تعقب عملية الحصاد .

رأيت زوجة بدوية ، مزينة بزى برى بسيط ، كما لو كانت امرأة من الغجر ؛ كانت تلك المرأة تتجول من حوطة إلى أخرى وهى تنشد وتتغنى بأغنية مرحة : امرأة غريبة ، كان الناس يتعجبون ويسخرون من هذه المرأة ، كما كان الحريم يقتربون منها لتلمسن بأيديهن ملابسها الغريبة ، وحيثما كانت تدخل هذه المرأة كان الناس يطلبون منها الجلوس وتناول الطعام . وعندما عرفت أن تلك المرأة كانت من قبيلة حرب ، وبذلك تكون أول إنسانة أراها من أفراد هذه القبيلة ، التى تجاور الحرمين ، رحت أتأمل هذه المرأة وأنظر إليها فى صمت . هذه المرأة ، أخذت نفسا طويلا ، وازدادت دهشة على دهشتها عندما شاهدت رجلاً أبيضا فى المنطقة ، – "تقول إنك ، نصرانى !" "ها ! لقد سمعت هذا الاسم ، وكيف وصل النصرانى إلى هنا ؟ ألم نكن نحن أطفال ذلك الشرير ؟ ومع ذلك حييت هذه المرأة بكلام جميل ودعوت لها بالبركة !" قلت : "العرب يدعون الله أن يلعن كل ما لا يمت إليهم بصلة ، ولكننا ندعو الله أن ينزل رحمته على كل أفراد

الجنس البشرى؛ وأنا أدعو الله، من كل قلبى ، أن يبارك لك فى أسرتك ، وفى أطفالك ، وفى ماشيتك ." ردت علىّ قائلة : آه منك ! كم هى الشائعات والقيل والقال ، كثير فى هذا العالم ، – إى ، بالله ، أى بالله ! انتبه يا هذا ، لابد أن يكون هذا الرجل من نوعية طيبة ومسالمة من البشر ." هذه هى صوانى مليئة بالتمر الذى جرى جنيه من النخيل ، فى حين استدعيت تلك المرأة لتناول الطعام مع الحريم . وطلبوا إلىّ أن أتناول الطعام مع الشيوخ الذين كنت أقف بجانبهم ، وجلسنا نأكل مع مضيفنا ثوينى الرومان ، الذى كانت أرض الحصاد التى نقف عليها ، ملكا له : كان مسهل Misshel العواجى Auajy- el واحداً من الحاضرين – ومسهل هذا واحد من كبار شيوخ البشر .

بعد ذلك ، وبعد أن حل الوئام بيننا (نتيجة تناول الطعام مع بعضنا البعض) قلت لمسهل Misshel : إننى أعتزم الذهاب إلى كل من حائل وخيبر ، وأننى سوف أعود معه شرقا فى اتجاه الصحراء ، ومن هناك ربما أعثر على بعض الذاهبين إلى جبل شمّر ، ومن ثم أستطيع مواصلة الطريق بصحبتهم . هذا الرجل البدين (إذ كان هذا هو حاله بين البدو) رد على الغريب رداً حاداً ، بصوت مدوى ، تشوبه غلظة الصحراء قائلا: "لكننا الآن ذاهبون للبحث عن "الجوش" el- gush فى الخلاء F'll khala " بمعنى ، إننا ذاهبون للبحث عن أدغال برية فى الأرض الجرداء ، لإبلنا ، وأننا قد نذهب إلى مسافه بعيدة ؛ نحن لسنا ذاهبين إلى جبل شمّر .– قال : "خيبر ! خيبر ! أين ؟ – ولكن يجب أن تعلم يا خليل ، أننا ليس لدينا من يرشدك إلى ذلك المكان : الدولة (الإمبراطوريه العثمانية) هناك . وأنا أقسم لك بالله ، إنه ليس بيننا سوى قطع الأواصر . لا ! أبعد كل هذه الأمور عن ذهنك ، لا تفكر فى الذهاب إلى نجد ؛ زد على ذلك ، أنك لا يمكن لك أن تصاحبنا أو ترافقنا فيما نحن مقدمون عليه ." – "خبرنى يا مسهل ، هل أنا صديق أم عدو ؟" رد على مسهل ، بعد شىء من الصمت رداً يتسم باللصوصية ، "حسن ، أنا لا أعتبرك هذا أو ذاك ! ولا أعتبرك صديقا أو عدواً ؛ – (غمغم ذلك السليط) – لولا الله ، لكنت قد سلبتك ما معك فى مرة من المرات ." هذا المسهل ، "الذى يحكم سبعة قبائل " ، يتولى منصب الشيخ الكبير الأصيل لقبيلة العواجى ، التى هى الأكثر عددا وأشد بأسا فى العمليات الحربية فى سائر أنحاء البلاد . ورجال قبيلة مسهل هم الذين "قاموا" فى هذا العام ، بالغزو العام لولاد على ،

أكثر من مائة رمح ، وهم أيضا الذين قاموا بعد ذلك ، وخلال يوم واحد ، بالاستيلاء على كل مواشى المواهيب . وفى العام الماضى اشتبكت قبيلة العواجى مع الدولة (الإمبراطورية العثمانية) وقتل عدد كبير منهم ؛ ومحمد بن الرشيد هو الذى حرّضهم على ذلك . والناس هنا يمتدحون الشيخ مسهل على إنه رجل "عتيد" من الرجال الذين يجيدون استعمال الحراب ، – بدا لى ذلك الرجل وكأنه وارث للحق والفضيلة مع شىء من الظلم . – وقد عرض على عبد العزيز الرومان رمح شيخ مسهل ، وهو يشعر بالمجد والفخار ؛ شاهدت ذلك الرمح موضوعا فوق أوتاد معلقة فى جدار مقهى الشيخ مسهل ، وهو المكان الذى يجلس الشيخ فيه بصفة دائمة ؛ كان طول ذلك الرمح يصل إلى حوالى أربعه عشر قدما . يضاف إلى ذلك أن ذلك الشيخ العظيم كان صديقا لشبابه ، مثلما كان الشيخ مطلق الفجيرى صديقا لشبابه هو الآخر . كان أفراد قبيلة البشر يتفاخرون أيضا برمح الشيخ مسهل ، "رأس الرمح كبيرة مثل قبضة اليد ، وتمتد كما لو كانت لسانًا ، وهذا الرمح متعطش لدم أعداء الشيخ مسهل ."

كان عبد العزيز ، هو الآخر ، خارج تيماء فى شهر رمضان ، إذ كان يقوم بجولة لإحضار بعض الإبل للعمل فى جلب الماء من البئر : وعندما عرّج عبد العزيز على سهل الحجر ، اتجه فى البداية لزيارة قبيلة المواهيب الصغيرة فى وادى تربة ، التى كانت عدوة لهم فى الفترة الأخيرة – لم يكن عبد العزيز على معرفة بهؤلاء المواهيب من قبل – ولكنهم أصبحوا أصدقاء الآن بعد أن جرت مصالحة بينهم وبين ابن رشيد . أكرم المواهيب وفادة عبد العزيز إكراما كبيرًا ، "فهذا يذبح تيسا هنا وذاك يذبح شاة هناك ، على شرف العشاء المقدم له ، إلى حد أنه (كان يستعمل يديه وعينيه) عندما كان يعبر لى عن ذلك الكرم القديم الذى لقيه منهم ؛ وكان ذلك قبل فترة قصيرة من ضياع إبلهم فى الغزو الذى حدث لهم . صحيح أنه شاهدهم وهم فى أثر تلك النكبة ؛ ولكنهم بدءوا يرفعون رءوسهم من جديد . فقد أكرم بدو البلّى جيرانهم وأغدقوا عليهم الكثير من العطايا . وهذه هى ماشية الشيخ طُلُّج ، أصبحت أكبر من ذى قبل ؛ فقد أرسل له الشيخ مهنا سبعة من الإبل . لقد وجد مهنا طُلُجًا محطما ومكسور الخاطر ، بالرغم من أن بقية أفراد القبيلة ، كانوا قد انصلحت أمورهم بشكل أو بآخر ، طبقا لعدد أصدقائهم ، ومقدرة هؤلاء الأصدقاء ، ومدى حنانهم فى العطاء عن طيب خاطر :–

والحال فى الصحراء ، فى ظل ظرف كهذا ، يشبه يوم القيامة ، إذ يتلقى كل واحد فى ذلك اليوم حسبما قدم ، وبالتالى يلقى الكريم الكثير طالما إنه كان فى عون أصدقائه من قبل . وقبل انتهاء الشهر كان حال المواهيب قد تحسن ووصل إلى نصف ما كان عليه من قبل الغزو : ذلك أن قطعان المواهيب التى كانت على الحرة وقت الغزو ، لم يتمكن الغزاة من أخذها أو الاستيلاء عليها . ولكن عبد العزيز أثار أحزانى عندما كذب علىّ وأبلغنى نبأ وفاة كثير من أصدقائى السابقين ، إلى أن عرفت من شويش Shwoysh ، المنفى حاليا بسبب خلاف بينه وبين الشيخ طُلج ، والذى جاء إلى تيماء بصحبة بدو الفكارة ، أن أولئك الأصدقاء لم يمت منهم سوى واحد فقط هو صديقى فايز Faiz :- يضاف إلى ذلك ، أن شيخ تيماء كان قد سبق له الذهاب إلى قرية العلا ، التى لم يسبق له أن زارها قط من قبل ، باعتبار أن قرية العلا واحدة من قرى الحجاز الصديقة لدولة (حكومة) المدينة (المنورة) . كان واحد من البدو الرحل يركب خلف شيخ تيماء ، وكانت أحوالهما على ما يرام ، إلى حد أنهما قطعا تلك الرحلة التى يزيد طولها على ثلاثمائة ميل ، خلال أيام قلائل من شهر رمضان ،- ولكنهما لم يكونا صائمين بطبيعة الحال . وأنا عندما أطلب من هذا الرجل أن يزكينى عند مسهل ، أجده يحيل علىّ بعض البدو ليحكوا لى حكاية مزيفة : "أنه من المستحيل بالنسبة لى أن أمر بصحبة أى أحد من قبيلة بشر إلى بلدة حائل ، من منطلق أنهم لم يكونوا (وهذا زيف) على وفاق مع الأمير ، نظرا لأنه أصدر أوامره لهم بإعادة ماشية المواهيب إلى أصحابها ، وهم لا يريدون ذلك ." - ولكنى وجدت كل من تحدثت معهم يعارضون ذهابى إلى نجد ؛ من منطلق أنهم سيجدونى أعود من نجد إلى نفس المكان الذى كنت فيه قبل الذهاب إلى هناك ."

فى حائل ، حضر كل من حامد ووعيل عودة الأمير ،- كان الأمير قد خرج فى غارة . بعد أن عاد ابن الرشيد ووافق على خضوعهما ، وقبل الناقة الهدية ، ثم أعاد الرجلين إلى محل إقامتهما . وبينما كانا عائدين إلى محل إقامتهما ويحملان أخبارا طيبة ، عبر صحراء (يصل طولها من حائل إلى تربة أكثر من مائة فرسخ) ، وبعد أن وصلا إلى منتصف الطريق فى ديرة البشر ، شاهدا إبلا ترعى ، التى تأكد أنها هى الماشية التى سرقت من قبل ! - كما شاهدا على تلك الماشية العلامات المميزة الدالة

على أنها مملوكة للموهاهيب بحق . نزلا عن راحلتيهما لقضاء الليل عند واحدة من الخيام الكبيرة ، وتلك كانت خيمة مسهل . وبعد تناول العشاء سمعا من مضيفهما (وكان هو الذى عرَّاهما) عن المصائب التى حلت بهم فى ديارهم ؛ وهنا أعطى مسهل لحامد ، واحدة من نياقه ليعطيها لوالد مسهل العجوز .- وعندما راحا يتدبران الأيام ، اكتشفا أن اليوم الذى حدث فيه الغزو ، كان يصادف ذلك اليوم ، الذى تقدما فيه بالخضوع والولاء ، وأنهما كانا فى حائل ينتظران عودة الأمير . وفى الصباح ركبا راحلتيهما ليعودا من حيث جاءا :- ولكن هل يمكن للأمير (الذى كان على عداء معهم) أن يأمر بإعادة ماشيتهم لهم ؟

استقبلهما محمد بن الرشيد استقبالا غير مريح ؛ إذ كان الحاكم قد تسلم قبل وصولهما ثلاث نياق ، كان العواجى قد أرسلوها بالفعل عقب الغزو الذى قاموا به . يضاف إلى ذلك أن الأمير كان سعيدا جداً بذلك العقاب الذى نزل بأعدائه القدامى ، بالرغم من أنه يستقبلهم اليوم باعتبارهم من أتباعه ومن الموالين له . ومن يحكم تلك القبائل الجائلة فى الصحراء ينبغى أن يكون قلبه غليظا وسيفه بتاراً ! ولكنه قد لا يفلح فى احتواء تلك القبائل احتواء حقيقيا .

هذا هو فرد من الشرارى الذين يقيمون فى الحوطة المجاورة لنا ، ذبح جملا بمناسبة العيد ، وباع شيئا من لحمه نظير شىء من التمر . ليستعمل ذلك التمر مئونة لعائلته طوال فصل الشتاء القصير . ذهبت لأبتاع منه شيئا من لحم ذلك الجمل ، ووجدته قصَّابا لطيفا ، وكان ينادينى فى كل لحظة قائلا "يا ولد أخيه ." وفى يوم آخر قام واحد من بدو الفهجى بذبح ناقة كبيرة السن – كانت تلك الأسرة الفهجية تملك مزرعة نخيل صغيرة خارج أسوار القرية ، الأمر الذى حولهم من بدو رحَّل إلى بدو مستقرين . كانت الناقة المذبوحة تساوى خمسة ريالات ، ولكنه عندما باع اللحم بالتجزئة حصل على مبلغ كبير ، قصدت ذلك الرجل ، ولكنه يرفض بيع اللحم بالنقود قائلا : "من يود أن يشترى منى لحما فليدفع لى ثمنه تمرا ." والقسم الذى لم يباع فى اليوم الأول ، شووه بدمه : – وبالرغم من أن ذلك يعد غير شرعى ، إلا أنهم أكلوه ، أى أنهم يأكلون الدم – هذا يعنى أنهم ليسوا ملمين بنصوص القرآن . استمر بيع لحم تلك الناقة ثلاثه أيام ، وعندها بدأت تفوح من اللحم رائحة غير مستحبة ؛ ولكن هؤلاء

الحضر هم والأعراب يأكلون أيضا لحم الطرائد على هذه الشاكلة ، والتى منها الماعز البرى على سبيل المثال وكذلك الوعول ؛ والبدو يصطادون تلك الحيوانات وتبقى معهم يوما فى الصحراء إلى أن يعودوا إلى منازلهم : ومع ذلك ، ففى الوقت الذى رفضت فيه أن آكل معهم من ذلك اللحم الذى سرى فيه الدود ، كانوا هم يستطعمونه ويقبلون عليه. وبعد أن أشتريت شيئا من اللحم ، قامت ابنة محسن ، الفتاة الصغيرة التى كانت تخدمنى ، بسلق ذلك اللحم ، وبعدها دعوت أصدقائى البدو لتناول العشاء ؛ ولكن لحم الإبل العجوزة لا يكون له مذاق مثل مذاق اللحم الطرى .

تساقطت علينا أمطار الخريف ونحن نتناول طعام العشاء خارج البيت : هذه هى السماء التى كانت مشرقة الشمس يغشوها شىء من الظلام . وأطبق المساء علينا ، بهبوب ريح شديدة ونحن داخل الخيام المصنوعة من الصوف . وبينما كانت قطرات المطر تتساقط علينا من خلال تلك الخيام المهلهلة ، كان محسن يسألنى عن بلادى ، – وكنت قد أوشكت على الرحيل عنهم ومغادرتى إياهم . وعندما سمع محسن منى أننا لدينا الكثير من نعم الله ، الخبز والملبس ، والأمن ، وكيف أن الإنسان يحميه القانون ، إذا ما طلب منه ذلك ، – كانت تلك العاصفة الليلية تسبب لنا الكثير من القلق ،– هنا ازداد محسن حزنا على حزنه ، وراح يندب حظ الأعراب وتعاستهم ، لأن افتقارهم إلى الملابس يسبب أمراضا كثيرة، وبخاصة أنهم ليس لديهم ما يكفيهم من الطعام أو الماء، ويتجولون فى الصحراء الجرداء ، ولا يعرفون الاستقرار مطلقا ؛ يضاف إلى ذلك ، أن هذا البؤس يلازمهم طوال حياتهم . كان محسن ، عندما تتكاثر عليه همومه وآلامه ، يرفع يديه إلى السماء – وهذا نوع من الصلاة غير الرسمية يطلقون عليه اسم "الدعاء" Duáa – أرحم يا رب ! خلقك، الذى أنت خلقت: أرحم المساكين ، والجوعانين ! أرحم يا الله ،– يا الله ! ومع ذلك وبالرغم من هذه الشكوى ، التى يرون أنفسهم من خلالها وكأنهم أيتام عناية الهية ممسكة ، إلا أن قلوبهم عامرة ببهجة العقيدة والأمل ، إلى حد أنك تراهم يقولون على الفور، وهذا هو ما فعله محسن بالفعل، – "الله Ullah كريم" Karim .

التيامنة لا يأكلون لحم الإبل فى معظم الأحيان ، ولكن الصلوبة يجلبون لحم الصيد والطرائد إلى البلدة ، وهؤلاء الصلوبة يعيشون هنا فى خيام خلف الجدران ،

وهم يعملون بالحدادة والسمكرة . والصلوبة يركبون حميرهم ويذهبون للصيد فى الصحراء ، ويعودون سيرا على الأقدام ومن أمامهم حميرهم محملة بلحوم الغزال ؛ والناس هنا يشترون منهم كل ما معهم من لحوم قبل أن يصلوا إلى السوق . وأفضل من فى هؤلاء الصلوبة هو شخص يدعى مطر Matar ، وهو شخص لطيف ، كنت أتحدث معه ، فى أحيان كثيرة ، عن ممارسته لمهنة الصيد . وعندما سألته عن الثور البرى ، أو إن شئت فقل : الوضيحى Wothyhi ، أرانى حمارا أبيضا من حمرهم المتينة ، ثم قال : "الوضيحى يشبه هذا الحمار ! – والوضيحى شعره أبيض (شأنه شأن حيوانات السهول الرملية الكبيرة) ، وليس له كفل ، وأذنيه قصيرتان ، وذيله يشبه ذيل البقرة ، وينتهى الذيل بخصلة من الشعر ." والوضيحى هو أسرع حيوانات الصيد ، أو إن شئت فقل : أسرع الطرائد ، ولحمه أحلى وأطرى من لحم الغزال ؛ وجلد ذكر الوضيحى – وهو سميك جداً – هو أحسن الجلود التى تستخدم فى صناعة النعال . وقد شاهدت فى العام ١٨٧٥ الميلادى ، جلود الوضيحى التى جاء بها أصحابها من صحراء الشرارات إلى بلدة معان Maan . يضاف إلى ذلك أن قرون الوضيحى التى تشبه القضيب أو الساق أشياء شائعة ومعروفة فى تيماء ؛ وبدو الشرارات هم الذين يجلبون القسم الأكبر من تلك القرون ، وهم يقدمونها هدية لأصدقائهم ، الذين يأخذونها إلى مخازنهم لكى يستعملونها فى تكسير كتل التمر المتشابكة : وقد رأيت صلوبة تيماء يستخدمون تلك القرون أوتاداً لخيامهم .– تحدثت مع مطر عن النَّبالة القديمة ، ورد علىّ قائلا : "فى كثير من الأحيان كنت أنا ورفاقى نعثر فى الصحراء على رءوس سهام مصنوعة من الحديد ، ويصل طول الواحد منها إلى أصبع تقريباً ، كنا نعثر عليها أثناء قيامنا بصيد البدون ، ووالله هذه الرءوس كانت تشبه رءوس الرماح الصغيرة ، – نحن لم نعثر على الرماح ، نظرا لأن الخشب تعفن وتحلل ." أخبرنى أيضا أنه شاهد صور بشر مرسومة على الصخر ، "كانت تلك الصور تمسك فى أيديها أقواسا ونبالا ، ويضع كل واحد منهم ، على رأسه ، غطاء رأس طويل !" – هذا الرداء أصبح الآن غريبا على الجزيرة العربية .

تواصل سقوط الأمطار يوميا ، وهبت على الصحراء ريح باردة ، وكانت السماء دوما ملبدة بالغيوم . وأوشك البدو الذين جاءوا لزيارة تيماء على الرحيل ، وراودتنى

رغبة فى اصطحاب أولئك البدو إلى ناحيهة الشرق ، – متخليا بذلك عن بناء البئر ، وبدلا أيضا من البقاء فى ذلك الفراغ الطويل . كان العام يتغير ، وأنا بدورى لابد أن أغير حياتى فى الجزيرة العربية ! كان أصدقائى غير متحمسين لمضيى قدما ، وكانوا يقولون: "ما الذى سوف أفعله أو أريده من حائل ، والذى يحتم علىّ الذهاب إلى هناك ؟ وأننى بعد تيماء ، لن أكون فى مأمن من أولئك الأعراب الذين لا يعترفون بالدولة (الإمبراطورية العثمانية) ." وفيما يتعلق بابن الرشيد قالوا لى : "إنه نجس Nejis، قاتل لأقاربه بالسيف :" وأردف عبد العزيز الذى كان يجمع مكوس ، أو ضرائب الأمير : "لقد وصلت أخبارك إلى ابن الرشيد ! – ما مفاده "أن نصرانيا ، لا يعرفه أحد ، يقوم بالتجوال مع الأعراب ، وأنه "بدون" أشياء " وأنه استاء عندما علم بذلك . والبدو فى الشرق سوف يخشون استقبالك ، مخافة أن يسائلهم الأمير عن ذلك ."

كنت أتشوق وأتطلع إلى الرحيل مع البِشْر Bishr، لأن العائلات التى جاءت للتسوق من تيماء تقيم فى حوطة نائية من الحوطات التابعة لثوينى ، ذهبت لزيارة تلك العائلات فى تلك الحوطة . كانت كل أسرة تقيم مستقلة عن بقية الأسر فوق سطح الأرض وسط سروج الإبل ووسط الأمتعة ، وكان المطر يتساقط عليهم نهارا ويقضون الليل فى العراء بلا مأوى : الوحيد من بينهم ، كان هو الشيخ مسهل الذى كان يسكن ويقيم داخل خيمة . كان مسهل فى ذلك الوقت ، قد ذهب لشرب القهوة فى البلدة ، ولكنى عثرت على عسكر Askar (ذلك الشخص الذى جُرح) ، ذلك الشاب الذى فيه شىء من الطيبة والكرم ، وجدت ذلك الشاب أفضل مما كان عليه وهو فى بيت والده : أستقبل عسكر تحيتى مرحبًا بى قائلا : يا Yaهُلاً Hullal . وانشرح صدره عندما سأله الغريب عن إصابته ، كما انشرح صدره أيضا لأنى ما زلت أعرفه . سقط المطر علينا ونحن جلوس حول نار المخيم ، أثناء تصليح القهوة : وهذه القهوة هى أفضل ما تذوقت فى الجزيرة العربية – لا عن طريق طحن قليل من حبوب البن كما يفعل التيماويون ، وإنما بطحن حفنة من البن على الطريقة النجدية . وبصورة متدرجة رحت أسألهم عمن يمكن أن يرافقنى إلى بلدة حائل ؟ قال أحدهم، "إنه لا يهمه أن يكون هو ذلك الشخص؛ وإنهم بعد أن يرجعوا من تيماء ، فسوف يتعين عليه الذهاب إلى حائل : وما الذى سيدفعه خليل ، وسوف يضعه أو يوصله إلى وسط مدينة حائل ؟" – "سوف أعطيك

ثلاثة ريالات." راحت بقية الحاضرين ومعهم عسكر يحاولون إثناء ذلك الرجل عما قاله ، ولكن الرجل أصر على ما قال ، ومد لى يده اليمنى ، مؤكدا أنه لن يتراجع عن ذلك الاتفاق ، وأصبح عسكر شاهدنا على ما جرى بيننا واتفقنا عليه . مساعدة هؤلاء البدو الفقراء المحتاجين بمبلغ يسير جداً ، يشترون به قميصا وعباءة ، سّهل على كثيرا من ترحالى وتجوالى (وهذا ما سبق أن توقعه زيد) ، بين قبائل الجزيرة العربية المتشددة والتى لا تعرف القانون :- ولكنى وجدت أن البدو لا يفرقون كثيرا عن الفكارة . هؤلاء البدو الرحل من قبيلة بشر ، لا يحسبون أنفسهم فى إطار طريق الحج ، ولكنهم من أفراد القبائل التى تعيش من عمل أيديها فى مناطقها ، وأفراد هذه القبائل أشداء وأقوياء ويشبهون بدو الشمال . وهم يلبسون ملابس من العراق ، وهم يثبتون غتر رءوسهم على جباههم بعقال من الصوف ملفوف عدة لفات كما لو كان عمامة .

فى الصباح ، جاءنى واحد من أولئك البدو ، وسحبنى من عباءتى فى الشارع ليقول لى متسائلا ، "هل يمكن أن أذهب معه إلى ديرته لعلاج رجل قبلى يعانى ، منذ سنوات ، من مرض فى معدته ، إلى حد أنه كان يتقيأ الطعام الذى كان يأكله ؟" اكتشفت أن من كان يتحدث معى ، كان واحدا من الشيوخ ، ثم سأل زيدا الذى كان يقف بالقرب منا ، "هل اكتشفوا أن النصرانى حكيماً جيداً ، طوال الفترة التى عشتها معهم وبينهم ؟" سعدت بسلوك ذلك الشيخ البسيط وسعدت أيضا بنظراته الصريحة . وبالرغم من أن ذلك الرجل كان يبدو شخصية مهمة ، إلا أنه كان حطيميا ، أى من الحطيم ، أى أنه كان "حنّاس Hannas بن Ibn نومس Nómus " بمعنى أنه كان "شيخ النومسى Noamsy "؛ والنومسى فرع من الحطيم ، بينه حاليا وبين مشهل Misshel نوع من التحالف ؛ وهذا الفرع يسكن حاليا المنطقة البدوية من العّواجى Aujay ، والتى وجدوا فيها لأنفسهم ملاذا بعيدا عن أعدائهم . قال لى زيد : "ليس هناك ما يخيف إذا ما رافقتهم وذهبت معهم : هذا يعنى أن حناس رجل أمين جداً . وبالله أنا لا يمكن أن آمن عليك فى يد إنسان غير هذا الرجل ."

سقى الفجير مواشيهم مرة ثانية فى تيماء ؛ وشاهدت الماشية الكبيرة وهم يقودونها نحو المسقى ، وبعد السقيا أحضروا إبل الحمل وجرى تبريكها بجوار الخيام: وسوف يتحرك محسن هو وبقية الناس فى الصباح الباكر ، عائدين إلى الصحراء .

وعثرت على ناقتى بين الإبل ، ووجدت أنها مصابة بجرح فى صلّبها ، وقد يستغرق شفاء ذلك الجرح مدة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين يوما ، ولكنى يتحتم علىّ الرحيل فى الغد . أحضرت الأصدقاء البدو لإلقاء نظرة على الجرح الذى أصاب تلك الناقة العجوز ، وقالوا لى إن هذه الناقة كانت تُركب وأسيئ استعمالها ، وأن آثار السرج ما زالت موجودة على الشعر الذى يكسو جلد الناقة . وأن الخطأ هنا يقع بالدرجة الأولى على عيسو Iso راعى الشيخ زيد ، وعيسو هذا شاب كانت تجمعنى به صداقة . وعليه شددته من ذقنه أمام الجميع ، ولعنته قائلا : "والد هذا يهودى ." هذا الشاب ، قوى البنية وقوى العزيمة ، وضع يداه على كتفى وسبنى بأنى نصرانى ، ولكنى قلت له : "كان ينبغى عليك أن تحافظ على الناقة " ، ورحت أشده تماما من لحيته . وهنا لزم القبليون الذين كانوا يلتفون حولنا ، لزموا الصمت ، بل أن أسرته هو أيضا لزمت الصمت ، فالجميع كانوا أصدقاء لى ، وكان الجميع لديهم فكرة طيبة عن تجوالى معهم بطريقة عادلة . وعندما أدرك عيسو أنه يلام على ما فعل ، وأنه لا بد أن يتحمل ذلك الذى نزل به ، أحنيت رأسه على صدره وتركته يذهب لحال سبيله . استعمال القوة لا يكون مجديا فى بعض الأحوال ، ومن الحماقة أن يلجأ الإنسان إلى القوة فى علاج أمور لا علاج لها ؛ صحيح أننى تجاوزت عن الخطأ الذى ارتكبه عيسو ، ولكنى كنت أرى من الضرورى توضيح أن قبولى لذلك الذى حدث ، كان على مضض ، يضاف إلى ذلك أن العرب يودون للرجل أن يكون مثل الرُّمان حلو ومر فى آن واحد ، معتدل ومحب مع أصدقائه فى حالة الأمن ، ولكنه يغضب غضبا عادلا ومبررا إذا ما دعا الداعى للدفاع عن حقه هو أو حق جار له ، وبدأ والد عيسو يتردد على خيمتى شيئا فشيئا ، وبصوت خفيض راح ذلك الرجل العجوز يعترف ويقر بالخطأ الذى ارتكبه ولده ؛ "ولكن ، لماذا تسبنى يا خليل ، بتلك السبة ، عندما كنت بين أصدقائك ، وتصفنى أمام كل الناس بأنى يهودى ؟" ولكن عندما رآنى صالح العجوز ، وأنا أبتسم ، راح هو الآخر يبتسم ، وسلم على يدى اليمنى التى مددتها له .

عثرت على زيد ، فى المساء ، جالسا على واحدة من المصاطب الطينية بالقرب من الحدّاج (البئر) ؛ كان الرجل ينتظر فى وسط البلدة ، على أمل وصول بعض معارفه من القرويين ، قبل غروب الشمس ، ليدعونه لتناول العشاء ، وعندما عدت إليه ثانية ،

بعد ساعة من الزمن ، وجدته ما زال جالسا فى المكان نفسه ، وكان محياه الأسود يجمع بين صبر البدو على الجوع واحتقاره للتيامنة. ربما ظهر زيد أكثر غنى وازدهاراً، لو أنه كان متحررًا وأجل الصداقة فى الآخرة وفى هذه الدنيا ؛ ولكن ضيق اليد هو الذى يولد الضعف وخفوت الإرادة لدى جيرانه . وقفت أتكلم مع زيد ، ورأيته فى النهاية يتناول غليونه ، الذى هو بمثابة الدواء الذى يعالج الجوع ، وهنا وجدت زيدا يستدعى صبيًا ، خرج من دار مجاورة ، ليحضر له شيئا من الفحم المشتعل ، ووجدت القروى الشاب يطيعه ويجيب طلبه .

فى الساعة الأولى من تلك الليلة هبت علينا عاصفة من الريح والمطر . وتمايل النخيل العالى ، وأنحنى ، وكان يبدو للضيوف وكأنه سوف يقتلع من جذوره . وهنا لجأت أنا ومحسن إلى منزل الفجر Fejr مضيفنا ؛ ولكن سقف المنزل الذى كان مصنوعا من عيدان الأشجار والقش المغطى بالطين ، سرعان ما بدأ يتخلله ماء المطر ، وبدأت الرطوبة والبلل ينهال علينا من خلال جدران المنزل . تحدث محسن عن سفرى فى الغد برفقة البشر Bishr ، وطلب من فجر Fajr أن يكون شاهدا على ما يقول ، وحاول ذلك الرجل الفجرى أن يجعلنى أحيد عما قررته قائلا : "حتى زيد نفسه ، قال الرجل ، قد تخلى عنى ، وكان مفروضا على زيد أن يزكينى عند البِشْر ، وكان من المحتمل أن لا أراه بعد الآن ." – "هل ينبغى أن أعجب من ذلك أو أندهش له ؟ – زيد لا قلب له ،" رد الاثنان علىَّ قائلين : "إى ، بالله ، زيد ليس له قلب " ، وكررا "ما Ma له Lahu قلب Kalb " . كان فجر يعانى من ألم حاد ، أو إن شئت فقل : يعانى معاناة شديده من آلام الحصا el- Hasa ، ذلك المرض الذى يشيع فى هذه المنطقة ، بالرغم من أن المنطقة هنا أرضها من الحجر الرملى ، ومع ذلك قد يكون المرض مجرد التهاب ، لأنهم يظنون أن المرض يصيبهم بسبب مشيهم حفاة على التربة الحارقة . وعندما هدأ الطقس ، اتجهنا صوب الخيام التى أصابها البلل لننام الليلة الأخيرة لنا فى تيماء .

الفصل الحادى والعشرون

الجبل

الرحيل عن تيماء مع البِشْر . رحلة فى اتجاه الشرق خلال المطر . مشهل الشيخ العظيم يُصلِّح القهوة ويقدمها . نساء البِشْر . ابن مرتاد . كرم الشيخ فى البرية . تعال إلى خيام مِشْهل . تهديدات مِشْهل . الرحيل مع جماعة إلى حائل . رحلة مع ركَّاب الذلول . النصرانى يقيم بدويا ولصا من لصوص الماشية . الوصول إلى الخيام أثناء الليل . بدوى من الذين خدموا فى العجيل . شيخ من شيوخ الشمر فى الصحراء . الشيخ يتمنى الخير للإنجليزى . نجد تكاد تكون عديمة المطر . أسئلة البدو وأجوبتهم . الإرهاق البالغ بسبب الركوب . ظهور الماء . مجلس عسكر . الوصول إلى أولى قرى الشمّر . موجوج . الحكم الذى أصدره الشيخ للنصرانى . قهوة الشمر . الفقيه الشاب صاحب الفكر الحر . بدوى عراقى يتهم النصرانى . كلام نجد . الرحيل إلى حائل . ريّ السلَف . لقاء خطر فى الرِّيّ . البشر والشمّر ليسوا جيرانا طيبين . منظر علامة حائل الجبلية. قفار . نسأء نجد المنقبات. الكرم العام فى قفار . ضواحى قفار الطللية . السهل الصحراوى قبل حائل . مسافرون بمحض الصدفة . الخيَّالة . الاقتراب من حائل . المكر البدوى . عبد العزيز . دخول حائل . المكان العام . القصر . مُفرِّج . المقهى العام . صالة الضيوف أو المُضيف . سكرتير الأمير . مثول النصرانى أمام الأمير بن الرشيد . الحضور . رواية القرآن عن المسيح . قراءة غير موفقة . خَتْم . جولة فى مزرعة القصر مع الأمير محمد . آبار الرى العميقة . الوضيحى .

قامت النساء بتحميل خيامهن وأمتعتهن على ظهور الإبل ، وألقيت نظرة على الأعراب أثناء رحيلهم قبل طلوع النهار . كان زيد يركب فرسه ، وواصل مسيره قدمًا

من القرية التى أمضى الليل فيها ؛ "قال زيد : لو أننى أرافقه وأذهب معه الآن ، فسوف يأخذنى إلى البِشْر ويربطهم بمسئوليتهم عن أمنى وسلامتى ؛" ولكن زيدًا لم يكن بوسعه الانتظار ، إذ كان يتعين عليه أن يتبع الأعراب ، إضافة إلى أنى لم أكن فى ذلك الوقت ، مستعدا للرحيل ؛ واختفى رفاقى من الفكارة ولم أعد أراهم بعد . ومر علىّ غريب ، قدم لى يد العون على وجه السرعة ، وراح يساعدنى وأنا أحاول تحميل أشيائى وأمتعتى على ظهر ناقتى العجوز : ورحت أقود الناقة وهى تحاول مقاومتى ، فى محاولة منى للانضمام إلى بقية الإبل ، لمسافة نصف ميل تقريبا بالقرب من تلك الأسوار المؤدية إلى هؤلاء البِشْر، الذين شاء حظى الجيد أن أراهم وهم لم يبدءوا التحرك بعد . وعند البشر ، قصدت إلى ذلك الرجل الذى يدعى حيزان Hayzan ، الذى سبق أن وافق على اصطحابى إلى مدينة حائل : كما اشتريت من بشرى آخر إطار سَرْجٍ من سُرُوج الركوب ؛ حتى يتسنى لى تحميل أشيائى وأمتعتى على الناقة المجروحة . كان البشر يستعجلون ماشيتهم ، ولذلك بدأنا المسير على وجه السرعة .

تركنا تيماء عن يميننا ، ومضينا قدمًا ، بين قمم الإرباح Erbah وقمم الغنيم متجهين نحو الصحراء ؛ وسرعان ما تبدت لنا بعد ذلك حدود صحراء النفود القاحلة ، والتى كانت تمتد ، بدورها أيضا ، فى اتجاه الشرق . واصلنا مسيرنا أثناء سقوط المطر فى طقس سيئ ؛ وعند الساعة الرابعة مساء ، نزل البشر عن إبلهم فى الصحراء المبتلة وعلى ارتفاع حوالى ٦٠٠ قدم عن مستوى تيماء ، وهنا ساق البشر الإبل الجائعة إلى المرعى . شب البدو المترحلون النيران ، وراحوا يضعون عليها أنواعا معينة من حطب الأدغال ، الذى كان من بين النباتات التى تأكلها الماشية ، وبالرغم من أن ذلك الحطب كان مبتلا بفعل قطرات المطر ، فإنه كان سريع الاشتعال . حاول البدو الحفاظ على أنفسهم ، قدر المستطاع ، من الريح الرطبة ، والمطر الغزير ، بأن راحوا يكوِّموا الأدغال من حولهم؛ وثبتوها فى الأرض عن طريق وضع أحجار ثقيلة من فوقها .

تحركنا مع طلوع الشمس : أعاد عواء الإبل المفاجئ ، والضوضاء الناتجة عن محاولة تلك الإبل الامتناع عن التحميل ، أعاد إلى ذاكرتى ذكريات حج العام الماضى ! وقبل الساعة العاشرة صباحًا ، أصبحت حلوان Helwan على مرمى بصرنا ، وصفى الجو أكثر من ذى قبل . وعرّج البشر قليلا فى اتجاه الجنوب الشرقى ، حيث ظهرت

أمامنا قرية برِّد Birrd (ويصح فيها أيضا بِرد Bird) : وعند الساعة الثانية بعد الظهر ، نزلنا عن راحلاتنا ، ودفعناها فى اتجاه المرعى ؛ كان الارتفاع هنا فى هذا المنطقة مثل ارتفاع الأمس ، أى حوالى ٤٠٠٠ قدم . وتوقف المطر وخرج حيزان للتصقر(*) . كان من ضمن هذه الجماعة رجلين أو ثلاثة رجال كانوا يصحبون صقورهم معهم ، وكانت تلك الصقور راكبة على قمم السروج، وكل واحد منها موضوع فوقه غطاء عينيه الكامل، أو الغطاء الذى به نافذتين يرى الصقر من خلالهما ، أو جاثمة على أيدى أصحابها . فى بعض الأحيان ، كان أصحاب هذه الصقور يدفعونها لمطاردة الأرانب البرية الصغيرة التى كانت تظهر لنا فجأة أثناء سيرنا فى الصحراء ؛ كانت أجنحة الصقور مبتلة بفعل المطر : وكانت الطيور تطير طيرانا فاترا وتحلق على ارتفاع منخفض ، وبعد دورة أو دورتين كانت الطيور تعود وقد أمسكت بواحد من تلك الأرانب البرية ، ويروح الصَّقَّار يمسكه فى يده وهو مشدوه . هذا يعنى أن حيزان كان يصطاد كل يوم أرنبا بريا ، وكان يحضر لى جزءا من لحم ذلك الأرنب فى المساء ، وكان ذلك يكفى احتياجات جسمى المرهق . افتقدت كلا من حنَّاس وابن عمه ريَّان Rayyan ، بينما كنا نسير فى الطريق ؛ فقد ترك هذان الرجلان أعرابنا أثناء ترحالهم ويمموا مسيرهم نحو أهليهم الذين كانوا يخيمون فى الجنوب ، فوق حرة Harrat خيبر(**) . ها أنا اليوم وحدى مع العواجى ، – وهؤلاء البدو هم إلى حد ما عنيفين، كما أنهم دوما من البدو البخلاء ، ولكنى كنت استشعر أملا قويا فى الوصول إلى حائل خلال فترة وجيزة . جلست لشرب القهوة مع الشيخ مسهل ، الذى سوف يقوم هو بنفسه بعمل القهوة . هذا الشيخ الذى "يحكم سبعة قبائل" هو الذى حمص البن ، وطحنه ، وغلاه ، وهو أيضا الذى قدم لى بيده ، ذلك الخليط الجميل . لم يعطنى مسهل سوى فنجال واحد ، وقدم لأفراد قبيلته فنجالين وأحيانا ثلاثة فناجيل . ونظرا لأن العمل الذى قام به ذلك الرجل كان يسيئ إليه لأنى نصرانى ، فقد قلت له متعجبا ، "هذا بالله شيخ كبير وقهوة قليلة ! أهذا هو عرف العواجى ، يا مسهل ، ان يجلس ضيف بينكم وأنتم جميعا

(*) التصقر : الصيد بالصقور . (المراجع)

(*) حرة خيبر : تعرف هذه الحرة أيضًا باسم حرة النار وهى الحرة التى يطؤها الحجاج فى طريقهم إلى المدينة المنورة . (المراجع)

تشربون القهوة ، فى حين يمسك هو بفنجاله فارغا ؟" بعد أن تحديت مسهل بهذه الطريقة ، راح يصب لى القهوة على غير رغبة منه ، وهو يتمتم ببعض كلمات تبين عن مزاجه المتشدد ، قائلا "يا ya فركه ! farkah " .

وصلنا فى ساعة مبكرة من صباح اليوم الثالث إلى مشارف جبل إرنان Irnan ؛ وهنا قلت لجارى : "ها ، ها هو جبل إرنان !" وهنا صاحت امرأة كانت تركب راحلتها وعلى مقربه منا ، بحيث كانت تسمع ما نقول ؛ صاحت قائلة : "أوه ، ما الذى تريده أنت من إرنان ؟" وقبيل العصر نزلنا عن راحلاتنا فى أرض مرتفعة تقع فوق يبع yba مغير Moghrair ، التى اكتشفت ، عن طريق الآلة ، أنها على ارتفاع يقدر بحوالى ٤٠٠٠ قدم . شاهدنا ، عن بعد ، بعضا من إبل أعراب ابن Ibn مرتاد Mertaad ، وهم من حلفاء البشر . بعد أن نصبنا خيامنا ، جاءت إلى خيمتى امرأة ؛ كانت تطلب إبرة وخيطا (الأشياء التى من هذا القبيل تعد هدايا مقبولة فى الخلاء أو إن شئت فقل : فى الصحراء) ؛ ولكنى طلبت منها الذهاب إلى حال سبيلها عندما وجدتها تساومنى مساومة شديدة . وردت على وهى تنظر إلى شذرا . "ها ! نصرانى ، ولكننا عن قريب سنأخذ منك كل هذه الأشياء ." وقد رأيت من باب الكراهية [العنصرية] ، أن ربات البيوت البشريات كن يرتدين البروكة beroka ، أو إن شئت فقل : براقع الوجه الوثنية ، والتى لا يظهر منها سوى عينان غائرتان فقط . أوحت لى غرابة وجه هذه المرأة أننى كنت أجوس ، فى ديرة أخرى ، من هذه البلاد ؛ وهذا القسم من البلاد هو نجد الغيورة [والوهابية] ؛ – الأكثر من ذلك ، أن تربة الجزيرة العربية نفسها متباينة ومتنوعة .

فى اليوم الرابع من مغادرتنا لتيماء ، وصلنا إلى صخور وعرة من الحجر الرملى فى منطقة تقع خلف يبع yba مغرير Moghrair . قسوة المطر والهواء شديدة فى الجزيرة العربية ، وبخاصة عندما تواجه الشمس عيوننا، وننظر عبر سديم من الضباب الناتج عن الحرارة الشديدة ، ويتساقط مخيما على حدود تلك الجبال الجافة حتى النخاع أو إن شئت فقل : شديدة الجفاف ! هذه هى الريح وقد اختلطت بالمطر وراحا يهبان هبوبا شديدا على الصحراء الواسعة أثناء الليل . ومع حلول المساء ، نصبنا خيامنا ، إلى جوار خيام بعض من عرب Arabs مرتاد Mertad ، ورحت أنا بعد ذلك ، أتقدم شيئا فشيئا من نيران الحراسة البهيجة . وحيثما كنت أدخل إلى منطقة النار

أمام أى بيت من البيوت الرئيسية ، كان رب ذلك البيت يستقبلنى استقبالا وديا ثم يحضر لى بعد ذلك مباشرة سلطانية كبيرة من حليب النياق . لم يوجهوا إلى أى نوع من الأسئلة ، - والتزام الصمت هنا هو من كياسة المضيف ، وكانوا قد رأوا خيمتى البيضاء منصوبة قبل غروب الشمس . وعندما وقفت ، استعدادا للانصراف ، طلب منى الرجل بإشارة لطيفة البقاء لمزيد من الوقت. وشاهدتهم وهم يحضرون شاة لذبحها ؛ - ونظرا لأن الشيخ مسهل ، نزل أمام بيتهم فسوف يذبح ذلك الرجل شاة لتكون عشاء للضيف . قال لى عايد Ayîd بن مرتاد Mertaad ، ذلك الشيخ الطيب ، إن أعرابه كانوا يذهبون إلى الشمبل the Shimbel ، بل إن الحال كان يصل بهم إلى حد الوصول إلى كل من باليرا Palmyra وكرياتين Keriateyn ! رقدت على الأرض ورحت فى النوم داخل هذه الخيمة الصوفية الكريمة ، إلى أن أصبحت الوليمة جاهزة ، وعندها أرسلوا فى طلب كل من الشيخ مسهل هو وشيوخ العواجى. هذا الخروف المسلوق (فى منطقة بعيدة جداً عن ساحل البحر الأحمر) قدِّم مع نوع آخر من الأرز يطلقون عليه اسم التِّمن Temmn ويأتون به من العراق وهو (بالرغم من أنهم يعدونه أقل من أنواع الأرز الأخرى) له نكهة طيبة وقوام أفضل من الأنواع الأخرى . وبعد أن فرغ مسهل ومعه كل من جاءوا من البشر وشيوخهم ، نهضوا واقفين ثم انصرفوا لحال سبيلهم بعد أن شكروا المضيف ودعوا له بالبركة - ولم أرى ذلك من قبل - فقد حمل الشيخ مسهل معه قطعة من اللحم وعظمة من عظام الخروف ، وذلك لزوجته التى كانت تصاحبه فى الرحلة .

فى صباح اليوم الخامس لمغادرتنا لتيماء صعدنا إلى أرض وعرة شديدة الارتفاع فى اتجاه الشرق من طريق يطلقون عليه اسم درب Derb الزلاَّج Zillaj ، ووجدت ونحن فى هذا الدرب أننا كنا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم ، وشاهدت زهيرات صغيرة ، من بنات المطر ، كانت قد تفتحت بالفعل فى الصحراء . وعند دخول الظهر ، كنا قد وصلنا إلى مَنْزِل مسهل الذى كان مكونا من عدد قليل من الخيام التى نصبت إلى جوار بعضها فوق تلك القطعة المستوية من الأرض التى وصلنا إليها ، والتى يطلقون عليها اسم الخرَّام el-kharram ، وكانت أيضا على ارتفاع ٥٤٠٠ قدم : كان الترمومتر (مقياس درجة الحرارة) قد سجل ٨٠ فهرنهيتية . واعتبارا من هذه المنطقة بدأت سلسلة

الجبال تبدو لنا وكأنها فوق السحاب ، وهذا هو جبل إرنان Irnan في الشمال ، يبعد عنا مسير يوم تقريبا .

في العصر جاءنا رجلان قبليان غريبان ، جاءا من ديرة في الضاحية الجنوبية بالقرب من المدينة (المنورة) : قالا لنا إن المطر لم يسقط على ديرة جهينة ، أو في سائر أنحاء وادي الحمض Humth ! وضعوا أمامهما طبقا من التمر ؛ هذان البدويان ، دعياني [باعتباري ضيفا] ومن منطلق عرف الصحراء أن أقترب منهما وآكل معهما من ذلك التمر :- هذا المسهل ، بالرغم من أني كنت معه في خيمته لم يدعو النصراني للأكل من ذلك التمر ! تناولت تمرتين وأكلتهما من باب "العيش والملح" فيما بيننا . كان معي حزام مغربي كبير مصنوع من الصوف أحمر اللون ؛ وهنا قال مسهل : إنني ينبغي أن أعطيه ذلك الحزام ، وإلا فإنه ، بالله ، "سوف يجعل مني أنا وما معي من أشياء" غنيمة له . هذا الحزام الذي يشيع في البلدان المستقرة ، والذي يطلقون عليه اسم "الكُمُر ، kumr ، مطلوب ومرغوب من الخيَّالة البدو المترحلين ، وهم يظنون أن ربط أجزاء الجسم غير المتينة بذلك الحزام ، إنما يعطي الإنسان قوة على قوته . "قلت له" إن الحزام ضروري عندي ؛ وطلبت من مسهل أن يعطيني جملا صغيرا قويا ، على أن أعطيه أنا ناقتي ومعها الحزام ."- كان عدد إبل ذلك الرجل يزيد على المئتين ! "رد عليَّ مسهل قائلا : حسن ، إذن ، سيأخذني غنيمة له ." - "ألا ترى أن نوى التمر ما يزال في يدي ، وأنت لا يمكن أن تقبل على ذلك يا مسهل ، فأنا بيني وبينك الآن "عيش وملح" ." - "ولكن ذلك لن يجديك أو ينفعك ؛ ماذا يحدث لو أنني طردتك غداً بعيدا عنا ، أنت ومعك ناقتك العجوز ، فهل تستطيع أن تهتدي إلى طريقك وتعود إلى سهل الحجر ؟" - "أنا أعرف أن المسافة تصل إلى حوالي أربع رَحْلات في اتجاه الجنوب الغربي ، إن الله سيأخذك بجريرتك ، وأنا أحسب أن هذا لن يرضي الله (سبحانه وتعالى) ، وسوف أمضي معكم قدما." - "ولكن البلد كله ملئ بالحباليص ." - "يا شيخ مسهل ، يا غني ، هل تسمح لك عاداتك بتجريد إنسان مسكين من مقتنياته ! وأنا أرى أن هذه التهديدات كلها مجرد لغو ليس إلا ، لأنني ضيف عليك ." - والبدو يظنون أن النصارى خبراء في ركوب الدواب ، وعليه قالوا لي : "أنني سوف التقى الشيخ مسهل في الغد على ظهر حصان ، وينبغي أيضا أن أكون مسلحا بمسدس ؟"

ورددت عليهم قائلا : "إذا كان لابد من ذلك ، فسوف أحاول وأبذل قصارى جهدى ." – "لا ، فى الغد سوف يركب خليل ناقته العجوز (قالها مسهل مرة ثانية) ويعود إلى مدائن صالح !" وبابتسامة صارمة توقف عن الطلب ، بعد أن وجد أن كلامه لم يحركنى . وهنا قال ولده الأصغر الذى كان يجلس معنا فى الخيمة ، قال كلاما طيبا : "حسن ، دع خليل يحصل على ما يريد ، – وفى الصباح سوف يعطونى ناقة صغيرة بدلا من الخويرة (الناقة كبيرة السن) والحزام . والعرب فى جشعهم عندما يحاولون إتلاف حياة الغريق ، الذى لن يساعدوه مستقبلا ، يكونون أرذل من أية أمة أخرى !

طلب منى حيزان ، فى الصباح ، الاستعداد للرحيل ، إذ كان عسكر ومعه بعض الرفاق متجهين إلى حائل ، وبالتالى يمكن أن أركب معهم ؛ سألنى حيزان "هل ناقتى العجوز تستطيع مسايرة النياق الصغيرة فى الجرى ؟"– "إنها ناقة عجوز ، وليست صغيرة السن ." – "إذن ، يتعين علينا أن نسافر منفصلين عنهم ." كان حيزان بعد أن استلم النقود التى اتفقنا عليها ، قد قال إنه لا يستطيع مرافقتى هو بنفسه ، "وإنما الذى سيرافقك هو هذا الرجل ،" الذى قال عنه إنه شقيقه ، إضافة أيضا إلى أنه أطلق عليه اسما غير اسمه . – كان من الصعب علىَّ تحاشى الوقوع فى مثل هذا النصب والخداع من قبل البدو ! قال مسهل : "حسن ، أنا أضمنه ، سافر فى أمن وسلام ." ووضعت شرطا يقضى بتحميل حقائبى على ناقته الصغيرة ، وأن يكون من حقى أن أركبها أيضا ؛ وبعد ذلك مضينا قدما فى طريقنا .

كان رفيقى فى الرحلة شبيه برجل من رجال الأحراش : كان عسكر ومن برفقته قد سبقونا على الطريق ؛ مررنا على بعض حفر الماء الضحلة التى جرى تطهيرها مؤخرا ؛ وانتابتنى دهشة لوجود مثل هذه الحفر على مثل هذا الأرض المرتفعة . ثم وصلنا بعد ذلك إلى حرف الجبل فى الناحية الشمالية ، من جبل خرَّام kharram ، هذا الحرف كان شديد العمق وشديد الانحدار نحو السهل الموجود فى الأسفل ؛ والإبل أثناء سيرها فى مكان من هذا القبيل ترتكز على أرجلها الأمامية وتجعلها أكثر تماسكا، محاولة النزول نحو الأسفل بحرص بالغ . وهكذا رحنا نهبط ، حسب استطاعتنا ، مستهدفين الوصول إلى الصحراء الرملية ، متجهين بعد ذلك صوب ساحل منخفض من الصخر الرملى ، يطلقون عليه اسم العبَّاسية Abbassieh ، ويقع

إلى الغرب من بلدة مسمة Misma واستطعنا فى النهاية اللحاق بعسكر ومن معه . وعندما اقتربنا من الطرف الشرقى للجبل ، ظن من معى أنهم شاهدوا حباليص يتجولون بين الصخور. هؤلاء اللصوص هم من "حطيم النفود وهم أيضا من الأعداء" ، وقد شوهدوا فى تلك المنطقة التى رأى الناس فيها فى اليوم السابق بعضا من طلائع الحباليص الذين يقومون باستكشاف المكان . "(قال عسكر) ، هل تستطيع ناقتك ، يا خليل ، أن تساير نياقنا فى المسير ؟ نحن بدو ، ونحن ننهش nenhash) ويصح فيه أيضا "نهجج nahajj) ! ونحن لا نهاب أى نوع من الأخطار ونحن ركوب على نياقنا ؛ عجل قدر ما تستطيع ، والا خلّفناك وراءنا ، وبذلك تسقط وحيدا فى أيدى اللصوص ." وبعدها راح كل واحد منهم يستحث ناقته على الجرى : أما ناقتى العجوز ، والمرهقة بعد الرحلة الطويلة التى قطعتها من تيماء ، فقد تأخرت كثيرا عن باقى النياق ، وتلك كانت قدرتها . وخلصت إلى أن الجميع سوف لا تكون لهم فائدة فى حالة الخطر ؛ هذا يعنى أن الطالع كان فى غير صالح هذه الرحلة ، لم يكن فى أحد من الرفاق أى شىء من الخير اللهم باستثناء عسكر وحده . وهذا هو الرفيق غير المتحضر ، الذى حاولت ربطه منذ البداية بأن جعلته يحلف بأغلظ الأيمان ، والذى حلف لى "على ساق العشب" أنه لن يتخلى عنى ، هذا هو الآن يصيح فىّ قائلا : "والله – بالله ، إنه سوف يتخلى عنى إذا لم أُعدِّل خطوى وأسرِّع من مسيرى (وهذا أمر مستحيل) ؛ لأنه يتعين عليه اللحاق برفاقه ، كما أنه كان رفيقا لهم ،" من هنا فقد راح الجميع يجرون بنياقهم مسافة ميل أو ميلين .

أسفر المطر الذى تساقط فى الأيام الأخيرة عن برودة الهواء ؛ ها هى فترة ما قبل الظهيرة ، حيث السماء ملبدة بالغيوم ، ولكن الشمس تسطع بين الحين والآخر محدثة نوعا من الدفء . وبعد عناء كبير وجلبة كثيرة وصلت أخيرا إلى الرفاق الذين كانوا طائرين بنياقهم ، وهنا قلت لعسكر : "لو قدر للأعداء أن يهجموا عليك ، فهل ستضحى بى أنا الذى أعد رفيق طريقك ؟" "قال : سوف أُركِبُك ورائى على ناقتى ، وسوف يكون مصيرنا مصيرا واحداً نحن الاثنين ؛ لن أضحى بك ، يا خليل ." كانت الجماعة تأمل فى النزول فى منزل الأعراب فى تلك الليلة ، قبل أن نصل إلى جبل مسمة Misma ، الذى بدأ يلوح لنا من بعد . كان السهل عامرا بالرمال والأعشاب التى تنمو

فى الأحجار الرملية ، التى كانت تجاويفها عبارة عن برك صغيرة ملأتها مياه الأمطار العذبة . وقبيل العصر طرد أفراد الجماعة الإبل وجعلوها تسبقهم بمسافة كبيرة جداً ، نزلنا عن إبلنا وتسلق البعض الصخور المجاورة ليستطلع المكان ، وعادوا ليخبرونا أن أولئك الأعراب كانوا أيضا راحلين، وأنهم يبدو عليهم أنهم على وشك التخييم من جديد. واصلنا المسير ركوبا على ظهور نياقنا قاصدين جبل مسمة Misma ، إلى أن وصلنا إلى أولئك البدو ؛ الذين لم يكونوا سوى عائلة من عوائل الشَّمَّر تتجول فى تلك القفار الشاسعة . والمؤكد أن أفراد هذه العائلة تملكهم الخوف الشديد بعد أن رأونا ، لأننا وجدناهم ينكمشون ويلجأون إلى الأرض المنخفضة ، آخذين معهم إبلهم قليلة العدد ، فى الوقت الذى لم تكن ربة البيت قد نصبت فيه خيمتها . كانوا يراقبوننا ونحن نمر عليهم ، ونظراتهم توحي بعدم الاستقرار أو الاطمئنان ، والسبب فى ذلك أنه ليس هناك وئام بين العنزى والشَّمَّر .- والذى يشكل ذلك العداء هو مسألة الأمير . كنت سأطلب من أولئك البدو أن يسقونى شربة ماء ، نظرا لأننا واصلنا مسيرنا طوال اليوم على ظهور راحلاتنا دون توقف ، إضافة إلى أن النهار أوشك أن ينتهى متحولا إلى ليل ؛ ولكن رفاقى واصلوا مسيرهم . طلبت من رفيقى أن يعيرنى ناقته المريحة والسريعة ، وذلك وفاء بما اتفقنا وتعاهدنا عليه ؛ ولكن هذا الرفيق الأشعث غير المتحضر أنكر علىَّ ذلك ، بل إنه رفض حتى أن يبطئ المسير . وكنت فى أحيان كثيرة ، أتأخر عنهم كثيرا جداً ، بينما هم يجرون ، الأمر الذى كنت أخشى أن أفقد الاتصال بهم عن طريق البصر ، كما كنت أخشى أيضا أن تنهار ناقتى المتعبة من تحتى ، وبالتالى تجهض وتفقد وليدها .

وبناء على كلام عسكر ، وبعد أن أدركوا أننى لن أقوى بعد ذلك على تحمل المزيد ، وافق رفيقى على تبادل الركوب معى ، وبالتالى ركبت أنا ناقته صغيرة السن ؛ دخلنا بعد ذلك فى فجوة منخفضة فى جبل مسمة بالقرب من طرف الجبل الشرقى المكون من سلسلة طويلة من صخور الحجر الرملى . وراح رفاقى ينظرون من طنف الجبل ، بحثا عن خيام الأعراب سوداء اللون ، فى السهل الصحراوى الواقع خلف الأفق . قال أحد الرفاق إنه يحسب أنه رأى خياما على بعد مسافة كبيرة ، ولكن بقية الرفاق شكوا فيما قاله ذلك الرجل ، وهنا كانت الشمس بدأت فى الغروب . وهنا نزلنا

إلى الرمال العميقة المنجرفة على أجناب الجبل ، وهنا فاجأتنا ريح ، كانت تشبه فى هبوبها هفهفة جناحى الطير ، ونحن ركوب على نياقنا ، مما أدى بالإبل إلى إسراع خطاها ، بالرغم من أن الأفراس ، يمكن أن تسبقها فى الأرض المستوية . وكما يقول شعراء العرب القدامى إن ركوب الذلول يجعل الراكب يحس وكأنه "يسبح" فوق الأرض الرملية ، الأمر الذى يجعل الراكب المتمرس لا يحس بسرج الجمل من تحته .

نزلنا إلى بركة من ماء المطر فى الصخر الرملى، وعندها نزل الرفاق عن راحلاتهم وتوضئوا من ذلك الماء وراحوا يؤدون صلاة المغرب ؛ ولكن عسكر ، وبالرغم من دخول الليل علينا ، لم يكن معه شيئا يجفف به نفسه ، فقد راح يغسل كل جسمه ، وراح رفاقه يسألونه : "قال ، إن هذا هو ما يفعله الرجل بعد أن يعاشر زوجته !" وبعد الاستحمام عاد واثقا من نفسه يطلب الرحمة والعفو من الله :- وهذا هو ما فعله (سيدنا) موسى . والمسلمون سواء أكانوا مرضى أم أصحاء ، إذا ما أصابت أجسامهم النجاسة بكل أشكالها ، فلا تصح معها الصلاة ، أى إنهم يمتنعون عن الصلاة . جاءنى كثير من المرضى ، وهم يشكون أن الضعف أو المرض الذى يعانون منه "قد يمنعهم من الصلاة" ؛ ولذلك يرى هؤلاء المرضى أنفسهم وكأنهم معزولين عن الرحمة وعن الدنيا أيضا . ولذلك فإن هؤلاء المسلمين يجعلون الله راعيا وناظرا إلى البشرة Skin (المظهر) ، بدلا من أن يكون وازنا وباحثا وكاشفا الحقيقة السرية التى فى قلب الإنسان . واصلنا مسيرنا فى عتمة الليل ؛ ولم استمر فى ذلك السير إلى مسافة بعيدة ، نظرا لدخول الليل البهيم علينا ، ولم أستطع تهدئة رفيقى نصر Nasr ، وهنا تحتم علىَّ العودة إلى ناقتى العجوز "والسبب فى ذلك ، على حد قوله ، أننى قد أشرد مع الناقة أثناء الليل ." ومن رأى نصر ، وكان ذلك أيضا هو رأى حوريش من قبل ، أننى كنت بدويا ، ولصا من لصوص الإبل ؛ وهذه الفكرة الخيالية هى التى جعلته فى مرحلة سابقة من اليوم ، يوافق على أن أركب أنا ناقته ، التى كانت هى أسرع النياق الموجودة على الإطلاق ؛ أما فيما يتعلق بكل من عسكر والبقية التى كانت كلها من الشيوخ ، فقد خلفوا وراءهم أفضل نياقهم فى ديارهم ، لأنهم كانوا يدخرونها للعمليات الحربية .

سرنا مدة ساعتين بعد غروب الشمس ، وقطعنا خلال مسير ذلك اليوم ما يقرب من خمسين ميلا ؛ وهنا بدءوا يتشاورون مع بعضهم البعض حول ما إذا كان من الأفضل لهم النزول عن راحلاتهم وقضاء الليل فى هذا المكان الذى وصلوا إليه ؟ كنا لم نتناول إفطارنا فى ذلك اليوم ، ولم يكن معنا طعام أو ماء ، كانوا واثقين من أننا سوف نتعشى كل ليلة مع الأعراب . اتفقوا فيما بينهم على الاستمرار فى المسير إلى مسافة أبعد قليلا عن هذا المكان ؛ وبعد فترة وجيزة بدأت تلوح لنا نيران الحراسة التى يشبها البدو . بعد ذلك بساعة ، أصبحنا على مقربة من أولئك الأعراب ، وعندها سمعت أصوات المساء فى منزل من منازل أولئك البدو الرحل ؛ كانت تلك الأصوات عبارة عن أصوات المرح المملة التى تصدر عن الأطفال ، الذين يدورون حول نيران الحراسة ويغنون عند بيوت الشَّعْر . وصلنا فى سكون ولم تنبح الكلاب . كانت هناك خيمتان أو ثلاث خيام . وعندما رآنا العرب صمتت الأصوات كلها : هذه النيران الجميلة ، التى شاهدنا حولها قبل لحظة واحدة ، بعض الرجال ، انطفأت فجأه بإلقاء الرمال عليها . كان عددنا يتردد بين ستة وسبعة رجال ، وكان كل واحد منا على ظهر راحلته ، وظن الناس أننا ربما نكون غزوا معاديا . وبعد أن نزلنا عن راحلاتنا فى صمت انتحينا جانبا ثم جلسنا على الأرض : ولم يتكلم أى أحد منا مناديا باسم زميله مطلقا ؛ والسبب فى ذلك أن الصحراء الواسعة مليئة بحالات الثأر وإهدار الدماء . وعندما يكون هناك اجتماع غريب من هذا القبيل ، بل وفى مثل هذه الساعة ، فإن البدو الرُّحل يزداد شكهم وعدم يقينهم فى بعضهم البعض . وأنا عندما كنت أضيق ذرعا بصمتهم ، كنت أقول لهم سلام Salaam ! وهنا كانوا يرجونى التزام الصمت والسكون . وعندما أدرك البدو أننا مسالمون ، تقدم واحد منهم بحذر نحونا ، وألقى علينا السلام قائلا : "سلام Salaam عليك aleyk " وهنا رددنا عليه جميعا السلام قائلين : "عليكم السلام Aleykom es-Salaam " . والبدو عندما يتبادلون السلام بهذه الطريقة تزول من بينهم شكوك الشر والخطر . وهنا اقتاد ذلك الرجل ، الذى اقترب منا ، كلا من عسكر ورفيقه إلى بيته ، فى حين ذهبت أنا ومعى نصر Nasr إلى بيت آخر ؛ ونصر هذا كان رفيقا لى ، وقد التقيناه سائرا فى الصحراء مع ولده بالقرب من مسمة Misma . وهنا شب البدو من جديد النيران التى كانوا قد أطفأوها .

لم نتمكن من معرفة هوية أولئك الأعراب، ولم يتمكنوا هم أيضا من معرفة هويتنا؛ ولقد عرفنا أن أهل الصحراء لا يسألون الضيف عن هويته إلا بعد أن يفرغ من تناول الطعام ؛ ومع ذلك فإن الأعراب عندما يتبادلون الحديث عن ، المطر خلال العام ، أو عن المرعى ، ربما يتمكنوا من معرفة قبائل بعضهم البعض . وأنا عندما سألت رفيقى الجلف "إلى أى قبيلة ينتمى هؤلاء البدو ؟" رد على هامسا ، "إنه لم يعرف ذلك بعد " ؛ وبعد ذلك بفترة وجيزة ، فهمنا من الأصوات التى تناهت إلى مسامعنا أنهم ، فى الخيمة المجاورة قد تعرفوا على عسكر . كان عسكر ولدا من أبناء شيخهم الكبير ؛ وعرفنا أيضا أن أولئك الأعراب كانوا ولاد Wélad سليمان Selyman ، وهم بطن من بطون قبيلة البشر ، هذا بالرغم من عدم معرفة الناس هنا لوجوه بعضهم البعض . وبعد أن انتقل مضيفى إلى الخيمة الرئيسية لمعرفة الأخبار ، تركنى مع ربة بيته ، التى شاهدتها وهى تقشر القمح باستعمال مِضْرَب فى قدح من الخشب ، وهذه الطريقة ليست معروفة عند البدو الذين سبق أن تعرفت عليهم فى الجنوب ؛ والناس هنا يقدمون القمح المبشور كوجبة للضيوف . كان الوقت من العام هنا يصادف فصل الشتاء ، فى هذه الصحراء الجرداء ، ولذلك قام البدو بوضع سياج من أعشاب الأدغال الجافة ، حول خيامهم لحمايتها من الريح والمطر الغزير .

جاءنا بعد ذلك ، رجل من الخيمة الثالثة وتناول معنا الغذاء . وقد اندهشت عندما رأيت ذلك الرجل ، كما اندهش هو أيضا لرؤيتى : كان الرجل واحداً من البدو ، ولكنه كان يضع على رأسه قلنسوة أو إن شئت فقل : طربوش تركى أحمر اللون ، كما كان يرتدى قميصا مقلماً يطلقون عليه اسم "كمباز" kumbaz ، فى بلاد الحدود المتمدنة ! وعندما سألت ذلك الرجل عن عمله ، رد على أن "ضعفه" جعله يلتحق بالجندية فى الشام وراح يخدم الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك نظير أجر يتقاضاه بالريالات : ولكنه الآن عاد إلى الحياة البدوية ، ومعه ما يعتبره مبلغا كبيرا من المال . ومع بداية تحسن أحوال ذلك الرجل اشترى لنفسه إبلا ، وماعزا وأغناما ، كما كان على استعداد لشراء ناقتى العجوز ، ويدفع فيها المبلغ الذى حددته أنا ، وهو سبعة ريالات ، على أن يقوم بذبحها عتقا لوالده المتوفى .– البدو يعملون بالجندية ، هذه المسألة كانت تشكل لى عالما جديداً ! ومع ذلك ، فقد بلغنى فى مرحلة لاحقة ، أن هناك بعضا من البشر

وبعضا من أفراد قبيلة حرب يعملون ضمن العجيل (فريق النقل) فى المدن الكبيرة . كان البدوى ، الذى رأى فى الغريب حياة المدينة الدمشقية ، يسعد وينشرح صدره ، عندما يدردش طويلا مع الغريب ، حتى وإن كان ذلك الحديث مقصورا على ذكر أسماء الأسواق والشوارع فى تلك المدينة الواسعة الشاسعة . أبلغنى ذاك البدوى أنه سوف يحضر ثمن الناقة فى الصباح؛ و أضاف ، أننى إذا ما بقيت قليلا معه فى هذا المكان ، فإنه سيكون على استعداد لإرشادى فى رحلتى إلى حائل ، التى سوف يتعين عليه الذهاب إليها خلال فترة وجيزة . - ولكن عندما نادانى رفيقى فى الصباح وطلب منى الاستعداد للرحيل قبل طلوع الفجر ، لم أتمكن من البقاء مع ذلك البدوى . وعندما التقانى ذلك البدوى ، بعد ذلك فى حائل ، لامنى لأنى لم أنتظره ، وسألنى عن ناقتى ، التى كنت قد بعتها بثمن بخس . وقال لى أيضا ، إنهم عندما وصلنا إليهم فى تلك الليلة ، جهزوا بنادقهم الفتيلية ليفتحوا النار علينا ؛ ولكنهم عندما شاهدوا الجوالات الكبيرة فوق ناقتى ، وبعد أن سمع صوتى ، عرفوا أننى لم أكن واحداً من البدو ، وأننا لم نكن نشكل نوعا من أنواع الغزو .

عجلنا المسير فى الصحراء مرة ثانية على أمل العثور على منزل كبير من منازل الأعراب ، يمكن أن نشرب فيه شيئا من القهوة . والشيوخ الذين تعودوا على خيام القهوة لا يحبون الأيام التى تمر عليهم دون شرب القهوة ، من أيام حياتهم ؛ وسارت الجماعة على هذا الحال ، وهم يدخنون التبغ بلا توقف . وصلنا مع طلوع الفجر ، ونزلنا من فوق راحلاتنا ، وقسمنا أنفسنا إلى جماعتين ، وذهب عسكر هو وجماعته إلى خيمة قهوة الشيخ : تلك هى آداب الصحراء ، التى تقضى بعدم وضع الأعباء كلها على أسرة واحدة . كان هؤلاء الناس من الشَّمَّر ، واستقبلونا بكرمهم المعهود . قدموا لنا تمراً ممتازًا (له مذاق ولون غير مذاق ولون تمور قريتى العلا وتيماء) وضعوه أمامنا ومعه سلطانيه كبيرة من لبن النياق (ذلك الشراب المنعش فى تلك الصحراء القاحلة) . استدعونا بعد ذلك إلى خيمة الشيخ ، حيث قام هو بنفسه بتصليح القهوة ، ووجهه تعلوه ابتسامات النخوة والشهامة . وعندما سمع ذلك الشيخ أننى حكيم ، طلب منى أن أحضر إلىَّ حفيدته المريضة للعلاج . وقلت لأم هذه الحفيدة إننا على سفر ، وأن العلاج الذى سأعطيه لابنتها قد لا يفيدها كثيرا . وهنا استدار الشيخ إلى رفاقى وقال لهم :

"أننى لابد أن أكون شخصا أمينا ." – "رد عليه عسكر : هذا حقيقى ، ويجب أن تثق به فى كل شىء ." ناولنى الشيخ سلطانية الحليب، وبعد أن شربت منها جرعة ، سألنى، "من أى بلد أكون ؟" ورددت عليه : "أنا إنجليزى" ، وعليه همس فى أذنى قائلاً : "إنجريز ! Engreys – إذن أنت نصرانى ؟" وهنا قلت له بصوت عالٍ : "إى ، بالله !" وهنا ابتسم لى الشيخ من جديد ، وقال فى نفسه ، "لن أخونك ."– وبعد أن انتهى من تصليح القهوة ، صب لى أنا فنجالاً ، قبل أى واحد من الباقين . وبعد أن شرب رفاقى الفنجال الثانى ، نهضوا واقفين استعجالا للرحيل : طلب الشيخ منى الانتظار بعض الشىء ، كى أشرب المزيد من حليبه الطيب واستعيد فى داخلى بواعث القوة .

واصلنا مسيرنا شرقا فى تلك الصحراء الجرداء ، مخلفين وراءنا منطقة المِسْمَة Misma ، ونرى عن يميننا بعض العلامات الأرضية الجبلية المعروفة الدالة على ذلك المسقى الكبير الذى يطلقون عليه اسم بيثة Baitha النثيل Nethîl . وربما نكون قد واصلنا مسيرنا راكبين من خرَّام kharram إلى مدينة حائل فى الجهة الشرقية من جبل أجأ Ajja (*)؛ ولكن المرافقين لى كانوا يظنون أن ذلك المكان خالٍ من البدو المترحلين . هذا السهل الواسع المرتفع ، – الذى يصل ارتفاعه إلى ما يقرب من ٣٨٠٠ قدم ، تنتشر فيه الأصداف كما لو كان مكونا من أحجار الحديد ؛ ولكن قبيل الظهيرة اكتشفت أننا كنا فى منطقة من أحجار الجرانيت ، ومررنا من تحت جبل صغير من البازلت اللامع ، أسود اللون . كانت القمم الصخرية البارزة من تلك التربة رمادية اللون مثل الجرانيت ؛ هذا هو جبل إبران Ibran الذى يميل لونه إلى السواد ، نراه بعيدا عند الأفق ، على بعد مسير ساعات عدة من هنا ، ويمتد فى اتجاه الشمال . وبعد فترة وجيزة دخلنا فى رمال النفود ، حيث شاهدنا فيها العلف البرى ، وهنا نزل البدو عن دوابهم ليجمعوا شيئا من ذلك العلف . كان الهدف من ذلك هو إطعام المواشى إلى أن يستعدوا لدخول حائل ؛ هذه المنطقة المجاورة لحائل ويطلقون عليها اسم المحال Máhal ، عبارة عن تربة جرداء ولا تقل كثيرا عن المنطقة المجاورة لقرية تيماء . مسألة جمع العلف هذه لا تليق بشيخ من الشيوخ الكبار : وبينما كانت بقية

(*) أجأ : أحد جبلين يتكون منهما جبل شمر وهذان الجبلان هما أجأ وسلمى . (المراجع)

الجماعة مشغولة فى جمع العلف ، كان عسكر يحفر بيديه فى الرمل ، لكى يختبر العمق الذى تقع عنده مياه المطر ؛ وهذا العمل هو أهم الأعمال التى يقوم بها البدو لحين مجيء فصل الخريف التالى ؛ كما أن هذا الماء هو الذى يساعد على نمو الأعشاب الجديدة . كانت الأمطار قد سقطت غزيرة على تلك المنطقة طوال ستة عشر يوما؛ ومع ذلك لم نشاهد فى تربة هذه الصحراء الجرداء أية بادرة من بادرات النباتات الجديدة . وعندما وصل عمق الحفر إلى ما يقرب من ذراع واحدة ، تناول عسكر شيئا من التربة الجافة ؛ هذا يعنى أن رطوبة المطر لم تصل إلى عمق ياردة واحدة ! هذا يعنى أيضا أن الأمطار الموسمية تعد مسألة جزئية أو فرعية فى الجزيرة العربية ، التى تعد هذه المنطقة منها ، واحدة من المناطق التى لا تسقط عليها الأمطار . فبينما سقطت الأمطار فى منطقة خرّام ، نجد أنها لم تسقط على منطقة جهينة ؛ ولم تسقط على خيبر سوى أمطار قليلة جدًا ، وخيبر تبعد عن هذه المنطقة حوالى مائة ميل ، الأمر الذى جعل هذه المنطقة لا تعرف الربيع فى تلك الجبال البركانية فى ذلك العام .

بعد أن قطعنا مسافة قصيرة فى صحراء النفود ، شاهدنا قطيعًا من الإبل يتحرك أمامنا فى المرعى ، وأفراده متفرقين هنا وهناك ؛ ومن خلف ذلك القطيع شاهدنا خيام البدو منصوبة فى تجويف من تجاويف الأرض المحيطة بهم . والبدو ، عندما يخيمون فى مجموعات صغيرة ، يختارون أو ينتقون المناطق المنخفضة ، حيث يكونون فى مأمن من غوائل الطقس ، يضاف إلى ذلك أن البيوت يصعب تمييزها فى ضوء النهار عندما تقام فى مثل هذه المنخفضات ، إضافة إلى أن النيران التى يشبها هؤلاء البدو فى المساء ، يصعب أيضًا تمييزها أثناء الليل فى تلك المناطق المنخفضة . هؤلاء البدو ، هم أيضا من الشَّمَّر ؛ لأن هذه القبيلة تحتل المنطقة التى تمتد من أمامنا هنا إلى أن تصل إلى قرى الجبل Jebel ؛ – هؤلاء البدو كانوا منتشرين على شكل عائلات ، كما لو كانوا يعيشون فى بلد آمن داخل ممتلكات الأمير ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء البدو كانت تحيط بهم آبار المياه من كل جانب . جحافل أسراب الذباب فى هذه المنطقة الرملية كانت تشير إلى أننا فى مستوطنات النخيل . كنا كلما وصلنا خيمة من الخيام ، نجد الأعراب يسألونا على الفور ، وبفضول شديد : "ماذا عن المطر ؟ هل سقط الغزير منه على ديرة العوّاجى؟" وكان رفاقى يجيبونهم إجابة واحدة قائلين "لا la تنشد tanshud"،

بمعنى "لا تسألوا عن مسألة المطر هذه ." وعندما كان أحد يسألهم ، "من هو ذلك الشخص الذى أحضروه معهم ؟" كان العوّاجى يردون عليهم ، بإجابه لم أفهم معناها ، إذ كانوا يقولون لهم : "الخير El-kheyr الله Ullah . " كان شيخ هذه المنطقة على استعداد لشراء ناقتى ، وأعرب عن استعداده لتوصيلى بعد ذلك إلى حائل بعد أيام قلائل أنزل خلالها ضيفا عليه .

خطر ببالى تمضية الليل فى هذه المنطقة ؛ ولكن رفاقى بعد تناول العشاء ركبوا إبلهم وبدءوا يجرون من جديد ومعهم رفيقى نصر ؛ هذا يعنى أنهم لم يتوقفوا ولو للحظه واحدة حتى أبيع الناقة . – وهنا آثرت الرحيل مع أولئك الذين أعرفهم ، وبالتالى أكون واثقا من الوصول إلى حائل ، على البقاء فى خيام بدو لا أعرفهم ولا يعرفونى ؛ يضاف إلى ذلك ، أننا علمنا خبر وجود مخيم شمّرى كبير على بعد مسافة قصيرة ، فضلا عن وجود شيخ من شيوخ القهوة . وعد عسكر بتسليمى إلى أولئك الأعراب ، إذا ما استطاع إقناع رفيقى بالبقاء معى . لقد أتعبنى وهدنى ذلك التنقل المتعب على ظهور الإبل : إذ كان قلبى يقفز إلى حلقى فى معظم الأحيان ، وهذا هو ما يطلقون عليه هنا اسم "قطو katu القلب el-kalb" أو إن شئت فقل : "قطع القلب" . كانوا يسبقونى طوال ساعات اليوم ، وهم يستحثون إبلهم على السير ، إلى حد أننى كنت أرى أن الموت – فى حال عدم توفر النية الحسنة – هو الخلاص الوحيد من كل تلك الآلام التى أكابدها. كان الأعراب ينصبون خيامهم فى الجبل المجاور ؛ ولكننا بعد أن أمضينا ساعتين فى المسير أثناء الليل ، وعندما لم نشاهد آثار النيران التى يشبها أولئك الأعراب ، خطر ببالنا أن بدو العوّاجى ، على حد قولهم ، ربما يكونون قد بدءوا الرحيل أثناء الليل ، حتى يصلوا إلى حائل فى ساعة مبكرة. هذا يعنى أنهم لابد وأن يكونوا قد تخلوا عنى، وبالتالى لم أتمكن من المضى قدما فى ترحالى ، بل إن ناقتى كادت تموت من تحتى : وبالتدريج راح عسكر الذى كان يغالبه النوم ، يتمتم لرفاقه قائلا : "هيا بنا ننزل عن دوابنا وننال قسطا من النوم ." وهنا أبصرنا عن بعد نارا من نيران الحراسة فى الجانب الأيمن ، تلك النار كانت مستورة عنا بفعل انحناء فى سطح الأرض ؛ ولكن الجماعة لم تلق بالا لتلك النار ، نظرا لحلاوة النوم فى تلك اللحظة : نزلنا عن إبلنا ، وربطناها من أرجلها، ورقدنا، إلى جوارها، لننال قسطا من الراحة فى تلك الصحراء .

بعد أن سرنا فى الصباح مدة تقل عن ساعة من الزمن ، وعند شروق الشمس ، شاهدنا عددا كبيرا من الخيام السوداء ضمن مخيم من مخيمات البدو ، ذلك المخيم الذى وعد بدو العواجى بأن نحصل فيه على قسط من الراحة : ولكنهم كانوا فور الانتهاء من شرب القهوة ، وبعد أن يأكلوا شيئا من تمر الشمر ، يبادرون إلى ركوب إبلهم من جديد . من هنا أرى أن الوعود التى يقطعها البدو على أنفسهم تذهب أدراج الرياح ؛ يضاف إلى ذلك أن رفيقى ، ذلك الجلف ، لم يكن يعير كلامى انتباها ، إضافة إلى أن عسكر نفسه لم يستطع إقناعه بذلك : قال عسكر : "والله ، أنا ليس لى عليه أية سلطة" ؛ وصاح نصر قائلا: "يا خليل ، عليك أن تختار بين البقاء هنا أو الركوب معنا ؛ ولكنى سوف أذهب ضمن جماعتى ."لم يكن أمامى ، سوى الانضمام إلى ذلك السباق معهم ؟ وهذا بحد ذاته يسبب لى ألما ، إضافة إلى أن ناقتى كانت على وشك الانهيار من تحتى . أثناء مضينا قدما ، "قال عسكر : واضح أن خليل لن يصمد معنا ؛ هل بوسعك العودة مرة ثانية إلى المخيم يا خليل ؟ ولا تظن أنهم سوف يرفضون استقبالك."- "كيف يستقبلونى ؟ لقد كذبتم عليهم فى القهوة ، وقلتم لهم إنكم لستم من بدو العواجى ، إضافة إلى أنكم لم تزكونى عندهم : وماذا يمكن أن يحدث لو علموا أنى نصرانى ؟ يضاف إلى ذلك ، أن هذا النصر ، الذى هو رفيقى ، يتخلى عنى!" - "قالوا: إننا سوف نصل اليوم إلى مستوطنة من المستوطنات ، وسوف نتركك فيها ." كنا قد نسينا أن نشرب عندما كنا فى المخيم ، وواصلنا سيرنا ونحن عطشانين ، وازدادت حرارة الشمس ، وضاع أملنا فى العثور على أية بركة من برك الأمطار فى تلك الصحراء القاحلة . بعد ذلك ، وعندما شاهد أفراد الجماعة وميضا صغيرا تحت الشمس وعلى مسافة بعيدة ، بدءوا يسرعون الخطى فى اتجاه ذلك الوميض ،- ولكن اتضح أن ذلك الوميض كان عبارة عن قاع من الصلصال اللامع البراق ، وفى وسطه ، حفرة ضحلة ، تحاشيناها جميعا . كان ارتفاع هذا السهل يقدر بحوالى ٣٧٠٠ قدم ، وقد بدا لنا وكأنه يمتد من أمامنا فى اتجاه جبل أجا Ajja ، الذى بدأ يظهر من أمامنا كما لو كان جانبا هائلا من جبل جرانيتى كبير ليس شديد الارتفاع ، ويمتد ناحية الشمال وناحية الجنوب أيضا. التربة هنا عبارة عن رمال جرانيتية، وأحجار مستديرة ، وصخور جرانيتية متحللة . وقبل الظهر بساعتين ، تجاوزنا أنقاض "هجرة" hamlet

بجوار أحد الآبار التى هجرها أهلها قبل خمس سنوات . قال عسكر : "نفقت الماشية بعد سنوات عدة من الجفاف ، الذى ترتب عليه انعدام المرعى فى هذا المكان ، كما مات أهل هذا المكان ، وكانوا قلة قليلة من الناس ، من مضاعفات مرض الجدرى ." – وهذه واحدة من الكوارث والمصائب العديدة التى تحدث لتلك المستوطنات النائية والمنعزلة ، فى الجزيرة العربية . وعندما سألتهم عن اسم هذا المكان ، قالوا لى بعد فترة وجيزة : اسمه "ملعون Melûn طالبوه Talibuhu " ، ومبلغ علمى أن هذا الاسم يعنى "ملعون كل من يسأل عن هذا المكان ."

عثرنا على بركة من ماء المطر الرائق فى الصخر ، وقد سخن ماء تلك البركة بفعل حرارة الشمس ، ومع ذلك كان طعمه أحلى فى أفواهنا من طعم الحليب . وروينا ظمأنا من تلك البركة ، واقتدنا دوابنا للشرب منها ، بعد أن قطعت مسافة مائة وثلاثين ميلا دون مرعى أو ماء ، وذلك بدءا من تحركنا من منطقة خرَّام . ركبنا راحلاتنا ، وراح بعض من رفاق عسكر السابقين يجمعون قليلا من العشب الجاف، وهنا قال لى عسكر: "يا خليل ، الناس الذين نحن بصدد الذهاب إليهم من النوع الحسود . لا تهيئ لهم فرصة مشاهدتك وأنت تكتب أو تدون ، وتأكد أنهم لن يأخذون ذلك على محمل حسن ؛ وإذا كان لابد من الكتابة ، فحاول أن تكتب بطريقة مستترة ، وعليك أن تخفى أوراق الكتابة هذه . وبذلك تكون بصحبة البدو ، وأن البدو يعرفون حقيقتك ؛ ولكن ، هل سمعت ووعيت ما قلته لك ؟ هؤلاء البدو ليسوا طيبى السرائر أو حسنى النية ، وبخاصة فى القرى البعيدة !" سرنا مدة ساعة ثانية أو ساعتين وبدأت تطالعنا قمم النخيل الخضراء ، أسفل الجبل ، فى قرية صغيرة ، قالوا لى إنها حوالى خمس أو ست عائلات ، وأن اسم هذه القرية هو "الجفيفة" Jefeyfa . وفى اتجاه الشمال شاهدت جبل طالى Tály ، ذلك الجبل الجرانيتى الفريد الذى يقع عند أفق تلك الصحراء . كانت جماعتى ، التى كانت تسبقنى دوما بمسافة كبيرة ، قد اختفت عن بصرى تماما . تركتهم وشأنهم ، لم يكن بوسعى مسايرتهم أو مجاراتهم فى السير ، ولم يكن يراودنى أى شك ، فى أننى سوف أصل إلى المناطق المأهولة بالسكان عن طريق تلك العلامات الأرضية المعروفة . فى هذه المنطقة نزلت إلى مدق مطروق ، – هذا المدق تكوَّن فى تربة الصحراء الصلبة ، وبالقرب من المستوطنات التى تقع على الطرق العامة ، بفعل حركة

أجيال كثيرة من البدو الرحل. فى هذا المدق نزلت عن ناقتى ورحت أمشى على قدماى ، خلف ناقتى التى كانت بطيئة الخطى بسبب الإعياء الشديد الذى أصابها ، وواصلت السير إلى أن وقع بصرى على أعراف النخيل ، وعلى خطوط المزارع الخضراء فى قرية مجوج Mogug . وفى النهاية أبصرت نصراً قادما من بعيد لملاقاتى . ومع بداية دخولى إلى ذلك المكان سقطت ناقتى على الأرض ، الأمر الذى عطلنا وأخرنا بعض الشىء ؛ ولكن نصر رفع الناقة ، وراح يقودها بقسوة عن طريق الضرب ، ودخلنا قرية مجوج Mogug بعد دخول وقت الظهر بساعة ونصف الساعة .

دهشت عندما وجدت أن القرية مليئة بالأنقاض ، وأن الكثير من نخيلها كان ميتا وجافا ، إلى أن عرفت أن قرية مجوج Mogug (ويصح فيها أيضا "مكوك" Mokouk) قد دمرت بفعل الطاعون منذ سنوات قليلة . بناء مساكن هذه القرية ليس من قبيل المبانى المقامة من الطوب اللبن التى شاهدناها فى قرية تيماء ، ولكنها هنا عبارة عن جدران مبنية على شكل طبقات من الطين ، المحشّى بطوب مجفف فى الشمس ؛ والتربة فى هذه القرية من النوع الجرانيتى . وقد ذكرنى الشكل المتداعى لهذه القرية ببعض الواحات التى سبق أن رأيتها فى الصحراء الجزائرية . والماء الجوفى فى هذه التربة من النوع الدافئ ، كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وطعم الماء هنا غير مستساغ ؛ والموقع هنا يوحى بالمرض ، والتمور فى هذه المنطقة عليها قشور ، وجافة وليست جيدة الطعم . اتجهنا صوب قهوة الشيخ ، التى كان رفاقى قد سبقونى إليها ، والتقينا ذلك الشيخ الطيب الذى هم واقفا لمقابلتى . وأخذنى الرجل من يدى ، وطلب من خادمه أن يقدم علفا أخضرا لإبلنا . وبعد أن جلسنا فى المقهى دخل علينا كثير من القرويين ، الذين تدل وجوههم على إنهم ربما كانوا عسكرا من قبل ، وراحوا ينظرون إلىّ نظرة فيها شىء من التفضيل والتبجيل . وبعد أن أصبح كل شىء على ما يرام، عرضت على الشيخ النزاع الذى دار بينى وبين نصر ، وأيدنى عسكر فيما قلت ، إذ وافق على أن ناقتى لم تكن تقوى على المضى قدما بسبب بطئها وضعفها .

الأدهى من ذلك أنهم يودون حاليا ركوب راحلاتهم ، ومواصلة المسير أثناء الليل على أمل الوصول إلى حائل قبل طلوع النهار . "قال نصر : إنه سوف يرافقهم ، وأننى إذا لم أكن قادرا على مرافقتهم فسوف يتخلى عنى ويتركنى فى هذا المكان ." وقضى

شيخ المجوج بأنه طالما كانت الناقة عاجزة عن مسايرة بقية النياق فى السير ، فإن نصر ، الذى حصل على أجره نظير مرافقته لى ، يتعين عليه البقاء معى ، أو ترك جزء من أجره يسمح باستئجار رجل آخر يقوم بمرافقتى إلى حائل ، وهنا يصبح من حق نصر الانصراف ومرافقة بقية الجماعة. هذا الجلف، بعد أن سمع الحكم الذى قضى به الشيخ ، آثر البقاء معى ، مخافة أن يدفع ولو قرش واحد من المبلغ الذى حصل عليه . وهنا نهض عسكر هو وجماعته ، بعد أن فرغوا من أكل التمر وشرب الماء ، ليركبوا إبلهم مواصلين مسيرهم إلى حائل ، هذا الطريق الطويل من خُرام ، قطعوه وهم يجرون ، ولم يحملوا معهم طعاما أو ماء ، أو قهوة : كانوا يعلقون آمالهم على أمل العثور على الأعراب فى كل الأيام وعلى امتدادها ، وهم فى طريقهم إلى حائل . كان أفراد الجماعة كلهم من الشباب الذى يجرى فى عروقه دم الشباب ، وقاموا بهذه الرحلة وهم يتفاخرون بقدرتهم على التحمل والجلد . سألت عسكر عن الأسباب التى تدفعهم إلى مثل هذه العجلة ، وعن السبب الذى يمنعهم من أخذ قسط قليل من الراحة فى أى مكان من الأماكن . أجابنى : "السبب هو رغبتنا فى العودة إلى ديرتنا على وجه السرعة ؛ إضافة إلى بقائنا لفترات طويلة فى المنازل الموجودة ، على طريقنا ، يعد أمراً معيبا (Ayb) وغير مرغوب فيه ." وبعد أن أنصرفوا وتركونى أنا ونصر وراءهم ، سارع القرويون الذين كانوا يجلسون فى القهوة – وكانوا من الشَّمَّر – إلى توجيه اللوم إلى هؤلاء الرفاق ووصفوهم بأنهم عنوز (أى من قبيلة العنزى) . ! هذه الأحقاد الضيقة كانت تلاحقنى فى معظم الأحيان ، نظرا لأنى كنت أتجول ، بلا محاباة ، خلال الجزيرة العربية الشاسعة .

شاهدت أول ما شاهدت فى هذه المنطقة السلع البغدادية ، التى جرى جلبها من السوق فى مدينة حائل : أهل قرية مجوج ، ليسوا ممن يشعلون غلايينهم باستعمال الزناد ، وإنما باستعمال "الزند هولزر" Zundholzer الفينىٍ Vienna المعروف فى كل أنحاء العالم ، – هذا يعنى أننا أصبحنا على صلة بالعالم من جديد : صالات القهوة عند أهل مجوج ، كانت صالات معتمة ورديئة البناء ، فضلا عن إنها كانت أقل كرما وضيافة عن غيرها من المقاهى التى فى المناطق الأخرى ؛ يضاف إلى ذلك ، أن أرضية المقاهى الطينية كانت مغطاة فى بعض مناطقها بنوى التمر ، الناتج عن الخدمة اليومية

التى يجرى خلالها تقديم التمر للضيوف كل يوم . كان القرويون فى مجوج أصحاب نكتة لطيفة ؛ وكانوا يحسون بسعادة عندما يتحدثون مع الغريب ، وذلك فى ضوء معرفتهم القليلة بالبلدان الأجنبية والأديان الأجنبية : كان أهل مجوج يشعرون بالحزن والألم نظرا لأن الوثنيين ما زالوا يقاومون الحقيقة ، وبخاصة النصارى منهم ، الذين كانوا يشكلون منبعا من منابع الفنون والعلم . كانوا يقدمون لى ، بين الحين والآخر ، غلاييهم رمزًا للسلام . عرفت أن النكهة المرة التى لتبغهم الأخضر ، بعد هذا التعب الشديد الذى أصابنى ، كانت لها حلاوة لا مثيل لها ، يضاف إلى ذلك أننى شعرت بارتياح شديد مع تلك الأصوات المتمدنة ، وذلك من بعد الحقد والكراهية الشديدة التى يلمسها الإنسان فى ألسنة بدو البشر . سألنى واحد منهم . "هل أستطيع القراءة ؟"- وهل لدى أى نوع من الكتب ؟" كان ذلك الرجل من أهل مجوج ، بل إنه كان فى مقام الناظر بالنسبة لهم . وهنا وضعت فى يدى ذلك المجوجى كتابا جغرافيا ، ألفه باللغة العربية ، واحد من المبشرين الأمريكيين المتعلمين والموجودين فى بيروت . وراح ذلك الشاب يطيل النظر إلى ذلك الكتاب فى غرفة مظلمة ، على نحو يوضح مدى تعطش مثل هذا الإنسان إلى معرفة القراءة والكتابة ، كما لو كان فى أرض أثمرت الكثير من مجالات العلم الكبيرة : أخيرا لم يغلق ذلك الرجل الكتاب ، إلا عندما بدأت الشمس فى الغروب ، ولم يكتفى ذلك الرجل بغلق الكتاب ، وإنما وضعه على رأسه ليوضح بذلك مدى تقديرة وإجلاله للعلم ، - تلك كانت إشارة شرقية ، لم تتكرر ولم أرها مرة ثانية فى الجزيرة العربية ، حيث لا يوجد سوى القليل (أو لا شىء على الإطلاق) من "الاستشراق" Orientalism . سألنى الرجل ، "هل أسمح له بشراء الكتاب ؟ - (ونظرا لأنى رفضت بيع الكتاب) هل يمكن له أن يستعير الكتاب ويذهب به إلى بيته ليقرأه وينهيه أثناء الليل ؟" ووافقته على ذلك .

أدخل القهوة علينا رجل طويل ، واكتشفت أنه غريب من أهل الشمال ، وله مشية توحى بالتباهى ، ويلبس ثيابا جيدة . وحيا ذلك الرجل الجماعة تحية باردة ، ثم جلس بيننا : جاء هذا الرجل إلينا من قفار Gofar التى كان قد وصل إليها فى صباح ذلك اليوم . قدموا له التمر ، وعندما نظر إلى من حوله ، تذكر من بين الجالسين واحدا أو اثنين ، سبق له أن تقابل معهما فى سنوات سابقة ، وحياهما ، ثم نهض من مكانه ،

وقبلهما وسألهما عن أحوالهما . كان ذلك الرجل شمرِّيا من أهل العراق ؛ كانت ديرة الشمَّرى تبعد عن هنا مسافة ٢٥٠ ميلاً . أطال ذلك الرجل النظر إلىَّ فى شىء من الحسد والغيرة ، بينما كنت أطرح غترتى إلى الخلف بسبب الحر ، ثم تساءل : "من يكون ؟ – إخ ! تقول ، نصرانى ! لقد عرفت ذلك : هذا واحد منهم ، يا أيها الناس ! واحد لديه مشروع خطير ، وأنتم لا تستطيعون أن تتبينوا ذلك المشروع ؛ هذا الرجل من الأمة الافرنجية !" ورددت عليه قائلا : "كل الحاضرين هنا يعرفون أنى إنجليزى ، وهل ينبغى أن أخجل أو أشعر بالخزى من جراء ذلك ؟ أى رجل أنت ، ولماذا جئت إلى هذه المنطقة ؟" – "أنا قادم إلى حائل لأمر يتعلق بالأمير ! – قال : والله ، ثم استدار إلى الجماعة ، لا يمكن لهذا الرجل إلا أن يكون جاسوسا ، واحد من أولئك الذين يحضرون إلى هنا لكشف أمور هذه البلاد والتجسس عليها ! خبرونى بما جاءكم عن هذا الرجل ؛ خبرونى إن كان يسأل الأعراب ، ثم يدون ما يقولون ؟" – قال أحد القرويين : "قبل عدة سنوات ، جاء واحد إلى هنا ، كان غريبا ، ولكنه كان يتسمى باسم مسلم ، ويمكن أن يظن أنه كان رجلا مثل خليل ،.وأن ذلك الرجل كان يدون كل ذلك الذى كان يسأل الأعراب عنه ."

جلس القرويون دون أن يعيروا كلام نصر اهتماما كبيرا (كان اسم ذلك الرجل أيضا "نصر") ، نظرا لأنهم لم يعجبهم كلام ذلك الرجل الشمالى المتعالى ، ولا نظراته التى توحى بالكبْر ، يضاف إلى ذلك أن أولئك القرويين كانوا مقتنعين بى تمام الاقتناع . ورد الشيخ على ذلك النصر قائلا : "إذا كان هناك أى لبس فيما يتعلق بخليل ، فهو ذاهب إلىَ حائل ، وعندها سينظر الأمير فى الأمر ." وعندما أدرك نصر أن الجماعة كلها كانت ضده ولا تؤيده ، راح يتنازل عن نظراته العدائية وبدأ يتحدث معى بطريقة ودية . وعند حلول المساء دعونا للذهاب إلى بيت من بيوت القرية ؛ ووضعوا أمامنا عشاءً كبيرا ، عبارة عن لحم ضأن مسلوق ومعه التمن (نوع من الأرز) ، وتناولنا الطعام سويا .

أبلغنى نصر أن الخيول الشمالية متوفرة فى ديرته ؛ كما قال : إن لديه خمسة أفراس ، بالرغم من أنه ليس واحداً من الشيوخ ، وقال إن لديه عددا كبيرا من الإبل ؛ والسبب فى ذلك أن صحرائهم لا تشبه هذه الديار الجنوبية الجوَّانية ، وإنما هى مليئة

بنعم الله. ولما رأى لباسى باليا وممزقا - فأنا أحيا حياة الصحراء هذه منذ مدة طويلة - نصحنى بارتداء ملابس أفضل من ملابسى هذه ، عندما أمثل أمام الأمير فى حائل ، كما نصحنى أيضا أن أكون حريصاً تماما فى عدم إعطاء أى سبب ، حتى ولو كان مجرد كلمة ، تُفْهمُ بطريق الخطأ ، من قبل أولئك الناس المتشددين العنيدين ، سريعى الغضب ، ولا يألفون رؤية الغريب أو يرتاحون لها [وهذا هو مكمن الصعوبة فى الترحال فى الجزيرة العربية] . وهنا سمعت ولأول مرة فى نجد "التنوين" فى نهاية الأسماء حيث ينطقونها كما لو كانت نكرة ، وهذا يبدو كما لو كان حلاوة مستترة فى اللغة العربية، ولهذا النطق مذاق خاص ولكنه أمر طبيعى عند هؤلاء الناس. أطبق علينا المساء شديد الحرارة بعاصفة من البرد والمطر؛ كانت تلك الأيام تصادف الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر . وقرية مجوج الصغيرة هذه لا يزيد عدد سكانها عن ١٥٠ نسمة .

بقينا فى الصباح فى تلك القهوة انتظاراً لشرب القهوة ؛ ثم سرنا مسافة نصف ميل من السهل ، المكون من صخور جرانيتية زرقاء وحمراء اللون ، لنصل بعد ذلك إلى الأجناب المنحدرة من جبل أجأ Ajja ، وشاهدت أمامنا مجازا (ممرا) فى شق مُوصلٌ إلى منتصف الجبل ، طوله حوالى ثمانية عشر ميلاً طوليًا ويؤدى إلى السهل الموجود فى الخلف ؛ والناس يطلقون هنا على هذا الممر اسم "ريع Rîa السلّف es-self ." هذا الممر منحدر ووعر فى بدايته : وعند حوالى الساعة التاسعة مررنا بعين من عيون الماء البارد ، التى كانت تنبع من صخرة فوقها ! - ولم أرى مثيلا لتلك العين بعد ذلك فى الجزيرة العربية الخالية من الماء . ملأنا قربتنا من تلك العين ، وتجرد العرب من ملابسهم وراحوا يستحمون فى مياه تلك العين ؛ - هؤلاء البدو الرحل ، عندما تتهيأ لهم فرصة العثور على الماء ، تراهم يندفعون إليه مثل العصافير . وعلى مقربة من تلك العين يرى الرائى أساسا جدرانيا لسد من السدود القديمة ، كما يوجد أيضا بعض النخيل فى خليج جبلى ؛ هذا النخيل مملوك للبدو لكنهم لا يهتمون به أو يقومون على أمره ؛ يبدو أن ذلك النخيل كان يحظى فى الماضى ، بشىء من الرعاية . كان ارتفاع ذلك الريع Rîa فى أعلى أجزائه يصل إلى حوالى ٥١٠٠ قدم .

انضم ، فى السهل، إلى جماعتنا بدوى مسكين، جاءنا راكبا حمارا، وراح يرافقنا فى السير ، وانشرح صدره عندما قدمت له حفنة من تمر تيماء ليجرح بها صيامه ،

أو إن شئت فقل : ليقطر بها . وبعد ذلك ، وعند منعطف فى الصخر ، التقينا ثلاثة من رجال الشَّمَّر ذوى الملامح غير المريحة ، جاءوا إلينا على عجل وفى أيديهم السلاح . بقى هؤلاء الناس معنا ؛ وبينما وقفنا معهم ، كما هى عادة العرب ، لسماع وتبادل الأخبار ، نظروا إلىّ نظرة عداء . وعندما فهموا ، وربما كان ذلك من بعض رفاق عسكر الحاقدين، أن النصرانى جاء ليمر اليوم من خلال ذلك الريع Rîa ، خطر ببالهم ، أو عنَّ لهم الاعتداء علىَّ . وعندما تأكدوا أنهم أصبحوا إلى جوارنا تماما ، قالوا لراكب الحمار ، الذى كان ينتمى إلى قبيلتهم ، "ارجع أنت ، واتركنا نحن نقتله !" وكشروا عن أنيابهم تكشيرا شديدا ، ثم تجاوزونا . "(قال عسكر) هل رأيت ما حدث يا خليل ؟ – وهذا هو ما قلته لك من قبل ، هذا هو خطر السفر منفردا خلال هذا الجزء من البلاد ! هؤلاء هم الشَّمَّر الملاعين ، ولو كنا لوحدنا لهاجموك واعتدوا عليك . – الله يلعن الشَّمَّر!" – "ألم نحظى بكرمهم فى الأيام الأخيرة ؟" – "حسن ، أقول لك إنهم طيبون وكرماء مع الضيف فى بيوتهم ، ولكنهم إذا ما التقوا رجلا منفردا ، أو "خلوًى" Kh'luy (فى الخلاء) على حد قولهم ، وتأكدوا من عدم وجود أحد إلى جواره ، فإنهم يبادرون إلى قتله ! وهؤلاء الذين شاهدناهم كانوا من هؤلاء القتلة ، إنهم شُذَّاب الآفاق والصخور ، يقتلون كل من يجدونه مجردا من الدفاع ."

السلام الوحيد عند الأمير ، والحب لا يسود بين البشر والشَّمَّر . ومنذ سنوات قلائل ، أدى النزاع المرير على حقوق استعمال الماء فى مسقى رئيسى من مساقى الصحراء ، هو مسقى بيثة Baitha النيثل Nethil ، أدى إلى حدوث الفرقة بين هذين الجارين ، هذا المسقى ، بيثة النثيل ، يوجد داخل حدود قبيلة بشر ، التى لم تطق مجيء الشمر للسقيا من ذلك المكان، وكان الأمير طلال يساند البشر فى موقفهم هذا . وقد كان ذلك السبب وراء تخليهم عن ديارهم والهجرة صوب الشمال ، وراحوا يتجولون فى صحراء أقاربهم العنوز فى سوريا ، وبقوا هناك عامين أو ثلاثة أعوام : ولكن كثيرا من الأعداء الغزاة كانوا يسطون على إبلهم ومواشيهم ، نظرا لأنهم كانوا وافدين جدد على المنطقة ؛ – وعاد البشر إلى ديرتهم وإلى الأمير .

– فى منتصف ذلك الريع ينحسر الجبل الجرانيتى من الناحية الشمالية ، وهناك أقبية منخفضة من البازلت ، وهذه الأقبية تشبه قمم البراكين . فى هذه المنطقة سمعنا

خلفنا أصوات ركض وجرى ، كما سمعنا وقع أقدام الإبل على الصخور ؛ كان ذلك الصوت صادرا عن قطيع من "الأجلاب" Ajlab ، أو إن شئت فقل : الإبل "المشتراة" ، أو بمعنى آخر قطيع من الإبل مملوك لواحد من تجار أو سماسرة الإبل . كان حداة ذلك القطيع متوجهين به لبيعه فى "جبل شمَّر" . كان أولئك الحداة من البشر ، ولذلك انتهت مخاوفنا وزالت عندما أصبحنا فى صحبتهم . نادانى واحد من أولئك الحداة ، "أليس معك شيئا من الكعك (البسكويت الدمشقى) لتعطينى إياه ؟ وكنت طوال ذلك اليوم لم أتناول أى شىء من الزاد ." كان الوقت فى أواخر فترة العصر عندما بدأنا التحرك من جديد ، وعندما رحت أنظر إلى سهل قفار فى الأسفل ، وجدت أن اخضرار الواحة وبخاصة نخيلها أصبح أمامنا وعلى مقربة منا . كانت الشمس تغرب ، وأرانى نصر الجبل البازلتى ذى القرنين ، الذى يطلقون عليه اسم سُمْرة سميراء حائل ؛ وهذا الجبل يقع إلى الخلف قليلا من عاصمة القرية، فى اتجاه الشمال . وكلمة قفار Gofar ، التى يكتبونها "كفار" Kafar والتى ينطقها البدو الرُّحل "جيفَّار" Jiffar ، شأنها شأن قرية مجوج يحيط بها سور بستانى من الناحية الصحراوية . وفى السهل الذى يقع أمام تلك القرية وجدت أن الارتفاع يصل إلى حوالى ٤٣٠٠ قدم . ودخلنا من خلال طريق إلى ممر خالٍ ، بين جدران عالية ، ولم نر أى إنسان خلال ذلك الممر ، كما لم نر أيضا أية بيوت فى ذلك الممر . كان الوقت يصادف غروب الشمس ، وهو الوقت الذى يعود القرويون فيه لتناول عشائهم . لم نلتقى أحداً سوى امرأة واحدة فى ذلك المكان ، – كرهت أنفسنا النظر إليها ! نظرا لأن وجه هذه الأنثى كان مغطى بالحجاب ؛ هذا الحجاب فى رأينا هو شكل من أشكال السفالة الوثنية الآسيوية ! وهكذا نجد أن أفراد السلالة العربية اللطيفة يتحولون ، فى موضوع الحريم ، إلى أجلاف .– واعتبارا من قرية قفار Kafar ، تتحول وجوه النساء ، التى خلقها الله ، لتسر أنظار العالم الإنسانى وتشرح صدره ، إلى ذلك الشكل المرعب الغيور ؛ يضاف إلى ذلك ، أن أحداً لا يرى أى شىء من زوجات الرجال فى هذا المكان، وبخاصة أنهن يرتدين ملابس مؤسفة ، لا يرى أحد منها سوى أيديهن ! نزلنا من فوق إبلنا بجوار مسجد فى منطقة يطلقون عليها اسم "المناخ" Munâkh ، أو إن شئت فقل : مكان تبريك إبل الغرباء ، ويجرى فى ذلك المكان نزول الغرباء عن دوابهم واستقبالهم بعد ذلك لتناول العشاء : ومسئولية الكرم

الشعبى [التى تعد مشاعا بين الجميع] هنا تعد مسؤلية كبيرة ، نظرًا لأن الأعراف العربية تقضى برحيل عابرى السبيل فى فترة العصر ، كما أن هؤلاء الذين يفدون من حائل قاصدين الجنوب يتجاوزون تلك المرحلة القصيرة ، ليقضوا الليل فى قرية قفار .

دعينا مع حداة الإبل لتناول العشاء معهم المكون من التمر والماء ، والمعروف أن التمر مهما كانت نوعيته ، لا يقدم للغرباء فى وجبه العشاء . وقدم لنا صاحب هذا العشاء اعتذاره عن تقديم التمر نظرا لغياب رب البيت فى حائل . ومعروف أن أهل قفار ، وهم بنى Beny تميم Temim ، لا يشتهرون بالكرم ، الذى سرعان ما لمسناه فى حائل ، التى يسكنها الشَّمَّر . بدأ رفيقى نصر ، الذى أصبح أكثر انقيادًا بعد رحيل بقية الجماعة ، يوجه اللوم للمارة فى الشارع ، لأن أحدًا منهم لم يدعونى إلى شرب القهوة والنوم فى منزله ، قائلا : "هل يصح أن يتركوا شخصا محترما يقيم على قارعة الطريق !" بدأ نصر يقسِّم ما لديه من علف جاف بين ناقته وناقتى ؛ ثم صنع بعد ذلك عجينة مكونة من بعض الشعير الذى اشتريته من قرية مجوج " Mogug، وخلط تلك العجينة مع شىء من التمر ، وراح يضع تلك العجينة على شكل لقيمات داخل فم ناقتى المسكينة المرهقة . ثم استلقينا بعد ذلك ، على الأرض ، بجوار ماشيتنا لتمضية تلك الليلة المظلمة التى كانت سماؤها عامرة بالنجوم ، فوق تراب شوارع قرية قفار .

ركبنا دابتينا مع طلوع النهار : وكان من رأى نصر أن نصل إلى حائل فى الوقت المناسب حتى يتسنى لنا تناول الإفطار فى صالة الضيافة ، مع كل من عسكر هو ورفاقه . وأصابتنى الدهشة ، عندما رأيت أن هذا الجانب بكامله من قرية قفار كان مُخربًا وعلى شكل أنقاض ، بأن تحولت تلك الأرض التى كانت من قبل بساتين مثمرة إلى تربة صحراوية جرداء خاوية ، – وتلك هى سيقان النخيل الطويلة ، ما زالت باقية على شكل صفوف ، من النخيل الميت الخالى من الحياة . مررنا ونحن راكبين على ظهور دوابنا بمتاهات كهوفية من طين الصلصال أسفل جدران بيت مهدَّم ، جرى نزع أخشابه منه ، كما مررنا أيضا على مسارات غائرة خاصة بإبل الحر ، فى مناطق الآبار التى هجرها أصحابها . وعندما تساءلت : "ما هذا ؟" أجابنى نصر قائلا : "بلد Beled مات Mat " بمعنى "هذا مكان ميت ." هذا يعنى أن القرويين ، أو إن شئت فقل : أهل هذه القرية ماتوا شأنهم شأن سكان قرية مجوج ، بفعل الطاعون الذى داهمهم

وانتشر بينهم قبل سبع سنوات . أبارهم فى تلك الفترة لابد أن يكون عمقها ، فى تلك المستوطنة ، أكثر من خمس وعشرين قامة . وبعد انتهاء وباء الطاعون ، وجد ملاك هذه الأرض أنهم غير قادرين على العمل ، مما أدى إلى انسحابهم وتراجعهم إلى الواحة الداخلية .

خلف أسوار قفار البستانية يوجد ذلك السهل الصحراوى شديد القحولة (الذى يطلقون عليه اسم "المحال" Mahal) الذى يجىء قبل مدينة حائل ؛ وفيما بين أجأ Ajja وسلمى Selma هذين الجبلين القاحلين توجد تربة حادة من النوع الجرانيتى ، وهى جرداء وبلا حياة شأنها شأن التراب الموجود فى شوارعنا ؛ ومع ذلك هناك بعض الهجر وبعض القرى التى تقوم على عيون المياه الجوفية . والأرض هنا جبلية لا ينبت فيها أى شئ من تلقاء نفسه ، ولكنها إذا ما رويت يمكن أن تنتج الشعير والقمح وبعض الحبوب النجدية الأخرى . وبالرغم من أن النخيل هنا من النوع الطويل إلا أنه يحمل ثمرًا صغير الحجم وحار ، ومن ثم يكون غير صحى . ولم نجد فى هذه التربة أى نبات آخر غير نبات السِّنة ، الذى له زهور تشبه زهور البازلاء . وتلك القلة القليلة من الماعز التى فى هذه القرية يجرى اقتيادها إلى مسافات بعيدة على ساحل جبل أجأ Ajja حتى يمكن العثور على المرعى . وبعد ساعتين قال لى نصر : "حائل تبعد عن هنا مسافة قصيرة ، نحن الآن فى منتصف الطريق ؛ والنساء والأطفال ينتقلون فيما بين حائل وقفار فى زمن لا يتعدى وجبة الظهيرة ." هذا يعنى أن الطريق بين حائل وقفار يصل طوله إلى ما يقرب من اثنتى عشر ميلا . ومع ذلك كان طنف الصحراء يحجب عنا رؤية حائل ، – فى كل مكان كنت أرى الأفق قريبا جداً فى الجزيرة العربية التى يسكنها البدو الرُّحل . وهناك طريق مألوف فيما بين هاتين المدينتين ؛ ولذلك التقينا أولئك القادمين من حائل إلى قرية قفار . كان هؤلاء القادمون من الحريم ومن الأطفال ، كما كان من بينهم أيضا بعض الرجال الذين كانوا يركبون الحمير : "(قال واحد ، وثان ، وثالث من هؤلاء القادمين موجها كلامه لنصر) ها ! لماذا أحضرته ؟"– من هنا عرفت أن مجىء النصرانى قد ذاع وانتشر فى حائل ! وعندما سمع نصر كلامهم بدأ يشعر بالذعر والفزع. "قال نصر، ماذا يحدث لو أنهم أطاحوا برأسه وأعدموه !" – "يا خليل ، أين كيس التبغ ؟ ونَاوِلْنِي ذلك الغليون ، لأنى ، قسما بالله ، بدأ رأسى يلف ويدور ."

سرنا بعد ذلك مسافة ميل آخر ، ثم شاهدت بعد ذلك اثنين من الخيالة يجريان نحونا مثيرين خلفهما كثيرا من الغبار . بدأت أتأمل الموضوع وأعمل فيه فكرى وذهنى ، ترى هل هذان الخيالان من رُسُل الأمير القساة ، وأنهما جاءا من حائل من أجلى أنا شخصيا ؟- كان اسم "نصرانى" سُبَّة فى هذا البلد ، بل إن البدو فيما بينهم يقولون : "هل تعدنى نصرانيا ! حتى أفعل ذلك الشيء المشين". وصل الخيالان إلينا وأطبقا علينا بالفعل ، واتجها على الفور نحونا بفرسيهما ، وكانت ملابسهما تتطاير من فوق جسديهما فى ذلك الهواء الساكن ، وصاح أحدهما بصوت عالٍ فى نصر (الذى لم يرد بأى شيء لأنه كان خائفا) قائلا ومتسائلا: "عفش من هذا ، يا أنت ؟" - وأخذا يقتربان مثلما فعلا من قبل ؛ وجلست أفكر مليًا وأنا فوق ناقتى ، ولم أعبأ كثيراً بمن يكونان .

شاهدنا بعد ذلك بناية عالية لها أبراج حربية . كانت تلك الأبراج من الطراز النجدى جيد البناء وهى من الطين، وهى تشبه المنارات التى فى بلادنا ؛ ثم قال نصر ، الذى لم يسافر إلى حائل منذ أيام الأمير طلال : " هذ هو المقر الصيفى للأمير ." وعندما اقتربنا من حائل وجدت أن الجدران تمتد ناحية الخلف ، الأمر الذى يجعل من حائل مسوراً كبير من النخيل . وشاهدت عن يمينى بيارة طويلة من النخيل فى الصحراء ، تحيط بها أسوار عالية ؛ وعن الشمال شاهدت بيارة أخرى تقع داخل الصحراء ، ولكنها أكبر من البيارة التى على اليمين ، وقد بناها عُبَيْد لتكون ميراثا لأطفاله . كان برج القصر المطلى باللون الأبيض يبدو كما لو كان معلقا فوق مدينة حائل ، - والناس هنا يطلون تلك المبانى الطينية بالجبس الأبيض . تجاوزنا ذلك المقر الصيفى الذى يقع على جانب الطريق ؛ والناس هنا يقولون : إن هناك قطعة مدفعية صغيرة مركبة فى ذلك البرج . وتوجد أسفل ذلك المقر الصيفى قناة جديدة ، تنساب خلالها مياه الرى إلى خزان عام ، تحضر إليه نساء المدينة لجلب الماء منه . وهذا الماء ، الذى يطلقون عليه اسم "ماء السماء Mà es- Sàma" هو أفضل أنواع الماء فى المدينة كلها ؛ والماء الذى من الآبار الأخرى كلها له مذاق مالغ وفيه كثير من الأملاح أو المعادن لاذعة المذاق ،" والذى يسبب الحمى (فى كثير من الأحيان)" . نزلنا من فوق دابتينا ، وبناء على طلب منى ، قدمت لى امرأة إناء الماء (المعدنى) الذى كان فوق رأسها ، كى نشرب منه. وهنا تحدث معى نصر وطلب منى عدم ركوب ناقتى مرة ثانية،

وأخبرنى أن أمامنا بعض البوابات المنخفضة التى يتعين علينا تجاوزها ، أو أن شئت فقل : المرور خلالها . لم يكن ذلك سوى نوع من الاحتيال من جانب ذلك البدوى ، الذى كان يبدو من خلال سوالفه الطويلة كما لو كان شخصا مُسخ ذئبا . هؤلاء البدو ينتابهم الخوف فى المدن من أن يوجه أى أحد لهم شيئا من الكلام الجارح ؛ يضاف إلى ذلك أن أهل الحضر يسيئون التعامل مع هؤلاء البدو ؛ كان الهدف من دخول حائل سيرا على الأقدام ، هو الحيلولة دون دخول النصرانى إليها راكبا ناقته .

واصلت المسير على قدماى فى الشارع الخارجى القصير إلى أن وصلت إلى البوابة (التى تغلق أثناء الليل) الخاصة بالسوق الداخلية فى حائل . وعند البوابة رأيت وجه شخص من معارفى كان فى انتظارى ، – هذا الشخص هو عبد العزيز ، الذى قام بتوصيل الفرس الهدية إلى ابن الرشيد ، قبل اثنى عشر شهرا ، حتى وصل بها إلى قلعة الحجر ، حييت عبد العزيز ورد علىَّ التحية ، وسألنى عن صحتى ، وطلب منى الدخول . وسبقنى فى الدخول ، من خلال مجاز آخر ، لكى يوصل الخبر إلى الأمير ، ودخلت أنا من البوابة وواصلت السير خلال السوق (الشارع) العام الذى امتلأ بالحرفيين وبالبدو أيضا فى هذه الساعة المبكرة من النهار ، كما شاهدت أناسا كثيرين فى الدكاكين العربية الصغيرة المظلمة ، وكان الجميع مشغولين فى البيع والشراء ، وعندما وصلنا إلى المكان الذى كان يغص بالرجال والإبل ، لم يلق الناس بالا للغريب أو ينتبهوا إليه ؛ وقلة قليلة من هؤلاء الناس هم الذين اتجهوا نحونا ليعرفوا من نكون ، وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة ، طلع علينا تاجر كان يرتدى ثيابا جيدة ، وله لحية مصبوغة بلون الزعفران ، وأمسك بيدى ، وهو متنكر فى زى عربى ، وابتعد بى خطوات عدة ، ليسأل الغريب بحذر قائلا : "من أين جئت أنا ؟" هناك قلة قليلة من اللحى زعفرانية اللون فى حائل : والمعروف أن عبيد بن الرشيد ، حوَّل فى السنوات الأخيرة من حكمه ، لحيته من اللون الرمادى إلى لون الزعفران ، وهذا هو أسلوب الفرس وهنا يجب القول : إن طالعى الحسن ، أننى كنت رحالاً إنجليزيا فى الجزيرة العربية ، ولون لحيتى هو لون لحى الإنجليز . والأثرياء هنا فى حائل يستعملون الكحل فى تكحيل عيونهم ؛ والذكور من بين هذا الصنف من سكان الجزيرة العربية الذى يتشبه أفراده بالطيور ، هم أصحاب الريش زاهى الألوان وهم أيضا الذين يتزينون ،

وعند نهاية السوق (الشارع) توجد سوق القمح ، حيث تباع فيها أيضا أحمال الحطب ، والعلف البرى الذى يجلبونه من الصحراء ، وفى منطقة منخفضة شاهدت نساءً بائعات محجبات ، تحت مظلة وأمامهن أسبتة ، وتجلسن منذ طلوع الشمس ليبعن التمر والقرع العسلى ؛ كما أن البعض منهن تبعن بعض أشياء الزينة النسائية ، التى يجلبنها من الشمال .

وصلنا بعد ذلك إلى المكان العام مربع الشكل الذى يطلقون عليه اسم "المسهاب" el-Meshab ، وهو يقع أمام القلعة ، أو أن شئت فقل : القصر el- Kasr . وتحت المظلة الثانية ، المخصصة لفقراء البدو المسافرين ، قام نصر بتبريك ناقتى ، على وجه السرعة ، وأنزل عنها الخُرُج والزكائب ، ثم انسحب بعد ذلك بعيداً عنى ، كان هذا البدوى خائفا ، جاء عبد العزيز مرة ثانية قادما من القصر وسألنى عن سبب جلوسى فى ذلك المكان ؟ وجلس هو بدوره إلى جوارى وراح يسألنى عن حالتى الصحية من جديد . بدا عليه أنه كان يضمر خيرا للغريب ، ولكنه كان يخشى الملامة ويخافها ، - ألم يشجعنى هو أيضا على المجىء إلى هنا ؟ تركنى عبد العزيز ودخل من بوابة القصر ، ليتكلم من جديد مع الأمير . وعبد العزيز ، عندما يكون فى الراحة ، يصبح رجلا محترما ، كما كان حازما وغير كريم ، نظرا لأن ابن الرشيد يمكن أن ينهى حياتهم جميعا إذا ما شابت نفسه شائبة قليلة ، من هنا كان عبد العزيز يعمل فى خدمة الأمير ، وهناك مكان عام مخصص لعبد العزيز ، فى المقهى الخاص بالأمير فى "المسهاب" el- Meshab ! وكان عبد العزيز يجلس فى ذلك المكان المخصص له مع بقية أعضاء الجماعة فى كل مجلس من المجالس . لم ينتبه أولئك الناس الذين كانوا فى الميدان العام (المسهاب) إلى وجود النصرانى بينهم ، وجلست طيلة ثلاثة أرباع الساعة ، فى وسط حائل ؛ - وطوال ذلك الوقت كانوا يتنافسون ويتجادلون حول حياتى ، من خلف أسوار القلعة المبنية من الطين . وخطر ببالى أن الفضول العربى وكذلك الجشع العربى يمكن أن يهيئا لى مهلة من الوقت : كنت ، فى أضعف الأحوال ، أمل أن يجىء واحد من هؤلاء الناس ويستدعينى إلى داخل القلعة لتناول طعام الإفطار ويرحمنى من ذلك الجوع الذى كان يعتصرنى .

كانت هناك فى الطرق البعيدة من الميدان العام (المسهاب) قطعان من الإبل الباركة ، تلك كانت إبل أولئك الرفاق البدو الذين كانوا يجيئون يوميا ، من أجل معالجة وتسوية أمورهم مع الأمير ، تجمع حولى، عندئذ ، بعض من هؤلاء البدو ، الذين أصابتهم الدهشة عندما وجدوا الغريب جالسا تحت المظلة . رأيت أيضا شخصية من الشخصيات ، خرجت من بوابة القلعة الموجودة أسفل برج مبنى من الطين ، وكانت تلبس ملابس جيدة ، وتتوكأ على عصا السلطة ، وراحت تقترب منى . كانت تلك الشخصية لرجل اسمه مُفرِّج Mufarrij ، الذى كان يقال له "رجل" Rajul " المُضيف" el-Mothif بمعنى "المسئول عن ضالة الضيافة عند الأمير" ، وهو أجنبى مثل سائر أولئك الذين يقدمون على خدمة الأمير فى حائل . كان ذلك الرجل من بلدة عنيزة فى القصيم (التى هجرها على أثر مغامرة مريعة فاشلة سوف أتناولها فيما بعد) . جاء ذلك الرجل ليطلب من الغريب الدخول لتناول طعام الإفطار ؛ ولكنه اقتادنى أنا وناقتى عبر المسهاب ، وخصص لى مسكنا ، كان عبارة عن آخر غرفة من سلسلة غرف الضيافة ، التى يطلقون عليها هنا اسم "المخازن" Makhzans ، والتى تقع فى الجانب الطويل من الميدان العام (المسهاب) فى مواجهة القصر : ثم اقتادنى الرجل بعد ذلك ، من خلال البوابة ، إلى داخل القصر ، ليوصلنى فى النهاية إلى قاعة القهوة الضخمة ، المخصصة للضيوف ، ولخدمة القلعة الخاصة بالأمير ، فى مثل هذه الساعة – بعد أن تناول الجميع إفطارهم وذهبوا لحال سبيلهم – كانت تلك القاعة خالية من الناس ، ولكنهم أرسلوا فى طلب مُصلِّح القهوة . وقد أعجبتنى المكونات الراقية لتلك الصالة المبنية من الطين ، شأنها شأن ذلك القصر الضخم ؛ وهذه هى الجدران والأسوار العالية مدهونة بالجبس ، وهذه هى مجموعة الأعمدة المرتفعة الموجودة فى وسط القاعة ليرتكز عليها ذلك السقف البسيط المكون من أخشاب الإثل (الطرفاء) وشر ٠ ـ سيقان النخيل ، والخوص المجدول ، الذى لطخه الهباب والدخان الذى ينبعث يوميا من وجار القهوة . وأسفل تلك الجدران توجد مصاطب مبنية من الطين ومفروش فوقها سجاد بغدادى ، وعند مدخل تلك القاعة يوجد إناء ضخم من النحاس الأحمر ، أو إن شئت فقل "بحر" من الماء ، ومن فوق ذلك الإناء يوجد "كوز" مربوط إلى سلسلة (وتقوم النسوة يوميا بملئ ذلك الإناء من ماء السماء ؛ وهؤلاء النسوة من بين أولئك اللاتى

تعملن فى المطبخ) ؛ ومُصلِّح القهوة يأخذ الماء الذى يحتاجه من ذلك الإناء ، كما أنه يسقى منه أيضا كل من يكون عطشانا . فى الجزء العلوى من قاعة قهوة الأمير يوجد وجاران من وجارات القهوة ، وهما يشبهان قبرين ضحلين ، حيث يجرى فيهما إشعال الحطب عندما يكون الطقس باردًا ، الناس هنا يفتقرون إلى الحطب ، والنار هنا تشب تحت دلال القهوة العملاقة ، فى وجارات من الطين تشبه فرن الحداد . وعلى الفور استدعانى مفرِّج للذهاب إلى قاعة الضيافة ، التى يطلقون عليها هنا اسم "المُضيف" Mothif ؛ وقاعة الضيافة تقع داخل مبانى القلعة، وهى مربعة الشكل، وعلى شكل فناء ، ومن فوق ذلك الفناء يوجد رواق ، والضيوف الذين يدخلون قاعة الضيافة يمرون على مدفعية الأمير ، التى تتكون من خمسة أو ستة قطع من المدافع الصغيرة ، وحديد هذه القطع عفى عليه الزمن ، والخشب الذى فيها متآكل ومتهالك .

والبدو يأكلون فى الدور السفلى ، فى حين يتناول كبار الشيوخ هم ورفاقهم ، الطعام فى الشرفات ؛ اقتادنى مُفرِّج إلى الدور العلوى ، أو إن شئت فقل : إلى الشرفات ، إلى مكان مفروش فوقه سجادة كان عليها بعض نوى التمر ، جلست فى هذا المكان وأحضروا لى تمرًا ، – وهذا هو أردأ أنوع التمر فى عالم الصحراء – فى طبق من المعدن ، عليه كمية كبيرة من التراب المخلوط بالماء ؛ تركونى آكل لوحدى ، ولكنى أثرت الانتباه بسرعة من أكل التمر . هذه هى تحية أى حاكم من حكام الجزيرة العربية لضيوفه فى الصباح – إنهم بدو – كما أن النظافة هنا تختلف عنها فى معظم قرى الجزيرة العربية ، التى يتوفر فيها الماء . وإلى أن ينادونى للخروج من ذلك المكان رحت أتجول فى الشرفات حيث شاهدت يمام العراق المنزلى أبيض اللون وهو يهفهف بأجنحته ، ويبلغ من الألفة حدًا جعلنى أمسكه بيدى . كان طول كل شرفة من تلك الشرفات التى لها أرضية من الطين يصل إلى حوالى ثمانين قدما ؛ وتلك الشرفات محمولة على خمسة أعمدة مستديرة ومسننة من الأعلى . وعندما ظهر مفرِّج ثانية عدنا إلى القهوة حيث كانت القهوة قد أصبحت جاهزة . ودخل علينا شاب يلبس ملابس لامعة مصنوعة من الحرير ، وراح ذلك الشاب يطرح علىَّ بعض الأسئلة . كان ذلك الشاب يعمل سكرتيرا للأمير ، وكانت كلماته عامرة بالاحتقار والازدراء : "أقول ، إخ !

مـن تكون أنت ؟ – من أين جئت ، ولـماذا جئت إلى هنا ؟" وهنا أجبته بطريقة البدو ، "يا ولد ، أنا لا أستطيع أن أجيب إلا على سؤال واحد وعلى الفور ؛ اسمعني طلبك الأول : "وأشاح بوجهه متجاهلا كلام ذلك الرجل الحر ، ثم همس لى صوت ودى يقول : "عامله بمزيد من الاحترام، لأن هذا هو نصر Nasr . " وعليه قال ذلك النصر : "انهض! الأمير أرسل فى طلبك :" ثم خرجنا بعد ذلك قاصدين مجلس الأمير .

هناك شرفة طويلة أسفل القلعة المبنية من الطين ، تقع بعد السور الخارجى وتطل على المسهاب (الميدان العام) ؛ مررنا على تلك الشرفة ، وفى المنتصف شاهدنا بابًا مجلدًا بالحديد ، يقوم على حراسته من الداخل عبد شاب حبشى ؛ طرقنا ذلك الباب ، انفتح الباب على فناء داخلى صغير ، يوجد فيه عدد قليل من رجال الأمير المسلحين والمكلفين بحراسة الأمير ، وفى الناحية الجنوبية توجد الغرفة أو إن شئت فقل : المجلس الذى يجلس فيه الأمير . دخلنا فى تلك الغرفة من خلال بابها وكانت شبه معتمة ، نظرا لأن النوافذ هنا ليست سوى فتحة لدخول الهواء ، ولم أشاهد ، فى كل نجد ، أى غطاء زجاجى فوق تلك الفتحات . هذا هو الحاكم محمد – الابن الأصغر لعبد الله بن الرشيد ، الأمير الأول للشمر ، وترتيبه الرابع منذ وفاة والده – يجلس متكئا إلى حد ما على كوعه ، ومن تحته وسائد وثيرة ، ومن أمامه مدفأة ، أشعلوا فيها النار فى شىء من حطب الصحراء . حييت الأمير قائلا : "سلام" Salaam "عليك" Aleyk ؛ رفع الأمير يده اليمنى إلى رأسه ، بنفس الطريقة التى سبق له أن شاهدها فى بلاد الحدود ، ولكنه لم يرد السلام ؛ – لديهم فكرة معادية مفادها أن تحية "الإسلام" ينبغى أن لا يستعملها أحد من غير دين الإسلام ! كانت للأمير سالفتان من الشعر تتدليان على خديه ، اشتهر بجمالهما فى كل أنحاء الصحراء على إنه "شاب ملىء بالحيوية والشباب". كانت بشرته تميل إلى السُّمْرة أو بالأحرى إلى الاصفرار ، نحيف وغائر العينين مثل سائر النجديين ، وهو فى متوسط العمر : وجهه مثل وجوه النجديين ، وملامح الأمير محمد التى تشبه ملامح الطائر توحى بأن ذلك الرجل نجا من كثير من أمراض هذه الدنيا ،– ترى ما هى الاحتمالات السابقة التى جعلت من هذا الرجل أميرا ؟

قال الأمير : " اجلس ! " كان محمد ، الذى عمل مرشداً للحج "الفارسى" فى زمن الأمـراء السـابقـين ، قـد زار مـدن بلاد الرافـدين ، ووقف على أخـلاقـيـات الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك .- اقتادنى رئيس الحرس إلى المكان المخصص للغرباء، وفى منتصف سجادة طويلة مفروشة بجوار الجدار الطينى ، وفى المسافة التى بينى وبين الأمير ، كانت تجلس شخصية لا أعرفها ، متكئة على بعض المخاد ، كان صاحب هذه الشخصية ، مثلما بلغنى ، من أقارب بن الرشيد ، رجل محترم وقور كبير السن ، ومحياه يدل على الاعتدال. سألنى الأمير: "من أين أتيت، وما هو الهدف من رحلتك؟" - "أنا جئت من تيماء ، ومن الحجر ، وقد جئت أصلا من سوريا لزيارة مدائن صالح ." - "(قال الشيخ الكبير متعجبا) "رجل" Rajul "صدوق" Sadûk والله ! بمعنى "رجل ثقة" . هذا الرجل ليس مثل ذلك الرجل الذى جاء إلى هنا ، ألا تذكر يا محمد العام الذى جاء فيه إلى هنا ، هذا الرجل يقول لنا كل شيء بصدق ووضوح ." الأمير : "وجئتنا الآن من تيماء ، أحسنت ! وما الذى رأيته فى تيماء - ماذا رأيت فيها ؟ هل فيها أى شيء ؟" - "تيماء مكان جميل عامر بالنخيل وهواؤه طيب ." - "ما اسمك ؟" - "اسمى : خليل ." - "ها ! وكنت بصحبة البدو ، أخ ، يا خليل ، وما رأيك فى البدو ؟" - "تقصد الفكارة ، والموهاهيب ، والسَّحَامة ، الذين يعيشون خلف الحرّة ." - "وما رأيك فى بدو الفجير هم وشيوخهم ؟ أليس الشيخ مطلق على ما يرام ؟" - "الفقارة لا يختلفون عن اسمهم ، وجيرانهم يقولون عنهم أنهم يهود خيبر ." إلتقط الأمير كلامى مندهشا ومتعجبا (كما هى عادة أهل الجزيرة العربية) وأعاد ذلك الكلام على الحاضرين : "يقول إنهم يهود خيبر ! حسن ما قلت يا خليل ، وكيف عاملك الأعراب ؟ هل قدموا لك الحليب ، وهل أكرموك ؟" - "حليبهم لا يكفيهم هم أنفسهم ." أمعن الأمير قليلا وأطرق برأسه ونظر إلى الأرض ، لأنه كان قد سمع أننى كنت أتجول مع البدو كى أشرب حليب النياق . "سألنى قائلا : ها ! وماذا عن الموهاهيب ، أهُمْ على ما يرام ؟ وهل طُلَّجُ Tollog طيب بحق ؟" - كان الأمير ينتظر منى إجابة بالنفى ، نظرا لأن طُلَّج كان عدوا قديما ، أو إن شئت فقل : "متمرداً" على أبناء الرشيد . - "كان طُلَّج رجلا طيبا معى ، وأحسب أنه رجل بدوى محترم . "رد الأمير على ذلك مُهَمْهِمًا : "هم Hmm هم Hmm ! - ومن هو شيخ السَّحَامة ؟" - "مهنا Mahanna وفُضيل Fothil " . "وكم عدد أسر السُّحامة ؟ "

قال الأمير بعد ذلك متسائلا : "هل لديك شيء (تبيعه) ؟ وما هي صفتك ؟" – "لدى بعض الأدوية ، وأنا حكيم ." – "وما هي هذه الأدوية ؟ أهي الكناكينا(*) Kanakina؟" – "النوع الذي معي من الأدوية الممتازة ." – "وماذا معك غير الأدوية ؟" – معي أشياء كثيرة ، ولكن أسماءها كثيرة أيضا ، معي أيضا شيئا من الشاي Chai الممتاز ، الذي سوف أهديه لك ، يا سمو الأمير !" – "لدينا الشاي هنا ، ونحن نجلبه من بغداد ؛ لدينا الكثير منه ." [قيل لي في مكان آخر بعد ذلك ، – "إن الأمير لن يقبل منك الشاي ، بالرغم من أن ذلك يعد عملا شائنا : والسبب في ذلك أن ابن الرشيد لا يأكل أي شيء أو يشرب أي شيء إلا ذلك الذي يجهزه أو يعده عبد محدد من بين العبيد الذين يعملون في خدمته ؛ وهو يعيش في خوف مستمر من أن يموت مسموما ."] الأمير : "حسن ، وما هي الأمراض التي تعالجها ؟ ألا تستطيع علاج المجنون ؟" (بمعنى الشخص الذي أصابه مس من الجن على حد فهمهم) : – الأمير لديه بعض من أبناء أخيه عبيد مصابون بذلك المس ، وربما كانت ذكرى أخيه طلال المؤلمة توحي إليه بذلك . أجبته قائلا : "المجنون El- Mejnun هو Hu مجنون Mejnun " بمعنى "من هو أحمق بطبيعته سيظل أحمقا دوما ." ردد الأمير هذه الحكمة من بعدي ، وأومأ برأسه علامة الموافقة ، ثم قال للحاضرين : "هو Hu صادق Sadik ! " رد عليه بعض أفراد البلاط ، أو إن شئت فقل : الحاشية قائلين : "فيه Fi طريق Tarîk " بمعنى "ولكن هناك مخرج من ذلك أيضا ." والأعراب يفترضون أو يزعمون أن هناك طريقا (مخرجا) ، عندما يهتدي الإنسان إلى طريق شرعي للوصول إلى الهدف الذي يريده . – "خبرني ، وما هي الحيوانات التي شاهدتها في الصحراء ؟ " – "شاهدت الأرانب البرية والغزال ، وأنا لست صيادًا ." – "هل لحم الأرانب البرية غير محلل ! – وهل تأكله ؟ (سيعرف بهذه الطريقة أني مسيحي) . وهل تأكل لحم الخنزير ؟ " قلت : "هناك حيوان غريب في صحراء الشرارات ، يقولون عنه إنه الثور البري أو الوضيحي ؟ لدينا منه واحد هنا ، وسوف نريك إياه ." وفي النهاية قال الأمير : "ألا تشرب الدخان ؟" استعمال التبغ في شوارع نجد أمر غير وارد ولكن الناس يستعملونه داخل المنازل ؛ وهم يعتقدون أن

(*) المقصود هنا هو حبوب الكينين الصفراء التي شاع استعمالها في ذلك الوقت في العلاج . (المترجم)

شرب الدخان لا يليق بأولئك الأشخاص الذين يكونون أكثر تدينا وأعلى مكانة وقدرا من عامة الناس . كان محمد بن الرشيد هو وحمود ولد أخيه من رفاق الغليون المخلصين فى فترة سابقة ؛ ولكن عندما وصل الأمر إلى حد المكانة والتقدير ، فقد تخليا عن رفيقيهما الحميدى طيب الرائحة. وأردف الأمير قائلا: "إذن، أنت مسيحى؟"- تلك كانت كلمة طيبة ! معنى ذلك أن الأمير آثر ألا ينعتنى بتلك الكلمة "نصرانى" التى تنطوى على شىء من الإهانة والتوبيخ ؛ والناس هنا أيضا يقولون إن : "الأمير لديه امرأة مسيحية بين زوجاته ." - والنصارى الذين يتكلمون اللغة العربية فى مناطق الحدود الكبيرة يطلقون على أنفسهم اسم "المسيحيين" Mesihiyyin .

طلب الأمير إلى نصر أن يقرأ فى كتاب كبير من كتب التاريخ ، كان موضوعا على الرف ، ومغلفا بغلاف أحمر ويحمل عنوان (أخبارُ Akhbaru الدول" D- Dual وآثار Wa Athâru الأول l-uwwal")(*) ؛ وطلب من نصر أن يقرأ من القسم المكتوب فى هذه الكتاب عن النبى عيسى Isa بن ibn مريم Miriam ؛ - وهنا بدأ ذلك السكرتير يقرأ بصوت عالٍ . المؤلف المسلم يحدثنا عن شخص عيسى بن مريم ، وعن لونه ، وعن قسماته وملامحه ."ابن العذراء" ؛ كما يحدثنا أيضا عن أسلوب حياته النبوية ، وكيف كان يمشى مع تلاميذه فى أرض إسرائيل ، وكيف أنه كان يتوق إلى الراحة فى ذلك المكان الذى غربت الشمس عليه فيه . كان الأمير يستمع باهتمام بالغ وشديد إلى تلك الرواية وهو قلق قلقًا شديدا . - "(قال الأمير) هذا حسن ، هذا جيد ! ولكن ما الذى دفعك للقيام بهذه الرحلة ؟" وأجبته بصورة مفاجئة قائلاً : "العلوم ! El-elûm أو إن شئت فقل : العلوم الليبرالية (الحرة) !" ولكن معنى هذه الكلمة التى فى صيغة الجمع عند أهل نجد وفى كلام البدو تعنى "الأخبار" . وهنا رد الأمير على الفور ، "إذن ، هذا هو الذى جئت من أجله إلى هنا !" كان من الصعب علىَّ أن أوضح للأمير ذلك الذى كنت أعنيه عندما نطقت كلمة "العلوم" نظرا لأن هؤلاء الناس ليست لديهم أيه فكرة عن اختلاف معانى الكلمات على ألسنة مختلف أفراد الجنس البشرى . وقال الأمير بعد

(*) أخبار الدول وآثار الأول ، تأليف أبو العباس أحمد حلبى الدمشقى القرمانى (ت ١٠١٩هـ/ ١٩١٠م). (المراجع)

ذلك ، "وهذه اللغة ، هل تعلمتها ، وأنت بين البدو ، هل تعلمت اللغة العربية ؟" – وطلب إلى نصر إحضار الكتاب ، ووضعه بين يدى خليل ، ونهض الأمير محمد واقفا من مكانه ، [يقال إن الأمير محمد يجيد القراءة والكتابة والإطلاع على الكتب العربية ، ويقال أيضا إنه شاعر رقيق ، بالرغم من أنه فيما يتعلق بتصريف شئون الدولة ما يزال تلميذا فى تَعَلُّم تلك الأمور] – وانطلاقا من فضول أهل الجزيرة العربية العُجل الذى يشبه فضول الأطفال ، انتقل الأمير وجاء ليجلس إلى جوارى . – "من أين أقرأ ؟" – ابدأ من أى مكان فى أى فصل ، – فى هذا الكتاب !" ثم أشار بإصبعه . وعليه بدأت أقرأ من موقع ، "قتل الملك إخواته جميعا هم وأقاربه" . إن الشيطان هو الذى جعلنى أشير إلى مثل هذا النص الدموى ؛ كان واضحا أن الأمير تأثر تأثرًا شديدًا ! وبسرعة بديهة العرب فهم الأمير أننى بدأت أعتبره قاتلا وسفاحًا . "قال الأمير بسرعة ، ليس من هذا الموقع ! ولكن اقرأ من هنا ! – من هذا الفصل من بدايته" (وحدد لىُ المكان بإصبعه) ؛ وعليه بدأت أقرأ عليه مقطوعة أخرى . الأمير : "ها ! حسن ! واضح أنك لا تجيد القراءة ." ثم نهض من مكانه إلى جوارى ، ليعود إلى مكانه السابق . ثم قال لى بعد ذلك : "وإلى أين ستذهب الآن ؟" – "إلى بغداد ." – "حسن جدًا ، إذن سوف نرسلك إلى بغداد ." ثم نهض الأمير بعد ذلك ، هو ومن معه ليذهب إلى منطقة النخيل الخاصة به ، حيث سيرينى "البقرة البرية " .

حضر نصر بعد ذلك ومعه مظروف أحد الخطابات ، وطلب منى قراءة النقش المدون عليه . "قلت : حسن ، هذا ليس خطا عربيا !" – "ولكننا نريد منك أن تقرأه ." – "ممن تلقيتم تلك الرسالة ؟" – "من شخص نصرانى جاء إلى هنا قادما من الحوران ، وقد أخذنا منه هذا المظروف ." قرأت على الختم الموجود على المظروف أحرف إغريقية (يونانية قديمة) معناها "بطرخانة دمشق" ، وكانت البيانات المحيطة بتلك الكلمة مكتوبة باللغة اللاتينية "تجول فى كل أنحاء الدنيا وَبَشِّر بهذا الإنجيل كل الخلق من البشر ." كانوا جميعهم قد أوشكوا على ارتداء حذيانهم ، ولكنهم أنتظروا برهة إلى أن يسمعوا ردى ؛ وعندما تلوت عليهم بصوت عالٍ المعنى "اخرجوا Ukhruju فى كل Fī Kulli العالم el- âlam ...." قال الشيخ الوقور للأمير : "أتسمع هذا يا محمد ؟ – أليست هذه كلمات المسيح !".

خرج كل من كانوا فى الغرفة عقب خروج الأمير منها ؛ كل أولئك كانوا من أفراد حاشيته ومن خدمه ، هذا بالإضافة إلى كل من الشيخ العجوز ، ورئيس الحرس ، ونصر ؛ لم يكن من بين كل هؤلاء من يوحى وجهه بالبشر والترحاب . كان هؤلاء الأفراد الذين ينتمون إلى القصر وإلى رجال الأمير يلبسون ملابس المدينة ، ولكنهم لم يكونوا يلبسون أحزمة الطلقات النارية . وظهر الأمير محمد واضحا أمامى ، عندما تسلط عليه الضوء ، كما لو كان بدويا غير مكتمل النمو من البدو الفقراء المساكين ؛ ومع ذلك كان يمشى متفاخرا ومتعاليا ، ومع ذلك كانت نظراته زائغة وغير مستقرة ، وعند بئر الرى ، بالقرب من أسوار القلعة ، توقف الأمير محمد برهة صغيرة وأشار لى بيده إلى الساقية (السانية) التى كانت تدور محدثة نوعا من الصراخ ، ثم سألنى فجأة : "هل سبق لى رؤية مثل هذه الساقية ؟" – "ما العمق هنا بالقامات ؟" – "خمس عشرة" . قال كلامه الصادر عنه بوصفه أميرا ، بالرغم من أنى كنت أعرف أن العمق لم يكن خمس عشرة قامة ، – والسبب فى ذلك ، ما هى الجدوى أو المنفعة التى يمكن أن تعود عليهم من جلب الماء من عمق مثل هذا ؟ واصلت مسيرى مع كل من الأمير محمد والشيخ العجوز ، إلى أن وصلنا إلى مزرعة الأمير التى يحيط بها سور القلعة ؛ ووجدت أن خدمة تلك المزرعه لم تكن على ما يرام . بقى الأمير إلى جوار نبات من نباتات زيت الخروع (لم يكن هناك فى حائل نبات غير ذلك النبات) ليطرح علىّ السؤال التالى : "ما هذا ؟" طرح علىّ هذا السؤال بلهجة تتردد بين السلطة الفظة وفضول أهل الجزيرة العربية الساذج ، فيما يتعلق بنباتاته وأشجاره ، – النخيل ، والليمون ، والأترنج ؛ ثم أرانى بعد ذلك شتلة من شتلات البامية ، كما أرانى أيضا بعض الجذور الأخرى والأعشاب التى تستعمل فى السلّطات . هؤلاء الناس لا يأكلون كل هذه الأشياء الخضراء ! وبذلك نجد أن طعام نجد فى الجزيرة العربية يختلف عن طعام بلدان الحدود العربية .

كان الغزال يجرى فى الركن البعيد من أسوار القصر ؛ ووقف الأمير وهو يشير بإصبعه ، "(قال الأمير) هاهو الوضيحى !" كان ذلك الوضيحى ذكرا عمره حوالى عام ونصف العام ، ولا يزيد حجمه على حجم عنزة بيضاء كبيرة ، كان الوضيحى يرقد

مريضا تحت شجرة من أشجار التين . الأمير :- "انظر هناك ، حيث يوجد وضيحى آخر ، وتلك هى الأنثى ." - "ارجع إلى الوراء وتحسب لقرونها ! وقال أفراد البلاط الذين كانوا يحيطون بى ، لا تقترب منها ." وتقدم واحد من الحاشية وفى يده سباطة من التمر ، نحو ذلك الحيوان الخطير ، وراح يربت على ظهره ؛ كان قرنا الحيوان مثل ساقين مسننين ، مشرعين إلى الأعلى ، ويصل طول الواحد منهما إلى ما يقرب من سبع وعشرين بوصة . شاهدت أنثى الوضيحى وأنا على بعد حوالى خمس ياردات ، وكانت أقل من حجم حمار صغير ؛ وكان جلدها رمادى اللون ويتدرج نحو الأصفر الفاقع ، كما كان لها جزء مرتفع صغير يظهر عند بداية العنق ، ولم يكن لها سنام مطلقا ، كما كان ذيلها الناعم الطويل ينتهى بحزمة من الشعر ، ويمكن القول : إن الوضيحى "يشبه بقرة صغيرة" ؛ ولكن شكل هذا الحيوان جميل جداً فى هذه الصحراء الخالية من الماء ، يضاف إلى ذلك أن هذا الحيوان له سيقان برية عالية السرعة وخفيفة الحركة . قال الأمير متعجبًا : "اكتبها Uktub-ha ، بمعنى "صورها" أو "ارسمها" ." وراح الأمير يتحدث معى حديثا مفرحا أثناء عودتنا ؛ ثم قال لى فى النهاية : "أين حذاؤك ؟" - "سيكون عجبك هذا قليل ، إذا عرفت أننى بلا حذاء ، وملابسى مهترئة ، لأنى مضى على ، إلى الآن ، حوالى عام كامل وأنا برفقه البدو فى الخلاء (الصحراء)." - " (رد الشيخ الطيب)، وبالرغم من أنه يمشى بلا حذاء، فهذا ليس عيبا ، لأن أنبياء الله ، مشوا حفاة أيضا ." - بلغنى أن ذلك الرجل العجوز الوقور ، كان شقيق أم الأمير ، أو إن شئت فقل : خال الأمير : رأيت فى ذلك الرجل الوجه الخير الذى يكشف عنه العرب لكل من يتمنون لهم رحلة أو مغامرة طيبة .

كان الأمير بمزاجه الروحى ، وسلوكه المألوف يشبه شيخا كبيراً من مشايخ الأعراب . وقد ظهرت عليه دلائل حظ عاثر تنكر له من قبل ، إضافة إلى أنه تبدو عليه أيضا دلائل الانحطاط الذهنى أو العقلى ؛ كان الأمير محمد ، فى ذلك الوقت قد بلغ "العام الأربعين" من عمره ، ولكنه كان يبدو كما لو كان أصغر من ذلك . (دخلنا مرة ثانية إلى فناء القصر ، فى المنطقة التى يجرى فيها تخزين الحطب ، وحيث توجد بوابة تطل على المسهاب (الميدان العام) ؛ وعند هذه المنطقة ينتهى طرف تلك الشرفة

الموجودة أسفل القلعة ، والتى سبق لنا الدخول منها . هذا الممر مغلق بباب مجلد بالحديد ؛ ألواح هذا الباب (من حيث افتقارها إلى القن) تشبه تلك الأوانى الحديدية التى تشبه الترس (والتى يطلقون عليها اسم "التَّنور") وتستعملها ربات البيوت الحضريات فى تسوية الخبز .- ولكن ، يا لهذه المكافأة التى يحصل عليها الطغاة ! إنهم يقعون أسرى للخوف بشكل يبث الخوف أيضا فيمن حولهم . أين هم من - أحلى الأشياء الإنسانية - راحتهم ؟ لأن ذلك الذى يأخذونه بالقوة من الكثيرين ، هم يعلمون ويعرفون بأنه سوف يطلب منهم مرة ثانية ! وهنا صرف الأمير ذلك النصرانى ، بإشارة لطيفة ، وطلب من أحد الحاضرين أن يرافقنى إلى بيتى ، أو إن شئت فقل : إلى المسكن الذى أنزل فيه .

الفصل الثانى والعشرون

حائل

أمسية مع الأمير حمود . قهوة عبيد . يهودى مارق . سيف حمود . حمود يُصلِّح عشاءًا للنصرانى . صلاة العشاء . محمد وحمود على مرأى من الناس . أمسية مع الأمير محمد . أشخاص عاطلون يتعقبون النصرانى فى الشوارع . غانم . عبد الله . المسلم اليهودى . قافلة ضائعة . جار الله ، عنيبر بن الرشيد . ابيضاض البشرة الأوروبية يحسبونه برصًا أبيضا . "ماء العنب" . الموت فى فناجيل قهوة الأمراء . التجار المشهديون . النصرانى يطلعهم على كتاب من كتب الجغرافيا . البيع والشراء فى حائل . مدفعية بن الرشيد . مجلس الأمير . رشوة فى حائل . وقت فراغ الأمير . سياسة الأمير . ركوب الأمير . الأعراب فى حائل . الدلالون . السوق . سعر اللحم . مُفرِّج ؛ استئذانه لعامة الضيوف . سمّ أو سُمّ – بمعنى "سَمٌّ" أو "باسم الله" . كلفة المُضيف . شاربو القهوة من البدو فى المقاهى العامة . الأمير محمد يركب راحلته متجها لزيارة ماشيته فى الصحراء . حصان الأمير . ثروة الأمير . خزانة الولاية . حمود يظل نائبا فى حائل . بدان أو ماعز برى فى بستان حمود . تكلفة بئر الرى فى حائل . ماجد . حائل مدينة وليست واحة . سميراء حائل . رىّ أجدة . حائل القديمة . أطلال ضاحية بعيدة من ضواحى حائل . أرض المدافن . قبر عبيد . بعض البدو الرحل المقيمين .

مع غروب شمس ذلك اليوم ، استدعانى مُفرِّج إلى شرفة المُضيف أو إن شئت فقل: قاعة أو صالة الضيافة ، حيث قدموا لى طبق العشاء المكون من لحم الضأن وأرز التِّمن . وعندما عدت ثانية إلى صالة القهوة ، حيث بدأ توزيعها على الحاضرين ، بدأ

الضيوف البدو الموجودون فى الصالة يتساءلون عن ديانتى . عدت إلى بيتى فى ساعة مبكرة ، وعلى الفور استدعانى خدم الأمير لمقابلة شخص يطلقون عليه اسم "الشيخ الكبير" . – "سألتهم ، من هو ذلك الشيخ الكبير ؟" وأجابونى ، "إنه الأمير !" وعليه أوصلونى إلى دار كانت قريبة من بيتى ، وكانوا يطلقون عليها اسم "قهوة عُبَيْد" . طرقوا الباب وفتحه عبد حبشى . دخلنا الدار من خلال مدخل قصير ، كانت تفوح منه رائحه ماء الورد ، إلى أن وصلنا إلى غرفة شبيهة بالصالة ، بدت لعيناى وكأنها جزء من الصحراء . ومعروف أن الغرف الشرقية عبارة عن مسوِّرات من الهواء ، وليس بها منقولات ، ومظاهر الزينه فى تلك الغرف عبارة عن السجاد الذى يفرش فى أماكن الجلوس ؛ والسجاد فى هذه الغرفة مفرود فى ثلاثة أجناب فقط ، مع وجود بعض الأماكن التى فيها بعض المخدات ، وهى مخصصة "للأمير" وأقرب أقاربه . كل شىء فى تلك الغرفة كان مصنوعًا من الطين ، أرضيتها من الطين المدكوك ، والجدران أيضًا من الطين ومدهونة بالمغْرة ؛ كان الجالسون فى الغرفة من الشخصيات الرئيسية فى المدينة ، كانوا عبارة عن شيخ أو شيخين من شيوخ البدو ، إضافة إلى بعض الرجال الذين يعملون فى خدمة الأمير ؛ كانت ملابس هؤلاء العرب الحظيظين تبدو مشرقة . –

– كانوا قد قالوا "الأمير" ! وأنا بدورى شاهدت فى المكان الرئيسى من تلك الصالة شخصية نبيلة عظيمة شبه محنية على كوعيها إلى الأمام ! – ولكنى ساءلت نفسى ، ألم أقابل الأمير بن الرشيد بنفسه هذا الصباح ؟ ولو قدر لهؤلاء العامة من العرب أن يروا غريبًا محتارًا ومشدوها بينهم ، فإن ذلك سوف يسرهم ويسعدهم .

تلك الشخصية كانت حمود Hamud ولى عهد والده ، برغم أنه ليس أكبر أبناء عبيد ؛ والسبب فى ذلك أن فهد Fahd ، الابن الأكبر ، كان خبلاً Khibel ، أو إن شئت فقل : مضطرب الفهم والإدراك ، ومع ذلك كان سلوكه طيبًا ومستقيمًا ؛ هذا الجنتلمان المسكين كان صديقًا لى بصورة دائمة . – كان حمود، قد أقسم لابن عمه الأمير يمينًا، بأن يعيش معه ويموت معه أيضًا ؛ كان والديهما شقيقين ، ونظرًا لعدم وجود أى أحد من بيت ابن الرشيد لتولى ولاية العهد ، فإن حمود سيصبح هو الأمير من بعد الأمير محمد بن الرشيد . وحمود هو رفيق الأمير اليومى فى كل ما يتعلق بالأعمال والاستشارات اليومية . – كان ولد عبيد يرينى وجهًا مليحًا ، وكان يطلب منى الجلوس

عن يمينه ، وعندما كان يراني مهمومًا ومرهقًا كان يطلب مني أن أفرد رجلاي دونما خجل ، وأجلس على راحتي وطبيعتي .

كان حمود يتحدث إلى النصراني حديثًا وديًا ؛ وتأكدت أنه صاحب قامة فارعة ، ولاحظت أيضًا أن عينيه ملونتان ، ولاحظت أيضًا أن شعره متساقط [كما نشاهد في صور المسيح] ويتدلى من المنتصف على شكل جدائل ، كما لاحظت أيضًا أن لحيته خفيفة . وحمود له وجه بشوش ، ويحدث له تشنج لطيف في عنقه ، مما يعطي العنق منظرًا لطيفًا ، ويبدو عليه أنه ينحني قليلاً إلى الأمام . وأثناء حديثي معه كان يسألني عن الأشياء العظيمة عند النصارى ، مثل التلغراف ، "كما كان يسألني عن المادة التي يصنع منها الزجاج ؟ وكانوا قد سمعوا أيضًا عن وجود قصر من البللور في البلدان المسيحية ؛ وكانوا يحسبون أيضًا أن باريس Baris (Paris) كلها مبنية من البللور ؛ كما كان يسألني أيضًا عن ماهية زيت الصخور ، الذي كان مستعملاً في مصباح مشتعل وموضوع على كرسي أمام الأمير : بل إن زيت الصخر هذا أصبح يستعمل في المنازل الكبيرة في حائل ، ولديهم مقولة مفادها أن زيت الصخر هذا إنما يصنع من بول البشر . وتعجب حمود عندما أخبرته أن زيت الصخر هذا إنما يجرى سحبه من آبار في العالم الجديد ؛ كان حمود قد سمع عن ذلك الذي يسمى "الدنيا" Dinya "الجديدة" jadida -el، وسألني عن المكان الذي توجد فيه تلك الدنيا ، وخلف أية بحار . سألني أيضًا عن أدويتي ، ثم أردف قائلاً : "مل عليّ ، وسوف أسألك عن شيء ." همس لي حمود من تحت غترة رأسه المعطرة ، "أليس لديك دواء ، يساعد الرجل ؟" وأجبته على الفور ، "لا ، وَحياتك ." – "لا ، وتحلف بحياتي !" كرر هذه العبارة ، وهو يبتسم للحاضرين ثم ضحك ، "ها ! ها !" – بعض الأرواح الشريرة ربما تظن أنه كان يتكلم معي همسا عن السم . يضاف إلى ذلك أن القسم العام في الصحراء "بحياة الإنسان" يدينه ولا يرضى عنه أشباه الوهابيين هؤلاء . ثم أردف حمود قائلا بنفس هذه الابتسامة والقلب الطيب ، "ما رأيك في هذين الخيَّالين اللذين التقياك على الطريق؟ "– "أنا لا أستطيع أن أقول أي شيء لأني كنت متعبًا ومرهقا" . – "قال، نعم ! كنت متعبًا تمامًا ؛ اسأله !" كما أراني حمود ، وهو يشير بإصبعه شخصية ، من أصحاب اللحى الزعفرانية اللون في حائل ، الذين كانوا يجلسون متكئين على مخاد ،

فى المكان المجاور له ، باعتبار أنهم يجيئون بعده من حيث المنزلة والمقام . كان ذلك الرجل صاحب اللحية زعفرانية اللون بطيء الفهم ، واسمه سليمان Sleyman ، وهو ابن عم حمود . سألته ، "هل أنت الذى التقيتك ؟" ولكن الرجل ابتسم ، ولم يرد على سؤالى . حمود : "انظر جيداً ! هل كانوا مثلنا ؟ ألم نكن نحن الخيَّالين ؟ – لقد كانت مباراة ، يا خليل ، حاولنا من خلالها معرفة من الأطول نفسا من بين هاتين الفرسين ؛ ما رأيك أنت ؟ خيول الإنجليز أفضل ، أم خيول نجد ؟" – وقف حمود كى ينصرف طلبا لقسط من الراحة (منزله فى مكان آخر من القصر) ، ووقفنا جميعا معه . فى ذلك المنزل – الذى يوجد بالقرب من بركة عامه يجرى تغذيتها بالماء من هذا الفناء المزروع بالنخيل – يوجد أطفال حمود ، وزوجته وأمها ، إضافة إلى إخوانه الذين يصغرونه سنا ؛ ولكنه بحكم أنه صاحب سمو ملكى ، فهو له مسكن مستقل خاص به هو (ينام فيه) ويقع داخل القلعة . وأمراء حائل يلبسون ملابس مثل ملابس البدو الرحل ، ولكنها جديدة ونظيفة ومن خام ممتاز : والتونك الطويل الواسع ، الذى يرتديه الناس هنا فى المدينة ، لونه أبيض ناصع ، ويضع كل واحد منهم على كتفه عباءة الأعراب المصنوعة من أجود الأصواف البغدادية ، أو من القماش الأسود الذى يجلب من أوروبا . وهم يرتدون الهجو haggu على أجسادهم شأنهم فى ذلك شأن بقية البدو الرُّحل فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

كانت الغرفة التى أسكنها مثل زنزانة ضيقة ومظلمة وغير نظيفة : – أخبروني أيضا أن يهوديا ، مع مجيئه أول مرة إلى هنا ، أسكنوه فى تلك الغرفة ! كان ذلك اليهودى واحداً من يهود بغداد ، وهو الآن مسلم ثرى متزوج ويعيش فى حائل ، وأحواله تتحسن بصورة مستمرة بفضل بركة صهره لبان Laban ؛ هذا الرجل له بيت طيب فى البلدة ، كما أن له محلا فى السوق ، يبيع فيه الأقمشة والتمور والبن للبدو الرحل : وقد أنجبت له زوجته الحائلية (نسبة إلى حائل) طفلين . كان الناس هنا يصيحون فىَّ ، "اعترف أنت "يا خليل" أيضا مثلما فعل ذلك الرجل" "قل لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله" ، وستكون لك ثروة مثل ثروة ذلك الرجل ، والأمير هو الذى سوف يوفر لك مثل هذه الثروة ." واعتبارا من طلوع نهار اليوم التالى كان هناك أمام باب النصرانى جمع كبير من المرضى ومن الحضريات العاطلات ، بقوا ساعات طويلة

أمام باب المنزل يتسامرون ويتجاذبون أطراف الحديث ، دون أن يتركوا لى ولو ساعة واحدة أحصل خلالها على قسط من الراحة. كانوا يطلبون منى أدوية ، مع وعود منهم ، "بأنهم سيدفعون الأتعاب عندما يتأكدون من صلاحية الدواء وجودته ، غير أنهم لن يدفعوا تلك الأتعاب فى الوقت الراهن". وعندما طلبت منهم دفع التكلفة الأساسية للدواء، لم يلقوا لذلك بالا ؛ "أرجو أن لا يجىء أحد منكم إلى هنا مرة ثانية ليساومنى ويكاسر معى ، لأنى لن أوافق على ما تقولون ،" ولقطع العلاقات معهم خرجت من سكنى وأغلقت الباب خلفى . وبينما كنت جالسا أمام دارى أثناء نسيم العصر العليل مر علىّ حمود ومعه أصدقاؤه ؛ توقف الرجل ليحيينى ، وطلب منى الحضور لتناول العشاء ، وأرانى سيفه ، الذى يحمله فى يده من مقبضه ، مثل البدو الرحل تماما ، وقال : "ما رأيك فى هذا السيف ؟" – والناس هنا لديهم فكرة مؤداها أن كل أولاد النصارى يكونون دارسين لحرفة المعادن . وعندما أخرجت السيف من جرابه – لم يكن صلب ذلك السيف من النوع الدمشقى – وأردف حمود قائلا : "هذا الصلب إنجليزى" (من صناعة أحسن الدول المسيحية) : وقد حصل على ذلك السيف من ابن سعود وأنه "دفع ألف ريال ثمنا لذلك السيف ." قلت له "يبدو أنه من النوع الممتاز" ، وردد الكلام من بعدى مبتسما بطريقتهم الخاصة ، "إنه حقا ممتاز ." والعرب ، أهل الجزيرة العربية ، يقيمون السيف باعتباره أمضى الأسلحة ؛ وكل واحد منهم يود أن يكون له سيف من أجود الأنواع .

عند غروب الشمس جاء عبد من مقهى عبيد Abeyd يدعونى لتناول العشاء . وقد جرى العرف أن يتناول حمود عشاءه على مائدة عبيد عندما لا يكون مدعوا لتناول العشاء مع الأمير ؛ والمعروف أيضا أن ماجد Majid ولد حمود الأكبر ، يتناول العشاء هو ومدرسه مع والده ؛ وبعد أن يفرغوا من تناول العشاء يجرى تقديم الطبق نفسه أمام بقية أفراد العائلة من الرجال . هذا الطعام البسيط له قيمة غذائية كبيرة ، وهو يتكون من لحم الضأن فوق كومة من أرز التِّمن ، المضاف إليه الزبد ، ومتبَّل بالبصل ، ونوع من الكارى . بعد أن فرغ العبد من صب الماء على أيدينا ، من إبريق من المعدن ، على طشت صغير ، جلسنا وقد ربَّعنا أقدامنا أمام طبق كبير مطلى بالقصدير ، موضوع فوق الأرضية المفروشة بالسجاد . والعرب عندما يعزمون على أحد لتناول

الطعام يقولون : "مد mudd يدك Yédak ، ثم سمّى "بالله" Bismillah ، ويبدءون بعد ذلك تناول الطعام باستخدام أصابعهم . وهم يجلسون لتناول الطعام فترة لا تزيد على ثمانية أو عشر دقائق ، يصلون بعدها إلى مرحلة الشبع التام ؛ وهنا يقدم العبد سلطانية الماء ، ليشرب كل واحد منها قليلاً من الماء ؛ وينهضون واقفين بعد ذلك ليقول كل واحد منهم : "الحمد el-hamd لله l'illah ، ثم ينصرفون بعد ذلك لغسيل أفواههم وأيديهم :- كان العبد قد أحضر لنا صابونا مبشوراً . وبعد الغسيل يعودون إلى أماكنهم منتعشين لتقدم لهم القهوة البهيجة بعد ذلك ؛ ولكن مُصلّح القهوة ، شرب من تلك القهوة فى البداية وقبل أن يقدمها لنا – وذلك من باب طمأنة خوف الأمير – . والعرب لا يعرفون مآدب الطعام ؛ وهم لا يمكن أن يصدقوا أن مخلفات الطعام ذوات العناصر الثلاثة المأهولة (فى بعض الأراضى السعيدة) لا يمكن أن تقيم أود الحياة ؛ كما أن منظر الرجال وهم جالسين يشربون قد يبدو لهم – حسب فهمهم – نوع من الحياة الوثنية المريعة . القصر هنا ليست له مصروفات باهظة ، أو هدايا منزلية لتقديمها لنوعيات معينة من البشر . وأمراء الشَّمَّر هنا يفطرون بعد شروق الشمس مباشرة على شىء من الخبز المخمور وشىء من الزبد مع شىء من الحليب ؛ وعند الظهر يقدم لهم طبق من التمر ؛ ويتناولون طعام العشاء عند غروب الشمس ، كما سبق أن أوضحت : والأمير والشعب يتساوون عند تناول الطعام . والشيطان لا يتسلل إلى طبق طعامهم ؛ وكل همهم ورغائبهم البشرية تكمن فى متعة الحريم الإسلامية .– أذكر أننى سمعت ، من بعض الناس الذين يعرفون السلطان عبد العزيز ، أن سلطان الإسلام هذا ، رحمه الله ، كان نهمًا لا يشبع من تناول الطعام . ولم تكن والدته تضع أمامه سوى طبق واحد هى التى تذوقته وأكلت منه وأشرفت عليه ؛ وأن ذلك الطبق هو الطبق التركى اليومى الذى يطلقون عليه اسم "البلاو" Pilaw (وهم يقولون هنا : إن ذلك الطبق جاء فى عهد "تيمور لنك"(*) Tamerlane) ويتكون من الأرز المسلوق ولحم الضأن ؛ ويقال أيضا إن سلطان الإسلام كان يمتنع عن شرب القهوة والدخان

(*) Tamer Lane : تيمور لنك أو تيمور الأعرج ، إمبراطور المغول – تولى عرش سمرقند ١٣٣٦–١٤٠٥م وأخضع إمبراطورية التتر ، وجميع البلدان الواقعة فيما بين نهر الأندلس والكنج ، ثم اتجه إلى آسيا الصغرى وأسر السلطان بايزيد كما حاول انتزاع سوريا من الدولة المملوكية . (المراجع)

(لأسباب ربما تكون سماوية). سمعت من حمود أنه ذبح الشاة على شرفى وتكريما لى؛ ومعروف للجميع هنا، أن تلك الشاة التى ذبحت للعشاء إنما جرى شراؤها من السوق .

بعد ذلك بساعة أو ساعتين ، وعندما يسمع الناس صوت المؤذن ينادى لصلاة العشاء ، ينهض حمود واقفا فى الحال ، ومعه الجماعة . وهنا يتقدمهم عبد يمسك فى يده جريدة من جريد النخل وقد أشعل فيها النار ؛ ويخرج الجميع لأداء الصلاة فى المسجد ، الذى يقع فى الطرف البعيد من المسهاب (الميدان العام)، محاذيا لغرف الضيافة، ولكنه مفصول عن تلك الغرف بواسطة شارع عام. - ولما كان هؤلاء الناس أمراء على الناس هنا ، فهم يكونون خدم مطيعين للدين !

وعندما يعود حمود من الصلاة ، يقوم العبد الذى يكون فى انتظار عودته بفرد سجادة صلاة صغيرة أمامه ؛ ويسجد صاحب السمو على تلك السجادة مستقبلا مكة (المكرمة) ، وذلك من باب تمام الصلاة . سألت حمود ذات مساء ، "ألم يؤدى صلاته بالفعل فى المسجد ؟" - "قال حمود ، تلك الصلوات التى نؤديها فى المسجد هى الصلوات الشرعية ، وما أصليه هنا هو السنُّة ." لم يتوقف الجالسون فى القاعة عن الكلام أثناء أداء حمود لصلاة السنة ، - ولم يصلى معه أحد . كانت بقية الجماعة ، من غير الأمراء ، فلماذا يكلفون أنفسهم بتلك الزيادة الدينية ! والمسلم كلما علا قدره ، لابد أن يكون أكثر ورعًا ، حتى يستحق نعم الله عليه . وحمود لا يفوِّت الصلاة فى المسجد مطلقا ؛ وفى كل ما عدا ذلك ، يأخذ كل نصيبه من الدنيا من منطلق أنه رجل قوى وسعيد وبشوش ، ويبعد عنه مشكلات هذه الدنيا . وحمود ربما يكون أصغر سنا من الأمير ، وهو بقامته الفارعة ، وحسبما يقول الناس هنا ، ربما يكون شبيها لأبيه الذى كان شاعراً من شعراء المعارك الحربية : وحمود هو والأمير محمد بن الرشيد ليسا ساذجين فى المهارات التى ورثاها عن والديهما فى إطار هذه الأسرة المالكة ؛ - والناس هنا يبجلون ويمتدحون ذلك الذى يفعلانه أكثر من تمجيدهم لما يفعله الكبار المسنين .

الأمير محمد لا يحضر صلاة العصر فى المسجد الكبير سوى مرة واحدة ؛ وهو يؤدى صلاته فى مسجد منفصل أو خاص فى داخل القلعة ، أو قد يؤدى الصلاة داخل

غرفته الخاصة . كما أن مسألة خروجه عدة مرات من القصر لأداء الصلاة مع الناس تشكل نوعا من المتاعب له ولأولئك القائمين على خدمته ، ولأهل المدينة أيضا ، نظرًا لأن هؤلاء الناس يتملكهم الخوف ! – والسيف الذى دخل هذا البيت الملكى "ينبغى أن لا يفارقهم مطلقا – وهذا هو ما يدور بخلد الأعراب – إلا بعد أن يتم تدميرهم والقضاء عليهم ." لقد أطاح الأمير محمد برؤس أقاربه الكبار المحيطين به ، ولم يبقى منهم أحدًا سوى حمود ، أما الصغار فهم يكبرون ؛ يضاف إلى ذلك أن محمدًا يتعين عليه رؤية الكثير من الأحلام المزعجة ، وهو بالرغم من حراسته المشددة ، يتطلع دوما إلى عقاب الجنس البشرى . ترى ، هل يتعين عليه الوثوق بنفسه ويمر من الميدان العام (المسهاب) عدة مرات فى اليوم الواحد ، وفى مواعيد محددة ؟ – لقد فشل الكثيرون فى ذلك . والمعروف أن كلا من حمود هو والأمير محمد يؤثران فى سلوكيات وتصرفات الناس : فهذا هو حمود بصراحته الواضحة ، ومحياه المشرق المبتسم يبدو وكأنه واحد من عامة الناس وقريب جدًا من حديثهم وكلامهم ؛ وهذا هو الأمير محمد ، تراه لطيفا فى بعض الأحيان ، بالرغم من غلظته الملكية ، وتراه أيضا يتكلم كلاما لطيفا فيما بين هذا وذاك ؛ والأمير محمد رجل داهية وصعب التفاهم . ومحمد عندما يخرج من القصر ترى عينيه زائغتان مثل عينى الصقر ، وهو عندما يمشى يختال فى مشيته كما لو كان يمشى على المسرح ، ويكون دوما فى مقدمة حاشيته . وحرسه . وعندما يكون حمود بصحبة الأمير محمد ، فهما يسيران أمام الحاشية . وأهل المدينة (برغم استحالة ذلك) يقولون "أنهم يحبونه ويخافونه" : – وهم يثنون على الأمير الذى ينعمون بالطعام فى ظل حكمه ، ويحسون بالأمان ، ويرون كل شيئ يزدهر من حولهم ؛ ولكنهم يخشون حده ذلك الأمير وصرامته التى تولدت بالفعل من سيف ذلك الحاكم .

فى مساء اليوم التالى ، أرسل الأمير محمد يطلب منى الحضور إلى مقره : كانت جدران المقر مدهونة بالمغرة . عندما قلت للأمير إننى إنجليزى ، وجدت أنه لم يكن يفهم ذلك من قبل ! ولكنى وجدته فى هذه المرة لطيفا وكيسًا . كان يجلس مع الأمير رجل داكن البشرة ضخم الجثة ، اسمه صالح ، Salih (قالوا لى إنه من البدو الرُحل ،) راح يراقبنى بعينين متزمتتين قاسيتين ، ثم قال فى النهاية بصوت قاسٍ ينذر بالخطر ، "ألا تتطلع إلى رؤية بلدك مرة ثانية ؟" – "أجبته ، كل شىء بيد الله". – "تعجب الأمير ،

لا يا صالح لا ، لقد قال خليل كلاما طيبا جداً ، عندما ذكر أن كل شيء بيد الله ."
ثم سألني الأمير محمد الأسئلة نفسها التي سألني حمود إياها . "ما هو التلغراف ؟
لقد شاهدناه (في بغداد يوم أن كان يعمل مرشداً لبعثة الحجاج "الفارسيين") : لكن
ألا تستطيع أن تعرفنا الطريقة التي يعمل بها التلغراف ، الذي هو شيء مدهش ؟" –
"التلغراف نوع من الارتعاش – الذي نستطيع من خلاله إرسال بعض الإشارات
المعينة، التي تتولد عن تحات المعادن ، بفعل الأدوية القوية التي من قبيل الخل . الأمير:
"إذن ، التلغراف نوع من أنواع تشغيل الأدوية ، هل لك أن توضح لنا ذلك ؟" – "إذا
افترضنا أن رجلا يرقد ممدداً في المسافة ما بين مدينة حائل واستمبول Istambul،
وأن ذلك الرجل كان له طول فارع يصل من هنا إلى هناك بين هاتين المدينتين ؛ وإذا
ما قام أحد بإحراق قدمي ذلك الرجل الموجودتين في حائل ، ألن يحس ذلك في رأسه
في اللحظة نفسها ، وهذه الرأس في استمبول ؟" – "وما هو الزجاج ؟" سألني أيضا
عن البترول ، وسألني أيضا عن القارة الجديدة ، وعن موقعها ، وهل هي داخل
"المحيط" . كان الأمير ، ينصت بطريقة فاترة إلى روايتي عن اكتشاف الأرض الجديدة
عبر تلك البحار الكبيرة ، ثم سألني : "ألم يكن هناك بشر يعيشون في ذلك البلد عندما
جرى اكتشافه ؟" وأخيرا طرح عليَّ السؤال التالي : "ما رأيي في حائل ؟ وهل شارع
السوق ، مناسب وجيد أم لا ؟ (ولكنه أجاب بنفسه) لكن ، آه ، إنه سوق أعراب !"
إنه صغير إذا ما قارناه بالأسواق التي في المدن الرئيسية في هذه الدنيا . سألني :
"هل سمعت عن جبل شمَّر في بلدي ؟" كان الحاكم مسرورا عندما فهم أن النصارى
لا يلهثون أو يتطلعون إلى بلاده الصحراوية ؛ ولكنه غضب واستاء عندما علم أن أخبار
تلك الأشياء الإنسانية المزعجة قد وصلت إلى مسامع الناس في أراضي بعيدة . حدث
أن طرح حمود عليَّ هذا السؤال نفسه في مناسبة أخرى ، ثم أردف متسائلا أيضا ،
"ماذا ! ألم تسمع مطلقا عن ابن سعود الوهابي !" بعد أن أمضيت ساعتين مع الأمير
، وعندما أوشكت الساعة على العاشرة ، قال الأمير لرئيس الحرس ، الذي يقوم على
أمر حراسة غرفة نوم الأمير : "حان موعد إغلاق الأبواب !" ثم انصرفت بعد ذلك .

في بدايات وصولي إلى بلدة حائل ، كنت إذا ما تجولت خلال سوق المدينة ، أرى
الأطفال ، والجهلة وكذلك البدو المساكين يتدافعون نحوي ، لأبدو في وسطهم مثل ديك

غريب ، راحت الطيور الصغيرة تعجب منه ، إلى أن يجيء من أصحاب السلطة واحد يخلصنى من هؤلاء الناس وهو يقول لهم : "الله ، إن إساءة معاملة الغريب على هذا النحو ستغضب الأمير !" وفى كل يوم كان بعض أصحاب الجاه والمكانة يدعونى لشرب القهوة وتناول الإفطار ؛ وكانت غالبية هؤلاء الناس تطلب مشورة الحكيم فيما أصابهم من أمراض ، وقلة قليلة منهم هى التى كانت تتحرك بدافع الكرم ، نظرا لأن ضمائرهم تحضهم على عدم التراحم مع أعداء الدين المنقذ ، ولكن المسلم الذى يجيء إلى حائل ، بل وحتى الفرنجى الغريب الذى ينحنى لهم ويتفق معهم ، يجد الشَّمرَّ الحضر كرماء وهم كرماء بحق .

فى البداية استدعونى لمقابلة شخص يدعى غانم Ghranim ، صائغ الأمير وشقيقه غنيم Ghruneym . كان هذان الأخوان ثريين تماما ، ومن طائفة الصناع ، وقد كانا قبل ذلك فى منطقة الجوف ، التى يوجد فيها بعض من أفضل الصناع ، وبخاصة فى مجال المعادن ، والخشب والأحجار ، فى الجزيرة العربية البدوية . وعندما استولى عبيد بن الرشيد على منطقة الجوف، وجد أن هذين الرجلين هما أفضل الناس فى حرفتهما، ولذلك أحضرهما بالقوة إلى مدينة حائل . وهذان الرجلان مشغولين دوما فى صناعة أشياء للأمراء ، وذلك فيما يتعلق بصناعة السيوف وتجليد مقابضها بالفضة والذهب ، كما كانا مشهورين أيضا بتجليد "دباشك" البنادق بصفائح الفضة والذهب . وكان يجرى إرسال جميع السيوف والبنادق الفتيلية التى كان بن الرشيد يأخذها (من البدو) أثناء الغزو ، إليهما لإعادة تشكيلها ، ثم وضعها بعد ذلك ، ضمن سلاح القلعة . ومن بين هذه السيوف توجد بعض السيوف الفارسية والهندية الممتازة ، التى يتسلح بها بعض حراس الأمير . كان غانم ، أيام شبابه ، يتجول بمهنته هذه فى كل أنحاء الحوران ، ولذلك راح يسألنى عن شيوخ الدروز ، الذين سبق له التعرف عليهم ، كما سألنى أيضا عما إذا كانوا على قيد الحياة . كان غانم متشدداً ، وكان قراره فى يده ، وتأملاته لم تكن من قبيل تأملات الحكماء فى معظم الأحيان : هذا الرجل الذى كان يلقانى يوميا ، قال لى قبل ذلك كلاما مخالفا : "أنا عدوك ، يا خليل !" وهاهو فى النهاية يعرض على خدماته ونصائحه الودية – لقد بنى لنفسه ذلك المنزل الطينى وزينه بكل فنون مهنته . فقد وضع على جدران المنزل المبنية بالطين والمدهونة بالمغرة ، نماذج

على شكل طيور وزهور ، كما زين تلك الجدران أيضا بآيات من القرآن مكتوبة بالجبس الأبيض ، – الذى يعثرون عليه فى كل مكان فى رمل الصحراء : السواد الأعظم من بيوت حائل مبنية بناية جيدة بالرغم من رداءة المادة المستعملة فى البناء . لقد بنى غانم جدارا مزدوجا مع وجود شباك فى كل جدار ، بحيث يسمح بدخول الضوء ، ولا يسمح بدخول أحوال الطقس . لم أرى أثرًا لهباب الحداد داخل بيت هذا الرجل ، ولكن غانم كان يجلس مرتديا ملابس نظيفة ، وهو قائم بعمله ، فى أفضل غرفة من غرف منزله ؛ كانت أرضية المنزل مفروشة بحصير جميل ، وكانت الأماكن المخصصة للجلوس مفروشه بالسجاد البغدادى ، قام شقيقه غنيم باستدعاء الحكيم إلى منزله لتناول طعام الإفطار : كان أخوه متوانيا فى حرفته بسبب المرض ، وقد حذره الأمير ، فى أحيان كثيرة ، بأنه سوف يتخلى عنه . وقد أرانى ولده مسدسا من مسدسات الجيش [من الهند] شاهدت عليه علامة البرج ؛ "الناشنكاهات" – التى لا يعرفون كيف يستعملونها ! – نزعوها عن المسدس .

لما كان غانم يهوديا دخل فى الإسلام – فقد سموه "عبد الله" ، وأعطوه لقبا هو "المسلمانى" el-moslemanny – هذا الرجل جاء يدعونى لشرب القهوة فى بيته – سألنى زميل عبد الله : "هل أمتى تحب اليهود ؟" "أجبت على سؤاله ، نحن لا نسأل الناس عن دينهم ، ولذلك فهم يكونون رعايا طيبين ." وصلنا إلى بوابة اليهودى ، ودخلنا بيته ؛ كانت الجدران من الداخل مطلية جيداً بالمغرة ، ومرسوم عليها ورود صغيرة بيضاء ومكتوب عليها أيضا آيات من القرآن باستعمال الجبس . قرأت : "لا قوة إلا بالله" وعند المدخل قرأت بدلا من كلام موسى (عليه السلام) الشهادة الإسلامية مكتوبة بحروف كبيرة "لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ." كان عبد الله شابا ناضجا من بغداد ، وجهه مشرق مثل وجوه المسلمين ، اللهم باستثناء تلك العلامة التى وضعها الله على أسارير الوجوه العبرية . وفى الوقت الذى تغيب فيه رفيق عبد الله لحظة ، سألنى بصوت هامس "هل معى –" (لم أستطع سماع بقية كلامه) . – "ماذا تقول ؟" "براندى Brandi، ألا تعرف (هذه الكلمة الخليجية الفارسية الإنجليزية) – براندى؟" وعندما دخل عليه زميله ، وربما يكون شقيق زوجته ، قال عبد الله بصوت مرتفع "لو أنى دخلت الإسلام ، سيصبح بيته بيتًا لى أيضا أنا وهو ." ثم همس بعد ذلك بكلمة فى

أذنى – "لدى شيء أود أن أقوله لك ، ولكن ليس الآن " . كان قد مضى على مجيء ذلك اليهودى من بغداد إلى حائل سبع سنوات . وبعد انقضاء أيام الضيافة ذهب إلى عبيد بن الرشيد قائلا له : إنه يود أن يدخل فى الإسلام "على يد عبيد" : – وتقبل عبيد كلام اليهودى بيده الرسمية الملطخة منذ القدم بالدم والعنف . أعطت الأسرة المالكة المسلمانى "ألف ريال " عقب دخوله فى الإسلام ، وسمح الأمير له بالإقامة فى حائل ، وأن يمارس فيها البيع والشراء ،– وعرف عبد الله الفن القديم ،– إذ أصبح عندئذ مهنيا مرموقا . كنت قد سمعت بعض الأشياء عن ذلك الرجل وأنا فى تيماء ، وأنه "يقرأ من كتب مثل الكتب التى شاهدوها معى" : ومع ذلك وجدت أنه رجل غير متعلم ، – والذى لا شك فيه أن هذا الرجل كان يقرأ اللغة العبرية ، غير أنه ينكر ذلك حاليا .

أحضر جار Jar الله Ullah ، أحد تجار البلدة ، دفتر من دفاتر الحسابات الأجنبية . كان ذلك السجل عبارة عن مجلد ضخم طبع فى أمستردام فى القرن الماضى ، والمجلد مطبوع باللغة العبرية ! قلت لجار الله : "عليك بهذا السجل وعبد الله ، فهذه هى لغه اليهود ." – "يقول لى عبد الله أنه لايعرف هذه اللغة ." – هذا الكتاب أُحضر إلى هنا قبل عدة سنوات من إنقاذ قافلة بغداد ، التى هلكت من العطش وهى فى طريقها إلى سوريا . كان دليل تلك القافلة "قد أصابه الله بالخبل فى عقلة" فضل طريقه ومعه القافلة فى الصحراء ، وعجز المشاركون فى القافلة عن العثور على آبار الماء ، ولم يستطع أحد إنقاذ نفسه سوى قلة قليلة من البشر الأقوياء ، الذين راحوا يغامرون وينزلون عند البدو . وأخذ البدو الرحل كل ما وصلت إليه أيديهم من أحمال الإبل التى انقلبت على الأرض طوال "ما يزيد على شهر من الزمن" . وقد عثر على بعض الكتب بين هذه الأشياء ، ولم ينقل الناس إلى حائل سوى قلة قليلة من تلك البضاعة غير الثمينة .

قيل لى إن عبد الله ، يهودى المولد ، كان فى منتهى السعادة فى حائل ؛ "أرسل له والداه كثيرا من الرسائل ، التى تحمل أكبر العروض إذا ما أراد العودة والردة ، ولكنه كان دوما يرفض استلام تلك الرسائل . تخلى عبد الله عن القانون وعن الوعود ؛ – ولكن الرجل الذى تحركه مظاهر الطبيعة الإنسانية ، لايمكن أن ينتقل بمثل هذه السهولة من كل ذلك الذى نشأ وتربى وترعرع فيه إلى شيء آخر فى هذه الدنيا !

عزمنى جار الله فى بيته الكبير الواسع الذى يقع فى الشارع العلوى بالقرب من بوابة قفار : كان جار الله ، واحداً من كبار تجار الحبوب ، فى الطريق إلى المنزل التقينا رجلا يدعى نصر ، وهو بدوى متزمت من "رجاجيل" Rajajil قبيلة حرب ، كما التقينا مصادفة أيضا رجلا آخرا اسمه عنيبر Aneybar ، ودعاهما جار الله للذهاب معنا إلى منزله : هذا المضيف الثرى ، المتشدد بعض الشيء ، قدم لنا إفطار ممتازا . كان عنيبر حبشيا Habashey، من الأحباش الذين ولدوا فى أسرة عبد الله بن الرشيد، ولذلك فهو يعد أخا عبداً من إخوان طلال ، ومتعب ومحمد : يضاف إلى ذلك أن اسمه ينسب إلى اسم الرشيد . وهذا العنيبر الخليع ، الذى كان منغمسا فى الملذات ، كان شخصية كبيرة فى حائل ، فيما يتعلق بشئون الإمارة وذلك منذ عهد الأمير طلال . كان عنيبر نشيطًا وواسع الأفق ، وراقى السلوك ، ولكنه فى داخله كان يحمل روحا غير روح العبد : فقد نشأ على هذه الأرض وتربى عليها ، كما كان كلامه مباغتا وذهنه متشككا مثل أهل الجزيرة العربية .- عندما عدت ثانية إلى حائل كان عنيبر يود التخلص من حياتى ؛ - ولذلك كانت الفرصة مهيأة اليوم ، لتناول العيش والملح معه .

عزمنى حمود مرة ثانية على العشاء ، وكنت أستحم فى ذلك الوقت ، "(وقال أحدهم) يالبياض بشرته !" ورد عليه حمود همسا قائلا : "إنه البرص" - "الحمد لله ، تعجبت ليس فى بلادى أناس مصابين بهذا المرض ." - "آخ ! قالها حمود (وهو بعيد قليلا" لأنى كنت أسترق السمع على كلامه) هل هذا صحيح ؟ إخ ! إخ ! (لأنه لم يكن لديه ما يقوله أفضل من ذلك ، ثم أردف قائلا) الحمد لله ." قال شخص آخر : "والله ، لقد رأيت فى بغداد امرأة لها مثل هذه البشرة البيضاء ، وشعر أصفر ، إلى حد أن من يراها يحسب أنها ابنة خليل ." - "(قال ولد عبيد) لكن خبرنى ، ألا يشترى الأثرياء فى بلدك النساء الشركسيات ؟ - وكيف تكون الأحوال عندكم عندما يكون الإنسان ولدا لامرأة مشتراة (عبدة) ، وأنا أتساءل ، هل هذا أمر مقبول عندكم ؟" - وعندما وجدت أن ذلك الرجل البربرى غير المتحضر، بدأ يحسبنى ، بسبب ابيضاض بشرتى الفظيع ، ابنا لامرأة شركسية عبدة ، رددت عليه رداً جامعا مانعا : "شراء اللحم البشرى غير معروف ولا اسم له فى بلادى : أما فيما يتعلق بأولئك الذين يتجرون فى العبيد فقد أرسلنا الله للقضاء عليهم . نحن نطارد ونصطاد مراكب العبيد فى كل البحار ،

مثلما تصطادون أنتم الضباع ." أحس حمود بشيء من الإرتباك ، عندما كشفت له عن بعض الخلل فى آدابهم وسلوكياتهم، (.....)(*) وأن ذلك لم يكن فى ديننا ، كما تباهيت بعدائنا البحرى (الذى أصاب أكياس نقودهم بالتلف فيما يتعلق بأهداف العالم الإسلامى) . – "يا خليل ، هل يأكل النصارى لحم الخنزير ؟" – "إى بالله ، ولحم الخنزير لا يختلف عن لحم الضب الذى تأكلونه ، كما أنه لايختلف أيضا عن لحم الحيوان الشيهم الذى تأكلونه أيضا . ألا يأكل البدو لحم الذئاب ، والثعالب ، والضب والفئران ؟ – ألا يأكلون لحم البوم ، والحد Kites والنسر الذى يتغذى على الجيف ؟ ولكنى لا آكل أيا من ذلك ." رد على حمود ، بإنسانيته البسيطة ، "ما قصدته يا خليل ، لم يكن يتعلق بمسألة قذارة اللحم وإنما قصدت أن أقول : إن النبى (ﷺ) هو الذى حرم علينا ذلك !" واستدار حمود بعد ذلك إلى سليمان وقال له : "أذكر أن عبد الله ، الذى جاء إلى حائل فى عهد الأمير طلال ، وعالج بندر Bunder ، قال لوالدى إن لحم الخنزير طيب جداً ." "تساءل حمود بعد ذلك ، عندما وجد أن لسانه يعبر عما بداخله) وما هو الزواج عند النصارى ؟ هل هو مثلما يقول الناس [فى سائر أنحاء نجد] مثلما يغشى الحصان الفرسة ، أهكذا يتكاثر النصارى (.....) (**) .

بالرغم من أن العرب لا يأكلون اللحم المحرّم ، إلا أن البعض منهم يشربون ما يسمى دم الكروم ، أو إن شئت فقل ما Mà "العنب" El-Enab ، الذى هو عبارة عن عصير العنب المتخمر . وهم يأتون بذلك العنب من بساتينهم ، وهو ينضج فى منتصف فصل الصيف ، أبلغنى ماجد أن ماء العنب هذا يجرى تحضيره فى منزل والده ؛ وسألنى هذا الصبى إن كان لدينا شيء من هذا القبيل ، وكان ذلك السؤال بناء على توجيه من والده . والمسلمون ، فى ظل هذا الترف الدينى ، يتوقون إلى ذلك الشراب المحرّم ، متصورين أن ذلك يمكن أن يساعدهم فى مسألة معاشرتهم لزوجاتهم .

عند تقديم القهوة فى منزل حمود ، كنت أعجب دوما من أنى كنت الوحيد بين الحاضرين الذى لا تصب له القهوة ؛ وفى هذا المساء وبينما كان مقدّم القهوة يمر من

(*) رأينا حذف عبارة تمس الدين الإسلامى . (المراجع)
(**) عبارة غير لائقة رأينا استبعادها . (المراجع)

أمامى وفى يده دلة القهوة والفناجيل ، أشرت إليه وعلى الفور ، صب لى فنجالاً من القهوة . وفى يوم آخر ، تعجب ماجد الذى كان يجلس إلى جوارى قائلا : "ألا تشرب القهوة ، يا خليل ؟" وأجبته قائلا : "تأكد ، أننى أشرب القهوة ،" وهنا صب مقدم القهوة لى فنجالا ، – ونظر حمود رافعا رأسه إلى الأعلى تجاهنا ، كما لو كان قد قال شيئا ما . وأنا أخمن أن ما قاله كان مجرد شىء من المجاملة ، كيما يجعلنى أحس بالاطمئنان . فى البلاد الإسلامية ، تكون الوفاة السرية للبشر ، عن طريق فناجيل القهوة . والأمير عندما يدخل منزل أحد من الناس لا تقدم له القهوة ، كما أن القهوة لا تقدم إلى أى أحد فى سكن الأمير ، ولكن الأمير يطلب هو القهوة إذا ما أراد ذلك ؛ هذه هى المخاوف المريعة التى تتملك حياوات هؤلاء الناس اليومية .

كان من بين الجالسين فى المساء الذين كانوا يزورون حمود فى قهوة عبيد ، شخص كانوا ينعتونه بالرجل النبيل ، ولكنه لم يكن سوى مجرد تاجر أجنبى ثرى اسمه سيد Seyyid محمود Mahmud ، كبير المشاهدة Meshâhada ، أو إن شئت فقل: تجار مشهد Meshed ؛ والمشاهدة عبارة عن خمس وثلاثين أسرة مقيمة فى حائل ؛ وكل تجارة السوق (وكلها سلع وبضاعة من بلاد الرافدين) فى أيدى هؤلاء المشاهدة تقريبًا ؛ ومشهد (المكان الذى أستشهد فيه) [سيدنا] على هى من أنقاض مدينة الكوفة Kufa ، وهم مسلمين فرس يعتنقون المذهب الشيعى .

هؤلاء المنشقون يجرى التغاضى عنهم ويكرههم الناس فى مدينة ابن الرشيد ، وبالرغم مما سبق ذكره فإن هؤلاء المشاهدة من المواظبين على العبادة وعلى أداء الصلاة مع الناس فى المسجد الكبير. والبدو المتزمتون يكرهون هؤلاء المشاهدة كراهية شديدة ، ولذلك فقد سمعت هؤلاء البدو يقولون : "لا شىء بالله ، أنجس من أولئك المشاهدة الملاعين ." والمشاهدة باعتبارهم من رجال الشمال المتحضر والمتمدن ، لديهم حساسية شديدة للأخبار السياسية ، ولذلك قام البعض منهم ، عندما رأونى أمر من أمامهم ، باستدعائى إلى دكاكينهم وراحوا يسألونى عن أخبار الحرب ، – كما لو كانت إقامتى فترة طويلة فى الصحارى قد منعتنى من أن يكون لدى الجديد الذى يمكن أن أقوله !– لم يكن أولئك المشاهدة يعرفون شيئا عن "انتصارات" السلطان التركى ! كان أمراء حائل (الذين يشبهون البدو) قد عرفوا شيئا من أولئك المشاهدة عن دول العالم ،

ولذلك قال لى حمود ذات مرة وهو يحس نشوة كبيرة : "ما رأيك ، هل ستدوم دولة السلطان (الإمبراطورية العثمانية) أطول من ذلك ؟" – "الله أعلم" . – "إى ! إى ! ولكن خبرنا ما هو موقف أهل بلدك ؟" – "لقد ضعف موقف السلطان تماما ." لم يشعر حمود بالأسف أو الندم (فهم لا يحبون الأتراك) ، ثم سألنى ما إذا كنت قد زرت الهند ؛ – الأمير يرسل كل عام الخيول المباعة إلى الهند ؛ وتجار هذه الخيول يسمعون هناك أن الهند تقف إلى جانب الإنجليز . كان لدى حمود رجل متعلم ، هو مدرس ولده ماجد ، كان ذلك المعلم بحكم طبيعته ، متشبع بالدراسات الليبرالية . سألنى ذلك المعلم عن أخبار كثير من الأمم (الدول) النصرانية ، التى سمع عن أسمائها ، كما سألنى بصفة خاصة عن كل من فرنسا ، وبروسيا ، وعن النمسا ، أو إن شئت فقل عن الإمبراطورية النمساوية . "قلت له ، كل ذلك يمكن أن تقرأه بطريقة ممتازة فى كتاب معى ، عن الجغرافيا ، مكتوب باللغة العربية ، ومؤلفه رجل منا أقام فى الشام فترة طويلة ، والكتاب موجود فى غرفتى ." – قال حمود "اذهب يا خليل ، وعد إلى بذلك الكتاب" . وهنا أوفد حمود واحداً من خدمه ليضىء لى الطريق ، عن طريق جريدة من جريد النخيل أشعل فيها النار .

"(سألنى حمود بعد أن عدت من غرفتى) كيف ! تعلم أهلك اللغة العربية !" فتحت الكتاب على الفصل المعنون "شبه جزيرة العرب" . راح حمود بنفسه يقلب صفحات الكتاب، وعثر على الأشعار الحلوة، "أوه! مرحبا بك ، يا نجد الحبيبة ، الدنيا كلها عندى ليست كهواء نجد ، رعى الله نجد !" وبابتسامة تنم عن السعادة والرضا ، وبتنهيدة صغيرة ، سلَّم هذا الوطنى ، وهو نفسه قصَّاد(*) الكتاب إلى معلم ولده وأردف قائلا : "كيف حدث ذلك ؟ – هل النصارى إذن "أهل" Ahl "أدب" Athab بمعنى "هل النصارى أمهة مؤدبة" ! وهل مثل هذا الكلام الجميل متداول بينهم ؟ هيه !– خليل ، هل هناك كثيرون ممن يقولون هذا الكلام ؟" هذا العمل لم يكن مقبولا من هؤلاء العرب ، لأن من ألفه كان من غير دينهم . أرشدت المعلم إلى الموضع الذى ورد فيه ذكر حائل فى ذلك الكتاب، وهنا راح المعلم يقرأ بصوت عالٍ ، وعندما أغلق المعلم الكتاب، قلت إننى سوف

(*) قصاد : هنا بمعنى "شاعر" والكلمة عربية فصيحة . (المترجم)

أعيره هذا الكتاب ، وقد قبل حمود ذلك قبولا (فاترا) . ووضعت بين أيديهم أيضا كتاب المزامير "والد داود من سليمان" تلك الأسماء التى يستمع إليها هؤلاء الناس باحترام وإجلال، ولكنهم لم يعرفوا ولم يشاهدوا كتابهم. وهذا أيضا قد لا يرضيهم أو يسرهم ! نظرًا لأن هذا الكتاب جاء من قبل النصارى ، أولئك الذين حرفوا الكتاب المقدس" ؛ والذى لا شك فيه أن عنوان الكتاب أوحى لهم "بعبادة الأوثان" – المزامير El-Mizamir (باعتبارها أغانى كانت تغنى على الناى) ؛ ومع كل ذلك فهم لا يقرءون .

"قال حمود، يا خليل ، هذا هو سيد محمود، ويود أن يسمع منك شيئا عن الأدوية؛ لعلك تزوره فى بيته ، وسوف يضع أمامك شيشة ." – هذه الشيشة كيف للأجانب ولكنها لا تستعمل فى " ـ . أخبرنى حمود ، فى مرة أخرى ، أنه لايعرف أحدًا من التجار فى حائل ، يزيد دخله على ألف ريال ، وسيد محمود وحده ، هو واثنين أو ثلاثة آخرين من تجار الجملة هم ، على حد قول حمود ، الذين يربو دخل الواحد منهم على ألف ريال . وفيما يتعلق بالتجار الأجانب ، كان هناك إلى جانب التجار المشاهدة ، تاجر من بغداد ، وتاجر أيضا من المدينة (المنورة) ؛ – ولم يكن هناك تجار سوريين أو مصريين . طلب منى حمود أن ألقى نظرة على مدافع الأمير أثناء مرورى من أمام المُضيف (قاعة الضيافة) :– وجدت أن عدد تلك المدافع يتراوح بين خمس أو ست قطع من مدافع الميدان الصغيرة ، كما رأيت على اثنين منها نقوشًا ألمانية . المدفعية التى من هذا القبيل لا تكون لها فائدة عندما تستعملها أيدى ممتازة ؛ ومع ذلك فهذه المدافع تستطيع داناتها تكسير الجدران المبنية من الطين فى البلدان النجدية . حصل أمراء الشمّر على تلك المدافع من منطقة الخليج ، ومع ذلك فإن قلة قليلة من الأشخاص هم الذين يعرفون متى استعملت هذه القطع فى العمليات الحربية التى قام بها الأمير ، اللهم باستثناء سحب ذلك المدفع الكبير لإشراكه فى الحملة التى قامت بها بريدة على عنيزة ؛ ومع ذلك لم يستطع خدم الأمير استعمال ذلك المدفع . ولم يطلق هذا المدفع سوى دانتين فقط على مدينة عنيزة ؛ وقد ارتفعت الدانة الأولى إلى عنان السماء فى حين سقطت الدانة الثانية أمام أرجلهم على تراب الصحراء .

– أتناول الآن يومًا من أيام حائل : مضى الآن حوالى ساعتين على شروق الشمس ، وهذا هو الموعد الذى يصل فيه الأمير إلى المسهاب (الميدان العام) ليحضر

انعقاد المجلس الصباحى ، وهذا المجلس يشبه مجلس البدو الرُّحَّل . فهذا هو كبير الشيوخ يجلس علانية أمام الجميع مع الشيوخ أمام عامة الناس ؛ ومجلس الأمير يشبه المحكمة الشعبية ، فهو يجلس ليقوم بدور القاضى ودور الرئيس بين هؤلاء الناس . وهذه مصطبة مبنية من اللبِّن بطول جدار القصر المواجه للمسهاب (الميدان العام) ، وأمام المسجد ، وتمتد حتى بوابة البرج ؛ والمكان الذى يجلس عليه الأمير يقع فى المنتصف يرتفع قليلا عن بقية المصطبة وهو مبنى من الطين أيضا (وليس مفرودا عليه أى نوع من السجاد وذلك من باب التقشف والبساطة) ، ويوجد أمام مكان الأمير مصطبة صغيرة أسفل المكان الذى يجلس عليه الأمير ؛ والذى يجلس على تلك المصطبة الصغيرة هو كاتب الأمير أو إن شئت فقل : سكرتير الأمير ؛ هذا السكرتير اسمه نصر وهو يجلس عند قدمى الأمير . والمقعد الذى يجلس عليه حمود عبارة أيضا عن مصطبة صغيرة ، وهى أيضا أدنى من المصطبة التى يجلس عليها الأمير) وهى تقع بالقرب من باب القلعة . هناك أيضا مقابل جدران المسجد ، يوجد مقعد مرتفع ، يجلس فيه الشيوخ فى فترة العصر ، عند انعقاد المجلس الثانى ، بعد صلاة العصر . وعلى الجنب ، وفى مواجهة الأمير ، يجلس القاضى ، أو إن شئت فقل رجل الشريعة الإسلامية ؛ الذى يوجد الكثير من أمثاله فى حائل ، والذى يقوم فى الحالات الصعبة ، بتسجيل كلام الأمير ، وتفسير المعنى ، الخاص بالنص القرآنى . وعلى جانبى الأمير يجلس الشيوخ ورفاق الحاشية؛ وعبيد الأمير يقفون أمام هؤلاء الشيوخ على الجانبين ؛ وفوق مصطبة طويلة من اللبن يجلس رؤساء الخدمة العامة ومعهم سراياهم ؛ ويلى هؤلاء الرؤساء هم وسراياهم ، بدءاً بمن يجيئون فى المرتبة بعد الأمير ، يليهم البدو الزائرين الذين يجلسون حسب منازلهم وأهميتهم .- ترى الناس وهم جالسين هنا مثل انحناء القوس أمام المجلس ، وفوق تراب الميدان العام ، وترى "الرجاجيل" متكئين على سيوفهم ، وعلى جرابات سيوفهم ، ويقدر عددهم بما يتراوح بين مائة ومائة وخمسين رجلا ؛ الناس هنا هم جنود الأمير ، والجلادين الذين ينفذون أحكامه ، وكذلك أفراد عصابات الغزو ؛ إنهم يجلسون هنا (أمام الطاغية) فى المكان المخصص لمجلس البدو الرحل . هذا يعنى أن مجلس حائل مسألة يومية يصطف فيها السيّافة ، الذين يعمل الكثيرون منهم فى الخدمة المدنية فى المدينة ، فى غير ساعات المجلس . يدخل

المتقاضون فى هذه الدائرة المسلحة ومعهم المتهم والمسترحمين ، أو باختصار كل من له مسألة (لا تخص الإمارة) ، أو كل من يتعين عليه المثول أمام الأمير ؛ ويستمع الأمير إلى قضاياهم ، ولكل من له صلة بتحقيق العدالة : وهنا يجرى على الفور تنفيذ الأحكام التى يصدرها الأمير . وفى الشهر الذى أقمته فى حائل كان عدد من يحضرون المجلس كل يوم أمام الأمير لا يقل عن أربعمائة شخص .

هكذا يقرِّب الأمير نفسه من الشعب ومن الناس ، وبذلك يتعرف السواد الأعظم من شئونهم . وعدل الأمير محمد وحكمته الشعبية هما الأفضل ، ومن منطلق إنه هو نفسه ذاق البلاء والشقاء فى بعض الأحيان . والأمير محمد قاضى عادل ، شأنه شأن الشيخ الذى يحكم بين البدو ، كما أنه قاسى فى العدل : ولم أسمع أى أحد يتقول على أعمال الأمير للعدل بين الناس إعمالا حقيقيا . وعندما سألت عن موضوع الرشوة والرشاوى فى مدينة حائل ، وبخاصة من خلال أولئك القريبين من آذان الأمير ، أجابونى قائلين : "لا ، كلا" . هذا يعنى أن الفساد البيزنطى لا يمكن أن يتسلل إلى بساطة هؤلاء الناس الأبدية والتى تتسم بالنبل فى هذا البلد البدوى الفقير ؛ ولكننا (رأينا بالفعل) أن ذلك الفن ليس غريبا على أمراء الشَّمر الأذكياء ، الذين يلجأون إليه لتمشية أمورهم مع الحكومات التركية المجاورة لهم . بعض أيضا من أعراب بن الرشيد ، ومن رجال القبائل فى ديار المدينة (المنورة) يمارسون أو يعرفون هذه العادة الشريرة : حكى لى أحدهم أن واحداً منهم جاء برشوة لتمشية أمر له فى مدينة حائل ، وعندما جاء الدور على البت فى موضوعه ، قام بوضع عشرة ريالات فى يد القاضى . ولكن القاضى نهض واقفًا فى مكانه وراح يوسع الرجل ضربا على كتفيه ، إلى أن كل وتعب ، ثم حوله بعد ذلك إلى الأمير ، الذى كان يجلس فى المكان المخصص له ، والذى قام هو أيضا وأوسع ذلك الرجل ضربا على ضربه الأول ، ولم يكتف بذلك وإنما أمر عبيده بأن يضربوه هم أيضا . والمجلس يندر أن يستمر أكثر من عشرين دقيقة ، نظرا لقلة الأقوال التى يمكن الاستماع إليها ، نظرا لأن الأمير كان يشعر بوعكة على امتداد بضعة أيام (إذ كان يشتكى ويعانى من الصداع ومن آلام فى المرارة) . الأمر الذى كان يؤدى إلى توقف المجلس بين الحين والآخر ؛ - وكان يجرى بعد ذلك البت فى قضايا سبعة أيام مضت فى جلسة صباحية واحدة ! والمجلس يقف أعضاؤه وينفض

عندما ينهض الأمير واقفا فى مكانه وهم يقولون هنا "ثار" Thâr "الأمير" El-Emir ، عندما يقف أثناء انعقاد المجلس . – ويلى ذلك ، هفهفة مئات الغتر فى الميدان العام (المسهاب) ، كنا نحسب أننا نرى جحفلا من الفراش يهفهف بأجنحته . وأهل الحضر يذهبون إلى المجلس وهم يرتدون ملابس نظيفة ومشرفة ، ولكن البدو يجيئون إلى المجلس وهم يرتدون خرقا بالية كما هو حالهم فى القرى التى يتجولون فيها .

ينصرف الأمير ومعه جماعته من المجلس ، ليذهبوا إلى منزل من منازل الأمير يقع عند الجانب العلوى من المسهاب (الميدان العام) حيث يشربون القهوة ويرتاحون برهة صغيرة : ومن هذا المنزل يذهب الأمير ومعه مجموعة صغيرة من حاشيته وبعض "الرجاجيل" Rajajil لزيارة أسطبل الخيل ؛ وهناك حوالى ثلاثين فرسا مملوكة للأمير فى حائل ، وهى مربوطة فى أرض مجاورة للقلعة المبنية من الطين وتواجه قهوة عبيد Abeyd. وبعد زيارة الإسطبل يأمر الأمير رجاله بالانصراف قائلا لهم: "انصرفوا الآن، يا عيال Eyyal ،" ثم يدخل الأمير القصر مرة ثانية ؛ أو قد يذهب الأمير ، فى بعض الأحيان ، بصحبة حمود وأصدقائه المقربين لاستنشاق الهواء ، فى منزله الصيفى الموجود بالقرب من بئر ماء Mâ السماء Es-Sâma ، أو قد يذهب إلى مزرعة عبيد : أو قد يقوم الأمير بالمرور عبر السوق (الشارع) لزيارة شخص ما فى المدينة ، من أمثال غانم الحدّاد ، للوقوف على سير أحوال الأشياء المطلوبة ؛ – ثم يعود بعد ذلك إلى القلعة حيث يكون فى انتظاره بعض البدو أصحاب المصالح ، أو بعض الناس الذين جاءوا من القرى ، أو بعض المراسلين ، الذين يسمح لهم بمقابلة الأمير بعد عودته . منصب الأمير عملية مرهقة ومتعبة فى حائل ، يضاف إلى ذلك أن رأس هذا الأمير الذكى تكون دائما مشغولة بالشئون العالمية المحيرة . سياسة هؤلاء الأمراء من النوع الآسيوى الغامض . وهذه السياسة لا تبنى على المغالطة الرقيقة التى فى سياسة الغرب (المسيحى) ، التى تعول كثيراً على البناء على مسألة الفضيلة الطبيعية (التى يتخيلون أنها) فى صدور الرجال وقلوبهم ؛ والسبب فى ذلك أن حكام الشَّمَّر يهتمون بالناس جميعا ، ويقيِّمون دون إحساس بالألم أو الندم كل روح من الأرواح البشرية باعتبارها مزبلة مستقلة فى حد ذاتها . وحرص هؤلاء الحكام الماكر ينصب على الحاضر وليس بدلا من النظر إلى بعيد ، وهم يستفيدون دائما من المفاجأة العاجزة

التى تترتب على التعجُّل العربى . والأمير يحكم كما لو كان بازا بين الصقور ، بحيث تكون عيناه ومخالبه فى أرض الفريسة ، ومع ذلك فالحكم ليس قاسيا بشكل عام ، وإلا فإن القسوة الشديدة فى الحكم يمكن أن تضعف من سلطان الأمير . والعربى لا يستغرق استجوابه وقتا طويلا ، والعقد المستعصية يجرى حلها باستعمال السيف . والأمير بن الرشيد قد يركب حصانه ويذهب لاستنشاق الهواء ؛ وهو عندما يفعل ذلك يمتطى صهوة فرس بيضاء اللون ، ناقصة النمو ، لأن هذا هو حال الخيول النجدية فى حائل ، فهى لا تكون متناسقة تماما من حيث الشكل . كنت جالسا ذات يوم بعد غروب الشمس على المصطبة المبنية من الطين عند بوابة القلعة عندما وصل الأمير راكبا على فرسه وحده : ووقفت لتحية الأمير ، وجفلت فرسه عندما شاهدت غترتى البيضاء الكبيرة فى ضوء الشفق . حاول الأمير محمد حث الفرس على المضى قدما باستعمال الرِّكاب ، ثم استحثها مرة ثانية ، ولكنها لم تطعه ، الأمر الذى جعله يرضخ لذلك الحيوان غير العاقل أو إن شئت فقل : العنيد ؛ وبخفة بالغة نزل الأمير من فوق الفرس ليسلمها بعد ذلك لأول خادم يلتقيه من خدم القصر .

كانت الجماعات البدوية تجىء يوميا حاملة مشكلاتها إلى الأمير ، وكل جماعة أو إن شئت فقل رُبَّة Rubba ، من تلك الجماعات كان يخصص لها مخزن من المخازن ، ويبقون ضيوفا على الأمير (طيلة ثلاثة أيام) فى المدينة . وقد رأيت إلى جانب القبليين رعايا الأمير ، كثيرا من البدو الأجانب من أمثال الظفير Thuffir والمطير Meteyr ، الذين كانوا من الأعراب الأصدقاء خارج إطار ممتلكات ابن الرشيد ، ومع ذلك كان الأمير يتلقى سنويا من هؤلاء البدو الأجانب بعض الهدايا . يضاف إلى ذلك أن حائلاً كان يصل إليها بعض رجال قبيلة العنزى الحرة فى الشمال ، كما كان يفد إليها أيضا بعض من الشَّمَّر الشماليين ، هذا بالإضافة إلى بعض القحطان المهاجرين الذين يتجولون حاليا فى سائر أنحاء القصيم .

يبدأ العمل العام فى الواحة قبل بداية مجلس الصباح بساعتين . وسكان الواحة من المزارعين ، والتجار (معظمهم غرباء) فى السوق ، و"الرجاجيل" الشيوخ ، إضافة إلى قلة قليلة من العبيد الذين ينتسبون إلى بعض العائلات . والمزارعون يذهبون إلى أعمالهم عند شروق الشمس . وفى خلال ساعة ينفتح السوق : وهاهم الدلالون ، أو إن

شئت فقل السماسرة ، الذين يعملون فى كل ما هو معروض للبيع ، سواء أكان جديداً أم قديما ، أو أقمشة أم سلاحا ، يصيحون وينادون فى كل أرجاء السوق ، وينشرون بضاعتهم أمام كل من يقابلونهم ، ويدخلون الدكاكين بكل هذه الجلبة ليبيعوا بضاعتهم بأعلى سعر ، وبذلك استطعت أن أبيع ناقتى الخويرة . وقست السوق الذى يمتد من المسهاب (الميدان العام) إلى البوابة الداخلية فى اتجاه قفار ، ووجدته حوالى مائتى خطوة ، والدكاكين توجد على الجانبين ، وهى عبارة عن مخازن صغيرة للبضاعة مبنية فى الخلف ، والضوء لا يدخل هذه الدكاكين إلا من مدخلها فقط ، – يصل عدد الدكاكين إلى ما يقرب من مائة وثلاثين دكانا ، كلها مملوكة وتستأجر من الأمير . كان سوق القصابين فى منطقة تقع خارج بوابة السوق الخارجية : ولحم هؤلاء القصابين الطرى سرعان ما يبتاعه الناس خلال ساعة واحدة من شروق الشمس ، وهم يبيعون الرطل من اللحم الضأن ، بما يقل عن بنسين ، ومعروف أن الفخذة الصغيرة تشترى بحوالى ست بنسات ، فى زمن كان الناس فيه يدفعون تسع شلنات ثمنا للخروف فى مدينة حائل ، فى حين كان يبلغ ثمن العنزة حوالى ست شلنات . من هنا كنت أرى البدو يعودون بماشيتهم الصغيرة مؤثرين عدم بيعها على تلك الأسعار المتدنية :– هذا يعنى أن هؤلاء البدو سيعاودون اقتياد تلك الماشية الصغيرة عبر مسافة تقدر بحوالى ثلاثمائة ميل ، إلى سوق المدينة (المنورة) ! التى سمعوا أن أسعار الغنم فيها ارتفعت لتتساوى مع أسعارها فى الجبل Jebel . وحرفة الجزارة ، بالرغم من أن البدو كلهم جزارين ، لا يمارسها فى نجد أى شخص من الأشخاص الليبراليين .

يحضر مفرج مرة ثانية إلى المسهاب (الميدان العام) فى المساء : ومن عادته أن يصل إلى بوابة القلعة ، أو قد يرسل خادما من خدم المطبخ ، حسب عدد الضيوف ، ليدعو ربّات Rubbas (جماعات) البدو لحضور العشاء العام الذى لا يعدو أن يكون مجرد طبق هزيل من أرز التمن المسلوق مع الشعير والمحيق بقليل من السمن . ومفرج يوجه لهم الدعوة بطريقة لائقة يراعى فيها قدر هؤلاء الناس ومنزلة الشيوخ منهم ، من باب إن وجودهم هنا أمر يحظى بترحيب الأمير ، كما يراعى مفرج أيضا العداوات التى تكون بين أفراد القبائل . وحتى أنا ، النصرانى ، أيضا كانوا يدعونى كل يوم لتناول العشاء فى الشرفة ! كنت أقبل تلك الدعوة لسببين :– أولهما ، أننى كنت ضعيفا

وواهنا ، وأن العمل يمكن أن يسبب لى شيئا من الخطر إذا ما جازفت وطهيت شيئا لنفسى ، والسبب الثانى أنى لم يكن لدى الحطب أو الوقود ، إضافة إلى أن الغرفة لم يكن بها مدخنة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى اختناقى داخلها بفعل الدخان ، يضاف إلى ذلك أننى إذا ما أكلت العيش والملح فى المُضيف ، فذلك فى تقديرى ، سيجعلنى أقل تعرضا للخطر المفاجئ من جانب الأمير ؛ ولكنى لم أكن أحضر تناول الإفطار فى المضيف ، نظرًا لأنى كان بوسعى الحصول على أجود أنواع التمور ، عن طريق شرائها من السوق بثمن زهيد جدًا ، وإذا كنت قد ضمنت حرية الحركة فذلك يعنى أنى كنت أتجول تجوالا حرًا فى مدينة حائل ؛ كان قد مضى عام على وصولى إلى الجزيرة العربية ، ولم يكن يتبقى معى سوى القليل جدًا من النقود ، التى كان يتعين على الاحتفاظ بها للضرورة القصوى .

والناس فى قرى الجبل Jebel يدعون إلى تناول الطعام بكلمة "سُمْ" Summ ، أو قد يقال شيء من هذا القبيل عندما يوضع الطعام أمام الضيف . والأحرى أن تكون هذه الكلمة "سم" Smm وهى قد تكون مأخوذة من "البسملة" b'ismi, llah . ولكنى عندما سمعت كلمة "سُم" Summ لأول مرة ! عندما قام صبى من صبيان المضيف بوضع طبق أرز التمن أمامى ، خطر ببالى أنه قال لى (من باب الحقد والكراهية) "سِم" Simm ، الذى هو "السم" الذى يقتل البشر ، ولم يكن ذلك الصبى أقل منى اندهاشًا عندما فاجأته بطريقة العرب ، ورجوت الله أن يلعن والديه : - وبهذا الشك فى مسألة السم هذه ، تناولت أيضًا الطعام الذى وضعه أمامى ، لأنهم إن كانوا يريدون التعامل معى بهذه الطريقة فذلك يعنى أننى لن أستطيع الفرار منهم . ومن العشاء ، ينتقل البدو ضمن جماعاتهم إلى القهوة العامة : وبعد أن يتناول الضيوف العشاء يقدم العشاء للرجاجيل بنفس الطريقة ، وعلى أرض المضيف ؛ وفى المضيف يتناول "الرجاجيل" أيضًا وجبة الظهيرة من التمر ، شأنهم فى ذلك شأن الضيوف تمامًا . هذا التمر المؤسف هو والبر (القمح) ، والذى يقدمه المطبخ للضيوف ، يأتى للأمير على شكل سداد للضرائب المطلوبة من الممولين ، فى سائر الهجرات والقرى ؛ وأفضل أنواع هذه التمور يجرى الاحتفاظ بها لأسر الشيوخ . بانتهاء العشاء العام ، قد يرى الإنسان كثيرًا من النساء الفقيرات ، وبعض الأطفال ، ينتظرون الدخول إلى المضيف ،

وفى أيديهم مواعينهم الفارغة ، عند بوابة القصر . هؤلاء هم الذين صرح لهم الأمير بالحصول على وجبة تموينية مسائية ، من البقايا المتبقية من العشاء ، لتوزع عليهم وعلى المعدمين الآخرين من أمثالهم . كان يقدم فى المضيف يومياً للضيوف وللرجاجيل حوالى ١٨٠ وحدة من وحدات خبز الشعير ، وأرز التمن من الدرجه الثانية ، وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تزن حوالى ثلاثة أثمان الجالون ؛ كما كان يصرف أيضاً شيئاً من السمن . هذا السمن الذى كان يوزع على شكل كرم عام كان الأمير يأخذه من البدو ، بل ومن كل خيمة من خيام البدو ، ويجرى تحصيله بمعدل قديم ؛ وهذا التحصيل لا يحدث إلا فى فصل الربيع ، كما كان يجرى شراء ذلك السمن بواقع شلنين لكل ثلاثة بنتات (*) ، هذه الكمية تساوى حالياً ريالاً واحداً فى حائل . ويجرى ذبح جمل أو حيوان من الحيوانات الصغيرة ، كل ثمانية أو عشرة أيام ، على أن يوزع لحم هذا الحيوان على أول من يصل من الضيوف . وأثناء غياب الأمير ، لا يحضر البدو إلى حائل وبالتالى لا يكون هناك ضيوف . من هنا حسبت نفقات الأمير ، خلال عام ، على بيت الضيافة بما يقدر بحوالى ١٥٠٠ جنيه إنجليزى .

فى القهوة العامة يجرى تصليح قهوة المساء وتقديمها للحاضرين . وطوال جلوس جماعات أو إن شئت فقل ربّات البدو المختلطة كانوا يراعون معى السلوك المتسامح الذى كانوا يولونى إياه فى خيامهم ؛ – وهل يكون كل الحاضرين فى القهوة زوار الأمير ؟ المعروف أن قهوة الأمير تفتح أبوابها بعد صلاة الفجر مباشرة لأولئك الذين يتطلعون إلى فنجال قهوة الصباح ؛ وتقفل القهوة أبوابها عندما ينصرف الجميع منها عندما يحين موعد انعقاد مجلس الصباح . وتعيد القهوة فتح أبوابها مرة ثانية بعد صلاة المغرب . والقهوة تقدم بواقع فنجالين مملوءين لكل واحد من الحاضرين ، ويقدم فنجال ثالث ، وعندما يكون الشخص بدوياً من قبائل نجد ، ولن يشرب الفنجال ، فإنه يرد بعد فترة وجيزة من تقديم الفنجال بقوله : كرمك Karamak الله Ullah . وتغلق القهوة أبوابها طوال الليل بعد أن ينصرف البدو لصلاة العشاء فى المسجد . وبعد العشاء يجرى إغلاق بوابات ذلك الجناح من قصر الأمير ، هو وشارع السوق ، –

(*) البنت pint : مكيال للسوائل يساوى ثمن جالون إنجليزى ١ و ٠,٦٨٥ من اللتر . (المترجم)

ولا يجرى فتح هذا الجناح ولا شارع السوق لا "للصلاة ، أو البيع والشراء" إلا مع طلوع نهار صباح اليوم التالى ؛ يضاف إلى ذلك أن البدو الذين يصلون بعد قفل البوابة ينامون خارج القصر ؛ – أما بقية حائل كلها فتظل مفتوحة ، وهى عبارة عن كل المنطقة الواقعة فى اتجاه قفار وجبل أجأ Ajja .

ركب الأمير محمد ، قبيل عصر يوم من الأيام ، راحلته ومعه رفاقه وأفراد حاشيته وخدمه وذهب لزيارة "الدبوش" ed- dubush أو إن شئت فقل : ثروته الحيوانية فى الصحراء . هذا الأمير النجدى يملك ثروة حيوانية كبيرة ، تقدر حسب ما يقولون بحوالى أربعين ألف جمل . ومعروف أن هذا القطيع من سلالة نجدية أصيلة ، وعلى حد قول على Aly عليد Alyid (ذلك الرجل الأمين الذى كان جاراً لى ، والذى كان يعمل فى خدمة ذلك القطيع من قبل ، – أنه كان يقتاد خيولاً من الأمراء السابقين للأمير محمد ، لتوصيلها إلى باشوات مصر) ، فإن الأمير محمد لديه ثلاثمائة فرس من الإناث ، وحوالى مائة حصان من الذكور ، بالإضافة إلى كثير من الأفلاء والأمهار . وعلى حد قول أناس آخرين ، فإن ابن الرشيد لديه حوالى أربعمائة جندى من الجنود الدائمين وغير الدائمين ، كما أن لديه مائة من الأمهار الأصيلة ، وحوالى مائة حصان: وأن هذه الثروة الحيوانية مقسمة إلى قطعان منفصلة فى الصحراء ؛ كما أن لدى بن الرشيد أيضًا حوالى مائة شخص "من الخدم الدائمين" (يعيشون مع عوائلهم فى خيام من الشعر ، شأنهم فى ذلك شأن البدو الرحل) ، الذين يقومون على أمر هذه الحيوانات . قال لى شخص آخر إن ثروة الأمير الحيوانية مقسمة إلى قطعان قوام كل قطيع منها يتردد بين الخمسين والستين من الأمهار أو الأحصنة ؛ كما أن الأمهار والأفراس الصغيرة ، هم الذين يقومون على رعيها أيضًا . ويقال أن هذه القطعان تنتشر ساعة هنا وساعة هناك ، وتارة تكون بعيدة وتارة أخرى تكون قريبة ، – وذلك اعتماداً على حالة نمو الأعشاب البرية فى الصحراء على مدار العام . وخيول الأمير ترعى بالطريقة البدوية ؛ وبعد تقييد أرجل الخيل الأمامية ، يجرى إطلاقها ترعى اعتباراً من الصباح الباكر . وهذه الخيول لا تذوق طعم الشعير أو الحبوب الأخرى : ويجرى اقتياد تلك الخيول فى المساء إلى الخيام ، حيث يجرى تقييدها أثناء الليل ، ويقدم لها لبن النياق ، التى تقوم بدور الأمهات البديل . – من هنا يمكن القول : إن

أمير غربى نجد يملك خيولاً وإبلاً تصل قيمتها إلى ما يقرب من ربع مليون جنيه استرلينى ؛ وأنه جمع هذه الثروة عن طريق الغزو والغنائم ، التى كان يأخذها من البدو المساكين على امتداد جيلين من الزمان . والأمير يملك بالإضافة إلى ذلك ، ثروات أخرى خاصة على شكل معادن ، أما ضرائبه العامة فهى تذهب إلى خزانة الحكومة ، أو إن شئت فقل : بيت المال beyt el- mâl ، ويجرى وضعها فى زكائب ثم توضع فى حفر فى الأرض . والأمير له أملاك كثيرة على شكل أراضى ليس فى حائل وحدها ، وإنما له مزرعة كبيرة أيضًا فى الجوف ، وفى بعض الواحات الأخرى التى غزاها واستولى عليها .

– شاهدت الأمير محمد أمام القلعة راكبًا جملاً عاليًا عليه غطاء مزركش موضوع فوق السَّرج . والأمير يقيم أثناء قيامه بتلك الرحلات القصيرة فى الصحراء هو وحاشيته ، فى خيام مثل البدو . وقد خلف الأمير حمود وراءه فى حائل ليحضر انعقاد المجلس الصغير الذى ينعقد كل يوم ؛ – وولد عبيد لا يجلس فى المكان المخصص للأمير ، وإنما يجلس فى المكان الأدنى المخصص له .

أرسل حمود فى طلبى فى العصر بعد أن فرغ من عمله : "قال : لقد رحل محمد وها نحن نبقى هنا لنكون أصدقاء ." وهنا بدأ حمود يعرض على ساعاته الخليجية الرخيصة ، التى كان يلبس منها ساعتين على صدره ؛ وهذا هو ما يفعله ولده ماجد المولع بتلك الأشياء الجديدة ، – قيل إنه يعرف طريقة مسح تلك الساعات وأن حمود لديه ما لا يقل عن مائة من تلك الساعات ، كما أن الأمير لديه هو الآخر عددًا أكبر مما لدى حمود من هذه الساعات . سألنى حمود إن كانت تلك الساعات إنجليزية الصنع أم لا ، أو بالأحرى ، "ما إذا كانت تلك الساعات من أفضل ما يصنعه النصارى من نوعها". كان حمود يود من وراء ذلك معرفة ما إذا كنت احتفظ بشىء من تلك الحاجيات المرحة فى أعماق الخرج الذى احتفظ فيه بأشيائى ، وما إذا كانت تلك الأشياء ممتازة الصنع . وقد وعدنى وعدًا قاطعًا ، أنه سوف يدفع ثمن هذه الأشياء بالفلوس ، على حد تعبيره ؛ أو إن شئت فقل : سيدفع الثمن بالفضة أو النقود التى يُعزُّها هؤلاء العرب البائسين معزتهم لدم الحياة فيهم . وجدت حمود مستلقيا على الأرض ، مثل البدو وبلا عمل ، ويتثاءب فى المزرعة الملحقة بقهوة عبيد ، التى يقال إنها

تمتد إلى ما بعد المخازن (الغرف) المخصصة لعائلته فى المدينة (والواقع أن هذه المزرعة ليست من بين المزارع الممتازة) . وعبيد لديه ، فى مزرعة النخيل هذه ، كثير من الغزلان التى تتغذى على الجلّبان الذى يجرى نثره لها كل يوم ، غير أن تلك الغزلان تخشى من اقتراب البشر منها : شاهدت أيضاً فى مزرعة النخيل تلك ذكر البدنة . هذا التيس البرى الجبلى القوى يستطيع ملاحقة الإنسان بل ومطاردته ومهاجمته ، إضافة إلى أنه يدخل القهوة دون خوف أو وجل . وذكر البدنة هذا أقوى من أى تيس من تيوس الماعز المعتادة ، وأشد منه قوة ، وشعره قصير وكثيف ؛ ولونه أرجوانى ، أو بالأحرى يشبه احمرار ضوء الشمس عند غروبها خلف الجبال الداكنة .

مزرعة النخيل هذه ، مملوكة لعبيد ، وقد استخدمت أفضل الأساليب فى زراعتها. سيقان النخيل فى هذه المزرعة ، فى تربة حائل الضعيفة ، مزروعة على شكل صفوف بينها مسافات واسعة . تحدثت مع على عليد ، ذلك الجار شبه المتشدد من جيرانى ، ذلك الرجل الذى فتش حزامى فور وصولى بحثا عن الذهب ، هذا الرجل كان من مجوج ولكنه يعمل حاليا فى حائل ، رئيسا للمزارعين الذين يعملون لحساب الأمير . رد علىّ ذلك الرجل قائلا : "فى مثل هذه التربة (جرانيتية التراب) الواسعة يحمل النخيل أفضل الثمار؛ ولم يفد ذلك الرجل من طريقة غرس الأشجار التى علمته إياها ." كان عمق بئر حمود الكبيرة فى تلك المزرعة يصل إلى حوالى خمسة عشر قامة ، وقد جرى حفر هذه البئر فى تلك التربة الصلدة ؛ والجوانب العليا لتلك البئر ، التى أحرقتها أشعة الشمس ، تقف صامدة دون بطانة داخلية أو بناية . عمل فى حفر هذه البئر خمسة عشر عامل ، كان كل واحد منهم يتقاضى ثلاثة أو أربعة قروش يوميا ، طوال عشرين يوما ، أى أن التكلفة وصلت إلى ما يقرب من عشرة جنيهات إنجليزية . وتعمل فى جلب الماء من البئر ثلاث من أفضل النياق التى تساوى الواحدة منها حوالى خمسة وثلاثين ريالاً . هذا وقد تضاعفت أسعار الإبل فى الجزيرة العربية فى السنوات الأخيرة بعد الجفاف الشديد الذى أصاب كلا من مصر والسودان فى الحروب الحبشية (*) ،

(*) الحروب الحبشية : وهى الحروب التى قام بها الخديو إسماعيل ضد الحبشة فى عام ١٨٧٥ بسبب منازعات الحدود بين الحبشة والممتلكات المصرية فى السودان والصومال . (المراجع)

كما تضاعفت أيضا فى سوريا . وقد اندهشت عندما سمعت بدويا يتحدث قائلا :- "وبالله ، السبب هو قلة قيمة النقود !" وإذا ما توالت سنوات الجفاف فسوف يحدث موْتان(*) . ففى موسم من المواسم كان الجمل يباع بكراون(**) واحد عند البدو الرحل ، كما كانت الناقة صغيرة السن ، والتى كانت تساوى ستين ناقة من النياق العليلة الحالية ، تباع بريالين أو ثلاثة ريالات (كان ذلك عند أهل قرى القصيم ،) وكان الناس يبيعون تلك الحيوانات على وجه السرعة مخافة النفوق فى الصحراء .

ماجد ، هو الابن الأكبر من بين أبناء حمود ، وعمره حوالى خمسة عشر عاما ، وجسمه أصغر من سنه ، وجماله من النوع الأنثوى ، وهو ولد الأمير (بحكم أن الأمراء يتزوجون البدويات أيضا) من زوجته البدوية . كان يرافق ماجد بصورة دائمة شاب منحل ، يدعى عليا ، كان متزوجا من أربع زوجات وكان من المتعلقين بخدمة حمود . هذا الثنائى العجيب كان يغزوانى بصورة مستمرة فى بيتى ، بفضولهم العربى الذى لا ينتهى ، ويحاولان وضع أيديهما على الأشياء الأجنبية الخاصة بالنصارى ، - وكان يتطلعان إلى العثور عليها بين أشيائى وأمتعتى ؛ وكنت أمانع فى كل ما يأخذه منى ماجد هو ورفيقه الوغد بالقوة .

- وعندما خطر ببالى أنهما ربما يذهبان إلى حد السطو على مسدسى وأدواتى ، أبعدت كل هذه الأشياء عن متناول أيديهما ، ورحت أذكرهم بأمانة البدو الذين يزورونهم وينظرون إليهم بعين الاحتقار. ورد على ماجد بفضول الأطفال قائلا: "ولكنك ، يا خليل، تخضع لنا ولسلطتنا ، والأمير يستطيع أن يطيح برأسك فى أى وقت يشاء !" وذات يوم، وعندما سمعتهما عند الباب ، فردت البطانية فوق أشيائى المتناثرة ، وجلست فوقها ، ولكن كلمة "بذراك" bethr-ak بمعنى "عن إذنك" لا تجدى شيئا مع وقاحة هذين الشخصين ؛ - حدث أن وجدانى جالسا على القرآن (المصحف) "قالا بتعصب شديد ، ها ! إنه جالس على المصحف !" - وسرعان ما انتقلت هذه الحكاية على لسان ماجد إلى القصر؛ وعاد إلىّ ماجد العفريت ليخبرنى أن الأمير استاء تماما عندما علم بذلك.

(*) موْتان : بفتح الميم وتسكين الواو ، وفتح التاء ، هو (وباء الماشية) . (المترجم)

(**) الكراون : قطعة نقدية تساوى خمسة شلنات . (المترجم)

حاول ماجد أن يثبت لى أنه صاحب طبع رقيق ، وإنه لا يختلف كثيرا عن والده فى هدوئه ورزانته ، وأنه دائما يتعلق بحياة الطفولة ، ولكنه بحكم تكوينه كان محبا لذاته ومستبدا بتصرفاته . كان من عادة ماجد ، أثناء سيره فى الشارع ، أن يضرب الأطفال المساكين بعصاه ويصيح قائلا : "الله يلعن أبوك !" ولم يكن هؤلاء الأطفال المساكين يقوون على منع ذلك الضرر أو مقاومته ، – والأفضل من بين هؤلاء الأطفال هم أولئك الذين يطلقون عليهم اسم "عيال الشيوخ" ؛ وهم يطلقون عليهم هذا الاسم لأنهم ينتمون إلى الأسرة المالكة ، أو إن شئت فقل : لأسرة الأمير . كان ماجد قاسى القلب وكثير الرغائب بالقياس إلى عمره الزمنى ؛ ولكن كل أولاد الشيوخ يتربون على أيدى العبيد ! ولو قدر لهذا الماجد أن يصبح ، فى يوم من الأيام ، أميرا على حائل ، فسيكون ذلك يوما مشئوما فى حياة هذه الإمارة ، اللهم إلا إذا انصلح عقلة ، وبدأ يستوعب التفاهم الإنسانى أكثر فأكثر. ولما كان ماجد مليئا بسهولة العرب وسعادتهم ، فقد كان يعامل الناس بابتسامة مريحة مثل ابتسامة والده ، بل إنه كان ينادينى مثل والده قائلا : "صديقه العزيز" ؛ ومع ذلك ، كان ماجد يستشعر أننى أغوص فيما وراء معناه الطموح . كان فى ماجد الكثير من البراعة السامية ، Semite، مما جعله يلعب دور الوسيط ويساوم على ناقتى حتى أوصلها إلى أدنى سعر ، متصورا أنه سوف يحصل على ضعف الثمن (بعد أن تضع وليدها وتصبح من نياق الحليب) فى الربيع القادم ، وافقت على ذلك ، عن طيب خاطر ولكن "قال ذلك الأميِّر ،لا ، إلا إذا أعطيتنى لجامها معها ." (وهذا اللجام ثمنه يعادل ثلث ثمن الناقة) .– كنت فى كثير من الأحيان أروح أتأمل مدى ارتباطهم بكلمة الشرف ! فهم يظنون أنهم يحسنون التصرف بهذه الطريقة فى العالم الذى يتبعهم ؛ الأعمال الإنسانية التى تقلد وتحاكى الأحلام التى تراودنا عن السماء ، هى مجرد كلمات جميلة على ألسنة شعرائهم ، ولكنها غير معروفة فى تعاملات الشرقيين .

بينما كنت أسير خلال مدينتهم المبنية من الطين بناية جيدة والنظيفة أيضا خطر ببالى العيش فى تلك البلدة ، – اللهم باستثناء الخوف والرعب من الأمير ، والحياة المضطربة بسبب الغزو الذى يقوم به الأمير سنويا : ومع ذلك لم يكن يهمنا استياء أبصارنا من النظر إلى تربة الصحراء التى تحيط بهم من كل جانب ! ومدينة حائل

بحكم موقعها تعد مدينة وليست واحة ، أو بالأحرى تبدو كما لو كانت واحة ثم تحولت بالقوة إلى مدينة . دائرة المزارع من حول مدينة حائل ليست واسعة جداً ، وقد يستغرق الدوران حولها حوالى نصف الساعة ؛ والمدينة تقع على بعد مسافة كبيرة من صخور أجأ Ajja (التى يطلقون عليها هنا فى حائل اسم "المنيف" el-M'nif) (الصورة رقم ٦٤). هذه المدينة معزولة بسور من ناحية الشمال ، عن الهواء الصحى بفعل الجبال التى يطلقون عليها اسم سميراء Sumrâ حائل ، الأمر الذى يجعلها خانقة الهواء فى فصل الصيف . هذه الجبال السمراء من البازلت ، الذى تدفق نازلا (كما يبدو من بوابة مشهد) على جبل أجأ شبه المدفون فى الأرض والمكون من صخور جرانيتيه ذات لون رمادى ضارب إلى الاحمرار ؛ وسميراء حائل عبارة عن جبل ذى لسانين يقفان إلى الوراء قليلا من المدينة ، على شكل نصف قمر ، ويمر من بينهما مجرى سيل حائل الذى يقولون إنه يأتى من قفار . والجبل الموجود ناحية الغرب منخفض عن سميراء حائل ؛ أما القسم الشرقى فيصل ارتفاعه إلى حوالى خمسمائة قدم ، وفى أعلى ذلك القسم الشرقى توجد خزانات الماء ؛ كما كانت هناك فى ذلك المكان محطة من محطات استطلاع العدو يوم أن كانت حائل ضعيفة .

الناس هنا يطلقون على جبال سميراء حائل العالية اسم أم Umm أركاب Arkab وهى منحدرة ، وذات صباح استأجرت جحشا jahash نظير ثمانية بنسات لأركبه إلى هناك . والأحجار السميكة المبعثرة على هذا الجبل هى من نفس نوع البازلت الأسود الذى يطلقون عليه هنا اسم الحرِّى hurri أو الحَرَّة hurra ، وهو ثقيل وصلب مثل الحديد وله صوت مدوى مثل الحديد أيضا أو المعادن التى تصنع منها الأجراس . "والسميراء" فى كلام بدو نجد تطلق على الصخور الصلبة السوداء فى الصحراء : ومعروف أنه اعتبارا من حائل وإلى الوصول إلى مكة نجد أن السميراء هنا مكونه من البازلت الأسود . والناس هنا أيضا يطلقون على الأدغال والشجيرات التى تنمو فى هذا البازلت الأسود اسم "الحزم" hazm ، والحزم ما هو إلا تل بركانى يوجد فى كل حَّرة من الحرَّات . ومن فوق الرجوم وجدت أن حائل ، وأنا أنظر إليها ، تقع فى منتصف سهل طويل يطلقون عليه اسم سهيلات Sahilat الخَّماشية el-Khammashieh، وأنها تقع بين مُنيف جبل أجأ Ajja (الذى يرتفع من ذلك السهل إلى حوالى ٥٠٠ قدم)

وتلك الأرض المكسرة المنخفضة ، التى تحيط بتلك السهيلات Sahilat، إلى مسافة فرسخين فى اتجاه الشرق ، نحو سلمى Selma ، أو إن شئت فقل : "جبل" فدك Fittj ؛ وأرى من تحتى فى الاتجاه الشمالى الشرقى من حائل ذلك الذى يسمونه الخريمة el-khreyma ، التى هى عبارة عن ضيعة كبيرة من النخيل الصغير ، – من ممتلكات الأمير ؛ وعلى حد قولهم هنا ، توجد فى هذه الضيعة بعض الآبار ، أو إن شئت فقل : العيون التى يسقون منها ذلك النخيل !

بعض الشبان الصغار الذين كانوا يعملون فى الحقول ، كانوا قد رأوا النصرانى وهو يصعد فوق الجبل، ومن ثم ركبوا دوابهم وجاءوا خلفه يتعقبوه. قال هؤلاء الشباب ، إن فى الصحراء الموجودة فى الخلف كنوزا كثيرة مخبأه ، إذا ما كان الإنسان لديه العقل الذى يمكنه من استخراج ذلك الكنز ، وكرروا على مسامعى عبارة "جبل Jebel طُمِّية" Tommieh ، وقالوا : إن هذا الجبل شهير فى كل أنحاء نجد "بالثروات المدفونة فيه" ؛ – والطُّمية تقع فى وادى الرماح er-Rummah ، الذى يقع جنوبى جبال أبنات Abanat التوأمية . بعد ذلك ، جلس على الأرض من بين هؤلاء الشباب شخص متعلم ، وبدأ يدون لى العلامات الأرضية المميزة ، التى كنت أراها فى الصحراء الخالية التى تحيط بى . وفوق قطعة من الأرض المرتفعة فى اتجاه الشمال أروني ذلك الذى يطلقون عليه اسم قبر Kabr الصانع es-Sâny الذى يصل طوله إلى ثلاث قامات : "كانت قامة ذلك الرجل بمثل هذا الطول ؛ وقالوا ، إنه عاش فى زمن بنى هلال : وعندما طارده خيَّالة العدو ، راح يجرى أمامهم ومعه ولده الصغير الذى كان يحمله على كتفه ، وأنه سقط فى هذه المنطقة ." كل هذا السهل من ناحية الشمال اسمه كيزان Kisan (ويصح فيه أيضًا "جيزان" Gisan) مجلِّى M'jelly ، إلى أن يصل إلى قمم جبال طوال Tual على Aly التى تقع على حدود صحراء النفود ، وإلى جبل جلدية Jildiyyah ، الذى يبعد مسير رحْلة واحدة عن حائل ، ويشتهر بأنه المكان الذى تتجمع فيه جماعات الغزو الذى يقوم به الأمير . وهناك قرية فى اتجاه الشمال من حائل ، وتقع على بعد ميلين خلف السميراء ، وهم يطلقون على هذه القرية اسم السويفلى S'weyfly ؛ وقبل السويلفى هناك قرية مخرَّبة ومزرعة نخيل بدائية وأرض لزراعة القمح ، والناس هنا يطلقون على هذا المكان اسم قصر Kasr عربية Arbyiyyah وعَرْبِيَّة والسويلفى هما حائل القديمة ؛

هذا يعنى أن مدينة حائل القديمة كانت مبنية على تربة أفضل وموقع أفضل فى الجانب الشمالى من السميراء Sumrâ . ثم أرانى ذلك الشاب بعد ذلك ، وهو يشير بيده ، أسفل منيف جبل أجأ Ajja المكان الذى يطلقون عليه اسم ربع Ria أجدة Agda (ويصح فيه أيضا "أقدة" Akda) ؛ وربع أجدة هذا عبارة عن فجوة أو مضيق فى الجبل يؤدى إلى سهل عميق فى منتصف جبل أجأ ، وأن هذا السهل ، على حد قولهم ، يبلغ من الكبر حداً يجعل مساحته تقترب من مساحة ربع Ruba هذه الدنيا ed-Dinya ، بمعنى "ربع عالمهم مخلخل السكان ." يوجد فى السهل نخيل تحيط به الصخور الضخمة ؛ هذا يعنى أن هذه المنطقة ما هى إلا واحد من تلك الخلجان الصحراوية التى تطل على الشرق ، وتكون شديدة الحرارة فى فصل الصيف . والمدخل الضيق المؤدى إلى هذا الخليج الصحراوى تتحكم فيه بعض البوابات ، وقام عبيد بتحصين ذلك المكان عن طريق قطعة من قطع المدفعية ، وربع أجدة هذا ، ما هو إلا ملجأ أمين لأهل حائل ، هم وكل بضائعهم ومنقولاتهم ، إذا ما قامت الدولة (الإمبراطورية العثمانية) عليهم بحملة من الحملات العسكرية ، التى يخشون حدوثها فى أى وقت من الأوقات . والجزء الشمالى ، إلى الخلف من المنيف ، أو إن شئت قل : ساحل جبل أجأ Ajja يطلق الناس عليه هنا اسم العويرض el-Aueyrith .

نزلت من فوق ذلك الجبل بصحبة أولئك الشبان ، وعزمونى على وجبة الظهيرة المكونة من التمر الذى أرسل إليهم فى الحقول . وبالقرب من المكان الذى كنا فيه رأيت شارعًا من الجدران المتداعية والمنازل الطينية المهدمة ، كما شاهدت أيضا أساس بيت قديم ضخم مبنى من اللبن لم يعد الناس يستعملونه بعد فى حائل . كان الشَّمَّر قد أسسوا تلك المستوطنة منذ زمن بعيد ؛ والبعض منهم يقولون إن "المكان كان يطلق عليه فى بداية الأمر اسم الحاير Hayer ، بسبب وفرة المياه الجوفية فيه ،" ومع ذلك فقد ورد ذكر اسم حائل فى قصيدة عنتر Antar القديمة . [وقد أتى بطليموس على ذكر هذا الاسم أيضا – راجع كتاب سبرنجر Sprenger المعنون : "جغرافية الجزيرة العربية"]. وعلى حد قولهم هنا ، فإن مدينة حائل نقلت من هذا المكان بسبب انخفاض المياه الجوفية شيئا فشيئا . كانت حائل ، خلال الجيل الماضى ، أى قبل بداية حكومة ابن الرشيد ، عبارة عن واحة ، لا يزيد حجمها عن نصف حجم قفار ، التى هى موقع

ممتاز بحد ذاته ؛ ومع ذلك ، فإن حائل ، بلدة عبد الله بن الرشيد(*) ، عندما أصبح محافظا Muhafuth على غربى نجد فى ظل الحكم الوهابى ، كانت هى دوما العاصمة . والمدن المجاورة لحائل فى هذه الأيام تكاد تتساوى معها ، وقد قدر عدد سكان حائل بما يقترب من ٣٠٠٠ نسمة ؛ والناس هنا يقولون : إن سكان قفار ، الذين هم من بنى تميم ، وكلهم تقريبا من المزارعين يزيد عددهم قليلا عن سكان حائل . وبينما كنت أعود إلى بيتى من ناحية البوابة الشمالية ، مررت على ضاحية مهدمة يطلقون عليها اسم الوسيط Wasit والتى يفصلها مجرى السيل وحقولها عن مدينة حائل . قيل لى : إنه منذ سنوات قلائل كانت فى هذا المكان ، المهدّم حاليا ، "أربعين قهوة" ، بمعنى أنه كانت تعيش فى هذا المكان أربعين أسرة ، كان أصدقاؤها يترددون عليها يوميا طلبا لشرب القهوة .

الوسيط فى الوقت الراهن ، ليست سوى أطلال بلا سكان ؛ هذا يعنى أن أهل الوسيط (شأنهم شأن أهل المناطق المدمرة من قفار والمناطق المدمرة من قرية مجوج) ماتوا قبل سبع سنوات بسبب الطاعون ، الذى يطلقون عليه اسم "وباء" Wâba . شاهدت حوائط منازلهم المبنية من الطين بلا سقوف ، وقد أوشكت على السقوط ، نظرا لنزع الأخشاب منها : هذا يعنى أن الناس هنا هجروا حقولهم وتخلوا عن آبارهم . يضاف إلى ذلك أن ملاّك وورثة وأصحاب هذه الأرض قد تخلوا منذ زمن بعيد عن أعمال السقاية والرى إلى حد أن النخيل جف وذوى ثم مات : وتلك قلة قليلة من أشجار النخيل ولكن أعرافها ليس فيها أى أثر من آثار الاخضرار . وقد رأيت بعينى قبل أن أغادر حائل أن الناس قطعوا تلك السيقان الميتة وتحولت التربة من جديد إلى إنتاج الحبوب . مات ثلاثمائة شخص فى منطقة الوسيط ؛ وفى حائل ، "مات من كل أسرة فرد واحد أو فردين (أى أن إجمالى الوفيات كان يتراوح بين سبعمائة وثمانمائة متوفى) ؛ ولكن الآن ، وبفضل من الله ، هؤلاء هم الأطفال نُشئُوا وأصبحوا يملأون غرفهم ؛ ولم يمت أحد من الأسرة المالكة التى كانت تتغذى تغذية جيدة ! كان البدو

(*) عبد الله بن الرشيد : هو مؤسس حكم آل الرشيد وضع نفسه فى خدمة السعوديين ، وعاون الأمير السعودى فيصل بن تركى فى استعادة حكمه وكافأه الأمير فيصل بأن جعله حاكمًا على جبل شمر ومنحه لقب "محافظ" ، وحكم فى الفترة من ١٨٣٥ إلى ١٨٤٧ . (المراجع)

الذين يزورون حائل ، خلال فترة ذلك الوباء ، يموتون أسرع من أهل المدينة نفسها ؛ ومع ذلك كانت العدوى فى الصحراء أخف بكثير جداً ، ولم تعم منازل البدو على شكل وباء فتاك . كان ذلك المرض يصيب الأمعاء والرأس ؛ بعض الناس كانوا يموتون فى يوم الإصابة والبعض الآخر كان يستمر فترة أطول من ذلك . كانت أعراض الإصابة بالطاعون عبارة عن بقعة سوداء تظهر على الأنف ، وحدوث تغيير فى لون الأظافر . وكانت الآلام تشبه الآلام الناتجة عن الإصابة بالكوليرا . وبعد الطاعون ، أصابت البلد حمى دامت عامين ، إلى حد أن أولئك الذين بقوا على قيد الحياة بعد الطاعون ، كانوا يحملون جثث الموتى على الحمير (بعد أن خارت قواهم وعجزوا عن حمل جثث الموتى) . فى ذلك الوقت ، كان واحد من الحضر قد جلب بعضا من الكنين من الشمال ، وراح يبيع كل "عشرة أو اثنى عشرة ذرة بخمسة ريالات لكل من يطلب ذلك الدواء ؛ وقد أخبرنى ذلك الحضرى ، أن ذلك الكنين ، عندما يتعاطاه المريض بعد جرعة مطهرة من الملح الإنجليزى ، يشفيه من الحمى" . هذه الوفيات الكثيرة حدثت فى عهد الأمير بندر(*) Bunder ، أى قبيل بداية حكم الأمير محمد بفترة وجيزة ؛ والناس هنا ينظرون إلى عهد الأمير محمد باعتباره عهداً زاهرا وأنهم "لم يشهدوا له مثيلا من قبل ، ولم تحدث خلاله أيه كوارث عامة ." والآن تشهد السيادة الشمرية قمة نضوجها : وبعد هذا النضوج السريع الذى قد يتحول إلى تحلل سريع على أيدى بعض الناس الذين ليست لديهم القدرات أو المواهب التى تمكنهم من إدارة ذلك الذى جرى الحصول عليه عن طريق العنف القتالى ، أو عندما ينحسر عنهم من هذه الدنيا .

من حيث الدمار والخراب تجىء مقبرة حائل الواسعة ، بعد منطقة الوسيط التى تقع بين أسوار المدينة وصخور السميراء المنخفضة الوعرة . والأغنياء والفقراء الذين تنتهى حياتهم الدنيوية ، يدفنون هنا ، فى هذا المكان ، فى هذه الأرض الصحراوية التى كانت تتبناهم وتربيهم فى يوم من الأيام ، ونحن لم نرى أية فروق فى الدفن هنا

(*) الأمير بندر بن طلال ١٨٧١-١٨٧٢ : اغتصب حكم جبل شمر من الأمير متعب بن عبد الله . وفى عهده القصير عصفت الكوليرا بالبلاد ، وفقد عرشه وحياته قبل أن تنقضى سنة واحدة على حكمه حيث اغتاله الأمير محمد بن الرشيد الذى تولى الحكم من بعده ١٨٧٢-١٨٩٧ ، وفى عهده كانت زيارة «دوتى» لمدينة حائل . (المراجع)

اللهم فى اختلاف المكان ليس إلا . وقد دفن طلال وعبيد بين من دفنوا فى هذا المكان . والقبر هنا عبارة عن كومة صغيرة ، عليها شاهد عبارة عن كتلة من البازلت يأتون بها من تل البازلت ، والقبور كلها هنا على هذه الشاكلة ؛ ويندر أن يرى الإنسان هنا شاهدا من شهود المقابر التى تحمل نقوشًا أو كتابات ، من قبيل الاسماء التى كان المتوفون يحملونها فى يوم من الأيام ، وفى بلدان الحدود السامية تروج خرافة طويلة عن القبور ؛ وكفن الموتى هنا هو الرداء البدوى البسيط بدون أية زينة . فى جانب من جوانب المقبرة يوجد قبر عبيد ، ذلك الرجل الذى ذاع صيته وقوته وسلطانه وجبروته يوم أن كان فى سدة الحكم : كل ذلك أصبح الآن فى عداد الذكريات ؛ وهاهو يرقد فى كفنه على عمق ياردة واحدة أسفل هذا الحصى والزلط ، ومكتوب على شاهد قبره كلمة واحدة هى "عبيد Abeyd ابن Bin الرشيد ." وعندما سألت ماجد ، "هل سيده عبيد العجوز ، يرقد مرتاحا فى الأرض حاليا ؟" بدا صدى كلامى غريبا على أذنيه ؛ والسبب فى ذلك أن الناس فى هذه الأرض الفقيرة لا يدفعون النقود ثمنا إلا للأشياء التى يحتاجونها فى حياتهم ؛ ومن هنا يصبح رأيهم مثل رأى زوجة باث Bath التى مفادها ، "المبالغة فى الدفن نوع من التبذير ،"– وهم يقلدونها أو على العكس من ذلك يتبعونها فى ترفها. والناس هنا يقولون لمن يموت "خلاص" ! Khalas بمعنى "لقد انتهى أجله"، وهم يطوون تلك الذكرى الأليمة بشىء من الحكمة ودون مبالغه فى الحزن .

فيما بين المقبرة وبوابة المدينة هناك مَنْزَل صغير يقيم فيه بعض البدو المستقرين . وهم يعتمدون على إحسان القصر ؛ وبالرغم من مظهرهم البائس إلا أن البعض منهم من أقارب الأسرة المالكة . وهم يقيمون سورا من الطين من حول خيامهم من الخلف ، والبعض منهم لديه غرفة (قصر) مسقوفة بقماش الخيام ، أو برج منخفض داخل المبنى الطينى نفسه . هؤلاء البدو من الشَّمر ، الذين يرسلون ماشيتهم القليلة مع أبناء قبيلتهم كى ترعى فى الصحراء ؛ هؤلاء البدو المستقرون ينتقلون إلى الصحراء فى شهور الربيع ، لينعشوا أنفسهم بموسم الحليب الذى يستمر فترة قصيرة ، وبينما كنت أمشى بجوار تلك الخيام ، نادتنى امرأة من خيمة مهلهلة ، هى الأكبر من بين كل هذه الخيام ؛ "هل لدىَّ دواء لالتهاب العيون وتورمها ؟" وقالت لى من خلال حديثها أن أختها كانت زوجة للأمير متعب وأنها كانت "عمة" محمد الأمير الحالى . وقالت إن أولادها

هربوا فى زمن الاضطراب وما زالوا يعيشون فى الديار الشمالية . وعندما أتت هذه المرأة على ذكر اسم الأمير راحت تتكلم همسا - وتركز بصرها على القصر ، مخافة أن يحمل الهواء كلماتها على جناحيه ويذهب بها إلى أذن الأمير . كانت تقف إلى جوار هذه المرأة ابنتها اليافعة بدون حجاب ؛ ربما كانت تلك الابنة غير متزوجة ، إضافة إلى أن المسلمين لا يغارون من النصرانى أو يحسدونه . كان خدًا الصبية يتوردان ، وأنا لم أرى مثل هذه البشرة من قبل فى امرأة بدوية ، لأنهن كلهن واهنات وشاحبات ، أما هذه الصبية فهى مختلفة ويبدو أنها تربت فى الديار الشمالية الغنية بالغذاء والطعام . عددت خيام هؤلاء البدو المستقرين فوجدتها ثلاثين خيمة ؛ كانت هناك خمس عشر خيمة أخرى بالقرب من بوابة قفار ؛ وهذه الخيام أقامها بعض من بدو الشمر شبه المستقرين ، ولكنها لم يكن حولها بنايات من اللبن .

ملحق الجزء الأول(*)

[الملاحظة التالية القيمة هى بقلم مؤلف كتاب "سوريا الوسطى" ، ولم تصلنى فى الوقت المناسب كى أضمها لهذا الكتاب فى المكان المخصص لها بعد الفصل السادس].

عمارة الأنباط المنحوته فى مدائن صالح . ملاحظة : بقلم أم M ماركيز فوج (عضو المعهد) .

فنشال ، ٢٤ يناير ١٨٨٦

أنت تطلب منى يا سيدى أن أعطيك رأيى فى أسلوب الآثار التى اكتشفتها ، والتى كلفتك مجهودات كبيرة ومخاطر جسيمة. سؤالك يحتضننى قليلاً: أنا فى "مادير"، بعيداً ، منذ ما يقرب من عام ، عن كتبى ومذكراتى : لم أستطع أذن سوى كتابة ذكريات : التأملات التى أوحتها لى رسوماتك سوف لن يكون لها الانتشار الذى كنت أحب أن أعطيه لها : إننى أوجهها لك مع ذلك ، على أمل أنها سوف تكون نافعة لك .

الفائدة الرئيسية لمجموعة مقابر "مدائن – صالح تكمن فى تاريخها : فهى تقدم إذن قاعدة غير قابلة للنقاش لتقارب الآثار . كل هذه الآثار نفذت فى القرن الأول من عصرنا ، وبالنسبة لأغلبيتها ، فقد بنيت فى النصف الأول من القرن نفسه . فلهم وحدة شكل بارزة . ونرى أنهم قد صنعوا فى نفس الزمن من فنانين من نفس المدرسة ،

(*) ورد هذا الملحق باللغة الفرنسية وقد ترجمته السيدة أسماء درويش مديرة مدرسة ليسيه الحرية الفرنسية ، فى شارع الهرم ، محافظة الجيزة – جمهورية مصر العربية .

يمتلكون عدداً قليلاً من النماذج . يمكن أن نندهش ، لأول نظرة ، أن منطقة سكنت قديمًا لا تحتوى على آثار على طول وجودها ، إذا لم يكن هذا العمل عامًا . إن سوريا وفلسطين ، وبالرغم من الحضارة القديمة جداً فى هذه البقع ، لا تحتويان تقريبًا على آثار تسبق العصر اليونانى : فيما عدا بعض الاستثناءات ، وهى المقابر العديدة ، المنحوتة فى الصخرة ، والتى تشق جميع جبال هذه المناطق ، هى لاحقة للإسكندر ، وأيضا لاحقة إجماليًا للمسيح . هذا هو على الأقل رأيى ، والآثار التى اكتشفتها تعطى تأكيداً جديداً .

إن الشكل الإجمالى لهذه المقابر ، هو شكل برج نصف مجوَّف ، فى سطح الصخرة : وفى قاعدة البرج باب يؤدى إلى الحجرة الجنائزية : سطح البرج مقسم إلى عصابات أو أفاريز التى تفقدها التشابه ؛ القمة متوّجة بنوع من التحزيزات منحوتة على شكل مدرج (سلم) وبعض واجهات هذه الأبراج مزينة بعضادات :

وهذا العدد الصغير ؛ من رسومك تشير لذلك ، خاصة أربعة منها تستحق التوقف بعض الوقت : وهى الآثار التى تأتى واحدة منها من "برج" والأخرى من "قصر البنت" واللتان ذكرتا فى ص ١٤٥ و ص ١٤٦ من كتابك ، ثم الآثار التى ذكرت تحت اسم "بيت آخرائمات" (ص ١٥٥) ومحل المجلس ص ١٥٧ .

الأول مزين بعضادتين تحملان une aichitiave وإفريز ؛ والركائز (الدعامات) كان يجب أن تتوج بأعمدة كورنثية (على الطراز اليونانى) ولكنها بقيت بلا استكمال: اكتفى النحات بترقيقهما : فقد وضع فى قاعدتهما حلقات لصنفين من ورق أبو اليهود ، – وفى زواياها العليا بروزين للحلزون والأوراق التى يحملونها ؛ وفى وسط Pábaque ، يوجد بروز لزخرفة الورود . إن الزخارف الطولية (الكرانيش) للـ architave مقتبسة من الفن اليونانى ؛ الإفريز على العكس فهو يحاكى الإفريز المصرى ؛ أما ما يخص التحزيزات أو أعلى البناء فهو مقتبس من مقابر بترا ، فهى تبدو وكأنها تذكرة للفن الآشورى . زخرفة الباب على نفس الطراز المهجن : الأعمدة التى على جانبها كورنثية ، غير مستكملة ؛ lárchitave يحاكى dorique الخاص بالعصر الأدنى ـــــ .

إن مدخل المبنى فهو يحاكى الأيونية des acrotries لا شكل لها تزين زوايا مدخل المبنى والذى يعلوها شكل مغلظ لنسر .

إن الرسم الذى أعطيته (.....) له نطاق واسع ، لباب مشابه ، يسمح بالتقدير الكامل لخاصيته .

Les tuglyphes والورود على الطراز الذى سنطلق عليه اسم توسكان ، إذا كان التاريخ والمكان لا يستثنى أى تدخل من المعماريين الرومان . ويجب الرجوع إلى بيت المقدس ، وإلى مقابر وادى جوزافات ، حتى نجد شبيهًا لها .

المقبرة الثانية هى لقصر البنت ، وهى تقريبًا شبيهة بالسابقة : eárchitiave أكثر تكاملاً ويعلوها إفريز : ولكن التفاصيل مشابهة تمامًا : تيجان الأعمدة لم تستكمل .

إن الآثار التى تطلق عليها محل المجلس وبيت أخرائيمات لا تختلف عن الأولتين سوى بالمقاسات الأكثر كبرًا وثراءً . إحداها بها أربعة دعامات (ركائز) وتتابع من الدعامات ؛ والأخرى بها نظامان من الركائز (الدعامات) وباب مزين كثيرًا : ولكن الطراز مشابه تمامًا ؛ وهم متساوون من حيث أنهم غير مستكملين .

إن التكوين الداخلى لهذه المقبرة مشابه لوضع الآثار فى سوريا وفلسطين : غرفة جنائزية منحوتة فى الصخرة ، وبها فتحات لاستقبال الجثث : الفتحة منحوتة فى أرض الغرفة أو فى الجدران الجانبية ، موازية لهذه الجدران : كل هذه الأشكال توجد فى سوريا وفلسطين : ولكن مقابر هذه المناطق تحتوى بالإضافة لذلك على شكلين لا نراهم هنا ، على الأقل فى الآثار التى رسمتها : وهذا هو الشكل المسمى أوكوزوليوم والمنتشر جدًا فى شمال سوريا ، والأفران عمودية على جدران الصخرة وهى كثيرة جدًا حول بيت المقدس . ومع ذلك جميع هذه الآثار هى من نفس العائلة . والفتحات تحمل نقوشا لمدائن صالح ، اسم جوخ والقريب جدًا من كلمة كوك والتى كان اليهود يطلقونه عليها.

إن الأثر الوحيد غير الجنائزى من بين هذه المجموعة هو الذى يسمى بـ "الليوان".

وهو كهف صناعى ، مفتوح من الخارج برواق قد تهدم اليوم وكان يستخدم كمكان للصلاة ؛ إن النصب التذكارية العديدة والمنحوتة فى الصخرة لا تترك أى شك

لهذا الموضوع : واحدة منها بها نقش تقرأ عليه اسم مسجدة . وهى من خصائصه ، وأنه أصبح كلمة مسجد . بنى الكهف بعناية : يحيط به إفريز من الداخل ، ودعامات تزين الزوايا والكل مكون من عناصر يونانية . إن التفاصيل التى رسمت على الصور ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ من نشرة الأكاديمية وهى أيضًا مقتبسة من الفن اليونانى ؛ ولكن يمكن أن نقول أنها تحاكى آثار العهد القديم : أعمدة متزاوجة ، الأقواس سواء فارغة ، أو ركيزة على les aichivages أو عضادات وهى أشكال تعودنا أن نعتبرها كعمل مهندسين معماريين رومان : آثار بترا كانت قد هزت هذا الرأى ؛ ولكن بما أنها لم يؤرخ لها ، فالنقاش كان مسموحًا ؛ بينما فى مدائن صالح وجود تواريخ تتحدى كل هذا الخلاف .

وباختصار ، الآثار التى اكتشفتها تؤكد ما عرفته دراسة آثار بترا وسياه ، فى الحوران ، وأيضًا علم السك ، وهو وجهة نظر الفن الملكى النبطى كان قد أدخل من اليونان : الفنون السابقة لآسيا كانت ممثلة فى بعض الأذكار . كان الفنانون نبطيين : إن من سياه وبترا . كانوا ذوى مهارة حقيقية ؛ أما فى مدائن صالح فكانوا قاطعى حجارة يحفرون الصخر بقوة واتساع (وفسحة) ولكن لم يكن يعرفون نحت التفاصيل : ولكى ينتهوا من أعمالهم فقد انتظروا بدون شك من بترا حفارين لم يأتوا بعد .

إن النماذج اليونانية المحاكاة من هؤلاء الفنانين الشرقيين تحتوى على أشكال عرفت بالانحطاط : ويجب أن نرد مصادر هذه الأشكال إلى ما قبل العصر النبطى وفى النهاية ، وعند محاكاة الآثار اليونانية كان الفنانون الشرقيون يخلطون الترتيب ، ويجمعون les triglyphes dosiques مع تيجان الأعمدة الكورنثية والأفاريز الأيونية وأيضًا مع الإفريز المصرى .

هذا الجمع المهجن الذى كان قد لوحظ فى المقابر التى تحيط ببيت المقدس ، توقف عن كونه استثناء : هو عمل عام يميز منطقة وعصر (نهاية العصر القديم وبداية الحديث) ؛ إن النقاش الذى أثارته آثار بيت المقدس قد أغلق نهائيًا ، ولم تكن واحدة من أقل الخدمات التى قدمتها باستكشافك الشجاع وهو أنك قد خلصت علم النظريات النزوية التى أربكت بعض العقول .

تفضل سيدى بقبول التعبير عن أخلص الحب والمشاعر .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل

المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الثانى - المجلد الأول

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/926

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى - المجلد الأول)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٢٦ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج٢، مج١)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى – المجلد الأول)

تأليـــــــــف: تشارلـز م. دوتـــى

ترجمـــــــــة: صبرى محمد حسن

مراجعـة وتقديم: جمال زكريا قاســـم

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية(ج٢_مـج١)، تـأليف: تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسـن؛ مراجعـة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ – القاهرة، المركز القـومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٧٤ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية – وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٥
الترقيم الدولى: 9 - 191 – 479 – 977 -978
طبع بمطابع صحوة

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصـحابها فـى ثقافـاتهم ولا تعبـر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الفـــــصـــــل الأول : مدينة ابن الرشيد 7

الفـــــصـــــل الثـــانى : الحياة فى حائل 39

الفـــــصـــــل الثـــالث : الرحيل عن حائل : الرحلة إلى خيبر 71

الفـــــصـــــل الرابع : خيبر « بلد الرسول » 113

الفـــــصـــــل الخـــامس : الخبابرة 153

الفـــــصـــــل الســـادس : حياة المدينة فى خيبر 199

الفـــــصـــــل الســـابع : أرض الأحباش - تراث المدينة الأدبى 237

الفـــــصـــــل الثـــامن : الخلاص من خيبر 279

الفـــــصـــــل التـــاسع : الرحلة الصحراوية إلى حائل - طرد النصرانى من هـــنـــاك 325

الفـــــصـــــل العـــاشـــر : الشمَّر وصحارى حرب فى نجد 375

الفـــصـــل الحـــادى عـــشـــر : رحلة إلى القـصيم : بريدة 421

الفصل الأول

مدينة ابن الرشيد

تساؤل عجيب من أهل المدينة. زيارة الحكيم المغربى لمدينة حائل. إخراج الحكيم للجن. الجن. مخاوف العرب الخرافية. طاردو الأرواح الشريرة بالأدعية. مُحصنٌ مسيحى. فريق معزول فى الصحراء. مزايا مهنة الطبابة. حمود يرسل طفله المريض إلى الحكيم النصرانى، الذى يشفى زوجة حمود أيضًا. الأمراض فى حائل. القصر العظيم. غرف الضيافة. بناء المنازل فى حائل. الأقسام الإدارية فى المدينة. الحرفيون. زيارة السويفلى. المقبرة تبتلع السكان. الصم والبكم فى حرس الأمير. رماية ماجد باستعمال الرش. البارود الإنجليزى. كلمات خليجية فى حائل. النخيل وأشجار الصمغ فى أجأ. 'الأنباء عن مجىء محمد (ﷺ) فى الإنجيل'. تسامح حمود الحضرى. اجتماع آخر. أسرة بن الرشيد المالكة. طلال قاتل نفسه. متعبَ يخلُف طلال. أبناء أخيه، أبناء طلال يتآمرون على قتله. وفاة متعب بنيرانهم. الأمير بندر. عودة محمد الذى فَر إلى الرياض بعد وعد بالسلام. تولى محمد مرة ثانية دور إرشاد الحجاج البغداديين؛ وعودته إلى حائل مع القافلة السنوية التى تحضر التمن (نوع من الأرز) للمطبخ العام. بندر يواصل المسير مع أخيه بدر ومع حمود للقاء محمد بن الرشيد. محمد (يقتل) بندر ابن أخيه. خطاب حمود إلى الشعب. مأسى فى القلعة. خطاب محمد فى المسحاب Meshab . بقاء محمد كمحافظ. أسر بدر وقتله. محمد يقتل القاتل. طبيعة حمود. الأمير محمد بلا ذرية. اعتداله وقسوته. الكرم الملكى. ولاية الشمر. القرى والهجر. الضرائب العامة والمكوس ومصروفات الحكومة. بيع خيول الأمير فى الهند. قوات الأمير. غزوات بن الرشيد. إضعاف ابن الرشيد للأعراب. نظارة الشمر.

بعد أن عدت، فى فترة العصر، من الرحلة التى صعدت فيها سميراء Sumra ، اكتشفت ذيوع الخبر فى المدينة كلها. كان أول الأشخاص الذين التقيتهم يسألوننى، "ماالذى وجدته هناك – هل وجدت أى شىء؟ خبِّرنا! من المؤكد أنك ذهبت لرؤية شىء هناك، – وإلا فلماذا تسلق النصرانى تلك الصخور العالية، واستأجر حمارا ودفع بنسا واحدًا؟" وبينما كنت أمر من السوق كان التجار يشيرون إلىَّ من داخل دكاكينهم، فقد كانوا هم أيضا يودون التحدث إلىَّ حول هذه المغامرة.

بدا أصدقائى القدامى يحرصون على أن لايراهم أحد وهم بصحبتى أويرافقونى؛ لأن ذلك يمكن أن يحسب عليهم من منظور أنهم يفضلون الكافر. وبينما كنت أسير فى المدينة فى الصباح جاءنى واحد من أولئك البطارقة النبلاء المحيطين بالأمير وسألنى: – الغالبية العظمى من أولئك الشبان الصغار، الذين أراهم فى المدينة، وهم يرتدون معاطفهم الحريرية، هم من أرذل الناس فى حائل – وبحركة متعجلة وإشارات متعجلة راح ذلك البطريق يشدنى من ردائى وعباءتى،" قال: ياخليل، ما الذى تبحث عنه، بعيدا عن السوق؟ لماذا تتجول هنا؟ ماالذى جاء بك إلى هذا المكان؟ ما الذى تبحث عنه، ما الذى رأيته؟ هل حائل مدينة جيدة ؟ وهل الهواء جميل؟ – ومتى سوف ترحل عن هنا؟" وعندما عدت، كان هناك بدوى يجلس عند الطرف العلوى من المسحاب، حيانى بتحية ودية، وكان واحدًا من شيوخ ولاد على، قد رأى النصرانى فى وادى الحجر. جلسنا أنا وهو سويا، وهنا جاءنى واحد آخر من هؤلاء العرب الشباب المخنثين الذين يرتدون الملابس الحريرية، ويتمسحون فى ثقة الأمير. وقاطع ذلك المخنث حديثنا، وهنا قاطعته أنا قائلا : – "أمض لحالك، أيها الشاب، فإن أُذنى تتألم من جهلك وكلامك السيئ." تركنا هذا المخنث غاضبا، وبعد أن ذهب لحال سبيله،" قال البدوى الصديق: أنا أتكلم معك من باب الصداقة، لاتتعامل تعاملا مباشرا مع أهل المدينة؛ صدقنى سوف يملكون عليك كلامك، بمافيهم ذلك الذى ذهب لحال سبيله، وسوف يستمر الجميع فى كراهيتك ؛ وأنا أقسم لك بالله، أن هذا الشاب من بيوتهم الكبيرة، وهو قريب للأمير – إى! الحياة هنا مختلفة، عن تلك الحياة التى تعودت عليها أنت فى الصحراء، ونحن لسنا هنا فى الصحراء، كما أن الناس هنا ليسوا هم البدو." – وهو نفسه، رسول من القبيلة المتمردة، ويبدو أنه مصطبغ بظلال المكان الاستبدادية.

قال بعض الأصدقاء الذين جاءوا لزيارتى بعد أن تركت البيت القديم وانتقلت إلى المخزن المجاور له:" خليل هو الحكيم الثانى الذى نراه فى هذا المسكن."- " من هو ذلك الحكيم الذى سكن هذه الغرفة من قبلى؟"-" مغربى، طبيب بحق، [أفضل من خليل] لم يكن هناك مثيل له فى كتابة الأحجبة، وكان يتقاضى ثلاثة ريالات عن كل حجاب: - لماذا لا تكتب أنت أحجبة، ياخليل؟ اكتب، يارجل، وسترى المدينة كلها أمام بابك، ويمسك كل واحد منهم بدولارين، أو ثلاثة دولارات فى يده. وسوف تغتنى خلال فترة وجيزة، وأنت لا يمكن أن يتحسن حالك من بيع هذه الأدوية، لأن العرب لا يريدون أدوية.- ولكن المغربى، والله، كان يمسك أحجبته ويعرضها لحظة للدخان، ثم يقوم بتسليمها لأولئك الذين يدفعون له الريالات، وكان الناس يرون أن تلك الأحجبة مفيدة جداً. إذا كانت هذه هى أحجبة المغربى، أليس خليل نصرانيا، ومن ثم فهو أقدر على الكتابة من المغربى؟ - آه! كما كان ذلك المغربى قويا فى قراءة' العزائم' والأسحار! كان المغربى يخرج الجن من البشر الذين أصابهم مس من الجن، كما كان يقيد الجن أيضا، والله، فى هذا الركن الذى أمامك." - ما الذى ربطه فى ذلك الركن؟"- " أهل الأرض، (الشياطين الذين يعيشون تحت الأرض،) إنهم يصيبون الرجال بالمرض، كما أن من يتملكه أو يتلبسه الجن يضرب نفسه، أو يسقط على الأرض، وهو يصرخ ويزبد."

على العيد، جارى فى المنازل المجاورة، الذى كان مدينا لى بخدمة (طبية) طيبة، أحضر لى مصباحا من الشحم الحيوانى وهو يقول:' هو لا يوافق على أن ينام صديق هنا فى الظلام، فقد يتلبسنى الجن، ثم نظر حوله،" قال: هذا المخزن ملىء بالجان (نظرا لأن المغربى أخرج الكثيرين من الجان)، وأنا نفسى لا يمكن أن أنام فى هذا المكان" - " لكن، قل لى: من الذى رأى ذلك الجان، وماذا يشبه ذلك الجان؟"- " لقد رأيت الجان، يا خليل، البعض منهم طويل القامة، والبعض منهم له قامة صغيرة أو قصيرة، وملامحهم مرعبة جداً؛ أنواع منهم لها عين واحدة فى منتصف الوجه؛ بعض ملامح الجن الأخرى يمكن رسمها بصورة مخيفة، أو قد يكون وجه الجن قصيرا ومستديرا، كما أن شفاه بعض من الجن تتدلى إلى منتصف أجسامهم." جاء على العيد فى الصباح إلى بيتى ليعرف كيف تغذيت، وعندما وجد أن مصباحه الدهنى لم

يستهلك أكثر من ساعة، وصفنى بالغباء لأنى نمت فى الظلام. ولكنه أشار إلى الأعلى، وأرانى حالة سيئة، فقد كانت الدعامة الكبيرة مكسورة من منتصفها! وكان السقف الثقيل المصنوع من الطين يهدد بالخراب والدمار، وبالتالى لم يكونوا يسمحوا بسكنى أى أحد فى ذلك المخزن فى الفترة الأخيرة: - يضاف الى ذلك أن هذا المخزن المهجور، وافق حمود، على مضض، على إعطائه للنصرانى. ولعل النخلة التى كانت تنمو فى بستان حمود، وكان جريدها يتدلى من الشباك المفتوح أثناء الليل، ويهتز مرتعدا، كان هو ذلك الجان، الذى سيطر على ضمائرهم المضطربة. أثناء النهار كانت عصافير السحاب الصغيرة، ضيوفا عندى، وأغلى عندى من أية صحبة أخرى.

اكتشفت أساتذة فى فن طرد الأرواح الشريره بالأدعية (كما سبق أن قلت) فى حائل: كانا شخصين مزيفين. كان أحدهما رجلا متقدما فى السن: سبق أن رأيته فى قهوة عبيد، وقد أدهشتنى إجاباته وردوده، كما أدهشتنى أيضا قدرته على القراءة والكتابة: هذا الشخص كان أجنبيا من شرقى نجد، ولكنه كان يعيش فى منطقة قفار. كان متخوفا من الرد على ؛ وربما لم يكن قادرا على المجاهرة بكلامه، وكان يتكلم همسا. أما الشخص الثانى فكان شابا من حائل، وكان قد جاء سراً إلى المخزن الذى أقيم فيه، ليتعلم شيئا من هذا الفن من النصرانى. سألنى، ماهو الأسلوب الذى اتبعه لتقييد الجن، وماهى الكلمات التى تنطوى عليها عزائمى السحرية القوية (القرينة)'. 'كان لديه هو الآخر كتاب ملىء بالقراءات ويحتفظ به فى منزله، وأنه كان يستفيد منه تماما، لأنه كان هو الأقدر، فى إخراج الجن، أكثر من أى شخص آخر. هذا الرجل كان شخصا ناعما هينا، فقد حبته الطبيعة بأشياء كثيرة، فهو بسبب صوته العذب كان يستدعى للغناء، فى بعض الأحيان، أمام الأمير.

هذا المغربى، ومعه فنونه العمياء، كان يعيش فى حائل وسط حظوة الجميع، وجمع الكثير من المال؛ كما أقرضوا ذلك الرجل المنعزل أرملة جميلة لتكون له زوجة، - "فلماذا يعيش بلا زوجة؟" وفى يوم من الأيام، جاء عبدالله، وهو عبد من عبيد الأمير، إلى النصرانى بعرض مماثل، وأرانى ماجد فتاة حبشية من أهل بيت والده، وهو يقول:

إننى إذا ماوافقت فسوف تصبح ملكا لى. كانت الفتاة المسكينة لطيفة ومتواضعة وكانت راغبة وموافقة على ذلك؛ ولكنى بحكم عدم رغبتى فى أن أحيا حياة على ذلك النحو، فقد عزوا امتناعى إلى العقيدة المسيحية وتسامحوا معى فى النهاية. وعن طريق البدو العائدين من العاصمة ذاعت فى كل أنحاء المناطق المجاورة لحائل، أنباء مفادها أن "الأمراء يعانون فى حائل، وأنهم كانوا يحابون النصرانى؛" وبعد ذلك لم أذهب إلى أى مكان آخر فى نجد ، إلى أن وصلت فيما بعد الى قرى القصيم، التى لم تصلها أخبار ذلك النصرانى الجائل، وعن طريق العلامات استطاعوا جميعا التعرف علّى. حدثونى أيضا عن نصرانى (ربما كان سوريا أو من بلاد الرافدين)، جاء إلى حائل، قبل سنوات عدة، وأخذ من الناس نقودهم لقاء مصل فاسد." قالوا: ولكن الله قطعه، إذ التقاه الأعراب وقتلوه فى الصحراء."

كانت ممارستى للطب قليلة، ومع ذلك أكسبنى ذلك الاسم الدخول بين هؤلاء الناس كما أكسبنى أيضا أخلص الأصدقاء. فليس هناك طبيب فى نجد؛ ولكن جرت العادة أن يروا كل عام طبيبا أعجميا، وهو يجيء إلى حائل بين الحجاج الفرس. كانوا يستدعوننى للكشف على المرضى؛ ونظرا لأنهم لم يكونوا واثقين بى إلى حد بعيد، فقد بقيت بلا مرضى تقريبا. هذا هو حمود أرسل لى ولده الصغير فيصل، الذى كان يعانى من الحمى والدوسنتاريا. هذا الطفل الذى أحضروه إلى وكاد يشرف على الموت، تركته عندما غادرت حائل، وهو يتماثل للشفاء ويسترد صحته. استدعونى أيضا للكشف على زوجة حمود فى منزله. ووجدتها مثل سائر نساء الجزيرة العربية وهى ترتدى رداء من البفتة المصبوغة بصبغة النيلة، وكان وجهها مستورا بالحجاب؛ أعطيتها دواءً وتحسنت خلال أيام قلائل. وأشهر الأمراض (كما رأينا بالفعل) هى أمراض العيون، – والفقراء هنا هم الذين لايأكلون طعاما جيداً، ولذلك فهم الأكثر تعرضا للمرض – تلى أمراض العيون أمراض الأمعاء، والملاريا، والروماتزم؛ أما الرجال الذين يعانون من جهل شديد بالدين المكى، فيشتكون دوما من الضعف. وميكروب الكوليرا يشيع فى حائل، والمنطقة المجاورة لها؛ كشفت على عدد كبير من الناس الذين يعانون من الاكتئاب الشديد [حوالى ثلث سكان الجزيرة العربية] .

كما أحضروا أمامي حالات غريبة من البرص أو البهاق؛ إذ كانت البشرة ملونة ببقع بيضاء، تنتشر خلال ثلاثة أيام في كل من الصدر والعنق. كما كان السرطان يشيع بينهم، وكذلك الشلل الجزئي الذي يؤثر على الأطراف السفلى.

سألت عن تاريخ إنشاء القصر؟ – الذي له طابع نبيل بالرغم من أنه مبني من الطين. ويصل سمك الجدار الى مايقرب من ثمانية أقدام عند الأرض، وأكثر من أربعين قدما من حيث الارتفاع، ويبدو أنه مقام على مساحة كبيرة. وفي الميدان العام، قست مبنى القلعة، حوالي مائة وعشر خطوات، ولها برجان. ومدخل القصر، يقع تحت البرج في المنتصف، وهو يغلق أثناء الليل بباب مصنوع من الخشب الثقيل، توجد فيه فتحة صغيرة، يدخل منها الداخل الى القصر منحنيا – ويكون الدخول قبل حلول الظلام. والجدار هو وأساس ذلك المبنى الطيني الضخم موجود منذ زمن قديم، والذي وضع أساس هذا المبنى هو واحد من الشيوخ الكبار (الذين كانوا أصحاب أذهان طموحة) في حائل (*)، أي قبل عبد الله بن الرشيد. والمسحاب الموجود أمام القصر طوله خمسة وعشرين خطوة، والمخازن المبنية في مواجهة القلعة يصل عددها إلى تسع مخازن وكل مخزن له باب به قفل من الخشب، والباب يفتح على فناء صغير، وخلف الفناء توجد غرفة الضيافة وهي بلا باب، ومربعة الشكل ومظلمة، وطولها خمسة عشر قدما وعرضها اثنا عشر قدما. وإذا ما أراد أحد من الرُّبة الحصول على شيء من الوقود في أيام الشتاء الباردة، تعين عليه أن يطلب ذلك من الأمير أثناء جلوسه في المجلس العام. وطلال – هو الذي بنى هذه المخازن هي والمسجد الكبير؛ ووالده عبد الله هو الذي أنهى بناء القصر، قبل عام واحد من وفاته. والطين الذي تبنى منه المنازل في حائل يكون على شكل طبقات سميكة، تدفن فيها، كما سبق أن شاهدنا في مجوج، كتل مسطحة من الحجر، جرى تجفيفها تماما، من قبل في ضوء الشمس، وثقيلة جداً، وذات قوة كبيرة وتحمل كبير أيضا. نهايات الجدران في حائل،

(*) كان يحكم حائل قبل عبد الله بن الرشيد آل علي ، وهي الأسرة التي انتزع منها عبد الله بن الرشيد الحكم بدعم من السعوديين . (المراجع)

هى وأفاريز النوافذ يجرى تشطيبها، فى معظم الأحيان، من أعلى بأفريز بارز ، مما يجعله يشبه الكورنيش الغريب المنحوت فى كل من الواجهات الموجودة فى كل من بيترا أو الحجر.

شوارع مدينة حائل – وكنت قد وصلت بعد فترة طويلة أمضيتها فى الصحراء – فى رأيى، جيدة التنظيم؛ والمنازل هنا عبارة عن صفوف ومكونة من طابق واحد. والمنازل هنا لايبدو عليها التحلل وإنما تبدو جديدة، وتوحى بالثراء والوفرة: والقرية العاصمة تبدو مثل سكانها وكأنها ترتدى ثيابا جديدة. وحائل مقسمة إلى أحد عشر قسما إداريا، أما القسم الثانى عشر فهو السويفلى. كل المستوطنات المقامة فى المناطق البدوية الرعوية من الجزيرة العربية، بما فى ذلك أصغر الهجر، ومن حولها الصحراء الفاسدة، لها مسحة مميزة وطابع مميز غير الطابع الذى يطالع الرحالة الوافدين من الغرب، عندما يكونون فى سوريا. سكان قرى الجزيرة العربية – وهم من سلالة البدو – يشعرون بالسعادة (طالما أن السلام الربانى لا تعكره الأحزاب أو الطوائف المتصارعة) فى ظل حكم شيوخهم العادل والمنصف، هؤلاء السكان حملوا معهم الى تلك القرى الكثير من حرية الصحراء وعقلية الصحراء أيضا. وفى كل من حائل وتيماء تقع عين الغريب على بعض الأطر والبراويز الصغيرة المتقاربة مثبتة فى أعلى واجهات الدور، وهذه الأطر تأخذ شكل المثلثات قائمة الزاوية؛ قد يتصور الغريب هذه الأشكال وكأنها مصنوعة من الخشب فوق مداخل المنازل. هذه الأشكال والأطر ليست سوى مزاغل (مثل مزاغل قلاعنا فى العصور الوسيطة) تستعمل فى الدفاع عن باب العائلة.

وفيما يتعلق بإدارة المدينة، فمدينة حائل لا تفرض فيها أية ضرائب أيضًا للخفارة أو الحراسة: ومع ذلك فشوارع حائل نظيفة، ويجرى كسح المخلفات ودفنها فى حفر أو أماكن جانبية. ومياه الرى يجرى جلبها باستعمال الإبل، من الآبار العميقة، وبرغم عدم جودة ذلك الماء، فهو متوفر فى الأسبلة وفى القنوات؛ وربات البيوت يفدن على تلك البرك العامة ليملأن جرارهن وقراب الماء، كما يغسلن أشيائهن المنزلية. والكلاب لاتظهر أثناء النهار فى أية قرية من قرى نجد، ولكن بعض الكلاب الضالة التى تعيش خارج

الواحات، تتجول فى الشوارع أثناء الليل. ومن الحيوانات المنزلية (المستأنسة)، يربى الناس فى كل القرى تقريبا نوعا من البقر الحلوب، الذى يستعملونه فى جر المحاريث؛ والناس هنا يستعملون الحمير فى الركوب والحمل، ويستعملون القطاط فى مطاردة الفئران، كما يربون الدواجن أيضًا.

الحرفيون قلائل فى حائل وهم من طائفة الحدادين، أى من أولئك الذين يعملون فى المعادن والخشب، الذى يقوم البعض منهم بالحصول عليه من شجر الإثل ثم تحويله بعد ذلك الى أطباق صغيرة هشة. وسُرُج الإبل هنا مختلفة عن مثيلتها فى تيماء وفى المناطق الغربية، من ناحية أن ركائز السرج تكون مرتفعة إلى الأعلى. وتنتشر بين النساء هنا صناعة متواضعة هى الخياطة والتطريز، باستعمال الحرير والخيوط المعدنية، وهن تطرزن تلك العباءات (البشوت) التى يجرى جلبها (على شكل قطع) من كل من الجوف وبغداد. وهذه العباءات (البشوت) لاتصنع هنا فى حائل. وقد شاهدت فى السوق أنواعًا من الحرير الفاخر الملفوف فى أوراق الصحف، وكان أصحاب الدكاكين، فى كثير من الأحيان، يستوقفوننى ويضعون تلك اللفائف بين يدى كى أقرأ لهم المكتوب عليها. ولكن الكتابة كانت باللغة الانجليزية! وعندما قرأت اسم الصحيفة عرفت أنها "بومباى جازيت BOMBAY GAZETTE ". والحريم هنا يجدلن من سعف النخيل نوعا من الحصير الذى يستعملنه فى المنازل، شأنهن فى ذلك شأن الحريم فى الواحات الأخرى كلها. وهناك من بين الرجال من يمتهنون حرفة البناء وحرفة النجارة، ولكن بطريقة بدائية، إذ ليست لديهم الأدوات أو العدد اللازمة لذلك، وهناك بعض المليسين الذين يقومون بالأعمال الجصّية أو إن شئت فقل: الجبسية، وهم يجلبون ذلك الجبس من الجبال ويعثرون عليه على شكل مسحوق، ثم يخلطونه بالماء ويستعملونه فى حواف الوجارات وتبطين جدرانها: ويتحول الجبس بعد ذلك إلى قشرة صلبة بيضاء اللون، تلمع مثل الرخام، وتتحمل النار. والعمال الذين يجمعون الحطب والعلف، ويقطعون من أجل ذلك مسافات طويلة داخل الصحراء، هم أولئك الذين يطلق الناس عليهم هنا اسم القصمان Kusman ، وهم عمال كدّادين أجانب يفدون على حائل من القصيم؛ وأهل جبل شمر من البدو لايصلحون لمثل هذه الأعمال.

خرجت من حائل ذات يوم متجها صوب السويفلى. وخلف الوسيط مررت ببعض الحقول التى كان يعمل فيها بعض العمال، وقام واحد منهم بقذف النصرانى بالطوب، ولكن بقية العمال منعوه من ذلك؛ ذهبت إلى المنطقة الواقعة فيما بين السمرتين، كما ذهبت أيضًا إلى مجرى السيل الواسع الذى كانت تغطيه الأحجار. والتربة هنا من اللهم الجيد وذلك على العكس من تربة حائل الجرانيتية الحادة؛ والتمر هنا من النوع الجيد، وهو أفضل أنواع التمور فى هذا البلد ـ كانت البيوت الأولى التى عثرت عليها عبارة عن جدران مهدمة وبلا سقوف، وكانت المزارع المحيطة بتلك المنازل مهجورة؛ لم تكن جذوع النخل الواهنة تحمل سوى أعراف واهنة من جريد النخل المصاب بمرض الصدأ. وأنا لم أر شخصًا واحدًا فى تلك الحقول، التى كانت عامرة، فى يوم من الأيام، على جانبى مجرى السيل. والآفة التى دمرت قرى الجبل، فاجأت الجميع، بعد عام من الجفاف، عندما خاب محصول التمر وارتفعت أسعار القمح (وصلت إلى ريال واحد لكل ثلاثة صاعات) ثم ارتفعت بعد ذلك الى ضعفى هذا الثمن أو ثلاثة أضعافه. وما يدعو للغرابة هنا، بحكم اعتيادنا على علاج الأمور العامة، أن أحدًا من التجار، بما فى ذلك أيضًا تجار الماشية، ولا حتى الأمير نفسه، لم يكن متحمسًا أو مستعدًا لجلب الحبوب من مسافات بعيدة : (...)(*) وعندما فاجأهم مرض الوباء Waba مات خلال شهرين فى تلك القرية الصغيرة (السويفلى) مائتا شخص. وكانت البقية الباقية من البشر فى السويفلى ضعيفة وهزيلة، وإلى يومنا هذا؛ فقد ضاعت صحة الناس، إلى حد أن الناس كانوا يقولون عنهم "إنهم لا يقوون على حمل عباءاتهم". كان ذلك المرض اللعين يصيب الرجال أكثر من النساء والأطفال.

أخيرا وصلت إلى مكان وجدت فيه قلة قليلة من البشر الذين سافروا للخارج طلبا للفرجة؛ ألقيت عليهم تحية عابرة، وسألتهم "من لديه مقهى هنا، وأين سكان المكان؟" اكتشفوا أن ذلك الذى كان يسألهم كان شخصًا غريبًا وردوا عليه بتهكم شديد "إنهم موجودون فى المقبرة البعيدة!" وواصلت المسير فى اتجاه كانت تتناهى إلى أُذناى منه

(*) عبارة تحمل رأيًا خاطئًا عن الدين الإسلامى رأينا استبعادها . (المراجع)

أصوات السوانى (السواقى). عند السوانى وجدت امرأة (نظرًا لوفاة الرجال) تقود قطيع الإبل الذى يعمل فى جلب الماء من البئر. عمق البئر هنا يصل إلى تسع قامات؛ ومياه الآبار كلها هنا مالغة، أما الماء العذب الذى يصلح للشرب فيجرى جلبه من حائل نظير'النقود'. والماء المالغ فى التربة الجيدة يصلح تمامًا لرى وزراعة النخيل؛ ولكن النخيل عندما يزرع فى تربة مالحة أو مرة، كما هو الحال فى تربة خيبر، يحتاج إلى أن يروى بالماء العذب: والنخيل يجود فى وجود شىء من الملوحة فى التربة أو الماء. هذا الماء المالغ مضر بالصحة تمامًا إذا ماشربه الناس فى تلك المناخات، وعلى حد زعم الناس هنا، كان ذلك الماء سببًا من أسباب كثرة الوفيات هنا فى فترة انتشار وباء الطاعون. والناس هنا يقولون: إنه فى الزمن القديم، عندما كانت قرية السويفلى هى حائل، كانت الآبار فى هذه المنطقة عذبة الماء، إلى أن أدت الزراعة فوق تلك الآبار إلى تلف الماء. وهنا تقدم شخص واقتاد الغريب بطريقة.تنم عن الجود والكرم، إلى البيت المتبقى فى السويفلى، كي يشرب القهوة. دخلنا غرفة متواضعة مبنية من الطين، والغرفة طويلة، وغير مكنوسة، وفى الشمس شاهدنا مكانًا فيه جحفل من الذباب؛ كان ذلك المكان بمثابة القهوة. وكان الأشخاص الثلاثة أو الأربعة الشاحبون الواهنون، والضعاف، الذين تبعونا لشرب القهوة، هم أولئك الذين بقوا على قيد الحياة ويعيشون فى المنطقة المجاورة للسويفلى؛ ويبدو أن الكابوس لم يكن قد هجم عليهم بعد. استقبلوا الغريب استقبالاً طيبًا، وسرعان ما وضعوا أمامى صينية من التمر الممتاز. وأهل قرية السويفلى، فيما يتعلق بالكرم وخفة الروح، يقال إنهم يشبهون البدو أكثر من أهل حائل. وكان يكفيهم تمامًا أن يكون الغريب حكيمًا، ولم يكن من عادتهم إثارة الاعتراضات التافهة مع الضيف أو سؤاله عن دينه.

بينما كنت جالسًا معهم فى القهوة، دخل علينا شاب أصم وأبكم يحمل سيفه، وهو من أولئك الذين سبق لى التعرف عليهم فى حائل، وهو واحد من «رجاجيل» الأمير المسلحين: وبإشارات عنيفة وصياح عال أوضح لنا أنه جاء من حائل بحثًا عنى. هذا الشاب المسكين كان يعاملنى دومًا باحترام وأنا فى المدينة، ولم يكن يطق أن يسيئ إلىَّ أى أحد من الناس. بل إننى رأيته وهو يهدد ماجد بنظراته الغاضبة عندما كان فى

غرفتى، بل وصل إلى حد التلويح بعصاه لابن الأمير، الذى كان يرى، أنه أساء إلىَّ كثيرًا. بدأ ذلك الأبكم والأصم يحدث بعض الإشارات ـ فقد مرر أصبع السبابة على زوره ـ التى تفيد خوفه على وأنا خارج المدينة. وطوال طريق عودتنا إلى المدينة راح ذلك المسكين يلومنى، كما لوكان يقول: "لماذا غامرت بالذهاب إلى هذه المسافة البعيدة وحدك، وأنت يحدق بك خطر فقدان الطريق؟" قلت له بالإشارات:إننى ذهبت للكشف على بعض المرضى، الذين كانوا بحاجة إلى الدواء. وفى منطقة منخفضة أرانى، ونحن نسير فى الطريق، وهو يبتسم، بعضًا من أشجار النخيل وحقلاً كان مملوكًا له. بلغنى أن ذلك الأبكم الأصم كان غريبًا (وهذا هو حال الكثيرين من رجال الأمير) من العروض El-Aruth . وأنا عندما وصلت حائل فى المرة الأولى، وعندما أسروا لذلك الشاب بأنى لست من دينهم، سارع هو بدوره برأى ودى مفاده' أنى يجب أن أصلى مثل بقية الناس'. هذا المسكين الذى لايتكلم لم يكن ينطق سوى مقطع واحد، هو Ppahppah؛ وهذا المقطع هو على وجه التقريب الصوت الأول عند الأطفال وعند البكم، وهو عادة ما يبدأ بالحرف M أو الحرف B أو الحرف W، وتكاد تكون كلها صوت واحد عند هذين الصنفين من الناس. وهذا الحرف p الذى ينطق بملئ النفس، لايوجد فى أبجدية اللغة العربية، ولكن الأجانب الذين ينطقون كلمات تبدأ بذلك الحرف يتحتم عليهم نطق هذه الكلمات وكانها تبدأ بالحرف F أو بالحرف B . وهنا كان من السهولة بمكان فهم مايقصده ذلك الأبكم من قبل أهل حائل؛ لقد جعلوه يرد عليهم بتحريك شفتيه، كما لو كان يتكلم، وكان بوسع ذلك الأبكم، وبحكم المقارة الطويلة التى تلازم حياته، أن يفهم ما يدور فى أذهان أولئك الذين كانوا يتحدثون إليه: ولكن إذا ماتهكم عليه أحد أو سخر منه، بأن كرر المقطع Ppah ، وتمتم ودغدغ، فقد كان يغضب، ويظهر الغضب فى عينيه، ويستل سيفه مهددًا به حياواتهم، أو قد يستل سيفه من جرابه إلى منتصفه. ولعل معاناته الطويلة هى التى أوصلته إلى هذا القرار الذى يمكن أن يساعد فى تأمين وحماية أصم وأبكم آخر. قالوا لى: إن هذا الأصم كان يركب ذلوله مع العصابة، ويبلى بلاءً حسنًا ضمن الغزوات التى يقوم بها الأمير.

عندما عدت إلى المدينة التقيت ماجداً وجماعته وهم يحملون بنادقهم فى الحقول، وكان معهم عمه فهد. كان من عادة هؤلاء الناس الخروج يومياً، للتدريب على الرماية على ورقة بيضاء معلقة على جدار من جدران البستان وعلى بعد مائة وعشرين خطوة جلست مع فهد لنتفرج على ذلك التدريب؛ كانت كل طلقاتهم الصادرة عن تلك البنادق الفتيلية الطويلة تقع حول الورقة البيضاء وعلى بعدأصابع قليلة منها، وكان من النادر أن تقع طلقة داخل تلك الورقة كان غانم أفضل هؤلاء الرماة، لأنه من خلال النظر فى النظارة كان يوجه طلقته إلى منتصف الورقة البيضاء. هذا الإطلاق باستعمال الكبريت لا يساعد على ثبات الهدف. كانوا يطلقون بنادقهم باستعمال 'بارود إنجليزى' على شكل مسحوق، موضوع فى قنينة من القصدير أو الصفيح، كان مكتوبا عليها بالإنجليزية HALL, DARTFORD . هناك كثير جداً من البضائع التى يتجربها فى الخليج، فى أسواق حائل، والناس هنا لايهتمون أو يلقون بالاً للمكان الذى جاءت منه هذه البضائع، وهذا هو حال الناس فى بلادنا الذين لا يلقون بالاً لصناديق الشاى الصينى؛ هناك أشياء أوروبية كثيرة داخلة ضمن الاستعمالات الحياتية الضرورية عند هؤلاء الناس، ومنها الفئوس التى يستخدمها الناس فى الزراعة على سبيل المثال، ومنها أيضًا العتلات الحديدية، ومنها أيضًا الشماعات المصنوعة من الرصاص، ومنها أيضًا ألواح الحديد والصفيح؛ أما أقمشتهم فهى من البفتة التى تصنع فى كل من مانشستر وبومباى. والتعامل هنا بالنقد الأجنبى؛ الريالات الأسبانية، والدولار الماريا تريزى والكراون التركي المجيدى؛ والنقود الذهبية هى المعروفة هنا بين الناس. والناس هنا يطلقون الاسم 'دبلون' doubloon على قطعة النقود التى تساوى خمسة جنيهات تركية، وهم يطلقون أيضًا على الجنيه الإنجليزى اسم 'جنيًات' Ginniyat أوقد يقولون له'بنتو' bintu ، وهم أيضًا يطلقون اسم 'ليره' lira 'فرنساوى' Fransawy على قطعة النقود التى تساوى عشرين فرنكًا. أما بالنسبة للنقود المعدنية المصنوعة من الفضة فلديهم فى أسواق حائل قطعة معدنية قيمتها ست بنسات، كما أن لديهم أيضًا بعض العملات المعدنية الفارسية، ولديهم أيضًا عملة معدنية أخرى تشبه أختام العالم الإغريقى القديم . ومع حب التجديد الذى يعد أمراً طبيعياً عند الساميين، نجد أن أهل

حائل يستوردون مع بضاعتهم الأجنبية بعض الكلمات الخليجية، وبخاصة تلك الكلمات المأخوذة من اللغة الفارسية، التى منها على سبيل المثال، عندما يتحدثون عن الإبل، إذ يقولون'شيتر' shitter ليعبرون بها عن الثروة المكونة من الإبل، وذلك بدلاً من الكلمات العربية التى من قبيل (هجن،) ذلول، ركاب ، (حادوج)، مطية ، رحول ، حاشى'حرَّة.

دعانى ماجد، إذا مابقيت فى حائل 'إلى فصل الشتاء، إلى المشاركة فى المقناص (*) الذى يقومون به إلى جبل أجأ Ajja . ففى ذلك المقناص يخرج كل من صغار الإفرنج ورجال حائل، وكذلك الأمراء، إلى الجبل لاصطياد البدون، ويأخذون معهم الحمير التى تحمل لهم الماء المطلوب: وقد جرت العادة أن يمضوا أسبوعًا فى ذلك المقناص ويعتمدون فى عشائهم على مايصطادونه. وفى كثير من وديان جبل أجأ الصغيرة ينمو نوع من النخيل البرى الذى يشرب من ماء العيون، أو قد يضرب جذوره فى أرض السيل. وملاك هذا النوع من النخيل هم من أسر البدو التى تجىء إلى تلك الوديان الصغيرة فى موسم حصاد التمر فقط: وثمار هذا النخيل أصغر من ثمار النخيل الذى يزرعه الناس. وتنمو فى جبل أجأ، شجرة يطلقون عليها اسم العرار el-arar ، التى يسيل منها نوع من المستكة يشبه الصَّمغ' "هذه الشجرة تشبه شجرة الإثل." وجبل أجأ أكبر وأطول بحوالى عشرات الأميال، عن شقيقه جبل سلمى Selma .(**)

كنت أرى حمود يوميا؛ وذهبت لتناول الغداء معه من جديد، وبينما كنا نجلس فى فترة المساء، سألنى حمود، "أليس فى الإنجيل شيئا مكتوبا عن محمد (ﷺ)؟" - "لا، ليس فى الإنجيل أى شىء عنه، وأنا أعرف الإنجيل كلمة كلمة."- "لكن أليس مذكورا فى الإنجيل أن نبيا اسمه 'حامد' Hamed ، سيجىء بعد عيسى؛ – وأن هذا 'الحامد' هو محمد (ﷺ)؟" ورددت عليه بإجابة قصيرة من جديد: "لا، ليس فى الإنجيل شىء عن محمد (ﷺ) ". ودهش حمود، ولما كان يصدقنى ويثق بى، فقد أقنعته إنسانيته أننى لم أقصد الإساءة

(*) المقناص : مكان الصيد أو القنص . (المراجع)

(**) يشكل هذان الجبلان – أجأ وسلمى – جبل شمر ، وهو مركز حكم آل رشيد . (المراجع)

إلى أحد بكلامي وأن ماقلته لم يكن مقصودا به الإساءة إلى الدين. وأردفت قائلاً: "لو أن شيئا من هذا ورد فى الإنجيل، لاعتنقت الإسلام ودخلت فيه؛ هل تقرأ هذا الكلام فى القرآن!" لم يرد على حمود، وجلس متجهما يتأمل. لقد كان ذلك الذى يعنونه بتلك النبوءة عن حامد أو محمد يشكل لى لغزا (فهذان الاسمان شىء واحد) فى الإنجيل المسيحى. - ونحن نقرأ فى الآية السادسة من السورة رقم ٦١ من القرآن، " قال عيسى بن مريم، يابنى إسرئيل ، إنى رسول الله ، لتأكيد التوراة (كتاب سيدنا موسى المقدس) وأنبؤكم بمجىء نبى، - سيكون اسمه أحمد" (*) (العظيم). هذا الأحمد أو هذا العظيم المبارك، ورد اسمه باليونانية القديمة فى الكتاب المقدس الجديد أو الهيلينى على أنه' شديد الوضوح'. ومن هنا فإن علماء الدين غير المتحضرين يقولون : إن النصارى الحاقدين حرفوا الكلمة اليونانية التى معناها 'المريح' [وهذه الكلمة وردت أربع مرات فى الإصحاح الأخير للمسيح، من الآية الرابعة عشرة إلى الآية السادسة عشرة من سورة القديس جون] .

كان حمود يسعد عندما كان يسألنى ويتحاور معى عن ديننا؛ وكان يبتسم بشىء من الإعجاب الدينى عندما كان يسمع النصرانى الغريب وهو يردد بعده بعضا من صلواتهم الشرعية، ويقول : إنه 'يفعل ذلك من أجل الخير'! ومن هذه الصلوات الفاتحة، التى يستفتحون بها صلاتهم، التى لها وقع مدهش وجميل ووقور على لسان القراء النجديين: ومعنى الفاتحة هو على النحو التالى:" بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد الله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين. اهدنا الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين." كان حمود ، حتى فى دينه الرسمى ، صاحب سماحة متحضرة: كان الدين عند حمود هو دين الحكام. وفى أرض النخيل الموجودة خارج قهوة حمود، كان لديه (وبطريقتهم الخاصة) مكانا مرتفعا للصلاة؛ هذا المكان كان عبارة عن حلبة مربعة الشكل من الطين، ولها

(*) جاء فى الآية السادسة من سورة الصف قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ . (المراجع)

كورنيش منخفض، ومفروشة بالحصى النظيف، وتصل من الكبر حداً تتمكن معه جماعة شرب (القهوة) من الركوع والسجود على الأرض. كان حمود يصلى فى ذلك المكان أثناء النهار،إماما للناس وأفراد أسرته. وذات يوم وبينما كانوا يؤدون الصلاة، شدنى على، الذى كان من أتباع ماجد، من عباءتى فجأة ليجذبنى إلى الانضام إليهم فى الصلاة. ولكن حمود واصل صلاته مبتسما لهذا وذاك، وبإشارة منع توجيه الإساءة إلى الغريب. هذا المصلّى تجده فى أحواش منازل حائل، وفى بساتين حائل؛ وربما كان ذلك أسلوب من أساليب الدين الصحيح فى نجد، وقد شاهدنا أشياء أخرى من قبيل ذلك المصلّى فى الصحراء الواسعة، وكانت محاطة بالأحجار. وكل مصلّى كان مفروشا بالحصى، ويستقبل القبلة.

انقضى أسبوع عاد بعده الأمير محمد من الصحراء؛ وفى عصر اليوم التالى استدعانى الأمير محمد إلى مجلسه. وقد وجدنى مراسله نائما فى المخزن؛ منهكا ومحطما طوال ذلك العام من الجوع والإرهاق، وكنت نائما نوما عميقا. أيقظنى مراسل الأمير بصورة مباغتة وبشىء من العنف الذى ينطوى عليه أسلوبهم: " انهض وهيا تعال معى؛ الأمير يطلبك!" وعندما توانيت كى آخذ الغترة والعباءة (البشت)، أخذها علّى، ذلك العبد، عندما دخلنا إلى المجلس، إذ قال للأمير 'لم يكن خليل يرغب فى المجىء معى!'

وبعد أن توجه محمد من المجلس هو و «الرجاجيل» إلى قهوة عبيد؛ جلس الأمير فى مكان حمود، وجلس حمود فى المكان الذى كان يجلس فيه سليمان كل يوم. كان ذلك السيف الخفيف، الذى له قبضة، أو مقبض مصنوع من الذهب، والذى كان محمد يحمله فى يده بصورة دائمة، مركونا إلى الجدار بالقرب من محمد؛ ويقال إن حد ذلك السيف ماضٍ تماما. كان يجلس جلسة أهل الجزيرة العربية فى ثوبه الفضفاض المصنوع من القطن، ويرتدى عباءته وغترته وساقاه ورجلاه عاريان، فى حين كان حذاؤه الذى خلعه من قدميه، موضوعا على السجادة من أمامه . حييت الأمير قائلا: السلام عليك . - لا إجابة: ثم حييت بعد ذلك كلا من حمود وسليمان، اللذين كان

يربطنى بهما فى ذلك الوقت، تعارف ودى، حييتهما بنفس التحية، ورحبا بى قائلين: وعليكم السلام، وابتسما ابتسامة توحى بالارتياح. واقتادنى أحد الحاضرين إلى مكان أجلس فيه أمام الأمير الذى تساءل على الفور "من أين؟" – "من مخزنى". – 'ماالذى وجدته وكنت أفعله هناك طول النهار، ها! وما الذى رأيته طوال وجودى فى حائل، وهل كان ذلك جيداً؟' وعندما قال الأمير: "ياخليل!" كان مفروضا أن أرد قائلا: عوناك، أولبيك، أو طويل العمر. ولكن إحساسى بأنى أوروبى وسط هؤلاء الآسيويين أصحاب الألسنة الطلقة، ولما كنت متعبا تماما، فقد آثرت الصمت. وعليه، فإن الأمير الذى لم يرد على تحيتى، تحول فجأة ليسأل كلا من حمود وسليمان: مايرد؟ بمعنى 'إنه لا يرد على كلام من يتحدث إليه؟' وهنا رد حمود عنى رداً طيبا، 'هو لا يستطيع الإفصاح، ربما كان خليل متعبا.' ورددت بعد برهة الانتظار وقلت: 'لقد وصلت منذ فترة وجيزة إلى هذا المكان، ولكنه أغروطى، أى أنه على مايرام." وهنا فتح الأمير عينيه الأنثويتين الواسعتين العربيتين وحملق فىَّ كما لو كان يتعجب من كلامى البسيط الخالى من التملق؛ ثم تكلم الأمير فجأة، وبشىء من التوكيد، وعلى مسمع ومرأى من الحاضرين؛" إى، أنا أرى ذلك أيضا، المكان على مايرام تماما! – وما رأيك يا خليل، أليس الهواء عليلا هنا ؟" – "أعتقد ذلك ولكن الذباب كثير جداً. – "هم، الذباب كثير جداً. وهل قمت بالحج إلى مدينة بيت المقدس؟" –

"مرتان أو ثلاث مرات، كما ذهبت أيضا إلى جبل الطور، حيث يوجد جبل سيدنا موسى." – قال البعض منهم للأمير، " لقد سمعنا أن رهبان النصارى يعيشون هناك، وأن منزلهم على شكل قلعة وسط الخلاء (الصحراء)، والدخول الى ذلك المنزل عن طريق نافذة موجودة فى الحائط؛ ومن يدخل ذلك المسكن يتعين رفعه وسحبه بعجلة مركب عليها حبال. "سأل الأمير: "هل لديهم ثروات؟" – " لديهم دخل من الصدقات." ويقف الأمير ويرتدى حذاءه، ويقف معه بقيه الرجال، – وأشار إليهم الأمير، بالبقاء جالسين فى أماكنهم ، ثم اتجه بعد ذلك إلى المزرعة. وطوال فترة غياب الأمير خيم الصمت على كل الحاضرين؛ وعندما عاد الأمير جلس فى مكانه. وهنا سألنى الأمير الذى استطاع أن يقرأ، من خلال كلامى، ذلك الذى كان يدور بخلدى، " هل كان التمر جيدا أم سيئا؟"

وأجبته قائلا: "بطَّال، بطَّال، أى سيئ تماما." – "هل الخبز طيب ؟ وماطعم الخبز فى فمك؟" كرر الأمير علىَّ بنفسه ذلك الاسم الذى سبق أن سمعه باللغة التركية، وعرفه باللغه الفارسية؛ ومحمد، بحكم أنه كان مرشدا سابقا للحج ، يستطيع التحدث بالفارسية.

تكلم الأمير معى بإشارات توحى بقليل من القلق الذى يعترى العرب عندما لا يكونون مسرورين، وعندما يكونون هم أصحاب الأدوار الرئيسية، – فهذا تقطيب مفاجئ للجبين، وهذا رأس يشرئب من فوق العنق ، وحركة الرأس هذه تشبه حركات سكان نجد الذين يشبهون الطيور، وهم يتوقعون من المستمع رداً على تلك الحركات. كان لدى الأمير فكرة طيبة عنى، ولكن مجموعة الحاقدين المحيطة به، وهم من الشبان المتزمتين، كانوا يقللون دوما من شأن النصرانى. وبحكم أن محمداً كان أميرا، فقد كان أفضل منهم، إضافة إلى أن فهمه كان أرقى من فهمهم. وأنا عندما كنت أجيب على أى سؤال من أسئلة الأمير مؤكدا إجابتى بطريقة البدو، بأن أقسم بحياته، كأن أقول حياتك على سبيل المثال ، كان الأمير عندئذ يقول لحمود: " أترى مايحدث؟ لقد تعلم خليل التحدث (بالعربية) بين العنوز، ها هو يقول: أغروطى." – " وما الذى يمكن أن أقول ياسيادة المحافظ (*) ؟ أنا أتكلم بنفس الطريقة التى سمعتها من البدو." لم يكن الأمير يهتم بمسألة النحو، ولكنه كان يستمع إلى وأنا أناديه بلقبه نداء صحيحا، عندما كنت أناديه بلقب 'قيِّم' (التى تعنى 'حامى' أو 'مراقب' فى تاريخنا القديم)، عندئذ كان الأمير يقول:"حسن، أفضل لك أن تحلف بحياة الله!" (ونظرا لارتباط آل حائل بالوهابيين، فإن القسم بغير الله يعد من الشرك ومن الوثنية.) وهنا كنت أجيب بإجابة غير التى يتوقعها الأمير." – هذا هو مايقوله البدو، فى الأمور الكبيرة، ولكنهم يقولون بحياتك فى الأمور الصغيرة." وعندما لم يستطع الأمير أن يحصل منى على كلام ناعم مثل كلام الحاشية، سارع كل من حمود وسليمان، بكلامهم

(*) المحافظ : لقب المحافظ هو اللقب الذى منحه السعوديون لحكام جبل شمر من آل الرشيد غير أنهم صاروا يطلقون على أنفسهم بعد ذلك لقب أمير ، وكان هذا مرتبط بتصاعد نفوذهم وضعف السلطة السعودية . (المراجع)

الطيب لإنهاء الأمر ويعفياني من الموقف الذى كنت فيه. "قالا: من المؤكد أن خليلا ليس على مايرام اليوم، إيه، يالهذا المسكين! يبدو أنه مريض حقا!" – كنت أمضى القسم الأكبر من ساعات النهار، ممددا على أرضية المخزن غير النظيفة، فى الوقت الذى كان الحاسدون يقولون للأمير إننى أكتب عن بلده؛ ولذلك كان يفد على فى كثير من الأحيان، جواسيس من القلعة، وكانوا يفتحون الباب على فجأة ليروا ذلك الذى كان يشغل النصرانى. – أمير: "وماهى أدويتك؟ هل لديك ترياق؟ – [كان آباؤنا يطلقون الاسم نفسه على الدواء المضاد للسم الزعاف] . وفى ضعفى هنا كنت أكاد أروح فى النوم، وعندما بدأ انتباهى يترنح لم يكن أمامى من شىء سوى أن أقول، – " وماهو الترياق؟ – أقسم بالله، بالرغم من أنى ليس عندى هذا الشىء، إنه لا يوجد شىء بهذا الاسم." سليمان: "خليل لديه الكثير من الملح الإنجليزى – أليس لديك هذا الملح، ياخليل؟ " ومع هذه الهجمة الكئيبة، ونظرا لأن الأمير كان منشغل البال بالسم، لم أتمالك نفسى، وابتسمت، – وهذا جرم فى حضرة الحكام. وهنا بدأ سليمان يناديني ويطلب إلى أن أحكى لهم عن القارة الجديدة، كان يسألنى عما إذا كان لدينا تمور فى تلك القارة، ولكن "طويل العمر" وقف فجأة وبكبرياء، – ووقفت البقية من بعده، ورحل الجميع.

آن الأوان أن أقول شيئا عن الأسرة الأميرية وعن ولاية جبل شمر: وأبدا بالمآسى التى حدثت فى بيت بن الرشيد. قيل إن طلال (*) بعد أن عاد من الرياض (الذى اعتاد الذهاب إليها كل عام، باعتباره رهينة عند الوهابى، بهدية من الخيول) مرض بسبب السم، الذى وضع له فى فنجان القهوة فى شرقى نجد. وتدهورت صحته، وأصيب الأمير بشىء من الجنون المحزن. وهنا أرسل طلال إلى بغداد فى طلب حكيم فارسى. وقام الحكيم برحلة طويلة إلى حائل، وبعد أن زار الأمير وكشف عليه، أصدر حكمه متهورا وبلا تأنى." – هذا المرض ليس مرض موت، وإنما هو مرض طويل المدى سينهى على فهمك وإدراكك." – ورد طلال على الحكيم قائلا: آه؛ وهل سأكون أحمقا؟ – والله مجنون! وأنا الحاكم؟" ونظرا لأن قلبه الكبير لم يطق العيش والكل يترحم عليه،

(*) تولى طلال بن عبد الله بن الرشيد الإمارة فى عام ١٨٤٧ حتى انتحاره فى عام ١٨٦٧ . (المراجع)

وعندما حبس نفسه ذات يوم فى غرفته، فقد صوب مسدساته إلى صدره، وفتح النار على نفسه لينهى حياته بيديه. وعليه أصبح شقيقه متعب أميرا على حائل، باعتباره الأكبر فى الأسرة الاميرية، ووريثا لوالده عبد الله ، ومن الناحية (القانونية) جرى تخطى أولاد طلال، الذين كان بندر أكبرهم سنا، والذى أصبح أميرا فيما بعد عن طريق القتل والاغتيال؛ كان بندر فى ذلك الوقت يبلغ من العمر سبعة عشر عاما. وسبق أن سمعت مراراً الناس وهم يطرون متعبا ويمدحونه على اعتداله ولكنه لم يكن واسع الأفق؛ كان متعب أميرا بحق وله شعبية أيضا؛ وكان الناس يعدونه أكثر أفراد بيت الرشيد سياسة وحنكة، شأنه فى ذلك شأن شيخ الأعراب الكبير، وحاكما حظيظا. لم يحكم متعب عامين كاملين، (*) – فقد كان يكره دوما بندر، ابن أخيه، ذلك الشاب ناشف الدماغ. وقد تآمر بندر هو وأخوه بدر، على عمهما، وقرر هذان الشابان الجاحدان قتل عمهما.

كان هذان الشابان يعرفان أن عمهما يحمل على ذراعه " تميمة تضمن له حياته من الموت رميا بالرصاص"، ومن هنا حاول هذان المغامران العثور على وسيلة تتيح لهما استعمال مقذوف من الفضة. – كان متعب جالسا فى تلك الساعة المحتومة مع أصدقائه وحرسه من أمامه فى مجلس العصر، الذى كان ينعقد، على حد قولهم ، فى الطرف البعيد من المسحاب، على بعد خمسة وعشرين خطوة من مواجهة القصر، – وكان بندر هو وبدر قد تسللا خلسة من الداخل إلى أعلى مكان من القلعة، حيث توجد شرفة ودروة. وهنا صوَّب بندر بندقيته الفتيلية من خلال مصيدة، أو إن شئت فقل: مزغل صغير فى الجدار، وبدأ هو بإطلاق النار؛ والمرجح أن يد بندر اهتزت عندما هاج الجميع على إثر سماع الطلقة، فقد انحرفت رشة بندر قليلا وأطاحت بشال عمامة شيخ بدوى كبير هو ابن شعلان، شيخ قبيلة الرولة العنزية القوية وغير الصديقة، والتى تعيش فى الشمال؛ وكان ذلك الشيخ قد وصل فى ذلك اليوم إلى حائل قادما من ديرته، لزيارة

(*) حكم متعب بن عبد الله بن الرشيد جبل شمر (١٨٦٧ – ١٨٧١) قرابة أربع سنوات وليس كما ذكر دوتى عامين . (المراجع)

الأمير بن الرشيد. وعندما سمع ابن شعلان الطلقة وهى تدوى بجواره، أتريد قتلى!" وهنا رد الأمير، الذى بقى جالسا فى مكانه، ولم يحاول إنقاذ نفسه بالفرار، وتعبيرات وجهه تدل على الثبات،" لاتخف؛ سوف ترى أن الطلقة كانت موجهة إلى أنا." وأصابت الطلقة الثانية الأمير فى صدره، وكان بدر هو الذى أطلق تلك الطلقة.

وعندما تولى بندر عرش الإمارة، لم يكمل عاما فى ذلك المنصب، كما أنه لم يزدهر حاله: ففى عهدة حدث ذلك الطاعون الذى قضى على الأخضر واليابس فى البلاد. ومحمد، الذى هو أمير حائل حاليا، كان قد هرب، بعد سقوط أخيه متعب ،إلى الرياض حيث أمضى فيها فترة قصيرة. كان الأمير الوهابى، عبد الله بن سعود، هو بمثابة الوسيط فى الصلح بينهما، وتعهد بندر، على الورق، بالسلام، ودعى عمه إلى العودة إلى حائل. وحضر محمد إلى حائل، وشغل منصبه القديم، وأصبح محافظا مرة ثانية لقافلة الحج البغدادية. كان محمد يرافق القافلة العائدة من مكة إلى بلاد الرافدين، حيث كان سيأخذ معه مئونة عام كامل من التمن (نوع من الأرز) للمضيف (وأن جاز لنا تصديق مايقولون: فإن تلك المؤنة كانت تقدر بحمولة ألف جمل، أى حوالى ١٥٠ طنا من الأرز!) وعندما وجد محمد أن أعراب ظفير كانوا هم وحدهم فى المشهد، استأجر منهم إبلا، ووعدهم بضمان سلامتهم أثناء ذهابهم ومجيئهم خلال ممتلكات ابن الرشيد؛ والسبب فى ذلك أن أعراب ظفير كانوا بدواً من خارج المنطقة، ولم يكونوا على وفاق مع جبل شمر. هذه الرحلة تستغرق مسير أسبوعين من تلك الإبل المحملة، وعندما وصل محمد إلى حائل، أرسل رسولا قبله لتحية الأمير قائلا: " محمد يحييك، وأحضر معه مئونتك من الأرز للمضيف." – ها! هل جاء محمد ؟ ورد عليه بندر، – سوف لايدخل حائل." وهنا ركب كل من بندر وبدر وحمود ومضوا قدما لاستقبال محمد ولقائه؛ وبناء على أوامر من بندر أغلقت من خلفهم بوابات المدينة.

كان محمد جالسا فوق ذلوله، عندما التقوه، لأنه كان قادما من الشمال، وهنا قال: تعلم أنهم جوم (أعداء) لنا!" محمد :" والله، يا المحافظ، لقد أحضرتهم بوجهى ، أى على عهدتى! (وبأسلوب عرب الجزيرة العربية راح يملس بيده على لحيته) –

والسبب فى ذلك أنى لم أجد أحدًا غيرهم يمكن أن يحمل الأرز المطلوب." وبينما كان بندر ينحنى ناحية محمد ، أعطاه حمود، الذى كان على عهد واتفاق مع محمد إشارة إلى أن حياته فى خطر، – وقيل أن هذه الإشارة كانت بوضع السبابة على البلعوم. وهنا تكلم محمد مع واحد من أهل المدينة، كان راكبا حصانا،" يا أنت! أعطنى فرسك برهة من الوقت،" متظاهرا كما لو كان سيذهب للإشراف على دخول القافلة وإنزال حمولتها. وبعد أن استقر محمد على ظهر الفرس، اقترب من الأمير الشاب، وأمسك بندر من " خصل شعره" ، وتناول خنجره المعقوف بيده الأخرى، وهم يعلقون هذا الخنجر فى أحزمتهم أثناء الرحلات الطويلة. – " "لا عميمى، لا عميمى، بمعنى لا تفعلها ياعمّاه !" قال بندر هذه العبارة : وهو يعانى رعب الموت وسكراته. وهنا رد عليه محمد بصوت حاد رهيب قائلا: " لماذا قتلت عمك؟ وهو فى بطنك، بمعنى (لقد التهمته، كرامة، وحياة، وكل شىء)،" وبضربة قاتل غرس خنجره فى أحشاء ابن أخيه! – ولم يكن هناك من خيار آخر أمام محمد، بعد أن تلقى الإشارة، إذ كان لابد من قتل الولد الأكبر من أبناء أخيه، وإلا ضاعت حياته هو؛ ولو قدر له أن يهرب، فكيف له بالخلاص من الشباب قتلة الآباء؟ كانت ناقته مرهقة كما كان هو مرهقا أيضا؛ وكان لابد أن يعفو عن الظفير، الذين خانوا الوعد الذى أعطاهم إياه. – والالتهام هو بمثابة الطموح العاجز فى الحكم، وبخاصة عند أولئك العرب الذين يولدون بالقرب من السلالة الأميرية. كان محمد رجلا مخلصا فى عهد متعب؛ وبعد قتل أخيه، لم يكن أمامه سوى الثأر؟ وبعدها يصبح التاج ملكا له.

اغتيال بندر، حتم استئصال ذريته وأقاربه، أولئك الذين يمكن أن يكونوا خطرا على محمد. ومن باب سوء الحظ والمصير أن قام محمد، بنفسه، بارتكاب هذه الجرائم. – وتلك كانت مأسى بيت آل – الرشيد! بدأت تلك المأسى اعتبارا من طلال، ذلك القاتل لنفسه؛ وخطأ فرد من الأفراد يمتد إلى من حوله، وهذه هى طبيعة الشر، مثله كمثل الحجر الذى نلقيه فى الماء، عندما يثير الاضطراب فى البركة كلها. وهناك من يقول: إن حمود هو الذى جعل وفاة بندر أمرا ميسورا بطلقة من واحد من المسدسات، – قد يفعل ذلك، لأن مصيره كان مرتبطا بحياة محمد: ولكن الأشخاص الثقات فى حائل

أكدوا لى أن حمود لم يكن له ذنب أو جريرة فى ذلك. - وأدار حمود رأس حصانه، وراح يجرى صوب المدينة وأمر' بالإبقاء على بوابات المدينة مغلقة'، ومنع خروج أو دخول أى إنسان مهما كانت الأسباب؛ 'ثم عاد حمود إلى المسحاب وصاح قائلا: " اسمعوا، جميعا! لقد قتل رشيدى رشيديا، - وليس لأحد منكم حق الكلام فى ذلك ! وأرجو أن لا يرفع أحد منكم صوته بكلمة واحدة، أو يتحرك حركة واحدة، وإلا فسوف أقطع رأسه، قسما بالله، بهذا السيف."

خيم صمت طويل على حائل ، وانسحب الناس من الشوارع إلى داخل منازلهم! أصاب الذهول البدو من أهل المدينة وعندما وجد سكان الخلاء، الذين لا يوصد الناس عليهم أبوابا، البوابات مغلقة قفزوا من فوقها.

وبدأت مذبحة مروعة فى القصر، إذ أصدر محمد أمرا بقتل كل أولاد طلال، كما أمر أيضا بقتل أبناء شقيقته الأربعة، وشقيقته هذه هى أرملة رجل يدعى الجبَّار وهو من بيت على (هذا يعنى أنه قبل أن يتولى عبد الله الحكم، دار صراع داخل بيت الرشيد على تولى مشيخه حائل، - وكان من بين القتلى والدة محمد). تحقق أمر عمهم الدموى، وجرى حمل تلك الجثث الدافئة التى كانت تنزف دما، بعد أن انتزعت منها الحياة، إلى خارج القصر لدفنها فى المقابر؛ ومات مع هؤلاء الناس العبيد الذين كانوا أندادا لهم فى العمر، والذين تربوا أيضا داخل أسر أولئك الآباء، - إخوانهم من العبيد، الذين يمكن أن يكونوا، فى أى ظرف من الظروف، أدوات للثأر، عن طيب خاطر، لموت هؤلاء الآباء.

ارتعدت حائل كلها إلى مساء ذلك اليوم، وتواصل ذلك الارتعاد طوال الليل وحتى طلوع الصبح، حيث وقف محمد فى المسحاب، وقد شهر سيفه فى يده، وراح ينادى أولئك الذين كانوا يقفون متحفزين فوق ضفاف من الطين، - كانت أغلبيتهم من البدو - " يا مسلمين! لم أفعل ذلك ، إلا نتيجة خوفى من هذا! (وهنا راح يربت براحة يده اليسرى على عنقه)، ولما كانوا على وشك أن يقتلونى، أنا سبقتهم ، بمعنى حلت بينهم وبين مايريدون." وأردف قائلا بعد ذلك: - " وهؤلاء، الذين قتلوا شقيقى متعب، هل

تظنون أنهم كانوا سيبقون على حياتى؟" " وعندما سمعنا صوته بقينا (وهذه رواية شاهد عيان من المطير) فى أماكننا مندهشين إذ كان كل واحد منا يرى الموت الأسود أمام عينيه". – وبعد ذلك جلس محمد على عرش البلاد باعتباره محافظا. وبالتدريج راح الناس يتوافدون على المسحاب وهم يحنون الرءوس لسيدهم الجديد، ويقرِّحونه بالسلطة التى استولى عليها. وبعد إبعاد بندر، استأنف محمد الحكم؛ – ولم يحدث أن جاءت، على حد قول الناس هنا، – حكومة أكفأ من تلك الحكومة.

– كان بدر قد انسحب بعيدا على فرسه إلى الصحراء الجرداء ليعيش فيها حياة حلوة ـ مرة: هرب بدر فى فترة العصر. وفى الصباح، وعندما كاد أن يغمى عليه من الجوع والعطش، ومن الضغط والإرهاق الذهنى، فتح النار على فرسه فأرداها قتيلة ثم تسلق بعد ذلك جبلا من الجبال. – ومن هذا المكان راح بدر ينظر من بعد إلى مخاوف الدنيا وآلامها ، التى أصبحت تشكل له مكانا شاسعا للموت وفراقا للحياة! كان محمد قد أرسل الخيالة تطوف الخلاء بحثا عن بدر وإحضاره؛ وعندما عثروا على بدر بين الصخور لم يلقوا بالاً لتوسلاته الحزينة: وقتلوه فى مكانه قتلا وبيلا، وحمَّلوا جثته فى اليوم نفسه وعادوا بها إلى حائل فى اليوم نفسه أيضا. قال كبيرهم، وهو يدخل على محمد، منتفخ الأوداج: "قسما بالله، ياسيادة المحافظ، أنا أحمل لك أخبارا طيبة! قد ينشرح صدرك أن تأتى معى إلى مكان سأريك فيه جثة بدر بعد أن مات؛ هذه اليد هى التى فعلت ذلك، وسيكون ذلك هو مصير كل أعداء الأمير!" ولكن محمداً نظر إلى ذلك الرجل نظرة غضب واستياء، وصاح قائلا: "من الذى أمرك بقتله، يا ابن الكلب؟ متى تم ذلك، أيها اللعين؟ الله يلعن أباك، إخص ! هل قتلت بدراً؟" وهنا استل محمد سيفه، ووجه إلى ذلك الرجل ضربة جانبية عنيفة على عظمة عنقه فأطاح برأسه تماما. ولجأ محمد إلى سياسة الطغاة القديمة، التى كانوا يحاولون بها إضفاء طابع الأمانة على أعمالهم أمام أعين عامة الناس. " تساءلت عن السبب الذى جعل بدرا، الذى كان ولابد عارفا بالصحراء المحيطة به، بحكم أن أبناء الأسرة الأميرية كانوا يشاركون فى الغزو، تساءلت، كيف لم يستطع ذلك الرجل الهرب بصورة أو بأخرى؟ ألم يكن بوسع الفرس التى كان يركبها، أن تحمله مسافة مائة ميل؟ – أى رجل يكون شجاعا، وفى مثل هذه

الورطة، كان بوسعه أن يتحمل الكثير من أجل أن يخرج خارج ممتلكات ابن الرشيد، ليدخل بعد ذلك، إلى حدود أو إلى بلاد القصيم الحرة." أجابوني،" لقد أرتبك ذلك الشاب أمام تلك الكارثة العظمى، إضافة إلى أنه كان جهيلا، وفى حالة نفسية سيئة، ولم يكن هناك من يمد له يد الخلاص والمساعدة."

تحالف حمود ومحمد سويا إذ كان الخطر قائما بينهما من ناحية وبين أبناء طلال من الناحية الأخرى؛ وما لم يكونا قد استبقا كلا من بندر وبدر، لكانا قد دفعا حياتيهما ثمنا لذلك. كانت تلك المذابح على النقيض تماما من طبيعة حمود ذلك الرجل القوى. حمود، ذلك الرجل، الذى جعل وجهه السمح، الناس وإخوانه المواطنين يصفونه "بالعزيز" بمعنى "المحبوب"، وبالرغم من كل ذلك كان حمود، عندما يخرج عن طور الود والصداقة، ينقلب إلى رجل شديد الغضب، صعب المراس، سليط اللسان وجبار مثل والده تماما؛ والذى لا شك فيه أن حمود يمكن أن يتحول إلى نمرود قوى القبضة فى لحظات الخطر. يضاف إلى ذلك، أن هذا هو الأسلوب الذى يتعامل به العرب مع بعضهم البعض؛ وليس هناك من هم أكثر لوما أو وباءًا من العرب عندما يكونون أعداءً. وخارج نطاق الكرم، نجد أن حمود، مثل سائر العرب جميعا، صاحب مزاج مبتئس إلى حد ما، ولقد سمعت ذلك مرارا فى حائل،" حمود (...)" Khara . هذا يعنى أن حمودًا كان أسوأ من غيره. هذه هى بعض المفردات غير النظيفة فى الحجاز، والتى تنبعث من أوكار الحياة غير المتحضرة، الذين يحكمهم حكام مجرمون، فى الأرض المقدسة؛ ولا ينتمون إلى المدارس طيبة الكلام، وجيدة السلوك والأخلاق، وهذه المدارس تتمثل هنا فى القهوة التى توجد فى واحات الجزيرة العربية وفى المجالس التى تنتشر فى الخلاء، أو إن شئت فقل: الصحراء. – كانت هناك ضرورة مخيفة تقع على عاتق محمد: هى أن محمدًا كان لا يمكن أن يصل إلى عرش حائل إلا من خلال هذا القتل والاغتيال الذى أحدثه بين أهله وناسه. ومحمد عقيم، وهو عقير، أى لا ينجب؛ أما حمود العبيد فقد كان له أبناء كثيرون.

بعد أن شتت محمد الأخطار المحدقة به، كرس نفسه للعمل الحكومى، حتى يتسنى له اكتساب الرأى العام؛ وفيما يتعلق بسلوكياته الشعبية، بدأ يظهر أمام الناس

وكأنه أسلس تصرفاً من سابقه طلال. ومحمد لم يلجأ مطلقا إلى استخدام سلطته فى الأماكن التى لا تعارضه أو تقف فى طريقه، كما كان أيضا معتدلا تماما فى شئون البلاد الداخلية، ولكنه كان بالغ القسوة فى استئصال أو بتر الأجزاء المضطربة من ممتلكاته. وعندما عادت إليه الجوف مرة ثانية بفضل التمرد الذى قام به المغاربة الذين كانوا ضمن الحامية، يقال أن محمدا، أمر بقطع الأيادى اليمنى لكثير من أولئك الذين اعتنقوا عقيدة الدولة العثمانية.(*) ومع ذلك لم يمض على الجوف جيل كامل تحت حكم جبل شمر؛ والسبب فى ذلك ، أن محمداً، الذى كان شابا صغيرا فى ذلك الوقت، كان يرافق عمه عبيد فى الاستيلاء على الجوف، وقد أصيب بجرح من رشة استقرت فى عظمة القدم؛ – وجرى بعد ذلك استخراج الرشة من قدمه فى حائل بواسطة حكيم فارسى، جرى استدعاؤه خصيصا لهذا الغرض، من بلاد الرافدين.

وفيما يتعلق بالعطايا والهبات الأميرية فى الجزيرة العربية، نرى أنهم يقدمون الهبات آخذين فى اعتبارهم مسألة المنفعة. هؤلاء الأمراء على استعداد أن يخسروا اليوم جنيها ، على أمل أن يعود عليهم ذلك الجنيه بعشرة جنيهات خلال فترة من الزمن . والعرب يقولون: إن "ابن الرشيد من عادته أن يتعامل مع كل إنسان على عقله، بمعنى حسب قدرته على الفهم." كان الحظ عنيدا مع محمد فى شبابه، إذ إن فرصة دموية هى التى مكنته من الحكم. وهو فى حكومته يتحمل ذلك الذى لايمكن تغييره على وجه السرعة؛ هذا يعنى أنه ليس بوسعه لجم أهواء البدو عن طريق القوة وحدها؛ وبالرغم من أنه كان يكابد فى نفسه الكثير من الآلام، فإنه كان يتحمل تلك الآلام بذلك المحيا السمح الجميل، والخطاب الودى، وبكلمات قليلة، كان يستطيع الوقوف على ما يدور فى أذهانهم، وهو يتحدث معهم. فهذا هو مطلق، شيخ الفجير، يعود إلى دياره مبتسما، بالرغم من أن الأمير محمد لا يستلطفه؛ وهذا هو الأمير يفرض فى العام التالى ضريبة 'الميرى' Miry على بدو الفكارة، دون أن يعترض أفراد القبيلة على ذلك. وهؤلاء هم كبار رجال تيماء، مدينته الخارجية الجميلة الذين انهارت آبارهم، يغادرون قصره محملين

(*) الأصح الذين ظلوا موالين للدولة العثمانية وليس الذين اعتنقوا عقيدة الدولة العثمانية . (المراجع)

بالهدايا والعطايا. ومحمد من النوع الذى يستحوذ على عقول عامة الناس؛ وإذا ما ناداه بدوى وقح وهو فى الشارع، أو من داخل المجلس (البدو كلهم من الشحاذين الملحاحين)، قائلا: "آها! أيها المحافظ، أطال الله عمرك! أنا جئت إلى هنا، ضمن رُبَّة (جماعة من البدو) وأنا أقسم بالله! أنى عريان"، تراه يصرف مثل هذا البدوى بكلام طيب وهو يقول: باسم الله! أذهب مع فلان، وسوف يعطيك ثياباً." – وهذه الثياب عبارة عن تونك (ثوب) ثمنه شلنان فى حائل، وعباءة من الصوف الخشن ثمنها تسعة شلنات وغترة ثمنها ستة بنسات؛ ونظرا لأن هذه الأشياء تُشْتَرى جملة من بغداد، ويجرى إحضارها على ظهور إبل الأمير نفسه، فقد لا تكلفه عشرة شلنات.

ترى، ماهى تلك الإمارة وماهى تلك السلطة التى يتصارع عليها هؤلاء العرب فى الجزيرة العربية، صراعا مريرا؟ هذا هو ابن الرشيد، على حد علمى، يمتلك حوالى ثلاثين واحة، منها خمس عبارة عن مدن صحراوية هى: الشعكخى، الجوف، وحائل وقفار، وتيماء، ويبلغ إجمالى السكان ما يتردد بين ١٢ ألف و١٣ ألف نسمة: عدد آخر من تلك الواحات عبارة عن قرى جيدة مثل: القصر، مجوج، العلا، المستجَّدة، فيض، الروثة، سميراء Semira ، والحيات، وهى لا تضم أكثر من ٥٠٠٠ نسمة. وإلى جانب هذه الواحات هناك بعض الهجر النائية موجودة فى صحراء جبل شمر ويسكن فى كل هجرة من تلك الهجرات عائلة واحدة أو عائلتان وأحيانا ثلاث عائلات، وهم عادة مايكونون مستوطنين جاءوا إلى تلك الهجر من القرى المجاورة؛ وفى أغلب الأحيان، قد تتكون كل هجرة من هذه الهجر من عشرين بيت ولا يزيد عدد السكان فى كل بيت على عشرة أفراد. ومن بين هذه الهجر: الجفيفة، العجلَّة، القُصَّة، البديعة، حليفة، ضرغرد Thujhrod ، ماخول Makhaul ، عُثيم Otheym . البعض من هذه الهجر لا يعدو أن يكون مجرد بيت ريفى، يظل مهجورا بعد حصاد التمر فى شهر أبريل، إلى فصل الخريف وإلى أن تحين أشهر الرى والزراعة: ولكن قرى التمر بها سكان دائمون، مثل البديعة، وضرغرد. وبذلك يمكن القول إن سكان جبل شمر المستقرين يقدرون بحوالى ٢٠٠٠٠ نسمة؛ وإذا ما أضفنا إلى هؤلاء البدو والأتباع، بنى وهاب، – والفجير يصل عددهم إلى حوالى ٨٠٠ نسمة، ونصف قبيلة ولاد على فى الجنوب يقدر عددها بحوالى

١٦٠٠ نسمة، – ولنقل إن الإجمالى يصل إلى ٢٥٠٠ نسمة، وهناك أيضا البشر فى الجنوب، ولنقل إنهم يتكونون من ٣٠٠٠ نسمة، أو قد يكونون أقل من ذلك ؛ والقسم الشمالى من قبيلة حرب قد يصل عددهم الى ٢٠٠٠ نسمة وهم موالون لابن الرشيد، والجزء الجنوبى من الشمر لا يزيد عدده بحال على ٢٠٠ نسمة، ولنقل إن الحطيم فى المنتصف يقدر عددهم بحوالى١٥٠٠ نسمة، ولنقل أيضا إن الشرارات يبلغ عددهم حوالى ٢٥٠٠ نسمة؛ ولا يوجد بعدهم شيء يذكر. وبذلك يصل إجمالى أعداد الناس هنا إلى حوالى ١٤٠٠٠ نسمة أو ما يقل عن ذلك: يضاف إلى ذلك أن عدد السكان والبدو المستقرين لا يزيد بحال من الأحوال على ٣٠٠٠٠ نسمة.

العبء الذى يتحمله الأمير نتيجة إسهامه العام فى استقبال أفراد الشعب، يجرى فرضه على شكل ضرائب، أو مكوس تفرض على الثمار والقمح والتمور فى المستوطنات – وقد تأكدت أن تلك الضرائب فى تيماء تقدر بحوالى جنيه إنجليزى واحد عن كل رأس من البشر؛ أما فيما بين البدو الرحل (الذين لا يلقون بالا لأية حكومة يجرى تشكيلها من أجل الصالح العام،) فقد وصلت هذه الضريبة بين الفكارة، تلك القبيلة المسكينة، إلى ما يقرب من جنيه إنجليزى واحد عن كل ثمانية أو عشرة أشخاص. وغير هذه المستحقات هناك أيضا أنواع أخرى من المكوس، التى لا أعرف الكثير عنها، والتى منها على سبيل المثال، تحصيل ستين ريالا عن حمولة الجمل الواحد من التبغ الحميدى، الذى يجرى إحضاره عند بوابات السوق فى حائل. وعند هذا الاختناق الذى لا يطاق تمكنت من حساب مدخولات إمارة ابن الرشيد، العينية، والنقدية، بما يقدر بحوالى ٤٠٠٠٠ جنيه إسترلينى، يجبى١/٢ منها من البدو. زد على ذلك ، أن إيجارات الأمير الخاصة كبيرة جداً. يضاف إلى ذلك أن المال والثمار التى تنتج عن الممتلكات التى تجرى مصادرتها كل عام، تذهب إلى بيت المال، أو إلى الخزانة العامة.

تقدر المصروفات الحكومية المعتادة بما يقرب من ١٢٠٠٠ جنيه إنجليزى، وهى تصرف على خدمات القلعة، والفرقة المسلحة، وعلى مجموعة العبيد ، والرعاة الذين يقومون على أمر الثروة الحيوانية فى الصحراء، وعلى الخدم، والمتسلمين، وعلى الممثلين

المقيمين فى البلدان البعيدة مثل تيماء والجوف، وكذلك على الضيافة العامة فى حائل، كما يصرف منها أيضا على تغيير الملابس. أما مصروفات الأمير غير العادية فهى تقدر بحوالى ١٠٠٠ جنيه إسترلينى كل عام وهى تصرف على البارود، وعلى الغزو العام، والعطايا والهدايا السنوية. والرشوة التى يقدمها تعتمد على تغيرات المناخ العالمى، وهى تقدم لكبار رجال الحكومة فى الإمبرطورية العثمانية؛ وفيما يتصل بخيبر فقد راح يزين بالذهب بعض الأصابع فى المدينة (المنورة). كل هذه المصروفات تجرى تغطيتها عن طريق بيع الخيول النجدية، فى معظم السنوات، (وكلها من الذكور) فى أسواق الهند ؛ وهذه الخيول، يجرى شحنها حسب الطلب، من الكويت، بواقع حوالى عشرين حصانا فى المرة الواحدة: سياس هذه الخيول، الذين يقومون بتوصيلها إلى الهند، يتغيبون عن حائل طوال شهرين كاملين عندما يقومون بهذه المهمة.

وعند الضرورة، وفى حالة العمليات الحربية، يستطيع ابن الرشيد أن يستدعى، على حد علمى، وبلا صعوبات حوالى ٢٠٠٠ محارب من القرى التابعة له، إضافة إلى كثير من الجمَّالة (السواد الاعظم منهم يركبون النياق) ، ولكن هؤلاء الجَّمالة ليسوا جميعا مسلحين؛ ولكن الذين يشاركون فى الحملات بالفعل يصل عددهم إلى ربع هذا الرقم. ومن بين الرعايا البدو يستطيع ابن الرشيد، عند الضرورة، استدعاء حوالى ثمانمائة أو تسعمائة فرد من القبائل المرتبطة به، أو القبائل التى تخشاه أو تخاف منه باعتبارهم جيرانا له مثل: الشمر، والبشر، وحرب، والحطيم: كما يستطيع أيضا تجنيد مائتين وخمسين رجلا من بنى وهاب، باعتبارهم من رعايا الحدود، كما تدور الشكوك حول ولائهم، إضافة إلى أنهم كثيرو التمرد والعصيان؛ كما يستطيع ابن الرشيد أيضا أن يجند حوالى مائتى فرد آخرين من بدو الشرارات المغلوبين على أمرهم، والذين هم على استعداد للتحول إلى الإمبراطورية العثمانية إذا ماساندتهم الحكومة السورية؛ وبذلك يصل إجمالى أفراد البدو الذين يمكن استدعاؤهم إلى مايقرب من١٣٠٠ رجل، هم فى الأصل من الجمَّالة (قلة قليلة من الشيوخ هم الذين يركبون الخيول) – يضاف إلى ذلك أن ثلثى هذا الرقم مسلحون ببنادق فتيلية، أما الباقون فيتسلحون بالسيوف، والهراوات، والرماح والحراب. ويقال إن الأمير لديه " أربعمائة حصان،" وأن تلك الخيول

موجودة ، على سبيل الإعارة، لدى بعض الرجال الموثوق بهم والرجال المهمين فى القبائل الخاضعة للأمير؛ وهؤلاء الرجال هم من بين الراكبين فى الحملات التى يقوم بها الأمير. وفى الغزو العام الذى يقوم به الأمير يشارك كل من «الرجاجيل»، وسكان حائل، ورجال من القرى المجاورة، وهم يقدرون بحوالى أربعمائة رجل، إضافة إلى كثير من البدو، الذين هم رهن إشارة الأمير، ومستعدين للذهاب معه ومرافقته تطلعا إلى المكاسب والمغانم : كل هؤلاء الناس يحدد لهم موعد الغزو ومكان التجمع . العرب الذين يعيشون فى بلد ميت، يظنون أن ذلك الاصطفاف الذى يجريه ابن الرشيد لهؤلاء البشر، إنما هو شىء رائع، ويرجع إلى الغزوات التى يقوم بها ابن الرشيد. ترى هؤلاء العرب يقولون ويتحدثون وهم يتفاخرون" كان الطريق فيما بين حائل وقفار، مليئا بالراكبين!" – ولما كانت المسافة تقل عن اثنى عشر ميلا، فهى لا تصلح إلا للراكبين، وبطريقتهم السائبة، التى يسير الركاب بمقتضاها الواحد خلف الآخر، وبفاصل عشرين خطوة بين الراكب والذى يليه.

الأمير محمد شديد البأس فى القتال، وهو يستعمل بندقية أوروبية؛ وهذا هو حمود، القوى المتين، يقف مسلحا إلى جوار الأمير، وإذا مادعت الضرورة، وبَّرا بقسمهما أن يعيشا سويا أو يموتا سويا، فإن حمود على استعداد لفداء الأمير بنفسه وبجسمه هو. هؤلاء هم الأمراء، نزلوا من فوق الإبل ، وامتطوا صهوات جيادهم، وهم يرتدون " قمصان داود"، ينخرطون بين المقاتلين فى المقدمة، فى حين يقوم المسلحون بفتح النار على العدو من الجناحين ، بالقرب من الأمراء. ومعركة الأمير لا تعوَّل كثيرا على البدو المساكين، لا من حيث الوزن أو العدد؛ والسبب فى ذلك أن «رجاجيل» الأمير، وكذلك الراكبين من القرى المجاورة، بحكم اعتمادهم على الحياة المدنية المتحضرة، يطيعون الأوامر، ويستطيعون التماسك مع بعضهم البعض. ولكن البدو، الذين تشبه عقولهم عقول الطير، والذين لايعرفون أى شىء فى حياتهم الرعوية، عن التدريب العسكرى، يندر أن يجتمعوا أو يحضروا فى يوم القتال، وعلى رأسهم شيخهم؛ ولكنهم يتصرفون تصرف الصقور، إذ يقاتلون متفرقين، ويجرون هنا وهناك، ولا يلقى أحد منهم بالا للمصلحة العامة وإنما يركزون على مصالحهم الشخصية، حتى ولو كانت

غنيمة هزيلة: البدو المساكين يعترفون ويقرون بأنهم مخدوعون من الطمع، أو إن شئت فقل: الذى يشغلهم هو جشع الكسب. من هنا نجد أن مقاومة البدو ضعيفة، والويل لمن ينكسر ويولى الأدبار! ولا يذهب أسير إلى محل إقامة الأمير إلا بعد تدميره وتحطيمه: وقلوب «رجاجيل» ابن الرشيد هم وعبيده قاسية ولا تعرف الرحمة. وأنا أعرف أن الأمير ألقى بنفسه بعض رجال القبائل الأسرى المساكين فى آبار المياه: - ومعروف أن أهل الجزيرة العربية لا يأخذون الأسرى. والمعارك التى تجرى مع البدو تكون فى فصل الصيف، وتدور هذه المعارك حول محطات المياه؛ وفى هذه المعارك يقيم المقاتلون فى مخيمات كبيرة طويلة الأجل.

من هنا يقول البدو" ابن الرشيد هو الذى يضعف البدو!" وبعد أن يكسر ابن الرشيد شوكة البدو، يبدأ فى استقبالهم ضمن أتباعه الحلفاء.ويخلصهم من كل أعدائهم الذين يجورون عليهم من جانبه. ويجرى توزيع جزء من الغنائم على «الرجاجيل»، ويحتفظ كل واحد من «الرجاجيل»، بذلك الذى يستولى عليه هو فى البداية، هذا هو إبراهيم الجزائرى، واحد من هؤلاء «الرجاجيل»، وكان يتحدث معى، فى معظم الأحيان، عن بلده الغربى، هذا الرجل قال لى: إن كل واحد من «رجاجيل» الأمير، يحصل على مبلغ أربعة ريالات قبل أن تبدأ عملية الغزو، وذلك حتى يتسنى له أن يشترى دقيقا، وتمرا، وذخيرة؛ وأن هؤلاء «الرجاجيل» يحملون معهم، فى بعض الأحيان، ما قيمته أربعة أحمال من أحمال الإبل، كلها من البارود والرصاص وكلها من مدينة حائل، وأن هذا البارود والرصاص يوزع على البدو الذين سوف ينضمون إلى الأمير وهو فى طريقه إلى الغزو.

ولتحديد ممتلكات ابن الرشيد فى الصحراء نجد أن: - الرولة هم على حدوده الشمالية، هم والقسم الشمالى من الشمر، وكذلك الظُّفير، تلك القبائل البدوية المتصادقة مع جبل شمر، ولكنها ليست تابعة له. ومن الناحية الشرقية، تحده ممتلكات بريدة، التى سوف نتحدث عنها باعتبارها ولاية تضم عددا كبيرا من القرى فى نفود القصيم؛ من هذه القرى: العيون، الخبراء، الرس، والتى ليس فيها رعايا من البدو. وبيت حائل

الأميرى، يتحالف عن طريق الزواج مع ولد مهنا، ذلك الفلاح الغاصب، طاغية بريدة، ونجد أنه هو والأمير متحالفان ضد الشرق، أى ضد عنيزة، وأيضا ضد القوة الوهابية المتحللة حاليا فيما وراء الجبال. وفى الجنوب، وبعد أن ضاعت خيبر من الأمير، نجد أن حدوده تمتد إلى مسافة حوالى مائة ميل فى اتجاه المدينة (المنورة)؛ والصحراء الداخلة ضمن ممتلكات ابن الرشيد يحيط بها من الناحية الغربية، طريق الحج الكبير القادم من سوريا، – ونحن عندما نستثنى بنى عطية – كما تخضع له أيضا كل منطقة بدو الشرارت، التى تمتد إلى جبل شرات Sherra ، وبذلك تدور حول وادى السرحان، إلى أن تصل إلى مدنه الشمالية الطيبة، المتمثلة فى الجوف الشعكخى Shakakhy وضواحيها. خلاصة القول، إن كل ممتلكات ابن الرشيد الصحراوية تقع بين كل من الجوف، والقصيم ودرب الحج؛ وتمتد مسافة تسعين فرسخا فى اتجاه الشمال والجنوب، وتمتد فيما بين الشرق والغرب حوالى مائة وسبعين فرسخا. وهو يبقى على هذه المنطقة كلها خاضعة له، باستعمال القوة (وهذا على حد قول الناس) التى يصل قوامها إلى حوالى أربعمائة من الجمَّالة الراكبين، مضافا إليهم «الرجاجيل» والقرويين ؛ ومن ذا الذى يستطيع تعبئة مثل هذا العدد فى تلك الصحراء الميتة، أو حتى من البدو الهمجيين، الذين يمشى نصفهم بلا سلاح، من ذا الذى يستطيع مقاومة قوة ابن الرشيد هذه؟

الفصل الثانى

الحياة فى حائل

القبائل الكبيرة التى تقف وراء ابن الرشيد. أخو نورة. العائلات الأميرية. الأمير محمد بلا ذرية. زوجته "المسيحية". عبد العزيز طفل طلال اليتيم، ويتيم أخاه بندر غير الشقيق. أوجاع الأمراء السرية. عائلة عبيد. أغنية من أغانى عبيد. عبيد يمكن أن يكون كريما. فهد. الروح المشتتة المسكينة يبيع ابنته لوالده عبيد. فيض. سليمان. عبد الله. ثروة أسرة عبيد. ابنة حمود. حكومة ابن رشيد. بداية إمارة شمر. فى رأى البعض الأمير ظالم، مستبد. حكاية عن حكومة متعب. تاجر دمشقى مسيحى يزور حائل. نزاع بين القبائل حول سيطرة الأمير وهيمنته. «الرجاجيل» الشيوخ. إمبارك. حامية المغاربة فى برج المارد فى الجوف. كلام الشرارات للشيوخ فى الجوف. ابن الرشيد يهب لإنقاذ الجوف. ابن الرشيد والباشا العثمانى. البدو أمام «الرجاجيل». رجال شرقى نجد ورجال الرياض يأتون لخدمة الأمير الغربى. 'تدمير' ابن سعود. مراسل من الرياض. رجال من القحطان فى حائل. كلام القحطان. بلاد وادى الرواسر. حيزان شيخهم. حيزان يهدد بطعن النصرانى. حكايات الناس عن القحطان. 'قبورهم غربان' ونسورهم حويصلات'. سلالة ابن الرشيد النسبية. أقارب الشمر. رشيد، بدوى متعلم. قاضى متشدد. نزاع مع القاضى المتحذلق."المسكوفيون القدامى تملكوا أرض نجد". نقوش جبّة. دراسة الرسائل فى نجد. الجهل بالعالم المتحضر. ناظر مدرسة القرية. نبوءة من نبوءات حزقيال. غضب فى المقهى. صياح مُصلّح القهوة أمام الأمير. [ملحوظة: بيان تفصيلى للرحلة من حائل الى الكويت] .

القبائل الكبيرة الموجودة غربى درب الحج، هى فى معظمها أو فى بعض أجزائها تعد بعيدة جداً عن ممتلكات ابن الرشيد؛ وهم فى مأمن من ابن الرشيد فى ديارهم الخطيرة. وإذا مابدأنا من الناحية الشمالية نجد هناك بنى صخر فى بلقاء Belka ، وهم خاضعون حاليا للحكومة السورية، ثم بنى عطية، وإلى الخلف منهم تعيش الأمة البدوية القوية، بدو الحويطات، التى تعيش على مساحة واسعة. تمتد بين البحرين، ومن بعدهم البلى خلف الحرَّة، وجيرانهم سلالة جهينة العريقة والنبيلة أيضا: هذا بالإضافة إلى جنوبى حرب، وهم من البدو الرحل، ومن القرويين أيضا، والذين تقع أراضيهم كلها فى مجرى السيل فى وادى الحمض el.Humth . وفيما بين بلاد مكة والقصيم توجد منطقة بدوية كبيرة، تزيد مساحتها على مائة فرسخ، (وهى أحسن أراضى الصحراء التى شاهدتها أو رأتها عيناى فى الجزيرة العربية)، وهذه المنطقة تسكنها أمة عتيبة؛ والعتبان شديدو البأس فى السلاح، وهم أيضا من البدو المتحضرين، ويمثلون العدو الرئيسى لابن الرشيد. ولم يمض عام واحد، إلا ويكون ابن الرشيد قد قام بغزوهم والإغارة عليهم، ومع ذلك فهم أيضا بمثابة الدمار والهلاك للأعراب المتحالفين مع ابن الرشيد، وبخاصة أعراب الحطيم الذين يعيشون فى المنطقة الوسطى، فى وادى الرماح، هم وجيرانهم من قبيلة حرب. – هذا هو حال الضيَّاع، وهذا هو حال حكومة ابن الرشيد، هذا الاسم ذائع الصيت (بعد الضربات الوهابية القوية) فى الجزء العلوى أو إن شئت فقل الجزء البدوى الرعوى من الجزيرة العربية.

وفيما بين الحب والخوف، نجد أهل الصحراء يطلقون عليه اسم أخو نورة بل إنه هو نفسه يطلق على نفسه هذا الاسم (لأنه أحلى قَسَمْ عند أفراد أسرة ابن الرشيد). من هنا، فإن عبد الله، أول محافظ فى حائل، أقسم بأخته الصغيره تمشيا مع الأعراف والشهامة النجدية عندما قال: "لأنى أخو نورة". ومن بعده جاء طلال ومتعب وأقسما القسم نفسه، وها هو محمد يقسم بنفس القسم؛ والسبب فى ذلك، أنه كانت هناك نورة أخرى، هى ابنة عبد الله، ولكنها حاليا من بين الأموات. – وهذا قسم عظيم عند الحاكم، ولا يحتمل الهزار، إذاما أقسم به الأمير أو الحاكم على حياة أى إنسان من البشر! ولقد سمعت رجلا، لم يكن له شقيقات، وهو يقسم بحياة ابنته الطفلة، " أنا أبو عذيبة!"

إذا، فهذا القسم يعد من قبيل التملق والمداهنة فى حالة الصداقة، وقد يكون من قبيل السخرية والتهكم عندما يقول "أنت أخو (فلانة)"؛ - "يا لهذه الشهامة، إنك حتى فى أشيائك الضعيفة جدير بأن تدرج بين الشجعان." ولقد سمعت بعض صبيان البدو (من البِشْر) وهم يقولون، أنا أخو شكتى chokty ، بمعنى أنا أخو سسى Sissy ، أى أختى الصغيرة؛ وشبيه بهذا القسم، من حيث التحضر البدوى، تلك العبارة التى يقولها (رجل عجوز) تعبيرا عن الدهشه، أنا ولد أبوى!

وهنا يتعين على أن أقول شيئا موجزا عن الأسر الأميرية: محمد (كما سبق أن قلت) عقيم، أى عاجز عن الخلف بسبب دواء غير مناسب، أعطى له أثناء مرضه، " وكان هذا الدواء هو الوحيد الذى يمكن أن ينقذه من الموت." وهذا الحال يسبب له التعاسة وانعدام راحة البال، ويستحيل عليه تقوية نفسه بذريته التى من صلبه، ومحمد متزوج من أربع زوجات حسب الشرع، اثنتان منهن حضريتان، أى" من نساء المستوطنات"، والاثنتان الأخريان من 'البدويات'. وبطريق المغامرة الغريبة، استطعت رؤية واحدة من هاتين الزوجتين الحضريتين، واسم هذه الزوجة "كرستيان". وقد سمعت ذلك الاسم يتردد فى أحيان كثيرة؛ أما حقيقة هذا الاسم فى لغتهم، فأنا لا أعرفها. ولم أعرف منهم، من أى جزء من البلاد كانت تلك المرأة. 'جاءت هذه المرأة بصحبة أخيها إلى حائل قبل سنوات قلائل؛ وقد أعجب هؤلاء العرب بذلك الشاب عندما أراهم مهارته وهو يستعمل الحربة من فوق صهوة جواده، "دخل كرستيان فى الإسلام فى حائل،" وعندما غادرها خلف وراءه شقيقته التى تزوجت أمير البلاد. ترى، هل كرستيان هذا، يمكن أن يكون واحداً من راكبى الخيول (الخيالة) الذين يجيئون من مصر أو من بلدان الحدود الشمالية؟ - ولكن مسألة إساءة معنى سؤالى عن طريق الوشاة فى القلعة أمر وارد، وبخاصة عندما يقولون: إنى أتساءل عن شئون الأمير الشخصية. والزوجة الحضرية الأخرى هى شقيقة شخص يدعى حسن، ولد مهنا (*)،

(*) كان مهنا هو الحاكم الذى عينه السعوديون على بريدة ، واتسم بالتعصب والاستبداد وكان يعمل على تدمير روح أهل القصيم بإرسالهم فى حملات عسكرية عديدة لمصلحة السعوديين . (المراجع)

طاغية بريدة؛ وقد تزوج حمود واحدة من بنات الأمير حسن، إضافة إلى بقية الزوجات الأخريات.

ومحمد يطلق ويتزوج، حسبما يشاء، "شهرا بشهر:" وبالرغم مما سبق ذكره لا يستطيع هذا الأمير التعس شراء النعمة العامة! فأطفاله ميتون فى داخله، وهذا الرجل الذى تخشاه القلاع البعيدة يبقى هنا عقيما، أو أقل من رجل وسط كل هذه الزيجات. ولكن هذا الأمير العقيم يحب الطفل اليتيم عبد العزيز كما لو كان ولده هو، وعبد العزيز هذا هو اللحم الوحيد المتبقى فى هذه الدنيا من أخيه متعب، وهو الذى يشرف، مثل الأب، على تعليمه وكل شئونه. وفى كل يوم يحضر الطفل له واجبه اليومى، الذى هو عبارة عن آيات من القرآن، مكتوبة، مثلما يفعل أطفال الواحات فى الجزيرة العربية، بالحبر الذى يصنعونه من هباب قشر الرمان، على لوح من الخشب الذى يبيضونه باستعمال الجبس. وفى يوم آخر من أيام الدراسة يجرى غسل ذلك الحبر، وبذلك يصبح لون اللوح أبيض. كان عبد العزيز يجىء دوما إلى المخزن الذى أقيم فيه، وكان يطلب منى إعطاءه شيئا من الحبر الجيد، وبعضا من الورق، وبعض الكبسولات لمسدس صغير أعطاه إياه عمه محمد. وعندما كان يجىء ماجد، كان عبد العزيز ينهض واقفا ويذهب لحال سبيله، – وقد لاحظت عدم وجود كلام أو علامات صداقة فيما بينهما. كان عبد العزيز يأتى لوحده، أو يصحبه طفل أخر من أطفال الأمراء، (الذين أبقى محمد على حياتهم،) – عبد العزيز هذا هو يتيم بندر! وكان يصحب هذين الطفلين صبى حبشى، وهو عبد حسن الطباع.

هؤلاء الأطفال، أبناء الأمراء، كانوا إخوانا غير أشقاء، نظرا لحدوث خلط مخيف فى الزواج، فهم مولودين من أم واحدة، من عم أو من ابن أخ، إضافة إلى قتل بعضهم البعض! وهذا هو قاتل أبيه الشاب، والذى لم يحزن عليه أحد، يسكن قبره اليوم، قتيلا، بيدى محمد، الذى ثأر منه لقتل والده، ويعتلى اليوم عرش إمارة البلاد. – وبندر بعد أن قتل عمه الذى كان فى منصب الأمير، تزوج امرأة القتيل، وهى أم عبدالعزيز ، – عمته؛ وقاتل أبيه هذا، أنجب منها طفلا. هذا القاتل أبقى على حياة ولد عمه الطفل، فى الوقت

الراهن، وقد يفكر فى إهدار دم هذا الطفل من باب تحسبه ومحافظته على نفسه، تحوطا لليوم الذى سيكبر فيه ولد متعب الذى مات مقتولا، – ترى هل سيفكر عبد العزيز فى يوم من الأيام، فى اغتيال والد أخيه غير الشقيق، الذى تربى معه، وهو فى الوقت نفسه، زوج لأمه، كما أنه "عمه"، وابن عمه، إلا أنه هو أيضا الذى اغتال والده متعب؟ الآن، وبعد أن تولى محمد إمارة البلاد، فقد تغير الخطر الذى يمكن أن يجىء من جانب الأطفال الأبناء: هل سيغفر ولد بندر، إذا ما كبر، ومن أجل عيون عبد العزيز من ناحية، ولأنه بقى على قيد الحياة من الناحية الأخرى، قتل محمد لأبيه؟ – ولكن ذلك العمل المريع لم يكن ظلما فى أعين الناس.

هذا هو عبد العزيز خطوه يشبه خطو عمه، ومحياه يشبه محيا عمه أيضا، وهو يحمل سيفا صغيرا أعطته والدته إياه؛ ومع ذلك فإن ملامح وقسمات ذلك اليتيم الحزين تقول شيئا ما، وهو الذى جاء من فرع لم يرو من مياه الأبوة الطبيعية. ويبدو أن عقل هذا الصبى يتأمل الكثير من هذه الأمور؛ لقد سمعت عبد العزيز وهو يكلم نفسه عندما جاء لزيارتى، "ها! إنه هو الذى ellathi ذبحه thabhah ، هذه الكلمة التى كانت تنذر بعاصفة قادمة، كانت تجرى خفيفة على لسان ذلك الطفل. – يا الله ! من ذا الذى يستطيع التنبؤ بتلك المآسى القادمة! ترى، على من سيكون الثأر القادم، ومن الذى سيتولى العرش، وما هى حالات الاغتيال المنتظرة بينهم؟ هؤلاء الأطفال كحيلى الأعين، الذين يفرقون شعورهم من المنتصف، ويجدلونها على رءوسهم اليتيمة، والذين تشبه ملامحهم ملامح النساء والبنات الصغيرات. على الجانب الآخر، هناك ماجد، ولكن من ذا الذى يلاحق الأمير حاليا غير حمود ولد عمه؟ وربما تسبب ذلك فى تحاشى الأطفال بعضهم بعضا منذ البدايه؛ – وعبد العزيز هو الذى تحاشى ماجد. ترى هل جاء ذلك التحاشى نتيجة إحساس عبد العزيز بارتكاب حمود عملا ضد والد عبد العزيز؟ ربما أصبح كل واحد منهم يضمر فى داخله تدمير الآخر والقضاء عليه؛ – ماجد هو نفسه حفيد من أحفاد شقيق والده، وهو فى موقع ابن العم أو الخال بالنسبة للأمير. وماجد، حفيد عبيد، هو فى موقع الوالد بالنسبة لعبد العزيز، وهو يتمتع ببشاشة شعبية، ولكنه أقل ولاء للأمير؛ كما أن فيه ماينذر بالخطر، إذ تراوده ثقة طموحة بأنه سيكون هو

الحاكم فى يوم من الأيام. وعبد العزيز يوحى بأنه صاحب قلب طيب، وإذا أراد الله فسوف يكون ذلك الشاب أميرا على حائل فيما بعد، فهو يبدو عليه أنه سيكون واحدا من الأمراء الأجواد، مثل والده متعب. - هذه هى مآسى وأوجاع أولئك الأمراء فى حائل؛ وهنا نجد أن الرعب يتملك محمد فى وحدته الدموية. وأنا عندما كنت فى القصيم سمعت الناس يقولون عن محمد بن الرشيد "لقد ارتكب جرائم لم يشهدها العالم من قبل!"

وأنا هنا سوف أتناول أسرة عبيد التى يرأسها حمود فى الوقت الراهن. كان عبيد هو المسئول عن القوة العسكرية فى جبل الشمر، أثناء حكم شقيقه عبد الله، وأثناء حكم طلال بن أخيه. كان عبيد رجلا عسكريا، ووهابيا أكثر من حمود، الذى ولد فى أيام الوفرة والرخاء. كان عبيد سيدا من سادة العمليات الحربية فى الجزيرة العربية، بل إنه كان بطلا فى نظر الأعراب. وعلى حد قول الناس، كان عبيد قصاداً (نظاماً) ممتازا، وقد نظم بالشعر كل العمليات الحربية التى خاضها فى الصحراء، كما كان البدو الرحل يتغنون فى خيامهم، بتلك القوافى التى ذاع صيتها فى الصحراء. ولغة هذه القصائد ليست هى اللغة الشعبية أو الدارجة؛ وأنا هنا تحضرنى بعض أشعار عبيد، التى منها الأبيات التى يقول فيها: "هذه اليد أسقطت تسعين رجلا من الأعداء. ومات القصمان أمامى مطعونين حتى الموت، واستمر ذلك إلى المساء، حيث لم يفارق السيف قبضة يدى؛ وهذه أكمام ثيابى وأطرافها جفت وتصلبت بسبب دماء الحرب." وقد نظم عبيد هذه القصيدة، فى إثر حملة فاشلة جردتها مدينة عنيزة، المدينة العظيمة من مدن القصيم، على ابن الرشيد. - " تساءلت، وكيف استطاع عبيد، ذلك الرجل وحده، القيام بتلك المذبحة المروعة، التى نصبها لأولئك الذين كانوا يناصبونه العداء فى القتال؟" (*)

(*) صور عبيد بن الرشيد أحداث هذه المعركة التى عرفت باسم معركة «بقعاء» ١٢٥٧هـ - ١٨٤٢م فى قصيدة جاء فى مطلعها :

يا من لقلب فيه خمسة وعشرين هجس وهاجوس وعدل ومايل

وسجل فى تلك القصيدة ما قام به فى تلك المعركة من القضاء على خصومة العنيزيين بقوله :

اللى ذبحت بشذرة السيف تسعين منهم ولانى بطردهم بسايل

وكما يتضح من السياق أن «دوتى» يعلل كثرة القتلى فى هذه المعركة بأن عبيد فتك بخصومه بعد حلول الهزيمة بهم . (المراجع)

أجابونى: "عندما انكسر القصمان وبدءوا يلوذون بالفرار، لاحقهم عبيد، فى بقية النهار، وقتل الكثيرين من الهاربين (فى المؤخرة) وبلغ عدد من قتلهم تسعين رجلا؛" وهذه الشخصية المحترمة التى روت هذه الحكاية، جعلتها من مفاخر عبيد، من منطلق أنه قتل ذلك العدد الكبير من الرجال!

كان عبيد يبدو كريما، عندما يكون العرب أقلية، ومن بينهم خصم أو غريم: وكان الرجل يرتدى درعه الذى كانوا يطلقون عليه اسم الداودى، - لأن (سيدنا) داود، على حد قولهم، هو أول من اكتشف الدرع المدور، كما أن الله جعل الحديد يلين بين أصابع ذلك النبى - هذا يعنى أن الخطر المحدق بذلك الرجل (عبيد) لم يكن كبيرا فى ميدان القتال. وذات يوم من أيام الحرب الضروس ضد ابن مجلّد العنزى، وبدو القصيم، وضد البدو الرحل الذين ورثوا وديان النخيل فى قرية الحيات (فى حرة خيبر)، وعندما أبصر شيخ القبيلة ذلك الأمير الذى يدمرهم فى ميدان القتال والمعارك، تحداه بصيحة عالية، وحاول الهجوم عليه؛ ولكن عبيدا (بالرغم من الإصابات التى لحقت به، عفى عن رجل سبق له أن أصابه) ترك البدوى يمر من تحت رمحه وهو يقول له: إنه لن يقتل رجلا [لا يضع فوق جسده ثوبا واحد من القطن] سارع عن طيب خاطر ساعيا إلى دمار نفسه وتحطيمها.'

كان عبيد فى أواخر أيامه رجلا عجوزا له لحية تشبه الزعفران فى لونها، ويلتزم المنزل وأبا معتدلا لأسرة من أسر الجزيرة العربية؛ وقالوا: إن عبيدا مات قبل مجيئى إلى حائل بسبع سنوات، وبعد عامين من وفاة طلال. وقد شاهدت من أبناء عبيد: فهد، وهو أكبرهم، وقد نحوه جانبا لضعف فهمه؛ وفهد حاليا، رجل فى منتصف العمر، ومحياه طيب، وهو فارع الطول ممتلئ الجسم، ويصل طول قامته إلى طول قامة شقيقه حمود، الذى خلعه. يقولون: إن فهد كان يميل إلى الفضائل وأنه كان يتحلى بالتواضع فضلا عن موافقته على ما يريده الآخرون ؛ كل ما فى الأمر أن فهدا كان له حاجبان عابسان، وكانت تعلو وجهه مسحة محيرة من الحزن، وعينان مضطربتان توحيان بالتشتت وعدم التركيز، كل ذلك كان يوحى بشرود ذهن ذلك الرجل. كان فهد متأملا

طول اليوم للمسلمين ولأحوالهم، كما كان قليل الكلام؛ من هنا يصبح فهد، بصورة أو بأخرى، أسعد البشر فى حائل، – كان فهد هو الرجل الوحيد الذى لم يخش أو يخف من أى شيء. كان فهد يمضى ساعات النهار فى قهوة عبيد، فى الوقت الذى كان حمود يجلس فيه فى الصالة المخصصة لوالده فى منزل عبيد، فى حين كان سليمان يجلس إلى جانبه مباشرة فى مقعد من مقاعد الشرفة: أما فهد فلم يكن له مقعد من مقاعد الإمارة، ولكنه كان يجلس على السجادة العامة مع أطفال الأسر الأميرية الصغار، كما كان يجلس أيضا مع ضباط الأمير والشيوخ الزائرين الذين يفدون من القبائل والقرى. ويبدو أن فهداً تحول إلى تابع لحمود ورفيق ونديم للعب مع ماجد ولد حمود . قال لى ماجد بن أخيه: "أنا أحبه، إنه هادئ جداً؛" ولكنه لم يكن يسميه "عمّى" ammy . وعندما كان يحين موعد العشاء، كان فهد يرحل، بحكم أنه رب عائلة. وكان فهد يعود من بيته ثانية إلى قهوة أبيه ليجلس فيها فترة المساء، ومن باب التواضع كان يقف برهة قصيرة فى المكان الذى كان يجرى فيه تصليح القهوة، إذا ما تصادف وجوده فيها، إلى أن ينتهى الأمير (حمود) من كلامه الخرافى.

كان فهد يبقى فى حائل أثناء قيام الأمراء بالغزو. وفى بعض المرات، كان يجد نفسه بحاجة إلى الخروج، ولذلك كان يركب جواده ويتجه صوب والده فى الميدان؛ وهنا كان عبيد يقول له: " كيف حالك الآن، يا ولدى! ماالذى جاء بك إلى هنا؟" – " والدى، سوف أنضم إلى الغزو، وآخذ نصيبا من الغنائم؛" وهنا كان عبيد يقول له: " حسن، عد إلى منزلك فى حائل، وانتظر مجيئنا، خلال فترة وجيزة، بمشيئة الله؛ وهذا هو رأيى ، ولن تخسر شيئا." هذا هو الجشع السامى فى الغنائم والفرائس متأصل فى هذا القلب الضعيف: وفى مرة أخرى كان فهد المسكين يحضر معه ابنته الجميلة إلى عبيد ويقول له 'آن الأوان لبيعها' (أى لتصبح جارية) ؛ وهنا، وتمشيا مع مزاج ولده المشتت كان عبيد يعطى ولده فهد فلوسا، وعملات فضية، ثمنا لحفيدته، وكان يطلب من فهد الاحتفاظ بها هى والفلوس. الابن الثالث، الذى يمكن قراءة شيء ما فى قسمات وجهه الشاحب غير السمح، كان شابا صغيرا متشددا جداً؛ كان يعيش منفرداً بالقرب من بوابة فهد ، ولم يحدث مطلقا أن جاء هذا الابن الثالث إلى صالة، أو مجلس والده ليكون بين إخوته.

كنت ألتقى ذلك الابن الثالث مرة أو مرتين كل شهر، أثناء مروره فى الشارع العام، وكان يحدقنى بنظرات تنطوى على كثير من المرارة؛ كان يمضى وقته مع الحريم، ويبدو أن أهل حائل لم يقيموا له وزنا. الأخ الرابع الصغير، كان اسمه فيض Feyd ، وهو صاحب قلب نظيف، ويكاد يكون شابا من عامة الناس وعمره سبعة عشر عاما. ومع ذلك، كان فيه شىء من التشوه الخلقى، فقد اكتشفت أن فى فكه صفين من الأسنان. وفى بعض الأحيان، كان فيض فى حالة تغيب الأمراء فى إجازة الربيع، أو أثناء اشتراكهم فى العمليات الحربية، هو الذى ينوب عن الأمير فى حضور المجلس اليومى ، – وفى مثل هذه الظروف – كان الأمراء يعفونه ويبقونه فى حائل. وعلى ما أذكر، كان سليمان هو الذى يلى فيض؛ وسليمان هذا ولد عديم القيمة، كما كان هناك ولد آخر اسمه عبد الله ، وكان فى عمر ماجد ولد أخو عبيد. كان عبد الله ثقيل الظل ويصلح لمرافقة صائد الفئران بدلا من حضور أى مجلس من مجالس الأمير. والولد الأخير من أبناء عبيد سقط يوم أن كان طفلا، من مكان مرتفع، الأمر الذى أفضى إلى كسر ذراع من ذراعيه، من المفصل، ونظرا لعدم وجود مجبِّر عظام فى ذلك الوقت فى هذه البلاد، ونظرا أيضا لأن الأمر" لم يكن يستدعى" إرساله إلى بلاد الرافدين، فقد" فوضوا أمره لله"، وهو الآن يتدلى ذراعه بجانبه ذاويا. كان ذلك الشاب يحضر مرارا إلى المخزن الذى كنت أقيم فيه، لكى يشحذ أو يطلب من الغريب بعض الأشياء التافهة: وعيناه المتورمتان كانتا تزيدان من قسماته المنفرة، كان يطلب منى دواءً ولكنى لن أدفع لك حسبما يقول لأنى ليس لدى نصف دولار." كان ذلك الشاب متشددا تماما، بل إنه كان على استعداد لتهديدى ووعيدى. وأمراء حائل (بحكم تربيتهم ونشأتهم بصحبة العبيد) يغلب عليهم أن تكون أرواحهم سيئة فى فترة شبابهم. ونظرا لأن عبد الله، لم يكن يرتاد قهوة أبيه، إلا نادرا، فقد كان حمود يناديه نداء بشوشا ويجلسه إلى جواره؛ كان حمود يضع ذراع أخيه حول عنق الطفل، حسبما يفعل أهل الجزيرة العربية (وذلك عندما يدللون أبناءهم الصغار وإخوانهم الصغار) ويسأله بلطف عن مرحه وسروره وكيف أمضى يومه؛ – كان ذلك، هو حال أبناء عبيد العجوز، كلهم عفون Affun ، أى بيوض غربان، وكل واحد منهم مولود بعيب خلقى، اللهم باستثناء حمود وحده. من هنا

يبدو أن السلالة كلها كانت معيبة، ولذلك كان غريبا، أن لا تظهر سبيكة من نفس معدن حمود النبيل؛ وبالرغم من جودة نوباته العقلية إلا أنها ليست جيدة بما فيه الكفاية، ولكن هذه الجودة العقلية تتوفر فى الأمير محمد.

أسرة عبيد أسرة ثرية، حتى وإن اقتصر ذلك على الأطيان المملوكة لهم فى حائل؛ وأفراد أسرة عبيد لهم نخيل أيضا فى الجوف، - وإنفاق الرجل فى الجزيرة العربية على أهل بيته وأسرته، اللهم باستثناء تعدد الزوجات الذى يبيحه الإسلام، يعد إنفاقا صغيرا إذا ما قيس بإنفاقنا. يضاف الى ذلك، أن ثراء هذه الأسرة يتمثل أيضا فى نصف محصول ثمار قرية الحيات، التى كانت تذهب، منذ قديم الأزل، إلى العنوز الذين ورثوها؛ ولكن عندما قام عبيد بطرد أولئك العنوز من قرية الحيات، أعطى الأمير طلال، ثمار هذه القرية وإيجارها لعمه هو وورثته. وأسرة عبيد سعيدة أيضا من منطلق أن سحب الثأر والانتقام لا تتراكم فوقهم فيما يتعلق بسفك دماء الأقارب. وهاهم البدو الرحل، غير المتحضرين ينظرون إلى الأحداث المؤسفة التى وقعت فى بيت عبد الله، ويتحدثون عنها وقد امتلأوا رعبا وخوفا: هذه المطامح التى ليست من الدين فى شىء، غير موجودة فى الممتلكات الصغيرة الخاصة بأبناء العموم؛ فى الصحراء. وهذا هو فيض وعبد الله يعيشان صغارا فى منزل شقيقهما حمود فى حائل، وأنا كنت أذهب لذلك المنزل، كل يوم، لعلاج فيصل، وكنت عندما أطرق حلقة الباب، يفتحونه لى، وفى بعض الأحيان كانت تفتحه لى عبدة من عبيد القصر، وهذه العبدة كانت هى ممرضة الطفل، وأحيانا أخرى كان فيض نفسه هو الذى يفتح لى الباب. وقد رأيت فيض وهو يتشاجر مع واحد من النجارين، وكانا يتشاتمان بكلام عربى كما لو كانا ندين. وفى بعض الأحيان الأخرى، كان عبد الله هو الذى يفتح الباب بنفسه، وفى بعض المرات كانت ابنة حمود هى التى تقترب من الباب، وهى فتاة بهية الطلعة، ولها ملامح والدها الباسمة والتى توحى بالعبقرية والذكاء، ولم تكن ترتدى غير ذلك الرداء البسيط المصنوع من البفتة، والمصبوغ بالنيلة الزرقاء، وبلا أية زينة ولا يمكن تمييزها عن أية فتاه أخرى من أقاربها فى القرى؛ وهذا كان هو حال تمار Tamar ابنة (سيدنا) دواد، والتى كانت تعجن الخبز وتخبزه. كان مسكنهم بسيطا للغاية، فقد كان عبارة عن حوش،

أو فناء مبنى من الطين، ومن خلفه مجموعة من الغرف والحجرات، ومنزل للحريم والعيال، لا يسمح لأحد من الغرباء بالدخول فيه. وقد رأيت خطا وصليبا معًا، مرسومين بالطباشير على جدار المدخل IX – وهذه العلامة هى الوسم الدال على ابن الرشيد. كان أبناء الشيوخ يختلطون مع أبناء الشعب فى المدينة؛ كل ما فى الأمر أنهم كانوا يتميزون عن أبناء الشعب بجودة الملابس التى كانوا يرتدونها. وبنات ابن الرشيد يشبهون طيور الأقفاص لأنهن يربين فى بيوتهن؛ والآنسات الصغار لا يراهن أحد فى الشوارع العامة خارج المنزل. وأبناء الشيوخ يشاركون فى الغزو عندما يبلغ الواحد منهم خمس عشرة سنة؛ هذا يعنى أنهم يكون قد مضى عليهم قرابة العامين من الانتهاء من الدراسة والمدرسين الذين لا يعرف الكثيرون منهم سوى الحروف الأبجدية.

ونحن عندما نتطرق إلى حكومة ابن الرشيد، التى تكاد تكون محصورة فى نطاق الأمن العام داخل دائرة كبيرة من البلدان التى يعيش فيها البدو الرحل: – نجد أن ابن الرشيد أخمد كل الصراعات الطائفية والحزبية فى المستوطنات، بل إنه أخمد وقمع أيضا الاضطرابات التى كانت تحدث فى الصحراء، مستخدما فى ذلك سيف الدين الوهابى (*)، وبذلك أصبحت أرض إسماعيل بلداً beled آمنا aman . وفى الجيل الثانى، أى فى عهد عبد الله بن الرشيد، وهى أسرة من أسر حائل الرئيسية، نجد أن عبد الله تحول إلى منفذ رئيسى لتعليمات الأمير الوهابى فى الرياض، والسبب فى ذلك أن ابن سعود هو الذى أعاد عبد الله إلى بلده حائل فى جبل شمّر: – ليكون ممثلا لابن سعود فى حملاته العسكرية النجدية، أو بالأحرى " ليكون حاكما على قبيلة العنزى،" وبخاصة على القبائل الجنوبية من هذه الأمة البدوية، التى تمتلك أراضى فى وديان النخيل فى حرة خيبر. وسرعان مانصّب عبد الله نفسه حاكما على حائل بحد السيف، وعم صيته الأرجاء المحيطة به، وبذلك أصبح محافظا لإمارة جديدة ، تفرض ضريبة مثل ضريبة العشور على كل من القرى والقبائل؛ ولكنها كانت على شكل زكاة يجرى

(*) ليس هناك دينًا وهابيًا ، والصحيح أن يقال التعاليم الدينية التى نادى بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب . (المراجع)

تحصيلها وتوريدها إلى خزانة حكومته، ولم يكن يدفع للرياض أى خراج غير هدية من الخيول التى كان يقتادها معه كل عام عندما يذهب لزيارة ابن سعود. هذه الفُردة لم يعد لها وجود الآن يعد تحلل الدولة (الإمارة) الوهابية؛ ويعد ابن الرشيد، فى الوقت الراهن، أعظم أمراء نجد. وحكومته تقوم على حكم الطوائف العربية حكما شرعيا يقوم على استعمال السيف؛ ولا أحد من هؤلاء العرب يود أن يكون تابعا لابن الرشيد نظرا لخوفهم منه. والسكان البدو، هم وسكان الواحات لا يخضعون (على حد قولهم) لأحد غير شيوخهم الطبيعيين. وقد قال لى أهل الحضر مرارا عن ابن الرشيد، حتى فى حائل نفسها "حنا Henna مملوكين mamluin "بمعنى" نحن نقيم هنا مثل العبيد تحت حكمه". وهذا هو مريض من البدو الشماليين، راح يشير إلى الوراء، عندما كان جالسا داخل المخزن الذى أقيم فيه، أشار بيده إلى الخلف مخافة أن يكشف أمره من خلال باب المخزن أو جدرانه، وراح يغمغم ويتمتم ليقول لى : "ساكن ذلك القصر ظالم ،إنه طاغية قاس." وفى حائل، ونظرا لعدم وجود معتقلات، أو أماكن للتوقيف، أو سجون فإن العقاب يكون مفاجئا، بناء على كلام الحاكم؛ ويجرى إطلاق سراح المذنب بعد توقيع الجزاء عليه.

أمراء حائل هم الذين يقومون بدور الشرطة فى الصحراء. – وقد أبلغنى الناس ذلك عن حكم الأمير متعب إذ قالوا: إن واحداً من الباعة الجائلين القلائل الذين يفدون على القبائل من البلاد السورية، كان يتردد على حائل بين الحين والآخر، جرى تجريده من ثيابه وأصيب بجروح عندما كان يتجول فى ديرة بدو الشرارات. هذا البائع الجائل الغريب جاء إلى حائل واشتكى للأمير من ذلك العدوان السافر. وهنا أوفد الأمير متعب رسلا لاستدعاء شيوخ الشرارات، كى يحضروا المذنبين ويسلموهم على الفور، ونفذ الشيوخ أمر بن الرشيد على الفور، إذ لم يجرؤ أحد منهم على عصيان ذلك الأمر، وعاد الرسل ومعهم أولئك المذنبين. كان أولئك المذنبون عبارة عن رجل بدوى واحد. وأمر الأمير متعب أن يقف ذلك البدوى فى المجلس، وسأل الغريب إن كان ذلك هو المجرم أم لا؟ وعندما أجاب الغريب قائلا : "إنه هو" قال الأمير." كلب شرارى! كيف تجرأت على ارتكاب هذه الفعلة؟" وهنا طلب الأمير. متعب من الغريب أن يتناول رمح الشرارى

الذى جاءوا به معه، وأن يفعل بالمجرم ذلك الذى فعله به. "ماهذا الذى يجب أن أفعله، يا سيادة المحافظ!" – "أغرس هذا الرمح فيه، واقتله أيضا إن كان ذلك يرضيك!" ولكن نار البائع، كانت قد بردت فى ذلك الوقت، ولم يقو على ضرب الرجل، ولكنه راح يسترحم الأمير ويتوسل إليه، وبخاصة أن أشياءه ردت إليه، أن يترك المجرم يذهب لحال سبيله. وقد تعرفت على بعض التجار الدمشقيين الذين كانوا يترددون على البدو، والذين سبق لهم زيارة حائل، وكان من بين أولئك التجار، بائع جائل مسيحى، الذى كان يقوم برحلة تجارية كل عام إلى كل من وادى السرحان والجوف. هذا التاجر، عندما علم بندرة العباءات (البشوت) فى حائل، قام بعبور النفود ومعه حمل جمل من تلك البشوت التى وصل بها إلى حائل. وتحدث إليه الأمير طلال، حديثا لينا هينا، ووافق على أن يبقى فى حائل فترة من الوقت إلى أن ينتهى من بيع بضاعته؛ ولكنه منعه "من حلق لحيته"، – ذلك القناع الذى يرتديه المسيحيون الدمشقيون عندما يكونون بين المسلمين فى الحضر.

القبائل غير الموافقة (كماسبق أن رأينا) على فيدرالية ابن الرشيد ليست على استعداد أن تهاجم بعضها بعضا: ومع ذلك هناك بعض البدو الرحل (الذين يخشون من إضعاف حائل لهم، أو بسبب بعدهم عن حائل، أو بالأحرى عن ابن الرشيد بالذات، والتى لا تلتزم التزاماً قويا بالمحافظة على حسن الجوار) الذين يذهبون إلى ابن الرشيد ويشتكون له من الهجمات والتحرشات التى يشنها رعايا ابن الرشيد عليهم، فيجدونه يرد عليهم على النحو التالى: " هذا أمر يخصكم أنتم وهم وأنا لن أكون طرفا فى الخلافات التى تنشب بين البدو." والمعروف أن كبار شيوخ العرب هم سياسيون ماكرون جداً: ومبلغ علمى أن من الصعب اكتشاف أى عيب فى حكومة ابن الرشيد، – ومع ذلك فإن أصدقائى القصمان أبلغونى بعد ذلك (بحكم أنهم أعداؤه من قبيلة عنزة) أنهم لا يحبون ابن الرشيد ولا يثنون عليه أو يطرونه.

– وأنا هنا سوف أتطرق إلى الجماعة المسلحة التى يطلقون عليها اسم «رجاجيل» الشيوخ. (وكما سبق أن قلت) فإن القسم الأكبر من الخدمات المطلوبة لابن الرشيد

يؤديها الأجانب (المغامرون والهاربون) الذين يجيئون من شرقى نجد: وبذلك يكونون من الخدم المخلصين للأمير، لأنهم مرتبطون بقيامه وبسقوطه أيضا. وإلى جانب هؤلاء «الرجاجيل»، هناك حوالى مائتى رجل آخرين فى المدينة يتقاضون منه رواتب شهرية. وقائد الحرس، وهو يشغل منصب كبير الياوران فى القصر، وهو أيضا حامل بيرق الأمير فى المعارك وفى القتال، هذا الرجل بهى الطلعة اسمه إمبارك Imbarak ولكنه رجل قوى متشدد. هذا الرجل كان غريبا من العروض، وقد رقى من مرتبة متدنية إلى ما هو عليه حاليا، بواسطة الأمراء الذين تولوا الحكم إثر بعضهم البعض،، وذلك جزاء له على كفايته الرجولية، إلى أن أصبح الآن، فى أبهى وأحلى سنواته، الذراع التنفيذية لابن الرشيد.

كان بعض المغاربة، الذين كانوا يعيشون فى حائل، يوم أن كنت أنا فيها، وكانوا يحصلون على أجورهم من ابن الرشيد. هؤلاء المغاربة شاركوا فى الاستيلاء على الجوف، فى الحملة التى جاءت من سوريا. وبعد رحيل الباشا التركى، أوكل إلى هؤلاء المغاربة حراسة واحد من البرجين، والذى كانوا يطلقون عليه اسم المارد ؛ فى حين تولت حراسة البرج الثانى جماعة قليلة من الجنود السوريين. – كل هؤلاء بقوا على شكل حامية بقيادة قائمقام، أو ممثلا مقيما للإمبراطورية العثمانية. ولكن بمرور الوقت، وعندما توقفت عنهم رواتبهم، قال هؤلاء الغربيون أصحاب الرءوس اليابسة وهم يحتقرون الإمبراطورية العثمانية 'إنهم سوف يدعون ابن الرشيد لدخول هذين البرجين. 'بل انهم ذهبوا أيضا لاغتيال الجنود السوريين، الذين ظلوا "موالين للسلطان" فى مواجهة أولئك المغاربة، بالرغم من أنهم كانوا يعانون من نفس الحال التى كان المغاربة يعانون منها. والمعروف أن المغاربة كانوا هم أصحاب اليد العليا، وعندما وصل ذلك الخبر، على وجه السرعة، إلى حائل، عاد الأمير ومعه رجاله المسلحين، وأعادوا احتلال المكان الذى سبق أن خسره على غير رغبة منه. وجرى نقل المغاربة' – وعددهم خمسة عشر شخصا – إلى حائل؛ لينضموا إلى قوات الأمير المسلحة – وجرى تعيين واحد منهم، لم يكن قد تعلم أو اعتاد ركوب الخيل، حارسا لبوابة القلعة، على أن لا يسمح لمرور أى أحد من تلك البوابة إلا بموافقة من ذلك المغربى. وفى بعض الأحيان، عندما كان

الشيوخ يتغيبون عن المدينة، كان المغاربة المسلحون هم الذين يبقون فيها، على أن يسكنوا فى القصر أثناء الليل، مخافة الهجوم عليهم من قبل البدو الأجلاف، الذين رويت لهم معجزات عن خزانة ابن الرشيد: والسبب فى ذلك أن السلام لا يستقر بين المسلحين كما أن تأمين الحياة فى عاصمة ابن الرشيد لم يكن متوفرا.

أمكن استعادة الجوف بهذه الطريقة، بعد ارتداد المغاربة منها قبل أربع سنوات من وصولى إلى حائل. هؤلاء المغاربة تزوجوا واستقروا فى المدينة؛ ولم يرحل عنها سوى اثنين فقط من هؤلاء المغاربة. كان هناك رجل آخر اسمه الحاج ابراهيم، وهو جزائرى، عمل أيام شبابه جنديا (ولايزال يذكر كلمات القيادة) مع القوات الفرنسية، وكان مسروراً إلى حد ما بالراتب الصغير وبالغذاء الهزيل الذى كان يحصل عليه من المضُيف . قال لى هذا الجزائرى: إنه سوف يغادر حائل، عندما يشتد عود طفله الصغير، الذى ولد فى حائل، ويصبح قادرا على تحمل مشاق الرحلة. كان الحاج إبراهيم الجزائرى هو والمغاربة يحتقرون أهل الجزيرة العربية باعتبارهم مخلوقات بشرية جاهلة غير متحضرة.

وحكاية الجوف يمكن أن تكون عونا لنا فى تقدير القيمة الميدانية للأعداد العربية التى كانت تواجه القوات التى كانت تحت إمرة الأتراك، والتى كانت مسلحة بالبنادق. فى غضون العام ١٨٧٢ الميلادى جردت الحكومة السورية حملة (كان السلطان التركى فى ذلك الوقت يرغب فى تمديد وتوسيع ممتلكاته فى الجزيرة العربية) لإخضاع مدينة الجوف الصحراوية، التى تبعد مسافة خمسين فرسخا عن طريق الحج من الناحية الشرقية، لطاعة السلطان. وجرى تجميع تلك القوة الصغيرة فى معسكر معان . وقد أبلغنى محمود ، الذى شارك مع هذه القوة ، أن عدد الجنود غير النظاميين كان يقدر بحوالى سبعين رجلا، أما البقية فكانت من الأطقم غير النظامية التى تمتهن الجندية عملا لها؛ وكان المغاربة الموجودون هنا، من بين أفراد هذه القوة، وكان قد جرى استئجارهم من دمشق للمشاركة فى هذه الحملة. وقد قدر لى، محمد على، الذى ذهب أيضا بصحبة الباشا، عدد أفراد هذه القوة بأكثر مما كانت عليه فى الواقع، – فقد قدر الأفراد المقاتلين

بحوالى مائتى رجل، وقدر عدد الشرطة العسكرية (الضبطية Zabtiyah) بحوالى مائة رجل، إضافة إلى خمسين رجلا من أفراد العجيل الذين يعملون فى خدمة الحج. كما أبلغنى أيضا أن محمد سعيد، ذلك الباشا الكردى هو الذى تولى قيادة تلك الحملة.

استغرقت الرحلة إلى الجوف عشر مسيرات صحراوية بصحبة الإبل المحملة. وتركز الاهتمام على جلب أكبر عدد ممكن من قراب الماء، نظرا لقلة الماء على طول الطريق. "قال محمود: ولكن بفضل الله ورحمته، سقط المطر غزيرا، مع بداية قيامنا بالحملة، الأمر الذى مكننا من الشرب من مياه برك المطر الراكدة طوال مسيرنا اليومى." وفى مساء الليلة التاسعة أوقف الباشا جنوده على بعد ثلاثه أو أربعة فراسخ من الجوف، وطلب من الجنود شب أكبر قدر ممكن من نيران الحراسة فى السهل : – واستطاع أهل المدينة الذين كانوا يستطلعون العدو من أبراجهم، رؤية كل تلك الأضواء فى السماء، الأمر الذى بدت معه الصحراء وكأنها تحترق. وأثناء نوبة الحراسة الأولى مر بعض من بدو الشرارات على هؤلاء الجنود – والشرارات هم من البدو الرحل الذين ليسوا على وفاق مع الإمبراطورية العثمانية، كما أنهم يرون أنهم مظلومون بفعل (استبداد) ابن الرشيد؛ وراح هؤلاء الشرارات يحكون عجائب ومعجزات فى تلك الليلة، فى مدينة الجوف، عن ذلك الجيش الكبير من عسكر السلطان! " قالوا: لقد مررنا على المنطقة التى كانوا يعسكرون فيها؛ وعددهم لا يمكن أن يقل عن أربعين ألف رجل. لقد رأيناهم، ونحن نقسم بالله، أنهم كانوا يتحلقون بمعدل عشرين أو أربعين فرداً حول كل جورة من جور النار؛ فى بعض هذه الجور كانوا يعزفون على الطمبور، وحول بعض الجور الأخرى كانوا يرقصون؛ كما أن سراياهم لا تعد؛ وبوسع المرء أن يسير حوالى أربع ساعات بين مواقد النار! – وخرج الشيوخ من المدينة فى الليلة نفسها وسلموا مفاتيحها، وأخضعوا أنفسهم للباشا الذى احتل المكان احتلالا سلميا عندما طلع النهار.

عندما وصلت ابن الرشيد أخبار استيلاء الدولة (الإمبراطورية العثمانية) على مدينته الحلوة فى الشمال، بادر بإرسال الرسالة التالية إلى الباشا العثمانى:

" كما دخلت الجوف بدون قتال، أرحل عنها الآن بالطريقة نفسها؛ وإذا لم تفعل ذلك، فسوف أجيء أنا لإخراجك منها."

وصل ابن الرشيد إلى النفود وعبرها، ومعه «رجاجيله» وقروييه راكبين إبلهم؛ وتبعته سحابة كبيرة من البدو التابعين له (أخبرني محمد على أن العدد وصل إلى حوالى عشرة آلاف، ولكننا نقول إن ذلك العدد يقدر بحوالى ألف رجل على أكثر تقدير). كانت هناك أيضا بعض المدافع القديمة فى الأبراج: ولكن الباشا فى مواجهة ذلك كانت لديه قطعة مدفعية إنجليزية من مدفعية الجبال، وكانت تلك القطعة محملة على ظهر واحد من البغال أثناء هذه الحملة. وقد أصابت الدانة الأولى واحدا من البدو الراكبين فى منتصفه، وكان ذلك من مسافة بعيدة تماما؛ ولم يتبق من جسم ذلك المصاب شيئًا سوى قدميه اللتان بقيتا معلقتين فى الشدَّاد. وبث ذلك المنظر الرعب والفزع فى قلوب هؤلاء العرب، - وها هو الموت الأسود (الطاعون) ينتشر بينهم، فى الوقت الذى ظنوا أنهم فى مأمن منه! يضاف إلى ذلك أن دانات الإمبراطورية العثمانية راحت تنهال عليهم من كل حدب وصوب؛ وبالرغم من كل ذلك واصل أولئك الأعراب هجومهم. وقد وقف محمود مع القوة المكونة من سبعين رجلا، خارج أسوار المدينة وبواباتها ومعهم أسلحتهم الصغيرة لمقاومة القوات العثمانية، فى حين راحت بقيه القوة تواصل هجومها على تلك القوات من الأبراج مستخدمة فى ذلك بنادقها. وعندما أدرك ابن الرشيد أن «رجاجيله» هم والبدو المصاحبين لهم لن يسعفوه، وأن أعداءه أصبحوا داخل أسوار المدينة، وعندما أدرك أيضا أن هذه البداية الموجهة ضده حسمت لصالح الدولة (الإمبراطورية العثمانية) بادر ابن الرشيد إلى دعوة الباشا إلى التفاوض لعقد هدنة؛ ووثق ابن الرشيد بدعوته عندما اكتشف أن الباشا كان من الأتراك العقلانيين، وأنه كان على استعداد للموافقة على قبول الأتعاب، أو إن شئت فقل: لقبول الثمن. التقى ابن الرشيد الباشا، وعلى حد قول العرب "فهما بعضهما بعضا". قال محمد بن الرشيد: أعطيك الجوف عندئذ ". - وقال محمد سعيد: "نحن فى الجوف بالفعل؛ وبمشيئة الله سوف نستولى على حائل." وفى النهاية؛ اتفق الاثنان على أن تظل الجوف تابعة للأمير، ولكن من ممتلكات الإمبراطورية العثمانية؛ تعهد ابن الرشيد أن يدفع كل عام، لدمشق مبلغ ١٥٠٠ كراون مجيدى:

كما اتفقا أيضا على إقامة قائمقام ومعه حامية سورية، فى مدينة الجوف. وراح كل طرف من هذين الطرفين ينظر إلى الآخر نظرة إعجاب وتقدير؛ وترتب على ذلك أن بقى كل من ابن الرشيد ومحمد سعيد صديقان طوال حياتهما.

عثرت على بعض من البدو بين رجاجيل بن الرشيد. فقد أقنعهما الفقر والفاقة بالتخلى عن حياة التجوال فى الصحراء. صحيح أن الأتعاب التى كان الأمير يعطيهم إياها، كانت صغيرة ومتواضعة، ولكنها لم تكن تتأخر مطلقا، هذا بالإضافة إلى الحصول على بيت من اللبن فى حائل، وتعيينات غذائية أيضا. والذى لا شك فيه أن أولئك الأعراب الذين كانوا فى حائل كانوا من قبل يعملون فى خدمة الأمير الوهابى! – وأنا أعرف مجموعة من رجال الرياض، الذين كانوا ضيوفا مقيمين عند ابن الرشيد. هؤلاء الضيوف كانوا يشاركون فى كل عمليات الغزو التى كان ابن الرشيد يقوم بها، يضاف إلى ذلك أن الأمير الذى كان يعيرهم الإبل التى كانوا يركبونها، كان ينعم عليهم أيضا، بين الحين والآخر، بغيار من الملابس بالإضافة إلى أربعة أو خمسة ريالات؛ وبالإضافة إلى ذلك الذى كانوا يحصلون عليه من الغزو، كان ذلك الذى يحصل عليه الواحد منهم كل عام يقدر بحوالى عشرين ريالا؛ هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يتناولون طعامهم فى المضيف كل يوم. استمرت حياة هؤلاء الضيوف ستة أعوام على هذه الوتيرة، ولم يكونوا متزوجين، بل كان من بينهم شخص ضرير، الذى كان يلزم المنزل عندما يذهب رفاقه للمشاركه فى الغزو. – كان المنزل الذى يقيم فيه هؤلاء الضيوف واحداً من المساكن الخالية الكثيرة التابعة للأمير، – كان لذلك المنزل فناء مسوَّر للحيوانات الخاصة بهؤلاء الضيوف، كما كان فيه أيضا غرفتان من اللبن، ويقع هذا المنزل خلف السوق فى الشارع العلوى المؤدى إلى قفار Gofar . كنت أذهب، فى كثير من الأحيان، لزيارة هؤلاء الضيوف فى ذلك المنزل، نظرا لأنه كان من بينهم شخص على دراية كبيرة بكثير من القبائل البدوية المترحلة وبالمعلقات أيضا، التى كان يقرؤها على لفائف من الرَّق (الجلد). وقالوا لى مرارا إننى إذا ما ذهبت إلى الرياض فسوف ألقى معاملة طيبة. سألتهم، "ابن سعود (رد على ذلك المتكلم، بإشارة توافقت مع حركة يده نحو الأرض) يغوص يوما بعد يوم ولكن الرشيد ها – ها – ها – ها – ها يرتفع

كل يوم! ويكبر دوما." وكان يتردد فى ذلك الوقت فى حائل أن "ابن Ibn سعود Saud خُربان Khurban" بمعنى (إنه مدمر ومحطم).

كان عبد الله، الأمير الوهابى، ولد فيصل الضرير المسن، قد جاء قبل عامين إلى هذه المنطقة، هاربا، ومطرودا من حكومته بسبب تمرد شقيقه الأصغر سعود. بقى عبد الله فى هذه المنطقة جائلا فترة من الزمن، بلا أى عون أو سند من أى نوع كان، وكان ينصب خيمته بين بدو العرب وتحت رعاية بن الرشيد. وأرسل الأمير محمد إلى عبد الله الوهابى مقدما له الأغنام، والإبل، والخيول وكل الأشياء الضرورية، اللهم باستثناء منعه من دخول حائل: ولكن عقب وفاة سعود، عاد عبد الله بسلام، إلى ذلك القليل الذى تبقى له من ممتلكاته السابقة. وفى هذه الأثناء تزوج عبد الله من واحدة من شقيقات محمد بن الرشيد؛ – ولكن بعد وفاة هذه الزوجة تزوج عبد الله واحدة من شقيقات حمود بن الرشيد: ولكن، اعتبارا من العام الماضى يقال أنه نشب بينهما نوع من العداء؛ ويرجع ذلك العداء إلى مداهمة محمد بن الرشيد القاسية لقبيلة عتيبة الحليف القديم لعبد الله الوهابى (والتى لم تكن خاضعة له فى ذلك الوقت) ، – وعندما كنت فى حائل وصل إليها رسول (مراسل) قادما من الرياض. وبينما كنت أتناول القهوة معه فى يوم من الأيام، وعندما رآنى استخدم القلم الرصاص، راح يسأل الحاضرين، "خبرنى، يامن تعرفه، هل النصرانى ساحر!" وفيما عدا ذلك لم يكشف عن أية كراهية نحوى، ولكنه كان ينظر إلىَّ نظرة العربى إلى الضيف وإلى الغريب. وقال له أحد الحاضرين "إخ الآن! إذا ما ذهب هذا (الرجل) إلى الرياض، هل سيقتلونه هناك؟" وهنا رد الرسول (المراسل) قائلا: "لا، أظن ذلك أنهم سيعاملونه بلطف، ويتركونه يواصل رحلته ؛ ألم يقم نصارى آخرين بزيارة الرياض!"

حائل، فى الوقت الحالى، هى مركز الجزيرة العربية البدوى الرعوى، على هذا الجانب من جبل الطويق، وفى نطاق طريق الحج. ويصل إلى الأمير ابن الرشيد، فى معظم الأحيان، مبعوثين من القبائل، غير التابعة أو الخاضعة له، ولكنها تجد نفسها مضطرة إلى التعامل معه بشكل من الأشكال. ومن أبرز أولئك الذين يتعاملون مع ابن

الرشيد، بدو القحطان، الذين ينحدرون من الدم اليمنى القديم والذين يطلقون عليهم إسم عرب الجنوب، – كما يطلقون على نسل إسماعيل اسم عرب الشمال. عرب الجنوب هؤلاء كانوا يتعجبون من أولئك الذين كانوا ينعتونهم ببدو القحطان، أو إن شئت فقل: بنى قحطان." (وهم يقولون) إن هذا فى لغة العنوز،" (نسبة إلى قبيلة عنزة). وقد قالوا لى إن جد أمهم هو النبى هود،' وأن بدايتهم كانت من جبال الطور el-Tor فى منطقة عسير. قالوا: إن إسماعين Ismayin (إسماعيل) كان شقيق جدهم هود. هؤلاء القحطان لم يسمعوا عن وجود قبر هود (عليه السلام) فى الجزء الجنوبى من البلاد، وليس لديهم علم بأى موروث عن انهيار سد مأرب (كان الأمر يبدو لهم مثل حكايات الزوجات) [وانهيار سد مأرب هذا هو الذى أسفر عن تفرق العرب القدامى فى عالم الجزيرة العربية] . وقد تغنى لى أحدهم ببعض الأبيات من طقطوقة (أغنية صغيرة) يحفظها كل القحطانيين يقول مطلعها: "رمح النبىّ هود، وصل إلى القبة الزرقاء." سألنى بعضهم، "بالله ! هل يعبد النصارى الأصنام asnam "، – مبلغ علمى أن هذه الكلمة (أصنام) ليست فى موروث عرب الشمال. كان القحطان فى حائل عبارة عن مجموعتين: فقد جاءوا مع شيخهم الكبير حيزان من القصيم؛ التى أغار عليها قسم من القحطانيين خلال هذين العامين، وجاءت تلك الإغارة على بعض الأجزاء المهجورة من ديرة العنوز التى كان يعيش فيها ابن Ibn مجلَّد Mujallad ، الذى طرده عبيد من حائل. كانت خيام القحطان تقدر بحوالى مائتى خيمة، وكانوا قد طردوا من ديرتهم فى اليمن، – حيث تبقى هناك البقية الباقية من أولئك القحطان.

هؤلاء القبليون الجنوبيون الذين يتجولون فى أراضى وداخل حدود بن الرشيد، أرسلوا لابن الرشيد، للمرة الثانية، يطلبون التعامل مع أمير الشمر، ويعرضون عليه أن يكونوا أعرابا له، على أن يقوموا بدفع العشور لحائل؛ ولكن ابن الرشيد، الذى لم يكن يرغب أو يود لتلك القبيلة الخائنة، الإقامة فى نجد طردهم ولم يوافق على طلبهم وقال لهم؛ – 'قد يرعون ماشيتهم فى المنطقة المجاورة له على سبيل الضيافة، بشرط ألا يجروا المتاعب أو يخلقونها لأنفسهم، على أن ينظر هو إليهم كحلفاء، ولن يفرض عليهم ضرائب، أو يحرض القبائل عليهم.' وهنا رد مندوبو القحطان على الأمير:

" والله ! يا سيادة المحافظ، ألسنا إخوانك؟ أليس ابن الرشيد جعفرى، من فخذ العبدة Abda الشمر Shammar الذين ينحدرون من عبيدة Abida القحطانية؟" ولكن الأمير محمد رد عليهم رداً جافاً،"نحن لسنا منكم، ونحن لن نساعدكم ولن نصيبكم بأذى." ولما كان أولئك القحطان مكروهين فى الرياض، - نظراً لتحطم السلطة الوهابية القديمة بفضل خيانتهم، - فقد بدأ أعراب نجد يضغطون عليهم، كما بدأت قبيلة عتيبة تضغط عليهم أيضا من ناحية الجنوب، وأصبح أولئك القحطان المعتدون مطوقين بواسطة أعداء أقوياء.

وأنا أرى أن هؤلاء المبعوثين كانوا يتكلمون العربية البدوية، التى تختلف اختلافا طفيفا عن لهجة بدو نجد، اللهم باستثناء أنهم يتكلمون بطلاقة أكثر من طلاقة أهل نجد. وعندما كان أولئك القحطانيون يقيمون فى الجنوب، كانوا يحصلون على التمر من وادى الدواسر؛ وقد قال لى أحدهم: إن النخيل فى تلك المنطقة - يمتد بلا انقطاع على امتداد مسافة ثلاث رحلات سيرا بالإبل: وقال لى: إن المنطقة عبارة عن منخفض رملى وأن الماء فيه من الآبار. وقال لى أيضا: إن من يعيشون فى وادى الدواسر، ليسوا أناسا سيئين" ولكنهم يكرمون الضيف." وإن تحزبهم هو الذى يتعب البلاد، وإن القرى المتجاورة دائما ماتنشب بينها الصراعات والخلاف. فالأفلاج EL-Aflaj (جمع فلج Falaj - أو بلج Peleq ، كما يقول بعض المتعلمين - والتى معناها' انقسام الجبال') تقع فى جبل Jebel طويق Tuey (k)ch ، كما أن أهل القرى من الدواسر. وقدر المسافة من الرياض إلى الأفلاج بمسير ثلاث رحلات، ومن الرياض إلى وادى بيشة بمسير حوالى اثنتى عشرة رحلة بالإبل، وذكر لى الأسماء التالية على سبيل المثال، الفراع، السُّلَيِّل، ليلى، البديعة، سيلة، الهدا، حمَّر، السيْح: وسألنى البعض منهم إن كنت قد سمعت عن قصر ابن شدَّاد Ibn Shaddad . والثيران البرية، فى بلادهم، وهم يطلقون عليها اسم الوضيحى. والمؤكد أن أولئك القحطانيين لا يختلفون عن البدو الآخرين الذين سبق أن تعرفت عليهم؛ كان أولئك القحطانيون سمرا، ولم يكونوا داكنى البشرة، مثل الكثير من أعراب الشمال.

كان القحطانيون الذين تكلموا معى فى المسحاب غاية فى السرور عندما أكدت لهم عراقة جنسهم، على مسمع ومرأى من أهل نجد، الذين لم يكونوا قد سمعوا، من قبل أى شىء عن هذا الموضوع. وقد عزمنى أولئك القحطانيون لزيارتهم فى مخزنهم (مكان نومهم) حيث كانوا يشربون القهوة مع الشيخ. هؤلاء القحطان لم يكونوا يحضرون إلى المقهى العام داخل القصر، سواء أكان ذلك بسبب دخان التبغ، أم بسبب عدائهم مع غالبية أفراد القبائل الأخرى: كانوا يشربون قهوة الصباح وقهوة العصر، وكذلك قهوة المساء على انفراد وبعيدا عن الآخرين؛ ولكن كانت حبوب البن تصلهم من مطبخ الأمير. وبعد العشاء كنت أبحث عنهم خارج القهوة: وكان شيخهم الشاب حيزان يبادر بأن يطلب منى الجلوس إلى جواره على جلد السرج، وكان يقدم لى عن طيب خاطر، أول فنجان من فناجيل القهوة. كان ذلك الشيخ شابا جميلا، وجهه يوحى بالرجولة هو وقامته، لم يكن فيه أى شىء يحتاج إلى تغيير، كان مثل الزهرة بين كل أولئك الأعراب الذين رأتهم عيناى: عيناه لم تخبرا العوز فى الخلاء. كانت تبدو على محياه، بحكم صغر السن، القوة ومتانة العود: لم تكن اللحية البيضاء التى تشبه الحليب، قد بدأت تظهر على وجه ذلك الشاب. كان لذلك الشاب أطول خصلتين مجدولتين من الشعر على جانبى رأسه، وكان الجميع يرون هاتين الخصلتين؛ كان رجلا كبيرا بمعنى الكلمة، وله ساقان قويتان: – ولكن كل ذلك أشياء زائلة.

كان يدور بينهم نقاش دينى؛ وحدد شيخهم الشاب المتشدد واجب المسلم فى ثلاثة أمور، – " الصلوات الخمس كل يوم، وصيام رمضان، ثم الزكاة." – كم أن الساميين داوديين! إنهم شديدوا التدين وشديدو التمسك فى آن واحد! كلامهم باستمرار (وبدون نفاق) عن الدين، وهم يحفظون ما يقولون عن ظهر قلب، وكلامهم بالنسبة لنا حزين، وغير مريح ومفاجئ بل وغريب علينا. وبعد ذلك تحول حديثهم عن الدين لينصب علىَّ وعلى نصرانيتى. وهنا قال حيزان لواحد من جماعته: "ناولنى قدَّاميتى،" والقدامية هى عبارة عن سكين معقوف يعلقه الرجل فى حزامه. وهنا تناول ذلك الرجل القُّدامية وأخرجها من جرابها، وحول نفسه فى اتجاهى وقال لى: صلىّ على النبى، وأجبته، "نحن كلنا نعبد الله. أنا لا يمكن أن أتنازل عن اسمىَ أو عن كونى نصرانيًا،

وأنت لا يمكن أن تتنازل عن كونك مسلما إذا ماكنت رجلا بمعنى الكلمة." – ولكن بينما كان يضع السكين فى اتجاه صدرى، قلت له: "ماهذا الخنجر؟ وأبلغ هؤلاء الحاضرين، إن كنت تريد أن تفعل بى شرًا ؟" ثم ألقى الشيخ السكين، كما لو كان خجل من رؤية الآخرين له وهو يهددنى، وأنا الضيف الذى جاء لتناول القهوة معه؛ وبعد أن عاد إلى حاله السابق، راح يجيب على كل أسئلتى؛ "قال: تعال، فى الصباح، وسوف نقدم لك القهوة؛ ثم اسألنى عن كل ما تريد، وسوف أقول لك كل شىء بحق وحقيقة ." وعندما قلت له: "لديكم الكثير من اليهود فى بلدكم اليمن،" بدا القلق والاضطراب على ذلك الشيخ الصغير. "وهذا السكين، أليس من هناك؟" – من نجران. "وفى نجران، أليس الصُّنَّاع هناك من اليهود؟ ألم يصنع هذه السكين لك حداد يهودى؟" وراح ذلك البدوى الشاب الجاهل، الذى ظن أنى أعرف الحقيقة، يعض أسنانه ويقول: الله **ullah** يُسلَّط **Yusullat** عليهم **aleyhim** بمعنى "الله يسلط عليهم (من ينزل بهم الشر)." – وعندما عدت إليهم فى الصباح، وجدت حيزان وحده؛ كان الشيخ الشاب ينتظرنى بأدب جم لأنهم يقدرون الحفاظ على الوعد. وقال لى الشيخ: "هيا بنا نذهب إلى الرُّبَّة (الجماعة) فى المخزن المجاور، فقد عزمونا للذهاب إلى هناك، وسوف نشرب القهوة هناك."

عندما زرت أولئك القحطانيين ذات مساء ، كى أستمع إلى أناشيدهم وأغانيهم، لم يرد علىَّ الشيخ حيزان السلام. وعقب تناولى فنجان القهوة بادر الشيخ الشاب، مثلما حدث من قبل، يطلب قداميته من أحد الواقفين؛ وتناول السلاح، وبنظراته القاسية توجه نحوى مرة ثانية، وراح يقول: "صلى على النبى" ـ أجبته، "أوه! أيها البدوى الجاهل، كيف لى أن أكون عارفا بدينك أكثر منك!" – "أنت أعرف بدينى أكثر منى!" – صلِّ على النبى." – (وهنا قال بعض الحاضرين من القحطانيين:"لا، يا حيزان! إنه ضيف.") – "إذا كنت ترتقى إلى عمر هذه اللحية، فسوف تعرف أيها الشاب الصغير، أنك يجب أن لا تمارس العنف ضد ضيف من الضيوف." ظننت أننى إذا ما قلت: 'أنا ضيف سيد وصاحب القلعة الموجودة هناك فى ذلك المكان' فلربما استجاب لكلامى.قائلا: إن الأمير سمح له بذلك! وفى اللحظة نفسها تملكنى إحساس فريد، بل قناعة تامة، تملكت روحى، [إن وفاة ذلك الشاب غدت قاب قوسين أو أدنى؛ بالرغم من ذلك فإن حياتى التى كان

يتهددها الخطر كل يوم، هى وصحتى الضعيفة إلا أنى كنت واثقا بأن عمرى وبقائى على قيد الحياة سيدوم إلى ما بعد حياة ذلك الشاب المتهور. "قلت له: قهوتك كانت فى حلقى، عندما رفعت سكينك علَّى؛ ولكن، قل لى أيها القحطانى: ألا تحترم طقوس الأعراب الآخرين؟" ورد على بعض القحطان، "نعم، اللهّ! نحن نلاحظ تلك الطقوس ونراعيها؛" أما حيزان فقد لاذ بالصمت، نظرا لأن بقية الجماعة كانت تعارضه وتعترض على ما يفعله، والعرب لا يتفقون مطلقا اللهم إلا فى مسألة الدين: وهذا أمر يتعين على من يغامر بالتجوال بينهم، أن يراعيه حفاظا على سلامته. – هذا الحيزان، بعد ذلك بشهور قلائل، جرى اغتياله على سبيل الانتقام بأيدى أصدقائه (فى معركة من المعارك). هذا الحادث كان مثار الحديث والقيل والقال فى المدينة، كما جرى تردده أيضا فى القصر، نظرا لأن إمبارك سألنى عن هذا الحادث عندما كنا فى القهوة الكبيرة: – "يا خليل، ماذا حدث للقحطانيين؟ وماذا حدث لحيزان، عندما تناول سكينه ليطعنك به، ألم تكن تخشى الموت أو تخاف منه؟" – "لو كنت أخاف من كل كلمة، هل تظن، أننى كنت سأجرؤ على دخول هذا البلد العربى؟ ولكن، هل تظن أن تصرف ذلك الشاب الجاهل كان تصرفا سليما؟" – وهنا فضل إمبارك الذى كان ناطقا باسم الأمير، أن يلوذ بالصمت.

وتتردد على ألسنة عرب نجد حكايات غاية فى الرداءة عن القحطانيين. ويقال عن القحطانيين إنهم يأكلون لحوم أعدائهم؛ وهناك مثل رذيل يطلق على من يكون من هؤلاء الجزارين؛ وهذا المثل يقول: 'الذيل، هو أفضل المشويات.' ويقال إن القحطانيين بلا إيمان، ويقولون عنهم أيضا: إنهم "يثورون لكلمة، ويشرعون فى استعمال السلاح لأتفه الأسباب." وقد حكى الناس لى فى القصيم حكاية غريبة عن أولئك القحطانيين، هذه الحكاية حكاها لى واحد كان شاهد عيان فيها: 'كان بعض القحطانيين عائدين على ظهور مطاياهم بعد الغزو وتصادف أن مروا على قرية الرس ar- Russ ؛ وعندها عثروا على عبد من قرية الرس خارج حدود القرية، أمسكوا به وقيدوه، وأخذوه معهم. وقبل حلول المساء، نزل القحطانيون عن مطاياهم فى صحراء النفود، وكان الرجال يكاد يغمى عليهم من شدة الجوع الذى تملكهم طول أيام عدة؛ – وقالوا فيما بينهم وبين أنفسهم: 'سنقتل

الأسير ونأكله:' واقتلعوا أيضا بعض الأشجار وجمعوا حطبا لإشعال نار كبيرة. – سوف يلقون ذلك العبد الأسود فى النار، بعد أن يذبحوه، ويشووا جسمه كاملا بنفس الطريقة التى يشوى بها الرحالة والصيادون طرائدهم فى الصحراء. ولكن ظهرت لهذه الجماعة جماعة أخرى كانت تمر عبر الكثبان الرملية! وهنا سارع القحطانيون إلى ركوب مطاياهم مرة أخرى؛ وعندما وجدوا أن تلك الجماعة كانت أكبر منهم عددا، لم يتوانوا وإنما لاذوا بالفرار شأنهم شأن البدو عندما يهربون ويولون الأدبار. هؤلاء الذين جاءوا فى إثر القحطانيين كانوا من القصيم، وفكوا قيود العبد المسكين الذى راح يحكى لهم حكايته (غير المعقولة). – ولكن هؤلاء القحطان شديدى التطرف، وشديدى التدين حتى فى جرائمهم. ولذلك يقول أهل نجد عن القحطانيين: على سبيل ضرب المثل " القحطانيون يقتلون الرجل لشرب الدخان، فى حين أنهم يشربون دم الإنسان." ولكن مشايخ عنيزة أخبرونى أن " القحطانيين فى اليمن يؤيدون قسمهم وإيمانهم بشرب الدم البشرى المتخثر؛ ويقال عنهم أيضا:إن القحطانى لايخسر حزامه المصنوع من الجلد، إلا بعد أن يقتل عدواً." حدث أن زار شيخ قحطانى آخر حائلا قبل عامين، – وبعد مناقشة شئونهم قال له الأمير ابن الرشيد: "فى كل الأماكن التى تجولنا خلالها فى الجنوب، عبر ديار البدو لم نرقط مقبرة واحدة للقحطانيين!" ويقال إن الشيخ رد على ابن الرشيد (متفاخرا)، "إى والله يا سيادة المحافظ، لقد رأيت قبور القحطان فى الهواء! – الغربان، والرخام، والعقاب." كان يود القول: إن الجثث تلقى بلا دفن، – وهذا هو ما يحدث فى المعارك الميدانية فى الجزيرة العربية؛ هذا يعنى أن من يموتون من الجانب الخاسر تترك جثثهم فى العراء بلا دفن، وقد حدث ذلك لحيزان، شيخ القحطانيين عندما قتل فى فصل الصيف: كان ذلك بعد أسبوع من مرورى على ذلك الشيخ، وكان أفراد القوافل يتحاشون المرور بالقرب من تلك المنطقة التى يوجد فيها جثمان حيزان.

هناك بعض التقولات على سلالة بن الرشيد النسبية. يقال: إن الشمر، على العكس من القبائل الرعوية البدوية الكبيرة، ليس لها جد كبير، ولكنها على حد قول الرأى السائد فى نجد، تتكون من سلالات نسبية مختلفة. هناك أيضا من يقولون: إن عميد هذه القبيلة اسمه شمر Shimmer . فخوذ الشمر وبطونهم، أو بالأحرى سلالتهم

النسبية، حَصلْتُ عليها من بدوى متعلم من العنوز، أو إن شئت فقل من سباع Sbaa العنوز، إن أردت المزيد من الدقة. وهذا الرجل يعيش فى حائل. وفخذ العبدة Abda هو فرع من عبيدة Abida قحطان التى منها الجعافرة Gaafar الذين ينحدر منهم ابن الرشيد هو وأسرته؛ والبطون الأخرى من سلالات مختلفة وليست من أصل واحد، – السنجارة Sinjara ، التومان Tuman ، إسلام Eslam ، الدغيرات Deqhreyrat ، غريث، عمود، الفداغرة، ثابت ، عفاريت Afarit ، الزميل ، حمازان، السايح، خروسى، زوبة، شمر – طوجة (فى العراق).

لا أحد من أهل البادية يعرف القراءة أو الكتابة؛ ولذلك سررت عندما التقيت هنا بدويا متعلماً، والذى كان بمثابة العين بين هذا الجمع الكئيب من الناس لأنه كان متعلما تعليما جيداً وجادا أيضا، فضلا عن أن ذهنه كان مكرساً للدراسات الجيدة. كان اسم ذلك الرجل رشيد Rashid، وكان قد ربِّى أو نشأ ليكون باحثا، عندما كان فى الرياض؛ ولكنه تخلى عن الدولة الوهابية التى أصابها التفكك والاضمحلال، وانتقل إلى حائل، التى أصبح فيها واحداً من أولئك الذين يثق بهم حمود بشكل خاص ويعملون فى خدمته. كان، ذلك الرجل يقوم، فى كل عام، برحلة علمية، إلى واحدة من المناطق البعيدة والنائية. وقد ذهب فى العام الماضى، على سبيل المثال، إلى أرض إسرائيل، حيث زار مدينة بيت لحم،" (قال بنغمة توحى بالتدين) المكان الذى ولد فيه (المسيح عليه السلام) ، " كما زار أيضا المدينة المقدسة. هذه الفئة من سكان الجزيرة العربية فيها موهبة عقلية، لاينقصها سوى إتاحة الفرصة لها، كى تتعلم على وجه السرعة؛ – كان تعليم هؤلاء الناس يجرى بطريقة المحاكاة. كان رشيد رجلا جيدا يتمتع بسعة الأفق [كنت أتطلع إلى أن يكون لى رفيق مثل هذا الرجل فى أسفارى] ، ولكنه كان يمتاز بالأدب ودماثة الخلق فى حضور الرؤساء: هذا الرشيد لم يجرؤ حتى على أن يراه الناس وهو يتحدث إلى النصرانى، مخافة أن يؤدى ذلك إلى إغضاب شخصية من الشخصيات الكبيرة. وهناك من يقول إن هناك مستوطنة نائية فى العروض al-Aruth ، وأن هذه المستوطنه من سلالة الشمر النسبية، وأن اسم تلك القرية هو علّى Aleyi وأن من فيها ينعتون بالقرونية Kuruniyah .

عثرت ذات يوم على رشيد عندما كان يحمل كتاب الجغرافيا معه فى المسحاب Meshab – (الميدان العام). وعندما قال لى : إن ماجدا أرسله بالكتاب إلى شخص متعلم فى حائل، هو القاضى، رافقته إلى المكان الذى يقيم فيه ذلك القاضى؛ ولكن عندما وصلنا إلى دار القاضى لم نجده فيها. وقد بلغنى أن ذلك القاضى كان قد أعد شجرة من أشجار السلالات النسبية، أوضح فيها السلالات العربية النسبية المختلفة. وذهبت لزيارته فى يوم آخر، ولكنى لم أهتدِ إلى بيته البعيد، نظرا لأن سيَّاف الأمير، الذى التقيته بينما كان يرتدى ملابسه المرحة، ضللنى، ودلنى على طريق غير الطريق الحقيقى؛ وعندما وصلت وجدت ذلك الرجل يجلس أمامى ! يا لهم من أوغاد فى الهزر وعدم الجد، وبخاصة فى توافه الأمور، كما أنهم تسيطر عليهم الشكوك الآسيوية. وعندما رحت ألومه وأوبخه لم يرد على بكلمة واحدة، وكل ما فعله هو أن راح يتحسس حد سيفه، ليجعلنى أتخيل أنه لديه إرادة قوية فى تجريب قوته وقوة ذلك السيف المعدنى على عنقى. هذا الرجل نفسه لم يكن على استعداد بعد ذلك لحمايتى من صلف الآخرين وبذاءتهم.

ألقيت السلام على القاضى، الذى رد علىَّ السلام بشق الأنفس وقال: ماذا تريد؟ – وهذا هو كل تعليمهم، الذى يتمثل فى إجادة اللغة العربية. كان القاضى جالسا بجوار جدار بيته فى تراب الشارع. كل جاذبية هؤلاء الناس تتساوى مع خفتهم، ففى البداية أرانى القاضى ساعته، ثم سألنى، "ماهذا الذى هو مكتوب على مينة تلك الساعة؟" ثم أرسل بعد ذلك فى طلب كتاب من الكتب، وأطلعنى على مدوناته لبعض النقوش القديمة، التى وجدها على الصخور فى المنطقة المجاورة لمنزله (كانت تلك النقوش مدونة بالخط الحميرى) ، ثم طلب القاضى منى، "هل هذه النقوش يونانية، أم مسكوفية (روسية)؟ – نظرا لأن المسكوف كانوا قد سكنوا هذه المنطقة فى الزمن القديم." وأجبته قائلا: "هل بلغ بك الجهل إلى حد عدم معرفتك للغتك! هذه هى الكتابة الحميرية، أو أن شئت فقل الكتابة اليمنية القديمة فى الجزيرة العربية. بلغنى أنك رجل متعلم، ونحن يمكن أن نكون أصدقاء من منطلق هذه الأرضية المشتركة. وبالرغم من أن اسمك اسم مسلم وبالرغم من أن اسمى اسم مسيحى فنحن جميعا نؤمن بإله واحد؛"

– "عدم تدين المسيحيين واضح لى : وهم يقولون: 'الله له ولد، وبذلك يصبح الإله الواحد أكثر من إله'! لا! ولكنك إذا ما ابتعدت عن طريق عبادة الأصنام وأصبحت مسلما، فقد نتفق ونتعاون مع بعضنا البعض." – "وأنا أصبح مسلما! أنا أظن أنك لايمكن أن تصبح نصرانيا؛ وأنا أيضا لا يمكن أبدا أن أحمل اسم دينك: ومع ذلك ، هل يمكن أن تربط الصداقة بيننا فى هذه الدنيا، وهل يمكن أن نكون باحثين عن المعرفة الخالصة." – " معرفة المسيحيين! هذا أمر صغير، وقريب من عدم التعليم." – " يا لك من متعلم فأنت لا تعرف حتى حروف لغتك. شكل الأرض الجافة غير معروف لك، كما أنك لا تعرف أيضا أسماء مئات البلدان والشعوب العظيمة؛ ولكننا عن طريق الملاحة نكون قريبين بل وجيران لكل الأمم والشعوب، نحن نطوق العالم بكلامنا خلال لحظة واحدة. ألم يقل سليمان بن داود، 'إن عظمة الروح الإنسانيه تتجلى فى البحث فى الأعمال البادية للرب'؟ ألا تعرف تلك الكتب المقدسة، ولكن أطفالنا يقرءون هذه الأشياء بفهم كامل." – هذا المتحذلق لم يستطع اكتشاف لغته؛ ووقع فى الخطأ عندما جر الغريب وأغراه بالجدل. لقد استرضاه هو ومن كانوا يجلسون معه.

التقيت رشيد بعد ذلك فقال لى متسائلا:" كيف وجدته ، إنه يعرف الكثير؟" – "القرآن، المعلقات، القاموس، بكل دقائقه وألقابه (أصوات الحركة وطريقة كتابتها)، وهو لا يعرف شيئا غير ذلك." – "إنها الحقيقة ، وأنا أحسب أنك لم تستلطفه؛" والسبب فى ذلك أن ذلك القاضى المتعلم والمتدين يبدو شخصية نكدة أمام أهل بلده. وبينما كنا نتحدث عن النقوش القديمة التى فى قهوة عبيد Abeyd ، قال مدرس ماجد لحمود متسائلا، "ألم نشاهد الصخور المليئة بهذه النقوش فى منطقة جُبَّة Gubba ؟ "وجبة هذه عبارة عن قرية صغيرة نائية من قرى النفود وتقع بالقرب من جبل شمَّر، على الطريق المؤدية إلى الجوف.

وفى نجد وجدت أن دراسة الحروف الأبجدية والقراءة والكتابة تحظى بتكريم كبير بين كبار تجار عنيزة. ولكن هذه الدراسة كانت ماتزال فى بدايتها فى حائل: بالرغم من أن حمود هو والأمير، يقال إن لديهما (ولكن من ذا الذى يصدق ذلك!) مايزيد على

ألفين أو ثلاثة آلاف من المجلدات. وقد عثرت، فى قهوة عبيد، على ما لا يزيد على اثنى عشر كتابا داخل أكياس مصنوعة من قماش القطن، ومجلدة بجلود حمراء اللون من الجلد الطبيعى: – وكلما قل عدد هذه المجلدات، زادت سعادتى، السبب فى ذلك أن الأمراء لا يمضون كل حياتهم فى الالتحاق بالمدرسة. كان حمود يسألنى فى بعض الأحيان عن فن الطباعة، 'أليس بوسعى أن أدله على الطريقة التى تتم بها الطباعة؟' ولكنى عندما قلت له: إن بوسعه أن يشترى لنفسه مطبعة من بغداد، نظير مبلغ ليس كبير من المال، لم يتشجع، نظرا لأنهم لا يودون الإنفاق بأى شكل كان. والعجيب حقا أن هؤلاء الناس يمضون حياتهم وهم على جهل بالعالم الطبيعى شأنهم فى ذلك شأن الجهل المطبق الذى يخيم على عقول البدو! سألنى حمود، فى إحدى الأمسيات، "يا خليل، هل يرى النصارى القمر؟" – قد يكون يقصد من وراء ذلك – 'أن الهلال الجديد هو رمز سلطان الإسلام، وبالتالى يصبح القمر دلالة على المسلمين؛ – ومن ثم لا يكون القمر من الأديان الأخرى!'

كانت توجد فى حائل أربع مدارس عامة. كان ناظر إحداها شاب صغير متزمت، هذا الناظر كان يردد فى كل يوم على جمهور الجهلة الجالسين فى القهوة تلك الأقوال المأثورة التى تعجبه وتسترعى انتباهه: كان صوته أجشا، وكانت نظرات عينيه تشبه نظرات الثعابين. ذات يوم، نادانى ذلك الناظر بصوت مرتفع، وهو يبتسم أمام جميع الحاضرين فى المقهى، "يا خليل، لماذا تظل ساكنا بلا حراك على هذا النحو الذى أنت عليه؟ ألا تود الحضور إلى بيتى، فى الغد؟ سوف أضع أمامك البراهين والأدلة، وسوف أستخرج لك هذه الأدلة من كتابك المقدس. سوف أقرأ نبوءة حزقيال هى والأدلة الأخرى؛ وعندها سوف تقول، بمشيئة الله، 'أنا، يا من كنت أعمى طوال فترة من الزمن، أرى الآن وأشهد بأن الله واحد، وأن محمداً رسول الله.' – "هل ستصيب رأسى بالصداع بسبب أسئلتك الكثيرة عن الدين! فى الوقت الذى أجىء فيه إلى هنا لأشرب فنجالا من القهوة مع الأصدقاء." وهنا رد البدو نيابة عنى قائلين: "إنه يقول الحق؛ اهدأ، أيها الشاب، ودع هذا الغريب ينعم هو الآخر بالهدوء." – " قال الشاب: أنا آمل أن يرتد هذا الرجل عن دينه ويدخل فى الإسلام؛ ألم يحدث ذلك مع اليهودى الذى جاء قبله إلى هذا المكان؟"

ونظرا لأنى كنت أرغب فى رؤية أو مشاهدة كتاب مكتوب باللغة العربية فى حائل عن "حزقيال النبى"! فقد ذهبت فى عصر اليوم التالى إلى منزل رشيد، الذى كان بالقرب من المسحاب (الميدان العام)، بالقرب من فناء جاف عام، لا طعم له مثل الرجل تماما. "آه ! قال الرجل: مرحبا بك، آمل أن تكون جئت ثانية طلبا لمزيد من الحقيقة." وضع الرجل تمرا أمام الغريب، ثم أحضر لى كتابه العامر بالحكمة؛ وجدت أن الكتاب من تأليف أحد المتخصصين فى العلوم الإسلامية، وقد اقتبس ذلك المؤلف عن أقوال ذلك النبى، ولكن هذه الاقتباسات لم تكن تلقى أذنا صاغية ولا معنى لها فى الآذان البدوية غير المتحضرة. والعرب أصحاب بديهة فضولية للاستفادة من هذا العلم، غير أن العرب جميعا غير منطقيين إلى حد كبير من ناحية الدين. "(تساءلت) حسن! هل لديك أكثر مما قلت؟ وكنت أنا بدورى أتطلع إلى إصلاح نفسى! " ولكن ذلك الشاب، الذى كان يتطلع إلى أن آخذ غروره مأخذ الجد والثقة، استاء من نفسه، وتركته أنا على ذلك الحال. كانت الإمارة هى التى تدفع أجر ناظر المدرسة؛ فقد كان يتناول طعامه فى المضيف، كما كان يتلقى، إلى جانب الطعام، بضع ريالات كل عام، وغياراً من الملابس.

والعرب يمكن كسب ودهم عن طريق المعاملة الطيبة وعن طريق حسن النية، وهم يستسلمون للجدال والحجج العادلة المنصفة، وقبل أن أغادر حائل كان كل أعدائى القدامى يضمرون لى الخير فى قلوبهم. يضاف إلى ذلك أن الكلام الواضح الخالى من التَّملُّق كان أمرا مقبولا عندهم، وعند أولئك السَّواح، أو إن شئت فقل: أولئك الذين سافروا إلى كل من مصر وسوريا، إضافة إلى أولئك الذين كانوا يقتادون خيول الأمير لبيعها فى مدينة بومباى فى الهند، التى قالوا لى إنهم شاهدوا فيها سباق الخيل؛ هؤلاء الناس كانوا ينظرون إلى الغريب، شأنه شأنهم هم أنفسهم عندما كانوا فى بلاد أجنبية، نظرة فهم وبنية حسنة أيضا. "(هم يقولون): هؤلاء الناس، لم يتعلموا الأخلاق الطيبة، ولم يصححوا أنفسهم نتيجة مشاهدة البلاد الأجنبية: وإلا لماذا يضايقونك، يا خليل، فى مسألة دينك؛ ومسألة الدين هذه لا إكراه فيها. – أما نحن فقد ثقفنا أنفسنا نتيجة الأسفار؛ كما شاهدنا النصارى أيضا، وشاهدنا ثراءهم، وعبقريتهم وذكاءهم، كما شاهدنا أيضا عدالتهم وحريتهم."

فيما يتعلق بالطقس، الذى اتسم بالجفاف والحرارة الشديدة بعد مجيئى إلى حائل، أصبح مائلا إلى البرودة فى الوقت الراهن. والجليد الذى يمكن أن نشاهده فى غالبية فصول الشتاء فوق بعض القمم الجبلية فى الجزيرة العربية، يكاد يكون منعدما تماما فى نجد بالرغم من أن متوسط الارتفاع يصل إلى حوالى ٤٠٠٠ قدم. وهم هنا يقولون: إن ذلك قد يحدث مرة واحدة كل أربعين عاماً. ويقال أيضا إنهم شاهدوا ذلك الجليد قبل عامين فى فصل الشتاء، حيث بقى الجليد على الأرض طوال ثلاثة أيام: الأمر الذى أدى إلى الاحتفاظ بالإبل داخل المنازل، وأن الكثير من هذه الإبل نفقت بسبب ذلك الطقس السيئ وبسبب الجوع أيضا.

كان يجرى فى القهوة الكبيرة إشعال نار فى الصباح وفى المساء وقبل وصول الجميع إلى القهوة لالتماس شىء من الدفء هناك بصحبة البدو. وذات مساء وقبل وصول الجميع الى القهوة، دخلت إليها كى أدفئ نفسى بالقرب من موقد النار. – "اخرج ! (صاح مقدم القهوة الذى كان رجلا عصبى المزاج) واترك النار للضيوف الذين سيصلون بعد برهة قصيرة." وهنا دخل بعض البدو وجلسوا بجوارى. صاح مصلّح القهوة " قلت أرجع إلى الوراء!" "لحظة واحدة، أيها الرجل، وسوف أكون قد تدفأت؛ ألسنا كلنا ضيوف على الأمير؟" همس بعض البدو فى أذنى قائلين: "كان من الأفضل أن ننتقل من مكاننا، وأن لا نعطيهم الفرصة." هذا القهوجى، كان يتحدانى كل يوم، وكان يتدخل دوما فى كلامى مع البدو، وبخاصة عندما كان يسألنى أحدهم قائلا: "إلى أين ستذهب بعد ذلك، يا خليل؟" – "إن شاء الله إلى جهنم! (يصيح عامل تقديم القهوة)" بلغنى أن ذلك القهوجى كان واحداً من الخدم الذين جاءوا من عنيزة فى منطقة القصيم(*)؛ ولكن نظرا لتحية شيوخ البدو له كل يوم، فقد بدأ يشعر بقيمته وأهميته. وخطر ببالى أن التخلى عن عنف خادم من الخدم، يتطلب تضافر أناس آخرين من حائل. صاح القهوجى، بصوت عال، فى البدوى الذى كان يجلس إلى جوارى، "ناولنى

(*) تطلق منطقة القصيم على بلدتى بريدة وعنيزة . وتشتمل بريدة على أكثر من ثمانين قرية ، وعنيزة على أكثر من ستة عشر قرية كبيرة ، ومدينة بريدة هى عاصمة القصيم . (المراجع)

ذلك المشعاب" (الذى يمسك به البدو دائما فى أيديهم،) وبعد أن تلقف المشعاب من البدوى، ضربنى به ذلك العبد بكل قوته. وهنا وقف البدو من حولى وقد اضطربت نظراتهم وقسمات وجوههم، – هذا يعنى أنهم أنفسهم لم يكونوا يشعرون بالأمن؛ لم يكن من بين أولئك البدو أحد من الشيوخ، حتى ينبس ببنت شفة وكل مافعلوه هو أنهم أشاروا إلى بالابتعاد معهم عن المكان، وأن نجلس على بعد مسافة قصيرة من المدفأة. كان من الخطورة بمكان أن أدافع عن نفسى بين الجبناء أو الوضعاء؛ والسبب فى ذلك، أنه إذا ماشاع فى المدينة أن النصرانى وضع يده على مسلم ، فإن ذلك يمكن أن يشعل نار الحقد والغل فى قلوب الكثيرين الذين هم على استعداد للثأر من ذلك النصرانى. بل إن الأمر يبلّغ إلى الأمير، ويتعين عليه البت فى مثل هذا الأمر، وطوال فترة وجودى فى حائل كانت الفرصة سانحة للجميع كى يشتمونى ويسبونى. ومررت من الممر إلى محل سكن الأمير، وطرقت الباب الحديدى، وسمعت صوت الصبى العبد الذى يحرس الباب من الداخل، يقول للحارس إن الطارق هو خليل النصرانى. وهنا أرسل الأمير ناصر كى يستطلع ذلك الذى جئت أنا من أجله، ثم ذهبت بعد ذلك للجلوس فى المسحاب . وأخيرا جاء من داخل القصر شخص كان بصحبة الأمير، وقال إن الأمير يطلب حضور القهوجى على وجه السرعة، وقال له:" لماذا! الله يلعن أبوك، هل ضربت النصرانى؟" – "والله، يا سيادة المحافظ (أجاب البائس الذى كان يرتعد خوفا) أنا لم ألمسه!" – ولكن حمود نهض واقفا ثم اتجه صوب محمد، ثم قبل يد ولد عمه، وطلب منه مستسمحًا إياه، أن يعفو عن القهوجى 'الذى كان مسكينا'. "اذهب لحال سبيلك أيها القهوجى، قال الأمير، واذا ما بلغنى أو سمعت عن أى شىء آخر قمت به فسوف تطرد من عملك." ولما كنت قد تخليت عن القهوجى؛ فإن القهوجى الثانى حضر مرارا إلى المخزن الذى كنت أقيم فيه، وكان يلح فى الطلب منى أن أعاود الذهاب إلى القهوة وأكون بينهم؛ ولكنى أجبته قائلا: "أين يستطيع ضيوف الأمير أن يكونوا فى مأمن من الغضب ؟"

الفصل الثالث

الرحيل عن حائل : الرحلة إلى خيبر

'الحج الفارسى'. كلام إمبارك. لصوص المدينة. حجاج الجوف فى حائل. بدو فى الحج. القافلة المتجهة إلى مكة تصل من الشمال. حاج إيطالى فى حائل. مرور الفرس على القصيم. أخطار قاتلة فى مكة. تقاطع طرق فى حائل – رحلة خيبر. تعامل إمبارك العنيف. جواز سفر ابن الرشيد. الرحيل عن حائل. – قفار. سيادين، الباعة البدو الجائلون. قرية القصر. هجرة البديعة. مغامرة فى الصحراء. عيادة بن عجوين. قاسم بن باراك. صالح الرفيق."إنهم الملائكة". وادى الرُّماح. شقيقة قاسم. المضى قدما مع صالح مرة ثانية. ترك النصرانى أمام خيام غريبة. كرم أولئك البدو. ضيف الله. المضى قدما مع غروسيب من منزل عيادة. الحُرة تتراءى لنا. منزل الحطيم فى الحّرة. السلالة النسبية للحطيم. ميدان الحمم البركانية. تقسيم المياه فى شمالى الجزيرة العربية. ممر خطير. الحرة الكبرى (خيبر). قرية الحيات. الممرات المائية فى الحّرة. إنذار بالقرب من خيبر. الجراد. غروسيب يعانى من اضطراب عقلى. وادى جُلاس. قرية خيبر. الحصن. مسجد قديم.

كان موعد الحج يقترب، ـ وهذه هى قافلة ابن الرشيد القادمة من بلاد الرافدين والتى يطلق عليها اسم 'الحج الفارسى' متجهة إلى مكة المكرمة: – وبعد أن وجدت أن الطفل فيصل قد بدأ يتماثل للشفاء ، بدأت أفكر فى الرحيل عن حائل، نظرا لأنى لم أكن أشعر بعد بالارتياح أو الانشراح فى حائل. ولما كان الأمير قد تحدث معى عن التعدين والمعادن والمناجم، فقد حزرت أنه ربما أرسل معى بعض رجاله ركوبا على ظهور الخيل، بحثا عن المعادن هنا وهناك فى سائر أنحاء حائل: – ولكنه عندما أردف

قائلا: " هناك أيضا رمل لامع فى بعض أنحاء الخلاء (الصحراء) وأن ذلك الرمل يشبه الذهب المصقول،" رددت عليه ردًا واضحا كفيل بتثبيط همة أى واحد من العرب. كان حمود قد تكلم معى أيضا عن البحث عن المعادن.

عزمنى إمبارك ذات صباح على مصاحبته إلى منزله " لشرب القهوة، " فقد كان لإمبارك منزل طيب يقع بجوار المسجد، فى المنطقة الواقعة خلف المسحاب. وقد وجدنا طفله الصغير يلعب فى فناء المنزل: وتناول هذا الأب العسكرى الطفل بين يديه مغدقا عليه من رقة العرب وحبهم لأطفالهم. ولكن الأوروبى يسبغ أول شىء من حبه المنزلى على أم أولاده؛ ولكن الزوجات العربيات لا يقابلن أزواجهن بالابتسامات والعيون التى تفيض بالحب، وذلك من باب الترحيب بأزواجهن عندما يرجعون من أعمالهم، والسبب فى ذلك أن المرأة تنظر إلى أنها مجرد خادمة مسترقة، اشتراها الزوج من والديها وفى أفضل الأحوال يكون حب الزوج مقسما بين الزوجات. صاح الطفل، "هو! النصرانى، أنت لا تستطيع النظر إلى السماء!" – "انظر يا ولدى، أنا أستطيع النظر إليها أيضا مثلك تماما ، ومثل أى شخص آخر بل وأفضل منه؛ تعال حُبَّنَى hubbiny ! بمعنى " اقترب منى وقبلنى؛ "والسبب فى ذلك أن الغرباء يقبلون أطفال مضيفيهم العرب. – وعندما سألنى بعض صغار أفراد الحاشية، فين ربك ، بمعنى 'أين ربك؟ كنت أقول لهم وبصورة قاطعة إن ربى 'فى كل kull مكان بمعنى' الله فى كل مكان،' وقد لقى هذا الكلام استلطافا كبيرا من جانب السائلين، وأصبح يتردد على ألسنة أولئك الذين كانوا فى القصر.

"قال إمبارك، ونحن نجلس إلى جوار المدفأة: يا خليل نحن نريد لك أن تقيم معنا فى حائل؛ وكل المطلوب منك هو الدخول فى الإسلام، وأن هى إلا كلمة بسيطة وسرعان ما ينتهى كل شىء. يضاف إلى ذلك، إنك إن أردت معرفة المزيد عن هذا البلد، فسوف تتهيأ لك فرصا كثيرة، من خلال إيفادك فى مهام أميرية هنا وهناك. وسوف يرَفَّعُك الأمير إلى منصب عال، ويعطيك منزلا تمضى فيه حياتك فى راحة وانشراح بال، دون أن تشغل الهموم بالك، وتروح تمد ساقيك أمام مدفأتك الخاصة بك. وبالرغم من أن

مانقدمه لرجل مثلك لا يمكن أن يرقى إلى ماتجده فى بلدك، إلا أنك يجب أن تفهم أن عودتك إلى هناك أمر بعيد (المنال) لأن ذلك يحتم عليك اجتياز المزيد من الأخطار من جديد." - والذى لا شك فيه أن إمبارك كان ناطقا باسم الأمير، وقد وعد الأمير خيرا ، وأن ذلك المنصب الذى كان يود وضعى فيه هو جباية الضرائب وتحصيلها؛ والسبب فى ذلك أن العرب جميعا يثقون بالنصارى فيما يتعلق بالمعاملات المالية.

تلكم الريالات الستة أو السبعة التى عادت علّى من بيع ناقتى، - قمت بوضعها مع بعض الفكة المعدنية فى صندوق من الورق مع بعض الأدوية، ولكنى اكتشفت، فى أحد الأيام، سرقة أربعة ريالات منها، ولم يتبق لى منها سوى ريالين فقط مع بعض الفكة المعدنية؛ ويبدو أن اللص ترك هذين الريالين من باب التدين العربى أو من باب الخرافة التى تقول بأن اللص إذا ما سرق المبلغ كله سيجلب على نفسه اللعنة المسيحية من ناحية، وعقاب السماء من الناحية الأخرى. وقد انصبت شكوك أصدقائى على شخصين. (الرجل الأبكم) الذى كان يتردد على سكنى بصورة متكررة، دون سبب يذكر، وعلى رجل بدوى آخر، من «رجاجيل» حائل، صاحب مزاج حاد؛ هذا الرجل هو الذى اشترى ناقتى، وقد تردد على مخزنى مرات كثيرة بعد ذلك طلبا للعلاج، حيث كان يعانى من الرمد. وها أنا أسمعه الآن يتحدث عن كيس نقود أحد الحجاج الفرس، وهاهم الجيران وجدتهم يؤكدون أن ذلك الرجل قد نشل الكثير من أشيائهم ونقودهم. وعندما تكلمت عن الضرر الذى تسبب فيه ذلك الرجل للأمير حمود، راح يحاول التأثير على الحاضرين حتى لا يصدقوا كلامى. نظرت بعد ذلك إلى كيس نقودى ولم يكن به سوى ثلاثين ريالاً! وهنا أعطيت خيمتى للسمسار نظير أربعة أو خمسة ريالات. قام ذلك الدلاّل ببيع هذه الخيمة لنبيل شاب، الذى سيقطع خلال حج هذا العام فى فصل الشتاء مسافه ١٦٠ فرسخ أو أكثر فى الخلاء (الصحراء)، حتى يصل إلى مكة. وهنا وضع إمبارك سيفه فوق زور الرجل الأبكم، ولكن الأبكم احتج بكل قواه بأن ذلك الذنب المنسوب إليه ليس صحيحا ولاعلاقة له به. أما فيما يتعلق بالبدوى فلم نجد له أثرا فى حائل.

كانت مقدمة الحج قد وصلت إلى حائل بالفعل؛ وبلغنا أن عدد الحجاج فى ذلك العام لم يكن كبيرا. وها أنا أشهد الآن ذلك التجمع السنوى الذى يحدث فى حائل ويتجمع فيه البشر القادمين من القرى ومن القبائل، حتى يتمكنوا من الانضمام إلى قافلة الحج، كما أشاهد أيضا أصحاب الحرف الصغيرة الذين جاءوا للاتجار مع قافلة الحج أثناء مرورها: – أحضر بعض هؤلاء الحرفيين والتجار معهم التمور من القصيم التى تبعد أكثر من ألف ميل عن حائل. وهذه هى جماعة جاءت من الجوف وتقيم فى المخازن المجاورة للمخزن الذى أقيم أنا فيه؛ كان عدد هذه الجماعة يزيد على خمسين فردا، قطعوا رحلة استمرت عشرة أيام عبر صحراء النفود خلال طقس شتوى عاصف وأمطار شتوية أيضا: ولكن هذه المسافة لا تمثل سوى ثلث واحد فقط من مسيرتهم الطويلة (التى تبلغ حوالي سبعمائة ميل) إلى مكة (المكرمة). سألت واحداً منهم جاءنى فى الصباح وهو يرتعد من البرد، عن حالة وهو يقوم بهذه الرحلة الدينية والعودة منها خلال شهور الشتاء وبلا مأوى. " قال، أولئك الذين يموتون، يتوفاهم الله؛ ومن يعيشون ويبقون على قيد الحياة يرعاهم الله ويحفظهم." أبلغنى هؤلاء الناس أن المسافة من الجوف إلى بلده مشهد el. Meshed تقدر بحوالى ثمانية رحلات، وإلى دمشق بحوالى تسع رحلات بالإبل؛ والمسافة إلى معان تقدر بحوالى خمسة أيام من المسير بالإبل، أو تسع ليالى عندما تكون الإبل مُحَمَّلة. وكثير من أهل الجوف يفدون على الحوران كل عام بحثا عن العمل، والدروز يستأجرون أولئك العمال فى تنظيف وصيانة برك مياه الأمطار: – وهذا هو أسلوب الدروز الذى يوحى بالغيرة، لأنهم يعيشون معتمدين على أنفسهم، فهم يعيشون فى الأماكن التى يندر فيها وجود الماء. وملح الجوف تنقل منه كمية كبيرة الى الحوران. وقرويو الجوف يقولون إنهم ينحدرون من سكان بلاد الرافدين، ومن السوريين، ومن عرب نجد. وسوق حائل، فى تلك الأيام، كان يعج بالبدو الذين لهم أعمال يقومون بها فى ذلك الاجتماع السنوى، وبخاصة بيع الإبل. وهذا هو المسحاب (الميدان العام) قد امتلأ بالإبل الباركة. هذه الجموع الزائرة، كان يقدم لها فى الوقت المحدد الطعام بواسطة كل من مفرِّج Mufarraj ومعه أولئك الذين يعملون فى المطبخ العام، كما كان يجرى دعوة أولئك الزائرين للإفطار والعشاء فى المُضيف.

وصل الحج بعد ذلك بثلاثة أيام، وكان معظم أفراده من العجم ، أى الأغراب الذين يتكلمون لغة غير العربية؛ وكلمة العجم يقصد بها بلاد فارس بشكل عام. وصل الحج مع بداية فترة العصر، وعلى حد فهمى كان ذلك يوافق اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر. كانت تتقدم قافلة الحج الفارسية جماعة كبيرة من البدو، كانت هى بدورها تستعد للقيام بالحج؛ وبذلك يمكن القول إن إجمالى عدد هؤلاء الحجاج يقدر بحوالى ألف شخص. كان كثير من الأعراب الذين وصلوا إلى حائل من عنوز سوريا، ومن السباع، الذين تقع ديرتهم بالقرب من حلب فى أقصى الشمال. ومع هذه القافلة السنوية الكبيرة جاءت أيضا طوابير كبيرة من الإبل المحملة بالبضائع الخاصة بتجار حائل؛ وشاهدت اثنتى عشر جملا تدخل من بوابة القلعة، وكانت تحمل بالات من القماش، الذى كان يستخدم فى صناعة غيارات الملابس التى كان الأمير يهديها للبدو الذين يزورونه. مرت قافلة الحج من ناحية الغرب حول المدينة، وقصدت مكان المخيم أمام بوابة قفار، وأمام المقر الصيفى، وفى منطقة ماء Ma السماء es.Sama . كانت القافلة قد غادرت بغداد قبل اثنى عشرة ليلة. أحصيت حوالى خمسين خيمة من الخيام الكبيرة: لم يكن عدد الخيام يزيد عن ذلك بأى حال من الأحوال، وقد بلغنى أن ذلك العدد كان أقل من نصف عدد الحجاج فى الموسم السابق؛ ولكن هذا العام كان من أعوام الجهاد الكبير الذى يثير الاضطراب فى الإسلام ، ولذلك انصرف القسم الأكبر من الفرس (تخوفا من الجهاد) إلى السفر بالطريق البحرى الطويل إلى مكة. لم أر أحدا من أولئك الفرس وقد وضع على رأسه غطاء الرأس الفارسى، أو يرتدى حتى الملابس الفارسية: ويتزايد عدد أفراد الحج عند العودة بسبب أولئك الذين يزورون المدينة المنورة، ويعودون إلىٰ بلادهم عن طريق مدينه مشهد.

تعجبت من التشابه الغريب بين عكاكمة (المسيحيون الذين يعملون فى خدمة الحج) بغداد وعكاكمة دمشق الذين تصيبهم الأسفار بالإرهاق والتعب، وكل طائفة منهما ترتدى ملابس مميزة؛ هؤلاء العكاكمة لهم وجوه تشبه القمر فى هاتين المدينتين: أى فى دمشق وبغداد. كان فى المنزل الذى يقيم فيه هؤلاء العكاكمة سوق للقصابين، وشاهدت فى ذلك السوق البائعات الحضريات وهن جالسات وأمامهن سلال مليئة

بالخبز المخمور والتمر؛ بعض هؤلاء الزوجات – المغطيات بشكل يصعب معه التعرف عليهن – كن يبعن أيضا لبن الخض! وهذه التجارة أقل من أن توصف بالأمانة، حتى فى بلدان البدو الرُّحل. والحجاج يرتاحون فى حائل طوال يومين، ويرحلون فى صباح اليوم الثالث. وفى الأمسية الأخيرة استوقفنى واحد فى الشارع، ليسألنى إن كنت سأرافق الحج الى مكة! وعندما تعرفت على صوته فى ضوء الشفق أجبته بكلمة واحدة، "عنبر Ambar ، لا يمكن!"، واكتفى هو منى بهذا الرد. عنبر هذا أحد الأحباش الذين ولدوا فى منزل بن الرشيد، وهو حاليا يشغل منصب أمير الحج، أو إن شئت فقل: قائد قافلة الحج – قائد هذه القافلة، كما سبق أن أوضحنا هو الأمير محمد؛ أما عنيبر Aneybar ، فهو الأخ الأكبر لعنبر، وقد حصل الاثنان على حريتهما، أو إن شئت فقل: أعتقهما ابن الرشيد، أما والدهما فكان عبدًا لعبد الله بن الرشيد. وبذلك أصبح كل من عنبر وعنيبر أخوين حرين للأمراء الذين تولوا الحكم بعد ذلك، وكانا محل ثقة هؤلاء الأمراء؛ يضاف إلى ذلك أن عنبر وعنيبر كانا يرفلان فى النعمة فى حائل.

وفى صباح اليوم الذى غادرت فيه قافلة الحج حائل، وقفت فى المنْزل، كى أشاهد تلك القافلة أثناء رحيلها. وهنا وقف واحد من أولئك الذين كانوا برفقة جماعة من تجار بغداد، والذى كان يرتدى زيا مماثلا لزيهم، كما كان يرتدى أيضا كمبازا سوريا ، توقف ليتحدث معى. سألته،' ما الذى يريد؟' – وظننت أنه قد يطلب دواء: ولكنه رد على قائلا: "إذا ما تكلمت بالفرنسية، هل ستفهمنى؟" – " سوف أفهم ذلك! ولكن من أى بلد أنت؟" شاهدت وجها غريبا شاحبا، وله لحية كستنائية اللون: – من ذا الذى لم يلتق شخصا شبيها بذلك فى بلاد الليفانت؛ أو إن شئت فقل: البلاد الواقعة فى شرقى البحر الأبيض المتوسط؟' وأجابنى قائلا: "أنا إيطالى، من تورينو." – "وما الذى جاء بك فى هذه الرحلة الخطرة؟ يا ربى! قد يذبحوك فيما بينهم؛ هل أنت مسلم؟" – "نعم." – " أنت تقر' بإلاههم الواحد، وأن محمدًا رسول الله' – وهذا يستحيل أن يسمعونه منى، أربكهم الله!" – "نعم، أنا أقر ذلك، وأنا مسلم فعلا؛ وأنا أقوم برحلتى هذه من هذا المنطلق."

كان هناك صخب ناتج عن طى الخيام وتحميلها فى منطقة المخيم؛ كانت هناك بعض الخيام التى جرى تحميلها بالفعل: – وبينما كنا نتصافح سألت ذلك الإيطالى، "ما اسمك؟ وتذكر اسمى، لأن هذه أماكن خطرة وزمن خطير أيضا." ورد على الرجل الإيطالى فى شيئ من التردد – قد يكون ما يقوله صحيحا، وربما كان يريد التهرب منى – اسمى : فرانسيسكو Francesco فيرارى Ferrari . وهنا بدأت القافلة تتحرك، وسارع الرجل إلى الركوب فوق الجمل.

المسافة من حائل إلى مكة (المكرمة) لا تقل عن خمسمائة ميل، عبر صحراء شاسعة، تقطعها القافلة خلال خمس عشرة مسيرة طويلة، والقافلة لا تسير فى المسار نفسه كل عام، وإنما طبقا للأخبار التى ترد عن الآبار التى يشرب الناس منها فى ذلك الموسم (وهذه الآبار مملوكة للأعراب بطبيعة الحال)، وطبقا أيضا لحالة الخطر والسلم فى الصحراء التى تمر خلالها قافلة 'الحج. ومعروف أن قافلة حج ابن الرشيد تمر بالقرب من خيبر، ولكن جرت العادة أن تسلك تلك القافلة طريقا يبدأ من بلدة المستجدة Mustajidda أو من بئر سميراء Semira الشهيرة، ثم تتجه شرقا من حرة القشيب el-Kesshub ، ومن حرة القشيب تواصل المسير مدة يومين آخرين لتهبط نازلة بعد ذلك إلى أراضى مكة عن طريق وادى الليمون Laymun . والعجيب فى الأمر أن قبيلة عتيبة (ألد أعداء ابن الرشيد) لا تتربص بتلك القافلة: ومع ذلك هناك سرية من «رجاجيل» بن الرشيد تكون بصحبة القافلة للدفاع عن الحج.

كانت تلك القافلة، فى الماضى، عندما تأتى من بلاد الرافدين متجهة إلى مكة (المكرمة) تمر من طريق القصيم، بكفالة من كل من عنيزة وبريدة؛ فى هذه المسيرات الصحراوية الطويلة كان أولئك الذين يعتنقون العقيدة الفارسية (*)، قد اعتادوا على تحمل القسوة والعنف، وبخاصة تلك القوة وذلك العنف الذى كان يصبهما عليهم مهنا Mahanna ، ذلك المحتال والمغتصب الذى كان شيخا لبلدة بريدة، والذى يروى الناس

(*) ليست هناك عقيدة فارسية والأصح أن يقال المذهب الشيعى . (المراجع)

عنه حكايات كثيرة. ولقد بلغني ما يلي من شخص أعجمي فقير: عندما وصلت القافلة إلى بلدة بريدة، جرى تقييد هذا الأعجمي المسكين بأوامر من مهنا، وضربوه أيضا بأوامر أيضا من ذلك الرجل؛ وواصل الأمير تهديده لذلك الأعجمي المسكين، – "يا ابن الكلب، أعطني الجنيهات الأربعة التي معك، وإلا ستموت في هذا المكان." وعرب المدن عندما يثورون يتحولون إلى أرواح همجية غير متحضرة، كما يتحول عداؤهم إلى مايشبه وحشية الحيوانات البرية، هذا يعني أن قسوة هؤلاء الناس لا تعرف الحدود؛ ومن الحكمة والعقل أن لا يحاول أحد استثارتهم أو إغضابهم . – كان قد مضى حتى ذلك الحين حوالي اثني عشر عاما على بدء مجيء كل حجاج البر "الفارسيين" عن طريق المشهد el. Meshed تحت الحراسة المشددة من أمير الشمَّر: – وهم يدفعون له إتاوة، (تصديقا للكلام) مقدارها مائة ريال، عن كل فرد من أفراد القافلة. – وقد شاهدت فرسا يقتادها أحد الأشخاص خلال المدينة، وكانت الفرس في غاية الجمال: وكان الأمير محمد قد أرسل تلك الفرس (هديته المبكرة) مع الحج على سبيل الهدية لشريف مكة. كانت الساعة الثامنة عندما بدأت قافلة الحج في التحرك؛ ولكن ركاب الإبل من أهل حائل، كانوا ما يزالون في الطريق حتى يلحقوا بقافلة الإبل البطيئة عند منتصف النهار.

ومع تحسن طالعي عدت من جديد إلى بلدان آمنة ومسالمة، وفيها تركت خبرا عن ذلك الإيطالي الجوَّال الذي اسمه "فيراري"، وكان ذلك في قنصليته في سوريا، وسألت عنه، ولكن بلا جدوى، في إيطاليا: – أحسست أن ذلك من واجبي، نظرا للخطر الشديد الذي يتهدد رءوس أولئك الأجانب الذين يغامرون بالتواجد في مكة، – التي سمعت من بعض المسلمين الثقات أنه يندر أن يمر موسم من مواسم الحج دون إعدام بعض الأشخاص باعتبارهم مسيحيين معتدين. كان هناك واحد من أفراد تلك القوافل يتحدث حديثا (صادقا) مع رفيق له من مسيحي دمشق (وهو واحد من معارفي المشهورين)، في العام السابق لقيامي برحلتي، فقال: وإنهم شاهدوا شخصين غريبين جرى أخذهما من منى Mona عند نهاية الحج ، عندما ضبطوهما وهما يدونان أشياء في كراساتهما. وعندما حققوا معهما اتضح أنهما "مسيحيان"؛ وقد شهد إعدامهما، وهذا الأمر يحدث

فى سنوات كثيرة أو أن شئت فقل: فى معظم السنوات!' وحكوماتنا المسيحية تعانى من ذلك التعصب الدينى منذ زمن طويل! لماذا لا يكون لتلك الحكومات ممثلين مقيمين للشرطة الدولية فى مكة؟ لماذا لم يحتلوا هذه المدينة باسم صحة الأمم، أو باسم الدين الإنسانى المشترك، ولأن أساس تجارة الرقيق موجود هناك؟ كان أحرى بالحكومات المسيحية، التى تسيطر على أية منطقة من المناطق الإسلامية، أن تأخذ فى حسبانها، أنها حتى ذلك الوقت، لن تستطيع أبدا الاستيلاء على هذه المناطق. وفى كل عام، تُداس فى مكة، كل الأسماء غير الإسلامية، وهم يقولون: إنُ 'بلد الرسول' لابد أن يظل بلا مساس، وأن أية قوة دنيوية لا يمكن أن تصل إليهم فى هذه المدينة. هذه البلدة هى "بيت الله"، (...)(*).

لم يدخل حائل أحد من الحجاج الغرباء طول فترة الراحة، – ولربما كان ذلك راجعا إلى خوف الحجاج من العرب. لم يدخل المدينة سوى بعض الدراويش البغداديين، وقد دخلوها طلباً لتناول الطعام فى إطار الكرم الشعبى أو العام؛ وقد رأيت إلى جوار أولئك الدراويش مجموعة من المغامرين المرحين، الذين كانوا يقبلون الدعوة على العشاء، على سبيل التجديد فى الجزيرة العربية. فى ذلك اليوم كانت كل أروقة المضيف تعج بالزائرين؛ فى ذلك اليوم تناولت العشاء عند الشفق، وعندما انتهيت من تناول العشاء ونهضت واقفا، اكتشفت أن حذائى الذى أهدانى حمود إياه، كان قد سرق. جرى تقديم الطعام اعتبارا من الساعة الرابعة حتى الساعة السادسة والنصف لعدد يتردد بين" ألفين وثلاثة آلاف" شخص؛ طعام الأمير هذا، كان عبارة عن أرز التمن المسلوق وعليه شىء من السمن.

من المؤلم أن يصبح المرء هدفا تشير إليه كل الأصابع ومن المؤلم أن يستطيع الإنسان المحافظة على رأى عادل فى مواجهة لا معقولية هذا العالم. لقد أحسست بذلك أثناء تجوالى فى الجزيرة العربية، على نحو أكبر من إحساسى بالمخاطر اليومية والمعاناة الجسدية الطويلة: ومع ذلك كان هناك شىء من العزاء فى الذكريات الحلوة؛ التى كانت تراودنى عن سخافة أولئك البدو الرحل. من ذلك مثلا، أنه وسط الجموع

(*) عبارة محذوفة . (الناشر)

الحاشدة فى تلك الأيام، والتى كانت تنساب على المسحاب (الميدان العام) كان الكثيرون من البدو يجيئون إلىَّ طلبا للحديث عن أوجاعهم؛ كان الغرباء ينادونى فى أى مكان أمر عليه، وهم أصلا لا يعرفون اسمى ويقولون: 'هو! أنت يا من تمشى هناك، أيها الحكيم!" بعض آخر من أولئك الذين سبق لهم أن حصلوا منى على استشارة أمينة ومخلصة، كانوا يرحبون بى على الطريقة السامية قائلين: "سلَّم الله الرأس، كفاك الله الشر." وهذه العبارات، شأنها شأن علاماتهم المسجلة، تحدد نوعية القبائل التى ينتمى إليها أولئك البدو الرحل: هؤلاء الذين كانوا يحيونى بهذه الطريقة كانوا من أهل الشمال على حد تفكيرى. من بينهم شخص، قدمنى لرفيقه، قائلا: 'أرى، أرَّى urraie هو hu هو hu بمعنى 'أنتبه يا أنت! إنه هو، هذا هو النصرانى؛ – شيف Cheyf النصرانى Nasrany ؟ (سمعت الرجل الآخر وهو يقول هذه العبارة وهى تخرج من حلقه مشوبة بجفاف الصحراء وقسوتها)' أجول ! agul ويش Weysh ينصره Yansu-rhu ؟ بمعنى، "كيف ينتصر ذلك الرجل، ما الذى يعطيه النصر؟" ظن الرجل البدوى المسكين عندما سمع هذه الكلمة، أنها تعنى 'النصر' Nasr . وهذا هو بدوى مسكين من الرولة صاح عندما تلقى الدواء قائلا: 'النقود ليس لديه منها شىء حتى يعطيه للحكيم، والله! ورجانى أن أرضى وأوافق على أخذ قميصه نظير النقود.' ولو كنت قد وافقت على ذلك لخلع قميصه ومشى عاريا وليس عليه من لباس سوى عباءته (بشته) المفتوحة، وبذلك يستوى حاله مع أحوال كثير من الناس الذين يمشون على هذا الحال فى الصحراء، وكأنهم مثل الهنود الذين لا يلبسون شيئا سوى ما يستر عورة الإنسان؛ وعندما سمحت له بالذهاب لحال سبيله، غمغم قائلا: جزاك Jizak الله ullah خيراً Kheyr ، ومضى الرجل لحال سبيله وهو يتعجب 'إن كانت الأشياء التى أعطاه النصرانى إياها مجانا ستكون دواءًا مفيدا أم لا؟'

لم تعد بغداد تستحوذ على اهتمامى لأن خيبر كانت شغلى الشاغل؛ هذا بالإضافة إلى أن مقامى فى حائل طال أكثر من اللازم. وبحلول المساء ذهبت إلى قهوة عبيد طلبا للتحدث مع حمود؛ كان حمود عندما دخلت عليه يركع فى بداية الصلاة، وجلست إلى جواره فى هدوء، إلى أن ينتهى من الصلاة. حمود، ولد عبيد، أومأ برأسه

بعد أن انتهى من الصلاة وسألنى قائلاً: " يا خليل ، هل أنت بحاجة إلى أى شىء، هل تريد شيئا على وجه السرعة؟" – "أنا لا أريد شيئا، الحمد لله." – "سوف أنتهى من الصلاة حالاً." وعندما عاد حمود إلى وضع الصلاة من جديد، قلت: 'لقد وجدت أن صحة الطفل فيصل بدأت تعود إليه، وتراودنى رغبة فى الرحيل، وهل سيوفدنى بالفعل إلى خيبر؟' وهنا رد علّى حمود "إن كنت تودذلك.' – "ولكن لماذا الذهاب إلى خيبر بالذات، يا خليل، مالذى فى خيبر؟ لا تذهب إلى خيبر، فقد تموت هناك بسبب الحمى؛ كما أنهم ليسوا من أصدقائنا، يا خليل، وأنا أخاف عليك من هذه الرحلة." ورددت عليه:" أننى بحاجة إلى المغامرة بالذهاب إلى خيبر، وسوف أرى آثار اليهود، مثلما رأيتها فى الحجر." – " حسن، سوف أدبر وسيلة لنقلك إلى هناك؛ ولكن الحمى هناك مهلكة، فلا تذهب إلى هناك، آخ يا خليل! أخشى أن تموت هناك." – طالما تجاوزت العويرض العظيمة، فأنا تراودنى رغبة قوية فى اكتشاف حرَّة خيبر، فتلك قطعة بركانية أخرى من الجزيرة العربية، وقد بلغنى أن بدايات وادى الرماح موجودة فى خيبر، وأنها تقع فى الناحية الغربية من جبال الطويق، حيث يوجد المجرى المائى الجاف الذى يخص الشمال كله. هذا الوادى الكبير الذى ينزل هابطا من رءوس الحيات el. Hayat ومن الحويَّات Howeyat ، يتجه صوب وادى الفرات عند مدينة الزبير ez-Zbeyer التى هى إحدى ضواحى البصرة، ويصل طول ذلك الوادى الملتوى إلى مايقرب من "خمسين مسيرة من مسيرات الإبل."

مد حمود ذراعه بعد ذلك، وطلب منى أن أفحص له النبض؛ كانت ضربات قلب حمود أسرع من ضربات قلب أى رجل آخر من الرجال الذين فحصتهم، فقد كان حمود رجلا بطلا قويا. والناس هنا عندما يمدون سواعدهم للحكيم يظنون أنه سوف يعرف كل مايتعلق بصحتهم: وعندما قلت إن النبض ليس منتظما أو صحيحا صاح فىَ الأمير بالتزام السكوت." بالأمس استدعى معالج فارسى، كان بصحبة الحج، كى يقيس أو يفحص نبض الأمير. قال الفارسى"ألا تحس بألم، يا سيدى، فى الركبة اليسار؟' ورد عليه الأمير،' إى' أحس فيها فعلا بألم والله!' – وغاب عن الرجال معرفة ذلك!"

كانت قافلة الحج قد خلفت وراءها بعض المرضى فى حائل: كان من بينهم تاجر بغدادى ميسور الحال، عاودته آلامه القديمة أثناء المسير، وكان من بين المرضى أيضا جمَّال تورمت قدمه والتهبت، كما كان من بين المرضى أيضا بعضا من الدراويش المساكين. وفى صبيحة اليوم التالى، ذهب كل أولئك ليضعوا أنفسهم أمام الأمير فى مجلسه، وصاح الدراويش بأصوات تبعث على الحزن بلغة عربية ركيكة قائلين : جنابك !Janabak . كانت اطراءاتهم التى تشبه اطراءات الأوغاد، وسلوكياتهم الخالية من الإحساس، وكلامهم الشمالى غير الدقيق، وكذلك أصواتهم التى توحى بالغلظة وعدم التسامح، كل ذلك كان يتعارض أو يتناقض تماما مع طلاقة اللسان والصراحة والمهارة التى يتسم بها كلام أفقر فقراء الجزيرة العربية. وهنا أشار الأمير إليهم إشارة توحى بالكرم، وصرح لهم بتناول الطعام فى المضيف. كما خصصوا للتاجر مخزنا أيضا؛ وتقرر أن يمضى هذين الشهرين أو الثلاثة فى حائل وعلى ما يرام، فلم يكن يفعل شيئا سوى الجلوس فى الشمس والثرثرة والتجوال فى السوق، وذلك إلى أن يحين موعد عودته إلى بلده. بعد ذلك قمت بإدخال شاب ضرير من الأعراب؛ ومد ذلك الضرير يديه الضعيفتين ناحية المقعد الذى يجلس عليه الأمير، وصاح قائلا: يا Ya طويل Tawil العمر! .Ummr el يا Ya ولد Weled عبد الله! Abdullah . وهنا نادى الأمير شخصا كان يقف بالقرب من خزانة الملابس، واقتيد ذلك الضرير إلى خارج المجلس ليتسلم غيارا من الملابس.

التقيت إمبارك بعد ذلك. "(قال) هل تود الذهاب إلى خيبر؟ لدينا هنا بعض العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة) الذين يمكن أن يوصلونك إلى هناك." وعندما علمت أن منزل هؤلاء العَنَزة فى خرَّام Kharram وأنهم لايستطيعون سوى نقلى إلى خيبر وبالذات إلى مسهل Misshel ، وأنهم سوف يرحلون على وجه السرعة: قلت إننى لا يمكن أن استعد خلال وقت قصير لرحلة طويلة من هذا القبيل، وأنه يتعين علّى الحصول على الديون التى على المرضى باعتبارها ثمنا للدواء. "سوف نجمع لك تلك الديون؛ ولكننا لا نتحمل بقاءك فى بلدنا فترة أطول من ذلك: وإذا ما أردت الذهاب إلى خيبر، فسوف نرسلك إلى خيبر أو إلى القصيم." – " إذا كنتم سترسلونى إلى خيبر، فأرجو أن تمهلونى يوما أو يومين قبل القيام بالرحلة، حتى أتمكن من الاستعداد لها."

فى الصباح قبل الأخير، كنت أشرب القهوة مع أولئك الذين جاءوا من الرياض، وفجأة دخل علينا شاب يلهث، لقد جاء ذلك الشخص، على حد قوله، من عند إمبارك كى يطلب منى الذهاب إليه . وعندما التقيت إمبارك، قال: "لقد عثرنا على واحد من الحطيم سيقوم بتوصيلك إلى خيبر ." – ومتى سيرحلون؟ – "صباح باكر أو بعد باكر." ولكنه أرسل إلىّ ليقول لى: إنه أعطاهم عربون ويتعين علىّ أن ألحق بهم على الفور." – "ولكن لماذا خدعتنى بكلمه غداً؟" – " أحزم أشياءك واركب راحلتك." – "ولكنك سوف ترسلنى مع الحطيمى!" – " نعم، نعم، أعطنى مفتاح المخزن وعجل، إذ يتعين عليك أن تركب راحلتك على الفور." – "هل يعنى ذلك دفعى إلى الصحراء كى أتوه فيها بصراحة؟" – " أبدا، لن يحدث لك أى شىء." – "حسن، أرجو أن تسمح لى بمقابلة حمود." عندئذ جاء أحد العبيد قادما من عند حمود، وفى يده أربعة ريالات، التى قال إن "عمه" قد أرسلها إلىّ. وبعدها جاء زيد، البواب المغربى الذى يحرس بوابة القصر؛ وقد سبق لى أن قطعت معه شوطا طيبا عن طريق إهداء الأدوية إليه، ولكنه تحول الآن إلى وغد بحق،" مقاومتك لإمبارك تعنى أنك لا تفهم؛ والسبب فى ذلك أن إمبارك هو الريس ويركب خلفه خمسمائة رجل آخرين."

تأخرت بعض الشىء كى أسلم مفتاح المخزن المصنوع من الخشب، تحسبا لانكسار البارومتر إذا ماراحوا يفتشون أشيائى أو أن يأخذوا مسدسى وهم يعبثون بأشيائى ؛ كما كنت أتشكك أيضا فيما إذا كان رئيس الحرس (الذى كان يضع يده على حد سيفه فى كل لحظة) مكلف بمهمة سرية تتمثل فى قتل النصرانى وهو فى داخل السكن. وها هم عبيد إمبارك يتحوطون حولى، البعض منهم يشدنى من ملابسى، والبعض الآخر يدفعونى إلى الأمام؛ كانوا يدفعونى بكل قوة إلى داخل المخزن. – "هل المخزن ملكك أم ملكنا، يا خليل؟" – " ولكن إمبارك لم يعد يثق بك: بلغ كلامى هذا للأمير،' أنا قادم من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية) وما عليكم إلا أن تعيدونى ثانية إليها،' " وهنا تفل السياف العربى فى وجهى قائلا 'فوه' Fugh . "لعنتك السماء يا من لا تخجل وأنت تتفل فى وجه واحد من البشر." – " يا خليل، لقد فعلت ذلك لأنك قلت 'أنا لن أثق بك'." لقد شاهدت البواب المغربى، وهو ذاهب ليفتح باب مخزنى عنوة،

وذلك عن طريق هدم الإطار الطينى المحيط بالقفل الخشبى. وهنا راح العبيد من جديد يشدوننى هنا وهناك، وتساهلت وتركت لهم الثوب العربى الخارجى، ووقفت أمام هؤلاء الجبناء الأشقياء وليس فوق جسدى سوى قميصى الداخلى." يا للعار! قلت لهم: وأنت يا إمبارك دخيلك، دافع عنى واحمنى من هذه الصلافة والبذاءة." وعندما سمع إمبارك كلمة 'دخيلك' خطف مشعابا من واحد منهم كان يقف بالقرب منه، وراح يضربهم ليبعدهم عنى، وحال بينى وبينهم.

تركونى وحدى فى المخزن وهنا قمت، وعلى وجه السرعة، بترتيب أشيائى واخفيت أسلحتى. وهنا عرَّج علّى فهد، وهو فى طريقه إلى قهوة عبيد: قلت له: "حمود لم يخرج بعد، ولكنه سيأتى بعد فترة زمنية قصيرة." – إمبارك: "والله، أنا أقول إن الأمير سوف يرسل على الفور فى طلب قطع رأسك!" ماجد (الذى مر بنا فى ذات الوقت وهو أيضا فى طريقه إلى قهوة عبيد): إخ! يا إمبارك، هل سيفعل الأمير ذلك بالفعل ؟" ثم ابتسم الصبى ابتسامة تنم عن فضول طفولى دنئ فى مواجهة منظر من مناظر الغطرسة والكبر. وبينما كنت أمشى مع فهد، تخلف إمبارك ليبتعد عنا، ثم مر من خلال بوابة القصر، وربما كان ذاهبا إلى الأمير. – تنهد فهد، عندما أصبحنا خلف الباب، وقال: "يا خليل، أشكر الله، قد لا تمر الأمور على خير، ولكن حمود سوف يصل هنا على وجه السرعة." لم يمض وقت طويل، حتى جاءونى ليقولوا لى 'الأمير يطلب منى الحضور إليه ' قلت: لا تخدعونى، إن إمبارك هو الذى يطرق بصورة مستمرة." فهد: "لا، أذهب يا خليل، إنه الأمير الذى يطلبك:"

عندما خرجت من القهوة وجدت أن المنادى كان إمبارك ، الذى راح بتهديداته وتحذيراته المعهودة يستحثنى على ركوب راحلتى على وجه السرعة." رددت عليه، سوف التقى حمود قبل كل شىء:" وتركنى إمبارك بناء على ذلك. وأغلق الباب خلفى، وعدت إلى المخزن، واطمأننت أن عفشى كان على ما يرام؛ ومر علىّ فهد مرة ثانية. وبعد فترة وجيزة دخل حمود، وحيانى ثم أمسكنى من يدى. تساءلت، 'هل تم ذلك بناء على أمر من الأمير ؟' حمـــود" والله، يا خليل، أنا لا أستطيع أن أفعل أى شىء مع الأمير؛

هو hu يحكم Yahkam علينا aleyna بمعنى أن حكمه يسرى علينا جميعا." – "بعض أشيائى، وأشياء أخرى، جرى إحضارها إلى هنا." – " هآ! العيال أخذوها من المخزن، وسوف نعيد هذه الأشياء مرة ثانية إلى مخزنك." وعندما تكلمت عن حادث سرقة رجله الذى يدعى عليا – كان قد انضم بالفعل إلى قافلة الحج – تعجب حمود قائلا "قطع الله أنفاسه!" – "لو حاول تحسين صورة ذلك اللص لما كان عربيا على الإطلاق." ما الذى كنت تقصده بالنقود التى أرسلتها لى مؤخرا؟" – " هذا كرمى، يا خليل، فلماذا ترفضه؟" – " أهذا ثمن الدواء، وأتعاب الشهر الذى راعيت خلاله طفلك، الذى عادت إليه صحته حاليا؟" – "لقد أرسلت لك النقود مقابل ذلك، ونحن لدينا كمية كبيرة من حبوب الكنين؛ هل تشترى منى حفنة لقاء ريالين فقط؟" كان الرجل يغتسل استعدادا لصلاة الظهر، وبينما جلس الرجل القوى للتحدث معى تأخر الوقت." هناك شىء ياحمود." – " ما هو ذلك الشى يا خليل؟" ثم بدى عليه الفرح والسرور. "ساعدنى على الخروج من هذه الورطة، بحق العيش والملح الذى بيننا." – "وما الذى يمكن أن أفعله؟ إن محمداً يحكم علينا جميعا." – " حسن، تكلم مع إمبارك بأن لا يفعل شيئا لحين حلول موعد مجلس المساء، حيث سأتكلم مع الأمير." – " سوف أقول له ذلك،" ثم ذهب حمود للمسجد.

التقيت الأمير نفسه فى المسحاب (الميدان العام) بعد الصلاة؛ وكمال يقال، فإن الأمير يمشى ومعه جماعة من الشبان الأراذل المتشددين، كما يسير معه أيضا عشرة من سيَّافيه. – كنت أحس، كلما التقيت الأمير مصادفة هو وصحبته فى الأيام الأخيرة، فى شوارع حائل أنه كان يرد علىّ التحية بنظرة كانت تثير فىَّ الشك والقلق. وعندما التقيته، أقبل علىّ بنظرته المعتادة، وهنا قلت له بلا تردد'أروح' Aruh بمعنى" أنا سأرحل'. ورد على الأمير قائلا: "روح" Ruh . "هل تسمح لى بالمجىء إليك للحديث معك؟" – "مشغول!" Meshghrul (*) .

(*) نطق دوتى الكلمة على هذا النحو ، نظراً لتعذر نطق الإنجليز للتتابع الصوتى الذى يتكون من صوت "الغين" متبوع بحركة طويلة . (المترجم)

وعند انعقاد مجلس المساء، تقدمت من خلال الجالسين واقتربت من الأمير، الذى جلس وهو يحاول الظهور بمظهر الشجاعة أمام شعبه؛ كان الأمير يتحدث فى ذلك الوقت مع شيخ كبير من شيوخ البدو، الذى كان يجلس إلى جواره. وهنا وجَّه محمد بن الرشيد نظره إلىَّ، ومبلغ علمى أنه كان مستاءًا كما كان محياه يوحى بالغضب، وهذا يعد فألا سيئا عند العرب."(قال) ماذا عندك؟" – "أنا على وشك الرحيل، ولكنى تمنيت أن يكون رحيلى بعلم وبتأكيد منك. لقد أساءوا معاملتى اليوم فى هذا المكان. أساءوا معاملتى على نحو أثار فىَّ الخوف. لقد راح عبيدك يجرُّوننى هنا وهناك، ووصل الأمر إلى حد أنهم خلعوا عنى ملابسى؛ وكان ذلك بتحريض من إمبارك، الموجود هنا: فقد هددنى هو الآخر، ووصل به الحال إلى أن يبصق فى وجهى." وهنا سأل الأمير، بصوت منخفض عن إمبارك "ماذا فعل؟'

ورد إمبارك ملتمسا لنفسه العذر. وأردفت قائلا، "وهو يضطرنى الآن إلى الرحيل بصحبة ذلك الرجل الحطيمى؛ وأنا أتوقع حدوث مكروه لى." " لا (قالها الأمير وهو يضرب صدره بيده)، لا تخش من أى شىء أو تخافه؛ ولكننا سوف نسهر ونعمل على سلامتك، كما سنعطيك جواز سفر." – وهنا قال الأمير محمد بن الرشيد، لسكرتيره نصر، الذى كان يجلس عند قدمى الأمير – "أكتب له وثيقة بسلامة السلوك والتصرف."

قلت "لقد أحضرت لك من بلدى تلسكوبا ممتازا." وثمنْ ذلك التلسكوب يتراوح بين ثلاثه وأربعة جنيهات؛ وخطر ببالى 'أن ابن الرشيد إذا ما قبل هديتى، فسوف أتمكن من أن أطلب منه جملا'. ولكنه عندما قال: "لدينا الكثير من التلسكوبات ولسنا بحاجة إليها، رددت على الأمير بكلام صحراوى صحيح قائلا: ويش Weysh عاد aad ، بمعنى' يا للغرابة!' وهنا تراجع محمد بن الرشيد منكمشا فى مجلسه، كما لو كنت قد أهنت كبرياءه أمام الناس؛ ولكنه بعدأن استعاد رباطة جأشه، قال، بصوت ودى ونظرات حانية، "اجلس." محمد بن الرشيد من النوع الجواد الكريم، ولربما ذكره الغريب بالأحوال السيئة التى مر بها. وبعد أن انتهى نصر من كتابته، على ورقة بيضاء مربعة الشكل، تسلمها للأمير الذى ختمها بخاتمه النحاس الأحمر بعد أن مهرها ووقع عليها.

سألت نصرا، "اقرأ علىّ المكتوب فى هذه الورقة،" وقرأ على، "لكل من تصل هذه الورقة إلى يديه، ولكل من يخضع لحكم ابن الرشيد يجب أن يعلم الجميع أن الأمير يرغب فى ألاَّ يُعارض yaarud علىَّ aley أحد بمعنى 'يجب أن لا يسيئ أى أحد من هؤلاء الناس إلى ذلك النصرانى." ويقف ابن الرشيد فجأة، ويقف المجلس معه أيضا ثم يتفرق الناس. سألت، أثناء انصراف الأمير، "متى سأرحل عن هنا؟ " – " عندما تشاء وكما يحلولك ." – " أأرحل غداً ؟" – " لا، اليوم." كان الأمير قد أعطانى ظهره، وبدأ يتجاوز المسحاب (الميدان العام).

"عجل" يصيح إمبارك: ولكنه عندما علم بعدم تناولى الإفطار اقتادنى إلى القصر، حيث المضُيف، ثم بعد ذلك إلى غرفة خلف المضيف حيث يوجد المطبخ العام، ليسأل الطباخين عن الطعام الجاهز عندهم. وهنا وجدت الجميع يرحبون بى، وهنا قدم لى مفرّج شيئا من التمر، إضافة إلى شىء من الدقيق والسمن كى استعملها على الطريق إلى خيبر، وتلك هى المئونة المعتادة التى تقدم من عند الأمير، ولكنى رفضت قبول تلك المئونة. هذا المطبخ عبارة عن صالة متواضعة، أرضيتها من الطين، ويوجد فيها بركة ماء ومجرى لتوصيل الماء. ويجرى سلق الأرز هو والشعير فى أربعة أو خمسة أوانٍ من النحاس الأحمر: كما أن فى المطبخ أيضا ثلاثة أوانٍ أخرى من النحاس الأحمر تستعمل فى سلق اللحم فى الأيام التى يوزع فيها تتسع للحم جمل بكامله. بالبساطة مطبخ القصر هذا فى الجزيرة العربية البدوية، البلد الذى ينظر فيه إلى غير الجوعانين على إنهم من أصحاب الولائم والعزائم! كان خدم المطبخ عبارة عن رجل واحد ضعيف، ربما كان من الخدم أو العبيد، والذى كان من بين المرضى الذين كانوا يترددون علىَّ، وتحت رئاسته أربع أو خمس من النساء؛ هذا بالإضافة إلى بعض الصَّبية، الذين يحملون صوانى الطعام المعدنية لتقديم الطعام أثناء عشاء الضيوف. – وعندما رجعت إلى المسحاب (الميدان العام) حضر إلى واحد من البدو ليحمل أمتعتى: ومع ذلك ترجَّى ذلك البدوى إمبارك أن يسترد الريال العربون ويتركه يذهب لحال سبيله. وكان الأمير قد أمر بدفع أربعة ريالات أجرا لمن يقوم بتلك الرحلة، سواء سافرت أم لم أسافر، وقبلت ذلك المبلغ فى ضوء ذلك الذى سُرق من المخزن الذى كنت أقيم فيه؛ كما قبلت أيضا الريالات الأربع التى قدمها لى حمود ثمنا للدواء.

" وبينما كنت أسير مع إمبارك قاصدا السوق، الذى ستبدأ منه الرحلة قلت له: أقسم يا إمبارك أنك لن ترسلنى إلى الموت." – "لا، والله، وأنا على يقين من أنك لن يحدث لك مكروه." – "وهل سيواصل الأعراب التزامهم بأوامر بن الرشيد بعد أن نقطع رحلتين من الطريق؟" – " أوامرنا تسرى على أولئك الأعراب! وهنا قال إمبارك للبدو الرحل: يجب أن توصلوه إلى قاسم Kasim بن ibn باراك Barak (واحد من كبار شيوخ منطقة حطيم الوسطى، كانت خيامه مضروبة على بعد سبعين ميلا، فى اتجاه الجنوب)، وسوف يقوم ابن باراك بتوصيله إلى خيبر." – وهنا خرج بائع الأدوية، الذى هو من أهل المدينة (المنورة)، وهو أيضا رجل طيب من أهل الحجاز، خرج من دكانه وتقدم نحوى ليودعنى ويتمنى لى سلامة الوصول، "قال الرجل: ثق أنه ليس فى الأمر أى شكل من أشكال الغدر أو الخيانة، ولكن يجب أن لا يغيب عن بالك أن الناس (فى كل من حائل ونجد) هم من البدو." – "(قال لى الرجل البدوى) يا أنت عجّل وهيا بنا نسارع إلى الخروج من حائل، لا تتوقف، ولا تتراجع، وإلا قتلوك."

ونظرا لأنى لا أستطيع ركوب الجمل قبل أن يبرك، فقد قام ذلك البدوى بركوب الجمل وهو واقف، وهنا صاح ذلك البدوى السعيد قائلا: "ناولنى يدك!" ليساعدنى على الركوب. وهذا هو الشاب إبراهيم، أحد رجال الأمير، والذى يقع دكانه عند طرف المدينة، وسبق لى التعامل معه – ها هو يخرج من دكانه ونحن نمر عليه ليودعنى، ويمشى معى شيئا من الطريق. وراح إبراهيم يتكلم بكل الجد إلى البدو طالبا منهم الاهتمام بى، 'وحذرهم أننى إذا ماحدث لى مكروه، فإن الأمير سوف يقطع أعناقهم.' تعال وخذ من ماء السماء، وهنا تناولت قربتى، وأعطيتها لواحد من الرجال، ورجوته أن يذهب ويملأها بالماء." قال الرجل: أنا أملأ قربة الكافر! لا، أنزل بنفسك، يا نصراوى Nasrawy واملأها أنت بنفسك." وهنا قام إبراهيم بنفسه بملئ القربة، وعلق القربة فى مقدمة السرج (عدة) الجمل. ومضينا فى طريقنا وسرعان ماغربت الشمس. وكان رفاقى فى تلك الرحلة ثلاثة من الرجال- صاحب الجمل المسكين، الذى أركبه، وهو رجل رابط الجأش مبتسم الوجه، ومعه جاره المتشدد الذى كان يطلق علىّ دوما اسم النصراوى (وليس نصرانى Nasrany)، وكان معنا شخص آخر من الحطيم، وهو رجل متزمت

شديد التمسك برأيه، ولا يقول سوى الحق وبطريقة سافرة ومباشرة. كانت فترة الشفق قصيرة جداً إلى حد أن الليل داهمنا وداهم مسيرتنا بصورة مفاجئة، وأطبق علينا كل من الصمت والوحدة بعد جلبة المدينة وضوضائها. وبعد أن أجبت على كل أسئلة رفاقي البدو ملتزما فى ذلك بآداب الصحراء، "صاحوا قائلين: أوه! لماذا يطارده أهل حائل؟ والله، ، إن أهل حائل هم النصارى بحق وحقيقة! " وواصلنا مسيرنا فى الطريق المظلم مدة ثلاث ساعات ونصف الساعة إلى أن أصبحنا على مقربة من قفار (*) Gofar ؛ وعندها نزلنا عن مطايانا لتناول قسط من الراحة فى الصحراء.

مع طلوع نور الصباح، اتجهنا صوب قصر يقع خارج الواحة، كان عبارة عن غرفة أو غرفتين مبنيتين من الطوب الأحمر، وفى ذلك القصر كانت تعيش أسرة فقيرة من معارف المرافقين لى. كنا فى أواخر شهر نوفمبر (الحادى والعشرين من الشهر على حد علمى)؛ كان الليل بارداً وبخاصة أننا كنا على ارتفاع يقدر بحوالى ٤٠٠٠ قدم. وضع ساكنوا ذلك القصر التمر أمامنا وصلحوا لنا شيئا من القهوة؛ هؤلاء السكان لم يكونوا من البدو الرحل أو مستوطنين، ولكنهم كانوا من البدو المستقرين. وبعد أن ضعف هؤلاء الناس وتحطموا بسبب حياة البدو المترحلين، ومن باب تجاشيهم لمصائب الصحراء، تحول هؤلاء البدو إلى سكان يعيشون فى بيوت من اللبن، وفى واحدة من قرى الجبل، كما تحولوا أيضا إلى سيَّادين، أو إن شئت فقل: تجارا للممنوعات مع الأعراب. راح هؤلاء «السيَّادين» أو تجار الممنوعات يشترون التمور والقمح عند الحصاد، ثم يبيعون هذه المحاصيل فى فترات لاحقة «للحبوت»، أو إن شئت فقل: للجماعات القبلية التى تأتى للتسوق. وعندما يدخل فصل الربيع يتنازل هؤلاء السيَّادون عن البيوت التى يعيشون فيها ، ويحملون تجارتهم وسلعهم على الحمير، ويذهبون للاتجار مع الأعراب. هذا يعنى أن أولئك السيادين يتجولون طوال أشهر عدة، إلى أن ينتهوا من بيع حمولاتهم؛ وعندما يدخل الصيف الحار يعودون إلى الواحة ومعهم مكاسبهم المتواضعة من السمن ومن النقود . اشترى رفاقى من أولئك السيادين قسما

(*) تعد قفار من أهم بلدان جبل شمر ، وتقع إلى جنوب حائل بما يقرب من خمسة عشر كيلومتراً . (المترجم)

من احتياجاتهم الشتوية من التمر، وذلك بسعر أقل من السعر السائد فى حائل. هؤلاء الناس، الذين لم يرثوا شيئا من هذه الدنيا، كانوا يتحدثون معى حديثا مفعما بالحنان الإنسانى؛ كان كل كلامهم خلوا من الإشارة إلى أى شكل من أشكال التعصب فى الإسلام. نساء هؤلاء الناس، بادرن من تلقاء أنفسهن، بأخذ عباءتى (بشتى) من فوق كتفى وأصلحنه بعد أن تمزق فى مساء اليوم السابق فى حائل ؛ كما قام رب البيت بوضع مشعابه فى يدى، وكان ذلك المشعاب من خشب اللوز. وبينما كنت أجلس معهم، قام رفاقى بتحقيق مآربهم الخاصة. وبعد فترة وجيزة دخل علينا جزار قادما من حائل. (كنت قد اشتريت من ذلك القصاب، فى مناسبة سابقة، ثلاثة أرطال من لحم الضأن، نظير أربعة بنسات). وراح ذلك القصاب يمتدح النصرانى بصوت عالٍ أمام هذه الجماعة من الناس.

لم يكتمل استعداد الرحال إلا بعد الظهر بساعة واحدة؛ وعندها حمّلوا التمر الذى اشتروه ورحنا نستأنف المسير. وفى المنطقة، وراء قفار، سرنا عبر سهل من صخور الجرانيت؛ كان جبل أجأ Ajja يوازى الطريق الذى كنا نسير فيه فى الناحية اليمنى. وعند الساعة الخامسة توقفنا وسلقت لهم بعض الأرز (التمن) الذى سبق أن اشتريته، ولكن سرعان ما غربت الشمس فجأة، وهنا عجل الرجال وسارعوا إلى أداء صلاة المغرب، قدر استطاعتهم، وبطونهم تصرخ من الجوع؛ ومع ذلك انهوا الصلاة، وراحوا يستعيدون مرحهم. – مرت علينا جماعة من جُمّاع الحطب جاءت من حائل. كانت رأس سميراء Sumra حائل المزدوجة ما تزال تطالعنا على بعد حوالى خمسة وعشرين ميلا. وبعد أن ركبنا مطايانا واستأنفنا مسيرنا، مررنا فى الظلام بجدران ونخيل بلدة القصر el. Kasr ، التى تبعد مسافة ثلاثة عشر ميلا عن قفار، وتقع فى أحضان صخور جبل أجأ ؛ وبعد مسير ساعة من تلك البلدة نزلنا عن مطايانا طلبا للنوم.

شاهدت، فى الصباح، أطراف سلاسل جبل أجأ الجرانيتية (الصورة رقم١) وهى تنعكس عليها ظلال السحب، بالقرب من بقايا البازلت الذى انصهر فى الزمن القديم؛ كما شاهدت أيضا قباباً سوداء فوق قمة الجبل وتشبه البراكين. وبعد ذلك بساعتين

وصلنا منطقة من الجرانيت يطلقون عليها اسم المختلف el. Mukhtelif هذا هو جبل أجأ Ajja عن يميننا على بعد مسافة قصيرة. فى هذه المنطقة التقينا شابا من بلدة القصر راكبا ناقته ويبحث عن جمل شارد من الجمال التى تستعمل فى جلب المياه من الآبار. كانت حبارى الصخور فى كل مكان تصدح وتطير فى كل أنحاء هذا القسم الجرانيتى المرتفع من البلاد، والذى تفوح منه رائحة الغابة الجنوبية الطيبة الرائحة.

عند الساعة الرابعة مررنا بديرة البديعة Biddia البعيدة، فى وسط السهل، والتى تطوقها جبال منخفضة من الجرانيت والبازلت. هذه المستوطنة الصغيرة، التى تقع على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب غرب بلدة القصير، أنشأها منذ زمن ليس ببعيد أولئك الذين ضاقت عليهم أرض مجوج؛ هذه المستوطنة لا تشتمل إلا على بئرين وأربعة عوائل. وعندما سألت المرافقين لى عن هذا المكان، انفجروا فى السعال والضحك، وأشاروا إلى أن تلك المنطقة لا يكثر فيها سوى السعال والروماتيزم ورشح الأنف أو العين. – ومرت علينا جماعة من الشمر كانوا يركبون الإبل. كانت تلك الجماعة قد وصلتها أخبار خليل، وتكلموا معنا بطريقة ودية، وأخبرونا أن أمامنا، وعلى بعد مسافة قصيرة، منزلا من منازل أعرابهم (حيث يمكن لنا تناول العشاء والنوم). وسمعنا من هؤلاء الشمر هذه الأخبار الطيبة عن الصحراء التى سنمر خلالها، وسمعنا منهم أيضا أن، " الماشية الصغيرة جرى فطامها، وأن الأعراب لديهم المزيد من اللبن؛ وأنهم يسكبون الحليب (لكل من يريد أن يشربه) إلى أن يحين أذان الظهر!" وصاح واحد منهم وهو يقول لى: " ولكن لماذا تسافر بصحبة هؤلاء الكلاب؟" – أو بالأحرى، بصحبة هؤلاء الحطيم.'

كان هناك ثعبان ضخم أبيض، أو إن شئت فقل: حنشا أبيضا، يرقد على طريق الممر: كان صاحب ذلك الحنش، وهو رجل شرس، قد وضعه من باب الحقد على النصرانى والكراهية له، إلى حد أنى عندما رأيت هذه الدودة، رحت أبعد عنها الجمل الذى كان على وشك أن يدوس عليها؛ وهنا استعمل الرجل حربته وقضى بها على ذلك الثعبان السام. وبعد اختفاء ضوء النار رأح المرافقون لى يتسلقون كل الأماكن المرتفعة

بحثا عن خيام الأعراب السوداء. وغربت الشمس وواصلنا السير أثناء الليل، على أمل أن تطالعنا نيران خيام البدو. وبعد مسير دام ثلاث ساعات توقفنا، ونحن نستشعر الإرهاق والتعب وبلا عشاء، كي ننال قسطا من النوم في الصحراء. كان الليل باردا ولم يطرق النوم جفوننا؛ كان ارتفاع الأرض في هذه المنطقة حوالى ٤٠٠٠ قدم.

حملنا أمتعتنا وبدأنا الرحيل قبل طلوع الفجر. وعقب طلوع النهار مباشرة ألتقينا بعضا من الشمر وهم يرحلون قاصدين منزلا آخرا. قطعان الشمر ضخمة في هذه الديرة، وهذه القطعان كلها من الأغنام، كما أن إبلهم تصل إلى أعداد كبيرة وتتجول في كل أنحاء السهل. حضر إلينا اثنان من الرعاة كي يقفا منا على آخر الأخبار: "صاحا متسائلين، ما هي أخباز القرى؟" – وعندما عرفا، من أنا، قال أحدهما الذى كان يمسك حربة في يده بعد أن رفعها لصاحبه:' أرجع أنت إلى الخلف، وسوف أقتله أنا.' "لا، لا تفعل ذلك، بالله عليك ! (صاح أولئك الذين كانوا يرافقونني متعجبين)، نظرا لأن هذا (الرجل) في حماية وأمن بن الرشيد، ونحن يتعين علينا توصيله، على رقابنا، إلى قاسم Ch(k)asim بن باراك Barak . "هؤلاء البدو من الحطيم لايبدون أيه مقاومة في مواجهة الشمر الذين لهم اليد الطولى عليهم؛ وسفرى بصحبة أولئك الحطيم كان يشبه تماما سفرى لوحدى أو بمفردى، اللهم باستثناء أنهم كانوا مثل العيون لى في الصحراء ليس إلا.

قطعت شوطا كبيرا سيرا على قدمى طوال المسيرة البطيئة التى كانت الإبل محملة فيها بأحمال أكبر من طاقتها؛ وأثناء هذه المسيرة اشتكى ذلك المتزمت الذى ناداني باسم نصراوى، نصراوى !من عجزه عن مواصلة السير ماشيا على قدميه، وألح على حتمية أن يركب فوق الجمل الذى استأجرته أنا. وبالرغم من ضيقى ذرعا بما يقول ، لم أقو على معارضته ، مخافة أن يتحولوا إلى أعداء لى إذا ما استعادوا ذكرياتهم عن حائل. شاهدت رمل الجبال الذى نقلته الريح وهو مكدس على شكل كثبان رملية على جوانب الجبل وكانت تطوقنا من كل جانب؛ كانت جوانب ذلك الجبل من الجرانيت مع وجود بعض صخور البازلت. – ووصلنا بطريقة مفاجئة وغير متوقعة إلى منزل من

منازل الشَّمر. وهنا همَّ شيخ ذلك المنْزل خارجا من خيمته للقائنا؛ هذا الشيخ كانت تغلب عليه (الملامح البرية غير المتحضرة، ولم يكن يضع غترة على رأسه، اللهم باستثناء حبل الرأس المصنوع من الصوف (العقال) والذى يطلق الشمر عليه اسم المعصوب Maasub . طلب منى أن أعطيه دخاناً (تبغاً)؛ ولكنى أبلغتهم أنى ليس معى أى شيء من التبغ، نظرا لأن كيس التبغ هو والزناد كانا قد سقطا منى وأنا فوق الجمل، وأنا على مقربة من هذا المنزل.. "(صاح الشيخ) أعطنا تبغاً، وأنزل لتشرب معنا القهوة، وإذا جاءت إجابتك بالنفى، فسوف نُنَّوخ nokh (نُبرِّك) جملك ونأخذ منك الدخان بالقوة." – "(قلت) كيف ذلك! ألا تؤمنون بالله! لقد حلفت لكم بالله أنى ليس معى أى شيء من التبغ، وأنه لعيب منك (وعار عليك) أيها الرجل أن تعنف غريبا، وهل تفعل كل ذلك من أجل ملئ غليون بالتبغ، ليس إلا." ثم تركنى أمضى لحال سبيلى، ولكنهم اضطرونى إلى الحلف بأنى ليس معى شيئا من التبغ.

أثناء مسيرنا فى فترة العصر، وعندما وصلنا إلى بلاد الحطيم التقينا واحداً من الشيوخ راكبا ناقته: كان ذلك الشيخ يستطلع منطقة المراعي التى فى ذلك الجزء من الصحراء. تعرف المرافقون لى على ذلك الرجل الذى قال: إنه سوف ينقلنى هو بنفسه إلى خيبر نظير توما (مقابل) يحصل عليه. كان ذلك الرجل واحداً من أولئك الأشخاص، الذين يتعين علىّ لقائهم على وجه السرعة، كان اسم ذلك الرجل عيادة Eyada بن ibn عجوين Ajjueyn ، وهو شيخ من شيوخ الحطيم. وهنا أشار على المرافقون لى بالذهاب معه: 'إنه رجل محترم، على حد قولهم، فضلا عن كونه رجلا يمكننى أن أغامر بالذهاب معه فى أمن وسلام.' – تحركات العرب الأولى تكون صادرة من قلوبهم، وهى غالبا ما تكون أفضل ماعندهم، ولكنها تكون الأقل أهمية، وبالتالى فإن قبول مثل هذه التحركات تتطلب المزيد من اليقظة والحرص؛ ولكنى دار بخلدى فى ذلك الوقت كلام الأمير، – أننى يتحتم علىّ الذهاب إلى قاسم بن باراك شيخ بنى راشد 'الذى سيقوم بتوصيلى إلى خيبر،' وأن منْزل قاسم لم يعد يبعد عنا كثيرا. هذا القاسم Kasim أو شاصيم Chasim أو إن شئت فقل: هذا الجاسيم Jasim ، نظرا لأن هذا الاسم ينطق بصور مختلفة، وذلك اعتمادا على القبيلة التى تنطق هذا الاسم، قال عنه أولئك الذين كانوا يرافقونى، إنه شيخ كبير، "وهو شيخ شبيه بابن الرشيد" فى بلاده.

غربت الشمس ونحن نقترب من أولى خيام الحطيم، وعندها نزل المرافقون لى عن مطاياهم وأنزلوا أحمالها عنها. بلغنا أن بيت جاسم كان مقاماً عند مقدمة صخرة من الصخور، وهنا ركبت جملى من جديد وبصحبتى رفيقى صالح ،على جمله الخالى من الحمولة، على أمل الوصول الى بيت جاسم. وأثناء مسيرنا قال صالح:" إذا ما وصلنا إلى هناك يجب أن ننزل عن الجمل بسرعة وخفة؛ حتى يأخذ الأعراب عنك فكرة مفادها أنك متعود على حياة الصحراء." كانت خيمة جاسم، لا تعدو أن تكون خيمة صغيرة وممزقة؛ شاهدت فرسه مربوطة إلى جوار الخيمة، ولم يكن داخل الخيمة سوى الحريم. خرجت إحداهن لإحضار الشيخ، وسارع صالح بوضع جوالاتى على الأرض: وركب الجمل وبدون استئذان كان على وشك أن يرحل؛ ولكنى أمسكت جمله من لحيته وجعلته يبرك على الأرض." لماذا تتركنى هنا، يارفيقى؟ يا صالح يتعين عليك توصيل رسالة الأمير بكاملها للشيخ جاسم؛" – ورحنا نشاهد الشيخ وهو يقدم علينا من بيت مجاور.

كان جاسم رجلا نحيلا، فى منتصف العمر. فى البداية، قال: إنه لن يستطيع استقبالى. '(تساءل) كيف ! أوفد الأمير ذلك الغريب إليه، كى يقوم بتوصيله إلى خيبر، فى الوقت الذى فيه نزاع بينه وبين أهل خيبر!' ثم قام بعد ذلك بتوبيخ صالح الذى كان 'سيتركنى عند خيام غريبة .' – وهنا دار بخلدى، مدى سوء حالى، لو أنهم تركونى وسط صحراء الجزيرة العربية، التى تخشى فيها مقابلة البشر أكثر من خشيتنا مقابلة الحيوانات البرية!" أنت، يا جاسم، لقد سمعت كلام بن الرشيد، وإذا لم تنصع لهذا الكلام، فها أنذا قد نزلت عند بيتك وأنا متعب؛ ثم قلت: دعنى أستريح هنا هذه الليلة، وأنا دخيلك، وسأبيت تحت سقفك."

أدخلنى الشيخ جاسم إلى خيمته وطلب منى أن أطمئن وأشعر بالارتياح: ثم صب جام غضبه على صالح، ثم أمسكه بين يديه ودفعه إلى الأمام – تلك هى مظاهر العنف عند الحطيم – ثم جرده من عباءته (بشته). "صاح الشيخ جاسم: أغرب عن وجهى! ولكن جملك سيبقى معى ، حيث سأستعمله فى توصيل هذا الغريب إلى خيبر؛ الله يلعن أباك، أنت يا من تساهلت فى حق رفيقك وألقيت به على الأعراب." تلقى صالح كل تلك

الإهانات بصبر، نظرا لأن البدو الرحل عندما يغلبون على – أمرهم يصبحون بلا حول أو طول ولا يقوون على المقاومة. وقام جاسم بوضع سيفه على زور صالح، وطلب منه أن يقول له كل شيء بلا كذب، على أن يقول له في البداية اسم القبيلة التي ينتمي إليها. وهنا اعترف أمام الشيخ جاسم بأنه من البجايدة Bejaida ، التي هي قبيلة فرعية من قبيلة البشر Bishr ؛ هذا يعني أن صالح هذا كان من العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة)، ولكنه كان يعيش حياته مع حطيم النومسي Noamsy ، الأمر الذي جعل الناس ينظرون إليه كواحد من الحطيم. وهناك عائلات فقيرة كثيرة من العنوز ومن حرب تربط نفسها بهذا المصير المتواضع، ولكنهم يكونون في مأمن من العداء؛ والممنوع على مثل هذه العائلات هو عدم الزواج من الحطيم. وهنا تركه جاسم يذهب لحال سبيله، ونادى على أهل البيت لشب النار، ثم تناول حِجْراً من علف فرسه ووضعه أمام جمل صالح؛ ثم عاد وجلس في الخيمة، ووجهه يظهر عليه البشر والسرور. "قال جاسم ، من الذي سيقوم الآن ويحضر لنا البن كي نصلح فنجالاً لهذا الغريب؟ – ما اسمك؟" – "خليل." – "حسن، قل لي يا خليل، ما الذي يمكن – أن أفعله في مثل هذا الحال، لأني أقسم بالله، أني حائرلا أعرف ماذا أفعل؛ إن مابيننا وبين أهل خيبر والإمبراطورية العثمانية هو النزاع بعينه وقطع الأزوار: إذن، كيف يقول الأمير إني يتعين على توصيلك إلى خيبر؟"- دخل علينا الجيران لشرب القهوة، وأجاب أحدهم على السؤال قائلا: "لو أعطاني خليل أربعة ريالات فسوف أقوم بتوصيله إلى حافة نخيل خيبر وأذهب بعد ذلك لحال سبيلي." جاسم:" ولكن خليل يقول بحق أنه سيكون خارج خيبر."

أراني شاربو القهوة وجها طيبا؛ "إخ! (قال جاسم) يا خليل ألم تشتكِ لي من أن الرجل تخلى عنك، ذلك الرجل الذي جاء معك، والله، لو فعل ذلك لكنت قد قطعت رأسه وألقيته في هذه النار: لعنة الله على العنوز Anuz [أمة العنزى] جميعا." – "حسن، إذا مااتضح أن خيبر شديدة الصعوبة، فأرجو أن ترسلني إلى حناس، شيخ النومسي؛ لقد بلغني أنه يخيم هنا بالقرب من هذا المكان، وسوف يستقبلني استقبالا حسنا." – "سننظر في هذا الأمر في الصباح." وضعوا أمامي طبقا يكاد يكون فارغا من الأرز وبلا سمن، ومعه قليل من اللبن القديم المتعفن، – وهذا أبشع وأصغر تحية شاهدتها

أو عرفتها تحت تلك الخيام المصنوعة من الصوف الخشن، لم يكن لدى هؤلاء الحطيم لبنا طازجا، نظرا لأن إبلهم كانت عذاب، أى بعيدة عن المنزل الذى يخيمون فيه، وكانت تلك الإبل ترعى فى ناحية بيضة Baitha نثيل Nethil فى اتجاه الغرب.

أطبق الليل علينا بظلامه، سحبه الكثيفة وطقسه المتدنى، وأبرقت السماء من ثلاثة جوانب دون أن يصحب البرق رعد. وهنا قال البدو الرحل: "هؤلاء هم الملائكة!" – هذا الكلام الذى صدر عن هؤلاء البدو جعلنى أتأمل رؤية البدو الرحل فى ميدان بيت لحم. "همهم البدو فيما بينهم، أن العاصفة فوق وادى الرماح،" – الذى قالوا: إنه لا يبعد عن هذا المكان سوى مسافة نصف رحْلة من رحْلات الإبل. وتعجب هؤلاء البدو الرحل، لأنى أعرف اسم هذا الوادى الكبير من وديان منتصف نجد: قالوا: إن بداية ذلك الوادي تقع بالقرب من الحيات، داخل ديرتهم، التى تبعد مسير ناقة ليوم واحد، – هذا يعنى أن هذه المسافة تقدر بحوالى خمسة وأربعين أو سبعين ميلا عبر أرض منبسطة. وتساقط المطر البارد علينا على شكل قطرات من خلال الثقوب التى كانت فى قماش الخيمة: وعندما تأخر الوقت قال جاسم: "نم أنت، أما أنا فيتعين على البقاء مستيقظا طول الليل وعيناى على جمله الموجود هناك، مخافة أن يأتى ذلك الرجل العنزى لسرقة الجمل ويهرب به."

وعندما استيقظت مع طلوع الفجر كان جاسم ما يزال يشب النار؛" قال لى: صباح الخير! حسن، سوف أرسلك لحناس؛ وسيقوم بتوصيلك إليه ذلك الرجل الذى صاحبك أثناء مجيئك." – "لقد خدعنى بالأمس، فهل لن يخدعنى اليوم؟" بل إنه ربما تخلى عنى فى الخلاء." – " ولكنى سوف أجعله يقسم حتى يدخل الخوف إلى قلبه." بدأت النساء تفد علىّ عندما علمن أنى مداوى، ومعهن المريسي أو اللبن المجفف كى يشترين منى دواء؛ وقلن لى: إن ذلك اللبن المجفف سيكون من بين المؤن لرحلتى. جاءت أخت جاسم، إلىَّ مع هؤلاء النساء وجلست إلى جوارى. قالت: جاسم متضايق من الرَّحل rihl أو حمى الملاريا، وما هو الدواء الذى معى لمثل هذا المرض؟ كان الخمار الذى ترتديه هؤلاء النساء من البفتة زرقاء اللون ويتدلى فوق الجزء السفلى من الوجه؛

وكانت عيناها جميلتين بشكل جذاب، بالرغم من ضعفها وهزالها وشحوب لونها، ومن هنا خطر ببالي أن تكون جميلة جداً ورائعة؛ ومالت برقة كي تتفحص عقاقيري بيدين ماهرتين لامرأة عاقلة في المسائل البسيطة. هذه المرأة عندما ترى دواء لا تعرفه كانت تقول بصوت عذب لطيف، "أعطني إذن ما تريد أنت، أعطني فقط ذلك الذي ترى أنه مفيد." وبالرغم من جمالها، وبالرغم أيضا من كونها شقيقة للشيخ جاسم، إلا أن أحدا من البدو لم ينجح في الزواج منها؛ والسبب في ذلك أن الحطيم ليسوا من سلالة الأعراب."

عندئذ وصل صالح، وتهلل فرحا وبشرا عندما وجد أن جمله أعيد إليه، ووعد بتحقيق كل ذلك الذي سيطلبه منه الشيخ جاسم؛ وأقسم صالح يمينا مغلّظة بأنه سوف ينقلني إلى حنّاس على الفور. ركبنا الجمل ومضينا في طريقنا؛ ولكن أثناء سيرنا في الطريق شددت حكمة الجمل (اللجام) وألزمت صالحا بقسم الصحراء الذي يقول: على aly العود Wa, el-aud والرب Rubb المعبود el-mabud، والذي يقضي بأن ينفذ، من يقسم به، كل الأشياء التي تعهَّد بها: وما لم يقسم صالح بذلك القسم فلن أركب معه أو بصحبته. ولكن صالحاً نظر إلى الخلف وهو يرتعد وصاح قائلا: "أقسم بالله، أنني التزم بهذا القسم، كل مافي الأمر، هو أن تُعجِّل حتى نتمكن من اللحاق برفاقنا، الذين ينتظروننا عند الخيام التالية."

استأنفنا مسيرنا معهم من جديد، وهنا قال صالح:" أنا لم يعترني في حياتي كلها مثل هذا الخوف، وبخاصة عندما وضع جاسم سيفه على عنقي!" سرنا مسافة ساعة ونصف الساعة وصلنا بعدها إلى منزل من منازل الحطيم، مكون من بيوت عدة: وعندما مررنا على ذلك المنْزل انتحى صالح جانبا وعَّرج على هؤلاء الحطيم ليسألهم عن الأخبار. وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى جزء من الجبل كانت فيه خيمتان وحيدتان. وهنا قال الرفاق : إن الإبل (التي تحمل أحمالا أكثر من طاقتها) أنهكت تماما، وقالوا أيضا: إنهم سوف يطلقون تلك الإبل ترعى مدة ساعة. وعندما وصلنا إلى المكان المقصود توقف أولئك الرفاق.

شاهدنا فى الخيمة الأولى زوجة عجوز: وراحت تلك الزوجة تحضر لنا بالتدريج، ونحن جلوس فى مكان بعيد عن الخيمة، طبقا من شرائح اللبن والسمن، ثم أحضرت لنا، بعد ذلك طبقا كبيرا من 'لبن الخض' الذى يفيد تماما فى وقت الحرارة الشديدة. "قال صالح متسائلا: ألا تستطيع أكل هذا الطعام؟ – الحطيم لديهم الكثير من هذا الطعام، وهم طيبون وكرماء." وقف الرجال بعد تناول الإفطار وحملوا أشياءهم فوق الأبل، – ولكنهم لم يحملّوا حقائبى! – ومضوا قدما. تكلمت مع الحطيمى الكبير، الذى كان رجلا محترما، ولكنه هز كتفيه وفرد راحتى يديه نحو الأعلى ورد على قائلا: "ما الذى يمكن أن أفعله؟ هذا الأمر يتعلق بصالح وحده، ووالله لن أتدخل فى هذا الأمر؛ ولكن لا تخف، لأن الناس هنا طيبون، ولن يصيبك مكروه وأنت بينهم." "قال صالح: عيادة **Eyada** بن عجوين **Ajjueyn** موجود أيضا على بعد مسافة قريبة." – " ولكن ماذا عن الأمير؟ وجاسم ليس هو الآخر ببعيد عنا؟" صالح :"فيما يتعلق بجاسم فنحن نلعن أباه وأمه؛ ولكن لا تشغل بالك بهذه الأمور، لأن الحطيم أناس طيبون، وسوف ينتهى الأمر نهايه طيبة." – التصارع مع الحطيم أمر لا طائل من ورائه؛ وهناك احتمال كبير أن يكونوا قد نشروا على الناس أننى نصرانى، وأنا بنفسى كنت رفيقا طيبا بين هؤلاء الناس، – لم يكن فى هذا المكان سوى امرأتين، وقد رحلتا عن المكان.

– "قالت الزوجة العجوز: صحيح أن عيادة قريب من هذا المكان، فقد سمعت بالأمس نباح كلابهم." فى الخيمة الثانية، كانت ترقد ابنة زوجها المريضة؛ فى حين كان الرجال يرعون الماشية فى الصحراء. بدى أن الزوجة العجوز كانت تمتعض عند ماعرفت أن صالحا تخلى عنى؛ وأخيرا جاءت إلىَّ تلك الزوجة العجوز وأنا أجلس وحدى' ثم قالت: "لا تحزن! أنا **ana** خالتك **Rhalatak**" . وبعد ذلك مباشرة خرجت تلك الزوجة العجوز لتبلغ خبر وصولى إلى الرجال الموجودين فى الصحراء. وبالقرب من هذا المكان وقع بصرى على حدود فيضان بركانى، وكان على شكل نوع من أنواع البازلت: وعندما غربت الشمس، اختفيت عن الأبصار، – مخافة أن يرى الناس الغريب وهو لا يؤدى الصلاة وبالتالى يعرفونى جميعا.

عـاد الزوج إلى المنزل بعـد ذلك بفترة وجيزة، وهو رجل أصم اسمه ضيف الله: وقـد رحب الرجـل بى ترحيبا طيبـا، وتبعه ثلاثة أبناء كبار ومعهم إبلهم عائدين بها إلى البيت؛ وكان معهم أيضا قطيع كبير من الأغنام والماعز، كما كان معهم أيضا عدد كبير من الحملان والتيوس. ووجدت (بالرغم من مظهرهم الحطيمى الذى يوحى بالفقر) أنهم فى بحبوحة من العيش. وأحضر لى ضيف الله، عندما كنا نتحلق حول نار المساء، سلطانية من حليب المساء، بعد تسخينه؛ – " ليس لدينا، قال الرجل، أى شىء يؤكل، وليس لدينـا تمـر أو أرز، أو خـبـز، ولكن اشـرب هذا الذى أعطانا الله إياه، علمـا بأنـه سيكون عشـاءًا متواضعًا ." شـكرت الرجـل ودعوت له بالبركة وقلت له: إن هذا هـو أفضل أنواع الغذاء. "أجابنى الرجل قائلا: نعم، إنه بعد غليه يدخل العظم تماما. " وعندما علم ذلك الرجل بخبر تخلى رفاقى عنى تعجب الرجل قائلا: 'بالله لو كانوا هنا، لقطع أعناقـهم.' كـان ذلك الرجل رقـيق الحـال، غـاية فى الكرم والاحـترام؛ فـقـد وافق بصعـوبـة بالغـة على أن يمـلأ غليـونه بالدخان مرة واحدة فقط، وكنت قد عثرت على هذه الكمـية القليلة من الدخـان فى أعـماق حـقائبى، بالرغم من أن هذه الكمـية كـانت مصـدر إسـعاد كبير لهم؛ ولم يمـانـع الرجـل من تلقيه هو وأولاده الصغار أى شىء من الضيف (المهجور) الذى ساقه الله لهم هذا اليوم. هؤلاء الناس كانـوا من العـرب البسطاء، غير المتشددين فى الصلاة، ولا تتردد على ألسنتهم أسئلة حرجة أو محرجة عن الدين، ولكنهم كانت قلوبهم عامـرة بإنسانيـة الصحـراء.' (قـال مضيفى الطيب: إنـه سـوف ينقلنى فى الصباح إلى عيـادة بن عجـوين، الذى سيقوم بدوره بإرسالى إلى خيبر.'

كان الليل حالك الظلام، وانفجرت السحب المنخفضة علينا بالمطر والبرق. قلت لضـيف الله، "الله ينزل بركـاته من جـديد على الأرض." – رد على الرجل ردًا يوحى بالتدين "نعم، صـدقت." – يا لحسن هذا المكان ! وأنعم بالسلام الذى يسوده ويخيم عليه! هذه البقعة الصغيرة من أرض البدو والتى تقع أسفل قماش الخيمة المصنوع من الصوف الخشن، ويتساقط المطر من خلال ثقوبه، وذلك بالمقارنة مع بلدة حائل!

مع طلوع الصبح، حلبت النساء الماشية الصغيرة؛ وكنا نجلس عندما كانت الزوجة العجوز تهدهد قربة الحليب بين ركبتيها إلى أن انفصل الزبد عن الحليب؛ والنساء يجدن الزبد على شكل كتلة عند فوهة السميلى (القربة). وسرعان ما شاهدت ذلك الزبد وهو يغلى على النار لتحويله إلى سمن، ونادونى كى أتذوق رغاوى السمن مستخدما فى ذلك إصبعى. هن يقمن الآن بإعداد وجبة صغيرة من الرغوة عند تحويل الزبد إلى سمن، وذلك بعد سكب السمن. ويجرى بعد ذلك خلط الرسوب المتبقى من الزبد بشىء من الحليب ثم يقدم بعد ذلك للضيف؛ وهذه هى أحلى الأكلات فى هذه الحياة البدوية المتواضعة. بعد ذلك أحضرت لى تلك الزوجة العجوز شيئا من السمن (كل ما أعطته حيواناتها الصغيرة فى صباح ذلك اليوم) ، ووضعته داخل جلد صغير (ربما كان وزنه لا يزيد على بنت (*) واحد): قالت، إن تلك كانت هديتها لى: وسألتنى ما إذا كنت أسمح بأن أترك لهم شيئا من الدواء؟ أعطيتها جرعات من الكنين. وأحضرت لى سلطانية كبيرة من لبن الخض؛ وبعد أن شربنا منها ما يكفى، قام ضيف الله بتحميل جوالاتى على جمل من إبله. وركبنا، واتجهنا جنوبا عبر الخلاء (الصحراء).

سرنا مدة ساعة وصلنا بعدها إلى منزل عيادة، وكانت الخيام البدوية المصنوعة من الصوف الخشن منصوبة فى تجويف على شكل رف يطل على منظر طبيعى من الأرض الجرداء الخراب فى الناحية الجنوبية: شاهدت ظلاما شاسعا خلف ذلك المنظر، – هذا السواد كان عبارة عن حرة أخرى (أو بالأحرى حرَّة خيبر) – كما شاهدت أيضا جبالاً من صخور الجرانيت وردية اللون كانت الأحجار الرملية، تمتد على شكل لسان بين الجبال البللورية ومحملة بالحمم البركانية، وتمتد لتصل خيبر من الناحية الجنوبية. – "قال ضيف الله: عندما نصل إلى خيامهم على مختلف مواقعهم، فسوف تتولى أنت الحديث إلى الناس: قل لهم إنك مداوى جئت من حائل، وأنك تود الذهاب إلى خيبر؛ ومقابل ريالين اثنين سوف تجد شخصا يوصلك إلى هناك."

(*) البنت: مكيال للسوائل يعادل ثمن جالون. (المترجم)

وصلنا إلى مبتغانا، وهناك قدمنى ضيف الله للشيخ عيادة؛ (قال) إننى كنت مداويا بارًا، – وبعد ذلك أخذ جمله وانصرف لحال سبيله. كان عيادة واحدا من شيوخ الحطيم، وكنت قد رأيته قبل يومين وهو يستطلع الصحراء: – ولربما فهم عيادة عندئذ (من كلام الرجل المتشدد) إننى لم أكن مسلما حقيقيا، والسبب فى ذلك أننى عندما ألقيت عليه التحية، وقلت له: إننى سوف أذهب معه إلى خيبر، استقبلنى استقبالا خشنا. كان الرجل صاحب بنية قوية، كما كانت ملامحه توحى بأصل مهجن أو أن شئت فقل خلاسى، مثلما سبق أن لاحظت بين بدو الفهجات، الذين هم أيضا من الحطيم. عيادة: "حسن، لقد قلتها بالأمس، وأنا لايمكننى أن أرسلك إلى خيبر." – كان هناك بعض الرجال يجلسون أمام خيمة عيادة – " يا هو! قال الرجل، من منكم سيقوم بتوصيل هذا الرجل إلى خيبر، ويحصل منه على ثلاثة ريالات." ؟ أجاب واحد منهم قائلا: "سوف أنقله إلى هناك، إذا ما أعطانى هذه النقود." وافقت على ما قاله ذلك الرجل، وهنا ضمن الشيخ أن ذلك الرجل لن يتخلى عن رفيقه، مثلما فعل غيره من قبل." لا، ثق بى، هذا غروسيب Ghroceyb ،.واحد من الشيوخ، وهو رجل شجاع ومقدام." – " وأنت ياغروسيب ، أقسم بحياة هذا الساق من العشب، أنك لن تتخلى عنى، أنا رفيقك، إلا بعد أن توصلنى إلى خيبر!" – " أقسم على أنى سأوصلك إلى خيبر ، اللهم باستثناء إذا ما وافتنى المنية." عيادة" "إن لديه ناقة أيضا، وهذه الناقة تستطيع الطيران كما لو كانت طائرا من الطيور." غروسيب: "ألا ترى أن الشمس قد طلعت! هيا بنا نقضى النهار هنا، وغدا سوف نبدأ رحلتنا." – "لا، ولكننا سنبدأ اليوم،" أجابنى الشيخ، على الفور، إلى حد أنى كنت أتعجب من سلوكه غير الكريم، كما تعجب غروسيب أيضا من ذلك الاستغراب. لم يعزمنى الشيخ على الدخول إلى خيمته، ولكنه اكتفى بأن أحضر لنا خارج الخيمة سلطانية كبيرة من لبن الخض. وهنا تجمع الحريم حولى، وهن يحملن فى أيديهن سلاطين صغيرة مملوءة بشرائح اللبن المجفف (المريسى) ، ورحن يطلبن منى أدوية. لم أصادف أناساً غير الحطيم لديهم رغبة قوية فى شراء أدوية من المداوى. وبعد رحيلى ، وعندما جرب الحريم أدويتى، قلن: إن خليلا كان رجلا أمينا صادقا؛ وقد أفادنى تقريرهن هذا طوال أشهر بعد ذلك، عندما عاودت المرور على هذه البلدة مرة ثانية.

أبلغنى غروسيب أن المسافة من هنا إلى بيضة Baitha نثيل Nethil تقدر بحوالى نصف رحلة من رحلات الإبل ، وأن المسافة إلى حائل تقدر بحوالى ثلاث رحلات، وإلى تيماء حوالى أربع رحلات، وإلى قرية العلا حوالى أربعة رحلات ونصف الرحلة ؛ وأننا سوف تمضى علينا ثلاث ليالى قبل أن نصل إلى خيبر. وبعد أن قطعنا مسافة ميل هرولة؛ كان هناك ابنا لتلك الناقة، وكان يرعى أمامنا فى الصحراء، وعندما رأى أمه، جرى بكامل سرعته كى يلاقى أمه الناقة، وراح يتبعنا وهو يجأر ويخور، – وراحت الناقة الأم ترد على خواره بخوار مماثل كان يصدر من حلقها الكبير؛ ولكن غروسيب نزل عن الناقة وراح يبعد وليدها عنها. مشينا فى سهل من الرمل. وبالقرب منا ظهرت أمامنا تلك الصخور سوداء اللون – الحَّرة، ومن فوقها بعض التلال وقمم التلال، والناس هنا يطلقون على هذه المنطقة اسم الحلَّى el- Helly : لاحظت أن تلك القمم هى والتلال كانت عبارة عن تلال قمم بركانية! كان هناك جبل طويل غير مهم، يطلقون عليه اسم البُثُرة Bothra ، يمتد محاذيا للطريق من ناحية الشمال، ولم يراودنى أى شك فى أن ذلك الجبل كان من الجرانيت. وراح غروسيب يشجع ناقته بأغنية لطيفة! كانت تصدر واللسان تحت اللهاة، – وأنا لم أسمع هذه الأغنية من قبل؛ كما أن هناك تباينا فى القبائل، فيما يتعلق بالنداءات التى ينادون بها الإبل فى صحراء الجزيرة العربية.

دخلنا تلك الحرة السوداء. وتحول حقل الحمم البركانية إلى أمواج كبيرة وأخاديد كبيرة أيضا، وتحول المكان من حولنا إلى متاهة من الصخور البركانية والسهول الرملية القصيرة الناتجة عن البراكين. – وهذا قسم آخر، أو إن شئت فقل عضو آخر من أقسام أو أعضاء الجزء البركانى من غربى الجزيرة العربية، والذى يمتد، بقليل جداً من الشروخ والصدوع، من تبوك، خلال سبع من دوائر العرض، إلى أن يصل إلى حدود مكة.

عثرنا على مياه طينية، فى تجويف (على إثر المطر الذى سقط مؤخرا)، وهنا نزل غروسيب من فوق الناقة ليملأ القربة بالماء. وقبيل العصر شاهدنا قطيعا من الماعز يتجول بين الصخور البركانية. كان راعى ذلك القطيع واحداً من الحطيم، وقد تعرف

على غروسيب، وأشار لنا على المكان الذى نصبت فيه بيوت الشَعر، والذى كان عبارة عن مكان منخفض لم يكن يبعد عنا كثيرا. هنا وصل غروسيب إلى أهله وأقاربه؛ ونزلنا عند خيمة شقيق غروسيب. ويصل ارتفاع الحرّة فى هذه المنطقة إلى حوالى ٤٣٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. كانت الحريم هنا محجبات مثل الحريم فى مخيم جاسم، وكن يرتدين براقع تتدلى فوق جباههن. وفى المساء حيونا بإناء كبير من التمن (الأرز) المسلوق، كما سكب لنا المضيف قربة كاملة من لبن الخض غليظ القوام.

كان من بين هؤلاء الرجال رجل يمتهن الصيد حرفة له؛ ومعلوم أن بدو الحطيم وبدو الشرارات يتفوقون على سائر البدو فى هذه المهارة، وهم يجيئون بعد الصلوية فى هذا المقام، ففى الموسم الماضى استطاع ذلك الصياد، اصطياد نعامتين باع جلديهما (لتاجر الرياش الدمشقى الذى يجئ إلى هذه المنطقة بصحبة الحج كل عام) نظير ثمانين ريالا: أى بواقع أربعين ريالا لجلد النعامة الواحدة ! (أى ما يعادل ثمن جمل واحد من الجمال الجيدة) – وهذا يعد ثمنا مدهشا فى مثل هذه البلاد. وأنا لا أعرف شيئا عن سلالة الحطيم النسبية فى الجزيرة العربية. والحطيم ليسوا من أصحاب المزاج البشوش، وهم يفتقرون إلى الطلاقة الذهنية كما يفتقرون أيضا إلى شهامة البدو. تحدث غروسيب عن ناسه فقال: "جد الحطيم هو راشد ونحن – حطيم المنطقة الوسطى – يطلق علينا اسم بنى راشد . وهؤلاء الحطيم الموجودون على ساحل البحر الأحمر، أسفل منطقة الوجه، يطلق عليهم اسم الجرابيس Gerabis ، وهم من سلالتنا بطبيعة الحال، ولكنهم ليسوا على وفاق معنا. وبنو راشد كثيرو العدد شأنهم شأن بنى وهاب (حوالى ٦٠٠ بيت ولا يزيد عددهم على ٢٠٠٠ نسمة). وتحدث غروسيب عن الشرارات الشبيهين بالحطيم فقال: "يجوز لنا الزواج منهم كما يجوز لهم أيضا الزواج منا، – ولكننا نتبادل معهم سرقة الماشية؛ ويصل تعدادهم إلى حوالى ٨٠٠ بيت." كما أبلغنى أيضا أنهم فى الأيام السابقة، سرقت منهم بعض الإبل عن طريق غزو قام به النعومسى على الجرابيس، وأن الشيخ بن نومس Nomus (والد حنَّاس) هو الذى رتب لاستعادة الإبل المسروقه قائلا: "والله إنهم من سلالتنا."

فى الصباح الباكر حلب غروسيب ناقتنا وأحضر لى ذلك الحليب الدافئ؛ وبعد ذلك، وفى ضوء التعب الذى سيصيب الناقة جراء الرحلة الطويلة من ناحية، وعدم تناول أى شىء من العلف من الناحية الثانية، فإن ضرعها سيجف ولن يكون به أى شىء من الحليب، وهنا أحضر البدوى شيئا يغطى به ضرع الناقة؛ [فى مثل هذه الأوقات على أمل أن تحمل تلك الناقة فى أنثى] . ونادتنا خيمة أخرى لتناول طعام الإفطار، حيث قدموا لنا تمرا مقليا فى السمن، كما قدموا لنا أيضا سلطانيات من لبن الخض. كانت المنطقة بكاملها من الصخور البركانية، وتحتم علينا قضاء ليلتين فى الخارج بعيدا عن الأعراب،" وفى الليلة الثالثة كنا قد وصلنا إلى خيبر.

كانت تلك الأيام مظلمة وسحبها من النوع الرمادى فى هواء الجزيرة العربية ذهبى اللون. وإصلنا مسيرنا على وجه السرعة سالكين فى ذلك مسارات (جدران Jiddran الإبل) انمحت بفعل الزمن وتآكلت فى الصخور النارية من ناحية وفى الصحراء المكونة من الصخور البركانية من ناحية أخرى. والبشر هم والحطيم يأتون إلى هذا المكان فى مطلع العام ومعهم ماشيتهم، وذلك بحثا عن عشب الربيع الذى ينمو بين الصخور البركانية وفى الحفر الصغيرة، وفى القيعان البركانية الرملية. وقبل دخول وقت الظهر، كنا قد أصبحنا فى منطقة التلال السوداء (التى يطلقون عليها اسم الحليان hillian) التى سبق لى أن رأيتها أمامنا بالأمس؛ هذه التلال كانت عبارة عن أقماع أو قمم أو فوهات براكين خامدة. كان المسار الذى نسلكه يقع أسفل أعلى تل من تلك التلال، والذى قد يصل ارتفاعه إلى أربعمائة أو خمسمائة قدم. بعض هذه التلال كانت له قمتان، – وهذا لا يظهر إلا فى التلال التى يحدث انكسار فى أحد جوانبها. بعض التلال الأخرى كانت تبدو مهشمة عند القمة. كل شىء هنا يشبه ذلك الذى شاهدناه فى حرة العويرض. مررنا بعد ذلك عبر سهل ناعم من الصخور النارية؛ وعند سفح تل آخر من تلك التلال شاهدت صخورا يميل لونها إلى الاصفرار وناعمة الملمس وتقع أسفل الصخور البركانية. من هذه المنطقة استطعنا رؤية قرية خرُّام Kharram ، التى تبعد عنا مسير يوم واحد فى اتجاه الغرب؛ كانت قرية خرام تقع خلف الحرَّة داخل حدود النفود صفراء اللون؛ كان الرمل الأبيض يمتد على شكل انجرافات طويلة على جانبى الجبل المرتفعين.

كانت تلك الأرضى البركانية المرتفعة تحتوى على بعض البرك الناشئة عن مياه المطر؛ وفى واحد من الأماكن سمعت صوت مياه تتساقط! وصلنا إلى بركة جديدة باردة الماء، كانت تبدو مثل بحيرة جبلية فى ضوء الشمس التى مالت إلى الغروب! من هذا الماء الصحراوى الغريب كان ينساب نهير برى كان يحدث ضوضاء شبيهة بضوضاء الطواحين. بعد أن واصلنا مسيرنا طوال فتره النهار، وجدنا أنفسنا، نوقف راحلتنا فى مكان مستور، يسمح لنا بشب النار. لم يسبق لرفيقى أن وصل إلى هذه المسافة فى ذلك البحر من الصخور والحمم البركانية، ومع ذلك استطاع تعرف العلامات الأرضية. انصرف رفيقى ليعود ومعه قبضة من العشب الذى حصل عليه من الفجوات التى بين الصخور، ليقدمها لناقته الصائمة؛ ورحت أنا بدورى أجلب بعض السيقان الجافة لأضعها مشتعلة تحت الإناء، الذى سكبت فيه شيئا من الماء وبدأت أسلق شيئا من التمن (الأرز). وعندما عاد غروسيب طلبت منه أن يقوم هو بعملية الطبخ؛ ولكنه قال: "ما الذى يمكن أن أعمله؟ أنا ، أقسم بالله، لا أفهم ذلك المطلوب منى." – " ومع ذلك، فأنا لم أر فى حياتى كلها بدويا لا يستطيع الوفاء باحتياجاته فى رحلة من الرحلات." – " أنا آكل ذلك الذى تعده الحريم، ولكنى لم يحدث فى حياتى كلها، أن اشتركت فى صنعه ." – هذا الغورسيب لم يحضر معه سوى قبضتين أو ثلاث قبضات من شرائح اللبن المجفف (المريسى)! كان غروسيب يعانى من آثار حمى قديمة، ولذلك لم تكن شهيته مفتوحة للطعام. كان ذلك المكان يمثل أكثر النقاط ارتفاعًا، فى أنحاء الجزيرة العربية التى مررت بها، إذ كان يصل ارتفاعه إلى ٦٠٠٠ قدم تقريبا. واعتبارا من ذلك الوقت بدأت أفهم حقيقة تقسيم المياه بين قيعان الوديان الكبيرة فى شمالى الجزيرة العربية؛ وعلى وجه التحديد، فإن وادى الرماح ينحدر نازلا من الحرَّة متجها صوب الشمال الشرقى، وصوب وادى الحمض el-Humth . كانت تلك الليلة معتدلة، أمضيناها فى حماية الصخور البركانية غير المشذبة، كما لو كنا نقيم بين الجدران، حيث شعرنا بالدفء إلى أن طلع النهار علينا.

ركبنا الناقة عند الغسق؛ ولكن السماء بدت بعد طلوع النهار بفترة طويلة، كما لو كانت مغلقه علينا، مثل قبر من القبور، بسحابها المظلم. كانت منخفضات

الصخور البركانية تشغلنا وتسيطر على انتباهنا؛ وكنا فى كثير من الأحيان نجد أنفسنا قد وقعنا فى شىء من الخطأ وبخاصة بين رفوف الصخر الحادة، أو كنا نفاجأ فى بعض الأحيان، بأننا أمام جروف شديدة الانحدار. الحقل البركانى هنا عبارة عن فيضان من الأحجار التى تصلبت؛ هذه هى رءوس طويلة متدحرجة، تشبه أعراف الأفراس، تبرز عن سائر كل ماعداها: هذه الرءوس بحكم ارتفاعها عن كل ما حولها، نجد أن الكثير منها منقسمة طوليا، وهذه هى الجحور المجوفة تتساقط هنا وهناك على شكل شظايا ضخمة وعلى شكل أكوام من الركام كما لو كانت عناقيد من الحبال؛ القمم هنا تبدو وكأنها أعراف من الصخور الزجاجية التى يطلق الناس عليها هنا اسم 'لابا' laba (ويجمعونها [لوب lub])؛ واللابا عند الناس هنا [كما ورد فى الجزء الاول] هى كل ما هو شبيه بالمعدن المنصهر – وليس لدى الأعراب هنا أى موروث عن أن هذه التربة كانت فى يوم من الأيام غارقة فى معدن منصهر أو جبال تحترق. ومع مضينا قدما شاهدت صخورا شامخة لها حمرة الذهب قابعة فوق الصخور البركانية السوداء المخيفة التى تثير الرعب والفزع؛ تلك الصخور الشامخة التى كانت كلها من الحجر الرملى وقد تبعثرت عليها أشعة الشمس فى الصباح. فى قيعان الصخور البركانية المستورة، التى كانت تنمو فيها أشجار السنط التى يؤخذ منها الصمغ، فى تلك القيعان شاهدنا وافزعنا طيور طيهوج الرمال (التى يطلقون عليها هنا اسم 'القطا' gatta) ؛ هذه الطيور جافة اللحم ولا يستساغ أكلها، وذلك على حد قول البدو الرحل. وفى أحيان كثير يشاهد الناس هنا لمعانا كثيرا فوق حقول الصخور البركانية نتيجة انعكاس الشمس عليها، الأمر الذى يجعل الناس يحسبون ذلك اللمعان ماءًا، يقع على مسافة بعيدة؛ ولكنه، فى واقع الأمر، لا يعدو أن يكون طينا جافا يلمع بفعل اختلاطه بالأملاح.

رفع غروسيب يديه تضرعًا؛ لم يكن غروسيب ملما تماما بالصلاة، ولكنه راح يتمتم من داخله طلبا للنجاة والسلامة من هذا الممر الخطر." يارب، جَنِّبنا الأخطار! ولا تجعل هذا اليوم هو آخر أيامنا، واحفظ علينا ناقتنا!" لم يكن رفيقى يعرف أننى مسلّح. واصل غروسيب مسيره، وهو يحمل بندقيته الفتيلية، وكان سيره يتراوح بين المشى

والهرولة، واضعا نصب عينيه المسار الذى يتعين على الناقة السير فيه، كما كان يتحسب لمرور عدو لنا علينا بطريق المصادفة. وفى إحدى المرات فاجأنى غروسيب، عندما استدار فجأة، وأنا أدون بالقلم الرصاص [قراءة من قراءات جهاز قياس الارتفاع] "قال رفيقى: هل كل شىء على ما يرام يا خليل؟ هل تمكنت (بفضل أحرفك السرية والسحرية) من معرفة إن كان هناك خيرا أم شرًا؟ ألا تستطيع كتابة شىء ما (وصفة سحرية قوية) تفى بهذاالغرض؟" وعندما رآنى غروسيب أركب الناقة دون اكتراث أو اهتمام، وعندما رآنى أروح فى النوم بسبب التعب والإرهاق، بدأ يشعر بالارتياح والطمأنينة. كانت طمأنينتى فى الجزيرة العربية راجعة إلى مسدسى الذى كان يتسع لست طلقات، لأنى كنت أرى أن ذلك المسدس كاف للدفاع عنى وعن من هم معى فى حالة تعرض حياواتنا للخطر، يضاف إلى ذلك أن غروسيب كان هو الآخر رجلا شجاعاً. كانت بندقية غروسيب ثقيلة الوزن على كتفى رجل قوى، وتكلمت معه طالبا منه تعليق تلك البندقية عند مقدمة سرج الجمل بحيث تكون أمامى أنا، رفيقة فى السفر؛ ولكنه اعترض على ذلك وقال: 'أنا لا أعلق حبل الكتف على مقدمة السرج؛ لابد أن يكون تعليق البندقية سهلا ويسيرا حتى يمكن تناولها واستعمالها على وجه السرعة فى حالة الخطر.'

تجاوزنا حدود الحرَّة بعد طلوع الشمس بساعتين، وخرجنا من ذلك الحقل من الصخور البركانية إلى أرض من الحجر الرملى. هذه الأرض البركانية التى انفقنا سبع عشرة ساعة فى عبورها يطلق الناس عليها هنا اسم حرَّة الاثنان el-Ethnan ، وذلك نسبة إلى التل الصخرى الكبير الذى يسمونه جبل اثنان el-Ethnan ؛ وحطيم النومسة يعيشون فى هذا المكان. وفى خلال ساعة واحدة نزلنا إلى سهل منخفض من الصخر الرملى أحمر اللون، ومن هذا المنخفض وصلنا إلى شق عميق يطلقون عليه اسم 'الشُّطب' es-Shotb ؛ وقد اضطرنا ذلك الشق إلى تقصير خطى الجمل وبخاصة أثناء تجاوزه للرفوف الجبلية. شاهدنا فى قاع ذلك الشق أشجار السنط التى يؤخذ منها الصمغ، كما شاهدنا فى القاع أيضا شجرة لم أستطع التعرف عليها، كانت أوراق تلك الشجره تشبه رماد الجبال. "اسم هذه الشجرة هنا هو الثرو thirru ، ونحن

لا نعرف لها فائدة، هذا هو ما قاله غروسيب. وخلف تلك البيارة كانت هناك بعض الصخور البركانية الدقيقة المبعثرة فوق تربة الحجر الرملى، وقد جاءت تلك الصخور من الحقل البركانى الموجود فى الأعلى. وعندما دخل الظهر كنا قد تجاوزنا منطقة الصخر الرملى ووصلنا من جديد إلى الحرة الرئيسية الموجودة فى الخلف، والتى بدأت الاتصال بالحرة لتكونا شيئا واحداً يمتد ناحية الشرق؛ وفى هذه المنطقة مررنا بعدد قليل من فوهات البراكين القديمة. هذا المكان بكامله، والذى يسمونه هنا حرة Harrat خيبر (*) Kheybar – يمتد فيما بين الشمال الغربى والجنوب الشرقى ويستغرق مسير أربعة أيام من حيث الطول وليس العرض؛ وهذه المسافة، التى تصل الى ما يقرب من رحلة ناقة إلى المدينة (المنورة) تقدر بحوالى مائة ميل كحد أدنى. وعرض هذه الحرة أقل من طولها، ولكنها يمكن اجتيازها من منتصفتها خلال يوم واحد فقط.

قال غروسيب متسائلا: "ولكن هل من الضرورى ذهابك إلى خيبر؟ – تواهى Tuahi ، ألا تسمعنى يا أنت؟ أليس من الأفضل أن أوصلك إلى قرية الحيات el-Hayat؟" – كان رفيقى يخشى الذهاب إلى خيبر، نظرا لوجود الدولة (الإمبراطورية العثمانية) هناك: لأن المسئولين هناك (وقد عرفت ذلك فيما بعد) ربما اعتبروه عدواً واستولوا على ناقة ذلك البدوى المسكين، ثم يضعونه فى السجن؛ ولكن قرية الحيات، كانت حرة وليس للدولة فيها وجود وتحت إمرة بن الرشيد. وقد عرفت، فيما بعد، أن غروسيب، كان قد ارتكب حادث قتل، وأنه قد يلقى القبض عليه والإمساك به وفاء لذلك الثأر؛ يضاف إلى ذلك، أنه رافقنى فى هذه الرحلة المؤلمة طلبا لأربع ريالات ليس إلا. كان بوسعنا، عندما انطلقنا من منْزل عيادة، أن نجعل الحّرة عن يميننا ونمر من خلال السهول الرملية المريحه [التى تجولت فيها فى فصل الربيع] الموجودة أسفل الجبال الجرانيتية؛ ولكن غروسيب رفض السير فى ذلك الطريق، نظرا لأن المكان أو الطريق المكشوف يشكل خطرا كبيرا لذلك الرجل، ولكن هذا الخطر يقل إذا ماسلك الطريق الصخرى الذى سلكناه.

(*) ورد ذكر هذه الحرة فى معجم البلدان لياقوت الحموى وأطلق عليها اسم حرة النار . (المراجع)

وبعد أن سرنا مدة ساعة من الشطب Shotb وجدت أن الارتفاع فى تلك المنطقة كان يقدر بحوالى ٥٠٠٠ قدم. وقبيل العصر، وعن يميننا حيث توجد أطراف المكان الذى ينزل فيه أصدقاء غروسيب، وبعد أن عاد إلى موطنه مرة ثانية 'اكتشف أن الغريب كان رفيقا جيداً، ولم يكتشف ذلك إلا فى نهاية الرحلة، وعندما أوشكنا على دخول خيبر كان بوسعى أن آخذ ناقته أيضا'!

تجاوزنا حقول القمح فى حورده Hurda بلا أخطار ثم وصلنا بعد ذلك إلى عنق الحرة البازلتى الذى يحيط بوديان الواحة والذى يطلقون عليه هنا اسم 'الفجيرة' el-Figgera (وجمعه 'الفجار' el-Fuggar) الخيبرية. ركب غروسيب معى على الناقة وجعلها تسرع الخطى وتجرى بسرعة، نظرا لأن ضوء النهار بدأ يخبو. شاهدت حطام مبان قديمة وأسوار قديمة أيضا فى منطقة الفجّاره: بعض هذا الحطام كان عبارة عن أحواش صغيرة من كتل البازلت السائبة، التى يستعملها البدو فى تجفيف تمورهم بفعل أشعة الشمس وحرارتها، وذلك قبل تخزين تلك التمور فى جوالات. وبعد مسير حوالى ميل وصلنا إلى طنف الجبل، وعنده شاهدت غابة من النخيل فى وادى من وديان خيبر الموجودة فى الأسفل، أو إن شئت فقل: تحتنا، ولكنى لم أتمكن بعد من رؤية القرية. غربت الشمس ونحن نسير فى ممر منحدر. عن يميننا كان هناك برج خال من أبراج المراقبة، وهو أحد سبعة أبراج أنشأتها مؤخرا الحكومة التى كانت تحتل المدينة (المنورة) فى ذلك الوقت، لمراقبة قبيلة عنزة [البشر والفجير] المعادية لها. هذه العلامة الأرضية التى من صنع البشر كانت عندى غير آدمية، وذلك على العكس من بقية الحرَّة الموجودة خلفنا؛ والسبب فى ذلك، أننى خطر ببالى عندئذ أن مدائن صالح، ومعها التخوَّف من الجنود الأتراك الذين لم يتقاضوا رواتبهم منذ مدة طويلة. كما كان جفاف الصحراء المشمسة جميلا بالنسبة لى، وكم كان الأمن متوفرا من خلال بيوت الشعر، فى القرى التى تجولت خلالها! هذه القلاع لا توجد بها حاميات أو قوات فى فصل الربيع وفى فصل الخريف أيضا.

مررنا عبر بيارات النخيل فى قاع من قيعان الوادى الذى يطلقون عليه هنا اسم وادى Wady جلاَّس Jellas ، تيمنا باسم فخذ من أفخاذ قبيلة عنزة فى قديم الزمان، ذلك الفخذ الذى تخلى عن خيبر منذ زمن بعيد، والذى يعيش حاليا – كما سبق أن أوضحنا – مع الرولة فى الشمال. الأرض المنخفضة هنا عبارة عن طين ومياه راكدة وهنا بدأنا نواجه نوعا من البخار الخانق المزعج. وفى المنتصف مررنا بغدير ينساب وسط حوض أخضر. كانت التربة مهملة على جانبى ذلك الغدير، ولم يكن فيها سوى بقايا لبعض الأعشاب وجذوع النخيل. كانت التربة مغطاة بقشرة من الملح لاذع المذاق، الذى يطلقون عليه اسم 'السَّمخة' Summakha [ويكتبونه سبخة' Subbakha] ، وكان ذلك الملح مشوبا بنوع من الصدأ الوسخ: ومن هنا جاءت الأسطورة الخرافية التى مفادها أن 'الأرض تطهر نفسها من دماء اليهود الكثيرة، التى أريقت فى المعركة التى دارت فى خيبر.' وهذه هى الناقة وقد بدأت تتوقف فى كثير من الأحيان، تحوطا لعدم وجود أرض ثابتة تحت أقدامها. دخلنا فيما بين الأسوار التى بناها أصحابها من صخور البازلت، ومن مخلفات النخيل المتعفنة ومن كتل الطين. – يالغرابة هذه الوديان الخيبرية فى الجزيرة العربية الخالية من الماء! وهنا بدأ يتملكنى إحساس بمكروه سيحدث لى فى هذا الجو الذى يوحى لى بالموت فى كل يوم.

صعدنا فوق أرض صلبة إلى مدخل قرية خيبر، وهو ما يسمونه جرية Jeriat بشر، التى تقع تحت صخرة بازلتية طويلة متبقية من قلعة الحصن el-Husn القديمة. وعلى الأرض المنحدرة على الناحية اليسرى كان يوجد مبنى صخرى قديم مربع الشكل، وهم يقولون هنا أن ذلك هو المسجد المتبقى من أيام محمد (ﷺ) ؛ وأن أصحاب النبى مدفونين هنا، هؤلاء المسلمون الأولون، أتباع 'الرسول' الحى، والذين سقطوا فى معركة الاستيلاء على خيبر.

التقينا امرأة زنجية عند بوابة القرية فى فترة الغسق، وسألتها إن كان بو Bou (أبو Abu) راس Ras فى القرية؟ – وكنت قد سمعت عن أبى راس هذا من المغاربة فى حائل وأنه رجل أمن وسلام: كان أبو راس هذا تاجرا زنجيا مغربيا طاب له المقام فى

هذه المنطقة؛ كنت أتطلع أيضا إلى الحلول ضيفا عليه. ولكنه كان قد غادر خيبر، اعتبارا من تاريخ دخول الدولة (الامبراطورية العثمانية) إليها - والذى أصبح الآن، على حد قول الناس هنا، شبعاناً Shebbaan ، بمعنى أنه حصل على ما يكفيه من ثرواتهم المتواضعة، - ليعيش به فى قرية الحيات el-Hayat الحرة الواقعة تحت الحكم النجدى. - ردت علىّ هذه المرأة الزنجية بثقة تامة، وتمنت للغريبين مساء طيبا، قائلة: "هى لا تعرف شيئا عن هذا الموضوع ، ولا يمكن أن تقول عنه أى شىء."

الفصل الرابع

خيبر "بلد الرسول"

الليل في خيبر. عبد الهادى. أحمد. حزام البواردى. خيبر فى ضوء النهار. جنود المدينة. محرّم. سرور. مثول النصرانى أمام حاكم القرية. العم محمد النجومى. أمان. الأحباش. المساء فى مقهى الجنود. إبراهيم، القاضى. رواية عبد الله عن الإنجليز. عربية الحجاز. إمرأة زنجية محترمة. منزل العم محمد. أم كيدة التربة المالحة. وديان خيبر. الألبانيون. نسب خيبر. اتهام النصرانى. القرويون يخافون من أسحاره وتعاويذه. مصادقة العم محمد. العمل فى البئر. الصيد. قصر النبى. الاسمية. نشر الدم. كرم شيخ الهجرة. الحطون. جحور على الحرة. مجيء السحرة إلى خيبر للبحث عن الكنوز. صخرة الحصن.

تجاوزنا البوابات المصنوعة من خشب جذوع النخيل لندخل إلى شارع قرية العبيد Negro فى الحجاز، ونزلنا من فوق مطايانا أثناء فترة الشفق أمام رجل من معارف غروسيب. هذا المضيف، عندما سمع صوت ضوضاء انشغالنا أمام منزله ناداه غروسيب، فنزل ومعه أخوه لاستقبال الضيوف. حملوا جوالاتى على أكتافهما، واصطحبانا إلى الدور العلوى من خلال سلم من الطين، والدور العلوى كما هو الحال فى قرية العلا، عبارة عن غرفة يطلقون عليها هنا اسم صُفّة Suffa . والدور الأول، فى هذه الواحة الرطبة، عبارة عن مكان يحتفظون فيه بالأدوات البستانية، فضلا عن كونه أيضا حظيرة لذلك العدد القليل من الماعز التى تبيت فيه أثناء الليل. رب هذه العائلة، كان اسمه عبد الهادى، وهو عبارة عن شاب صغير لم يصل بعد إلى منتصف العمر، وهو ينحدر من سلالة زنجية خالصة. – هؤلاء السكان من أهل الجزيرة العربية الذين يشبهون الزنوج يكونون مليحى الوجه فى معظم الأحيان.

كانت غرفة مضيفنا العلوية تطل على الشارع الجانبى ولها شباك طويل، يقولون له هنا "طاقة" taga ، وكان يمتد من أعلى سقف الحجرة إلى أرضيتها؛ أما سقف المنزل فكان من جريد النخل المفكك السائب، ومن فوق ذلك السقف كانت هناك شرفة المنزل المبنية من اللبن ويمكن الصعود إلى هذه الشرفة عن طريق سلم نقالى مكون من ثلاث عوارض من خشب النخيل. كان منزل عبد الهادى واحداً من المنازل، أو إن شئت فقل: من الأكواخ الجيدة والسبب فى ذلك أن عبد الهادى هذا كان رجلا ميسور الحال. وخيبر، على ما يبدو، كانت قرية إفريقية فى الحجاز. فرش عبد الهادى سجادته ورحب بنا، ووضع أمامنا تمر خيبر، الأصفر اللون، وصغير الحجم. هذا التمر الخيبرى يجرى حصاده قبل أن يكتمل نضجه [والسبب فى ذلك هو عجلة أصحاب هذا التمر من ناحية، وكذلك عدم توفر الشفقة بين الناس هنا من الناحية الأخرى!] وهذا التمر له نكهة تشبه نكهة الدواء والعقاقير، ولكنه" أبرد" من معظم أنواع التمور التى فى البلاد؛ يضاف إلى ذلك أن هذا التمر الخيبرى صحى أيضا . بعد الجهود التى بذلناها فى الحرة فى تلك الأيام، لم نكن نود أو نرغب فى تناول الطعام؛ طلبنا شيئا من الماء كى نروى ظمأنا: والناس هنا يعلقون قراب الماء عند أعلى درج السلم، ويصنعون فى الأرض حفرا تحت هذه القراب، حتى يمكن أن تستقبل نقاط الماء التى تتسرب من تلك القراب. وقد قالوا لى، إن الماء الذى يجرى جلبه من البئر الموجود تحت البازلت، له مذاق مثل مذاق مياه الخنادق؛ وربما كان ذلك المذاق قريب من مذاق الكبريت. كنا قد تركنا ناقتنا فى الشارع بعد أن قيدناها من ركبتها.

جاء أشخاص كثيرون لزيارتنا فى المساء علموا بنبأ وصول الغرباء؛ – كان الزوار من الرجال السود. حكى غروسيب لهم عن حكايته فى الغزو؛ ورد عليه أولئك الزنوج، "والله! هذا باستثناء أننا فى الصباح نتجمع لرعاية تلك الماشية – !" بدأ هؤلاء الزوار يخافون على حقول القمح البعيدة، كما بدأوا يخافون أيضا من أن يسطو أحد على ماشيتهم. كان بصحبة هؤلاء الرجال السود الذين جاءوا لزيارتنا فى المساء رجل أبيض، تنم ملامحه على أنه من العسكر، وكان يحمل معه فانوسا إضافة إلى غليونه الذى يصل طوله إلى ياردة كاملة: استنتجت أن ذلك الرجل الأبيض كان من السكان

المخلطين فى المدن. جلس ذلك الرجل صامتا وراح يدخن وعيناه جاحظتان، وكان يطيل النظر إلينا طول الوقت؛ ثم مر على الشبوك Chibuk وسألنى عن الأخبار. هذا الرجل الأبيض لم يكن على وفاق مع عبد الهادى، وكان يحرك الفنجان الثانى ويلوح به، بعد أن قدمه له المضيف. استمر ذلك الرجل الأبيض فى التدخين ولكن بصورة معتدلة، فى الوقت الذى كان فانوسه مشتعلا؛ لمدة ساعة [من أجل أن يُبلَّغ ملازم خيبر العفن بوصولنا] . وهنا قال لى رفيقى هامسًا: "ذلك هو أحمد؛ كان من قبل يعمل بالجندية وهو حاليا واحد من تجار خيبر." – ومحمد النجومى، هو شقيق أحمد، وقد أصبح أحمد المدافع الفذ عنى فى خيبر اعتبارا من صباح اليوم التالى لوصولى إليها: أحمد ومحمد النجومى هذين من مواطنى المدينة (المنورة). كنا قد أوشكنا على انتصاف الليل عندما همت صحبة شرب القهوة بالانصراف؛ وهنا همست لغروسيب: "هل سيقدمون لنا العشاء، أو، أليس هذا هو موعد النوم؟ مبلغ علمى أنهم ذبحوا من أجلك؛ فقد شاهدتهم يحضرون خروفا، وأتوا به إلى الشرفة منذ فترة طويلة." – " من هو شيخ القرية؟" – " العبد الهادى هو شيخهم، وسوف نجد أنه رجل طيب." كذب رفيقى مثل البدو الرحل (المخادعين)، لكى يلتمس لنفسه عذر عدم توصيلى إلى قرية ولاد على.

فى نهاية المكان نزل مضيفنا هو وأخوه من فوق سطح المنزل، وهما يحملان صينية معدنية عليها طعام من الذرة (وربما كان نوعا من السرغم): نظرا لأن الجراد كان قد أتى على نباتات القمح فى فصل الربيع، كانت الذرة هى المادة الغذائية الوحيدة التى تبقت لهم فى خيبر.

ومع طلوع نهار اليوم التالى نزل غروسيب إلى الشارع على وجه السرعة؛ "قال: مع السلامة، فى أمان الله ، وأرجو أن تسامحنى على أى خلاف حدث بيننا، يا خليل؛ "وتناول غروسيب يدى اليمنى (وفى تخوف من الغريب) انحنى على يدى وقبلها. وهنا تسلق هادى، شقيق مضيفنا، عنق ناقته ليركب فوقها فى النهاية؛ هذا الشاب الزنجى قوى البنية ومعه بندقيته الفتيلية الطويلة معلقة فى كتفه، كان فى مقدمة الركب وليس عليه سوى التونك فقط ومن فوقه الحزام hazam أو إن شئت فقل الجبخانة. توجد فوق

هذا الحزام أيضا أكياس تستعمل عبوات فارغة، كما يوجد أيضا فتيل وزناد، وفى الحزام أيضا خطاف يعلق الرجل فيه حذاءه – إذ جرى العرف أن يمشى الناس هنا حفاة الأقدام. هذا الحزام، أو إن شئت فقل الجبخانة يجرى تزيينها بأزرار من النحاس الأحمر، وتزخرف أيضا بسلاسل معدنية؛ هناك بعض الشبان الذين يظلون محزَّمين طول الوقت بتلك الأحزمة التى هى من معدات الحرب والقتال. ويقال دائما عن القبائل التى تكون مزودة بالأسلحة إن "لديها الكثير من المحزَّمين." – وكان هادى قد انصرف للوقوف على نتائج الغزو الذى جرى بالأمس.

جاءنى على الفور عدد من القرويين يطلبون الدواء: كانوا جميعا مشحونين بالكلمات الموجعة؛ كانوا جميعا قد جاءوا للشحاذة وليس للشراء. وهنا تركتهم جالسين وخرجت لاستطلاع المكان ، لأنى كنت فى خيبر.

أرسل مضيفنا ولده ليكون لى مرشداً؛ هذا الولد مشى بى فى حارة من الحارات، ثم طلب منى الدخول من عتبة بيت من البيوت لكى يرينى عينا من عيون الماء. دخلت البيت: – كان ذلك البيت مسجداً! ولذلك تراجعت خارجا منه على وجه السرعة. عندما سمع الأب (الذى كان قد أعطى تعليمات لولده من قبل) من ولده عندما عدنا إلى البيت، أننى تركت المكان بلا صلاة، نزل الرجل وقفل باب المنزل الرئيسى. وعاد الرجل وتناول مسدسه من الجدار وهو يقول: 'هيا بنا نخرج سويا وإنه سوف يفرجنى على البلد.' وعندما أصبحنا فى الشارع اقتادنى الرجل من خلال طريق يؤدى إلى أحد البساتين، إلى خارج المكان.

مررنا بطريق مسوّر خلال النخيل ومنه إلى مكان واسع فيه عشب برى ورماله من النوع البركانى الأسود، والناس هنا يطلقون على ذلك المكان اسم الصفصافه -es Sefsafa : فى هذه المنطقة أرانى بداية المجرى المائى الذى ينبع بقوة من تحت الفجَّارة. الماء الذى يخرج من هذه العين مالح المذاق وله رائحة الكبريت مثل الماء الذى فى قرية العلا، وشاهدت فى ذلك الماء أسماكا صغيرة اللون ظهورها خضراء اللون وأسماكا أخرى بطونها فضية اللون: – والناس هنا يطلقون على كل أنواع الأسماك اسم

'الحوت' hut . "قال مرشدى: هذا هو المنْزل (الصيفى) للدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، وهم ينصبون فى هذا المكان خيام العسكر." جلسنا على الأرض، وحملق الرجل فى وجهى، ثم سألنى، 'هل أنا أخشى الدول وأخافها؟' "هل حكومة الدولة هى الأفضل أم حكومة بن الرشيد؟" – لقد خلصتنا الدولة من البدو، – ولكنها تحملنا أعباء كثيرة."

مررنا بمدفن من المدافن (جبّانة) أرضه من الصخر البركانى الأسود وعليها قشرة من الأملاح: كانت الأكوم الدالة على اللحود معلمة بشواهد القبور المصنوعة من البازلت الغشيم. أرض الجنائز هذه ترتفع من فوق الأجساد التى تحتها، مثل التربة البستانية فى فصل الربيع، إذ فيها بعض النباتات الجديدة. المنظر كله مخيف فى خيبر! – لا شئ فى هذا المكان لا يملأ عين الغريب بالقلق وعدم الارتياح.

– " قال رفيقى، أنظر هذا نبع سيدنا على! – شاهدت بركة دافئة الماء ونبع ينساب منه الماء أيضا. – هنا، قتل سيدنا على [زوج فاطمه الزهراء] مرحاب Marhab (*)، بأن فصل رأسه عن جسده، كما أن حد سيفه شق تلك الصخرة، التى تراها هناك منفصلة على الأرض: " – وعليه رجعنا إلى الوراء. – " ثم قال: وهنا أيضا مسجد (سيدنا) على." ومبنى المسجد جميل، وهو مبنى من كتل البازلت الغشيم، والمؤكد أن هذا المسجد قديم. هذه القرية يتعلم أطفالها القراءة والكتابة يوميا على يدى الشيخ المسئول عن الدين.

وبعد أن سرنا حول الدائرة، "قال: هيا بنا نذهب إلى الأمير." هذا هو الاسم الذى أطلقه ذلك القروى على الأغا aga أو إن شئت فقل الحاكم أو الوالى الذى يترأس حوالى عشرين فرداً من عجيل المدينة (المنورة). هؤلاء العجيل، أو إن شئت فقل: الجمَّالة، الذين يركبون النياق كانوا من عرب نجد من قبل؛ ولكنهم الآن، بحكم تأخر وصول المرتبات التى تأتى من الدولة (الامبرطورية العثمانية) فقد توقف أولئك النجديون عن القيام بخدمة النقل تلك. هؤلاء العجيل عبارة عن مجموعة مخلطة من مجموعة قليلة من

(*) مرحاب : آخر شيخ من شيوخ اليهود فى خيبر . (المراجع)

النجديين (معظمهم من قرويى القصيم، ومن البدو الرحل المساكين)، ومن الأحباش، والأتراك، والألبان، وكذلك المصريين، ومن الأكراد وأيضا من الزنوج. والعجيل فى خيبر، يمشون حاليا على أقدامهم: فقد ماتت بعض نياقهم، أما البقية الباقية من تلك النياق فهى حاليا فى مرعى بعيد بصحبة البدو الرحل. هؤلاء العجيل يصرفون يوميا مخصصات تعيينات لتلك النياق: الحى والنافق منها على حد السواء؛ وإلا كيف يمكن لهؤلاء التعساء البقاء على قيد الحياة؟ وبخاصة أن، هؤلاء العجيل لم يلمسوا شيئا من أجورهم (اللهم باستثناء شهر أو شهرين) طوال هذين العامين الماضيين. كانت هناك قلة قليلة من الرجال المسلحين فى خيبر يقومون بأعمال الضبطية zabtiyah ، أو إن شئت فقل: يقومون بأعمال الخدمة الشرطية. – قال رفيقى عبد الهادى: "أغا هذه الجماعة الضبطية، كردى الأصل."

نزلنا إلى شارع جانبى، إلى صُفّة، كانت عبارة عن غرفة يتناول الجنود فيها القهوة: كانت السيوف والبنادق معلقة على شماعات ومشابك مثبتة فى الجدران المبنية من اللبن. وعقب دخولنا الى تلك الصفة، دخل أيضا بعض الجنود؛ كل أولئك الجنود كانوا من الأحباش أصحاب البشرة السمراء وكانوا يرتدون (مثل أهل المدن) لباسا أبيض اللون. كانوا عائدين ومعهم بنادقهم، بعد اختبار مهارتهم، ورحبوا بنا بطريقتهم الخاصة التى يشتهز بها أهل المدينة (المنورة)، ثم جلسوا لتصليح القهوة. كنت أتعجب ونحن نشرب القهوة سويا أنهم لم يطرحوا على أى سؤال! وهنا وقفنا ورحلنا عن المكان. وبينما كنا ننزل على الدرج المبنى من اللبن، سمعت صوتا أجشًا من بينهم يقول: "لقد فهمت، إنه عدو adu !" – وسمعت إجابة تقول: " ولكن دعه وشأنه فترة من الوقت."

كان من المناسب عندئذ تعريف الناس بنفسى هنا . وعندما سألتهم أين مكان الأغا الكردى؟ تعجب مضيفى عبد الهادى قائلا: "ألم تره! لقد كان جالسا فى منتصف المكان الذى يحيط بالمدفأة." إنه عبد الله Abdullah السروان es-Siruan ، رئيس طاقم المدينة (المنورة) العسكرى: كان والده من "الأكراد"، أما هو فقد كان رجلا أسودا

حبشى الملامح، لم يصل بعد إلى منتصف العمر، – وهو ولد امرأة عبدة (حبشية). كنت جديدا على مسألة تمييز هذا العالم الحجازى، وعلى تمييز التصرفات المدنية الخاصة بالحرمين. فى الشارع شاهدت وجهين أبيضين وهما يخرجان من مدخل أحد المنازل؛ كانا من الجنود المرضى، كما أن الرجال الذين كانوا يتكئون على عكاكيز طويلة مصنوعة من جريد وجذوع النخيل، كان يبدو عليهم الشحوب والوهن فى محيط اسوداد الأشياء المخيف فى خيبر: هؤلاء الرجال جاءوا لينضموا إلىّ، باعتبارى رجلا أبيضا، وواصلوا المسير دون أن ينبسوا ببنت شفة. كان واحداً منهم يدعى محرَّمًا وله لحية شعثاء؛ أما الثانى فكان مصريا. وعندما رجعنا إلى البيت مرة ثانية قام عبد الهادى بإغلاق باب بيته؛ ثم صعد إلى الدور العلوى وقال: "خبرنى، هل أنت مسلم؟ وإذا كانت الإجابة بلا، فسوف أحمّل أغراضك على بقرة وأرسلك الى مكان أمين." – " أيها المضيف، أنا من الإنجليز؛ دولتى، وربما تكون قد عرفت ذلك، صديقة للإمبراطورية العثمانية، وأنا من أولئك الذين تسميهم أنت النصارى."

خرج عبد الهادى من منزله فى فترة العصر وترك باب منزله مفتوحًا! وعلى الفور دخل من الباب شخص يدعى سالماً وهو من بدو العجيل، جاء يطلب منى دواء، كما جاء أيضا شخص حبشى آخر يدعى سرور Sirur ؛ – هذا الحبشى الذى اسمه سرور هو الذى قال عنى أنى عدو. – قال سالم:" نصف ريال مقابل الجرعات التى تعطى لعلاج الحمى!" (الأملاح والكنين). غمغم الحبشي قائلا: 'ولكنك سترى على الفور أنى ينبغى على أن أقدم تلك الجرعات مجانا،' وأردف الحبشى قائلا:" هذا الرجل لا يفهم الدنيا حق الفهم، لأنه لا يستطيع تمييز الناس ومعرفتهم على حقيقتهم: يا أنت ! من أى بلد تكون؟" – "أنا أعيش فى دمشق." – " ها! وذلك هو بلدى، ولكنك لاتتكلم العربية بطريقة سليمة؛ أنا أعتقد أن لدينا نصرانيا هنا : آه ! ما الذى أتى بك إلى هنا؟" – "أود زيارة البلاد القديمة لليهود." – "بلاد اليهود! ولكن هذه هى ديرة dirat الرسول er-Rasul . "ومن هنا فقد تخلوا عنى. ثم عاد عبد الهادى، "قال عبد الهادى: ماذا يمكن أن نفعل؟ لأن الناس، وأنا أقسم بالله، مقتنعين بأنك لست مسلمًا." – "هل ينظرون إلىَّ على أنى عدو! وماذا عن الأغا.....؟" – "آه ! إنه جبَّار jabbar ، إنه طاغية كريه ومكروه أيضا.

"ومضى مضيفى إلى حال سبيله وجاءنى سرور، الحبشى، مرة ثانية؛ – لقد كان موفداً من قبل الأغا. سألنى سرور، "ماذا أكون؟" – "إنجليزى من أولئك الذين يناصرون الدولة (الإمبرطورية العثمانية)." – " إذن، أنت نصرانى؛ صلى على النبى، – هيا، تكلم! "وبمساعدة شخص آخر من العجيل راح ذلك الحبشى الوحشى يدفعنى إلى الدَّرج (السلم). قال بعض القرويين الذين وصلوا إلى المنزل: إن سرور من الشرطه، ولذلك وافقت على السير معهما. "(قال الواقفون): حسن، أحضره، ولكن بلا عنف." – "قل لى قبل أن نبتعد عن هذا المكان: هل ستقتلنى بعيدا عن المنزل؟" كنت قد تناولت مسدسى وأخفيته تحت ثوبى، عندما استشعرت دلائل الخطر.

فى نهاية الشارع التالى كان هناك شخص يجلس على مصطبة من اللبن هو الذى سيقوم بالحكم على، – كان ذلك الشخص هو ذلك الكردى الحبشى أسمر اللون الذى قالوا عنه إنه هو أغا الجنود الموجودين فى خيبر. – كانت تسير خلفنا مجموعة من القرويين، ولكنهم جميعا كانوا يسيرون بلا صياح . – خطر ببالى، يا لهذه الأرض التى أنا عليها الآن! ومن هم أولئك الذين يتخذونى (بسبب اسمى المسيحى الحلو) عدوا للجنس البشرى؟ – صاح سرور بصوته المدوى، موجها كلامه لذلك الشخص الذى كان يجلس على المصطبة الطينية "لقد ألقيت القبض عليه وأحضرته- إنه نصرانى!" قلت: "ماهذا ! إننى إنجليزى، وأنا من أمة صديقة، فلماذا تعاملونى بهذه الطريقة؟ رد قائلا: والله لقد كنت خائفا اليوم، هل أنت إنجليزى فعلا ، ألست مسكوفيا؟ " – "لقد قلت ذلك بالفعل!" – "ولكنى لا أصدق ماقلت، وكيف لى أن أثق بك؟" – "عندما أجبتكم هنا فى خيبر بأنى نصرانى ، ألا يحتم ذلك أن أكون صادقا فى بقية الأشياء التى قلتها؟" – "إنه يقول كلاما طيبا؛ ارجع يا عبد الهادى، وأحضر أمتعته، وتأكد من أنك لم تترك أى شىء منها." كان الشارع موحلا على إثر سقوط الأمطار؛ وعليه تكلمت مع عبد الله، الذى هب واقفا، واقتادنى إلى مكان مفتوح فى القرية المبنية من اللبن، وهم يطلقون على ذلك المكان من القرية اسم 'السحيم' es-Saheym الذى معناه 'الإناء الصغير؛ – "(أردف عبد الله السروان، – كان الرجل أميا)، أقسم بالله، أننا إذا ما وجدنا معك أى نوع من الكتب، أو ذلك الذى يسمونه، – خرائط البلدان، فإنك لن ترى مثل هذه الأشياء

بعد اليوم؛ وسوف نرسل كل هذه الأشياء للباشا فى المدينة (المنورة). ولكن أليست معك آله، – آه! أنا أفكر فى اسم هذه الآله حاليا، – لقد وجدته! مقياس الهواء؟ – ومن أين جئت أنت؟" – "أنا جئت من حائل؛ وأنا معى أيضا وثيقة سفر من ابن الرشيد." أعطى عبد الله الوثيقة لصبى من الصبية الذين يتعلمون فى المدرسة فى فترة الصباح ، – والسبب فى ذلك أن الواقفين كبار وصغاراً لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة. عبد الله: استدعوا هنا الشيخ صالح، ليقرأ ويكتب لنا." جرى بعد ذلك إحضار حصير مصنوع من ليف النخيل من منزل من المنازل، ثم فردوا ذلك الحصير لنا على المصطبة الطينية. جلست على ذلك الحصير مع عبد الله. – وشاهدت جمعا من القرويين السود وقد وقفوا جميعا ورحوا يطيلون النظر إلينا.

وصل صالح، شيخ هذه القرية الزنجية – وهو رجل كبير السن أعرج – ومعه محبرة طويلة مصنوعة من النحاس الأصفر، ويمسك فى يده جزء من ورقة كبيرة. سروان: "أكتب يا صالح الأشياء التالية حسب الترتيب.[أحضروا خُرُج الجمل الكبيرة الخاصة بى ووضعوها أمام سروان] أخرجوا الأشياء الواحد بعد الآخر؛ وعندما أنادى عليك أن تدونها يا شيخ صالح. أبدأ: لجام جمل، قربة، جوالات من التمر، لبن مجفف وتمن (أرز)؛ – ماهذا؟" – "صندوق دواء." – "افتحه!" وبينما كنت أرفع غطاء الصندوق تراجع كل هؤلاء السود إلى الوراء وراحو يكتمون أنوفهم. كان سرور يتناول فى يده كل ما يصادفها، بوصلة مربعة، – كانت البوصلة ملفوفة فى قطعة من القماش." فك هذه البوصلة!" قال عبد الله. قلّب الرجل البوصلة فى يده ثم قال، "أوه ! هذه هى صابونة" ، ومما أراحنى أن عبد الله . مرر البوصلة على أنها صابونة. ولكن عبد الهادى شاهد شيئا ما، فمد يده فجأة وأخذ مشطا؛" ها! ها!" صاح المضيف (الذى كان يحمينى

(*) القرية الزنجية : يرجع سكان تلك القرية إلى بلاد التكرور وبرند فى السودان الغربى ، وكان هؤلاء الزنوج المسلمون يأتون إلى الحج فيجتازون الصحارى ويصلون إلى الحبشة ومن مينائى مصوع وسواكن يتجهون إلى جدة ومنها إلى الحرمين الشريفين . ويعود بعضهم بعد تأدية فريضة الحج إلى بلادهم ولكن السواد الأعظم لا يجدون فى أنفسهم القدرة على القيام برحلة العودة فيقررون الإقامة فى مدن الحجاز وهناك يتعاطون أحد الأعمال وتقوم نساؤهم بصنع الخزف وبيعه فى الأسواق . (المراجع)

ويحتويني حتى تلك اللحظة؛ ولكن عقله الذى تحسن مؤخرا تحول فجأة إلى التشدد – والقرية هنا تطلق على عبد الهادى كنية "أبو Abu صُمَّاخ Summakh" بمعنى 'أبو خشخش') ما هذه الآلة الخطيرة، – ها! نصرانى؟ ياعبد الله، أطلب منه أن يعلل وجودها معه؛ وحاول أن تميز إن كانت تلك الآلة نوعا من الجن ابتكروه لأذى المسلمين!"

جاء الدور بعد ذلك على علبة صفيح كبيرة فتحتها أمامهم: كانت العلبة مملوءة بالشاى، مشروبى الوحيد."حسن، يمكن أن تغلق هذه العلبة مرة ثانية، "قال عبد الله وجاء الدور بعد ذلك على حزمة من الكتب." أها! تعجب الرجل الكبير، الأشياء السابقة – ألم تدونها يا شيخ صالح؟ – كل شيء سيدون، ماعدا الكتب! – لا يمكن لك أن تحصل على هذه الكتب مرة ثانية." وهنا عثروا على بكرة من النحاس الأصفر هى شريط من شرائط القياس. "ها! صاح الرجل، خبرنى، ويجب أن تقول الحق والصدق (علمنّى alemny بالصحيح b'essahihh) ، أليس هذا هو مقياس السماء؟" قلت له، معى هنا ورقة عبارة عن منشور سفر دوُّار من وإلى سوريا." – "ثم قرأ عليه المنشور الشيخ صالح." حملق الشيخ صالح فى الوثيقة المكتوبة فترة من الوقت؛ – "لقد عرفت ما فيها، ولكنى لا أعرف على وجه الدقة الأسماء التى فيها، لأنها مكتوبة باللغة التركية، [كان الخط عربيا ولكنه مكتوب بالخط الفارسى !] ، وهنا فى أسفل الورقة يوجد خاتم الباشا،" – ثم قرأ اسمه." هوا هوا (صاح سرور) هذا الباشا كان منذ زمن طويل؛ وقد توفاه الله، أنا أعرف ذلك جيداً ." – وهنا صدرت عنى تنهيدة. وهنا تعجب عبد الله متسائلا "لماذا كل هذا؟" اعتمد على المولى (أى الله)."

– الذى أدى إلى ارتباكى فى النهاية، هو إخراجهم لجراب المسدس من قاع الجوال! – كانت كل أمالى معلقة على ذلك السلاح." أها! جراب مسدس ! تصايحت أصوات كثيرة، وراح الجميع يوجهون إلىَّ عيونهم التى كانت تنظر إلىَّ شذرا ، أوه! يا أنت أين المسدس؟" لم أرد عليهم بشيء ، – وفى هذه اللحظة من لحظات التشوق والانتظار تعجب أحد الواقفين وهو يقول :" من الواضح أن ابن الرشيد أخذ منه المسدس." – "رد القرويون السود الذين كانوا يقفون من حولى قائلين : نعم،

لقد أخذ ابن الرشيد منه المسدس؛ لقد أخذ بن الرشيد المسدس منه، أرجو أن تصدقنا، يا عبد الله." – المسدس بين أمثال هؤلاء الناس، يعد شيئا ثمينا ويحفظونه فى جراب مزخرف؛ ولم يخطر ببال هؤلاء الناس أنى يمكننى أن أحمل مسدسا بلا جراب تحت القميص الذى أرتديه. بعد ذلك خطر ببالى، 'هل سيقومون بتفتيشى تفتيشا ذاتيا؟' – ولكن التفتيش الذى من هذا القبيل يعد انتهاكا صارخا وسافرا؛ بالإضافة إلى وجود عدد كبير جداً من الشهود. يبدو أن سرور وافق على كلامهم، ولكنى وجدته يقلب الأمر فى ذهنه وكأنه يقول: 'ما الذى حدث لمسدس النصرانى؟' هذا السلاح الثقيل، الذى أحمله دوما معلقا ومتدليا من عنقى، لم يكن يضايقنى بأى حال من الأحوال؛ يضاف إلى ذلك أنى لم أستطع أن أخلع عنى عباءتى (بشتى) (التى كانت تستر المسدس) فى ذلك الجو المشبع بالرطوبة. – وعليه سألنى سرور،" هل معك نقود، وأين تخبئها؛ وسيكون هذا من مصلحتك، – وأنا يمكن أن أكون على ودٍّ معك بعد ذلك يضاف إلى ذلك أن هذه النقود يمكن إثباتها أيضا فى الكشف؛ وخبِّرنا إن كان لديك شىء آخر لا نعرفه؟ – وأنتم، يا أيها الرجال، تأكدوا من أن إبرة لن تضيع من أمتعة ذلك الرجل!" – "إلىّ بتلك العلبة الصفيح التى شاهدتم فيها الشاى: كيس نقودى فى وسط تلك العلبة الصفيح، – وسوف تجدون فيه ستة ليرات "أحصى اللص تلك الليرات الست، بكثير من الفرح، فى راحة يده؛ وبعد أن قفل كيس النقود وضعه فى صدره، وسوف توضع خُرجه وجوالاته فى الحفظ والصون فى منزلى."

جاءنى شخص يدعى أحمد، كنت قد شاهدته فى الليلة السابقة؛ كان ذلك الأحمد يجلس هادئا بين النظارة، وطوال ذلك التفتيش، كان يومئ لى كثيرون إيماءات تنم عن الود." ما **ma** عليك **aleyk** ، ما عليك ، اهدأ، قال أحمد: لن يحدث لك مكروه." – عبد الله : "يا عبد الهادى ،اسمع له وخذه للإقامة معك؛ وهو أيضا يستطيع أن يعالج المرضى." رد العبد قائلا: "هل استقبل الكافر مرة ثانية! – المطلوب منه هو النطق بالشهادة وسوف استقبله عن طيب خاطر." – "إذن، يجب أن يقيم مع الجنود؛ وأنت، يا أمان – وهو حبشى من أفراد العجيل – خذه معك إلى سكنك: وسوف يأخذ خليل معه مؤنه وصندوق الدواء."

رأيت ذلك الرجل الضخم يقف مرتفع القامة والهامة خلف ذلك الحشد من الناس – فقد وصل ذلك الرجل إلى خيبر منذ وقت قصير – كان ذلك الرجل يرتدى ملابس واحد من الشيوخ ، وكان يحمل سيفا، وخطر ببالى أنه ربما كان شخصا بارزا من بين الجنود غير النظاميين. جاءنى ذلك الرجل، وهو يدب بقدميه (بطريقتهم المفاجئة المعهودة)، ووقف أمامى بابتسامة تنم عن إنه رجل قوى؛ وراح ذلك الرجل يتكلم معى بطرية ودية وشيقة. تعجبت عندما رأيت اسمرار بشرة ذلك الرجل، – ولكن يبدو أن هذه السُّمْرة أمرا شائع بين أهل الحجاز، – وهو بدوره لم يرفى حياته من قبل رجلا فى مثل هذا البياض والاحمرار؛ كان ذلك الرجل، هو محمد النجومى، شقيق أحمد النجومى، الذى أصبح لى اعتبارا من اليوم التالى، بمثابة والد لى فى قرية خيبر. "قال عبد الله، انصرف الآن مع الجندى." – قال بعض الواقفين: "ما عليك، ما عليك" عبد الله: " ستبقى هنا مدة أيام قلائل، وسوف أرسل مكتوبا للباشا (باشا المدينة المنورة) ومعه الكتب والأوراق ." – " هو! صاح سرور قائلا: وأنتم يا أيها الناس، أقول لكم إننا سوف نرسل إلى الباشا؛ وإذا ما جاء من الباشا ما يفيد بقطع عنقه، فسوف نقطع رأسك أيها النصرانى." " قال بعض الواقفين: لا تشغل بالك بما يُقال، وبخاصة ما يقوله ذلك الرجل، – إنه وحش." كان ذلك الفتوة الحبشى مكروها فى خيبر، والذى لم يكن يتشجع إلا على الحريم فقط، وقد اكتشفوا أنه خئوف أو إن شئت فقل: خوَّاف، وبخاصة فى العمليات الحربية التى دارت مؤخرا .

صاحبت أمان إلى تلك الصُّفَّة الصغيرة التى كان يعيش فيها مع رفيق له فى البيت المجاور. كان الاثنان حبوشا Habush (أى من الأحباش) ، أو إن شئت فقل من أرض الجالا Galla . هذان الحبشيان خفيفا الحركة وحسنهما يشبه حسن النساء؛ كانت سيماء وجهيهما طيبة أيضا؛ بشرتهما تميل إلى اللون الأصفر الضارب إلى اللون البنى، أو قد تكون بنية بلون النحاس، أو قد تكون من اللون البنى الغامق، أو قد تميل هذه البشرة إلى السواد؛ وهذا يعتمد على المكان الذى يعيشون فيه، – والبلد هنا واسع شاسع. يضاف إلى ذلك ، أن أصوات هؤلاء الأحباش عذبة، وهم لا يتكلمون لغة حبشية واحدة، الأمر الذى يجعل لغة القبائل البعيدة غير مفهومة لبقية القبائل الأخرى.

لم يستطيع أمان أن يفهم كلام رفيقه فهما تاما (ومن ثم فقد كانا يكلمان بعضهما البعض باللغة العربية) ، ولكن من الواضح أن أمان كان يتكلم لغة واحدة مع سرور. علمني أمان كثيرا من مفردات لغته: ولكني لا أذكر حاليا من تلك الكلمات سوى كلمة 'بيزان bisan التي معناها 'ماء' وبالرغم من أنهما أُحْضِرا إلى الحجاز على أنهما عبدان يوم أن كانا طفلين إلا أنهما لم ينسيا بلديهما ولا لغتهما: هناك أعداد كبيرة من الأحباش في كل من مكة والمدينة (المنورة) ، إلى حد أن اللغة الحبشية يجرى الحديث بها من منزل إلى آخر. بعض النساء الحبشيات العبدات الجميلات أصبحن زوجات في العائلات المدنية، بل وفي العائلات الراقية والكبيرة، بعض آخر من تلك النساء الحبشيات يعملن ممرضات وخادمات في المنازل؛ يضاف إلى ذلك أن أطفال الحضر يربون بين هؤلاء الخادمات الحبشيات . – هؤلاء الرفاق المساكين طلبوا مني الهدوء، وطمأنوني أن كل شيء سوف ينتهي نهاية طيبة، بعد قليل من الصبر: واحدة منهن وضعت أمامي الخبز، وخرجت من بيتها لتقترض للضيف شيئا من التمر. قالوا: "فيما يتعلق بالزنوج (العبيد) هم ليسوا أناسا وإنما هم ثيران، وقردة، ويتملكهم الشيطان، فضلا عن كونهم بخلاء." – هؤلاء الأفارقة الذين يشبهون الساميين يحتقرون السودان(*) ، أو إن شئت فقل : عرق الزنوج الذين ينحدر منهم العبيد، احتقارا شديدا. سمعتهم يقولون في خيبر :" يا الله! هل يمكن أن يكون أصحاب هذه الرءوس الصوفية من أبناء آدم؟"

سمعنا صوت محمد النجومي وهو يصعد الدَّرج (السُّلم) . قال: "هذه أول مرة أجيء فيها إلى هنا، ولكني أجيء إلى هنا من أجلك." بعد حلول الليل خرجنا سويا، ورحنا نضيء الطريق أمامنا باستعمال جريد النخل المشتعل، وقصدنا إلى قهوة الجنود. أشار لي عبد الله، الذي أغناه كيس نقودي اليوم، أشار لي بالجلوس إلى جانبه. استغرق حديثهم وكلامهم شوطا كبيرا، وراح محمد النجومي يجاهر بمقولته الشهيرة: كل Kull واحد Wahed على aly دينه dinu ، بمعنى 'لكم دينكم ولي دين!' –

(*) 'السودان'هنا عكس 'البيضان.' (المترجم)

ثم أردف بعد ذلك بشرحه الذى يقول: 'هذا يعنى أن اليهودى له شريعته ، وأن النصرانى له شريعته، والمسلم له شريعته أيضا؛ إى ، وقد يكون الكافر رجلا أمينا فى عقيدته." كان النجومى واحدا من الشخصيات البطلة، فقد كان يجلس وسيفه على ركبتيه، منحنيا وموافقا على كل كلمة يقولها ذلك الوغد الأسود الذى يدعى عبد الله : هذه هى آداب الحضر الأتراك. وفى بعض الأحيان (وعندما سمعوا منى أنى لا أعرف اللغة التركية) كانوا يتكلمون مع بعضهم البعض باستخدام هذه اللغة . كان محمد النجومى يجيب بعد كل قول رحيم يصدر عن ذلك المسئول الأسود، بالعبارة الدينية التى تفيد المدح [بالرغم من أن ذلك كان يبدو من قبيل التهكم] ، التى تقول : الله **ullah** يبيِّض **Yubeyith** وجهك **Wej-hak** بمعنى 'بيَّض الله وجهك فى يوم القيامة!' كانت فى صوت ذلك الرجل القوى هنة من هنات أصوات النساء، – وحيثما كانت هناك نكهة صغيرة من الصفات الوراثية فى الأم، أصبح ذلك مصدر حسن وجمال فى الرجل. لم يكن محمد النجومى شبيها بالعرب تماما، نظرا لأنه كان يفضل الحديث المرح المشوب بالرحمة والحنان : وبالرغم من أنهم كانوا متيمين بالمرح السخيف، إلا أنى لم أعثر بين أهل الجزيرة العربية على رجل مرح يشيع البهجة والسرور:

كان محمد وأحمد ابنين لتاجر من تجار المؤن والتموينات الأكراد فى المدينة المنورة؛ أما أمهما فكانت من نساء قبيلة حرب فى منطقة الفراع؛ والفراع هذه واحدة من مستوطنات أمة البدو فى الحجاز، فى المنطقة مابين الحرمين. شربنا القهوة مع الجنود؛ إلا أن الحماية الطيبة لم تكن متوفرة هنا فى بيوت الشَعر (الخيام) ، بسبب التضييق الحضرى، والاستبداد التركى فضلا عن الطاعون المصرى الذى يجعل الناس عالة على المجتمع. وتوصل هؤلاء الناس إلى اتفاق مفاده أن النصارى لهم الحق فى التجول فى أى مكان فيما عدا أنهم لا يحق لهم زيارة الحرمين: وقال البعض:" أليس هناك المزيد من دين خليل فى جدة؟ والطريق يقطعه المسافرون فى ليلة واحدة إذا مابدءوا من مكة." كثيرون من أهل الحجاز ينطقون مكة **Mecca** على إنها 'مكى' **Mekky**] . قال عبد الله فى النهاية: "والله، إن خليلا رجل أمين، فهو يقول الصدق ، وأنا أحبه." هنا بدأت أشعر بالقلق، وأرسل معى عبده لينير لى الطريق وأنا عائد إلى مسكنى.

وعندما سمعت، بعض الشائعات، نظرت إلى الخلف، ورأيت ذلك الزنجى الحافى وهو يرقص خلفى فى الشارع وقد شهر سيفه .

قال لى عبد الله ونحن نشرب قهوة الصباح : إن من حقى المشى كيفما أشاء فى كل أنحاء قرية خيبر؛ وتساءل المنافق الأسود 'هل استرحت بما فيه الكفاية؟' وعندما جاء المساء، قام بعض من جنوده بإنارة الطريق لنا مستخدمين فى ذلك جريد النخل إلى أن وصلنا إلى كوخ رجل يدعى إبراهيم Ibrahim القاضى el-Kady . وبينما كنا جالسين فى صُفَّة إبراهيم هلَّ علينا كثير من كبار القرويين. قدم إبراهيم أفضل ما عنده من تمر، وشب النار، وبدأ فى تجهيز القهوة، وأتى لحاكم القرية بغترته وقد ملأها بالتبغ الأخضر.

بعدئذ فغر عبد الله شفتيه السوداوين – ليتكلم لهم عن عثوره علىّ فى خيبر، غريب، أو إنسان لم يسبق رؤيته فى حياواتهم." قال: ماذا يكونون أولئك النصارى ؟ – استمعوا جميعا! النصارى أمة قوية: ألم يقتل اثنين أو ثلاثة من النصارى فى جدة منذ بضع سنوات؟ – حسن، ماذا حدث بعد ذلك ؟ جاءت بوارج كبيرة من بلادهم وقصفت المكان بالقنابل: ولكنكم أيها الخيابرة لا تعرفون ماهى السفينه! – السفينة كبيرة، يصل حجمها إلى حجم الحصن (الحصن القديم بالذات) . بدءوا يقصفونا بمدفعيتهم، ونحن، يا من كنا فى القلعة رحنا نحن الآخرين نفتح النار عليهم؛ ولكن آه ! أين كانت القلعة؟ وهل تظنون، أن أحدًا بقى فى المدينة؟ لا، لقد هربوا جميعا؛ ولولا أن الله صد عنا هذا الخطر، لما استطعنا مقاومتهم. ومن هم أولئك الذين يحاربون جدة؟ أقول لكم هم الإنجليزى، شعب هذا الخليل: الإنجليز أصحاب، أيدى طويلة، إى والله، إنهم جبابرة!

"اسمحوا لى بأن أروى لكم حكاية؟ – حدثت فى مدينة الشام مجزرة ومذبحة للنصارى(*)؛ ربما سمع عن هذه المجزرة أصغركم سنا، ولا أدرى إن كنتم قد سمعتم عنها فى خيبر. أنصتوا جميعا! أود أن يعرف كل واحد منكم مدى خوفى على نفسى،

(*) الإشارة فى هذا السياق إلى مذابح الشهيد فى سوريا ولبنان (١٨٦٠) . (المراجع)

وهذا هو السبب الذى يجعلنى أبذل قصارى جهدى فى المحافظة على خليل [كان الحاكم العثمانى المناب فى خيبر قد استسمح الجمهور الأسود فى عدم الإقدام، على قتلى بالأمس! [أقول لكم: يا أيها السادة، إن النصارى أمة قوية؛ – ونحن يجب أن لا نفكر كثيرا فى مسألة التعجيل أو عدم التعجيل بقتل النصارى فى الشام ويجب أن تعلموا أن باشا الشام هو باشا الباشوات كما أنه حاكم على إقليم أو منطقة كبيرة، – والشام مدينة كبيرة إلى الحد الذى يجعل المدينة (المنورة) قرية صغيرة إذا ماقارناها بها؛ يضاف إلى ذلك أن ذلك الباشا هو مشير أيضا mushir ، أو إن شئت فقل: إنه ماريشال جيش السلطان فى سوريا – هذا الباشا كان ملحقا، من حيث القيادة على السلطان! وهذا هو مايجب أن تعرفوه وتعلموه جيداً. أقول لكم إن هذا الباشا قيدوا يديه خلف ظهره واقتادوه كما لو كان مجرما عاما أمام كل الناس؛ وكان ذلك طبقا لما جاء فى الفرمان الذى أصدره السلطان – ويجب أن تعلموا جميعا أن الفرمان الذى يصدر عن سلطان الإسلام لابد من إطاعته وتنفيذه – قطعوا رأس ذلك الباشا! وتبع ذلك العقاب الذى أنزل بالباشا، عقابا مماثلا أنزل بأولئك الذين لعبوا الأدوار الرئيسية فى مذبحة النصارى؛ – ويجب أن تعلموا أن كل أولئك كانوا مسلمين! آه يا أصدقائى ! يجب علينا جميعا أن نحكم عقولنا، ولكن معرفتكم بالدنيا قليلة." – وهنا رد عليه واحد من أولئك العبيد السود قائلا: "إخ على ! عبد الله يقول هذا الكلام؛ الخيابرة لا يعرفون شيئا ! وهل نعرف نحن أى شىء آخر غير زراعة هذا النخيل؟ يضاف إلى ذلك أن أفكارنا لا تتعدى الحرة ولا تتجاوزها؛ وإذا ما قام أحد منا برحلة فإن هذه الرحلة تكون إلى المدينة (المنورة): كما أن قلة قليلة من أهل خيبر هم الذين زاروا حائل فى السنوات السابقة!"

سروان: "أنتم تعرفون الآن، مدى قوة النصارى عند السلطان، وتعرفون أيضا الخطر الذى أتعرض أنا له! ولدى الكثير الذى يمكن أن أقوله لكم عن هؤلاء الإنجليز، بل إن هناك بعضا من سفن السلطان يتولى الإنجليز قيادتها. ألم يسمع أحد منكم عن سفينة حربية كبيرة جاءت من اسطمبول، وعلى متنها خزانة كبيرة لدفع رواتب الجيش، وأن تلك السفينة ضاعت وضلت طريقها على الساحل الموجود فى الخلف؟

حسن قائد هذه السفينة كان إنجليزيا؛ رجل له وجه فظيع ومخيف، وله شارب كبير، يمكنك أن تلفه خلف أذنيه. لقد رأيت ذلك القائد بعيني، وأنا أقسم بالله، أنه لو قدر لأحد منكم أن يراه لخاف من النظر إلى وجهه. كان ذلك القائد يشرب. – وأنتم يجب أن تعلموا أن تلك هي عادة الإنجليز! وهم يشربون "الخمر" التي هي محرمة على المسلمين. جاء الحراس إلى ذلك القبطان وهو سكران، بعد دخول الليل، وقالوا له 'سيادة القبطان، لقد سمعنا أصوات أشياء تتكسر، لقد دخلت السفينة في منطقة شعاب مرجانية، أصدر الأوامر بالابتعاد عن هذه المنطقة .'رد عليهم قائد السفينة قائلا: 'أربككم الله جميعا! استمروا في طريقكم.' وبعد ذلك بفترة وجيزة جاء الخفر إلى القبطان وقالوا له: 'أيها السيد، نحن الآن داخل منطقة من الشعاب المرجانية؛' وقال لهم: 'أية شعاب مرجانية؟' أقول لكم أبحروا إلى جهنم!' – كان الرجل قد فقد عقله بسبب السكر. وهنا اصطدمت السفينة الكبيرة بالصخور ، وضاعت تلك السفينة في الظلام بين الأمواج، وغرقت السفينة وعليها ثمانمائة شخص بالإضافة إلى ذلك القبطان، – وأمكن بعد ذلك انتشال صناديق النقود عن طريق الغواصين.

"أعتقد أنه من المناسب الآن أن أقول لكم من هو قنصل Konsul الإنجليزي: القنصل هو ممثل مقيم لأمة الإنجليز في المدن الرئيسية، – ولكنكم تعلمون جيداً، أنه لا يوجد قنصل في الحرمين، نظرا لأن الدخول إلى هاتين المدينتين (مكة والمدينة) مقصور على المسلمين وحدهم. هذا يعني أيضا، أنني إذا ما قتلت إنسانا، واحتميت بعلم القنصل، فإن أحداً لا يستطيع إلقاء القبض عليَّ وأنا في القنصلية، – ترى ما سبب ذلك؟ السبب في ذلك أنني تحت أو في حماية القنصل. ولعلكم تعلمون، أن تلك القوة التي للإنجليز ليست نابعة منهم وإنما هي نابعة من الفرمان الذي أصدره السلطان لهم. هل تسمحوا لي بأن أحكي لكم حكاية عن زيارة قمت بها للقنصل في جدة: كان ذلك القنصل إنجليزيا، وهذا يعني أن ذلك القنصل كان قنصلا لأمة خليل! ولو قدر لخليل أن يذهب إلى القنصلية، وكان بحاجة إلى القنصل، فإن ذلك القنصل سوف يتحتم عليه إعادة خليل إلى محل إقامته في بلاده، – والرحلة بالبر إلى بلاد خليل تقدر بمسير اثني عشر شهرا ، أليس كذلك يا خليل؟ في فصل من فصول الشتاء حدث

أن كنا معسكرين فى مكة، وأوفدنى الباشا لإحضار خمسمائة جوال من الأرز للجنود. وقصدت إلى جدة بصحبة واحد يعرفه البعض منكم: وبينما كنا جالسين فى منزل الحكومة، سمعنا أن القنصل الإنجليزى كان واقفا على الباب، وأنه يود مقابلة الباشا. وهنا أصدر الباشا إشارة، بأننا ينبغى ألا نقف عندما يدخل القنصل الإنجليزى، – هل تعرفون سبب ذلك؟ السبب أن القنصل كان نصرانيا! سمح للقنصل بالدخول، وبقينا نحن جالسين فى أماكننا. رحنا نتكلم مع بعضنا البعض؛ وكان ذلك القنصل يتحدث العربية بطلاقة، – وعلى نحو أفضل من خليل . وعندما علم القنصل أننا جئنا فى عمل رسمى، يتصل بالحكومة، وعندما عرف أيضا أننا أغراب فى جدة، دعانا القنصل إلى بيته؛ – وهذا البيت هو ما يطلقون عليه اسم الكونسلاتو el- konsulato أو إن شئت فقل: القنصلية. وذهبنا لزيارة القنصل فى القنصلية فى اليوم التالى؛ كان مبنى القنصلية مبنى فخما! واقتادنا من غرفة إلى أخرى. وحياة الله! تجاوزنا خمسة أبواب قبل أن نصل إلى القنصل، – خمسة أبواب!" – "عندئذ كان الرجل يبدو وكأنه خائف على نفسه ! (ضحك النجومى)، ألا يكفى باب واحد ؟" – "ولكنى أود منكم أن تفهموا قيمة ذلك النصرانى، – وماذا عن خدمة القهوة عند ذلك القنصل؟ صدقونى، ياسادة، إن أدوات القهوة كانت كلها من الفضة! صينية القهوة كانت عبارة عن طبق كبير ورائع من الفضة! هل بدأتم تفهمون ماأقول؟ – إذن، كيف سيكون حال حكومتهم! ولكن ثروة هؤلاء الإنجليزى لا تصدق!" – (أدار عبد الله رأسه الأسود.) النجومى: "النصارى لابد أن يكونوا "قويين" guwiyin (أقوياء) ؛ وهذا طيب تماما. وأنت تقول: إنهم لا يؤذون أحدًا، إلا بعدأن يبادر الآخر بالأذى؛ يضاف إلى ذلك أن الإنجليز أصدقاء للسلطان، وخليل إنجليزى بالطبع: أليس الأمر كذلك ياشيخ خليل؟" عبد الله: "يضاف إلى ذلك أن قوّاسى (حملة الرماح) القنصل كانوا أكثر بهاء من قوّاسى الباشا! وأنا أقسم بالله، أن الرءوس الفضية التى توجد فى أعلى عصيهم، كانت أعظم وأبهى من الرءوس الفضية التى على عصى الباشا نفسه، – أقصد باشا مكة!"

بالرغم من جهل عبد الله بالتعليم المدرسى، إلا أنه كان يتكلم بذلك الكلام العامر بالإقناع الشعبى أو السوقى والذى يتكلم به القضاة الأتراك، ولكنهم يخفون وراء هذا

الكلام المعسول، القسوة فى استعمال السيف واللجوء إليه. والعرب هم والأتراك الذين تتمثل كتبهم فى وجوه البشر، وفى تجربتهم الحية مع الجنس البشرى، كما تتمثل أيضا شروحهم وتفسيراتهم أيضا فى الأقوال العامة الشائعة وفى آلاف الأمثال القديمة الخاصة بعالمهم الشرقى،لا يمسون حقيقة الأمور البشرية مسًا تاما. هؤلاء العرب والأتراك يتمرسون على السياسة القديمة وهم فى شبابهم، وبالتالى لا يصبح لديهم مايتعلمونه بعد ذلك؛ ولكنهم تعلموا جيداً كيف يتكلمون. هذا هو عبد الله، هو وحامية المدينة، ومعهم الخيابرة السود كلهم يتكلمون عربية المدينة (المنورة). وكلامهم الحضرى الشحيح ضيق الأفق يشبه الكلام السورى، ولكنه عامر وزاخر ببعض الكلمات العربية الطنانة: والناس هنا فى خيبر لا تعرف لغتهم التنوين. وخطر ببالى، أو بالأحرى عرفت، أن محمد النجومى هو أردأ من يتكلم عربية المدينة (المنورة) بين المحيطين به، وربما يكون قد تعلم لغته من والده، وهو من الغرباء أيضا، أو ربما كانت تلك اللهجة (الحجازية) هى لهجة قرية حرب التى كان يعيش فيها: كان أخوه يتكلم اللغة أفضل منه. والمدينة بالرغم من تباين سكانها (إذ إن نصف عدد سكانها من الهنود)، إلا أنها، فى بعض أحيائها وضواحيها تكاد تكون مدينة عربية بحق وحقيقة.

كنت أسيرا لعبد الله، ولذلك كان يتعين على المثول أمامه كل صباح وكل مساء. حاكم القرية هذا جعلنى أضيق ذرعا بفناجيل قهوته، يضاف إلى ذلك أن عناصر الضيافة ومكوناتها فى مكتب ذلك الرجل، كانت بابتسامة جذابة على وجه ذلك الرجل الأسود؛ وذلك لمدة ثلاثة أيام حسب مقتضيات عرف الضيافة التى تستمر مدة ثلاثة أيام فقط. كان جنود الحامية يسكنون فى مناطق حرة من قرية خيبر، هذه المناطق فيها الكثير من المنازل الخالية التى يؤجرها أصحابها، فى فصل الصيف، إلى أولئك التجار والبائعين الذين يفدون على قرية خيبر من المدينة (المنورة). كان عبد الله يسكن فى واحد من المنازل الجيدة، منزل أرملة سوداء، كان الناس يتحدثون عن خفة ظلها وخفة دمها كلاما يوحى بالتقدير والاحترام. كان البدو الرحل القادمين للتسوق، عندما ينزلون عن دوابهم أمام بيتها، يجدونها تهب لاستقبالهم استقبالا سخيا كريما؛ وكانت ، إذا ما سمعت عن محتاج، فى قرية خيبر تبادر بإرسال ما تستطيع لمثل هذا الإنسان.

كانت تلك الأرملة تؤجر بيتها مجانا، نظرا لأنها كانت امرأة موالية ومخلصة، وكانت ترى أن من المنطق ومن العقل أيضا أن توفر مكانا لضابط الدولة (الإمبرطورية العثمانية). وبالرغم من أن هذه الأرملة كانت جذابة عندما كانت فى منتصف العمر، إلا أنها رفضت أن يكون لها زوج ثان قائلة 'إنها ليست سوى وصية وراعية على التركة التى لديها والمتمثلة فى ولديها الاثنين.' وكانت تلك الأرملة قد أعدت العدة لتزوج هذين الصبيين فى السنوات القادمة. وعرف خيبر وتقاليدها تقضى برهن بعض أحواش النخيل لتكون مهراً للعروسة؛ ومع ذلك فإن التربة (التى لا يمكن أن تعطى ربا فاحشا)، لا تفلت فى معظم الأحيان، أو فى نهاية الأمر، من أيدى مالكها أو إن شئت فقل: صاحبها. ولكن هذه الزوجة الزنجية الأمينة خطرت ببالها أساليب أفضل جديدة: قامت تلك الأرملة ببيع بلدين (حقلين) ونزلت إلى المدينة (المنورة) ومعها ثمن هذين الحقلين؛ واشترت من المدينة فتاة حبشية شابة، مهندمة وجميلة لتكون زوجة لولدها الأكبر: وراحت تطعم تلك الفتاة وتغذيها باعتبارها ابنة لها، إلى أن يصل الاثنان إلى سن الزواج. والخيابرة يفضلون الزواج من بنات القرية (السوداوات)؛ ولكن النساء الحبشيات يفضلن الرجال البيض.

دعانى عبد الله ذات مرة إلى تناول العشاء: وقد أعد لذلك العشاء طعاما مدنيا مكونا من لحم الماعز ومعه البسلة أو الفاصوليا الفرنسية. وعندما انتهينا من تناول الطعام ابتسم الرجل إلى كل من كانوا حوله وقال متفاخرا: "حق Hag الله ullah !" عندما وجد أن خليلا أكل معه عيشا وملحا، وأنا لم أضمر لذلك الرجل أى شر أو مكروه!" وفى يوم آخر ، عدت وأنا مكروب ومهموم فى فترة العصر، بعد أن تناول الجنود القهوة ورحلوا عن المكان؛ ولكنى وجدت قليلا من القهوة، متبقيا فى الدلَّة، فوضعتها على بقايا النار وصببت لنفسى ورحت أشرب القهوة. – وهنا تعجب عبد الله الذى كان ما زال جالسا فى القهوة ومعه رجل أو اثنين، وقال:"أنا عندما أرى خليلا يشرب هذا الفنجال، فو الله لا أجد فى قلبى ما يمكن أن يضمر لذلك الرجل غلاً أو حقداً:" – كان ذلك هو المنافق الأسود المجرد من الانسانية!

محمد النجومى، الذى كانوا يسمونه فى البلدة العم Amm محمد – من منطلق أن الرجل الأبيض يصبح "عما" للسود – لم ينسانى مطلقا؛ وفى يوم من الأيام ، وبالتحديد فى فترة ما قبل الظهر، سمعت صوته العذب عند بداية الدَّرج (السلم): "يا شيخ خليل يا شيخ خليل ، أين أنت تعال ، فأنا أريدك." اقتادنى محمد النجومى إلى بيته، الذى كان يقع فى الشارع التالى، عند نهاية ممر مظلم، ومن هناك صعدنا إلى صُفَّة محمد النجومى. كان الضوء elh-thow يدخل تلك الصُّفَّة (الحجرة) من فتحتين صغيرتين فى أعلى الجدار المبنى من اللبِّن، وفى بير السلم بالقرب من سطح المنزل: كانت تلك الصُّفَّة (الغرفة) عارية من الأثاث وكئيبة. – "أجلس، يا شيخ خليل، هذا هو مكانى المتواضع؛ نحن نعيش هنا عيشة البدو، ولكن الحمد لله، على هذه النعم الكثيرة والجزيلة: " كان العم محمد يسكن فى هذا المكان بوصفه تاجرا. وكانت زوجته واحدة من نساء قبيلة بشر؛ وكانت تلك الزوجة قد أعدت لنا طبقا ممتازا من الكعك الطرى، القُرصَ gors ، المخلوط بالزبد ومحلى بعسل النحل. "قال محمد النجومى: هذا العسل يأتينى من البدو، من خلال عملية البيع والشراء، وأنا لى من بين هؤلاء البدو أصدقاء يحضرون لى ذلك العسل ويجلبونه لى من الجبال." والناس هنا يرون أن الدهن والحلى هما شفاء [فى الكتاب العبرى المقدس – دهن الحيوانات محرَّم أكله – والأشياء الدسمة، مثل الحليب والعسل ، أو الزبد والعسل، أو زيت الزيتون والعسل] . وهناك قبيلة من الرجال المتوحشين غير المتحضرين تعيش فى جبل Jebel الروضة Rowda (قبل ينبع) ؛ رجال هذه القبيلة يتمتعون "بطول العمر وبالحيوية الدافقة فى سنى شيخوختهم، وهذا (على حد قولهم) راجع إلى أنهم كانوا يتغذون بلحوم البدون، والعسل البرى." بعد أن أكلنا، "قال هذا الرجل الطيب: أنا وأنت أخوان الآن؛ وأنت يّا شيخ خليل إذا ما شعرت بالجوع تعال إلى هذا المنزل وتناول الطعام، واعتبر هذا المنزل، من الآن ، مثل بيتك تماما: افتح الباب، واصعد إلى الطابق العلوى، وإذا لم أكن فى البيت أطلب من هذه المرأة أن تأكل تمرا أو كعكة من الخبز، وسوفْ تجهز لك ماتطلبة." قال لى محمد النجومى: إن الزنوج القرويين كانوا ينظرون لى فى بداية الأمر باعتبارى جنديا من جنود الدولة ؛ ولكنه قال لهم، 'لا' لو كان ذلك الغريب جنديا، لذهب ونزل عند منزل

سروان أو عند بيتي.' وعندما، بدءوا يعرفونى فى اليوم التالى ، سرى نوع من الرعب والفزع بين السكان السود. 'قالوا: إننى ساحر جاء ليسحر قريتهم!' وقالت الحريم: "أوه ! انظر ! يا لحمرة هذا الرجل!"

عم محمد: "هذا يوم عيد (عيد Ayd الضحية eth-thahia)، هل تصاحبنى ونخرج سويا لزيارة معارفنا؟" – رحنا نتنقل من بيت إلى آخر، بين أصدقاء محمد النجومى: ولكن أحدا منهم لم يذبح أى شىء من الماشية فى ذلك اليوم، – يشيع عن أهل خيبر أنهم بخلاء؛ ومع ذلك قُدّم لنا الطعام فى كل بيت من البيوت التى دخلناها، وكان ذلك الطعام مكون من الخبز المخمور ومعه شيء من السمن." قال صديقى، أنا أحذرك يا شيخ خليل، إننا سوف يتعين علينا أكل هذا الطعام عشرين مرة قبل دخول المساء."

"قال عبد الله السروان: فى تلك الأيام التى نرسل فيها قوات وجنود إلى المدينة (المنورة) لن تتمكن من معالجة الجنود المرضى؛ ولدينا من الجنود المرضى اثنان فى أم Amm كيدة Kida ، وجندى ثالث هنا أيضا – وأنت يا سرور معك سالم رافقا خليل، وخذا معكما أسلحتكما، وهيئا لخليل زيارة محرَّم Muharram ." – "أنا لا أستطيع المشى أكثر من ذلك." – "المسافة لا تزيد عن مدى دانة من دانات المدفعين عندما تطلق من الصفصافة Sefsafa ."

– وصلنا إلى الصفصافة ونزلنا منها إلى المنطقة الواقعة خلف الفجّارة، إلى وادى يقولون له: وادى Wady السُّليمَّة es-Sillima ، الذى سمى بهذا الاسم نظرا لوجود الكثير من أشجار السنط التى يطلق على الواحدة منها اسم السُّليم Slim . وأعين العرب تستطيع التمييز بين أربعة أنواع من الأشواك الصحراوية: الطلح Tolh (أشجار سنط الصمغ) ، وأشجار سنط السَّمَّارة Sammara ، وأشجار سنط السُّليمة Sillima ثم أشجار سنط السيّالة Siala ؛ وأوراق كل هذه الأنواع من أشجار السنط متشابهة، ولكن مجموعاتها الخضرية مختلفة ومتباينة. وحدادو الصحراء يقطعون خشب الطلح ليستفيدوا منه فى الأعمال الخشبية، والسبب فى ذلك أن هذا النوع من الخشب ثقيل وغشيم؛ أما أنواع الأخشاب الأخرى فهى من النوع الهش ولا تصلح لأعمالهم. أشجار

سنط السَّمارة تصلح أخشابها للوقود؛ ورائحة أخشاب هذه الأشجار طيبة، وهى تحترق وتعطى حرارة صافية ولا يتخلف عنها رماد كثير، يضاف إلى ذلك أن بقايا نار هذا النوع تظل مشتعلة إلى صباح اليوم التالى. وقد تفاخر الاثنان وامتدحا ذلك الوقود الجيد، – "نحن نؤمن أن الله أعطاكم الكثير من الأشياء الجيدة فى بلادكم، ولكن المؤكد أن أشجار سنط السَّمارة غير موجودة فى بلادكم!" ووادى السَّليمة ينزل منحدرا من الحرة الواقعة خلف جبل عطوة Atwa ، مبتعدا عن منطقة الأرض البازلتية التى يطلقون عليها اسم خشم Khusshm الصفصافة es-Sefsafa ونازلا إلى وادى الزيدية Zeydieh ، أو أن شئت فقل: وادى قرية خيبر الكبرى هى والقلعة القديمة. وادى السَّليَّمة فى هذه المنطقة عبارة عن مستنقع له لون الصدأ، تعلوه قشرة بيضاء اللون من الملح، الصمَّاخ (السَّبخة)، تفوح منها رائحة نفاذة، وتنمو عليها فى بعض أجزائها نباتات السَّمار الحادة التى يطلقون عليها هنا اسم الجيرت el-girt التى تؤذى سيقان المارة العارية . – وهذا هو الجانب المميت ، بالنسبة للرجل الأبيض، فى أراضى وادى خيبر!

وأنت عندما تتحاور مع القرويين هنا، عن تلك المستنقعات وعن ذلك الجدب المحيط بهم، تراهم يقولون:" لدينا من هذه الأرض ما هو أكثر مما يمكن أن نفلحه ونزرعه." وتربة الصَّمَّاخة، التى ليست أردأ أنواع التربة، قابلة للعلاج، إذا أمكن خلال موسمين أو ثلاثة إزالة طبقة الملح باستعمال الفئوس: وبعد ذلك يصبح بالإمكان زراعة الأرض المالغة، وبمرورالوقت يصلح حال مثل هذه التربة شيئا فشيئا. الناس هنا يشاهدون طبقة ملحية لامعة فوق قيعان الحرة الطينية الصغيرة؛ ومع ذلك، ليس من بين عيون الماء الكثيرة فى خيبر، وبخاصة أن مياه هذه العيون دافئة ولها طعم الكبريت، عين واحدة ماؤها مالغ المذاق: هذه العيون تنبع من أسفل بعض الطبقات الطينية وأيضا من أسفل طبقات البازلت التى يصل عمقها إلى خمسين قدما، عند حافة الفجَّارة. ووديان خيبر الكبيرة تتجمع ، مثل جريدة من جريد النخل، عند حدود الحَّرة: وهذه الوديان عبارة عن أشياء زائدة عن الحاجة لكل من يريد الانتفاع بها فى منطقة الصخور البركانية – ولكن كيفية تكونت تلك الوديان بأمر لا يمكن تخمينه أو القطع به –

التى تمتد إلى المنطقة الموجودة فى الأسفل. وتمتد تلك الوديان إلى أن تصادف نوعا من الصخور (الرملية) التى تبدو للناظر إليها وكأنها (محروقة) ومتغيرة اللون.

مررنا على طرق مسّورة خلال مناطق النخيل وفوق الغدران التى فى تلك المناطق، إلى أن وصلنا إلى قرية أم Amm كيدة Kida : أو إن شئت فقل قرية Jeriat ولاد على Aly . والمنطقة الواقعة، على ضفة الوادى البازلتية العالية، هى واحدة من المناطق القديمة، وهى أكثر اتساعا وتشرح الصدر، وهواؤها أفضل من هواء القرية نفسها. وبالقرب من البوابة، صعدنا إلى صُفَّة، كانت بمثابة ثكنة للجنود؛ كانت أسلحة الجنود معلقة على الجدران، وشاهدت على الأرض ثلاث مراتب مصنوعة من القش. – رحب بنا الرفاق الأتراك على طريقة الترحيب بالغرباء الذين يكدون طلبا للأجر، كان من بين هؤلاء الرفاق اثنان لهما وجهان شاحبان، وقد رأيتهما أول مرة فى خيبر؛ أما الشخص الثالث ويدعى محمد فهو كردى، وهو من مدينة من المدن القريبة من تفليس Tiflis (فى أرمينيا الروسية). كان محرم رجلا طويلا، وملامحه أوربية بشكل واضح. محمد، هذا أمضى أربعين عاما من الخدمة العسكرية فى الحجاز، فى المنطقة المحيطة بكل من المدينة (المنورة) ومكة، ولم يتحسن حاله : سألته عن مكان فستانه Fustan ؟ ورد على وهو يتنهد مبتسما ،"جاء يوم كنا نلبس فيه التنورات الداخلية، كما كان الكثيرون من الأرناءوط من الرجال ميسورى الحال فى المدينة (المنورة)؛ ولكن هؤلاء الأرناءوط تفرقوا وأصبحوا الآن فى عداد الأموات ." ومع ذلك كان محمد يلبس طاقية كبيرة حمراء اللون، كانت تبدو له شيئا عظيما وسط ذلك البؤس الشديد فى خيبر! خانت ذلك الرجل قواه، وعاوده المرض هنا: أعطيته الرَّاوند الريباس ولكن بجرعات قليلة ومعه شيء من الكنين. محمد، هذا المسكين، كان يشعر بالارتياح عندما يتحدث معى عن بلاد Beled الروم el-Rum ، أى بلاد الإغريق أو إن شئت فقل بلاد الهلاس(*) Hellas الواقعة على حدود بلاده؛ كما سمع أيضا عن وجود الإنجليز فى كورفو(**).

(*) بلاد الهلاس هى بلاد اليونان ، ويعتقد الإغريق أنهم ينتسبون إلى هلاس – جدهم الأكبر – ولذلك فهم يطلقون على أنفسهم اسم الهيلنيين . (المراجع)

(**) كورفو : إحدى الجزر اليونانية . (المراجع)

كان المصرى فلاحا جلفا، ولكنه كان ممتنا تماما للدواء الذى أعطيته إياه: وقد أخبرنى ذلك المصرى أن بعض الإفرنج، وبخاصة التجار منهم، كانوا يأتون كل عام إلى قريته الواقعة على النيل طلبا للحبوب، وقال لى أيضا: إن قريته تلك تبعد عن القصير مسير أيام عدة؛ والقصير ميناء من موانئ البحر الأحمر، وهو مقابل لميناء الوجه على الضفة الأخرى: كان ذلك الرجل يشعر بالفخار عندما يحكى لى عن أفراد أسرة محمد على." وعندما سألته ، هل كان إسماعيل باشا، الخديوى، حاكما جيداً؟" رد على قائلا: "إخص! ذلك رجل ملعون." – قلت لمحمد، الكردى، " أنت الوحيد من بين الغرباء، الذى لم أسمعه يتأوه أو يتوجع فى خيبر." – ولكن الآخرين ردوا عنه قائلين ، "هو أيضا من أولئك الذين يصابون بالمرض ، وهو لم يغادر فراش المرض إلا منذ فترة قصيرة جداً."

كان الكردى واحدا من جنود الشرطة ولذلك كان يتحرك دوما مصحوبا بقعقعة السلاح. أخبرنى أنه عمل ذات مرة فى خدمة إحدى العائلات الإنجليزية فى تفليس! كما حدثنى أيضا عن بِشْر تلك الأسرة ونقائها الأخلاقى ، الذى امتدحه بشكل كبير . سبق لذلك الكردى أن تعلم الحديث والتفاهم باللسان التركى، وأنه يعرف القليل من عربية المدينة (المنورة)، وأنه سوف يحيينى فيما قبل الظهيرة، بأسلوب أهل المدينة، مستخدما فى ذلك العبارة التى تقول 'كيف Keyf أصبحت Usbaht بمعنى [هل استيقظت من نومك معافاً ؟]، كان هناك بالإضافة إلى هؤلاء اثنان آخران من أفراد العجيل، الذين كانوا يتمركزون فى منزل من منازل أم Umm كيدة Kida : كان من بينهم (رجل نجدى من القصيم) يعرفنى! إننى سبق أن تحدثت معه فى دمشق، أثناء موسم الحج، عندما كنت متجها إلى مدائن صالح. – هذا الرجل سبق له أن وعدنى على الفور، وبيمين مغلَّظة، أن يضمنى إلى جماعته، وأن يوصلنى لا إلى مدائن صالح ، بل وإلى المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة) إذا ما كنت أنا راغبا فى ذلك ! لم يكن الرجل يهتم بمشروعى أو الهدف الذى أبتغيه. هذا الرجل وهو يلتقينى هنا، فى خيبر ، فى الجزيرة العربية، وبينما كنا ننزل إلى الشارع قال:" إنه أنا ! وهل أنت لا تعرفنى؟"

بالرغم من" ثراء" محرَّم ، وبالرغم من مجيء الحكيم إليه من القرية كى يصف له الدواء والعلاج، إلا أنه لم يقدم لنا القهوة؛ وهذه هى صورة الألبانيين دوما فى عيون العرب. '(سمعت كلا من عبد الله ومحمد النجومى وهما يقولان): أنا لا أحب الأرناءوط، لأنهم لا يحبون إلا أنفسهم، فضلا عن شقوتهم، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الأرناءوط لا يودون فى البلاد التى يكونون فيها أغرابا، أن يساعدوا بعضهم البعض .' وبعد أن تركناهم طلبت من المرافقين لى أن يصحبونى إلى مكان نستطيع فيه تناول الإفطار، نظرا لأنى لا أستطيع العودة وأنا صائم . طرقوا بابا من الأبواب، وصعدنا إلى صفة من صُفَّات أحد الأكواخ. – الناس هنا فى هذه الهجرة (الكفر) يعيشون عيشة نظيفة، وهم هنا ليسوا شبيهين تماما بالزنوج مثل الغالبية العظمى من سكان هذه القرية: هؤلاء الناس شركاء فى الأرض مع العلايدة، أو إن شئت فقل: مع أولاد على. فرش لنا مالك الأرض الحصير وأتى لنا بالتمر؛ وجلس إلى جوارنا وقد بدى على محياه وظهر على وجهه بشر المضيفين العرب وترحابهم: وكما هى عادة العرب بدأت تنهال علينا أعداد كبيرة من الأشخاص كيما يجلسوا مع الغرباء ويتسامرون معهم. كانوا جميعا من ملاك الأرض ولكنهم لم يخرجوا للعمل فى أراضيهم بأنفسهم، لأنهم كان لديهم العبيد، أو إن شئت فقل: العيال الذين كانوا يحلون محلهم فى فلاحة الأرض والمزارع . وعندما رأيت هؤلاء الأشخاص الذين يشبهون العرب إلى حد بعيد، وعندما رأيت تلك الوجوه النحاسية فى القرية، وعندما رأيت أيضا أن بعض الشباب هنا كانوا يمشطون خصل شعرهم على طريقة البدو الرحل ، تساءلت إن كان لدى هؤلاء الشباب بعض التقاليد والأعراف التى ورثوها عن أسلافهم. وردوا على قائلين: "نحن من قبيلة جهينة؛ ولكن أليس فى كتبك شىء عن خيبر؟" – "أليس الخيابرة من السودان؟ – وإلا فمن أين جاءوا بتلك الشفاة وتلك الأنوف؟" – "لا، نحن أفراد من قبيلة جهينة ، نحن أعراب." قالوا أيضا: "نحن قوم Kom (سلالة) مرحاب Marhab ." سرور: (بدافع من الحقد)، "هيا، تعالوا يا أهل أم Umm كيدة Kida ! واجعلوا ذلك الغريب يتحسس أنف (خشم) كل واحد منكم، ومن ثم سيخبركم عن السلالة التى تنتمون إليها، كما سيخبركم أيضا عن البلد الذى ينتمى إليه كل واحد منكم." ويندر بين الخيابرة الذين يكونون

فى بحبوحة من العيش أن يتخذ الواحد منهم لنفسه زوجة بدوية. – وبعد ساعة، قدم لنا الرجل الطيب وجبة ساخنة، كانت مكونة من الذرة العويجة المسلوق. وأهل قرية بشر يجدون فى كلام أهل هذه الهجرة (الكفر) اختلافا عن كلامهم، بالرغم من أن هذا الكفر لا يبعد عنهم أكثر من ميل واحد ولذلك فهم يتعجبون "من الطريقة التى يتحدث بها سكان هذا الكفر!" – "المريض الثالث من أفراد العجيل، كان فى منزل من منازل القرية، وكان نجديا من بريدة: وكان قد أرسل إلى خيبر بسبب سوء عمله؛ حيث أصابه فيها الجوع والحمى. وهنا تساءل عبد الله الذى كان يستولى على خمس أجور الجنود، وطلب منى أمام الحاضرين جميعا " ما الذى يمكن أن يفعله لذلك النجومى الذى جاء من بريدة؟" – "أعطه شيئا من العصيدة واللحم، إنه يكاد يموت جوعاً."

الضيف فى البلدان العربية يرى دائما فى المضيف النية الحسنة، والضيافة تستمر طوال ثلاثة أيام، تتوقف بعد ذلك مثلما يطوى الإنسان بساطا من البسط.، ففى كل يوم ، وبخاصة فى الصباح، وبعد أن أكون قد قدمت نفسى لطاغية القرية فى القهوة، كنت أنصرف لاستنشاق الهواء فى الفجارة فوق الصفصافة. كنت أجلس هناك فى شمس الشتاء، بعيدا عن رطوبة الوادى المهلكة، وكنت طوال جلوسى أدخل فى موجة من التأمل حتى يتسنى لى تمضية الوقت؛ وكنت أقرأ البارومتر الذى لم أكن أنظر إليه كثيرا، كما كنت أستطلع موقع خيبر من حولى (الصورة رقم ٢)، كما كنت أستطلع أيضا الجبال حمراء اللون وأرجوانية اللون التى كانت تمتد فيما وراء المنظر الطبيعى لأرض الجزيرة العربية التى أمامى. وذات يوم بعد أن سجلت قراءة البارومتر، وضعت الأوراق القديمة على الأرض ووضعت من فوقها بعض الأحجار، مخافة أن تخدعنى الريح وتداهمنى: ولكن رؤيتى لم تكن مطلقا على ما يرام، كما كانت هناك أعين تراقبنى، بالرغم من أنى لم أر أحداً من الرجال. وعندما ذهبت إلى ذلك المكان فى يوم آخر، فتح رجل نار بندقيته علىّ من فوق أسطح أحد المنازل فى أم كيدة. وفى صباح اليوم التالى، وعندما رأيت رجلين يقتربان ومعهما بندقيتيهما الفتيليتين، عدت إلى القرية مرة ثانية: ووجدت عبد الله جالسا وفى عينيه دلائل الشر وسوء القصد والنية." قال: ما هذا الذى أسمعه منك! – لقد شاهدك أطفال أم كيدة وأنت تدفن بعض

الأوراق، وأنا لا أعرف ذلك الذى دفنته.! لقد أخذوا تلك الأوراق، وأوصلوها إلى الهجرة (الكفـر) ، وقد أحس الناس بالقلق والاضطراب نحو تلك الأوراق؛ وقد جاءنى، واحد من الشيوخ، وهو رجل محل ثقة، ليشتكى لى مما حدث. ما هى طبيعة هذه الأوراق؟ [يعتقدون أن تلك الأوراق هى من قبيل السحر والشعوذة:] - وقد قام الشيوخ بدفن تلك الأوراق على نحو يبطل ما فيها من أسحار." يضاف إلى ذلك أن بدويا قصد إلى عبد الله ليتهم النصرانى بأنه 'كان جالسا فوق الحرة ويمسك فى يده ورقة.'

أبلغنى عبد الله، أننى أثناء عودتى بالأمس، من نفس الطريق الذى سبق أن سلكته، عبر المزارع، كان هناك شابان من قرية أم كيدة، يجلسان خلف السور الطينى وأصابعهما فوق زنادى بندقيتيهما الفتيلية ومستعدان لفتح النار، وكانا يتجادلان حول اغتيالى أو عدم اغتيالى؛ وقال أحدهما للآخر ، " دعنى أنا لوحدى، وسوف أصوِّب إليه نيران بندقيتى:" ولكن رفيقه رد عليه قائلا:" لا، لا تقتله الآن، إلى أن نتبين الأمر تماما بعد ذلك؛ يا خليل؟ ما هذا الذى أسمعه عنك؟ إن كبار الناس يأتون إلىّ يشتكوك! وأنا أقول لك الحق، إن هؤلاء الناس لا يحسون تحوك بحسن النية أو الطوية. انتبه إلى ذلك الذى أقوله لك، وإياك أن تقرب بوابات القرية مرة ثانية؛ - أقول لك ثانية، لا تذهب إلى هناك! أنا قادر على حمايتك وأنت فى القرية أثناء النهار: أما فى الليل فعليك أن تلزم غرفتك ولا تخرج منها، مخافة أن يصيبك مكروه؛ وهنا سيُلْقى علىّ باللوم. والله أعلم - وهنا التمعت فى عينى عبد الله علامات سوء النية والطوية - ومن أدرانى قد يكون هناك من يهجم عليك بسكين! وإن هى إلا ضربة أو طعْنة واحدة، يا خليل، وتنتهى حياتك وتصبح فى عداد الأموات! ولكن القاتل لم يره أحد، وقد لا يعرف أحد حقيقة ما جرى. لا تزور معارفك إلا أثناء النهار فقط، ولا تدخل سوى البيوت الصديقة. قلت لك لا تتخطى البوابات، ولكنك إن تجاوزت تلك البوابات، وإن قُتلت فى يوم من الأيام، فأنا برئ مما يحدث لك! ألا تستطيع النظر من خلال أسوار القرية؟ إن طلقة واحدة تصدر من وراء تلك الجدران الطينية كفيلة بالقضاء على حياتك ، هنا فى هذا المكان، يوجد من يستطيعون القيام بذلك، وسيصبح ذلك كما لو كانوا يفتحون نيران بنادقهم على الغربان، والسبب فى ذلك أنك غريب، وهم أصبحوا الآن ينظرون إليك على أنك عدو؛ وأنا أقسم بالله أنهم لم يفعلوا ذلك أو يقدموا عليه لحد الآن، ولاءً لى وإرضاء لخاطرى."

عبد الله، الذى ولد فى الأماكن الوعرة والمظلمة من المدينة (المنورة) لم يحاول الذهاب إلى ما وراء خيالات، القرويين الزنوج المجنونة؛ وكان يعير أذنيه التى تشبه أذنى الحمار لكلام هؤلاء الزنوج العامر بالخرافات. هددنى ذلك الشقى، فى يوم من الأيام، أننى إذا ما تجولت مرة ثانية خارج أسوار القرية، فسوف يضعنى فى السجن. قلت له: " إذا كان هناك من يعتقد أن هؤلاء الناس لديهم مايتهمونى به، فأرجوك أن تستدعى هؤلاء الناس.وتستدعينى أنا أيضا؛ وأمر بفتح الموضوع أمامك وفى وجودك." – ولكن يبدو أن الشك الخرافى الذى دار حول تلك الأوراق المكتوبة كان يخيم على ذهن حاكم القرية ! وفى يوم آخر وبينما كنت فى القهوة فى منزل إبراهيم، قلت للقرويين الحاضرين:" هل ما يقوله عبد الله السروان صحيح، وأن الخيابرة يظنون بى الظنون؟" وردوا على: "نحن لا نعرف عنك إلا كل خير." وأردف إبراهيم قائلا: "الغريب ضيف، مهما كان وأيا كان، بصرف النظر عن مسألة دينه." – ومن بين هؤلاء القرويين السود فى ديرة Dirat الرسول er-Rasul ، يقول القهوجى وهو ينقل صينية القهوة (إلى يده اليسرى)" صلى Sully على aly النبى en-Neby !" وهنا يردون عليه جميعا قائلين "عليه الصلاة والسلام." وهم عندما يتنهدون، وعندما يتثاءبون، وعندما يتمددون يقولون متعجبين 'يا Ya رسول Rasul الله Ullah ! وهم عندما يجلسون لشرب قهوة الصباح يروح الفلاحون الزنوج يحكون الأحلام التى شاهدوها فى الليلة السابقة، ويستخلصون من تلك الأحلام نذراً: وفى أحيان كثيرة فإن تلك الشفاة الغليظة التى تتجادل حول أصولها وأنسابها، تعزو لنفسها النبالة والأصالة،

قال لى عم Amm محمد وهو يبتسم، " ألا تعرف أن كل الخيابرة يرتعدون منك خوفا؟" – "وكيف يخافون من رجل واحد، مسكين ولا حول له ولا قوة ، وغريب أيضا؟" – "هم يقولون عنك: أنك ساحر! سبحان الله ! أنا خائف منك، يا شيخ خليل؛ وما رأيك فيما يقول أولئك الحمير لى؟ – 'أهو ! ياعم محمد، كيف لك بالأكل مع هذا الرجل! أم إنك لا تخاف من أن يسحرك؟' – هل هناك مثيل لذلك الحقد الحيوانى الوحشى؟ وأنا أقول لهم إننى بالرغم من تناولى الطعام معه إلا أنى لا يصيبنى مكروه: ومع ذلك هم يقولون: 'ثق تماما أن خليلا نوع من السحر، وأنه ليس مولودا من طبيعة بشرية،

إنه ليس من أولاد آدم:' – ولكن ماذا يكونون هم أنفسهم؟ أبناء القردة؛ وهم عندما يقولون: 'إنه نصرانى! أرد عليهم، وأنا أيضا نصرانى!"

كان ذلك هو حال الود الذى كان ينمو ويزداد يوميا بينى وبين ذلك الشخص المحترم. فى البداية كان يدعونى، فى أحيان كثيرة، إلى تناول الطعام معه؛ وبعد أن رآنى مجردا من الأشياء الضرورية (إذ كان عبد الله قد حصل على كيس نقودى) أخذنى إلى منزله كى أعيش معه، طوال فترة النهار. كنا نخرج سويا فى بعض الأمسيات، – '(أو على حد تعبيره) نَدَوِّر الحكى والقهوة، – بمعنى طلبا للدردشة الطيبة وشرب القهوة، فى منازل الأصدقاء . أثناء الليل، ونظرا لأن منزله كان مكونا من غرفة واحدة علوية، فقد كنت انسحب لأنام فى صفة أمان Aman . ومع طلوع الشمس كنت أذهب إليه كل يوم: وبعد أداء الصلاة كنا نتناول سويا الإفطار، وعندما كانت شمس الشتاء ترسل أشعتها الذهبية الصغيرة، كنا نأخذ عددنا: العتلة الحديدية، والفاس، والسلّة، ثم نذهب إلى بستان من بساتينه؛ كان كل ذلك من ابتكار محمد، حتى لا يجعلنى أفارقه. كان يحمل أيضا (ومن أجلى أنا) سيفه الذى علاه الصدأ، وعندما كنت أبتعد عن القرية الكئيبة كنت أحس بالهواء المنعش النقى، كما كنت أجد لنفسى عزاء كبيرا فى صحبة هذا الرجل، وسط كثير من المخاوف.

كرَّس العم محمد نفسه لحفر حفرة ماء فى أرض النخيل المجاورة للمناطق التى يقيم الجنود فيها فى فصل الصيف؛ والماء الجوفى هنا على عمق صغير فى قاع وادى خيبر، غير أن التربة المرتفعة هناك، هى والمنخفض الضحل الموجود تحت الفجّارة يحتم عليه تكسير مقدار ذراع كامل فى كتلة من البازلت. أمضينا الأيام فى ذلك العمل الذى لا طائل من ورائه: ونظرا لأن العم محمد كان يرى أن ضيفه يكابد هذا التعب والإرهاق، فقد كان يشعر بالقلق وعدم الارتياح عندما كنت أحاول تناوب الحفر معه، "هيا نجلس سويا، يا شيخ خليل لتناول قسطا من الراحة! 'نسمة nesma : لا، ما الذى يدفعك إلى أن تحول عمل التسلية إلى عمل جاد، وما هو ذلك الذى يدفعك إلى إنهاء هذا العمل قبل دخول فصل الصيف؟"

العتلة الحديدية الجيدة تساوى خمسة ريالات فى خيبر؛ أدوات الزراعة (فى المدينة) المنورة يجرى جلبها من المنطقة الساحلية. كانت طبقة البازلت المتقشرة سهلة التكسير: ولكن أسفل هذه الطبقة كانت توجد كتل الصخر (المتبلورة)، الأمر الذى يحتم رفعها وتكسيرها باستخدام قوة الأذرع؛ والذى لا شك فيه أن كل آبار خيبر جرى حفرها بهذه الطريقة! – كان من النادر فى فصل الشتاء وصول أية جماعة من جماعات البدو الرُّحل إلى قرية خيبر طلبا للتسويق: بعد ذلك نادت زوجة عم محمد، أو ولده عليه وعاد الرجل إلى القرية للاتجار مع تلك الجماعة.

كان العم محمد – بحكم حدة بصره غير العادى – صياداً بحق وحقيقه عن سائر كل الصيادين الموجودين فى خيبر. فى بعض الأحيان، وعندما كان العم محمد يجد نفسه ضعيفا بسبب ذلك الطعام المكون من الذرة العويجة، والذى يضطر إلى تناوله طوال (مجاعة) فصل الشتاء، فقد كان يندفع أثناء الليل وليس عليه من ثياب سوى قميصه، ويحمل بندقيته الفتيلية، عند منتصف ليل الشتاء القارس البرودة، ومعه نعلته: كان العم محمد، مع طلوع النهار، يرى الأرض البركانية الواسعة كلها. وعندما كنت لا أجد ذلك الرجل فى الصباح ، كنت أجلس ساكنا بلا حراك فى صُفتِّه، وأنا تراودنى المخاوف لحين عودته إلى المنزل مرة ثانية؛ وغالبا ما تكون هذه العودة عند الظهر. لم يكن قد مضى من الخريف بأمطاره سوى ثلاثة أيام، وهنا بدأت بادرات النباتات فى الظهور؛ وهذا هو الغزال والماعز البرى قد هجر هذا الجانب من الحرة: وبالتالى لم يعثر العم محمد على أى من تلك الحيوانات. – والناس فى خيبر يطلقون على من يصطاد الحيوانات البرية اسم 'قناص' gennas أما كلمة 'صياد' Seyad فهم يطلقونها على من يصطاد باستعمال الصقور والكلاب، للإمساك بالأرانب البرية.

'أخذنى العم محمد معه إلى الحَّرة ذات مرة، لكى يرينى بعض النقوش القديمة؛ كانت تلك النقوش بالخط الكوفى، ومحفورة فوق صخرة من البازلت، وكلها عبارة عن لفظ الجلالة 'الله' واسم الرسول 'محمد' . هناك كثير من النقوش العربية القديمة على صخور (من الحجرالرملى) فى الوادى وعلى بعد مسير نصف ساعة خلف ذلك المكان .

لم أعثر على أى نقش من النقوش العربية الوثنية، سوى ثلاثة نقوش كل منها عبارة عن مجموعة صغيرة من الأحرف. (راجع اللوحه رقم ٢٨ .) هذه النقوش الوثنية محفورة على شرفة من البازلت، أسفل خشم الصفصافة، ومع هذه الأحرف توجد أيضا صور بعض الحيوانات: فقد وجدت صورة للثور البرى، ولكنى لم أجد صورة للفيل، ووجدت صورة للزرافة، وصور لحيوانات ضخمة أخرى من القارة الأفريقية، التى حكى لى أمان Aman أنه شاهدها هناك.

فى عصر أحد الأيام ذهبنا إلى الفجَّارة فى اتجاه الهجرة (الكفر) الثالثة من هجرات خيبر، التى يسمونها 'العزمية' el-Asmieh أو إن شئت فقل: قرية Jeriat الفقير el-Fejir . وبعد أن قطعنا مسافة ميل كامل فى وادى Wady زيدية Zeydieh ، أسفل حرف منخفض من حروف الجبل المكون من الحجر الرملى، تجاوزنا مبنى منعزلا عتيقا – وجدران ذلك المبنى مبنية من الأحجار الغشيمة – التى تحظى بشئ من التوقير عند هؤلاء المتدينين، وهذا المبنى العتيق يطلقون عليه اسم قصر Kasr النبى en- Neby . وهم، هنا، يقولون : إن "محمداً ، أثناء عودته ذات مرة من دمشق، شد هنا لجام ذلوله (ناقته)، وكان سيبركها فى ذلك المكان، ولكن النمل تجمع من حوله، فركب ناقته، واتجه للإقامة فى أم Umm كيدة؛ وأنه من المكان الذى بركت فيه الناقة انبجست تلك العين التى يشربون منها حاليا. هذا المسكن القديم من مساكن الجزيرة العربية هو مجرد غرفة أرضية لها باب وشباك. والخيابرة يقومون على أمر صيانة ذلك المبنى والمحافظة عليه، فهم يقومون بإعادة بناء الأحجار التى تنهدم، ويجددون أيضا سقف هذا المبنى إذ يستبدلون دعامات النخيل القديمة بدعامات جديدة من حين لآخر. والنجومى له قطعة من الأرض تزرع بالقمح فى هذا الجانب من الوادى: وقسم كبير من تلك الأرض لا يكلفه شيئا – قالها وهو يضحك – سوى سيف قصير قديم وجراب للسيف. وعلى حدود حقل القمح كانت هناك مجموعة من المقابر التى دفن فيها أولئك الذين ماتوا بسبب وباء الطاعون ، قبل ذلك بسنوات قلائل، – ذلك الوباء الذى مرض أخوه أحمد خلاله إلى أن توفاه الله؛ أكوام تلك المقابر أصبحت تغطيها الصَّمخة حاليا. العم محمد (ذلك الرجل اللطيف إلى حد ما) خطر بباله الآن أن يقوم بنقل تلك الرفاة والعظام ،

وهو يقول: 'إن ذلك سوف يوسع أرضه، وأن ذلك سوف يمكنه من زراعة المزيد من القمح فى تلك الأرض.' ولكن الرجل الطيب وعد ألا يفعل ذلك إلا بعد أخذ رأيى. عثرنا على جمجمة تحت نخلة من نخيل الدوم، بين الصخور البرية، – " قال الرجل وهو يتأمل الجمجمة: ها! هذه جمجمة واحد من البدو الذين ماتوا فى العمليات الحربية التى دارت فى العام الماضى ؛ وربما يكون كلب قد حمل هذه الجمجمة وأتى بها إلى هنا."

مشينا بمحاذاة مسارنا فى الوادى الواسع (الذى هو هنا مكون من اتصال واديى السلَّيمة والزبدية مع بعضهما)، لزيارة بقايا قرية من القرى، فى منتصف الوادى، وجلسنا فوق صخرة من صخور البازلت: كان يطلق على ذلك المكان القديم اسم ، القُريَّة' el-Gereyeh . – كانت جدران شوارع تلك القرية الضيقة مبنية من أحجار جلبها الناس من الحَّرة. كانت تلك المبانى القديمة صغيرة الحجم، ولم يكن أى مسكن من مساكنها أكثر من غرفة ضيقة وأرضية الغرفة مرتفعة كما لو كانت درجة من درجات السلم، – كانت تلك الغرفة محددة حسب الأعراف العربية لوضع النعال فيها بالقرب من باب المبنى الرئيسى. هذا المكان لم يكن اختياره من منطلق صلاحيته للدفاع ، ولكن ليطل منه أكلة التمور على وديان النخيل فى جو من الهواء النقى. هؤلاء السكان القدامى، الذين كانوا يقيمون على مسافة طويلة على جانبى طريق التجارة العظيم يحتمل أن يكونوا من المساكين: وبالرغم من أننا فتشنا خلال الهجرة (الكفر) المهدمة، فلم أر مظهرا واحداً من المظاهر الزينية أو أى نقش من النقوش. لم نعثر سوى على هاون كبير، فى الشارع، كما عثرنا أيضا على بعض كتل البازلت، التى كانوا يقشرون القمح فيها قبل أن يسلقوه. وربات البيوت الإسرائيليات يقشرن المن فى هاون أيضا؛ وهذا هو قول مأثور عندهم 'بالرغم من أنك تقشر الأحمق فى الهاون، مع حبات القمح باستعمال يد الهون، إلا أنه لن تنسلخ عنه حماقته.'

وصلنا إلى بداية وادى جلاَّس Jellas، حيث شاهت مساحات واسعة من الأراضى المائية التى يمكن زراعتها، وهناك حطام قرية أخرى فوق الفَّجارة البازلتية المجاورة، واسم هذه القرية، على حد قول العم محمد، هو قرية Geriat أبو Abu روباى Robai .

هذا الحطام الذى شاهدناه كان مثل ذلك الحطام الذى شاهدناه فى القُرَّية el-Gereyeh ؛ كما رأيت أيضا هناك برجا مربعا مكتملا مثل الهرم بين حطام تلك القرية، – هذا البرج لم يكن سوى كومة من الطين والتراب من الداخل، وربما كان قبرا من القبور. أسفل هذه القَّرية القديمة توجد عين ماؤها سائغ للشاربين. نظر العم محمد حولنا؛ ثم قال:" والله لقد كان القدماء أعقل من الناس الذين هم على قيد الحياة الآن)، لأنهم كانوا يبنون منازلهم على قطع من الأرض المرتفعة وفى الهواء الطلق!" رأيت العزمية el-Asmieh غير بعيدة، على نقطة مرتفعة من الفجارة: ولكن عند هذه النقطة كان مفروضا أن يعود إلى الخلف. النجومى: "لا، لن ندخل، مخافة أن يُقال، إننا دخلنا لنأكل خبز أى أحد من الناس." – "ومع ذلك ، هيا بنا نرتاح مدة ساعة فى منزل الشيخ، ونشرب القهوة، ثم ننصرف بعد ذلك." هذه الهجرة (الكفر) قديمة: والعائلات القليلة الموجودة فيها شركاء فى الارض مع الفكارة Fukara – إنهم ليسوا من الخيابرة، ولكنهم مستوطنون جاءوا من قرية الحيات el-Hayat ، حيث توجد ممتلكاتهم بالفعل. والحيات هذه قرية من قرى الزنوج فى نجد، وأهل هذه القرية أصحاب عقول حرة عن أولئك الذين يعيشون فى خيبر التى تقع فى الأرض المنخفضة. والنخل الذى ينمو هنا فى التربة الحلوة أشد عوداً وقوة من النخل الذى ينمو حول قرية البشرBishr .

صعدنا الصخرة إلى أن وصلنا إلى بوابة القرية، كان أول من التقانا رجلا حيانا بطريقة متحضرة قائلا:" مرحبا بالشيوخ، وماهى أخبار القرية؟" اكتشفنا أن قهوة ذلك الشيخ كانت عبارة عن وجار فى وسط الشارع ، أو إن شئت فقل: مجرد نار فى حفرة فى الشارع، وبجوارها حصير من سعف النخيل هذا الشيخ – بل وكل سكان قرية الحيات – كان رجلا يتمتع بكرم وضيافة الجزيرة العربية؛ إلى حد أن الناس كانوا يقولون عنه، فى خيبر،" إنه يذبح شاة، إذا ماجاءه (غريب) حتى وإن كان طفلا." أحضر لنا ذلك الرجل الطيب تمرا طيبا، وجلس بحسن نية ليصلح القهوة لضيوفه. سألته عن سبب نثر الدم المتجلط على ركن من أركان بيته الجديد؟ تعجبوا واندهشوا عندما وجدونى أسألهم وأوجه لهم أسئلة من هذا القبيل (وأحسوا فى دواخلهم أننى كنت غريبا عليهم بحق)! خطر ببالهم أننى كان ينبغى أن أعرف أن ذلك هو دم التيس

الذى جرى ذبحه (للجان) من أجل الحفاظ على سلامة العاملين،" مخافة، على حد قولهم، من أن يُجْرح أى واحد منهم،" ولما كان أهل العزمية el-Asmieha من ملاك البيوت الميسورين ، فقد كانوا يستأجرون العمال من القرية.

– وبعد فتره نهضنا واقفين كيما نرحل عن المكان، ولكن الرجل الطيب أمسك بعباءتينا واضطرنا إلى الجلوس ثانية. كان من بين أولئك الذين جاءوا للتحدث مع الشيخ مزارع كان شريكا لزيد السبيكان es-Sbeykan ، الذى كان صديقا لى يوم أن كنت بين بدو الفكارة. وبالرغم من أن الإيجار السنوى لمزارعهم قد تصل قيمته إلى مئات الريالات إلا أن هذا الفلاح المسرف كان واقعا تحت طائل مديونيات قديمة: قال العم محمد:'لم يكن معه فى بعض الأحيان ،ريالا واحداً حتى يشترى به لنفسه قميصاً جديدا !' – قال لى عن مضيفنا: شيئا لا يصدقه عقل! 'إنه يحصل على ما يتراوح بين، ٢٠٠٠ و٣٠٠٠ ريال فى العام (أى حوالى ٤٠٠ جنيه إنجليزى)، وأنه يصرف هذا المبلغ بكامله. وبلاده ('والبلد' فى لغة أهل خيبر هى' مزرعة النخيل') بلغت من التعدد حداً كان يصعب معه على ذلك الرجل تذكر بعض أسماء تلك البلاد (المزارع): وأنه عندما كان أى شخص غريب يجىء للإقامة والاستقرار فى تلك البلاد، كان ذلك الرجل الطيب يعطيه ثمار اثنين أو ثلاثة من تلك البلاد نظير مراعاته للنخيل المزروع فقط؛ هذا الرجل يغدق كثيرا على معارفه من الفقراء، سواء أكانوا من القرويين أم من البدو الرحل؛ هذا بالإضافة إلى كرمه الحاتمى.' ونخيل وديان خيبر لا يحصى ولا يعد: والبعيد من ذلك النخيل متروك للبدو، ولكنه لا يعطى سوى ثمار برية.

بعد أن جلسنا مدة ثلاث ساعات، إلى أن دخل وقت العصر، نادى علينا مضيفنا، نحن ومن كانوا جالسين معنا حول وجار القهوة، واصطحبنا إلى غرفة فى الداخل؛ حيث وضع أمامنا دليلا واضحا على كرمه وحسن ضيافته: فرشوا أمامنا سماطا عليه طبق مكوَّم عليه فوق كومة من الذرة المسلوق ، لحم تيسين. قال الرجل وعلى شفتيه ابتسامة المضيف ، أن ما يقدمه أقل مما يجب، واعتذر أنه بعد مجىء الجراد لم يتبق له سوى هذا النوع من الذرة العويجة. وقف الرجل لحظة، وراح خلالها يلح على ضيوفه

كيما يشرعوا فى تناول الطعام وأردف الرجل قائلا: 'بالهناء والعافية' : وهو لن يجلس معنا، نظرا لأن الشهامة عندهم، أن يكون المضيف خادما لضيوفه. – هذا الذرة العويجة له ساق تشبه ساق القصب، وفى أعلى تلك الساق يوجد رأس يحمل كثيرا من الحبوب؛ وهم يحصدون ذلك النوع من الذرة فى مطلع الخريف، وسيقان ذلك الذرة طعام جيد للإبل. حبوب هذا النوع من الذرة جافة وهم لا يأكلونه فى السنوات العادية وإنما يبيعونه للبدو الرحَّل: وربات البيوت الصحراوية ينقعون هذا النوع الرخيص من الحبوب فى لبن الخض كى يصنعن منه نوعا من العصيدة أو الثريد. كانت زوجة العم محمد البدوية تعد لنا كل يوم وجباتنا اليومية من ذلك النوع من الحبوب. ومع ذلك كان هناك كثيرون من القرويين يعزفون عن تناول الطعام المصنوع من ذلك النوع من الحبوب ؛ وكانوا يكتفون بالتمر غذاء لهم، بالرغم من عدم وجود ما يكفيهم من ذلك التمر. (الزنوج) الخيابرة: يقولون إن تمر الوادى فى بطونهم " يشبه اللحم الطرى."

وعندما عدنا إلى الفجَّارة من جديد ، بدأ العم محمد يتبين ما إذا كانت البادرات النباتية قد بدأت فى الظهور: ثم قال فى نهاية الأمر," لن يجىء الربيع هذا العام!" – لو كانت الأعشاب الخضراء قد نبتت فى الأرض لكان قد استدعى بعضا من الماعز التى يحتفظ بها عند الحطيم، ولمضى قدما، متجولا مثل البدو الرحل فوق الحَّرة: ثم قال بعد ذلك: ولكنت أنا بصحبته أيضا. – لقد خرج فى العام الماضى مع زوجته البدوية ومعهم الغالبية العظمى من الجياطين (وواحد الجياطين' هو 'جطونى' وهو المعسر المعوز) الخيابرة: وصنع الجميع لأنفسهم خياما من الحصير الذى يصنعونه من سعف النخيل؛ كما كانوا يقيمون فى أماكن مجَّوفة. كان العم محمد يلف معى فى كل أنحاء الموقع، أو إن شئت فقل المصر Masr ، الذى كان يطل على وادى جلاّس الذى يشبه السهل: بحثنا عن النقوش، ولكننا لم نجد سوى حطام وبقايا الأسوار القديمة كما هو الحال فى الفُجاّر المحيطة بخيبر. – تعجبت عندما رأيت ذلك الرجل شديد البأس، وهو يشتكى، فى كثير من الأحيان من الإرهاق والتعب! وأنه لم يكن يقوى على العمل مدة طويلة فى البستان: هفواته فى شبابه، وتعاطيه المخدرات، هى التى جعلت قواه تخور، يضاف إلى ذلك أن حمى خيبر كان لها فعلها هى الأخرى. وبينما كنا نمشى، كان الرجل ينظر

إلى الأرض بحثا عن الطلقات، التى استعملت فى العمليات الحربية التى دارت فى العام الماضى.

مررنا مرات كثيرة ببعض القباب التى تشبه السلطانيات والمبنية من الحجر الجاف، المأخوذ من أحجار الحمم البركانية، ولا يزيد طول الواحدة من تلك القباب وارتفاعها على ستة أقدام؛ البعض من تلك القباب له بعض الحدود الدائرية المصنوعة من الأحجار والموضوعة حول هذه القباب (راجع الصورة رقم٣) . أليست هذه القباب من المدافن؟ أليست هذه القباب مثل الرُّجوم الموجودة فى حرة العويرض، ومثل النواميس الموجودة فى سيناء ؟ الدفن فوق أرضية من البازلت يحتم البناء فوق مثل هذه الأرضية. والطريقة القديمة فى الدنيا كلها تقضى بدفن الأسلاف الموتى فى حفر فى الأرض أو فى الحجر. قلت للعم محمد،"ما رأيك ياعم محمد، أليست هذه القباب قبورا؟" - "إخ! قد تكون كذلك؛ وأنا أذكر أننى كنت أشاهد، عظاما فى هذه القباب، أثناء قيامى بالصيد."

فى المساء أرانى العم محمد قطعا من الأحجار الزجاجية، التى كان يعثر عليها بين الحين والآخر فوق الحّرة، - وكان مفعما بالأمل أن تكون تلك القطع من الماس. قال هذا الرجل الطيب والبشر على وجهه، بعد أن خاب أمله، "فى أضعف الأحوال، ستكون هذه البللورات جميلة إذا ما ركبت فى الأقراط التى تعلقها النساء فى آذانهن." هذه هى الشرقية Orientalism ، الإغراق فى الأحلام، هذه هى شرقيه العرب، - الثراء فى يوم من الأيام، أى قبل أن يموت الإنسان، وذلك بفعل تأثير النجوم، وبدون عمل: وبعد ذلك يمكن للإنسان أن يعيش - على هذا الجانب من القبر - معيشة مثيرة للحس والجنس، ويتحول إلى مالك عقار ثرى. وحتى العم محمد أيضا، كان يصدق مع الآخرين أنى بوسعى أن أكشف لهم شيئا إذا ما أردت أنا ذلك: ولهذا السبب نفسه فإن عبد الله، بعد جفوته الظالمة معى، راح يحاول خطب ود النصرانى. كان عبد الله، فى بعض الأحيان يهددنى، وعلى شفتيه ابتسامات النفاق، كان يهددنى قائلا: 'أعترف، يا خليل ! وأننى كنت جاحداً لأنى لم أتذكر عطفه؛ لأنه لم ينقذ حياتى فى البداية، فى الوقت الذى

كان يستطيع (وبسهولة تماما) تكسير وعائى بطلقة واحدة من مسدسه: اعترف، يا خليل! وإلا، أدى العقل الآثم إلى تعليقى على مقدمة الحصن،' – "حيث توجد بعض الأحجار البارزة. "رد عليه الشيخ صالح العجوز، إى، والله! وإذا ما استطاع المرء تفسير تلك العلامات فلربما قادته إلى كنز من الكنوز." – توجد فى جدران الحصن الجافة القديمة، المبنية من البازلت الغشيم، خمسة أحجار بيضاء، بالقرب من الطرف الجنوبى فوق القرية، وهذه الأحجار الخمسة موضوعة بطريقة كما لو كانت نجوما فى مجرّات. – 'وأردف طاغية القرية، إننى إذا ما خسرت محاباته لى، – وما الذى يمكن أن ينقذنى عندئذ؟ – وأننى يجب أن أخرج معه فى الغد لنصعد فوق الحصن؛ وسوف تكون الأدوات فى انتظارنا هناك. – وأننى ما لم أكن من أولئك السوّاح، الذين لا يشاركون فى كشف الثروات المخبأة فى هذه الدنيا، فذلك يعنى أن هؤلاء السواح ليسوا أهلا لهذه المهمة؛ كل همهم هو استغلال هذا العالم والعيش فى ثراء وغنى: وإذا لم أكن واحداً من الذين فى هذه الدنيا (العالم) فما هو السبب الذى يجعلنى أحسدهم وأحقد عليهم عندما يودون الحصول على الفضة؟'

– يا أسفاه ! كيف لى بإقناعهم بعدم وجود أشياء من هذا القبيل؟ فى الوقت الذى حاول فيه بعض الغرباء رفع الغطاء عن كنوز خيبر الخبيئة: وكان من رأيهم أن ذلك النصرانى الصامت، الذى جاء من بلد بعيد، لابد أن يكون متعمقا فى العلوم القبالية (*) والسفلية. أضاف الشيخ صالح تلك الحجة الواهية التى مفادها أن"كل الغرباء يودون زيارة خيبر! – وهل هناك أى سبب آخر للإصرار على هذه الزيارة غير البحث عن الثروة والكنوز فى خيبر؟'

حدثونى مرارا عن رجل مغربى جاء إلى هنا للكشف عن الكنوز المخبأة: – الناس هنا يؤمنون دوما بأن المغاربة هم سادة فن السحر. 'هذا المغربى ذبح [للجان] فى جوف الليل ديكا أسودًا ؛ وتلى المغربى عزائمه وأسحاره، ونزل إلى جانبه مخلوق ضخم

(*) العلوم القبالية : وهى العلوم التى تشتمل على علوم الفلك فضلاً عن أمور أخرى تتعلق بالشعوذة والغيب التى يمارسها اليهود . (المراجع)

أسود اللون. واصل المغربى القراءة، ونزل من بين نخيل الوادى عجل مخْصىّ ضخم أسود اللون (لم يكن من بين ماشية القرية، وإنما كان شبحا)! واهتزت الأرض؛ وارتفعت كما لو كانت تنتفخ، وراحت تنفتح فيها فتحات وتنغلق فتحات أخرى؛ وداخل ذلك الرحم الأرضى ظهر كنز هائل. وعندئذ أمر الرجل الحكيم عبده الأسود أن يقطع قدما من أقدام العجل الأسود باستخدام سيفه: ولكن قلب العبد لم يطاوعه على ذلك، الأمر الذى أدى إلى وقف هذه العملية السحرية، – وأن كل هذا الكم من المعدن الثمين تحول (على حد قول من شاهدوا ذلك) إلى تلك المادة الهشة مثل أصداف البحر. وهنا ألقى المغربى كتابه فى البئر، وصعد على أثر ذلك دخان من البئر، وأمر المغربى أن يتلقى ذلك الدخان بعباءته (بشتة)؛ وهنا سقط عليهم مطر عبارة عن قطع من الذهب الخالص. – ثم حدثت بعد ذلك تعزيمة سحرية أخرى أثناء الليل فى حقل من الحقول القريبة من قرية أم Umm كيدة Kida : شوهدت الأرض، فى تلك التعزيمة السحرية، وهى تنتفخ وتتكور؛ ولكن الساحر لم يستطع فى هذين الحالين الوصول إلى مايبتغيه.[1]

جاء إلى هذا المكان فى تلك السنوات يهودى، من أولئك الذين يبحثون عن الكنوز، وقد مات ذلك اليهودى ميتة شنيعة فى وديان خيب [راجع الجزء الأول] وسمعت بعض الناس يقولون: إن ذلك اليهودى جاء إليهم من ينبع، – وقال آخرون إنه جاء من قرية العلا.

ذات يوم صعدت بصحبة سالم، الذى هو من عجيل البشر، إلى الحصن (الصورة رقم ٤) ؛ وقد حكى لى أيضا عن " يهودى آخر" الذى قرأ تعزيمة سحرية أثناء الليل: واهتزت الأرض وتثاءبت؛ ولكن تلك التعزيمة لم تكتمل بسبب تدخل بعض القرويين فى الوقت غير المناسب، – وتحول كل ذلك المعدن اللامع إلى أصداف طباشيرية هشة أمام أعين أولئك القرويين، قال لى إن اليهودى سبق له أن زار خيبر بصحبة البدو. والحصن، أو إن شئت فقل صخرة القلعة البازلتية، تقف منعزلة فى وادى الزيدية Zeydieh ؛ وعلى الحدود الجنوبية لتلك الصخرة هناك قرية من قرى (البشر) مبنية من اللبن. ويصل طول الجزء المسوَّر من تلك القرية إلى حوالى مائتى خطوة، وعرضه حوالى تسعين خطوة:

وأرض هذه القرية عبارة عن قالب عميق [ربما كان من المبانى (الطينية) القديمة التى انصهرت وتحللت] فوق تلك الصخرة غير المستوية . وبينما كان السروان يحفر هناك (لترميم الجدار القديم بدعامة من اللبن، وبناء مهجع للجنود) ،عثر على بقايا أوانى مكسرة، وقشر بيض، ونوى بلح، وروث بعض الخيول. – وشاهدت رأسين لهرمين قديمين من الطين، (انظرالصورة رقم٤) محملين بطريقة غريبة على جانبى الحصن، وهما بارزتان أصلا من أرض الوادى الذى يرتفع عن مستوى القرية، كانت الأجزاء السفلى من هذين الهرمين محاطة بقميص من الأحجار المبنية بالطريقة الجافة . هذان الهرمان مبنيان من الطوب اللبن وهما يغطيان بئرا قديمة! وذلك تحسبا لنقص الماء إذا ما داهم القرية خطر من الأخطار.

"قال سالم، اتجهنا إلى ذلك المكان وفتحنا منه النار على البدو [أفراد قبيلته!] ورد البدو علينا بفتح النار أيضا علينا من الفجَّارة التى فى الخلف. لا أعرف، كم قتلنا منهم، نظرا لسقوط البعض منهم صرعى بين النخيل، وبعد هروب البدو لم يحاول أحد تعقبهم أو مطاردتهم؛ ولكن خلال يوم أو يومين كانت رائحة الجثث المتعفنة لا تطاق وفظيعة: وجرح رجل واحد من رجالنا." – " يا سالم، أنا أعرف أنك واحدٌ من العواجى: خُبرنى هل فتحت النار على أفراد قبيلتك ؟" – "إى! لقد فتحت النار عليهم، كما فتح النار عليهم شخص آخر اسمه إياد Eyad ، وفتح النار عليهم ، أيضا شخص اسمه مرجان Merjan، وفتح النار شخص رابع أيضا من الجطون. ونحن الذين نأكل خبز الدولة (الإمبراطورية العثمانية) يجب أن نحارب من أجل الدولة، حتى وإن كانت تلك الحرب على أهلنا وذوينا: – ولكن لماذا جاءوا لإعلان الحرب علينا؟" – فى عصر ذلك اليوم، شاهدت ذلك الجطونى يشرب القهوة فى مقهى عبد الله ؛ وقال السروان: "ألا ترى، يا خليل، كيف أنهم جميعا تحت إمرتى وقيادتى! هذا البدوى قتل أفراد قبيلته فى الحرب، آها ـ ها ـ ها!" – "إى والله، وإذا ما أمرنى عبد الله بالوقوف الآن وقطع عنق أى انسان فسوف أنفذ ذلك على الفور."

الفصل الخامس

الخبابرة

سحرة خيبر. دخيل الله، المنهل، إبراهيم. عمال البستان. عاداتهم فى العمل مع بعضهم البعض بلا أجر. بناء المنازل. القرويون الزنوج أجلاف ومبذرون. المجاعة فى الأرض. خيبر "أرض الثروة". استيلاء العنوز على خيبر القديمة. المشاركة القديمة بين البدو والقرويين. سرور. حقوق القرويين فى الأرض. الزراعة خفيفة. العصارى والأمسيات فى خيبر. سر طعن القساوسة الأسيوين لأنفسهم وتشليخ أنفسهم. القرويون الخارجون لجمع الحطب يداهمهم الغزو. 'عمل الإمبراطورية العثمانية هو اغتصاب ليس إلا'. احتلال الإمبراطورية العثمانية لخيبر. تحصيل الضريبة من البدو. يوم عراك مع الأعراب. دناءة العقيد التركى. خيانة الفكارة. الخيابرة يتعيشون من إبل خصومهم (البدو الرحل). قطع أذن المقتولين. جنود المدينة (المنورة) فى خيبر. الكوليرا. تلال التجوال. رأى خرافى، فى شرقى، خيبر. رسالة عبد الله لحاكم المدينة (المنورة). حكايات عبد الله. استبداده فى خيبر. التمرد والعصيان فى القرية. أهل القرية. نظارة عبد الله. منصب الدخيل. على الشيخ المتدين، عدو حتى الموت. تحذير النجومى لعبد الله، كلام فى دفاع كريم عن النصرانى النعامة طائر وجمل. العم محمد أنقذ غرباء آخرين.

عندما كنت عائدا إلى مسكن أمان فى ساعة متأخرة من فترة المساء، كنت أجد الباب موصداً! وكان يتحتم علىَّ الوقوف فى الشارع، وفى يدى جريدة النخل المشتعلة، وأروح أدق الباب وأنادى كى أوقظ أمان من النوم؛ كان يصحو من نومه وينزل ليفتح لى الباب: وهو يقيم حاليا وحده فى المسكن نظرا لأن رفيقه الحبشى، قد تخلى عنه لسوء تفاهم بينهما. وبالرغم من أنى كنت أسأل أمان يوميا، عن السبب الذى يجعله يوصد

الباب دونى؟ إلا أنه لم يجب علىَّ بأى شىء؛ ولكن فى إحدى الليالى اعترف لى ذلك الرفيق المسكين، أنه بعد فترة الشفق تمتلكه المخاوف من الحَزَابين الخيبرية التى تشبه الأشباح؛ ثم قال لى وهو يشير إلى واحدة من الدعامات المصنوعة من خشب النخيل، "قال: أقسم بالله، يا شيخ خليل، أن حيزبونة من تلك الحزابين كانت تجلس على دعامة مثل هذه الدعامة، وكانت تذهب أثناء الليل إلى المدينة (المنورة) وتعود ثانية قبل طلوع النهار، ولا يعرف أحد أى شىء عن ذلك؛ والسبب فى ذلك أن تلك الحزابين يجب أن تعود إلى منازلها قبل أن يستيقظ الناس من منامهم." – " كيف يمكن لساحرة متزوجة أن تتسكع خارج البيت أثناء الليل، ولا يعرف زوجها الطيب شيئا عن ذلك؟" – " هى إذا ما تناولت بين أصابعها شيئا من تراب الأرض ونثرته على جبهة ذلك الزوج، فإنه ينام ولا يصحو قبل طلوع النهار. ولكن عندما يعرف الإنسان أن زوجته ساحرة ومن الجن، فإنه لن يجرؤ على الكشف عن ذلك، ولا يجرؤ أيضا على منعها مما تريد عمله، إلا أنها قد تتسبب فى موته ميتة شنيعة! ومع ذلك فالناس يعرفون السواد الأعظم من تلك الساحرات، ومنهن واحدة، قالها بصوت هامس، هى جارة لنا. هذه الحزابين تبدأ، عندما يحين موعد النوم، فى التجول خلال طرقات القرية: وأنا أحذرك من ذلك يا شيخ خليل! – لأن شيئا قد يحدث ولا يكون فى حسباننا! وأنا أشعر بالقلق عليك أثناء عودتك إلى المنزل فى الليل." – "لدى رغبة شديدة فى مشاهدة تلك الحزابين." – "إخ ! لا تتكلم مثل هذا الكلام الغبى الأحمق، – اللهم إلا إذا كنت على علم ببعض العزائم والأسحار التى تمكنك من طرد هذه الحزابين. لقد سمعت أن دخيل الله Dakhilullah التقى تلك الحزابين ذات مرة، وصاح فيهن مرددا كلمات أجراها الله على لسانه، وهى من القرآن، وهربن منه على إثر ذلك، وهن يصرخن من أن آلاما وأوجاعًا من جهنم بدأت تنهال عليهن. – هذه الحزابين متباينة الأعمار: ولهن شيخ يحكمهن، وهذا الشيخ رجل بطبيعة الحال، وقال أمان: هذا الشيخ هو أيضا معروف للجميع." – " ولكن، لماذا لا تعاقب تلك الحزابين؟" – " والله، هذا راجع إلى الخوف من حقدهن! تلك الحزابين تتجمعن فى الساعات الميتة من الليل، وهن يجلسن فى أماكن البراز والروث، ويخلعن ثيابهن، ويمسحن أجسادهن بلبن الأبقار [الذى يعده الناس فى الجزيرة العربية دواء]؛

ثم يصحن بعد ذلك ،'نحن خارجين عن دين الإسلام؛ ويتجولن فى الشوارع المظلمة المعتمة، ويتزوجن ممن يعودون إلى بيوتهم متأخرين، إذا ما التقوهم أثناء عودتهم! وهن يجبرن ذلك المتأخر على مضاجعتهن؛ وإذا ما رفض ذلك قمن بمسخه إلى حيوان – ثور، حصان، أو حمار: ثم يفقد عقله وصوابه، ثم يموت فى النهاية. وهن، والله، يأكلن قلب (وهو ليس على يقين من ذلك) ذلك الذى يُسَلَّم لهن، ويمصصن دم جسده الحى؛ ويتحول بعد ذلك إلى غبى أحمق، ويتحول إلى رجل متهور بقية حياته.

كانت قلة قليلة جداً من سكان خيبر هى التى لم تحكى حكايات عن ليلة خطيرة كانت تهدد حياتهم القيمة بالخطر والفزع. هذا هو العم محمد، عندما جاء إلى خيبر فى البداية، وكان رجلا قويا، وقلبه لم يخذله أبدا، كان ينتظر فى أحيان كثيرة وراء شباك صُفَّته علة يرى تلك الحزابين. يضاف إلى ذلك أنه تعلم الكثير من النصوص التى تحميه من تلك المغامرة الصعبة، وقد تعلم تلك العزائم والرقى من كتاب ما يزال بحوزته إلى الآن؛ كان الهدف من وراء انتظار العم محمد خلف الشباك، هو القفز فجأة من على السلم عندما يسمع صوت الحزابين أمام باب المنزل. وبالرغم من كل هذه المراقبة اللصيقة، وذلك على حد قوله، لم ير مطلقا أية حيزبونة من تلك الحزابين؛ وأصبح الآن من أنصار أولئك الذين يناصرون الرأى (الذى لا يعقل). "(قال" والله، يا شيخ خليل، نحن غراشيم ghrashemin (سُذّج) وجهلـه أيضـا؛ وأن تلك الحكايات التى ينسجونها من أدمغتهم التخينـة السـوداء، قد لا تكون سوى نوع من الشرك!" – ولكن الشيخ صالح قال ذات مساء، "لقد رأيتهن أنا بنفسى! كان ذلك يوم أن كان والدى على قيد الحياة، وعندما كنت أنا طفلا، وقد حدث ذلك عندما كنت عائدا إلى بيتى فى وقت متأخر، من بيت مجاور لبيتى: ويا لهذا الذى رأيته فى الشارع! – والله، رأيت امرأة (ذكر اسمها) وهى عارية تماما، ورأيت بطنها الكبير، كما شاهدت عينيها وكأنهما شرر من نار. تراجعت إلى عتبة الدار، ولم يكن أمامى وقت أو إحساس – ولم أكن أعرف شيئا لأنى كنت جاهلا وغير متعلم – وكل ماقلته هو الله Ullah أكبر akbhar ! وهرعت إلى عتبة غرفة والدى: وهناك أغمى علىّ؛ ووجدنى الجيران على هذا الحال! إى! لقد عرفت تلك الحيزبونة معرفة جيدة، – وأنا لا يمكن أن أكون قد أخطأت فى ذلك، والبعض منكم سنه تسمح بتذكر تلك الواقعة."

كان دخيل الله، مثل والده من قبله، هو العابث الوحيد بحزابين القرية . هذا الرجل البسيط، كان كلما حزبه الأمر، يخرج أثناء الليل، وهو يصيح بملئ فيه، داعيا إلى الله ونبيه محمد خلال طرقات القرية. وفى إحدى الليالى، وعندما خرج دخيل الله من بيته شاهد رجلا كانت القرية كلها تتكلم عنه همسا بأنه 'شيخ الحزابين،' شاهده وهو يسير أمامه فى الشارع. جرى دخيل الله، وقفز على ظهر الرجل ، وراح يضربه على رأسه ويقول صائحا فى أذنيه: "قل، أيها الملعون ! لا إله إلا الله؛ قل لا إله إلا الله!" هذا الرجل المندهش، الذى ظن أن الحيزبونة أمسكت بعنقه، – أخذ يجرى إلى نهاية الشارع ومن فوقه دخيل الله، ثم سقط فى النهاية مغمى عليه؛ ولكن دخيل الله، استخلص منه الشهادة قبل أن يتركه،' لا إله إلا الله' . – بالرغم من بساطة حال دخيل الله، إلا أنه لم يخش النتائج ولا العواقب التى تترتب على الإساءات التى يقدمها للناس؛ وذلك من منظور أن الدين المنقذ هو الذى يحافظ عليه.

ذات ليلة استيقظت من نومى على نداء كان يدوى ويتردد فى شوارع القرية! – وسمعت صوت أقدام قوية وهى تدب خلال الأسواق الساكنة. كان دخيل الله، هو صاحب ذلك الصوت، وكان ينادى قائلا، يا Ya عبيد abeyd الله Illah ،لا La إله ilah إلا ill الله Ullah ! وراح يمشى خلال الصُّحْن، واستمر على هذه الشاكلة إلى أن خبى صوته واختفى ولم يعد يسمعه أحد. كان أمان يجلس فى البرد.فى ضوء القمر، استمع أمان إلى ذلك النداء بخشوع ثم قال لى،' دخيل الله كان ينادى على المسلمين.' وبعد فترة من الوقت، وعندما انتهى دخيل الله من المرور فى ذلك الجزء من القرية، سمعنا صوتا قويا يقول ويردد الكلام نفسه، وبدأ خطوه القوى يقترب منا مرة ثانية. لم يكن يفصلنا عن جيراننا سوى جدار من كتل الطين : كنت أسمع أولئك الجيران وهم يعدلون جمار نيرانهم؛ كما كنا نسمع أيضا أصوات العائلات التى تقيم فى المناطق المحيطة بنا؛ كانت كل هذه العائلات تردد الكلام نفسه فى خشوع قائلة، لا إله إلا الله! نظرت إلى الشارع وشاهدت ضوءًا أحمرا فى كل شباك من الشبابيك؛ لقد أطفأوا جمارهم، لم يعودوا بحاجة إليها بعد أن أوشك النهار على الظهور، إضافة إلى أن أحدًا لن ينام بعد ذلك.

– قال أمان الضعيف وهو يتنهد تنهيدة توحى بالتقوى والصلاح ،"آه! يا لحلاوة العقيدة! صدقنى أيها الرفيق العزيز ، العقيدة شىء يفوق كل ما يمكن أن يجيش بالنفس ويصدر عن القلب؛ ولكن الله سيحفظك ويرعاك، لأنك ينبغى ألا تموت بلا دين. كم سيكون الأمر جميلا إذا ما رأيتك مسلما، وأصبحت واحداً منا؛ ولكنى أعلم أن الوقت بيد الله: ستنفذ مشيئة الله. – ولكن آه! يا لروعة العناية الإلهية، يا شيخ خليل، التى أتت بنا إلى هنا! أنا ولدت فى مكان يبعد عن هنا مسير ستة أشهر ، أما أنت فقد ولدت فى مكان أبعد من ذلك بكثير؛ ونحن عندما نتكلم نفهم بعضنا بعضا!" – هذا الرجل الحبشى كان له قلب طيب؛ ولم ألاحظ فيه أى أثر من آثار البربرية أو الهمجية أو عدم التحضر: لقد تربى فى أرض أجنبية فى مدرسة الفقر والمعاناة.

يظل دخيل الله رجلا بليدا طوال النهار بعد هذا الصراع الليلى والروحى فى نفس الوقت. وفى أحيان أخرى نرى هذا الزنجى (العبد) الأسود الساذج، هارباً بين البدو الرحل، بسبب خوفه من بعض الأشخاص فى القرية، الذين اختلف معهم فى مسألة خاصة بتمليك الأرض. كان دخيل الله جارا لنا، وكان فى متاعبه يلجأ إلى شهامة محمد النجومى. كى يدافع عنه ويحميه! وكان ينظر إلىَّ دوما نظرة طيبة نظرا لأنى كنت من أصدقاء محمد النجومى. وكنا ونحن نخرج فى الصباح متجهين لقضاء أعمالنا، نرى دخيل الله جالسا على مصطبة بيته وغارقا فى التأمل. – كان العم محمد يسأل دخيل الله، وفى صوته شىء من الحدة والتهكم:" لماذا كل هذا؟ انهض ! واذهب إلى عملك ،أيها الرجل." كان دخيل الله يرد على محمد النجومى رداً حزينا قائلا: لا ! – سألت محمد النجومى عن بقاء دخيل على هذا الحال فرد على رغما عنه، ' دخيل الله منهلى MENHEL . هذا يعنى أن ذلك الرجل عندما تتملكه العاطفة والانفعالات الدينية، فإنه لا يتحملها أو يطيقها أو حتى يقوى عليها؛ ويتحتم عليه بعد ذلك أن يدور فى الشوارع فى القرية ويدعو الناس إلى توحيد الله والصلاة على نبيه.

بعد ذلك بأيام قلائل، يذهب المرضى إلى دخيل الله ويطلبون منه؛ وكان يرد عليهم [حسبما علمته الأرواح] ويصف لهم الدواء والعلاج. ويحكى لى العم محمد أنه فى اليوم

الثانى من الأسبوع التالى لتلك النوبة، يقوم المرضى أو من ينوب عنهم من أصدقائهم باللجوء إلى دخيل الله وهم 'يحملون إليه البن و البخور' – "(خاطب زوجته قائلا) يا امرأة، لا تنسى ! فى اليوم السابع بعد اليوم أن تأخذى ابنتنا المريضة إليه، وتحملى إليه هدية من التمر، وسوف نسمع ما يقول." – فى ذلك اليوم رد العرَّاف عليها قائلا: 'إن طفلة محمد النجومى سوف تموت نظرا لقسوته على أهل بيته؛ – ولكن اطلبى من الوالد أن يضحى عن حياة ابنته بذبح شاة أو خروف.' وهنا رد العم محمد عندما سمع هذا الكلام متعجبا وفى صوته نغمة الاحتقار: 'تكهنات ذلك العبد ما هى إلا وسوسات Waswassat (أى ترديد بعض الأقوال الدينية الغامضة عن طريق الهمس . يضاف إلى هذا أننى قد بدأت أصدق ، أنا والشيخ خليل ، أن كل ذلك ليس له فى الدين أى أساس) دخيل الله هذا، حمار، وغبى، وهو يقول لزوجتى: إن قسوة كلامى، سوف يترتب عليها وفاة طفلتى الصغيرة كما أن ابنتك أيضا يا خليل سوف تموت أيضا، نظرا لأن أدويتك هى التى أنقذت حياتها، وبالتالى أصبحت كما لو كانت طفلة من أطفالك."

كانت ابنة محمد النجومى تعانى من مرض الدوسنتاريا والحمى؛ وكان والدها ووالدتها ينتابهما الخوف كل يوم لاحتمال وفاة الطفلة، وبالتالى كان محمد يتحرق شوقا إلى بقاء هذه الطفلة على قيد الحياة: نصحتهما بإخراج ابنتهما من خيبر وإرسالها إلى البدو. – كنت أتجول كل يوم فلا أرى أى طفل فى خيبر ! كان القرويون يردون علىَّ ،" الأطفال (البزران) (*) bizran يموتون فى هذا الجو! – هذه إرادة الله." أشد الفصول وباء فى خيبر، والذى يطلقون عليه اسم الحميم hamim ، يتمثل فى ذلك الشهر الكئيب ساكن الهواء شديد الحرارة (شهر دخول حرارة الصيف)، الذى تظهر فيه بادرات البلح الجديد فى أشجار النخيل .– وهذا يحدث فيما بين شهرى مارس وأبريل، أى بعد نقل القمح من الحقول والأجران. – وإذا ما داهمت حمى الوادى الزنوج الكبار، فإنها تصيب الواحد منهم بالضعف والوهن مدة يومين.

(*) البزان : الصغار . (المراجع)

كان إبراهيم شابا ميسور الحال له عقلية أهل الجزيرة العربية، وسلوكيات مهذبة؛ وفيما عدا بعض الأصوات التى كانت تخرج من بلعومه أثناء الكلام، يصعب على من يستمع إليه تذكر لونه. لم يكن إبراهيم متعلمًا، وعندما كنت أمتدح قراءة ولده كان يتنهد ويقول،" لم يتبق لى من أولادى سوى هذا الطفل." كان إبراهيم ميسور الحال، وكان متزوجا من أربع زوجات، بالرغم من أن كل شخص متزوج فى هذه القرية يحيا مع واحدة فقط من زوجاته. والزوجات يعشن مع بعضهن البعض فى منزل واحد؛ وهذه الزوجة هى أم أطفاله: وفيما يختص بالرجال هنا فإنهم ليسوا مثل البدو فى تصرفاتهم، يضاف إلى ذلك أن الخيانة الزوجية لا تشيع بين هؤلاء الناس. يزاد على ذلك أن النساء هنا ليست محجبات؛ والوجوه الواهنة الضعيفة غير البضة (وكلها وجوه أثيوبية) تشيع هنا فى خيبر، والناس هنا فى خيبر لا يفصلون بين الرجال والحريم: والمنزل الخيبرى لا يعدو أن يكون مجرد غرفة علوية، وفى حالة وجود بعض الضيوف القرويين، أو الأصدقاء من البدو الرحل، فإن النساء الزنجيات (العبدات) يجئن للجلوس حول وجار القهوة، ويشاركن فى الحديث الدائر؛ وغالبا ما يكون ذلك بصوت مرتفع، وفهم واضح وقاس. والضيوف عندما يأوون إلى صفتهم أثناء الليل، فإن الحريم يخرجن للنوم مع حريم الجيران . – 'قال إبراهيم ، يا أسفاه ! لم يكن الأمر معى على هذا الحال من قبل؛ إذ كانت زوجاته مع طفله طول الوقت وعلى مر السنين، وقد ولد لهن الكثير من الأطفال: ولكن هؤلاء الأطفال كانوا يموتون فى فترة الحميم. أما الآن فقد توقفت حريمه عن الإنجاب، ويراودهن كثير من الشكوك عن الحسد والحاسدين؛ إذ أن هناك عددا كبيرا من السحرة والحزابين فى خيبرا' – وقد عمل بنصيحة الحكيم. – فقد طلبت منه إرسال ولده، فى شهور الحر؛ إلى قبيلة صديقة فى الصحراء.

هذه القوة، أو إن شئت الوجد أو الانفعال النفسانى كان يتملك دخيل الله، على حد قول العم محمد، فيما يتعلق بالصلاة؛ وربما كان العم محمد يعنى بذلك روح الصلاة نفسها. هذا الصراع الروحى نفسه كان فى والده من قبله: كانت الحزابين تهرب بفعل رنين صوته الدينى :" كان بوسع ذلك الرجل تمييز رائحة الحزابين وهن يمررن من أمام منزله، وكان ينقض عليهن ، حاملا الباب بين يديه." – ذات يوم جاء

دخيل؛ بمحض إرادته لمساعدتنا فى الأعمال البستانية؛ ظل يعمل معنا إلى وقت الظهيرة، ولكن قواه خارت بعد ذلك: وعليه أدى صلاة الظهر بسلاسة دينية غاية فى البساطة، وتناول شيئا من التمر ثم رحل عنا وتركنا لوحدنا. هذا الإنسان المسكين طلب منى معالجة عينيه من الرمد. – وعندما قلت للعم محمد فى وقت لاحق "عرَّافك مصاب فى عينه!" ضحك الرجل ضحكة تنم عن الحقد والغل.

عثرنا ونحن نحفر البئر، على عروق من الجبس، وعروق من الجص (الجص عندهم هو الصلصال الفخارى الذى تصنع منه الغلايين) أسفل تراب الوادى الناعم، وكانت تلك العروق فيها أثر من الصلصال الذى يراه الناظر إليه مختلطا مع بقية المكونات بفعل الحرارة البركانية القديمة. – "قال محمد، التربة طيبة [كنت قد سبق لى الحديث عن الجلوجيا،] والواضح أن هذه التربة عبارة عن طبقات ." – بعض الناس هنا قد يأخذون ذلك الصلصال الأبيض المتين على أنه نوع من الصابون وقد يستخدمونه فى غسل ملابسهم القطنية: ولكن الأفضل عندهم هو استعمال سيقان نبات الرمض – ' er.rimth لهذا الغرض. استعملنا ناتج حفر البئر فى بناء مصطبة جدارية، أو إن شئت فقل: ضفيرة thofira ، وغربلنا عليها التراب الناعم (الجريولا Jerula) ، واستخدمنا فى ذلك سلة عامل النخيل التى يسمونها' المورة' muara . محمد النجومى، يود أن يحول هذه الأرض إلى بستان من بساتين المدينة (المنورة) يزرع فيه – النباتات التى تستعمل أوراقها أو بذورها أو جذورها فى الطبخ، علاوة على أشجار الفاكهة؛ التى لم تكن مزروعة فى خيبر فى ذلك الوقت، – ولن يزرع أيضا النخل الذى يطلقون عليه اسم الحلوة، ولا الكروم [لأنها قد لاتجود هنا] : والسبب فى ذلك أن البدو سبق لهم – أن اجتاحوا، بسبب همجيتهم، كل هذه الأشجار.

كان لدى العم محمد النجومى نوع من الصلف الحقيقى يجعله يستعرض نفسه كمواطن ورجل مخلص وموالٍ، وكان يزهو عندما يراه الناس بصحبة ضابط الدولة (الإمبرطورية العثمانية): هذا 'القوندام' quondam ، أو إن شئت فقل: 'المقاتل' كان يحتفظ لنفسه بحصان فى خيبر، وكان الهدف الأساسى من وراء الاحتفاظ بذلك

الحصان، هو امتطاء صهوته طوال شهور الاحتلال العسكرى، كما لو كان شيخا من الشيوخ، بصحبة كبار ضباط الدولة (الإمبرطورية العثمانية). وهو الآن يرى أن الوقت مناسب لدعوة ضباط المدينة (المنورة) لزيارة أرضه، التى سيزرع فيها النباتات العشبية التى تستخدم فى المطبخ؛ هؤلاء الضباط عندما يجلسون على المصطبة وأرجلهم تتدلى إلى الأسفل، سوف يشاركون محمد النجومى فى ثماره الصيفية. كان محمد من الطينة نفسها التى شاهدتها فى كثير من البلدان: رجال أقوياء، وأجسام ضخمة، ولكن سرعان ما تصاب تلك الأجسام بالوهن والضعف، كما أن أصحاب هذه الأجسام لهم أصوات عذبة، وتكاد تكون أنثوية فى كثير من الأحيان. كان محمد النجومى شخصية بشوشة، وواثق من نفسه، ومتسامح، وشفوق، ويخشى الله ويخافه، وتسهل إثارته أيضا: كان قلبه عامرا بالبشر الإنسانى. ولما كان محمد النجومى من محبى الجنس البشرى، فقد كان مسالما، ولم يكن بسيطا وماكرا ومخادعا، ويعرف كيف يروغ ويزوغ؛ – كان لهذا الرجل طابع بسيط، يغلب على كل الأمور الصعبة والمحيرة، كما كان راض أيضا عن سير الحياة ووتيرتها؛ كما كان يتسم بالرجولة والصلابة، ولكن هو نفسه لم يكن يمكث طويلا فى أى مشروع من المشروعات.

كنت كلما ذكّرت محمداً بالمهمة التى كنا نقوم بها، بعد أن نكون قد هجرناها أياما عدة، – أراه يرد على ببشر وترحاب، أنه عندما يتأكد من مغادرتى لخيبر سالما غانما، فسوف يحضر واحداً متينا من شباب القرية، وينهى العمل المطلوب منا خلال ساعات قلائل. – كنت أحضر ملئ عباءتى من قحوف النخيل لأشعل فيها النار فوق الصخور حتى يسهل بعد ذلك تكسيرها أثناء حفر البئر: وهم يلجأون هنا إلى هذه الطريقة حتى يتمكنوا من تعرف وصلات صخور البازلت، التى يجرى بعد ذلك تبريدها بالماء. ولّدت شرارة وأشعلت النار فى جزء من سعف النخيل؛ ثم أشعلت بعد ذلك نارا كبيرة. "أها! هل أشعلت نار جهنم؟" – كان هناك حاكم فى المدينة (المنورة) اسمه جهندم Jehendem باشا! وبعد أن هدأت النار، لم نجد شيئا نرفع به الماء." يا أسفاه! قالها وهو يضحك ، لقد خبت جهنم دون جدوى:" بعد ذلك، وبناء على طلبى، قام بطلاء أو تبطين المقطف المصنوع من سعف النخيل، بالطين واستعمله فى صب الماء على

الحجر الساخن. بالرغم من أن محمد النجومى كان قد تخطى عامه الخمسين، إلا أنه كان شبابا فى مرحه، كما لوكان لم يصادف أية متاعب فى دنياه.

الناس هنا لديهم عادة من عادات العالم القديم، وهم هنا يعملون لدى بعضهم البعض بدون أجر، هذا بالإضافة الى عادة أخرى تحتم على الشباب تناول الطعام عند من يعملون عنده. والإنسان هنا فى خيبر عندما يكون بحاجة إلى من يعمل عنده، تراه على الأرجح ينادى شابا من معارفه 'تعال واعمل عندى اليوم' – سواء أكان ذلك العمل حفرًا، أم حرثا، أم بذرا أم حصادًا، أم ريا أم بناءً. – والعمال هنا يتوقفون عن العمل عند الظهر (وهذا هو موعد انتهاء يوم العمل فى خيبر) ويتبعون صاحب العمل عائدين إلى بيته، حيث تكون ربة البيت قد أعدت لهم غداءً؛ – هذا الغداء ينبغى ألا يكون تمرا، وإنما شيئا من الخبز أو من الوجبات التى تعدها ربات البيوت من حبوب القمح. كان محمد النجومى ينوى أن يبنى لنفسه بيتا، نظرا لأن البيت الذى يسكن فيه حاليا ليس ملكا له. – 'قال: ومع ذلك، لابد أن يكلفنى بناء هذا المنزل بعضا من جوالات القمح، كى تكفى لسد رمق البطون الجائعة طوال أيام عدة . كان محمد النجومى يقول فى معظم الأحيان، الناس لا تعرف كنه الحياة التى نحياها هنا فى خيبر، اللهم باستثناء عدم نقاء الهواء هنا فى خيبر. وأنا هنا أحسن حالا من المدينة (المنورة) ، التى ندفع فيها أجرا للسقاء الذى يجلب لنا الماء ويسقينا، كما ندفع أيضا ثمنا لحطب الوقود، إضافة إلى أن كل واحد يتعين عليه شراء العلف اللازم لحصانه."

فيما يتعلق بالبيت الذى يود بناءه لنفسه، أبلغنى محمد النجومى أنه سوف يستدعى أفضل العمال من بين العيال، وأنه سوف يقول لهم:" أنا أبنى بيتا، تعالوا اليوم لتصنعوا معى قوالب الطوب اللبن، وقوالب الطوب اللبن "هنا عبارة عن كمية من الطين تعادل نصف الكمية التى يمكن أن يحملها فأس واحد من الفئوس، ويقومون بتكوير تلك الكمية من الطين باستخدام أيديهم، ويتركونها تجف فى الشمس طوال عدة أيام قلائل؛ ثم يقلبونها بعد ذلك على الوجه الآخر. وبعد أن يجف الطوب فى الشمس على امتداد عشرة أيام، وعندما تظهر على سطح الطوب الصمخة البيضاء، ينقله الناس

بعد ذلك لاستعماله فى البناء: والبناءون يقومون بتجهيز الملاط اللازم لبناء ذلك الطوب. وهم يصنعون أساسات المبانى هنا من ثلاث طبقات من الحجارة [انظر الجزء الأول ص ١٧٦] ثم يبنون الطوب اللبن فوق ذلك الأساس بسمك طوبتين، ولكن بدون حرفية أو اهتمام كبير، ذلك لربط ذلك الطوب بالأساس الحجرى؛ ثم يقومون بتلييس الجدران بطريقة عشوائية؛ وهذا يكفيهم تماما. والشباب عندما يخرجون لجمع الدعامات والبحث عنها، يبحثون عن سيقان النخيل التى أسقطتها الريح فى البلاد (الحقول)؛ واذا ما عثروا على شىء منها أخذوه، نظر لأن أخشاب النخيل المتساقط تعد عائقا فى خيبر. وهنا يقوم الشباب بربط ساق النخيل الذى يكون من هذا القبيل، بحبل من الحبال، على أن يقوم عشرون من هؤلاء الشباب بجر تلك السيقان إلى أن يحصلوا على ما يكفيهم. والدرج (السلم) هنا يبنونه من الحجر والملاط؛ وأرض الصفَّة تبنى أو تصنع من الطين المضغوط فوق حصير مصنوع من جريد النخيل؛ وفى منتصف البيت يوجد وجار القهوة الذى يبنونه من الطوب اللبن، ويكون ارتفاعه شبرا من أجنابه المختلفة. عند هذه المرحلة لا يحتاجون إلى ما يزينون به منازلهم سوى شىء قليل من الحصير.

الزنوج (العبيد) هنا فقراء فيما يتعلق بوديان النخيل، إضافة إلى أن طابعهم بائس، كما أنهم أجلاف كما أنهم مسرفون: ومع ذلك يقال إنهم فى موسم حصاد التمر يمكن أن يكونوا أجواداً . وكل عائلة من العائلات قد تملك أحواشا عدة من أحواش النخيل وأراضى الحبوب، ولكن هذه الوديان وتلك الأراضى لا يفلحها الناس كلها، ولذلك يشيع الفقر والعوز بينهم، حتى فى سنوات رواج المحصول ووفرته." قال محمد: حقولى لا تتعدى عشرة بلاد – ، ولا يوجد هنا فى خيبر من عنده أقل من هذا العدد، بل هناك الكثيرون الذين لديهم خمسين أو ستين بلدا: ومع ذلك ليس هناك من بين كل هذه البلاد ما هو أفضل من بلادى (حقولى)؛ وكل هذه البلاد تفتقر إلى الرعاية والفلاحة الجيدة. وأنا أشكر الله ، أن بيتى عامر دوما بالطعام والمأكل؛ ولكن نصف هؤلاء الناس الآخرين لا يكون لديهم ما يكفيهم فى معظم الأحيان ." – كنت أعرف شابا مبذرا كان ثريا بمعنى الكلمة، ولكنه تدهور حاله وأصبح فقيرا الآن. لقد أنفق أثمان بساتين نخيله على شراء مزيد من الزوجات؛ ونظرا لأنه كان سكيرا، فإن إقامته

مع أية واحدة منهن لا تدوم سوى أسابيع قليلة: اكتشفت أن البائعين البدو الرحل فى الأسواق لا يثقون بذلك الرجل حتى ولو بما قيمته ريال واحد من السمن، على أن يسدده (تمرا) فى موسم الحصاد وعندما يحين موعده! – والصاع هنا فى خيبر هو الصاع نفسه الذى فى المدينة (المنورة) ، وهذا هو أكبر مقياس من نوعه فى الجزيرة العربية كلها. والصاع قد يعادل ربع جالون فى تيماء، وما يزيد قليلا على ربع جالون فى حائل، وقد يصل إلى ما يقرب من نصف جالون فى قرية العلا، أما فى خيبر فقد يصل إلى ما يزيد على الجالون أو إن شئت فقل: جالون وثمن جالون؛ والمدجة medeja (مكيال يصنع من سعف النخيل) يساوى عشرين صاعا، والمجلَّد mejellad يساوى خمس مدجات. والناس هنا يطلقون على جلد الحيوان المملوء بالتمر اسم 'الحاشية' hashiah ، كما فى المدينة (المنورة).

حدثت منذ سبع سنوات مضت مجاعة فى الصحراء. وقد حدثت تلك المجاعة بعد أربعة فصول جافة من فصول الشتاء، إلى حد أن فصل الربيع لم يكن يظهر بعد تلك المواسم الأربعة؛ وترتب على ذلك نفوق نصف أعداد ماشية البدو. ثم جاء بعد ذلك كثير من أهل القبائل الفقراء بحثا عن منجد أو مغيث فى الوديان؛ وقد حكى لى العم محمد أن الخيابرة استضافوهم وخففوا عنهم إلى أن تحسنت الأحوال. قال العم محمد؛" كنت ترى البدو، قبل الغروب بساعة واحدة، وهم يزحفون على الشوارع، زرافات ووحدانا، إلى صُفَّات الناس؛ وكانوا يجلسون فى صمت حول وجارات القهوة فى انتظار موعد تقديم العشاء." – هذا الإحسان العام لا يمكن الحصول عليه طبقا للقوانين الشائعة أو المعمول بها فى البلدان الأخرى! – أما رب البيت الذى كان لا يرغب فى تقديم ذلك الإحسان فكان يقول، "لماذا أيها الضيف دائمًا معى، وتعرقل مجيء شخص آخر، ما الذى يجعلنى أراك هنا يوميا؟ تردد على البيوت الأخرى!" بالرغم من خصوبة الأرض هنا وثرائها إلا أن الخيابرة لا يتوفر لهم من النقود سوى القليل جداً. قيل عن الشيخ صالح العجوز، الذى كانت بساتين نخيله أكثر عددا من بساتين الناس الآخرين 'أنه كان يضع فى كيس نقوده ما يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ ريال .' وخضرة وديان خيبر وثرائها يضرب بها المثل فى الصحراء، يضاف إلى ذلك أن رجال القبائل يولِّدون

اشتقاقا كبيرا وجميلا من الاسم خيبر نفسه: " وهم يقولون ان خيبر ليست سوى خير kheyr البَرّ el-barr ، بمعنى ثراء الأرض ووفرتها."

يقول الموروث الثقافى، إن مضارب أعراب العنزى كانت قليلة جداً عقب الإستيلاء على خيبر الموسوية وكسر شوكتها، وأن تلك المضارب كانت فوق المدينة (المنورة) فى المنطقة مابين وادى الحمض Humth ووادى الرماح [الذى يتجول فيه حاليا ولاد على هم والحطيم ومعهم جزء من أمة حرب] . – كان عُقَيلًة Okilla أحد عبيد المرحاب Marhab، وأمير خيبر القديمة، قد جمع البقية الباقية من قروييه، ونصّب نفسه شيخا عليهم. وفى عام من الأعوام وأثناء مرور العنوز ومعهم ماشيتهم، ضربوا خيامهم بالقرب من وديان خيبر (الصديقة)، فى مكان يتوفر فيه الماء الغزير. دخلت واحدة من عذراوات العرب خيبر لتناظر بنات القرية: وفى القرية غرر بها شاب من الشبان، فأغواها واغتصبها؛ – كان ذلك الشاب ولد الشيخ عُقيلًة! عادت الفتاة الشابة المسكينة تبكى إلى دارها؛ – وكانت ابنة لواحد من الشيوخ. وسرعان ما شاعت تلك الخيانة فى مْنزَل البدو الرحّل ! ولم يحتمل البدو أو يطيقوا مسألة العنف الذى لقيته تلك العذراء! وهذا هو ما قاله البدو الرحل جميعًا.

أرسل شيوخ العنزى يطلبون من شيخ خيبر تفسيرا لذلك الذى حدث؛ ورد عليهم ، بعد فترة وجيزة رداً مفاده أنهم ينبغى عليهم أن لا يسقوا بعد الآن من ذلك المكان. وفى صباح اليوم التالى ركب شيخ القرية عُقيلًة ومعه عدد قليل من الخيالة إلى المكان الذى كان البدو الرحل ينزلون فيه وتحداهم وقاتلهم. وهاجمه البدو هجوما ضاريا؛ وسقط عُقيلًة فى ذلك القتال ومعه عدد كبير من ناسه وأهله. قام البدو عندئذ باجتياح كل شىء ؛ غزوا القرى، وقطعوا على أنفسهم عهدا بألا يزوجوا مطلقا بناتهم للخيابرة وإلى أبد الآبدين – 'واعتبارا من ذلك التاريخ أصبح الخيابرة أمة سوداء.' – وترك البدو القرويين يفلحون وديان النخيل، نظير الحصول على نصف الإيراد؛ وانتقلوا بعد ذلك إلى الصحراء الجرداء.

كل الممتلكات فى خيبر تقوم على مشاركة البدو فيها؛ ويدخل فى ذلك أيضا بيوت القرويين التى يجرى اقتسامها أيضا فيما بينهم وبين البدو الرحل الغائبين.

وفى منتصف فصل الصيف تنزل قبائل العنزى (التى مازالت فى الجنوب) لتحصيل نصيبها من محصول التمر. هذا يعنى أن كل بلد (حقل) إنما هو ميراث إرث مزدوج؛ إذ يكون هناك دوما مالك بدوى وشريك قروى أسود، ويجوز لكل منهما أن يقول 'هذا البلد (الحقل) ملكى .' القرويون هم الذين يقومون بالزراعة: ويحق لهم أن يبيعوا نصيبهم وحقوقهم للآخرين ، ولهم الحق أيضا فى أن يهملوا ممتلكاتهم وحيازاتهم، دون أى اعتراض من البدو؛ وليس من حق القبلى أن يجعل شخصا آخرا يحل محل القروى. والقروى عندما يبذر الحب فى التربة، يصبح المحصول كله ملكا له؛ هذا يعنى أن ذلك البدوى الغائب لا يكون له نصيب فى ذلك المحصول: ومع ذلك إذا ما كان البدوى (نظرا لوجود قلة قليلة من القبليين المعدمين) يسكن أو يقيم فى خيبر وأصبح من المستقرين (أى أصبح جطونيا jatuny) ، فقد يفعل الشىء نفسه، أى يدخل بالنصف أيضا مع شركائه الزنوج (العبيد) فيما يتعلق بميراث البذار. القرية التى يعيش الناس فيها هنا تحتوى على خمسة عشر بدويا (من بدو البشر) الذين يتصرفون على هذه الشاكلة: هؤلاء البدو كانوا معدمين ومفلسين فى الصحراء جاءوا واستقروا على تلك الأرض الطيبة الجيدة التى بقيت فى أيديهم وملكا لهم. هؤلاء البدو القرويون لا يهمهم الخيابرة، الذين يعيرون محاريثهم، وثيرانهم، وأدواتهم الزراعية لأولئك الجطونيين (البدو المستقرين).

حق رجال القبائل الغائبين فى الأرض لا يزيد عن تملك النخيل ليس إلا. هذا النخيل عندما يموت أو يتحلل يتعين على القروى استبداله بغيره، على أن يقوم البدوى بدفع ريال واحد عن كل نخلة للقروى: لكن إذا ما كان الشريك فقيرا ولا يستطيع تعويض القروى، فإن ذلك يعطيه الحق فى عدم زراعة الأرض، أو قد يزرعها حبا لحسابه الخاص. ومع ذلك يظل البدوى محتفظا بملكية الأرض، ويجوز لشريكه البدوى المترحل، أن يطلب من البدوى المقيم، فى أى وقت، أن يقوم بزراعة النخيل، نظير نصف المحصول، ويعترف بمديونيته للبدوى فى المحاصيل المستقبلية أو القادمة . والشركاء القرويون الجيدون يحتاطون لتحلل مزارعهم؛ فهم يحرصون على أن يكون لكل جذع قديم من جذوع النخل بادرة صغيرة تنمو إلى جانبه حتى يتسنى أن تكون هناك نخلة

أخرى إذا ماتحللت النخلة العجوز أو ماتت. ومع ذلك فإن البلاد (الحقول) هناك لا تعرف من النظام الشيئ الكثير، فالفسائل تنمو على نحو مخيب للآمال، وعندما يدخل موسم نقلها إلى المزارع سرعان ما تسقط وتتحلل.

يزاد على ذلك أن القرويين يتملكون ملكية فردية بعض الأراضى الشاسعة التى لم يسبق زراعتها بالنخيل (من قديم الأزل)؛ كما هو الحال فى حقول القرويين القريبة من قصر النبى، وكذلك القاع المرتفع من الأرض ذات التربة الحلوة (غير العميقة)، التى يطلقون عليها اسم الهوردة Hurda التى يوجد فيها عدد كبير من الآبار؛ وهم يقولون: إن عدد تلك الآبار يصل إلى حوالى "ثلاثمائة بئر" أى أن هناك عدداً كبيرا من الآبار. بذلك نكون قد رسمنا صورة للثروة العقارية المتمثلة فى الأرض؛ وأنا إذا ما وافقت على البقاء فى خيبر، فإن كل رب من أرباب البيوت هنا، وعد بأن يهبنى بلداً من بلاده: وفى بداية الأمر أعطانى العم محمد تلك الأرض التى كنا نعمل فيها سويا، وفيها خمسة عشر عوداً، أو إن شئت فقل: خمسة عشر نخلة: وقد اشترى العم محمد نصيب القروى بستين ريالاً . أما الشيخ صالح فقد أعطانى البلد (الحقل) الثانى، ولكنه مثل كرمه، لم يكن حقلا كبيرا . وكل حوش من أحواش النخيل محاط بسور عال. وسبب بناء ذلك السور العالى راجع إلى أن البدو (فى موسم التمر) كانوا يتصرفون تصرف الأوغاد ويتسللون تلك الأسوار ويسرقون التمر أثناء الليل وأطراف النهار. والسور الذى يبنى حول البلد (الحقل) يكون على نفقه القروى نفسه، كما أنه هو الذى يبنيه بنفسه؛ أما البدوى فلا يعطيه إلا ريالا واحداً عن كل مساحة من ذلك السور، يصل طولها إلى جريدة واحدة من جريد النخل.

والبدوى، إذا ما اضطر – بسبب دفع دية لقتيل – إلى بيع ميراثه من الأرض كيما يفى بتلك الدية، فإنه يبيع ذلك الميراث لواحد من أفراد القبيلة ولا يبيعه للزراع الزنوج. والقبائل أو بطونها عندما تهجر أرضا أو تتخلى عنها وتصبح ضمن أعراب ديرة أخرى، كما هو الحال مع السباع، والرولة، والجلاس Jellas ، فإن ذلك التخلى يكون للعنوز الذين يبقون فى المنطقة؛ ومع ذلك تظل حقوق تلك القبائل معلقة. ويحق لأى

غريب فى خيبر استغلال تلك الأرض الخالية فى أى بلد (حقل) من البلاد وذلك على سبيل المشاركة مع القروى. فى مثل هذا الحال، تبذر حبوب الغريب فى الحقل، أما الرعاية والعناية فتكون على القروى. – الحرث، والرى والحصاد؛ ثم يجرى اقتسام محصول الحبوب بينهما مناصفة. وهذا هو ما يفعله أحمد، وهذا هو أيضا ما يفعله سرور الذى كان شخصا ميسورا؛ والأحباش لهم ثلاثة قطع من الأرض المزروعة بالحبوب هذا العام، والحبشى يشرب الحليب من قطيع الماعز المملوك له؛ وسرور كان الرجل الوحيد من بين الجنود البؤساء الذين أثروا فى خيبر. 'قال ذلك الفاحش: إخ ! وهو يرفع عينيه إلى السماء، لعل الله يبقيه هنا عامين أو ثلاثة أعوام أخر! – وعندها سيكون قد ارتاح تماما وأصبح من الميسورين.'

– حدث (وهذا من المستغربات) أن عمل ذلك السرور Sirur بالجندية فى القلعة التى كانت فى مدائن صالح؛ هذا العبد من عبيد الأرض (على حد قول أمان Aman) الذى كان تابعا للحاج نجم، استطاع نقل نفسه من مدائن صالح: كما أنه كان يعرف أيضا كلا من تيماء هى وقرية العلا. وعندما حاصر البدو ذلك السرور فى بوغاز قرية العلا ذات مرة، قال ذلك المداهن: إن 'ربَّه نجَّاه': – وبذلك تحول ذلك السرور إلى شاهد رغم أنفه على كل ماقلته أنا، عن تلك الأماكن. – أنا لم يطل صبرى إلا مع ذلك العبد المطمور؛ كان دفاعى يقوم، بالرغم من أن ذلك قد يكون من قبيل العجلة والتسرع، على تكسير تلك الروحانيات. عندما كان عبد الله يدخل المقهى، فإن جمهور الحاضرين، بما فيهم محمد النجومى، كانوا يقفون تحية لحاكم القرية الأسود، فى حين كنت أظل أنا جالسا فى مكانى. – كان العم محمد، يردعلىّ عندما كنت ألومه فى المنزل أنه 'لم يكن يسلك ذلك السلوك الفظيع من أجل عبد الله وإنما من أجل الدولة (الإمبراطورية العثمانية)'. – وعندما كانوا يستاءون منى، كنت لا ألقى بالا لذلك الاستياء. كان عبد الله، فى مثل هذه الظروف، وأثناء جلوسه صامتا، ومرتبكا إلى حد ما، ينتظر أن يقوم أحد الحاضرين بانتقادى وتجريحى، وحبذا لو كان ذلك من فتوة من أمثال سرور؛ – ولم يكن أحد يشعر بالحب ناحية السروان. دخل الشيخ صالح المقهى ذات يوم من بعدى، – (افسحوا مكانا "صاح صوت سرور المدوى) للشيخ صالح، انهض! افسح المكان

للشيخ صالح يا خليل." – "قلت: صالح يستطيع أن يبحث لنفسه عن مكان آخر." عبد الله هذا، الذى كان يحس فى داخله أنه عبد، لا يمكن له أن يجادل النصرانى الأبيض فى أمور من هذا القبيل؛ وهنا قام الشيخ صالح بالجلوس فى المكان المجاور للمكان الذى أجلس فيه. وهنا تمتم سرور وغمغم، فاتجهت ناحيته وقلت له بوضوح،" لقد تجولت فى أماكن كثيرة، سنوات كثيرة، ولم أصادف خنزيراً من أمثالك، فى أى مكان من الأماكن التى ذهبت إليها." اندهش الجمهور الحجازى الجالس من كلامى؛ وحملقت غالبية الحاضرين فى النار المشتعلة، وتأملوا فى دواخلهم أن النصرانى لم يخطئ فيما قال. سحب عبد الله نفسه، وابتعد قليلا عنى فى جلسته، ثم نظر إلى الأسفل؛ كان النجومى حاضرا، وهو يخشاه. تظاهر سرور بأنه لم يسمع ذلك الذى قلته أنا ثم" (سأل الجالسين الآخرين) ما هذا الذى يقوله؟ خبرونى بذلك الذى قاله خليل؟" ولكنهم، بصفتهم عرب، والموضوع يتعلق بخلاف من الخلافات، حافظوا على هدوئهم؛ وعندما وجد أن أحداً لا يحبه لم ينطق بعد ذلك ولو بكلمة واحدة . – "قال العم محمد، هذا العبد، لم يكن له قلب فروج، أثناء عودتنا إلى المنزل!"

الفلاحة عندهم من النوع الخفيف. الفلاحون يخرجون من منازلهم بعد شروق الشمس، وبعد تناول الإفطار، حيث يتجهون بعد ذلك إلى مزارعهم. والفلاحون يحرثون هنا باستعمال المحراث الذى يجره ثور صغير وهم عندما يحرثون فدانا من الأرض، فى الساعات القليلة التى تسبق وقت الظهيرة، يظنون أن العمل الذى قاموا به يعد كافيا تماما ! المحراث الذى يستعملونه هنا لا يزيد عن كونه سلاح حاد يقلب التربة إلى عمق شبر تقريبا. وفى اليوم التالى للحرث يقومون ببذر البذور بواسطة تلك الأيدى التى قامت بالحرث؛ وهم لا يزَحفّون الأرض، وهذا هو كل مايفعلونه إلى أن يحين وقت الحصاد، هذا باستثناء تلك الساعة من الأسبوع الخاص بالماء العام، والتى يفتحون خلالها ماء الغدير لتروى حقولهم؛ هذا الماء القادم من الغدير هو الذى يملأ كل حفر الرى أيضا. هذا هو العمل الذى تقوم به الأسر فى حقول خيبر بالرغم من توفر الأرض الزراعية وكثرتها. وفى فصل الربيع يقوم أهل خيبر بتذكير النخيل أى بنقل حبوب اللقاح من النخيل الذكور إلى النخيل الإناث . كما يقوم أهل خيبر بتقضيب أو إن شئت

فقل : تقليم النخيل فى موسم الربيع أيضا: والقروى يجرى ذلك التقليم باستعمال منجل حاد، ويتسلق جذع النخل عن طريق حزام يصنعونه من ليف النخيل. صالح، شيخ خيبر، كان رجلا معاقا، كان يجلس دوما فى بيته، كما كان عبد صغير السن يقوم على فلاحة أرضه وأملاكه. كانت يدا حصين Haseyn – لم يكن ذلك الصبى قد بلغ بعد السادسة عشرة من عمره – تكفيان للقيام بكل الأعمال التى يحتاج إليها والده. خيبر من هذه الناحية مختلفة عن سائر واحات نجد [اللهم باستثناء واحة الهوردة Hurda من حيث أنها ليس فيها أعمال تتعلق بالآبار؛ وهم هنا قد يقضون الأسبوع كله فى العطلة ويخرجون من تلك العطلة أيضا وهم صفر الأيدى. وعندما تشتد حرارة الجو فيما قبل الظهر يعتقدون أن من حق خلق الله أن يرتاحوا من عناء الدنيا، – والشمس تكون حارة أيضا على وجوههم السوداء فى فصل الشتاء أيضا؛ وهم يعودون إلى منازلهم كى يستظلوا بظلال الشوارع، ويأكلون التمر فى صُفَّاتهم. والناس هنا يجلسون خارج منازلهم على مصاطب من الطين؛ وقد يشاركون بعضهم بعضا فى تزجية وقت الفراغ فى ألعاب يطلقون عليها اسم البيات biat : فى هذه التسلية يحمل الصغار بنادقهم الطويلة ويذهبون لصيد طيور النخيل. – والناس هنا يلعبون لعبة البيات هذه بسبعة صفوف فى كل صف منها سبعه حفر . أما النساء الزنجيات (العبدات) فيجلسن على سطوح منازلهن يقضبن جريد النخل وهن يغنين أثناء القيام بذلك العمل.

بعد غروب الشمس يقوم الشباب الصغار بالنفخ فى مزاميرهم التى هى عبارة عن زوج من البوص، ويتجولون فى شوارع القرية: هؤلاء الشباب يتجمعون فى معظم الأمسيات فيما يسمونه صحن القرية، الذى يطلقون عليه أيضا اسم الرّحبة er-Rahabba . ثم يحضرون بعد ذلك الطنبورالكبير، ويشبون النار فى بعض من جريد النخل حتى يتسنى لهم إضاءة المكان وهم يرقصون. – يتقدم الشباب الصغار إلى الأمام، وهم يرفعون سيقانهم السوداء إلى ارتفاع معلوم، ويجرى ضرب ذلك الارتفاع مرات عدة، ويضرب الشباب سيوفهم بشدة فى غمدها ويروحون يديرون حدود سيوفهم من حول وجوههم السوداء اللامعة. هؤلاء الشباب يتقدمون إلى الأمام لتدريب القدم المرفوعة ويضربون الأرض؛ ويلف الشباب أجسادهم، ويعاودون ما يفعلون، وهم يغنون،

– هذه الرقصة باستعمال السيف قد تستمر ساعة أو ساعتين؛ وفى مثل هذه الظروف يكون هناك متفرجون، يشاهدون ذلك الذى يقوم به الشباب اللطيف من شباب القرية، والذين يسارعون بالذهاب عند أول صوت للطنبور إلى صحبة القرية تاركين وراءهم صُفَّات أمهاتهم: أو إلى رقصة البنات. وفى أحيان كثيرة، وأنا عائد إلى بيتى قادما من منزل العم محمد، وفى يدى الشعلة التى هى عبارة عن جريدة مشتعلة من جريد النخل، كنت أشاهد أولئك الشباب وهم يلعبون تلك اللعبة الحربية؛ ومن يحملون مسدسات من أولئك الشباب، يفتحون النار، ثم يستلون سيوفهم القصيرة اللامعة، ويصيحون صياحا عاليا، ويجعلون تلك السيوف القصيرة تصطدم بالتروس: كنت أراهم جميعا وأسنانهم السوداء تلمع فى ضوء النار وينادونى قائلين "ها! ها! ياخليل!"

كان الشباب يرقصون تلك الرقصة فى ليالى كثيرة فى صحن القرية، وكان الضوء الصادر عن الراكية التى يشبونها يتناهى إلينا من خلال النافذة، ومعه النغمات العالية التى تصدر عن الطنبور، والأصوات الغوغائية التى تصدر عن هؤلاء الزنوج، الأمر الذى كان يقلقنا، ولكنه كان المصدر الوحيد للتغيير والتسلية فى خيبر. – وهنا لم يكن أمان المريض يقوى على احتواء غضبه: "قال: أسقط الله عليهم نار جهنم! إخص! من غير الخيابرة يقوى على تحمل هذه الضوضاء الوحشية؟" وفى عيد الأضحى يعزف الطنبور طوال النهار ويستمر الرقص خلال شوارع البلدة، وفى صحن القرية أيضا. وعندما كنت أعثر على رفيقى جالسا على المصاطب العامة "قلت: يا لهذا التأمل والتفكير العميق الذى أنت فيه! أليست لديك قدم خفيفة تمكنك من المشاركة فى هذا الاحتفال؟ حاول إسعاد نفسك، أيها الرجل، وأنت على قيد الحياة. "كان ذلك الحبشى المسكين يضحك للحظة ثم ينسى حزنه بعد ذلك؛ ثم يرد على بعد ذلك وقد ارتسمت على وجهه نظرة تعبر عن الألم والأسى، "أنا تركى مثلك تماما: والأتراك من عادتهم الابتعاد عن نشاطات الاستخفاف التى يقوم بها البشر."

قال لى العم محمد عن الخايبرة:" إنهم أهل ahl هوا hawa وهم وهاميين Wahamy بمعنى هوائيين أى أصحاب نزوات." وحتى هو (العم محمد) باعتباره (مسلما من الحضر)

يلومهم على العزف على المزامير لأن الصوت الصادر عن ذلك البوص المثير إنما هو عمل دنيوى خطير على مسمعهم الدينى: ومع ذلك فإن الطنين الفظيع الذى يصدر عن الطنبور يروق لمسامعهم على نحو عجيب. قال لى العم محمد:" الطنبور هو الصوت الموسيقى [نغمات الأرغن] فى الدين الإسلامى." – والرعاة هم وأطفال البدو الرحل يعزفون باستخدام سيقان من العشب الأخضر أثناء فصل الربيع الجميل؛ وهم يطلقون على تلك اللعبة الموسيقية التى يصنعونها من سيقان تلك الأعشاب، اسم الهوَّامه hawwama .

كان الأخ الثالث الأصغر من إخوان محمد النجومى، والذى قتل قبل عامين فى الغزو الذى قامت به جهينة على الطريق القادم من المدينة إلى خيبر، كان فى أواخر أيام حياته التى ابتدأها بالطقوس الدينية الآسيوية الغريبة، التى ما يزال بعض الدراويش يمارسونها فى البلاد الإسلامية. هؤلاء الدراويش لهم مدرسة فى دمشق، كما عثرت على البعض منهم فى وادى بردى Barada . هؤلاء الدراويش يجرحون أنفسهم عندما يتملكهم الغضب؛ هذه الإصابات يتضح أنها إصابات سطحية بعد انتهاء نوبة الغضب. هؤلاء الناس أثناء احتفالاتهم بالعيد والمناسبات الدينية التى يعلن عنها الصوت الذى يصدر من الطنبور، والتى تتقدم وتزداد حدة بصراخ الناس وصياحهم، يشقون بطونهم ويغرسون الأسياخ فى خدودهم ويغرسون السكاكين خلال الأجزاء الثخينة من أجسادهم. كل ذلك نراه رأى العين وهم يفعلونه؛ وتراهم بعد ثلاثة أيام وقد تعافوا وعادت إليهم عافيتهم! وحكى لى العم محمد، أن ذلك ربما كان بفعل دواء من الأدوية، وأن ذلك لم يكن من قبيل الدجل أو الاحتيال، – وأنه قد تأكد من ذلك من أخيه، الذى لم يكذب عليه أبدا".

فى أحد الأيام وأثناء قيامنا بعملنا فى الحديقة عبرت جماعة من القرويين الفجَّارة سعيا إلى جمع الحطب. فى حين بقى دخيل الله ومعه شخص آخر ليقوما بمراقبة الصفصافة من فوق صخرة من الصخور، والمعروف أن الصفصافة فيها ثكنة صيفية من ثكنات الجنود المتواضعة، التى بنيت من الطين كى يقيم فيها جنود المدينة (المنورة).

انقضت ساعة: ثم نادوا بعد ذلك على محمد النجومى، 'لقد شاهدا دخانا كما لو كان صادرا عن اطلاق النار فى اتجاه المكان الذى تجمع منه الجماعة الحطب.' وهنا أمسك العم محمد ببندقيته الفتيلية، وترك معى عباءته وغترته، وسار عارى الرأس، لا يرتدى سوى قميصه، ويسير حافى القدمين، وانضم إليهما لإنقاذ أولئك الذين كانوا يجمعون الحطب. رآهم أناس آخرون فراحو يجرون معهم، وأصاب الذعر القرية كلها. نادى عبد الله السروان العجيليين التابعين له وطلب منهم حمل السلاح والسير وراءه؛ وحمل كل خيبرى سلاحه، واتجهوا جميعا نحو الحّرة، وهذا هو أمان راح هو الآخر يتبعهم متعثرا بحكم ضعفه، وكان وجهه يوحى بأنه فى أواخر أيامه، وراح يسير بين الصخور الوعرة حاملا سلاحه الثقيل: ولكن عبد الله السروان طلب إلى ذلك العسكرى المسكين العودة إلى مهجعه الذى كان يرتاح فيه.

كان بلد (حقل) العم محمد مفتوحا إلى حد ما؛ وقد حذرنى مرارا من الذهاب وحدى إلى ذلك الحقل، مخافة أن تصيبنى طلقة قاتلة تأتينى من بلد من البلاد المجاورة: ولكنى إذا ماعدت ناحية البلد فلابد أن أقابل تلك الرءوس الجامدة، وهى تهرع إلى القتال حاملة سلاحها؛ يضاف إلى ذلك أن العم محمد كان قد ترك معى ملابسه، ووجدت أن من غير المناسب أو اللائق أن يعود ذلك الرجل الشجاع ويمشى خلال شوارع البلدة وهو لا يرتدى كامل ملابسه. بقيت أعمل فى البستان: وطوال تلك الساعات الطوال التى خيم الصمت علىَّ خلالها، كنت بمثابة العابد الذى ينزل فى معبد من المعابد، وكنت شاهدا حقيقيا ومخلصا علىَّ حياة الطبيعة الساكنة. وبينما كنت أراقب الفئران الكبيرة الآكلة للأعشاب وهى تأتى من بين الجدران الأربعة المهدمة: كان كل واحد من تلك الفئران يمسك ساقا، ويحمله عائدا به إلى جحره ثم يعود مرة ثانية لجلب المزيد من القش وعيدان الحشائش.

قبيل العصر، سمعت ضجيجا يشبه الضجيج الناتج عن العمليات الحربية، وظننت أن العدو ربما كان يقترب من اقتحام القرية: كانت الطلقات هى وأصوات إطلاق النار تبدو كما لو كانت فى منتصف البلاد (الحقول). – عندئذ عاد العم محمد وهو يلهث،

وتعجب عندما وجدنى فى الحقل. وعندما شاهدت نظراته المتوترة سألته على الفور، "ما أخبار المعركه؟" – لم يكن سوى مجرد غزو، ولقد طردناهم؛ كان هناك إطلاق للنار من مسافة بعيدة، – لم يصب أحد بأذى . وكانت تلك الضوضاء الناتجة عن إطلاق النار (فى الهواء) مجرد إشارة على تراجع أولئك العيال: ألا يتعين عليهم أن يضفوا على ما قاموا به شيئا من الشجاعة ويهدئون من مخاوفهم قبل عودتهم إلى منازلهم: – والآن، كيف حالك يا شيخ خليل، هيا بنا نعود إلى المنزل ونأكل شيئا من التمر."

عدنا بعد العشاء إلى قهوة الجنود؛ الذين راحوا يتسامرون ويحكون عن تلك المغامرة. لعن عبد الله السروان البدو هم وأقاربهم؛ وحزن على رجله السوداء الرقيقة التى تجرحت بفعل خشونة سطح الحّرة. رد النجومى، بلسانه التركى اللطيف، بكلام يحمل الكثير من التهكم عندما يصدر على لسان رجل مثل محمد النجومى، "يا مسكين! قلبى معك، يا عبد الله؛ هذه الصخور البركانية الحادة أدمت قدميّ الحافيتين وجعلتهما تنزفان." ألقيت باللوم على ذلك النفاق عندما كنا جالسين فى المنزل، ولكن النجومى رد على وهو مبتسم،" أنا لا أرمى مطلقا من وراء ذلك إلى مداهنته بكلام معسول، لأن هذا هو أسلوبهم: هذا العبد، ذلك اللعين، هذا الأحمق المستبد، وأيا كان حاله ، أليس هو هنا بمثابة الضابط الممثل للدولة (الإمبرطورية العثمانية)؟"

كان جمّاع الحطب أو إن شئت فقل: الحطّابين قد التقوا بغزو قادم من قبيلة بشر Bishr ،.وكان موكب ذلك الغزو قد اقترب تماما من أولئك الحطابين. وعندما وصلت نجدة إغاثة الملهوف، ابتعد البدو وتوقفوا (عندما شاهدوا بنادق طويلة بين أفراد تلك النجدة) وجرى القرويون لإنقاذ حميرهم : لم يحدث بعد ذلك سوى إطلاق النار من مسافة بعيدة بواسطة البنادق الفتيلية ، وهنا بدأ البدو الرحل يبتعدون عن الحطابين. لم يبق فى القرية كلها سوى الشيخ صالح الأعرج . وعندما سمع عبد الله عن بقائى فى البستان قال:" كان يمكن أن تقتل هناك، أيها الغبى؛ وأنت إذا ما قتلت فى يوم من الأيام بهذه الطريقة، فسوف يلقون علىّ باللائمة: إياك وأن تفعل ذلك مرة ثانية، وإلا وضعتك فى السجن! – وأنتم يا أيها الناس، مطلوب منكم أن يقول كل واحد منكم

رأيه، – ولا تنسوا أننا نحن الدولة (الإمبرطورية العثمانية)! أنا أطلب منكم أن تقولوا: كيف يمكن لنا لجم صلافة هؤلاء البدو في المستقبل؟" نام عبد الله وفي ذهنه هذا الموضوع ، أثناء شرب قهوة الصباح، وجدناه يصيح قائلا :" لقد وجدتها وخبط على وركه، عسى as الله Ullah ، يتمم temmem ، بمعنى نعم، لعل الله يتم علينا مانفعل ؛ أنا ana سأوريك werrik بمعنى سأثبت لك، أنني أعرف قيمه منصب الحاكم في خيبر! أقول ،إنه سيكون هناك عشرون خيالاً متمركزين في قرية خيبر: سيكون ذلك هو مطلبي عندما أكتب رسالتي القادمة إلى باشا المدينة (المنورة)!"

جمع الحطب هنا يكون دوما محفوفا بالمخاطر؛ والسبب في ذلك أن الخيابرة لا يرضون بحرق جريد النخيل، كما هو الحال في معظم الواحات، مما يجعلهم يخرجون للبحث عن حطب السمَّارة (ويأخذون معهم حميرهم لينقلوا عليها ذلك النوع من الحطب، كما يأخذون معهم زوجاتهم أيضا لتحمل كل واحدة منهن حملا على رأسها) ويعدن بذلك الحطب إلى بيوتهن قادمات من الحرّة. – وقد بدأ الناس في القرية – يهمهمون ويغمغمون، لأن عبد الله السروان فرض عليهم أن يأخذ لنفسه شيئا من هذا الحطب وشيئا آخر للجنود.

مضى على الدولة في خيبر خمس سنوات حتى ذلك الحين: سألت القرويين الواعين عن الفرق بين الحالة الحاضرة والحالة السابقة. أجابوني، أنه بالرغم من أن الزكاة المفروضة من قبل ابن الرشيد أعلى قليلا من تلك الزكاة المفروضة من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية) إلا أن جباة بن الرشيد، الذين هم عبارة عن مجموعة من الجمَّالة المسلحين، كانوا يهلون على الخيابرة في موسم حصاد التمر فقط : وأنهم كانوا يقيمون مع الخيابرة أياما قلائل، وبالتالي كان استبدادهم وطغيانهم قصير الأجل، في حين أن استبداد الدولة وطغيانها المقيم والدائم يحزنهم ويثير أشجانهم بصورة مستمرة. وأسَّر لي إبراهيم القاضي 'شغلهم Washughrol-hum بس bes النهب en-nahab بمعنى 'أن شغلهم الشاغل هو السلب والنهب.' – وبالرغم من ذلك فإن الدولة تحمي القرويين من البدو، الذين كانوا يسيئون معاملة القرويين، بأن كانوا

يقيدونهم ويضربونهم، ويقولون لهم إنهم هم وآبائهم عبيد، وأن مهمتهم تتمثل فى إحضار العلف للبدو ولمواشيهم. وفى أحيان كثيرة كان البدو يدخلون بيوت القرويين، ليجعلوا من حبوبهم غنائم لهم؛ يضاف إلى ذلك أن البدو كانوا يغتصبون النساء الزنجيات، كما كانوا يتصرفون فى جميع الأحوال كما لو كانوا سادة للقرويين: والبيت القروى الذى يدخله أولئك البدو يتحتم على من فيه إن يزبحوا خروفا أو تيسا فى أضعف الأحوال لعشاء هؤلاء البدو. وفى موسم حصاد التمر، فى فترة ما قبل الاحتلال التركى، كان مشهل العوّاجى قد سطا على منزل الشيخ صالح! - وانشرح صدر الشيخ صالح عندما سمعنى وأنا أدين ذلك الكرم والضيافة الفظة التى يقدمها ذلك الشيخ البدوى الكبير.

على أيدى ابن الرشيد ورجاله النجديين تحسنت الأحوال بعض الشىء: ذلك أن النجديين عندما كانوا يعثرون على سيف مزين أو بندقية فتيلية مزينة بين أهل القرى، كانوا يأخذونها 'ليضموها إلى سلاح الأمير' وكانوا ينفذون ما يريدون عن طريق الضرب واللكمات القاسية؛ ولم يكن الخيابرة يحصلون من حائل على أى نوع من التعويضات! - وفى النهاية قام القرويون فى أم كيدة، بعد أن نفذ صبرهم وبعد أن أساء النجديون معاملتهم، بإرسال مندوبين إلى باشا المدينة (المنورة) يرجونه بأن يدخلهم ضمن حماية الدولة (الإمبرطورية العثمانية): - وقد شجعهم على ذلك شركاؤهم من أولاد على.

هذا الباشا الطيب - الذى لا أتذكر اسمه الآن - كان من الشخصيات غير الفاسدة أو إن شئت فقل: من الشخصيات الخيرة، وهذه أشياء نادرة بين الباشوات الأتراك. كان ذلك الباشا قد قام مؤخرا بتوزيع المصاحف على كل من يستطيع القراءة فى تلك الأماكن. - وحظيت حكاية القرويين السود بأذن دينية صاغية من قبل باشا المدينة (المنورة) : استمع الباشا إلى أحزان هؤلاء الناس وإلى اسم (ابن الرشيد) ذلك الشيخ الكبير الذى كان يغلبهم على أمرهم، وقالوا للباشا أيضا: إن واديهم يقع فى نطاق المنطقة الخاضعة لقيادته ؛ ووعدهم هذا الباشا الطيب بشىء من الخلاص والإنقاذ.

واعتبارا من ذلك التاريخ بدأ الأتراك يفكرون فى الاستفادة من خيبر، ذلك الاسم الذى لم يكن معروفا حق المعرفة فى المدينة (المنورة). وفى صيف العام التالى أرسل الباشا إلى خيبر بعض سرايا المشاة، مع فصيل خيالة، وفرقة من العجيل، – ربما كان ذلك فى العام الميلادى ١٨٧٤ . وصلت هذه القوة إلى خيبر خلال خمس رحلات، ولم يجدوا فى خيبر من يقف فى وجههم أو يعترض على دخولهم إلى تلك القرية.

نزل البدو إلى الوادى فى سلام، وحصدوا تمورهم مع الخيابرة: ولكنهم فى يوم رحيلهم شاهدوا خفرًا من الجنود، متمركزين عند بداية الطرق، ليفرضوا على البدو ضريبة بواقع نصف ريال عن كل حمل جمل من التمور! لم يسبق للبدو مطلقا أن سمعوا فى الصحراء عن فرض أية ضريبة عليهم من قبل الدولة (الإمبراطورية العثمانية)؛ هذا بالإضافة إلى أن أحدا منهم لم يكن معه أى شيء من النقود! وكان أولئك البدو المساكين قد أنفقوا، فى سوق الحصاد؛ تلك النقود القليلة التى جلبوها معهم، فى شراء ملابس لهم وفى أشياء أخرى يحتاجونها.

كانت القبائل قد جاءت إلى خيبر فى العام الثانى من احتلال المدينة المنورة: ولكنهم عندما وجدوا الخفر والحرس يتساهلون ويقل عددهم بدءوا يماطلونهم ولا يدفعون الضرائب." قالوا: اتركوا الدولة تحصل هذه الضرائب، إذا ما كانت بحاجة إليها." – كان من رأى حكومة المدينة (المنورة) توسيع المعسكر الصيفى فى خيبر؛ ولكن البِشْر كانوا يقفون ضد ذلك التوسع، وذلك عن طريق تحريض ابن الرشيد. وفى مطلع الصيف الثالث، خرجت كتيبة، ومعها خيالة، وجماعة من العجيل الراكبين، متجهة إلى خيبر. ونصبوا خيامهم فى الصفصافة؛ كما جرى الاستيلاء على الحصن ثم جرى ترميمه بواسطة العجيل، كل ذلك كان تحت قيادة عبد الله السروان.

اقترب موعد حصاد التمر، ونزل العنوز (نسبة إلى قبيلة عنزة) من الحرّة، وسبقهم الفكارة. كان منزلهم السنوى فى الصفُّوك es suffuk ، أسفل العزمية؛ وفى هذه المنطقة بنى كبار الشيوخ من أمثال مظلق، رحيل، وزيد بيوتهم الصيفية من اللَّبن. لقد سبق لهم أن أقسموا للبشر على الوقوف إلى جانبهم، فى وجه كل من الدولة وأولاد على.

فى تلك الليلة ركب الضباط الأتراك خيولهم وذهبوا لزيارة الفجير فى مخيمهم. وسرعان ما اجتمع مجلس الشيوخ ورجال القبائل فى بيت الشيخ مطلق المبنى من اللبن، " للاستماع إلى كلام الدولة." – ورد مطلق هو والشيوخ ،" لقد جئنا إلى هنا لحصاد ثمار نخيلنا؛ وإذا كنتم فى حرب مع البشر، فنحن لسنا معكم أو معهم." – "هل تعدون بذلك؟" – " هذا وعد منا لكم." – وعندما عاد الضباط حددوا مكانا لأولاد على يمكثون فيه إلى طلوع الصباح؛ وطلبوا منهم مراقبة الفجير، وأن يكونوا على استعداد إذا ما دعى الداعى للوقوف ضد الفجير ومقاومتهم.

أثناء شروق الشمس كان الأعراب يبدون لمن ينظر من الحصن كما لو كانوا بعضا من الجراد" الذى يقفز فوق الحّرة؛ وقد أطلق عبد الله السروان إنذارا عن طريق الطنبور. كان الجنود الموجودون فى الصفصافة قد ناموا على أذرعهم! – كان قد تم إرسال ثمانين من العجيل، ليقوموا بدور المبارزين والمشاكسين، ضد البدو. وعندما بدأت أصوات طلقاتهم تتردد، فوق الفجّارة، طلب العقيد الذى كان يتولى القيادة، من جنوده ألا ينصرفوا من حوله. ثم دخل ذلك العقيد فى غرفة مبنية من اللبن، التى كانت فى الأصل مسكنا له، وحبس نفسه فيها و(نظرا لأن نوافذ الغرفة كانت منخفضة وقريبة من الأرض، حتى تسمح بدخول الهواء الطلق) استلقى منبطحا على الأرض!

– وعاد البدو بصياحهم وغنائهم؛ كان البدو، مسلحين بالرماح والسيوف كما أن قلة قليلة منهم هى التى كانت تحمل بنادق فتيلية. وهنا قام أفراد العجيل الذين كانوا قد تفرقوا فوق الحرَّة الوعرة بالتراجع أمام البدو ، حتى يتجمعوا مرة ثانية، – وانتظروا بعد ذلك فترة قصيرة؛ ثم عادوا بعد ذلك على شكل كتلة واحدة ضد البدو الرحل. وراحوا يجرون على الجانبين ويفتحون نيران بنادقهم، وطال مدى تلك المعركة البعيدة؛ وأثبت العجيليون أنهم هم الأفضل. فى النهاية سقط واحد من جانب البدو، وهذا الواحد كان من الشخصيات الرئيسية، أو إن شئت فقل: واحد من الشيوخ الكبار: وهنا توقف الأعراب عن إطلاق النار، نظرا لأن بارودهم أوشك على النفاد، ثم بدءوا يلوذون بالفرار. عجل مسهل **Misshel** (شيخهم الكبير) بإنقاذ نفسه مستخدما فى ذلك ناقته؛ ولم يتوقف، على حد قولهم؛ إلا بعد مسير يوم كامل.

وفيما يتعلق بالعقيد الذى كان فى الصفصافة، فقد بادر إلى النهوض والوقوف ثم الخروج من الغرفة بعد أن توقفت الضوضاء الناتجة عن إطلاق النار. هذا الجبان سمع ألسنة جنوده وهى تلعنه وتسبه: أين الكلب خائن الدولة، الذى لم يرسل لهم لدعم تلك القلة، الذين حاق الخطر بحياواتهم فوق الحّرة.' – هذا الرجل يقال إنه فقد كتيبة فى اليمن، ويقال إنه اشترى رتبة العقيد من ماله الخاص.

كان القرويون الخيابرة المسلحون (الذى كان العم محمد رئيسا لهم) الذين كانوا فى الحصن، قد فتحوا نيرانهم على زملائهم الذين كانوا على الأرض، الأمر الذى أدى إلى سقوط أحدهم جريحا؛ وهنا فقط توقفوا عن الرمى بالرصاص. – توقف بدو الفكارة بدافع من الحياء؛ ولكنهم عندما وجدوا أن البشر Bishr انكسروا ولاذوا بالفرار، سارع بدو الفكارة بالنزول إلى أرض القتال وجعلوا من خيام البشر Bishr ومن أوانيهم غنائم لهم. لم يغفر البشر للفكارة هذا العمل، ولم يعودوا يشعرون تجاههم بأى قدر من الشفقة أو الرحمة، – وخسروا ما حصلوا عليه إذ سلموه للدولة؛ وفى حالة أخرى مماثلة، حدث ذلك للفكارة أنفسهم! – كان ذلك العمل الذى قام به بعض البشر Bishr عملا غريبا وغير طبيعى بالمرة! هذا البعض وقف إلى جانب الدولة، هم والقرويون السود، فى مواجهة إخوانهم البدو الرحل. يضاف إلى ذلك، وقد شاهدت ذلك بنفسى ، أن بعضا من أفراد العجيل، كانوا من قبيله بشر، ومع ذلك اشتركوا فى القتال ضد أفراد قبيلتهم.

وقع واحد من أولئك الخونة، فى هذا العام نفسه، فى أيدى أفراد قبيلته؛ ولكن بعد أن توسل إليهم تركوه يمضى لحال سبيله وعفوا عنه؛ واعتبارا من ذلك التاريخ أرسل يقول: إن أى مذنب من أفراد القبيلة بوسعه أن يعود إليها فى أى وقت يشاء، ولا يخشى شيئا: – يالسهولة الأعراب فى الصفح عن أى نوع من أنواع الخيانة! وهم يعللون كل ذلك بالضرورة. هؤلاء الرجال خدموا بضع سنوات مع حكومة المدينة (المنورة) ، وقد وصلت متأخرات أجورهم ورواتبهم إلى مئات الريالات؛ وكانت آمال حياتهم المستقبلية معلقة على تلك المبالغ. كان شقيق زوجة العم محمد، وهو جاطونى

(من البشر Bishr) يرعى ماشية القرويين فى وادى جلاَّس؛ ولكنه عندما سمع صوت طلقات الرصاص ذهب ليشارك فى جانب أهله من البدو الرحل. وعندما دخل المساء، ذهب العم محمد إلى وادى جلاس ومعه سرية مسلحة من شباب الخيابرة، لإحضار ماشية القرية؛ واقتاد معه شقيق زوجته إلى خيبر مرة ثانية. قال العم محمد: إن الأعراب خارت قواهم، فى حين أن من كانوا معه كانوا أصحاب أجسام قوية لأنهم كانوا من شباب الزنوج ، وكانوا أيضا أشد بأسا، وقدرتهم على الحرب والقتال أكبر وأفضل من قدرة الأعراب البدو. ولو قدر لهؤلاء البدو أن يواجهوا العم محمد فإنه سيقول لهم: "أنا محمد النجومى، وهؤلاء الذين معى هم الخيابرة، جاءوا ليأخذوا ماشيتهم،" وبالتالى سوف يتركوه يمر، لقد كانوا شركاء وأن تلك المعركة كانت مع الدولة المستبدة.

بعد دخول الليل، سمع المراقبون فوق الحصن، صوت غناء قادما من بعيد، من بين أشجار النخيل: – كان بعض البدو يحصدون تمورهم فى وادى زيدية. وهنا ذهب العم محمد على رأس جماعة من القرويين لمداهمة أولئك البدو ومفاجأتهم. وجدوا إبل هؤلاء البدو باركة خارج المزارع؛ واستلوا سيوفهم وراحوا يهددونهم. بعد ذلك قام النجومى هو والخيابرة، بعد أن صاحوا صيحة القتال الله Ullah أكبر akhbar بالقفز فوق جدران البستان، وأطلقوا نيران بنادقهم. عندما سمع البدو الرحل، وهم داخل البيارة، أصوات إطلاق النار وصياح أعدائهم وهم يندفعون نحوهم، فروا ناجين بأنفسهم، ووقفوا عند الجانب البعيد من بيارة النخيل. – وعاد العم محمد هو والقرويون محملين بلحوم إبل الأعداء؛ الأمر الذى أسفر عن عشاء مائة أسرة خيبرية على حساب شركائهم البدو: – وبذلك تكون تلك العملية الحربية قد انتهت إلى هذه النهاية؛ ولكن هذه العملية ستظل راسخة فى أذهان هؤلاء الناس.

فى صباح اليوم التالى أرسل العقيد فى إحضار رءوس أولئك البدو المنهزمين الذين أطلق عليهم اسم 'المتمردين على الدولة.' – كان أمان قد أحصى ثمانين رأسا فى الصفصافة، – وهذا درس لقنه الحُكَّام الهمج لرعاياهم! وقام مندوب البريد بحمل آذان

أولئك القتلى بعد أن جرى رش الملح عليها، داخل جوال إلى المدينة (المنورة): - وسوف يحصل الجنود الفقراء على خمسة ريالات مقابل كل زوج من الآذان. ولم يمت من العجيل سوى فردين فقط: كان أحدهما ضعيفا وداسه الناس على بعد مسافة قصيرة، - وجدوا جمجمة رأسه مهشمة بفعل قضيب معدنى من القضبان التى يحملها البدو؛ ولكن أحداً لم ير تلك الفعلة. كان ذلك الرجل ألبانيا وعماً لأمان Aman ، لأنه هو الذى دفع ثمن أمان عندما كان طفلا، لسائق عند أحد التجار فى جدة: وقد أطلق ذلك الرجل سراح أمان فى سن مبكرة، وبقى أمان يحتفظ فى داخله بالحب والولاء تجاه رب بيته، أو إن شئت فقل: عمه. أخذنى ذلك الحبشى المسكين إلى القبر الذى دفن فيه "عمه" وابتلى نفسه بالهم والغم، وسط هذا البؤس الشديد الذى يخيم على حياة أولئك الأعراب فى خيبر. .

حكى لى أمان أنه هرب فى البداية، عندما ساء حال العجيل، إلى أن غالبه الضعف وأصبح غير قادر على الحركة: وعندما صادف أول مكان مجوّف نزل فيه مختبئاً بين الصخور، وراح يدعو الله أن يستره ويخفيه عن أعين الأعداء؛ ولكنه عندما نظر إلى الوراء شاهد بدويا ضخم الجثة وفى يده رمح طويل، يتسلل محاولا الوصول إليه. وهنا فتح نيران بندقيته وفر خائفا دون أن ينظر وراءه. سمع بعد ذلك الأعداء وهم يقفزون من حوله، بينما كان يجرى بأقصى سرعة فوق الحّرة منتقلا من صخرة إلى أخرى؛ 'أعمى الله عيونهم حتى لا يرونه.' قال عن العقيد: "كان اسطمبولى، رجل ملعون، لم يكن يهمه أبدا موتنا جميعا؛ وأنه كان عقيدا نظير مادفعه من نقود! كل شىء يباع ويشترى فى الدولة حاليا!" - هم يدعون أن ابن الرشيد أرسل ثلاثمائة رجل من الشمر لمساعدة البشر Bishr : لقد عثروا أيضا على بعض الأنابيب الخضراء فى المكان الذى جرى فيه إطلاق النار، وأن تلك الأنابيب الخضراء كانت 'خراطيش فارسية فارغة من عند ابن الرشيد.'

كان العم محمد، ذلك المواطن المخلص من مواطنى المدينة (المنورة) على علم تام بالأمن العام فى المدينة منذ بداية احتلالها: وابتداء بذلك التاريخ بدأ العم محمد فى

شراء النخيل، ويسعى لتوطين نفسه فى خيبر. - يضاف إلى ذلك أن الجنود هم أنفسهم من فلاحى البساتين ؛ والقرويون يقولون: "نحن لا نستطيع اقتياد المسلحين إلى الضباط، ونحن إذا ما وجهنا الاتهام لأى جندى من جنود المعسكر تراهم يقولون: 'أنت مخطئ،' ثم يصرفونا إلى حال سبيلنا وهم يحتقروننا ويسخرون منا: "وجنود المدينة (المنورة) غالبيتهم من الشوام. حكى لى العم محمد الذى كان يحتقر لهجة أولئك الجنود الشوام، عن المغامرة التى قام بها بعض هؤلاء الجنود الشوام الذين تسلقوا أسوار بستانه. هؤلاء الأوغاد، عندما شاهدوا ذلك الرجل وهو لا يرتدى سوى تونك وغترة، حسبوه واحداً من الأعراب. البعض منهم كان يود الاستيلاء على حماره؛ ولكن هؤلاء الأوغاد أصابهم الاضطراب عندما راح ذلك الرجل القوى يطاردهم بعد أن استل سيفه، وراح يجرى وراءهم إلى أن وصلوا إلى منزلهم: وعند منزلهم، اكتشف أولئك الأوغاد أن الرئيس وقف لتحية ذلك الرجل! وبالرغم من توسل الرئيس إلى العم محمد، إلا أن أولئك الأوغاد جرى اقتيادهم وجلدهم.

تأسس فى خيبر نظام أفضل من النظام السابق؛ فقد جرى تركيب بوابات لشوارع القرية، وتحتم على ربة البيت أن تكنس يوميا أمام أبواب منزلها، وإلا قام السروان بجلدها؛ وقد أبلغنى عبد الله السروان أنه ضرب العديد منهن. كانت الطرق من قبل تغص بأنواع مختلفة من البراز المعدى، أثناء الحرارة الشديدة فى فصل الصيف؛ والغريب أن الجندى الذى كان يمر من تلك الشوارع ويتنفس أو يلتقط أنفاسه فيها كان سرعان ما يصاب بالأمراض. وفى العام الأول مات الجنود كلهم تقريبا، بسبب وباء الكوليرا وحمّى الوادى. ومن رأى العم محمد أن عشرة فقط من هؤلاء الجنود هم الذين بقوا على قيد الحياة ليدخلوا مرة ثانية من بوابات جدران المدينة (المنورة)! والفلاحون الزنوج يرددون حاليا وهم يضحكون المثل الذى يقول: "خيبر Kheybar قبر العسكر." "قال أمان Aman بلغته العربية الألبانية ، وهو حزين: خيبر هى قبر Kabr الدنيا el-dunnia . "وفد على خيبر قادما من المدينة (المنورة) طبيب عسكرى لعلاج المرضى بالأدوية الجديدة التى كانت معه ؛ ولكنه هو نفسه أصيب بالمرض فى صباح اليوم التالى ودفنوه فى الأرض على عمق ياردة واحدة، فى كفنه وكان ذلك قبل

دخول وقت الظهيرة، في التربة السبخة - مات الرجل في خيبر "اقسم عبد الله السروان، لقد نظفت البلدة، وها هم الناس يشاهدون ما فعلته أنا، وهم ممتنين لي."

خيبر لا تبعد عن المدينة (المنورة) سوى مسير رحلة طويلة من رحلات النياق، ومع ذلك فإن هذا الاسم الذي يقع خارج نطاق العامة، يكاد يكون، على حد قول الناس، غير معروف في المدينة المقدسة؛ أو إن ذلك الاسم كان يرتبط في أذهانهم بنوع من الغرابة التي تضفي عليه طابعا خلافيا، - ومن ذا الذي لم يسمع في خرافات الحج عن يهود خيبر؟ في المدينة (المنورة) هناك باب مجلّد بالحديد (هذا الباب يقفل في الوقت الحالي باب الثكنات التي يقيم فيها الجنود)، يقولون عنه: إنه بوابة قلعة خيبر القديمة: "يقولون: سيدنا علي، ألقى الصحائف من يديه، عندما استولى على ذلك المكان؛ وأن واحدة من تلك الصحائف سقطت على تل في المدينة (المنورة)، ولكن الصحيفة الأخرى سقطت في بغداد." الشيء نفسه يقال عن جبل أحد القريب من المدينة (المنورة)، الذي يوجد فيه قبر (سيدنا) حمزة عم النبي، وأن ذلك الجبل كان منذ قديم الأزل في خيبر، ولكنه عزّل منتقلا إلى المدينة المقدسة: وهناك من يقول منهم: إن جبل حمزة كان في بغداد من قبل. والمسلمون الخلص مقتنعون على هذا النحو:" جبل حمزة يقع في المدينة (المنورة)؛ ولكنه كان من قبل في مكان آخر؛ ومن ثم يكون ذلك الجبل قد تحرك إلى هناك!" في إحدى المرات كنت أمزح مع العم محمد،" سيدك على رمى رمية قوية! إن تلك الرمية تصل إلى عشرين ضعفا من أطول المسافات التي تصل إليها دانات المدافع الموجهة إلى المدينة (المنورة)." - "ولكن ليس هذا هو كل ما في الأمر، يا خليل، لأنهم يقولون: إن سيدنا علي وقف ذات مرة ورفع عالم الكون." - " وأين كان سيدكم على آنئذ؟ ألم يتعين عليه أن يكون خارج الكون حتى يستطيع رفعه؟" رد النجومي على تساؤلاتي قائلا: "أنا أفكر حاليا في هذا الأمر، يا شيخ خليل، وأنا أميل إلى رأيك، إن هذه الأقوال هي مجرد خرافات وليست من الدين في شيء." صنعت للعم محمد كرة أرضية من الطين الذي كان ناتجا عن الحفر، وصورت له البحار والقارات عليها. وانشرح صدر العم محمد لذلك العمل، ولكنه لم يكن من السهل عليه تتبع كلامي، والسبب في ذلك أنهم هنا ينظرون إلى العالم وكأنه أرض منبسطة: ألقى الرجل عدده من يديه وراح

يضحك،" ألم يقل الخيابرة، وبحق، عنك يا شيخ خليل، أنك ساحر؟ – ولكن حيّاك، هيا بنا نعود الى المنزل ونتناول شيئا من التمر."

المؤكد أن اليهود فى ذلك الزمن كان لديهم رأى أو فكرة خرافية عن خيبر؛ قال البعض منهم لى (فى الشرق) إن 'يهود خيبر هم بنو ريشاب (*) Rechab . – كما أن المستشرقين فى أوروبا كانوا يسألونى "ألا يوجد يهود حاليا فى خيبر؟" لقد تعرفت على مبشر لليهود فى الشرق الأدنى (الليفانت)، كان على وشك أن يركب حماره ويمضى قدما إلى خيبر، لولا أن داهمه المرض؛ وأن ذلك المبشر كان متحمسا لإدخال تلك الأغنام الضالة فى دين النصارى! ولكن إياك أن يخاطر أحد بحياته مرة ثانية من أجل خيبر! – وأنا أرى أن تلك التحركات قد تنقذ البعض من الموت: وأنا أعترف أن الله كافأنى على عملى! لأن من يريد أن يقرأ حكاية خيبر يجدها فيما يروى عن أولئك اليهود. حكى لى تجار القصيم أن"هناك أحفادا ليهود خيبر فى بغداد، وأن أولئك اليهود يعدون نبلاء (أصلاء asily) بين اليهود؛ هناك بعض آخر من أولئك اليهود فى الهند وهم من الأثرياء!" – ولكنى اكتشفت أن كلام هؤلاء اليهود غريب على آذان التجار اليهود (البغداديين) المحترمين فى مدينه بومباى.

فى الأسبوع الثالث من الأسر الذى كنت فيه فى خيبر، كتب عبد الله السروان، الذى يتخلق بروح العبيد، رسالة إلى باشا المدينة (المنورة). ولما كان حاكم القرية أمى، فإن الشيخ صالح كان هو الذى يقوم بدور الكاتب، ولذلك راح يكتب ما يمليه عليه عبد الله،" فى يوم من أيام الشهر الماضى، وعندما كانت بوابات خيبر مفتوحة فى فترة الصباح، وجدنا غريبا خارج البوابة ينتظر الدخول. وقد أبلغنا أن البدوى الذى وصل معه أثناء الليل تركه عند البوابة وانصرف لحال سبيله. وعندما سألنا عن جنسيته؟ أجاب إنه 'إنجليزى'؛ كما اعترف أيضا بأنه نصرانى. ونظرا لأنى لم أعرف كل ملابسات هذا الأمر فقد وضعته فى الحجز، كما استوليت أيضا على أمتعته، التى عثرنا فيها على

(*) ريشاب هو الجد الأكبر لليهود الذين استوطنوا خيبر . (المراجع)

بعض الكتب علاوة على ورقة من ابن الرشيد. وعليه فنحن تحت أوامر معاليكم، وفى انتظار أوامر معاليكم." – "قال عبد الله، هذا جيد تماما، اختم هذه الرسالة يا صالح. هل سمعت ذلك الذى كتبته أنا، يا خليل؟" – " لا تكتب سوى الحقيقة. متى عثرتم على أمام بوابة خيبر؟ لقد جئت راكبا على الملأ، إلى خيبر." – "لا، ولكنى لابد أن أكتب بهذه الطريقة، وإلا وجه الباشا اللوم إلى قائلا، 'لماذا جعلته يعانى أثناء الدخول؟' بقى ذلك الحطيمى فى المكان طول الليل، بالإضافة إلى أنه كان جومانيا! يضاف إلى ذلك أن ناقته كانت تربط فى الشارع، وأنا لم أكن أخشاه أو أخافه: – أوه يا ربى! أين كان عقلى؟ [قال اللص مغمغماً] كان بوسعى أن آخذ ناقته ! انتبهوا، يا كل الحاضرين هنا! من الآن فصاعدا مطلوب منكم جميعا أن تعلمونى بوصول أى غريب إلى هذا المكان، وذلك حتى يتسنى لنا القبض عليهم على الفور إذا ما اكتشفنا ما يشينهم أو يدينهم."

كان عبد الله السروان قد استولى أو صادر، فى تلك الأيام، ناقة شخص يتيم، – وقد أدى ذلك إلى كراهية الناس له جمعياً – هذا اليتيم كان بلا حول أو طول، إلى حد أنه كان يشرب حليب ناقته بنفسه: وعليه كتب عبد الله السروان رسالة أخرى للباشا، "لقد صادرت ناقته نظير الضرائب المتأخرة، وسوف أرسلها لسعادتكم؛ هذه الناقة تساوى خمسة عشر ريالا هنا فى خيبر، وقد تباع بخمسين ريالا فى المدينة (المنورة) ." وفى ورقة ثالثة دوَّن عبد الله السروان الحساب الخاص بضريبة العشور المستحقة للدولة: كانت كل مستحقات الحكومة فى المدينة تصل إلى حوالى ٣٦٠٠ ريال. [من أجل هذا المبلغ كان يتعين كل عام إرسال كتيبة من الجنود (لتلقى حتفها) إلى خيبر] . ولما كان رجال عبد الله لا يعملون طول الوقت فقد دونهم فى كشف المرتبات على أنهم أربعين فرداً. وعندما كان أحد يموت منهم، فإنه كان يحتفظ لنفسه براتبه إلى نهاية مدة خدمته. لم يكن يحضر اصطفاف جنوده إلا مرة واحدة كل عام؛ ولكنه بشىء من الخداع والغش، وذلك عن طريق استئجار أو إجبار بعض القرويين، على ارتداء الزى العسكرى مدة يوم أو يومين، كان يستطيع الإفلات من مرور كبار الضباط وتفتيشهم عليه؛ هؤلاء الضباط هم بدورهم مرتشون، وبالتالى فهم يستخفون بأعمال الغير الإجرامية. أضاف عبد الله تحيشية لرسائله." آمل من معاليكم ألا يغيب عن ذهن

سعادتكم حال أولئك العسكر الجوعانين العراة، وهم يتطلعون إلى معاليكم أن تنظروا إليهم نظـرة عطف وغوث." وهم لم يتقاضوا رواتبهم منذ حوالى اثنين وثلاثين شـهرا – يا لحال هؤلاء التعساء الذين غبنتهم الحكومة العثمانية، وجعلتهم يتحولون إلى لصوص ها هم الآن يفتحون قلوبهم المكلومة والمتعبة ويدعون الله ثم الباشا أن يسمعوا عن وصول خزينة khusna جديدة، أو إن شئت فقل: صندوق الرواتب، من اسطنبول إلى المدينة (المنورة). كانت تلك سنوات عمليات حربية مسرفة كانت تدور فى أوروبا، والتى سمعنا عنها أخبارا متضاربة ونحن فى هذه المسافة البعيدة. وعليه ختم عبد الله السروان رسائله التى أمضى فيها هو وكاتبه ثلاثة أيام، إلى أن بدء يستشعر الألم والصداع من جديد.

كانت تلك الأيام توحى عندى بالموت أكثر من الحياة؛ ولم يكن ذلك الوغد، المدعو عبد الله يسارع إلى تخليصى مما أنا فيه. كانت أمور القرية الحكومية يجرى تدبيرها والتعامل معها أثناء شرب القهوة؛ والويل إذا لم يصل صالح فى ساعة مبكرة، وكان عبد الله قد أرسل فى طلبه مشدداً على حضوره. هذا هو الشيخ التعيس الذى له قدم أقصر من القدم الأخرى يجيئ على وجه السرعة، وهو يضرب بعكازه سطح الأرض على نحو يسمعه الشارع كله، فى الوقت الذى يجلس الجمهور فيه صامتا، ودم الغضب يغلى فى وجه عبد الله الأسود. وعندما وصل الشيخ، 'لماذا لم تحضر إلى هنا قبل هذا الموعد يا شيخ صالح؟ كان يقول ذلك بنغمة وبنبرة تجعل ذلك الرجل العجوز يرتعد خوفا؛ لم يرد صالح حتى ولو ببنت شفة، سوى أن راح يجهز محبرته ويجهز أقلامه. شيخ القرية هذا لم يكن لديه متسع من الوقت كى يدبر شئونه وأموره الخاصة؛ ومقابل كل هذه المتاعب لم يكن الشيخ يتقاضى كل عام من حكومة المدينة (المنورة) سوى عباءة (بشت) قرمزى اللون: ولكن مصيره أصبح مرتبطا بالدولة التى كان يرحب بها ويحييها؛ وقد يخسر كل شيء ، بل وربما خسر حياته أيضا، إن قدر لابن الرشيد دخول خيبر مرة ثانية .

من عادة أولئك الشرقيين الجلوس طوال اليوم فى صالات القهوة، ولا يرتاحون سوى برهة قصيرة عند الظهر. ومن وجهة نظر أولئك الشرقيين، فإن تمضية الوقت

بعيدا عن المشاركة فى الأحاديث المشتركة والعامة بين الرجال، هى فى نظرهم ليست من أعمال الرجولة؛ يضاف إلى ذلك أنهم لا يسعون إلى علاقات منطقية ومعقولة مع الحريم. وهم يرون أن الحريم للخدمة المنزلية؛ وعندما ينتهى نهار اليوم الطويل، يخطر ببال رب البيت الدخول للجلوس مع الحريم. كان عبد الله السروان يشرب القهوة ويدخن التبغ فى قهوة الجنود؛ حيث كان يحلو له، فى معظم الأحيان، أن يحكى للجالسين معه حكايات عن شجاعته فى قديم الزمن وعن الرواج الذى شهدته المدينة (المنورة): وكان يدور على لسانه ذلك الحديث الذى يجرى تجاذبه فى صالات شرب القهوة، والذى يقوم على انتقاء الكلام، كما ينبض أيضا بالنشاط والحيوية. وفهم هؤلاء الشرقيين يشبه القمر، الذى يكون بدرا فى ذلك الجانب الذى يشع منه ضوء ضعيف؛ ولكن هناك ظلام كامل وموات كامل أيضا على الجانب العلمى. حكى لنا عبد الله السروان عن مهارته يوم أن كان خيَّالاً شجاعا، - وأنه رمى الرمح، وأقسم بالله، إلى ارتفاع يطاول عنان مآذن المدينة (المنورة)؛ وحكى لنا كيف كان يمشى مشية الجنتلمان فى المدينة، وكيف أنه كان يصلى كل صلواته فى الحرم النبوى؛ كما حكى لنا أيضا عن عدم ركوبه للنياق، نظرا لأن الطبيعة خلقته فارسا بالفطرة. قال إنه شارك فى إحدى الحملات التى أرسلت إلى الحجر؛ وأنه عندما عاد اكتشف كفرا (هجرة) على أحد الجبال، وأن أهل هذا الكفر، كانوا حتى ذلك اليوم، ثم أقسم بالله، لم يروا غريبا فى كل حياتهم. وقال لنا: إنه التقى بعض الرجال المتوحشين وهو فى طريقه إلى ينبع، - وأن ذلك حدث على جبل الروضه؛ وأن أهل التلال هؤلاء [وهم من الجهاينة] كانوا يمشون عراة اللهم باستثناء سترة من القماش يسترون بها عورتهم. وأن واحداً من هؤلاء الناس القدماء، والذى يبلغ من العمر تسعين عاما، جرى أمام حصان عبد الله السروان، وكان يقفز مثل عنزة برية تجرى بين الصخور؛ وأن كل ما كان يريده ذلك الرجل هو أن يكون مرشدا ودليلا للغريب. كان عبد الله السروان يتفاخر بأنه كان يشترى الخيول المكسرة نظير مبالغ صغيرة، ثم يبيعها بعد ذلك بأثمان أكبر بكثير من ثمن شرائها؛ كان نجم عبد الله السروان ساطعا فى المدينة (المنورة). كان له فى المدينة صندوق طوله أربعة أذرع وعمقه ذراع واحدة، وعرضه ذراع واحدة أيضا؛ وفى أيام

رواجه ويسره كان ذلك الصندوق يمتلئ بالريالات، وبقدر ما كانت تلك الريالات تصله بطريق سهل، كان هو الآخر ينفقها بطريق أسهل. كان لعبد الله السروان عبدا حبشيا فى المدينة (المنورة)، وأن ذلك الصبى الحبشى كان يرتدى ملابس بهيجة الألوان، وكانت لديه قطع من المسكَّرات فضلا عن النقود الأمر الذى كان يجعله يندهش ويتعجب؛ ولكن فى يوم من الأيام، علم عبد الله السروان بدناءة ذلك العبد ودونيته، فاستل عبد الله سيفه وراح يطارد ذلك العبد فى الشارع إلى أن أصابه بجرح، وباعه فى اليوم التالى لواحد من عشاقه نظير خمسة ريالات. – وفيما بين هؤلاء الشرقيين يبدو أن من حق رب البيت قتل خادمه أو إصابته أثناء نوبة غضبه دون أن يحاسب على ذلك، والقانون هنا يسكت ويتغاضى عن ذلك؛ وحسبما قال سيدنا موسى: 'إنه متاع شخصى.'

كان عبد الله السروان يتكلم، فى بعض الأحيان، عن حظه العاثر، لكى يستعرض أمامنا جسارته الإجرامية. أحضروه ذات مرة أمام المحكمة العسكرية بسبب العصيان والتمرد وتكسير الأوامر؛ وأمر الباشا بتجريده من الأسلحة التى يعلقها فى حزامه. – وفيما بينهم ليس هناك أقسى من وضع اليد بالقوة على شخص أى أحد من الناس. وعندما اقترب 'النبّال، 'استل عبد الله السروان واحدا من مسدساته، وأطلق طلقة، ولكنها أخطات النَّبال؛ واستل المسدس الثانى،" (قال للباشا): هذا لرأسك أنت؛" ورد عليه حاكم المدينة (المنورة)،" هل هو رجل أم شيطان ؟" ثم جردوه بعد ذلك من سلاحه وقيدوه." بقيت فى الحجز أسابيع عدة، وبالرعب ذلك السجن، إنه مجرد حفرة، وأرض رطبة، والهوام الزاحفة! ووالله، كنت أرشى السجان كل يوم وأعطيه ريالا، لكى يفك قيدى لفترة قصيرة، حتى يتسنى لى حك نفسى؛ ولكن مع مجىء الباشا الجديد، سرعان ماعدت إلى سابق عهدى مرة ثانية." حكى لنا وهو يتعجب من بعض المذنبين الذين يجرى وضعهم فى سجن المدينة أثناء الليل، وكيف أن هؤلاء المجرمين قد جرحوا أطرافهم وهم يحاولون إخراجها من تلك القيود، ثم نجحوا فى الهرب؛ كما حكى لنا كيف أن واحداً من هؤلاء المجرمين قطع عقبه حتى يتمكن من إخراج قدمه من القيد والهرب مع رفاقه! – هذا الكلام ورد ذكره عند هيرودوت، عندما كان يتحدث عن سجين إغريقى، عجز بعد ذلك عن إثبات جدارته أو رجولته: – والسبب فى ذلك "ألا يحاول

الفـأر تخليص نفسـه حتى وإن أدى ذلك إلى أن يتـرك وراءه طـرفـا من أطـرافـه في المصيده؟"

حمل عبد الله العلم وكان قد سبق له المشاركة في الحملات التي شنها العجيل من المدينة (المنورة). وتفاخر الرجل مرتين بأن الأعداء طوقوه، وفقني wafukny ربي ruby، بمعنى ولكن الله نجاه. - كان بوسع عبد الله السروان الحديث أيضا في شيء من الاحترام والتقديس عن بعض المدن والبلدان الشرقية العامرة بالحياة الإنسانية الطيبة. 'قال: يحكى أنه كان هناك رجلان متساويين في الثراء واليسر، وكان أحدهما مهندما على الدوام ، في حين لم يكن الآخر مهندما - وماذا حدث بعد ذلك ياسادة؟ - سأحكي لكم. كان الأول زوجا لامرأة جيدة دؤوبة، أما الآخر فكان متزوجا من امرأة حمقاء. - ومن هي أحسن النساء؟ سأحكي لكم، - انتبهوا فهذا كلام النبي (ﷺ)، - ' إنها تلك التي يمكن أن تلزم السكوت والصمت!' كان لديه أيضا بعض الحكايات عن عباد الله الطيبين، وعن الإسلام شبيهة [بما نقرأه في الأساطير الإغريقيه عن الآباء الآراميين] : - يحكى أن رجلا مباركا أمضى حياته كلها في عبادة الله؛ إلى حد أنه كان ينسى تناول الطعام. وجاء أمر الله؛ وراح النمل المجاور له يمشي فوق لحمه الحالم، ويرمي ما يحمله من ذرات في فم ذلك الوليّ ويتعهده بالرعاية. مرض عبد الله عدة أيام على إثر إصابته بحمى الوادي، كما مرضت زوجته أيضا بالمرض نفسه.

كان عبد الله قد سبق له أن أخذ زوجته معه إلى خيبر؛ كانت زوجته امرأة شابة سمراء اللون وابنة شقيق الشيخ. كان عبد الله يود الحصول على دواء مني، ولكن ضميره لم يطاوعه على الوثوق بالنصراني؛ ولذلك تحول إلى الشيخ صالح طالبا منه العون والمساعدة، وكان لدى الشيخ صالح كتاب قديم عن العلاج وعن السحر والرقى والشعوذة. قرأ الشيخ صالح في ذلك الكتاب ،' أن الإنسان ينبغي أن يشرب ملئ فنجال من فناجيل القهوة، من الزبد مع شيء من الفلفل على الريق في الصباح؛' وكتب الشيخ صالح حجابا أيضا لعبد الله السروان، على أن يربط ذلك الحجاب على شكل عقدة في غترته. - "هل هذا الملعون melaun مريض؟ تعجب العم محمد، يا ليت ربنا يأخذه!"

لم يكن أحد يطلب منى دواء سوى البدو: وفى فصل الشتاء كانت الحمى لا تنتشر فى خيبر على نطاق واسع.

طوال فترة مرض عبد الله، كان ينحى جانبا مهام منصبه ، وكان ينتهز تلك الفرصة ليحكى لنا حكايات شرقية لا نهاية لها عن المدينة (المنورة): – هناك ترويح عند الحضر، شبيه بالمسرحيات العامة والشعبية التى يمضى فيها المواطنون الأوروبيون ساعات طيبة. الأمر أكبر من ذلك ويتعلق بمسرات قلب الفارس القديم عند الشاعر الإنجليزى النبيل الذى يحكى عن " الرجل الفقير الذى يصعد تدريجيا ويصبح غنيًا". ولكن حكايات هؤلاء الأعراب الشرقيين الطويلة تكبر فى الآذان الأوروبية (بسبب الرتابة) لتصبح مجرد صلصلة من الأصوات المرتبكة. وحكى لنا عن ارتقاء ابن حظيظ من الحضيض إلى الزواج من بنات الملوك؛ وكان يضمن حكايته كثيرا من الوقفات المفرحة على الطريق، – الأخطار واليأس، والهدايا المتمثلة فى الأحجار الكريمة، وقوة الطلسمان، والعثور على الكنوز المخبأة والمقابلات السعيدة التى تنتظر المحبين المفترقين؛ كما كانت تلك الحكايات تحتوى أيضا على صوت البوق والنفير وعلى المعارك، ثم تجىء بعد ذلك الأيام السعيدة الآمنة. – ومع ذلك فإن أساطيرهم تبدو لنا بدائية ولا رابط فيها، وهى (مثل كل فنهم) تعد شيئا لا يرضى ضميرنا، نظرا لأن هذه الحكايات تبدو لنا غير منطقية. كان العم محمد يتذوق تلك الحكايات التى كانت من اختراع عبد الله السروان؛ وكانت تلك الحكايات من مظاهر الترويح عند أهل المدينة (المنورة) بل إنها كانت مليئة بالسحر والأعاجيب فى نظر الحبشيين . وعندما كانوا يمتدحون طريقته فى الحكى ،" قال لهم، كم سيكون ذلك أجمل وأحسن لو أنى حكيت لكم الحكاية باللغة التركية ، " (التى هى لغة طنانة ويتكلمها أهلها بملئ الفم). وإذا ما تصادف وجود أحد من البدو الرحل، كنت ألاحظ اشتياقهم وتعطشهم إلى سماع تلك الحكايات ؛ هؤلاء البدو الرحل لم يجدوا منقذا لهم فى تلك المادة العليلة التى تصدر عن ذهن عبد الله السروان المريض، بالإضافة إلى أن هؤلاء البدو الرحل لم يفهموا جيدا مصطلحات أهل الحضر الغريبة عليهم.

هؤلاء الخيابرة الذين اعتادوا على طغيان البدو قصير الأمد لم يكونوا مفصولين عن النَّير اليومى للدولة (الإمبراطورية العثمانية). هؤلاء الناس لم يجدوا لأنفسهم ملجأ أو ملاذا فى منازلهم، نظرا لأن عبد الله السروان كان يستدعيهم عندما وحيثما يشاء، من أمام وجاراتهم؛ يضاف إلى ذلك أن حريم أولئك الرجال كن يُضْرَبن أمام أعينهم وعلى مرأى منهم؛ – وهو يفرض عليهن حاليا الإتيان إليه ببعض الحطب! كان عبد الله السروان يرسل فى طلب كبار المتذمرين في القرية، ويتظاهر أمامهم بالشجاعة، ويحاول استرضاءهم عن طريق كلام الحكام الأتراك المعسول. "أليس الجنود يسكنون ويتموضعون هنا بأمر من الدولة لكم، فى هذه القرية؟ وأنا أقول لكم، أيها السادة: إن هؤلاء الجنود يتطلعون إليكم فى الحصول على الوقود اللازم لهم، – ما الذى يمكن أن يحافظ على بقاء نار هذه القهوة مشتعلة سوى الحطب؟ وهذا يعد تكريما لخيبر، فضلا عن استقبالكم والترحيب بكم فى المقهى. انتبهوا – كان الرجل يبدو خطرا بالرغم من ابتساماته ، وكان دائما يكرر ذلك المثل الذى أذهلنى: هل تدرون ما هى السلطة العسكرية؟ السلطة العسكرية مثل الحجر، الذى إذا ما سقط عليه أى إنسان انكسر، أما الدولة إذا ما سقطت على أى إنسان فأنها سوف تقطعه إربا إربا. أنا أتحدث إليكم كصديق، الدولة لها فم مفتوح عن آخره [إنها حكومة مجرمة تبتلع رعاياها] ، وهذه الحكومة تصيح دوما هات hat – هات hat – هات hat – أتدرون ما هذا؟ أيها الخيابرة، أنا رجل معتدل ومتزن، وأنا أستحق أن أكون بينكم: ولكنكم إذا ما استثرتمونى وجعلتمونى أضع عليكم أعباءً جديدة، فسوف ترون ذلك بأنفسكم وسوف أعرضه عليكم ! كان أفضل لكم ألا تشتكوا من مسألة الحطب تلك، لأنى أرى الآن أن أفرض عليكم ضريبة نظير الدخان الذى تزرعونه. – لقد اقتنعت بأنى إذا ما أخذت حقلا واحدا من بين كل ثمانية حقول، فسوف أحصل من خيبر على ما قيمته ألف ريال، ولكنى تنازلت عن ذلك لكم. ثقوا أيها السادة، أن كل ما سأفرضه عليكم سوف تقبلونه عن طيب خاطر، وبهذه الطريقة يزيد قدرى وترتفع مكانتى فى المدينة (المنورة). "

خيبر مقسمة إلى ثلاث مشيخات. الشيخ العطوى، وهو رجل قوى البنية، رئيسا للحى العلوى الذى يقع أسفل الحصن رد عن نفسه وعن حيه بأنهم لن يقدموا الحطب

بعد اليوم'. أرسل عبد الله فى طلب الشيخ العطوى؛ ولكن العطوى لم يذهب إليه. أدخل عبد الله اثنين من رجال العطوى السجن: عطوى قال: إن ذلك لا يصح؛ وبناء عليه حمل رجال حى العطوى العكاكيز والسيوف القصيرة وأقسموا على كسر باب السجن وإطلاق سراح الرجلين المسجونين. كان نصف عسكر العجيل الموجودين فى خيبر، عاجزين، بسبب المرض، عن حمل أسلحتهم؛ واستطاع الزنوج الأشداء، فى حالة هياجهم، أن يتغلبوا على رجال السروان الضعفاء الذين يرثى لهم – وهنا أرسل عبد الله السروان فتوته سرور، بصوته الجهورى، لتهديد أولئك المتمردين: ولكن ذلك الحبشى الجبان اندهش عندما نظر إلى وجوههم العابسة، ورأيته وهو يتسلل عائدا إلى منزله ومنه إلى عبد الله؛ الذى قال لوالد زوجته القروية، بعد أن علم بهياج البلدة: "وحتى أنت لن تسامحنى؟" ورد الرجل عليه، "رأسى مع رأسك!"

وهنا نادى عبد الله، الذى وهب حياته للموت من أجل الدولة، على رجاله وطلب منهم حمل السلاح؛ وتناول مسدسيه اللذين كان يحتفظ بهما على الجدار، ونزل إلى الشارع وقد تملكته شراسة العسكريين الأتراك؛ وصمم على' إقناع المتظاهرين، وإذا لم يقتنعوا فسوف يسفك الدماء ويهدرها '. – وجد أن ثورة الزنوج قد هدأت بعض الشىء: ونظرا لأنهم لن يقدروا على قتال 'الدولة' فقد بدءوا ينصرفون بطريقة هادئة: كما وعدهم عبد الله بإطلاق سراح السجينين.

دخل عبد الله القهوه، – ثم نادى على الشيخ العطوى للمرة الثانية؛ وحضر إليه العطوى ومثل أمامه، – وراح يقدم بعض الأعذار المقبولة، " قال: إنهم لم يهتموا بالأمر، بالرغم من أنهم قدموا شيئا من الحطب من أجل خاطر عبد الله، ولولا ذلك لما أجبرهم أحد على تقديم ذلك الحطب". تحول عبد الله ناحيتى وقال: " ياه! لعلك رأيت الآن يا خليل، كيف أن الخيابرة شياطين! ألم تكن خائفا من هذا الهرج والمرج؟ أنا هنا فى خيبر أمثل الدولة، وهؤلاء الجنود تحت إمرتى؛ ولكن ماذا كان يمكن أن يكون مصيرك، ما لم أكن أنا هنا اليوم؟" – "لقد آوانى سقف مضيفى، ثم تجيئ بعد ذلك نية الناس الحسنة." "صاح عبد الله، قل للخيابرة: يلتزموا، ولا يسببوا له أية مضايقات أو متاعب؛

وإلا، وأنا أقسم بالله، سوف يرتدى حذاءه ويركب عائدا إلى المدينة (المنورة)! وهنا سيقوم الباشا بإرسال حاكم جديد إليكم، ولن يكون ذلك الحاكم سهلا معكم مثلى، وإنما سيكون واحدا من أولئك الذين يقصمون ظهوركم ويبتلعونكم: أما فيما يخصنى، فوالله سوف أعود إلى منزلى وإلى أطفالى فرحاً."

سألت العم محمد عن تلك الأسواق (الأحياء) الثلاثة (التى كانت ثلاث طوائف إن صح التعبير) الموجودة فى خيبر؛ وهذا هو ما قاله لى هذا الرجل عن تلك الأحياء الثلاثة، لتكون مثالا على حياة أهل الجزيرة العربية المشتركة. [راجع الجزء الأول] - أقارب الخضيران KHUTHERAN، وهم يمثلون أكثر من نصف سكان خيبر، ورئيسهم الشيخ صالح: وهم ثلاثة أنساب الكَّران el-Kirran، وهم حلفاء الشيخ صالح؛ ثانيا الجرار el-jerrar، الشيخ عوّاض Auwad ؛ - ومنصب الشيخ عواض وراثى، وهو يقوم بدور المحُكَّم فى القرية، هذا الرجل كان أميا. وكان أسود البشرة مثل بقية الناس، ولكنه كانت فيه أصول عربية، وكانوا يطلقون عليه فى خيبر اسم المغربى؛ قال لى: إن أرض أجداده هى مدينة سوس فى المغرب. - النسب الثالث هو النُّعابَه Noaba، الشيخ إبراهيم ووظيفته فى القرية هى تحديد الدية، أو إن شئت فقل المدّة فى حالة القتل. النسب الثانى هو المحلف muhallaf وهو تحت رئاسة الشيخ العطوى، ويشتمل على أربعة طوائف هى: الحدايد، والجواد Guad والشيفات Asheyfat والَشرَّان. والنسب الثالث هو العم محمد، لم يجر تسجيله، اللهم إلا إذا كان يضم أولئك الذين يسكنون فى أم كيدة، التى يطلق على ساكنيها اسم العطيفات؛ والعطيفات ينقسمون إلى طائفتين: السلُّوت Sellut - وهم ثلاث قرابات الحنانية، الحيارة، والعفارة - ثم المجارد Mejarid وهم ثلاث قرابات الشلالى، والزَّيادة ثم التويم. وعند البشر أو إن شئت فقل: فى قرية خيبر الرئيسية يوجد حوالى مائتى منزل أو أكثر من ذلك؛ وفى أم كيدة يوجد حوالى ثمانين منزلا؛ وهجرة العزمية فيها حوالى عشرة أو اثنى عشر منزلا. وسكان وادى خيبر بكل قراه وديانه لا يزيدون على ألف نسمة.

كان عبد الله، الذى لم يكن يعرف سوى الخصائص البسيطة للأعداد يحصى عدد هؤلاء السكان على أصابعه بالعشرات، ولكنه لم يكن يستطيع مواصلة العد، وبخاصة عندما يتطرق العد إلى الآلاف. - وعندما كان يحاول تسليم فاتورة تركية عن الخدم والخدمة قال وهو يبتسم ابتسامة ماكرة قد تغاضى عن كيت وكيت من الأمورالصغيرة، حتى إذا ما اكتشف الباشا خطأ فى أرقامنا يكون لدينا ما نعوض به ذلك الخطأ.' كان ذلك الحاكم الأمى يعلن ذلك على الناس، وكان يخاطب الحاضرين ويسألهم،' هل يوافقونه ،أيها السادة؟' لم يكن عبد الله يخرج مع الشيخ صالح للجلوس معه فى شرفة بيته إلا فى الحالات الخاصة جداً. كان عبد الله قد استاجر دخيل (ليس المنهلى)، الذى هو واحد من أفضل القرويين السود، ليحمل معه ميزانية حكومته، نظير أربعة ريالات، ويذهب معه إلى المدينة (المنورة). دخيل هذا الذى كان يعمل، إلى جانب محمد النجومى، صياداً فى خيبر، كان هو الآخر يسافر ماشيا على قدميه: ونظرا لخطورة الطريق سافر دخيل إلى المدينة لابسا ملابسه (بالرغم من أن الوقت كان منتصف فصل الصيف) التى كانت عبارة عن تونك من البفتة؛ وخلف وراءه القسم العلوى من ملابسة.

مرت علىَّ أيام ثقيلة فى خيبر إلى أن عاد دخيل إليها مرة ثانية؛ وبدأ أولئك السود من البشر ينظرون إلى النصرانى نظرة تنطوى على الشر والشك، - لأن الباشا قد يقضى بإعدامى. كانت نظرات عبد الله التركية توحى بالغدر والخيانة؛ وكان ذهن عبد الله معلقا بين تشدده الدامى من ناحية والخوف من ذكرى جدة ودمشق من الناحية الأخرى: كان سرور، ذلك الوحش، هو مستشار عبد الله. - معروف أن الأحباش يكنون كراهية لا تعرف الحدود لكلمة نصرانى: وربما كان ذلك راجع إلى أن القبائل المجاورة لحدودهم تدخل فى عراك مستمر مع المسيحيين الأحباش.

كان لعبد الله مستشار آخر يقول له 'عمى' - علىَّ ذلك الشيخ المتدين، مؤذن الصلاة، وناظر مدرسة القرية. الناظر إلى وجه الشيخ على، يراه مليئا بالتباين الغريب، وكان يخال لى شخصيا أنه مصاب بمس من الجنون: - كل المتشددين هنا هم من أصحاب الوجوه المشوهة وشكلهم بائس، ومزاجهم عجيب وغريب. سألت العم محمد،

وتذكر الرجل أن والدة على ماتت بسبب شيء فى عقلها. كان على يهمس دوما فى أذن الحمار عبد الله، أن النصرانى عدو adu الدين ed-din،' (قال): إن حكم الله يقضى أن أموت بسيف المسلمين. ولعل عبد الله يقتلنى! يصيح وجه القرد؛ إذا لم يقوى هو على القيام بذلك القتل بنفسه، فإن عليه أن يكلف من يقوم بتنفيذ ذلك . وإذا ما ترتب على ذلك أى نوع من الضرر، فإن مهمة المؤمنين بالدرجة الأولى هى مراعاة طاعة الله.' – أبشع ما فى الأمر أن صالحا شيخ القرية، ذلك المستشار الحصيف العجوز، كان يقول لعبد الله: إن عليا معه الحق فيما يذهب إليه!

عندما سمع محمد النجومى عن تلك المشاورات التى يجريها عبد الله لم يتورع عن إظهار احتقاره واستيائه. قال عن على: "الكلب، العبد! إن قيمته كلها لا تساوى أكثر من عشرة ريالات [معتبرا أياه، فى موجة الاحتقار والازدراء، مجرد عبد من العبيد] : أما فيما يتعلق بذلك الحمار المدعو عبد الله، ذلك الطمَّاع، فإن والده اشترى المرأة التى أنجبته بخمسين ريالا!" – ولكن تصرفاتهم تلك شجعت أصحاب النفوس الضعيفة فى القرية، وبلغنى بعد ذلك أنهم بدءوا يهددون بفتح النار على الكافر ليردوه قتيلا، على أن يتم ذلك أثناء سيرى فى المسارات (المسورة) بين مزارعهم. من هنا امتنع العم محمد عن عدم اصطحاب سيفه معه عندما نكون سويا. واحتقارا للقرويين السود قال العم محمد " إنهم قردة، وليسوا من أبناء آدم؛ آه! من منهم الذى يجرؤ على التدخل فى أمورى؟ حتى ولو كان ذلك الأمر مجرد كلب أو فرُّوج فى منزلى ! ولكن الشيخ خليل يأكل معى كل يوم فى طبق واحد." وأردف ذلك الرجل القوى يقول:' إن من سيضع يده على خليل سوف يقسمه العم محمد الى قسمين؛ وإذا ماجرؤ أحدهم على رش خليل بالماء، فسوف يرشه هو بالدم!'

عندما جلسنا مع عبد الله، وجدناه يبتسم للنجومى بطريقته التركية؛ وكان العم محمد هو الآخر يبتسم ابتسامة طيبة فى وجه عبد الله. "(قال): ولكن ليعلم الجميع أنى لا أخاف الدولة، ولا ستين دولة؛ وأنا هنا، يا عبد الله، مثلما قالت النعامة للبدوى ذات يوم، 'إذا كنت قادم لاصطياد الإبل، ألست أنا طائر؟ ولكن قرِّب منى هنا، انظر يا سيدى.

أنا جمل بالفعل.' وعليه إذا كان الأعراب سيسببوا لى المتاعب فأنا دولانى، – أنا واحد من مواطنى المدينة (المنورة) – حيث أستطيع حمل سيفى فى الشوارع [وهذا مقصور فقط على الضباط وعلى البدو والذين يزورون المدينه]، والسبب فى ذلك أننى خدمت الدولة. وإذا ماحدث ما يعكر الصفو بينى وبين الدولة، فأنا رجل حربى، وقد أتوجه إلى الفراع [فراع بنى عمر Amr]؛ تلك هى قرية أمى، وهى فى الجبال [التى على الدرب الأوسط] الواقعة بين عمومتى، وليست هناك دولة يمكن أن تأتى بى من هناك إلى هنا، يضاف إلى ذلك أننا لا نعترف بالدولة فى ذلك المكان؛ لأن المدخل إلى تلك القرية ضيق كما لو كان بوابة فى جبل، الأمر الذى يمكن ثلاثة رجال فقط من السيطرة على ذلك المدخل ويمنعون آلافا من الدخول من خلاله." – بهذه الطريقة دافع النجومى عن دورى الوحيد، طوال تلك الأيام والأسابيع والشهور التى مكثتها فى خيبر؛ – رجل واحد فى مواجهة ألف رجل ! ومع ذلك، فإن العيش وسط تلك الألسنة النابحة، والذى يتعين عليه أن يعيش بينها ومعها، يجعل قلبه الطيب الأمين يهلع خوفا فى بعض الأحيان (وهذا القلب يقظ كما هو الحال فى العرق البدوى المترحل). ولكنه استسلم لذلك المزاج الشعبى إلى حد أنه كان يتحاشاتى فى بعض الأحيان، عندما نكون على مرئى من الناس: والسبب فى ذلك أنهم كانوا يتصايحون معه يوميا ويقولون له: إنه يأوى نصرانيا! – "قال لى:آهٍ ! يا خليل أنت لا يمكن أن تتصور وتتخيل مدى حقدهم وغلّهم!"

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى حابى النجومى فيها الغرباء على نحو أثار قلق ومتاعب الخيابرة. – وهذا هو واحد من تجار المدينة (المنورة) جردوه من ملابسه وأصابوه بجرح فى الصحراء أثناء قيامه برحلة إلى خيبر؛ ووصل الرجل إليها عاريا من ملابسه. لم يكرمه القرويون السود؛ وجلس مواطن المدينة على المصاطب العامة ينتظر، دون جدوى، أن يدعوه رب من أرباب البيوت. فى النهاية مر أحمد على ذلك التاجر؛ وعندما شاهد الغريب رجلا أبيضا، – واحدا لابد أن يكون (فى بلده) من مواطنى المدينة (المنورة)، فقال له:" ما الذى يمكن أن أفعله، يا ابن مدينتى؟ ممن أستطيع أن أقترض بضعة ريالات لاشترى لنفسى ملابس؟" أحمد:"فى آخر هذا الشارع يجلس رجل أبيض! اطلب منه؛ أنت داكن البشرة، إلى حد أنى حسبتك واحداً

من البدو!" اقتاده العم محمد فى رفق وحنان إلى منزله وكساه: وبقى ذلك الرجل الجريح مع من أحسن إليه هو وأحمد طيلة شهرين أو ثلاثة أشهر إلى أن تمكنا فى النهاية من إعادته ، إلى المدينة المنورة، وأنا عندما أذهب الى المدينة المنورة، ويسمع ذلك الرجل عن مجيئى، يبادر بالمجيء إلىَّ ويأخذنى إلى بيته، ويقيم لى وليمة ويفرح ويهلل لمقدمى." – هذا الورع الإنسانى الذى تمثل فى هذا الرجل كان من قبيل شكره وحمده للعناية الإلهية التى جعلته ميسور الحال، وغفرت له جهل شبابه.

فى عام آخر، – كان ذلك فى زمن حكومة بن الرشيد – عندما كان النجومى يشترى ويبيع التمر والملابس القطنية فى سوق الحصاد فى خيبر، جاء له، فى تلك الأيام، بعض العنوز وهم يقتادون بائسا عاريا، من حبل لفُّوه حول عنقه، وكانوا يدورون به فى شوارع المدينة: كان ذلك الرجل من الحطيم؛ وكان البدو يصيحون فيه وهم غاضبين، لأنه منع الخوة، التى تقدر بعشرة ريالات! وقد أحضروه ليروا إن كان هناك أحد فى خيبر يعرفه ويدفع عنه تلك الخوة؛ وإذا لم يجدوا من يدفع عنه فسوف يقتادوه إلى خارج البلدة ويقتلوه. كان ذلك المسكين يتوسل طلبا لإنقاذ حياته وقال:"النجومى سوف ينقذنى:" ولذلك جاءوا به إلى الرحبة، التى كان مسكن النجومى فيها فى ذلك الوقت، ثم نادى الحطيمى بأعلى صوته. وجد محمد النجومى أنه لا يعرف ذلك الرجل الحطيمى: ومع ذلك قال للعنوز: "فكوه." – " لن نفكه إلا بعد أن نحصل على الريالات العشرة." – "ولكنى أقول لكم: فكوه، جبرا لخاطرى." – "لن نفكه." – "إذن أصعد يا أحمد وعد إلى ومعك عشرة ريالات من الصندوق." "أعطيته قربة ماء، وتمرا ودقيقا يكفيه فترة الرحلة، وتركته يذهب لحال سبيله. بعد ذلك بأسبوع عاد إلى ذلك الحطيمى ومعه عشرة ريالات، ومعه خروف سمين هدية لى."

كان محمد قد تعلم (من جار له) فى المدينة مهنة التوفكشى(*)، وقد برع تماما فى هذه المهنة؛ وكانت إنسانيته طاغية دوما. كان بدوى يحمل، فى موسم الحصاد، جوالا

(*) التوفكشى: كلمة تركية الأصل معناها 'من يصنع البنادق ويصلحها ويصونها' . (المترجم)

من التمر ويصعد به سلم محمد النجومى؛ وانزلقت رجل هذا الرجل فانكسرت. وقام محمد بذكائه الفطرى، الذى يسمونه هوس hawas ، بجبر العظام، وراح يتعهد ذلك الرجل ويرعاه إلى أن اكتمل شفاؤه؛ وإلى يومنا هذا ما يزال ذلك البدوى يحضر لمحمد النجومى، كل عام، هدية من السمن والحليب المجفف. عثر محمد النجومى، فى مرة أخرى ، على شخص مجروح وكان ينزف نزيف الموت: خاط فتحة جرح ذلك الرجل بخيط من الحرير، وأعطاه جرعة ساخنة من الزعفران، كما أعطاه كمية من الفنجين، حوالى أوقيتين أو ثلاث أوقيات، قال لى: إنها كافية. وتوقف النزيف وشفى الرجل.

الفصل السادس

حياة المدينة فى خيبر

أسرة العم محمد الكردية. حياته بدءا من شبابه. ولده حَصين. دينه الصادق السهل. هو زاجر فى بيته. أحمد. ثعلب أسود. أنواع الغزال. النجومى رامى ماهر. بصره العجيب. جاهلية شبابه. محوِّر المعادن. قتل شقيق. قلبه يحترق لهفة إلى الثأر. قتل رامى بدوى بنيرانه فى مهمة من المهمات. معركة دائرة. إصابته بجرح. رجال الباشى بازوك أشباه الشياطين. المعترين فى دمشق. كرم العرب وضيافتهم الدينية. حكاية سورية عن دب. المدن الإسلامية والمدن المسيحية. ذهاب محمد فى صباه، ضمن عصابة، من المدينة، للسطو على قافلة من قوافل الحجاج. إنقاذه لحياة حاج. لهابة حرب، مجموعة من اللصوص. حكايات اللُّهابة. المسلمون غير الكاملين فى الحج. العثور على مسيحى فى المدينة. وفاة الشهيد. راهب فى المدينة. محمد يشاهد مسيحيا آخرا فى المدينة. يهود ونصارى. 'ابن من يكون المسيح؟' محمد يرد تحية الرجال العدول، منذ شبابه. كهف الشهداء فى بدر فى موقعة حنين. دخيل يعود فى غير موعده. الشكوك تحوم من حول حياة النصرانى. طيبة العم محمد وسواد قلب عبد الله. وصول دخيل فى الليل. كلام عبد الله المتعجرف." الإنجليز أصدقاء للسلطان وليسوا متمردين عليه. "أندلسية العرب. خطاب من الإنجليز إلى باشا المدينة. خطاب عبد الله. إعطاء شىء من الاهتمام للدواء.

كان والد العم محمد كرديا من أعالى سوريا، وبالتحديد من قرية بيلان Beylan، بالقرب من أنطاكية (حيث توجد الأسرة لحد الآن)؛ اسم هذه الأسرة باللغة الكردية هو Yelduz بمعنى 'نجم' ولذلك فالعم محمد يطلق على نفسه فى الجزيرة العربية لقب 'النجومى'.

كان النجومى الأب مورّد موّاد غذائية فى المدينة (المنورة) مع الباشى Bashy بازوك (*) Bazuk . كان النجومى الأب يجلب القوافل الحاملة لتلك المواد الغذائية بنفسه من مدينة ينبع ويمر بها من ذلك الممر الخطير؛ تزوج ذلك الرجل الطيب من امرأة من قبيلة حرب، هذا الزواج خلّص النجومى الأب من الأمة الكردية؛ يضاف إلى ذلك أن هذا الرجل كان شهيرا بكرمه الرجولى والإنسانى مع البدو كلهم وبلا استثناء. كان النجومى الأب يحصل على ثمن بضاعته من كشوف مرتبات الجنود (التى كانت تتأخر دوما)، مع إجراء شىء من التخفيض؛ وكان النجومى الأب يبيع تلك الأوراق المالية للتجار بالسعر السائد. ثم أصبح النجومى الأب تاجرا كبيرا من تجار المدينة المقدسة.

كان النجومى الأب جنديا بمعنى الكلمة كما كان أيضا أباً صارما وقاسيا؛ وعندما توفى ذلك الرجل لم يترك لأولاده الثلاثة الذين كانوا جنوداً مع الباشى Bashy بازوك Bazuk سوى البنادق والأسلحة التى كانت فى أيديهم هى والخيول؛ – كان لدى النجومى الأب ستة أو ثمانية خيول فى الإسطبل. ترك النجومى أولاده وهم يخدمون فى قوات الدولة (الإمبراطورية العثمانية)، وتمنى على أولاده أن يكونوا شجعانا: قال لهم إن ذلك يكفيهم فى هذه الدنيا. وقد أعطى محمد النجومى كل بضاعته هى والمنزل لأم هؤلاء الأبناء بالإضافة إلى معاش آخر أعطاه للزوجات الأخريات؛ كما عين النجومى الأب واحداً من أقرب أقاربه للدفاع عن تلك الزوجة إذا ما جار أولاده عليها. – باع الأولاد الخيول، وسرعان ماضيع محمد النجومى، وهو أكبر هؤلاء الأبناء، ثمن تلك الخيول فى العربدة: وطمعا من محمد النجومى فى تعويض ماخسره راح يلعب القمار وألعاب الحظ. وبعد أن أساء التصرف فيما معه، وبعد أن أضاع وقته وماله، وجد نفسه صفر اليدين: وقد أدى ذلك إلى إفقار أخويه.

وبعد أن جرى تسريح قوات الباشى بازوك، انخرط كل من محمد وأحمد النجومى فى عمل متواضع؛ أصبحا كنّاسين فى المعبد أو إن شئت فقل: أصبحا زبّالين،

(*) الباشى بزوك: مصطلح تركى معناه 'قوات بلا قائد أو رئيس' وقد ترجمت هذا المصطلح السيدة/ زهرة تلك، وهى تركيه الجنسية وتعمل سكرتيرة بالسفارة التركية بالقاهرة . (المترجم)

إذ كانا ينقلان يوميا الزبالة على الحمير وكانا يتقاضيان ثمانية بنسات أجراً على ذلك. يضاف إلى ذلك أنهما كانا يعملان باليومية نظير ست بنسات ليقوما بتقليم النخيل، وري المزارع، والحفر، وبناء الجدران والأسوار فى البساتين. وعندما ضاق محمد ذرعا بتلك الأعمال قصد أصدقاء والده، واقترض منهم مائة ريال. وبدأ يتجر فى الملابس القطنية؛ ولكن مكسبه اليومى بلغ من الصغر حداً عجز معه محمد النجومى عن الوفاء باحتياجاته ومتطلباته المعيشية، وفى النهاية وصلت ديون ذلك الرجل إلى أكثر من أربعمائة ريال.

اشترى محمد النجومى بالكراونات القليلة المتبقية معه فرسا مكسورة، ثم اتجه بها إلى قرية خيبر؛ وفى خيبر راحت الفرس ترعى (دون كلفة عليه) فى الوديان الرطبة، وتحسن حالها وشفيت فى نهاية المطاف؛ وباع محمد النجومى تلك الفرس بضعف ثمنها فى المدينة (المنورة). وفى خيبر أيضا اشترى محمد النجومى بقرة، وحصان وأصبح مالكا لعبد أيضا؛ وباع محمد النجومى هذه الممتلكات بالطريقة نفسها، وكرر هذه العملية مرات ومرات: - ثم تحول إلى تاجر للملابس والقماش والتمر أثناء فصل الصيف فى سوق خيبر. وعندما وجد أن حاله قد تحسن فى الوقت المناسب، وزاد ما فى يده من مال، سدد مائتى ريال من دينه القديم. دام حال هذا الرخاء اثنى عشر عاما مع محمد النجومى، وبذلك أصبح شيخا لتجار فصل الخريف (الذين يجيئون من المدينة المنورة)، ثم استقر الرجل فى خيبر: لأنه سبقت له الإقامة فترة من الوقت فى كل من قرية الحياة، والمدينة (المنورة) .

فى العام التالى لدخول الدولة (الإمبراطورية العثمانية) خيبر حضر أحمد النجومى ليعيش مع شقيقه فى خيبر. لم يتحسن حال أحمد فى المدينة (المنورة)؛ التى كان يقضى وقته فيها فى المقاهى، محولا ما لديه من نقود قليلة إلى دخان؛ وكان أحمد قد بلغ من الفقر حداً عجز معه عن دفع ريال واحد، هو أجرة العودة من المدينة (المنورة) إلى خيبر مما جعل أخيه محمد النجومى يتقدم لدفع ذلك الريال؛ - وصل أحمد إلى خيبر مكروبا إلى حد أنه كان يقول: إن عزاءه هو أن أخيه الطيب سوف

يدفنه بيديه!' – استطاع محمد ، بفضل تجارته الصيفية، شراء (حق القروى) كل عام، فى بلد (حقل) من البلاد نظير أربعين أو خمسين ريالاً. كان محمد النجومى يمتلك أيضا ثلاثة منازل، اشتراها من ماله، كما اشترى أيضا فرسا نظير ستين ريالاً. كان لدى محمد النجومى سبع بقرات، وعندما كانت تلك الأبقار تلد، كان يبيع بعضا من تلك العجول، ليسدد مائة ريال أخرى من ديونه. وهذه بضع عنزات قليلة، حصل عليها منذ سنوات، من تجارته مع البدو الرحل، تحولت إلى قطيع من الماعز؛ وكان رجلاً من الحطيم يرعى تلك الماعز مع قطيعه فى الصحراء. وازدهر حال أخيه أحمد أيضا: "قال محمد النجومى: هل تعلم أنه يعيش حاليا فى منزله الخاص! أحمد أصبح الآن تاجرا رائجا، كما اشترى لنفسه بلدا أو اثنين."

حصين Haseyn ، ولد العم محمد الوحيد، تربى مع جدته أم والدته فى المدينة (المنورة)؛ وكان والده قد أرسل له مؤخرا يطلب منه الحضورإلى خيبر. وفى العام التالى اختار الأب محمد النجومى زوجة بدوية لولده الذى يبلغ من العمر ستة عشر عاما. كان محمد النجومى يزجر ولده ويعنفه فى كل وقت وحين لأن والده، على حد قوله، كان يفعل الشيء نفسه مع أبنائه: – كان النجومى يتطلع من وراء ذلك الزواج المبكر إلى تقوية نفسه عن طريق الأحفاد. هذا الرجل الطيب قال: إنه سوف يقسم تركته إلى ثلاثة أقسام: قسم منها لنفسه، والقسم الثانى لأخيه أحمد، والقسم الثالث لولده الوحيد حصين. كانت أم حصين قد ماتت وهى فى شبابها، ونظرا لأن النجومى كان يحبها حبا جماً فقد بقى بلا زواج طوال سنوات عدة: كانت زوجة أخرى من زوجات النجومى قد ماتت هى الأخرى فى سن مبكرة؛ – كانت هذه الزوجات من حريم المدينة (المنورة) وعندما كان محمد النجومى فى المدينة (المنورة) كانت له جارة تتردد عليه لتطبخ له طعامه، وتجلب له الماء والحطب. أخيرا، وبعد أن لامه الناس على وحدته تزوج من امرأة بدوية؛ ولكن هذه الزوجة لم تطق أو تتحمل الخدمة الشاقة مع ذلك الرجل الحضرى، ونظرا أيضا لأنها كانت حبيسة وديان خيبر، فقد رجت محمد النجومى التخلى عنها وتركها لحال سبيلها وتطليقها: وحقق الرجل لها ذلك الذى كانت تطلبه: كانت ربة البيت التى كانت معه فى ذلك الوقت من القبيلة نفسها. وسعيا من

محمد النجومى إلى تقوية نفسه، قال: إنه يود شراء عبد زنجى متين، وذلك بعد زواج ولده حصين. وفى العام الثالث فكر محمد النجومى فى تحرير ذلك العبد، وتزويجه، وإعطائه عددا من النخيل يعيش منه هو وزوجته: هذه الأسرة المحررة ستكون خدما لمحمد النجومى، وأنصارا لأطفاله إلى أبد الآبدين.

قلب ذلك الرجل كان يتدفق مرحًا، حتى فيما يتعلق بالدين. تراه يقول:" يحكون عن الجنة وعن جهنم، ولكنى أسألهم: 'كيف تعرفونهما، ياسادة؟ هل رجع لنا أحد من هذين المكانين؟" بالرغم من كل ذلك، كان محمد النجومى متدينا وورعا، ولم يكن مجرد رجل شكلى فى الدين. سألنى، "هل ما يقولونه فى عقيدتك هو، فى الأساس، واجب الإنسان تجاه ربه؟" – "أن تحب الله حبا جماً، وأن تحب جارك مثل حبك لنفسك." – " ولكن هذا أمر سهل، يا خليل ! الله (سبحانه وتعالى) يعلم أنى أحبه! أتمنى ألا يضيق ذرعا بطلباتى الكبيرة منه (فى صلاتى): وأنا بحق أحب جارى مثل حبى لنفسى!" كان الرجل يصلى الفجر، والظهر، بعد أن يغسل أعضاءه التناسلية من ماء ينبوع الصفصافة التى يوجد بالقرب منها مصلىً، محدد ببضعة أحجار: كما كان يصلى أيضا فى المساء ويكتفى بذلك؛ لأنه كان يقول لى: 'لقد تعبت من الصلاة.' وفى فترات العصر كان الرجل يقرأ شيئا من القرآن وهو جالس فى منزله.

فى أيام الجمع كنا نذهب إلى عملنا البستانى فى نفس المواعيد المعتادة.؟ كان المتعصب يهمس بالقليل أو بلا شىء من دينه (الرسمى)؛ والسبب فى ذلك أنه كان يأوى فى بيته عددا من أعداء العقيدة، أو إن شئت فقل: ساحر. سمعت زوجته البدوية وهى تؤنبه مبتسمة، "يا محمد، أذهب إلى المسجد فى بعض الأحيان، لأن الناس بدأت تتهامس وتقول أنك لا تصلى! "وبالرغم من أن النجومى كان يحتقرهم ويحتقر حقدهم، إلا أنه أصيب بشىء من الارتباك؛ والسبب فى ذلك أن إهمال مظاهر الدين، يتساوى تماما مع إهمال أولئك الأشخاص الخرافيين للشخص نفسه – تعجب محمد النجومى بتهكمه المعهود،" كل إنسان مقتنع بعقيدته! – وأنا أقول: هل الله رجل، وأنه ينبغى أن يعاقب الفقراء، لمجرد أنهم لم يعرفوا الطريقة الصحيحة التى يعبدون الله عليها؟

[خلاص ابن آدم الأبدى خاضع لفكره الضعيف، والاختراع المستحيل للحقيقة المقدسة، فى المسألة المرتبكة لترائى هذا العالم بلا أساس منطقى أو تفاهمى!] واذا ما قدر أن يكون الله رجلا، ألا يكون رجلا طيبا! ولكن الله كله خير، كل الخير؛ ومن هنا أنا أرى أن الله سوف يرحم الجنس البشرى كله."

محمد النجومى، بالرغم من كونه رجل محترم ومحبوب، إلا أنه كان جنديا فى أسرته. وأنا عندما ألقيت باللوم على محمد النجومى قال:' أنا أُعنِّف زوجتى لأن المرأة' يجب أن تظل خاضعة، وإلا فسوف تحتقر زوجها." كان يؤنب دوما زوجته البدوية الصبورة الجادة بأن يقول لها: 'ملعونة Malaunat الجنس ej-jins . كان محمد النجومى ينتوى الزواج من امرأة أخرى تكون من اختياره هو وحسب هواه؛ والسبب فى ذلك، على حد قوله: أن هذه الزوجة ليست جميلة؛ واشتياقا منه أيضا إلى إنجاب المزيد من الأطفال، بالرغم من أن هذه الزوجة أنجبت له أطفالا ثلاث مرات خلال خمس سنوات، – ولكن اثنين منهم ماتا بسبب هواء خيبر: "قال: الزوجة يجب أن تكون من أصل طيب، ويجب أن تكون كريمة وحرة." كان يعنف ابنه وزوجته بصورة مستمرة؛ ولم يكن العم محمد شخصا معتدلا إلا مع ضيوفه فقط. شاهدته ذات مرة – وتلك هى سلوكيات المدينة غير المتحضرة – وهو ينهض واقفا ليضرب ولده ! ووقفت البدوية بينهما لتحمى ابن ضرتها، بالرغم من عدم إشفاق ذلك الولد عليها. أمسكت ذراع النجومى ومع ذلك، أصابت قوته تلك المرأة المسكينة بخدش؛ – "وقالت : والله، وهى تبتسم ودموعها تنهمر عندما وجدت أن العاصفة قد مرت، يدك ثقيلة يا محمد، وأنا أظن أنها كسرت شيئا من عظمى." كان حصين يتحمل عن طيب خاطر، فى كل الأحوال، إساءة والده إليه، مررنا ذات يوم على حصين وهو يحرث الأرض فى بلد من البلاد، وعندما امتدحت عمله الجاد ابتسم والده محمد النجومى؛ ولكنه عندما تذكر موروثاته الصعبة قال،" لا، إنه عاطل، وسوف يلعب مع صبيان القرية، وسوف يذهب للبحث عن الأصحاب والأصدقاء." – كان محمد النجومى يشرع فى تعنيف ولده عندما يجيئ إلى صفة والده فى الصباح ويقول له:" ما هذا ! أنت لانفع منك، هل ينبغى لشاب أن ينام إلى أن تطلع الشمس عليه؟" كان والده لا ينتظر عليه إلى أن يأكل التمرات

القليلة التى فى يده؛ ولكنه كان يصرفه على الفور إلى عمله حيث يقوم على رعاية الأبقار فى الحلحال، أو يعزق الأرض، أو يحرثها، أو لإحضار الحمار، أو للبحث عن فرس والده الضالة، أو يقوم بعملية رى النبات. على امتداد الأسبوع والشهر والسنة، لم يتوفر لحصين الجلوس فى المنزل حتى ولو لمدة ساعة واحدة؛ ولكنه كان يتعين عليه تحاشى رؤية والده له. فى بعض الأحيان كان محمد النجومى، يرسله قبل طلوع النهار، وهو صائم، إلى مسافة بعيدة فوق الحرة، مع بعض صبيان القرية لإحضار بعض من الحطب؛ ويرجع الصبى ليتناول طعام الإفطار فى أواخر فترة العصر. وإذاً تصادف، فى أى يوم من الأيام، وعثر محمد النجومى على ولده حصين فى القرية قبل غروب الشمس، فقد كان يطارده بعبارات الغضب على مسمع ومرأى من كل الناس؛ "وقح! لماذا عدت إلى المنزل مبكرا وقبل الأوان؟ (أو، لماذا لم تأت أبكر من ذلك؟) ها! لا تقف أمامى أيها الثور، – أنهج enhaj بمعنى [أغرب عن وجهى] – ستجرى الآن طلبا للهو واللعب، اركض! أجرى! أى ابتعد عنى واذهب لحال سبيلك. أأنت الذى تعين علىَّ أن أزُوجه؟" حصين: "ماالذى تريد منى أن أعمله، ياوالدى؟" – " انكشح من أمامى! عاقب الله ذلك الوجه! "وكان يتفل وهو يقول: (كلاما من ذلك الذى يستعمل فى ثكنات الجنود فى المدينة (المنورة) مثل عكروت akerut ، خره Kharra ، أو كان يطرد ولده وهو يقول: لعنة laanat الله ullah عليك aleyk . كان حصين يعود إلى المنزل لتناول طعام العشاء قبل دخول الليل بوقت قصير. وبعدها كان والده يصيح فيه:" ها! يا مبذر ،أنت لم تفعل شيئا اليوم سوى اللعب فى الحلحال! – كان يطيل النظر إلىّ كما لو كنت ثورا أو بقرًة!" – "لا، ولكنى يا والدى، فعلت ذلك الذى طلبته منى." – " هل تتجرأ وترد على، أيها الفُروج ! عجِّل بتناول العشاء، بسرعة، ثم انكشح من هنا." حصين ذلك الشاب المراهق، لم يكن يتناول طعامه مع والده أو مع الضيوف؛ ولكنه كان يأكل بعدهم مما يتبقى منهم، مع جارة والده، التى كان حصين يطلق عليها، حسب أعرافهم، اسم خالتى Khalaty .

والذى لا شك فيه، هو أن محمد كان يحب ولده حصين، عندما كان طفلا صغيرا، وكان مبعث ذلك هو الحب والدفء العربى؛ ولكنه الآن يرى أن الشدة تصلح ولده وتحوله

إلى الأحسن. ولكن كلام محمد النجومى الجارح وصياحه فى الشارع جعل الناس يتقولون عليه فى قرية الزنوج؛ وترتب على ذلك حدوث شىء من الفتور فى العلاقة بينه وبين شقيقه أحمد النجومى. ولكن المواطن أحمد كان هو أيضا مُعَنَّفاً وضاربا، لزوجته الخيبرية التى كانت شقيقة لزوجة محمد النجومى، الأمر الذى جعل هذه الزوجة تهجره وتتخلى عنه: كان لاحمد النجومى زوجه أخرى فى المدينة (المنورة). سألته عن سبب عدم وجود تلك الزوجة معه هنا فى خيبر، لترتب له شئون منزله؟ أحمد: "آآت بزوجتى لتسكن فى هذه القرية! هذه القرية لا يعيش فيها سوى السود والعبيد فقط، وإلا لكنا قد أخذنا هذه القرية منهم منذ زمن بعيد!" قال محمد النجومى:' أحمد ليس لديه قلب حساس." كنت قد نصحت العم محمد أن يهتم بصحة ولده، ويسعى إلى تعليمه القراءة والكتابة'. "إى، قال والده، أتمنى أن يتعلم القراءة فى المصحف، فى الوقت الذى تزوج فيه، لأنه سوف يتعين عليه البدء فى المداومة على الصلاة (كرجل من الرجال)."

'كان يقول: إن أحمد ليس بذكى أو ألمعى بما فيه الكفاية، والسبب فى ذلك أنه ينفق كل ما معه على البيع والشراء وعلى شرب القهوة والدخان.' محمد النجومى [من منطلق التشابه بينه وبين طائفة الحدادين] لم يكن يتعاطى القهوة أو الدخان. "كان محمد يتفكه متسائلا، أهذا رجل حكيم أو عاقل، ذلك الذى يشرب القهوة ويصبغ أمعاؤه؟" ومع ذلك، كان يتحتم على أحمد أن يتذكر ، فى غمرة عطف أخيه، أن ذلك هو الذى عرَّاه فى البداية: بل إن الأخطاء التى ارتكبها حاقت به هو، فى حين تاب الخطَّاء الكريم من ذنوبه! تلوث محمد، فى ريعان جهل الشباب، يوم أن كان فى المدينة المنورة، بالشرور التى وضع بذورها أعداء الجنس البشرى. وبعد ذلك بسنوات استطاع محمد النجومى شفاء نفسه بدواء عنيف، يسميه هو" سم الفئران" بلغته العربية، مما أدى إلى عدم ثبات أسنانه؛ وقد أطلعنى محمد على قطعة من ذلك السم الذى كان عبارة عن رصاص أحمر (أكسيد الرصاص). وبالرغم من أن بنية محمد القوية استطاعت مقاومة الكثير من الشرور، وأنواع الحمى المنتشرة فى خيبر، إلا أن ذلك المرض العضال بقى فى جسده (خاملا) وأدى إلى اسوداد مفاصله. ولما كان أحمد يعيش مع محمد فى خيبر، ويمد يده إلى طعام أخيه، فقد انتقلت إليه العدوى من يد محمد المحسنة الحانية،

وبالتالى تحول أحمد من رجل صحيح معاف إلى رجل واهن الجسم بالشكل الذى هو عليه فى الوقت الراهن.

كان زنوج القرية الوقحين يلجأون إلى منزل أحمد طلبا لشرب القهوة والاستماع إلى حكمته الحضرية؛ وكانوا يحسون بالقلق والضيق لأن أخاه كان يطلق عليه اسم المجنون فى البلدة" قال لى: "يا شيخ خليل، ما رأيك فى الشيخ محمد؟" "أنا لم أعثر على رجل أفضل منه بين كل هؤلاء الناس الذين فى هذه القرية." - "ولكنه رقيق، ويتصرف تصرف الأطفال." وعندما مرض أحمد مرض الموت أثناء الوباء الأخير أحضر محمد النجومى ثورا إلى باب المنزل وأقسم على ذبحه إذا ما شفى الله أخيه. وشفى أحمد: وذبح محمد الثور، نذرا لله، ووزع لحمه على أصدقائهم؛ - وكان ذلك شيئا كثيرا على رجل ضعيف الحال! فى تلك الأيام كان محمد يذبح ضحيته السنوية التى كانت عبارة عن عنزة، التى نذر أن يذبحها يوم أن مرض ولده حصين. أحضر محمد العنزة عندما عادت المواشى إلى المنزل فى المساء؛ وفى البداية تناول بعضا من الجمار، التى وضع عليها شيئا من البخور فى مبخرة، وراح يبخر الأضحية. سألته عن سبب ذلك التبخير؟ وأجابنى: "حتى تروق الأضحية عند الله (سبحانه وتعالى)؛ وأنتم ألا تفعلون الشيء نفسه؟" ثم تمتم محمد النجومى ببعض الدعوات، ووضع رأس الأضحية نحو القبلة؛ ثم ذبحها باستعمال سيفه. وعندما سمع منى أن ذلك ليس من عاداتنا، - أن يقوم كل واحد منا بذبح أضحيته، راح يتأمل مع نفسه، وهو يحسب أننا شعب لا قلب له.

ذات صباح، وجد ولد محمد النجومى، عندما ذهب لرعى الأرض، ثعلبا غارقا فى بئر الماء . - أخرج حصين ذلك الثعلب الغارق وطرحه على الأرض؛ وعندما وصلنا إلى هناك ولم نستطع رؤيه ذلك الحيوان، "قال محمد، لا عجب، إذ ليس هناك ما هو أمكر من الثعلب؟ ولربما يكون الثعلب هو الذى خنق نفسه، ورماه حصين زاعما أنه ميت!" - ولكنا وجدنا الحصينى (الثعلب) تحت بقايا أعشاب محترقة، وميت فعلا. ومن أنفه إلى فروه كان لونه اردوازى مثل لون بازلت الفجّار !اللهم باستثناء أن لون بطنه كان يميل

إلى الابيضاض. سحب العم محمد تلك الجثة الميتة، ممسكا بأحد أرجل الثعلب الأمامية بشيء من ليف النخيل.

حكيت لذلك الرجل الطيب، كيف أن الشيوخ في بلادى، يسارعون بخيولهم وهم يرتدون عباءات حمراء، إلى اصطياد ثعلب من الثعالب، وهم راكبين على ظهور خيولهم، أملا في الحصول على فرو ذلك الثعلب – ويصل ثمن أفضل فرو من تلك الفراء إلى إيجار قرية بأكملها – كما أخبرته أيضا أن مائة من الكلاب اللئيمة تسبق هؤلاء الصيادين في عملية الصيد تلك؛ ويروح أولئك الصيادون يقفزون فوق الجدران وفوق الحفر معرضين بذلك أعناقهم للخطر أثناء هذه المغامرة: ومن يحضر نفوق الحصينى (الثعلب) يكون هو الرجل الشجاع. وظل ذلك الرجل من رجال الجزيرة العربية يتفحص وجهى بعينيه كما لو كان يقول : "أتستهزأ بى!" ولكنه سرعان ما عاد إلى روحه المرحة متسائلا، 'بضحك، أهذه هى مطاردة الثعلب؟" – ولم ير الرجل فى ذلك أية رقة أو طرافة. ويبدو أن ذلك الرجل الطيب من رجال المدينة المنورة دخل فى نوبة من التأمل الروحى، 'لماذا أعطى الله اليهود والنصارى ذلك الثراء السطحى، فيما يتعلق بتلك الاستعمالات غير المجدية؟، قال: الذئب أيضا من الحيوانات التى يقتلها الناس: حكى لى، أنه فى إحدى المرات، وبينما كان يرعى ماعز والدته فى الفراع أيام شبابه، وبينما كانت عذراء (من قبيلة حرب) ترعى غنمها معه على جانب التل، شاهد ذئبين يقتربان من السهل ويتقدمان نحوه؛ وهنا اختبأ محمد النجومى ليرى ذلك الذى سيفعله هذان الذئبان. ترك الذئب العجوز زميله عند سفح الصخور؛ وراح الذئب الآخر ينتظر مجيئه: تسلق ذلك الذئب ، مثل صياد ماهر، وهو يتوقف بين الحين والآخر، وينظر من حوله وفى كل الاتجاهات. كان قطيع الماعز يرعى دون اكتراث بين الصخور العالية؛ ووجد محمد النجومى أن الذئب يستفيد من سطح الأرض ومن الريح أيضا، وعلى نحو لا يمكن أن يفعله الإنسان. تخير الذئب عنزة سمينة من ماعز تلك العذراء، واستدار الذئب حول صخرة من الصخور ليقفز بعد ذلك على تلك العنزة ويعضها من حلقها: – وفى لحظة كانت طلقة بندقية محمد النجومى قد وصلت إلى قلب الذئب على الفور؛ ثم سارع محمد بعد ذلك إلى ذبح العنزة المصابة (حتى يصبح لحمها شرعيا).

إلى جانب الحيوانات المفترسة، فى صحراء الجزيرة العربية، تحدث محمد النجومى أيضا عن القُرطة، gorta ، ' التى هى نوع من القطاط يصل حجمها إلى حجم الثعلب، والقرطة هذه ليست فهداً أو نمرا: وهذه القرطة تعيش فى الأعشاب وتختفى بينها فى التفود كى تقفز فوق الغزال الذى يمر عليها . " كما حدثنى أيضا عن حيوان آخر، تكلم عنه بشىء من الشك، واسمه الظرمبان eth-thurramban ، – الذى اعتبرته أنا حيوانا خرافيا أو أسطوريا." هذا الحيوان أسود اللون وحجمه أكبر من حجم الثعلب؛ هذا الحيوان ينبش القبور كى يتغذى على جثث الموتى." ادعى النجومى أنه شاهد واحداً من تلك الحيوانات فى يوم من الأيام ، ميتا فى حفرة من الحفر. وابن آوى الآكل للفاكهة لا وجود له فى صحراء الجزيرة العربية. وتطرق محمد النجومى إلى ذكر غزال التفود الصغير الذى لا يشرب الماء مطلقا، ويطلقون عليه اسم العفرى el-affery ؛ وتكلم أيضا عن غزال الحُرة الذى يشرب الماء، وأكبر حجما من العفرى، ويطلقون عليه اسم الإدمى el-iddimy قال لى أيضا: إن الغزال الوليد الذى يكون عمره ثلاثة أيام فقط يتفوق على الإنسان ويسبقه فى الجرى. هناك أيضا البدون كبيرة الحجم وذات القرون تعيش على الحُرة. وقد اصطاد محمد النجومى فى العام الماضى بدنة ضخمة، وصل طول قرنها إلى خمسة أشبار ويصل سمكه إلى قبضة يد [أى أكثر من أربعين بوصة] ، كما أن الجزء المسطح من ذلك القرن يصل طوله أيضا إلى قبضة يد. وقال لى أيضا: إنه وأربعة رجال آخرين كادوا يعجزون عن حمل أرباع العنزة البرية هى وتلك الطريدة إلى خيامهم ومنازلهم.

كان محمد النجومى رام بمعنى الكلمة. وعندما وصلنا، فى صباح أحد الأيام، إلى منطقة البئر، وكانت بندقيته الفتيلية بصحبته، كان هناك ثلاثة غربان واقفين على شجرة من أشجار السدر Sidr، وكانت تلك الغربان تقلقنا بأصواتها المخيفة." يا لهذه المخلوقات اللعينة!" قال العم محمد، وهو يجهز بندقيته استعدادا لإطلاقها، وقال: إنه سيجرب ما إذا كان نظره يتناقص: وعندما صوب بندقيته إلى الغربان طارت ماعدا واحد منها بقى فى مكانه على شجرة السدر، – وفتح محمد النجومى طلقة بندقيته على الغراب من مسافة بعيدة. ثم وضع عظمة بيضاء على الجدار المبنى من الطين، كانت

تلك العظمة كبيرة وبحجم راحة يدى، وفتح طلقة بندقيته على تلك العظمة ليصيبها فى منتصفها من مسافة تصل الى حوالى مائة خطوة. وفتح النار مرة ثانية، لتخترق رصاصته حدود الثقب السابق! أعطى محمد الغراب لبعض الخيابرة، الذين جاءوا يتفرجون؛ وشب القرويون الزنوج نارا فى بعض من جريد النخيل وشووا الطائر بريشه ووزعوا لحمه فيما بينهم. – قال النجومى، الطيور على إلافها تقع! وهذا الغراب يكفيهم ويناسبهم تماماً.

كان محمد النجومى يتمتع برماية جيدة لا تتأتى إلا لبصر غير عادى، الأمر الذى كان يمكنه من رؤية النجوم فى فترة الظهيرة، فى كثير من الأحيان: قال: إن أخاه يستطيع أيضا رؤية النجوم أثناء النهار، وأن هناك عددا كبيرا من الناس يستطيعون ذلك. قال لى أيضا: إنه شاهد، فى بعض اللحظات، ثلاثة أو أربعة نجوم صغيرة تدور حول واحد من النجوم الجوّاله [أقمار المشترى!] سألته بعد ذلك،" ألم تر مطلقا نجما جوالاً يشبه القمر؟" – "حسن، لقد رأيت. نجما لم يكن مستديرا دوما، وإنما كان يشبه نصلا معلقا فى السماء." – لو كانت تلك الرؤية متوفرة لناظرى النجوم الأوربين، لما انتظرت الأجيال المسيحية اختراع تلسكوب جاليليو! [لوضع حجر الأساس الأول – بدون استعمال الأيدى – لصرح علومنا الذى يستعصى على الدمار] . كان محمد النجومى يرى القمر كبيرا دوما، كما كان يرى القمر كله دفعة واحدة: وعندما كبر ذلك الرجل فى السن أصبح يعانى من طول النظر.

قام العم محمد، فى أحد الأيام بصناعة البارود، وأعطيته (من صندوق أدويتى) رطلا أو رطلين من النترات. جهز العم محمد الفحم النباتى من خشب زيت الخروع، الذى ينمو فى خيبر على شكل أشجار: وبعد إشعال ذلك الخشب تماما وضع فوقه إناء وراح يقلل الاحتراق. وهنا بدأت كعكة البارود تجف، وراح يقطع تلك الكعكة باستخدام سكين: وربما يكونوا قد عرفوا بحكم الخبرة والتجربة أن ذلك النوع من البارود أأمن لبنادقهم الطويلة الضعيفة، التى يضعون فيها شحنات ثقيلة من ذلك البارود. ولما كان ملح البارود أبيضا، فقد ظن أنه من النوع الممتاز، وأنه لم يسبق له مطلقا أن رأى

نتـرات على هذه الدرجـة من النقـاء. وذهب العم مـحـمـد لاخـتـبـار ذلك البـارود فى الصفصافة. – ولكن التفجير الحاد أدهشه تماما، بالإضافة إلى أن الكبسولة انفجرت هى الأخرى. عاد العم محمد ليقول لى: "الملح الإنجليزى كان قويا، ويتمنى لو أن لديه المزيد من ذلك الملح.

الرماية فى بلد وعر كهذا أمر طيب جداً. كان عبد الله السروان يمتدح نفسه أيضا فى الرمايه؛ – 'لكنه قال لنا: الفرق كبير جداً بين الرماية، وإطلاق النار على شخص من الأحياء!' فى مرة من المرات، وأثناء القيام بحملة على البدو، سألته شخصية من شخصيات المدينة المنورة،' هل تستطيع أن تجعل الرصاصة تنفذ أو تدخل فى جسم ذلك الرجل الواقف هناك؟' "(قال لنا): فـتـحت نار بندقـيـتى، ولكنى أقسم بالله! أننى أخطأت ذلك الرجل؛ والسبب فى ذلك أن قلب الإنسـان ينكمش ويتراجع عندما يصوب نيران بندقيته إلى إنسان آخر. – حتى وإن كان ذلك الإنسان عدوا؟ – ولكن هيا بنا إلى سطح المنزل، ونقوم كلنا بمحاولة الرماية." وضعوا صفحة من الورق الأبيض لتكون هدفا لهم على بعـد ١٢٠ ياردة، وعلى ارتفاع ستين قدما عند مقدمة الحصن. وضع عبد الله السروان ركيزة من الغاب؛ وحاول موازنة بندقيته الفتيلية الطويلة فوق تلك الركيزة، وبدقة شديدة، ثم فتح نيران البندقية؛ ولكن طلقاته وصلت إلى نقطة بعيدة عن الهدف، ولم يسقط داخل الهدف شىء من تلك الطلقات! – هذه هى الطريقة التى يمكن بها الكشف عن أولئك المتباهين، الذين يعربون عن رغباتهم وأمانيهم، كما لو كانوا مؤدين بالفعل، ولا يلقون للطبيعة بالا.

كان العم محمد يعانى من وخزات ضميرية قديمة؛ وسألنى (معتبرا إياى رجلا متفقها فى علم اللاهوت)، 'إن كنت قد استخلصت أن الله قد غفر له هنات شبابه؟' ومع ذلك كانت للعم محمد، فى بعض الأمور التى لم تكن واضحة بالنسبة له، أحكام دينية صارمة. سألنى أثناء حديثنا سويا، وهل بوسعى مسخ المعادن وتحويلها إلى معادن أخرى؟' وأردف قائلا: 'لقد شاهدت ذلك ورأيته؛ والأمر لا يعدو أن يكون مجرد إضافة مسحوق من نوع معين. كيف، يا شيخ خليل، وأنت رحّال من بلاد بعيدة وليس معك

شيء من هذا المسحوق؟" أبلغني أيضا،" عندما كنت أقيم في قرية الحيات [التي كان يعمل فيها حدّاداً للبنادق وحدّاداً للسيوف أيضا مع الأعراب] طرق واحد من الهنود باب داره. [ربما كان واحداً من الحجاج الهنود] ؛ – هناك بعض الهنود المسلمين، الذين يبيعون العقاقير، ويركزون عيونهم وانتباههم على أرض محمد الصحراوية. [قال لنا الهندي إنه يبحث عن بعض الأعشاب البسيطة التي لا تنمو إلا في هذه الديار الصحراوية. وبعد أن استراح ذلك الرجل قليلا في منزلي قال لي: 'يا محمد!' وقلت له: 'ما هذا؟' وقال: حتى الآن، وأنت تتحمل كل اتهاماتنا، والآن سوف أطلعك على شيء طيب؛ هل لديك هنا أي وعاء من النحاس الأحمر؟' أحضرت له وعاء، ثم طلب مني مقص جز صوف الأغنام. 'قال: الآن، هل هناك أحد غيرنا نحن الاثنين في هذا المنزل؟ اذهب وأغلق الباب جيداً.' فرد النحاس الأحمر على شكل لوح وكنت أنا الذي أنفخ له النار: وعندما بدأ المعدن يلين وينصهر صب عليه الدواء الذي كان معه، – كان ذلك الدواء يشبه قليلا من التراب كانت إلى جواره القوالب المعدنية وبدأ يصب فيها المعدن المنصهر؛ وعندئذ نتجت عن ذلك تلك النقود الفضية الهندية، التي يطلقون عليها اسم الروبية rupi . قال الهندي، 'سوف نقتسم هذه النقود فيما بيننا." – "لكن قل لي: هل كانت تلك النقود من الفضة بحق وحقيقة؟" ، " كان رنينها جيداً، وكانت تشبه قطع الفضة إلى حد أنها كان يمكن تداولها؛ أنا لا أقول إنها كانت فضة خالصة."، "ماذا فعلت؟ لقد كنتم أنتما الاثنان مزيفان من مزوري النقود!" – " يا خليل، لقد فعل لي الرجل ما يرضيني وفعلت له أنا أيضا ما يرضيه: ولكني لا أكتمك القول: لو كانت الدولة هناك، لأصبحنا نحن الاثنين في خطر إنزال العقاب بنا."

كان مقتل – أخيهما الأصغر، الذي قتله اللصوص عندما أتى مع جماعة من المدينة لزيارة أخوته في خيبر، ما يزال يشكل ذكرى أليمة في نفس محمد النجومي؛ – ستظل تلك الذكرى تؤرقه إلى أن تسنح له الظروف بالثأر لأخيه وبيديه هو شخصيا! كان غزو من المنقورة Mongora ، أو إن شئت فقل: من أعراب البلي يصل عدد أفراده إلى خمسة أضعاف الجماعة المسافرة، قد قام بالهجوم على تلك الجماعة المسافرة أثناء سيرها في الطريق: وقام ذلك النجومي الصغير، الذي كان في ريعان شبابه، بلعب دور

الأسد بين أفراد الجماعة، إلى أن سقط على إثر إصابته بطلقة من أحد المسدسات. المعروف أن رجال المنقورة، أو إن شئت فقل أعراب البلى لا يأتون إلى خيبر؛ وبناء عليه، راح محمد النجومى يرسم خطة فى داخله، تقوم على قتل أى فرد من أفراد تلك المنقورة فى أى مكان يلتقيه فيه وبعد ذلك بعام عثر محمد النجومى على واحد من أولئك المنقورة ، واقتاده ، عن طريق الاحتيال، إلى مكان مهجور؛ وقال له بعد ذلك بوقت قصير: " أيها الملعون! أنا سوف أقتلك بهذا السيف." – "إخص! قال البدوى، اسمح لى بالكلام يا سيدى، لماذا تقتلنى؟ هل تسببت لك أنا فى أى أذى؟" – " ولكنك ستموت اليوم ثأرا لشقيقى، الذى قتله البعض منكم فى غزوة من الغزوات، وهو فى الطريق إلى خيبر." – " الله شاهدى! أنى ليس لى يد فيما حدث ، لأنى لم أكن من بين أفراد ذلك الغزو." – "ومع ذلك سنشهدر دمك ثأرا لدم أخى، طالما أنت واحد منهم." – "لا، إسمعنى، يا محمد يا نجومى! وسوف أقول لك اسم الرجل الذى قتل أخاك ، – وأنا أقسم لك بخالقنا! بأن الرجل الذى فعل ذلك معروف لى تماما؛ وهو تحت إمرتى ورهن إشارتى. أنقذ حياتى. إن أحيانا الله، سوف، أجعل المذنب يدفع الثمن، وسوف أجعله يدفع مدَّة (ديَّة) مقدارها ٨٠٠ ريال." وهنا أحس محمد النجومى، بعد أن هدأ، بأنه ليس من العدل أن يقتل إنسانا لم يسئ إليه. وقال بعد ذلك : لقد عفوت عنه، على أمل أن يرسل له المدَّة (الدية) سالفة الذكر. وتعاهدا على ذلك وتركه محمد النجومى يمضى لحال سبيله.

"ذلك البلوَّى اللعين! (أقسم) لم أره قط بعدُ ذلك، أما الآن، – ها! أيا كان من سألقاه منهم، فسوف أقتله." حاولت إثنائه عن عزمه – " ولكن هناك نارا مستعرة فى قلبى، ولا يمكن أن تخمد تلك النار إلا بعد أن أثأر لوفاة شقيقى." – "أليس من الأفضل أن تمسك بواحد من أفراد تلك القبيلة، وتقيده عندك لحين دفع المدَّة (الديَّة)؟" ولكن العم محمد لم يستمع إلى ما قلت؛ العرف فى (جنوب) الجزيرة العربية لا يعترف باحتجاز أحد مقابل فدية: والعرف عندهم أن يقتلوا الأسير على الفور، أو يعطونه قربة ماء ويتركوه يذهب لحال سبيله، وعليه لعنة الله." سيقولون له: روح Ruh بمعنى ارحل عنا أيها العدو! ومت إذا كان فى ذلك إرضاء لله فى الصحراء." وهم يعتقدون أن الرجل الحر

لا يمكن أن يكون متاعا شخصيا ولا يمكن أن يجعلوا منه غنيمة أيضا. والنساء لا يؤسرن فى المعارك الحربية التى تدور فى الجزيرة العربية، بالرغم من أنه فى كثير من الأحيان، قد يحصل رجل مسكين الحال وشجاع على زوجة جميلة بهذه الطريقة، دون أن يتكلف مصاريف الزواج.

أجاب محمد،" ولكنى ثرى الآن – الحمد الله على ذلك، ولست بحاجة إلى النقود؟ كل ما فى الأمر أنى أود أن أطفئ نار هذا القلب التى تشتعل فى داخلى!" – " لماذا لا تعفو عنه عن طيب خاطر، حتى يعفو الله عنك ويكفر لك عن سيئاتك." – " أأنت الذى يقول ذلك! – يا شيخ خليل لقد فعلت شيئا فى شبابى ، ومازال ضميرى يؤنبنى عليه؛ ولكنك يا من تبدو رجلا من أصحاب العلم (الدينى) تقول لى: ما إذا كنت مذنباً أو غير مذنب فى هذا الثأر. – لقد قام الباشى بازوك [من المدينة المنورة] بحملة على قبيلة عتيبة ، Ateyba ، وكنت أنا واحداً من أولئك الذين اشتركوا فى تلك الحملة. استولينا فى بداية الأمر على كثير من الغنائم : وبعد ذلك، تجمع البدو حولنا من جميع الأجناب [لديهم عدد كبير من الخيالة] ، وبدءوا الضغط علينا، وهنا تخلت قواتنا [نظرالأن الجنود كانوا يركبون حميرا سورية بطيئة] عن القتال وانسحبت من المعركة. تقدم الأعراب وراحوا يضربونا فى ظهورنا وسقط البعض منا قتلى؛ وكان هناك واحد من الرماة يشكل مصدر قلق كبير لنا. كان ذلك الرامى يركب فرسا، رديفة، ويحمله صديقه أو زميله ويروح يجرى به ناحية الجنب فى اتجاه المقدمة: ثم نزل ذلك القناص بالقرب من دغل من الأدغال، وراح ينتظر الوقت المناسب لفتح نيران بندقيته. وبعد أن فتح النار، جرى الخيال الذى كان يقف بعيدا عنه لينقله إلى مكان آخر: جريا إلى مكان بعيد، وعمّر القناص بندقيته من جديد، كل طلقة كان يطلقها ذلك القناص كانت تصيب خيالاً من الخيالة، بل إنه قتل فرسى: وهنا أمر الأغا بحملى على ظهر حصان العبد الذى يقوم على خدمة ذلك الأغا.' قال : أنت أيها الشاب الصغير، ألا تستطيع الرماية، أجرى مع عبدى وخبئ نفسك؛ وعندما تجد الوقت مناسباً، افتح النار على ذلك العتيبى، وإلا فإنه سوف يقتلنا جميعا" – 'الله، يا أيها النقيب، أنا لا يمكن أن أقاتل ماشيا، فقد تتخطانى القوات وتتجاوزنى مخلفة إياى وراءها؛ – 'لن يحث ذلك، نفذ فقط ذلك الذى أمرتك به.'

"قال محمد النجومى، مضينا قدمًا مسرعين: وعندما كان أولئك البدو يمرون بحصان من الخيول: كنت أنتقل إلى دغل من الأدغال، وأنزل واستتر به وأعمرَّ بندقيتى من جديد. مر ذلك القناص وراح يبحث لنفسه عن ساتر مثلما كان يفعل من قبل؛ ونزل من فوق حصانه، وكنت أنا جاهزا، فى تلك اللحظة، لفتح النار. وهنا جرى رفيقه الذى كان يحمله لنقله بعد إصابته ، وحمله بين ذراعيه فوق سرج الحصان، فترة قصيرة من الزمن، ثم ألقى به على الأرض ثانية، – فقد فارق الحياة! وتوقف العرب عن مطاردتنا."
سألته، 'ما السبب الذى جعله يلتحق بالجندية، إن كان يتشكك فى قتل عدو من الأعداء فى الميدان؟، – "آه! كان ذلك من أجل الطمع toma : فقد كنت حديث السن وجاهل."

كان العم محمد يحس أيضا بتأنيب الضمير لاغتيال رجل آخر؛ ولكنه كان يتحدث عن تلك الواقعة بلا قلق أو انشغال. فى إغارة جديدة طارد محمد النجومى واحدًا من البدو، صبيا بدويا كان يجرى مسرعا ويقاتل سيرا على الأقدام؛ جرى ذلك الصبى البدوى ناحية محمد النجومى، كى يأخذ منه بندقيته، – التى يصل ثمنها إلى حوالى اثنى عشر ريالاً ؛ وعندما وجد الصبى البدوى ، أن خيالا من خيالة الدولة قد أدركه، فتح نيران بندقيته ناحية الخلف، واخترقت الرصاصة سمَّانة رجل محمد النجومى الذى رُد على الملعون، على حد قوله ، ترانج trang ! – بطلقة من مسدس: وسقط ذلك البدوى الشاب مضرجاً فى دمائه على الأرض، وهو يرفس بقدميه، ويحفر فى الرمل بين سكرات الموت. بردت رجل محمد النجومى، وعندها أدرك أنه أصيب فى رجله: لم يستطع النزول من فوق حصانه، ولكنه نادى صديقا له وطلب منه أن يأخذ بندقية البدوى. قام والد محمد النجومى [الذى كان يشارك فى تلك الحملة] بشق حذاء الخيالة، الذى امتلأ بالدم ثم ربط الجرح: ووضع محمد النجومى على جمل من إبل الإمداد والتعينيات وأعاده إلى المدينة (المنور)؛ والتأم جرح محمد النجومى خلال أربعين يوما.

أطلعنى محمد النجومى أيضا، على عظمة فى رسغه الأيسر ضاعت بسبب طلق نارى؛ حدث ذلك له فى فترة لاحقة. – كان العم محمد قادما ضمن قافلة من المدينة (المنورة)،

وكانت تلك القافلة تضم عشرة من الإبل كانت محملة بالقماش وتقصد قرية خيبر. وأثناء الرحلة، طلع عليهم غزو قوى من قبيلة حرب: وهنا بدأ أفراد القافلة يجرون ويسرِّعون من خطو الإبل، وراح الأفراد أنفسهمَ يركضون بأقصى ما وسعهم الجهد، وهم يفتحون نيران بنادقهم على العدو، من خلفهم. جروا أميالاً كثيرة، على هذا النحو، فى ضوء الشمس الحارق، إلى أن بدأت قواهم تخور، وأوشك بارودهم على النفاد. كان البدو قد استولوا على القسم الأكبر من إبل التجار المحملة بالأقمشة. وكان محمد النجومى قد تخلى عن جمله وجمل صديق له، عندما أطاحت رصاصة بجزء من الرسغ فى ساعد ذراعه الأيسر." قال: رأيت ذلك الذى فتح ذلك الطلق النارى! وفتحت نار بندقيتى على ذلك الملعون، واخترق الطلق الذى فتحته عليه يده وكسَّرها تكسيرا." – وهنا نادى الأعراب على النجومى (عندما علموا أنه من أهليهم)، "ماذا! محمد ولد أختنا! عد إلينا ولا تخف شيئا، وخذ جملك من بين هذه الإبل." رد عليهم محمد النجومى، " لقد تسلمت جملى بالفعل." وقالوا له: "امض فى أمن وسلام." – سألته " كيف، وهو قناص بمعنى الكلمة، لم يستطع قتل المطاردين كلهم، خلال ساعة من الزمن." – "لكن، اعلم يا خليل، أننا طوال ذلك الجرى وذلك القتال كنا نفتح النار دون النظر إلى أى شىء."

هذه هى جماعة أخرى من جماعات السوق التى تنتمى إلى بدو الحطيم، كانت تحمل سمنا وجبنا، أثناء مرورها مؤخرا على قرية خيبر، وطلع عليها الغزو واستولى على ما معها عندما كانت على مقربة من المدينة (المنورة)! وعلى حد قول محمد النجومى، " والله، نحن لا نعد الرجل رجلا، فى هذه البلاد، إلا إذا أصابه جرح من الجروح!" لقد تجولت مدة تزيد على العامين، فى مضارب البدو، ولم يحدث لى مكروه: وقال بعض رفاقى: 'يبدو، والله، أن الحظ الحسن كان يساند خليلا طوال رحلته.'

الباشى بازوك خدمة عسكرية شاقة، يستطيع من خلالها الرفاق الأجواد الإثراء خلال فترة زمنية وجيزة؛ والسبب فى ذلك أن السفن، والنقود، والسلاح، والعتاد، كل شىء يعد ملكا لأفراد الباشى بازوك، وبخاصة ذلك الذى يضعون عليه أيديهم أول مرة

فى خيام البدو الرحل، يضاف إلى ذلك أن أفراد الباشى بازوك يحصلون أيضا على قسم من غنائم (الحكومة) وبخاصة من ماشية البدو. كان هؤلاء الأفراد، فى تلك الأيام، يشكلون جماعة متهورة من الرجال، تعيش فى المدينة (المنورة)؛ كان أفراد تلك الجماعة يلبسون أغطية رءوسهم البيضاء اللون ويمشون مثل الغنادير، أوالشُبوب' Shubub ؛ والشُبوب' بلغة القوم تعنى 'الرجال فارعى الطول،' الذين كانوا يمثلون سيف الدولة (الإمبراطورية العثمانية): وقال العم محمد: كل واحد منهم تعرفه باسم الباش بازوك، وهو سيد نفسه.' قلة قليلة من أفراد ذلك الباش بازوك، هى التى كانت تعرف لها أبا أو أما غير قائدهم؛ لم يكن أفراد الباش بازوك، يعترفون بأية سلطة أخرى غير سلطة قائدهم. أخبرنى محمد النجومى، على سبيل المثال، عن تصرفاتهم وسلوكياتهم السيئة، إنهم عندما كانوا يقومون بغارة، فى صباح يوم من الأيام، أثناء فصل الحر، وكان رفاقه [مع الحضر القساة الذين لا يرحمون] قد شربوا، بل وأتوا على البقية الباقية من الماء فى قرابهم، ولذلك عجلوا بالوصول إلى وريد من الوردان. كان الوقت ظهرا عندما وصلوا إلى بئر الماء ونزلوا عنده، واتجه أولهم إلى البئر ومعه حبله وداوه المصنوع من الجلد، كى يجلب شيئا من الماء: ولكن بينما كان ذلك الرفيق يشعر بالعطش الشديد، وراح يرفع الدلو الثمين الى شفتيه، "صاح جندى آخر، يا ملعون! أحشائى من الداخل تشبه جهنم، وها أنت تشرب قبل أن أشرب أنا؟" – وفتح نار مسدسه على صدر ذلك الرجل، وخطف الدلو من ذلك الرجل الذى كان يحتضر: ولكنه عندما رفع الدلو إلى فمه، حالت طلقة أطلقها جندى آخر، بينه وبين الماء، واستطاع ذلك الرجل الاستيلاء على ذلك الإرث الثمين؛ ولكن هذا الشخص الثالث مات بالطريقة نفسها. وخلال موجة القلق الشيطانى سقط من بين أفراد الباشى بازوك سبعة أفراد، الواحد بعد الآخر، وكلهم كانوا يتصارعون بلا عقل أو منطق، كما لو كانوا حيوانات، على من يشرب أولا من ذلك الماء المميت. وهنا أبعد القائد الرجال كلهم عن البئر، وجعلهم يقفون على شكل صف؛ وراح هو يجلب الماء بنفسه وينادى عليهم الواحد بعد الآخر ليقدم لهم الماء الذى يشربونه. وعندما عادت هذه الجماعة الى المدينة (المنورة) لم يتكلم أحد منهم عن تلك المجزرة الجهنمية. وما سبب ذلك؟ – " أليس هؤلاء هم الباشى بازوك؟ (قال العم محمد)

عندما يموت أى أحد منهم فإنهم لا يسألون عنه، يضاف إلى ذلك أن غالبية هؤلاء الباشى بازوك كانوا أغرابا على المدينة (المنورة)."

فى كل البلدان العربية - التركية، هناك بعض التوجهات التى لا تدخل فى إطار الاعتدال الذى تتسم به الحياة المدنية؛ والأشخاص الذين من هذا القبيل يقعون على بعضهم البعض، ويحيون حياة تسيب واضطراب. هذه النوعيات فى الأراضى المسيحية تراها تتردد على الخمارات والحانات المرخصة؛ ولكن هذه النوعيات فى العالم الإسلامى يودى بهم سكرهم وعهرهم إلى أن يكونوا خارجين على القانون. المعترون(*)، فى دمشق ، على سبيل المثال، لا يدخلون ضمن الأعداء الشعبيين، والسبب فى ذلك أن المواطنين الأسوياء يندر أن يصابوا بأى أذى نتيجة الأخطاء التى يرتكبها هؤلاء المعترون؛ وعابرو السبيل، خلف البوابات أثناء الليل هم وحدهم الذين يتعين عليهم المرور من بين أسوار البساتين المبنية بالطين، وهذا بحد ذاته يشكل خطرا عليهم. وأفضل الأشياء هنا فى المدينة هى الدّيكة، وأرذلها هى السياط - فى المواطن التى يضعف فيها القانون - التى تلهب ظهور الخطائين. والمعترين، فى دمشق، يُؤجّرون أنفسهم (وأحيانا يفعلون ما يفعلونه مجاملة لأصدقائهم) فى المشاجرات نيابة عن الآخرين كما يؤجرون أنفسهم للثأر لغيرهم .

وعندما يواجه المعترون muatterin معترين آخرين ، فإنهم ينظرون إليهم شذرا ويكلمونهم كلاما جارحًا، وينشب العراك بينهم مرات كثيرة أثناء النهار. ومع دخول حرارة الصيف، وعندما يبدأ نضج المشمش [فى غوطة دمشق]، يخرج هؤلاء الخارجون على القانون، أثناء الليل على شكل عصابات، ليدخلوا البساتين: وهم يقومون بتكسير الجدران المبنية من الطين، ويروحون يقطفون تلك الثمرة اللذيذة كى يتعشون بها. هؤلاء المعترون يُسَرُّون عن أنفسهم، فى الأماكن التى من هذا القبيل، بصحبة النساء المهجورات، ويروحون يشربون الكحول الحارق (الذى يجرى تقطيره من ثمار الكروم فى

(*) المعترون : طائفة من الطوائف التى كانت معروفة فى بلاد الشام بخروجها على القانون وكانت تشكل ما يمكن تسميته بعصابات الخطر . (المراجع)

بيوت كل من المسيحيين واليهود). هؤلاء المعترون بوهيميون فى حياواتهم، أما العرب ففيهم رقة إنسانية بالرغم من تفاهتهم؛ وإذا ماجاءهم غريب، وهم يأكلون أو يشربون، فإنهم يطلبون منه الجلوس ويتخوفون من عدم مشاركته لهم فى الطعام – وإذا ما استرق معتر السمع على معتر آخر، فإنهما يتبادلان السب واللعن فيما بينهما: والشائع أن المعترين، فى مثل هذا الحال، يمتنعون عن شرب ذلك الشراب المحرم، ويبدءون فى التحامل على بعضهم البعض – والعراك الذى يدور بين المعترين يستهدف الحصول على حريم الخصم.

تدخل القرابة والكفالة ضمن كرم العرب وذلك فى بلدانهم المضطربة غير المستقرة أو غير الآمنة. هذا هو برٌّ وتقوى الحياة العربية، هذه هى قدسية وحرمة دين الجزيرة العربية، التى لا يمكن لنا التطلع فيها إلى غير ذلك. – حدث ذات يوم، أن كنت عائدا، عندما كنت فى سوريا، من رحلة من الرحلات، سألت أحد القرويين أن يدلنى على الطريق. كان الوقت ظهرا؛ كان ذلك الشاب الذى مررت عليه يأكل خبزا وجبنا، توقف الشاب قليلا وقطع قطعة من الخبزة التى كانت فى يده، وقدم تلك القطعة بابتسامة مريحة للغريب: وعندما هززت رأسى، قطع قطعة من الجبن ووضعها فى فمى فى صمت؛ وهنا فقط أدركت أن الوقت قد حان للكلام. – يضاف إلى ذلك، أن الغريب إذا ما دخل كَرْمةَ أو بستاناً، اعتبر ضيفا على ذلك البستان أو الكرمة؛ وفى أشهر الصيف، إذا ما تصادف وكان الرجل الطيب فى البستان، فإنه يقدم لذلك الضيف بعضا من الفواكه الطازجة كى يسرى عنه ويشرح صدره.

هناك حكاية طريفة يرويها الناس دوما فى جبال انتلبانس (*) Antilibanus ، حيث توجد أعداد كبيرة من الدببة – وأنا أصطاد تلك الدببة فى حلبون Helbon [التى ورد ذكر نبيذها عند حزقيال، فى حركة مرور دمشق] . – من عادة القرويين السوريين النوم خارج منازلهم فى بساتينهم كى يحرسونها فى شهور الصيف الدافئة. سمع أحد

(*) جبال الأنتيليبانوس : سلسلة جبال تقع على الحدود السورية اللبنانية . (المراجع)

هؤلاء القرويين دبا كان يجوس فى الظلام، رفع القروى نفسه بسرعة بين أغصان الشجرة المجاورة له، التى كانت واحدة من أشجار اللوز. جاء ذلك الدب صاحب الأسنان الحادة وتسلق تلك الشجرة التى يجلس فوقها ذلك الرجل الذى كان يرتعش خوفا؛ وبدأ الدب يمد فمه ليلتقط حبات اللوز الخضراء. عندما وجد الأعرابى أن ذلك الدب سيكون ضيفا عليه، صاح الرجل قبل أن يفكر قائلا، 'كل' ! Kul ومرحبا بك!.' تراجع إلى الوراء ذلك الدب عندما سمع صوت ذلك الرجل الذى لم يلاحظه؛ انكسر فرع الشجرة بسبب وزن الدب الكبير! – سقط الدب على رأسه، وانكسرت عظمة عنقه. وبعد حوالى ساعة أو ساعتين، قام ذلك الرجل الذى شاهد الدب راقدا مثل الحجر طوال تلك الفترة، فى ضوء النجوم، وتشجع على النزول إلى الأرض: وعندما وجد الدب ميتا، قام بقطع حلقه، وسلخ الجلد الموجود حول أذنيه؛ وقام ببيع ذلك الجلد، فى الصباح، إلى اسكافى لكى يصنع منه نعالا للأحذية [راجع حزقيال السورة رقم ١٦ الآية رقم ١٠]، والقرويون هنا لا يأكلون الدب. – والله، لقد حدث ذلك لهذا الرجل المسكين طبقا لما يقوله المثل الصحيح 'توفير السرعة!' أنا أعرف بعض الأطفال الذين كانوا يعنفون الدب ويؤنبونه ويضربونه بنفس الطريقة التى يضربون بها اللصوص، وكانوا يطردونه من بستان والدهم عن طريق مطاردته وإلقاء الأحجار عليه. ولكن الدب الجريح خطير بمعنى الكلمة، والدببة (بحكم السن) وعندما تفقد أسنانها تتحول إلى أكلة للحوم البشر. يا ويل من لم يلاحظ الأخلاقيات الإنسانية فى ذلك المخلوق البشع، مقطوع الأنفاس، الذى يستعمل أقدامه مثل استعمال الأيدى! حدث أن جاءت دبة ومعها وليدها، إلى ذلك الجليد والثلج السميك، فى فصل الشتاء، أو بالأحرى جاءت إلى قرية بلودان Bludan فى تلك الجبال نفسها. طارد الناس الدبة هى ووليدها باستعمال الكلاب، وأمسكوا بوليدها؛ قالوا لى: إن الأم المتوحشة راحت ترميهم بالحجارة!

استمعت إلى كثير من الحكايات الغريبة فى دمشق عن المعترين muatters فى الأزمان السابقة، بل وحتى فى أيام آبائنا، وعندما كانوا – هم وبعض الرهبان الفرنسسكان يعانون عندما يتجولون هناك – لم يكن أى فرنجى Frenjy ، يستطيع الذهاب إلى هناك دون أن يكون متنكرا. لم يكن النصارى يحصلون على أى تعويض،

بل إن الممثل المقيم للسلطان لم يكن له أى سلطة على هؤلاء المعترين؛ يضاف إلى ذلك أن تصحيح الأخطاء الجسيمة كان يجرى على أيدى المعترين القساة الذين اشتهروابالعنف. – ومع ذلك فإن هذه المدينة الإسلامية التى يصل تعداد سكانها إلى ١٣٠,٠٠٠ نسمة عامرة بأعمال هؤلاء المعترين السلمية (التى لا تعرف الإفراط)! والذى لا شك فيه أننا نتفوق عليهم فى الاضطرابات الانفعالية، كما نتفوق عليهم أيضا فى الفنون وفى التعليم، كما أننا لدينا قوانين أفضل وندين أيضا بالدين المسيحى.

كان محمد النجومى واحداً من أولئك الجهَّال المشاكسين فى المدينة (المنورة)، وكان يشارك أيضا فى تجاوزاتهم الإجرامية . حكى لى واحد من أصدقائه، أنه ذات مرة، "كنا تسعة عشر رفيقا خرجنا لنتربص بالمغاربة الملعونين، وقد تعهدت لهم أن تكون أنت الرقم عشرين، نظرا لأنك رجل قوى وتستطيع الرماية بالبندقية." – والحجاج عابرو السبيل، عندما يكونون خارج مكة، يصبحون محرومين من الحماية ومن أية ضمانات! والبدو الرحل الإسماعيليون (المسلمون) لا يتورعون عن السطو على الحجاج القادمين من بلدان بعيدة تلبية ووفاء بما يأمرهم به دينهم (*).

هؤلاء الشباب المجرمون من شباب المدينة (المنورة) خرجوا خلسة من المدينة دون أن يعلم آباؤهم بذلك، واحدا بعد الآخر، ومعهم أسلحتهم، وكان ذلك فى فترة المساء. ومن المكان الذى تجمعوا فيه، أخذوا يتجولون على درب الحج، فى وادى الحمض el-Humth ، على بعد مسافة قصيرة من المدينة (المنورة). ومعروف أن قافلة الحجاج المغاربة تمر خلال الحجاز وهى مسلحة، كما لو كانت تمر خلال أرض معادية؛ والسبب فى ذلك أنهم يرفضون دفع أية إتاوة للبدو. – فى السنوات الأخيرة، قام المغاربة الشجعان بإحراق قريتين من قرى قبيلة حرب، فى المنطقة ما بين الحرمين، نظرا لأن أهل هاتين القريتين سبق لهم السطو على القافلة المغربية.

(*) من الواضح أن المؤلف جانبه الصواب فالدين الإسلامى لا يشجع على السطو . ومن المرجح أن عمليات السطو التى كان يقوم بها البدو إنما ترجع فى جانب منها إلى اعتقادهم أنهم من نسل سيدنا إسماعيل وأنهم بعملياتهم هذه إنما يستردون الحق الذى حرم منه باعتباره الدين الأكبر لسيدنا إبراهيم (عليه السلام) . (المراجع)

– مر الحجاج الذين كانوا يرتدون البرانس البيضاء: وفى مؤخرة القافلة كان هناك بعض من الحجاج المتأخرين. هاجم الشباب هؤلاء الحجاج المتأخرين وهم يصيحون صيحة الأعراب. وهنا استدار المغاربة، الذين لم يكن عددهم يزيد على ثلاثة رجال، وفتحوا نيران بنادقهم، وجرحوا واحداً من أولئك الشبان العشرين: ثم اتخذ أولئك الشبان من جانب الجبل ساترا لهم. – وفتح الشبان نيرانهم وسقط واحد من المغاربة الثلاثة؛ وهرب رفاق ذلك المغربى. وطاردهم الشبان الصغار المغامرون، وأمسكوا بواحد منهما؛ ولكن الثانى، تخلى عن جمله واستطاع أن يسبقهم وهو يجرى على قدميه.

استولى أولئك الشبان على جمال المغاربة الثلاثة؛ والتفوا من حول المغربى الأسير، وراحو يصيحون، "هذا هو الملعون الذى أصاب زميلنا؛ وحياة الله سوف يموت." عندئذ حملق المغربى فى وجه محمد النجومى، وأطال النظر إلى وجهه الذى يوحى بالأمانة والطيبة، وألقى بسلاحه حول عنقه وهو يقول:" يا سيدى، أرجوك وأتوسل إليك، أنقذ حياتى، وخلصنى من هؤلاء ." محمد: "نعم ، أيها الرفاق، أنا أقول: إن المغربى المقتول يعد مقابلا كاملا لذلك الرجل الذى أصيب منا،" – ولكنهم لم يوافقوا، فقال لهم: " لقد منحته حمايتى: – مرحبا! يا مغربى، – وأنا سوف أعمل الآن على سلامة هذا الرجل إلى أن يلحق بأهله." – وعندما اقتربوا من القافلة المغربية قال المغربى لمحمد النجومى: "لا تتقدم أكثر من ذلك، خشية أن يصيبك مكروه وأنت بينهم؛ بارك فيك الله ورسوله." – محمد: "كيف! لقد أنقذتك من رفاقى، وأنت ألا تستطيع إنقاذى من رفاقك؟' – "انصرف، يا سيدى الطيب؛ أنا قد أستطيع تخليصك من أصدقائى، ولكنى لن أستطيع تخليصك من رفاق ذلك الرجل الذى قتلتموه."

عندما عاد محمد إلى رفاقه كانوا قد قسموا الغنيمة! وأنكروا كلهم عليه نصيبه منها، وهم يتصايحون عليه، 'لكنك وقفت ضدنا وفى وجهنا! كما أنك أخللت بحقنا فى الثأر." – "حسن، وزعوا الغنيمة فيما بينكم، وسيكون الله (سبحانه وتعالى) هو الحكم بيننا!" – كان محمد لم يخرج بعد بندقيته الفتيلية من كيسها المصنوع من الجلد.

قال العم محمد: وسرعان ما سقط الحكم على أولئك الرفاق المنحلين: فقد مات سبعة منهم فى الوباء الذى جاء مع عودة الحج (أى بعد ذلك بشهرين) من مكة. أما البقية الباقية منهم فقد ماتوا وهم فى شبابهم، وانتهوا جميعا نهاية سيئة؛ واليوم لم يبق منهم أحد على قيد الحياة. - الأحداث التى من هذا القبيل، والتى تقع وتلتقى مع الخرافات الشعبية، تسمع الناس يرددونها كدليل وبرهان على العدالة السماوية فى كل الأديان.

المغاربة الذين يقطعون الرحلة البرية قادمين من أقصى الغرب يمضون أحد عشر شهرا فى تلك الرحلة التى يقومون بها إلى مكة! وفى سنوات معدودات فقط [كان ذلك عندما نزعت فرنسا سلاح الجزائريين] كانوا يدفعون الإتاوة لأهل الجزيرة العربية الحاقدين الذين يضمرون الكراهية. هذه هى العوف **EL-Auf** (تلك العشيرة الكبيرة من قبيلة حرب) متهمة بانتهاكات قامت بها على الحجاج أثناء انتقالهم بين الحرمين، هذا بالرغم من أن شيوخ العوف يحصلون على صرة سنوية من قوافل الحكومة القادمة من سوريا ومن مصر. والسكان البدو الذين يعيشون فى تلك الصحراء الملتهبة - أكثر بؤسا من الشحاذين. ويقال: إن بطن اللَّهابة **Lahabba** ، من عشيرة عوف يرثون هذا العمل الصارخ عن أهليهم! - أى السطو على قوافل الحج. وهم ليس لديهم إبل، نظرا لأنهم لا يستطيعون إعاشة تلك الحيوانات فى ذلك البلد المخيف: وخيام هؤلاء البدو فى الجبال، التى لا يملكون فيها سوى عدد قليل من الماعز. هؤلاء البدو ينزلون كل عام فى موسم الحج؛ وهم يتطلعون إلى الاستيلاء على ما يمكنهم الاستيلاء عليه فى تلك الأيام القلائل، حتى يمكن أن يعيشوا عليه هم وأسرهم إلى أن يحين موعد الموسم القادم. واللَّهابة عندما يتحدث إليهم أحد حول هذا الموضوع يقولون: ' إنهم يخشون الله! وأن هذه الحرفة التى يحترفونها إنما ورثوها عن آبائهم: وكيف لهم بالعيش، بغير هذا الطريق، فى هذه الديرة، التى وضعهم الله فيها؟ - هم وزوجاتهم وأطفالهم! إن ذلك الشىء الذى يأخذونه من الحجاج هو بفعل الضرورة، ووالله إنه لصدقة.'

استنكر الضباط الأتراك مرات عدة أعمال هؤلاء اللصوص، لدى الباب العالى [طبقا لكلام الشرق - ولدى حكومة السلطان، التى نطلق عليها اسم الباب، ومن باب

السخرية والاستهزاء الباب العالى] ؛ ولكن الرد يكون واحداً فى كل الأحوال، – 'بالرغم من أن النتيجة والآثار تكون بالشكل المقدَّم، إلا أن هؤلاء الأشقياء واللصوص جيران لرسول الله (ﷺ) وأن السيف يجب ألا يشهر بين المسلمين على مسامع النبى (ﷺ).'

الحكايات التى يدونها الناس هنا عن بدو اللَّهابة كثيرة مثل الحكايات التى يحكونها عن يهود خيبر أيضا. وهذه حكاية من حكايات عبد الله السروان عن أولئك اللهابة: – "يحكى أن لهابيا عجوزا لم يكن الناس يمتدحونه بالحرص أو بالشعوذة أو خفة اليد؛ وأنه كان هناك شاب هو الأفضل بينهم: – 'قال: ما فائدة هذا الكافر؟' ورد عليه الرجل أشيب الذقن قائلا: 'أنا أختارك أيها الشاب لتكون لى رفيقا، عندما نذهب للسرقة فى موسم الحج القادم؛ وعندها سوف يتضح من منا نحن الاثنين سيكون الأفضل.' – أخيرا حان الوقت: وخيم الحج فى المساء أمامهم.' (قال العجوز): يا شريكى، خفرهم مازالوا مستيقظين؛ سوف ننتظر إلى منتصف الليل، عندما يدخل هؤلاء الناس فى سباتهم العميق.'

– "نزل الرجلان، وطلب كبيرهما من صغيرهما اختيار خيمة من الخيام. وهنا تجرأ أشيب اللحية، ودخل الخيمة، وأخرج منها ما يريد ووضعه على كتفى الصغير، وطلب منه العودة على وجه السرعة. – ثم همس أشيب اللحية، متسائلا، 'من منا نحن الاثنين، هو الأفضل؟' – 'أستطيع القول إنى مثلك تماما أيها الشريك .' قال العجوز هامسا: 'حسن، هيا بنا إلى العشاء؛ هذا هو أرز فى أوانى الحجاج؛ مد يدك، وسم بالله!' بعد أن شبعا استدار أشيب اللحية إلى العجوز وقال: 'قل لى من منا الآن هو الأفضل.' – 'أنا لا أشك مطلقا فى كل ذلك، وأنا لا أشك مطلقا فى أنى نافع مثلك تماما، أيها الشريك؛ وهنا أمسك العجوز بالإناء، وألقى به على حجر من الأحجار!، ومع الصوت الناتج عن تكسر الإناء – والحجاج ينامون وهم متشككين فى كل شىء، ويضعون أسلحتهم تحت رءوسهم – استيقظ الحجاج من الخوف والفزع. كان اللص صغير السن وخفيف الحركة وخفيف اليد أيضا؛ ولكن أيدى الحجاج الممتدة فى الظلام

استطاعت الإمساك به، وسحبوه فيما بينهم. – ولكن الثعلب العجوز كان يرقد فى الخارج منبطحا على صدره (تماما مثلما ينام البدو) وكان يتنفس أنفاسا طويلة فى ضوء القمر! 'قالوا عندما شاهدوه، إنه رجل مسن مسكين، – واحد من بؤساء هذا البلد، الذين يجيئون للشحاذة من منزل الحج، كى يأكل بعضا من كسر الخبز' أما فيما يتعلق باللص صغير السن، فقد أوسعوه ضربا، وقيدوه بأحزمتهم وربطوه فى عمود الخيمة لحين طلوع النهار. وعندما وجد العجوز أن الحجاج قد ناموا مرة ثانية، تقدم وفك قيد شريكه، وهمس، 'خبّرنى، أيها الشاب، من الأفضل منا نحن الاثنين؟' رد عليه الشاب (وبعد أن أصبحا بعيدين عن المنطقة) 'إى، والله، يا والدى، أنت الرجل الأفضل.'" – انهى عبد الله حديثه بمثل، له مقابل إنجليزى 'قد يسبق الشاب العجوز ولكنه لا يتفوق عليه.'

ضحك العم محمد وقال: "ولكنى أقول لك إن الحجاج ليسوا بهذه السذاجة. كان هناك واحد من المغاربة، وكان يقسو على أولئك الحجاج؛ ووالله، مع أول مجيء له كان يتفوق على البدو من حيث الفطنة والذكاء. ذات ليلة، وبينما كان رفاقه نائمين، أحس بلفحة من الهواء؛ وعلى إثرها ارتفع جانب الخيمة من ناحيته. فتح الرجل عينيه، ورأى رجلا يحمل بعضا من أمتعتهم؛ وهمس اللص إلى لص آخر كان خارج الخيمة ، تعال ! خذ هذه وعد إلى سريعا، وسوف أجهز لك المزيد.' – وأخرج ذلك المغربى سكينة، وسكن بلا حراك وراح يتنفس نفسا طويلا كما لو كان نائما: ولكنه عندما وجد اللص يمر من فوقه وقف خلفه وطعنه طعنة مميتة! قُطع المغربى اللص إربا إربا؛ ووضع أطرافه ورأسه فى جوال، ووضع فوقها عرّاقة قديمة. وعندما عاد اللص الآخر تكلم المغربى همسا،' انتبه، يا شريكى، لأن هذا الجوال ثقيل.' تقدم البدوى إلى الإمام، ليضع حمله فى مكان أمين؛ وعندما طلع النهار لم يتجارأ على العودة. – قال لنفسه: 'ولكنى أعجب لذلك الذى وضعه شريكى فى هذا الجوال الأخير؛ وعندما فك الحبال، وجد تلك الأجزاء من رفيقه غارقة وملطخة بالدم داخل الجوال!"

فى سيل الحياة الإنسانية الخرافية الذى يبدأ فى الحجاز كل عام، هناك بعض المسلمين غير الكاملين؛ من ذلك مثلا أن بعض التركمان الذين يفدون من الأراضى

المرتفعة، ليسوا مختنين! كان واحد من أولئك التركمان المساكين يخدم والد العم محمد النجومى فى المدينة المنورة. زوجة هذا الرجل التركمانى، التى أنجبت له طفلين فى المدينة المقدسة (المنورة) تأكدت من مسألة عدم الختان تلك، عندما كان يبدل ملابسه فى يوم من الأيام. صاحت المرأة :'يا للهول، ويا للعار!' وأسرعت لتخبر سيده، النجومى العجوز الذى أرسل فى طلب خادمه المسىء، وطلب من أحد الناس الذهاب لإحضار الحلاق و"(يصيح فى الجندى الغاضب) تعال Taal يا ya ملعون melaun ،آه ! ما هذا الذى أسمعه عنك؟" وطلب النجومى الأب من ذلك التركمانى أن يقوم بختان نفسه تنفيذا لأمر الله (سبحانه وتعالى). وعندما تبسمت لتلك الحكاية، قال محمد النجومى:" لو كنت حاضرا لما ضحكت مثلما تفعل الآن ! نظرا لأن والدى كان رجلا مرحا بحق وحقيقة"

كان مفروضا، أن يصل دخيل قبل الآن، قادما من المدينة المنورة . ونظرا لعدم مجيئه حتى تلك الساعة، فقد ظن كل من عبد الله السروان والعم محمد النجومى أن ذلك ربما يكون فألا سيئا فيما يتعلق بى، أنا شخصيا؛ وهنا تذكرت ذلك الكلام المتشدد الذى قاله أمير الحج التركى فى قرية الحجر. هذا يعنى أن حياتى كانت فى قبضة ذلك الرجل، وفى بلاد يصبح مصير الرجل الأوروبى فيها بعيدا جداً عن متناول أصدقائه. أبلغنى العم محمد أن قضيتى سوف ينظرها الباشا فى وجود المجلس، الذى ينعقد مرتين كل أسبوع؛ وأن كبار السن هم والمواطنين المهمين سيكونون هم القضاة فى هذا الموضوع.

سمعت أيضا حكاية غريبة من كل من محمد النجومى وأمان Aman ، ومفاد هذه الحكاية أن مسيحيا حضر إلى المدينة المنورة فى العام الماضى! وعندما سأله الناس، "من أنت، يا سيدى؟" رد عليهم، "أنا نصرانى." – "وماذا تصنع هنا فى المدينة المنورة؟ أليست هذه مدينة الرسول؟" – " كيف ! تقول أنت أن اسمها المدينة وحسب؟ – أود الذهاب إلى خيبر، وأين خيبر أيها الرجل؟ اشهد ushhud ، وقل' الله Ullah واحد GOD THE ONLY وأن محمدا MOHAMMAD رسول الله HIS MESSENGER ، وإلا فإن الناس هنا سيقتلونك." –" أنا لا أقول مثلما تقولون لأنى نصرانى." صاح البعض،

اتركوا الرجل لحال سبيله، وأحضروه بلا عنف أمام الباشا؛ وكل شيء سوف يسوى حسب القانون، وليس بطريقة عشوائية، بالرغم من أن هذا النصراني يستحق الموت."

أدخلوا تابع المسيح السجن، في مدينة محمد (ﷺ)؛ ولكن "شيخ الدين" ذهب إلى الباشا وطلب العفو عن حياة ذلك الغريب المسيحي، وطلب من الحاكم أن يتذكر ما حدث في جدة وفي دمشق! "قال: إذا ما حدث مكروه لهذا الرجل، فقد يصل فرمان من اسطمبول يطلب منا جميعا المثول لاستجوابنا، وقد تقطع رءوسنا." وافق الباشا على ذلك الرأى، وأمر بتجهيز حرس مرافق من الجنود لتوصيل النصراني إلى ميناء ينبع؛ الذى يبعد مسير ست رحلات عن المدينة المنورة.

أُحْضر المسيحى إلى المدينة المنورة مرة ثانية، وخرج من بوابة المدينة ومعه الحرس. ولكنهم عندما وصلوا إلى مكان مهجور، قال واحد من أولئك العسكر: "أشهد USHHUD يا نصراني، ياكلب لن تجرؤ على الامتناع هنا؛ قلها أيها الملعون، وإلا والله " وراح العسكرى يصوب بندقيته إلى النصراني . رد عليه النصراني قائلا: " لقد سمعتم تعليمات الباشا وأوامره أيها الأصدقاء، والتى تقضى بتوصيلى في أمان إلى ميناء ينبع." – " مت إذن أيها الكافر " – من هو الذى ينبغى على طاعته الآن؟ اعلم أننى عندما أقتلك، فأنا أنفذ أوامر الله: اشهد USHHUD وعندها لن أقتلك." – "لكم دينكم ولى دين، أنت تطيع الله، وأنا أطيع الله؛ عش بدينك وأتركنى أعيش بدينى أنا أيضا." – "وماذا يعنى ذلك؟ يهودى أنت لا دين لك " "(قال المسيحى): أيها الأصدقاء، هيا بنا نمشى ؛ وتكلموا مع ذلك الرجل ليتوقف عن كلامه المؤلم." ولكن الجندى: "وهو على بعد أقل من خطوة! أنطق أيها الكلب بشهادة المسلمين ! وإلا سيكون هذا هو محل موتك أيها النصرانى الكافر؛ "وهنا وجه الجندى بندقيته إلى صدر المسيحى." (صاح) اشهد ushhud ، يا يهودى ! كلب! كافر! شيطان!" – وعندما لم يرد عليه الغريب فتح نار بندقيته عليه وأرداه قتيلا [+ ١٨٧٧] . – وعندما علم الباشا بذلك النبأ، أدخل الجندى السجن؛ وفي السجن، على حد قول كل من أمان Aman والعم محمد، ينتظر ذلك الجندى الرد الذى سيصل عن الخطاب الذى أرسله الباشا إلى اسطنبول؛ والذى

سيكشف إن كان يرضى الباشا عن إطلاق سراح ذلك الجندى أو الحكم بإعدامه. "قالوا: وهذا هو الذى يشغل بال عبد الله السروان، ويجعله مرتجفا وخائفا: وهم لن يجرؤا على الإقدام على أى شيء ضدك مخافة مساءلتهم جميعا عن حياتك."

– لكن، من كان ذلك الشهيد المسيحى ؟ ذلك الطفل من أطفال النور، إذا ما قورن بغلامهم كان حنطى البشرة، "قالوا: رجل أسود ولكنه لم يكن عبداً abd ، زنجيًا:" – ونحن نعرف أن البحارة الصقليين هم والصيادين الذين يعملون فى الشعاب المرجانية يحسبهم الناس من السود على الساحل المغربى. [انظر الجزء الأول ص٦٨١] .

حكى لى محمد أنه التقى ذات مرة رجلا أجنبيا فى المدينة المنورة، وعندما سأله أي رجل أنت؟' أجابه 'أنا نصرانى.' – 'لا تقل هذا الكلام بعد اليوم وانتبه إلى نفسك؛ أنا لن أخونك أو أشى بك، والله معك.' "ما هى علاقتى أنا بنصرانيته ؟ أليس ذلك بين العبد وربه؟" وفى مرة أخرى رأى محمد رجلا [يقول عن نفسه ؟ إنه] راهب rahab مسيحى، يتجول هنا وهناك فى مدينة الرسول وهو يرتدى ثوب الراهب. قال لهم الراهب إنه جاء من القدس ليصلى عند قبر النبى محمد!" أردف النجومى، لقد سمعت أن سيدنا محمد(ﷺ)، عندما وجد بعض الرهبان يسكنون الصحراء، وأنهم كانوا يصومون ويصلون بصورة مستمرة، وأنهم كانوا يتغنون باسم الله (سبحانه وتعالى)، أمر وأوصى بألا يسيء أحد إليهم."

كان العم محمد، يتحدث فى كثير من الأحيان، حديثا حرًا مفرحاً مع المتشددين من أهل القرية عن تعامل نبيهم مع الرهبان ومعاملته لهم: كانت إنسانيته تقر بأننا منقسمون بطريقة غير إنسانية، وأنه اكتشف فى ذلك المواضع التى يتباوس فيها الدينان." لكن قل لى، يا شيخ خليل: لو كنت أنا فى بلدك ثم قلت : 'أنا مسلم'، فهل سيجردونى من ملابسى ويجلدونى، وربما يقتلونى؟ ولكن ماذا يمكن أن يحدث، لو غيرت دينى وأصبحت نصرانيا؟" وهنا قال محمد، 'إنه لابد أن يتعلم الإنجليزية أثناء وجود خليل معه، فمن ذا الذى يمكن أن يتنبأ بالمستقبل، فهذه الدنيا متقلبة جداً، وأن تعلم تلك اللغة قد يخدمه فى يوم من الأيام.' قلت له: إن النصارى سيستفيدون كثيرا من

قوته ومن رمايته، ومن حصافة عقله، ومن مرحه، ومن أمانته التى تتسم بالإنسانية والرجولة." ولكن قل لى، يا شيخ خليل: هل سيسمحوا لى بالزواج عندما أجىء إلى بلادكم؟" وتعجب عندما سمع منى أن اللغة العربية غير معروفة (للناس) فى بلادنا البعيدة.

تساءل أحمد بينما كنا نتناول القهوة فى صُفَّته،" هل بينكم أحد من اليهود؟ وهل يتحدثون بالشر عن نبيكم؟" - "لقد سمعت أنهم يقولون: إن المسيح (رد هنا أحمد 'عليه السلام') وُلد من الزنا! ومع ذلك فهم لا يكسرون القوانين ونحن نعانى من عيشهم بيننا." - "آه! آه! (حملق أحمد متعجبا، وحرك يديه، كما لو كان يحاول استلال سيفه) خبِّرنى، إنهم لا يقولون ذلك فى العلن! ديننا يأمر بقتل كل من يجدف أو يفترى على الله هذا الافتراء المباشر، وإلا سيغضب الله عليه." كان أحمد رجلا شديد الحساسية ولكنه طيب الطابع أو السريرة، وكان يغضب. كنت عندما أصل إلى صُفَّته أراه يرحب بى دوما، ويتكلم معى كلاما لينا هينا، ويناولنى المخدة وهو يقول: 'كوُّع Koowy بمعنى 'أتكئ على هذه المخدة واستريح!' وكنت عندما أصمت أراه يقول: لى 'أهرج' eherrj بمعنى 'تحدث معنا يا شيخ خليل'. كان أحمد يكشف عن شىء من الطلاقة فى التعليم الدينى والإنسانى: وخبرة وجارات القهوة الحياتية اليومية هى التى تدخل كل يوم فى آذان هؤلاء الأعراب الكبيرة." قال لى: بالرغم من أن النصارى لا يصلون مثلما نصلى نحن، إلا أن دينهم يقوم على عبادة الله. لم يكن هناك نبى واحد فى الدنيا كلها وإنما كانت هناك مجموعة من الأنبياء، - البعض يقولون: إن عدد الأنبياء وصل إلى ثلاثمائة نبى؛ وحسب تعدد الأنبياء فى الزمن القديم تعددت أيضا الطرق الموصلة إلى الله. نحن المسلمون؛ ولكن لعلنا لا نقسوا على أصحاب الأديان الأخرى، أكثر من قسوة الله عليهم، لأنه من بين النصارى، يوجد من هم عادلون فى عقيدتهم ومن هم كاملون فى عقيدتهم أيضا، تلك العقيدة التى علمهم إياها نبى الله عيسى."(عليه السلام)

وفى يوم آخر، وبعدما عثر أحمد على ضالته فى القرآن، سألنى بنغمة من الحقد، "قال: من كان والد عيسى(عليه السلام)؟" فرددت عليه أنت تقول: والد المسيح؟ هذا، على حد

قول الفقهاء، لغز لا تستطيع أية لغة من اللغات، حلّه: وهذا يعنى القول بأنه ليس له والد فى فهمنا العام، فيما عدا القول بأنه الله، أى خالق كل المخلوقات، أو ذلك الذى تقولونه أنتم ، عيسى من روح الله." – أشار لى محمد بعينه بألا أقول أكثر مما قلت مخافة أن يحدث شيئا من التهور من جانب أخيه، نظرا لأنى على مسمع منهم خرج منى شىء من التجديف. وعندما أجبت على كلام أحمد شقيق محمد النجومى قائلا: [سَلِمت] Seelimt بمعنى [أوفق على ماتقول]؛ "(رد أحمد) إى ! ظننت أن خليلا قال [أسلمت] islimt [أصبحت مسلما] وتمنيت على الله أن يكون ذلك هو ما قاله خليل. إى! يا خليل، لماذا توجد فروق بيننا ؟ وبذلك تصبح حياتك فى خطر يومى، هنا وفى كل مكان؟ – ولكن عندئذ سوف نرسلك إلى أى مكان تشاء، وأنت فى أمن وسلام؛ وسوف نصحبك إلى المدينة المنورة لزيارة قبرالرسول (ﷺ)." – وفى مرة أخرى قال: 'إن الرجل الذى يحيا تدين كامل، ويصلى فى الحرم المدنى، وعندما يصل إلى المكان الذى يحييه المسلمون بوقار على إنه قبر النبى(ﷺ) بقولهم السلام عليك يا رسول الله فإن النبى (ﷺ) يسمع تلك التحية ويرد عليه من قبره (ﷺ) وعليك السلام.

روى لى أمان Aman عن معجزة تقع كل عام فى كهف فى بدر حنين، حيث يدفن أولئك "الشهداء" الذين سقطوا فى أول معركة للنبى (ﷺ) مع مواطنى مكة (الملحدين)." ففى يوم محدد، وعندما يقصد الناس تلك الأماكن فى موسم الحج، يسمع الناس همهمة كما لو كانت أصوات أولئك الشهداء داخل الكهف. والذين يمكن لهم الدخول إلى ذلك الكهف هم أولئك الذين يحافظون على حياواتهم نقية وخالصة من الجرائم المشينة: ولكن، قالها أمان هامسا: الملوثين، والمذنبين من أمثال عبد الله السروان، صاحب القلب الأسود، الذى يضايقك هنا! – لا يمكن لهم الدخول إلى ذلك الكهف؛ والسبب فى ذلك أن الطريق لا يستقيم أمامهم، كما يتعثرون فى منتصفه؛ كما لا يسمعون أيضا أصوات أولئك الشهداء الأخيار." – وراح أمان يأسى ويندم، وهو يتأمل مثل سائر المتدينين المساكين هنا، والذين يتمتعون بضمائر طبيعية يقظة، ذلك الفساد الإجرامى الذى ينتشر حاليا فى كل الأرجاء التابعة للسلطان. قالوا وهم يتنهدون، على مسمع ومرأى منى، " ياأسفاه! السلطان لايعلم أنهم يسرقون: ضباطه

وموظفوه يخونون الأمانة ، ونظرا لأن ذلك لا يصل إلى علم السلطان، فإن الأمر يمر بلا تعويض.

كان تأخر وصول مراسل عبد الله، قادما من المدينة المنورة بمثابة سحابة كبيرة حبلى بالكثير من القلق لى أنا شخصيا وسط ظلام خيبر. ذات يوم، تحدثت إلى العم محمد النجومى أثناء قيامنا بعملنا فى بئر الماء،" مالذى ينبغى علىَّ عمله إذا ما وصلتنا اليوم أخبار سيئة؟ وبالرغم من أنك تضع هذا السيف بين يدى، إلا أنى لا أستطيع مقاتلة ثلاثمائة شخص." – " قال الرجل الطيب، اجلس ودعنا نتدبر الأمر، يا خليل: أنت الآن قلت كلمة صادقة تماما، لقد جعلت تلك الكلمة قلبى يئن ويتوجع، وأنا لا أستطيع الاستمرار فى العمل أكثر من هذا؛ حيَّاك hyak بمعنى "هيا بنا نعود إلى المنزل،" – بالرغم من أننا لم يمض علينا نصف ساعة فى منطقة البئر. – كان العم محمد صامتا تماما عندما جلسنا سويا فى صُفَّة منزله: ثم "قال: اسمعنى يا خليل ،إذا ماجاءنا خبر مشئوم من الباشا، فسوف أخلصك من عبد الله السروان عن طريق دفع الثمن، ووالله سيكون ذلك كما لو كان رجل يشترى عبداً؛ سأدفع فرسى ثمنا لذلك، فهى تساوى ستين ريالاً، وعبد الله السروان يرغب فى الحصول عليها . إنه ملعون، يا خليل؛ – وبعدها سوف أجعلك تركب مع بعض البدو، وهم من الناس الذين أثق بهم ويثقون بى أيضا، وأجعلك تمضى لحال سبيلك." – "أنا لا تعجبنى نظرات عبد الله السروان التى تنطوى على الغدر والخيانة." – "سأذهب إليه اليوم وأختبره؛ وسوف أعرف ما يدور بخلده، نظرا لأنه لن يخفى عنى شيئا . وإذا ما وجدت أن الخطر محدقا، فسوف أخطفك، وأضعك وأخفيك فى مكان مستور من الحَّرة، بحيث لا يعثر أحد عليك فى ذلك المكان؛ وسوف أترك معك قربة ماء وبعضا من التمر، لتتمكن من البقاء فى ذلك المكان بضعة أيام حفاظا على سلامتك ،إلى أن تصل إلينا الأنباء القادمه من المدينة المنورة، وطوال هذه المدة سوف أرسل لك، أو بالأحرى سوف أتردد عليك أنا بنفسى."

مر اليوم علَّى ثقيلا: نهض الرجل الطيب بعد العشاء، وتناول سيفه وعباءته (بشته) وتركنى فى غرفة العشاء، وقال لى: إنه ذاهب 'لجس نبض الملعون': غاب الرجل عنى

مدة ساعة. وعاد ذلك الرجل القوى ونظراته الودية توحى بالحسم والحزم: وجلس الرجل أرضا كما لو كان قد انتهى للتو من معركة شرسة، ثم قال:" يا خليل، ليس هناك أى خطر عليك فى الوقت الراهن؛ وقد قال عبد الله اليوم، فى حقك كلاما طيبا، – 'يبدو أن خليلا، لا يخش الله أو يخافه؛ إنه لا يثق بى، وها أنذا قد قلتها بالفعل، – إذا ما كتب لى الباشا بما يفيد قطع رأس خليل فسوف أجعله يركب ناقة من النياق، وأتركه يذهب لحال سبيله؛ وسوف نضع أختامنا على الورق، وسوف أستشهد بأهل خيبر. نستشهد بهم على ماذا؟ أن خليلا خرج من السجن وهرب. – بلِّغ خليل أننى لم أنس الشام أو جدة، وبلِّغه أيضا أننى لا أخشى الباشا أو أخافه، والذى حدث بالأمس لابد من تذكره اليوم والغد، وأعمل ألف حساب وحساب لاسطمبول، حفاظا منى على حياتى."

وصل المراسل أثناء الليل. وسمع العم محمد عن وصوله، وقصد على الفور إلى منزل دخيل ليسأله عن الأخبار .؟ " قال المراسل: ليس هناك سوى خبر واحد، وهو أن الباشا أرسل فى طلب كتب ذلك النصرانى."

فى الصباح استدعانى عبد الله السروان إلى منزله، وطلب من الشيخ صالح أن يقرأ علىَّ رسالة حاكم المدينة، التى كانت قصيرة تماما ،"أرسلوا لنا كتب ذلك الغريب كلها وأرسلوا إلينا أيضا الورقة المكتوبة من ابن الرشيد ؛ ويجب أن ترسلوا الناقة أيضا." وطلب السروان منى الذهاب مع مضيفه إلى صندوق كانوا يضعون فيه جوالاتى، كى أحضر الكتب والأوراق على ألا أترك منها أى شىء. وقد نفذت ذلك، باستثناء طلبى الاحتفاظ بالورق السائب، طالما أن الباشا لم يطلب إحضاره، – ولكنه لن يطلب ذلك. قلت: "أنا أيضا سوف أكتب رسالة للباشا؛ وها هو جواز سفرى الإنجليزى وسوف أرسله للباشا مع بقية الأغراض." صاح صيحة أدهشتنى وبصوت يوحى بالغضب المسعور قائلا:" لا، لا تفعل ذلك!" وأنى 'إذا ما تكلمت كلمة أخرى فسوف يفرغ مسدسه فى رأسى،' ثم لعننى، ولعن 'الإنجليز، ، وأبو الإنجليزى. – كان ذلك الوغد على وشك أن يضربنى، لولا تخوفه من كل من النجومى ودخيل اللذان كانا حاضرين. "تعجبت قائلا: ها، أهكذا تتلاعب بحياتى!" وهنا انطلقت عاصفة هوجاء من

فم ذلك العبد الأسود؛ "صاح، هذا النصرانى! الذى يعيش إلى اليوم بفضلى، يقاطعنى فى كلامى؛ كان بوسعى أن أنسف مخه بطلقة واحدة، والله، من مسدسى، فى بداية الأمر!"

قال العم محمد عندما وصلنا إلى المنزل: "واقع الأمر أن عبد الله السروان ملعون، وما لم نكن موجودين معك اليوم لما أفلت أنت منه مطلقا اليوم." – وهنا استشعرت مدى وحشية التخلّى عن قنصلية الليفانت ! إلى حد أنى عرّضت حياتى لأشكال قاسية من الموت.

حتى العم محمد كان يستمع إلىّ وهو قلق عندما كنت أقول له: إننا لسنا من رعايا السلطان. – والسلطان الذى يعد خليفة Khalif ، لرسول الله (ﷺ)، هو السيد القانونى الوحيد، من وجهة نظرهم، لهذا العالم كله؛ وأن كل من لا يدينون له بالطاعة فهم من العاصين asyin ، أى من الناس الثائرين والمتمردين. هذا الرجل الطيب (محمد النجومى) كان يأسف، على حد فهمى، لسماع الكلمات التى لها علاقة بالتمرد والعصيان، تجرى على لسان خليل. سألنى إن كنا قد تعلمنا الاحتفاظ فى بلادنا (البعيدة) بجماعات من الجند المدربين، مثل عسكر السلطان؟ رددت عليه، أن فنوننا هى التى سلحت ودربت قوات السلطان وجيشه، ولولانا لأصبحوا عارين ومكشوفين تماما." رد على، هذا طيب جداً، وطالما أن الإنجليز ليسوا من العاصين، فإنهم يتعين عليهم العمل فى خدمة السلطان."

وعندما عدَّدت عليه بلدان الغرب، سألنى إن كان هناك بعض من المسلمين يعيشون فى تلك البلاد. قلت له: إن طغمة من المغاربة، قامت منذ زمن بعيد بغزو الأندلس شديدة التنميق. كانت الأندلس واحدة من المقاطعات الإسلامية الزاهرة: وكانت النباتات العربية تنمو فى التربة الأوروبية الخرافية إلى أطوال ممتازة؛ وكانت البلابل bulbul الجميلة تعشش فى تلك النباتات، التى تنمو فى أرض الشمس الغاربة وتفرح بذلك النبيذ المناسب . ومع ذلك عجز العرب عن الاستفادة من تلك التربة الذهبية استفادة كاملة، وهنا نزل أبناء اخوتهم الأشداء من الجبال، والذين سبق للأجداد أن

جردوهم من ممتلكاتهم، نزلوا من الجبال وأعادوا احتلال بلادهم. وعندما قلت ذلك، رد العم محمد "والله قويين guwiyin! ، إذن لابد أنهم كانوا شعبا قويا. أنت يا خليل، زرت بلادا كثيرة؛ وتتجول حيثما تشاء، طالما أن هذه رغبتك، ولكن إياك وشبه الجزيرة العربية (جزيرة Tezirat العرب el-Arab) . لقد شاهدت فيها ما يكفيك؛ ويا لها من أرض لا يحكمها قانون! بل إنها خطرة علينا نحن أيضا الذين ولدنا فيها؛ ويا لجهل أهلها وتزمتهم مع كل دين من الأديان الأخرى. أين كنت أنت عندما خلصكم الله من كل هذه المتاعب ؟ حتى أن تصادف لى الذهاب إلى تلك الأصقاع، أمكن لى الالتقاء بك. خبرنى ما هو العنوان الذى يمكن أن أرسل عليه رسائلى إليك، إذا ما خطر ببالى أن أكتب لك فى يوم من الأيام؛ وإذا ما كتبت على الرسالة الشيخ خليل، بلاد الإنجليز، فهل ستجد مثل هذه الرسالة طريقها إليك؟

"هذه هى ورقة، وقلم بسط، وهذا هو الحبر: عبد الله لن يسمح لك بالكتابة إلى الباشا، ولكن أكتب أنت وسوف أرسل أنا الرسالة مع دخيل، الذى لن يرفض لى طلبا، وسوف يمر دخيل علينا فى الغد. انتبه وأنت تكتب للباشا أن تطريه وتمدحه ببعض العبارات الطنانه." – " سوف أكتب بأسلوب بسيط، حسب ما يمليه على ضميرى." – "إذن، فأنت مجنون، ومسألة الضمير هذه ليست جيدة، وهى التى تخيفك وتمنعك من مساعدة نفسك فى وقت الخطر." – خبرنى، هل الباشا شاب صغير متسرع القرارات، أم إنه رجل من قضاة اسطمبول؟" – "إنه رجل أشيب اللحية، معتدل العقل، كما أنه مصلح يعمل مع الضباط، ومن ثم فهم لا يرحبون به. ومع ذلك ،فأنا أقول لك امدحه، لأننا لا نحصل على أى شىء بغير هذا الطريق؛ ويزداد الحصول على المطلوب كلما زاد الإشفاق والحنان." كتبت باستعمال القلم الرصاص رسالة باللغة الإنجليزية، – لأن محمداً قال لى: إن هناك مترجمين فى المدينة المنورة. ربطت مجيئى إلى هذا المكان بالحج، باعتبارى قادما من سوريا لزيارة مدائن صالح؛ وأننى عشت طوال هذه الفترة مع البدو، إلى هنا؛ وشكوت للباشا الحاكم من الاحتجاز الخاطئ فى خيبر، بالرغم من أنى أحمل جواز سفر من والى سوريا؛ يضاف إلى ذلك أن بعض البدو التابعين للدولة Dowla ، والذين يعرفونى، شهدوا بصحة كل ماقلته. وطلبت السماح لى بمواصلة رحلتى وأن يكون برفقتى أناس مأمونين.

كنت جالسا فى قهوة الجنود، عندما كتب عبد الله السروان رسالته الجديدة للباشا، "الطاعة العمياء لمعاليكم: وأنا أرسل لمعاليكم كتب الغريب وأوراقه. وقد أرسلت الناقة لمعاليكم مع بعض الأعراب المسافرين إلى المدينة المنورة؛ ولكن الناقة هربت منهم وعادت إلى خيبر: والناقة حاليا مريضة، وقد لا أرسلها لكم بسبب مرضها." – : هل كتبت كل ذلك يا شيخ صالح؟ – إن شاء الله، لن يبقى باشا المدينة المنورة فيها أكثر من ذلك؛ لأنهم يقولون :إن باشا جديد قادم إلى المدينة." لم يستطع كل من سمعوا تلك الخرافة أن يمنعوا أنفسهم من الضحك؛ باستثناء السروان الذى كان ينظر إلى ذلك نظرة حزن وغم، نظرا لأن الناقة كانت تعطيه كل يوم سلطانية كبيرة من الحليب، فى زمن القحط هذا فى خيبر. ختم عبد الله السروان الرسائل بخاتمه، ثم ناولها لدخيل، الذى رحل بها قبل دخول وقت الظهيرة. قام العم محمد، أثناء شروع دخيل فى رحلته، بوضع قطعة من النقود (أخذها منى) فى يد دخيل، ثم وضع بعدها رسالتى وجواز سفرى البريطانى فى الكيس الذى يحمله دخيل على ظهره، والذى تظاهر بأنه لم ير ذلك الذى حدث: لم يتوان ذلك القروى عن مساعدة الغريب (والذى يعد ضيفا شعبيا أو عاما) الذى وجده مهموما فى قريته بفعل الاستبداد الإجرامى من جانب عبد الله السروان.

تسطير الخطاب إلى المدينة المنورة أثار القلق فى ذهن عبد الله السروان، إلى حد أنه أصيب بالحمى من جديد: " يصيح، ساعدنى على وجه السرعة أين كتابك يا شيخ صالح؛ وأنتم أيها البدو الذين يجلسون هنا، أليس لديكم دواء ناجح فى الصحراء لما أعانيه؟" راح الشيخ صالح يبحث فى كتابه القديم، إلى أن عثر لعبد الله السروان على وصفة جديدة. – وفى مرة أخرى شاهدت صالحا وهو يحاول علاج ناقة مصابة بالجرب؛ كان يجلس وأمامه سلطانية فيها ماء، وراح يتمتم على الماء ثم تفل فيه، ثم راح يغمغم ببطئ وتفل مرات عدة؛ وبعد حوالى نصف ساعة من ذلك العمل حملوا الماء لتشربه الناقة الجرباء – وقد أوضحنا أن التفل يعد أمرا مهما فى طبابة هؤلاء الناس. – ترى، هل هذا من قبيل تفلهم على الجان الحاقد الحسود؟ الآباء يطلبون من أبنائهم التفل على الجان: والأب العربى يقول لطفله الرضيع وهو بين ذراعيه: "اتفل على بابو babu ! اتفل يا حبيبى."

الفصل السابع

أرض الأحباش - تراث المدينة الأدبى

الإمبراطورية الحبشية. أرض الأحباش. العمليات الحربية التى قام بها الأحباش (الوثنيون) والأحباش (المسيحيون). إفرنجى مرتد أو رحال فى مكة وفى المدينة. مشروب السوبيا. امرأة أرملة كريمة فى (الطائف). "النصارى هم أبناء البحر." وادى بيشة. وفاة محرِّم . اتهام النصرانى. بيع بضائع محرم. على، العدو (اللدود) للنصرانى. الفُرا. العوازم. ثقيف . النجومى فى حائل. غزو الرومان لبلاد العرب القديمة. أغسطس يرسل إليوس جالوس، على رأس جيش للاستيلاء على ثروات اليمن السعيد موسم الحج . إنذارات بالخطر . أخبار عن الحرب . ضفائر النخيل . أحجار كيرن المشغولة بأيدى العرب . مبنى قديم فى الحرة . ينبع . وديان خيبر - حرات المدينة . الحلحال الحوردة . المنازل الصيفية من الطين لبدو أولاد على. الخيابرة يمتنعون عن أكل بعض أنواع اللحوم. وفاة عقيلى آخر - 'السحرة ينبشون' قبره. حكايات الجان. رجل يتزوج زوجة من الجن فى المدينة.

لم يغالب النوم جفونى طوال ساعات طويلة من الليل أمضيتها وأنا أتحدث مع رفيقى أمان Aman، ذلك الرجل الحبشى صاحب العقل الساذج الصديق. وعندما سألته عن أرض الجالاً العظيمة "قال: الحبش EL-Habash هى أكبر إمبراطوريات الدنيا؛ فمن من السلاطين يمكن مقارنته بسلطان الحبش!" - "حسن، نحن لم نعثر سوى على ملك صغير، على ذلك الجانب، عندما استولى الإنجليز على المجدلة Magdala ، بلدة ذلك الرجل الفقير." - تذكر أمان، أيام طفولته عندما أحضروه مع قطيع العبيد، أنه مر على بلدة المجدلة تلك. 'قال: ذلك الملك لا يمكن أن يكون أكثر من مجرد حاكم أو باشا، تابع

للسلطان الكبير، الذى تبعد عاصمته مسافة مسير عام كامل، حيث يسكن فى قصر من العاج. وحكام وأمراء مقاطعاته الكثيرة يهبون له جزية إمبراطورية، – وليس لها وقت محدد؛ ولكن جرى العرف على جباية تلك الجزية مرة واحدة كل ثلاثة أو أربع سنوات.'

هذه الأسطورة هى ركن من أركان العقيدة عند الأحباش كلهم، وهى تستوى فى ذلك مع الأسطورة التى يقوم عليها السواد الأعظم من عقائدنا؛ وربما تكون تلك الأسطورة قد نشأت فى ضمير الأحباش غير المنطقى بسبب الجدل الواهى غير الدقيق الذى لا يتخذ المنطق أو العقل أساسا له: – 'كل أرض تخضع للحكام، يتعين أن يكون فيها حاكم من أرض الحبش. – وأرض الحبش هى أكبر بلاد الدنيا؛ ولكن سلطان الأرض الأكبر هو أكبر السلاطين: ومن ثم فإن السلطان يسكن فى سكن فاخر ثرى ويأخذ ثروات العالم (الإفريقى)، والمكان الذى يعيش فيه يكون مصنوعًا من العاج!' أردف أمان قائلا:' البلاد ليست مستقرة على شكل قرى؛ ولكن منزل كل واحد من البشر عبارة عن مسكن مستدير من الحطب وجذامات القش، وهذا المنزل واسع وكبير وله إطار خارجى جيد؛ والمسكن يقع فى منتصف الأرض التى يختارها صاحبه من بين أراضى التلال المحيطة به. هذا الشىء الذى يصنع من حزم الحطب قد يدوم سنوات عدة؛ [ولكنه يكون معرض دوما لأن يكون طعاما للنار فى أية لحظة من اللحظات] . والناس هنا يزرعون من التربة مايشاءون؛ والحبوب عندهم لا تقاس بالوفرة أوالندرة. والناس هنا لديهم ثروة كبيرة من البقر، إلى حد أن من يمتلك مائتين أو ثلاثمائة من تلك الأبقار يدخل فى عداد الفقراء من الناس. والثيران عند هؤلاء الناس لها أجسام كبيرة، لها قرون كبيرة أيضا: والأحباش يحلبون من تلك الماشية كمية كبيرة من الحليب تكفى الشرب وعمل الزبد؛ والناس هنا أيضا يشربون البيرة التى يصنعونها من القمح الوفير عندهم. وبالرغم من أن الأرض هنا تشبه التلال إلا أن لباسهم الوحيد هنا [وهم فى ذلك يشبهون البلاد المصرية والإثيوبية القديمة] عبارة عن قطعة من القماش يسترون بها عورتهم؛ وهم هنا لا يحتاجون إلا إلى الهواء المعتدل. والصيف الحار لا يضايق الناس هنا على الإطلاق؛ والناس يكونون هنا مفعمين بالنشاط والحيوية فى فصل الشتاء. وبلاد هؤلاء الناس عامرة بالأسود، ولكن رحمة الله خففت من خطر

تلك الحيـوانـات البرية المفترسـة؛ لأن تلك الأسود تمرض بالحمى بين الحين والآخر، وإلا دمرت الدنيـا كلهـا! هذه الأسـود تفترس الكثير من ماشية هؤلاء النـاس؛ ولكنها لا تؤذى الجنس البشرى إلا لماما. والرجل عندما يرى أسداً فى طريقه يتعين عليه المضى قدما فى طريقه دون خوف، بل ويمر أيضا على ذلك الحيوان المفترس ويتخطاه؛ بحيث لا يوجه ناظريه إلى الأسد، نظرا لأن ذلك قد يثير غضب ذلك الحيوان المفترس. هذه البـلاد فيهـا أيضا أفيال وزراف؛ وخيولهم كبيرة الحجم ولها قامات مرتفعة.' – وقد سمعت من تجار العبيد أن الحصان فى بلاد الحبش يمكن شراؤه بما قيمته ريال واحد!

بلاد الحبش لا تستعمل النقود؛ قال: إن الناس ليسوا بحاجة إلى شراء أى شىء من الأشياء: وهم يحصلون على البضائع الأجنبية التافهة من تجار العبيد؛ وأن تلك التوافه هى من قبيل الخرز والمرايا المستديرة المصنوعة من القصدير أو الصفيح. وهذه هى البضائع التى يجلبها تجار العبيد معهم إلى هذه البلاد، – هذا بالإضافة إلى الملح الذى ينقصهم أو يفتقرون إليه وسط هذا الإنعام الكبير. وصخرة الملح، الذى يحملها رجل واحد، تكفى أن تكون ثمنا لشراء عبد واحد من العبيد بين هؤلاء الناس. والملح يجرى استخراجه من سواكيم (*) Suakim (بالقرب من البحر الأحمر، ومقابلة لجدة على وجه التقريب)، وعلى مسافة مسير ستة أشهر. والحبش كرماء مع الأغراب، الذين يستطيعون المرور عبر أراضيهم حسبما يشاءون. والقتال عندما ينشب بين القبائل المجاورة، يصبح الغريب آمنا على نفسه فى المكان الذى يقيم فيه؛ ولكن إن تعين عليه الانتقال فذلك يحتم عليه الابتعاد عن منطقة النزاع، وينأى بنفسه عن الخطر، بالذهاب إلى قبيلة أخرى، وبذلك يصبح فى مأمن من الخطر بين أفراد تلك القبيلة الأخرى. وبلاد الحبش مترامية الأطراف وعامرة بالأمن والسلام؛ والغريب إذا ما نزل عند أى كوخ من الأكواخ يستقبله الناس بكرم حاتمى. ويسألونه إن كان يود أن يشرب شيئا من بيرتهم أو من حليب أبقارهم؟ وهم يذبحون للغريب ذبيحة ويعطونه اللحم الذى يمكن أن يطهيه هو بنفسه [نظرا لأن الحبش يأكلون اللحم نيئا] .

(*) سواكيم : الاسم الصحيح سواكن ، كما هو معروف . (المراجع)

هؤلاء الناس لديهم أشجار البن البرية فى بلادهم، وهذه الأشجار ضخمة مثل أشجار البلوط؛ وهذا النوع هو أفضل أنواع البن: وحبة هذا البن كبيرة جداً. وهم يجمعون قرون البن التى تسقط من تلك الأشجار على الأرض، ويحمصون حبوب البن مع شيء من السمن. والقهوة لا يشربها سوى كبار السن، وشربها يكون نادرا: وهم يعتقدون أن صغارهم يجب ألا يعتادوا على شرب ذلك المشروب الحريف. والنساء هنا يصنعن الزبد، بطريقة خض الحليب فى أوانى يصنعونها من القرع كبير الحجم المجوف: وهم يحفظون مشروباتهم كلها فى أوانى من هذا القبيل. ذرات الذهب يمكن مشاهدتها أيضا فى الرمال التى تجرفها السيول؛ ولكن ليس هناك من يجمع تلك الذرات. ومن بين هؤلاء الناس [كما هو الحال فى الجزيرة العربية] توجد طائفة من الحدادين؛ والحبش لا يختلطون مع هؤلاء الحدادين عن طريق الزواج. هؤلاء الحدادون يحصلون على أجورهم على شكل ماشية.' وأنا لم أتيقن من أمان، من دين هؤلاء الناس: 'لم يستطع إخبارى بذلك؛ قال: إنهم يصلون، وهو يعتقد أنهم يتجهون فى صلاتهم صوب مكة.' وهو لا يتذكر إن كان لدى هؤلاء الناس شيئا من الكتب فيما بينهم.

قام بعض أفراد القبيلة المجاورة بسرقة أمان فى فترة العصر عندما كان يحرس بيرة والده. هؤلاء الغزاة ذهبوا فى الليلة نفسها للإقامة فى كوخ كانت تعيش فيه امرأة أرملة. وعندما سألت تلك المرأة الطيبة ذلك الصبى الأسير عن والديه، قالت للضيوف: إن أقارب ذلك الطفل هم من معارفها وأنها سوف تفتديه بمائة ثور؛ ولكنهم رفضوا ذلك العرض. وبعد ذلك بأيام قلائل باعوه إلى تاجر من تجار العبيد: وبدءوا يسوقونه ضمن قطيع الأولاد والبنات ليبيعونهم فى بلاد بعيدة وغريبة. هؤلاء الأطفال الذين يتكونون من أسرى من الذكور والإناث يمشون ستة أشهر حفاة الأقدام إلى أن يصلوا إلى البحر الأحمر: تقدر تلك المسافة بما يقرب من ١٢٠٠ ميل. وفى كل ليلة يصلون خلالها إلى محطة من محطات تجار العبيد يتناولون العشاء المكون من اللحم والبيرة. وكان تجار العبيد يسيئون معاملة أولئك الأطفال والبنات بالإضافة إلى التعب والإرهاق الذى ينتابهم جراء تلك الرحلة الطويلة التى يقطعونها سيرا على الأقدام.

'إلى أية أمّة' ينتسب هؤلاء الناس الذين يجلبون العبيد؟' - لم يستطع الرد على هذا السؤال: كانوا رجالا بيضا، وعلى حد قوله، من المسلمين؛ ولكنهم ليسوا من أهل الجزيرة العربية، لأنهم لم يكن موطنهم مدينة جدة، التى كانت فى ذلك الوقت، المدينة الرئيسية للعبيد الأفارقة، بالنسبة للإمبراطورية التركية: جدة التى يوجد فيها القناصل الأفرنج (الفرنجة)! ولكنك سوف تجد هذه الوجاهات فى الوحدة الشاحبة داخل قصورهم، مما يؤثر (العياز بالله!) على بساطة وسذاجة أطفالهم حديثى الولاده، - وهم يقولون لك، إنهم لا يعرفون عن ذلك شيئا! ولكنى أقولها مرة ثانية، فى آذانكم التى لا تسمع، جدة هى المدينة الرئيسية للرق التركى، وإلا فإن المسلمين كلهم كذابون.

- أخيرا وصلوا إلى مفيض النيل الذى كان يستقر فى منخفض جبلى كبير، حيث نقلوهم على "طوف" مصنوع من البوص وجلود الماعز. قال: إن رحلتهم طويلة جداً نظرا لكثرة التجاويف والمنخفضات فى البلاد. وأنهم فى أغلب الأحيان يختارون بعض الوديان المنخفضة، التى تبدو للناظر إليها من أحد الأجناب وكأن المسافة قصيرة بين ذلك الجانب والجانب المقابل له؛ ومع ذلك فهم يسيرون فى النزول وفى الصعود يوما أو يومين لكى يقطعوا مسافة من هذا القبيل ومن عادة كبار السن فى بلاد الحبش القول إن: 'النيل يأتيهم متدفقا إلى وديان عميقة ملتوية قادما من بلدان مكشوفة تبعد عنهم شهورا كثيرة.'

" أمان، ليتنا نذهب، عندما أحصل على حريتى، إلى بلاد الحبش! لن يكون الحال هناك مثلما هو هنا، حيث ندفع أيدينا اليسرى نظير بقرة واحدة!" رفع ذلك الحبشى المسكين نفسه على كوعيه، وبصره زائغ ويوحى بالحزن، وراح يبتسم وكأنه كان يرى بلاده مرة ثانية: أخبرنى عن اسمه باللغة الحبشية، عندما كان طفلا، يعيش فى بيت حبشى. سألته إن كان يضمر حقدا أو غلا فى قلبه لأولئك الذين سرقوا حياته وباعوها للعبودية فى أنحاء الأرض." ومع ذلك، هناك شىء واحد عوضنى عن كل ذلك يا شيخ خليل' - هذا الشىء أننى لم أبق فى الجاهلية مع الوثنيين! - يالروعة العناية الإلهية! التى أتت بى إلى بلد الرسول، والتى جعلتنى أعرف الدين! آه، ليتك تشارك فى تلك

المتعة! – ومع ذلك، فأنا أعرف أن كل شيء بإرادة الله، وأن ذلك سوف يحدث أيضا فى الوقت الذى يحدده الله (سبحانه وتعالى)!" أخبرنى أيضا أن قلة قليلة من الحبش هم الذين يعودون إلى بلادهم بعد أن يحصلوا على حرياتهم. – "وأنت، يا أمان، هل ستعود إلى بلدك؟" "قال: آه! لقد اعتاد جسمى على الهواء هنا، كما اعتاد هنا أيضا على أسلوب مختلف للحياه."

هناك قتال مستمر على حدود بلاد الحبش مع أولئك الأحباش الأبيسنيين Abys-sinians الذين يعيشون على تلك الحدود؛ ومن ثم فإن هؤلاء الأحباش الأبيسنيين يمنعون الناس من المرور عبر أراضيهم ومعهم أسلحتهم إلى المناطق التى يعيش فيها الحبش. والحبش شعب محارب وهم يتسلحون بالرماح والتروس ولذلك فهم يهجمون على عدوهم هجوما شرسا أثناء القتال. – والحبش فيهم شيء من الرقة والكياسة تظهر عليهم حتى فى البلدان التى يكونون فيها عبيداً.

حكى لى أمان حكاية حياته التى بدأها عبدا وأنهاها حراً فى الحجاز. وقد عاش فترة من الزمن فى جدة كان يعمل فيها خفيرا للجمارك على ظهر السفن الموجودة فى المرفأ؛ كانت معظم تلك السفن عبارة عن سفن شراعية محملة بالأرز البنغالى، وتضم أطقما من سكان ذلك البلد ولكن تحت قيادة قباطنه من الإنجليز. كان أمان يتحدث بقلب مفتوح عن كرم البحارة "النصارى". ذات يوم كان يراقب ويحرس سفينة تجارية وصلت مؤخرا قادمة من الهند، وكان من بين ركابها شخص "نصرانى"، كان "يبكى ويبكى، ولم يستطع أصدقاءه منعه من البكاء." وعندما رآه أمان، سأله عن سبب بكائه، فرد عليه الغريب وهو محزون "أتركنى! لقد سألت الله أن أزور مدينة بيته الحرام، وأصبح مسلما: أليست مكة قريبة من هنا؟ساعدنى أيها المسلم الطيب، على الوصول إلى هناك، والصلاة فى الأماكن المقدسة! – لكن آه! هؤلاء يمنعونى من ذلك." وعندما دخل الليل أحضر أمان زورقا؛ وحمل ذلك الغريب إلى البر، وأعطى صاحب الزورق أجرته.

أنزل ذلك البحار، الذى كان من أهل مدينة جدة، ذلك الغريب على الشاطئ؛ وتأكد من إركابه على جحش صغير اتجه إلى مكة، – واحد من تلك الحمير التى تجرى أثناء

الليل، وتقطع المسافة التى تزيد على خمسة وأربعين ميلا وتفصل ميناء جدة عن المدينة المقدسة، – ومع طلوع فجر اليوم الجديد، دخل "الفرنجى" مكة! – توقف بعض المواطنين، الذين التقاهم الغريب أول مرة، توقفوا ليسألوه، "سيدى، ما الذى أتى بك إلى هنا ؟ – ويبدو أنك نصرانى!" رد عليهم قائلا: "كنت نصرانيا، وقد سألت الله، – أن يمن على بدخول المدينة المقدسة وأصبح مسلما!" وهنا اقتاده أولئك المواطنون إلى منازلهم وهم فرحين، وختنوه: وأقام ذلك الرجل بعد ذلك سنوات فى كل من مكة والمدينة . – ظن أمان أن رعاته جمعوا له مبلغا من المال؛ ثم تحول ذلك الرجل إلى تاجر يعمل فى الأسواق. – من ذا الذى يمكن أن يترجم هذه الحكاية هى والحكايات الغريبة الأخرى؟ التى نسمعها تروى بين هؤلاء الناس.

شرب أمان ذلك المشروب المسكر الذى قدم له مع التعيين (الطعام) الذى صُرف له على ظهر المركب؛ وطوال حياة الجندية كان أمان يصنع هو وزميله (فى السر) مشروبا روحيا عن طريق غلى الأرز ثم تركه يتعفن بعد ذلك: وكانا يطلقان على ذلك المشرب اسم سوبيا Subia ، والناس هنا فى حرارة الحجاز الشديدة يعدون تلك السوبيا شرابا منعشا. ولكن ذلك الرجل التعيس واصل إيذاء ضميره، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى إضعاف صحته ومرضه على نحو يستحيل معه العلاج. وعندما استلم ذلك الرجل متأخرات راتبه، قصد إلى سوق العبيد فى جدة، واشترى لنفسه عبدة، من أهله، لكى يتزوجها، ودفع ثمنا لها خمسين دولارا. – لم ينجبا سوى بنت واحدة: وفى مرة أخرى وعندما كانوا ينتقلون من مكة إلى جدة سقطت تلك الابنة من فوق ظهر الجمل؛ وماتت هذه الابنة بفعل الأذى الذى أصابها جراء ذلك السقوط. لم يبد على أمان الشفقة عندما أهاجته تلك الذكرى! كانت زوجته مسرفة إذ كانت تبدد كل ما كان يجلبه إلى المنزل، الأمر الذى جعل أمان يتخلص منها ويرسلها لحال سبيلها: وراحت تلك المرأة تكسب عيشها من الخياطة، ولكنها توفت خلال فترة وجيزة؛ – " قال: يرحمها الله!" – وعندما حصل أمان على متأخرات راتبه بعد ذلك، بقى عاما كاملا بلا عمل فى مكة، أمضاه فى الشرب والتدخين، الأمر الذى جعله يبدد ما معه من بقية من مال فى المقاهى، إلى أن أجهز على كل شىء؛ وهنا وجد نفسه ينضم إلى سلاح العجيل هذا.

أمضى أمان أحلى لحظات حياته، فى منطقة الطائف دونًا عن سائر مناطق الحجاز كلها. "(قال): إخ! يا لجمال الطائف!" كان يتكلم بحب دافق عن الشريف العظيم [الذى توفى فى ذلك التاريخ على وجه التقريب]، هذا الأمير كان له طبيعة تحظى بحب الناس له. وراح أمان يحكى عن حديقة الشريف، [التى كانت بمثابة الحديقة الوحيدة فى الجزيرة العربية الصحراوية ! [والتى كانت فى منطقة الطائف، كما راح يحكى أيضا عن أسد كان موضوعا داخل قفص هناك، وأن ذلك الأسد كان وديعا؛ للشريف وحده. قال إن زوجات الشريف العظيم، كن كلهن من الحبشيات! وتكلم أيضا عن امرأة محسنة أخرى كانت أرملة فى الطائف، وكان بيتها الكريم يقع على جانب الطريق؛ وكانت تستقبل كل المسافرين باعتبار ذلك من وشائج الكرم العربى والضيافة العربية.

ومنذ وفاة "عمه" المسن، بدأت آمال أمان فى الحياة تتضاءل، – فقد تحول إلى رجل محطم فى منتصف العمر؛ ومع ذلك كان أمله كبيرا فى "شقيقه". هذا الأخ لم يكن شقيقا، وإنما كان زنجيا من بين الخدم الذين كانوا يخدمونه، وهؤلاء يعدون أخوة طبقا للعادات السائدة فى أسر الجزيرة العربية. بلغه أن أخاه الزنجى قد حصل على حريته، وأنه كان يعيش فى القدس فى ذلك الوقت، وخطر بباله أن يسافر إلى سوريا ثم يعرج على القدس،إذا شاء الله، بحثا عن ذلك الأخ. كان أمان على وشك الموت بسبب مرض السل ومرض آخر فى الحويصلات الهوائية، وهذا المرض خاص بالقارة الإفريقية الضخمة ولا يعرف الناس عنه شيئا فى علم الطب فى أوروبا: – ومن يمرض بذلك المرض فى خيبر، يصبح احتمال وفاته كبيرا. فى ذلك العام لم يتبق سوى كمية من الذرة تكفى لإطعام المرضى من السكان: " قال أمان المسكين: هذا [اللقيط] سامحنى الله، قال: إننى قلت إن ذلك الذرة يكون شبيها بالخشب إذا ما أكله أحد من الناس. "كان أمان يجلس، وفى عينيه نظرات أولئك الذين يتأملون الحفرة أمام أقدامهم، وهم فى منتصف العمر، وقد لف نفسه بعباءته (بشته) طوال اليوم وهو جالس فى الشمس يدخن التبغ. – الشخص المريض تكون حياته حافلة بالأضرار، كما يكون قلبه مشحونا بالغضب؛ الذى يجره إلى القطيعة والاغتراب، يا أسفاه! كما يقل من حوله أيضا

الحنان الإنسانى الذى كان يحظى به من قلة قليلة من أصدقائه المحيطين به. فى الليل لم يكن لدى ذلك الحبشى غطاء يحميه من البرد؛ ولذلك كان يصحو أثناء الليل بين الحين والآخر ليشب النار ويدخن التبغ.

كانت زوجات الخيابرة يتصدقن على الجنود المساكين: إذ من مظاهر الكرم عند حريم الجزيرة العربية الإحسان إلى الغرباء الموجودين بينهم. من غير النساء يمكن أن يملأ قربة ماء الرجل من البئر، أو يطحن له القمح، ويحضر له حطب الوقود؟ لا أحد يعطى النساء أجرا عن تلك الأشياء، لأنهن يفعلن ذلك من باب الكرم.. والزوجة الطيبة التى تخدم رجلا غريبا، مثل أحمد، هى التى تحصل مرة أو مرتين فى العام على جلابية جديدة ومعها ريال واحد أو ريالين، يكون هو على استعداد لإعطائها لتلك الزوجة. كانت زوجة جارنا، وهى زنجية صغيرة السن، تخدم أحمد المريض، وذلك من باب الإشفاق النسائى وكانت تجلس فى معظم الأحيان لتلاحظه وتقوم على أداء ما يطلبه فى الصُّفَّة التى كنا نقيم فيها. عندئذ راحت جُمَّار Jummar (كان ذلك اسمها) تحملق فىّ وتطيل النظر إلى بعينين مندهشتين؛ هذه الغرابة وذلك الرعب كانا يتمثلان لها فى ذلك الاسم 'نصرانى' ! ذات يوم قالت: فى نهاية المطاف، عندكم Andakom حريم hareem ، فيه Fi ؟ بمعنى "هل هناك نساء فى بلادكم؟ " – "يا الله ! أمهات، وبنات، وزوجات ؛ – ألست أنا ابن امرأة: أم أنك تعتبرينى أيتها المرأة السخيفة، ولدا Weled لذيب eththib [بمعنى ابنا لذئب]؟" – "نعم، نعم، لقد ظننت ذلك: ولكن والله، يا خليل، هل يولد النصارى مثلنا؟ عجبا! إنكم لا تخرجون من البحر!" – وعندما حكيت تلك الحكاية للعم محمد، سخر الرجل من تلك السذاجة. "إذن، فسوف يجعلون منك يا خليل، نوعا آخرا من مخلوقات الله، المخلوقات البحرية! هؤلاء الناس الحمقى والأغبياء يغمغمون بلا فهم عندما ينطقون الكلمة SEA الدالة على 'بحر': و'البحر' عند هؤلاء الناس يعنى أنهم لا يستطيعون تحديد كنه ذلك المخلوق " كانت جمَّار عندما التقينا بعد ذلك فى الشارع ترفع رأسها مما كان يثير ضحك العم محمد: الذى أصبحت بالنسبة له فيما بعد ولد Weled الذيب eth-thib وعندما كنت أتخلف عن الطعام، كان العم محمد يقول وهو مسرور:" يا خليل، أنت هنا لست ولد Weled

الذيب !eth-thib ؟ قال أحد الواقفين فى يوم من الأيام: عندما كنت أتسلق صخرة صاعداً إلى قمتها: ما Ma فى fi حيل hail بمعنى 'ليست لدى القوة.' رد محمد قائلا: "بالرغم من ذلك، فقد أنجزنا شيئا ما، لأن ابن الذئب كان يساعدنى." " قلت متعجبا: أنا لست ابن ذئب ولكنى ولدك Weyladak، بمعنى [ابنا من أبنائك]" "رد الرجل الطيب، قائلا: والله! وهو مندهش ويبتسم، أنت إبن لى فعلا."

كنا أناسا من أمم كثيرة نعيش فى خيبر: فقد كان منا الأكراد والألبانيون والحبش، والعرب، والزنوج والنصارى. قال بدوى من العوف، عندما كان يجلس بالقرب من وجار القهوة فى بيت عبد الله السروان:" جميل حقا أن يرى الإنسان تشكيلة مختلفة من البشر! ولكن ماذا نفعل فى النصارى؟ – وطالما أنهم ليسوا مسلمين فهم ليسوا أيضا من أبناء آدم." رددت عليه "كان هناك نبى اسمه نوح، أغرق الله الناس فى زمنه؛ ولكن نوحا مع أبنائه سام وحام، ويافت وزوجاتهم ركبوا معًا فى السفينة: وهم آباء الجنس البشرى. والأكراد، والأتراك وكذلك الإنجليز هم من أبناء يافت؛ وأنتم أيها العرب من أبناء سام؛ وأنتم أيها الخيابرة من أبناء حام، وهذا البيشى أيضا." – "(تعجب الزميل) إخص! وأنت تكرر هذه الكلمة مرة ثانية – !" عبد الله: "لا تندم، لأنى أنا أيضا (رئيسك) من أبناء حام." هذا البيشى، وهو زنجى من الذين يعملون مع العجيل، سمى بذلك الاسم تيمنا بذلك الجزء الذى جاء منه فى الجزيرة العربية؛ وهذا الجزء هو وادى Wady بيشه Bishy (فى اليمن) [وفى رأى بعض الباحثين الشرقيين] ينسب ذلك الوادى إلى "نهر بيسون Pison" الذى ورد ذكره فى الكتاب العبرى المقدس، راجع كتاب 'جغرافية الجزيرة العربية'] . وشريف مكة يسحب السواد الأعظم من جماعته العسكرية (الزنجية) من هذا الوادى، – وهم يطلقون على الواحد منهم البيشى، وبالتالى فهم يقومون بالعمل الذى يقوم به العجيل. هذا اليمنى يتكلم لغة الحجاز الدارجة الوضيعة؛ التى تبدو فظة وشاذة على آذان سكان نجد وأهلها.

بلغنا، من جديد، أن محرمًا Muharram أصابه المرض؛ وقال عبد الله السروان: "اذهب إليه، ياخليل؛ فقد عاونته أدويتك كثيرا على الشفاء." – وجدت محرما طريح

الفراش، ونبضه ضعيف وسريع: وكان ذلك هو اليوم الثانى الذى امتنع محرم فيه عن تناول الطعام؛ كان يعانى من الحمى ومن آلام حويصلية، وليس لديه الاستعداد للإنفاق على الأشياء الضرورية. أقنعته بأن يسلق لنفسه دجاجة، ويشرب شربتها مع شىء من الأرز، إذا لم يكن يستطيع تناول الطعام؛ وأعطيته ستة حبيبات من حبيبات الراوند الريباسى مع حبيبة واحدة من مسحوق اللودا نوم (*)، مع قليل من الكنين يأخذه فى الصباح.

لم يستدعونى فى اليوم التالى لزيارة محرم. فقد كنت فى الحرّة مع العم محمد، وفى المساء كنت جالسا في غرفتنا بصحبة أمان: تكلمنا فترة طويلة وإلى ساعة متأخرة من الليل، نظرا لأن برد الشتاء كان يداهمنا من الشباك المفتوح، وبالتالى حال بيننا وبين النوم. وعند منتصف الليل فاجأنا صوت جاء فى غير موعده؛ كان هناك رجل ينادى بصوت عال فى ركن من أركان المكان، على العسكر الذين يقيمون فى ذلك المكان،' فقد طلب عبد الله السروان منهم الحضور إليه.' وأصيب الجميع بالرعب والفزع فى خيبر، وخطر ببالى أن يكون ساعى البريد قد حضر عائدا من المدينة (المنورة) ومعه أمرا يقضى بإعدامى. تكلمت مع أمان الذى توقف عن نفخ النار، لينظر من الشباك ويستطلع منهم الخبر؟' نظر أمان من الشباك وقال:' إيه Ey الأخبار Kabar يا ya ، بمعنى' يا أنت، يامن توجد هناك، ما الخبر؟' ردوا عليه بكلام لم أفهمه، ثم قال أمان وهو يسحب نفسه بعيدا عن النافذة: "الله ullah يرحمه Yarhamhu ، – يقولون إن محرمًا مات، وأنهم موفدون للتجهيز للدفن، وللتحفظ على بضاعته وأشيائه." – "كنت قد أعطيته مؤخرا شيئا من الأدوية! وماذا لو قال أهله الناكرين للجميل: 'إن خليلا قتله.' ! لو جاء أحد منهم الآن فسوف نوصد الباب تماما، وهل لك فى أن تعيرنى بندقيتك." – "قال الرجل المريض الجالس أمام النار: يا خليل ثق بالله، ولا تخش شيئا إن كنت لم ترتكب شرًا: ما هى علاقتك بهؤلاء الناس؟ إنهم كلاب، قردة، ثيران كما أن نسائهم ساحرات: لكن ارقد استأنف نومك."

(*) اللودانوم: هو مستحضر أو صبغة الأفيون وهو يستخدم لتسكين الآلام. (المترجم)

اتجهت فى الصباح إلى قهوة الجنود ولم أجد فيها سوى عبد الله السروان، الذى كان قد عاد لتوه من تشييع جنازة محرم." ما هذا؟ صاح عبد الله، يا خليل، لقد مات محرم، وهم يقولون :إن أدويتك هى السبب: وإذا لم تكن على معرفة بالأدوية، فلا تعطى منها شيئا لأحد بعد اليوم. – يقولون: إنك قتلته، وهم يقولون : إن محرما قال ذلك قبل أن يموت. [تأكدت من رفاقه بعد ذلك أن ذلك الرجل التعيس لم يتكلم مطلقا عن أدويتى.] محمد الكردى يقول: إنك بعد أن أعطيته الدواء غسلت يديك بماء دافئ." تعجبت على وجه السرعة،" محمد يكذب!" – هذه كلمة خطيرة. وعندما كنت فى سوريا، جرى سحب مسيحى مهم بواسطة المسلمين فى مدينة طرابلس، التى كان يعيش فيها، واقتادوه أمام القاضى، لمجرد أنه تلفظ بتلك الكلمة فقط على مرأى ومسمع من الناس؛ ولم يكن قد قال تلك الكلمة إلا فى حق خادمه المسلم المزيف، والذى كان اسمه محمد. وهنا أوفده القاضى، فى قارب كى يلقى محاكمته فى بيروت؛ ولكننا سمعنا أن ذلك الرجل المسيحى، أطيح به سراً من فوق ظهر القارب، أثناء رحلته الليلية، التى دامت ساعات قلائل! – نظر عبد الله إلى بعينين تقولان 'التجديف فى حق النبى يعنى الموت لمن يفعله!' – 'رددت، محمد الكردى يكذب لأنه لم يكن حاضراً.' – "قال عبد الله فى النهاية ونظراته توحى بالحزن: أنا لا أستطيع القطع بذلك يا خليل، فقد مات الرجل؛ وعليه لا تعطى دواء لأى أحد من الناس؛" وعندما دخل عليه العسكر قال: "خليل غاضب بسبب مسألة محرم؛ – دعونا نتكلم فى موضوع آخر.

هنا حضر كل من محمد الكردى ومعه الرجل المصرى: لقد أحضروا الميت ودفنوا حاجيات ذلك الرجل الذى كان حيا بيننا بالأمس! – جاءوا بحشيته، وملابسه، وغطاء رأسه الأحمر، وبقربة الماء. وحضر عبد الله بيع هذه الأشياء؛ كما كان هناك طلب على ريالين ونصف الريال نظير تغسيل الجثة ودفنها. تساءل عبد الله،' ماذا عن نقود محرم؟ نظرا لأن كل ما يملكه محرم لابد أن يرسل إلى ورثته؛ أليس لمحرم هذا ولد فى ألبانيا؟' أقسم رفاق الميت أنهم لم يعثروا على ما يزيد على عشرة ريالات فى حزام الرجل. سرور:" كان لديه أكثر من خمسين ريالاً! لقد كان محرم ثريا." قال آخرون شيئا مشابها لذلك (كان أمان يعرف أن محرما معه ما يقرب من سبعين ريالا).

عبد الله: "حسن، لن أدخل فى التكهنات؛ – كفى، إذا كنا لا نستطيع القطع بذلك الذى حدث لنقود هذا الرجل. – من الذى يشترى هذا المعطف المطرز، الذى يساوى عشرة ريالات فى المدينة (المنورة)؟" صاح أحد الحاضرين،" أنا أشتريه بنصف ريال." سرور:" ثلاثة أرباع الريال!" قروى: "أنا أزيد عليهم قرشين." عبد الله : "إذن لن يأخذه أى أحد منكم؛ سوف أستبقيه لورثته، ماذا بعد ذلك. كتشينة، أو بمعنى آخر ورق لعب: – (وقال بابتساماته التركية) كسب محرم معظم نقوده، يوم أن كان حيا، بهذه الطريقة، مسكين ذلك الرجل! – من الذى يشترى هذا الورق؟ – أظن أن ذلك الورق من صناعة بلد خليل. الصور التى على الورق [نهر، غابة، وكنيسة ألمانية] ماذا تعنى" يا خليل؟ ألن يشترى أحد ذلك الورق؟ – إذن، سيشترى خليل هذا الورق." – "أنا لن ألمس ذلك الورق." كانوا، عندما تركتهم، يزايدون على بيع بطانية ذلك المقامر المسكين، وحشيته وملاءته الملونة.

إذا ما تردد اسم ميت أمام المسلمين فإنهم يرددون قائلين: 'يرحمه الله!' ولكنى عندما التقيت أحمداً فى الطريق ونحن فى منطقة المدافن قال: "مات محرم وهو مدين لى بريالين، الله يرحمه!" – كنت مهموما للغاية؛ وها هو سوء القصد ينغص علىَّ حياتى بالرغم من الإحسان الذى قدمته لذلك الشخص الذى يدعى محرم! فى كل يوم كان، ذلك الجحش ، ينهق فى أذنى الجحش عبد الله السروان قائلا، كان الوقت مناسبا لإعدام عدو الدين، كما كان يقول له أيضا: إن التأجيل [تأجيل إعدامى] يعد من الخطايا: وكان يزعم أمام عبد الله أنى أنا الذى تسببت فى وفاة محرم. ويوما بعد يوم كنت أرى نظرات السروان السوداء تتزايد وتزداد خطورة على خطورتها: "قلت للنجومى: الله وحده هو الذى يعلم، ذلك الذى يدور فى قلبه الأسود: قد يجىء الوقت الذى يدور فيه رأس هذا العبد، ومن ثم يفتح علىّ نار مسدسه." – "أنت جئت إلى هنا كصديق للدولة (الإمبراطورية العثمانية) وهذا الجحش الذى فى السلطة لا علاقة له بموضوعك على الإطلاق، أو حتى أن يتسبب لك فى هذا الأذى؟ والله، إن فعل معى مثل هذا الخطأ، نظر لعدم وجود أى علاج غير هذا فى بلدنا، فسوف أقتله وأهرب إلى الفراع Ferra . "وأعلن العم محمد على الملأ، ثقته بالشيخ خليل تصل إلى حد أننى إذا

ما أعطيته مشروبا حتى ولو كان سما، فإنه سوف يشربه!' وقال أمان الشيء نفسه، ولم يتوقف أمان عن استعمال أدويتى. وقال الناس الطيبون من الخيابرة إن 'محرمًا لم يمت بسبب أدويتى، ولكنه وصل إلى نهاية عمرة، وأنه رحل بإرداة الله وأمره.

قال العم محمد: إن حرارة الصيف شديدة جدًا فى الفراع. والقرويون الذين من قبيلة حرب فى ذلك المكان، هم سود البشرة: وهم يسكنون بيوتا يبنونها من الطين مثل بيوت خيبر: والمنزل يبنى على مكان مرتفع، فى واحة النخيل. كان العم محمد يذهب فى أيام شبابه إلى ذلك المكان بصحبة إخوانه من المدينة (المنورة). والشمس التى تضرب هذه التربة الرملية لا تطاق: ذات مرة، وبينما كانوا ذاهبين إلى هذا المكان رأى محمد النجومى أخاه أحمد يترنح؛ وسرعان ما أغمى عليه. سحبه محمد النجومى إلى ظل شجرة من أشجار السنط، ورش قليلا من الماء على وجهه من القربة؛ وهنا أفاق أحمد.

قال: الفراع، كان ملكا للعوازم، وهم من الحطيم، من قديم الأزل. – والمؤكد أن هؤلاء الحطيم الذين منهم العوازم، أمة عريقة فى الجزيرة العربية (وهم ينتشرون حاليا فى مناطق واسعة من الجزيرة العربية (*)): وهم كانوا يقيمون فى بعض المواقع، قبل الأعراب الذين يسكنون هذه المواقع فى الوقت الراهن! آخر العوازم فى الفراع كان واحد مَن أثرى أثرياء الناس الذين يمتلكون أعدادا غفيرة من النخيل؛ تذكر العم محمد اسم ذلك الرجل. كان ذلك الحطيمى يستجيب دوما للجاجة القرويين من قبيلة الحرب، الذين يودون شراء أرضه، وهو يقول: "هل يعقل أن أبيع إرثى!" وفى النهاية – ولكى يعيش فى راحة بال – قال لهم الثعلب العجوز: "أنتم تعلمون، أن لى ابنة واحدة! من منكم أيها الشباب يمكن أن يكون صهرا لى أنا العزيمى؟ ومن ثم يرث أرضى." لا يعيش حاليا من العوازم الذين انقرضوا تماما، سوى ثلاثة أو أربعة أسر هى تخيم فى الوقت الراهن مع بنى راشد [حطيم] . بعض الناس، يعدون العوازم من الصلوبة، وذلك من باب الاحتقار والسخرية إلى اسم 'العزيم' Azim ، وجمعه 'عوازم' Auazim

(*) يوجد العوازم فى الوقت الحاضر فى كل من المملكة العربية السعودية والكويت . كما ينتشرون فى أماكن أخرى من دول الخليج العربية . (المراجع)

ينتمى أيضا إلى 'الحزيم'. والحزيم بطن من بطون قبيلة حرب، ولكن أعداءهم يحقرونهم ويقولون: إنهم من الصُّلوبة Solubbies ؛ ونقلا عن التقاليد والموروث الشعبى فإن العوازم يعدون غرباء معتدون. فى هذه المنطقة، وفى الناحية الغربية على وجه التحديد، توجد بطن من بطون قبيلة جهينة، وهم الثقيف el-Thegif ؛ الذين يقول الناس عنهم: إنهم يهود، وذلك من باب الاستهزاء بهم: – قد يعنى ذلك أن هؤلاء الثقيف من أعراب ما قبل الإسلام. وهناك قافية تتردد بين أهل المدينة تقول' الله ullah يلعن Yulaan ثقيف theqif ، قدَّام Kiddam تجوف، بمعنى "يلعن الله (أولئك اليهود) الثقيف قبل الوقوف." ويقال عن جماعة صغيرة بين البشر، الذين يعيشون فى وادى سليمان: إن أفراد هذه الجماعة الصغيرة من الصُّلوبة Slubba ؛ ولكن هذه الجماعة مسموح لها بالزواج من مختلف السكان. ما زال يتبقى فى الجنوب بعض من الحطيم الأثرياء فى منطقة تهامة الواقعة خلف مكة.

لم يسبق للعم محمد زيارة كل من قرية العُلا وقرية تيماء. صحيح أن العرب جوالون كبار، لكن ليس خارج الطريق (الذى يقصدونه). والآن، وبعد أن أصبح غنيا – فقيرا، ويعيش حياة هادئة، فقد وعد نفسه بزيارة هاتين القريتين، حتى ولو كان ذلك من باب رؤية القريتين ليس إلا. سبق لمحمد النجومى السفر إلى حائل، عندما كان يقوم برحلة إلى قرية الحيات: فقد ذهب إلى هناك ضمن البدو. فى اليوم الأول لم يجعلوا لذلك الرجل اعتبارا كبيرا مجرد مواطن [وحداداً] ، ولكن كفاءة هذا الرجل ورجولته بدأت تتبدى لأهل هذه القرية وتزداد يوما بعد يوم، عندما كان مسافرا مع البدو، نزلوا فى نهاية المطاف، عن مطاياهم، أمام كفر (هجرة) من كفور الشمر يقع خارج البلدة؛ لم يكن فى ذلك الكفر (الهجرة) سوى بيتين فقط، ولم يكن فى هذين البيتين سوى رجلين كبيرى السن، جاءا لاستقباله هو والبدو الذين كانوا معه. قال النجومى لمضيفه: "كيف لك بالسكنى هنا وسط هذه الصحراء؟" – "الحمد لله، نحن نعيش هنا بلا خوف، وتحت حماية بن الرشيد؛ وأبناؤنا يرعون الماعز على الجبال، ويقطعون مسافات طويلة طلبا للحصول على حطب الوقود." ذبح كل رب أسرة عنزة، وامتدح محمد النجومى كرم هاتين الأسرتين.

كان محمد النجومى معروفا لعدد كبير من الناس فى حائل؛ بعض معارفه كانوا يعزمونه يوميا لتناول الإفطار وتناول العشاء؛ وكانوا يعزمونه على تناول القهوة، ولذلك كان ينتقل من مقهى إلى آخر. وبينما كان محمد النجومى جالسا فى منزل أحد الأصدقاء دخل بندر فجأة ومعه عبيده ورفاقه – كل الأمراء الشبان لهم مثل هذه الحاشية – ليرى من هو ذلك الغريب. تساءل بندر،" ما هذا الأجنبى agneby ؟،" – ودون انتظار للرد، أدار ذلك الشاب الغريب ظهره ومضى إلى حال سبيله.

كان محمد النجومى قد شارك فى حملات الباشى بازوك التى وصلت إلى بلدة ينبع؛ كما شارك أيضا مع القوات التركية التى قامت بحملة على الرياض العاصمة الوهابية فى نجد. كان ذلك لمساندة المعركة التى شنها شريف مكة: فقد عسكروا طوال خمسة عشر يوما أمام تلك المدينة النجدية، ولولا استجابة ابن سعود لمطالبهم لكانوا قد حاصروه. خلال تلك المعركة سار الجيش عبر الخلاء (الصحراء) ومعه المدافع وإبل التموين والإمداد؛ وقال : إنهم عثروا على الماء فى آبار البدو، وأن ذلك الماء كان كافيا للماشية كلها، كما كان كافيا أيضا لأن يملؤا منه قراب الماء . صحراء الجزيرة العربية يمكن عبورها باستعمال قوات تبلغ من القوة حدًا تستطيع معه تفريق وتشتيت تلك المقاومة التى يشكلها أولئك السكان المتزمتين الذين لا يجيدون فن القتال ؛ ولكن يتعين على هؤلاء الجنود أن يتحملوا الكثير ويعيشون على القليل . شن حكام مصر حربا على الجزيرة العربية طوال عشرين عاما؛ ولكنهم فشلوا فى النهاية، نظرا لأنهم أنفقوا الكثير من أجل السيطرة على بلد فقير. كان الجيش الرومانى الذى أرسله أغسطس **Augustus** بقيادة إليوس **Aelius** جالوس (*) **Gallus** ،

(*) أرسل القيصر الرومانى أغسطس فى عام ٢٤ ق. م حملة بقيادة إليوس جالوس حاكم مصر الرومانية للاستيلاء على اليمن ومن ثم التحكم فى طرق التجارة التى كان يحتكرها ملوك سبأ . وقد تعرضت هذا الحملة لأمراض وأوبئة فضلاً عما لقيته من متاعب لا حصر لها بسبب وعورة الطرق ، ومن ثم اضطرت الحملة إلى العودة لمصر . وقد ألقى الرومان تبعة فشل هذه الحملة على عاتق الأنباط الذين اتهموهم بخيانة مرشديهم والسعى عمداً لإهلاك جنودهم . وكان فشل تلك الحملة سبباً فى قيام الرومان بتغيير خططهم السياسية فعدلوا عن فتح بلاد اليمن عسكريًا واكتفوا بالسيطرة على التجارة البحرية وتحسين علاقاتهم بالحميريين الذين كانوا يتحكمون فى سواحل بلاد العرب الواقعة على البحر الأحمر وسواحل المحيط الهندى وذلك طبقًا لما جاء فى كتاب الطواف حول البحر الأريترى Periplus Maris Erythraei . (المراجع)

كى يجعل من ثروات اليمن السعيد غنيمة له كان يضم حوالى ١١٠٠٠ رجلا من الإيطاليين ومن الحلفاء. مشى ذلك الجيش طوال ستة أشهر فى أرض خراب خالية من الماء! هذا الجيش ضلله أنباط بيترا الذين كانوا حلفاء للرومان. وفى نهاية تلك المسيرة الطويلة استولوا على نجران عن طريق اقتحامها: وعلى بعد مسافة تقدر بستة مخيمات فى اتجاه الجنوب، اصطدموا بعدد هائل من الناس كانوا قد تجمعوا على جانب أحد الغدران، لصد هجوم الروم. سقط فى تلك المعركة عدد كبير من العرب يقدر بالآلاف! ولم يسقط من الروم وحلفائهم سوى جنديين فقط. حارب أهل الجزيرة، بوصفهم رجالا لا يعرفون طريقة استخدام السلاح، باستعمال المقاليع Slings ، والسيوف والحراب والفئوس ذات الحدين. كان الرومان في أبعد مواقعهم، على بعد مسافة رحلتين فقط من بلاد البخور. وعند العودة، قاد القائد البقية الباقية من جنوده، على امتداد أكثر من ستين رحلة إلى ميناء الحجر، ومات باقى الجنود بسبب البؤس والشقاء الذى لاقوه على الطريق الصحراوى المخيف: لم يسقط من الرومان فى القتال سوى سبعة جنود فقط! - واقع الأمر أن الشاعر الفارس الروماني كان يستحق ما هو أكثر من الفضيحة التى لحقت به بعد ذلك ، لأنه لم يحقق أحلام جشع القيصر! أما الأوروبيون الذين انخدعوا بفعل كثرة كلام العرب، فقد كانت لديهم، فى كل عصر، فكرة خيالية عن ذلك البلد المجهول العامر بالمصائب.

هؤلاء الإيطاليون الذين بدوا يطالعون الطبيعة القاحلة الجرداء فى الجزيرة العربية، والذين كانوا يستشعرون الضغينة والبعد لأنهم كان يتعين عليهم نقل الماء على الإبل، هؤلاء الإيطاليون أوكلوا كل ذلك إلى مكر وخيانة مرشديهم. واكتشف الجنرال الروماني أن سكان هذه الأرض 'شعب غير محارب، نصفهم يتعيش من التجارة والبيع والشراء، والنصف الثانى يتعيش من السرقة والسلب والنهب' [مثلما هو الحال فى الوقت الراهن (*)] . هؤلاء العرب القدامى كانوا يلبسون غطاء رأس، (راجع الجزء الأول) ، وكانوا يتركون خصل شعورهم تكبر وتنمو نموا كبيرا:

(*) المقصود بالوقت الراهن ، الزمن الذى كان فيه دوتى فى الجزيرة العربية . (المراجع)

والغالبية من هؤلاء الناس تحلق اللحى، ولا يتركون فيها سوى الشفة العليا، أما الجزء المتبقى من هؤلاء الناس فكانوا لا يحلقون شعورهم أولحاهم. – " يقول بلنى Pliny ، المؤرخ الرومانى، 'إن هؤلاء البدو الرحل الذين يسكنون خياما من الشَعر هم من سكان الأطراف ومناطق الحدود، ويثيرون الكثير من القلق والاضطرابات" [مثلما يفعلون فى الوقت الراهن] وهذا هو سترابون Strabo ، المؤرخ، يكتب نقلا عن لسان جاليوس Gallus نفسه، الذى كان صديقا له، والذى كان واليا Prefect رومانيا على مصر، يكتب واصفا صحراء الجزيرة العربية وصفا جيداً يصعب أن يتفوق عليه أو يبزه أى وصف آخر." أرض رملية قفر جرداء، ليس فيها سوى القليل من النخيل وآبار الماء وتنمو فى هذه الصحراء أشجار السنط وأشجار الإثل والطرفاء؛ والعرب الجائلون فى هذه الضحراء يسكنون فى الخيام ويرعون الإبل."

كان الوقت يصادف عودة الحج : وراجت (كما هو الحال فى سائر أنحاء الجزيرة العربية) شائعة كانت توحى بالأوجاع والإنذارات! وخلال موجة مفاجئة من المطر (المدارى) أدى السيل العرم الناتج عن ذلك المطر، إلى تدمير ربع مساحة مكة على وجه التقريب؛ كما انتشر وباء الطاعون بين الحجاج: يضاف إلى ذلك أن شريف مكة العظيم، أصيب بالمرض أيضا، وهو يرافق الحج إلى المدينة (المنورة). – وعندما أتينا على ذكر كلمة' الوباء' el-Waba شحبت بشرة وجه عبد الله السوداء، وراح محمد النجومى يتكلم بصوت خفيت: " قائلا، سوف ينتشر عما قريب فى خيبر!" وأدلى العم محمد برأيه فى المجلس فى قهوة الحاكم،'بألا يخاف أحد من الموت، وأن يقوم الناس بأعمالهم اليومية المعتادة، ويلقون بهمومهم على الله وحده.' عبد الله: "وهذا هو خليل، وهو حكيم: ما رأيك، يا خليل." – "يمكن أن يكون هناك حجر صحى." – "عسى As الله Ullah صحيح Sahihh ، – بمعنى، ربنا يلّطف؛ وسوف يتحقق ذلك؛ ولكن هل تعرفون ، يا سادة، أين سيكون مكان ذلك الخطر؟ – خلف منطقة عطو Atwa . "زد على ذلك أن الخلاف دب بين المغاربة فى مكة، فيما يتعلق بميراث أولئك الذين ماتوا بسبب الطاعون، – الذى سبق أن انتشر بينهم. وفى النهاية بكر المغاربة بالمسير قبل ثلاثة أيام، من رحيل كل من القوافل السورية والقوافل المصرية؛ إلى المدينة المنورة.

وعندما وصل المغاربة إلى المدينة المنورة منعهم الباشا من دخولها؛ قال: بوسعهم الحضور فى عام مقبل لزيارة النبى، ولكن المغاربة المشاكسين أرسلوا الرسالة التالية للباشا، أو إن شئت فقل: إلى الحاكم التركى للمدينة المنورة، "اسمح لنا بزيارة النبى بالطيبة وإلا سنزوره بالغصيبة وبحد السيف. هل أنت نصرانى؟ عجبا لك يا من يمنع الحجاج من زيارة النبى!" – واستسلم الباشا لنداءاتهم، بأسرع ما يمكن. دخل المغاربة بهرجهم ومرجهم، وحبس سكان المدينة المنورة، أنفسهم فى منازلهم، وهم يرتجفون خوفا من انتشار الكوليرا بينهم خلال سويعات قليلة. وورد أيضا تقرير من الشمال مفاده أن قطار البضاعة احتجزه بدو الفكارة فى منطقة الأخضر el-Akhdar . – وهكذا نجد أن كل عام فى الجزيرة العربية لا يخلو من سيل كبير من الإنذارات والتحذيرات.

عاد إلينا بعض المتسوقين من المدينة المنورة بأخبار عن عقد هدنة فى الجهاد الدينى العظيم ضد النصارى (*): كان عدد القتلى فى المدينة المنورة يقدر بحوالى خمسة عشر قتيلا من الرجال. كان هؤلاء الرجال من جنود العقيدة الذين كانوا يقاتلون بمحض إرادتهم، نظرا لأن مبدأ التجنيد لا يسرى على الحرمين الشريفين. قال لى العم محمد إن عددا كبيرا من الرجال قدَّموا أنفسهم فى بداية الأمر: واندفعوا من بوابات المدينة (وكان كل واحد منهم يحمل كفنه معه) وخيموا خارج المدينة المنورة؛ وكانوا قد اقسموا يمينا وقسما، ألا يدخلوا المدينة المنورة مرة ثانية إلا ومعهم نصر المسلمين. – الشىء نفسه حدث فى مطلع حرب القرم Crimean War (**) ؛ عندما اندفعت أعداد كبيرة من الشباب وسجلت نفسها فى صفوف المجاهدين، وكان محمد النجومى، على وشك الانضمام إلى هؤلاء الشباب بفعل إقناع أحد أصدقائه له؛ ولكنهما عندما كانا

(*) الإشارة هنا إلى معاهدة سان استيفانو التى وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا القيصرية والتى أنهت الحرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٧ . (المراجع)

(**) كريميا Crimea ويصح فيه أيضا القرم وهى شبه جزيرة طولها من الغرب إلى الشرق يقدر بحوالى ٢١٠ ميل و١٢٠ ميل من الشمال إلى الجنوب وهى تقع على الجانب الشمالى من البحر الأسود. (المترجم)

على وشك الإبحار أصابهما المرض ومنعهما من السفر: كما غرقت أثناء الرحلة السفينة التى كانت تقل أولئك الشبان إلى ذلك المكان!

استمعت وأنا أتألم للحديث الذى دار فى قهوة عبد الله السروان؛ والذى كان يدور حول قسوة المسيحيين على الأسرى المسلمين. حبس النصارى عددا كبيرا من المسلمين فى أحد المنازل. وشبوا نارا فى الحطب من حول جدران ذلك المنزل، وحرقوا أولئك المسلمين أحياءً – وكان من عادة النصارى أيضا أن يحفروا حفرة فى الحقل ويملؤنها بالبارود، وينسفوا بها عددا كبيرامن المسلمين.، – "قال العم محمد: يا شيخ خليل ، أنا لم أتعجب من شيء أكثر من رؤيتى لك وأنت هادئ ومسالم؛ والسبب فى ذلك أننا نسمع أن النصارى أصحاب طبع عنيف وأنهم يثيرون الكثير من المتاعب."

اتجهت جماعة من حريم القرية إلى المدينة المنورة ليبعن ما لديهن من ضفائر سعف النخيل. هذه الضفائر عبارة عن لفات طويلة من سعف النخيل يمكن إخاطتها بعضها ببعض لصنع الحصير؛ كما يصنعون من هذه الضفائر أيضا القفف والمقاطف والزنابيل. وهم يصنعون تلك الضفائر من السعف الأخضر اللين الذى يوجد فى أعلى ساق النخلة. وهم يربطون سعف النخيل على شكل حزم، ويكوِّمون تلك الحزم إلى أن يحين موعد استعمالهم لها. قطع ذلك السعف يحدث أضرارا فى النخيل: والنخلة التى يجرى قطع سعفها بهذه الطريقة لا تعطى (على حد قولهم) فى الموسم القادم (أى بعد ثمانية أشهر) سوى نصف المحصول الذى كانت تعطيه كل عام؛ هذا يعنى أن موسم الخريف كان ينطوى على خسارة تقدر بعشرين قرشا (لكل نخلة من النخيل الصغير فى خيبر). يضاف إلى ذلك أن كل الضفائر التى يمكن الحصول عليها من ساق واحدة من سيقان النخيل، لا تساوى سوى ثلاثة قروش أى ما يعادل ست بنسات فقط! – ومع ذلك، فهذا عرف وعادة هنا بين الناس: ونصف هذه الخساره تقع على عاتق البدوى الغائب؛ يضاف إلى ذلك، أن ربات البيوت، اللاتى لا تتوقف أيديهن عن العمل، يرين أنهن يفعلن شيئا ما عندما يقمن بضفر ذلك السعف. لأن النقود التى تعود عليهن من ضفر السعف، إنما تكون ملكا لهن، وبالتالى يمكن للواحدة منهن أن تشترى بتلك

النقود مشلحا Mishlah (عباءة) خفيفا، وثوبا جديدا أيضا. ونخيل خيبر لا يعرف الناس له عددًا؛ وفى الواحات الأخرى فى الجزيرة العربية وكذلك فى المدينة المنورة (على حد قول الناس) لا يمكن قطع ولو سعفة واحدة من أعلى ساق أية نخلة من النخيل. أنواع النخيل كثيرة ومتعددة فى كثير من الواحات، والناس هنا يعرفون كل نوع من أنواع النخيل من شكله الخارجى العام: وهم يعرفون أن السعف الطرى فى بعض أنواع النخيل هو الذى يصلح لعمل الحصير. وضفائر السعف التى تأتى من خيبر تتمتع بسمعة طيبة فى المدينة المنورة: والباعة هم والتجار يقبلون الكثير من ضفائر السعف تلك سدادا لقيمة البضائع التى يبيعونها للناس فى فصل الخريف. يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الباعة والتجار ينقلون من خيبر أحمالا كثيرة من نوى التمر، ويبيعون ذلك النوى فى المدينة المنورة بواقع خمسة قروش لكل صاع من النوى، أى ما يقرب من بنسين لكل ثمن جالون من ذلك النوى! ونوى التمر هذا يجرى جرشه وطحنه ليصبح طعاما للإبل فى أرض الحجاز المنخفضة التى تشويها الشمس: والناس فى نجد لا يهتمون بذلك النوى ويتخلصون منه.

عادت زوجة حمدان العفية، وهى واحدة من جاراتنا، من تلك الرحلة التى قامت بها جماعة من النساء إلى المدينة المنورة. كنت، فى ذلك الوقت، جالسا مع زوجها وبعض الناس الآخرين، فى منزله، وشاهدت تلك الزوجة وهى تحيى كل واحد من الحاضرين عن طريق إلقاء السلام عليه ثم قبلة حانية: فتلك عادة أمينة فى هؤلاء الناس، كما أن من عادة نساء البدو والذين يسكنون هذه المناطق، أن يقبلن معارفهن من الرجال بعد الغيبة الطويلة، وأن يتقبلن من هؤلاء الرجال العديد من القبلات بعد ذلك؛ وينظر الأزواج إلى ذلك دونما حرج، لأنهم إخوان. - أعراب آخرين شاهدتهم (فى سيناء) كانوا أغلى من ذلك بكثير، إلى حد أن المرأة عندما تلتقى ولد عمها فى الصحراء، تراهما يقفان على بعد مسافه ذراع بينهما، ووجهيهما يعبران عن الصرامة والجد، وهما لا يتلامسان إلا بأطراف أصابعهما. وبعد أن طبعت قبلة طيبة على العم محمد،" قال: إخ! ألم تقابلى أمى فى المدينة، وكيف حال تلك السيدة العجوز؟" - "إنها بخير، وهى ترسل لزوجتك وولدك حصين هذه اللفافة من الحلوى (حبوب وزبيب) .

ولكن يا محمد ! لقد كانت مشمئزة عندما بلغها أن نصرانيا يعيش مع ولدها فى منزله؛ إخص ! قالت أمك لنا : ما هذا الذى تقلنه لى يا نساء خيبر؟ إن نصرانيا يسكن مع ولدى محمد؟ قولوا لمحمد يتخلص من ذلك النصرانى بأقصى سرعة ممكنة؛ فما الذى يمكن أن يعود النصرانى به علينا سوى غضب الله . رد عليها العم محمد بشىء من الوقار، يا شيخ خليل ، هل سمعت كلام السيدة العجوز؟ ومع ذلك فنحن إخوان ، فقد أكلنا سويا ، وهؤلاء البدو أصحاب تقاليع وخرافات . كانت أم العم محمد المسنة تحضر مع قوافل الصيف من المدينة المنورة لزيارة ولديها ولتمضية بضعة أسابيع مع ولدها محمد فى خيبر.

لم يكن فى الواحة حدّاد : وكان النجومى بعد أن تحسنت أحواله المادية قد تخلى عن حرفته القديمة . كان بعض الصلوبة Solubbies يأتون ،راكبين حميرهم ، إلى خيبر قادمين من منازل الحطيم، وكانوا يأخذون معهم أعمال الحدادة والسمكرة التى يجدونها فى خيبر، ليعودوا بها ثانية لأصحابها بعد أيام عدة، بعد أن يكونوا قد عملوا المطلوب فيها . والناس هنا لايصنعون سوى أحجار الرحى التى تستخدم لطحن الحبوب، وكل أسرة من الأسر هنا تستطيع صناعة أو عمل تلك الأحجار . وقد وجدت أن عمل حجر من تلك الأحجار لايستغرق سوى عمل نهارين فقط يتم خلالها اختيار حجر البازلت وقطعه بالشكل المطلوب . وبدو الفجير Fejir فى ديرتهم يصنعون تلك الرحى من الحجر الرملى؛ يضاف إلى ذلك أن بعض القبليين الفقراء من قبيلة الفكارة يحضرون معهم تلك الرحى ليبيعونها فى خيبر فى سوق الخريف . من هنا فقد كنت أشاهد بدو الطوّارة Towwora وهم يحملون حجرين من أحجار تلك الرحى التى يصنعونها من الجرانيت فى سيناء وينقلونها بعد ذلك إلى مصر . وبدو بنى عطية فى العويرض يصنعون تلك الأحجار من الجرانيت ومن الصخور البركانية . [الجزء الأول]. من بين أدوات الأسر فى الجزيرة العربية تجئ قراب الماء التى يصنعونها من جلود الماعز، فى المقام الأول . ثم تليها فى الأهمية الرحى ، وهذان الشيئان هما ألزم ضروريات الأسرة فى الجزيرة العربية. وطحن القمح من الأعمال المنوطة بها النساء والصوت الكئيب للطواحين الدوارة يبدو كما لو كان صوتا مريحا من أصوات الطعام

فى أية قرية من قرى الجزيرة العربية ، التى لاتسمع فيها طوال ساعات الشمس الحارقة سوى الصوت البشرى فقط . أصوات تلك الرحى يسمعه الناس قبل طلوع النهار فى منازل البدول الرحل ؛ ونظرا لثقل وزن الرحى ، ونظراً أيضا لقلة ذلك الذى يطحنه الناس بصورة عامة فإن تلك الرحى لاتوجد إلا فى بيوت المشايخ الكبار . ومن هنا فإن الكثيرين من الناس يطلبون استعمال تلك الرحى ، والذى يطلب ذلك الاستعمال أولا ، يتعين عليه أن يبدأ فى ساعة مبكرة ولقد شاهدت الأعراب الجائلين ، فى فصل الصيف الطويل ، وهم لايخلفون شيئا وراءهم ، سوى الرحى الثقيلة التى يتركونها فى مكان ما، حيث يمكنهم العثور عليها فى يوم ما بعد ذلك. والناس هنا يقولون إن ذلك يبدو كما لو أن الناس يقولون : «الناس جوعانين ، وليس لدينا شىء من الطعام؛ بمعنى أن الشيوخ من هؤلاء وأولئك قد تخلوا عن رحاهم». – وربات البيوت العربيات يصنعن خلطات لذيذة الطعم من الحبوب ، وهم لاي ضيفون إلى تلك الخلطات سوى قليل من الملح والسمن، وهذه الخلطات أفضل بكثير مما تصنعه البلاد الأوروبية الفقيرة من الحبوب؟

لدى العرب فى الصحراء المقدرة الطبيعية التى تمكنهم من عمل الأشكال التى يودونها من أحجار الصحراء. فقد شاهدنا البدو وهم يشكلون رءوس غلايينهم (العُرفى aorfy) بهذه الطريقة – كما أنهم يشكلون أيضا الأقداح التى يصنعونها من الحجر ويستعملونها فى طحن البن ، وهم يصنعون من الحجر أيضا خرزات كبيرة ويثقبون تلك الخرزات باستعمال مسمار كى يحولونها إلى رءوس يركبونها فوق عكاكيزهم وهراواتهم . وقد رأيت بعضا من تلك الكرات . وكانت مصنوعة من الرخام الأبيض الذى يجلبونه من صحراوات الشمال «من المنطقة المحيطة بالجوف»– شاهدت أيضا أنواعا أخرى من الرءوس يصنعونها من مادة أخرى يطلقون عليها اسم «العلك» el-elk؛ وهم يقولون إن ذلك العلك عبارة عن عصارة يحصلون عليها من نبات أو إن شئت فقل : عشب منخفض ينمو فى صحراء النفود ؛ وهذا العشب يطلقون عليه اسم المُوتّى el-motti وربما كانت تلك المادة نوعا من الكاوتشوك ، أو إن شئت فقل : نوعًا من المطاط غير المجلفن.

كانت جماعة من الشباب فى القرية قد خرجت لإحضار بعض الأعلاف البرية، ولبيع التمر لحجاج موكب الحج الصاعد إلى منطقة' ستورة' Stoora . – وصل اثنان من أفراد هذه الجماعة فى ساعة متأخرة من فترة المساء (قبل الموعد المحدد)؛ 'كان واحد من هذين الاثنين قد فقد صوابه، فى حين رفض الآخر الكلام لحين طلوع النهار.' كان القرويون مشدوهين وشاردى الأذهان إلى أن يتمكن ذلك الرفيق من العثور على لسانه، وراح أولئك القرويون يتهامسون – طالما أنه ليس هناك حد للمصائب فى هذه البلاد – إن مكروها كبيرا قد وقع لهذين الشابين، أى أن البدو المعادين لهم قاموا بقتل عيالهم.' وأن العويل العام لم يكن له داع فى تلك الليلة. وفيما يخص ذلك الذى عاد إليهم وقد أصابه مس من الجنون قالوا: "والله، هناك أسباب يمكن البناء عليها ومفادها أن المرء عندما ينام قد يتلبس الجان جسده." فى الصباح، اختفى ندم القرية وألمها كما لو كان سحابة من سحابات الأمس، وهذه هى طبيعة منغصات العرب كلها! – ذلك القلب الذى لا يحظى بالتغذية والغذاء الكامل، فى ظل هذا المناخ شديد الحرارة بفعل الشمس وقسوتها، يصعب أن يكون قويا فى تلك الأجساد العربية. هؤلاء الذين كانوا غائبين فى ستورة Stoora أصابهم دمار كبير، ومرت قافلة الحج، وبعدها بأيام قلائل كنا قد تخلصنا من الوباء.

يرافق باعة الأسواق جماعات البدو الرحل وهى تنتقل من خيبر إلى المدينة (المنورة) فى خمسة مسيرات. وطوال هذه المسيرات أو الرِّحلات، يمشى أولئك البدو إلى وقت دخول الظهر، وعندها ينزلون عن دوابهم ويتركونها ترعى فى المرعى؛ ولكنهم أثناء العودة وعندما لا تكون دوابهم محملة يقطعون تلك المسافة فى ثلاثة مسيرات فقط. معروف أن الطريق إلى المدينة المنورة تقطعه الإبل والنياق فى اثنتى أو أربع عشرة ساعة ؛ وفى كثير من الأحيان، كان العم محمد يقطع ذلك الطريق سيرا على الأقدام، فى يومين فقط من أيام الصيف. والقرويون يعدون ضيوفا فى المدينة المنورة، إذ يقضون الليل فيها، فى منازل معارفهم. هؤلاء القرويون عندما يبدءون الرحلة من خيبر يمشون مسافة تقدر بما يزيد على ثلاثين ميلا بين الأحجار البركانية فى الحرّة، وبخاصه أن الحدود الجنوبية – الغربية لتلك الحرة تصل إلى وادى حمض Humth .

والسائر فى هذا الطريق يشاهد أطلال بنايات من الحجر [من عصور قبل عصر (النبى) محمد (ﷺ)] ؛ والناس هنا يطلقون على تلك الأطلال اسم بيوت houses اليهود Jews ، وهناك الكثير من المبانى المشابهة لهذه البنايات، حول المدينة المنورة.

وعلى بعد سويعات قليلة من خيبر توجد آثار بعض السدود القديمة الكبيرة – منها بنى Beny البنت el-Bint ، بمعنى 'بناية البنت،' وهذه البناية موجودة فى وادى ثمود Thammud ، وهذا الوادى يشكل الرأس العليا بالنسبة لوديان Wadian خيبر كلها؛ وبناية الحصيد el-Hassid ، توجد فى قاع وادٍ من الوديان يحمل هذا الاسم نفسه. وسد وادى الحصيد الذى معناه 'وادى الحصاد' مبنى من طبقات كبيرة تتناقص مع ارتفاع السد: والأحجار السفلى فى هذا السد كبيرة الحجم وضخمة، ولكن البعض من تلك الأحجار جرى جرفها من أماكنها نحو الأسفل بفعل قوة السيول العارمة التى تجتاح هذه المنطقة فى فصل الشتاء. والطبقات العليا من ذلك السد فيها شروخ حتى يمكن مرور مياه الرى خلالها . ورأس السد تبلغ من الاتساع حداً يسمح بمرور اثنين من الخيالة وهما راكبان فوق جواديهما: – وبهذه الصورة راح العم محمد يعظم ذلك الأمر الذى يتحدث عنه. ذات مرة، وعندما كان العم محمد فى سنوات الشباب، دعاه رجل آخر من رجال المدينة المنورة، أن يشاركه، وينزلا لاستيطان منطقة قاع السد والاستقرار فيها :.وأنهما سوف يحضران مجموعة كبيرة من أصدقائهما، ويشترون أمنهم وسلامهم من أعراب (قبيلة حرب) [وهم أهل العم محمد وذويه] نظير خوة Khuwa سهلة وبسيطة . ولكن الأمر لم يتعد مجرد الكلام فقط نظرا لأن العم محمد لم يكن على استعداد لإهدار أفضل سنى عمره فى مغامرة غير محسوبة.

حكى لى أمان هو وبعض أصدقائه أنهم شاهدوا كثيرا من النقوش المسجلة على جانب الطريق فوق جبل (الروضة Rowda الواسعة) على الطريق من المدينة المنورة إلى ينبع. وقالوا: إن فى الروضة أحجارا جيدة للبناء. والانحدار هنا يستمر مسير ساعة أو ساعتين على هذا الجانب من ينبع فى منطقة النخيل، والمسافة من منطقة النخيل هذه إلى ينبع البحر تستغرق مسير ليلة كاملة: والقرويون هنا يبدءون هذه

الرحلة عند غروب الشمس، خوفا من اللصوص وقطاع الطرق ، ويصلون إلى شاطئ البحر قبل طلوع النهار. وجهاينة(*) الروضة يشبههم المسافرون إلى المدينة المنورة بالقردة. وهم لا يلبسون سوى مجرد مريلة من الأمام ومن الخلف ومربوطة بخيط أو حبل . وينبع النخيل تشبه خيبر إذ إنها عبارة عن مجموعة من القرى المتجاورة ، ومقامة على واد طبيعي ، وهذه القرى يسكنها أناس من أمتى حرب وجهينة ، وهناك شارع يفصل بين قريتى جارJar والحصن Hosn، اللتان تنتميان لهما وهجرة (كفر) البـــوذناب el-Buthenab إلى بنى إبراهيم أو إن شئت فقل: البراهيميين Bar-ahimma، وهم من قبيلة جهينة، والسويجى Sweygy أو إن شئت فقل : السواقة Suaka ، هى وهجرة إمبارك Imbarak المجاورة لها من مستوطنات قبيلة حرب . وقرية جار هى وقرية حصن كانت بينهما وبين السواقة خصومة دامت أربع سنوات.؛ إذ كانوا يتنازعون حق ملكية مرعى من مراعى الأغنام . فى تلك الأجزاء يوجد موقع أثرى قديم يطلقون عليه اسم كسيبرة Kesyberra . وشريف السواقة Suaka رجل محترم وله وزنه وله منزل مقام فى منطقة الميناء ، ويحصل على صرة سنوية نظير رعاية الحج المصرى.

حكى لى العم محمد الذى جاب المنطقة البركانية كلها أثناء قيامه بالصيد ، حكى لى عن طبوغرافية وديان خيبر ، التى يقال عنها هنا إنها «سبعة وديان تقع إلى جوار بعضها البعض فى الحُرة(**). لم يكن ذلك الرجل يعرف شيئا عن غوامض الخرائط ، بالإضافة إلى أن الخريطة التى حكى لى عنها لم تكن دقيقة أو مقبولة : والوادى الرئيسى بين هذه الوديان هو وادى الجوراس el-Goras، هذا الوادى ، فى المنطقة السفلى منه ، يمتد على شكل قناة عميقة يطلق عليها (بداية من غدير Ghradir الطير el-Teyr بمعنى بركة الطير) اسم الطبج el-Tybj ، وهناك وادى السليسلة الأكثر انخفاضا الذى يمتد إلى أن ينساب فى وادى الحجاز القاعى العظيم، الذى يسمونه

(*) الجهاينة : من قبيلة جهينة . (المراجع)

(**) تقع مدينة خيبر قبل المدينة المنورة بقليل ، وتقوم على وديانها السبعة سبعة أحياء يشغل كل حى واديًا من وديانها الذى تتوافر فيه ينابيع المياه العذبة. (المراجع)

وادى حمض . بالقرب من منطقة حدية Hedieh ، عند قلعة طريق الحج. وادى الطبج Tubj ، يستقيم فى بعض الأماكن فيما بين صخور الجبال، الأمر الذى يتعذر معه مرور ركاب الإبل بين هذه الصخور ؛ وعندما تنهمر أمطار الشتاء، تتناهى إلى مسامع الناس أصوات هدير المياه . القسم الأكبر من خلجان هذا الوادى فيها الكثير من المواقع الأثرية والآبار التى كانت تشرب منها الهجر (الكفور) القديمة. والوديان الجانبية توجد فيها بحيرات ضخمة ينمو فيها الغاب والبوص ، كما ينمو فى القيعان العميقة نخيل الدوم وأشجار السدر.

ووادى القرى Koora يتصل بوادى حمض ، قبل قلعة السُّجوة Sujwa بمسافة قليلة على طريق الحج . وعلى مسير يوم على الدرب نفسه فى قاع ذلك الوادى وفى اتجاه المدينة المنورة ، هناك مكان يطلقون عليه اسم مليلية Mleylieh ، توجد فيه «مقابر بنى هلال»، ويمتد لمسافة طويلة وبه سلسلة من الأحجار الجبلية الكبيرة . حكى لى العم محمد أنه فى إحدى جولاته ، توقف مع بعض أفراد القافلة لقياس هيكل عظمى كشفه سيل الشتاء العرم، وأن ذلك الهيكل العظمى كان لواحد من الأبطال القدامى، ووجدوا أن طول ذلك الهيكل العظمى كان عشرين خطوة . وأن الموقع ربما يكون قاعا من الطمى ، وفيه رسوبيات عظمية لحيوانات ضخمة (ربما تكون حية أو منقرضة) ، كما شاهدوا أيضا المخلفات العامة الباقية من الكتل التى جرفتها المياه- والحنكية Hena- kieh ، قرية من قرى الزنوج ، وتضم أربعين منزلا ، وفيها حامية صغيرة من الجنود وتابعة للمدينة المنورة . والماء هنا يمكن الحصول عليه على عمق يتراوح بين عشر قامات وخمس عشرة قامة (*)؛ ومع ذلك أمكن مؤخرا الكشف عن بعض العيون المدفونة والمجارى المائية المدفونة التى جرى إصلاحها وإعادتها إلى العمل مرة أخرى . ويبدو أن المكان- فوق وادى حمض يضم العديد من بيارات أشجار النخيل، التى تقع إلى جوار بعضها البعض.

(*) القامة تساوى ستة أقدام . (المترجم)

قدم لى العم محمد بعد ذلك صورة طبوغرافية فجة للمنطقة البركانية التى تحيط بالمدينة المنورة. قال [انظر الخارطة الكبيرة] : "إن حرَّة العنابس el-Anabis – تقع على بعد مسافة مماثلة فى الناحية الجنوبية وناحية الشرق أيضا؛ كما أن حرة لافات Lavat العقال el-Agal تقع ناحية الشرق. كما أن كل هذه الحرَّات تعد حرة واحدة – هى حرَّة المدينة المنورة." يقول البدو إن تلك الحرة تستغرق مسير رحلتين أو ثلاثة رحلات من ناحية الجنوب وهى فى هذه المنطقة عبارة عن طُفوح بركانية فيها الكثير من الرُّبى: وهى هنا تقترب من الحرة الرئيسية (ولكن فيما بينهما مساحة من السهول الرملية) تحت أسماء عدة مثل حرة بنى Beni عبدالله Abdillah وحرة الكشيب el-Kisshub (ويصح فيه أيضا Kesshub أو Kusshub) مكونة بذلك تلك السلسلة البركانية الشاسعة التى تهبط نحو الجنوب متجهة إلى مكة المكرمة، لتلاصق وادى فاطمة وتجاوره. – وأسفل خيبر، وفي اتجاه وادى حمض توجد بعض البرك (غدران)(*) فى الصحراء [انظر الجزء الأول] ويوجد فى تلك البرك كثير من الأسماك الكبيرة 'التى يقول العرب: إنها سمينة تماما، ولدى بعض الخيابرة شباك، ينصبونها فى فصل الصيف لصيد هذه الأسماك.

كان عبد الله السروان قد ربطه العم محمد بى بعد أن نشبت بيننا الصداقة الحميمة وهو يقول: "أنا أتركه بين يديك، وسوف أطلبه منك مرة ثانية؛" وعندما كان محمد النجومى يغادر منزله كنت أرافقه. والقرويون لديهم كثير من الأبقار الصغيرة التى يرعونها كل صباح على بعد ثلاثة أميال من الفجيرة Figgera ، حيث يوجد قاع كبير به مرعى رطب، يطلقون عليه اسم الحلحال Halhal ، وهذا الحلحال جزء من وادى الجّلاس Jellas . ذهبت ذات يوم إلى هناك بصحبة العم محمد لرعاية بعض أدغال النخيل المهجور وإحضار بعض الفسائل. المنطقة الوسطى من ذلك الوادى عبارة عن برك ينمو فيها نبات الغاب والقصب. الكلأ فى هذه المنطقة ليس من العشب

(*) استعمل المؤلف كلمة Ghradran ليدل بها على الكلمة العربية 'غدران' Jhudran وواحدة 'غدير' . (المترجم)

أو الحشائش بالرغم من أنه يبدو كذلك، ولكنه عبارة عن نوع من نباتات السمار غير الصحى الذى لا يصلح إلا للماشية المنزلية. هذا يعنى أن البقر اليمنى الصغير، الذى يمكن شراؤه من المدينة المنورة بواقع ثمن نعجة واحدة لكل بقرة، يمكن أن يموت فى هذه المنطقة إذا ما تغذى على ذلك السمار: يضاف إلى ذلك أن ماشية قرية الحيات التى تربت فى الأراضى الجافة والتى يتردد ثمن الواحدة منها ما بين اثنى عشر إلى خمس عشرة ريالا، لا تستطيع العيش أو يتحسن حالها فى خيبر؛ من هنا فإن البقرة الجيدة فى خيبر تساوى حوالى ثلاثين ريالا. وفى هجرة الطيور يشاهد الناس كثيرا من الطيور المائية فى الحلحال، كما يشاهدون أيضا طيور الخبارى فى فصل الصيف فى هذه المنطقة أيضا. ومن تلك الأدغال يصنع الرعاة القرويون مزاميرهم من الغاب الجاف الذى يحصلون عليه من الحلحال. وتكاد تضيع فى كل يوم من الأيام رأس من الماشية وسط تلك الأدغال الكثيفة، ويتحتم على الرعاة التخلى عنها عندما يحين موعد العودة بالماشية إلى المنزل فى المساء؛ والذى لا شك فيه أن الرعاة يعثرون على هذه الرأس فى صباح اليوم التالى. وربات البيوت القرويات يجئن إلى هنا حافيات أثناء الحر القائظ لكى يجمعن جريد النخل الذى (يستعملنه وقوداً وحطبا).

قطع العم محمد بعضا من سيقان النخيل ، وفى الحلحال تغذينا على قلب النخيل أو إن شئت فقل على الجمّار Jummar ؛ والجمّار هذا صحى تماما؛ والقرويون يجلبون ذلك الجمار إلى منازلهم على سبيل الحلا، وهم يطلقون على ذلك الجمار بلهجاتهم الزنجية اسم 'الجن الخيبرى'. كانت شمس الصيف ساخنة تماما فى ذلك المكان، ووسط هذه الحرارة التى تبعث على العطش أرانى العم محمد حفرة من حفر الماء؛ – ولكنها كانت مليئة بالطحالب السابحة ورفضت الشرب منها. "قال الرجل: يا خليل، نحن لسنا على مايرام،" وذكر الرجل اسم الله! وبرك على صدره وشرب من الماء جرعة كبيرة. فى بداية الحلحال عثرنا على صخرة مكتوب عليها بعض الكلمات بالأحرف العربية القديمة 'محل Mahal الوعى el-Wai التى قرأها علماء وجار القهوة (الأميين) على أنها 'مراعى الماشية؛ وبعيدا عن الطريق هناك موقع آخر فوق الفجّارة يطلقون عليه اسم سوق Suk الرولة er-Ruwalla . وهناك نبع يحمل هذا الاسم فى المدينة المنورة؛

كانت الحنكية تنتمى منذ قديم الأزل إلى قبيلة عنزة (الموجودة حاليا فى أقصى الشمال) وهناك حاليا بعض العائلات التى تنتمى إلى هذه السلالة . ليست هناك ماشية أكبر حجمًا من البقر فى خيبر ؛ والقلة القليلة من الماعز يرعاها تحت النخيل ، الأطفال الذين يطلقون عليهم اسم القياطين Geyatin .

فى يوم آخر صعدنا إلى الحرة لجلب شىء من الحطب . كان العم محمد أثناء قيامه بالصيد، قد شاهد بعض الأشجار النادرة ؛ وكانت تلك الأشجار تبعد عنا مسافة خمسة أميال . تجاوزنا الفجَّارة فى صباح الشتاء قارس البرودة ونزلنا بعد ذلك إلى وادى الجلاَّس ؛ وجاءنا حصين راكبا على ظهر الحمار . فى القاع عثرنا على بعض الحفر الواسعة التى كانت تحتوى على ماء بارد برودة الثلج . «قال محمد : سوف يقطع أطرافك ، أنت لن تستطيع عبور هذا الماء». وجدت أن الرجل كان على حق فيما قال؛ ولكن تلك الحفر كانت صلبة إلى حد أن الصبى ساعدنى على عبورها فوق حماره الذى كان غارقا فى ماء تلك الحفر إلى منتصفه . كان محمد قد سبقنا على ظهر فرسه، كان حصين يستحث الحمار عن طريق الضرب نظرا لأن والده محمد النجومى كان يستحثه ويشير إليه وهو قلق متعجل . والناس هنا يرون أن البقاء لوقت طويل فى مثل هذه الأماكن يعد أمرا خطيرا، ولذلك راح حصين مع كل ضربة يوجهها إلى جحشه الصغير ، يتلفظ بإهانة من تلك التى كان والده يوجهها إليه ؛ ووصلنا بعد ذلك إلى أشجار السنط. ورحنا نهيل أحجار الحرة من حول تلك السيقان الجافة ، الأمر الذى جعل جنوع تلك الأشجار تسقط أمامنا : – ورحنا بعد ذلك نلقى الصخور فوق تلك الجنوع كى نقطعها إلى قطع صغيرة ، حملناها على ظهر الجحش وعدنا بعد ذلك إلى البيت.

سلكنا إلى المنزل طريقا آخرا، يمر بالقرب من قاع مرتفع وجاف ، شاهدت فيه بقايا أسوار من محوطات حقلية يطلقون عليها هنا اسم، أم rummركبة Rukaba وتمتد إلى حوردة Hurda. هذه الحوردة من الأرض التى تجود فيها زراعة القمح ويصل عمق البئر هنا عشرة أقدام إلى صخر البازلت ؛ والماء الذى يخرج من تلك الآبار يكون عذبا

وسائغا للشاربين غير أنه يكون دافئا إلى حد ما . فى هذه المنطقة ، قام العم محمد مؤخرا بشراء حقل من حقول القمح له بئر خاصة به ؛ وبالأمس أوفد العم محمد اثنين من صبية البلد، ليوصلا ثورين إلى هذا الحقل وأوصاهما أن «يذهبا ويساعدا حصين فى الحـــوردة Hurda . «هذان الصبيان يعملان بجد ولا يأكلان أكثر من التمر الذى يجود به عليهما ذلك الرجل الذى أمرهما بالعمل ؛ هذان الصبيان يبيتان الليل ملفوفين فى عباءتيهما ، مستلقيان على الأرض الرطبة، بالقرب من نار كبيرة يشبونها فى حطب أشجار السنط والسمار، وهما ينامان فى كوخ من أغصان الشجر ، ويكونا قريبين من الماشية . وملاك هذه الأرض يرسلون له كل خمسة عشر يوما ثيرانهم لمدة ثلاثة أيام.

توجد فى وادى خيبر عين أو نبع يقال له عين Ayn سليليم Selelim؛ وقد ورد فى موروثهم أن يهوديا يدعى ابن Ibn سلَّم Sellem كان له بستان فى ذلك المكان ، وأنه دخل فى الدين الجديد فى المدينة المنورة ، وكان ذلك الرجل يدعى فى أيام خيبر (الوثنية) عبدالله Abdullah ابن Ibn سلاَّم Sellam. – وكان العرَّاف المغربى قد سبق له أن قال للناس هنا: إن معبداً قديما يحتمل أن يكون مدفونا فى ذلك المكان. قلت للعم محمد النجومى فى أحد الأيام: « هيا بنا نذهب إلى ذلك المكان فى هواء الصباح المنعش». ورد على :«بالرغم من أنه يخشى ألسنة الجيران ويخاف منها إلا أنه لن يخيب ظنى . كان طريقنا يمر من خلال وادى خيبر : وبينما كنا نسير فى طريقنا أسفل صخرة حمراء اللون، شاهدت منزلا منعزلا مبنيا من الطين، وكان ذلك المنزل عبارة عن غرفة واحدة فقط مبنية فوق الأرض. وقد أخبرنى العم محمد أن تلك الغرفة هى البيت الصيفى لواحد من البدو الأثرياء. ولكن بعد الانتهاء من بناء ذلك المنزل الجديد، وعندما تجاوز ذلك البدوى الثرى عتبة ذلك المنزل داخلا إليه مع أصدقائه سقطت على رأسه عارضة الباب الأفقية، ومات هذه الميتة المفاجئة! وفى منطقة عين سليليم توجد بعض البنايات الطينية– وهى عبارة عن البيوت الصيفية للعلايدة، شيوخ ولاد على. هذه البيوت التى يسكنها هؤلاء البدو الذين يعيشون أصلا فى الخيام، مكونة من طابق أرضى واحد، فيه عدد كبير من النوافذ حتى تسمح بمرور الهواء المنعش، [وهذه البيوت مثل بيوت البدو الصيفية الموجودة فى وديان النخيل المنخفضة فى سيناء] . زرت بيت

الشيخ مطلق؛ كان هناك بيت كبير لأسرة الشيخ، كما كانت هناك أيضا مساحه واسعة للمجلس، تشبه خيمة البدو، ومعزولة عن الشمس. – وهذه الحرارة الشديدة يمكن تحملها أثناء النهار داخل تلك البيوت المبنية من الطين، بدلا من الإقامة داخل الخيام الصوفية التى يعيش فيها الأعراب. بيوت البدو الصيفية هذه كانت أنظف بكثير من منازل القرية.

ماء العين نقى وخفيف، وعندما غمست فيه مقياس الحرارة وجدت أن درجة حرارته كانت ٨٢° فهرنهيتية. وعندما رأى العم محمد مقياس الحرارة وتفحصه، قال مندهشا، "آه! يا خليل، نحن غراشمين **ghrashimin** ، بمعنى 'نحن أجلاف وجهّال! "وعندما رأى العم محمد قطيعا من صغار الماعز بصحبة بعض الرعاة الصغار، الذين جاءوا ليحملقوا فينا ويطيلوا النظر إلينا قال الرجل متسرعا:" عجِّل يا خليل، وإلا سيذيعون هذا الخبر فى القرية [زاعمين أننا كنا نبحث عن كنز من الكنوز]، ونحرم من أخذ قسط من الراحة بعد تلك الرحلة التى قطعنا فيها بضعة أميال." – "عجبا لذلك الرجل الشجاع الذى يخشى الألسنة السليطة! كانت مسألة مهادنة الدناءة والخسة والظلم عملية وضيعة." – "ومع ذلك ، هاهنا عالم من الزنوج المخبولين." واقع الأمر أن أحداً من هؤلاء العرب لا يمكن أن يجرؤ على الخوض فى ذلك المد وينبرى لمعارضة تلك الحشود الحاشدة. – ومحمد النبى (ﷺ) هو الذى أبدى هذه الشجاعة الروحية الفائقة بين العرب!

كان عبد الله السروان قد أمر بوضع رفيقى الحبشى فى غرفة محرم **Muharram** الذى توفى فى أم كيدة؛ – السبب فى ذلك أن أمان الذى حرره ضابط الصف الألبانى الأصل، لم يكن بينهم سوى مجرد شخص ألبانى يحمل رتبة أقل من رتبة ضابط الصفّ. عدت عندئذ إلى بيت خالٍ . كان عبد الله رجلا لعينا، ولربما يقتلنى أثناء نومى؛ ثم يقوم بعد ذلك بإخطار الباشا، 'قد ينشرح قلب معاليكم أن تعلموا أن النصرانى، عثر عليه صباح هذا اليوم قتيلا فى مسكنه، وقد قتل على أيدى مجهولين.' كل أكواخ خيبر فيها سلم نقّالى، وفتحة مؤدية إلى سطح المنزل؛ وبالتالى يمكن المرور على أسطح

المنازل كلها عن طريق أسقف الشرفات، كما يمكن النزول أيضا نهارا أو ليلا إلى أى بيت من البيوت، عن طريق تلك الفتحات، ثم بعد ذلك إلى أية غرفة من غرف البيت : وهذه هى الطريقة التى يزور الجيران بها بعضهم البعض. لم أستطع قضاء الليل فى بيت محمد النجومى؛ لأنه لم يكن لديه سوى صُفَّة واحدة، الأمر الذى جعل ولده حصين يذهب للنوم خارج المنزل فى غرفة مستأجرة مع بعض الشباب الآخرين الذين هم فى مثل ظروفه. بعض أصحاب المنازل يفردون أثناء الليل، فى فصل الشتاء حصيرا فوق تلك الفتحات الموجودة أعلى المنزل، ولكن ذلك الحصير يمكن رفعه بسهولة ويسر دون أن يحس أحد بذلك ، ومعروف أن الناس هنا يكونون حفاة الأقدام. كان هناك بعض المجرمين على مقربة من المكان، نظرا لأن اللصوص سرقوا دجاج أحد الجيران أثناء الليل وهو واقف على شرفة المنزل الذى كنا نقيم فيه؛ وهنا خطر ببال أمان، أن اللص لابد أن يكون ذلك الرجل الحبشى الذى تعرفنا عليه من قبل : الواضح أن ذلك الحبشى كان غريبا بلا أدنى شك ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء الأحباش لا يأكلون من الدواجن سوى بيوضها! – وهذه مجرد خرافة من خرافات الخيابرة، الذين لا يستطيعون تبريرها أو تأكيدها؛ يضاف إلى ذلك أن الأحباش لا يأكلون الكراث الرومى (الكراث أبو شوشة عند المصريين).

كنت فى أحد الأيام جالسا مع أحمد النجومى فى منزله وجاءنا محمد الكردى لتناول القهوة معنا. تحدث الكردى معنا بشىء من السخرية والتهكم عن وفاة محرَّم: – فى عصر ذلك اليوم المشئوم "قال الرجل المريض،' اذهب يا محمد إلى عبد الله ،لأنى أفارق الحياة، وأنا لدى ما أريدك أن توصله له.' – 'أنا Ana نجَّاب Nejjab ، بمعنى هل أنا ساعى بريدك؟ إذا كان يعجبك ويرضيك أنك تفارق الحياة، فماذا يعنى ذلك بالنسبة لنا؟' – المصرى مريض. فى بداية الليل كان محرم جالسا معتدلا؛ ثم سمعنا حشرجة فى حلقه، – ثم سقط إلى الخلف وفارق الحياة! أبلغنا ذلك النبأ لعبد الله : الذى أرسل إلينا اثنين من العسكر، وقدمنا لهم عشاءا شحيحا. فقد وضعنا كل ما لدى محرم من أرز وسمن فى الوعاء؛ وجلسنا كلنا نحتفل فى حضرة [قديسنا] محرم، الذى لم يستطع أن يمنع ذلك التبديد الأمين لمؤنه." – رد الحاضرون

«كل ما لدى هذا البخيل مآله إلى النار» (بمعنى سوف يحرق فى نار جهنم) . سألت محمد الكردى ولكنه أنكر أمام الحاضرين؛ كما أنكر المصرى أيضا، أن أدويتى لم تكن أكثر من اللازم أو زائدة عن الحد، كما أنكر أيضا أن تكون تلك الأدوية هى السبب فى وفاته. – قال الكردى عن الجبال الموجودة عند الأفق فى خيبر، إنها ليست سوى مجرد أكواخ إذا ما قارناها بتلك الجبال الضخمة الموجودة فى بلاده.

توفى العليل العجيلى البرُيدى بعد ذلك مباشرة؛ ولكنى كنت قد توقفت اعتبارا من الحالة السابقة عن إعطاء الأدوية لأى أحد من المرضى. قال : إنه وجد أن أدوية النصرانى (جرعات صغيرة جداً من الراوند) كانت مريعة، إلى حد أنه توقف عن تعاطيها. ومات الرجل ودفنوه خلال يوم واحد . وعندما طلع النهار سمعنا فى القرية، أن قبر الجندى جرى نبشه أثناء الليل! – المؤكد أن من ذهب إلى ذلك القبر فى الصباح لابد أن يكون قد عثر على آثار أقدام النساء حول ذلك القبر الجديد. تساءل الناس من الذى فعل هذه الفعلة ؟ أجابوا، من فعل ذلك هن الساحرات الملعونات ! لقد أخذن الجثة لكى ينزعن منها القلب كى يستعملنه فى طقوسهن السرية المريبة. «مررت بنفس المكان بعد ذلك، بصحبة العم محمد ونحن فى طريقنا لأداء عملنا البستانى، ووجدنا أن الأمر كان مثلما قال الناس تماما هذه إن لم تكن آثار الأقدام التى شاهدناها هى لأطفال أشقياء – حمل أمان قطة سمينة لواحدة من جاراتنا، وقال لى وهو مشمئز: إن تلك الجارة أكلت لحم تلك القطة والتهمته التهاما، بالرغم من أنها كان لديها ما يكفيها من الطعام، فضلا عن مخزونات من أشياء أخرى كثيرة كانت فى بيتها؛ ويقال إن تلك المرأة كانت واحدة من تلك الساحرات.

ومن خلال الأمسيات الطويلة التى أمضيتها مع محمد النجومى تعلمت وعرفت الكثير من حكايات هؤلاء الناس الخرافية عن الجن والتى تروج فى منطقة المدينة المنور. قال العم محمد « الجان يخافنى ويخشانى ». نصف الجان Jan أو الجنون Jenun الذين يسكنون طبقات الأرض السبعة، هم من الأرواح الشريرة، أو إن شئت فقل من الكفار Kuffar أو من الكافرين Kafirun؛ والنصف الآخر يوصفون أو يقال عنهم إنهم

مسلمون» – قال محمد، إن صندوقا من صناديق والده، كان يحتوى على بعض الملابس المطرزة، سرق فى أيام شبابه. وأنهم أرسلوا فى طلب الساحر، أو إن شئت فقل المندل Mundel، لكى يكشف لهم الشخص الذى فعل تلك الفعلة. هذا المُندل، لابد وأن يكون سمسارا أو إن شئت فقل : وسيطا من خلال علمه الأسود، بين أبناء آدم والجان.

– قال الحكيم: «من هنا صاحب قلب جرىء وقوى ؟» رد النجومى الأب، «محمد ولدى صبى جرىء . وصب المندل ماء فى سلطانية وطلب إلى محمد الابن الجلوس إلى تلك السلطانية، وأن يثبت نظره عليها ، وبدأ المُندل يقرأ عزائمه وتعاويذه الأولى، ثم قال: «ماذا ترى الآن؟» – محمد : «الله ، أنا لا أرى أكثر من هذا الوعاء والماء (كان المُندل لا يزال يتلو عزائمه وتعاويذه على مسبحته): ومع ذلك ، فالأمر يبدو لى هنا كما لو كنت أنظر من خلال نافذة، ومن تحتى بحر، ومن الأسفل أرى سهلا واسعا، وأنا أرى حاليا، فى هذا السهل كما لو كان موكب الحج قادما ! –لقد نصبوا خيمة الباشا،– أنا أرى الباشا جالسا مع أصدقائه. – الدكتور فلان] هكذا سمى المندل نفسه [يحيك ويطلب منك أن تسأل ، إن كان بصحبتك أحد من الجن الذين كانوا موجودين عندما سرق الصندوق من يلدوزنى Yelduzely حصين ؛ وأن تسأل أيضا ما إذا كان ذلك الجن قد شهد تلك السرقة، وأن يسمى أسماء هؤلاء الذين قاموا بتلك السرقة؛ أجابه سلطان الجان، «لقد سألت على الفور رفاقى كلهم، لم يكن أحد منهم حاضرا تلك السرقة، ولم يسمع أحد منهم أى شىء عن ذلك، – واصل المندل تلاوة عزائمه وأسحاره على مسبحته، ثم قال مرة ثانية: «ماذا ترى الآن، أيها الشاب؟» – محمد : «الجماعة السابقة مرت علىّ»، وها هى جماعة أخرى مماثلة تمر علىّ ». «قل : يا سلطان الجان ....، مثلما قلت من قبل . رد سلطان الجن ، «لقد سألت الآن كل هؤلاء ؛ وليس هنا أحد شاهد أى شىء أو سمع أية أخبار». المندل : «قل ، هل هناك أحد غائب؟» ، وجاء الرد، «ليس هناك أحد غائب». واصل المندل تلاوة تعاويذه وأسحاره وقال : « ما الذى تراه الآن؟ محمد: «الجماعة الثانية ابتعدت عن مجال رؤيتى؛ وهذه جماعة ثالثة قادمة.» قل : «سلطان الجان...، مثلما قلت من قبل.» رد السلطان ، «لقد طلبت منهم جميعا على الفور ،

ولا يوجد أحد منهم هنا". – "قل ثانية،' هل كل ناسك حاضرون ؟، – "سألت وهناك واحد منهم هنا." – "قل ثانية: 'هل كل ناسك حاضرون؟' " – سألت وهناك واحد غائب، – 'إنه فى الهند.' – المندل: قل، 'أحضره إلى هنا وأسأله؛ "تكلم سلطان الجان، تكلم إلى جماعته، "من منكم سيحضر زميلنا المدعو، والموجود فى الهند؟" أجاب واحد من الجن، "أنا، وفى خلال أربعة أيام، سوف أحضره." قال السلطان:" هذا وقت طويل." – وهنا قال العم محمد كلمة إلى جوار تلك اللعبة: "ألم تلاحظ، يا شيخ خليل؟ أن مسألة طلب ذلك الوقت الطويل كان نوعا من الحقد والحسد." – "قال الجن: "أعطنى ثلاث ساعات؛ " ثم قال فى المرة الأخيرة: "سوف أحضره خلال لحظة." – رد السلطان : "أحضره." – قال العم محمد، رأيته بعد ذلك، وهو يدخل كما لو كان رجلا عجوزا؛ كان أشيب الشعر، ويمشى أعرجا." سأله سلطان الجان،" هل رأيت شيئا، أو هل لديك علم بتلك السرقة؟" أجاب،" نعم، لأنى بينما كنت أجلس على شكل كلب فوق تل الروث أمام البيت الفلانى، وذلك عند منتصف الليل، شاهدت رجلا يحمل الصندوق على ظهره؛ ودخل المنزل المجاور لذلك التل، وتبعته امرأتان." وكشف الجنى أيضا شخصية هؤلاء الأشخاص وذكر أيضا أسماءهم.

– أرسل المندل فى طلب هؤلاء الأشخاص ؛ – وكانوا معروفين فى القرية بأنهم يعيشون على الحرام. وصل هؤلاء الأشخاص على الفور؛ ولكن عندما سئلوا عن السرقة أنكروا كل شىء مقسمين بدينهم، ثم رحلوا لحال سبيلهم. وهنا أحضر المندل ثلاثة من قراب الماء، ونفخ تلك القراب، وأبعد تلك القراب عنه! – وإن هى إلا برهة قصيرة حضر بعدها هؤلاء الاشخاص الثلاثة وهم يهرولون؛ ذلك الرجل الذى كان أمام النساء، وكانوا جميعهم يمسكون بطونهم، التى انتفخت إلى حد الانفجار."أوه، إنه أنا! صاح الرجل، أرجوك. سيدى، الصندوق معى، خلصنى من هذا الألم وسوف أحضر الصندوق على الفور!" واعترفت نساؤه أيضا بذلك الذنب. – ثم راح المندل يتلو تعاويذه وأسحاره من جديد على مسبحته كى يعكس تلك الأسحار وقال لمحمد النجومى الابن:" مذا ترى؟" ـ"أنا لا أرى سوى السهل الكبير؛ – ولا أرى الآن سوى هذه السلطانية والماء الذى بداخلها." – المندل: "انظر إلى الأعلى أيها الشاب! انهض ، وسر وتمشى حولنا ، إلى أن يحضر إلينا هؤلاء الأشرار الصندوق المسروق وما بداخله."

حكى العم محمد لى هذه الحكاية وكأنه قد صدقها تماما؛ بل إنه قال أكثر من ذلك: إنه ظل طوال فترة من الزمن يعتقد أن ما يقرب من نصف أولئك الذين لهم شكل الجنس البشرى يدخلون فى عداد الجن؛ كما كان يرى أيضا أن كثيرا من قطاط المنازل وكثيرا من كلاب الشوارع كانوا من الجان: ثم بدأ يتلاشى ذلك التأثير داخله ولم يعد يساوره بعد ذلك التصور. أصيب العم محمد بقليل من الدهشة عندما قلت له:" حسن، خبرنى، ما هى لغة ذلك الجان، وما هو طراز الملابس التى يرتدونها؟" أجابنى (وهو يبتسم ابتسامة ملئ شدقيه) بعد لحظة،" من الواضح أنهم يرتدون ملابس وأنهم يتكلمون مثل المسلمين."

– سألت أمانا Aman عن الجان؛ ونظر إلىَّ نظرة حزينة، ثم قال: "سوف أروى لك شيئا، يا شيخ خليل؛ هذا الشىء حدث على حد علمى فى مدينة جدة. يحكى أن عبدا، من أولئك العبيد الذين أعرفهم، كان جالسا إلى جوار بئر من الآبار يغسل ملابسه. وألقى بأول كمية من الماء بعيدا عنه، ثم تناول إناءه وذهب إلى البئر لجلب المزيد من الماء؛ وبينما انحنى على البئر، سقطت منه نقوده المعدنية. راح ذلك الشاب ينظر إلى النقود المعدنية التى سقطت منه؛ – وبينما كان يحملق داخل البئر سمع صرخة مفاجئة، وسقط على رأسه داخل البئر ! جرى بائع القهوة الذى شاهد ذلك المنظر، ناحية البئر؛ وبينما كان ينظر داخل البئر سقط هو أيضا بداخلها. هرول بائع من باعة الأعشاب إلى البئر نفسها؛ وعندما وصل إلى فتحة البئر نفسها؛ وراح ينظر داخلها ولكنه هو الآخر سقط فيها أيضا؛ وحدث الشىء نفسه لشخص آخر، وهكذا إلى أن بلغ عدد من سقطوا داخل البئر خمسة أفراد. وعندما تجمع عدد كبير فى إثر الصياح؛، تكلم من بينهم أحد الرجال البحارة،' أحضروا لى حبلا! وسوف أنزل بنفسى داخل البئر وأخرج هؤلاء الذين سقطوا فيه.' حشوا أذنى الرجل بالقطن [مخافة أن يتلبس الجان ذلك الرجل] ، وأعطوه فى يده مبخرة كان بها بعض البخور المشتعل؛ ثم أنزلوه ليكون فوق سطح ماء البئر: ولكنه عندما وصل إلى منتصف المسافة [الآبار القريبة من شاطئ البحر لا يزيد عمقها على قامتين من فوهة البئر إلى سطح الماء] وصاح الرجل يطلب من الناس رفعه مرة ثانية إلى أعلى البئر. سحب الناس ذلك البحار إلى الأعلى على

وجه السرعة ؛ وحكى لهم بعد أن استطاع التقاط أنفاسه، أنه شاهد قاع البئر وهو ينفتح ويغلق ! – كان الناس قد أرسلوا فى طلب واحد من المغاربة ؛ الذى حضر إلى المكان ومعه كتابة سحرية، – ألقى بها فى البئر، ليخرج على أثرها دخان من البئر قال المغربى بعد ذلك خلاص Khalas بمعنى انتهى كل شىء وأنه سوف ينزل إلى البئر هو بنفسه ؛ ربطوه من تحت ذراعيه ، ونزل البئر بلا خوف ، وربط حبلا من حول الجثث الغارقة ؛ وجرى بعد ذلك إخراج تلك الجثث الواحدة بعد الأخرى . كانوا جميعا أمواتا، اللهم باستثناء العبد الذى كان يتنفس بصعوبة بالغة : بقى طول الليل بلا إحساس أو كلام، ثم مات بعد ذلك . ومسألة عدم وفاة ذلك العبد على الفور ترجع على حد قول أمان، إلى خاتم كان يلبسه فى إصبعه وفيه فص أزرق اللون. [هذا الحجر له فضيلة تفريق أو إبعاد التأثير الروحى الضار؛ ولذلك فنحن نرى الناس يعلقون أحجارا زرقاء حول أعناق الماشية فى البلاد الواقعة على حدود خيبر] ولكن تلك الحفرة التى غرق فيها أولئك الرجال، جرى ردمها فى اليوم نفسه بأمر من الباشا الحاكم».

سألت العم محمد، «كيف تقول : إن الجان Jan يخشاك ويخافك ! هل بوسعك وضع يدك القوية على الشياطين ؟– » والله إنهم يخافون منى، يا شيخ خليل ! فى العام الماضى، تملك جن هذه المرأة زوجتى فى إحدى الأمسيات ، وكنا جالسين فى هذا المكان مثلما نحن جالسين حاليا، كنت أنا والمرأة وولدنا حصين. رأيته وهو يظهر فى عينيها، اللتان ثبتت خلال لحظة. وراحت تحملق ، وتبكى وتحشرج صوتها فى حلقها . [نظرت إلى هذه الزوجة المسكينة! التى ردت على نظرتى بنظرة توحى بالتحمل والصبر] . وهنا تناولت المسدس [من المألوف أن ترى مثل هذه الأسلحة الصغيرة مُعمرة ومعلقة على جدران الغرف [ثم أطلقت عيارا بالقرب من رأس الزوجة، وصحت فى الجن ، «آه يا ملعون Maleun أين أنت الآن ؟»» ورد علىّ الجن (من فم المرأة) فى رأسها، «فى عينها– من أى جزء دخلت جسمها؟ – من إصبع رجلها الكبير. – إذن ، فأنا أقول لك أخرج منها من المكان نفسه الذى دخلت منه .» نطقت بهذا الكلام بشكل مرعب ومخيف وخرج الجان منها: «ولكن فى البداية، جعل محمد الجن يعد بأنه لن يتلبس زوجته مرة ثانية– هل يخاف الجن من الطلقات النارية؟» – «أنت ساذج تمام، إنها رائحة الكبريت ؛ والله إنهم لايطيقون تلك الرائحة».

هذه المرأة المسكينة كانت لها عينان كبيرتان وبيضاوان وكانتا تشعان بقليل من المرح. كنت أسمع حصينا وهو يقول لها : «هو ! هو! أنت يا صاحبة هاتين العينين ، أجلسي بعيداً ! لاتنظري إلى بهذه الطريقة. »- «بين الجان [فقد سبق له أن رآهم، عندما كان تحت تأثير السحر في المدينة المنورة] على حد قول العم محمد ، اختلافات مثل الاختلافات التي بين أبناء آدم . فمن الجن الطويل والقصير، والمتين والنحيف ، والصحيح والعليل ، والجميل والقبيح ، ومنهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم الصالح ومنهم الطالح، والأشرار من الجان هم أعداء الإنسان . ومنهم الذكور ومنهم النساء ، ومنهم الكبار ومنهم المسنين أيضا؛ وهم لهم أعمار محدودة ويموتون مثل بني آدم».

– قال: «البعض من الجان أشخاص أشراف جداً : وقد يكون هناك جن في العالم العلوي. هناك أسرة ، يقال لها بيت Beyt الشريفة es-Shereyfa في المدينة المنورة، جيلها الثالث الحالي، منحدر من جنية Jinnia. الجد الكبير لتلك العائلة كان من حمّالي القوافل فيما بين الحرمين . كان ذلك الرجل يتأخر بعض الشيء عن مجموعة الإبل، كي يتمكن من استعادة الأشياء التي يحتمل أن تسقط من فوق الإبل. وبينما كانت القافلة تسير، في إحدى المرات، سمع ذلك الرجل صوتا يحييه– قال الجن : (على حد قوله) «السلام عليك ، وهو على شكل رجل مسن ؛ أحسب أنك ذاهب إلى مكة. «نعم» – «وصلّ هذه الرسالة إذن لولدي؛ سوف تعثر عليه – إنه كلب أسود ، يرقد أمام طاولة القصّاب في الشارع الفلاني . قرّب هذه الرسالة من عينه ، وسوف ينهض واقفا ، وهنا يتعين عليك أن تتبعه.»

«وضع الحمّال الرسالة في جيب ثوبه العلوي، وواصل مسيرة . وعندما وصلت القافلة إلى مكة ذهب الرجل لإنجاز المطلوب منه. ثم عاد بعد ذلك إلى مسكنه؛ كي يلبس ملابس الخروج، ثم يخرج بعد ذلك لتمضية الوقت في المقاهي. وفي تلك المقاهي سقطت الرسالة؛ وظن وهو يمشي في الشارع أنه سوف يقوم بتوصيل الرسالة، – وجد الرجل كل شيء مثلما قال الجن؛ وتبع الكلب. واقتاده الكلب إلى منطقة خربة، ثم دخل منزلا مهجوراً؛ ثم وقف الكلب كما لو كان شابا جميلاً؛ ثم قال للحمّال ، أنا أدرك أنك حصلت

على تلك الرسالة من والدى؛ إنه يكتب لى عن شىء من الفضة (النقود): قبل العودة تعال إلى هنا فى هذا المكان لتحصل منى على الرد.' – 'نحن سنرحل غداً عن هذا الخان؛ ويمكن أن ترانى هنا .'

"كانت القافلة المحمَّلة تمضى فى طريقها ، وكان الحمَّال راكبا فوق ناقته، عندما التقاه الجن الشاب ، وقال له: 'هذه هى الرسالة المرسلة إلى والدى، ثم (أعطى له لفافة) هذه هى النقود التى تكلم عنها العجوز؛ قل له نيابة عنى، أن هذا هو كل ما استطعت جمعه بحق من هذا المكان.' ألقى الحمَّال اللفافة داخل خُرجه مع الرسالة، ومضى قدما فى طريقه.

"فى منتصف الطريق وقف ذلك الرجل الجنى مرة ثانية على مرأى من الحمّال، ثم قال: 'سلام عليك ! – هل رأيت ولدى، وهل أحضرت لى منه شيئا؟" هذا هو ما أرسله ولدك إليك .' قال الجن العجوز : 'أنت ضيفى اليوم' – 'ولكن كيف لى باللحاق بإبلى؟' – وهنا ضرب الجنى العجوز الأرض بعصاه، وتشاءبت الأرض، من أمامه؛ ونزل إلى الأسفل وهو يقتاد ناقة الحمَّال ، ومعه الحمَّال أيضا ، تحت الأرض، إلى أن وصلا إلى مدينة ؛ اصطحبه فيها الجنى أشيب اللحية إلى منزله. دخلا المنزل؛ وخلف الأبواب كانت تجلس زوجة الجنى، ومعها بنتيها! – وجلس الجنى فى صالة بيته ليصلّح القهوة للضيافة. وقبل دخول المساء شاهد الحمال الجنى وهو يذبح ناقتهِ! وشاهد لحم ناقته وهو يوضع فى القدر؛ ثم قدم ذلك اللحم بعد ذلك للحمَّال فى وجبة العشاء! – 'قال الرجل فى نفسه : 'واأسفاه! لأنى لن أستطيع اللحاق بعد ذلك بقفيلى Kafily .

" قال الجن له، استيقظ فى الصباح إذا ما أردت الرحيل، وسوف نرافق بعضنا بعضا؛' – ثم أعادالجن إليه ناقته الذبيحة حية مرة أخرى!' قال الجنى العجوز: سوف أعطيك أيضا هدية ، قالها وهما يمضيان قدما ؛ اختر أى شىء من الأشياء التى شاهدتها فى منزلى؟' وهنا رد الحمَّال متشجعا،' بنتا من بنتيك .' – أرجوك أن تطلب شيئا غير ذلك .' – 'لا، والله ، ولن أطلب شيئا غير ذلك.' – 'عندما ستمر علينا فى المرة القادمة، سوف أحضرك إليها.، – 'كم مهر العروس؟' – 'أنا لا أطلب منك سوى شىء

واحد، أن تتذكر سابقة من السوابق، هذه السابقة سهلة بحد ذاتها ولكنها غير سهلة على الرجل المتعجل: – أقول: إن كانت زوجتك ستبدى بعضا من الشجاعة على مرأى منك، فيجب عليك أن تتحمل ذلك، لأنه ليس سوى مجرد شيء مظهرى.' ثم أخرج العجوز الحمَّال الجنى إلى سطح الأرض، وتركه يمضى لحال سبيله ؛ وعندما بدأ الرجل رحلته، كان على علم ، وهو ينظر إلى الأعلى ، بجدران وأسوار المدينة المنورة !

"فى طريق العودة، تسلم الحمَّال عروسه، وأحضرها معه إلى المدينة المنورة. وفى المدينة المنورة أمضيا سبع سنوات من الزواج السعيد، وأنجبت له ابنين :، بعد ذلك ، وفى يوم من الأيام، أمسكت الزوجة سكينا وراحت تجرى فى اتجاه أحد الابنين وهى تصرخ ، كما لو كانت على وشك أن تقتله. شاهدها الحمَّال المسكين، وقفز لينقذ طفلها ؛ – ولكن بهذه الفعلة اختفت الأم الجنية وولدها إلى الأبد ! ومن ولدها الكبير انحدرت فى المدينة المنورة تلك الأسرة (التى سبقت الإشارة اليها): هذا يعنى أن ذلك الولد الجنى الأكبر كان أبا لأفراد هذه الأسرة التى ما زالت على قيد الحياة ." قال العم محمد،" الجن يمكن تميزه عن بنى آدم عن طريق غرابة العينين فقط؛ – وجفون الجن منحرفة إلى الجنب مع الأنف."

تحدث محمد النجومى أيضا عن قاض عادل من الجان أيضا وكان اسم ذلك القاضى يحظى بالاحترام والتقدير (على سطح الأرض) فى المدينة المنورة؛ كما تحدث أيضا عن جنازة ذلك القاضى فى الحرم، والتى شهدها هو بنفسه! "ذات يوم وعندما أنهى الإمام صلاة الظهر، وكان يتقدم الناس، ثم رفع صوته وهو يقول: رحمنا Rahamana ورحمكم Warahamakom الله، الصلاة esSulat على aly الجنازات el-Jenneysat الحاضرة el-hathera . – الجثة يمكن حملها إلى داخل الحرم (للصلاة عليها) فى أية ساعة من ساعات النهار ؛ أما إذا كان الوقت ظهرا، فنحن نسمع تأمين المصلين : إنهم يؤمنون بجرس جميل تتردد أصداؤه بين جنبات ذلك المبنى الكبير! – نظر الناس فى جميع الاتجاهات وهم يتعجبون مندهشين ، – لم ير الناس شيئا! – رد الإمام عليهم، 'يا مسلمين، لقد رأيت الجثة وهم يحضرونها إلى هنا ؛ وأنا أعلم أن تلك كانت

جثة القاضى العادل الجني، – لقد مات اليوم ، والله، عندما سمع الناس اسمه تقدموا للصلاة عليه، لأن ذلك القاضى الجنى ذاع عنه أنه كان عادلا: – ألا تود سماع حكاية عن عدل ذلك القاضى ؟

«يحكى أنه كان هناك مدرسًا Muderris ، أو إن شئت فقل : رجلا متعلما فى المدينة المنورة، [واحدا متمرسا فى العلم العربى وفقيه فى القرآن] . فى إحدى الليالى عندما كان ذلك المدرس داخلا إلى فراشه للنوم ، سمع صوت صديق له فى الشارع يطلب إليه المجىء على وجه السرعة. وعليه تناول المدرس عباءته (بشته) واتجه إلى صديقه . قال له صديقه : «تعال معى أرجوك » – وعندما تجاوزا سور البلدة، أدرك ذلك المدرس أن ذلك جنا فى صورة صديقه ! اجتمع حولهما بعض آخر، وأدرك جيدا أنهم جميعا كانوا من الجان . – طلبوا منه البقاء معهم، وقال الجان : «نحن هنا لنقتلك.– لماذا تقتلونى ، أيها السادة، أسفى على ما تقولون ! – لأنك قتلت زميلنا اليوم.– إذا كنت قد قتلت أحدا من رفاقكم ظلما ، فحاكمونى حسب قوانينكم ؛ أنا استأنف الأمر أمام القاضى . رد الجان، لقد جئنا لقتلك ، ولكنك طالما استأنفت الأمر أمام القاضى، فسوف نقتادك إليه . ذهبوا جميعا إلى القاضى وأقاموا عليه الاتهام ؛ لقد قتل هذا الآدمى adamy اليوم واحدًا من الناس، ونحن أقاربه وذويه لقد قتله عندما كان قريبنا نائما فى بيارة من بيارات النخيل، على شكل حية ، – نعم هذا صحيح ، يا سيادة القاضى ، لقد ضربت حية فى ذلك المكان وقتلتها ؛ وأنا استحلفك أيها القاضى، ألا يجب قتل كل الهوام الخطرة من قبل أى إنسان إذا ما كان فى يده حجر أو سلاح؟ ولكن أقسم بالله ! أنا لم أعرف أنه من الجان» . رد القاضى قائلا : أنا لا أرى فى ذلك أية قضية ؛ ولكن الخطأ يتمثل فى عدم حرص صديقكم الميت : ويجب ألا يغيب عن بالكم أن الثعبان دونا عن سائر الوحوش كلها هو أبغض الهوام عند بنى آدم ».

الفصل الثامن

الخلاص من خيبر

صهر العم محمد النجومى ، وصول مراسل من المدينة، النصرانى يقول : إن الماء زاد فى خيبر ، عين الريح أبو مدين ، درويش رحّال ، رسالة من باشا المدينة، عنف عبدالله ، هل يمكن لأحد أن يتخلى عن اسم دينه لفترة من الوقت ؟ العم محمد يقنع النصرانى بالسكن معه فى خيبر ، أبوكار، كل ذلك يجلب العار والخجل فى الإسلام ، الإنجليز فى الهند وفى عدن، عقيد فى المدينة يسرق كتب النصرانى العربية، عودة لص الإبل ، أجبان الحطيم ، الودُّوك قرويو الحيات ، الإنسانية لا تحب أن تعامل بالمثل ، الله يعطى البرد على قدر الغطاء ، عبدالله يضرب القرويين المتمردين، ضيق الصدر، الرحيل عن خيبر ، حامد ، الحب والموت ، وداع العم محمد ، رحلة عبر الحُرة ، تعال إلى خيام الحطيم ، الحبارى، ريح عاصفة فى شهر مارس جبال الحُجون النسور، لقاء الحطيمُ النصارى يسكنون مدينة مطوقة بالحديد، صلوبة من منطقة قريبة من مكة ، الرفاق يبحثون عن الماء بعض الآبار العميقة «حفر الجان» طقس عاصف فوهات البراكين فى الحرة» ، أطال الله حياة ذلك الرجل (ابن الرشيد) !

بدأنا نتطلع من جديد إلى عودة دخيل قادما من المدينة المنورة ، وتحدثت مع محمد النجومى وطلبت إليه إرسال شخص للقاء دخيل على الطريق : لنعرف منه مسبقًا ما إذا كانت لديه أخبار عن حياتى (وهذه لايمكن أن يخفيها دخيل عنا) ، وبالتالى يمكن لذلك الرسول إبلاغنا إياها ، وبالتالى أتمكن أنا من الفرار وألوذ بالحُرة . «رد العم محمد ، يخيب أمل عبدالله السروا إذا ما تقرر شيئًا فيه مساس بحياتك ! وأنا أقسم بالله، لو جاء دخيل بكلمة أو أخبار سيئة تهدد حياتك ، فأنا لدى شخص على أتم

الأستعداد ، ويرتبط بى ارتباطًا وثيقًا ، وهو من البدو ، وعن طريق هذا الشخص سوف أبعدك عن هذا المكان حفاظًا على أمنك وسلامتك . " كان ذلك الشخص شقيق زوجة محمد النجومى ، شخص شقى بالفطرة ، وليس لديه أى نوع من الضمير ، لص عتيد من لصوص الإبل وقاتل من أولئك الذين يزهقون أرواح الناس . كان والد ذلك الشخص شيخًا من شيوخ البشر المحترمين ؛ ولكن شاءت الأقدار أن تضيع منهم ماشيتهم فى نهاية المطاف . كان ذلك الشقى هو الشريك البدوى فى الحلحال Halhal ، ولكن ذلك لم يكن يعود عليه بأية فائدة ، ثم تحول إلى جاطونى gatuny فى خيبر ؛ إذ راح يسعى إلى مساعدة نفسه عن طريق تربية الماشية فى المناطق المعادية المجاورة – فى العام الماضى ، أبصر ذلك الشقى ، غريبًا مسكينًا فى سوق الصيف ومعه قطعة من قماش البفتة لا يزيد طولها على عدة شليلات (تكفى لعمل قميص احد) ؛ أبصر قطعة القماش تلك فى يد الرجل ، وسال لعابه لها وتمنى بشدة الحصول عليها لنفسه . وتتبع ذلك الشقى ذلك الغريب المسكين أثناء سيره فى الحرّة ، وهجم عليه فى الطريق وقتله ، وعاد ومعه قطعة القماش ، ثم عاد إلى القرية وهو يضحك : – لم يعمل ذلك الشقى حسابًا لدم ذلك الغريب! كان ذلك الشقى المتوحش يجلس مكشرًا عن أنيابه بينما كان العم محمد يروى لى هذه الحكاية ؛ ولكن ربة المنزل قالت وهى تتنهد ، " وا أسفاه ! شقيقى كافر ، وهو مخبول إلى حد أنه لا يخاف الله ." رد النجومى " ومع ذلك ساعد هذا الملعون على إخراجنا من الدمار الذى حدث لنا فى العام الماضى (أثناء القحط الئى حدث فى خيبر) ؛ فقد كان يسرق الأغنام والإبل ، وقد أكلنا منها مرات عدة : – هل يجب أن نترك الدسم كله لأعدائنا ، ونحن نموت أصلاً من الجوع ؟ قل لنا يا شيخ خليل : هل كان ذلك حلالا لنا أم حرامًا علينا ؟"

خطر ببالى ، أنى إذا ماتعين علىَّ خلال الأيام القادمة ، أن أصبح هاربًا فى الحرة الشاسعة وبلا مأوى من الشمس ، ودون علم مسبق لى بالعلامات الأرضية ، وفى وجود ماء لا يكفينى ثلاثة أيام ، وجسم هزيل ، فماذا سيكون أملى فى البقاء على قيد الحياة ؟ – وصل دخيل ، بعد ذلك بيوم واحد ، قادما من المدينة المنورة ، وعندئذ (فإن ذلك كنت أخافه وأخشاه) كان العم محمد فى الخلاء لصيد الغزلان ، من الحرة ؛

يضاف إلى ذلك أنه لم يسبق له أن حذرنى أثناء الليل ، – وخلّف ضيفه وراءه (العرب يفتقرون إلى الفهم فى بعض الأحيان) ، فى وقت الخطر وبلا أى شكل من أشكال الدفاع . فى حالة غياب محمد النجومى ، لا أستطيع فى ساعات الخطر الداهم الهرب من تلك الأيدى الوحشية غير المتحضرة ؛ ولكن بعد تعرفى على المتقدمين من هؤلاء الناس ، كان لابد من وقوعى فى تلك السبخة وقوعًا لا علاج له . كان أحمد النجومى أيضًا شديد التدين ، إلى حد أنه لم يكن على استعداد للعب دور الكافر ضد أى أمر أو تشريع يأتى من المدينة المنورة : ومع أنى كان بوسعى الجلوس فى الغرفة ، فقد خطر ببالى أنه لن يرفض إفشاء الأمر لمراسلى عبد الله السروان : جلست عندئذ فى صُفة محمد النجومى ، لأكون قريبًا من الباب ، إلى أن تحن علىَّ السماء بعودة ذلك الرجل الطيب إلى منزله – ولكن وصلت إلى هذه الصفة جماعة من بدو الحطيم ، قادمين من الحرة ، وهم من زبائن محمد النجومى ؛ وقد أحضروا معهم أجبانهم وسمنهم إلى منزل محمد النجومى ، كى يقوم ببيع تلك البضاعة نيابة عنهم . وجاء بصحبة هؤلاء الحطيم المشترون من أهل القرية السوداء ، وبقى باب محمد النجومى مفتوحًا . كنت طوال الوقت أنتظر فى كل لحظة آخر أوامر الاستدعاء الصادرة عن عبد الله ، واستمر ذلك الحال إلى منتصف الليل ؛ وعندما عاد العم محمد من الحّرة ، التى شاهد منها أولئك البدو الرحل ، ضرب بضاعتهم بالمشعاب وصاح قائلاً : " من يشترى هذا وبكم ؟ " ثم حدد بعد ذلك سعرا عادلاً : وتناول قلمًا من البوص وقطعة من الورق وراح يدون الأسعار الخاصة بمكاييل التمر التى سيجرى تسليمها بعد ذلك (أى بعد حوالى ستة أشهر) خلال موسم الحصاد . وبعد ساعة من الزمن لم يعد أمام العم محمد ما يشغله ؛ وبعد أن أغلق بابه ، قال : إنه ذاهب إلى عبد الله السروان لاستطلاع الخبر .

عاد العم محمد ليقول لى : إن الباشا كتب ما يلى ، نحن مشغولين حاليًا بمسألة الحج ؛ وبعد رحيل الحج سوف نفحص الكتب ونعيدها مرة ثانية : وفى الوقت نفسه يتعين عليكم معاملة الإنجليزى معاملة كريمة وتكرموا وفادته . " فى العصر استدعونى إلى منزل عبد الله السروان : رافقنى العم محمد إلى هناك ، وكان يحمل معه سيفه ، الذى يعد حجة قوية فى تلك الأرض الشجاعة ، لإقناع الناس بالاعتدال فى هذه البلدان

التى لاتعرف القانون . أعاد عبدالله السروان تلاوة ذلك الجزء الخاص بأوامر الحاكم فيما يتعلق بالكتب ؛ ولكنه لم يقل شيئًا عن بقية الرسالة، – عثرت بعد ذلك على دخيل فى الشارع؛ وقال لى : إن الباشا استدعاه شخصيًا وسألنى عن ذلك الذى أبتغيه من وراء التجوال فى البلاد، وما إذا كان النصرانى يتحدث اللغة العربية ؟ ، (إنه يتكلم العربية بطلاقة) . وقد اكتشف دخيل ميل الباشا نحوى وانحيازه إلىَّ ، وسمع دخيل من الباشا أيضًا ، أن محمد سعيد باشا ، عندما سئل من حاكم المدينة المنورة ، أثناء موسم الحج ، عن خليل : أجاب أنه «سبق له أن التقانى فى دمشق ، كما قال أيضًا: إننى كنت مع قافلة الحج فى العام السابق إلى أن وصلت مدائن صالح ؛ وتعجب من احتجازى فى خيبر ، على الرغم من معرفة الجميع أنى رجل إنجليزى ، ولم أقترف أى ذنب تجاه الدولة (الإمبراطورية العثمانية) ، سوى أنى كنت دومًا أخاطر بالتجوال فى تلك البلدان بين أولئك البدو المترحلين (الخطيرين) .

انقضت البقية الباقية من أسابيع الشتاء، وهلت علينا حرارة فصل الربيع، الذى جددت الأشياء فيه نفسها : أوشك أن يدخل علينا شهر الحميم hamim ، وفى هذا الشهر (على حد قول النجومى) فإن حياتى الضعيفة الهزيلة التى يشبهها النجومى بفتيل مصباح يحتضر ، قد تنتهى فى خيبر . وها أنذا قد تحملت شهرين من الأسر والاحتجاز على يدى عبدالله السروان ؛ وها هو الهلال الثالث بدأ يظهر فى السماء، وكنت آمل وأتطلع إلى أن تخلصنى السماء من خيبر فى نهاية المطاف . وهذا هو قمح الربيع كبر واصفرت سنابله ، وإن هى إلا عشرين يومًا – إذا ما أبعد الله عنهم الجراد– يقومون بعدها بحصاد القمح .

كنت أتمنى لهم المزيد من الماء فى خيبر عندما أغادرها . كانت هناك مساحة يقدر عرضها بعشرين خطوة من الصفصافة القوية ، تشكل عقدة من الاندفاعات الطويلة ؛ فى تلك المنطقة كنت أتطلع إلى العثور على نافورة أو عين ماء جديد. استمع ملاك الأراضى المجاورة لخيبر إلى ذلك الذى كنت أقوله عن الماء ، نظرًا لأن الماء هو أم القمح والتمر أيضًا ، فى الواحات ؛ وردَّ شقيق الشيخ على ما قلته بأنه سوف يحضر العيال فى الغد للحفر فى الأرض– ومع ضرب المعول الأول عثرنا على التربة المبتلة ،

وعثرنا أيضًا على صخر البازلت الذى ينزل الماء من خلاله : ثم تركوا عملهم، وقالوا إننا يجب ألا نتعجل ، لأننا بدأنا العمل يوم الأحد. تذكروا أيضًا كلامى، الذى مفاده أننا إذا ما عثرنا على عين من عيون الماء، فسوف يعطونى بقرة حلوبًا . وفى صباح اليوم التالى تجمع عدد كبير من الشباب استعدادًا للعمل . ويبدو أنهم تراجعوا فى مسألة البقرة هذه، وبالتالى رأوا تأجيل العمل إلى ما بعد رحيل النصرانى ، لأنهم لم يضربوا سوى ضربة أو ضربتين فى أراضى المكسرة ؛ ثم انصرفوا بعد ذلك ، ومعهم العتلات crowbars ليجروا الحفر من جديد حول منطقة رأس البئر القديمة ، أملاً فى توسيعها . دخل سن العتلة الحديدية فى فتحات الصخر؛ وراح الكثيرون من هؤلاء الشباب يضغطون على العتلات ، وأفلحوا فى رفع بعض قطع صخور البازلت . الباقون من الشباب كانوا يتابعون الناس وهم يلتقطون أنفاسهم أملاً فى أن يقدموا لهم يد العون . كان النجومى يقف بين هؤلاء الشباب واستطاع تحريك قطعة ضخمة من البازلت . وعندما دخل وقت الظهر توقف الشباب عن العمل . استمر العمل ثلاثة أيام كانوا يعملون خلالها منذ الصباح إلى حين دخول وقت الظهر ؛ وفى اليوم الثانى ذبحوا عنزة ، ونثروا دمها على الصخرة . لم يسبق لى رؤية العرب وهم يعملون على هذه الشاكلة. والعرب لديهم عقول مليئة بالكلام الحكيم ؛ أجسام الزنوج بداخلها قلوب قوية، وقد رفعوا بدورهم صخرة كبيرة أيضًا ، وبحلول اليوم الثالث كانوا قد انتزعوا الكثير من الأحجار الضخمة . وتحولت رأس البئر القديمة إلى ما يشبه الحمام ، بل وصل الأمر بهم إلى أن يطلقوا على رأس البئر اسم الحمّام el-hmmam . وكنا قد نجحنا فى كسر وريد جانبى ترتب عليه زيادة سرعة انسياب الماء بمعدل النصف،- وتلك ميزة أبدية للزراع فى ذلك الوادى.

مياه عيون خيبر تفوح منها رائحة الكبريت وفيها شىء من السلاسة والنعومة فيما عدا ماء عين Ayn الريح er- reyih، عديم الطعم، والضفادع الصفراء تسكن فى تلك العيون وذلك إلى جانب بعض الأسماك الفضية الصغيرة . وأعشاب الفطر الأخضر تنتشر فى غدران المياه الدافئة ، التى توجد فيها قواقع صغيرة سوداء اللون، مثل تلك القواقع الموجودة فى وادى تربة Thirba وفى قرية العلا [وبالميرا]. تناولت بعض

الديدان وأريتها للعم محمد : تمعن العم محمد فى تلك الأصداف وقال : "هذا من الأعمال الإلهية الرائعة ؛ إنها صنعة كاملة ! وأنت على حق عندما تقول : إن "الخيابرة يكبتون مثل هذه الهوام الصغيرة!"

كنت قد تغلبت إلى حد ما على سوء حظى فى خيبر ؛ وأصبح بوسعى الآن تمضية الساعات فى الشمس بلا خوف ،وأنا جالس بجانب عين الريح ، ذلك المكان الجميل الذى يقع خارج منطقة النخيل ، والذى لا ترى العين فيه سوى الراحة التى تنجم عن اسوداد خيبر أمامى . آه ، من ذلك الارتواء الروحى الناجم عن ذلك الماء العذب الخفيف ، الى ينبثق ناعماً ودافئًا [٨٦ فهرنهيت] من الصخر ! كما كنت أستمع أيضاً إلى انسجام الطبيعة المحفوف بالغموض ، الذى الذى لا يحسه الدنيويون من الناس ، فى ذلك السكون السعيد والوحدة السعيدة أيضًا . وهذا هو الذباب كبير الحجم ، وكذلك بعض الهوام تهل على خزان الماء ، بفعل حرارة الصباح القادمة من الفجّارة ، والتى كانت محبوسة فى الصخور البركانية . وهذا هو السمك الفضى يسبح فى الماء ، كما أرى أيضًا أصدافًا بيضاء فى قاع ذلك العالم المائى . شاهدت هناك أيضًا الضّب الصغير بحراشيفه التى تلمع مثل الزجاج : شاهدته وهو جالس يتشمس ، فوق صخرة، عند حافه البئر ؛ وفى أحيان كثيرة كان ذلك الضب يتحرك ويطلق لسانه ليمسك بفريسة من الذباب لا تفلت منه مطلقًا . – كنت سعيدًا تماماً عندما ملأت جمّار قربتى من ذلك الماء العذب . حقوق الرى الخاصة بكل قطعة من الأرض الزراعية مسجلة فى سجل شيخ القرية ؛ – وأيام الأسبوع بساعاتها مقسمة ومحددة بحيث يتيح لكل مشترك حق الانتفاع العام . والساعات ليست معروفة بين هؤلاء القرويين الأجلاف ، – بالإضافة إلى أنهم لا يحتفظون فى بيوتهم بشىء من المصنوعات المدنية . وهم يستعملون ذكاءهم فى تقسيم النهار ، وذلك عن طريق ظل عصى صغيرة يغرسونها على حافة قناة الرى ، – وتلك هى المزولة التى تقرأ عنها عند سيدنا أيوب الصدِّيق : خادم يرغب بشدة فى الظل ... أيامنا ظل على الأرض. ، وهم يحسبون الوقت أثناء الليل بطريقة غير دقيقة . وقد يغلقون أبواب القرية ؛ قبل عودة الفلاحين من رى أراضيهم ، ولكن هؤلاء الفلاحين يدخلون القرية من بيت من البيوت المجاورة لتلك

البوابات . يقول العم محمد : إن المزارعين فى المدينة المنورة يستعملون كأسا من المعدن ، مثقوب فيه ثقب صغير جداً ، – بحيث يظل طافياً على سطح الماء ولا يغوص فيها إلا بعد أن تمتلىء بالماء ، وعندها تكون قد انقضت ساعة من الزمن .

كان بين الخيابرة شخص يقولون له أبو Abu مدِّين Middeyn (بمعنى أو مكيالين)، وكان الرجل من أولئك الذين يتجولون فى أنحاء الدنيا . ونظر لقلة موارد القروى الزنجى ، ونظراً لقلة فهمه ، فقد راح أبو مدِّين هذا يلعب دور الدرويش سيرا على قدميه ، ووصل إلى بلدان بعيدة . وها هو قد عاد مؤخراً من بلاد فارس ! سألته عن مدة اغترابه خارج المدينة المنورة ؟ – الإجابة : " تركت زوجتى التى كنت قد تزوجتها حديثًا وهى حامل ، وكان أول من التقيته عند عودتى هو ولدى ؛ كان عمره يمكنه من السعى على نفسه ، – وأقسم بالله أنى لم أعرفه ! " هذا الدرويش الوقور المحترم كان يدخن القنَّب (شأنه فى ذلك شأن الدراويش المترحلين) فى قرية الزنوج ؛ كان ذلك الرجل يأكل القمح كما لو كان رأساً من الماشية ، إلى حد أن أهل خيبر كانوا يطلقون عليه كنية أبو منقارين . – وفى أحد الأيام ، وفى مقهى من مقاهى الأصدقاء بدأ أبو منقارين يسأل النصرانى ، على أمل أن يتظاهر ويتباهى أمام الجميع ، أو يفند أسفارى فى أضعف الأحوال : ولكن أحداً من الحاضرين لم ينتبه أو يلقى بالا لأقوال أو كلام أبو مدِّين هذا .

فى عصر أحد الأيام وعندما ذهبت لتقديم نفسى لطاغية القرية ، شاهدت ست من الإبل كانت نياقًا ! وكانت باركة أمام باب دار عبد الله السروان ! كانت تلك النياق تمد أعناقها الطويلة على الأرض ، وكانت أصلاب تلك النياق بلا أسنام . هذا لا يمكن أن يحدث إلا من جنود المدينة المنورة الذين لم يتقاضوا رواتبهم ؛ وهنا انسحبت عائداً إلى محمد النجومى . – بعض أفراد العجيل كانوا قد أوفدوا من قبل الباشا ؛ وقطع الرجال مسافة السبعين ميلا فى خمسة أيام ! – كان ذلك هو حال العجيل الذين كانت غزواتهم – على حد تفاخر أحدهم أمامى – تجعل الدنيا ترتجف خوفًا ! " هؤلاء العجيل يسئ إليهم رجال القبائل فى كثير من الأحيان . سمعنا أن هؤلاء العجيل فى إحدى الغزوات التى شنوها من المدينة المنورة ، قد "قتلوا أربعين رجلاً ، وجرى الاستيلاء على

أمتعتهم . وراحت البقية الباقية تولى الأدبار حفاظًا على حياتها . – عدت لاستطلاع أخبارا أولئك العجيل ، والتقيت عبدالله السروان فى الشارع فقال لى: «أخبار طيبة يا خليل، وقد أعيدت الكتب إليك مرة ثانية ، وقد كتب لنا الباشا ، «أرسلوه لابن الرشيد».

استدعانى عبدالله فى الصباح ؛ كان يتناول القهوة فى منزل جارنا حمدان – «هذه الرسالة لك (ثم ناولنى قطعة من الورق) وقد جاءت من يد الباشا شخصيًا ». وفتحت الورقة التى كانت مطوية بالطريقة الإنجليزية ، فوجدتها خطابًا من باشا المدينة المنورة! مكتوبًا [كتابة غير دقيقة] باللغة الفرنسية ، على النحو التالى ، وفى أعلى الرسالة «يوجد التاريخ المسيحى ، والرسالة موقعة باسم «صبرى» باشا المدينة المنورة شخصيًا.

الحادى عشر من شهر يناير العام ١٨٧٨

[المدينة المنورة] (*)

علمنا بوصولكم إلى خيبر من خلال إخطار السلطة المحلية ، ومن ثم يتوجب إحضار خطابات التوجيه والأوراق الأخرى على نفقتكم .

ويقدر الإمكان لدى دراسة كتب الحساب والأوراق المتفرقة وما وصل من الخرائط مؤخرًا أيقنت بأهمية فكرتك فى الرحيل، وتصحيح الخريطة ، والتعرف على الظروف ، واكتشاف الآثار القديمة الرئيسية للعروبة بهدف نشرها على العالم ، فأنا جد راض عن دراستك المفيدة لكل الدنيا فضلاً عن أن هذا الجانب طيب بالنسبة لك أيضًا وإذ تيقن الآن أن من بين الناس الذين قابلتهم من البدو هناك من يفوق كثيرًا من الشخصيات جرأة فأنا مضطر لتحذيرك لدى عودتك من الشيخ بن الرشيد لأنه خطير .

وإذ أرفق لك الخطابات التى كانت لدى والتوجيه الموجه إلى الشيخ من جانبى أتمنى أن يوصلك طريقك إلى هدفك *

صبرى

«قلت لعبد الله : زين تلك النقود التى هى ملك لى، أين الليرات الست !» اندهش حاكم القرية التركى الأسود، وتغير لون وجهه ، وبدت عليه الحيرة، ثم قال : «سننظر

(*) الرسالة المعلمة بنجمة فى البداية وأخرى فى النهاية، وردت باللغة الفرنسية من حاكم المدينة المنورة التركى . وترجمها إلى العربية الأستاذ الدكتور فاروق عزب (المترجم).

فى هذا الموضوع". كان أفراد العجيل الستة قد جاءوا من المدينة المنورة بأمر من الباشا ، لإعادة كتبى ، وكانوا يعاملونى باحترام وتقدير ، وجاءوا ومعهم أيضًا أخبار مفادها أن الباشا سوف يرسل ستة وعشرين أخرين من العجيل إلى حائل بخصوص هذا الموضوع . كان رئيس هؤلاء الستة من العجيل ، وهّابى من شرقى نجد ، وكان رجلاً متمرسًا فى الأسفار ،وغير متشدد ؛ عرض علىَّ مرافقتى إلى أى مكان أشاء ، وقال لى : إنه يعرف كل الطرق التى فى هذا الجزء من البلاد ، إضافة أيضًا إلى جنوب الجزيرة العربية .

وفى اليوم التالى وعندما لم يعيدوا إلى أى شىء من أشيائى . عثرت على عبد الله السروان يشرب القهوة فى منزل الشيخ صالح . "قلت : لماذا لم تعد إلىّ أشيائى؟" – "سأعيدها إليك عند رحيلك" . "هل لديك ما يجعلك تؤخرنى أو تحتجزنى؟" لا تتزود فى الكلام (قالها ذلك الوغد الذى كان قد صرف نقودى) – عجيب أن يتكلم معى نصرانى بهذه الطريقة! – وإلا سوف ألطمك على وجهك" – "لو ضربتنى فسوف يكون ذلك خطر عليك . أيها الضيوف ، كيف لملازم ومعه عشرة من الجنود يحكمون قرية كاملة ، وهو أصلاً لا يستطيع حكم نفسه ؟ هذا الشخص لا يحترم كلام باشا المدينة المنورة ، ولا يخاف من السلطان ، بل إنه لا يخاف الله (سبحانه وتعالى) نفسه . يا صالح ، يا شيخ خيبر ، هل تسمع تهديد هذا الجبان لضيف فى بيتك بالضرب والإهانة؛ وأنتم هل تتحملون ذلك أيها الضيوف ؟" – وقف عبد الله السروان ولطمنى لطمة شديدة على وجهى – "قلت لهم : صالح ، وأنتم أيها الجالسين هنا ، هل أنتم رجال أحرار؟ أنا رجل وحيد وغريب ، وضعيف عانيت طويلاً وظُلمت كثيراً – لقد شاهدتم جميعًا كل ما جرى ! على يدى هذا العبد ، وربما أدى ذلك إلى ابيضاض لحيتى : ولو قدر لى أن أشتكيه فى فترة لاحقة ، فقد يؤدى ذلك إلى طرده من منصبه هذا " . وهنا قام عوض Auwad القاضى ، الذى كان صديقًا لى ، ويجلس إلى جوارى، قام بتلطيف الجو ، عن طريق كلام مفعم بالمصالحة . "قال : عبد الله يلام على ما فعل : وخليل يلازم أيضًا . هذه الخلافات تنطوى على كثير من الأخطار ؛ وأنتما تتطاولاً بالكلام فيما بينكما. "عبد الله ": الآن ، هل آمر بادخالك السجن؟" – "أقول لك : أنى

لست تحت إمرتك ولا أخضع لقوانينك "؛ ثم نهضت واقفًا لأغادر المكان . شد عباءتى (بشتى) بقوة وهو يصيح قائلاً : "اجلس ، وهذا العسكرى – ثم نظر من النافذة واستدعى واحداً من رجاله من الشارع – سوف يقتادك إلى السجن . "نزلت معه ، ومررنا من أمام مدخل بيت العم محمد ، ودخلت البيت ، وتركنى الجندى .

كان الباب مغلقًا ولكن ربة البيت البدوية ، وعندما سمعت صوتى نزلت تفتح الباب: وبعد أن تكلمت عما حدث ، تركتنى جالسًا فى المنزل ، وأخذت معها المفتاح ، وهرولت تلك الزوجة الطيبة لتخبر زوجها الذى كان فى غيط النخيل . وعاد محمد النجومى على الفور ، وخرجنا سويًا إلى منطقة المزارع : ولكن عندما التقينا فى الشارع رئيس العجيل الذين جاءوا من المدينة المنورة ، قلت له : "طالما أنى لا أشعر هنا بالأمن والسلامة فأنا أفضل أن أركب بصحبتهم إلى بوابة المدينة . لم يكن ذلك شيئًا جديداً عليهم أن يروا إنجليزيًا فى هذا المكان ؛ ألم يكن هناك خزان للماء خارج البوابة الشمالية ويطلقون عليه اسم بركة Birket الإنجليزى el-engleysy ؟

سألنى محمدٌ ما الذى كتبه الباشا ؟ كان يود منى أن أقرأ عليه الرسالة بلغة النصارى : "ووقف محمد ينصت إلىَّ باعجاب كبير. بُتا pitta بتا pitta بتا pitta ! أهذه هى لغة النصارى؟" ضحك محمد ؛ وكانت تلك مصدراً لمرحه فى جلسات القهوة التى تلت ذلك . ولكنى اكتشفت أن الرجل الطيب كان ضعيفًا ضعف الماء فى نهاية كل هذه الأحداث السيئة : لم أكن أعرف أن هذا الرجل لديه هذا التفاهم السرى مع عبد الله السروان ، ووجدته على العكس من كلامه السابق غير راغب فى تسليم أشيائى قبل رحيلى ! بقى أفراد العجيل عدة أيام أُخر، وبدأ عبد الله السروان يضيق ذرعًا بوجودهم . أعطيت الوهابى ، رئيس العجيل ، رسالة إلى الباشا ؛ قام بتسليمها إلى الباشا فور عودتهم إلى المدينة .

خيبر من منظور المزاج الساخر لهؤلاء القرويين السود عبارة عن جزيرة Jezirat : هذا يعنى أن المجىء إلى خيبر أمر صعب ، بالإضافة أيضًا إلى صعوبة الرحيل عنها . الحُرة الشاسعة التى تُطّوق خيبر لا يظهر فيها أحد من العرب قبل دخول فصل

الربيع : وخيبر لا تقع على طريق عام ، والبدو لا يعودون إلى وديانهم وقراهم إلا فى موسم حصاد التمر . وفى سائر أنحاء المنطقة البركانية المحيطة بخيبر لم يكن فيها ، فى ذلك الوقت ، سوى بضع خيام قليلة تعد على أصابع اليد الواحدة ، ويعيش فيها بعض من الحطيم وأقرب تلك الخيام كانت على بعد مسير رحلة كاملة – ولكن أحدًا من هؤلاء البدو والمغلوبين على أمرهم لم يكن على استعداد ، تحت أى ظرف من الظروف لتوصيل النصرانى أو نقله مرة ثانية إلى حائل – فقد كانوا جميعًا مستائين من ابن الرشيد . هنا خطرت ببالى فكرة الذهاب إلى قرية الحيات (فوق الحُرة) ، والتى تقع على طريق أولئك الذين ينتقلون بين بلاد بن الرشيد والمدينة المنورة : وبالتالى قد أوفق فى العثور على من ينقلنى إلى الجبل .

لامنى النجومى على كلامى الواضح الصريح قال : إننى ليس عندى ذكاء الرحَّالة. "إذا قلت بين المسلمين أنك مسلم ، فهل سيقتلك شعبك عندما تعود إلى وطنك؟ – هل أنت خائف من ذلك ، يا خليل ؟" وتأسيسًا على ذلك قال محمد النجومى : فى جلسات القهوة التى تلت ذلك ، "لقد عثرت على رجل لا يود أن يكون صديقًا لنفسه ! وأنا لم استطع إقناع الشيخ خليل بأى حال من الأحوال : ولكن لو أن المسلمين جميعًا لديهم مثل هذه العقيدة الراسخة فى الدين ، لما استطاعت الدنيا كلها مقاومتنا على الإطلاق . بائع شاب من معارفى لم يفعل هذا الشىء – والبعض منكم ربما يعرفونه وهو من أهل المدينة المنورة – عندما كان مؤخرًا فى مدينة المشهد el - Meshed الشهيرة بأن كل سكانها من الشيعة . دخل عليه الليل ، وهو واقف فى الشارع ، ورأى بعض المارة ذلك الغريب أثناء وقوفه فى الشارع ، وبدءوا يسألونه بلهجة [الشمال الغربية] "شو Shu بتكون bitekun أنت ent " بمعنى "من أنت؟" [هذا السؤال باللسان العربى" أنت ent مين min ؟ يا ya فلان Fulan] هل أنت سنّى أم شيعى ؟ ورد عليهم الملعون قائلاً : "أنا شيعى ، يا سادة " . قالوا : إذن مرحبًا ، أيها الأخ العزيز!" – وقام أفضلهم باصحطابه إلى منزله ، ليتناول معه طعام العشاء ويقيم معه . وفى الغد، أعاره رجل طيب آخر زوجة من زوجاته ، وطلب منها خدمة أخيهم الغريب طوال فترة إقامته بينهم؛ – وكانت تلك الفترة حوالى ثلاثة أشهر : وبعد تلك الفترة استأذن منهم ذلك الشاب ،

وعاد وهو يبتسم إلى المدينة المنورة " ومازال يعيش فيها مسلمًا خالصًا مثلما كان من قبل! وأنا أقسم بالله أنى لعبت هذا الدور الشيعى بنفسى عندما كنت شابًا!- ولعلكم شاهدتم هؤلاء الشيعة وهم يتدافعون على الحرمين . فى أحد الأعوام ، أعطت مجموعة من الشيعة أو إن شئت فقل : الحجاج الفارسيين ، والدى مبلغًا من المال نظير إقامتهم (وحدهم) فى بيارة النخيل. وعندما ذهبت إلى خيام هؤلاء الحجاج الفرس قالوا لى: "يا حاج محمد ، هل أنت شيعى أم سنى؟" وأجبتهم ، إخ! أنا شيعى يا سادة :" - "آه! لا تؤاخذنا فى السؤال ، أيها الأخ العزيز محمد؛ وتناول الغداء معنا اليوم :" وعليه راحوا يعزمون الحاج محمد على كل وجبة من الوجبات التى يتناولونها" وعندما كانوا يشربون الشاى حلو المذاق كنت أشرب معهم. وفى عصر أحد الأيام مر عليهم بدوى وبصق ، بينما كنا نتناول طعام العشاء! - وأقسم بالله ، أن الشيعة كلهم نهضوا واقفين من حول الطبق ، وصاحوا ، "أبعدوا ذلك الطبق بعيداً عنا! أوه! أبعد الطبق ، يا حاج محمد ؛ لقد تلف الطبق نتيجة تقل هذا البدوى الهمجى." - (أضاف قائلاً) : من الذى يتصور أن يكون خليل مصدراً للشر؟ لأننا عندما نخرج سويًا ، تراه يترك عباءته (بشته) فى أحد المنازل ، أو يترك مشعابه فى بيت آخر ، أو يترك عقاله فى بيت ثالث! وهو ينسى أيضًا غليونه ، وحذيانه ، فى منازل أخرى. آه من نسيان ذلك الرجل! قد يخطر بالبال أنه مصاب بفقدان الذاكرة بالنسبة للأشياء المحيطة به! - أهذا هو الجاسوس، أهذا هو الساحر؟ ولكنى جد آسف لأن خليلاً سوف يرحل عنا قريبًا جداً ، لأنه شيخ فيما يتعلق بالمسائل الدينية ، يضاف إلى ذلك أن خليلاً يعد أيضًا رجلاً طيبًا ومسالمًا" .

كانت أسرة النجومى تعاملنى بكثير من الود والعطف : فقد ساعدت أدويتى (بل أنهم يعتقدون أنها هى التى أنقذت) ابنتهما؛ كنت عندهم مثل ولد من أبناء الأسرة ؛ "والله wullah إنك in-nak مثل mithil ولدنا weledna يا Ya "خليل Khalil" على حد قول الاثنين. كان محمد يحثنى على الإقامة معه فى خيبر ، "التى وجدت فيها ، لأول مرة، بعد الأسفار الطويلة أصدقاء طيبين ، إننى لن يضايقنى أحد بسبب دينى فى خيبر ؛ وإننى يمكن أن أكون بائعًا فى سوق الصيف ، من باعة محمد النجومى ، وأقف على

طاولة من طاولات بيع العباءات (البشوت) والغتر ، وبيع قماش البفتة بالذراع لقاء نقود البدو الفقراء. وسوف يشترى لى عبدة حبشية واسعة العينين لتكون لى زوجة ". – وليس هناك نساء أجمل منهن فى شبه الجزيرة العربية؛ وهن يبدين جميلات فى ثيابهن البسيطة ، وغالبيتهن يتمتعن بطابع طيب ومزاج معتدل ؛ ذلك على الرغم مما يقال عن الأماكن التى يتواجد فيها الأحباش فى هذه البلاد ، وهذا الدم الوثنى فيه شىء من التواضع البين – كان ذلك هو محمد النجومى ، الرجل الطيب ، هذا الرجل الذى كان جديراً بأن يولد فى بلد أسعد حالاً من هذه البلاد .

كان الناس هنا ينتظرون أن يشن الآخر عليهم المزيد من العمليات الحربية : فى الوقت ذاته كان ابن الرشيد يتباحث سرًا فى المدينة ، لاستعادة خيبر . هذا هو أبو Abu بكار Bakkar ، تلك الشخصية الرئيسة ، التى تتولى قيادة العجيل فى المدينة المنورة ، وصل مؤخراً إلى حائل للتشاور مع الأمير ؛ وعاد ومعه خُرج ملئ فى جزء منه بالريالات ، جزية الأمير (المنافقة) للسلطان ، وفى القسم الثانى من الخرج نفسه – هدية أو عطية من ذلك الأمير الداهية لأبى بكار نفسه جزاء له على صداقته التى دامت ثلاثة أيام – كان أبو بكار هذا بمثابة باب Bab الأعراب el - Aarab بمعنى بوابة شئون البدو الرحل"، فى المدينة المنورة ؛ كان أبو بكار يتولى منصب الرجل الثانى ، إلى أن خلف والده فى هذا المنصب الكبير ، الذى يتولى بمقتضاه قيادة العجيل فى المدينة المنورة : كانت والدة أبو بكار بدوية . أبو بكار هذا ، كان ذلك الشخص الذى يتولى القيادة فى الفترة ما بين رحيل الباشا الحاكم وعودة الباشا الجديد إلى المدينة المنورة. يضاف إلى ذلك أن أبا بكار كان قائداً للحملات التى كان العجيل يشنونها على الأعراب؛ وكان هو بنفسه الذى يتولى قيادة قوات العجيل فى ميدان القتال . هذا المواطن الشجاع غير مكتمل البداوة سبق له اتخاذ زوجة لنفسه من بين كل قبيلة من القبائل المحيطة حوالى عشرين أو أكثر من ذلك : وبهذا التصرف استطاع أن يجعل الأعراب المجاورين له حلفاء وانسباء له .

كان أبو بكار يحضر إلى خيبر كل عام ومعه جنوده : وكان هو الذى يصدر الأمر بالتاريخ المحدد لبدء موسم حصاد التمر بواسطة كل من القرويين والبدو على حد سواء – وكان أبو بكار يصيح فى تلك المناسبة قائلاً : أفلح! eflah كان أبو بكار يرتبط مع محمد النجومى بعلاقة ودية ؛ وكان محمد النجومى ، ذلك الرجل الطيب ، يستفي دمن هذه الصلة الودية ، فى خدمة قضايا المقهورين . نظراً لأن ذراع العم محمد كانت بمثابة عكاز يتكىء عليه الضعفاء بالإضافة إلى أنه كان أبًا للفقراء والمساكين فى قرية الزنوج : وكان الجدعى والمجتاجون يفدون إلى مائدة طعامه كل يوم . وبعد رحيلى عن خيبر سوف يسافر العم محمد النجومى إلى المدينة المنورة ليداقع عن قضية دخيل الله، وقد يأخذ معه فى رحلته هذه شيئًا من المال – "الذى يتعين إعطاؤه للقضاة"! وعندما أجبته "أية عدالة هذه مع مثل هذه التصرفات؟" رد علّى وهو يشعر بالأسف والندم، "الإسلام el - Islam كله Kulluhu عيب ayb بمعنى كل ذلك عيب فى الإسلام .

سألنى محمد النجومى ، "مالذى يذكر للإنجليز؟" أجبته ، "إنهم حكام أجواد". ها! وما الذى يحكمونه طالما أنهم ليسوا متمردين (إنما أصدقاء) للسلطان؟" – فى هذا الجزء من العالم ، هم يحكمون الهند ؛ والهند إمبراطورية أكبر من دولة السلطان كلها، وهى البلد الرئيسى بين بلاد المسلمين." ـ "إخ! أذكر أنى سمعت هندياً يقول ذات مرة ، أثناء موسم الحج : "أدام الله حكومة hakumat الإنجليز ، لأن الإنسان يستطيع التجوال فى أى مكان يشاء فى الهند ، وهو يحمل معه صرة من النقود ؛ ولكن هنا فى هذه الأراضى المقدسة فإن الحجاج يتهددهم خطر اللصوص وقطاع الطرق!" – استصغر العم محمد الهنود ، "قال : إنهم ليسوا شجعانًا ، وأنا لا أقيم للإنجليز وزنًا ، نظراً لأن الإنجليز لا يحكمون عدداً كبيراً من الهنود : وأنا بنفسى ساعدت على تهريب العشرات من الهنود Hinud ، " – وحكى لى محمد النجومى حكاية. " فى جاهلية الشباب : ذات صباح ، فى موسم من مواسم الحج ، وبينما كنت أسير خارج أسوار المدينة المنورة ، قاصداً بستان والدى ، رأيت جماعة من الهنود جالسين أمامى فوق تلة من التلال – كان عددهم ستة عشر شخصاً : وكانت تجلس فى وسطهم امرأة شابة – وكانت تلبس ملابس غالية ! لأنهم كانوا من الأشخاص المهمين . وصحت فيهم ورفعت

رمحى فى اتجاههم ، فبدءوا يقفزون ويجرون ؛ صاح الهنود ، ونهضوا كلهم دفعة واحدة وهربوا إنقاذًا لحياواتهم! – وخلفوا وراءهم المرأة الشابة وحدها ؛ وكان آخر من تخلى عنها رجل صغير السن – وربما كان هو خطيبًا لها وسيتزوجها." مدت هذه السيدة الجميلة يديها له وراحت ترجوه عن طريق الإشارات ، أن يأخذ منها مصاغها فقط : خلعت له خواتمها وأعطتها لذلك اللص (الشبيه بالبدو) ؛ – كان محمد قد خلع بالفعل أساورها الغالية من يديها! ولكن هذا الشاب التائب عندما أبصر جمالها الأنثوى وعندما أبصر البلاء والكرب الذى كانت فيه رق قلبه وتركها [دون أن يلوثها] دون أن يلمسها – والعرب لا يشعرون بالندم عندما يقومون بتلك الأعمال الشائنة ؛ هذا الرجل المحترم ، الذى تاب الله عليه ، لم يشعر بهذا الندم ، وهو فى سنوات التدين – والأمر يبدو لهم كما لو أن خير الدنيا كلها هو خير Kheyr الله ullah ، بغض النظر عن كون ذلك الخير فى أيدى كثير من الناس ؛ وأن ذلك الخير يمكن لأى شخص آخر الحصول عليه (سواء أكان ذلك بالخداع والمكر أو القتال) .

عندما فهم منى العم محمد أن للإنجليز محطة بحرية فى شبه الجزيرة العربية تراخت لحيته فى شىء من الإعجاب والانبهار ! ولو قدر لمثل هذا الكلام أن يقال فى قهوة الجنود فلن يصدقه أحد – إذ أن أحدًا منهم لم يسمع عن عدن Adden (ويصح فيه أيضًا Aden) : "قالوا : ولكن هل الموجودون هناك عسكر السلطان ، وليس عسكر النصارى ؛ وأشمأزوا من حماقتى – "هل تعتقد أن السلطان يمكن أن يحتمل وجود نصرانى فى أرض الأعراب [المقدسة]؟ لم يحدث أن كان الإنجليز فى عدن قبل ذلك على الإطلاق" . ولكن البعض قالوا : "خليل رجل رحّاله ، يقول الحق ، ويندر أن يقع فى الخطأ : لو كان الإنجليز فى عدن ، أليست عدن على هذا الجانب من جانبى البحر ، ولكنها توجد على الجزء (الإفريقى) البعيد". وهنا دخل البيشى (وادى بيشة يقع على بعد ١٢٠ فرسخ بالقرب من محطتنا البحرية فى الجزيرة العربية) وأكد ما يقوله

النصرانى ، وأردف قائلاً : "نعم ، عدن خاضعة لحكومة الإنجليز." وصاحوا جميعًا ، " لابد أن يكون ذلك بإذن من السلطان! نظرًا لأن الإنجليز تستفيد منهم الدولة ، وليسوا من المتمردين عليها" (*) .

بعد مضى اثنى عشر يومًا على الرسالة التى سبق أن كتبتها للباشا جاء الرد لعبد الله السروان ، مع الجماعة العائدة من المدينة ، ويطلب الباشا فيها من عبد الله "أن يكون حريصًا فى تعامله وتصرفاته مع الإنجليزى، وأن يرسلنى على الفور إلى ابن الرشيد؛ وإذا لم يتيسر وجود بعض البدو لمرافقتى فى تلك الرحلة ، فبوسعه الاستعانة بجنود العجيل : وطلب إليه أن يعيد إلىّ ممتلكاتى على وجه السرعة ، وإذا كان أى شىء قد ضاع منها فليكتب له على الفور".ا وهنا بدأ حاكم القرية الأسود يخاف على نفسه ؛ وراح عبد الله السروان يتجول فى القرية لتحصيل ذلك المبلغ الذى سبق أن صرفه أو أنفقه من الليرات الستة التى سبق أن أخذها من أمتعتى : وسمعت ، وأنا فى غاية الألم ، أنه باع بقرة اليتيم (من أجل تكملة المبلغ) .

استدعانى عبد الله السروان فى الليل ليسلم لى حاجياتى . رزمة الكتب والأوراق، التى سبق أن تلقاها قبل أربعة عشر يومًا عندما جاءت من المدينة المنورة ، وكان عليها خاتم الباشا وتوقيعه : وعندما فتحت الطرد ولم أجد فيه المصحف أو كتاب المزامير ؛ أين إذن خُرْج الجمل؟ غمغم عبد الله فى حلقه الأسود تُرى من الذى ارتكبَ هذه السرقة الوضيعة؟" وهنا أرسل عبد الله السروان شخصًا يستدعى دخيل ليشرب القهوة فى منزله . "قال الضابط الكبير : دعنى أرى ذلك الذى تحضره؟ ولو قدر لذلك النصرانى أن يُقطْعَ عنقه ، فأنا أرى أن يتبقى لى شىء ، قبل أن يؤول كل شىء إلى الباشا" – "قال دخيل ، أجبرنى ذلك الضابط الكبير ، ولذلك سمحت له أن يأخذ الكتابين ؛ وعندما رأى خرج الجمل الفارسى. "قال : هذا أيضًا يمكن أن يبقى عندى" – تعجب عبد الله السروان قائلاً : "الله يلعن أباه!" ورد كثير من العسكر (الجنود)

(*) من المعروف أن الإنجليز احتلوا عدن فى عام ١٨٣٩ واتخذوها قاعدة عسكرية لهم ، ولم يكن ذلك الاحتلال بإذن من السلطان العثمانى كما ورد فى السياق. (المراجع) .

قائلين :"الله يلعنه!" سألت ، "هل من فعل ذلك رجل فقير؟" عبد الله : تقول فقير! إنه غنى ، الله يلعنه! إنه العقيد المسئول عنا يا خليل ، فى المدينة المنورة : التى يعيش فيها فى بيت كبير ، ويتسلم راتبًا حكوميًا كبيرًا بالإضافة إلى المكاسب الشخصية [غير الشريفة] التى يحصل عليها من وظيفته" – قال النجومى متعجبًا : "الله يلعنه!" ورد أمان (صاحب أرجح عقل بين هؤلاء الرجال جميعًا) : " يلعنه الله! لقد كسَّر عصبية الدولة!" وناموسها namus عبد الله : "آه! يا خليل ، إنه واحد من الكبار فى المدينة المنورة ، وهو جومانى gomany أيضًا ! (بمعنى عدو لدود) . ماالذى يمكن أن نفعله إزاء ما نحن فيه حاليًا ، هل نرسل ثانية إلى المدينة المنورة ونبلغها بما حدث؟" قال قروى كان وصل قادمًا من المدينة منذ فترة قصيرة : "العقيد ليس موجودًا فى المدينة المنورة فى الوقت الراهن ، وقد بلغنا قبل أن نبدأ رحلة العودة بوقت قصير ، أنه توجه إلى مكة : " وهذا يستدعى تمضية عدة أيام أخر فى خيبر بسبب الخطأ الذى وقع فيه ذلك الوغد التركى! بالإضافة إلى أن صبرى باشا يحتمل نقله من المدينة المنورة!

جلست بالقرب من نار المساء التى شبها النجومى ، وصلَّحت شيئًا من الشاى ، الذى تعلم شربه منى هو وجارته البدوية المترحلة ، ثم سمعنا صوتًا ينادى عند الدرج (السلم) ؛ نزلت ربة البيت السعيد مهرولة لتعود إلينا ومعها شقيقها ، الذى كان غائبًا منذ مدة طويلة فى عملية لنقل الماشية ، مع جاطونى آخر . هذا البائس عاد منهوك القوى ، ومكشرًا عن أنيابه : وبعد تناول الطعام ، راح يحكى لنا مغامرته" – "حدث ذلك فى ديرة جهينة ، عندما وجدوا قطيعًا من الإبل ، وليس معه سوى طفل واحد هو الذى يقوم على أمر رعى ذلك القطيع . راحوا يسوقون ذلك القطيع طوال النهار وهم يجرون وراء الإبل ، واستمرت عملية السياقة هذه إلى ليل اليوم التالى ؛ وإلى ما قبل الفجر بهنيهات قصار ، وعندما كانت المسافة المتبقية للوصول إلى خيبر لا تزيد عن يوم ونصف اليوم ، هنا دخل القطيع عن غير قصد بين الخيام! – كان ذلك المكان عبارة عن منْزل من منازل قبيلة حرب . وهنا راحت الكلاب تنبح على الإبل المندفعة ، وهرع الأعراب من بيوتهم ، ومعهم أسلحتهم . ونزل هو ورفيقه على وجه السرعة من فوق الجمل وتخليا عن الإبل المسروقة كلها ، ولم ينقذا سوى بندقيتيهما الفتيليتين ، ونجيا

بنفسيهما مستترين بجانب من جوانب أحد الجبال . ومن ذلك المكان راح الاثنان يفتحان النار على أولئك الذين كانوا يطاردونهما ، وعلى أولئك الذين كانوا يفتحون النار عليهما . عاد أفراد قبيلة حرب إلى القهوة ؛ وهرب الجياطين geyatin إلى خيبر سيراً على الأقدام وهما فى غاية التعب والإرهاق!"

فى اليوم التالى عزم العم محمد النجومى نسيبه اللص لتناول العشاء . وبعد العشاء قام ذلك الشقى المهدود ووقف ليشعل غليونه ، ثم ذهب بعد ذلك مباشرة إلى المنزل طلبًا للراحة والنوم – عادت زوجة محمد ، فى وقت متأخر ، بعد أن انتهت من حلب ذلك العدد القليل من الماعز ؛ وعندما كانت تصعد السلم ، وقد أشعلت جريدة من جريد النخل لتضئ لها الطريق ، لاحظت عينا محمد النجومى الحادتان علامات التعب والاضطراب بادية على وجه زوجته – "أخ ! سألها ، ماذا بك يا امرأة؟ " أجابته بنغمة حزينة ، كما هو حال الساميين، " حسن ! [كلمة من كلمات الفأل الحسن] من رضا الله: إن شقيقى مريض جداً ، وعنده مغص شديد ، وهو يرقد ويحس بألم شديد، كما لو كان سيموت ، ونحن لا نعرف ماذا نفعل له : – يبدو [أطرقت المرأة المسكينة برأسها إلى الأسفل] إنه يعانى من شئ من التسمم ؛ فهو بعد أن انتهى من تناول الطعام معنا، وغادرنا بدأ يحس بالألم أثناء عودته إلى المنزل!" – رد عليها محمد بشئ من الفكاهة ، "هذا حمق منك يا امرأة ، من الذى سمم ذلك الملعون؟ أنيرى لنا الطريق ، وإذا وجدناه يتألم فسوف نحضره إلى هنا ، وسوف يعالجه الشيخ خليل بشئ من الدواء" .

وجدناه أحسن حالاً ؛ وأحضرناه معنا . أعطيته بعض ذرات من مسحوق اللودانوم ، قام بابتلاعها بلا أدنى شك – وشاهدت بعد ذلك دواء من أدويتهم ، يستعملونه فى علاج المغص ، والذى ربما ينقذ الحياة بعد أن تفشل العقاقير فى ذلك . كان المريض يتألم وهو راقد على ظهره وكانت شقيقته تضغط على بطنه برقة وحنان الأم [وكانت تبلل يديها من حين لآخر بشئ من الزيت] ؛ ناولته أيضًا حساء من اللبن الحامض كى يشربه ، بعد أن خفقت فيه رأسًا من الثوم thum . وعند منتصف الليل عاد معافًا إلى منزله مرة ثانية : وهنا قلت للعم محمد : " الأفضل أن يموت الإنسان

مرة واحدة بدلاً من معاناة آلام القلب وأوجاعه بصورة مستمرة " – "لقد فاجأ ذلك الألم هذا الملعون مرات عدة ؛ ومن ذا الذى يمكن أن يخاف من الشيخ خليل؟ وأنت إذا ، ما طلبت منى أيها الأب الصغير ، شرب السم فسوف أشربه " . – ذهب ذلك البدوى القلق إلى حال سبيله ، وفى صبيحة اليوم الثالث كان يمشى على قدميه فى الحّرة بحثًا عن الكرم (وليأكل لحمًا) فى قرية الحيات – التى تبعد عن هنا أربعين ميلاً .

طلب عبد الله السروان علاجًا من البرد " وأحضرت له شيئًا من الكافور . " قال عبد الله السروان : إخ! أليس هذا هو الكافور Kafur الذى يرشونه على أكفان الموتى عندما يحملهم الناس إلى مثواهم الأخير؟ – خمس نقاط من هذه المادة كافية بقطع خلف أى رجل من الرجال . ما الذى فعلته أنت كى تشربه يا عم محمد!" رد الرجل الطيب قائلاً : "أليس لدى حصين ، وتلك البنت الصغيرة؟ والله لو جعلنى الشيخ خليل عقيمًا منذ ذلك الحين ، لكنت راضيًا عن ذلك ، لأن خليل هو الذى فعل ذلك . "ذهل الجمهور الأسود ؛ "وقلت لهم : ناولنى تلك القارورة وسوف أشرب منها عشر نقاط بدلاً من خمس " . ولكن الحاضرين غمغموا قائلين : "إخص! وكان ذلك واحداً من أدوية خليل؟" .

حضر إلى خيبر بعض الحطيم ليبيعوا فى القرية شيئًا من جبنهم غير المكبوس – كان عبد الله السروان قد تخيل أن بوسعه أن يأكل من ذلك الجبن الحلو ، الذى يصنعه هؤلاء البدو الرحل المساكين ، دون أن يدفع ثمنًا لما يأكله من ذلك الجبن . أصدر عبد الله السروان أمرًا للعجيل بتحذير الحطيم من إحضار الجبن ؛ وعندما وصل الحطيم أرسل عبد الله عبده الأسود سرور ليطلب منهم شيئًا من الجبن للحاكم (شخصيًا) ، وإلا ، سوف أفرض ضريبة على كل الجبن الذى سوف يمر من خلال بوابة القرية ؛ وسوف أحصل لنفسى نيابة عن الدولة على قطعة واحدة عن كل ثمانى قطع من الجبن". وعندما سمع البدو المساكين ذلك الخبر ، حمّلوا أشياءهم على دوابهم ، وعادوا أدراجهم وهم يقولون : "والله، سوف لا يعودون إلى خيبر بعد اليوم".

جلس القرويون السود على مقاعد الشوارع ونظراتهم شاردة : وهنا انبرى النجومى من بينهم وهو يقول ، "أهذا هو ، ابن الجحش ، الذى أرسلوه إلينا ليحكم خيبر ؟ يا لهذا السوء ! وهذا هو عبد الله يزداد غباءًا يومًا بعد يوم . وأنا أتساءل ، من هم الأعراب الذين سيأتون إلى خيبر بعد اليوم ؟ من أين سيحصل الناس ، بعد اليوم ، على السمن والجبن؟ ولكنهم يتعين عليهم اليوم أن يأكلوا خبزهم وعصيدتهم حاف haf (أى بدون صلصة) . هل أبو Abu على Aly (عبد الله)ا هو الذى يدير الدولة ؟ لقد كان الحال أفضل فى زمن ابن الرشيد وطوال سنى حكمه ! السمن الذى يضاف إلى كل من الوجبات الجافة هى والتمر ، هو الذى يجعل طعام الواحات صحيًا : وقد يبدو ، فى نظر أكلة اللحوم ، أن السمن غير ذى بال ، ولكن آكل الحم هذا يستعمل ثلث رطل من السم والزبد الذى ينفذ خلال العظم ليصل إلى النخاع ، لأنه ليس هناك من شئ عجيب مثل السمن . والقربة قد تحفظ الماء ، ولكن جلود الزبد (الآكة akka ، والماعون maoun ، والجرن Jurn ، والمدهونة medhuna) لا يمكن أن تحفظ الزبد النقى الخالص، إلا إذا كانت مبطنة من الداخل بمحلول سميك من التمر ." السمن صحة الإنسان فى الصحراء المميتة ؛ وأفضل أنواع السمن هو ذلك الذى تفوح منه رائحة الصنوبر – ومن عادة الزنوج أن يمسحوا بشرتهم السوداء بالزبد .

الأجبان الحطيمية غير المضغوطة لا تعدو أن تكون مجرد قطع من الرّوب أو إن شئت فقل : اللبن الرائب ، وهم يصنعون تلك الأجبان من ألبان النعاج والماعز ، ومع إضافة الملح إلى هذه الأجبان يمكن أن تظل صالحة للاستعمال الآدمى مدة شهر على وجه التقريب . هذه الأجبان لا تصنعها أية قبيلة أخرى من القبائل التى أعرفها فى نجد . "وهم يقولون: ليس من طبعهم أو عادتهم شرب المزيد من الحليب عما لديهم بالفعل : " وربما كان ذلك أيضًا من قبيل المهن الدنيئة فى نظر هذه القبائل . ومع ذلك فقد عثرت خلال أسفارى فى الجزيرة العربية ، على قبيلة من تلك القبائل إلى تصنع هذه الأجبان ، وهذه القبيلة قريش el - Koreysh ، أقارب محمد (ﷺ) : والقريش ينقلون أجبانهم البيضاء ليبيعوها فى كل من الطائف ومكة . السبيئون Sabeans ، أو إن شئت فقل : اتباع القديس جون John " هم وأهل الخليج الفارسى ، يصنعون أيضًا نوعًا آخرًا من الجبن : [وهم شهيرين أيضًا بالمصنوعات الفضية ، كما يشتهرون أيضًا بصناعة السيوف] .

هذه جماعة من الحطيم أحضرت معها أرباع ناقة من النياق السمينة ، وكانت تلك الناقة على وشك النفوق أثناء الولادة ؛ اشترى العم محمد منهم السنام (كى يبيع الدهن هو بعد ذلك) ، هذا السنام يصل وزنه إلى ما يقرب من مائة وزنة وهو مكون من كتلة من الدهن أبيض اللون ، وهو خال من العضلات : وبعد تقطيع ذلك السنام يحوله إلى دهن أو سم يطلقون عليه اسم الودك wedduk ؛ والذى يقولون : إنه أفضل من السمن فى طهى الطعام . بعد غلى السنام تمامًا ، جرى إنزال الوعاء عن النار وتركه يبرد على الأرض ، ولكن الدهن كان ما يزال يغلى ويتأجج . "قلت : من الساحر الآن ؟ الذى يستطيع الغلى بلا نار !" ضحكت زوجته البدوية وقالت : نعم ، محمد النجومى سحّار Sahar " . ورد النجومى قائلاً : "خليل لا يعرف الفضيلة التى فى الوُدك ؛ اسمعى يا امرأة ، هل أروى له حكاية الصلوبى Solubby ؟" – "نعم ، احكها لخليل" .

– يحكى أنه كان هناك صلوبى ومعه زوجته ، وكان لهذه الزوجة إلى جانب زوجها لمان Lemman ، أو إن شئت فقل : رجل سليط اللسان كان يشبع أمها بالطريقة نفسها ولكن ذلك الرجل الطيب صبرعلى ما هو فيه ، وكشف لهم عن سذاجته . وفى يوم من الأيام حمل الصلوبى بندقيته الفتيلية ، وقال لجارته الفاسقة ، "يا امرأة ، أنا ذاهب للصيد : ومن فوق ذلك التل الموجود هناك ، تستطيعين رؤية شجرة من أشجار الطلح ، وهذه الشجرة تنمو وحيدة فى الصحراء ؛ – عند هذه الشجرة ، يحضر رجال القبائل ، ليسألوا الروح عن أشياء فترد عليهم بصدق . هل سمعتنى ما أقول! فى الصباح حمّلى أشياءنا على الجحش ، وانتقلى إلى هناك وانصبى بيتنا فى هذه المنطقة ، ثم انتظرينى هناك . إن حالفنى الحظ فسوف أعود لك ثانية فى اليوم الثالث : " ثم ترك المرأة بعد ذلك – وفى ظهيرة اليوم التالى لوصولهم إلى ذلك المكان ، جرت المرأة الشابة إلى الأمام – وكان قلبها مشغوفًا إذ كانت تود الحديث إلى شجرة السنط (الطلح)" "قل لى أيها الشوك السعيد : كيف أتخلص من زوجى العجوز السخيف ومتى يصبح اللمّان lemman لى وحدى " . كان ذلك الصلوبى العجوز يرقد منبطحًا على صدره بين الأدغال ؛ ورد عليها وهو يغير صوته ، " يا امرأة ، غذيه على الودك طوال أربعين يومًا، وبعد هذه المدة سيفقد سمعه وبصره" . وعاد الرجل الطيب إلى بيته ؛ وراحت زوجته

تطهى له طعامه بالودك طوال أربعين يومًا ؛ وفى صباح اليوم الحادى والأربعين وعندما أحضرت له زوجته طعام الإفطار ، مد الرجل يديه وراح يتحسس الطبق : وعندما وقف تعثر وسقط بين الأشياء . – وجدت الزوجة وأمها أن عينى الرجل كانتا مفتوحتان وتحملقان ! وكان يأكل كما لو كان لا يسمعهما ؛ وراحتا تصيحان فى أذنه ، ولكنه لم يكن يسمعهما . وعند الظهر [وهو الوقت الذى ينام فيه البدو] ، جاء ذلك اللمَّان يزحف لهما متنقلا من دغل إلى دغل ؛ ثم أشار إلى المرأة الشابة . قالت المرأتان، انهض وقف على قدميك ، وأدخل بكل شجاعة ؛ لأن الرجل الطيب فقد سمعه وبصره ؛ وهنا دخل اللمان لهما فى الخيمة . ولكن الصلوبى المسكين عندما شاهد خطيئتهما المذرية ، أمسك برمحه ، وغرسه فيهما وقتلهما."

اقترب يوم خلاصى من خيبر . وتقرر لدخيل ، ساعى البريد ، بناء على رغبته هو، أن يقوم بتوصيلى إلى حائل ، وذلك نظير قطعتين من الذهب : ولكن إعطائى له هاتين القطعتين سيجعل كل ما تبقى معى حوالى ثمانين شلنا – وهذا المبلغ يقل كثيرا جدا عن المبلغ المطلوب لنقلى إلى أرض صديقة . بعيداً عن وسط الجزيرة العربية . عرض إياد Eyad ، أحد أفراد العجيل من قبيلة بشر ، نقلى على ناقته المريضة ، إلى حائل ، نظير مبلغ خمسة ريالات . فكرت فى البداية ، (فى الابتعاد عن ذلك الجوع الذى فى خيبر) فى الذهاب إلى قرية الحياة لشراء شئ من الطعام ؛ نظراً لأن الجراد لم يخرب تلك القرية . هؤلاء الزنوج النجديون كرماء ، والشئ الذى يرى أهل الجزيرة العربية أنه أفضل من وفاة القبائل والبلدان ، هو أن يكون الحاكم رجلا عادلا وجديرا بالاحترام – كان شقيق زوجة محمد النجومى قد عاد مؤخرا من ضيافة استمرت ثلاثة أيام فى قرية الحياة : وأثناء وجوده هناك مع اثنين أو ثلاثة من البدو المتسكعين من أمثاله ، كان رب أسرة من أسر قرية الحياة يدعوهم لتناول الطعام ؛ وكان "كل مضيف يذبح لهم ثورا فى العشاء !""قال النجومى : هذا صدق ، فالثور هناك لا يزيد ثمنه على بضع ريالات قليلة" – "قال البدوى : لقد تحول مؤخرا قروى وقرية الحياة إلى أناس من البيض ؛ وقد حدث ذلك نتيجة زواج هؤلاء الرجال من النساء الفقيرات من كل من الحطيم وجهينة :"

كان إياد Eyad ، ذلك البدوى ، الذى أصبح واحداً من مواطنى المدينة المنورة ، بسبب التحاقه بالخدمة العسكرية ؛ هذا الرجل خبر مصائب الحياة خبرة تامة . فهو بحكم بدواته (يميل طابعه إلى إكرام الضيف) لم يوافق على أسرى أو احتجازى ؛ وفيما عدا ذلك كان مجرد متملق فاتر لعبد الله السروان. – عادت كل أوراقى إلّى فيما عدا شهادة سلامة الوصول الصادرة عن ابن الرشيد ، التى احتجزوها ولم يرسلوها لى ! وهنا بدأ عبد الله السروان ، الذى يحمل فى داخله قلب عبد ، ينادينى "العم خليل ؛ لأنه خطر بباله "ذلك الذى يمكن أن يحدث لو أن النصرانى تذكر الإساءات التى وجهها إليه ذلك العبد ، وبخاصة أن هذا النصرانى له مثل هذه السلطة مع الدولة – ؟ كم كنت سأرثى لذلك الآدمى ، لو أن دورينا كانا معكوسين فى خيبر ! وعد عبد الله بتوفير المؤن اللازمة لى على الطريق ، كما وعد أيضًا بدفع نصف أجر العجيل ؛ ولكنى رفضت هذا وذاك .

استاء العم محمد لأنى رفضت أن آخذ منه أى شئ سوى قبضتين من التمر " – كان العم محمد نفسه يعانى من شظف فى العيش ، يمكن أن يستمر لحين موسم الحصاد ، يضاف إلى ذلك أن القرية كلها لم يكن فيها حبة واحدة من القمح . تقاسمت أدويتى مع ذلك الرجل الطيب ، واشتريت له ثوبا (تونك) جديدا كما اشتريت له أيضًا جرابا جديدا لبندقيته : هذا بالإضافة إلى بعض الريالات (التى لم يكن عبد الله السروان قد أخذها لأنها كانت فكة فى جيوبى) ؛ التى جرى إنفاقها بالفعل فى شراء القمح والسمن لمنزل العم محمد ، وكنت أتمنى أن يكون ذلك كافيا حتى لا يكون حال العم محمد أكثر إنكشافا عند رحيلى عنه ، وذلك جزاء له على طيبة قلبه وحنانه علىَّ طوال احتباسى الذى دام طويلا فى خيبر . قال :"لا ، يا خليل ، دعنى أعيش على سعادة تلك الذكرى ، ولا تحرمنى من ذلك بمبادلة الأحسان بالإساءة ! كل ما أريد منك أن تقول فى بعض الأحيان : ربُّنا يذكره بالخير. ، ألست أنا أبوك ، ألست أنت ابنى ، ألسنا شقيقين ؟ وأنت مسكين وسط أرض اكتشفت أنت أنها كلها معادية لك . رد على ذلك أن أحمد النجومى لن يطيق ذلك أيضًا ؛ ترى ماذا سيقول شقيقى ؟ وسوف يتهامس الناس فى خيبر." رددت عليه ، "لن أقول شيئا : "ثم وافق بعد ذلك . كنت أفيد من الكرم العربى بما يتفق وإمكاناتى : ولكنى أخطأت فى هذه المرة ، فى حق هذا

الإحسان المجرد من الهوى ، والحب الإنسانى ، الذى كان يتدفق من العم محمد ؛ هذا الإحسان وهذا الحب كان يختفيان ، اختفاء المسحوق الشمعى من فوق فاكهة الصيف ، مع ظهور التصرفات الوقحة . وعندما قبل العم محمد هديتى ، خطر بباله أننى نزعت عنه أعماله الطيبة !

كان العام الجديد قد وصل إلى منتصف شهر مارس ، وفيه تكون النهارات حارة بعد شروق الشمس ؛ وعند الظهيرة وجدت درجة الحرارة فى الظل ٧٨° فهرنهيتية. كان ارتفاع خيبر حسب قراءات الجهاز حوالى ٢٨٠٠ قدم . وإذا ما قارنا المدينة المنورة بخيبر ، فيما يتعلق بوقت حصاد القمح والتمر ، نجد أن المدينة المنورة يجرى فيها حصاد القمح والتمر فى تاريخ لاحق ، ومن هنا يمكن القول إن المدينة المنورة أكثر ارتفاعا من خيبر . والمدينة المنورة تحيط بها جبال شديدة الرياح ، والشتاء فى المدينة المنورة أبرد منه فى خيبر ، يضاف إلى ذلك أن المواطنين الأثرياء يلبسون عباءات (بشوت) مفَّراة ، فى حين يكون من السهل على الفقير أن يمشى مرتديا قميصه ليس إلا فى خيبر . كانت أيام منتصف فصل الشتاء ، عندما وصلت إلى خيبر ، مثقلة بحرارة أواخر فصل الخريف ، وكانت ساعات الليل تظل ساكنة الهواء لحين طلوع الصبح . وبعد انتهاء عيد الميلاد ، بدأت ليالى الشتاء تتسم بالبرودة المقبولة ، ثم تحولت تلك البرودة إلى برد قاس ، وأمضينا أسبوعًا (حسبما تبدى لنا) شديد البرودة (ولكن بلا صقيع . والعرب الذى يلبسون ملابس شبيهة بملابس العراة ، لا ينامون على أسرَّة، وأنهم أدنى من كثير من الوحوش ! وقلة قليلة من هؤلاء العرب هم الذين يفرشون من تحتهم قطعة من قماش الخيام . يضاف إلى ذلك ، أن هناك كثيرا من الأرواح المسكينة، وكثيرا من النشاء ، ليس لديهن العباءات التى يمكن أن يلفوا بها أجسادهم التى ترتعد بفعل البرد ؛ هؤلاء المساكين لا يفعلون شيئا سوى أن يلفوا أنفسهم فى حصير (بارد) من سعف النخيل . قال العم محمد : "ربنا يعطى البرد على قدر الغطاء ، والرجل شبه العارى لا يحس برداً أكثر مما يحسه ذلك الذى يرتدى الملابس المناسبة." فى صباح أحد الأيام (كان ذلك موافقا لليوم الحادى عشر من شهر فبراير) ، وعندما كان الجو شديد البرودة ، إذ كانت درجة الحرارة ٥١° فهرنهيتية ومع ذلك فقد شاهد العم محمد فى بعض فصول الشتاء طبقة من الثلج فوق سطح مياه وادى المستنقعات .

هواء الشتاء يكون ساكنا ، ورطبا عندما تشرق الشمس ، وتكون السماء الزرقاء المشوبة بالابيضاض ، محجوبة بالسحاب الأبيض الخفيف .– وهذا موعد تذكير النخيل؛ إذ تبدأ طلاع tila النخل البيضاء فى الظهور ، عند أعالى السيقان الجميلة . ووديان خيبر غير معروفة فى الحجاز أو نجد ؛ ووديان خيبر هى نوع من أرض الوسط ، – ومع ذلك تعد خيبر قرية من قرى الحجاز . والأراضى المرتفعة من الحَّرة تابعة لنجد ؛ والصحراء المنخفضة من وادى حمض ، فى المنطقة الواقعة خلف جبال الحجر ، يطلق أفراد قبيلة البشر ، عليها اسم تهامة Tehama [بمعنى أرض السهل الحار] ؛ – وليست هذه هى تهامة ساحل البحر الأحمر .

كان عبد الله السروان قد اشترى لى خرجا للجمل من بائع وصل إلى خيبر قادما من المدينة المنورة اتفقت مع إياد ؛ على أن نرحل عن خيبر فى صباح الغد ، – وعندما أشرق علينا صباح ذلك اليوم السعيد اكتشف رفيقى أن ذلك اليوم كان يصادف الحادى والعشرين من شهر صفر القمرى وأن ذلك ليس من الفأل الحسن لبداية الرحلة؛ وقال : من الأفضل أن نبدأ رحلتنا صباح اليوم التالى لذلك اليوم الحادى والعشرين .

. رأيت رجلين جرى أحضارهما أمام عبد الله السروان ، من أم كيدة ، لأنهما رفضا الكنس والتنظيف الإجبارى أمام منزليهما فى شارعهما . وفرشهما عبد الله على صدريهما فى حارة من الحارات العامة ، وعلى مرأى ومسمع من النساء اللاتى كن يبكين ، وعلى مرأى ومسمع أيضاً من الجيران فى القرية ،– وبالرغم من توسل الشيوخ إليه أن يصفح عنهما ، راح عبد الله يضرب الرجلين ، بجريد النخيل الأخضر ؛ وراح الرجلان يصيحان إلى أن سال دمهما على الأرض . كان العم محمد ، فى ذلك الوقت ، يقتاد بقرته إلى المكان المخصص لتجميع الماشية خارج بوابات القرية : وتألم قلبه شبه البدوى عندما رأى ذلك المنظر الوحشى (غير الإنسانى من وجهة نظره) ! عاد الرجل وبصوت عال يعبر عن الاحتجاج والتمرد راح ينعت أبا على Abu بأنه "حمار جداً ، ويهودى !" على مرأى ومسمع كل من التقاهم فى شوارع القرية .

أشرقت الشمس ، كانت تلك ساعة خلاصى من "ضيق deyik الصَّدْر es-Sudr الطويل الذى أصابنى وألم بى فى خيبر . قال عياد إنه يود الحصول على أجره كاملا

قبل بداية الرحلة ؛ لأنه سوف يترك هذا المبلغ مع زوجته . وقد علمت من منازل الأعراب ، أن البدوى رفيق يمكن الوثوق به بشكل عام ؛ ولكن إياد كان رجلا عفنا ، ومن ثم كنت قد عقدت العزم على إعطائه ثلث المبلغ أثناء الرحيل ، والثلث الثانى فى قرية الحيات ، والثلث الأخير عند وصولنا إلى قرية حائل . حاول عبد الله إقناعى ببعض الأسباب الخادعة ؛ ولكنى رفضت أن يكون إياد رفيقى ، نظرًا لأنى توقعت ، من خلال هذه البادية السيئة ، أن يكون رفيقا خطيرا . عبد الله : "لاداعى للصراع والخلاف ، وبوسعنا الاهتداء إلى شئ آخر غير الصراع والخلاف ، وفى كل الأحوال سوف أوافق فى النهاية"أنا أضمن إياد ، وإذا ما قصر فى شئ ، فسيكون ذلك على رأسى أنا ! إياد عسكرى من جنودى ، والدولة لها ذراع طويلة ، وإذا ما ارتكب معك أى خطأ فسوف أقطع رقبته . رواتب إياد المتأخرة إلى الآن تقدر بحوالى خمسمائة أو ستمائة ريال ، وهو لا يقوى على معارضة الدولة . قل لى عن الطريق الذى تود أن تسكله إلى حائل ، وسوف أجعله يلتزم بذلك الطريق . وبوسعك أن تستريح يومًا هنا أو هناك ، حسبما تشاء أنت ، وبوسعك أيضًا أن تشرب شرش الحليب ، كلما عثرت على البدو ؛ وإياد راغب فى كل ذلك وراض عنه نظرًا لأن ناقته ضعيفة . هل ستمضى فى الرحلة خمسة عشر يومًا ؟ – وأنا سوف أعطيه ستة وعشرين يوما فى الذهاب والإياب ."

كان النجومى ، الذى كان يقف متفرجا علينا فى ذلك اليوم ، عالى الصوت وحاد الكلام ، وكان يقول رأيه بصدق وإخلاص على مرأى ومسمع من الجميع ، وكان ذلك يؤذينى بشكل واضح ! الأمر الذى جعلنى أنصرف مبتعداً عنه بعد أن أصابنى شئ من الصداع . هذه الأراضى المتشددة يتعين على الرحالة أن يمشى فيها طبقا للريح لمواتية، ويتعين عليه المضى قدما قبل أن تفتر النوايا الطيبة : جعلت إياد يقسم أمامهم أن يكون مخلصا معى ، ثمى عددت له الريالات الخمسة فى يده .

وصل عبد الله فى ذلك الحين طلبا من صبى من أفراد العجيل ، اسمه مرجان Merjan ، يطلب السماح له أن يكون برفقتنا أثناء السفر . وقد عرفت عن ذلك المرجان إنه ليس خفيف الظل ، بل إنه يثير المتاعب ، وقد يتسبب فى تأخير مرورى على الطريق إذا ما حكى للبدو عن التقلبات التى حدثت لى فى خيبر . عبد الله : "إنه يطلب ذلك من باب عطفك أنت ، حتى يتسنى له زيارة أخته الشقيقة الوحيدة هى وأخيه الأصغر فى

حائل ؛ وبخاصة أنه لم يراهما منذ سنوات طويلة ؛ وافقت على ذلك الطلب . وندمت على ذلك فيما بعد ندما كبيرا :- قد تفرض الإنسانية غير الحكيمة نفسها علينا فى بعض الأحيان .

عنوز الجنوب هم أسوأ القبائل طبعًا (اللهم باستثناء القحطان) . كنت أكره من كل قلبى مداهنة إياد ونفاقه معى ، ومصادقته لأولئك الأشقياء . قلت لهم : بالرغم من الظلم الذى وقع على فإن الكلمة الأخيرة هى السلام - (وقد أحدث ذلك فرحًا باديا على وجه عبد الله السروان).- ورافقنى أمان فى تلك الرحلة . وكان النجومى قد سبقنا لإحضار فرسه ؛ على أمل لقائنا على الطريق ليصحبنى مسافة ميل من الطريق . اقتربنا من حجر كبير صعدت فوقه لأركب الناقة : وأمسك أمان يدى بيده الضعيفة ، ودعا الله أن يوصلنى سالما غانما إلى المكان المنشود . وهنا أوصى ذلك الحبشى المسكين إياد أن يدير باله علّى ، ومضينا بعد ذلك قدما فى طريقنا .

رافقنا فى الرحلة وغد من أوغاد القرية اسمه حامد . كان النجومى قد أوفد معنا ذلك الحامد ، ليحضر له بعض الماعز التى سبق أن أعطاها لبدو الحطيم كيما يقومون برعيها . (قال لى العم محمد) : إن والد حامد كان واحدا من أثرى أغنياء خيبر ؛ " ولكن ذهب الثراء وضاع منهم ، وأن حامدا هذا يتعين عليه تأجير نفسه للناس ، حتى يتسنى له سد رمقه ؛ اخترت ذلك الحامد لأنه لم يقل لى لا حتى ولو مرة واحدة . - كان أخوه يحب امرأة شابة فى القرية ، ولكن شيخا من الشيوخ طلب يدها ؛ وبالرغم من أن ذلك الشيخ كان متقدما فى السن ، إلا أن والدها أعطاها إياه كان ذلك الشيخ هو والد إبراهيم . وذات يوم وعندما وجد ذلك الزنجى الشاب أن الشيخ الكبير كان فى منطقة النخل ، وعندما لم يجد أحدًا قريبا جرى إلى ذلك الشيخ وكسر جمجمته بقضيب معدنى . وعندما لم يعد الشيخ إلى منزله ، حدث هرج ومرج فى القرية ؛ وراحو يبحثون عنه بين المزارع . ولم يعثروا على القتيل إلا فى صباح اليوم التالى ؛ عثروا على جثته ملقاه أسفل شئ من الحطب والقش ، الذى وضعه القاتل فوقها . وراح الناس يتساءلون طوال يوم أو يومين ، "سوف أكشف عن ذلك نظير مكافأة : "ووعده الشيخ بمكافأة قال الطفل : "هو شخص ، أنا رأيته وهو يقتل الشيخ ؛ وبينما كان يوارى جثته رآنى ، وهربت دون أن ألتفت ورائى ، وعدت جريا إلى القرية. "- كانت الدية كبيرة جد

ولكن الأب التعيس آثر التخلى عن كل أرضه تقريبا ، إنقاذًا لحياة ولده : وأعطى الأرض لإبراهيم ، ولد القتيل ؛ ولم يتبق شئ لذلك الرجل فى شيخوخته ." سألته إن كان إبراهيم الذى نزل عليه الثراء ، يعيش هانئا ومرتاح البال ودون خوف من الأشقاء الصغار ، الذين حرمهم إبراهيم من ميراثهم ؟ "أجابنى ، نعم ، إنهم أصدقاء أوفياء : والشبان الصغار يقدرون لإبراهيم قبول الدية ، وإلافذلك يعنى حتمية القصاص من شقيق من الأشقاء ."

التقانا محمد النجومى على بعد مسافة قصيرة ، – كان الرجل يمشى على قدميه قال لنا إن فرسه موجودة فى بيارة النخيل ؛ وإذا ما أمكنه إحضارها فسوف يرافقنا إلى منطقة طبج **Tubj** ، كيما يقطع أعضاء التذكير من الجذوع شبه البرية هناك ، حتى يمكن بواسطتها تذكير النخيل الإناث الموجودة فى القرية . (والمعلومية فإن عضو التذكير فى ذكر من ذكور النخل) يكفى لتلقيح عشر نخلات إناث . – "أيها الوالد محمد الله معك ، ويجزيك بقدر عملك " وأمك محمد النجومى بيدى وهو يقول : فى أمان الله يا خليل . "وعاد العم محمد إلى بيته ، ومضينا نحن قدما فى طريقنا ، وبذلك تكون الدنيا وقسوة الأديان قد فرقتنا إلى الأبد !

رحنا نقسوا على الناقة ذات الخف وهى تعبر منطقة المستنقعات ، وآخر الجداول والرذاذ . وهنا أكون قد صعدت خارجا من وديان خيبر الموبوءة ، ومن الأسر الذى لا يطاق لدى الدولة (الإمبراطورية العثمانية) لأشم نسيم الحرية من فوق جبهة الحُّرة ! وطوال ساعة من الزمن ، بعد ذلك ، كنا بحذاء الكثير من الأقبية ، وكثير من الأحجار البازلتية البرية [انظر ص ١٢٠] ، التى كنت أحس أنها أكوام من التراب ، وبعد مسير دام عشرة أميال شاهدنا امرأة بدوية تقف فوق الصخور البركانية ، كما شاهدنا أيضًا خيمتين من خيام بدو الحطيم . وهنا أرانى رفاقى من البدو قمم جبل يقع فى اتجاه الجنوب يطلقون عليه اسم البيضة **el-Baitha** والذى يقولون عنه : إنه يقع على بعد مسافة قصيرة من المدينة المنورة .

فى فترة العصر ، نزلنا عن ناقتنا وتركناها ترعى فى المرعى ، وجلسنا إلى أن يدخل علينا المساء وعند غروب الشمس سرنا فى اتجاه الخيام : ولكن إياد تركنى مع حامد وناقته المحمَّلة ، وذهب لينضم إلى مرجان **Merjan** كيما يضيفا نفسيهما فى

البيت التالى . جاء رب البيت الذى نزلت أنا فيه ، عائدا من المرعى ومعه قطيعه من الماشية والإبل ؛ كان ذلك الرجل بلاحية . أحضروا لنا شيئا من لبن الخض ، وسمعنا صوت امرأة زنجية تنادى من القسم الخاص بالنساء وتقول : حامد ! حامد! كانت تلك الزنجية من القرية ، وكانت تقيم مع أولئك الأصدقاء من البدو الرُّحل فى الصحراء ، كيما تنعش نفسها باللبن الرائب أو المخثر وأرخى الليل سدوله علينا ، ولكن الشاب خرج ومعه جحشه لإحضار شئ من الماء . عاد الرجل بعد ساعتين ، دون علم منى ، قاموا بذبح عنزه : وكان قد ذهب لجلب الماء من أجل هذا الغرض . نادانى الحطيمى الشاب – بأسلوب التملق الذى يصدر عن الأجناس المتدينة– ياطويل Towil العمر El-amr.

بعد الضيافة دخل إياد ، قال : يا خليل ، ألم تحتفظ لى ببضع لقمات بإعتبارى رفيقا لك ؟ "– " هل المفروض على الرفيق أن يتخلى عنى ؟ " وهنا راح يهادن ، ليسلك طريق غريبا فى ضوء الأخبار التى وقف عليها من الخيمة التالية ، "إننا يمكن لنا الحضور يوميا إلى منازل الأعراب ، وسنجد فى انتظارنا الحليب والمرطبات ؛ فى حين أننى، إذا ما قمت بزيارة قرية الحيات ، فإن الطريق المتجهة من هذه القرية ، ناحية الشمال تكاد تكون خلوا من البدو " – وهنا ينبغى علىَّ تفويت قرية الحيات ، هى والمؤن التى يمكن لى الحصول عليها منها : يضاف إلى ذلك أنى كنت أتفق معهم فى ساعات الخطر ! وقد ثبت أن عدم خضوعى لأولئك الرفاق الخونة ، كان أمرا محموداً .

رحلنا مع طلوع الشمس ، وكان عن يميننا ، فى الحّرة ، البيضاء el-baitha [وهو جبل آخر غير الجبل الذى يحمل هذا الاسم نفسه ويقع بالقرب من المدينة المنورة فى الحجاز] . قال رفاقى : إن هذا الجبل توجد فيه أعلى الشعبان Shaeban فى وادى الرماح er-Rummah ، غير أن السيول التى تسقط على ذلك الجانب تنحدر إلى وادى الحمض الكبير فى الحجاز . مررنا على كثير من الصخور البركانية الزجاجية الحادة . حلق أمامنا زوج من طيور الحبارى ؛ ولم يسبق لى رؤية هذا النواع من الحبارى ، من قبل الصحراء [وفى هذا الفصل من العام بالذات] : كان على ريش هذين الطائرين

يميل إلى الابيضاض الأشهب الداكن . بيوض هذا النوع من الحبارى لها (لون يجمع بين اللون البنى واللون الوردى وكذلك اللون الأسود) . وقد عثرت على هاتين البيضتين فى شهر مايو بعد أن وضعتها الحبارى الأنثى فوق صخرة جرداء فى الصحراء [بالقرب من بلدة معان] ؛ كانت البيضتان كبيرتين مثل بيوض طائر الرومى ؛ كما كان طعمهما لذيذ أيضا : هذان الطائران ربما كانا نوعا من أنواع الطيور الحبارى الكثيرة. "لحم هذا النوع من الطير يشبه القطن بين الأسنان." وهذا على حد قول إياد البشرى . راح كل من مرجان وإياد يحاولان جذب هذين الطائرين عن طريق الصفير ؛ وهنا سحب الاثنان بنادقهم من جرابيهما ، وراحا يتسللان أسفل الحبارى ؛ ولكن نظرا لأن البدو لا يهدرون الرصاص هباء ، فقد عادا من حيث ذهبا . وأنا لم أر مطلقا العرب وهم يستفيدوا من بنادقهم فى الصيد أثناء طيران الطير ؛ ومحمد النجومى كان هو الشخص الوحيد الذى كان يفتح نيران بندقيته على الحبارى أثناء طيرانها (وكان يصيب منها الكثير) .

اعتبارا من هذه المنطقة ، كانت الأرض من حولنا عبارة عن صحراء من الأحجار البركانية الحادة ، التى ليس فيها سوى القليل جداً من مدقات المواشى ؛ والبدو الرحل يمشون هنا بين كتل الصخر على غير رغبة منهم . وهنا شق حجر من الأحجار الحادة الإصبع الكبير فى قدم من قدمى حامد ... وهنا نزلت عن الناقة حتى يتمكن هو من الركوب ! ولكن هذا الزنجى استعار سكينا ، وبقرار وحشى ، مزق لحمه وواصل المسير، وأثناء وقفة المساء ضمّد الجرح الذى كان ينزف وقال : إن ذلك الجرح سيكون على ما يرام خلال المسيرات التالية . وأثناء مسيرنا هبت علينا رياح شهر مارس قادمة من اتجاه الشمال ، وكانت الأعشاب الجافة ، هى وسيقان الادغال الصحراوية الجافة تتصدر تلك العاصفة : كان مسارنا غير مأمون وخلوا من المأوى ومن الماء أيضاً ؛ وكان رتفاع ذلك السهل من الصخور البركانية يقدر بحوالى ٣٤٠٠ قدم . كان مرجان قد أصيب بمرض الطحال عقب الحمى التى اصابته فى خيبر ، ولذلك صاح فى فترة العصر ليقول لنا : إنه شاهد قطيعا من الماشية ، وراح يكيل لنا اللعنات لأننا لم نتبعه : هذا القطيع الذى شاهده مرجان لم يكن سوى مجموعة من الغزال . "قالوا فى النهاية : فين Fen الأعراب el-Aarab ؟ – نفيرا neffera بمعنى هذا كلام مغشوش وخادع ، ولكن

هذا هو أسلوب الحيميين ! فقد ضللونا فى الليلة الماضية ، الله يربكهم مثلما أربكونا . "كان ذلك الزنجى قد أتى على الماء كله الذى كان فى قربتى : ففى المساء فك ذلك الزنجى رباط عنق القربة وكان على وشك أن يأتى على كل ما فيها من ماء ، ولكنى قلت له ، "لا ، لا تفعل ذلك ، لأننا قطعنا مسافة طويلة وأحسسنا بالعطش طوال اليوم ، وينغبى ألا يتميز أحد منا على الآخر فيما يتعلق بالماء . "وصاح البدو فيه" ألا يدور بخلدك أننا هنا فى" الصاحين Saheyn ؟ "نحن هنا فى الصحراء ، والصحراء ليست مكانا من الأماكن التى يتسكع فيها الخيابرة" وفى النهادية وعندما غربت الشمس ، عثرنا على قاع من القيعان ، وفيه بعض أشجار السدر "التى تحمينا من ريح الليل ، التى كانت تهب علينا وتخترق ثيابنا الرقيقة : هذه الريح حطمت بعض أغصان أشجار السنط الميتة ، مما سهل علينا الحصول على الوقود المطلوب لشب نار المساء ثم قمنا بعجن شئ من الدقيق بشئ من الماء المتبقى معنا ، لنصنع منه خبزا فى الجمار المتبقية من لنار . كانت ليلة شهر مارس تلك قارسة البرودة .

رحلنا عن المكان مع طلوع النهار ، ورحنا نسير بمحاذاة جبل الحجر الرمل : ويالالفرح ! فعندما أشرقت الشمس ، لم نعد نرى العلامات الأرضية الدالة على خيبر ، فقد اختفت عن أنظارنا تماما . مررن على بعض الأقبية وبعض الجدران القديمة فوق تلك الحّرة الجرداء ، كما مررنا أيضًا على جبانه قديمة . "قال إياد : هلى ترى هذه القبور ، إنها مقابر الأولين auellin ، وهل رأيت أكوام الحجارة التى فوق تلك القبور ! "واصلنا مسيرنا فى المنطقة المكونة من صخور بركانية –" هذه الأرض صخرها من الحديد " وكنا صائمين ، إلى ما بعد العصر ، عندما عثرنا على آثار أقدام الإبل فى بعض أحواض الرمل الأسود . فى البداية قال رفاقى : إن آثار تلك الأقدام تدل على رحلة قام بها أصحابها منذ فترة تتراوح بين خمسة إلى عشرة أيام ؛ أوصلتنا مخلفات الماشية عبر الحرة إلى ناحية الغرب ، حيث توجد الأطراف البعيدة لجبل حجور Hej-jur.– آثار الأقدام سرعان ما تُصنع فى الصحراء بفعل الريح التى تجرف حبات الرمل من مكانها ؛ هذه الآثار قد تبقى فى مكانها لحين دخول فصل المطر . – فى أثر من الآثار التى جرى فتحها مؤخرا فى مصر " أمكن العثور على آثار أقدام العمال على تراب الأرض الناعم ؛ وكانت لرجال أعمارهم بلغت المئة عام ! ذهب البدو إلى تجويف

فى الأرض ، بحثا عن المطر فى حفرة من الحفر الصغيرة ، التى استطاعوا أن يملأوا منها قربة الماء ، كان الماء مختلطا بقدر كبير من الطحلب الأبيض ؛ وشربنا منه – ونحن نشكر الله – عن طريق تنقيته باستعمال الغتر التى نضعها على رؤسنا [ونحن عندما ننظر إلى الشعر الكثيف الذى يحيط بشقتى الجمل نعرف أن ذلك الحيوان يستطيع من خلال الفرشاة تصفية المياه غير النقية التى قد يشربها من الصحراء !] تسلق الرفاق البدو ، كل الصخور الممكنة ، بحثًا عن البدو الرحل : واصلنا المسير إلى غروب الشمس ، ثم نزلنا بعد ذلك فى أرض منخفضة فيها أشجار السنط وأدغال من تلك الأشجار ، وفى تلك الأرض المنخفضة عثرنا على دار من ديار البدو الرحل التى هجرها أصحابها منذ وقت قريب . كنا فى هذه المنطقة قريبين من حدود الحرّة .

وصلنا مسيرنا مع طلوع شمس الغد ، وأوصلتنا مخلفات الماشية إلى جحور Hejjur ذلأن Thullan . وشيئا فشيئا بدأنا نصل إلى جانب الحّرة ، وحدود الصخور البركانية فى هذه المنطقة تشبه حافة صخرة من الجليد ؛ كان ارتفاع الصخرة فى هذا المكان يصل إلى حوالى عشرين قدما ، وإلى جانبنا كان العمق يصل إلى حوالى ثمانية أو عشرة أقدام . مضينا خلف الحرة فوق منحدرات جرداء من الحصى نخرتها الأمطار ولكنها تتجه صاعدة نحو جبال الصحراء الجرداء التى يطلقون عليها اسم جبال Jebal الحجورHejjur . شاهدنا غزالا كان هاجعًا وهو يفزع هاربا من دغل كان أمامنا ؛ ووقف لحظة يطيل النظر إلينا ، كان يمكن أن يسقط خلالها بطلقة واحدة من شخص أوروبى، – ولكن البدو لا يكونون مستعدين دوما . وأثناء سيرنا ، شاهدت حفرة عمقها حوالى ياردة ، محفورة فى أرض الصحراء : رد على الرفاق قائلين : إنها حفرة مجدور mejbvr،– وأنهم سوف يشبون النار فيها ، وبعد أن يجمد الجمر يجلس المريض على الرمل الساخن : الأمر لا يعدو أن يكون هنا مجرد حمام من حمامات العرق . والعرب يخشون ويخافون الأمراض التى تتسبب فى قتل الغير ؛ يضاف إلى ذلك أن المصيبة الكبيرة التى وقعت لشيخ من شيوخ العنزى فى القصيم كانت ما تزال ماثلة فى

الأذهان. – فقد ابتعد عنه أهل قبيلته على وجه السرعة ؛ كما تخلى عنه أقاربه بل وأفراد أسرته .

بعد أن تركنا هضبة الحجر الرملى التى يطلقون عليها اسم الخطام el-khtam على الجانب الأيمن ، وصلنا إلى جبال جرداء ، التى كانت رُكبهُا وصخورها المنخفضة عبارة عن فخاخ ومصائد من حولنا ، كانت ألوان تلك الصخور بنية ، وصفراء ، ورمادية ،وإردوازية أيضاً ، حمراء وأرجوانية. وكانت النسور السوداء الصغيرة " العقاب el-egab، تطير من فوقنا ، وتنزلق انزلاق الظل ، الذى تتركه أجنحتها المفرودة على السواحل الصخرية . كما كانت الغربان وطيور الرخام تحوم فى الهواء ؟ ، فوق الديار التى هجرها البدو الرحل : إن نيرانهم لم تنطفئ بعد ، وهذا يعنى أنهم رحلوا فى هذا الصباح . وهنا تسلل الرفاق البدو ومعهم بنادقهم الفتيلية ، على أمل اصطياد غراب من الغربان ، ومنه يحصلون على عظمتين يستعلونها فى صناعة غلايين التدخين . سألتهم إن كانت طلقة من طلقاتهم على امتداد حياتهم كلها قد أسفرت عن سقوط شعرة أو ريشة من تلك الطيور ؟ واحتجوا على سؤالى قائلين : "نعم ، واللّه ياخليل ؛ لقد اصطدنا القطا gatte فى كثير من الأحيان . "وبعد ذلك بفترة وجيزة بدأنا نشاهد الأعراب هم إبلهم. ولحقنا بهم بعد الظهر بفترة قصيرة ، كانوا قد توقفوا للمرة الأولى . وعندما شاهد الشيخ بعض الأعراب يتقدمون ، بقى فى المؤخرة بعض الوقت ؛ وكان ذلك الشيخ معروفا لدى رفاقى . هؤلاء البدو الرحل كانوا من فراديس Feradessa ، بن ibn سمرى Simry ، وهم أصلا من الحطيم . جلسنا سويا ، وقام أحد الأولاد بحلب ناقتين من نياق الشيخ ، كى نشرب الحليب نحن الغرباء .

عندما عرف الشيخ أننى نصرانى راح يجعجع ويصخب ، بالرغم من كونى ضيفا على سلطانية الحليب التى قدمها لنا . "يصيح ، ما هذا رجل وثنى ؛ ماذا ! نصرانى ، لماذا جئت إلى هنا ؟ ألا تخاف من سكين الأعراب ؟ أم أنك ، تحسب أيها الرجل اليهودى ، أن تلك السكين لا يمكن أن تطال زورك ؟ – وسوف يظهر ذلك فى يوم من

الأيام . وأنتم يا رفاقه ، ألن تقطعوا عنقه ؟ أين أنتم ذاهبين – إلى حائل ؟ ولكن ابن الرشيد سوف يقتل هذا (الرجل) إذا ما عاد إلى حائل مرة ثانية :"الحطيم ليسوا أصحاب أذهان متحضرة ومتمدنة مثل البدو الحقيقيين ؛ والحطيم يقسون على ضيوفهم في معظم الأحيان ، في حين يحنوا البدو على ضيوفهم ويشفقون عليهم . وعندما اكتشفت أن ذلك الشيخ كان فظا رحت أحتقر جهله وازدريه إلى أن بدأ يخجل من نفسه ؛ وبذلك يستطيع الإنسان هزيمة السذاجة الحاقدة في قلوب العرب .

سقنا دوابنا إلى مخيم هؤلاء البدو ، وجلسنا أمام بيت من البيوت . وبعد ذلك قدم لنا رب البيت سلطانية من اللبن ومعها سلطانية أخرى من المريسى ؛ أطلقنا الناقة ترعى ، وجلسنا إلى جوار أمتعتنا في مهب الرياح والشمس الحارقة إلى أن دخل علينا المساء ؛ وعندما عزم علينا المضيف بالدخول إلى بيته ، وجدنا عشاءاً جاهزا لاستقبالنا ، كان ذلك العشاء مكونا من الأرز المسلوق . كان ذلك المضيف واحداً من جماعة الحطيم التي غزاها الجهاينة في الفترة الأخيرة بالقرب من المدينة المنورة . وفي صباح الغد رحل ذلك المضيف مع أهله ، أصبحنا نحن ضيوفا على بيت آخر ؛ لأننا سوف نرتاح في ذلك اليوم ، في منزلهم ، وقد أحصيت ثلاثين خيمة في ذلك المنزل. وعندما أعطيت مريضا من مرضاهم شيئا من الراوند انشرحت صدور أصدقائه وقالوا : الرائحة توحي بأن ذلك الدواء لابد أن يكون دواء طيبا بحق . "جاء إلينا أشخاص كثيرون لاستطلاع الأخبار : ولكن قلة قليلة من رجال الحطيم هي التي تبقى في البيوت أثناء النهار : والسبب في ذلك أن هؤلاء البدو الرحل أكثر اهتماما برعي الماشية من البدو أنفسهم .

سمعت البعض وهم يشتكون من ابن الرشيد ، – "إنه هو الذي أضعف الأعراب؛" رد عليهم إياد" نعم ، والله ، هو الذي يضعف القبائل." سألته ، "كيف يحدث ذلك ؟ هل في عدم وجوده كان هناك أمن وسلام في الصحراء ؟ – لولا ابن الرشيد لغزت القبائل بعضها بصورة مستمرة."إياد : "ابن الرشيد هو الذي يضعف الأعراب ، والسبب في ذلك ، أن ابن الرشيد يجرد القبيلة من كل شئ قبل أن تخضع له : وبعد ذلك ، يجعل القبائل تعيش في أمن وسلام ."زد على ذلك أن ابن الرشيد يفرض ضرائب على بدو الحطيم في الجنوب ؛ ونظرا لأن الدولة (الإمبراطورية العثمانية) موجودة أيضًا في

خيبر ، فإن حكومة المدينة المنورة تفرض عليهم ضرائب أيضًا . وقد ذهب عبد الله السروان ، هو والعم محمد النجومى مرارا لجباية ضريبة العشور ، قبل مجيئى إلى خيبر بفترة قصيرة . والغالبية العظمى من الحطيم تدفع إتاوة الخوة لكل أولئك الأقوياء الذين يحيطون بهم ؛ ونظرا لأن الحطيم يتخلصون من العداء بهذه الطريقة ، فهم أحسن حالاً من البدو الذين يعيشون فى هذه الديار نفسها . ونياق الحطيم هى أفضل أنواع النياق ، وليس لدى البدو سلالات أجود من هذه السلالة ؛ (وسوف نعرف بعد ذلك أن الشرارات أقارب الحطيم لديهم أفضل سلالات النياق) . يضاف إلى ذلك ؛ أن الحطيم أقوى وأصلب عوداً من البدو الآخرين الذين عضهم الجوع بنابه ، كما أن نساء الحطيم أجمل من نساء البدو .

سألوا عندما كانوا فى الخيمة أسئلة خارجة ، "ماذا يكونون هؤلاء النصارى.؟ وما هو دينهم؟" قال واحد منهم:"سوف أقول لك الخلاصة كما سمعتها فى [المدينة المنورة أو بلاد الشمال المتحضرة]: النصارى يسكنون مدينة مغلقة بالحديد ويحيط بها البحر من جميع الجوانب !"إياد : "لا تتكلم بهذه الطريقة ، مخافة الإساءة إلى خليل ؛ وهو ذلك الشخص الذى يستطيع بكلمة واحدة أن يجعل تلك الخيمة تسقط فوق رؤسنا . " "رد عليه ، إخ! هل بوسعه فعل ذلك بحق وحقيقة ؟" اكتشفت فى منزل هؤلاء الحطيم اثنين يعانيان من مرض جلدى . وعندما سألت من أين أصيبا بذلك المرض ؟ أجابونى ، "من المدينة المنورة."

رحل البدو الرحّل مع طلوع النهار . وسرنا معهم فى اتجاه الغرب ، فى تلك الجبال ؛ وصعدنا خلال ممر وعر ، لم يكن فيه أى أثر لأقدام الإبل . وها هو حامد ، الذى كان قد تخلى عنا ، نراه قادما مع شخص أمكنه العثور عليه ليكون مرشدا له : "قلت ، وداعا ، يا "اخو akhu حمدة Hamada ". "نظر ذلك الوغد الخيبرى إلى أعلى مسرورا مرتبكا فى آن واحد ، لأنى ناديته (كما لو كان رجلا شجاعا) باسم شقيقته ، وتمنى لى سلامة الوصول . واستوقفنا فى منتصف الطريق بعض الأصدقاء ، الذين أرادوا أن يقدموا لنا الحليب قبل أن نرحل عنهم . هذه المتاهة المريعة من الجبال الجرداء التى تعانى من العطش كانت تبدو لى بلا نهاية أو حدود ! والناس هنا يطلقون على هذه الجبال اسم جبال Jebal الحجور Hejjur الذى يمكن ترجمته باسم جبال

الأحجار : – هذه الجبال ملك لـ " ولاد " Welad على وللبشر Bishr أيضاً ، – ولكنهم سمحوا للحطيم بالإقامة فيها . الناس ، فى معظم السنين ، يعثرون هنا على الربيع وأدغال الرعى الجيدة ، فى منخفضات هذا الوادى . هذه السواحل يفيض عليها السيل من وادى الجحور إلى وادى الحمض . ونحن هنا بدأنا نتجه غربا أكثر من ذى قبل . أما البدو فقد تحركوا فى اتجاه الجنوب ؛ وبعد أن تركنا هؤلاء البدو ، نزلنا فى ظرف ساعة من الزمن ، إلى قاع واد من الوديان الرملية ، عثرنا فيه على منزل آخر من منازل الحطيم ، ويضم ثلاثين خيمة ، ويقال له : منزل سويدير Sueyder بن ibn سمرى Simry . المنطقة هنا عبارة (عن نوع من الفخاخ والمصائد) ، والناس هنا يطلقون عليها اسم يتروها Yeteroha : وإياد لم يسبق له زيارة هذه المنطقة من ديرتهم ؛ وهو لم يأت إلى هذه المنطقة سوى مرة واحدة فى حياته كلها . والناس هنا يقولون : إن هذه الجبال يغمرها السيل الذى يأتي من وادى خفوثة Khafutha ، الذى هو واحد من وديان خيبر .

عثر مرجان هنا على بعض من أقاربه ، عبارة عن أسرة أو أسرتين من البشر يقال لهما البيجاريجة Bejaija أو البيجايدة Bejauda . – هناك كثير من العلائلات الفقيرة من البدو تعيش (حياة رغد) ضمن مجتمع الحطيم الذى ينعم بالأمن والسلامة . قام رجل ، هو ابن عم مرجان ، بوضع يده على الناقة ، وراح يسحبها فى اتجاه بيته الكريم المضياف . – كان ضيوف الأمس قد أرسلوا خبر وجودى فى الديرة إلى شيخ مريض من شيوخهم ، يدعى ابن ibn حيزان Heyzan ، الذى أصيب بطعنة رمح فى غزوة من الغزوات . وكان العم محمد قد باع مؤخرا شيئا من المرهم الذى أعطيته إياه ، لبعض أصدقاء ذلك الشيخ المريض فى خيبر ، واكتشفوا أن ذلك المرهم كان ممتازا ؛ وهنا أعرب بعض معارفه عن رغبتهم فى أن أذهب للكشف على ذلك المريض . وافقت على البقاء فى ذلك المكان يوما واحداً فقط ، إلى أن يعود مراسلهم .

عندما أخرجت كتاب الطب ومحبرة عربية طويلة من النحاس الأصفر ، تجمع من حولى الرجال والنساء ؛ كانت قدرتى على القراءة والكتابة عندهم من قبيل المعجزات والخوارق . تهامسوا "إنه يرى ذلك الذى لا نراه نحن؛ – فى أضعف الأحوال أنت ترى أكثر مما نراه نحن المساكين !– إنه مكتوب هناك!" كان المضيف له بنتين جذابتين ؛ راحتا تتعجبان اندهاشا من بشرة ذلك الغريب البيضاء . كانت الفتاتان تتصرفان

بطريقة سهلة ، ويتواضع الإناث ، ولكن نظرات عيونهما أذابت قلب مرجان ، ذلك الصبى الذى ليست له لحية ، وابن عمهما الذى هو متزوج بالفعل فى خيبر . هذا الحريم البدوى يلبس الخمار فى نجد ، والذى يتدلى من الفم نحو الأسفل ؛ وكل واحدة من هاتين الفتاتين تضع حلقة من الفضة فى فتحة أنفها اليمنى وتغطى رأسها بغطاء يتدلى على جانبى وجهها . خرج الرجل الطيب ومعه زوجته وهما يسحبان وراءهما أفرع كبيرة قطعاها من أشجار الطلح : – ونحن عندما نرى أثر الأغصان على الأرض فى الصحراء ، نعرف أن تلك إشارة إلى وجود منازل من منازل البدو الرحل فى هذه المنطقة . وصنعا من تلك الأغصان حظيرة للغنم أمام بيت ، وجرى بعد ذلك إدخال الماشية الصغيرة إلى تلك الحظيرة لتقضى فيها الليل . وهم يطلقون على تلك التحويطة اسم حظيرة hathira ، "وهم يقولون ، إن الشمر يطلقون على تلك التحويطة اسم سريفات Serifat . وهنا وضع المضيف أمامنا طبقا كبيرا من الأرز .

كان إياد خائنا ، وكان يتخيل دائما ، بعد أن حصل على أجره ، الطريقة التى تمكنه من التخلى عنى : فهو لا يريد أصلا الذهاب إلى حائل . "ياخليل ، هل أتركك هنا؟ والله.إن الناقة مجهدة تماما من هذه الرحلة الطويلة."–"أعد إلى ثلاثة ريالات وسوف أتركك تذهب لحال سبيلك."– "آه ! كيف لى برد هذا المبلغ ، يا خليل ؟ أنت تعرف أنى تركت النقود لزوجتى ."–"إذن ، اقترضها من هنا."–"يا إلهى! من من هؤلاء الأعراب لديه نقود ، ومن هو ذلك الذى يمكن أن يقرضنى ريالاًواحداً؟"– "لقد قلت ذلك كله فى خيبر ، قلت : بأنك ستخوننى ؛ اياد ، سوف يتعين عليك نقلى إلى حائل حسبما اتفقنا."–"ولكن هذا الطريق الذى نحن فيه لن يوصلنا إلى حائل ، لقدا ابتعدنا عن المسار الصحيح ؛ هؤلاء الأعراب يبممون وجوهم شطر العواجى ، فهيا بنا نمشى معهم، وليس بيننا وبين العواجى سوى مسيرتين فقط ، وسوف أتركك هناك ." – "سوء القصد والنية عند العرب عبارة عن هوَّة تلوكها ألسنة المتهورين من العرب ! لا أمل بين هؤلاء العرب فى أى شئ فى الإنسان ؛ وسماء هؤلاء الأعراب بعيدة جداً ، وهى خالية من الإحساس بالآلام الإنسانية . ها أنا أستمع من ذلك الشقى ، تلك الحجج التى اعترض هو عليها عندما كنا فى خيبر ! ففى صباح الغد سوف يرحل إياد مع شروق الشمس : قلت : سوف نبقى هنا اليوم ، حسبما طلبت أنت بالأمس ، وبناء على

موافقتى على ذلك . لكنه حمَّل الأمتعة ! وهنا اقترب منى ذلك الرفيق الوغد وهو يمسك عصاه فى يده ، وطبقا لما تعلمه من الجيش التركى – راح يهددنى كما لو كان سيضربنى بالعصا ، إذا لم أطعه وأتحرك معه : ولكن سرعان ما استسلم وتراجع عن موقفه .

عثرت ، فى ذلك المنزل ، على أسرة صلوبية من وادى الصُّفيرة es-suffera الذى يشتهر بشدة الحراراة ، والذى يقع على بعد مسافة قصيرة من شمالى مكة . هذه الأسرة الصلوبية موجودة فى ذلك المكان الذى يبعدها ما يزيد على ثلاثمائة ميل عن موطنهم الأصلى ؛ ولكن هذه المسافة ليست كبيرة من منظور الصلوبة الذين يجوبون الأرض من أقصاها إلى أقصاها . قال لى الرجل : إنهم مع دخول الصيف ، سوف يخيمون بالقرب من مصدر من مصادر المياه فى الصحراء : ونظرا لعدم وجود ماشية لدى الصلوبة ، فإنهم سوف يعيشون معتمدين على لحم الغزال."طلبت منى دواء لعينك ، فهل يمكنك الصيد وعيناك مصابتان ؟"–"الذين يصيدون هم الشبان (العيال el-eyyal) ؛ أما أنا فأبقى فى البيت." اقتربت من خيمة كانت فيها زوجة حطيمية تغلى شيئا من اللبن ، فى إناء كبير ، كى تحوله إلى مريسى . جلست أرى ما تصنعه تلك الزوجة : كان الإناء يغلى . وسألتنى هذه الزوجة إن كنت أتسطيع متابعة التُّفل إلى أعلى بعينى ؟ "فقد سمعتهم يقولون : إن النصارى لا يستطيعون النظر إلى السماء." وراحت تؤنبنى وتقرعنى على "كفرى ودعائي لله ؛ "ولم أرد عليها بكلمة واحدة . ثم تناولت ملء مغرفة من المريسى ، وصبت عليها شيئا من السمن ، ووضعت المريسى فى سلطانية ، وطلبت من الغريب أن يأكل من السلطانية ، ثم أردفت عن طيب خاطر ، "آه!لماذا تعيش حياتك بلا دين ؟ ولماذا تجر على نفسك عداء الله وعداء الناس لك ؛ كل ما عليك هو أن تصلى وسيكون الناس جميعا أهلا وأقاربا لك ." – كان ذلك كلام هؤلاء البدو الرحل الذين يعيشون فى هذه الصحارى .

فى صباح اليوم التالى ، ونظرا لعدم عودة المراسل ، حمَّلنا أمتعتنا فى ساعة مبكرة . كانت الشمس مشرقة ونحن نمضى قدما ؛ وعند الطرف الآخر من المخيم عزم علينا رجل آخر من قبيلة بشر ، وطلب منا النزول عن دوابنا لاستضافتنا ، نظرا لأنه كان مستعدا لذلك – وهذا نوع من الكرم الصباحى الفريد ؛ ولكن طبق أرز ذلك الرجل كان من المفروض أن يكون عشاءً لنا فى الليلة السابقة . وبينما كنا نأكل ، جاءت إلينا

امرأة وهى تصيح وتطالبنى بشفاء ابنتها والبقاء هنا ، "– وأن نحل ضيوفا عليها ؛ وقالت : إنها سوف تعطى الحكيم جملاً إذا ما تحسن حال ابنتها." وهنا وجدت أن إياد كان منحازا إلى فكرة بقائنا فى هذا المكان ، مثلما كان مصرا على التحرك بالأمس ؛ ولكنى ركبت الناقة ومضيت قدما : بدأنا الرحلة دون أن يكون معنا أى شئ من الماء . والضيف لا يتعين عليه أن يطيل مدة الضيافة ، ولم نستطع أن نطلب منهم ملء قربة الماء الصغيرة ؛ ومع ذلك فإن المضيفين عندما يرسلون أحدا منهم إلى الوريد لجلب الماء فإنهم يرسلون أيضاً قربة ماء الضيف كى يجرى ملئها بالماء مع قرابهم .

مشينا قرابة ساعة أو ساعتين ، عبر جبال وعرة ، إلى أن وصلنا جبهة أطللنا منها على سهل واسع قاحل ، كان يمتد أمامنا فى اتجاه الشمال . لم يحضر إلى هذا المكان سوى مرجان الذى جاء إليه مرة واحدة فى طفولته ؛ كان مرجان يعرف أن خلف ذلك السهل توجد بعض حفر الماء ، – وأننا يتعين علينا العثور على تلك الحفر ، نظرًا لأننا لم يكن معنا ماء نشربه . نزلنا إلى ذلك السهل وشاهدنا آثار أقدام ماشية صغيرة ؛ وكنا نتطلع إلى أن تهدينا تلك الآثار إلى مسقى من المساقى . كانت التربة فى هذه المنطقة تحتوى على كثير من البللورات اللامعة . وعندما نظر مرجان إلى العلامات الأرضية ، خطر بباله أننا تجاوزنا مصدر الماء ؛ وهنا قال رفيقاى :إنهما سيعدوان على ظهر الناقة ليبحثا عن ذلك المصدر ، وطلبا منى الجلوس فى ذلك المكان انتظارا لعودتهما : ولكنى أحسست ، أن قلبيهما الشريرين ربما أوحيا لهما و بعد أن قطعا مسافة ميل ، أن يتخليا عنى ويتركانى أموت عطشا فى هذا المكان.– وبعد أن بركّا الناقة أنزلا أمتعتى من فوقها . "قالا: إن الطريق مرهق ، إذا ما قطعناه سيرا على أقدامنا ، وقد يستغرق العثور على مصدر الماء وقتا طويلا ؛ بالإضافة إلى أن الرؤية تكون أفضل من فوق ظهر الناقة." "سوف أبحث معكما عن الماء"– لا ، ولكننا سنعود إليك على وجه السرعة."– حسن ، اذهبا ولكن اترك معى بندقيتك الفتيلية ، يا إياد ؛ وإلا فلن نفترق بغير هذه الطريقة." وهنا ألقى إياد بندقيته الفتيلية ، على غير رغبة منه وركبا الناقة وابتعدا عنى .

غابا عنى ساعة ونصف الساعة : ثم ، دهشت بعد ذلك ، عندما وجدتهما يعودان إلّى ، وقد أحضرا معهما الماء.– راح إياد يشتكى من أنى لا أثق به! "ووالله ، لم يسبق

لأحد أن أخذ منه بندقيته ؛ ولكن هذا هو خليل!"-"ولأنكما رفاق أمناء ، فستجدانى مؤدبا؛ - ولكن خبرانى ، هل فتحتما النار على أفراد قبيلتكم؟" نعم"بالله ؛ وأنا العراجى فتحت نار سلاحى على عوّاجى آخر ، وإذا كنت قد فعلت ذلك مع أبناء جلدتى وأهلى فما هو ذلك الذى لا يمكن أن أفعله أنا معك؟"-"كيف لى أن أثق بك عندئذ؟" مرجان:"أنت ، يا خليل ، تقول كلاما طيبا ، وهذا الإياد شخص لا يحسن التفكير."فيما بين الأعراب ، قد يعض الأصدقاء أصدقاءهم ، فيما بين الجد واللهو ، وهذا أمر مقبول بينهم . إياد:"هيا بنا نجلس ونشرب drink الدخان ؛ نظرا لأننا لن نواصل مسيرنا أثناء النهار ، تحسبا للأخطار ، وسوف نركز على السير أثناء الليل . اذهب يا مرجان وأحضر لنا شيئا من الحطب ، حتى نتمكن من إعداد خبزنا هنا قبل أن يدخل علينا المساء ، حيث يصبح شب النار أمرا غير مقبول . "نهض مرجان وهو منشرح الصدر ؛ "نهض مرجان وهو منشرح الصدر ؛ نظرا لأن ذلك هو العمل الذى يكلف به صغار السن ، من بين عابرى السبيل فى الصحراء .

وضع مرجان فى يدى ورقة ، أخرجها من حزام الذخيرة ، كى أقرأ عليه ما فيها . كانت تلك الورقة كمبيانة ، أوصكا بخدمته فى الحكومة : يستحق مرجان البجاجى ، فرد العجيل ، مبلغا من الريالات ، عن خدمة عام وبضعة أشهر ، ومخصوم من هذا المبلغ سبعين ريالا قيمة أو ثمن الناقة التى نفقت . ، "وماذا عن ناقتك يا مرجان ...؟"-" لقد نفقت ، وهم [وبخاصة عقيده الغشاش المخادع الذى يبلع مستحقات الرجال الفقراء على هذا النحو ، عندما يلتحقون بالخدمة فى الجيش ولا يكون لديهم إبل] قد دونوا أمام اسمى مبلغ سبعين ريالا مقابل الناقة النافقة ! والله ، إن تلك الناقة كانت تساوى أقل من عشرة ريالات . - وبذلك لن يتبقى لى سوى خمسة عشرة ريالا فقط ، والله هو الذى يعلم ، متى أحصل على هذا المبلغ." - "أنها خدمة مؤسفة." "نعم ، وظالمة . أيضاً ولكنى أفكر فى إنهاء خدمتى هذا العام." "بوسعك أيضاً أن تخدم مع ابن الرشيد ، الذى يدفع لكل رجل من رجاجيله rajajil ما قيمته كراون واحد ، منقوص منه أربعة ريالات مجيدية ، فى الشهر الواحد ، وهو لا يؤخر دفع هذا المبلغ بأى حال من الأحوال وهو يضيف إلى ذلك المبلغ ، منزلا للسكن وبعضا من التعيينات التى تستعمل فى المأكل ."-"نعم ، أنا أفكر فى عمل ذلك ، بعد أن أصبح فى حل من الدولة."

أمضينا ساعة على هذا الحال ، ثم استأنفنا مسيرنا ؛ كانت الأرض عبارة عن سهل رملى ، تحفه من ناحية الشرق جبال تقع على بعد مسافة كبيرة . وفى المنتصف بين التلال ، هناك مسقى صيفى تابع ليمِّين Yemmen العواجى . فى هذه المنطقة توجد آبار يصل عمق البئر فيها إلى ما يقرب من عشر قامات ، وهم هنا يقولون : إن تبطين تلك الأبيار من عمل الجان Jan.- وهنا وجدنا أنفسنا ننتقل مرة ثانية من الأحجار البركانية إلى أحجار رملية (شديدة الحمرة) . وهنا ظهرت أمامنا فجأة تلة سوداء على بعد مسافة كبيرة أمامنا فى الحَّرة ، وهم يطلقون على تلك التلة اسم جبل إثنان Ethnan وهذه الصحراء الرملية تابعة للعواجى ؛ تربة بيضاء ، تنمو فيها أفضل المراعى وشاهدت من حولنا منطقة كثيفة من الأدغال الخضراء ! ومع ذلك فإن ثلث تلك الأدغال لا يصلح أن يكون طعاما لأى مخلوق : وجدنا فى ذلك آثار أقدام النعام . "قالوا : هيا بنا نعجل المسير ، [فى هذه الأرض الخلاء]، " وطلب منى إياد أن أطّلع على كتبى ، كى أتبين منها الأخطار التى تنطوى عليها مغامرتنا ؛ فو الله wellah يضيق Yudayyik صدرى Sudry منذ أن جعلتنى أضع بندقيتى الفتيلية إلى جوارك ؛

توقفنا بعد طلوع النجوم بساعة ، فى مكان منخفض ، تحت دغل منعزل كبير ؛ وبركنا الناقة أمامنا ، كى تحمى أجسادنا من برودة الليل وريحه ، التى وصلت إلى حد الإعصار ، تلك البرودة التى تنفذ من خلال ملابسهم الحجازية الخفيفة إلى أجسادهم الضعيفة . هؤلاء الرفاق من البدو تناسوا مخاوف النهار طمعًا فى شب النار لطلب الدفئ : وراحوا يبحثون حولهم عن الحطب فى الظلام . وبينما كنت أحفر بيدى فى الرمل عثرت على شئ من روث الحيوانات (الجلة Jella) فى الرمل ، – كان هذا المكان مبركا قديما من مبارك الإبل ، أو مجرد مكان بات جمل فيه ليلة واحدة والذى لا شك فيه أن هذا المكان لابد أن يكون سبقنا إلى المبيت فيه ، أحد المسافرين ، الذى اتخذ من هذا الدغل الكبير لوكاندة له : كانت الريح قد تسببت فى دفن روث الحيوانات ، مدة عامين أو ثلاثة أعوام . ملأ مرجان عباءته بذلك الروث الجاف : سرعان ما اشتعل ذلك الوقود الثمين وراح يتوهج بحرارة حمراء فى وجارنا الرملى ، وصلحت شيئا من الشاى الذى لم يكونوا قد تذوقوه حتى الآن .

استمر برد تلك الريح طوال الليل ، فقد كانت لفحة البرد قارسة تماما . وبشق الأنفس استطاعوا منع تصلب أصابعم بسبب البرد ، أن يشبوا النار من جديد : واصل الرفاق جلوسهم ، – إذ لم تكن أجسامهم شبه العارية فيها من الدفء ما يساعدهم على السير فى عكس اتجاه تلك الريح قارسة البرودة .– وهذه لفحة من الهواء تدوى من حولنا وتسببت فى بعثرة الجمار هنا وهناك ، "إخص ! صاح إياد ، السِّكير ، الله Ullah يلعن yulaan أبو obu ها الهبوب hal hubub بمعنى لعن الله هذه الريح الشديد وأردف قائلاً الله ullah يسلط yusullat على aly ها الحطب ha,l hattab ، بمعنى الله يجازى هذه النار . "نهضنا واقفين فى نهاية الأمر ؛ وسبح الرفاق البدو بأجسادهم لمدة لحظة فى تلك الحرارة ، وراح كل واحد منهم يعرض ملابسه لتلك الحراراة عله يصيب شيئا من الدفئ قبل أن تنطفئ النار . عواصف شهر مارس حملت ذرات الرمل إلى أعيننا ، وقذفت بها أيضًا داخل أفواهنا وبين أسناننا . وراح الرفاق يسيرون مترنحين، – ويممنا وجوهنا شطر الشمال الشرقى : وبعد مسير دام ساعتين توقفوا ليشبوا النار من جديد . كانت السماء ملبدة دوما بالغيوم والسحاب الخفيف . وانحسرت العاصفة قبيل الظهر ، وبدأ هبوب الريح يعتدل شيئا فشيئا ، من الاتجاه المعاكس ! وهنا نكون قد وصلنا إلى الحد الأسود للحّرة ، تحت تلة إثنان Ethnan العالية . تلة الإثنان هذه تقف منعزلة ، وسط صخور بركانية نارية ؛ والبدو الرحل يقولون : إن هذه الحلة hella الضخمة يصعب الوصول إليها . والناس هنا ، يرون في بعض الأحيان ، بعد مطر الشتاء ، بخارا خفيفا يتصاعد ويلتف حول الرأس البركانى : كما أنهم يشاهدون الشئ نفسه فى صباحات الشتاء فوق بعض الصدوع المحددة فى الحَّرة ، – ورائحة ذلك البخار تشبه رائحة الماء الدافئ . وقد أكد العم محمد على ذلك الكلام أيضًا

فى هذا الجزء من الأرض توجد (علامة أرضية) أرض على شكل وادى تمتد خلال الحَّرة إلى قرية الحيات el-Hayat ، والناس هنا يطلقون على هذا الوادى اسم وادى مخيط Mukheyat . وفى مسيرة واحدة من مسيرات الصيف لا يكفى الماء الموجودة فى قربتى سوى ثلاثة رجال إذا ما كانوا ظمآنين ، وتلك كانت المسيرة أو إن شئت فقل : الرَّحْلة الثانية ؛ وقبل العصر شربنا القليل من الماء ، ولم يكن لدينا ما نأكله . ولكن ذهنى كان يتطلع إلى رؤية المزيد من التلال المكونة من الصخور النارية الموجودة ضمن

الصخور البركانية السوداء التى أمامنا . ومعنى كلمة "حلة" hella أو "حلاَّية" hillaya ، فى رأى العم محمد هو الشئ الذى يظهر بشكل واضح ، – كما أخبرنى أيضًا أن هناك فى المدينة المنورة نوعا من التمر يحمل هذا الاسم أيضًا . أما إياد فقد قال : أن هذه الكلمة "حلة" Halla تعنى "تلة الحرَّة المكونة من مسحوق أسود وفضلات المعادن ، "وأن الحلّة hellayey تعنى "التل الصغير من تلال الحّرة ؛ وهناك أيضًا كلمة حُلى" hilli أو حلوات hellowat (والبعض يقولون "حليان" hillian) وهى تعنى تلال الحَّرة ، فى صيغة الجمع . " وسرنا فى اتجاه تلك الحليان التى سبق لى أن اجتزتها مع غروسيب . وعندما أوشكت الشمس على المغيب راح الرفاق يحيون (بإخلاص) الهلال الجديد .

كانت النجوم طالعة عندما توقفنا بين الحليان ، وكانت تلك الليلة توافق الليلة الثامنة اعتبارا من بدء مسيرنا من خيبر . خطر ببال رفيقى أن من الخطر شب النار فى ذلك المكان ، ولم يكن معنا أيضًا ما نأكله ؛ – قالوا : يتحتم وجود ماء على مقربة منا فى هذا المكان . هب إياد واقفا ليبحث عن ذلك الماء ، ولكنه لم يستطع العثور على موضع الماء أثناء الليل – "همهم قائلا : لقد غبت عن هذا المكان اثنى عشر عاما !"وقال: إنه يعرف العلامات الأرضية عندما يكون الجو نهارا! ثم خرج وعاد إلينا بقربتى وقد ملأها من ماء الحفر الضحلة التى تمتلئ بماء المطر على جانبى الطريق. (وعلى حد قولهم) طلعت عين شمس "بطول الرمح" على المرتفع ، وقد بدأنا نشعر بالانتعاش بعد أن شربنا الماء المختلط بالطين ، ثم بدأنا نستأنف مسيرنا على وجه السرعة" .

ساروا فى اتجاه الشرق عبر أرض بركانية الصخور ، إلى درغزود Thurghrud : التى هى هجرة (كفر) صغيرة تعيش فيها أسرة واحدة على آبار مستوطنة قديمة عند الحد البعيد للحّرة . إياد : "لقد عثروا فى الجيل الماضى على واحد أمثالك كان يتسلع هنا وهناك أو إن شئت فقل (يتجسس) yujassas على البلاد : "وقال إننى ينبغى أن أرى "ذر غرود" بدلا من قرية الحيات .. مشينا فى مجرى سيل طويل وحوض من الرمل الأسود فى الصخور البركانية ، التى نبت فيه قليل من نبوت الربيع : وأطلقنا الناقة فى تلك الحدود الخضراء لترعى ، ورحنا نحن بدورنا نجمع العشب فى أيدينا أثناء مسيرنا ، وكنا نضع ذلك اعشب بين فكى الناقة . وفى الأماكن التى كانت تنمو فيها أشجار السنط ، كنت أجد قليلا من العشب تحت الجانب الأيسر من شجرة السنط ؛ أى فى

ذلك الموضع الذى يكون فيه ظل ضئيل ناتج عن أوراق شجرة السنط الصغيرة ، وأن ذلك الظل كان بمثابة حماية لذلك الجزء من الأرض من حرارة الشمس الحارقة ، كما أن رطوبة الخريف تكون آخر ما يجف فى ذلك المكان . كنت أسير فى المقدمة وشاهدت آثار لأقدام الإبل ! وناديت على الرفاق لأسألهم إن كانت تلك الآثار هى الآثار التى شاهدناها بالأمس : – قالوا : إن هذه الآثار ثلاثة أيام . ولم يستطيعوا أن يقطعوا إن كانت تلك آثار غزوة من الغزوات ، – هذا يعنى أن بدو العجيل هؤلاء ، لم يستطيعوا أن يتبينوا إن كانت تلك آثار أقدام نياق ، كانت تجرى مسرعة بركابها من فوقها ، أم أنها آثار أقدام إبل من إبل الرعى ! ولكنى عندما رأيت آثار أقدام البعارين الصغيرة تخيلت أن ذلك ربما كان قطيعا من الإبل ينتقل فيما بين المراعى . وقد حدث لنا ذلك من قبل عندما شاهدنا آثار أقدام ماشية ابن سمرة ، وهذا أمر عجيب أن يكون حكم الغريب أقرب إلى الصدق من حكم رفاقه من البدو . كنا نرى آثار الأقدام دوما أمامنا ، وعندما أوشك وقت الظهيرة على الدخول ، وعندما احتار الرفاق حول مسألة اقتفاء أثر تلك الحيوانات أم تجنب تلك الآثار ، وجدنا أمامنا قطيعا يرعى على بعد مسافة كبيرة أمامنا .

كان الرعاة يرقدون ووجوههم مدفونة فى المرعى الأخضر ، ولم يستشعروا وجودنا ، إلى أن عاجلهم صوتنا بخوف الصحراء . نهضوا فجأة ليرونا بأسلحتنا اللامعة ؛ ولكنهم عندما سمعوا كلمة السلام (سلام عليك) تشجعوا . وعندما حكى إياد تلك المغامرة فى فترة لاحقة ، "قال : لو كان هؤلاء الناس قوم gom ، كنا والله ، قد أخذنا كل هذه الماشية ولم نترك منها شيئا مطلقا . " وبعد أن جلسنا مع هؤلاء الرعاة سألنا كبيرهم ، "كيف تجرأ على إحضار إبله إلى هذا المكان ؟ "أجاب ، الله Ullah يطّول yetwil عمر umr ها الولد! ha weled بمعنى "أطال الله عمر ذلك الشاب [الأمير بن الرشيد] أطال الله عمره ، لأننا ، فى ظل حكمه نستطيع رعى ماشيتنا بلا خوف ، الأمر فى أيامنا هذه ليس مثلما كان عليه قبل عشر سنوات ، ولكنى أنا وشقيقى الصغير يمكننا رعى bil "(الإبل) فى طول هذه الأرض وعرضها . "ثم أرسل أخاه ليحلب لنا شيئا من الحليب ؛ ولما كنا مرهقين ، وجوعانين وعطشانين فقد شرب كل واحد منا

حوالى ثلاثة أو أربعة مكاييل ، أى ما يقرب من نصف جالون من الحليب لكل واحد منا، شربها كلها دفعة واحدة : مرجان هو الشخص الوحيد الذى لم يشرب مقداراً كبيراً من الحليب نظرا لإصابته بمرض الطحال . كان الرعاة من الحطيم ، كانوا خارج منزلهم منذ بضعة أيام ، وبالتالى كانت نياقهم حلوبا . لم يكن هؤلاء الرعاة يحملون أى شئ سوى مشاعيبهم وعباءاتهم ، وسلطانية واحدة فيما بينهم ، ولم يكن معهم أية مؤن أو أسلحة أخرى . وعندما يحسون بالجوع أو العطش يحلبون ضرع ناق من النياق ويشربون من الحليب ما يشاءون . وأرونا كيف نبحث عن البدو الرحل الموجودين على طريقنا ، ثم تركناهم ومشينا فى طريقنا بعد ذلك .

الفصل التاسع

الرحلة الصحراوية إلى حائل . طرد النصرانى من هناك

ظهور عياد بن عجوين مرة ثانية. ضيوف غير متحضرين من الحطيم. غروسيب، وصالح مرة ثانية. أسماء الخيول عند البدو. نزاع مع الرفاق. ليلة ليلاء فى الخلاء. زول. تعال إلى الخيام والترفيه البرئ. روضة فى الصحراء. شواء الصيادين التيه، أو الذلول الشبح فى بلاد الشرارات. إياد بشخصه. مطير، بشرى مسكين. البريتشان، أحد شيوخ الشمر. تجديف حطيمى. البساطة الدينية عند البدو. صبى من البدو يبحث عن مكان الراعى. أول هجر جبل شمر. بيت كبير آخر فى الصحراء. بين الكلب والذئب؛ القرية القصر. أخبار تغيّب الأمير عن حائل. بنو تميم Temim. حائل تتراءى لنا . قفار. تعال إلى حائل، المرة الثانية. عنيبر ينوب عن ابن الرشيد فى المدينة. استقبال النصرانى، تشدد ونية سيئة. عنيبر غريما . أحد أشراف المدينة فى حائل. غريب يمنى رأى النصرانى فى مصر. أخبار الحرب التى انتهت. شيخ العجمان الكبير. تشدد أهل المدينة فى الصباح؛ ساعة ثقيلة. الرحيل للمرة الثانية عن حائل مع بعض المتاعب. تعال ثانية إلى قفار بنو تميم والشمر.

وصلنا خلال فترة العصر إلى هضبة من الحجر الرملى تقف مثل جزيرة من القمم الصخرية وسط الحرة البازلتية، ظن الرفيقان أننا كنا مخطئين، عندما نظرا إلى مسافة بعيدة عبر الأرض البركانية ولم يريا أحدا من الأعراب، من أرض مرتفعة أخرى حسبا أنهما رأيا قطيعا من الإبل على جبل بعيد: ولكنى عندما نظرت من خلال نظارتى لم أر ذلك القطيع! سرنا فى ذلك الاتجاه، وشاهدنا بدويا مترحلا جالسا على مقدمة صخرة

بركانية يرعى إبله. وقف ذلك الرجل وجاء للقائنا:"يصيح الرجل ما هو! خليل، أجئت إلى هنا مرة ثانية ؟" تعرفت الصوت، وتيقنت أن الرجل هو عيادة Eyada بن ibn عجوين Ajjueyn، شيخ الحطيم، الذى عبرت من منزله بصحبة غروسيب Ghrocyb الحرة كى أصل إلى خيبر!

حيانى عيادة، ولكنه تساءل عن رفاقى، وكانا غرباء عليه ولزما الصمت. وتلك هى عادة الصحراء، عندما يلتقى البدو الرحل بعضهم البعض ويتشككون فى بعضهم البعض إن كانوا أصدقاء أم أعداء. جلسنا كلنا أرضا؛ وهنا قال ذلك الحطيمى الفظ:" يا خليل، من يكون هذان اللذان معك ؟"-"اسألهما بنفسك."-" حسن، يا شباب، من أية قبيلة أنتما،- أظن أنكما من خيبر ؟" ردا عليه،" نحن من العجيل وقد أوفدنا باشا المدينة (المنورة) لتوصيل خليل إلى بن الرشيد."-"ولكنى أرى أنكما من البدو تماما، وأنا أسألكما أى بدو ؟- أجاب إياد،"يا ya فلان Fulan- لأنى لم أعرف بعد اسمك، نحن لم نذكر الاسم لاحتمال أن يكون هناك نزاع بني قبيلتينا."-"أهو!أهذا هو ما تخشاه؟ لا تخشى شيئا [وعند الضرورة استخف بهما هما الاثنين]، إخ من يكون هذين الرجلين ؟- قال: حسن أحسب أنكم جميعا ظمأئين؛ سوف أحلب لك أولا يا خليل، ثم لهذين الرجلين من بعدك، هذا إن كانا يريدا أن يشربا الحليب!" وبعد أن شرب رفيقاى رد عليه إياد،" أقول لك الآن؛ إننا من البشر."- هذا يكفى، إننا أصدقاء؛ وأنت نصرانى يا خليل، فكيف استطعت أن ترى خيبر ؟"- إنها مكان لعين.""لماذا ذهبت إلى هناك، ألم أحذرك من ذلك ؟"-" أين غروسيب ؟"- إنه ليس بعيدا عن هنا وهو بخير، وأنا لا أعرف كيف حدث ذلك، وأنك كنت ستأخذ منه ناقته."-"هذا هو كلامه على علاته."-" (قال موجها كلامه لرفيقاى): الأرجح أن خليلا رجل صادق وأمين؛ والأدوية التى اشترتها منه نسائنا ونساء أعراب القصيم، يقولون عنها: إنها مؤثرة ومفيدة. فما رأيكما فيه ؟ أهو رفيق طيب ؟"-" نعم، هذا شيء لابد أن نقر به، بالرغم من أنه نصرانى! ولكن والله إن المسلمين هم الذين ينبغى أن نطلق عليهم اسم النصارى مرات ومرات". "واين ستمضون الليلة ؟" - "نحن نبحث عن الأعراب، ولكن دلنا، أين يمكن لنا

العثور على بيوتهم."-"(يقف الرجل ويشير بإصبعه) هناك فى الخلف، اسلكوا الطريق المنخفض، من هذه الناحية؛ ولا تنحرفوا عن الطريق وستصلون إليهم عند غروب الشمس. وقد أذهب أنا إلى هناك فى فترة المساء، ثم أركب دابتى معكم صباح باكر إلى حائل."- تعجبت من ذلك الشيخ الذى يرعى إبله بنفسه!

سرنا فى أماكن وعرة، بالقرب من الحد الشرقى للحرة؛ وكانت الشمس قد أوشكت على الغروب عندما عثرنا على خيام الأعراب التى نصبوها فى أرض منخفضة، كان هؤلاء البدو من الفريج Ferij (والتصغير فيرج Ferij، وصيغة الجمع"فرجان" Ferjan)، ومعناه الحاجز، وهم أيضا من الحطيم، والفريج هجرة (كفر) بدوية؛ ويغلب أن تكون الأسر المقيمة فى الهجرة التى من هذا القبيل، مرتبطة ببعضها بصلة القرابة. وهكذا نجد أن السواد الأعظم من القبائل البدوية المترحلة يفترقون عن بعضهم البعض طوال القسم الأكبر من العام، إلى أن يدخل على الجميع فصل الصيف؛ ثم يتجمعون وينصبون خيامهم على شكل منزل كبير حول مورد رئيسى من موارد المياه فى بلادهم، أو إن شئت فقل: فى ديرتهم.

نزلنا أمام خيمة الشيخ؛ ووجدنا داخلها سجادة تركية جميلة، كما لقينا منهم أيضا السلوك الحطيمى غير المريح، والكرم الحطيمى المتدنى. وضعوا أمامنا سلطانية من شرائح اللبن المجفف التى لا يمكن كسرها إلا بواسطه أحجار المطاحن (الرحى). بعد ذلك، قدم لنا هؤلاء المضيفون غير المتحضرين، والذين كانوا عبارة عن بعض الشبان المتشددين سطلين من ذلك الحليب المنعش فى تلك الصحراء:- ولم يحضر عيادة مثلما قال عندما التقيناه.

هؤلاء المضيفون كانوا قد سمعوا عن النصرانى، وعن رحلتى مع غروسيب، كما سمعوا أيضا عن حكاية قريبهم، التى مفادها (أن خليلا بالرغم من كونه رفيقا طيبا) إلا أنه كان يود أن يأخذ الناقة لنفسه عندما كانا قريبين من خيبر. وقال شخص آخر: إن الرحلة كانت خطيرة، وأن غروسيب تعرض أثناء عودته لخطر كاد أن يودى بحياته؛ لأنه واجه أثناء عودته انهمار المطر الشديد. مما اضطره إلى الاتجاه غربا والسير

فى أكثر المناطق البركانية الصخرية وعورة؛وبينما كان يسير فى مجرى سيل من السيول داهمته كمية كبيرة من الماء: وتعثرت ناقته وسقطت منه بندقيته الفتيلية: واستطاع بشق الأنفس الوصول إلى بر النجاة، كما استطاع أيضا سحب ناقته والعثور على بندقيته. فى الصباح استأنفنا المسير مدة ساعتين وصلنا بعدها إلى هجرة (كفر) أخرى من هجر الحطيم.- سوف نقضى اليوم كله فى الرحلة، ولذلك اتجهنا للنزول من فوق ناقتنا أمام بيت من البيوت؛ ومن باب المصادفة المحضة اتضح أن ذلك البيت كان بيت ذلك الرجل الذى يدعى صالحا! والذى سبق له أن تخلى عنى فى هذه المناطق عندما جئت إليها (قبل ثلاثة أشهر) قادما من حائل. وعندما خرج الرجل للقائنا، ناديته باسمه، تعجب هو الآخر عندما رآنى. كان صالح يتمنطق بحزام الذخيرة، استعدادا للذهاب مع رفيق إلى قرية الحيات سيرا على الأقدام، والتى تبعد مسير رحلتين؛ وكانا يستهدفان من تلك الرحلة-صنع خزنتين جديدتين لبندقيتيهما، بواسطة صانع ماهر (سمعا عن مجيئه إلى قرية الحيات). كان صالح وإياد قبليين، من فخذ واحد، ويعرفان بعضهما البعض منذ زمن طويل. كانت الخيمة القريبة من صالح واحدة من خيام كبار رجالات الحطيم، الذى كان يقوم بدور الرفيق الثالث لنا فى رحلة الخريف. دخل الرجل علينا بعد أن سلم علىَّ وهو تبدو عليه القوة والشجاعة؛ واضطر صالح إلى تأجيل رحلة الذهاب إلى قرية الحيات من أجل عيون الضيوف. هذا المكان من الصخور البركانية يطلق الناس عليه هنا اسم الحربان **Herban**، وهو عبارة عن صخرة من الحجر الرملى أحمر اللون، تبرز من بين الصخور البركانية: وفى اتجاه الشمال شاهدت للمرة الثانية جبال بشرة **Bushra** ويصح فيه أيضا بثرة، **Buthra**. وبعد أن شربنا من اللبن، خلدنا للراحة بضع ساعات. طلبت منى زوجة ذلك الحطيمى الكبير قليلا من الدقيق وأعطيتها حفنة من الدقيق، كانت هى كل ما معى؛ ونثرت تلك الحفنة من الدقيق فى إناء السمن الذى كان يغلى وعزمتنى على تناول الرغوة التى نتجت عن ذلك. ثم قامت تلك الزوجة بوضع السمن النقى فى القربة المخصصة لذلك؛ ثم وضعت أمامنا ما تبقى من الزبد والدقيق.

عدت بسلام، وبالتالى لم أقل شيئا؛ كان بوسعى ألا أحيى صالحا متبعًا فى ذلك أسلوب التحضر الاسكندنافى،"أشكرك للمرة الأخيرة!" ولكن زوجته سألتنى،" هل صالح إنسان طيب، يا خليل ؟" كان قد أنجبا طفلا عمره ست سنوات الآن، طفل صغير، يشبه الدودة العارية، يرقد متقيا شر البرد بين ذراعى أمه،- وكان على عريه هذا طوال فترة الشتاء، على ارتفاع يقدر هنا، فى هذه المنطقة، بحوالى أربعة آلاف قدم! وأنا أعجب بحق، كيف يستطيع الناس البقاء هنا على قيد الحياة فى هذه الأيام السيئة. دخل علينا رجل كان يرتدى ملابسه على نحو لم يسبق لى أن رأيت عليه بدويا من البدو المترحلين، إذ كان يرتدى عباءة (بشتا) من الأقمشة التى جرى نسجها محليا من قماش الخيام؛ ولكن الريح كانت تنفذ من خلال ردائه الثقيل، الذى يشبه السجادة. عثرت على قطعة من البفتة أعطيتها للأم المسكينة، لتصنع لطفلها معطفا صغيرا.

عندما دخل علينا المساء وضع، صالح أمامنا تيسا مسلوقا وأكلنا حتى الشبع. وبعد تناول العشاء سألنى صالح حول ما إذا كنت راضيا أم لا ؟-مسكين! ربما كان صالح خائفا من ذكرياتى السيئة من ناحية أو من كتبى السحرية من ناحية أخرى. أتفق صالح مع كل من إياد ومرجان أنهما فى حالة مجيئهما من حائل مرة ثانية، فإنهما يتعين عليهما المرور عليه، على أن يقوموا هم جميعا بالذهاب إلى خيبر، التى سيقوم ببيع سمنه فيها نظير التمر، الذى يحصل عليه فى موسم الحصاد. وبالرغم من أن صالحا كان واحدا من البشر الأعداء، إلا أنه كان حطيميا من حيث الأسلوب، إضافة إلى أنه سيكون فى مأمن إذا ماكان بصحبة إياد فى خيبر.- ولكن كيف لهما بالعثور على تلك الخيام الثلاثة فى الصحراء بعد أيام عدة ؟ أشار صالح عليهما بما يلى؛" سوف ننتقل فى اليوم الرابع (عندما أعود أنا من قرية الحيات) إلى المنطقة الفلانية وعندما تأتى الماشية على العشب الذى فى هذه المنطقة، سننتقل إلى العلامات الأرضية الفلانية؛ وبعد مضى عشرة أو اثنى عشر يوما ابحثا عنا فى منطقة العلامات الأرضية كيت وكيت، وسوف نسقى ماشيتنا من المياه الفلانية أو العلانية."- كان صالح يتحدث إلى آذان تعى وتعرف كل الصخور والقمم ومجارى السيول والأراضى المنخفضة الموجودة فى تلك الصحراء: لقد سبق لإياد التجوال فى تلك المناطق أيام شبابه.

جاءنا بعض الشبان من الخيام المجاورة، ليتجمعوا معنا حول نار المساء. قال أحدهم:"خليل رجل رحالة من بلاد بعيدة؛ وحياة هذا الرجل تجوال فى كل أنحاء الدنيا! ووالله، أظن أن هذا هو الأفضل ولكن من يسافر يكون بحاجة إلى المال. لو كان لدى المال، لفعلت مثلما يفعل هذا الرجل، وأزور أمما أجنبية أعرف كلامها، واقف على طرق معيشة الناس فى البلاد المختلفة والغريبة: آه! يالحياتنا معه: نعم، والله، يا خليل، سأكون لك رفيقا مخلصا!" قال آخر:" لقد شاهدت الدنيا، خبرنا أين توجد الحياة الفضلى ؟"-" قال شخص ثالث:" فى بيوت الشعر."- لا، لا! هذه أرض بؤس وشقاء، والأعراب مساكين." قال شخص رابع:" ومع ذلك، فالأعراب رجال شجعان، وليس لهم مثيل فى الدنيا! ما رأيك فى خيول الأعراب ؟ والله أليست هذه الخيول مثل الطيور ؟"

الحطيم ليس لديهم خيول وإن وجدت فهمى قلة قليلة؛ سألت عن أسماء تلك الخيول." قال صبى طيب: سأقول لك بعض هذه الأسماء:- السائرة Saera، البومة el-Buma، الرهدين el-Raheydin، الصغار، السبيقة Sabiga، هيها Hyha، عجيرة Ajerra، ساعفة Saafa،- بعض هذه الأسماء عبارة عن أسماء لأفراس من بنى هلال؛- شطيفة Shottifa، القمرية el-Jimerieh، الشجيرة es-Shujjera" (الفر الأحلس،- السواد الأعظم من خيول نجد لها هذا اللون الأحلس (الكوميت) أو اللون الأحمر الكستنائى بكل درجاته؛ واللون الرمادى يندر هنا، كما أن اللون الأسود هنا يعد أشد ندرة). وكل ما سبق عبارة عن أسماء لأفراس؛ وأهل الصحراء لا يعيرون ذكور الخيل اهتماما من بين المواشى. طلبت منهم أن يحدثونى عن أسماء حميرهم.- فجاءت على النحو التالى دغريمة Deghreyma، الدهيسة ed-Deheysa، الجميرة ej-jammera، الخيبة el-Kheyba، الكوة el-Kowwa، الدوما ed-doma الوجلة el-Wajulla، المنسلة el-Minsilla، سورة Sowra، الجرذية el-girthieh الزمران eth-thumran الشعرة el-Shaara النجلة el-Nejjilla، الرخصة el-Rukhsa، اللهة el-Laha الحنابة el-Hannaba السعدة el-Suada ، الجرملة el-jirmella، الخصابة el-Khosaba، حبارة Habbara [هذه أيضا من أسماء الأفراس]." ياالله!- يصيح إياد الجحش، بعد أن نفد صبرى، يالهذه الحماقة التى فى خليل؟- أنت يا رفيقنا، هل تستمع إلى هراء من هذا القبيل! والله

إن الناس سوف تحتقرنا وتحتقرك!" قالوا أيضا: إن هذه الأسماء، هى أيضا أسماء لفروع من الحطيم: ابن Ibn براك Barrak، ابن ibn جيلادان Jellasan، ابن داموك Dammuk (من الخلوية – يقال إنهم من الصلوبة)، ابن سمر Simra أو الذيابة elh-Thiabba، المثابرة el-mothabara الفرادسة el-Faradisa ابن خزيان Hizyan، الخيارات، el-Khiarat، النعومس el-Noamsy، القابض el-Gabid

رحلنا بعد طلوع النهار. تجاوزنا تل حبران Hebran، لنصل بعد ذلك إلى نقيرة Niggera واسعة، أو إن شئت فقل: خليج منخفض يعد من عجائب الطبيعة فى الصخور البركانية: أحضرنى إياد لرؤية هذا المكان الذى يطلقون عليه اسم البيضى Baedi باعتباره عجيبة من أعاجيب الطبيعة. هذا المكان هو المسقى الصيفى لهذا الفرع من فروع قبيلة السباع التى تتجول فى الجنوب مع المشهل Misshel؛ عندما ينصب بدو العواجى خيامهم فى بيضاء النثيل. وفى الأرض البازلتية، الى يلطخها روث إبل البدو الرحل هناك بئران من آبار المياة القديمة. وعندما اقتربنا من حفرتى المياه هاتين طارت منهما حمائم اليمام البرى ونحن نحاول النظر داخلهما؛ هذا اليمام يعيش على ماء الصحراء، حتى عندما يكون مثل هذه الماء غير صالح لشرب البدو أو تعافه العرب. جلسنا مدة ساعة ممتعة نلنا خلالها قسطا من الراحة فى ظل تلك الصخرة (وذلك من منطلق أننا كنا على علم بأن الأعراب الذين يقيمون على الجانب الثانى من الصخرة ليسوا بعيدين عنا): فى هذه المنطقة تراءت بعض الأعشاب لعينى وكأنها بستان صحراوى!– هؤلاء الجيران الخضر، والوارثون الأجواد فى كل أرض، للطابع الإنسانى.

استرحنا إلى ما شاء الله؛ ثم ركبت الناقة بعد ذلك، وراح الاثنان يسيران على أقدامهما. كان مرجان متعبا وغاضبا عندما وصلنا إلى منتصف الرحلة. قلت له، أثناء مضينا قدما:" أمض قدما، أيها الصبى أو أسمح بأن أتجاوزك، إنك تسير بمحاذاة أقدام الناقة ؟ غمغم، واستدار وعلى وجهه نظرة حقد وكراهية، ثم راح يصوب بندقيته الفتيلية إلى صدرى. وهنا قلت:"أعطنى هذا البندقية، وسوف أعلقها لك على مقدمة عدة

(سرج) الناقة، وسيكون ذلك فى صالحك؛"تكلمت مع إياد ليأخذ البندقية من مرجان ويعلقها فى مقدمة العدة (السرج). كان الصبى قد وعد إياد،" أنه سوف لن يضايقنى مرة أخرى: سامحه، هذه المرة، يا خليل- لأنى أنا نزلت بالفعل من فوق الناقة- وأنا بدورى يتعين على تحمل المشاق معه؛ وهذه هى طبيعته بصورة مستمرة إنه مراهق."كفى، امض قدمًا وتجاوزنى؛ ولكن إن بدر ذلك منك مرة ثانية، ياولد فسوف أعرفك خطؤك. إياد، هل شاهدت فى حياتك كلها بدويا يتهدد حياة رفيقه ؟"-" لا، والله."- يصيح الصبى المصاب بمرض الطحال، ولكن هذا (الرجل) نصرانى،- ومع النصرانى الإنسان لا يراعى القانون، أليس هذا عدو الله ؟" عندما نطق بهذه الكلمة خطفت منه بندقيته، وأعطيتها لإياد؛ ثم وضعت مشعابى على الصبى (نظرا لأن ذلك هو النظام الوحيد الذى يعرفونه فى المدينة المنورة) وأوقعته خلال لحظة واحدة، وأوسعته ضربا على ظهره. جاء إياد من الخلف، وأمسك ذراعاى، وبعد أن تخلص الصبى من قبضتى، جاء ورفسنى رفسة شديدة، واتخذ من عقالة سلاحا، وضربنى به فى وجهى: ثم أمسك بعد ذلك حجرا كبيرا، وتقدم لتحطيم رأسى، ولكنى حررت نفسى من إياد."(قال إياد متعجبا) لقد تصرفنا كلنا تصرفا غبيا وأحمقا، إخ! مالذى سيقوله الناس إذا ما تردد ذلك الذى فعلناه على مسامعهم فى يوم من الأيام ؟- وأنت يامرجان، خذ هذه بندقيتك، ولكن أغرب عن خليل؛ وسوف نتصالح مع خليل، ويركب الناقة مرة ثانية. الله! لقد كنا على وشك الإضرار بعضنا ببعض؛ ومرجان هو أضيق الناس الذين عرفتهم خلقا، وكان دوما على هذا النحو."

واصلنا تحركنا فى صمت؛ ولم أقل سوى أننا فى المنزل القادم سوف نتخلى عن مرجان. لقد كان مرجان سببا أيضا فى معاناتنا من العطش أثناء سيرنا على الطريق؛ وبالتالى يتعين علينا أن نقتسم معه الماء ونعطيه ثلث الماء الموجود فى قربة الراعى التى بحوزتى. الأفظع من كل ذلك أن هذا الصبى كان يعمل دوما على إفساد طيبة نفس إياد وذلك عن طريق همساته المتشددة، وكان يحاول دوما سحب إياد بعيدا عنى. وقد ندمت على إنسانيتى التى كانت فى غير محلها، وندمت أيضا على موافقتى على

الطريق الذى اقترحه علىَّ أولئك الرفاق. ومع ذلك فقد كان تلميحى إلى الإساءات التى ارتكبها ذلك الصبى، أمرا مهما، من منطلق أنى عندما فعلت ذلك، كنت أفصح عن عدم خوفى منه أو منهما. والعصا التركية الغليظة ربما تعيد مثل هؤلاء الناس إلى جادة صوابهم؛ ولكن من الأهمية بمكان أن يهادن الإنسان العرب على أساس من الشروط المعقولة، التى مفادها أن هؤلاء أصحاب المزاج الأنثوى، إنما هم نوع من الأصدقاء الطيبين والأعداء اللدودين فى ذات الوقت.

الحرة فى هذه المنطقة؛ تشبه امتدادا هائلا من صخور البازلت: وأكوام القاذورات والنفايات تطفو دائما حول قيعان الصخور البركانية التى تشبه الآبار، والناس هنا يطلقون على تلك القيعان اسم النقار(*) Niggeras، وهى تكون مملوءة بالرمال التى تذروها الريح. وبعد ذلك مباشرة وصلنا إلى حافة حقل من حقول الصخور البركانية، حيث شاهدنا، عن يميننا، مسارا منحدرا متجها نحو ذرغرود، Thurghrud التى تبعد عن هنا مسافة نصف رحلة فقط." قلت، هيا بنا، سوف نذهب إلى هناك،" ولكن إياد رد على،" الطريق اعتبارا من هذه المنطقة يمر بكثير من الصخور البركانية الخطرة! وكان يتعين علينا، ياخليل، الاتجاه منذ الصباح، نحو الشرق: ومع ذلك، سوف أتجه إلى ذرغرود، من أجل عيونك وخاطرك، بالرغم من أننا لن نستطيع الوصول إلى ذرغرود هذه هذه الليلة، وليس معنا ما نأكله،" وهنا صاح مرجان فى إياد يطلب منه عدم الاستسلام أو الموافقة، وأنه هو أيضا لن يخرج من الطريق المؤدى الى ذرغرود إياد:" إذا مضينا قدما فى طريقنا، فقد نصل إلى الأعراب هذه الليلة: كان صالح، قد قال بحق: إن الأعراب يخيمون أسفل هذا الجبل من الخلف." وهذا هو أفضل الحلول أمام أناس مرهقين: وجهت كلامى لإياد بالمضى قدما، ثم نزلنا من فوق الحرة الى سهل من صخور الجرانيت، ليس فيه أى شىء من الحياة النباتية. قال إياد: إنهم يجدون المرعى هنا فى سنوات الوفرة؛ ولكن الأرض قاحلة فى الوقت الراهن نظرا لعدم سقوط أمطار الخريف على هذه المنطقة.،— قطعنا بعد ذلك بضعة أميال، ومررنا أيضا ببئرة Buthra ثلان Thullan.

(*) النقار ، واحدة نقيرة بضم النون وفتح القاف وتسكين الباء وهو الحفرة الصغيرة ، (المترجم)

"– احنا فين! تعجب الرفاق وهم ينظرون حولهم: لا يمكن أن يكون هناك أعراب في هذه الصحراء؛ هل يمكن أن يكون صالح قد خدعنا ؟" غربت الشمس علينا ونحن ماضون في طريقنا؛ وتوقفنا في حوض رملي من أحواض السيول لننام فيه. وقيدوا قدمي الناقة الأماميتين، وتركوها في ضوء القمر؛ ولكن لم يكن هناك مرعى يمكن أن تفيد منه تلك الناقة. كنا مازلنا صائمين منذ الأمس، ولم يكن معنا ما نأكله، ولم يكن معنا من الماء شيئا. عثروا على بعض الجذور الجافة واستعملوها في شب النار؛ كانت الأرض المنخفضة تسترنا، أسفل الجبال التي يطلقون عليها اسم إثماد Ethmad (واحد ثماد Thammad)

خيم الليل البهيم من جديد على بلاهتنا وبؤسنا الإنساني ونحن في الصحراء جالسين حول نار المساء، وأعاد بيننا رباط الصداقة التي انفرط عقدها في الصباح. نسي مرجان آلامه وأوجاعه؛ ولكنه عندما أراني بعض الانتفاخات،" قال: ألم تتعامل مع أصدقائك حول شيء من هذا القبيل، يا خليل ؟ لقد دخل البرد، وهاهي الانتفاخات قد بدأت تعاودني مع دخوله."– لقد كان الخطأ خطأك أنت؛ وأنا أود منك أن تعي أننا عندما نسير في طريق واحد لا يكون نصراني أو مسلم، ولكننا نصبح رفقة rufaka (رفقاء أو رفاق) أو أخوان akhan"–" وهو كذلك يا خليل، أرجو ألا نتكلم في هذا الموضوع أكثر من ذلك،" كان مرجان قد خرج من المنخفض– في آخر عمل لنا في ذلك المساء– لجلب الناقة المرهقة والفارغة؛ وقام بتبريك الناقة حتى تصد عنا ريح الليل، ثم أغمضنا عيوننا بعد ذلك.

ومع طلوع النهار، نهضنا من أسرتنا الثابتة وكنا على استعداد للرحيل. أمضينا بضع ساعات ونحن نسير في ذلك السهل الميت؛ ثم وصلنا إلى منطقة من الصخور الجرانيتية باهتة اللون، التي لاحظنا فيها ذلك الطائر المغرد جميل الصوت الذي يطلقون عليه هنا اسم أم umm سالمة salema، وهو ينطلق وحيدا طائرا وسط وحشة تلك الصخور. لم يكن معنا ماء، ولذلك راح إياد يتسلق القمم المحيطة بنا بحثا عن الماء في الجانب الأيمن. وعند الظهر أشار إياد في تجويف صخرة من الصخور التي كان

يغطيها حجر مسطح؛ وقالوا: إن ذلك كان عملا من أعمال واحد من الصلوبة (صياد في أغلب الأحيان).- ورحنا نذيب شرائح اللبن في الماء، وشربنا المريسى وأحسسنا بالانتعاش بعد ذلك. ارتفاع هذه المنطقة يصل إلى ٤٦٠٠ قدم. واصلنا مسيرنا طوال النهار في تلك الأرض الجرداء؛ وبدأت تطالعنا من الآن سهول قاحلة جرداء تحيط بها الصخور الجرانيتية والبازلتية. ولم نعثر إلا مرة واحدة على آثار أقدام رحلة rahla من رحلات العام الماضى.

راحا ينظران إلى الأفق، ويبحثان بدقة عن الأعراب: وقبيل العصر، صاح مرجان حاد البصر وهو يقول:" أرى زولا zol!" (جمعه أزوال azzual) وهو غير واضح المعالم، إذ يبدو لي كما لو كان شيئا لا يمكن استيضاح معالمه؛ وعليه قال لى مريض ضرير إنه "يرى زول zol الشمس." وهنا حملق إياد جيدا، وقال: بالله لقد حسب أنه رأى شيئا ما. والأزوال في الصحراء يجرى تمييزها وهى تتحرك عند أبعد نقطة من خط الأفق، ولكن تلك الأزوال في الصحراء لا يمكن تمييزها ما إذا كانت مخلوقات برية، أو ماشية، أو أعراب. وبعد أن راقب كل من مرجان وإياد ذلك الزول فترة من الوقت قالا:" نحن نرى رجلين يركبان على ناقة واحده!" وهنا فتح الاثنان جرابى بندقيتيهما وأضرما نارا، ونفخا الكبريت، ووضعا البارود على فتحتى اللمس في بندقيتيهما. وجدت العجلة والاضطراب باديين على إياد! سألتهما:" لماذا تتصرفان هكذا ؟"-" لقد شاهدانا، وهما الآن قادمان نحونا!"- وهنا راح صديقاى يغنيان ويقفزان فرحا بتلك المقابلة، وتركانى مع الناقة؛ وهنا وجدت أن أسلحتى السرية تبعدنى عن الشكوك كلها. وعادا إلى بعد فترة وجيزه ليقولا: إن هذين الراكبين تراجعا عندما لمحا آثار بندقيتيهما.-" (صاحا) هيا بنا ولا داعى لبقائنا هنا مدة طويلة: "وركبا الناقة وابتعدا عنى. وسرت بعدهما ببطئ، وخطر ببالى أنهما قد يتخليا عنى.

خبى ضوء النهار في نهاية الأمر، وقبّلت الشمس الأفق، وتدنت آمالنا مع غروب الشمس: هنا يتعين علينا البقاء في الصحراء، مرة ثانية، بلا طعام أو أنس من البشر. وراح رفيقاى البدويان يتسلقان الصخور كلها بحثًا عن البشر، في حين كنت أركب أنا

على الناقة وأسير فى السهل فيما بينهما. وهذه هى الناقة تمضى صائمة لليوم الثانى؛ ولكن ها هى الصحراء بدأت تتعدل من جديد. وكانت الشمس على وشك الغروب عندما صاح مرجان،"إنه رأى قطيعًا." وهنا ركَّبت إياد معى على الناقة، وراح يستحث ناقته علنا نصل إلى ما نريد قبيل دخول الظلام الحالك: عَدَونا قرابة ميل، وكان مرجان يجرى بجوارنا. وسرعان ما شهدنا قطيعًا ضخمًا يتجمع فى خليج صغير عند مقدمة جبل من الجبال. وكانت فتاة وصبى يرعيان ذلك القطيع؛ وعلى العكس من كل ما سبق أن شاهدته، كان ذلك القطيع خلوًا من الماعز. وربما يكون هذان الأخوان قد سمعا جلبتنا ونحن نمضى بين تلك الأحجار المفككة، أو ربما يكونا قد رأيا منظر ثلاثة رجال قادمين عليهم، نظرًا لأنهما كانا قد أدارا لنا ظهريهما! واللقاءات التى من هذا القبيل لا تكون خالية من الخوف إذا ما تمت فى الصحراء: لو كنا من العدائين لتوانيا وتباطأ؛ أدركناهما، ورحنا نستحث ذلك القطيع البطىء على السير طوال تلك الليلة. وقد راودت تلك الأفكار إياد أيضًا، لأنه لم يكن بعد قد ألقى عليهما السلام؛ وبادأت أنا الصبى قائلاً:-"السلام عليك!" وعندما سمع كلمة السلام استدار، وبدى عليه الود والمحبة؛ وهنا سأله إياد،"فين Fek المعازبة el-maaziba، بمعنى أين مكان اللهو والتسلية؟"- لم نكن قد شاهدنا الخيام. ورد علينا البدوى الشاب، بهمة ونشاط"الخيام ليست بعيدة."

لم نعرف القبيلة التى كان هذان الأخوان ينتميان إليها. وترك الصبى الصغير أخته تقود القطيع، وسبقنا ليدلنا على الطريق. كنا قد تجاوزنا موعد الصلاة ولم يؤد أحد منا تلك الصلاة:- وراحا الآن يركعان ويسجدان فوق الرمل فى الظلام، فى حين تجاوزتهما أنا، راكبًا على ظهر الناقة؛- وهذا الإهمال الدينى لا يُلحظ فى عابر السبيل المرهق، نظرًا لأن الإنسان يتعين عليه النزوع من فوق راحلته لأداء الصلاة. كان الشفق الأحمر يكسو الأفق عندما وصلنا إلى منْزل هذه الصبية وذلك الصبى؛ ولم يكن فى ذلك المنْزل سوى ثلاثة خيام. وكنا قد تم الاتفاق بيننا على ألا يدعوانى رفيقاى نصرانيًا. واستقبلنا المضيف استقبالاً طيبًا فى خيمة وفرش لنا بساطًا تركيًا زاهى اللون فى المكان المخصص لجلوس الرجال،- والذى لا شك فيه أن تلك السجادة كانت بمثابة

الفراش الذى كان ينام عليه هو وزوجته. ثم أحضر لنا بعد ذلك سلطانية كبيرة مملوءة باللبن، وطلب منا أن نروى ظمأنا: ثم تركنا برهة قصيرة (لإعداد وجبة الضيافة). وعندما سألت رفيقاى عن هؤلاء الأعراب، همس لى إياد قائلاً:"يبدو من كلامهم أنهم من قبيلة حرب."-"أى حرب؟"- لا نستطيع بعد القطع بذلك." وهنا همس مرجان فى أذنى،" هل تندم، يا خليل، على اصطحابى معاك؟ ألم تقودك عيناى إلى ترفيه وتسلية هذه الليلة"؟ وإلا كنت قد أمضيت هذه الليلة أيضًا فى الصحراء."

عاد المضيف إلينا، وأصر، فى لطف وهو يرجونا، أن يأخذ ماءنا لأنهم ليس لديهم ماء. ومنعه رفيقاى من ذلك، مستخدمين فى ذلك أدب الصحراء، بالرغم من أنهما كانا يعرفان أنه سوف يستعمل ذلك الماء فى طهى وجبة الضيافة لنا؛ ولكن الرجل الطيب تغلب عليهما فى النهاية" لأن ذبيحة العزمة، التى كانت طليًا عمره عام، كانت قد ذبحت بالفعل. وهنا تكلم الجانبان: كل عن قبيلته: هؤلاء كانوا من بنى Beny سالم Salem، من قبيلة حرب فى نجد؛ ولكن ديرتهم التى يقيمون فيها، تقع على السلطانى Sultany، أو إن شئت فقل: الطريق السريع الذى يربط ما بين الحرمين. كانت تلك أول مرة أجىء فيها إلى خيام تلك الأمة من البدو؛ ولم يسبق لى أن رأيت مضيفين من البدو يسلكون مثل هذا المسلك النبيل. وراح رب هذا البيت، والابتسامة تعلو وجهه، يملأ لنا السلطانية باللبن مرة بعد أخرى:- وروينا ظمأنا الذى تملكنا طيلة يومين، والذى لم يكن من السهل إشباعه على وجه السرعة. وعندما وجد المعّزب Maacib، أو إن شئت فقل: المضيف الطيب، أنى أنا الوحيد، الذى أشرب بنهم، راح يحثنى ويقول:"إغرتبق ighrtebig بمعنى" تناول شراب المساء،" وراح أيضًا يرفع السلطانية نحو فهى."قال: اشرب! فهذا خير الله، الحمد لله، ولن ينقص منا شىء! لا بد أنكم تعبانين ومرهقين لأنكم قطعتم رحلة طويلة وأنتم قادمين إلينا من الجنوب." إياد:"والله، إنها كلها صحراء، وكنا خُلا Khula (بمعنى وحيدين وبلا مأوى فى الصحراء) فى الليلة الماضية؛ وهذا هو اليوم الثانى، إلى أن عثرنا عليك فى هذا المساء."-"الحمد لله!" رد رب البيت الطيب. تكلم إياد عن الغزو مع رب البيت الطيب هذا." قال مضيفنا: وخليل هذا، ماذا يكون؟- إنه مشهدى Meshedy (مواطن من مدينة مقتل [سيدنا] على، أو مشهد Meshed على

Aly التي سبق الإشارة إليها)؛ أظن أن كلامه عفن Roten كما أن سحنته مثلهم."–"(رد رفيقي) نعم، نعم، هو مشهدى، إنه حكيم، وهو عائد حاليًا إلى حائل."–"أحد أبناء عمه كان هنا منذ فترة وجيزة، وهو رجل محترم؛ لقد جاء من حائل لبيع القماش والملابس للأعراب،– وأنت، يا خليل، هل تعرف ذلك الرجل؟ كان يشبهك، والله، كما لو كنتما شقيقين."

جلسنا أرضًا لنيل قسط من الراحة. وبعد ساعة أو ساعتين، حمل إلينا ذلك المعزب الكريم هو وشقيقه الراعى، إناءً كبيرًا مملوءً بالأرز، وقد كوَّما من فوقه ذلك الطلى الذى سبق ذبحه وطهيه؛ كان كرمهما الصحراوى أكثر مما يمكن أن يتحمله الإنسان العادى.– وضعوا الطبق البدوى على السجادة، أو بالأحرى على قطعة من قماش الخيام، حتى لا يتناثر الأرز ويقع على الأرض ويدوسوه بأقدامهم:– والبدو إذا ما رأوا ولو قليلاً من اللبن (على الأرض الجرداء القاحلة وسط هذا الشقاء) أمتقع وجه الواحد منهم. ولقد سمعت بعض أقوال نبيهم التى تحث على عدم سكب اللبن.– ونادانا ذلك المعزب الطيب، وهو يقول: قم! Gum حياكم(*) Kyakom الله ullah والنبى We-en-Neb! بمعنى"انهضوا، وتناولوا الطعام، حياكم الله ورسوله". وأجبنا إلى طلبه، وتجمعنا حول الطبق، ونحن نقول: الله Ullah يحُيِّيك hy-ik:"– تركنا المضيف نتناول الطعام. ولكن إياد احتجز فى البداية ثلاثة من القطع الممتازة، للمعزب وزوجاته؛ قال: إنهم لم يستبقوا من الطعام شيئًا لأنفسهم." وقد جرى العرف بين ربات البيوت البدويات أن تحتفظن بشىء ما من الطعام لأنفسهن ولأطفالهن، ولكن إياد، ذلك الجنتلمان البدوى اللطيف، كان تأثره بالحضر أكثر من تأثره ببساطة الصحراء الصريحة." يقول المضيف العائد إليها: آه! لا، ما هذا الذى تفعله؟ الأمر لا يحتاج ذلك، ووالله لدينا ما يكفينا افلح! eflah بمعنى"كلوا! مدوا أيديكم وكلوا." يقول إياد"بالله عليك، أجلس معنا." قلنا جميعًا:" أجلس معنا يا معزب؛ فنحن لن نأكل بدونك." أبْدًا ebbedan، لا، أرجوكم، مستحيل."– ومن يشبع فى البداية، من بين كل الجالسين حول الطبق، يظل واضعًا يده على الطبق؛ فى حين أن سكان الواحات والحضر ينهضون واقفين، وينسحبون لغسل أيديهم، حتى

(*) ورد هذا اللفظ بنفس هذا الهجاء (Kyakom) وذلك لصعوبة نطق صوت الحاء على الإنجليز . (المترجم)

لا ينظرون إلى أولئك الذين يأكلون ببطئ، وإلى الجوعانين. والبدوى أثناء تناول الطعام، إذا كان قد سبق أن زار الحضر، يقوم بانتقاء لقيمات ممتازة ويقدمها لصديق بجواره:- وهنا، قام إياد بالتعبير عن وُدِّه لى.

البدو أكلة دقيقين؛ وأصابعهم ماهرة فى تناول اللحم، وهم يبتلعون لقيمات الأرز المسلوق أو القمح المسلوق بمهارة شبيهة بمهارة الطير، وهذه المهارة تنطبق على أعمالهم كلها. والإنسان عندما يتناول عشاءًا مع البدو، وبحكم كونه آكلاً بطيئًا، لا يجد أية غضاضة فى طريقة الأكل هذه، عندما يندمج بين هؤلاء البدو أثناء تناول الطعام: والسبب فى ذلك أن تمكين الطبيعة أثناء عبادة الخالق، يكون أهم بكثير من المبتدعات التى تدل على نفاق البشر. كنت كلما ناداني أحد من البشر أحسب أنه كان يفعل ذلك من باب الود والإخلاص؛ يضاف إلى ذلك أن العرب كانوا يمتدحون ذلك الوضوح والصدق من جانب الغريب الذى يعيش بينهم. والعناية الإلهية بينهم هى التى لها الشكر فى الأول والأخر؛ ولكن الناس عندما ينتهون من تناول الطعام (فى هذه الديرة) ينهضون واقفين ويقولون أنعم **Unaam** الله **Ullah** عليك **aleyk**، يا **ya** معزّب **maazib**. ثم يرفعون الطبق، ومن بعده المفرش الذى كانوا يضعونه تحت ذلك الطبق؛ ثم يحضرون بعد ذلك طاسة الماء: لنشرب منها ثم نعود بعد ذلك للجلوس حول وجار القهوة. والمضيف بالرغم من كرمه وسخائه ليس لديه شيء من القهوة،- وعرب القهوة ليسوا على هذة الدرجة من الكرم السخى.

(وكما سبق أن قلنا) يتعين على المضيف الرحيل مع طلوع نهار الغد؛ والمضيف يتركه يذهب لحال سبيله صائمًا، ليمضى اليوم بطوله ماشيًا فى الصحراء. أما إذا كان الضيف من أصدقاء المضيف أو من معارفه، وإذا ما كان الموسم يصادف موسم الحليب، فإن رب المنزل يعطل أولئك الضيوف إلى أن تقوم جارته **Jara** بتقديم شيء من الحليب لهؤلاء الضيوف. كان معزبنا من بنى سالم، وكان رجلاً سخى الكرم، وعندما هممنا بالرحيل راح يؤخر رحيلنا بشيء من اللطف. قال: زوجتى تخضخض السميلة **Semila** انتظروا إلى أن تنتهى عملية الخض ويظهر الزبد، وبالتالى تستطيع أن تقدم لكم شيئًا من اللبن؛ أنتما الاثنان من البدو، ولكن هذا المشهدى* **Meshedy** ليس بدويًا،

(*) المشهدى : نسبة إلى مدينة مشهد الفارسية نظرًا لأن المضيف خطر بباله أن خليلا من أهل هذا البلد .(المترجم)

مثلنا، والواحد منا يستطيع السير طوال اليوم فى الصحراء دون أن يضع فى فمه شيئًا من الزاد."- حل علَّى موسم الربيع التالى أثناء تجوالى فى الجزيرة العربية؛ وفيه بدأت الأرض تفيض حليبًا من جديد، ورحت استقبل ذلك الربيع الجديد بانحناء للطبيعة السماوية، (يصيح المُضيف الطيب، صاحب الصوت الرخيم المتميز فى الصحراء) قائلاً: اصطبح !ustibbah بمعنى- تناول مشروبك الصباحى."

- أنا أتكلم كثيراً عن الكرم العربى، والسبب فى ذلك أن الناس فى أوروبا يسألون مراراً وتكراراً عن هذا الموضوع؛ وأنا أرمى من وراء ذلك أن تعى الشخصيات المرموقة هذا الأمر. أتكلم عن كرم تلك الخيام المصنوعة من صوف الغنم، ووبر الجمال وشعر الماعز،- أتكلم عن البِشْر والترحاب بالمسافرين والغرباء فى أرض عامرة بالبؤس والخوف، أرض وقفنا على أنها شديدة التدين. ولقد سمعت ذلك الكلام يتردد على ألسنة سكان المدن،-"هذا من أجل الإبلاغ عن ذلك الذى يبثه الغرباء العابرين عن هذه المناطق فى بلادنا: والسبب فى ذلك أن المضيف الجار قد يسأل الضيف،"أين نزلت فى الليلة الماضية؟"

بدأنا نسير فى سهل صحراوى من الرمل، يطلقون عليه اسم شعبة Shaaba يحيط به عالم من القمم والصخور البازلتية، التى تحول بيننا وبين الرؤية فى أى اتجاه من الاتجاهات: سيول كل هذه التربة تنحدر نازلة إلى وادى الرماح. سرنا مدة ساعة ووصلنا إلى روضة واسعة. والمقصود بالروضة Rautha هنا أى مكان منخفض فى الصحراء، وهذا المكان المنخفض يتعين أن يكون فيه شئ من مياه المطر المحتجزة فى فصل الشتاء: والوابل الذى يسقط منحدراً من فوق المنطق المرتفعة يجرف معه رسوبًا ناعمة، وتربة هذه الروضة عبارة عن قشرة من الصلصال واللهم (الغرين). وكلمة روضة Rautua رياض riath [هى أيضًا اسم من أسماء الضواحى فى شرقى نجد]. سألت إياد،"أليست هذه التربة طيبة مثل واحة تيماء؟ إذن، ما سبب عدم استيطانها؟"-"رد على، أعتقد أن السبب فى ذلك هو عدم وجود الماء، أو ربما يكون الأولين Auelin قد عثروا فيها على بعض الآبار.": يضاف إلى ذلك أن الجد Gd أو إن شئت فقل الخبراء

Khobra ما هو الإ قاع من الصلصال الخالص فى الصحراء، وتتخزن فيه مياه المطر على شكل بحيرة بعد سقوط الأمطار الغزيرة. والخبراء (ويصح فيه أيضًا الخبيرة Khubbera) هو الاسم القديم للواحة الرئيسية في نفود القصيم:- وقد وصلت إلى تلك النفود فى فترة لاحقة.

استطاع إياد قتل أرنب برى بإلقاء حجر عليه؛ وليس هناك من هو أفضل من الأعراب فى استخدام الأحجار؛ توقفوا وشببنا نارًا باستعمال الحطب. وأعراب الجنوب يندر أن يكون لديهم سكين، وقد استعار إياد منى مديتى ليذبح بها طريدته؛ ثم ألقى الأرنب البرى بكامله وقطعه وراح يقسمه بين الحاضرين: واكتشفنا أن لحم الأرنب البرى كان طريًا وله مذاق شهى. هذا هو مطبخ الصيادين: وهم لا ينتظرون سلخ الجلد عن الجسم، كما أنهم لا يحتاجون أى شئ من الآلات أو الأوانى؛ ولكن كل ما يوضع أمام الجائعين يكون شهيًا. فى تجويف جسم الأرنب عثر البدوى على قليل من الدم؛ وراح يلحس ذلك الدم بنهم مع شئ مما فى معدة الحيوان، وراح يردد مثل الصحراء الذى يقول:"يقول الأرنب البرى أنا مشقوق الشفتين." هم يفعلون ذلك عن جهل؛ كان العم محمد يفعل هذا الشئ أيضًا أيام شبابه، ولم يخطر بباله أن الدم محرم. قلت له:"عندما يُقْتَلُ حيوان، بالرغم من استنزاف الدم من زوره، ألا يبقى الدم كله فى جسم الحيوان؟- وأنتم تأكلون هذا الدم!" أجابنى، وهو يتعجب بحق،"نعم، أنت تقول كلامًا صحيحًا! الدم يبقى فى الجسم،- ونحن نأكله مع اللحم! نعم، أنا الآن أتبين الفرق." الأرنب البرى صغير، وبعد أن قسم جسمه الصغير إلى ثلاثة أقسام كان بمثابة إفطار غير مشبع لنا. وفى المكان نفسه عثر إياد على جحر جربوع (له فتحتان)؛ وهذا الجربوع من فئران الربيع التى يأكلها الناس فى هذه الصحراء الجافة؛ وهذا الجربوع من المخلوقات التى تعيش مختبئة تحت الأرض، وهو لا يزن أكثر من أوقيتين، ورجليه الخلفيتين طويلتان، وله ذيل طويل أيضًا، وشعره ناعم كالحرير، وبطن الجربوع أبيض اللون [انظر الجزء الأول ص ٣٧١]؛ وهذا الجربوع من ناحية الشكل يشبه فئران استراليا. استخدم إياد مشعابه فى هدم الجحر وأمسك بالفريسة المسكينة، ثم ذبحها باستعمال بوصة حادة وألقى به فى الجمر بعد ذلك؛ وبعد ذلك بلحظة راح يعطى كل

واحد منا جزءً من ذلك الجربوع، ولكننا امتنعنا عن الأكل. يقول الصيادون: إن الجربوع من الحيوانات المجترة؛ قال لى العم محمد: إن تلك الجرابيع تصطاد فى معظم الأحيان، وهى تجتر طعامها فى أفواهها.

أطلقنا الناقة ترعى، وواصلنا الجلوس فى ذلك المرعى الذى يسر الخاطر. رفع مرجان الشَّداد كى يترك للناقة حرية الحركة"انظر ضحك، عجيب! ألا ترى سنامها قد ارتفع؟"– يبدو أن إنزال العدة عن الناقة، ومحاولتنا تغذيتها طوال المسيرات البطيئة، قد حسنا من حال ذلك المخلوق المريض. وعندما رأيت الوسم القديم الموجود على الناقة وعرفت إنها من ، تساءلت"هل هذا يدل على أنك سرقت هذه الناقة من الحطيم؛ دهش إياد عندما رآنى أعرف الوسم وأفهم دلالته! وتفاخر بأن الناقة من سلالة أصيلة، أو إن شئت فقل: من بنات Benat التى et-Ti (ويصبح فيه أيضًا التيه et-Tih)؛ لقد اشترى إياد تلك الناقة من الحطيم؟؛ على إنها عشار، أو إن شئت فقل: حُبلى، نظير مبلغ أربعين ريالاً: كانت تلك الناقة تفوق النياق الأخرى من حيث السرعة فى تلك الأثناء. أما الآن فقد تحولت إلى مجرد ناقة من نياق الجمل التى تعمل مع العجيل؛ وقد بلغ جشع إياد حدًا جعله يرسل تلك الناقة مرتين، وهى محملة بالزعف الذى تجد له النساء، ويرسلنه إلى المدينة المنورة لبيعه هناك؛ الأمر الذى جعل البدو يسخرون من إياد.– التيه Ti أو Tih، مخلوق برى خرافى، أو بالأحرى جمل ذكر، فى صحراء بدو الشرارات."يقولون: إن ذلك جمل له ثلاثة أضلاع، وأنه يجرى بسرعة خرافية؛ وبوسعه أن يسبق أى حصان من الخيول." ويقال إن بدو الشرارات يتركون جمالهم ضالة فى الصحراء، حتى يمكن أن يغشاها ذلك التيه؛ وهم يقولون إنهم يستطيعون تمييز الذرية الناتجة عن التيه، من خلال مسألة الضلوع الثلاثة تلك. ونياق الشرارات [وهى سلالة عربية غريبة] تتفوق على النياق الأخرى فى غربى الجزيرة العربية: وجماعة ابن الرشيد المسلحة محملة، أو إن شئت فقل: تركب نياقًا شرارية خفيفة.– وجمال الحويطات أيضًا، هى الأخرى من النوع الممتاز فى صحراء العريش.

كان إياد يحظى بطلعة فيها الكثير من الاحترام، إذ كان له وجه يشبه وجه اليهود، كما كانت له أيضًا لحية سوداء؛ وكان مهندمًا أيضًا، وله طلعة شيوخ الصحراء الشجعان. وكانت عيناه زائغتان دومًا، ولا يركز بصره على شئ بعينه: أما كلامه فلم يكن صادقًا، وإنما كان معسولاً وطنانًا. سألت،"لماذا لا يربى له قرنين من الشَّعْر؟- إن خُصلتى الحُب البدويتين يجب أن تزيدا من جماله الرجولى [العنزى]." إياد: لقد مررت بتلك المباهج الشبابية، إلى أن أطاحت طلقة بالقرن الموجود على هذا الجانب، وبعدها أطاحت رصاصة أخرى بالقرن الموجود على الجانب الآخر؛- ولكن ذلك الإنذار لم يمر علّى مر الكرم! نعم، بالله، أنا حاليًا خارج نطاق الذوق البدوى: ونحن فى يوم يأتينا الخير الربانى الكثير من عند الله، وفى يوم آخر قد يسطو علينا غزو معاد ويأخذ منا حلالنا! والإنسان إذا لم يكن لديه أصدقاء طيبين يقفون إلى جانبه كى يجمعوا له شيئًا من جديد، قد يتحتم عليه التسول والشحاذة من الآخرين.

تربى إياد بعيدًا عن قبيلته، بين الشمَّر، وفى هذه الديرة بالذات التى نحن فيها الآن. كان أبوه شيخًا من الشيوخ الكبار، واحدًا من أولئك الشيوخ الذين كان كل واحد منهم يركب فرسًا؛ فى حين كان إياد الصغير يركب مهرًا صغيرًا. وذات يوم قام غزو قوى من الحطيم بالاستيلاء على إبله من منْزله، وجرى إياد من بين من جروا لملاقاة ذلك الغزو. هؤلاء الحطيم (أولئك البدو الرحل الذين تربوا على الحليب) أصحاب أجسام قوية ومحاربين أشداء،؛ يضاف إلى ذلك أنهم مسلحين تسليحًا جيدًا، أفضل من تسليح البدو، كما أن الكثيرين منهم رماة مهرة. حمل إياد رمحه أمام اثنين من ركاب النياق، وقد أصابت طلقة من الطلقات خصلة شعره وأطاحت بها؛ كما خسر حصانه أيضًا، ولكنه لم يخسر حياته."إياد، لقد لعبت دور الأسد!"-"أها! ألم يخطر ببالك ما قاله الحطيم؟"بالله اتركوا ذلك الراكب الشاب الذى يركب المهر الصغير، واجعلوه يأتى إلينا هنا، ويضاجع حريمنا، حتى ينجبن أبناء شجعانًا."- كان يظن، منذ أن رأيناه، أن عيادة Eyada بن عجوين كان ضمن هذه الغزوة مع هؤلاء القوم.

"وهل ستشترى لنفسك حلالاً آخرًا، عندما تحصل على متأخرات راتبك التى تقدر بمئات الريالات؟ سنراك غنيًا وشيخًا من جديد؟"-"تقول غنيًا، وشيخًا، هذا يمكن أن

يحدث لو كنت أنا غير ما أنا عليه حاليًا؛ رأسى مكسور، وأنا أفعل هذا وذاك مئات المرات بطريق الخطأ:- ولكن لن أصبح بدويًا مرة ثانية، لا! أنا لم أعد بعد أستسيغ المخاطرات التى من هذا القبيل: سوف أعمل بالبيع والشراء فى حائل. وأنا إذا ما قمت فى الأسواق ببيع قماش القمصان وقماش العباءات (البشوت) وكذلك أغطية الرأس (الغتر) أو إن شئت فقل المناديل mandils فسوف يقبل البدو جميعًا على الشراء منى؛ زد على ذلك، أن كونى بدويًا، يمكننى من التعامل مع البدو فى بيع وشراء الإبل والماشية الصغيرة. يضاف إلى ذلك، أنى سوف أكون رجل بن الرشيد (أى واحدًا من رجاجيله)، وأتلقى منه راتبًا شهريًا، وأكون على يقين من المشاركة فى كل الغزوات، وأحصل لنفسى على نصيب من كل غزوة من هذه الغزوات!"-"قلنا، يا خليل، إن الحياة الأفضل هى أن تكون مع البدو." إياد:"لكنى لن أكون جزءًا من هذه الحياة،"وليس كل شئ خضيرة Khuthera وتونس Tunis!"- ورفض أن يشرح لى معنى هذا المثل الذى تعلمه من الحضر.

- مطير Muthir، وهو جاطونى من البشر، كان واحدًا من المرضى الذين عالجتهم فى خيبر. وهو بالرغم من فقره المدقع فى الوقت الراهن، كان بدويًا ميسور الحال فى وقت من الأوقات؛ وهو مثل إياد، كان يتحول بصحبة" الشمر. وفى أحد الأعوام، وعندما انتشر الطاعون الحيوانى فى نجد، نفقت إبله كلها: وهنا قام ذلك الرجل بدفن خيمته ووضع حاجياته عند التاجر الذى كان يبتاع منه التمر (فى إحدى القرى الصحراوية)، ثم ترك زوجته، قائلاً لها: إنه سوف يذهب إلى ذلك الذى كان ما يزال متبقيًا له،- أو إن شئت فقل: إلى ميراثه من النخيل فى خيبر. وبعد ذلك بلغه أن جارته jara توفت. عندئذ كان قد مضت عليه سبع سنوات، ولم تكن لديه الشجاعة التى تجعله يعود ويطالب بحقه ورصيده؛ وقال: إن خيمته المدفونة لا بد أن تكون قد تعفنت وتلفت.

خضرة كل هذه الأرض الجرداء كانت عبارة عن عشب خشن قصير يشبه الشعير البرى الذى له سنابل فارغة. وهذا العشب الخشن يعد مرعى جيدًا للماشية؛ ولكن الماشية لا تأكل ذلك العشب إذا ما تقدم بها العمر نظرًا لأنه يكون خشنًا فى حلوقها بل ويتسبب فى وخز تلك المخلوقات. ولم أر شيئًا غير ذلك العشب فى موسم الربيع.

مضينا قدمًا؛ وبعد الظهر وصلنا إلى ست من خيام الشَّمَّر. كان الشيخ البريتشان Braitshan، وذلك الشباب الصغير معروفًا لدى إياد. وفرح رفيقاى عندما شاهدا دلال قهوة ذلك الشيخ موضوعة فوق نار الوجار؛ نظرًا لأنهما لم يذوقا القهوة (طوال أربعة عشر يومًا) وذلك اعتبارًا من بدء مسيرنا من خيبر. كان بيت الشيخ البريتشان كبيرًا ووسيعًا ومؤثثًا تأثيثًا جيدًا؛ وهذا البيت مبنى بطريقة الشمر والعنزى. وكانت هناك فرس ترعى على مقربة من البيت؛ وتلك إشارة إلى ثراء هذه الأسرة. كان الرجال الذين جاءوا من الخيام المجاورة معروفين لإياد؛ ولم أكن غير معروف لدى هؤلاء الرجال، فقد قال أحدهم بصورة مفاجئة:"أليس هذا هو خليل، النصرانى؟"- لقد قابلتنى، من قبل، فى حائل. وتحتم علينا تمضية ذلك اليوم مع هذه الأسرة، وأطلق رفيقاى الناقة لترعى. وفى العصر اقتادنا رجل كبير السن إلى خيمته لشرب القهوة؛ وكان لذلك الرجل ابن يعمل ضمن العجيل فى المدينة المنورة." قال: كنت هناك منذ فترة قصيرة، ووجدت ولدى هو ورفيقه يأكلان طعامها حاف haf، أى بلا سمن!- والخدمة التى لا تستطيع أن تدفع للرجل معاشه تعد خدمة سيئة."

راحوا يتفكرون عندما وجدوا النصرانى بينهم:-"خليل، عدو الله، ومع ذلك فهو يشبه الرجال الآخرين!" رد عليهم إياد على سبيل المرح،"يبدو أن الإنسان يمكن أن يكون على ما يرام، بالرغم من كونه كافرًا!" ثم روى حكاية، تسرى مسرى المعجزات بين القبائل،-]."كان ابن ناموس Namus (شيخ الناموس) قد قام ذات ليلة بغزو قوى؛ وتوقفوا عند طلوع الفجر لأداء الصلاة [يالتقوى هؤلاء اللصوص!] وعندما سجد الرجال قال واحد منهم:"ما جدوى التعب من وراء هذه الصلاة التى تواصلون أداءها عامًا بعد عام؟- مصلون كثيرون، ومصلون يتمتمون بعبارات الصلاة كل يوم، ولا يتحسن حالى مطلقًا؛ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد قطع للنفس: إخ! إلى متى يتعين علّى أن أحرث بأنفى تراب هذه الصحراء؟- وأنا الآن، أطلب منك يا الله أن تعطينى اليوم ناقة وقربة لحمل الماء، يبدو لى وكأنى أود أن أضربك بهذا المشعاب!"- تصادف قبل غروب الشمس أن كانت الغنيمة التى حصل عليها ذلك الحطيمى من بين الماشية

التى سرقوها فى ذلك اليوم، عبارة عن ناقة وقربتى ماء، وعليه قال ذلك الرجل عندما كان بجوار نار المساء:"يجب أن تعلموا- أيها الرفاق، يا من كنتم تلومونني عندما كنت أصلى فى الفجر، كيف خاف منى ربى فى ذلك اليوم!،"لم يكن ذلك الرجل الذى رأيناه، من البدو، وإنما كان واحداً من الحطيمان.- والمعروف أن لسان البدوى الفقير قد ينزلق فى كثير من الأحيان، فيما يتعلق بالدين، ويظل الناس يذكرون سذاجة مثل هذا الرجل خلال الأحاديث التى تدور بينهم فى الصحراء. وعليه إذا ما أتى أحدهم على ذكر اسم ابن الرشيد، تجد رجلاً قبلياً يصيح قائلاً صلى Sully الله Ullah عليه ulayhu وسلم Yusellim،"- محيِّيًا إياه كما لو كان واحداً من الأنبياء الكبار.

- كنت قد تعرفت على مبشر سورى فى واحدة من القرى الواقعة خلف الأردن، وكان ذلك المبشر قد سبق له أن قال ذات مرة لقبلى (مهلهل من بنى صخر) وذلك من باب السخرية والتهكم من السذاجة الفظيعة التى تسود بين البدو،:"ألم تسمع يا أنت؟- عن ذلك المد العجيب الذى يجرى فى العالم؟- ألم تسمع أن الله قد هبط مؤخراً فى دمشق!" البدوى:"تقول إن الله هبط مؤخراً فى الشام!- ألن تذهب لزيارة ربك!" أ"إخ! يا ليتنى أذهب أقابله؛ لكن انتبه يا سيدى- إلى ما يلى! الشام تبعد عن هنا مسافة تزيد على سبع رحلات وكيف لى بترك الماشية وحدها فى هذه الصحراء؟"

بينما كنا جالسين دخل علينا صبى غريب قادم من الخلاء: كان يمشى حافى القدمين ويحمل فى يده مشعابا صغيرا ولم يكن معه زاد ولا ماء، وكان يمشى متنقلا من فريج إلى آخر. منازل البدو الرحل هنا، أثناء موسم البيع، لا تبعد عن بعضهما كثيرا فى هذا الصحراء، يضاف إلى ذلك، أن ذلك الصبى كان بوسعه معرفة الطريق بحكم أنه كان من الشمر. هذا الصبى الذى يتراوح عمره بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة كان يبحث عن مكان راع من رعاة الماشية؛ هذا الصبى كان فطنا، نظرا لأن أما عطوفة ومحبة هى التى قلبه قبله الصغير. عندما كان أحد يسأله عما هو قادم من أجله، كان يتوقف ويتمعن الأمر ثم يجيب إجابة رجولية، وبكلمات قليلة تتسم بالحكمة والعقل.-سألناه عن الأجر الذى يمكن أن يتقاضاه ؟ قال:" الأجر المتعارف عليه،- أربع

عنزات فى نهاية العام، وعباءة (بشت) ومعطف." (وهذه الأشياء تساوى جنيهين). ولم يشترط طعاما من نوع معين أو من حجم معين أيضا: فالطعام ليس معاملة سيئة. وحسب حسبة صغيرة على الرمل، فوجدت أن ذلك الصبى عندما يصل العشرين من عمره سيكون لديه حوالى خمسين عنزة، أو أربعة من الإبل.

سمعنا أن ابن الرشيد لم يكن فى حائل.." قالوا:إن الأمير يقوم بغزو (أى فى مهمة) فى الشمال مع الرجاجيل ؛ وقالوا أيضا: إن الأميرين (حمود وسليمان) يرافقانه، وأنهم مخيمون فى الحينية Heyennieh،"– والحينية هذه مكان من أماكن الآبار فى النفود فى ناحيج الجوف. وقالوا أيضا: إن أمراء الشمر حصنوا ذلك المكان ببيت من الحجر؛ وأن رجلا أو اثنين يبقيان فى ذلك المكان على سبيل الحامية التى تقوم على حراسته، وأن مهمة تلك الحامية تتمثل فى فتح النار على الغزو المعادى: حتى لا يتمكن أحد من أخذ ماء من تلك الآبار، وألا يمر أحد من هناك دون موافقة من ابن الرشيد. بلغنا أن عنيبر كان هو القائم بأعمال الأمير أثناء تغيبه عن حائل.– كانت السماء ملبدة بالغيوم ونحن جالسين، ثم سقط علينا الوابل فجأة. وهنا طلعت الشمس مرة ثانية، وهنا راح الحريم يجرين فرحا ومرحا كى يملأن قرابهن، من المياة التى تتساقط أسفل صخور الجرانيت. طلب الشيخ ملء أواني القهوة، وأعطانا سطلا من الماء العذب كى نشرب ونرتوى.– وهنا قامت والدة بريتشان بسلق طبق من الأرز ليكون عشاء لنا: كان كرم البدو فيما يختض بالحليب ضئيلا،– ولكن ذلك شيئا مألوفا فى بيوت المشايخ الخاصة بتناول القهوة.

عندما رحلنا فى ساعة مبكرة من صباح الغد كنا نسير فى منطقة معروفة تماما لإياد. كانت الأرض المجوفة الى تلت ذلك عبارة عن حوض من نبات القرع، الذى يصل حجم الواحدة منه إلى حجم البرتقالة ولونه مثل لونها أيضا. مشينا مدة ساعتين وصلنا بعدها إلى قطيع من الإبل: كان رعاة ذلك القطيع شابين من الشمر. سألانا عن الأرض التى كنا قد تجاوزناها، هل فيها ربيع، كما سألانا أيضا عن النباتات التى يمكن أن ترعاها الماشية هناك ؟ وهنا اتجه واحد منهما إلى ناقة حلوب كى يحلب لنا شيئا من

اللبن؛ ولكن الراعى الثانى نظر إلى وقال:" أليس هذا هو خليل، خليل النصرانى ؟" [لقد سبق له هو الآخر أن رآنى فى حائل]! كنا، فى هذه المنطقة، عند بداية مستوطنات الجبل؛ وعندما نظرت إلى اليسار، رأيت منظرا يسر الخاطر، بين أرضين مرتفعتين، كان ذلك المنظر لقطعة من الأرض مزروعة قمحا. قال رفيقاى:" هذه قصة Gussa، كفر (هجر) من كفور القمح، ويستطيع الرائى مشاهدة بعضا من النساء خلف ذلك الكفر؛ هؤلاء النساء يخرجن من ذلك الكفر يجمعن شيئا من العلف الأخضر للإبل الى تعمل فى بئر الماء." تحرك من منطقة مجاورة لتلك النساء، شاب كان يحمل فى يده منجلا؛ وجاء إلينا ليعرف الأخبار الجديدة منا، نحن الغرباء.– هذا الشاب وهؤلاء النساء لايمكن تمييزهم بسهولة عن البدو! وبعد أول كلمة نطق بها، طلب منا أن نملأ له غليونه بالدخان ؛–" قال: هيا، تعالوا معى إلى قصورنا؛ وستجدوا فيها التمر والقهوة، اجلسوا هناك واستريحوا." وحمل على عنقه داخل عباءته (بشته) ذلك العشب الذى كان قد جمعة وراح يعدو أمامنا فى اتجاه المستوطنة ، وجدنا قصورهم عبارة عن أكواخ بائسة متخفضة كل منها مكون من غرفة واحدة.– القصة عبارة عن بيت ريفى كبير تابع للأمير، ولا يسكنه الأمير سوى ثلاثة شهور فى العام كله، وذلك بغية رى حقول القمح (ويجرى رى حقول القمح من آبار فى هذه المنطقة يصل عمق الواحد منها إلى ست قامات فى هذه الأرض الناشفة)، ويستمر تواجد الناس هنا إلى موسم الحصاد؛ ثم يعود الفلاحون بعد ذلك إلى قراهم: ومكان زراعة القمح هذا يقع فى وادى صغير.

لم يكن فى هذا المكان سوى ستة أسر تضم ما يتردد بين خمسة عشر وعشرين شخصا قلما يزورهم التراقيون. وضع على Aly مضيفنا، أمامنا شيئا من زبد ولبن الربيع؛ ورحت أعجب من مبالغته فى الترحيب بنا– كما لو كنا نعرف بعضنا منذ زمن بعيد! ثم قال لى بعد ذلك: إنه رأى ترقيا فى منامه، وأن ذلك التراقى كان يجلب لهم التبغ!– وهنا تعرف على أحدهم! وقال:" أليس هذا هو خليل، النصرانى ؟ ومعه ورقة من ابن الرشيد، مفادها أن أحد يجب ألا يسئ إليه؛ ولقد رأيت هذه الورقة بنفسى وهى مختومة أيضا بخاتم الأمير."" تعجبوا، بالحلاوة الدخان ونحن نتذوقه من جديد!–

والله. إننا شراريب Sherarib (بمعنى مدخنين عتاة)".قلت:" لديك أرضا، فلماذا لا تزرع الدخان ؟"-" نحن، نستعمل الدخان؛ ولكن بذر حبوب الدخان، والعناية بنباته فى حقولنا، أمر مكروه !Makruha" وعندما تركناهم عند الظهر، نصحونا بالمرور على العجيلة Ajella، وهى ديرة أخرى شبيهة بهذه الديرة، وتقع على أطراف المنطقة وهى أيضا مستوطنة من مستوطنات زراعة القمح؛ وقالوا لنا: إننا سوف نصل إلى تلك المستوطنة قبل دخول الليل.- ورأيت خلف غيطان القمح نخيلا صغيرا فى مجرى السيل: ولكن نقص الماء تسبب فى موت الكثير من ذلك النخيل. والشائع هنا أن عشبا من أعشاب العصارة ينمو فى أى حفرة (ربما كانت حجراً من حجور الحيوانات البرية) من حفر الصحراء الصلدة، بالرغم من أن التربة الجرداء تظل على قحولتها: وراح فلاحوا القصة يزرعون نخيلهم بالطريقة نفسها حتى لا يروونها؛ وكانت ملكية تلك النخيل بيهم وبين البدو.

سرنا فى الطريق الذى دلونا عليه، خلال أرض رمادية اللون من الجرانيت، فيها من البازلت قدر كبير عن المناطق التى مررنا بها من قبل. أرانى إياد علامات أرضية فى اتجاه الشرق، تدل على أبار السقف es-Sakf، وهى مسقى صيفى من مساقى الشمر. وأسفل تل من الجرانيت شاهدت مسارات منخفضة، مثل المسارات التى فى الحرات؛ وشاهدت فى مكان آخر ثمانية أو أكثر من ثمانية من الأحجار الجرانيتية، موجودة على شكل صف واحد.- فى هذه الجبال المهجورة كان يوجد بيت من بيوت الأصنام.

بعد أن أبصر رفاقنا القمة الجرانيتية التى كانت تعلونا ووجدوا أنها مشوهه اللون، تسلقوها بحثا عن الماء؛ وعندما عثروا عليه ملأوا قربة الماء. ومع غروب الشمس وصلنا إلى ممر أجوف، أغلب الظن أنه كان يؤدى إلى العجيلة Agella. كانت الصحراء هنا عبارة عن محال، وهبت علينا ريح شديدة، وغطت السحب النجوم بنوع من الظلمة جعلتنا لا نميز الأرض من تحت أقدامنا. وهنا تحتم على رفاقى البحث عن مكان آمن، ننام فيه إلى أن يطلع النهار؛ ولكنى شجعتهم على مواصلة السير والمضى قدما، حتى نتمكن من الوصول إلى المستوطنة فى تلك الليلة. سرنا مدة ساعتين، وشاهدت أعمال

بناء بعض المنازل، بالرغم من أن أصدقائى ردوا على بأن ذلك كان مجرد نوع من الصخور بيضاء اللون؛ بعد ذلك تناهت إلى مسامعنا أصوات نباح الكلاب، ومررنا من أمام خيمة منعزلة من خيام البدو المترحلين. ووصلنا إلى" ديرة" العجيلة. لم يكن فى تلك الديرة سوى كابينتين كل منهما مكونة من غرف أرضية آبار وقطع من الأرض لزراعة القمح. كانت الريح شديدة، وناديا عندما وصلنا أول جدار من جدران هاتين الكابنتين؛ وخرج لنا رجل حيانا بتحية المساء. وقدم لنا الرجل شيئا من الوقود (الحطب)، وشببنا نارا بالقرب من منزله ورحنا نتدفأ بها: ثم أحضر لنا مضيفنا بعد ذلك التمر والزبد واللبن، وقال: إنه آسف لعدم استضافتنا داخل منزله، كما اعتذر أيضا عن أن الوقت كان متأخرا الأمر الذى لا يمكن معه طبخ أى نوع من أنواع الطعام. حمل ذلك الرجل الأوانى الفارغة وعاد إلى داخل منزله، ليتركنا ننام حتى الصباح.

قالوا: إننا مررنا بمستوطنة صغيرة اسمها حفيرة Hafirat زيلول Zeylul؛ لم يسبق لرفاقى أن جاءوا إلى تلك المستوطنة من قبل. وحائل من هذا المكان لم تعد تبعد عنا كثيرا، على حد قول إياد؛" سنبدأ فى المسير غدا مع بداية الجهمة jehemma، أى فى الوقت الذى يمكن فيه التمييز بين الكلب والذئب،- والتى أوشكت على الدخول علينا، ياخليل، وفى تلك الفترة يكون بوسعك يا خليل، القول بأن الكلب كلب والذئب ذئب (أى مع طلوع الفجر)."- كانت الريح الشمالية العاصفة (فى تلك الليلة من ليالى شهر مارس) شديدة البرودة، وعندما طلع النهار كانت فرائصنا ترتعد؛ ورفض الرفاق التحرك قبل اكتمال طلوع الشمس كى يستشعروا شيئا من الدفئ. وفى هذه الليلة حصلت على قدر من الراحة أوفر من ذلك الذى حصل عليه أولئك الذين استضافونا؛ والسبب فى ذلك أننا كنا نسمع طوال الليل، ونحن جالسين فى البرد، أصوات السوانى (السواقى) التى لم تنقطع طوال الليل، بل واستمرت إلى طلوع النهار. مرجان:" هل البدو وعمال الزراعة أصحاب الحياة الأفضل ؟ تكلم يا خليل، أجب، فنحن نعرف أنك نشأت بين البدو."- سوف أبيع نخيلى، إن كان لدى نخيل، لأشترى بثمنه إبلا، وأعيش مع البدو."- قال الرجل:" وأنا أيضا سأفعل الشيئ نفسه."

ومع مضينا قدما أثناء العجاج ajjaj، أو إن شئت فقل: الريح المحملة بالرمل

والغبار، كانت أعيننا تصاب بالأذى. وقد رافقنا ولد صغير كان عائدا إلى القصر، الذى يتعين علينا المرور عليه اليوم:- هذا يعنى أن أى إنسان يمكن له أن ينضم إلى أية جماعة من الجماعات المسافرة فى بلاد الجزيرة العربية كلها إذا ما أراد ذلك. الصحراء فى اتجاه الشرق عبارة عن سهل ملئ بالقمم والصخور الجرانيتية، التى لها رءوس من البازلت؛ وفى أحيان جد نادرة تكون تلك الرءوس عبارة عن إبر صخرية متهاوية إردوازية اللون. قبل دخول وقت الظهيرة بدأ يطالعنا منظر القصر أسفل قرية أجأ Ajja، الذى كان مرجان ينطقها إجه ejje، بحكم اختلاف لهجته: كنا قد تجاوزنا المحال (الأرض الجرداء) وبدأت تطالعنا خضرة الربيع التى كانت تكسو وجه الصحراء. هذه هى دوائر من التربة العارية تحيط بالقرى الصحراوية، والتى لا يجرؤ البدو على رعى ماشيتهم فيها دون أن يسبب ذلك لهم متاعب مع الأمير: حقوق المرعى هذه يطلقون عليها اسم الحمى hma [راجع الجزء الأول ص ٥٠٢] رأينا فى هذه المنطقة شابا من شباب القصر، راكبا حمارا ويتجول هنا وهناك لجمع الحطب، ولإحضار شئ من العلف لإبل الآبار. تقدم ذلك الشاب نحونا ونادى علينا مرحبا بنا، ونزل من فوق حماره؛ ليسحب من فوقه قربة فيها لبن مخثر- صب لنا شيئا منه كى نشربه، وراح يقول لنا:" أنتم أيها المسافرون ربما تكونون ظمآنين ؟" تناول كيمة من التمر ثم وضعها أمامنا على الأرض، وعزم علينا بجرح صيامنا: ثم ركب حماره من جديد والسرور يبدو على محياه، قال:" سنلتقى مرة ثانية فى المساء، فى القرية."

ترك الرفاق الناقة ترعى، فى حين جلسنا نحن على رمل السيل بلا أى ظل يحمينا من ضوء الشمس وحرارتها، لنأخذ قسطا من الراحة (..)*.

كانت طلاع tola النخيل، أو إن شئت فقل: الأغصان الحاملة للثمار فى النخيل، لم تظهر بعد؛ كما شاهدنا أيضا عيدان القمح الخضراء: وبذلك يجيء حصاد القمح فى جبل شمر بعد حصاده فى كل من خيبر والمدينة المنورة.

قبيل العصر، مضينا فى طريقنا فى اتجاه إسوار (بستان) القصر، وقد جرى تحصين تلك الأسوار بأبراج تشبه المنارات وهى من بقايا عصر سابق. قال إياد: نحن

(*) عبارات غير لائقة تمس المقدسات الدينية رأينا استبعادها دون إخلال بالسياق العام . (المراجع) .

إذاما بدأنا تحركنا باكر فى ساعة مبكرة، فلربما وصلنا إلى حائل، فى هذا hazza الحال hal، بمعنى فى هذا الوقت تقريبا. كان القرويون يرتاحون فى منازلهم، تحاشيا لحرارة النهار، ولم يكن فى القرية التى كانت مبنية من الطين، وتحيط بها أسوار مهدمة، وأرض تشبة الكهوف مغطاة بغبار وتراب قذر تتسلط عليه أشعة الشمس. والأوربيون ينظرون إلى القذارة العربية بشئ من الكراهية والااشمئزاز: ونحن ننظر إلى مثل هذه القذارة من منظور أنها من مخلفات الوثنيين. وقادنا بعض الأطفال لتوصيلنا إلى البلدة. وفى وسط هذه البلدة هناك مكان صغير واسع فيه مجرى مائى جيد سقينا منه ناقتنا: ماء هذا المجرى عذب، ولكنه دافئ بعض الشئ، شأنه فى ذلك شأن المياه الجوفية كلها فى الجزيرة العربية. ثم اتجهنا بعد ذلك للجلوس، خلف الجدار الغربى الذى بدأ ظله ينكسر على الأرض؛ ورحنا نتأمل المنظر من أمامنا؛ ورحنا نترقب عسى أن ينادى علينا أحد من أرباب الأسر.

وقف الرجال على أعتاب أكواخهم ليلقوا نظرة على البدو : وهنا جاء أحد الأفراد – يبدو أن هؤلاء القرويون يتناوبون المراقبة – ووقفت لمقابلة ذلك الرجل سألنى من أنت ومن أين جئت ، وإلى أين أنت ذاهب ؟ " جلست بعد أن أجبت على تساؤلاتع وتركنا لحال سبيلنا وذهب هو أيضا لحال سبيلة ، ولكنة عاد إلى مرة ثانية وقال سُم sum بمعنى " قم" هنا وقفت وتبعته أدخلنا ذلك القروى إلى حوش كوخ وجلسنا على الأرض فى ذلك الحوش فأحضر الرجل لنا شيئا من التمر ومعه قليل من الزبد وقليل من شرش اللبن وبعد أن انتهينا من الأكل عاد إلينا وجرى استدعاؤنا بعد ذلك إلى المقهى العام أو إن شئت فقل مقهى القرية كان الناس هنا يعرفونى أيضا ، نظرا الأن البعض منهم. سبق أن رانى فى حائل. حاصرنى أولئك الفلاحون العابسون بسيل من الأسئلة الدينية؛ إلى أن ضقت ذرعا بتشددهم الذى لا يعرف العقل.

القصر، أو إن شئت فقل قصر Kasr الأشُروات el-Asheruwat، عبارة عن قرية تضم ما يتردد بين مائتين وخمسين وثلاثمـــائة نسمـــة؛ جبانـــة القـرية الكبيرة التى تقع خارج القرية، عبارة. عن برية من شواهد القبور المصنوعة من الأحجار الغشيمة

وقد تعاقبت عليها أجيال كثيرة، الآبار هنا يصل عمقها (على حد قول البدو) إلى ثلاثين قامة!

هنا بدأنا نسمع أخباراً مؤكدة عن الأمير؛ فقد انتقل مخيم الأمير إلى حازل Hazzel، وهذا الحازل عبارة عن عيض aed أو إن شئت فقل جاو jau (مكان للسقيا يقع في أرض مجوفة) على بعد مسافة قصيرة، في اتجاه الشرق، من الشقاقي Shakaky في بلاد الرولة (التي كان الربيع فيها على أشده في هذا العام)،"وكان الشمر كلهم معه، علاوة أيضًا على ماشية الأمير." علمنا أيضًا أن الأمير لم يترك حائل إلا منذ فترة قصيرة، وأن عودة الأمير إلى حائل ومن معه ستكون في غضون بضعة أسابيع. هناك أيضًا الطلعات الرعوية، وكذلك الطلعات التدريبية التي يقوم بها أمراء الشمَّر. وفي تلك الطلعات يمكث أولئك الأمراء مدة شهر أو شهرين يعيشون خلالهما عيشة البدو؛ ولكن ذلك التجوال الذي يجري على غير هدى ينتهي بنشاط مفعم: وهم نظرًا لوجود ماشيتهم معهم، فإنهم يقومون بغزو كبير، ويصحبتهم كل من الرجاجيل والبدو، يفاجئون بهم أعدائهم؛ وبعد ذلك يعودون إلى حائل (ومعهم غنيمة في أغلب الأحوال)- قالوا لنا: إن الصحراء في المنطقة الواقعة فوق القصر عبارة عن محال. يضاف إلى ذلك أن القصر، كان في الجزء الغربي من قرية أجأ Ajja؛ زد على ذلك أن قطيع لأمير من الأفراس والخيول كان قد أرسل إلى المرعى في المنطقة الواقعة حول مجوج Aogug. تساءل إياد، "عما إذا كانت هناك أية أخبار عن أفراد العجيل العشرين القادمين من المدينة المنورة؟"

القرويون في القصر، هم من بني تميم: اسم بني تميم هذا من الأسماء العريقة في الجزيرة العربية. وهم بدو قرويين من قديم الأزل، والقبليون المستقرون منهم كانوا معتادين إلى حد ما على الحياة البدوية؛ أما الآن فهم قرويون دمًا ولحمًا. وبنو تميم أشد بأسًا من جيرانهم البدو. ولكنهم ممسكون وليسوا كرماء. وفي المساء راح أولئك القرويون يتحدثون معنا بلا توقف نحن الغرباء، ولم يقدموا لنا أي شئ من القهوة. وعلى جانب من أجناب المقهى الخاص بهم، كانت هناك كومة من الزلط، هذه الكومة يقولون لها: منام manam أو إن شئت فقل: المكان الذي ينام فيه المسافرون، وهذا المنام

عبارة عن مسكن حجرى غير مريح لأولئك الذين يفدون على هذا المكان من الأماكن الفارهة فى الصحراء؛ التى يوجد فيها رمل ناعم وطرى فى كل مكان. أما تلك الليالى التى تحملنا بردها فى الصحراء المفتوحة، فقد تحولت هنا إلى ليالى دافئة أمضيناها هنا خلف الجدران التى كانت تحمينا من ذلك البرد.– وعندما رحلنا عن المكان قبل طلوع النهار، رأيت كثيرين من أولئك الفلاحين نائمين خارج الأكواخ وملفوفين فى عباءاتهم (بشوتهم)؛ كانوا يتمددون مثل الكلاب فى تراب شوارع القرية.

شاهدنا مع شروق الشمس؛ رأس سميراء Sumra حائل Hayil. وأجاب إياد على أسئلة الرجال كلهم."نحن نصاحب خليلاً إلى حائل، وذلك بأمر من باشا المدينة المنورة؛ نحن نحمل معنا خطاب الباشا إلى ابن الرشيد؛ ولكننا لا نعرف ذلك المكتوب فى تلك الرسالة،– والتى ربما تنص على قطع رقابنا جميعًا!"– قلت فى نفسى أيضًا:"الأتراك خائنون!"– لكن هل ينبغى علّى فض ختم الباشا؟ لا! لأنى يجب أن انتظر، بعد فترة وجيزة، شيئًا طيبًا من تلك المخاطرة. هذه الرسالة المختومة، الصادرة عن حاكم المدينة المنورة، جرى فتحها بعد عودتى من الجزيرة العربية، فى واحدة من القنصليات البريطانية؛ ولم يكن فيها من شئ سوى تزكيتى عند"الشيخ" The Sheykh بن الرشيد؛ كما طلب الباشا منه أيضًا أن يعيننى على المضى قدمًا فى رحلتى.

كنت أمشى ساعتين أثناء النهار، ومثلهما فى العصر، وذلك حتى يتسنى لرفاقى الركوب؛ وحفاظًا منى على الناقة المريضة كنت أتسلق عدتها (سرجها)، وهى واقفة، كما لو كنت واحداً من البدو: ومع ذلك، فإن تلك الإنسانية التى كشفت لهما عنها، فى حدود إمكاناتى، أدت إلى تحجر قلبيهما القاسيين. وعندما وجدت أنهما كانا متعبين ومرهقين، وعندما وجدت إياد يشتكى من تآكل نعاله، واصلت المسير حافى القدمين إلى أن وصلنا قفار Gofar وطلبت منهما أن يظلا راكبين على الناقة.– وفى قفار رأيت مرة أخرى (أوه! يا له من منظر جميل)، أشجار البرقوق وأشجار اللوز مزهرة فى واحدة من واحات الجزيرة العربية. ولم نلتق أحداً فى الشارع الرئيسى الطويل؛ كان الرجال فى حقولهم، فى ذلك الوقت، أو يقضون فترة القيلولة داخل منازلهم. ومررنا على منطقة

المناخ Manakh، وكنت أعرفها جيداً؛ ولكن رفيقاى، اللذان لم يسبق لهما السير فى ذلك الطريق فى السنوات الأخيرة، واصلا سيرهما، وبالتالى ضاع منا تناول الإفطار. وعندما كنت أناديهما لم يكونا يسمعانى؛ وقصدا باباً بعيداً وراحا يطرقاه. وفى النهاية جلسا أرضًا عند نهاية الشارع، ولكننا لم نصادف أحداً. قال رفيقاى: هيا بنا إلى حائل، وأنت أركب الناقة يا خليل!" واصلنا مسيرنا عبر أطلال الحى الشمالى، الذى دللتهما أنا فيه على الطريق؛ واقتربنا من جانب الصحراء، وسلكت الطريق الثانى، ولكنهما سلكا طريقًا آخر، ناديت عليهما، وناديا علىَّ وواصلت السير راكباً الناقة. وهنا دار رأس إياد الخفيف، ولا أعرف إن كان ذلك بسبب عدم شربه الدخان فى ذلك اليوم، أم لأنه كان مرهقًا وصائمًا، ولذلك راح يسبنى ويلعننى؛ وجاء يجرى خلفى مثل رجل مجنون"لكى يأخذ الناقة." وعندما أخبرته أنى لا أطيق ذلك، توقف بعيداً عنى وراح يسب ويلعن، وبدى عليه أنه فقد صوابه. وبعد مسير ميل عاد إياد إلى صوابه مرة أخرى؛ واعترف لى،"أنه إلى أن شرب دخان الصباح، كان يحس بحموضة فى صدره، وكان يشعر بالضيق، كما أحس أيضًا كما لو كان شيطاناً أو فرعوناً."- والسيطرة على مثل هذا الإحساس تشبه السيطرة على الماء!

فى هذه المرة الثالثة، ركبت الناقة، وأنا أفكر ملياً، فى ذلك الطريق المعبد المؤدى إلى حائل؛ ورحت ألاحظ أيضًا (بكراهية، لذلك الجنس) على بعد ساعات قلائل"أماكن سجودهم"؛- التى هى عبارة عن خلجان صغيرة من الحجر فى أرض الصحراء، التى يستطيع فيها عابر السبيل، أداء الصلاة فيها- إذا ما دخل عليه وقتها.- وقبيل الظهر التقينا مسافرى الصباح الخارجيين من حائل: وراح الجميع ينظرون إلىَّ بعيونهم المتشددة التى لا ترحم، وكان كل من يمر علىّ يقول ويكرر الكلام المؤلم على رفيقاى،"لماذا جئتما به ثانية؟" جاءنا بعد ذلك عمبر Amber شقيق عنبير Ameybar، راكباً جحشًا ضمن جماعة من الناس؛ كان ذاهباً إلى قفار، حيث توجد أرضه ونخله. ولكن ذلك الحبشى المحترم والخليع أيضًا حيانا بتحية توحى بخفة الظل،- خطر ببالى أن تلك التحية كانت على العكس من تحية أفراد الأسرة المالكة أو تحية أولئك المتشددين. وسرعان ما بدأنا نشاهد، عند بداية الصحراء، رأس البرج الأبيض

الخاص بالقلعة، وهنا قال مرجان:"يظن البعض أن أطفال طلال الصغار ما زالوا يعيشون وأحياء فى تلك القلعة. وأنهم يرون الدنيا من برجهم، ولا يراهم أحد."(*) وكان النخيل فى الصحراء على الجانب الأيمن، فى منطقة الشرافة es-Sherafa، التى أنشأها الأمير متعب:- وعليه واصلنا مسيرنا نحو البلدة.

دخلنا حائل قبيل صلاة العصر. ولم تكن هناك أعمال رسمية، نظراً لغياب الأمير! كانت غالبية الدكاكين مغلقة. وكان شارع السوق الطويل ساكناً وبلا حركة؛ وبدت تلك البلدة ميتة وخالية من الناس. شاهدت عبد الله المرتد جالساً عند باب أحد الدكاكين؛ كما شاهدت بعد ذلك، كلاً من إبراهيم، وبعضاً من معارفى وفى النهاية شاهدت ناظر المدرسة. وقف ذلك، المتحذلق، وراح يناديني بإشارات تدل على المكر والخداع،"الآن، مرحباً! الحمد لله!- خليل أصبح مسلماً!" (لأنه خمَّن أنى لا يمكن أن أعاود الدخول إلى بلاد بن الرشيد بغير ذلك.) وعند نهاية الشارع التقيت عنيبر، الذى يقوم بدور نائب الأمير فى حائل (الخالية) حالياً نظراً لعدم وجود الأمير؛ خرج عنيبر من القصر حاملاً فى يده سيفاً مقبضه من الذهب: حيانى، ذلك الرجل العظيم، ومضى فى طريقه. ذهبت وقصدت النزول عن الناقة أمام القلعة، فى المسحاب الخالى من الناس، الذى كان مفروضاً أن يمتلئ بالإبل الباركة التابعة لأولئك الذين جاءوا لزيارة الأمير: ولكن فى تلك الأيام، ونظراً لقيام ابن الرشيد بالغزو، لم يحضر أحد من البدو إلى المدينة. كان نصف سكان حائل على وجه التقريب بصحبة ابن الرشيد فى الميدان؛ والباعة البدو هم أيضاً، بالإضافة إلى الرجاجيل، خدم لابن الرشيد، وهم يصاحبونه أيضاً عند القيام بالغزو. هذا النوع من الخدمة العسكرية أحبط الكثيرين من تجار مناطق شرقى نجد، الذين كانوا يرغبون فى تجربة حظوظهم فى حائل بغير هذه الطريقة.

استشرت بعض أمراء القلعة التى تقوم على الإشاعة والترويج، إذ ذاع الخبر بين الناس أن النصرانى قد عاد إلى حائل من جديد. رأيت أولئك المروجين واقفين فى بوابة برج القلعة ومعهم معد القهوة العجوز؛"(صاحوا)، هيه! إنه النصر إنى بالفعل! سوف يُعْدَمُ مرضاة لله."، وبينما كنت أقف مندهشاً، عاد عنبير؛ إذ لم يمش سوى بضع

(*) على أثر أن تولى الأمير محمد بن الرشيد السلطة فى جبل شمر فى عام ١٨٧٢ قام بقتل جميع أبناء أخيه طلال ، ولم يستثن منهم سوى ابن واحد ، كما قتل عبيدهم إلى جانب عدد كبير من الرجال الذى كان يتوجس منهم . وكان لتلك المذبة البشعة أثرها لدى الناس يعاطفوا مع أولئك الأطفال القتلى إلى درجة اعتبارهم أحياءً كما ورد فى السياق (المراجع)

خطوات حتى استجمع انتباهه من جديد"سلام Salaam عليك!" aleyk"عليكم Aleykom السلام es-Salaam،" رد علىَّ السلام، على نحو يجمع بين الدهشة وحسن النية، ثم أشاح برئسه إلى الخلف؛ لأنهم تعلموا جميعًا كيف يقلدون الأمراء. مد عتيبر لى يده اليمنى بشئ من العظمة: كان بينى وبينه سلام العيش والملح.-" من أين جئت يا خليل؟ وأنتما أيها الاثنان من أنتما؟- حسن، اذهبوا إلى المقهى! وفيها سوف نسمع منكم الكثير." مر علينا على العايد el-Ayid، قادمًا من منزله، وحيانى بتحية طيبة.

عندما جلسنا إلى عنبير فى المقهى الكبير، سأل مرة ثانية،"وأنتما أيها البدويين اللذان معه، من أنتما؟" رد عليه إياد بتواضع جم:"نحن من الحطيم."-"لا، أنتما لستما من الحطيم."-"قلت: قل لهما هما الاثنان، من أنتما، ومن الذى أرسلكما إلى هنا." إياد:"نحن من عجيل المدينة (المنورة)، وقد أوفدنا باشا المدينة (المنورة) إلى خيبر لتوصيل خليل، ومعه رسالة، إلى ابن الرشيد."-"حسن، أنتما من العجيل، وما هى قبيلتكما؟" لا بد أن نقر بأننا بدو، وإننا من العواجى." عنيبر:" وأنت، يا خليل، أين رسائلك؟"- أعطيته رسالك من عبد الله السروان، كما ناولته رسالة الباشا المختومة. أعطى عنيبر، الذى لم يتعلم القراءة والكتابة، الرسالتين إلى السكرتير، ذلك الرجل البشوش، الذى قرأ العنوان الخالى من التملق" إلى الشيخ بن الرشيد"، ثم أعاد إلىّ الرسالتين دون أن يفضهما.- هنا دخل مفرِّج، رئيس الخدم؛ وشد على يدى بطريقة حانية، وصاح،" سمٍّ!" (اختصار لكلمة"باسم الله") ثم اقتادنا إلى المضيف. وفى المضيف وضعوا أمامنا طبقًا من التمر الذى يحصل ابن الرشيد عليه على شكل ضريبة، - و- الذى يمثل كرم الربيع- ومعه سلطانية من لبن الإبل. وأرانى واحد من خدم المطبخ قطعة من النقود النحاسية القديمة، التى كانت عليها صورة نسر؛ كانت تلك القطعة قد جرى العثور عليها فى حائل، وهى من النقود الرومانية.

خصصوا لنا المخزن الذى سبق لنا أن أقمنا فيه؛ وتركنى رفيقاى ليزورا أصدقائهما فى البلدة. وسرعان ما تجمع الأطفال على عتبة المخزن وراحوا يسبونى ويلعنونى. وجاء إلىّ أيضًا الطفل الأمير عبد العزيز، يتيم المرحوم متعب: اكتشفت أنه كبر خلال تلك الشهور الثلاثة؛ كان يتصرف تصرفات عمه، إذ كان متعالى النظرات فى

غير احتقار، فضلاً عن إنه كان يشبه الأمير محمد. وقف الطفل الأمير وراح ينظرا إليَّ في صمت، وضع يده على سيفه الصغير، ولكن لم يسب الغريب أو يلعنه؛ ثم تكلم متسائلاً:"لماذا عدت، يا خليل النصراني؟"– لأني، آمل أن يشرح مجيئي صدر عمك، يا عزيزي."– لا، يا خليل! الأمير يقول: إنك يجب ألا تبقى هنا." وهنا رأيت زيدًا، حارس البوابة، وهو يقتاد مرجان ممسكًا بيده؛ ثم طلب من ذلك الصبي أن يحكي له كل ما حدث لي منذ أن وصلت خيبر. والأسئلة التي من هذا القبيل تضرني ولا تنفعني: كان ذلك خطرًا سبق لي أن توقعته، بين هؤلاء العرب غير الكرماء.

قابلنا عنيبر في المقهى في المساء: قال، يا خليل، نحن لن نجعلك تمضي قدمًا، ويتعين أن ترحل عنا باكر."–: حسن، أرسلوني إلى الأمير في الشمال ومعي الرسالة القادمة من المدينة (المنورة)، إذا كنتم ترون أن ليس من حقي انتظار عودته إلى حائل."–"استرح هنا الليلة"، وفي الصباح (وفك راحتي يديه عن بعضهما) أرحل عنا!– ابق هنا، يا خليل! لقد هددك الناس اليوم، ولقد رأيت بنفسك كيف كانوا مستائين من دخولك."–"لم يستاء مني أحد، لقد حياني الكثيرون منهم.""وحياة، الله! وأنا لا يمكن أن أتحمل بقاءك هنا في حائل، وبخاصة أن كثيرين يودون قتلك، وأنا يتعين على أن أكون مسئولاً أمام الأمير: نم هنا هذه الليلة، وإن شاء الله بلا شر، وأركب راحلتك عندما يطلع النهار."– وبينما كنا نتحدث دخل علينا مراسل، قادمًا من عند الأمير، في صحراء الشمال." تعجب عنيبر، في شئ من النفاق، وكيف حال الأمير؛ وأين كان مخيم الأمير عندما تركته أنت؟" هذا المراسل المحترم، كان رجلاً في منتصف العمر، حيَّاني دون امتعاض ديني، كان المراسل غريبًا عن حائل، أو بالأحرى كان من المناطق الشرقية. عنيبر:"هل سمعت، يا خليل؟ ثم أراني الوقفات الثلاثة التالية معددًا إياها على أصابعه، غدًا!– النهار!– الرحيل!"–" من حيث أتيت؟– إلى خيبر: ألست من الدين din (دينهم)"–" لا، أنا لست من دينهم."–" من هنا فإن العرب يتعجلون حياتك: وأنت إذا ما كنت من دينهم، فإنك سوف تعيش دومًا بينهم."–" إذن، أرسلني غدًا، وعلى مسئوليتي، في اتجاه القصيم."

استاءوا عندما أتيت على ذكر الدولة (الإمبراطورية العثمانية): وهنا ردَّ على عنيبر قائلاً،"أية دولة! هذه هى أرض الأعراب، إنها أملاك بن الرشيد.– يقول القصيم: ولكن ليس هناك بدو حتى يقومون بتوصيله. يا خليل! نحن أنفسنا لا يمكن أن نجرؤ على الظهور فى القصيم،" وأحدث إشارة غبية، بأن جعل إصبعه يذبح زوره الأسود.–"لا تفكر فى خداعى، يا عنيبر؛ أليست شقيقة أمير بريدة، واحدة من زوجات محمد بن الرشيد؟ أليس أهل القصيم حلفاء لنا؟"–"(تعجب البعض منهم) الله! إنه يعرف كل شئ."– عنيبر:" حسن! هذا غير معقول، يا خليل: ماذا تقول أيها الشريف؟"

كان ذلك الرجل شحاذاً مهندما، وكانت عيناه رماديتين، وترتيبه الأربعين من سلالة النبى، وكانت ملابسه تشبه ملابس الأتراك، وكان قد وصل فى ذلك اليوم قادمًا من المدينة (المنورة)، التى كان يقيم فيها. كانت تجارة هذا الرجل الرابحة تتمثل فى المغامرة والنفاق: وكان يقيم فى موطنه ثلاثة أو أربعة أشهر من العام؛ أما بقية العام، فكان يجوب البلاد، أو يعبر البحار ليجوب أراضى العالم الإسلامى. كان ذلك الرجل، يتخذ لنفسه محظية أو خليلة فى كل منطقة يصل إليها؛ وفى كل الأماكن التى كان يذهب إليها، كان يشرح بعض الكلمات والتعبيرات المبهجة، كما كان يعرض على الناس براءة مكتوبة بأحرف كبيرة وصادرة عن الملوك والأمراء، وكان حضوره يحظى بالتكريم، إلى حد أنه كان يسمح له بدخول أفضل البيوت، من منطلق أنه شيخ من شيوخ المدينة المقدسة، ومن منطلق أنه ابن أخ رسول الله: من هنا كان يتلقى صدقات هؤلاء الناس ثم يعود بعد ذلك إلى المدينة المنورة. كانت مدينة بخارى Bokhara من المقاصد التى يذهب إليها هذا الرجل المتدين، وكان ذلك، هو أيضًا حال المدن كلها الواقعة بعد بخارى وحتى منطقة كابول Cabul. وفى الهند المسلمة، تجول كشحاذ فترة طويلة كى يتعلم اللغة الدارجة. وفى العام الماضى، زار إسطمبول وتتبع الأسلحة [غير] المجيدية فى أوروبا؛ كما أسبغ عليه سلطان الإسلام فرمانًا إمبراطوريًا.– أطلعنى على وثيقة مكبرة عليها توقيع بخط يده وعلى ورقة كبيرة. وبمقتضى هذه الوثيقة كان يتعين عليه القيام برحلة ثانية إلى الهند.

– عندما طلب عنيبر رأيه ومشورته،" (ردت تلك الروح الجوفاء) والله Wellah يا Ya المحافظ El-Mohafuth، أنا أقول الشئ نفسه، أقول إن ذلك أمر غير ممكن؛ فما هى صلة هذا الرجل بالقصيم؟ وما الذى يفعله هذا الرجل بتجواله هنا وهناك فى أرضنا كلها؛ (وأردف متمتمًا)، ويكتب Wayiktub البلاد el-bilad." بمعنى"يدون أشياء عن البلاد. عنيبر:" حسن، يجب أن ترحل عنا غدًا، يا خليل؛ وأنت يا إياد عد به ثانية إلى خيبر."– إياد:" ولكنهم سيقولون لى هناك:"لماذا عدت به إلى هنا مرة ثانية؟" والله أنا لا أجرؤ على فعل ذلك يا عنيبر."فكر عنيبر وتدبر الأمر قليلاً. ورددت عليهم،"هل تسمعون كلامه؛ وحتى إذا ما عرضتمونى مرة أخرى للمخاطر، فإن الدولة قد تطالبكم وتسائلكم عنى، وأنتم يتعين عليكم كل عام دخول بعض مدن الدولة، مثل بغداد والمدينة المنورة: وأنتم حتى عندما ترسلون بخيولكم إلى الهند، ألن تكونوا فى قبضة رفاقى المواطنين وتحت سيطرتهم؟"– الشريف:" إنه يقول الحق، لقد ذهبت إلى الهند، وأنا أعرف الإنجليز وأعرف دولتهم: والآن اسمحوا لى أن أتكلم مع هذا الرجل باللغة التى يفهمها،– راح يتكلم بلغة هندوستانية– ماذا! إنجليزي لا يفهم لغة الهند؟"– عنيبر:"أنت يا إياد (أحد رعايانا البدو)! ليس مسموحًا لك أن تقول: لا؛ وأنا آمرك بتوصيل خليل إلى خيبر؛ ويتعين أن ترحل صباح باكر.– هى هو! لا بد أن وقت الصلاة قد دخل!"قال البعض: إنهم سمعوا الآذان ithin بالفعل: نهض عنيبر من مكانه، كما نهض الشريف أيضًا، ونهض بعدهم بقية الحاضرين؛ وذهبوا جميعًا لصلاة العشاء فى المسجد الكبير.

كان غريب يسكن فى المخزن المجاور لمخزنى، وكان ذلك الغريب قد عاد مؤخراً من الحروب: سمعت من ذلك الغريب أول الأخبار المؤكدة،–"أن المسلمين كانوا فى أسوأ أحوالهم؛ ولكن إعلان الجهاد كان قد وصل إلى نهايته، وأن المحاربين عادوا إلى أوطانهم. قال: إن المسكوف Muskovs كانوا كبار الحجم وأصحاب أجسام قوية ولهم لحى كبيرة؛ ولكن أغنام النصارى كانت هى الأغراب بالنسبة لنا من بين كل ما شاهده فى أوروبا إذ كانت لتلك"الأغنام أذيال مثل أذيال الإبل" [أو أن تلك الأغنام لم تكن من سلالة تلك الأغنام الموجودة فى الجزيرة العربية]. وقال إنه وصل مؤخراً إلى حائل

بصحبة شيخ العجمان الكبير. كان شيخ العجمان الكبير هذا قد أسره الأتراك، عندما احتل الأتراك منطقة الإحساء (*)، ونفوه إلى حدود روسيا. وبقى محتجزًا هناك طوال سبعة أعوام؛ كان أقارب ذلك الشيخ (طوال العامين الأخيرين) قد نسوه تمامًا،- زاعمين أنه مات ولقى ربه! ولكن هذا الرجل الشجاع (الأمى) سمع وهو فى بلاد غريبة صيحة القتال دفاعًا عن الدين، وهنا تقدم بالتماس إلى السلطان يطلب منه إشراكه فى ذلك الجهاد؛ وتركوا للرجل حرية أن يحمل رمحًا ويذهب للجهاد دفاعًا عن عبادة الله وعن الرسول.- هذا الدوق البدوى أصيب بجرح فى ذراعه. ومع إعلان الهدنة طلب السلطان إلى ذلك الرجل أن يطلب لنفسه مكافأة؛ ورد عليه الرجل،"أن قد أعود إلى منطقتى، التى يسمونها الحجَّار Hajjar!"- وفى شهر رمضان نزل ذلك الشيخ هو ورفاقه فى جدة: وزاروا مكة والمدينة المنورة؛ ومن المدينة المنورة توجهوا إلى حائل. واستقبلهم، محمد بن الرشيد، استقبالاً طيبًا فى حائل، وودعهم بعد أن أعطاهم هدية ملكية عبارة عن ثلاثة نياق وخُرْج مليء بالنقود (الريالات الفضة). وعاد ذلك الشيخ العربى النبيل إلى موطنه؛ وبلغنا بعد ذلك أنه سلم نفسه للوهابيين.

ذلك الغريب، رفيقه، الذى كان دائم السخرية والاستهزاء، والذى ينظر للناس شزرًا بصورة مستمرة، قال لى: إنه سبق أن رآنى قبل ثلاث سنوات فى الإسكندرية، وأنه تحدث معى أيضًا! [وأنا أعتقد أن ما قاله صحيح،- وأننى فى ذلك اليوم الذى التقيته فى الشارع، سألته أن يدلنى على الطريق.] وبدى لى كلام ذلك الرجل العربى ثقيلاً على أذنى، وأن لسانه فيه شئ من النفاق. قال الرجل: إنه من اليمن، أما حقيقة ذلك الرجل (فى وقت الاضطراب والقلاقل) فلم أقف عليها، ولم أسأله عنها. وعندما سألت ذلك اليمنى عن شريف المدينة المنورة أجابنى باحتقار شديد (لا يمكن أن يصدر إلا من شخص أوروبى)"إنه ليس شريفًا وأنا أعرفه حق المعرفة، وهو لا يعدو أن يكون مجرد شحاذ قطع المسافة قادمًا من المدينة المنورة. إلى هنا، ومعه صندوق من الشموع (التى لا يعرف شيئًا عنها فى هذه المنطقة) لتقديمه لابن الرشيد، لمجرد أن يشحذ منه أربعة أو خمسة ريالات، إضافة إلى كسوة من الملابس. وهو يفعل هذه الفعلة كل بضع

(*) احتل العثمانيون الأحساء فى عام ١٨٧١. فى عهد ولاية مدحت باشا على بغداد ، وأدت الحملة العثمانية إلى إضعاف السعوديين وتصاعد نجم ابن الرشيد . (المراجع)

سنوات قليلة، بالرغم من أنه له بيت جميل في المدينة المنورة؛ وهو يتجول شحاذًا في كل أنحاء الدنيا."–"ولكن لماذا كل هذا، إذا كان ذلك الرجل يود أن يعيش حياته؟"–"إنه الجشع والطمع ليس إلا."

جاء الشريف لزيارتي بعد الصلاة، ومعه رفيقه في السفر، وكانا يرتديان معطفيهما المدنيين الطويلين، ومن فوقهما حزامين عريضين، وملابس جاهزة من النوع السيئ، وطاقية حمراء ملفوفة بشال أبيض من شيلان العمائم. سألاني،"هل لديك شيئًا من الماء؟" كنا جميعًا نشعر بالعطش بسبب الرحلة، والعطش يشبه الحمى في الجزيرة العربية؛ وخرجت بحثًا عن شئ من الماء، كي أقدمه لضيوفي، وطلبت ذلك الماء من أولئك الذين يقيمون عند بوابة القصر. كانت البوابة مغلقة:" ماذا تريد، يا خليل؟" سمعت هذا الصوت في الظلام، وعرفت أنه صوت عنيبر؛ كان عنيبر جالسًا على مقعد حمود المصنوع من الصلصال. سألت،" ما سبب كل هذه الجلبة حول عودتي ثانية إلى حائل؟ وعندما وجدوا أني أحمل معي رسالة من الباشا في المدينة المنورة؟"–"لا تحكي لنا عن الباشوات، والحكومة التي هنا، هي حكومة ابن الرشيد: وعليك أن ترحل غدًا، ولن نسمع أكثر مما قلت؛" ثم التفت إليّ رفيق، رد عليه قائلاً:"نعم، غدًا وفي ساعة مبكرة! وليغرب عنا ذلك النصراني اللعين." سألت عنيبر، عن مستشاره، طالما أني لا أستطيع مقابلته: ولكنه لم يجيبني على سؤالي.– تصادف أن مر علينا ناظر المدرسة حد الطبع، وعندما تعرف أصواتنا،" قال: حييتك اليوم، وأنت قادم إلى هنا، على حاد علمي، على أنك مسلم، ولكنك سوف تقُتْل الآن."لم يكن عنيبر رجلاً سيئًا، أو متشددًا، ولكنه كان له قلب عبد، وأن الخير الذي كان في داخله يتحول بسهولة إلى فساد بفعل الأسباب الكريهة التي كانت تنهال عليه من الآخرين.

ذهبت وطرقت باب دار على العايد **el-Ayid**، وطلبت قليلاً من الماء. فتحت زوجته الباب وهي تقول:"مرحبًا، يا خليل."–"وأين علي؟"–"ذهب زوجي لينام في حقول القمح (الناضج)، إذ يتحتم عليه حراسة الحقل طوال الليل؛" طلبت مني الدخول، ولكني اعتذرت. كانت صغيرة السن، وجميلة المحيًا، كما كانت متواضعة، وكان له أطفال

كثيرين طوالاً. كنت أزورهما كثيراً عندما كنت فى حائل، فى المرة الأولى، وكانت تجلس أمامى بلا حجاب، باعتبارى حكيماً، وفى وجود زوجها؛ وكان هو راضياً عن ذلك، لأنى كنت نصرانياً. أعطتنى الماء وعدت إلى مخزنى.

كان رفيق الشريف يعمل ضمن قافلة بغداد؛ وبعد ذلك أصابه المرض وبقى فى المدينة المنورة: وكان قد التقى الشريف مؤخراً، عندما كان جاهزاً للقيام برحلته إلى الشمال، وبالتالى اتفقا على أن يترافقا. وافق بعض البدو الرحل المتجهين إلى حائل، على أن يركبا معهم على إبلهم نظير ريالين عن كل واحد منهما، ولكنهما قطعا مسافة كبيرة، إلى حد أنهما وصلا مرهقين ومتعبين. عندما عادا إلى مخزنهما قلت: إنى سأقوم بزيارتهما.- إياد،"أليس الشريف ذاهباً إلى مدينة مشهد؟ سنعطيه نقوداً كى يأخذك معه؛ وعلينا أن ننتظر لنرى ماذا يمكن أن يحدث فى الصباح؛ انتبه، يا خليل! أنا لا يمكن أن أتخلى عنك."- عندما دخلنا أرانى الشريف شهادة السلطان؛ وراح يبحث عن نظارته، وعندما وضع نظارته على أنفه، وتناول الثعلب العجوز شمعته وراح يقرأ ما فى الشهادة. أرانا أيضاً وثائقه الأخرى هى وخطابات التفويض، التى أعطاه إياها الباشوات والأمراء،"قال: إن ما ينقصه هو شهادة واحدة فقط من الإنجليز!"- طلب منى أن أكتب له شيئاً، يمكنه من دخول قنصليتنا فى بغداد؛ وكان يتطلع إلى الحصول على شهادة من القنصلية تساعده على المضى قدماً فى رحلته إلى الهند. قال ذلك الباغى الأثيم سليط اللسان،"ناولنى المحبرة، أبحث فى الخُرْج أيها الرفيق." هذا الأثيم ضايقنى هنا، وكان يود منى أن أنقله إلى خارج البلاد!-"أعرنى هذه البوصة، ولن أخيب أملك،- ما هى الأعمال الطيبة التى تود منى أن أسجلها لك هنا؟ هل ستقنع عنيبر بذلك؟"-"أخ!"- (كان يفضل موتى فى هذه الصحراء على ازدهار هو فى رحلته إلى الهند).

إياد:" يا شريف، طالما أنت ذاهب إلى مدينة مشهد، خذ معك خليل، وسوف نعطيك أربعة ريالات؛ وسوف يعطيك خليل مكتوبا للإنجليز."-" إخ! قال البذئ العجوز، أربعة ريالات فقط، إخ! يمكن أن نتدبر هذا الأمر غداً. ثم أضاف المثل النائس التالى-

يحلها الحلال قبل طلوع النهار: و- والكلمة الوحيدة التى أعرفها من لغة الإنجليز، علاوة على كلمة bret(*)، بمعنى خبز هى الإنجليز el-Engleys، ويرى Werigud بمعنى Very good. سألت الشريف،" هل اتخذوا منك جاسوسا أيضا فى بلاد الهند ؟"-" إى، وهناك فقط كان بوسعى أن ألوم حكومتهم: لم أذهب إلى أى مكان فى الهند، ولكنى كنت مراقبا! ومن أجل هذا فأنا أتطلع إلى الحصول على شهادة، فى مرة أخرى، من القنصلية."-" وهل هددك أحد بسبب دينك ؟"-" لا، هذا ما سوف أقوله نيابة عنهم."-" ألم يكونوا عادلين مع الجميع وبلا تفرقة ؟"-" هم عدول، بلا أدنى شك؛ ثم (قال لإياد) سوف أحكى لك حكاية. ذات يوم وبينما كنت أتجول فى الهند، تعجلت أنا ومحظية من محظياتى فى الوصول إلى بلدة غير بعيدة كى نسكن فيها: ولكن الليل دخل علينا ونحن على بعد مسافة قصيرة من البلدة، ونظرت ناحية الخلف فوجدت محطة عسكرية، لأنى كنت أخاف على المرأة من ناحية، ولأننا إن نمنا فى العراء فقد نكون معرضين للصوص.

لم يسمح لى الحارس الذى لقى تدريبه على أيدى الإنجليز فى الهند، بتجاوز البوابة **، وهذه هى الشمس قد غربت، ولذا فقد انتابتنى نوبة من الغضب ضربته على إثرها. هذا لايتفق مع أخلاقيات الجزيرة العربية؛ ولكن هذا الطفيل المتدين نشأ فى المدينة، ولذلك لم يقبل أو يحتمل أى اعتراض على ماتربى ونشأ عليه.] اشتكى الجندى وأبلغ الأمر للحارس، ولذلك إرسل الضابط المسئول عنه يطلب منى المثول أمامه، كان ذلك الضابط إنجليزيا،- كلهم من أصحاب الشعر الأشقر الذى يميل إلى الاصفرار، أى أن شعرهم مثل شعر خليل. عندما أخبرته بهويتى ووضعت أمامه الفرمانات التى كانت بجوزتى والتى رأيتها أنت بنفسك، أمر الضابط بتجهيز مسكن لنا وإعداد عشاء لنا أيضا، كما أمر بإعطائى أيضا خمسة وعشرين روبينة؛ ثم قال لى: نستطيع الإقامة هنا مدة شهر، نعطيك خلاله تعيينات غذائية يومية."-" ليتك تقنع هؤلاء الناس الموجودين فى حائل أن يتسموا بسيئ من الإنسانية تجاه الغرباء!"-" ها! (رد الشريف كما لو كان مواطنا يحتقرهم) إنهم بدو!" وهنا بدأ ذلك الرجل العجوز المنافق يستظرف.

"قال لى: بخارى مدينة أكبر من مدينه دمشق؛ والأمير- وهنا بدت عليه السخرية والاستهزاء- الذى يطلقون عليه اسم السلطان Sultan، يمتلك بلادا واسعة وأرضا طيبة؛ ولكن (وهنا غمغم وهو يتكلم) المسكوف موجودين حاليا فى تلك البلاد!:-"حسن، احكى لنا عن الجهاد."-" لقد شاركت أنا بنفسى فى الحروب والعمليات الحربية، وأنا لم أعد إلى محل إقامتى فى المدينة المنورة إلا منذ فترة وجيزة!" وقال: إنه سمع فى المدينة المنورة عن (احتجازى) فى خيبر؛ طوال عرض أمرى على المجلس."- لكن، إخ النصارى هم أصحاب اليد العليا؛ وقد استطاعوا الاستيلاء على إحدى المناطق."-" يصيح إياد، إخص! حدثنا يا شريف، هل استطاع النصارى على المسلمين ؟"رد الشريف بصرامة المسلمين ؟ ينصره الله!- أمر Amr الله ullah، أمر Amr الله -ul lah! بمعنى هذا من تدبير الله (سبحانه وتعالى)".- إياد." ها! يا شريف، قل لنا، ما رأيك، هل سيصل النصارى إلى هنا ؟"-" هذا أمر غير محتمل!"كان رأس إياد المكسور مليئا بالدهاء المشحون بالحقد: قلت عندئذ:" ياشريف، هل تظن أن هذه الأرض تساوى فنجال قهوة عند النصارى ؟"-" حسن، هذه الأرض كلها خول chol، أى سهوب(*)، أرض جرداء واسعة شاسعة؛ إى (**)، ما الفائدة التى يكن أن تعود عليهم من هذه الأرض!""وماذا عن الإنجليز ؟"-" لقد كان الإنجليز واقفين فى جانبنا."-" هل تسمع ذلك الذى يصدر من فم الشريف!"، إياد:" لكن الشريف يقول: النصارى يستولون على أقاليم السلطان ومناطقه: والإنجليز هم أيضا نصارى!"

عندما طلعت شمس الصباح تمنيت لو أن الليل استمر إلى الأبد. لم يكن مسموحا لى بالمضى قدما أو الرجوع إلى الوراء، ووجدت أن التعب قدأ ضنانى وهدنى.- اتجهنا إلى المقهى الكبير، وهناك جلس عنيبر، وبجانبه ذلك الشريف العجوز صاحب القلب القاسى الذى كان يشرب قهوة الصباح فى شئ من الوقار المقدس." قلت: إياد يؤكد- إنه لا يستطيع، لا يجرؤ، وإنه لن يقوم بإعادتي مرة ثانية إلى خيبر."-" سوف نذهب إلى خيبر على وجه السرعة!"

(*) ايصيح فيه الاستبس ويصح فيه أيضا الشهوب ، وواحدة سهب وهو السهل مترامى الأطراف صحراوى النبوت . (المترجم)

(**) إى هنا بمعنى نعم وقد وردت بهذا المعنى فى كثير من سور القرآن . (المترجم)

كان إياد يقتاد ناقته المريضة إلى المرعى أسفل جبل أجأ Ajja، ولكن البواب المغربى منعه بالقوه من فعل ذلك. قلب هذا المغربى، مثلما كان عليه قبل رحيلى عن حائل أول مرة، كان مليئا بالقوة." قلت له: تعال تعال يا زيد، ألسنا نحن الاثنين من رجال الغرب، ونشبه الحضر بين هؤلاء البدو ؟"-" كل مافى الأمر، هو أن تصبح مسلما، وسوف نحبك جميعا؛ ولكننا جميعا نعلم أنك نصرانى متشدد ؟"-" (قال للواقفين): خليل جاء ليتجرأ علينا! هذا هو نصرانى، فى أرض المسلمين! ألم يكفك أننا أرسلناك ذات مرة وتركناك فى أمن وسلام، وها أنت تعود إلى هنا مرة ثانية!" كان رأس ذلك الرجل مستديرا، ووجهه ينم عن الوحشية؛ كان عنقه غليظا، وذلك على العكس من أعناق عرب نجد، وفيما عدا ذلك كان له جسم ضخم وكرش كبير.

فى غياب الأسرة الأميرية (الملكية)، كانت حياتى رهينة بين أيدي هؤلاء الأنذال القائمين على أمر المسحاب (الميدان العام). جلست أتحدث إلى ذلك الرجل كلاما هينا لينا فيه شئ من المهادنة، ورفع ذلك الوحش عصاه أكثر من مرة كى يضرب الكافر؛ ولكن كان من الصعب على زيد، الذى سبق أن وقفت معه موقفا حسنا، أن يتخذ منى موقفا غاضبا. أراء العرب تكون دائما متضاربة، وبين كل ثلاثة تجد وسيطا:- ومسألة نصرة أو تأييد قضية أى أحد من أعداء الله، أمر يجلب على صاحبه الملامة والعتاب: ومع ذلك فإن بعض أهل حائل الذين تجمعوا من حولنا وراحوا يقولون كلاما معتدلا، كانوا يمثابة عون لى. كان الغريب الأعور يقف بالقرب منا، ولم يقو على مواجهة العاصفة؛ ولكن عندما تركنى زيد مدة لحظة واحدة، همس فى أذنى، بأنى ينبغى ألا ألقى بالا، لأولئك الذين أطلق عليهم فى شئ من الاحتقار والازدراء اسم البدو الوحوش الذين لا يفهمون- ما عليك إلا أن تتظاهر بموافقتهم على رأيهم، مخافة أن يقتلوك؛ قل محمد رسول الله، وبعد ذلك وعندما تصل بلادا آمنه، تمسك أو تنازل عما قلت حسبما يحلو لك. هذا لا يعنى أنك ارتكبت خطيئة، وذلك عندما تكون واقعا تحت قهر أو عسف، وعندما تكون فى موقف لا يمكن الفكاك منه!"

راح المتسكعون والصبية والأوغاد يلاحقونى بألسنتهم البذيئة: ولكن إبراهيم الحائلى (*)، الذى سبق له أن رافقنى فى ود وحنان إلى خارج البلدة، كان على

(*) نسبة إلى مدينة حائل . (المترجم)

استعداد لمصادقتى من جديد، وراح يصيح معنفا أولئك المتسكعين والصبية،" أغربوا عن هنا! ومن العار عليكم، ملاحقة الرجل بهذه الطريقة! أيها الجبناء، ألم يسبق لكم أن رأيتموه من قبل ؟" وكان عبد الله، صاحب الذراع المكسورة، وولد حمود، من بين هؤلاء الصبية. وجدت أنه كبر وطالت قامته، وكان يعلق سيفا صغيرا فى حزامه؛ وشهر ذلك السيف على ، وصاح، أيها النصرانى اللعين، ألن تتخلى عن كفرك وإلحادك!"- همس الأعور فى أذنى،" وافقهم! إن محاولة مجادلتهم مضيعة للوقت- قال للناس- أرجعوا إلى الوراء! وسوف أتكلم أنا مع هذا الرجل؛ وسوف نرى مناسبة طيبة بمشية الله." ثم همس الأعور فى أذنى، إخ! سينالك شئ من الضرر؛ كل ما عليك هو أن تقول إنك ستكون مسلما، وخلص نفسك منهم، أثبت أنك رجل عاقل وحصيف، ولا تجعلنى أراك تموت بسبب كلمة واحدة؛ وفيما بعد، وعندما تنجو من أيديهم، ستين Settin سنه Sena عليهم، ويلعن Yulaan الله ullah أبوهم abu-hum! ترى هل توافق على ماقلته لك ؟- هو! وأنتم يا أيها الناس، أذهبوا إلى المسجد! أذهبوا وأحضروا المؤذن: لأن خليلا مسلم!"- تحول الواقفون، وأوشكوا على الانصراف ثم توقفوا ثانية؛ لم يصدقوا الكلام المعسول الصادر عن ذلك الكافر العنيد. ولكنى عندما قلت لهم،" لا داعى للذهاب!"-" صاحوا، أها! أيها النصرانى اللعين، الله يلعن والديه!"- زيد (البواب):" أنا أفكر فى أننا سوف نحول هذا (الرجل) إلى مسلم وسوف نختنه؛ وليذهب واحد منكم ويحضر لى سكينا من القصر:" ولكن أحدا منهم لم يتحرك، نظرا لأنهم كانوا يخشون الأمير وحمود ويخافونهما (وقد شاع أن حمود صديق لى)." قال زيد: تعال يا خليل، أريدك فى شيئ، سوف أعطيك نقودا فضية بعدد تراب هذا الميدان:- ولكن من منكم أيها العرب البائسين يستطيع أن يعطى أى شئ لأى إنسان ؟ لو أعطيتمونى هذه القلعة، وأعطيتمونى بيت المال، وأعطيتمونى الأكياس والزكائب مملوءة فضة، فلن أغير عقيدتى."- خرجت من الحلوق العديدة التى كانت تحيط بنا كلمة" أخص Skhs- إخص- إخص- إخص!"- لقد احتقرت وازدريت بعبارة واحدة، الطريق الوحيد فى الدين والقناطير المقنطرة من ثروات الدنيا! وراحوا يصيحون بعنف معربين عن كراهيتهم لذلك المعادى للدين.

-" قال صوت من الأصوات: إخ نصراني! وما الذى أوجدك فى خيبر، ها ؟"-" المزيد من التمر، ومن الحمى أيها الرجل."-" صاح الجميع، الأدهى من ذلك أنه لم يمت هناك؛ ولكن إخص! هؤلاء النصارى الملعونين لا يموتون، ولا يمرضون مثل بقية الناس الآخرين: والمؤكد أن هذا (الرجل) لولم يكن نصرانيا لمات منذ زمن بعيد."-" الله يلعن أباه!" قالها بصوت متوحش وهو يغمغم، رفع زيد البواب، قبضته الضخمة؛ ولكن عنيبر ظهر قادما علينا من السوق، وهنا يصيح إبراهيم،" توقف هناك! ولا تضرب خليلا."- عنيبر:" ما هذا الضجيج، ثم (يوجه كلامه لزيد) لماذا لم يركب النصرانى الناقة ؟- ألم أخبركم بذلك ؟"-"لم يكن بدوياه جاهزين؛ فقد ذهب واحد منهم لحضور المزايدات فى السوق."- عنيبر:" وأنتم أيها الناس ألن تذهبوا لحال سبيلكم ؟- شيطان! Sheytan ما صلتكم بهذا النصرانى؛ الله يجازيكم جميعا أنتم وهو أيضا."

قلت لعينبر،" أنا على استعداد لإعطاء إياد أجرا جديدا من عندى، ولكن هدده ألا يتخلى عنى."-" وما الذى حصل عليه منك قبل ذلك ؟"-" خمسة ريالات."-" إذن أعطه خمسة ريالات أخرى. [كان يكفى ريالان أو ثلاثة ريالات لرحلة العودة؛ ولكن ذلك كان من باب الحقد والكراهية، كى يعرينى يكشفنى فى هذه الأرض الغريب والمعادية] عندما تأتى الناقة اركب.- وأنت يا زيد تأكد من دفع المبلغ؛" وعندما لم يتبق معى شيئا من المال، فكيف لى بإنقاذ نفسى فى هذا البلد المخيف ؟- زيد:" أعطه تلك الريالات الخمس، ها! عجل، وإلا والله!" وبتأفف! وفى نوبة غضبه الوحشى، لكمنى بقبضته الضخمة مرة ثانية فى صدرى. تركت الأمر كله إلى أن تحين اللحظة المناسبة، فقد كنت مسلحا تسليحا جديا؛ ولكنه إذا ما وجه إلى لكمة بكل قوته فلربما قتلنى.- وسحبنى إبراهيم بعيدا عن زيد." قال: توقف! فأنا معى الريالات الخمس، أين ذلك الذى يسمى إياد، وسوف أعد له تلك الريالات فى يده يا خليل اركب هذه الناقة وابتعد عن هذا المكان، وسوف أذهب أنا معك." أعطيته النقود. وقاد إبراهيم المسيرة وقد أمسك بلجام الناقة فى يده، وراح يمشى فى شارع السوق، وتركنى عند باب دكان من الدكاكين وراح يبحث عن عنيبر. تجمع المتسكعون عند عتبة المكان الذى وقفت أمامه، وأسوأ هؤلاء الناس كان ذلك الشاب الشقى الذى يدعى عبد الله العبيد، فعندما فقد أنفاسه

نتيجة السب واللعن، استل سيفه علّى مرة ثانية؛ ولكن الواقفين لاموه على فعلته، ودخلت أنا بدورى إلى المخزن.

طلب منى التاجر صاحب الدكان، الذى كان مشهديا (*) أن أعطيه غيلونى، وعزمنى على الجلوس؛ وملأ غليونى بالدخان الحميدى (**)، ذلك التبغ الذى يشبه العسل والعلاج المهدئ للحياة الإنسانية." قال المشهدى: ما هى أخبار الدنيا ؟- لدينا خبر يقول: إن ملكة الإنجليزي هلكت(***) وأن ولدها حل ملكا مكانها." وبينما كنت جالسا فى سنة من التفكير العميق، كى استمع إلى كلام هذا المشهدى، دخل علينا فجأة، وجلس بيننا سياف شاب قوى، كان قد بقى فى حائل. تذكرت وجه ذلك السياف المتخشب السمج، وأن ذلك الشاب كان يدعى مغربيا، وأنه كان مكتئبا. استل سيفه وراح يتحسس حده: وقال إيدى بلا رأس- ونظرا لوجود الكثير من الرءوس بينهم، فقد أقسم بالله:" أمس، عندما دخل خليل، كنت أجرى كى أقتله بهذا السيف، ولكن البعض منعونى من ذلك!" ورد عليه التاجر،" ما الذى فعله خليل، كى تقتله ؟" السياف:" وأنا سعيد لأنى لم أقتله:"- وبدى عليه عندئذ أنه أصبح أقل تهورا؛ وبدأ يميل إلى جانبى، أكثر من ذى قبل.

عند هذا الحد ظهر عنيبر مع إبراهيم عند باب الدكان، وكان عنيبر قد راح يتجول هنا وهناك فى الشوارع الجانبية (حتي لا يراه أحد بصحبة النصرانى). وهنا دخل النائب الحبشى لابن الرشيد ثم جلس أرضا، ونحن نسمع خشخشة سيف السلطة، ثم قام بوضع السيف فوق ركبتيه. ورجى إبراهيم عنيبر ألا يصر أكثر من ذلك على الأجر غير العادل الذى يتعين على خليل دفعه من كيسه الخاص، أو يخفضه بعض الشئ.(تعجب العبد صاحب السلطة) لا، خمس ريالات!" وبدت عليه الشراسة، وراح يهزهز سيفه." سيطلب الرب منك ذلك؛ وأعطنى جدولا، أو شهادة بسلامة السلوك، يا عنيبر." تعهد بما طلبته منه، وأعطاه التاجر بعضا من الورق، وكتب إبراهيم، ممنوع على أى إنسان التعرض لهذا النصرانى أو مضايقته. وهنا بلل عنيبر خاتمه المصنوع من النحاس الأصفر، وختم به الوثيقة باسم عنيبر بن الرشيد.

(*) نسبة إلى مدينة مشهد الإيرانية . (المترجم)
(**) الدخان الحميدى : نسبة إلى عبد الحميد الثانى سلطان الدولة العثمانية ١٨٧٦-١٩٠٩ . (المترجم)
(***) أخبار غير صحيحة عن موت الملكة الإنجليزية إذ من المعروف أن الملكة فيكتوريا توفيت فى عام ١٩٠١ وليس فى تلك الفترة التى كان يدور فيها الحديث . (المترجم)

"(قلت): الشريف ذاهب إلى بغداد، وسوف يمر على مخيم الأمير: وهناك بعض البدو أمام البوابة- لقد سمعت كل ذلك الآن، وأن هؤلاء البدو على استعداد لتوصيلى إلى الشمال، نظير ثلاثة ريالات. إذا كنت ستجبرنى على الذهاب مع إياد، فأنت تعلم أنى سوف يجرى التخلى عنى والتخلص منى: الخيانة لابد أن تعاقب فى هذه الدنيا! ألا يصح لغريب المرور من خلال بلاد أميركم ؟ تعقل، لأنى قد أرحل عنك اليوم بسلام، وقل يذكره الله بالخير." جلس الحبشى جلسة كبرياء وغطرسة وهو يهزهز سيفه على حجره، وقد علت وجهه هيبة الأمراء؛ ومع كل كلمة كنت أقولها كان يضرب بيده السوداء على مقبض السيف. وبعد أن انهيت كلامى لم يكن عنده أى رد عليه، ولكنه صاح صيحة تنم عن الطغيان والاستبداد، عجل، وإلا والله-"! ولوح بسيفه بعد أن أخرجه من جرابه، مرة أو مرتين ما هذا! تعجب! تعجب، ألم يدخل الخوف إلى نفسك بعد ؟" وهنا دخل إياد، وعد إبراهيم الريالات فى يده: وسلم عنيبر الورقة إلى إياد" لقد أعطانى الأمير جواز سفره."- ولكنى لن أسمح لك بالحصول على ذلك الجواز، اركب الناقة! وأنت يا إبراهيم لا تودعه إلى خارج المدينة

عند نهاية السوق وجدنا ذلك الطفيلى، الذى يدعى سيدا أو شريفا، جالسا متربعا أمام عتبه بيت من البيوت، فوق تراب الشارع. قلت على الماشى: أخرج بوصك و ورقك؛ وسوف أعطيك مكتوبا ؟" غمز ذلك الثعلب العجوز بعينيه من تحت عمامته، وراح يتمتم ببعض حكم القرآن.- وهنا مر علينا بدوى عفى يركب ذلولا (ناقه) قوية." صاح الرجل، أنا كنت قادما إليك؛ فسوف أقوم بتوصيل النصرانى إلى العراق مقابل خمسة ريالات." إياد:" حسن، وإذا ما وافق عنيبر، فسوف أتنازل عن الريالات الخمس، التى هى معى بالفعل؛ وبذلك نكون جميعا قد تصرفنا جيدا، كما أن خليل سوف يرحل سلام. أجلس هنا يا خليل، بجوار الناقة، فى حين سأرجع أنا والبدوى إلى عينبر، ونبرم معه اتفاقًا، إن أمكن لنا ذلك؛ والله! أنا آسف لما حدث لك."- وهنا مر علينا أحد معارفى، شخص أجنبى من الأحساء، ووقف يتكلم معى؛ كان ذلك الرجل واحدا من أولئك الأغراب المجدين فى حائل، حيث كان يعمل بحياكة ملابس الأثرياء من الناس." قال:هؤلاء

الأثرياء غير متعلمين! وكل شئ حسب إرادة الله: والآن، إلى اللقاء يا خليل، وأتمنى على الله أن تصل سالما غانما إلى نهاية هذه المغامرة."

عاد إياد وهو يقول: إن عنيبرا لم يقبل الرجاء، وأنه رفض أن يقوم هذا البدوى المسكين بهذه المهمة. أنهض، وهيا بنا نبتعد عنهم؛ أما فيما يتعلق بمرجان، فأنا أعرف ذلك الذى حدث له. سوف ننتقلك إلى قفار، وسف أتركك هناك إلا أنا لست خائنا ولكنى لن أجرؤ ولا أستطيع العودة بك إلى خيبر سوف أتركك فى قفار، أو قد أتركك مع الأعراب."-" إذا أردت أن تبيعنى وتخذلنى، أفعل ذلك عند بيوت الشعر (خيام البدو) وليس فى المستوطنات؛ ولكنك ستعيد إلى النقود الى دفعتها لك."-" لا، لقد أكلت هذه النقود، ومع ذلك سوف أبذل قصارَى جهدى من أجلك." سرنا فى الطريق المعبد أم لا" أخيرا تبينا أن ذلك الذى كان يتجه نحونا على رأسه لفافة، إنما كان مرجان بشحمه ولحمه،- كان يحضر معه تمنا (أرزا) وتمرا، كانت أخته (المتزوجة فى البلدة) قد أعطته إياهما. وهنا أخرج إياد كيسا من الجلد، كان فيه بعض الطعام المخصص للطريق، والذى حصل عليه من المضيف، (دون أن يحطنى علما بذلك): هذا الطعام لم يكن سوى وجبة من الشعير والتمر ومن النوع السيئ، ولا يزيد ثمنها بحال من الأحوال عن شلن واحد. جلسنا على الأرض، وفرد مرجان تمره الطيب، وأفطرنا وبعد أكلنا مع بعضنا كنت أتطلع أن يكونا معى ودودين، بالرغم من أنى لا يمكن أن أنتظر سوى المصاعب من هذين الرفيقين. ربما كان بوسعى السير مع واحد منهما وليس معهما هما الاثنان. استطاع إياد الوقوف على بعض الشكوك مفادها أن النصارى يطبقون بصورة مستمرة على ممتلكات السلطان. وأن أمة خليل برغم أنهم ليسوا أعداء، إلا أنهم لا يتمنون الخير فى دواخلهم، للدين الإسلامى. متى سأركب؟"لا، قال إياد: وقد بدأ يترنح العودة لن تكون مثل المجئ ؛ لأنى أنا الذى سوف أركب." لم أقل شيئا غير ما قلته؛ ونظرت إلى الصحراء، وكان يتعين على أن أصبر عليهما.- وراح رفيقاى يتفاخران طوال الطريق بالوعود التى أعطيت لهما فى حائل.- قال عنيبر، إنهما إن عادا إلى حائل فى فترة لاحقة، بعد أن يتقاعدا من خدمة الدولة (الأمبراطورية العثمانية) فقد ينضمان إلى خدمة الجندية (المسلحة) مع ابن الرشيد؛- على أن يكون إياد خيالاً من

بين خيالة الأمير الراكبين، ومرجان واحداً من رجاجيل الأمير.

لحقت بنا امرأتان جاءتا من حائل وكانتا ذاهبتان إلى قفار." (قالت المرأتان المسكينتان بحنان النساء) الحمد الله أن الأمر لم يصل إلى حد السوء. أه يا أنت- أليس اسمك خليل ؟- إنهم فى المدينة الواقعة بعد هذه البلدة جبابرة Jababera، بمعنى رجال شديدى العنف، وهم على استعداد لذبح أى رجل من الرجال على أثر أيه نوبة خفيفة من نوبات الاستياء. ألم يفعل هو كل ذلك مع إطفال أخيه، كى يصبح هو الأمير حاليا ؟ لقد فلت منهم على خير، إنهم غلاظ وقساة Kasyin. وهو الذى يصيح الناس منادين به، أخرجوا على النصرانى أفضل من المسلمين."إياد:" إنهم هم أنفسهم النصارى والله خبيثين . بمعنى مليئين بالحقد الكراهية قال « لا أكره سوى المشاهدة، أربكم الله." تصادف أن صبيا من أولئك الصبية الذين يخدمون فى المطاعم العامة، كان من بين المرضى الذين عالجتهم، وأن هذه الصبى بالذات الذى عالجته (مجانا) أثناء تجوالى فى حائل فى المرة الأولى، كان واحدا من أشقاء مرجان. قال: إن المشاهدة كانوا يؤيدون رأى عنيبر ويدعموه.- والذى يتجول فى سوريا الفينيقية وسوريا السومرية تثور فى ذاكرته قسوة المستعمرين الفرس أو الأشوريين، الذين يطلقون عليهم اسم المتاولة (*) Metowali [وأن هذه القسوة كانت ناتجة عن الأديان غير العقلانية].

انحرفا عندئذ عن الطريق وقصدنا المبنى الشرقى فى قفار:- المستوطنات الشرقية والغربية تقع على نبعين من نبوع المياة الجوفية، ويفصل هذين النبعين عن بعضهما مسافة ميل أو أكثر. والواحيج الغربية، التى يمر بها الطريق العام أكبر من الواحة الشرقية، حتى يتسنى لنا الإقامة والسكنى معه. مررنا فى هذه المنطقة أيضا بمزارع التخيل التى هجرها أصحابها، كما مررنا أيضا بأنقاض بعض المبيوت والبساتين ،إلى أن وصلنا بعد ذلك إلى المناطق المأهولة بالسكان؛ وهنا توقف رفيقاى أمام دار ذلك الصديق. وهنا جلس كل من إياد ومرجان ليتبينا إن كان ذلك الرجل الطيب (غير المضياف بحكم أنه من سلالة بنى تميم) سيخرج للقائهما واستقبالهما والترحيب بهما.

(*) المتاولة : طائفة من طوائف الشيعة فى بلاد الشام . (المترجم)

تجمع الأطفال من حولنا بدافع الفضول، وعندما تعرف البعض منهم علىَّ، بدءوا يسبون النصرانى ويلعنوه. وسبهم مرجان، بالسباب التى يعرفها الساميون فى دواخلهم، وراح يجرى وراءهم ويطاردهم بمشعابه؛ ولكن فى هذه اللحظة يصل مضيفنا قادما من الحارة التى يقيم فيها، وحيا إياد ثم دعانا للذهاب إلى منزله. وحمل ولد ذلك المضيف جو الأتى إلى داخل المقهى: كما وضعوا بعضا من العشب والعلف الأخضر أمام الناقة.

وضعوا أمامنا طبقا مملوء بالتمر؛ وصلح لنا ذلك الرجل الطيب شيئا من القهوة الخفيفة: وراح أصدقاؤه يتوافدون علينا الواجد بعد الآخر. كل هؤلاء الأصدقاء كانوا من بنى تميم، وكلهم من الفلاحين الذين لا يبدو عليهم أى شئ من التحضر؛ هم أيضا من الشغيلة الذين يعيشون عيشة أمينة اعتمادا على أنفسهم- ويدخرون أيضا من كدهم وسعيهم. وعندما قلت لواحد منهم:" أنا أرى أنكم جميعا أصحاب هياكل عظمية ضخمة، وأصحاب قامات طويلة، وذلك على العكس من سكان حائل (النحيفين)!"- رد علي محقرا إياهم،" الشمر بدو!" وبينما كنا جالسين، دخل علينا ثلاثة غرباء سمر البشرة، كانوا متجهين إلى حائل، ورأو أن من المناسب لهم التوقف لشرب القهوة.- كان هؤلاء الغرباء يحملون معهم الزكاة التى كانوا يودون تقديمها لخزانة الأمير؛ والسبب فى ذلك، أن هؤلاء الأعراب من قبيلة حرب، وكانت منطقة تجوالهم قريبة من المدينة المنورة. وبعد شرب القهوة استأنفوا مسيرهم على الفور؛ وعندما يصلون إلى حائل سوف يتجهون إلى ابن الرشيد فى مخيمه فى الصحراء الشمالية.

تركنى رفيقاى دون أن يقولا لى كلمة واحدة! وهنا أحضرت عدة (سرج) الناقة، تحسبا لا نسحابهما وتخليهما عنى. وهنا لم يعد إياد أو مرجان يخشيان من عدم الاهتمام بى، يضاف إلى ذلك أن خشونتهما وعسفهما بديا يظهران مع كل كلمة كانا يقولانها، وهنا استطعت أن أتوقع ذلك الذى يمكن أن يحدث وأنه سيكون أكثر مما نحن عليه حاليا: ومن حسن حظى أن موسم الحليب كان قد بدأ فى هذه المنطقة.- وهم يقولون: إن عيون الماء التى تعيش عليها واحتيهما تنساب أصلا من جبل أجأ Ajja. ارتفاع الماء فى آبارهم التى يصل عمقها إلى ثمانية قامات ينخفض بمقدار قامة واحدة

خلال فصل الصيف الطويل. هؤلاء المضيفون من بنى تميم، كانوا عابسى الوجوه، أمام عدو الله. ومع ذلك كانت قصة حضورى إلى حائل فى المرة الأولى، معروفة لهم تماما: بل إنهم حدثونى أيضا عن ناقتى العجوز، أو إن شئت فقل: الخويرة Khueyra، وقالوا لى: إنها ولدت بعيرا مؤخرا:- تمنيت لو أنها كانت معى! تطلعا إلى حليبها الوفير الذى يمكن أن يعيش عليه رجل فى الصحراء. والناقة كبيرة السنام يكون حليبها وفيرا؛ أما إذا كان سنامها صغيرا فإن حليبها يكون خفيفا وغير وفير. وبنو تميم مضى عليهم وقت طويل جدا فى هذه المنطقة قبلهم. وهم يطلقون على جدهم الأكبر اسم تميم؛ هذا التميم كان شقيقا لوعيل Wail جد كل من العنوز Annezy والمعازى Maazy [انظر الجزء الأول ص].- وعاد رفيقاى فى المساء وعلى وجهيهما علامات الخيانة.

الفصل العاشر

الشمّر وصحارى حرب فى نجد

عشاء من حليب القطيع. سرب من طيور القلق. رحلة صحراوية شريرة، وليلة مع رفاق خونة. على الحُصاوى مرة ثانية. كبائن بريتشان مرة ثانية." العرب يحبون الكلام الناعم". رحله شريرة ثانية. منزل من منازل الحطيم؛ الافتراق عن الرفاق الخونة. تعطش البدو إلى التبغ. امرأة جميلة من الحطيم. الصلوبة. معتوق ونوير. "نصارى" مسافرون. حياة هؤلاء الحطيم. دفن كتب النصرانى. رحلة إلى جزء من قبيلة حرب فى اتجاه الشرق. الغزال. لبن الإبل المر بسبب الشيح الرومى. منازل الحطيم. تعال إلى أعراب حرب. شائعة غير حقيقية عن غزو وهابى. العوف. شيخ من حرب. عروس من حرب. خيمة خلف بن نهال الكبيرة. كلام خلف. القرويون السلايمة. الركوب مرة ثانية والنزول عند الخيام أثناء الليل. مطلق وطُلُق. تعال ثانية إلى خيمة بن ناحال. ابن ناحال، تاجر بدوى. ثروته. رجل ثرى يشارك فى الغزو، لسرقة جمل واحد؛ ثم يُقْتل. فريق طلق البخيل. التجوال إلى منزل آخر." على المسكين". رؤية عجيلى من بعيد. وجه جديد خيمة قليلة المعارف.

رحلنا عن جوفار مع طلوع النهار: كان ذلك، على حد علمى، مصادفا للأسبوع الأول من شهر أبريل. وأطلق إياد ناقتنا المريضة فى المرعى؛ وراحا يقتادانها ببطئ عبر السهل الصحراوى إلى أن غربت الشمس خلف جبل أجأ Ajja ، وهنا توقفنا أسفل قمم من الجرانيت رمادى اللون. هذه الصخور عبارة عن نتوءات وكهوف أكثر من النتوءات والكهوف المثيلة فى صحراء سيناء: قمم هذه الصخور الجرانيتية شبيهة إلى حد بعيد بالشراك والفخاخ. شب إياد نارا، حمى فيها مدقته المصنوعة من الحديد، ثم وسم بها

الناقة المريضة. – كنت قد أمضيت اليوم كله سائرا على قدمى؛ وكان العجيليان يهددانى طول الوقت، بالتخلص من زكائبى وجوالاتى، بالرغم من خفة حمولة تلك الزكائب والجوالات هى والأرز الذى أحضره مرجان، على الناقة. قطعنا مسافة أربعة أميال، شاهدنا بعدها نارا مشبوبة فى أحد المخيمات؛ وعندما وصلنا إلى ذلك المخيم شاهدنا قطيعا من الإبل الباركة لتمضية فترة الليل، فى الخلاء. فى حين كان راعى ذلك القطيع هو وأخيه يحتميان بضفة من ضفاف سيل من السيول، وكانا شبّا أمامهما نارا للحراسة. ومعروف أن كلاب الأعراب لا ترافق القطعان، فضلا عن أن الرعاة لا يستطيعون تبين ذلك الذى يكون وراء مثل هذه النار، ولذلك فقد اندهشا عندما سمعانا نلقى عليهما السلام: وهنا جثونا على ركبنا لنجلس بالقرب منهما، – هذا السلام هو الذى أقام التعارف بيننا وبينهما. وهنا قام هذان الصبيان بتوقيف بعض من نياقهم، وحلبوا لنا أسطالا عدة من الحليب الحار، وكانت من فوقه رغوة كثيفة. وسمعنا صراخ حيوان من حيوانات الليل، فى المنطقة التى تركنا فيها زكائبنا وجوالاتنا مع الناقة: وهنا نهض رفيقاى وراحا يجريان وفى يديهما مشعابيهما، لأن ذلك الطائر (الذى يطلقون عليه اسم سُرُّوق، Sirruk بمعنى 'لص') يحتمل أن يسرق شيئا من الأشياء. وبعد أن تناولنا عشاءنا حليبا، رقدنا فوق رمل السيل الناعم كى ننال قسطا من النوم.

مضينا قدما فى طريقنا مع طلوع النهار. وبعد مسافة قليلة شاهدنا قطيعا كبيرا من الكائنات البحرية ترعى أمامنا، وهى واقفة على سيقانها الطويلة فى الصحراء . – ورحت أتأمل أن هذه الكائنات (هنا فى نجد) قطعت كل هذه المسافة باستخدام أجنحتها القوية قادمة من بلاد بحرية بعيدة؛ ومع طلوع شمس الغد قد تذهب تلك الطيور البحرية إلى منطقة أخرى بعيدة عن تلك الشمس المحرقة فى الجزيرة العربية! فى البداية التبس الأمر على رفاقى وحسبوا تلك الطيور قطعانا من الأغنام، بالرغم من أن الصوف الأسود هو الذى يشاهده الناس هنا فى نجد: وبعد أن جهزا بندقيتيهما الفتيليتين، تقدما على أمل الاقتراب من تلك الطيور؛ ولكنى بدأت ألاحظ بالتدريج علما كبيرا فوق الصحراء متمثلا فى أجنحة تلك الطيور المفرودة، كما شاهدت أيضا رفيقتىّ

حملة البنادق، وهما عائدين نحوى، – سألتهما "من أين تجيء هذه الطيور؟" – "والله من مكة ،" [أى من منتصف البحر الأحمر] .

كانت تربة هذا المكان زلطية أثر عليها الجفاف الشديد تأثيرا كبيرا، وكانت تلمع من تحت أقدامنا الحافية. كان الهواء يشبه اللهب فى ضوء الشمس. والرحالة الضعيف يتحتم عليه أن يكون راكبا طوال تجواله فى الجزيرة العربية ذات المناخ القاسى: وبفعل قسوة رفيقىَّ تحتم على أن أسير دوما على قدماى؛ وكانا هما اللذان يركبان الناقة. ولما كانا يسيران بسرعة، كان لابد لى من متابعتهما وأن يكونا دوما على مرأى منى، وإلا أسفر ذلك عن تخليهما عن النصرانى: وقد بلغت من التعب حداً، جعلنى أفكر بعد أيام قلائل من ذلك الجهد المضنى، أننى بحاجة إلى الراحة الأبدية. واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن أصبحنا فى منتصف فترة الظهيرة، وعندها أحسست أن قلبى قد ينفجر من داخلى. وهنا نزف أنفى دمًا حاراً: وهنا ناديت على رفيقىَّ اللذين كانا يركبان الناقة ويسبقانى بمسافة كبيرة، وطلبت منهما أن يتوقفا، حتى يمكننى أن أجلس لأنال قسطا قليلا ولو للحظة قصيرة، ولكنهما لم يلقيا بالا لندائى عليهما. وهنا بدأت أتناول أحجارا كى أستقبل بها ذلك النزيف الدموى، مخافة أن أصل إلى الأعراب وقميصى ملطخ بالدم: بالإضافة إلى أن ذلك يمكن أن يؤثر على رفيقى من الناحية المعنويه! – ترتب على هذه العجلة سقوط شىء من الدم على يداى. وعندما لحقت بهما، وشاهدا يدىَّ الملطختان بالدم شداً لجام الناقة وتوقفا مندهشين! مرجان: "أليس هذا كافرا؟" – " ألستما كافرين، عندما تخليتما عن رفيق فى الطريق؟" راحا يمشيان بعد ذلك ببطئ، ورحت أنا أمشى بجوار الناقة. – " أردفت قائلا: أنتما تهجران رفيقكما، فمن هو ذلك الرجل الشريف المحترم الذى يمكن أن يستقبلكما فى خيمته بعد هذه الفعلة؟" رد مرجان،" الحفاظ على العهد يكون بين المسلمين، وليس مع عدو من أعداء الله!"

راحا يتوقفان بصورة متدرجة ثم نزل إياد من فوق الناقة: وهنا قام مرجان الذى كان ما يزال فوق ظهر الناقة، بإشعال نار عن طريق الزّناد مستخدما قطعة من حجر

الصوان: حسبت أنه يشعل تلك النار من أجل غلايين التدخين، نظرا لأنهما كانا قد اشتريا شيئا من التبغ الحميدى الحلو، بجزء من النقود التى أعطيتهم إياها فى حائل: ولكن إياد أشعل فتيل بندقيته. قلت ،" ما هذا؟" قالا،" أرنب برى!" – "أين هذا الأرنب ؟ أقول: أريانى ذلك الأرنب البرى !" كان على إياد أن يضع بادئا فى فتحة البندقية؛ ولكنهما تعثرا فى كلامهما، وبقيا مرتبكين. قلت لهما:" هل تريان أنى مثل هذا الأرنب البرى؟ وحياة من خلقنا، فى اللحظة التى توجهان فيها إلىّ فوهة البندقية سوف ألقى بجثتيكما اللتان تشبهان جثث الأرانب البرية على الأرض، وقد فارقت الحياة: أبعد الكبريت عن فتحة البندقية!" وفعل إياد ذلك الذى قلته له. دخل علينا براد المساء؛ ومضينا فى طريقنا صامتين، والذى لا شك فيه أنهما تدبرا فى ذهنيهما الفارغين ذلك الكلام الحاسم الذى وجهه لهما ذلك النصرانى." قلت لهما: انتبها أيها الرذيلين! بمعنى، انتبها أيها التذلين الدنيئين ، إلى أنكما إذا ما دفعتمانى إلى نقطة اللاعودة، فإنكما لن تكونا أكثر من مجرد كلبين ميتين؛ وسوف آخذ أنا تلك الناقة المريضة!"

وصلت مغامرتى، مع مثل هذه الظروف التعسة، إلى حد الإحباط؛ لم يكن هناك أى منفذ للغوث غير الحدود السورية التى كانت هى الأقرب إلىّ. كانت سوريا تبدو لى بعيدة جداً وبشكل مخيف؛ ولكن فى وجود ناقة جيدة، حاصلة على ما يكفيها من ماء الشرب – نظرا لأن المبالغات تشجع الناس، شأنها فى ذلك شأن النجاة من الأخطار – لم أيأس من المضى قدما؛ يضاف إلى ذلك أن الطريق كان فى منتصفه محطة للسقيا والتزود بالماء، وإذا ما قدر لى العثور على الماء، فإن ذلك ينقذ حياة الناقة وينقذ أيضا حياة راكبها. – ترى، هل يتعين علىّ توجيه وجهى شطر تيماء، التى تبعد عن هنا مسافة مائتى ميل؟ – ولكنى عندما تراءيت العلامات الأرضية البارزة من هذا الجانب، فكيف لى بالتعرف عليها مرة ثانيه! – وإذا ما أمكننى العثور على أية أعراب متجهين غربا، فإن هؤلاء البدو سيكونون من البشر أعنى القبليين من البشر، هل يتعين علىّ المضى قدما فى اتجاه الشرق فى ديار لا أعرفها؟ أم يتعين علىّ المضى قدما فى هذه النفود المخيفة بحثا عن بدو الشرارات؟ أى اتجاه من هذه الاتجاهات، إذا ما اتجهت صوبه، قد أسقط فيه مغشيا علىّ قبل أن تمتد إلى يد الغوث الإنسانية؛ ألا يمكن أن

يبادر أولئك الأعراب الأغراب بقتل الغريب، بدلا من استقبالهم لى، إذا ما وصلت إليهم بهذه الطريقة؟ كانت عيناى تعانيان من بداية الإصابة بالرمد، ولم أكن أعرف المكان الذى يمكن أن أبحث فيه عن أولئك الأعراب، وكيف لى وسط هذه الصحراء الواسعة الشاسعة مترامية الأطراف، أن أعثر على أولئك الأعراب؟ ولو برحمة من الله وصلت إلى بئر من آبار الماء، قد أستطيع أنا الشرب قطرة، بقطرة بشكل أو بآخر، ولكنى لن أستطيع تقديم الماء للناقة كى تروى ظمأها.

جففت يداى فى الأحجار على أمل أن أغسلهما عندما نصل إلى الأعراب؛ ولكن الوقت كان يصادف موسم الربيع الذى تكون فيه الماشية الكبيرة (الإبل) جزين Jezzin (صائمة عن الماء) ، وفى مثل هذه الظروف لا يكون هناك ماء بصحبة البدو الرحل، نظرا لتوفر اللبن الذى يشربونه. وهنا حسب إياد أن الحيلة انقلبت عليه ! إذ ربما شكوت منه إذا ما وصلنا منزلا من المنازل، وبالتالى يصبح هو وزميله عرضه لاحتقار الناس وازدرائهم لهما. – "قال : انتبه وإذا ما وجدت جملا يبول، سارع واغسل يديك ببوله؛ ووالله، لو رأى أحد من الأعراب الدم على يديك، فلن يتناول معك أى نوع من الطعام." – إن بول الإبل يشربه رجال القوافل المدنية، فى حاله ندرة الماء والظمأ الشديد. أنا أعرف بعض تجار المدينة (المنورة) الذين كانوا يترددون على بدو الشرارات، والذين جاءوا فى منتصف الصيف من وادى السرحان، ولكنهم وجدوا بركة المياه جافة، وكانوا يعلقون عليها أمل الحصول على الماء (وكانت تلك البركة فوق مدينة معان) ، وهنا اضطروا إلى أن يملأوا سطلهم من بول الإبل ويضعون فى ذلك البول قليلا من الدم الذى أخذوه من أذن جمل من الجمال، ثم يشربون الماء بعد ذلك . وعندما رويت هذه الحكاية لبعض البدو، ردوا على،" الشرب بهذه الطريقة لا يفيد أى رجل من الرجال، ووالله فإنه سيموت على الفور، لأن ذلك يمكن أن يؤدى إلى تقطيع أمعائه."

دخل علينا المساء، وسرنا مرة ثانية عن طريق قرية العجيلة el-Agella . وعند غروب الشمس شاهدنا قافلة أخرى من الإبل وكانت غير بعيدة عنا. وشاهدنا الرعاة وهم يجرون حول بعض من الإبل التى كانت تحمل أحمالا خفيفة، وكان الرعاة يوجهون

الإبل الكبيرة إلى مكان مستوبين تليَّن؛ نظرا لأن تلك الليلة كانت سماؤها خالية من النجوم وكان الطقس سيئا أيضا. وعندما أدركنا أولئك الرعاة كانوا قد أوقفوا إبلهم وراحو يهمسون لها كى يبركونها - إخ - إخ - إخ! وبركت الجمال الكبيرة على ركبة واحدة أو ركبتين، وبمساعدة الرجلين الخلفيتين يستطيع الجمل أن يبرك بسهولة ويسر، ثم يفرد الجمل بعد ذاك رجليه الأماميتين الواحدة بعد الأخرى، وهو يزعج من هم حوله بصوته بسبب خشونة الحصى الذى يسند عليه جسمه ، وبالرغم من هذه الآلام يحس الجمل بالراحة، ويروح يجتر غذاءه إلى أن تشرق شمس الصباح. والجمل يخلف وراءه أثرا (يشبه أثر الزواحف) (بفعل قدميه الأماميتين، ورجليه الخلفيتين)، ويظل هذا الأثر ويمكن التعرف عليه فى تربة الصحراء الجافة بعد ذلك بعام أو عامين. ورائحة الجمل قريبة من رائحة المسك، وتشبه رائحة الكلب إلى حد ما، والأجزاء الخلفية من الجمل تفوح منها رائحة البول؛ ومع ذلك فإن الجمل، من وجهة نظرنا، أجمل من الغزال، لأن الإنسان يرى فى هذا المخلوق كل رفاهة، فى الصحراء ، [انظر الجزء الأول ص ٢٦٠ -١] .

حلب لنا الراعيان كمية كبيرة من الحليب: وشربنا حتى الشبع وواصلنا شرب الحليب إلى فترة متأخرة من الليل؛ ومع كل رشفة من رشفات الحليب تلك، كنا نحس إنها سوف تتحول إلى دم حلو قبل حلول صباح اليوم التالى، ويتحول ذلك الدم إلى لحم خفيف وعضلات مفتولة. كان المطر يتساقط على ظهورنا ونحن جلوس حول نار الحراسة التى شبوها فى بعض العصى فوق الرمل الصحراوى؛ كان الجو يبرق ويرعد. وبعد أن أحسسنا بالتعب والإرهاق افترقنا وذهبنا إلى حيث وضعنا زكائبنا وأكياسنا، ونمنا فى عباءاتنا (بشوتنا) وريح الليل تهب علينا والمطر يتساقط علينا. جلست طويلا وأنا أفكر فى طلوع الصباح، على أمل أن يحسبنى رفاقى نائما. نام رفيقاى متخذين من الصخور ملجأ لهما، وسمعتهما يقولان - وكان سمعى الحاد عونا كبيرا لى فى هذه الأخطار، مثل حدة البصر عند البدو الرحل - أنهما فى ساعة متأخرة من الليل سيقومان بتحميل أشيائهما على الناقة ويذهبان لحال سبيلهما . تركتهما ينامان: ثم نهضت من مكانى وذهبت للمكان الذى كانت فيه النار.

نام الرعاة أثناء سقوط المطر، وخطر ببالى أن أحكى لهذين الراعيين متاعبى وضيقى. كانت أختهما ترعى معهما الماشية أيضا، ولكن فى وجود شخص غريب بقيت طوال فترة المساء جالسة وحيدة فى المطر، وبعيدة عن تلك النار البهيجة. وهاهى الآن تدفئ نفسها بتلك الجمار المتخلفة عن النار السابقة، ولكنها صاحت عندما رأتنى قادما نحوها، والسبب فى ذلك أن كل شىء فى الصحراء يمكن أن يكون مخيفا. 'قلت لها: سلام، وأنى سوف أتحدث مع شقيقيها.' جذبت هذه الفتاه أخاها الأكبر من كتفه، وراحت تدحرجه، واستيقظ الصبى على الفور، نظرا لأنه لم يكن غارقا فى النوم فى مثل هذا الطقس. وقف الجميع، وراح الصبيان يفركان عيونهما ويتساءلان، "أوه، ماذا – ؟ ولماذا لم يتركهما الغريب يرتاحا، وما هو سبب عدم ذهابى للنوم مع رفيقاى؟" هذان الصبيان كانا رجلين ولكنهما كانا وقحين، إذ لم يستطيعا أن يتبينا أننى كنت غريبا . قلت لهما: إن الرجلين اللذين معى هما من العنوز Annezy ، وأنهما من العجيل، وأنهما أخذا نقوداً لتوصيلى إلى خيبر؛ ولكنهما كانا ينتويان التخلص منى، وربما تخليا عنى فى هذه الليلة." – "(قالا، وهما يمسكان فاهيهما من التثاؤب) اسمع يا أنت ، نحن مجرد خدم صغار' ولا ندرى شيئا عن مثل هذه الأمور ؛ ولكننا إذا وجدنا أنهما سيسببان لك ضررا فسوف نقف إلى جانبك . عد ثانية، وارقد كما كنت، مخافة ألا يعرفا مكانك وتضيع منهما؛ ولا تخف من أى شىء، لأننا قريبين منك."

استيقظ كل من إياد ومرجان قبل طلوع الفجر بساعتين تقريبا وراحا يتهامسان وقاما بتحميل الأشياء على الناقة الباركة ثم نخساها ووقفت الناقة دون إحداث جلبة." (سمعت إياد يهمس) أمش، وسوف نعود ثانية لأخذ البندقيتين." جلست ساكنا بلا حراك، وعندما تقدما بضع خطوات بعيداً عنى وقفت كى أخيب أملهما؛ وذهبت وبندقيتيهما فى يدى، إلى المكان الموجود فيه الراعيين، وأيقظتهما . وعندما عاد الرفيقان الخائنان فى الظلام لم يجدا بندقيتيهما: وهنا جاءا إلى المكان الذى كنت أجلس فيه مع الراعيين . – قالا: آه ! لقد شك خليل فيهما، شكا فى غير محملة؛ إن كل ما فعلاه هو التحرك بضع خطوات بحثا عن مأوى أو ملجأ، نظرا لأن الريح والمطر كانا يضايقاهما فى المكان الذى كانا فيه." وتغلبا بكلامهما على الراعيين المسكينين، اللذين لم يعتادا مواجهة

ظروف من هذا القبيل؛ ونظرا لضعف حالهما بسبب المطر والطقس وقفا إلى جانب الطرف الأقوى، – أى أن خليل أساء فهم ذلك الذى قام به هذان الرفيقان." قال الراعيان: حسن، خذا بندقيتيكما، وأذهبوا جميعا وناموا حيث كنتم؛ واطمئن يا خليل. وأنتما لا تسببا له قلقا مرة أخرى: – ووالله، نحن لم ننم طوال هذه الليلة الليلاء!"

مضيت قدما مع العجيليين، عندما طلع علينا ضوء النهار؛ ركب إياد الناقة. وبعد أن مشينا مسافة ميل أو نحو ذلك هددنى إياد بالتخلى عنى فى الخلاء (الصحراء)؛ بل إنه هددنى علانية بالرمى بالرصاص، ورفع علىّ مشعابه كى يضربنى به؛ ولكنى هنا وضعت يدى على لجام الناقة وأمسكت به، وقلت: إذا تكرر منك ذلك الذى قلته فسوف أطرحك أرضا. لم يشارك مرجان فى تلك المشادة؛ إذ كان يبعد عنا مسافة طويلة، نظرا لأنه لم يكن فى حاله النفسى المعتاد ، نظرا للخلاف الذى دب بينه وبين إياد فى الساعات الأخيرة. [فى الخطاب الودى الذى يدور بين أفراد عشيرة البشر تراهم (فى كل عبارة) يستعملون إقرارات مغلّظة من قبيل؛ – مرجان: والله **wellah** ، يا ابن عمى **Yaibnammy** بمعنى 'فى الحقيقة، يا ابن عمى' ! إياد : الله **ullah** هاديك **hadik** ، بمعنى 'الله يهديك!' – وحياة **wahyat** رقبتك **rukbatak** بمعنى 'وحياة عنقك!' – ويش **weysh** عليك **aleyk** بمعنى' افعل ماشئت "] – "قال إياد: حسن ، لنترك ما نحن فيه حاليا يا خليل، وأنا أقسم لك أننا لسنا بعيدين هنا عن منزل من منازل الأعراب، إذا كان الراعيان قد صدقا فيما قالاه لنا."

مشينا ساعة عثرنا بعدها على قطيع من الإبل. وبينما كان رعاة تلك الإبل يحلبون لنا شيئا من الحليب، التقينا ذلك الشخص الذى يدعى عليا **Aly** ، الذى سبق له أن ضيفنا من قبل فى القُصّة **Gussa** ! ها هو موجود اليوم فى هذه المنطقة لجلب شىء من العلف الحيوانى. أخبرنا أن زوجة من زوجاته مريضة بالحمىّ: "أليس معك علاج يا خليل، لهذه الأنثى؟ إياد: " خليل لديه كناكينا **Kanakina** ، أى أحسن أنواع أدوية الحمى، ولقد شاهدت هذا الدواء فى المدينة (المنورة)، وإذا ما شرب إنسان القليل منه فإنه سرعان ما يتحسن حاله: كم ثمن هذا الدواء ، يا خليل؟" – " ريال واحد." على:

"ظننت أنك ستعطينى إياه ، إنه شىء قليل من الدواء، ولن يكلفك شيئا، ولكنى سوف أعطيك أربع بنسات ؛ ألم أحييك منذ أيام قلائل بشىء من التمر؟" ومع ذلك، ونظرا لأن زوجته الشابة كانت عزيزة عليه، فقد قال على إنه سوف يتجه إلى منزل البدو ويحضر حملا ثمنا لذلك الدواء. وصلنا الى فريق (جماعة) Ferij من فرق (جماعات) الشمر عند الساعة التاسعة صباحًا. كان إياد يعرف بعضا من هؤلاء الأعراب ، وكانوا هم أيضا يعرفونه تماما: وعرفت منهم أيضا أن خيام بريتشان على بعد مسير حوالى نصف ساعة من هذا المكان، وأن مكان تلك الخيام على الجانب الأيمن من الطريق الذى نسير فيه. هذا المضيف الشمرى قدم لنا فى الإفطار أفضل تمور الجبل، ومعها سطلا من لبن الربيع . تركت حاجياتى بلا أدنى شك (بين الأعراب) ، وقصدت إلى فريق بريتشان، – على أمل أن يشرب رفيقاى القهوة هناك. وكان بعض الجراد يطير ويحط على الأعشاب من حولنا .

عندما كنت جالسا فى العصر مع البريتشان ، أثناء وجود إياد فى خيمة أخرى، وعندما كان مرجان بصحبة الناقة، تحدثت إليه عن رفيقاى الخائنين، ووجهت كلامى أيضا إلى فرّاح Ferrah ، ذلك الرجل العجوز الذى سبق أن التقيته هنا من قبل." سألتهما ، ما رأيكما؟ وأنا موجود اليوم فى دياركم وتحت سقفكم." ردًا على بعضهما ردًا متجهما" إذا كان خليل قد طلب حمايتنا فنحن يتعين علينا إعطاءه ذلك الحق." ولكنهما فى غضون فترة وجيزة، عادا عن قصدهما الطيب، مخافة أن يقال عنهما: إنهما وقفا إلى جوار النصرانى ضد المسلم!' ، أنهيا كلامهما على النحو التالى،' أنهما لا يمكن لهما التدخل بين الإخوان (بمعنى رفاق الرحلة).' وقالا لإياد، عندما عاد،' طالما أنه حمل أمتعتى الخفيفة، وطالما جئت من حائل إلى هذه المنطقة ماشيا على قدماى، وطالما أنه حصل على خمسة ريالات لتوصيلى إلى خيبر، وطالما أن إياد كان يهددنى فى كل مكان بالتخلى عنى،؛ فإن عليه أن يعيد ثلاثة ريالات، ويتركنى هنا مع الأعراب، ويأخذ الريالين الآخرين أجرا له، وينصرف بعد ذلك لحال سبيله.' ورد إياد ،" إذا كنت أنا الملام، فذلك يرجع إلى ضعف ناقتى." "هنا تعجبت، لماذا إذن أخذت خمس ريالات نظير نقل مسافر على هذه الناقة الضعيفة؟" ضحك البدو؛ وقال البعض: إننى ينبغى ألا

استعمل كلمات قاسية من هذا القبيل مع رفيق طريقى، – "يا خليل، الأعراب يحبون الكلام الجميل." أنا أعلم أن ذلك صحيح، وأن حقى الواضح الجلى يبدو أقل مما يستحق أمام كلام ذلك الرفيق المعسول. – إياد: " والله، أنا أسلم بذلك." "قالا: لقد سمعت أنت بنفسك وعده، وما عليك إلا أن تعود مع أخويك Khuak ، أى رفيقا الطريق، وسوف يكون الحال على ما يرام." – هذا هو كلام العرب الفارغ! وغربت الشمس؛ ورحل رفيقاى، وسرعان مالحقت بهما.

كان مضيفنا الشمرى قد ذبح ذبيحة الكرم: وقدم لنا هذا الطلى فى طبق كبير، من فوق أرز مسلوق فى حساء اللحم. ولكن المضيف جلس بعيدا ولم يشاركنا تناول الطعام، ولم يشاركنا أيضا حديث المساء؛ ولا أعرف إن كان ذلك بسبب استيائه من وجود كافر فى خيمته أم لأنه كان يكره رفيقاى اللذان كانا من العنوز. قلت لعلى: إنه سوف يأخذ دواء الكناكينا على سبيل الهدية، ولذلك وجدته يقف إلى جوارى وفى صفى ضد إياد؛ أجاب 'سيفعل ذلك '. – وعجبت لأن عليا كان يتصرف بتلقائية تامة وهو فى خيام هؤلاء الأعراب ولكن والديه كانا بدويين ، ولما كان على قد تُرك يتيما فى القُصَّة، فقد رباه الناس فى تلك القرية. واشترى من أهل القرية بالأجل حملاً عمره عام . كى يدفع لى ثمن الدواء. والناس هنا يطلقون على الحمل اسم طلى Tully ، ويقولون للحمل الأنثى: روخال rokhal .

أحضر على طليه لى صباح الغد، عندما كنا نوشك على الرحيل ؛ وقال لى: "يا خليل، هذه هى هديتى لك!" – " وأنا أتطلع إلى أن تفى بما قلته الليلة الماضية؛ وطالما لم تبر بوعدك ولم تتمسك بكلامك، فلن أساعدك فى أمر يسير، فمن ذا الذى يهتم بى وأنا أموت!" هذا الرفيق، الذى لم يأخذ حزنى بعين اعتباره، أحس باحتقار النصرانى له: كانت زكائبى وجوالاتى فوق الناقة، وراح يحملق فيها وهو يغمغم. بدأ نور الفجر يطل علينا من تلك التلال الجرداء، ولكن المكان كان خلوا من أى صوت من أصوات المخلوقات فى تلك الصحراء المملة المرهقة؛ ومشيت أنا خلف الراكبين، إياد ومرجان.

كانت حواف الزلط حادة؛ وكانت من تحت قدماى تتوهج كما لو كانت وجارا من وجارات النار؛ وكان المسدس (الذى كنت أخفيه تحت ملابسى) يتدلى فوق صدرى؛ وكان الهواء خانقا، ولم يكن لدينا ما نشربه. كان من الصعب علىَّ مواصلة السير مشيا على قدماى، بالرغم من بطئ خطى الناقة التى كانا يركبانها: وإن هى إلا غمزة صغيرة حتى راحت الناقة تعدو وغابت عن بصرى! الصبر أمر صعب على البشر! ، أنا إذا ما أثبت لهما أنى مسلح فلربما أجبرهم ذلك على تسليم الناقة؛ ولكن من هو ذلك الذى يمكن ألا يخاف من أن يصبح لى رفيقا فى أية رحلة من الرحلات؟ وأنا إذا ما استثرتهما (على افتراض أنى مجرد من السلاح)، فلربما يهجمان على بسلاحيهما؛ وبالتالى يتعين على القضاء على حياتهما! - لكن هل سيكون ذلك عدلا؟ - لم أستطع البت فى هذا الأمر فى ضوء ضعفى البدنى وضعفى الروحى والمعنوى أيضا؛ وخطر ببالى أن الإنسان يتعين عليه التخلى عن الحياة ولا يتخلى عن العدالة، ويلوث روحه بالغضب. واصلت السير ممسكا بمشعابى ومسلياً به نفسى، - ورحت أحدث بالمشعاب أثرا فى التربة الزلطية؛ وذلك تخوفا من هذين الرفيقين الرذيلين، إذ ما ركبا ناقتهما وتخليا عنى فى الصحراء. خطر ببالى أنى يمكننى العودة إذا ما اقتفيت أثر ذلك الخط الذى رسمته على الأرض باستخدام المشعاب، لأعود فى النهاية إلى خيام بريتشان والأعراب. شاهدت الشمس وهى تقترب من وقت الظهيرة؛ وكنت أتطلع إلى كل واجهة من الواجهات الصخرية، على أمل أن أرى خلفها أو حولها إبلا ترعى أو منزلا من منازل البدو الرحل.

بعد مسافة ساعة أخرى شاهدت إبلا تصعد ماشية ببطئ عبر أرض مجوفة مسقى من مساقى المياه. التقيت رفاقى فى تلك المنطقة: فقد توقفا للتحدث إلى الرعاة، الذين سألونا عن الصحراء التى خلفناها وراءنا. هؤلاء البدو الرحل الذين يعيشون فى الصحراء الواسعة الجدباء يكونون مولعين بالأخبار؛ هؤلاء الرعاة عندما يرون مسافرين مارين بهم فى الصحراء يهرولون إليهم وينادون عليهم، ما هى الأخبار، يا أيها الناس! - خبرونا عن التربة، التى مررتم بها ومشيتم خلالها؟ - من هم الأعراب الذين يسكنون تلك الأرض؟ - وأين هم مقيمين حاليا؟ - ومن أين يشربون؟ - وما هى

وجهتهم؟ – وما هو العشب الذى شاهدتموه؟ – وما نوع التربة التى بيننا وبينهم؟ وهل عثرتم على أية أماكن من الأماكن الجرداء (المحال)؟ – ومع من قضيتم الليلة الماضية؟ – وهل سمعتم عن أى شىء جديد، أم أنكم جئتم إلى هنا من قبيل المصادفة البحتة؟' وقد جرت العادة أن يقول ساكن الصحراء كل هذه الأشياء بصورة تلقائية ومفاجئة، حتى عندما يركض بجوار راحلته؛ وهو لا يخفض صوته (إلا عندما يكون قريبا ممن يستمع إليه) حيث يقول: 'سلام عليكم.' – وهنا يفطن المسافرون إلى استقبال ذلك البدوى استقبالا معقولا؛ ويحاولون الرد على تساؤلاته كلها بقولهم: والله Wellah يا فلان Fulan ! أنت رجل بحق.' ومع كل راعى يلقاهم، يتحتم على المسافرين أن يقولوا له 'وهم متبرمين' : الأشياء نفسها التى سبق أن قالوها لغيره من الرعاة، وينهون كلامهم بقولهم وأنت waent سليم selim بمعنى 'وأنت فى سلام' – والراعى يندر أن يودع المسافرين، وبخاصة إذا ما أعطاهم ظهره؛ أو قد يقف بعيدا، مُنتصب القامة وغير مبال، ويترك المسافرين يمضون لحال سبيلهم.

وقفت هنا ووضعت يدى على الناقة؛ ومن الأراضى المرتفعة التى وصلنا إليها شاهدنا سهلا أخضرا وسيعا أمامنا. كنا ظمآنين تماما، وأشار إياد بإصبعه إلى بعض الصخور البعيدة؛ ولابد أن نجد فيها بركا للماء،' وبخاصة (بعد سقوط الوابل الأخير): ولكنى لاحظت فى تلك الأرض [وهذا أدق بكثير من ذلك الذى يقوله هؤلاء البدو غير المتمرسين] إنها لم يسقط عليها مؤخرا أى شىء من ماء المطر، فى تلك الأيام. لم نعثر إلا على مياه حمراء اللون فى بركة من البرك، – وكان حال ذلك الماء سيئا على نحو عافته الناقة ورفضت الشرب منه. شاهدت فى هذا المنطقة أيضا موقع مخيم من المخيمات الشتوية التى هجرها أصحابها: والدلائل على ذلك المخيم كانت تتمثل فى الخنادق الضحلة، والأحجار الكبيرة التى وضعوها حول الأماكن التى نصبوا فيها بيوتهم وخيامهم. وهنا شاهدنا الإبل، التى كانت تخفيها الأرض المنخفضة، كما رأينا بعد ذلك قرية كل خيامها مصنوعة من الصوف الخشن! نظر رفيقاى إلى تلك الخيام المنخفضة وقالا: "هذه الخيام لابد أن تكون من خيام قبيلة حرب!" وعندما اقتربنا من تلك الخيام قالا متعجبين: "ولكن كم هى بيوتهم ممتدة بالقرب من بعضها البعض ! إنهم من الحطيم بكل تأكيد."

التقينا واحداً من الرعاة وهو يسوق إبله فى اتجاه الماء وحييناه – "سلام! ويا أنت! من هم الأعراب الذين يسكنون فى المنطقة التى جئتم منها؟" – رد علينا الراعى رداً صريحا، "أنا رجل من قبيلة حرب، أسكن مع هذا الفريق (الجماعة)، وهم من الحطيم." – بدأ إياد يتشكك! لأن هذا الرجل لو كان من حطيم قاسم (أعداء الدولة فى خيبر) لشكل خطرا بحق وحقيقة. ومع ذلك لم يكن بوسع هؤلاء الحطيم التراجع إلى الخلف؛ ، إذا ما ابتعد عنهم فإنهم قد يأخذون منه ناقته الضعيفة على وجه السرعة. وهنا واصل العجيليان سيرهما كما لو كانا ضيفين يحلا على منزل من منازل البدو الرحل. وهنا قفزت علينا كلاب المخيم وهى تنبح نباحا مسعورا؛ وبينما كنا نسير بالقرب من الخيام وأمامها، لم يكن الرجال والنساء الجالسين داخل تلك الخيام يحركون أى شىء سوى عيونهم، وينظرون إلينا فى صمت بوصفنا مسافرين غرباء نمر على ديارهم. توقفنا أمام الخيمة الكبيرة، من بين ذلك الصف من الخيام الذى كان يضم حوالى عشر أو اثنتى عشرة خيمة.

نزل كل من مرجان وإياد، ووضعا اللفافات على الأرض وربطا رجلى الناقة الأماميتين. ثم مشينا مشية الضيوف، فى اتجاه النصف المفتوح من الخيمة، وهو المكان المخصص للرجال؛ وهذا المكان يطل على الجهة اليمنى: وقسم الرجال هذا لا يتحتم أن يكون دوما فى ذلك الاتجاه. دخلنا، وكان ذلك هو بيت الشيخ. وكان هناك خمسة أو ستة رجال جالسين على الرمل داخل الخيمة، وكان الفضول يبدو على وجوههم جميعا (وكان سبب ذلك أن البعض من هؤلاء الرجال كانوا يعرفونى)! وقفوا لاستقبالنا، وراحوا يطيلون النظر إلىَّ فى صمت ، كما لو كانوا يقولون: " ألست أنت ذلك النصرانى؟"

الضيف البدوى المترحل – وهذا بعيد عنه تماما – يدخل بيت الكرم الغريب عليه، وهو يحس بالاستحياء، وينبغى أن توحى نظراته بشىء من قيمته ومقامه الرجولى. جلسنا فى الخيمة، ولكن هؤلاء المضيفين غير المتحضرين – وهم من الحطيم – بقوا على صمتهم غير المريح. بل إنهم جعلوا ذلك الصمت غريبا علينا أيضا؛ وهنا راح

رفيقاى يضربان الرمل بمشعابيهما وينظران نحو الأسفل: وهنا راح الحطيميون يحملقون نحو الجانب الطويل وهم ينحنون علينا. أخيرا، واحتقارا منى لسكوتهم، ونظرا لشدة الظمأ الذى كاد أن يحرقنى ، قلت لذلك الشخص البليد الذى كان جالسا إلى جوارى، وهو أيضا حطيمى ثقيل الظل، وهو أيضا شقيق المضيف الذى نزلنا عنده، "أسقنى Eskiny ماء ma ، وهنا وقف ذلك الحطيمى على غير رغبة منه، وأحضر سطلا من الماء العكر غير النظيف. وعندما أخذت مجرد رشفة من ذلك الماء غير الصالح للشرب: ("قال بحقد وغل): رويت Rueyht بمعنى 'هل رويت ظمأك؟" طلب رفيقاى الماء، وجرى تمرير السطل عليهما. "قال الحطيم: اشربوا. فلدينا المزيد من الماء." أخيرا وضعوا أمامنا طبقا من المريسى وقليلا من اللبن : وبعد ذلك خرجوا عن صمتهم." (قال جالب الماء) أظن أننا نعرفك؛ ألست أنت النصرانى الذى جاء إلى القصيم قادما من عند ابن الرشيد؟"

هؤلاء الحطيم نزلوا فى تلك المنطقة بالأمس فقط: وهم يطلقون على سطح التربة (الجرانيتية) اسم غرُلفُة Ghrolfa ؛ والصفا Sfa هنا عبارة عن جبل تبدى لنا فى اتجاه الشرق فوق سهل من السهول، يبعد عنا حوالى سبعة أميال؛ وهؤلاء الحطيم يتعين عليهم إرسال من يجلب لهم الماء من ذلك المكان البعيد. ارتفاع المنطقة هنا كان حوالى ٤٦٠٠ قدم. وكانوا يدخلون القطعان المراح أثناء غروب الشمس؛ وبالتدريج بدأنا نشاهد معتوق Maatuk ، ومعتوق هذا، هو اسم مضيفنا؛ رأيناه وهو يحاول الإمساك بحمل صغير، وهو يقول كلاما عربيا معسولا: 'يستحيل، لا والله ، يستحيل أن نحتمل ذلك.' "أو هوا أيها الشاب، دعنى لوحدى، أليس من حقى أن أفعل بحلالى ما يحلو لى؟" ثم حمل الذبيحة إلى قسم النساء. – وبعد ذلك بساعتين أحضر معتوق الطلى المطبوخ، موضوعا فوق صينية كبيرة من فوق كمية كبيرة من التمن (الأرز) المسلوق. كاد ينوء بذلك الحمل، وراح يلتقط أنفاسه، نظرا لأن ذلك المضيف كان مصابا بمرض الربو.

قال إياد ونحن جلوس لوحدنا،" سنتركك هنا يا خليل، والقصيم أمامك خلف ذلك الجبل؛ هؤلاء أناس طيبون، وسوف يرسلونك إلى هناك." – "ولكن كيف لك بعبور

العواجى، وأنت ليس معك قربة ماء؟" – " حسن، سوف نتجه إلى زرغرود Thurghrud كى نحضر لك قربة من قراب الماء." – " الله يعرف خيانتكما، وسوف يلومونكم الأعراب على تخليكما عن رفيقكما، كما أن الباشا سيعاقبكما على ذلك؛ وكما سرقتم منى بعض الريالات فسوف يخصم هو أيضا ويصادر بعضا من متأخراتكما." – " لا تقل مثل هذا الكلام يا خليل! لا تضايقنى بمثل هذا الكلام، ولا تشكو عن رحيلنا : ولا تجعل مضيفينا يسمعون كلامك وإلا سوف لا يسمحون لك بالمضى قدما فى رحلتك."

شاهدت معتوقا يتحرك عندما كان الباقون نائمين؛ – خطر ببالى أن ذلك المضيف يمكن أن يكون رجلا طيبا، بالرغم أنه من الحطيم وقصدت إليه وقلت له: إنى أود التحدث معه. – " هل نجلس هنا، وتقول ماتشاء." – والسبب فى ذلك أن العرب يظنون أنهم يحسنون تدبر الأمور فى عقولهم الضعيفة، عندما يجلسون جلسة مريحة على الأرض. حكيت له كيف أن رفيقاى جعلانى أقطع الرحلة إلى هذا المكان سيرا على قدماى (حوالى مائة ميل) بدءا من حائل؛ وحكيت له كيف حاولا التخلى عنى ونحن فى وسط الصحراء، بل إنهما هددا بقتلى: وهل يتعين على المضى قدما معهما بعد ذلك؟ – لا! فأنا اليوم ضيف فى خيمته؛ طلبت من معتوق أن يحكم بينى وبينهما، ثم يرسلنى بعد ذلك إلى القصيم فى أمن وسلام. – "سوف أفعل كل ذلك؛ بالرغم من أنى أنا نفسى لا أستطيع ولا أقدر على إرسالك إلى القصيم، ولكن بعضا من أهل حرب الذين لا تبعد خيامهم كثيرا، عن هذا المكان ناحية الشرق هم الذين يستطيعون ذلك؛ وقد تعثر بينهم على شخص يقوم بتوصيلك إلى القصيم. الآن، وعندما يطلع النهار، وترى هذين الرفيقين على استعداد للرحيل، فما عليك إلا أن تقول لى، دخيلك dakhilak ، وعندها سأهب لنجدتك، وإذا قاوما فسوف نحتجز منهم الناقة." – " أعطنى يدك، وأقسم لى على ذلك." – "قال: نعم، أنا أقسم على ذلك، والله! Wullah "ولكنه سحب يده إلى الخلف؛ إذ كيف له بالاتصال والتواصل مع نصرانى! – ولكن أثناء الليل، وبينما كنت نائما، كان رفيقاى يتشاوران أيضا مع معتوق: وكان ذلك التشاور بين أناس ينتمون لدين واحد، وباعنى معتوق لهما نظير ملئ غليون بالتبغ (الدخان) الحميدى الحلو.

وعندما طلع النهار وضع الرفيقان زكائبى وجوالاتى على الناقة، ورأيت إياد وهو يعطى معتوقا شيئا من التبغ الحميدى، ذهبى اللون، مما جعل الحطيمى يشكره على ذلك. ثم تناولا عباءتيهما (بشتيهما) وبندقيتيهما، وحثا الناقة فهبت واقفة فى مكانها: وأمسك مرجان اللجام فى يده وراح يدلنا على الطريق، وهو يقول نسلم neslim عليك aleyk . أرجو أن تكون عادلا." ، "إخ! رد على معتوق، اذهب معهما (واستغرب الأمر) ، أى عدل تريده أيها النصرانى؟" – " أين وعود الليلة الماضيه؟ ألا تبر بوعدك أيها الحطيمى؟ أنا لن أذهب معهما." ولكنى اكتشفت أن غضبى سيكون بلا جدوى؛ نظرا لوجود شىء من التخابر بينهم .

بعد أن ابتعد عنا كل من إياد ومرجان، صاح فىَّ الجالسون فى الخيمة،" عجل بالسير ورائهما ووراء زكائبك وجوالاتك، وإلا سيتوها منك تماما." – "أنا دخيلك، وأنت أقسمت على ذلك؛ ولكنى سوف أبقى هنا." – "لا!" – وهنا بدءوا يدفعونى (نظرا لأنهم كانوا من الحطيم). وهنا أمسك معتوق وتدا من أوتاد الخيمة وأتى به ناحيتى؛ فى حين جرى شقيقه الوغد نحوى قادما من الخلف وفى يده سيف قصير." تعجب معتوق، ها! سوف أكسر مخَّه." – " أقتله – أقتله!: (على حد قول الشباب الآخرين الذين كانوا من قبيلة حرب ومن قبيلة عنزة ويقيمون فى هذا الفريج)." يصيح الشقيق، اتركه لى وسوف أشج أنا رأس هذا النصرانى اللعين." "قلت لهم: أنا لا أستطيع التصارع مع عدد كبير من الناس، بالرغم من أنكم لستم سوى أنذال؛ ألقوا أسلحتكم أرضا. ومن فضلك أيتها المرأة الطيبة! [الكلام هنا موجه إلى زوجة معتوق التى كانت تنظر من خلال ستارتها ، وكانت تستنكر ذلك العنف وتدينه] صب لى شيئا من اللبن؛ واسمحى لى بمغادرة هذا المكان اللعين." "قالت لهم: آه! يا لهذا الخطأ الذى ترتكبونه وأنتم تطاردون الغريب لتبعدوه عنكم! هذا حرام، وأنت يا معتوق لا تنس أن ذلك الغريب دخيلك ." وهنا عجلت تلك المرأة لتصب لى شيئا من اللبن كى أشربه." قالت: اشرب ! وناولنى السطل، وهى تقول اشرب! وإن شاء الله يحدث الخير؛" وهنا غمغمت تلك المرأة بمثل حلو من أمثال هذه الديرة ودَّ widd الغراريب (الغريب) el-ghrarib أهله ahlhu ، بمعنى رغبة الغريب تكون فى أهله؛ أو عجّل بعودة الغريب إلى أهله."

"قلت: انهض يا معتوق، وتعال معى كى تساعدنى فى استدعاء العجيليين مرة ثانية، فقد خارت قواى ولن أقوى على اللحاق بهما وحدى." ، " سآت معك ، ووالله، سوف أنصفك معهما." وبعد أن قطعنا مسافة ميل ، قلت له: أنا لا أستطيع المشى أكثر من ذلك، ولابد أن أجلس أرضا هنا؛ اذهب أنت واستدعهما إن استطعت أنت ذلك" إنسانية الحطيم الطبيعية إنسانية عظيمة: هذا الحطيمى الذى كان ضعيفا هو نفسه، طلب منى أن أرتاح؛ وراح يجرى فى أثرهما بأقصى سرعة وينادى عليهما وأشار إلى رفيقاى السابقين! وعادا إلينا." قلت: يا معتوق هذه هى نهاية رحلتى فى هذا اليوم: إياد سوف يعيد إلىّ هنا توجيه السلامة الصادر عن عنيبر، وسوف يعيد إلى أيضا ثلاثه ريالات؛ يضاف إلى ذلك أنى لا أريد من أحد منكم أن يكثر الكلام معى، لأنى رجل مرهق ومتعب وقد وصلتم بى إلى نقطة اللاعودة." – معتوق (لإياد): "ما الذى تقوله فى ذلك؟ يبدو أن رفيقكما متعب ولا يستطيع السير أكثر من ذلك، فهل ستحملانه على الناقة؟" – " سوف لا نحمله؛ نحن لا نستطيع سوى الركوب على هذه الناقة بين الحين والآخر؛ ومع ذلك سوف أحمله – المسافة كلها تستغرق نصف يوم فقط – لنصل إلى زرغرود، وسوف نتركه هناك!" ورفضت هذا العرض . معتوق: "حسن، سيبقى معنا؛ وسوف أقوم بتوصيل خليل الى حرب عند ابن ناحال Nahal ، وذلك نظير المبلغ الذى ستعيدانه إليه وأنا أقول لكما: أعيدا إليه نقوده وليكن المبلغ ريالين، ومعهما الورقة الصادرة من ابن الرشيد" – ماذا، يا رجل! إنها ملكا له." إياد: "أنا على استعداد لتسليم الورقة لخليل، وعليه يجب أن يكتب له ورقة بعدم مسئوليتى وتبرئتى أمام الباشا ؛ ولكنى لن أعطيه حتى ريالا واحداً من النقود، فقد أنفقتها كلها، – ماذا تقول أيها الرجل! أتود أن تأخذ ملابسى؟" – معتوق: "لن نتركك ترحل هكذا! أعط خليل ريالا واحداً، وسلمه توجيه السلام ." إياد: "حسن، أنا موافق: " أخرج من جيبه كراون، "هذا هو كل ما تبقى معى؛ ولعل خليل يعطينى أربعة بنسات، لأن هذا الكراون يزيد بمقدار أربعة بنسات على المجيدى التركى." – "ربما تظن أنك نجوت وهربت نظير أربعة بنسات، التى هى ملك لى أيضا: وأنت يا معتوق خذ هذه النقود على سبيل العربون arrabun من الريالات الثلاثة نظير نقلى، حسبما قلت: إلى ذلك الجزء من قبيلة حرب."

وتسلم المبلغ، ولكن ذلك الشقى جعلنى أدفع الريالين الباقيين على الفور. حصلت بناء على ذلك، على توجيه السلامة الصادر عن عنيبر، وتلك كانت مهمة جداً لسلامتى فى هذه البلاد المتوحشة. وأصر إياد على الحصول على ورقة تفيد عدم مسئوليته، وكتبت له،" إياد، العجيلى، البجيدى، من البشر، الذى وافق بناء على أمر من عبد الله السروان، على أن يتقاضى خمسة ريالات نظير توصيلى إلى حائل، وفى حائل تحدث معه عنيبر، نائب ابن الرشيد، لإعادتى إلى خيبر مرة أخرى، نظير خمسة ريالات أخرى، وها هو يتخلى عنى هنا فى العول، أسفل الصَّفا Sfa ، فى ديرة الشمَّر." وهنا أخذ العجيليان الختم من يدى ، وختموا به عشرين مرة ليضفوا على تلك الأداة المزيد من اليقين: ثم جعلهما عتيق يعودا إلى المنزل ومعهما أمتعتى. ثم رحل إياد ومرجان بعد ذلك؛ وهما غير صادقين مع رفيقهما.

هؤلاء الحطيم كانوا متشددين وذوى قلوب مكلومة، ولا يعرفون تحضر البدو: الأدهى من ذلك أن معتوق باعنى لقاء شىء من التبغ وعمَّر مخه مدة ساعة أو ساعتين بذلك المخدر؛ ثم قال بعد ذلك: يا خليل دخيلك، أليس معك، وأنا أرجوك، شيئا من الدخان ؟ آه! لا تقل أنك ليس معك شىء منه أعطنى شيئا من ذلك الدخان وسوف أعيد لك الريالات الثلاثة، أنقلك على ظهر ناقتى إلى ابن ناحال." – " ليس معى دخان، حتى ولو قطعت رأسى." – "خليل، املأ غليونى مرة واحدة، وسوف أتغاضى عن كل شىء!" – لو كنت قد اشتريت شيئا من الدخان من حائل ، لسارت الأمور على مايرام."

فى هذا الفريج الحطيمى كان هناك بيت لواحد من العنوز وثلاثة بيوت لأشخاص من قبيلة حرب . سألنى بعض هؤلاء الغرباء فى العصر عن القبائل التى ينتمى إليها ذلك الرفيقان اللذان تخليا عنى. قلت: ' العواجى والبجاجى من البشر." – "ألم تقل لنا ذلك من قبل، إنهما لم يفترقا! لقد صادرنا ناقتهما لأنهما قوم gom (أعداء) كما أننا لم نأكل معهما عيشا وملحاً." قال أحدهم: " عندما تكلما ظننت أن كلام أصغرهما كان يبدو هكذا، نعم، والله لقد كان من البجاجى Bejaijy . " – " بوسعك أن تلحق بهما." – " هل تدلنى على الطريق الذى سلكاه؟" – " لقد قصدا بيضاء النثيل Nethil ، ومنها

سوف يتجهان إلى العواجى Auajy . "كان إياد مكلفا بمهمة من خيبر تقضى أن يقوم بإحضار ناقة السروان وناقة البيشى Bishy . [بالرغم من أن أولئك البدو كانوا أعداء للدولة (الإمبراطورية العثمانية) إلا أن جمّالة العجيل كان يسمح لهم بصفة خاصة برعى ماشيتهم فى مراعى العواجى] . فى ذلك الركن من الصحراء كان الربيع يانعا ووفيرا (هذا العام) ، وذلك بعد سقوط أمطار الخريف [الجزء الأول ص ٦١٣ ، ٦٢٦] ،" إلى حد أن الإبل كانت ترقد أرضا بعد امتلاء بطونها عند الظهيرة." – "(قال أحدهما للآخر) كيف يتأتى ذلك ؟ كيف يمكن أن تكون رفيقا لى إذا ماجاءت الإبل عائدة هذا المساء؟ هل يمكن لنا أن نركب نياقنا ونذهب لمطاردتهما واللحاق بهما: إنهما سيسيران ببطئ لأن ناقتهما ضعيفة؛ وإن شاء الله سنلحق بهما، ونذبحهما." – " (قلت): انتبه لقد أخبرتك عن مسارهما، ويمكنك أن تأخذ الناقة وتلحق بهما إذا ما استطعت ذلك، ولكنك لن تستطيع أن تصيبهما بأى أذى." رحت أفكر فى رحيلهما إلى أن دخل علينا الليل: ولكن الإبل لم تعد.

لم تكن لديهم آخر أخبار أعراب بن ناحال Nahal . تكلموا كثيرا فى وجودى عن ابن ناحال؛ وقالت الحريم : – وكن أرق الناس قلوبا فى المخيم،" خيمته كبيرة، كبيرة، جدًا! وهو ثرى، ثرى جدًا، – أوف! كل شىء هناك كرم فى كرم: وعندما تصل إلى خيمته قل: ' يا ابن ناحال، 'أرسلنى إلى القصيم،' وسوف يرسلك إلى هناك."

كان كل من معتوق وشقيقه الحسود بهيًا الطلعة؛ أما أختهما – التى كانت تقيم فى بيت معتوق – فكانت واحدة من طيبات الطبيعة؛ وهذا ليس أمرا شائعا (بين الحطيم). كانت تلك الأخت تمشى مرتدية ملابس جيدة؛ ولم يكن غطاء الوجه يحجب جمالها: وبالرغم من أنها كانت فى سنوات ربيع عمرها إلا أنها لم تكن متزوجة! كان ذلك الرجل العنزى النحيف، الذى هو من أهل الشمال، والذى كان يجلس طوال النهار فى بيت الشيخ، يتنهد تنهيدة طويلة كلما ظهرت أمامه تلك المرأة – كما لو كانت حلما من أحلام دينهم؛ وكان يشدنى من عباءتى (بشتى) ويقول : " هل رأيت لتلك المرأة شبيهة من قبل !" هذه الشيخة، عندما كانت تستمع إلى آهاتهم! وإلى تأوهاتهم!، كانت

تنظر إليهم بعينيها الجريئتين، وتبتسم دون تقزز أو احتقار. – وبالرغم من أن هذه المرأة كانت فارعة الطول إلا أن (الحطيميات) لم يكن بينهن من يباريها فى ذلك، أو فى الزواج! ولكن البدو الفقراء يخلطون دماءهم بدم الحطيميات الجميلات عن طريق الزواج؛ ولقد سمعت إياد ذلك الفاسق، يسخر من الحطيميات بأن راح يُصغَّر صوته كما لو كان صوت امرأة، – " وهنا تجىء وتقول للرجل فى تواضع: 'تزوجنى، لأنى حامل، واحمينى من اللوم؛"

كان فى ذلك المنزل حطيمى عاد إليه بعد غيبة طويلة: سألته،' أين كان طوال تلك الفترة؟' – "والله، كنت فى قرية الحيات؛ وهى لا تبعد عن هنا سوى مسير يوم واحد ركوبا على الناقة، ولقد تزوجت هناك امرأة (سوداء)." – "ولماذا ؟" – " والله كنت راغبا فيها تماما." – "وكم دفعت لها مهرًا؟" – " أنا لم أنفق عليها أى مبلغ." – "ولا هى أعطتك شيئا؟" – " إى بالله! أعطتنى بعضا من النخيل ." – "إذن ، هى التى دفعت لك!" – "والله ، لم لا؟" – "ألن يكون أبناؤك سودًا مثل العبيد، يا عُبيد؟" – " إنها نحاسية اللون، وبالتالى سيميل لون بشرة أطفالها إلى الاحمرار." وما هى علاقتك بزوجات القرية؟" – " إخ سأزورها من حين لآخر؛ وعندما أصل إلى هناك سوف أذهب إلى بيتى:" – وهنا يصيح ذلك البدوى المترحل، "اقرأ يا خليل، لتتبين إن كان ذلك الذى فعلته أنا شرعى أم غير شرعى؟" [قرية الحيات الزنجية تقع فى الجنوب الشرقى من حرة (خيبر)؛ والطريق من قرية الحيات إلى المدينة المنورة يمر بهجرة (كفر) الحويطات العامرة بالنخيل. ملاك الأرض البدو (من قبيلة العنزى)، فى هاتين المستوطنتين جرى طردهم مؤخرا من هاتين المستوطنتين على يدى عبيد بن الرشيد، نظرا لعدم انصياعهم لإرادة الأمير، فقد سبق لهم استقبال جيرانهم من قبيلة عتيبة – والمعروف أن عتيبة كانت من أعداء بن الرشيد – باعتبارهم دخلاء (حماة) لهم، ومن منظور أنهم يستطيعون حمايتهم من ابن الرشيد] .

كانت الإبل عزاب (ترعى) وكانت ناقة معتوق مع تلك الإبل؛ ولم نستطع رؤية أو مقابلة بن ناحال **Nahal** إلا بعد عودة تلك الإبل ، وذات صباح حل علينا بعض

الصلوبة راكبين على حميرهم، وأعطاهم الناس أوانى وغلايات (التى غالبا ما تصنع من النحاس الأصفر) ليأخذوها معهم لإصلاحها وإعادتها لهم. وعثرت على اثنين من الصلوبة عندما كانا يخصيان حمارا خلف الخيام! – (الأعراب ليس لديهم سوى الخيول فقط). قال الغجريان (الصليبيان) وهما يضحكان : 'هذا الحيوان كان أشقى من المطلوب، ولذلك فهما يجعلانه أكثر عفة!' ووجدت صليبيا عجوزا جالسا فى خيمة معتوق، وكان رجلا قوى البنية له لحية رمادية اللون؛ كانت عينا ذلك العجوز مركزتان نحوى. قلت له: "من أنت؟ " – " كنت أفكر فى أنى لو التقيتك وحدك فى الخلاء لقتلتك." – " ولماذا تقتلنى يا أيها السمكرى؟" – " أقتلك طلبا لملابسك، والأشياء الصغيرة التى قد تكون فى حوزتك، أيها النصرانى؛ – "ألا تخاف من لقاء الذئب لك فى الصحراء؟" – الصلوبة لا يسيئون إلى أحد، ولا أحد يسئ اليهم (انظر الجزء الأول صفحة ٣٢٤) . أنا أسألك عن شىء: " هل صحيح أنكم تأكلون الغنم أو الإبل التى تنفق من تلقاء نفسها؟" – " نحن نأكلها، وكيف لنا نحن الذين ليست لدينا ماشية، بأكل اللحم فى منازل الأعراب بغير هذا الطريق! والله، يا خليل، هل هذا حلال أم حرام؟"

بعد ذلك بيوم أو يومين كان معتوق قد انتوى الذهاب إلى ابن ibn ناحال Nahal ، وقال لى :" هل آخذك معى إلى قرية الحيات؟ أم أتركك فى قرية سميراء Semira أو سليمة Seleyma . "ولكنى رددت عليه،" إلى ابن ناحال؛" وكانت زوجته الطيبة، نوير Noweyr ، تلك المرأة المسكينة، وهى تطل من بين قماش خيمتها، تتحدث مع زوجها وتوصيه بى خيرا كل يوم؛" قالت: أوه! أنت لست طيبا، وأنت يا معتوق ! لماذا تؤخر خليلا وتعطله؟ بر بوعدك، وود Widd الغريب el-ghrib بلده beledhu عن aan الأجنبى el-ajnaby (هذه هى لازمة شائعة بين نساء البدو ومعناها 'عجل بالغريب وهو فى طريقه إلى أهله" أو قد يكون معنى هذه اللازمة، 'قلب الغريب فى بلده هو، وليس فى أرض غريبة.'") النساء الطيبات جيرانها، كن يرددن تلك العبارة الدينية المتشددة من عبارات الجزيرة العربية، 'لكم دينكم ولى دين؛ كل إنسان مقتنع بدينه .' كانت نوير واحدة من أولئك النساء الطيبات اللاتى يجلبن الخير لأسرهن. فى بعض الأحيان كنت أرى وجهها وقد شحب مثل لون الصلصال، وذلك عندما تكون جالسة داخل الخيمة بلا حجاب؛

بالرغم من إنها لم تكن فى صحة جيده إلا أنها كانت تذهب إلى الصحراء كل يوم، وذلك بدءا من فترة الضحى إلى ما قبل دخول العصر؛ وعندما كنت أسألها عن المكان الذى كانت تكد فيه طوال تلك الفترة؟ كانت ترد علىّ ، وهى تتنهد ،" يتعين على إحضار ماء من الصفا اليوم، وفى اليوم التالى يتعين على تفقد الإبل؛ وإلا ضربنى معتوق." كان كرم معتوق أكثر من أى بدوى آخر نزلت أنا عنده: كانت نوير تعطينى لبنا أشربه من اللبن المخصص لها؛ وسمح لى معتوق بأن أمد يدى عندما أكون جوعانا وآخذ شيئا من شرائح المريسى الطازج الذى صنعته نوير، وذلك أثناء فرد ذلك المريسى كى يزداد جفافا فى ضوء الشمس فوق قماش الخيمة المصنوع من الصوف الخشن. وعندما كانت الإبل تعود إلى المنزل كان معتوق يحلب للغريب سطلا كبيرا، ويقول: إن هذا من قبيل الصدقة، أو من قبيل البر الإنسانى، طلبا لمرضاة الله. خلال تلك الأمسيات كنت أشاهد الماعز وهى تجرى وتقفز ، بواقع ثلاث عنزات فى كل مرة، إذ كانت تقفز فوق أسنام الإبل، ولم تكن تلك الإبل تلقى بالا لذلك وهى باركة تجتر ما أكلته من طعام فى ضوء القمر، إلى أن تحط الغربان فوق تلك الأسنام.

كان معتوق خائفا من مسألة نقلى هذه، وذلك تخوفا من ابن الرشيد: وحكوا لى حكاية غريبة. منذ عام أو عامين نقل هؤلاء الحطيم على إبلهم بعض الغرباء، الذين كانوا يطلقون عليهم اسم "النصارى"! – وأنا لا أعرف إلى أين نقلوهم . عندما علم الأمير بذلك ، لم يتوان عن معاقبتهم.عقابا قاسيا، بل وأخذ ماشيتهم. – وأضافت نوير "إى، هذا صحيح، ياخليل!" – "لكن أى نصارى! ومن أين جاء هؤلأء النصارى؟" – "والله، لم يستطيعوا الرد على ذلك، كان النصارى مجرد نصارى حسبما قيل لهم." وأذهان العرب خاوية فى تلك الصحراء الخاوية، ولا يلقون بالا لكل ما لا يتعلق بحياتهم. "كلمه "نصارى" قد لا تعنى على ألسنة هؤلاء البدو أكثر من "الأجانب الذين لا يدينون بتلك العقيدة المتشددة." معتوق:" ابن الرشيد ليس صديقا لك، وهذه البلاد خطر عليك؛ ابق معى يا خليل ،إلى أن يجىء موسم الحج ثم عد ثانية، فى الربيع القادم." – "ويمكن لك.طوال هذه المدة أن تقوم على أمر رعى إبلى." – " ولكن كيف لى بذلك أثناء فصل الصيف القائظ الطويل؟" – " عندما يدخل الحر يكون بوسعك الجلوس فى خيمتى

أو شـرب اللبن؛ وسـوف أعطيـك زوجـة." – انشـرح صـدرى، عندما سـمعت كلامه، لأن الأعراب لم يعودوا ينظرون إلىّ كغريب ثرى بينهم! وعندما نطق الكلمة الدالة على 'زوجة'، كتم هذا الرجل المحترم أنفاسه! – هل بوسع معتوق تقديم بنت من بنات الحطيم لتكون زوجه لرجل أبيض؟ وعليه أردف قائلا:" سوف أعطيك زوجه حربية. (*) " Harbia .

"يقول معتوق: منذ سنين مضت وصل إلى هذه المنطقة من البلاد مغربى [يشبه خليل] ، – والله، لم يقل لنا شيئا كثيرا؛ ولكن الرجل كان يشترى ويبيع ، وخلال فترة من الزمن وجدنا حاله يروج يوما بعد يوم. كان ذلك الرجل يعيش مع قبيلة حرب، واتخذ لنفسه زوجة من بنات تلك القبيلة؛ وكان لدى ذلك المغربى فى البداية قطعانا وإبلا، وتزايدت القطعان والإبل بسبب اتجار ذلك المغربى فى السمن وفى القماش . هذا المغربى لقى ربه، وأبناؤه مازالوا يعيشون مع فخذ من أفخاذ قبيلة حرب، وكلهم أحوالهم على ما يرام فى الوقت الراهن." جلسنا فى الخيمة وراحوا يسألونى، أين توجد أمتك؟' أشرت إلى الشمس الغاربة، وقلت: إننا نبحر إلى هناك بواسطة السفن. – "(قال أحدهما للآخر) : السفن زيمات Zymat ؛ ولكن ، يا خليل، لقد بلغنا أن الأمة الكافرة تعيش فى الغرب ! وأن الخطر الكبير على الإسلام، سيهلُّ قادما من الغرب: كم عدد الفيضانات التى تقع بلادكم بعدها، لقد بلغنا إنها سبع فيضانات (بحار)؛ وعلى بعد كم رحلة بعد أرض السلطان تقع بلادكم؟" – " شرب القهوة، بالرغم من أن الحطيمان أحسن حالا من جيرانهم البدو، ليس له مكان فى خيام شيوخ الحطيم، كما أن هذه العادة لا تنتشر بينهم : لم يكن هناك أحد فى فريج معتوق. والعتبان هم أعداء أعراب بن الرشيد؛ ثم أشار بيده ناحية الشرق،" قال معتوق: كل الخطر يكمن فى هذا الاتجاه!" – هؤلاء الحطيم ، (على العكس من أهليهم الذين يسكنون بالقرب من المدينة المنورة) لا يصنعون الجبن.

(*) نسبة إلى قبيلة حرب (المترجم)

الشخص الحر هو الذى يحمل ممتلكاته الدنيوية على كتف واحدة: وها أنذا قد تخلصت من أحمالى التى لا لزوم لها والمتمثلة فى كتبى ، وذلك قبيل خروجى من الجزيرة العربية، ولم (أحتفظ معى إلا بكتاب "جغرافية الجزيرة العربية" alte Geographie Arabiens Die وكتاب زهمى Zehme المعنون "منذ مائة عام هجرى" Arabien Seit hundert Jahren) وقمت بوضعهما أو بالأحرى بدفنهما فى جحر ضب؛ وأهلت الرمل عليهما ، ثم وضعت من فوقهما حجرا كبيرا. – وفى هذا الجيل أو فى الجيل القادم قد يقوم جمل من الجمال أو المطر الجارف باكتشاف ذلك العمل المظلم الذى قام به النصرانى. وبعد ذلك بستة أيام كانت خيام البدو الرحل جاهزة فى منطقة العول Aul ، وبالتالى قد يرحلون فى صبيحة اليوم التالى؛ ووافق معتوق على نقل الغريب إلى ابن ناحال ؛ وفيما يتعلق بنوير زوجة معتوق فقد كانت ترفع وجهها الشاحب، مرات عدة ، فوق ستارة النساء، وتروح تحث زوجها وهى تقول: " إخ، يا معتوق! لا تؤخر خليل أو تعطله على غير رغبة منه؛ عجل بإرسال الغريب إلى بلده."

عادت الإبل؛ وعندما طلع النهار،' قال معتوق: هل أنت جاهز، سوف أحضر الناقة؛ ولكن صدقنى أنا لا أعرف مكان ابن ناحال." وضعت نوير فى خرج زوجها جلداً (قربة) صغيرة مملوءة سمناً؛ وقالت: هذه للغريب. وركبنا الناقة، ورافقنا شقيق معتوق فى الرحلة؛ وهمس بآخر توصياته فى أذن رفيقى، وكان ذلك الهمس بطبيعة الحال، فى غير صالح النصرانى: – "إى! إى!" قال معتوق. ركبنا جملا (الذى يندر استعماله فى هذا الجزء من البلاد)، والذى يعد ركوبه متعبا إلى حد ما. فى ذلك الوقت، كان قد مضى على شروق الشمس ساعة واحدة؛ وهنا يمنا وجهنا شطر جبل الصفا sfa . وبعد مسير ساعتين شاهدنا منزلا آخرا من منازل الحطيم، وشيخ هذا المنزل هو ابن ibn داموك Dammuk ، وكانت إبلهم ترعى فى منطقة الرعى. ونادى معتوق على راعى الإبل كى يسأله ويعطيه آخر الأخبار؛ ولكن اتضح أنهم لم يسمعوا بعد آخر أخبار بن ناحال.

كانت الأرض خلفنا عبارة عن صحراء جرداء؛ مررنا ببعض الصخور الجرانيتية ، التى كانت على شكل خليج، وكانت رأس ذلك الخليج متجهة ناحية الجنوب الشرقى،

أى صوب مكة على وجه التقريب: ولذلك يمكن اعتبار ذلك الخليج مكانا من أماكن الصلاة. ولكن معتوق رد على قائلا: " هذه الأعمال، هنا من صنع الأقدمين الذين عاشوا فى هذه الديار – بنى تعمير Taamir . "شاهدنا جحرا كبيرا من جحور الضُّبة، وهنا نزل رفيقى ليعرف إن كان الضب داخل الجحر أم لا: وعندما فعل ذلك، وراح يغنى انبساطا وفرحًا، أدى ذلك إلى إزعاج قطيع من الغزال. وراح معتوق يقرض على أسنانه فى الوقت الذى راح الغزال يهرب فرارا منا فى اتجاه الأمام ؛ ثم صاح معتوق كما لو كان رجلا بريا، وهنا راح الغزال يعدو بأقصى سرعته. ثم وقف القطيع بعد ذلك فى وسط السهل الصحراوى الزلطى، وراح يلقى علينا نظرة مثل الآنسات الخجولات، ليتبين ذلك الذى أثار الخوف فى داخله. – فى سوريا ، شاهدت أفراسا" كانت سرعتها تفوق سرعة الغزال!" ولكنى لم أتاكد من ذلك الذى نعده نحن، زيفا فى كلام العرب، عن هذا الموضوع. والبدو الرحل يصطادون الحيوانات باستعمال كلاب الصيد، السريعة التى شاهدتها وهى تسبق الأرنب البرى خلال لحظات. سألت معتوقا 'أين بندقيته الفتيلية؟ – أجابنى ، أنه خسرها أثناء غزو قامت به عتيبه عليهم – وكان ذلك منذ عام مضى ؛ وهو يركب معى حاليا وليس معه سوى هذا السيف القصير ، الذى استعمله شقيقه ذات مرة فى تهديد النصرانى. وراح يتغنى بطريقة الصلاة، [بواحدة من قصائد عنترة القديمة، وبلحن يشبه طنين الذباب] طوال عدونا خلال الصحراء ونحن فوق ظهر الجمل، وكان يضبط نغمات صوته على الصوت الناتج عن اهتزاز عدة (سرج) الجمل . قال لى معتوق (متفاخرا مثل شيخ من الشيوخ): إن الأسر البدوية التى فى الفريج الخاص به تعيش معه منذ سنوات عدة. وقال أيضا: إن كل فرجان حطيم ابن برّاك (بقيادة الشيخ قاسم) تتجمع فى منتصف الصيف وتنصب خيامها بالقرب من وادى الرماح " حيث، على حد قوله، يمكن العثور على الماء تحت الرمل، وذلك على عمق مشعاب واحد." – لقد شاهدنا انتشار الحطيم على نطاق واسع: وهناك بعض من بنى رشيد فى أقصى الشمال بالقرب من الكويت!

يظهر أمامنا جبل منحدر من الجرانيت يطلقون عليه اسم جنّة Genna ؛ وعن يسارنا يوجد المسقى الذى يطلقون عليه اسم بنانه Benana ، وهو يقع فى المسافة

بين جبلين. وبعد الظهر مررنا بقطيع كبير من إبل الحطيم: ولكن هذه المنطقة تعد أسوأ مناطق الرعى (باستثناء منطقة سيناء) التى شاهدتها فى الصحراء؛ إذ لا ينمو فى هذه الصحراء سوى أشجار الشيح الرومى. وقام الرعاة بجلب شىء من الحليب لنا من نياقهم؛ ولكن ذلك الحليب كان مذاقه يشبه مذاق الشيح الرومى من حيث المرارة [والشىء نفسه ينطبق على لبن الماعز التى ترعى فى هذا المكان أيضا] . وراح الأولاد يتساءلون بطريقتهم العنيدة،" الخبر El-khabar ؟ ويش Weysh العلوم el-ellum ؟ بمعنى ما هى أخبار المكان الذى جئتم منه، وما هى الأخبار السائدة هناك ؟" – "حسن، الحمد لله." – " وأخبار عرب فلان وتركان الذين يخيمون خلفكم وبجانبكم، أين هم الآن؟ والشيخ فلان أين يخيم حاليا، ومن أين يشربون؟ هل لديكم أخبار عن أى غزو من الغزوات ؟ وما هى أخبار البلاد التى مررتم بها؟ – خبرونا هل هذه البلاد خراب أم جرداء ، أم أن ما فيها يكفى لرعى الماشية؟ وما هى الأعشاب التى شاهدتها ، أنت يا معتوق، فى تلك الأراضى؟ وما هى أخبار الأمير؟ وأين تركتم أنتم عوائلكم؟ – أوه! والفرجان والأعراب الذين أتيتم على ذكرهم، وما هى أخبار مرعاهم؟ " – معتوق: "وماهى الأخبار التى يمكن أن تعطونا إياها، من هم الأعراب الذين يخيمون بعدكم؟ وما هى أخبار الغزو والغزوات؟ وأين ابن ناحال؟ وأين خيامكم؟

وبعد مسير ساعة أو ساعتين أخريين مررنا بقطيع آخر من إبل الحطيم: ولم يكن يرعى ذلك القطيع سوى صبيين فقط! وأحدث معتوق إشارة، راح خلالها يملس بيده على لحيته، عندما بدأنا نتحرك مبتعدين عن الصبيين؛ ثم قال:" والله، لو كانوا أعداءنا لأخذنا كل هذه الإبل !" ولكن كل هذه المنطقة تعد مفتوحة لبدو عتيبة الذين يخيمون خلف وادى الرماح. وبعد ذلك بوقت قصير وصلنا إلى منزل آخر من منازل الحطيم، وهنا نزلنا عن الجمل لنرتاح. – سكان هذه الخيام كانوا يعرفونى، وقالوا لمعتوق: 'إننى تجولت مع واحد من قبيلتهم، اسمه غروسيب، وأن اسمى كان خليلا، وأن أعراب قاسم اشتروا منى أدوية، ووجدوا تلك الأدوية مطابقة لما قلته لهم؛ وأننى واحد من أولئك الذين لم يخدعوا الأعراب .' أما فيما يتعلق بابن ناحال ، فقد بلغهم أنه انتقل عبر الوادى "إلى حدود عتيبة، (تلك الحدود التى تخلى العتبان عنها مؤخرا بسبب خوفهم من ابن الرشيد). كان ارتفاع الأرض هنا حوالى ٢٤٠٠ قدم، وكانت تطل على وادى الرماح.

مع طلوع النهار، استأنفنا ركوب الجمل، وبعد مسير ساعة من الزمن وصلنا إلى مجموعة أخرى من خيام الحطيم. كل الصحراء من حولنا كانت قاحلة، بل تكاد تكون محالاً، ومع ذلك فقد كانت تغص بمجموعات من خيام البدو الرحل، في مثل هذا الوقت من العام. عثر معتوق على أخ غير شقيق له في ذلك المنزل، وكان يعيش مع أمه العجوز؛ ونزلنا عن جملنا لنقضي معهما بعض الوقت ! أحضر ذلك الرجل لنا حليبا من الماعز ورجاني أن أشرب منه، وقد جلب لنا الكثير من ذلك الحليب، لأن ضيافته لنا كانت مجرد حليب ليس إلا!' قال: السمن لم يؤخذ بعد.' ومعروف أن الزبد يشكل نقود البدو المساكين، إذ يشترون بذلك الزبد الملابس المطلوبة لهم، وكذلك الأشياء المنزلية الأخرى؛ من هنا فقد جرى العرف أن يقوم هؤلاء البدو بتقديم لبن الخض وليس الحليب ، للضيوف. – ركبنا جملنا ومضينا في طريقنا؛ كانت صحراء (الجرانيت) عبارة عن رمل وتربة في هذه المنطقة؛ وفي هذه التربة، تنبت أفضل أنواع المراعي بعد سقوط أمطار الشتاء، وبناء عليه بدأت تطالعنا الأعشاب الجيدة. شاهدنا قطعان الإبل وهي ترعى أسفل جبل جنة Genna ، وعبرنا إلى رعاة تلك القطعان لنستطلع الأخبار منهم؛ ولكن معتوقا كان حاسما، ومضى قدماً نظرا لأنه لم يكن يعرف أولئك الرعاة." قلت: هناك إبل سوداء في الخلف، وبالتالي فإن هؤلاء الرعاة من قبيلة حرب؛" [معروف أن الماشية الكبيرة التي في الجنوب والتي لدى القبائل التي تعيش في وسط الجزيرة العربية مثل حرب، والمطير، والعتبان يغلب عليها اللون الأسود، وليس منها حيوان واحد أشهب اللون] . ورد عليّ معتوق، بأن ذلك الكلام صحيح تماما، وتعجب من أين لي بمعرفة تلك الأشياء التراثية عن الصحراء. واتجهنا صوب أولئك الرعاة ووجدناهم فعلا من قبيلة حرب. علمنا من الشباب أن ابن ناحال قد نزل اليوم في منطقة السليمي؛ وحلبوا لنا لبنا طازجا . وتركناهم لنشاهد بعدهم رءوس النخيل في قرية من قرى الصحراء، ومررنا بجبل من جبال المصائد والفخاخ يطلقون عليه اسم شيباد Chebad .

ظهر أمامنا فوق سهل رملي منخفض، جبل منبسط يطلقون عليه اسم دبي Debby ؛ وعلى بعد مسافة كبيرة خلف ذلك الجبل شاهدت الساحل الأزرق لجبل واسع وعريض يطلقون عليه اسم العلم el-Alem . "قال معتوق: خلف هذا الجبل يقع الطريق المؤدي

إلى المدينة المنورة – والرحلة تستغرق مسير أربعة أيام بالناقة." واصلنا مسيرنا طوال فترة الظهيرة؛ وشاهدنا قطيعا آخرا من الإبل يرعى عند سفح الجبل؛ اتجهنا صوب رعاة ذلك القطيع ونزلنا عندهم لشرب المزيد من الحليب ولاستطلاع الأخبار الجديدة. كان أولئك الرعاة من قبيلة حرب أيضا، ودلونا على ممر صخرى فى الجبل يوصلنا إلى ابن ناحال. ولكنى سمعت منهم خبرا غير موات مفاده: أن' بنى على (أى كل أفراد قبيلة حرب الذين يوجدون ناحية الشمال وناحية الشرق اعتبار من هذه المنطقة) كانوا ينسحبون جنوبا، وأن البلاد كانت خالية، أمام غزو كل من ابن سعود وعتيبة!' – إذن، كيف أستطيع المرور إلى القصيم؟ شاهدنا بعد ذلك جمعا كبيرا من الخيام السوداء المنصوبة عند سفح جبل دبى Debby ' كانوا؛ من عوف Auf ، ' على حد قول الرعاة' – وهم يأتون إلى هنا قادمين بعد المسيرات الطويلة التى يقومون بها فى أراضى الحجاز الجرداء فيما بين الحرمين ؛ وسبب مجيئهم إلى هنا، أنهم نمى إلى أسماعهم أخبار جودة موسم الربيع فى هذه المناطق. – والعوف El-Auf! كما سبق أن شاهدنا،: اسم كريه حتى بين أشقائهم ؛ لأن من بين العوف النشالين ومنهم أيضا السلابين والنهابين الذين ينهبون الحجاج المساكين ويسلبونهم أشياءهم. وبذلك – أكون قد وصلت طبقا لكويليه القبائل الغربية، إلى أطراف العالم (المعروف) ! لأن واحداً من أقوال هؤلاء العوف المقفاة يقول' العوف El-Auf وراهم warrahum ما ma فى fi شوف shuf ، بمعنى أنه لا يوجد أى شىء بعد العوف.' واقع الأمر أن ما رأيته كان عبارة عن عالم صحراوى له شكل جديد ومخيف أيضا ! إبل سوداء، وجبال غير صحيحة؛ وتيه شاسع من الرمال يطل على المدينة الكئيبة!

جنة عبارة عن علامة أرضية عند رعاة البدو؛ وفى أعلى ذلك الجبل توجد برك من مياه المطر. وعندما نزلنا إلى الممر المنحدر التقينا رجلا من رجال الصحراء كان يركب ناقة ويقتاد معه فرساً: كان يحمل على كتفه شلفة خيَّال متأرجحة. وهناك تراجع معتوق

(*) استعمل المؤلف كلمة Ghradran ليدل بها على الكلمة العربية 'غدران' Jhudran وواحدة 'غدير' . (المترجم)

فوق سرج (عدة) الناقة؛ ذلك الرجل المسلح الذى يشبه السحرة، كان مفاجأة لنا، وربما كان عوفيا. (*) تحدانا ذلك الرجل بشكل عام، وراحت الصخور تعكس صدى صوته المجلجل: ويبدو أن ذلك الرجل، كان صائما طوال حياته كلها فى ذلك المكان الفظيع الذى يدعى الحجاز، ويقع فى المنطقة ما بين الحرمين، ولم يتبق لذلك الرجل بعد ذلك الصيام الطويل، سوى ذلك الصوت المرعب المخيف! - كان وجهه يوحى بالحدة، وكان محياه الأسمر يشبه جبهة الخنفسة. ظن أن زكائبى فيها غنيمة؛ كما وجد فىّ أيضا غريبا." يصيح الرجل، خبرنى من أنت ؟" - رد عليه معتوق رداً متواضعا،" حطيمى أنا، وأنت ؟" - " أنا حربى، إخ! يصيح ذلك الرجل، ومن هو، هذا، الذى معك؟" - " شامى يتاجر بين الأعراب." - "إى حسن، وأنا أرى أيضا أنه شامى، من الملابس التى يلبسها ." ثم سحب فرسه إلى جواره، وهنا وضعت يدى على المسدس الذى كان يتدلى على صدرى ،مخافة أن يشهر ذلك الميت، حربته فى وجهنا من فوق ظهر الفرس. وهنا شد معتوق لجام الناقة ليركن على الجنب؛ ولكن الحربى ضرب جمله، ومضى قدما.

نظرنا من أعلى الجبل على مكان يشبه السهل، وشاهدنا خيام الأعراب. "قال معتوق: يا خليل الناس هنا جُهّال، ولن أقول لأحد منهم:' إنه نصرانى؛' ولا تقل ذلك أنت أيضا. والله، قد لا أذهب معك إلى بيت ابن ناحال، ولكنى سوف أوصلك إلى الأعراب الذين ينصبون خيامهم بالقرب من خيامه." - "سوف تنقلنى إلى ابن ناحال نفسه. أليس هؤلاء القبليون متشددين فى الدين؟ وأنا لن أنزل أمام أية خيمة بعد ذلك؛ وأنت أيضا لن تتخلى عن رفيقك." - "ولكن يا خليل، هناك مشادة قديمة بيننا وبينهم بشأن الإبل ؛ أنا إذا ما ذهبت إلى هناك، فلربما صادروا منى هذه الناقة." - " أنا أعلم جيدا أنك لا تقول الحق." - " لا، بحق من خلق هذا المشعاب!" - ولكن البدوى أقسم أن يكف عن الكذب ! كان محمد النجومى وأخوه قالا لى فى خيبر،" من المفيد أن خليلا لم يلتق أحداً من قبيلة حرب؛ وألا لكانوا قد ذبحوه: " - تكلموا عن حرب فيما بين المدينتين المقدستين، وقالوا: إنهم أشقياء سود مثل العبيد، وليس لهم من حرفة سوى الركض خلف قوافل الحجاج وهم يقولون: بقشيش **bakshish** !

(*) نسبة إلى بدو عوف . (المترجم)

هنا وصلت إلى حرب فى المنطقة العليا، هؤلاء القبليون من قبيلة حرب يدفعون الخراج لابن الرشيد! ولكن المفارقات التى من هذا القبيل لا يمكن تبينها من شخص جاهل خلال يوم واحد. وفى حرب التى تعيش فى نجد، اكتشفت وجود العقلية القديمة النابعة من الجزيرة العربية بينهم أكثر من العنوز Annezy . يضاف إلى ذلك أن أفضل أفراد العجيل فى خيبر كان شابا من شباب قبيلة حرب، وكان يمتاز باللطف والشهامة، وخفة الظل؛ وكان لا يرى إلا نادرا فى المقهى الذى يشرب فيه عبد الله السروان قهوته، ومع ذلك كان يأتى إلى العم محمد النجومى بين الحين والآخر، نظرا لأن محمد النجومى كان متزوجا من امراة من نساء قبيلة حرب، ولكن من فرع غير الفروع النجدية. ذات مرة قال ذلك الشاب متفاخرا: " نحن بنى سالم أفضل منك؛ لأننا ليس لدينا أى شىء فرنجى [أى من الاستعمالات الأجنبية، أو البضاعة والسلع الأجنبية التى يحضرها الأتراك والحجاج الأجانب إلى الأماكن المقدسة] ، فيما عدا هذا التبغ." – وهنا قصد معتوق إلى تلك الخيام الثلاثة أو الأربعة، التى كانت منصوبة فى مكان منعزل من الوادى؛ ووقف معتوق أمام تلك الخيام ثم نزل من فوق الناقة، وقال: إنه سوف يتركنى أمام هذه الخيام. وهنا خرجت إلينا امرأة فى مقتبل العمر، وجاءت إلينا فى المكان الذى كنا نجلس فيه إلى جوار الناقة بعد أن أنزل عنها أحمالها؛ كما جاءتنا أيضا امرأة شابة من البيت المجاورلنا . كانت تلك المرأة سعيدة ومبتهجة، بين الأعراب، وهى ترتدى ثوبها الجديد، ثوبها الأزرق المطرز بالصوف الأحمر. – ألم تكن تلك هى العروس ، فى ثوب زواجها، وهى تنتظر ذلك الشاب البدوى الحظيظ؟ اقتربت منا برقة الصحراء وجمالها، والنضارة تتجلى فى خديها، – وقد يكون اقترابها هذا هنا من قبيل التواضع المحبوب؛ وكانت تشبه الوردة الجميلة وسط هذا الجدب والخواء البشرى. سألتنا ، بكلمات امرأة شابة، 'من نكون؟' ورد معتوق على ابنة حرب،" سلام، وإن كان لديكم أحد مريض هنا، فهذا هو حكيم من الشام؛ هذا هو واحد من أولئك الذين يتجولون ومعهم أدويتهم بين الأعراب، وهو صاحب مهارة عالية: وهو يبحث عمن يمكن أن ينقله الى القصيم. سوف أترك هذا الشامى بينكم ،لأنى لا أستطيع التقدم به أكثر من ذلك ، وأنتم سوف تنقلونه إلى مسافة أبعد." وهنا استدعت هذه الشابة المرأة

الكبيرة كي يتشاورا في الأمر؛ وردًا على، انتبه! الرجال في الخلاء (الصحراء) ونحن هنا نساء وحدنا. وكان من الأفضل أن تتجه إلى ابن ناحال! – وها هي خيمته الكبيرة منصوبة هناك!' – معتوق: "سوف أتركه هنا؛ وعندما يعود (رجالكم) في المساء يتدبرون الأمر." ولكني جعلته يركب معي على أمل الوصول إلى ابن ناحال.

نزلنا عن ناقتنا أمام بيت ابن ناحال الكبير؛ ودخلنا بطريقة الغرباء وبتحية الغرباء أيضا. كان ولد بن ناحال وبعض الشباب جالسين على الرمل في تلك الغرفة الوسيعة المصنوعة من الصوف الخشن. جلسنا أرضا وراحوا يتهامسون فيما بينهم ،'إنني كنت واحدًا من الجنود الهاربين، التابعين للدولة، [من المدينتين المقدستين أو من اليمن] : ثم سمعتهم يتهامسون ،'لا، أنه ذلك النصراني !' – ولم يتوجهوا إلينا بأي سؤال إلا بعد شرب القهوة.

كانت هناك امرأة بدوية فارعة الطول تقف خارج خيمة ابن ناحال الكبيرة! وتفوهت ببعض الكلمات الجارحة، ولم يلق لها أحد بالا. وكانت تشكو من ضعف الكرم وتحلله في هذه الأيام! وكان ابن ناحال [تلك الروح الضعيفة تحت البشرة الناعمة] قد قصد إلى خيمة أخرى كي يبتعد عن عويل تلك الزوجة الذي يشبه عويل الرجال. وقد جرت العادة أن يتحمل البدو الغضب البشري في صبر وتحمل؛ والبدو يطلقون على الغضب البشري اسم زعل zaal ، كما لو كان ذلك منزل عليهم من عند الله." والأعراب يستخفون أيضا بغضبهم ، كما أن كلماتهم العنيفة تكون قليلة الوزن . وإذا ما عنف بدوي مترحل شيخ قبيلته، فإن مثل هذا الشيخ لا يفعل أي شيء، بحكم نبله، سوى أن يهز كتفيه ويمضي لحال سبيله، أو قد يصطبر عليه إلى أن يثور عليه الآخرون ويعنفوه ولكن الألسنة السليطة، في المدن التي يعيش فيها العرب، لا يمكن أن تصل إلى مثل هذا الحد من العنف أو السب: لأن من يتعدى على الشيوخ في حائل، أو في بريدة، يوسعه جنود الأمير ضربا.

كان صوت طحن حبوب البن في الهاون المخصص لذلك يدوي مجلجلا في خيمة ابن ناحال: وهنا رأيت ذلك الرجل العظيم هو ورفاق قهوته وهم يقتربون وثيابهم الطويلة

وأجسامهم الخالية من العضلات . هؤلاء الناس كانوا من سادة القهوة، إناس يتمتعون بوقت فراغ طيب فى الصحراء؛ أفراد قبيلة حرب يتجولون أيضا بين البدو وهم يرتدون أحلى ملابسهم. حيانا خلف Khalaf بن ناحال بابتسامة بوصفنا أغرابا عليه، كما حيانا أيضا أعضاء المجلس، ورحنا نستمع إلى تلك الحنجرة التى لها دوى مسموع خلال تلك الصحراء الجافة؛ قدم لنا يده من بعد: وسوف نجلس ونشرب قهوته، – ولم يكن شرب القهوة هذا فى صالحى. همس خلف لولده، "من يكون، أهو جندى؟" توقف الشاب مبتسما عن الكلام على أمل أن يتكلم شخص آخر: وعليه قال واحد من الشباب المرافقين للشيخ:" أظن أننا نعرفك." الابن:" ألست أنت ذلك النصرانى الذى جاء إلى حائل فى العام الماضى؟" – " أنا هو بالفعل." – " لقد جئت إلى حائل بعد ذلك بفترة قصيرة، وسمعت عنك هناك،؛ وعندما دخلت، عرفتك من الدلائل التى كانت فى ذهنى." رد خلف من بينهم ، ودون أن يعبأ بالأمر،" لقد سبق له أن زار النصارى، وكان فى ذلك الوقت يتجر فى الإبل مع مصر؛ وأن النصارى أصحاب عفة واستقامة. ووالله، فى تعامله مع واحد منهم، اكتشف النصرانى أنه حصل على ما قيمته خمس بنسات زيادة عن حقه، فركب دابته وسار بها نصف يوم لكى يلحق بصاحب الحق ليعيد إليه هذه البنسات الخمس!" أردف ابن ناحال قائلا:" خليل يتجول بين الأعراب! – حسن، ولم لا؟ إنه يحمل معه تلك الأدوية، وهم (النصارى) لديهم أدوية جيدة. وقد زار أبو فارس الأعراب من قبله: والله، لقد كان أمراء حائل يقدرون ذلك الخليل؟ ولا يعجبنى فيه سوى شىء واحد، وهو ما أراه فى سلوكيات النصارى، – خليل هذا ليس من الأمانة ! لماذا يجلس الرجال والحريم قريبين جداً من بعضهم البعض، كما لو كانوا يلامسون بعضهم البعض؟"

وهنا دخل متحدثان شابان نيابة عن القرويين فى قرية السليمى – بالرغم من أنهما كانت تبدو عليهما البداوة. كان هذان المتحدثان يشكوان من الضرر الذى تسبب لهما خَلَفٌ فيه فى ذلك اليوم، عندما أرسل إبله ترعى فى مرعاهم الاحتياطى؛ 'هدده هذان الشابان بأنهما سيركبان راحلتيهما ويذهبان إلى حائل لعرض الأمر على الأمير!' وهنا قام ولد خلف باستدعائهما لتناول الطعام فى الجزء الداخلى من البيت، والذى أقيم

(ولم أشهد لذلك مثيلا من قبل) فى منتصف تلك الخيمة البدوية الطويلة: هذا الطبق المخبأ ليس بحق من قبيل الطبق الذى يقدمه أعراب نجد، وإنما له مذاق الحياة المدنية، أو إن شئت فقل: حياة المدينة المنورة.. قال الشابان وهما، غاضبان: إنهما ليسا جوعانين، وأنهما لم يأتيا إلى هنا ليأكلا ، وأنهما هنا يحسان بأنهما فى بيتهما . خلف: "ادخلا، وكلا، وسوف نتكلم سويا بعد الطعام؟" دخلا على غير رغبة منهما، وعادا فى الحال: وعندما رءاهما خلف من جديد، ولأنه أساء إليهما، فقد راح يؤنبهما: – "ألم يتلق أهل السليمى منا كثيرا من المنافع؟ ألا نشترى منكم التمور والقمح أيضا؟ فلماذا إذن تتكرون الجميل؟ – الله يلعن أباءهم ،أباء الستة عشر كلبا." – قال آخر: "الله، يلعنهم، أباء الاثنى عشر كلبا؛" هذه أرقام أكبر من "الكلاب الستين" التى ترد فى سياق الضغينة الشديدة. كان هؤلاء هم شجعان قبيلة حرب، الذين كانوا يحملون معهم فى ثيابهم البدوية، نكهة المدينة المنورة. وهنا قال خلف: وما زال فى حلقه شيء من المرارة، ومن باب إرضائهما إنه سوف يبعد ماشيته عن ذلك المرعى فى الغد. السليمى Selemy (أو إن شئت فقل: السُليمة Soleyma) عبارة عن مستوطنة صغيرة من مستوطنات الشمر تضم اثنا عشر أسرة، وآبارهم عميقة جداً.

عندما ذهب الشابان لحال سبيلهما، عاد خلف إلى حاله السابق وراح يصغى مستمعا إلى شأننا. واقتاد معتوقا إلى خارج الخيمة، وهدد ذلك الحطيمى المحترم، تخوفا من استياء بن الرشيد، وسأله عن مرورى خلال البلاد، وسأله أيضا عن مجيئى إلى منزل ذلك الحطيمى. ذهبت إلى خلف وقلت: " أنت لا تستطيع، على حد قول الجميع، إرسالى إلى القصيم؛ لقد نزلت أمام بيتك، ونعمت بكرم ضيافتك، سوف أستريح عندك اليوم وغداً؛ ثم اعطنى رجلا من رجالك، يرافقنى إلى القصيم، نظير أجر أدفعه له." كان صوته ناعما، ولكن قلب خلف الجاف كان مليئا بالنفاق:" ما ma أقدر ukdar ؛ ثم أجاب وكيف لنا بإرسالك إلى القصيم؟ – من الذى يمكن أن يقامر بالذهاب إلى هناك؟ أهل عنيزة أعداء لنا." – " يا خلف، لا تعطيل، بوسعك أن تساعدنى إذا أردت أنت ذلك." – "حسن، اسمعنى ! ادخل فى الإسلام، وسوف أرسلك إلى أى مكان تريد؛ قل: ' لااله إلاالله' وسوف أرسلك الى القصيم بكل ترحاب." – " هل تعد بذلك ،

قبل الشهادة؟"، "هل أنا رجل من الذين يكذبون فى كلامهم." – "إذن ، اسمعوا يا كل الحاضرين :لا إله إلا الله! – اطلب منهم إحضار الناقة." – "نعم! قل أيضا إن محمداً رسول الله!" – "لم يكن ذلك ضمن اتفاقنا؛ اطلب الناقة يا خلف؛ وأبعدنى عن هنا." "لم أكن أعرف أن النصارى يمكن أن يقولوا ذلك ؛ كل ما أقصده هو أن تكون مسلما. يا خليل، بوسعك العثور على بعض الجماميل Jemmamil (الجمّالة) من أهل القصيم، الذين يجيئون إلى العول، فى هذا الوقت من العام، لبيع الأقمشة للأعراب. وقد سمعت بالأمس عن وصول واحد منهم إلى هذه المنطقة [لم يكن ذلك صحيحا]؛ وسوف ينقلك الجمّال معه إلى هناك نظير ريالين. وبعد أن تتناول العشاء وتشرب حليب المساء، اركب ثانية مع هذا الحطيمي! وسوف يوصلك إلى ذلك الجمّال." ولكنى قرأت فى تعبيرات وجهه أن ذلك لم يكن كلاما صادقا. ثم أخذ معتوق على جنب مرة ثانية، – وتحدث معه فترة طويلة؛ وطلب منه مهددا إياه، أن يحملنى بعيدا عنه. وبعد تناول العشاء طلب منى معتوق أن أركب الناقة. قلت لابن ناحال: " إذا ما تخليتم عنى فى هذه الصحراء؛ وإذا لم يستقبلنى أحد، وعدت إليك ثانية، فهل ستستقبلنى عندئذ؟" – رد على خلف،' سوف يستقبلنى.'

مع دخول الليل ركبنا الناقة وافترقنا عن ابن ناحال؛ واتجه معتوق صوب فريج سبق له أن شاهده أثناء مجيئنا من جنة Genna . وبعد ساعة من المسير، قال معتوق : "هنا رمل، هل لنا فى النزول عن الناقة هنا، لننال قسطا من النوم؟" – نحن لم نشاهد نيران الحراسة. – هيا بنا نواصل المسير: وإذا ما ساء الأمر، قل لى: ماذا أفعل أيها الرفيق؟" – " يا خليل، لقد قلتها لك بالفعل – إننى سوف آخذك لتعيش معى فى الفريج الذى أعيش فيه." وهنا سمعنا كلبا ينبح من داخل الوادى المظلم: اتجهنا صوب صوت نباح الكلب، ووصلنا أمام خيام ثلاثة؛ ووجدنا قطيعا من الإبل الباركة التى كانت تجتر طعامها أثناء الليل: كانت النار مطفأة، وكان الأعراب نائمين بالفعل . نزلنا عن الناقة وأنزلنا عنها أمتعتنا، وقيدنا الناقة من قدميها الأماميتين كنت على وشك أن أتقدم صوب الخيام ولكن معتوقا منعنى من ذلك، – "ليس هذا من اللياقة فى شىء ؛ ولكن يجب علينا الانتظار هنا، ونعطيهم الفرصة، ثم ننتظر لنرى إن كان أحد منهم سيخرج لدعوتنا أم لا."

بعد برهة قصيرة اقترب منا رجل" قال: أخ! بعد أن ألقينا عليه السلام، لماذا لم تدخلوا إلى البيت ؟" كان ذلك الرجل يحمل رمحا في يده، ويحمل سيفا في اليد الأخرى. وجدنا المضيف، داخل البيت، وكان جالسا ينفخ النار في الوجار؛ ووضع مزيدا من الوقود كي يحدث شيئا من الإضاءة. أيقظ ربة البيت؛ وناولتنا من فوق الستار سطلا من اللبن المتعفن القديم، الذي يصنعون منه نوعا من المريسى مر الطعم. شربنا من ذلك المشروب الليلى المؤسف، وتحول الجو العام إلى مزيد من الأمن والثقة؛ ومع ذلك ، كان حامل الرمح والسيف ما يزال واقفا ، ممسكا بسلاحيه في يديه ، ثم انحنى ناحيتنا." قلت له في النهاية: كيف الحال، الآن أيها الصديق ! هل حسبتنا لصوصا، أنا ورفيقي ؟'، "أخ ! الرجل لا يصبر كثيرا على حارسه، لأن الخطر محدق دوما." قال معتوق على سبيل المرح: " هو لا يترك مطلقا هذا السيف الضخم أو الرمح، سواء أكان مستيقظا أم نائما!" "وبناء على ذلك، حسبنا أن هذا الرفيق كان فارسا من فرسان ضوء القمر. قلت لمضيفنا: "أنا حكيم من دمشق، وأنا ذاهب إلى القصيم: وسوف يتركني رفيقي هنا، فهل لك أن ترسلني إلى هناك مقابل أربعة ريالات أدفعها أجرا عن ذلك؟" رد على ردًا لطيفا،" سننظر في هذا الامر غدًا، وأعتقد أننا سوف نتفق مع بعضنا البعض، سواء قمت أنا بتوصيلك أو قام غيري بهذه المهمة؛ وفي ذات الوقت فلتبقى معنا هنا يوما أو يومين." وبينما كنا نرتاح، قالت ربة البيت: صاحبة اللبن المتعفن، شيئا موجها لواحد منا، جعلني أظن أننا لم نصل بالطريقة الصحيحة ولم نستقبل الاستقبال الصحيح: كانت تلك المرأة زوجة مهجورة من زوجات شقيق مضيفنا. سألت معتوقا،" أهذه هي أخلاق أهل قبيلة حرب!" – وهمس لي مرة ثانية،" الأمر كما تقول أنت تماما؛ ولكن قل لي يا خليل: هل أتركك هنا، أم أنك ستعود معي؟" – وعندما طلع النهار، قال لهم معتوق : " أنا سوف أتركه معكم، ديروا بالكم عليه." وهنا ركب ناقته وافترق عنا.

مطلق (كان ذلك اسم مضيفنا):"هيا بنا نذهب إلى ابن ناحال، ونستشيره في الطريق التي يمكن أن نرسلك بها إلى القصيم، ولكن كعب رجلي مشقوق ولا أستطيع الذهاب." وضعت شيئا من المرهم على الجرح، وأعطيته جوربا قصيرا؛ وهنا أحضر

البدوى حذاء قديما سبق أن اشتراه من المدينة المنورة. مشينا حوالى نصف ميل، وبعدها رأيت خيّالا، ومعه حربة طويلة، يركب قادما فى اتجاهنا: كان يبدو عليه أنه رجل شرس صارم الملامح. – كان ذلك الشخص هو وحده، من بين الحاضرين فى قهوة خلف، هو الذى عارضنى بالأمس. هذا الخيّال كان هو طلُّق Tollog ، الابن الأكبر لمضيفنا! وكانت الخيمة التى مررنا عليها فى تلك الليلة هى خيمته ! كما أن تلك الزوجة المهجورة كانت زوجته أيضا! كانت طرفة طيبة من طرف العرب أن نعرف الأسباب التى جعلت رجلا متزوجا حديثا يؤثر النوم خارج بيته فى خيمة ابن ناحال.

يصيح ذلك الخيّال وهو يحملق فىّ "كيف الحال الآن!" وهنا رد عليه أخوه نيابة عن الحكيم الشامى والحطيمى. – " إخص! فى أى اتجاه سار ذلك الحطيمى؟" (ويدفع الرجل حربته ثم ينهض واقفا) سوف أعدو خلفه وأعيده إلى هنا من جديد، – الله يلعن أباه! وهل عرفت أنت أن هذا نصرانى؟" وقف مطلق مندهشا مدة لحظة واحدة! ثم قال ذلك الرجل النبيل بعد ذلك: " و wa لو low ، بمعنى 'حتى وإن كان كذلك ....؟ فهو ضيف علينا وغريب أيضا؛ كما أن ذلك الحطيمى قطع مسافة كبيرة ويصعب اللحاق به." – واصل طلق مسيره قدما؛ كان سليط اللسان وقاس فى بيته ،أما مطلق فقد كان رجلا معتدلا. مررنا بمرعى من مراعى الربيع، ونادى مطلق على طفل من الأطفال، كان يرعى الغنم على بعد مسافة قصيرة، وبالتالى يمكن له أن يعدو عائدا إلى المنزل ليخبر أهل المنزل عن ذلك المرعى ويطلب منهم الانتقال إليه. وبعد أن قطع الطفل مسافة لا بأس بها ناداه مطلق وطلب منه العودة ليقول له :' لا !' لأنه غير رأيه: فقد كان مختل العقل إلى حدما، – وهذا هو حال كل رجل واحد من بين ثلاثة من رجال فى الحياة الصحراوية. شاهدت فى المكان الذى مررنا به أسفل حد من الحدود الأرضية، بعض الغرف الأرضية المستديرة، مثل تلك الغرف التى فى الديار الغربية والتى حسبتها نوعا من القبور.

كان خلف قد رحل عن المكان منذ الأمس: فقد وجدناه فى خيمته ممددا على الأرض يستعد للنوم – كان الوقت ظهرا . وهنا راح ذلك الرجل يستغرب رؤيتى مرة

ثانية، ولكن مطلق مضيفي هو الذى دافع عنى فى الأمور كلها. استدار خلف بعد فترة ثم نهض واقفا، مثل الثعلب، ثم قال بنظرات هينة: " أها! هذا هو خليل يعود إلى هنا مرة ثانية؛ وكيف تخلى عنك ذلك الحطيمى الملعون يا خليل؟" وعندما بلغه أن معتوقا أخذ منى أجرا أردف قائلا: " لو عرفت ذلك، لكنت قطعت رأسه، وصادرت ناقته؛ - هو! يا من هناك، حضروا قهوة الظهيرة." ورد عليه ولده،" لقد صلحنا القهوة بالفعل وشربناها." - " إذن، صلحوا قهوة مرة ثانية، ولا تتأخر بها." كان خلف قد تزوج قبل عشرين يوما، من ابنة من بنات القرية، ودفع لها مهرا؛ وتهامس البدو على سبيل المرح، إنها ما تزال عذراء. ولذلك كان قلبه ما يزال مكلوما: وانتهز ولد خلف الفرصة كى يسخر من الحطيمى، وراح يعمل على إنقاذ والده عن طريق الكلام المكشوف، سعيا لطلب النصيحة والمشورة من شخص يسمونه الحكيم. وفى النهاية قال ابن ناحال: "طالما أن خليلا نزل فى بيتك ، فعليك أن ترسله إلى أى مكان يشاء يا مطلق."

كان ابن ناحال، أى ابن النحل بحق وحقيقة، تاجرا بدويا ، إذ كان يجمع الحلا والرحيق من كل ما هو فى الخلاء (الصحراء). وبالرغم من أن ابن ناحال لم يولد فى أسرة من أسر الشيوخ، إلا أنه تربى ونشأ، بحكم تجارته فى الإبل، ليكون واحدا من أثرى أعراب الجنوب وأغناهم؛ وكان لذلك الرجل زبائن يتجرون معه، فى بيع البن والملابس والأقمشة بين الأعراب . وقد زادت ثروته الحيوانية إلى حد تعين معه تقسيمها إلى قطيعين كبيرين حتى يسهل رعيها؛ ومع ذلك فإن ابن ناحال بالرغم من عدله، كان يجد الوسيلة التى تمكنه من اقتطاع شيء من الأجور الهزيلة التى كان يعطيها لرعاة ماشيته. لم يكن ابن ناحال من أصحاب قطعان الأغنام أو الماشية الصغيرة (التى تعطى الزبد) التى هى أكثر فائدة للأسر البدوية الفقيرة المترحلة؛ ولكنه كان يتقاضى ثمنا لبضائعه الصغيرة، على شكل كميات كبيرة من السمن. كان لدى ابن ناحال علاوة على ذلك. شيئا يحسبه الأعراب كنزا كبيرا (ميتا) من النقود، ويحفظه ذلك الرجل فى صندوقه. قام ابن ناحال بأولى مغامراته ، قبل سنوات عدة على شكل قطيع من الإبل ذهب به إلى مصر. هذا الحربى المغامر قطع مئات الأميال الصحراوية، وكان يتخذ لنفسه رفاقا على طول الطريق؛ هذا فى الوقت الذى كانت أنظار أفراد قبيلته

تتجه إلى كل من المدينة المنورة ومكة، ولم تكن معتادة على الذهاب إلى مصر. ويصل ابن ناحال بسلام، ومعه قطيعه، إلى مصر ليجنى ربحًا مقداره سبعين فى المئة. وبعد ذلك بسنوات عدة (انخدع بفعل شائعة من الشائعات) وقام بمغامرة شبيهة بمغامرته الأولى التى قام خلالها بالذهاب إلى مصر؛ ولكنه فوجئ برخص أسعار الإبل فى هذه المرة الثانية؛ ووصلت خسارته إلى ثلاثين فى المئة. لم يكن خلف يعرف القراءة أو الكتابة، – إذ لم يكن بحاجة اليها؛ وعندما وضعت ورقة عنيبر فى يده قال: " نحن بدو! ولا نعرف القراءة." حياة خلف، وقلة كرمه، الذى كان يمكن للكثيرين أن يفرحوا به معه، كانت خلوا من الراحة والطمأنينة التى قد تنشأ عن مثل هذا الخير الوفير. وأهل نجد يطلقون على الرجال الذين يكونون من هذا القبيل اسم تجار tajirs . وخلف حاليا شيخ من شيوخ الأعراب، ولكنه شيخ بلا مضمون، والسبب فى ذلك أن البدو يعولون على مسألة الدم والسلالة فى تولى المشيخة؛ وقد ترتب على ذلك تقلب أعداد الأسر التى كانت تنضم إلى خلف أو تنفصل عنه. كانت تلك الأسر تشكل جماعته Jummaa أو إن شئت فقل فريجة Ferij ؛ يضاف إلى ذلك أنه كان رجلا من رجال ابن الرشيد.'

كان سعر السمن رخيصا فى ذلك العام، إذ كان الصاع يباع بريال واحد فى حائل؛ ولكن خلفاً كانت لديه أخبار تفيد أن صاع السمن يباع فى جدة بريالين فى ذلك الوقت. وبينما كنا جالسين حول وجار القهوة تعجبت عندما سمعت الأعراب يتساءلون فيما بينهم عن "كم تبعد جدة عن هنا؟"، وكان البعض منهم، يلومون أنفسهم لأنهم لم يسبق لهم الذهاب إلى مكة (لأداء فريضة الحج)، بل إنهم كانوا يتساءلون ،" أين تقع جدة!" – جدة، التى تبعد عن هذا المكان مسافة تزيد على أربعمائة ميل، لم تكن من وجهة نظر خلف هو وحمَّاليه من البدو، تبعد عن هذا المكان أكثر من اثنا عشر رحلة سريعة بالإبل. ولذلك سوف يذهب إلى جدة، فى هذه الأيام، وهو يحمل معه أحمالا كثيرة من السمن النقى، ليحصل مقابلها على مبلغ كبير من النقود. والأعراب كلهم يتعاملون بالمقايضة؛ ولكن قلة قليلة منهم هى التى لديها الذكاء، والقدرة على التنفيذ ، وتحمل الآلام من أجل تنفيذ مشروع قانونى وناجح. وهنا خطر ببالى،، هل أركب معه وأرى المزيد من البلاد التى لا أعرفها؟ – لكن لا، الأفضل لى أن أزور القصيم،

التى تشكل أرض النفـود الوسيطة التى يعيش فيهـا المواطنـون النجـديـون المجدين. كل مـا لدى خلف، بما فى ذلك إبله التى يبلغ عددها ثلاثمائة جمل، ونقوده ومنقولات أسرته يقـدر بما لا يزيد على ٢٠٠٠ جنيه إنجليزى ؛ وتلك ثروة كبيرة فى ظل الحياة البدوية الصحراوية الهزيلة! ولما كان خلف بدويا فقد كان يشارك أيضا فى الغزو؛ وكان هو وأصدقاؤه يركبون دوابهم ويذهبون لغزو أجزاء من قبيلة عتيبة. البدو الذين يكونون من هذا القبيل يقومون بالغزو مرة واحدة كل عام، ليسرقوا خلالها بعضا من الإبل ؛ وذلك عندما تتجدد دماؤهم بفعل شرب الحليب فى موسم الحليب (الربيع) ، أو عندما يضيق الحال بهم خلال قحط الصيف. وإذا ما أصيب ابن ناحال بطلقة أثناء الغزو، فما فائدة اقتصاده وعدم تبذيره من ناحية، وبيعه السمن من الناحية الأخرى؟

رويت هذه الحكاية فيما بعد لصديق فى عنيزة؛ فرد على بحكاية أخرى. – "كان هناك أيضـا رجل ثرى، شيخ من شيوخ عتبية، رجل معروف لنا جميعا؛ كان يملك خمسمائة من الإبل أما ماشيته الصغيرة فكانت بلا عدد. كان ذلك الرجل فى بدايات شيخوخته ، ومع ذلك لم يكن يهدأ مطلقا ، إذ كان دائم الحركة، بل وكان يشارك فى الغزو أيضـا ، الغزو الذى كانوا يقومون به على أعدائهم الشمر. وفى الغزو الأخير الذى قاموا به توغلوا إلى مسافة بعيدة داخل أراضى العدو؛ وبعد أن استولوا على غنيمة قيمة، تحول الرفاق عائدين إلى موطنهم. ولكن خيالة الشمر أدركوهم، نظرا لأنهم كانوا يركبون نياقا، وأغاروا عليهم وطوقوهم؛ ونظرا لشدة العداوة، لم يتركوا أحداً منهم على قيد الحياة."! – شاهدت خيالة كثيرين بين أفراد قبيلة حرب. وهذا طلُّق ومطلق بالرغم من أنهما من أسرة متواضعة كان لديهما حصان وفرس يتناوباهما. ووجدت أن حوافر الفرس كانت طويلة أكثر من اللازم فى هذه التربة الرملية: قال طلّق: 'لا يوجد بيطار فى هذا المكان، ولكن عندما يمر علينا واحدٌ من الصلوبة فسوف يقوم بتقليم هذه الحوافر.' – كان كلام حرب يتردد فى مسمعى ، متكسرا، مثل الكلام العربى لأهل المدن، أو ذلك الكلام الذى كان يدور على لسان محمد النجومى فى خيبر. هؤلاء، من أعراب المدينة المنورة.

بالرغم من أن شائعة مشاركة ابن سعود لعتيبة فى الغزو كانت على كل لسان، إلا أنها كانت شائعة لا أساس لها من الصحة! ولم أكتشف انتقال ذلك الخبر على وجه السرعة فى الجزيرة العربية، اللهم باستثناء طرق القوافل ؛ ومع ذلك، فإن المرء فى موسم عدم المرور على تلك الطرق، قد ينتظر شهورا ، دون أن يسمع خبرا واحداً . هذا الإنذار أدى إلى تأجيل رحلتى : " قال مطلق : اصبر إلى أن نسمع المزيد من الأخبار؛ وسوف أوصلك أنا بنفسى، لا إلى عنيزة – فهم أعداء، ولا إلى بريدة، وإنما سأوصلك إلى السُّبيعية Sbeyieh بالقرب من النبهانيه Nebhanieh [أسفل جبال أبنات Abanat]؛ وأهل هذه القرية أناس طيبون، وسوف ينقلونك إلى مسافة أخرى بواسطة بعض الجمَّالين." ولكن الآخوين ارتبكا عندما أقنعتهما بأنهما يبالغان فى المسافة. 'كيف للغريب بمعرفة بلادهم! – ما الذى يفعله إذن هنا؟' فى الجزيرة العربية دخلت القرى على رغبة منى ، ولكن دخولى إلى تلك القرى كان بصحبة البدو: بلغنى أن واحدا من السلايمة قال: 'إنهم سيقطعون النصرانى إربا إربا إذا ما خاطر بوجوده بينهم ؛' ولكن واقع الأمر أن البون شاسع جداً بين كلام هؤلاء الناس وأفعالهم.

الكرم والضيافة هنا ليست على ما يرام؛ إذ لا يقدمون هنا سوى لبن الخض، ولا يضعون منه أمام الضيف سوى كأس واحدة على مدى النهار بطوله. كنت أحس بالسعادة عندما كانت ماشيتهم تعود قادمة من المرعى بواقع يوم واحد من بين كل يومين، حيث كان يسمح لهم ذلك بتقديم شربة صغيرة من الحليب الدافئ فى كل مرة. كان طُلُّق ، ذلك الخيَّال المرح، رفيقا متشددا؛ أما مطلق فكان يتمتع بشىء من رجاحة العقل: وكان شقاء الضيف هنا يتمثل فى زوجة طُلُّق المهجورة البائسة. هذه الهجرة (الكفر) الجائلة التى كان يسكنها ثلاثة أشقاء لم يكن فيها من نعم الله وأمنه سوى الشىء القليل؛ كانت أصواتهم الغاضبة تستمر من طلوع النهار إلى طلوع النجوم فى السماء من فوقنا. وبالرغم من أن قراب الحليب كانت مملوءة بحليب الربيع إلا أن ذلك الحليب كان فى أيدى الحريم ، اللاتى كن يغلينه ويحولنه إلى مريسى ، كى يبعنه بعد ذلك فى المدينة المنورة. وبدو أعالى نجد يزدرون هذه التجارة التافهة ، ويستصغرون ضعف كرم هؤلاء الناس.

وقد أدى عدم التغذية إلى دخولى فى غيبوبة دامت طول اليوم. وذات صباح شاهدت فريجا نصب خيامه حديثا على حافة الوادى، وكان مقابلا لخيامنا: ودون أن يلاحظنى أحد، ذهبت إلى ذلك الفريج تحت ستار بيع الدواء. لم يكن هناك فى الخيام سوى قلة قليلة من الرجال وراحوا يسألونى عن اسم النصرانى؛ وتعالى صوت المرأة كى تعرف أنواع الأشياء البسيطة التى معى، ولم يقدم لى أى واحد منهم أى شىء من اللبن . تركتهم وخطر ببالى أنى رأيت بعض الخيام التى كانت منصوبة خلف خيامهم: وبعد أن مشيت مسافة ميل، اكتشف أن تلك الخيام لم تكن سوى مجرد صف من الأشجار والأدغال. وبالرغم من ابتعادى عن الأصدقاء، وبالرغم أيضا من أنى كنت أعزلا، إلا أننى مضيت قدما، على أمل العثور على بعض خيام الأعراب . استطعت تمييز بقعة سوداء كانت تتحرك عن بعد فوق السهل المرتفع، وظننت أن ذلك ربما كان قطيعا من الماعز: إذن سوف أقصد ذلك القطيع وأشرب منه حليبا . عبرت كى أستظل بظل شجرة هزيلة من أشجار السنط؛ نظرا لأن التربة التى ضربتها الشمس كادت هى الأخرى تحرق نعلىّ النحيفين، واستدرت لأرى بدويا طويلا يخرج من الأرض المكسّرة ويمر علىّ راكبا جمله؛ هذا البدوى لم يلاحظ الغريب أو ينتبه إليه : ومشيت بعد ذلك مسافة ميل أو ميلين ، كى أصل إلى قطيع الماعز. ولكنى لم أجد غير امرأة شابة حامل كانت ترعى تلك الماعز. – 'سلام **Salaam** ، وهل تدلنى هذه المرأة على مكان ينصب الناس فيه خيامهم، واسم هؤلاء الناس؟' ردت على سؤالى وهى متخوفة بعض الشىء ، إنها لا تعرفهم ، لأنهم ليسوا من أعرابها.' – "يا سيدتى، هل تعطينى شيئا من الحليب !" – "من **Min** فين **fen** الحليب **halib** بمعنى من أين لى بهذا الحليب؟ لقد حلبنا الماعز فى الصباح الباكر فى الخيام؛ ولا يوجد حاليا أى شىء من الحليب فى ضروع هذه الماعز، كما أنى ليس لدى إناء أحلب لك فيه": وقالت إن خيامها تقع على مسافة بعيدة ." ألا يوجد هنا بالقرب منا فريجا يمكن أن أقصده خلال فترة الصباح هذه؟" – " اصعد قليلا على جانب التل وسوف أشير لك على ذلك الفريج: انظر هناك! ولعلك تستطيع أن ترى خيامهم ." لم تكن عيناى على ما يرام؛ ولكنى لاحظت ذلك الاتجاه الذى كانت تشير إليه بإصبعها ومضيت قدما فى طريقى. وبعد مسير نصف ساعة، فى أرض

وعرة ومكسَّرة، رأيت أول ما رأيت المنزل، عندما اقتربت من المكان؛ ثم توجهت نحو الخيمة الكبيرة من بين هذه الخيام، والتى شاهدت فيها بعض الناس جالسين داخلها.

قفزت علىَّ كلابهم وقد فتحت أفواهها؛ وهنا شاهدت رب البيت يجرى وفى يده فأس يشبه السكين لكى يطارد الكلاب ويبعدها عن الغريب (الضيف) القادم. – وبينما كنت جالسا بين هؤلاء الأعراب ، اكتشفت أنهم لم يكونوا من أولئك البدو الذين أقصدهم وأبحث عنهم. ورحت أتساءل بالتدريج، "هل لديكم شىء من التمر؟" – يضاف إلى ذلك أن أكلى الطعام معهم سيكون فى مصلحة أمنى وسلامتى. وهنا رد على ذلك الرجل الطيب ردًا بشوشا ،" ليس لدينا شيئا سوى الجبن؛ وسوف نقدم ذلك الجبن لك على وجه السرعة." كان المضيف غريبا على هذا المكان، إذ كان هاربا من المطير، ويعيش هنا فى ديار حرب، لأنه قتل نفسا بغير حق. جلس ذلك الرجل مع حرب يحاول تجميع ألياف بعض الأشجار الصحراوية، ليصنع منها فى النهاية حبالا جيدة. قال: هناك جلبان **Jolban** (آبار) غرامىق **ghramik** (عميقة) جداً فى هذه الديار." هؤلاء الناس الفقراء عاملونى معاملة شريفة، وكانوا يسألونى أسئلة ويجيبون هم عليها. قلت: "جئت بحثا عمن يمكن أن ينقلنى إلى القصيم نظير أجر." ورد علىّ الرجل" عنده ناقة جيدة؛ وإذا ما دفعت له خمسة ريالات، فسوف ينقلنى ويضعنى فى وسط سوق عنيزة!"

عندما عدت ثانية لمضيفى – " أين ذهبت يا أنت؟ تعجب مطلق؛ ذهابك إلى هذه المسافة البعيدة عن خيامنا فيه خطر عليك: هناك الكثيرون الذين لو وجدوك وحدك قتلوك، البدو كفرة، يا خليل." وعندما أخبرته باسم الرجل، الذى سينقلنى إلى عنيزة، أردف قائلا: "لا علاقة لك بذلك الرجل ! إنه مطيرى. وإذا ما ركب معك (رديفا) فعليك أن تحذر سكينه – المطيرى لا يمكن أن يمنع نفسه من الخيانة، أو قد يقتلك وأنت نائم!" هذا الكلام الشرير يروج بين القبائل المتجاورة؛ ولكن مبلغ علمى أن ذلك المطيرى كان يمكن أن يوصلنى بشرف إلى عنيزة. كان مطلق صاحب أرجح عقل بين كل العرب الذين أعرفهم ، فيما يتعلق ببعض الأمور. وعندما لاحظ مطلق أننى كان النوم يغالبنى فى بعض اللحظات، وأنا جالس، حتى أثناء اشتداد حرارة الشمس ، وعندما لاحظ أننى كنت أتجول مبتعدا عن الخيام

(البخيلة) – إنما كان ذلك بحثا منى عن صخرة آوى إليها حماية لى من هذا التدنى المعنوى، وأملا فى أن أغمض ولو للحظات – قال: ' لقد لاحظ أن صدرى كان يفيض (حزنا) هنا بينهم: ونظرا لقيامى بتلك الرحلة إلى القلب، ونظرا أيضا لأنه لا يستطيع هو نفسه أن ينقلنى إلى هناك؛ بالرغم من كل ذلك، ومن أجل خاطرى، فقد نسى مسألة الغزو الذى يقوم به ابن ناحال، – ذلك الغزو الذى مكنه من اقتراض حصان آخر.'

إلى جانب ابن ناحال ، كان هناك مستشار آخر لصحتى يدعى عليا، ذلك الرجل الذى كان يحمل رمحا وسيفا: هذا السيف كان عبارة عن حد غير مقسى من الحديد وربما كان جانبا من جوانب رمح من الرماح الخفيفة التى يستعملها كبار ضباط المدينة المنورة، – هذه الشخصية كانت تضفى على صاحبها طابع الرجل المشاكس المحب للحرب والقتال. قال علىٌ بصوت ينم عن المعاناة الطويلة: "أنا Ana صاحبك Sahibak ." كان ذلك الرجل من حرب العلا el-Aly : حرب العلا هؤلاء توجد منطقتهم فى الشمال الشرقى وليسوا من أعراب هذه الديرة. سألته: "أين تركت زوجتك وأطفالك وإبلك؟" رد على،" أنا لا شىء عندى سوى هذه العباءة (البشت) والملابس التى ألبسها وكذلك السلاح الذى أحمله: أنا ana يتيم yatim " . هذا البدوى المسكين الذى يبلغ من العمر خمسين عاما لم يكن يعرف حقيقة عمره؛ يا لها من جهنم إن قدر لذلك الرجل العيش أكثر من ذلك فى هذا الجوع وهذا البؤس! علىّ هذا هو وأخيه، ورثا عن أبيهما مجموعة من النخيل، فى المدينة المنورة؛ ولكن ولد الأب القوى استطاع السيطرة على أخيه ضعيف العقل: وهنا قال مطلق:" هذا الرجل المسكين (الأحمق على وجه التحديد) لم يكن له علاج." – " ولماذا يحمل هذه الأسلحة دوما فى يديه؟" – " إنه خائف على شىء حدث منذ سنوات مضت: كان على هو وصديق له، بعد أن انتهيا من تناول العشاء، قد نهضا واقفين، وقالا: إنهما سوف يتغالبان . تصارعا مع بعضهما: واستطاع على التغلب على الآخر وسقط فوقه؛ – وربما فى تلك اللحظة أحس بأن شيئا انفجر فى داخله، نظرا لأن الذى سقط على الأرض كان قد فارق الحياة! لم يوجه أحد الاتهام إلى على؛ ومع ذلك هرب ذلك المسكين حفاظا على حياته، واعتبارا من تلك اللحظه وهو يمشى مسلحا على هذا النحو،مخافة أن يعثر عليه أقارب الميت ويقتلونه."

فى المساء كان يجلس معنا شاب من أقارب زوجة طُلّق الجديدة. كان ذلك الغريب من فريج آخر؛ وبعد أن وجه الكثير من الإهانات إلى النصارى – أردف قائلا: "أنت يا طُلق وأنت يا مطلق! والله أنتما لم تحسنا صنعا باستقبالكما لكافر فى بيوتكما!" ثم أخذ لنفسه أقرب مكان من موقد النار' – وذلك على العكس تماما من تقاليد البدو – وأبعد الضيف والغريب إبعاداً تاما عن النار ليكون فى مهب ريح المساء؛ فى كوة صغيرة مصنوعة من قماش الخيام، وتشبه بخل هؤلاء الناس إلى حد بعيد، لتكون مجلسا للرجال. تعجبت، "لابد أن هذا الرجل من العجيل!" – ردوا علىّ ، إنه عجيلى بالفعل ! شخص متباه، يا خليل." – "لقد اكتشفت أنهم كلاب، أتراك ، وخونه؛ وأقسم بإيمانى ، أنى وجدت فيهم أرذل البشر." – " والله يا خليل، إنك صادق." – "من أى فرع من فروع قبيلة حرب، يكون هذا الرجل؟" – " إنه حزيمى." "تقول حزيمى: إذن أيها الأصدقاء الطيبين ، هذا الشخص المتباهى المتفاخر هو صلوبى!" – "هذا صحيح ، يا خليل !" وراح الجميع يضحكون. هذا الشاب الصغير، عندما بدأ يتمالك نفسه لم يجد لديه ما يقوله سوى سُبَّك Subbak بمعنى "قبحك الله". بدى عليهم أن معرفتى لأمر من هذا القبيل، كانت عندهم أمرا يدعو إلى الدهشة والعجب. – الحزيم، فخذ أو فرع قديم من أفخاذ أو فروع قبيلة حرب، والناس يستهزئون بهم كما لو كانوا من الحطيم؛ والبدو فى حالة الثورة والغضب يسمون الحطيمى والشرارى وكذلك الصانع بأنهم صلوبيون ، وهنا فسح المكان، وأدى ذلك الضحك إلى نوع من المصالحة مع النصرانى.

– كنت أتعجب كثيرا عندما أرى قسما كبيرا من خيمة طُلّق مغلقا؛ ولكن فى الصباح، عندما كانت الزوجه الشمطاء وأم أطفاله خارج الخيمة، تغلى السمن، خرج من الخيمة وجه جديد، – امرأة شابة جميلة، تلبس ملابس جديدة ونظيفة! كانت تلك زوجة طُلّق الجديدة فى مخدع الزواج؛ وتلك كانت أيام العسل، التى لا تقوم خلالها بأعمال المنزل . تقدمت بعينيها اللامعتين فى ضوء الشمس الحارقة.

ومع طلوع شمس اليوم التالى وجدت أن الخيام الثلاثة أصبحت أربع . كان القادمون الجدد من السيادين Seyadin وليسوا من الصلوبيين أو من الصُنَّاع وإنما (كما سبق أن رأينا) من عمال الحزم قريبى الشبه بالبدو، ويحملون معهم بضائع

يتجولون بها بين الأعراب. ذهبت لزيارة هؤلاء الغرباء؛ - "سلام!" - عليكم السلام ؛ تعال يا خليل ، هل أنت هنا ؟ " ألا تذكر يوم أن جئت مع الحطيم وشربت القهوة فى قصرنا ، فى قفار؟" أضافت المرأة المسكينة، "وأنا أصلحت لك عباءتك الممزقة." "قال الرجل: يا خليل أين غليونك؟ سوف أملأه لك بالتبغ الحميدى." مولود مع البدو، وهو يعرف كل دروب الصحراء؛ لقد وصل فى تجواله إلى القصيم، وأجاب على كل الأسئلة التى وجهتها إليه: - أنهم لا يقسون على أولئك الذين قست عليهم الدنيا! ولم يكونوا متعصبين أو متشددين بأى حال من الأحوال.

الفصل الحادى عشر

رحلة إلى القصيم : بريدة

البدو الحمالون. الذهاب مع حامد، الشمرى. تقرير زائف عن غزو بن سعود لعتيبة. حفر حُفر للماء فى الخلاء. غزوات بن الرشيد. الصلبة. بنو على. سميراء ، قديما ديرة الرولة. تركى، بدوى من المدينة (المنورة). رحلة بنى سالم . العطية. عاصفة من المطر. قوس قزح الثلاثى. البرق فى الصحراء أثناء الليل. البدو المتدينون. ضيف لطيف. منزل من منازل حرب على شكل دائرة. الفرن، من أقارب حرب. جبل سارة. أولى قرى القصيم. عيون. قصّة. أبراج المراقبة. ضعف الكرم فى القصيم. الأرض الرملية العميقة وسكانها. سطح بريدة. المدينة. قصر الأمير. سرقة أشياء النصرانى وهو فى الفناء. جابر، ضابط الأمير. قصر حجيلان. عبد الله شقيق الأمير. مواطنو بريدة؛ أفضلهم يؤجرون الإبل للقوافل. المآسى القديمة للأمراء. المدينة. أمسية مضطربة. السفر فى الغد إلى عنيزة. حفر الآبار. أشجار الإثل.

وصل فى صباح اليوم نفسه بدويان معهما أحمال من التمن (الأرز) على ظهور الإبل ؛ كان هذان البدويان قد أحضرا تلك الأحمال من العراق لكل من طُلّق ومطلق! كان البدويان من الشمّر، ويعملان حمّالان ضمن قافلة الحج التابعة لابن الرشيد. ورحت أعجب كيف استطاع هذان البدويان العثور على خيامنا بعد رحلة طويلة من هذا القبيل: وقالا لى: إنهما بعد أن تجاوزا حائل راحا يسألان عنا على النحو التالى، – 'أين ابن ناحال؟' – الإجابة:' سمعنا عن وجوده فى الجنوب الشرقى. – البعض يقولون: إنه انتقل إلى مسيرات عتيبة. – وعندما سألنا عنه آخر مرة، كان فى ذلك الجزء من البلاد، أى فى مسيرات عتيبة. – وقيل إنه ذهب مؤخرا فى اتجاه سليمة Seleyma . –

وسوف تجد أغرابه ما بين العلامات الأرضية الفلانية والعلانية. – إنه يرعى فى المنطقة المحيطة بجنة.' وبينما كانا ينزلان أحمالهما، وفد عليهما بعد غيبة طويلة بدوى غريب، ولكنه معروف فى هذا الفريج ،كان يركب ناقته: كان ذلك البدوى قد قطع ١٣٠ ميلا فى اتجاه الغرب لزيارة بدو البشر ، الذين تربى ونشأ بينهم؛ ولكنه يقيم مع بدو حرب فى الوقت الراهن. كان ذلك البدوى الغريب من الشمر، وكانت له زوجة هجرها وتعيش كأرملة فى منْزلنا: جاء الرجل إلى هنا لزيارة ولده الصغير. تشاور معنى مطلق فى استئجار ذلك البدوى الأمين لنقلى إلى القصيم. نادينا ذلك البدوى: – رد علينا ، والله، خشى ذلك البدوى من عبور بلاد مفتوحة من هذا القبيل، مخافة أن يستولى الغزاة العتبان على ناقته؛' ولكن مطلق أقنعه، بقوله إنه يستطيع أن يشترى بالأجر الذى سيحصل عليه، حملا من التمر (الرخيص جداً فى القصيم) ليأتى به إلى هنا إلى موطنه وأسرته. عرض ذلك البدوى نقلى إلى البكيرية el-Bukkerieh : ولكننا وافقنا على خمسة ريالات على أن يوصلنى إلى بريدة. قال الرجل الذى كان يدعى حامداً Hamed: "اركب!" erkub ؛ وقام البدوى بتحميل أشيائى، ثم ركب خلفى، – ومضينا قدما . قال طلُّق: الله يوصلك إلى نهاية رحلتك! الله، يكفيك الشر!"

كانت الشمس قد أشرقت منذ ثلاث ساعات: واجتزنا خلالها ساحلا من البازلت، نزلنا بعده إلى فريج جديد؛ كان فيه بيت حامد. ومن ذلك البيت أخذ حامد قربة الماء وحفنات قليلة من المريسى – كانت هى كل زاده طوال رحلة طولها يزيد على ٤٥٠ ميلا – ولم يقل لزوجته أكثر مما يلى:" يا امرأة، أنا ذاهب مع الغريب إلى بريدة." وأطاعته فى صمت؛ والشائع هنا أن البدوى لا يودع زوجته عند الرحيل: – "(قال حامد): أتسمعين؟ سيرى مع هؤلاء الأعراب لحين عودتى !" ثم حمل ولدها الصغير بين ذراعيه وقبله. – سرنا فى اتجاه الشمال فى بداية الأمر تحسبا للعتبان وخوفا منهم: الصحراء هنا من الجرانيت الذى يتخلله كثير من الصخور البازلتية سوداء اللون. كانت مسيراتنا بعد ذلك عامرة بمناظر الأعراب الذين ينتشرون هنا وهناك، وهم من بنى سالم salem ؛ كنا نرى خيام هؤلاء الأعراب سوداء اللون فى كل مكان وعلى كل جانب . كل هؤلاء البدو من قبيلة حرب كانوا يتجمعون فى اتجاه سميراء Semira ، فى ديرة الشمَّر،

حتى يتسنى لهم دفع الضريبة هناك، فى يوم محدد، عن طريق جباة الضرائب التابعين لابن الرشيد؛ نظرا لوجود الماء بصورة وفيرة لماشيتهم. تركنا العلامة الأرضية الخاصة بالبنانى Benany على بعد مسير نصف يوم فى اتجاه الغرب؛ وواصلنا المسير قدما على طريق وادى الرماح، – كان ذلك الوادى يقع على بعد أميال قليلة على الجانب الأيمن .قال لى حامد مشيرا إلى بعض الجبال البازلتية ،التى لم تكن تبعد عنا كثيرا: إنها تقع خلف ذلك الوادى : هذا الممر المائى الجاف يطوق ديرة حرب فى منطقة نجد؛ والأرض الواقعة خلف ذلك الوادى كلها تابعة للعتبان. التقينا أثناء سيرنا بقطيعين من الإبل؛ وحلب لنا الرعاة لبنا سائغا وتبادلنا معهم الأخبار. وعند غروب الشمس كنا نسير أسفل جبل منحدر من البازلت؛ وشاهدنا بقعة سوداء، فوق كثيب من الرمال المنجرفة؛ وكانت تلك البقعه السوداء عبارة عن خيمة من خيام البدو الرحل؛ ثم شاهدنا إبلهم بعدذلك ، وأدخل السرور إلى أنفسنا فى أعقاب التفكير فى حليب المساء." قال حامد: ألا ترى يا أنت ؟ الإبل هنا كلها ذكور! والدليل على ذلك أسنامها المنخفضة؛ – والسبب فى ذلك أن هذه الإبل تستخدم فى الحمل: والأعراب هنا يتركون النياق تسمن ولا يستعملونها فى الحمل.

شاهدنا المزيد من الخيام التى كانت مقدمة الجبال تخفيها عنا. وعندما نزلنا من فوق جملنا، تعرف علىّ أولئك البدو أيضا! – صاح وغد منهم (لقد سبق أن رأى الكافر فى حائل)،" أها! النصرانى !" هذه الكلمة بعثت البرودة فى قلبنا وفى قلوبهم.. هؤلاء القبليون كانوا من قبيلة حرب؛ كانت النساء هنا يرتدين خُزُمًا (*) من الفضة فى أنوفهن، – هذه الخُزُم لا تكون هنا كبيرة الحجم بين البدو . كانت تشيع هنا أيضا أخبار تلك الشائعة التى مفادها أن بن سعود هو والعتبان على وشك القيام بغزو، "وأن ذلك الغزو قد وصل أسوار بريدة." القسم الخاص بالرجال، فى هذه الخيام والذى لا يتعدى ثلث الخيمة، كان يوجد فى الجانب الأيسر من الخيمة ، المخصص للنساء ،

(*) خُزُمًا: واحدة 'خزام' وهو الحلقة من الفضة أو الذهب التى تضعها البدوية فى أنفها من قبيل التزين. (المترجم)

فى بيوت كل من العنزى والشمر فى نجد: هذا القسم يكون على الجانب الأيمن فى بعض الأحيان؛ وذلك فى خيام حرب فى منطقة نجد، ولكن هذا القسم يكون على الجانب الأيسر فى أغلب الأحيان؛ أما فى خيام الحطيم فيكون ذلك القسم على اليسار؛ وفى السواد الأعظم من بيوت البلى يكون ذلك القسم على اليسار. الأعراب هنا من النوع الكئيب غير المضياف؛

أخيرا أحضر لنا رب الأسرة سطلا من حليب المساء، وتركنا بكلمات مقتضبة. كانت دائرة العرض هنا٢٧) عند هذا الارتفاع الذى يقدر بحوالى٤٣٠٠ قدم، كان الليل، هنا فى منتصف شهر أبريل باردًا تحدث حامد معى، حول زيارة قرية الروضة فى الصباح، ولم تكن تلك القرية تبعد عنا كثيرا. سمعنا أن الكثيرين كانوا يموتون بسبب الحمى فى تلك القرية، بالرغم من عدم انتشار ذلك المرض، من قبل، بين سكان هذه القرية. خطر ببال حامد أنى يمكننى أن أبيع للقرويين فى هذه القرية بعضا من أدويتى؛ ورددت عليه،" سنذهب إلى تلك القرية، إذا لم يكن هو خائفا من ذلك :" ولكن بعد طلوع الشمس قال: " القرية ستكون بعيدة علينا."

مشينا قرابة ساعة أو ساعتين ، وتراءت أمامنا نهاية جبل سلمى Selma على الجانب الأيسر: " قال حامد: الجبل ينحدر إلى الأسفل ،إلى أن يصل إلى الروضة تقريبا. "وأخبرنى أن مستجدة Mustijidda قرية أصغر من تيماء Teyma . وانحرفنا عن طريقنا السابق لنتجه جنوبا : هذه التربة الصحراوية عبارة عن سهل غير مستو، فيه كثير من الأماكن الحجرية التى يطلقون عليها اسم سُمُت sumt ،التى لاقت أقدام جملنا المتورمة الأمرين فى المشى عليها. وعند دخول وقت الظهر تركنا البلزيه Bellez-zieh عن يميننا ، والبلزية هذه واحدة من مستوطنات زراعة القمح ولكنها ليس فيها أى شىء من النخيل. والبلزية هذه فيها خمسة منازل موزعة على قصرين، أو حوشين إن صح التعبير ؛ والكفر (الهجرة) الذى يقع فى الصحراء الشاسعة، لا يحميه من اللصوص سوى اسم بن الرشيد فقط (ذلك الاسم القوى الذى له وزنه) : هذه الأرض الواسعة خالية حاليا من الأعراب. وبعد العصر بفترة قصيرة وصلنا إلى حفر الماء

(آبار الماء) التى يطلقون عليها اسم الشبريَّة es-Shibberieh : وهنا نزل حامد عن الجمل وراح يجرى كى يملأ قربة الماء. ثقوب الماء هنا يصل عمقها إلى عشر أقدام فقط (وهى من ماء المطر العذب) ، وقد جرى حفر هذه الثقوب فى شعْب، تنساب فى وادى الرماح ." قال حامد: فتح ثميلة themila من هذا النوع – يحتاج إلى عمل رجلين مدة يوم واحد: يقوم أحدهما بالحفر مستخدما مشعاب فى حين يقوم الآخر بإخراج ناتج الحفر باستعمال يديه": – أسفل السطح الزلطى لهذه التربة توجد طبقة من اللهم (الغرين) الطرى . والأرض المحيطة بذلك الوادى الكبير عامرة بالمياه الجوفية التى توجد على عمق صغير؛ من هنا فإن حامد يمتدح ديرته بهذه الميزة التى لا توجد فى المناطق التى يتجول فيها البشر،" والتى يوجد فيها مراعى جيدة كثيرة، ولكن الماء شحيح ، وعلى أعماق كبيرة؛ ولكن فى ديرة الشمر هناك العديد من حفر الماء فى كل مكان، ومن هنا ينتشر الأعراب ويتفرقون على شكل أسر وعوائل دون خوف من العطش ."

عندما خلطت بالماء شيئا من المريسى رفض حامد السطل الذى قدمته له، قائلا أنه قد شرب بالفعل: ولكنى فهمت أنه تحاشى الشرب مع النصرانى ؛ وحتى عندما كنا ننزل عند أى أحد من الأعراب لم يكن يشرب مطلقا من السطل الذى يوضع أمامى . هذا الرجل المسكين صاحب الروح الطيبة، (وما أكثر أفراد هذه النوعية من البشر)، والذى كان يعانى من خلل بسيط فى ذهنه، ثقل عليه أن يعرف أنى كنت انتقد تصرفاته التى تشبه تصرفات أهل بلاد فارس ، والتى كانت مخالفة لتصرفات الناس فى الصحراء. – "قال: لكن آه! هيا بنا نعجل ونترك هذا المكان خوفا من العتبان ؛ هذه الأرض مفتوحة، وإذا ما مر علينا غزو الآن فسوف يكتشفون أمرنا." – سألته عن بلاد عتيبة الموجودة خلف الوادى ؛ قال: إنه سبق له الدخول إلى هذه البلاد أثناء قيام ابن الرشيد بغزوها . قال: إن بلاد عتيبة عبارة عن سهول رملية فيها مراعى جيدة، وفيها قمم صخرية مثل القمم التى أمامنا هنا، (وأن هذه القمم من الجرانيت ومن البازلت)، وأضاف أيضا: إن الأعراب فى تلك البلاد أثرياء من حيث قطعان الماشية. وقال لى أيضا إنه زار كلا من مسكة Miskeh وذرية Therrirh ، وهما مستوطنتان حرتان،

وفقيرتان ومفتوحتان أيضا أمام الجميع؛ ويقول البعض إن هاتين المستوطنتين تتبعان القصيم: وقد تهيأت لى الفرصة بعد ذلك للتجوال فى تلك المنطقة البدوية، التى ينزل فيها البدو المترحلين. حامد هذا شارك فى كل الغزوات التى قام بها الأمير: وحذا حذوه أيضا كثير من البدو الفقراء لكى يروا الغنائم التى سيعطيهم الله إياها؛ نظرا لأن أيدى الناس لا تصل إلى شيء عندما يكون أفراد الغزو بين نياق الأعداء، والماشية المبعثرة، والخيام المهجورة : وقد حصل حامد على الناقة التى نركبها حاليا بهذه الطريقة، ومن ثم راح يركبها بعد ذلك فى كل غزوة من الغزوات التى يقوم بها الأمير. لم يستطع أن يؤكد لى السلالة الأصيلة لتلك الناقه ، لأنه أخذها من الأعداء، علاوة على أن أحدا لا يعرف نسبها.

"تساءلت، ما رأيك ؟ أليس من الخطيئة أن يقتل الإنسان الناس وينهب أشياءهم؟" رد علىَّ حامد، مستسلما وموافقا بصفته مسلما على كل كلمة من تلك الكلمات الدينية ، "حسن – ، أنا أعتقد ذلك، وأنا أشكر الله لأنى لم أقتل إنسانا فى حياتى؛ أنا لم آخذ شيئا سوى الغنيمة." فى الحقول التى تكون من هذا القبيل، يتبعثر الكثير من نياق البدو ويضيع والناقة مخلوق غبى ، التى لا يربطها إحساس بصاحبها؛ وهو إذا ما استحثها ، فمن المحتمل أن تبرك منه على الأرض شأنها شأن الغنم، بل إن ذلك قد يحدث أثناء القيام بالغزو. وإذا ما هز راكب الناقة لجامها، فربما وقفت منه وراحت تنهق، والناقة قد تتصارع مع الإنسان عندما تولى الأدبار. بعض النياق عنيد، وقد تحمل من يركبها وتدخل به أرض العدو؛ يضاف الى ذلك أن أسرع النياق يتفوق الحصان عليها من حيث السرعة. من هنا فإن راكبى الخيول، بالرغم من تسلحهم بالرماح فقط، وبرغم من أنهم يركبون على ظهور الخيول بلا ركاب ، إلا أنهم لهم ميزة فى العمليات الحربية الصحراوية، يتفوقون بها على حملة البنادق الفتيلية الذين يركبون النياق وراكب الناقة المسلح ببندقية فتيلية إذا ما خلت بندقيته من الرصاص، واتجه صوبه خيال ليقتله، تعين على صاحب البندقية الفتيلية أن يلقى نفسه من فوق الناقة، على الأرض متخليا عن ناقته وتاركا إياها تذهب لحال سبيلها.

بدأ جبل الحبشى el-Hebeshy يتراءى لنا، وهو جبل بازلتى أسود طويل يقع خلف سميراء. – شاهدنا جماعة راكبة، تشبه طابورا من الخيالة كانت تتجه نحونا قادمة من الخلاء: كانت تلك الجماعة عبارة عن عشرين فردا من الصُلوبة كانوا راكبين حميرهم. وهنا تطوع حامد وبادر إلى ركوب الناقة ليلقى هؤلاء الناس طلبا لمعرفة الأخبار، ولكنى كنت أمسك بلجام الناقة فى يدى ومنعته من ذلك الذى ينتويه: وهنا نزل واحد من أولئك الصلبة عن حماره وجرى قادما نحونا؛ – صبى، حيانا بتحية لم أسمعها من قبل، الله ullah يعينكم Yayna-kam ، بمعنى' كان الله فى عونكم!' كان أولئك الصلبة يقومون بالسمكرة فى أنحاء قرية سميراء؛ وأبلغنا أننا سوف نعثر على الأعراب بعد تلك القمم. بمسافة قصيرة. مضينا قدما، وعندما مالت الشمس إلى الغروب، قال حامد:"لقد خدعنا الصلبى!" لأننا لم نر الأعراب إلى الآن. واعتبارا من هذا المكان راح حامد يرينى قمم أشجار الإثل فى منطقة سميراء : وبعد أن سرنا ميلين آخرين تراءى أمامنا منظر الفريج. كان ذلك الفريج عبارة عن مجموعة صغيرة من خيام بنى على، التى نصبها أصحابها أمام المستوطنة.

نزلنا عن الناقة، وتعرف الناس علىّ أنا النصرانى فى هذه المنطقة! تكلموا معى بطريقة جارحة فيها كثير من الغلظة؛ ولكنهم لم يكونوا بخلاء. وبنى على يَذُمهم بنو سالم على إنهم أعراب أفظاظ، وكفار أيضا؛ والسبب فى ذلك أن الكثيرين منهم لم يتعلموا الصلاة؛ كما أنهم جميعا لا يصومون شهر رمضان: بل إنهم يدعون أيضا أن بنى على ليسوا من سلالة قبيلة حرب . وبينما كنا جالسين حول وجار القهوة فى المساء، تراجع البدو فجأة، وهبوا واقفين على أقدامهم وتركونى جالسا؛ لأنهم جميعا شاهدوا ثعبانا صغيرا يتلوى بيننا: وهنا قام واحد منهم بتوجيه ضربة واحدة من مشعابه إلى ذلك الثعبان السام.

ركبنا ناقتنا عند طلوع الفجر وقصدنا قرية سميراء طلبا لتناول الإفطار . كان حامد قد قايض بندقيته أثناء الليل فى الخيام مع صبى، بنعجة وحمل يساويان خمسة ريالات؛ هذه البندقية الفتيلية قديمة الطراز لا تساوى أكثر من ريالين ونصف الريال،

وكان حامد قد حصل عليها من غزوة من الغزوات: كانت البندقية قصيرة أكثر من اللازم مما يوحى بانفجار جزء منها. وعندما واصلنا مسيرنا ونحن خائفين عبر الصحراء، قام حامد بوضع رصاصة مزدوجة فوق البارود القديم؛ ونظرا لأنه كان يتشكك فى انطلاق البندقية، فقد جعلته يشعل النار فى البارود ويقوم بتعمير البندقية من جديد. وأخذ حامد يقتاد ماشيته بطيئة الخطى، كى يبيعها فى المستوطنة: ولكننا لم نكن قد قطعنا مسافة كبيرة عندما لحق بنا ذلك الصبى الذى ندم على الصفقة. راح ذلك الصبى التعيس ينادى حامد، الذى راح هو الآخر يسرع الخطى؛ ولكن الصفقة التى تتم بين السكان غير العادلين فى الصحراء لا يسرى مفعولها إلا بعد انقضاء اليوم الثالث عليها. رد عليه حامد بكلام معسول ولكن الصبى صاحب القلب المكلوم بدأ يوبخ حامد وأعاد إليه بندقيته. وهنا تلقى حامد بندقيته مرة ثانية، بسرور بالغ؛ أخذ الصبى غنمه، وراح يقتادها إلى محل إقامته. وهنا بدأت الشمس تشرق أمامنا فوق جبل الحبشى.

قرية سميراء الصغيرة القديمة ليست سوى مسوَّر (قصر) من المنازل داخل سور عال له أبراج من الطين؛ هذه القرية تبدو من بعد كما لو كانت قلعة منعزلة فوق الجانب الصحراوى من الأرض. يوجد فى هذه المنطقة أيضا مسوران آخران صغيران (قصران). هذه المنطقة الصغيرة لا تغطى أكثر من فدانين على أكثر تقدير؛ والبوابة لا تعدو أن تكون مجرد باب فى الجدار على الجانب الأيمن، وخارج ذلك السور يوجد مجرى سيل جاف تتصرف فيه أمطار الشتاء. والأرض المنزرعة من قرية سميراء، تقع خلف ذلك السور وهى أرض جرداء لا تسر الناظر إليها، والأرض هنا لا تطل على أغصان النخيل التى تسر الخاطر! هذه الأرض لا تستعمل إلا فى زراعة الحبوب فقط: وقد شاهدت حقول القمح أثناء نضج المحصول المكون من القمح والشعير عندما كانا جاهزين للحصاد. والإبل لا تستطيع الدخول من باب البلدة؛ ولذلك لم أكن راغبا فى ترك حاجياتنا خارج السور، على مرأى من الأطفال الذين يلعبون ؛ ولكن حامد قال: إن هذا المكان هو المنُوخ (أى مبرك الإبل) وأن الأشياء ستكون فى مأمن ولن يلمسها أحد من الأطفال. – جلسنا ننتظر ذلك الذى يمكن أن يأتى إلينا ويدعونا لتناول الإفطار .

لم يحدث أن وصلت إلى منْزل من منازل البدو الرحل دون إحساس بالبشر والسرور، ولكنى لم أدخل قرية صحراوية فى حياتى دون أن يكون قلبى مكلومًا؛ ونحن نبحث عن مضامين القرآن، وأخلاقيات الفلاحين غير السليمة، والكرم الجارح . قال لى حامد، إن المكان هنا فيه ثلاثين بيتا ويسكنه حوالى مائة نسمة؛ والقرويون هنا يطلق عليهم اسم الشبرامى es-Shubramy ، وهم من بيت الشيخ راشد Rashid الشبرامى es-Shubramy : وأنهم ينتمون إلى قبيلة بنى تميم العريقة واسعة الإنتشار فى منطقه نجد.

جاءنا أحد الرجال؛ وبعد تبادل السلام اقتادنا لشرب القهوة. مررنا على بعض الطرق الطينية إلى أن دخلنا غرفة القهوة؛ التى كانت مجرد ملجأ ضيق مصنوع من جريد النخل المحمول على جدران من الطين. ولم يكن بداخل تلك الغرفة سوى قلة قليلة من الناس؛ الذين كانوا متكئين على أكواعهم، فوق الأرض الطينية، ظلوا صامتين طوال الرشفة الأولى والرشفة الثانية: وبنى تميم مخلوقات ثقيلة وغير متحضرة . واصطحبنا مضيفنا بعد شرب القهوة لتناول الإفطار، فى منزله؛ وقدم عشرات الأعذار لأنه لم يقدم لنا سوى شىء من التمر فقط، الذى جاء به من الجبل وعندما سألته عن سبب عدم وجود مزارع للنخيل فى بلدهم ؟ وأن الماء قريب جداً ، إلى حد أن النباتات الصغيرة إذا ما امتدت جذورها نحو الأسفل فى اتجاه الرطوبة لا تكون بحاجة إلى الرى بعد انقضاء السنوات الأولى؟ أجابنى ، النخل لا يجود هنا.' التربة فى بلدة سميراء من النوع شديد الحلاوة، كما أن الماء الجوفى هنا هو من ماء المطر النقى.

وهذا هو حامد الذى أخذ منى قطعة من الذهب فى البداية، يأخذ هذه القطعة ويذهب بها الى المستوطنة، ليرى إن كان يمكن له استبدالها بعدد من الريالات. ورد مضيفنا ، "إنها تساوى الكثير أيها البدوى، وفى القصيم تساوى أكثر مما تساويه هنا؛ والذى لا شك فيه، – أن هذا هو خليل. " نظر إلىَّ الرجل الطيب، واتضح لى أنه يعرفنى؛ ولكنه بلغ من الأمانة حداً جعله لا يكشف عن ذلك أمام الناس أو يضايقنى فى هذا المكان. قال لرفيقى:" هل تعرف من يكون هذا الرجل؟" ورد عليه حامد عابسا،"

إى! – واحفظ هذه النقود أيها المضيف، إلى أن أعود إليك مرة ثانية." العرب أصحاب شراهة شديدة؛ وعهد حامد بذهبه إلى رجل غريب فى غير وجود شاهد! ولكن أغلب الظن أن تلك الوديعة سوف يحفظها المتلقى المسلم ويصونها ، كى يعيدها إلى صاحبها. هذه الوديعة قد تصبح إرثا، – ثم توضع كى تعطى للورثه [راجع سفر الخروج ٢٢ الآيه ٧ وما بعدها] . سألت مضيفنا عن الأثار الموجودة فى هذا البلد،" أجابنى، "هذا البلد كله، كان فى الماضى ديرة dirat للرولة! Ruwalla" وقد سبق أن أوضحنا أن أولئك الرولة كانوا من أعراب المدينة المنورة فى يوم من الأيام! [ص ٢٠٥] ، – ولكن مضاربهم الحالية موجودة فى أقصى الشمال، أى على بعد مسافة ٢٠٠ ميل عن هذا المكان. طلب منى مضيفى إعطاءه دواء لولده؛ وهنا بدأت أفرح من جديد،من منطلق أنى لدى ما يمكن أن أقدمه هنا.

تعد قرية سميراء، التى تقع فى الممر ما بين جبل شمر والحجاز محطة رئيسية من محطات السقيا والتزود بالماء. وسرعان ما يصل بدو سالم أو إن شئت فقل: بنى سالم، إلى هذه المحطة لكى يجرى تحصيل الضرائب المطلوبة منهم. بقاء البدو بصحبة ماشيتهم قد لا يستمر سوى ساعات فقط؛ ويجرى تحصيل الضرائب وجبايتها، بواسطة البعثة العربية خلال جزء من اليومين. ولكن كيف يستطيع جباة الضرائب جمع هذا العدد الكبير من الأعراب والسيطرة عليهم كل عام؟ ولكن خوف الأعراب من ابن الرشيد هو الذى يجعل مثل هذه الأعمال تتم فى يسر وسهولة. – والشيوخ يحضرون عملية الجباية هذه ليبتوا فى الأمور ، وكل من يخدع الأمير يعرض عنقه للخطر. وبنو على يجرى تحصيل الضرائب منهم فى مسقى الفعارة Fuara ، الذى يبعد مسافة رَحْلَة" واحدة شرقى مسقى سميراء، أى بالقرب من وادى الرماح. فى الفعارة توجد مجموعة من الآبار والعيون، كما توجد أيضا بعض أراضى زراعة القمح، ولا يوجد سوى قصر واحد فى هذه المنطقة يعيش فيه قروى مغامر من قرية المستجدة، والذى عقد العزم على فلاحة أرضه وريها خلال موسم الربيع: ولكن حاله لم يتحسن تحسنا كبيرا. عيون الماء قليلة جداً فى الأراضى المرتفعة من الجزيرة العربية، إلى حد أن الناس يقولون: إن هذه العيون المائية تكاد تكون معدومة. وبعد أن عدت من تلك الأسفار

إلى دمشق ، قمت بزيارة للأمير عبد القادر (الذى كان ضليعا بين فقهاء المسلمين، فيما يتعلق بالتراث العربى وأمور الدين) ؛ وهنا وجه إلى ذلك النبيل الجزائرى السؤال التالى،' هل كانت هناك عيون كثيرة [فى تلكم الأراضى التى زرتها أنا فى الجزيرة العربية] يسقى الأعراب منها قطعان أغنامهم وماشيتهم؟' وتعجب هذا الرجل عندما قلت له: إن تلك العيون تكاد تكون غير موجودة! وعندما قلت له أيضا: إن مياه الصحراء (ومياه الواحات) يجرى جلبها من الآبار.

وجدنا الناقة والزكائب والجوالات ، عند باب القرية، فى المكان الذى تركناها فيه: كان الارتفاع هنا حوالى ٣٩٠٠ قدم. وهنا بدأنا نتجه صوب جبل حبشى : - وبعد مسير ساعة واحدة رحب بنا صوت من بين الأدغال! كان هناك رجل ومعه ناقته على مقربة منه. وهنا صاح حامد مناديا مرة ثانية،" أوه! ألا تريد أن تعرف الأخبار ، تعال إلى هنا !" - ثم نزل عن الناقة، ليعرف مقصد ذلك الرجل، الذى راح يحدث لنا بعض الإشارات؛ فى حين سرت أنا ببطئ فى اتجاه الجبل. وبعد حوالى نصف ساعة شاهدت رجلين يسرعان قادمين من خلفى وراكبين على ناقة من النياق: خطر ببالى أنهما ربما كانا لصَّين، وهنا وضعت سلاحى فى وضع الاستعداد، - إلى أن بدأت أتبين صوت حامد وأتعرفه. الرجل الثانى مع حامد، هو ذلك الرجل الذى كان يصلِّح القهوة بالقرب من أحد الأدغال عندما مررنا عليه؛ ولم يفعل شيئا سوى أن نادى علينا لنشرب معه القهوة. هذا الرجل المحترم، واسمه تركى، كان تاجرا من تجار الماشية (أو إن شئت فقل وسيطا بين البدو والقصابين) فى المدينة المنورة: وهو بالرغم من إقامته فى المدينة المنورة ينتمى إلى قبيلة حرب. ومع دخول فصل الربيع، كان يأتى إلى هذا المكان لابتياع الأغنام . كان رجلا متقدما فى السن، وكانت خفة ظله تتسم بانحرافات العرب . حملق ذلك الرجل فى وجهى وأطال النظر إلىَّ ؛ والسبب فى ذلك أنه مر على ابن ناحال بعد رحلينا بيوم واحد وسمع منه عن النصرانى: ثم وصل إلى هذا المكان قبل أن نصل نحن إليه والسبب فى ذلك أننا مشينا على شكل دائرة فى اتجاه الشمال. سألنى تركى،' هل أنا بحق ذلك الذى يسمونه النصرانى؟' (هذا الاسم الملئ بالمضايقات والإزعاج)! ثم أجاب هو نفسه على السؤال مغمغماً،' لا يمكن أن أكون أنا

ذلك الرجل، لأنى أنا رجل مسالم؛ يضاف إلى ذلك أن حامد ذكرنى أيضا بالخير.' – ولكن هيا بنا، نضبط الخطى كى نمضى فترة الظهيرة مع بعض الأعراب، الذين يقال: إنهم نصبوا خيامهم فى المنطقة التالية." مشينا ثلاث ساعات ثم نزلنا عن إبلنا فى المنْزَل الذى يقيم فيه أولئك الأعراب. وهنا كنت مصمما على القيام بالرحلة التى حددتها لنفسى . – هؤلاء الأعراب لم يكونوا محبوبين أو بشوشين. [وبدو نجد بالرغم من ملامحهم السمراء، تزداد سمرتهم بفعل الدخان والأقذار – وبخاصة أيديهم التى تشبه أيدى الزنوج: ولكن بشرتهم التى لا تشويها الشمس تميل إلى الابيضاض] .

عندما استأنفنا المسير ثانية سألت الرفاق ،" هل كان هؤلاء الناس من حرب أم من الصلبة؟" وأجابونى وهم يضحكون،" إنهم من قبيلة حرب ، من بني على؛ – خليل يعرف كل شىء! إنهم ، والله، يشبهون الصلبة." وعندما استدرت وأنا فى عدة (سرج) الناقة، جفلت الناقة من تحتى، وانطلقت بسرعة جنونية: وقبل أن أتمكن من التحكم فيها طرت فى الهواء، وسقطت على ظهرى فوق أرض رملية؛ – والويل كل الويل لمن يسقط هذه السقطة على أرض من الحجر! لقد شاهدت بعض البدو وهم يتشوهون تشوها قاسيا بفعل سقطة من تلك السقطات فوق أرض حجرية. كانت تلك رذيلة من رذائل ناقة ذلك الرفيق، ولكنه لم يحذرنى من ذلك ؛ والصحراء فيها الكثير من النياق المتوحشة مثلما فيها الكثير أيضا من الأغنام المسالمة. وأنا عندما سقطت من فوق الناقة كنت حريصا على البارومتر الذى أقيس به الارتفاع؛ ومن باب الحظ الحسن، لم يهتز ذلك البارومتر الذى كنت أمسكه فى يدى. وهنا جرى حامد، وعدا تركى بناقته السريعة وتجاوز الناقة الهاربة؛ ونزلنا مرة ثانية . مشينا مدة ثلاث ساعات أخرى ، وصلنا بعدها إلى فريج آخر من فُرُج قبيلة حرب، ونزلنا فى ذلك الفريج لقضاء الليل: وهنا عثر تركى علىٌ بعض معارفه؛ وهنا أصبح النصرانى غير معروف للناس.

والبدو يشبهون نار المساء عندما تبدأ الشمس فى الغروب . كان تركى واحداً من هؤلاء الأعراب، الذين يوحى محياهم بالضعف ، وهم متيمون بالقهوة، إلى حد أنهم لا يعدون أى يوم من أيام حياتهم، إذا لم يشربوا القهوة بواقع مرة واحده كل ثلاث

ساعات. ولو قدر لتركى أن يترك فى أرض المسيحيين لبقى كل يوم مخمورا على مقعده فى خمارة القرية. هذا البدوى لم يكن يركب الناقة إلا نادرا؛ وكان حمله لخرجه ذو الشراريب أقل بكثير من حمله لطاسة تحميص البن، ودلة القهوة، والصندوق الذى يحتوى على ثلاثة فناجيل، والهاون ويد الهاون المصنوعين من النحاس الأصفر، علاوة على سطل من الخشب كان يستعمله خصيصا فى شرب الماء: لم يكن معه أى شيء من الطعام كى يتزود به أثناء السير على الطريق، وكان يتطلع دوما كل ليلة إلى تناول العشاء مع الأعراب. أما فيما يتعلق بالملابس فلم يكن مع هذين الرفيقين أى شيء منها باستثناء تلك الملابس التى كانا يرتديانها ؛ وعندما يصل الواحد منهم إلى مصدر من مصادر الماء يبادر بغسل ملابسه، ويستر نفسه بعباءته (بشتة) المصنوع من الصوف الخشن، إلى أن تجف ملابسه بفعل حرارة الشمس . هذا هو ذلك المحترف، قد أخرج عدة القهوة؛ وقد وضعها منظمة حول الوجار، ثم قال: "من من الحاضرين هنا معه شيء من البن؟" وهمست له قائلا: إن هؤلاء أناس فقراء وليس لديهم أى شيء من البن." قال: انتظر! وسوف ترى بعينك: " – وفى الحال، جرى إحضار حفنة من حبوب بن [جنوب الجزيرة العربية] من خيمة من تلك الخيام الفقيرة! وما أن وضعنا الدلة على النار، حتى انهال علينا منجذبا إلى النار ، جحفل من الخنافس صفراء اللون، التى جرى ضربها، لتسقط بعد ذلك فى حفرة النار. دافع تركى عن دلة القهوة دفاعا مستميتا لفترة وجيزة؛ ثم سحب الدلة على جنب وقال متعجبا:" انتبه، يا خليل! النصارى سوف يسقطون فى النار بهذه الطريقة ؛ لأن النار هى مثواهم، وهكذا سيكون مآلهم فى جهنم ،الله يحرقهم ! ولكنى أعتقد أنك بكل تأكيد لست واحداً منهم؛ إخ! يا خليل ، قل إنك لست نصرانيا! " – كان الشيء الوحيد الذى قدمه لنا الضيف فى تلك الليلة يتمثل فى صب شيء من حليب النياق لنا؛ وكان نفاق حامد يتمثل فى التعفف: وهنا قلت له أمام الجميع،" قل له: يملأ سطلنا! – ولا داعى للمجاملات التى لا وزن لها ." وهنا رد على حامد مغمغماً، "عاداتكم ليست مثل عاداتنا."

ركبنا نياقنا بعد طلوع النهار وركب معنا تركى أيضا. وخلف جبل حبشى دخلنا إلى سهل واسع كبير يمتد فى اتجاه الأفق. لم يسبق لى رؤية سهل واسع من هذا

القبيل منذ أن غادرت سوريا؛ والسبب فى ذلك أن منظر أرض السهل فى نجد يكون محاطا من جميع الاتجاهات تقريبا بالجبال والمرتفعات . كانت العلامات الأرضية الدالة على المسقى، الذى يطلقون عليه اسم الغريمر Ghraymar تبدو لنا كما لو كانت مرتفعات تشبه الأهرامات ، من الحجر الجرانيتى ، ولكنها تبدو سوداء اللون بسبب ظل السحاب المنعكس عليها. هذه الأرض المستوية التى يطلق الناس عليها هنا اسم فويليق Fueylik تستمر اعتبار من هذه المنطقة إلى أن تصل إلى نفود القصيم، وهنا كان رفاقى أيضا يخشون الغزو المحتمل ويتخوفون منه . تركى : يا خليل أنت تركب معنا بلا خوف أو قلق! ولكننا إذا ما التقينا الغزو فسوف أهرب أنا وحامد على هذه الناقة، ونتركك على الناقة التى تركبها ، وسوف يأسرك الغزو." كانت قد سقطت على هذه المنطقة زخة من زخات أمطار شهر أبريل كانت.تتبدى لنا خيوطها فى ضوء الشمس كما لو كانت شعرات ذهبية اللون ؛ وتركت أرض الصحراء على مشاعرنا أثرا جميلا بفعل حلاوة الخضرة الحلوة التى ظهرت فى إثر سقوط تلك الأمطار. وعندما اقتربنا من الصخور، شاهد رفاقى الماشية الكبيرة، وحسبوا ذلك غزوا فى منطقة السقيا! وبعد ذلك اتضح لنا أن تلك كانت مجرد قطعان من إبل الأعراب: كانت هناك مئات من الإبل الواقفة بعيدا عن بعضها البعض ، أو الباركة بالقرب من أصحابها، وكانت هذه الإبل كلها تنتظر الدور كى تشرب وترتوى. كانت تلك عبارة عن رحْلة، وكانوا أولئك أناس (من قبيلة حرب) يسقون ماشيتهم بعد أن وصلوا إلى منتصف هذه الرِّحْلة. كانت هناك بعض أمتعتهم المنزلية بعد أن أنزلوها عن إبل النقل؛ كانت بنات حرب يركبن على الإبل الأخرى، فى السلال التى تعلق فى سُرُج الإبل، – تلك السلال كانت مزينة بقماش ملون وخيوط طويلة وشرائط طويلة مصنوعة من جلد الإبل . فى القبائل التى سبق لى التعرف عليها. هذه الأبهة تكون من فعل ربات بيوت الشيوخ؛ ولكن هؤلاء الأعراب الذين نحن نراهم هنا من بنى سالم، – وبنو سالم هؤلاء أناس يتجولون بين البدو الرحل وهم مرتدين أحلى ملابسهم . ويبدو أن كل واحد من بنى سالم هؤلاء كان عطافة Atafa [انظر الجزء الأول، – أو إن شئت فقل عطيفة Ateyfa] ، – والعطافة أو العطيفة هى تلك الحدائية التى تتغنى من سلتها بألحان القتال ، بصوتها العذب

لتوقد قلوب شباب القبيلة أثناء القتال، (والأعراب حساسين لهذه المسألة إلى حد بعيد).
- إذ يرى كل واحد منهم هذه الحدائية وكأنها زوجة له، وهى بلا حجاب كما لو كانت فى يوم عرسها! - والعطافة أو العطيفة تكون واحدة من بنات شيخ من الشيوخ؛ ولكن حامد قال: إنها يمكن أن تكون مزعونة (*) mezuna أخرى: وقد جرى العرف ألا تقتل العطافة؛ ولكن عندما تتطاير الطلقات، قد يسقط الجمل الذى يحمل العطافة أو يفر هاربا، وهنا يتهدد الخطر حياة هذه الصبية. كانت قطعان الأغنام راقدة فى مجرى سيل جاف، تنتظر الشرب من الماء؛ وكانت حمير الرعاة تقف إلى جوارهم.

بئر الصحراء، الضخمة الذى له فتحة مربعة الشكل، مبطنة من الداخل بأحجار البازلت المرصوصة بالطريقة الجافة؛ كان عمق البئر إلى سطح الماء يقدر بحوالى ثلاث قامات. كانت الإبل الواقفة أمام الغدران، تدوس على روث له رائحة نفاذة، وتحاول طرد الذباب الذى كان يحط عليها. كان هناك حوالى عشرين من البدو يرتدون قمصانهم الطويلة ويتحلقون حول أضلاع البئر الأربعة، وهم يتغنون بصوت مرتفع، ويتصببون عرقا فى ضوء الشمس. وفى وسط الماشية شاهدت قلة قليلة من الشيوخ ومعهم أفراسهم؛ وكانت كلاب مخيم أولئك البدو الرحل ترقد وهى تلهث فى الظل الناتج عن الجمال الطويلة؛ وكنا نحن الغرباء نمر عليها دون أن تتحدانا أو تعترض طريقنا! هذا هو شيخ من الشيوخ، كان يقف بالقرب منا، يتناول سملّته (قربته)، ثم يتناول سطلا، ويروح يصب لنا شيئا من اللبن. هذا شيخ آخر يسألنا عن المكان الذى ننتوى الذهاب إليه، ويقول: "سوف يرافقنا فى الغد [الذى يطلقون عليه اسم الجبيلى el-jabily]، إذا ما بقيت اليوم معه فى خيمته . - انتبه أيضا لأن المطر يشكل خطرا، ونحن أيضا سوف ننصب خيامنا بعد هذه المنطقة بمسافة قصيرة." حامد: "والله، يحتمل ألا أنتظر؛ لأن صدرى ضاق وأود العودة إلى موطنى ثانية." - لم أكن معروفا لأى أحد من هؤلاء الأعراب .

(*) مزعونة بمعنى جميلة فى لغة البدو . (المراجع)

رحلنا عن المكان ولكن تركى بقى هناك. كانت الصحراء بعد هذه المنطقة عبارة عن سهل زلطى وسيع: كان هناك منخفض عن يميننا؛ وأسفل هذا الجبل كانت هناك هجرتان (قريتان): قرية مخول Makhaul (وهى قصر من قصور زراعة القمح) وقرية عُثيم Autheym ، وكان عدد البيوت فى هاتين القريتين خمسة بيوت. وفى أواخر فترة العصر تساقطت بعض قطرات المطر من السحاب المنخفض؛ وبعدها هطل علينا مطر غزير بصورة مفاجئة، كان سقوط المطر شديدا وصوته واضحا وهو يصطدم بالأرض الزلطية، إلى حد أن السهل كله أصبح يفيض خلال لحظات قليلة. وبقيت الناقة التى كنت أركبها ثابتة ومتحوطة لعاصفة البرد. وسرعان ما سرى البلل خلال عباءاتنا المصنوعة من الصوف الخشن؛ وهنا بدأنا نبحث عن ملجأ لنا أسفل بطن الناقة.

وبعد حوالى نصف ساعة انتهى ذلك الحال السيئ؛ وهنا ركبت الناقة مرة ثانية. وبدأت أشاهدّ الطيور الصغيرة، التى لم أراها من قبل وهى تطير فرحة فوق سطح الصحراء المبلل بالماء. وهنا ظهرت الشمس، ومن بعدها ظهر منظر يشرح الخاطر ويسر النفس ! ظهر أمامنا قوس قزح ثلاثى (الصورة رقم ٦) مرسوم فى الهواء من أمامنا! فقد كان هناك قوسان ومن فوقهما قوس ثالث يرتكز على نهايتى القوس الأول؛ ويشبه القوس الأول أيضا فى تدرجه اللونى. – هذه الأقواس هى بمثابة الأقواس السماوية لتركيبة الشمس، وهذا القوس يوحى بهدوء السماء بعد المعركة التى دارت بين العناصر فى أرض الجزيرة العربية الصحراوية.

غربت الشمس فى عتمة متدرجة تحولت إلى ليل دامس على وجه السرعة. واصلنا مسيرنا على أمل الالتقاء ببعض الأعراب، وكان المطر القليل يتساقط علينا بين الحين والآخر. كان البرق يظهر على الأرض من أمامنا، ولكن بلا رعد؛ وكان البرق ذو العرف الطويل يظهر أمامنا فى الأفق معلقا، مدة لحظات، على امتداد الأفق الواسع؛ كانت هناك ومضات أخرى طويلة تندفع نحو الأسفل على شكل سلاسل مزدوجة من البرق والضوء. الشكل العام لكل هذه الأنواع من البرق كان يشبه مجرد شعرة واحدة من الصوف سقطت فى الماء. – كنا بين الحين والآخر نسمع زئيرا خافتا وليس عاليا

للرعد. ثم شاهدنا بعد ذلك القمر الجديد، الذى يبلغ من العمر يومين، شاهدنا القمر وهو يغرب . والناس هنا يحيون ظهور الهلال بتحية دينية، هنا فى صحارى الجزيرة العربية، وقد حيينا القمر، نحن جوّالى الليل المساكين، بالتحية نفسها؛ كان ذلك اليوم، على حد علمى، يوافق اليوم الثالث والعشرين من شهر أبريل. واصلنا بحثنا عن نيران البدو، وسمعنا من حولنا صراخا لطيور لم أعرف ما هى. أخيرا هيئ لحامد أنه شاهد وميض نار للحراسة. واصلنا مسيرنا وكنا نشاهد ذلك الوميض من حين لآخر، وفى بعض الأحيان الأخرى كان ذلك الوميض يختفى عن أنظارنا بفعل أرض الصحراء غير المستوية. كان ظلام الليل دامسا، الأمر الذى أدى إلى تعثر الناقة، فضلا عن أننا لم نتمكن من رؤية الأرض. أما حامد، الذى يندر أن يخطئ علامة من العلامات، فقد بدأ يتخوف من احتمال سقوطنا من مكان عالٍ إلى آخر منخفض: ولذلك قال: إنه لن يستمر فى مغامرة من هذا القبيل. لم يكن معنا ما نأكله، وبعد أن نزلنا من فوق نياقنا وقد ابتلت ملابسنا، جلسنا فى المطر بجوار الناقة؛ ولكن هدأ هبوب الريح مما جعلنا نروح فى سنة من النوم.

طلع نهار الغد علينا وأصوات الطيور العذبة تتردد من حولنا، كما لو كنا فى بلد من بلاد الشمال! جففنا ملابسنا، وأصبحت خفيفة على ظهورنا، وكنا قد تخطينا ذلك الظرف السيئ. بعد أن قطعنا مسافة ليست بالقصيرة شاهدنا الخيام أمامنا على بعد ميل تقريبا، كما شاهدنا أيضا بعض الإبل التى كانت ترعى. ومع هذا المنظر الإنسانى المبهج رحت أستحث الناقة كى تعدو، وهنا راح حامد يتغنى بأغنية السرج بصوت عال. جاء بعض هؤلاء الأعراب – وقد كانوا من بنى على – للقائنا؛ لأنهم عندما شاهدوا خرجى أحمر اللون المصنوع من صوف السجاد، حسبوا أنى واحد من أولئك السماسرة [وهم هنا يقولون للسمسار مشوَّم mushowwam] الذين يجيئون من البلاد المجاورة، ويترددون على بلادهم بين الحين والآخر لشراء الإبل . وعندما وصلنا إلى أولئك الأعراب، قال أحدهم لزميله، "ألم أقل لك إنه كان مثلما قلت؟" ورد عليه زميله، "إى، أنا عرفته من النظرة الأولى." نزلنا أمام خيمة وأنزلنا أشياءنا؛ واقتادنا أولئك الذين كانوا يقفون بجوارنا إلى بيت الشيخ. "قالوا: قهوة الصباح جاهزة؛ هيا بنا،

لنشرب القهوة وننعش أنفسنا، وتحكوا لنا الأخبار." وهنا أطلق حامد ناقتنا لترعى؛ ثم اتجهنا صوب المقهى. – وهنا بدأ يظهر علينا رب البيت الذى وقفنا أمام خيمته، ثم أقبل علينا لتحيتنا: عدنا مع رب ذلك البيت لتناول الإفطار ، ثم نلنا هناك قسطا من الراحة. كان ارتفاع هذا السهل يقدر بحوالى ٣٤٠٠ قدم.

كل أولئك الأعراب سبق لى التعرف عليهم، وهم جماعة مرحة من الناس الأشقياء، الظلمة، الخرافيين والمتشددين أيضا. وبالرغم من أن بنى على يلومهم الناس ويصفونهم بالكفر، وبخاصة من قبل أفراد قبيلة حرب الموجودين فى ديرة المدينة المنورة، إلا أن هؤلاء البدو الذين يقيمون فى هذا المنزل كانوا كملاً – أكثر من القبليين الذين يعيشون فى الخلاء (الصحراء)، وذلك فيما يتعلق بالالتزام بالدين والحفاظ عليه. السبب فى ذلك، أن الشمس عندما كانت فى وسط السماء، وقف واحد من أولئك الرجال الصحراويين وتقدم نحو الأمام [ولم يسبق لحامد، الذى سبق له أن كان مواطنا فى ثلاث من القبائل الكبيرة، أن رأى مثيلا لذلك الرجل بين البدو] ليقوم بدور المؤذن muethin ! وعندما وصل إلى نهاية الأذان، الصلاة es- salat والسلام es-salam Wa عليك aleyk ، ياأول Yaauwel خلق Khulk وخاتم Khatim رسل rusul الله Illah ، تجمع هؤلاء الناس الصحراويين خلفه فى صف واحد ؛ وراحوا يركعون ويسجدون ويحمدون الله! الدين الذى فى هذه البلدة، كان بلا أدنى شك تقليدا للدين السائد فى القصيم القريبة من تلك البلدة، والقصيم هذه واحدة من البلدان الوهابية. – قالوا أيضا صلَّ Sull يا ya ، تعال taal صلَّ Sull ، بمعنى 'تعال يا أنت وصلَّ !" ولكنى اعتذرت، وانسحبت من بينهم. لم يغب عن بالى مطلقا، ألا أكون موجوداً وقت إقامة الصلاة بين هؤلاء العرب المتشددين. – ابتعدت عنهم مسافة نصف ميل على الرمل الحار، وجلست فى ظل دغل ؛ ولكنى لم أغب عن أعينهم التى تشبه أعين الصقور: لأنى عندما عدت إليهم ، قالوا: ' الغريب لم يُصلِّ؛ وآهٍ! وهو لا يمكن أن يكون مسلما!' وهنا حدث بينهم نوع من الهياج.

تناولت الطعام فى خيمة من الخيام، وكنت أجيب على تساؤلاتهم بإجابات قصيرة، "ما الداعى إلى هذه الأسئلة الكثيرة، أيها الأصدقاء ؟ أنا نصرانى." "قال بعضهم

للبعض الآخر: لكن كيف! يمكن أن يكون هناك فى هذه الدنيا، أعمى، لا يعبد الله؟" أطالوا النظر إلىّ، وسألوا رفيقى، "كيف حال الرفيق؟ كيف تثق أنت نفسك بوجودك معه؟ رجل وثنى!" رد عليهم حامد معتدلا، 'كان خليل رفيقا طيبا، وإنه سمع خيرا عنه بين الأعراب؛ وفى كل مرة كان خليل يتكلم فيها عن الدين، كان يبدو كما لو كانت تربطه رابطة صحيحة بالله (سبحانه وتعالى)؛ يضاف إلى ذلك أن جرس كلماته كان قريبا جداً من جرس كلام المسلمين الدينى." وبهذه الطريقة أمكن مهادنة بنى على من منطلق أنى رحّال، ويجب عليهم ألا يضايقونى؛ وهنا ردوا "إن شاء الله سوف أبقى فترة قصيرة فى منطقة القصيم المتفقهة فى الدين، إلى أن يفتح الله لى طريقى وينورنى !' وقالت النساء الطيبات فيما بينهن: ود Widd الغريب el-ghraib بلده beledhu . وعندما وقف البدو على حياتى البدوية المترحلة، تساءلوا ، هل كل أهلى كانوا من البدو؟'

فى منتصف فترة العصر، قرر حامد المضى قدما ثانية – وترتب على ذلك تمضية ليلة أخرى فى الخلاء (الصحراء)! حدثت لنا بالأمس نوبة شريرة، واتفقنا على إثر تلك النوبة – أننا إذا ما عثرنا على الأعراب فإن ذلك يمكن أن يكون يوما من أيام الراحة. ولكن حامد تكلم ملتمسا العذر لنفسه،' أن صدره ضاق، إلى حد أنه يتشوق للعودة إلى موطنه مرة أخرى!' – "هذا هو الربع الأخير من اليوم؛ وهذا هو السحاب المنخفض ! أين فهمك ؟" أجابنى قائلا: ' لو قدر لى البقاء، فإنه سوف يتخلى عنى؛' ثم ذهب ليأخذ ناقته: ولكنى اكتشف أنه بقى عندها ليرعاها. قال البدو لنا: إن هناك أمامنا فريجا من" الأعراب الطيبين"؛ الذين تسلموا مؤخرا تموينهم الصيفى من الأرز الذى يأتى من العراق، وبالتالى سيكون بوسعنا تناول العشاء معهم . أشرت إلى حامد ليعود إلىّ ومعه ناقته . – ثم ركبناها وسرنا مدة ساعتين: ووصلنا إلى ذلك المنزل، عند غروب الشمس ولكننا عندما لم نجد أحداً من الرجال فى الخيمة الرئيسية، نزلنا بعيدا عنها بمسافة قليلة وجلسنا على الأرض. وفى الحال، جاء إلينا رب البيت الذى كان واحداً من الشيوخ، وكان بصحبته بعض الرجال، الذين جاءوا من خيام بعيدة عن الخيمة الرئيسية، يضاف إلى ذلك أن تلك الخيام البعيدة لم يكن عددها يتجاوز ثلاث أو أربع خيام؛ وقفوا للحظة ليتحققوا من هويتنا !ثم أقبل الشيخ علينا وهو يقول: "ما الذى

جعلكم تجلسون هنا، انهضوا يا قوم! وادخلوا الخيمة." – وهنا بدأت ألاحظ أغنامهم وهى تدخل المراح؛ ووجدت قطيعا طيبا من الغنم يرقد أمام كل خيمه من الخيام: ولكنى لم أشاهد سوى جمل واحد أو جملين على أكثر تقدير.

هؤلاء الأعراب ليس لديهم ماعز: وماشيتهم الصغيرة عبارة عن أغنام سوداء اللون بيضاء الرءوس، من أعالى نجد؛ لم يكن هناك أية جزّة بيضاء بين تلك الأغنام. وعندما سألت حامدًا، "أين إبل هؤلاء الأعراب؟" أجابنى هامسا،" هؤلاء الأعراب هم أوريمات Oreymat حرب، وليست لديهم سوى قطعان من الغنم؛ وليس لديهم إبل." هذه إذن حياة أخرى من حياوات الرجال الذين يسكنون الصحراء ويعيشون فيها بلا إبل! أردف حامد قائلا: "هذه نوعية من البشر لا علاقة لها بالعمليات الحربية؛ وقد ضاعت إبلهم بسبب الغزو، ولكنهم لم يردوا على الغزو بغزو مماثل . وهم ليس لديهم سوى هذا العدد القليل من الإبل التى يستعملونها فى الحمل والنقل: ومع ذلك فحالهم على ما يرام ؛ لأن لديهم كميات كبيرة من السمن الذى يحصلون عليه من نعاجهم، التى تراها أمامك؛ – وهم يسوقون yusukun الزكاة ez-zika بمعنى" يدفعون الزكاة لابن الرشيد." [أغنام الحرب والشمر فى هذه الديار كلها سوداء اللون ، أكبر جسما من الأغنام الأخرى، ويعتقدون أيضا أن النعاج السوداء تدر حليبا أكثر من غيرها من النعاج. والغنم دونا عن سائر الماشية الأخرى تضعف فى الشمس، ونحن نرى تلك الأغنام وكل واحدة منها تحاول أن تستظل بظل الأخرى، وترفع رءوسها فى فترة الظهيرة؛ والمؤكد أن جزّات الصوف بيضاء اللون يفضلها الناس فى البلدان الحارة] .

هؤلاء البدو الذين يعرفهم الناس هنا ببنى سالم أصحاب سلوكيات طيبة؛ ولم يحدث أن أكرمنى أحد غيرهم وعاملنى بهذه الطريقة الجيدة. قال واحد منهم – سبق له أن رأى النصرانى وتحدث معه فى حائل – كلاما طيبا فى حقى وذكرنى بالخير عندهم. كرم بنى سالم هنا خالٍ من الحقد والضغينة التى ينطوى عليها الكرم فى منطقة المدينة المنورة وبخاصة من قبل أفراد قبيلة حرب، يضاف إلى ذلك أن خيام بنى سالم هنا كانت مقسمة تقسيما متساويا: كان الرجال هنا أيضا بشوشين [مما يعنى

أنهم كانوا شبعانين فى هذه المنطقة من الجزيرة العربية]، وأصحاب همة . سألنى مضيفنا الشيخ سالم سؤالا يدل على المراوغة ، هل لدى دواء لعينيه الملتهبتين ؟' أعطيته أفضل دواء عندى؛ وقال لى وهو يتنهد: "من ذا الذى يمكن أن يقطع بمدى فائدة ذلك الدواء لى، لأن ذلك بيد الله وحده. هذا السالم (الذى كان أفضل كل من عرفتهم وتعرفت عليهم) أحضر لى على الفور هدية من المريسى، ومن الزبد: وقدم لنا عشاء مشبعا من الأرز (التمن) والسمن. وعندما كنت أحس بالتعب والإرهاق كنت أرقد على الرمل داخل الخيمة الآمنة وأروح فى سبات عميق: ولكن سالم، الذى كان يجلس إلى جوارى، قال لى: إنه يتعين عليه أن يظل صاحيا طوال الليل، تحسبا لهجوم الذئاب – ونحن نتعرف على مجئ الذئب عن طريق النباح المستمر الذى يصدر عن الكلاب – التى تحوم حولنا. هذا هو حال أولئك البدو الذين توقفوا عن تربية الماشية فى الصحراء.

استيقظنا مع طلوع النهار كى نواصل مسيرنا؛ وأحضر المضيف لنا سطلا كبيرا من لبن الخض: كانت ضيافة ذلك الرجل بمثابة رحمة لنا ونحن فى طريقنا إلى حائل . – سرنا مدة ساعتين ؛ وهنا ارتفعت الشمس فوق الصحراء وارتفعت معها حرارتها، إلى أن وصلنا إلى منزل من منازل بنى على، وكان ذلك المنزل عبارة عن ست عشرة خيمة منصوبة على شكل دائرة، – وهذا الشكل لم يسبق لى أن رأيته فى الجزيرة العربية، ولكن الماشية الكبيرة لهذا القسم من بنى على، كانت ترقد داخل مظلة من الخيام وحبال ممدودة، الأمر الذى يُصَعِّب من سرقة تلك الماشية بواسطة اللصوص أثناء الليل. – وإذا ما وقف جمل من الجمال واقتيد إلى الأمام فإنه تجرى خلفه بقية الإبل (شأنه فى ذلك شأن الأغنام التى لدى بنى على) ؛ وبالتالى لا تؤدى أخفاف الإبل إلى إيقاظ البدو النائمين. اكتشفنا أن بنى على هؤلاء من أعراب القهوة، إنهم من عشاق النوم أثناء النهار، وأنهم يفنون حياتهم باستعمال الحثالة الكريهة الناتجة عن مخدر المُخا (*) Mokha ؛ واكتشفنا أنهم أيضا أصحاب سلوكيات توحى بالغيرة

(*) مخدر المخا : المقصود به البن اليمنى الذى يأتى من مخا باليمن . (المراجع)

والحسد، وأنهم ليسوا كرماء. كان البعض منهم ينظرون إليّ، ويتهامسون مع بعضهم البعض، ويسخرون منى! – كان كل البدو الرحل التابعين لابن الرشيد قد سمعوا عن ذلك النصراني الذى جاء إلى بلادهم من قبل . وضعوا التمر أمامنا ؛ وبينما كنا جالسين نشرب القهوة ، خرج رجلان ومعهما بندقيتيهما الفتيليتين ليفتحا النار على كلب من الكلاب ، أطلقا عليه اسم ساروق Saruk ، بمعنى "اللص". لم يكن أحد يعطى ذلك الكلب شيئا يأكله، وكان الجميع يطردون ذلك الكلب من بيوتهم، وكانوا جميعا ينتظرون نفوق ذلك الحيوان؛ ولكن ذلك الكلب كان يسرق المزيد كى يسد رمقه. هذان الراميان البدويان فتحا نيران بندقيتيهما من مسافة ثلاثين ياردة؛ وأخطأ إصابة ذلك الكلب وعندما ضاع رصاص الطلقتين فى الرمل، وارتدتا ناحية البشر، هرب الكلب وراح يجرى فى الخلاء (الصحراء) ، وهو يعوى عواء يوحى بالحزن؛ وهنا عاد الراميان، اللذان لم يكونا على استعداد لتبديد رصاصتين أخريتين، إلى وجار القهوة – وسرعان ماناديت على حامد وطلبت منه أن نركب الناقة؛ مخافة أن يدخل علينا وقت الصلاة ويترتب عليه اكتشاف أمر النصرانى.

مشينا ساعة أو ساعتين، وأدركنا رحْلةً من رحْلات الأعراب: كان أولئك الأعراب من الفرن el-Furn ، وهم سلالة من قبيلة حرب، سميت باسم شيخ الأسرة، والذى يشغل منصب شيخ بنى على؛ – كان هؤلاء الأعراب هم أولئك القوم الذين كان تركى يبحث عنهم. وهنا تقدم نحونا بعض الشيوخ الشبان ، وهم راكبين نياقهم، أو إن شئت فقل: راحلاتهم rahals [وهذه الكلمة هى الشائعة فى هذه الديرة] ليسألوا المسافرين عن الأخبار الجديدة: وعرفنى أولئك الشيوخ الشبان لأنى سمعت البعض منهم وهم يتكلمون همسا،" إنه هو الكافر"؛ وقال واحد منهم:" انظر هذا هو خرجه محشو بالفضة والذهب! إلى حد أن ذلك الخرج يكاد يكسر عنق الناقة!" وقال آخر لنا:" أنتما أيها المسافران، اللذان يركبان الناقة، نحن سوف ننزل هناك ، فى المنطقة الواقعة خلف سارة Sara [ساحل جبلى من الرمل على شكل قوس كنا نراه أمامنا] ؛ واستريحا اليوم فى خيمتى." – أضاف زميل آخر لهم، بطريق الهمس الذى يوحى بالخسة والنذالة، "تعالا عندنا هذا المساء وسوف تريا المباراة." ظننت أن مرحه هذا ربما كان

هو يرمى من ورائه إلى تهديدى بسكين مثلما فعل ذلك الشيخ القحطانى عندما كنت فى حائل. اعتذرنا: "قال حامد: نحن مضطرين إلى مواصلة السير، حتى يتسنى لنا اجتياز طريق (خطر) أثناء الليل؛" وبعد هذه الكلمة، ضربت الناقة ، وسعدت لأنى سبقت وكنت فى المقدمة. وهنا تجاوزنا التربة البللورية إلى تربة أخرى من الحجر الرملى: كان ارتفاع هذا السهل الصحراوى حوالى ٣٣٠٠ قدم. " لابد من تجاوز سارة (الساحل الجبلى الرملى) ولكن ذلك التجاوز يجب ألا يكون فى وضح النهار، على حد قول حامد، تحاشيا للعتبان؛ هيا بنا نحاول الوصول إلى تلك الإبل الموجودة فى الخلف، لنشرب من هناك شيئا من الحليب؛ وننال قسطا من الراحة هناك إلى أن يدخل علينا المساء." – شاهدت جبل ساق الوحيد الذى يقف بعيدا منعزلا وسط سهل القصيم، – على الجانب الأيمن؛ شاهدته كما لو كان مخروطا حاداً، أسود اللون فى ضوء السماء الصافية الخالية وكان حامد أيضاً يرى قمم جبل أبانات el-Abanat الذى يمتد على جانبى وادى الرماح، خلف جبل ساق، وعلى بعد مسافة كبيرة منا.

وصلنا إلى أولئك الرعاة؛ وتقدم أصغرهما وأخذ منى سطلى وراح يجرى أسفل نياقه وملأ السطل حليبا من فوقه رغوة وعاد به إلىّ. جلست لأشرب الحليب؛ وعندما انتهيا من سماع أخبارنا قال كبيرهما:" هذا الرجل أطول من أى رجل آخر بين أعرابنا! – ما سبب مضيك قدما، أيها الغريب؟ ابق معنا هنا! وسوف نعطيك حصانا، وسوف نعطيك أيضا عباءة (بشتا) قرمزى اللون، – وبالله ، فإن هذا الرجل الذى يحمل فى يده حربة طويلة سوف يقضى على العتبان! – وسوف يعطونك أيضا فتاة لتكون لك زوجة." رحلنا عن هؤلاء الرعاة الطيبين : وعندهم تركت كلام الصحراء وأسلوب الحياة فيها، ورحت أتكلم اللغة التى يتكلمها القرويون الذين يعملون ضمن قوافل القصيم. واصلنا المسير ونحن فوق ناقتينا كى نتجاوز سارة Sara ؛ وعند غروب الشمس كنا قد صعدنا إلى شق فى جبل من الجبال: وواصلنا مسيرنا فى ضوء النجوم فوق تلك الهضبة المكونة من الحجر الرملى، عاقدين العزم على مواصلة السير طوال الليل، الذى كان بارداً وبلا مأوى لنا.

وعند منتصف الليل، ومع تخوف حامد من خيامنا، وتخوفه أيضا من مغالبة النوم لنا، شد الرجل لجام الناقة؛ ووقفنا ونزلنا فى مكان رملى فيه بعض الأدغال ؛ وقيدنا رجلى الناقة الأماميتين ورحنا ننال قسطا من النوم. ومع طلوع الفجر ركبنا الناقة: واستطعنا تجاوز ذلك المرتفع من الحجر الرملى، وعندما طلعت الشمس نزلنا إلى سهل من السهول، وهنا شاهدت نخيل أول قرية من قرى القصيم. "قال حامد: هذه هى قرية الروض er-Rauth ، وفيها خمسون بيتا." شاهدنا بعض النساء القرويات وهن يقطعن العلف ليقدمنه للإبل التى تعمل فى آبار الماء. هؤلاء الحريم صحن، لأنه خيل لهن أننا لصوص، إلى أن ألقينا عليهن السلام! – كانت النساء قد تقدمن إلى الأمام وهن يرتدين ثيابهن المهلهلة تخوفا منا وتحسبا من أن نكون لصوصًا . وهنا سأل حامد، الذى كان ما يزال خائفا من العتبان، هؤلاء النساء،" يا أيتها الحريم !ما الذى عندكن لتقولوه لنا عن آخر غزو حدث فى هذه القرية؟" وأجبنه، 'أنه منذ أيام قلائل جرى تجريد بعض النساء من ملابسهن على بعد مسافة صغيرة من أسوار القرية!'

ها هى نفود القصيم الرملية تمتد أمامنا ، والتى بدأت تتدافع أمامنا على شكل موجات طويلة متورمة، تنحرف أمامنا ناحية الشمال وناحية الجنوب. وبعد مسير أربعة أميال مررنا بواحة يسمونها عيون Aun ؛ هذه الواحة تشبه الخليج ضمن جبل سارة الذى سبقت الإشارة إليه من قبل . وفوق صخرة عالية على جانب النفود توجد منارة مبنية من الطين على شكل برج من أبراج المراقبة [ومسألة برج المراقبة هذه موجودة فى سائر قرى منطقة القصيم] . والمراقب (الذى يتعين أن يكون رجلا حاد البصر) يحصل على أجره من مشاركة جماعية يسهم فيها الجميع: وتتمثل مهمة ذلك المراقب ، فى مراقبة واستطلاع أرض المنطقة من ذلك البرج خلال شهور الربيع وذلك بدءًا من طلوع النهار إلى غروب الشمس؛ لأن الأعراب فى تلك الفترة، يطلقون ماعزهم، بعد أن يستعيدوها من الأعراب، للرعى خارج الواحة. رأينا ذلك المراقب وهو دائم الحركة داخل رواقه فى أعلى البرج، تحت أشعة الشمس الحارقة؛ كان ذلك المراقب يتنقل فى كل مكان، ليراقب تحت ظل يده الأرض الرملية الجرداء الواقعة أمامه. قال حامد: النخيل الموجود فى عيون نصف عدد النخيل الذى فى تيماء؛ وعدد السكان هنا يتروح

بين ٤٠٠ و ٥٠٠ نسمة. وعيون تقع عند مفترق المسارات التى يسلكها الجمَّالة فى القصيم، عندما ينتوون السفر إلى جبل شمر، أو إلى أرض الشمال، أو إلى المدينتين المقدستين . وهنا أصبح رفيقى على قناعة تامة من أنه ينبغى أن يتركنى فى هذا المكان؛ الذى وعدنى بأنى سوف ألتقى فيه بناقلين متجهين إلى أماكن مختلفة، بل إن منهم من يذهب حتى إلى الكويت وإلى البصرة، والله، هم هنا أكثر بكثير من بريدة".

كانت هناك بعض المواشى الكبيرة ترعى فى النفود – لم تكن تلك الحيوانات الكبيرة من الإبل ولكن آه! يا له من منظر جميل، هذه هى أبقار القرية ترعى وسط هذه الصحراء الرملية التى لا تسر الخاطر! قلت:" سوف أتجه بناقتى إلى تلك الأبقار كى أصيب شيئا من الحليب." ورد علىّ حامد، "سوف تطلب ذلك الحليب ولن تحصل عليه، فلا تذهب إلى هناك يا خليل لأن هؤلاء الناس ليسوا مثل البدو، ولكنهم أناس من أهل القرية **Geria** ، بمعنى إنهم أناس لا يعرفون الكرم : وها هى قرية خيرة تلوح لنا فى الأفق ، وسوف نقترب منها بعد فترة وجيزة ونتراءى فيها برج المراقبة، وسوف ننزل فى تلك القرية لتناول طعام الإفطار." رأيت منحدرا طينيا فى اتجاه الجنوب من النفود. لم يكن حامد يعرف اسم تلك الواحة: قال: " والله، الجراية **Geraieh** (البلدان والقرى) هنا كثيرة فى منطقة القصيم!" وخلال ساعتين من الزمن وصلنا إلى قرية قصّة **Gassa** ، التى هى واحدة من قرى النخيل، وهى محاطة بسور ، ونخيلها هو أفضل أنواع النخيل منذ أن تركت بلدة تيماء، – وهذا هو ما قاله حامد ، الذى يعرف بلدة تيماء حق المعرفة. وعندما سألته ما معنى الاسم قصّة **Gassa** أجابنى بأن " هناك نوع من القرع العسلى يحمل هذا الاسم: " ولكن المعروف أن البدو سذج فى اشتقاقاتهم. وبرج المراقبة – الذى يقولون له هنا المرقاب **mergab** أو الجرَّة **Jarra** – مقام على صخرة فوق القرية. وأساس هذا البرج مبنى من الحجر الغشيم المثبت بالملاط، أما بقية البرج فهى من الطين المبنى بطريقة ومصنعية جيدة من قطع الصخور. ها نحن أصبحنا فى منطقة القصيم، ذلك البلد المزدحم بالسكان وشديد التدين، فضلا عن كونه بلدا من بلاد النفود التى يعيش فيها الأفراد الذين يعملون فى القوافل. لم ندخل إلى ذلك المكان، وتوقفنا عند بيت منعزل يقع أسفل المرقاب، أو إن شئت فقل: الجرَّة أو برج المراقبة.

كان الوقت يصادف موسم حصاد الشعير: وكان ذلك يصادف اليوم الأخير من شهر أبريل . وكان ارتفاع الأرض فى هذه المنطقة حوالى ٢٨٠٠ قدم.

نزلنا من فوق ناقتنا وخرج رب البيت قادما من الداخل، ليأخذنا إلى المقهى، وقام واحد من الأطفال بحمل زكائبى وجوالاتى إلى الداخل : وقام حامد بإحضار لجام الناقة وحكمتها، لأن الأمن هنا ليس مستتبا على حد قوله. كانت أرضية المقهى مفروشة برمل النفود! وبعد أن شرب كل منا فنجالين من القهوة نادانا المضيف إلى الدخول فى مخزنه؛ حيث وضع أمامنا طبقا كبيرا من التمر – ليس من بينه حبة واحدة من النوع الممتاز، كما وضع أمامنا أيضا سطلا من الماء. وأهل القصيم ليسوا من عشاق الكرم: والأعراب المساكين (الذين يسافرون بلا نقود) يقولون عن أهل القصيم ومن باب التحقير لهم: 'ليس فى القصيم شيئًا بلا ثمن!' – وهذا القول صحيح . والقصيم تشبه مناطق الحدود، وسكانها تحولوا إلى حضر: وبلاد القصيم الرملية ،التى تقع فى وسط الجزيرة العربية، أقل استقرار واستيطانا من سوريا نفسها . والقصمان (*) من النوع الحريص ومن المغامرين أيضا: وفيهم الكثير من دم بنى تميم. وثلث سكان القصيم ممن يعملون فى قوافل التجارة التى تذهب إلى المناطق الأجنبية، وإلى المدينة المنورة، ومكة، وإلى الكويت وإلى البصرة وبغداد ، وكذلك إلى البلاد الوهابية، وإلى جبل شمر. والكثيرون من أهل القصيم يغادرون بلادهم وهم فى ريعان الشباب ، بحثا عن الثراء خارج بلادهم؛ حيث يعمل البعض منهم بالجندية (كما سبق أن أوضحنا) مع الحكومة العثمانية: وقد كانوا إلى وقت قريب جداً يعملون ضمن قوات العجيل فى بغداد ، ودمشق والمدينة المنورة. – ومعروف أن كل منطقه نجد، الواقعة شرقى واحة تيماء – تدخل فى إطار الحركة التجارية فى منطقة الخليج الفارسى، وليس فى نطاق الحركة التجارية السورية: من هنا فإن الطابع (الأجنبى) لنجد هو طابع بلاد الرافدين! وهجرة السواد الأعظم من أهل القصيم تكون إلى بلاد الرافدين ، – وغالبية هؤلاء المهاجرين من المزارعين ومن صغار الباعة ؛ وقله قليلة من هؤلاء المهاجرين هم الذين أصبحوا تجارا أثرياء.

(*) القصمان : أهالى القصيم . (المراجع)

أهل الجزيرة العربية من المناطق الأخرى غير القصيم يقولون على سبيل الاحتقار، عندما يطالعون القرى الخضراء فى القصيم، وهى مختفية بين الرمال المتعرجة: "القصيم كلها نفود." نفود القصيم عبارة عن بلد رملى ، الماء موجود على عمق قريب جداً من سطح الأرض، فى كل أنحاء المسارات والدروب الوسطى من وادى [الرماح] الكبير. وقام الناس بحفر الآبار وزراعة النخيل فى الأرض المنخفضة [التى يقولون لها هنا 'قاع' أو'خبرة']، والتربة هنا من النوع الغرينى، والماء ليس مالحا أو مرًا : وهذا هو حال كل قرية من قرى القصيم . والبلدان الرئيسية هنا تنتمى إلى أواخر العصور الوسيطة. وأقدم مستوطنات القصيم التى ورد ذكرها عند الجغرافيين المسلمين ، تقع على بعد مسافة كبيره جداً ، اعتماداً على ما قمت به من تحريات واستقصاء، وهى حاليا عبارة عن أطلال وأسماء لا تخطر على البال ونسيها الناس. وفقراء القصيم والوشم يتجولون هنا وهناك حتى وهم داخل بلادهم؛ وعمال الزراعة صغار السن يبحثون عن العمل فى المدن المختلفة ، التى يسمعون أن العُروق el-urruk ، بمعنى'عرق جبينهم' يعود عليهم بأجر سخى. لو قدر للقصيم أن تكون أرضا جرداء، لتحول ذلك البلد الرملى، شأنه شأن الأرض الواقعة خلف الأردن ، إلى صحراء عامرة بالأنقاض والأطلال القروية البائسة.

جلس مضيفنا مع صديق له، وأغلق باب فناءه تحسبا لأى اعتداء من قبل الأشخاص المتسكعين . هؤلاء الرجال القصمان ، يضعون على رءوسهم الغترة (غطاء الرأس) البغدادية المصنوعة من الحرير، والتى تتدلى على رءوسهم وأكتافهم؛ ويلبسون تحت هذه الغترة (الشال) الطربوش التركى، أحمر اللون . سألنى المضيف من أى بلد أكون ." أنا رحّال ، من دمشق ." – " لا، أنت لست شاميا لأن كلامك أفضل من كلام الشوام ؛ لأنى سافرت إلى سوريا وزرتها : خبرنى، ألست واحداً من أولئك السكان الذين يعيشون فى قرى الحوران ؟ كنت فى الحوران مع العجيل. من أنت ؟ أنت لست من المسلمين؛ هل أنت يهودى إذن ، أم أنك من النصارى؟" – " نعم ، أيها المضيف، أنا مسيحى؛ هل ستسحبنى إلى مكان بعيد وتقتلنى ؟" – " لا ! ولا تخش شيئا ؛ أليست هذه هى القصيم؟ التى يسافر السواد الأعظم من سكانها إلى البلاد الأجنبية؛

هؤلاء الذين رأوا الدنيا يختلفون عن أولئك الجهَّال ، وسوف يعاملونك معاملة متحضرة." – علمنا من مضيفنا أن ابن سعود وصل إلى المجمعة: ولكن ثبت عدم صدق تلك الشائعة، عندما وصلنا إلى القصيم ، وفى ديار حرب أيضا! كان مضيفنا يود شراء حبوب الكنين من الحكيم؛ وطلبت منه نصف ريال ثمنا لتلك الحبوب؛ ولكنه لن يدفع سوى أربعة بنسات – ، وذكرنى بكرمه غير السخى. – "ألن ترافقنى إذن إلى بريدة؟ وسوف أعطيك الحبوب." – "ما الذى يجعلنى أدفع ثمنا للكناكينا؟ وفى القصيم ستجد الناس يقدمون حبوب الكنين للناس (وذلك من قبيل الإحسان)."

مشينا بناقتنا على قاع تعلوه قشرة من الملح يقع خلف القرية: وماء البئر الموجودة فى قُصَّة له طعم ذلك الملح . الواحة، التى هى أكبر من وادى الرماح يسكنها حوالى ثلاثمائة نسمة. تخطينا الطقس المظلم ، وها هى الشمس تشرق علينا من جديد خلال فترة العصر ؛ واعترانى ونحن نمشى هنا فى صحراء القصيم، إحساس بركود ذلك الهواء المشبع بالملح ، وهو مثل الهواء الذى نصادفه فى غور سهل الأردن خلف منطقة جرش . وها نحن ما زلنا نشاهد عن يميننا امتداد ذلك الساحل المنخفض من الحجر الرملى؛ وأسفل ذلك الساحل شاهدت نخيلا وأبراجا للمراقبة فى هجر (كفور) وقرى بعيدة. والتربة هنا رملية وبها حبيبات من الصخر الرملى؛ وعلى جانب المسار الذى نسلكه أرى كثبانا عميقة من رمال النفود. وبعد أن قطعنا مسافة خمسة أميال وصلنا أمام بلدة شكوك **Shukkuk** ، التى لا تبعد كثيرا عن بريدة؛ بلدة شكوك هذه تقف – (وهذا هو ما لم أره فى أية مستوطنة أخرى من مستوطنات الجزيرة العربية) وحدها وبلا أسوار! على الجانب الصحراوى من المسار الذى نسير فيه. وأمام شكوك شددنا لجام الناقة لنسأل عن المزيد من الأخبار، ونشرب من الماء العذب الذى فى هذه البلدة. وبلغنا أن حسنًا **Hasan** ، أمير بريدة، الذى يطلقون عليه هنا اسم ولد **weled** مهنا **Mahanna** ، كان بصحبة جماعته المسلحة يقومون بعمليات الغزو فى الصحراء. – كان مهنا، ذلك الجمَّال الثرى فى بريدة، يقرض الناس بالربا، إلى أن تحول نصف سكان القرية إلى مدينين له؛ واستطاع فى النهاية، بمساعدة من الوهابى، اغتصاب كرامة الأمير ومكانته! – وأبلغنى حامد بما هو أغرب من ذلك عندما قال:

إن شيخ قرية، كافر kafer ، بالقرب من قصيبى، هو واحد من أهل الصنايع، فى هذه الأجزاء من البلاد! وقال أيضا إن ثراء ذلك الرجل هو الذى مكنه من أن يصبح شيخا للقرية. [ربما كانت هذه الواحة حرة، وأنها كانت خاضعة لسيطرة بريدة أو حائل] .

رأيت هنا كثبان النفود الرملية الضخمة؛ وهى من النوع الذى يطلق البدو عليه اسم التعوس taus أو إن شئت فقل النفود Nefud (وجمعه أنفاد anfad) : وفى القصيم نسمع أسماء أخرى لهذه المسميات مثل عدنات adanat أو كثيب Kethib (وجمعه كثبان Kethban) . قال حامد:" وادى الرماح يقع هنا على مسافة غير بعيدة عن هذه الكثبان على الجانب الأيمن (فى اتجاه عنيزة). مشينا مدة ساعة ونصف الساعة، ثم وصلنا بعد ذلك إلى حرف النفود، وعندها كانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب. ومن هذه المنطقة بدأ يترآى لنا منظر طبيعى كما لو كان من مناظر الأحلام! - بلدة كبيرة مبنية من الطين وسط الرمال الجرداء ومن حولها أسوار وأبراج وشوارع ومنازل! هذه هى بريدة! وهذه المنارة (المئذنة) مربعة الشكل هى مئذنة المسجد الكبير فى بريدة. رأيت هذه المدينة، كما لو كانت القدس فى وسط الصحراء! [وذلك عندما تنظر إليها من فوق جبل الزيتون] . كانت آخر أضواء الشمس وآخر أشعتها تنير الطين المعتم بطريقة رائعة؛ كما كانت تلك الأشعة تخترق أيضا أشجار الإثل الكئيبة . سألت رفيقى،" أين نخيل أهل بريدة؟" وأجابنى،" ليس فى هذا المكان، النخيل يوجد خلف هذا الكثيب الرملى الضخم، وفى اتجاه (وادى الرماح)."

حامد: "بينما كنا نسير فى الطريق ، أرجوك أن تسامحنى إن كنت قد أغضبتك أو أسأت إليك فى وقت من الأوقات؛ وصارحنى إن كنت قد وجدتنى رفيقا طيبا؟ يا خليل، ها أنت ترى بريدة! وأنا سوف أتركك اليوم فى هذا المكان. وعندما ترى نفسك فى أية قرية من قراهم فلا تقل أنا نصرانى ، لأنهم سيكرهونك كراهية شديدة؛ ولكن صل مثلما يصلون، طوال فترة تجوالك فى البلاد، ولا تحاول بأى حال من الأحوال أن تأتى شيئا يجعلهم يحسون أنك لست من المسلمين : افعل ذلك، حتى يضمرون لك الخير، ويساعدوك على المضى قدما. لا تنتظر أن تجد أهل هذه البلدان طيبين مثل البدو!

ولكن حاول أن تؤقلم نفسك معهم؛ وإلا فلن يطيقوا مقامك بينهم لفترة طويلة. أنا أنصحك بما فيه فائدتك – وأنا لا أجبرك على شيء لا تريده! قل: إنك مداوى mudouwy ، وأخبرهم بما معك من أدوية، وعن الأمراض التى تعالجها هذه الأدوية: وهذه هى المهنة التى يجب أن تعيش بها هنا. لقد عانيت الكثير من اسم النصرانى، وما الفائدة التى عادت عليك من هذا الاسم؟ قل الآن، إذا ما أمكنك ذلك،' أنا مسلم.'"

تقابلنا مع بعض الناس من أهل المدينة، وهم خارج أسوارها، عندما كانوا يستنشقون هواء المساء؛ ومررنا بهم وسألوا رفيقى البدوى: وشاهدت بينهم سيافا من الجالا صارم الملامح يعمل لحساب الأمير. ورد عليهم حامد، " نحن ذاهبان إلى قصر الأمير.' قالوا:" قصر الأمير بعيد عن هذا المكان، وها هى الشمس قد غربت؛ ألم يكن من الأفضل لكما أن تنزلا أمام بيت فلان؟ الذى يبعد مسافة قصيرة عن البوابة، وتبقيا فى ذلك المكان هذه الليلة؛ على أن تذهبا إلى الأمير فى الصباح." تجاوزناهم وعبرنا بوابة المدينة : السور الطينى حديث البناء، ولكن سُمْكه لا يصل إلى قدمين. لم نعثر على أى أحد فى تلك الشوارع الكئيبة؛ فقد انصرف الناس إلى بيوتهم لتناول العشاء، كما أن الدكاكين التى كانت فى السوق أغلقها أصحابها لدخول الليل عليهم: بيوت هذه المدينة مصنوعة من الطين المخلوط بالرمل ومتفتتة . وراحت الناقة تمشى ونحن فوق ظهرها فى تلك الطرق المهجورة : مررنا على المكان العام غير المرصوف الذى يطلقون عليه هنا اسم المجلس mejlis ؛ الذى وجدت أنه تجوف بفعل أقدام أهل المدينة! كما أن فى المدينة أيضا مسجدا كبيرا له منارة (مئذنة) عالية. شد حامد لجام الناقة عندما وصلنا إلى مقر! إقامة الأمير، والذى يطلقون عليه اسم منوخ munokh الشيوخ es-Sheukh .

فتح البواب الباب، ونزلنا داخل المقر من فوق ناقتنا. الرحلة من الروض er-Rauth إلى مقر الأمير يصل طولها إلى ما يقرب من خمسة وعشرين ميلا. لم يمض وقت طويل، قبل أن ينادى علينا صبى من صبية المطبخ،" انهضا وسميا بالله." واقتادنا إلى داخل أحواش مظلمة؛ ومن تلك الأحواش صعدنا سلما طينيا إلى مكان تناول العشاء.

كانت درجات ذلك السلم متآكلة من المنتصف، على شكل ميزاب، وكنا نتعثر أثناء الصعود بفعل الظلام. مررنا على رواق وشرفة فى الأعلى ، الأمر الذى أعاد إلى ذهنى ذكرياتى عن مبانينا الخاصة بالأديرة: وأوصلنا ذلك الصبى بلا أية إضاءة إلى نهاية بهو من الأعمدة، أحسسنا بأن الأرض فيه كانت عبارة عن أنقاض . وفى هذا المكان أحضر لنا الصبى العشاء، الذى كان عبارة عن عصيدة غليظة القوام من القمح مسلوقة فى الماء (نوع من البرغل burghrol فى الجزيرة العربية) ، وليس عليها أى شىء من السمن: حللنا ضيوفا على أمير بريدة الفلاح . هذه هى وجبة المساء فى القصيم ، ولكنها يجب أن تطهى مع شىء من الحليب والزبد؛ هذا البرغل ، يطهى فى البيوت الطيبة، مع شىء من العصيدة، وغالبا ما يخلط بالأرز، ويقدم مع طلى مسلوق.

– بعد أن أكلنا وغسلنا أيدينا ، تعين علينا العودة ونحن نتحسس طريقنا فى الظلام ، ونحاذر مخافة أن ينكسر عنق أى واحد منا ، وهذا أغلى بكثير من هذا الصنف من العشاء. – وهنا ودعنى حامد بطريقة البدو: ركب ناقته؛ وشعرت بالارتياح عندما تجاوز رفيقى بسلام بوابة ذلك (الطاغية). كان القمر طالعا؛ وسوف يركب حامد ناقته ويواصل مسيره خارجا من المدينة، على أمل أن يقضى الليل فى قرية من القرى.

طلبت عندئذ زيارة "الأمير" – "شقيق حسن، الذى تركه الأمير نائبا له فى بريدة؛ وردوا علىّ، "الوقت متأخر ، والأمير موجود فى قسم آخر من المدينة : – البكّير! el-bakir بمعنى فى الصباح." وهنا تجمع حولى كل من البواب، ومُصلح القهوة، والسيَّاف، وبعض الخدم الآخرين الذين يعملون فى دار الضيافة: كانت بوابات الحوش مغلقة، ولن يسمحوا لى بالتحرك. وبينما كنت جالسا على مصطبة من الطين، فى ضوء القمر، فزعت من تعبى وإرهاقى على (...)(*) صوت المؤذن وهو ينبعث من المئذنة يدعو الناس إلى صلاة العشاء. – 'آه! تأملت الأمر؛ ويا لسهو ذاكرتى الصغير ! يا لهذه الفرصة التى ضاعت منى! لماذا بقيت مستيقظا إلى هذه الساعة المتأخرة، والأمير غير موجود هنا، كما لا يوجد أحد هنا يمكن أن يخلصنى ، إلى أن يطلع علىّ النهار؟'

(*) عبارة غير لائقة تمس المقدسات الإسلامية رأينا استبعادها . (المراجع)

وهنا تساءلت بسرعة، 'أين مكان النوم؟' ردت علىّ تلك الضبّاع ، فى شىء من الاحتقار والإزدراء، 'ألن أصلى معهم، قبل أن أدخل للنوم؟' – أروني غرفة فى مبنى المقر المظلم، والتي كانت تستعمل مقهى صغيرا من قبل.

كل شىء كان صامتا وساكنا فى الداخل كما لو كنا داخل كنيس صغير. ورحت أتحسس الجدران المبنية من الطين، ودست على رماد وجار من وجارات القهوة: وجلست على أرض الغرفة الطينية. كان مسدسى موضوعا فى قاع الخرج، الذى وضعه البواب فى مكان آخر وأغلق عليه الباب: تناولت مديتى، وخطر ببالى أنهم يجب ألا يبرحوا المكان سالمين إذا ما أساءوا إلى أو تسببوا فى إيذائى؛ ومع ذلك، كنت أتمنى أن تمضى تلك الليلة فى سلام. لم أنم سوى ساعة واحدة، سمعت بعدها وقع أقدام تتجه ناحيتى، كان ذلك القادم يبحث أو يتحسس بعض الأشياء على الأرض؛" قال ذلك الصوت: انهض، واتبعنى ، فأنت مطلوب أمام الشيوخ فى صالة القهوة:" – سبقنى صاحب ذلك الصوت، وتبعته؛ ووجدت أناسا جالسين يشربون القهوة، ويبدو أنهم كانوا من حرس الأمير. طلبوا منى الجلوس وناولنى واحد منهم فنجالاً من القهوة: ثم سألونى بعد ذلك ،" هل أنت ذلك النصرانى الذى كان مؤخرا فى حائل؟ لقد كنت هناك بصحبة واحد من قبيلة العنزى؛ وقد طردك عنيبر من هناك على جرّابتهم jurraba (أى الناقه الجرباء): كان يتعين عليهم إعادتك إلى خيبر؟" – " أنا هو." – "فلماذا إذن لم تذهب إلى خيبر ؟" – " لقد قلتها بنفسك ، – نظرا لأن الناقة كانت جرّابة jurraba ؛ هؤلاء البدو لم يستطعيوا توصيلى أو نقلى إلى خيبر، وهذا هو ما يعرفه عنيبر حق المعرفة، ولكن العبد لم يلق لكلامى بالا: – قل لى : كيف عرفت أنت ذلك؟" – " كنت فى حائل، وقد رأيتك هناك . ألم يمنع عنيبر ذهابك إلى القصيم ؟" – "سمعت كلامه الكاذب، بأنكم أعداء، ولم أسمع أى شىء عن منعه هذا ؛ كيف لذلك العبد يمنعنى عن السفر والانتقال، خارج حدود بلاد بن الرشيد؟" – وهنا راحوا يضحكون ويهزون رءوسهم، وهنا شاهدت بعض أسنانهم، – وتلك إشارة طيبة! وأردف المتسائلون – فى شىء من العجلة والتسرع،" ما هى الأوراق التى معك، يا أنت! انصرف وعد إلينا بتلك الأوراق؛ لأننا يتعين علينا الحصول على تلك الأوراق ،

على الفور، ثم نقوم بعد ذلك بتوصيلها إلى الأمير، - ثم قالوا (للصبى): اذهب مع النصرانى."

فتح البوّاب المخزن الذى وضع فيه زكائبى وجوالاتى وخرجى. وأخرجت صندوق الأدوية؛ ولكن يبدو أن حركات يداى كانت بطيئة فى نظر أولئك الأشقياء الذين تبعونى ، وهنا قام أسوأهم، وهو رجل قحطانى، بضربى بقبضة يده، ولعن النصرانى وسبه وعنّفه. " صاحوا ، أخرج أوراقك كلها!" وخطفوا الأوراق من يدى:" قالوا: سنذهب بهذه الأوراق إلى الأمير على وجه السرعة." خرجوا؛ وأغلقت البوابة بعدهم: وتركونى وحدى فى الحوش (الفناء). بقى معى ذلك الوغد الذى ضربنى: واتجه ناحيتى ويده على سيفه، وغمغم قائلا: "أنت كافر! قل لا إله lailah إلا ill الله ullah" ؛ وجاء بعده شخص آخر، وآخر . جلست فوق المصطبة الطينية فى ضوء القمر، ورددت عليهم،" غدا، سوف أستمع اليكم؛ أما الآن ، فأنا متعب تماما."

راحوا يفتشون صدرى (بحثا عن النقود)! ووقفت ، ووقفوا كلهم حولى. - كان البواب قد همس بكلمة فى أذنى ،" إذا كان بحوزتك نقود فاعطها لى لتكون فى عهدتى ، لأن هؤلاء سوف يسرقون ما معك :" ولكنى تأكدت أنه هو أيضا واحد منهم! تجمعوا كلهم علىّ، وخطر ببالى أن أقول متعجبا:" حرامية Haramieh ، لصوص ! ياهو! أيها الجيران الشرفاء!" ثم أرى ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك ؛ ولكن الوقت كان متأخراً، وهذا القسم من المدينة معزول. - لم يرد أحد على صوتى، ولو سمعنى أحد، فالذى لا شك فيه أنهم سوف يتراجعون عن معاونتى؛ والسبب فى ذلك أن العرب [الذين يسكنون بلاداً ضعيفة الحكم ومليئة بالأخطار] يغلب عليهم دوما أن يكونوا أنذالا ووضيعين وجبناء أيضا: عندما صحت قائلا: 'لصوص'! وجدت هؤلاء التعساء يقفون مذهولين بعض الشىء: "لا تصيح (قالوا بصوت أجش) وإلا والله - !" وعليه فهمت ، أن ما يفعلونه بى كان من قبيل الحقد والغل، وهنا واصلت الصباح؛ وعندما بدأت أحرك يداى ، وصل بهم الجبن إلى حد، لاحظت معه أننى بالرغم من ضعفى، إذا ما بذلت جهداً ولو ضعيفا فسوف أخلص نفسى منهم: إلا أن ذلك كان فى منتهى السوء أيضا

– لأن ذلك قد يحتم عليهم العودة إلىّ ومعهم السلاح؛ يضاف إلى ذلك أننى كنت محاطا بالأسوار ، الأمر الذى يصعب معه هربى من المدينة. كان عدد أولئك الذين يتصارعون معى ستة أفراد : وهنا خطر ببالى أن أصيح قائلا: حرامية ! haramieh وأبذل شيئا من المقاومة كى أطيل الوقت وأعطلهم عما ينتوون القيام به. كنت أتمنى طوال الوقت أن يعود إلى ذلك الضابط الذى ذهب إلى الأمير. وهنا أصبح كيس نقودى فى أيدى أولئك الأوغاد؛ والذى أتعبنى كثيرا ذلك البارومتر، – هذا البارومتر كان يبدو لهم كما لو كان ساعة فى ضوء القمر! وهنا خطف القحطانى الحبل الذى كنت أعلق به ذلك البارومتر فى عنقى ؛ وراح يجرى وفى يده ذلك البارومتر مثل كلب يمسك فى فمه عظمة جيدة. أخذوا منى عباءتى وغترتى (غطاء رأسى)؛ وفى النهاية تركنى أولئك الأوغاد واقفا وحدى مرتديا سروالا ثم سارعوا إلى حيث الباب الذى وضعوا عنده خرجي وزكائبى . ولكنى خطر ببالى أنهم لن يعثروا على مسدسى فى الظلام؛ وهذا هو ما حدث فعلا.

– هذا هو ضابط الأمير يقف مرة ثانية عند البوابة، يطرق وينادى حتى يسمحوا له بالدخول: وهنا ذهب البواب ليفتح الباب. قال الضابط الذى دخل من البوابة: "ماذا حدث؟" – " لقد جردوا النصرانى من كل شىء ." – " من الذى فعل ذلك؟" – " كان القحطانى هو الذى بدأ بذلك ." "قلت: وهذا الرفيق، كان واحداً من أمهر اللصوص بينهم!" وبقيتهم هربت إلى داخل المقر، عندما عاد مندوب الأمير." (قال الضابط) : آه! يا للعار! هذا الرجل يُسْرق فى قصر الأمير؛ وهو رجل يحمل رسائل من السلطان، ما هذا الذى فعلتموه؟ لعنكم الله جميعا." "قلت : فلتأمرهم بأن يعيدوا إلىّ ملابسى، بالرغم من أنهم مزقوها." – " الأمير سوف يعطيك ملابس غير هذه الملابس." وهنا جاء أولئك اللصوص إلى حيث يوجد الضابط، قادمين من الأركان التى كانوا يتوارون فيها؛ وطلب منهم، "أعيدوا إلى الغريب ملابسه: – وقال لى: كل ماسرقوه منك سيعود إليك، وسوف يترتب على ذلك قطع يد المتسبب؛ والله سوف تقطع كل يد امتدت وسرقت شيئا من أشيائك. وأنا جئت إلى هنا لتوصيلك الى مسكن جهّز لك ؛ ولكنى يجب أن أعواد إلى الأمير: – وأنت، وأنت – وأنت الآخر إياكم إياكم والعودة الى مثل هذا الذى فعلتموه، وإلا سوف يصب الأمير عليكم جام غضبه." وردوا عليه،" نحن لم نفعل ذلك،

ولكنه رفض أن يقول ،لا la إله ilah إلا ill الله Ullah" – "هذا هو كذب! – لأنى قلتها أربعة أو خمس مرات كى أشرح صدرهم ؛ ولكن أرجو أن تسمعنى فسوف أقولها ثانية ، 'لا La إله ilah إلا ill الله Ullah . (*) – الضابط: "سوف أذهب عنك، أعود إليك حالاً." – " لا تتركنى وحدى بين اللصوص." – " لا تخف من أى شىء، فلن يجرؤ أى أحد منهم على فعل أى شىء ضدك"؛ وطلب من البواب أن يغلق البوابة من بعده.

عاد الضابط على وجه السرعة: وأمر أولئك اللصوص ، بناء على أمر الأمير، أن يعيدوا إلى النصرانى كل ما سرقوه منه؛ أمر البواب بإشعال نار فى الموقد كى يتولد عنها شىء من الضوء. هذا السياف القحطانى، الذى كان رئيسا لتلك العصابة، واحد من عصبة الأمير – وطلب منى راجيا أن أعطيه إحصائية دقيقة بالنقود التى كانت فى حافظة نقودى: 'الآن كلامى قد يجعل يده فى موضع الخطر؛ وأنى إذا ما قلت الحق فإن الله سيرحمنى.' – "هل تظن، أيها البائس، أن رجلا مسيحيا يمكن أن يكون من أمثالك!" مَثَّل الضابط، هذه هى حافظة نقودك؛ كم المبلغ الذى ينبغى أن يكون فيها؟ خذها، وعد دراهمك derahim . " اكتشفت أن أيديهم البربرية عبثت بمحتويات الحافظة؛ إذ لم يتبق فى الحافظة سوى بضع بنسات!" النقص هو كيت وكيت". – الضابط: " أنتم ! يا من أخذتم نقود الرجل، انصرفوا وعودوا ومعكم هذه النقود، وعليكم لعنة الله." انصرف السَّياف، وعاد ومعه النقود، – قطعتان فرنسيتان من الذهب قيمة كل منهما ٢٠ فرنك: هى كل ما تبقى معى فى هذا العالم المرير. الضابط : 'قل لى: أهذه هى فلوسك fulus كلها؟ " – هذه هى فلوسى كلها." – "هل هناك شىء آخر؟" – "لا!" – كشف القحطانى لى عن شكره ووجهه تبدو عليه الدهشة والاستغراب. الضابط: "وماذا غير ذلك ؟" – " كيت وكيت." – " انصرف الأشقياء وعادوا ومعهم تلك الأشياء الصغيرة، التى وصلت إليها أيديهم، بعد أن جردونى من ثيابى، ومن خرجى وزكائبى وجوالاتى. الضابط: "انتبه، هل عادت إليك أشياءك كلها، هل هناك مفقودات أخرى؟" – " نعم، ساعتى" (البارومتر الذى كان يشكل أهم شىء عندى بعد مسدسى

(*) من الواضح أن "خليل" لم يستكمل الشهادة حيث ظل متمسكًا بعقيدته المسيحية . (المراجع)

فى الجزيرة العربية)؛ ولكنهم تعجبوا، " أية ساعة ! لا، لقد أعدنا له كل شىء بالفعل." الضابط: آه! أيها الكذابين، أيها الملاعين، أيها اللصوص، أعيدوا للرجل ساعته ! وإلا سوف أبلغ الأمير باليد الآثمة." أعادوا إلىّ الساعة (البارومتر)؛ أعادوها إلى على غير رغبة منهم: هذه الآلة، ربما بدت لهم كما لو كانت ذهبا خالصا . – وقد سعدت عندما وجدت فى الصباح أن الآلة (البارومتر) لم تصب بسوء: وأن بوسعى أن أقيس بها ارتفاع قامة واحدة.

قال عندئذ: ' الوقت متأخر، ويتعين علىَّ تمضية الليلة هنا.' – "أعرنى سيفا إذا ما تعين علّى النوم فى هذا المكان اللعين؛ وإذا ما هجم على أحد، فهل ينبغى علىَّ ألا أقاتلهم؟" – "ليس هناك أى خطر بعد الآن، أما فيما يتعلق بهؤلاء فسوف يجرى احتجازهم فى صالة القهوة لحين طلوع نهار الغد:" ثم اقتاد معه هؤلاء المذنبين. – كان الضابط قد أحضر معه أوراقى: والشىء الذى لم يكن ضمن هذه الأوراق شهادة عدم الاعتراض الصادرة من عنيبر!

عندما طلع النهار، جاءنى ضابط الأمير – الذى اسمه جابر **Jeyber** – وطلبت منه مجددا أن أقوم بزيارة الأمير. ورد على جابر بأنه يتعين عليه الذهاب إلى الأمير والتحدث معه حول هذا الموضوع. وعندما رجع إلىّ، حمل خرجى على كتفيه الضعيفين وهو يقول: إنه سوف يوصلنى إلى المسكن الذى سأقيم فيه. رافقنى إلى واحد من الشوارع ، كان يقع فى طرف المدينة؛ ثم انعطف داخلا إلى فناء مخزن، أمام مبنى كبير – قديم ومتفتت، والذى كان يقيم الأمير فيه فى الزمن الماضى [كان سور المنزل هنا المبنى من الطين لا يتعدى ارتفاعه مائة ياردة بأى حال من الأحوال] . صعدنا عن طريق درج (سلم) من الطين إلى صالة كبيرة فى الأعلى : حيث كانت تجلس اثنتان من نسائه. كان جابر مستأجر هذا القصر المتعفن واحداً من قبيلة القحطان. وعند نهاية القصر كانت هناك غرفة، خصصها لى كى أسكن فيها."قال:' أنا متعب، وأنت متعب أكثر منى؛ وفنجال من القهوة سيفيدنا نحن الاثنين.:" جلس جابر إلى جوار الوجار لتصليح قهوة الصباح.

وهنا جاءنا بعض من الشخصيات الرئيسية فى المدينة؛ وهم يرتدون الملابس (الثقيلة) على طريقة أهل بلاد الرافدين. وعدد كبير من الذين يرفلون فى النعمة فى بريدة هم من الجماميل Jemmamil، بمعنى أنهم من أصحاب الجمال الذين يتجرون مع القوافل. هذا يعنى أيضا أن هؤلاء الجماميل هم الذين ينقلون القمح فى بلاد الرافدين؛ كما أنهم هم الذين ينقلون الأرز (التمن) والقماش إلى نجد ؛ وهم الذين ينقلون التمر والقمح من القصيم (عندما تناسبهم الأسعار) إلى المدينة المنورة . وهم فى الخريف ينقلون السمن، الذى سبق لهم الحصول عليه من مناطق البدو الرحل ، إلى مكة؛ وينقلون البن من مكة. هؤلاء الناس من مواطنى الجزيرة العربية يشبهون الفلاحين! وهم أناس اعتادوا السفر والأسفار؛ ولكنى وجدتهم متعصبين لدودين.

قال جابر عندما انصرف أولئك الجماميل: "هل أنت مستعد الآن لزيارة الأمير؟" مضينا قدما؛ وأخذنى من خلال شارع إلى مكان أمام قصر الأمير. وجدنا رفيقا متجهمًا جالسا هناك، فى التراب مثل (سيدنا) أيوب: وكان يجلس معه اثنان أو ثلاثة آخرين ، – ربما كان سن هذا الرجل حوالى خمسة وثلاثين عاما. سألته، 'أين عبد الله الأمير؟' قالوا: "إنه الأمير!" – "(همست) جابر، أهذا هو الأمير؟" – " إنه هو." – سألت الرجل،"هل أنت ولد مهنا؟" أجاب ،"إى." "(قلت): هل جرت العادة هنا أن يسرق الناس أشياء الغرباء فى وسط مدينتك؟ لقد أكلت من عيشك وملحك؛ وسطى على خدمك وأنا فى الفناء (الحوش)." – "الذين سرقوك كانوا من البدو." – " ولكنى عشت مع البدو؛ ولم يسرقونى فى أى منْزل من المنازل التى عشت معهم فيها: ولم يضع منى مطلقا أى شىء من أشيائى فى أية' خيمة من خيام المضيفين الذين استضافونى. تقول: إنهم كانوا بدوا؛ ولكنهم كانوا رجال الأمير!" – عبد الله: "أقول إنهم جميعا كانوا من القحطان." طلب أن يلقى نظرة على 'ساعتى.' "أنا ليست معى ساعة؛ ولكن هذا هو تلسكوب !" وضعه على عينيه ثم أعاده إلى. قلت، "أنا أعطيك إياه،؛ ولكنك سوف تعطينى ملابس أخرى غير الملابس التى مزقها خدم الأمير." – لم يقبل هديتى، الفلاح ليس على استعداد لإعطاء النصرانى أى تعويض؛ وأنا لم تعد لدى نقود كى اشترى المزيد من الملابس." قال: أنت سترحل اليوم." – " إلى أين؟" – "إلى عنيزة؛ وفى عنيزة

هناك بعض الجمّالة الذين رحلوا عنا بالأمس، وهم ذاهبين إلى قرية سدوس Siddus : وسوف يوصلونك إلى هناك." – فى سدوس (التى يفترض أنها المكان الذى يحج إليه عبدة الأوثان فى البلاد أو "المسيحيين" قبل مجىء محمد (ﷺ) وجدوا "مسلة" قديمة أو إن شئت فقل: عمود قديم، عليه بعض النقوش أو الكتابات. [الجزء الأول ص ٢٤٥ .] ولكن ذلك كان خداعا وتحايلا من عبد الله، فقد كان يكذب علىّ فيما يتعلق بالجمّالة الذاهبين إلى سدوس: ويصيح عبد الله بعد ذلك قائلا: "من Min يشيل Yeshil ، بمعنى من الذى سيقوم بنقل النصرانى على جملة إلى الوادى؟" – التى عرفت فيما بعد أنها منطقة النخيل فى وادى الرماح : قلت له: 'سوف أرتاح اليوم، لأنى كنت مرهقا تماما ولا أستطيع مواصلة الركوب . 'ووافق عبد الله (عن غير طيب خاطر)؛ والسبب فى ذلك أن كل أهل الجزيرة العربية [ساكنى هذه الأرض المرهقة] يقدرون مظاهر وعلامات الضعف الإنسانى – " حسن، حسبما تريد؛ وأنا أحسب أن ذلك يكفيك."

– جاء شاب صغير يعزمنى على شرب القهوة. "قال عبد الله: هم يستدعونك، اذهب معه." تبعت كلا من المراسل هو وجابر : وصلنا إلى بيت من البيوت المهمة فى المدينة؛ وفيه دخلنا إلى صالة بهيجة من صالات القهوة. شاهدت الجدران وكانت مليّسة بالجبس؛ وكان السجاد الفارسى مفروشا من حول وجار القهوة. وشاهدت حطب الغوطة ghrotta (نوع من حطب شجر الإثل الذى ينمو فى النفود) وهو مشتعل فى الوجار، وكان هناك المزيد من ذلك الحطب موضوعا فى كوة فى الجدار ليكون فى متناول مُصلّح القهوة إذا ما أراد المزيد منه: وهذا هو حال الأسر الجيدة كلها فى منطقة القصيم. فى صالة القهوة هذه، كانت تجلس جماعة من الناس الذين كانوا مهندمين فى لباسهم؛ وكان هناك شاب صغير يكتب رسالة يمليها عليه رجل كبير السن والمقام. ولكن انشغال هذا الشاب بالكتابة لم يمنعه من سب النصرانى وتعنيفه، بين الحين والآخر وكان يلعن ذلك الذى كان يقول عنه إنه دين ملوث. – كانت ملامح ذلك الشاب، هى تلك الروح الوحشية التى كانت تعتمل فى داخله! وتوصلت إلى أن مرد كل ذلك 'إلى أن أحداً لم يلم هذا الشاب أو يزجره على ما يفعل. صمت كل هذه اللحى رمادية اللون كان من باب احتقار ذلك الأوروبى؛ أصحاب هذه اللحى لم يكن بينهم

شيء يدعو إلى الاحترام سوى الملابس التى كانوا يرتدونها ! لم أسمع كلمة مشجعة أو متعاطفة من هؤلاء الناس؛ وكنت أتعجب من سبب استدعائهم لى ! وبعد أن شربت الفنجال الثانى غادرت المكان وتركتهم جالسين؛ وعدت إلى المكان الذى كنت أقيم فيه عند جابر، والذى يطلقون عليه اسم قصر الحجيلان (*): وفى قصر الحجيلان هذا التقانى ولد صغير ومعه خبزتين غير مخمورتين، جاء بهما من بيت الضيافة. خبز هذه المدينة مر الطعم وجاف؛ ولم أستطع بلعه حتى فى أيام الجوع.

قصر الحجيلان هذا، بناه عبد الله، ولد عبد العزيز، وهما من أمراء بريدة. وقد قُتل عبد الله على يدى مهنا عندما اغتصب الحكم بمساعدة من الوهابى. وبقى مهنا شيخا على المدينة سنوات عدة، (**) وأبناء مهنا هما حسن (الأمير الحالى) وعبد الله.

وأبناء الأمير الشاب الذى قتل هربوا إلى عنيزة، المدينة المجاورة لهم. – وبعد مضى سنوات عدة، وفى فصل الربيع، وعندما كانت الجماعة المسلحة مخيمة مع الأمير حسن فى النفود، تسللوا أثناء الليل ودخلوا بريدة؛ واختفوا فى منازل بعض أصدقائهم. وفى الغد، وعندما كان الطاغية يمر من المكان الذى كانوا فيه، متجها إلى المسجد الكبير لأداء صلاة الظهر، اندفع أولاد عبد الله نحوه وهاجموه بسكين! وقتلوه فى وسط الشارع. وهنا قام واحد من الخيالة الذين بقوا فى المدينة، بامتطاء صهوة جواده، وخرج من بوابة المدينة، وراح يعدو فى اتجاه النفود! ؟ إلى أن عثر على الغزو وعلى الأمير حسن. – وعندما سمع حسن ذلك الخبر المؤلم أصدر أمره بالركوب والتعجيل بالعودة إلى المدينة، وأن يصل الجميع إلى بريدة فى تلك الليلة.

(*) قصر الحجيلان : ينسب هذا القصر إلى حجيلان أقوى زعماء القصيم وأكثر المناصرين للسعوديين فى عهد دولتهم الأولى ، ولم يقف إلى جانب القوات المصرية أثناء وصولها إلى القصيم بقيادة إبراهيم باشا . (المراجع)

(**) مهنا : كان من أشد المتعصبين للدعوة السلفية ، تم تعيينه شيخًا على بريدة فى عام ١٨٤٨ من قبل الإمام فيصل بن تركى السعودى . وكان مهنا حاكمًا طاغيًا أرهق أهالى بريدة بالكثير من الحملات العسكرية التى كان يقوم بها لصالح السعوديين . (المراجع)

فى الوقت ذاته، تشبث بالمدينة عبد الله، الذى كانت له قدم أقصر من الأخرى؛ وفى ظل كل هذا الخوف والاضطراب، كانت جماعة عبد الله هى الأقوى؛ كما أن أهل المدينة، الذين عانوا طويلا من طغيان المهنا، لم يكونوا على استعداد لمساندة قتل الغير بدون وجه حق. وصمد عبد الله، واستطاع قبل حدوث أى نوع من العصيان، محاصرة الأمراء جميعهم فى بيت واحد.

كان الوقت ليلا عندما وصل عبد الله هو وجماعته المسلحة إلى باب ذلك المنزل الذى كان يحاصر فيه الأمراء؛ ولتوفير الإضاءة اللازمة (لذلك العمل المريع)، قام بإشعال تنور كبير فى الشارع. وراح أبناء عبد الله وقلة قليلة من الناس الذين كانوا أصدقاء لهم داخل المنزل، يقومون بالدفاع عن أنفسهم باستعمال البنادق الفتيلية، من فوق سطح المنزل. - وتقدم بعض الشباب الشجعان الذين كانوا برفقة عبد الله، صوب باب المنزل، وهم يحمون أنفسهم بباب (مصنوع من فلوق النخيل) ومن فوقه طبقة سميكة من التمر وبذلك استطاعوا أن يحموا أنفسهم من حملة البنادق، وتمكنوا من إحداث ثقب، وضعوا فيه البارود ومعه الفتيل. ثم وضعوا جمرة فوق البارود! - ويحدث انفجار مروع ماتت على إثره كل الأرواح التى كانت داخل المنزل، - يضاف إلى ذلك أن شابا صغيرا أصيب بجراح بالغة؛ هذا الشاب (الذى كان يحمل سيفا فى يده) كان مفروضا أن يقفز عليهم من أعلى المنزل، أثناء دخولهم من الباب، ثم يهرب بعد ذلك ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك: وأخذ يجرى هنا وهناك ، ويلعن الجميع ويسبهم إلى أن سقط على إثر طلق نارى أصابه. - وصل حسن أثناء الليل، ووجد قتلة والده، ووجد المدينة هادئة: ومن ثم أصبح أميرا على بريدة. - أمراء آخرون من هذه السلالة الأميرية فى هذه المدينة رأيتهم فيما بعد وهم يعيشون فى المنفى فى عنيزة، كما أن واحداً من بين شقيقين كبيرا السن، كانا من مرضاى، وهما الآن فقيران وضريران، هو الذى يستحق، حسب الميراث، أن يكون الأمير الحالى لمدينة بريدة!

تجولت فى أنحاء ذلك القصر الحزين، الذى يمكن مقارنته بالقصر الموجود فى حائل، من منطلق أن كلا منهما واحد من المقرات الملكية أو الأميرية إن صح التعبير؛

هذا مع الأخذ بعين الاعتبار أن قصر بريدة أصغر من قصر حائل باعتبار أن بريدة أصغر من حائل. ولكن إذا ماقارنا المدينتين ببعضهما البعض، نجد أن حائل بلدة قروية شبه بدوية، وفيها سوق (شارع) أجنبي؛ أما بريدة فهي مركز حضري كبير يغلب عليه أسلوب الحياة السارى فى وسط نجد. وفناء القصر، الواسع مثل سوق من الأسواق، يتصل برمال النفود ! داخل هذا القصر الخرب، عثرت على صالة للقهوة ارتفاعها يقترب من ارتفاع منزل من طابق واحد، من فوق بعض الشرفات – وهذا يشبه الصالات الإنجليزية القديمة من هذه الناحية بالذات، كما أن تلك الشرفات منظمة تنظيما جيداً: الجدران المصنوعة من اللّبن المخلوط بالرمل كانت مزينة بحليات من الجبس. هذا القصر الذى (كما يبدو) يخيم عليه السكون وأكل الزمن عليه وشرب، والذى يقع هنا فى وسط الجزيرة العربية، بنى فى أيام أجدادنا . أعجبتنى الأعمال الجبسية تجيء على جدارن تلك الصالة وذلك القصر الذى بنى من الطين. هذا العمل الجبسى يقفز مثل نبات بفعل أيدى الحرفيين الساميين Semitic ، كما أن تلك الأعمال الجبسية تجيئ بمثابة صورة لما يدور فى أذهان هؤلاء الحرفيين حول الطبيعة! – التى ينظرون إليها ليست نظرة الفيثاغورثيين (*) المحدودة ببضعة خطوط، ولكنها مزينة فى كل مناحيها وغير محدودة أيضا ، ترى هل جاءوا بهذا العمل من الهند؟ فنحن نجد فى سوريا مهارة فائقة فى الأعمال والبنايات المبنية من الطين؛ هناك الصوامع المصنوعة من الطين التى يستخدمها الناس مخازنا، وهناك الوجارات الطينية، وصوامع تخزين القمح، كل ذلك نشاهده داخل أكواخ الناس فى سوريا. وفى لبنان، نجد الجدران والأعمدة المصنوعة من الطين، فى بعض من بيوت الفلاحين الأثرياء، مطلية بطبقة من الصلصال، ومدهونة بطريقة غير مهذبة.

– بدت لى عمارة ذلك القصر المبنى من الصلصال غريبة وعجيبة تماما! [مدى كفاية هذه الوسائل التافهة، فى أيدى هؤلاء الأعراب الحازقة، التى تصل بتلك الوسائل إلى نهاية كاملة من هذا القبيل] . الزينات الحوافية التى يصنعها أولئك البناءون هى

(*) الفيثاغورثيين: الذين يتبعون نظريات فيثاغورث . (المترجم)

ذلك الذى نطلق عليه نحن اسم سن سمك القرش، وأصدق مثال على ذلك هو المضيف الموجود فى حائل. فهو عبارة عن سلسلة من العقود العمياء مستديرة الرءوس، ويجرى تدويرها أيضا كى تسمح بدخول الضوء إلى السور الخارجى، ويجرى طلاء هذه العقود بالمغرة الخضراء والحمراء. وربما كان ذلك الشخص الذى بنى قصر الحجيلان، واحد من المعلمين muallem البغداديين – وهذا هو ما نستخلصه من بعض البنايات المهمة، التى تبعد كثيرا عن أية منطقة من المناطق الحضرية ، وتقع فى المناطق الصحراوية. كان ذلك قبل سنوات، من مشاهدتى لقلعة من القلاع بين أنقاض عزيزة Utherah فى جبل سعير Seir ، الذى يوجد فيه بركة ماء على شكل بئر، يستخدمها الحويطات مسقى لهم ولحيواناتهم : هذا المبنى قديم ولكنه ليس من الأطلال أو الخرائب؛ وهنا قال لى محمود: وهو من بلدة معان 'هذه القلعة بنيت فى زمنه، بواسطة البدو!' سألت وأنا مندهش تماما،" هل البدو ماهرين فى البناء؟" – محمود: "لا، ولكنهم أحضروا معلّماً من دمشق ؛ الذى جعلهم يجلبون أفضل الأحجار من تلك الأنقاض، وبالطريقة التى علمهم إياها ذلك المعلم راحوا يبنون البنايات التى من هذا القبيل." فى تلك القلعة البدوية شاهدت الكثير من المزاغل والعقود، إضافة إلى أن المبنى كله كان مبنيا بالأحجار الغشيمة وبلا ملاط! والبدو يستوعبون الأمور التى لا تكون بعيدة عن مداركهم وخارجة عن نطاق ذكائهم؛ كما أن هناك قبائل تتحول إلى حرّاثين أو إن شئت فقل: فلاحين خلال فصل الصيف. [الجزء الأول] – كان جابر يسكن بين جدران المضيف القديم المتفتتة. مُلاّك الأرض من الفلاحين الجدد فى بريدة لا يعيرون الكرم والضيافة العامة انتباها ؛ الأمر الذى يجعل سكان الصحراء ينظرون إليهم نظرة فيها شىء من الاستخفاف وعدم التوقير.

خرجت مع جابر لشراء بعض الحاجيات من السوق، ومشاهدة البلدة. مررنا عبر سوق يبيع أعلاف الماشية، ومعظمهامن الجلبانيات (*) : ومن خلف ذلك السوق دخلنا

(*) الجلبان: نوع من العشب الذى يصلح علفا للماشية (المترجم)

إلى دكاكين باعة الطعام، – شاهدت معلقا داخل تلك الدكاكين نقانق (*) كبيرة الحجم (من الضأن – ضأن بلاد الرافدين)! كما شاهدت كثيرا من السلال المليئة بالجراد المقدد، فى كثير من الدكاكين الأخرى. هذه السوق فيها أيضا دكاكين لطهى الطعام – وهذا النوع من الدكاكين غير معروف فى حائل شبه البدوية – ويستطيع المرء فى دكاكين طهى الطعام هذه، الحصول على وجبة من الأرز ولحم الضأن المسلوق، أو لحم الجمل نظير بنسات عدة. وبوسع الغريب أن يعيش فى بريدة، فى وسط الجزيرة العربية الرعوية المتنقلة، كما لو كان يعيش فى بلاد الرافدين تماما؛ اللهم باستثناء أن بريدة ليس فيها خمارات . بعض من أولئك الجالسين الذين يبيعون الخضروات كانوا من النساء! – دمشق ليست على هذه الدرجة من التحضر! ولا يوجد فى عنيزة سوى عدد قليل من البائعات الفقيرات. وبريدة التى تعد عاصمة الواحات فى الجزيرة العربية كلها، ترتبط ببلاد الشمال المستقرة عن طريق قوافل التجارة؛ يضاف إلى ذلك أن بنى تميم لا يختلفون عن الدماء المخلطة للأعراب الذين يسكنون هذه المناطق الحدودية.

تدافع الصبية الأوغاد والمتسكعون فى الشوارع على النصرانى الغريب؛ وراحوا يتجمعون حولى ونحن نسير فى الطريق. وبالقرب من المجلس أو ميدان السوق، شاهدنا ذلك السياف الحبشى، جالسا على مصطبة من الطين؛ هذا هو واحد من سيافى الأمير، وقد سبق لى أن رأيت ذلك الوجه مساء البارحة، خارج بوابة المدينة. وهناك راح ذلك السياف الأسمر يعنف جابر ويؤنبه، لأنه يسير معى على هذا النحو أمام الناس؛ ويقف ذلك السياف على قدميه، وفى يده عصا، وراح يلقى بعصاه على عباءات (بشوت) بعض الواقفين، متكلما باسم الأمير. ولما كان جابر بدويا ليبراليا (متحررا)، ولكنه أكثر خوفا من أهل الحضر، فقد بادر بعد أن استمع إلى ذلك الكلام، إلى اقتيادى عبر بعض الشوارع الخلفية ليعود بى على وجه السرعة: إذ كان مفروضا أن أزور قسما آخرا من المدينة، ولكنه عاد بى، من طرق ومسارات منعزلة، إلى المكان الذى يعيش فيه. ووعدنى بأنه سوف يركب معى فى الغد إلى عنيزة؛" قال: عنيزة ليست

(*) نقانق: منبار محشو باللحم المفروم (المترجم)

بعيدة عن هنا." هذه البلدان جرى توقيعها على الخرائط على اعتبار – أن المسافة بين المدينتين تقدر برحلة واحدة: ولكن هذه الأمور لا يمكن الوثوق بها فى خرائط الجزيرة العربية! كان جابر، الذى كانت قامته وسلوكياته تدل على الدم البدوى، من القحطان المقيمين فى القصيم. هذا الجابر، بالرغم من فقره بين أفراد قبيلته، إلا أنه كان سليل واحد من الشيوخ، وقد ترك جابر حياة الصحراء ليصبح واحداً من جماعة الأمير المسلحة فى بريدة. كان وجهه ومحياه الضعيف يوحى بحظه العاثر؛ كان جابر قد تخطى منتصف العمر بسنوات قلائل؛ ولم تكن روحه المعنوية عالية بما فيه الكفاية. أدى الطابع البدوى المعتدل، فى ذلك الرجل، إلى التخفيف من تشدده القحطانى؛ يضاف إلى ذلك أننى كنت ضيف الله عليه فى ذلك اليوم: كان يدافع عن قضيتى فى المدينة، كما كان محاميا ومدافعا عنى عند عبد الله. ولكن روح التشدد لم تنطفئ تماما فى جابر؛ فهناك من يقول:، هذا (الرجل) لا يمكن أن يذهب إلى الرياض؛ لأنهم سيقتلونه هناك!" كان جابر يرد عليهم مبتسما،" إى إنهم غاية فى التشدد هناك؛ وقد لا يطيقون وجوده بينهم." تكلم الرجل أيضا وفى ذهنه تعصب مسلمى نجران [التى يدين سكانها بالإباضية (*) ، شأنهم شأن أهل مدينة مسقط] . كان جابر قد أمضى القسم الأول من حياته فى تلك المناطق الجنوبية: قال: إن وادى الدواسر، ووادى بيشة مليئان بالقرى الجيدة.

دخلت علينا حرارة الظهيرة؛ وذهب جابر لينام فى جزء قصى من تلك البناية المتهالكة. كنت قد رحت فى سنة من النوم فى غرفتى، وفجأة سمعت صوت تزييق الباب القديم المدهون باللون القرمزى، ودهشت لانفتاح الباب! – ودخلت على امرأة شابة قذرة المظهر. سألتها لماذا قطعت علىّ راحتى؟ وجاء ردها مثل الكلام الإنجيلى القديم؛ تخلينى Tekhalliny أنيم anem فى fi حضنك hothnak ؟ ترى، من الذى أوفد هذه المرأة شديدة الوقاحة إلىّ؟ العرب، هم أحط الأعداء، – هل يتطلعون إلى الفرصة التى يستطيعون

(*) الإباضية : أطلق عليها المؤلف خطئًا البياضية Bayadiyyeh . والإباضية فرقة دينية يعتبرها مؤرخو الملل الإسلامية من الخوارج . وتنسب الإباضية إلى جابر بن زيد وعبد الله بن إباض الذى ثار على عبد الملك بن مروان . والمذهب الإباضى من أكثر المذاهب الإسلامية اعتدالاً . وقد انتشرت الإباضية فى عمان وفى بعض المناطق فى شمال وشرق القارة الإفريقية . (المراجع)

من خلالها توجيه الاتهام إلى النصرانى؟ ولكن هذه المرأة الطيبة لم تتراجع ولو لحظة واحدة؛ لأنى عندما أنبتها ورحت أعنفها وقفت لتصب جام غضبها على الغريب وهى تقول: وصوتها يحمل نبرة البؤس الكريه،' أها! النصرانى اللعين! وأننى على وشك أن يقتلنى المؤمنون؛ وأن أولئك المؤمنين، فى الطريق، وموفدين من قبل الأمير للقيام بذلك العمل! وأننى لن أفلح فى الهرب منهم.' – نهضت من مكانى وأعدت الأمتعة إلى مكانها وقفلت الباب مرة ثانية. – ولكنى تعجبت من كلامها، وتأملت أننى من أجل الدين وحده كنت أتعرض لتلك الأضرار اليومية فى الجزيرة العربية. – وهنا عاد إلى جابر بعد أن استيقظ من نومه؛ وحكت له حريمه تلك المغامرة التى حدثت أثناء غيابه: وهنا تركنى جابر وهو يقول: إنه يتعين عليه الذهاب إلى الأمير.

عقب ذلك مباشرة سمعنا أهل المدينة وهم يتوافدون على المنزل ، وأصواتهم وضجيجهم يصل إلينا عبر النافذة، التى كانت تفتح إلى الداخل على شارع من الشوارع، وراح أولئك الناس يرمون علينا الأحجار! – وسرعان ما امتلأ الدرج بأولئك الناس؛ وراحوا يطرقون الباب الذى كانت النساء قد أحكمن غلقه؛ – "وا أسفاه؛ قالت الحريم، وهن يخبطن بأيديهن: ما الذى يمكن أن نفعله الآن؟ لأن هؤلاء الناس الثائرين سوف يقتلوك، وجابر غائب عن البيت." كانت واحدة منهن حضرية، والثانية بدوية: وكلتاهما كانت طيبة فى حق الضيف. جلست أرضا ورحت أقول لهما: " يا أختاى: يجب أن تدافعا عن البيت بلسانيكما." – كانتا على استعداد لفعل ذلك؛ وهنا طلت المرأة الحضرية من النافذة وراحت تشتم وتتوعد أولئك الذين يقومون بتلك الضوضاء والضجيج والهرج والمرج فى الشارع." ها! يا همج؛ من هم أولئك الذين يقذفون الأحجار عبر وداخل سكن الحريم؟ إخص ! من تكونون أنتم؟ – ماذا تريدون ؟ أخزاكم الله! – أوه! هل تبحثون عن خليل النصرانى؟ خليل ليس هنا؛ أنتم أيها الأغبياء، خليل ليس هنا: أبعدوا عنا واذهبوا لحال سبيلكم! أنا أقول، يا للعار عليكم ولعنكم الله." – وصاحت من كانت تقوم على أمر تدبير البيت، فى أولئك الموجودين فى الخارج،" أها! ماذا تريدون؟ – إخص ! من هم أولئك الذين يطرقون الباب على نحو يبغون من ورائه كسر الباب؟ أنتم أيها الشباب الشياطين الذين لا يستحون ! خليل ليس موجودا هنا؛

لقد مضى قدما فى طريقه، اذهبوا وابحثوا عن النصرانى ،اذهبوا، اغربوا عنا! قلنا لكم مرارا إن خليل مضى قدما فى ترحاله، ونحن لا نعرف إلى أين ذهب ، – إخص! [راح الناس يطرقون الباب بالأحجار] أوه أيها الرفاق الذين لا يستحون! هل تودون الدخول إلى بيوت الناس عنوة ، وبالذات إلى سكن الحريم؟ فليبتليكم الله جميعا بوباء من عنده؛ وسوف يعاقبكم الأمير على ذلك" وبينما كانت المرأة تتكلم كان هناك هرج ومرج وحركة أقدام خارج الباب؛ وكانت أصوات ضربات عصيهم وأحجارهم تدوى فى خشب باب البيت. – ومع ذلك أسفر صوت هاتين المرأتين المخلصتين عن تعطيل أولئك المتظاهرين! وكنت أعلق آمالى على الحظ وعلى عودة جابر على وجه السرعة إلى بيته. ولكن لو قدر لأولئك المتظاهرين الدخول إلى البيت لقطعونى إربا إربا، هل أبقى على حياة أول من يقوم منهم بالإقدام على مثل هذا العمل؟ صاحت المرأتان ،" لماذا تطرقون الباب على هذا النحو أيها الملاعين؟ – إخص! هل ستفتحون باب دارنا عنوة بحق وحقيقة؟"

أخيرا عاد جابر إلى البيت؛ وباسم الأمير طردهم جميعا من أمام بيته، وأخرجهم من فناء بيته. – وعندما دخل البيت هز كتفيه وقال لى: "إنهم يطالبون الأمير بقتلك! وهُم يقولون: لم يسبق مطلقا أن دخل رجل نصرانى إلى بريدة: هذه هى الصيحة التى تتردد فى المدينة ، وعبد الله يؤيد ما يذهب إليه الناس! – لقد دافعت عنك أمامه. وإذا شاء الله أن تمضى هذه الليلة هنا بسلام، فسوف أقوم غدا، بعد مجئ ناقتى التى أرسلت فى طلبها، بتوصيلك عن طريق الحوارى المنعزلة إلى مكان بعيد عن هنا؛ أنقلك منه إلى عنيزة." – وبينما كنا نتكلم سمعنا أولئك الحضر وهم يتجمعون من جديد فى فناء المنزل! وكانت الدفعات الأولى منهم تقف على درج (السلم) البيت بالفعل، – وكان الباب مفتوحًا. ولكن جابر كان يهددهم بعقاب الأمير لهم، وطردهم مرة أخرى من بيته؛ ثم إلى خارج فناء البيت. وعندما عاد، سأل زوجته، بنظرة شك، عمن قام بفتح البوابة (من الداخل) ؟ نظرا لأنه تركها مغلقة! قال: إنه يتعين علىَّ الخروج مرة ثانية، كى يتحدث مع عبد الله ؛ ولكنه يتعين ألا يغيب عن البيت وقتا طويلا. أنا لن أتركه يمر، بعد أن يعدنى بإغلاق بوابته ويعطينى مفتاحها (الخشبى) كى أحتفظ به معى.

ولم يبق فى البيت سوى تلك الزوجة المسكينة ، هى وخشب الباب القديم ، الذى يفصل بينى ، أنا الغريب الذى لا حول له وبين ذلك التوحش من جانب أولئك الحضر المتزمتين . وعندما عاد جابر، قال إن المدينة هادئة: فقد، أمر عبد الله ، بناء على وساطة جابر، بعدم الفوضى والتزام الهدوء، وعاد المتظاهرون إلى بيوتهم؛ وترك البوابة مفتوحة.

جاء بعد ذلك بعض المواطنين الرئيسيين لزيارتى: جلسوا حول وجار القهوة وهم يرتدون الملابس البغدادية وغتر سائبة وطواقى حمراء اللون؛ بينما راح جابر يُصلِّح القهوة. ومن بين الجالسين برزت العمامة المدنية (*) الكبيرة شديدة البياض – الخالية من البقع بالرغم من أنه كان ينام وتلك العمامة فوق رأسه، ذلك الأفّاق العجوز من نسل النبى! الذى كان قبل شهر شاهد إثبات على الأضرار التى نزلت أو لحقت بى فى حائل! سألت "من أنت؟" – "أوه! ألا تذكر تلك المرة التى اجتمعنا فيها فى حائل؟" – وهل عدت بهذه السرعة من الهند؟" – "التقيت الأمير، وأنهيت مهمتى معه؛ وأنا لن أذهب إلى الهند إلا بعد الحج ." وعقب انصراف هؤلاء جاء شيخ شاب، جاء إلينا قادما من مخيم الأمير حسن؛ الذى كان يبعد عنا مسافة نصف رحلة فى صحراء النفود Nefud . جلس القادم الجديد بين الحاضرين وبدأ يسألنى؛ وسألته عن الأمير الغائب. واكتشفت أن بداخله حقداً طبيعيا؛ كما اكتشفت أيضا نوعا من الغموض الذى تحول إلى شكل من أشكال البذاءة والصلافة الخطيرة فى ذلك الإنسان. وبعد كلامه الثقيل، أردف متسائلا،" هل أنت نصرانى أم مسلم؟" – "أنا نصرانى، تعرفه كل هذه المدينة؛ اترك لى أنامسألة توجيه الأسئله." – "إذن سوف يقتلك المسلمون، بمشيئة الله ! هل تسمع ما أقول ؟ المسلمون سوف يقتلوك!" هذا الشاب فتح فمه، من باب التكشير فى وجهى، فاكتشفت داخل فمه دوائر حمراء تشبه أسنان البغل. – المؤكد أن حالة التشدد الدينى [بالرغم من منطقيتها!] ليست منبتة الصلة أو العلاقة بالطبع السيئ؛ والذى لا شك فيه أن ذلك الشاب كان من سلالة من السلالات العربية الشقية. وبالرغم من أنى كنت ضيفا على جابر فى هذا اليوم، إلا أنه ابتسم ابتسامة باهتة توحى بالتشدد

(*) نسبة إلى المدينة المنورة (المترجم)

القحطانى، عندما سمع كلاما يكاد يكون شبيها بالعسل عندما يتردد على مسامعهم – 'كافر يُقتل بواسطة المسلمين!' ونظرا لأن ذلك الشاب كان شيخا ورسولا من قبل حسن، فقد دخلت فى دوامة من التفكير وأنا أتدبر ذلك الكلام المسموم. وبعد أن رحلوا، قلت لجابر وحكيت عن شدة إعجاب ذلك الشاب بذاته وتشدده؛ ورد على جابر وهو يهز كتفيه، أن تخمينى فى محله، لأن ذلك الشاب كان رجلا سيئا بالفعل!

– شاءت الأقدار أن يجئ تجوالى فى الجزيرة العربية فى وقت كان فيه الصراع الدينى على أشده [على حد فهمهم] ، [الله وأعداء نبيه] مع النصارى. وهاهم المتشددون يثيرون الصخب والضجيج مع الأمير، وطالما أن الله أوقع نصرانيا فى أيديهم، فلماذا لا يعدمونه؟" أخيرا مالت شمس ذلك اليوم المضطرب إلى الغروب. وبعد الغروب خرجت إلى الشرفة لاستنشاق شىء من الهواء البارد: وعندما عثرت على سلم مكسور تسلقت إلى قسم علوى من سقف المنزل، كى ألقى نظرة على هذه المدينة العظيمة من مدن الجزيرة العربية. – ولكن بعضا من أهل المدينة، الذين كانوا يمشون فى الشارع، صاحوا عندما رأونى،" – أنزل ! أنزل! الكافر ينبغى ألا ينظر إلى أى بلد من بلاد المسلمين." أحضر لى جابر وجبة من لحم الضأن المسلوق ومعه شىء من الأرز (وكان قد اشترى تلك الوجبة من السوق) : وبعد أن أكلت الوجبة قال جابر: إننا إخوان. ثم خرج بعد ذلك للقاء الأمير.

عاد جابر إلىَّ وكله شك وغارق فى أفكاره!' قال: إن الناس بدءوا يتصايحون ويصرخون مرة ثانية إلى عبد الله؛ الذى رد عليهم، بأن يفعلوا معى ذلك الذى يحلوا لهم : لقد قال لهم: إنهم ربما يكونوا قد قتلوا النصرانى بالفعل فى الصحراء؛ لأن عملية القتل هذه لا يمكن أن تتم فى المدينة .' وهنا سألنى جابر، 'هل يمكن أن أتخلى عن زكائبى وجوالاتى وخرجى، أهرب سراً من بريدة سيرا على الأقدام؟' أجبته، " لا! – وقل بحق يا جابر. جابر ! ألا تنوى خيانتى؟" ووعدنى بحكم إخلاصه أنه لن يخوننى." حسن، إذن ما هو الخطر المحدق؟" – "أمل ألا يحدث المزيد من الخطر، هذه الليلة، فى بيتى على أقل تقدير." – "كيف لى بتجاوز الشوارع فى الصباح؟" – "سنتجاوز الشوارع؛

الخطر ليس فى المدينة وإنما فى عملية الملاحقة نفسها." – " كم عدد الخيالة الموجودين فى بريدة، عشرين مثلا؟" – " إى ، وأكثر من عشرين." – " أذهب بسرعة، وقل لعبد الله، خليل يقول: أنا رجل rajol دولة Dowla ، بمعنى ، رجل تؤمنه وتحميه (حسبما هو وارد فى أوراقى) حكومة السلطان: وإذا ما حدث لى مكروه (وأنا ضيف) بينكم ، فإن ذلك يمكن أن يجر عليكم المتاعب. وهل يقبل، أن يعدم رحّال داخل ضمن الحماية الإمبراطورية، بسبب الدين، لمجرد أنه يمر خلال بلادكم، علما بأن السلطان متسامح فى مسألة الدين هذه؟ وأرجو أن تبلغهم أنهم ليسوا هنا فى مأمن، وسط هذه الصحراء؛ نظرا لأن 'ذراع الدولة طويلة!' هل تذكر ذلك الذى حدث فى جدة ودمشق! وهل تذكر كيف جرى عقاب المذنب والمتسبب، وذلك بناء على أوامر من السلطان! "ورد علىّ جابر، 'سوف يذهب ويبلّغ هذا الكلام لعبد الله.'

عاد إلىّ جابر وملامحه توحى بالارتياح ، وهو يقول: إن عبد الله وافق على كلامى: وأنه أصدر أوامره بألا يتعرض أحد للنصرانى أو يسيئ إليه! ووعد، بألا يصيبه أى شر فى تلك الليلة. جابر: "نحن الآن فى أمن وسلام ، الحمد لله! أدخل واسترح، يا خليل؛ حتى يمكنك أن تكون جاهزا فى ساعة مبكرة."

كنت مستعدا للرحيل قبل طلوع النهار؛ ومضى علىّ الوقت كما لو كان مائة عام قبل أن أرحل عن بريدة. وعند شروق الشمس جلس جابر يُصلّح القهوة؛ ولم يكن متعجلا! ولم تأت إلينا الناقة الموعودة. – " ومتى ستجئ ناقتك إلى هنا ؟" – " قبيل الظهر." – " إذن ، كيف سنصل إلى عنيزة هذه الليلة؟" – " سبق أن قلت لك: إن عنيزة ليست بعيدة عن هنا." طلب منى أيضا أدوية لمظاهر شيخوخته وعجزه وكبر سنه. – "فى عنيزة!" – "لا، ولكن الآن؛ لأنى سوف أترك هذه الأدوية هنا." وعندما تسلم الأدوية، بدأ جابر يستغرب مسألة ركوب ناقته إلى عنيزة. خطر ببالى أن المضيف لا يمكن أن يحنث فى يمينه؛ ولكن يبدو أنهم ينفقون حياتهم كلها فى التضليل و الخداع. – هنا جاء القحطانى الذى كان قائدا للعصابة فى المتاعب التى حدثت فى الليلة السابقة؛ وجلس ذلك القحطانى أمام وجار قهوة القبلى؛ حيث كان يود أن يشرب قهوة الصباح.

كان جابر يود أن يجعلنى أصدق أن ذلك الرفيق جرى زجره بالأمس أمام عبد الله: ولكنى لم أرى أثر لذلك الزجر على وجه ذلك الرجل . هذا الشقى الذى آذانى مؤخرا على استعداد الآن للدفاع عن قضيتى! قلت لجارة جابر البدوية، التى كانت تجلس معنا "خبرينى، ألا يتلبسه الجن؟" وهنا رد ذلك الشاب عن نفسه، "إى، يا خليل، أنا أستشعر الجنون فى بعض الأحيان." لقد جاء يطلب دواءا من النصرانى ، – الذى لم يطلبه من واحد من دينه.

سمعت صوت خطو شخص أعرج يصعد سلم القصر: كان ذلك هو الأمير الأعرج عبد الله الذى دخل علينا! وهو يتكىء على عكازه. كان الثوب الذى يرتديه الأمير والغترة التى على رأسه فى منتهى القذارة: جلس عبد الله بجوار الوجار، وراح جابر يصلح المزيد من القهوة. قال عبد الله، – وهو يشير إلى رجل فقير الحال كان يقف عند الباب جاء بصحبته؛" هذا هو الذى سوف يحملك على ناقته إلى عنيزة؛ أنهض ! ، أحضر أشياءك." – "لقد وعد جابر بتوصيلى على ناقته." ولكن مضيفى (الذى لم يكن يقل إلا كذبا) اعتذر عما قاله،' إنه سوف يتبعنا ، عندما تصل ناقته.' أعطى عبد الله الجمَّال أجره، ربع مجيدى، أى ما يعادل أحد عشر بنسا . – حمل الرجل خرجى على كتفيه، وصل بى من خلال شارع معزول إلى جمل بارك أمام كوخه المبنى من الطين. ركبنا الجمل وسرنا خلال الحارات فى طريقنا للخروج من المدينة.

هذا هو نخيل بريدة وأراضيها الزراعية تحيط بنا من كل جانب فى اتجاه وادى الرماح، فى المنطقة ما بين كثيب رملى كبير والطريق المؤدى إلى عنيزة؛ والذى يمتد مسافة ثلاثة أميال فقط إلى (الخُضَار el- Khuthar) . شاهدت آبارهم، المحفورة فى رمال النفود، – هذه الآبار ليست عميقة، وتنزل خلال صلصال أزرق مشوب بالبياض، ومن بعده الصخر الرملى: هذه الآبار المبطنة بمبان جافة [والتى ينظر إليها الناس هنا، كما هو الحال فى غربى الجزيرة العربية ، على أنها من عمل الأقدمين!] يبدأ حفرها وينتهى حفرها أيضا فى القصيم فى اليوم نفسه. الآبار الفرعية، أو إن شئت فقل: الآبار قليلة التكلفة يجرى حفرها على شكل حفر وسيعة فى الرمل، ويصل عمقها

فقط الى طبقة الصلصال؛ وهم يبطنون الجوانب المتحدرة من تلك الآبار بحزم من الحطب والرمل. وفوق فتحة البئر التى تنزل على شكل مربع إلى طبقة الصلصال، يوجد هيكل من خشب الإثل، يستخدم فى أعمال السوانى (*) الخاصة برفع الماء؛ وكل حفرة من تلك الحفر تتسع لاثنتين من تلك السوانى. الجدران المبطنة والتى على شكل مربع. يعمل فى سوانيها أربعة من الإبل ؛ وهناك بعض الآبار المزوجة التى تشتمل على ست أو ثمانى سوانٍ، كى تروى مساحة كبيرة من الأرض، التى تكون على شكل مربع؛ والإبل تسحب من الجانبين. ويصل العمق فى كل بئر إلى سبع قامات: وهذا العمق يصل إلى ثمانى قامات فى نهاية فصل الصيف.

ماذا يكون ذلك الصلصال؟، الأكيد أنه طمى الأنهار، التى كانت تنساب على وادى الرماح فى الزمن القديم، وهذا النهر ربما كان فرعا من أفرع نهر الفرات. هنا فى هذه المنطقة آبار من الزمن القديم؛ وبخاصة بالقرب من نهاية المزارع، فى الموقع الذى يطلقون عليه اسم مَنْزَل Menzil بنى Beny هلال Helal .

تأسست بريدة منذ ثلاثة إلى أربعة قرون مضت: وأهل هذه المدينة معروف أنهم من بنى تميم. وأنا أعتقد ، أن عددهم لا يزيد على ٥٠٠٠ نسمة؛ وإذا ما أضفنا إليهم سكان القرى، والهجر، التى تعتبر ضواحى من بريدة نجد أن هذا العدد يزيد على ٦٠٠٠ نسمة. وبعد أن قطعنا ميلا ثانيا ونحن نسير بجوار نخيل بريدة التقينا شخصا عائدا من بستان من البساتين، شاب صغير كانت ملابسه النظيفة توحى بأنه واحد من أثرياء البلدة . سأل ذلك الشاب جمّالى، الذى كان اسمه حسن، إن كان يحمل منه رسالة لتسليمها لشخص فى عنيزة؛ وعندما بدأ يتكلم معى عرفت أنه كتابى ، أى يقرأ ويكتب." قال ذلك الشاب: آه! أنت نصرانى، فى البلد الذى أنت ذاهب إليه، سيحولونك بمشيئة الله، إلى مسلم!" – تكلم ذلك الشاب أيضا عن قرية سدوس، وهو يحسب أنه عثر فى كتبه القديمة على أن الاسم القديم لتلك القرية كان 'كردوس' kerdus

(*) هذه هى الكلمة الشائعة فى نجد وفى المنطقة الشرقية وهى تدل على معنى كلمة 'الساقية' (وجمعه سوان) المصرية . (المترجم)

وليس 'سدوس' كما هو الآن؛ وقال لى: إن الناس فى تلك القرية عبدوا الصنم Sanam الذى هو عبارة عن صورة فى تلك القرية. كما نظر إلىّ ذلك الشاب كما لو كنت واحداً من أولئك الذين عبدوا الأصنام! – وقد تعجبت عندما رأيتهم يزرعون أشجار الإثل، فوق كثيب بريدة الرملى الكبير، فى تلك الأرض التى لا ينزل عليها الندى ويندر أيضا سقوط المطر عليها ، وبخاصة أن أشجار الإثل تحتاج إلى أن تكون جذورها فوق المياه الجوفية. وهم يغرسون أ شجار الإثل فى الرمل السائب ويروونها مدة عام؛ إلى أن تطول جذورها ثم يتركونها تعتمد على نفسها. شجرة الإثل من الأشجار التى يندر أن يكون لها ساق مستقيم، ولكنها خلال اثنى عشر عاما تتحول إلى خشب (ثقيل هش) لا يصلح إلا فى أعمال السوانى: يضاف إلى ذلك أن أغصانها الخضراء وفروعها جيدة الاحتراق. – ورمال الجزيرة العربية عندما تزرع بأشجار الإثل تتحول إلى غابة خضراء.

ملحق للفصل الحادى عشر

قوس قزح الثلاثى. – ملاحظة بقلم الأستاذ . جى. تيت. – ظهور أقواس قزح الإضافية التى تحدث بين الحين والآخر أمر معروف. وهذه الأقواس ترجع إلى ضوء الشمس المنعكس من بحيرة من البحيرات – أو كما هو الحال هنا من سطح أو أسطح من الأرض الرطبة وماء المطر) وتكون خلف الناظر إلى القوس. ومبادئ علم البصريات توضح أن هناك شمسين، بحيث تكون الشمس الثانية خلف الأفق، فى حين تكون الشمس الأولى فوق الأفق.

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل

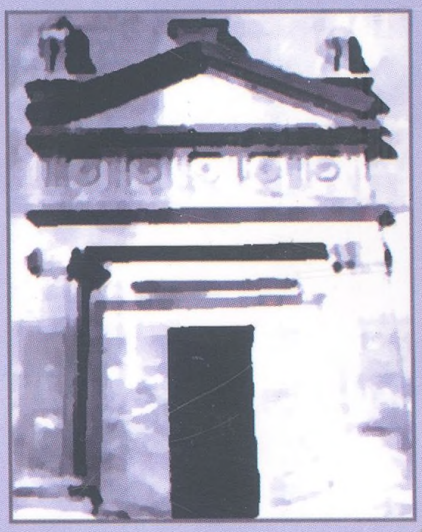

مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى " الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوربيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع معيشته لهم خلال رحلته.

Bibliotheca Alexandrina
0750131

الغلاف: محمود مراد

المركز القومى للترجمة

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

الجزء الثانى ـ المجلد الثانى

المشروع القومى للترجمة

الطبعة الثانية

تأليف: تشارلز م. دوتى

ترجمة: صبرى محمد حسن

مراجعة وتقديم: جمال زكريا قاسم

2/927

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى - المجلد الثانى)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩٢٧ / ٢
- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (ج٢، مج٢)
- تشارلز م. دوتى
- صبرى محمد حسن
- جمال زكريا قاسم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة كتاب:

Travels in Arabia Deserta

By: Charles Doughty

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة.
شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

ترحال فى صحراء الجزيرة العربية

(الجزء الثانى – المجلد الثانى)

تأليـــــــــــف: تشارلــز م. دوتـــــى

ترجمـــــــــــة: صبرى محمد حسن

مراجعــة وتقديم: جمال زكريا قاســـم

٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

م. دوتى، تشارلز
ترحال فى صحراء الجزيرة العربية(ج٢_مـج٢)، تـأليف: تشارلز م. دوتى؛ ترجمة: صبرى محمد حسـن؛ مراجعـة وتقديم: جمال زكريا قاسم. ط٢ – القاهرة، المركز القـومى للترجمة، ٢٠٠٩
٤٥٩ ص؛ ٢٤ سم
١- شبه الجزيرة العربية – وصف ورحلات
٢- الرحلات العلمية
٣- الصحراء الغربية وصف ورحلات
أ- حسن، صبرى محمد (مترجم)
ب- قاسم، جمال زكريا (مراجع ومقدم)
ج- العنوان ٩١٥,٣٠٠١

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٩٢٨٦
الترقيم الدولى: 6 - 192 – 479 – 977 -978
طبع بمطابع صحوة

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصـحابها فـى ثقافـاتهم ولا تعبـر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

الفصل الثاني عشر : عنيزة 7

الفصل الثالث عشر : الحياة في عنيزة 57

الفصل الرابع عشر : طرد المسيحي الغريب عن عنيزة ، واستدعاؤه مرة ثانية 107

الفصل الخامس عشر : حروب عنيزة ، طرد القحطان من القصيم 147

الفصل السادس عشر : مغادرة القصيم ، مع قافلة الزبد المتجهة إلى مكة .. 185

الفصل السابع عشر : الطائف ، الشريف ، أمير مكة 235

الفصل الثامن عشر : وادي فاطمة 277

الكلمات العربية عند دوتي 313

الفصل الثانى عشر

عنيزة

نفود (القصيم). ممر وادى الرماح. النصرانى الذى تخلى عنه الرفيق، يلقى كرما؛ ويدخل عنيزة. وصف المدينة. الأمير زامل. عمه على. أهل المدينة. عبد الله الكنينى. منزله ودراساته. الإفطار مع زامل. النصرانى يجرى إخراجه من دكان الطبابة بواسطة الأمير على. متشدد. الإفطار مع الكنينى. أمراض العيون. الجدرى فى المدينة. شوارع عنيزة. الحياة الدينية والهادئة لهؤلاء الناس. النساء لا ترى. عبد الله البسام. غداء فى منزله. أقارب البسام. نصير السمرى. النهار فى عنيزة. جنة. مزرعة الكنينى. حامد الصافى، عبد الله البسام، الأصغر، والشيخ بن عايض. شيخ عجوز من عتيبة: التشدد. الضعيف والمهترئ. أصدقاء النصرانى. حكاية عمر، الخليفة الأول. الآثار. الكنينى. شريف المدينة الوغد يصل الى عنيزة. البسام الطيب.

وصلنا إلى نفود واسع شاهدت الرمال فيه على شكل سلسلة من الضفاف الطويلة: والناس هنا يطلقون على رمال النفود الخفيفة المتنقلة اسم عدنات **adanat** أو كثيب **kethib** ؛ والجوردة **Jurda** اسم يطلقه أهل هذه المنطقة على الضفاف الرملية الناتجة عن عملية الطقس، كما يطلقون على الضفاف الرملية التى تكون فى اتجاه الريح اسم لوغراف، بمعنى [لحاف **lahaf**] . والجوردة **Jurda** ويصح فيه أيضا جُرْدة **Jorda** [وجمعه جراد **Jerad** بكسر الجيم ، وجيراد **Jerad** بمد الألف] اسم يطلق على الكثيب أو التل، الذى تكون له حواف من الصلصال، الحجر الرملى، والذى قد تنمو عليه الأدغال الصحراوية. الطريق إلى عنيزة، عبارة عن طريق عميق منجرف فى صحراء النفود غير المستوية؛ ولكنى لاحظت فى الرمل (الذى أثرت الريح والمطر عليه مؤخرا)

عدم وجود أى أثر لأقدام الإنسان أو الحيوان! – وبالتدريج راح حسن يحول ناقتنا عن المسار الطبيعى، لتمشى وتمر خلال الكثبان الرملية: وبذلك قل احتمال مرورنا على البدو المعادين لبريدة. والقبائل الكبيرة (التى فى هذه المنطقة هى المطير، وعتيبة، وهما حليفتان لزامل، أمير عنيزة. – زامل ، هذا الاسم كان له وقع طيب فى أذناى: ولقد بلغنى وذلك على لسان أعداء زامل من قبيلة حرب، أن ذلك الرجل كريم المحتد بحق، كما بلغنى أيضا أن: "ولد مهنا" (الذى انضموا بسببه، قبل عامين، إلى جانب ابن الرشيد فى عدائه لعنيزة) كان فظا مستبداً: وعداء قبيلة حرب هذا ، هو الذى جعلنى لا أبدأ مسيرى إلى عنيزة من منازلهم.

النفود هنا تغطيه نباتات برية يدرجها الأعراب ضمن النباتات غير الصحية؛ مما جعلنى أضرب ناقتى كى أبعدها عن الاقتطاف أو الأكل من تلك الأعشاب السامة، ولكن حسنا قال: " لا؛ إبل الحضر تأكل من هذا العشب، لأنه لا يوجد شىء سواه." شاهدنا أيضا صبيا بدويا مترحلاً كان يرعى الغنم: وسألت رفيقى،' متى ينبغى أن نصل إلى عنيزة ؟' – " عند غروب الشمس." كان ارتفاع الأرض هنا عن مستوى سطح البحر لا يزيد على ٢٥٠٠ قدم. وبعد مسير ثلاث ساعات ، عدنا إلى الطريق المعتاد، ورحنا نسير بجوار بعض أشجار الطرفاء الضخمة. 'قال حسن: نقيل **Negil** بمعنى سوف ننزل هنا عن راحلتنا ونستريح فى هذا المكان طوال فترة الظهيرة.' شاهدت حفرا تحت هذه الأشجار، قام بحفرها صيادو الجراد. سألت ' " هل عنيزة بعيدة عن هنا؟" – عنيزة لم تعد بعيدة عن هذا المكان." – " قل لى بحق أيها الرفيق': هل تحملنى فعلا إلى عنيزة ؟" – "أنت لاتصدقنى ؛ انتبه!" (ثم أخرج لى حزمة من الرسائل – ومع ذلك كانت تلك الرسائل تبدو قديمة وبالية)." قال: كل هذه رسائل من التجار ومطلوب منى تسليمها لأصحابها اليوم فى عنيزة؛ ثم أحضر البضاعة من هناك. – لم يسبق لى أن رأيته وهو يتسلم رسالة فرانكلين الصغير الموجهة إلى عنيزة! وجد حسن شيئًا ما فى كلامى ، لأنه لم يتوقف ومضى قدما فى طريقه؛ قد تكون المسافة التى بيننا وبين عنيزة قرابة عشرة أميال. هذه هى التربة قد بدأت تبدو أمامنا على شكل رفوف؛ وعثرت تحت أشجار الطرفاء على قليل من الماء الذى ينبعث من الأرض. وسرعان ما نزلنا

إلى قاع وادٍ من الوديان، لم يكن ذلك القاع مغطى بالحجر؛ وأثناء عبورنا قاع ذلك الوادى رحنا نخوض خلال الماء! سألت، " ما هذا الحوض أو المجرى؟" – الإجابة: " الوادى " – بمعنى أننا كنا (فى منتصف) وادى الرماح. وخضنا خلال الماء (مالغ المذاق) إلى أن وصلنا إلى غابة غير مسوَّرة من غابات النخيل، وجدنا فيها حفرا تشبه المقابر عمق الواحدة منها قامة واحدة تقريبا، ومحفورة بجانب مجموعات من النخيل الصغير إلى بداية المياه الجوفية. هذا النخيل الصغير يرويه الناس طوال العام أو العامين الأولين، إلى أن يضرب جذوره لتصل إلى الأرض المالحة الرطبة.

هذه الغابة من النخيل طولها ميل، ولا يرى خلالها سوى قلة قليلة من جذوع النخل (كبيرة السن) التى تبرز منعزلة عن بقية النخل الصغير؛ والسبب فى ذلك أن تلك المزارع النائية تكون أول الأشياء التى يجرى تخريبها وتدميرها أثناء العمليات الحربية. شاهدت من خلال أشجار النخيل جدارا فنائيا عاليا، يحتمى به المزارعون فى حالة الخطر؛ كما أرانى حسن جزءًا مفتوحا وسيعا من تلك الأرض، خيم فيه ابن الرشيد ، عندما كان يقف إلى جانب ولد مهنا فى مواجهة قبيلة عنيزة. لم نلتق سوى عاملين زنجيين؛ وخلف النخيل كان الطريق يدخل أيضا ضمن صحراء النفود، وبعد مسافة قصيرة على الجانب الأيمن، كانت توجد بعض الممتلكات المسوَّرة وأوقفنا راحلتنا أمام غدير من الحجر، أو إن شئت فقل: سبيل Sebil ، بناه صاحبه فى السور الصلصالى وربطه بالسوانى (السواقى) عن طريق قناة: كان الغدير جافا نظرا لأن أحدا لم يمر بذلك المكان قادما من بريدة أو ذاهبا إليها. سمعنا الصوت الصادر عن السواقى، كما سمعنا أيضا أصوات عمال الحصاد فى الحقول." قال حسن، وهو يضع أشيائى على الأرض: هذا هو مكان الراحة: استرح فى ظل هذا الجدار، إلى أن أذهب وأسقى الناقة. وأين قربة الماء؟ حتى يمكن لى أن أحضر لك ماءًا للشرب؛ فلربما تشعر بالعطش قبل دخول المساء، وذلك عندما يحين موعد دخولنا المدينة، – على حد قول عبد الله؛ وعليك أن تنتبه وتفتح عينيك تحاشيا للبدو وخوفا منهم." تركت الرجل يذهب لما أراد ولكنى جعلته يترك رمحه معى.

بعد أن عاد حسن إليَّ بقربة الماء، أبلغنى أنه أطلق الناقة ترعى:" ووالله يا خليل ، لابد أن أتابع الناقة، انتبه! مخافة أن تضل الناقة طريقها. أعطنى رمحى وسوف ألاحق الناقة وأعيدها، وإلا فإنها ستضل منا فى النفود." – "اذهب لما تريد، ولكن الرمح سيبقى معى." "يا الله أتشك فى رفيقك، هل يصح أن أمشى بلا سلاح ؟ أعطنى حربتى، وسوف أعود لك خلال فترة وجيزة جداً ." خطر ببالى أن هذا الرجل لو كان خائنا، واضطررته أنا إلى نقلى إلى عنيزة، فلربما كشف أمرى إلى الحضر المتشددين فى المدينة: 'هذا النصرانى!' – " ستضيع ناقتنا، لا تعطلنى." – " ألن تتخلى عنى هنا؟" – " لا والله ، وحياة هذه اللحية!" رميت له رمحه على الأرض فوق الرمل، وبعد أن تناول الرمح قال: "أثناء غيابى ،إذا ما احتجت أى شىء ، اذهب إلى نهاية السور من هذه الناحية؛ وعندها سترى أرضا مزروعة بالنخيل، ورجالا يشتغلون. ارتح حاليا فى الظل، وصلِّح لنفسك شيئا من المريسى، لأنك صائم؛ وغط هذه الجوالات والخُرْج؛ لا تسمح لأحد برؤية هذه الجوالات. عنيزة تقع على بعد مسافة قصيرة خلف ذلك العدن adan (كثيب)؛ وبوسعك رؤية البلد من ذلك المكان: سوف أجرى الآن، وأعود إليك ثانية." تركته يذهب لحال سبيله، وراح حسن يعدو خلف الناقة، ثم اختفى بين كثبان الرمال. خطر ببالى فى ذلك الوقت، ذلك الذى يمكن أن يحدث لهذا الرجل، ورميت عنى عباءتى (بشتى) ورحت أجرى حافى القدمين فى النفود؛ ومن فوق واحد من الكثبان الرملية شاهدت حسنا وهو يركب الناقة ويمضى قدما – لأنه تخلى عنى بالفعل ! دار دورة حول نخيل الوادى فى اتجاهه إلى موطنه. وهنا عرفت أنهم خانونى وتخلوا عنى بناء على إيعاز من عبد الله ، وخطر على بالى كلامه عندما قال متسائلا: " من الذى سينقل النصرانى إلى الوادى؟"

كان ذلك هو أتعس المواقف وأسوأ حظ لى فى الجزيرة العربية !عندما تخلوا عنى هنا وتركونى خارج بلدة من البلدان الرئيسية، فى وسط نجد شديدة التعصب من الناحية الدينية. لم يكن يتبقى معى سوى ثمانية ريالات، التى ربما نقلتنى على أقصى تقدير إلى أقرب السواحل إلى هذه المنطقة. عدت إلى أشيائى وسلحت نفسى؛ وقطعت خرائطى إلى قطع صغيرة، – مخافة أن يقبضوا على ويسألونى أمام مواطنين متعلمين يعرفون القراءة والكتابة.

جاءنى رجل وامرأة زنجية من بين النخيل وكانا يحملان حطبا ويتجهان صوب عنيزة: لقد رأيانا أثناء مرورنا، وسألانى سؤالا سانجا،" أين رفيقك وأين الناقة؟" – بعد ذلك واصلت مسيرى بجوار الجدار الطينى، فى اتجاه صوت السوانى (السواقى)؛ ورأيت مزارع النخيل وبيت فى بستان . كان الباب مغلقا بإحكام: وعثرت على باب آخر بعد الباب الأول؛ ونظرت من خلال الثقوب وشاهدت صاحب المزرعة وهو يقود الإبل التى تجلب الماء من الآبار. كان وجه ذلك الرجل بشوشا. دفعت بوابة ذلك الرجل ودخلت عليه فجأة، وقلت له: "السلام عليكم؛" وطلبت منه شربة ماء. توقف ذلك الرجل الطيب برهة كيما يتحقق من الغريب؛ ثم طلب من ابنته الصغيرة إحضار السطل، ثم أوقف إبله كى يتحدث معى." إشرب – إذا ما أردت، ولكننا ليس لدينا ماء عذب." كان مذاق الماء مرًا وغير صالح للشرب؛ ولكن مع ذلك سيكون كأس الماء هذا عهدا بيننا أى بينى وبين هذا الرجل الطيب.

طلبت من ذلك الرجل الطيب أن يقرضنى ناقة أو حمارا يحمل أشيائى إلى المدينة، على أن أدفع له أجرًا نظير ذلك. حكيت له أيضا كيف وصلت إلى هذا المكان ، – بواسطة جمَّال من بريدة؛ والذى تخلى عنى بينما كنت أنال قسطا من الراحة بالقرب من بوابته: وقلت له أيضا: إننى حكيم، وإن كان هناك مرضى فى هذا المكان فإن لدى من الأدوية ما يمكن أن يشفى هؤلاء المرضى. – " حسن، انتظر إلى أن يعود ولدى ومعه الناقة: – (قال لابنته) : سأذهب أنا مع هذا الرجل؛ هذا هو مشعابى! خذيه، ولا تجعلى الإبل تتوقف. – من أنت، غريب، وأين تركت أشياءك؟ لعلك لا تكون تركت تلك الأشياء بعيدا عن مدى رؤيتك وبلا حراسة؛ ماذا لو لم نعثر على هذه الأشياء؟ – الأشياء كانت فى مأمن؛ وحملت الأكياس الكبيرة على كتفى، ورحت أتجه صوب بوابة ذلك الرجل الطيب فى النفود؛ كنت فرحا فى داخلى، لأنى أحمل معى الآن كل ما لى فى هذه الدنيا. طلب الرجل الطيب منى الجلوس (فى الخارج)، فى الوقت الذى ذهب هو فيه لإحضار حمار. – "هل ستدفع لى قرشا ونصف القرش (أى ثلاث بنسات)؟" وهنا توافد علينا ثلاثة أو أربعة رجال كبار كانوا قادمين من المزارع، وكانوا متجهين صوب البوابة المجاورة كى يشربوا قهوة العصر استوقفهم الرجل الطيب وقال لهم:

" هذا غريب، – ولا يستطيع البقاء هنا، ونحن لا يمكن لنا استقباله فى بيتنا؛ وهو يطلب من ينقله إلى البلدة." وردوا عليه، بأنه ينبغى عليه إحضار الحمار وتوصيلى إلى عنيزة." ومن أنت؟ (قالوا لى): – نحن ذاهبين حاليا لشرب القهوة؛ هل سمع أحدكم الأذان؟" شخص آخر:" لقد أذنوا للصلاة فى البلدة، ولكننا لا نسمع الأذان دوما؛ – ألم تصل الشمس بعد إلى موعد العصر؟ ثم نصلى جميعا هنا مع بعضنا." اتخذوا وضع الصلاة، ودخل مضيفى ضمن الصف؛ ونادونى أنا أيضا "هيا، تعال وصل معنا!" " لقد صليت بالفعل." تعجبوا من كلامى، وبدءوا التلاوة والركوع والسجود. وبعد أن انتهوا من الصلاة جاء إلىَّ مضيفى عابس الوجه: قال : "أنت لم تصل!"، واكتشفت من نظرات هؤلاء الرجال، أنهم مقتنعون بأنى لم أكن مسلما. قال كبيرهم: "حسن، اجعلوه يمضى قدما،" ثم دخلوا من البوابة.

وضعوا جوالاتى على حمار. ومشينا فى طريقنا: وبعد أن تعدينا العدان adan (الكثيب) الأول، ومثلما قال لى حسن من قبل، أصبحنا أمام بداية حقول القمح؛ وظهرت لنا أشجار الفاكهة، كما تراءت أمامنا بعض البيوت من بين البساتين البعيدة. – قال رفيقى [وقد كان خائفا!] : "المسافة بيننا وبين البلدة (عنيزة) طويلة، وأنا لا أستطيع الدخول إلى البلدة هذه الليلة؛ ولكنى سوف أتركك مع رجل هنا، اسمه ابن ibn جواد Juad ، وهو ولد نعمة؛ وفى الصباح سيقوم بإرسالى إلى عنيزة." – اقتربنا من طريق واسع وغير مسوَّر، ومضينا إلى أن استوقف رفيقى الحمار أمام بوابة بدائية؛ هذا بيت من بيوت البساتين، وطرق رفيقى باب ذلك البيت وراح ينادى بصوت عال "إبراهيم !" وجاء إلى البوابة والد كبير السن، وفتحها إلى منتصفها ثم وقف ينتظر – وعندما وجد أن ملابسى قد تمزقت (بفعل اللصوص فى بريدة)! ونظرا لأنه لم يكن يعرف أى شخص غريب يمكن أن أكونه – ولكنه خمَّن أننى ربما كنت جنديا هاربا من الحرمين أو من اليمن، والسبب فى ذلك أن كثيرا من أمثال هؤلاء الجنود سبق أن مروا على عنيزة فى الفترة الأخيره. وهنا تكلم صاحب الحمار نيابة عنى؛ وبعدها استقبلنى رب هذا البيت. أنزلوا جوالاتى إلى بيته المبنى من الطين؛ وأدخلوها فى مخزن من المخازن وأغلقو عليها الباب؛ وعليه وبدون أن يتكلم أشار إبراهيم

لى بيده، واقتادنى بعد ذلك ، خارج البيت، إلى البستان، حيث وصلنا إلى "الديوان" (أى مكان الجلوس النظيف المفروش بالرمل ، فى أى حقل من الحقول) ؛ وتركنى إبراهيم فى ذلك الديوان.

كان منظر الأرض المزروعة يسر الخاطر، إذ كانت جذامة نبات القمح ما تزال فى الأرض، إضافة إلى أحواض البازلاء الخضراء، التى يطلقون عليها هنا اسم 'جت' Jet، والتى تستخدم علفا للإبل؛ كما كانت توجد أيضا بعض نباتات الصَّبغ، الذى تستعمل الحضريات زهوره الصفراء فى تلوين خصل شعرهن. وعندما أوشكت الشمس على الغروب، خطر ببالى وقت صلاتهم التعيس! وهنا دلفت بسرعة إلى الجانب البعيد من منطقة أشجار النخيل؛ ولكن خطوط النخيل المنتظمة لم تسترنى: وعندما عدت إليهم عند الشفق، سألونى،" لماذا لم أصل ؟ ولماذا لم أكن معهم أثناء الصلاة؟' ثم راحوا يكررون علىّ أسماء المذاهب الأربعة فى الإسلام ، ثم سألونى بعد ذلك ،" إلى أى منها أنتمى؛ أم أننى (من عقيدة مارقة) أى 'رفضى' rafuthy على حد تعبيرهم؟" – وكلمة 'رفضى' هذه تجرى على ألسنتهم وهى محملّة بالعداء. لم أرد عليهم ، وبقوا مندهشين. وأحضروا لى عشاءًا، عبارة عن شىء من القمح المسلوق، ومعه سطلا أو سطلين من ماء الآبار؛ هذه هى أقصى مراحل الكرم فى هذا البيت البسيط. كنت أتخوف من هواء الواحة (الرطب) وسألتهم عن مكان المقهى أو غرفة القهوة إن صح التعبير. الإجابة: "ليست هنا قهوة، ونحن لا نشرب القهوة." جلسوا صامتين، وراحوا يركزون أنظارهم على الغريب، الذى لم يؤدى الصلاة.

كان ذلك الذى أحضر لى السطل (وهو ليس واحداً منهم) رجل شاب صغير ، صاحب سلوك غريب؛ وكان كلامه يكشف عن تفاهمه الممتاز. طلبت منه أن يتناول معى العشاء. – " لقد تعشيت بالفعل." – " كل حتى ولو لقمة واحدة، على سبيل العيش والملح بيننا" ، وفعل الرجل مثلما قلت. بعد ذلك، وبعد انصراف الجميع، حكيت له عن حقيقة أمرى، وسألته عن البلدة."قال: حسن، أنت معنا هنا الليلة؛ والمسافة التى بينك وبين عنيزة قصيرة، وسوف يوصلونك إلى عنيزة فى الصباح؛ وأنا أحسب، أنه لا خطر عليك

من ذلك – لأن الزامل رجل طيب: يضاف إلى ذلك، أنك مجرد عابر لبلدهم. قل للأمير فى الصباح، وعلى مرأى ومسمع من الناس، "أنا جندى من بلاد Beled عسير" el-Asir (عسير هذه منطقة جيدة من مناطق اليمن أحتلها الأتراك مؤخرا) (*) ." – وبينما كنا نتحدث سويا انطلق صوت أذان العشاء قادما إلينا من اتجاه البلدة! ووقفت فى مكانى على وجه السرعة؛ ولكن أبناء إبراهيم الثلاثة أو الأربعة ، جاءوا إلىّ مرة ثانية، وبدءوا يصطفون لأداء الصلاة! ونادوا علينا ، ونادوا علىّ أنا الغريب، بصفة خاصة وبإلحاح ، كى ندخل معهم فى الصلاة. وأجبتهم: "أنا مرهق تماما، وسوف أذهب للنوم." – العيش والملح أيها الصديق: "نعم – نعم، الغريب يقول الحق، إنه قادم من رحلة طويلة؛ دلوه على المكان الموجود فى الخارج ،الذى يمكن أن يرقد ويرتاح فيه." – " سوف أنام فى البيت وليس هنا، خارج البيت." – "لكن فليصلِّ أولا؛ هو! يا أنت، تعال وصلِّ معنا، هيا، تعال!" – الصديق: "اتركوه وشأنه، ودلوه على المكان الذى سينام فيه."، "ليس لدينا سوى بيت الخشب ." – " حسن، إذن ، اذهب إلى بيت الخشب، ودعوه ينام على الفور." اصطحبنى واحد منهم، إلى عتبة باب من الأبواب: كانت أرضية المنزل غائرة مقدار قدم أو اثنتين ، وسقطت داخل مكان مليء بأغصان نبات الطرفاء الحلوة. وبعد أداء الصلاة جاء إلىَّ كل الأشقاء: وجلسوا أمام الباب فى ضوء القمر الضعيف الخافت وغمغموا، "أنا لم أصل! – وهل يمكن أن يكون ذلك مسلماً؟" ولكنى تظاهرت بالنوم؛ وبعد أن راقبونى مدة نصف ساعة انصرفوا لحال سبيلهم. هذا التدين جديد علينا تماما، من خلال تصرف هؤلاء الشباب الوقحين! ولكنِ الدين السامى Semitic – شديد البرودة ، ذلك النبات الغريب، على التربة (الوثنية) فى أوروبا، يشبه العاطفة الدافقة، عند أتباع كل من موسى (عليه السلام) ومحمد (صلى الله عليه وسلم) قبل طلوع النهار بساعة، سمعت واحداً من أولئك الأشقاء يقترب من غرفة الخشب – كان الهدف من مجيئه التجسس على الغريب وهل سيقوم لصلاة الفجر أم لا! وعندما طلع نهار الغد كان الأشقاء الأربعة يقفون أمام الباب؛

(*) الإشارة هنا إلى الحملة العسكرية التى أرسلتها الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٢ ونجحت بواسطتها فى السيطرة على اليمن . (المراجع)

وصاحوا فيّ قائلين، ما ma صلّيت Sulleyt ، بمعنى 'أنت لم تُصَلِّ !' – أيها الأصدقاء، لقد صليت." – "أين توضأت إذن ؟" – أنا لم أتوضأ، لأنى لم أكن منافقا. جاءنى شقيق آخر من هؤلاء الأشقاء ليستدعينى ؛ وأخذنى معه إلى درج (سلم) المنزل، حيث أوصلنى إلى غرفة صغيرة نظيفة: كان يفرشها بالحصير، ثم وضع أمامى طبقا من التمر الممتاز، معه سطلا من شرش اللبن ؛ وطلب منى أن أتناول طعام الإفطار وهو يقول بلهجتهم المحلية: فُك Fuk الرِّيق er-rig بمعنى 'اجرح صيامك:' (والبدو يقولون rig "ريج" بدلا من rik (ريق) ." اشرب !" قالها، وهو يرفع إلى يداى سطله الذى يدل على الكرم. – ثم أحضر الحمار بعد ذلك ، وحمّل عليه جوالاتى، لينقلها إلى البلدة (عنيزة) . مشينا فى الطريق المسوَّر نفسه، وتجاوزنا بوابة عتيقة وبدائية من بوابات عنيزة . وهنا بدأت تطالعنا جدران كثيرة من جدران البلدة؛ هذا السور أو إن شئت فقل الجدار ، لم يكن سوى قشرة نحيفة فيها كثير من الشقوق. هذا الجدار المبنى من الصلصال يمكن إصلاحه خلال أيام قلائل، وعنيزة لا يمكن الاستيلاء عليها عن طريق التجويع؛ نظرا لأن أسوار المدينة الواسعة تحيط بحدائق النخيل داخل البلدة: كان أهل عنيزة ينتظرون أو يتوقعون نشوب حرب بينهم وبين بريدة.

مررنا على البيوت الأولى وكانت لأناس فقراء؛ وقال الشاب إنه سيتركنى أمام باب من هذه الأبواب، حيث يعيش واحد من خدم (الأمير) الزامل.' وطرق الباب عن طريق الحلقة المثبتة فيه [والتى كما هو الحال فى دمشق] ، والتى يستعملها الناس فى طرق أى باب من الأبواب؛ وهنا فتحت الباب لنا زوجة زنجية ؛ كان زوجها ذلك الرجل الطيب (الذى يمتهن الجزارة) فى السوق. كان زوجها حارسا عاما من حراس الزامل: وهذه الأعمال الخشنة لا يختار لها سوى الزنوج (وهم أناس ليسوا من معدن أصيل). وضعوا أمتعتى فى فناء الإبل الصغير، الخاص بكوخهم الصغير المبنى من الطين ولكنه نظيف. جاء على رب البيت الزنجى على الفور بعد وصولنا ؛ وعندما وجد غريبا واقفا فى حوش بيته، أقبل على الضيف وقبله، واقتادنى إلى داخل قهوته الصغيرة؛ وفى الحال تجمع حولنا، على إثر سماع صوت هاون طحن البن، عدد قليل من الجيران السود أيضا. صلح عليّ القهوة، نظرا لأن القهوة تقدم فى البيوت الفقيرة فى عنيزة .

وبعد تناول القهوة أحضر المسكين لنا صينية عليها إفطار طيب: هذا الكرم كان كبيرا قياسا على ضعف موارده وتواضعها؛ ثم جلس ليأكل معى. – هؤلاء الزنوج الذين ولدوا فى الجزيرة العربية، يفيدون من عادات الجزيرة العربية! فقد رأيت أمام الكوخ مكانا خربًا يطلقون عليه اسم 'الجد' el- Gd ؛ ورأيت فى ذلك المكان الخرب، أو إن شئت فقل 'الجد' خيمة أو خيمتين من خيام البدو البائسين: هذه البقعة أو إن شئت فقل: المكان تركه صاحب المنزل، شاغرا من باب الإحسان ، يضاف إلى ذلك أن ذلك الجد كان يتزود بالماء عن طريق قناة متصلة بالسوانى التابعة لمالك الأرض . وعندما تعرفت عليهم بعد ذلك ، وبعد أن راح ولده يستشير النصرانى ويطلب نصيحته، 'كيف يمكن الاستفادة من هذه الأرض على أفضل نحو ممكن ؟ – نظرا لأن المخلفات التى فى ذلك المكان ، كانت ضاره بالصحة ؛ – 'أجبته ،" حوِّل هذا المكان إلى حديقة عامة؛ "ولكن ذلك كان أمرا لا يرقى إليه فهم هؤلاء الناس.

كنت أخرج وأذهب لمضيفى على طلبا لزيارة الأمير زامل؛ وبالرغم من أن الوقت كان مبكرا جداً، على حد قول مضيفى الزنجى : إلا أن هذه هى بداية شوارع المدينة ، وقد فتح الناس بعض محلات البيع والشراء ؛ والطرق هنا، فى عنيزة، نظيفة. وهذا هو السوق يبعد عنا حوالى ٤٤٠ ياردة تقريبا ، ويكتظ (فى هذا الوقت من اليوم) بأهل المدينة الذين يتنقلون وينتشرون هنا وهناك ، فى كل أنحاء السوق: الناس فى السوق كلهم من الرجال، والسبب فى ذلك أن البنات والزوجات لا يخرجن من بيوتهن إلى هذه الأماكن العامة. – وعند مفترق الطرق قابلنا شابين صغيرين ." ها! قال أحدهما لعلى، هل الغريب الذى معك نصرانى؟" – واستدار الشابان إلىّ وقالا: "تعال باكر يا خواجة:" رددت عليهما ،" أنا لست خواجة، ولكنى إنجليزى ؛ وكيف تعرفتما على ؟" – " وصلتنا بالأمس أخبار قدومك من بريدة: وأنت يا على ، إلى أين أنت ذاهب بهذا النصرانى؟" هذا الرجل المسكين ،الذى بدت عليه الدهشة، رد عليهما بعد أن سمع أن ضيفه نصرانى "أنا ذاهب إلى زامل." – " زامل ليس فى المجلس حاليا؛ ولذلك أحضر النصرانى ليشرب معنا القهوة فى بيتى. قالا: نحن من جدة ومعتادين على رؤية كل أنواع النصارى هناك." اقتادانا إلى الدور العلوى من بيت كبير، يقع بالقرب من ميدان السوق، والناس

هنا يطلقون على ميدان السوق هذا فى القصيم اسم 'المجلس' el-Mejlis : وكانت غرفتهما مفروشة بالسجاد الفارسى.

كان هذان الشابان تاجرين عنزيين فى مدينة جدة. أرانى أحدهما بندقية من طراز ونشستر (تتسع لسبعة عشر طلقة) !' (وكذبا) أن هناك خمسين بندقية أخرى من هذا الطراز فى عنيزة: ووجود هذه البنادق فى أيديهم جعلتهم لا يخشون العمليات الحربية [التى كانوا يظنون أنها قد تنشب من جديد] بينهم وبين ابن الرشيد: وقد سبق لهذين الشابين أن انضما إلى صفوف المجاهدين فى جدة بعد إعلان الجهاد.' وأضافا قائلين: وإذا ما نشبت الحرب بيننا وبين بريده، ألن تكون أنت قائدا لنا؟"

تركنا هذين الشابين على الفور. واقتادنى علىٌ بعد ذلك إلى ميدان السوق (المجلس بلغة القصيم): ومن قبيل الحظ السعيد تصادف أن يكون الأمير موجوداً هناك؛ ومجلس الأمير يقع تحت مدخل مسقوف لميدان السوق، وهذا المدخل يقع على ناصية الشارع المؤدى إلى منزل الأمير المبنى من (الصلصال)؛ هذا المجلس يواجه شارع (سوق) القماش. ومجلس الأمير له جانبان مبنيان من الصلصال أيضا؛ أحد هذين الجانبين مفروش بالسجاد الفارسى، وقد جلس عليه زامل وبجانبه سيفه. وزامل رجل صغير الحجم يوحى وجهه بالبشر، كما توحى عيناه بسرعة البديهة والذكاء: وعندما اقتربت منه كان الاعتدال يبدو على وجهه. وعندما وقفت أمامه نهض زامل بعض الشىء من مكانه وأمسك بيدى وقال لى فى شىء من الود: "تفضل بالجلوس، اجلس !" وجعلنى أجلس إلى جواره. قلت: "أنا قادم من بريدة، وأنا حكيم، أنا إنجليزى، ونصرانى ومعى هذه الأوراق؛ وربما توافق على نقلى إلى الساحل." نظر زامل إلى ذلك الذى وضعته فى يده: وبينما كان يقرأ الأوراق ظهر عدم الارتياح على وجهه، واستمر ذلك مدة لحظة واحدة! ولكنه نظر بعد ذلك إلى الأعلى،" ورد على قائلا: حسن؛ فى الوقت نفسه لا تحاول نشر نفسك على الناس هنا،' أنا نصرانى؛' قل لهم، أنا ana عسكرى askry ، بمعنى 'أنا جندى (عثمانى) هارب. وأنت يا على، عد إلى البيت مع خليل، وأحضره بعد صلاة الظهر إلى القهوة فى بيتى: ولكن حذارى من التمشى فى الأماكن العامة."

مررنا من سوق القمّاشين ونحن فى طريقنا إلى المنزل، كما مررنا أيضا من خلال سوق اللحامين أو إن شئت فقل القصابين. لم يلاحظنا أحد من المواطنين الذين كانوا مشغولين بأعمالهم؛ ولكن رجلا أمسكنى من كم ردائى؛ وعندما استدرت وجدت ذلك الرجل واحداً من أهل الجزيرة العربية الذين يشبهون النساء، وأجسامهم نحيلة، ورأيت أن عينيه كانتا مكحلتان ، وكان يرتدى الزى البغدادى . قال الرجل : أنت، من min أين eyn من أين أنت؟ وهل أنت نصرانى؟" أجبته "إى:" ومع ذلك ، كان كلما سأل أحد عليًا،" من الذى معك يا على؟ كان الزنجى يرد عليه ردًا قاطعا،" غريب، رجل ذاهب إلى الكويت." – كانت عنيزة تبدو بلداً طيبا، وعامرة بكل الأشياء التى يحتاجها الناس هنا فى حياتهم المدنية: مررنا على مسجد جيد البناء ولكن المسجد الكبير كان فى الميدان العام – المبانى كلها هنا من الصلصال (الطين) فى هذه المدينة من مدن الجزيرة العربية.

فى تلك الأيام كان الناس يتحدثون عن الجدل والشقاق الدائر بين عنيزة وبريدة (*) : وبالرغم من أن ولد مهنا كتب لزامل مؤخرا يقول له: أنا ana ولدك weled-ak ، بمعنى أنا ابنك (أخدمك وأطيعك)؛ وبالرغم من أن زامل كان قد سبق له أن كتب لولد مهنا يقول له :" أنا صديقك." "قال على أثناء الدردشة حول وجار القهوة: والله، إن التنقل بيننا وبين بريدة يكاد يكون متوقفا: ولكن، فى خلال أيام قلائل، سيصل إلينا حلفاء زامل قادمين إلينا من شرقى البلاد، ومن الجنوب، وبالذات من منطقة وادى الدواسر." ثم قالوا لى بعد ذلك: أننى ينبغى أن أنتبه أثناء مرورى خلال هذا الشارع الذى يعج بالرجال المسلحين.

بعد أذان الظهر قصدنا إلى بيت زامل (الجميل)، الذى يقع فى طريق مسدود بالقرب من المجلس . كان مقهى زامل مفروشا بالحصير المصنوع من الأعشاب (فقط)؛

(*) تعد بريدة وعنيزة من أهم بلدان القصيم ، ويرجع سبب الشقاق الذى كان قائما بينهما إلى موالاة بريدة للسعوديين على عكس عنيزة التى امتنع أميرها عن دفع الزكاة لهم . ومن ثم استعان السعوديون ببريدة ضد عنيزة مما كان سبباً فى تأجج الصراع بينهما . (المراجع)

وكان يجلس معه قلة قليلة من البشر. كان ولد زامل الأكبر عبد الله، يجلس خلف وجار القهوة، ليقوم بتصليح القهوة. ووصلت أنباء مفادها أن بعضا من حمير أهل المدينة قد جرى الاستيلاء عليها فى النفود بواسطة العتبان (وهم من البدو الرحل الأصدقاء)! – وأرسل زامل فى طلب واحد من مسلحيه الراكبين: وسأله، "هل كان جمله فى البلدة؟" – " الجمل جاهز تماماً – إذن ، خذ معك رجلا آخرا، وقص أثر هؤلاء العتبان ، لعلك تلحق بهم اليوم!" – ولكن ماذا لو خسرت الناقة – ؟" (واحتمال سقوطه فى أيدى الأعداء). رد عليه زامل،" سيكون علىَّ نصف الخسائر المترتبة على ذلك!" وهنا خرج الرجل. كان زامل يتكلم بطريقة ودية، وكان يبدو عليه أنه لا يحب الأوامر؛ ولكن هذا من قبيل اعتدال شيوخ العرب الفطرى. – على ، عم الأمير، دخل علينا مسرعا! كان زامل قد عين علياً قبل سنوات عدة أميرا تنفيذيا فى البلدة؛ وكان من عادة زامل أن يترك عليا نائبا فى عنيزة، عندما يقوم زامل بأعمال حربية أو ميدانية . علىّ أصلا واحد من تجارالإبل ؛ وليس لديه سوى قلة قليلة من الأصدقاء المتشددين. أفسح الجالسون له مكانا، وجلس ذلك الرجل العظيم فى أعلى جزء من المجلس. جلس زامل، الأمير والمضيف فى ذات الوقت، متكئا على مخدة فى مواجهة الجميع؛ فى حين جلس ولده عبد الله وهو يدخن غليونا من التبغ بجوار القهوة! – ولكن التدخين أمر لا يمكن الصفح أو العفو عنه فى الشارع. جهزت القهوة، واتجه ذلك الذى حمل الدلّة والفناجيل، نحو زامل ليصب له الفنجان الأول ؛ ولكن الأمير أشار بتواضع بتقديم الفنجال الأول للأمير على. وبعد أن انتهينا من شرب القهوة، قال زامل لعمه:" هذا الغريب حكيم، وهو رحَّال من الشام: وسوف نرسله، حسب طلبه، إلى الكويت ." – هذا العلى، الذى كان مشبعا بالتشدد الوهابى لم يكن متحمسا حتى لمجرد النظر إلى . "قال: أخ! بلغنى أن ذلك الرجل نصرانى: هل توافق على بقاء نصرانى فى عنيزة؟" زامل: "إنه رحَّال ؛ قد يبقى معنا أياما قلائل ، ولا ضرر من ذلك!" رد على ،"أخ!" وبعد أن أنتهى من شرب فنجالى القهوة، وقف غاضبا وانصرف لحال سبيله. وكان ولد زامل نفسه من رأى جده الوهابى أيضا، وكان عمر ذلك الولد يقدر بحوالى عشرين عاماً: كان وجه زامل يوحى بالجرأة والشجاعة، وكان محياه يوحى بأنه من نسل الشيوخ، ولكن كلامه، كان يوحى

بأنه ميّال للزنوج. وهنا وبصوت ضخم يوحي بالعداء سألني ولد زامل – لأن ذكاءه لم يسعفه بأكثر من ذلك، " ماسمك؟" وعندما انصرف الجميع، أطلعني زامل على ساعديه الملتهبين والمصابين بمرض الهرش الذي يعاني منه منذ عشرين عاما! – لقد شاهدت هذا المرض في قلة قليلة من الأفراد في عنيزة. وقال الرجل، بطريقة العرب: "وأنت إذا ما استطعت شفائي من هذا المرض، فسوف نعطيك فلوسا ! Fulus" .

جاء إلي، على وجه السرعة، بعض الناس الذين كانوا يودون مقابلة الحكيم، وذلك عندما عدت إلى بيت علي؛ وعرض عليَّ واحد منهم دكانا dokan خاليا، أو إن شئت فقل: محلا صغيرا في شارع جانبي قريب من السوق. – وأحضر على حمارا ينقل عليه زكائبي وجوالاتي: وقبيل الظهر كنت أجلس في دكان الطبيب: وخطر ببالي، هل سأجد الراحة هنا، في هذا المكان، من الجزيرة العربية؟ وعندما أذن المؤذن لصلاة العصر؛ سمعنا أقدام قطيع من البشر، والجيران الذين راحوا يتوافدون على المسجد الموجود في نهاية الشارع . – نعم، هذا اليوم هم يبادرون بالذهاب إلى المسجد كما لو كانوا من أصحاب النبي (ﷺ)! قفلت دكاني مثل بقية الدكاكين الأخرى، وجلست بالقرب منه؛ كنت أحسب أن ذلك الإغلاق يمكن أن يحميني من تشددهم الديني. – وانطلق صوت مؤذن البلدة يقول : " الله Ullahu اكبر akhbar (*) ! " الله Ullahu أكبر akhbar ! " .

بعد صلاة العصر تدخل البلدة في فترة راحة وفراغ؛ وهنا تذهب الشخصيات الرئيسية لشرب قهوة ما بعد العصر مع أصدقائهم. وبعض المواطنين الذين كانوا يمرون من ذلك الشارع توقفوا لرؤية النصراني، ويسألونه عن أدويته؛ والسبب في ذلك أن العرب كلهم تقريبا مصابون بالأمراض ، أو يتوهمون أنهم مرضى أو مسحورين. كان سلوك هؤلاء الحضر يتسم بالهدوء، كان الكثيرون منهم من الأطفال ومن الأشخاص العاطلين! ولكن كلام زامل كان يقضي بألا يتعرض أحد للحاج خليل أو يضايقه، – وعليه فإن الكثيرين من الرجال الطيبين الذين سمعوا أنني ذهبت مرات

(*) akhbar لفظها المؤلف "أخبر" بدلا من "أكبر" akbar ، وهذا راجع إلى أن صوت الخاء يصعب لفظه على الإنجليز لعدم وجوده أصلا في لغتهم . (المترجم)

عدة" للقدس،" (أى ، أورشليم) راحوا يستدعونى، لأن ذلك كان يزيد من رصيدى وسلامتى بين الناس. هذا السلوك المتحضر لمواطنى جزء من أجزاء وسط الجزيرة العربية، يختلف عن السلوك (البدوى) لسكان حائل من الحضر، الذين كانوا يرتعدون خوفا من ابن الرشيد: المواطنة هنا حرة فى ظل حكم الأمير الطبيعى، الذى يتحدث كما لو كان رجلا من الشعب، ويحكم مثل شيخ كبير ومهيب، من شيوخ العرب، بين أخوانه من البشر.

زامل ينحدر من السَّباع، الذين يعدون أصحاب المستوطنات البدوية الأولى التى أنشئت فى هذا القاع الغرينى من النفود. وإلى يومنا هذا، فإن عدد هذه الأسر يعد قليلا فى عنيزة؛ وأسر السبيع هنا هى التى فيها الإمارة، ولذلك فهم يقولون: حنا hen-na الأمرا el-umera ، بمعنى' نحن الأمراء'. ومن حيث العدد، فإن أسر بنى خالد أكبر من السبيع'؛ وبنو خالد هم أولئك الأمة القبلية البدوية القديمة، التى كان اسمها فى نجد هو الاسم الأعظم والأعرق قبل الوهابيين (*) ؛ ولكن أكثر من نصف سكان عنيزة من بنى تميم. وفى عنيزة (كما هو الحال فى أى مكان من الجزيرة العربية) هناك بعض المناطق التى يحكمها بعض الشيوخ عن طريق الوراثة؛ ولكن هؤلاء الشيوخ لا يشكلون أحزابا أو طوائف مناوئة، – وكل هؤلاء الشيوخ يخضعون لزامل عن طيب خاطر. هؤلاء الناس الذين تجمع بينهم الوحدة ويعيشون فى ظلها، لا يخشون العدو الأجنبى .

مر علينا أيضا بعض من الأشخاص المهمين أثناء عودتهم من بيوت أصدقائهم إلى بيوتهم. – اقترب منى واحد من هؤلاء ، وقال:" هل لديك معرفة بالطب؟" شخص هذا المتكلم، وملامح وجهه، جعلتنى أتذكر على الفور محمد على الجزائرى، الذى التقيته فى مدائن صالح! ولكن ذلك الشخص الذى يقف أمامى هنا هو ابن طيب من أبناء

(*) بنو خالد : كان تنظيم بنى خالد من أقوى التنظيمات القبلية فى القسم الشمالى من الخليج العربى حيث سيطروا على الأحساء وامتد نفوذهم إلى نجد . غير أن الصراع بينهم وبين السعوديين أدى إلى الإطاحة بنفوذهم فى عام ١٧٩٥ . وعلى الرغم من المحاولة التى بذلها محمد على بعد قضائه على الدولة العثمانية لإعادتهم إلى الحكم ومحاولة الدولة العثمانية إعادتهم هى الأخرى إلى حكم الأحساء إلا أن تلك المحاولات لم يقدر لها الاستمرار وانتهى الأمر بخضوع الأحساء لعبد العزيز بن سعود فى عام ١٩١٣ . (المراجع)

تميم، الذى سبقنى نجمه الحسن، اعتبارا من ذلك اليوم وحتى نهاية رحلتى ، إلى كل أنحاء الجزيرة العربية! أمسك ذلك الرجل بيدى، وهذا دليل من دلائل حنان العرب وحنوهم، وقال : "هل تتفضل بزيارة أمى المريضة؟"

اصطحبنى ذلك الرجل إلى بيته الذى لم يكن بعيدا عن دكانى؛ ودخل هو من باب جانبى ليجيئ من الداخل ويفتح لى الباب الرئيسى: وداخل المنزل وجدت صالة كبيرة لشرب القهوة، مفروشة بحصير مصنوع من الأعشاب، التى يجرى جلبها من منطقة الأحساء. كانت جدران تلك الصالة مزينة بشبكة من الجبس مثل تلك الشبكة التى سبق أن شاهدتها فى بريدة. وكانت هناك سجادة فارسية مفروشة أمام الوجار، لتكون بمثابة مكان يجلس فيه الضيوف؛ وجلس هو بنفسه إلى الوجار لتصليح القهوة. كان ذلك هو عبد الله الكنينى el-Kenneyny الابن الحظيظ سليل أحد البيوت الفقيرة. لقد خرج من عنيزة شابا صغيرا؛ وبعد أولى مخاطر الحظ، ازدهر حاله ليصبح واحداً من أكبر التجار الأجانب. كان عبد الله الكنينى يتاجر فى القمح فى مدينة البُصرة Bosra ، وكان يحيا حياة هانئة فى الخارج؛ لأن صدره لم يمتلأ فى عنيزة، التى كان يحتقر فيها التشدد والتعصب الوهابى. وهو فى هذه الأيام ترك تجارته فى البصرة فى رعاية شقيقه (صالح، الذى قالوا لى : إنه لا يشبهه تماما)، وأن عبد الله جاء ليقضى إجازة مدتها عام فى موطنه؛ أملا فى تحسن صحته المعتلة بفعل هواء نجد.

عندما نظرت فى وجه ذلك الرجل ابتسم ابتسامة حانية. – "قال: هل أنت إنجليزى؟ ولكن لماذا تقول ذلك للناس، فى هذا البلد المتشدد تشددا وحشيا؟ لقد أمضيت سنوات كثيرة فى بلاد أجنبية، فقد عشت فى بومباى، التى تخضع لحكم الإنجليز: تستطيع أن تقول ذلك الذى تقوله لى أنا، ولكنك لا يمكن لك قوله لهؤلاء الناس الجهلة الأغبياء؛ – يا لها من سذاجة! واستغربها تماما عندما تكون من رجل أوروبى. وهل نحن هنا فى بلد تحكمه حكومة؟ لا، إننا فى بلد من بلاد الأعراب، التى يعد فيها اسم النصارى شيئا مقيتا ومكروها. هم يظنون أن النصرانى ابن من أبناء الشر، و(من ثم) فهو يستحق الموت: ونصف سكان عنيزة وهابيون." – " ألا ينبغى ألا أقول

الحق هنا، كما لو كنت فى بلدى تماما ؟" عبد الله: "نحن لدينا أو لنا لسان يخدمنا نحن وأصدقاءنا ويُصلّى أعداءنا؛ ؛ وواقع الأمر أن الكذب أكثر من الصدق فى كثير من الأحيان. – ألا تخاف أن الله سوف يعاقبك إذا ما توافقت معهم من حيث المظهر؟ أليس الخير والشر موجودان فى كل شىء من الأشياء؟" [بما فى ذلك الكذب والنفاق.] – " أنا هنا للعام الثانى، فى هذه البلاد الخطرة، ولا ألاقى نقدا لاذعا أو قاسيا. ألم تسمع المثل الذى يقول: الصدق يمشى فى الدنيا كلها بلا سلاح .' – " ولكن الإنجليز ليسوا على هذا النحو! لا، لقد وجدت الإنجليز مليئين بالسياسة : فى العمليات الحربية الأخيرة التى دارت بين عبد الله وسعود بن سعود أرسل مقيمهم فى الخليج سرا مئات من جوالات الأرز إلى سعود (*) [الجانب المعتدى؛ وبالتالى فإن عبد الله يكره اسم الإنجليز] . – أنا أعرف أنك لن تقتنع بما أقوله! ومع ذلك أتمنى لك الإبقاء على حياتك: ولكنهم لن يطيقوا مقامك بينهم ! سوف تطرد من مكان إلى آخر." – " هذا البلد، عنيزة، بدا لى مكانا مسالما، كما أن أهل هذا البلد متشددون جداً ؟ " – "كما أن الكثيرين، من أهل هذا البلد، الذين سبق لهم السفر، ليبراليون، أى غير متشددين أو متزمتين؛ أما باقى السكان فهم غير ذلك . ألا، يصح الآن أن نذهب إلى أمى؟"

أدخلنى عبد الله فى غرفة من الغرف الداخلية فى البيت، ومن تلك الغرفة صعدنا إلى الطابق العلوى. كان عبد الله قد اشترى هذا المنزل (الصلصالى) الجديد فى العام السابق، نظير مبلغ ألف ريال، ما يقرب من ٢٠٠ جنيه إنجليزى . الأعمال المبنية من الطوب اللبن فى عنيزة جيدة، وجدران البيت المبنى بهذه الطريقة يمكن أن تصمد مدة مائة عام. كان الإيجار الذى يدفعه لبيت من هذا القبيل، قبل عام واحد يقدر بحوالى خمسة عشر ريالا؛ والناس هنا فى الجزيرة العربية ينظرون إلى الممتلكات العقارية باعتبارها نقودا مدخرة، وليست فيها أية شبهة من شبهات الربا، – هى من الممتلكات الشرعية المؤكدة. كانت الفائدة السنوية لكل ١٠٠٠ دولار فى عنيزة تقدر بحوالى ١٢٠ ريال؛

(*) كان للإنجليز دور فى الصراعات التى نشبت فى الأسرة السعودية عقب وفاة الإمام فيصل بن تركى فى عام ١٨٦٥ مما كان سببا فى إضعاف الدولة السعودية الثانية وبداية تصاعد نجم آل رشيد . (المراجع)

ومن ثم فإن الخسارة التى تلحق بعبد الله كل عام كانت تقدر بحوالى ١٠٠ ريال. ولكن إحساس الناس هنا وهم يسكنون فى منازلهم الخاصة، يجعلهم يتمتعون بنوع من الأمان: بالرغم من سرعة تحلل الجدران، وأن ذلك لن يكون فى حياة أبنائهم. كانت هناك غرف جيدة فى الطابق العلوى من منزل عبد الله، ولكن تلك الغرف كانت شبه خالية من الأثاث من وجهة نظرنا، نظرا لأن المنقولات فى تلك الغرف كانت أقل بكثير مما لدى البدو: كل ما كان داخل بيت هذا الرجل يمكن تحميله على ظهور ثلاثة من الإبل ! والبلاد العربية لا تعرف مشتملات أثاث غرف النوم؛ والناس هنا ينامون على الأرض؛ والأغنياء منهم، هم وميسورى الحال لا يفرشون تحتهم سوى مرتبة نحيفة، ويتغطون بلحاف ليس إلا: ولم أر سوى القليل من الصناديق التى كانوا يضعون فيها ملابسهم. ومنازل الناس هنا، فى هذه البلاد المشمسة، يدخل الضوء إليها عن طريق ثقوب طويلة يصنعونها فى أعلى جدران المنازل. ولكن عبد الله لم يكن يعيش فى البصرة فى بيت بسيط من هذا القبيل؛ والسبب فى ذلك – أنه فى جانب العالم الكبير العظيم ، تكون غرف كبار التجار العرب مزودة بالكراسى: وكان تاجر **tajer** عنيزة (شأنه شأن بقية التجار) يجلس على تخت **takht** أو مقعد خشبى مفروش بالسجاد داخل غرفة المحاسبة.

أخذنى إلى غرفة رأيت فيها أمه العجوز ، جالسة على الأرض؛ وترتدى – شأنها شأن كل النساء فى الجزيرة العربية، لباسا من القماش مصبوغا باللون النيلى. وغطت العجوز وجهها، عندما دخلنا الغرفة، بقناع ! ابتسم لى عبد الله، ونظر ليرى "رجلا من أوروبا" وهو يبتسم. "قال: يا أمى ، أنا أحضر لك الحكيم؛ قولى: ما الذى يتعبك، وأسمحى له بالنظر فى عينيك : "وبيد حانية راح يرخى عليها قناعها." قالت: أوه! رأسى يؤلنى؛ وهذا الجانب كله يؤلنى بشكل لا أستطيع معه النوم، يا ولدى." عبد الله ربما كان فى الأربعين من العمر؛ وبالرغم من ذلك كانت أمه تشعر بالخجل، من – أن ينظر رجل غريب إلى عينيها. – عدنا إلى غرفة القهوة صديقين حميمين. "قال : أمى امرأة مسنة، ومريضة ، أنا أحزن عندما أراها هكذا: وأنت إذا ما استطعت مساعدتنا، فإن ذلك سيكون عونا وعزاء كبيرا لى."

– أردف عبد الله قائلا: " أنا الآن فى حيرة! من أنك يتعين عليك أن تعلن فى هذا البلد، أنك إنجليزى؛ إذ كيف لك – أن تمضى هنا يوما واحداً فى أمان ! لقد عشت مع البدو؛ نعم، ولكن الأمر هنا مختلف فى حياة المدن." – " أنا أزعم ، أن الأخطار التى من هذا القبيل لا تنطوى على شىء أكثر من الحماقة." – " هذا يعنى ، أنك لن تعمل بالنصيحة المفيدة! ولكنك ينبغى أن تثق بى تماما من هذه الناحية: فأنا الذى سوف أحرسك، وأحذرك من أى تغيير قد يطرأ على عنيزة." سألت، " وماذا عن الأمير؟"، – "يمكنك أن تثق بزامل أيضا؛ ولكن زامل نفسه قد يعجز فى بعض الأحيان عن السيطرة على حشود الناس."

– فى غرف العرب المبنية من اللبن ، والتى لها نوافذ لا تفتح مطلقا، يكون الهواء حلوا وجافا، تماما مثل هواء الحقول المفتوحة الوسيعة؛ كما يفوح من تلك الغرف عبق حياة إنسانية مضيافة، لا تعرف السطحية الخادعة: ومع ذلك لا تكون الحياة الإنسانية هنا كاملة أو صحيحة، إذ ما بدأنا ندرك بصورة متدرجة غياب المرأة عن هذه الحياة. يضاف إلى ذلك أن الجدران المكشوفة للرياح لا تسر الخاطر: الصور – تلك الصور الجميلة التى تزين أفقر منازلنا، ليست هنا سوى أشياء دنيوية وتافهة من منظور التقشف الإسلامى. هؤلاء العرب، الذين يجلسون على الأرض، يرون العالم رؤية تكاسل أكثر منا: وهم يتعين عليهم الوقوف وهم يتكئون على أجسادهم. – كانت كتب عبد الله موضوعة فى طاقة بالقرب من موقد النار. أصبحنا أنا وهو أخوين، ورحت أتصفح تلك الكتب الواحد بعد الآخر: كان هناك مجلد ضخم موضوع أعلى الكتب: قرأت عنوانا عربيا 'دائرة معارف البستانى، بيروت – هذا البستانى (الذى ولد فى أسرة مسيحية فى إحدى القرى اللبنانية) كان طباعا، وصحافيا، وناظرا للمدرسة، وأديبا أيضا فى بيروت: وهو فى كل عام يضيف جزءاً جديدا إلى دائرة المعارف، ولكن المشروع الذى من هذا القبيل يستغرق إنهاؤه زمنا طويلا. سقطت نظارة عبد الله على موقع كان يتناول الآبار الارتوازية: كان ينظر إلى ذلك الموضوع كل يوم بحثا عن بعض وسائل رفع الماء عله يستفيد منها فى رى أرضه الزراعية دون اللجوء إلى استعمال الإبل فى رفع الماء.

بعد أن أثرى عبد الله من الخارج، أشترى مؤخرا فى بلده بيارة من بيارات النخيل وحقلا من حقول زراعة القمح؛ ونظرا لعدم رضاه عن البئر القديمة، قام بحفر بئر جديدة يعمل فيها ثمانية من الإبل فى رفع الماء من البئر. قلَّبت صفحة أخرى ووجدت "جبل المحرق" وصورة لجبل وبركان أطنة (*) Etna .

وقد سعد عبد الله عندما استمع إلى وأنا أتحدث عن العرب القدامى الذين اغتصبوا أرض صقلية، وأن ذلك الجبل مازال حتى الآن مسمى بلغتهم ، إذ يقال له جبلّو Gibello (وهى مأخوذة من كلمة 'جبل' العربية). قلبت الصفحة بعد ذلك على كلمة "تلغراف"، وتعجب عبد الله، "آه أوروبا بلد الاختراعات! يا لهذه العبقرية العجيبة التى كان عليها ذلك الذى اكتشف التلغراف!" وعندما سألنى طلبا لمعرفة المزيد عن مهنة الطب التى أمارسها؛ قلت له: " أنا تماما مثل حداديكم من الصلّوبة – أحسن من لا شىء ، أى لن تجدوا من هو أفضل منى." ومع ذلك عبد الله يؤمن بأن مهارتى أكبر من ذلك بكثير، والسبب فى ذلك أن كل مرضاى المعقولين شفوا من كل ما كانوا يعانون منه؛ ولكن أمه بصفه خاصة.

وبينما كنا نتحدث سويا جاءنا اثنان من مواطنى عنيزة الذين يعيشون فى بلاد أجنبية، هذان الاثنان كانا مواطنا ثريا هو وخادمه، وكانا يرتديان الملابس البغدادية ، أو إن شئت فقل: ملابس بلاد الرافدين، وكانا يضعان على رأسيهما عقالان، يشبه كل واحد منهما العمامة الكبيرة، ومصنوعان من وبر الجمال. كان الرجل جمَّالا Jemmal ، أى من العاملين فى مجال النقل بالإبل فى حركة النقل بين العراق وسوريا، – أى على طريق التجارة الطويل الذى يدور حول حلب؛ ولكن بعد ضياع القافلة، التى سبقت الإشارة إليها [فى الجزء الأول] – ونظرا أيضا لعدم قدرته على مواجهة تلك المخاطر، باع الرجل إبله واشترى بثمنها حقولا وأراضى زراعية. وهو اليوم واحد من كبار المزارعين فى مستوطنة زراعة القمح الجديدة، فى منطقة العمارة el-Amara

(*) أطنة : فى إيطاليا وهو يمثل أعلى بركان فى أوروبا وأعلى جبل فى جنوب إيطاليا إذ يصل ارتفاعة إلى ١٠٤٧١ قدما، وهو يقع فى إقليم كتانيا شرقى جزيرة صقلية . (المترجم)

(التى تقع على النهر على مقربة من شمالى البصرة)، فضلا عن كونه أيضا زبونا من زبائن الكنينى – والكنينى هذا واحد من كبار تجار الحبوب فى مدينة النهر. وسرعان مادخلت علينا صينية الغداء الذى قدمه لنا ذلك التاجر. وهنا وقفت كى أرحل عن المكان؛ ولكن عبد الله جعلنى أجلس ثانية كى آكل معهم، بالرغم من أنى كنت معزوما فى مكان آخر. – أمضيت ذلك اليوم الوحيد الطيب فى الجزيرة العربية؛ أما الأيام الأخرى فكانت أياما سيئة والسبب فى ذلك هو تشدد الناس. وفى الليل نمت فى شرفة الكوخ الذى كان يعيش فيه مريض فقير، هو جار من جيران على؛ ولم أفضل الدكان غير المكنوس فى النوم، وبحيث لا أكون بعيدا عن الأصدقاء.

جاءنى علىٌّ مع شروق الشمس، قادما من عند الأمير زامل، ليعزمنى على تناول الإفطار – الخبز والملح المقدم (للمسيحى والفرنجى) الغريب، من الأمير اللطيف الفيلسوف. شربنا قهوة الصباح، ونحن جالسين حول وجار القهوة؛ ثم قدمت لنا بعد ذلك صينية الإفطار، وجلسنا حول تلك الصينية فى وسط أرض الغرفة، وكنا ثلاثة الأمير، والنصرانى، ثم على: لأن المقامات والدرجات لا تراعى عند العرب أثناء تقديم الطعام وذلك من منظور حياتهم المنزلية وحياتهم الدينية أيضا. – طعام الفطور فى عنيزة عبارة عن خبز مخمور حار [وهو مر المذاق إلى حد ما بالنسبه لى، ومع ذلك فهم لا يلحظون هذه المرارة، وربما كان ذلك بسبب طحن قليل من الملح مع القمح، على حد قول عبد الله] : ومع ذلك الخبز كان هناك شىء من التمر، وسطل من زبد (البقر) الحلو. وسطل من لبن خض البقر؛ حتى يتسنى للمفطرين أن يشربوا منه بعد تناول الطعام ، عندما يقومون لغسل أيديهم؛ ولغسيل الأيدى كان هناك إبريق من المعدن ووعاء. ويجرى صب الماء على الأصابع؛ وهنا يستأذن المفطرون ويذهبون لحال سبيلهم: وبذلك يبدأ اليوم.

ذهبت إلى دكانى وجلست فيه، حيث أرسل لى زامل بواسطة على فخذة ضأن أتى بها من سوق القصابين، " كى أتغذى غداءً طيبا ." لحم الضأن طيب فى عنيزة: ولحم الإبل يباع للفقراء فى عنيزة. وفخذ الضأن الصحراوى ، الذى يمكن أن يصل وزنه

إلى خمسة أو ستة أرطال يباع بما قيمته ستة بنسات : هذا اللحم، إذا ما أحدثنا فيه بعض الثقوب، وعلقناه فى الشمس الحارقة طيلة يوم واحد، يظل جيدا طوال ثلاثة أيام. والبدو يأتون بحيوانات الغزال حية فى المدينة؛ والتى غالبا ما يشتريها المواطنون لكى يربوها ليلهوا بها أطفالهم: والغزال الصغير يباع بحوالى ثمانية بنسات.

لم أبق فى الدكان فترة طويلة، إذ حضر إلى شخص لكى يخرجنى منه! كان يصيح ووجهه كظيم – أخرج هذه الأشياء !" وهنا صاح الزنجى من جديد،" النصرانى هنا وزامل عنده علم بذلك؛ هل ستتصارع مع زامل!" الآخر (الذى كان عليًا الثانى ، أو إن شئت فقل الأمير التنفيذى) راح يغمغم ويتكلم بكلام غير مفهوم ،" زامل قال: أخ! – الدكان دكانى، وأنا أقول أخرج منه! أوخ ! أخرج من دكانى، أخرج ، أقول أخرج !" ولكن الزنجى صاح بصوت عال مثل الشخص الآخر، "زامل هو أمير هذا البلد، ومن أنت؟" – "أنا أمير." احترم الأمير علىّ شخصى – ولم يوجه لى كلمة واحدة، وكنت على استعداد لإقناعه؛ قال: إن الدكان دكانه. ولكن أصدقائى لم يتصرفوا بالطريقة الصحيحة كى يجعلونى أستقر فى ذلك الدكان وقد يؤدى عنف الأمير على الوهابى، والذى تجلى فى احتقاره للأمير زامل الليبرالى ، إلى استثارة المتشددين فى البلد على النصرانى. – كانت تلك كوميديا العليين. فقد سارع على الأبيض إلى الباب وأغلقه بالمزلاج ؛ وفى اليوم نفسه الذى أخرجنى فيه من الدكان، أخرجنى أيضا من البلد دون علم زامل بذلك. بقيت مع أشيائى فى الشارع، وجاء المارون فى الشارع ينظرون إلىّ؛ ولكن على الزنجى هدد تهديدا شديدا بأن 'زامل سوف يفقأ عينى من يضايقنى وسوف يقطع لسانه ايضا!'

اقتربنا من وقت الظهيرة؛ وعندما أذن المؤذن لصلاة الظهر كنت مازلت جالسا بجوار أشيائى فى الشارع، على مرأى ومسمع من الناس ، الذين كانوا يتوافدون علىّ وهم فى طريقهم إلى المسجد. – "الله! هذا هو واحد من الذين لا يصلون،" على حد قول كل أولئك الذين كانوا يمرون علىّ. بعد هؤلاء الناس جاءنى صبى صغير من البلدة، وكانت ملامحه تدل على أنه يضمر شرًا! وكان يحمل قضيبًا غليظا طويلا فى يده:

مما يدل على تعصبه الدينى – أى أنه كان يضمر حقدا غير إنسانى وقسوة غير إنسانية أيضا! وكانت مهمته ضرب أولئك الذين يتأخرون عن الذهاب لأداء الصلاة. هاهو قد أمسك ببعض الصبية الذين تسكعوا وراحوا ينظرون إلى النصرانى، ثم صاح، " صلوا! أربككم الله!" وراح يسوق أولئك الصبية أمامه. ثم هدد عليا، الذى بقى واقفا بجانبى؛ وعندما سمع ذلك المسكين اسم الله يتردد ، كان لابد من إطاعة النداء. وفى النهاية وقف ذلك الصبى أمامى مكشرا عن أنيابه، – ورفع القضيب الذى كان يحمله فى يده! والذى لا شك فيه أن ذهنه كان عامراً بفكرة توبيخ الكافر وتعنيفه، إرضاء لله (سبحانه وتعالى): ولكنه سرعان ما أنزل القضيب مرة ثانية، – أليس النصارى مشهورين بأنهم مبارزين كبارا؟ فى ذلك الوقت من أوقات الصلاة، خرج بعض البدو [ربما كانوا من القحطان] من منزل قريب منا وراحوا يحُمِّلون إبلهم الباركة. وذهبت للحديث معهم ومعرفة لغتهم: ولكن البدو عندما يكونون فى المدينة يتحولون إلى حضر، ويتحولون إلى أعداء أثناء الرحلات – ؛ ولكنهم طلبوا منى الابتعاد عنهم وهم يقولون: " ما هى العلاقة التى تربطنا بكافر من الكفار؟"

كان علىّ يود منى مفاتحة زامل فى موضوع الدكان. ووجدت زامل فى فترة العصر أمام باب منزله: وقال ، بصوت معتدل: " لن ندخل ، لأن القهوة مليئة بالبدو " [شيوخ المطير، جاءوا للتشاور مع المدينة، حول قيامهم بحملة مشتركة على القحطان] . سرت معه فى حارته، وجلسنا سويا فى ظل جدار على تراب الشارع "هل ضاع منك الدكان؟ قال زامل: حسن، أطلب من على أن يجد لك دكانا آخرا.

– بالأمس جرى السطو على بعض تجار عنيزة وهم فى طريقهم إلى البدو على طريق بريدة وأخذ اللصوص منهم حمولة ثلاثة إبل من السمن – ما يقرب من نصف طن، وهو ما يساوى ٢٠٠ ريال تقريبا: وكان اللصوص الذين سطوا على هؤلاء التجار من القحطان. هؤلاء القحطان المعتدون كانوا من القصيم ويدخلون ضمن تحالف بريدة؛ وأرسل زامل رسالة إلى بريدة يشتكى فيها من ذلك الضرر. ورد عبد الله أمير بريدة، على زامل أمير عنيزة "إن ذلك حدث بواسطة البدو الهمج ولا تجعلنا مسئولين عن

الخطأ الذى ارتكبوه هم." وهنا قام زامل بإرسال ثلاثين رجلا من شبان عنيزة، ومن الأسر الطيبة، التى تمتلك نياقا فى البلدة، أرسلهم للبحث عن اللصوص فى النفود – [وعادوا بعد ستة أيام إلى عنيزة، دون العثور على أى شىء] . لم يتكلم زامل كثيرا عن ذلك الموضوع فى مجالس البلدة: ولكن ذهنه كان مشغولا تماما بذلك الأمر؛ وقيل عنه أنه لم يكن يأكل فى تلك الأيام.

عثر علىّ لى على دكان بائس تماما، إلى حد أن أصدقائى كانوا يتعجبون" هذا بيت للفئران! وليس بيتا للسكنى." ورد عليهم الزنجى ، إنه بحث هنا وهناك، ولكن الجميع كانوا يرفضونه وهم يقولون: " هل سيسكن نصرانى فى بيتى؟" كان صاحب ذلك البيت الخرب رجلا بائسا كبير السن، واحد من المرضى الذين عالجتهم، والذى طلب فى اليوم التالى إيجارا يوميا مبالغا فيه، بالرغم من أنه حصل منى على الدواء بالمجان. وفى صباح اليوم التالى استطاع على إقناع جار زنجى شاب، كانت لديه غرفة علوية صغيرة، خالية؛ بتأجير تلك الغرفة ليقيم فيها الحكيم، ووعده بأن النصرانى سوف يشفى والده الذى يكاد لا يبصر. – ذهبت للإقامة فى تلك الغرفة: وكان الوالد المسن قد حصل على حريته من بيت يحيى (الذين أصبحوا بعد ذلك أصدقاء لى). المضيف الزنجى كان نقاشا؛ إذ كانت مهنته تزيين غرف القهوة وصالاتها بأعمال من الجبس الابيض. ونحن نكاد نرى، حتى فى أحط وأفقر مناطق الجزيرة العربية مدى ولع الناس باللون الأبيض ؛ إنهم يحيطون نوافذهم المبنية من الصلصال بأفاريز من الجبس الأبيض: واللون الأبيض عند أهل الجزيرة العربية معناه الضوء والبهجة، كما أن السواد عندهم يعنى الحزن والكرب. ["نهارك أبيض!" هذه العبارة يرددها الناس فى مناطق الحدود لتحل محل "صباح الخير": يضاف إلى ذلك أن المسلمين السوريين يطلون مقابرهم باللون الأبيض. – وبولس (*) يصيح قائلا: فى هذا المعنى،" أنت بيَّضْت الجدران!"] .

(*) Paul أو بولس ، هو رسول الأمميين (الذين ليسوا من اليهود) يدعوهم إلى رسالة المسيح . (المراجع)

قال الزنجى الشاب، عندما دخلت مسكنه، الآن ! دعهم يدغدغون ويثرثرون ستين ألف مرة، لأنه وافق على استقبال الكافر من أجل عيون والده المسن. وسرعان ما امتلأ مقهى ذلك الزنجى الشاب بأناس من أهل المدينة؛ وكان البعض منهم من الشخصيات الكبيرة. وكان شرفا لذلك الرجل الفقير أن يقدم لهم القهوة، ومن النوع الممتاز؛ وهذه العملية فى ذلك اليوم تكلف ذلك الشاب الزنجى شلنا واحداً، حرصت على أن أعيده إليه. كل هذه الشخصيات جاءت لتكلمنى عن أمراضها وأوجاعها الغريبة، نظرا لأن هذه الاستشارة لن تكلفهم شيئا؛ كانوا يتمنون أخذ أدويته دون أن يدفعوا لها ثمنا، كما كانوا عاقدين العزم ومصممين على ألا يكونوا حسنى النية مع النصرانى . وأنا بدورى كنت راغبا فى مساعدتهم، بقدر استطاعتى، دونما نظر إلى أية اعتبارات أخرى.

مع شروق شمس اليوم التالى ذهبت لتناول الإفطار مع الكنينى: هذه الساعة الباكرة فى ذلك البلد المشمس والمناخ الحار لا تعد من قبيل التبكير المفرط؛ إذ يكون ضوء النهار فيها مشوبا بشىء من الجمال والوقار؛ يضاف إلى ذلك أن الأشخاص الأثرياء يستيقظون لتجديد مباهج الصلاة اليومية، ومباهج شرب القهوة، ومباهج حديثهم الودى عن حياتهم السهلة الخالية من التعقيد. وقد جرت العادة أن تكون مواعيد تناول الوجبات فى الأوقات التى يمكن خلالها لساكن الجزيرة العربية التخفف من أعباء الضيافة. ولكن ساعات ومواعيد عمال الحقول تخضع لمواعيد ومواقيت الصحراء: فالإفطار يقدم عند الظهر، ويكون من بيت رب الأسرة، وهم يتناولون العشاء عند غروب الشمس. يضاف إلى ذلك أن كل أسرة هنا لديها بقرة حلوب.

فى كل صباح، وعندما كنت أمشى فى السوق، كان بعض الأصدقاء الذين كانوا مرضى من قبل، يقومون بجذبى من عباءتى، ويقتادوا الحكيم إلى بيوتهم؛ حيث كانوا يقدمون لى صينية الإفطار وعليها خبزا مخمورا ولبنا . وبذلك كنت أفطر بواقع مرتين أو ثلاث مرات يوميا، وكان عجبى يزيد وصحتى تتحسن . أكثر الأمراض انتشارا بين الناس هنا هى أمراض العيون؛ واقع الأمر أنى فحصت المئات من هؤلاء المرضى! وذلك طوال مقامى فى عنيزة. وحدقة العين تغطيها سحابة بسبب المياه البيضاء والمياه

الزرقاء الناتجة عن الإصابة بالجدرى: والكثيرون يفقدون بصرهم فى عين أو العينين معا، وهم أطفال وذلك بسبب هذه الأمراض؛ كما أن هناك نوعا آخرا من العمى يصيب هؤلاء الناس على إثر المعاناة من صداع قد يستمر سنوات عدة بسبب هذه الأمراض؛ كما أن هناك نوعا ثالثا من العمى يصيب هؤلاء الناس على إثر المعاناة من صداع قد يستمر سنوات عدة ويصيب جانبا من جانبى جبهة الرأس – هؤلاء الناس ليس لديهم دافع إلى التجربة والتجريب؛ ولكننا نسمع أيضا عن وخّاز العيون فى الجزيرة العربية: ولكن الناس هنا لا يعلقون على أولئك الوخّازين آمالا كبارا. هذا هو معالج من معالجى العيون بالإبر سمعنا عن قدومه من شجيرة Shuggera (شقراء) (*) فى العام الماضى لعلاج أمراض العيون فى عنيزة. ومن الأمراض الشائعة أيضا بين الناس هنا أمراض الأنف، وحمى الواحات، وكذلك مرض الطحال: وقد وجدت أن هذا المرض منتشر بين الأطفال. – كان الجدرى فى المدينة أيضا: هذا المرض الذى غاب عن الناس فى هذه المدينة طيلة سبعة أعوام عاد لينتشر بين الناس هنا بسبب بعض الأطفال العبيد الذين جرى إحضارهم مع قافلة الحج أثناء العودة من الحج. كان بعض العاملين فى تلك القوافل يشترون بالربح الذى يتحقق لهم فى مكة، أطفالا عبيدا من جدة، ليبيعوهم بعد ذلك فى القصيم، أو (بأسعار أكبر) فى بلاد الرافدين. وبذلك كانوا يحققون مكسبا على شكل ريالات قليلة: ولكن عنيزة خسرت، بسبب ذلك، وأثناء مقامى فيها، وبخاصة فى عملية التطعيم، خسارة كبيرة! – "خسرت خمسمائة طفل" من أطفالها الأحرار! بالرغم من ذلك فإن العدوى لم تنتقل عبر الوادى إلى بريدة ، ولا إلى أية قرية من قرى النفود القريبة من عنيزة. استدعونى إلى بعض البيوت التى كان فيها أطفال مصابين بالجدرى، ووجدت هؤلاء المرضى يرقدون فى الظلام؛ وقد جرت العادة هنا على عدم إعطاء الدواء لهؤلاء المرضى،" مخافة أن يفقدوا نور عيونهم وبصرهم." وبذلك تمكنت من دخول مساكن بعض أولئك المفرطين فى التشدد: أما الأمراض التى كان يصاب بها

(*) شقراء : تقع بلدة شقراء فى ناحية الوشم وكانت مركز الحكومة فى أيام إغارة عبد العزيز بن سعود ١٩٠١ – ١٩٢٥ . (المراجع)

المرضى الآخرين فكانت عبارة عن نزلات البرد. – معظم بيوت هذه المدينة من مدن الجزيرة العربية نظيفة جداً وتشرح الصدر وكلها مبنية من الصلصال (اللبن).

دكاكين التجار مؤثثة تأثيثا جيداً. الطعام العادى رخيص فى بريدة عنه فى عنيزة، وفى عنيزة "البن المكى" [وهو أصلا من اليمن] أرخص من بريدة ، والملابس الخليجية فى عنيزة أرخص من بريدة. والتمر الذى يباع بالوزن فى القصيم، نوعية ممتازة جداً ؛ ويباع بمعدل ثلاثين رطلا بريال واحد.

وملابس الناس الخارجية هنا توحى باليسر – والناس هنا ملامحهم طيبة ووديدين. وهم يحيون بعضهم البعض بكلام كثير، شأنهم فى ذلك شأن البدو، وكلامهم فيما بينهم فيه شىء من الرقة واللطف؛ والسبب فى ذلك أن كثيرين ممن يعيشون فى بساتين بعيدة عن البلدة يندر أن يجيئوا إليها . ولكن شوارع المدينة تغص بالزائرين فى أيام الجمع؛ حيث يصل إليها كل أهل البلد، وعمال الزراعة عند الظهر، لأداء الصلاة فى المسجد الكبير، ويستمعون إلى تلاوة القرآن والخطبة: يضاف إلى ذلك أن يوم الجمعة هو أيضا يوم السوق فى المدينة. والفقراء من السكان يذهبون إلى عنيزة وهم يرتدون ملابس تشبه ملابس الأعراب؛ كما أن غترهم يلفون حولها عقالاً مصنوعا من الحبال. هؤلاء المواطنون يقصون شعرهم ويقصروه – ولا تجد لأحد منهم خصل الشعر التى يربيها البدو: والأثرياء من هؤلاء السكان يلبسون على رءوسهم (على حد قول الناس) طربوشا يلفون حوله شالاً فضفاضا من لون مرح؛ وهم لا يلبسون ذلك الطربوش إلا عندما يكونون مسافرين خارج محال إقامتهم. أما فيما يتعلق بالهجو haggu أو إن شئت فقل: حزام الوسط الذى هو عبارة عن شريط رقيق مصنوع من الجلد [والذى يطلق الناس عليه فى القصيم اسم هاجوب hagub أوبريم brim] والذى يلبسه الأمراء فى حائل، كما يلبسه أيضا سكان كل من المدينة المنورة ومكة الذين هم أصلا من الجزيرة العربية، هذا الحزام لا يلبسه هنا فى عنيزة سوى الحريم. والأثرياء من الناس هنا فى عنيزة يسافرون وهم يرتدون عباءات (بشوت) مصنوعة من الصوف العراقى الخفيف أسود اللون: والأعيان الصغار ينفقون بسخاء على ملابسهم وبشوتهم

(عباءاتهم)، تكون لها ياقات مطرزة بخيوط معدنية. والمطرزون يكونون فى الأغلب الأعم من النساء ، اللاتى لهن مهارة تركيب مثل هذه الخيوط الإنسيابية، ولهن مهارة أخرى تتمثل فى انسجام وتناغم أعمال الإبرة – مثل الأعمال التى نراها على السجاد الشرقى. الأشخاص ذوى الحيثيات يمشون فى الشوارع وهم يمسكون فى أيديهم عصى طويلة اشتروها خصيصا من مكة كى يتمايلون بها أثناء سيرهم فى الشوارع.

الحريم هنا مغطيات، وسلوكيات الرجال هنا طيبة ولا تسفر عن متاعب أو اضطرابات: وربما يكون ذلك راجعا إلى أن المجتمع الآسيوى هو مجتمع رجولى بالدرجة الأولى ولكنه أقل فحولة عن المجتمع الأوروبى. الرجال هنا يحيون حياة دينية منضبطة على مدى الأيام: والناس هنا لا يعرفون سوى القليل عن اللدغات التى تكون فى مستحلباتنا المضطربة، والتى فى ديننا الأجنبى . عقيدة محمد خفيفة الدم هى التى أفتدتهم من دراسات العالم السطحية، وهى أيضا التى افتدتهم من النبيذ المكروه؛ وعقيدة محمد هى أيضا التى طهّرت أجسادهم من كل مظاهر الإفراط فى الحياة: وهم يتفوقون هنا فقط، ويتفوقون على الشرق كله فى شرب القهوة. والزواج هنا سهل اعتبارا من بلوغ الفتى سن الشباب؛ والزواج عندهم لا يقوم على روابط عقيمة، تجعل الواحد منهم يتحمل هموما كثيرة. وصدر المسلم وسيع، وهو يجد قلة قليلة من الأغصان البرية التى تنمو فى بستان زوجته، – هذه الأغصان تتمثل فى ذلك العامر بالرواح مثل اللغة العربية. ونبل الفضيلة الدينية يسود هنا بين الناس، وليس هناك ما ينغص الحياة بينهم، ولكن الكراهية تكون للكافر: قلة قليلة من الناس هم الذين يجدون صعوبة فى حيواتهم. – ولكن المرأة هنا مسترقة، وقلبها لا يعرف الترفيه أو التسرية عن النفس. والمرأة لا تشاهد فى الشارع أثناء النهار؛ ولكن فى المساء (عندما يجلس الناس لتناول القهوة) يمكنك أن ترى كثيرا من الأشكال المحجبة وهن متجهات صوب منازل صديقاتهن الثرثارات: وهن سرعان ما يعدن عن طريق السوق الخالى من البشر ، مع دخول صلاة العشاء، وذلك عندما يكون الرجال يؤدون الصلاة فى المسجد.

بعد يوم أو يومين من مقامى فى عنيزة جاءنى شاب من أعيان المدينة يعزمنى على تناول الغداء بناء على طلب من والده؛ وذلك الرجل الطيب يقولون له: عبد الرحمن البسام، وهو تاجر من تجار جدة، وعميد بيت البسام فى عنيزة. كان عبد الله البسام هو وعبد الله الكنينى صديقان وفيان، يفطران ويتناولان طعام الغداء سويا، ويزوران بعضهما بعضا لشرب القهوة يوميا؛ علاوة على أنهما كانا فيلسوفين Filasufs مع زامل. وبالإضافة إلى الكنينى وجدت هناك أيضا الشيخ نصير Nasir السمرى es-Simry ، رجل شديد السمرة ومتقدم فى العمر، وهو واحد من الوهابيين المتشددين فى الدين؛ وكان هو أيضا تاجرا من تجار عنيزة فى جدة. كان نصير السمرى قد عاد مؤخرا – بالرغم من عدم ثرائه ثراء كبيرا، ليعيش فى منزل مستأجر فى محل إقامته ؛ وكان شريكا للكنينى كل عام فى شراء عدد قليل من الخيول من البدو الرحل، وكانا يشحنان هذه الخيول إلى بومباى لبيعها هناك.

أهل البسام – الذين هم حاليا فى مقدمة أثرياء عنيزة، جاءوا إلى هنا قبل ستين عاما، وافدين على عنيزة من قرية العروض el-Aruth [عند بلينى Pliny نجد أن كلمة بسامنا Besasmna عند البدو تعنى البُّرود el-Barrud ، وهى قرية تضم ثلاثين بيتا، تقع جنوبى شقراء على الطريق إلى مكة.] بعض من هؤلاء الناس استوطن جدة فى السنوات الأخيرة واستقر فيها ، والتى يعرف فيها أهل شرقى نجد باسم البسام el-Bassam [علاوة أيضا على تسميتهم باسم الشرقيين es- Sherrkyin بمعنى 'أهل الشرق' أو orientals بلغة الإنجليز] ! عبد الله البسام، وهو من بنى تميم واحد من تجار الجزيرة العربية المكرمين الذين يحظون باحترام كبير فى هذه البلاد، بالإضافة إلى أن اسمه يحظى بالشرف والتكريم أيضا فى كل أنحاء نجد؛ وطبيعة هذا الرجل من النوع المرح، وهو متيم بأعمال الخير والأعمال الطيبة. وعندما هاجم ابن الرشيد عنيزة قبل عامين، وقف إلى جانب بريدة، قام زامل وشيوخ عنيزة بإيفاد ذلك الرجل عبد الله البسام صاحب الشخصية الفذة للتفاوض مع ابن الرشيد.

كانت المشكلة على النحو التالي: جاء ابن سعود على رأس غزو كبير وصل إلى عنيزة، ثم نزل ليخيم بين بيارة نخيل رشيد Rasheyd الواقعة خارج البلدة ومدينة عنيزة ذاتها. كان هدف ابن سعود يتمثل في الوقوف في وجه بريدة: وهنا جاء ابن الرشيد من حائل للدفاع عن حلفائه. – وهنا قام عبد الله البسام (ومعه كاتبه ابن ibn عايض Ayith) وعبد الله اليحيى el-yahya ، الشيخ المساعد لزامل بالاتجاه صوب ابن الرشيد ، الذي كان قد أقام مخيمه خلف الوادي. وقال البسام لأمير الشمر: "يا ولد عبد الله! نحن أهل عنيزة نتمنى على الله ألا يحدث بيننا خلاف يستفحل وينتهي إلى نشوب العمليات الحربية بين المسلمين: ونحن نرغب أن نكون واسطة سلام بينكما." محمد بن الرشيد: "وأنا من أجل هذا جئت إلى هنا، على أمل أن يحل السلام." – في النهاية اتفق الاثنان على أن ينسحب ابن سعود من هذه المناطق؛ ومن ثم يعود ابن الرشيد هو الآخر إلى موطنه. لم يكن حوار الاثنين خلوا من كلام الفخر الذي ورد على لسان حمود العبيد نيابة عن ابن الرشيد ؛ وفي ذلك الصدد كان ذلك الرجل الذي من سلالة الأمراء يتصرف" كما لو كان بدويا من البدو." – بقي هذا البسام الطيب طيلة أيام ثلاثة ضيفا على الأمير الشمري؛ وقبيل مساء اليوم الذي كان سيرحل فيه أمر الأمير محمد رجلا يدعى مفرج Mufarrij أن يقتاد الفرس الحمراء للشيخ عبد الله! ولكن المواطن الحصيف والمواطن الحق، لم يكن على استعداد لقبول عطية من ابن الرشيد، من هذا القبيل. قال الأمير: 'إذن أحضر الناقةَ، أَرْكِب الشيخ عبد الله ! 'أو قبل عبد الله البسام تلك العطية؛ وهنا كسى الأمير ابن الرشيد الرجلين المجيدين والسفيرين من عنيزة وأعطى كل واحد منهما عباءة قرمزية اللون وغترتين حريريتين؛ ووزع ملابس على كل من جاءوا معهما: ثم عاد الرجلان إلى عنيزة: – كانت العائلات البسامية الأخرى في عنيزة، وبالرغم من اتجارها فترة من الزمن مع الفرنجة في الموانى (وذلك باستثناء عبد الله آخر صغير، يعد حاليا من بين التجار الأجانب في البصرة) كانت كل هذه العائلات وهابية بحق وحقيقة. قال الناس عن عبد الله :" إنه رجل طيب، ولكن أولاده عفون afun بمعنى (فسقة)" وربما كان ذلك راجعا إلى الملاريا الأخلاقية التي كانت سائدة في – مدينة مكة التي تشبه الميناء، أو ربما يكون ذلك

راجعًا إلى الأشياء التى لا يراعيها كثير من الآباء الأمناء، الأمر الذى يجعل سلالتهم النسبيه معيبة من ناحية الأم.

كان الشيخ نصير من عائلات بنى خالد: والبدوانية فى بنى خالد أكثر منها فى بنى تميم. وبالرغم من – آراء الشيخ نصير المتصلبة إلا أنه كان يرد علىَّ أفضل من الآخرين، وكانت ردوده تمتاز بالصراحة التلقائية فى ذات الوقت؛ وبخاصة عندما كنت أسأله عن تاريخ وطبوغرافية هذه البلاد: وقام فى بداية الأمر، وباستخدام القلم، باقتفاء أثر ومواقع الحَّرات الجنوبية، – بنى عبد الله ، كشّاب Kesshab التُّراعة Turra ، العشيرى Ashiry ، العجيفة Ajefia ، (روضة Rowda ، جهينة Jeheyna ؛) التى جرى وصفها هى والسلسلة البركانية فى هذا الكتاب، هذه الحرّات لم يسمع الناس عنها أى شىء فى أوروبا قبل الرحلة التى قمت بها أنا إلى الجزيرة العربية. قبل وقت قصير من قيامى برحلتى كان الشيخ نصير قد أفاد كثيرا من سنوات المنفى التى أمضاها فى مناخ البحر الأحمر، ومعه تاجران آخران من تجار جدة، فى شحن البضاعة إلى الهند. ومعروف أن الأخبار يصعب انتقالها خلال أرجاء الجزيرة العربية فى غير موسم القوافل؛ ولكن ذلك الرجل كانت تصله تلك الأخبار ، فى تلك الأيام عن طريق أناس كانوا يأتون بالمصادفة البحتة من مكة، نظرا لأنهم لم يسمعوا أية أخبار عن سفنهم منذ إقلاعها! وأنهم كانوا يخشون أن تكون السفن قد ضاعت. هؤلاء التجار الأجانب لا يمكن أن يغطوا مطلقا أخطار الحريق أو الأخطار البحرية، عن طريق بوالص التأمين، – لأن ذلك فى نظرهم من الأعمال غير الدينية! وفى نفس الوقت كان الشيخ نصير على يقين من أن الله يكون فى عون المسلم الحق.

– كانت تلك أفضل صحبة لى فى المدينة؛ فهذه صينية الغداء قدمت وأعدت وهى موضوعة فوق مقعد مستدير [الطعام يقدم على الأرض فى منازل أمراء حائل – انظر الجزء الأول] ؛ وجلسنا على ركبنا من حول الصينية . وجبة التجار الأجانب فى عنيزة تشبه وجبات الحضر إلى حد كبير وعلى نحو لم أر مثيلا له فى الجزيرة العربية: وبالإضافة إلى الطلى المسلوق الموضوع فوق كومة من الأرز، قدم لنا عبد الله

أطباقا صغيرة من الجزر المحمر فى الزبد، فضلا عن أطباق الكستر أو إن شئت فقل اللبن المطبوخ. ونحن إذا كنا نجلس على راحتنا حول المائدة الأوروبية، ونتكلم أيضا على راحتنا؛ إلا أن مثل هذه الأمور مع الأطباق العربية تعد أمورا غير لائقة وسلوكا غير معقول أيضا! – من يتكلم فى هذه المعركة التى تدور بين الأسنان لا يعد رجلا وإنما قاتلا للغير. وفى أى نوع (وأرجو أن تسامحونى فى ذلك أيها الأصدقاء الأجواد الثلاثة! فى الطقس المقدس الخاص بالعيش والملح ،) يمكن أن يتلقف كلب أو قط لحمه، دون أن يلتقط أنفاسه، ويطرد بلا فضول، ثم يجرى بعد ذلك ليشرب؛ والعرب يفعلون ذلك، حتى يتمكنوا من الوصول إلى النهاية على وجه السرعة: إذ من العيب عندهم أن يطيل الإنسان النظر إلى طبق الطعام ؛ فى حين هناك أشخاص آخرون أكثر (تواضعا) يتطلعون إلى تناول الطعام عقب الجماعة الأولى. عبد الله البسام الطيب ، لكى يكشف لذلك الغريب الأوروبى عن المزيد من العطف والحنان، كان يقطع لقيمات من لحم طليه ويضعها فى يدى بالفعل. – يقول كل ضيف من ضيوف الحضر عندما ينهض واقفا بعد أن ينتهى من تناول الطعام، "يرحمك Yerhamak الله Ullah"، ويقولها بحس دينى وفى شىء من التواضع. كان بسام بنفسه هو وأولاده، يمسكون المنشفة للضيوف، ويقفون خارج الغرفة، فى الوقت الذى يقوم الضيوف فيه بغسل أيديهم. وتعود الجماعة إلى الجلوس أمام وجار القهوة؛ وكان ولده الأكبر قد جلس بالفعل أمام الوجار لتصليح القهوة.

عزمنى الكنينى على تناول الإفطار معه فى صباح اليوم التالى؛ وبعدها نقوم بزيارة بستانه (وهم هنا يطلقون على البستان اسم جنينى jeneyny) . "قال الشيخ نصير، عبد الله سوف يطلب منك طريقة لرفع الماء أفضل من الطريقة التى نستخدمها حاليا فى عنيزة، التى يقطع الجمل فيها مسافة خمس عشرة خطوة من أجل دلو واحد من الماء فى كل مرة ! وأنت ، أيها الرجل الأوروبى يمكن أن تساعدنا فى ذلك لأننا نفترض أنك قد تعلمت الهندسة؛ وربما تكون قد قرأت بعض الكتب التى تتناول الماكينات ، العجيبة فى بلادكم." – قد يبذر حقد نصير

الوهابى وغله بنور الشقاق فى أرض صداقتنا، كما أنه جعلنى أتبين حنان الكنينى المتزايد! الذى رد بدوره هو الآخر، إنه كان يود أن يسأل خليلا عن رأيه فى هذا الموضوع. كان الشيخ نصير يتخيل الوصول إلى انسياب الماء بما فيه الكفاية لرى قسم كبير من أرض عنيزة! – كنت قد رأيت فى ذلك اليوم عربة يد على عجلات ، أمام محل حداد من الحدادين! وهذا منظر لا يقل غرابة فى بلد من بلدان الجزيرة العربية، عن وجود الجمل فى أوروبا؛ هذه العربة اليدوية جرى صنعها هنا لحساب الكنينى. كان الصانع قد ثبت أطراف إطاراته بطريقة غير سليمة، مما أدى إلى تداخلها مع بعضها البعض: ولكن بقية المكونات كانت مركبة بطريقة جيدة؛ وفى نجد كلها (وبخاصة فيما يتعلق بسوانى الماء – التى جرت العادة أن تكون كبيرة) هناك كثير من الصناع المهرة الذين يجيدون هذه الصنعة ويتقنوها. كان تمر عبد الله قد جرى نقله إلى منزله بواسطة عربة اليد، فى موسم الحصاد الأخير؛ وكان الناس يتعجبون كيف يستطيع رجلان أن يحملا ذلك الذى يمكن أن ينقله جملان أو ثلاثة من الجمال.

بعد أن ينتهى الضيوف من شرب القهوة ينهضون الواحد بعد الآخر ويرحلون وهم يقولون: ينعم **Yunaam** الله **Ullah** عليك **aleyk** ويرد المضيف قائلا: فى **Fi** أمان **aman** الله **illah** . فى الصيف هناك ساعتان من ساعات النهار؛ وفى هاتين الساعتين يتمشى أصحاب الأرض لاستنشاق الهواء وزيارة بساتينهم.

وفيما يتعلق بتوزيع زمن النهار فى عنيزة: فالناس يشترون مؤنهم من على طاولات العرض، فى السوق وذلك عقب شروق الشمس مباشرة؛ ولكن المحلات تفتح أبوابها بعد ذلك بوقت قليل ، عندما يبدأ التجار (وغالبيتهم من الأشخاص الميسورين ملاك الأرض) يتوافدون على محلاتهم بعد تناول الإفطار . هؤلاء السماسرة والوسطاء يصيحون هنا وهناك فى شارع القماشين، وما إلى ذلك من الشوارع الأخرى، وهم يرفعون الأشياء فى أيديهم بعد أن عهد إليهم أصحابها ببيعها بالنقد ، – بنادق طويلة، رماح ، دلال القهوة، العباءات (البشوت) ، وقامات من القماش، وما إلى ذلك . وهم ينادون على هذه الأشياء بالثمن المحدد لها؛ وإذا ما نادى عليهم أحد من الناس فإنهم يتوقفون

ليعرضوا عليه بضائعهم . قطع الملابس التى يحضرها العاملون مع القوافل، من مدينة بغداد، يجرى فى معظم الأحيان تسليمها لأولئك الدلالين، كى تباع على الفور وبالنقد، هؤلاء التجار تقل حركتهم المالية والتجارية فى الأيام التى لا يأتى البدو فيها إلى عنيزة: وهم يمكثون مدة ساعة واحدة، إلى ما قبل الظهر، ثم يغلقون محلاتهم ، ويتجهون إلى منازلهم؛ وبالتدريج تخلو الشوارع من المارة. – وعند أذان الظهر يتوافد الناس من كل حدب وصوب على المسجد لأداء الصلاة. ولا يعود إلى السوق من المسجد سوى قلة قليلة من البائعين والتجار؛ وغالبية هؤلاء التجار (شأنهم شأن الأعيان) يذهبون لشرب القهوة فى بيوت أصدقائهم: البعض من هؤلاء التجار، لهم جنائن فى عنيزة، ولذلك فهم يفضلون الذهاب إليها ليجلسوا فى ظلال النخيل.

قبيل أذان العصر، ينهض شاربو القهوة من مجالس القهوة المعطرة، ويذهبون للمرة الثالثة لأداء الصلاة فى المساجد. وبعد الانتهاء من الصلاة يعود التجار إلى السوق؛ ليجدوا طاولاتهم مفتوحة، والدلالين واقفين أمامها، ومعهم المتجولون فى السوق. ولكن الأعيان يذهبون إلى منازلهم لتناول الغداء؛ وبعد ذلك بساعة واحدة تغلق الدكاكين أبوابها إيذانا بانتهاء اليوم . – وهنا يبدأ المواطنون فى التمشى خارج أسوار المدينة، ليعودوا إلى بيوتهم مع غروب الشمس، عندما يؤذن المؤذن لصلاة المغرب، التى يؤديها الناس فى المساجد.

اعتبارا من تلك الصلاة الرابعة يعود الناس إلى بيوتهم: وهذا الوقت لا يصح فيه زيارة الأصدقاء؛ لأن السادة يجلسون فى ذلك الوقت لمحاسبة العمال الميدانيين، الذين يجلسون معهم فى منازلهم – والسادة يحضرون لمثل هذه الجلسة وجبة من البرغل يقدمونها لأولئك الدلالين، أو إن شئت فقل : العمال الميدانيين. ولكن الزراع الذين يعملون فى بيارات النخيل الواقعة خارج البلدة يبقون فى بياراتهم طول الليل ؛ ولما كانوا لا يحتاجون إلى سقف ينامون تحته، فهم يستلقون على الأرض ملفوفين فى عباءاتهم (بشوتهم) ليناموا فى العراء. هناك أذان آخر، يرفع بعد غروب الشمس بحوالى ساعتين، يدعو الناس لصلاة الجماعة (أى صلاة sulat الأخير el-akhir)

أو إن شئت فقل صلاة العشاء. وبذلك يكون الليل قد دخل؛ وكثير من الناس المتعبين يبقون ويذهبون لأداء الصلاة أو قد يكتون فى منازلهم. والناس بعد أن يعودوا إلى منازلهم من صلاة العشاء ، يكونون قد أنهوا عبادة اليوم: وهنا تبدأ ساعة من ساعات الصداقة الخاصة (ولكن هذه الساعة لا تصلح للتجمعات العامة) فى مقاهى الأعيان والتجار الأجانب.

– أرسل الكنينى واحدا من أقاربه المساكين، بعد أن تناولت طعام الأفطار، ليصحبنى إلى جنينته، التى تبعد عن هنا مسافة نصف فرسخ؛ وتقع ضمن الدائرة الخارجية لأسوار مدينة عنيزة: ونظرا لأن ذلك الرجل كان ضعيفا فقد راح يتبعنا وهو راكب فوق حمار من الحمير. [وبصحبة هذا الغريب، الذى كان اسمه سليمان **Sleyman** ، استطعت بعد ذلك عبور الصحراء الكبرى الجنوبية إلى بلاد مكة (المكرمة) مررنا بحارات طويلة من الصلصال ولها جدران من الطين، ومررنا أيضا بين حقول ومزارع، مع نسيم الصباح البارد؛ ولكن (مع هذه الشمس الحارقة) لا تنمو بادرة نباتية واحدة على جانب الطريق (الذى لا يروى بالماء)! كانت حقول القمح فى ذلك الوقت عبارة عن جذاذات ، فى إثر حصاد المحصول؛ وشاهدت المحصول الذى جرى حصاده مكومًا على شكل أكوام كبيرة استعدادا لفصل الحب عن القش.

وفى منتصف الطريق شاهدنا موقعا بمستوطنة قديمة، يطلقون عليها اسم جنَّاح **Jannah** ، وقد أنشأها فخذ من أفخاذ القبائل، وأطلق عليها ذلك الاسم من أسماء بنى خالد، قبل إنشاء عنيزة [التى يطلق عليها اليوم اسم أم **umm** نجد **Nejd**] . – وكان هناك نزاع مستمر وعداء مستمر أيضا بين هاتين القريتين اللتين لا تبعدان عن بعضهما سوى مسافة ميل واحد. مستوطنة جنَّاح هذه جرى التخلى عنها منذ خمسة وتسعين عاما؛ ولكن كثيرا من الأحياء شاهدوا الكثير من أنقاض المبانى القديمة التى ماتزال باقية فى ذلك المكان، منذ أكثر من أربعين عاما: والعمال يستخرجون الجبس من ذلك الموقع القديم – الذى هو حقل من الحقول حاليا. وأعراب بنى خالد [الذين كانوا فى الأحساء قبل ذلك؛ ولكن أيام وجودى فى عنيزة كانوا يتجولون فى الشمال

فى اتجاه الكويت)، معترف بهم بأنهم من سلالة قيس ؛ وهم من اليام Yam ، مع مرّة Murra ، والعجمان، وبنى هجر، والشمر el-Shamir : والعجمان موجودين حاليا فى الشمال بالقرب من الكويت. الجنّاح، فى رأى الشيخ نصير، تأسست منذ أكثر من ستمائة عام مضت [أى فى القرن الثالث عشر]، أى قبل ثلاثة أو أربعة أجيال من بناء عنيزة. كانت جنّاح، مع بداية القوة الوهابية، محكومة بواسطة ثوينى Thueyny المنتفق el-Muntefik، وهو كبير شيوخ بلاد النهر فى الشمال (*) ، ولكن عنيزة كانت متحالفة مع الوهابى. وجرى هزيمة سكان جنّاح من بنى خالد فى الاضطرابات التى تلت ذلك، الأمر الذى اضطرهم إلى التخلى عن المكان: وذهب الكثيرون منهم للعيش فى الشمال، فى حين انسحب من تبقوا منهم إلى عنيزة. (سبق أن قلنا): إن المستوطنين من السُّبيع es-Sbeya هم الذين أسسوا عنيزة. [ومازال القبليون الرحل من هؤلاء السبيع فى بلدة العروض el-Aruth ؛ كما أن الحائر Hayer واحدة أيضا من قراهم ، وهم منهم البدو ومنهم أيضا المستقرين. وهناك المزيد من هؤلاء القبليين فى وادى السبيع، وفى حدود كل من نجد والحجاز، على بعد أربع رحلات بعيدا عن مكة فى اتجاه الشمال؛ وقراهم هى الخُرمة Khorma والرونية Runya] ، وزاد عددهم بعد ذلك بسبب أولئك الذين وفدوا عليهم من بنى تميم، الذين هم مثل قريش من نسل إسماعيل من خلال سلالة إلياس Elyas ، شقيق قيس. – والمزاينة Mozuyna (فى قبيلة حرب) هم أيضا من سلالة إلياس : وإلياس هو ابن Ibn موزور Muthur . وقريش ، بنى أسد Assad (الذين كانوا من قبل فى جبل طى Ty) وتميم، بنى خالد، والمنتفق، والمطير، وعتيبة، وثقيف، والسبيع كلهم من الموزور Muthur . – هذا هو ما قرأه علىّ عبد الله البسام من كتابه عن السلالات والأعراق: وقال أيضا: إن بنى صخر انحدروا عن بنى تميم.

أرض الكنينى المزروعة نخيلا وقمحا تصل مساحتها إلى ما يقرب من ثلاثة أفدنة ونصف الفدّان، وتربتها رملية. والطرف البعيد من سور المدينة الذى كان يحيط بتلك الأرض إنهارت منه أجزاء كبيرة: وكل ما هو خارج ذلك السور عبارة عن بحر رمال النفود.

(*) تقطن قبيلة المنتفق فى منطقة شط العرب . (المراجع)

القسم الأكبر من أرض الكنيني مخصص لزراعة القمح، وقد بدأ الرجل يشتل في تلك الأرض نباتات النخيل الذي جلبه من الوادي: وقد دفع ريالا واحداً ثمنا لكل شتلة من تلك الشتلات . لم يكن لدى الكنيني من النخيل سوى أربعين نخلة، كانت بطيئة النمو؛ نظرا لعدم اعتناء المالك السابق بري ذلك النخيل. وهذا هو حال الناس الذين يملكون مساحات صغيرة من الأرض في هذا البلد ؛ والسبب في ذلك أن هؤلاء الملاك الصغار هم ومساحاتهم الصغيرة في هذه البلاد (وهذا لا يقل عما هو متبع في مصر وسوريا) إنما يلتهمهم المرابون الأثرياء الذين يقرضون الناس بالربا. كان عمق بئر عبد الله الجديدة المكونة من فتحتين، حوالي ستة قامات ، وقد وصل الحفر في تلك البئر إلى طبقة الصخر الرملي؛ وكانت البئر مبطنة ببطانة من الحجر الرملي الذي يجري جلبه من منطقة قريبة من عنيزة. وقد وصلت تكاليف تلك البئر الجديدة إلى حوالي ٦٠٠ ريال، أي بواقع ما يزيد على ١٠٠ جنيه إنجليزي لكل فدان، وذلك بخلاف ثمن الماء: وتلك كانت أرضا من الأراضي الرخيصة، التي تقع على بعد مسافة كبيرة من عنيزة: وزراعة القمح هنا كثيفة ولكن السنابل قليلة، وتجري زراعة القمح في المساحة نفسها عاما بعد آخر؛ ومعروف أن القمح شحيح دوما في الجزيرة العربية.

شاهدت هنا أربعاً من النياق – والإبل هنا لونها أسود في عنيزة – وهي تعمل دوما وبلا توقف في السانية (الساقية) لجلب الماء: والناقة الواحدة يمكن أن تروى فدانا واحداً من آبار يصل عمقها إلى ثمانية قامات. افتتح الكنيني تلك البئر الجديدة أملاً في أن يشتري في الوقت المناسب المزيد من الأرض من الجيران. عبد الله، باعتباره واحداً من الأثرياء، لديه نوعين من إبل جلب الماء؛ هذه الحيوانات تعمل طوال شهرين إلى أن يعتريها الوهن، ثم يطلقها بعد ذلك إلى المرعى مدة شهرين في الصحراء. ومع كل صباح كان عبد الله يركب دابته ويذهب لاستنشاق الهواء والإشراف على الزراعة في مزرعته : وكانت تعتمل في ذهنه فكرة بناء بيت له في المزرعة، حتى يتمكن من استنشاق هواء النفود، – وذلك عندما يتحتم عليه العودة إلى عنيزة [ولكن آه! لم يكن ذلك مدرجا في كتاب الحياة] . تساءل عبد الله، كيف لي أنا "وأنا رجل أوروبي" بالعيش في هذا الخلاء، أو بالأحرى في هذه الصحراء؟ وكيف أني في تجوالي عبر تلك

الصحراوات الشاسعة، لم أصادف مطلقا اللصوص المترحلين ، الذين يطلقون عليهم هنا اسم الهنشولى henshuly ! ففى الصيف الماضى قام عبد الله ، هو وبعض أصدقائه بالخروج ومعهم الخيام، كى يعيشوا حياة البدو الرحل فى جزء من صحراء النفود. وأثرياء المواطنين فى عنيزة لهم خيام تصنع من القماش الذى تصنع منه أشرعة المراكب، وهم يصنعون تلك الخيام مثل خيام البدو، أى على شكل أكواخ، وتكون مفتوحة من الأمام، – وهذه الخيام، من وجهة نظرى، هى الأفضل فى مثل هذا المناخ.

الأرض المنزرعة التى تقع خارج أسوار المدينة ليست مسوَّرة؛ ولكن حدودها معلمة بقطع من الحجر ليس إلا. كان عبد الله البسام ينظر بعين ثاقبة إلى تلك الأرض، التى كان يزرعها على أمل أن ترثها بناته: فقد سبق أن اشترى لأبنائه بيارات فى البصرة. لم يكن يود للرجال (الذين سيكونون من صلبه) البقاء فى الجزيرة العربية! وكان يقول وفى صوته نغمة حزينة: ' أوه! لعله يعيش إلى أن يتعدى أبناؤه سن الحداثة.'

عثرت هنا على بعض أصدقاء عبد الله. كان من بينهم حامد الصافى es-safy البغدادى ، وعبد الله البسام الابن الأصغر (لأخيه الكبير عبد الله البسام ؛ كما عثرت أيضا على رفيق زنجى من رفاقهم، هو الشيخ ابن ibn عايض Ayith ، وهو شيخ كتابى أو إن شئت فقل فقيه فى الدين . وبعد السلام مدوا لى جميعا أذرعهم، – لعل الحكيم يفحص نبضهم! كان حامد وعبد الله، على العكس من قيمتهم الروحية، نحيفى البنية: كان اندفاع دمهما بطيئا، شأنهم شأن والديهما كبار السن، كما أن هواء المدن الكبرى منحهم أيضا شيئا من الحياة . ابن عايض، الذى كان له محيا إفريقى (يشبه الثور)، كان يبدو غارقا فى التفكير بينما كنت أمسك بمصيره فى يدى! – وسألنى بصوت زنجى صغير: ' ما رأيى فى صحته؟' هذا العالم المسكين كان يحسب نفسه مريضا دوما؛ وبالرغم من أن وجهه لم يكن يوحى بالوهن! كما أن عنقه الطويل، وصدره الضيق، ولا بقية أعضاء ذلك الرجل لم تكن توحى بالضعف أو الوهن أيضا – هذا الزنجى الذى يعرف القراءة والكتابة تحول إلى رجل جديد تماما اعتبارا من ذلك اليوم، الذى سمع فيه كلام الحكيم الذى أسعده وشرح صدره؛ وراح يمشى مرفوع الهامة بين

أصدقائه (وبذلك راحوا يضحكون فى وجهى) ، بينما كان الرجل كسير الخاطر قبل ذلك. يضاف إلى ذلك أن ابن عايض هذا لم يكن متشددا بمعنى الكلمة؛ ولكنه بحكم تحاوره اليومى مع التجار الأجانب، أصبح ذهنه عامرا بالليبرالية. هذا المسكين ، لم يسبق له السفر، اللهم باستثناء – وهذا راجع إلى أن كل النجديين المتدينين لا يعملون أثناء النهار – سفره ذات مرة إلى مكة للحج (مع أصدقائه الأثرياء ،الذين رافقوه فى تلك الرحلة)؛ "قال: وأنا إذا ما قدر لى أن أكون برفقتك فسوف أريك كل الأماكن التاريخية." وقد أمضى الرجل شبابه فى التعليم على أيدى بعض الشيوخ المحسنين والخيرين؛ وأن هؤلاء الشيوخ هم الذين كانوا يقومون ، على أمر تعليمه. والرجل الآن يشغل منصب رب العائلة؛ ولكنه لم يكن لديه من متاع الدنيا شيء سوى البيت الذى يعيش فيه. وكانت مائدة عبد الله البسام تتسع دوما لهذا الرجل ؛ وكان فى معظم الأحيان يقوم بدور الكاتب مع عبد الله البسام نظرا لأن الأخير كان يجيد التجارة أكثر من الكتابة؛ وبداية الحكمة العلمية عند هؤلاء الناس تتمثل فى الكتابة وبخط جميل. ولكن ابن عايض لم يكن عبدا لسلوك الخضوع؛ فقد سمعته وهو يقول، بخشونة الرجال: كلمة 'لا' وهو يمسك بلحية عبد الله. الحرية المدنية فى عنيزة تسر الخاطر، كما أن نظرات الحكام هنا لا توحى بالاستعلاء أو التكبر؛ ولكن كثيرا من الرجال (فى ساعة الغضب) يعبرون عن اعتراضهم، علانية، وقد يرفعون الأمر إلى الأمير! – وهم يقولون: ما Ma أبغاك (*) bak خير kheyr ، بمعنى ' ما أود لك الخير.'

عندما عدت، كان الوقت ظهرا، وكانت الشوارع خالية، والدكاكين مغلقة: وكان الأذان يدوى، وخرج الناس يتوافدون على المساجد. ومرّ بى بعد ذلك شيخ مسن من عتيبة، – كان ذلك الرجل فى عنيزة مع بعض رفاقه القبليين الذين جاءوا للتسوق؛ وعندما عرف ذلك الرجل أننى حكيم ، نادانى،' وهو يريد دواء للريح rih . ورد عليه واحد ، "قد يكلفك ذلك ريالا واحداً." "وماذا لو أن هذا الدواء يكلف ريالا، أيها الحضرى،

(*) أوردها المؤلف على النحو الوارد فى المتن، والصحيح هو bghak (أبغاك) بمعنى 'أريد لك' والسبب فى هذا الخطأ صعوبة لفظ الغين على الإنجليز. (المترجم)

إذا كانت لدى النقود!" ووفد علينا أيضا بعض المتسكعين، الذين وقفوا يبتسمون بفعل تلك اللغة التى كان يتكلمها ذلك البدوى وبصوت عال؛ وهنا قال شخص لطيف من أولئك المتسكعين، وسط هذا الضحك: هل هو على ما يرام مع زوجاته؟" لا، صاح ذلك القلب العجوز، وأنا أود ذلك ، بالله عليك، حتى لا يكون للحريم عذر. – أو هو! اصبر يا أنت!" (لأن بعض المتشددين يحرضونه). – "ألا تسمع الأذان؟ اذهب للصلاة!" – "إى! إى، لقد سمعت الأذان، الله يؤسفك! ألا أتكلم مع مداوى؟ – حسن، أنا ذاهب حالا. – ومرت علينا امرأة متشددة: اقتربت تلك المخلوقة من الشيخ البدوى وجذبته من عباءته (بشتة)." تصيح، إلى الصلاة، أيها الشيطان البدوى العجوز؛ أنت واقف هنا والناس يصلون! – وأنت واقف هنا لتتكلم مع هذا الشخص الكافر؟" – " إخص ! اسحبى يدك يا امرأة ، واتركينى أذهب لحال سبيلى! – قلت لك أنى صليت." وبالرغم من أنه صاح إخص akhs – إخص akhs إلا أنها ظلت ممسكة بملابسه؛ ولم يقو على مقاومتها: ومع ذلك قال لى: "أنت أيها المداوى ! ما هو علاجك للأنف السائل؟ – فلتحرق النار هذه المرأة! التى منعتنى من الكلام معك." طلبت منه أن يجىء إلىّ بعد الصلاة ؛ وهنا سمع الشيخ بعض الأطفال يتحدونه ويقولون وراك Warak وراك Warak ! لماذا لا تذهب للصلاة؟ قال لى وهو ينصرف: "يا أنت ! لا تقاومهم، ولكن افعل ما يريدون ؛ والمرء عندما يسافر إلى بلد آخر، يجب أن يتبع المألوف ولا يجادل – وسيكون ذلك هو الأفضل لك، وإذا ما أردت أن تعيش فى سلام معهم." وهنا داهمنا الضرب بالعصا! – وكاد المطوع أن يقبض على ذلك الشيخ البدوى القادم من الصحراء." أوه! توقف ، وأنا ذاهب للصلاه"؛ ثم بدأ المطوعون يسوقون ذلك الشيخ أمامهم.

حققت ممارستى للطبابة ربحا معقولا. فقد كان هناك مع طلوع كل يوم قطيع من الأشخاص البائسين الذين كانوا ينتظرون الحكيم فى شقتى الصغيرة (قبل أن يذهبوا لأعمالهم)؛ كانوا يلجُّون على فى مسالة عيونهم الملتهبة؛ وكانوا جميعا يستعملون غسول الأعين الذى كنت أعطيهم إياه. وأثناء قيامى بذلك العمل كنت أستقبل بعض المراسلين الذين كانوا يفدون لدعوتى إلى تناول الإفطار؛ وكنت أترك مرضاى وهم مستلقون على ظهورهم وعيونهم محتقنة. المواطنون الفقراء كثيرو العدد فى ظل تحسن ظروف الحياة

فى عنيزة. وهؤلاء الفقراء يتمثلون فى عمال الزراعة، وعمال جلب الماء من الآبار، وهم يحصلون على أجور شهرية زهيدة لا تكفيهم. والمعوقون وكبار السن لا حول لهم ولا قوة؛ ويتعين عليهم أن يمشوا فى البلدة يستجدون الناس. كنت فى بعض الأحيان أقابل جماعات من هؤلاء الناس وهم يتجولون ويستجدون الناس فى الشوارع الخالية والهادئة قبيل دخول وقت الظهيرة؛ كنت ألتقى أرامل مسنات، ورجالاً مسنين بلا أبناء، ومطلقات معوزات ومعسرات، وأبناء الطبيعة التعساء الأشقياء الذين ليس لهم عائل أو معين. كل هؤلاء يمشون فى العراء كما لو كانوا لعنة سُبةً فى الدنيا، ويتعين عليهم أن يطرقوا الأبواب الواحد بعد الآخر ، كى يتبينوا إن كان الله سيعطيهم الخير أم لا؛ وهم يمشون فى الشوارع وينادون فى حزن وغم ويقولون: يا ya أهل ahl الكريم el- ka- rim ! بمعنى 'يا أهل الكرم.' ولكن لم أكن أرى يد الكرم أو العطاء تمتد لهم أو يفتح الناس لهم أبوابهم، إلا نادرا. ذات يوم عندما ذهبت لزيارة الأمير فى الصباح وجدت هؤلاء المساكين يتدافعون أمام بابه؛ ثم خرج ولد زامل إليهم ومعه شىء ما كى يعطيهم إياه: ولكنى اكتشفت أن تلك الإعانة كانت أقل من حفنة من التمر التى كان يضعها فى يده! كان ولد زامل يقول: "أبعد عن هنا! وأنت خذ هذه لك". وكان يدفع المساكين ويضطرهم إلى أن يعطوه ظهورهم.

كنت أمضى أمسيات حلوة فى مقاهى الأصدقاء الشباب ومع الجارين حامد وعبد الله ؛ وكان حامد وعبد الله يستدعيان ابن عايض الذى كان يسلينى بالحديث عن الآداب العربية. كان حامد يتحفنا بالنراجيل البغدادية، فى حين كان عبد الله يُصلِّح لنا مشروبا مرطبا محلى بالسكر من تمر tamr الهند el-Hind أو إن شئت فقل: التمر هندى. كانت الصحبة المختارة هى التى تتردد على قهوة عبد الله أثناء النهار، – وتلك كانت أخلاقيات البسام الشاب، التى تسر الخاطر. كان هاون طحن البن يدوى فى منزل ذلك الرجل كما لو كان ناقوسا يعلن عن كرمه وحسن ضيافته ، وبخاصة عند تصليح القهوة وإعدادها. وهاون القهوة فى عنيزة يشبه الطبق الصغير المجوف فى كتلة من الرخام: والهاون الذى يكون له صوت مدّو يحظى بسمعة طيبة بين الناس. هاونات طحن القهوة الكبيرة يجرى قطعها من مناطق الرخام التى لا تبعد مسافة كبيرة

عن عنيزة وتقع ناحية الشرق (بالقرب من المذنب el-Mithnib ، فى اتجاه جبل طويق Tueyk) . ويد الهاون تشبه حرف ا وهى تصنع من الرخام فى عنيزة: والناس هنا يدقون فى الهاونات دقا إيقاعيا (يتناهى إلى مسامع الناس قادما إليهم من وجارات القهوة الخاصة بالعرب). ورب البيت البائس، الذى لا يكون بحاجة ملحة إلى من يشرب معه القهوة، يتعين عليه التخفيف من إيقاعات ذلك الهاون الذى يطحن فيه البن.

كانت تلك هى الروح الشابة التى كانت سائدة فى منازل التجار (الأجانب) فى عنيزة: هؤلاء التجار كانوا يقرءون فى دائرة المعارف، وكانوا يقرءون لشعراء الجزيرة العربية القدامى. هذا هو عبد الله البسام، بعد أن يرحل عنه آخر صديق من أصدقاء المساء – تراه جالسا إلى مصباحه البترولى، وناسيا زوجة شبابه، ومنكبًا على كتبه لكى يغذى روحه ويشبعها ويستمر على هذا الحال إلى أن يطلع عليه النهار. أما حامد، الذى تربى فى بغداد، فقد كان لا يصدق فيما يتعلق بالقديم والجديد فى هذه الدنيا؛ ولكنه كان ميالا إلى الدراسات الجديدة. هؤلاء التجار الشبان كانوا يطلبون المشورة الطبية، وكانوا يتعلمون منى بعض الكلمات الإفرنجية، كما كانوا يطلبون منى أيضا أبجديتنا، – والسبب فى ذلك أن نقل هؤلاء التجار البحرى، إنما هو فى أيدى الشاحنين الأوربيين. قلة قليلة من هؤلاء الناس الذين هم من الجزيرة العربية، والذين يعيشون فى الموانى التجارية فى الخارج، تعلموا بالفعل كيف يظهرون أسماءهم على الفواتير الإفرنجية التى تصل إلى أيديهم، وكانوا يكتبون أسماءهم بالحروف الرومانية. ولد عبد الله البسام الأكبر – الذى هو حاليا فى الهند، ومعه أيضا قلة قليلة من الناس، سبق له ولهم أن تعلموا القراءة والكلام باللغة الإنجليزية: غير أن ذلك، فى اعتقادى لم يكن كما ينبغى أن يكون. تجار آخرون، مثل الكنينى، الذين يعيشون فى الهند، كانوا يتكلمون اللغة الهندوستانية. وهذا هو حامد، كتب من شفتى (وبحروف عربية) قائمة طويلة من الكلمات الإنجليزية، – وهى من قبيل الكلمات التى قد يفيد منها أو تفيده أثناء تنقله فى الخليج. كان والد حامد، يقيم فى بغداد منذ ثلاثين عاما؛ ولم يزر عنيزة منذ زمن طويل: – الأمر الذى جعل المدينة، من وجهة نظره، تتوسع إلى حد أن من يزورها بعد غياب طويل، قد لا يصدق أنه موجود فيها بالفعل. قال لى الكنينى:

إن حجم عنيزة الحالى يعادل ضعف حجمها قبل خمسة عشر عاما؛ وهو يعتقد أن سكان عنيزة فى الوقت الراهن لابد أن يكونوا ١٥٠٠ نسمة.

كان أصدقائى يرونى من منطلق أنى حكيم حافى القدمين، ممزق الثياب، وقادما من الخلاء (صحراء)، كما كانوا ينظرون إلى باعتبارى هاربا من بريدة. أرسل لى عبد الله البسام الشاب نعلة، أرادوا لى أن أحمل عصا طويلة فى يدى؛ ولكنى قلت لهم: من لا يحتاج لا يكون فقيرا: وفقرى شرف لى ." قال الكنينى لى فى الصباح ، عندما كنا على انفراد (ويمزيد من الحنو والتعاطف تمكن من العثور على كلمة إفرنجية): " مسيو Mussu خليل ، لو كنت بحاجة إلى النقود – ولو وصل ذلك الاحتياج إلى مائة أو مائتى ريال، فإنك ستجد هذه النقود التى آمل أن تقبلها منى. ولكن الكنينى لم يكن يعرف كل احتياجاتى، وكان يتصور أننى كنت أتنقل فى مظهر رجل فقير من باب التنكر ليس إلا. شكرته على كلامه الطيب ؛ والذى راح يتردد فى مسمعى منذ ذلك الوقت فصاعدا، وكأنى لم أستمع إليه مطلقا . سمعت أيضا أن البسام الطيب حمل على عاتقه مسألة سفرى ومُضيّى قدما إلى الأماكن التى أريد الوصول إليها. كان يعزمنى مرارا على الذهاب إلى منزله، كما كنت أذهب أيضا إلى منزل الكنينى فى بعض الأحيان الذى كان يخشى (باعتباره رجلا عصريا) الكلام الوهابى الجارح الخشن. كان ذلك البسام الطيب، كلما التقانى، يدعو الغريب بكلام بشوش، إلى تناول الإفطار مع حلول الصباح: ومع تناول الإفطار كان يوجه لى الدعوة لتناول الغداء معه فى اليوم نفسه، – وتلك إنسانية كنت أشكر الله عليها فى هذه الظروف بالغة القسوة.

كان عبد الله البسام يعيرنى أذنا صاغية فى تساؤلاتى عن الآثار القديمة فى الجزيرة العربية؛ يضاف إلى ذلك أنه كان يفيض حنانا وعطفا. – 'قال: ألم يزر النصرانى النبى (ﷺ) فى المدينة المنورة، هو وعمر؟' – عمر، الذى نادى بضبط الدين الجديد (من بعض الشرر الذى انطلق فى منطقة جرداء ليتحول إلى حريق كبير على مستوى العالم) ولكن كيف كان عفن وفساد السلطة الرومانية

فى ذلك الوقت؟ هذا فى الوقت الذى لم يستطع جنود الجحافل الرومية القديمة ، الذين كانوا يحتمون بملابس صنعوها من الحديد، الصمود أمام هجوم رجال الجزيرة العربية ضعاف الأجسام غير المسلحين تسليحا جيداً، وهم لا يرتدون سوى قمصان مهلهلة! ولم يكن يربط بين هؤلاء الناس [وهذا هو الرابط الوحيد الذى يمكن أن يربط بين الساميين!] سوى العاطفة الدينية (الجديدة) من ناحية، وجشعهم الذى يشبه جشع اللصوص فيما يتعلق بالغنائم! هذا الشعب الذى سبق لجاليوس Gallus أن قاد جيشا رومیا خلال أرضه، بلا معارك، طوال خمسة عصور، ويعود من هذه الحملة وكله احتقار وازدراء لأولئك السكان الذين يتسمون باللصوصية ولا يعرفون كيف يقاتلون! وسرعان ما اجتاح المسلمون مصر، بفعل السلاح المرعب لتلك العقيدة الجديدة: وحكى لى البسام حكاية ذلك القبطى الذى جاء يشكو حزنه لأمير المؤمنين فى المدينة المنورة. هذا القبطى وجد (سيدنا) عمر الشهم الشبيه بالبدو، وهو مشغول ، شأنه شأن أى رجل فقير آخر، فى مزرعة نخيله، إذ كان يسوق الإبل التى تعمل فى جلب الماء من البئر؛ وأوقف (سيدنا) عمر ماشيته كى يستمع إلى شكوى ذلك المسيحى. زعم ذلك القبطى أن قائد المسلمين فى مصر تعسف معه، لأنه يود أن يبنى مسجدهم فى الإسكندرية على قطعة من أرض ذلك القبطى، الأمر الذى يحتم هدم منزل ذلك المسيحى، – بالرغم من أنه – هذا المسيحى – كان يرفض دوما الحصول على الثمن. وراح عمر يبحث فى أرضه إلى أن عثر على قطعة من العظم – فى بلاد العرب، يسهل الحصول على قطع العظم نظرا لأنهم لا يدفنون الحيوانات الأمر الذى يؤدى إلى تبعثر عظامها بعد تحلل أجسادها، ثم طلب (سيدنا) عمر من ذلك القبطى أن يشهد ما يفعله أمير المؤمنين. قام (سيدنا) عمر بقطع رأس العظمة بحد سيفه، ثم سلم تلك الإشارة (العلامة) للقبطى، [ليلفها فى ثيابه] ويسلمها لنائبه فى مصر، وأمره له بالكف والامتناع عن ذلك الأمر. كان كلام (سيدنا) عمر كاف لإزاحة ملوك، بالرغم من أنه لم يكن يعرف سوى قشور ، وأطاع نائبه (العربى) فى الإسكندرية الكلام ونفذه – كان عمر (رضي الله عنه) هو الذى أحرق أدبيات letrers العلم السابق: فقد بدا له حسب فهمه السامى Semetic

أن تلك الأدبيات لم تفد كثيرا فى فهم الإله الحقيقى من ناحية، ومن باب إنقاذه للدين من الناحية الأخرى. (*)

لم يستطع البسام أو علماء عنيزة الرد على سؤالى البسيط، " أين توجد جوردة Jorda؟ – التى ورد ذكرها فى الموروث (الإسلامى) على إنها 'عاصمة القصيم'." لم يكن هذا الاسم معروفا لهم ! فى البداية وجدوا الرد على سؤالى، بعد عدة أيام، من خلال مقارعتى بكثير من الكتب؛ وعن موقع تلك البلدة، فقد سألوا عنه أولئك الذين اعتادوا على التجوال فى النفود. – وهم يزعمون أن موقع هذه البلدة هو الإثيلّى el-ethelly (بعض البيوت الكبيرة البعيدة)، بالقرب من مدينة الرس er-Russ فى وادى الرماح: حيث توجد مساحَة كبيرة من الأنقاض والأساسات ': بل إنهم عدّلوا جوردة Jorda إلى جرادة Jarada . المتعلمون بين هؤلاء الناس يدرسون لكى يتخصصوا فقط فى التعليم القرآنى المتعب الأكثر من ذلك، أنهم قد يستخفون بذلك الذى يشده فضوله إلى أن يكتب تاريخا لشئونهم البسيطة فى الكلام المبتذل. أسماء الأراضى ربما تكون هى الكتابات القديمة الوحيدة لسكان الواحات. كان كتاب البسام عن السلالات (المزعومة) كتابا مهما، وكان له غلاف مذهب مصنوع من الجلد الأحمر اللون: وقد قرأت فى ذلك الكتاب قرابات كل من العمالقة Amalek ومدين Midian ، وغيرها من قبائل الجزيرة العربية الأخرى؛ تلك القبائل التى كانت بدوا ومستوطنين فى الموروث الموسوى والعبرى. وعندما وجدنى ذلك الرجل الطيب مشغولا بتقليب الصفحات، أعطانى كتابه؛ ولكنى رفضت قبول الكتاب، – وهو ما أغضبه بعض الشىء .

قالوا لى : 'إن مندوبا من الحكومة العثمانية، جاء فى العام السابق، إلى هذه المناطق وكان معه فرمان من السلطان؛ وقام ذلك المندوب بتدوين أسماء البلدان والقرى،

(*) يفهم من السياق أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) هو الذى أحرق مكتبة الإسكندرية ، وهو خطأ تاريخى فادح ، إذ إن عمر بن الخطاب لم يأت قطعًا إلى مصر أما إذا كان المقصود عمرو بن العاص فهو أمر لم يحدث لأن الذى أحرق مكتبة الإسكندرية هو يوليوس قيصر فى عام ٤٨ ق. م. عند اشتباكه بأسطول بطليموس شقيق كليوباترا وخصمها على عرش مصر . (المراجع)

كما دون أيضا أسماء القبائل التى تتجول فى هذه المنطقة! وسلطة السلطان التركى [برغم اغتصابها بحد السيف] معترف بها هنا من كل المسلمين الحقيقيين؛ كما أن بلدية بريدة تدفع مساهمة سنوية للخزانة العثمانية فى الحجاز، – وهذه المساهمة لا تتجاوز الألف جنيه. – أما عنيزة فقد جاء ردها على النحو التالى؛" نحن لا ننكر الزكاة أو الفدية: أرسلوا لنا وتسلموا الفدية." ولكن الأتراك فى ذلك الوقت، لم يكونوا على استعداد للمغامرة فى رمال الجزيرة العربية!

كانت أفكار الكنينى كلها تتركز على تربية ولده وتنشئته؛ ذلك الولد الذى سيخوض غمار حياته سابحا فوق أمواج الدنيا ، ومتسلحا بتلك الذخيرة التى سبق له تصورها وتخيلها. كان الكنينى يود لولده أن يتعلم اللغة الفارسية واللغة التركية (اللغتان السائدتان فى منطقة الخليج المجاورة لهم)؛ كما كان يود لولده أن يتعلم أيضا اللغة الفرنسية والإنجليزية. هذا الصبى وهو فى سن العشرين، سوف يبدأ رحلته عبر دول أوروبا، ليرى العالم المتحضر العظيم، ويرى أيضا آلاف الماكينات الجديدة المدهشة، التى أصبحت بمثابة معينات الحياة الإنسانية والبشرية. ذهن عبد الله البسام الواسع ، كان يحتقر الحقد والغيرة الوطنية بكل أشكالها ، كما كان يكره أيضا التزمت والغطرسة الدينية؛ وكان معجبا جداً بالمعرفة الطبيعية، والتمدن والإنسانية، التى هى موجودة حاليا فى الأجزاء الغربية من العالم. كان عبد الله صاحب روح ممتازة أو قريبة من الممتازة: كان الرجل معتدلا، كما كان أيضا متقشفا، ولكن ليس إلى حد الخطأ. سيقوم عبد الله، فى البداية، بإرسال ولده محمد، لمدة عامين، لتلقى العلم فى واحدة من مدارس المسلمين فى بغداد،' والسبب فى ذلك أن ولده سوف يتحتم عليه العيش وسط المسلمين. ؛ ثم يوفد ولده بعد ذلك إلى مصر أو إلى بيروت ؛ وسألنى عن المدارس التى فى بيروت [التى كانت فى ذلك الوقت ناظرة مدارس الليفانت] . هذا الولد، الذى كان يشغل بال وفكر عبد الله، كان يبلغ من العمر عشر سنوات، ولم يتعلم بعد القراءة والكتابة. هذا الولد، أنجبه عبد الله، من امرأة هندية، عندما كان فى بومباى: ولقد سمعت عن هذا الموضوع بعد ذلك فى مستوطنة نجد؛ وهم لا يراعون فى تحالفاتهم مسألة الدم الوطنى. كان عبد الله يود لولده أن يذاكر كثيرا حتى يتعلم

الكثير أيضا؛ كان عبد الله يتحرق شوقا لرؤية ولده وهو يتقدم بصورة مستمرة نحو آفاق المعرفة: ولكنى عندما وقفت على ضعف الولد البدنى نصحت والده ألا يلقى عليه كل تلك الأحمال الثقال. – وبعد أن استمع عبد الله إلى كلامى المخلص الخالى من النفاق، والذى لا يعد أمرا شائعا فى عالمهم العامر بالخداع والغش، رد علىّ فى النهاية، وهو يتنهد ويقول: صحيح! **Sahhih** بمعنىٰ هذا كلام صادق وصحيح.

لم يمض عبد الله شبابه فى التعليم المدرسى؛ كما أنه لم يواصل تعليمه فى الجامعة – ذلك المجزر الذى يوقد الفكر والعقول؛ ولكن فهمه وإدراكه الواسع كان على ما يرام، هذا الفهم نضج فى شمس العالم العامر بالمال والأعمال: وعندما دخل عبد الله السباق استطاع فى سن مبكرة الحصول على تاج السرعة الإلهية. كان والد عبد الله يتجر فى الخيول، نظرا لوجود الكثير من الأنواع الجيدة فى البلدة؛ ولكن ذلك الوالد بقى فقير الحال ومات فى سن مبكرة. بعد ذلك بدأ عبد الله مغامراته فى هذه الدنيا، فذهب إلى بغداد التى (وقد سمعته يقول ذلك) لم يستطع فى بداية الأمر، أن يفهم فيها لهجة الشمال الغريبة عليه. بدأ التجارة بعد ذلك؛ وكان اتجاره من نوع [وهو يتكلم مع رجل إنجليزى] قال عنه، ما **Ma** ينفع **yunfa** بمعنىٰ ليس فيه من النفع شيئا.' – كان عبد الله يبيع العبيد ويشتريهم؛ وكان بسبب هذه التجارة يبحر إلى زنزبار **Zanzibar** ، التى كان سلطانها (من عائلة عمان (*) **Aman** الأميرية) من بنى تميم ، وبنى تميم هؤلاء هم من قبليى نجد. كان عبد الله يسافر أيضا إلى موريشوس **Mauritius** لأنه كان يتجر فى السكر! ثم بدأ عبد الله يتجر فى الأرز الذى كان يشحنه من بومباى، إلى الموانى العربية؛ إلى أن ذهب واستقر فى البصرة: التى قال لى عنها وهو يتفاخر فخر التجار: إن لديه فى مخازن الحبوب (المفتوحة) فيها قمحا تصل قيمته إلى حوالى ٥٠٠٠ جنيه إنجليزى! – وأنه كان يحمى تلك الحبوب بالحصير وأغطية من البوص؛ التى يمكن وضعها فوق أكياس الحبوب فى حالة سقوط المطر. وقال لى أيضا:

(*) كانت عمان وزنجبار دولة واحدة على عهد سلطنة البوسعيد ، ثم انفصلت عن عمان فى عام ١٨٦٢ وصار يحكم كل منهما سلطان من نفس الأسرة البوسعيدية (المراجع)

إن إنفاق أسرته السنوى، بالإضافة إلى ما يعطيه لبعض المقربين منه، يصل إلى حوالى ٤٠٠ جنيه إنجليزى.

قيم عبد الله ثروة أغنى تجار عنيزة بحوالى ٢٤٠٠٠ جنيه إنجليزى؛ وإذا ما حسبنا على هذه الثروة نسبة اثنى عشر فى المئة، إذ كان الإيجار السنوى فى حائل عشرة أمثال رأس مال التجارة فى حائل! (هذا يجيز لنا قبول التقييم الذى جاء به حمود). ولكن بالصغر إنفاق أسرة الجزيرة العربية إذا ما قارناه بألفين أو ثلاثة آلاف جنيه إنجليزى تنفقها أسرة واحدة!

كان اسم الكنينى يحظى بالتكريم والاحترام فى القسم الليبرالى من البلدة: قالوا: الله أعطاه، وهو رجل طيب؛' ولكن الحقد الوهابى كان ينظر إلى أولئك التجار باعتبارهم نحلة فى عشهم. لم يستطع أن يشترى لنفسه حذاءاً "أصبح واحداً من الأثرياء فى العالم؛ كانوا يردون ،' هذه بركة من الله.' ومعروف أن أسعار سوق الحبوب فى الشرق ترتفع وتنخفض فجأة: وأن فهم عبد الله الجيد هو الذى مكنه من الإفادة من تلك التقلبات بين الارتفاع، والانخفاض، فى مضاعفة ثروته. فى ذلك الوقت كان عبد الله يتجر فى القمح بالجملة، إذ كان يبيع لتجار التجزئة بناء على الثقة، وقال لى إنه كان يفعل ذلك بلا أدنى خوف ؛ لأنه كان يعتقد أنه (بحكم ملاحظته) كان يعرف الحال الحقيقى لهؤلاء الزبائن. – وأنا عندما كنت مقيما فى دمشق، رأيت بنفسى أن سعر قمح الخبز كان سعره يرتفع فى أواخر فصل الشتاء؛ وتخيلت أنه فى حدود مائة أو مائتى جنيه يمكن افتتاح صومعة غلال صغيرة، تستطيع الأسر الفقيرة أن تشترى منها احتياجاتها طوال العام، بسعر يزيد قليلا على سعر المحصول عند الحصاد . سألت بعض الأشخاص الحريصين والأمناء؛ ولكنهم جميعا ردوا على "إنها تجارة عجيبة وغريبة، أن يتحول فيها تاجر من تجار الجملة إلى مثل هذا الرواج." – " من هنا وجدت أن أحداً منهم لم يكن على استعداد للدخول معى فى مغامرة من هذا القبيل.

عندما تغديت مرة ثانية مع البسام، كان ذلك فى حضرة شريف المدينة المنورة! هذا الثعلب العجوز صاحب العمامة كان قد وصل مؤخرا إلى عنيزة، واتخذ لنفسه

مقاما من المضيفة العامة (التى يقولون لها منزل Menzil الشيوخ es-Sheukh) ؛ ولكنه كان يفطر ويتعشى على مائدة البسام الرجل الطيب، والذى تعهد من باب الإحسان، تسفير ذلك الشحاذ الدينى إلى المدينة المنورة. كانت طيبة عبد الله البسام عامة ، بمعنى إنها كانت تعم الجميع وكان الجنود الهاربون عندما يصلون إلى عنيزة يقوم عبد الله البسام، من باب الشفقة بمساعدتهم . بما يمكنهم من مواصلة الرحلة. هذا الرجل بالرغم من أنه كان عميدا لعائلة ثرية ، كان يسارع إلى أعمال الخير، إلا أن رأسماله لم يكن كبيرا: هذا الرجل سكن فى بيت بالإيجار عندما عاد إلى عنيزة؛ كما أن القسم الأكبر من تجارته كان فى تلك السلعة التى كان الآخرون يرونها من أخص خصائص عبد الله. كان يتمتع بقلب شاب بالرغم من أنه كان فى منتصف العمر، وكانت أخلاقياته وسلوكياته الحلوة ذائعة الصيت؛ لم يكن فى عبد الله هنة من هنات الضعف. كان صاحب وجه يسر الناظر إليه؛ كان يمشى قى الشوارع مرتديا أبهى ثيابه، وهو يمسك فى يده عصا الأعيان الطويلة: وفى كل مكان ترى ذلك الرجل ووجهه مبتسم ، سواء أكان يتكلم أم كان صامتا. كان عبد الله البسام يمامة فى عش غربان التشدد والتزمت : كان يحب إله محمد قبل كل شىء (لأنه ولد على هذا الدين)، ثم من بعد ذلك كل الناس المهمين من أمثاله. وقد رأيت بعيناى مدى كبر كرم ذلك التاجر، الكرم الذى اتخذ من الدين أساسا له؛ وفى كرمه كانت حكمته فوق حكمة الدنيا.

الفصل الثالث عشر

الحياة فى عنيزة

شائعات العمليات الحربية. خبر خطير من الشمال. أعراب المطير. العتيبة. القبض على قحطانى فى الشارع. جريمة كبرى. محاضرة فى مساء الجمعة. المطّوع. بسام والكنينى يتحدثان عن الأمم الغربية. مجلة عربية." محك الحقيقة." الشاذلية. رأى فارسى فى الأديان (السامية) الثلاثة. الإنجيليون الأوروبيون فى سوريا. آراء عربى فى السلوكيات الفرنجية (التى لمسها فى الهند). مُطعِّمٌ فى عنيزة. النصرانى بلا مأوى. شخصية مثقفة. محمد. العقائد السامية." الشيخ" محمد. دواء مسحوق اللودانوم. رسالة من بريدة. خطاب الدين. كلمة يهودى. الجدرى. عائلة يحيى. الأمراض. شفاء قصير لبعض الأشخاص المشتتين؛ قصة الدير المارونى فى لبنان. عمال الحجارة فى عنيزة. بيت عند أطراف المدينة. اقتراض النقود بالربا. الزراعة فى الواحة. سمسار خيول من عنيزة . غربلة جحور النمل طلبًا للخبز، بيع الخيول فى الجزيرة العربية، والخيول الشمالية أو خيول الخليج. العيارية. وادى الرماح شمالاً. خالد بن الوليد. الأورشازية صراع حفارى الآبار المميت. رجل قديم فى الجزيرة العربية. النصرانى فيما بينهم خارج على القانون. أفكار عن السفر إلى سدوس والرياض. الكلام العربى فى القصيم .

ذات صباح جاء خبر إلى المدينة، مفاده أن البدو أغاروا على من كانوا يحصدون فى الوادى، وأخذوا منهم حميرهم: فى خلال النصف ساعة الذى تلى ذلك رأيت أكثر من مائة من الشباب من أهل المدينة وقد تجمعوا ومعهم أسلحتهم وراحوا يسارعون فى الاتجاه صوب بوابة بريدة. أما الفقراء البائسون من أهل المدينة فقد سارعوا سيرا

على الأقدام ومعهم حراب طويلة؛ أما الميسورين فقد راحوا يسيرون خلفهم راكبين نياقهم ومن خلفهم أولئك الذين يركبون على الجزء الخلفى من الإبل. ولكن كانت ساعة كاملة قد مضت على ذيوع الخبر وانتشاره؛ وكان اللصوص المسرعون قد قطعوا مسافة فرسخين أو ثلاثة فراسخ.

كانت هناك شائعات عن حرب مع كل من بريدة والقحطان . لو كان الأمر حربا بين البلدين، لما استطاع حسن وأهل بريدة (وهم أقل سلاحا وعددا) المغامرة بلقاء أهل عنيزة والتصادم معهم فى النفود؛ وكان الأجدر بهم أن يحموا أنفسهم خلف سورهم الذى يبلغ سمكه شبرا، تاركين حقولهم ومزارعهم تحت رحمة العدو، – مثلما حدث لهم قبل ذلك. ولما كان الخصوم جيرانا، فإنهم لن يفعلوا شيئا سوى ابتلاع ثمارهم، فى حين تبقى البساتين بلا رى: الخصوم ليسوا أجانب حتى يدمروا أعراف النخيل، الأمر الذى يحطم أصحاب هذا النخيل على امتداد سنوات طويلة. – هذا هو ما فعله مضيف ابن سعود فى الحرب مع عنيزة؛ فقد قاما بتدمير النخيل الموجود فى الوادى: طعم قلب (جُمَّار) النخيل لذيذ عند أهل الجزيرة العربية، وهم يتشوقون إلى الأكل من ذلك الجُمَّار بنهم شديد.

كان القحطان القبليون يعانون الأمرين عندما يأتون للتسوق من عنيزة، إلى أن تصادف ذات يوم، أن كانت جماعة منهم عائدة ذات مساء ومعها إبلا محملة، فوجدت بعض أطفال المدينة غير بعيدين عن البوابة، فى صحرا النفود، وكان أولئك الأطفال يقتادون حميرهم عائدين إلى بيوتهم، وكان معهم عبد abd ، فاستولى القحطان على الحمير، وتركوا الأطفال يذهبون لحال سبيلهم: كما أخذوا العبد معهم أيضا، – وكان ذلك العبد واحداً من عبيد زامل.

وصل المدينة (عنيزة) خبر مزعج قادما من الشمال؛ واهتزت عنيزة كلها لذلك الخبر، نظرا لأن الأشخاص الذين ورد ذكرهم فى ذلك الخبر كانوا معروفين لأهل عنيزة حق المعرفة. مفاد هذا الخبر أن مخيما كبيرا من مخيمات المُطير، وهم من صدوق Saduk الأعراب أو إن شئت فقل: "الأصدقاء المخلصين للمدينة وزامل أيضا"،

(إن جاز لنا القول بأن البدو الرحل يمكن أن يكونوا صادقين وأهلا للثقة!) قد أقيم على بعد مسير أربعة أيام من هنا، وأن ذلك المخيم كان عبارة عن غزو كبير من القحطان، – لمراعى القصيم، أعدائهم اللدودين. كان حيزان Hayzan هو قائد ذلك الغزو وحيزان هذا لم يراع طقوس الضيافة، إذ سبق له أن هددنى وأنا فى حائل. والبدو الرحل (الذين هم خصوم هاربين فى أية قضية أخرى) ، على استعداد "للقتال حتى الموت" من أجل المرعى والمياه. كان المطير مندهشين فى خيامهم، وكان القحطان القائمون بالغزو أكبر منهم عددا؛ كما قام القحطان بقتل بعض الأفراد من المطير. ولاذت البقية الباقية بالفرار حفاظا على حياواتهم، وكانت معهم حيوانات الحليب المتمثلة فى النياق؛ وخلّف المطير وراءهم الماشية بطيئة الخطى، كما خلفوا وراءهم أيضا خيامهم، ومستلزمات منازلهم، تركوا ذلك كله فى أيدى أعداءهم؛ الذين لم يراعوا دين الصحراء وراحوا يطعنون النساء بالحراب، وجردوهن من ملابسهن؛ وأصابوا اثنين أو ثلاثة من الأطفال الصغار! وكان من بين أولئك الذين سقطوا فى ذلك العدوان واحد من كبار الشيوخ المشهورين فى عنيزة. فقد اخترق حيزان جسد ذلك الشيخ باستعمال الرمح!

انسحب الأعراب عندئذ صوب عنيزة؛ التى اتضح للشيوخ فيها أن أهل المدينة يودون المشاركة معهم فى القتال، لتخليص المدينة من ذلك الطاعون والوباء الخطير. ومن الناحية السلالية، هم ينظرون إلى المطير على إنهم من نسل إسماعيل، لأنهم ينحدرون من كل من قيس، ومن أنمار Anmar ومن ربيع Rubia : والمعروف أن رُبيع، وأنمار، ومونور، وإياد كلهم إخوان؛ كما أن رُبيع هو والد وائل، الذى يعد عميد العنيزة. والمطير هم من أهل قبلى Gibly القدامى: وموطنهم فى الحرة الكبيرة التى تقع بين الحرمين، ومع ذلك يحتلها القبليون المطيريون. والقرى القديمة فى ذلك البلد، على طريق الدرب Derb الشرقى es-Sherky ، أو إن شئت فقل شرقى طريق الحج إلى مكة، هى الفيرية El-fereya ، وحاذى Hathi ، وسفينة Sfeyna ، والسويرجية es-swergieh ، كل ذلك فى حرة الكشيب el-Kisshub ؛ وفى الهجير Hajjir : ولكن غالبية القرويين فى وادى السويرجية كانوا أشرافا فى ذلك التاريخ، أو إن شئت فقل من سلالة النبى (ﷺ). والمطير حاليا يعدون من أهل الشمال: والسبب فى ذلك أن هؤلاء البدو الرحل

يتجولون مع حلول فصل الصيف، نحو الأعلى لكي يرعوا ماشيتهم في الصحراء الشمالية: وحدودهم تمتد إلى كل من الكويت والبصرة على وجه التقريب؛ وهم يجاورون الشمر في الشمال. والطرفان ليسا أتباعا لابن الرشيد وإنما هم أعراب أصدقاء له. وبذلك تكون مسيرات الصحراء أو إن شئت فقل: مضارب الصحراء الخاصة بالمطير تصل إلى حوالى ٢٠٠ فرسخ ! [والمطير من حيث العدد (بين قبائل الوسط) يجيئون بعد أمة عتيبة البدوية الكبيرة وربما يصل عددهم إلى ما يقرب من ٥٠٠٠ نسمة.] كانت خيام المطير في القصيم أكثر من مائتي خيمة، في ذلك الوقت. والمطير يزورون عنيزة كل عام؛ ويقوم زامل بإهداء شيخهم الكبير حملاً أو حملين من التمر، وذلك حتى يتسنى لقوافل المدينة المرور دون أن يعترض أحد منهم طريقها.

العتبان Ateyban ، هم أيضا من البدو القبليين الذين لجأوا إلى عنيزة (ويقال إن هؤلاء العتبان من سلالة قيس)؛ لم يكن المطير أو عتيبة على وفاق مع بريدة. ومضارب عتيبة عبارة عن تلك الصحراء المرتفعة، بالإضافة إلى مئة فرسخ أخرى؛ وهذه المضارب تقع بين القصيم في الشمال وبلاد مكة: هذه الديرة الشاسعة، التي تعد من أفضل المراعي الصحراوية، ليس فيها أية مستوطنة من المستوطنات! وقبيلة عتيبة ، التي هي واحدة من أكبر القبائل في الجزيرة العربية، يصل تعدادها إلى ما يقرب من ٦٠٠٠ نسمة؛ والعتبان يتميزون بعقلية أكثر ثباتا واستقرارا من عقلية السواد الأعظم من البدو الآخرين؛ وكان العتبان حلفاء (كما سبق أن أوضحنا) بمعنى الكلمة، لعبد الله بن سعود. وهم من الناحية الدينية يغلب عليهم التشدد بدلا من الاعتدال: وهم يسكنون بين الوهابي (*) Wahaby والحرم؛ وهم يتفاخرون بأنهم الأصدقاء الوارثين لأشراف مكة. كان زامل، بفضل الهدوء والسلام ، اللذين فيهما رفاهية الحياة الإنسانية، وفيهما أيضا عبادة الله؛ ولكن في حالة الحرب، فإن أهل عنيزة يعرفون مدى حزم زامل ، كما أن ثقتهم في قدراته كبيرة جداً. ها هو زامل، قد أوفد مائة من راكبي النياق من بين

(*) الوهابي : من المرجح أن المؤلف يقصد أن العتبان يعيشون بين نجد – مركز دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – والحرم المكي الشريف . (المراجع)

مواطنى عنيزة، أوفدهم لاستطلاع النفود، وكانوا يسيرون على شكل جماعتين، وجعل يحيى ولد الأمير على رئيسا لهاتين الجماعتين؛ ويحيى شاب صغير تبدو عليه الرجولة، ولكنه مثل والده له أفق وهابى ضيق .

شاهدت قحطانيا ألقوا القبض عليه فى الشارع ؛ كان ذلك الرجل قد جاء إلى عنيزة طلبا للتسوق، ولكن عندما اكتشفوه من كلامه، ألقى الواقفون القبض على ناقته . كان البعض يحاولون جذبه لإنزاله من فوق عدة (سرج) الناقة، والعربى المغلوب على أمره [بحكم طبيعته الماكرة والمتلونة] سوف لا يقاوم ، إذ أن مقاومته يمكن أن تنزل الخطر بحياته . صاحوا ، " تعال معنا لنعرضك على زامل ،" "أجاب، حسن، هيا وأنا معكم." أنزلوا الأشياء من فوق ناقته وبركوها وربطوا قدميها الأماميتين: كان البائعون فى الدكاكين المجاورة غير عابئين بتلك المغامرة. – فى حائل، أو فى بريدة، نرى أن الحالات التى من هذا القبيل الذى يقوم بها هم جماعة الأمير، فى ظل ضجيج وصراخ متقد ؛ ولكن عنيزة بلدة حرة، الحفاظ على الأمن فيها متروك للمواطنين كلهم. – وفيما يتعلق بالقحطان، لم يكن زامل قد أعلن بعد أنهم أعداء لعنيزة؛ وبالتالى لم تكن هناك أية شائبة على ذلك البدوى القحطانى. كانوا قد قيدوه ولكن الأمير العادل أصدر حكما بإطلاق سراحه.

الأشخاص الذين يرتكبون الجرائم فى عنيزة (التى لا يوجد بها سجن) يجرى تقييدهم إلى أن يحين موعد الجلسة التالية من جلسات الأمير. حكى لى الكنينى أنه طوال وجوده: فى عنيزة، لم يشهد سوى حادثة إعدام واحدة، كان ذلك منذ خمسة عشر عاما مضت. كانت المجرمة امرأة، شقيقة مفرِّج **Mufarrij** ذلك الرجل المحترم الذى كان رئيسا لخدم الصالة العامة لأمير حائل: وبعد وقوع ذلك الحادث المؤلم لأسرته، ترك الرجل عنيزة بحثا عن خدمة أخرى فى مكان أجنبى. – كانت تلك المرأة قد أغوت بنتا صغيرة، التى كانت بمثابة الابنة الوحيدة لأسرة من الأسر الثرية المجاورة لتلك المرأة؛ وقتلت تلك الطفلة الصغيرة طمعا فى المصوغات الذهبية التى كانت تعلقها على رأسها، ثم قامت بعد ذلك بدفن جثة تلك الطفلة البريئة. هذا الأب المكلوم لجأ إلى عرَّاف، –

الذى يزعمون أنه أثناء قيامه "بالقراءة" ينتفخ بطن المذنب . [انظر ص ٢٠٩] . هذا العرَّاف، أو إن شئت فقل : المتكهن اقتاد الحاضرين إلى منزل تلك المرأة؛ وأراهم مكانا وطلب منهم الحفر فيه ! – ومن هذا المكان أخرجوا جثة الطفلة الصغيرة ! وحملوه ليدفنوه فى المقابر.

– وقدمت تلك المرأة للمحاكمة، أمام جلسة من الناس ومن الكبراء (المشايخ) الذين اجتمعوا إلى الأمير الذى يمثل السلطة التنفيذية . – فى البلدان العربية، يقيد حرس الأمير القاتل بالأصفاد، ويقدم لأقارب المقتول ، ليفعلوا به مايشاءون . – طلب علىٌّ من الوالد،" انهض واقتل هذه المرأة الشريرة ، القاتلة التى قتلت ابنته." ولكن الأب الذى كان شيخا متدينا (مطوعًا muttowwa)، ورجلا معتدلا، وفاضلا رد قائلا: "ابنتى الصغيرة ذهبت إلى رحمة الله؛ وأنا بالرغم من أنى سأقتل المرأة فإن ذلك لن يعيد إلى ابنتى!" – يكفى، يا سيدى، لقد عفوت عنها: من ذهبت، ذهبت وانتهت." على : " ولكن جريمتها لا يمكن أن تمر بلا عقاب، لأن هذه سابقة خطيرة فى هذه البلدة؛ أنا أقول لك! أضرب يا أنت، واقتلها." – وهنا استل المطوع سيفه وقتلها ! واللصوص هم والمذنبين يجرى ضربهم بعصى من جريد النخل ، الذى يتعين أن يكون أخضرا وليس جافا، والذى يقولون عنه: إنه يكسر العظام. وعنيزة لا تقطع اليد؛ ولكن المجرم المحترف يجرى إبعاده عن البلدة.

بعد ذلك أرسل زامل رسالة إلى شيوخ القحطان فى الصحراء، "أنهم إذا ما أعادوا كل ذلك الذى نهبه قبليوهم فإنهم يمكن أن يكونوا أصدقاء لعنيزة: وإذا ما جاءت الإجابة بالنفى، فإنه (زامل) سيناصبهم العداء." بعد أن يكون هؤلاء الناس قد أراحوا ضمائرهم على هذا النحو، فإن هؤلاء الناس (المتحضرون) يوكلون الأمر لحكم الله (سبحانه وتعالى)، وبذلك تكون أيديهم نظيفة من سفك الدماء: وهم (بشكل عام) لا يأخذون غنائم من أعدائهم! وهم يقولون عن ذلك: "إنه ليس من الشرع،" – وبالرغم من ذلك، فقد علمت بكل أسى، أن هناك الكثيرين الذين يقتلون اللصوص فى بيوتهم! ولكن إذا ما قام فقير فى غزوة من الغزوات بإخفاء شىء صغير فى خرج ناقته،

فهو يخفيه على نحو، لا يكون معه ظاهرا للعيان. – من هنا، فإن أهل عنيزة لا يأخذون سوى الأسلحة فقط ليدافعوا بها عن حرياتهم.

ذات يوم كنت فى زيارة لزامل، ووجدت فى مجلسه جمعا كبيرا من الناس الصامتين الذين لا يتكلمون: كان هناك أربعون فردا من أهل المدينة جالسين ومن ورائهم جدران المقهى. ثم دخل علينا رجل مسن كان شيخا من شيوخ الدين؛ وهمس الجالس إلى جوارى، فى أذنى ، بأنهم مجتمعون هنا لحضور محاضرة تلقى بعد عصر يوم الجمعة! وزعت القهوة؛ وشرب الحاضرون من الفناجيل نفسها. والعرب لا يمانعون فى أن يأكلوا ويشربوا من إناء واحد مع أى شخص كائنا من كان. ولم يخطر ببال محمد (ﷺ) فى دين الجزيرة العربية أن يمنع ذلك التواصل الدنيوى فى الحياة الإنسانية: ولكن واقع الأمر أن عادتهم التى تقضى بأن يأكل الجميع من طبق واحد، ويشربون جميعا من فنجال واحد، تحظى بالثناء أكثر مما تحظى بالصحة والعافية.

كان ذهن الإمام منصرفا تماما إلى قراءة القرآن. لم أسمع فى حديث ذلك الإمام كلمة واحدة تحض على الأخلاق! ثم قال فى النهاية، موجها كلامه إلىّ !" والكلام عن عيسى بن مريم، – عيسى بن مريم كان صادقا ورسولا من عند الله: ولكن النصارى لا يسيرون فى الطريق الذى سار عليه عيسى بن مريم، – لقد انحرفوا عن الطريق، فى ضوء ارتباك عقولهم، ودخلوا فى الوثنية." ثم وقف الإمام بعد ذلك، ووقف الحاضرون من بعده؛ واتجه كل واحد منهم يبحث عن نعلته.

اعتبارا من ذلك اليوم بدأ أهل المدينة يتسامحون معى، – لأن تلك كانت إرادة زامل نفسه ورغبته. ولكن المطوع، أو إن شئت فقل رجل الدين، كان على العكس من ذلك منذ البداية؛ كما أن هذا الإمام (تلك الهالة ، وذلك الرجل الكبير الموقر الذى بلغ من العمر سبعين عاما) كان قد حرّض الناس، فى خطبة الجمعة، فى المسجد الكبير، على النصرانى .' قال: إنه كان مثالا سيئا أن تحبّذ بعض الشخصيات الرئيسية غريبا كافرا وتشمله برعايتها: ألا يدرون أنهم يغضبون الله عندما يفعلون ذلك؟ ألا يرون أن المطر الموسمى قد مُنع عنا! – الحياة الخالية من القانون تكون باردة؛ وبدأت ألاحظ

بشئ من الضيق الطبيعى أن الوجوه التى كانت تلقانى فى الشارع كانت غريبة علىَّ ، كنت أحس يوميا بعزلتى عن الناس أصحاب القلوب الضعيفة وعن أصدقائى المنافقين. سمعتهم وهم يتقولون علىَّ، لأنى كنت أُحى الناس بعبارة سلام Salaam عليك aleyk ؛ التى يرون أنها تحية أتباع الله فقط – أو إن شئت فقل: المسلمين. لم يكن الكنينى ، أو البسام أو زامل من أولئك الذين يمكن أن يحركهم كلام إنسان أهطل يقف على المنبر؛ والذى كانت تتجسد فيه الحكمة الوهابية العمياء (المتصلبة والمتشددة) التى مضى عليها خمسون عاما (*) . لاحظت على السمرى شيئا من التغيير؛ كما لاحظت شيئا من التغيير أيضا، بين أصدقائى من صغار السن، لاحظت ذلك التغيير فى عبد الله البسام الصغير، الذى كان أقاربه المقربين من أشياع التزمت والتعصب. كان هناك نوع من الصراع داخل ذهن هذا الرجل، بين رفقته الإنسانية الكريمة، وواجبه نحو ربه ودينه: وكان عندما يجدنى وحدى يسألنى، " والله يا خليل، هل النصارى يعتنقون كيت وكيت؟ وهذا على العكس من الإسلام ويتعارض معه!" – أحمد الصافى، ذلك البغدادى الصغير لم يكن كذلك؛ وإنما كان قد ضاق صدره من ذلك الدين النجدى (**) المرهق: فى بعض الأحيان، كان أحمد الصافى يغلق بابه الخارجى قبل أن ينطلق الأذان؛ ولكنى عندما كنت أطرق الباب كانوا يفتحونه (للدكتور "el-docteur")، عندما يسمعون صوتى. هؤلاء الأصدقاء من تجار عنيزة كانوا يصلّحون شايا عندما يصل الإنجليزى: فقد تعلموا شرب الشاى فى الخارج على الطريقة الفارسية.

كان البسام الكبير يسعد عندما يتكلم معى عن العالم الغربى. – وفى مثل هذه الأوقات كان الكنينى يوافق أيضا وفى صمت على ما يجرى بيننا من حديث؛ لم يكن هناك، فى عنيزة، أناس آخرين من هذا القبيل – ولا حتى فى نجد كلها. كنت فى نظر

(*) مضى على الحركة السلفية وقت رحلة دوتى ما يقرب من مائة وثلاثين عامًا وليس خمسين عامًا كما ذكر فى السياق أعلاه . (المراجع)

(**) أطلق المؤلف على الحركة السلفية التى قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب «الدين النجدى» وهو خطأ فادح . (المراجع)

عبد الله الكنيني شبيها بالعرب؛ وكان هو الآخر عندى شبيها بالأوربيين! كان البسام قد تجاوز منتصف العمر عندما ذهب، قبل خمسة عشر عاما، للتجارة فى جدة. فيما يتعلق بالأمم الأجنبية كان إعجاب البسام ينصب على الإنجليز: وقد كان يعتبر أن الله (سبحانه وتعالى) هو الذى هيأ لحكامنا وشعبنا أن يكونوا حلفاء للسلطان. كان بوسع البسام أيضا أن ينطق أسماء وزرائنا Wazirs العظام ، مثل بالمرستون، ودزرائيلى! – وعندما كان يعبر عن أسفه لفساد وظلم الحكم العثمانى قال: الوزير العظيم لا يبقى – أكثر من ثلاثة أشهر فى منصبه فى اسطمبول! – ولكن ما طول مدة احتفاظ الإنجليز بوزرائهم Wuzera ؟" "أجبته، البعض منهم بقوا فى مناصبهم سنوات كثيرة." "ويصيح، هذا عمل طيب، عفارم affarim ! خيرا فعلتم أيها الإنجليز!" كان الكنينى يشبه الأوروبيين فى كراهيتهم واحتقارهم للأتراك: كان الكنينى يحتقر فكر هؤلاء الأتراك. قلت: " لقد وجدت الأتراك متكلفين فى أحكامهم، بالرغم من أن ذلك التكلف لم يكن يستند إلى العلم: إن خطابهم ينطوى على الحذر، بالرغم من أن هذا الخطاب ملىء بالحكمة الإنسانية." – "لا! ولكنى التقيت عديدا من الحكام الأتراك فى مدينة البصرة Bosra . وآخر هؤلاء الحكام – صدق أولا تصدق؟ لم يكن يعرف أى شىء عن قناة السويس! وأنا ، أقول: كيف يمكن لأناس يعيشون فى مثل هذا الظلام الفكرى، أن ينجحوا فى تطوير البلاد التى أرسلوا لحكمها؟ قلة قليلة من الباشوات هم فقط المثقفون والمتعلمون؛ ولكن إحساسهم بالغربة يجعلهم لا يهتمون بالصالح العام. – ألم يسبق لكل واحد من هؤلاء الباشاوات أن أشترى اللقب الذى يحمله والمنصب الذى يشغله؟ ولماذا العجب إذن عندما يغتصب الباشا المال، ويضعه فى كيسه الخاص؟ ولكن ماذا لو جاء واحد (باشا) من تلك القلة القليلة الجيدة، وقام بتنفيذ عمل عام؛ الأرجح أنه يسعى لتخليد ذكراه من خلال المشروع، – والسبب فى ذلك أن المنصب فرض عليه! كما أن من يجىء بعد مثل هذا الباشا، يرفض استكمال المشروعات التى بدأها ذلك الذى كان يشغل المنصب من قبل."

– كانوا يتكلمون عن عداء كل من فرنسا وبروسيا فى أوروبا؛ وقال الكنينى: كان عقله يخيفه، من أن ما يقوم به بسمارك، وما يقوم به الإسكندر (سيزار الكسندر)

سيغرق العالم فى حمام من الدم! (*) وقال إنه شاهد مؤخرا صورة الإسكندر فى البصرة؛ وإن الصورة كانت لذكر thukr بمعنى أنها تعبر عن الرجولة والفحولة! وعندئذ سمعت من أفواههم كل أحداث الحرب التركية الروسية، - تلك الحرب التى بدأت وانتهت أثناء تجوالى فى صحراء الجزيرة العربية: وقال لى البسام بسرور بالغ: ' إن الأسطول الإنجليزى عبر المضيق البحرى - وذلك على العكس من كلام السلطان! - كيما يدافع عن اسطمبول.' [الضربات القوية هى وحدها التى تقنع المسلمين؛ طالما أنهم يؤمنون أن العالم ملك لهم، وكذلك العالم الآخر؛ وأن الله (لولا خطاياهم) سيكون معهم وفى عونهم دوما، ضد الكفار. كما أن جهلهم الواضح يغيب عنه تخوفهم من أعدائهم، وذلك منذ أكثر من عشرين عاما] وعند عبور مضيق الدردنيل قام الشيوخ الأصدقاء بدعم الإنجليز فى المدينة المتعصبة.

كنت أعجب من سعة علم هؤلاء السياسيين فى الجزيرة العربية! إلى أن عرفت بعد ذلك أنهم كانوا يحصلون على تلك المعلومات من جريدة عربية (التى تعارض "الباب" العالى فى القسطنطينية). - كان المحرر العجوز فى تلك الجريدة من أصل مسيحى فى جبل لبنان؛ وأن ذلك المحرر عندما كان شابا صغيرا، استخدمه إبراهيم باشا (**) فى نشر مجلة لسوريا. وبعد ذلك ببضع سنوات كان ذلك الشاب يتعلم اللغة العربية فى كلية الليفانت فى مالطة: ولما كان ذلك الرجل قد تعلم لغتنا، فقد راح يتجول خلال فرنسا، وإنجلترا وبعض الدول الأوروبية الأخرى؛

(*) بسمارك هو المستشار الألمانى للقيصر ولهلم الكبير وأدت سياسته إلى إشعال الحرب بين فرنسا وبروسيا لتحقيق الوحدة الألمانية فيما عرف بالحرب السبعينية فى عام ١٨٧٠ . أما عن الإسكندر فهو قيصر روسيا وأدت سياسته بدورها إلى إشعال ما عرف بالحرب الروسية التركية ١٨٧٧ التى كان يستهدف من ورائها وصول روسيا إلى البحر المتوسط عن طريق مضايق الدردنيل والبوسفور التى تتحكم فيها الدولة العثمانية . (المراجع)

(**) إبراهيم باشا : ابن محمد على وقائد الحملة المصرية التى أدت إلى تحطيم الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى فى عام ١٨١٨ . كما كان حاكمًا لبلاد الشام فى سنوات الوجود المصرى ١٨٣٢-١٨٤٠ . (المراجع)

وطبع بلغة عربية ركيكة مجلداً ضخما عن أسفاره فى الغرب. وفى النهاية استقر ذلك السورى فى إسطمبول؛ التى اعتنق فيها دين الأتراك: وبتأييد وعون من بعض الشخصيات الكبيرة، أسس ذلك السورى تلك الجريدة العربية (الممتازة)، التى واصل العمل فيها [لمصلحة المسلمين] . هذه الجريدة يشيع توزيعها فى سائر أنحاء البلدان التى تتكلم اللغة العربية: ولقد وجدت هذه الصحيفة فى منازل التجار النجديين فى بومباى. وفيما يتعلق ببقية هذا الموضوع، فأنا أرويه مثلما سمعته فى سوريا المسيحية، من أفواه بعض الأشخاص الثقات، – واللوم يوجه لأولئك الرواة إذا ما افتروا على ذلك الرجل! يقول أولئك الذين اعتادوا التجوال من بين السوريين: السوريون دائما كذّابون، وظنانون، ويميلون إلى القدح والذم.'

ذاع أن ذلك الشخص نصرانى المولد قد سوَّد أصابع الكاتب بعمل آخر، مؤلفوه من علماء الإسلام ، الضليعين فى علمهم (...)(*) وأن ذلك العمل (الكتاب) ملىء بالإهانات والازدراء، وأن ذلك الكتاب جاء رداً على مقال صغير باللغة العربية كتبه واحد من المبشرين المسيحيين فى الهند، وطبع فى لندن تحت عنوان ميزان Mizan الحق' el-hak .(...)(**) ولقد سمعت فى سوريا، أن كتاب ميزان الحق إذا ما ضبط بحوزة أى أحد من الناس، فإن المسلمين سوف يحرقون بيته فوق رأسه! ذلك أن هذا الكتاب هو والكتب الأخرى اللعينة، كان يجرى البحث عنها، أثناء قيامى برحلتى، فى المناطق الجمركية كلها. – إن احتقار العلماء وازدراءهم (عندما يردون على) "صغار القساوسة من النصارى"، يكون عالى الصوت وجهوريًا. – المسيحية السورية التى تعزى إلى يد ذلك الصحفى العجوز والمسيحى السابق من مسيحيى جبل Jebel لبنان Liban ، وكذلك الآراء الواردة فيها عن رأى بعض فلاسفة القرآن فى الكفر، هذه المسيحية خالية من الخميرة العلمية.

(*) عبارة تم استبعادها لمساسها بالمقدسات الإسلامية . (المراجع)

(**) مقطع من عشرة سطور تم حذفه للسبب نفسه . (المراجع)

المسلمون شأنهم شـأن بقيـة الجنس البشرى كـلـه، يكادون يكونون غير منطقيين فى مسألة الإيمـان والعقيدة؛ وقـد يصعب عليهم التعثـر فى دين له مثل هذا التوافق مع الطبيعـة البشرية؛ ومع ذلك فإن المسلمين فى مدنهم (الحرة)، حيث تكون وجوه الناس أقوى وأشد ملاحظة، وحيث يشاهد هؤلاء الناس مسارب ودروب أخرى من حـولهم، يوجـد من بينهم من يتطرق الشك إلى نفـوسـهم. – حكى لى الأصـدقـاء السوريون، أن كتاب ميزان الحق، تسبب قبل سنوات قلائل فى كثير من المتاعب والاضطرابات العامة فى العاصمة التركية؛ التى تراجع فيها عدد كبير من الأشخاص، ومعظمهم من الضباط العسكريين، عن الدين الوطنى؛ وأصبحوا نحلة شبه مسيحية وراحوا يجتمعون اجتماعات سرية، ليتعبدوا ويستمعوا إلى تلك النحلة. ووصلت أخبار تلك الشائعة إلى مسمع الحكومة؛ وحدث نوع من الاضطهاد: وجرى إغراق بعض من هؤلاء المجددين ونفيهم إلى سوريا عن طريق السفن. – وتزايد عدد هؤلاء المنفيين فى دمشق فى الوقت الراهن؛ هؤلاء المنفيون يطلق عليهم فى دمشق اسم الشاذلية -esh shazleh(*) : هؤلاء الشاذلية يقولون عن أنفسهم، بأنهم سيكونون فى يوم من الأيام سادة لهذه البلاد(...) (**) لقد التقيت بعض العمائم البيضاء فى هذه المدرسة الجديدة – وهم مسلمون من حيث المظهر ليس إلا، أما فى المخبر فهم يكادون لا يعترفون بالنبى (ﷺ): ولقد رأيت البعض من هؤلاء الشاذلية وهم يدخلون دكان صديق مسيحى، لكى يشربوا وعلى وجه السرعة من زير الماء الموجود خلف باب الدكان، وذلك أثناء الظمأ الشديد فى شهر رمضان. – كما عثرت أيضا فى المدينة السورية الكبيرة على مدرسة ليبرالية أخرى ليست من المسلمين المخلصين. ذات يوم وبينما كنا نتحدث عن الأديان، قام رجل فارسى، نو مكانة برسم الشكل التالى على الأرض.

(*) ليست هناك ثمة صلة بين من يطلق عليهم فى سوريا الشاذلية وبين الطريقة الصوفية الشاذلية التى أسسها أبو الحسن على بن عبد الله الشاذلى (٥٩٣ – ٦٥٦هـ) وكان شيوخها على المذهب السنى. (المراجع)

(**) عبارات فى سطرين تم استبعادها لمساسها بالدين المسيحى . (المراجع)

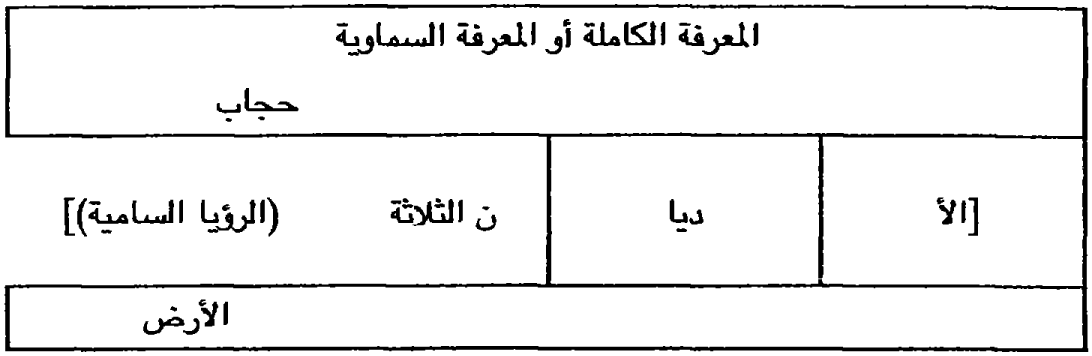

"قال ، أديانا – سواء أكنا يهوداً أم مسيحيين أم مسلمين، نتجه إلى الله: ولكنها كلها تقف عند حجاب ! Hijab ولا تستطيع أن تتجاوز ذلك الحجاب إلى المعرفة الكاملة أو المعرفة السماوية!"

– سوريا، ذلك البلد القاحل، الذى يمكن أن يتحول من جديد إلى بلد مثمر، لا يعد العقيدة الوحيدة فى الإسلام . والنصارى أعدادهم كبيرة فى سوريا، ولكنهم أصحاب قلوب واجفة ضعيفة. والدروز المتحالفين يشكلون أعشابا قوية منبثقة عن السلالة الإسلامية، فى الجبل الأوسط وفى الجزء البركانى من البلاد. وفى بعض القرى القريبة من أنطاكية يوجد بعض المسلمين الوثنيين، ويطلق عليهم اسم النصيرية (*) en-Nuseyrieh . وفى فينيقيا (**) والحدود الفلسطينية المجاورة لها هناك مستوطنات ومستعمرات قروية تدين بالدين الفارسى . [انظر ص ٢٨٤] – والانقسامات الدينية المتأصلة فى هذا الإقليم تضر كثيرا بالحكم الضعيف للحكام الأتراك فى هذه المنطقة.

(*) النصيرية : فرقة شيعية متطرفة نسبت إلى نصير مولى الإمام على بن أبى طالب (ر) ، وقد زعموا أن الله تعالى حل فى على فى بعض الأوقات وأنه حل فيه يوم فتح خيبر ، ويعتقدون فى نظرية الفيض الإلهى الذى حل فى شكل سلم متدرج من الناس على رأسهم كان الإمام على . (المراجع)

(**) إقليم قديم فى شرقى البحر المتوسط يتكون بشكل عام من الأراضى الساحلية لسوريا الحديثة ولبنان ويقع إلى الشمال من جبل الكرمل. وسكانه من الفينقيين الساميين كانوا منظمين على شكل ولايات كان يحكمها ملوك عن طريق الوراثة وفى القرن الثالث عشر قبل الميلاد أصبح أولئك الفينيقيون بحارة بارزين وتجار بارزين فى منطقة البحر المتوسط. (المترجم)

كان الأوربيون المبشرون بالإنجيل بمثابة الملح فى التربة السورية على امتداد خمسين عاما؛ ولكنهم لم يكونوا يتكلمون – خوفا من الموت – إلى أى أحد من المسلمين! ويجب أن نعترف أن أولئك المبشرين لم يحققوا أى نجاح إلا مع خمسة أفراد فقط هم الذين غيروا دينهم. هل يمكن للمسيحيين أن يتحولوا اليوم إلى يهود؟ وكيف يمكن أن يتحول المسلمون إلى مسيحيين؟ هؤلاء المبعوثون أصحاب المعاطف الطويلة والذين يحصلون على رواتب سخية (فى ذلك البلد الصيفى)، والذين يتبعون الكنائس الأوروبية، لا يتكلمون إلا مع المسيحيين فقط، ويحولونهم، من مرارة إلى أخرى، ومن اسم إلى آخر تحت راية المسيح العريضة. وهم ينظرون إلى الشعب العربى على أنه مثل الماشية؛ يضاف إلى ذلك أن أتباع ومريدى هؤلاء المعلمين، هم من جانبهم، أصحاب قلوب جريئة وقساة أيضا ويتفاخرون على الفرنجة، – ذلك التفاخر السامى Semitic الذى يعد خيطا قويا فى التشدد الإسلامى! هؤلاء المبعوثون جديدون فى كل شىء اللهم باستثناء التواضع الجم للمسيح: يضاف إلى ذلك أن مكرهم الوطنى يصطبغ بصبغة إفرنجية (إيطالية)، وفرنسية، وإنجليزية)، وبهذه الصبغة يمكن التعرف على أولئك الريفيين الذين يصدقونهم – أو إن شئت فقل: أولئك البشر الذين لم يعانوا كثيرا زد على ذلك أن أولئك الذين تلقوا تعليما حراً بلا مقابل، يتطلعون دوما إلى الحصول – يقال إن البعض منهم يختلس! – من الثرى نفسه (ويظنون أن ذلك أمر غاية فى البساطة والسهولة) الذى هو أوروبا المُحْسِنَة الخيرة، ذلك المعاش بصورة مستمرة: وهم يحسبون أن ذكاءهم 'أكثر رفعةً raffia من ذكاء الفرنجة [الساذج] البسيط!' – إنهم عبارة عن صور جديدة من تلك السلالة العربية، وهم لا يتحلون بالمعنى الأخلاقى؛ وهم يشبهون مسلمى هذه البلاد (فيما عدا الشجاعة والقيمة الطبيعية). بعض آخر التقيتهم، كانوا مستائين من القسوة (والبخل) الأوروبيين اللذان كانا يتمثلان فى معلميهم الدينيين، كانوا يدعون الله، فى كل يوم، أن يخلصهم من أولئك النظار الفرنجيين، ويعينهم على تربية وإيجاد معلميهم الخاصين بهم: وهم يقولون فى بعض الأحيان:" كل هؤلاء الفرنجة (الذين هم بيننا) جواسيس!" ومع ذلك، فإنهم يجدون رسلهم الذين يقفون معهم، ليتقاسموا معهم صدقات أوروبا. – الفضيلة ليست نادرة جداً، فى هذه البلاد المحيطة سيئة الحكم.

هؤلاء السوريين – الذين يفتقرون إلى الإبداع ، يمكن أن يتحولوا عن طريق المحاكاة إلى وضع أفضل مما هم عليه، فيما يتعلق بالفنون الليبرالية.

– جلسنا حول وجار (قهوة) البسام – ذلك الهيكل الإنساني بالنسبة للأسر العربية! حضر أناس آخرون؛ وقال أحد الشبان: " إنه من بين عادات الإنجليز وأعرافهم التى بهرته [وهو فى الهند] أن الأزواج كانوا يفسحون المكان للحريم. [احترام الفرنجة للمرأة ليس أمرا لائقا أو من أعمال الرجولة هنا – بين الشرقيين، وذلك بدءا من اليونانيين.] يضاف إلى ذلك أن الإنجليز يرفعون البرنيطة bernetta – وتلك علامة الاحترام والتوقير فيما بينهم ، عندما يلتقون أية امرأة تكون معروفة لهم؛ ولكنهم لا يرفعون هذه البرنيطة (القبعة) للرجال!" كان البسام بكرم المضيف ينتظر ردى على ما يقول. قلت: "حريمنا متعلمات تعليما جيداً: وإنه لمن دماسة خلق الرجال أن يكرّموا الطرف الأضعف ويخصونه برعايتهم، وهذا يضفى السعادة على حياتنا على نحو أفضل – ، حياتنا هذه ليست سوى النساء والأطفال. أتعرف ما يقال فى الأمثال؟ بلد Beled الإنجليز el-Enqleys جنات Jinnat الحريم el-hareem ، وجهنم Jehennem الخيل el-khail بمعنى 'إنجلترا جنة النساء وجحيم الخيول!' "أحسست بنكوص البسام، من عبارته الأولى؛ ولكن عندما فهم نهاية المثل، التى جاءت عربية، فقد راح يكرر تلك النهاية عشرات المرات فى شىء من المرح والقبول. – فى حضورى كان عبد الله حذراً دوما فى مسألة كياسة المضيف، حتى يتسنى له تحاشى الخطاب الدينى (الذى لا لزوم له). ولكن عبد الله لم يكن رقيقا أبدا مع اليهود؛ والسبب فى ذلك أنه قرأ مؤخرا فى جريدته أن بعض التجار اليهود فى إنجلترا كانوا أغنى من الملكة صاحبة الجلالة، وأن آل روتشيلد Rotchilds (الذين كان يعرف لقبهم لأنهم يرسلون الصدقات كل عام إلى بغداد لكى توزع على الأخوة فقراء الشرق) كانوا دائنين لمصر كلها؛ وهنا فاض به الكيل ولم يتمالك نفسه وصاح قائلا: "الله يمسحهم!" "قال آخر، يا للغرابة، الإنجليز لهم ملكة، وليس لهم رجل يحكمهم! ما هو اسم الملكة، يا خليل؟" أجبته، منصورة Mansura بمعنى'السيد Lady المنتصرة Victorious : هذا الاسم (إذا ما استعمل فى صيغة المفرد) يكون له وقع طيب أيضا فى لغتهم.

بالرغم من عدم وجود أطباء فى نجد، إلا أن هناك بعض الحكماء المتواضعين: وقد جرى استدعائى إلى بيت آخر لأسرة من أسر البسام كيما ألتقى بحكيم كان من أبناء عنيزة. ذلك البسام، الرجل متين البنية، كان أكثر التجار الأجانب تجوالا: فقد استطاع عن طريق الخطوط الحديدية، التجوال فى كل أنحاء الهند؛ لقد عاش فى الهند، كما أنه يتكلم اللغة الهندوستانية الدارجة المبتذلة. ولكن سفره هذا ورؤيته للأمم الأخرى لم يغير من آرائه المتصلبة ورأسه الخشبى؛ وقد عاد إلى الوطن كما لو كان سفينة خشبية طافت الدنيا كلها وعادت إلى موطنها بالحال التى كانت عليه، ولم يطرأ عليها أى تغيير: المعادن التى من هذا القبيل يصعب أو يستحيل مسخها! صحيح أنه كان قليل الألمعية والذكاء؛ وصحيح أيضا أن حاله راج بصورة ضعيفة فى هذا العالم. كان ذلك الحكيم يجلس بالقرب من وجار قهوة البسام؛ ينتظرنى ومحياه يوحى بالاحترام وأنه أيضا ناظر مدرسة القرية. – قال الرجل بتواضع شديد: إنه حصل على مهارته الصغيرة هذه عن طريق القراءة فى الكتب القليلة التى لديه؛ وأنه حصل على تلك الكتب بشق الأنفس. وجه الرجل إلىّ أسئلة سهلة كثيرة؛ وكان يحنى رأسه احتراما لإجابتى عن أسئلته البسيطة؛ وأحس بسعادة بالغة للقائه إياى؛ وقد بدا لى أن ذلك الرجل المسكين كان يتعجب من أن تعليم الأساتذة الأجانب لم يكن تعليما مظلما أو صعب المنال!

فى تلك الأيام الأخيرة، كان ذلك الحكيم البسيط قد قام بتطعيم كل أطفال البلدة: اعترف، 'أن كثيرا من الأطفال يموتون بهذه الطريقة – ولكنه سبق له أن قرأ أن التطعيم بجدرى البقر [العذاب el-athab] الذى يستعمله النصارى لا يتسبب فى وفاة أى طفل من الأطفال!' بعد أن استمع ذلك الرجل إلىّ، قال: سوف يراقب صباحا ومساءً الأبقار وهى ذاهبة إلى المرعى فى الصباح وعائدة منه فى المساء، وسوف يتم ذلك من بوابة من بوابات البلدة؛ ولعله يصادف أو يعثر على ميكروب الجدرى على ضرع واحدة من تلك الأبقار. [وكان العم محمد قد بحث عن ذلك الميكروب من قبل ، ودون طائل فى خيبر.] – أشرت على الشيوخ بإيفاد ذلك الرجل المحترم إلى الشمال، كيما يتعلم فن الصالح العالم؛ وبالتالى يتمكن من تطعيم الناس فى هذه الأجزاء من نجد. وبالرغم من إرهاقى الشديد، عرضت عليهم أن أسافر أنا بنفسى إلى بغداد،

إذا ما استطاعوا أن يوفروا لى ناقة، على أن أعود إليهم ثانية ومعى الطعم المطلوب. ولكن الرغبة أو الأمل فى المصلحة العامة لا يمكن أن تحرك أهل الجزيرة العربية أو توحدهم: هؤلاء الناس لا يُقَدِّرون مطلقا الفكر الإنسانى الاحترازى الذى يرون أنه يشكك فى العناية الإلهية. صحيح أن دينهم يحثهم على التداوى، – الذى أوجده الله فى الأرض لخدمة الإنسان ؛ ولكنهم لا يمكن لهم أن ينجوا من الطاعون أو الوباء. بعض التجار الأجانب سبق لهم أن جلبوا معهم ذلك الطعم إلى بلادهم. – وهذا هو ما فعله عبد الله البسام فى العام الماضى ؛ ومع ذلك فإن ذلك الطعم لم يتجاوز جدران منازلهم . – سمعت كلمة جديدة وردت على لسان البسام (وربما جاء بتلك الكلمة من الهند)،" قال: ماذا نفعل فى أرض ليس فيها إلا الديانة dianat المحمدية el-Mohammedia بمعنى 'الدين الإسلامى'؟ والتى اعتاد الناس فيها على أن يطلقوا على تلك الديانة اسم دين din الإسلام. el-Islam " – صاح الكنينى قائلا: الهند "مشهد عظيم من الأديان!"

قال العم محمد فى خيبر هو وبعض البدو، إن هناك مرضا يصيب الإبل يشبه ذلك المرض الذى عرفوا منى أن اسمه جدرى البقر.، الجدرى سريع الانتشار . ذات يوم وجدت مضيفتى الزنجية الشابة تولول؛ فقد أحضرت طفلها الصغير وقد أصابه إعياء شديد، عندما كان يلعب فى القاع Ga : وبالتالى مرض طفلهم الآخر. – أنا لن أبقى فى ذلك المكان الضيق، حتى لا أتنفس الهواء الموبوء: ولكنى، تركت أشيائى ، وأمضيت الأيام التى تلت ذلك اليوم فى الشوارع: وعندما كان يحل علىّ الليل كنت ما أزال صائما، ولا أعرف أين سأنام. ولكن خطر ببالى، أن مسألة إصابتى بالمرض هنا، يمكن أن تفوق كل الأخطار والمصائب الحالية. لم يكن أحد يعرض علىّ أو يعزمنى على الذهاب إلى بيته ؛ وعندما غلبت على أمرى فى المساء – والناس هنا يطرقون الأبواب بطريقة إيقاعية – فقد قصدت باب مريض من مرضاى، كنت قد سبق لى أن أهديته شيئا من الدواء، وطرقت الباب، وعندما سمعت صوتا قادما من الداخل يقول أجلط ugglot بمعنى 'أدخل'! دخلت البيت؛ وطلبت ممن كانوا فيه أن يتركونى أنام على أرض الكوخ [المفروش بكمية كبيرة من رمل النفود] . هذا يعنى أن الناس لن تلاحظ أن الكنينى يأوى نصرانيا: وأنا لم أكن قد شكوت همى للبسام. يضاف إلى ذلك أنى كنت

أتحسب لعطف وحنان أولئك الأصدقاء الذين هم من الجزيرة العربية؛ وذلك حتى يمكننى الاستفادة من ذلك العطف والحنان فى ساعة الضرورة القصوى.

كانت شرفة سطح المسجد المفروشة بطبقة سميكة من الرمال، والمكان الذى ينام فيه الغرباء الذين يفدون على عنيزة، وكان ذلك المسجد يجاور الدكان الذى كنت أمارس فيه الطبابة، ولكن ما هى قدسية المسجد التى يمكن أن تحمينى أثناء النوم؟ والناس هنا أيضا يعبدون الله بقوة السيف. – ولكنى عند هذا الحد توصلت إلى مخرج لم يخطر على بالى من قبل : كان هناك رجل، ممن استعملوا أدويتى ؛ كان ذلك الرجل قليل الكلام ، حاد النظرات، ملون العينين ، ولكنه كان ولد لأم طيبة ، – أرملة ، كان لها دكان تبيع فيه كل الأشياء، وكنت أشترى الخبز منها فى بعض الأحيان . كان ذلك الرجل يعمل بائعا فى سوق القماشين، وكان من تلك القلة، إضافة إلى الأمراء وأبنائهم، الذين كانوا يحملون سيوفا فى عنيزة؛ نظرا لأنه كان من الضباط العاملين مع زامل. قال لى: " أنا آسف لك يا خليل لأنك ليس لك مسكنا تقيم فيه؛ هناك منزل خال قريب منا، فهل تأتى معى لنتفرج عليه؟" – وبالرغم من أنى وجدت أن ذلك المنزل كان عبارة عن غرفة أو غرفتين غير مكنوستين ومبنيتين من الصلصال ، إلا أنى انتقلت، فى اليوم نفسه إلى البيت لأقيم فيه: وكان ذلك الرجل هو وأمه جارين طيبين. مع مطلع كل صباح كانت والدة الشاب تحضر إلىَّ خبزا مخمورًا، ومعه قليلا من شرش اللبن وشيئا من الزبد، كما كانت تملأ لى قربة مائى: وعند غروب الشمس (وكانت تعرف ذلك تماما – نسيانى الذى لا علاج له – أكون قد نسيت شراء أى شىء من المؤن أو الطعام؛ ويكون السوق قد أغلق أبوابه وانفض)، كنت أجد هذه الأم الطيبة قد أعدت وجهزت للغريب وجبة من القمح فى منزلها، نظير مبلغ ضئيل جدا؛ وفى بعض الأحيان لم تكن تقبل أجرا على ذلك! ولابد أن ذلك كان بترتيب سرى من زامل . هذه السيدة المسنة كانت تجلس أمامى كاشفة الوجه، وكانت تعاملنى كما لو كنت ولدها: كان وجه هذه المرأة هو الوحيد الذى شاهدته فى وسط نجد، – والبنات الصغيرات اللاتى فى مرحلة الطفولة غير محجبات هناك.

دعيت إلى منزل آخر لواحد من آل البسام المتشددين. كانوا يطلبون دواء لشخص كان يسكن معهم؛ شخص، قيل إنه، يستعد لأن يكون "عالما؛" وقيل أيضا إنه هارب (من عائلة أمير بريدة السابق). رب الأسرة هذا لم يسمح للحكيم بالجلوس ؛ وصب له فنجالا من حثالة القهوة الأخيرة، – كان يجلس فى ذلك المكان، ضيفهم، ذلك الرجل الضخم الذى كان يرتدى رداء بنى تميم، كان ذلك الضيف صامتا لا يتكلم ؛ وأشاروا لى بأنه يريد دواء منى. صحت فى أذنى ذلك الرجل، وذلك من باب احتقارى وازدرائى لأسلوبهم فى التعامل،" هل تسمعنى؟ ما الذى تريده منى؟" أشاح بعينيه ناحية الأرض مخافة أن ينظر إلى الكافر تساءلت ،" هل هذا رجل أصم؟" – الناس هنا يجفلون عندما تفاجئهم بالتحدث إليهم، من منطلق أنهم هنا يعرفون أن الفرنجة يتفوقون عليهم من حيث الحماسة وقوة الروح. نظر ذلك الفلاح إلى الأعلى نظرة فيها المزيد من الاعتدال، ومع ذلك لم يكن على استعداد لاستئناف الحديث أو الكلام مع واحد من الوثنيين؛ ولكنى عندما ملت على علىّ الزنجى الذى أحضرنى إلى هنا، كلفه ذلك الفلاح بصوت خفيض، أن يسأل، هل لدى النصرانى دواء للبواسير؟' – صاح الزنجى معلنا ذلك الكلام على الحاضرين! رد المتحذلق واجم الوجه قائلا: "كفى"؛ وبعد أن عدَّل أحزمته المصنوعة من الجلد، عادت روحه الخبيثة إلى تأملها الطويل، عند بوابات جنة مكّاوى **Meccawy** . – ونحن فى مثل هذا الهرم والخرف لا نجد أى شكل من أشكال الحقيقة!-تلك الحقيقة التى تلتصق بطبيعتنا إلى حد أننا نعرفها، حتى من خلال الحجاب الممزق؛ مثلما يعرف الطفل أمه.

(...)(*)

العقائد السامية متباينة ومتنوعة. والدين المسيحى – الذى هو تأديب للروح التى تدفئ نفسها بالحب الربّانى – كان يتمنى لو يطوق العالم الإنسانى بذراعيه، رابطا الناس جميعا بأخوة واحدة مع قبلة بكر من قبلات التواضع والإحسان. سلسلة الأشياء

(*) صفحة كاملة بها آراء فيها تهجم واضح على الدعوة الإسلامية ومساس بالمقدسات الإسلامية رأينا استبعادها دون إخلال بالسياق العام . (المراجع)

الإسلامية سريعة التصديق تبهج الروح، وتنشر بينهم تفضيل الله للمسلمين وحدهم؛ وتخرج صواب الرأى(...)(*) لكل الدنيا الموجودة إلى جوارها. - دين الجزيرة العربية القائم على السيف لابد من تخفيفه وتلطيفه بالسيف: ولو قدر لابنة مكة والمدينة أن تقعا فى الأسر فإن المسلمين سوف يتعين عليهم أن يصبحوا مثل اليهود! الإنسان يمكن أن يكون مسلما بحق ، بالرغم من أنه يمضى حياته فى الخلاء (الصحراء) بلا معلمين (علماء). فى البلدان هناك علماء دين - ولكنهم ليسوا قساوسة يتعاملون مع الأسرار : وليس بينهم إكليروس. محمد (ﷺ) مجرد رجل، رب أسرة ، والد عائلة؛ ودينه دين حقيقى : كما أن شعب محمد (ﷺ) يمشون فى طريق كبير، مليء بعطر اللحم البشرى الطاهر؛ يضاف إلى ذلك أن الجدل الذى يدور بين الطبيعة الحسية وفكرة الربوبية لا يترتب عليه أى خطر أو مضاعفات فى قلوب هؤلاء العلماء المسلمين . - الإنسان نفسه مؤله فى أوروبا الوثنية؛ وكل عمر يفرز أبطالا ربانيين . ما الذى نطلبه أو ننشده نحن من الدين ؟ - أليس هو القانون الكامل للإنسانية؟ - تضميد الجراح، وشفاء أورام والتهابات الحياة الإنسانية؛ وهو المسار الذى نسلكه للوصول إلى السماء (الجنة).

- إذا ألقينا نظرة على الموروث الدينى لبنى إسرائيل، من أرض الصحراء، قد نتصور نشوء ذلك الموروث فى أسرة أيوب، أى من منطلق رؤية البدو الساميين الرُّحل للملوك **Meluk** . قد نقرأ عن الختان عند كل من هيرودت **Herodotus** وموسى (عليه السلام) وعن خرافة اللحوم، وعن استغلال القساوسة لظلم الإنسان للحيوان ، وقد نقرأ أيضا عن تنظيم الإكليروس: تلك كلها كانت عادات المصريين. صيحة الأنبياء العبرانيين المريرة انتعشت فى كل جيل من الأجيال، وأدت إلى استمرار الموروث (الموسوى) ،الذى أرسى داود أسسه فى النهاية، ولكن الفضيلة، والعدالة والطهارة تنشأ بطبيعة الحال فى الضمير الإنسانى؛ هذا يعنى أن الفضيلة، والعدالة والطهارة إنما يجرى إقراضها للأديان: التى تكون الربانية والعدالة الإنسانية فيها، فى معظم الأحيان، مفترقة على نحو يجعلنا نفكر بعمق فى عصر حجرى فى سمائهم المزعومة!

(*) عبارة تم حذفها بها تعبير غير لائق عن المسلمين .

تلقيت دعوة لزيارة أسرة وهابية أخرى ؛ استقبلت الحكيم استقبالا كريما . رب هذه الأسرة، وهو من ملاَّك الأرض ، كان لديه أبناء كبار، وسمى نفسه أمامى باسم الشيخ Sheykh محمد: ولكن واقع الأمر أنه لم يكن شيخا ، ولكنه حسبما قال لى الأصدقاء (بحكم غيرتهم من مهابة المشيخة) من min خلق Khulk الله ullah ، بمعنى 'من مخلوقات الله' أى إنه كان مجرد فرد عادى من الناس . كان الشيخ محمد، الذى له بيت كبير فى المدينة ، يكاد لا يبصر ؛ إضافة إلى أن أولاده كانوا مرضى . [وعندما طردونى بعد ذلك من عنيزة، أرسل لى الشيخ محمد أربعة بنسات، ثمنا للدواء، ومن باب إراحته لضميره!] كان الشيخ محمد يعطينى كلاما حلواً وأنا جالس فى صالته : "يا خليل ، أنا أنظر إليك باعتبارك واحداً من أبنائى: ألا تستطيع فى الوقت الذى أنت فيه معنا هنا، أن تجعل نفسك تتوافق مع ديننا، دين الإسلام؟ – أنا أعلم أنكم شعب الإنجيل ، وتعبدون الله، ولكنكم لا تعبدوه مثلما نعبده نحن؛ قل محمد Mohammad رسول Rasul الله، !Ullah وادخل فى زمرة المسلمين . وعندئذ سوف يتمنى لك الخير كل أولئك الذين هم مبتعدين عنك حاليا؛ كما أنك سوف تحصل على ما تطلب، وليتك تبقى معنا هنا وتؤدى فريضة الحج معنا ، أو تواصل رحلتك إلى بلد آخر ." – كانوا يراقبونى بأطراف عيونهم الزائغة؛ عندما كنت أرد عليهم قائلا: "كل مخلوق رسول -ra sul الله !Ullah ".

ذهبت ذات صباح لتناول الإفطار فى ذلك البيت؛ وكان الشيخ محمد قد عزم نديما له اسمه أيضا محمد، وكان واحدا من القماشين فى سوق القماش ؛ وكانت أمه تعانى منذ سنوات من ألم حاد فى أعصاب الوجه. ذهبنا بعد الإفطار لفحص المريضة، وتركت لها بعض الأوراق التى تحتوى كل واحدة منها على شىء من مسحوق اللودانوم. وفى ساعة متأخرة من نهار اليوم مررت على دكان محمد؛ وأبلغنى أن أمه ابتلعت الأوراق كلها دفعه واحدة! – طلبت منه أن يسارع عائدا إلى المنزل على الفور ؛ وإذا ما وجد أمه نائمة يوقظها ويعطيها دلة قهوة كاملة ويحثها على شرب الدلة كاملة! – "يا خليل ، در بالك على الدكان أثناء غيابى !" – وانطلق الرجل إلى منزله. كنت أخشى من حدوث أسوأ العواقب ؛ ولكن سرعان ما عاد إلى ، وهو يقول (مما شرح صدرى وأراحنى) :

إن والدته على ما يرام . وراح الواقفون يهنئون تاجر القماش ، الذى كان صليب الرأى إلى حد ما لإصراره [أن عرب الواحات يتمتعون بخفة ظل نكدة] على أنه كان يمكن أن يكون سببا من أسباب تسمم أمه!

ذات صباح أرسل الشيخ محمد فى طلبى بصورة مفاجئة! – وجدت بدويين جالسين فى مقهاه ؛ قال الرجل: "يا خليل، وردت رسالة تطلب إليك الذهاب إلى بريدة ؛ وهذان هما الرجلان اللذان سوف ينقلانك إلى هناك، وهذه هى الرسالة التى وردت من عبد الله (الأمير). – وليأت واحد منكما بالقرب منى هنا يا أولادى ! ويقرأ هذه الرسالة على خليل. "كتب عبد الله – بعد تحيتهم الرسمية – 'سمعوا فى بريدة أن أهل عنيزة وجدوا أن أدوية النصرانى مفيدة؛ وكان يود من الشيخ محمد أن يقنع النصرانى بالعودة إلى بريدة بصحبة المراسلين؛ كى يعالج عينى شقيقته، ويفحص بعض الأشخاص الآخرين.' رددت عليه ، "كنت فى بريدة، وهم الذين أبعدونى عنهم؛ كما أن عبد الله ، كان سببا فى التخلى عنى فى الوادى !" [أنا لن آمن على نفسى مرة ثانية، فى بلد يعد الشيوخ المغتصبون فيه هم أسوأ المواطنين.] كان الرجل كبير السن يحرضنى ويحضنى كما لو كان له سلطان علىّ؛ وقال البدويان (بطريقتهم الآسيوية) : "قف وانهض الآن يا خليل ! واركب معنا . أخ! والله سيعطونك نقوداً كثيرة: سيكون عبد الله حانيا وشفوقا عليك." قال الشيخ محمد: إى ، ثق بى يا خليل ! ما عليك إلا أن تذهب معهما." وسوف تحمل معك رسالة من زامل تطلب إليهم أن يعيدونك إلى عنيزة مرة ثانية فى غضون فترة محددة." – "لعل شقيقة عبد الله تأتى إلى هنا ؛ وسوف أعالجها هنا فى عنيزة." – "يا خليل، أنا أضمن لك، أنك سوف تكسب ثلاثين ريالا، فى أضعف الأحوال ، من هذه الرحلة!" – "وأنا لن أعود إلى بريدة، حتى ولو أعطونى ثلاثين فرسا، وإلى اللقاء."

فى صباح أحد الأيام كنت فى بيارة نخيل واحد من الأصدقاء ، وذلك أثناء طلوع الشمس: وكنا جالسين تحت أغصان كثيفة من شجرة من أشجار الرمان. وأدى نسيم الصباح العليل القادم من النفود إلى إعمال العقل فى أفكارنا وتأملها؛ ففى هذا الجزء

من الجزيرة العربية ، هنا في وسط هذه الصحراء الشاسعة، كان يسود الخطاب الأخوى والنزاهة والحيدة، مثلما هما في أوروبا تماما!" "قال صديقي: يا خليل إني أتعجب وأدهش، – أنا أشعر بالضيق والاستياء إزاء تشدد الناس وتعصبهم! ما هذا؟ " – " إنهم يعصونني في مسألة الدين ! ولكن من الذي يشهد لنا في هذه الأشياء ؟ الأشياء التي تتعلق بالعقيدة، والأمل والسلطة التي لا تقوم على أرض صلبة وثابتة." – "وأولئك الذين ينشرون الأديان ويدعون لها كانوا مدفوعين إلى ذلك طمعا في الدنيا (طمع toma الدنيا ed-dinya) ! " – كل دين من الأديان ، حتى وإن كان في الماضي وليد الضمير الإنسان ، إنما يكون ناتجا عن احتياجات الإنسان ، والتعبير عن هذه الاحتياجات الإنسانية هو الدين الحقيقي ؛ ونحن سواء عبّرنا عن إعجابنا بالوحدة المطلقة، أو الأب الأبدي السرمدي لكل القوى والحياة، أو إله المرئي والخفي أو (بمعارف روحية موجزة من هذا القبيل) إنما نحني ركبنا للسيادة الربانية المتشعبة في كل من الأرض والسماوات والأمم تتمسك بأديانها – 'وهذا صحيح [في بلدانهم] الذي يقوله كل إنسان : 'وبالرغم مما سبق ذكره فإن حقيقة الأشياء المزعومة لا يمكن توضيحها على هذا الجانب، بوابة الموت. كل إنسان سوف يتمسك بأمله، وسوف يرحل إلى خليج الخلود والسرمدية في العقيدة المشتركة؛ – وهذا من وجهة نظر الرؤية الأكثر وضوحًا قد لا يكون سوى جدل مظلم يثير الدهشة والاستنكار . ولكن هيا بنا ندخل مبنى معبد العلم الذي لا يدمر، والذي يمكن أن نعثر فيه على الحقيقة." – " إخص ! حقيقة إنهم يمكن أن يضطهدوك: وهل هناك مثل هذا الحقد والكراهية في الجنس البشري !" – "ولكن قل لي: ما الذي يجعل هؤلاء الناس الكفرة والمخادعين يرتبطون بالدين على هذا النحو؟" – " أعتقد أنه الخوف من النار (من جهنم) هو الذي يدهش قلوب هؤلاء الناس! على امتداد حياواتهم." – " أليس الموت 'نهاية لكل الشرور؟' ولكن طبقا للعقائد التي من هذا القبيل فإن ذلك العزاء المر الأخير يسحب أيضا من البائسين!" – النار هي القسوة الربانية في الأديان السامية ! Semitic .

عندما عدت إلى البلدة ثانية، تجمع العاطلون من حولي في الشارع ، ووقف زميل لطيف من الناس كي يحكي لي الحكاية التالية. – "عندما كنت أمارس التجارة

فى العراق ، كانت لى معاملات مع واحد من اليهود ؛ والذى كان ينعتنى ، كلما كنا نتحدث سويا بكلمة ، أخوى' akhuy بمعنى ، شقيقى!' ولكنى فى يوم من الأيام صحت قائلا: أعوذ بالله من الشيطان ! هل أنا ، شقيق ليهودى ؟' ورد علىّ اليهودى، ' لهذه الكلمة ، فأنا عندما سأراك فى النار (عذاب جهنم) فلن أحضر لك ماءً!.' وهذه هى الثقة، أيها الأصدقاء، التى يعلقها الناس جميعا على الدين الذى ولدوا عليه. آمل ألا نتهور ونلوم أى غريب من الغرباء ! فلهم دينهم ولنا ديننا. وأنا أقول : إنكم لا تتصرفون جيدا عندما تلاحقون النصرانى بكلامكم غير المتحضر : أليس خليل موجود هنا على مرأى ومسمع من الشيوخ؟ يضاف إلى ذلك أن تلك الأدوية التى يوزعها مفيدة للمسلمين.

تزايد الجدرى وانتشر فى البلدة: وبلغ عدد الوفيات ثلاثين طفلا. كان أولياء الأمور الذين كانوا يستدعوننى لفحص أطفالهم يعجبون عندما يرون الحكيم يتحاشى تنفس هواء الغرف الموبوء؛ – والسبب فى ذلك أنهم سمعوا منى، أننى سبق تطعيمى ضد الجدرى ! ويشيع بين الناس هنا فى هذه الأجزاء من نجد، مقولة مفادها،' أن الإنسان إذا ما جرى تحصينه ضد الجدرى ، فإنه لا يمكن أن يصاب بالعدوى مطلقا.' وهم يقولون أيضا: ' إن كل تلك المئات التى جرى تطعيمها بواسطة أبو فارس، أى قبل ثلاثين عاما، لم يصب أى أحد منهم بذلك المرض: ' – ومن حسن الحظ أن ذلك الطعم يستمر فترة طويلة فى أجسام أهل الجزيرة العربية. أثناء عودتى فى إحدى الأمسيات ، التقيت ولداً صغيرا فى الشارع، – وقال لى بنغمة حزينة: صلِّ Sully على ala ها الغرادة halghrada بمعنى 'صل على هذا الميت'. كان ذلك الطفل يحمل لفافة، بين ذراعيه ، ومتجها صوب المدفن! – فى ذلك الوقت كان هناك خمسة أو ستة أطفال يموتون كل يوم : وفى النهاية ' لم تنج أسرة واحدة من ذلك الوباء.' كان الناس هنا يرفضون أى دواء فى حالة الإصابة بالجدرى. ولما كان الابن الوحيد لواحد من أصدقائى، قد أوشك على الموت ، وكان بوسعى أن أعطيه شيئا من الدواء ولكن والده رد علىّ، "قد يرضى الله ، وينقذ هذا الطفل هو وعينيه." وخلال يوم أو يومين توفى ذلك الولد: وعندما التقيت ذلك الوالد المكلوم فى الشارع، قلت له : "هدئ من روعك!

سيعطيك الله ولداً آخـرا ؛ وهل مات الطفـل؟" – آه! لقـد دفنتـه بالفعل، – لقد ذهب إلى خالقه!"

اقتادنى شاب صغير فى عصر أحد الأيام إلى بيت يقع خارج البلدة، لكى أفحص ولد شقيقته المريض؛ كان والد ذلك الطفل من أقارب عبد الله الكنينى . وفى الطريق قال لى ذلك الشاب: "أسكن هنا (فى عنيزة) وسوف نوفر البيت اللازم لك ؛ ولتكن والداً لنا." كان ذلك هو حـامد Hamed اليحيى Eel-Yahya – الإبن الثالث للوطنى يحيى. وصلنا إلى بيارة من بيارات النخيل وفيها منزل ريفى؛ فى البيت جرى استضافتى بعد ذلك مرات عدة ، وكانت ترحب بى دوما تلك الأسرة التى كانت من أسر أعيان المكان. هذه البيارة التى لم تكن مساحتها تزيد على فدَّان وربع الفدان ، كانت هى بمثابة الثروة الكاملة التى تمتلكها تلك الأسرة: هذا الفقر النبيل كان كافيا لأن يقوم ذلك الوطنى العجوز، بتنشئة تلك الأسرة التى ليست بالصغيرة تنشئة كريمة. رحبت أم ذلك الشاب الصغير بالحكيم عند بوابة البيت، وجاءت وهى تحمل على ذراعيها حفيدا مريضا أشقر الوجه. – لم أر سلوكا أموميا مثل هذا السلوك ولا حتى سيدة مثل هذه السيدة، فى واحات الجزيرة العربية! كان يحيى قد وصل بزوجته إلى هذا الحال ، لأنه لم يرض أن تكون لأولاده سوى أم واحدة فى هذه الأسرة الواحدة. وراح الكنينى يتجول هنا وهناك ويعظم من شأن ذلك الشفاء أمام أصدقائه ومعارفه. أخذنى حامد إلى والده، الذى كان جالسا فى التعريشة: هذا السيد – الذى هو حاليا رجل عجوز أحناه الدهر، ويكاد لا يبصر، نهض من مكانه ليحيى النصرانى؛ ولكن الأم والابن ابتسما (ابتسامة مفتعلة بعض الشىء) للغريب ؛ وكأنهما كانا يعتذران عن العجز الذى أصاب ذلك الرجل المحترم. كانت سلطة يحيى ما تزال تُسَيِّر الأسرة: يضاف إلى ذلك أن أبناءه تشجعوا ، وكانوا ينفذون الكثير من أقوال والدهم.

وجدت فى أولئك الأصدقاء الجدد أسرة الجزيرة العربية بحق وحقيقة : لم يسبق لهذه الأسرة السفر خارج مدينتهم أو إن شئت فقل بلدهم ، اللهم باستثناء الحملات العربية ، وكذلك الذهاب للحج فى مكة (المكرمة)؛ لم يسبق لتلك الأسر أن امتدت يدها

إلى التجارة والاتجار. ولكن يحيى العجوز كان وطنيا بحق، وشيخا أيضا من شيوخ الخريسى Khereysy ، تلك الطائفة (المسالمة) من أهل مدينته [مثلما هو الحال فى الواحات كلها] ؛ هذه الطائفة المسالمة ، أو إن شئت فقل: الخريسى ، تعد واحدا من بين ثلاث مستويات فى معركة الرجال فى عنيزة. وقد وصل ولده الأكبر عبد الله إلى المكانة والاحترام نفسه؛ وعبد الله هذا ابن ليحيى من زوجة سابقة [انظر ص ٣٧٧]، وهى فى هذه الأيام من رفاق زامل؛ وبدون عبد الله اليحيى، لم يستطع زامل فعل أى شىء فى عنيزة .' هذا الشيخ الشاب يعمل تاجرا فى الإبل. – فى أسرة اليحيى لم يكن هناك متسع للتعصب : وكان صوت ذلك الوالد المحترم يعلم أطفاله ويعلم الآخرين أيضا أن، "خليلا من أتباع المسيح وأن كتابهم هو الإنجيل ،الذى هو أيضا كلام الله."

ذاع صيت أدويتى فى عنيزة: أم الكتينى – العزيزة عليه جداً، شأنها شأن أمهات الجزيرة العربية عند أبنائهن – شفيت وكانت سعيدة بشفائها ؛ بل إن ذلك الرجل نفسه أردف قائلا: ' وأن التكلفة لم تكن كبيرة جداً ، بالرغم من أنه اقتسم كل ما كان لديه مع خليل !' – وأهل نجد متيمون بالقهوة، وهم يتفقون فى ذلك على كل سكان الشرق. كان واحد من مُصَلِّحى القهوة صديقا من أصدقائى ، وأن ذلك الرجل من خلال تذوقه للقهوة قبل صبها ، كان يشرب ما يقرب من "ستين" فنجالا فى اليوم؛ يضاف إلى ذلك، أنه كان يزعم أنه كان يدخن" عدِدا كبيرا "من غلايين التبغ. طلبت من ذلك الصديق أن يقلل شربه للقهوة بمعدل عشرة فناجيل كل يوم من أيام الأسبوع؛ ونفذ ما قلته له وأكثر . " تعجب الرجل، النصارى لديهم حكمة طبيعية بحق ! هذه الحكمة أكبر من حكمة المسلمين . خليل يستطيع العلاج بلا دواء: وأنتم ترون فى هذا علاج سهل ودواء كامل ، وهو لا يكلف الإنسان شيئا!"

أضف إلى ذلك العقاقير والأدوية الإنجليزية يجرى جلبها من الهند إلى مدينة القوافل والعاملين فيها – ضمن تجارة الخليج. وصفت لمريض بالرئة زيت كبد الحوت؛ وعثر فى اليوم نفسه على زجاجة من هذا الزيت نفسه فى السوق! ولكنهم يعتقدون أن شرب ذلك الزيت لا يكون مناسبا فى أشهر الحر. كانت بداية مرض ذلك الرجل عبارة

عن قشعريرة: فقد فاجأه مطر غزير فى النقود، وترك ملابسه المبتلة تجف على جسده. ومرض الالتهاب الرئوى يبدأ أو يتولد عن قشعريرة – وبرودة الصباح ، التى تهبط على – أولئك الذين ينامون فى العراء؛ ولكن هذا المرض لا يشيع فى هواء صحراء نجد. هذا المرض أصاب الكنينى دون أن يصاب بالسعال ولكنه أخفى ذلك عنى : فقد أمضى ذلك الرجل بعد أن ضاق صدره، سنينا طويلة منذ بداية شبابه، فى مناخ مدارى رطب. – التقيت هنا أيضا مريضا مصابا بالصرع؛ ولم أر غير هذا المريض سوى رجل آخر فى الجزيرة العربية كلها. كان ذلك الرجل من بين السود الذين فى خيبر. صادفت مريضا آخرا ليس لمرضه وصف فى كتب الطب الجديدة؛ كان الرجل "مسحوراً!" Fascinated . أعرب عن حزنه وهو يقول : "إنها نفس nefs بمعنى روح تتملكنى وتحاصرنى؛ " وأضاف، ' أن هذا أمر شائع فى هذا الجزء من البلاد – إنه من عمل الحريم عن طريق المشاريب الخرافية اللاتى يحسبن أنها تولد الحب والعشق، وكذلك المشاريب الإجرامية والضارة.' – " هناك، هناك! (يصيح الرجل) ، أنا أرى سحرها وشعوذتها ! وهى دوما على هذه الشاكلة أمام عيناى. هذه المرأة كانت زوجتى، ولكنى طلقتها فى العام الماضى؛ وأنا أعيش فى خوف، فقد أعطتنى شيئا أشربه؛ وسوف يسوء حالى يوما بعد يوم، على امتداد بقية حياتى. الشبح دائما فى رأسى، حتى عندما أتمشى خارج البلاد، – والله ونحن جالسين هنا أراها وهى تسحر وتشعوذ !" هذا الرجل المسكين، الذى يستحوذ عليه الخيال والتهيؤات ، والذى كان يخدم الكنينى يوم أن كان فى البصرة، مصاب بالاكتئاب الشديد: كانت فنتازيا حزن ذلك الرجل مثارا للمرح (السرى وليس العلنى) من حامد البغدادى والأصدقاء الصغار.

شاهدت بالفعل علاجا جاهزا، فى الشرق، للأشخاص المخبولين، ويجرى ذلك العلاج فى ظل الدين. قبل ذلك بسنوات عدة وعندما كنت أتجول فى أعالى لبنان نزلت إلى وادى عميق – اسم ذلك الوادى بلغتهم هو وادى Valley القديسين Saints ؛ وفى ذلك الوادى توجد كنيسة كبيرة من كنائس الدين السورى. الأخوة المساكين فى الدين هنا يصل عددهم إلى مائة وعشرين فرداً: منهم خمسة وعشرين قسًّا؛ والبقية لا تعيش حياة سهولة وفراغ ، مثل الحياة التى تخلى عنها الكادحون؛ كل واحد من هؤلاء البشر

يعمل بيديه إسهاما منه فى الحياة المشتركة التى يحيونها فى هذا المكان ، – الغالبية من هؤلاء البشر هم من المزارعين . إشراقة الشمس ، فى كل صباح، هى التى تدعو هؤلاء الناس إلى الذهاب إلى حقولهم؛ وفى تلك الحقول، يخلو المتدينون إلى أنفسهم ويدخلون فى سنة من التأمل فى قدرة الله (سبحانه وتعالى). الحرفيون من بين هؤلاء الناس هم الذين يبقون فى البيت ، وهؤلاء الحرفيون هم على وجه التحديد صناع الأحذية، وأولئك الذين ينسجون تلك الوشاحات السوداء التى يرتديها الرهبان المتواضعون؛ بعض آخر من هؤلاء الرجال يخدمون فى المطبخ ، حيث يقومون على تحضير الخبز المطلوب للدير، كما أنهم هم أيضا الذين يطبخون الطعام البسيط. أما القساوسة فيبقون ، لأداء طقوس العبادة ، فى الساعات المحددة. وعندما يدق جرس الكنيسة، يتوقف أولئك الذين يكونون فى الوادى الموجود أسفل الدير، يتوقفون برهة قصيرة، عن العمل القائمين به، لأداء الطقوس الكنسية أو إن شئت فقل: الصلاة الكنسية. الدير عبارة عن كهف كبير مسور موجود فى باطن الصخرة. ومن غروب الشمس إلى غروب الشمس، ويواقع ست مرات فى اليوم الطبيعى المعتاد، تدق الأجراس لتنبه الناس إلى مواعيد العبادة: وينهض الأخوة عندما يسمعون صوت الجرس فى جوف الليل، ويتجمعون من أجل أداء الصلاة فى الكنيسة . – وشهور الشتاء تكون قارسة البرد مع هذا الارتفاع الذى يوجد عنده. الدير: والشمس وهى تتحرك خلف قمم ذلك الوادى من هذا الجانب ، لا تسطع عليهم سوى ساعة واحدة. هؤلاء المتدينون لا يأكلون اللحم ؛ والغذاء الذى يعيشون عليه هنا هو الخبز والزيت وأعشاب السلطة، أو إن شئت فقل: الأعشاب التى تؤكل؛ وهم قد يشربون اللبن ويأكلون البيض بواقع مرتين فى الأسبوع . وفى المنخفض الموجود أسفل الدير هناك نهر صغير ماؤه بارد مثل الثلج (هذا النهر ينبع من فوق منطقة أشجار الأرز) وهو الذى يدير الطواحين الخاصة بالدير : البعض من الناس المقيمين هنا فى الدير يمتهنون الطحن؛ كما أن هناك بيتا من الصلصال (اللبن) ، يستخدمه، فى فصل الربيع، بعض من أولئك المتدينين فى تربية دودة القز.

خلايا الدير ليست سوى جدران ليس إلا ، وفى كل واحدة منها نافذة صغيرة مفتوحة ، وأرضية كل خلية من الصلصال وعرضها حوالى اثنى عشر قدما: والذين يعيشون فى هذه الأروقة أناس مساكين، من أصحاب الحواس التى لا تعرف شيئا عما فى هذا المجتمع. هناك ناسكان، يقع مسكنهما بين الصخور فى وادى الحجر الجيرى المعتم: هذان الناسكان يصليان دوما، والذى يحمل إليهما طعامهما عند الظهيرة كل يوم، هو واحد من الرهبان المبتدئين. – وجبال لبنان فيها ثلاثين ديرا من تلك الأديرة؛ ومن بين هذا الجمع الكبير من الأخوة، وعلى حد قول الناس هنا، يوجد رجلين مباركين يقال إنهما من أصحاب المعجزات. وهناك شماس صغير، جرى ترقيته مؤخرا إلى قس، تتمثل مهمته فى دراسة الأغراب والوفاء بما يطلبه (الزائرون) الغرباء؛ هذا الشماس عندما رآنى أعانى من الروماتيزم فى فصل الخريف فى هذه الأماكن المرتفعة، حثنى بشىء من التواضع المشوب بالحب، على زيارة واحد من القديسين،' الذى لا يبعد ديره عن هذا المكان سوى مسير خمس ساعات فقط، وأنه سوف يطلب من رئيس الدير الموافقة له بمرافقتى فى تلك الرحلة.' كان واحد من هؤلاء الناس المتدينين يعالج كل أنواع الأمراض والضعف والوهن؛ قال له، شخص آخر منهم : أنه أعاد الميت إلى الحياة؛ وحكى لى، عن شخص آخر، أنه تسبب فى حمل كثير من النساء العواقر.' قال: إنه تعرف على امرأة عاقر رأت ذلك الرجل المبارك : وأنها، على حد قوله، حملت فى طفل ، قبل نهاية العام؛ ولكن أثناء الرحلة التى حملت الطفل خلالها، إليه لتعميده، مات ذلك الطفل. وفى اليوم الثالث لوفاة الطفل جاءت المرأة إلى ذلك القديس؛ وأعاد لها طفلها الميت إلى الحياة! – ذهب رجلان لزيارة ذلك القديس؛ وكان أحدهما ضريرا : ولكن بينما كانا سائرين فى الطريق أبصر الأعمى! وهنا قال رفيقه: "لماذا نواصل بعدئذ مسيرنا ؟ مالذى نريده من ذلك الرجل المبارك؟" – ولكن بينما كان يتحدثان سويا نزل عليه عمى الرجل الآخر!"

لم يكن مسموحا للنساء بتجاوز بوابة الرواق الذى يعيش فيه هذان الرجلان. "تساءلت، أليس هناك صعوبة، أن ينعزل رجل دخل حديثا فى الدين، عن الزواج؟" "أجابنى، لا فهذا أمر سهل جدا، إنه يكاد لا يشكل أى عائق على الإطلاق: وأنا أنظر

إلى المرأة مثلما أنظر إلى عمود من أعمدة البوابة الموجودة هنا." هذا القس الصغير كان مصابا بالصرع منذ الصغر؛ وقال: إنه كان من عادته، أن يخطئ مرة كل يوم، إلى أن ذهب إلى القديس الذى عاش معه طيلة أربعة أشهر؛ وبعدها شفى من المرض.'

– ورد علىّ أنه لم يكن يقرأ فى العهد القديم إلا نادرا؛ وسألنى، 'عما إذا كان الأب السورى [المعلق على الأناجيل بذلك اللسان (اللغة)] ، والمدعو أفرايم Ephraim الموقر، قد عاش قبل المسيح أو جاء بعده؟ وسألنى أيضا هل كان المعبد الذى بناه (سيدنا) سليمان – بخشب من أشجار أرز لبنان، قبل المسيح أو بعد عصره؟' بالإضافة إلى أنه لم يكن يقبل الفكرة أو التخمين الذى مفاده أن النبيذ كان موجوداً فى الدنيا قبل مجىء المسيح! وذلك لأنه لديه فكرة مفادها أن المسيح صنع ذلك النبيذ بمعجزة فى عشاء من عشاءات الزواج. وهو لم يسمع عن أبناء نوح، ولم يعرف كم كان عددهم، ولا حتى أسماءهم. ولكنه كان يسأل باهتمام بالغ عن سيناء ؛ كما سألنى أيضا 'عن ذلك المكان من العالم الذى يقع فيه ذلك الجبل المقدس، – فى الوقت الحالى؟'

وفى النهاية أرانى ذلك القديس بئرا عميقة، كانت فى فناء الرواق، وقال : إن هذه البئر 'مفيدة جداً لعلاج أولئك المصابين بخلل فى عقولهم : وأن المريض بعد أن يجرى إخراجه من البئر، يتأكد أنه شفى من ذلك الخلل.' – المخبول المسكين يجرى إنزاله فى بئر مظلمة، ويجرى غمره فى ماء شديد البرودة! والذى لا شك فيه أن الخوف الشديد هو والبرودة الشديدة يعملان عملهما فى رأب الصدع فى ألياف السواد الأعظم من العقول المخبولة.

المرضى، فى عنيزة، لم يدفع فقراؤهم أو أغنياؤهم شيئا للحكيم مقابلاً للخدمات والدواء الذى قدمه لهم! بعض الأشخاص الميسورين ، بالرغم من إنقاذى لحياواتهم، لم يكشفوا عن الجانب الإنسانى تجاه النصرانى، اللهم باستثناء دعوتى لشرب القهوة فى بيوتهم الخالية من العطف. كنت سعيدا بإعطاء الدواء للفقراء: وبالرغم من أنى كنت أواجه المدينين وأطالبهم بما عندهم، إلا أنى كنت راض عنهم جميعا؛ والسبب فى ذلك أنى من خلال أولئك المدينين استطعت أن أتعلم الكثير عن هذا الجزء من نجد.

كان من بين أولئك المدينين فلاح ممن يعملون خارج أسوار البلدة؛ وبالتالى تهيأت لى فرص الخروج إلى ما بعد أسوار البلدة. – وعلى مقربة من بوابة بريدة، أرانى الجيران جزءًا من سور مبنى من الصلصال يصل سمكه إلى حوالى قامة واحدة، هذا الجزء يمثل البقية الباقية من القلعة التى بنيت أيام الاغتصاب أو إن شئت فقل: الاحتلال الوهابى. عندما وصل إبراهيم باشا على رأس جيش مصرى، إلى عنيزة، قامت مدفعيته بقصف تلك القلعة الطينية طوال الليل؛ ومع طلوع الفجر لم يكن يتبقى من تلك القلعة سوى أكوام من الطين والتراب: وفى اليوم نفسه أجبر إبراهيم باشا حامية بن سعود وقواته على مغادرة المدينة والانسحاب منها.

فى ذلك المكان، توجد قطعة أرض من الحجر الرملى، حولها مالكها إلى بئر للماء؛ وكانت البئر، التى جرى حفرها فى تلك المنطقة، من عمل عمال الأحجار فى عنيزة. والعمل هنا مضن (فى ظل ظروف المناخ الذى لا يطاق) ، إلى حد أن أولئك الذين يكونون فى ريعان شبابهم، ويشدهم الأجر العالى، ويجعلهم يربطون مصيرهم بمصير أولئك الذين يقطعون الحجارة، قد لا يصلون سن الرجولة أو حتى منتصف العمر. والناس هنا يقولون من منطلق الحكمة الدينية: " إن ذلك عقاب من الله؛ وأن الشباب يذنبون بلا اكتراث ، ويسلمون أنفسهم للعمل المفرط." هذا المسحوق الحاد المتطاير عندما يستقر فى الرئيتن ، ويروح يقُطِّعهما ويستهلكهما مثل الزجاج ، فإن كل قوى الطبيعة تعجز عن طرد ذلك الغبار أو إخراجه من الرئتين مرة ثانية. – جاءنى شاب ممن يعملون فى قطع الأحجار؛ كانت لحيته على وشك الظهور، ولكنه كان مريضا مرض الموت : لم يكن يقوى على المشى مسافة بضع منازل صغيرة، لأن قلبه سرعان ما يلهث فى إثر مجهود من هذا القبيل؛ اشتكى للحكيم قائلا: "صدرى مكسور!" قال الشيخ نصير : "إنهم يموتون هكذا فى سن مبكرة؛ إنهم يموتون فى غضون عامين أو ثلاثة أعوام."

قصدت بيت ذلك الفلاح ، الذى يمتلك مكانا جيدا بالقرب من بستان الكنينى . وترك الرجل منطقة البئر وهمٌ قادما للقائى؛ وأدخلنى إلى مقهاه بعيدا عن الشمس؛

ثم جلس على الأرض لتصليح القهوة! بعد شرب القهوة قلت له: هذا بيت جيد! وأنا أرى فى هذا البيت الريفى نخيلا وأرضا لزراعة القمح فضلا عن الإبل ؛ وهذه هى أكوام كبيرة من حصاد القمح والشعير! جاهزة للدرس: خبرنى ما الذى يمنعك من دفع المبلغ الصغير المطلوب ثمنا للدواء الذى أعطيتك إياه؟" – " أخ! يا خليل! أنت لا تعرف طبيعة الحال معنا، أنا أتمنى على الله لو أن كل هذه الأشياء كانت ملكا لى، مثلما هى ملكى من الناحية الشكلية! هل ترى الإبل الواقفة هناك؟ – إن هذه الإبل ملك للبسام؛ كما أن هذا القمح كله تقريبا سيكون لهم وذلك وفاءً منى بقيمة القرض الذى حصلت عليه منهم؛ ونحن يتعين علينا أن نقترض منهم كل عام: ووالله، ما يتبقى لى بعد أن أسدد كل ما علىّ سيكون أقل من القليل. هذه الأرض كانت ملكى ، ولكنها الآن ملك لغيرى؛ وها أنذا أصبحت كما لو كنت خادما عندهم."

عائلة البسام الثرية تمثل مقرضى المال فى عنيزة. معدل سعر الفائدة هو خمسة عشر فى المئة لمدة عام، اثنى عشر شهرا، وهذه الفائدة تدفع نقدا ؛ ولكن إذا ما قبلت فى شكل عينى ، – فذلك يكون من رجل فقير الحال! هذا يعنى أن هؤلاء الناس يحصلون على ريال ونصف الريال ، عن كل ريال واحد من القرض، ويكون ذلك مقيما بالقمح أو التمر، وبسعر جنى المحصول وحصاده. هذه الثمار، يخزنها أهل البسام، إلى فترة متأخرة من العام ، كى يبيعونها بسعر مرتفع (للبدو الرحل الفقراء). – قال ذلك الرجل، الذى دخل علينا، وكان من معارفى، وهو يذم الإثم الذى ارتكبه ذلك الفلاح "يارجل ! ألا تخاف الله؟ ادفع للحكيم أجره، أعرف أن الله فوقك. " كان ولد ذلك الفلاح يعمل ضمن قوة العجيل فى سوريا، – التى خدم فيها، فى فترة من الفترات، على حد قوله لى، نصرانى ، كان يعمل تاجرا ثريا للحبوب فى الناصرة؛ وقد بالغ فى وصف كرم وسخاء ذلك التاجر.

التحزب والمديونية فيهما دمار البلدان العربية. "وهم يقولون: السلف حلو" [مثلما يقولون عن الكذب]، – إنه يشبه الغنيمة التى يأخذها الناس من الغير، ويوم الرد غير معروف (*) .

(*) هذه ربما كانت ترجمة للمثل العامى" السلف تلف والرد خسارة" (المترجم)

الإقراض بالربا، الذى لا يقره القرآن ويرفضه، يُمَارسُ هنا فى هذه البلدة المتدينة . وهذا هو ما يقضى على القرويين؛ كما أن غالبية البدو يصبحون خالى الوفاض كل عام، لأنهم ينفقون ثلث دخلهم فى سداد النقود القليلة التى يحصلون عليها. – والمسلمون ، فى سوريا لا يقرضون، وذلك خوفا من ضمائرهم، ولكن هؤلاء الناس تلتهمهم الزواحف الأخرى، المتمثلة فى اليهود ، وأكثر من ذلك – وهو ما يسيئ إلى اسم المسيح! بواسطة النصارى الآثمين الظالمين: فسعر الإقراض السنوى يصل إلى خمسة وعشرين فى المئة ، وهذا من وجهة نظرهم سعر "رحيم" للفائدة على النقود. من هنا تصبح الأرض معرضة للحجز: وعندما يقوم ملاك الأرض (المسلمون) الأمناء برهن أراضيهم نظير مديونياتهم؛ وعندما يصبحون مجرد مستأجرين لتلك الأرض بمحض إرادتهم، عند أولئك المغتصبين [لذلك الذى يطلق عليه الدين اسم "التراب"] – والذى كان ملكا لهم، عندئذ يبدءون فى هجر قراهم والتخلى عنها.

– وطوال الفترة التى عشتها بين أهل سوريا؛ وشاهدت خلالها أساتذة أولئك الأساتذة المتخصصين فى الحقد الإنسانى واكتشفت أنهم كانوا أشخاصا متصلين بالقنصليات الأجنبية، لم أدخر وسعا فى توجيه اللوم إلى المذنب ؛ وهو جعل هؤلاء الناس يحسنون بى الظن ." ردوا علىَّ قائلين : الأرض مثمرة، وتربتها أحسن من تربة بلادنا : هذا يعنى أن فلاحة الأرض وكلفتها تعد صغيرة وبسيطة." [فى ظل هذا المناخ – وحيث نعيش بمثل هذه الكلفة المرتفعة، وفى ظل زيادة الاحتياجات البشرية إلى الضعف – نحن نبذر الحب بجهد بشرى مضاعف على أمل أن نجنى النصف : يضاف إلى ذلك أن الوقت يكون مضاعفا أيضا!] .

الزراعة فى واحات الجزيرة العربية أقل مهارة منها فى غوطة ghruta دمشق. – الواحات فى الجزيرة العربية تربتها رملية صحراوية؛ وهذه التربة تكون خصبة ومثمرة فى ظل ظروف شمس الجزيرة العربية، وبالذات عندما يتوفر لها الرى. وفى كل عام يزرع الناس هنا المساحة نفسها ، بهذا الحب أو ذاك؛ ومع ذلك لا يقل الحصاد أو المحصول . والمساحات التى تزرع بالحبوب يغطيها الطمى، كما يزيد من خصوبتها

أيضا روث الإبل الذى يطلقون عليه اسم الدمن ed-dimn . والجذامة عندما يجرى حرثها تمهيدا لبذر الحبوب فى فصل الخريف، يجرى تكويمها فى أوعية وفى قنوات الرى - ، التى يحسنون استعمالها : وعندما يجرى فتح بركة من برك الآبار فإن الماء المندفع يجرف معه تلك الجذامة ويغمر بها الحقل كله دفعة واحدة. وفى مزارع النخيل تجد كل ساق من سيقان النخيل واقفا فى مجرى من المجارى المائية، وبالتالى فإن الأرض من حول جذور النخل تكون رطبة، بل إن هذه الرطوبة تتجدد مع تجدد مرور الماء فى ذلك المجرى المائى، وذلك بمعدل مرة أو مرتين فى كل يوم من الأيام المعتادة. [الأمر على العكس من ذلك تماما فى قرية العلا - وقد يقتصر ذلك التقليد على كل من مزارع النخيل فى كل من الحجاز أو المدينة المنورة - حيث تكون سيقان النخيل محاطة بضفاف فوق سطح التربة.] .

عندما كنت أسأل أصدقائى عن آثار البلاد، كانوا يحكون لى عن موقع يطلقون عليه اسم العيارية el-Eyarieh ، الذى يقع على بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشمال على هذا الجانب من وادى الرماح: قال الكنينى: " نستطيع ركوب الخيل والاتجاه إلى ذلك الموقع ." ذهبت ذات صباح بعد ذلك مع حامد الصافى Assafy لاقتراض حصانين من سمسار للخيول، اسمه عبد الله ، الذى يكنونه [وهذه كنية كل من اسمه عبد الله ، وبالرغم من أنه ليس له ولد] أبو Abu نجم Nejm : كان أبو نجم هذا يعمل سمسارا أو وسيطا فى بيع الخيول إلى الهند ، أو إن شئت فقل: فى السوق الهندية. والخيول لا تربى ولا تباع فى أى من بريدة أو عنيزة، ولا حتى فى أية مدينة من مدن نجد؛ ولكن سماسرة الخيول يتولون أمر الخيول الصغيرة فى قبائل الأعراب وهذا النوع من الخيول - ما لم يكن ممتازا بصورة أو بأخرى، تصبح أسعاره عادية جداً بين هؤلاء الأعراب كان مفروضا أن ينطلق الكنينى للقائنا قادما من اسطبل للخيول ، قريب من مزرعته.

عثرنا على خيول أبى نجم قليلة العدد والمعروضة للبيع، ضمن خيول أخرى كانت تجرى تغذيتها على حساب بعض الأصدقاء ، فى حقل يقع بين أشجار نخيل آخر حقل

من حقول نخيل المدينة فى شمالى عنيزة. وجدنا حصانين يتغذيان جنبا إلى جنب من معلف واحد مربع الشكل مبنى من اللَّبن؛ ووجدنا كل حصان من الحصانين مربوطا من رجله الخلفية إلى وتد جرى دقه فى الأرض. كان العلف الموضوع أمام الخيول من الجلبان الأخضر الذى يقولون له : 'جت' jet : وأن هذا الجلبان الأخضر كان هو الغذاء الوحيد الذى كانت تعيش عليه هذه الأفراس منذ أن قام أبو نجم بإحضارها من الصحراء، خلال أسابيع الصيف؛ وذلك إلى أن يبدأ هبوب الرياح الموسمية على البحار الهندية. فى هذا الموعد تقوم شحنة ذلك السمسار من الخيول باجتياز الصحراء الطويلة من ناحية الشمال ، مع الإبل، التى تحمل الماء اللازم لتلك الخيول طوال رحلة تستمر سبعة عشر مسيرة إلى الكويت ؛ حيث يجرى شحن تلك الخيول بالسفن إلى بومباى فى الهند.

ابتسم الأوروبى عندما رأى انطباعا طيبا على وجه ذلك العربى الذى كان يتجر فى الخيول ! أعرب أبو نجم الذى أعارنى حصانا عن رغبته فى أن يرافقنا فى تلك الرحلة إلى ذلك المكان الأثرى. كانت سرجنا عبارة عن برادع بلا رِكَاب والسبب فى ذلك – أنهم مثل البدو هنا، لا يستعملون الرِّكاب: ومع ذلك فإن هؤلاء الحضر يركبون الخيول، المزودة بشكيمة، كما هو الحال فى الخيول فى البلاد المجاورة؛ ولكن البدو يركبون الخيول بلا شكيمة أو لجام، بل إنهم يجلسون فوق أفراسهم مثلما يجلسون فوق الإبل (وهذا يدل على عدم الخبرة إلى حد ما)، ولا يستعملون سوى مجرد حَكَمَةَ ليس إلا. لم أسمع عن امتداح أى خيَّال بين البدو، لركوبه الخيل بالطريقة الصحيحة ، بالرغم من أن هناك بعض الشيوخ الذين يمتدحهم الناس بأنهم رماة رماح مهرة. أبو نجم هذا، لم يسبق له أن ذهب هو بنفسه إلى الهند؛ ولم يكن يعرف أن النصرانى يستطيع ركوب الخيل بالطريقة السليمة: نادانى بعد ذلك، وطلب منى أن أثبت على السرج، وألف يدى الأخرى على عنق الحصان. وبالتدريج بدأ الحصان يعدو، وأطلقت له العنان وتركته ينطلق على رمال صحراء النفود، – تعجب ذلك الرجل المحترم وقال: " الله! هل الحكيم خيَّال Khayyal ؟"

تعجب ذلك الرجل المحترم وقال: مررنا على الدَّرس ؛ وشاهدت مجموعة من إبل الآبار يجرى اقتيادها على شكل صف مع عشر بقرات وحمار (أى كل حيوانات ذلك الريفى) ، حول وتد، وكانت أقدام كل هذه الحيوانات غارقة إلى ركبها فى سيقان القمح المهشمة. على جانب ذلك الجرن شاهدت الكثير من جحور النمل وشددت سُرْع (لجام) الحصان كى ألقى نظرة على العمل الذى كانت الحريم يقمن به بجوار جحور النمل هذه . – شاهدت الارتباك الذى أصاب النمل فى النهاية (ذلك الارتباك الذى انتاب النمل لأنه من اللصوص) ، – شاهدت مستعمرات النمل وهى يجرى تخريبها ، والنساء يمسكن النمل فى المناخل! ومن (باب الحرص على أسباب معيشتهن) رحن يذرين أمة النمل هذه فى الهواء، وهنا اختلط الناس والمشايخ **musheyikh** فى صراع على الرمل وعلى الحبوب أيضا . – وهذه هى الزوجات الفقيرات المعوزات كل واحدة منهن قد حصلت على بضع قبضات من حبوب القمح اللامعة، ووضعتها على غطاء رأسها المفرود على الأرض.

نحن نرى هنا حلبة طويلة عالية من الصخر الرملى يطلقون عليهما اسم مرقاب **Mergab** الرَّافة **er-Rafa** وتقع على هذا الجانب من البلدة. فى هذه المنطقة يجرى قطع الأحجار وتربيعها حتى يمكن استعمالها فى البناء ، كما تستخدم تلك الأحجار أيضا فى بناء البوابات فى عنيزة. – جاء الكنينى راكبا حصانا للقائنا ! وهنا دخلنا فى طريق مجوف قديم يمر عبر النفود ويوصل إلى العيارية والأوشازية **el-Owshazieh** ؛ وهذا أيضا موقع آخر من المواقع القديمة فى هذه البلدة. كيف يمكن لهذه الآثار أن تبقى فى الرمل المتحرك ؟ – على حد علمى، الريح ضعيفة جداً فى هذه البلدان.

جلس عبد الله فوق مهر جميل من سلالة أصيلة، كان ينقاد بتفاخر شديد لتوجيهاته: وعندما رأى عبد الله عينى الغريب مثبتتين على المهر،" قال صديقى: إى، هذا المهر جيد من جميع النواحى." الكنينى هو والشيخ نصير اللذان سبق لهما شحن ثلاثة أو أربعة من الخيول العربية صغيرة السن إلى مدينة بومباى فى الهند أخبرانى أنهما يحققان مكسبا من وراء بعض الخيول ، ولكن بعضا آخرا من تلك الخيول قد يُقيَّم فى بومباى تقييما متدنيًا تماما، إلى حد أنهما لا يحصلان على ثمن البيع الذى

يغطى ثمن الشراء ومعه مصاريف الشحن إضافة إلى النثريات الأخرى . أما أبو نجم فقد أخبرنا أن مكسبه وخسارته كانتا حسب مشيئة الله؛ وأنه كان يحقق مكاسب فى معظم الأحيان ولكنه كان يخسر أيضا فى أحيان قليلة جداً . وهم هنا يشترون المهور الصغيرة فى فصل الشتاء، حتى يتسنى لتلك الخيول أن تكبر وتزداد قوة ، وتسمن قبل أن يتم شحنها إلى الهند، وحتى يمكن تعويدها أيضا على علف الجلبان الأخضر فى الواحات ، وبذلك يمكن أن تتأقلم فيما بعد مع مناخ الهند الأخضر .

فيما بين الجهل المطبق بين المشترين الأجانب من ناحية ونفاق النجديين الآسيويين أصحاب الاسطبلات العربية فى بومباى من الناحية الأخرى، جرت هناك مفارقة أو إن شئت فقل: تمييز فيما يتعلق بخيول كل من عنيزة ونجد ! – مثلما هو الحال عندما نميز نحن بين الخيول اللندنية وخيول ميدل سكس **Middlesex** . فقد سبق لنا أن عرفنا أن الخيول المعروضة للبيع إنما يجرى جمعها بواسطة تجار البلدة ، من **min** الأعراب **el-Aarab** ، من القبائل البدوية المترحلة ونظرا لقلة وجود الخيول فى المضارب العربية الشاسعة فإن ذلك يعنى أن تلك الخيول يأتى بها أولئك التجار من مسافات بعيدة. ولقد عثرت على خيول "عنيزة" فى اسطبلات بومباى، وكانت تلك الأمهات قد ولدت فى اليمن . – وربما ينصرف فهمنا لخيول عنيزة على إنها الخيول التى يبيعها تجار القصيم [وهم من عنيزة وبريدة]؛ أما الخيول النجدية، فهى – خيول الجبل ، أو تلك الخيول التى يجرى إرسالها من بلاد بن الرشيد إلى بومباى . وقد بلغنى أن مجموعة خيول سمسار بريدة سبق إرسالها إلى بومباى قبل أيام قلائل من وصولى إلى هناك . وبريدة بلدة وولاية صغيرة من ولايات الجزيرة العربية؛ وأمير بريدة يحكم القرى المجاورة، ولكن لا طاعة له على من يعيشون فى الصحراء. ومن ثم فنحن نرجح أن الاتجار فى خيول عنيزة هو الأكبر والأقيم . [وأفضل الخيول فى اسطبلات بومباى هى تلك التى تأتى من شقراء **Shuggera** فى منطقة الوشم] .

فيما يتعلق بخيول الشمال أو إن شئت فقل: خيول "الخليج"التى يجرى تربيتها فى ديار البدو الرحل فى بلدان النهر – بالرغم من جودة أجسامها و بالرغم أيضا

من سرعتها إلا أنها لا تحظى بمنزلة عالية لدى سكان المنطقة الداخلية من الجزيرة العربية. ولحوم هذه الخيول مكونة "من العلف الأخضر والماء" هذا يعنى أن تلك الخيول لا تتحمل المناطق التى تكون شديدة الحرارة بفعل تأثير الشمس. والخيول الصحراوية المماثلة لتلك الخيول، والتى تقل عن هذه الخيول من حيث الشكل، ولكنها من السلالة نفسها، الحصان الواحد منها يساوى خمسة خيول من خيول بلدان النهر. – يضاف إلى ذلك أن خيول البيع لا تجرى فرجنتها فى ظل ذلك المناخ العربى الخالص: ولكن هذه الخيول يجرى ، فى البداية، تعليمها الوقوف تحت حكاكة جلود الخيل فى الهند . وخيول الجزيرة العربية أعناقها مجوفة مثل أعناق الإبل: والعرب كلهم ينظرون إلى أعناق خيولنا الشامخة على أنها عيوب فى تلك الحيوانات . خيول الصحراء، التى تربت فى الصحراء الجافة فى أراضى السهول الحارة التى تحيط بها الجبال الصغيرة، لا تستطيع القفز، أو إن شئت فقل: ليست من خيول القفز، ولكنها قادرة تماما على تسلق الأراضى الصخرية. هذا يعنى أن تلك الخيول جيدة فى حمل الأثقال: ولقد سمعت أن البدو الرحل يتفاخرون بأن أفراسهم يستطيع الواحد منها حمل أربعة رجال.' وأهل الجزيرة العربية يؤمنون إيمانا راسخا بأن الله خلق سلالة الخيول فى أراضيهم: وهم يقولون : إن الأصل el-asl ، أو إن شئت فقل: منشأ الخيول، هو 'فى بلاد الأعراب.' وكان الكنينى يتبنى أيضا هذا الرأى الخرافى، هذا بالرغم من أن الحصان يمكن أن يعيش فقط على ما يعطيه له الإنسان فى الصحراء الجافة. [الروماكى Rummaky ، اسم للفرس، كلمة تتردد كثيرا فى القصيم: ويقول لى صالح الرشيد إنهم يطلقون على الحصان الذكر اسم غروق ghrog ؛ ولكن هذا الاسم قليلا مايردده الناس.] .

قطعنا مسافة ثلاثة أميال ونحن راكبين على ظهور الخيل، إلى أن وصلنا إلى تلة من اللُّهم الجاف، وكانت تلك التلة تطل على وادى الرماح الذى يتسع فى تلك المنطقة إلى ما يزيد عن الميلين. وفى الجانب البعيد من ذلك المكان شاهدت قلة قليلة من مزارع النخيل والبيوت الريفية الخاصة بزراعة القمح: اللهم باستثناء أن الهواء فى هذه المنطقة يتسبب فى الإصابة بالحمى، إضافة إلى أن الماء مالح الطعم فى هذه المنطقة،

فضلا عن أن الزنوج هم الذين يقومون هنا على أمر فلاحة الأرض. ومناطق الوادى القريبة من هذا المكان كانت كلها بيضاء اللون بفعل السبخة Subbakha : وفى وسط الوادى يوجد نوع من اللهم الجيد، الذى تنمو فيه الأدغال الصحراوية وأشجار الإثل؛ ولكن هذا اللهم لا يمكن زراعته نظرا لأن المياه الجوفية هنا على عمق عشرة أقدام، فضلا عن كونها مالحة الطعم. شاهدت فى الأسفل مسوَّرة من مسوَّرات النخيل فيها مناطق من علف الجلبان الأخضر، وفيها مناطق أخرى عامرة بالجذامة المتخلفة عن حصاد محصول القمح، كما شاهدت أيضا كابينة أو اثنتين مبنيتين من اللَّبن؛ وكانت تلكما الكبينتان مملوكتين للشيخ نصير. فى هذه المنطقة يصل قاع وادى الرماح :نضحل إلى الشمال الشرقى ويكاد يضم عنيزة أيضا: وعلى بعد مسافة عشر ساعات، أو إن شئت فقل: على بعد رحلة واحدة من رحلات النياق، توجد روضة rautha كبيرة، يطلق الناس عليها اسم الزغريبية Zighreybieh ، وفيها أراضى لزراعة القمح، تغمرها مياه السيل فى فصل الشتاء: وفيها ملاَّحة، يستخرج الناس منها الملح فى عنيزة.

الوادى الذى يهبط نازلا خلال الصحراء الشمالية [التى تمتد مئات الأميال على شكل أرض يباب] مسدود فى مكان يطلق الناس عليه هنا اسم الزويرات eth-thueyrat ، والذى يبعد مسافة رحلة واحدة من رحلات النياق، أو ربما خمسين ميلا عن عنيزة، وهذا السد يتمثل فى الكثبان الرملية الكبيرة، التى كبرت وتضخمت ، على حد قولهم، فى هذا العصر. واعتبارا من هذه المنطقة فإن أرض الوادى الأجوف – التى يقع فيها مسار القوافل الشمالية – يطلق الناس عليها اسم الباطن el-Batin ؛ والمسافرون يمرون على المواقع الأثرية فى اثنتين أو ثلاث من تلك القرى: وهناك قلة قليلة من الآبار على جانب الطريق، ولكن الماء ليس غزيرا فى تلك الآبار. هذه الصحراء الشاسعة كانت فى الماضى تابعة لبنى تعمير Taamir . وضفاف الوادى هى فى أغلب الأحيان عبارة عن قمم من الصلصال والزلط، والمسافة بين القمة والقمة التالية لها قد تستغرق مسير ساعة (أى ما يقرب من ثلاثة أميال) على حد قول عبد الله الكنينى . ومجرى الوادى الكبير فى سهل النفود فى القصيم يصعب على أعين الغرباء تمييزه أو التعرف عليه تعرفا تاماً.

وأية جماعة من الجماعات الصغيرة إذا ما تجولت خلال ذلك الوادى يصعب عليها أن تضل طريقها، أو يضيع منها مسارها: هذا يعنى أن مثل هذه الجماعة، لا تذهب إلى مسافات بعيدة فى الصحراء. وانحناءات وادى الرماح كلها، من المنظور التقديرى، لا تستغرق أكثر من خمسة وأربعين يوما، أو إن شئت فقل: مسيرة من مسيرات الإبل (أى ما يقرب من ألف ميل): وهذا الوادى يقع فى أرض يصل عرضها إلى ما يقرب من خمسمائة ميل، مقاسة من رءوس حرة خيبر إلى المخرج القريب من مدينة البصرة. – ما الذى نعرفه نحن عن هذا الوادى الكبير، الموجود فى أرض لا يسقط عليها المطر؟ هذا الوادى عندما يفيض – وهذا يحدث حوالى مرتين أو ثلاث مرات خلال قرن من الزمان، فإنه ينساب نحو الأسفل كما لو كان نهرا من الأنهار . ويكون المد الناتج عن ذلك الفيضان كبيرا، وفى الأماكن التى لا يكون الوادى فيها مستقيما يستطيع راكب الجمل عبوره، عن طريق الخوض فى الماء، وهذا على حد قول الناس هنا. ولم يتمكن أحد من أولئك الذين عاصروا حياتى من رؤية ذلك السيل؛ ولكن الأجيال الأكبر من جيلنا شاهدت ذلك السيل قبل أربعين عاما، فى موسم هطلت خلاله أمطار غير عادية على كل الأراضى المرتفعة التى فى اتجاه خيبر. أما الفيضان الذى تجاوز عنيزة، فقد توقف بفعل الكثبان الرملية التى فى الزويرات، وارتد إلى الخلف، وأصبح مغسلا، يصل اتساعه هنا فى العيَّارية Eyarieh إلى ما يقرب من الميلين. ثم شاهدنا بعد ذلك فى نجد مشهدا جديدا لبحيرة! – ربما كانت مساحة المياه الراكدة تقدر بما يقرب من مائة ميل؛ والتى بقيت على امتداد عامين وكانت بمثابة إصلاح لكل الجماعات الجائلة من طيور الماء التى لم تكن معروفة من قبل ، أو التى لم يسمع الناس صراخها فى هواء تلك البلدان الصحراوية. والوادى الكبير بعد أن يمتلىء بمياه السيل، يؤدى إلى ارتفاع منسوب المياه فى آبار كل من بريدة وعنيزة؛ وهذا الارتفاع يستمر مدة عام أو أكثر.

عثرنا فى هذه الأرض المرتفعة على بقايا بعض الأوانى والزجاج المكسور – مثلما هو الحال فى سائر الأماكن الخربة أو الأثرية فى الجزيرة العربية، كما عثرنا أيضا على قلة قليلة من أحجار البناء، وصخور البناء أيضا؛ ولكن هذه الأنقاض البون شاسع بينها وبين تلك الفنون التى كانت فى بلدان نجد المستقرة! – هذا هو موقع العيَّارية،

أو إن شئت فقل: منزل Menzil عيَّار Eyar ؛ حيث يشاهدون فيه "موقع ثلاثة أو أربعة قرى قديمة، فضلا عن مساحة من التربة المأهولة أكبر من مساحة عنيزة؛" وهم يقولون : "إن ذلك الموقع أحسن من موقع المدينة (الجديدة)." نزلنا عن خيولنا وبدأ عبد الله يقول: "والله ، عرب (زماننا) منحلين عن القدماء من جميع النواحى ! – نحن نراهم يعيشون عن طريق ميراث العمل" (المتمثل فى الآبار العميقة فى الصحارى، وكذلك المرافق العامة الإخرى)!

يقولون، إن سيف خالد بن الوليد [يشوع (*) الإسلام الجديد، فى عهد عمر (رضي الله عنه) [ابتلع العيارية الوثنية وهى واحدة من بلدان بنى تميم . والشىء نفسه يقال عن بلدة الأوشازية Owshazieh ، التى تقع على بعد مسير ثلاث ساعات فى اتجاه الشرق: وفى تلك المنطقة توجد بعض بيارات النخيل وبعض البيوت البستانية التابعة لعنيزة ومعروف أن عيَّار Eyar هو وأوشاز Owshaz "شقيقان" فى الموروث السامى Semitic . – "والشعر القديم الذى قاله شعراء بنى تميم (على حد قول رفاقى المطّلعين) يذكر أن هؤلاء الناس كانت لديهم مواشى كثيرة؛ وأنهم، فى فصل الربيع، كانوا يتجولون مع قطعانهم وماشيتهم فى النفود، كما كانوا يسكنون خياما من الشَعر مثل خيام البدو الرحل." – وهذا هو ما رأيناه فى كل من إيدوم Edom (**) موآب (***) Moab [انظر الجزء الأول ص٦٣،٧٨،٨٢] حيث يتحول القرويون إلى سكنى الخيام فى الصحراء المحيطة بهم اعتبارا من فصل الربيع، – وفيما يخص ماشية هؤلاء الناس فى فصل

(*) يشبه المؤلف خالد بن الوليد بيشوع الذى ورد ذكره فى العهد القديم . ويشوع هذا كان واحداً من الاثنى عشر عيناً الذين أرسلوا لجمع معلومات عن الكنعانيين ، وعمل ممثلاً لموسى عليه السلام وقاد جماعته إلى أرض كنعان وتم فتحها والاستقرار فيها تحت قيادته . (المراجع)

(**) ايدوم ويصح فيه أيضا ايدوميا Idumea : حى فى جنوب فلسطين (إسرئيل) فيما بين البحر الميت وخليج العقبة . (المترجم)

(***) بلد قديم يقع فى منطقة الهضبة شرقى البحر الميت، وهو موجود حاليا فى غربى الأردن. كان سكان ذلك البلد القديم يشبهون العبرانيين، بالرغم من أنهم كانوا يحاربونهم بصورة مستمرة. والحجر الموء ابى الذى – هو من – القرن التاسع قبل الميلاد، جرى اكتشافه فى بلدة ديبون Dibon فى العام ١٨٦٨ الميلادى يسجل نجاح ثورة ميشا Mesha ملك الموءابيين ضد إسرئيل (المترجم)

الصيف فقد شاهدت عائلات فقيرة فى جاليد Gilead (*) – التى لم يكن فيها خيام على الإطلاق – وكان هؤلاء الناس يعيشون تحت أشجار البلوط الضخمة! وكانت الأغصان كثيفة الأوراق بمثابة غطاء يحميهم من حرارة الشمس أثناء النهار، ومن الندى أثناء الليل. وكانوا يدفعون قطعانهم إلى مكان المبيت مع غروب الشمس، وينامون من حول تلك القطعان.

ولا يتبقى من بلدة عيَّار سوى تربتها فقط: ترى كيف كانت حياوات تلك الأجيال القديمة أكثر من كونها أوراق مترفرفة أو خفاقة، إن صح التعبير! لقد اندثر تماما ذلك الذى صنعته أيدى هؤلاء الناس واندثرت أيضا أفكارهم وذلك الذى كان يدور فى صدورهم، – 'حبهم ، كراهيتهم ، حقدهم' ! لقد تخلوا عن دينهم؛ كما أن مكانهم لا يزوره أحد شأنه فى ذلك شأن جبانات (مدافن) العصور السابقة: وفى فصل الخريف فقط يوفد ملاك الأرض من أهل عنيزة خدمهم إلى هذه المنطقة، ومعهم الحمير والحفارين، لكى يجلبوا الطمى الذى يستخدمونه سماداً . وأثناء مسيرنا شاهدنا كومتين من خبث الحديد إلى جوار بعضهما؛ وربما كان فى ذلك المكان محل لصانع أو حرفى من الحرفيين القدامى. وعندما تساءلت ، ألم يكتشفوا شيئا هنا؟' حدثنى الكنينى عن بعض حفّارى الآبار، الذين جرى استئجارهم لحفر بئر فى الأرض الجديدة القريبة من العيارية [والماء هنا قريب من سطح الأرض ومذاقه عذب] – " وأنهم عندما بدءوا حفر البئر قام أحدهم بإشعال وإضاءة وعاء كبير مصنوع من الطين ! – وضعوا ذلك الإناء على الأرض وفتحته متجهة نحو الأسفل [رأس القبر الأثرى] . وهنا راح كل واحد من الحفارين يصيح بأن الكنز كنزه هو! ولم يستمع أحد منهم إلى السبب الذى دفع رفاقه إلى ذلك – وبالتالى أصبح كل واحد منهم له سببه الخاص. أو بسبب التزيد فى الكلام وصل الأمر بهم إلى حد التشابك بالأيدى؛ وراحوا يضربون

(*) جاليد، فى الأردن وهى منطقة جبلية فى فلسطين القديمة، وهى حاليا فى شمال غربى الأردن، شرقى نهر الأردن، ويصل ارتفاعها فى جبل جاليد أو إن شئت فقل جبل يوشع Yusha إلى ٣٦٥٢ قدم. وجبل يوشع هذا يقع على بعد ثلاثة أميال من مدينة السلط الحديثة . (المترجم)

ويتضاربون بالمعاول، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى رجل واحد. قام ذلك الرجل بضرب الإناء ، وقلبه كله شغف وطموح! – ولكن داخل هذا الوعاء المكسور لم يكن هناك سوى قطعة من الطين!" – أردف عبد الله ، أن وتدا أو خابورا من الذهب جرى استخراجه من هنا، على ما يذكرون . وأن من عثر على ذلك الوتد أو الخابور، باعه فى المدينة بمئتى ريال، إلى رجل، قام ببيعه هو الآخر، فى الشمال بما يزيد على ألف من الريالات .

عدنا: وبعد أن مشينا مسافة ميل أو ميلين استقل الكتينى بنفسه واتجه صوب اسطبل أو حظيرة خيوله؛ التى قال: إنه لديه شىء فيها سيرينى إياه فيما بعد فى يوم من الأيام. – شاهدت ذلك الشىء فيما بعد، وكان عبارة عن عرق من الرخام يميل لونه إلى الاسوداد، وكان عمقه يزيد على عمق نخلة كاملة، وعرضه حوالى ثلاث ياردات ، وكان ذلك العرق موجوداً فى الجوانب الصفراء من حفرة من حفر الطمى: وكان واضحا أن ذلك عبارة عن رماد متخلف عن نار قديمة، كما عثروا فى ذلك الوجار القديم على بعض الشقافة! وفوق ذلك الرماد كانت هناك طبقة من الصلصال يصل سمكها إلى قامة كاملة؛ ومن فوق كل ذلك توجد طبقة منجرفة من رمال النفود. – كان فى هذا المكان ، قبل تسويره مجرى من مجارى السيول ؛ ولكن بقايا الأوانى الفخارية التى وجدت على عمق قامة من الطمى قد تكون ممعنة فى القدم. ترى ماذا كان الإنسان عندئذ فى وسط الجزيرة العربية؟ بعض أجزاء من بلدة عنيزة هى وشارع القماشين ، مبنية على أرض سيل من السيول القديمة؛ وهذه الأرض دمرت مرتين بفعل الفيضانات الأرضية: وآخر فيضان من تلك الفيضانات حدث منذ تسعين عاما.

عدت إلى المنزل مع حامد وهناك جاءنى عبد الله البسام الصغير. تكلما عن الأقدمين ، وبوصفهما (متعلمين) راحا يزدريان ويستصغران الآراء غير المدروسة عن المردة فى العصور السابقة: وبالرغم من ذلك ، فهما يعلمان من الكتابة القديمة أن الرجال فى زمن شيخوختهم كانوا أقوى مما عليه الناس الآن؛ والسبب فى ذلك أنهم اكتشفوا أن ثقلا معينا كان معترفا به على أنه الحمل الذى يمكن أن يحمله أى رجل

من رجال عنيزة، أولئك الرجال الذين كانت قوتهم أكبر من قوة عامة العمال؛ هناك أيضا كثير من الأشخاص الذين طالت أعمارهم فى عنيزة، كما رأيت أيضا الكثير من اللحى الرمادية فى تلك المدينة أكثر من كل الأجزاء التى زرتها والتى مررت خلالها فى الجزيرة العربية.

ولكن عطلتنا التى أمضيناها على ظهور الخيل ونحن فى طريقنا إلى العيارية، ولَّدت بيننا حديثا طويلا. لم يحدث أن ذهبنا إلى العيَّارية، ونحن ثلاثة أو أربعة أشخاص، لمجرد نزهة عابرة؛ فالنصرانى، لديه فى كتب علمه السرى بعض التسجيلات القديمة عن هذه المدينة، أو إن شئت فقل: هذا البلد. وبالرغم من ذلك، فإن الليبراليين من أهل هذه المدينة كانوا يعزمونى يوميا، بغض النظر عن كلامهم الغبى ؛ وكانوا يضيفون دوما على سبيل المثال العرب el-Arab عقلهم akl-hum ناقص nakis ، بمعنى "العرب دوما ناقصى عقل" ومع ذلك، كان هذا الكلام يضايق الكنينى، الذى كان يتمتع بروح أسمى من الآخرين ، ولم يكن على استعداد لتحمل الإهانات. – وجدت الكنينى فى الصباح جالسا منعزلا عنهم ومستاءً: "قال: إخص، يا لهؤلاء الناس غير المحترمين ! ولكن بيتى فى البصرة Bosra ! وأنا أحمد الله! سوف لا أرافقهم بعد الآن! أوه! يا خليل، أنت لا يمكن أن تصدق ذلك الذى يقولونه عنى، – إنهم يقولون : "الكنينى بلوَّى"! Bellowwy " – هذه بذاءة صارخة، يندر سماعها بين البدو الرحل ؛ وهم يقولون ذلك عن أى إنسان، عندما تنفلت ألسنتهم. العرب – هم أصحاب أبخس الشفاة وأكثرها تدينا بين البشر! – وهم يلعنون ويسبون كل ما هو تحت السماء عندما يتعارض مع مزاجهم؛ يضاف إلى ذلك أن الحقد الوهابى استثير ضد واحد من أهل المدينة ، لم يكن عضوا فى حزبهم الأعمى، وإنما بدى لهم مساندا للنصرانى ومفضلا له. تعجبت عندما رأيت ذلك الرجل الطيب منفعلاً فى فلسفته هذه ! – ولكنه ارتعد هلعا وخوفا أمام الدين الشعبى العام؛ هذا الدين الذى يشكل ما هو أكثر من القانون ومن الحكومة أيضا، حتى فى هذه البلدة المتحررة. "يقول الشاعر الشرقى: أشعر بألم حاد فى قلبى، لأن الجماهير المحروقة لم تقدرنى حق قدرى ." كان الكنينى واحداً من أولئك الذين عاشوا من أجل تقدم شعوبهم ، ولكنهم ماتوا قبل الأوان. ولعل الله يجعل الراحة والسلام مصيرا أبديا له!

كنت كلما أرى الوجوه الوهابية العابسة كل يوم، وطريقتهم فى غض البصر أحس أن قلبى الذى بين جنبى خارج على القانون ؛ وبالرغم من أنى لم أفعل لأى أحد منهم سوى الخير، – وهذا فقط من أجل نبى الجليل الشاب ومن أجل الموروث المسيحى! إلا أن ذلك الصنف البسيط من الليبراليين هم الذين كانوا يخشون الحديث معى؛ يضاف إلى ذلك أن الكثيرين من معارفى السابقين بدءوا يتحاشون رؤية الناس لى وأنا أدخل بيوتهم الصديقة. ولم أكن أعرف أن ذلك كان بناء على إيعاز من المطوع – هذا يعنى (أنهم فى خطب الجمعة) كانوا يحرضون الناس علىَّ ! 'قال هؤلاء المطوعون: ليس هناك منطق أو سبب، يجعلنا ، فى الوقت الذى ينشغل فيه سلطان الإسلام بذبح النصارى، أن نقوم نحن بإيواء أى نصرانى كافر فى بلد مؤمن : وأن من يناصر ذلك النصرانى أو يخصه برعايته إنما يكون مخالفا للمبادئ.' – بالرغم من أن الكتينى هو ويسام الطيب كانا من مستشارى زامل. – ولكنى خطر ببالى،' ما هو أقرب موعد ستبدأ فيه أية قافلة رحلتها، حتى يمكننى أن أرحل معها؟' أجابونى ،" انتظر برهة؛ لأنه لا توجد قوافل فى هذه الأيام."

قام أحد المتشددين بتهديدى بينما كنت عائدا إلى بيتى، إذ خرج علىَّ من طريق ضيق ومنعزل: أنت يا كافر ! إن شاء الله سوف تقتل عصر هذا اليوم أو أثناء الليل، أو غدا على أكثر تقدير. ها ! يا ابن الشر، إلى متى سترفض دين الإسلام؟ – لقد أعطيناك فسحة من الوقت كى تندم وتأسف، وصبرنا عليك كثيرا وعطفنا عليك كثيرا أيضا! – والآن، مت على عماك، فقد مل منك المسلمون. ما لم تقول الشهادة لقتلناك اليوم. لن تحصل على أى معروف بعد اليوم، لأن الكثيرين قرروا قتلك ." الجدل المميت الذى من هذا النوع أصبح بمثابة الشرور المعروفة، على حد قولهم ، فى تلك المحنة الطويلة التى عانيتها طوال أسفارى فى الجزيرة العربية ؛ ومع ذلك ، لم أكن أعود إلى بيتى من طريق واحد مطلقا ،إذ كنت أغير مسارى فى كل مرة ، كما كنت أضبط مواعيد عودتى إلى بيتى لتكون (أثناء الصلاة وشرب القهوة) وذلك حسبما يكون الوقت: صباحا أم مساءا؛ وعندما كنت استشعر الخطر كنت أمشى مسلحاً بطريقة سرية: وعندما كنت أعود من بيوت الأصدقاء [أثناء الليل كنت أطوى العباءة (بشت)] العربية

حول ذراعى اليسار؛ وكنت أناجى نفسى أننى طالما عشت هنا مهددا للعام الثانى، فإننى يتعين على مواصلة هذه الحياة، ثم أعمل فى النهاية على الهرب من هؤلاء الناس.

جاءنى فى هذا الجفاف الروحى جمَّال يدعى إبراهيم وهو من قرية شقراء Shug-gera ؛ وشقراء بلدة طيبة تبعد عن هنا مسافة رحلتين من رحلات الإبل، وهى تقع فى منطقة الوشم el-weshm . عرض علىَّ ذلك الجمَّال أن ينقلنى إلى أى مكان أريده، مؤكدا لى أنه يعرف الطرق كلها خير المعرفة سواء أكانت متجهة شرقا أم جنوبا، وحتى حدود اليمن. ' قال: إننى إذا ركبت إلى سدوس Siddus : فإن المسافة تقدر بحوالى عشرة مسيرات من مسيرات الإبل، وهو يقسم تلك المسافة على النحو التالى ؛ الرِّحلة الأولى إلى المذنب Mith, nib ؛ واليوم الثانى إلى عين Aun السوينة es-Sweyna ، التى هى قرية صغيرة فى وادى Wady السِّر es-Sirr [فى هذا الوادى، توجد بعض العيون المائية وبعض الهجر (الكفور) كما أن هذا الوادى يصرف سيولة فى القاع ga] ؛ وقال: إننا سنصل فى اليوم الثالث إلى الفيثة el-Feythah ، وهى واحدة من القرى الصغيرة أيضا ؛ وفى اليوم الرابع نصل إلى بُرود Borrud ، وهى قرية صغيرة؛ وقال: إن المحطة التى ستلى ذلك هى بلدة شقراء؛ وبعد ذلك ذرميدة Thermidda ، التى هى مكان قديم مزدحم بالسكان؛ والمكان السابع هو الرُّبَّة el-Robba ، وهى من القرى الصغيرة ؛ أما المرحلة الثامنة فهى ثيدك Theydich ؛ والمرحلة التاسعة هى حريملاء Horeymla ، وهى أيضا من البلدان المزدحمة بالسكان؛ ثم بعد ذلك سدوس Siddus التى هى قرية صغيرة فى وادى حنيفة، ومعها أيضا العيينة Ayena والجبيلة Jebeyly : ومن سدوس يمكن أن نواصل السير إلى الذَّريَّة eth-therreyyeh فى نفس وادى العروض el-Aruth ؛ وإننا فى المرحلة الثانية عشر سنكون قد وصلنا الرياض er-Riath . – وإذا ما كنت أرى أن ذلك سيكون متعبا ، فإن طريق النياق يصل طوله إلى أربع رحلات فقط إلى قرية سدوس؛ وأن محطات ذلك الطريق هى – وادى السِّر، شقراء، حر يملاء. وعندما سألته عن الأمن والسلامة فى الطريق، – قال: سوف نركب أثناء الليل؛ والسير أثناء النهار ليس له طرق آمنة: والسبب فى ذلك أنه بعد تكسير أوامر وسيادة ابن سعود،

عادت القبائل مرة ثانية إلى توحشها، وأصبح الغزو ينتشر فى كل مكان." – سمعت من الكنينى، أن ذلك الإبراهيم جرى السطو عليه مرتين، خلال الشهور الماضية! وأخذوا منه ناقته والبضاعة التى كان يحملها إلى الأعراب الأصدقاء. ومع ذلك، كان من رأى صديقى أن أغامر بالركوب مع هذا الرجل، على أن أحمل معى رسالة من زامل ؛ وأن أعود ثانية.

"إذا كنا سنمشى طول الليل، فأين سنرتاح أثناء النهار؟" إبراهيم: "فى القرى." – "وإذا ما سب أحد النصرانى أو هدده – !" – "سوف ننزل طلبا للراحة فى بيوت صديقة؛ ثم [دق الأرض برجليه] إنهم جميعا تحت عقبى – هكذا! ولا تخش أو تخف من أى شىء طالما أنك تحمل رسالة من زامل إلى عبد الله بن سعود؛ ووالله أن اسم زامل [وهو اسم محترم] سيكون سببا فى ألا يسيئ أحد إليك." – ولكنى خطر ببالى أن متاعب هذه الرحلة فى الظلام ستكون قليلة الفائدة: يضاف إلى ذلك أننى كنت خائر القوى إلى حد أنى ربما أحتضر وأنا على سرج الجمل قبل أن تنتهى تلك الرحلات الكثيرة مرة ثانية فى عنيزة. وهنا وجدت أن من الأقيم، أكثر من تأكيدات عبد الله البسام، أن أركب بصحبة ولده إلى جدة؛ والسبب فى ذلك ، أننى كنت أود التأكد من الطبيعة البركانية فى الجزء الجنوبى من البلاد.

كان إبراهيم قد سبق له السفر، فى بعض الأحيان إلى اليمن عن طريق وادى الدواسر؛ ولكن ذلك كان منذ سنوات طويلة. وأكد إبراهيم لى ، أن الأفلاج ،التى هى فى جبل طويق تبعد عن الرياض مسير ست رحلات بالنياق؛ وقال: إن الطريق وعر وخالٍ من القرى. وفى الأفلاج، حدد لى إبراهيم أربعة مستوطنات جيدة من مستوطنات النخيل. والمسافة من الأفلاج إلى وادى الدواسر" تستغرق مسير يومين عبر الطبيق tubg ،" أو المضايق الجبلية. وشمالى الأفلاج يوجد وادٍ ينحدر نحو الحوطة elHauta (تلك البلدة المزدحمة بالسكان من بنى تميم، والحوطة "بلدة كبيرة مثل عنيزة")، كما يصل هذا الوادى أيضا إلى الخرج Kharj (ويصح فيه أيضا "الخرق" Khark) . وفى الخرج توجد بعض القرى الجيدة مثل الديلم ed-Dillum واليمامة el-Yamama ،

وناجان Najan ، والسُّلومية es-Sellummiah ،العطَّار el-Atthar ثم السَّيح es-Seyeh : وبعد أن يمر ذلك الوادى من بين كل من الرياض وجبال الطبيق يضيع بعد ذلك فى الرمال. – وفى بومباى، التقيت بعد ذلك شخصا يدعى حامد Hamed النفيس en-Nefis الذى كان والده أمين صندوق فى الرياض ، قال لى ذلك الشخص: "الأفلاج ستة قرى، سياح Siah ، وليطة Leyta ، والخرفة Khurrfa ، والرمضة، والبدية el-Biddea ؛ – وفى وادى الدواسر أتى ذلك الرجل على ذكر كل من الحمَّام Hammam ، الشطيبة es-Shotibba ، السُّلَيِّل es-Sohleyil ، تمَّيره Tammerra ، ثم الدَّام el-Dam ، (بالإضافة إلى ثلاثة هجر) اللغريف el-Loghrif – الفراع el-Ferra ، الشويق es-Showyg والعياضات el-Ayathat .

كان هناك بائع كنت كلما مررت على دكانه، يود أن يغمغم ببعض الكلمات التى توحى بالتشدد والتزمت . ذات يوم وعندما كان ذلك البائع يمشى فى السوق، توقفت للحديث مع هذا الشخص نفسه؛ وعندما استمع ذلك الرجل إلى كلامى [المصطبغ بمسحة كلام البدو] قال: " ها – ها! ثم صاح، أنا لا يمكن أن أصدق، إلا أن يكون هذا الخليل عربيا، وليس إنجليزيا ! صدقنى ، لقد تربى فى أرض عربية." وبهذه الروح والمرح اقتادنى ذلك الرجل إلى بيته لشرب القهوة: كان الرجل يكن لى شيئا من الود. – وبدءا من تلك الأيام التى أصبحت فيها بلا مأوى، كنت أجلس طريح الفراش؛ ولم يحضر أى أحد لزيارتى . والعرب دوما على هذه الشاكلة – دائما يفتقرون إلى الإشارات التى توحى بطبع كريم. كان الناس نادرا ما يرونى فى الشارع . كان الوهابيون يقولون: "إنه خائف" وسرعان ما بدأ يتزايد عندهم سوء النية وسوء الطوية .

أصدقائى ، الذين كانوا يقرءون الجريدة، ولديهم فضول سياسى، لم تكن لديهم أية فكرة عن الجغرافيا: تناولت عندئذ فرخ كبير من الورق ثم خريطة لأوروبا؛ وهنا استدعى البسام كاتبه ابن عايض؛ الذى راح يكتب من فمى أسماء العواصم على الخارطة. وبعد أن انتهينا من ذلك العمل، أرسله البسام إلى أصدقائه كى يتفرجون عليه. الساميون – الذين يتجولون فى البلاد على نطاق واسع، تلك البلاد التى يمرون

عليها وهم راكبين على ظهور إبلهم، لا يفهمون ذلك الذى نحيط به نحن، ونتخيله بسهولة ثم ندونه على الخرائط. أنا لم أعثر، على أى إنسان، حتى بين الرفاق الجدد فى سوريا ، كانت لديه فكرة واضحة عن الجغرافيا . فتلك ليست فنون الساميين: الفنون السامية هى الحقد البشرى والحياة الحسية. سألنى الأصدقاء ، هل مررت بالأندلس؟ – ذلك الاسم الذى يتردد فى مسامعهم كما لو كان اسما لعشيقة! كان البسام يود منى أن أقول لهم : شيئا عن كل ما رأيته هناك. تحدثت عن غرناطة، واشبيلية، وقرطبة ؛ وتكلمت أيضا عن الأحداث الكبيرة التى تناولها الشعراء والتى بقيت إلى يومنا هذا ، ولكنهم كانوا يتشوقون إلى أن يستمعوا إلى وأنا أحكى عن المسجد الكبير (الذى أسسه عبد الرحمن) فى قرطبة [والذى هو عبارة عن مساحة فدان من السقف المنخفض المحمول على مجموعة من الأعمدة الرخامية] . رددت عليهم،" إنه يمثل الكنيسة المركزية عندهم الآن." وعندما علموا، أنه كان معبدا مسيحيا، فغروا أفواههم : ولم يتمالك ابن عايض ، ذلك الزنجى، نفسه وراح يتأوه! – والسبب فى ذلك أن فكرتهم مخيفة عن العقيدة المسيحية. وحتى عبد الله البسام الطيب أطرق برأسه فترة وجيزة؛ ولكنه سرعان ما استعاد وجهه البشوش مرة ثانية: يضاف إلى ذلك أن البسام كان بشوشا فى بلد فيه تزمت دينى . – هذا الرجل الميسور بشوش الوجه؛ وقلبه الإنسانى لديه من الأسباب ما يجعله بشوشا؛ ألا تستجيب الوجوه بملامحها البشوشة لما يدور فى القلوب؟ – راح الكنينى ، يتفحص الخارطة، ثم سألنى عما إذا كنت رساماً؟ فقد سبق له أن رأى صورا محفورة للإفرنج أو إن شئت فقل: الفرنجة؛ وكان يرى أن تلك الصور كانت فنا جميلا.

سألت هؤلاء الأصدقاء، عن اللهجة النجدية التى يتكلمها أهل القصيم . "أجابونى، إنها لهجة جيدة جداً إذا ما قارنها ها بلغة كل من سوريا ، ومصر ، والحجاز، وبلاد الرافدين. لغتنا العامية ليست هى لغة القرآن: نحن نتكلم كما لو كان لنا عقل آخر، نتكلم بطريقة جديدة." – وعلى حد ما سمعت فإن البدو الرحل كلهم، بدءا من القبائل التى داخل الحدود السورية والحدود المصرية، وكذلك سكان الواحات النجدية، كلهم يتكلمون رطانة واحدة، ويمكن أن نطلق على هذه الرطانة اسم العربية النجدية،

أو إن شئت فقل اللغة الأم فى أراضى الجزيرة العربية المرتفعة. وهم فى كثير من الكلمات يقولون إنها تنطق بطريق الخطأ كأن يقولوا على سبيل المثال Yahya يحى بفتح الياء بدلا من يحيى yehia (بكسر الياء). وهم يقولون 'قُو' go بدلا من 'قوم' Koom بمعنى 'انهض'. وهناك بعض الكلمات الأجنبية الوافدة عليهم عن طريق أولئك الذين سافروا إلى الخارج؛ ومثال ذلك يتمثل فى كلمة 'خوش' Khosh التى تتردد فى كلام تجار الشمال: وهم يقولون : رجل خوش، ويقولون أيضا: منزل خوش – بمعنى ممتاز أو جيد. والفرد من البشر يقولون له 'آدمى' adamy (وجمعه أوادم Ouadem) ، وهذه الكلمة تتردد فى كلام تجار منطقة الخليج.

الفصل الرابع عشر

طرد المسيحى الغريب من عنيزة، واستدعاؤه مرة ثانية

أسرة يحيى. بدو من الشمال. سنوات الجفاف ونفوق الماشية. السرقة واللصوصية فى عنيزة. الحرف اليدوية. صخب وهرج النساء المتزمتات والأطفال ضد النصرانى. عنف الامير على ، الذى يطرد الغريب أثناء الليل. رحله ليلية فى النفود. وادى الرماح. نزاع مع حادى الجمل. تعال إلى الخبراء فى النفود. قهوة الأمير. والد الأمير الضرير. الراكبون المسلحون من بريدة. الباحثون عن الطب. المدينة. عوفى. حادى الجمل يعود من زامل؛ لتوصيل الغريب، مرة ثانية، إلى عنيزة!الوصل الى الهلالية. البكيرية. واحة الهلالية. رحله ليلية فى النفود. النزول فى مزرعة خارج عنيزة (خصصت لسكنى النصرانى). زيارة عبدالله الكنينى.- جناينى رشيد. صالح. يوسف خالدى. واحد من أبناء رشيد سبق له أن زار أوروبا! أسرة رشيد. إبراهيم. قناة السويس. عمال الحقول. الوشم. حكايات واحد من العمال. تدمير الوهابى. الحدود الشمالية للمرة وأعراب الجنوب. غزوة من غزوات ابن الرشيد.

كانت عزبة يحيى المسورة بمثابة منتجع طيب خارج البلدة كنت ألجأ إليها فى فترة العصر. كنت كلما طرقت باب تلك العزبة، وحدث أن كان داخل المنزل أحد، فإنه كان يستقبلنى استقبالا بشوشا ؛ وكان أبناء ذلك الوطنى العجوز يجلسون على الفور لتصليح القهوة. كانوا، فى بعض الأحيان، يعزمونى على تناول العشاء ؛ وبدلا من العودة فى ساعة متأخرة، فى ظل الحرارة الشديدة، كنت أفضل البقاء هناك لأنام تحت نخلة فى ذلك البستان ؛ حيث كانوا يفرشون لى سجادة لكى أنام عليها فى أمان الله، شأنى فى ذلك شأن من ينامون فى خيام الأعراب. ذات مساء خرجت إلى خارج

المنطقة بصحبة أهل هذه العزبة، وذلك عندما اتجهوا لأداء الصلاة على رمل النفود. وبالقرب من بئر الماء الخاص بتلك العزبة أرانى حامد نباتا حارا يشبه الفلفل، وسألنى إن كان ذلك دواء أم لا؟ قال إنه أحضر بذور ذلك النبات (البرى) من السيل es-Seyl [أوإن شئت فقل :قرن Kurnالمنازل el-Menazil]، والسيل هذه واحدة من المحطات القديمة للقوافل النجدية، فى الجزء العالى من الجزيرة العربية الواقع قبل مكة (المكرمة) (الذى وصلت إليه بعد ذلك بشهور). شاهدت شخصا يتسلق الجدار من المزرعة المجاورة؛ كى يقابلنا: كان ذلك الشخص هو التاجر الشاب صاحب موضوع البندقية؛ الذى لم ألقاه منذ تلك الواقعة، ضمن أية صحبة طيبة فى البلدة. كان لسان ذلك الشجاع الشاب حلواً: ولكنه كشف عن عداوته من خلال صوته.كان الشفق قد بدأ يظهر عندما انتهوا من أداء الصلاة؛ وفجأة بدأنا نسمع صراخا فى النفود؛ وجرى الناس فى اتجاه ذلك الصياح: تسمَّع ذلك الرجل لحظة، ثم عزمنى بعد ذلك على تناول القهوة فى الصباح فى البلدة ؛"قال: هاأنت ترى ذلك الإزعاج المستمر الذى يصيب بيتنا فى الصحراء!"

– فى تلك الأثناء دخلت جماعة من بدو (العنوز) الشماليين؛ كان الرجال ضيوفا على صاحب هذا المنزل . جلسنا حول وجار القهوة، ثم جاء طفل رقيق وجميل فى عمر الزهور! كان ذلك الطفل يتماثل للشفاء من مرض ألم به قال الشاب الصغير الذى كان شقيقا لذلك الصبى الوسيم: قوم Goom حب hubb عمك amm-ak بمعنى 'أذهب وقبل عمك'؛ وقام ذلك الصبى الحلو، الذى كان مثل زهرة رقيقة جداً لاتقوى على صد عوادى ذلك العالم، بتقبيلى ؛ثم قبل البدو بعد ذلك ،ثم الجماعه كلها بعد ذلك: وذلك هو حنان ورقة العرب فى بيوتهم. تعجبت عندما سمعت أن هؤلاء القبليين كانوا قبل خمسة عشر عاما سكانا لهذه الديرة من ديار (القصيم)! لقد جاءوا إلى هنا قادمين من منزلهم فى سوريا، والذى يقع بالقرب من مياه الحزيل Hazzel el- [التى تبعد مسافة كبيرة عن هنا فى شمال النفود]، وقد قطعوا تلك الرحلة فى أسبوعين على ظهور الإبل : وقالوا: إنهم خلفوا وراءهم خيامهم منصوبة هناك، بالقرب من تدمر Tadmor [أوإن شئت فقل: باميرا Palmyra وقد جاءوا إلى هنا لأمر يتعلق بالاتجار فى الإبل].

إبل الجزيرة العربية تطول قاماتها فى صحراء الشمال. كان حامد الصافى قد أرسل ناقته ترعى فى أحد الأعوام مع هؤلاء الأعراب؛ وعندما أعادوها إليه بعد ذلك لم يستطع التعرف عليها بسهولة، فقد تغير حجمها، كما غزر وبرها. هذه القبيلة من قبائل العنزى، كان لديها ثروة كبيرة من الماشية عندما كانت فى القصيم؛ والسبب فى ذلك أن بعض الشيوخ كانوا يملكون ألفا من الإبل: إلى أن تعاقب على ذلك البلد عاما بعد عام سنوات كثيرة من الجفاف.إلى أن جفت أدغال الصحراء (التى مرضت بسبب الجفاف السنوى) وأسود لونها ، وهنا بدأت ماشية البدو الكبيرة فى النفوق بسرعة شديدة ؛ وهنا كانت الناقة الأصيلة تباع بريالين. ـ وتخلى أولئك الأعراب عن هذا المكان، واتجهوا شمالا [الذى يعج حاليا بقبائل وأنصاف القبائل من العنوز]، واحتلوا أو شغلوا ديرة بين ديار أقاربهم المحبين والمعادين لهم فى آن واحد.

ذات يوم، وبعدأن عدت إلى مسكنى، اكتشفت أن شخصا ما قد سرق ساعتى كنت قد تركت الساعة مع أدويتى. كانت تلك خسارة قاسية، لأن حظى كان عاثرا فى تلك المسألة؛ ولوكنت قد بعت تلك الساعة لحصلت على بضع ريالات قليلة ثمنا لها: اتجهت شكوكى نحو جار مطمور من جيرانى. هذه البلدة ليست متمدينة قياسا على الصحراء! كنت لم يمض علّى سوى يوم واحد فى الدكان، يضاف إلى ذلك أن كل الرياش التى كنت استعملها فى التطعيم كانت قد سرقت هى الأخرى: كانت تلك الرياش مصنوعة من العاج وقد كلفتنى عشرة ريالات ـ وهذا أكبرمما كسبته (طوال عشرة أشهر) من ممارسة الطبابة فى الجزيرة العربية. خطر لبالى من جديد ذلك العرض الذى سبق أن قدمه لى الكنينى، والذى كنت قد تناسيته فى ذلك الوقت ؛ ودار بخلدى أن الكنينى لم يجدد ذلك العرض مرة ثانية! هناك كثير من المصادفات الذكية فى الجزيرة : يضاف إلى ذلك أن كل قرش كنت أنفقه على شراء الخبز كان يباعد بينى وبين الشاطئ : وماذا يمكن أن يحدث لحياتى لوأنى، بفعل حادث سيئ ، افترقت عن أولئك الناس المحترمين الذين هم أصدقائى فى الوقت الراهن؟

أصحاب الحرف فى هذه المدينة التى تقع فى وسط نجد (أى الذين ينتمون إلى فئة الصناع)، هم صناع السلاح، السماكرة، النحاسون، الصاغة؛ أما العاملون فى الصناعات الخشبية فهم، صناع الأطباق الخشبية ، وصناع الأقفال الخشبية، وصناع

سـروج (عـدد) الجـمل، وصنـاع الأدوات الخـاصـة بإبل جلب الماء من الآبـار، هذا بالإضـافه إلى النجارين (غير الدقيقين) [نظراً لعدم وجود العدد والأدوات] ؛ أما عمال الأحجار فهم: قُطَّاع الأحجار، ومشكلو الأحجار، وعمال الرخام، وصناع هاونات طحن البن ومـا إلى ذلك؛ بنائو المنازل هم والمليسون. وقد نتطرق إلى أولئك الذين يمارسـون أعمال الإبرة، مـركبو القيطان ومركبات القيطان، والمطرزون ، وصنّاع النعال، أو إن شئت فقل الغَّرازون. والخياطون والخـياطات، على حد معـرفتى، هم من أولئك الذين ينغمسون فى الملذات .زد على ذلك أن الصَّاغة، فى مجالى الذهب والفضة ،فى عنيزة، ماهرون جداً فى المشغولات الخيطية التى تصنع من الذهب والفضة: والبعض منهم الذين اتخذوامن مكة مستقرا لهم يقال إنهم يتفوقون على كل من عداهم فى هذا المجال، فى المدينة المقدسة. وعدنى الكنينى بأن يرينى شيئا من هذه الصناعة الدقيقة فى الجزيرة العربية؛ ولكن موجات عالمهم المتشدد سرعان ما أبعدتنى عن ذلك الرجل.

البـاعـة، أناس من القـمـاشين الذين يعـملون فى السـوق وهم يبـيـعـون البـضـائع الصـغيـرة [التى من بينهـا العقـاقـير الخـام، وأدوية الإبل، وأرغـفـة السكر، والتـوابل ، والصـابون السورى الذى يجلبونه من المدينة (المنورة) كمـا يبـيـعون أيضـا البن اللازم لقوافل مكة (المكرمـة)، هذابالإضـافة إلى باعـة المأكولات . وفـى الأحـياء النائية توجد بعض الدكاكين الصغيرة العامة ـ البعض من تلك الدكاكين مملوك للنساء، حيث يبعن فى تلك الدكـاكين البـصل، والبـيض والمسـاميـر، والملح، والكبـريت (الألمانـى)، والخـبـز المخمـور [كمـا أن البـعض من تلك النسـاء الفقيـرات قد يبعن شيئا من الحليب ،إذا مـاتيسـر لهن]. وفى يوم الجـمـعة، يسـتطيع الإنسان أن يرى النساء المحـجبات وهن جـالسات فى المجلس ليبعن الدواجن ، وقراب اللبن، وقـراب الماء، التى قـمن بدبغـهـا وإعدادها. والمهن غير الماهرة هى الزراعية، وتجارة الإبل والخيول. والأسر الميسورة هنا كلها من ملاك الأراضى الزراعية – أما التجار الأجانب الأثرياء فى هذا البلد فقد كانوا خمسة عشر شخصا.

الناس هناك لا يعرفون شيئا عن الولائم فى مدننا . والعرب لايقلون تدبيرا عن الإسبرطيـين، ولكنهم سـعداء بالاعتـدال الإبيـقـورى فى دينهم. وعنيـزة بلد مـتـمـدين وميسـور أكثر من المدن الأخرى فى الجزيرة العربيـة : وروح المثابرة هى التى تميز

سكان هذه البلدة من بنى تميم، بالإضافة إلى التفاهم الواضح - بالرغم من وجود التشدد الوهابى الدينى.

عندما وجدت أن قلة قليلة من الناس هنا، هى التى بدأت تتحدى الأطفال وتمنعهم من ملاحقتى والجرى ورائى فى الشوارع، رأيت فى ذلك نذير شؤم لى ؛ ولكن الكنينى لم يسبق له أن حذرنى، كما أن زامل كان صديقا لى : كان اليوم يوافق أواخر شهر مايو.ذات يوم، فى فترة ماقبل الظهيرة، كنت عائدا إلى منزلى، ورأيت أقذارا موضوعة أمام عتبة دارى؛ كما قام بعض الأطفال بإلقاء بعض الأحجار علَّى أثناء مرورى فى ذلك الشارع المنعزل. وبينما كنت جالسا داخل دارى، جاء أولئك الأطفال الأوغاد، وراحوا يدقون بابى؛ كان هناك صراخ عال وحاد: والجريئون من هؤلاء الأطفال تسلقوا الحوائط الجانبية إلى أن وصلواإلى شرفة المنزل؛.وراحوا يلقون الأحجار علَّى عن طريق فتحه السلَّم. ووسط هذه الغوغاء سمعت صوت النساء الغاضبات وهن يقلن:" يانصرانى ستموت !- وهم على وشك أن يقتلوك!" مكثت ساعة كاملة دام خلالها ذلك الهرج والمرج : وصمد باب الدار، وبالرغم من كل ذلك الصراخ لم يجرؤ أولئك الأوغاد على النزول إلى المكان الذى يمكن أن يلتقوا فيه الكافر. فى تلك الساعة كان المواطنون المحترمون يستريحون فى بيوتهم، أويشربون القهوة فى بيوت أصدقائهم؛ يضاف إلى ذلك أنى كنت أسكن فى مكان منعزل. وأخيرا جرى رفع الحصار عنى؛ نظرا لأن بعض الأشخاص الذين مروا على بيتى كانوا عائدين من صحبة شرب القهوة، وعندما وجدوا تلك الضوضاء حول باب خليل، أبعدوا أولئك الأوغاد عن دارى، وراحوا يكيلون لهم كل تلك اللعنات التى ترد على ألسنة العرب.

بعد ذلك ، وعندما كنت أتجول فى البلدة، كان الصبية يجرون مع بعضهم البعض وهم يصيحون ويقولون: إنهم حاصروا النصرانى عند النواصى، وكانوا يلقون عليه الحجارة من وراء ظهره؛ ولكن عندما كان الكافر يدير لهم وجهه كانوا يولون الأدبار. رأيت واحداً قادما نحوى - شخص ضخم من عامة الناس، والذى كان مريضا من مرضاى فى يوم من الأيام؛ وناديته كى يبعد الأطفال عنى- غمغم ذلك الرجل قائلا:" اشتكى لزامل!" هذا الرجل نفسه حاول أن يتقى حجارة الأطفال، بأن دخل ليقف فى مدخل أحد أبواب المنازل، وتخلى عنى فى الشارع. لقد استيقنت أنه ليس هناك أمهر

من العرب الذين يشبهون الغجر فى الرمى بالحجارة: كانت صواريخهم تدوى من حول رأسى، عندما كنت أتقدم نحو الأمام إلى أن وصلت إلى نهاية ذلك الشارع الذى كان مفضيا إلى طريق بريدة بالقرب من القاع Ga :مرّبى بعض المواطنين. وبعد ذلك مر خفاش ضخم من أمام وجهى فاردا جناحيه القويين .توقف أولئك المواطنون وصاحوا "هو !"ـ نظرا لأن الحجارة تساقطت خلفهم؛ ومن بينهم صاح مواطن فى شهامة الرجال،"ماهذا الذى تفعلونه، ياعيال؟ أخص ! أريككم الله"ـ كان هناك حجر، لولم يستدر خليل لكان ذلك الحجر قد قتله وأودى بحياته، وهو ضيف على البلدة، وعلى مرأى ومسمع من زامل."ـ ولم يفكر أحد فى وصف هؤلاء الأطفال بأنهم أوغاد أوأنذال.

وجدت على الزنجى، وأقنعته بالعودة معى؛ ويخلى الشوارع المحيطة بمنزلى من أولئك الأوغاد. وفعل ذلك بأن راح يطارد هؤلاء العيال eyyal؛ وعندما غضب وهاج راح يكيل لهم الضربات مستخدما فى ذلك عصاه، التى كان يهش بها فى أغلب الأحيان على الحوائط والجدران. بعض الجيران وجهوا اتهامهم إلى الحريم المتشددات، وإلى على الزنجى، الذى كشر عن أنيابه الزنجية وجرى خلف أولئك الأوغاد عله يضربهم؛ ولكن هؤلاء الجيران، كانوا يرجون عليًا، ووعدوا أن يتولوا هم الأمر بأنفسهم . ولكنه رفع عصاه على واحدة من تلك النسوه المتشددات، ويصيح قائلا: والله ،إن لسانها سوف يقطع بأمر من زامل ' قال على بعد ذلك :" ستهدأ الأمور الآن ياخليل " وهنا رحت أشق طريقى متجها صوب المجلس؛ كى أشرب القهوة فى بيت البسام.

كان الكتينى فى بيت البسام: كانا جالسين بالقرب من وجار القهوة، بالرغم من ركود الهواء ـ ولكن أهل الجزيرة العربيه يحسون شيئا من الانتعاش عند ما ينتهون من شرب قهوة الصيف. ولأنى وجدت فى هذين الصديقين انفتاح القلب، الذى يمثل حياة الإنسان ـ وبالصغر وقصر ذلك الانفتاح ـ وجدت من الأوفق ألا أكشف لهما متاعبى ، التى كان يمكن أن تدخل الحزن على قلبيهما. كنت على ثقة أن ذلك الضجيج وتلك الجلبة لن تتجدد فى المدينة مرة ثانية: ولذلك كنت فى عجلة من أمرى، ثم وقفت بعد ذلك لأرحل عنهما .لامانى بعد ذلك لأنى لم أجلس للتحدث معهما، مما كان يجعلهما يلجآن إلى زامل مباشرة ـ وأثناء عودتى وجدت الشوارع محاصرة بالقرب من بيتى ، وأن العيال كانوا قد سلحوا أنفسهم بالمقاليع. وعليه اتجهت إلى السوق كى أتكلم مع جارى

رشيد، الذى كان ضابطا من ضباط زامل- رأيت فى دكان رشيد بعضا من الطلقات الفارغة القديمة المتخلفة عن قذائف مدفعية إبراهيم باشا؛ والناس يستعملون تلك الدانات الفارغة هنا أهوانا لطحن البن، كما يطحنون فيها أيضا الملح والفلفل وما إلى ذلك .قال رشيد:' لقد بلغ زامل خبر الشغب الذى أحدثه الأطفال فى البلدة،وأنه أرسل للأوغاد وحذرهم ؛بل إن عليا قام بضرب البعض من أولئك الأوغاد: وأن الهدوء سيسود بعد ذلك ، ويصبح بوسعى العودة إلى بيتى؛'- ولكن خطر ببالى أن الأمر لم يكن كذلك .عدت من خلال السوق وأنا ضيق deyik الصدر es-sudr - فما هو ذلك القلب الذى يمكن أن يستقيم حاله، والإنسانية من حوله تجرَّمه؟ لقد وصل الأمر إلى أحط مستويات الوحشية !- وبخاصة أننى بدأت ألاحظ كثرة أعداد أولئك الذين كانوا يغمغمون فى الدكاكين وفى الطريق العام عندما يرونى أمشى فى الطريق. ومن بين تلك الوجوه الكالحة التى كانت تمر علىَّ ، وجه ذلك الرجل الذى يدعى عليًّا،وإن شئت فقل الأمير التنفيذى ، (الذى كان يحمل سيفا بحكم أنه من كبار أبناء بيت الأمير). وهذا هو الشيخ نصير جاء يتحدث إلىّ دون احترام أوتحية!- ولكن مرحبا بهذه الخبرة من الحياة الإنسانية. كانت الشمس قد غربت ، وكانت الشوارع خالية من الناس، عندما وصلت إلى باب ذلك البيت المهجور ؛ ولما كنت صائما ومتعبا فقد رقدت على الأرض ورحت فى سبات عميق.

حسبت أنى نمت ساعة، عندما استيقظت على صوت على الزنجى !وهو يصيح عند البوابة، "يا خليل- يا خليل! الأمير يأمرك بأن تفتح الباب." ذهبت لأفتح له الباب، ونظرت خارج المنزل. كان الظلام دامسا؛ ولكنى لاحظت من خلال حركة الأقدام أن هناك أناسا كثيرون.على: الأمير يستدعيك؛ وهو جالس هناك (فى الشارع)!" ذهبت وجلست إلى جواره: خطر ببالى، هل يمكن لزامل أن يأتى فى هذه الساعة من الليل! وبعد أن سمعت الصوت الذى كن يشبه صوت زامل، عرفت أنه شخص آخر." قال الصوت، إلى أين ستذهب - إلى الزلفى؟(*)"- أنا ذاهب عن قريب جداً مع ولد عبدالله البسام إلى جدة." "لا،لا،لا! (ثم قال وهو يضحك) : كما أن جدة بعيدة جداً : ولكن إلى

(*) الزلفى : بلدة من بلدان السدير من نواجى نجد. (المترجم)

أين ستذهب هذه الليلة؟"-"على ،ماهذا الشيخ؟"-"إنه على الأمير." وهنا أحضروا ضوءًا : ثم رأيت وجهه، بصرامته الوهابية، والذى كان يشبه وجه زامل؛ وكان بصحبته بعض من أتباعه ومعاونيه-" ياأمير على، الله يدخل والديك الجنة! أنت تعلم أنى مريض ؛ وأن لى بعض الديون هنا فى المدينة، ثمنا للدواء؛ كما أن لم أذق الزاد طوال هذا اليوم .إذا كنتم ترون أنى استحق ذلك دعونى أستريح فى هذا المكان إلى طلوع الصبح ؛ ثم رحلونى بعد ذلك بسلام."- "لا، جملك جاهز عند ناصية الشارع ؛ وهذا هو الجمال الذى سيصاحبك : أنهض !وأخرج أغراضك (حاجياتك) وأسرع فى ذلك .هو! فليدخل البعض منكم مع خليل كى تعجلوا بالأمر معه."- "وإلى أين سترسلنى هكذا بصورة مفاجئة؟ ، أنا ليس معى نقود!"-" هاـ ها! هذا لايعنى لنا شيئا، أنا أقول لك :أخرج." : وبينما كنت أطيل النظر إليه، ضربنى ذلك الوغد بقبضة يده فى وجهى- ولو خاننى غضبى لانهال علىّ الحاضرون بكل أسلحتهم- وكان على قد سحب سيفه من غمده إلى منتصفه ." قلت له: أعد السيف ثانية إلى غمده: هل نحن بحاجة إلى العنف؟"

كان رشيد، ضابط زامل، الذى يتصل بيته ببيتى من الخلف - بالرغم من أنه من حيث المدخل، كان يقع فى شارع آخر، قد سمع الهرج والمرج فأتى لزيارتى، سعدت عندما رأيت رشيدا يدخل بيتى، وكان يحمل سيفا بأمر من زامل. سألته عما إذا كان أمر على أمرا سليما؟ لأنى كنت أشك فى موافقة أصدقائى على هذا الأمر، وهم من علية القوم بين المواطنين؛ كما كنت أشك أيضا أن زامل الفيلسوف، قد وصل به الحال لحد إخراجى من البلدة أثناء الليل ! وعندما أخبرت رشيدا، بأن عليا الوهابى قد ضربنى، قال لى على انفراد:"لا تستثيره، ولكن عجّل ، والذى لاشك فيه أن هذا الأمر صادر من زامل: لأن عليًا لا يمكن أن يأتى من تلقاء نفسه ويضطرك إلى مغادرة البلدة." نادى الأمير علّى من الخارج، "قل لخليل يسرع ويعجل بالخروج ! ألم يجهز بعد؟" ثم دخل علُّى بعد ذلك بنفسه ؛ وساعدنى رشيد فى وضع الأشياء فى الجوالات، نظرا لوهنى وضعفى ."قال للأمير على: إلى أين سترسل خليلا؟" "إلى الخبيرة Khubbera". -"الهلالية EL-Helalieh أفضل، أم الرَّس er-Russ؛ نظرا لأن هاتين البلدتين تقعان على طريق القوافل ."-"هو ذاهب إلى الخبيرة." "قلت: طالما أنك تطردنى، فسوف تدفع أجر الجمَّال ؛لأنى ليس معى سوى القليل جداً من النقود." الأمير على:" ادفع

للرجل أجرته، وعجلً؛ أعطه ثلاثة ريالات ،ياخليل ." رشيد:" الأجرة إلى الخبيرة نصف ريال: خفض الأجرة ياأمير على."- "إذن فلتكن الأجرة ريالين، وسوف أدفع أنا الباقى."- "لكن، قل لى: ألم يتحسن الناس فى مدينتكم بفعل أدويتى ؟"-"نحن لا نود أى شكل من أشكال الدواء."- "ألم أبلى بلاء حسنا وأمينا فى عنيزة؟ أجبنى على سؤالى بوحى من ضميرك." الأمير على: "نعم، لقد أبليت بلاء حسنًا."-"إذن، فلماذا هذه المعاملة؟" ولكنه صاح قائلا: "هل أنت جاهز للرحيل؟ أركب حالا "! فى نفس هذا الوقت كان معاونوه قد سرقوا نعلتى (التى كنت قد تركتها خارج باب الغرفة)؛ وهنا صاح فىَّ على الزنجى الأمين، متهما أولئك المعاونين بالسرقة،" ياأنتم، أعيدوا إلى خليل نعلته! " تكلمت مع الأمير الفظ؛ الذى رد علّى قائلا:" ليست هناك نعال: وراح الأمير يضحك على انفراد لذلك الذى حدث للنصرانى [لأن مسألة المعاناة من السير حافى القدمين على أرض الصحراء التى تتوهج فى ضوء الشمس أمر لايطاق ولايمكن تحمله]". يصيح الأمير، هل أنت جاهز الآن؟هيا، أركب! ولكن أدفع للرجل أجرته قبل كل شىء."- بعد ذلك، لم يعد معى مايكمل خمسة ريالات؛ كما سرقوا ساعتى: وكنت فى وسط الجزيرة العربية.

رحل رشيد : أخْرجوا الأشياء وحملُوها على الجمل البارك؛ وركبت الجمل. وتابعنى الأمير على هو ومن معه إلى أن وصلت إلى المجلس." (قلت له):إلى من أنا ذاهب فى الخبيرة؟"-" إلى الأمير، ولاتنس أن اسمه عبدالله العلى."- "حسن ، أعطنى رسالة له."-"لن أعطيك أية رسائل." سمعت عليا وهو يتكلم بصوت خفيض مع الجمَّال من وراء ظهرى :- كلام (خصم)،لاخير لى فيه وإلا لكان قد قاله علانية : وعندما ناديت عليه للمرة الثانية، كان قد عاد إلى بيته .كان الزنجى عليًا، مضيفى القديم، مايزال معى؛ وسوف يصحبنى من باب الود والمجاملة إلى طرف البلدة- ولكنى رحت فى سنة من التفكير، أين أصدقائى الآن؟ قال الزنجى: زامل هو الذى أصدر أمرا برحيلى فى هذا الوقت، تحاشيا منه لأية اضطرابات أوقلاقل أخرى فى المدينة ؛ يضاف إلى ذلك أن السفر فى الصحراء أثناء الليل آمن منه فى النهار وربما يكونوا قد ضخموا لزامل ضجيج الصباح :- وهم على استعداد لفعل ذلك بصورة دائمة .

أخبرنى على أن رسالة وردت من مطوع بريدة مؤخرا إلى زامل وإلى شيوخ عنيزه أيضا؛ تستحثهم، باسم العقيدة المشتركة، بان يطردوا النصرانى."-"هل يمكن

الوثوق بذلك الجمَّال ؟ وهل أهل الخبيرة طيبون؟" أجابنى على مؤكدا، وأردف قائلا: "أكتب لى عندما تصل؛ ولعلمك الخبيرة ليست بعيدة: وسوف تصل إليها قبل طلوع الفجر، وصدقنى فى كل ما أقول ياخليل، أنا آسف لما حدث لك." وعدنى على أن يذهب بنفسه فى الصباح الباكر إلى الكنينى، بطلب منى، أن يرسل تلكم الريالات القليلة التى هى ثمن الدواء: (وحسبما علمت بعد ذلك) لم يذهب على إلى الكنينى؛ والسبب فى ذلك أن ذلك الزنجى تربى بين العرب، الذين لاتعدو وعودهم أن تكون مجرد كلام فى الهواء، وأنها تكون لخدمة أغراضهم فى وقت الحاجة إلى تلك الوعود ـ "استحلف ذلك الجمأل أن يكون أمينا معى." على: "نعم ، تعال هنا ياحسن! وأقسم على كيت وكيت." أقسم حسن؛ ثم رحل الزنجى عند سور المدينة. ومن السور انطلقنا إلى النفود المظلمة؛ وبدأ يلاقينا هواء الليل البراد قادما إلينا من الصحراء الرملية الواسعة؛ مما أنعشنى وحثنى على الركوب: كنا فى ذلك الوقت، فى بدايات حرارة الصيف الخانقة فى الجزء المنخفض من وادى الرماح.

بعد مسير ساعة بالجمل وصلنا إلى بستان مهجور ومبان مهدمة ـ هذه العزب توجد بأعداد كبيرة خارج البلدة. كان الليل حالك السواد إلى حد أننا لم نكن نستطيع رؤية الأرض من تحت أقدام الجمل. دخلنا فى طريق أجوف من طرق النفود؛ ولكن ضاع منا ذلك الطريق بعد مسير أميال عدة. "قال حسن: هذا أمر طيب؛ لأن ذلك سيجنبنا خطر البدو المتسكعين." هبطنا ناحية الجانب الأيمن، وواصلنا مسيرنا راكبين الجمل عبر أرض سهل من السهول متماسكة التربة ـ وادى الرماح؛ وهناك شاهدت رذاذ ماء متجمع على شكل بركة، تخلفت عن الأمطار التى هطلت مؤخرا على عنيزة. بداية الصيف فى القصيم تكون على شكل زخات من المطر الحلو فى شهر أبريل: كان الجو ساكن الريح بالفعل، وكانت السماء ثقيلة، ولم يسقط منها سوى مطر خفيف منذ بضعة أيام؛ كان باديا أن ذلك الطقس سوف يستمر حتى شهر يونيو. شاهدت، فى الصحراء، فى العام الماضى، وذلك على بعد مائة فرسخ فى اتجاه الغرب، جفافا شديدا وأحسست بحرارة شديدة أيضا فى ذلك الموسم؛ كما شاهدت أيضا (وذلك فى فترات العصر) عواصف ورياح محملة بالغبار والتراب.

أحسسنا بالجمل مرة ثانية وهو يمشى فى النفود العميق؛ وواصلنا مسيرنا فى ضوء النجوم الخافت من فوقنا، وعند منتصف الليل، مررنا ببيارة من أدغال الوقود التى يطلقون عليها اسم غوطة **ghrotha** . وقد امتدح الناس هذا الحطب، الذى هو نوع من خشب الإثْل ـ أخبرنى أصدقائى، وذلك نقلا عن بعض (كبار) شعرائهم؛ "(يقولون): نار مشتعلة وحامية مثل نار الغوطة:" ونقلا عن الشيخ نصير، "النار المستورة فى هذا النوع من الخشب قد تدوم شهورا عدة ،إذ إنها تحترق ببطئ: وهذا هو ماثبت لهؤلاء الناس على مر الزمن؛ والسبب فى ذلك أن قوافل عنيزة أثناء عبورها الصحارى عثرت على جمار من نيران سابقة بقيت مشتعلة طيلة ثلاثين يوما." هذاالنوع من الخشب ناره عبارة عن وهج له لون أحمر صافى ؛ والفرع منه يشتعل كما لوكان شعلة: والناس هنا يفضلون خشب الإثل على أنواع الوقود الصيفى الأخرى، وقد اكتشفت أن الناس فى خيبر يقيّمون غاليا ذلك النوع من خشب الوقود.

كان حسن، الذى زاملنى فى الرحلة، كراكب خلفى معى على الجمل، يعمل حطاباً. كان حسن يركب الجمل من كوخه أثناء الليل؛ وعند الفجر كان يصل إلى منطقة الأشجار، حيث يقوم بقطع الأغصان الجافة ويقوم بتحميلها على جمله؛ ليصل بها إلى عنيزة قبل دخول الظهر. كان حسن شريكا فى الجمل الذى نركبه ـ هذا الجمل كان سليما، وكان زامل شريكا فى ذلك الجمل، إذ دفع نصف ثمن الجمل الذى كان يقدر بخمسة عشر ريالا. كان العائد صغيرا من تلك الصناعة أو الحرفة الخطرة والمؤلمة فى الوقت نفسه؛ ومع ذلك كانت هى المهنة التى لم يكن ذلك الحسن يصلح لأى شىء سواها. سألته عن السبب الذى دفعه لأن يأخذ منى مبلغا لايمكن له أن يكسبه من حرفته تلك إلا على امتداد ثمانية أوتسعة أيام؟ "أجابنى ،أن النفود مليئة بالأعراب غير الأصدقاء، وأنه كان يخشى أن يضيع منه جمله؛ وأنه لم يكن له أن يخاطر بغير هذا الطريق، حتى وإن أدى الأمر إلى عصيان أمر زامل ومخالفته." أبلغنى أن طردى تحدد هذه الليلة، خلال اجتماع للشيوخ؛ وردد علىَّ أسماءهم، ولم يكن بين هؤلاء الشيوخ أحد من معارفى. استمع حسن إلى كلام الشيوخ؛ والسبب فى ذلك أن زامل أرسل يستدعى حسنا فى ساعة مبكرة، وطلب منه الاستعداد لنقل الحاج خليل: قال الأمير فى البداية إلى البكيرية **el-Bukerieh**ـ التى تتهيأ فيها فرص أفضل لمرور القوافل؛ ولكن بقية أفراد المجلس كانوا يودون نقل خليل إلى الخبيرة.

ـ نزل حسن حول شيء لم أره يستعمل من قبل فى البلدان العربية، بالرغم من أن مسافرى الليل هم والبدو يندر أن ينخدعوا بالأصوات التى تصدرها إبلهم: ولف حسن مقوده حول خطم ذلك الحيوان الضخم الذى يشبه الوحش! الأمر الذى جعل الجمل يتوقف عن الشكوى والعواء. لم يسبق لى أن أضنانى الألم مثلما حدث لى فى تلك الليلة، وأنا جالس على سرج (عدة) صلبة وخشنة من هذا القبيل: هذا الخطو المتعب لذلك الجمل، الذى لايريد أن يحمل سوى الحطب فقط، تولد عنه من خلال ساعات الظلام الطويلة الألم من ناحية والتعب من الناحية الأخرى. ماالذى يمكن أن أظنه فى زامل؟ـ هل أخطأت، أنا، كثيرا فى تقديرى لهذا الرجل وتقييمى إياه؟

شد حسن فى النهاية مقْود الجمل؛ وفتحت عيناى لأرى الشمس فوق كتف النفود: ونزل رفيقى لأداء الصلاة؛ وكشف لى ضوء النهار، ذلك الوجه الغريب الذى يشبه وجه النسناس. كنا قد قطعنا شوطا كبيرا أثناء الليل؛ وهذا الحسن، الذى يبلغ من العمر ثلاثين عاما، لم يعبر النفود إلى الخبيرة منذ أن كان طفلا. ومن الكثيب الرملى التالى، بدأت تطالعنا أعراف نخيل الهلالية. كان بحر الرمال يتراءى لنا على شكل موجات من الريح، وعلى شكل ضفاف وغدران: وكنا نحن الاثنين نركب كل هذه الأشياء ونسير فوقها؛ وعندما ارتفعت الشمس عن الأرض بدأت تظهر لنا بلدة الخبيرة [ويصح فيها أيضا الخبراء Khobra] بلا نخيل أو إخضرار. لم تكن الأرض المنزرعة على مرمى البصر؛ إنما كانت تقع على بعد خمسة أميال فى قاع وادى الرماح، وكانوا يطلقون عليها اسم القرية geria .[أنظرص ٢٦٠] وسط هذه البلدة المبنية فى النفود المنخفض ، يوجد برج مراقبة عالٍ مبنى من الصلصال .حسن:"لاتقل عندما نصل إلى ذلك المكان ،'أنا نصرانى،' لأنهم قد لايستقبلونك بناء على ذلك." ـ" ألم يسمعوا عن النصرانى، من عنيزة؟"ـ" ربما يكونوا قد سمعوا ؛ نظرا لأن حركة النقل تتزايد فى ذلك الوقت بسبب نقل الحبوب إلى آل ـ البسام ،الذين يقرضون المال للناس."

أبصرنا بعضا من رذاذ الماء على بعد مسافة قصيرة من الطريق الذى كنا نسير فيه.قال حسن: "هيا بنا إلى ذلك الماء."ـ" نحن لدينا ماء فى القربة، وسوف نصل إلى المنطقة المأهولة بالسكان."ـ وهنا بدأت أرى مرة ثانية، أن حياتى هانت على الناس وأن الوضع هنا سيكون أسوأ مما حدث لى من جمَّال بريدة (الذى كان يحمل الاسم

نفسه) الذى تخلى عنى بالقرب من عنيزة، ففى عنيزة، كان هناك أمل فى زامل: أما الخبراء، فهى بلدة مسكينة وفقيرة، يسكنها الفلاحون، كما أنها مستوطنة قديمة من مستوطنات القحطان ، وهى تخضع لسيطرة بريدة؛ وكانت تبعد عنا مسافة ميل تقريبا - "سوف تضعنى فى وسط البلدة؛ لأنك أخذت ريالاتى نظير القيام بهذا العمل." وبالرغم مما قلت برّك حسن جمله من تحتنا؛ ونزلت عن الجمل، وجاء حسن لينزل أشيائى عن الجمل. منعته من ذلك، وتناولت لفافة كنت أضع مسدسى بداخلها، وهنا شاهد ذلك البائس ذلك الشيء المعدنى فى يدى - " أيها الرفيق،إذا كنت خائفا من دخول البلدة، فسوف أركب أنا بمفردى إلى بوابة البلدة، وأنزل عن الجمل أمامها؛ وعليك أن - تأتى وتأخذ جملك: ولكن أرجو ألاتقاومنى وإلافتحت النار على الجمل؛ لأنك بعت حياتى." رد على ذلك الوغد،أنا أحمل هذا الرمح لكى يعيننى على أولئك الذين يودون أن يأخذوا منى ناقتى."- وهنا توجهت إلى الناقة؛ وأخذت المقود فى يدى حتى أقتادها إلى الخبراء.

كان هناك رجل من البلدة على مقربة منا؛ وكان ذلك الرجل قدلا حظ خلافنا ، فجاء يجرى نحونا: " أوه! ماهذا؟ (تساءل الرجل)؛ السلام عليكم." حكيت له الموضوع، وحكى له حسن أيضا، ولكنه لم يذكر أنى نصرانى : كما أن ذلك الرجل لم يرانى عندما كنت مسلحًا .أفاد ذلك الرجل أن الغريب صاحب حق؛ وعليه ركبنا الناقة واتجهنا صوب سور البلدة. ولكن الناقه غير المدربة رفضت تخطى بوابة البلدة: ونزلنا من فوق الناقة وقيدنا رجليها بحبل، وتركناها ؛ وأجبرت حسنا على أن يحمل خرجى على كتفه، ويمشى أمامى- وعليه وصلنا إلى المكان العام ؛ وأنزل أشيائى فى ذلك المكان وكان يمكن أن يتخلى عنى؛ ولكنى لم أطق ذلك. وجاء بعض من أهل المدينة وحكموا أنى على صواب، وأن حسن يتعين عليه أن يحمل الأشياء ويوصلنى بها إلى مقهى الأمير.

سمعتهم يقولون من وراء ظهرى:" إنه غريب؛" وأن الكثيرين من أهل الخبراء هم من الجمالين بل ومن أولئك الحجاج الذين يذهبون إلى الأماكن المقدسة كل عام، وأنهم شاهدوا كثيرا من الغرباء- دخلنا صالة القهوة ؛ حيث كان يجلس فيها وحده رجل ضرير كبير السن - هذا هو على والد الأمير؛ الذى نهض واقفا عندما سمع صوت القادمين، وراح يتحسس الجدار وبدأ فى تصليح القهوة. جلس أولئك الذين دخلوا من

بعدى كل حسب عمره ووضعه بجوار حائط المقهى فى الجوانب الثلاثة. وبعدهم بوقت قصير دخل الأمير بنفسه ،الذى كان عائدا من الحقول؛ هذا الأمير فلاح حسن المظهر وتبدو عليه الرجولة والشهامة أرسلوا فى طلب رفيقى حتى يشرب معنا القهوة؛ ولكن حسنا بعد أن وضع أشيائى ،تسلل خارجا من بوابة بلدتهم مرة ثانية .جلست الجماعة وكلهم صامتين ،إلى أن يتم تصليح القهوة؛ وعندما كان البعض منهم يسألنى ، كانت البقية هى التى تجيب قائلة،" لكن ليس بعد." كان بعض الشباب يتناجون فيما بينهم، وعندما كانوا ينظرون إلى الأعلى فيما بين تهامسهم ،كانوا يطيلون النظر إلى. واتضح لى أنهم عرفونى على أنى ذلك الغريب الذى سبق أن مر على بريدة - أوإن شئت فقل ذلك النصرانى الرحال.

بعد طردى من عنيزة على هذا النحو ،كنت أعانى من إرهاق وضيق شديد؛ ولماكنت هنا بلا نقود فى وسط الجزيرة العربية، رحت أتأمل وأفكر فى كل من الكنينى والبسام اللذان كانا صديقين طيبين لى فى الفترة الأخيرة- ترى، هل تخليا عنى؟ هل سيرسل الكنينى لى النقود؟ وما طول المدة التى سيتحمل هؤلاء الناس طوالها وجودى بينهم؟ ومن منهم الذى يمكن أن ينقلنى إلى أى مكان بلا مقابل؟ وأنى أصبح يتعين على طلب الثمن من أولئك الذين يقدرون على دفع ثمن أدويتى أى من أولئك الذين ليسوا فقراء : وقد يكفى ثمن الدواء لشراء الخبز الذى قد أحتاج إليه- أما المسكن فيمكننى الحصول عليه بالمجان . وقد لاحظت من النظرات الفاحصة، ومن النظرات الجانبية، عندما ذكرت اسمى أمام الحاضرين ،أنهم جميعا يعرفونى،" غدا سيتم إجراء كل هذه التحريات." سمعت الأمير نفسه وهو يقول همسا،" سيرسلونى إلى الهلالية، أوإلى البكيرية Bukerieh"- كانت قهوتهم من أردأ الأنواع: كان يبدو أن مضيفى من أهل الخبراء كانوا من أرباب العائلات الفقيرة.

لم يتبق فى المقهى سوى على العجوز؛ الذى أقترب منى وجلس على الأرض معتمدا على يديه، إلى جوار الحكيم؛ وحملق فىّ بعينيه اللتان لاتبصران، ثم سألنى إن كان لدى دواء يساعده على الإبصار؟ وجدت أن عينيه سليمتان .قال الأمير، وهو يدخل علينا مرة ثانية:" إى، ساعد والدى! لأنه عزيز على." سألت الأمير،" هل أنا آمن هنا؟"- "إذا كان لابد من أن أجيب على ذلك ؛ أبق معنا هنا وعالج والدى، وسوف نرى مايمكن

عمله." ووعد على العجوز بأنه سوف يرسلنى إلى الرس فى أمان - والرس لاتبعد سوى أميال قليلة - ومن الرس أستطيع الركوب مع قفيلة(*) السمن (الملكية) ،إلى مدينة جدة. وأهل الرس يقولون: [الرُّس' er-Russ بدلا من 'الرَّس'] وكلهم من عمال القوافل. سألت عن موعد قيام القافلة؟ "قد تبدأ بعد فترة؛ ولكننا سوف نتأكد من الموعد."- "لم يكن معى مايكمل خمسة ريالات [حوالى عشرين شلناً] بالإضافة إلى هذه الجوالات، فهل هذا يكفى ؟"- "نعم، أجاب الرجل العجوز، أعتقد أننا سنجد من ينقلك بهذا المبلغ."

بينما كنا نتكلم دخلت علينا، بأصواتها النشاز، وصليل سيوفها، وبنادقها جماعة من الغرباء؛ كانت تلك الجماعة من قوات الجمَّالة التابعة لأمير بريدة، وهذه الجماعة تشبه جماعة الرجاجيل التى سبق أن رأيناها فى حائل. كان هؤلاء الجمالة قد ركبوا أثناء الليل؛ نظرا لكثرة اللصوص فى الصحراء هذه الأيام، وكنوا بنادقهم الفتيلية على الجدار، وعلقوا سيوفهم على أعمدة الخيام، وجلسوا أمام وجار القهوة وقد علت وجوههم ابتسامات مقلقة؛ وحيونى أنا أيضا : ولكنى كنت أنظر إلى هؤلاء الرجال الوقحين بشيء من الخوف؛ مخافة أن يكونوا مكلفين من قبل حسن بإساءة معاملتى : وبعد شرب القهوة صعدوا إلى غرفة علوية كى يناموا فيها . وفى صباح الغد شعرت بالارتياح الشديد عندما سمعت أن أولئك الجمالة رحلوا، فى ساعة مبكرة، قاصدين بلدة الرَّس :هؤلاء المراسلون الموفدون من قبل ولد مهنا، كانوا يقومون بالمرور على الواحات التابعة [لبريدة] لدعوة شيوخ القرى لحضور مجلس من المجالس العامة.

أعطانى على العجوز بيتا خاليا مجاورا لبيته، كى أقيم فيه، ولكى ينقلوا إليه أشيائى وزكائبى . وعند الظهر، اقتادنى ذلك الضرير بنفسه، وصعدنا الدرج إلى غرفة فى الطابق العلوى؛ حيث وجدت وجبة هزيلة جرى إعدادها لى، وكانت عبارة عن شيء من التمر وخبزا مخمورا ومعها شيء من الماء. كان ذلك الرجل أميرا، أو بالأحرى عمدة الخبراء، تحت حكم بريدة، إلى أن أصيب بالعمى؛ وعندما خلفه ولده، وهو رجل فى منتصف العمر حاليا؛ والذى كان العجوز يحدث الناس كلهم عنه بأنه هو 'الأمير'. كان

(*) قفيلة : المقصود بها القافلة الصغيرة ، أو قد تكون تصغيرا لكلمة القافلة . (المواجع)

الرجل العجوز قد اتخذ لنفسه مؤخرا زوجة شابة، وعندما لايكون هناك غرباء، فإنها كانت تجلس دوما إلى جوار زوجها العجوز؛ ويبدو أنها كانت تحبه حبا جماً.كان لهما ولد صغير؛ ولكن ذلك الطفل كان ضعيف البصر بسبب التهاب أصاب عينيه. طلب العجوز من زوجته أن تجلس مع الطفل فى وجود الحكيم ؛ وراح يداعب ابنهما الصغير بيديه المسنتين، ثم وضعه أمام الحكيم.

بدأ على العجوز يحاورنى فى مسألة الدين ؛ محاولا أن يفرض علّى تسامحه طوال فترة التحاور. وسُر الرجل عندما سمع أن هناك حكما مقدسا لحياوات البشر فى الدين المسيحى أيضا ـ"يالله ! أنتم أناس طيبون، ولكنكم لستم على الطريق المستقيم، أى الطريق الذى يرضى الله؛ وبالتالى فأنتم لاتستفيدون شيئا.الله وهبك المعرفة حتى تعرف الحقيقة وتقول :لاإله إلاالله محمد رسول الله."ـ دخل علينا فجأة رجل أصم أفسد علينا حديثنا ؛ وطلب قبل أن يجلس ؛ أن أعالجه من مرضه؟"سألته، ماذا ستعطى الحكيم إذا مادلك على الدواء؟" رد الرفيق ،" لاشيء بكل تأكيد! هل تود أجرا على مجرد الكلام- ألن تدلنى على ذلك الدواء ؟" إخ!" وبدأ غضب ذلك الرجل يتزايد. على :" يارجل ،هذا الكلام لايليق بك أن تخاطب به الحكيم ،الذى سيساعدك إذا استطاع إلى ذلك سبيلا."ـ" قلت : أطلب منه أن يصنع قرطاسا من الورق بحيث يكون واسعا من ناحية، ويضع الطرف الضيق فى أذنه؛ وسوف يتحسن سمعه." هذا الرفيق، الذى خطر بباله أن النصرانى يستخف به، تحمل كلامى على مضض." "قال الشيخ العجوز :لا، إذا كان الأمر لابد منه، فقد يكون لذلك حكمة أوسببا؛ وماعليك إلاأن تفعل مثلما قال خليل." ولكن ذلك الأصم لم يواصل الجلوس معنا. '(غمغم) النصرانى الملعون، الذى حياته بين أيديهم، يحتقره على هذا النحو !' وانسحب بعيدا عنا وقد ارتسمت على وجهه علامات الغضب وجاءنى شاب صغير السن، يشتكى لى من بؤس بلاده؛ "قال :ليس فيها من شيء سوى الضوضاء والجلبة الناتجة عن سوانى (سواقى) الماء. لى شقيق مستقر ومقيم فى الشمال ؛ وأنا أقسم بالله أنى لو كنت أعرف أين هو، لذهبت إليه، وماعدت إلى هنا مطلقا."ـ "وتترك والدك العجوز وأمك يموتان! وتنسى معارفك؟"ـ" ولكن أصدقائى سيكونون من بين أولئك الذين أقيم بينهم."ـ هذه هى عقلية الكثيرين من سكان القصيم.

وصل إلى الخبراء فى الصباح شابان كانا يركبان ناقة، جاءا إلىَّ بحثا عن العلاج الذى يقدمه المداوى؛ كان الأول يبحث عن علاج لعينيه أما الثانى فكان يبحث عن علاج لأحشائه. كان هذان الرجلان من بيارة نخيل وحقل من حقول القمح الواقعة على أطراف الخبراء، هذه البيارات هى وتلك الحقول عبارة عن قيعان من الغرين (الطمى) أوإن شئت فقل :هى رياض فى الوادى ؛ وهذه الرياض تقع فى منتصف الطريق الواصل بين الخبراء والرس. وعندما سمعا، أنهما يتعين عليهما أن يدفعا ثمن الدواء الذى يقدر بإحدى عشر بنسا- وهذا مايعادل أجر عامل (هو وغذائه) طوال ثلاثة أيام - آثرا أن يبقيا على مرضهما لعدة سنوات أخرى، مرضاة لله، على أن يقامرا ويدفعا ثمن الدواء - "لا، عالجنا، وسوف ندفع لك الثمن بعد اكتمال الشفاء: وإذا ماساعدتنا أدويتك على الشفاء، ألن يسارع المرضى بالقدوم إليك من القرى كلها ؟" ولكنى لم ألق بالا لكلامهما؛ وبعد أن وجهما إلى الكثير من التوبيخ واللوم، ركبا الناقة آسفين ليعودا إلى محل إقامتهما.

اكتشفت ذيوع صيتى الطبى فى الخبراء ! نظرا لأن واحدة من مرضاى فى عنيزة كانت من أهل الخبراء: هذه المريضة استطاع غسول النصرانى أن يحسن بصرها إلى حد ما؛ واكتشفت أيضا أن تلك الشهرة ذاعت أيضا فى النفود وسرعان ما استدعيت لزيارة شخص مريض. وعند باب القهوة، طلب الطفل الذى كان يصحب الحكيم الانتظار برهة - وهذا مناقض لعادة الكرم فى الجزيرة العربية - فى حين دخل الطفل ليخبر أهل المنزل بمجيء الحكيم. سمعت الطفل يقول :" جاء الكافر؛" وجاء الرد على الشاكلة نفسها - دخلت بعد ذلك !وجلست بينهم؛ ولمت رب الأسرة على ذلك الاستقبال والمعاملة غير المتحضرة. ونظرا لأنى كنت محقا فيما قلت،فلم ينبس أحد منهم ببنت شفة، بل ظلوا صامتين ويشعرون بالخجل؛ وسارع مُصلّح القهوة إلى صب فنجال لى: ونهضت واقفا وتركتهم جالسين - تعجبت من صمت الناس فى الخبراء! لم أر أحداً منهم فى الشوارع ؛لم أسمع أصوات هاونات القهوه تدوى فى هذه البلدة المبنية من الطين . فى تلك الأيام ، كان السواد الأعظم من أهل الخبراء غائبين عنها، مشغولين بدرس وغربلة محصول القمح: كان موسم الحصاد خفيفا نظرا لأن المحصول أصابته ندوة قبل نضجه بفترة قصيرة. مبانى قرية الخبراء بدائية وغير منظمة ؛ وهذه القرية

لا تختلف عن القرى والبلدان الموجودة فى أعالى سوريا .مررت خلال شوارع طويلة لاتسر الخاطر وعلى جوانبها أكواخ من الطين وشبه خربة؛ وفيما عدا طاولات القصابين، ودكان الحداد لم أر أية محلات أودكاكين أخرى فى البلدة. ومسجد البلدة قريب من المجلس ، وهو مبنى منخفض من اللبن: وبالقرب من ذلك المسجد شاهدت بئرا مذاق مائها مالغ ـ عمق تلك البئر عبارة عن قامة واحدة تقريبا، والناس هنا يتوضؤون من تلك البئر قبل الصلاة. والبلدة ليس فيها ماء يصلح للشرب، نظرا لملوحة الأرض ؛ ولكن ربات البيوت يتعين عليهن الخروج إلى مسافة بعيدة ليملأن قراب الماء. وبرج المراقبة فى الخبراء مبنى من اللبن (الطين) ـ وهو مبنى على شكل غرفة من الأسفل ، ويرتفع مستدقا، وهذا البرج مبنى وسط المجلس الذى تبلغ مساحته ربع فدان؛ وفى هذا المكان (مثلما هو الحال فى بلدان القصيم كلها) ينعقد سوق الجمعة ؛ فى الوقت الذى يفد فيه البدو الرحل لصلاة الجمعة فى المسجد، ويجلبون معهم الإبل والسمن والماشية الصغيرة.

ـ قبيل الظهر : رأيت ثلاثة أشخاص يجلسون على مصطبة من اللبن، فى المجلس الواسع المهجور، فذهبت للجلوس بجانبهم .كان وجه أحدهم يشبه أهل العصر الحجرى؛ كانت هناك تكشيرة شرسة تظهر على محيا ذلك الرجل بين لحظة وأخرى. سألت الرجلين الآخرين اللذين كانا جالسين يتثاءبان وغير مباليين: وبدءا هما أيضا يسألانى عن دينى. قال الرجل شرس الملامح متعجبا :" ياليت نحضر الآن سكينا ونضعه على رقبته ـ هذا والله لو فعلناه سيكون شرعيا،لأن هذا هو رأى المطوع؛ كما أن النصرانى لايعترف بأن لا La إله ilah إلا ill الله ! Ullah ، وقل :بسم الله Bismillah الرحمن er-rahman الرحيم er-rahim ، واقطع رقبته ؛ وجج juj جج juj جج ـ ويسيل دم هذا الكافر مثل دم شاة أوجمل عندما تذبحه: سوف أجرى الآن وأستعير سكينا ."ـ"قالا: لاأنت لايجوزلك أن تفعل ذلك . سألتهما، "أليس ذلك الرجل بدويا؟ـ ولكن ما رأيكما يا صديقاى ؟أهذا صح أم خطأ؟"ـ "نحن لانستطيع البت فى ذلك : هذا من شأن الدين ! يا خليل؛ ولكننا لا نفضل العنف، ـ نعم، إنه بدوى."ـ"من أى قبيلة أنت، يامن تلبسك الشيطان؟"ـ" أنا حربى.(*) "ـ"أنت تكذب! الحربيون أناس أمناء:

(*) أى من قبيلة حرب. (المترجم)

ولكنى أعتقد ياصديقاى أن هذا الرجل عوفى."ـ" نعم، وحياة الله!أنا فعلا من عوف؛ كيف عرفت ذلك، يانصرانى؟ـ هل النصُرانى يعرف كل شىء!"ـ"إذن، ياصديقاى هذا الرجل نشال، وسفاح مع الحجاج الذين يذهبون إلى مكة (المكرمة) وهو ملعون من الله ومن الناس!"ـ رد الباقون قائلين: "والله إنهم ملعونون، وأنت تقول الحق: ياخليل، لنا ديننا ولك دينك." ولكن العوفى ضحك ضحكة كبيرة ها ha ـ ها ha ـ هى hi هى hi هى hi ! لأنه سمع أنه هو وجماعته يتحاكي الناس عنهم فى العالم."قال العوفى: إى، بالله، نحن سفاحى الحجاج."ـ ضحكوا منه ؛ وعليه تركتهم وذهبت لحال سبيلى.

عندما شكوت للأمير من كلام العوفي، قال ـ وهو يهز العصا فى يده،" لاتخف من أى شىء ! وفى الوقت ذاته عالج الرجل العجوز والدى: ووالله، إذا ما قال أحد شيئا ضدك، فسوف أضربه إلى أن ينتهى منه التنفس!"ـ قال الناس عن الأمير:"إنه فقير ومدين:" والجزء الأكبر من محاصيلهم هنا يزرعونه لحساب البسام؛ الذى يحصل منهم فائدة بواقع عشْر أو اثنى عشرة بالمئة: وإذا ما دفعت نقدا فإنهم يأخذون الريال ريالا وثلث الريال.لم أرى الأمير أوألقاه بعد ذلك ؛ وقال لى ولده: إنه ذهب إلى البكيرية، ليركب منها أثناء الليل قاصداً بريدة: وهم يسافرون فى الليل تحاشيا للبدو. فى العام الماضى كان عبدالله ومعه خمسة عشر رجلا عائدين من الحج، ولم يكن يتبقى أمامهم سوى أميال قليلة، يصلون بعدها إلى محل إقامتهم، وبعدأن تركوا قافلة بريدة، طلع عليهم اللصوص من البدو وجردوهم من نياقهم.

كان أهل الخبراء الذين عاشرتهم أناسا يشبهون الفلاحين وبخلاء وغير بشوشين. لم يدعونى أى منهم لتناول القهوة، لم أر لهؤلاء الناس شبيها فى الجزيرة العربية، حتى بين أولئك السود الذين كانوا يعيشون فى خيبر: هذا المكان يحتوى على مايقرب من ٦٠٠ بيت. الكثيرون من هؤلاء الناس كانوا يعملون ضمن قوات العجيل فى المدينة المنورة؛ ولكن الرواتب التركية توقفت منذ فترة طويلة، وبالتالى تخلوا عن تلك الخدمة. الخبراء عبارة عن موقع خال من أى نوع من المرافق، والخبراء يحيط بها سور من اللبن: ومن الغريب فى هذا البلد الصحراوى، ألا يسمع الإنسان صراخ السوانى (السواقى) ونعيرها!ـ وكان الأمير هو ووالده العجوز أفضل من التقيت فى هذا البلد.

-خطر ببالى، أن الكنينى لايمكن أن يتخلى عنى!' ولكن ها هو اليوم الثانى قد انقضى علَّى هنا فى الخبراء. وهذا هو ثالث يوم تشرق الشمس علَّى فيه هنا وقد دخل علينا وقت الظهر؛ وهنا ذهبت، وأنا أشعر بالقلق لنيل قسط من الراحة فى مسكنى. وفجأة سمعت طرقا على الباب، ومع الطرق سمعت بعض الأصوات الشابة أمام الباب، -" افتح ، ياخليل! لقد أرسل زامل فى طلبك." فتحت المزلاج؛ ورأيت حسن الجمّال واقفا على عتبة الباب!- "هل أحضرت معك رسالة؟"- "أنا لم أحضر معى رسائل." أدخلته على علَّى العجوز، لعله يستمع إلى حكايته-' لقد استدعانى زامل، ليرسلنى مع القفيلى التى ستتوجه إلى جدة.'- ولكنا علمنا أن القافلة لن تكون جاهزة قبل مرور بضعة أسابيع! وهنا سألت إن كان بوسعى أن أركب عائدا إلى عنيزة اعتمادًا على كلام ذلك الحسن؟- ربما كان من مصلحة ذلك الرجل العجوز أن أبقى هنا فترة من الوقت من أجل رعاية عينيه."قال العجوز، هذا كلام طيب، اذهب ياخليل، ولاتدع الشك يراودك مطلقا؛ اذهب فى حفظ الله وأمنه!" طلبت من العجوز بعض القوارير، وأعددت له بعض المحاليل التى يستعملها فى غسيل عينيه بعدأن أغادر المكان: كان ذلك السيد العجوز سعيدا بتلك الذكرى الطيبة.

قطعنا مسافة أربعة أميال عبر النفود، إلى أن وصلنا إلى الهلالية: شاهدنا جبل ساق Sag الوحيد، الذى يشبه ثمرة الأناناس، عن يسارنا، وعلى بعد أميال كثيرة. والعرب يقولون: إن صخر هذا الجبل صلبَ وشديد الاسوداد- وربما كان ذلك صخرا بركانيا على حدود منطقة رملية. وعندما بدأنا نقترب، شاهدت أنواعا أخرى من النخيل، كما شاهدت برجا عاليا من أبراج المراقبة، على بعد مسافة ميلين ؛كما شاهدت أيضا واحة أخرى،هى واحة البكيرية: وفيما بين هاتين المستوطنتين يوجد مكان عثر الناس فيه على" عظام بشرية" مختلطة ببقايا جمر منطفئ، وعظام بعض من الماشية الصغيرة؛ والناس هنا يعزون كل ذلك إلى بنى هلال- الذين اشتق اسم القرية من اسمهم، والتى وصلنا إليها الآن. والبكيرية عبارة عن محطة من محطات الجمالّة؛ وأهل البكيرية يتجرون مع البدو. وبعض من أهل البكيرية أثرياء؛ وكانوا فى بداية الأمر يتجرون بواسطه النقود التى كانوا يقترضونها من البسام.

قرويو كلا من الهلالية والبكيرية (وهما مستوطنتان سبيعيتان(*) قديمتان) يفضلون أن يكونوا تحت رئاسة زامل وعنيزة على أن يكونوا خاضعين لحسن ولد مهنا - الذى يقولون عنه إنه جبار jabbar : وهم يدفعون الضريبة لبريدة بواقع خمسة فى المئة. هذه النسبة يذهب منها الربع لأمير المكان أوإن شئت فقل: عمدة المكان؛ وكان نصف المتبقى من تلك النسبة يذهب من قبل إلى ابن سعود، وماتبقى بعد ذلك يمثل دخلا أو متحصلات لأمراء بريدة؛ ولكن ولد مهنا، فى الوقت الراهن، يحتفظ بالنسبة (التى كانت تعطى للوهابى- والقمح فى هاتين المستوطنتين يقيم بالمكيال أما التمر فيقيم بالوزن. والهلالية فيها آبار قديمة كثيرة وهى من "آبار بنى هلال." وبلدة الزلفى thlfa تقع على بعد بضعه أميال فى اتجاه الغرب، وهى قرية قديمة، وبالقرب من منتصف الطريق توجد هجرة (كفر) صغيرة يطلقون عليها اسم الشيهية Shehieh: وهى تبعد مسافة نصف رحلة عن البكيرية، وعلى ذلك الجانب توجد أيضا بعض حقول القمح الشتوى وبعض مزارع بريدة- نادانا رجل ونحن ندخل البلدة،" من الذى معك ياحسن؟"- أجابه الرفيق، كلب نصرانى [هذا هو النجدى الوحيد من الجزيرة العربية الذى أهاننى على هذا النحو]، وليس عندى ما أقوله غير ذلك؛ وأنا أنقله مرة ثانية إلى عنيزة حسبما طلب منى زامل ."- هذا المخلوق الخبيث الذى يعمل لى جمّالا، والذى يتسبب شكله الغريب وملامحه الغريبة فى اضطراب النفس، يسمه الناس هنا المسحور mishur. وأناعندما شكوت من ذلك الوغد فى قريته - بالرغم من أنه يعيش فى عنيزة منذ طفولته، قالوالى :" إى،إنه مسحور، ياله من مسكين! Mesquin- مشينا فى الشوارع ونزلنا مكانا دلنا فيه بعض القرويين على مكان القهوة فيه.

دخل معنا رجال كثيرون؛ وتركوا المكان المرتفع للضيف ، وهذا المكان يكون بجوار الشخص الذى يقوم بتصليح القهوة. وسرعان ما دخل علينا مضيف مهندم ويبتسم، وهو يحمل شيئا من حبوب البن فى يده: ولكنه سرعان ما وجه لى كلمة مريرة مثل قهوته تماما، "كيف تنتقل؟أيها العدو adu (بمعنى عدو الله)!" وكلمة 'عدو' من كلمات القرآن ؛ ولكن ذلك المضيف كان من قراء القرآن - "أنا رجل

(*) مستوطنتان سبيعيتان : أى تابعتين لقبيلة السباع أو قبيلة سبيع . (المراجع)

أبلغ من السذاجة حداً لاأستطيع معه إثارة المتاعب مع رجل حكيم كهذا : وهل كل جمل مسلم أيضا؟" "أجاب ذلك القروى المتحذلق ،الجمل مخلوق من مخلوقات الله، مخلوق غير عاقل؛ ولايمكن أن يكون له دين."- "إذن اعتبرنى جملا: وأنا أيضا أدعو الله أن يعطيك شيئا من الأوجاع التى أحسها فى عظامى المتُعْبة ؛ والآن، تغاضى عن أخطائى، أنا الذى جئت هنا لأشرب القهوة." ضحك الباقون، وهذا مؤشر من مؤشرات السلامة عند العرب؛ ردوا علّى،"إذن مايقوله منطقى وعقلانى ؛ ولا تضايق خليلا،لأنه مرهق تماما."- ولكن قارئ القرآن أثار موضوعاً دينيا كبيرا: "لماذا لاتتخلى ،أيها النصرانى ، عن دينك الـ(...) (*)؛ وتتحول إلى الدين الصحيح، دين المسلمين؟ وتعترف أمامنا بأن "لا إله إلا الله وأن محمداً رسوله"؟- ويصيح الرجل، ونظراته توحى بالعنف ،أقول لك: إقسم بالارتداد عن دينك، ياخليل." وجدت أن من المناسب تهدئة ذلك الرجل : بداية الخلاف كانت حزبا من أحزاب الجزيرة العربية، ولذلك فهم يعتقدون دوما أن المسألة سيف ليس إلا -" ماالذى فعله لك اسمك ؛لأنى يبدو أنى أبلغ من صغر الفهم حداً لا أتمكن معه من استيعاب أشياءك العالية." انتفخت أوداج القروى عندما سمع واحداً من أبناء النصارى يمجده." أردفت قائلا، لاتقل أكثر مما قلت: إن من ألقانى على هذه السواحل، قادر على تقييم الحياة المستقيمة لمصَل يقف أمامه. أما فيما يتعلق بى أنا شخصيا ،ألم أولد مسيحيا، بفعل العناية الإلهية؟ ، إن هذه العناية الإلهية خير؛ إذن فقد كان من الخير أن أولد مسيحيا ؛ ومن الخير لى أيضا أن أعيش مسيحيا ؛ وإن شاء الله أموت مسيحيا : وأنا لوكنت أخشى الموت، لماكنت مسيحيا!" غمغم ذلك المتحذلق ،" ولكن لو كان خليل يعرف القراءة والكتابة - إلى الحد الذى يستطيع معه قراءة كتابه المقدس ،لاستطاع تمييز الحق، ألا وهو أن محمداً هو خاتم الأنبياء ورسول الله."

استطعت هنا أيضا ابتياع شىء من الراحة بالعلاج الذى كنت أقدمه ؛ فهذا مريض جاء يأخذنى لتناول الإفطار. عدنا إلى القهوة؛ وقبيل العصر، انتقلت جماعة هذه القرية التى كان أفرادها يجلسون مثل الذباب الكثيف فى أرجاء هذا المقهى سيئ التهوية، انتقلوا ليجلسوا فى الشارع فوق التراب، مستظلين بجدار ذلك المجلس طلبوا منى أن أرتاح ؛ وأنى لن يحدث لى أى شئ أو مكروه: وعلى حد قولهم، العرب هنا محاكمين muhakimin بمعنى "يخضعون لحكّام".[العرب لايحبون أن يحكموا بهذه

(*) كلمة فيها مساس بالدين المسيحى رأينا استبعادها . (المراجع)

الطريقة الصارمة فى الأمور كلها. أذكر أن شابا صغيرا من الوشم، وهو من أبوين طيبين، اشتكى ،من أن رجلا من منطقته لم يستطع قتل آخر على الفور، بالرغم من أنه وجده نائما مع شقيقته، ولم يستطع قتله حتى فى بيته:لأن هذا الرجل لايتعين عليه ترضية أقارب المقتول فقط وإنما سوف يعاقب أيضا طبقا للقانون !] ـ أخذنى بعض الناس هنا إلى البساتين؛ ووجدت أن آبارهم هنا عميقة مثل آبار عنيزة.

ومع ظهور شفق المساء ركبنا ناقتنا ومضيت قدما مع حسن. بدأ القمر يطلع علينا، وتوقف حسن عند مزرعة عند أطراف البلدة؛ حيث كان ينتظرنا اثنان من المطير، سيصاحبانا فى رحلتنا ـ وكانا يسوقان أمامهما نعجة صغيرة إلى منْزلهما بالقرب من عنيزة. قامت أم حسن وبعض أقاربها باصطحاب حسن لتوديعه عند بداية الطريق. كانوا يتكلمون همسا؛ وسمعت العجوز وهى تقول لولدها: عامل النصرانى بما يراه جيداً ـ لكى يخلص نفسه!' ـ كنت سعيدا برفقة البدو ؛ وكنت سعيدا أيضا لسماع أصوات أهل الصحراء ، وهم يتسلقون السور، ليقولوا لى إنهم كانوا رفاقا لى ـ مشينا فى ضوء القمر؛ وجلست وأنا أنظر هنا وهناك ، حتى أتمكن من رؤية ظل رمح حسن، الذى جعلته يمشى على قدميه. وعن طريق النجوم عرفت أن مسارنا يتجه شرقا عبر موجات النفود. وبعد ساعتين نزلنا إلى وادى الرماح ـ كان بصحبة البدو خليط من الأعراب، الذين يعيشون فى هذه الديرة بعد رحيل العنوز عنها . وهم يسكنون هذه المنطقة تحت حماية زامل؛ ويطلق عليهم هنا اسم أعراب **Aarab** زامل. هؤلاء الناس قبليون من كل من المطير وعتيبة، ولافتقارهم إلى الإبل تحولوا إلى تربية الماشية الصغيرة فى النفود، حيث توجد الآبار فى كل مكان ولكنها ليست عميقة: وهم يعيشون على خدمة الواحات، ويكسبون القليل من المال من عملهم رعاة للسوانى (السواقى) من ناحية ورعاة لإبل القوافل من الناحية الأخرى. منازل هؤلاء الأعراب تتحرك مع بعضها البعض: وهم ليس لهم أعداء؛وهم يتقدمون بقضاياهم لزامل حتى يحكم لهم فيها.

بعد ساعة من منتصف الليل توقفنا فى مكان عميق بين الكثبان الرملية؛ ونظرا لأننا أصبحنا فى مأمن من خطر الطريق، أراد الرفاق أن يأخذوا قسطا من النوم ـ استيقظنا قبل طلوع الفجر وواصلنا مسيرنا فى وادى الرماح؛ الذى كان يمتد أمامنا مثل سهل طويل من الرمل الثابت، الذى تغطيه الخضرة جراء نمو بعض الأدغال

الصحراوية من ناحية ونمو عشب الغُرُطة من الناحية الأخرى: وهنا تمكنت من رؤية شجرة الغرُطَة هذه فى ضوء النهار، وهى لاتعدو أن تكون نوعا من أنواع شجر الإثل، أوإن شئت فقل: شجرة الطرفاء. وأعراف تلك الشجرة مرة الطعم، وذلك على العكس من ـ الإثل الشائع ـ مالح المذاق : وإبل القصيم ترخى أعناقها إلى أعراف تلك الشجرة كى تقضم منها ما يملأ أفواهها أثناء المسير ـ وهنا ارتفعت الشمس المحرقة فوق أفق النفود: وهنا انسلخ البدو عنا قاصدين منازلهم؛ وواصلنا نحن مسيرنا فى قاع الوادى، الذى بدى لنا وكأنه سينتهى بعد ساعة واحدة. هذا يعنى أننا لسنا على بعد أميال كثيرة من عنيزة ـ سمعت تغريدا صادرا عن طائر صغير، وهو يتنقل بين أدغال الصحراء، ثم راح ذلك التغريد يتصاعد محدثا النغمات كلها! كانت تلك النغمات عذبة وحلوة، على نحو لم أكن أحلم به.

حاولت أن أعرف من ذلك الرفيق الوحشى، ذلك الذى كان زامل يريده منى. سألته، إلى أين سينقلنى ؟، أجاب حسن، ' إلى البلدة' وأننى ينبغى أن أنزل وأقيم فى ذلك البيت الكبير الموجود فى منطقة القاع ، ـ أوإن شئت فقل: منزل رشيد، ذلك التاجر الشمالى، الذى يغيب عن عنيزة فى الوقت الراهن .دخلنا واقتربنا وأصبح يتراءى لنا حقلا من حقول القمح الواقعة على أطراف البلدة؛ وهنا قصد حسن إلى مزرعة من مزارع النخيل ـ التى كانت تقع خلف أرض القمح. وعندما وصلنا إلى مزرعة النخيل نزل عن الناقة كيما يتحدث مع بعض الناس الذين سبق أن سمعنا أصواتهم فى المقهى ، ـ هذا المقهى عبارة عن حظيرة من العصى ومن جريد النخل، وهى ايضا بمثابة المأوى الذى يحتمى به المزارع. ـ أبلغهم أن أوامر زامل تقضى بإنزالى فى هذا المكان . لم يكن أهل الحديقة قد سمعوا من قبل هذه التعليمات: وبعد الأخذ والرد فى الكلام، عزمنى إبراهيم، رئيسهم وطلب منى النزول عن الناقة والدخول إلى المقهى، وأنه هو بنفسه سوف يركب مع حسن إلى المدينة للتحدث إلى زامل حول هذا الموضوع . قالوا لى: إن عنيزة يمكن رؤيتها من الكثبان الرملية التى تلى الكثبان التى نحن عليها حاليا. مزرعة النخيل التى نحن أمامها حاليا والواقعة على أطراف عنيزة تقع فى خليج من خلجان وادى الرماح، على بعد مسافة قصيرة (جنوب) العيَّارية.

كان الناس هنا مشغولين بدرس الحبوب: وأرض الدرس هنا لم تكن سوى قطعة من الأرض المعتادة؛ وشاهدت طابورا مكونا من اثنى عشر ثورا تدور من حول محور، مربوط فيه الثور الداخلى من بين هذه الثيران. وهذا يمكن من هرس سنابل القمح وفصلها عن السيقان، ثم يقوم النسوة بعد ذلك بفصل الحب عن التبن عن طريق الضرب بعصى من الخشب . أما الغربلة هنا فلا تعدو أن تكون عن طريق تذرية التبن المهروس فى الهواء، مستخدمات فى ذلك قبضات أيديهن. وكان يجرى تحميل زكيبة كبيرة من السنابل ومن الحبوب فوق ناقة من النياق، لإرسالها إلى منزل رشيد الموجود فى البلدة، وكانت تلك العملية تتكرر مرات عدة كل يوم.

كان سور هذا الحوش ،أوإن شئت فقل: القصر الموجود فى هذه المنطقة ، عبارة عن مبنى مربع الشكل مبنى من اللبن (الطوب النى)، وكان طول ضلع هذا المربع حوالى ستين خطوة ، وفى كل ضلع توجد أبراج مراقبة منخفضة عند الأركان. وفى المنتصف توجد البئر التى يصل عمقها إلى سبع قامات، ومبطنة بمبانى جافة، وكان المسار يتسع لاثنين من الإبل، كما كان المكان يسمح أيضا باستخدام الأبقار والحمير أيضا، فى جلب الماء، بدلا من الإبل؛ كان هناك مكان لإقامة الحارسة تلك المرأة العبدة هى وولدها، كما كانت هناك أيضا مخازن بدائية فى الأبراج، كما كان هناك بيت أيضا لراعى بئر الماء. كانت تكلفة العمال فى ذلك القصر الذى يشبه القلعة ومبنى من اللبن ، حوالى مائة ريال؛ أما تكلفة البئر فكانت حوالى خمسمائة ريال . ولم يكن لكل هذا المبنى سوى بوابة واحدة كانت تقفل عند دخول الليل. كل هذه التحسبات ـ التى لا يمكن التغلب عليها فى العمليات الحربية الضعيفة فى الجزيرة العربية، موجودة فى كل الممتلكات التى تقع على أطراف البلدان، كانت حيوانات المزرعة يجرى إعادتها إلى مراحها عند غروب الشمس.

قبيل العصر شاهدت خيالين وهما ينزلان من النفود. كان الخيالان هما الكنينى ومعه الصافى، اللذان جاءا لزيارتى ـ قال لى عبد الله الكنينى: إنه لاهو ولا عبد الله البسام، ولا أى أحد من أصدقائهما أحيط علما فى تلك الليلة برحيلك الاضطرارى عن عنيزة. وأنهما سمعا أول ماسمعا عن ذلك النبأ فى صباح اليوم التالى؛ وذلك عندما انتظرنى حامد، الذى كان قد عزمنى على تناول الإفطار، مدة ساعة، وتعجب لعدم

وصولى . وبعد أن ذاع خبر طرد النصرانى أثناء الليل بدأ الناس يتكلمون عن ذلك الأمر فى السوق : وجه الكثيرون منهم اللوم إلى الشيوخ .لم يكن الكنينى أوالبسام قد علما بالأمر كاملا فى ذلك المساء؛ وعندها ذهبا إلى زامل ، وتساءلا،" لماذا طردنى بهذه الطريقة، دون علمهما بذلك ؟' رد زامل عليهما،'أن تلك كانت إرادة المجلس ،' وأنه لم يكن ليعارض تلك الرغبة قال صديقاى: 'لكن لومات خليل،ألن يلقى باللوم على عنيزة؟ـ طالما أن النصرانى جرى استقباله فى المدينة. خليل كان ابن جواد Juad ، وأصبح من مسئوليتهم توفير الرحيل الآمن له.' وهنا طلب البسام ،الذى لم يكن زامل يرفض له طلبا، استدعاء خليل مرة ثانية؛" وأردف الكنينى، إنه يمكن أن يقيم فى واحدة من الجنائن الواقعة على أطراف البلدة، هذا إذا تعذر استقباله فى البلدة مرة أخرى [بسبب الحقد والكراهية الوهابية]، إلى أن تكون قفيلة جاهزة للرحيل.' وهنا وافق زامل ، وأرسل فى طلب حسن الجمّال؛ وطلب إليه أن يركب عائدا ثانية إلى الخبراء لإحضار الحاج خليل مرة ثانية. وهنا طلب صديقاى من الرجل أن يركب ناقته على الفور؛ وحددا لزامل مزرعة نخيل رشيد.

قال عبدالله:إن أحداً لن يسئ إلى أويضايقنى هنا؛ وأنى من حقى أن أنال قسطا من الراحة إلى أن يدبر لى وسيلة آمنه للرحيل : ثم سألنى، عن المكان الذى أريد الذهاب إليه؟ـ قلت:" إلى جدة". قال: 'سوف يبذل جهده لتحقيق ذلك لى أيضا، بموافقة من زامل ؛ كما سألنى أيضا عن احتياجاتى فى الوضع الراهن ؟ـ سألته إن كان بوسعى رؤيته مرة ثانيه؟' ـ"ربما لايسمح الوضع بذلك ؛أنت تعرف ألسنة هؤلاء الناس!" ثم طلبت من ذلك الرجل الطيب أن يعطينى نقوداً على سبيل القرض ؛ كان بصحبتى دفتر شيكات، عندما وصلت إلى ذلك الشاطئ ؛ وحررت له شيكا ببضع ريالات قليلة. كانت النقود من منظور الكنينى الفلسفى بمثابة، نجس' ' nejisالدنيا' ed-dinya؛ وبالرغم من ذلك كان ذلك التاجر يود من حامد(تلميذى فى اللغة الإنجليزية] مواصلة تعلم الشفرات !ولكن ذلك كان من باب الود لكى يعلمنى ؛ فقد قال بعد ذلك ووجهه يوحى بالصرامة:'ياخليل، لاتثق بأى إنسان !أو بى أنا شخصيا." لعله وهو يقول ذلك، كان قد تنكر عادتى غير الحكيمة عندما كنت أتكلم بصراحة ووضوح ؛ حتى فيما يتعلق بمسألة الدين. قال : إنى هنا لست فى خطر، بل وفى مأمن من الأمير على: وعندما

قلت لصديقى إن الوهابى العنيد رفسنى،" تعجب على، يالله !يالهذا العلى الشرير!"- هذا الشيك الذى أرسله فى الصباح، لكى يحصل على النقود، وصل إلى يداى، بعد عام كامل فى أوروبا :فقد جرى سداد ذلك المبلغ فى بيروت- والعملة المستعملة فى القصيم هى الكراون الأسبانى: تساءلت عن الطريقة التى يحمل بها التجار الأجانب نقودهم عبر الصحراء ؟وأجابونى ،"مع قوافل الحج المؤمنة".

مزرعة رشيد هذه تقدر بحوالى فدان واحد وربع الفدان؛ ثلث هذه المساحة مزروع بالنخيل ،أما الباقى فهو عبارة عن أرض غير مسوَّرة تزرع بالحبوب، وتقع فى اتجاه الوادى. كانت فى هذا المكان، من قبل، بيارات النخيل التى دمرها الوهابى فى إحدى المعارك الحربية؛ وأوقفت البئر بفعل المحاصرين من عنيزة- ولم يتبق من تلك المزرعة سوى قاع صحراوى ، عندما قام رشيد باحتلال هذه المنطقة، التى زرع فيها نخيلا وحفر فيها بئرين. الأرض وما عليها من النخيل الصغير تقدر قيمتها حاليا بحوالى سبعة آلاف ريال. عندما وصل ابن الرشيد إلى مداخل البلدة قبل عامين أوثلاثة أعوام مضت، مع بريدة، كانت تلك الجنينة مخيما لبعض من خيّالة بن الرشيد: وجدوا فى ذلك المكان علفاً كثيرا- هذا المكان كان مأهولا فى الماضى : والسبب فى ذلك أن العمال فى كثير من الأحيان كانوا يعثرون على قطع فخارية قديمة وطوب محروق عندما كانوا يقومون بحرث هذه الأرض وعزقها.

فى هذا المكان كان هناك رجل يدعى صالحا Salih، وهو واحد من الباعة الذين يعملون فى سوق القماش ؛ صالح هذا (ينوب هنا عن والده) صاحب الجسم فارع الطول الذى يشبه الفلاحين، والذى كان يأتى إلى هذا المكان يوميا قادما من البلدة- لوكتبوا على ظهر هذا الصالح عبارة بُطال Battal ابن ibn بَّطال Battal،' لما فشل كل من لايقرأها ولايخطئ فهم هذا الكلام. كان ذلك الرجل ملتهب القلب، قليل البديهة، كسير الرأس ؛ وكان يحسب نفسه سكَّيرا فى هذه الدنيا - بدأ صالح يقول لى فى المساء وأنا مندهش تماما !أنه سافر مؤخرا إلى أوروبا؛ وشاهد بلاد النصارى العجيبة ! وأضاف ذلك الأفاق، وهو مشدوه! إن تلك الرحلة كلفته "سبعمائة ليرة (أى ٥٦٠ جنيها إنجليزيا)." "قال: أبحرنا من البصرة؛ ووصلنا إسطمبوْل؛ وتجاوزنا جزيرة- أنا لاأذكر اسمها حاليا: ونزلنا فى لندن. وبعد ذلك زرنا باريس Baris ، وفيينا، والهند - هذه المدن

الكبيرة من مدن النصارى!" أمضوا سبعة أشهر: منها شهر من شهور الصيف فى لندرا Londra ـ وكانت لندن London رائعة! وفى باريس Baris أمضوا شهرا ـ وباريس Baris كانت جميلة جداً! ولكن الناس كان يحملقون ويطيلون النظر إلى ملابسهم الشرقية! وبعد ذلك بدءوا يرتدون الملابس ـ على طريقة الطربوش، وغطاء الرأس مثل الأوروبيين.

سألته عن رفيقه؟ وأجابنى،" يوسف Yusef الخالدى khalidy" ـ تصادف أن كنت قد مررت على فيينا يوم أن كان الخالدى فيها! وكنت قد لاحظت غريبين ساميين Semitic يضعان على رأسيها غطائى رأس حمراويين وهما فى الأماكن العامة! وكان ذلك الاسم معروفا لى! لأنهما سبق لهما زيارة المستشرق فون von كريمر : Kremer الذى كتب لى ذلك الاسم فيما بعد (باللغة العربية) يوسف الخالدى YUSEE KHALIDY القدس EL-KUDS: وقال لى إنه من العلماء المسلمين، ويقوم بالتدريس فى إحدى المدارس [وكان يتباهى بسلالته النسبية الأصيلة وأنه تسبب فى ارتداد البعض عن المسيحية] فى القدس، وأنه له معرفة ببعض اللغات الأوروبية؛ وأنى فى يوم ما قد ألقاه هناك ـ تناولت من زكائبى مجموعة من الرسائل ؛ وعرضت هذه الكتابة أمام عينى صالح الجريئتين والذى بدأ يقول، بعدأن ظهرت عليه بوادر الانهزام؛ إنه لم يكن هو الذى سافر إلى الغرب وإنما شقيقه هو الذى فعل ذلك! وأن شقيقه هذا يدعى علياً، وهو تاجر ومالك أراضى فى البصرة؛ كما أن عدد نخيله"يفوق أعداد نخيل عنيزة كلها!" [كنت قد سمعت أن عليا الرشيد لم يكن اسما ذائعا فى البصرة ـ ويقال: إنه قصَّر فى أسفاره الأوروبية:] وأنه ترك هذا الصالح Salih وصيا على شئونه، أثناء غيابه. وقيل لى أيضا فى عنيزة عن هذا العلى نفسه،"إنه حدث أن أحضر إلى هذا المكان (هنا) غريبا من الشمال،وأن ذلك الغريب كان كافرا Kafir ـ ولكنهم لم يستطيعوا أن يعرفوا إن كان يهوديا،أم مسيحيا أم نصرانيا؛ جاءوابه لتركيب ترس لمضخة المفروض أن يوفر فى تكلفة العمالة. ولكن قبل اكتمال ذلك العمل وصل صبر الوهابيين إلى منتهاه؛ وجرى طرد ذلك الميكانيكى من بينهم لأنه لم يكن من دينهم.

رسخ كلام على العائد من الغرب، فى أذنى صالح. وراح صالح يحلم بعالم النصارى العجيب، العامر بالاختراعات المذهلة! الأمر الذى جعل موطنه نجد يبدو

لخياله المريض كما لو كان مجرد صحراء جرداء،إذا ماقورن بذلك الذى رآه من خلال عينى أخيه فى أوربا ـ ولما كان خليل أوروبيا، فإن صالحا بدى عليه وكأنه يقرأ فى أقوالى البسيطة ألغاز (سيدنا) سليمان.

كان إبراهيم متزوجا من أخت صالح، وإبراهيم هذا رجل سمج ولكنه يتميز بظل خفيف، كما أنه مجادل سمج وسخيف ؛ ولكن فيه شىء من طيبة القلب، عندما لايكون غاضبا : كان إبراهيم يتواجد هنا بصورة مستمرة حتى يشرف على عملية الحصاد. فهد،أحد العاملين وعمره حوالى عشرين عاما وهو الابن الأصغر لرشيد، وكان يشرف هنا على المزارعين، وفهد هذا شخص أكثر أمانة وصدقا من الآخرين؛ ولكن له طبيعة جامدة هى التى حالت بينه وبين تعلم القراءة والكتابة. ومن ثم اضطر والده إلى تقيه فى الحقول؛ حتى يمكن للأسرة أن تفيد شيئا من ذراعيه القويين. هذا الشاب الصغير كان وقحا وبائسا فى ذات الوقت غير أنه كان جاداً ومثابرا فى العمل: وكل ماتعلمه فى المدرسة لايعدو أن يكون ذلك الذى يمكنه من أداء الصلاة.

هذه الأسر الثرية كانت جديدة على هذه المنطقة، وكانت منغمسة فى المجون إلى حدما: كانت سلالتهم من الجزيرة العربية، ولم تكن داكنة البشرة. كان رشيد الكبير فى أيام شبابه صبيا مع أحد القصابين؛ وكان يحمل لحم الضأن ولحم الإبل على رأسه من بيت إلى بيت. ثم تحول بعد ذلك إلى بائع يبيع الملابس القطنية وبشنيقات النساء؛ وسرعان ماتحول إلى تاجر ثرى. ولكن أصواتا كثيرة كانت تتناول مسيرة ذلك الرجل من نواحى مختلفة داخل عنيزة، البعض يقولون: إن "رشيد عثر على كنز فى الحجاز، وذلك أثناء عودته من مكه مع الحج؛" بعض آخر يقول: إنها النعمة:" فالله يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء فى هذه الدنيا ."ـ كبر رشيد ومارس التجارة فى الشمال: وأصبح واحداً من كبار تجار الساحل؛ وتجارته تتركز حاليا فى مدينة البصرة. وله أبناء تجار فى كل من الزبير والعمارة **Amara**؛ وله ولد ثالث فى الكويت. بالإضافة إلى صهر له يعمل بالتجارة أيضا فى وادى الرونّيه **Runnya** فى بلاد بيشة **Bishy**؛ كما أن له ولدا آخرا كان يعمل بالتجارة مؤخرا فى منطقة عدن. سمعنا أن رشيد الكبير، سيعود مع القافلة القادمة ـ كانت توجد إلى جوار ذلك النخيل مزرعة لأسرة فقيرة، هى أيضا من النوع المتحرر: ولكن بطريقة تصعب ملاحظتها، من خلال أعين الغرباء، فى أضعف الأحوال، وتميزها عن بقية المواطنين الآخرين.

كان إبراهيم واحداً من النجديين الشرقيين الكثيرين، الذين ذهبوا قبل سنوات عدة، للعمل نظير أجر فى حفر قناة السويس: يعتقد إبراهيم أن مائتين من رجال القصيم كانوا يمارسون هذا العمل فى حفر القناة. وقال أيضا إنه سبق له أن شاهد فى هذا المشروع الشعوب أوإن شئت فقل : الناس النصرانيين.ـ شاهد فرنسيين ، وإيطاليين، ويونانيين(*)، كان يظن أنهم يتكلمون لغة واحدة! وشاهد بعض الطرود التى كانت ترسل من قناة السويس على عناوين الحانوتيين. تَمعَّن إبراهيم فى عمل المرأة الإفرنجية؛ وتفكر أيضا، على حد قوله، فى المرأة ـ الرجل التى تحمل مسدساً تعلقه فى وسطها، وتقوم بدور الريس الذى يشرف على العمال أثناء أدائهم لعملهم. كان هناك جمع كبير من أمم مختلفة، خليط من الرجال المعسرين والمحتاجين.ـ هذا القطيع من البشر المهاجرين كانوا يلبسون أشمالا مهلهلة! كان من بينهم مسلمين ومسيحيين ـ وبخاصة اليونانيين الشرقيين (الروم er-Rum) المتشددين، كل أولئك كانوا مختلطين بعضهم ببعض؛ يضاف إلى ذلك أن المسالمين من هؤلاء البشر كانوا يخشون أن يضلوا طريقهم إلى رفاقهم أو يتوهوا منهم فى هذا الزحام. كان إبراهيم يرى فى مظاهر العداء الطبيعية هذه نوعا من حروب الأديان:" إدعى إبراهيم ،أن الروم هم الذين كان لديهم أكبر قدر من السلاح ـ وأنهم هم الذين كانوا يتعاركون مع المسلمين ." وقال: إن اليونانيين ملعونين من الإسلام فى تلك الأماكن؛ وقد وصل الأمر إلى حد أنى سمعت بين البدو الرحل السيناويين، شخصا يسب خصمه ـ مستخدما الكلمة الإفرنجية ، أنت أبشع من اليونانى! !Greco". كان الجنود المصريون يقضون على هذه الاضطرابات، على حد قول إبراهيم ،بالعدل ـ والحيادية وعدم الانحياز.

حكى لنا إبراهيم ،إنه ذهب إلى السويس ومعه قلة قليلة من الرفاق، وأنهم تربص بهم بعض النصارى السفاحين: ولكن وفد عليهم خيال نصرانى ؛ وراح يتكلم آمرا أولئك السفاحين؛ وأقنعهم بالرجوع عن غيهم ـ وأنهم عندما دخلوا السويس شاهدوا

(*) واضح مما ورد فى السياق أعلاه أن العمل فى حفر قناة السويس لم يكن قاصرا على المصريين وحدهم وإنما كانت هناك العديد من العناصر التى شاركت فى ذلك العمل من الجزيرة العربية وشعوب البحر المتوسط كما كان العمل فى حفر القناة يتسم بالسخرة والمعاملة السيئة للعمال. (المترجم)

ثلاثه جثث مجردة من ملابسها وملقاة فى الشوارع ، وأن تلك الجثث كانت لأناس مقتولين! وأنهم جرى جلدهم على وجوههم، الأمر الذى كان من الصعب معه التعرف على هويات هؤلاء المقتولين؛ ومع ذلك أمكن التعرف عليهم، من علامة الختان، التى يتميز بها الإسلام.

كان لدى إبراهيم المزيد من الحكايات الجميلة عن السويس: حكى لنا عن صداقاته مع النصارى. حكى لنا، أن بعضا من جيرانهم النصارى ،عزموهم ذات يوم لكى يشربوا معهم فى الخيام: ولكنهم اعتذروا عن ذلك، وقد دعاهم النصارى إلى تناول العشاء؛ وكان ذلك العشاء عامرا بالكرم .حكى لنا بعض النكات المبتورة بلغته العربية، وحكى لنا أيضا عن بعض معارفه من المسيحيين- حكى لنا إبراهيم أنهم فى ليالى كثيرة كانوا يسرقون عارضة خشبية كى يستعملونها فى طهى الطعام وإعداد القهوة، وكانوا يخفون تلك العارضة أثناء النهار. وعندما قلت متعجبا، لصا! أجابنى،" الخشب برغم تكلفته الكبيرة، لم يكن ملكا لأحد؛ وإنما كان ملكا للكبانية (الشركة)!" Kompania عاد إبراهيم من تلك المهمة بعد اثنى عشر شهرا؛ عاد مفتقرا إلى القلب الإنسانى، وثريا بمبلغ يتراوح بين مائة ومائتى ريال. وبالرغم من أنه لم يكن فقيرا أومحتاجا فى بلده، إلاأنه قطع مسافة سبعمائة ميل كى يعمل حفارا فى السويس!- ولكن هذا هو حال فقر سكان الواحات فى الجزيرة العربية.إبراهيم هذا كان من السلالة الأصيلة، وكان زوج أخت على، ذلك الرحّال العربى. وجدت ذاكرتى هذين الرجلين متأثرتين بقناة السويس؛ وقال لى البعض من الناس:" ألايمكن عمل قناة مثل هذه القناة عبر نجد؟"- كانوا يظنون، أن مثل هذه القناة، ستكون لمصلحة بلدهم.

كان علىّ أن أمضى أياما طويلة فى بيارة النخيل هذه. كان خُص القهوة (الذى يطلقون عليه هنا اسم 'معشوش' maashush أومجبوب mujbbub) هو الملاذ الذى أحتمى به من الشمس الحارقة؛ كما كان معلف الجمل المبنى من الطين فى منطقة البئر، هو السرير الذى أنام عليه، فى العراء وبلا غطاء أثناء الليل. لم يكن النمل كثيرا هنا فى هذه الجنينة التى تقع على طرف البلدة؛ ولكن أهل المدينة 'لم يكونوا ينامون بسبب النمل' فى هواء عنيزة الساكن الراكد. كانت تنبعث أثناء الليل، من البئر الأصوات التى كانت تصدر عن صراصير الغيط - وفيما بين منتصف الليل وطلوع

الصبح كنت أسمع انضوضاء الناتجة عن السوانى (السواقى)، كما كنت أسمع أيضا وقع أقدام الإبل؛ كما كنت أسمع كذلك وقع أقدام ذلك الراعى الذى يتتبع تلك الإبل جيئة وذهابا. كنت أجلب الماء لنفسى من البئر بواقع مرتين فى اليوم الواحد، وكنت أذهب لجمع الحطب من النفود، كى أسلق لنفسى حفنة من الأرز؛ وكنت أجد متعة وأنا أراقب ذلك الشىء من الحياة فى ذلك البحر من الرمال.لم أشاهد فى شبه الجزيرة العربية كثيرا من النباتات ومن الحشرات التى سبق لى أن شاهدتها فى جزيرة سيناء - سيناء تلك الصورة المصغرة للجزيرة العربية - أقول إن تلك النباتات والحشرات لم أشاهدها فى شبه الجزيرة العربية الكبيرة! هذه هى صحارى القردة وقد ابيض لونها بفعل القواقع الأرضية البيضاء ولكنى لم أعثر على هذا النوع من القردة فى صحارى الجزيرة العربية الجافة. لم أعثر سوى على قليل جداً من البذور التى استطاعت التغلب على تلك الصحراء! ونلاحظ هنا أيضا قصر أطراف بعض المخلوقات .أين منا نباتات الأراضى الواقعة على حدود هذه الجزيرة؟- من الصعوبة بمكان هنا العثور على أى نوع من الأعشاب الفطرية، فى بعض واحات هذا البلد! هناك بعض القواقع المائية تعيش فى غدران الماء الكبريتى) فى كل من قرية العلا وخيبر؛ ولكن الضفادع التى تسمع نقيقها فى ينابيع وعيون خيبر المائية الدافئة، لانجد لها وجوداً، ولانسمع لها نقيقا هنا على بعد ثلاثين فرسخا فى المياه المماثلة فى كل من العلا وتربة. هذه الضفادع لاوجود لها فى عنيزة أوبريدة، اللتان لايوجد فيهما سوى مياه الرى، وليس لهذه الضفادع وجود أيضا فى أية واحة من الوحات النجدية التى قمت بزيارتها: كنت قد سمعت نقيق ذلك الضفدع أول مرة، فى مكة أو إن شئت فقل فى (منطقة تهامة). هنا (لم أكن قد سبق لى مشاهدة ذلك من قبل فى نجد) نوع من الخنافس التى كانت تحبو على رمال الصحراء أثناء النهار: وكانت الفريسة التى تلتهمها تلك الخنافس تتمثل فى روث الإبل. صيادو هذا النوع من الخنافس يستخدمون فئوسا قوية؛ ليرفعوا بها كميات كبيرة من الرمل ويحملوه على ظهورهم، ليبعدوه عن تلك الخنافس حتى يتسنى لهم صيدها.

العيال هنا ومعهم صبية آخرون من المزرعة المجاورة ومن قرية العيَّارية، يتجولون حول النخيل فى ساعات الفراغ ويلهون بالسلاح، وهم يصطادون الطيور. وهم هنا

يأكلون لحوم الطيور على اختلاف أنواعها، ومنها الهدهد بعرفه الملكى ، وقد قالوا لى إن الهدهد كان ملكا للطير فى يوم من الأيام ، وأنه كان خادما (لسيدنا) سليمان؛ الذى أمر الهدهد بالبحث عن الماء فى الصحراء: ولكن أصبح نجسا وغير مفضل . هذا الطائر الذى يعيش فى المزابل، يطير على شكل ثنائيات وثلاثيات فى البساتين هنا، وهو يشيع جداً بين الطيور (الطفيلية) الأخرى التى توجد بأعداد قليلة جداً فى الواحات.

قبيل الظهيرة، وعندما تشتد حرارة الشمس على غتر رءوس هؤلاء العيال، تراهم يعودون من عملهم الحقلى إلى ظلال بعض الأغصان، لكى يتناولون طعام الإفطار بشىء من التمر. ثم يجلسون بعد تناول الإفطار،إلى مابعد الزوال، أى إلى ماقبل العصر؛ ولكنهم لايكونون بلا عمل طوال هذه الفترة؛ إذ تكون أيديهم مشغولة فى عمل مقاود إبل الماء.البعض منهم يقوم بتجهيز ليف النخيل (الذى يكون منقوعا فى الماء)؛ والبعض الآخر يفتلون ذلك الليف كيما يصنعون منه حبالا مفردة، وحبالا مزدوجة. ومن الحبلين المزدوجين يصنعان حبلا واحداً من حبال الإبل ؛هذا الحبل الواحد يمكن أن يفتلوا معه حبلا آخرا ليصنعوا منه حبلا سميكا من الحبال التى تستخدم فى الآبار. كل هذه الحبال مصنوعة بطريقة بدائية، وبخبرة هؤلاء العرب: ولكن حبال الليف هذه تستمر أوتستخدم لفترة طويلة، والتكلفة منخفضة أو تكاد لا تذكر.

كان أول عيِّل من تلك العيال شاب صغير من شقراء ، فى الوشم ، والوشم هذه سهل من السهول- [من بين الأماكن الأخرى فى الوشم Weshm أشقير Shujjer، وهى قرية قديمة بالقرب من شقراء وهناك أيضا ثرمدة Thermidda، ومرآة Marrat، والعُزيزية Othe thia، والقرائن el-Geryen، والقصب Kessab، والحريق el-Herreyik، والجريفة el-jerryfa والشجير Osheyjir (التى جاءت منها أسرة البسام)، والفراع el-Ferra. وأهل شقراء هم بنى Beny زيد Zeyd، والسويدة es-Suedda (وهم من أصل قحطانى) . وشمالى البلدة عبارة عن نفود رملية، يطلقون عليها اسم المستوى el-Mestewwy، ومن ناحية الغرب توجد منطقة السِّر es-Sirr، ومن ناحية الجنوب يوجد الإنقيل el-Engil وهى عبارة عن حفرة ماؤها "يبقلل" أو يحدث فقاعات. أما التويم

El-Toeym فهى عبارة عن هجرة (كفر) فى الناحية الشمالية الغربية، وفيها انقاض" مدينة محصنة ذات أبراج مربعة الشكل، بنيت خصيصا لرماة السهام." أما الحاجية el-Hajia أوإن شئت فقل: قرية Garat الحجيج el-Hajij، والتى تقع بين بلدتهم وبلدة ثرميدة، فهى عبارة عن تلة عليها بعض أنقاض مبنى حجرى وبعض الأعمدة: والناس هنا يقولون :'إن ذلك كان مكانا من أماكن الحج فى زمن الجاهلية]. هذا الشاب الصغير بالرغم من أنه كان يعيش من عمل يده، إلاأنه كان إنسانا صبورا :كانت إنسانية ذلك الشاب تنساب علينا أثناء جلوسنا فى فترة العصر، فى الوقت الذى يقوم فيه بفتل الليف وعمل الحبال، وفى رواية الحكايات؛ يضاف إلى ذلك أن صوته كان جميلا .أى أنه كان من الأصوات الموسيقية التى تنساب فى الآذان محدثة صورة من صور الحب والعاطفة الجياشة؛ والناس هنا لايتساطون كثيرا عن القصص التى تروى، كانت طريقتة فى رواية القصص مثل الطريقة التى سبق لى أن استمعت إليها فى خيبر. وفى بعض الأحيان كان يروى لنا حكايات تثبت صحة الأمثال ـ وبخاصة الأمثال السائدة بينهم ؛ والتى منها المثل الذى يقول: 'الحصيف هو من لايفشى اسمه وسط جماعة عربية'ـ ذات مرة، وبينما كان آلاف الحجاج فى 'منى Muna، تناهى إلى الناس صوت، صياح قائلا:هل إبراهيم Ibrahim الصالح Es-Salih الذى من بلدة الرس er-Russ، موجود هنا؟" وكان هناك رجل من الرس ـ فى القصيم ،ضمن الحج، ويحمل هذا الاسم؛ وردَّ ذلك الرجل (أملا فى أن يسمع شيئا لصالحه)؛" إنه أنا."ـ واقترب الغريب، ولكنه سرعان ماهجم عليه بالسيف ـ وأرداه قتيلا! لأن ذلك كان يثأر لمقتل قريب له! وقتل قروى القصيم بطريق الخطأ؛ لأن القاتل كان من الرس فى اليمين!ـ ويندر فى الحياة الصحراوية، أن يسمى شخص روحه ruh-hu (نفسه) أمام غريب من الغرباء!

ولكن ذلك الذى حكاه لى ذلك الشاب الشقرى، كان جديرا بالانتباه، فيما يتعلق بالدمار الذى حل بالوهابى فى نهاية الأمر – والذى لم تعرفه أوروبا!ـ عندما توفى فيصل ذلك العجوز الضرير، خلفه فى الحكم فى الرياض ولده عبدالله ،الذى كان هو الأكبر سنا من بين ولديه. ولكن ابنه الأصغر سعود، الذى كانت له شعبية، انسحب إلى المن وجمع حوله أتباعا ومشايعين له من وادى بيشة Bishy ومن وادى الدواسر، ومن بدو

المضارب. ثم عاد ومعه هؤلاء الأتباع والمؤيدين إلى نجد: وحارب أخاه، وأبعده عن الحكم؛ وأصبح عبدالله، الأخ الأكبر، هاربا فى بلاد ابن الرشيد(*) [أنظر٥٠]

بعد أن تولى سعود الحكم كان عليه إخضاع قبيلة عتيبة الكبيرة؛، لأن تلك القبيلة كانت حليفة لعبد الله - وبدأ سعود ومعه رجاله المسلحين، ومعه أيضا الحلفاء من البدو الرحل، ومن العجمان، ومن أعراب الدواسر، ومن المُرة، والقحطان، والمطير، وكانت كل قبيلة من تلك القبائل تسير تحت لواء (بيرق)،جرى تسليمه لها من سعود الأخ الأصغر- كان العتبان ينتشرون على مساحة شاسعة من الصحراء؛ ولكن وصلت الرياض أخبار مفادها أن مخيما صيفيا كبيرا، كان مقاما بالقرب من مورد من موارد المياه. عجل سعود بالوصول قبل أن تتفشى أخبار مجيئه وتحول بينه وبين مايريد - كان ذلك فى وقت الصلاة، فى فترة العصر، وعندها أصبحوا على مرأى من عتيبة؛ أولئك الذين أخذوا على غرة: ولكن البدو نظرا لأنهم كانوا قد وقفوا وأمسكوا بأسلحتهم، كانوا على استعداد لملاقاة أعدائهم. توقف سعود ولم يبدأ القتال فى ذلك اليوم؛ نظرا لأن رجاله وحيواناته وصلت إلى المخيم وهى متعبة وكان الرجال مرهقين أيضا، بعد تلك الرحلات الطويلة: وانسحب الوهابيون قبل غروب الشمس؛ ونزلوا بعد ذلك لإقامة مخيمهم.

تصادف أن كان ذلك الشاب الشقيرى (الذى أتجر فى ذلك العام مع الأعراب بمبلغ مقترض صغير) فى منْزل عتيبة، ومعه تاجر آخر، وكانا يبيعان الأقمشة. صلى الأعراب الفجر، وعين شيوخهم بعضا من رجال القبائل لكى يحرسوا المخيم أثناء غيابهم عنه- "قال المضيف للتاجرين الشابين، أبقيا هنا ياشباب؛ ديرا باليكما على نفسيكما: وسيحدث مايشاؤه الله."

وتعجل العتيبان وذهبوا لملاقاة الأعداء المتقدمين ،الذين كان عددهم يبلغ ستة أضعاف عدد العتبان. فى البداية صد العتبان المطير وكسروهم؛ وأخذوا منهم بيرقهم- وما الذى حدث بعد ذلك؟ قام القحطان بالهجوم على جانب من جانبى أصدقائهم- وهم

(*) كان الصراع الذى حدث بين ولدى الإمام فيصل بن تركى – عبد الله وسعود – داما للعثمانيين للسيطرة على الأحساء فى عام ١٨٧١ بدعوة من الأمير عبد الله بينما اعتمد سعود على مساندة الإنجليز له.
وقد أدت هذه الصراعات إلى إضعاف السعوديين ومن ثم تصاعد نجم آل رشيد . (المراجع)

الأفضل من حيث التسليح بين البدو الرحل. وخلال اللحظات التى تلت ذلك، أنزلوا الهزيمة بخيالة ابن سعود، واستولوا على "مائتى" فرس- أى مايقرب من كل الخيول الموجودة فى أسطبل الوهابى، والتى جرى تجميعها منذ زمن طويل. ثم تحول هؤلاء الرجال، الذين كانوا يشبهون الزنابير، وراحوا يحاربون المطير ويقاومونهم! وواصل البدو الذين استحوذت على أذهانهم ذكريات عداواتهم القديمة، القتال فيما بينهم، فى تلك المعركة الشرسة القاسية. وأخيرا انسحب القحطان مع ذلك الذى غنموه؛ وبقيت عتيبة الشجاعة سيِّدة فى ميدان القتال.

سقط من رجال سعود" ثلاثمائة رجل"؛ وأصبحت خيامه القليلة ومانبقى فيها تحت سلطان عتيبة: وعاد الذئب الوهابى إلى الرياض. ومع ضياع الخيول، دب الضعف فى الحكم الوهابى الذى دام مائة عام؛ ولم تقم لذلك الحكم قائمة بعد ذلك(*) - على حد الرأى العام فى نجد فى ذلك الوقت! مؤسس الحركه الوهابية، هو شخص يدعى محمد بن عبدالوهاب، أحد المشايخ المتعلمين الكبار، الذى كان يتجول فى الدِّرعية(**) Ther,eyyeh فى شرقى نجد؛ ويقال إنه من سلالة بنى تميم؛ والبعض الآخر يقول:إنه من العنوز،أى من قبيلة عترة: وقد استطاع محمد بن عبدالوهاب أن يكسب إلى جانبه أمير المدينه، ذلك الرجل المحارب سعود Saud بن ibn عبدالعزيز Abd_ el-Aziz. هذه القوة الوهابية استقلت وأصبحت هى السائدة فى نجد: فى مطلع سنوات ذلك العصر استطاع الوهابيون الاستيلاء على الحجاز واحتلاله! وبعدها جاء محمد على، ذلك الحاكم الألبانى فى مصر، ومعه أسطول وجيش باعتباره" نائبا للسلطان لتخليص الحرمين الشريفين."- وقد عرفنا أن ولده إبراهيم باشا، وصل إلى وسط الجزيرة العربيه [أنظر صفحه ٤١٤]. بعد أن غادر إبراهيم باشا عنيزة، استولى على الدرعية ودمرها، ولم يجر بناؤها مرة ثانية بعد ذلك: ولكن الوهابيين أسسوا عاصمتهم الجديده وبنوها من الصلصال فى الرياض er-Riath. وبعدأن أفاقوا من الحملة المصرية، بدءوا يحكمون

(*) الصحيح أن الحكم (الوهابى) ، أو بالأحرى الحكم السعودى لم يلبث أن انبعث من جديد على عهد الأمير – الملك فيما بعد – عبد العزيز بن سعود فى عام ١٩٠١ . ومن الواضح أن المؤلف كان يتحدث عن زمن وجوده فى الجزيرة العربية بين عامى ١٨٧٦-١٨٧٨ ولم يكن على علم بالتطورات التى حدثت بعد ذلك . (المراجع)

(**) الصحيح هو "الدُّرعية" ولكنها وردت عند المؤلف بالشكل التى عليه فى المتن. (المراجع)

نجد كلها هى وصحراء الجزيرة العربية، ولكن الوهابى لم يفكر فى العودة ثانية إلى الحجاز(*) ـ ووصلتنا شائعة غير مؤكدة مفادها أن منطقة الأحساء الخليجية، التى كان الأتراك يحتلونها، قد أعطيت للوهابى من قبل الأتراك (بناء على إتاوة تدفع للأتراك).

علم الحكام الوهابيون البدو الصلاة؛ وهادنوا الصحراء: بمعنى أنهم خلصوا القرى من التحزب والطائفية؛ وبدأ الناس يتعلمون القراءة والكتابة. اكتشفت فى عنيزة أن كلمة وهابى تعد سُبَّة: [كانت هذه الكلمة، فى مزرعتنا، للسخرية والاستهزاء فى أفواه العيال، الذين كانوا يطلقونها على أى رفيق من الرفاق يكون سيئ الطبع.] ـ والذى يتبقى حاليا من الممتلكات الوهابية يتمثل فى مدينة الرياض بكل ضواحيها والجزء القروى المحيط بها. وهو مايكّون إمارة صغيرة وضعيفة ـ شأنها شأن بريدة. بلدتهم الكبيرة التى بنوها من الصلصال لتكون عاصمة للجزء المرتفع من الجزيرة العربية، يخيم الصمت عليها فى الوقت الراهن؛ وقد تخلوا عن صالة الضيافة الكبيرة [قصر الأمير الوهابى المبنى من اللبن أكبر من القصر المقام فى حائل]: وهاهم خدم ابن سعود يتخلون عن نجمه الآفل ويذهبون (كما رأينا) ليستأجرهم محمد بن الرشيد. ولا أحد من البدو يدين بالطاعة أو الولاء للوهابى؛ وهاهى القرى الكبيرة فى شرقى البلاد تصد جباة الضرائب التابعين لعبد الله بن سعود، وتردهم خائبين: ولكن الجميع يتعلقون بالدين الجديد(**) تعلقا شديدا ـ وهم يقولون: إن عبدالله، زاد حجمه ووزنه ولم يعد يصلح.

لم يمهل القدر سعود بالحكم مدة طويلة. فقد حكم ذلك الوهابى فى الرياض مدة عامين ثم مات بعد ذلك : والمعتقدأن سعود مات بمرض من أمراض الشيخوخة. الناس يقولون عن سعود : " إنه لم يكن رجلا طيبا: وأن كل همه كان يتمثل فى الفساد والتلف." ولما كان عبدالله، قد أعيدت إليه كرامته واحترامه، فقد عمل على الحفاظ على

(*) فى عام ١٩٢٤ نجح السعوديون فى الاستيلاء على الحجاز على أثر انتصار عبد العزيز بن سعود على الشريف حسين فى ذلك العام . (المراجع)

(**) الدين الجديد : من الواضح أن المؤلف يقصد بالدين الجديد تعاليم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، ولم تكن هذه التعاليم بطبيعة الحال دينا جديداً كما ذهب المؤلف. (المراجع)

أبناء سعود، وجعلهم يعيشون ساكنين بلا حراك فى الرياض- بلغنى بعد ذلك بعام واحد أنهم ثاروا عليه.

وقبيلة مرة Morra (أو Murra)، وكذلك القحطان ومعهم بعض أعراب اليمن يتجولون فى اتجاه الشمال فى فصل الصيف، ويصلون إلى الوشم، فى وسط نجد: وقد تعرف الشقيرى الصغير على كثير من أفراد قبيلة مرّة، وأناس كثيرين من القحطان الذين كان يراهم كل عام فى بلدته: [أبلغنى جابر أن مضارب القحطان تصل من ناحية الشمال إلى الحريق el-Harrich] كما أنهم يجلبون معهم قرون وعل الجزيرة العربية التى تشبه العصا، والناس يطلقون على ذلك الوعل اسم الوضيحى ،الذى يسكن الجزء الجنوبى أيضا من بلادهم .والعتبان أمة كريمة ومضيافة، وهم من البدو، ويشيع عنهم أنهم أشد بأسا فى القتال من القحطان؛ وهم لايخونون بسرعة. وهم لديهم الكثير من الأغنام والإبل ؛ ولم يخضعوا لأى أحد، سوى كبار الأمراء الوهابيين . وكانوا يقاومون التحرشات السنوية التى كان يشنها عليهم ابن الرشيد كل عام؛ وكانت الحملات العثمانية، تجرد عليهم بين الحين والآخر، من المدن المقدسة لكى تجمع منهم الخراج بالقوة.

وقد بلغنا مؤخرا أن محمد بن الرشيد قد أطلق إبله فى مضاربهم . وتركناه، والغزو قائم على أشده فى مراعى الشمال، فيما وراء النفود. ومن هذه المنطقه بدأ الأمير يتقدم على شكل رحْلات rahlas (نقلات)، على الطريقة البدوية، التى تتمثل فى رعَى الماشية، وإقامة المخيمات، إلى أن وصل إلى سوق Suk الشيوخ es-Sheukh على نهرى بلاد الرافدين. من الذى يظن أن وجوده هناك هو بنية خطف فريسة من منطقة مكة؟ [التى تبعد مسير شهر بقافلة الحج !]ولكن ليس هناك من أحد غير الأسيويين الساميين Semitic الذين يشتهرون بتلك الاحتيالات. فالمرء يبحث عنهم فى عام قادم؛ وهم اليوم معك ومن حوالك !ركب ابن الرشيد ومعه جماعته المسلحة، ومعهم البدو والمؤيدين لهم؛ ومضوا بسرعة عبر الصحارى المرتفعة؛ واستولوا على جزء كبير من القصيم المأهول بالسكان. وأثناء مرورهم، استدعى ابن الرشيد ركاب قبيلة حرب، الذين كانوا متجمعين فى سميراء : وبعد بضع رحْلات شاهد ابن الرشيد حرة القشيب، التى تقع على حدود الحجاز، وعثروا على بعض من رجال عتيبة عند مسقى من مساقى المياه -: وكانت الغنيمة "ثلاثة عشر ألف جمل" [ربما كان العدد

١٣٠ ؛ لأن العرب يبالغون دوما فى الأعداد؛ وهذه مبالغة كبيرة وتلك شهامة لا تكلفهم شيئا]؛ هذا بالإضافة إلى الأغنام التى لاتعد ولاتحصى، وأثناء عودته عرّج ابن الرشيد على بعض من الحطيم الأحرار، الذين يرتبطون بتحالف مع قبيلة عتيبة؛ وغزاهم أيضا. أخبرنى شيخ من شيوخ عتيبة بعد ذلك، "أن ابن الرشيد لم يأخذ سوى فريق من أفراد قبيلته." ونحن نقدر ٢٠٠٠ بيت بما يساوى "ثلاثة عشر ألفا" من الإبل، وأن ذلك العدد من الإبل كان يدافع عنه أكثر من ألفى رجل، أو إن شئت فقل أمة عتيبة كلها ! وهذا العدد أكثر من كاف لرد خصومهم الشمر إلى ديارهم وهم يبكون ويولولون. كان ابن الرشيد عندما قام بالغزو، فى المنطقة نفسها، فى العام السابق، قد عاد بخفى حنين، نظرا لأن أخبار الغزو كانت قد سبقته إلى هؤلاء الناس؛ وبالتالى أنقذ الأعراب أنفسهم بأن لانوا بأرض ابن سعود.

ملحق الفصل الرابع عشر

أعراب عتيبة ـ عدَّد لى الشريف نصير، جامع الخراج لحساب شريف مكة، والذى رافقنى فى رحلتى إلى جدة، عدد لى مايزيد على ثلاثين فريقا من قبيلة عتيبة على النحو التالى : ـ

الثبيت

المزاحمة	الزَّيد	الشَّعادة	الزُّديان
المفيريج	العصومة	الصوطة	الوجيدان
المراشدة	الروثان	الوثنان	الهليسة
المقوطة	النقوشة	الحليفات	الحصانة
الجذيمة	البراريج	المناجيم	البطعانين
الدَّاجين	الدهوسة	الإيالة	الشعيبة
الشعابين	المروحة	إربعة	الثُّبات

المناصير
الكرزان
السباها
العطيات

أضاف؛ أنه ذات مرة وعندما تجمع أقل من ربع القبيلة ليقفوا فى وجه سعود بن سعود، قام بإحصاء منازلهم ـ عندما كان يمر فى مكان مستقيم ـ فوجدها ٢١٠٠ بيتا. [لقدتأ كدنا أن البدو الرحل يضربون العدد الصحيح فى ١٠].

الفصل الخامس عشر

حروب عنيزة. طرد القحطان من القصيم

طرد الحاكم الوهابى على يدى يحيى البطل. محاربة ابن سعود لعنيزة. الحرب الثانية. هجمة مفاجئة. نساء عنيزة فى الميدان. كلام زامل. انعكاس غريب. كلام يحيى. عزل زامل لأمير سابق مغتصب. حياة زامل المنزلية. ضرائب الأمير. مياه الآبار فى عنيزة. إدارة الآبار والرى. أمسيات فى البستان. أنواع النخيل. الجراد. وصول قافلة البصرة Bosra. عنف إبراهيم. رشيد يزور البستانى. الحريم. الجدرى. الأسر الثكلى. الجهاد. آراء أهل الجزيرة العربية فى أعمال الصدقات الإنجليزية. أعراب المطير ينضمون إلى عنيزة. العمليات الحربية فى المدينة، مع المطير، ضد القحطان(المعتدين). هجوم المطير الصباحى. وصول زامل. الإطاحة بالقحطان وهروبهم. قتل حيزان. مخيم القحطان فى قوة المطير. إطلاق سراح مغربى كان مستعبدا لدى القحطان. المطير والمدينة يعودان من الميدان. زوجات البدو يولولن حزنا على أزواجهن.'عندما يجىء المسيح هل سيطلب منا الإيمان بمحمد(ﷺ)؟' شيخ المطير الكبير. رحيل قافلة مكة. حامد اليحيى. النصرانى ينتقل إلى مزرعة نخيل الكنينى.

أنا أحكى هنا، عن الحروب التى دارت مؤخرا فى عنيزة، والتى جاءت على لسان أصدقائى، وقد سمعت تلك الروايات من أفواههم. حكوا لى أن جلوى **Jellowwy** [قالوا إنه كان كان مايزال على قيد الحياة]. شقيق الأمير فيصل بن سعود كان حاكما منابا عن الوهابى فى عنيزة؛ التى كان يضايق الناس فيها يوميا بأعماله الابتزازية المستبدة المبتكرة: فقد كان يطلب تمرا من البعض، ويطلب علفا من البعض الآخر لخيوله - دون أن يدفع عن ذلك أجرا، من النقود الكثيرة التى كان يحصل عليها؛ ولامن تلك النقود

التى كان يحصل عليها على شكل مساهمات ، أوحتى من المتحصلات السنوية- كان كبار المواطنين وأعيانهم يتشاورون فيما بينهم فى السر؛ وقرروا التخلص من جلوى بخلعه وأن يتولى أحدهم قيادة ذلك المشروع." قال أهل البسام ،لايمكن له أن يكون واحداً من بيتنا ؛ لأن ذلك يحتمل أن يشجع ابن سعود على إعلان الحرب علينا، على أمل مصادرة ثروات البسام." قال يحيى:" حسن، أنا تركتى صغيرة؛ وأنا على استعداد لتحمل مسئولية هذا الخطر: ولكن أعطنى خمسين سيفا لأولئك الشبان الصغار (من الخريسى) الفقراء." ومن المسلم به ومن المعروف أيضا أن العرب يتعجلون التنفيذ: وعلى الفور جرى حمل السلاح الذى سبق تجميعه، علانية فى الشوارع؛ ثم جرى وضع ذلك السلاح أمام يحيى الذى كان مع الخريسى فى المجلس. طلب يحيى من الشبان الصغار(الخريسى) حمل تلك السيوف: وصاح قائلا: "من سيكون معنا فى تحرير عنيزة، عليه أن يتناول سلاحه الآن!"

قاد الشيخ أولئك الشبان إلى بوابة بيت الحاكم؛ وطرق الباب بعنف!ورد عليه واحد من العبيد،" من الطارق ؟"- "قل لسيدك، إن يحيى موجود هنا ومعه رجاله؛ وهو يقول لك: 'غادر هذا البلد، فى التو واللحظة!"- ثم سمعوا بعد ذلك صوت جلّوى ينبعث من الداخل،"ماهذا، ياأصدقائى! أليس اليوم هو يوم الجمعة؟ وأننا أوشكنا على صلاة الظهر. هيا بنا نذهب جميعا إلى الصلاة؛ وبعدها سوف نتركككم." يحيى:" ولكنى أقسم بالله، أنه عندما يؤذن المؤذن ستكون أنت ياجلوّى خارج أسوار عنيزة." جلوى:" هل ستعطينى أربعين ناقة."- "ستأخذ أربعين ناقة." فى عنيزة هناك الكثير من النياق المملوكة للناس ويحتفظون بها فى حظائر منازلهم. وجرى إحضار النياق، أمام بوابة جلوّى. وعلى الفور ركب الحاكم الوهابى هو وحريمه تلك النياق ومعهم الخدم أيضا: ركبوا النياق ومضوا قدما فى طريقهم؛ متجهين صوب بريدة- ووصل بهم الأمر إلى حد التزود بالماء بالرغم من قصر المسافة بين البلدين: ولكن القراب السوداء التى كانت تتدلى من مقدمة (سروج) عدد الجمال كانت مليئة بسمن الأمير الوهابى ! وهل يمكن لمواطن الجزيرة العربية أن يخلّف وراءه زبده - أوفلوسه Fulus ؟

تقدم فيصل بن سعود قادما من الرياض لاستعادة البلدة المتمردة؛ وجاء تابعه ابن الرشيد من جبل الشمر لمساعدته ومؤازرته . وبقيت قوة الحصار مخيمة على حدود

الوادى حتى العام الثانى [هذا هو أسلوب الحرب عند أهل الجزيرة العربية!]؛ وعندما فشلوا فى التأثير على أحياء عنيزة وضواحيها، قام الوهابى بمهادنة مواطنيها، وانسحب عائدا إلى الرياض. هذه الحرب التى يطلقون عليها حرب harb الأول el-awwel، بمعنى "الحرب السابقة" حدثت فى العام ١٢٦٩ - ٧٠ هجرية(*) (أى قبل مجيئى إلى عنيزة بخمسة وعشرين عاما) كان أمير البلد فى ذلك الوقت هو عبدالله Abdullah ibn يحيى yahya بن ibn سليم Seleym.

الحرب Harb الثانى eth-thany، أوإن شئت فقل :"الحرب الثانية مع الوهابى" حدثت بعد الحرب الأولى بثمانية سنوات .ففى العام ١٢٧٨ هجرى، انهزم القسم الخاص بعبد الله Abdullah العزيز المحمد el-Mohammed أمير بريدة، والذى كان عدوا للطغيان الوهابى؛ وترتب على تلك الهزيمة هروب عبدالله إلى عنيزة: وعندما أحس بعدم الأمان على نفسه، عجل بالانضمام إلى جانب شريف مكة. ولكن ابن سعود أرسل له بعض الرجال كى يضل طريقه فى الصحارى: وبينما كان عبد العزيز راكبا ومعه جماعة من مواطنى عنيزة، التقاه الوهابيون؛ الراكبين المسلحين، الذين أدركوا خدم ابن سعود واشتبكوا معهم فى النفود وهم يصيحون قائلين لهم:" أنتم قتلتم الضيف eth-thaif ياأهل عنيزة!" عبدالله مايزال أميرا؛ وكان قد سبق له تعيين زامل (ولد أخيه) أميرا تنفيذيا .

هذا العمل المجيد الذى قامت به البلدة ألَّب عليهم الوهابى مرة ثانية. فقد قام محمد بن سعود، المطوع وشقيق فيصل، بشن الحرب على عنيزة ومعها" الجزيرة العربية كلها"، وعلى وجه الخصوص القرويين الذين يعيشون فى شرقى نجد ومعهم البدو أيضا، وكذلك القرويين فى كل من الأحساء el-Hasa وعمان Aman(**). كان المهنا هو وبريدة، والقصيم كلها مع محمد بن سعود؛ كما انضم إليه أيضا الأمير طلال بن الرشيد وعبيد بن الرشيد، ومعهما سكان الواحات وكل البدو والذين كانوا خاضعين لرئاسته ـ" كما شارك معهما أيضا أناس جاءوا من الجوف." هذا الحشد المسلح خيم

(*) ١٨٥٢ - ١٨٥٣م . (المراجع)

(**) الصحيح Oman وليست Aman كما وردت فى المتن . (المراجع)

فى النفود أمام البلدة المبنية من اللبن، التى يقدر عدد القادرين فيها على حمل السلاح بما لايزيد على ألف من الرجال- ولكن الجماعات العمانية هى والجماعة الأحسائية لم تكن متحمسة للقتال؛ أما فيما يتعلق بالقصمان فقد تظاهروا بأنهم يقاتلون إخوانهم المواطنين!

وبالرغم من حصار عنيزة إلا أن مواطنيها لم يدب الخوف فى نفوسهم: إذ كان المزارعون مايزالون يعملون فيما بين أسوار المدينة الواسعة." تساءلت، ولماذا لم يقم العدو بهدم السور المبنى من اللبن باستعمال دانات المدفعية؟" الإجابة: "لقد كانوا يخشون أسلحتهم أكثر منا- لم يكونوا قادرين على استعمالها؛ -ولم تسقط سوى دانة واحدة داخل الأرض الفضاء فى عنيزة، ولم تصب أى شىء أو أى أحد من الناس." وأنا سبق لى أن رأيت دانة مدفع قديمة داخل البلدة، والتى قالوا لى عنها: إنها 'تابعة للوهابى؛' وربما تكون تلك الكرات الحديدية - التى ليست كاملة الاستدارة! قد جرى إخراجها بأيدى صنّاع الجزيرة العربية.

حكى لى عامل جلب الماء من البئر عن مفاخر السلاح فى الحرب الثانية فقال: عند منتصف ليل واحدة من الليالى أوفد زامل مائتى رجل من حملة البنادق الفتيلية، لكى ينصبوا كمينا بالقرب من عين من عيون الماء فى الوادى، بالقرب من بلدة العُيارية." قال: الوهابى قبل طلوع النهار، فتح رجال عنيزة النار عليهم؛ وتناهت الضوضاء إلى مسامع أولئك الذين كانوا فى مَنْزَل العدو. وقد جر ذلك عليهم الخيالة النجديين؛ الذين قتل منهم اثنان بالفعل وصمدت بقية الخيالة: ومع طلوع النهار، وصل عبد الله اليحيى ومعه الخريسى. وهنا تقدمت جماعة مسلحة من الوهابيين وصاح عبدالله قائلا:" اهجموا عليهم يا خريسى " وهنا تقدمت السرايا العنزية، وراحت تفتح نيرانها، وولى العدو الأدبار، واستولى الخريسى على علم (بيرق) من أعلام الوهابيين: ووصل رجال عنيزة إلى الخيام بالفعل؛ وجرى الاستيلاء على المخيم الخارجى - وسقط الكثيرون من رجال ابن سعود صرعى؛ وكانت جماعة كبيرة من أولئك الذين كانوا يجرون فى اتجاه تكناتهم، تحولت من الجرى إلى الهجوم على الخريسى الأعداء- العمليات الحربية فى الجزيرة العربية تشبه العمليات الحربية التى يقوم بها الغجر.هذا يعنى أن أهل الجزيرة العربية لايلقون بالا لتسوير منازلهم حتى ولو بساترمن التراب.

تقدمت ربات البيوت فى عنيزة للمشاركة فى المعركة بأن رحن يقدن الحمير وعليها قراب الماء. كن يصببن الماء للمقاتلين العطشانين؛ وكن يتولين أمر الجرحى من المقاتلين. وسقط عبدالله،أثناء قيادته للخريسى الشجعان وهنا قامت الزوجات الجيدات بوضع ذلك الشيخ الشاب على حمار ونقلنه إلى البلدة. أما زامل، الذى كان يجرى هنا وهناك (وهو الوحيد من عنيزة الذى كان يركب حصانا)، فقد صاح مناديا، إمبارك Imbarak إمبارك ! Imbarak لاتقتلوا la tuktillu المسلمين، el-Moslmin بمعنى'بارك الله فينا، لاتقتلوا إخواننا فى الدين!"

ولكن سرعان ماحدث انعكاس مؤلم!- فبينما كان القتال بين الخيام، دخلت جماعة من كبار الشخصيات إلى قائد المطاوعة ،الذى كان يجلس هادئا فى شرفة خيمته: "صاحوا، أنهض أيها المحافظ! وأخرج من الخيمة، حتى يتشجع رجالنا." ردت عليهم تلك الكتلة الدينية ،أيها الأصدقاء، أسجدوا معى، وهيا بنا نصلى." وبينما كانوا يصلون، بوصفهم أناسا صارعوا من أجل بقائهم على قيد الحياة، انهمر عليهم المطر- وغطى المطر نصف عرض الوادى!- الأمر الذى أدى إلى تلف الكبريت الخاص بأولئك المواطنين الذين انتصروا مؤخرا؛ وقد بقى هؤلاء المواطنون بلا دفاع إثر تلف أسلحتهم النارية وعدم صلاحيتها للاستعمال، وبسبب بعدهم أكثر من ميلين عن مواطنهم، ومحال إقامتهم. انسحب هؤلاء المواطنون، ولكن الخيالة النجديين لاحقوهم ،إذ كانوا "يحملون أكثر من ألف رمح": وقتل فى تلك المعركة مائتا رجل من عنيزة:[كان ذلك يعادل خمس أوسدس عدد المقاتلين].

– هناك أنشودة من ذلك الزمن نظمها صاحبها عن والد يحيى البطل الذى كان شجاعا فى الحرب، وحاد البصر وقوى البنية، ومن الرماة الأجواد- عاد ذلك الرجل من الميدان وهو غارق فى التفكير إلى بيارة من بيارت النخيل خارج البلدة: ودخل الذين كانوا يراقبون تلك المنطقة، 'ماذا كان يريد؟'- إنه يوم صيام بالنسبة لى، وآه من العطش!" كان من عادة ذلك الرجل المتدين أن يفعل أمرين - أولهما أنه كان يصوم اليوم الثالث والخامس من كل أسبوع؛ وهؤلاء الناس عندما يصومون لايشربون إلابعد غروب الشمس- "أهذا يوم صيام، عندما ينكسرالأعداء ؟ أشرب يا أبا عبد الله، أشرب "- "إى ، الحمد لله على هذا اليوم بالرغم من أنى أفقد عبدالله، ومعه ولد آخر." التأم جرح

عبدالله ـ الذى نتج عن طلق نارى على فخذه ـ خلال شهر من الزمن؛ وتوفرت لعنيزة حياة نبل وعزة. أما فيما يتعلق بأبنائه الآخرين، فإن دمه الوطنى لم يختلط بدماء أولئك الأطفال الذين أنجبهم من زوجته الثانية ـ هذا البلد لاتجرى فيه للجرحى أية عمليات جراحية وذلك حبا فى الله، أوطلبا للجزاء والأجر الأوفى.

هناك معركتان صغيرتان أخريان جرى تسجيلهما ضمن المعارك التى دامت شهورا فى " كل أنحاء الجزيرة العربية"، وهاتان المعركتان دارتا أمام سور عنيزة المبنى من اللبن والذى يبلغ سمكه شبران. مل طلال من طول الوقت الذى انقضى بلا طائل؛ كما أن ـ الرجال فترت همتهم بسبب بعدهم عن عوائلهم، فضلا عن تعريض حياواتهم للخطر. وفى النهاية، طوى محمد بن سعود المطوع، المخيم؛ وعاد بخفى حنين إلى الرياض. فى جانب البلدة كان هناك "أربعمائة رجل من الفلاحين ـ الحرب الدينية وحدها هى التى يمكن أن تدخل الشجاعة فى قلوب أهل الجزيرة العربية، الذين هم محاربون أحرار، لايلقون بالا كثيرا لشيوخهم، وتجعلهم يقتحمون الأسوار المحصنة. قلة قليلة من الناس، إلى جانب يحيى، هم الذين سيخاطرون بحياواتهم وأموالهم من أجل الصالح العام.

أهل عنيزة يعتبرون أنفسهم أصحاب كفاية،'إذ كان مايدور بخلدهم وخلد شيوخهم هو مسألة السيطرة على نجد. وهم يقولون الله هيأ لهم أمراء معتدلين وعادلين ومسالمين، ولو قدر لزامل أن تكون له شهية مثل شهية ابن الرشيد، لخضعت البلاد كلها لعنيزة التى تقع فيما بين وادى الدواسر ودمشق.'ـ ومع ذلك فقد كان المواطنون العنزيون يقومون بدور الغزاة والمعتدين فى بعض الأحيان؛ مثلما حدث فى تلك الحملة المشئومة التى جرتوها على ابن الرشيد،"كى يقتلوه" والتى لقيت هزيمة نكراء على أيدى عبيد بن الرشيد؛ الذى قتل الكثيرين من أهل عنيزة أثناء مطاردته لهم فى تلك المعركة التى نَظَم فيها القصَّاد المحارب تلك القصيدة التى سبق أن أشرت إليها .

كان زامل قائدا حظيظا فى كل العمليات الحربية التى جرت فى عهده؟ـ وزامل، عندما كان فى بداية عهد رجولته، كان قائدا لقوات عنيزة (ضمن حملة طويلة من حملات الوهابى) فى عُمان Aman،' وفى تلك الحملة استطاع ذلك الرجل أن يكشف

عن موهبته الاستراتيجية وعن حبه للعدل والاعتدال، وكلها كانت أمورا طبيعية فى ذلك الرجل. وعمر الزامل حاليا، ربما يكون خمسة وأربعين عاما أو أكثر قليلا من ذلك. والناس هنا يقولون: 'إن كل أمرائهم الذين يعيشون فى ذاكرتهم، لم يتمتعوا بالقيمة العامة والفهم العام أيضا.' ومع ذلك فقد بلغنى أن واحداً منهم - وقد لايكون من سلالة الشيوخ، قام باغتصاب السلطة من الأمير. فقد قام ذلك الرجل بزيارة مكة لأداء فريضة الحج: وأثناء العودة، وعندما اقتربوا من عنيزة، نزل الرجل من فوق راحلته لتمضية حرارة الظهيرة تحت ظلال بعض النخيل الواقع على أطراف البلدة. وسمع زامل عن ذلك، وخرج مع أتباعه وعثر على ذلك الرجل، وقتله: وبالتالى نشب صراع دموى ثأرى بين هذا الرجل من ناحية وزامل من الناحية الأخرى - وإذا كانت يدا زامل لم تسلما من سفك الدماء، فما الذى يمكن أن ننتظره من الأعراب الآخرين؟

عنيزة ترفل فى النعمة حاليا بعد الجفاف الوهابى ؛ وزامل يجىء على رأس جيل من الوطنيين وفى مقدمتهم: وأنا لم أرفى أى مكان آخر، غير هذا المكان ،أناسا يعيشون فى مثل هذه السعادة والرضا: ونظرا لأن زامل عاقل وحكيم، فهو يحكم عنيزة حكما هادئا ومسالما، والناس هنا يعلقون كل آمالهم على حكمة زامل فى أوقات الشدة والأزمات. وزامل له ستة أوسبعة أبناء ذكور: وولده الصغير، على (الذى عمره حاليا ثلاثة عشر عاماً)، يقال إنه يشبهه. وزامل لم يرث المنصب على الفور، وإنما خلف الأمير السابق له، ألا وهو عمه عبدالله: والسبب فى ذلك أن وراثة المنصب بينهم، لاتسير على الوتيرة نفسها المتبعة فى الحياة الصحراوية، والتى تقوم على انتقال المنصب من الأب إلى الإبن. وزامل مسلم بمعنى الكلمة؛ وكان يمكن أن يكون رجلا طيبا ومحترما فى أى دين من الأديان. وهو متدين. وتدينه نابع من داخله؛ وهو أكثر صراحة بحكم وضعه كأمير: ولقد رأيت ذلك الرجل وهو ينعزل فى الحقول ويروح يصلى على انفراد. وزامل حذر جداً ويقظ جداً وهو يتعامل مع الصراعات الفكرية فى الحكم: وكل شىء فى البلد كان يسير بالعدل وبطريقة سلسة. ولم يحدث أن احتكم إليه أحد، بما فى ذلك البدو أو العجولين، الذين يتصايحون (فى قضاياهم)، والذين كان يسترضيهم بحكمة تقوم على الابتسام والملاحظة، ويصرفهم بكلام طيب، وفى أضعف الأحوال كان يقول: بالخير B,il-kheyer إن شاء الله Ullah insh بمعنى' سيكون كل

شيء على مايرام بمشيئة الله.' كان زامل خبيرا فى تصريف الكروب والأزمات؛ كما كان ذلك الرجل موهوبا - بتلك السمة، التى نطلق عليها نحن فى أوروبا اسم'العقلية المسيحية' أى الصبر على الأمور.

وزامل يتناول إفطاره عقب شروق الشمس مباشرة؛ ثم ينسحب بعد ذلك إلى جنينة، من جنائنه القريبة لمدة ساعة واحدة: وكان يعود إلى ذلك المكان فى فترة العصر، كيما يتحرر بعض الشيء من الهموم والمطالب العامة. ومع شروق الشمس يعود زامل إلى المدينة حاملا معه سيفه: ثم يتجه إلى المجلس، وهو يلقى السلام على الباعة الجالسين فى دكاكينهم، وعلى كل من يلقاه فى الشارع . ويتجه الأمير إلى مقدمة المجلس، أو إن شئت فقل: شرفة المجلس، التى لايجلس فيها، فى معظم الأحيان، سوى لحظات قصيرة؛ والسبب فى ذلك أن الحياة العامرة بالحرية فى بلد من البلاد، تقل فيها القضايا والمنازعات:وأنا لم أر المجلس ينعقد يوميا فى عنيزة- وهذا الأمير الفيلسوف Filsûf سرعان ما يخلو بنفسه؛ وفى أغلب الأحيان يمكن العثور عليه فى ساعات ماقبل الظهيرة أثناء زيارته لجنائن الأعيان الداخلين فى زمرة أصدقائه. وزامل يعود إلى منزله لأداء صلاة الظهر؛ وبعد صلاة الظهر يجلس فى القاعة المخصصة له أو فى القهوة الخاصة بكبار الشخصيات. إذا ماكانت هناك بعض الأمور العامة، والشيوخ يتجمعون فى المكان الذى يتواجد فيه الزامل؛ وقد تستمر تلك الجلسة إلى صلاة العصر، عندما يؤذن المؤذن لاستدعاء الناس من أعمالهم العامة الدنيوية، لأداء الصلاة.

والذى يمكن أن يؤخذ على الزامل أنه 'لم يكن ليبراليا.'والرجل الأمين أصلا، ومن سلالة طيبة ، لايمكن أن يزيد على جوهره، وإنما يحافظ على ذلك الجوهر حفاظا شديدا: والكنينى يقول: 'الزامل يعرض كل ماعنده مثل mithil التاجر ". tajir هذه السمة كانت شديدة الوضوح فى شخصية الزامل، والسبب فى ذلك أن عبدالله، الذى تولى الإمارة قبله، كان أحمقا كبيرا ولذلك توفى وهو مدين.

كانت متحصلات الأمير (الزكاة) بواقع اثنان ونصف فى المئة، وخمسة فى المئة على القمح ؛ وسبعة ونصف فى المئه على التمور: أما المنازل، والدكاكين والماشية فلا

تدفع عنها زكاة. أما التجار الأجانب [وقد كانوا أغنى من الزامل نفسه] والذين لهم بيوت فى عنيزة، فكانوا يدفعون مساهمة نقدية معقولة للأمير: وهى تكون بواقع عشرة ريالات سنويا. كان الجزء الأكبر من تلك المتحصلات الكبيرة - التى كانت محطا للحسد - لايذهب إلى جيب الزامل: إذ كانت هناك مصروفات الخدمة العامة، وبخاصة المضيف- وقد زارنا فى بيارة نخيل رشيد: رجل شرس الملامح من رجال الجمارك، جاء يتجسس على الجنائن ليعرف المزيد عن حال الحصاد.

كانت تلك الأيام راكدة الهواء وخانقة تماما؛ وفى أشد تلك الأيام حرارة كانت درجة الحرارة (داخل تعريشتنا) ٧٩° فهرنهيتية؛ حتى عندما كانت السماء ملبدة بالغيوم .والآبار هنا تتراوح أعماقها بين ثلاث قامات وأربع قامات وخمس قامات، حسب درجة انخفاضها فى اتجاه الوادى؛ وخلفه بمسافة تقدر بحوالى مائتان وعشرين ياردة، والماء قريب جداً إلى حد أن حفر شتلات النخيل الصغير قد لاتحتاج إلى الرى بعد العام أوالعامين الأولين. وقد أعطانى الترمومتر عندما وضعته فى هذا الماء الذى يبدو لنا باردا، درجة حرارة حوالى ٨٧° فهرنهيتية . والبئر التى يجرى حفرها عند حافة النفود تعطى ماء جوفيا عذبا؛ ولكن الآبار التى يجرى حفرها (إلى أعماق أكبر) فى القاع يكون ماؤها مالغا إلى حد ما. والناس هنا يقولون: إن القمح يجود فى الأرض المالغة إلى حدما، ويقولون إيضا أن القمح الأخضر إذا ما اصفر لونه فى الأرض الحلوة يمكن إعادته إلى حالته الأولى عن طريق رش الملح عليه بين الحين والآخر. والآبار كلها تفوح منها رائحة كريهه أثناء الليل: وعن طريق الترمومتر واللسان يمكن التمييز بين مياه الآبار التى تبعد عنا مسافات قصيرة: والماء الذى ينبعث من الحجر الرملى يكون أبرد من الماء الذى ينبعث من انبعاجات الصخور.

ومن بين كل آبار عنيزة هناك بئر واحدة ماؤها عذب فرات! والشيوخ يرسلون مراسليهم إلى ذلك المكان، خلال موسم الجفاف فى الصيف ، لجلب الماء من تلك البئر. هذه البئر تقع ضمن ممتلكات أسرة عميدها الذى يدعى أبو **Abu** داود **Daud**، وهو مهاجر من مهاجرى القصمان ، وكان يعيش فى دمشق؛التى وصل فيها حاليا إلى منصب شيخ العجيل ، وأبو داود هذا هو أيضا قائد حرس المؤخرة فى قافلة الحج .[قال أبو داود، إنه لم يجىء سوى مرة واحدة، طوال خمسة وعشرين عاما، لزيارة

موطنه الأصلى، ولمدة شهر واحد فقط! كان الماء يتم رفعه بصورة مستمرة من بئرى رشيد بواسطة خمس نياق؛ وكان الماء ينساب إلى قنوات رملية (كانوا يزرعون فيها بذور البطيخ، فى حفر صغيرة، مع روث الإبل) إلى بركة صغيرة، هى الأخرى محفورة فى الرمل المختلط بالطمى. هؤلاء الناس من سكان الجزيرة العربية لم يتعلموا كيف يحرقون ذلك الطمى ويستعملونه فى عمل القنوات وبناء الخزانات. وبركة الرى فى القصيم جرى العرف، أن تكون تحت تعريشة من تعريشات العنب؛ الذى إذا مازرع فى الرمل باستخدام الماء فإنه سرعان ماينمو كما لوكان غابة خضراء. لقد شاهدنا تعريشات العنب وهى تستعمل فى تظليل مدارات آبار الماء فى تيماء. والجمال هنا تؤدى عملها فى ظلال جريد النخيل.

تشغيل آبار الماء الذى يبدأ فى الساعات الأولى بعد منتصف الليل، يستمر حتى الساعة التاسعة تقريبا، أى عندما تزداد حرارة النهار بالفعل- ومع شروق الشمس يستطيع الناس أن يشاهدوا النساء (اللاتى من أسرة تشغيل البئر) وهن جالسات وأمامهن سلالهن عند نهاية مدار البئر،لكى يطعمن الإبل العاملة فى جلب الماء ورفعه: وهن يخلطن قبضة من الجلبان مع شىء من العلف الجاف الذى يجلبنه من الصحراء، ثم يضعن هذه اللفافة فى فم كل جمل من الجمال العاملة فى جلب الماء. والجمل الذى يعمل فى جلب الماء يبدأ العمل من الساعة الثانية بعد الظهر إلى الساعة السابعة مساءً على وجه التقريب، وعندها يجرى إعادة إطعام هذه الإبل من جديد. وعامل بئر الماء الذى يتعين عليه أن يقطع راحته الطبيعية كل ليلة، هو وزوجته التى تحضر العلف وتغذى الإبل ، يحصلان على ثلاثة ريالات وقرش واحد - أى مايقرب من خمسة عشر شلنا، فى الشهر؛ ويتعين عليهما أن يتحملا تكاليف طعامهما .كان هناك ابن لذلك الرجل، يقوم على أمر بئر من الآبار الفرعية، وكانت أخته هى التى تتولى إطعام الجملين. كانا يعيشان معيشة متعبة، ولايعرفان للراحة طعما، فى أرض الراحة فيها ناتجه عن البطالة .[وأنا عندما كنت أسأل واحداً من هؤلاء الناس المساكين، عن مدى تحمله لذلك العمل بصورة مستمرة؟ كان يردعلى الغريب (وهو يتنهد حسرة)، إنه اعتاد القيام بذلك العمل منذ طفولته، وأن ذلك - من Min الله Ullah، وأن الله (سبحانه وتعالى) هو الذى يعينه على ذلك]. ولكن الصبية الذين يعملون فى الجنائن كانوا يتغنون بطريقة أحسن؛

وكان الواحد منهم يحصل على أربعة بنسات فى اليوم الواحد علاوة على الغداء: وهم يتقاضون مبلغا أقل من ذلك عندما يعملون بالشهر. رأيت الشقيرى الصغير، عاملا جادًا وجيدا، وقد وافق على خدمة رشيد لمدة ستة أشهر نظير تسعة ريالات بالإضافة إلى التعيينات الغذائية؛ كما طلب من رشيد أيضا أن يعطيه لباسا (تونك) بما يعادل ثلثى ريال؛ وقد أجابه رشيد إلى طلبه. كل هذه الأماكن لم يرد فيها أى ذكر للمأوى أو الملاذ؛ ولكن حيثما استلقى الإنسان على الرمل، وفى العراء وتحت نجوم السماء، فإنه يجد مأوى ليلى طيب (طوال القسم الأكبر من العام) فى ذلك البلد الصيفى.

كان الصبية يخرجون للعمل اعتبارا من شروق الشمس: وعندما كانوا يُرُسُّون Yurussun الماء el-ma بمعنى 'عندما كانوا يصرفون ماء البركة' إنما يفعلون ذلك من خلال قنوات؛ وبذلك يمكن غمر أحواض الحقل كلها وخطوط النخيل كلها بواقع مرتين فى اليوم الواحد - وكلمة 'رُس' russ هذه هى اسم لواحة الرس er-Russ فى القصيم. والناس هنا يروون الجت Jet (نوع من البرسيم) بواقع مرتين فى الأسبوع ؛وعندما يصل ارتفاع ذلك البرسيم إلى قدم تقريبا يجرى حشه بعد ذلك كل خمسة عشر يوما [مثلما هوالحال فى دمشق] ؛ - والتربة هنا رملية صرفة. كان العيال يأوون هنا، مثلما شاهدنا، إلى تعريشة ظليلة، فى فترة العصر، ويروحون يستمعون إلى الحكايات إلى أن يدخل وقت صلاة المغرب. ثم يقوم واحد منهم بالتأذين للصلاة، ويسارع الباقون إلى الوضوء، وغالبا مايستحمون فى البئر. والعجيب فعلا أنى رأيت هؤلاء الصبية وهم يقفزون فى البئر الواحد فوق عنق الآخر، وذلك من ارتفاع ثلاثين قدما! نازلين إلى الماء؛ وكانوا يسبحون فى بعض الأحيان فى تلك الغرفة الضيقة: وكانوا يتسلقون ،مثل السحالى، خارجين من البئر، عن طريق الاعتماد على أصابع أيديهم وأصابع أرجلهم بوضعها فى المسافات والفراغات التى بين وصلات الأحجار المستعمله فى تبطين البئر. وبعد أن يؤدوا الصلاة جماعة، يعودون إلى عملهم من جديد إلى غروب الشمس؛ وبعد صلاة المغرب، وبعد أن يتناولوا طعام العشاء الذى يصلهم من البلدة. والعشاء هو الوجبة الرئيسة فى الجزيرة العربية ؛ والعشاء هنا عبارة عن وجبة ساخنة ومشبعة من طعام مضاف إليه القمح، يصلح غذاء للجائعين.

ينتهى يوم العمل مع غروب الشمس، والراحة عندهم يطلقون عليها اسم الكيف keyif: وبعد غروب الشمس بحوالى ساعة أو أكثر يصلون العشاء. والصبية الذين يعملون فى البستان (بلا قهوة وبلا تبغ) يروحون يغنون أغانى المساء؛ قد يروحون يطاردون بعضهم البعض مثل الخيول الصغيرة فى الصحراء المظلمة. وفى الليالى المقمرة يلعب هؤلاء الصبية ويمتد لعبهم إلى بيارات النخيل المجاورة؛ هؤلاء العيال، فى كثير من الأحيان ، يعودون وهم يغنون بصوت عالٍ ويعزفون على الطمبور. كانت الأعمال الهزرية الوقحة التى يأتيها كل من الخدام العرب والمزارعين خالية من العنف؛ وكان الصبية يمارسون ذلك اللعب طوال ساعتين أوثلاث ساعات: وبعد أن ينتهوا من اللعب يجلسون على شكل حلقة أمام بوابة القصر، وكان الشقيرى يتحف زملاءه بحكايات جديدة عامرة بالمغامرات العجيبة.

كل واحة من الواحات فيها أنواع كثيرة من التمور. وأشهر هذه الأنواع فى عنيزة هى الرُّطب rotb (هذا النوع من التمر يصلح للحمية الغذائية) ، وهذه الرطب يحصل الناس عليها من نوع من النخيل يطلق الناس عليه هنا اسم الشقرة es-Shukra ويصح فيه أيضا الشقيرة Shuggera، التى تنمو فى واحة الوشم. وإلى جانب الرطب عندهم أيضا نوع من التمر الجاف ،الرطب حلو المذاق، الذى يحمله الناس معهم فى رحلات القوافل باعتباره قطعا من المسكِّرات Sweatmeat. نخيل البلح هو الوحيد الذى يزرع فى الجزيرة العربية: أما نخيل الدوم dom فهو ينمو بريا فى [الحجاز وفى تهامة] ـ فى بعض المواقع من المستوطنات القديمة ،التى يكون الماء فيها على عمق قريب؛ كما ينمو نخيل الدوم أيضا فى بعض الوديان الصحراوية المنخفضة. ولحاء ثمرة الدوم التى يصل حجمها (إلى ثلاثة أضعاف حجم بيضة الأوزة) يأكله الناس ؛ وكلما جفت ثمرة الدوم يصبح طعمها مثل الخبز الحامض ـ وأنا عندما ذهبت بعد ذلك إلى الهند وبالذات بومباى، عثرت على صبى عربى من شقراء Shuggera يعمل فى الإسطبلات العربية تجولنا سويا فى ضواحى بومباى وأريته بعض نخيل جوز الهند، "قلت :ليس لديكم هذا النوع من النخيل فى نجد!" رد على متباهيا، لا، ليس هذا النوع من النخيل : هذا النوع من النخيل ليس فيه بركة baraka!" هذه الكلمة قالها الصبى بمعناها السامى Semitic (السرمدى)، "كل ما ليس بخبز فهو غرور."

هذه هى سباطات التمر تتدلى بالفعل من أعراف النخيل الإناث حاملة عساليج البلح: والظروف المحيطة تبشر بمحصول وفير هذا العام بعد الدمار والخراب الذى انتاب ذلك المحصول فى عام الجراد. كل عسلوج هنا مربوط فيه عضو من أعضاء التذكير، بعض من الأغصان الجافة الطرية؛ وهذا يحمى تلك العساليج من هجوم الجراد عليها فى وقت مبكر. والمزارع النجدى يخسر كل عام بسبب موجات الجراد السابقة واللاحقة، وبخاصة أن تلك الموجات تتربى فى أرض الجزيرة العربية وتتوالد فيها؛ كما تنهال على أرض الجزيرة العربية جحافل الجراد التى يحملها الهواء ولكن الناس ، وبخاصة المزارعين هنا، لايعرفون من أين تجىء إليهم هذه الجحافل. هذا العام كانت تلك الجحافل خفيفة وقليلة فى ذات الوقت؛ ولكن فى بعض الأحيان، وبخاصة بعد طلوع الشمس والريح الخفيفة التى تعقبها، كانت تنهال علينا أسراب الجراد jarad: وهنا كان الصبية يقومون، وكل واحد منهم يحمل جريدة من جريد النخيل، بهش الجراد ومطاردته لإبعاده عن النخيل ونبات البرسيم . كانت حشرات الجراد تجرى أمام هؤلاء الصبية وهى ترفرف بأجنحتها ! متجهة صوب صحراء النفود. كان أولئك الصبية يحملون جثث الجراد الميت وهم يصيحون قائلين " هذا الجراد طيب وسمين !" ويجرون إلى العزبة كى يشوون ذلك الجراد .وإذا تصادف وكنت هناك، فقد كانوا يعزمونى على تلك الوليمة: وذات يوم، وبعد أن رفض الحكيم أن يأكل من ذلك الجراد المشوى، رفض الصبية أيضا الأكل من ذلك الجراد؛ ولكنهم ألقوا بذلك الجراد المشوى على الرمل، فى ضوء الشمس وحرارتها، وراح الذباب يلتهمه. "قلت: الجراد يلتهم البدو، والبدو يلتهمون الجراد!". كان كلامى هذا بمثابة العجائب والمعجزات أمام هذا الجمع الساذج من الصبية ؛ وراح صالح يردد المثل الذى قاله خليل، على الناس فى المدينة.

كان العمال الذين يعملون فى حقل رشيد أصدقاءً لى : وقبل انقضاء اليوم الثالث علّى معهم، كانوا قد نسوا دينى السابق وتسامحوا معى فيه، ويقولون : من يدرى ، لربما كان دينا سليما مثل دينهم ؛ وتمنوا لوأنى كنت أعيش بينهم. قال عامل البئر : نعم، "النصارى أصحاب دين سماوى، وكل مافى الأمرأنهم لايعترفون بأن محمداً رسول الله؛ وهم يقولون: محمد Mohammed بدوى Beduwy [وخطر ببالى أن هذا الصبى

المسكين لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة، المحمَّدية(*) Mohammedism عروبة Arabism فى الدين]: وليس هناك أى خطأ غير هذا ؛ ولقد سمعت الشيوخ وهم يرددون ذلك ويكررونه فى البلدة."- فى بعض الأحيان، كان هناك دولى duli بمعنى" صبى مسحور" يأتى للعمل هنا فى هذا الحقل ، وكان باقى الصبية ينعتونه بالقحطانى Kahtany - وهذه الكلمة من كلمات السب والتوبيخ بين الناس هنا [وقد يصل معناها إلى "آكل لحوم البشر"] والسبب فى كل ذلك أن ذلك الصبى العامل كان من الخبراء. العاملان الآخران لم يكونا أمناء، نظرا لأنهما نشلا زكائبى أثناء الليل ونحن فى قصر رشيد: سرقوا السكر - تلك الهدية الطيبة التى أهدانى الكنينى إياها؛ وكانت تلك السرقة فاضحة! إلى حد أنهم أنهوا ذلك السكر خلال أيام قلائل . كان لولد صغير من أبناء رشيد يد فى تلك السرقة. وجرى طرد هؤلاء الصبية بعد ذلك من المزرعة ؛ وبلغنا - أن الأمير على عاقبهم على ذلك بالضرب.

- كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة فى إحدى الليالى ، وكان ضوء القمر خافتا ، عندما كان إبراهيم وفهد جاهزين بآخر حمل من أحمال القمح- وعندما جاء إلى إبراهيم وقال:" نحن الآن ذاهبان إلى البيت وسنبقى فى البلدة؛ وسوف نترك الجنينة." كان ذلك خبر مزعج من عرب بخلاء، قبل منتصف الليل بساعتين ،أى فى وقت كنت فيه على وشك النوم!- "ماذا أفعل ؟"- "تعال معنا؛ وسوف نوصلك إلى بيارة نخيل الكنينى، أو أمام منزله."-"وجنينة الكنينى مفتوحة وليس فيها أحد؛ وأنتم تعلمون أنى غير مسموح لى بالعودة إلى البلدة: فقدأرسلنى الزامل إلى هنا ."- "عليك لعنة الله أنت والزامل !تعال معنا: هيا ! وإلا سوف أفتح عليك النار من المسدس!" ثم قاما بوضع أشيائى فوق حمار من الحمير]. - امش يافهد! هيا! ياخليل، هنا بعض اللصوص ؛ ونحن لايمكن أن نتركك بحدك فى الجنينة" .-" ولماذا تبقى إذن فى حقل الكنينى الواقع على أطراف البلدة؟"-" والله !سوف نتركك هنا فى وسط النفود!"- "لوكنت قد أنذرتنى اليوم لكنت قد أرسلت خبرا لكل من الزامل والكنينى : ولكنى يتعين علّى البقاء هنا- إلى صباح الغد، فى أضعف الأحوال ." وهنا خطف العبد عباءتى (بشتى)؛ ثم ضربنى على وجهى: ثم

(*) المقصود "بالمحمدية" Mohammedism هنا هو "الإسلام". (المترجم)

أمسك بحجر ثقيل ، واقترب منى يضربنى بذلك الحجر فى رأسى وكنت أعرف حقيقة مايدور داخل هؤلاء الأشيقاء التعساء، أشد الناس قسوة لايكونون بمثل هذه الخسّة أو الدناءة!- وخشيت أن يكلفنى ذلك الحجر عينا من عيناى؛ بل وقد يكلفنى حياتى أيضا ، إذا ما رفع النصرانى يده على واحد من المسلمين ! يضاف إلى ذلك، أنه لم يكن معنا أحد يمكن أن يشهد على صحة هذه الوقائع ؛ والذى لاشك فيه أنهما كانا قد رتبا لذلك العنف بصورة مسبقة. وبينما رحت أفتش بهدوء فى زكائبى بحثا عن مسدسى، مخافة أن تتطور الأمور إلى الأسوء، تكلمت إلى فهد،'أنه ينبغى ألايغيب عنه شرف أبيه.' كان هناك صبى صغير، أوإن شئت فقل : ولد صغير من أبناء رشيد - أوبالأحرى لص السكر، راح يدور حول النصرانى ويوجه إليه السباب؛ وبينما كنت غافلا وغير منتبه فى الظلام، ضربنى إبراهيم من الخلف، ضربة ثقيلة بقبضة يده، فوق وجهى وعلى عنقى. وعند هذا الحد، جاءنا مضادفة شاب صغير، من المزرعة المجاورة. كان ذلك الشاب واحداً من مرضاى؛ وعندما وقف على حقيقة الأمر قال لهما:" هل ستقتلانه أثناء الليل؟ ونحن لانعرف إلى أين! أتركا خليلً هنا إلى الصباح، فى أضعف الأحوال." وعندما أدرك إبراهيم أنى ينبغى أن أكون معه، راح يعتذر عما بدر منه من عنف: كان العبد يدعى أن النصرانى سبَّه (وهو مسلم) بأن قال له: لعنة Laanat الله Ullah عليك! Aleyk بمعنى " عليك لعنة الله!"- وصاح قائلا:" لوكنا هنا فى مصر، لقتلته!"- ربما كان 'يفرغ فى النصرانى العنف الذى لقيه فى قناة السويس.

كانت هناك قافلة قادمة من البصرة ومتجهة نحو عنيزة؛ وكان الوالد رشيد ضمن تلك القافلة. وقبل ظهر اليوم التالى استدعى صالح واحداً من المطير؛ كان ذلك المطيرى يود إرسال بريد للتجار الأجانب الموجودين فى الشمال. ولكن ذلك الرجل ،أثناء قدومه خسر كلا من النقود التى كانت معه وناقته أيضا، والسبب فى ذلك أنه كان يستريح يوما واحداً فى منزل من منازل المطير، ثم هاجمهم غزو قحطانى أثيم. أخبرنا ذلك المطيرى أن مقدمة القافلة وصلت بالفعل؛ وأن القافلة التى أمضت االليل فى الزلفى Zilfy، سوف تصل عند الظهيرة. هذا المراسل الذى كان يحمل أنباء طيبة، والذى سبق

(*) قفيلة : المقصود بها القافلة الصغيرة ، أو قد تكون تصغيرا لكلمة القافلة . (المراجع)

أن أرسل على عجل من البلدة، كان قد كلف بهذه المهمة يتحريض منا: جلست مضطرب الأنفاس فى جو شديد الحرارة، ورحت أتعجب من ذلك الجرى الخفيف. قال إبراهيم: "هذا البدوى رشيق وخفيف الحركة، والسبب فى ذلك هو حليب النياق الذى مايزال فى عظامه إلى يومنا هذا !"ـ كانت القافلة [التى تضم أكثر من مائتى جمل] قد غادرت البصرة قبل خمسة عشر يوما؛ كانوا يستريحون تحت المظلات فى وقت الظهيرة.

– يوم عودة أية قافلة من القوافل يعد من الأيام السعيدة فى البلدة. هؤلاء الذين يعودون، يتوافد أصدقاؤهم ومعارفهم على بيوتهم لزيارتهم؛ ويقدم المضيف لهم وجبة ضيافة فى فترة العصر. هذا هو رشيد يجلس حاليا فى هيبة ووقار داخل ذلك البيت الكبير المبنى من اللبن، وقد بنى رشيد ذلك البيت لنفسه ولورثته ؛كان رشيد يستقبل الزامل، فى ذلك المنزل أيضاء عندما كان الزامل يقوم ببعض الزيارات الودية لرشيد. أحضر رشيد معه سبعة عشر حملا (حوالى ثلاثة أطنان) من القماش، من عند ولده فى الكويت، لبيعها فى عنيزة، نظير دين من ديونه ـ يقدر بحوالى ٣٠٠ ريال ـ يتعين سداده لورثة صديقه المدعو القاضى el-Kathy الذى توفى مؤخرا. وقد سارع خدمه القدامى فى هذه المزرعة، إلى الذهاب إلى عنيزة ليقبلوا يد سيدهم القديم: وقبل دخول المساء كانت أجزاء من العشاء قد أرسلت إلى أولئك الخدم، من طعام عشاء الأسرة.

سمعت قصة رشيد من فم عامل بئر الماء. والعرب يرغبون فى إنجاب المزيد من الأطفال؛ وعندما راجت تجارته كان ذلك الرجل يشترى له المزيد من الزوجات؛ وفى معظم السنوات كانت الزوجات الأربع يحملن كلهن فى وقت واحد: وبعد الولادة، كان يجعل أطفاله يرضعون صناعيا، حتى يمكن لحريمه أن يحملن من جديد: وهو يفعل هذا الشيء منذ أربعين عاما.ـ "هذا يعنى أن أطفال رشيد لابد أن يكونوا قد أصبحوا مائة طفل، وربما أكثر من ذلك !لكن كم طفلا عند هذا الرجل؟" كان عامل بئر الماء مندهشا إلى حدما عندما رحت أعد أطفال ذلك الرجل؛ ورد علَّى فى بساطة، " ولكن الكثيرين من هؤلاء الأطفال يموتون." هذا الوالد، استطاع عن طريق هذا التصرف، فى سنوات شبابه، أن يصبح حاليا والدا لقطيع من البشر؛ وإلى جانب الأبناء، كان له أيضا خمسة عشر بنتا ـ هذا يعنى أن أسرة هذا الرجل الكبيرة فى عنيزة كان عددها يزيد على ثلاثين فرداً.

فى صباح اليوم الثالث جاء رشيد بنفسه، راكبا حمارا أبيضا (من حمر بلاد الرافدين) جاء قادما من عنيزة، ليتفقد نخيله فى نجد. هذا الرجل كبير السن، نزل من فوق الحمار، وهو يرفل فى ملابسه، التى كانت عبارة عن ثوب أصفر اللون، وغترة بغدادية مصنوعة من الحرير، ملفوفة حول جمجمة رأسه. وكان يلف حزاما حول وسطه - مثلما يعود عابر السبيل قادما من رحلة طويلة - وكان معه قدّامية، ومسدسا من مسدسات الخيول؛ وربما كان ذلك (نظرا لأن أحداً لايحمل السلاح فى المدينة) من قبيل التسلح تحسبا للنصرانى! كان رشيد رجلا بهى الطلعة فارع القامة، وشديد الاسمرار: كانت عيناه العجوزتان مكحلتان. راح الرجل يتجول على قدميه فى ممرات الحديقة، كما لوكان هدهداً، كيما يتسنى له تفقد النخيل ونبات البرسيم. عاد رشيد بعد حوالى ساعة إلى العزبة، إلى المكان الذى كنت أجلس فيه - لم يكن رشيد قد حيا الكافر بعد؛ وعندما جلس رشيد، (تساءل) 'هل أنا ذلك النصرانى؟ فقد سبق له أن سمع عنى .' صلحت لذلك الرجل العجوز شيئا من الشاى؛ وقد أفاد ذلك القلب الحزين من رؤية قطع السكر التى كانت بحجم البيضة فى الفنجال - كنت أحتفل بذلك الرجل على هذا النحو كلما جاء إلى هنا، وسمعت ذلك العجوز يقول فى بيته: ' هذا الخليل رجل أمين؛ والله، لقد صلّح له شايا ووضع فيه كمية كبيرة من السكر.'

قال: مخففا من تعبى وإرهاقى، 'سأرحل، بمشيئة الله، مع القفيلى خلال وقت ليس بطويل'. ثم خلع الرجل ملابسه بهيجة الألوان ، وخرج ثانية وهو يرتدى قميصه وغطاء رأسه المصنوع من القطن - وعاد الرجل إلى العزبة فى عز الحر؛ وجلس ذلك العجوز ثم تجرد من ملابسه؛ ولم يبق عليه سوى سترته التى يشدها على جسمه بحزام من الوسط؛ ثم راح يطهر جلد القصاب من ميكروب الطاعون الذى يحتمل أن يكون قد أصاب ذلك الجلد جراء الرحلة التى قامت القافلة بها إلى مصر . وقبل دخول وقت الظهيرة عاد ذلك الرجل مرة ثانية إلى الحديقة، وراح يتحاور مع العمال كما لوكان رجلا فقيرا حاله من حالهم تماما. كان رشيد ينظر بدقة إلى كل آلة من الآلات التى يستخدمونها، كما كان يعمل معهم بيديه فى بعض الأحيان؛ وبدأ الرجل فى تنظيف قاع البركة. وعندما عاد وكان يحس بالعطش، اتجه صوب قربتى وشرب منها، وكنت قد علقت القربة فى الهواء على جريدة من جريد نخلة من النخيل ؛ وفتح الرجل فم

القربة وشرب منها، شأنه شأن أى جمّال من الجمالين البدو ضعاف الحال- صيانة تلك العزبة تكلف ذلك الرجل مائتى ريال فى العام ، القسم الأكبر يدفع أجرا عن الأعمال التى تقوم بها الإبل . ولم تكن الثمار التى تنتج من تلك العزبة تساوى ذلك المبلغ.

كل هذا الازدهار الدنيوى، هو واختلاطه بالناس فى الخارج ، لم يستطيعا أن يخففا من فهم ذلك الرجل المتشدد؛ إذ كان وهابيا بأقصى معانى التشدد النجدى المتصل بهذه الكلمة. كان الرحّالة الغربى، واحداً من أبناء ذلك الرجل الذى تربى فى المجازر ونشأ فيها ! وكان له ولد آخر يعمل تاجرا فى عدن، رافقه فى عودته مع القافلة: وفتح ذلك الولد دكانا فى السوق. وراح يبيع فيه تلك الأحمال من القماش التى جاء بها والده. كانت غالبية المشترين فى البلدة من المطير ، وبخاصه القبليين منهم ؛ وكان واحدٌ من أولئك المطير "الذين يشبهون الجراد" خفيف اليد، مما جعله يسرق عباءة من العباءات التى كان يبيعها رشيد، وتصل قيمتها إلى حوالى عشر شلنات ؛ والتى دفع العجوز ثمنها وعنّف أولاده على فقدها وضياعها. هذا الولد جاء ذات مرة من البلدة ليستشير الحكيم ؛ كان ذلك الولد شخصا رذيلا ومخادعا ، وصاحب وعود كاذبة. وهو سوف يزور عدن مرة ثانية (من أجلى) ؛ وسوف يبحر معى على السفينة نفسها. فقد ترك خلفه هناك زوجته وابنه الصغير ؛ واستطاع تسجيل ولده على إنه واحد من الرعايا البريطانيين: وأنه سوف يرافقنى إلى الهند إذا ماكنت أنا أود ذلك. تجولت فى مزرعة والده؛ ولم يصلحوا لى أى شىء من القهوة.

– قال واحد من الحاضرين فى صالة رشيد (فى البلدة): ماالذى يجعل نصرانيا يأتى من مدن أوروبا الفخمة إلى هذه البلاد الجرداء من بلاد نجد؟" أجاب التاجر العجوز على ذلك السؤال قائلا:"أنا أعرف أخلاقهم !هذا فرنجى ، ومن المحتمل جداً أن يكون فقيرا من أولئك الفقراء، وربما يكون قد أجر زوجته، نظير المال الذى يساعده على العودة إلى وطنه؛ وأرجو أن تثقوا بى لأنهم كلهم يفعلون هذا الشىء ." هذه الحكاية كان أولاده يتهامسون بها فى الجنينة: وذات يوم، فى فترة العصر، سألنى الشقيرى عن هذا الموضوع أمام الحاضرين كلهم، وأردف قائلا:" ولكنى لا أصدق ذلك ." تعجبت، هذه التخيلات لايمكن أن تستقر إلا عند جلف من الأجلاف الذين لاتعمر قلوبهم إلا بروث الحيوان؛ كما أن هذا الكلام لايردده سوى عبد من العبيد!" همس الرجل

قائلا: " ياخليل، لاتتكلم بهذه الصورة العلنية، لأن ولده جالس معهم (ولده الذى سرق السكر) ! كما أن الولد يعد ناقلا للحكايات ."- وعندما استأذن الشقيرى وانصرف، تساءلت ، " هل أنت برئ من هذه الاضطرابات والمتاعب؟" ورد على قائلا: " هناك زنى وجماع يدور بينهم فى السر."

ويتعين علينا أن ننظر إلى حريمهم على أنهن أقل تواضعا منهن ناضجات . والعرب غيورون وماجنون ؛ وأية امرأة مسلمة ، طالما أنها تعرف أنها يمكن أن تطلق بمجرد كلمة، تخشى وتخاف أن تثير حتى ولو مجرد التأمل فى هذا الأمر. ولم تستطع الصديقات الحميمات إقناع كثير من السيدات الفقيرات، اللاتى ترددن على الحكيم، بالكشف ولو بشيء يسير جداً من القماش الذى يضعنه على وجوههن حتى يتمكن الحكيم من معاينة عيونهن المريضة. وهذه مخلوقة صغيرة من البشر عصت أمها، ولم توافق على الكشف عن تورم مؤلم فى ركبتها. وحتى النساء الزنجيات كبيرات السن [يمشين هنا وهن منقبات]، اللاتى يعانين من مرض الرمد، يرفضن كشف جباههن السوداء علهن يصيبهن شيء من الشفاء. بل إنهن كن يقلن: ' إنه إن لم يكن ذلك بإرادة الله فإنهن سوف يعود إليهن بصرهن - وهذا الجنس البشرى البائس يتطلع إلى أن يرث ذلك الخير الذى افتقدوه فى هذه الدنيا- فى الجنة **F'iljinna**. كانت زوجة يحيى هى الأخرى، من النوع الحريص : لأنها عندما طلبت من سيدها العجوز، وافقت على أن تكشف من خلال الثوب النسائى الطويل عن الورم المؤلم الذى كان فى ركبتها، كى يراه الحكيم. والعرب لهم طريقة غريبة فى الثياب وارتداء الملابس: فثياب النساء فى القصيم فضفاضة بشكل عجيب، إلى حد أن المرأة عندما ترفع ذراعها ينفتح الثوب إلى أن يصل إلى ركبتها. وهذا يحتم على المرأة أن تكون حريصة ومنتبهة إلى ثيابها أثناء تحركها، وذلك بأن تمسك بأكمام الثوب تحت ذراعيها ؛ ولكن النساء الحضريات اللاتى يعملن خارج منازلهن وكذلك ربات البيوت البدويات يتعرضن لكثير من الحوادث المفاجئة وغيرا المقصودة. والحريم فقط هن اللائى يجلسن على هذا النحو عندما يكون الجو حارا؛ ثم يتغطين إذا مادخل غريب عليهن.

مر علّى الوقت السابق لوصول قافلة السمن طويلا وثقيلا وبطيئا ومرهقا: فقد أرجأ الزامل الحملة التى كانت المدينة مزمعة القيام بها مع المطير ضد المعتدين القحطان إلى

مابعد وصول القفيلة الشمالية الكبيرة. على الجانب الآخر، فإن القافلة المتجهة إلى مكة لايمكن أن تستأنف رحلتها إلا بعد تسوية ذلك النزاع والبت فيه. لم يحضر أحد من أصدقائي أو معارفي لزيارتي في تلك المزرعة التي تبعد مسافة ميلين ونصف الميل عن عنيزة. صداقة الناس هنا تشبه صوت طائر عندما يقف بين باقة من الزهور:إذا ماتملكه الخوف أو الفزع لايعود مرة ثانية إلى تلك الباقة. يضاف إلى ذلك أني لم تصلني أخبار لا من البسام أو الكنيني ! يستثنى من ذلك أن بعض المرضى كانوا يلونون بهذا المكان، بين الحين والآخر، طلبا للمشورة من الحكيم؛ هؤلاء المرضى كانوا يقولون لي : إنهم موفدين من قبل الكنيني أو الزامل اللذان يقولان:" إن يد خليل فيها بركة baraka؛ وإن شاء الله يشفيك الله."

كان مرض الجدري قد أوشك على الانتهاء في عنيزة. وفقد صالح ولده في ذلك الوباء، وتحمل صالح الآلام التي ترتبت على ذلك بصبر المسلمين القصير المعهود. كما ماتت أيضا ابنة صغيرة من بنات الكنيني ؛ وبقي الكنيني على غير علم بتلك الوفاة طيلة أيام ثلاثة إلى أن سأل هو بنفسه عن تلك الابنة: وهنا قال له أهل بيته وأصدقائه :" لقد أخذها الله؛ ودفناها بالأمس ."- ولكن عبدالله الكنيني لامهم لوما شديدا وقاسيا:" أوه! قال: لماذا لم تخبروني؟"- حتى يمكنني أن ألقي نظرة أخيرة عليها بعد أن توفاها الله. وتألمت أنا أيضا لأني لم أعلم بذلك - ولربما كنت سببا في شفائها.

طلبت من صالح أن يعيرني كتابا أقرأ فيه: وفي اليوم التالي جاء صالح إليَّ من عنيزة ومعه مجلد ضخم له غلاف أحمر، وعامر بالأساطير المقدسة إلى حد أن هذا الكتاب، في رأي صالح ،" هو الأكثر شيوعا وتداولا بين الحريم." هناك الكثيرون من الحضر الذين يستطيعون القراءة والكتابة في البلدان الوهابية؛ والأطفال هنا، في معظمهم ، يوفدهم أهلهم لتعلم القراءة والكتابة: وعلى حد قولهم هنا، إن الطفل عندما"يصل طوله إلى طول السيف "، يجرى تعليمه الصلاة. أعارني صالح أيضا مجموعة من المجلة العربية الجريئة ؛ التي بلغ عمرها بضعة أشهر في الوقت الراهن، ولكنها تعد جديدة على هذا الجزء من البلاد، كما أن تلك الجريدة كان يجرى إحضارها عن طريق القوافل. قرأت في تلك الجريدة عن الجهاد: كان صالح يراقبني وأنا أحاول القراءة، ثم سألني في نهاية الأمر، 'هل أنا راض الآن؟- لقد انكسر سلطان [الإسلام].؛

كان ذهن صالح المتحجر عامرا بالحقد الدينى، وكان يبدو عليه أن ماقاله ينبغى أن يشرح صدرى ويسرنى تماما، وهو نفسه، عثر فى جريدة إسطمبول، على الكثير من الكلمات [السياسية، والعسكرية والأوربية] الغريبة، الأمر الذى كان يجعله يقرأ الجريدة دون أن يفهم ذلك الذى يقرؤه.

– قرأت على الحاضرين، كيف أن 'الإنجليز أرسلوا أدوية وأطباء، وعلى حسابهم الخاص، لعلاج مرضى المسلمين وجرحاهم؛ كما أرسلوا أيضا ملابس وطعاما ونقوداً؛ وأن أعدادا كبيرة من الأثرياء قد دفعوا من جيوبهم الخاصة مبالغ كبيرة جداً [التى تعد مبالغ خيالية فى ضوء الفقر والعوز الذى يعيشه العرب!] وقلت لهم: "حسن، ما رأيكم فى ذلك ؟ ألم تكن تلك الأعمال تستحق الشكر والثناء؟ ألم يكن ذلك لصالح المسلمين؟" لا إجابة: "نحن لانشكرهم ؛ أربكهم الله، هم وكل الكافرين! ولكننا نشكر الله، الذى حرك الوثنيين وجعلهم يغيثون الإسلام."

بعد أن مضى علّى أكثر من ثلاثة أسابيع فى تلك الأرض الجرداء ،كتبت على قطعة من الورق 'قتلنى Katalny التعب el-taab والجوع' Wa ej-jua ؛ ثم أرسلت هذه الورقة إلى الكنينى ـ كنت أتطلع إلى الانتقال خلال فترة وجيزة ، وبموافقة من الزامل إلى بعض مزارع الأصدقاء؛ سواء أكانت مزرعة البسام التى تقع فى الجزء الجنوبى الشرقى من البلدة [حيث يوجد الحجر الأسود black stone، الذى ورد ذكره عند بعض شعرائهم القدامى، والذى 'على حد قولهم ،'سميت به عنيزة "] ؛ أم إلىَ بيارة نخيل يحيى، ذلك الوالد الطيب ، الذى كان متعاطفا مع قضيتى التى لاتشوبها شائبة. وصلت رسالتى إلى الكنينى: ومع شروق شمس اليوم التالى لوصول الرسالة جاءنى خادم عبدالله ، وكان يحمل معه خبزا مخمورا وزبداً، وقربة مملؤة بلبن الخض؛ كان يحمل معه رسالة شفهية يطلب إلَّى فيها الخلود إلى الراحة، وأن 'أقَّر عينا؛ كما أبلغنى أنهم (الأصدقاء) سوف يجهزون لرحيلى خلال فترة وجيزة- لم أستطع الحصول على أية كمية ولو ضيئلة من لبن الخض فى هذا البلد (ومعروف أن لبن الخض هذا هو بمثابة النبيذ فى هذا البلد). ورد على صالح،'إنه بالرغم من أن بعض الحريم قد يبعن الحليب سراً فى عنيزة، إلاأنه هو، وأى واحد آخر من أهل بيته ، لم يكن لهم يد فى إحضارلبن الخض هذا لخليل.' جاءت بعض أسر المطير الفقيرة تنصب خيامها بالقرب من حفر

الماء التى فى أرض الجذامة(*) التى هجرها أصحابها بالقرب من المزرعة التى كنت أقيم فيها؛

وخرجت إليهم علنى أحصل منهم على شىء من الحليب أو اللبن مقابل شىء من التمر أو الدواء؟ وتعجبت نساء هؤلاء المطير عندما رأين اللون (الإنجليزى) لشعر ذلك الغريب؛ وقالت بعضهن للبعض الآخر:" هل هذا الرجل رمادى الشعر وقد صبغ لحيته بالزعفران؟" -"لا، هذا الشعر طبيعى؛ المؤكد أن هذا رجل أحمر من min ha hai شطوط shotut " بمعنى من أنهار (بلاد الرافدين) ؛ ألم نر نحن أناسا هنا لهم هذا اللون ؟- لكن ، خبرنا أيها الرجل، أين بلادك؟"

كان شيوخ المطير فى عنيزة فى ذلك الوقت لكى يتشاوروا مع كل من الزامل والشيوخ فيما يتعلق بالعملية الحربية المشتركة. ظن القحطان أنهم آمنين فى الخلاء، وأن أهل المدينة (عنيزة) لن يهاجموهم فى ذلك الصيف الحارق؛ أما فيما يتعلق بالمطيرلم، يكونوا يعولون كثيرا على القحطان كخصوم لهم- أرسل الزامل تعليمات لأولئك الذين لديهم نياقا فى البلدة، أن يستعدوا لركوب نياقهم ومصاحبته فى صباح الغد. لقد "أعد" الزامل لهذه الحملة "ستمائة" ناقة. بلغ حجم ذلك الغزو البدوى الاتحادى حوالى "ثلاثمائة ناقة" ومائتى حصان."

رحل المطير قبل عصر اليوم التالى. ولكن الزامل لم يركب راحلته ضمن جماعة واحدة من البدو الرحل الذين كانوا أصدقاء له: وأهل الحضر يقولون: البدو مخادعون تماما - مثلما شاهدنا فى هزيمة سعود الوهابى . وقد بلغتنى أخبار الآثام التى ارتكبها الأعراب قبل عامين فى عنيزة! وابن الرشيد هو الأمير الأوحد الذى يركب مع رجاجيله وقروييه، ويقوم بالغزو وهو واثق من رعاياه من البدو.

توجه الزامل فى اليوم التالى على رأس "مايزيد على ألف رجل" من أهل المدينة: والناس هنا يقولون :إنه "إذا ماهم الزامل بالقتال، شعرت عنيزة كلها بالثقة والأمان." خلف الزامل وراءه الأمير على كى يتولى أمر البلد: وأغلقت الدكاكين فى الأسواق ؛ إذ

(*) الجذامة: هى مايتبقى فى الأرض بعد حصاد محصول القمح أو الشعير .(المترجم)

توقف البيع والشراء إلى أن تعود الحملة إلى عنيزة. وتوقف انعقاد سوق الصباح ؛ كما توقف القصابون عن ذبح اللحوم طوال تلك الفترة. وبالرغم من أن عدداً كبيرا كان مع الزامل فى الميدان إلا أن الشوارع على حد قول صالح، كانت تبدو مليئة بالناس، على نحو لاتخطئه العين !تساءلت "وماذا يحدث لوفتح أحد من الناس دكانه؟" الإجابة:" سوف يرسل الأمير على من يغلق ذلك الدكان: ولكن إذا ما أصر صاحبه على فتح الدكان، فإن صاحب الدكان، الذى يكون من هذا القبيل يجرى استدعاؤه أمام الأمير على، حيث يجرى جلده:" والدكاكين الصغيرة العامة وحدهاهى التى لاتغلق ، وهى عادة ماتكون مملوكة لرجال مسنين أولأرامل من النساء.

والأمير يدون أسماء أولئك الذين يشاركون فى الغزو؛ وغالبا ما يكون هؤلاء الرجال من صغار السن ومن العائلات التى تقتنى النياق. والخدمة العسكرية تقع على عاتق المواطنين الأثرياء- والسبب فى ذلك أن العمليات الحربية لاتدور فى الخلاء والناس سائرين على أقدامهم: ونحن لم نسمع أن الوهابى ،الذى لديه تنظيم عسكرى متواضع، يستعمل الجنود المشاة فى الحرب. أما أولئك الذين يبقون فى البلد، فهم الذين يقومون على تسييرالحياة اليومية داخلها؛ كما أنهم يعدون أيضا حراسا للبلد. ورقيب الأمير هو الذى يقوم باستدعاء كل أولئك الذين أدرجت أسماؤهم للمشاركة فى الغزو مع الزامل (فى الصباح). والناقة التى تشارك فى القتال يركبها اثنان؛ والرديف غالبا مايكون شقيق مالك الناقة، أو ابن عمه، أو عميلا [الذى غالبا مايكون بدويا] له، أوخادما له أيضا. وإذا ما تأخر أحد المسجلين تعين عليه إرسال آخر بدلا منه على ناقته ومعه رديف أيضا . وإذا ماتخلف الشخص عن صحبة الأمير، ولم يرسل بدلا منه، فقد يمكن التغاضى عن ذلك فى حالة الشخصيات المهمة؛ ولكن، المواطنين العاديين، يجبرون على القيام بذلك وتنفيذه بالقوة. كان الزامل رجلا سهلا، إذ كان يقبل أعذار أولئك الذين يلتمسون الأعذار لأنفسهم؛ وإذا ما قال شخص:" والله، ياسيدى،إنى لم أستطع المجىء معكم بسبب كيت وكيت،"فإن الأمير يرد عليه، فى معظم الأحيان، قائلا:" إذن أبق فى البلد."

أشيع كذبا أن الكنينى كان من المشاركين فى ذلك الغزو. وأن ذلك الرجل الضعيف أرسل ناقتيه وعليهما راكبان (من أولئك الذين يمكن الحصول عليهم من بين

الحضر والبدو المساكين).لم يكن هناك أحد من أبناء رشيد فى الميدان: وأردف صالح قائلا:" لنا أبناء عمنا الاثنان شاركا نيابة عنا جميعا ."- أبلغنى أحد أقارب الزامل، فى وقت لاحق،أن قوتهم فى الميدان كانت تقدر بثمانمائة رجل، فى حين كانت قوة المطير تقدر بحوالى ٣٠٠ رجل. قال بعض الناس: إن عنيزة أرسلت مائتى ناقة، أى ٤٠٠ راكب (مقاتل)؛ بعض ثالث قال: إن عدد المقاتلين بلغ خمسمائة رجل- ونحن يمكن لنا أن نحزر بأن الزامل طالب بتجهيز ثلاثمائة ناقة من عنيزة؛ وأن الذى ذهب للمشاركة فى المعركة كان مائتا ناقة، كانت تحمل أربعمائة رجل، وهو مايعادل ثلث عدد الأفراد البالغين فى المدينة ؛ ونحزر أيضا أن المطير لم يشارك منهم سوى مايقرب من مائة وخمسين رجلا من رجال القبيلة. ولم يكن فى المدينة سوى عشرين فرسا، خاصة بكبار الشيوخ. والشخصيات وقدر عدد القحطان (بأسلوبهم التهويلى) بحوالى ٨٠٠ رجل؛ وربما كان ذلك العدد فى حدود ٤٠٠ رجل، ولكنهم (شأنهم شأن أعراب الجنوب) لم يكن فى حوزتهم سوى اسلحة قليلة. كانت لديهم خيول كثيرة، وأعداد كبيرة من الماشية الكبيرة: وقيل :'إن أفراسهم كانت ١٥٠ فرسا؛' ولكنهم يقولون: إنهم كان لديهم سبعين حصانا فقط.

تحرك أهل المدينة على شكل جماعات ثلاثة، وكانت كل واحدة من تلك الجماعات تحمل بيرقا من بيارق عنيزة الثلاثة؛ ولكن واقع الأمر أن بيارت المدينة تقدر بخمس أو ستة بيارق، وذلك فى حالة الحرب الداخلية.

فى ساعة مبكرة من فترة العصر تناهى إلى مسمعى الحديث التالى الذى دار بين كل من فهد ورجل مطيرى مسكين- الذى لم يستطع اللحاق بأفراد قبيلته لأنه لم تكن لديه ناقة. فهد:" لقد ساروا على الطريق !وإن شاءالله، سيعودون إلينا برءوسهم."- إن شاء الله !الله كريم! وسوف يقتلون الأطفال من عامين فما فوق؛ وسوف يترمل الحريم!" قلت لهما:" أغلقا فاهيكما، أيها الكفار !بل أبشع من الكفار." البدوى: " ولكن القحطان قتلوا أطفالنا- بل وقتلوا النساء أيضا!"جاء المطير ليخيموا بالقرب من أسوار البلدة؛ وأصبح منزلان من منازلهم جيرانا لنا .أعراب الجنوب هؤلاء كانوا مثل سائر البدو الآخرين. سمعت على ألسنتهم ومن أفواههم اللغة نفسها التى يتكلمها البدو الرحل؛ ومع ذلك تبينت أنهم كانوا من ديار أجنبية. شاهدت قراب الماء وقد علقوها على ركائز

الواحدة منها مكونة من ثلاثة من العصى . وجاءنى البعض منهم يطلبون دواءً: ويبدو أنهم لم يكونوا كرماء؛ تأكدوا أنى أحظى برضى الزامل وسماحته ، ولم يكن القحطان متشددين.

فى هذا الجزء من البلاد يطلق أهل الحضر على أنفسهم اسم الأعراب، كما يسمون أيضا باسم المسلمين el-Moslemin وهذه الكلمة شبيهة بكلمة" مسيحى" Cristiani التى تشيع فى بلدان القساوسة فى أوروبا؛ الكلمات التى من هذا القبيل يقصد بها أولا تمييز الجبل الإنسانى، أوإن شئت فقل: الجبل البشرى، ثم يقصد بها ثانيا المعنى الدينى الضيق المتشدد. ذات يوم شاهدت إبلا ترعى فى اتجاه الوادى؛ وعلى أمل شرب شيء من الحليب، غامرت حافى القدمين ، واتجهت صوب تلك الإبل، قاطعا بذلك منطقة الجذامة فى أرض رشيد، وماشيا فوق الرمال المتوهجة: وألقيت التحية على الرعاة! ووقفوا بلاحراك؛ وعندما وصلت إليهم قالوا : بعد شيء من الاندهاش:" يارجل، النياق ليس فيها حليب، وهى ليست ملكا لنا: هذه هى إبل البلدة (عنيزة) ؛ونحن نرعى هذه الإبل لحساب المسلمين Moslemin". قال أحدهم :" أوه ألست أنت الحكيم؟ هل يمكن أن تعطينى دواء؟ـ وأنت عندما ستأتى إلى خيامنا بعد أن نسقى الماشية، سوف أحلب لك ناقتى الخاصة؛ وأنا ليس عندى غيرها: لوكانت ماشيتنا هنا، لحلب لك البدو لبنا كل يوم."ـ انقضى ذلك اليوم الطويل؛ وانقضى بعده يوم آخر، ولكنه بدى لى وكأنه بلا نهاية؛ وانقضى علَّى يوم ثالث وكأنه ثلاثة أيام: وكان قد بلغنى أن "أصدقائى كلهم مشاركون فى الغزو"، وأن الأمير على هو الذى يحكم حاليا فى عنيزة! وطلب صالح منى أن ألزم الهدوء؛ ولكن الكلمات الحلوة لايجب الوثوق بها بين العرب؛ وهم يعتقدون أن إقناع الإنسان بنيل قسط من الراحة، هو من أعمال الدين.

وصلت أخبار ذلك الغزو إلى بريدة، وخرج المراسلون لكى يحذروا القحطان من ذلك الغزو. ولم يحافظ الزامل على سرية هذه العملية الحربية ، إذ لم تكن هنالك نقيصة فى شخصية رجل سياسى من هذا القبيل، لأنه كان رجلا شديد الحرص." قال صالح : إنه سيعطى أعداءه فرصة كى يسيروا فى طريق السلام"ـ وياله من اختلاف عن صقور كل من الرياض وجبل شمَّر!

- كان القحطان فى ذلك الوقت فى منطقة العيون el-Aun؛ قصد الغزو إلى هناك. ولكن الزامل بلغه، وهو فى الطريق ،أن منازل (مضارب) القحطان كانت فى الدَّلامية ed-Dellamieh، التى هى مسقى فى المسافة مابين جبل ساق Sak والرّس. سارت المدينة (عنيزة) طوال نهار ذلك اليوم وجزءًا من ليله أيضا. وفى عصر اليوم التالى كانوا قريبين من الرس؛ ثم نزل الغزو عن الراحلات طلبا لقسط من الراحة، ونصبوا خيامهم وفرشوا سجادهم. وهنا بلغهم أن العدو كان عند آبار الدُّخانى Dokhany، التى تبعد مسافة رحْلة واحدة فى اتجاه الجنوب. وبينما استأنف الغزو مسيره فى صبيحة اليوم التالى التقى المطير شيئا فشيئا؛ ونزل الجميع عن الراحلات عند الظهر- وقال لهم كشافو المطير :إنهم شاهدوا خيام الأعراب فوق الدُّخانى! وطالما أنهم كثيرو العدد على هذا النحو فلا بد أن يكونوا هم القحطان؛ الذين يمكن أخذهم على غرة! وراح متعلمو عنيزة من الشباب يتفاخرون ويتباهون وهم جالسون حول موقد القهوة:" سوف نحارب غدا فى ميدان جبل Jebel قيزاز Kezaz القديم بالقرب من الدُّخانى؛ حيث حارب تُبَّع(*) ملك اليمن أبناء الوائليين Wailyin (أى أبناء وعيل، أوإن شئت فقل: العنوز)- وكليب Koleyb، شيخ ربيعة؛ ومعهم كل من بنى تميم وقيس" [قحطان ضد إسماعيل - حدث ذلك قبل الهجرة بوقت قصير]. جبل قيزاز Kezaz يبعد مسير 'ساعة' عن حوض وادى الرماح .

بدأ الزامل ومعه بلده يتحركون فى الصباح، فى الوقت الذى كانت النجوم ماتزال طالعة فيه: فى حين كان المطير قد سبقوهم قبل وقت قصير، وكان جبل دخانى على بعد مسافة قصيرة. فى تلك المعركة كان مقررا للبدو أن يهجموا على عدوهم الرئيسى؛ وأن يكون الزامل قريبا منهم لتقديم يد العون لهم إذا ما تطلب الأمر ذلك. وضربت عنيزة الحصار حول القحطان من الناحية الجنوبية.

(*) تبُّع هذا هو مؤسس الدولة الحميرية الثانية ٣٠٠ - ٥٢٥م. ولقب بتبع الأكبر وقد زحف تبع بجيوشه إلى أرمينيا وهزم الترك وامتدت فتوحاته حتى وصلت إلى الهند وغلب أرض الصين ، وأخضع فارس وخرسان والشام ومصر. وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم قوله تعالى " أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين " الدخان - الآية ٣٧ . (المراجع)

هجم المطير على عدوهم مع طلوع النهار: وهرب القحطان من البيوت ، ومعهم أسلحتهم، وقفز الشيوخ من فوق أفراسهم ؛ وراح الناس يشجعون بعضهم البعض عن طريق الصياح. وعندما وجدوا أنهم محاصرون بواسطة المطير راحوا يقاتلونهم وهم يصيحون قائلين:"جابهم jab-hum الله! " Ullah ـ ولكن ذلك اليوم كان واحدا من أيام الاعتراف عند الطرفين ، الاعتراف بالموت الزؤام. كان المطير يحاربون" بمائتى" فرس؛ ولكنهم كانوا من العناصر قليلة القيمة فى الشمال. كان القحطان فى بداية الأمر يحاربون بحوالى ستين خيالًا. ثم انضم إليهم ثلاثون خيالا آخرين جاءوا من منْزل كبير كان قد نصب خيامه على بعد مسافة قصيرة. وهنا أصبح عدد أفراد القحطان أكبر من عدد أفراد الغزو المطيريين، الذين تركوا ميدان القتال فى نهاية الأمر.

– تلى ذلك ، أن نظر القحطان حولهم؛ وراحوا يتحسبون لجماعات عنيزة المتقدمة صوبهم! وهنا راح القحطانيون الذين لم يقتل منهم عدد كبير، يتصايحون مع بعضهم البعض، كى يشجع كل منهم الآخر،" أخ! أهذا هو ابن الرشيد ؟ـ لكن لا! لأن ابن الرشيد يهاجم تحت لواء بيرق واحد: ولكن هؤلاء يهجمون علينا بطريقة الحضر. ـ الله إنهم حضر!"ـ وعندما اقتربت عنيزة ، تعرف عليهم بعض القحطان، وصاحوا قائلين:"هؤلاء هم القصمان!إنهم الزواميل Zuamil (بمعنى شعب الزامل)." وعندما تيقنوا من ذلك سارعوا لإنقاذ نياق الحليب.

– ولكن الزامل، الذى كان على بعد مسافة كبيرة، تعجب ،عندما رأى الخيالة البدو يسوقون الإبل:" أليس هؤلاء هم المسلمين Moslemin [أولئك الذين هم أنصارنا]؟" "أجابه شيخ من شيوخ المطير قائلا: لا!)ـوكان ذلك الشيخ قد ركب راحلته مع عنيزة، لكى يدل على الطريق فى الخلاء)، إنهم كلهم من القحطان!" كان عدد خيالة عنيزة صغير على نحو لم يتمكنوا معه من الهجوم على القحطان. وكان القحطان بدورهم قد تخلوا عن منْزلهم لإنشغالهم بمحاولة إنقاذ الماشية: وترتب على ذلك أن ترك القحطان خيامهم، ومتعلقاتهم المنزلية، وزوجاتهم وأطفالهم فى قبضة العدو.

راح خيالة المطير يطاردون القحطان الفارين! الذين استدارو مرة ثانية إلى الخلف وصدوا خيالة المطير: وهنا حاول خيالة عنيزة مساعدة أصدقائهم. فى حين راحت بقية

المطير، الذين نزلوا من فوق إبلهم يسلبون خيام أعدائهم ويستولون عليها ـ وراح هذا ، وذاك الذين جرى اختراق أجساد ربات بيوتهم بسهام القحطان وكذلك أولئك الذين قتل القحطان أطفالهم، راحو يفعلون الشيء نفسه مع عدوهم، راحوا يطعنون كثيرا من الحريم ، ويذبحون الأطفال الصغار على مرأى ومسمع من أمهاتهم، وهم يصيحون قائلين :" أوه، لماذا فعل رجالكم الشيء نفسه مع أطفالنا في ذلك اليوم المشئوم! " كانت بعض النسوة اللاتى أصبن بالهلع والجنون يجرين ويهاجمن الغزاة مستخدمات في ذلك أوتار الخيام؛ في حين راح المطير ،الذين كانوا يحملون أسلحتهم في أيديهم ، ودمهم يغلي في عروقهم، يكيلون لهم الضربات ـ وبذلك ماتت خمس أوست زوجات من القحطان، وعددا كبيرا من أطفالهم.

في عز هذه المحنة خبَّأت زوجة من الزوجات نقود زوجها ، وكانت تقدر بحوالى ٦٠٠ ريال [وهذا مبلغ كبير إذا ما توفر لواحد من البدو] ! خبأت النقود في قربة من قرب الماء؛ ومزقت سترتهاالزرقاء ـ وهي كل ماتلبسه المرأة أوتضعه على جسدها الذى يكاد يكون ميتا بسبب الجوع، بعد الهجو haggu؛ ثم علَّقت تلك القربة على كتف من كتفيها وحملت طفلها على الكتف الآخر. ثم أخذت تجرى منطلقة من خيمتها وهي تصيح قائلة: 'ويلي weily ويلي' weily بمعنى 'الويل لي!' وفرت هاربة بين أفراد العدو. وظن المطير، الذين شاهدوا تلك المرأة، أن واحداً قد اغتصبها، ووجدوا أن من العار تتبعها ؛ ومع ذلك ناداها البعض وطلبوا منها أن تلقى أرضا ذلك الذى كانت تحمله على كتفها : ولكنها تظاهرت بالجنون ، وصاحت قائلة:'لقد انتهيت! ألايكفى أن تجرد ابنة شيخ من الشيوخ من ملابسها؟ وهل سيأخذون حتى ذلك الماء الذى تحمله معها لطفلها الصغير!' صاح بعض آخر مطالبا بالسماح لها بالمرور: وهربت المرأة مسرعة، وهربت من الجميع؛ وبذلك استطاعت أن تنقذ ثروة زوجها، مقابل التضحية بحشمتها.

سقط في تلك المعركة ثلاثون رجلا من القحطان، وقد قتل أغلبية أولئك الرجال أثناء فرارهم؛ كما قتل عشرة رجال من المطير ـ وعاد أولئك لدفن موتاهم: ولكن الإحسان الإنساني غير معروف هنا، والذى يتمثل في إهالة القليل من التراب على جثة العدو بعد وفاته!

جاءت إمراة مراسلة إلى الزامل، موفدة من القحطان الهاربين. نزلت عنيزة عن راحلتها، عند آبار الماء (حيث سينصبون مظلاتهم ويشربون القهوة): وطلبت المرأة توصيلها آمنة إلى واحد من الشيوخ ، يأتى للتحدث معها؛ ولبى الزامل طلبها ـ وبعد ذلك عاد رجال القحطان وراحوا يقبلون الزامل ويتوسلون إليه أنه'طالما أن قطعانهم، وخيامهم، ومتعلقاتهم أصبحت الآن (وهذا هو مايراه بنفسه) فى أيدى المطير ، الذين سيحولون بينهم وبين الوصول إلى الماء، فهم يرجونه أن يسمح لهم بورود الماء حتى يشربوا ولايموتوا .' وكانوا قد تعرقوا عرقا شديدا فى ذلك اليوم بالغ القيظ؛ ولم يكن معهم قراب للماء، عندما فروا عبر الصحراء وهم فى شدة العطش . ولكن من ذا الذى يمكن أن يثق بالأعداء من البدو أويركن إلى كلامهم! ومن هنا فإنهم يربطون بقسم يقول:ـ عليك aleyk عهد الله ahad الله Ullah وأمان الله waaman الله Ullah أن in مآ أخونك ma akhunak ! الخاين el-khayin يخونه yakhunhu الله Ullah بمعنى 'وعهد الله وأمانه !لن أبيعك! ومن يخون يخنه الله.'

جاءت هزيمة القحطان على ذلك النحو، بعد أن كانوا عتاة غلاظا مع ابن الرشيد فى الفترة الأخيرة .[كان ابن سعود قد هاجمهم فى جبل الدُّخانى، فى صيف العام الماضى! ولكن القحطان استطاعوا رد الوهابى وصد هجومه!] ـ وقد عزى الناس ذلك النجاح إلى حسن طالع الزامل: إذ لم يستعمل الحضر أسلحتهم. وأرسل المطير من الميدان مراسلين لابن الرشيد، ومعهم هدية عبارة عن فرسين من الغنائم التى حصلوا عليها من القحطان ـ وقد سعدت بريدة بتلك الهزيمة، لأنها أدت إلى طرد القبليين الغرباء الحاسدين إلى خارج البلاد ـ ومات عدد كبير من القحطان أثناء فرارهم عبر الخلاء: الأدهى من ذلك أن الإصابات الطفيفة، فى ظل هذا الإرهاق الشديد والظمأ الشديد يمكن أن تودى بحياة البشر. هرب القحطان فى اتجاه الجنوب طوال ثلاثة أيام، مخافة أن يعلم أعداء هم القدامى بأخبارتلك الهزيمة ويقومون هم أيضا بالهجوم عليهم: وقد بلغنا ،أن بعضا من أفراد قبيلة عتيبة التقوا أولئك القحطان الهاربين وأخذوا منهم "مائتى" ناقة من نياق الحليب التى استنقذوها وفروا بها هاربين. قال البعض منهم الذين وصلوا إلى الأثيلّة el-Ethellah: إنهم هزموا وخسروا 'مائة رجل'ـ ومر الزمن عليهم ثقيلا وبيلا قرابة العامين حاليا وهم يقومون بدور الذئب فى منطقة نجد!

عندما سألت عما يمكن أن يحدث للقحطان ؟ أجابنى الشقيرى،" البدو كلاب، لا تموت أبدا؛ وهؤلاء شياطين. سينتقلون عشرين نقلة؛ وبعد عام أو عامين سيحل الدمار بهم من جديد."ـ" ومالذى يمكن أن يفعلوه حاليا؟"ـ "سوف يحطبون النياق ليكون اللبن غذاء لهم ، وسوف يبيعون بعض النياق فى القرى، حتى يشتروا بثمنها تمرا وأوانى للطبخ . ولن يستمر بقاءهم فى العراء فترة طويلة على الأرض بلا مأوى من حرارة الشمس: والسبب فى ذلك أن الحريم سيقمن بجز صوف الأغنام التى تبقت لهن، ويغزلن صوفها ليلا ونهارا؛ وإن هى إلا أسابيع قليلة حتى ينصبن خيامهن الجديدة! يضاف إلى ذلك أن قحطان الجنوب سيقدمون لهم يد العون والمساعدة."ـ سمعنا بعد ذلك أن القحطان المنهزمين عقدوا صلحا مع العتبان؛ كما تصالحوا أيضا مع ابن سعود! ولكن كيف لهم بتأمين أنفسهم؟ هل وعد القحطان أن يكونوا حلفاء معهم ضد ابن الرشيد؟

مات حيزان!'ذلك الشاب ذى الميول اللصوصية،' على حد قول البدو الأعداء: وحيزان هذا هو الذى هددنى، فى العام الماضى ، وأنا فى غرفة الضيافة فى حائل:قتل ذلك الحيزان قصاصا لذلك الشيخ المطيرى، الذى قتل مؤخرا فى الشمال بيدى هذا الحيزان. فقد بحث عنه أثناء القتال شيخ من أقارب الشيخ المتوفى : وهرب الاثنان سويا؛ وأصيب حيزان بجرح نافذ مميت .كان حيزان بدويا قوى البنية، وكانت له يد قوية؛ ولكن طعنة رمحه تحاشاها العدو لأنه كان يلبس درعا تحت قميصه المصنوع من القطن. كان المطيرى الذى قتل حيزان واحداً من الخيالة الأجواد،وكان قد قتل بعد حيزان خمسا من الشيوخ- وعندما تحدد مصير اليوم بوصول "الزواميل" Zuamil، الزامل ومعه شقيقه وولده، الذى كان مايزال حدثا صغيرا [وأولاد الشيوخ سرعان مايصبحون خيالة، ويركبون خيولهم مع الكبار ويذهبون إلى ميدان القتال] ومعهم قلة قليلة من أعراب الزامل، وغنموا ثمانين ناقة من نياق اللبن! فى ذلك اليوم أصابته الرماح،وطلق نارى فى صدره، أحد عشر مرة؛ ولكن أسنة الرماح هى التى كانت تتثلم على قميصه" الداودى" المصنوع من السلاسل الحديدية القديمة. وهم هنا يقولون :إن الطلقة النارية التى تطلق على جسم يتحصن بمثل هذا القميص لاتحدث فيه سوى تهشم بالغ.

قتل أيضا فى تلك المعركة شقيق من أشقاء حيزان اسمه تركى؛ كما قتلت أيضا أختهما الشيخة: فقد جرى تجريدها من ملابسها وطعنها بالرمح!- والسبب فى ذلك أن القحطان كانوا قد جردوا ابنة من بنات أحد الشيوخ من ملابسها ثم قتلوها .استطاع الشيخ القحطانى العجوز - والد هذين الأخوين سيئا الطالع، الهرب بشق الأنفس على ظهر ناقة من النياق . وأصيب حيزان بجرح قاتل وبقى على سرج الحصان أثناء الهرب، إلى أن دخل عليهم المساء؛ وعندما وصلوا إلى الجلبان jolban التالى (جنوب جبل الدُّخانى) أسلم الشيخ الصغير الروح: وألقى رفاقه جثته التى كانت ماتزال حارة فى بئر من تلك الآبار .

عثروا فى مخيم القحطان على أجنبى مسكين ، درويش مغربى شاب !الذى كان يعيش على إحسان أهل المدينة (عنيزة). جاء ذلك المغربى إلى مكة مع قافلة الحج فى العام الماضى؛ ثم قام بعد ذلك بإلحاق نفسه على قافلة القصمان العائدة من الحج،على أمل أن يمر إلى العراق من خلال بلاد القصيم . ولكن أثناء المسير تاه ذلك المغربى فى تلك الأرض الجرداء الخالية: وعثر عليه بعض القحطان الجائلين- بالحلاوة العثور على تائه، فى ظل ظروف كهذه، وذلك بترتيب العناية الإلهية! ولكن القحطان الذين أنقذوا ذلك المغربى ، لم يراعوا كرم الصحراء الدينى، وجعلوا من المغربى عبدا لهم؛ وجعلوه يرعى الغنم : وكانوا كلما اقتربوا من قرية من القرى يقيدونه حتى لايهرب منهم- لقد كانوا سيتعاملون معى بهذه الطريقة، بل وبما هو أبشع وأسوأ من ذلك ، لوكنت (على حد افتراضى) قد تجولت مع البعض منهم- أحضر المسلمون العائدون معهم ذلك الشاب المغربى إلى عنيزة، حيث بقى ضيفا فى المدينة ،إلى أن يتمكنوا من نقله إلى المكان الذى يود الذهاب إليه. كان ذلك المغربى بصحبة القحطان اعتبارا من فصل الشتاء، وقال فى بساطة شديدة:" أنا لم أعرف هذه الحياة من قبل، ولكنهم حولونى إلى بدوى، وأقسم بالله أنى أصبحت بدويا ."- واقع الأمر أن المرء إذا ما عاش فترة من الزمن بين الأعراب فإن حياته كلها بعد ذلك ستكون عامرة بذلك الإحساس عن الصحراء، وبهذه التجربة التى مربها فى تلك الصحراء.

– فى مساء الليلة الخامسة رأينا خيالا بدويا عند حافة النفود، وكان يتجه صوب الخيام: كان ذلك أول الخيالة العائدين من الغزو. وفى صباح اليوم التالى وصل الزامل

إلى عنيزة ومعه كل أفراد المدينة الذين شاركوا فى الغزو؛ سمعنا وقع أقدام الماشية وهى عائدة إلى عنيزة وسط العزف العسكرى من آلات الطنبور؛ عادوا على شكل ثلاثة جماعات تحت لواء ثلاثة بيارق. ومع ذلك، لم تكن بقية البدو قد عادت بعد: إذ كانوا ما يزالون متخلفين فى المسير بعض الشىء - وهذا أمر دائم الحدوث عند تقسيم الغنائم. فالبدوى يود الحصول على مايعثر عليه فى أى مكان؛ ونظرا لأن المطير قد سبق غزوهم مؤخرا من قبل القحطان فى الشمال، فقد راح الكثيرون من المطير يستردون ماشيتهم من أيدى أولئك القبليين . شاهدنا فى عصر اليوم نفسه الأغنام وهى يجرى توجيهها إلى داخل البلدة: صحيح أن عدد الأغنام كان قليلا، وصحيح أيضا أن الجزء الأكبر من تلك الأغنام كان ملكا لأهل عنيزة. وجاء أولئك الذين عادوا من الغزو بأخبار ثقيلة ومؤلمة، فهناك ستة رجال قتلوا وهم من أهل المنْزل القريب منا! هذا المنزل كان يضم حوالى ثلاثين أسرة. وعندما شاع الخبر، راحت زوجات المتوفين يجرين ويولولن، ويطحن بخيامهن التى ترملت . ورحل البدو وعندما طلع النهار، عادوا إلى الخلاء (الصحراء) من جديد - كانت تلك هى كارثة القحطان ومصيبتهم! وحدث بعد ذلك سلام بين كل من بريدة وعنيزة.

راح الجماميل فى عنيزة يستعدون للقيام بأعمالهم؛ لأن قافلة السمن كانت على وشك أن تبدأ السفر إلى مكة. وجرى إحضار الزَّمِّيل Zemmel، أوإن شئت فقل: إبل الحمل، من عند البدو المتنقلين؛ وشاهدنا إبل الحمل هذه وهى ترعى كل يوم فى النفود المحيطة بنا. وكانت قافلة محملة بالتمور والقمح، قد رحلت فى تلك الأيام متجهة إلى المدينة (المنورة).

وذات يوم ركب كل من الزامل والكنينى راحلتيهما واتجها سويا إلى الوادى حيث توجد ضيعة للزامل؛ وقررا عند العودة أن يمرا على مزرعة رشيد لكى يزورا خليلا. ولكنهما أثناء حرارة الظهيرة الشديدة ناما فى ظل النخيل : واستيقظ عبدالله الكنينى وهو يعانى من حمى الملاريا! واختار أقرب الطرق الموصلة إلى البلدة.

ذات مساء وصلت من عنيزة جماعة من الأعيان الشبان كى تتفقد بعض أغنامهم، التى أحضرها الرعاة البدو، بعد أن أصابها مرض فى صوفها. هؤلاء الأعيان خلعوا

ملابسهم الفاخرة وعباءاتهم؛ ووقفوا فى الغدران التى تتلقى مياه البئر، وراحوا يغسلون أغنامهم. وعندما دخل الليل، ناموا على رمل النفود، أمام خيام الرعاة. كان البعض منهم من آل البسام المتشددين؛ ومع هؤلاء الأعيان جاء أيضا الولد الأصغر من أبناء عبدالله البسام ذلك الرجل الطيب. كان ذلك الولد يحمل لى من والده تحية ملؤها الحب والود؛ وقد أبلغنى الوالد أن 'القفيلى (تصغير قافلة) سوف تقوم قاصدة مكة (المكرمة) خلال وقت قصير؛ وأنى ينبغى أن أركب مع عبد الرحمن (ولده الأكبر)؛' كان قد مضى علَّى حوالى ستة أسابيع فى مزرعة رشيد.

قبل الرحيل عنا فى الصباح، جاءنى واحد من عائلة البسام المتشددين وقال لى:- "آه، ليتك تؤمن بمحمد (ﷺ)! صحيح، ياخليل ،إنك تتطلع دوما إلى عودة المسيح مرة ثانية، من السماء؟ وإذا ماطلب منك عيسى (عليه السلام) الإيمان بمحمد (ﷺ)، فهل ستطيعه وتصبح مسلما؟ ولكنى واثق أن سيدنا عيسى سيأمرك بذلك !أتمنى لوأنه يعجل بالمجيء ؛ وعندها سوف نرى!"- فى اليوم نفسه زارنا الشابان نفسيهما، اللذان كانا من أقارب رشيد، الذين شاركوا فى الغزو: كان الشابان شديدا السُّمرة، ويبدو أنهما كانا من أصل زنجى .أخبرنى أحدهما، الذى سبق له العمل مع قوة العجيل فى دمشق ،أنه اشترى فى الفترة الأخيرة، من اليمن حصانا مكتمل الشكل والقوة، ودفع فيه أربعمائة ريال؛ وكان يأمل أن يبيع ذلك الحصان فى الشام بنفس هذا المبلغ .كانت القهوة تقدم لكل من يزور الجنينة، وبواسطة أبناء رشيد الصغار؛ وفى تلك الأيام - التى كانت تصادف الأيام الأخيرة من شهر يونيو - كانوا يقدمون مع القهوة عناقيد العنب الأبيض البارد، الذى بدأ ينضج فى ذلك الوقت.

زارنى أيضا شيخ المطير الكبير: موفدا من قبل الزامل. وبالرغم من أن ذلك الشيخ كان لم يصل بعد إلى منتصف العمر، إلاأنه أصيب بمرض الاستسقاء، ولم يعد يتحمل أقل قدر من التعب أو الإرهاق: جاءنى ذلك المريض وهو راكب على سجادة كانت مربوطة إلى سرج الناقة، ومرض الاستسقاء istiska معروف بين الناس هنا - على إنه واحد من أمراض الخيل ، لم يكن ذلك الشيخ يعرف شيئا عن ذلك الذى كان يؤلمه ، ألا يعرف الناس كلهم هم وأطفالهم حق المعرفة الأمراض التى تصيب ماشيتهم وطرق علاج تلك الأمراض أكثر من معرفتهم للأمراض التى تصيبهم وتصيب أطفالهم!

أخذ الشيخ كلامى مأخذا حزينا. الحصان يتعرق كثيرا، وبالتالى فهو لايصبر على العطش : وبداية هذا المرض، قد تكمن فى شرب الماء البارد، من قربة من قراب الماء المبرد. وعندما علم أن مرضه سوف يستمر معه فترة طويلة قال:" ياخليل! ألن ترافقنا؟'حنا henna رحيل rahil، بمعنى 'الأعراب سوف يرحلون غداً' (إلى ديرتهم الصيفية، فى الشمال): وسوف تسكن فى خيمتى ؛ وسوف يخدموك خدمة جيدة."

-"أصبر على حكم الله!"- أنا أعرف أن البركة والنعمة من الله؛ ولكن هيا تعال معنا ياخليل: وسوف تكون معنا فى أمان؛ وسوف أعيدك ثانية إلى عنيزة، وإذا كان من الأفضل لك، سأرسلك إلى الكويت أوإلى البصرة."- أنا سوف أرحل قريبا مع قافلة السمن ."- حسن، لقد بلغنا ذلك - وسمعناه أيضا فى البلدة (عنيزة) - وسوف تصل هذه القافلة فى اليوم التاسع عداً من اليوم ؛ تعال معنا وسوف أعيدك، قبل اليوم التاسع: وأنا أعدك بذلك، وسوف أوفى بوعدى."- كان جميلا حقا ، فى تلك الأجواء من الحرارة الشديدة، أن أتنفس هواء الصحراء من جديد، واستشعر الحرية من جديد، بين الأعراب؛ كما أن شربى للحليب يمكن أن يعيننى على استعادة قواى. أرسلت فى طلب الرأى والمشورة من الكنينى: وكتب لى صديقى مرة ثانية، أنى بوسعى المغامرة مع هؤلاء الأعراب. ولكن الوقت ضيق وقصير، ويجب ألا أعلق أملا كبيرا على وعود البدو.

أمضيت فى الجزيرة العربية أياما كثيرة من تلكم السنوات القلائل التى تشكل فى مجموعها حياة أى إنسان من البشر؛ وها أنذا الآن فى وسط الجزيرة العربية . وإن هو إلا شهرا واحدا – وبعده مباشرة أكون قد عدت ثانية إلى شركة الملاحة الأوروبية. المسافة من هنا إلى ساحل البحر تقدر بحوالى ٤٥٠ ميلا صحراويا، هذه الرحلة تقدر بمسير عشرين رحلة من الرحلات الكبيرة، فى أضعف الأحوال، فوق سرج الجمل غير المريح، فى حرارة شمس الصيف المحرقة؛ التى تشكل معاناة شديدة حتى لأولئك العرب الذين ولدوا فى الجزيرة العربية نفسها. يضاف إلى ذلك ،أن قواى البدنية، وصلت إلى مرحلة لم أعد أتحمل فيها الجلوس منتصب القامة؛ وفوق كل ذلك، فأنا يساورنى نوع من الخطر، نظرا لأنى سوف يتعين علىَّ الانفصال عن قافلة مكة عند المحطة الأخيرة قبل المدينة المحرمة (الممنوع على غير المسلمين دخولها). زد على ذلك كله، أننى يسيطر علىَّ قلق شديد: والسبب فى ذلك ،أننى قبل اثنى عشر شهرا، وبينما

كنت أدخل خيمة (فى وادى تربة)، فى ساعة الظهيرة، أثناء نوم البدو، عضنى فى ركبتى كلب من كلابهم. غسلت الجرح ؛ الذى التأم خلال أيام قلائل، ولكن تخلف عنه شامة حمراء اللون تشبه الزر الأحمر؛ الذى تحول حاليا (عند نهاية العام) إلى قرحة؛ ثم ظهرت بعد ذلك قرح أخرى شبيهة بتلك القرحة على ساقاى، كما ظهرت قرحة أخرى (على رسغ اليد اليسرى)- آه !ياللهول ، من أن أموت مثل كلب مسعور فى هذه الأرض المعادية.

اشترى صديقاى الكينى والبسام، ناقة من سوق الجمعة، كى أركبها وأنا ذاهب إلى جدة، وأبيعها هناك بثمن لايقل عن الثمن الذى اشترياها به؛ هذا إذا لم يتيسر أحد من أقاربهما ليركب الناقة ضمن القافلة العائدة - وصلنى فى ذلك الوقت خطابا من عبدالله البسام الطيب:'(كتب يقول): كل شىء جاهز؛ ولكنه بسبب العقلية غير المتحضرة [الحقد الوهابى] السائد بين الناس، لن يتمكن من إرسالى بصحبة ولده! وطلب منى أن أسامحه فى ذلك. ولكنهما رتبا الأمر بحيث أكون بصحبة سليمان الكينى ، والذى ينبغى أن أطلب منه كل ما أحتاج إليه [الماء، والطعام ، والمأوى فى وقت الظهيرة] وذلك طوال السير فى الطريق.' - ، أنهى رسالته بأن طلب منى إرسال قليل من حبوب الكنين: ومن فوق خاتمه كتب مايلى "با رك الله فى المسلمين المؤمنين."

أرسلت للزامل أستأذنه فى السماح لى بالمجىء إلى البلدة (عنيزة) ، لشراء بعض مستلزمات الرحلة، ولتوديع أصدقائى: ولكنه لم يؤمن لى ذلك الطلب البسيط، أهل عنيزة الطيبين فيهم الكثير من البؤس والشقاء الوهابى.

عمال الزراعة فى البستان - الذين فيهم شفقة الفقراء، كانوا كلما ذهبوا إلى عنيزة فى يوم الجمعة، يشترون لى الاشياء الضرورية: أما أسرة القصاب فلم تقدم لى من الكرم شيئا - وجاء لى حامد اليحيى ، ذات مساء فى تلك الأيام الأخيرة، راكبا فرسه؛ جاء حامد أصلا لزيارتى. هذا أول صديق من أصدقائى العائدين- واعتذر عن تأخره فى الحضور إلّى. ونظرا لأن الحكيم كان على وشك الرحيل، فقد كان يود الحصول على دواء لوالدته، التى أرسلت لى معه خرجا مليئا بنوع من الكعك (الذى

يعدونه لاستعماله فى رحلات القوافل) ، كما أحضر لى أيضا كمية من اللحم الطازج المقدد الذى يمكن أن يدوم شهرا كاملا بلا تلف. كان حامد شابا تبدوعليه مظاهر الرجولة وطيب الملامح، أى أنه كان ابن أمه - ولكنه كان أيضا ولد أبيه من حيث القوة الكبيرة، وكانت له أيضا طبيعة سمحة، وتغلب عليه الكياسة والتحرر: لم تكن لحيته قد بدأت تظهر بعد. وتلك الفرس العجوز كانت ملكا له: كما أن كون المرء خيالا جعله أيضاً يندرج ضمن النبلاء. جاءنى مرتديا لباسا طيبا، شأنه شأن أولئك الحضر عندما يسافرون إلى الخارج؛ كانت غترة رأسه محاطة بعقال ومعطرة بعطر الورد، الذى يجلبة من مكة. كان ذلك الخيال الشاب يقتاد معه مهراً، قال لى: أنه وجده مربوطا فى خيمه من خيام القحطان: قال حامد (ملتمسا لنفسه الأعذار) : أنه أحضر ذلك المهر معه إلى بيته ' ولربما مات لو تركه هناك !' وراح المهر يجرى ويلعب حول الفرس العجوز، كما لو كانت هى أمه. هذا يعنى أن تلك الفرس تبنت ذلك المهر! وأدارت عنقها إلى الخلف وراحت تنظر إلى ذلك المهر الصغير، وكانت تعطس عطسا خفيفا فى شىء من الود.

تناولنا العشاء سويا؛ وحكى لى حامد عن ملاقاتهم للقحطان. وركب حامد فرسه وهو مسلح ببندقية (إفرنجية) بروحين؛ ولكنه اشتكى لى من أن المرء لايستطيع تعمير البندقية وهو راكب على ظهر حصانه. ورددت عليه، بأن ذلك راجع إلى ركوبهم الخيل فوق (مُعَرَّقة)(*) maaraakka؛ ونصحته باستعمال الركاب Stirrups، ووجد ماقلته له نصيحة طيبة- لقد بلغ غبار المعركة حداً من الكثافة تعذر معه على حامدأن يحصى عدد خيام القحطان، التى قدرها بما لايقل عن ٣٠٠ خيمة. معروف أن قوافل مكة (المكرمة) تمر على جبل الدُّخانى؛ ولكنه قال : إنهم تحاشوا ذلك الجبل فى ذلك العام، نظرا لبقايا جثث (القحطان) التى لم يجر دفنها. سألته إن كانت القفيلة تواصل مسيرها طوال ساعات حرارة النهار!"لا، لأن ذلك قد يترتب عليه تسرب السمن (المنصهر) من خلال قراب السمن." كان يحسب أننا سنسير أثناء الليل، وذلك تحاشيا للقحطان؛ وأن قفيلتنا سوف ينضم إليها عند بلدة الرس قافلة الزبد القادمة من بريدة .

(*) مُعَرَّقه: هى ما يطلق عليه الفلاحون المصريون اسم "العرَّاقه" وهى عباره عن قطعة من الخيش توضع على ظهر الحمار أوالحصان ،لامتصاص العرق ومنعه عن الراكب .(المترجم)

جلس حامد معى ساعة أخرى، فى ضوء القمر: احتج حامد، أن صداقتنا سرعان ماوصلت إلى نهايتها ، وإننا سوف نفترق عن بعضنا البعض ـ وقال: إننا بعد فتراقنا يجب ان نكتب لبعضنا البعض . وركب حامد فرسه؛ لم التقيه بعد ذلك.

جرت العادة فى هذه البلاد[انظر الجزء الأول] أن يتجمع كل أولئك الذين سيسافرون ضمن القافلة، فى مكان محدد خارج البلدة (عنيزة): يتجمعون فيه مساء اليوم السابق للرحيل ؛ لكى تبدأ القافلة تحركها مع شروق الشمس.

الفصل السادس عشر

مغادرة القصيم، مع قافلة الزبد المتجهة إلى مكة

عبدالله الكنيني؛- وداع أخير. سليمان، تاجر جوال فى القافلة. مخيم عويهلان. أمير القنيلى. الرحيل. وقفة الظهيرة. مسيرة العصر. محطة المساء. الرس. جبال آبان. إبراهيم، الأمير. رياح السموم. آخرالقرى الصحراوية. السقيا. الرفاق البدو.- ألا تروى أمطار الرياح الموسمية هذه الصحارى؟ إنذار. رجال القوافل والبدو. السيول فوق سطح الأرض إلى وادى الرماح. الإبل والجمّالة. عفيف، محطة بئرية. علامات الصيادين. مسارات القوافل إلى مكة. وادى جرير. العلامات الأرضية الجبلية. ظلم وخال. مذاق الماء المتغير. حرّة الكشوب. العطش فى القافلة. رأى سليمان فى البحار الإنجليز. مسقى جميل. الموى: صياح فى منْزل المساء. الرُكّابة. البدو. مسقى شعارة. حرة عشيرى. الرّبع. السيل [قرُن المنازل]. رئيس وادى الحمض. جانب جديد من الجزيرة العربية. رجال القافلة أوشكوا على دخول مكة يأخذون الإهرام. الهذيل. انحدار الأشراف من سلالة محمد. الوصول إلى عين (الزيمة). مكة مدينة التهامة. النصرانى يترك القافلة عند المحطة السابقة لمكة؛ ويعتدى عليه شريف بدوى.

فى اليوم التالى، وعند غروب الشمس، جاءنى مراسل من عبدالله الكنينى؛ ومعه الناقة التى سوف أركبها إلى جدة. ركبت الناقة؛ وجاء عمال رشيد الذين تركوا عملهم فى ذلك اليوم ومعهم العبدة المسكينة، جاءوا ليأخذوا بيدى؛ ودعوا لى بالبركة عندما بدأت أتحرك. اتجهنا صوب مزرعة عبدالله الكنينى: حيث أبلغونى أننى ينبغى أن أقضى فيها اليوم التالى. لم تكن المسافة تزيد على ميلين؛ ولكنى وصلت إلى المزرعة فى فترة الغسق، أى قبيل طلوع النهار، وكان الجو مايزال مظلما: تركنى رفيقى فى مزرعة الكنينى؛ ونمت على أرض مزرعة النخيل المنعزلة إلى جانب البئر.

ومع شروق الشمس، جاءنى عبدالله الكنينى! جاءنى راكبا حمارا، قبل أن تشتد درجه الحرارة. وبعده بلحظات جاء عبدالله البسام ماشيا على قدميه: "قال: آه! ياخليل، وهو ممسك بيدى، نحن خجلانين لما أصابك، ونحن نشعر بالخجل أكثر لأن ذلك الذى أصابك حدث هنا! ولكنك تعلم أننا مغلوبون على أمرنا من هؤلاء الناس الحمقى." طلب الكنينى المزيد من ذلك الدواء الذى أفاد عينى والدته؛ وقمت بتوزيع أدويتى عليهما. وهنا جاء حامد الصافى؛ وجلس مع أولئك الأصدقاء إلى مابعد طلوع الشمس بنصف ساعة، وعندها نهضوا واقفين لكى يعودوا لتناول طعام الإفطار، وقالوا لى: إنهم سيزورونى فيما بعد. وجاء الصافى ليزورنى فى العصر مرة ثانية؛ ذلك الرجل الذى كان يود تحسين ماليه من كلام اللغة الإنجليزية- ولم يحضر أى أحد آخر من أصدقائى ومعارفى لزيارة ذلك النصرانى المحروم من الرحمة والمغفرة.

وصل عبدالله الكنينى الطيب راكبا حماره لزيارتى للمرة الثانية، فى براد عصر ذلك اليوم، وكان بصحبته ولده محمد. كان الرجل ضعيفا فى ذلك اليوم، كما لو كان منهك القوى، ومتدنى المعنويات؛ رأيته وهو يرتعش، عندما جلس يتحدث معى: فى حين كان الطفل يلعب حولنا، وطلب منه والده أن يلزم السكون والهدوء، حتى يتسنى لعبد الله الاستماع إلىّ. رجوت عبدالله الكنينى أن يسامحنى على القلق الذى أصابه نتيجة مجيئى إلى عنيزة: ولكنه لم يرد على ماقلت.

فى المساء: جاءنى سليمان Sleyman، راكبا ناقة، ومعه ولده الصغير. كان سليمان متجها إلى مكان تجمع القافلة، وكان ينهى كلامه مع قريبه، الذى أقرضه النقود الذى يعمل بها فى التجارة. نادى عبدالله خليلا وطلب منه إنزال طفله؛ ويقوم خليل بالركوب ومعه حاجياته- ركبت مع سليمان؛ ومررنا من خلال كسر فى الجدار، الذى كان يحيط بمزرعة الكنينى. قطع عبدالله معنا مسافة طويلة؛ وبعدها توقفت كى أودعه: ودعته وداعا من القلب وتمنيت له كل البركات والنعم السامية Semitic؛ وودعت ذلك الابن الخير من أبناء بنى تميم وداعا حميما. وقف عبدالله صامتا ساكنا وحزينا: هذه هى روح ذلك الرجل الضعيف وقد بوعد بينها (وهذا من سوء الطالع!) وبين ذلك المستقبل الذى كان يتطلع إليه- والذى ينبغى لنا أن نراه ونقف عليه [وبعد ذلك بثلاثة أشهر قام عبدالله الكنينى بالذهاب إلى مكة لأداء فريضة الحج : ثم عاد بعدها إلى

البصرة عن طريق البحر ولكن قواه خذلته؛ وحاول الرجل، ولكن بلا جدوى، العثور على جو أفضل فى أبى Abu شهر(*) Shahr على الساحل الفارسى- وفى صيف العام الثالث، كتب إلى سليمان ولد عبدالله البسام الأصغر، من جدة؛" عبدالله الكنينى المسكين، توفى منذ أشهر عدة، والمحزن أنه توفى فى مدينة البصرة: لقد كان رجلا طيبا، ويتمتع بشعبية كبيرة"].

مضينا راكبين مدة ساعة أو ساعتين، فى ذلك الطريق الأجوف، المنحوت فى النفود، الذى سبق لى السير فيه أثناء الليل وأنا فى طريقى إلى الخبيرة، كان الظلام قد أرخى سدوله عندما وصلنا إلى مكان تجمع القافلة؛ الذى راح فيه سليمان يرحب بسائقيه الذين سبقونا فى الوصول إلى ذلك المكان، ومعهم أحمالهم. أوصلونا إلى المكان المخصص لنا فى المخيم؛ وهو المكان المخصص لكل المرافقين كى ينزلوا فيه عن إبلهم ويبركوها فيه. شبوا فى ذلك المكان نارا كى يصلحوا شيئا من القهوة، وشاهدت قرب السمن الخاصة بسليمان (والتى بلغ عددها حوالى أربع وعشرين قربة أى ما يعادل طن واحد من السمن) وقد رصوها بطريقه منظمة: كان من بين تلك القراب أربع قراب التى تتسع الواحدة منها لحوالى خمسة عشر صاعا Sah (من صياع القصيم)، وهذه بحد ذاتها تشكل حمولة جمل واحد، وقيمتها تساوى ثلاثين ريالا، وكانوا يتطلعون إلى بيعها بستين ريالا فى مكة- كان الكثيرون من أبناء عنيزة يمضون تلك الليلة فى المخيم مع أصدقائهم وأبنائهم المسافرين. وكان تجمع القافلة الملكية يقع فى منطقة النخيل على أطراف مدينة عنيزة، والناس هنا يطلقون على مكان التجمع هذا اسم العويهلان Auhellan؛" ويقال إن هذا المكان فيه بعض الكهوف Caves القديمة ancient المحفورة hewn فى الصحراء الرملية وأنا لم أسمع عن هذه الكهوف إلا فى هذه اللحظة فقط، وبالتالى لم يكن أمامى متسع من الوقت كى أدقق فى هذا الأمر.

(*) أبو شهر : ميناء يقع فى الساحل الشرقى للخليج العربى كان مركزا للمقيمية البريطانية منذ عام ١٨٢٠ حتى انتقالها إلى البحرين ثم إلغائها فى عام ١٩٧١ عقب الانسحاب البريطانى من الخليج ويطلق على الميناء اسم بوشهر .(المراجع)

– لكنى الآن سمعت ولأول مرة، أن القافلة لم يكن فيها أحد مسافر إلى جدة! إذ كان كل من كانوا فى القافلة مسافرين إلى مكة. كان عبدالله الكنينى قد كلف سليمان؛ وكان البسام، الرجل الطيب، قد كلف ولده عبدالرحمن، أن يديرا بالهما علّى، وأنهما فى المحطة السابقة لمكة [سواء أكانت وادى الليمون، أوالسيل] ينبغى عليهما أن يوفرا آدميا adamy، ليقوم بنقلى (من دون دخول الحدود، أو إن شئت فقل: حدود الأرض المقدسة) إلى جدة- وهذا الكنينى الطيب، الذى لم يسبق له أداء فريضة الحج، لم يكن يعرف الطريق؛ يضاف إلى ذلك أن عقله الواسع لم يتصور الخطر الذى يمكن أن يتهددنى فى المرحلة الأخيرة من الرحلة.

كانت قافلة الزبد تضم ١٧٠ جملا ، تحمل مايقرب من ثلاثين طنا من السمن- وحوالى سبعين رجلا، كان أربعون منهم يركبون نياقا ، أما الباقون فكانوا حداة للإبل. تم تقسيم القافلة إلى جماعات صغيرة؛ وكان كل رئيس من رؤساء تلك الجماعات بصحبة أصدقائه وخدمه المستأجرين للقيام بتلك الرحلة. وكانت كل جماعة تحمل معها خيمة أو تعريشة، تتقى بها أشعة الشمس وحرارتها فى أوقات الظهيرة من ناحية، ولحماية السمن من حرارة الشمس من الناحية الأخرى ، ذلك السمن المنصهر والموضوع فى قراب مصنوعة من جلود الماعز؛ (والناس هنا يطلقون على القربة المصنوعه من جلد الماعز وتستخدم فى نقل السمن أسم 'الجرم' jerm وجمعه جروم Jerum): هذه الجروم يدهنها الناس هنا من الداخل بشراب سائل يصنعونه من التمر. وكل قربة من القرب تحتوى على مايزن مائة صاع، يجرى تعليقها عن طريق عقدة (محكمة الربط عند الطرفين) فى هيكل سرج الجمل. فى بعض الأحيان قد ينفجر جرم من تلك الجروم أثناء سير القافلة، وينساب ذلك السمن القيم كما لوكان ماءً على أرض هذه الصحراء الجرداء: فى بعض الأحيان قد تحتك الإبل الحاملة لذلك السمن ، بأشجار السنط، الأمر الذى يؤدى إلى وخز تلك القراب بفعل أشواك أشجار السنط. وكان برفقة تلك القافلة مُرتق botcer، كانت مهمته القيام، فى محطة المساء، بإصلاح الأضرار التى يمكن أن تكون قد لحقت بقراب السمن - كل هذه الكمية من السمن، التى تساوى أكثر من ألفى جنيه إنجليزى فى مكة (المكرمة)، جمعها التجار ابتداء من فصل الربيع، من خلال اتجارهم مع البدو: كان تجار عنيزة يخزنون ذلك السمن ، طوال ذلك الوقت، فى أوعية من الرخام.

هذه القافلة الحضرية الكبيرة يعين الزامل لها أمير: وهذا الأمير يكون واحداً من أقارب الأمير؛ وهذا الأمير يتقاضى ريالا عن كل جمل من الجمال- وكان الكنينى قد حصل من الزامل على خطاب يزكينى عند أمير القافلة؛ ويكلفه فيه أيضا بمسئوليته عن سلامتى، عندما أغادر القافله عند "بلدة العين."- جلسنا نتجاذب أطراف الحديث حول وجار القهوة، إلى أن بدأنا نشعر بالتعب والإرهاق؛ ثم رقدنا على الأرض لننال قسطا من النوم، على رمال التفود.

استيقظنا مع طلوع الفجر وكان أمامنا متسع من الوقت لشرب القهوة. كان الأمير، هو وبعض تجار عنيزة الشبان، والذين سيعودون مع القافلة، قد أمضو الليل فى البلدة: لأنهم كانوا سيلحقون بنا، راكبين نياقهم العُمَانية Omanias.[نياق منطقة الخليج "التى يقولون لها: 'عُمان' بضم العين أوُعامان' Aman' بفتح العين هى من النوع القوى كما أنها كبيرة الحجم؛ ولكن تلك النياق لاتصبر كثيرا على الجوع أوالعطش مثل بقية أنواع النياق الأخرى. والناقه العُمانية Omania ' الجيدة تساوى مايتردد بين ٥٠ إلى ٧٠ ريال فى عنيزة ، يصعب شراؤها فى موسم الحج فى مكة - حيث ترتفع أثمان ذلك النوع من النياق - بمبلغ ١٥٠ ريال]. عندما طلعت الشمس قام أفراد القافلة بتحميل أمتعتهم وبضاعتهم ، واستأنفوا المسير. وبعد ذلك مباشرة دخلنا فى وادى الرماح؛ الذى سرنا فيه إلى ماقبل ساعتين من دخول وقت الظهيرة؛ ثم نزلنا بعد ذلك فى شعب الشبيبية es-shibbieh، لنرتاح ونمضى فترة الظهيرة (يقيلون) Yugyilun. توجد فى ذلك المكان بعض المزارع الشتوية التابعة لعنيزة، وفيها أنقاض بعض المبانى الطينية، كما أن لهذه المزارع أفنية لها أسوار عالية . هذه المزارع لايسكنها سوى عمال آبار المياه، وهم يقيمون فى تلك المزارع بداية من بذر الحبوب فى فصل الخريف إلى ماقبل موسم الحصاد. من تلك الآبار جلبنا ماءً مالغ الطعم وملأنا منه قرابنا. كانت حرارة النهار شديدة جداً؛ ووجدت أن درجة الحرارة تحت التعريشة كانت حوالى ١٠٥° فهرنهتية. كبار الشخصيات لها خيام خاصة، مصنوعة بطريقة البدو، وهنا بعض آخر من الشخصيات يستعملون تعريشات (تاندات) مصنوعة من السجاد البغدادى ولم أشاهد فى القافلة كلها سوى خيمة أوخيمتين من الخيام المستديرة - التى جلبت من الساحل؛ كما شاهدت أيضا بعض الخيام المهلهلة المصنوعة من الشعر [التى قيل لى

إنها من الغنائم التى حصل عليها أهل عنيزة من القحطان!] التى كان يقيم فيها بعض الرفاق الفقراء البائسين- كانت حمولة سليمان الكنينى التى تقدر بسته أحمال من السمن مشاركة مع عبدالله الكنينى :إذ كان عبدالله جمالاً، كما كانت الإبل ملكه أيضا.

ربما كانت الساعة قد وصلت الثالثة قبل تحرك القافلة، - وكانت الشمس الحارقة قد بدات تتجاوز مرحلة الزوال: وقد صدرت إشارة التحرك بصيحة من خادم الأمير عندما نادى قائلا: الشَّيل S-SHI-IL وإن هى إلا لحظة حتى بدأت التندات والخيام والتعريشات تتهاوى على الأرض، وأحضرت الإبل وجرى تبريكها فى مكانها، وراح عمال القافلة يخرجون قراب السمن الثقيلة؛ وهذا العمل دائم ومستمر، إذ يقومون من خلاله بتحميل الإبل، قبل تحرك القافلة: وبعدها يأتى على الفور حداة الإبل لكى تستأنف القافلة المسير؛ وعندها يجرى التخلى عن أولئك الذين تباطأوا فى التحميل. ويقف خادم الأمير أمام القافلة كما لوكان راعيا من الرعاة - فارداً ذراعيه مانعا المقدمة من التحرك، إلابعد نهوض بقية الإبل؛ أو، قد يجرى هنا وهناك، وهو يصيح مناديا على أولئك الذين تأخروا فى إطاعة الأوامر. وتبدأ القافلة مسيرها؛ ولكن الجماعات تمشى قريبة من بعضها البعض، تحسبا للصحراء وأخطارها. كان طريقنا المتجه جنوبا يمر خلال وادى الرماح، الذى هو سهل واسع من الرمال الأكثر تماسكا فى صحراء النفود. هذه هى جبال أبان Aban تتراءى لنا ناحية الغرب، وقد غطاها السديم أوإن شئت فقل: الضباب الرقيق. [والأبانات Abanat يمكن رؤيتها، فى فترة الشفق، من فوق التلال المحيطة بعنيزة] وعند غروب الشمس نزلنا من فوق راحلاتنا عند بعض العزب الزراعية الواقعة على أطراف البلدة - وهذه العزب على وجه التحديد هى الرَّس er-Russ، والحجنوى el-Hajnowwy، وهما تقعان خارج الوادى؛ كنا فى ذلك المكان نسير بمحاذاة الخبيرة Khubbera.

القافلة لاتنصب خيامها أثناء الليل؛ ولكن كل جماعة من الجماعات تستعمل تعريشتها أو تندتها فى الجلوس عليها فى العراء؛ ثم يستعملها بعد ذلك رئيس الجماعة للنوم عليها . ومن بين كل جماعة هناك رجل يقوم بدور الطاهى ويتمثل دوره فى الخروج لجمع الحطب المطلوب للوقود؛ وهناك شخص آخر يقوم باقتياد الإبل كى ترعى مدة نصف ساعة هى ماقبل حلول الظلام. رافق سليمان ثلاثة من حداة الإبل: أولهم رجل

فقير الحال من حضر عنيزة، وكان يقوم بدور الطاهى فى جماعتنا؛ والرجل الثانى كان بدويا ـ وبعد ساعة من الزمن يجرى وضع طبق العشاء (الذى يتكون من طعام من قمح مسلوق) أمامنا. وبعد تناول العشاء، نشرب القهوة: ثم يجلسون برهة يدردشون خلالها ويدخنون التبغ؛ ثم يلف كل واحد منا نفسه فى عباءته ويروح ينام على الرمل، تلك الساعات القليلة المتبقية على شروق الشمس.

قبل الفجر بساعة واحدة سمعنا صيحة تقول :'الرحيل!' وهنا سارع الجميع إلى النهوض واقفين فى أماكنهم؛ وهنا بدأنا نسمع الضجيج الناتج عن قيام الناس بأعمالهم؛ كما تناهى إلى مسامعنا الصوت الناتج عن نهيق الإبل. وإن هى إلادقيقة واحدة أودقيقتين حتى أصبح الجميع واقفين على قدم وساق: ثم ركب حداة الإبل نياقهم؛ أما أولئك السائرون على الأقدام فقد راحوا ينظرون حولهم على الأرض التى يكسوها الظلام، كى يتأكدوا من أنهم لم يخلفوا أو ينسوا شيئا وراءهم ـ وتبدأ القافلة فى التحرك؛ لتبدأ مسيرة يوم جديد، ويستمر المسير طوال ذلك اليوم القائظ إلى حلول المساء. وبعد مسير ثلاث ساعات ، فى السهل الصحراوى، مررنا من أمام بلدة الرس ، التى لم يتورع سكانها قبل جيلين، من أن يقطعوا سيقان النخيل على سبيل مقاومة الهجمات التى كان إبراهيم باشا يشنها عليهم. أرسل أمير القافلة مندوبا إلى الرس لمعرفة الأخبار ؛ وعاد إلينا ذلك المراسل بخبر مفاده أن قافلة السمن الخاصة ببلدة الرس قد انضمت إلى قافلة بريدة، التى مرت على الرس قبل يومين. الرس (التى يقولون إنها أكبر من الخبيرة) تظهر على شكل واحات ثلاثة تقع على الناحيتين الشمالية والجنوبية، وعلى بعد مسافة قريبة. وفى الواحة الأولى توجد الرويضة er-Rueytha، وهى مدينة؛ وفى الواحة الثانية توجد الرافية er-Rafya، وهى عبارة عن قرية وبرج مراقبة يشرف على أعالى النخيل ، والواحة الثالثة يسمونها الشنّانى Shinnany. والرس هى آخر المستوطنات من الناحية الجنوبية وهى تعد البوابة الحقيقية للقصيم ـ وهنا نكون قدأصبحنا على حدود النفود؛ وبالتدريج يتحول السهل إلى سهل زلطى من تحت أقدامنا : وهنا ندخل إلى ذلك الإقليم المتوسط من الجزيرة العربية المكون من الصخور الجرانيتية والبازلتية، وهذا الإقليم المتوسط يمتد من جبال الشمر إلى مكة. وحقول قمح الرس موجودة فى وادى الرماح؛ أما النخيل فيوجد فى أعالى وادى الرماح.

شاهدت أبنات Abanat ـ التى تبعد عن هنا مسير نصف يوم فى اتجاه الغرب، شاهدتها على شكل ساحل جبلى، مثل جبل أجأ Ajja، الذى يمتد فى اتجاه الجنوب. هناك جبلان أحدهما وراء الآخر؛ وحوض الوادى (الذى ليس متسعا اتساعا كبيرا هنا) يقع فيما بين هذين الجبلين. والجبل الشمالى يطلقون عليه اسم الأحمر el-Ahmar، بمعنى 'الجبل الأحمر'.

وصلنا عند الظهر إلى أم تيه Umm Tyeh، التى هى عبارة عن حقل من حقول زراعة القمح التابعة للرس وتقع على أطراف البلدة ويعيش فيها بعض السكان؛ وعندما نزل البعض منا إلى تلك الحقول طلبوا شيئا من الماء، عثروا على قطعة من الأرض مزروعة بالتبغ عاد إلينا رجال عنيزة وهم يضحكون، ليحدثونا عن تلك المغامرة التى قاموا بها فى المنْزَل الذى توقفت فيه القافلة: والسبب فى ذلك أن وقت الظهيرة دخل عليهم واضطرت القافلة إلى التوقف هناك. ـ تحركنا من ذلك المقيل mogyil فى ساعة مبكرة؛ ثم مضينا قدما خلال سهل صحراوى ملئ بالصخور والقمم الجرانيتية والبازلتية حمراء اللون [من نفس نوع البازلت والجرانيت اللذان سبق أن شاهدناهما فى ديرة حرب وفى ديرة الشمر فى اتجاه الغرب]. وفى النهاية ومع غروب الشمس، ومع ظهور الضوء الأصفر المتوهج خلف جبال آبان Aban، توقفنا ورحنا ننصب مخيمنا.

أحضر لى اليوم عميل من أولئك الذين يتعاملون مع عبدالله البسام ذلك الخطاب الذى أصدره الزامل، ويزكينى عند إبراهيم ، أمير القافلة الشاب. إبرهيم ـ الذى خلف والده، الذى كان إلى وقت قريب جداً أميرا القافلة البلدة ـ هو ولد أخت الزامل ، وهو شيخ شاب صغير السن يبلغ من العمر عشرين عاما، ويوحى محياه بالشجاعة؛ وهو شبيه بالزامل يوم أن كان فى شبابه، بالرغم من أن ملامحه ليست شبيهة بملامحه: وإبراهيم شخصية مبتسمة، واثق بنفسه ومستقل برأيه ، ولكن الصدأ الوهابى كان مسيطرا على روحه. كان ذلك هو حال السواد الأعظم من الشبان الصغار فى الواحات الحرة، تراهم دائما يتقنعون كما لوكانوا يرتدون ثياب العطلة: ولكن إذا ما تغير حظهم تراهم أغرابا منحطين وظلمة. تسلم إبراهيم من يدى رسالة الزامل، ثم وضعها فى صدره بسرعة دون أن يفتحها؛ وذلك لأنه سوف يقرأ على انفراد ذلك الذى

كتبه له خاله عن النصرانى ! كان إبراهيم يكشف لى كل يوم عن بشاشته؛ وفى بعض الأحيان؛ وأثناء المسير، وعندما كان يرانى غارقا فى سرج الجمل، كان يركب معى، ويضع فى يدى غليونه الذى يكون قد أشعله فى التو: وفى بعض الأحيان، كان يعزمنى على تناول الغداء معه، وذلك فى المكان الذى ننزل فيه فى فترة المساء. كان شباب التجار العائدين إلى مكة، التى لهم فيها دكاكين، ومعهم قلة قليلة من أصحاب إبل القافلة، كانوا كلهم يركبون نياقهم ، ويرافقون إبراهيم فى مقدمة القافلة: وكانوا ينزلون بين الحين والآخر لإشعال شىء من الحطب لتصليح شىء من القهوة. أما أنا فقد كنت أسير بناقتى، بين إبل الحمل ولا أشعر أوأحس بكثير من التعب أو الإرهاق ـ قال إبراهيم وهو يضحك :إنه سمع عنى أول مرة فى الكويت (التى كان قد وصل إليها ضمن قافلة من القوافل)، 'أن نصرانيا وصل إلى حائل، وطوله tulahu ثلاثة Thelathy أرماح armah، بمعنى 'أن طول قامته يصل إلى ثلاثة أرماح!' وأن ذلك الغريب لم يتكلم طيلة ثلاثة أيام! وأنه اكتشف بعد ذلك منجما لابن الرشيد، ثم اكتشف بعد ذلك منجما آخرا!ـ قضينا تلك الليلة بجوار صخرة الكير el-Kir التى هى أقصر من قمة جبل Jebel كيزاز Kezaz، وكان جبل دوخانى Dokhany لايبعد عنا سوى مسير ساعة واحدة، فى الناحية اليمنى ؛التى يوجبها بعض حفر المياه الضحلة، وبعض الأساسات الأرضية لمبنى قديم.

واصلنا مسيرنا فى الصباح وسط الأراضى المرتفعة التى كانت تحيط بنا، كما كانت تحاصرنا من كل جانب صخور البازلت وصخور الجرانيت .[والمنحدر يأخذ فى الارتفاع التدريجى فى اتجاه الطائف]. وصلنا فى ساعة مبكرة إلى حفر المياه المالغة فى الرقة er-Rukka: وجلبنا ماء من تلك الحفر ، وملأنا منها قرابنا : هذا الماء الكثيف كان مليئا بمخلفات ماشيه البدو الرحل؛ ولكن من هو الذى يمكن أن يمتنع عن الشرب فى الصحراء، من يفعل ذلك يتحتم عليه أن يموت . فى الرقه توجد قلعة مربعة، لها أسوار عالية وأبراج للمراقبة عند أركانها المختلفة؛ وقد بنى تلك القلعة أهل الرس، لكى يحتموا بها عندما يجيئون إلى هناك لاستخراج ملح البارود ، وهو ما يلوث آبار محطات المياه القديمة ـ شربنا واسترحنا مدة ساعة، ولكننا لم نرتو بحق أونشعر بالانتعاش: والسبب فى ذلك أن السموم، أو إن شئت فقل: رياح الأراضى الحارة ـ كانت

تهب علينا كما لوكانت لفحة من اللفحات التى تصدر عن الأفران؛ هذه اللفحة تكون خفيفة وخالية من الأكسوجين، على نحو لا يسمح؛ بامتلاء الرئتين ،أوانعاش الدم؛ وهو مايتسبب فى إغماء وخوار قوى كل من الإنسان والحيوان - كنت أحاول عون نفسى من خلال التنفس من خلال قطعة من الإسفنج المبلل بالماء .

ركبنا راحلاتنا من جديد وغادرنا جبل Jebel أمرى Ummry الذى كان على الجانب الأيمن، هذا الجبل عبارة عن معلم أرضى طويل من البازلت - تعجبت عندما رأيت أمامنا ثلاثة رجال فى الخلاء! كان هؤلاء الثلاثة من الحطابين من الذّريّة Therrieh، تلك القرية الصحراوية التى كانت تبعد عنا مسير ساعات قلائل فى اتجاه الغرب ؛ وكانت قوافل عنيزة تمر بتلك القرية طوال سنوات قلائل. وعلى بعد أميال قليلة من تلك القرية توجد قرية أخرى اسمها مسكة : Miskeh هذه القرى، كلها عبارة من مزارع للقمح، وخالية من النخيل ، وقرية مسكة هى الأكبر - إذ تحتوى على خمسين بيتا، وإلى الغرب من قرية الذّرية هناك هجرة (كفر) أخرى اسمها ثورية Thoreyih وهى فى جبل شابا Shaba. وأهل هذه القرى عبارة عن خليط متباين من الأقارب، جاءوا كلهم من القصيم ، ومنهم أيضا بعض من البدو الرحل ، ومن بينهم أيضا بعض الزنوج :هناك أيضا من يقول :إن هذه القرى كانت فى الماضى مستوطنات للحطيم . الشيخ مُذكر Muthkir ، أحد شيوخ عتيبة، الذى كان يرافقنا فى القافلة :[والذى كان إخوانه القبليين يشكلون أعراب هذه الصحراء الشاسعة] قال: " هؤلاء القرويون من المنور Muthur". وأن البدو الرحل الذين يحيطون بهم، هم من المطير فى بعض الأحيان ، كما كانت قبيلة حرب، فى أحيان أخرى [تعتدى عليهم من ناحية الغرب]، وفى أحيان ثالثة كان العتبان يعتدون عليهم أيضا؛ ولكن هؤلاء العنوز المهاجرين، كانوا فى السابق هم جيران هؤلاء القرويين، وأن هؤلاء العنزيين موجودون حاليا فى الصحراء السورية ، وفى أقصى الشرق توجد ثلاث قرى أخرى، وهذه قرى صحراوية : الشعرة es-Shaara: الدوادمى Doadmy القويعية Gaayieh التى تقع على طرف طريق الحج من شقراء Shuggera وسكان هذه القرى من بنى زيد Zeyd ، ويقال إنّ جد هؤلاء السكان كان صلوبيا!- مضينا فى طريقنا خلال تلك الجبال والقمم الصخرية، إلى أن

توقفنا فى المساء أسفل قمة يطلق الناس عليها هنا اسم الفرجين Ferjeyn ؛ التى شاهدت فيها بعض المناطق الأرضية القديمة التى تحتوى على كتل صخرية كبيرة.

فى الصباح واصلنا المسير فى المنحدر نفسه، الملئ بالصخور والقمم والجبال، والجرانيت. وعند الظهر لم نعد نحس بحرارة الأمس الشديدة؛ وقرأت على البارومتر أننا وصلنا إلى ارتفاع خمسة آلاف قدم! حيث كان هواء الصيف خفيفا ومنعشا ها نحن نرى، عن شمالنا جبال المنَّيَّة ، فى حين نرى عن يميننا جبلا كبيرا من الجرانيت يطلق الناس عليه هنا اسم التخفة Tokhfa. وكان مقيلنا mogyil بجوار مسقى من المساقى يطلق الناس عليه اسم الغرول el-ghrol ، وهو يقع فى أرض مجوفة وسط جبال مستوية السطح : التربة خضراء بفعل نمو بعض الأدغال الصحراوية الشوكية؛ كما يوجد فى هذه المنطقة أيضا جُلبان golban من جلابين الأقدمين، يصل عمقه إلى قامتين ، ومبطن تبطينا جيداً . وماء هذا الجلبان عذب وقليل الكثافة، وهو المصدر الوحيد الذى يشرب الناس منه على امتداد ذلك الطريق الطويل؛ وطول هذا الطريق الواصل من القصيم إلى منطقة مكة (المكرمة) يقدر بحوالى خمسة عشر رحلة ـ وهناك جبل يطلقون عليه اسم الجبلى Gabbily، يقع فى اتجاه الشرق، ويبعد عن هنا مسير يوم كامل، والناس هنا يقولون :إن صخور ذلك الجبل مجوَّفة بشكل غريب.

الصحراء العالية هنا تشكل أفضل المراعى البرية التى شاهدتها فى الجزيرة العربية كلها: والأدغال هنا قليلة العدد، ولكن الأرض هنا يكسوها اللون الأبيض الناتج عن نمو ذلك العشب الصحراوى الذى يطلق الناس عليه هنا اسم النوسى nussy. ـ ما السبب وراء ابتسام هذه الأرض الجرداء القاحلة فى هذه المنطقة، وذلك على العكس من بقية هذه الأرض نفسها فى الأماكن الأخرى، والتى لاتبعد عن هنا مسافة كبيرة؟ سألت العتبان الذين كانوا ضمن القافلة بصحبة مذكر Muthkir، عن سبب ذلك؛ وأجابونى أن الأرض الصحراوية فى هذه المنطقة تسقط عليها زخات الأمطار فى فصل الخريف كل عام ـ أليس ذلك بفعل وقوع هذه المنطقة على حدود الأمطار الموسمية، أوإن شئت فقل : فى منطقة الأمطار المدارية؟ وأن هذه الأمطار تكون غزيرة جداً فى مطلع فصل الخريف، وتستمر خمسة أوستة أسابيع فى الطائف؟ نحن نشاهد هنا فى كل الأنحاء أنواعا متباينة من أشجار السنط، وتلك علامات تدل على أن الماء السطحى

موجود على أعماق ليست كبيرة: وهذه الأرض الواسعة الشاسعة (التى تصل مساحتها إلى مايقرب من ثلاثمائة ميل مربع) ليس فيها مستوطنة واحدة! [ربما كان ذلك راجعا إلى ندرة الماء أو لعدم صلاحيته]. والأعراب فى هذه المنطقة، تخلُّوا مؤخرا عن تلك الأرض وهجروها لأنها تقع عند ملتقى الطرق التى يسكنها أبناء الرشيد ويستخدمها ابن الرشيد؛ يضاف إلى ذلك أن آبار المياه المهجورة تردم لقلة تطهيرها ـ" بعد المسقى ، واصلنا مسيرنا إلى أن دخل علينا المساء: ونزلنا فى مكان يطلقون عليه اسم الشعب es-Sheab ويقع بالقرب من جبل البازلت ومصدر الماء الذى يقال له كبشان Kabshan. وارتفاع الأرض فى هذه المنطقه لم يطرأ عليه تغيير إلى الآن.

فى صباح اليوم الخامس كنا مانزال نمشى فى نفس الجزء المرتفع من البلاد، وهذا الجزء المرتفع عامر بالتلال الصغيرة، التى هى فى معظمها من الجرانيت ؛ كما أنها غريبة الشكل فى معظم الأحيان، نظرا لأن الصخر الجرانيتى فى هذه المنطقة يمتد مثل لوح منبسط فوق الأرض ، كما لوكان قبَّة فى بعض الأماكن وقشرة خفيفة فى مكان آخر: وقد شاهدت هنا تلة صغيرة من البازلت، فيها عرق غريب، وهى تشكل علامة أرضية يسميها الناس هنا'مسار الذئب'. وقبيل دخول وقت الظهيرة تجاوزنا آثار غزو كبير؛ قال الناس عنه إنه كان آخر غزو قام به ابن الرشيد مؤخرا على عتيبة، صدر إنذار قبل الظهر توقفت القافلة على إثره: ظن بعض الناس أنهم شاهدوا بعض الأعراب. وهنا راح كل واحد يستعد بسلاحه؛ وقام الكثيرون منهم بإطلاق نيران بنادقهم ، حتى يتسنى لهم تعميرها مرة ثانية؛ فى حين راح حداة الإبل الذين كانوا يمشون على أقدامهم يلوحون برماحهم ويقفزون ويرقصون: واقتربت الجماعات من بعضها البعض؛ ثم بدأت القافلة تتقدم على نحو أفضل مما كانت عليه. وها هو سليمان، كان من بين أولئك الذين أخرجوا بنادقهم من أكياسها، واندفعوا إلى المقدمة وهم يكشرون عن أنيابهم حقدا وغيظا. حذت الأغلبية حذو أولئك الرجال؛ لأن ذلك هو تشدد القافلة، التى تروح تتوعد أعداءها بأشياء مستحيلة!ـ ذئاب الصحراء من البشر. أرسل إبراهيم الكشافة لاستكشاف أحوال العدو الذى يحّوم حول القافلة: وعاد أولئك الكشافة ليقولوا لإبراهيم: إن ذلك العدو لم يكن سوى مجموعة من الأشجار الصحراوية ! وهنا سمعنا خادم أمير القافلة وهو يصيح قائلا:'امضوا قدما مطمئنين !'

عندما توقفنا عند الظهيرة، كنا مانزال على ارتفاع ٤٥٥٠ قدما ـ وفى فترة العصر واصلنا مسيرنا خلال سهل صحراوى ، فيه الكثير من التين والقش، ولكنه شديد القحولة: هنا بدأت صخور البازلت تطغى على صخور الجرانيت وبدأت تظهرلنا بالفعل اثنان أوثلاثة من النباتات الصحراوية ، الجديدة أوإن شئت فقل :التى لم يسبق لى رؤيتها من قبل. يبدو أن هذه النباتات تنتمى إلى مناخ آخر: لم نر أى أثر للنشاط البشرى فى هذه المنطقة. وعندما بدأت الشمس فى الغروب نزلوا عن راحلاتهم فى مكان يطلق الناس عليه هنا اسم أم umm مشعاب Mesheaib ؛ كنا هنا على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم. وبذلك نكون، اليوم قد تجاوزنا أعلى منطقة فى صحراء الوسط الضخمة ـ ومع بداية الغسق ظهر من حولنا فى السماء نيزك استمر لحظة، وكان جميلا؛ ثم انطلق بعد ذلك فى السماء منقسما إلى نجوم صغيرة.

عثرت على مذكر Muthkir فى كل المنازل التى كانت تحت مظلة إبراهيم : والسبب فى ذلك أن مذكّر نزل عن راحلته مع الأمير. هذا الشيخ البدوى ركب معنا لكى يؤمن القافلة ويضمن سلامتها فى جميع المقابلات التى يمكن أن تلتقى القافلة خلالها مع القبليين من عتيبة ؛ يضاف إلى ذلك ـ أن ذلك الشيخ القبلى البدوى هو واثنين أوثلاثة من أتباعه هم بمثابة عيون لنا فى الخلاء أوإن شئت فقل : فى الصحراء ـ بالرغم من ذلك فإن رجال القوافل من أهل القصيم الذين اعتادوا على اجتياز الصحارى منذ طفولتهم ، هم خبراء فى فن الأرض والتجوال فيها ـ كان من بيننا شخص يدعى صالحاSalih، (كان هو الوحيد فى الجزيرة العربية الذى كان له كيس دهنى فى منطقه الزور) ،اعتاد أن يقطع ذلك الطريق ذهابا وعودة إلى مكة (المكرمة) ؛ هذا الرجل يعتقد أنه قام بتلك الرحلة حوالى أربع سنوات من عمر هذا الرجل ، أو حوالى خمسين ألف ميل من الرحلات الصحراوية : هذا الصالح قطع مسافة لاتقل عن هذه المسافة، فى الطرف الشمالى أيضا فيما بين القصيم التى يقيم فيها ومناطق الخليج والأنهار. هذا الصالح كانت لديه المقدرة على حفظ اسم كل صخرة من الصخور الكبيرة التى يراها المسافرون على جانبى هذا الطريق. أمثال هذا الرجل هنا لايعرفون سوى المسارات التى يسلكونها، ولكنهم ليسوا على دراية بالصحراء الشاسعة التى وراء تلك العلامات الأرضية.

المزاج البدوى يمتاز بالسلاسة واليسر! وذلك بالمقارنة مع مزاج أهل الحضر الذى لايتسم بهذه السلاسة: من هنا توطدت الصداقة بينى وبين مذكر بصورة متدرجة. وبينما كنا نتحدث عن الغزو الذى قام به ابن الرشيد قال مذّكر: " أنت كنت فى حائل، وأنت أيضا مداوى: إخ! ألاتستطيع تخليصنا ياخليل ،من ابن الرشيد الحكيم بصورة أوبأخرى! ووالله سنكافؤك على ذلك: لأن ابن الرشيد هو الذى يضايق عتيبة ويسبب لها القلق." وأردف الرجل يقول: " الأجزاء [الشمالية] التى نحن منها ليس فيها صديق لنا سوى عنيزة!" وعندما سألته ، هل أعرابه أناس طيبون؟ أجابنى، " إخ!- إنهم مثل أهل عنيزة تماما." ثم سألنى، ما الذى يمكن أن أعطيه إياه إذا مازارنى فى بلدى؟- هل سأعطيه فرسا وفتاة يتزوجها؟!" وما الذى يمكن أن تعطينى إياه، يا مذّكر،إذا مانزلت أمام بيتك؟" وهنا اضطرب حال ذلك البدوى، نظرا لأن خيمته السوداء المهلهلة المصنوعة من الصوف لم تكن بعيدة عنا؛ وعليه رد علىّ بأنه سوف يعطينى بنتا ، جميلة، كى تكون لى زوجة - "ولكنى أعطيتك فرسا، يامذّكر!-" حسن، سوف أعطيك ناقة ياخليل. نحن ذاهبون إلى مكة Mekky ، وأنت ذاهب إلى جدة، فإلى أين ستذهب من جدة؟"- "أنا ذاهب إلى الهند، إن شاء الله." قال إبراهيم: لقد راودته فكرة زيارة الهند معى، فهل يمكن لى أن أنتظره فى جدة؟" إلى أن يعود إليها مرة ثانية فى موسم الحج - أى بعد أربعة أشهر!

تحركنا قبل طلوع الفجر بساعة؛ وكشف الضوء أمامنا منظرا طبيعيا أكثر اتساعا، فيه الكثير من أشجار السنط. أعماق الآبار فى هذه المنطقة لاتتجاوز أربعة قامات؛ قال مذّكر : إن هذه الأرض عامرة بالجلبان (الأبار) وحفر الماء التى يفيد منها الأعراب. والسماء عندما تمطر هنا، على حد قول مذكر، يذهب الماء إلى السيول وسرعان ما يختفى ذلك السيل فى التربة؛ وفى السنوات التى يصل المطر فيها حد الفيضان ، فإن تلك السيول كلها تتجه (غربا) إلى وادى الرماح. وهذا الجزء من البلاد فيه الكثير من دروب الماشية ، وربما تكون تلك الدروب قد تشكلت إلى حدما، بفعل حركه كل من الماعز البرى والغزال. ثم تركنا عن يميننا جبل Jebel شعابة Sheaba، الذى يوجد فيه "كثير من البدو"، لنعّرج بعد ذلك على علامة أرضية جرانيتية تشبه الخيمة ؛ والناس هنا يطلقون على هذه العلامة الأرضية اسم الوريسية Wareysieh؛

وعند الظهر نزلنا عن راحلاتنا بين جبلين أسودين من البازلت ، فيهما الكثير من القمم ومجارى السيول- على هذا الجانب كانت توجد بلدة تلعان Thulaan النير en- Nir، وعلى الجانب الآخر توجد بلدة شعار Shear.

فى كل وقفة من وقفات الظهيرة كان يجرى إطلاق الإبل لترعى. وعندها تروح تلك الحيوانات المرهقة تتجول فى الصحراء ، ويصعب عليها أن تجد شيئا تأخذه فى أفواهها: كل ماتفعله هذه الإبل هو أنها تملأ أفواهها مرات قليلة من على الطريق فى الصباح الباكر، فى الوقت الذى تكون برودة الليل مازالت على الأرض. هذه الحيوانات الكبيرة التى تكاد تنوء بأحمالها، تتعرق تعرقا شديداً؛ وبسبب العطش تتوقف تلك الحيوانات عن أكل أى شىء إلى مابعد سبعة عشر يوما؛ عندما يجرى إنزال حمولتها عنها فى مكة. ولكن هذه الحيوانات النجدية تبدأ معاناة جديدة من هواء تهامة الراكد؛ الذى لاترتاح فيه سوى أيام قلائل :هذا يعنى أن تلك الإبل تتحمل كل هذه المشاق دون أى شىء من الترفيه أو الانتعاش؛ تتحمل كل ذلك إلى أن تعود مرة ثانية إلى عنيزة وهى واهنة تماما. حداة الإبل القساة [والعرب كلهم - ولكن فى صمت - يشكون ويتأوهون من آلام الحياة فى هذه الدنيا!] حكوا لى أن تنقلهم فى هذه الرحلات شاق ومتعب جداً؛ ففى الصباح يركب واحد منهم ويمشى اثنان؛ وفى العصر يمشى واحد ويركب اثنان - وقالوا أيضا: إن سير القافلة ورجال القوافل القصمان يختلف عن سير قافله الحج السورية التى تبطئ السير ؛ والسبب فى ذلك أنهم يتعين عليهم مواصلة السير والإسراع فيه أثناء حرارة فصل الصيف وذلك فى المسافة مابين كل محطة والتى تليها من محطات المياه. يضاف إلى ذلك طول المسافات مابين محطات المياه، أوإن شئت فقل: المساقى الصحراوية . وفوق كل ذلك، أنهم يتعين عليهم الوصول قبل اليوم الرابع وإلا خارت قوى تلك الحيوانات.

نفد صبر أفراد القافلة بعد انتظار دام ثلاثة أيام؛ وراحوا يصيحون ويتصايحون بأصوات مفعمة باليأس والحزن. وهاهم حداة الإبل يضربون الماشية المتوانية، ويروحون ينخسونها بأعقاب رماحهم، وهم يصيحون فيها ويستحثونها بكلام مثل: يامال Ya mal الطير el-teyr - حط hut بمعنى 'إخ ياجيفة الغربان،' أو يامال Yamal الذُّبَّاح eth-Thubbah بمعنى 'إخ! يالحم القصَّاب': الحداة يرددون هذه العبارات إذا ما توقف

جمل من الإبل لحظة ليقضم ساقا طرية؛ يا ya مال mal الجوع ej-jua بمعنى 'انت يامن تملكه الجوع!'، أوها القلب ha lkalb أوها hal الحلق hulk بمعنى'لعن الله رأسك ، وقلبك وزورك الطويل .- وحداة الإبل يتعين عليهم أن يديروا بالهم بصورة دائمة على الإبل المحمَّلة: والسبب فى ذلك أن الجمل إذا ماوصل إلى مكان رملى يحتمل أن يبرك على قدميه الأماميتين كى يتمرغ فى ذلك الرمل ، لكى يهرش أوإن شئت فقل: يحك جلده؛ وهنا يتحطم الحمل الذى يكون على ظهره! والإبل لاتميز طعامها عن طريق البصر وحده، ولكن للشم دخل فى ذلك أيضا؛ يضاف إلى ذلك أن الإبل تتوقف أمام أى حجر أبيض أوحتى الروث الذى يكون مصطبغا باللون الأبيض، كما لوكان قطعة من العظم أبيض اللون، - الذى إذا ماعثرت عليه الإبل ، فى أى وقت من الأوقات تناولته فى أفواهها وراحت تعضه فى شىء من الحزن وذلك طلبا" للملح" على حد قول العرب. أفراد القافلة يكونون كل يوم سيئى المزاج وقليلى الكلام ؛ وهم لايقولون شيئا إلابتقديم المشيئة؛ أما حداة الإبل، الذين تعانى أفواههم من شدة العطش، فهم لايردون على بعضهم البعض إلابعبارت مقتضبة، وكلام فيه شىء من التباهى بعض الشىء ، ومثال ذلك 'أنا ولدى !أنا شقيق أختى الصغيرة! "هل أنا عبد أبيك !(حتى أخدمك أو أطيعك)؟' وقد يصيح الرجل فى جاره قائلا: الله ullah لايبارك la yubarak فيك Fik ،لا la يجيب Yujib لك ' lak الخير el-Kheyr بمعنى 'لابارك فيك الله ، ولا أعطاك الله الخير.'

كانت درجة الحرارة فى وقفة الظهيرة حوالى ١٠٢ فهرنهيتية تحت التعريشة ، وعندما بكرنا بالتحرك كان دافعنا فى ذلك هو الوصول إلى المسقى على وجه السرعة؛ وبالفعل وصلنا ذلك المسقى قبل ساعتين من غروب الشمس. هذا المسقى ، يطلق، الناس عليه اسم عفيف Afif،' وعفيف هذا بئر قديمة يصل عمقها إلى سطح الماء حوالى عشر قامات، وهى مبطنة بأحجار جافة من كتل البازلت الغشيمة - كان سليمان ، ومعه كبراء رجال القافلة ، قد سبقوا القافلة ومعهم كل أدواتهم؛ وكان كل واحد يتصارع مع الآخرين على الوصول إلى فتحة البئر، ويحتل مكانا مناسبا للسقيا. وعندما وصلنا إلى البئر كان سليمان هو وجماعته هناك بالفعل ومعهم أدواتهم؛ هذه الأدوات كانت عبارة عن وتد غليظ فى الأرض جرى دقه بواسطة قطعة من الحجر : كانت رأس ذلك الوتد عبارة عن شوكة، علقوا من فوقها بكره السحب، وبكرة السحب هذه يطلقون عليها هنا

اسم المحال Mahal ـ وهذا المحال شبيه بمثله الذى يستعمله البدو الرحل فى أى جلبان (بئر) للحصول على الماء. والحبل يجرى سحبه بواسطة رجلان يجريان إلى الخلف؛ بينما يقف رجل ثالث عند حافة البئر؛ ثم يجرى بذلك الدلو لتفريغه فى الغدير المخصص لشرب الإبل ـ هذا الغدير عبارة عن قطعة من الجلد أومن الكليم مفرودة فوق تجويف لملموه من العصى أومن الأحجار وسط الزلط، مستخدمين أيديهم فى ذلك [انظر الجزء الأول] وعندما يجرى سقيا عدد كبير من الإبل من جليب jelib (بئر) واحدة، تحدث جلبة كبيرة بفعل ذلك العدد الكبير من الرجال العاملين فى جلب الماء بكل قوتهم ويغنون تسهيلا لمشقة العمل، شأنهم فى ذلك شأن البدو تماما. ذهبت كى أشرب من غدير الإبل، ولكنهم حذرونى من ذلك قائلين: أنى يحتمل أن أنزلق فى الوحل، وأنكفئ على حافة البئر' التى ليس لها رصيف [مثل بقية الجلبان (الآبار) الصحراوية] وقد تنهار التربة من تحت قدماى. هذا يعنى أن المهمة التى يقوم بها جالبو الماء من البئر تكون محفوفة أيضا بالمخاطر؛ كما أنهم يكونون متعبين أيضا. وفى آخر شوط لهم خانت واحدا منهم إحدى قدميه، وسقط فى البئر ! وجرى إخراجه منها على وجه السرعة والسبب فى ذلك أن العرب يزدادون شهامة على شهامتهم فى مثل هذه الظروف السيئة !زد على ذلك أن الكثيرين من هؤلاء الأعراب يتطلعون إلى النزول إلى تلك الآبار بدءا من سنوات الشباب ،لقد انكسر ظهر ذلك الرجل الذى سقط فى البئر : وعندما رحلت القافلة، وضعه أصدقاؤه على جمل من الإبل؛ ولكنه توفى أثناء السير ـ حل محل ذلك الذى توفى أناس آخرون؛ ولكنهم لم يعودوا يستعجلون إذ كانوا يعملون بتؤدة وتأنٍ. وجرى عمل رصيف لتلك البئر القديمة: الأمر الذى سهّل العمل على أولئك الذين يعملون فى سحب الحبل لرفع الماء؛ كما ساعد أيضا على منع انهيار حافة البئر.

شاهدت بالقرب من هذا البئر أول إشارات الحياة الإنسانية فى تلك الصحراء الشاسعة ، شاهدت الرماد المتخلف عن نار حديثة شبها الصيادون! كما شاهدت بجوار ذلك الرماد زوجا من الغزال الذى شاهدته مرارا. والذى لاشك فيه، أن أولئك الذين شبوا هذه النار كانوا من الصلوبة؛ هذا بالإضافة إلى أن بعض المسافرين ضمن قافلتنا استطاعوا قص أثر الحمير التى كان هؤلاء الصلوبة يركبونها. والأعراب هنا

يتعجبون ويندهشون لأولئك الذين يعيشون من مجرد عملية الصيد فيهذه الصحراءوالصلوبى لايحمل مع بندقيته الفتيلية سوى شيء قليل من الماء؛ ولكن من عادة الصلوبة أن يشربوا حتى الشبع ماءً أو مريسا قبل طلوع الفجر: وبالتالى فهم عندما يبدءون تجوالهم لايشعرون بالعطش إلاعند دخول وقت الظهر. وقد تعلمت منهم ذلك العمل؛ وكانت تلك الشربة المبكرة تكفينى إلى أن يحين موعد وقفة الظهيرة، هذا فى الوقت الذى يكون رفاقى قد شربوا خلاله ثلاث مرات ـ كان من النادر أن يعطونى الإناء كى أشرب عندما كانوا هم يصبون الماء لأنفسهم، وعندما كانوا يفعلون ذلك يكون مصحوبا بالسب واللعن: وفى حالة وجود سليمان بعيدا عنا كانوا ينكرون علّى حتى شربة الماء. وكان سليمان نفسه بحكم أنه لم يكن رجلا طيبا يقول: "الكل يعانى على الطريق وأثناء السفر، وأنا لاأستطيع تعديل ذلك، وهؤلاء الأعراب: ولوقدر لعبدالله أن يكون هنا، بلحيته ـ فإنه لن يفعل أفضل من ذلك . هل ترى ذلك الولد، ياخليل؟ إنه ولد من شوارع عنيزة: وهذا الآخر (صبى بدوى من عنيزة أهل الشمال) قتل والده، على حد قول الناس؛ وهذا الطاهى الذى فى الخلف! هو مسكين من المدينة: وأننى إذا ماأغضبته فسوف يتخلون عنى عند أقرب وقفة!"ـ مسألة شرب الماء مع صحبة جديدة أمر عسير؛ وقبل أن يعيد السطل إلى مكانه طلبت منه أن يصب لى شيئا من الماء. هذا الطاهى كانت زوجته واحدة من مرضاى، وربما تذكر أنه مدين لى بثمن الدواء؛ وربط الرجل عنق قربته على وجه السرعة وكأنه لم يعرفنى من قبل. وعندما ناديته باسمه!ـ لم يستطع أن يرفض طلبى؛ ولكنه بعد أن فك عنق القربه، صب لى شيئا من ماء الصحراء وهو يقول :'هذا هو حال الطريق، وحال التعب والإرهاق اللذان يجعلان الناس لايتذكرون بعضهم البعض؛ والمثل السائد هنا أمش imshy حالك hal-ak بمعنى [دبّر أمورك بنفسك"]. ومن يبخل بتقديم ماء قربته يقول له جيرانه: بيّاع Biaa الماء el-ma بمعنى' بائع الماء'. كانت ناقتى متوسطة القامة وكانت ضعيفة أيضا : وكانت لاتستطيع مسايرة بقية النياق أواللحاق بها أثناء المشى؛ وكنت ألاقى صعوبة كبيرة فى حثها على المضى قدما. قال سليمان: إن النياق متزمتة ولاتريد التحرك من مكانها؛ وقال إنه: سوف يجرحها فى جنبيها عندما يصل إلى مكه.

وجدت هنا أن درجة حرارة الهواء فى أبرد أحواله كانت ٧٢° فهرنهيتية؛ أما درجة حرارة الماء فى البئر العميقة فكانت ٧٩° فهرنهيتية . وكان ارتفاع الأرض حوالى ٤٦٠٠ قدم: وكان الذباب والنمل يحيط بمنطقة المياه- وأعدنا سقيا الماشية مرة ثانية قبيل الصباح: ثم تأهبنا لمواصلة المسير، ولكن لم تصدر إشارة البدء. وطلعت الشمس علينا ؛ وبعد طلوع الشمس بفترة وجيزة سمعنا صيحة رحب بها الجميع، وكانت صادرة عن خادم الأمير الذى صاح قائلا: اليوم El-yom نجيم !nej-l-l-im بمعنى 'سنقضى اليوم هنا فى هذا المكان.'

هناك مساران للقوافل المتجهة من القصيم إلى مكة ؛الدرب الغربى وفيه المزيد من الموارد المائية الأوفر والأحسن- وفى هذا الدرب سبقتنا قافلتا الزبد القادمتين من بريدة ومن بلدة الرّس - هذا الدرب الغربى يطلق الناس عليه اسم السلطانى es-Sultany بمعنى' الطريق السريع .' وهناك أيضا الدرب الأوسط الذى سرنا فيه، وهذا الدرب يقتصر على القوافل المتعجلة: والمسافات بعيده بين محطات المياه، ويقل فيه أيضا احتمال التصارع مع الأعراب الذين يقضون الصيف بالقرب من تلك المحطات المائية- ورجال القوافل لايجرؤن على سقيا إبلهم فى وجود البدو: وهم فى مثل هذا الحال قد يطلبون إلى البدو الرحل التحرك وترك المكان، والبدو قد ينصاعون لرجاء الحضر ولكن بذهن يضمر الشر. لكن إذا ماثبت أن البدو أكثر عددا ، فإن الحضر يبادرون إلى جلب الماء وأسلحتهم فى أيديهم: وقد يسوقون ماشيتهم التى لم تشرب حتى الشبع إلى آبار المواشى الأخرى، والتى غالبا مايكون ماؤها مرًا فى هذه الصحراء- وهناك طريق ثالث، يقع إلى الشرق من المكان الذى نحن فيه، ويطلق الناس عليه اسم درب derb وادى wady سبيع، وهذا الدرب فيه عدد قليل من موارد الماء الصغيرة؛ وهذا الدرب تسير فيه الجماعات الطائرة التى يركب أفرادها النياق السريعة. فى العام الماضى، وجد عبدالله البسام، ذلك الرجل الطيب ، عندما كان عائدا إلى موطنه قادما من جدة وسالكا ذلك الطريق، وجد أن البئر كانت مردومة، عندما حاول الاستفادة من واحدة من تلك الآبار المهملة؛

كان اسم البئر التى قصدها عبدالله البسام جليب Jelib بن ibn حدَّيف Haddif؛ وقام الرجل هو ورجاله بتطهير البئر، واستغرق ذلك منهم يوما كاملا. هذه الدروب

الكثيرة متقاربة من بعضها البعض ،على نحو يسمح للمسافر بتبين العلامات الأرضية التى على الجانبين.

عفيف التى نزلنا بها لنيل قسط من الراحة، عبارة عن أرض مقعرة تشبه أرض الغرول el-Ghrol وتحيط بها جبال بازلتية منخفضة. وقد شاهدت أحجار البازلت الموجودة عند فتحة البئر فى الصحراء ومن فوقها قشرة بيضاء اللون، كما شاهدت أيضا آثار حبال البدو الرحل على حواف رصيف تلك البئر! وفى هذه المنطقة المحيطة بالبئر ينمو نوع من العشب الطويل يسمونه ثيرّم Thurrm الذى سبق أن شاهدناه على طريق الحج السورى. ودفع حداة الإبل المواشى إلى المرعى؛ فى حين قام بدو عتيبة ، المرافقين لمذكر، بالصعود إلى المرقاب mergab الذى كان عبارة عن أرض بازلتية مرتفعة ـ ذهبوا إلى المرقاب كيما يستطلعوا المكان. كانت الحرارة شديدة على رءوس أولئك الذين كانوا يضعون غترا(أغطية رأس) على رءوسهم وهم يرعون الإبل ؛ والسبب فى ذلك أن الشمس التى يتعين علينا تحملها أثناء مرورنا خلال هذا الهواء ، تعد أمرا لايطاق حتى بالنسبة للبدو الرحل الذين يلزمون أماكنهم ولايتحركون: وهنا صاح البدوى الراكب فى الخلف،"آه! ماهذه الشمس !" التى شوت مخه. وقبيل المساء صدرت إشارة من المرقاب! وعلى أثر تلك الإشارة جرى الرجال لتجميع الإبل وإعادتها من المرعى .كان الكشافة قدر رصدوا زولا Zol(*)، وقالوا: إن ذلك الزول يحتمل أن يكون بعض الأعراب: ولكن بعد فترة وجيزةٍ استطاع أولئك الكشافة تمييز ذلك الزول، إذ كانوا عبارة عن أربعة أفراد من الصلوبة، يركبون حميرهم .

بدأنا تحركنا من عفيف قبل طلوع النهار. وعندما طلعت الشمس علينا كنا قد غادرنا سلسلة الجبال المنخفضة التى يسمونها سلسلة جبال عطوة ' Atula، وكانت على الجانب الأيسر؛ وهنا بدأت الصحراء تتراءى لنا أرضا واسعة ومفتوحة: ألأرض مغطاة بالجذامة؛ ومع ذلك، كان مذّكر يقول لى: إن المراعى هنا أفضل من الأماكن الأخرى! هنا بدأت الجبال تقل: فنحن نرى هنا صخورا بدلا من التلال والقمم ـ كنت راكبا فى

(*) الزول وجمعه أزوال وهو شيء غير مؤكد يظهر عن بعد .(المراجع)

المؤخرة؛ وشاهدت غزالا ذكرا ضخما أبيض اللون واقفا مرفوع الهامة أمامنا : ذلك الظبى Thobby الذى يشبه التيس الكبير، وقف ذلك الظبى ،كى يحملق فى ذلك الموكب غير المرغوب فيه والمكون من الرجال والإبل؛ ثم جرى ذلك الظبى جريا بطيئا وهو يبتعد عنا. وهنا قام شبّان البئر بإخراج بنادقهم من أجربتها ، وراحوا يجرون وراء هذه الطريدة وهم راكبين نياقهم التى تجرى وهى تمد رقابها كما لوكانت طيرا.. ليعودوا إلينا بخفى حنين من تلك المطاردة الساخنة! كانت الأرانب البرية تجرى هنا وهناك أثناء مرورنا، كى تختفى تحت الأدغال ـ وكانت أذان تلك الأرانب البرية تدل عليها وهى مختفية بين الأدغال.

الأرض الصحراوية هنا وعلى امتداد مسير يومين كاملين فى أتجاه الجنوب يطلق الناس عليها هنا اسم الشّفا es-shiffa،التى يحسبون عرضها بمسير ثلاثة أيام؛ بعض آخر يقولون :إن الشّفا تقع بين الرس وعفيف ؛ وخلف هذه الأرض تقع منطقة الحزّام el-Hazzam، التى يصل طولها إلى مايقرب من رحلتين ونصف الرحلة: ويزعم مذكّر أن الحزّام هى والشفا شىء واحد. هذه المنطقة الواسعة الشاسعة لم أر فيها أى مجرى من مجارى السيول.. وعلاماتنا الجبلية فى هذه المنطقة تتمثل فى مردومة Merduma على الجانب الأيسر؛ وعن يميننا يوجد ثلاثة من التلال المخروطية ، والناس هنا يطلقون على هذه التلال الثلاثة اسم المثلثة Methalitha. وهذا هو جبل الشعيب es-Sheyb، يتبدى لنا ويقع على درب derb السلطانى es-Sultany: والماء طيب فى منطقه هذا الجبل]وهذه هى جاديتا Gadyta القديمة صاحبة التفاصيل الكثيرة ـ انظر كتاب الجغرافيا العربية؛ حيث ورد ذكر مدينة داثينا Dathyna ، أوإن شئت فقل آبار دافينا Dafina؛ وكذلك آبار قوبا Koba التى يقولون لها هنا: جوبا Goba، وتشكل مسقى من المساقى الطيبة]: وهذا هو جبل ميشاف Meshaf أراه أمامى .كان مقيلنا فيما بين جبلى عجّيلة Ajjila والزّعال eth-Thal؛ وهذا المكان الذى فيه المقيل يطلقون عليه اسم الشبروم Shebrum هذا الشبروم عبارة عن قاع عامر بأشجار السنط ، كما ينمو فيه أيضا الكثير من الأعشاب الشوكية القصيرة ، التى لها زهور أرجوانية اللون يطلق الناس عليها هنا الاسم نفسه. فى هذه المنطقة توجد مجموعة من الآبار التى تسقى منها الماشية؛ والأعراب يطلقون على تلك الأبيار اسم الشبرامى Shbramy.

هنا فى منتصف الشَّفا رأس يقول مذَّكر عنه (بالرغم من عدم ظهور ذلك الرأس بشكل واضح): إنه من وادى Wady جرير Jerrir. ووادى جرير هذا يعد الرافد الرئيسى القادم من وادى الرُّماح فى شرق البلاد؛ وقد ورد ذكر ذلك الرافد فى بعض القصائد العربية القديمة؛ 'وديانى الجانبية تسقينى بالرشفة؛ أما وادى جرير فهو الذى يشفى ظمئى ويطفئه،' ـ هذا الكلام يعد شاهدا (هنا) على الأمطار المدارية! وعلى طول هذا الوادى الذى يمتد من الشمال إلى الغرب، يوجد الكثير من حفر المياه التى يتردد عليها البدو، البعض يترجمون كلمة 'الرماح ' 'بالجبل المزخرف' [وربما ذلك بسبب الالتفافات الكثيرة].

استانفنا المسير قبيل المساء: وأصبح منظر سطح الأرض من حولنا وكأنه سهل واسع مفتوح؛ وهذا هو آخر الجبال فى الجانب الشمالى بدأ يختفى عن أنظارنا وراء الأفق ـ وفى المنطقة التى نزلنا فيها بعد غروب الشمس وجدت أننا كنا على ارتفاع حوالى ٤١٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

لم نتحرك قبل طلوع الفجر: ومع شروق الشمس كنا مانزال على الارتفاع نفسه؛ واستمر ذلك الارتفاع إلى دخول وقت الظهيرة؛ وكانت درجة الحرارة تحت التعريشات ١٠٧ فهرنهيتة. الناس هنا يطلقون على هذه المنطقة الواسعة المستوية اسم الدَّعيكة ed-Daika وهم يترجمون ذلك الاسم على أنه 'السهل الخالى من التلال ذات التربة المخلوطة، والعامر بالمراعى الجيدة.' وفى اتجاه الشرق شاهدت جبلا عن بعد؛ كما شاهدت أمامى رأس جبل منعزل يطلق الناس عليه اسم خال Khal. مررنا بعد ذلك فيما بين كل من الصُّفَّة Seffua والعريضان ' Aridan من ناحية والذَّنيَّب Thennyib التى هى علامة أرضية ومكان للسقيا على درب السلطانى ـ وقبيل غروب الشمس دخلنا منطقة واسعة تغطيها قشرة من الملح؛ وهنا نزلت القافلة عن راحلاتها خلف هذه الأرض الملحية.

بعد أن وصل الأمير مكان التخييم، شد لجام ناقته، وراح يداعبها فى عنقها ويهمس لها حتى تبرك على الأرض؛ وهاهى المخلوقات الضعيفة تئن وتتوجع وتجثو على ركبها . وتتصرف تصرف الكلاب قبل أن تبرك تماما على الأرض ـ منظر راكب الجمل يبدو غريبا على من ينظر إليه من الخلف؛ إذ تظهر قدما الجمل الأماميتين من تحت ذلك

الرجل الذى يركب ذلك الجمل وهو ملفوف فى عباءته (بشته) . بعد أن يُبَرك الأمير ناقته، يأتى بعده أعيان القافلة ويذهب كل واحد منهم إلى المنزل المخصص له- على أن يراعى الجميع أن الإقامة ستكون على شكل دائرة: ثم يجرى بعد ذلك إدخال جمال الحمل إلى المنطقة المخصصة لها، حيث يتم إنزال حمولتها عنها والجمل الغر غير المتمرس يجرى تبريكه بالقوة بأن يشده حاديه من لحيته: وإذا ما قاوم جمل من الجمال الباركة، بأن راح يتدحرج هنا وهناك ، ويعوى فإنه يجرى التحكم فيه عن طريق الخزام الموضوع فى أنفه ؛ وبعدها يعود الجمل إلى هدوئه السابق. قد يخطر على البال أن أسنان الجمل تشكل نوعا من الخطر، ولكن العرب لايرون فى ذلك خطرا على الإطلاق ؛ والسبب فى ذلك أن البدو يجمعون النباتات الطرية ويدسونها فى أفواه إبلهم - وقد قمت أنا شخصيا بهذه العملية ألف مرة؛ ولم أسمع مطلقا عن إنسان عضه جمل من الجمال [شاهدت فى سيناء - ذات مرة - جملا مكمما]. والجمال بالرغم من أنها تتاغش بعضها البعض أثناء المسير،إلا أن ذلك من باب المداعبة: والجمل كبير السن يفقد أسنانه العليا الأمامية.

رحلة الغد - وهى الرحلة العاشرة بدءا من عنيزة - كانت فى اتجاه جبل خال البازلتى المخروطى أسود اللون ومنبسط القمة؛ وجبل آخر منتفخ له ثلاثة رءوس، وهو من صخر الجرانيت ويطلقون عليه اسم ذُلم **Thulm**. - وحجاج نجد يصيحون فرحا عندما يشاهدون تلك الجبال'شكرا منهم الله (سبحانه وتعالى) لوصولهم سالمين آمنين إلى منتصف الطريق!' فى المنتصف يوجد مورد ماء الشُّرمة **Shurrma** الذى، نزلنا بالقرب منه قبل دخول وقت الظهيرة بثلاث ساعات: هذا المورد فيه حفر لشرب الماشية ولكن الماء مالغ الطعم، إلى الحد الذى يجعل القصمان لايقبلون على الشرب منه ." قالوا :سنصل غدا إلى مورد جديد من موارد المياه." لم يكن يتبقى معنا فى قراب الماء سوى القليل جداً. ولكنى آثرت الشرب من هذا المورد ، وأجبرت نفسى على استساغة طعم ذلك الماء ، وهذا أفضل لى من التصارع مع حداة الإبل التابعين لسليمان: كان طعم الماء يشبه مذاق الشبة. ولكن الطباخين كانوا قد ملأوا بعضا من قراب الماء من آبار عفيف؛ وبذلك كانوا يظنون أن خلط هذا الماء بذاك يمكن أن يساعد على استعماله فى إعداد طعام العشاء. حفر الماء الضحلة الثلاثة [التى منها واحدة مردومة] والتى

يوجد الماء فى كل منها على عمق قامة واحدة، مبطنة تبطينا جافا. فى منتصف محطة المياه، أوإن شئت فقل : المسقى ، كانت الآبار شبه جافة؛ الأمر الذى جعل الناس فى القافلة يوردون الإبل العطشانة على الماء بعد ذلك بساعة من الزمن ، بعد أن ارتفع مستوى الماء فى البئر مرة ثانية. كان ارتفاع الأرض هنا، مثل ارتفاع الأرض التى كنا نسير فيها بالأمس.

تحركنا من شُرّمة Shurrma، وبدأنا نتجاوز بعض المنخفضات الملحية، وبدأنا الاقتراب من ذلك الجزء البركانى التربة الكبير الذى يطلق الناس عليه هنا اسم حرة Harrat القشيب el-Kisshub. تجاوزنا أراضى واسعة من الوحل من فوقها قشرة من السّبخ Subbakha؛ وبيضاء اللون كما لوكانت مغطاة بصقيع فضى : فى أحيان أخرى كنا نمر فوق حصى أسود اللون؛ وأحسب أنى رأيت بين الأحجار بعض البللورات الصخرية اللامعة. هذا المنظر الصحراوى الذى له شكل واحد وارتفاع واحد أيضا، فيه كثير من أشجار السَّمار Sammar التى هى نوع من أشجار السنط: ولكن السواد الأعظم من تلك الأشجار كان جافا، ولكن لم تتحول أية واحدة من تلك الأشجار إلى خشب ـ شاهدت أيضا ساحلا خلف خال khal "قال واحد من رفاقى: أنظر ياخليل ! تلك هى حرة القشيب التى تتراءى لنا من الأمام!" كان الضباب يخيم على جبال الحرة، التى سرعان ما اكتشفت أنها كانت عبارة عن فوهات ناتجة عن انفجارات منذ قديم الأزل ؛ والناس هنا يطلقون اسم حليان hillian على هذه التلال التى تكون على شكل فوهات تنتج من انفجارات حدثت فى الماضى البعيد . فى هذا السير مررت على بعض الحفر الضحلة، التى يصل عمق الواحدة منها إلى قدم واحدة، ولكنها واسعة كما لو كانت بداية لانطلاق ثقب من ثقوب الماء (الصورة رقم ٧) ؛ ووجدت أن تلك الحفر موجودة على شكل ثنائيات . ناديت واحداً من أفراد القافلة تصادف أن كان يمر بالقرب منى؛ وعندما أريته المكان رد على قائلا:" لقد استخرجوا الذهب من هذا المكان!" وسألت مذكر عن هاتين الحفرتين فى المساء: " وأجابنى ، نعم ياخليل ، نعثر على كثير من الرسوم بمعنى 'الآثار' Traces، فى ديرتنا." والناس هنا يطلقون اسم 'الرسوم' على 'الأطلال'؛ والرسوم الموجودة هنا "تنتمى إلى الأولين" aullin على حد قول مذكر.

تحركنا فى الصباح الباكر لنصل إلى مورد جديد من موارد الماء فى اليوم نفسه. وعندما طلع النهار، اكتشفت أننا كنا نسيرفى طريق مواز لحافة الحّرة، ولكنه يبعد عنها بضعة أميال. كانت الأجزاء السفلى من الحرة يغطيها ضباب الصباح الباكر، ومن فوق ذلك الضباب كنت أشاهد قمم تلك التلال التى كانت فوهات لبراكين فى أزمان غابرة وبعيدة. والدرب السلطانى يمتد لمسافة مسير يوم ونصف اليوم عبر هذه الأرض المكونة من صخور الحمم البركانية. اقتربنا من ذلك الدرب ؛ الذى يناسب أقدام الإبل ، وبخاصة فى الرحلات الطويلة. [يقول مذكر ، إن الصخور البركانية فى حرة Harrat ترعة Terra، التى تتصل بحرة القشيب، تبلغ من الوعورة حداً لاتصلح معه إلا لسير الحمير: وهذه الحرة لايوجد فيها سوى قرى ونخيل أعراب عتيبة]. وقدم الحيوان التى تلتهب يتعين تفريغها من الصديد الذى يكون بداخلها؛ كما أن تقسيم حمولة ذلك الحيوان على بقية الحيوانات الأخرى يقصم ظهور الإبل الأخرى. الكثيرون من الأفراد النجديين الذين يعملون مع القوافل يخشون مثل هذه العملية ويخافونها إلى حد أنهم يقومون أثناء الوقفات بعلاج أقدام إبلهم المصابة باستخدام البول- ألا يمكن صنع حذاء من الجلد لحماية قدم الجمل؟ هناك فى المعلقات [لبيد ،٢٣] مايشير إلى أن مثل هذه الحذيان جرى استعمالها من قبيل أعراب الجزيرة العربية القدامى (الأكثر بساطة وسذاجة).

هذه الأرض الطينية المغطاة بطبقة سوداء وشاهدناها بالأمس تقع فيما بين الجزء الذى نسير نحن فيه والأرض المكونة من الصخور البركانية؛ هذه الأرض الطينية خالية من العشب ومن الأحجار ، وخاليه أيضا من آثار الأقدام ولونها أيضا أبيض بفعل السَّبخة Subbakha: وهذه الامتدادات لتلك الرقعة الملحية تمتد ناحيه الشرق إلى الخلف من الطريق الذى نسير فيه. قبيل الظهر شاهدنا آثار أقدام بعض البدو الرحل ، وآثار أقدام ماشيتهم فى اتجاه الحّرة- وأسفل تلك الحرة يوجد مورد من موارد المياه الجيدة، وهو مواجه لنا مباشرة. أثناء وقفة الظهيرة كنت ظمآنا تماما: ولم يكن مع أفراد القافلة مايشربونه، بخلاف ذلك الماء الأسود مر المذاق الذى أحضروه معهم من شرُّمة Shurrma؛ ولم نستطع الوصول إلى الآبار، قبل دخول الليل، أو فى الساعات الأولى من الصباح. كانت درجة حرارة الهواء تحت التعاريش حوالى ١٠٧ فهرنهيتية؛

وبدأت رياح السموم تهب علينا وأفراد القافلة يأكلون التمر فى وقفة المقيل؛ ويأكلون مع ذلك التمر بقايا البرغل أو التمن المتخلفة عن عشاء الليلة السابقة. والسادة (أصحاب الإبل) هم والحداة يجلسون سويا لتناول الطعام؛ ولكن لا أحد اليوم يود تناول الطعام بسبب الظمأ الشديد. اتجهت إلى تعريشة كل من إبراهيم والبسام - وكان واحد منهما يحمل معه عشرة قراب من قراب الماء ذهبت إليهما بحثا عن فنجال من القهوة أوحتى من الماء. هذان الشابان أعطياني تلك الرشفات من الماء ولم يعطياني أى شيء غيرها: لأن هذا هو حال أهل الجزيرة العربية أثناء الترحال: لقد رأيت بنفسى أنهما كان معهما الكثير من القراب المليئة بالماء.

كان المقيل قصيرا، بسبب الظمأ، وكان الماء مايزال بعيدا عنا. وعندما استأنفنا المسير نظرت إلى الخلف وحولى ووجدت الرفاق يشربون خفية !يضاف إلى ذلك أنهم شربوا حتى الشبع أثناء غيابى عنهم، بعد أن تظاهروا أمامى بأنهم ليس لديهم أى شيء من الماء؛ وكنت أعانى من الظمأ طوال اليوم وبخاصة فترة النهار. خطر ببالى ، أنى لو شربت هذه المرة، سيصبح بوسعى أن أتحمل لحين طلوع النهار. طلبت من الرفاق أن يصبوا لى قليلا من الماء؛ "لقد كنا رفاقا، وتلك كانت رغبه عبدالله الكنينى:" ولكنهم حرمونى من الماء وهم يسبونى ويلعنونى بأقذع السباب؛ ولم يعر سليمان ذلك الأمر اهتماما. نزلت عن ناقتى لأن "الضيق ليس له كبير" لآخذ شربة الماء سواء أرادوا أم لم يريدوا . وراح ذلك البدوى، يلوح بمشعابه ويتراقص، ليؤكد على قصدهم السيئ: ولكن سليمان (الذى كان يخشى نشوب صراع أونزاع) طلب منهم أن يصبوا شيئا من الماء لخليل- كان الماء عذبا من ماء عفيف، ذلك الماء الذى كانوا يخفونه لليوم الثانى عن خليل النصرانى: وكان بوسعهم أن يشربوا منه مرتين فى مسير فترة العصر- كان سليمان لم يصل بعد إلى منتصف العمر، وكان قصير القامة، وحاد الطبع، وتظهر عليه بوادر الحقد والكراهية المغلفة بالمرح ،كما كان ميالا أيضا إلى التشدد. لقد طردونى من قبل من عنيزة، وكان من بين الحضر الذين كانوا معى ، عدد كبير من الوهابيين. ولكن الغالبية العظمى كانت تحيينى فى المسيرات الطويلة بكلام فيه الكثير من الود، " كيف حال الطعام معك ياخليل ! هل تشعر بالتعب والإرهاق؟ حسن !ماعليك سنصل حالا إلى نهاية الرحلة." سمعت ذات مرة كلمة جارحة؛ وقد صدرت تلك الكلمة أثناء

راحة المساء ونحن فى عفيف، وذلك عندما كنت أمشى فى الظلام متجها صوب إبراهيم ومذكر، ثم مررت على بعض الرفاق الغرباء علىَّ، وتعثرت فى بعض قراب الزبد. صاحت أصواتهم العدائية وهم يقولون:" إلى أين، أيها الكافر"؛ ولكن بعضا آخرا من الرفاق ناداهم قائلا: 'أقفلوا أفواهكم!- واصل سيرك، ولا تلقى لهم بألا، ياخليل.'

قال لى سليمان: إنه كان يتعين عليه فى بعض الأحيان التعامل مع الشاحنين الإنجليز، أو إن شئت فقل: الشركات الملاحية الإنجليزية، فى منطقة الخليج:" كانوا أناسا طيبين، وأنهم كانوا أفضل من الأتراك. قال :اعهد ببضاعتك إلى الإنجليز؛ لأنهم سيحمونك من الأضرار إذا ماتلف شىء منها أوضاع. أما فيمايتعلق بالشركات الملاحية التركية، يتعين عليك أن تدفع أولا للعمال، وتدفع ثانية قبل أن تتسلم بضاعتك فى الخارج؛ يضاف إلى ذلك أن الضابط هو الآخر يتطلع إلى أتعابه هو، فضلا عن أن البحارة سيقومون بتهريب أو سرقة شىء من تلك الشحنة أثناء الرحلة : ولكن إذا ما تعاملت مع الإنجليز فسوف تلقى المعاملة السليمة والنظام السليم أيضا. وأنا أقسم بالله، أن الإنجليز إذا ماتعاملوا مع العثمانيين ،فإنهم يتحولون إلى مرتشين ويكونون أسوأ من الأتراك!"- كانت شمس العصر التى لها اصفرار النحاس، فى شهر مارس قد بدأت تغطيها السحب: وبعد أن سرنا مدة ثلاث ساعات فى ذلك الجو تاركين خلفنا كلا من جبل الكمين el-Kamin وجبل الحكران Hakran ، شاهدت شيئا من الاضطراب عند مقدمة القافلة؛ راح ركاب النياق على أثره يتفرقون مبتعدين عن بعضهم البعض! سارع أولئك الجمَّالة بحثا عن حفر مياه الماشية التى تقع على جانب الطريق على بعد مسافة قصيرة. وعندما وصلوا إلى تلك الحفر، قفز كل واحد منهم نازلا عن ناقته متجها صوب حفرة من الحفر كى يملأ منها قربة الماء؛ الأدهى من ذلك أن واحداً من هؤلاء الجمَّالة كان يقف فى وسط الماء الذى كان يغمر جسمه إلى منتصفه: وراح كل واحد من أولئك العطشانين يشرب مايشاء من الماء كى يروى ظمأه ؛ وهنا فقط أدركوا أن الماء تعافه النفس!

هذا هو حزيم Hazzeym الصيد es-Seyd ، أى بيارة من بيارات أشجار السنط - وهى تشكل منظرا جميلا جداً فى هذه الصحراء الخالية! هذا المكان فيه الكثير من الحفر التى تشرب منها الماشية؛ وعمق كل حفرة من هذه الحفر يصل إلى حوالى قامة

ونصف القامة؛ والماء يرتفع فى هذه الحفر بسبب الأمطار ـ عندئذ نظرت إلى الخلف ووجدت القافلة متجهة إلى هناك! لقد تخلى حداة الإبل عن المسار الذى كانوا يسلكونه. وعندما وصلت الإبل إلى مكان تلك العيون أصدر إبراهيم أمرا بالتخييم فى تلك المنطقة. ماء هذه الحفر كانت مقبولة أكثر منها صحية ، فقد أصيبت غالبية أفراد القافلة بالإسهال أثناء الليل.أما أنا فلم يصبنى ضرر؛ كما لم يصبنى ضرر بالإمس بعد أن شربت من ماء شرمة Shurrma: وهذا جعلنى أشكر الله، أننى لم يصبنى مرض، فى تلك السنوات التى أمضيتها فى بلاد يعانى فيها الناس كلهم من المرض.

أوفد إبراهيم ،أثناء الليل، بعضا من الجمَّالة لاستطلاع مورد المياه الموجود أمامنا، والذى كنا نتطلع منذ الأمس إلى الوصول إليه ؛ وعلى أمل أن يعودوا إلينا بأخبار عما إذا كان هناك أعراب يقيمون حول ذلك المورد ـ طلعت الشمس علينا وكنا مانزال نستريح فى ذلك الموقع الجميل . كما خرج بعض آخر من أفراد القافلة ومعهم بنادقهم الفتيلية، وراحوا يجوثون بين أشجار السنط الخضراء لاصطياد اليمام [الذى يحوم دوما حول موارد المياه، ويندر أن يراه أحد وهو يطير فى الصحراء]: ولكن إبراهيم بناء على نصيحة من مذكر أرسل أمرا يقضى بعدم فتح نيران البنادق؛ نظر لأن صوت البنادق يمكن أن يجر علينا الأعداء ـ وبعد طلوع الشمس بنصف ساعة، شاهدنا كشافينا وهم عائدين إلينا؛ عادوا إلينا ومعهم أخبار مفادها أنهم شاهدوا قلة قليلة من البدو بالقرب من مورد الماء، وأن أولئك البدو كانوا من العتبان؛ وأنهم تكلموا مع شخص التقاهم فى الصحراء وعزمهم على الذهاب معه ليشربوا شيئا من الحليب . بقينا بلا حراك فى أماكننا؛ ونصب الرجال التعاريش والمظلات ـ وذبحوا ناقة فطير (والناقة الفطير Fatir هى الناقة المرهقه المكدودة)؛ وتم توزيع لحمها على الرفاق كلهم،الذين دفعوا ثمن الأجزاء التى أخذوها من لحم تلك الناقة. كان يجرى اقتياد ثلاث أو أربع من تلك النياق مع القافلة كيما يجرى ذبحها على امتداد الرحلة: وبهذه الطريقة يذوق أفراد القافلة طعم اللحم كل بضعة أيام.

تحركت القافلة عند الظهر: وهذه هى مسطحات الملاَّحات التى تمتد خلفنا لتصل إلى الساحل البركانى، نشاهدها أمامنا من جديد؛ وعن شمالنا نشاهد الأفق الصحراوى. وبدأنا نمشى بين جبل حكران Hakran المنخفض وحدود الحرة. وعند

غروب الشمس دخلت القافلة خليجا صخريا فى المكان الذى تنصرف من خلاله مياه الحرّة : الصخر البركانى فى هذه المنطقة من النوع الثقيل وله خصائص البازلت. هذا المكان فيه مسقى يشتمل على آبار عدة ، مثل الموى El-Moy أو شعاب Sheab الماء el-Moy أو أمياه Ameah حركان Harkan، وهذه البئر الأخيرة واحدة من موارد الماء الرئيسة عند الأعراب.

رحل البدو عن المكان ونزلنا عند الشفق بالقرب من المسقى؛ نظرا لأن 'هذا الجزء من البلاد يكثر فيه اللصوص فى هذه الأشهر.' ولكن كل رفيق من الرفاق أوفد فردا ومعه قربة إلى منطقة الآبار، لكى يملأها حتى يتسنى للناس أن يطفئوا ظمأهم. فى هذه المنطقة خيم أفراد القافلة على شكل دائرة صغيرة تحسبا للصحراء وتخوفا منها: وشب الناس نيران القهوة ونيران الطهى؛ وسرعان مادخل علينا الليل البهيم ؛وتم تعيين ثلاث خفرات لحين طلوع الفجر. وإذا مامر أحد بالقرب من أضواء النيران الخافتة، أوإذا ماشاهدوا أحداً يقترب من المكان، تنطلق أصوات صادرة من عشرات الحناجر لتصيح قائله: مين Min هذا hatha بمعنى'من هناك؟' وهنا تنطلق أصوات الرفاق من داخل المخيم وهم يقولون بصوت عال ومخيف : اذبحوه! Ethbah-hu بمعنى اقتلوه! وعليه فإن بداية الليل تكون عامرة بنداءاتهم ولعناتهم ؛ والسبب فى ذلك هو تنقل البعض هنا وهناك لزيارة أصدقائهم؟ وأنا عندما مشيت فى المخيم بحثا عن إبراهيم ومذكّر وولد البسام ؛ كانت الصيحات العالية تتردد هنا وهناك وهم يقولون " أذبحوه! Ethbah-hu ـ مين Min هو hu هذا hatha ؟ والرد على هذا السؤال هو: أنا Ana صاحب Sahib، بمعنى 'إنه أنا، صديق؛' أوقد يكون الرد: طيب Tayib مافى mafi شىء shey، بمعنى 'كل شىء على مايرام، وليس فى الأمر شىء ـ يقول لى سليمان إنهم فى قافلة الحج السنوية، والتى تحمل معها كثيرا من البضاعة والنقود، يحتفظون بتلك الخفارات على امتداد الطريق الصحراوى.

مع طلوع النهار، حمل القصمان السلاح فى أيديهم! وراحوا يسوقون الإبل إلى الماء: وسرعان ما أنهوا عملية السقاية نظرا لكثرة عدد الآبار. واستأنفت القافلة مسيرها بعد طلوع الشمس بساعتين، وكان ذلك اليوم يوافق اليوم الثالث عشر اعتبارا من تاريخ مغادرتنا عنيزة. ولم نلتق أحداً من البشر منذ أن غادرنا القصيم! ولكن ظهر

لنا بعض البدو الذين كانوا يسوقون ماشيتهم إلى الماء. وهذا هو المنحدر نفسه يحيط بنا من كل جانب: تلك رءوس كثيرة من أحجار الكوارتز، التى تشبه الأكوام البيضاء اللامعة، نراها فى بعض أجزاء التربة. مررنا بدار dar من الدور، أوإن شئت فقل: منطقة تخييم قديمة من مناطق الأعراب؛ وفيها حفر ماء تشرب منها الماشية، وماء هذه الحفر مالح وهذا هو الساحل العالى من حرّة القشيب والذى يمتد موازيا لخط سيرنا؛ وقد رأينا فى ذلك الساحل أشجار السنط الخضراء وحاجز رملى مرتفع من الرمال التى جرفتها الريح من الصحراء: ومن خلال الضباب المشوب بضوء الشمس تراءت لنا بشكل غير واضح تلك التلال التى كانت فوهات لبراكين منذ قديم الأزل. [هذه الحمم البركانية غطت صخورا كثيرة- أما صخور كل من خيبر ' والعويرضى فهى عبارة عن أحجار رملية]. ومسطحات الملح تقع بين طريق القافلة والحَّرة- هذا هو حال سطح الأرض الذى شاهدناه ونحن مسافرين من نجد إلى مكة! ويصل ارتفاع هذه الصحراء كلها إلى مايقرب من ٤٢٠٠ قدم.

توقفنا عند الظهر ،فى عز الشمس، وبسرعة راحت كل جماعة تفرد تعاريشتها ومظلاتها. جاءنا بدوى قادما إلينا من الصحراء راكبا ناقة، كان ذلك الرجل صديقا من عتيبة ، وأخبرنا أن قافلة بريدة عند مسقى مياه مرّان Marran، خلف الحرة التى أمامنا - هبت علينا رياح السموم ، فقد كنا فى عصر يوم من أيام شهر مارس، وأخذت الرياح تهدر فى اتجاه الغرب. ومع غروب الشمس نزلنا عن راحلاتنا استعدادا لوقفة الليل: ولكن بعض أفراد القافلة عندما علموا أن حفر المياه التى تشرب منها الماشية ليست بعيدة، واصلوا مسيرهم إلى تلك الحفر كيما يملأوا قراب الماء: عاد الرجال خاوىّ الوفاض بلاماء ، نظرا لأن الماء كان مذاقه مالغا ومرا وتفوح منه رائحه الكبريت.

فى الصباح شاهدنا الكثير من آثار البدو الرحل فى كل اتجاه. ارتفاع تربة الصحراء هنا كان هو نفس الارتفاع الذى سبق أن قسته على امتداد الأميال المائة التى مشيناها، وخلفناها وراءنا. خط سيرنا الآن يمر عبر حزام فى هذا الجزء من البلاد؛ والعرب يطلقون على هذا الحزام اسم الرُّكابة er-Rukkaba؛ وهم يقولون إن: ' هذا الحزام هو أعلى نقطة فى الطريق كله، وهم يلتقون بالهواء البارد فى هذا الجزء من البلاد' - عندما يكونون قادمين من ناحية تهامة (المدارية). وبالرغم مما قالوه وجدت

أن 'ارتفاع 'هذا الحزام عند الظهر وقبل الغروب لايزيد على ٤٢٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر. درجه الحرارة هنا،أقل من ذى قبل ، وهانحن ننظر إلى منظر صحراوى جديد أكثر اخضرارا وجديدا علينا ؛ هذا السهل الذى نسير فيه يمتد إلى الطائف فى الاتجاه الجنوبى الشرقى . ومع مطلع كل يوم، وأثناء مسيرنا، وعندما كانت الشمس تشتد على رءوسنا، كنت أنحنى على سرج (عدة) الجمل وأغفو مدة ساعة أو ساعتين: ولكنى عندما نظرت إلى الأعلى فى ذلك اليوم خطر ببالى أننى رأيت الشمس التى كانت عائدة إلى الخلف ! خطر ببالى ، خلال تلك اللحظات المؤلمة، أنى أصبت بضربة شمس؛ أوربما تكون متاعب وأوجاع الترحال فى الجزيرة العربية قد تسببت فى النهاية فى إرباك فهمى وتواصلى: ولكن عرق جبهتى المر سرعان ماتحول إلى قطرات من الندى توحى بالارتياح، من باب الأمل الحلو، فى اجتيازنا لمنطقة الصيف المدارى؛ يضاف إلى ذلك أن وجود الشمس على شمالنا لابد وأن يعكس طريقنا الذى نسير فيه. رأيت عند الأفق ضفة جبلية كبيرة تمتد ناحية الشرق؛ هذا هو جبل حتثون **Hatthon**، الذى تعيش فيه أعراب البجوم **Bgoom**؛ ومن خلف هذا الجبل أرى قرية ترّابة **Turraba**: وهم يقولون : إن بعض الآثار القديمة موجودة تحت هذا الجبل. وإلى الغرب من الطريق الذى نسير فيه أرى الجبل البازلتى الذى يطلقون عليه اسم نفور **Nefur** الطريق **et-Tarik**. هاهى الحرّة قدا ختفت عن أنظارنا: وهاهو أيضا أمامنا مورد ماء المحُادثة **Mehaditha** ـ هذه الليلة كانت أكثر إنعاشا من سابقاتها: إذ كنا على ارتفاع ٤٦٠٠ قدم تقريبا. كانت درجة الحرارة عند الفجر ٧٣° فهرنهيتية وكان الماء باردًا فى القراب المتعرقة.

كانت رحلة الغد فى منطقة الرّكابة **Rukkaba**، التى هى سهل مفتوح ومنبسط : والارتفاع هنا يتزايد خلال الساعات القادمة إلى مايقرب من خمسة آلاف قدم. شاهدت أشجار السنط وأدغاله بعد أن قضمت الإبل أعرافها ، وشاهدت آثار أقدام الإبل فى الرمل المحيط بتلك الأشجار والأدغال ـ كانت آثار أقدام الغزال من بين الآثار الموجودة حول هذه الأشجار! عند المقيل(*) كانت درجة الحرارة تحت المظلات والتعاريش حوالى

(*) المقيل: كلمة عربية فصيحة من 'القيلولة' 'والمقيل' هو المكان الذى يتوقف المسافر عنده لتمضية فترة الظهيرة واتقاء حرارة الشمس الشديدة. (المترجم)

١٠٢ فهرنهيتية – شاهدنا فى المساء قطعان أغنام الأعراب، وشاهدنا أيضا الأطفال العراة الذين كانوا يرعون تلك القطعان . أولئك البدو الصغار ـ الذين يشبه لون بشرتهم لون حبات البندق، تحت وهج شمس الجنوب الحارق ـ كانت أجسامهم هزيلة . شاهدنا إبلهم أمامنا: واقترب منا رعاة تلك الإبل كى يقفوا منا على الأخبار ، واندفع واحد من أولئك الرعاة بيننا وكان يركب فرسا بلا سرج .عندئذ بدأت تطالعنا خيامهم السوداء: هؤلاء الأعراب كانوا من الشيابين Sheyabin من قبيلة عتيبة. كانت الشمس منخفضة؛ وعندما تحولنا قليلا عن منْزل البدو المترحلين نزلنا عن راحلاتنا طلبا للتخييم ونيل قسط من الراحة ـ وسرعان ماجاءت إلينا بعض البدويات، اللاتى كن يطلبن شراء الملابس من أفراد القافلة: ولكن القحطان قالوا: أنهن جئن للتجسس على مخيمنا، ولعلهن يسرقن شيئا بسيطا أثناء الليل. لاحظت عيونهن بشرتى الأكثر ابيضاضا؛ وسألن على وجه السرعة" من هذا؟ـ من هو ذلك الغريب الذى معكم؟"

فى الصباح مررنا من بين قطعان البدو الرحل ـ صوف الأغنام هنا كله أبيض اللون. شاهدت هنا فى هذه الصحراء (المدارية فى هذا المكان) بعض النباتات الطويلة المتفرقة من نباتات الصُّبيَّر المضلع، والناس هنا يطلقون على ذلك النوع من نباتات الصُّبيّر اسم الغرلاّثى el-ghrullathi، وهم يستعملونه دواء للماشية . الأعراب يلطخون أنوف إبلهم المريضة بذلك الصبير. والتربة هنا رملية وزلطية وهى من الصخور البللورية ـ قبل دخول الظهر بساعتين مررنا على سلسلة أخرى من الصخور الناتجة عن الحمم البركانية؛ والتقينا إبل الشيابين أنفسهم بعد أن عادت من مورد ماء شعارة Shaara، وكانت راقدة بالقرب منا. هذه الإبل العتيبية بنية اللون، والبعض منها يميل لونه إلى الاسمرار؛ ولكن الإبل كلها كانت قصيرة القامة: أما رعاة تلك الإبل فكانوا من الأولاد المتحررين الذين يجيدون الكلام ـ وبينما كنت أمر بجوار خيمة منعزلة مصنوعة من الصوف الخشن ، رأيت زوجة بدوية واحدة ومعها طفلها الذى كان جالسا داخل الخيمة، وألقيت عليهما السلام ! وردت علّى متهللة وهى تقول :" مرحبا ـ مرحبا "ـ كان أفراد قافلتنا، كلما اقتربنا من البدو الرحل ـ ويحكم شكهم دوما فى سكان الصحراء ويحكم عدم وثوقهم أيضا بهؤلاء السكان ـ يجهزون بنادقهم الطويلة، ويخرجونها من أجربتها، ويشعلون الكبريت خوفا وتحسبا لأولئك السكان؛ وكانوا يواصلون السير وبنادقهم موضوعة على ركبهم .

أمامنا جبل منعزل أسود اللون يقولون له هنا: جبل بس Biss، والأرجح أن يكون من البازلت- وها نحن نرى من جديد الحرة الرئيسة؛ هذا يعنى أننا نقترب من مورد الماء فى شعارة Shaara. يقول لى مذكر:'حرة القشيب الكبيرة مستديرة الشكل [البعض يقول: إن هذه الحرة يستغرق الدوران حولها يوما أويومين]؛ وحرة القشيب ليست منعزلة، وإنما هى واحدة فى سلسلة من الحرَّات الواقعة بين مكة والمدينة : يضاف إلى ذلك أن حرة القشيب وحرة أحرار المدينة ليست بينهما مسافة كبيرة.' فى هذه المنطقة التقينا صبيا بدويا نحيفا يرعى الماشية؛ كان وجه ذلك الساقى الشاب جميلا، وهو يرتدى ذلك التونك المكى أزرق اللونَ- ولكن عيون أهل الشمال فى هذه البلاد، ترى اللون الأزرق على إنه لون نسائى : كانت خصل الشعر الأسود تتدلى منهدلة على كتفى ذلك الصبى اللذان يشبهان كتفى الأنثى." (صاح جمَّال عنزى وقح، وهو بدوى لايحب أحدا غير أبناء قبيلته) هوى، ياولد- أقول أيها الرفاق: هل هذا رجل أم أنثى ؟" وهنا امتلأ قلب ذلك الصبى بالاحتقار والكراهية الشديدة؛ وتركزت عيناه الوحشيتان علينا -وأوشك أن يبكى- شعارة التى وصلنا إليها الآن، ليست سوى خليج الحّرة، والناس هنا يطلقون على ذلك الخليج اسم عشيرى Ashiry. اكتشفت أن نهاية الصخور البركانية، التى يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدما كانت قابعة فوق طبقة من صخور الجرانيت - التى يميل لونها إلى الابيضاض، وهشة بفعل الحرارة الشديدة: هذه الرأس من الصخور البركانية كانت موجودة عند حافة شُعب من صخور الجرانيت. وشعارة ليست سوى شعْب أو مجرى سيل يقولون له: وادى wady عزيز Aziz ويقولون له أيضا: وادى العقيق el-Agig. فى هذه المنطقة كثير من الآبار ذات الفوهات الضيقة، وهذه الآبار موجودة، منذ أزمان بعيدة، وهى مبطنة بأحجار جافة؛ ولكن بعضا من تلك الآبار غير مطهَّرة. بلغنا أن قافلة بر يدة شربت من هذا المورد عند ظهيرة الأمس : واعتبارا من الأمس تحولت مسارات الصحراء إلى مسار واحد. كنا على ارتفاع حوالى ٤٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

أمضى أفراد القافلة الليل وهم يحملون السلاح. كان أولئك النيام مولعين بالصياح والتحذيرات ، ومولعين أيضا بإطلاق البنادق الفتيلية، إلى حد أننا كنا نخاف على أنفسنا من نيراننا وطلقاتنا،إلى أن طلع الصباح علينا. كانوا إذا ألقوا القبض على

لص من اللصوص يقتادونه إلى خيمة الأمير؛ ويكون عقابه، على حد قولهم لى:" الضرب حتى الموت ." كنا فى القافلة يضيع منا شيئا كل يوم؛ والمرجح أننا كنا ننسى ذلك الشيء على الأرض قبل أن نركب الناقة ـ وكنا عندما نصل المنزل الثانى، نجد صاحب ذلك الشيء ، واقفا فى مكانه ، ويصيح مناديا من خلال راحتى يديه، أنه ضاع منه شيء ما؛ وأنه إذا كان أحد قد عثر على ذلك الشيء، فليعده الآن، ويتقى الله.

جاء إلينا بعض البدو فى الصباح؛ وما أن رأونى حتى سألونى بفضول شديد عن هويتى. سألهم أفراد القافلة عن أسعار السمن فى مكة. بعد أن رحلنا، على أثر الانتهاء من سقيا إبل القافلة، اندس بدوى بين أفراد القافلة؛ كان ذلك البدوى يرتدى ملابس سيئة مثل أفضل البدو، ومع ذلك كانت مشية ذلك البدوى من النوع المميز إضافة إلى مظاهر السخرة القاسية التى تبدو على أهل الحضر. وهنا قام جمالنا العنزى الجرئ بلعن الأب الذى أنجب ذلك البدوى، وطلب منه الابتعاد عنا وعن القافلة! ولكن العتيبى استل سيفه القصير إلى منتصفه، وبابتسامة بدو الحضر، راح يواصل السير بين أفرد القافلة: لم يكن ذلك البدوى خائفا من الحضر من أهل ديرته. واصلنا السير: وتبدى لنا ساحل الحرة وكأنه يركب المنطقة السهلية الموجودة عن يميننا . شاهدنا طفلا يرعى قطيعا من الحملان، ولم يكن ذلك الطفل يرتدى أى شيء من الملابس، سوى حزام من سيور الجلد .[شاهدت الحريم بعد ذلك ، وهن يرتدين ذلك الحزام نفسه من حول ثيابهن الواسعة: ربما كان ذلك من مميزات اللبس المماثل للهجو haggu فى جنوب الجزيرة العربية]. بكى الطفل لأن جماعة من الغرباء أخذته هو وقطيعه: ولكنه تشجع وجمع أفراد قطيعه، وانتحى به جانبا وأشاح بوجهه عنا.

هنا بدأنا نتجاوز سهول نجد الكبيرة الوسيعة؛ ودخلنا منطقة صخرية فيها الكثير من صخور البازلت يطلقون عليها اسم الرِّيع el-Ria، ويصل ارتفاعها عن مستوى سطح البحر حوالى ٥٠٠٠ قدم. [وقد اكتشفنا أن الريع تعنى فجوة وممرا بريا فى الجبل ـ وأنا لم أجد مثيلا لهذه الكلمة بين مفرادات الأراضى المنخفضة فى بلادنا]. فى هذا الريع تنمو أدغال من نوع معين، هى أدغال أشجار النبأ nebba،التى سبق لى أن رأيتها مؤخرا فى تلال الحجر الجيرى فى سوريا: ومررنا على مناطق مغطاة بالهباب الأسود: هى عبارة عن محارق الفحم النباتى فى منطقة [مكة] المكرمة. وبعد أن قطعنا

مسافة أخرى فى ذلك المضيق مررنا على بعض الرُّجوم، التى وجدنا بينها مبنى بدائيا، وربما كانت تلك الرجوم عبارة عن مقابر لبعض الشخصيات الرئيسة فى الزمن القديم ، هذا الرَّبع عبارة عن ممربين المناطق الكبيرة. كنت عندما أسأل أحداً من أفراد القافلة، عن ماهية تلك الأكوام ؟ يرد على قائلا:"إنها من أعمال الكفار الذين كانوا فى هذه الأرض قبل المسلمين: ـ كبف ياخليل! ألم يكونوا من أهلك ؟" قال آخرون:" إنهم بنو هلال؟"

صعدنا من ذلك الممر إلى ناحية اليسار ، عن طريق سيل منحدر، تحيط به أشجار السنط والصخور. وبعد مسافة قصيرة شاهدنا طنفًا ضيقا من طنف(*) الجبال؛ عند هذه الحافة شاهدت تلة، ومدقات مؤدية إلى مبنى قديم من المبانى الجافة(**)؛ كان الارتفاع هنا حوالى ٥٥٠٠ قدم، فوق مستوى سطح البحر، وبالتالى تصبح تلك هى أعلى نقطة على امتداد هذا الطريق الذى نسير فيه. كان إبراهيم ورفاقه يجلسون بجوار ذلك المبنى؛ بينما كان خادم الأمير يقوم بإحصاء عدد الإبل ـ بأن جعلها تمر واحداً بعد الآخر ، وكان يدون ذلك على قطعة من الورق؛ والسبب فى ذلك (على حد قوله) هو أن الجمل الواحد يدفع عنه ريالا واحداً . وبعد أن قطعنا بضع خطوات، نزلنا عن طريق مجرى آخرا من مجارى السيل ـ بحثت دون جدوى عن نقوش مكتوبة: لم أعثر على شيء غير حفر من الصخر الجرانيتى رمادى اللون، الذى تتخلله عروق من البازلت.

المنظر كئيب فى هذا الجزء من البلاد كنا ننزل متجهين صوب مكة ـ التى أصبحنا الآن على مقربة منها – ولم أكن أعرف أى شيء عن تلك المغامرة التى قد أعيش بها أو أموت بسببها غداً : لم يكن ضمن القافلة أحد من أصحاب القدر أو الجاه. كان عبد الرحمن صديقا لى فى القافلة، ـ وذلك كان من باب طاعته لوالده: كان عبد الرحمن من الشخصيات المحبوبة؛ ولم يكن صاحب عقلية متشددة، وإنما كان صاحب عقلية مسكينة **mesquin**. وقد أ حسست من ردوده علّى اليوم ،أنه كان شديد القلق على كل مايتعلق بى.

(*) طُنفُ: بضم الطاء وضم النون هو "حافة" .(المترجم)

(**) المبنى الجاف: المبنى من الحجر بدون استعمال الملاط. (المترجم)

كان الوقت ظهرا عندما وصلنا إلى الأرض المرتفعة، تلك التربة التى كانت تمتد فيما بين الجبال، على شكل وادى مرتفع عريض. هذه الأرض تسلكها القوافل القادمة من نجد لتختصر من الطريق المؤدى إلى مكة مسيرة أو مسيرتين ؛ والناس هنا يطلقون على هذه المنطقة اسم السيل es-Seyl: كنا هنا على ارتفاع حوالى ٥٠٦٠ قدما ـ هذا هو وادى الحمض el-Humth الكبير الذى ينصرف فيه سيل الحرّات الواقعة فيما بين مكة وتبوك؛ ويقال إن هذا الوادى الكبير يبدأ من وادى الليمون laymun [انظر الجزء الأول ص٢١٧]، الذى ينخفض قليلا ، ويقع على الجانب الأيمن: وإذا ما أخذنا نقطة الارتفاع هنا، بعين اعتبارنا ،تصبح مسألة الانخفاض هذه أمرا ممكنا.

تجاوزنا نجد؛ وهذا جزء آخرمن الجزيرة العربية! ومن بين تلك الحشائش قدر كبير من نباتات النعناع [انظر صفحه ٤٢٧]؛ كما مررنا أيضا على مروج ومراعى قصيرة الحشائش، نظرا لأن إبل القوافل ترعى ذلك العشب طوال اليوم، عبر تنقلها فيما بين مكة والطائف. هنا توقفت القافله ونزلنا من فوق إبلنا: وعندما حفروا هنا بأيديهم، عثروا على الماء النقى على عمق شبر واحد. ومن هذه المنطقة، قالوا لى: إن المسافة إلى الطائف لاتتجاوز رحلة واحدة: وعليه نصحنى بعض الأشخاص الواعين والأمناء بالذهاب إلى الطائف، إذ كانوا يقولون لى : 'إننا يحتمل أن نعثر على بعض الجمّالة المكيين القادمين إلى الطائف، وأنهم سوف يعهدون بى إلى أولئك الجمّالة ، وبالتالى فهم يرجحون وصولى إلى الطائف هذه الليلة؛ كما وصلهم أيضا خبر مفاده أن شريف (مكة) كان موجودًا فى الطائف: وأننى إذا ماوصلت إلى الطائف، وطلبت من شريف مكة،إرسالى إلى جدة، فسوف يأمر بذلك، وتصل إليها فى أمن وسلام.

ـ يالها من متعة إذا مازرت الطائف! هى جنة عدن المكية، فيها الهواء البارد الحلو، والماء الجارى؛ فيها حدائق الورد، وفيها البساتين وحدائق الكروم. ولكن هذه المميزات يمجدها الناس، فى كلامهم العام، والسبب فى ذلك أننى سمعت بعض القصمان يقولون:'إنهم يروون عجائب عن الطائف!ـ حسن، لقد ذهبنا إلى الطائف؛ وأستطيع القول: إنها أقل مما قيل عنها !ـ فقد ازدادت عندى أمراض وأوجاع الجزيرة العربية عندما ذهبت إلى الطائف؛ من ذلك مثلا أن أطرافى السفلى امتلأت بالتقرحات، التى يقول الناس عنها هنا'الحب' hub أو 'البذر' bizr . أو قد يقولون لتلك التقرحات،'بذرة'

bethra ' التمر' على ساحل الخليج الفارسى]نظرا لأن الحبوب تبدأ فى الظهور فى موعد حصاد التمر]. هذه التقرحات ، التى هى شبيهة بالأزرار button الحلبية Aleppo، معروفة فى أجزاء كثيرة من العالم العربى- فهى معروفة فى مصر ويطلقون عليها اسم (حمو Soresالنيل Nile) ؛ وفى الهند يطلقون على تلك التقرحات اسم (فقافيق دلهى): هذه التقرحات تعزى إلى شرب الماء غير النظيف فى كل أنحاء الدنيا. هذه التقرحات تغسل جيدا بحامض الكربوليك، ثم يجرى مسحها بزيت السمك؛ ووصل الشر معى إلى مداه، إذ لم يجد العلاج: وقد استغرق شفاء هذه التقرحات منى خمسة أشهر. - هذه التقرحات التى تظهر من تلقاء نفسها تشيع بين البدو. [التكوين، وسفر التثنية السورة رقم ٢٨ الآية رقم ٣٥] من هنا كان من الأفضل النزول إلى جدة؛ يضاف إلى ذلك أننى استحضرت فى داخلى ذلك الذى سبق أن قرأته عن (أشراف مكة) القدامى: وفوق كل ذلك، لو كان من صالحى الذهاب إلى الطائف، فلماذا لم ينصحنى البسام وأنا فى عنيزة بالذهاب إلى الطائف - مع انه امتدح طيبة شريفها الذى توفاه الله ؟ الآن، يتولى أمور مكة شريف جديد: وهذا الشريف هو أيضا أمير مكة؛ ولم أكن أعرف هل سيكون عادلا معى أم لا بوصفى نصرانيا.

كان القصمان مشغولين بالاستحمام هناك، والتخلى عن ثيابهم الدنيوية: وأعتقد أن الوقت ، كان مناسبا لغسل ثياب الجمّالة الفضفاضة، وغسل ملابس أصحاب الإبل التى أصبح لونها مثل لون الرصاص من كثرة العمل اليومى فى تحميل وإنزال قراب الزبد والسمن- وعندما كان الجميع جالسين حول ثقوب الماء، كان كل واحد منهم يساعد الآخر، بأن راح يسكب سطلا من الماء على رأس جاره. وأعقب ذلك أن تناول كل واحد منهم من صُرَّة أشيائه، حوالى ياردتين أوثلاث ياردات من البفتة البيضاء، أو من قماش المناشف، التى تغطى الجسم إلى الركبة؛ وكانت هناك منشفة أخرى توضع على الكتفين. تلك هى ملابس الإحرام ihram، أوإن شئت فقل ملابس الحج. هذه الملابس تغطى الجسم إلى الركبة، والقطعة الثانية تغطى الكتفين. وبذلك يصبح الحاج حاسر الرأس وشبه عار؛ وكل من يدخل الحرم لابد أن يكون لابسا تلك الملابس إن كان حاجا أو معتمرا: أما إذا كان الشخص من أهل المدينة أو من الحامية القائمة على أمر حراستها، فإنه يقوم بهذه الشعيرة بعد تغيب محدد. وفيما يتعلق بأفراد قافلتنا

النجدية، فإن البعض من تجار الزبد والسمن، الذين يذهبون إلى مكة كل عام لبيع هذه السلعة، لايعد الأمر جديدا عليهم أوعلى قلوبهم . هذا يعنى أنهم لايتوقعون من هذه الرحلة إلى المدينة المقدسة سوى التعب والإرهاق ؛بل إنى سمعت البعض منهم يقولون : 'إن حرارة مكه حاليا [فى فترة هبوب ريح السموم] لا تطاق': فهم يقضون اليوم بطوله فى السوق، حتى يتمكنوا من بيع بضاعتهم؛ يضاف إلى ذلك أنهم لايشربون أية مرطبات فى الليالى ساكنة الهواء، إلا بعد أن يعودوا إلى هنا مرة ثانية. سوف يقيم الرفاق هنا فى غرف مستأجرة: يضاف إلى ذلك أن أولئك الأشخاص القلائل من بين أفراد القافلة، والذين يعملون بالتجارة فى المدينة ، سوف يعودون إلى مواطنهم ؛وولد البسام سيفعل الشيء نفسه: والسبب فى ذلك أن والده الطيب له بيت فى مكة، هناك عبدة عجوز تقوم على أمر ذلك البيت.

هذه واحدة من مناطق المخيمات القديمة التى توافدت عليها جموع الحجاج وأفراد القوافل على امتداد أجيال كثيرة، وفى فصل الصيف يعد ذلك المخيم مقيلا يلوذ به المسافرون الذين يتنقلون بين المدينة المقدسة (مكة المكرمة) ومدينة الطائف. شاهدت فى هذا المخيم بعض النسور التى كانت تحلق صاعدة ونازلة فى أنحاء المخيم؛ وأذكر أنى شاهدت أيضا فى هذا المكان الصحراوى بعض الكتل التى كان الناس يستعملونها هاونات ليطحنوا فيها كل مايلزمهم، كما وقعت عيناى أيضا على أساس لمبنى أنشئ من الصخر . يقول أصدقائى العنزيين إن الناس هنا يطلقون على هذا المكان اسم قرن المنازل Menazil Kurn؛ وهم يفسرون هذا المسمى على إنه شبكة الأماكن التى كانت تقام فيها خيام الشعر القديمة، والتى كانت مكونة من عدد كبير من الخيام التى يجرى نصبها فى مكان صغير .كنت أمشى حافى القدمين على الأرض هنا فى عز الظهر ، نظرا لأن حرارة الشمس كانت معتدلة هنا فوق هذه الأرض المرتفعة؛ يالحلاوة المشى من جديد على أرض خضراء، بعد سنوات من التجوال فى أراضى جافة ! لم يكن من بين أولئك الذين كانوا فى المخيم ،إلا النصرانى الذى كان يرتدى ثيابه؛ ومع ذلك لم يعترض علىّ أحد من القصمان؛ إذ كانوا هم أنفسهم على وشك الوصول إلى مكة؛ يضاف إلى ذلك، أنى قد أبدو صديقا للقصمان ، بالمقارنة مع البدو الحاقدين الحاسدين الذين يسكنون هذا المكان، الذى يطلقون عليه اسم الحطيل el-Hatheyl.

عثرت على ولد البسام محزَّماً فقط فى ملابس الإحرام، وهو جالس تحت تعريشة من التعاريش ."قال: ياخليل ، من حسن حظك! هناك بعض الجمَّالة الذين جاءوا من الطائف : وقد تكلمت مع واحد منهم بالفعل - وقد أعرب الرجل - وهو معروف لنا- عن استعداده لتوصيلك إلى جدة."- ومن الذين سأراهم مع هذا الجمَّال؟"- إنهم من الجوَّة Jawwa [أى حجاج من جاوه ولايحترمهم أهل الجزيرة العربية : والسبب فى ذلك أن وجوه أهل شبه جزيرة الملايو تبدو غريبة على أهل الجزيرة العربية! وسمعت العم محمد النجومى ، فى خيبر، وهو يقول: 'بالرغم من أنى قدر لى أن أقضى حياتى فى بلاد الجاوة، فأنا لم أستطع - !وأنا أقسم على ذلك بالله، الزواج أو معاشرة أية واحدة من نساء ذلك البلد .' كان أولئك المتدينون موجودين فى الطائف لزيارة الشريف ؛ كما قال أيضا: إن موعد ذهابهم، ضمن العمرة، إلى المدينة المنورة، أصبح قريبا جداً]. ياخليل، المغامرة من عند الله (سبحانه وتعالى) : ووالله أنا أشك فى مسألة عثورنا، فى العين el-Ayn على رجل يرافقك إلى الساحل. يضاف إلى ذلك ،أنى يتعين علَّى ترك القافلة قبل الوصول الى المحطة التالية؛ والسبب فى ذلك أننا (أى الرفاق الشباب الذين مع إبراهيم) سوف نتجه هذه الليلة إلى مكة (المكرمة)؛ بدلا من دخولها باكر أثناء طلوع الشمس، وذلك من باب المحافظة على رءوسنا الحاسرة. هل أرسل فى طلب سليمان ليقوم باستدعاء ذلك الجمَّال؟- لكن، يجب أن نتفق مع ذلك الجمَّال على وجه السرعة ؛ نظرا لأننا أوشكنا على الرحيل ، وسوف نتركك هنا."

- كان ذلك الجمَّال شابا بائسا! واحد من أولئك الذين يعملون على الحيوانات التى تستعمل لنقل حاجيات المسافرين، فى البلدان العربية، والذين يفنون حياواتهم فى بؤس يومى بسبب الأجور الهزيلة والطعام الهزيل والنوم المتقطع على الطرق. كان يبدو كما لوكان يحتفظ فى ذهنه بمخ واحد من الإبل ،إذ كان يتحدث بطريقة فجة وضحلة. عبدالرحمن:" ومن العين، أنقل هذا المسافر إلى جدة، وذلك عن طريق وادى فاطمة. أنا سوف أنقله عن طريق مكة، لأن ذلك هو الطريق الأقرب." عبدالرحمن وسليمان:" لا،لا! لابد أن تنقله عن طريق الوادى ، وأردف عبدالرحمن قائلا: هذا الرجل لايذهب إلى مكة،" - قال هذا الكلام بشىء من الاستغراب المتشدد، الذى عرض حياتى للخطر ؛ وهنا هز سليمان رأسه!- فغر الرجل فاه على ذلك الذى سيكون مسئولا عنه، واندهش

عندما رآنى صاحب بشرة شديدة البياض !تدخلت وواقفت على كلام هؤلاء الناس الأصدقاء: سوف أركب من العين إلى جدة خلال طريق واحد، فى حين قال ذلك العبد: إن ذلك قد يستغرق أياما عدة. إبل هذه المنطقة ضعيفة ولاتزيد قاماتها على قامات الخيول .هذا النوع من الإبل يحتقره أهل نجد: وهم يقولون :إن جمّالة مكة يمشون مثل النمل en-nimmi بمعنى'أن سرعتهم فى المشى تشبه سرعة النمل.'

انصرف ذلك الجمّال مستاءًا، وكان ينظر إلىّ باعتبارى مختلفا تماما عن سائر أنواع الحجاج. [أثناء أنصرافه، سأل ذلك الجمال أفراد القافلة، عن هويتى ؛ ورد عليه البعض من باب الحقد الفطرى ومن باب الخيانة بأننى نصرانى! وعندما سمع الجمال هذه الكلمة قال: 'والله wullah ـ بالله Bullah، لن ينقله ، لا؛ حتى لو دفع مائة ريال'!] قال عبدالرحمن:" ياخليل ،تلك كانت فرصة جيدة، ولكنك فوّتها!"ـ " وهل تعهد بحياتى إلى شخص تعيس كهذا ، شخص لا يقدر على حمايتى من السب والإهانة، أهذا هو الرجل الذى تثق به؟ شخص اكتشفت أنا أنه غير معروف لأى أحد من الموجودين هنا: الأفضل لى أن أركب وحدى وأسافر إلى جدة." سليمان :" ياخليل حيثما ذهبت فى هذه الأماكن، سوف يعرفون من سرج الناقه التى تركبها أنك من الشرق [أى وسط نجد] . يضاف إلى ذلك أن سُرُج الإبل فى هذه الأراضى المكيَّة المنخفضة كانت تبدو لنا شيئا سيئا وغريبا علينا.

بينما كنا نتحدث صاح خادم إبراهيم مناديا على القافلة بأن تبدأ التحرك ! وهنا راح أفراد القافلة شبه العراة وحاسرى الرءوس ، يعجلون بتحميل أشيائهم على الإبل : وركب حداة الإبل ؛ ثم بدأت القافلة النجدية فى التحرك ـ كنا ننزل متجهين إلى مكة! وكان بعض حداة الإبل 'يلبُّون Yulubbun يقولون: لبيك Lubbeyk لبيك !Lubbeyk بمعنى' نحن ننفذ إرادتك ، نحن ننفذ إرادة (الله)!' هذه التلبية لم يكن لها وقع سار فى أذناى : كانت حياتى تحيط من حولها الشكوك بسبب هذا الكلام الذى كان أبشع من كلام ولد البسام المتهور. والأخبار التى من هذا القبيل سرعان ماتنتشر وتشعل نيران التشدد القاسى؛ ومع ذلك ، كنت أتمنى ، بحكم استباقنا إياهم، أن أصل إلى بلدة العين قبل أن يصل إليها ذلك الجمّال المكى التعيس. سألت حادى الإبل العنزى لماذا يقول هذا الكلام؟ وأجاب ـ" أوه!ماذا جرى لك ياخليل ؟ غدا سنكون فى مكة! Mekky

ولذلك فنحن، نصيح بهذه التلبية، نظرا لأن رحلتنا أوشكت على نهايتها- لبيك!lubbeyk لبيك! lubbeyk!"

ملابس الإحرام هذه هى بلا أدنى شك من مخلفات أديان الكعبة القديمة فقد عثرت على موروث بين البدو، عبارة عن لباس يطلقون عليه اسم اليمنى yemeny وكان بمثابة لباس قديم للبدو- والنساء اللاتى يدخلن الأراضى المقدسة يلبسن أيضا ملابس الإحرام ومن فوقها أيضا حزام؛ ولكنهن حسب الدين الإسلامى يغطين أنفسهن بقناع يشبه الملاءة. زد على ذلك أن الجنود الذين يرافقون قوافل الحج (السورية أوالمصرية)، وكذلك الضباط بل وباشا الحج نفسه، يلبسون ملابس الإحرام: إنهم يدخلون المدينة المقدسة وكأنهم إناس يستحمون ، ولا يعفى أى أحد من ذلك.[يتعين على الحجاج البقاء شبه عارين فى مكة لأجل زمنى معلوم، وقد لايتغطون أثناء الليل! إلابعد عودتهم من عرفات]. وفى مكة تكاد تكون درجة الحرارة مدارية طوال العام تقريبا: وبالتالى قد لايعانى الحجاج من البرد، عندما يجيء موسم الحج فى فصل الشتاء، مثلما يعانون من حرارة الشمس إذا ماارتدوا ملابس ثقيلة أوعمائم فوق رءوسهم.أما إذا كانت صحة الحاج لاتتحمل ذلك، فإن الله غفور رحيم، ويسمح له شريطة أن يقدم هدياً فى مكة.

شاهدت فى قافلتنا شخصا آخرا لم يلبس ملابس الإحرام- كان ذلك الشخص تاجرا مريضا من التجار الشبان، كان عائدا من البصرة منذ فترة وجيزة، لزيارة بيته وأهله فى القصيم؛ وهو الآن يقوم بعملية تجارية صغيرة إلى مكة (المكرمة). هذا الشاب تعلم، طوال خمسة عشر عاما أمضاها فى التجوال فى الشمال، كيف ينظر إلى نجد نظرة احتقار وازدراء." أليسوا (قالها وهو يضحك لى) أناسا أغبياء ومتشددين؟ ها- ها!إنهم حفاة ولايلبسون نعالا، إنهم يشبهون البدو.أنا غريب على هذه الديار، ياخليل ، مثلك تماما، ولم أرتدى ملابس الإحرام، مخافة أن أصاب بنوبة برد؛ والأمر لن يكلفنى سوى ذبح شاة فى مكة." رحت أتأمل كلام هذا الرجل، وأتأمل كذبه، وأطيل النظر إلى وجهه الذى يشبه لونه لون الصلصال، وهنا أدركت أنه لم يكن من جنس هؤلاء البشر. كان ذلك الشاب قد جلب معه فى القافلة شيئا غريبا، مجرد حمار أبيض اللون، جلبه من بلاد الرافدين؛ وكان يتطلع إلى بيعه بضعف ثمنه فى مكة (المكرمة) - حيث يعد الحمار - كما هو الحال فى البلاد العربية الشرقية الأخرى - من حيوانات الركوب التى

يستعملها الأشخاص الكبار المهمين. قلت لعبد الرحمن ، الذى كان ضعيفا،" لماذا لبست ملابس الإحرام؟" أجابنى،' إنه إذا ماساء حاله فى الطريق فسوف يعود إلى ارتداء ملابسه من جديد، وسوف يقدم هديا فى مكة.'ـ هؤلاء ليسوا حجاجا يزورون المدينة المقدسة" وإنما هم يقومون فقط بطقوس الكعبة المعتادة؛ ثم يلبسون بعد ذلك ملابسهم حتى يتسنى لهم القيام بأعمالهم.

من السيل ننزل إلى مجرى واد صخرى بين صخور سوداء ويصل اتساعه إلى حوالى نصف ميل: هذا المجرى عبارة عن قاع من قيعان السهول الكبيرة المكونة من الحصى و الأحجار المستديرة فضلا عن أشجار السنط ؛هذا المنظر الطبيعى أعاد إلى ذاكرتى منظر الحقول fjelde الأسكندنافية التى سبق أن عرفتها فى مقتبل حياتى. الحياة النباتية المحيطة بى هنا تشبه تلك الحقول الأسكندنافية: الفرق هنا يتمثل فى الغطاء الخارجى فقط ، هبة الشمس والمطر. والناس هنا لايعرفون لهذا الوادى من وديان الحديد، سوى اسم واحد فقط هو وادى Wady السيل es-Seyl. وكل الجبال المربعة المحيطة بهذا المكان يسكنها أعراب الحطيل Hatheyl [وجمعه الحطيلان Hatheylan] ـ والحطيلان هذا اسم قديم، والناس هنا يقولون عن الحطيل :"إنهم سلالة نسبية مستقلة، ولاتربطهم أية صلة بالقبائل المجاورة." والجمَّالة المكيون هم وجمالة القطيف عندما يلتقون أغرابا قادمين من نجد، فإنهم يحذرونهم بكلام من قبيل" احذر الحطيل فإنهم لصوص."ـ الوادى هنا كان طريقا تمر منه الإبل؛ وقد سبق لقافلة بريدة أن مرت من هذا الوادى وكانت تضم مائتى جمل.ـ ولكنى شاهدت هنا آثار آلاف من الإبل ! لم أكن أعرف أن ذلك هو الطريق السريع المؤدى من مكة إلى الطائف، والذى تمر فيه كل يوم سلاسل طويلة من قوافل الإبل . نزلنا عن راحلاتنا عند غروب الشمس ـ هذا هو المنْزل الأخير ـ بين الأحجار الكبيرة لوادى السيل . كنا هنا فى هذه المنطقة على ارتفاع ٢٧٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر.

كان البسام الطيب قد اشترط، أنه فى حال عدم وجود شخص فى المحطة السابقة لمكة، يقوم بتوصيلى إلى جدة، فإن رجله (الذى يخدم ولده عبد الرحمن) هو الذى يتعين عليه القيام بهذه المهمة، ألا وهى توصيلى إلى مدينة جدة. هنا استدعى عبد الرحمن البسام خادمه، ولكن ذلك الرفيق الذى داوم على أن يقول:" نعم ـ نعم" طوال

أيام الرحلة، ها هو يرد على عبد الرحمن قائلا:" ليًلا" بمعنى "لا- لا' وهذا يعنى أن الأعراب يمكن أن يخذلون فى الوقت المناسب- قال الخادم: إنه سيرافق بقية القافلة إلى مكة.' استاء عبدالرحمن وغضب لما قاله ذلك الخادم ؛ رد هذا الرجل أربكنا كلنا." إذن، لماذا وعدت بأنك سترافق خليل؟ قال: اذهب الآن،أرجوك؛ والأجر الذى سيدفعه خليل جاهز: أنت ليس من حقك أن تمتنع أوتقول :لا." حاول إبراهيم أيضا إقناع ذلك الخادم، - ولكنه لم تكن فى يده السلطة التى تجبره على القيام بذلك العمل. وهنارد ذلك الخادم رداً مختصرا إذ قال:" أنا حر، وأنا لن أذهب إلى جدة!" ثم تركنا بعد ذلك. وهنا أرسل إبراهيم فى طلب رجل آخر من رجال القافلة، رجل فقير الحال ولكنه حسن الفهم: وعندما جاء ذلك الرجل الفقير استسمحه إبراهيم فى أن يركب مع خليل ويرافقه إلى جدة، ولكنه بدأ ينتحل لنفسه الأعذار، ولكنهم قالوا له:" ليس هناك ما يجعلك تتعجل، إذ يمكنك أن تعود إلى مكة خلال يوم أو يومين؛ وكل ماهو مطلوب منك هو أن تحدد الأجرالمطلوب ، وألا تقول:لا!" طلب الرجل خمسة ريالات؛ وبهذا التأكيد طلبوا من ذلك الرجل أن يذهب لحال سبيله." قلت: اسمحوا لى أن أربط ذلك الرجل بشيء من العربون." رد إبراهيم قائلا:" لاداعى لذلك أثناء الليل ـ وليكن ذلك فى الصباح!" كان يراودنى من داخلى إحساس بأن ذلك الاتفاق كان هشًا؛ وكنت قد تعلمت ألا أعلق أملا كبيرا على وعود العرب التى تقطع أثناء الليل."-"يا مذّكر!أسمح لواحد من بدوك أن يرافقنى إلى جدة."-" حسن ، ياخليل، ليتنى أساعدك؛ ولكنهم لايعرفون الطريق." كان مقررا لإبراهيم ، وعبد الرحمن والرفاق الشباب أن يركبوا راحلاتهم، عقب العشاء مباشرة، ويتجهون إلى مكة ، وهذا يعنى أنهم سوف يتركونى هنا فى هذا الممر الخطير. فهمت فيما بعد، أنهم أخروا رحيلهم لحين طلوع النهار- وما أسرع طلوع النهار بعد ذلك! وهنا بدأنا نمضى قدما.

لم أكن بحاجة إلى انتظار ذلك الذى وعدنى أثناء الليل؛ والذى لم يهتم بتنفيذ الكلام الذى قاله أمام كل من إبرهيم وعبد االرحمن ، - وكانا يعرفان ذلك تماما. وبالرغم من أن ذلك كان هو اليوم السابع عشر من رحلتنا منذ أن غادرنا عنيزة؛ إلا أن رتابة المنظر الطبيعى نفسه، جعلتنى أحس، حتى الأمس، وبعد أن تجاوزنا الشعارة es-Shaara وكأننا مازلنا متوقفين فى المكان نفسه- هذا يعنى أن القافلة سوف تصل

إلى مكة عند الظهر: وأنا يتعين علّى أن أتركهم فى خلال ساعة واحدة، ولكن لم يتخذ أحد أى قرار بشأن الترتيبات المطلوبة.

مررنا ببعض البدو الذين كانوا يتحركون صوب الأراضى المرتفعة: هؤلاء البدو، كانوا أصحاب أجسام نحيلة، وسود البشرة، ويبدو الجوع فى وجوههم: وكانت حاجياتهم البسيطة محملة على الإبل الصغيرة التى فى هذه المنطقة. شاهدت أجناب ذلك الوادى القاحل العامرة بسيقان الأعشاب الجافة ـ ومعروف أن هذه الجبال تهب عليها الرياح (الموسمية) وتسقط عليها أيضا الأمطار الموسمية ـ ومن بين هذه الصخور المتحدرة كان هناك جبل يدعى جبل أغنام البدو الرحل؛ كل هذه الأغنام كانت أصوافها بيضاء اللون ولكنها كانت من سلالة مختلفة عن سلالة الأغنام النجدية. وفى وسط ذلك الوادى ، مررنا خلال بيارة فيها عشب يشبه الأشجار (يطلق الناس هنا عليه اسم العشا el-esha) ويحمل الكثير من الأوراق الخضراء! هذا العشب له عناقيد ورقية فيها الكثير من البذور. وهم يقولون: إن هذا العشب عديم النفع للإنسان أو الماشية؛ ولكن أهل المنطقة يجمعون النسغ الذى ينساب من ذلك العشب ويبيعونه دواء، للحجاج الفرس؛ كما يستخدم البدو ذلك العشب فى عمل الفحم النباتى الذى يستخدمونه بدلا من البارود. فى تلك البيارة التقينا جماعة من المسافرين المتجهين إلى الطائف، وكانوا قد بدءوا رحلتهم أثناء الليل قادمين من مكة. كان الحريم يجلسن فى الصناديق الجانبية التى تستعمل فى سوريا لمثل هذا الغرض.

يتعين علّى عندئذ تجاوز دائرة غير مسموح للأجانب بالتواجد فيها؛ الناس الذين يعيشون داخل هذه الدائرة أقفلوا كل الطرق المؤدية إليها؛ وكل واحد منهم بالمقارنة مع النصرانى يعد واحداً من أهل الله. كنت قد بحثت عن مسدسى أثناء الليل؛ وبدأت أتحسب للطلقات الطائشة من حولى؛ نظرا لأنى لم يخطر ببالى الإقرار بذلك الدين البسيط. إن قدر لى أثناء هذه المغامرة، اختراق أى شكل من أشكال المعارضة البربرية غير المتحضرة، فأنا مايزال أمامى ثلاثين فرسخا ، يتعين علىَّ طوال هذه المسافه المرور من مسارات مجهولة، فى وديان لايسكنها سوى الأشراف Ashraf، الذين هم من سلالة محمد (ﷺ) ـ يتعين علّى أيضا تتبع مجارى السيول، التى تصل فى النهاية إلى شاطئ البحر. ولكنى لم يكن معى طعام أو ماء؛ يضاف إلى ذلك أن قواى كانت قد

خارت تماما ـ كان إبراهيم الذى كان يعدو بجوار ناقتى يطيل النظر إلى الفترة التى كنت أضعها على رأسى؛ وكان يعجب (مثل أى عربى من العرب العتاة) لراحتى وأنا راكب الناقة. سألنى إبراهيم، " كيف حالى؟ وقال : ألا ترى انحناء الوادى الذى أمامنا؟ عندما نصل إلى هناك سنكون قد أصبحنا على مرأى من عين Ayn الزَّيمة "ـ ez-ema "وأنت ،ألن تساعدنى ،إذا ماحدث لى حادث أو مكروه؟"ـ" نعم، ياخليل؛" ثم راح يسبقنى بعد ذلك: ولكنى لم أر عبدالرحمن! فقد كان مع المقدمة والرفاق.

تعثرت الناقة التى كان يركبها واحد من الرجال، وكان يسبقنى بمسافة قصيرة، وترتب على ذلك التعثر كسر مفصل من مفاصل الناقةـ هذا الحادث لاعلاج له ! وهنا تجمع حداة الإبل الآخرين طلبا للحم تلك الناقة؛ ونزلوا عن نياقهم وسارع الجميع إلى ذبح الناقة: وراحوا يستخدمون سكاكينهم فى تقطيع لحم تلك الناقة التى لم تمت بعد. وفى هذه العجلة كانوا يتركون شيئا من اللحم فى الجلد وراح كل واحد يفلت بالقطعة التى اقتطعها لنفسه من لحم الناقه، بأن راح يعلقها على مقدمة سرج الناقة التى كان يركبها؛ وأن ذلك اللحم سيكون عشاءاً لهم عندما يصلون مكة (المكرمة) وبادر الجميع إلى ركوب الراحلات من جديد واستئناف المسير وطوال الفترة مابين تعثر الناقة والانتهاء من ذبحها وسلخها وتوزيعها ، لم تقطع إبل القافلة سوى مسافة عشرين خطو ـ ها أنذا أرى أمامى الضفاف الصلصالية لعين الزيمة أراها بلونها الأخضر المتمثل فى نباتات الذرة المزروعة هناك؛ والتى خطر ببالى، أن جسمى يمكن أن يتحول فيها إلى منظر دموى مريع خلال دقائق قليلة. واصلنا مسيرنا على ضفة قناة من القنوات؛ هذه القناة تستعمل فى نقل مياه عين من ضفة إلى الضفة الأخرى. ورأيت إلى جانب حقول الذرة عددا قليلا من البساتين؛ كما شاهدت أيضا حوالى عشر من جذوع النخل المريض؛ أما بقية النخيل فكانت ميتة بسبب سوء الرى: وأهل هذه المنطقه من الحطيل . كنا هنا على ارتفاع ٢٧٨٠ قدم.

هذا ليس هو الحجاز، وإنما الذى نحن فيه هنا هو تهامة؛ ونقلا عن كل سكان الجزيرة العربية، فإن مكة مدينة من مدن تهامة. ومكة تحيط بها الجبال، وهذه الجبال لها علاقة بذلك الذى ينبغى أن نطلق عليه اسم المنطقة الوسطى؛ ومع ذلك فإن رءوس جبال هذه الأرض المنخفضة (التى يمكن رؤية حدودها من البحر) لاتصل الى طنف

جبال نجد.[فى الحجر، نجد أن ذلك الجزء الذى يطلقون عليه اسم تهامة هو الذى يقع غربى العويرض بالرغم من أن ارتفاع هذا الجزء فى بدايته يصل إلى ٣٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وتحيط به الجبال : انظر الجزء الأول].

فى الركن (الجنوبى) من الوادى توجد قلعة ضخمة مبنية من اللبن، وهى حاليا عبارة عن أطلال وحطام؛ هذه كانت واحدة من القلاع الوهابية القديمة، وكانت مهمتها حراسة تلك البوابة من بوابات نجد: شاهدت هنا أول محطة من محطات القهوة، والناس هنا يطلقون على كل واحدة من هذه المحطات اسم قهوة Kahwa (واللفظة العامية 'جهوة' Gahwa). وتلك كانت أول قهوة من قهاوى مكة. هذه القهوه لاتعدو أن تكون مجرد مكان مسوَّر بسور مبنى من اللبن وفيه بعض الأعمدة ومن فوقه سقف خفيف من جريد النخيل- كان يجلس داخل هذه القهوة كل من إبراهيم وحداة النياق؛ وعندما وصلت إلى هذه اللوكاندة المكشوفة. ونادى القصمان قائلين: خليل! ونزلت من فوق ناقتى؛ ولكن عبدالرحمن التقانى بوجه ينم عن الحرص والقلق- وسمعت صوتا أجشا يقول:"لابد أن يدخل فى الإسلام:" وتأكدت أن ذلك الرجل كان من أهل هذه المنطقة- ثم استل ذلك الرجل خنجره البرَّاق!" رد الرجل على القصمان ،لا! لا! ليس بهذه الطريقة." دخلت القهوة وجلست بجوار إبراهيم: وهمس لى عبد الرحمن،" إنها عناية الله، أن ترى هنا شخصا من بيتنا الموجود فى جدة! لأن هذا الشاب الصغير ، عبد العزيز، هو ابن شقيق والدى، أوإن شئت فقل: ابن عمى. كان عبد العزيز متجها مع حمل من السجاد إلى مدينة الطائف؛ ولكنى كلفته بالعودة معك إلى جدة: والمطلوب منك هو أن تعطيه هدية ليس إلا- أعطه ثلاث ريالات ، ياخليل ، الأمر هنا صعب- نظرا لأن بعض الموجودين فى القهوة قد يثيرون بعض المتاعب: فقد علموا ليلة أمس بمجئ نصرانى إلى هذا المكان؛ ولكن من باب المغامرة المحضة تصادف وجود عبد من كبار عبيد الشريف هنا، وقد جعل ذلك العبد كل شيء هنا على مايرام فيما يتعلق بك. تعال معى واشكره على مافعل من أجلك: أما نحن أهل القافلة فيتعين علينا أن نرحل على الفور." وجدت عبدا محترمًا جالسا على الأرض: ثم نهض الرجل واقفا ليمسكنى من يدى. هذا العبد المحترم كان اسمه معبوب Maabub خرج كل من إبراهيم، وسليمان والآخرون لكى يركبوا راحلاتهم؛ وعندما نظرت إليهم للمرة الثانية كانوا قد ابتعدوا عنا

كثيرا. بقى معى ولد البسام وصاح قائلا: " اركب! وأنت ياعبد العزيز اركب خلف خليل!"- "اسمح لى أولا بأن أملأ قربة الماء." "الماء موجود فى الوادى، هيا أركب." قلت:" هيا، أركب يارجل!" وما أن ركب الناقة ، ضربت الناقة لتهب واقفة: ولكن الناقه كانت مرهقة تماما.

سمعت صوتا ينادى من الخلف ويقول:" أنزل ، أنزل- أقول: اتركنى لحالى، وسوف أقتل الكافر." نظرت حولى، ورأيت ذلك الرجل الذى كان يحمل سكينا، بالقرب منه ويكاد يطبق علينا؛ وجاء ذلك الرجل وأمسك بيده لجام الناقة-" هو! أيها اليهودى، أنزل !هو! نصرانى (يصيح ذلك الوغد)؛ أقول لك: أنزل!: كنت قد عزمت على المضى قدما؛ ولكن ناقتى كانت ضعيفة، ولوكانت قوية لكنت قد طرحته أرضا وهربت من ذلك الخطر. توافد علينا أشخاص آخرون- "صاح عبدالرحمن قائلا: نوخ، نوخ!" بَرك الناقة وأنزل من فوقها !ياخليل ." وعلى الفور فعلت مثلما قال الرجل، وبلا تردد. وهنا أقترب منى حامل السكين، وقد كشر عن أنيابه،" همس، [إنه سيقتل اليهودى -النصرانى؛" ولكن خادم الامير الذى سارع بالوصول إلينا، رجاه أن يبعد يده وينسحب بعيدا عنى - وهنا همست لولد البسام،" اذهب واستدع بعضا من رجال القافلة ومعهم بنادقهم؛ ولعلنا نتبين أن ضيف عنيزة لن يسمح له بالمرور. هل يمكن لهؤلاء أن يلقوا القبض علّى فى الطريق العام، أى خارج الحدود hadud ؟"(حدود المدينة المقدسة). ولكنه همس لى" قل إنك مسلم ياخليل، إنها مجرد كلمة ترضيهم؛ وغدا ستكون فى جدة: وأنت ترى بنفسك مايدور هنا -! ووالله أنا أخشى أن يقتلك واحد من هؤلاء ." -" سوف أمر بمشيئة الله، سواء أرادوا أم لم يريدوا ."" قال بصوت خفيض وبنفس الطريقة التى يتكلم العرب بها، إذا لم يكن المد فى صالحهم" إخ ياخليل! ماالذى يمكن أن أفعله الآن ؟ أنا لابد أن ألحق بالقافلة؛ انتبه ! لقد تركونى ومشوا ."- ركب ناقته دون أن يقول كلمة واحدة؛ وترك صديق والده واقفا بين القتلة والسفاحين.

كانت هناك جماعة من الجمالة المكيين الذين يقيلون (بعد مسير الليل الطويل): خرجت تلك الجماعة من القهوة ومعهم بعض من سكان هذه الهجرة (كفر) ليستطلعوا أمر ذلك الشجار. تجمعوا من أمامى على شكل صف، حوالى ثلاثين شخصا، كلهم كانوا يلبسون ملابس فضفاضة زرقاء اللون فيها أزرار زرقاء اللون أيضا. شاهدت

معهم سكاكين الجزار التى تشبه السيوف ، والتى لها مقابض معدنيه، والناس هنا يطلقون على هذا النوع من السكاكين التى تشبه السيوف اسم'الجنبية' Jambieh هذه الجنبيات كانت تتدلى من أحزمة هؤلاء الأشخاص المصنوعة من الجلد. هذه الوجوه الملكية كانت سوداء تماما، اسوداد وجوه المذنبين فى يوم القيامة: وقف الرجال صامتين وهم يضعون أيديهم السوداء على أسلحتهم.

انتقل خادم الشريف (الذى كان رجلا عجوزا ضعيفا) من الشمس ليجلس من جديد. وبعد هذه الهدنة القصيرة عاد ذلك البائس المجنون ومعه سكينه وهويصيح قائلا:'إنه سيقتل اليهودى ـ النصرانى;' فى حين وقفت أنا ساكنا بلا حراك. كان ذلك الوغد واحداً من الأشراف؛ لأنى سمعت معبوب يسميه بذلك الاسم: هؤلاء الأشخاص الذين هم من سلالة محمد(ﷺ) 'لايصح لأحد أن يتقول عليهم،' وهم أصحاب امتياز فى الرأى العام، وهذا الامتياز يضعهم فى منزلة أسمى من البشر العاديين. ظهر أن جمأّلة مكة لم يكونوا مشجعين له؛ ولكنهم لم يكونوا فى صفى أومساندين لى. [كان ذلك الشريف واحداً من البدو المترحلين: أما رفاقه فكانا واحداً أواثنين من الهجرة (الكفر) التى يعيش فيها الحطيلان اللصوص؛ كما كان معه أيضا بدوى يعمل حاديا للإبل. كان هدف ذلك الشريف وهدف من معه، إنهم بعد قتل الكافر ـ وهو عمل "دينى" مجيد ! سيحصلون على ناقته وعلى أشيائه].

بعد أن جاءنى ومعه سكينه على هذا النحو، وبعد أن رآنى واقفا ساكنا بلا حراك، ووضعا يدى فى صدرى، وقف يتعجب محبطًا. جرت العادة أن يكون هناك وسيط بين كل ثلاثة من سكان الجزيرة العربية؛ فقد هدأت أرواحهم، وراح الواقفون غير المبالين يحبذون الهدوء والتفاهم: انتظرت لعل واحدا منهم يتكلم نيابة عنى أولصالحى! ولكن أحداً منهم لم يقبل على هذا العمل. نظرت فى عينى ذلك الرجل؛ ونظرا لأنه كان مترنحا مثل بقية البدو الرحل ،لم يقو على تحمل نظرتى إليه؛ ولكنه رفع خنجره، وأخذ نفسا طويلا (فقد كان ضعيفا، شأنه شأن الكثيرين الذين يعيشون هذه الحياة القاسية ، وهم فى منتصف أعمارهم) وراح يوجه الخنجر ناحية صدرى؛ وبتنهيدة أنزل ذراعه وسحبه ناحيته مرة ثانية. ثم رفع السكين بعد ذلك وراح يحدد ضربته: لم يكن ذلك الرجل مكتمل النمو؛ ورحت أراقبه وأتحسب لتلقى الطعنة فى حالة حدوثها على ذراعى

اليسار- وبالرغم من وقوفى خائر القوى، فأنا أستطيع ضربه لإبعاده عنى بواسطه اليد اليمنى؛ وحتى يتسنى لى، إذا ما أصبت بجرح ، الدفاع عن نفسى باستعمال المسدس، وأخرج من بينهم. وقف معبوب، وجاء على الفور؛ وسحب الشريف بعيداً عنى: وأمسكه بيده، "قال: ماهذا الذى تفعله ياشريف سالم؟ لقد وعدتنى ألاتفعل شيئا باستعمال العنف! هل تذكر ضرب جدة بالقنابل- وأن ذلك القصف كان بسبب إهدار دم البعض من هؤلاء الناس الغرباء؛ انتبه لما تفعل ، وانتبه لتصرفاتك.إنهم الإنجليز الذين إذا ماقتل واحد منهم، أرسلوا بوارجهم كى تنتقم لمقتله؛ ويهدمون المدينة. وهل تظن أن سيدنا الشريف سوف يسامحك إذا ماتسببت فى جلب متاعب من هذا القبيل عليه؟- لاتتعرض لحياة هذا الشخص، الذى لم يرتكب ذنبا أو جريرة، فضلا عن أنه لم يدخل حدود المدينة المقدسة (مكة)- لا! ياشريف سالم، ومن أجل خاطر حسين [الشريف أمير مكة] هل الغريب نصرانى؟ إنه لم ينكر ذلك مطلقا: ألايوجد نصارى فى جدة؟"

استطاع معبوب أن يجعل الشريف سالم يعطى وعداً بالسلام . وبالرغم من ذلك، لم يكن ذلك الشريف البدوى الذى يشبه الذئب ليترك فريسته مقابل شيء من الكلام: فقد عاد من جديد، وفى يده السكين، بعد انسحاب العبد معبوب؛ ثم أقسم بالله أنه سوف يقتل النصرانى فى هذه المرة. وعندما شاهد معبوب ذلك صاح فى الشريف سالم، طالبا منه العودة إلى صوابه! وتظاهر الواقفون بأنهم يحاولون منعه من ذلك الذى يود القيام به. وعندما وجد سالم أن الواقفين لم يعودوا يحاولون منعه مما يريد القيام به، وعندما وجد أن انفعالاته بدأت تهدأ- وعليه فقد منح الله البقرة قرنا حاداً- راح على إثر ذلك يقتنع بما يقوله الواقفون. ويقفز الشريف سالم فوق الناقة، التى كانت تمثل كل مايصبو إليه،" يصيح قائلا: هذا نهاب **nahab**"! وألقى ببطانيتى من فوقة سرج الناقة، وبدأ فى إنزال الزكائب والخرج من فوق الناقة. وقام واحد من رفاقه بخطف عقالى وغترتى؛ ولكن الآخرين راحوا يلومونه على تلك الفعلة. وهنا حمل حطيلى البطانية وجرى بها إلى بيته؛ قام آخرون (من الخلف) بسحب عباءتى: ووقف الجمالة المساكين بلاحراك وسط كل هذا الهرج والمرج. صبرت على كل ما حدث ؛ ونظرا لأنى لم أعد بحاجة إلى تلك الأشياء هنا فى هذا المكان، فقد تساهلت فى العباءة أيضا. وجاء إلينا معبوب وهو يعرج من جديد. أخذ معبوب خرج الجمل لنفسه ؛ وأبعد أولئك

الأشقياء عنى وأجلسنى إلى جواره. وندم سالم لأن الغنيمة ضاعت منه ـ على أنه لم يقتل الغريب؛ واستل سكينه وراح يهددنى من جديد؛ وعندما تقدم ناحيتى ورأيت فى عينه تصميما على قتلى، وراح يقسم بأنه سوف ينهى حياة اليهودى النصرانى، قام الواقفون بالحيلولة بينه وبين مايريد. معبوب: "أقول لك ياشريف سالم: إنك إذا ما أسأت إلى هذا الغريب فسوف أضع الأمر أمام مولانا الشريف؛ إياك وأن تفعل شيئا عن طريق العنف."ـ"أوه! ولكن هذا شخص قام بالسرقة من بلادنا."ـ" أنت لاتستطيع أن تتهمه بذلك؛ ويتعين مثوله أمام مولانا الحسين وأنا أضعه فى عهدتك ياسالم: ويجب أن تقدمه سالما أمام الحسين فى الطائف ." وافق الواقفون على ماقاله معبوب، ووافق عليه سالم أيضا، وهو يقول:" آمل أن يأمر الشريف بشنق ذلك النصرانى أو قطع رأسه؛ وأن يعطينى الناقة."ـ وبالرغم من الإهراق والتعب، فإننى بذلك سوف أتمكن من زيارة الطائف.

الفصل السابع عشر

الطائف. الشريف. أمير مكة

معبوب وسالم. النصرانى أسيرا . يوم متعب فى عيون. رحلة ليلية مع رجال قافلة مكة. العودة إلى السيل. محطة السيل. مهاجمة النصرانى مرة ثانية. شخصية مكية. بسام غير محترم. معرفة سابقة. عكاظ. الممر خلف الطائف. رحلة ليلية. النزول عند كوخ الأمير بالقرب من الطائف. نساء فقيرات من سلالة محمد. وصف الطائف. المدين . النصرانى ضيفا على ضابط تركى. مؤتمر الشريف المسائى. الشريف حسين، أمير مكة. عبد الله شقيق الشريف. نادى قهوة الضباط الأتراك. حجر مجوف. زيد، البيشى. قرى حرب وأقاربهم. سالم يعود ثانية بالغنائم . غداء تركى. "اللحم يفيد الصحة." ثلاثة أحجار مجوفة. مأوى الظهيرة فى البستان.

هذا المعبوب Maabub الذى هدَّأ العاصفة، هو الذى وضعنى فى عهدة ذلك الذئب! كما أنه هو الذى أجبراللصوص على إعادة الأشياء التى سرقوها منى؛ ولكنهم كانوا مراوغين تماما إلى حد أنهم لم يعيدوا كل ذلك الذى أخذوه. هذه هى الزكائب الكبيرة، أعيد تحميلها من جديد فوق الناقة المرهقة؛ التى كنت قد أحضرتها معى؛ وهنا قام الجمَّالة بالتفرق كى يذهبون إلى القهوة ويستظلوا بظلها، ويحظوا بقسط من الراحة- تركنى معبوب مع ذلك الشريف الغاضب الثائر! ولاأعرف إلى أين ذهب معبوب.

وهنا، راح سالم يهز رأسه الخشبى منتشيا نشوة لص أجبر على المسالمة ويقول: 'كان من الأفضل أن أضع على زكائبى أقفالا.'وقد عثر على مخزن (غرفة) فى مظلة القهوة؛ وأنه وضع فيها تلك الزكائب، وأغلق الباب، وتركنى أجلس على باب تلك الغرفة:

كان ظل الإفريز لايكفى إلا لستر رأسى فقط من حرارة شمس الظهيرة. كان سالم ينظر إلّى نظره تشوبها اللهفة والحزن." (قلت): حسن ياسالم، ما الذى يمكن عمله الآن؟ أتمنى أن نكون أصدقاء." قال- بعد شىء من الصمت، والله، لقد خطر ببالى أن أقتلك اليوم!"- هذا البدوى المترحل الذى لايعرف الرحمة كره بقائى على قيد الحياة حبا فى الغنيمة؛ والسبب فى ذلك، أنه أثبت فيما بعد أنه لم يكن مهتما بدينى! وبدأ سالم يناديني على نحو فيه المزيد من الود، بأن يقول:" ياخليل، ياخليل!" بدلا من : يانصرانى."

- تركنى سالم برهة قصيرة؛ وتوافد علينا بعض شبان المكان كى ينظروا إلى النصرانى ، كما لوكان حيوانا خطيرا جرى الإمساك به." إخص!- أنظروا إليه! هذا هو، الذى تسلل نافذا من بين أيدينا. ما رأيك؟- هل سيعدموه؟ أم إنهم سوف يذبحوه؟- أوه! تعالوا وانظروه! هاهو يجلس هنا، الله يلعن أباه - أنت أيها الملعون! إخص! أهكذا تسللت خلال بلاد المسلمين؟" سألنى أحدهم، " ، وإذا ماجاء أحد منا إلى أرض النصارى، فهل سيقتلنا أهلك ويعذبونا؟"- هذا هو رأيهم فينا، ولذلك ومن باب المقارنة فقد راحوا يكشفون لى عن سماحتهم وإنسانيتهم! جاء بعد أولئك الشبان رجل يقول:أنه سمع أنّى حكيم؛ وسألنى إن كنت أستطيع شفاء جرحه القديم؟ طلبت منه أن يعود إلى فى المساء كى أقوم بتضميد جرحه. يصيح ذلك الشقى المتوحش قائلا:" أنت لن تكون هنا فى ذلك الوقت!"- وأنا لم أستطع تحديد معنى ماقاله ذلك الرجل. كانوا لايصدقون أى شىء أقوله؛" وسبب ذلك أنك كافر، وأبن كلب ، ,انت تكذب ." وكانوا يشفون غليلهم عندما كانوا ينادون بكلمة نصرانى ؛ وأنهم عندما كانوا يفعلون ذلك كانوا يدحضون أو يفندون دينه غير الصحيح.

قلت لهم:إنّى رحّال ومعى جواز سفر عام من حكومة السلطان . وجاءنا من القهوة رجل صاح يقول: 'إنه يود أن يعرف بحق إن كنت من أراضى الدولة (الإمبراطورية العثمانية) أم أننى من المسكوف ' هذا الرجل بدى لى وكأنه كان يعمل من قبل بالجندية: سمحت له بالإطلاع على أوراقى؛ وأخذ أوراقى وانصرف بها: ولكن سرعان ماعاد إلىّ ذلك الرفيق ليقول: 'إنى كذبت كذب النصارى الخالصين؛ وإن الكتابة التى

فى الأوراق لم تكن مثلما قلت أنا.' ثم قام الوغد بعد ذلك - لأن ذلك كان هو قصده ومقصده - بسؤالى بعينين جريئتين ،'هل كان معى نقود؟'- وكلمة النقود هذه كلمة خطيرة! والسبب فى ذلك أن البؤس حوَّل الكثيرين منهم إلى لصوص، ومعروف أن البؤس هو أم السوء- وبعد أن عاد سالم ثانية راحوا يسألونى وبصورة مستمرة عن الناقة؛ وكأنهم كانوا يريدون أن تكون الناقة غنيمة لهم . ورددت عليهم رداً قصيرا موجزا ،'الناقة ملك للبسام.' -'هو يقول : البسام !أليس أهل البسام من التجار الكبار؟ ووالله ملوك meluk، مثل الأمراء تماما، فى جدة!'

- كان سالم، العائد من زيارته لمكة، قد سمع بمحض المصادفة فى محطة القهوة، عن مجيء النصرانى: فى البداية خطر ببالى أن يكون قد علم بذلك الخبر من القافلة القادمة من بريدة. رد على، بأنه لم يعرف ذلك الخبر من بريدة-"أريك الله القصمان جميعهم! الذين يجلبون لنا الكافرين: وأنا أقسم بالله أننا أعدنا قافلة بريدة أدراجها من هذا المكان."- والمعروف أن قوافل القصيم فى بعض الأحيان ، وبخاصة القوافل القادمة من بلاد بن الرشيد ، تصل إلى مكة عن طريق وادى الليمون. خطر ببالى أن سالم لابد أن تكون له مصلحة هنا؛ ادعى سالم ،' أن الإشراف على المحطة أوكل إليه من قبل الشريف.'- كان سالم شريفا بدويا مترحلا، وكان عائدا إلى منْزله: ولكنه لم يكن راضيا عن نعتى إياه بالبدوى . واعتبارا من ذلك اليوم اكتشفت أن أولئك الأشراف الذين هم من البدو الرحل لايرتاحون إذا ما نعتهم أحد بالبدو؛ والحال نفسه ينطبق أيضا على أولئك الأشراف المستقرين فى القرى، إذا ما نعتهم أحد بالفلاحين . الكلام البسيط الذى من هذا القبيل يكون شديد الوقع على مسامعهم : قال لى شريف آخر، ومن باب الود والصداقه- "قال: هذا لايليق - لأنهم أشراف."

طلب منى سالم أن أقف وانتقل إلى ظل شجرة مورقة يحتمى بها بعض الجمَّالة من حرارة الظهيرة. كان الهواء ساكنا فى هذا الجزء من وادى تهامة، ولم يكن بوسعى الاستغناء عن عباءتى (بشتىً)، التى كانت تستر المسدس؛ ومع ذلك لم أكن أستشعر الحرارة الشديدة. بينما كان سالم وبقية الجمالة نائمين تسللت إلى المكان امرأة كانت

تود أن تقول لى شيئا،لأنها سألتنى بصوت عال،'هل أتكلم اللغة الهندية؟' وربما كانت عبدة ترافق أسرة من مكة إلى الطائف ، والحرمان مليئان بالمسلمين الذين يتكلمون اللغه الهندية: وربما كانت تلك المرأة من الهند[فى الحى النجدى من جدة يوجد عدد كبير من هذه المخلوقات الهندية المسكينة.] هؤلاء هم بعض من العبيد الزنوج الذين عادوا من أعمالهم فى الحقول ،يتوافدون على باب غرفتى كى ينظرون إلى : قلت لهم، 'من الذى سرقكم من أصدقائكم، ومن بلادكم؟- أنا إنجليزى، ولوقدر لنا أن نلتقى أولئك الذين نقلوكم إلى البحر، لكنا قد أطلقنا سراحكم، وأعطيناكم نخيلا فى بلاد تابعة لنا.' هؤلاء السود المساكين كانوا يردون على باللغة العربية قدر المستطاع بأنهم 'سبق لهم أن سمعوا ذلك الكلام؛' ثم بدءوا بعد ذلك يتكلمون فيما بينهم بلغتهم الأفريقية- وهنا صحا واحد من أصحاب النوم الخفيف مندهشا ! جلس ذلك الرجل؛ وراح يدور بعينيه فى أرجاء المكان ثم أقسم بالله"إنه ضاع خلال الإنجليز، الذين استولوا على سفينة كانت محملة بأمثاله من البشر، وأن الإنجليز أحرقوا تلك السفينة.' قلت لهؤلاء العبيد: إننا لدينا معاهدة مع السلطان تقضى بقمع تجارة الرقيق ومنعها منعا باتا ." رد علّى أكثر من صوت من تلك الأصوات المتوحشة بأنى كاذب ؛ متى منع السلطان تجارة الرقيق، ياأيها النصرانى ؟' 'قال شخص آخر:لا، ربما يقول الحق، نظرا لأن النصارى لايكذبون' تعجب صاحب السفينة المحروقه قائلا: ولكنه يكذب!- ستعرفون إن كنت كذابا أم لا- عندما أصل إلى جدة، أحضروا عبداً إلى قنصليتى : وأطلبوا منه أن يقول :إنه يود أن يصبح حراً، وسوف يعطونه حريته على الفور!- 'يصيح الرفيق ،كلب! أنت كاذب!- ألايوجد آلاف العبيد فى جدة، وأن أولئك العبيد يباعون ويشترون كل يوم؟ إذن ما السبب أيها الكلب! فى عدم تحرير كل هؤلاء ؟ طالما أنك تقول الحق:' وراح يعض على أسنانه، ويرفع يديه فى وجهى.

استيقظ سالم متأخرا ، بعد رحيل الغالبية العظمى من الناس: ولم يكن يتسكع أمام بابنا سوى قلة قليلة من البشر؛ بل تجرأ البعض منهم على دخول المكان. وهنا نهض سالم واقفا وغاضبا .'يصيح' إنكشحوا عن هنا ! لعنكم الله جميعا؛ ياعجوز، ياطويلة اللسان - ما هذا! عشيقة تتكلم- وأنت أيها العبد انهض واذهب لحال سبيلك !

الله يلعن أباك! هل يجرؤ عبد على الدخول لهذا المكان؟' هذه هى السلالة المقدسة من سلالة محمد من حقها أن تلعن المواطنين العاديين المساكين . ولكنه كان يتعامل معى بوجه بشوش، وأنا أسيره: ربما يكون النوم قد أصلح مزاجه المعتل.أرسل سالم فى طلب قليل من اللبن لى (وهم يبيعون اللبن هنا، بالقرب من المدينة): ولكنه أرغمنى على دفع الثمن بطريقة مبالغ فيها؛ إضافة إلى ريال آخر ثمنا لشىء من العلف، لايساوى ستة بنسات، وضعوه أمام ناقتى وأمام إبلهم أيضا. كان ذلك العلف عبارة عن حشائش جافة جلبوها من الوادى الموجود فى الأعلى ، ومجدول على شكل حبل (على طريقه أهل مدينة نابولى)، ويجرى بيعه للجمّالة فى هذه المحطة.

كنا قد تجاوزنا منتصف فترة العصر: ودخل علينا رجل قديم؛ وتكلم مع سالم مدة طويلة وباهتمام شديد وافق ذلك الرجل القديم على إزهاق روح الكافر، ولكن الأمر كان جد خطير: 'قال:إن الغنيمة كانت طيبة أيضا، لكن الاستيلاء على هذه الغنيمة أمر محفوف بالمخاطر؛ قال الأمين صاحب اللحية الرمادية: نعم، كل هذا ،وراح يضرب خرج ناقتى بعصاه، هذا طمع toma (بمعنى 'فلوس أومصارى'). ولكن عليك أن تقدمه لحسين، ولاتضع نفسك فى موضع الخطر.' سالم:"إى والله، إنه طمع؛ ولكن ماهو أشد أنواع الطمع؟- 'أليس ذلك فى وجه النصرانى ؟ انظر إليه!ألايعبر وجهه عن الطمع؟" رحبت بالعجوز (الذى ربما كان حطيليا من الهجرة، أوشريفا من الأشراف) كما رحبت برأيه أيضا ،وقلت :'النصارى أعداء طيبين .' لم يكن ذلك الرجل العجوز سريع البديهة؛ وراح ينصت لكلامى - ثم رد علّى قائلا:'أنا لايمكن أن أتعامل مع كافر، إلابعد الندم والتفكير:" وبعدها انصرف عنى وقال لسالم:"إخ! يالقدرة النصارى على الإقناع ! ولكن احذرهم ،ياسالم! سأقول لك شيئا - حدث ذلك فى زمن المصريين. جاء إلى هنا حكيم مع العسكر: والله ياسالم، لقد وجدت ذلك الحكيم جالسا فى واحد من تلك البساتين التى إلى الخلف منا ! قال: سلام عليك! ورددت عليه على غير رغبة منى، عليكم السلام! وسمعت بعد ذلك أنه كان نصرانيا! إخص - ولكن هذا مؤكد أن المسلم يمكن أن يطارد عشرة من النصارى، أوربما عشرين منهم؛ وهذا هو مانراه فى أغلب الأحيان، وربما مائة ؛ وياسالم هذا بإذن ithin من الله ullah"حسن، آمل أن يعطينى حسين الناقة! " كان ذلك هو الرد الذى صدر عن سالم ذلك البدوى المترحل.

ـ عندما شاهدت بعضاً من أحمال الأرز الهندى، المتجهة إلى الطائف، والتى جرى وضعها أمام القهوة، وقفت على جدل كان يدور بين الجمّالة حول حمولة الإبل ؛ وهنا رحت ألمسهم بعصاى ثم سألتهم،"ماهذه الزكائب والجوالات؟ وماهى تلك الحروف المكتوبة على هذه الجولات؟ هل أقول لكم ماهذا هو أرز الإنجليز، فى جوالات الإنجليز؛ والعلامات التى عليه إنجليزية أيضا ،أنتم تلبسون ملابس جيدة ـ بالرغم من أن الحريم فى الشمال هن اللائى يلبسن هذا اللون الأزرق ! ولكن ماهذه الملابس الفضفاضة التى تلبسونها ؟ـ أقول لكم: القطن الذى على ظهوركم جرى غزله ونسجه فى مصانع الإنجليز. وأنتم لم يخطر ببالكم أنكم تأكلون وتلبسون إلى حدما بواسطة الإنجليز!" عارضنى البعض منهم: ولكن أثنت الغالبية على ماقلت. هذا الكلام ساعد على تمضية الوقت، وأدى إلى تجريدهم من صلافتهم ورطب ذهن ذلك السفاح المدعو سالم. ولكنى لم أستطع التوصل إلى ذلك الذى كان يدور فى ذهن ذلك المجنون: كنت قد بدأ يراودنى شيء من الشك أنهم سوف يقتلونى فى هذا المكان. وإذا ماطالبته بالذهاب إلى الطائف، فلربما دار رأسه ، وأسفر ذلك عن رؤية سكينه مرة ثانية؛ يضاف إلى ذلك أنى لا أعرف ذلك الذى جرى لمعبوب ـ هم يقولون :إن المسافة من هنا إلى الطائف تستغرق ثلاثين ساعة بقوافل إبلهم بطيئة الخطى: بدى لى من غير المرجح أن يبتعد ذلك الضبع عن إهدار الدم.

فى ساعة متأخرة من ذلك اليوم جاءنى سالم ومعه كل من معبوب وعبد العزيز؛ وكان معبوب وعبدالعزيز قد نالا قسطا من الراحة فى جزء آخر من القهوةـ لوكان فيهما خير (لم يكن ذلك الخير فى عبدالعزيز)، لما تركانى وحدى فى مثل هذا الحال. أبلغنى معبوب أنى يتعين على الرحيل عن هذا المكان مع القافلة عند حلول المساء؛ ثم تركنى معبوب وذهب لحال سبيله مرة ثانية. وبذلك يكون سالم قد تمكن من معرفة كل الأشياء التى كانت معى أى أصبح على علم بتفاصيل الغنيمة! استدعى سالم بعضامن الجمّالة الجهلة كى يكونوا شهوداً على مايجرى . وهنا أخرجت لسالم كل الأشياء التى معى، داخل جوالاتى، ووضعت كل هذه الأشياء أمامه: ولكن سالم يصيح صياحاً وحشيا ويقول:" الفلوس، El-Flus الفلوس el-flus بمعنى'النقود! حتى لايمكن أن تكون

هناك مساعلة بعد ذلك ، ـ أعرض كل شيء على أيها النصراني !"ـ " حسن، ناولني صندوق الدواء هذا ؛ ثم قلت: وهذه هي الريالات القليلة التي معي، وهي ملفوفة في قطعة من القماش!"

جمع الجمّالة بعضا من الحطب وشبوا نارا مثل نار المخيمات: وأحضروا شيئا من الدقيق وشيئا من الماء، وصنعوا من الاثنين عجينا، خبزوا منه تحت الرماد المتبقى من النار، ذلك النوع من الخبز الذى يطلقون عليه اسم عبود ' abud؛ إذ كان المساء قد بدأ في الدخول عليهم. أخيرا انتهى نهار ذلك اليوم: ثم نهض الرجال واقفين من أماكنهم، وحمّلوا الأشياء على ظهور الإبل مربوطة ببعضها كما هو الحال في سوريا ـ حمّلوا خرجي وجوالاتي على ناقه البسام : أركبني سالم مع رفيقه فهيد ذلك البدوى أو نصف البلد الذى يمتلك هذه الإبل ـ" اركب في الشدّاد Shdaad، ياخليل يانصراني."[ولكن ركوبي على هذا النحو، قد يجعل الرديف(*) يطعنني في ظهري أثناء الليل!] قلت: سوف أركب أنا في الخلف؛ وقلت أيضا:إنني متعب إلى الحد الذى لا أستطيع معه المحافظة على اتزاني فوق سرج الجمل . ورجح رأيي! والسبب في ذلك أن العرب يقدرون ضعف حياة البشر ـ حتى وإن كانوا أعداء لهم. ومع ذلك كان سالم شخصا خطرا؛ والسبب في ذلك، أن كل من كان يسيئ إلى النصراني بالكلام، وعلى مرأى ومسمع من سالم، كان يجعله ينظر إلّى شذرا، ويروح يتحسس سكينه من جديد.

رحلنا عن ذلك المكان مواصلين السير في الطريق الذى كنا نسلكه؛ وهم يزعمون أن النصراني سوف يشنق، بناء على حكم عادل من الشريف حسين(**)، في الطائف:أمضينا الليل بطوله ونحن نصعد في اتجاه السيل. كان فهيد راكبا على سرج الجمل؛ في حين كان الوغد، في خرافاته، يكاد يموت خوفا من النصراني! وبالرغم من

(*) الرديف : من يركب خلف راكب الناقة. (المترجم)

(**) الشريف حسين : تولى شرافة مكة عقب وفاة أخيه الشريف عبد الله بن محمد في عام ١٨٧٧ لكنه لم يبق طويلاً في الشرافة حيث أنه قتل في عام ١٨٨٠ ولم يكن قد استقر في الحكم سوى ثلاثة أعوام . وكان الشريف حسين يقيم في مقره الصيفي في الطائف وقت وجود «دوتي» في تلك المدينة . (المراجع)

عداوته، وبالرغم أيضا من طمعه وجشعه، إلأنه كان فيه شيء من الحنان الإنسانى؛ والسبب فى ذلك أنه عندما علم أنى عطشان، نزل من فوق ناقته وذهب إلى بقية الإبل ليجلب لى شيئا من الماء. وبالرغم من أنى عرفت أنه من البدو الرحل، وأن أخلاقياته كانت مثل أخلاقياتهم، إلاأنه كان يتحدث بلغة عربية قريبة من اللغة المستعملة فى المدن الحكومية مثل دمشق وبغداد و مكة. ولكن تسرعه وعجلته واندفاعه لم يكن لها مايبررها، والسبب فى ذلك أنى، بحكم أنى رجل متعب ومرهق، لم أستطع استحثاث الناقة المتعبة الضعيفة على السير بالطريقة التى تروق له- خطر ببال سالم أن النصرانى يحاول التباطؤ كى يهرب منهم!

كانت تسير فى مقدمتنا جماعة من مكة متجهة إلى الطائف، وكانت إبلهم تحمل فوقها صناديق، أو إن شئت فقل: هوادج فوق ظهورها. كانت القافلة كلها ملكا لشخص واحد: ذلك الرجل الطيب الأسمر سمرة الهنود، ولم يصل بعد منتصف العمر، وهو من أثرياء مكة. كان الرجل يرافق القافلة ماشيا بالقرب من حريمه، وكان يلبس لباسا فضفاضا أبيض اللون، ويضع فوق رأسه عمامة؛ كان يمشى كى ينشط ساقيه - اللتان كانتا متناسقتين - ولكى ينعش نفسه باستنشاق هواء الصحراء.[كانت درجة الحرارة فى مكة، حسبما قال لى رقيب شاب من الجيش التركى كان يعمل فى الطائف، تصل إلى ٤٦ °مئوية] كانت قافلتنا مكونة من تسعة من الإبل، وواصلت مسيرها على نحو بطيئ ، ومررنا بتلك القافلة التى سبق الإشارة إليها: ولكن ذلك التاجر، صاحب القافلة، عندما علم أن نصرانيا كان يركب ضمن أفراد القافله صاح قائلا: " إخص! نصرانى فى هذه الأماكن!"(...)(*).

واصل أفراد القافلة مسيرهم راكبين على راحلاتهم ويتناولون عشاءهم البسيط المكون من ذلك الخبز الذى خبزوه فى رماد النار التى أشعلوها. وهذا هو سالم الذى

(*) عبارات رأينا استبعادها لما فيها من تعصب دينى واضح . (المراجع)

كان يجلس ممددا على الجمل بطريقة البدو، يعطينى قطعة من ذلك الخبز عندما مررت عليه؛ وعندما بدأت آكل تلك القطعة من الخبز طلبت إليه أن يضع فى حسبانه أنه " اعتبارا من الآن فصاعداً أصبح بينى وبينه عيش وملح ، ثم قلت: أتمنى أن تكون صادقا ياسالم. لاوالله، أنا لست خاين khayin (خائنا) ياخليل ."هذا الشقى العجوز كان يعانى آلاما فى أحشائه، وربما كانت تلك الآلام سببا فى طبعه الحاد- راح سالم يلومنى شيئا فشيئا على اهتزازى فوق الجمل؛ وطلب منى الثبات." اصح، ياخليل! صحصح! ولاتغلق عينيك طوال هذه الليلة- أقول لك: إنك قد لاتنام لحظة واحدة؛ هذه ممرات خطرة وعامرة باللصوص، الحطيل! وهم يسطون على النائمين: اصح! صحصح! يجب ألاتنام." بدأت الإبل تتباطأ أكثر ، نظرا لأن حداة الإبل كانوا نائمين فوق أحمال الإبل: ومضينا صاعدين نحو الأعلى طول الليل: وكان فهيد قد تركنى عند منتصف الليل، وذهب ليتمدد فوق جمل من الجمال التسع التى تتكون منها قافلته؛ وحل محل فهيد، واحد من حداة الإبل. وبذلك يكون هؤلاء التعساء ينامون مدة ليلتين من الليالى الثلاثة: ويروحون يتثاءبون أثناء النهار- الذى يكون شديد الحرارة على إبلهم المحمَّلة - عند محطة، أو إن شئت فقل: السيل.

والإبل عندما تمشى من تلقاء نفسها يكون خطوها مثل خطو النمل- "قال حادى الإبل، وهو جالس فوق سرج ناقتى: ياخليل! احذر من اللصوص!" وقبيل طلوع الصبح رحنا نحن الاثنين فى سبات عميق، وانحرفت الناقة عن الطريق لتصل بنا إلى ظل شجرة من أشجار السنط- كنت سعيداً، لأن تلك المغامرات الليلية أثناء السفر فى الجزيرة العربية لم تصبنى بأى أذى !صحيح أن الثوب الذى كنت ألبسه تمزق بالفعل- واستيقظت فى إثر ذلك؛ وعندما نظرت حولى شاهدت شخصا يمشى على قدميه ويقترب منا من الخلف - قال ذلك الرجل الغريب، وهو يقفز ليخطف الحزام الصوفى الذى كنت أرتديه وأنا راكب الناقة:" ماهذا؟" وهنا هززت رفيقى فى ركوب الناقة كى أوقظه، ثم ضربت الناقة؛ وسألت حادى الإبل، إن كان ذلك الشخص الغريب واحداً من الجمَّالة؟

ـ" ألم تره بينهم؟ لكن هذا لص وهو يطمع فى نقودك." جرت الناقة المتعبة بضع خطوات ثم توقفت. وهذا هو الرجل الغريب يقترب منى مرة ثانية: ربما كان يهدف بتحركاته إلى سحبى لإنزالى من فوق الناقة؛ أما مسألة إن كان حطيليا أم لا، فهذا هو مالا أستطيع القطع به. وأنا إذا ماضربته، واتضح أنه من الجمالين، ألن يقولوا: 'إن النصرانى ضرب مسلما؟' لم يتراجع ذلك الغريب؛ وكان حادى الإبل مايزال غارقا فى النوم. وجدت أن الحل الأمثل هو أن أكشف له عن مسدسى- ولكنى اعتبرت ذلك من قبيل الحظ العاثر والسيئ فى آن واحد: وهنا انصرف ذلك الغريب لحال سبيله. بلغنى أننا سننال قسطا من الراحة مع طلوع نجم الصباح: كان قد مضى على طلوع ذلك النجم ساعة من الزمن، وطلع علينا فجر ذلك النهار عندما وصلنا أرض السيل؛ وعندها نزلت عن ناقتى مع سالم، وجلسنا فى ظل وارف لواحدة من أشجار السنط كثيفة الأغصان.

هذه المحطة الوسيعة التى ليس فيها قهوة عامرة بالأشجار الظليلة وبالصخور الظليلة أيضا:رقدنا لننال قسطا من النوم، أشرقت الشمس علينا شيئا فشيئا.الشمس شديدة الحرارة عند هذا الخط من خطوط العرض؛ وهذا يحتم على النائم تغيير مكانه،إذا ماتناقص الظل."(قال ذلك المقلق) ياخليل، ماهذا الشيء؟ أرنى هذا الشيء الذى تعلقه فى صدرك، ما هذا الشيء؟ أرنى هذا الشيء."ـ "لقد أريتك كل ذلك الذى فى خرجى وفى زكائبى ؛ وليس من الكياسه تفتيش أى شخص تفتيشا ذاتيا."ـ "قال صوت أجش من خلفى: أها!انه يحمل معه مسدسًا؛ وكان بوسعه أن يفتح النار علّى الليلة الماضية."ـ كانت مصادفة غير سعيدة، إذ ظهرأن ذلك الغريب كان واحدًا من الجمّالة ؛ وكان الواقفون حولى حاقدين علّى على نحو لم أتمكن معه من أن أستثير فيهم أى شكل من أشكال الإحساس الإنسانى الكريم من دزينة (دستة) من الجمّالة.

تناول الشريف الغضبان السكين فى يده ثانيه! وصاح يقول:" أرنى كل ما معك، ولاتخفى شيئا ؛ وإلاقتلتك الآن."ـ أين معبوب ؟ ذلك الرجل الذى لم أره منذ مساء الأمس: وهذا الرجل الذى يتمثل فيه توانى الأصدقاء العرب وانعدام كفايتهم ـ "لاتنس العيش والملح الذى أكلناه سويا، ياسالم!"ـ "أرنى كل مامعك ، وإلا والله سوف أقتلك

بهذا السكين." تجمع حولنا المزيد من المتفرجين الذين جاءوا من أماكن الظل المجاورة: كان البعض منهم يصيحون قائلين : " دعونا نقطعه إربا إربا، هذا الملعون !ماهذا الذى يخبئه؟- أيها الرفاق، هيا بنا نقطعه إربا!"- " أصبروا لحظة؛ وأبعدوا عن هنا." ويرفع سالم سكينه وهو يصيح قائلا:" إذا لم ترنى كل مامعك حالا، وفى هذه اللحظة، فسوف أقتلك !" ولكنى وقفت وابتعدت عنهم قليلا وقلت:" يجب ألايفكر أحدكم فى أخذ مسدسى منى!"- ثم سحبت المسدس وأخرجته من صدرى.

مالذى يجب أن أفعله الآن؟ كان العالم أمامى ؛ خطر ببالى، هل أفتح النار على كل من يهاجمنى من هؤلاء اللئام النصابين؛ وألا أضيع طلقة واحدة؟ وأنا بوسعى أن أعيد تعمير مسدسى فى حالة الخوف أو الفزع - كانت ناقتى قريبة منى : ولكن ماذا يمكن أن يحدث لواستطعت الإفلات من أكثر من عشرين شخصا، ماذا يمكن أن يحدث بعد ذلك ؟- هل أعيد عبور الرَّبع مرة ثانية، وأعود إلى شعارة Shaara من جديد! شعارة ذلك المكان الذى يأتيه العتبان فى معظم الأحيان طلبا للسقيا والارتواء؛ وإذا مافشلت فى ذلك، فقد أغامر بالمشى فى الصحراء ؛ وإذا لم ألتق أحداً فى الصحراء على مدى يومين أوثلاثة، فسوف يكون ذلك أسهل علّى بدلا من أن يقطعنى أولئك اللئام إربا إربا . وقفت بين ناقتى الهزيلة التى لم تستطع إنقاذ راكبها وبين تلك الجماعة من الجمّالة الذين كانوا يتقدمون ناحيتى ليطبقوا علّى؛ لم يكن معهم أية أسلحة نارية- اقترب منى فهيد، ورجعت أنا خطوة إلى الوراء: وفتح الرجل ذراعيه ليحتضننى!- لم يكن أمامى سوى لحظة واحدة، أقتله خلالها ، وإلا تعين على تسليم السلاح ، الذى هو دفاعى الوحيد ؛ ومن ثم تصبح حياتى تحت رحمة أولئك الأشقياء اللئام- طلبت منه أن يتقدم بشجاعة وجرأة. لم يكن - أمامى متسع من الوقت لإخراج الطلقة، كان المسدس مايزال معلقا فى عنقى بواسطة شريط قوى: وجهت عقب المسدس ناحية يدى فهيد - أمسك فهيد السلاح ! وهنا أطمأن الجميع على حياواتهم وعلى الغنيمة أيضا: شد فهيد الشريط وقطعه . ثم جاء بعد ذلك رفيقه سالم ؛ وجردونى من كل الأشياء التى كانت معى؛ وهنا وقع جهاز البارومتر بين أيديهم لأول مرة؛ ثم أخذوا بعد ذلك كيس نقودى، ذلك الكيس الذى سبق لعبد الله السروان أن أخذه منى ليضعه فى صدره التركى يوم

أن كنت فى خيبر - وعندما تأكد سالم أن الكيس ليس فيه ريالات أوأية نقود أخرى، أعاده ثانية إلى حليفه فهيد؛ الذى أخذ أيضا جهاز قياس الحرارة (الترمومتر) الذى كنت أحتفظ به فى جيبى: ذلك الجهاز الذى لم يجدوا فيه سوى لعبة من الخشب والزجاج ، وبالتالى أعاده إلىّ مرة ثانية، وهم يدعون أنهم لم يأخذوا منى شيئا غير هذا الجهاز ! ثم جلس أولئك اللصوص ليقسموا الفريسة. كان الواقفون مازالوا غاضبين ؛ وراحو يشتمونى ويسبونى ويعنفونى، وينتظرون وقوف سالم ليبدأ تقطيع النصرانى إلى إرب صغيرة.

كان سالم هو وحليفه فهيد أخطر العرب الذين التقيتهم فى حياتى؛ السبب فى ذلك أن الإنسانية الطبيعية لأهل الجزيرة العربية كانت فاسدة داخل هذين الشخصين، بسبب العدوى القوية التى انتقلت إليهم وأصابتهم من مدن الحكم - رأيت بنفسى كيف كان ذلك الشريف اللص يخص نفسه، وبكل وقاحة، بأفضل الأشياء المسروقة! أدار سالم ماكينة المسدس فى يده: لقد سبق له مشاهدة مثل هذه العدد التركية فى مكة. ولكنه عندما كان يعد أطراف الطلقات التى فى خزنه المسدس، خاب أمله؛ وراح يشكر الله (سبحانه وتعالى) الذى نجاه وخلصه من تلك الميتات الست !راح يتفحص هذه الآلة الخطيرة ، وراح يحملق فىّ ويطيل النظر إلىّ؛ وراح يوازن فى داخله مسألة عدم فتح نيران ذلك المسدس على النصرانى." إخص - إخص!، صاحت بعض الأصوات المعادية، نظروا، كيف كان يحمل معه مسدسا ليقتل به المسلمين! هيا تعالوا، وسوف نقطعه إربا إربا - عجبت لهؤلاء النصارى الملاعين، الذين تمتلئ دواخلهم بالرغبات الشريرة! - ياأنت ! كم مسلم قتلت بهذا المسدس ؟"" أيها الأصدقاء، أنالم أفتح نيران هذا المسدس فى أرض العرب - ياسالم - تذكر عين الزيمة! لقد جئت إلىّ بسكينك لتقتلنى ، لكن هل رفعت عليك هذا المسدس؟ أشكرا الله إذن! وتذكر العيش والملح ياسالم."

- طلب سالم من رفيقه فهيد تفريغ المسدس عن طريق إطلاق الرصاص الموجود فيه؛ وخشيت أن يجعل فهيد منى هدفا له. أطلق فهيد الطلقات الأولى فى الهواء: كانت خزينة المسدس معمرة بالذخيرة منذ مايقرب من العامين؛ ولكن أمكن إطلاق الطلقات

الواحدة بعد الأخرى- وكان لإطلاق ذلك الرصاص دوى هائل ! وبخاصة بين جنبات هذا المكان الصخرى . قال سالم بعد أن نهض واقفا :" أبق على واحدة من تلك الطلقات!" تلك الطلقه الأخيرة كان يحتفظ بها لى ؛ وأحسست بالبؤس لأنى سوف أموت هنا بأيديهم البربرية وبلا دفاع." قال سالم من جديد : هل كل شىء على مايرام يافهيد؟- وتبقى طلقة واحدة."

أطال سالم النظر إلى، وربما كان يشعر بالضيق والقلق، لأنى لم أقل له دخليلك dakhilak: هذا يعنى أن هدوء الكافر جر عليهم القلق والمتاعب . وعندما أحس سالم بالتعب ، ذهب للجلوس على الأرض ثم ناداني ،" قال: أجلس بجانبى ."-"أنت تسمع كلام هؤلاء البشر المتوحشين ؛ يجب ألايغيب عن بالك ياسالم، أنك ستكون مسئولا عنى أمام الشريف."-" الشريف سيعدمك أيها النصرانى ! الله يلعن اليهود والنصارى." قال بعض الجمالّه: " كنت فى مأمن فى بلدك، وكان بوسعك أن تظل هناك؛ ولكن طالما أنك جئت إلى أرض المسلمين، فذلك يعنى أن الله قد وضعك فى أيدينا كى نقتلك- إذن الموت للنصارى كلهم ! ولتحترق فى جهنم أنت وأبيك ياشيطان."" قلت لهم: انتبهوا !أيها الرفاق الطيبين- أنتم تعتقدون بجهلكم ،أننى سوف أعدم غداً: ولكن ماذا يمكن أن يحدث لو أن الشريف قدرنى تقديرا يفوق تقديره لكم جميعا، أنتم يامن تسبونى وتشتمونى اليوم! صدقونى! سوف يستقبلنى حسين كواحد من العلماء ؛ ولكن معكم أنتم ياعامة الناس، أيها الرعايا، سوف لايعيركم انتباها." "صاحوا مرة ثانية، سوف تعدم، أيهاالملعون !" ثم تفرقوا بعد ذلك ، وذهب كل واحد منهم إلى المكان الذى سبق أن توقف عنده.

- عقب ذلك مباشرة جاءنا ذلك الرجل المكى الخالص؛ الذى كان قد نزل من فوق راحلته على بعد مسافة قصيرة منا . من هذه الشخصية الناعمة، التى تعد زهرة بين تجار مكة - وبالرغم من رجائى لذلك الرجل، أن يتدخل بينى وبين سالم ، لم أستطع الخروج ولو بكلمة إنسانية واحدة؛ أدهى من ذلك أن هذا التاجر المكى امتنع عن الشر. أطال ذلك التاجر النظر إلّى ؛ ثم تخلى عنى عائدا إلى حريمه مرة ثانية. ورحت أنظر

إليه وهو يبتعد عنى، فى حين كان الشريف اللص يعنفنى ويوبخنى ويسبنى ،لأنى" أخفيت" الأشياء وأخفيت المسدس أيضا!- أثناء ذلك التوبيخ تلقيت صدمة! وشعرت بالحذر إلى حد أنى فقدت الإحساس بالدنيا من حولى: سقطت على الأرض مغشيا علّى وأحسست بجسمى يرتعد؛ وخطر ببالى أنهم أصابونى بجرح قاتل أو طلقة قاتلة! والسبب فى ذلك أنى عجزت عن سماع كل ما يدور حولى، كنت أرى الضوء أمامى كثيفا ومريكا. ولكنى عندما بدأت أعود إلى صوابى من جديد، واستطعت رؤية الأرض لم أر عليها أى أثر من أثار الدم: أحسست بخدر يشبه خدر الموت عند منطقة أسفل العنق. وعلمت بعد ذلك أن فهيدا قد ضربنى بمشعابه ضربة قاسية - ضربة ركز فيها كل قوته.

نظرت إلى الأعلى ووجدتهم جالسين بالقرب منى. وسألتهم فى ضعف ووهن ،"لماذا فعلتم ذلك؟" فهيد: "لأنك أخفيت المسدس." "هل المسدس ملكى أم ملك لكم؟ كان بوسعى أن أفتح عليك النار وأرديك قتيلا! ولكنى تذكرت رحمة الله ." كان يجلس بالقرب منا أحد أفراد القافلة ويتناول شيئا من الطعام،- كان ذلك الرجل من أولئك الذين لم يوبخونى أو يقرعونى: كان ذلك هو الرجل الذى حاول الهجوم على أثناء الليل، والذى جرعلّى كثيرا من المتاعب والآلام. وفجأة أمسكت بيد ذلك الرجل وبلحيته؛ ووضعت شيئا من لحيته فى فمى وقلت له:" كفى ماحدث أيها الرجل! فنحن بيننا عيش وملح." قبل الرجل هذا الكلام، ولم ينطق بكلمة واحدة بعد ذلك . ولم أر بين هؤلاء الناس خائنا لوعد العيش والملح سوى سالم- ولكنه كان من الشخصيات الروحية.

- جاءنا بعد ذلك شخص كان يركب حمارا! هذا الشخص اسمه عبد العزيز! فقد سمع عبدالعزيز ومعبوب أصوات الطلقات النارية ، عندما كانا جالسين خلفنا على بعد مسافة قصيرة! والسبب فى ذلك،أن أولئك الذين كانوا متوجهين إلى الطائف، وصلوا إلى ذلك المكان أثناء الليل؛ ولم يكن عندى علم بذلك . كان معبوب قد أرسل ذلك الشاب الصغير (الذى لايستحق أن يحمل اسم البسام) ليعرف السبب وراء إطلاق النار، ولكى يعرف أيضا ذلك الذى حدث للنصرانى،- وهل مازال على قيد الحياة أم لا؟ وعندما أبصر عبدالعزيز المسدس فى يدى سالم، وعندما أبصر أن سجينه(أسيره)

مازال حيا تساءل،'عن الأسباب التى جعلت سالم يأخذ مسدس الرجل ؟' قلت له:" هل ترى مدى تهديد هؤلاء الجهلة لى: قل لهم شيئا نيابة عن عمك عبدالله البسام." ولكنه بقسمات وجهه المتشدده تشددا مريرا قال:" هل أنا فرنجى؟"- ثم ركب راحلته من جديد، وابتعد مختفيا عنا.

بعد هذه الأحداث؛ وبعدأن أصبحت الغنيمة بين يدى سالم، وخوفا منه أن تضيع منه هذه الغنيمة فى الطائف، غيَّر رأيه وقرر إرسالى إلى جدة على ناقة البسام-" ها! ياخليل، لقد أصبحنا إخوانا الآن؛ ياخليل، ألسنا أصدقاء طيبين الآن؟ لم يعد بيننا أى شىء من القلق أو الإزعاج. مارأيك؟ هل تود أن نرسلك إلى جدة، على أن أركب أنا بنفسى معك على الناقة؟"- أجبته،"أنا ذاهب لزيارة الشريف فى الطائف؛ ولكى تقيم علّى أنت الاتهام أمامه وتبرئ نفسك؛ سيضعونك فى السجن فى جدة." قال بعض الواقفين:"اتركوه يذهب إلى الطائف."

- وصل مراسل من عند معبوب، يطلب من كل من سالم ، وخليل وفهيد الحضور إليه وبينما كنت أمشى متجها إلى المكان الذى فيه معبوب، نظرت إلى الوراء ووجدت فهيدا مشغولا بتفتيش خرج الجمل - ثم تبعنا بعد أن انتهى من ذلك التفتيش. كان البسام الشاب جالسا فى ظل صخرة مع معبوب- "قال معبوب-": هل أنتم رجال؟ هل أنتم رجال؟ من الذى تعامل مع هذا الغريب بهذه الطريقة!" حكيت له كيف سرقونى وجردونى من أشيائى ، وحكيت له عما لا قيته على أيديهم: كنت أعانى (وإلى فترة طويلة بعد ذلك) من الضربات التى وجهوها إلى عنقى . معبوب:" ياشريف سالم، مطلوب منك إحضار هذا الغريب أمام مولانا الحسين فى الطائف، وألاتسيئ إليه بعد ذلك. كيف تسرق إنسانا وتجرحه وهو أمانة لديك ومسئول عنه، وتتصرف تصرف اللصوص من البدو؟ ولكنى لاأظن أن البدو يمكن أن يفعلوا ذلك الذى فعلتموه أنتم." سالم:" أليس هذا نصرانيا! ولكنك سوف يتعين عليك تقديم أسباب هذه المعاملة السيئة أمام مولانا الحسين:"- ثم صرفنا معبوب بعد ذلك ؛ وعدنا إلى مكاننا مرة ثانية.

خطر ببالى أن أعود ثانية إلى معبوب : كان الرمل من تحت قدماى مثل النار الحارقة، إلى حد أنى كنت أجثو على ركبتى بعد كل بضعة خطوات كى أذوق طعم الغوث والراحة ولو للحظة واحدة- كان معبوب واحداً من حملة مظلة الشريف ؛ كما كان أيضا خادما أمينا لأخيه المرحوم الشريف السابق." تساءلت ، ماالذى جعله يتخلى عنى إلى الآن؟ أوكيف له أن يعهد بى إلى هذا السالم السفاح! الذى ينعته هو بأنه الشريف Sherif المجنون mad ؛ هل جاء يطمئن إلى أنى سأصل إلى الطائف وأنا على قيد الحياة؟- أنا الآن بلا أية وسيلة من وسائل الدفاع، وقد يطعننى عند أى منعطف من المنعطفات ؛ هل ستركب معى على الناقة!"- ياخليل، أنا لا أستطيع الركوب على سرج الجمل بسبب المرض والضعف." وعندما قلت: إننى سوف أخفف من آلامه رد الزنجى المحترم قائلا:" هذا بعيد عنى تماما !لأن هذا هو واجبى ، نحو مولاى الشريف : ولكن إن كان لديك علاجا لمرضى، فأنا أرجوك ألا تنسانى فى الطائف." - كان البسام الشاب يعانى من الحمى . وقد أصابته تلك الحمى عند الظهيرة؛ وهذا هو الذى لم يتكلم مؤخرا ولو كلمة واحدة دفاعن الفرنجى وحياته، ها هو يلجأ إلى الفرنجى من جديد كى يشفيه من مرضه. رددت عليه "تقول فى الطائف!" لو كان هذا الآدمى قد ساعدنى فى بداية الأمر، إرضاء لعمه، لماكنت قد توانيت عن تقديم العلاج. ومع ذلك، وعدته بأنه إذا مارافقنى الليلة، فسوف أعطيه فى صباح الغد دواء يقضى على الحمى: ولكن العرب لايثقون بالوعود طويلة الأجل.

تمددت إلى ما قبل الظهر، وعندها سمعت أننا سوف نرحل عن المكان؛ وهنا طلب منى ذلك البسام الأحمق الوقوف والمساعدة فى تحميل السجاد على جمله. لم أمتنع عن تنفيذ ذلك؛ ولكن كل قوتى كانت قد خارت؛ ولكن معبوب، راح يلوم ذلك البسام على تهوره، وطلب منى البقاء فى الظل- ركب معبوب جالسا فوق السجاد؛ وعندما وقف به الجمل، كان ذلك العبد الزنجى الثقيل على وشك السقوط من فوق الجمل. وهنا سألته مرة ثانية، ألّايتركنى أويتخلى عنى ثانية؛ وطلبت منه أن يتذكر تلك الساعات السوداء الكثيرة التى أمضيناها على الطريق.

عدنا إلى منزلنا على وجه السرعة؛ هذا المنزل كان عبارة عن مجرد شجرة فقط. وجدت ان أفراد القافلة قد رحلوا عن المكان؛ ووجدت أيضا أن الشريف اللص، الذى

بقى بجوار الناقة كان يتأفف من تأخيرى: ركب الشريف اللص فوق سرج الجمل، فى حين ركبت أنا فى الخلف- كان مع سالم رفيق جديد، كان يركب معنا، وهذا الشخص يدعى إبراهيم وهو من المدينة (المنورة) ولكنه يقيم فى جدة منذ فترة وجيزة، هذا الرجل سوف يعود إلى جدة على الفور بعد أن ينتهى من أداء العمرة. وعندما عرف إبراهيم اسم البلد الذى أنتمى إليه بدأ يقول:"إن إنجليزيا رافقه فى الباخرة إلى جدة- وأن ذلك الإنجليزى، والله، كان مسلما كاملا وطيبا بمعنى الكلمة! وأن ذلك الإنجليزى دخل مكة بالأمس، وقام بأداء الفرائض والطقوس الدينية- وهذا الإنجليزى الذى أحدثك عنه ياشريف سالم، يتجول الآن فى مكة، لزيارة الأماكن المقدسة."- كان إبراهيم واحداً من أولئك الذين كانوا يرقدون معنا تحت الشجرة التى كنا نستظل بها، والتى وصل إليها من بعدنا، ومع ذلك فقد استهزأ بى مرات كثيرة، وكان يصيح فَّى محتقرا إياى،" ياكلب! ياكلب! أنت كلب!" ولكن عندما استأنفنا المسير بدأ يبتسم للنصرانى ابتسامة هى خليط من الصداقة والعداوة: ثم قال فى نهاية الأمر:" أنت كنت فى حائل؛ ألا تتذكرنى؟- لقد تحدثت معك هناك، فى حائل؛ وأنت خليل."- يالغرابة هذه اللقاءات عندما تتكرر فى هذه الجزيرة العربية الخالية والواسعة الشاسعة! ولكن التردد على حائل بصفة دائمة أمر وارد: وقدأمضيت شهرا كاملا فى حائل.هذا الرجل خفيف الوزن، من أهل الجزيرة العربية، سوف يقطع رحلة طويلة على ظهر ناقته، وبالخطوة المعتادة، وتصل إلى مئات الفراسخ لمجرد هدف بسيط: وهو طوال هذه الرحلة لايقلقه أى شىء سوى بعده عن أسرته وعن أطفاله." أنت إذن عرفتنى منذ زمن طويل فى هذه البلاد؛ والآن ،قل أمام كل هؤلاء الغرباء، إن كان لديك ماتتهمنى به."-"ليس عليك أى شىء ، سوى دينك غير السليم."

ركب إبراهيم واحداً من الإبل؛ كان رديفه واحداً من الجمَّالة؛ وكان ذلك الرديف يتوعدنى خلال وقفات الكلام، بأن يروح يلوح لى بعصاه مهدداً: وعندما كان يمشى كان يقفز خطوتين إلى الأمام كما لوكان يستعد للهجوم على الكافر. رؤية سالم لأمثال هذا الجمَّال وهو يتهددنى كانت تشكل لى نوعا من الخطر، إذ إنه يود أن يكون هو الفريد فى هذا التهديد وربما أخرج سكينه مرة ثانية: وعليه قلت لإبراهيم (وأنا أمسك ذقنى

بيدى):" بحياة لحيتك يارجل! وبحق معرفتنا القديمه فى حائل!"- رضى إبراهيم عن تلك الإشارات؛ وبدأ يكشف للنصرانى عن وجه يحمل المزيد من الود والصداقه." ياإبراهيم ، هل سمعت أن الإنجليز أناس سيئون؟" "لا، كلشً kullesh طيب tayib " بمعنى "لم أسمع عنهم سوى كل شىء طيب"- "هل هم أصدقاء السلطان أم أعداؤه؟"- "هم أصدقاءه: الإنجليز يساعدونه فى الحرب." سالم:" حسن، ياخليل ، ماعليك من هذا الأمر؛ خبرنى ، ماهو دين النصارى؟ كنت أحسب أن ذلك شىء مريع!"- "خاف الله وأحب جارك، هذا هو الدين المسيحى- طريق عيسى بن مريم، الذى هو من روح الله."-(...)(*).

التقينا كثيرا من المسافرين على الطريق؛ كان البعض منهم يتفوهون بالشتم والسب ونحن نمر عليهم، وكان سالم يصيغ السمع إلى كلامهم البذئ: كان ذهن سالم يتقد مع كل كلمة جديدة -" لاتصغ إليهم ياسالم، إنهم هم النصارى " ورد الرجل رد البدو المترحلين قائلا:"إى، بالله، إنهم بدو وكفًار؛ ولكن هذا هو حال جهلهم هنا فى هذه الأجزاء من البلاد " لم ينس رديف إبراهيم مطلقا حقده أو غله؛ كما أن مخ سالم بدأ يضطرب من جديد: لأنى عندما قلت له: "إنك سوف تصدر إليك تعليمات غداً حول كل هذه الأمور:" صاح الرجل قائلا:" إنك تكذب مثل النصارى المنافقين، إن الشريف سوف يعدمك غداً بقطع رأسك، أو بشنقك- وأنا ،ياإبراهيم ، آمل أن يكافئنى مولانا بإعطائى الناقة."

وصلنا إلى مجرى من مجارى السيل، وكان ذلك المجرى وسط صخور الجرانيت ، وتنمو فيه بعض الأعشاب ونباتات النعناع؛ وفى هذا المجرى يمكن الوصول إلى الماء العذب عن طريق الحفر باليد. عابرو السبيل المسافرين إلى الطائف ينزلون فى هذا المجرى فى فترة العصر، كى يشربوا ويتوضئوا استعدادا للصلاة. ويقال إن هذه

(*) حوار تضمن عبارات بها مساس بالدين المسيحى رأينا استبعادها. (المراجع)

المنطقة هى عكاظ 'Okaz،أو إن شئت فقل: البرلمان السنوى ومكان التفاخر والتباهى والمدح الخاص في الجزيرة العربية فيما قبل الإسلام: هذا المكان

يترواح ارتفاعه عن مستوى سطح الأرض بين ٥٠٠٠ و٦٠٠٠ قدم. وعندما توقفنا مر علينا كل من عبدالعزيز ومعبوب؛ وهنا اتجهت لأسأل البسام الشاب إن كان سيركب معى هذه الليلة أم لا، وأننى سوف أكافئه على ذلك ؟ واعتذر لى عن ذلك ، نظرا لأصابته بالحمى : ولكن ذلك لايمنعه من الركوب على حمار من الحمير- كان سالم مشغول الفكر والبال ويود معرفه مادار بينى وبينهما ؛ وركبنا وواصلنا المسير.

بدأنا الآن نصعد ونسير بين الأماكن الضيقة التى بين الصخور ؛ ثم وصلنا إلى طريق مرصوف، امتد معنا لأميال عدة، وفيه منازل وممرات جرى فتحها عن طريق النسف بالمتفجرات ـ هذا الممر جرى فتحه مؤخرا بواسطة المهندسين الأتراك وعلى نفقة الحكومة: وبعد ذلك بدأنا نسير فى ذلك المنحدر اللطيف الذى يوصل إلى الطائف.

كنا قد سبقنا القافلة البطيئة وأصبحنا وحدنا الآن فى الصحراء: كان إبراهيم مرافقا لنا، وكنت أتشكك فى ذلك الرجل. قالوا: إنهم سوف يسبقونا ويكونوا فى المقدمة: وكانوا يضربون ناقتى البطيئة الضعيفة ويجعلونها تجرى؛ وكان ذلك يشكل لى نوعا من القلق والتعب ـ وكان سالم قد رد على أولئك الذين كانوا يتساءلون عن سبب تسرعنا وعجلتنا ، وعن سبب استباقنا لهم فى الممرٍبأنه يود التخلص من النصرانى :' وراح سالم يهمهم ويغمغم بكلمات وحشية ، إلى حد أنى بدأت أتشكك فى أن أولئك الذين كانوا يركبون معى كانوا مختلفين فيما يتعلق بقتل النصرانى ، عندما يكونون بعيدين عن أنظار الغير. لم يترك أولئك اللصوص لى من أشيائى سوى مطواة صغيرة: وعندما وصلنا إلى السيل، كنت قد ربطت فى غترتى حجرا ، كى أستعمله سلاحا إذا ما تطلب الأمر ذلك.

أخيرا غربت الشمس: وفى الحال ظهر الشفق؛ وطلب إبراهيم من سالم، أن يشرح له السبب الذى جعله يسبق على هذا النحو، وبلا توقف سالم :" هيا بنا نسبقهم وننام ساعة عند الظهر، إلى أن تلحق بنا بقية الإبل- ياخليل، اصح ولاتنم !

(لأنى ربت على ظهره،) أوه! افتح عينيك !هذا طريق خطر عليك:" ولكنى واصلت النوم وكنت معرضا دوما لخطر الوقوع من فوق الناقة: كنت من حين لآخر أنظر إلى الأعلى وأراه ينظر إلى الخلف ويطيل النظر إلى ! وعليه كان يقول بطريقة ودية لطيفة : هل نمت ياخليل، يانصرانى ؟- ماهذا ! أنا عندما قلت لك: لا؛ العجيب أنك لم تخف!"- أليس الله فى كل مكان؟" إى(*) ! والله ياخليل." هذه الكلمات الدينية لها وقع سلس عند العرب، كما أن الدين هو الذى يفاجئ قلوبهم القاسية ويباغتها - "عجيب أنك لاتخشى الموت!" أنا لم أعش مسلما ، حتى أخشى الموت أو أخافه." نظر إلى ذلك الشقى! ونظرت أنا ثانية إلى وجهه المتجهم: كان أحد خديه معلم بثلاث شلخات! وهذا عرف سائد فى هذا الجزء من البلاد، كما هو الحال فى إفريقيا الزنجية؛ إذ عن طريق مثل هذه العلامات يمكن معرفة القبائل التى ينتمى إليها الأفراد.

هواء المساء يشرح الصدر هنا، وفى هذه الصحراء، فى فصل الصيف. مررنا هنا بمسقى يقع بين الأشجار، كان بوسعنا التوقف فيه؛ ولكن إبراهيم لم يلق بالا لندائنا! كان إبراهيم قد سبقنا فى الظلام. وهذا هو سالم ، بالرغم من الكلام الجميل الذى دار بينهما مؤخرا، يقول عن إبراهيم: إنه" رفيق وقح" بل إنه لعنه أيضا." من هو ذلك الرجل، ياسالم؟ كنت أحسب أنه صديقا من أصدقائك". ما الذى يجعله صديقا لى؟- يالهذا الشيطان! كل ما أعرف أنه من المدينة (المنورة) ."- وكل مافى الأمر أننا انضممنا إليه أثناء الظلام؛ وقال إبراهيم:'إنهم سبقوا كى يُصلُّوا. ثم قال: وهذا المكان طيب ويناسب ذلك؛ هيا بنا ننزل عن راحلاتنا هنا ونتناول طعام العشاء.' كان معهم الخبز، وكان معى أنا التمر: جلسنا لنأكل مع بعضنا البعض. ولم يبعد عنا أثناء الطعام سوى الرديف ، تخوفا من تناول الطعام مع واحد من الكفار : ولكن ، عندما بدأ ذلك الرديف يشاركنا تناول الطعام بناء على طلب من الآخرين، تناقص حقده وغله- سألت إبراهيم، إن كان يعرف عائلة النجومى فى المدينة المنورة؟" قال: حسن، أنا أعرف هذه العائلة- إنهم ليسوا سوى حدادين."

(*) إى بكسر الهمزة تعنى «نعم» حسبما ورد فى القرآن الكريم. (المترجم)

ركبنا إبلنا وواصلنا السير، عبر السهل الواسع؛ وشاهدنا الكثير من ومضات النار التى شبَّها البدو الرحل فى المناطق التى يخيمون فيها كان من رأى سالم أن نغير خط سيرنا ونتجه صوب جماعة من أولئك البدو الرحل، حيث يمكن لنا، على حد قوله، شرب شيء من الحليب. كان ذلك يشكل خطرا على الكافر، وقد سررت عندما تجاوزنا هؤلاء البدو الرحل ؛ هذابالرغم من أنى كنت أود رؤية أعراب هذا الجزء من البلاد ـ وصلنا فى النهاية إلى المنوخ(*)، أو إن شئت فقل: مكان التوقف فى منتصف الطريق؛ وفى عتمة الليل استطعت رؤية مبنى عال مبنيًا من اللبن، كما شاهدت أيضا مجموعة كثيفة من الأشجار . وعلى مقربة من ذلك المبنى شاهدت أيضا بعضا من القصور والهجر الواقعه على أطراف الطائف وتستخدم فى زراعة القمح . سمعنا الحمير أثناء نهيقها والكلاب وهى تنبح كل ذلك كان فى منازل البدو الرحل من حولنا. نزلنا فى هذه المنطقة ورقدنا على الرمل ملفوفين فى عباءاتنا (بشوتنا)؛ ونمنا مدة ساعتين : ثم بدأت بعد ذلك طوابير القوافل البطيئة التى كانت تسلك الطريق نفسه تتوافد علينا من جديد: كان الجمالّة نائمين فوق أحمال إبلهم. ركبنا إبلنا واستأنفنا السير من جديد، وسبقنا تلك القوافل فى الظلام من جديد، ولكننا ضللنا طريقنا فى نهاية المطاف؛ وهنا قال إبراهيم ، إنهم سيواصلون السير إلى الطائف، دون الحصول على قسط من النوم؛ ولم نرالرجل بعد ذلك.

ومع طلوع ضوء النهار تبينت أننا وصلنا إلى جدران أحد البساتين؛ ومع تزايد أنوار الصباح شاهدت مسورات حول أشجار الكروم وأشجار التين؛ ولكنى لم أشاهد إلا القليل من أشجار النخيل [الذى لايجود فى الطائف حيث الماء حلو وعذب والأرض حلوة أيضا]. ودخلنا عندئذ فى طريق ـ طريق من طرق الجزيرة العربية! وهذا أول طريق أخضر وشجيرات خضراء أراها بعد أن غادرت دمشق. مررنا على منزل أو منزلين مبنيين على جانب الطريق؛ وبيوت ليست من اللبن مثل بيوت الجزيرة العربية ،

(*)المنوخ : بفتح الميم وضم النون، هو المكان الخاص الذى تبرك فيه الإبل. (المترجم)

ولكنها مدهونة ومزججة مثل البيوت التركية. كنا بالقرب من الطائف؛ وقصدنا المنطقة الواقعة أمام فيلا الشريف ، التى أنشأ فيها وهو على قيد الحياة حديقة فيها كثير من الورود! [والأشراف هم أناس تربوا فى إسطمبول Stambul]. ـ ولكن حديقة الفيلا كانت قد بدأت تتحلل وتذبل.

دخل سالم بالناقة إلى الحقل الموجود فى الجهة اليمنى ؛ ونزلنا عن راحلاتنا انتظارا لطلوع النهار، تركنى سالم وراح يتمشى ليستطلع ماحولنا ؛ وسمعت صوت بوق ، فقد كانت الطائف واحدة من الأماكن التى تتمركز فيها قوات الحماية. وعندما عاد سالم وجدنى نائما؛ وسألنى ماإذا كنت خائفا أم لا؟ ركبنا ولاقينا شيئا من الصعوبة فى قيادة الجمل عبر غدير الماء الدافئ، الذى كانت مياهه جارية وصلنا بعد ذلك إلى هجرة من هجر الأشراف وهذه الهجرة تقع على مقربة من الطائف؛ وأوقفنا النياق قبيل طلوع الشمس بلحظات أمام بيت من بيوت أبناء عموم سالم.

نادى سالم عليهم بالاسم، وهم فى داخل المنزل؛ ولم يرد عليه أحد. كان الرجل الطيب صاحب البيت قائما برحلة هو الآخر؛ وبالتالى لم تستطع زوجاته الخروج لاستقبالنا . ولكنهن عندما تعرفن صوت سالم أرسلن صبيا كى يحمل أشياءنا إلى داخل المنزل؛ وتبعنا ذلك الصبى . هذا البيت الفقير من بيوت مكة كان عبارة عن حوش له جدران عالية مبنية من اللبن ؛ وفيه غرفة واحدة أوغرفتين مبنيتان عند مستوى أقل من مستوى ارتفاع السور. وجدنا فى ذلك البيت امرأتين (من الأشراف)؛ وكانت المرأتان تصنعان أكلمة (لحفا) من ذلك الصوف الخشن والخيوط الملونة مثلما سبق أن شاهدنا فى بلدة تيماء.[الجزء الأول] ـ هذه الأسرة كانت من الأسر البدوية المترحلة؛ والسبب فى ذلك أن الحريم قلن لى أنهن يعشن فى خيام ، طوال أشهر عدة من العام، وأنهن يشربن ألبان الإبل والماشية الصغيرة، أو إن شئت فقل: ألبان الماعز والأغنام . كان فقر البيت وبؤسه يوحيان أيضا بأنه من بيوت البدو الرحل: والسبب فى ذلك أن رب البيت الطيب لم يترك لهن شيئا سوى وجبة صغيرة؛ وأنهن خبزن من تلك الوجبة

الصغيرة كعكة، أوإن شئت فقل : فطيرة لايزيد وزنها بأى حال من الأحوال عن أربعة أوقيات ، كى يقدمنها إفطارا للضيوف. كانت أصواتهن مخنوقة بسبب الجوع ، وكانت التنهدات تتخلل تلك الأصوات؛ ولكن هؤلاء النساء النبيلات كن يتكلمن معنا باعتدال أنثوى ثابت ومتزن: وهنا رحت أتعجب لتلك السلوكيات الطيبة، التى لم يسبق أن رأيتها من قبل فى الجزيرة العربية. هؤلاء الناس هم ذرية محمد الفقراء. وسلطان الإسلام يقبل عن طيب خاطر وبوقار شديد يد أى إنسان من أولئك الأشراف مهما كان قدره؛ وسلطان الإسلام يُقَبِّل أيضا يد كبير أسرة الأشراف فى مكة .

اتفقنا فيما بيننا ألا نقول أى شىء عن دينى الغريب. تحدث سالم عنى كما لوكنت غريبا التقانى على الطريق. كان غريبا على، فى بلاد الغيرة هنا، أن تستقبلنى امرأتان . هاتان المرأتان (إحداهما كبيرة والأخرى شابة) كانتا زوجتين شقيقتين لواحد من الناس(*). هذا المكان الفقير لم يكن فيه أى شىء من البن أو القهوة؛ ولكنهن بناء على طلب سالم أرسلن يقترضن بنا من الجيران: وعاد الصبى ومعه ست أوسبع حبات من حبوب البن؛ ومن هذه الحبات الست أوالسبع غلوا لنا ، فى إناء من الفخار (مثلما تُصلَّح القهوة هنا) خليطاغير كثيف من القهوة- لم نستطع شرب ذلك الخليط ! وبعدما طلعت الشمس، قال سالم: إنه سوف يذهب إلى مجلس الشريف؛ ثم تركنى - سألت المضيفة الكبيرة زوجة الشريف . وأجابتنى قائلة:" حسين رجل طيب ، وإنه عاش فى إسطمبول منذ صباه وشبابه ؛ وهو أفضل المتعلمين قاطبة هنا: ولكنه ليس شبيها بأخيه عبدالله ، الذى تولى قبله ، ومات هذا العام ، تغمده الله برحمته !كما أن الشريف حسين ليس أبيضا مثل أخيه عبدالله؛ والسبب فى ذلك أن والدة حسين كانت عبدة من (الجِلاّ(**)).- يبدو أن مسألة اللون هذه كانت تقلقهن ،لأنهن كررن قولهن:" كانت أمه عبدة- ومع ذلك فإن حسين رجل طيب وعادل ؛ وطيب القلب".

(*) كذا .

(**) الجِلاّ: بكسر الجيم وتشديد اللام، سلالة من السلالات الحبشية. (المترجم)

أمضينا ساعات طوال بصحبة تلك النسوة (اللاتى ضربهن الجوع) ويتنهدن ألما، ونظرا لعدم وجود مايشغلهن فى منازلهن ، أثناء نومى، فقد رحن يمارسن عملهن المعتاد فى خيوط الصوف الخشن- كان الوقت قد شارف على الظهر، وعندها دخل علينا سالم. " قال الرجل: أخبار طيبة !ياعم خليل: مولانا الشريف أمر بأن تسكن وتنزل فى منزل واحد من الأتراك Tourk. هيا، قف! وهيا بنا إلى هناك؛ والمسافة التى سنركبها قصيرة جداً." حمل سالم بنفسه الخرج والزكائب الأخرى، ووضعها على الناقة المنهكة؛ ورحلنا عن المكان . ومن الأرض المرتفعة التى وصلنا إليها تراءت لنا الطائف! المنظر يوحى بالحزن، نظرا لأن المبانى هنا كلها من الأحجار التى لها لون الإردواز. قصر الشريف الأبيض يقع عند مدخل البلدة، والمنزل مكون من طابقين ، وأمام المنزل يوجد مبنى جديد فاخر له شرفات شبكية الشكل، وسقف ذلك المنزل فيه كثير من المداخن؛ هذا القصر هو قصر عبدالله باشا، شقيق الشريف حسين. وفى وسط البلدة يظهر مبنى ضخم كبير وعالٍ؛ هذا المبنى يشبه السجن؛ هذا المبنى هو ثكنات الجنود.

– هاهى البلدة أمام عينى !هذا منظر بديع يتراءى لعينى بعد تجوال فى الصحراء دام قرابة العامين. على جانب الطريق الذى نسير فيه ، شاهدت الرجال وهم ينسفون (صخور الجرانيت) كى يجرى استعمالها فى البناء- الطائف تقع على حدود المنحدر الصخرى، الذى سبق لى أن تجولت فيه فى الفترة الأخيرة، والبلدة تبعد حوالى مائة فرسخ عن القصيم. شاهدت أيضا منظرا أسود اللون وفيه الكثير من الصخور الوعرة، وعامرا أيضا بالجبال المنخفضة ؛ هذا هو المنظر الذى شاهدته فيما وراء بلدة الطائف . دخلنا مرة إلى الطريق بعد أن خرجنا من مجرى السيل، وعبرنا نهيرا ماؤه فاترا؛ هذا النهير ينبع من الجبال التى تهب عليها الرياح الموسمية، وهذا النهير يعد واحداً من العيون العامرة بالماء الوفير الذى يستخدمه الناس فى رى هذه الواحة القديمة. هؤلاء هم السقائون - ذلك المنظر المألوف فى بلدان الشرق! يمشون مترنحين وهم يصعدون المطلع حاملين الماء الذى يجلبونه من ذلك النهير؛ هؤلاء السقائون يحملون الماء فى قراب مصنوعة من جلد الماعز؛ بعض أولئك السقائين لهم أكتاف تبلغ من القوة

حداً تستطيع معه أن تحمل مايعادل حملا من أحمال الإبل ! التقانى فى هذا المكان جندى تركى، وكانت تعلو وجهه ابتسامات وقحة؛ وقال: إنه جاء لتوصيلى إلى البيت الذى سأنزل فيه. هذا الجندى، وهو سورى من البلاد التركية المحيطة بأنطاكية، هو المراسل العسكرى لواحد من ضباط الشريف حسين: هذا الضابط سوف يستقبلنى فى بيته وذلك بناء على أوامر من الشريف حسين.

البوابه التى دخلنا منها هنا يطلقون عليها اسم باب Bab السيل؛ فى الداخل توجد أرض فسيحة أمام قصر الشريف المتواضع. الشوارع هنا ليست ممهدة تمهيدا جيداً ، وأفضل المنازل هنا هى تلك التى طلاها أصحابها بالجبس الأبيض: منظر هذه البلدة، التى تنشغل عن آخرها خلال شهور الصيف ، يوحى بالقدم والدمار والأنقاض. الطرق هنا غير ممهدة: ونرى هنا كلاب الشوارع التى تشتهر بها البلدان التركية . كان هناك خادم من خدم الشريف ينتظرنى فى الشارع ، ثم اصطحبنى إلى خوخة(*): طلب الجندى منى النزول عن الناقة ، وهنا أحمد الله! على أنه أرسل سالما لحال سبيله." قال الخادم المبتسم : سوف أحضرلك فورا شوكة وسكينا؛ وقد طلب الشريف منى أن أسألك إن كنت تود شرب شيء من الشاى مع شيء من السكر؟"- كانت تلك أفكار لطيفة من الأفكار المنزلية الإنسانية لأمير مكة.

وهنا اقتادوا الناقة التى أصابها إعياء شديد على إثر المسافة التى قطعتها وتقدر بما يقرب من مائة وخمسين ميلا، دون أن تحظى بأى شيء من الراحة أو الترفيه، اقتادوها إلى إسطبلات الشريف؛ وحملوا خرجى وزكائبى إلى الدور العلوى. كان المضيف، واسمه العقيد Colonel محمد Mohammed ينتظرنى عند مدخل البيت؛ ليدخلنى بعد ذلك إلى سكنه. كان الثوب الذى ألبسه ممزقا من فوق ظهرى، كما أن عباءتى (بشتى) كانت قديمة وممزقة؛ كان شعرى طويلا ويتدلى من تحت الغترة (غطاء

(*) خُوخه : بضم الخاء الأولى وفتح الخاء الثانية، عبارة عن بُويب صغير داخل باب كبير، والكلمة فصيحة. (المترجم)

الرأس) إلى أن يصل إلى كتفاى؛ كما كانت لحيتى طويلة ومتدلية وغير مشذبة؛ كانت عيناى حمراوين، وشبه مغمضتين، كما كانت بشرتى المحروقة بسبب الشمس متشققة فى منطقة الوجه. وجلبوا لى حلاقا، وجرى تجهيز الحمام: وبعد كوب من الشاى، بذل العقيد الطيب جهداً فائقا كى يعيد شكلى إلى شكل بقية المواطنين المدنيين العاديين. وبينما كان الحلاق يقص الشعر ويهذبه، راح ذلك المسئول التركى يضع على وجهى بعض المراهم المرطبة؛ وكانت يداه لطيفتان كما لوكانتا يدى امرأة- ولكنى لم أر إفطارا فى ذلك المكان! بعد ذلك ألبسنى ذلك الضابط، وأنا فى غاية التعب والإرهاق، لباسا عسكريا أبيض اللون؛ ووضع فوق رأسى طربوشا.

هذا الضابط الطيب، الذى كان اسمه ولقبه محمد خيرى أفندى، والذى هو ياور Yawer من ياوران الشريف حسين، قال لى: الخدمة مع الشريف (من حيث استمرار الحصول على الأجر) أفضل من الخدمة مع الدولة (الإمبراطورية العثمانية): كان محمد افندى يحمل رتبة بمباشى Bim-bashy أو قائدا لألف رجل، فى الجيش الإمبراطورى. كان العقيد محمد من ولاية قونية Konia فى الأناضول. كان ذلك الرجل يكره المسئولين المفسدين فى إسطمبول، وكان يطلق عليهم اسم الخونة؛ والسبب فى ذلك هو تنازلهم فى محادثات السلام التى جرت مؤخرا عن بعض المناطق التى كانت داخلة ضمن الإسلام(*): كان ذلك الرجل، يعجب من أولئك الباشوات الكبار الذين خانوا الجيش. كان الرجل ، من منطلق صراحته العسكرية يستنكر تلك الرذائل البيزنطية التى كان أولئك الباشوات يرتكبونها، كما كان يستنكر أيضا سكر السلطان المتوفى وعربدته- ذلك الذى كان يرد على لسان العقيد محمد،إنما كان يعكس ذلك الذى كان الضباط الأتراك يقولونه فى كل من مكة والطائف. ولكن الرجل كان يتحدث بكبرياء صادق، عن الحياة الرسمية فى وطنه؛ والتى يحافظ الناس فيها على السلوكيات التركية القديمة

(*) محادثات السلام هى تلك المحادثات التى انتهت الحرب الروسية التركية بما ترتب عليها من عقد معاهدة سان ستيفانو بين روسيا والدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ وفيها تنازلت الدولة العثمانية عن سيادتها الفعلية على بعض الولايات التابعة لها فى شبه جزيرة البلقان. (المراجع)

التى تتسم بالبساطة. حدثنى محمد خيرى عن نشأته، كما حدثنى أيضا عن المهمة التى ألقيت على كاهل أمه التى كانت تقول: " ولدى، لايقول سوى الحق! ويكره كل مظاهر حياة الرذيلة." يتذكر محمد خيرى من طفولته ذلك اليوم الذى دخل فيه بعض الناس عنوة بستانا من البساتين، أثناء الليل، وسرقوا منه التفاح، والجلبة الكثيرة التى ترتبت على ذلك! هذا هو مايقوله الناس عن مزاج أولئك الأتراك- ولدى هنا كلام قليل، قاله لى رجل صادق، - وقد حدث ذلك بين التركمان والفلاحين الأتراك، فى قريته القريبة من أنطاكية." عثر فلاح فى حقله على كيس من أكياس النقود؛ وكان ذلك الكيس مملوءًا بالنقود. ولكن هذا الرجل الذى لم يكن الحقد يعرف إلى نفسه سبيلا، وضع ذلك الكيس معلقا فوق عمود من الأعمدة، وراح ينادى فى شوارع القرية، 'هل تسمعون، ياجيرانى، من الذى ضاع منه ذلك الكيس الموضوع هنا؟' وعندما لم يجبه أحد، قام هذا الرجل المسن بتسليم ذلك الكيس الغريب للقس المسيحى؛ وطلب منه الاحتفاظ بالكيس إلى أن يظهر صاحبه ويسأل عنه."

- سمعت وقع أقدام قوية على درج السلم؛ ثم دخل على ضابطان تركيان. الضابط الأول طويل القامة، عسكرى المظهر، وهو سمَّى المضيف، وكان يلقبه بأنه شقيقه، هذا الضابط كان يشغل منصب الياور الثانى مع الشريف حسين؛ وكان الأصدقاء إخوانا فى السلاح طوال عشرين عاما. كان بصحبة ذلك الضابط أغا من الخيَّالة؛ هذا الأغا كان البانيا وعظام وجهه بارزة بشكل مخيف، وكان يعتمد على ذلك الشكل المخيف فى السيطرة على الجنود الهمجيين؛ ولكن هذا المسكين كان ألطف مما يوحى به شكله، إضافة إلى أنه كان طيب القلب. هذا الألبانى كان يتفاخر بأنه من سلالة الإسكندر الأكبر " ذى القرنين؛" ولكنه جاء لزيارتى من باب المجاملة، ومن باب أنه من جيران أوروبا. تحدث عما كان يدور بخلده - حوالى خمس أو ست كلمات خرجت من فمه مرتبكة، وعلى شكل صيحة شجاعة: وعندما لم أستطع تجميع المعنى؛ نظرا لأنه كان يغمغم ببعض المصطلحات تخليدا لذكرى الإيطالى الأيونى، وتخليدا أيضا لهيلينى الحدود، راح يستعمل الأصوات والإشارات! وعندما بدأت تبدو عليه العظمة انشرح صدره لأنه كان يتحدث مع شخص غريب باللغات الأجنبية. وهذا النقيب (الذى لم يكن

يعرف القراءة أوالكتابة) كان يطلب منى أن أكتب له اسمه هو أيضا: محمد أغا الأرنؤطى أبو سمًا شيرى، جوزباشى. هذا الرجل خدم فى هذه المنطقة سبع سنوات؛ ولكنه لم يتعلم كلام العرب المغمورين ـ كان يتفاخر بأنه يعمل ضمن خدمة السلطان العسكرية! بالرغم من أنه لم يتقاضى مرتبه إلا نادرا. هذا الرجل المحترم (قال لى) إنه كان قبل سنوات عدة قوّاسا kawas فى القنصلية الفرنسية فى كورفو؛ التى شاهد فيها المعاطف الحمراء الإنجليزية." هاى إنجلى Angli ـ هو ـ هو! قال الرجل : الإنجليز (أقوياء بحق). ولكن الألبان، هو huh– أى الألبان أصحاب قلوب كبيرة!ـ والقلب هو الذى يجعل الإنسان إنسانا!ـ القلب هو الذى يحض الإنسان على القتال!ـ أها؛ القلب هنا قوى وجرئ هنا!" ثم وضع ذلك الألبانى يده اليمنى على صدره الشهم الشجاع. هذا الصديق كان يبدو عليه الحزن والهم: فقد أبلغنى العقيد محمد أن زوجته توفت مؤخرا بصورة مفاجئة؛ وأنه هو الذى يعيش وحيداً مع أبنائه الصغار ـ ولكن محمد الأغا، كان فضوليا ويصعب إرضاؤه، وكان مستوى فهمه وإدراكه أعلى بكثير من المضُيف: كان يتكلم العربية بطلاقة ولكن على الطريقة التركية. هؤلاء الناس شهدوا مؤخرا تدمير الدولة (الامبراطورية العثمانية) فى أوروبا: قالوالى: 'إن القائم حاليا نوع من الهدنة وليس سلاما؛ وقالوا لى أيضا: أن إنجلترا تقف إلى جانبهم، وأنها فى ذلك الوقت أرسلت جيشا من الهند عن طريق البحر ـ وأن هذا الجيش مرعلى مدينة جدة ـ وقوام ذلك الجيش حوالى مائة ألف رجل!' يضاف إلى ذلك أن النمسا كانت تقف أيضا إلى جانب السلطان؛ وأنهم كانوا ينتظرون إندلاع الحرب من جديد.

قبيل المساء، وبعد أن تناولت وجبة تركية مع مضيفى، دخل علينا قوّاس الشريف حسين؛ كان ذلك القواس يحمل معه غيارا جديدا من الملابس،جاء به إلىّ ـ وعندما ألبسونى ملابس شيخ عربى؛ أخذنى العقيد محمد فى فترة الشفق ومر بى من أحد الشوارع لحضور مجلس الشريف : كان الطريق خاليا فى تلك الساعة من اليوم.

كان بعض أفراد الحرس البيشى Bisha يقفون على درج السلم؛ وقدموا لنا التشريفة ونحن نمر متجهين إلى مكتب ضابط الشريف: كان هناك بعض الرجال

المسلحين يقفون عند نهاية السلم من أعلى . وهنا وجدنا غرفة للانتظار؛ ثم تركنى ضيفى، ليتقدم هو صوب الشريف. ولكنه عاد بسرعة ليصحبنى إلى داخل صالة المجلس؛ التى يجلس فيها الشريف أمير مكة بضع ساعات كل يوم - وذلك طوال وجوده فى مقره الصيفى فى الطائف - كنت أبدو مثل شيخ عربى كبير وسط هؤلاء المشايخ musheyikh. فى هذا المكان يجتمع إلى الشريف يوميا كل من علية القوم والأعيان من المواطنين ، وكذلك الأعراب والأقارب: والسبب فى ذلك، أن هذ المكان ، هو المجلس، أو إن شئت فقل:إنه برلمان القهوة عند كل أمير من أمراء الجزيرة العربية؛ هذا الأمير كان من السهل الوصول إليه ، وله شعبية بين الناس، مثلما كان العقيد محمد نفسه.

سرعان ماخلت الغرفة من الضيوف: ولم يتبق فى الغرفة سوى الشريف ومعه شقيقه الأصغر عبد الله باشا، وهو رجل أبيض البشرة قوى البنية مثل الأتراك، وصاحب سلوكيات عربية لطيفة. حسين باشا [كان الشريف يحمل ذلك اللقب التركى] رجل سمح الوجه، وصاحب همة ونشاط باديان فى عينيه وصاحب سلوك إنسانى؛ وهو يتكلم بصوت معتدل بشوش: وعمره يقدر بحوالى خمسة وأربعين عاما. كان يبدو من جلسته الرجولية، رجلا فارع الطول وكانت بشرته بنية اللون؛ وكان صدره عريضا، وكبير الأطراف وطويل الساقين أيضا. كان الشريف يرتدى لباسا مدنيا من الألبسة الشائعة فى المدن العثمانية، هذا اللباس كان عبارة عن جبة Jubba طويلة زرقاء اللون. كان الرجل يجلس منتصب القامة على الديوان كما لوكان رجلا أوروبيا، وكان محياه جذابا ؛ وكان يدخن التبغ فى غليون مثل " قدامى الأتراك." هذا الغليون،أو إن شئت فقل: الشيشة ، كان موضوعا فى طبق أمام الشريف: فى حين كان ساق الياسمين الموجود إلى جواره يقارب طول الرمح- نظر الشريف مباشرة: ثم انسحب العقيد محمد بعد ذلك، وهنا جاء خادم وأحضر معه كأسا من القهوة.

سألنى الشريف بصوت هادئ،"هل شربت القهوة؟" قلت:" نحن نعتبر ذلك الذى يزدهر فى الجزيرة العربية كلها، هو أفضل ما تناولناه حتى الآن؛ ونحن نعتقد أن نبات البن جرى إحضاره إلى الجزيرة العربية من خلف البحر (الأحمر)."-"إى، أعتقد أن

نبات البن جرى إحضاره من الحبشة: أليس أولئك الذين كنت عندهم فى نجد، من شاربى القهوة؟" ثم سألنى الشريف بعد ذلك عن العدوان الذى حدث " فى عين الزيمة"؛ ثم بعد ذلك عن العدوان الذى حدث فى السيل." قال : هذا كاف لإخافة أى إنسان مهما كان .[المؤسف أن حسين نفسه قتل بعد ذلك بوقت قصير بسكين واحد من السفاحين- حدث ذلك ، فى مدينة جدة، فى العام الثانى بعد رحيلى عن تلك المدينة: ولفظ ذلك الرجل أنفاسه الأخيرة بنفس المرح والعدل الذى اشتهر بهما فى حياته؛ مات الشريف حسين بين ذراعى واحد من مواطنينا هو الدكتور جريجورى ورتابت ، الذى كان وقتئذ مسئولا عثمانيا مقيما عن الصحة فى منطقة البحر الأحمر]. - ثم أردف الشريف حسين فى ود وحنان، ولكن ها أنت قد وصلت أخيرا؛ وبذلك تكون الأخطار المحيطة برحلتك قد انتهت. استرح ماشئت فى الطائف، وبعد أن تسترد عافيتك ونشاطك سوف أرسلك إلى القنصل الإنجليزى فى جدة." سألنى الشريف حسين،' ألم أفكر فى زيارة الطائف؟'- وأردف قائلا: ربما كان ذلك أفضل لوأننى جئت إلى هنا مباشرة من السيل؛ وكان يمكن أن يرسلنى إلى جدة مباشرة:' أضاف الشريف الطيب قائلا:" هذه ليست المرة الأولى التى يجىء فيها الأوروبيون إلى هنا؛ لأنى - أحسب أنه فى العام الماضى، جاء إلى هنا أوروبى بصحبة قنصل هولندا؛ جاء إلى هنا لزياره نقش بالقرب من طريق السيل ؛- سوف أكلف من يطلعك على ذلك النقش أثناء العودة." رددت عليه،' لقد علمت أن واحداً (بركخاردت) جاء إلى هنا فى زمن العمليات الحربية المصرية.'- وهنا نظر إلّى الشريف نظرة توحى بالدهشة المشوبة بالود والحنان! [تعجب، الشريف ،لذلك المصدر الذى استطعت منه الحصول على هذه المعلومات عن شئونهم الداخلية؟] - شريف مكة الغامض هذا، الذى أغراه محمد على ذلك الثعلب الألبانى، يحتمل أن يكون العم الأكبر لهذا الأمير المحترم.

"سألنى ، كيف استطعت معايشة البدو، وكيف تحملت طعامهم؟- وهل وجدت أنا البدو مثلما يقال عنهم [فى الحكايات التى تروى عنهم فى الحضر]، أم أنهم أقل بكثير مما يقوله عنهم الرأى العام [وبخاصة فى مسألة الشهامة] ؟- هل شاركت فى عملية السقيا؟ وسحبت الدلاء الواحد بعد الآخر - على هذا النحو؟" وهنا ويبشر العرب

وترحابهم وضع الشريف الطيب شيشته جانبا، وراح بنفسه يأتى الحركات التى يفعلها السقاة وهم يجلبون الماء من الآبار لكى يسقوا ماشيتهم!(وقد شاهد ذلك بنفسه أثناء القيام بحملة من الحملات). مبلغ علمى أنه ليس هناك أميرا قطريا من أمراء الجزيرة العربية - إلا وفية شيء من الوهابية المرة - إلا وقد فعل هذا الشيء نفسه. الناس كلهم هنا يشرحون الصدر - لم تكن عندى القوة التى تمكنى من رفع الماء معهم." وهنا نظر إلى نظرة حنان إنسانى ، " إى، لقد عانيت الكثير.

سألنى بعد ذلك عن رحلتى؛ وأجبته وتحدثت معه عن مدائن صالح، وعن تيماء، وعن حائل: وانتدهش الشريف عندما علم أننى أمضيت شهرا - بالطول فى تحمل ذلك الطاغية- فى مدينه ابن الرشيد. سألنى عن محمد بن الرشيد،' هل اعتبره رجلا طيبا؟' من الواضح أن الشريف حسين، الذى كان يتلقى من ابن الرشيد هدايا كل عام ،لم يكن ينظر إليه على إنه رجل طيب : وعندما أجبته باختلاف قليل عما كان يتوقعه أو ينتظره وقلت:" هو رجل محترم،" لم يكن الشريف راضيا أو مقتنعا بتلك الإجابة. ثم تكلمنا بعد ذلك عن عنيزة؛ وسألنى الشريف عن الزامل،" هل هو رجل طيب؟" وفى النهاية سألنى' ما إذا كنت مسرورا من الملابس [الهبة الإميرية] التى كنت مرتديا إياها أمامه فى مجلسه؟' وسألنى أيضا ماإذا كان مضيفى [الذى كان الأمير يشك فيه] قد أكرمنى أم لا؟ ومضت علينا ساعة أو أكثر قليلا ؛ وبعد ذلك دخل العقيد محمد الذى كان ينتظر فى الخارج؛ وهنا وقفت كى أستأذن فى الخروج . وتكلم الشريف مع المضيف عنى؛ ونبه عليه أنى ينبغى أن أتحرك فى الطائف تحركا حرًا وبلا قيود داخل الطائف وخارج أسوارها أيضا؛ وأن يسمحوا لى بزيارة كل الأماكن التى أود زيارتها - وقَّبل العقيد محمد اليد الكريمة ، يد الشريف، وخرجنا من المجلس.

عدنا عن طريق الشوارع إلى سوق الطائف؛ وذهبت للجلوس على المقاعد أمام قهوة من المقاهى . هذا هو نادى الضباط الأتراك ، الذين يفدون على هذا المكان لشرب القهوة، وتدخين النرجيلة (الشيشة) ولعب الشطرنج . وجدنا هناك قائمقام، ووجدنا القاضى ، وجراحًا شابا من الجيش وبعض الشخصيات الأخرى؛ كانوا جالسين على

المقاعد لتمضية ساعات المساء، والتسامر على الطريقة الشرقية . قدم لنا مصلّح القهوة شيئا من القهوة وعلى شفتيه ابتسامة؛ وبعد تبادل التحية أصبحت من بين كبار معارف أولئك الذين كانوا يجلسون على المقاعد . الجراح ـ الذى كان من إسطمبول ـ تحدث معى بالفرنسية التى لم يكن يجيدها. 'هل أنا طبيب ؟' وكرر عليهم بالتركية ، وهو مندهش، أننى لم أكن طبيبا! وذلك لأنهم سمعوا أننى كنت أمارس تلك المهنة فى أسفارى . ولكن القاضى رد علىَّ قائلا: " هذه هى طبيعة الإنجليز ، وهم لايكذبون ." ثم سألنى الجراح بعد ذلك ،' ما إذا كنت أود زيارة مكة ؟ لقد قرأ باللغة الفرنسية عن أوروبى عاش سنوات عدة فى كل من المدينة (المنورة) ومكة (المكرمة)!' ـ وهنا مر علينا معبوب: وعندما رآنى، جاء نحوى لتحيتى. "قال العقيد محمد: هذا هو الرجل المحترم ! الذى أنقذ حياتك فى عين الزيمة ـ يامعبوب مولانا الشريف يشكر لك هذا العمل الطيب، ويشكرك أيضا للعناية التى أوليتنا إياها. والله لو لم تكن فى العين، لكان خليل قد قتل هناك بالأمس بأيدى ذلك السالم اللعين ." معبوب: " حسن الطالع هو الذى أوجدنى فى العين فى ذلك الوقت لإنقاذ خليل من شريف مجنون ؛ الذى وقف فى وجهه ومنعه من المرور إلى جدة".

ـ قال الجراح الشاب:' لقد شاهد ذلك النقش الذى أشار إليه الشريف : وأن الحروف بصورة واضحة ـ أبو قراط HIBBOCKATES" وبعد ذلك قال لى شخص آخر إنه استطاع قراءة ذلك النقش ـ وأنه فيليب PHILLP المقدونى MACEDON ـ وأن تلك كانت أرواح ، ومن الأفضل أن تخضع للدراسات اللاهوتية: صحيح أنهم ينتمون إلى الجماعة نفسها ولكنهم غرباء على الذهن الأوروبى . وهنا دخل علينا جراح عسكرى آخر وقال: 'الطائف بلغت من الجفاف حداً تعذر معه أن تكون الحياة فيها صحيحة ؛ إن الحمى انتشرت فيها هذا العام: وأن مستنقعا خلف البلدة هو الذى يفسد هواءها أثناء الليل.' وأن الناس فى الطائف كانوا يتطلعون لسقوط المطر (المدارى) فى الشهر القادم؛ وإن هذا المطر يستمر أربعة أو خمسة أوستة أسابيع فى الطائف ـ أليس الحد الفاصل للأمطار الموسمية يقع فيما بين اليمن السعيد وصحراء الجزيرة العربية ؟ وبالرغم من الارتفاع الكبير للسهل المحيط بالطائف [الذى يصل إلى مايقرب من ستة

آلاف قدم] ، إلا أن الجليد لايتكون فوق هذا السهل . كان الجراحون الأتراك ـ أصحاب المزاج الساخر المستخف إلى حد ما ـ متهمين " بالجهل " من قبل العسكريين ومن قبل الحضر نظرا لأن هؤلاء الناس بحكم تكوينهم الشرقى لايشعرون بالقلق ولا يصبرون على العلاج الطبى البطىء الذى يطول وقد يكون غير مؤكد فى بعض الأحوال ـ كان الباشا، أوإن شئت فقل الحاكم العسكرى لهذه المنطقة يقيم فى مقره الصيفى فى مدينة الطائف : أما مقره الدائم فهو فى جدة.

نهضنا من مجلسنا، وذهبت بصحبة كل من القاضى ومضيفى، لزيارة تلك الكتلة من الصخر التى تقع مقابل بيت القاضى: والناس هنا يقولون: إن هذه الكتلة هى صنم العزّى el-Uzza. شاهدت على ضوء الفوانيس كتلة غير مهذبة من صخر الجرانيت رمادى اللون، وهذه الكتلة لم تكن عليها أية نقوش (انظرالصورة رقم ٨)، ـ هذه واحدة من الصخور المأخوذة من هذه الجبال؛ والتى تصادف وجودها هنا قبل تأسيس بلدة الطائف – مسألة التمسُّح فى الحجر الأسود وتقبيله فى الكعبة ماتزال طقسا من طقوس الدين الإسلامى : وبالطريقة نفسها يمكن أن ترى أهل البلدان الشمالية من الجزيرة العربية يتدافعون لتقبيل جمل المحمل العائد من مكة؛ وتراهم يمسحون وبحماس شديد ملابسهم فى ذلك الجمل الحامل للمحمل. ولكن القاضى هو والعقيد محمد قالا لى:" هناك بعض الملعونين فى المدينة (الطائف)، الذين يجيئون عندما يصابون بالمرض لكى يحكوا أجسادهم فى السر، أثناء الليل، فى هذه الصخرة. (أضاف الرجلان) أن تلك الأحجار كانت بمثابة هواتف للغيب، عند الوثنيين، فى أيام الجاهلية، وأن الشيطان كان يتكلم من خلال هذه الصخور." [ونحن نعرف أن الكعبة كانت فيها أنواع مختلفة من الأصنام؛ ومن بين هذه الأصنام صورة كل من عيسى (يسوع) ومريم . عندما عاد محمد (ﷺ) إلى مكة فاتحا،أمر بتدمير هذه الأصنام كلها؛ وقد أحصاها علماء العرب (المولعين بالمبالغات) بما يقرب من ثلاثمائة وستين صنما ـ أوإن شئت بواقع صنم واحد لكل يوم من أيام العام، مما جعلنا نقول: ان عُدد تلك الأصنام كان كبيراً.

فى الصباح أوفد الشريف واحدا من الحرس البيشى Bishy، أو إن شئت فقل: الحرس الشريفى، لكى يتولى حراستى؛ هذا الحارس من بنى سالم، وهو قروى (من قبيلة حرب) ، وهو من سلالة زنجية، ومن جبل الفجيرة el-Figgera، الذى يقع فيما بين المدينة (المنورة) وينبع : اسم هذا الحارس هو Zeyd، وهو شاب محترم وطيب، ويعرف شيئا من القراءة والكتابة. والحراس البيشيين (الزنوج) لايجرى جلبهم فقط من وادى بيشة، كما أن سكان وادى بيشة ليسوا كلهم من سلالة أفريقية؛ ولكن الجنود البيشيين هم عبارة عن أولئك الرفاق الذين يتقدمون ويعربون عن استعدادهم ورغبتهم فى خدمة الشريف. ارتدى زيد حزام الطلقات (الجبخانة)، وعلق فى حزامه أيضا السكين الذى يشبه السيف؛ وجلس على الأرض مثلما يفعل البدو، ثم أخرج من صدره كتابا صغيرا من كتب الدين، وراح يتمتم لنفسه، وينظر إلىَّ بين الحين والآخر. وعندما بدأت أراقبه؛" قال: أنت طيب، أنت لست كافرا، ولا ينقصك سوى معرفة وتعلم الطريق إلى الله." سألته عن ديرته وعن بداية هذا الوادى الكبير فى وادى الليمون؟" أجابنى،" هذا أمر محتمل ." وقال لى : إن كل قبيلة حرب يمكن تقسيمها إلى بنى سالم والمصروح Mosruh. سألته عن مستوطناتهم. زيد:" سأقول لك كل ما أعرفه- وهذا هو ماسمح به لى الشريف: قرى المصروح Mosruh هى رابوج Rabug، كليس Kleys والخريبى (بالقرب من مكة)، والسُّريقية es-Suergieh، وقرى أخرى، وأنا لا أذكر كل أسماء تلك القرى. ولكن قرى بنى سالم فيما بين المدينة (المنورة) وينبع وفى وادى Wady فرَّاع Ferra - وهو وادى طويل يعيش فيه أعراب بنى عمر" Amr والعبيدة ubbeda el- هم على النحو، التالى؛ الجديدة el-Jedeyda، أم umm ذيان Theyan، كيف Kaif، القصة el-Kissa إلآب el - Ab، الحمره el-Hamra، الخورمة el-Khorma،الوسيطة el-Wasita الحسانية el-Hassanieh، الفايرة el-Faera، العلى el-Aliy، جديد Jedid، بدور Beddur، (وقريته) الفجيرة el-Figgera؛ وفى وادى ينبع يوجد كل من السويجة Sweyga الشّاذة Shatha، النجيِّل en-Najjeyl، مدسوس Medsus". قال زيد عن اللحَّابة، (قطَّاع النخيل فى قافلة الحج): هم من المصروح Mosruh وهم فخذ من قبيلة العوف Auf": أما بقية العوف فهم ليسوا من اللصوص. وهو أبرز شخص بين اللحابة الذين هم أفضل

اللصوص؛ ونظرا لأن اللحابة توارثوا اللصوصية عن أبائهم فهم ليسوا على استعداد للتخلى عن ذلك وامتهان عمل آخر ينقلهم إلى حياة أفضل وأكرم. وقوة هؤلاء اللحابة تعادل ستمائة بندقية ."[ربما يقدر عددهم بحوالى مائتى رجل أوأقل من ذلك]. سألته ،" كيف تجرؤن على الإساءة للحجاج؟ وأنتم بقية قبيلة حرب ، لماذا لاتطهروا ديرتكم من هؤلاء البغاة الآثمين؟" ولكن زيدا كان يرى أن ذلك لن يكون جيدا ، وبخاصة أن هؤلاء الناس يمارسون ذلك الفعل من قديم الأزل! هذا يعنى أن العرب لا يرون شيئا غير تحزباتهم أو عصبياتهم؛ وبالتالى فإن عدم وجود روح عامة ومشتركة بين العرب هى التى تؤدى إلى عدم ظهور الزعماء أو القادة بينهم . ثم أردف زيد يقول: أفخاذ حرب من فرع بنى سالم هى:

الحمدة el-Hamda الرحالة Rahala السراحة es-Serraha السعادين

الصُّبح es-Sobh بنى عمر Beny Amr المعارة el-Moara الهوازم والحجيلة

المطالحة el-Motalha الجواد el-Guad ولاد سليم Weladselim الظهايرة

المحاميد Mohamid الوفيان el-Wuffiam بنو تميم (غير النجديين) المزاينة

الحنيطا

الجميلّة

قال زيد عن المصروح:

السَّعادى Saadi بنى أسَّام Beny Ass'm بنى حسين Beny Hasseyn

اللحابة Lahabba بنى عمر Amr (الذين من القراع وليسوا من بنى سالم)

(هؤلاء كلهم من الأشراف)

الزبيد ez-zbeyd الجراجرة el-Jerajera

البشر Bishr العُبيدة el-ubbeda

الحمران	el-Humran	الجهم	el-Jahm
السحيلى	Sheely	أهل حجُّور	Ahl Hajjur

دخل علينا العقيد محمد- ومن بعده سالم: الذى كان الشريف قد أمره بإعادة كل ذلك الذى سرقه منى هو وجماعته. أعاد اللص التعيس المسدس (مكسورا!) ، وأعاد إلّى البارومتر، وأربعة ريالات، التى اعترف بأنه سرقها من خرجى. ثم قال: سامحنى ياخليل! العيش والملح ونحن فى طريق مجرى السيل، عندما تناولت السكين، للمرة الثانية، لتقتلنى؟" العقيد محمد:" خليل يقول الحق؛ لماذا لم تكن تتذكر عندئذ ذلك العيش والملح؟"- "صحيح أنا أذنبت وأخطأت ولكن أرجو أن يتغاضى الشريف عن ذلك ؛ وأرجو ألا يقف ضدى ياخليل!" طلبت منه كيس النقود والأشياء الصغيرة الأخرى . ولكن سالم أنكر أن لديه أى شىء غير هذا الذى جاء به إلّى! أخرجه العقيد محمد وطلب منه العودة بتلك الأشياء على الفور- "قال مضيفى ؛ سالم يهم بالخروج: هذا شخص ملعون ! لقد قرر الشريف أن يسلسله بالحديد بعد رحيلك، وسيفعل الشىء نفسه مع الشخص الآخر الذى ضربك . وسوف يعاقبهما عقابا شديدا، ولكنه لن يفعل ذلك الآن، لأن أقاربهم قد يؤذونك وأنت فى طريقك إلى جدة. وقد أصدر الشريف مرسوما و سوف يرسل إلى كل القبائل والقرى التابعة له، "أنه فى حال وصول أى غريب إلى ديارهم، فإنهم يتعين عليهم إرساله إلى الشريف": فلربما مر أوروبى آخر فى ممتلكات الشريف، وقد يسئ هؤلاء الجهلة معاملة مثل هذا الغريب. وبالتالى يعفى الشريف نفسه من تساؤلات حكومات مثل هؤلاء الغرباء."

ربما كان الشريف حسين واسع الصدر فيما يتعلق بقيام أوروبى (مسيحى) بزيارة مكة (المكرمة) إذ ليس فى ذلك مايتعارض مع جوهر (الإسلام). وقد وصلت للأمير من المدينة أخبار ذلك البريطانى الذى سبق الإشارة إليه؛ هذا الأوروبى الذى ربما ألقى أهل مكة القبض عليه لأنه نصرانى. وقد أبلغنى العقيد محمد أن ذلك الأوروبى محتجز هناك فى الوقت الراهن؛ كما قال لى العقيد محمد أيضا: إن هذا الأوروبى استشهد بكثير من الشخصيات، التى سبق أن عرفته فى مواسم سابقة من

مواسم الحج. وكتب الشريف مرة ثانية يقول: ' إذا ثبت أن ذلك الغريب مسلم فإنه يتحتم أن يبقى فى مكة ويقيم فيها إن أراد؛ أما إذا ثبت غير ذلك، فإنه ينبغى إرسال ذلك الأوروبى مع الحرس إلى قنصليته فى جدة.' وسرعان ماتكلمت فى هذا الموضوع عقب مجيئى إلى هنا بأيام قلائل، وقلت إن ذراع القنصلية يجب أن تمتد لحماية المواطنين الذين يتهددهم الخطر. الإجابة:" إذا ما تصادف وجود إنجليزى فى مكة، فذلك يعنى أن ذلك الرجل ذهب إلى هذه المدينة دون أن نعلم نحن بذلك: ولو جاء إلينا لحلنا بينه وبين ذلك الذى فعله أو ارتكبه؛ أما وإنه الآن فى خطر، فذلك خطؤه هو، ويجب عليه تحمل ذلك الخطأ!"

تجولت فى المدينة مع ذلك الألبانى؛ ولكنه بحكم نظراته الصارمة كان يرفض التجمعات التى كانت تحيط بنا، وكان يفرق بعض هذه الجموع بيديه ويقول لهم بصوت مخيف: الصلاة! الصلاة!، بمعنى ، اذهبوا لأداء الصلاة ! إلى أن بلغ الأمر به حد ضرب الناس (نظرا لأنه كان يتعذر عليه سماع صوتى وسط هذه الجموع) ، وأمسكت ذراع الألبانى بكل قوتى؛ من منطلق أن الناس فى البلدة قد يقولون:" لقد شاهدنا المسلمين يضربون اليوم بسبب نصرانى." وعليه عدنا ثانية إلى النادى (القهوة) الذى فى ميدان السوق؛ وهذه القهوة محاطة بالدكاكين المفتوحة وطاولات البيع والشراء، كما لوكانت سوقا من الأسواق، وفى المنتصف توجد طاولة عليها مصابيح . وقد أرانى محمد كل ذلك عن طريق الإشارة بيده، بعدأن سألته عنها، وكان يفعل ذلك وكله شك كما هو حال الشرقيين وبخاصة عندما يتعلق الأمر بأشيائهم؛ وتساءل الرجل، 'هل سبق أن رأيت مكانا بائسا مثل هذا المكان؟'

عدت إلى مضيفى؛ وحضر إلى فى بيت ذلك المضيف كل من سالم وفهيد - وهما محطمان تماما، كى يعيدا إلىّ بقية الأشياء الصغيرة المسروقة: وقد جرى احتجاز الجمّال فى الطائف من أجل هذا الغرض: الأمر الذى منعه من رعاية ماشيته ورعاية التجارة التى كان مكلفا بنقلها؛ هذا بالإضافه إلى أنه كان يخشى أن يقع عليه شىء من العقاب البدنى. العقيد محمد: ما سمك العصا التى ضربك بها ذلك الرجل ؟" ثم

أرانى العقيد محمد أولئك الأشخاص الذين سارعوا بإمساك أيديهم ليمنعوهم من ضربى" وعندما أجبته قائلا: "أقل من عصاه التى يتوكأ عليها ، وأكبر من هذه الباخورة" تعجب سالم قائلا: " يالله !أنعم بصدق هذا النصرانى !إنه لايضخم الأمر!" وشكرانى هما الاثنان- "قال مضيفى : يالهما من وغدين!- بعد أن دخلت أراضى السلطان، وأصبحت بين الأصدقاء، ياللعجب ، حاولوا قتلك!"

قبل غروب الشمس أدخلنى العقيد محمد إلى غرفة داخلية لتناول العشاء؛ واستدعى أيضا الجندى البيشى: وجلسنا حول مقعد مستدير من فوقه صينية، فوقها مجموعة أصناف من الطعام التركى. ولكننا نحن الضيوف، الذى كان واحد منا من قرية حرب والآخر كان قد وصل إلى هذا المكان قادما من الصحراء منذ فترة وجيزة، لم نكن ميالين تماما للأكل من تلك الأصناف ؛ التى قد تضر بنا - وعندما سألونى، 'كيف كنت أتغذى بين البدو؟' امتدحت الحمية الغذائية البسيطة فى الجزيرة العربية. زيد:" هل سمعت مايقول شيخ الحرب (نسبة إلى قبيلة حرب)- عندما تناول العشاء مع باشا الحج؟-قال البدوى: أنا لاأمتدح طعام بلدك !أنا يكفينى الأرز ولحم الضأن مسلوقين ؛ وهذا هو ما اعتبره مفيدا للصحة: وسوف أريك ذلك'- والله، لقد أخذ الشيخ شيئا من عشاء البدو ووضعه فى إناء؛ وأخذ شيئا من عشاء الباشا ووضعه أيضا فى إناء: ودفن الإناءين سويا . ومع طلوع الصبح تناول البدوى الإنائين، وذلك على مرأى ومسمع الباشا: واتضح أن لحم البدو لم يفسد! ولكن إناء الباشا تكونت فيه بعض الديدان- إلى حد أن الباشا كره النظر إلى طعامه كما كره رائحته أيضا ! قال الباشا : 'الله ، لقد تغلبت علىّ!'"

– قال لى العقيد محمد: طلب الشريف منا إعلامك عن كل شىء؛ وشجعنى مضيفى بأن طلب منى عمل رسوم لكل ذلك الذى أود رؤيته أومشاهدته فى الطائف وعينوا زيدا ومعه رجل آخر من بيشة كى يقوما بمرافقتى . فى الصباح ذهبت لزيارة الأحجار الصنمية الثلاثة المعروضة فى الطائف . شاهدت العزى الذى سبق لى رؤيته فى ميدان سوق القصابين الصغير، هذا الصنم يبلغ طوله حوالى عشرين قدما: شاهدت ذلك

الصنم بالقرب من أحد الأطراف العليا يوجد تجويف يطلقون عليه اسم مقام **Makam** الراس **er-ras**، بمعنى "مقام الرأس؛ وهم يقولون : إن ذلك كان هو فم هاتف الغيب عند الوثنيين (انظر الصورة رقم ٨) شاهدت أيضا حجرا أصغر من الحجر الأول فوق أرض مرتفعة ، أمام باب المدفع الرئيسى، وهم يطلقون على هذا المدفع الرئيسى اسم الهُبَّال **el-Hubbal**: هذه الصخرة هى واحدة من صخور الجرانيت الغشيمة يصل طولها إلى حوالى خمسة أوستة أقدام ومشقوقه من النصف" بضربة سيف من سيدنا على"(انظر الصورة رقم ٨) . وهنا اقترب منى درويش من الدراويش ، وراح يحملق فَّى ويطيل النظر إلىّ، وصاح صياحا غريبا، وهنا راح البيشيان يطاردانه . ومر علينا رجل محترم من الطبقة المتوسطة من المواطنين؛ الذى قال عندما رآنى واقفا أمام الحجر:" ياأسفاه !ليس هناك مكان من أماكن المسلمين لم يدخله هؤلاء الناس؛ وهاهم يأتون إلى هنا أيضا!"

خرجنا من بوابة المدينة الموجودة عند نهاية المدينة ومررنا بالمسجد الجميل الذى يقال له: مسجد عبدالله ، وعبدالله هذا هو ولد محمد عم العباس. هذا المبنى الأبيض القديم فيه نوع من التناسق المهيب، والمسجد له قبتان : وجزء من جدران وحوائط ذلك المسجد أعيد بناؤها وهم هنا يطلقون على هذا الحجر اسم اللّات **el-Lata** [الذى هو فينوس العرب على قول هيرودوت] : هذا الحجر عبارة عن صخرة لاشكل لها، وهى من حيث الطول تقترب من طول حجر العُزَّى، ولكنها أقل منه من حيث الارتفاع ، وهى من الجرانيت الرمادى اللون أيضا (انظر الصورة رقم٩) شاهدت طرف مثقاب عامل من عمال التعدين ـ كما شاهدت كلمات فى طرف الصخرة! قالوا لى: إن ذلك من عمل بعض عمال الطرق، وقد حدث قبل عامين؛ هذا المحطم الميكانيكى للعادات القديمة كان يتطلع إلى تحطيم الشيطان بمسحوق ناسف: ولكن هذه الكتلة لم يتطاير منها سوى قشرة صغيرة جداً ـ وهذه القشرة كفيلة بالكشف عن طبيعة هذه الصخرة.

ـ كانت الصخور فى مرحلة طفولة الطبيعة الإنسانية بمثابة هواتف للغيب ومنقذين: هذا يعنى أن تلك الصخور كانت أربابا وآلهة فى صحراء الجزيرة العربية !

[استمر ذلك حتى القرن السابع] كانت تلك الأصنام بمثابة الأماكن الخاصة بالطقوس الدينية- أى أنها كانت مناهل menahil، بدلا من أن تكون هى آلهة بحد ذاتها .[راجع سفر التكوين السورة رقم ٢٨ الآية رقم ١٧ : كما أن الأعلى يسمى " صخرة" عند الشعراء العبريين] هذه الصخور الدينية تكون غير مشذبة الحواف؛ بالرغم من أننا عرفنا من قبل أن البدو يستطيعون تشكيل أية كتلة من الصخر بحيث يكون بينها وبين شىء آخر شبه كبير. كانت هناك بعض الحفر الضحلة أوإن شئت فقل: الأوانى ، فى الجانب العلوى من ذلك الحجر الذى يطلقون عليه اسم اللات Lata. هذه الحفر هى أيضا مقام makam الراس er-ras (مقام الرأس) كما هو الحال فى صنم العزّى ؛ ولكن هذه الحفر تبدو وكأنها من عمل الطبيعة . هذه الآلهة ليست آلهة؛ لأن الأجيال التى كانت تخشاها - الخوف من ، تلك العاطفة البهيجة والمقنعة فى الدين- ماتت وانتهت - الباطل هو تلك الحكمة الدينية التى تقوم على حجج مؤقتة واهية، لكى تنقض على المعرفة الأفضل ! 'مخاوف' آباء الجزيرة العربية هؤلاء ! ألقى بها حاليا بين الأدران والأقذار بعد أن تخلى عنها العابدون من البشر وهجروها .

أخذنى زيد إلى بستان من البساتين ؛ كى نقضى فيه فترة الظهيرة فى ظلال الأشجار الكثيفة- لم أشاهد على هذا الجانب من البلدة كثيرا من الأعشاب والحشائش الخضراء؛ ولكنى رأيت وشاهدت صحراء جرداء يميل لونها إلى الاسوداد [كما لوكانت صخورا بركانية]. ثمار بساتين السوق يجرى إرسالها من الطائف وجدة: والبساتين الواقعة بعيدا عن نهيرات الماء وغدارنها ، يجرى ريها من حفر ضحلة يجرى سحب الماء منها باستعمال ثيران الجزيرة العربية ، تلك الثيران صغيرة الحجم . دخلنا بستان bustan رجل ثرى غريب اسمه القاضى el-Kady موسر Musr، وهو أحد الشخصيات التى تعيش فى الطائف بشكل عام؛ ولكنه لم يكن فى الطائف فى تلكم الأيام. وقفت نساء الحديقة عندما شاهدونا قادمين، وغطين وجوههن - ثم فرشن سجادة تحت شجرة كبيرة؛ وأحضرن لنا مخدات كى نتكئى عليها؛ وقامت واحدة بجمع الثمار الناضجة للضيوف وجلست امرأة أخرى كى تسوى لنا قهوة، التى صلّحتها لنا- كما هو

الحال هنا فى إبريق من الفخار، له شكل قديم؛ فى حين قامت امرأة ثالثة بإعداد النرجيلة (الشيشة) : وكانت هناك صبية صغيرة تقوم على خدمتنا عن طيب خاطر وبهمة. وبعد أن شربنا القهوة تركتنا النساء كى ننال قسطا من النوم . وهنا رقد زيد على كوعيه متكئا على المخدة وأخرج كتابه من صدره من جديد؛ وبينما كان زيد يقرأ كانت علامات التدين ترتسم على وجهه؛ ولكن هذه المناسبة لم يظهر فيها أى شىء من تشدد هذا الرجل، كما هو الحال عند أصحاب الطبائع المريضة- هذا الشاب الصغير ، الذى اسمه زيد، كان قد تخلى مؤخرا عن قرية حرب تخوفا من الشيخ . شيخ جبل الفجيرة يتسلم صرةً من صررطريق الحج ؛ وهذه الصرة تدفع على شكل أرادب من الحبوب؛ والشيخ يقوم بتوزيع تلك الأرادب من الحبوب على أرباب العائلات والأسر: ولكن مطالبة زيد الذى بلغ سن الرجولة بنصيبه [ليس ماقيمته خمس ريالات] رفضت من قبل الشيخ: وهنا غضب زيد، وهدد أثناء غضبه بقتل الشيخ: وبدا بعد ذلك يرى أنه لم يعد له مكان بين الأعراب الذين كان يعيش معهم. وبالتالى حمل معه أسلحته ، وعبر الجبال إلى مكة (المكرمة) ؛ وفى مكة جرى ضمه إلى الخدمة فى صفوف جنود الشريف بعد أن وجدوا أن طوله مناسب.

الفصل الثامن عشر

وادى فاطمة

غانم. معركته غير المتكافئة مع القحطان. المجلس الثانى للشريف. قبائل الأشراف. ممتلكات الشريف. يأجوج وماجوج. الربع الخالى. الطائف تخشى المسكوف وتخافهم. قريش. الاستعداد للسفر إلى جدة." الإنجليز من ديرة الطائف". الشريف يمرض بسبب الحب. تمثال شهير. جبل الصبّية. التمور الجديدة. وادى فاطمة. النباتات المدارية. المحراث. حرة أخرى. أكواخ تشبه خلايا النحل. حر تهامة. رجل ثرى فى العالمين. الحياة المدنية والكرم فى مكة. كلمة من سعود بن سعود أثناء حصار جدة. ضيف الله. كرم زنجى بسيط. نهاية وادى فاطمة. طريق مكة السريع إلى جدة الحمام المقدس أحجار نكية : قرود تيماء مقهى على جانب الطريق – جدة عند مرمى البصر! البطيخ يزرع فى الرمل بدون ماء رى. أعمال وخزانات تجار الماء فى جدة. قبر حواء. دخول المدينة- قنصلية مضيافة.

التقانا الألبانى عند دخولنا من البوابة أثناء العودة، واقتادنى من خلال فضاء يشبه الشارع مابين سور الطائف (القديم) المبنى من اللَّبن، ومنازل المدينة ، إلى أن أوصلنى إلى فناء الثكنة التى يقيم فيها: فى تلك الثكنة أرانى ذلك الألبانى خيول الخيالة، الذين كلهم من السوريين؛ وكانت تلك الخيول تقف مسرجة وجاهزة للعمل. ثم أعادنى إلى السكن عن طريق نادى القهوة. وفى السكن وجدت شيخا اسمه غانم Ghraneym، وهو من عنيزة؛ وكان يجلس معه شيخ من شيوخ عسير. شربنا القهوة ودار بيننا حديث؛ وقد رحَّب بى الشيخ العسيرى، الذى كان ضليعا فى اللغة العربية

ترحيبا لطيفا وخاليا من أية إشارة أوعلامة من علامات التشدد أوالكراهية- لم ألاحظ في كلامه شيئا جديدا. أما فيما يتعلق بالشيخ العنزى فقد استقبل الإنجليزى - الذى رحب به الشريف وكرمه - بانحناء يوحى بالإعجاب بالنفس. كان غانم واحداً من أقارب الزامل؛ ويبدو أنه كان مقتنعا بأحقيته فى الإمارة قبل الزامل؛ وبسبب ذلك اختار التركيز على مسألة الوصول إلى مركز الإمارة فى بلده؛ وهو يعيش هنا فى مكة على معاش صغير منحه إياه الشريف.[وتلك هى عادات الكرم عند أمراء الجزيرة العربية عندما يساندون الغرباء الهاربين]. وقيل لى هنا: 'إن غانم معرض للخطر والإطاحه برأسه إذا ما عاد إلى بلاده': وعندما حكيت ذلك فيما بعد لبعض أفراد مدينته، عندما كانوا فى جدة، ضحكوا؛ وردوا على قائلين: ' إن غانم، إذا ماأراد العودة إلى عنيزة، فسوف يعود إليها ويعيش هناك.'

أخبرنى غانم، أنه كان من قبل رئيسا لبريد الإبل الإنجليزى فى الهند- وأن حقيبة البريد يجرى الآن نقلها عبر الصحراء الشمالية من دمشق إلى بغداد خلال ثمانية رحلات كلها ركوب بلا توقف ! وذلك عن طريق العجيل. [أبلغنى أحد تجار عنيزة الذى كان ضمن القافلة، أنه ركب ذات مرة من القصيم إلى الطائف - حوالى ٣٦٠ ميلا؛ ثم عاد ثانية، وذلك كله خلال خمسة عشريوما! وكان يستعمل غذاء من الجلبان(*) ينعش به ناقته. ركب محسن Mehsan العلايدة Allayda ذات مرة بعد صلاة الجمعة من العلا؛ وصلى الجمعة التالية فى المسجد الكبير فى دمشق - هذه المسافة تقدر بحوالى ٤٤٠ ميلا: ولكن هذا الطريق محفوف بمخاطر نفوق الإبل؛ لأن الطريق يقدر بما يتراوح بين عشرة واثنتى عشرة رحلّة من رحلات النياق مع وقفات الاستراحة. وساعى بريد طريق الحج الذى يبدأ من بلدة معان يستطيع توصيل رسالة إلى دمشق - على بعد حوالى ٢٢٠ ميلا - بعد ثلاثة أيام. والمسافة من الحجر إلى تيماء - حوالى ٧٥ ميلا، تقطع كلها خلال رحلة واحدة من رحلات النياق؛ والمسافة من خيبر إلى المدينة (المنورة) - حوالى

(*) نوع من الأعشاب الطبيعيه التى تستخدم لتغذية الإبل. (المترجم)

٧٢ ميلا وتقطع خلال رحلة واحدة من رحلات النياق. والناقه التى تكون بصحة جيدة يمكن أن تجرى مسافة سبعين ميلا فى اليوم وذلك فى المسافات القصيرة، وبسرعه٦٠ إلى ٦٥ ميلا يوميا طوال أسبوع واحد، وبسرعة خمسين ميلا يوميا لمدة أسبوعين. والناقة لها خطو يترتب عليه تحريك رجلها وضمها إلى جوار بعضها، مما يسهل عملية الركوب]. سألنى محسن العلايده أيضا: ألا يمكن مد خط حديدى عبر الجزيرة العربية، يمر بعنيزة ومنها إلى مكة (المكرمه)؟ قلت :إن مثل هذا المشروع يحتاج إلى مناسبة معينة. والسبب فى ذلك أن شمالى الجزيرة العربية (باستثناء الحجازوجبال غربى الطويق) عبارة عن سهل مرتفع، هذا المشروع ممكن ولكن تكلفة وضع القضبان لمسافة ثمانمائة أو تسعمائة ميل عالية جداً، فيما بين سوريا والشعارة es-Shaara. ومن الشعارة لايبعد الطريق غير المعبد عن السيل es-Sey سوى بضعة أميال قليلة؛ أما بقية الطرق فهى عبارة عن منحدر هين إلى أن يصل إلى عين "Ayn الزيمة ez-Zeyma.

تحدثنا عن هزيمة القحطان . وقال غانم :إنه يأسف لأنه لم يكن هناك فى ذلك الوقت: ولوكان هناك لأعطانى فرسا، أركبها حتى أرى بنفسى أسلوب البدو فى القتال . قال: إنه كان يتعلم فى الطائف ركوب الخيل باستعمال الركاب؛ وأرانى أيضا ساقيه المصابتين . وحكى لنا غانم بعد ذلك عن مغامرة عجيبة من مغامراته فى العمليات الحربية فى الصحراء: هذا الرجل الذى كان عميداً لجماعته لم يكن متفاخرا أو كذابا! وقد تأكدت فى جدة من الحكاية التى رواها لى هذا الغانم؛ والذين أكدوا هذه الحكاية كانوا من عنيزة، ولم يكونوا أصدقاء له بمعنى الكلمة: غانم:" لقد حاربت ذات مرة فى صفوف القحطان!- كان ذلك بالقرب من الشبيبية es-Shibbieh، فى صحراء النفود- كنت راكبا بصحبة عشرين من الخيالة العنزيين ، وفجأة وعلى غير وعى منا [الخيالة الذين يمشون بين الكثبان الرملية يكون مجال الرؤية من حولهم ضيق جداً] وجدنا أنفسنا أمام ستمائة [وهذا عدد كبير جداً] من خيالة القحطان- قلت فى نفسى عندئذ: هل ينبغى أن ألقى سلاحى وملابسى أرضا، وأتخلى عن فرسى؛ وأنصرف عاريا تماما [لصوص الصحراء قد يسمحوا للشخص بالمرور إذا ما كان على مثل هذه الحال-

طالما أنه ليس هناك ثأر بينهم وبينه، ولكن خطر ببالى أن ذلك من أعمال، الخسة وعدم الإحساس بالكرامة. هناك ضبطنا ثأرا بينهم وبينه؛]. وهنا ضبطنا أوضاعنا فوق أفراسنا ومضينا لملاقاة القحطان! الذين أصابهم الارتباك عندما شاهدونا نجرى فى اتجاههم ! لأنهم خطر ببالهم أن غزوا كبيرا كان يجرى فى البلدة: - ووالله استدار القحطان وولوا الأدبار!" وراح غانم هو ورجاله يطاردون القحطان واستولوا منهم على ثلاثة أفراس،ثم عادوا إلى عنيزة- البدو ليس بينهم أى شىء من التنسيق،إلى حد أن جمعا كبيرا منهم قد يتفرق كما لوكان ذلك الجمع رجلا واحداً! سألنى غانم أيضا:'مارأيك فى عنيزة؟' واحتقر تشدد السكان الوهابيين وازدراه،كما احتقر أيضا طردهم للإنجليزى.

استدعانى الشريف مساء اليوم نفسه. كان هناك جمع كبير من الناس يجلسون فى أركان القاعة، على الديوان: وفى المنتصف من هذا الجمع الكبير، وتحت نافذه من النوافذ ، يوجد المقعد الذى يجلس عليه الشريف الأمير.

وضعوا كرسيالى من جديد أمام الشريف مباشرة: وراح الأمير يتكلم مع الغريب فترة طويلة استهلك خلالها ثلاثة رءوس من رءوس الشيشة؛ وكنت أفكر بصورة مستمرة 'أنعم بامتياز فهم ذلك الرجل !'سألنى الشريف فى البداية ، عن رأيى فى هواء الطائف؟ وهنا لفت انتباه الشريف إلى ذلك المستنقع الموجود خلف المدينة، ورد الشريف علّى، وهو يتأمل ماقلته له:" لقد أصابنا بلل كبير فى الموسم الماضى: أما هذا العام،فسوف آمر بتجفيف ذلك المستنقع ." سألنى عن الآثار[التى يجرى تضخيمها بين قُرّاء القرآن] فى مدائن صالح . وأجبته بصراحة،'بأن بيوت المواطنين كانت مبنية من اللّبن؛ والغرف محفورة مثل القبور.' وهنا وافقنى الأمير المتسامح على ماقلت وراح يتأمل كلامى وهو يدخن الشيشة؛ قلت له أيضا: إننى عثرت على أكفان وعلى مادة راتنجية، كانوا يستخدمونها فى تحنيط الجثث."- قال الشريف:" هذا عجيب!" ثم استدار الشريف ناحية جمهور الحاضرين، وراح يتحدث معهم عن مومياوات مصر. "قال: ياللعجب! اللحم البشرى يحفظ طيلة ثلاثة أو أربعة آلاف سنه، والحجر نفسه يبلى بفعل طول زمن

كهذا !" تساءل الأمير،" هل أعجبتنى الطائف ؟ وما الذى شاهدته اليوم؟' وأجبته، أننا زرنا الأحجار الثلاثة، التى كانت تُعْبَدُ فى" العصر الجاهلى"ـ أحسست بالأمير وهو يقشعر لهذه الكلمة، بل إن تعبير وجهه تغير أيضاً ؛ والسبب فى ذلك أن بينهم وبيننا أرض هشة؛ وقد استثير بكلامى بعض التعبيرات المتشددة من أولئك الأشخاص المهمين الجالسين حول الشريف. وهنا سارعت إلى الحديث عن شواهد القبور فى الحجر- وأن تلك الشواهد كانت مكتوبة بلغة الأنباط ؛ هذا فى الوقت الذى كانت النقوش الموجودة فى قرية العلا مدونة باللغة الحميرية؛ علما بأن قرية العلى لا تبعد كثيرا عن الحجر. وتعجب الأمير عندما سمعنى أقول: إن اللغة الحميرية مايزال الناس يتكلمونها إلى يومنا هذا فى منطقة من مناطق اليمن!- ولكن هذا الذى قلته سرعان ما أكده شيخ يمنى كان يجلس بين الناس ، وبخاصة أن ذلك الشيخ كان من المنطقة نفسها التى يتكلم الناس فيها اللغه الحميرية. تكلم الشريف أيضا عن الكتابة المنقوشة بالقرب من السيل؛ وطلب الشريف منى أن أرسل له صورة من نقوشى عندما أصل مدينة جدة. [أنا لم أعثر على نقوش فى وسط نجد، ولكن هناك فى الوشم نقش مكون من خمسة أوستة أسطر - وهذا النقش موجود فى منطقة ماسول Masul السودة es-Sudda، فى حوض من أحواض السيل تحت جبل شطب Shotb، من جبال طويق Tueyk- وهذا النقش معروف لكل الناس فى هذه المنطقة؛ لأن الموروث الشعبى هناك يأخذ ذلك النقش على إنه إشارة إلى منجم من مناجم الذهب!]

كان من بين الحاضرين مواطن حاج أسود اللحية جاء من مدينة كابول؛ كان يتكلم العربية دون أخطاء- هذا الرجل نادانى فجأة، " ألن تزور كابول فيما بعد؟" " كابول، لاياسيدى؛ أنا أخشى أن يضيع منى رأسى هناك!" ثم قلت للشريف بعد ذلك: " إنهم يغارون من الإنجليز ويحسدونهم؛ ولكن نظرا لأن المسكوفيين (الروس) يهددونهم من الخلف، فقد نتحول إلى أصدقاء لهم." فكر الشريف ملياً ثم ابتسم؛ ثم قال بصوت مهادن :" ربما كان الناس مايزالون همجيين فى تلك المناطق!- وما رأيك فى الهند؟"- أجبته بسرعة ،" أم الدنيا ummed-dinya". تعجب الأمير وراح يتأمل كلامى ثم أعاده على الحاضرين - والسبب فى ذلك أنهم يعتقدون أن إنجلترا الصغيرة نمت وكبر

حجمها مؤخرا " من أرض الهند الواسعة الشاسعة ." أخيرا قال الشريف الطيب :'لقد تحدثت حديثا طيبا باللغة العربية: أين تعلمت هذه اللغة؟' [كنت ألفظ الكلمات بالطريقة النجدية أى بالحاق 'نون' فى نهاية الاسم، وفى بعض الأحيان كنت أستعمل صيغ الجمع البدوية. والتى لها وقع طيب على آذان أهل الحضر]. ـ وهنا استدار حسين إلى الجمهور وراح يتكلم بشىء من الدفء الكبير (الحر) عن التقدم التعليمى الكبير الذى حدث فى السنوات الأخيرة فى كل مجالات اللغة العربية، عند كثير من الشبان فى جبال لبنان،[نصارى ، تخرجوا من الكلية الأمريكية فى بيروت. ـ كان الشريف قد زار بيروت منذ سنوات ، عندما كان رجلا عاديا من عامة الشعب، طلبا لعلاج طفل مريض ، سرعان ماتوفى بعد ذلك]. تكلم الشريف أيضا عن كثير من الكتب [الأوروبية] الخاصة بالمعارف الأساسية ، التى تجرى ترجمتها وطبعها كل عام فى هذا البلد من بلاد الليفانت، أوإن شئت فقل: البلاد الواقعة شرقى البحر الأبيض المتوسط : وكان الشريف حسين مسرورا جداً من دائرة المعارف البريطانية: قال الشريف: لدى الأجزاء الأولى من هذه الموسوعة ، وأنا أجد متعة عندما أقرأ فى تلك الأجزاء . والقارئ لتلك الأجزاء يجد فيها تاريخا لكل شىء ، وهذا أمر عجيب! خذ على سبيل المثال كلمة 'كرسى' العربية، التى يقولون لها بالإنجليزية **Chair**: عثرت على الكلمة حسب الترتيب الأبجدى لحروفها : ووجدت فى البداية دراسة اشتقاقية للكلمة، التى هى ليست كلمة عربية؛ ثم بعد ذلك تاريخا للكراسى منذ بدايتها عند كل الأمم."

وعندما فهم الشريف أننى سبق لى أن زرت الأندلس ، بدأ الأمير يسألنى عن كل ماشاهدته هناك: وسمع منى بسرور بالغ هذا الذى كنت أقوله " وادى النهر العظيم". والمأخوذ اسمه **Guadalquiver** من اللغة العربية (الوادى **Wad** الكبير **el-Kebir**)؛ وقلت أيضا: إن شوارع الأسواق فى كثير من بلدان الأندلس تقوم على النمط أوإن شئت فقل : النموذج المغربى؛ وهذا هو السبب وراء وجود الكثير من آثار اللغة المغربية والعادات المغربيه أيضا ـ ثم سألنى الشريف، إلى أين سأتجه بعد ذلك؟ وأجبته :'إلى عدن، لأنال قسطا من الراحة هناك؛ ثم اتجه بعد ذلك إلى الهند.' [هذا الشريف اللطيف طلب من مضيفى أن يسأل عنى فى الصباح ليسألنى،' ماهى الوسيلة التى ينبغى أن أستعملها

فى الرحيل عن جدة؟ـ الرأى الثابت عندهم أن الفرنجة (الإفرنج) بالرغم من عقيدتهم المشتركة، يتحولون فى مثل هذه المغامرات إلى ظنانين، لايتعاطفون مع بعضهم البعض ويكونون بعيدين تماما عن كل مظاهر الكرم والضيافة. وبلغنى أيضا أن ذلك كان هو موضوع الحديث الذى دار بين الضباط الأتراك مساء الليلة السابقة عندما كانوا فى نادى الضباط يشربون القهوة].

حسين هو من قبيلة الأشراف التى يطلقون عليها اسم العبادلة Abadella، الذين هم أبناء فاطمة وعلى [الذى تولى الخلافة فيما بعد] ، هذه القبيلة نمت وكبرت خلال أقل من خمسين جيلا لتضم عددا كبيرا من الأفراد؛ وأنا أحسب أن هذا العدد ربما يصل إلى خمسة عشر ألف شخص! فى كل من مكة واليمن؛ هذا العدد الضخم مقسم إلى ما لايقل عن عشرين قبيلة فى هذين المكانين: البعض من هذه القبائل ، كما هو الحال فى نوى Thuy حسن Hasan، فى اليمن ، يقال إنهم بلغوا من القوة حداً أصبحوا معه أمة كبيرة مثل قبيلة عتيبة ! قبائل الأشراف البدوية المترحلة عدَّدها لى واحد من البدو الرُّحل التابعين للشريف ؛ هذا الواحد هو [الشريف نصير] الذى صحبنى إلى جدة فيما بعدـ العبادلة EL-Abadella، الشنابرة es-Shenaberra نو Thu جودالله Judullah (الذين منهم سالم، الذى أشرف على طعنى بالسكين)، نو Thu جزَّان Jazzan؛ الحروث el-Hurrth؛ المناعمة el-Menama؛ نو Thu السرور es-Surur؛ نو Thu الزيد ez-Zeyd، الذين منهم عبد Abd "المطلب ,الذى تولى منصب الشريف، قبل الشريف عبدالله الذى توفى مؤخرا [كان السلطان قد عزله من ذلك المنصب : ولكن بعد مقتل حسين، أعيد عبد المطلب مرة ثانية من إسطمبول، ليتبوأ من جديد مكانته السابقة. حكم عبد المطلب مدة عامين ـ وفى النهاية عزله الأتراك]؛ نوThu إحامود Ehamud؛ نو Thu سواملى Suamly؛ والفور el-Faur؛ نوThu حسين Hasseyn؛ والبَّراشيدة el-Barracheda والأرانطة e-Aranta؛ الرواجى er-Ruage نوى Thuy عمير Ammir؛ الحيادرة ؛ نوى Thuy حسن؛ نوى Thuy جساس Jessas؛ التليبة eth-Thaleba:، إلى جانب هذه القبائل هناك أيضا قبيلة أخرى كبيرة هى قبيلة الصَّعادة es-Sada والتى

لاينتمون إلى الأشراف بالرغم من انحدارهم من سلالة فاطمة ـ هناك أشراف، وذرية من سلالة النبى (ﷺ) فى كل المدن الإسلامية الكبيرة، بل وحتى فى القبائل الصحراوية: كان صديقى الفجيرى العجوز، زيد السبيكان es-Sbeykan [الجزء الأول] واحداً من هؤلاء الأشراف ؛ فضلا عن كونه أيضا واحداً من أفضل الناس وأقلهم تشدداً! وأفراد قبيلة الأشراف لايزوجون بناتهم لغير الأشراف؛ أماهم فيتزوجون مايشاءون من النساء، ويتخذون من المحظيات مايشاءون؛ وسلالتهم كلها يطلق عليها اسم الأشراف.

بعد أن عدنا إلى المنزل سألنى العقيد محمد من جديد، " ماهو رأيى فى الشريف؟" وأجبته ، " رجل طيب بمعنى الكلمة:" ولكن مضيفى آثر الكلام عن المرحوم سيدنا عبدالله . قال: "لوكنت فى الطائف قبل ذلك بفترة وجيزة لكنت قد شاهدت مظاهرة شعبية عجيبة مكونة من أولئك البدو الرحل غير المتحضرين جاءوا من كل أنحاء البلاد، ومعهم قبائلهم وأقاربهم كى يرحبوا بالشريف الجديد : ثلاثه أيام وهم يأكلون ويشربون [راجع سفر أخبار الأيام] ، ويمرحون وهم يتصايحون ويطلقون النار من بنادقهم الطويلة – الولاية الإسلامية ليست ، كما رأينا ، من الأب إلى الإبن : فهذا ابن الشريف المتوفى، وهو شاب طيب، كان مايزال مقيما فى الطائف.

أملاك وضياع الأمير الشريف تمتد إلى ماوراء وادى بيشة . وهو الأكبر سنامن بين أفراد بيت النبى، وهو أيضا أمير مكة؛ وبالرغم من ذلك فإن، الشريف له بعض الرعايا المناوئين الذين كانوا يرفضون من حين لآخر دفع الجزية (الزكاة) ـ وكان عندما يجرد حملة لتأديب أولئك المتمردين فإنه هو نفسه (شأنه شأن أمراء الجزيرة العربية كلهم) يقوم بقيادة تلك الحملة، ومعه حرسه البيشى (وبعض الجنود العثمانيين). ومنذ ثلاثة أعوام شارك العقيد محمد فى واحدة من تلك الحملات فى اتجاه وادى Wady الرونية Runnya: وبعدها شاهد صحراء الجزيرة العربية ـ " التى هى ، على حد قوله، ليست خالية كما يتخيل الناس. والعجيب أن الكثيرين من هؤلاء أشباه العراة، الذين أحرقتهم الشمس يُصبحُون كل يوم قبلنا ، فى الوقت الذى لانلقى نحن فيه بالا لهم!

ولكن آه !من ذلك التجوال خارج الطريق، أو على غير هدى ،وآه ! أيضا من الشمس الحارقة ومن الرمل الحارق؛ وآه! أيضا من العطش! أذكر ذات يوم أننا عثرنا على بئر عسرة الماء، وسعدنا بها غاية السعادة لأننا نملأ منها قراب الماء ونروى منها ظمأنا. أنا كنت ضمن هذه الحملة، ومعى اثنين من ضباط الدولة (الإمبراطورية العثمانية)؛ ذهبنا للمشاركة فى تلك الحملة، ونحن نرتدى هذا الزى ![أى كنا نرتدى ملابس عسكرية أوروبيه]. خرج الناس من قراهم، ليلقوا علينا نظرة، أوإن شئت فقل : ليحملقوا فينا ويطيلوا النظر إلينا - عندما كنا جالسين فى الخيام ؛ وكانوا يتهامسون فيما بينهم 'انظر هناك !لابد أن هؤلاء ثلاثة من النصارى!"ولكن العسكر الثلاثة الأتراك كانوا مسرورين بعض الشىء لأن الناس تنظر إليهم من هذه الزاوية؛ وهنا قرر الشريف أنهم فى الحملات المستقبلية سيقومون بها وهم يرتدون ثيابا مثل بقية أفراد الحملة'.

سألنى العقيد محمد، فى شىء من الاهتمام !'عما إذا كنت أفكر فى زيارة وادى بيشة، والمنطقة الواقعة فى اتجاه وادى الدواسر؟ وفى مثل هذا الحال سوف يعطينى الشريف خطاب سلامة وتأمين!' - ولعل حسين يكون قد رشحنى لأكون مصاحبا صدوقا لك؛ ويتطلع إلى إعفاء حكومته، مستقبلا،من مغامرة إفرنج آخرين بالمجىء إلى هذا البلد - وبالرغم من أنى كنت فى السابق أرغب فى زيارة هذه الأماكن ، إلا أنى أحس الآن بحتمية التخلى عن كل ذلك وأن اتجه إلى الساحل على وجه السرعة وبلا أى تأخير.

هم هنا لايحبون الأتراك (المعتدين) - وقد علمنى زيد ذلك (من كتابة) ، الميراث السماوى للعالم؛ - "فقد أعطى الله ربعين لبنى آدم، والربع الثالث أعطاه لكل من يأجوج Ajuj وماجوج Majuj، وهم شعب من الأقزام يفصلنا عنهم جدار أو سور؛ وأنهم سوف يتعين عليهم القفز فوق ذلك السور فيما بعد : ثم يجتاحوا العالم بعد ذلك. والأتراك (كلهم) وكذلك الفرس (الكفرة) من هذه السلالة: أما أنتم، أيها الإنجليز، فأنتم من النوع الطيب مثلنا. أما القسم الرابع من الدنيا ، وهو الذى يطلقون عليه اسم الربع الخالى el-Khaly Roba فهم يتصورونه أو يتخيلونه على إنه الشرق الأوسط الكبير، الواقع شرقى الجزيرة العربية ؛ وهم يرون أن ذلك الربع الخالى ليس فيه أى شكل من

أشكال الحياة- وأنا لم أعثر على أى أحد من سكان الجزيرة العربية ، حتى يقول لى، ولوعن طريق النقل والسماع، شيئا عن ذلك الجزء المخيف من البلاد . هذا الجزء عبارة عن نفود، عامرة بالرمال المنقولة، أو إن شئت فقل: الرمال المتحركة، وهذا الجزء يمكن الدخول إليه وتجاوزه، بل وحتى عبوره بواسطة نياق الإبل المدربة للحليب، خلال فترة الربيع التى تستمر بضعة أسابيع قليلة. ولكنى الآن، ضعفت صحتى ، وخارت قواى؛ وعكس ذلك، سيكون بمثابة محاولة منى لفك لغز هذه الأحجية.

يضاف إلى ذلك أنى هنا فى جبل الطائف ، يتملكنى الخوف من المسكوف Muscov . وقد أبلغنى الجندى المراسلة(*) الذى يقوم على خدمة العقيد محمد، أن النفخ فى البوق الذى دوى (عند وصولى) قبيل طلوع الشمس بقليل ، كان إيذانا بآخر خفرة يقوم بها المتطوعون المدنيون!" قال: الخفرة الأولى تبدأ عند غروب الشمس، ومهمتها القيام بدورية حول الأسوار ؛ وهذا هو ماتفعله الخفارات التى تلى ذلك طوال الليل- وذلك تخوفا وتحسبا لأية هجمات مباغتة يقوم بها النصارى!"- لم يكن هناك خط تلغراف واصلا إلى مكة . هذا الرجل السورى الأمين، الذى كان يحترف إصلاح الساعات، كان يتطلع إلى انتهاء خدمته العسكرية، حتى يستقر بعد ذلك فى مكة؛ التى قال: إنه سوف يكسب فيها " خمسة ريالات يوميا"- وهذا يبدو لى من قبيل المستحيل.

جرى تحصيل مساهمة الحرب من كل أنحاء ممتلكات الشريف حسين، قال العقيد محمد: وصل إجمالى المبلغ إلى مايقرب من خمسة آلاف جنيه إنجليزى: وأن العقيد محمد، قام هو بنفسه لنقل هذا المبلغ إلى 'إسطمبول. واكتشف أن العاصمة تغيرت؛ وراح يفترض أسوا الأحوال- وعبر قناة السويس ثم نزل فى بور سعيد: حيث حل ضيفا على القنصلية الروسية - نظرا لأن الجهاد لم يكن قد أعلن بعد على روسيا ، وإنما الجهاد كان معلنا على المناطق المتمردة. وتم إنزال صناديق النقود الفضية، التى جرى جمعها من سكان اليمن السعيد المعدمين، على رصيف الميناء؛ وكان العقيد محمد متخوفا من فقدان أى صندوق من تلك الصناديق : ولكن القنصل الذى كلف قواسة Kawas بحراسة تلك الصناديق، طمأنه وطلب منه ألايخشى أويخاف من أى شىء

وأخذ الضيف العثمانى إلى بيته ليستضيفه على الطريقة الروسية ـ وعندما وصل العقيد محمد إلى إسطمبول قام بإيداع الصناديق لدى الباب العالى Porte: ولكنه بقى يوما بعد يوم، دون أن يحظى بأى رد من الردود. أخيرا، ومن باب الاطمئنان ، استدعى العقيد محمد لمقابلة الباب العالى؛ الذى سلمه صندوقا صغيرا؛ بداخله رسالة، مكتوبة بخط السلطان، ومعها هدية للشريف حسين.

ـ أهل الطائف لديهم الكثير من الاشياء الضرورية الأخرى، إضافة إلى الفاكهة: وأشهر الأغنام فى الطائف هى من الضأن العتيبى؛ القرشيون يجلبون إلى الطائف الجبن الأبيض المصنوع من اللبن الخاثر. والقريش Koreysh (وجمعه القوراش el-Korash) أهل محمد (ﷺ) من ناحية الأم، هم أناس من البدو الفقراء الذين ينظر الناس إليهم فى منطقة مكة نظرة ازدراء واحتقار؛ وهذا، على حد قول الشريف نصير، " راجع إلى أن آباءهم أساءوا معاملة الرسول(ﷺ)."

ومع ذلك يشيع عن القُوراش أنهم بعيدو النظر فيما يتعلق بأراضى البدو المترحلين؛ والناس هنا ينعتون القوراش بأنهم بنى Beny فهم Fahm بمعنى "أبناء الفهم". يقول الشريف نصير: من بين القريش من يستطيع أن يحدد من أثر قدمى الشخص إن كان متزوجا أم لا؛ وما إذا كانت الأنثى عذراء أم زوجة. والقريشى إذا ماضاعت منه ناقة ضالة ومعها ولدها؛ وعثر على أثر أقدام ذلك الصغير، حتى ولو بعد سنوات فإنه يستطيع التعرف على تلك الناقة".

ـ كان اليوم يصادف اليوم الرابع من فترة الراحة التى أمضيتها فى الطائف : وكانت ناقة البسام المرهقة التى تورمت اقدامها قد بدأت تستعيد قواها من جديد، وثبت أنها تستطيع أن تنقلنى إلى جدة (مسافه تقدر بحوالى ٣٠ فرسخا) ، وأننى يتحتم علَّى بدء هذه الرحلة قبل دخول المساء. [هناك طريقان يتجهان من الطائف إلى كل من تهامة

(*) الجندى المراسلة: مصطلح يدل على جندى يخصص لخدمة الضابط عندما يصل إلى رتبة معينة؛ كان ذلك فى الجيش التركى، ومازال ساريا أيضا فى الجيش المصرى . (المترجم)

وجدة؛ واحد من هذين الطريقين ينزل منحدرا من جبل قورة Kora (ويصح فيه أيضا قُرَّة Kurra) ويبتعد عن مكة من الناحية اليمنى؛ والطريق الثانية هى طريق السيل وعين الزيمة، عبر وادى فاطمة. والشريف الطيب ـ وهذا نقلا عن العقيد محمد ـ ترك لى أن أختار بين هذين الطريقين: وأنا بدورى تركت الأمر ليفعلوا هم مايرضيهم]. وعند الظهر ذهبت مع العقيد محمد لطلب الإذن من الشريف؛ ولكنى عندما وصلت إلى سلم القصر سمعت، أنه دخل، قبل قليل، إلى الحريم؛ هذا يعنى، أن الشريف قد خلد إلى الراحة بعد أن انتهى من عمله ـ وربما يقرأ فى الموسوعة البريطانية، وسط أفراد عائلته. حرارة الظهيرة ليست قاسية فى الطائف: وجدت أن درجة الحرارة فى ذلك الوقت من النهار كانت ٩٠° فهرنهيت؛ يضاف إلى ذلك أن الليل كان منعشا أيضا.

ومع دخول المساء، أرْسلت زكائبى وجوالاتى على واحدة من النياق إلى المكان الذى ينبغى أن أبدأ منه مع الجماعة المرافقة. فى حين أخذنى كل من العقيد محمد هو والأغا الألبانى سيرا على الأقدام إلى ذلك المكان؛ وجاء معنا أيضا زيد البيشى : كان زيد قد طلب السماح له بمرافقتى إلى جدة، ولكنهم لم يأذنوا له بذلك . ذهبنا فى البداية إلى قصر عبدالله باشا، كى أودعه وأستأذن: ولكن عبدالله باشا كان قد ذهب مع الشريف حسين، وجماعة من الشيوخ لاستنشاق الهواء، أسفل الجبال السوداء (التى ربما وصل ارتفاعها إلى مايقرب من ٨٠٠٠ قدم). وخلف بوابة السيل وصلنا إلى خيمة مقامة وسط حقل من جذامة القمح ـ ووجدت التبن مكوم على الطريقة الأوروبية ! كان ذلك مسكن أولئك الذين يرعون ماشية الشريف من الإبل . كانت ناقتى مبَّركة فى ذلك المكان؛ ورأيت ناقتين مبركتين أيضا بجوارها ، وكانتا خاصتين بالرجلين اللذين سيرافقانى إلى جدة ـ عن طريق وادى فاطمة: هذان الرجلان هما الشريف نصير البدوى المترحل، وهو واحد من جباة الزكاه التابعين للشريف، ومعه اثنان (زنجيان) من الحرس البيشى. شاهدت هؤلاء الزنوج وهم يضعون على أنوف النياق نوعا من الطلاء الذى يستعمل فى طلاء الخشب ! وقالوا لى: إن هذا الطلاء يحافظ على النياق من الهواء الملوث فى الأراضى المنخفضة ـ من هنا فإن عرب الحضر يضعون ذلك "الكريوزوت فى آبار" المياه الملوثة.

بعد التوديع والاستئذان ركبت الناقة، مع رفاقى وواحد من المشرفين اسمه" حسن Hasan وحسن هذا رفيق لطيف سيركب معنا إلى مسافة بضعة فراسخ. وبعد أن قطعنا مسافة ميل، وعندما بدأت الشمس فى الغروب ، نزل الجميع بستانا من البساتين ، حيث توجد بئر من الآبار، التى سيتوضئون منها ثم يصلون . وجدت أن العمق إلى الماء هنا كان يقدر بحوالى خمس قامات ، وكان الماء هنا عذبا وقليل الكثافة: وقد أخبرنى السائق الذى يعمل فى جلب الماء من البئر، عن طريق مجموعة من الثيران ، أن ذلك العمق يقل قامة واحدة عندما تسقط الأمطار- مررنا على حقول الفاكهة ومسوَّرات مزروعة واستمر ذلك على امتداد ثلاثة أميال - ولكن هذه الأراضى ليست مستمرة أو متواصلة: ومن خلف هذه الأرض توجد صحراء . كروم هذا العام - التى تحمل فى الطائف (المدارية) عناقيد مشوهة من العنب الأبيض هاجمها الجراد وأتى عليها: ونباتات العنب هناك تمتد على الأرض كما هو الحال فى سوريا؛ ولكنها يجرى ربطها بأوتاد، مدقوقة فى الأرض بطريقة منظمة. شاهدت كثيرا من أشجار الإثل - والناس هنا يطلقون على الإثل اسم الايرين el-aerin - والناس يزرعون أشجار الإثل هنا طلبا لأخشاب البناء. وشجرة التين يسميها الناس هنا حماطة hamata (مثل شجرة التين البرية التى تنمو بالقرب من بعض أنواع المياه الصحراوية) - [انظر الجزء الأول] بعض أشجار الزيتون التى تنموهنا فى جبال الطائف (على ارتفاع لايقل عن ٦٠٠٠ قدم) جرى إحضارهاإلى الطائف من سوريا . هذه النباتات تزدهر فى ظل هذا المناخ المدارى ويزداد مجموعها الخضرى ولكنها لاتحمل ثمارا؛والناس هنا يطلقون على أشجارالزيتون هذه اسم العتيم el-etim -. ولغة العرب الحية تنتشر خلال مناطق شاسعة، لاتعرف الحدود، ولا يمكن تعلمها كلها؛ والناس هنا يطلقون على مَر الصحارى اسم الحادوج el-Hadduj وهو نوع من القرع، يطلق الناس عليه سكان المنطقة الغربية اسم حمظل(*) hamthal، ووسط نجد يطلقون على ذلك النبات اسم شيرى Sherry.

(*) حمظل : hamthal الصحيح هو" حنظل" وهو مايسمى "مر الصحارى" ولعل اللبس ناتج عن صعوبة نطق اللفظ العربى على المؤلف الإنجليزى.(المترجم)

ـ" قال حسن: ياخليل شعبك من بلدنا! والسبب فى ذلك أن لدينا كتابا مكتوب فيه أن الإنجليز مضوا قدما (فى الزمن القديم) من هذه الديرة:" قال لى ، ونحن نمضى فى طريقنا قدما: إن ذلك حدث منذ الهجرة! هناك قوم أخرجوا الألبان من هذه البلاد! هناك بعض الإثنيات السامية القديمة التى تحتوى على مادة من هذا القبيل . انتهت فترة الشفق؛ وعلى الفور بدأنا نسير فى الظلام. ـ" قال حسن: ياخليل، إخ! هل تنام أيها الرجل؟ لكن قل لى: ما الأفضل الترحال على ظهور الإبل أم الترحال على ظهر سفنكم ؟ العرب هم بحارة الصحراء ، والإنجليز هم جمَّالة البحار." التقينا جماعات طويلة من الإبل المحملة المتجهة صوب الطائف: وشاهدنا جماعات أخرى من الإبل تتجه إلى المدينة المقدسة. كانت غالبية تلك الإبل محملة بالجوالات ـ أوه! يالحلاوة هواء الليل النقى ـ وعبيق الورود؛ التى يقوم الهنود بتقطير عطرها الفواح فى مكة. وعطر الورد، هو العطر الذى ينتشر بين السواد الأعظم من الحجاج فى كل أنحاء العالم الإسلامى. كان الجمالة جالسين ممددين لكى يناموا نوما غير مريح فوق ظهور الإبل وهى مستمرة فى السير فى طريقها : ـ أحد هؤلاء الجمالة الذى كان مستيقظا مرعلينا وهو يغمغم قائلا:" معكم واحد لايصلى !" وعندما سمع الشريف نصير ذلك الصوت ، لعن والده بأقذع لعان العرب ـ قال : هذا شىء لايطاق! أن يتكلم هذا الرفيق مسيئا بهذا الشكل إلى واحد من الراكبين ضمن صحبتهم ' خفف البيشيون أحمال بعض أولئك النائمين ، بأن أخذوا مايشاءون من الحطب الذى كان الجمالة يحملونه معهم لاستعماله فى الوقود، كى يشعلوا نارا لتصليح شىء من القهوة: ثم سارعوا بعد ذلك إلى شب تلك النار. وبعد حوالى نصف ساعة وجدنا هؤلاء البيشيين فى مجرى من السيل يبعد مسافة قصيرة عن الطريق العام، وهم جلوس حول النار، وكان الماء اللازم لتصليح القهوة جاهزا. نزلنا فى ذلك المكان ،وإن شئت فقل : الشَّعب، لتناول العشاء وتمضية الليل: هذه المحطة الصحراوية كانت فى منتصف الطريق، حسبما قالوا لى: بين الطائف والسيل.

كانت طرقعة نار الحراسة ونارها الحلوة قد صاغت من حولنا ضوءًا جميلا، وكنا نجلس على الرمل النقى ، ونستنشق هواء الصحراء والجبال، ونحن بين الكتل الصخرية

المعتمة وأشجار السنط؛ كان لون السماء أزرقا غامقا، وكانت النجوم متناثرة فى كل أنحاء السماء، تلك النجوم،التى ابتسمت لرؤية الحفاوة الكبيرة المحيطة بفقرنا:

كنا ضيوفا على الليل، وعلى الصحراء الشاسعة. أخرجنا طعاما ، وتمرا، وجبنا وخبزا ، وملأنا سطلا من ماء الطائف الرائق الصافى: الوحيد الذى لم يأكل كان هو الشريف نصير. يا أسفاه! فقد غامرت بالمجيء إلى الطائف ؛ كما أن الشريف ، كان قد أصدر أمرا بأن، يقوم الشريف نصير بمرافقتى إلى جدة- وأن تلك الليلة التى رحلت فيها كان مفترضا أن تكون ليلة عرسه! هذا الشريف البدوى المترحل اللطيف أحب فتاة من فتيات عتيبة، ابنة واحد من الشيوخ ، أحبها حبا جما. كان الرجل قد مشط شعره وهذبه فى الفترة الأخيرة: وكانت أصابع تلك الفتاة هى التى صففت شعره الطويل الذى يدخل ضمن جمال الرجال، على شكل مائة خصلة من الخصلات الصغيرة، وهذه الفتاة هى التى جمعت تلك الخصلات فى منتصف رأس هذا الرجل، الذى كان ينتظر الحب والزواج كان يبلغ من العمر حوالى خمسة وثلاثين عاما، جلس صامتا وغارقا فى التفكير؛ وأثناء هذه الفنتازيا (الإغراق فى الخيال) كان يبتسم فيما بينه وبين نفسه؛ ولكن الرفاق البيشيين كانوا يتندرون بشوقه وحنينه . أعطيت هذا المسكين المريض شايا فيه كثيرمن السكر؛ وبالرغم من أنه كان بدويا إلاأنه اعتاد على شرب شاى من هذا القبيل فى بيوت مكة- وبعد تناول العشاء ، ركب حسن ناقته العمانية وذهب لزيارة أسرته فى هجرة تبعد أميالا قليلة على جانب الطريق: والجيران العتبان يطلقون على نياقهم اسم الهدوج Haduj، وهى كلمة من الكلمات الساحرة؛ وهذه الكلمة معناها 'الكديش الطرماء العجوز؛' وهم ويقولون للنياق أيضا"حُرَّة' hurra - قال البيشيون:" احذر ياخليل! فكل الطريق ملىء باللصوص " وبعدها بدأ أولئك البيشيون يعدلون من أوضاعهم لياموا من حولى ؛ وجعلوا من أذرعهم وبقجهم مخدات لهم:" لأن لصوص الطريق، على حد قول البيشيين، بوسعهم أن يسرقوا أى شىء من تحت رأس النائم."

ركبنا نياقنا قبل طلوع الفجر: وعندما بدأ نهار الصيف فى الطلوع شاهدنا بدويا نحيفا راكبا ناقة، ويمشى فى اتجاهنا - كان ذلك الرجل هو مذّكر ! الذى ترك القافلة

بالأمس فى حرَّ مكة؛ وصعد إلى الطائف لتحية الشريف الجديد: هذا المذكر رحب بى ووقف يتكلم معنا. ونزلنا من جديد إلى ذلك المسار المرصوف الذى فيه نوع من الدَّرج، ثم نزلنا بعد ذلك إلى ممرات ضيقة. التقتنا عائلة بدوية مترحلة (من الهزيل أوالقريش) كانت تنتقل نحو الأعلى : كانت أجسام أفراد هذه العائلة نحيفة وبشرتهم تميل إلى الاسمرار ، أى أنهم كانوا نوعا من الأعراب المداريين؛ وحسب رؤيتى هم يشبهون الهنود: كانت ربة البيت تحمل طفلا يركب ممدداً على عظمة الإلية؛ وهذا منظر غير مألوف أوغير معروف فى شمال الجزيرة العربية. أكوام الحجارة التى تنتشر هنا وهناك هى التى تحدد مسار الطريق: بعض هذه الأحجار ـ كما هو الحال فى كل رمال العرب – يلعنها الناس، وتوحى بالنحس وسوء الطالع [راجع يوشع Joshua وصامويل] التى يلقى عليها المسافر حجرا آخرا[– على الجن أو شياطين الأرض؟]: وفى بعض الأماكن الأخرى هناك مظهر من مظاهر البناء.

عندما اقتربنا من السيل، اقتادونى نحو الأسفل، إلى جانب الطريق، داخل ممر برى قصير، وهم يطلقون على ذلك الممر البرى القصير اسم ريع Ria الزلالة ez-Zelala لكى يمكنونى، حسب أوامر الشريف ، من رؤية أو مشاهدة النقش الشهير . توقفوا فى المنتصف أمام صخرة رمادية اللون؛ استطعت أن أميز على وجهها الذى يشبه الحائط شكلا بشريا ضخما ـ إلى المنتصف (انظر الصورة رقم ١٠) ونقشا كتابيا . نزلت من فوق الناقة، وتجولت خلال الأشجار الشائكة (التى تنمو فى هذه الجبال المدارية) إلى أن وصلت إلى الصورة- التى لم تكن سوى حفر بحجر فوق الجرانيت الصلد؛ ويمكن تمييزها منذ الوهلة الأولى مع طلوع الشمس، وذلك على العكس من ضوء القمر. هذا الرجل القديم، وهو رجل عظيم من قبل ومن بعد، يبدو كما لوكان جالسا ويمسك فى يده مشعاب (جمل)؛ ومعه سطرين من الكتابة الحميرية: الكتابة عمودية ـ قرأنا ، أنه فى أزمان الوثنيين فى الجزيرة العربية، عبد الرجال صخرة فى هذا المكان .[راجع كتاب داى Die التى Alte جغرافية الجزيرة العربية] وإذا ماكانت الصورة صنما، شأنها

شأن صخرة أبى زيد التى فى أرض البشر فى نجد؛[انظر الجزء الأول] فالمؤكد أن تلك الصور التى على صخور الصحراء كانت أشياء شهيرة بين الأعراب.

أرانى رفاقى أيضا أربعة أوخمسة نقوش أخرى فى ذلك الممر. كانت تلك النقوش كوفية: ومضيت قدما لأنى أعفيت من آلام نقلها أو شفها ـ لأن الإنسان هنا لايطيق تحمل حتى مجرد وزن ملابس على جسده. فهمت أيضا أن الشريف نصير لم يكن يعرف القراءة أوالكتابة، شأنه شأن البدو تماما ! ولكنه حفاظا على مكانته كواحد من الأشراف لم يكن يعترف بذلك أمام أى أحد من الناس . ومن هذه المنطقة يتبقى أمامنا قبل الوصول إلى السيل مسافة ميلين فقط: وبالفعل وصلنا السيل فى ساعة مبكرة، ونزلنا فيه لقضاء وتمضية ساعات الحرارة.

ومحطة السيل هذه، هى بلا أدنى شك، واحدة من المحطات المرموقة والشهيرة فى شبه الجزيرة العربية؛ وهذه المحطة هى المكان الذى يتوقف عنده الحجاج القادمون من نجد؛ كما يتوقف فيها أيضا التجارالقادمين من الأجزاء الشمالية الذينْ يتجرون مع بُكة Bocca أو إن شئت فقل: مكة Mecca ـ ونحن نسمع عن مأثورات فى الجزيرة العربية عن أماكن أخرى للحج طبقا للأديان القديمة ، والتى منها على سبيل المثال قارة Garat أوشيفية Owsheyfia أو الطيرى el-Teyry (وهى فيما بين ثرمدة Thermedda والأوشيفى Owsheyfy، فى منطقة الوشم)، التى يظن العرب أنهم يرون فيها أماكن للصلاة، متجهة فى كل ناحية؛ وفى سدوس Siddus أيضا.

نمنا طوال ساعات الحر فى ظل الصخور: وبدأنا مسيرنا من جديد فى فترة العصر ـ هذه المرة الثالثة، التى يتعين علّى فيها قياس الوادى الطويل الممتد إلى عين الزيمة: هذا الوادى ليس كئيبا اليوم، والسبب فى ذلك أنى كنت أنتقل راكبا فى شمس كرم الأمير وحظوته. وأرانى الشريف نصير شيئا فشيئا فى الجهه اليسرى جبل البنت الذى يقولون له: طلاع Thulla البنت el-Bint؛ ورفع الرفاق الثلاثة أيديهم اليمنى ليشيروا بها إلى قمة مستدقة يراها الناظر إليها كما لوكانت عموداً من خلال الهواء (الصورة رقم١١). وصاح الثلاثة مفسرين وهم يقولون :" العمود الموجود هناك كان

راعية من راعيات الماعز من بين الأعرب ؛ وتحولت هذه الراعية إلى حجر عندما لعن محمد(ﷺ) أهل هذا الوادى ،لأنهم لم يستمعوا إلى وعظه. والبنت تقف متلما كانت تغزل عندما كانت على قيد الحياة، بعد أن نزل عليها قضاء الله: إى ، ولو أمكنك الذهاب إلى هناك فسوف ترى المغزل فى يدها، وترى بعض الماعز راقدة حولها، وبعض آخر كما لوكان يرعى، وبعض ثالث واقف على أرجله الخلفية كما لوكان يقطف الأغصان البرية- كل ذلك الآن عبارة عن أحجار سوداء ، تستطيع أن تتبين فيها بوضوح شكل الفتاه بالكامل، وشكل الماشية أيضا - القرون وكل شيء! "أخبرنا رشيد أنه تسلق ذات مرة ووصل إلى ذلك المكان ، ليرى تلك الأعجوبة؛ وأنه رأى كل ذلك ، والله." - وهذه حكاية من حكايات الجهلة (هذه الحكايه كافية لأن تحيرهم وتحير الآخرين) ألبسوها للأحجار؛ وهاهم يأخذون الأحجار دليلا وبرهانا على المعجزة المزعومة!

فى منطقة منخفضة من الوادى أرانى الشريف نصير مزيدا من الزلط المكوم على جانب الطريق: فقدأصدر الشريف أمرا بحفر بئر فى تلك المنطقة- لتكون تلك البئر سبيلا لعابرى الطريق المسافرين: قال :إن البئر جرى تصميمها لتكون كبيرة العمق، وبالرغم من ذلك لم يعثروا على الماء فى ذلك المكان؛ ولكن الماء بدأ يظهر مؤخراً - وعند الشفق وصلنا مرة ثانية إلى عين الزيمة ؛ ونزلنا عن راحلاتنا بين الأحجار فى وسط الوادى- وأكد نصير لى، أن تهامة هنا فى هذا المكان؛ وأن شعاره، على حد قوله ، فى نجد: هذا يعنى أن الأراضى الواقعة فوق مجرى السيل، هى وشواطئ الملح فى كل من الكثبان والحرات إنما تنحدر ناحية المدينة (المنورة) ، بمعنى أنها تتجه إلى الأسفل نحو وادى الحمض. ولما كنت قد استعدت جهاز البارومتر من أيدى كل من سالم وفهيد العنيفة، وكنت قد فقدت الأمل فى استعادة هذا الجهاز: بالرغم من كل ذلك وجدت أن الارتفاع هنا هو نفس الارتفاع الذى قسته قبل سبعة أيام . وأنا أرجح أن يكون ارتفاع الطائف عن مستوى سطح البحر حوالى ٦٠٠٠ قدم. هذا الجهاز الدقيق البسيط لم يطاله الأذى - وقام رجل من رجال هجرة (كفر) قريبة من البحر بإحضار بشائر التمر الناضج ، أوإن شئت فقل : بشائر البلح bellah الرُّطب Rattub، وذلك مقابل ثمن دفعناه : كان اليوم يصادف اليوم التاسع من شهر أغسطس . وشاهدنا من

حولنا حشدا كبيراً من النمل؛ وكان صوت نقيق الضفادع ينبعث قادما إلينا من قاع الوادى: وأنا لم أسمع صوت نقيق الضفادع منذ أن كنت فى خيبر؛ كان النقيق على النحو التالى أورك ـكيو urk-kiow كور–كور–كور kur-kur-kur- كيروك! Kreurk

ركبنا راحلاتنا مرة ثانية مع طلوع الزهرة Zohra، نجم الصباح لنصل إلى مقيل الظهيرة قبل اشتداد حر (تهامة). التزمنا مجرى الوادى ؛ وبعد حوالى نصف ساعة مررنا بمكان عامر بالبساتين ، يطلقون عليه اسم الصوله Sola والذى ينطقه البدو الرحل على أنه 'صاله' Sala. فى هذا المكان يوجد نبع كبير ومسورات فيها أشجار الليمون والتوت، وهى من ممتلكات الشريف حسين؛ الفلاحون العاملون فى هذه البساتين هم من عبيد الشريف حسين الذين يخدمونه. وبعد ذلك بأقل من ثلاثة أميال ، شاهدت مع طلوع النهار على الجانب الأيمن ، مصب وادى المثيك el-mothich الذى يعد مخرجا لوادى الليمون الذى ينحدر نازلا من السيل إلى وادى فاطمة، ذلك الوادى واصلنا السير فيه منذ أن غادرنا عيون الزيمة . وفى وادى الليمون توجد قرى الحرَّاث ، وهم من الأشراف: والأمير الشريف له ممتلكات وسط قرى الحرَّاث Hurrath؛ وأعراب هذه الجبال من الحطيل Hatheyl وعين الليمون، تقع فى هذا الوادى: والوادى من فوق عين الليمون قاحل فى اتجاه السيل Seyl. درب derb الشركى es-Sherky يمر خلال وادى الموثيك Mothik؛ والاسم الآخر لدرب الشركى ، هو طريق شرقى الحج القادم من المدينة المنورة، وهناك أيضا درب der السلطانى es -Sultany القادم من القصيم ومن شرقى نجد. ومحطات هذا الطريق من مكة هى البارُّود Barrud، حيث توجد ظلال أشجار التين، وآبار الماء البارد؛ ثم بعد ذلك محطتى البرذة el-Bertha وبير (بئر) bir الحطيل Hatheyl، وهما عبارة عن بئر فى وسط وادى الليمون؛ ثم بعد ذلك محطة الزريبى eth-Therriby،[التى يقولون لها أيضا ذات That العرقIrk]، وفيها أنقاض قرية من القرى؛ ثم بعد ذلك محطة بركت Birket فى Fi الرُّكابة Rukkaba، وفيها هى الأخرى بعض الأنقاض؛ ثم بعد ذلك محطة المصلاح el-Muslah حيث يوجد خزان للماء وبعض الأنقاض؛ وعلى يسار الطريق توجد قرية الفرية el-Fereya؛ ثم بعد ذلك محطة هاثة Hatha حيث توجد فيها حقول القمح وبعض الأنقاض؛ ثم تجىء بعد ذلك محطة العين

el-Ayn ابن ibn غروبن Ghrobn التى يزرع فيها النخيل وفيها أيضا بعض الأنقاض؛ وبعد ذلك تجىء محطة السفينة ess-sfeynaah والسويرجية Swergieh- إلى آخر كل هذه المحطات. رأيت قرية اسمها الجديدة Jedida، عند مصب الوادى فيها نخيل وحقول القمح، وهى تروى من آبار وينابيع وفيها عيدان السرغم (الذرة العويجة) الخضراء الطويلة، والناس هنا يزعوون السرغم ويزرعونه بعد حصاد (القمح والشعير المبكرين): وهم يحصدون هذه الذرة العويجة فى فصل الخريف- قال لى الشريف نصير:إن حقول القمح فيما بين الطائف واليمن (التى يصل ارتفاعها إلى حوالى ٦٠٠٠ قدم عن مستوى سطح البحر) تروى من مياه الأمطار فقط!

وادى فاطمة الذى يقع خلف هذه المنطقة عبارة عن مجرى سيل واسع خال من السكان! مررنا على بعض الضفاف العالية المسورة بكتل غشيمة (من البازلت)- ، ونحن فى أوروبا نطلق على هذه الأعمال القديمة اسم المبانى الأثرية القديمة الضخمة: وهنا رد علّى الشريف نصير قائلا: 'هذه الضفاف تنتمى إلى بنى هلال." ضفاف السيل هذه تنمو عليها أشجار برية يطلقون عليها اسم الثنثوب Thanthub، وهذه الأشجار عبارة عن سيقان خضراء، الأشواك فيها هى التى تمثل الأوراق، وهذه الأشجار مرة الطعم؛ والشريف نصير يقول: إن هذه الأشجار علاج للأسنان. وقد شاهدت هنا، فى تهامة، المدارية أشواك أشجار الصمغ التى يحاصرها نبات طفيلى (يطلقون عليه اسم الجشع el-gusha) الذى يتدلى على شكل عناقيد من السيقان المتشابكة؛ والماعز فقط هى التى تأكل هذا النبات الطفيلى.

وإلى الأسفل قليلا من هذا المكان نرى الجهود الإنسانية التى دخلت لتوجيه وإخضاع هذه الطبيعة الصحراوية - شاهدنا كيف يستعمل الناس سيقان الأشجار والأدغال، عندما يفيض الوادى بالسيول ، فى توجيه الماء إلى الجانب الأيمن من الوادى ؛ ثم يجرى سحبها إلى قطعة من الأرض جرى تنظيفها من الأحجار حتى يمكن زراعتها . ويجرى أيضا سحب هذا الماء من مياه الأمطار ، عن طريق قناة إلى حقل فى منطقة أكثر انخفاضا فى الوادى ؛ وهذه المنطقة عبارة عن حقل كبيرله سور من

اللَّبن؛ وأسفل هذا الحقل توجد حقول أخرى مماثلة. والوادى عندما يفيض نتيجة للسيول تفيض تلك المسوَّرات أيضا وتغمرها كميات ضحلة من الماء، تستمر طيلة سبع أو ثمانية أيام. وهنا يتحتم بعد ذلك مباشرة بذر البذور فى التربة الزلطية : وعلى حد قولهم فإن القمح الذى ينمو بعد ذلك يستمر بدون رى إلى يوم الحصاد. كل وسيلة من هذه الوسائل والابتكارات العربية بسيطة وعلى درجة عالية من الكفاية؛ وبذلك يتمكنون من أكل الخبز من ذلك الوادى الحجرى المهجور ـ خلف الوادى شاهدت تنفيذ كثير من هذه الأعمال الضفافية، أوإن شئت فقل : السدودية، وبالطريقة نفسها التى يجرى اتباعها فى مصر. وهم يحفرون التربة ويحرثون باستعمال الثيران ـ والمحراث عندما يسير فى الأرض يقلبها على الجانبين ؛ وسرعان مايرى المرء أكواما من التراب: واسم المكان الذى نحن فيه هو الزّبارة ez-Zibbara شاهدت هنا بعض العلامات الدالة على زراعة قديمة من نوع أفضل: والسبب فى ذلك، أننا عندما كنا راكبين راحلاتنا ، عبر الأرض المرتفعة ، استعدادا لعبور الوادى ، عثرنا على قنوات مشقوقة فى الصخر كى تستعمل فى رى الحدائق والبساتين.

من هذه المنطقة تبدّى لنا اسوداد ضخم ـ هضبة جبلية أمامنا ، فيها جرف يصل انحداره إلى مايقرب من ألف قدم. يقع على جانب من جانبى الوادى : من الواضح أن تلك الهضبة عبارة عن حرة أخرى! ورد علّى الشريف نصير قائلا: " هذه حرَّة Harrat عجيفة Ajeyfa". ومن خلف هذه الحرة شاهدت أثر الفيضان البركانى مترسبا فوق الجبال البللورية : وتلك أعجوبة من الأعاجيب ـ وبالرغم مما سبق ذكره فإن بعض الحقول البركانية تتكون على مراحل ـ التى يندى لها الجبين ! قال الشريف نصير: " الحليان عالية وبعيدة" وأنا لم أر أية واحدة من تلك الحليان عند هذا الأفق . حرة عجيفة عبارة عن واحدة ضمن سلسلة كبيرة من الحرَّات ، ويقال إنها قارة هى وحرة العشيرى Ashiry". ونقلا عن كل من مذكر ونصير فإن هذه الحرَّات تنتشر على شكل حزام، فى المنطقة مابين الحرمين [وهذا هو مارأيناه على شكل حرة خيبر وحرة العويرضى].

سألت نصيرا عن الوديان الموجودة جنوبى الطائف فى اتجاه وادى بيشة ـ قال: وادى ودج widj يقع على بعد مسير 'ساعتين' من الطائف، ثم بعد ذلك مسير 'ساعتين' أخريين إلى وادى النخيب en-Nkhib ؛ ثم مسير يوم واحد إلى وادى الليح Lieh؛ ثم مسير يوم واحد إلى وادى بسّيل Bissel .[هذه الوديان يبلغ طولها مسير حوالى خمس رحلات، كما أن مسارات تلك الوديان تتجه شمالا، إلى أن تضيع أخيرا فى الرمال: وكل هذه الوديان عامرة بالقرى]. والمسافة إلى وادى ترابة Turraba تقدر بمسير أربعة أيام ؛ وهذا الوادى يعيش فيه أعراب البجوم، كما أن فيه أيضا بعض القرى. ووادى التُّرابة هذا يتصل بوادى العرق el-Erk [الذى لايبعد كثيرا عن شكيرة Shukera فى الوشم]؛ وفى هذه المنطقة تتجمع مياه الأمطار لتكوّن مستنقعا راكدا ، يفد إليه البدو لكى يخيموا حوله: ووادى السبيع Sbeya أوإن شئت فقل: وادى رونّيه Runnya؛ الذى يقول عنه بعض الناس إنه واديان ، وقريتا الخورمة Khorma والقنصولية Konasolieh موجودتان فى وادى السبيع ـ أما الوادى الثانى، أى وادى الرونية ففيه قرية كبيرة من قرى النخيل. ووادى بيشة فيه قرى كثيره تنتشر فى كل أنحائه، ولكن هذه القرى فى عداء مستمر فيما بينها . وبنى Beny أوكليب uklib هم وبنى شرعان Sharan هم الأعراب الذين يسكنون هذا الوادى. وبداية هذا الوادى تقع فى عسير : وطول هذا الوادى يقدر بمسير رحلات كثيرة؛ ومياه السيل تنتهى إلى رمال الصحراء.

وادى فاطمة فى هذه المنطقة أرض شديدة القحولة: ويندر أن يمر فيه أحد من البشر . ونصير لم يحضر إلى هذا الجزء من الوادى سوى مرة واحده فقط، وكان فى مهمة خاصة بالشريف حسين. وأرض هذا الجزء من و ادى فاطمة المكونة من الزلط والحصى لا ينبت فيها أى شىء، والشىء الوحيد الذى ينمو فى هذه التربة عبارة عن نباتات تصدر عنها فى ضوء الشمس رائحة غريبة. وعندما نظر البيشى الصغير إلى الرمل السائب ووجد عليه أثارا كثيرة (السواد الأعظم منها متخلف عن سحالى رمادية اللون صغيرة الحجم يطلق الناس عليها هنا اسم الخوسى el-Khossi) ، صاح قائلا:

" والله، لايوجد فى هذا الوادى سوى الثعابين!" تجاوزنا رأس هذا النبع ، ونزلنا إلى الأسفل عن طريق ممر (من الحجر) لنصل بعد ذلك إلى قرية إمبارك Imbarak، وهذه أول قرية من القرى الواحية فى وادى فاطمة- وهذه القرية تبعد مسافة مسير ساعة واحدة عن المكان الذى كنا فيه.

عندما مررنا على قرية إمبارك شاهدت سباطات البلح وهى تتدلى ناضجة من أشجار النخيل؛ كما شاهدت أيضا على الضفاف الطينية على جانبى الوادى الكثير من نباتات الذرة الخضراء. كما شاهدت هنا وللمرة الأولى أكواخا مصنوعة من القش وجريد النخل تشبه خلية النحل (هذه الأكواخ مبنيه على الطريقة الحبشية)، ويشيع بناؤها فى هذه المنطقة؛" قال نصير: هذه الأكواخ خاصة بخدم الأشراف." - وابتداء بهذه المنطقة التربة هنا عبارة عن زلط ورمل حتى مدينة جدة. والقرية التالية لقرية إمبارك هى قرية الريان er-Rayyan التى يزرع فيها النخيل أيضا وتبعد ثلاثة أميال عن قرية إمبارك - هذه الواحات التى فى وادى فاطمة عبارة عن مستوطنات حول بعض العيون أو إن شئت فقل : الينابيع. وسكان هذه الواحات من الأشراف، ومن المزارعين ، وكلهم تقريبا أصحاب بشرة سمراء؛ وعمال الزراعة هنا خليط من العبيد والأحرار- امتدحت الحياة البدوية:" قال نصير: نعم، لبن الناقة فريد." وحكى نصير لى،' كيف تربص بهم بعض بدو هذه المنطقة ، ذات مرة ، عندما كان ذاهبا برفقة جماعة صغيرة إلى الجنوب، قادما من الطائف، لقضاء أمر من أمور الشريف حسين؛وكيف راح يجرى على قدميه بجوار النياق إلى أن دخل عليه وقت العصر، وكان مايزال يجرى ويفتح النار على أولئك المتربصين ؛ كل ذلك وهو صائم!- ورد علىّ: أن أولئك الأعراب لو علموا أنه شريف لما حاولوا قتله!- ولكن كيف يمكن أن يصدقوه حتى لو قال لهم ذلك؟'

تجاوزنا الحرارة شديدة الرطوبة فى الأرض المدارية المنخفضة؛ وبعد أن شرب رفاقى كل ما فى القربة من ماء؛ بدءوا يستشعرون الضيق والقلق من حرارة الشمس. وهذا حامد، ذلك الشاب الزنجى بدأ يضيق ذرعا بحياته :مما جعله ينزل عن ناقته ويتخلى عن رفيقه وعنا ويمضى ماشيا على قدميه!- اقتربنا من ريان Rayyan ووجدنا

أنه لاذ بالنخيل على بعد مسافة ميل تقريبا. سألته:" ماذا جرى! ألن يعود معنا؟" ورد علّى رفيقه، " فليعد، إذا ما أراد ذلك ، وإلافليذهب إلى الجحيم!" وهنا لعن الشريف نصير والده هو الآخر ولكن هذا الرفيق الساذج، الذى مشى على قدميه أملا فى تخفيف العطش، انضم إلينا بعد ذلك بساعة، فى المكان الذى كنا ننال فيه قسطا من الراحة [ربما وقع الاختيار على ذلك الزنجى، نظرا لأنه سبق له التعامل والتواصل مع الإفرنج : والسبب فى ذلك أن حامداً، تطلعا منه إلى كسب شيء من المال كى يشترى به سلاحا ويدخل السرور إلى نفسه، كان قد سبق له العمل بضعة أشهر مع الوقادين على ظهر سفينة تجارية فرنسية كانت تمر خلال البحر الأحمر]. وقرية الريان تقع حاليا وسط الوادى الكبير الواسع . واصلنا مسيرنا راكبين على ظهور راحلاتنا واتجهنا شرقا إلى خليج صغير؛ ثم نزلنا أمام كوخ جديد مبنى بطريقة جيدة من الحجر: أصبحنا الآن فى جزء متمدن من البلاد كما هو الحال فى سوريا ـ الجزء المكى من الجزيرة العربية. يسكن فى هذا المكان رجل كان غنيا فى العالمين! يوزع من ثروته على الجيران الفقراء وكرمه يعم الجميع ـ والناس هنا يرون أن من اللائق النزول أمام بيت شريف من الأشراف! وهنا توقفنا بعد أن قطعنا مسافة نصف فيرلنج(*) Furlong، ثم بدأنا نقتاد نياقنا نحو الأمام؛ ثم توقفنا بالقرب من باب منزل الشريف. وبعد ذلك بلحظة، جاء المضيف لاستقبالنا؛ هذا المضيف كان شيخا للمكان ، وكان لونه ، أوسمرته تشبه سمرة الأحباش؛ وأدخلنا ذلك المضيف إلى قاعته، التى كانت وسيعة ومبنية من الحجر، وكانت مفروشة بالحصير النظيف وتشبه الكنيس الصغير؛ وكانت هناك سجادة فارسية مفروشة للضيوف فى الجانب الأيسر من القاعة ـ سبق لنا أن شاهدنا هجرة (كفر) جديدة من الأكواخ منبسطة الأسطح ومبنية من الحجر من حول منزل هذا الشريف، وكانت هناك بئر أيضا ؛ وكل ذلك كان من عمل ذلك الرجل الطيب وعلى حسابه؛ كما شاهدنا أيضا بعض أكواخ مبنية من القش لإقامة الخدم كبار السن: هذا الرجل يمد يد خيرة أيضا إلى البدو الرحل المساكين ، الذين ضربوا

(*) فيرلنج: بكسر الفاء وضم اللام: مقياس طولى يساوى ٢٢٠ ياردة. (المترجم)

خيامهم بالقرب من بيته- كنا فى ذلك المكان قبل دخول وقت الظهر بساعتين ، ولم يكن النهار راكد الهواء: ومع ذلك وجدت أن درجة الحرارة كانت ٩٩° فهرنهيت .

قدم لنا الإفطار على وجه السرعة: قدموا لنا صوانى عرض الواحدة منها ياردة واحدة ومن فوقها الخبز المخمور والسمن وأفضل أنواع التمور وأسطال مليئة باللبن. وبعد أن تناولنا الإفطار وسمعوا حكاية مغامرتى فى عين الزيمة، قال الشيخ الطيب، وهو ينظر إلّى نظرة ود وحنان : "إننى لو كنت قد ذهبت إليه فى ذلك الوقت لأرسلنى مباشرة إلى جدة- ولكن لماذا لاأتحول إلى الإسلام وأسكن وأقيم هنا فى الأراضى المقدسة، فى رعاية الشريف ؟ قرأ الرجل فى عيناى أننى كنت قريبا جداً من المسلمين.- ونبح الرجل لنا خروفا؛ وقدمت لنا وجبة الغداء قبيل دخول وقت العصر . هذا البيت المتمدن وهذا الكرم الحاتمى لم يسبق لى أن وجدت له مثيلا فى سائر أنحاء الجزيرة العربية .

وبعد أن استأذنا من ذلك الرجل الطيب مشت نياقنا مسافة مائة خطوة، مثلما فعلنا عندما وصلنا ، ثم ركبنا راحلاتنا من جديد واستأنفنا مسيرنا. وبعد أن تركنا الوادى، الذى يتجه ناحية الغرب، صعدنا إلى الساحل الصحراوى ، ومن فوق ذلك الساحل الصحراوى شاهدت ذلك المنحدر المفاجئ الذى كان عبارة عن هضبة ضمن حرة ضخمة- مر علينا بعض المساكين الذين كانوا يركبون حميرا، وقد حمّلوها بحطب الوقود كى يبيعونه فى السوق: قال الشريف نصير: إن هؤلاء الناس من القوراش Korash - وعند غروب الشمس نزلت جماعتى عن راحلاتها بالقرب من بئر من الآبار يقولون له: بير Bir الغرنّم el-Ghrannem، لكى يؤدوا الصلاه؛ وعرفت من وجوههم أن مكة تقع على بعد مسافة قصيرة فى اتجاه الشرق. مرت علينا طوابير كثيرة من الإبل ، من الناحية اليسرى، وكانت محملة بالتمر الجديد الذى جاءت به من وادى فاطمة لكى يباع فى مكة. مضينا قدما فى طريقنا، وعند مجرى من مجارى السيل بدأنا نسير فى طريق الحج السورى الذى يطلقون عليه اسم (درب الحج الشامى el-Haj derb es-Shamy)؛ والمسافة من هذه النقطة إلى مكة تقدر بحوالى اثنين وعشرين ميلا. وحل

الليل علينا بهواء دافئ محمل بالرطوبة؛ وفهمنا من نباح الكلاب، أن هذا الجزء من البلاد كان مليئا بالبدو الرحل. وبعد ثلاث ساعات من غروب الشمس عدنا مرة ثانية إلى وادى فاطمة؛ وفيه نزلنا عن راحلاتنا فى منطقة رملية، ورقدنا على الأرض كى ننال قسطا من النوم.

استيقظنا قبل طلوع النهار، وكانت تلك الرِّحلة الرابعة من رحلتنا الطويلة، وشاهدت أمامى قرية، هى فى الأصل واحة، والناس هنا يسمون هذا القرية أبو Abu شعب Sheab ، كما شاهدت أيضا كثيرا من خيام البدو الرحَّلِ المصنوعة من الشعر: قال الشريف نصير: إن هؤلاء الأعراب كانوا من اللحيان Laheyan، الذين هم من الحطيل Hatheyl. تلك القرية تشبه تلك المنازل التى تشبه خلية النحل وسبق الإشارة إليها. والناس هنا يطلقون على هذا النوع من المنازل اسم عوشة usha ـ وهى تصنع من الحطب والقش، وأمام كل كوخ، أوإن شئت فقل : كل عوشة من تلك العوشات، فناء مسوَّر: بعض هذه العوشات كانت متهالكة بسبب القدم؛ والبعض الآخر تخلى عنه ساكنوه بسبب القذارة والتعفن. يقال إن تلك العوشات ،أوإن شئت فقل: تلك الأكواخ التى تبنى من الحطب والقش يقدر عمرها بحوالى خمسين عاما؛ وأن تلك الأكواخ صحية وتصلح للعيش فيها. وهنا شاهدنا أيضا قلعة عالية من الحجر الغشيم، وقد تحولت إلى أنقاض، وذلك بفعل عمل قدامى الوهابيين هذا هو الطريق الذى نسير فيه يعود ثانية إلى الوادى: ركبنا أميالا عدة؛ وعبرنا غديرا أو نهرا صغيرا، لايزيد عرضه على ياردتين، وماؤه شديد الجريان. هذا الجزء المنخفض من تهامة عامر بالماء؛ ومع ذلك لاينساب أى شىء من ذلك الماء إلى البحر، التقينا هنا بعضا من أعراب Aarab دايد Daed، وهم من الحطيل ، وكانوا ينتقلون إلى مكان آخر غير المكان الذى كانوا فيه: كانت النساء يلبسن تنورات قصيرة تصل إلى ركُبهن، ومن تحت التنورة سروال طويل! كانت بشرة هؤلاء النسوة سوداء ولامعة؛ كما أن قسمات أولئك النسوة (فى هذا الجزء المدارى من الجزيرة العربية) لم تكن غائرة، بل كانت مستديرة وبضة: وكان هناك

كلب يتبعهن. وإلى جانب كل من الحطيلان والبدو الآخرين، هناك أيضا بعض من الحطيم فى هذا الجزء من تهامة، وذلك فى أعالى جدة وفى المناطق المنخفضة منها. كنا نشاهد فى كثير من الأحيان خياما بائسة لبعض البدو الرحل فى هذا الجزء من البلاد، الذين صنعوا تلك الخيام، فى بعض أجزائها ، من الحصير المصنوع من سعف النخيل. والفقراء المعدمون من بين هؤلاء البدو سوف ينسحبون إلى الواحات ، لكى يستأجرهم الغير فى عملية حصاد التمر؛ فى تلك الفترة يكون ملاَّك النخيل طيبين وعطوفين على سكان تلك الخيام الضعفاء الذين لايملكون شيئا ولاحول لهم ولاقوة؛ هؤلاء الملاك هم أيضا الذين يتوجب عليهم أن يأكلوا حلى المستوطنات، وهم يرددون الكلام الجارح القاسى على مسامع أولئك البدو المساكين المعدمين: الذين يوضعون موضع الكلاب إذا ما ارتكبوا أى خطأ مهما صغر شأنه.

عند الساعة التاسعة تقريبا وصلنا إلى قرية الدويح ed-Doeh الواحية؛ ونزلنا عن راحلاتنا على بعد مسافة قصيرة من ذلك المكان،أوإن شئت فقل : عند العوشة usha الجديدة؛ هذه العوشة بناها أحد الأثرياء للتسرية عن المسافرين- ومن باب اهتمام الشريف الطيب بأحوالى الصحية، كلف الشريف نصير بأن يقدمنى لبيوت الأشخاص الأثرياء والميسورين ؛ وكان الشريف الطيب قد أمرهم أيضا بالسير ببطئ بصورة دائمة، وأنهم إذا ما أحسوا بأنى أصبت بالإعياء الشديد وأنا فوق الناقة، فإنهم يتعين عليهم النزول عن الراحلات عند بيوت أولئك الأثرياء والميسورين. كان ذلك الدويح (أوإن شئت فقل: الكابينة) مبنية من الصخر، وسمك الجدار يصل إلى قدم واحدةٌ على وجه التقريب، وكانت تلك الصخور مربوطة إلى بعضها بطريقة محكمة؛ أما الجدران، التى كانت على شكل مربع، فكانت تنتهى نحو الأعلى بتجويف . وكان من رأى المرافقين لى أن تلك العوشة، التى كانت دفاعا أكيدا ضد الشمس، ولم تكن صغيرة أيضا، لابد أن تكون قد كلفت مالكها عشرة كراونات (أى مايقل عن ثلاثةجنيهات إنجليزيه). بالقرب من القرية يوجد نبع، تأتى إليه النساء المقنعات (الصورة رقم١٢) اللاتى يحملن جرارا أثرية الشكل، يحملنها مائلات على رءوسهن، لكى يجلبن الماء من ذالكم النبع .

كان الارتفاع فى هذه المنطقة حوالى ١١٠٠ قدم. أحسسنا بالبرودة ونحن جالسين لانرتدى سوى قمصاننا، داخل تلك العوشة التى لاباب لها، وكانت تهب علينا نسمة خفيفة، وكانت درجة الحرارة ١٠٢ فهرنهيتية. هذا العامل الزراعى التابع للأسرة - وهو رجل متين البنية، كث اللحية ومن أهل الطائف - هو الذى سبق أن أحضر لنا الحصير والمخاد؛ هذا الرجل راح يجفف العرق من فوق جبهته بين الحين والآخر وهو يتعجب قائلا:"آه! من حرارة تهامة هذه!" الوادى فى هذه المنطقة تسده ثلاث كتل من الصخر البازلتى (المقصّر Mokesser والزعاف Thaf، وسدر Sidr) وتحول بين الوادى وريح الشمال ، ثم أردف الضيف الذى دخل علينا:" الحرارة هنا فى وادى فاطمة بلغت من الشدة حداً يجعل الناس لايرغبون فى تناول الطعام: ووالله، الناس لايسافرون هنا بعد طلوع الشمس." سألته، ماذا كانت درجة الحرارة فى جدة؟" أجابنى ،أف !لاتطاق." نصير:" ياخليل ،ألم تسمع ذلك الذى قاله سعود بن سعود- بعد احتلال مكة - لقد حاصر جدة [فى العام ١٨٠٣]؛ ولم يستطع الاستيلاء عليها:' سوف أتخلى عنها، وأنا لا أستطيع مقاتلة مدينة حارة بهذا الشكل: والأكيد أن هؤلاء الناس إذا لم يكونوا شياطين ، فإنهم لابد أن يكونوا جيرانا قريبين للشيطان.."

- دخل علينا صبى بدوى فى تلك اللحظة ونظر إلينا من النافذة! وهنا تعالت الأصوات كلها، "أنكشح وأغرب عن هنا!" أنا ana من min ديرة dirat بيت beyt الله ullah،" أنا من دائرة بيت الله' أى إننى من أحباب الله! وبالرغم من كل ذلك لم يسمحوا له بالدخول. قام مضيفنا، الشاب الصغير بتعنيف ذلك الصبى تعنيفا شديدا؛" قم، أقصد العوشة التالية - بمعنى لاتجلس هنا! أنكشح وأذهب إلى النخيل ؛فيه fi خير kheyr واجد wajid، بمعنى [ستجد فيه ما تأكله] وهذا يكفى: أنكشح عن هنا حالا!"ولكن هذا الصبى المسكين لم يتحرك قيد أنملة بالرغم مما قالوه من كلام موجع ومؤلم- لايمكن لأحد أن يؤذى ضيفا من ضيوف الله! بعد أن قدمولنا (صوانى كبيرة من الطعام) فى وجبة الإفطار ، جرى استدعاء ذلك الصبى هو وبعض الأشخاص البؤساء الآخرين لكى يأكلوا من فضلات الطعام المتبقى من مائدة كرم ذلك الرجل الثرى." لكن أيها المضيف! هل ستكون جوالاتنا فى مأمن ؟ يصيح الشريف (البدوى

المترحل) متسائلا: هل دخل الصبى (البدوى)؟" ـ" إى، منذ أن تناول الخبز معك." وهنا نهض ذلك الشاب البدوى، الذى عرّف نفسه بأنه من الحطيل ، وانتهى من تناول الطعام وهو يبتسم ؛ وراح يغسل يديه برقة من إناء الغسيل: ثم ذهب لحال سبيله دون أن يقول كلمة واحدة ـ بعد ذلك وبينما كنا نائمين دخل علينا بدوى آخر:" قال: أنا عطشان : ولكنهم جعلوه يشرب من أعلى الدورق، ثم راحت كل الأصوات تطارده كى يرحل لحال سبيله! بقينا فى تلك العوشة إلى حين تناول العشاء، الذى جهزوه لعابرى السبيل قبيل صلاة العصر. قام المضيف بذبح خروف سمين، قدموه لنا مطهيا على ثلاثة صوانى كبيرة مع الأرز؛ وكانت هناك صينية كبيرة أخرى عامرة بالتمر الجديد الجميل: ولم ينسوا إكرام راحلاتنا أيضا.

ركبنا نياقنا ، واستأنفنا مسيرنا، ومررنا على خيام أعراب Aarab الملياتان meyatan؛ والملياتان هؤلاء ، على حد قول الشريف نصير، هم بحد ذاتهم يشكلون قبيلة كنت أعجب وأنا أرى هذا العدد الضخم من البدو الرحل فى هذا القسم من الصحراء: كانت بشرة هؤلاء البدو بلون القهوة ـ عندما أوشكت الشمس على إرغام المرافقين على النزول من على راحلاتهم، نزلوا وراحوا يصلون مستقبلين الاتجاه الشمالى الشرقى. هنا فى قاع هذا الوادى القاحل، المكون من الزلط والرمل، ينمو الكثير من الحمض humth ؛والناس هنا يطلقون على ذلك الحمض اسم حمض humth الإصلاح el-aslah؛ والبدو يصنعون من الرماد المتخلف عن حرق ذلك الحمض شيئا يطلقون عليه اسم شب Shub الإبل el-bil وهم يستخدمونه علاجاً للماشية الكبيرة ـ كان بوسع الشريف نصير أن يواصل السير أثناء الليل كى يصل جدة فى صباح اليوم التالى: ولكن حب الشريف للعزائم تغلب عليه قبل أن يصل إلى الهدا Hadda، التى هى آخر قرى وادى فاطمة. وعندما وصلنا أثناء الظلام إلى مكان مأهول،" قال الشريف: حسن، هيا بنا ننام هنا؛ هذه هى ممتلكات الشريف حسين، وكل الناس هنا من رعاياه وخدم له." نزلنا فى عوشة، تقع على تل صغير ؛ حيث تقيم أسرة زنجية صغيرة. هذا الزنجى المسكين الذى كان من معارف البيشيين، شب نارا وصلّح لنا قهوة، وقدم علفا [يسمونه هنا برسيم Bersim كما هو الحال فى سوريا] لنياقنا. ولكن هذا المكان لم يكن طيبا، واستنشقنا

هواء غير نظيف. وبينما كنت أنام فى العراء، فرض الشريف نصير كرما جديدا على هؤلاء الناس المساكين ، وبخاصة ذلك الرجل الذى كان يشعر بمنتهى الحرج والخجل عندما جلس معنا لتناول القهوة. ونصير باعتباره من الأشراف ، وباعتباره أيضا من ضباط الشريف حسين، يود الحصول على ذلك الكرم فى هذه الدنيا؛ وجاءت مائدة ذلك الكرم مليئة بما لذ وطاب، وذلك على العكس من المائدة البدوية المتقشفة ـ أيقظونى عند منتصف الليل على ذلك الكرم الكبير! وسمعنا اعتذار ذلك الزنجى المسكين أمامنا، لأنه لم يضع أمامنا سوى العنزة التى كانت لديه، ومعها وجبة كبيرة من الثريد.

مع طلوع نجمة الصباح ركبنا راحلاتنا واستأنفنا مسيرنا؛ قطعنا مسافة نصف ساعة فى السهل : ثم بدأنا نسلك طريق الدرب السلطانى **es-Sultany**، أوإن شئت فقل : الطريق السريع فيما بين مكة وميناء جدة ـ مرت علينا طوابير طويلة من الإبل، وهى تسير ببطئ صاعدة نحو الأعلى ؛ ومن فوق ظهور تلك الإبل شاهدنا الحجاج شبه العارين ، إذ لم يكونوا مرتدين شيئا غير ملابس الإحرام **ihram**. هؤلاء الحجاج كانوا من الحجاج الهنود، ومن اليمنيين ، وكانوا قد وصلوا يوم أمس إلى جدة: وقد بكروا بالقدوم إلى الأراضى المقدسة لكى يصوموا شهر رمضان ، ضمن تعبدهم فى المدينة المقدسة ـ شاهدت فى ضوء الغسق ،أن جبال وادى فاطمة أصبحت إلى الخلف منا [هذه الجبال يمكن مشاهدتها من مدينة جدة]، وشاهدت أمامنا أرضا جرداء شاسعة،(الناس هنا يطلقون عليها اسم خبت **khobt**)؛ هذا الخبت عبارة عن أرض من الزلط والرمل ـ وتستمر إلى أن تصل البحر الأحمر. فى هذه المنطقة كان مجرى السيل القادم من وادى فاطمة، يقع على الجانب الأيسر ؛ أما نهر الطريق فكان محفورا بفعل اندفاعات المياه النازلة من الجبال ـ والتى تتجه ناحية الشمال فى هذه المنطقة. بعد أن انقضت علينا ساعتان اعتبارا من مغادرتنا الهدا، مررنا على بعض الحظائر المصنوعة من القش، وبئر من آبار المياه؛ كان ذلك المكان محطة لفصيل من الخيالة الخفيفة ومعه بعض من ركاب النياق المسلحين بأسلحة خفيفة، وكانت مهمة هذه القوة حراسة الطريق

المقدس. وعلى مقربة من تلك المحطة شاهدت واحدة من المقاهى؛ هذا الطريق القصير من طرق الحج تنتشر عليه المقاهى، إذ يرى السائر فيه المقهى على بعد أميال قليلة من المقهى السابق عليها.

كان الحمام يشيل ويحط على الطريق من أمامنا . قال لى الرفاق:'إن صيد هذا الحمام أو اليمام أمر لايجوز شرعا، وبخاصة داخل حدود منطقة الحرم! والسبب فى ذلك أن هذا هو حمام ويمام الحرم؛ وأن ذلك الحمام يجرى تغذيته فى مكة من مخصصات (تصل إلى حوالى عشرين إردبًا ardubs كل شهر) من حبوب القمح. وحبوب القمح عندما تنثر أمام الحمام ،فإنه يهبط عليها بأعداد هائلة، بالرغم من أنه لايمكن مشاهدة سوى القليل جداً من ذلك الحمام، فيما قبل نثر حبوب القمح: هذا الحمام يتعرض لإمساك الناس به'. على جانبى هذا الطريق، وكما هو الحال فى الطرق السريعة كلها فى البلدان المحيطة، توجد هياكل عظمية كثيرة لكثير من الإبل ؛ والسبب فى ذلك أن الناس هنا يتركون جثث تلك الحيونات ، فى العراء دون أن يدفنوها .[وقد جرت العادة هنا أن يجرى سحب أى حيوان أوأى كلب عندما ينفق ،إلى خارج بوابات البلدة]. مررنا بولى wely من الأولياء ،أو إن شئت فقل : بقبر قديس من القديسين ـ وهذا القبر، جرى العرف أن يكون مكانا للصلاة، فى البلدان غير الوهابية ـ هذا القبر معلق عليه خرق من ملابس الحجاج.

شاهدت بعد ذلك ، على جانب الطريق السريع، ضفة كبيرة من الأحجار ؛ هذه الضفة كانت تطبق على الطريق فى هذه المنطقة ." قال الرفاق،إن الحاج الذى يلقى حجرا على تلك الضفة إنما يكون قد ترك شاهداً على نفسه [راجع العهد القديم]؛ لأن حجره هذا سوف يشهد له يوم البعث، أنه أدى الحج."ـ الصحراء على جانبى هذا الطريق تنمو فيها بعض الأدغال؛ والناس هنا يقولون لتلك الأدغال : ريم reym؛ قال الشريف نصير:'إن قرون أشجار السنط بما فى داخلها من حبوب تعد طعاما للقردة والنسانيس التى تعيش فى الجبل الواقع خلف ذلك الطريق!' شاهدنا سحلية مثل تلك

التى يطلقون عليها اسم الورور wurrur، [بمعنى مبتلع أو ملتهم الثعابين فى نجد]؛ هذه السحلية يصل طولها إلى حوالى ياردة، ويكون ذيلها مرفوعا إلى الأعلى ، كما لوكان عنق طائر من الطيور . الطريق فى هذه المنطقة يرتفع فوق مستوى أرض الوادى ، ثم نزلنا بعد ذلك إلى مقهى من المقاهى، وعندها نزلنا عن راحلاتنا ؛ ثم قيدنا نياقنا من أرجلها الأمامية، وتركناها وقصدنا المظلة العامة لتمضية ساعات الظهيرة تحتها - وبينما كان صاحب المقهى يحاول خدمتنا، وهو أصلا رجل لطيف، سحبت غترتى (غطاء رأسى) إلى الخلف . ولكن هذا الرجل الطيب ، عندما شاهد شعر الفرنجى من ناحية الجنب، صاح متعجبا ،أننى لابد أن أكون قد جئت على هذا الحال من مكة . وابتسم ذلك الرجل لى، ثم قال:فى ود وحنان "لاتخش شيئا !الأن وصولك إلى هنا ينهى كل الأخطار. "- عثرت بالقرب من هذه المحطة على نوع معين من الأعراب، الذين يطلقون عليهم هنا اسم العبايده Abida، حيث كانوا يسقون قطعانهم (ذات الأصواف بيضاء اللون) من بئر جرى حفرها فى مجرى السيل: وعندما أدخلوا إبلهم كى تشرب ،أقنعت واحداً من أولئك البدو الرحل أن يعطينى قليلا من الحليب (والسبب فى ذلك أن المكان هنا عبارة عن طريق وعليه مرور كثير). وعلى المنطقة المرتفعة التى تقع أمامى شاهدت محطة من محطات شرطة الجمّالة.

- عندما مالت شمس العصر إلى الغروب، مضينا قدما فى طريقنا: وانضم الينا أثناء رحيلنا عن تلك المحطة رجل مكّى لطيف، خال من التشدد، ومعه ولده." قال رفاقى: افرح ، ياخليل، سوف نريك جدة اعتبارا من المرتفع القادم."- وهنا بدأت أرى البحر أبيض اللون، وهو يلمع فى ضوء الشمس،كما شاهدت أيضا السفن الطويلة وهى فوق سطح الماء، كما تراءت لى أيضا منارات أو إن شئت فقل: مآذن مساجد المدينة." كان من رأى رفاقى أنى يتعين على أن أجعل من ذلك الحدث مناسبة مفرحة لنفسى. - فى ذلك السهل شاهدت آخر خيام المسلمين المصنوعة من الشعر؛ هؤلاء الناس الذين يسكنون هذه الخيام ،وإن شئت فقل : بيوت الشّعر، يطلق الناس عليهم هنا أيضا البشر (نسبة إلى قبيله بشر.).

الأرض الرملية المنخفضة الواقعة أمام مدينة جدة فيها الكثير من حقول القرع العسلى، أحمر اللون، وحقول البطيخ الذى تجود زراعته فى هذه الأرض - بدون ري بفضل الرطوبة المدارية! نادى بعض الرفاق المصاحبين لى على بستانى زنجى، وطلبوا منه أن يحضر لنا شيئا من ذلك القرع العسلى ومن البطيخ ،كى نسرى به عن أنفسنا ؛ ووعدوا الرجل بإعطائه شيئا من النقود كى يشترى بها لنفسه شيئا من التبغ - وقد امتدحت ذلك العبد عندما رفض أن يعطينا بضاعة سيده؛ ولكنهم لعنوا أباه، وعيَّروه بزنوجته ، كما وسموه بأنه حيوان ووغد. وعندما وجدت أن رفاقى بدءوا يتوانون بعض الشيء ، طلبت منهم إسراع الخطى فى اتجاه المدينة ، نظرا لأن الشمس كانت قد أوشكت على الغروب . ولكن العبيد ردوا علَّى قائلين :"نحن لانستطيع دخول المدينة وعلينا غبار السفر وترابه! سنقوم بتبديل ملابسنا فى بداية الأمر."- وبالإضافه إلى ذلك أرغموني، وزينوني كى أكون" أمير الأعراب،" على حد قولهم ،بأن ألبسوني الملابس الطيبة التى أعطانى الشريف الطيب إياها.

واصلنا مسيرتنا؛ وقالوا لى بلغة أهل الجزيرة العربية من الحضر:" عندما نصل ، يجب أن تتكلم على النحو الفلانى والعلاّنى(كما لوكنت بدويا، وأن يكون الصوت صادرا من قصبتك الهوائية الجافة)، جَّواك Gowak يا ya المحافظ el-Mohafuth! كيف keyf عندكم endakom" الإبل el-bil ؟ الثمن eth-themn الغنم el-ghrannem إيش eysh؛ و wa إيش eysh أجيب ijib السَّمن es-Samn ؟ هذه العبارات تعنى: "قَّواك الله، يأيها المحافظ! كم أسعار الإبل هنا؟- وماهى أسعار الأغنام ؟ وماهى أسعار السمن أيضا ؟" وهنا بدأت أشاهد صحراء ساحل البحر أمام ناظرى! - شاهدت أيضا أعمال المحاريث ، التى كانت على شكل قنوات فى اتجاه المدينة، وكانت كل قناة من تلك القنوات تنتهى بخزان له غطاء. تجار الماء الأثرياء هم الذين يمتلكون هذه البرك Birkets: مياه الآبار فى كل أنحاء جدة مالغة المذاق ، وكل فرد من أهل المدينة يتعين عليه شرب ذلك الماء المالغ نظير ثمن يدفعه . أرى عن يمينى هنا" قبر حواء Howwa التى تعد حسب الموروث الإبراهيمى الأم التعيسة للجنس البشرى : لقد وضعوا "قبر حواء"، يصل عرض ذلك

القبر إلى ياردة واحدة أما طوله فيقرب من نصف فيرلونج furlong . تجاوزنا بوابات المدينة وسرنا خلال الشارع "إلى قصر الشريف": ولكن هذا القصر أصبح ملكا لواحد من التجار(واحد من أتباع الشريف وعملائه) ، وهو الذى بنى هذا القصر الفخم مؤخرا فى هذه المنطقة ـ وهذا القصر هو أعلى مبانى جدة قاطبة. وفى صباح اليوم التالى دعيت إلى كرم القنصلية البريطانية الوفير.

ملحق الجزء الثانى

جيولوجيا شبه الجزيرة العربية هى من النوع العربى البسيط: فهى عبارة عن رف صخرى، من فوقه أحجار رملية، ومن فوق هذا الحجر الرملى توجد صخور رملية، ثم طبقة من الحجر الجيرى (الصورة رقم ١٣). هناك أيضا اتساعات أرضية شاسعة (كما هو الحال فى مرتفعات الحوران فى سوريا) من الصخور البركانية والبراكين الخامدة. والصخور النارية هنا عبارة عن جرانيت رمادى اللون وأحمر اللون، فضلا عن البازلت بأنواعه المختلفة؛ لقد عثرت على هذه الصخور فى الجزء الأوسط من الأرض المرتفعة من الجزيرة العربية [وهى تمتد من جبل الشمر إلى مدينة جدة أى حوالى ٥٠٠ ميل] والصخر الرملى يشكل المنطقة المحفور فيها آثار كل من بترا Petra ومدائن صالح؛ وقد تتبعت ذلك الصخر الرملى من هذه المنطقة التى تمتد جنوبا لتصل إلى منطقة قريبة من المدينة (المنورة) [حوالى ٥٠٠ ميل] إلى صحراء النفود، أوإن شئت فقل:إن الصحراء الجرداء فى الجزيرة العربية تنتمى إلى هذا التكوين الصخرى الرملى. وطريق الحج الذى يبدأ من دمشق يمتد خلال منحدر مرتفع من الحجر الجيرى [لمسافة تزيد على ٢٠٠ ميل]، ويمر خلال عمون Ammon، وموآب وآثار سعير Seir إلى أن يصل إلى معان (فى إيدوم Edom). هذا الحجر الجيرى موجود أيضا فى جبال سعيرSeir ، ومعه عروق من الصوان الذى نشاهده أسفل بيت لحم، خلف البحر الميت . لم أعثر إلاعلى قليل جداً من الأصداف فى الحجر الجيرى فى منطقة معان . كما عثرت أيضا على بعض النقوش التى تشبه المحار فى الحجر الجيرى (خارج منطقة الصوان) فى صحراء موآب.

الباحث يشاهد فى الصخر الرملى واسع الانتشار فى الجزيرة العربية ، وجود أحزمة وطبقات من الفقاقيع البللورية الزجاجية؛ ولكن مع كل ذلك لم أعثر على أى شكل

من أشكال النباتات أوالحيونات- يضاف إلى ذلك أن منظر الصخور الرملية والصخور الجيرية، وكذلك المناطق البركانية، أوإن شئت فقل: الحَّرات يراه الرائى فى طول شبه الجزيرة العربية وعرضها . وتقدرالمنطقة غير المعروفة لى، فيما بين دمشق ومكة، بحوالى ٢٠٠٠٠٠ ميل مربع. الحرات ، على الحدود الغربية لشمال الجزيرة العربية ، والتى تبدأ من تبوك- تستمر إلى مسافة حوالى ٦٥٠ ميل إلى أن تصل إلى مكة . [الحرات الأخرى، التى ليست موقعة على الخارطة، والمعروفة لى أنا شخصيا هى: حرة الحمراء – بالقرب من وادى الدواسر ، وحرة السودة - فى جبل طويق Tueyk.

الكلمات العربية عند دوتى(*)

(*) هذه الكلمات جرى استعمالها وشرحها فى متن الكتاب .

عاد: قبيلة قديمة فى جنوب الجزيرة العربية	'Aad
عدى علينا	A'addi'aley-na
أعراب	'Aarab
أعراب الزامل	'Aarab Zamil
مارون	Araron , Harûn
الآب: قرية من قرى مدينة حرب	El-Âb
آب الغرنم: عميد أعراب بلقاء	Ab el-Ghrennem
حرة أبا رشيد	Aba Rasheyd
العبادلة: قبيلة من الأشراف	El-'Abàdella
جبل آبان: جبل أبنات	J. Abàn
أبنات: جبال أبنات	Abànàt
عبارة: طريقة	'Abâra
العباس: عم محمد (ص)	'Abbas
عباسية: ساحل حجرى بالقرب من مسمة	Abbasîeh
عبد	'Abd
عبد العزيز البسام	'Abd-el'Azîz, le-Bessàm
عبد العزيز: أمير بريدة الأسبق	'Abd-el'Azîz
عبد العزيز المتعب بن الرشيد	'Abd el-Azîz, el- Metaals, Ibn Rashid
عبد العزيز الرومان: شيخ تيماء	'Abd-el-'Azîz, er-Román
عبد العزيز	'Abd el-'Azîz

'Abd-el-Hâdy	عبد الهادى
'Abd-el-Kâder	عبد القادر: الشريف الجزائرى
'Abd-el-Kâder	عبد القادر: حارس القلعة الشاب
'Abd-er-Rahmàn	عبد الرحمن: ولد عبد الله البسام
'Abd-el-W?hâb	عبد الوهاب
Abda, Shammar	عبدة شمَّر
B. Abdillah, Harra	حرة بنى عبد الله
'Abdillah Pasha	عبد الله باشا
'Abdullah ibn Abbas	عبد الله بن عباس
'Abdullah, el-Bessàm	عبد الله البسام
"Abdullah el-'Aly	عبد الله العلى
'Abdullah el-;Azîz	عبد الله العزيز المحمد: أمير بريدة الراحل
'Abdullah	عبد الله: أمير سابق من أمراء بريدة
'Abdullah	عبد الله: مسيحى غريب زار حائل
'Abdullah	عبد الله: أصغر أبناء حمود العبيدى
'Abdullah el-Kennèyny	عبد الله الكنينى
'Abdullah weled Mahanna	عبد الله: ولد مهنا
'Abdullah el-Moslemanny	عبد الله المُسلمنى
'Abdullah ibn Rashîd	عبد الله بن الرشيد
'Abdullah ibn S'aûd	عبد الله بن سعود

'Abdullah ibn Sellàm	عبد الله بن سلام
'Abdullah	عبد الله شريف مكة
'Abdullah, es-Siruân	عبد الله السروان (أبو على)
'Abdullah	عبد الله: ولد طلق
'Abdullah el-Yahŷya	عبد الله اليحيى
'Abdullah ibn Yahŷya ibn Selèym	عبد الله بن يحيى بن سليم
'Abdullah	عبد الله: ولد الزامل أمير عنيزة
'Abeyd ibn Rashîd	عبيد بن الرشيد
'Abdeydillah	عبيد الله السحيمى
J. el-Abiath	الجبل الأبيض: البيضة
'Abîda	عبيدة: فرع من القحطان
'Abuida	عبايدة: أعراب بالقرب من جدة
Abu, abûy	أبو: أبوى: أب
Abu 'Aly	أبو على
Abu Bâkkar	أبو بكر
Abu Bàtn	أبو بطن
Abu Daûd	أبو داود
Abu Fâris	أبو فارس
"Abu Fâris	أبو فارس: سليمان
Abu Feyd	أبو فيض: موقع قريب من بريدة

Abu Khalîl	أبو خليل
Abu Krûn	أبو قرون
Abu Middeyn	أبو مدّين: قروى من خيبر
Abu Moghrair	أبو مغرير
Abu ['Bû] Ras	أبو راس
Abu Rashîd	أبو رشيد: سائق فى موسم الحج
Abu Rashîd	أبو رشيد: تاجر فى قرية العلا
Abu Robai	أبو روبى: أسم قرية
Abu Sammakh	أبو سماخ
Abu shamah	أبو شامة
Abu Selim	أبو سليم
Abu Sháhr	بو شهر: مدينة فارسية
Abu Shauk	أبو شوك: قنفذ
Abu She'ab	أبو شعب: واحة فى وادى فاطمة
Abu Sinnán	أبو سنان
Abu Sinûn	أبو سنون
J. Abu Tâka	جبل أبو طاقة
Abu Towfish	أبو توفيش: مرض الكوليرا
Abu Thain	أبو طين: بحيرة فى العويرض
Abu Zeyd	أبو زيد

عبود: خبز غير مخمور مخبوز على الحجر	**Abûd**
عاد	**'Ad**
بنى آدم	**Beny Adam**
آدمى	**Adamy**
عدن	**'Adan**
عديلة: اسم كلب	**Adilla**
وادى الديرة: وادى الحسى	**W. Adîra**
عدو	**'Adu**
عدو الدين	**Adu ed-dîn**
عدوان: فرع من المعازى	**Aduàn**
عدوان: سم كلب	**Aduàn**
وادى عدزيز	**W. Adzîz**
عايد (عد): مسقى	**Aed, Ad**
العرين	**El-'Aerîn**
عفارة: من أقارب أهل خيبر	**Afâra**
عفاريت: فرع من العُمَّر	**Afarît**
عفاريت: جمع عفريت	**'Afarît**
عفارم (كلمة تركية)	**Affârim!**
العفرى: غزال لا يشرب الماء	**El-'Âffery**
عفنين: فاسدين	**'Affinîn**

عفن	'Affn
عفون: جمع عفن	'Affûn
عافية: صحة	'Afia
عفيف: بئر قديمة بين مكة والقصيم	'Afif
الأفلاج	El-Aflâj
عفريت: جن	'Afrît
العفو	El-'Afu
عفوه: عفواً	'Afuah
عفون: فاسد	Afûn
عافية عليك	'Âfy aleyk
العقاب: نوع من النسور	El-'Agab
العقاب: جمع عقبة	El-'Agab
أعراب العقابة	El-'Agaba
عقال	'Agâl
العقال	El-'Agal
العاقل الله	El-'Agal Ullah
العقيل: محطة صحراوية	El-Âgel
الإثيلي: موقع خرب من بالقرب من حرادة أو حردة	El- É thelly
أثلة: شجرة طرفاء	Éthla
جبل إثلب	J. Éthlib

جبل إثماد	J. Ethmâd
جبل إثنان	J. Ethnân
اثنى عشر كلب	Ethn'asher kelb
العتم: شجرة الزيتون التى جُلبت من سوريا	El-'Etîm
اطرش: تقدم نحو الأمام	Étrush
إيه الخبر: ما هى الأخبار	Ey kh?bar
إياد	Eyâd
إياد: شخص من البشر	Eyâd
عياده بن عجوين: شيخ الحطيم	Eyâda
العيال: فرع من عتيبة	El-Eyàlla
عيار: مؤسس العيارية	Eyàr
العيارية	El-Eyarîeh
أيش بو: مالذى يؤلمه	Eysh b'hu
عيال عم: أبناء عم	'Eyyâl 'amm
عيال الشيوخ: أبناء الشيوخ	'Eyyâl es-sheukh
الفداغرة: فرع من الشمر	Faddaghra
الفايرة: قرية من قرى بنى سالم	El-Faera
فهد: حيوان	Fáhd
فهد: أكبر أبناء عبيد بن الرشيد	Fáhd
بنى فهم	Beny Fàhm

Fâiz	فيز: رجل ماهوبى
Fakir	فقير
Fálaj	فلج جمعه أفلاج
Far'aoun	فرعون
Fáras	فرس
Fardûs	فردوس: فهجى
Fâsid	فاسد
El-Fasîha	الفصيحة: اسم أنثى بدوية .
El-Fâtha	الفاتحة: فاتحة القرآن
Fâtima	فاطمة
W. Fâtima	وادى فاطمة
Fâtir	فاتر: رجل كبير السن: عجوز
Fattish	فتش: أبحث
Fatya	فتيّة: سلّة
El-Faur	الفور: قبيلة من الأشراف
Fedd'an	الفدان: فخذ من البشر
Fehjât.	زبائن فطراء الحطيم للفكارة
Féhjy	فهجى، مفرد فهجات
El-Fejîr	الفقير، مفرد الفقارة
Fejjuân	فحوان: اسم كلب

Féjr	فجر: قروى من تيماء
El- Féjr	الفجر
w. Fellah	وادى الفلاح/ وادى الحسى
Felûs	فلوس/ نقود
Fen el-ma'aziba	فين المعزبة
Fen Rubbuk	فين ربك
Fend	فخذ من قبيلة
Fenjèyl	فنجال
Fenjèyn	فنجين: فنجال القهوة الصغير
Ferâ	فرعة
El-Fer'a	الفراع
El-Duffîr	الظفير
Dúksa	دكسة
Dulàb	دولاب
Dullû	دلو
Ed-Dumm thekîl	الدم ثقيل
Dungola	دنقلة
Durf ed-Drawish	ظرف الدراويش
Dazt (That)	ذات: قلعة من قلاع الحج
'Ebbeden Effendy	أفندى الفايز: شيخ بنى صخر فى موآب

Eflah	إفلا
J. Éhad	جبل أُحد
Eherrij	هرج
Éherris	أحرز
Ejja	جبل أجأ
'Ekîm	إكيم
Eljy	إلجى: قرية قريبة من بيترا
El-'Elk	علك
Ellathi th?bah	الذى نبحه
El-'Elûm	العلوم
Elyâs	إلياس، شقيق قيس
Emir	أمير
Emir el-Hâj	أمير الحج
Emir el-kâfily	أمير القفيلى
Ems,	أمس
El-Engéll	الإنجيل
El-Engleys	الإنجليز
El-Engleysy	الإنجليزى
Enhaj	إنهاج

النشيفة: أنقاض فى موآب	**Ensheyfa**
أنشينش: أنقاض فى موآب	**Enshèynish**
أنثى	**Entha**
إنت كلب	**Ent kelb**
إنزان: ساحل جبلى فى تيماء	**Enzân**
أفرايم : قبيلة	**Ephraim**
إربعة: فرع من عتيبة	**Erb'a**
إرباح: إنقاض قرية بالقرب من تيماء	**Erbah**
أربيلات: فرع من ولاد على	**Erbeylát**
العرق: فى الوشم	**El-'Erk**
عرقة: جبيل	**Erka**
عرن: بنات	**'Er'n**
الروضة: مسقى من مساقى الفكارة	**El-'Erudda**
عشة: نوع العشب	**El-Esha**
أسقنى	**Eskîny**
السلام: فرع من الشمر	**Éslam**
اسمع	**Ésm'a**
الأسمر: جبل من الجبال	**El-Ésmar**
الأسومة: فرع من عتيبة	**El-Esomma**
الأسود: الجبل الشمالى من الأبنات	**El-Éswad**

El-Éswad	الأسود: سائق من السائقين فى الحج
Ethbah-hu!	أذبحه
El-Âgella	العقيلة
Âgerra	عجيرة: المياه القريبة من سطح التربة
'Ageyl	عقيل: أحد راكبى الجمال من نجد
'ageylát	عقيلات/ عقيل
El-Ageylát	العقيلات: من أقارب بنى عطية
Aghrûty	أغروطى
'Agîd	عقيد: جارى القافلة
W. 'Agîg	وادى عقيق، بالقرب من شعارة
El-'Âgorra	الأجورة/ شوك العجوز
Ahl el-aard	أهل الأرض/ الجان
Ahl Athab	أهل عذاب
Ahl byût	أهل بيوت
Ahl Gibly	أهل قبلى
Ahl Hàjjur	أهل حجور
Ahl hàwâ	أهل هوى
Ahl kellimy	أهل كلام
Ahl es-Shemâl	أهل الشمال
Ahl Theyma	أهل تيماء

أهل طين: ساكنو بيوت من الطين	Ahl tîn
الأحمر، الجبل الجنوبي من أبنات	El-Ahmar
أحمد (شقيق محمد النجومي)	Ahmed
أحمد (محمد ص)	Ahmed
أحرار	Ahrâr
عيدة: اسم كلب	Aida
العينات: أقارب الفكارة	Ainàt
عيون: فراشة	Aiûn
عجاج	'Ajâj
أعجمي	'Ajamy
حرة عجيفة	'Ajeyfa
عجيلان: اسم كلب	'Ajilân
جبل أجأ	J. Ajja
عجاج: الريح المحملة بالرمل	'Ajjâj
عقدات (كلمة قصيمية)	Âjjidát
أجيلة: جبل بين القصيم ومكة	Âjjilla
عاقر	'Ajjr
عقيل: قروي من تيماء	Aj(k)eyl
أجلاب: تقال للحيوانات سواء كانت إبل أم خيول	Ajlâb
العجمان	El-'Ajmàn

Ajüj	يأجوج
El-Ak(Ach)	الآك: ممر فى جبال الطويق
'Akaba	عقّب: فسّر
'Akaba Alya	عقبة عالية
'Akaba es-Shemîya	عقبة الشامية
'Akaerît	عكاريت: كلمة مصرية وسورية
Akhbâra-'d-Dûal	أخبار الدول: اسم كتاب
Akhdar	أخضر
El-Akhma	الأخمة: الصخور التحتية فى حرة سهل مدين
Akhu	أخو: شقيق
Akhu Noora	أخو نورة
Akh?ey	أخى: تصغير أخ
Akilla	عقيلة: موقع صحراوى الماء فيه قريب من سطح الأرض
'Akkâm	عكام
El-'Alem	العَلِم: اسم جبل
'Alemny	علمنى
'Aleyî	علىٍّ: قرية فى العروض
'Aleyk 'áhad Ullah wa amán Ullah, in mâ akhûnak	عليك عهد الله وأمان الله أن ما أخونك
Aleykom es-salaam	عليكم السلام
Aleynak sâdik	عليناك صادق

عالية: زوجة أبو زيد	'Alîa
علىً: قرية من قرى بنى سالم	'Alîy
الله	Allah
العلايدة: شيوخ فرع ولاد على	Allàyda
العلوِّى: شيخ شيوخ ولاد على	'Allowîy
العلا: اسم قرية	El-Ally
العلاونة	'Alowna
العلاونة	'Alowwy
عَلوّى	'Aly
على عقله	'Aly 'aklu
على: الأمير التنفيذى فى عنيزة	'Aly
على: رقيب زنجى مع أمير عنيزة	'Aly
على: قصَّاد فقير من بنى عطية	'Aly
على العيد: جار فى حائل	'Aly el-A?id
العلى: فرع من البشر	El-'Aly
العلى: حرب بنى على	El-'Aly
بنى على: فرع من حرب مصروح	B. 'Aly
على: حربى مسكين من بنى على	'Aly
ابن على: أسرة من أسر حائل	Ibn 'Aly
على هونك	'Aly houn-ak

'Aly	على: شيخ متدين من خيبر
'Alylahŷaty	على لحيتى
'Aly	على: أحد أتباع مجيد الحمود
'Aly	على: الإمام على كرم الله وجهه
'Aly el-Rasheyd	على الرشيد: من عنيزة
'Aly es-Sweysy	على السويسى
Aly	على: الابن الصغير من أبناء الزامل
Amân	أمان: عبد حبشى معتوق
Amân	عَمان:
El-'Amâra	العمارة: حقل من حقول القمح فى البصرة
'Ambar	عنبر: ضابط من الجلا فى حائل
'Am'dàn	عمدان: جمع عمود
Ameah	أمياه حكران
'Amed	أعْمد: أذهب مباشرة إلى
'Amik	عميق
'Amm	عم
'Ammàn	عمان: عمون
'Ammar	حلة عمار
'Ammarát	العمارات: فرع من البشر
'Ammatak	عمتك

Ammera	أميرة: اسم كلب
Beny 'Amr	بنى عمر: فرع من حرب مصروح
Beny 'Amr	بنى عمر: من حرب بنى سالم
'Amr Ullah	أمر الله
'Amûd	عمود
'Amûd	عمود: فرع من الشمر
W. Amud?n	وادى عمودان فى تهامة
Ana abûk	أنا أبوك
Ana ajizt	أنا عجزت
Ana akhtak	أنا أختك
Ana akhu chokty	أنا أخو شوكتى
Ana bi wéjhak yâ sheikh	أنا بوجهك يا شيخ
Ana efla yowwella	أنا أفلح إى والله
Ana meyet	أنا ميت
Ana min dîrat beyt Ullah	أنا من ديرة بيت الله
Ana nusîk	أنا أُنسِك
Ana sabáktahum	أنا سبقتهم
Ana ummak	أنا أمك
Ana ússhud!	أنا أشهد
Ana weled abûy	أنا ولد أبوى

Ana werrîk	أنا أوري؛
El-Anâbis	حرة العنابس بالقرب من المدينة المنورة
Anâg	عناق: ربعية صغيرة من الماعز
Anatoly	أناضولى
'Anàz	عناز: عميد العنزى
'Anàz	عناز: تل فى حرة العويرض
Andalûs	الأندلس
'Aneybar	عنيبر
'Aneyza	عنيزة
'Anezy, kellâ	قلعة العنزى
Anfàd	أنفار: جمع نفر
Anmâr	عمار: عميد من عمداء العرب
El-Ânnezy	العنزى
'Antara	عنتره
El-'Antarîeh	العنترية
El-'Anûz	العنوز
Aorfy	عرفى
El-'Arab 'akl-hum nâkis	العرب عقلهم ناقص
'Araba	وادى العرابة
L'Arabie avant	العرب قبل

عربى: اللغة العربية	**'Araby**
العرادات: فرع من البلوى	**Aradát**
عرفات	**'Arafát**
الأرنطة: قبيلة من الأشراف	**El-Aránta**
العرار: نوع من الأشجار	**El-'Arár**
العربان	**El-'Arbân**
أرض بعل	**Ard ba'al**
أرض جدَّار	**Ard Jiddàr**
أرض الكلبى	**Ard el-Kelby**
أرض الصوَّان	**Ard (es) Suwwan**
أردب	**Ardub**
أريج: محطة صحراوية بالقرب من تيماء	**Areyj**
عريميش: اسم جمل	**Areymîsh**
عريضان: جبل صحراوى بين مكة والقصيم	**'Aridàn**
نفود العريش	**El-Arîsh**
الأروة: فرع من جهينة	**Aroa**
عربون	**Arrobûn**
العرفج	**El-'Arrafej**
العراكى: موقع صحراوى بين حائل والكويت	**Arrak'i**
العروض	**El-'Aruth**

'As'	عسى
'As' Ullah	عسى الله
Ashâb en-Néby	أصحاب النبى
Asheyfât	عصيفات: أقارب أهل خيبر
Ashîrat	عشيرة
'Ashîry Harra	حرة العشيرى
El-Ashrâf	الأشراف
Asîly	أصيل
El-Asîr	عسير
'Askar	عسكر
Askar	عسكر: ولد مشهل العواجى
Asl	أصل
El-Asmîeh	العازمية: قرية الفجير
Asnâm	أصنام
b. Assad	بنى أسد
Beny Ass'm	بنى أسوم: فرع من حرب مصروح
El-Assr	العصر
Aswâk	أسواق
'Asyîn	عاصين
Âtàfa	عطافة

عتيقة: اسم أنثى بدوية	'Ateja
عطيوى: شيخ فى خيبر	Atèwy
العطيات: فرع من عتيبة	El-Ateyàt
عتيبة	'Ateyba
عطيفة	Atèyfa
العطيفات: أقارب أهل خيبر	El-Atreyfàt
العذب: مصل جدرى البقر	El-'Athab
أطحن لك عويش: أعد لك طعامك	Athan 'lak 'oweyish
عذبة: اسم أنثى بدوية	Atheba
العذيب: آبار بين مدائن صالح والعلى	El-'Atheyb
الذّبة: النحل البرى	Athubba
بنى عطية	Beny 'Atîeh
العطيلى: مسقى من عدة آبار فى ديرة ولاد سليمان	El-Atóylî
عطر، عطار	'Atr, 'Attar
آتشه: اسم جمل	Atsha
عطر الورد	'Attar
العطار: قرية فى وسط نجد	El-Atthar
عطولة: جبل بين القصيم ومكة	Atûla
عطا الله: قروى ثرى فى تيماء	Âtullah
جبل عطوة بجوار خيبر	J. Atwa

عوافى	'Auâfy
عواجى فرع شيوخ البشر فى نجد	'Auàjy
العوازم	Auâzim
عود: بخور	'Aud
عودة: اسم كلب	Auda
الأولين: أهل الأزمان القديمة	El-Auellîn
عونيات مسلات الأمان	'Aueynat Masallat
حرة العويرض	'Aueyrid Harra
العويرض	El-'Aueyrid
العوف	El-'Auf
عوفى	'Aufy
عويهلان: مكان تجمع بالقرب من عنيزة	'Auhellàn
العول: مكان للتجمع فى جبل شمر	'Aul
عونك	'Aunâk!
وادى عروش، فى الحرة	W. 'Aûrush
عثيم: هجرة فى بلاد بن الرشيد	'Authèm
عواد: قاضى فى حائل	Auwàd
عواد: قاضى فى خيبر	Auwàd
حرة العوالى بالقرب من المدينة المنورة	El-Auwâli Harra
عويذة: اسم أنثى بدوية	Auweytha

'Awaj	عواج
El-Ayathat	العياذات: قرية فى وادى الدواسر
'Aŷb	عيب
'Aŷb	عيد: شخص ماهوبى
'Aŷb eth-thahîa	عيد الضحية
'Aŷb-ak mubârak	عيدك مبارك
Aydân	عيدان: جمع عود
Ayeyna	العيينة، فى وادى حنيفة
'Aŷid ibn Mertaad	عايد بن مرتاد
'Ayîna	عينة: عيون وأنقاض: محطة صيفية
Ibn 'Ayith	ابن عايض: شيخ زنجى مُتدين فى عنيزة
Ayla	عيلة: قرية على رأس خليج العقبة
El-Âyn	العين: عين الحسود
'Ayn 'Aly	عين على: ينبع فى خيبر
'Ayn ibn Ghróbon	عين بن غربون: محطة شرقى طريق الحج
'Ayn er-Reyih	عين الريح: نبع بالقرب من خيبر
'Ayn Seleîm	عين سليم: بالقرب من خيبر
'Ayn es-Sweyna	عين السوينة: قرية فى غرب السد
'Any ez-Zeyma	عين الزيمة
'Aysa-bin-Marim	عيسى بن مريم

'Aysa	عيسى
'Aysh	عيش
'Aysht	عشت: شكراً
El-'Ayûn	العيون
'Ayûn bilâ simûm	عيون بلا سموم
'Azîz	عزيز
Azzuâl	أزوال، جمع زول: رجل
Bab	باب
Bab el-'Aarab	باب الأعراب
Bab el-'Aly	الباب العالى
Bab Tooma	باب القديس طوماس فى دمشق
Bab es-Seyl	باب السيل
Bâch (&) ir	بكير: غداً
El-Bâdia	البادية
Baedi	بئيدى: موقع للتخييم فى حرة خيبر
Bagdad	بغداد
Baggl	بكل: لبن مجفف
Bàghrila	بغلة
Bahâim	بهائم
Bahhir!	بحر

Bahr eth-Thellam	بحر الظلام
Bairàm	بيرم: عيد
Baith Naam	بيض نعام
El-baitha	البيضة
Baitha Nethîl	بيضاء النثل
Bak'a	بقعة: بين حائل والكويت
Bakhil	بخيل
Bakhorra	باكورة
El-Bakht	البخت
Bakhûr	بخور
J. Bákr	جبل بكر
Bakr el-Wahashy	البقر الوحشى
Bakshîsh	بقشيش
Bâmiya	بامية
Banna	بُنَّة: اسم امرأة بدوية
Barâd	براد: هواء معتدل الحرارة منعش
W. Bárada	وادى بردى بالقرب من دمشق
Barâhimma	براهيما، من بنى إبراهيم
Bàrak	بيرق: علم
Barakát	بركات: فرع من البلوى

باريس	**Baris**
البراشدة: قبيلة من الأشراف	**El-Barràcheda**
برَّاج/ برَّاجة	**Barraga**
ابن براك: فرع من الحطيم	**Ibn Barrák**
ابن برَّاك: عميد بنى رشيد من الحطيم	**Ibn Barrák**
برود: قرية فى وسط نجد	**Barrûd**
باشى بزوك	**Bashy Bazûk**
بطن الغول	**Bâtin el-Ghrôl**
الباطنين: فرع من عتيبة	**El-Bat'neyn**
بطَّال	**Battâl**
بول إبليس	**Bawl Iblîs**
الإباضية	**Bayâdiyyeh**
باير: مكان فى الصحراء السورية	**Bayir**
بدور:صنف من العنزى	**B'dûr**
بيبان: جمع باب	**Bébàn**
بدا: قرية مدمرة فى تهامة	**Béda**
بدان: ماعز برى	**Bédan**
بدوِىّ	**Beddaûwy**
بدور: قرية من قرى بنى سالم	**Beddur**
البداونة: فرع فقير من الحطيم	**El-Bedbwna**

Bedr Honeyn	بدور حنين
Bédr ibn Jôhr	بدر بن جوهر
Bédr ibn Telâl	بدر بن طلال
Bedûn	بدون جمع بدنة: بقرة برية
El-Beduw	البدو
Beduwîa	بدوية
Beduwiyát	بدويات
Bedûwy	بدوّى
Begeya	بجاية (قرية من أربعين منزلاً)
Bejaida	البجايدة: فرع من البشر
Bejaija	البجاجة: فرع من البشر
Bélah	بلح
Belais	البليس: أقارب العنزى
Béled	بلاد
Béled el-Aarab	بلاد الأعراب
Béled amân	بلاد عُمان
Béled el-'Asîr	بلاد عسير
Béled mât	بلد مات
Béled er-Rûm	بلاد الروم
Belka	بلقاء

Belka, Kellât el	قلعة البقاء
Bellah	بلح
Bellezzîeh	بلزّية: مستوطنة لزراعة القمح فى بلاد الرشيد
El-Bellush	البلوشى: مرض الكوليرا
Banana	بنانة: مسقى فى جبل شمر
Benàt	بنات
Benàt et-Tî	بنات التيه: أعظم نياق الحطّيم
Beneyyi	بنيى: شخص من الماهوبى
Bény el-Bint	بنى البنت: أنقاص سد بالقرب من خيبر
Berber	بربر
Berdàn	بردان: بشوت من الصوف الخشن
Berkû'a	برقع
Berméta	برنيطة
Bérni	البرنى: نوع من التمر فى قرية العلا
El-Berrarîj	البراريج: بطن من بطون عتيبة
Bersîm	برسيم
El-Bertha	البرثة: بير الحطيل بالقرب من مكة
Bess	بس: كفى
Bessàm	بسام: عائلة ثرية فى عنيزة
Bessàm	عبد الله البسام

بسام آخر رحّال	El-Bessàm
البسام: أسرة أخرى غير بسام عنيزة	Bessàm
بسام: اسم قرية	Bessàm
بذرة: بذرة التمر	Bethra
بتراك: بإذنك	B'ethrak
البتيرة: أنقاض بلدة فى جبل سعير	El-Bettera
بيلان: قرية تركمانية فى أعالى سوريا	Beylàn
البيريح: أمس	El-Beyrih
بيروتى: بستانى من بيروت يعيش مع العرب فى الجزيرة العربية	Beyrût
بيت	Beyt
بيت أخريمات: أثر جميل فى مدائن صالح	Beyt Akhreymát
بيت المال	Beyt el-mâl
بيت	Beyt
بيت شعر	Beyt es-shaar
بيت الشريفة	Beyt es-Sherèyfa
بيت الشيخ	Beyt es-Sheykh
بزير: قصر الشبيب	Bezîr
أعراب البجوم	B'goom Aarab
بوجهى	Bî wéjhy
بيّاع الماء	Bîa'a el-má

Bîát	بيات: لعبة من لعب خيبر
Biddîa	بدّية: هجرة من هجر جبل شمر
El-'bil	البل: الإبل
B'il kheyer insh' Ullah	بالخير إن شاء الله
Billah	بالله
Billî	بلىّ: جد البلوى
Billî	البلى: قبيله قديمة فى تهامة
Billy	بلى: اللفظ البدوى للكلمة السابقة
Bîm-bashy	بمباشى: لقب عسكرى تركى
Bint	بنت: ابنة
Bintu	بنته: ابنته
Bîr	بير: بئر
Bîr el-Ghrannem	بير الغنم بالقرب من وادى فاطمة
Bîr en-Nâga	بير الناقة
Birket	بركة: خزان ماء
Birket el-Engleysy	بركة الإنجليزى
Birket Mo'addam	بركة معضم
Birkets	برك تجار الماء فى جدة
J. (Thul'a)	جبل طلاع أو الطور
Bîsan	بيزان: الكلمة الحبشية الدالة على الماء

W. (el) Bîsha	وادى بيشة
Bishr	بشر: قبيلة فرعية من العنزى
Bisher	بشر: بطن من حرب مصروح
Bisher Aarab	أعراب البشر
Bishrîa	بشرية: امرأة من البشر
El-Bishy	البيشى: جماعة مُسلحة من الجنود لخدمة شريف مكة
Bismillah	بسم الله
J. Biss	جبل بس
W. Bissl	وادى بسل
Bîurúldi	بيورولدى: جواز سفر تركى
Bizr et-támr	بذر التمر
Blat, Kellâ	قلعة بلات
Bludàn	بلودان
Boabat	بوابة
Bocca	بَكة: مكة
Boghrâz	بوغراز (بوغاز) : ممر بين الصخور
Bokhâra	بخارى
Bokhŷta	بخيته: اسم لامرأة بدوية
Boreyda	بريدة
Borghrol	برغل (وجبة سورية من القمح)

Borj	برج دفاعى
Borj Selmàn	برج سلمان (أرض صحراوية فى ديرة الفقير)
Borma	بورما (بلدة مهدمة فى جبل سعير)
Borrûd	بورّد (قرية غربى شقراء)
Borusia	بروسيا
Bosra	بُصرى: (أنقاض مدينة فى الحوران)
Bosra	البصرة (مدينة على نهر دجلة)
Bosra	بصرة فى إيدوم
Bothra	بثرة: مجموعة جبال
Bottîn	بطين
Bou	بو: اللفظة المغربية لـ 'أبو'
Braitshàn	برتشان: شيخ بدوى من الشمر
Brik	إبريق
Brim	بريم
Brûssia	بروسيا
W. el-Bûg	وادى البق (فى الجزء الشرقى من حرة العويرض)
Buggân	بوجان: اسم كلب
Buggila	بكلة (شرائح لبن مجفف)
El-Bukkerîeh	البكيرية
Bukkra	بقرة

Bulbul	بلبل
Bullah	بالله !
El-Bûma	اليومة: اسم فرس
Búnder el-Telâl ibn Rashîd	بندر طلال بن الرشيد
Búnder's	بندر: طفل يتيم
Búndur	بندر
Búndur 'Aul?nshy	بندر عولانشى: اسم قرية العلا القديم
El-Bunn	البن
Búrghrol	برغل
Burjésba	برجسبة: مكان صحراوى
Búrjess	برجس: شيخ علايدى شاب
Brnûs	برنس: رداء أبيض يلبسه البربر من المغاربة
Burr	بر
Burr el-'Ajam	بر العجم
Busatîn	بساتين
Busîyeh	بشية: اسم أنثى
Bystân	بِستان
Bystâny	البستانى: طبَّاع فى بيروت
El-Búthenah	البوزنة: هجرة من جهينة
J. Búthra	جبل بثرة

Bútm	بطم: نوع من خشب الأرو
Câbul	مدينة كابول
Caesarea Philippi	قيصر فيلبّى
Ch	ك
Chai	شاى
Châsim	قصيم: القصيم
J. Chhebàd	جبل شيباد
Beny	بنى
Ch(k)essab	كسب
Cheyf-ent	شيف (شوف) أنت
Cheyf Nasrâny	شيف (شوف) النصرانى؟
Chôl	شول
Circass	شركسى
Dab	داب: ثعبان
Daed	دايد: أعراب الهذيل
Ed-D'aika	الدعيكة
Dafina	دفينة: حفر مياه بين القصيم ومكة
El-Dâha	الداحة: محطة صحراوية شمال تيماء
Dâhir	ضاهر: شيخ قرية العلا
Ed-Dâhy	الضاحى: النفود التى بين تيماء والجوف وحائل

الداجين:بطن من عتيبة	Ed-Dajîn
دخيلكم	Dakhálakom
الدخيل	El-Dakhîl
دخيل	Dakhîl
دخيلك	Dakhîlak
دخيل الله	Dakhîlullah
دليل: اسم أنثى بدوية	Dalèyel
دليل الحج	Dalîl
الدام : قرية فى وادى الدواسر	El-Dâm
ابن داموك: شيخ من شيوخ الحطيم	Ibn Dammûk
دنّة: اسم جمل	Dánna
دار الأعراب	Dàr el-'Aarab
الدار الحمرة	Dàr el-Hamra
دار المغر: محطة من محطات الحج	Dàr el-M?ghr
داريم: شيخ تيماء	Dareyem
درقة: هدف	Darraga
داريش: شيخ من الماهوبى	Drŷesh
ذات راس: أنقاض فى أعالى كيراك	Dat Ras
دفينة	Dathyna
أعراب الدواسر	Aarab Dauâsir

W. Dauâsir	وادى الدواسر
Daûd	داود
Dawwa	دواء
J. Debby	جبل ديبى: جبل قريب من سليمى
Debîbat	دبيبة الشام
Deffafiat	الدفافيات
Deghrèyma	دغريمة: اسم أنثى بدوية
Dehgreyrát	دغريرات: بطن من الشمر
Deh !	ده: صوت طلقة البندقية
Ed-Deheysa	الدهيسة: اسم فرس
Ed-Dehússa	الدهوسة: بطن من عتيبة
Ed-Deir	الدير
Dellàl	دلال: أوانى القهوة
Dellâl	دلاّل: سمسار
Ed-Dellam	الدلم: بين الحريق والحوطة
Ed-Dellamîeh	الدلامية: مسقى فى القصيم
Deraan	الدرعان: أقارب العنزى
derâhim	دراهم
Derb el-bukkra	درب البكرة: طريق بين تبوك والدار الحمرة
Derb el-Hâj	درب الحج

Derb es-Sherky	الدرب الشرقى
Derb es Sultâny	الدرب السلطانى
Derb Zillâj	درب زلاج
Derrúby	درويى: من أقارب الصلوبة
Derwîsh	درويش
Deybàn	ديبان: ثعبان
W. Deydibbàn	وادى الديدبان
Deyik es-sudr	ضيق الصدر
Diànat el-Mohammedia	الديانة المحمدية
Dîbàn	الديبان: قرية مدمرة فى موآب
Dibba	دبّاء: نوع من القرع
Ed-Dillum	الديلم: مكان فى وسط نجد
Ed-Dîmn	الزمن
Dims	دمص: كتل البازلت
Dîn el-'Aarab	دين الأعراب
Dîn néjis	دين نجس
Dînya	دنيا
Dîra	ديرة
Dîrat er-Rasûl	ديرة الرسول
El-Diwán	الديوان

الدوادمى	Doàdamy
الدوحة: قرية واحية فى وادى فاطمة	Ed-Dôeh
الفرداسة: من أقارب الحطيم	Ferâdessa
فريج (فريق)	Feraij
قبلى من الفجير	Feràya
الفراية: قرية من قُرى المطير	El-Feréya
فريج (فريق)	Ferij
فرقان (هجر بدوية)	Ferjàn
الفرجين (قمة صحراوية جنوب القصيم)	Ferjèyn
فرنينى	Fernèyny
الفراد (الفراع): قاع وادى جزل	El-Ferra
الفراع (على طريق الحج الأوسط)	El-Ferrâ
وادى الفراع	Wady Ferr'a
الفراع: قرية فى القصيم	El-Ferr'a
فراح: بدوى من الشمر	Ferrah
جيرة: ما يجتره الحيوان	Ferth
الفرودة: فرع من حرب مصروح	El-Ferùdda
الفصاص: محطة بين حائل والكويت	El-Fesas
فيض: قرية فى مُمتلكات ابن الرشيد	Feyd

Feyd	فائد: غنيمة
Fèysal	فيصل
Fèysal ibn s'aûd	فيصل بن سعود
Feythàh	فيضة (قرية)
Fez	فزان: واحدة من مناطق البربرى
El-figgera	الفجارة: حرف الحرة
El-Fīl	الفيل
Firmàn	فرمان
J. Fittij	جبل فتيج
Flamingies	فلمنكيين
F'lûs	فلوس
Fòdil	فُضيل: شيخ من البلوى
El-Fosiha	الفصيحة: اسم أنثى
Frankistàn	أرض الفرنجة
Fransa	فرنسا
Frenjy	فرنجى
Fuàra	الفوارة (مسقى مائى)
Fuddân	فدّان
Fuggar	فجار
Fueyhy	الفويهى

Fuèylik	فويليق
El-Fúggera	الفقارة
Fúk er-rîg	فك الريق
El-Fúkàra	الفكارة:
El-Fúlsifa	الفلسفة
Fulûs	فلوس
Fumm es-seyf	فم السيف: أعراف جنائزية
Fúrja	فرجة: اسم بدوى لأنثى
Furkân	الفرقان: القرآن
Furrk	فرقع
El-Fushîla	الفشيلة: اسم أنثى بدوية
Fustân	فستان (معطف)
Futîs	فطيس
Future	فطور: إفطار
Fuzzna	فُزنا: انتصرنا
Gá'	قاع
Gaaja	الجاجة: فرع من العنوز
El-gá	القاع: مكان مفتوح فى عنيزة
El-Gabîd	القابيد: الجابيد: فرع من الحطيم

Gabbily	جبيلى: جبل فى جنوب القصيم
El-Gâbily	جبيلى: غداً
Gadyta	جديته: جبل الشيخ
Gahwa	قهوة
El-Gaila	القائلة: حرارة الظهيرة
Galla Land	أرض الجالا : أرض الحبشة
Galliûn	غليون
gamel	جمل
gamerèyn	جمألة
Ganna	جنا: عكاز
Gâra	قرية: أرض الواحة
Gârat el-Hajâj	قرية الحجاج
Gârat Owsheyfîa	قرية عويشيف
W. Gârib	وادى قريب
Garra	جرّة: برج مُراقبة
Garr'a	جرّة: وعاء لحمل الماء
Garrôra	قارورة
Gassa	قشّه: قرية فى القصيم
Gathowra	قثورة: فريج من البشر
Gatta	القطا

G'atûny	جاطوئى
G'aud	قعود
El-Gâyth	القيظ
G'dah	القعدة (فرع من جهينة)
Gell'a	قلعة
Genna	جنة: اسم جبل
Gennas	قناص
Gerabis	القرابين (الجرابين)
El-Gerèyeh	القريٌ فى خيبر
Gèreyih	القرية فى تبوك
El-Géria	القرية
Gériat Abu Robai	قرية أبو ربيع
Gerîsh	جرش بالقرب من تيماء
Geryá	قرية: هجرات من الخيام
El-Geryen	القرين: قرية فى الوشم
Gey'atin	قياطين
Gh-r	صوت الغين
Ghradir et-Teyr	غدران الطير
Ghradir	غدير
Ghradràn	غدران

Ghrallah	غراله: اسم جمل
Ghramîk	عميق
Ghrânim	غانم: حداد فى حائل
Ghrannem	غنم
Ghranèym	غرانيم شيخ العنوز
El-Ghrárb	الغرب
Ghrarîb	الغريب
Ghrashîm	غشيم
Ghrátta	غطه: أحجبه عن الرؤية
Ghraymàr	مسقى فى نجد
Ghrazzu	غزو
El-Ghrenèym	الغنيم: جبل فى تيماء
El-Ghrerb	الواحة الغربية فى تيماء
Ghrerra	غرّه
Ghreyth	غريث: فرع من الشمر
Ghrobny	غروبنى
Ghroceyb	غروسيب
Ghrûg	غروق (اسم حصان)
Ghrôl	غول
El-Ghrôl	الغرول: مسقى فى جنوب القصيم

Ghrólfa	الغرلفة
Ghrór	الغرور: أرض جرداء عالية
Ghrormûl	أرض تخييم
Ghrótb	غصبا
Ghróttha	غروطة: نبات الغاضة
Ghroweysh	غواش: ضوضاء
El-Ghrullathî	الغلثى: صُبَيّر
El-Ghrúnemy	الغرونمى: صليبى
Ghrunèym	غرونم: اسم شخص
Ghrûta	غوطة (دمشق)
Ghrurrub	غُرُوب: مكان صحراوى
Ginniyát	جنية
Griby	قرية (للماء)
El-girmella	جرملة: اسم فرس
El-Girt	القُرْط
Girtha	جرثة: اسم أنثى
El-Girthîeh	جرثية: اسم فرس
Gitthera	جثرة:اسم أنثى بدوية
Gluck	قوق: قرْق
Gô	قو: قوم: اذهب

Goâra	قوارة
Goayîeh	قويعية
Gôba	قوبا (جوبا)
Gôfar	قفار (جوفار)
Golbân	جلبان (آبار)
Gôm	قوم
Gomâny	قومانى: عدو
Goom	قم
Wâdy el-Gôras	وادى الجوارس
Gorèytha Harra	حرّة الغريثة
Gorma	قورمة: اسم أنثى بدوية
Gors	قرص خبز
gòrta	أورطة (تركية)
Gòtar	قوطر
Gottha	قطة: جطة: اسم أنثى
Goukh	جوخ
Gowwak	قوّاك
Gowak yâ Mohâfuth	قواك الله أيها المحافظ
Gowwich	قويك
Graaf	جرف

grashimîn	غشيم (جاهل)
Grâuty	قروطى (فرع من البلوى)
Graya	الجراية (فرع من البلوى)
Greyth	قريث (اسم شخص)
Grûn	قرون (فرع من جهينة)
guâd	قُوَاد
Gubba	جُبَّة
El-Gùeyîn	القوين: فرع من البلوى
Gueyrîa	جويرية
Gûm	قم
G. Gurs	جبل قورس
Él-Gúsh	القش
El-Gúsh	قشعة
El-Gush'a	القشّعة
El-Gussa	القصّة
Gussha	قشة
Gutîa	قطعية
Guwiyîn	قويين

Habalîs	حباليص
Habâra	حبارى
e-Hábash	الحبش
Hábashy	حبشى
Habîb	حبيب
HabîbUllah	حبيب الله
Yâ Habîby	يا حبيبى
Hablûs	حبلوص
Habûsh	حبوش
Hâchim	حكيم
Hadàd	حداد
Hadâj	حداج
El-Hadda	الهدا
Hadda	هدا: قرية فى وادى فاطمة.
El-Haddàj	الحدّاج
El-Háddefa	الهديفة
El-Hádduj	الحدوج
Haderûn	حاضرون
el-Hadèyd	الحديد
Hadû	حدو

Haddùj	حدُّوج
Hadùj	هدوج
Hâdy	حادى
Had?d	حديد
Hàf	حاف
El-Hâfera	الحفيرة (اسم كلب)
Hâfrat Zeylul	حفرة زيلول
El-Hafr	الحفر
Hàg eth thúba	حق الذيابة
Hàg Ullah	حق الله
Haggu	حقو (حزام)
hágub	حاجوب
El-Hahlih	الحالية
Hail	حائل
Hâj	حج
El-Hâj	الحج: اسم قلعة
Hâj el-Kasîm	حج القصيم
Hajellán	حجيلان
El-Hajîa	الحاجية
Hajîn	هجين

B. Haajir	بنى حجير
Hajjâj	حجاج
Hàjjar	حجّار
hajjilân	حجيلان
Hajjir	حجّير
Ahl Hàjjur	الحجور
El-hajnowwy	الحجنوى
Hajîya	أعراب حاجية
Hâkim	حكيم
Hakîm	عاقل
El- Hakîm	الحكيم (من أسماء الله)
J. Hakràn	جبل حكران
Hâ' l hazza	ها الحزّة
Hâ' l hôf	ها الحوف
halàl	حلال
Haleyfa	حليفة
halàyma	حليمة
El-H?lhal	الحلال
Halîb	حليب
W. Halîb	وادى حليب

Halla	حلّة
Hallat 'Ammàr	حلّة عمار
Halleyfàt	حليفات
Hàllughra	حالغرة: خزام الأنف
haltîta	حلطيطة
Ham	حام (ولد نوح)
hamâta	حماطة
Hamd	حمْد
El-hamda	الحمد
Hamda	حمده: اسم أنثى
hamdán	حمدان
El-hamdu	الحمدُ
Hamdy	حمدى: اسم أنثى
Hámed	حامد
B. Hamèdy	بنى حميدى
Hameydy	حميدى
El-hamèdy	الحميدى
Hamîn	حميم
Hámmám	حمام: بركة ماء
Hamman	حمان (كيس نقود)

El-Hammam	الحمام (اسم قرية)
Hammazàn	حمازان
Hámmr	حمر
Hamô	حامو
El-Hamra	الحمرة
El-Hamthal	حنظل
Hamûd	حمود
Hamzy	حمزى
Hánash	حنش
Háni	هنى
B. Hanîfa	بنى حنيفة
Hánnas ibn Nômus	هناس بن نومس
El-Háram	الحرم
El-Harameyn	الحرمين
Harâmy	حرامى
Harrârs	حرار
Hârrat	حرة
El-Harb	الحرب
Harb el-awwel	الحرب الأولى
Harb eth-thâny	الحرب الثانية

Harreem	حريم
El-Harèyry	الحريرى
Harik	الحريق
Harra	حرّة
Harratharûn	حرة هارون
El-Hása	الحسا (الإحساء)
Hásan	الحسن
Hâj Hásan	الحاج حسن
Hashîah	حشيَّة
Hâshy	حاشى
El-Hassanîeh	الحسانية
Beny Hassèyn	بنى حسين
Hasseyn	حسين
El-Hassîd	الحصيد
Wady el-Hassîd	وادى الحصيد
El-Hâsy	الحسى
Hât-hât-hât	هات – هات
Hátab	حطب
Hátha	هذا
Hathariyát	حضريات

Hatheyl	هنيل (حطيل)
Hâthi	حاطى (اسم قرية)
Hâthir	حضير (حضر)
Hâthîre	حظيرة
F. Hatthon	جبل حطون
Hauràn	هارون
Hauta	حوطة
El-Hauta	الحوطة
Hâwas	حواس
Hawd	حوض (غدير)
Hawwa	حواء
Hawwâma	حوّامة
El-Hâyat	الحايط
hayâtak	حياتك
Hàyer	حاير (حائر)
Hayfa	هيفاء
Hâyil	حائل
Hayzàn	حيزان
Házam	حزام
Házim	حزيم (فرع من حرب)

Hazkiyal	حزقيال
Házm	حزم
El-Házzam	الحزّام
Hazzel	مسقى الحذيل
Hazzeym	حزيم (بيارة شجر سنط)
J. el-Hébeshy	جبل الحبشى
Hebrân	حبران
Heddajor	حدجار
Hedîeh khellâ	حيدية خلاً
Héj	حق
Hejâz	حجاز
El-Hejella	الحجيلة (اسم جبل)
Jebâl Hejjûr	جبل حجور
El-Héjr	الحجر
Héjra	حجرة
Hejûr	حجور (أقارب الفكارة)
Helaima	حليمة (جبل قريب من تيماء)
El-Helalát	الهلالات
El-Helàlîeh	الهلالية
Helbon	حلبون

El-Hélissa	الحليسة (فرع من عتيبة)
Hellayey	حلية (تل صغير)
Hellowát	حلاوات (تلال)
Hellowîa	حلوية (تل)
Helly	حلاء
Helw	حلو
El-Helwa	الحلوة
Helwàn	جبل حلوان
Thull'a	طُلاَّع
Helwîat en-Nâga	حلوات الناقة
Hemorrhoids	مرض
Henàba	هنابة (إناء لبن)
Henakîeh	الحنكية
Henna	حنا
El-Hennaba	الحنابة (اسم فرس)
Hennânia	الحنانية
El-Henneytát	الحنيات
Henshûly	حنشولى (لص الصحراء)
El-Herreyik	الحريق
Hesban	حشبون

Hess ez-zillamy	حس الزلة (صوت الرجل)
El-Hessánna	الحصامة (فرع من عتيبة)
El-Heteym	الحطيم
Sueyder	السويدير
Hetheylân	الحطيلان
Hetigy	هتيجى
El-Heyàderra	الحيادرة
Heyennîeh	الحنية
Hèykal	هيكل
Ibn Hezyán	ابن حيزان
Hezyán	حيزان (فرع من الحطيم)
El-Hîara	الحيارة
Hijâbs	أحجبة
El-Hijr	الحجر
El-Hilâl	الهلال
Hilla or hilly	تل
Hilliân	حليان
Himmarît	حميرية
Himyâry	حميرى
El-Hind	الهند

Hindy	هندى
Hinûd	هنود
Hirfa	حرفة
El-Hisma or Hessma	الحسمة
H'má	حمى
Hollanda	هولندا
Horèymla	حريملاء
Horeysh	حوريش
Hórma	حُرمة
El-Hosenîeh	الحسونية
Hosennat	حُصنات (ذيل الجربوع)
El-Hósenny	الحصينى (فرع من الروالة)
Hósn	حُصن (هجرة)
Hosseny	حصينى
Hóth	حظ
Hòwama	هوامة (اسم كلب)
El-Howayrîa	الخوارية (تل رملى)
Howèytat	الحويطات
Howeych(k)im	هويشم
Howeytát	حويطات

Saidîn	سايدين (لصوص حول العلا)
W. el-Howga	وادى الهوجا
Howihi	هويهية
Howsa	هوسة (اسم موقع)
Howsha	هوشه (اسم أنثى)
Howwàr	حوار
El-Howwâr	الهوار
El-H'roof	الحروف
Hu sâdik	هو صادق
El-Huâzim	الهوازم (فرع من حرب)
Hub	حب
Húb et-támr	مرض جلدى
Húbbal	هُبل (صنم)
Hubbàra	الحبارة (اسم فرس)
Hubt	حبط
Hud	هود
Huddebân	هوديان (اسم كلب)
Hulk	حلق
Yâ Hullah	يا حُلّة

El-Humeydàt	الحميدات
El-Hummu	الحُمّ
El-Humràn	الحمران (فرع من حرب)
Hums	حمص
Humsîs	حمصيص
Humth	حمض
Wady el-Hum?h	وادى الحميض
El-Húrda	الحوردة
Hurr	حر
Hurra	حرة
El-Hurrath	الحراث (قبيلة من الأشراف)
Hurrî	حرّى (نوع من البازلت)
El-Husn	الحصن
Hût	حط (توبيخ للإبل)
Hutch	حُطُّك (توبيخ للإبل)
Humth	حمض
El-Hûtheba	الحطيبة
Hyak	حياك
Hyâtak	حياتك
Hyha	هيها (اسم فرس)

El-Hyza	الحيزة (بئر فى النفود)
Iblis	إبليس
Ibn	ابن
Ibn akhy	ابن أخى
Ibn juâd	ابن جواد
Ibn Náhl	ابن ناحال
Beny Ibrahîm	بنى إبراهيم
Ibrahîm	إبراهيم
Ibrahîm el-Kâdy	إبراهيم القاضى
Ibrahîm Pasha	إبراهيم باشا
J. Ibrân	جبل إبران
El-Iddimy	الإدمى
Iftah 'ayûnak	افتح عيونك
Ighrte big	أغتيبق (الجهل)
El-Jahalîat	الجاهليات
Ihràm	إحرام
Fijrî	فجرى
Ikh-kh-kh	أخ
Filuk-heylo	فلوك حيلو
Imâm	إمام

Imbârak	إمبارك (اسم هجرة من هجرات الحرب)
Imbârak!	إمبارك (مبارك)
Fmshy hâl-ak	مشى حالك
Inhaddem beytich	انهدم بيتك
Inny mā adeshurak	إنى ماعاد شورك
Insha 'llah	إن شاء الله
Insh' Ullah ma teshûf es-shurr	إن شاء الله ماتشوف الشر
El-Irâk	العراق
Irem	إرم
Irkud	اركض
J. Irnàn	جبل إرنان
Irtugh	إرتغى
Irzûm	إرزوم (تل رملى يحدث صوتاً)
Iskander	إسكندر
I?hin Ullah	إذن الله
Jaafar	جعفر
Jab-hum	جابهم
Jabâbara	جبابرة
Jábbar	جبار (عظام)

جبار (ظالم)	Jabbâr
الجبار (شيخ متوفى فى حائل)	El-Jabbâr
ابن جاد	Ibn Jahd
جدَّار	Jaddar
جحش	Jáhash
جاهل	Jàhil
الجهم (فرع من حرب مصروح)	El-jàhm
الجهرة	El-jahrâ
جنبية	Jam(n)bîeh
الجميرة (اسم فرس)	Ej-Jammera
جان	Jân
جنابك	Janâbak
جنة	Jannah
جار	Jar
جار الله	Jâr Ullah
جارة (ربه بيت)	Jâra
جراد	Jarâd
جرادة	Járada
جرادة	Jarda
الجردانية: أنقاض بلدة فى جبل شرات	Jardanîa

جرفة: بالقرب من كيراك	**JarJa**
قاسم	**Jâsim**
ابن جيسى	**Ibn Jâsy**
الفاو	**El-Jau**
جوّ (مسقى)	**Jau**
جوف (الأمير)	**Jauf (el-Amir)**
بلاد جاوة	**Béled Jawwa**
جيش	**Jaysh**
واحد من الفجير	**Jâzy**
الجبال	**El-Jebâl**
الجبارة: فخذ من ولاد على	**Jebbâra**
جبل طار: جبل طارق	**Jebel Tar**
جبل طارق	**Jebel Tarik**
الجبيلى	**Jebèyly**
الجديدة: قرية من قرى حرب	**El-Jedèyda**
جديد: قرية من قرى بنى سالم	**Jedîd**
الجديدة: قرية عند بداية وادى الليمون	**Jedîda**
قدوم	**Jedûm**
جفيفة: اسم قرية	**Jefèyfa**
جهاد	**Jehâd**

جهيمة: عشق الفجر	**Jéhemma**
جهندم باشا: حاكم مكة	**Jehendem**
جهنم (عبرية)	**Jehennem**
جهينة	**Jeheyna**
جهينة	**Gehèyna**
جلامى: سحلية صحراوية	**Jelàmy**
جلجول: أنقاض بلد فى مؤاب	**Jeljul**
جلة: روث الإبل	**Jella**
فرع من فروع حطيم الوسط	**Ibn gelladàn**
فرع من فروع حطيم الوسط	**Ibn gelladàn**
الجلاس: أقارب العنوز	**El-gellâs**
وادى جلاس فى خيبر	**Wady Jellâs**
جلاب: بئر الماء	**J(k)ellâb**
جلوى بن سعود	**Jellowwy ibn S'aûd**
جلوى: قبلى ماهويى منفى	**Jèllowwy**
الجيمان: فرع من بلوى	**Jemân**
جمل	**Jémel**
فرع من حرب بنى سالم	**El-Jémèila**
جملة: تل بالقرب من المدينة المنورة	**Jemla**
جمّال: صاحب إبل	**Jemmâl**

Jemmamîl	جمع جمّال
Jenèynat el-Kâdy	جنينة القاضى
Jenèyny	جنينة (حديقة)
Jèrad	كثبان رملية فى النفود
Jeraida	جريدة: موقع فى صحراء تيماء
El-Jeràjera	الجراجرة: فرع من حرب مصروح
Jerash	جراش
Jerbo'a	جربوع
J. Jerbûa	جبل جربوع
Jerèyda	جريدة: موقع فى صحراء تيماء
Ek-Jereyfa	الجريفع: قرية فى القصيم
Jériat	القريات (القرى)
Jériat Bisher	قرية البشر فى خيبر
Jériat el-Fejîr	قرية الفجير
Jériat W. Aly	قرية ولاد على
Jerîd	جريد: رمح خفيف
Jerm	جرم: جلد عنزة أو تيس
El-Jerrèr	الجرار: أقارب قرويى خيبر
Wady Jerrîr	وادى جرير
Jerrîsh	جريش: ثريد

جرولة: غربلة	**Jérula**
جروم: جمع جُرم	**Jerûm**
أعراب جساس	**Aarab Jessàs**
قت: نوع من علف إبل جلب الماء	**Jet**
الحثمّة: بطن من عتيبة	**El-Jethémma**
جابر: رجل من القحطان	**Jèyber**
الجين (القين): محطة صحراوية شمال تيماء	**El-Jèyn**
ابن جيسى (قيسى)	**Ibn Jèysey**
جزيرة العرب	**Jezîrat el-'Arab**
جزين: الإبل الصائمة عن الطعام	**Jezzîn**
الجيافرة: أقارب البشر	**Jiâfera**
جد: عميد القبيلة	**Jid**
مدينة جدة	**Jidda**
جدة: جدرة: قدر: وعاء	**Jidda (jidra)**
جدار	**Jiddàr**
جدار: الجمع جدران	**Jiddàr (jiddrâ)**
قديحة: وعاء للحليب	**Jidd?ha**
الجدرى	**Jidery**
جيفار: قرية من قُرى بنى تميم	**Jiffar**
جلدية:جبل قريب من حائل	**Jildîyyah**

El-Jimerîeh	القمرية: اسم فرس
Jin	جن
Jindal	جندل
Jinnat ed-dinnea	جنة الدنيا (دمشق)
El-Jinny	جنىّ
Jips	جبس
Jîr-ak	جراك (تبغ)
Jisan	جيسان (قيسان) سهل قريب من حائل
Jiss	جص: جبس
Jîth'a	جذع
Jizak	جزاك: أعطاك
Jizzat	جيزة: زيجة (للنصارى)
W. el-Jizzl	وادى الجزل
Job	جوب: وحيد القرن
Jorda	الجوردة: حى من أحياء القصيم
Jowla	الجولة: جبل فى تهامة
Jowwár	جوّار: زوجات
Ju'a	جوع
El-Juâberra	الجوابرة: فرع من حرب مصروح
Jubba	جبة

جهال (جهلة)	Juhâl
جماعة	jumma'a
جمّار (قلب ساق النخلة من الداخل)	Jummàr
جردة: كثب رملى	Júrda
جردة: (أورطة) عسكرية	Jurdy
جرن: (غدران من الحجر فى مدائن صالح)	Jurn
جرّابة: (جرباء)	Jurraba

القاع	El-Ka (el-Ká'a)
الكعبة	El-ka'aba
عرب كعبانى	Ka'abeny 'Arab
كعك	ka'ak
قبايل: قبائل	Kabâil
قبيلة	Kabâila
قبر الدنيا	Kábr ed-dunnia
قبر الصانى	Kábres-sâny
كبشان: جبل ومسقى جنوب القصيم	Kabshàn
قاضى	Kâdy
القاضى مسور	El-Kâdy Músr
كافر: قرية قريبة من بريدة	Káfer

Kâfir	كافر: الجمع كفار وكافرون
Kafûr	كافور: مادة عطرية
Káhatîn	قحطان
Kahl	كحل للعيون
El Kahtân	القحطان
Káhwa	قهوة
Káhwa	قهوة
Káhwajy	قهوجى
Kahwat Abeyd	قهوة عبيد
Kaif	كيف: قرية من قُرى بنى سالم
Kaimakàm	قائمقام
El-Kalandâry	الكلندرى
El-Kàmîm	القميم
El-Kamûs	القاموس
Kanakîna	الكناكينا (الكنين)
K'ar	قعر (قاع)
Káramak	أكرمك
Karîm	كريم
Karra	قرّة: تل
Kasaîsd	قصاصيد: شعراء

El-Kasîm	القصيم
Kâsim	قصيم
Kasr	قصر
Kasr Arbŷiyyah	قصر إربياح: فى حائل
El-Kasr	القصر
Kasr el-Bint	قصر البنت
Kasr	قلعة حائل
Kasra	كسرى
Kassab	كسّاب (قصيبا): قرية فى القصيم
Kassâd	قصاد: شاعر
Kasîda	قصيدة
Kassûr B'thèyny	قصور البيتى
Kasyîn	قاسيين: قُساة
kat'a `l-kalb	قطع القلب: مُحزن
Kathâfa	قحطفة: اسم امرأة
Káthir Ullah lebànakom	كثّر الله لبنكم
El-Kâthy	القاضى
Katràn kellâ	قلعة قطران
Kawàs	قواس: رامى رماح
Kef	كف: راحة اليد

Keffy	كفيّ: كافٍ
B. Kelàb (chelb)	بنى كلاب
Kelàm Ullah	كلام الله
Beny Kelb	بنى كلب
Kellâ	كلا: قلعة
El-Kellâ	القلعة
Kellâjy	راعى القلعة
El-Kennèyny	الكنينى وتقرأ الخنينى
El-Khàrram (Khúrram)	الخرَّام/ الخُرَّام
Kharûf	خروف
El-Khasir	الخضيرة
Khathrâ	خضيرة
El-Khátm	الختم
Khawâja	خواجة
Khayin	خائن
Khedéwy	خديوى
El-Kherèyby	الخريبى (الخريبة)
El-Kherèysy	الجريسى
Kherèyta	خريطة
El-Kherj	الخرج

Kheyâbara	الخبيرة (الخبراء)
El-Khéyba	الخيبة: اسم فرس أو حمار
Khybar	خيبر
Kheyr	خير
Kheyer-elbarr	خير البر
Khey-beyt	حيث بيت
El-Khiarát	الخيرات
Khibel	خبل: مجنون
Khidàd	خداد: أنقاض قرية
El-Khithr	الخضر
El-Khlûa	الخلوة: الصلوبة
Kh'lûy	الخليوى
Khûaf	خوف
Khóbra	خبرة
Khóbt	خبت: أرض مُنبسطة
Khorbêb'ha	الخربيبة
Khórma	خرمة
El-Khorma	الخرمة
Khormán	خرمان
El-Khosâba	الخصابة: اسم بغلة

Khósh	خوش
Khossî	خوسى
Khóthra	خُضرة: اسم امرأة
Khótr	قوطر: ينزل
Khóweylid	الخويليد
El-Khrèyby	الخريبى
El-Khrèmy	الخريمى
El-Kh'tâm	الخطام: جبل فى حرة خيبر
Khûa	خوة : ضريبة تدفع للبدو
Khûak	خوك : رفيق فى الطريق – زميل
Khubbat	قبة
Khubbera	الخبيرة (الخبراء): واحة فى القصيم
El-Khubbu	الخبو: مقبره تيماء قديما
Khubithîn	خبيثين : مرض خبيث (جمع)
El-Khuèyra	الخويرة : ناقة تعرق كثيراً
Khùiân	خويان : رفاق فى الطريق
Khumsha	خمشة: فرع من البشر
Khurbet	خربت: حطام
Khurrfa	الخرفة
Khúrussy	الخروسى: فرع من الشمر

Khûsa	سكين
Khussherkîsh	خوصر كيش
Khusshm	خشم
Khusshm es Sefsàfa	خشم الصفصافة
El-Khúthar	الخضار
El-Khuthéra	الخضيرة
Khúthera	خضيرة
Khútherân	خضيران
Khúthery	خضيرى
Khúthery Harra	حرة الخضيرى
El-Khúthr	الخضر
Khuzèyn	خزين: اسم كلب
Khuzna	خزنة
Kh'zâm	خزام: من أبناء البلوى
El-Kibd	الكبد
Kiddamîyyah	قدّامية
Khánjar	خنجر
Kilâb	كلاب
Kilâb el-kh?la	كلاب الخلا
Kiniy	معبد: كنيسة

El-Kîr	الكير
Kirra	الكرا
El-Kirrân	الكرّان
El-Kirrèya	القرينة
Kirwa or kerwa or kirra	كروة–كيرا: يستأجر
El-Kissa	القصة: قرية من قرى حرب
Kisshub	كشوب
Kitâb	كتاب
El-Kleb	الكلب
El-Kleyb 'Arab	أعراب الكليب
El-Kleybát	الكليبات
Kleyfát	الخليفات
Kleys	كليس
El-Klîb	الكليب: قبيلة من القبائل
Koátcheba	كوتشيبا
Koba	قوبة
Koleyb	كليب
Kôm	كوم
Konsolîeh	قرية
Konsul	قنصل

Konsulato	قنصلية
W. Koora	وادى القرى
Koowy	كوع
Kör	كور: غبى (تركية)
W. Kara	وادى القرى
W. Kôra	وادى قورة
W. Kora	وادى قورة فى حرة خيبر
G. Kora	جبل قورة
El-Kôrân	القرآن
Koreysh	قريش
Korh	قورح
Koronát	كورونات: دول أوربا
Kosyer	القصير
Kottîb	كُتيب
El-kowwâ	الكوَّاح: السوَّاح
Kreybîsh	خربيش: صبى ماهوبى
Krîm	قرم
Krun	قرون
K'seyberra	كسبيرة
Kubbak	كبَّك: أُغرب عنى

El-Kuds	القدس
Kudsh	كدش: مجموعة من الخيول
Kûfa	كوفة: أنقاض
El-kuffâr	الكفار
Kufic	كوفى
Kùfi	قفل
Kul wàhed	كل واحد
Kum(n)bâz	كومباز
Kúmr	كمر: حزام
Kúnfid	قنفد
Kúnfuth	قنفذ
Kurbân	قربان: عبرية
Kurd	كورد: قلعة من قلاع الحج
Kurnel-el-Menâzil	قرن المنازل
W. el-Kurra	وادى القرى
Kurra	قرة: قورة
Kúrsy	كرسى
Kurunîyah	قرونية: قرويون من أقارب الشمر
El-Kurzân	القريزان: فرع من عتيبة
Kuseyby	القصيبى: اسم قرية

Kusmân	القصمان
Kut'aat ghránem	قطعة غنم: قطيع
Kuweyt	الكويت
La!'ameymy	لا، يا عمى
La ilâh ill' Ullah	لا إله إلا الله
La túnshud	لا تنشد
La'ab	لعّاب
Lâba	لابة: حمة بركانية (لافا)
Lâbat el-Agûl	لابات العجول
Labbeyk	لبيك
El-Lahd	اسم فرس
Ladabba	اللحابة
Laheyân Aarab	أعراب اللحيان
Lahyat-hu taîba	لحيته طيبة
El-Lâta	اللات
Latákia	اللاذقية
La tanshud	لا تنشد: لا تطلب
W. Laymûn	وادى الليمون

بنادق اللازارى الفتيلية	El-Lazzáry
لبن: اللبن الحامضى	Léban
لبيد: مؤلف إحدى المُعلقات	Lebeid
ليجة: أرض اللابا فى الحوران	Léja
الحيمة: اسم أنثى بدوية	El-Lejīma
ليجون: أنقاض بلدة قديمة	Lejûn
لى: تخوم	Ley
ليلى	Lèyla
ليطة	Leyta
ليبون	Libbun
جبل لبنان	Gebel Libnàn
لبنى: جمل فى عامه الثانى	Libeny
وادى لية: بالقرب من الطائف	W. Lîea
ليرة فرنسية	Lira fransâwy
وادى لضم	W. Lithm
الليوان	El-Liwàn
لهجة: لغة	Loghra(t)
اللغراف: اسم قرية	El-Loghrfy
لندن	Londra

Lubbekyk	لبيك
Lullul- lullul- lullul-la	زغاريد
Mâ'aleyk	ما عليك
Mâ b'ak kheyr	ما بك خير
M? el-' enab	ماء العنب
Mâ fî árzal minhum	ما فى أرذل منهم
Mâ láhu kalb	ما له قلب
Mâ lihu lahya	ما له لحية
Mâ li-hum asl	ما لهم أصل
Mâ ly ghreyr	ما لى غير
Mâ n' âsh	ما معنا شئ نأكله
Mâ sâb-hu	ما صابه
Má es-Sáma	ماء السماء
Mâ yarúdd	ما يرد
Má yet'aabûn	ما يردون
Má yunf 'a	ما ينفع
Maa salâmy	مع السلامة
Maa samawwy	مع السمّاوى
Ma' abûb	معبوب
Ma'an	معان

Mâana lōn	معنا لون
Ma'araka	معركة
Ma'ausb	معصوب: قال
Maatuk	معتوق
Ma'aun	ماعون
Ma'az	معاز: عميد المعازى
Ma'aazib	معزب
Ma'aziba	معزبة
El- Ma'azy	المعازى
Màfrak	مفرق: قلعة
Mágdala	المجدلة: فى الحبشة
Mághrib	المغرب
Máhal	محال
Mahâl	محل
Mahál el-Mejlis	محل المجلس
Mahál el-W?i	محل الوعى
Máhallīb	محاليب
Mahanna	مهنا
Mahanna	مهنا: شيخ السحامة
Mahjil	مهجيل

Mah'leb nâkat neby Sâlih	محلب ناقة النبى صالح
Máhmal	محمل
mahmûd	محمود
Mahmûd Ag(hr) a	محمود أغا
Mahmûd	محمود
Mahûby	ماهوبى
Maibi	مائيبى
El-májar	المجار: بندقية فتيلية
Mâjid	مجيد
Majûj	مأجوج
Makam	مقام
Makám er-râs	مقام الرأس
Mákbara	مقبرة
Makh'aul	مخول
Mákhzan el-Gindy	مخزن الجندى
Mákhzans	مخازن
Mákrûha	مكروهة
El-Malakîeh	الملائكة
El-Hejâz	الحجاز
Mambûl	إسطمبول (تقال للسخرية "مامبول")

Mandîl	منديل
Manèm	منيم
Manôkh	منوخ
Mantar	منظر
Marâkish	مراكش
Marbût el-hosàn	مربط الحصان
Mâreb	مأرب
Márhab	مرحاب
Márhabá	مرحباً
Mârid	مارد
Marra	مرة: امرأة
Marràn	مرّان: مسقى
Marrat	مرّات
El-Màs	الماس: اسم جمل
Mas(k)at	مسقط
Mashàrîf es-Shem	مشارف الشام
M'ashush	معشش
Masîr	معاصير : إعصار
Máskhara	مسخرة
Másr	ماصر: موقع فى خيبر

Mâsul es-Sudda	ماسول السودة
Masully	مُصلَى
Mátar	مطار: صلوبى فى تيماء
Matàra	مطارة: زمزمية
Mâtha tarîd	ماذا تريد
M'athûd	معضد: معضاد
Matîn	متين
Màtîyah	مطية
Mâ úkdar	ما أقدر
Maweyrid	مواريد
Mecca	مكة
Medáin	مدائن
Medáin Lût	مدائن لوط
Medáin Sâlih	مدائن صالح
El-Medân	الميدان
Meddiân	مدين
Medega	مديقة: مكيال فى خيبر
Medeybîa	مديبية
Med'hunna	مدهونة
Medina	المدينة (المنورة)

Meddowwara, Kellâ	قلعة المدورة
Med'hunna	مدهونة: قرية الزيد
Medsûs	مدسوس: اسم قرية
Mehàditha	المُحادثة
Methai	ميهاى: قرية قديمة فى موآب
Mehaineh	محينة: موقع قديم فى جبل كيراك
Mehján	محجن: عصا لقيادة الجمال
El-Mehmel	المحمل
Mehnûwara	المنورة
Mehrûd	مهرود
Mehsan	محسِن: رجل أعمى
Mehsan	محسِن: شيخ الفقيرى
Mejanîn	مجنون
Mejarîd	مجاريد
Mejdûr	مجدور
Mejellád	مجلد: مكيال للتمر
Mejîdy	مجيدى
Mejlis	مجلس
Mejlis	مجلس: مكان الجلوس
Mejmaâ	مُجمعة

Mejnûn	مجنون
Mekky	مكة
Meláika	ملائكة
Mel'aun el-weyladèyn	ملعون الوالدين
Mel'aunát ej-jins	ملعونات الجنس
Mel'aunnîn	ملعونين
Melh	ملح
Melons	شمام
Melûk	ملوك قوة الريح
Melûn Tâlibu	ملون طاليبو
Memlahát Teyma	مملاحات تيماء
Menâbaha	المنابهة
Menâhil	المناهيل
El-Menajîm	المناجيم
El-Men'ama	المناعمة
Menhél	منهل
Ménzil	منزل
Menzil' Eyár	منزل عيَّار
Menzil el-Hâj	منزل الحج

Menzil B. Helâl	منزل بنى هلال
Menzil es-sheukh	منزل الشيوخ
Mer'ai	مراعى
Mêrbrak	مبرك
Merdàha	مرادهة: مقلاع
Mérdumma	مردومة
Meressy	مريسى
Mergab er-Ràfa	مرقاب الرفاع
Mergab	مرقاب
Mérguba	مرقبة
Merimsát	مرسمات
Merján	مرجان
Merkez	مركز
El-meroeîn	المروين: فرع من جهينة
Mèrshaha	مرشحة
Ibn Mertaad	ابن مرتاد
J. Merzûm	جبل مرزوم
Mes'âed	المساعيد
Mesakîn	مساكين
Mesgeda	مسجدة: آرامية

El-Méshab	المسحاب
J. Meshàf	جبل مسحاب
El-Meshâhada	المشاهدة
Méshed 'Aly	مشهد على
Meshetta	مشتّة: أنقاض
Meshetta	مشتة: فرع من ولاد على
Mesihyûn	مسيحيون
Mesîhy	مسيحى
Mesjid	مسجد
Meskîn	مسكين
Messîahi	مسيحى
El-Messîh	المسيح
El-Mestewwy	المستوى
Met'aab ib Rashîd	متعب بن الرشيد
Metaad	ماهوبى
Metteyr	مطير
Methàlitha	مثالثة: تلال على طريق القصيم مكة
Metówali	المتاولة: الشيعة فى سوريا
El-Meyatân	أعراب الميطان فى وادى فاطمة

Meyhsub	معصوب: عقال
El-Mèzham	المزحام: مبرك الناقة عند السوريين
Mez'ûna	مزيونه: إمرأة جميلة
M'hai	ماحاى: موقع صحراوى قرب تيماء
Miblis	مبلس: إمرأة ماهوبية
Midd	مد: مكيال
Midda	مدة: دية
Middiân	مدين
Mijwel	مجول
Mîl	ميل
Min	من؟
Min	من: حرف جر
Min'ashîraty	من عشيرتى
Min ha'l shottût	من هنا الشطوط
Min hâtha?	من هذا؟
Minkhilk Ullah	من خلق الله
Min y'ámir-ly	من يُعَمِّر لى
Minkala	منقلة: لعبة عربية
Minnîeh	مينية: جبال فى جنوب الرس
Minsilla	منسيلة: اسم فرس وحمار

Miriam	مريم
Miriam	مريام
Mîry	ميرى: جزية
Mish'aab	مشعاب
Mishlah	مشلح
Mishmish	مشمش
Mishûr	مسحور
Mishwat	مشوات: رجل ماهوبى
Miskeh	مسكة
G. Misma	جبل مسمة
Misshel el-Auájy	مشهل العواجى
Mithil el-jerâd	مثل الجراد
Mithil el-mawat	مثل الموات
Mithil en-nimml	مثل النمل
Mîthil es-seyd	مثل الصيد
Mithil tájir	مثل التاجر
El-Mithinb	المذنب
Mizamîr	مزامير
Mizàn el-Hak	ميزان الحق
Mizmàr	مزمار

مخاليد: صبى من البلوى	**M'khâlid**
مليلية: مكان على طريق الحج	**Melyîeh**
المنيف: جزء من جبل أجأ	**El-M'nîf**
معضم	**Mo'addam**
المواهيب، أبو شامة	**Moahîb, Abu Shâmah**
معلق الحميدى: جزء من الحرة بالقرب من قرية العلا	**Mo'allak el-Hamèydy**
المُعلقات	**Moallakát**
المُعارة: فخذ بنى سالم من قبيلة حرب	**El-Moârae**
المُعتدل: جبل بالقرب من قرية العلا	**Moâtidal**
المجيرة: آبار أسفل الحجر فى ديرة ولاد على	**Mogeyra**
مغير: كهف	**Moghrair**
مغاربة: جمع مغربى	**Moghraâreba**
المغراسيب: فرع من أقارب الفكارة	**El-Moghrássîb**
مغربى: رجل من المغرب	**Móghreby**
مجوج: قرية فى جبل شمر	**Môgug**
مقيل: مكان الراحة أثناء الظهيرة	**Mogŷil**
محافظ: راعى	**Mohâfuz**
المحاميد: بطن من حرب بنى سالم	**Mohamîd**
محمد (ص)	**Mohammed**
محمد بن عبد الوهاب	**Mohammed ibn Abd-el-Wáhâb**

Mohammed Ag(hr)	محمد أغا
Mohammed 'Ali	محمد على
Mohammed 'Ali el-Mahjûb	محمد على المحجوب
Sheykh Mohammed	الشيخ محمد
Mohammed	محمد: تاجر القماش فى عنيزة
Mohammed ed-Deybis	محمد الديبس
Mohammed Kheiry	محمد خيرى
Mohammed	محمد ولد عبد الله الكنينى
Mohammed el-Kurdy	محمد الكردى
Mohammed	محمد: جندى بدوى فى مدائن صالح
Mohammed Mejelly	محمد مجلى
Mohammed en-Nefis	محمد النفيسى
Mohammed en-Nejûmy	محمد النجومى
Mohammed ibn Rashîd	محمد بن الرشيد
Mohammed Sa'id	محمد سعيد
Mohammed Sa'ûd	محمد سعود
Mohamed es-Sherâry	محمد الشرارى
Mohammed abu Sinûn	محمد أبو سنون
Mohammed Tâhir	محمد طاهر
W. Mójeb	وادى مُجيب: غدير عرنون

Mokesser	مقصر: جبل بازلت فى وادى فاطمة
Mokka	مكة
Môna	منى
El-Monasîr	المناصير: فرع من عتيبة
Móngora	منقورة: فرع من أعراب البلوى
El-Moristàn	الموريستان: مستشفى
Beny Morr	بنى مر
Morra	مرة:أعراب مرة
Mortrâb	مرتراب قرية محطمة
Moseilima	مسيلمة
Moslem	مسلم
Moslemanny	مسلمانى
El-Moslemîn	المسلمين
Mosque	مسجد
Mosrûh	مصروح:فخذ من حرب
El-Motàl'ha	المطالعة
Mothâbara	المضابرة: فرع من الحطيم
Motheyîf	مضيف
El-Mothîch	المضيق
Laymûn	ليمون

Mothîf	مضيف
Motlog Allayda	مطلق العلايدة
Motlog	مطلق
Mottehma	متيمة: حطام قرية فى جبل سعير
El-Móttî	المطى:نوع من العشب
Moutullij	مطلج: من أقارب الصلوية
El-Mowla	المولى: الله
El-Moy	الموى
Mozàyna	مزينة: فرع من حرب
'Mraikhàn	مريكهان: فرع من ولاد على
Mu'afin	معافين
Mu' allakát	معلقات
Mu' allem	معلم
Muâmir	معامير: اسم علم
Muâra	موارة: مكيال تمر فى خيبر
Mu' atterîn	معترين
Mubârak	مبارك
El-Mubârak	المبارك
El-Mubbiát	المبيات

Mûbrak en-Nâga	مبرك الناقة
Múbt?y	مبطئ
Mudérris	مدرس
Mudîr el-Màl	مدير المال
Mudowwy	مداوى
Muéthin	مؤذن
Mueylih	مويليح
Mufârish	مفارش
El-Mufarrij	المفرج
El-Mufeyrij	المفريج
Mùfter	مفطر
Mughraz	مغراز: برج فى صحراء المواعب
El-Mugótta	المجوطة: فرع من عتيبة
Muhâfiz	محافظ
Muhafûth	محافظ
Muhâkimîn	محكمين
Muhállif	محلف
Muharram	محرم
Muházimîn	محزمين

Ibn Mujálled	ابن مجلد
Mujeddir	مجدر
Mujellad	مجلد: مكيال عرفى قرية العلا
El-Mujjir	المجرة: طريق اللبانة
Mujúbbub	مجبب: عريش
Múk'aad	مقعد
Mukâry	موكارى
Wady Mukhèyat	وادى مخياط
El-Mukhtelif	المختلف
Mukkarî	مكارى
B. Muklib	بنى مكلب
Mukowwems	مقومون: أصحاب إبل
Muksir	مقصِّر: صناديق حمل زوجات الشيوخ
Mumbir	منبر: اسم جبل
Mûna	منى
Munâkh	مناخ
Munbir	منبر
Mundel	مندل
Múngola	منقولة

Munókh	منوخ
Muntar	منطار
Múntefik	منتفق
Murabb'a	مربعة
Murâd	مراد
Murra or Marra	مُرَّة/ مرَّة
B. murra or morr	بنى مر
El-Murràshedda	المراشدة
Mûsa	موسى
Ayn Mûsa	عين موسى
Mûsa the kâdy	موسى القاضى
Wady Mûsa	وادى موسى
Musâfir	مسافر
El-Musellīkh	المسلخ
Musherif	مشرف
Musheyikh	مشايخ
Mushīr	مشير
Mushowwam	مشوّم
Múshrak	مشرك
Mushrakîn	مشركين

Mushy	موشى
El_muskôv	المسكوف
Musky	مسكى
El_muslah	المصلى
Musslim	مسلم
El_mustajidda	المستجدة
musubba	موسبة/أم سبة
musullies	مصلون/واحده مصلى
mutasállim	متأسلم
Mùthir	مذير: فقير من البشر فى خيبر
Mûthir	مضير/مريسى
Mùthkir	مذكر:شيخ من شيوخ عتيبة
Muttoww'a	مطوع
Muwalladîn	مولدين
Muzayyin	مُزين
Muzeyrîb	مزيريب
El-Muzzeh 'ma	المزاحمة
Ibn Múzzeyed	ابن مزيد
Nablus	نابلس

Nabût	نابوت
Nâdem	نادم
Nâga	ناقة
Nagûs	ناقوس
J. Nagûs	جبل ناقوس
Nâgûs	ناقوس
Naha	ناها:اسم أنثى بين البدو
Náhab	نهاب:لص
Najàn	ناجان: بلد فى وسط نجد
En-Najjeyl	النجيل: قرية من حرب بنى سالم
Náksh	نقش
Nâmûs	ناموس
Ibn Nâmus	ابن ناموس
Namûs	ناموس
Naós	ناعوس
Nargîly	نرجيلة
El-Nasâra	النصارى
Sherîf Nâsir	الشريف نصير
Nasr	نصر
Nàsr	نصر (رجل من العواجى)

Nasr	نصر (من قبيلة حرب)
Nasr	نصر (سكرتير بن الرشيد)
Nasr	نصر (شمرى من العراق)
Nasrâny	نصرانى
Nasrâwy	نصراوى (بمعنى نصرانى)
Naoûṣ	ناعوس: جبَّانة (مقابر)
Nabâ	نبع
Nebhanîeh	نبهانية
Nêby	بنى
Nef'd	نفد (جمعه أنفاد)
Nèfer	نفر (جندى)
Neffera	نافرة (خجلة)
Nefûd	نفود
Nèfur el-Tarik	نفور الطريق: جبل على الطريق إلى مكة قادم من وسط نجد
Negâba	نجابة (اسم جبل فى تهامة)
Negro	زنجى
Hâyat	حيات
Nejd	نجد
W. Nejid	وادى نجد
Néjis	نجس

Néjis ed-dinya	نجس الدنيا
Nejjàb	نجاب (ساعى بريد)
Néjar	نجر (غدير من الحجر فى مدائن صالح)
Nejjel	نجل (أنقاض قرية فى جبل سعير)
Wady Néjl	وادى النجيل
Nejm	نجم
Nejm:Hâj	الحاج نجم
Nejowwazak	نزوجك
Nejràn	نجران
Nejûmy	نجومى
Nelnokh	نلنوخ (أنقاض قرية فى مؤاب)
El-Nemsa	النمسا
Nenhash	نهاش
Neskhi	نسخى
Nesma	نسمة
Nessellem 'aleyk	نسلم عليك
Nibs (nibz)	نبذ (إهانة باللفظ)
Niggera	نقرة
Nikkel	نكل (موقع مخرب فى مؤاب)
Nimmr	نمر

Nimrân	اسم كلب (نمران)
Thul. 'a 'an en-Nîr	طلائع النير (بين القصيم ومكة)
Nîs	نيص: حيوان الشيهم
W. en-N'kîb	وادى النقب (بالقرب من الطائف)
En-N'kussha	النقوشة (فرع من عتيبة)
Noâba	النوابة (فرع من قروى خيبر)
Nôakh	نوخ (مكان تبريك الإبل)
Noâmsy	نعموسى
Noàsera	النواصرة
Nôkh	تبريك الجمل
Ibn Nômus	ابن نعومس
Noora	نورة
Noweyr	نوير
Nuhéj	نهيج
Nûn	نون (حرف النون العربى)
En-Nuseyrîeh	النصيرية
Nûshud el-Jemâl	ناشد الجمال
El-Nussîr	النصير: من أقارب العنوز
Nussy	نوسى (نوع من الحشائش)
Nuzzân	نوزان: اسم كلب

'Okâtz	عكاظ
Okilla	عكيلة: اسم عبد
'Omân	عمان
'Omanîa	ناقة عمانية
'Omar	عمر
Oreymát	عريمات: فرع من حرب فى نجد
Orghra	رغوة الحليب
Oshèyjir	أشيقر: اسم واحة فى الوشم
Osmuily	عثمانلى
'Otheym	عثيم: قرية فى حائل
Otheythia	عزيزية: واحة فى الوشم
'Othŷ'hi	وضيحى
Ouadam	أوادم: جمع آدمى
Oweyish	عويش: اسم كلب
Owènat el-Béden	عوينات البدن
Owlàd el-wátan	أولاد الوطن
Owshâz	عوشاز
El-Owshazîeh	العواشيزية
Owshyfy	عوشيفى
Ozmát	بقسماط

بلاو: أكلة تركية	Pilaw
بورسعيد	Port Sa'id
صوت الأبكم العربى	Pahppah
ربا (فى مؤاب)	Rabba
ربيبى	Rabèyby
ربيع	Rabî 'a
الشيخ ربيع	Sheykh Rabî 'a
رابغ	Rabugh
رديف	Radîf
رديفة	Ráduffa
رفيق	Rafîk
رفوضى	Râfuthy
رافية: واحة فى الرس	Rafŷa
راجل	Ràgel
الرانا: منطقة فى الحرة	Er-Ràna
راحال	Ráhal
رحالة: فرع من حرب بنى سالم	Rahala
رحمنا	Rahmna
الرحيدان: اسم فرس	er-Raheydân
الرحيفة: اسم جمل	Er-Rahîfa

Rahîl	رحيل
Rihla	رحلة
Rahma	رحمة
Rahn	رهن
Rahôl	رحول: اسم جمل
Rahŷel	رحيل: اسم شخص
Râ 'iyat	راعية
Rajajîl	رجاجيل
Rájjal	رجّال
Rájil	راجل
Rákham	رخام: اسم نسر
Rakhŷeh	راخية
Rakŷyeh	راقية: اسم فتاة
Ramathán	رمضان
Ramta	رماطا: مكان للتخييم
Râs	رأس
Râs el-'Aŷn	رأس العين
Rashèyd	رشيد
Beny Rashîd	بنى رشيد
Ibn Rashîd	ابن الرشيد

Rashîd es-Shûbramy	رشيد الشبرامى
Rashîdy	راشيدى
Rasûl	رسول
Dîrat er-Rasûl	ديرة الرسول
Rautha	روضة
Er-Rautha	الروضة
Rayis	ريس
Rayyàn	ريان: اسم واحة فى وادى فاطمة
Rayyan	ريان: اسم شخص من النعومسى
Real	ريال
Beny Rechab	بنى رشاب
Reem	ريم
Reym	رم: اسم عشب فى تهامة
Rî 'a	ريعة:ممر بين الجبال
Er- Rî 'a	الريع
Rî 'a Agda	ريع عقدة: بالقرب من حائل
Rî 'a es-Self	ريع السلف
Rî 'a ez-Zelâla	ريع الزلالة
Er-Riâth	الرياض
Ribshàn	ريشان

Er-Rîhh	الريح
Rîj	ريق
Rijjûm	رجوم
Rikàb	ركاب
Rikb el-Héjr	ركاب الحجر
Er-Rimth	الرمض (عشب)
Rîsh	ريش
Risshán	الرشان: مدينة قديمة فى مؤاب
Rizelleyn	رذيلين
J. Roaf	جبل روف
Róbb 'a el-Khâly	الربع الخالى
Róbb 'a	الربع: اسم قرية صغيرة
J. Rodwa	جبل روضة
Rodwa Harra	روضة الحرة
Roghrwa	رغوة الحليب
Rohòl	رحول: اسم جمل
Rókhal	رخال: نعجة صغيرة
Er-Romàn	الرومان: اسم شيخ فى تيماء
Romhk	رمح
Er-Romla	الرملة: اسم أنثى بدوية

رطب	**Rótb**
رضم: بازلت	**Róthm**
الرضام: مجرى سيل فى تيماء	**Er-Rotham**
رطن	**Rótn**
الروسة: فى النفود	**Rowsa**
الرواقة: من الأشراف	**Er-Ruâge**
رب (الله)	**Rubb**
ربًّا: اسم راعى	**Rubba**
رُبَّه: رفيقة الحياة	**Rubbâ**
يا ربى	**Ya Rubby**
ربيعة	**Rubîa**
رويت: أطفأت الظمأ	**Ruèyht**
رويضة: إحدى واحات الرس	**Rueytha**
الرُّفاقة: جمع رفيق	**Rúfaka**
روحه	**Rûh-hu**
روح: أنصرف أو أغرب عن هذا المكان	**Ruhh**
الرخصة: اسم فرس	**Er-Rúkhsa**
الرُّكة: حفر ماء فى الصحراء جنوب الرس	**Er-Rukka**
الرُّكبة: جزء من الصحراء العالية بين القصيم ومكة	**Er-Rukkaba**
الروم	**Rûm**

جبل الروم: بالقرب من قرية العلا	**J. Rumm**
وادى الرماح	**W. er-Rummah**
رمكة: اسم فرس	**Rúmmaky**
وادى رموضة	**W. Rumûtha**
رونية	**Runnya**
رونية: قرية من قرى السبيع فى وادى السبيع	**Rúnya**
روبية: عُملة هندية	**Rupî**
رشدان: اسم كلب	**Rushdân**
رس:رى الأرض من بئر ضحلة	**Russ**
الرس: مكان به حفرماء للرى	**Er-Russ**
الروثان: فخذ من عتيبة	**Er-Ruthán**
الرولة: قبيله فرعية من قبائل العنزى	**Ruwàlla**
سعادى:فخذ من مصروح من قبيلة حرب	**Sa'adi**
سعادين: صيغة الجمع	**Saadîn**
سعدى: حيوان مائى	**Sa'ady**
سعافة: اسم فرس	**Saafa**
ساعة	**sa'at**
صابرة	**Sâbera**
سبيحات: اسم فرس	**Sabigát**

Sabra	سابرة: اسم موقع
Sábry	صبرى
Sàbt	سبت: يوم السبت
Sabûny	صابونى: صابون
Sacrifice	ساكريفايس: ذبيحة
Es-s'ada	السعادة: قبيلة من الأشراف
Sádaka	صدقة
Sadûk	صدوق
Saera	سايرة: اسم فرس
Sáfr	شهر صفر
Es-Safy, Hàmed	حامد الصافى
Sàg	ساق
Sah	صاع
Sàhah	صحاح
Sàhar	سحار: ساحر
Sàhara	صحراء الجزائر
Es-Saheyn	الصحن
Sahîby	صاحبى
Sâhilat el-Khamasshîeh	سهيلات الخماشية
Sa'îd	سعيد: اسم علم

Beny S'îd	بنى سعيد
Sâiehh	سايح: سائح
Saiyeh	السيح: فرع من الشجر
Sajjèydy	سجيدى:سجادة الصلاة
Sàk	ساق
Es-sakhf	السخف: مسقى من مساقى الثمر
Sâla	صلاة
Salaam	سلام
Salâmîn	سلامين: اسم قرية
Salâmy	سلامى: ماهوبى
Salâmy	سلامى: شيخ من شيوخ تيماء
Es-salat wa es-salaâm	الصلاة والسلام
Beny Sâlem	بنى سالم
Sâlem	سالم: بدوى من خُبير
Sâlem	سالم: شيخ من شيوخ حرب
Sâlem	سالم: واحد من الأشراف
Sâlema	سالمة: امرأة ماهوبية
Salewwa	سلوّه: جن: عفريت
Saleyta	سليطة: قماش بفتة
Sâlih	سيدنا صالح (نبى)

صالح: قريب شيخ الفكارة	Sâlih
صالح: أحد رجال القوافل فى عنيزة	Sâlih
الشقيق الأصغر للشيخ مطلق	Sâlih
صالح: شخص فى حائل	Sâlih
صالح: رفيق من الحطيم	Sâlih
صالح الكنينى	Sâlih
صالح: شيخ من خيبر	Sâlih
اسم أطلق على أجنبى دخل فى الإسلام	Sâlih
صالح الرشيد من عنيزة	Sâlih el-Rashèyd
صالح زيد	Sâlih Zeyd
سالم بن الزير	Sâlim Ib ez-Zir
السلط: اسم قرية	Es-Salt
عساك	Asâk
سمّارة (سمرة): شجرة سنط	Sammara (Sam'ra)
سمّات (غير مملح)	Sammat or summat
سمح	Sammh
سمن	Sàmn
سمن: قافلة السمن	Sàmn
سمرة: شجرة سنط	Samra
ياسمىّ: أى اسمى: بإسمى	Yâ Sàmy

Sàny	صانع
Wady es-Sàny	وادى الصانع
Sàra	سارة: ساحل من الحجر الرملى
Saràbta	سرابطة: فرع من البلوى
Sarah	سارة
Sàrhah	سرحة: منهل
Sarsar	صرصر: ريح شديدة
Sarûk	ساروق: لص
Sa'ud ibn 'Abd-el'Aziz	سعود بن عبد العزيز
Sa'ud ib sa'ud	سعود بن سعود (الكبير)
Sa'ud ib sa'ud	سعود بن سعود العرافة
Ibn Sa'ud, el-Wah?by	ابن سعود الوهابى
Sawra	سورة: قلعة على طريق الحج
Sayàl	سيال: نوع من الشرطة المُرافقة للحج
Sayer	ساير: موضع سخرية واستهزاء
Sbà	سباع: فرع من البشر
Es-Sb'aa	السباعة: قبيلة من العنوز
Sbeya	سبيع: قبيلة من أعراب نجد (من قيس)
W. es-sbeya	وادى السبيع
Derb Wâdy Sbeye	درب وادى السبيع

Sbeydy	زبادى: نبات برى صحراوى
Sbeyîeh	صبيح: قرية فى القصيم
Sbût	السبوت: فرع من بنى عطية
Sebbâ	سبّه: اسم أنثى
Sebba'an	سبعان: قرية فى جبل شمر
Es-Sebbàha	السباحة: فرع من عتيبة
Sebil	سبيل
Sedeyr	سدير
Seffer	سفّر: شروق الشمس
Seffua	سفوة: جبل بين القصيم ومكة
Séfn	سفن
El-Sefsáfa	الصفصافة
Sehamma	السحامة: فرع من البلوى
Sehely	سحيلى
Seherân	سهران: اسم كلب
Seleyma	سليمة: قرية من قُرى الشمر
Beny Selèyta	بنى سليطة
Selim	سليم العلاوى
Selim	سليم: ماهوبى
Selim	سليم ولد زيد الشيكان

Selim	السلطان سليم
Sélla	سلا
Ibn Sellem	ابن سلّم
Sellimt	سلمت
Selma	سليمة: اسم امرأة
G. Selma	جبل سلمى
Sem	سام: بن نوح
Sema	سماء
Semîly	سميلى
Semîra	سميراء: اسم قرية
Senna	سنا: اسم نبات
Serahîn	السراحين: فرع من المواهيب
Serai	سراى: قصر
Seràserra	السراسرة: فرع من جهينة
Serifat	سريفات: زريبة
Es-Seriàha	السراحة: فرع من حرب
Settàm	سطام
Settatásher kelb	ستة عشر كلب
Seyàd	صياد
Seyadîn	صيادين

Es-Seyd	الصيد
Seyd	جبل سيد
Seydàn	سيدان: شيخ ماهوبى
Seydàn	سيدان: صانع فى تيماء
Seydein	سيادين: عشيرة من الحويطات
Es-Seyeh	السيح: قرية فى وسط نجد
Seyf	سيف
Seyfieh	سيفية: مجرى سيل
Sèyid	سيد
Seyl	سيل
Es-Seyl	السيل
Bab es- Seyl	باب السيل
Seyl el-Arem	سيل العرم
Seyl , of Hâyil	سيل حائل
Wady es-Seyl	وادى السيل
Seyyid	سيد
Seyyid Mahmûd	سيد محمد
Safá	الصفا
'Safán	صفان
Es-Sferry	السفرى: فصل الخريف

Sfeynah	سفينة: قرية من قُرى المُطير
S'goor	صقور: فرع من البشر
Sgoora	صقورا: فرع من الفكارة
Shaab en-Naam	شعاب النام
Shaaba	شعبة: منطقة صحراوية
Sha'abân	شعبان (شهر)
sh'aara	شعارة: مسقى فى الصحراء
Sh'aara	شعارة: اسم فرس أو جحش
Shâba	جبل شابا
sh'aeb	شعب
Shaeh	شيح
Shâer	شاعر
Shâfy	شافى
G. Shâfy	جبل شافى
Shâgg en-nâba	شق النابة
Shahûd	شاهود: شهيد
Shàjr	شجر
Ibn Shalân	ابن شالان
Shaiân	شالان: فرع من الجلاس
Shalân	شالان: اسم كلب

Es-Sham	الشام
Es-Sham	الشام: منطقة دمشق
Shamir	شامير: قبيلة
Shammar	الشمر
Gebel Shammar	جبل شمر
Shammar Prince	أمير الشمر
Shammar-Toga	شمر توقا
Shâmy	شامى
Sharân	شاران: عرب وادى بيشة
Shatâra	شطارة
Shâtha	شاذا: بنى سالم
Esh-Shazlîeh	الشاذلية
Sh'brâmy	الشبرامى
Es-She'ab	الشعاب
G. She'aba	جبل شعابة
Es-She'abin	الشعابين
Es-She'adda	الشعادة: فرع من عقيبة
G. She'ar	جبل شيعار
Shebbaan	شيبّان
Shebîb ibn Tubbai	شعيب بن تُبَّاى

Shebrûm	شبروم
Sháfa	الشفا
Shehîeh	الشيحية: هجرة فى القصيم
Shelásh	شيلاش: اسم علم
Shelfa	شلفة
W. Shellál	وادى شلال
Shellalî	شلالى
Es-Shem	الشام
Shemân	شيمان
Shemlán	شملان: فرع من البشر
Shemmîa	شمية
Es-Shenàberra	الشنابرة
Shenna	شِنّة
Sher'aan	شرعان
Es-Sherâfa	الشرافة
Sherarát	شرارات
Es-Sherg	الشرق
Sherîf	شريف (واحد من الأشراف)
A Sherîf	شريف (شحاذ فى المدينة المنورة)
Sherîf of Suâka	شريف سواكة

Es-Sherkiyîn	الشرقيين
Sherm	شرم: خليج
Sherôra	شرورة
J. Sherra	جبل شرات
Sherrâbs	مدخنو التبغ
Sherrân	أقارب الخيابرة
Sherràra	شرارة
Shérry	شرى: نوع من القرع
Sheukh	شيوخ
Sheyabîn Aarab	أعراب الشيابين
J. es-Sh'eyb	جبل الشعيب
Sheybàn	شيبان: اسم جبل
Sheykh	شيخ
Sheykh el-Aueyrid	شيخ العويرض
Sheykh el-mushèyik	شيخ المشايخ
Sheykha	شيخة
Sheytàn	شيطان
Es-Sh'hebba	الشحيبة
Shî 'as	شيعة
Es-Shibbebîeh	الشبيبة (أراضى زراعية)

Es- Shibbebîeh	الشبيبنية (حفر مياه)
Shibrîyyah	شبرية
Shidàd	شداد: عدة الجمل
Es-Shiffa	الشفا
Es-Shî-îl	الشيل
Shîl !	شيل
Shimbel	شمبل
Shimmer	شمر (عميد الشمر)
Shinàny	شينانى (واحة فى الرس)
Es-Shitá	الشتاء
Shittr	شتر: جمّال
sh'kâky	شعككى
Shôbek	الشوبك
Es-Shór	الشور: الشورى
Shórafat en-Nejid	شرفات النجيد
Es-Shotb	الشطب
J. Shotb	جبل شطب
Es-Shotibba	الشطيبة
Shottifa	شطيفة: اسم فرس
Es-Showŷg	الشويج: قرية

Shu bitekûn ent	شو بتكون أنت
Shubàramy	شبرامى: أهل سميراء نسبة إلى شيخهم راشد الشبرامى
Shubb ej-jemâl	شب الجمال
Shubb el-'bil	شب البل
Es-Shûberamy	الشبرامى: اسم عائلة
Shubúb	شبوب: شباب
Es-shûel	الشيول: اسم فرس
Shûf	شوف: انظر
Shûf f'il ghraib	شوف الغريب
Shuggéra	شقيراء
Es-Shuggera	اسم فرس
Shuggery	الشقيرى
Shujjer	شقير
Shuk el-'Ajûz	شوك العجوز
Shukkûk	شكوك العجوز
Shûkkra	شكوك
Es-Shukkra	شقرة: شقراء
Shûn	شوم
Shurma	شرماء
Shurrma	شرًما: مسقى صحراوى

شوام	shwâm
شويش: ماهوبى	Shwóysh
سياح: قرية فى الأفلاج	Sîah
سياح	Siah
سيالة: نوع من شجر السنط	Siâla
السدّ	Es-Sidd
السديس: جمل عمره سبع سنوات	Siddes
سدير	Siddîr
سدوس	Siddûs
سدنين: أقارب بنى عطية	Sidényîn
سدر: نوع من الشجر	Sidr
سدر: قمة بازلتية فى وادى فاطمة	Sidr
سيدا: فرع من جهينة	Sieyda
السيح: اسم قرية	Sihh
السيق	The Sîk
وادى السليمة	W. es-Sillima
مسلمة: من شجر السنط	Sillima
السليمات: فرع من البشر	Sillimát
سُم	Simm
سمران: اسم كلب	Simrân

Ibn Sim'ry	ابن سمرى: فرع من الحطيم
Simûm	ريح السموم
Sinjâra	سنجارة: فرع من الشمر
Sîr Amîn	السير أمين: أمير حائل
W. Sirhân	وادى السرحان
Wady es-Sirr	وادى السر
Sirrûk	سرُّوق
Sîrûr	سرور: اسم علم
Sheirát	شيرات: اسم قرية
J. Sleih	جبل سليح
Es-S'lèyb	الصليب: الصلوبة
Seleymàn	سليمان
Sleymàn	سليمان: بائع التبغ
Sleymàn Abu Daûd	سليمان أبو داود
Sleymàn	سليمان: محصن سورى
Sleymàn	سليمان: ولد البسام
Sleymàn	سليمان: شقيق حامد العبيد
Sleymàn	سليمان: شخص من حائل
Sleymàn el-Khenneyny	سليمان الخنينى
Sleymàn	سليمان التيماوى

W. Sleymàn	ولاد سليمان
Slîm	سليم: من أشجار السنط
Es-Smîry	السميرى
Sobh	الصبح: قبيلة من بنى سالم
W. Sódr	وادى سدر
Beny S ókhr	بنى صخر
Sokr	صقر
Sôla	صولة
Es-Soleyil	السليل
Solubba	الصلوبة
Solubbîa	صلوبية
Solubby	الصليبى
Soltan	سلطان
Sotwh	سطوح
Es-Sowwa	السوَّة: اسم فرس
Sowwân	سوان: اسم كلب
Stambûl	إسطمبول
Es-Suâda	السوادة: اسم فرس
Sûah	صوع: جمع صاع
Suáka	صواكة: اسم هجرة

Suâki	سواكى: من أقارب الحويطات
Suâkim	سواكيم (سواكن)
Suâlif	سوالف: حكايات
Sualma	سوالمة
Suâny	سوانى
Subbâk	سبك الله
Súbbakha	سبخة
Subbîa	سبية: تل رملى
Subîa	سوبية: مشروب مُتخمر
Sudàn	السودان
Es-Suedda	السويدة: أهل شقيراء
Es-Suergîeh	السورجية :قرية حرب
Sueygy	السويجى
Suffa	صُفة: صخرة أرضية
Suffa	صفة: الغرفة العلوية من المنزل
W. es-Suffera	وادى الصفيرة
Es-Suffuk	الشقوق
Sufra	سفرة
Sújwa	سجوة: قلعة خلف الحجر
Sûk	سوق

Sûk	سوق: شارع
Sûk er-Ruwàlla	سوق الرولة
Sûk es-Sheukh	سوق الشيوخ
Es- Sulât	الصلاة
El-Sulèyl	السليل
Sull yâ, ta'all sull !	صلى يا
Sully 'alâ hâ'l ghràdâ	صلى على ها الغادة
Sully ' aly en-Neby	صلى على النبى
Sully Ullah'aley-hu	صلى الله عليه
Wady es-Sulsilla	وادى السلسلة
Súltàn	سلطان
Derb es-Sultny	الدرب السلطانى
Sum!	سُم
Summ	سُم
Súmmakha	سمخة
Summat	سامط: غير مُملح
Sumrâ	سمرا
Sûmt	سمط: مكان حجرى
Sunna	سُنة
Súnn' aa	صنعة

Sunnî	سنى
Sûr	سور
Surbût	شربوط: شربات
Surra	صرة نقود
Suryân	سريان
Sûs	سوس: فى المغرب
Es-Sûta	السوطة: فرع من عتيبة
Sûwahh	سواح
Swergîeh	سويرجية
W. Swergîeh	وادى سويرجية
Sweydia	سوادية
Swefly	سويفلى: منطقة فى حائل
Es- Swefly	السويفلى: أقارب الشرارات
Sweyga	سويحة
Sweylmát	السويلمات: فرع من البشر
Sweymly	السويلمى
Ta'al hennéyi	تعال هنا
Ta'al húbbiny	تعال حبينى (قبلينى)
Ta'al yâ mel'aun	تعال يا ملعون

Ta'am	طعام
Beny Taâmir	بنى تعمير
Tâga	طاقة
Táhal	طحال
Et-Tâif	الطيف
Taif?t	طيفات: فرع من ولاد على
T?jir	تاجر
Takht	تخت
Taliâny	طلياني
Tambur	طمبور
Tammerra	تامرة: قرية في وادى الدواسر
Támr	تمر
Tamyîz	تمييز
Tannúr	تنور
Tarbûsh	طربوش
Târiba	تريبة: اسم علم
Tarkîy	طراقى
T ' âus	طاوس
Tâyib	طيب
El-Tâyif	الطائف

Techôi	تخوى: أستبس بغداد
Tebûk	تبوك
Teghrurriz el-ghrannem	تغرز الغنم
Tegúf	تقف
Teháma	تهامة: الأرض المنخفضة
Teháma	وادى تهامة
Teháma	تهامة مكة
Tekhálliny-aném fî hothank	تخلينى أنام فى حضنك
Telâl ibn Rashîd	طلال بن الرشيد
Temathîl el-Helalát	تماثيل بنى هلال
Temîm	تميم
Bnenu Temîm	بنى تميم
Temmn	تمن: أرز هندى
Temút	تموت
Terabîn	ترابين: عشيرة من الحويطات
Terâgy	طراقى: عابرو سبيل
Terâny	ترانى
Terky	تركى: شيخ من القحطان
Terky	تركى: قبلى من قبيلة حرب
Térrai	ترای: مجرى سيل

Térras	ترس
Teslîm	تسليم
Teyâmena	تيامنة
Temya	تيمة
Teymâny	تيمانى
Et-Teyry	التيرى
W. Thá	وادى ظا (فى العويرض)
Thá el-melûk	داء الملوك
Thâbit	ثابت: فرع من الشمر
Th'af	ثعاف: صخرة مازالت فى وادى فاطمة
Thafŷa	ظافية: جبل من تيماء وتبوك
Thâhab el-asfr	الذهب الأصفر
Thâhir	ظاهر: قروى من تيماء
Thâhir	ظاهر: ماهوبى
Thâhir's daughter	ابنة ظاهر
'ayd eth- thah	عيد الضحية
Eth- Thâhy	الضاهى
Thaif	ضيف
Thaif- Ullah	ضيف الله
Thaifullah	ضيف الله من ولاد على

Thaifullah	ضيف الله الحطيمى
Thail	ذيل
Thakîf	ثقيف
Esh-Th'al	الذعال: جبل بين القصيم ومكة
Eth- Thâleba	الذّالية: قبيلة من الأشراف
Thalûk	ذالوق: طيب المذاق ذميم
Thâmin	ذميم
Thmmad	ثمآد: جبال
Wady Thammud	وادى ثمود
Thamûd	ثمود
Than-ak	ولدانك
Thanthub	تنضب
Thanwa	ذانوة: امرأة ماهوبية
Thàr	ثار
Thàt el-Hâj	ذات الحج: اسم قلعة
Thàt 'Irk	ذات عرق

Ullah y'aŷna-kom	الله يعنيكم
Ullah yerham weyladeyk	الله يرحم والديك
Ullah yeselîmk	الله يسلمك

Ullah yethkirak	الله يذكرك
Ullah la yubârak fîk	الله لا يبارك فيك
Ullah yubèyith wejh	الله يبيض وجه
Ullah yul'aan abu ha''l hubûb	الله يلعن أبوها الهبوب
Ullah yul'aan Thegîf	الله يلعن ثقيف
Ullah yúnsur	الله ينصر
Ullah yusullat	الله يسلط
Ullah yutowil "umr hâl weled!	الله يطول عمر ها الوليد
Ullah yuwasselak b'il-kheyer	الله يوصلك بالخير
Ullema	علماء
Umgassur	أم قصور
Umjemmîn	مُقيمين
Umjeyd	أعراب أمجيد
Umm Arkab	أم أركاب
Umm Arthama	أم أرضمة
Umm Gemâl	أم جمال
Umm-Jenàyb	أم جنيب
Umm Kîda	أم كيدة
Umm Meshe'aib	أم مشاعيب
Umm Nejd	أم نجد

Umm Rosàs	أم رصاص
Umm R?kaba	أم ركبة
Umm Sâlema	أم سليمة
Umm ws-Sghrar	أم الصفار: أسم فرس
Umm es-ûf	أم السيوف
Umm Theyàn	أم ذيان: أسم قرية
Umm Tŷeh	أم تيه
J. Ummry	جبل أمرى
Ummshásh	أم شاش
Ummthail	أم ذيل: اسم كلب
Umseylmy	أم مسيلمى: مسيلمة
Umshetta	أم شتا: فرع من ولاد على
Umsubba	أم سبّا
Umteyra	أم طيرة: اسم أنثى
Un'aam Ullah 'aleyk'	أنعم الله عليك
Unseir	أونسير: أقارب العنزى
Urhum	أرحم
Urraie	أتبعنى
El-'Urruk	العروق: الأجور
Usha	عُشّة

Ustibbah	اصطبح
El-Usshb	العشب
G. Usshúb	جبل عشب
Usshud	أشهد
Utherah	عذيرة: بلدة مخربة فى جبل سعير
El-Úthub	الأثب: شجرة تين برية
El-'Uzza	العزى

Waar	وعر
Wa ent sélim	وأنت سليم
Wa fúkkny rubby	وفقنى ربى
Wa hu fîbant-ak	وهو فى بطنك
Wa hyât	وحياة
Wa hyât dûkny	وحياة ذقنى
Wa hyât ibny	وحياة ابنى
Wa hyât el-messîh hâtha	وحياة المشى هذا
Wa hyât rukbátak	وحياة ركبتك
Wa hyât rukbaty	وحياة ركبتى
Wa hyât Ullah	وحياة الله
Wa hyât weyladich	وحياة ولادك

Wa low	ولو
Wa shûghrol-hum bez en náhab	وشغلهم بالنهب
Wâba	وباء: طاعون
Wábar	وبر: اسم حيوان
Wabbar	وبر: اسم حيوان
Wâbissa	وبيسة: فرع من البلوى
wád' el-kebîr	الوادى الكبير
Wadda	ودًا: أسم كلب
Wadiàn	وديان
Wâdy	وادى
Wâdy	وادى: اسم علم
Wâdy Mûsa	وادى موسى
El- Wâdy	الوادى
Wâdy	وادى السر
Wafîyat	وفية: جمل عمره ٨ سنوات
Wâga	واقا: اسم كلب
El-Wàgilla	الوقيلة: اسم فرس
Beny Wáhab	بنى وهاب
El-Waháby	الوهابى
Waháby	وهابى

وهمى	**Wáhamy**
وهيبى	**Wahîby**
وعيل	**Wàil**
وعيلين	**Wàilyin**
واجد	**Wâjed**
وجع	**Wajjâ**
وجاج: اسم بئر	**Wajjàj**
وجيد: اسم أنثى بدوية	**Wajjid**
الوجدان: فرع من عتيبة	**Wajjidàn**
الوكبة	**El-Wakbâ**
وخم	**Wák'm**
وكيد: مؤكد	**Wakîd**
والى	**Wàly**
وراك	**Warak**
وريسية	**Wareysîeh**
وسيط	**Wâsit**
الوسيطة	**El-Wàsita**
وسم	**Wásm**
وعول	**Wa'ul**
وعيل: اسم علم	**Wâyil**

Wâyil	وعيل: شيخ ماهوبى
Wedduk	ودك
Weeaho	ويَّه: نداء للإبل
El-Wejh	الوجه: بلدة
Wélad'Aly	ولاد على
Wélad Selîm	ولاد سليم
Wéled	ولد
Wélad 'ammy	ولد عمى
Wélad Mahanna	ولد مهنا
Wellah	والله
Wellah Fulàn	والله يا فلان
Wèly	ولى: وربى
Wennys	ونيس
El-Wéshm	الوشم
Weyley	ويلى
Wèyrid	وريد: مصدر ماء
Wèyrid	وريد: شخص من الفجيرى
Weysh 'aad	ويش عاد
Weysh 'aleyk	ويش عليك
Weysh yúnsurhu	ويش ينصره

Widd el-ghrarîb ahlhu a 'an el-ájnaby	ود الغريب أهله عن الأجنبى
W. Widj	وادى ودج
Wilàyat Konia	ولاية قونية
El-Withanîn	الوزانين: فرع من عتيبة
Witr	وتر: اسم جبل
Wittr	وتر: عرّاقة للجمل
Wòh-ho !	وو–هو: نداء على الإبل
Wolloo-wolloo-woolloo	نداء على الإبل
Worma	ورماء: اسم بدوى لأنثى
Wothŷhî	الوضيحى
El-Wuffiân	الوفيان: فرع من حرب
Wurrùr	وردر: ودن
Wúttid	وتيد: جبل فى تهامة
Yâ ahl el-karîm	يا أهل الكريم
Yâ ent râkabin	يا أنت ركابين
Yâ fárkah	يا فركة
Yâ hulla	ياحول الله
Yâ latîf !	يا لطيف
Yâ mâl ej-ju'a	يامال الجوع

Yâ mâl et-teyr	يا مال الطير
Yâ mâl eth-thubbah	يا مال الضبعة
Yâ Rasûl Ullah	يا رسول الله
Yâ Rubby !	يا ربى
Yaarud'aley	يعرض علىً
Yâfet	يافت: ولد نوح
Yagût	ياقوت
Yahûd	يهود
Yahûd Kheyber	يهود خيبر
Yahûdy	يهودى
Yahŷa es-Sâlih	يحيى الصليح
Yahŷa	يحيى
Yajiddûn	يجذّون (النخيل)
Yakt'a	يقطع
Yakubb-hu	يُكبّه
El-Yâm	اليام: سلالة عربية
Yânb 'a el-Bahr	ينبع البحر
Yanb 'a en-N?khl	ينبع النخل
Wady Yanb'a	وادى ينبع
Yáthrib	يثرب

Ybba	يابا
Ybba Moghrair	يابا مغرير
Yegôtarun	يقاطرون
Yéhia	يحيى
Yel'aan	يلعن
Yelduz	يلدز: اسم كوردى
Yellah yâ sitterak	الله يسترك
El-Yemâma	اليمامة
El-Yemâna	اليمانة
El-Yémén	اليمن
Yémeny	يمنى
Yémeny	يمنى (مادة من اليمن)
Yemmen	آبار اليمن
Yerhamak Ullah	يرحمك الله
Yeterôha	يتروها
Yeteyr	يطير
Ymgebâs	أم حبيبة: بومة الصحراء
Yoktân	يكتان
El-Yôm nejîm	اليوم نقيم
Yugaialûn	يقيلون

Yuháshimûm	يحشمون (يحترمون)
Yuhowwishûn	يهوشون
Yujassas	يُجسس: يتجسس
Ykdur Ullah	الله قادر
Yulubbûn	يلبون
Yun 'aam Ullah 'aleyk	ينعم الله عليك
Yunâny	يونانى
Yûntun	ينطون
Yurussun	يرشون (الماء)
Yûsef Khâlidy	يوسف الخالدى
Yusb 'ak ent !	يسبعك أنت
Yusuddirûn	يصدرون
Za 'al	زعل
Zabtîyah	ضبطية
Zâd	زاد
Zahlán	زعلان
Zâmil	زامل
Zanzibar	زنزبار
Ez-Zbèyd	الزبيد

Zbeyer	الزبير
Ez-Zelakát	الزلاقات
Zellûm	مجرى سيل
Zemmel	زمل (إبل الحمل)
Zemzemîeh	زمزمية
Zenaiba	زنيبة
Zerka	زرقة
Zêy êl-fil	زى الفيل
Beny Zeyd	بنى زيد
Zeyd	زيد الحربى
Zeyd	زيد راعى الماشية
Zeyd	زيد السبيكان
W. Zeydîeh	وادى زيدية
'Aŷn ez-Zeyma	عين الزيمة
Zîarra	زيارة: من أقارب أهل خبير
Ez-Zibbâra	الزبارة
Zibdâny	زبدانى
Zighreybîeh	زغربية
Zika	زكاة
Zikma	زكمة

W. Zilèyly	وادى زليلى
Zilfa	زلفى
Ez-Zilfy	الزلفى
Zmèyem	زميم
Zmurrûd	زمرد
Zófr	زوفر (نوع من الأصداف)
Zóhra	زهرة
Zôl	زول
Zôra	زوره
Zuâmil	زواميل: رجال الزامل
Zuâra	زوارة: أقارب الفقارة
Zûba	زوبا: فرع من الشجر
Zubbàla	زبالة: فرع من البلوى
Zubbiàn	زبيان: فرع من جهينة
Zuggimân	زوجمان: اسم كلب
Ez-Zumèyl	الزميل: فرع من الشمر
Ez-Zurán	الزوران: فرع من عتيبة
Zymat	زيمات

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز

الإشراف الفنـــى: حســـن كامـــــل

مع أن الجزيرة العربية شهدت العديد من الرحالة والمستكشفين الأوروبيين ، فإنهم لم يبلغوا ما بلغه " تشارلز دوتى" الذى اختلف عن أولئك الرحالة جميعهم، حيث عاش فى صحرائها قرابة عامين بين 1876 و 1878 متنقلاً بين مدائن صالح والعلا وتيماء وحائل وبريدة وعنيزة فى إقليم القصيم، ثم إلى خيبر والطائف وجدة . وقد أتاحت له الفترة التى قضاها فى صحراء الجزيرة العربية أن يأتى بمعلومات وفيرة ومتنوعة فى محتواها شملت آثارها ونقوشها وجيولوجيتها وحياة البادية فيها. وليس من شك فى أن المشاهدة وتنوع الخبرة جعلته يصبغ رحلاته بصبغة يسودها عمق التحليل إلى درجة أنه يخوض فى تفاصيل دقيقة ، بل كثيراً ما يقطع حديثه عن إحدى الظواهر الطبيعية أو الجيولوجية المهمة ويخرج للحديث عن جزئية صغيرة استرعت انتباهه ، كحيوان أو طائر أو حتى حشرة صغيرة ، ثم يعود بعدها لكى يستأنف الحديث عن موضوعه الرئيسى.

ومع أن رحلة " دوتى " سجلت الكثير من الظواهر العلمية والطبيعية فإنها تميزت ، بل غلب عليها طابع الوصف الدقيق للحياة البدوية . وقد تكون حقيقة أن كثيراً من الرحالة الأوربيين الذين سبقوا " تشارلز دوتى " أو جاءوا من بعده تحدثوا عن أعراب الصحراء وحياة البادية ، لكنهم لم يبلغوا ما بلغه فيما أتى به من تفصيلات حية ودقيقة عن كل ما يتعلق بحياة البدو ومعيشتهم ، وذلك من واقع ما عاشته لهم خلال رحلته

Bibliotheca Alexandrina
0750379

الغلاف: محمود مراد